الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الثامن والستون . السنة السادسة . سبتمبر ٢٠٠٤ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 6 - Issue 68 - September 2004

دارفور .. من أشعل الحريق ؟
حسن مكى - أليكس دى وال

من الحداثة إلى ما بعدها .. عصر النهايات
عبد الوهاب المسيرى

الحل « الكروى » للطموحات الإسلامية
فرانكلين فوير

دروب لا تفضى إلى شىء ..
سلامة أحمد سلامة

فن الأكل



2004 أيلول

السنة السادسة
العدد الثامن والستون
سبتمبر ٢٠٠٤

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد



محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أحمد السيد النجار.. خبير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام
- أليكس دى وال.. مدير منظمة Justice Africa
- إنجريد د. رولاند.. محاضرة فى تاريخ الفن والدراسات الكلاسيكية.
- أندرو سيمز.. مدير السياسات فى مؤسسة الاقتصاد الحديث.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- جيمس مان.. كاتب صحفى بمركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بواشنطن.
- حسن مكى.. عميد مركز البحوث الأفريقية بجامعة أفريقيا العالمية بالخرطوم.
- سعد القرش.. صحفى.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- عبد الوهاب المسيرى.. أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة.
- فرانكلين فوير.. صحفى أمريكى.
- مات رينديل.. صحفى.
- محمد يحيى جمال.. مترجم مصرى مقيم بأستراليا ومدرس الترجمة بمعهد سيدنى للتكنولوجيا.
- محمد يوسف عدس .. باحث فى التاريخ والشئون السياسية مقيم فى إنجلترا.
- معتز خورشيد.. نائب رئيس جامعة القاهرة للدراسات العليا والبحوث.

رسوم العدد للفنانين :
محمد حجى ـ سعد الدين شحاته ـ أحمد اللباد





المراسلات :
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٢٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات :
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة :
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

من العزلة إلى الاعتزال

■ تستطيع أن تخترق دروب الحياة من الطفولة إلى الشيخوخة، صعوداً وهبوطاً، سعداً وشقاءً، نجاحاً وفشلاً حتى يفضى بك العمر إلى فراغ يصعب تحديده أو تعريفه.. كل منا يسلك طريقه الخاص به، وقد تبدو هذه الطرق متشابهة متوازية مبهمة المعالم. ولكن يظل فى النهاية لكل منا طريق خاص، يشعر بأنه من صنعه ومن أعماق تجربته التى تنسجها التفاصيل الصغيرة والكبيرة لحياته. ومع ذلك فما إن يصل المرء إلى هذه اللحظة الفارقة التى يخيل إليه أن الحياة قد أفضت به إلى لا شىء، إلى لا مكان، إلى نقطة الفراغ فى لحظة من لحظات العمر حتى تتحول مسألة الوجود إلى سؤال كبير يقرع الوعى، ويستثير كل ما تجاهله المرء من شكوك وأوهام. ولا تقع هذه النقطة الجوفاء أو الثقب الأسود فى حياة الإنسان إلا فى لحظات الضعف والمرض والاقتراب من النهاية، حين يصبح الوجود المادى والعقلى للإنسان على شفا الانهيار الكامل، قبل لحظات النهاية بقليل.

وقد وجدت نفسى فجأة فى قلب هذه النقطة، داخل ثقب أسود لا يفضى إلى شىء، مربوطاً إلى عشرات الأنابيب والمحاليل وأجهزة الأشعة وقياس الضغط والسكر والنبض وغيرها من المعدات والآلات التى تملأ المكان وتملأ النفس شعوراً بالرهبة والخوف والضياع أمام المجهول.. تنتقل من طمأنينة غرفتك فى المنزل أو المكتب وما تعود عليه المرء من شخوص وأقوام ترضى عنهم أو تسخط عليهم، وما تخلعه عليك الألفة من سكينة، إلى عالم آخر تماماً فى غرفة المستشفى.. وأنت لا تعرف على وجه التحديد أين تفضى بك الخطوة القادمة.. أين ينتهى الدرب.. أين تبدأ المسيرة نحو المجهول، وأين تتوقف، بل ومتى يتحول المرء إلى نقطة صغيرة سابحة فى هذا الوجود اللانهائى مع ملايين الملايين من الأرواح والكائنات والذرات غير المرئية فى ملكوت الله؟

هل هى النهاية؟ هل يقف الإنسان فى قلب هذا البرزخ الفاصل بين الحياة والموت فى انتظار القاطرة التى تقله إلى عالم الغيب؟

تجربة المرض الشديد الذى يضع المرء على الحافة بين الحياة والموت من أعمق وأقسى التجارب الإنسانية. كثيرون قد لا يمرون بها وتنتهى حياتهم فجأة بسكتة قلبية أو سكتة دماغية، وهى نهاية مريحة بكل المقاييس، لا تضع صاحبها موضع الاختبار والمعاناة وانتظار المجهول، فالمرء فى هذه الحالة يظل على قدميه يسعى فى أرجاء الحياة حتى يسقط معلناً النهاية لنفسه ولمن حوله.



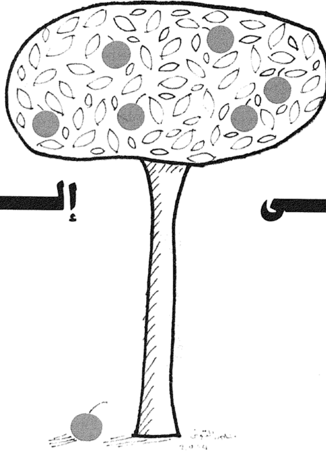
لا شىء فى حياة الإنسان يساوى تلك اللحظات أو الأيام التى يقدر له فيها أن تختزل عمره فى حالة من العجز الكامل. يشعر المرء بعجزه تحت وطأة المرض وما ينشره فى جسم الإنسان من ضعف ووهن وغياب القدرة على التحكم فيما كان يملك السيطرة عليه والتحكم فيه من أعضاء جسمه وعضلاته.. وتدريجياً تهرب المدركات والأشياء من الوعى ومن القدرة على التمييز والاستبصار والرغبة فى التفكير. تختلط الحقائق وتتموه الظلال. ويصبح التعرف على أقرب الناس إليك مسألة خاضعة لأسرار ومعطيات فى وظائف مخ الإنسان. تأتى وتذهب دون ضابط أو رابط.

العجز الإنسانى بكل أشكاله هو العنوان الذى يدمغ هذه الحالة الدرامية التى تستعصى على فهم الإنسان حين تفاجئه، فلا تترك له فرصة الإدراك والقبول. والعجز درجة من درجات الذل، بل لعله أصبح محورها وأكثرها مهانة لكرامة الإنسان. فالعاجز لا يكون قادراً إلا بغيره.. وفى حضيض المرض والوهن، يصبح الاعتماد على الممرضة أو الطبيب أو القريب هو المصدر الوحيد للقدرة أياً كان نوعها.. القدرة على المشى والقدرة على الحركة.. حتى القدرة على أن تذهب إلى دورة المياه. أو تأكل أو تشرب، أو تتقلب فى سريرك. يرقد الإنسان مثل نبات يتنفس ولكنه بغير إرادة أو قدرة على الحركة.. فى انتظار من يعيد ترتيب أعضائه وأوراقه، وإروائه بالمحاليل والسوائل إبقاء على نفثة من نفثات الحياة فى كيانه.



يطرق المرء دروب الحياة المختلفة ولكنه يصل عند هذه النقطة التى تتقطع به فيها السبل، مثل طرق الغابة الكثيفة التى يخطئ العابرون اكتشاف مسالكها. تأخذهم الحيرة كل مأخذ، وقد وصلوا إلى مفترق طرق، لا يحمل أية معالم، ولا يشى بأى اتجاه ولا ينبئ عن أى مسار أو عنوان. تشابهت الطرق وتقاربت، وازدوجت وتعادلت، فما يعرف المرء أين بدايتها أو نهايتها. وتراوحت آثار أقدام الذين سبقوا بالسير فيها فى اتجاهات متباينة، فلا تدرى أأنت ذاهب فى اتجاه الشمال أم الجنوب، إلى الغرب أم إلى الشرق؟ إلى لحظات الميلاد الأولى أم إلى لحظات الموت والفناء والنهاية. وحينئذ فلا

دروب لا تفضـــى إلـــى شـــىء!



يـعلـم الإنسان بـعـد علـم شـيئًا. وحينئذ تستطيع أن تستعيد مع أبى العلاء:

غيرُ مُجْدٍ فى ملّتى واعتقادى
نَوحُ بـاكٍ ولا تَـرنُّـمُ شـادِ
وشَبِيهٌ صَوتُ النَّعىِّ إذا قيـ
ـسَ بصوتِ البشيرِ فى كلّ نادِ
أبكَت تلكمُ الحمامةُ أم غنَّـ
ـت على فَرعِ غُصنها الميَّادِ
وقبيـحٌ بـنـا وإن بَـعُـدَ الـ
ـعَهدُ هوانُ الآباءِ والأجدادِ
تَعَبٌ كلُّها الحياةُ فما أعـ
ـجَبُ إلا من راغبٍ فى ازديادِ
إنّ حُزنًا فى ساعةِ الموتِ أضعافُ
سرورٍ فى ساعةِ الميلادِ



ربما يستعيد المرء بعض وعيه. فيستيقظ فى ساعات باكرة على أصوات حركة تأتى من بعيد، علامة على أن الحياة لم تتوقف ومازالت تسرى فى شرايين الوجود، وفى عروق المرض، تبعث الأمل وتجدد أسرار الحياة وتروى ظمأ الإنسانية إلى البقاء والخلود. وتعيد طرح الأسئلة التى أنهكت عقل الإنسان منذ الأزل: هل نحن كائنات عبثية تأتى إلى الوجود وتذهب دون علة، أم أن ثمة حكمة لهذا الوجود نحن جزء منه ولبنة فى بنائه.. كينونة الوجود الإنسانى ووعى الإنسان بذاته، دالة من دلائل الوجود الكلى المحيط بنا، فمهما غيب المرض والوهن وعى الإنسان عن نفسه وعما حوله، تبقى إرادة الحياة مثل شعاع من الضوء، وتبقى إرادة الوجود وخالقه، صورة من صور الإعجاز الإلهى. والعجز الإنسانى عن الإحاطة بأسرار الوجود.

أوقات كثيرة تضيع من عمر الإنسان، ولا يستطيع أن يسترجعها.. ولكنه فى مثل هذه اللحظات حين يرقب فى ذلة وانكسار أمام القدرة الإلهية مطلع الشمس وهى تمد أسلاكها الذهبية فوق الأشجار والأغصان المحيطة، مؤذنة بدورة جديدة للحياة، لا يملك المرء إلا أن ينتصر لمعنى الحياة.. يتعلق بأهدابها، طمعًا فى استعادة ما ضاع من العمر. ولكن كيف يكون ذلك؟ فما ذهب يكون قد ذهب وانقضى. وتبقى معجزة الحياة أكبر من قدرة الإنسان على إدراكها والإحاطة بها.



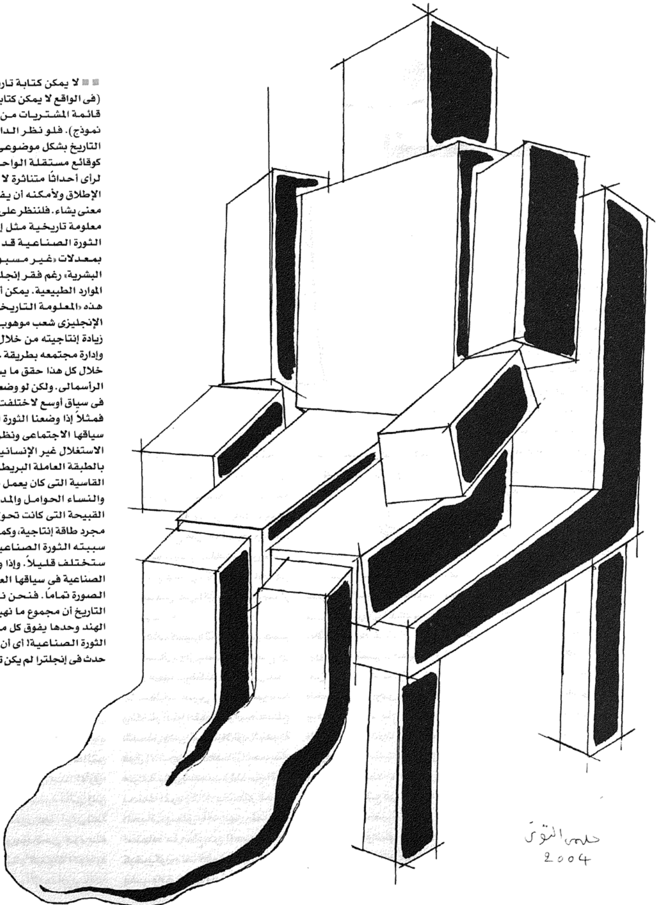
بين اليقظة والحلم.. بين هلوسات المرض ولحظات الوعى.. بين المخزون القابع فى دنيا اللاشعور ولحظات الانتباه.. بين ما كان المرء يتمنى تحقيقه وما عجز عن تحقيقه، تتراءى لى بعين الخيال قطعة أرض صغيرة خضراء. يحيط بها سياج من الخوص أو العشب. تناثرت فيها شجيرات مورقة لفواكه كنت أرقبها وأستمتع بها حين كنا نذهب إلى القرية ونحن أطفال.. ترتفع فى أرجاء الحديقة الصغيرة بعض أشجار النخيل، وتفترش جوانبها نباتات اللوبيا والطماطم والخيار وشجيرات الفلفل.. وقد عكفت على العناية بها وتنقية الحشائش منها وريها.. هذا الحلم القديم الذى يراودنى بين الحين والحين، لا يلبث أن يتكرر كلما أوشكت أن أقدم استقالتى من عبث الحياة وأثقالها وهمومها.

فى سنى الصبا والشباب لا يتوقف المرء طويلاً أمام أحلامه الصغيرة وأمنياته البسيطة، أمام شجرة رمان كان يعشقها أو جديلة كرم كان يأوى لها وقت الظهيرة، أو سويعات من اللعب والجرى مع رفاق الصبا كانت تملأ عليه حياته.. هذه أيام من العمر ذهبت. يمتد البصر إليها عبر السنين والأمكنة والأزمنة. ثم يرتد خاسئًا إلى تلك الطرق الموحشة فى قلب غابات كثيفة من مسالك الحياة الملتوية حوله. تفضى به المسيرة إلى ذلك «الثقب الأسود» مرة أخرى.. يتحدث الإنسان إلى نفسه: هل آن أوان الذهاب إلى عزلة الشيخوخة والوقوف عند السياج؟ إنها فى كل الأحوال علامة قاطعة على أن تعب الحياة قد تجمع وتراكم عند نقطة فاصلة.. حقّ على المرء فيها أن يستمتع بما بقى فى العمر من لحظات قبل أن يدق جرس الانصراف.. يرقب أبناءه وأحفاده. يطوف العالم، يفعل كما يفعل ألوف اليابانيين والأوروبيين الذين يقضون ما بقى من حياة حافلة مع سن الشيخوخة دون ندم على ما فات أو انتظار لما هو آت. ■

سلامة أحمد سلامة

من الحداثة إلى ما بعد الحداثة

لا يمكن كتابة تاريخ بدون نموذج (فى الواقع لا يمكن كتابة أى شىء، سوى قائمة المشتريات من البقال، بدون نموذج). فلو نظر الدارس إلى وقائع التاريخ بشكل موضوعى مادى متلقى كوقائع مستقلة الواحدة عن الأخرى، لرأى أحداثًا متناثرة لا معنى لها على الإطلاق ولأمكنه أن يفرض عليها أى معنى يشاء. فلننظر على سبيل المثال إلى معلومة تاريخية مثل إن إنجلترا إبان الثورة الصناعية قد زادت إنتاجها بمعدلات «غير مسبوقة فى تاريخ البشرية» رغم فقر إنجلترا من ناحية الموارد الطبيعية. يمكن أن نستنتج من هذه «المعلومة التاريخية» أن الشعب الإنجليزى شعب موهوب، وأنه قادر على زيادة إنتاجيته من خلال التكنولوجيا وإدارة مجتمعه بطريقة حديثة، وأنه من خلال كل هذا حقق ما يسمى بالتراكم الرأسمالى. ولكن لو وضعنا هذه المعلومة فى سياق أوسع لاختلفت الصورة تماماً. فمثلاً إذا وضعنا الثورة الصناعية فى سياقها الاجتماعى ونظرنا إلى عمليات الاستغلال غير الإنسانية التى لحقت بالطبقة العاملة البريطانية والظروف القاسية التى كان يعمل فيها الأطفال والنساء الحوامل والمدن الصناعية القبيحة التى كانت تحول الإنسان إلى مجرد طاقة إنتاجية، وكمية التلوث الذى سببته الثورة الصناعية، فإن رؤيتنا ستختلف قليلاً. وإذا وضعنا الثورة الصناعية فى سياقها العالمى لاختلفت الصورة تماماً. فنحن نعرف من كتب التاريخ أن مجموع ما نهبته إنجلترا من الهند وحدها يفوق كل ما أنتجته إبان الثورة الصناعية! أى أن التراكم الذى حدث فى إنجلترا لم يكن تراكماً رأسمالياً



....عصـــر النهـــايات!!

عبدالوهـــاب المســـيرى

وإنما كان تراكماً إمبريالياً. وهكذا حين وضعنا المعلومة فى سياقات مختلفة، محلية ودولية، فإنها اكتسبت أبعاداً كثيرة ومعنى مركباً محدداً. والنموذج التحليلى المركب هو الآلية التى يقوم الدارس من خلالها بالربط بين المعلومة والسياقات والأبعاد المختلفة.

والنموذج المركب يساعدنا على إدراك الفارق بين المتتالية المثالية التحديثية المفترضة (التى يروجها دعاة التحديث) والمتتالية الفعلية المتحققة. والمتتالية المثالية العلمانية التحديثية كان من المفروض أن تؤدى حلقاتها إلى نهاية سعيدة: سيطرة الإنسان على الطبيعة وعلى نفسه وتأكيد مركزيته المطلقة فى الكون (الاستنارة المضيئة والعقلانية المادية). ولكن هذه المتتالية كانت تحوى داخلها تناقضات النظم الواحدية المادية (تأليه الإنسان وتأليه الطبيعة فى الوقت نفسه الذات الإنسانية مقابل الموضوع الطبيعى المادى. الكل مقابل الجزء. التجاوز مقابل الإذعان والتكيف. المعنى والثبات مقابل الحركة التى لا معنى لها). ولذا نجد أنه أثناء عملية التحقق التاريخى، عبرت هذه التناقضات تدريجياً عن نفسها، وأدركها الإنسان الغربى ثم حسمت، فى نهاية الأمر وفى التحليل الأخير، لصالح العنصر الثانى فى الثنائية، وبدلاً من انتصار الإنسان، تم تفكيكه ورده إلى المبدأ المادى الواحد (الاستنارة المظلمة واللاعقلانية المادية). وتم الانتقال من رؤى التحديث (البطولية) إلى واقع الحداثة (العبثى)، ثم استقر المطاف عند عالم ما بعد الحداثة (النسبى البرجماتى). أى أن المتتالية المثالية المفترضة مختلفة تماماً عن المتتالية الفعلية المتحققة.

وعملية التحقق تمت تدريجياً عبر ثلاث حلقات هى:

١ . التحديث: فى هذه المرحلة كان الإنسان الغربى لا يزال يتحرك فى إطار المتتالية المثالية المفترضة، ولذا كان يحدوه الأمل فى السيطرة على ذاته وعلى الطبيعة. ولذا فهو كان يرى أن العالم له مركز محدد هو الإنسان والمادة، فهو عالم لوجو سنتريك Logo-centric، عالم متمركز حول اللوجوس، أى متمركز حول مطلق ما، ونحن نرى أن العالم الذى له مركز هو عالم صلب. ومن الناحية التاريخية تقع حقبة التحديث منذ عصر النهضة فى الغرب وما يسمى «عصر الاكتشافات» حتى الحرب العالمية الأولى، والتى يمكن أن نشير إليها بأنها مرحلة التراكم الإمبريالى.

٢ . الحداثة: فى هذه المرحلة أدرك الإنسان الغربى أن عصر التحديث البطولى قد ولى وانقضى، وأن سيطرة الإنسان على الطبيعة وعلى نفسه لم تعد ممكنة، وبالتالى بدأ العالم المتمركز حول اللوجوس يتآكل. وهذه هى مرحلة الحداثة العبثية وبداية ظهور اللاعقلانية المادية والمادية الجديدة، والتى تتسم بالاحتجاج والغضب على إخفاق المشروع التحديثى، وتاريخياً هذه المرحلة تمتد من بعد نهاية الحرب العالمية الأولى حتى منتصف ستينيات القرن العشرين.

٣ . ما بعد الحداثة: فى هذه المرحلة يرضخ الإنسان الغربى تماماً لإدراكه إخفاق مشروع التحديث ولكنه بدلاً من أن يحتج ويتمرد فإنه يقبل بل ويرحب. وهو موقف ترجم نفسه إلى عالم لا مركز له (أو متعدد المراكز non-logo-centric)، أى غير متمركز حول أى مطلق. وهذا العالم يتسم بالسيولة. وفى هذه المرحلة لا تزال فى بدايتها ولم تتحد ملامحها بعد. ونحن نرى أنها بدأت فى الستينيات.

ولابد من التنبيه على أن المرحلة الثانية كامنة تماماً فى المرحلة الأولى، فالتقشف العاجل كان يتم باسم الاستهلاك الآجل، والقمع كان يتم باسم اللذة الموعودة فى المستقبل، أى أن الانفتاح الاستهلاكى كان حتمية كامنة فى كل النظم المادية مهما بلغت من تقشف، وثمة حتمية للسيولة الفردوسية بعد مرحلة الصلابة البطولية (التحديث) أو العبثية (الحداثة).

وقد تم اختيار عام ١٩٦٥ لا لأن شيئاً محدداً ملموساً حدث فيه، وإنما لأنه فى منتصف الستينيات. ولا يمكن تحديد تاريخ الظواهر الحضارية بالإشارة إلى يوم بعينه أو عام بعينه فهى تتطور بشكل يتجاوز مثل هذا التحديد الدقيق. ومع هذا يظل عام ١٩٦٥ اختياراً مناسباً فى تصورنا، نقطة تركز تقع داخل متصل طويل.

ورغم إدراكنا وجود ثلاثة مراحل إلا أننا آثرنا أن نتحدث عن مرحلتين اثنتين لأن مرحلة الحداثة الاحتجاجية كانت مرحلة قصيرة للغاية ولم تكن سوى مرحلة انتقالية بين الأولى والثانية، كما أن نموذج الحداثة الاحتجاجى ظل هامشياً. لذا ألحقنا مرحلة الحداثة بمرحلة التحديث، رغم أن لها استقلالها النسبى، وفرادتها الأكيدة.



وسنحاول فى هذه الدراسة أن نستخدم نموذجاً تحليلياً واحداً مركباً، يضم الأبعاد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفلسفية، لنبين الاستمرار والانقطاع فى تاريخ الحضارة الغربية الحديثة، وأن ثمة وحدة فضفاضة وراء كل الظواهر المتنوعة، أى أنها وحدة لا تَجُب التنوع، واستمرارية لا تَجُبُ الانقطاع والتحولات النوعية. كما قمنا بتحليل الصور المجازية الأساسية وعقد مقارنة بينها لنبين دلالة كل منها وطبيعة المرحلة التى تعبر عنها هذه الصور.

وقد لاحظنا وجود مجموعة من الثنائيات الأساسية التى تتحكم فى المتتالية التحديثية المتحققة (الإنتاج مقابل الاستهلاك. المنفعة «البرانية» مقابل اللذة «الجسدية». التحكم والإرجاء مقابل الانفلات والإشباع المباشر. التراكم مقابل التبديد والإنفاق. الدولة مقابل السوق) وهى ثنائيات صلبة تعكس ثنائية الإنسان والطبيعة. فالطرف الأول من الثنائية (الإنتاج والمنفعة والتحكم والإرجاء والتراكم والدولة) يفترض وجود مركز للكون (إنسانى أو طبيعى)، أى أنها تعبير عن العقلانية المادية. أما الطرف الثانى (الاستهلاك واللذة والانفلات والإشباع المباشر والتبديد والسوق) فيفترض انعدام الحدود وغياب المركز. ومن ثم تتساوى كل الأشياء وتختفى الثنائية الصلبة لتحل محلها سيولة شاملة، وتختفى المادية القديمة لتحل محلها المادية الجديدة، وتختفى العقلانية المادية لتحل محلها اللاعقلانية المادية. لكل هذا وجدنا أن التقسيم الثنائى له مقدرة تحليلية وتفسيرية عالية.

ومع هذا يجب أن نشير إلى أننا ندرك تماماً أن الظواهر التاريخية، بكل تنوعها وتركيباتها، لا يمكن اختزالها ببساطة إلى مرحلتين، وأن التقسيمات الثنائية بسيطة ومغرية. ورغم أننا قسمنا تاريخ الحضارة الغربية (العلمانية) الحديثة إلى قسمين اثنين: (مرحلة التحديث الصلبة التقشفية ومرحلة ما بعد الحداثة السائلة الفردوسية) فإننا ندرك تماماً أن تقسيماتنا هى وسيلة تفسيرية وحسب، وليس لها أى وجود مادى، فهى ليست «انعكاساً مباشراً» للواقع الموضوعى المادى، وإنما تعبير عن نموذج تفسيرى وتحليلى نرى أن له قيمة تفسيرية وتصنيفية يمكن اختبارها، أى أننا نقاوم تشيؤ نموذجنا التفسيرى، وندرك أنه رغم تركيبيته إلا أنه أكثر بساطة من الواقع، وأنه مهما بلغ من تركيبيته تظل هناك جوانب فى الواقع قد أهملها وهمشها لحساب جوانب أخرى أكدها وأبرزها.

وفى عرضنا لسمات كل من المرحلتين (وكذلك المرحلة الانتقالية)، صنفناها إلى مجالات مختلفة، وقد بدأنا بالمجال الاقتصادى المحدد ثم انتقلنا إلى المجالين السياسى والاجتماعى الأقل تحدداً ثم المجال الدولى الأكثر عمومية ثم إلى المجال الفلسفى المجرد ومنه إلى المجال الأخلاقى وأسلوب الحياة، وهى مجالات خلافية يصعب الحديث عن مكوناتها وآثارها بأى شكل من أشكال الدقة. ونصل فى النهاية إلى عالم المنظومات الدلالية والجمالية والصور المجازية. 



تمت عملية تحديث بقية العالم من خلال جيوش الإمبريالية الغربية، ثم ظهرت دول قومية تحاول إنجاز التحديث بسرعة (وكانت عملية التحديث تعنى فى واقع الأمر عملية تغريب)



ورغم تعاملنا مع هذه المجالات، كلٌّ على حدة وكأنها منفصلة الواحدة عن الأخرى، إلا أننا ندرك تماماً أنها مندمجة ومتداخلة ومتفاعلة ومتوازية، وما يحدث فى مجال ما، له فى معظم الأحيان ما يقابله فى مجال آخر. ففى الحديث عن المجال الاقتصادى تحدثنا عن البُعد الاقتصادى فى حد ذاته، ثم فى علاقته بالنفس البشرية وعلاقة كل هذا بالإعلام وعمليات تنميط السلع وتزايد الإحساس بالاغتراب وهكذا.

ونحن لا نرى أن هناك علاقة سببية بين مجال وآخر، فلا نقول إن العوامل الاقتصادية هى التى أدت إلى تغير الرموز، وأن التغيرات التى حدثت فى المجال الفلسفى هى التى أدت إلى التغيرات التى حدثت فى المجال السياسى. بل إننا نذهب إلى أن التحولات حدثت بشكل متزامن فى جميع المجالات ومن خلال تفاعلها، فكل عنصر هو سبب ونتيجة فى ذات الوقت، دون أن نعطى أولوية سببية لعنصر على الآخر. وغنى عن الذكر أن تداخل المجالات وتوازيها يؤدى إلى التكرار.

وكل مجال ينقسم إلى قسمين: التحديث والحداثة (ويرمز له بالحرف أ)، وما بعد الحداثة (ويرمز له بالحرف ب).

وبإمكان القارئ أن يقرأ هذه الدراسة بطريقتين:

أ) طريقة مقارنة: أن يقرأ القارئ كل ما ورد عن المجال الاقتصادى (على سبيل المثال) فيقرأ الجزء (أ) ثم الجزء (ب) ثم ينتقل بعد ذلك إلى المجال الذى يليه (وهذه هى الطريقة التى كتبنا بها الدراسة).

ب) طريقة تكاملية: أن يقرأ العنصر (أ) فى كل المجالات ثم يقرأ العنصر (ب).

المجال الاقتصادى

(أ) الهدف النهائى من الوجود فى الكون هو الإنتاج والزيادة المطردة للإنتاج. والإنسان فى هذه المرحلة منتج أكثر من كونه مستهلكًا، واجبه الإنتاج ومكافأته الاستهلاك فى حدود المعقول، وما يُحرك الجميع هو مبدأ المنفعة المادية، فالمستهلك يبحث عن السلعة الضرورية التى تنفعه، والمنتج أيضًا يبحث عما ينفع المستهلك لينتجه فيحقق أرباحًا متزايدة. ولذا فلابد من عملية قمع، فلو حركت اللذة البشر فى هذه المرحلة لكانت كارثة، لأن المواطن سيستهلك أكثر مما ينتج، ولن يمكن ضبط إنتاج السلع. ولذا تسود فى بداية هذه المرحلة أخلاقيات العمل البروتستانتية ويظهر الإنسان الاقتصادى فى الدول الرأسمالية، وهو نفسه الإنسان الاشتراكى (بطل الإنتاج) فى الدول الاشتراكية، وكلاهما تتحدد مكانته فى المجتمع فى إطار مقدار ما يُنتج (لا ما يستهلك). ومن هنا التقشف والتراكم وزيادة الإنتاج والصناعة الثقيلة وبدايات الاقتصاد الرشيد ومرحلة المركنتالية وتوحيد السوق القومية فى البداية، ثم الرأسمالية الرشيدة والرأسمالية المالية أو المصرفية فى غرب أوروبا والولايات المتحدة وظهور مفهوم السوق العالمية (وبداية ظهور ملامح الاستهلاكية والانفتاح وتحدى السوق والجنس للدولة القومية).

ويمكن فى هذه المرحلة أن نتحدث عن «المستغلين» و«المستغَلين»، وعن عمال يتم اعتصار فائض القيمة منهم، وعن طبقات متوسطة تحقق حراكًا اجتماعيًا أو هبوطًا فى السلم الاجتماعى والطبقى.

ومع هذا، لم يكن قد تم تحديث أوروبا تماماً حتى عام ١٩١٤ فاقتصاديات معظم بلاد أوروبا كانت تضم قطاعًا زراعيًا كبيرًا، وكان معظم السكان إما جزءًا من الاقتصاد الزراعى أو جزءًا من الصناعات الاستهلاكية والتجارة الصغيرة المحلية. وقد حققت الثورة الصناعية خطوات واسعة بعد عام ١٨٩٠ وساهم التراكم الإمبريالى فى الإسراع بعمليات تحديث الغرب، ومع هذا ظل كثير من البنى الاقتصادية والثقافية القديمة التقليدية قائماً. وقد تمتعت إنجلترا ثم الولايات المتحدة بمركزية فى النظام الاقتصادى العالمى.

وقد كان تاريخ شرق أوروبا (وبقية العالم) مختلفاً، ولكن الجميع لحق بالركب. فمرت مجتمعات شرق أوروبا بمرحلة مركنتالية تقشفية تراكمية مكثفة، وبدلاً من ديكتاتورية البيوريتان جاءت ديكتاتورية البروليتاريا، وبدلاً من الملكيات المطلقة والدول القومية المطلقة جاءت دولة الطبقة العاملة المطلقة التى ركزت السلطة فى يدها وقامت بعملية الترشيد والتراكم بسرعة.

وقد تمت عملية تحديث بقية العالم من خلال جيوش الإمبريالية الغربية، ثم ظهرت دول قومية فى العالم الثالث تحاول إنجاز عملية التحديث بسرعة (وكانت عملية التحديث تعنى فى واقع الأمر عملية تغريب) وأن تحقق التراكم وأن تهيمن على سوقها القومية.

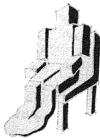
(ب) الهدف النهائى من الوجود فى الكون، فى مرحلة ما بعد الحداثة السائلة، هو الاستهلاك والمزيد من الاستهلاك، وما يحرك المستهلك هو اللذة لأنه لو حركته المنفعة لكانت كارثة لأنه لن يستهلك وبالتالى لن تتحرك آلات المصانع التى تنتج آلاف السلع غير الضرورية، ولن تزيد أرباح المنتجين ولن يتراكم رأس المال. بل إن الاستهلاك بالنسبة للمستهلك واجب/ حق. ولذا، بعد تحكم الرأسمالية فى العملية الإنتاجية، وبعد تحقيق التراكم الرأسمالى بنسبة معقولة، انتقل النظام من المنفعة إلى اللذة وأصبح الاستهلاك (لا الإنتاج) هو هدف المجتمع، وأصبحت السعادة هى تحرر الاستهلاك من الحاجات المادية أو الأساسية التى يتطلب الوفاء بها السلع ذات القيمة الاستعمالية. ولم يَعد هدف المجتمع إشباع الحاجات وإنما تخليقها، ولم تَعد الحاجة مصدر معاناة تحتاج إلى إشباع وإنما أصبحت على العكس من ذلك شيئاً يُحتفَى به. ولم يَعد التنافس الأساسى بين المنتجين (كما هو الحال فى الرأسمالية الصناعية التنافسية) وإنما بين المستهلكين.

وأصبح الاستهلاك هو المجال الرئيسى الذى يتم فيه اغتراب الإنسان، حيث تتحدد وتُنتج احتياجات الناس، وتوجَّه الرغبات نحو ما تم تحديده وإنتاجه من قبل. ويتم استيعاب الناس فى منظومة متعددة المستويات من الأشياء والعلامات والإشارات والرموز والدلالات، وهو ما يجعل «الثقافة» والإدراك أولوية على القيم المادية.

وأصبح نمط الاستهلاك وإشباع اللذة (وليس ممتلكات الفرد أو إنتاجيته) مؤشرًا على مكانته فى المجتمع، وانتقل تحديد وضع الفرد فى المجتمع من السلعة نفسها أو كمية النقود التى يمتلكها الفرد. وأصبحت الصورة أو العلامة هى السلع أو القيم المادية الرئيسية التى تُقاس بالنسبة لها قيمة كل شيء، أى أن السلع المادية والنقود لم تَعد أساس السيطرة على المجتمع. كل هذا يجعل التحليل الماركسى الذى أكد أولوية السلع المادية على السلع الثقافية غير ذى موضوع، بل يجعل الماركسية نفسها (كما يقول بودريار) مجرد امتداد للرأسمالية التقليدية ومتواطئة معها وأداة للهيمنة أو الإمبريالية الإدراكية.

ويمكن القول بأن تحديث المجتمعات الغربية قد اكتمل بعد الحرب العالمية الثانية، وتم تهميش أية جيوب زراعية أو شبه زراعية ولم يَعُد القطاع الزراعى ذا أهمية كبيرة.

وتشهد هذه الفترة ظهور الفورديزم Fordism، أى تنميط السلع على مستوى ضخم، فتم إنتاج السيارة والمنزل بشكل نمطى على نطاق جماهيرى، كما تم تطبيق أساليب تايلور فى الإدارة العلمية. وتزايد استخدام الكريدت كارد (بطاقات الائتمان) بدلاً من النقود، وهو ما يساهم فى الحركة الاستهلاكية وفى تضخم قطاع الخدمات وقطاع اللذة واتساع السوق المحلية وتجاوز الحدود القومية. وظهرت السوق العالمية والشركات متعددة الجنسيات عابرة القارات التى لا تحترم السوق المحلية، وظهرت الاستهلاكية العالمية. وقد تزايد ما يُسمى «الاقتصاد





أصبح الاستهلاك هو المجال الرئيسى الذى يتم فيه اغتراب الإنسان، حيث تتحدد وتُنتج احتياجات الناس، وتوجَّه الرغبات نحو ما تم تحديده وإنتاجه من قبل



الفقاعى» (بالإنجليزية: بابل إيكونومى bubble economy) أو «الاقـتـصـاد الطفيلى» (بالإنجليزية: دريفاتيف إيكونومى derivative economy) أى اقتصاد المضاربات المبنى على التأمينات المصرفية التى لا يقابلها رأسمال حقيقى (تجارة الأموال تقدر بنحو ٥٠٠ تريليون دولار (التريليون يساوى ١٠٠٠ مليار)، وهو ما يعنى أن هذه التجارة تصل إلى ٥٠ ضعف قيمة تجارة السلع الدولية التى بلغت قيمتها الإجمالية عام ١٩٩٧ نحو ١٠ تريليونات دولار فقط لا غير. كل هذا يعنى ابتعاد الاستثمار المالى عن الاستثمار الاقتصادى الحقيقى. ومع هذه الحركة الطائشة للتريليونات يتقرر مصير أمم بأكملها ارتفاعاً وهبوطاً.

وقد تزايد دور الإعلام وقطاع اللذة فى تصعيد الاستهلاك. ولا يمكن الحديث عن مستغل ومستغَل، فالمستغل فى مكان يصبح مستغلاً فى مكان آخر. فكأن عملية الاستغلال أصبحت بلا بؤرة ولا مركز، وأصبح النموذج دائرياً: نموذجاً قوياً فعالاً دون فاعل، يدور كالآلة. وكما يقول سيرج لاتوش: «لا يمكن الحديث عن الحضارة الغربية الحديثة (أو عن الحداثة الغربية) باعتبارها لحظة زمنية أو رقعة جغرافية، وإنما هى آلة بدأ الإنسان فى تشغيلها، ثم استمرت فى الدوران بقوة الدفع الذاتية، ثم أخذت تتزايد سرعتها بقوة تفوق طاقة الإنسان. وهى فى دورانها تدوس بقوة على الجميع، بما فى ذلك الإنسان الغربى نفسه الذى بدأها فى الدوران وكان يحاول توظيفها لصالحه». فى هذا الإطار (الآلة التى تدور. الاقتصاد الطفيلى. الإعلام الشرس. عالم بلا بؤرة) يشعر الإنسان بالعجز الكامل فيتزايد الحديث عن المؤامرة.

ويُلاحظ تراجع الهيمنة الاقتصادية للولايات المتحدة وظهور مراكز أخرى فى اليابان وجنوب شرق آسيا وألمانيا، وبداية الخصخصة فى العالم الثالث، وتساقط سياسات الاقتصاد الوطنى وتفشى النزعة الاستهلاكية. وتدخل الدولة الصهيونية المرحلة الفردوسية الاستهلاكية.

المجال السياسى والاجتماعى

(أ) نشبت الثورة البورجوازية ضد الإقطاع ثم الثورة البروليتارية ضد الرأسمالية، وانتصرت البورجوازية والطبقات المتوسطة وتبلور الصراع الطبقى وظهرت القوميات العلمانية (العضوية وغير العضوية) والدولة القومية المركزية المطلقة (مرحلة الملكيات المطلقة ومرحلة الدول الديمقراطية فى غرب أوروبا والاشتراكية فى شرقها) وتم تأكيد أهمية الماضى القومى والهوية القومية.

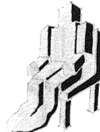
والدولة القومية هى التى قامت بتحديد الحدود وترشيد الداخل الأوروبى وتحديث المؤسسات وعلمنة الرموز وتدجين الإنسان الأوروبى وتحويله إلى إنسان وظيفى حديث («استعمار عالم الحياة»، على حد قول هابرماس)، ثم جيشت الجيوش ونهبت العالم فأسست البنية التحتية للمجتمعات الغربية من خلال التراكم الإمبريالى (الذى يُقال له «التراكم الرأسمالى») ومن خلال مؤسساتها التربوية والإعلامية جعلت الإنسان الغربى يستبطن رؤيتها للحياة.

لكل هذا هناك إيمان عميق بالصالح العام وبإمكانية الإنابة (بالإنجليزية: ريرزنتشين representation) أى أن ينتخب الإنسان من «ينوب» عنه فى البرلمان ليعبر عن رأيه ومصالحه، لكل هذا هناك ثقة كاملة بالعملية السياسية وأخلاقيات الصيرورة.

ورغم قوة الدولة القومية وشراستها وهيمنة البورجوازية، ظلت هناك جيوب تقليدية (أرستقراطية. إثنية. دينية) حتى الحرب العالمية الثانية، وكان كثير من أعضاء النخب الحاكمة من أصول أرستقراطية، وكان معظم أوروبا يحكمها أسر ملكية. بل تكيفت البورجوازية مع النظام القديم وتلونت الأرستقراطية الصناعية بألوان الأرستقراطية الزراعية.

ويرى أحد المؤرخين أن التحول الحقيقى للغرب تم بعد ما يسميه «حرب الثلاثين عاماً الجديدة» (١٩١٤. ١٩٤٤) إذ تم تحديث وعلمنة كل النظم والمؤسسات والبنَى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتهميش الأرستقراطيات وكل الجيوب التقليدية المتبقية.

ومع نهاية المرحلة، بدأ تآكل الدولة القومية من خلال ظهور النزعات الإثنية والكوزموبوليتانية فى الوقت نفسه (ومن خلال تزايد النزعات الفردية والتوجه الحاد نحو اللذة المتمركزة حول الإشباع الجنسى وتصاعد معدلات الاستهلاك). كما بدأت حركيات السوق (التى لا تعرف القيم أو الخصوصيات) تهدد الحدود القومية. ومع هذا يُلاحظ تصاعد هيمنة البيروقراطية والتكنوقراطية وتزايد تدخل الدولة فى كل مناحى الحياة الخاصة. وتنتهى المرحلة بالإبادة النازية والإرهاب الستالينى والمكارثية وهيروشيما وناجازاكى وفيتنام وكمبوديا وتأسيس الدولة الصهيونية فى فلسطين، ثم تظهر أسلحة الدمار الكونى والأسلحة الميكروبية (لأول مرة فى تاريخ البشرية، ما يخصصه الإنسان من طاقة واعتمادات فى تطوير أسلحة الدمار والفتك يفوق ما يخصصه لإنتاج الطعام، على سبيل المثال). ويلاحظ تصاعد حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث التى تحاول القوى الاستعمارية قمعها بضراوة.





التحول الحقيقى للغرب تم بعد «حرب الثلاثين عاماً الجديدة» (١٩١٤ ـ ١٩٤٤) إذ تم تحديث وعلمنة كل النظم والمؤسسات وتهميش الأرستقراطيات وكل الجيوب التقليدية المتبقية

(ب) مع تصاعد معدلات التدويل والاتصال الإلكترونى ضمرت الدولة القومية ومؤسساتها ومراكز قوى أخرى (نقابات. جماعات ضغط. شركات ضخمة. منظمات غير حكومية)، فالسلطة لم تعُد مجموعة مؤسسات مركزية يمكن الاستيلاء عليها والتحكم فيها، فهى موزعة بين عدة مؤسسات متغلغلة فى المجتمع. ولم يعد هناك إيمان بالصالح العام، ولم يعد من الممكن «إنابة» شخص يمثل مصالح الناخب. كما بدأ التوجه الحاد نحو اللذة يقوض مركزية الدولة، إذ تصاعدت النزعات الفردية.

ومن أهم التطورات تضخم (بل تغول) قطاع صناعات اللذة، وهيمنته على الحياة الخاصة التى تم استيعابها فى رقعة الحياة العامة، وتزايد تأثير وسائل الإعلام ومنظومات المعلومات التى تحاصر الإنسان بالصور الأيقونية الجذابة المتغيرة، الخالية من المضمون والمعنى تقريباً، والتى تكاد تشير إلى ذاتها. ولذا فالمجتمع لا تحكمه الدولة وإنما تحكمه منظومات المعلومات والشفرات الجماعية الموحَّدة (كود Code) مثل لغة الإعلانات والقوالب المرئية واللفظية الجاهزة. ومن أهم التطورات الأخرى تزايد الوزن النسبى لكثير من الفئات الهامشية، وضمور الهويات القومية، واختفاء بقايا الأرستقراطية والثقافة الأرستقراطية (١٩٤٥). وظهور الطبقة المتوسطة الجديدة من المهنيين الذين كانوا يشكلون ٥ . ١٠٪ من سكان الدول الغربية الصناعية حتى بداية القرن العشرين، ولكن عددهم فى الوقت الحاضر يبلغ نحو ٢٠ . ٢٥٪. وهم أقلية عددية كبيرة يتمتع أعضاؤها بنفوذ قوى يتجاوز نسبتهم العددية، فهم الذين يضعون السياسات والاستراتيجيات، كما أن لهم نفوذاً ثقافياً قوياً، لأنهم يتميزون بمقدرتهم على الإنفاق، وهم لهذا أكثر مواكبة لعصر الاستهلاك. ونتيجة لهذا كله يحل هؤلاء المهنيون محل الأرستقراطية القديمة أو حتى البورجوازية فى تحديد قيم المجتمع وأسلوبه فى الحياة. وموقف هؤلاء المهنيين من الطبقة العاملة مبهم للغاية. ولكن الطبقة العاملة نفسها استوعبت تماماً فى أسلوب الحياة فى المجتمعات الغربية ولم تعد أحلامها تختلف عن أحلام أعضاء المجتمع ككل. ففقدت أى دور ثورى لها، ومن هنا الإحساس بأن الصراع الطبقى تم إلغاؤه.

أما على مستوى الواقع فيلاحظ تزايد الاستقطاب الطبقى والجيلى فى الولايات المتحدة وغيرها من الدول المتقدمة (وخصوصاً ابتداء من نهاية السبعينيات). كما

ظهـرت حـركـات الـطـلاب والحـركـات الاجتماعية الجديدة التى تربط دائماً بين الانعتاق والحرية الجنسية (خاصة بعد اكتشاف حبة منع الحمل)، أى أن أحلام الثوريين لا تختلف كثيراً عن الأحلام التى يفبركها بكفاءة عالية قطاع اللذة فى المجتمع. وقد أدركت بعض قوى اليسار أن الثورة مستحيلة، وأن الاستيلاء على الحكم مستحيل، فى عصر ما بعد الأيديولوجيا وسيادة الفكر التكنوقراطى فى عـالـم الـسـيـاسـة وقـوانـيـن الإدارة العلمية، وأنه لو تم الاستيلاء على السلطة فإن هذا لن يحل المشكلة بسبب هيمنة النظم التكنوقراطية ونظم المعلومات والصور الأيقونية المخلقة على الإنسان من الداخل والخارج.

ومع هذا يُلاحظ اندلاع الحركات الثورية ذات التوجه البيئى، التى تشكل أول انسلاخ حقيقى ذى طابع جماهيرى عن منظومة التحديث الغربية، المادية العقلانية الداروينية. ورغم ضرب حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث وظهور نخب حاكمة ذات اتجاه تغريبى واضح، وتآكل مؤسسات الدولة القومية وتزايد الحروب الإثنية والدينية، يلاحظ ظهور حركات شعبية ترفض عملية التدويل والتغريب، وقد ظهر هذا بشكل واضح ومتبلور فى الحركات المناهضة للعولمة وللغزو الأمريكى للعراق.

المجـــال الــــدولـــى

(أ) تبدأ هذه المرحلة بقيام الإنسان الغربى بإبادة شعوب الأمريكتين وتسخير ملايين الأفارقة ليصبحوا مجرد طاقة توظف فى خدمة الإنسان الأبيض. ثم ظهرت الإمبريالية «العالمية»، وهى عالمية لأنها حولت العـالـم بـأسـره إلى مـادة استعمالية فاستغلت الموارد الطبيعية والبشرية فى كل بقاع الأرض بشكل مباشر ومن خلال الجيوش النظامية أو من خلال الجيوب الاستيطانية المختلفة. وكان يتم تبرير الهجمة الإمبريالية الغربية على شعوب العالم باللجوء إلى شعارات مثل «عبء الرجل الأبيض» و«الرسالة الحضارية» و«القدر المحتوم».

وانحصرت التجربة الاستعمارية لروسيا القيصرية فى البلاد المحيطة بها، فاستولت على الخانات التركية وعلى بعض الدول المجاورة مثل بولندا، حتى أن روسيا كانت تسمى «سجن الشعوب». وحينما قام الاتحاد السوفيتى ظل محتفظاً بهيمنته على هذه الدول كما هيمن على الأحزاب الشيوعية وكان هذا يتم باسم الأممية الاشتراكية وباسم الدفاع عن الطبقة العاملة.

ورغم تقسيم العالم من قِبَل الدول الغربية فقد شهدت هذه الفترة حروباً عالمية (أى غربية) وأخرى صغيرة فى آسيا وأفريقيا. وبدأت تظهر ملامح ما يُسمى «جـلـوبـالـيـزيـشـن» globalization أى «العولمة»، أو تحويل العالم إلى وحدات متجانسة لا تتمتع بأية خصوصية (وهو الاتجاه الذى أدى فى نهاية الأمر إلى ظهور النظام العالمى الجديد). ومما سارع بهذا الاتجاه أن الاستعمار الغربى (والأمريكى بخاصة) اكتشف أن المواجهة مع الشعوب أمر مكلف جداً، وأن الحروب الاستعمارية لا تأتى بعائد كبير ولذا قرر التراجع عن الغزو العسكرى المباشر والبحث عن أشكال أكثر مراوغة مثل الاستعمار الجديد. وكان هناك دائماً دولة غربية واحدة هى المهيمنة على النظام العالمى (إنجلترا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ثم الولايات المتحدة حتى الوقت الحاضر). وانتهت الفترة بالحرب الباردة، وبداية عملية تصفية الجيوب الاستيطانية. ومع نهاية المرحلة لم يبق سوى الجيب الاستيطانى فى فلسطين، يطل على أفريقيا وقناة السويس، والجيب الاستيطانى فى جنوب أفريقيا فى قاعدة القارة.

(ب) شهدت هذه المرحلة بداية ظهور النظام العالمى الجديد ويمكن الحديث عن عولمة بعض القضايا مثل الطاقة النووية. التلوث البيئى. الإيدز. الثورة الإلكترونية. ثورة المعلومات. ويمكن القول إن الدول الاستعمارية السابقة تحاول فى الوقت الحاضر استغلال الموارد الطبيعية والبشرية على المستوى العالمى بدون مواجهات عسكرية، ومن خلال تجنيد النخب المحلية الحاكمة لتنفيذ مخططات الدول الغربية، ومن خلال تزايد معدلات التدويل، بحيث يتحول الكون بأسره إلى شىء متجانس يـتـسـم بـالـواحـديـة الـدولـيـة، لا خصوصيات له ولا ثنائيات ولا تنوع. وبدلاً من استعمار الشعوب، يحاول الغرب أمركتها وكوكلتها (نسبة إلى الكوكاكولا) وتحل الكوكاكولانية بدلاً من الكولونيالية. ويتم الحديث عن نهاية التاريخ ونهاية الأيديولوجيا، لإشاعة الإحساس بأن ثمة نظاماً جديداً قد ظهر مبنياً على العدل وتبادل المصالح الاقتصادية ومع هذا يلاحظ على مستوى الواقع أن ٢٠٪ من سكان الأرض (شـعـوب الـدول المـتـقـدمـة) يـسـتـهـلـكـون ٨٠٪ مـن مـوارد الـعـالـم الطبيعية. وقد تزايد الاستقطاب على مستوى العالم لصالح الدول الثرية التى تزداد ثراء بينما تزداد الدول الفقيرة فقراً، من خلال عملية التبادل الاقتصادية «العادلة»! كما يلاحظ أن معدلات إنتاج الأسلحة (وبيعها) لم ينخفض كثيراً عن ذى قبل.

ولا يستخدم النظام العالمى الجديد الديباجات القديمة مثل عبء الرجل الأبيض وإنما يتحدث عن الدفاع (الانتقائى) عن حقوق الإنسان وحقوق الأقليات وحقوق النساء وربطها بالدفاع عن حقوق الشذاذ جنسياً وعن حقوق الحيوانات.

والنظام العالمى الجديد هو تصعيد لعمليات العلمنة الشاملة، ومحاولة لإعادة صياغة العالم بأسره حتى يصبح جزءاً من الآلة التى ستستمر فى الدوران إلى أن ترتطم بحائط كونى (مثل الإيدز وثقوب الأوزون والفشل الذريع فى التخلص من النفايات النووية وغير النووية). ويمكننا الآن الحديث عن «الاستهلاكية العالمية» وعن «الإمبريالية النفسية» (أى الإمبريالية التى تعتبر النفس البشرية هى الحيز الذى تتحرك فيه وتهزمه وتحوسله) بدلاً من «الاشتراكية العالمية» أو «الرأسمالية العالمية» أو «الإمبريالية العالمية»، وخصوصاً بعد سقوط النظام الاشتراكى والنظرية الماركسية. والذى حدث هو التلاقى «كونفرجانس» convergence بين النظامين الرأسمالى والاشتراكى، وهو تلاق توقعه كثير من علماء الاجتماع منذ زمن. ويلاحظ أن الولايات المتحدة لم تعد المركز ولا القوة الوحيدة فى العالم، إذ ظهرت قوى أخرى (النمور الآسيوية. تعاظم نفوذ أوروبا).

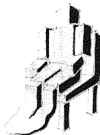
ويحاول النظام العالمى الجديد (هذا التعبير الجديد عن الظاهرة الاستعمارية الغربية أو النظام العالمى القديم) أن يجعل شعوب العالم تستبطن رؤيتها لذاتها كمستهلكين ومنتجين وحسب، أى مادة استعمالية، وتدخل القفص الحديدى راضية قانعة. ولذا فهو يلجأ للإغواء والقمع بدلاً من المواجهة الصريحة والقمع المباشر.

وقد قبلت كثير من نخب العالم الثالث هذا الإغواء وبدأت تثرثر هى الأخرى عن النظام العالمى الجديد (ولكن بدأت قطاعات أخرى تدرك تماماً خطورة هذا الاتجاه نحو العولمة). ثم أفصحت الحداثة الداروينية عن نفسها تماماً حين قام النظام الأمريكى برفض الشرعية الدولية وفكرة القانون الدولى العام وهاجم العراق.

المجال الفلسفى

(أ) شهدت هذه المرحلة بدايات المشروع التحديثى العقلانى المادى الذى يستند إلى الإيمان بالكل المادى الثابت المتجاوز ذى الهدف والغاية، والذى يشكل مركز الكون. وكان هذا المركز فى البداية هو إما الإنسان أو الطبيعة/ المادة ثم فى مرحلة لاحقة أصبح مركز الكون أى مطلق علمانى (الفرد. الدولة. العنصر الاقتصادى).

وتم إنجاز الإصلاح الدينى وبداية





أدركت بعض قوى اليسار أن الثورة مستحيلة، وأن الاستيلاء على الحكم مستحيل، فى عصر ما بعد الأيديولوجيا وسيادة الفكر التكنوقراطى فى عالم السياسة وقوانين الإدارة العلمية



علمنة الدين وتهميش المقدّس وعزله فى رقعة الحياة الخاصة، على أن تحرر الحياة العامة من كل المقدّسات، وهو ما يسمى «نزع القداسة عن الكون». وظهرت الرؤية المعرفية العلمانية الشاملة التى ألهت الإنسان، وهى رؤية تقوم مقام الديانة العالمية (بالإنجليزية: وورلد ريليجون world religion) التى تتسم بالشمول، وتتفرع عنها منظومات معرفية وجمالية أخلاقية ومعيارية كاملة فى جميع المجالات. ولذا نجد أن لها سفر التكوين الخاص بها (أصل الأنواع) وأنبياؤها (بنتام وداروين وماركس) وقصتها الكبرى (التقدم المستمر) وخيرها (إمتاع الذات) وشرها (قمعها) وجنتها (اليوتوبيا التكنولوجية) وجهنمها (التخلف المادى). وثمة إيمان عميق بالعلم والتكنولوجيا والإيمان بمقدرة الإنسان على هزيمة الطبيعة.

وقد ظهرت من داخل هذه المنظومة ثنائية الإنسان والطبيعة الصلبة حيث يشغل الإنسان المُتأله مركز الكون (أو تشغل الطبيعة/ المادة المركز). ولكن ما حدث فى واقع الأمر أن الإنسان الأبيض (وليس الإنسان ككل) أله نفسه وأصبح مرجعية ذاته واحتل المركز وقام بحوسلة الطبيعة وبقية البشر ومن ثم تحولت الرؤية المعرفية العلمانية إلى رؤية علمانية إمبريالية. ورغم مادية المنظومة المعرفية العلمانية الإمبريالية فإن ثمة نزعة طوباوية مثالية تظهر داخلها (انتصار الاشتراكية فى المعسكر الشرقى والدفاع عن العدالة الاجتماعية، أو الهيمنة الإمبريالية فى المعسكر الغربى والدفاع عن عبء الرجل الأبيض ورسالة أوروبا الحضارية).

ومنذ البداية نشب صراع بين مركزى الكون (الإنسان والطبيعة) فأكدت النزعة الإنسانية الهيومانية أسبقية العقل على الطبيعة/ المادة وحرية الإرادة الإنسانية ومقدرة الإنسان على معرفة قوانينها وغزوها والهيمنة عليها والوصول إلى معرفة كلية يمكنه أن يُرشد حياته المادية والأخلاقية فى ضوئها، وباسمها يستطيع الإنسان أن يقمع رغباته ويرجئها وأن يتجاوز ذاته الطبيعية/ المادية. وظهرت أخلاقيات مادية (المنفعة المادية. البقاء للأصلح. صراع الطبقات). وقد واكب كل هذا إيمان بأن الكون معقول، وله هدف وغاية. ومن ثم تزايد الإيمان بالتقدم وبأن التاريخ له مسار واضح حتمى، ينتهى بانتصار الإنسان (الإنسان الأبيض على وجه التحديد) وهذه هى مرحلة البطولة المادية.

وفى الوقت نفسه ظهرت الرؤية المعادية للإنسان (الإيمان بالعلم المنفصل عن القيمة والغائية الإنسانية)، إذ أن فلسفة إسبينوزا ورؤية نيوتن قامتا بتأليه الطبيعة بدلاً من الإنسان، ووضعتا المادة فى مركز الكون، وطالبتا الإنسان بالإذعان للقانون الطبيعى المادى الآلى والحتميات المادية وهيمنت الواحدية المادية. وظهرت حركة الاستنارة والعقلانية المادية فى النصف الأول، وسادت مفاهيم السببية الصلبة فى العلوم، وتراجعت القيم المسيحية تدريجياً وكل المطلقات والثوابت. وبدأت مجالات حياة الإنسان المختلفة تنفصل تدريجيًا عنه، بحيث يصبح كل مجال مرجعية ذاته، لا علاقة له بالمركز الإنسانى.

ويمكن القول بأن الحداثة (فى الإطار المعادى) ليست تبنى العلم والتكنولوجيا وحسب وإنما هى تبنى العلم والتكنولوجيا المنفصلين عن القيمة، المتجاوزين للغائية الإنسانية، باعتبارهما المرجعية النهائية للإنسان، والحداثة تعنى أيضًا انفصال الإنسان عن كل النزعات الكونية وفصل كل العلاقات التقليدية وإخضاعها هى والمنظومات القيمية لعمليات التفاوض المستمرة.

ولكن مع اختفاء المعايير والمرجعيات المتجاوزة تتساوى كل الأشياء والظواهر والقيم فهى كلها توجد تحت سقف مادى واحد، فتصبح كل الأمور نسبية. عند هذه النقطة يصبح كل فرد أو شعب هو مرجعية ذاته، ومن ثم يستحيل حسم الصراعات إلا من خلال القوة، أى أن النسبية المطلقة تؤدى إلى الداروينية، ولذا فنحن نسمى الحداثة الغربية الحداثة الداروينية.

ومع بداية نهاية المرحلة (ابتداءً من النصف الثانى للقرن التاسع عشر) تبدأ هذه الرؤى فى الاهتزاز، فتهتز فكرة الكل المادى المتجاوز، وتتراجع مفاهيم السببية الصلبة فى العلوم ويتعمق إحساس الإنسان الغربى بأن معرفة الطبيعة ليست أمرًا سهلاً، وأن استخلاص قوانين منها ليس أمرًا يسيرًا، وأن الطبيعة ذاتها تحكمها الصدفة. كما أدرك الإنسان الغربى أن تزايد الترشيد والتحكم الإمبرياليين لا يؤدى بالضرورة إلى السعادة، بل بدأ يدرك استحالة الترشيد، فتزعزع إيمانه بفكرة التقدم والحتمية التاريخية. وهنا ظهر نيتشه الذى أعلن موت الإله، أى نهاية عصر الميتافيزيقا والكليات وادعاء الإنسان المركزية وبشّر بعالم لا مركزية له. فى هذا الإطار ظهر الفكر المعادى للاستنارة واللاعقلانية المادية والرؤية العضوية الشمولية وفكرة التاريخ كعود أبدى وكدوائر مفرغة والفكر العنصرى الغربى (كانت أكثر الكتب انتشارًا فى أوروبا فى نهاية القرن التاسع عشر كتاب المفكر العنصرى الفرنسى درومونд «فرنسا اليهودية»). وفى هذه التربة نبتت النازية واليهودية المحافظة والصهيونية.

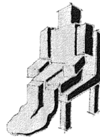
ومع تزايد الإحساس بالورطة الحضارية تزايد الفكر العبثى والعدمى.

ويلاحظ أن ثمة علاقة بين تزايد النزعة الاستهلاكية (والانغلاق على الذات وملذاتها) وتزايد النسبية والعدمية الفلسفية. ونشبت ثورة ضد الكلية والشمولية، سواء فى شكلها المادى الواضح (الوضعية. الوظيفية)، أو فى شكلها المادى الذى يتلبس لباسًا روحيًا (الهيجلية. البنيوية). وظهرت مدارس فلسفية توجه سهام نقدها للحداثة العقلانية المادية الغربية وفكر الاستنارة ككل (مدرسة فرانكفورت) وتهاجم فكرة التقدم.

وكل هذا مؤشر على اقتراب المرحلة الصلبة من نهايتها، ومع هذا فإن ما ينقذ هذه المرحلة من السيولة الكاملة ومن السقوط فى قبضة الصيرورة هو الإحساس المأساوى الذى صاحبها، فالإنسان الغربى كان لا يزال يحمل فى وجدانه ذكرى المرحلة البطولية المادية.

(ب) تكتسب الحركة المادية فى هذه المرحلة مركزية كاملة وحركية ذاتية مستقلة عن إرادة الإنسان بحيث تتجاوز أية نماذج عقلية وأية محاولات للتفسير والتنظير، فكل شىء يسقط فى قبضة الصيرورة، وتختفى المنظومات الكلية، ولذا لا يتساءل الإنسان عن أصل الأشياء ولا عن معناها ويختفى البحث عن الأصول والمعنى (فالحديث عن الأصل يعنى وجود ذات فاعلة تهمش الذوات الأخرى). وينظر إلى العالم بأسره من منظور الهامش ويصل فيه الترشيد قمته فيفقد الإنسان رشده وحريته وإرادته ومقدرته على التحكم، فيصبح العقل وثمرات الفكر (مثل النظريات والأيديولوجيات) أمورًا قديمة يجب طرحها. وبذا، يختفى الإنسان تمامًا بتحوله إلى مادة مستوعبة فى نظام آلى عالمى وصلت فيه درجة التحكم والترشيد إلى الذروة، فتظهر السيولة والتفكيكية وفكرة اللاتحدد فى الطبيعة، والانتصار الكامل للرؤية المتمركزة حول المادة على الرؤية المتمركزة حول الذات الإنسانية، أى أن المركز الواعى للكون (الإنسان) يختفى ليحل محله فى بداية الأمر الطبيعة باعتبارها المركز اللاواعى ثم يظهر أخيرًا اللامركز اللاواعى. وتتصاعد الشكوك فى العلم والتكنولوجيا، خاصة مع تفاقم الأزمة البيئية. ومع هذا يزداد استخدام الكمبيوتر، ومن ثم الاعتماد على العلم والتكنولوجيا.

هذا هو عصر النهايات والمابعديات (نهاية الأيديولوجيا. نهاية التاريخ. نهاية الميتافيزيقا. نهاية الحقيقة. نهاية البحث عن المعنى)، ولذا لا توجد أزمة معنى، وتحل اللاعقلانية المادية محل العقلانية المادية، والاستنارة المظلمة محل الاستنارة



يمكننا الآن الحديث عن «الاستهلاكية العالمية» وعن «الإمبريالية النفسية» بدلاً من «الاشتراكية العالمية» أو «الرأسمالية العالمية» أو «الإمبريالية العالمية»

المضيئة، وتختفي تماماً القيم والثوابت والمطلقات (في المجال المعرفي والجمالي والأخلاقي) ويصبح لكل فرد ثوابته وقيمه ودينه، وتختفي المعيارية لتحل محلها لا معيارية كاملة ونسبية شاملة. ولعل أطروحات ما بعد الحداثة هي تعبير عن هذا الوضع، فهي رؤية للكون تؤكد أن الكون لا مركز له، وأن لا علاقة بين النتائج والأسباب، ولا بين الدال والمدلول، ولا بين العقل والواقع، فكأن كل شيء أصبح مكتفياً بذاته لا علاقة له بالآخر، مجرد قصص صغرى، إذ لا توجد قصة عظمى ولا ديانة عالمية؛ عالم ذري تماماً لا قداسة فيه انسحب منه الإله ومات فيه الإنسان. ولذا تمحى كل الثنائيات وتختفي النزعة الطوباوية وتظهر النزعة البرجماتية والرغبة في التكيف والمقدرة الفائقة على الإذعان للأمر الواقع.

ويمكننا القول بأنه إذا كان الإله - حسب التصور النيتشوي - قد مات في أواخر القرن التاسع عشر فإن الشيطان نفسه، قد مات أول يناير ١٩٦٥ (أي مع البداية الافتراضية للمرحلة الثانية). فالشيطان يفترض وجود قصة كبرى وثنائيات فضفاضة أو صلبة، وعالم يرتكب فيه الإنسان الرذيلة. ومع اختفاء كل هذا، ومع الحياد الكامل تجاه الجسد والجنس والعالم، ومع إزالة ظلال الإله (مفهوم الكلية والسببية والغائية) يصبح من الصعب التمييز بين المقدَّس والمدنَّس، ويصبح الشيطان كائناً بلا وظيفة فيموت، وهذا هو ما يمكن تسميته «تحييد العالم».

ومع هذا يلاحظ أن المقدَّس لم يمت تماماً، وإنما كان هناك طيلة الوقت متوارياً. ويعبر المقدَّس عن نفسه خارج أي إطار ديني، من خلال عدد هائل من العبادات الجديدة والغيبيات التي تتعايش مع كل المفاهيم العصرية أو تعيش جنباً إلى جنب معها دون أن تدخل معها في أي علاقة.

أما في العالم الثالث فتتداخل الأمور، فمع الحديث عن الاستنارة يوجد الحديث عما بعد الحداثة، رغم ما بين الاتجاهين من تناقض عميق. كما يلاحظ ظهور فكر لا يقبل الحداثة الغربية، ويحاول أن يؤسس حداثة جديدة تنطلق من نقد أساسي لفكر الحداثة الغربي. ففي العالم الإسلامي، على سبيل المثال، تراجع مشروع الشيخ محمد عبده الخاص بتكامل الحداثة الغربية والإسلام، ويحاول الخطاب الإسلامي طرح نقد شامل للحداثة الغربية، ويبدأ البحث عن حداثة جديدة لا تودي بالإنسان. أما في إسرائيل فتتراجع الأيديولوجية الصهيونية وتظهر العبادات الجديدة (بين أعضاء الجماعات اليهودية في العالم) وتترجم فلسفة ما بعد الحداثة نفسها في مجال اليهودية إلى لاهوت موت الإله.

المنظومة الأخلاقية

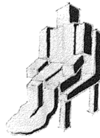
وأسلــوب الحيـــاة

(أ) يتم في المرحلة الأولى توليد منظومات أخلاقية مادية (اشتراكية أو رأسمالية) يؤمن بها الإنسان الرأسمالي أو الاشتراكي. وهو على استعداد للموت من أجلها. وهو ما يعني أن النزعة الطوباوية والأحلام المثالية بالحرية والإخاء والمساواة والهيمنة الإمبريالية وإرادة القوة ذات فعالية. ويشعر الإنسان من ثم بأنه قادر على التحكم في حياته ومصيره وعلى صياغة بيئته وذاته في ضوء المثل الأعلى الذي يؤمن به. ويتم ضبط الحياة من خلال التسامي على الرغبات (وكبتها أو قمعها) وإرجاء الإشباع واللذة. وتبدأ عملية تآكل الأسرة (فتختفي الأسرة الممتدة لتحل محلها الأسرة النووية التي تبدأ في التفكك هي الأخرى)، إلا أن الأسرة تظل مع هذا هي الوحدة الأساسية في المجتمع التي يتم من خلالها توصيل القيم إلى الأفراد وتحويلهم إلى مواطنين وكائنات اجتماعية. كما يتم التسامي على الرغبات باسم المثل الأعلى داخل إطار الأسرة. وتظهر حركة تحرير المرأة التي تطالب بإعطاء المرأة حقوقها باعتبارها عضواً في المجتمع، تقوم بدورها كأم وكأداة عاملة. ويؤدي تنميط السلع إلى تنميط الحياة وترشيدها، كما يؤدي استخدام السيارة إلى تسارع وتيرة الحياة.

ويلاحظ اتساع رقعة الحياة العامة وضمور رقعة الحياة الخاصة وبداية تدويل أسلوب الحياة وتراجع اللون المحلي (انتشار الهامبورجر والـ «تي شيرت»، والبلوجينز وأمركة الغرب والعالم والولايات المتحدة، باعتبار أن الأمركة هي أسلوب في الحياة يعادي الخصوصيات الثقافية وضمنها الخصوصيات الأمريكية نفسها). ومع هذا، يظل إحساس الإنسان بأنه قادر على التحكم في حياته ومصيره وفي صياغة بيئته وذاته، ويظل هناك وهم الخصوصيات الإثنية والقومية. ويلاحظ تصاعد عملية علمنة التعليم والرموز والأحلام والرغبات، ومع هذا تظل الأحلام والرموز القديمة ذات فعالية. ولا يزال النظام التعليمي متأثراً بالمُثل التقليدية (أهمية اليونانية واللاتينية ودراسة الفلسفة والكلاسيكيات)، ويظل هناك شكل من التدين الفعلي أو الاسمي قائماً ينعكس على سلوك الأفراد وأزيائهم التي تميل إلى الاحتشام ومحاولة توضيح الفروق بين الجنسين والتي تتبع بروتوكولاً اجتماعياً محدداً.

(ب) مع التزايد التدريجي للنسبية يصبح من المستحيل الإيمان بأية قيم، وهو ما يعني اختفاء النزعة النضالية وتلاشي النزعة الطوباوية وكل الأحلام المثالية (في المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي)، ويرفض الإنسان إرجاء إشباع اللذة الفردية. ولكنه، مع هذا، يشعر بأن عليه أن يتكيف مع واقعه ويقبل عمليات التسوية في المجتمع التي تُسوي الإنسان بالإنسان وتمحو فرديته وعالمه الجواني ثم تسويه بالأشياء.

يتسارع تآكل الأسرة إلى أن تأخذ في الاختفاء تماماً وتظهر أشكال بديلة من الأسرة (أسرة من رجل واحد وأطفال. امرأة واحدة وأطفال. رجلان وأطفال. امرأتان وأطفال. رجلان وامرأة وأطفال.. إلخ). وتظهر حركة التمركز حول الأنثى التي تنظر للمرأة باعتبارها كائناً في حالة صراع مع الرجل، ولذا لا تطالب هذه الحركة بحقوق المرأة، وإنما تطالب بتحسين كفاءات الصراع (مع الرجل) وتغيير اللغة وتعديل مسار التاريخ. ومع ضمور النزعة الطوباوية واختفاء الأسرة كآلية لنقل القيم وإعلاء الرغبات يتزايد السُعار الجنسي عند الأفراد، ويزيد حدته قطاع اللذة الذي يعمل على هدم القيم الأخلاقية وإشاعة القيم الاستهلاكية التي تصبح المعيار للحكم على الإنسان (ولذا يحل الذوق الجيد محل الأخلاقيات الحميدة والقيم الجمالية محل القيم الأخلاقية). ومن الأسباب الأخرى التي أدت إلى تزايد السُعار الجنسي انفصال الجنس عن القيمة الأخلاقية والاجتماعية، بحيث أصبح النشاط الجنسي مرجعية ذاته. وقد أصبحت اللذة إحدى الآليات التي يستخدمها المجتمع العلماني الحديث في استيعاب الجماهير في عمليات الضبط الاجتماعي بعد أن كان يبذل جهوداً لمحاصرتها وإعلائها. وتتم عملية الاستيعاب والضبط لا من خلال القمع الصريح وإنما من خلال الإغواء، وهو شكل من أشكال القمع الخفي حيث تتم إشاعة الإحساس بأن حق الإنسان الأساسي (بل الوحيد) هو الاستهلاك وبأن إشباع اللذة هو أقصى تعبير ممكن عن الحرية الفردية، وهو ما يعني ضمور اهتمام المواطن برقعة الحياة العامة وتركيزه على ذاته ورغباته، ولكن هذه الذات وهذه الرغبات يتم تشكيلها وصياغتها وتوجيهها من قبل صناعات اللذة وأجهزة الإعلام التي تغولت تماماً في تلك المرحلة. والتي تقوم باقتحام أحلام الإنسان وترشيده من الداخل والخارج. فيظهر الإنسان ذو البعد الواحد الذي تم ترشيده من الداخل. ويظهر المواطن المُخدَّر الذي لا يمكنه التحكم في رغباته الحسية، والذي تتركز أحلامه في تحقيق انتصار جنسي أو فوز النادي الذي ينتمي إليه فوزاً ساحقاً ماحقاً!





هذا هو عصر النهايات والمابعديات (نهاية الأيديولوجيا. نهـــاية التاريـــخ. نهـــاية الميتافيزيقـــا. نهـــاية الحقيقـــة. نهـــاية البحـــث عـــن المعنى)



ويلاحظ ظهور الإنسان الجسدى وشيوع الحب العرضى. ويعد عام ١٩٦٠ هو نهاية القيم البيوريتانية الخاصة بالقمع والإرجاء، فقد ظهرت حركة الجنس المطلق أو المرسل (بالإنجليزية: فرى لاف موفمنت free love movement والتى تعنى حرفياً «حركة الحب الحر»). وتعد ثورة الشباب فى الستينيات. فى تصورنا. معلماً أساسياً فى تاريخ المتتالية التحديثية والعلمانية الشاملة، فحتى ذلك الوقت لم تكن علمنة سلوك الإنسان الغربى قد اكتملت بعد، رغم علمنة رؤيته وأحلامه ورغباته. وهو ما تم إنجازه فى هذه المرحلة. وكانت اللذة الحسية حتى ذلك الوقت مقصورة على الطبقة الحاكمة ولكن تم تعميمها وخصخصتها وجعلها متاحة للجميع، أى تم التوزيع العادل لإمكانات إشباع الرغبات الحسية (بالإنجليزية: ديموكراتايزيشن أوف هيدونيزم democratization of hedonism). وكل ما يطلبه المجتمع الآن من الإنسان هو الاستسلام للاستهلاك واللذة. وقد صاحب هذا تزايد استهلاك المخدرات بين أعضاء النخبة والشباب.

وتتزايد سرعة الحياة العامة وإيقاعها (خاصة استخدام التليفون المحمول، الذى حول رقعة الحياة الخاصة إلى رقعة عامة) وتتسع رقعتها لتشمل معظم الحياة الخاصة للإنسان. ويتغلغل السوق والتعاقد والتبادل فى كل مجالات الحياة (الوجبات السريعة بدلاً من الطعام. الكريدت كارد بدلاً من النقود) وتتم علمنة التعليم والرموز والأحلام تماماً. ويلاحظ اكتمال عملية التنميط، ومع هذا تتغير الأساليب والطرز إلى درجة يصعب على الإنسان استيعابها، وتتسع رقعة الحياة العامة وتتسارع وتيرتها. ولا توجد قواعد عامة فى المجتمع، ومع هذا يلاحظ وجود عدد هائل من القواعد والإرشادات التى تتغير كل يوم، كل هذا يعنى فى واقع الأمر أن لا وقت للتأمل، فالذات محاصرة بالتعددية السلعية والمعلوماتية المفرطة والكلشيهات الأيقونية التى تلتهم الإنسان ولا تمنحه سعادة أو حكمة فيبتلع كل شئ ويتشيأ فى مجتمع التبادل والاتصالات وتصبح الصورة أهم السلع (صورة الذات والصور التى يتلقاها المستهلك). ولذا يتزايد إحساس الإنسان بعدم الجدوى وانعدام الهدف وبأنه لا يملك من أمره شيئاً: الإعلام يقرر ما ينشر وما لا ينشر. الهندسة الوراثية تتحكم فى كل شئ. الكمبيوتر يقسم العالم (وضمن ذلك الإنسان) إلى وحدات بسيطة يتم تناولها. ويؤدى كل هذا إلى أن ينسى الإنسان الماضى ويتولد لديه الإحساس بأنه فى حاضر أزلى.

وفى العالم الثالث يلاحظ تزايد معدلات التغريب بشكل واضح، ويصبح نجوم السينما هم المركز ويتبنى الناس الاستهلاكية إطاراً للحياة والبرجماتية أو الداروينية أطراً معرفية.

المنظومة الدلالية والجمالية

(أ) يسود فى المرحلة الأولى الإيمان بأن ثمة واقعاً ثابتاً مستقراً وذاتاً متماسكة قادرة على التواصل مع الذوات الأخرى من خلال لغة عقلانية شفافة تعكس الواقع ويمكن تمثيل الواقع من خلالها، وبأن الأعمال الفنية تستند إلى المحاكاة والتعبير (باليونانية: مايميسيس mimesis). كما يشار إليها بعملية التمثيل أو الإنابة (بالإنجليزية: ريرزنتيشن representation)، ولها مضمون إنسانى وأخلاقى وتهدف إلى تعميق إدراك الإنسان بواقعه وربما تغييره، وبأن وظيفة النقد الأدبى والفنى هى اكتشاف القيم الأخلاقية والجمالية الإنسانية التى يمكن أن يهتدى بهديها المبدعون والجمهور.

ولكن مع نهاية المرحلة تكتشف الذات الإنسانية أن حدودها غير واضحة وأن الواقع غير مستقر، وأن ثمة أسبقية للأشياء على الإنسان، لكل هذا تفشل الذات الإنسانية فى التواصل مع الذوات الأخرى أو التفاعل مع الموضوع أو التعامل معه.

واللغة لكل هذا تصبح أداة رديئة للتواصل لا تتسم بأية شفافية. وقد أفسد التسلع والتعاقد اللغة فأصبحت قادرة على التعامل مع السوق والأسعار والسلع والإعلانات، أى مع عالم الأشياء دون عالم الإنسان، ولذا يصبح التواصل الإنسانى من خلال اللغة صعباً إن لم يكن مستحيلاً. ومع هذا، تسيطر هذه اللغة المتشيئة على الإنسان وتسبب اغترابه. ولذا يحاول الإنسان إبداء احتجاجه بأن يبعد اللغة عن عالم الأشياء فيطور لغة ذاتية مغرقة فى الذاتية ويزداد التجريب اللغوى. والفنون الحداثية ليست محاكاة ولا تعبيراً عن الذات الإنسانية وليس لها هدف وإنما هى احتجاج (بشكل واع أحياناً) على تسلع العالم، ولكنه احتجاج مأساوى يعرف عبثية الاحتجاج. ولذا، تظهر نظريات تفترض استقلالية العمل الفنى عن الواقع وأن العمل الفنى هو مرجعية ذاته مكتف بذاته لا يشير إلا إلى ذاته، وذلك حتى يتم فصل الفنون عن عالم التسلع الواقعى الذى يتهدده. ويظهر التجريد والتجريب ورفض محاكاة الواقع أو تمثيله ومسرح العبث. ووظيفة النقد الأدبى والفنى هى محاولة التوصل للقيم الجمالية لحماية الفنان من عالم السلع.

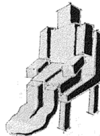
(ب) فى مرحلة ما بعد الحداثة تختفى الذات الإنسانية المستقلة الواعية وإن وُجدت فهى ذات منغلقة على نفسها وغير متماسكة، والواقع لا يوجد وإن وجد فلا يمكن الوصول إليه. وتختفى المعيارية وإن وجدت فهى معايير متعددة تنفى فكرة المعيارية المركزية وهو ما يعنى استحالة المحاكاة أو التفاعل أو التواصل. ومادامت اللغة موجودة فى قلب الثقافة، فهى ليست شفافة وليست موصلاً جيداً كما يتصور دعاة التحديث، فالدوال منغلقة على ذاتها ملتفة حولها، ومن ثم فهى منفصلة عن المدلولات، ولذا فالمعنى دائماً مختلف ومرجأ (الاخترجلاف La Difference).

ونفس القول ينطبق على النصوص، فكل نص ينفتح على النصوص الأخرى، وكل نص يحيلك إلى نص آخر، وهكذا إلى ما لا نهاية (وهذه هى النصوصية وهى الاخترجلاف على مستوى النصوص). وهناك دائماً فائض فى المعنى ليس بإمكان الإنسان التحكم فيه.

واللغة مكونة من صور مجازية متكلسة، أى أنها صور مجازية تأيقنت ولم تعد تصلح وسيلة لاستكشاف الواقع وللتعبير عن التعامل بين الذات والموضوع، فهو مجاز ملتف حول نفسه ومن ثم يخبئ الواقع ولا يصله. كل هذا يعنى أن ليس ثمة خارج النظام اللغوى أو شبكة الألعاب اللغوية، فكل كلام إن هو إلا كلام عن كلام فى كلام، ولذا فالمعنى هو فى واقع الأمر نتاج عابر للكلمات أو الدوال أو الصور المجازية، وأى حديث عن التحكم فى اللغة كأداة للتواصل هو من لغو الحديث، فاللغة إرادة يفرضها الإنسان على الآخرين من خلال القوة. (كما فعلت الولايات المتحدة حينما سمت العمل الفدائى، «إرهاباً»، وكما سمى الصهاينة «فلسطين» «إسرائيل».

ومن ثم فالواقع هو نتاج الخطاب، وليس كما كان الظن فى الماضى أن الخطاب هو نتاج الواقع، واللغة هى التى تنتج الواقع والفكر. ولكن اللغة هى ذاتها نتاج علاقات اللغة. وحينما نعبر عن الحقيقة فما نخبر عنه ليس الحقيقة وإنما ترتيب جميل للكلمات متسق مع نفسه، فالحقيقة ليست حقيقة موضوعية وإنما هى وهم الحقيقة. وهذا يعنى أن اللغة لا يمكن استخدامها فى تمثيل الواقع، فاللغة تستخدم أساساً للإفصاح عن المشاعر الفردية بطريقة فردية. وبدلاً من أن تكون اللغة أداة التواصل بين الناس، تصبح سجن الإنسان. ومع هذا، يستطيع الإنسان أن يحقق قدراً من الحرية من خلال التفكيك ومن خلال إعلان اللغة والمشروع الإنسانى بأسره.

والنظام، فى المجتمع، ليس ثمرة قصة كبرى (إنسانية مشتركة) أو جهد واع أو تواصل لغوى يخضع لبعض القواعد وإنما هو نتيجة الكلام والمحادثة (القصص الصغرى) لا الحوار (الذى يدور فى إطار نص ثابت). بل إن العلاقات بين الناس هى نتيجة تداخل الألعاب اللغوية التى





أصبحت اللذة إحدى الآليات التى يستخدمها المجتمع العلمانى الحديث فى استيعاب الجماهير فى عمليات الضبط الاجتماعى بعد أن كان يبذل جهوداً لمحاصرتها وإعلائها



تولد عقداً أو أنشوطة تربط الناس بعضهم ببعض، أى لا يوجد تواصل وإنما تشابك عابر بين أطراف. ويصبح الفن (ما بعد الحداثى) مستقلاً عن الواقع بل عن الإنسان، فهو بلا غاية إلا اللعب الذى لا غاية له، وهو يدخل فى حالة من التجريب الدائم. وهو لا يحاكى الواقع (فلا يوجد واقع ثابت) ولا يعبر عن وعى المؤلف (فقد تم إعلان موته)، ويظهر الكولاج والباستيش والسخرية، وتصبح مهمة النقد تفكيك النصوص ليبين التناقضات الكامنة التى لا يمكن حسمها فى كل نص وعمل.

الصور المجازية والرموز

(أ) ظهر عدد من الصور المجازية والرموز فى مرحلتى التحديث والحداثة فظهرت فى المرحلة الأولى (التحديث) مجموعة من الصور المجازية فى العصر البطولى التى تدل على التحكم فى كل من الذات والموضوع والمقدرة على التجاوز والصلابة.

١. الدولة إله (صورة هيجل المجازية) تقوم بترشيد البشر، والاستيلاء على الدولة هى طريقة تغيير العالم فى الداخل (ثم الاستيلاء على العالم فى الخارج).

٢. العالم مثل آلة يتحكم فيها الإنسان وتتحكم فيه، والعالم مثل نبات يخوض عملية دوران مستمرة أو نمواً دائماً بدون انقطاع وبهدف محدد.

٣. هرمية حادة ونظام.

٤. العقل مثل المرآة التى تعكس الواقع ومثل الفانوس الذى يلقى عليه الضوء والنافورة التى تغمره مياهها.

٥. بروميثيوس وفاوستوس ونابليون وطرزان.

٦. اللعبة الأساسية هى الدب (تيدى بير).

٧. النموذج صلب ويوجد داخله صراع حاد بين الذات والموضوع، ولكنه صراع يمكن حسمه وإن كان يُحسم دائماً لصالح الموضوع. وهو نموذج حركى يحوى مركزه داخله.

ثم ظهرت فى المرحلة الثانية مجموعة أخرى من الصور المجازية التى تدل على تآكل الإحساس بالكل، بل اختفائه واهتزاز الهدف وضمور الذات الإنسانية ومقدرتها على التحكم.

١. الدولة كتنين ووحش كاسر والعالم كقفص حديدى.

٢. العالم آلة تدور بغض النظر عن الإرادة الإنسانية، أو نبات ينمو بوحشية بالغة، وكلاهما يسحق الإنسان.

٣. لا يوجد شكل واضح ولا نظام، وهناك شك عميق فى الهرمية.

٤. العقل مرآة سلبية أو كيان منغلق على نفسه.

٥. فرانكنشتاين ودواكولا وسيزيف وهتلر وستالين ودكتور جيكل ومستر هايد (رمز انقسام الذات والموضوع).

٦. لاتزال اللعبة الأساسية هى تيدى بير.

٧. نموذج صلب فيه تشققات تم حسم الصراع لصالح المادة.

(ب) استناداً إلى اختفاء الذات والذاكرة والمركز ووهم التحكم وحقيقة الإذعان، تظهر صور مجازية تخبئ الفوضى وتؤكد السيولة والتعددية المفرطة واللعب.

١. الدولة ليست إلهاً ولا تنيناً، فهى مؤسسة من بين المؤسسات يستطيع الإنسان أن يدير لها ظهره، وخصوصاً أنها لم تعد مركز السلطة. ومع هذا، يمكن القول بأن مؤسسات الدولة (مع غيرها من المؤسسات) قد أصبحت القفص الحديدى.

٢. العالم آلة، ولكن الآلة هى الفيديو والكمبيوتر، يتحكم فيها الإنسان، ولكنها تتحكم فيه وتبتلعه. والعالم مثل نبات، ولكن النبات هو الجذمور الذى لا ينمو حسب نمط واضح وفى اتجاه مفهوم، والعالم كله لعبة.

٣. العالم سطح لامع.

٤. العقل ليس مرآة ولا فانوساً ولا نافورة، وإنما هو كل شىء ولا شىء، مثل الكمبيوتر الذى يختزن كل شىء ولا يعى شيئاً.

٥. مادونا ومايكل جاكسون والرئيس/الممثل ريجان حيث لا نعرف الأصل والصورة، وكلها شخصيات تغير شخصياتها ومنظوماتها القيمية بعد إشعار قصير وحسب طلب مدير العلاقات العامة.

٦. اللعبة الأساسية هى العروس باربى ذات الجاذبية الجنسية والتوجه الاستهلاكى.

٧. نموذج ليس بصلب ولا فضفاض وإنما هو نموذج هلامى لا مركز له.

وأعتقد أننا لو قبلنا التقسيم الذى أقترحه والستينيات كمرحلة فارقة تبدت فيها الملامح الأساسية (الإيجابية والسلبية) للمتتالية التحديثية المتحققة فى الغرب وللعلمانية الشاملة، فيصبح من الضرورى علينا أن نعيد تقييم هذه المتتالية فى ضوء ما نراه من نتائج، لأن عملية التقييم قبل ذلك التاريخ كانت تتم فى فترة النجاح النسبى للمتتالية فى حلقاتها الأولى، ولذا كان لايزال ثمة أمل فى تحقيق المتتالية المثالية، ولم تكن الأحلام قد وُئدت بعد، ولم تكن النزعة الطوباوية قد نضبت بعد، ولم تكن المتتالية الفعلية قد بدأت تفصح عن وجهها الداروينى القبيح بالدرجة الكافية بعد.

والله أعلم ■

دارفور.. من أشعل الحريق؟

أول ما برز مصطلح السودان الجديد كان فى الأربعينيات من القرن المنصرم حينما والت الصدور جريدة يومية كان يرأسها نقيب الصحفيين السودانيين الأستاذ أحمد يوسف هاشم، وكانت واحدة من جملة الصحف التى تتحرى فكرة الجامعة السودانية، كما سارت فى اتجاه خط الجبهة الاستقلالية التى رأت طموحاتها ترتكز فى قيام جمهورية سودانية مستقلة على عكس التيار الاتحادى بأشواقه المتعلقة بوحدة وادى النيل، ثم ما لبث أن برز هذا المصطلح من جديد فى البيان الافتتاحى للحركة الشعبية لتحرير السودان والجيش الشعبى لتحرير السودان بقيادة جون قرنق الصادر فى عام ١٩٨٣، حيث ركز البيان على طبيعة الحركة الجديدة التى تستخدم العنف ومنهج الثورة لتغيير الأوضاع فى السودان القديم وتحطيم الهياكل القديمة وتحرير الخرطوم، وقيام سودان اشتراكى علمانى ديمقراطى، وتحرير كل السودان من سيطرة الأقلية الخرطومية كناية عن إضعاف ثقافة المركز الإسلامى العربية.

واختلفت الحركة عن حركات التمرد الجنوبية حيث طرحت نفسها كحركة لتحرير كل السودان وعرفت شمال السودان بأنه فقط مديرية الخرطوم والجزيرة، بينما نظرت إلى كل مناطق السودان الأخرى مثل كردفان ودارفور وشرق السودان والشمالية القديمة وغيرها كمناطق متخلفة تستوى فى ذلك مع المديريات الجنوبية، وبذلك فإنها تعتبر مجالاً حيوياً للحركة الشعبية وتتوفر فيها إمكانيات الثورة، ولذلك اعتبرت الحركة إنها مجرد مقدمة لزحف ثورى كبير ينتظم كل مناطق السودان بحيث يشكل الجنوب قاعدة انطلاق ثم يلى ذلك جبال النوبة فجنوب النيل الأزرق ومناطق البجا ثم دارفور.

وقامت الحركة على فكرة بسيطة مستندة على الإحصاء السكانى للسودان لعام ١٩٥٥ والذى أبرزان فقط ٣٩٪ من سكان السودان يشكلون المكون العربى وأن البقية أفارقة وزنج، ولكن كان تعريف العروبة فى هذا الإحصاء محصوراً فى النقاء العرقى، بينما لا يوجد فى السودان نقاء عرقى، ولا نقاء لغوى لأن العروبة فى السودان إنما هى اللسان، واعتبر الإحصاء أن من له لساناً آخر بجانب اللسان العربى ليس عربياً، وبهذا خرجت جملة قبائل السودان المسلمة التى تتكلم بجانب العربية بلسان محلى عن العروبة، علماً بأن ثقافتها إسلامية عربية وأشواقها إسلامية عربية، وتشكل بجانب الناطقين باللغة العربية، كلفة أم أكثر من ٨٠٪ فى سكان السودان.

نجحت الحركة الشعبية فى استقطاب دعم هائل من أثيوبيا وليبيا وكوبا والدول الاشتراكية والأفريقية، وجاءت أول دفعات سلاح معتبرة للحركة من ليبيا والتى أرادت أن تؤدب الرئيس السابق جعفر نميرى وتطيح بنظامه لتأييده لكامب ديفيد، وتحالفه مع السادات، وإيوائه للمعارضة الليبية أما نظام الرئيس منجستو، فقد اعتبر الحركة شريكاً استراتيجياً فوهبها إذاعة كاملة بثت منها ثقافتها الجديدة القائمة على الدعوة للثورة فى المناطق المهمشة ضد ثقافة المركز وضد سيطرة المركز، كما فتحت أبواب الكليات العسكرية الأثيوبية لمنسوبى الحركة، كما فتحت المدارس السياسية الأثيوبية لتأصيل كوادر الحركة على مبادئ الاشتراكية، كما فتحت الدبلوماسية الأثيوبية الآفاق أمام الحركة للتدريب والتسليح فى البلدان الأفريقية والاشتراكية، وكان الهدف فى المرحلة الأولى خلق جيش بديل يتفوق على الجيش السودانى فى العدة والعتاد، وتتكون نواته الصلبة من مائة ألف مقاتل، بالإضافة لتسليح القبائل والقوى المعينة الأخرى، وجاءت ظروف سودانية ودولية لتخدم الحركة، منها رضوخ الرئيس السابق جعفر نميرى لمطالب الجنوبيين الاستوائيين لتقسيم الجنوب إلى ثلاثة كيانات، ثم إن نظام نميرى دخل فى عزلة عربية ودولية بسبب تهجيره للفلاشا، كما إنه ضعف داخلياً بسبب خصامه مع الحركة الإسلامية، مما أدى إلى ضعف الجبهة الداخلية وانسحب ذلك على القوات المسلحة مما سهل مهمة جون قرنق، مما أدى فى النهاية للإطاحة بنظام نميرى فى أبريل ١٩٨٥. ولعل أهم نجاح للحركة الشعبية فى الفترة الانتقالية تمثل فى إجبارها لحكومة السيد/ الصادق المهدى على إلغاء اتفاقية الدفاع المشترك بين مصر والسودان.

ثقافة الكراهية:

نجح خطاب الحركة الشعبية القائم على مفردات الاشتراكية والتقدمية والتهميش أن يقع موقعاً حسناً، فى نفوس اليسار السودانى المصدوم بتجربته مع نظام الرئيس النميرى، والراغب فى تصفية الحسابات مع المؤسسة العسكرية السودانية ومع نظام الرئيس نميرى، وبذلك دخل فى تحالف غير معلن مع الحركة الشعبية لتحرير السودان ودعمها ببعض كوادره من الداخل وفى المهجر، كما خدم خطيها الفكرى والإعلامى، وكان من أجل الخدمات كتاب أصدره أستاذان جامعيان بعنوان (مجزرة الضعين أو الرق فى السودان) وهو كتاب كتب بصورة تعبوية ضد حادثة معزولة تطورت من عراك بين قبيلة ذات جذور عربية وهى المسيرية وقبيلة الدينكا التى ينتمى لها جون قرنق، ومع أن نهاية الحدث كانت مؤلمة إلا أنه تحول فى الكتاب إلى كارثة قومية واستعلاء عرقى مركز فى العقل السودانى وأصبح الكتاب وقوداً تتناوله الكنائس فى مؤتمراتها العالمية والإقليمية والمحلية كما تناولته كبريات الصحف العالمية، ثم جاء بعد ذلك كتاب الأستاذ محمد إبراهيم نقد سكرتير الحزب الشيوعى فى السودان بعنوان «علاقات الرق فى المجتمع السودانى» وهو كتاب يصور المجتمع السودانى مجتمعاً نهض على مرتكزات هياكل السخرة والعبودية فى الحقبتين التركية والمهدية، كما جاء كتاب آخر للسياسى الجنوبى المعروف ابل الير بعنوان «مشكلة جنوب السودان والتمادى فى نقض المواثيق». والتى صور فيها كذلك العلاقات بين الشمال والجنوب كعلاقات سخرة وأن الكنيسة وهى التى مثلت صوت خلاص لأهل الجنوب، وصور الشماليين كأنهم شياطين والجنوبيين كأنهم ملائكة، كما برزت كتابات د. منصور خالد «هكذا تحدث جون قرنق» وغيرها، وازدهر فى هذا الإطار أدب الشكوى وثقافة الكراهية التى وقف عليها شباب ساخط وبتمويل سخى من الهيئات الاستخبارية والجماعات ذات الأجندة السياسية وفى فترة من الفترات أصبحت إذاعة الحركة الشعبية لتحرير السودان فاعلة ومسموعة أكثر من إذاعة أم درمان، وبقية الإذاعات العربية، ولكن ما لبثت أن تلاشت هذه الهيبة الأسطورية لثقافة الحركة الشعبية وخطابها السياسى على الأخص بعد وصول الحركة الإسلامية واستلامها للسلطة السياسية فى ٣٠ يونيو ١٩٨٩.

ومع أن نظام الإنقاذ استطاع عن طريق التعبئة العسكرية والجهاد وإعطاء الحرب مع جون قرنق أولوية، وتدمير هياكل حركة الجيش الشعبى لتحرير السودان مما أدى إلى انقسامه، وانفضاض الكثيرين عنه حتى إن قوام جيشه تناقص من مائة ألف أو يزيد إلى ما يقل عن الخمسين ألفاً، ولكن النجاح الأكبر للحركة الشعبية تمثل فى نجاحها فى نقل دائرة الحرب خارج نطاق الجنوب حيث أصبح لها وجود معتبر فى جبال النوبة بقيادة المرحوم يوسف كوة، والقائد عبد العزيز الحلو، كما تمددت فى مناطق الانقسنا والفونج تحت قيادة العمدة أبو شتولا والقائد مالك عقار، وكذلك سعت الحركة فى عام ١٩٩١ للدخول إلى مناطق دارفور حيث أرسلت جيشاً بقيادة أحد أبناء الفور المنشقين عن الحركة الإسلامية وهو المرحوم داود يحيى بولاد وفى معيته عبد العزيز الحلو القائد الثانى لمنطقة جبال النوبة وكان يهدف للتحصن فى سلسلة جبل مرة المنيعة وكان تحت قيادتهما خمسة آلاف مقاتل، ولكن تمت إبادة الحملة عن آخرها، نسبة لأن المجتمع المحلى بكل مكوناته رفضها، بما فى ذلك القبائل الأفريقية الفور والزغاوة، التى ناصرت الحكومة، وحاربت مع الجيش القومى متناسية خلافاتها الداخلية وصراعاتها المتأججة حول المرعى والماء والتى راهن عليها قرنق فى محاولاته الأولية فى اختراق دارفور.

وقد وجدت الحركة الشعبية فى بداية التسعينيات أن الخريطة السياسية الإقليمية قد تغيرت حيث سقط نظام منجستو الشريك الاستراتيجى لجون قرنق، كما برزت إريتريا كداعم لنظام الإنقاذ كما أدى تفكك الاتحاد السوفيتى وسقوط الكتلة الاشتراكية إلى حرمان الحركة الشعبية من مدد الأممية، كما استدارت ليبيا لتصبح حليفاً لنظام الإنقاذ كما توجست يوغندا فى البداية من بروز نظام قوى فى السودان، أخذ يقوى فى حركة جيش الرب، حتى يوازن بها الجيش الشعبى لتحرير السودان، دفعت هذه المتغيرات المحلية والإقليمية والدولية أن يرجع جون قرنق مرة أخرى للجذور الأصيلة التى نهضت عليها حركة الثورة والمقاومة فى جنوب السودان وهى بريطانيا وإسرائيل وأوروبا الغربية والولايات المتحدة والكنيسة العالمية ولكن برز نضج وشطارة ودهاء قيادة الحركة الشعبية حينما استطاعت إعادة علاقاتها من إريتريا وأثيوبيا، وكذلك الدخول فى تحالف مع قوى السودان القديم، وكل المجموعات والكيانات والأحزاب المتضررة من قيام سلطة الإنقاذ وبرز ذلك فى مؤتمر القرارات المصيرية والذى عقد فى اسمرا فى عام ١٩٩٦ بزعامة من الحكومة الإريترية وحضور من أمريكا والدول الأوروبية الذى أدى لقيام التجمع الوطنى، وفى إطار مفهومية سياسية وبرنامج سياسى اعتمد العنف والثورة، ضم كل القوى السياسية المناهضة للإطاحة بنظام الإنقاذ، وأصبح السيد محمد عثمان الميرغنى، رئيساً للتجمع الوطنى الديمقراطى، وجون قرنق

حسن مكي

أمينًا عامًا وقائدًا للواء السودان الجديد المناط به إحداث التغيير العسكرى.

ولعل أبرز نجاحات الحركة ظهر فى تمددها فى منطقة جنوب النيل الأزرق وبلغ هذا النجاح قمته حينما بسطت الحركة سيطرتها على مدينة الكرمك فى عام ١٩٨٨. وهى مدينة حاكمة ما بين أثيوبيا والسودان، كما يمتد منها طريق إلى مدينة الدمازين التى تخزن المياه للسودان ومصر، كما تتولد فيها الكهرباء التى تغذى معظم السودان، ومن سخريات الأقدار أن زعيم السودان حينها محمد الميرغنى سافر للعراق وأحضر كميات من العتاد العسكرى مكنت القوات المسلحة من استرداد الكرمك، ولكن بعد عشرة أعوام من ذلك أصبح السيد محمد عثمان الميرغنى رئيسًا للتجمع الوطنى الديمقراطى المعارض وشريكًا لجون قرنق مما أدى إلى إسقاط الكرمك مرة أخرى فى يد جون قرنق وما تزال حتى يومنا هذا تسيطر عليها قوات جون قرنق تحت قيادة شريك من أبناء منطقة الفونج وهو القائد مالك عقار. وحينما زار وزير الدولة الفرنسى للشئون الخارجية فى يونيو ٢٠٠٤ الخرطوم، ودارفور أعقبها بزيارة أخرى لجون قرنق فى المدينة الشمالية المهمة مدينة الكرمك فذلك أمر له دلالاته ومغزاه.

أما بالنسبة لشرق السودان، فقد كان التجمع الديمقراطى مترددًا فى قيام حركة ثورية مسلحة قوامها جمهور البجة، نسبة لأنها منطقة نفوذ للسيد محمد عثمان الميرغنى، والذى لم يكن راضيًا على خروج البجة من تحت عباءته، خصوصًا أنه كون جيش الفتح كذراع عسكرى للاتحاد الديمقراطى.

ومهما يكن فقد انتهت التسوية فى مؤتمر أسمرا بالاعتراف بمؤتمر البجة تحت قيادة أحد أبناء المنطقة (أحمد محمد طاهر) وإن ظل تسليحه وتمويله وحركته محدودة، بينما تم التركيز على تنظيم آخر وهو تنظيم الفهود الحرة أو أسود الرشايدة، وهى قومية ذات جذور عربية هاجرت من الجزيرة العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر طلبًا للمرعى وتوطنت فى مناطق البجة، وأصبحت كالبجة عابرة للحدود السودانية الإريترية، وإن كان ٨٠٪ منهم يقيمون فى الطرف السودانى.

وينظر الرشايدة لعلاقاتهم مع السلطات السودانية من خلال قضيتين:

القضية الأولى: هى قضية الاعتراف بكيانهم وإيجاد نظارة لهم وتعارض هذا القبائل المحلية، أى قبائل البجة صاحبة الأرض والتى لا ترفض وجودهم ولكن ترفض تخصيص كيان على أرض تقتطع لهم كمشيخة مستقلة.

أما الأمر الثانى فيتعلق بالصدام الشرس الذى وقع بينهم وبين سلطة ثورة الإنقاذ، حينما تصدت للمجموعات المتخصصة فى تهريب البضائع عبر البحر الأحمر وعبر إريتريا وصادرت بضائعهم وعرباتهم وطاردت شبابهم، والذى وجد الفرصة فى تصفية حساباته مع الحكومة فى تنظيم الفهود الحرة، والذى وجد التسليح



والتدريب والتمويل من إريتريا وتحت عباءة التجمع الوطنى الديمقراطى.

الحركة الشعبية وحريق دارفور:

كان من أبرز مكونات التجمع الوطنى الديمقراطى، وحلفاء جون قرنق فى دارفور «اتحاد السودان الفيدرالى الديمقراطى»، الذى يتزعمه السياسى السودانى المخضرم أحمد إبراهيم دريج (من قبيلة الفور) ونائبه دكتور شريف حرير من (قبيلة الزغاوة) وقد انصب جهدهم طيلة فترة نشاط التجمع الوطنى بتغذية النشاطات العسكرية للتجمع الوطنى فى كل من جنوب السودان، وجنوب النيل الأزرق والشرق، ولكن حينما نضجت اتفاقيات الشراكة السودانية الجنوبية بين الحكومة السودانية وجون قرنق وجد الاتحاد الفيدرالى نفسه معزولاً، وحينما طلبت قيادات دارفور من جون قرنق تمثيلهم فى المفاوضات الجارية مع الحكومة تعلل بأن الأمور لم تنضج فى دارفور، وأن الحريق لم يشتعل بما فيه الكفاية حتى ينتبه إليه العالم الخارجى، ويصبح جزءاً مهمًا فى محاولات قسمة السلطة والثروة وإعادة هيكلة السودان القديم، لافتاً نظرهم إلى ما قام به من محاولات لإشعال الثورة فى دارفور، وكيف ضاع خمسة آلاف من رجاله غنيمة سهلة فى يد الحكومة السودانية فى عام ١٩٩١ بقيادة المرحوم بولاد. ولكن تنصل قرنق من التزامه تجاه بث الحياة فى «اتحاد السودان الفيدرالى الديمقراطى» كان يعود لسبب آخر، وهو أنه بالتعاون مع الاستخبارات الإسرائيلية وإريتريا كان قد أعد فيلقًا قوامه ألف ومائتا مقاتل من أبناء الفور والزغاوة والمساليت وتحت قيادة حلفائهم اليساريين ومنسوبى الحزب الشيوعى السودانى، وأصبح لهذا التنظيم اسم مشتق من الاسم الأصلى للحركة الشعبية لتحرير السودان حيث أصبح اسمه حركة تحرير السودان وبقيادة محام من الفور يسمى عبد الواحد محمد أحمد النور، بينما ذهبت الأمانة العامة وقيادة الجيش لأحد أبناء الزغاوة ويسمى منى اركاوى مناوى، واستفادت الحركة من العداوات التاريخية القديمة والمتأصلة فى نفوس أبناء المنطقة والأوهام المتعلقة بوجود مشروع لاستئصال الزرقة من أهل دارفور، وتعود أوهام هذا الأمر إلى مؤتمر عقد فى عام ١٩٨٧ باسم تضامن القبائل العربية دعمته بعض الجهات الليبية فى محاولاتها لتطويق تشاد، ومن العجيب أن القبائل العربية الكبرى كالرزيقات قاطعت هذا المشروع، بينما التقت فيه القبائل البدوية الصغيرة، ولم يكن لهذا المشروع أى أهمية تذكر، لولا خلفيات الحرب التشادية الليبية. إذ وقر فى ذهن القبائل التشادية الزنجية، أن تسليح ليبيا للقبائل العربية التشادية بقيادة أحمد أصيل وغيره، القصد منه استضعاف مركز القبائل غير العربية الأخرى مثل القرعان. والتى كانت تساند حكومة الرئيس حسين هبرى كما تصاعدت هذه النبرة فى كل مناطق الحزام السودانى على غرار ما حصل من صراع بين موريتانيا والسنغال، وبين الطوارق وإخوانهم فى مالى والنيجر، ولكن خمدت هذه الحركة فى الحزام السودانى حينما اتجهت ليبيا لإحياء فكرة الجامعة الأفريقية والأفريقانية، خصوصاً بعد رفض القادة الأفارقة للحصار المفروض على ليبيا، ولكن ما إن تلاشت آثار المشروع فى مناطق الحزام السودانى الأخرى حتى ترسخت فى دارفور. وقامت على أساطير وأوهام أن هناك قبائل تريد استئصال قبائل حركات سياسية وعسكرية.



حينما طلبت قيادات دارفور من جون قرنق تمثيلهم فى المفاوضات الجارية مع الحكومة تعلل بأن الأمور لم تنضج فى دارفور، وأن الحريق لم يشتعل بما فيه الكفاية حتى ينتبه إليه العالم الخارجى، ويصبح جزءاً مهماً فى محاولات قسمة السلطة والثروة وإعادة هيكلة السودان القديم





وما لا يعرفه الكثيرون الدور المصرى فى نشأة السودان، بل حتى لفظ السودان نفسه إنما أطلقه الخديوى إسماعيل فى أحد فرماناته. مسمياً به هذا الكيان، والذى صنعته مصر وعلى مراحل، ففى المرحلة الأولى تم احتواء سلطنة الفونج والتى كانت تحكم السودان النيلى الوسيط والذى كان يجاور مصر وذلك فى عام ١٨٢٠ ثم أدخلت مصر فى إطار مملكة الفونج مناطق جنوب السودان الحالية فى عام ١٨٢١ وبعد ثلاثة وخمسين عامًا الحقت بها أى فى عام ١٨٧٤دارفور وأطلق الخديوى إسماعيل على هذا المولود المؤلف من ثلاثة كيانات اسم السودان وظل الحنين للاستقلال يراود أصحاب مملكة دارفور وهم أساسًا الفور والزغاوة والمساليت وبعض القبائل الأفريقية الأخرى الصغيرة، علماً بأن دارفور تبلغ مساحتها مائتى ألف ميل مربع وتشاركها ١١٣ قبيلة معظمها تدعى النسب العربى ومع أن دارفور هى المنطقة الوحيدة فى السودان التى ليست بها كنيسة ويعتنق كل أهلها الإسلام، بل إن أكبر نسبة فى حفظ القرآن الكريم ربما توجد وسط قبائل الفور، إلا أن دارفور كذلك ظلت منطقة حروب وصراع مع سلطنة وداى أى تشاد فى تجاه الغرب، وفى حروب مع القبائل العربية العابرة للحدود السياسية لدارفور كالرزيقات والزيادية والمحاميد، كما ظلت الحروب سمة مع القبائل التى تشاركها الأرض كالقمر والبرتى والبرقد والبرنو وغيرها ولم تهدأ دارفور لا فى ظل الحكم المصرى ١٨٢١ - ١٨٨٥ ولا فى إطار المهدية ١٨٨٥ - ١٨٩٨ ولا حتى فى ظل الحكم الثنائى.

ومن المعروف أنه حينما انشغل الخليفة عبد الله، بمهام التصدى لحملة كتشنر فى ديسمبر ١٨٩٨، انسحب على دينار من أبناء سلاطين الفور وأبناء عمومته هاربين إلى الفاشر، حيث أحيوا مملكة أجدادهم من جديد ابتداء من عام ١٨٩٩، واعتمد السلطان على دينار تعاليم واوراد الطريقة التجانية كأساس روحى لدولته بدلاً من الأيديولوجية المهدوية، كما سعى لإقامة علاقات جوار مع ليبيا والأشراف فى العالم الإسلامى، وحينما أطلت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ قام بمراسلة سلطان تركيا، وكانت عواطفه مع المحور الذى يضم ألمانيا وتركيا فى وجه الحلفاء مما جلب عليه غضب بريطانيا التى قذفته بالطائرات وربما كانت أول منطقة يستخدم فيها الطيران العسكرى فى أفريقيا وراء الصحراء، كما أحيت بريطانيا العداوة التاريخية ما بين القبائل الرعوية البدوية ذات الجذور العربية، ومملكة الفور بقيادة السلطان على دينار وقامت بتسليح قبيلة الكبابيش فى حملتها لاستعادة دارفور وتم ذلك فى عام ١٩١٦ بقوة الحديد والنار وقتلت السلطان على دينار وأنزلت علم مملكة دارفور ورفعت العلمين المصرى والإنجليزى فى مكانه ليستبدلا بالعلم السودانى فى١٩٥٦/١/١.

ومنذ ذلك الوقت ترسخ فى أذهان أهل دارفوروجود كيانين: كيان رعوى بدوى تمتد جذوره إلى بقية أنحاء السودان بل وكذلك بقية أنحاء أفريقيا لأن حياته تقوم على البداوة وعبور الحدود طلبًا للكلأ والمرعى، ونسبة لذلك فإنه يظل مرتبطًا بالسلطة القومية العابرة للحدود المحلية والولائية، وكيان قوامه القبائل الزراعية المرتكزة فى أرضها، وما ينتج من علاقات مع الأرض، ومع أن هذه القبائل، قبائل مسالمة، كما أن استقرارها يخلق بينها تجانسًا مع الجغرافيا والتاريخ إلا أن علاقاتها تدهورت بشدة مع القبائل الرعوية على الأخص بعد موجة الجفاف التى ضربت الساحل الأفريقى ابتداء من سبعينيات القرن المنصرم، مما عرض مزارع هذه القبائل للرعى الجائر من القبائل البدوية وحدوث الاحتكاكات والصراعات المألوفة، ولكن الجديد هو استخدام السلاح النارى الفتاك بدلاً من الأسلحة العتيقة، ولكن من أين جاء السلاح الفتاك؟

الجغرافية السياسية لدارفور

يمكن القول بأن من يحكم دارفور يستطيع تشكيل مناطق الحزام السودانى، وتاريخيًا اخترق الفرنسيون منطقة دارفور قبل الإنجليز، ووصل قوادهم إلى مناطق دار مساليت حدود دارفور الغربية فى عام ١٩٠٠، وكان ممكنًا أن تكون دارفور منطقة نفوذ فرنسى لولا المقاومة الباسلة التى أبداها السلطان تاج الدين ضد الفرنسيين، أما الأمر الثانى فهو انسحاب القوات الفرنسية بقيادة مارشان، حينما جابهت القوات الإنجليزية فى فشودة فى عام ١٨٩٩، ويقال أنه لولا انسحاب مارشان لوقعت الحرب العالمية الأولى فى عام ١٨٩٩ بدلاً من ١٩١٤ وربما تغير تاريخ الدنيا حينها لأن فرنسا ستكون جزءاً من المحور ضد بريطانيا العظمى، ومهما يكن فقد ظلت دارفور مركزًا لحركات المقاومة ضد الاستعمار الفرنسى فى تشاد، ومن رحم دارفور خرجت حركة فرولينا ١٩٦٥ والتى أسست لمشروع حكم النخب الإسلامية لجمهورية تشاد بدلاً من استئثار النخب التشادية المنتصرة بالسلطة والثروة، كما ظلت قبائل دارفور تسهم فى تشكيل حركة الحياة فى تشاد وأفريقيا الوسطى، ومن دارفور حكم إدريس ديبى تشاد والحق هزيمته المروعة بالقوات الليبية بقطاع ازو، ومن دارفور كذلك خرجت قوات إدريس ديبى التى أبعدت قبائل القرعان من السلطة لمصلحة نخب قبيلة الزغاوة، مما جعل السلاح النارى يتدفق من ليبيا وتشاد، كل يعزز من حليفه فى دارفور.



وحينما ضعفت هياكل السلطة فى أفريقيا الوسطى التى كانت يحكمها الرئيس السابق لى باتاسيه قامت ليبيا بنقل المعارضة التشادية لتصبح حرسًا للرئيس باتاسيه، كما عززت ذلك بنقل قوات سودانية وليبية وجيبوتيه لحراسة وضع متهالك، ومع أن السودان لم يكن من مصلحته التدخل العسكرى فى أفريقيا الوسطى، ولكنه ربما فعل ذلك لأنه خشى أن تصبح أفريقيا الوسطى محطة للحركة الشعبية لتحرير السودان، ولكن لم تنجح الوصفة الليبية وتهالك نظام باتاسيه فى أواخر نهايات ٢٠٠٢ وتقهقر جيش أفريقيا الوسطى إلى دارفور وبيع سلاحه لمن طلب

وبأتفه الأثمان كما أصبح بعض مكونات الجيش نواة لما عرف بعصابات النهب المسلح، وفى ظل هذه الظروف المعقدة، تكاملت أبعاد انقسام المؤتمر الوطنى الحاكم، الذى انشق إلى جناحين، جناح مع السلطة احتفظ باسم المؤتمر الوطنى وجناح اختار مسمى المؤتمر الشعبى.

وكان لانقسام التيار الحاكم فى السودان إلى فريقين أحدهما وقف مع الدولة بقيادة الرئيس البشير كحقيقة واقعة، وكإطار للمشروعية والشرعية والآخر انحاز إلى دكتور الترابى، بينما احتار قسم لا يستهان به، وأصبح فى منزلة بين المنزلتين وفقد النظام بفقدانه الدكتور الترابى ليس فقط المرجعية الروحية، ولكن الرجل بعيد النظر الذى كان يتحسب للمآلات ويخطط وفق ذلك ولكن أخطأ د. الترابى فى حساباته مع الرئيس البشير ومهما يكن، فإن انقسام السلطة الحاكمة أدى إلى إضعاف هياكلها، ومع أن السلطة الحاكمة حاولت أن تعوض ذلك بالانفتاح على الغرب، وبالأخص أمريكا بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ إلا أن حساباتها أخفقت ولم تأت بثمار واضحة إلا على مستوى العلاقات العربية وعلى الأخص مصر ودول الخليج.

حينما شعر الترابى بأن حساباته فى أمر السلطة قد طاشت وأن هياكل الدولة تنفلت من مشروعه، أخذ فى التركيز على أبناء الغرب أى دارفور كعصبية تنظيمية وسياسية وجعل نائبه من هناك، وقد تحدث فى مجالسه بأن الإمام المهدى وجد النصرة فى الغرب، ولم يكن دقيقاً فى ذلك لأن الغرب القصى آخر من ناصر الإمام المهدى، اللهم، إلا إذا كان يقصد الخليفة عبد الله التعايشى فهو محسوب كذلك على تيار الغرب العروبى.

وأخطأت الحكومة حينما تعقبت مؤيدى دكتور الترابى من أبناء الغرب فى هياكل الدولة، وتكونت حركة العدالة والمساواة كواجهة من واجهات المؤتمر الشعبى، ولكنها ما لبثت بعد اتصالها تنظيمياً وحركياً بالقيادات الغربية، أن أصبحت لها شخصيتها وكينونتها الخاصة، وأصبحت مرشحة للخروج من عباءة الترابى كما فعل تلاميذه الذين انفردوا بالسلطة.

ووجدت الحركة أرضاً خصبة لممارسة نشاطها فى ألمانيا حيث انعقد مؤتمر المهمشين بدعوة وتمويل من المنظمة الألمانية AKE فى مدينة هتنجن فى أبريل ٢٠٠٣م.

وأصبح دكتور على الحاج نائب الأمين العام للمؤتمر الشعبى رئيساً للمؤتمر كما التقى وزير الخارجية الألمانى فيشر بقيادة الحركة وبرز اسم الحركة فى ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٢ فى مدينة الفاشر، حينما قامت بالتنسيق مع حركة تحرير السودان بضرب المدينة واحتلالها لعدة ساعات وتدمير ست طائرات عسكرية وكانت هذه الضربة الموجعة التى أذهلت السلطة وكسرت هيبتها فى دارفور، المناسبة التى لفتت الرأى العام المحلى والعالمى إلى أن الفوضى والثورة فى دارفور قد دخلت مرحلة اللا عودة، كما أصبح قادة الحركتين نجوماً على موائد الفضائيات والإذاعات وقبل ذلك الاستخبارات. وتركزت حركة العدالة والمساواة فى ألمانيا لوجود عدد من شباب الزغاوة المثقفين هناك واستفادتهم من خدمات الكنيسة الافنجلكانيد الألمانية AKD ومنظمة سودان فوكل بوينت الألمانية.

ومع أن الاستخبارات الإسرائيلية والت نشاطها فى دارفور فى الظلام مخفية نشاطاتها، إلا أن التقارير تفيد أن إسرائيل تمارس نشاطها من أسمرا التى أصبحت مركزاً لقيادات حركة العدل والمساواة وحركة تحرير السودان، ونائب الأمين العام للمؤتمر الشعبى، وأبرزت الصحف الإريترية والتليفزيون الإريترى صور قيادات الثورة والتمرد فى دارفور فى حضرة الرئيس اسياس افورقى ومساعده الأمين محمد سعيد، كما تواترت الأنباء عن لقاءات بعضهم بالقنصل الإسرائيلى هناك.

كما أعلن خمسة من أعضاء المكتب السياسى للتجمع الفيدرالى بالسودان استقالتهم نسبة لزيارة مسئول كبير بالتجمع ويتكلم باسم دارفور لإسرائيل، كما نشرت جريدة The Jerusalem post الصادرة فى السابع من أغسطس ٢٠٠٤ أن وزارة الخارجية الإسرائيلية تقوم بتعبئة التنظيمات اليهودية لدعم أجهزة الإغاثة المتعلقة بدارفور، تحت واجهة جامعة، وأن وزير الخارجية الإسرائيلى سلفان شالوم خاطب مجلس الوزراء قائلاً إن إسرائيل تواصل مساعيها لمساعدة الجهود الدولية المتعلقة بالمأساة الإنسانية بدارفور وأن أمة إسرائيل التى كانت لها معاناة عظيمة فى الماضى لا يمكن أن تقف مكتوفة الأيدى إزاء الآلام التى تعصف بالآخرين فى دارفور وما خفى أعظم.



التوظيف السياسى

لقضايا التخلف والفقر:

خلقت اتفاقيات تقاسم السلطة والثروة ما بين الحكومة السودانية والحركة الشعبية لتحرير السودان، دافعية سياسية جديدة فى كثير من أطراف السودان خصوصاً أن هذه الاتفاقيات تنقل هياكل السلطة من المركز إلى الأقاليم، كما أنها أوجدت منافذ للتدخل الدولى منها العسكرى والسياسى والاقتصادى، أما العسكرى فيتمثل فى قوات المراقبة والرصد والتى أصبحت تنتشر مع انتشار مناطق النزاع أى فى جبال النوبة وكذلك سيتم الانتشار فى جنوب السودان، ومناطق جنوب النيل الأزرق والشرق وأبيى ودارفور، وتشكل هذه الرقعة من المساحة أكثر من نصف السودان لأن مساحة الجنوب ٢٥٠ ألف ميل مربع ودارفور مائتى (٢٠٠) ألف ميل وجبال النوبة ٣٢ ألف ميل مربع وجنوب النيل الأزرق ٢٦ ألف ميل مربع، وهذه بدون شك أكثر من خمسمائة ألف ميل مربع، ويسكنها أكثر من ثلث سكان السودان، كما أنها تتميز بأنها سودان المستقبل ففيها تكمن الموارد الطبيعية من مياه وبترول ونحاس وتعتبر حفرة النحاس فى دارفور جزءاً من حزام اليورانيوم الذى يمتد من النيجر ومروراً بأفريقيا الوسطى وانتهاءً



بالكنغو وزائير، ومن المعروف أن الولايات المتحدة ظلت تعتمد على اليورانيوم الأفريقي، وحتى قنبلة نجازاكي وهيروشيما تم تطويرهما من اليورانيوم المستخرج من الكنغو/ زائير، وقد شهد العالم كيف حاولت الولايات المتحدة جعل يورانيوم النيجر أحد مسببات غزو العراق.

ولكن على الثراء الكامن في هذه المناطق من السودان، فإن إنسان هذه المناطق ما يزال فقيراً، ومنهكاً، وأصبح لا يعرف في السنين الأخيرة إلا صناعة الحرب، وأدت ضغوط الحاجة والفقر والعوز إلى الاستجابة لمؤثرات الدولار، لأن البطون الجائعة لا تعرف المعاني العالية. ونتيجة لذلك شاعت الفوضى، كما شاع التجنيد القسري لمصلحة مختلف التنظيمات والقبائل والأحزاب وأمراء الحرب، وتكشف الخريطة العسكرية مثلاً لجنوب السودان أن هناك ستة وعشرين مجموعة عسكرية منظمة بجانب جيش الحكومة وجيش الحركة الشعبية لتحرير السودان، وبعض هذه الميليشيات لها هياكل سياسية وعسكرية مثل قوات دفاع جنوب السودان. وبعضها يملك الهياكل العسكرية مثل مجموعة بحر الغزال وقوات دفاع جنوب السودان وقوات السلام قارينق وقوات فشودة المتحدة وقوات السلام الناصر، وقوات السلام وات وقوات السلام شمال أعالي النيل وقوات الماابان، وغيرها، ولا تقل قوة هذه الجماعات المسلحة عن الثلاثين ألف مقاتل، ولكن لا يملكون شيئاً سوى الذخيرة والسلاح، وكذلك ينتشر السلاح في دارفور، حيث تقدر بعض الجهات، أن في دارفور ما لا يقل عن نصف مليون قطعة سلاح موزعة على القبائل والحركات العسكرية المسيسة، وكذلك ينتشر السلاح في ولاية كردفان وسط القبائل الرعوية، والتي كانت تطلق عليها الدوائر الغربية اسم المراحيل، والتي تم تسميم سمعتها ووصمها بذات الطريقة التي حدثت للقبائل البدوية في دارفور والتي أطلق عليها مصطلح الجنجويد.

وفي ظل انتشار ثقافة العنف يبدو الأداء الحكومي في هذه المناطق ضعيفاً ومتلاشياً، بينما يزداد التوظيف السياسي في مختلف القوى السياسية التي تحاول أن تتحالف مع الحركات الرافعة للسلاح، وبرز آخر مشهد لذلك بقبول التجمع الوطني الديمقراطي المعارض لحركة تحرير السودان في عضويته، كما تسعى حركة العدل والمساواة لذات الوضعية.



وفي ظل تزايد التدخل الدولي ويكفي أن هنالك ثلاثة جيوش أجنبية ظلت تدخل الأراضي السودانية، ومنها الجيش اليوغندي المرابط في المناطق الاستوائية بحجة مقاومة جيش الرب والجيش التشادي الذي يدخل في معارك ضد ما يسمى بالجنجويد ويقدم أحياناً الذخيرة والسلاح لحركات التمرد، والجيش الإريتري الذي خلق واقعاً على الأرض في منطقة همشكوريب بشرق السودان، وفي ظل هذه المتغيرات والضغوط تتعرض الحركات السياسية السودانية ذات الطبيعة القومية للتآكل والقسمة، فالحزب الاتحادي الديمقراطي مثلاً لم تبرز فيه قيادة في قامة الزعيم المرحوم إسماعيل الأزهري، وأصبحت تنازعه ثلاثة مراكز، منها المركز الذي يقوده السيد محمد عثمان ميرغني والذي يعتمد على أتباعه من الطريقة الختمية، علماً بأن الولاء في الطريقة الختمية نفسها قد ضعف، كما أن الأداء السياسي اليومي يكاد يكون في طور التلاشي.

والمجموعة الثانية بقيادة الشريف زين العابدين الهندي وهي أحسن حالاً نسبة لارتباطها بالحكومة ونسبة لوجودها في ميدان العمل السياسي اليومي ولكن طاقاتها محدودة ومواردها السياسية والتنظيمية أقل بكثير من التحديات الشاخصة، أما المجموعة الثالثة فيجمع بينها الاحتجاج والرفض ولكنها لم تؤسس كياناً محسوساً.

أما عن حزب الأمة، فهناك المجموعة المحورية بقيادة السيد الصادق المهدي وأخرى ممثلة في الحكومة بقيادة ابن عمه مبارك الفاضل بينما اكتفى الطرف الثالث بإعلان إمامه السيد أحمد المهدي كإمام للأنصار.

كما يعيش الحزب الشيوعي أسوأ حالاته حيث خرجت عليه حالتان بينما المجموعة التاريخية غلبت عليها عقلية العزلة، واختارت التغلغل وسط تحركات الرفض والثورة المسلحة ولذلك فإن بعض كوادر الحزب مبثوثة في الحركة الشعبية لتحرير السودان وحركة تحرير السودان، ولا يكاد يبرز أثر للحزب إلا وسط تجمعات طلابية محدودة.

وما ينطبق على هذه القوى السياسية يسري كذلك على كيان الحركة الإسلامية الذي تضربه الحيرة والتردد والإحباط، ما بين مشروع المؤتمر الشعبي بقيادة الترابي الجانح تجاه العنصرية وتصفية الحسابات مع الحكومة وما بين ضعف المؤتمر الوطني وتآكل كيانه الخاص في إطار التشظي والضعف الحادث في هياكل السلطة والدولة، وفي إطار هذه الصورة يصعب التنبؤ بالتطورات السياسية والمآلات المستقبلية.



تكشفت التدخلات الخارجية الطامعة في هضم السودان واحتواء مصر، وكما يقولون فإن مشكلة السودان الرئيسية أنه جنوب مصر وبالتالي فإنه عمق مصر، ومن يريد الإحاطة بمصر فعليه بالسودان



رؤية للمستقبل:

تقف الأوضاع السياسية في السودان في مفترق طرق، كما تبدو هناك استحالة مادية في القضاء على حركات التمرد والثورة في شرق وغرب وجنوب البلاد في وقت تزايدت فيه التدخلات الدولية، إن السودان تشكله على الأقل، ثلاثة بلدان لكل بلد خصائصها السكانية والجغرافية والتاريخية (السودان النيلي الأوسط، ودارفور، وجنوب السودان) بل إن كل كيان من هذه الكيانات فيه من التعددية العرقية والثقافية ما يجعله نسيج وحده، وتأثرت هذه المنطقة بالتدخلات العرقية والقبلية على طول الحدود مع جيران السودان التسعة، وقد أغرى اتساع مساحة السودان بعض جيرانه باقتطاع أجزاء كبيرة منه، حيث أخذت كينيا مثلث الي وهي منطقة ضخمة، وغنية بالموارد، كما وضع المزارعون الأثيوبيون أياديهم على سهول الفشقة الخصبة، لخلق أمر واقع، كما أن حدود السودان التي تزيد على ستة آلاف كيلو متر غير مخططة ومتداخلة مع دول الجوار، كما أن هذه الحدود التي خطها المستعمر بصورة عشوائية قسمت القبائل السودانية مع دول الجوار، فالزاندي ما بين السودان والكنغو. زائير والأشولي والمادي والكاكوا ما بين السودان ويوغندا، والتبوسا ما بين السودان وكينيا، والأدوك والنوير والأنواك والقمز وقبائل بني شنقول ما بين السودان وأثيوبيا، والبجا ما بين السودان وإريتريا والبشاريين والنوبة ما بين السودان ومصر.. إلخ.

وفي إطار هذه التعددية تكشفت التدخلات الخارجية الطامعة في هضم السودان واحتواء مصر، وكما يقولون فإن مشكلة السودان الرئيسية أنه جنوب مصر وبالتالي فإنه عمق مصر، ومن يريد الإحاطة بمصر فعليه بالسودان، وازدادت أهمية السودان كذلك باكتشاف البترول واليورانيوم فيه، كما ازدادت أهمية أمن البحر الأحمر الذي يشاطئه السودان.

وفي ظل هذه المتغيرات يمكن القول بأن السودان يحتاج لحكومة قوية يقوم حولها ما يشبه الإجماع الوطني، بمعنى أنها تجمع بين عنصري القوة والتمثيل لمكونات السودان وهذا يحتاج لرؤية عميقة واجتهادات، لأن وصفة العودة للحكومات الحزبية ثبت عدم مقدرتها على الاستجابة لمشكلات السودان ثلاث مرات، كما أن ذات الوجوه التي تطرح نفسها كمخلص سبق أن جربت، وانتزعت منها السلطة على النطاقين، في الأطراف والمراكز ولا يمكن التعويل عليها في مرحلة دقيقة ومركبة كما هو حادث الآن.

ومن الناحية الأخرى، فإن مسوغات التجديد والتفويض للحكومة الحالية غير مبررة، لأنها فشلت في إقامة مؤسسات حكم قوية وقادرة على المحاسبة وفشلت في قضية الشفافية كما فشلت في ترقية أوضاع الشورى والداهية الكارثة فشلها في حفظ الأمن مما أدى إلى انقلاب أوضاع دارفور. كما أن الفشل في حفظ الأمن يعني فشلها في رعاية وتنمية المؤسسات القومية التي قام عليها السودان وظلت مسئولة عن حفظ حدوده وأوضاعه. ولا توجد طريقة لتحديد على من تقع مسئولية الفشل إلا بإطلاق القول على عمومه بأنه فشل الحكومة وفشل قيادة المؤتمر الوطني التي أجهضت مذكرة العشرة، التي أبعد بمقتضاها د. الترابي لتحل محله عقلية قابضة، استغنت بذهاب الترابي عن المطلوبات والحيثيات المتعلقة بذهابه من شورى ومحاسبة ومؤسسية وشفافية.

أدى تعقيد الأزمة السودانية، إلى فتح شهية الأجندة الخارجية والتوظيف السياسي، حيث تحوم الذئاب حول الجثة وتحلق الصقور للانقضاض على الفريسة الضعيفة، وفي ظل هذه الأوضاع، فلا يمكن استنزال سودانيين من المريخ لحكم السودان، ويظل الأمر معقوداً بحوار سياسي مسئول بين كافة القوى الوطنية لإيجاد حكومة تراض وطني وقومي في مهلة تسبق الذهاب للانتخابات لترتيب الأوضاع. ووطني وقومي هنا كلمتان مترادفتان.

وفي هذا الإطار فلا غنى عن الحريات وللحريات تبعاتها من سيادة قانون وقضاء قوي ومستقل وكذلك المحاسبة وتقتضي أن تكون للجهاز التشريعي والقضاء صلاحية محاسبة رئيس الدولة ومعاقبته وكذلك سيادة الشورى والشفافية وهي تحصيل حاصل المبدأين الأولين.

لقد دفع اليأس بعض مكونات النخب لطرح فصل الجنوب، وفصل الجنوب سيؤدي إلى تفتيت السودان وجواره وخلق دويلات ضعيفة على غرار الحالة الصومالية وطرح البعض الفيدرالية بين كيان السودان وهو حل تحت الاختيار وطرح آخرون الفيدرالية بينما طرح البعض الوحدة مع مصر وكل هذه الأطروحات تفيد بأن السودان يبحث عن مخرج وعن حل وتشخيص الأزمة نصف الحل وأرجو أن تكون هذه، مساهمة في هذا الاتجاه. ■

جنـــاية التـــاريـخ والجغـــرافيـــا

ألـــيـــكـــس دى وال

تتسم مناطق دارفور الطبيعية بجمال قاس، والقليل منها أشد قسوة من مخيم عامو للبدو الرحل. فهو يقع فى أرض قاحلة تكثر فيها الحجارة على سهل تحيط به الجبال التى تشكلت من لُب بركانى قديم. ويحده منحدر بعيد من الرمل الوردى مسار النهر الموسمى، وادى كُتم. وقد أقمت هناك منذ سنوات فى ضيافة ناظر (شيخ مشايخ) إحدى عشائر البدو الرُحل العرب المعروفة باسم الجلول. ومع وجود خيامهم السوداء العريضة المنصوبة على الرمال، وإبلهم التى ترعى الأشجار الشوكية، وبعض الممتلكات الضئيلة المتناثرة وإن كانت صنعتها رائعة، كان هؤلاء البدو مادة لكتب الإثنوغرافيا المصورة ذات القطع الكبير. واليوم تقع عامو وسط العنف الذى يشوه شكل دارفور؛ حيث لقى عشرات الآلاف مصرعهم، وطُرد مئات الآلاف من بيوتهم. وقد وقعت أول مذبحة فى الصراع على بعد أميال قليلة من عامو، حين قتلت ميليشيا جانجاويد العشرات من القرويين الذين كانوا ينشدون الأمان فى بلدة كُتم.

التقيت بالناظر المسن، الشيخ هلال، فى عام ١٩٨٥. كانت خيمته معلق بها معدات البداوة من جرار ماء وسروج ورماح وسيوف وحقائب جلدية وبندقية قديمة. وقد دعانى للجلوس قبالته فوق سجادة عجمى فاخرة، واستدعى خادمه كى يقدم لى الشاى الحلو على صينية من الفضة، وأخبرنى أن العالم فى طريقه للنهاية. فى ذلك الوقت كانت دارفور قد أطبق عليها الجفاف وكانت تغيرات مزعجة على وشك الحدوث. وكانت رياح الصحراء الكبرى تدفع بالرمال إلى سفوح التلال الخصبة، وكانت حين تمطر يشق الماء أخاديد عميقة فى التربة الطينية الخصبة على امتداد الوادى. والأسوأ من ذلك أن القرويين الذين كانوا يستضيفون البدو الرحل باستمرار كانوا فى تلك الآونة يحولون دون هجرتهم ويمنعونهم من استخدام المراعى والآبار.

انتقدنى هلال بشدة لعدم تحدثى اللغة العربية كالإنجليز؛ فقد كان كل الضباط الاستعماريين تدرس لهم اللغة العربية الفصحى، وليس اللهجة السودانية الخاصة بدارفور التى تعلمتها.

كما قال لى إن آخر إنجليزى استمتع بضيافته كانت مساعد مأمور المركز ثيسجر، الذى خدم فى كُتم. وكان ثيسجر مشهورًا فى دارفور فى المقام الأول باعتباره راميًا ممتازًا. وفى تلك الأيام كان الضباط البريطانيون هم وحدهم المسموح لهم بامتلاك بنادق تتميز بما يكفى من قوة ودقة للإيقاع بأسد. وفى وقت زيارتى فى عام ١٩٨٥، كانت الأسلحة النارية المملوكة للأفراد نادرة. وقد أعطانى الناظر مذبة من ذيل الزراف حين رحلت. ونتيجة للتغير البيئى أكثر منه بسبب فرق الصيد الاستعمارية، اختفت الأسود والزراف فى الوقت الحالى من كل دارفور، ما عدا أطرافها الجنوبية حيث تمتد الغابات إلى داخل جنوب السودان وجمهورية أفريقيا الوسطى. وفى هضاب شمال دارفور شبه الجدباء، حيث تقل السافانا فى الصحراء، لم نر سوى الغزلان بشكل عرضى.

كان هلال شخصية قيادية، حتى وهو فى الثمانين من عمره وجسمه نحيف وقد انحنى ويكاد لا يرى. ويتحدث الصوفيون. ويكاد يكون كل أهل دارفور أتباع إحدى الطرق الصوفية التى يعود أصلها فى الغالب إلى غرب أفريقيا. عن البركة. وكان هلال يعتقد أن «المشيخة من عند الله. أما درجات المشيخة فمن صنع البشر». وبدلاً من لقب الناظر الذى يتسم بالرفعة من الناحية الرسمية، يتمسك هلال بلقب شيخ الأقل منه ولكن معناه أكبر؛ وهو معروف على امتداد دارفور باسم الشيخ هلال فحسب. واليوم نجد أن اسم ابنه موسى معروف على نطاق أوسع؛ فموسى هلال هو زعيم الجانجاويد، واسمه هو الأول على قائمة الحكومة الأمريكية الخاصة بالمشتبه فى ارتكابهم جرائم حرب.

كان الشيخ هلال فخورًا كل الفخر بأسلوب حياته البدوى. وكان يصر على أن يمتلك الجميع فى قبيلته الإبل. وقال وهو يشير إلى حفيده: «انظر إلى ذلك الصبى الصغير. حتى هو يمتلك الإبل». وكان ذلك يبدو حقيقيًا؛ فحتى فى تلك الأوقات العصيبة، كانت عائلة هلال مشهورة بأن لديها عدة آلاف من الإبل، وإن كان الشيخ قد طعن فى السن بحيث لا يمكنه امتطاء أى منها ونادرًا ما يراها. كانت قطعانه على بعد ثلاثمائة ميل فى الشمال ترعى أعشاب الصحراء الحلوة بعد المطر. وكان ابن أخيه قد باع مؤخرًا ١٢٠ جملاً لتوفير الطعام لأبناء جلدته الجوعى، وأقرض هلال الكثير من ذلك القطيع، الذى كان يتناقص بشكل أسرع مما يعرف هو، لأقاربه الفقراء. وقد قال: «نحن نساعد بعضنا. ولن يضطر الجلول للعمل فى الزراعة».



لكن على مسيرة ساعة من هناك وجدنا مخيمًا لجلول فقدوا إبلهم وماعزهم أثناء الجفاف واستقروا فى محاولة للزراعة. ولم يكن القرويون المحليون من جماعة التنجور (وهم أقارب الفور، التى هى أكبر جماعة عرقية فى المنطقة) قد أعطوهم سوى الأراضى الرملية الجافة، بينما احتفظوا لأنفسهم بالأرض الطينية المجاورة للوادى. ولأن وادى كُتم مشهور بتمره الحلو، فهو من بين أكثر الأراضى الزراعية قيمة فى شمال دارفور، وكان التنجور حريصين على تسجيلها قبل وقت طويل من إدراك المزارعين الآخرين لأهمية سند الملكية القانونية للأرض. وشعر فلاحو الجلول بالضيق، وأخذوا يعزقون المرتفعات القاحلة فى محاولة لزراعة القليل من أكواز الدُخن. وبذل الشيخ ما فى وسعه للمحافظة على المظاهر. ففى المساء كان يقدم وجبة سخية من لحم الماعز والأرز، ويعلمنا بالاتجاهات التى يمكن أن نجد فيها أبناءه وإبله. وحين انتهينا، حيث أكلنا أكثر مما يكفى، نادى ابنة أخيه قائلاً: «أحضرى الصنف التالى»! ولم يكن هناك صنف تال.

غزا البريطانيون دارفور (أرض الفور) فى عام ١٩١٦ حيث هزموا جيش السلطان على دينار سليل مؤسس سلطنة الفور فى القرن السابع عشر الذى تقع مقبرته التى أهملت منذ زمن بعيد فى الجبال التى تبعد مسيرة يوم بالسيارة جنوبى عامو. وكشأن الكثيرين من كبار الزعماء السياسيين فى دارفور، كان سولونج من أصل مختلط، فهو ابن لأب عربى وأم من الفور. ورغم الحديث عن «العرب» و«الأفارقة»، فمن النادر أن تحدد على أساس من لون البشرة إلى أى من جماعة ينتمى أى شخص دارفورى. فقد عاش الكل هناك منذ قرون وجميعهم مسلمون.

الكثير من خرائط دارفور بها أسماء قبلية مكتوبة على مناطق شاسعة، مما يوحى بأن بعض المناطق تسكنها بشكل حصرى إحدى جماعات المنطقة العرقية التى يزيد عددها على الثلاثين. وقد يكون هذا مضللاً؛ فهناك ذلك التاريخ الطويل من الهجرة الداخلية والاختلاط والتزاوج، بحيث تكون الحدود العرقية فى أغلب الأحيان مسألة للتيسير وليس إلا. فالأفراد، وحتى جماعات بكاملها، يمكن أن يتخلصوا من لافتات ويكتسبوا غيرها. وحين غزا البريطانيون المنطقة وجدوا أنه من المريح افتراض أن شيوخ المشايخ قسموا السلطة بدقة على الجماعات العرقية ومناطق النفوذ على الرقعة التى تخص كلاً منها. ويتفق أهل دارفور على هذه الرواية الخيالية التى ساعدت البريطانيين على إدارة دارفور بحفنة فحسب من الضباط الاستعماريين. وكان مفتاح جعل نظام «الإدارة المحلية» ذلك يحقق أهدافه هو منح منطقة ما، أو دار، لكل جماعة. ولم تكن تلك ملكية للأرض على وجه الدقة، بل كان يسمح لشيوخ المشايخ بتوزيع حقوق الأرض على المقيمين. وحتى وقت جفاف الثمانينيات كان هناك من الأراضى ما يكفى لإعطاء الوافدين الجدد، بغض النظر عن عرقيتهم، قطعة منها.



وصف الشيخ هلال ما يمكن فى أحسن الأحوال اعتبارها «جغرافيا أخلاقية» خاصة بدارفور. إنها أشبه برقعة شطرنج، حيث تمثل المربعات الحمراء المزارع والمربعات البيضاء المراعى التى يمكن أن ترعى فيها قطعانه



عن: London review of Books

ترجمة: أحمد محمود

كان البدو الرحل شذوذًا فى هذا النظام. فمعظم الذين يوصفون عادة بأنهم رحل هم فى الواقع الرعاة الذين يشغلون مناطق محددة تحديدًا جيدًا، إلا أنه كان هناك عدد قليل من جماعات البدو الرحل فى دارفور، مثل جماعة جلول الرزيقات التى يرأسها الشيخ هلال. وكانوا يقطعون مسافات شاسعة بين مناطق الرعى فى الموسم الجاف فى وسط دارفور وجنوبها ومراعى الموسم الممطر على حافة الصحراء فى الشمال. وفى السبعينيات جعلت حكومة جعفر النميرى الاشتراكية للجلول «مجلسًا شعبيًا ريفيًا» على هيئة قرية تسمى فاتو بورنو (حيث تركنا الطريق للبحث عن عامو)، ولكن ذلك كان مجرد تيسير إدارى، ومكان يمكن أن يسجلوا فيه من أجل الاقتراع وإدخال أبنائهم المدرسة. أما بالنسبة لرعى قطعانهم، فقد كان الجلول يعتمدون على الترحال، فيجتازون طرق الهجرة بين مزارع الفور وقرى التنجور، حيث ترعى إبلهم على سفوح التلال. ووصف الشيخ هلال ما يمكن فى أحسن الأحوال اعتبارها «جغرافيا أخلاقية» خاصة بدارفور. إنها أشبه برقعة شطرنج، حيث تمثل المربعات الحمراء المزارع والمربعات البيضاء المراعى التى يمكن أن ترعى فيها قطعانه. كما قال «حيثما يكون المطر والعشب يوجد الله ما هو بيتى». ويتذكر أحمد دريج محافظ دارفور السابق، وهو منذ ذلك الوقت معارض سياسى قديم، كيف كان والده إبراهيم، وهو شرتاى من دارفور (والشرتاى كلمة أخرى تعنى شيخ مشايخ القبائل)، يستضيف عشيرة الشيخ هلال وإبله كل موسم فى قريته كراقولا على سفوح جبل مرة. وكان شرتاى إبراهيم يذبح ثورًا للترحيب بالجلول الذين كانوا يرعون إبلهم فى الحقول التى حُصدت محاصيلها، وكانت بذلك تخصبها وتساعد القرويين على نقل غلالهم إلى السوق. وكان هلال يهدى مضيفه جملين صغيرين عند رحيله. وكشأن الكثيرين من عرب دارفور، يستعمل الشيخ هلال من حين لآخر نعوتًا عنصرية مثل الزرق (السود) إشارة إلى الفلاحين من الفور والتنجور. وكان الفلاحون بدورهم يصفون البدو بأنهم متوحشون ووثنيون. غير أن المجتمعين كانا يعتمد كل منهما على الآخر، وكان هناك تزاوجٌ بين كبار العائلات من الجانبين.

فى حالة عدم وجود دار، كان الجلول وحفنة من جماعات البدو الرحل الأخرى تعتمد على نظام اجتماعى جغرافى يعطيهم حقوقًا عرفية كى يهاجروا ويرعوا حيواناتهم فى المناطق التى يسيطر عليها المزارعون. وظل ذلك هو الحال عشرات السنين، ولكن بحلول الثمانينيات كان الجفاف والتصحر وتوسع المزارع يهدد تلك الحقوق. فقد عيقت جغرافيا الشيخ هلال الأخلاقية، حيث ترك النظام الكونى مكانه للفوضى. إلا أنه يفضل الموت على أن يتغير.

كانت «الإدارة المحلية» حكمًا محليًا بثمن بخس. فقد كان يدفع للشيوخ أجرًا زهيدًا، بينما كانوا يتلقون مكافآتهم من خلال الاستبداد المحلى. وبعد أن حقق السودان الاستقلال فى عام ١٩٥٦ حاولت الحكومات المتعاقبة بناء خدمات محلية مثل الشرطة والمدارس والمستوصفات. وقد ألغيت مناصب الشيوخ والنظار رسميًا وأنشئت «المجالس الشعبية» لتقوم بنفس الوظيفة. ولكن الخرطوم لم تقدم قط الميزانيات، وبحلول أوائل الثمانينيات أفلس الحكم المحلى. وحين كان محافظ دارفور يرغب فى القيام بعملية للشرطة ضد رجال العصابات، كان يستولى بالقوة على مركبات ووقود من مشروعى تنمية ريفية يمولهما البنك الدولى، أو من إحدى وكالات الإغاثة. وإذا أراد عقد لقاء يجمع القبائل لحل نزاع ما، كان يضطر لطلب تغطية النفقات من المواطنين الأثرياء.



اندلعت سلسلة من الصراعات المحلية فى دارفور فى أعقاب الجفاف والمجاعة فى ١٩٨٤-١٩٨٥. وبصورة عامة كانت الجماعات الرعوية تؤلب على المزارعين فيما أصبح صراعًا مريرًا على الموارد المتناقصة. لم تتدخل الحكومة التدخل الفعال، مما أدى إلى تسليح الناس لأنفسهم. وكان القطيع الذى يضم ألف جمل يمثل ما يزيد على المليون دولار من الماشية الحية؛ وصاحب القطيع الأكثر سذاجة هو من لا يشترى البنادق الآلية لرعاته. وردًا على ذلك سلح القرويون أنفسهم. وكانت هناك محاولة لعقد مؤتمر مصالحة فى عام ١٩٨٩، إلا أن التوصيات لم تنفذ قط.

وفى عام ١٩٨٩ كذلك خلع الإسلاميون حكومة صادق المهدى فى الخرطوم. (وكان صادق المهدى قد فاز فى انتخابات ١٩٨٦، أى فى العام التالى للإطاحة بالنميرى.) وكان رئيس الدولة حينذاك جنديًا متدينًا وقاسيًا، وهو عمر البشير الذى حكم فى تحالف غير مستقر مع حسن الترابى، ذلك الزعيم الكاريزمى للحزب الإسلامى فى البلاد. ومع وجود الإسلاميين فى السلطة حاول الحكم المحلى فى دارفور التعويض عن ندرة إلقائها القبض على المجرمين بوحشية العقوبات التى كانت توزعها؛ وهى الإعدام وعرض جثث اللصوص المسلحين وقطع يد السارق. وفى عام ١٩٩٤ أعادت الحكومة مجلس الإدارة المحلية القديم وخصصت مناطق للشيوخ. ومع عدم وجود ميزانيات لتوفير الخدمات، وفى ظل السلطة التى تجددت فجأة لتوزيع الأراضى (التى باتت نادرة)، ووجود أعضاء لجان الأمن الأهلية ذاتية التسليح فى كل مكان، كانت تلك رخصة للتطهير العرقى على المستوى المحلى. وبعد ذلك الإصلاح الإدارى مباشرة كانت هناك جولة أخرى من أعمال القتل فى أقصى الغرب من دارفور. وبذلك نجد أن جزءًا كبيرًا من الصراع الحالى ترجع أصوله إلى حقوق ملكية الأراضى وعيوب الإدارة المحلية. إلا أن الحكومة المركزية متورطة كذلك فى محنة دارفور، حيث كان للإهمال والتلاعب دوران متساويان.

وتعادى الجغرافيا دارفور. فبلدة الجنينة الكبيرة فى أقصى الغرب من دارفور، والقريبة من الحدود مع تشاد، يقال إنها بعيدة عن البحر أكثر من أية بلدة أخرى فى القارة. وهذا الجزء من دارفور، الذى تشيع تسميته بدار مساليت نسبة إلى الجماعة السائدة، لم يُضم إلى السودان إلا فى عام ١٩٢٢ بموجب معاهدة بين السلطان والبريطانيين. ومنذ فترة قريبة جدًا كان حفيد السلطان، الذى يجمع حاشيته فى قصر آيل للسقوط، يقول مازحًا إنه مازال له الحق فى الانفصال عن السودان، وكان لا يزال يعلق فى مكان بارز على جداره خريطتى دار مساليت وأفريقيا، وليس خريطة السودان.

يتوقف القطار القادم من الخرطوم فى محطته الأخيرة فى نيالا بجنوب دارفور بعد رحلة تستمر ثلاثة أيام. وتستغرق الرحلة بالسيارة إلى الجنينة يومًا آخر على الأقل، إذا لم تقطع الأودية الطريق حاملة مياه الأمطار من جبل مرة الضخم. وقد تجاهلت الخرطوم دارفور؛ فقد تلقى أهلها قدرًا أقل من التعليم، وقدرًا أقل من الرعاية الصحية، وقدرًا أقل من مساعدات التنمية، وعددًا أقل من المراكز الحكومية مقارنة بأى إقليم آخر، حتى الجنوبيين الذى شهروا السلاح منذ ٢١ عامًا كى يحاربوا من أجل حقوقهم وحصلوا على صفقة أفضل. وفى دارفور يعانى العرب وغير العرب على السواء من التهميش، ومأساة دارفور هى أن قادة تلك الجماعات لم يشكلوا قضية مشتركة فى مواجهة لا مبالاة الخرطوم.



المصيبة الجغرافية الأخرى هى أن دارفور تقع على الحدود مع تشاد وليبيا. وفى الثمانينيات كان العقيد القذافى يحلم بـ«حزام عربى» عبر أفريقيا الساحلية. وكانت ركيزة ذلك هى السيطرة على تشاد، حيث يبدأ بقطاع أوزو شمالى البلاد. وقد رتب سلسلة من المغامرات العسكرية فى تشاد، ومنذ ١٩٨٧ حتى ١٩٨٩ كانت الفصائل التشادية المدعومة من ليبيا تستخدم دارفور كقاعدة مؤخرة، حيث كانوا يحصلون مجانًا على مؤن من محاصيل القرويين المحليين وماشيتهم. ومرة واحدة على الأقل تسببوا فى شن غارة تشادية فرنسية مشتركة لتعقبهم. وجاءت معظم البنادق فى دارفور من تلك الفصائل. فقد كانت صيغة الحرب الخاصة بالقذافى باهظة التكاليف؛ حيث كان يجمع العرب الساحليين والطوارق الساخطين ويسلحهم وينظمهم فى هيئة فيلق إسلامى يكون بمثابة رأس حربة فى هجماته. ومن بين أفراد الفيلق عرب من غرب السودان، كان كثيرون منهم أتباع طائفة الأنصار المهدية الذين أجبرهم الرئيس نميرى على العيش فى المنفى عام ١٩٧٠. وهزمت الليبيين قوة تشادية سريعة الحركة فى عوادى دوم عام ١٩٨٨، وتخلى القذافى عن أحلامه التحريرية الوحدوية وبدأ فى حل الفيلق الإسلامى.



إن جزءًا كبيرًا من الصراع الحالى ترجع أصوله إلى حقوق ملكية الأراضى وعيوب الإدارة المحلية. إلا أن الحكومة المركزية متورطة كذلك فى محنة دارفور، حيث كان للإهمال والتلاعب دوران متساويان



إلا أن أفراده المسلحين والمدربين. والأهم من ذلك كله. الذين تسيطر عليهم نزعة تفوق العنصر العربي العدائية، لم يختفوا. فميراث الفيلق الإسلامي مازال موجوداً في دارفور، ذلك أن زعماء الجانجاويد من بين هؤلاء الذين يُقال إنهم تلقوا تدريبهم في ليبيا.

حدث في منتصف الثمانينيات أن بدأ الأنصار في العودة، بعد الإطاحة بالنميري. وبعد بضعة أسابيع من مقابلة الشيخ هلال، ذهبت بحثاً عن أبنائه الذين كانوا يرعون إبلهم في الصحراء. وحين سافرنا شمالاً رأينا آثار مركبات عسكرية تعبر الصحراء متجهة نحو الجنوب. وفي عام ١٩٨٧ تولى العائدون من ليبيا القيادة عند تشكيل الكتلة السياسية المعروفة باسم التحالف العربي. وكان التحالف، على أحد المستويات، مجرد ائتلاف سياسي يهدف إلى حماية مصالح جماعة محرومة في غرب السودان، إلا أنه أصبح كذلك أداة لأيديولوجيا عنصرية جديدة. وبدأت النعوت العنصرية الخاصة بالأزمنة القديمة، التي لا أهمية سياسية لها تتخذ شكلاً مفزعاً في دارفور. كما أخذ التحالف يتبنى كذلك أيديولوجيا الدولة السودانية السائدة، وهي عروبة وادي النيل المختلفة تماماً. وكانت الحرب في دارفور في أواخر الثمانينيات أكثر من مجرد صراع على الأرض؛ لقد كانت الخطوة الأولى في بناء أيديولوجيا عربية جديدة في السودان.

من الصعب أن نجد رواية إخبارية للحرب الحالية في دارفور لا تصفها بأنها حرب «العرب» ضد «الأفارقة». وكان هذا الوصف غير مفهوم قبل عشرين سنة، حين كانت المفاهيم الدارفورية الخاصة بالنزعة العرقية والمواطنة لا تزال تصب في قالب موروث من سلطنة دارفور وسلسلة من الدول السودانية المشابهة امتدت غرباً حتى الأطلنطي. وتوضح الحياة السياسية القصيرة ولكنها درامية لأحد ساسة الفور، وهو داود بولاد، الطريقة التي أصبح بها للمصطلحين «أفريقي» و«عربي» هذا النفوذ.

كان بولاد أحد الإسلاميين الشباب البارزين من جيله، إلا أنه هجر الإسلام السياسي بعد أن ترك جامعة الخرطوم وانضم إلى جيش التحرير الشعبي السوداني بقيادة جون جارانج. وليس هناك ما هو أبعد عن المبادئ الإسلامية التي دافع عنها بولاد في يوم من الأيام. وليس هناك ما هو أكثر عداء لها. من أيديولوجيا جيش التحرير الشعبي السوداني. ورغم أن جارانج جنوبي ويحث كثيرون في حركته على قيام دولة منفصلة لجنوب السودان، فهو نفسه ليس انفصالياً. وهو يؤمن بأن غير العرب في السودان. وهو تحالف يضمن الجنوبيين والجماعات المهمشة في السودان، كالفور. يشكل أغلبية عددية ويجب أن تكون له الغلبة في سودان علماني تعددي وموحد. ولذلك كان مجندو جارانج من المجتمعات غير العربية المستقلة على أطراف جنوب السودان كالنوبة، وسلسلة من الشعوب على امتداد وادي النيل الأزرق على مقربة من إثيوبيا. وفي عام ١٩٩٢ شنت حكومة السودان أكبر هجوم يهدف إلى تفريغ منطقة النوبة تماماً تحت راية الجهاد. وفشل الهجوم وحققت النوبة استقلالاً ذاتياً متواضعاً داخل إطار أكبر من اتفاقية سلام وُقعت في كينيا في شهر مايو.

كان بولاد وشبكة سرية من الناشطين المحليين مدخل جارانج إلى دارفور. وكما فعل في النوبة والنيل الأزرق، أرسل حملة صغيرة إلى دارفور في عام ١٩٩١ بهدف بدء الثورة. وكانت الكارثة. فقد كان لابد لبولاد وقواته من عبور مسافة شاسعة في الموسم الجاف. وكانت المياه الوحيدة المتوفرة موجودة في آبار عميقة تقع في القرى وعليها حراسة مشددة. بل إن المنطقة كانت تحتلها جماعات عربية من رعاة الماشية على عداء شديد لجيش التحرير الشعبي السوداني. وسرعان ما تعقبت الحكومة وحدة بولاد وأوقعتها مستخدمة في ذلك الجيش النظامي وميليشيا عرب بني هلبة. وهربت حفنة من المقاتلين وسارت شهوراً عبر جمهورية أفريقيا الوسطى في طريقه العودة إلى جنوب السودان. وأسر بولاد واستجوبه المحافظ العقيد الطبيب إبراهيم، وهو طبيب عسكري وإسلامي بارز يعرف بـ«السيخ»، بسبب مهارته في استخدام أسياخ



حديد التسليح أثناء المظاهرات الطلابية، حين كان حارسًا خاصًا لزعيم الإسلاميين بجامعة الخرطوم، داود بولاد. وليس هناك تسجيل للمقابلة بين الاثنين. ولم ير أحد بولاد بعد ذلك، والأسوأ من ذلك أن مفكرته صودرت. وكان بها أسماء وتفاصيل عن كل عضو في شبكته السرية.

اختفى كثيرون في السجون و«بيوت الأشباح»، وفقد آخرون شجاعتهم بسبب ما كان المحققون معهم يعرفونه، مما جعلهم يتخلون عن قضيتهم وأُطلق سراحهم، مع أنهم كانوا متأكدين من أن كل حركة من حركاتهم مازالت مراقبة. وهكذا قُضي على جيل من زعماء المعارضة أو جرى تحييده. وبعد ذلك شكت القيادات الدارفورية الراديكالية في جيش التحرير الشعبي السوداني، حيث خشيت أن يبتلعهم تمامًا، أو يسيء استخدامهم من أجل تحقيق أغراضه. غير أن جيش التحرير الشعبي السوداني ظل يقاوم كل شيء يمكن أن يلقيه عليه الجيش السوداني، وكسب قدرًا كبيرًا من التأييد الدولي، كما تعلم وصف محنته بأبسط لغة ثبتت فاعليتها في كسب التعاطف الخارجي مع الجنوب؛ فقد كانوا الضحايا «الأفارقة» لنظام «عربي».



ربما كان للافتة «الأفريقية» تأثيرها بالنسبة للجماهير الدولية في التسعينيات، إلا أنها لم تلق رواجًا كبيرًا في السودان. وكان أحد أسباب ذلك انتشار الإسلام المتشدد واجتذابه للكثير من أهل دارفور؛ وكانت نتيجة ذلك نجاح التجربة السياسية التي قام بها النظام في الخرطوم الذي كان حسن الترابي عقله الموجه. ومن الناحية التاريخية كان الإسلام السياسي في السودان تسيطر عليه النخبة المعربة التي هي أصلاً من وادي النيل وتربطها صلات قوية بمصر. وكانت حركتهم حركة محافظة تتميز بالتعريب الذي يقر به كل حكام السودان، مدنيين كانوا أم عسكريين. إلا أن الترابي وسع أجندة الحركة الإسلامية ودائرة أنصارها. فقد أصر مثلاً على أن للمرأة حقوقًا في الإسلام؛ واليوم نجد أن أكثر من نصف طالبات جامعة الخرطوم من النساء. كما اعترف بأصالة السودانيين الغربيين وإسلام غرب أفريقيا، وتقبل بذلك التقاليد التي مثلها جهاد الفولاني في أوائل القرن التاسع عشر والعلماء الصوفيين المغاربة المتجولين.

وبضمان امتداد المواطنة إلى كل المسلمين المؤمنين، أحدث الترابي ثورة في وضع السودانيين من أصول غرب أفريقية ويعرفون باسم الفلاتة. وتشمل هذه الجماعة التي تضم عدة ملايين الهوسا والفولاني الذين جاء أسلافهم من نيجيريا والنيجر واستقروا في السودان أثناء ذهابهم إلى مكة أو العودة منها ليكونوا عمالاً في مشروعات القطن أثناء الحقبة الاستعمارية. ويشتهر الفلاتة بتدينهم. ولم يكن معترفًا بهم كمواطنين سودانيين حتى الانقلاب الإسلامي في عام ١٩٨٩. كما رفع الترابي مكانة الشيوخ الفلاتة، ليصحح بذلك وضعًا شاذًا استمر طويلاً وليخلق دائرة انتخابية. وفي دارفور كذلك مد يد العون لقيادات الفور والمساليت الدينية وغيرها من الجماعات. وأثنى محافظ دارفور الطيب إبراهيم على الفور على تدينهم وتلقى دروسًا في لغة الفور. وكان مفهوم المواطنة المشتركة من خلال العقيدة المشتركة لبعض الوقت السبيل إلى التحرر القومي الدارفوري.

لكن الوعد الإسلامي كان وهمًا. فمن الناحية السياسية لم يحدث تغير كبير. ذلك أن حفنة فحسب من أهل دارفور جرت ترقيتهم إلى مناصب رفيعة في الحزب والإدارة. وكانت الحكومة القومية عادلة نسبيًا في معاملتها للعرب وغير العرب في المنطقة، ولكن فقط في سياق الإهمال المستمر. وكان الحكم المحلي لا يزال مفلسًا، وكانت أعمال السرقة لا تزال منتشرة، وظل الجفاف والتصحر يثير الصراعات المحلية التي لم يستطع المحافظ وقفها، أو لم يحاول ذلك. ولم يمض وقت طويل حتى وجد «غربيو» السودان أن صيغة الإسلام الخاصة بهم ليست مقبولة بأي حال من الأحوال حسب شروطها هي؛ فقد كان يعتبرون مسلمين حقيقيين إن هم تبنوا القيم والثقافة العربية.

بعد عقد من انقلاب ١٩٨٩ أصبحت الخلافات بين الرئيس البشير والترابي المتقلب أكثر وضوحًا. فقد كان الترابي يطمح في إحداث ثورة في أنحاء أفريقيا والشرق الأوسط، بينما كان البشير يتمسك بالرؤية التقليدية الخاصة بالسودان باعتبارها امتلاك نخبة معربة. وكان صراعًا مطولاً على الأيديولوجيا والسياسة الخارجية والدستور وأخيرًا السلطة نفسها. وفاز البشير؛ ذلك أنه في عام ١٩٩٩ أقال الترابي من منصب رئيس المجلس الوطني، ثم أمر بعد ذلك باعتقاله. وانقسم الائتلاف الإسلامي. فقد بقي معظم من في الحكومة وكل النخبة الأمنية المسيطرة على الجيش والهيئات الأمنية التي تعمل خارج الميزانية مع البشير. أما الطلاب وخلايا الحزب الإسلامي الإقليمية فقد انتقلت في الأغلب إلى المعارضة مع الترابي لتشكل المؤتمر الشعبي المنشق. وبالإضافة إلى أمور أخرى، وفرت إقالة الترابي للبشير الغطاء الذي كان بحاجة إليه للتقرب من الولايات المتحدة، وللدخول في عملية سلام أكثر جدية مع جيش التحرير الشعبي السوداني؛ وهي العملية التي أدت إلى توقيع اتفاقية السلام في كينيا.

كانت للانفصال بين الترابي والبشير أصداؤه في دارفور. فقد ترك الحكومة الكثيرون من أهل دارفور الذي دخلوا الحركة الإسلامية تحت قيادة الترابي؛ وقرر هؤلاء تنظيم حركة خاصة بهم. وفي مايو من عام ٢٠٠٠ أصدروا «الكتاب الأسود» الذي تضمن بالتفصيل انخفاض تمثيل المنطقة المنتظم في الحكومة القومية منذ الاستقلال. كما أحدث اضطرابًا في أنحاء البلاد وأوضح كيف يصبح السودان الشمالي مستقطبًا على أسس عرقية وليس دينية.

كان وصف «الكتاب الأسود» لداود بولاد بأنه «شهيد» بمثابة مصالحة رمزية بين الإسلاميين والمتشددين العلمانيين في دارفور. ومن ثم قام التحالف غير المحتمل بين هذه الجماعة الأخيرة، التي كانت مشغولة بتجميع جبهة تحرير دارفور (التي أعيد تسميتها في أوائل ٢٠٠٣ لتصبح جيش تحرير السودان) وحركة العدل والمساواة ذات الاتجاه الإسلامي. وما كان ينبغي للتمرد أن يكون مفاجئًا لأحد. إلا أن مراقبي المشهد السياسي السوداني- وأنا منهم- قد تعودوا على هدوء دارفور لدرجة أننا ظننا أن المناضلين يطلقون إنذارًا كاذبًا حين تنبأوا بوقوع تمرد كبير. ويبدو أن الحكومة السودانية فوجئت بالقدر نفسه؛ فقد كانت عروض السلام التي أعلنتها في الشهور الأولى بنفس فتور استعداداتها العسكرية. وفي أبريل من العام الماضي، هاجم المتمردون مطار الفاشر ودمروا ست طائرات حربية واختطفوا ضابطًا برتبة لواء من القوات الجوية. ولم يكن جيش التحرير الشعبي السوداني قد نجح في شيء من هذا النوع خلال عشرين عامًا. فقد كان المتمردون في دارفور يتسمون بالحركة والاستخبارات الجيدة والتأييد الشعبي.



الأمر المهم بالنسبة للبشير هو أن الركيزة الأساسية للدولة السودانية. وهي مجموعة من ضباط الأمن تدير الحروب في السودان منذ ١٩٨٣. كانت لا تزال موجودة. وحين كانت تلك المجموعة الصغيرة تواجه تمردًا يتعدى قدرة جيش الحكومة المجهد كانت تعرف على وجه الدقة ما يجب عليها القيام به. ففي مرات عديدة أثناء الحرب في الجنوب كانت تنظم تمردًا مضادًا لا يكلفها شيئًا؛ إذ كانت المجاعة والأرض المحروقة هما سلاحاها المفضلان. وفي كل مرة كان أفرادها يبحثون عن إحدى الميليشيات المحلية ويزودونها بالعتاد والسلاح ويعلنون منطقة العمليات منطقة خالية من القواعد الأخلاقية. وكان فرسان بني هلبة، الذين استُخدموا ضد جيش التحرير الشعبي السوداني، أداة واضحة يجب استخدامها في دارفور. وتوفر كذلك بدو الإبل الشماليين، بمن فيهم من أفراد الفيلق الإسلامي السابق. وهناك من يقول إن اسمهم. جانجاويد. مشتق من البندقية G3 والجواد (الحصان)، إلا أنه يعني كذلك بلغة غرب السودان «الغوغاء» أو «الخارجين عن القانون». ولإطلاق العنان للميليشيات ميزة مضافة بالنسبة للمجموعة الأمنية، ذلك أنها قد تحيد عن عملية السلام شبه الكاملة مع جيش التحرير الشعبي السوداني وتسمح لها باستعادة هيئاتها الأمنية التي لا تدخل في الميزانية، كما أنها تحصنها ضد اتهامها في المستقبل بارتكاب أية جرائم حرب.

تستهدف الفظائع التي ارتكبتها الجانجاويد هؤلاء الذين يتحدثون لغات الفور والتنجور والمساليت والزغاوة. وهي منتظمة ومستمرة. ولا يتناسب الأثر إن



تجاهلت الخرطوم دارفور؛ فتلقى أهلها قدرًا أقل من التعليم، وقدرًا أقل من الرعاية الصحية، وقدرًا أقل من مساعدات التنمية، وعددًا أقل من المراكز الحكومية مقارنة بأي إقليم آخر



لم يكن الهدف، بشكل كبير مع التهديد العسكرى للتمرد. فالاغتصاب بالجملة ووصم الضحايا يكشف عن تدمير متعمد للمجتمع. وفى دارفور، يعد قطع أشجار الفاكهة أو تدمير قنوات الرى طريقة للقضاء على حق المزارعين فى الأرض وتدمير لسبل العيش. ولكن هذه ليست هى حملة الإبادة الجماعية التى تقوم بها حكومة فى قمة صخبها، كما كان جهاد ١٩٩٢ ضد النوبة، أو عازمة بإصرار على تأمين الموارد الطبيعية، كما كانت تسعى لتطهير حقول النفط فى جنوب السودان من سكانها المشاكسين. وهذه هى الشدة المعتادة لأى جماعة أمنية، حيث تلاشت إنسانيتها بمرور السنين فى السلطة؛ إنها الإبادة الجماعية بحكم القوة أو العادة.

لقد اختفى عالم الشيخ هلال، بنظامه المستقل والتبادلية السلسة القائمة بين المزارع والبدوى، وهو ما خشى حدوثه. وحول سوء الحكم والنزعات العنصرية المستوردة الفقر الشديد إلى عنف. فما هو العمل الآن فى مواجهة مذابح الإبادة والمجاعة الوشيكة؟ إن الإجراء القانونى. محاكمة موسى هلال ومن يرعونه باعتبارهم مجرمى حرب. أمر ضرورى لمنع وقوع مثل هذه الجرائم فى المستقبل. ولكن الإدانة ليست هى الحل. فلابد ألا تغطى حملات الجانجاويد الإجرامية على حقيقة أن بدو دارفور المحليين هم كذلك ضحايا تاريخيون.

وكما حدث منذ عشرين عاماً، يواجه أهل دارفور الفقر والجوع والأمراض المعدية. وكانت هناك تنبؤات بحدوث وفيات بالجملة بعد جفاف ١٩٨٤؛ حيث قالت وكالات الإغاثة إن العدد سيصل إلى مليون حالة وفاة ما لم تكن تصل المساعدات الغذائية. ولم يصل الغذاء ومات الكثيرون. حوالى ١٠٠ ألف. ولكن مجتمع دارفور لم ينهر بسبب مهارات شعبه الهائلة. فقد كان لديهم مخزون من الطعام، وسافروا مسافات طويلة بحثاً عن الطعام أو العمل أو الإحسان، وفوق هذا كله جمعوا الطعام البرى من على الشجيرات. والآن وقد سُرق مخزون الطعام والحيوانات، ما فائدة جمع خمسة أنواع مختلفة من الأعشاب البرية، و١١ نوعاً من الثمار اللُبية، بالإضافة إلى الجذور والأوراق، إذا كانت مغادرة المعسكر معناها احتمال الاغتصاب أو قطع الأطراف أو الموت؟ ولابد من أخذ التوقعات التى تشير إلى احتمال حدوث ٣٠٠ ألف حالة وفاة بسبب المجاعة مأخذ الجد.

تتحرك جهود إغاثة ضخمة بصعوبة. ولكن المسافات البعيدة تعنى أن تكون المعونات الغذائية باهظة التكاليف وربما لا تكفى. وهناك ما يغرى بإرسال الجيش البريطانى



لتوصيل الطعام، ولكن هذا سيكون رمزياً فحسب؛ ويمكن نقل الإغاثة بالطائرات بشكل أقل تكلفة عن طريق المقاولين المدنيين، على أن توزع بشكل أكثر فاعلية عن طريق هيئات الإغاثة. وتضم المناطق الخاضعة لسيطرة جيش تحرير السودان وحركة العدالة والمساواة مئات الآلاف من المدنيين الذين لا يحصلون على أية مساعدة. وبمجرد عودة أى مصور شجاع بصور لهذه المجاعة الخفية سوف تتعالى صيحات الاحتجاج، وسوف يسلم الإلحاح فى طلب المساعدات عبر خطوط الجبهة. وليس هناك من سبب لانتظار الصور قبل اتخاذ إجراء ما، مع أنه من الواضح أن قوافل الإغاثة العابرة للخطوط سوف تكون بحاجة إلى حراس مسلحين.

قد يكون السلام هو أكبر إغاثة. فهناك وقف لإطلاق النار من الناحية النظرية؛ أما فى الواقع فالحكومة والجانجاويد تتجاهلانه، ويرد المتمردون بالمثل. وتنكر الحكومة أنها هى التى شكلت الجانجاويد وسلحتها ووجهتها. لقد فعلت ذلك، ولكن الوحش الذى ساعدت الخرطوم فى خلقه قد لا يفعل باستمرار ما تأمره به؛ ذلك أن عدم الثقة فى العاصمة أمر شديد العمق بين أهل دارفور، وتعرف قيادة الجانجاويد أنه لا يمكن نزع سلاحها بالقوة. وحين وعد الرئيس البشير كوفى عنان وكولين باول بأن سوف ينزع سلاح الميليشيا كان يقطع على نفسه عهداً لا يمكنه الوفاء به. وأحسن وسائل نزع السلاح، وربما الوسيلة الوحيدة، هى تلك التى استخدمها البريطانيون منذ سبعين سنة؛ وهى إقامة حكومة محلية عاملة تنظم ملكية السلاح، وتعزل شيئاً فشيئاً الخارجين عن القانون وقطاع الطريق الذين يرفضون الامتثال. لقد استغرق الأمر حينذاك عشر سنوات ولن يكون أسرع من ذلك فى الوقت الراهن. فالأمر لا يقتصر على وجود أسلحة أكثر حالياً، بل إن التناقضات أشد حدة بكثير.

هناك مفرزة تضم ٦٠ من مراقبى وقف إطلاق النار التابعين للاتحاد الأفريقى فى دارفور مع عدد يزيد قليلاً عنهم من القوات الأفريقية التى توفر الأمن لهم. وحتى الآن لا يوفر أحد الأمن لسكان دارفور المدنيين المرعوبين. وإذا كان لابد من إرسال قوات من خارج أفريقيا، فلابد أن تكون هذه هى مهمتهم. وإذا كانت الاستخبارات المحلية جيدة، والعملية السياسية تأخذ مجراها، فسوف تكون المخاطر قليلة. ولكن إعادة بناء دارفور سوف تكون بطيئة، ومعقدة، وباهظة التكلفة. وقد يكون فهم ما ضاع نقطة جيدة للبداية. ■


تشــــينى


رامســــفيلد

خطّــة هرمجدون

ماذا لو انهارت القيادة الأمريكية؟!

جيـــمـــس مـــان

ترجمة: بثينة الناصرى

هذه المقالة مقتطعة من كتاب جيمس مان (صعود آلهة النار والحديد: تاريخ وزارة الحرب فى إدارة بوش) الذى صدر قبل أسابيع

■■ خلال عهد ريجان، كان ديك تشينى ودونالد رامسفيلد لاعبين رئيسيين فى برنامج سرى يصبو إلى إغفال التسلسل الشرعى لتتابع الحكم والعمل على التنصيب المباشر لرئيس جديد فى حالة مقتل قادة البلاد إثر هجوم نووى. ويساعدنا التعرف على هذا البرنامج فى توضيح سلوك إدارة بوش أثناء وبعد ١١/ ٩ مرة فى العام على الأقل. خلال الثمانينيات، كان ديك تشينى ودونالد رامسفيلد يختفيان. كان تشينى نائبا فى الكونجرس يكافح ليصعد سلم القيادة فى الحزب الجمهورى. أما رامسفيلد الذى كان وزيراً للدفاع فى عهد جيرالد فورد، فقد كان فى ذلك الوقت رجل أعمال ناجحًا فى شيكاغو حيث يشغل منصب رئيس شركة ج.د. سيرل للادوية مكرسًا وقته وجهده للترويج لمنتجات تجارية مثل نتراسويت وايكوال وميتاموسيل. ومع ذلك، فبين فترة وأخرى، يختفى الاثنان لمدد تتراوح بين ثلاثة أو أربعة أيام لايدرى خلالها أحد فى الكونجرس أين ذهب تشينى، ولا أحد فى شركة سيرل يستطيع خلالها أن يعثر على رامسفيلد. حتى زوجتيهما لم تكونا أفضل حالا من الآخرين.. كل ما كان لديهما هو رقم هاتف غامض فى واشنطن وتعليمات للاتصال به فى حالة الطوارىء.

بعد مغادرة العمل اليومى، كان تشينى ورامسفيلد يتجهان إلى قاعدة اندروز الجوية خارج واشنطن. ومن هناك وفى منتصف الليل، كان كل منهما، يرافقه فريق من أربعين إلى ستين موظفاً فيدرالياً وعضو واحد من وزارة رونالد ريجان، يتسلل إلى موقع بعيد ما فى الولايات المتحدة، مثل قاعدة عسكرية مهجورة أو مخبأ تحت الأرض، وفى نفس الوقت، تتجه إلى كل من هذه المواقع قافلة من شاحنات تحمل معدات اتصالات متطورة.

كان رامسفيلد وتشينى لاعبين رئيسيين فى أحد أكثر البرامج سرية فى إدارة ريجان: كان المسئولون الأمريكيون فى هذه الإدارة ينفذون بهمة وحماسة تدريبات دقيقة لضمان استمرار أداء الحكومة الفيدرالية أثناء وبعد حرب نووية افتراضية مع الاتحاد السوفيتى.

كان البرنامج يدعو إلى هجر القواعد الشرعية لتتابع الرئاسة فى بعض الظروف والاستعاضة عنها بإجراء سرى لتنصيب «رئيس» جديد ومعاونين له. كانت فكرة البرنامج تقوم على السرعة فى الحفاظ على «استمرارية» الحكومة وتجنب الإجراءات البطيئة المعقدة. أثناء ذلك سوف يلعب المتحدث بلسان مجلس النواب وبقية أعضاء المجلس والكونجرس أدواراً هامشية للغاية.

كان منبع الوحى لابتكار هذا البرنامج من داخل الإدارة ذاتها، ولا يد لرامسفيلد أو تشينى فى ذلك، ففيما عدا فترة قصيرة قام بها رامسفيلد بدور مبعوث للشرق الأوسط[1]، لم يتول أى من الرجلين مناصب فى إدارة ريجان، ومع ذلك فقد كانا اللاعبين الرئيسيين فى البرنامج، الذى انكشفت بعض تفاصيله على مدى السنوات ولكن لم تكشف الطريقة التى يعمل بها أو الأدوار الرئيسية التى لعبها تشينى ورامسفيلد.

تزداد أهمية هذا البرنامج اليوم خاصة، لأنه يساعد فى تفسير التفكير والسلوك لإدارة بوش فى الساعات والأيام والأشهر التى أعقبت الهجمات الإرهابية فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

فى يوم الكارثة، حث نائب الرئيس تشينى الرئيس بوش على البقاء خارج واشنطن لبقية ذلك اليوم. كما أمر وزير الدفاع رامسفيلد نائبه بول وولفويتز أن يخرج من المدينة. وبدأ تشينى نفسه التحرك من واشنطن إلى سلسلة من (المواقع التى لم يفصح عنها)، وتم فيما بعد إرسال مسئولين فيدراليين للعمل خارج العاصمة من أجل استمرارية أداء الحكومة فى حالة حدوث هجمات أخرى. كل هذه التحركات كانت صدى للتدريبات السرية أثناء إدارة ريجان. وكانت حكومة الولايات المتحدة آنذاك تأخذ مخاطر احتمال حدوث حرب نووية مع الاتحاد السوفيتى، مأخذ الجد أكثر من أى وقت مضى منذ أزمة الصواريخ الكوبية فى ١٩٦٢. وكان ريجان نفسه قد تحدث أثناء حملته الانتخابية فى ١٩٨٠ حول الحاجة إلى برامج دفاع مدنية للمساعدة فى إنقاذ الولايات المتحدة فى حالة انطلاق حرب نووية، وما أن تولى منصبه، لم يبادر بتشجيع خطط الدفاع المدنى فحسب، وإنما صادق أيضًا على وثيقة سياسة

كان رامسفيلد وتشيني لاعبين رئيسيين فى أحد أكثر البرامج سرية فى إدارة ريجان، كان المسئولون الأمريكيون فى هذه الإدارة ينفذون بهمة وحماسة تدريبات دقيقة لضمان استمرار أداء الحكومة الفيدرالية أثناء وبعد حرب نووية افتراضية مع الاتحاد السوفيتى



دفاعية جديدة تضمنت خططًا لشن حرب نووية ممتدة ضد الاتحاد السوفيتى. وكانت التدريبات التى شارك فيها تشينى ورامسفيلد الجزء السرى من الجهد المعلن للاستعداد للحرب النووية.

كان المنطق المفترض لهذه التدريبات السرية هو إنه فى حالة هجوم نووى على واشنطن، فستكون الولايات المتحدة فى حاجة إلى التصرف بسرعة لتفادى (قطع الرأس) أى انهيار القيادة المدنية.

وكان العنصر الجوهرى فى خطة إدارة ريجان لشن حرب نووية هو قطع رأس القيادة السوفيتية وذلك باستهداف المسئولين الكبار السياسيين والعسكريين وخطوط اتصالاتهم. بتعبير آخر، كانت الإدارة الأمريكية تريد أن تضمن ألا يفعل السوفييت فى أمريكا ماكان مخططو السياسة النووية الأمريكية ينوون أن يفعلوه فى الاتحاد السوفيتى.



فى عهدى ترومان وأيزنهاور، قامت حكومة الولايات المتحدة ببناء مبان كبيرة تحت الأرض فى جبل ويذر بمنطقة جبال بلو ريدج فى ولاية فرجينيا وقرب كامب ديفيد على حدود بنسلفانيا - ماريلاند، وكل منها يصلح كمحطة قيادة عسكرية للرئيس فى زمن الحرب. ولكن بقيت ثمة مشكلة مهمة: ماذا يمكن أن يحدث إذا لم يستطع الرئيس أن يصل فى الوقت المناسب إلى أحد هذه المخابئ؟

ينص الدستور على تولى نائب الرئيس إذا مات الرئيس أو فقد القدرة على القيادة، ولكن الدستور لا ينص على تتابع المسئولية فيما وراء ذلك. ولكن القانون الفيدرالى، وأحدث نسخة منه هو قانون التعاقب الرئاسى لعام ١٩٤٧ نص على تفاصيل أخرى. إذا مات نائب الرئيس أو فقد القدرة، يتولى منصب الرئاسة المتحدث باسم مجلس النواب، وبعده يأتى الرئيس المؤقت للكونجرس (وهو عادة يكون الأطول خدمة فى حزب الأغلبية) ثم أعضاء الوزارة حسب تسلسل مناصبهم ابتداء من وزير الخارجية ثم وزير الخزانة ثم وزير الدفاع وهكذا.

لكن إدارة ريجان ظلت قلقة من أن هذا الإجراء قد لايكون مفيدًا فى حالة حرب شاملة مع الاتحاد السوفيتى حيث يتطلب الأمر التصرف فى ثانية أو أجزاء الثانية. ماذا لو أن قنبلة نووية قتلت الرئيس ونائبه وربما المتحدث باسم مجلس النواب أيضا؟ من سوف يقود البلاد إذا تعذر الاتصال بالشخص التالى فى التسلسل حسب قانون التعاقب؟ من هو القائد المدنى الصالح لإعطاء القادة العسكريين الأمريكيين الأوامر للتصدى الهجوم، وكيف سيجرى هذا القائد اتصالاته مع الجيش؟ وفى حالة حرب نووية مستمرة، من سيملك السلطة للوصول إلى اتفاق مع القيادة السوفيتية على إنهاء الحرب؟

كانت الخطوط العريضة للخطة بسيطة. حالما تتعرض الولايات المتحدة (أو تعتقد أنها على وشك أن تتعرض) لهجوم نووى، ترسل ثلاث فرق من واشنطن إلى ثلاثة مواقع مختلفة فى أرجاء الولايات المتحدة. كل فريق سيكون جاهزا لتولى قيادة البلاد ويضم عضوًا من الوزارة على استعداد ليكون رئيسًا. وإذا استطاع الاتحاد السوفيتى - بطريقة ما - أن يكتشف مكان فريق منها وقصفه بالسلاح النووى، يتولى الفريق الثانى أو الثالث إذا دعت الضرورة.

لم تكن هذه خطة نظرية على الورق. كان التدريب يتم عليها بشكل تفصيلى جاد ومعقد. وكان يطلق على كل فريق اسم لون «أحمر» أو «أزرق» مثلا - وكان فى كل فريق مدير تنفيذى واسع الخبرة يمكن أن يقوم مقام أمين موظفى البيت الابيض، والمرشحون لهذا كانوا أفرادا من أعلى المستويات فى مجال الإدارة التنفيذية وعلى الأخص من جهاز الأمن القومى. وكان كل من تشينى ورامسفيلد قد شغل منصب أمين موظفى البيت الأبيض فى إدارة فورد، ومن بين قادة الفرق الآخرين على مدى سنوات التدريب: جيمس ولزى الذى أصبح فيما بعد مدير وكالة المخابرات المركزية وكنيث دبرشتاين الذى كان فعلا أمين موظفى البيت الأبيض فى عهد ريجان.

أما بالنسبة لأعضاء الوزارة فى كل فريق فبعضهم كان قليل الخبرة فى الأمن القومى، ففى أوقات مختلفة مثلا كان من بين المشاركين فى التدريب السرى: جون بلوك وزير الزراعة الأول فى عهد ريجان ومالكولم بالدريج وزير التجارة. مايهم هنا لم يكن الخبرة فى السياسة الخارجية ولكن توافر وزير ما فى الوقت المطلوب. ولابد أنه من العدل الاستنتاج أن بعض هؤلاء (الرؤساء) كانوا سيلعبون أدوار رؤساء صوريين يوجههم أمناء موظفين أكثر خبرة مثل تشينى أو رامسفيلد. ومع ذلك فإن أعضاء الوزارة هم الذين ستناط بهم مهمة إصدار الأوامر أو الذين ستصدر الأوامر باسمهم.

إحدى القضايا التى بحثتها هذه التدريبات هى: ماهية الخطوات الواقعية التى يمكن أن يتخذها الفريق الذى سيدير البلاد لإثبات مصداقيته. ماذا يمكن فعله للتوضيح للشعب الأمريكى وحلفاء الولايات المتحدة وللقيادة السوفيتية أن (الرئيس) جون بلوك أو (الرئيس) مالكولم بريدج هو الذى يقود البلاد الآن، ويجب أن يعامل باعتباره رئيسًا شرعيًا للولايات المتحدة؟

كان أحد الخيارات هو أن يأمر (الرئيس) الجديد غواصة أمريكية أن تطفو من الأعماق إلى سطح المحيط - طالما أن سلطة تستطيع غواصة هى علامة واضحة على من يتحكم فى القوات العسكرية الأمريكية[٢]. وللعلم أن هذا الاختبار (التحكم فى الجيش) هو أحد الاختبارات التى تستخدمها الحكومة الأمريكية فعلا ـ فى تحديد تعاملها مع أى قائد أجنبى قام بانقلاب فى بلاده.

ويشرح أحد المشاركين فى التخطيط للبرنامج قائلاً: (إحدى المعضلات الحرجة التى واجهناها هى ما إذا كان ينبغى الدعوة لانعقاد الكونجرس بعد هجوم نووى. وكان القرار الذى توصلنا إليه هو بالنفى، فإن العمل بدونهم سيكون أسهل. أولا بسبب الشعور السائد بأن الدعوة إلى انعقاد الكونجرس وإعادة انتخاب أعضاء جدد بدلا من الذين قتلوا، سيستغرق وقتا طويلا. إضافة إلى أنه إذا انعقد الكونجرس فربما سيحتاج إلى اختيار متحدث جديد باسمه، والذى سيكون استحقاقه للرئاسة أكثر شرعية من وزير الزراعة أوالتجارة اللذين سميا رئيسين حسب خطة ريجان السرية، فانتخاب متحدث جديد للكونجرس لن يستغرق وقتا طويلا فحسب وإنما سيخلق نوعًا من الإرباك أيضا. كان هدف إدارة ريجان الأساسى هو هيكلة سلسلة من القيادات التى يمكنها أن تستجيب للمتطلبات الآنية للحرب النووية، حيث لن يكون هناك وقت لكى يحلف رئيس جديد اليمين الدستورية حسب إجراءات التنصيب العادية وكذلك فالرئيس الجديد لن يكون لديه وقت لتعيين معاونين جدد له. لكل هذه الأسباب اختارت الإدارة أن تقوم بهذا الإجراء بعيدًا عن اللجوء إلى الكونجرس الذى كان سيضفى عليه شرعية دستورية.



لقد أنشأ رونالد ريجان برنامج استمرارية الحكومة بأمر رئاسى سرى، وطبقًا لروبرت ماكفرلين الذى كان مستشار الأمن القومى فى عهد ريجان، فإن الرئيس بنفسه أصدر القرار النهائى حول اختيار رئيس كل فريق من الفرق الثلاثة، وداخل مجلس الامن القومى فى إدارة ريجان، كان المسئول عن تنفيذ البرنامج السرى هو اوليفر نورث الذى برز فيما بعد، بصفته الشخصية المحورية فى

كان المنطق المفترض لهذه التدريبات السرية هو أنه فى حالة هجوم نووى على واشنطن، فستكون الولايات المتحدة فى حاجة إلى التصرف بسرعة لتفادى (قطع الرأس) أى انهيار القيادة المدنية

كتــــاب الــزاويــــة



محمد يونس القاضى

يعد محمد يونس القاضى أحد رواد فن الزجل فى مصر الذين تتلمذ عليهم كبار المبدعين المصريين فى فن الزجل مثل بديع خيرى وبيرم التونسى وغيرهما. وقد عاشت كلمات الأغانى التى وضعها محمد يونس القاضى ضمن الموروث الشعبى المصرى حتى أصبحت جزءًا من الثقافة العامة، وفى مقدمة تلك الأغانى «يا عزيز عينى» و«يمامة بيضا» و«زورونى كل سنة مرة» و«عشقت حسنك» وغيرها.

ولد الشاعر واسمه بالكامل محمد يونس أحمد القاضى فى حارة درب الدليل بالدرب الأحمر بالقاهرة عام ١٨٨٨ وكان والده قاضيًا ومن علماء الأزهر. ودرس الشاعر فى الأزهر ثم عمل بالصحافة من عام ١٩٠٥ حتى ١٩٤٢، لكنه قدم أعماله الفنية منذ ١٩١٣ وألف ٥٨ مسرحية غنائية، وكان أحد رموز الفكاهة فى مصر مع عبد العزيز البشرى وفكرى أباظة، كما أصدر مجلة «الفنان» عام ١٩٢٦. ومن المفارقات أن يونس القاضى الذى ألف عددًا من الأغانى الهابطة التى غناها كبار نجوم عصره أصبح رقيبًا على المصنفات والأغانى من ١٩٢٨ حتى ١٩٣٧ ثم من ١٩٤٢ حتى ١٩٥٤ حيث عمل على إنهاء هذه الموجة الهابطة وتوفى عام ١٩٦٩. وكشأن القصائد المغناة خضعت بعض أعمال الشاعر للتغيير مثل «يا عزيز عينى» عندما تحولت إلى أغنيات.

والمعلومات السابقة مستقاة من كتاب صدر حديثًا عن محمود يونس القاضى من تأليف الفنانة والناقدة إيمان مهران.

خطـــة هرمجــدون



فضيحة إيران كونترا. وقد فوض نائب الرئيس حينذاك جورج بوش الأب سلطة الإشراف على بعض هذه الجهود التى كانت تديرها هيئة حكومية جديدة تحمل اسما لطيفا هو: مكتب البرنامج القومى. وكان له مقره الخاص فى واشنطن ويديره جنرال بنجمتين وميزانية سرية تضاف إلى مئات الملايين من الدولارات سنويًا. وكانت معظم هذه المبالغ تصرف لشراء معدات اتصالات متطورة لتمكين الفرق من ضمان التواصل مع القادة العسكريين الأمريكيين. وفى الواقع كانت هذه (المعدات) هى السبب غير المباشر لكشف هذا البرنامج السرى حين قامت شبكة أخبار السى إن إن عام ١٩٩١ بإجراء تحقيقات صحفية حول بعض الاتهامات لمسئولين فى الإدارة الأمريكية بالتبذير واستغلال النفوذ فى إرساء عقود على شركات خاصة لشراء معدات (تالفة).

كانت التدريبات تتم عادة فى فترات إجازات الكونجرس حتى لايفوت تشينى الكثير مما يجرى هناك. ورغم أن تشينى ورامسفيلد وقائد فريق آخر كانوا يشاركون بشكل مستديم فى كل التدريبات، إلا أن أعضاء الوزارة كانوا يتغيرون حسب ظروف توافرهم فى أوقات معينة (مرة شارك المدعى العام ايد ميس فى تدريب جرى يوم ١٩٨٦/٦/١٨ بعد يوم من استقالة كبير القضاة وارين برجر، ويتذكر أحد المشاركين فى البرنامج أنه نظر إلى ميس فى ذلك اليوم وهو يفكر: (أولا استقالة قاضى المحكمة العليا والآن أمريكا فى حرب نووية. بالتأكيد هذا يوم نحسك!).

كان كل فريق يضم، بالإضافة إلى أمين موظفى البيت الأبيض ورئيسه المعينين، ممثلين عن وزارتى الخارجية والدفاع ووكالة المخابرات المركزية وكذلك من وكالات الشرطة المحلية المتعددة. كانت الفكرة هى التدريب على إدارة الحكومة الفيدرالية برمتها خلال حرب نووية بعدد رمزى من العاملين.

وفى إحدى مراحل التدريب، جرى حديث عن استدعاء حاكمى ولايتى فرجينيا ومريلاند وعمدة إقليم كولومبيا ولكن سرعان ما نبذت الفكرة بعد أن تبين أن الأشخاص المعنيين لم يكونوا - أمنيا - على درجة عالية من الثقة.



كانت التدريبات تجرى وكأنها فى ظروف أزمة ضاغطة حقيقية، فكان المشاركون يتجمعون بسرعة وينتقلون ويعملون فى ساعات الفجر، ويعيشون فى قاعدة عسكرية ويتناولون غداء مبكرا يشتمل على أنواع صادمة للشهية من أغذية الجيش الجافة سابقة التجهيز. ويستمر التدريب أسبوعين تقريبًا، ولكن كل فريق يتدرب على جزء من البرنامج لمدة ثلاثة أو أربعة أيام فقط. وكان الروتين المعتاد هو أن يغادر فريق واشنطن مسرعا عبر الانفاق ثم - وكأنه على وشك أن يقصف بقنبلة نووية - يسلم المهمة للفريق التالى. وكانت الخطط تنفذ بخداع ذكى مصمم لمنع أقمار السوفييت الصناعية من كشف مواقع الفرق فى أنحاء الولايات المتحدة. وهكذا كانت الفرق ترسل فى منتصف الليل إلى مقراتها التى تتغير من تدريب إلى آخر. وأحيانا تحرك قوافل زائفة مع القوافل الحقيقية التى تحمل معدات الاتصالات. وكان منطق هذه المناورات هو أن السوفييت لن يستطيعوا - بطبيعة الحال - استهداف كل المواقع المتغيرة فى أنحاء الولايات المتحدة.

كانت ذروة هذه التدريبات هى التواجد فى طائرة خاصة: محطة قيادة الطوارىء القومية المحمولة جوًا، وهى طائرة بوينج ٧٤٧ معدلة، رابضة فى قاعدة اندروز الجوية، ومجهزة بقاعة اجتماعات ومعدات اتصالات متطورة وعلى متنها يستطيع الرئيس المفترض أن يبقى متحركًا فى الجو، يدير البلاد خلال حرب نووية.

فى أحد التدريبات ظل فريق فى هذه الطائرة لمدة ثلاثة أيام متتالية وهى تحلق فوق السواحل ذهابًا وإيابًا على طول البلاد وعرضها وتتزود أثناء ذلك بالوقود فى الجو.

عندما انتخب جورج بوش الأب رئيسًا فى ١٩٨٨ ابتهج أعضاء برنامج ريجان

بعد سقوط جدار برلين وانهيار الاتحاد السوفيتى، تغيرت مبررات التدريبات، فلم تعد ثمة خشية من احتمال هجوم نووى سوفيتى. ولكن ماذا يحدث إذا هاجم الولايات المتحدة إرهابيون يحملون أسلحة نووية وقاموا بقتل الرئيس ونائبه؟

السرى حيث إن بوش كان على دراية بالبرنامج وقد اشترك به منذ بدايته فليس هو إذن فى حاجة إلى التعرف عليه أو إعادة النظر فيه.

وفى الواقع أنه رغم التحسن الكبير فى العلاقات مع موسكو فقد أمر بوش باستمرار البرنامج ولكن مع تعديلات طفيفة، فقد عين تشينى فى منصب وزير الدفاع وبهذا تخلف عن مركزه كقائد لإحدى الفرق.

بعد سقوط جدار برلين وانهيار الاتحاد السوفيتى، تغيرت مبررات التدريبات، فلم تعد ثمة خشية من احتمال هجوم نووى سوفيتى - ولكن ماذا يحدث إذا هاجم الولايات المتحدة إرهابيون يحملون أسلحة نووية وقاموا بقتل الرئيس ونائبه؟

أخيراً وخلال سنوات حكم كلينتون الأولى، تقرر أن مثل هذا السيناريو بعيد الاحتمال وقد عفى عليه الدهر، فقد كان من ميراث الحرب الباردة والآن لم يعد يلوح فى الأفق عدو يرغب فى (قطع رأس) الولايات المتحدة، و هكذا وضع البرنامج على الرف.

واستمر الحال على ما هو عليه حتى حدثت كارثة ١١ سبتمبر ٢٠٠١، عندها سارع تشينى ورامسفيلد لتنفيذ أجزاء من النص الذى تدربا عليه لسنوات طويلة مضت، وشرعا يديران العمليات من مخبأ تحت أرض البيت الأبيض يسمى (مركز عمليات الطوارئ الرئاسية). وقد طلب تشينى من بوش الذى كان فى فلوريدا بأن يؤخر رحلة العودة إلى واشنطن كما كان مخططا لها. وفى البنتاجون أمر رامسفيلد نائبه المتردد وولفوفتز أن يغادر العاصمة إلى أحد المخابئ المحصنة ضد الهجمات النووية. فى الوقت الذى أمر تشينى المتحدث باسم مجلس النواب دنيس هاستيرت وزعماء آخرين فى الكونجرس والعديد من أعضاء الوزارة (بضمنهم وزيرة الزراعة آن فينيمان ووزير الداخلية جيل نورتن) أن يتركوا العاصمة إلى مخبأ أمين.

وفى حواره مع مذيع شبكة إن بى سى بعد عدة أيام، فسر تشينى هذه التحركات بقوله: « لقد وضعنا الكثير من الخطط أثناء الحرب الباردة للتعامل مع إمكانية وقوع حادثة نووية» ولم يشر إلى برنامج إدارة ريجان أو المواقع السرية التى طالما تدرب فيها هو ورامسفيلد على إدارة البلاد.

إن اشتراك هذين الرجلين فى تنفيذ برنامج لضمان استمرار أداء الحكومة خارج نطاق الدستور، رغم أهميته بحد ذاته، يوضح حقيقة أدوارهما، فهما كانا دائما فى الصورة منذ ثلاثة عقود ابتداء من إدارة فورد ومابعدها، وحتى عندما كانا خارج المناصب التنفيذية فى الحكومة، لم يبتعدا كثيراً: بقيت صلتهما بمسئولى الدفاع والجيش والمخابرات. بعبارة أخرى: كانا جزءاً من جهاز الأمن القومى السرى المستديم للولايات المتحدة، سكان عالم يأتى فيه الرؤساء ويذهبون، ولكن أمريكا تستمر فى شن الحروب. ■

هوامش:

(١) المقصود بها زيارة رامسفيلد إلى العراق فى ١٩٨٣ التى قابل فيها الرئيس صدام حسين وكانت الحرب الإيرانية العراقية على أشدها وقد أعلن أن الزيارة بغرض التحقق مما انتشر آنذاك من استخدام العراق للأسلحة الكيمائية ضد الإيرانيين، ولكن الواقع أن غرض الزيارة الذى كشفت عنه وثائق سرية أفرجت عنها مكتبة الكونجرس هذا العام، أن رامسفيلد - الذى كان حينها رئيسا لشركة سيرل - ذهب مندوباً عن جورج شولتز وزير الخارجية آنذاك ورئيس شركة بكتل سابقًا، وكان الغرض من الزيارة إقناع صدام حسين بإمكانية مد أنبوب نفط تنفذه شركة بكتل من البصرة إلى العقبة. وقد رفض الرئيس العراقى الموافقة على الأنبوب بعد مباحثات استمرت حتى عام ١٩٨٤ لتخوفه من إمكانية تخريب إسرائيل للأنبوب، وعدم تمكن الولايات المتحدة من الحصول على تأكيد إسرائيلى - كما طلب العراق - من عدم التعرض للأنبوب، ويقال إن العلاقات الأمريكية - العراقية ساءت منذ ذلك الوقت. ولكن هذه قصة أخرى. المهم أن هذه القصة تكشف استشراء التداخل (وبالتالى الفساد) فى العلاقات الصناعية والسياسية فى الإدارات الأمريكية - المترجمة

(٢) أساس هذا الإجراء هو: أن رئيس الولايات المتحدة هو فى نفس الوقت القائد العام للقوات المسلحة كما هو معروف - المترجمة

كتاب الزاوية



يا عزيز عينى

محمد يونس القاضى

يا عزيز عينى ... أنا بدى أروح بلدى
يا حكيمباشى ... تعالى اكشف على ولدى
جبت الطبيب والحكيم ... يكشفوا على قلبى
قاللى الطبيب والحكيم ... مالكش دوا عندى
عشر قزايز ورد ... للمحبوب بتسلينى
ورا عين م القطيفة ... م الجمّال• بتكفينى
مملوك صغير ... يشيل الكاس ويدينى
من بعد عمر طويل ... ييجى حبى يقابلنى
ما تحسبوش يا بنات ... إن الجواز راحة
أول أسبوع يا بنات ... ع الفرش مرتاحة
تانى أسبوع يا بنات ... خوخة وتفاحة
تالت أسبوع يا بنات ... حماتى رواحة
رابع أسبوع يا بنات ... فى البيت نواحة
خامس أسبوع يا بنات ... ع القاضى سواحة
سادس أسبوع يا بنات ... على بيت أبويا رايحة
مفيش لزوم يا بنات ... تتجوزوا بالمرة
إن كان جوازكم يا بنات ... حيكون كده عرة
وتبقوا عايشين يا بنات ... فى العيشة دى المرة
ويكون آخرتها يا بنات ... تتطردوا وتخرجوا بره
ويمكن تختم يا بنات ... بمضايقة الضرة

• الجمّال: اسم محلات كانت شهيرة تبيع الأقمشة بالقاهرة

إذا كانت الأرض كروية..
فالعالم كرة قدم

AN UNLIKELY THEORY OF GLOBALIZATION
How Soccer Explains the World
Franklin Foer



هذا فصل من كتاب صدر منذ أسابيع عن دار نشر كبيرة Harper Collins. قد يكون صادمًا للقارئ العربى الذى سيراه مليئًا بمبالغات تصل إلى حد المغالطات. ربما بحثًا - ملهوفًا - عن إثارة مطلوبة، أو انسياقًا - دون تدقيق - وراء صورة نمطية غابت تفاصيلها الحقيقية وراء ضباب تكاثف خيالاً وجهلاً أحيانًا، أو سوء نية أحايين أخرى.

هل نحن أمام «موضة» لدى الكاتب الغربى - أو بعضهم - تتمثل فى إقحام الإسلام، حقًا أو عسفًا، فى مناقشة أى موضوع؟ أم هو اهتمام بات مفهومًا ومتوقعًا فى السنوات الأخيرة بالإسلام وثقافته؟

ولأنه من طبيعة الأمور أن فى كل شأن «وجهات نظر»، نميل هنا لأن نترك السؤال مفتوحًا، عارفين من هو قارئنا ومتيقنين من أهمية أن تظل «وجهات نظر»/ المجلة نافذة «أمينة» لقارئها العربى يطل منها على اتجاهات فى فكر الآخر (دون تدخل)، وبغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف.

المحرر

الحل الكروى

[١]

أكبر استاد فى إيران هو استاد أزدى الذى يسع ١٢٠ ألف متفرج. ومع أن المعنى المباشر للكلمة فى القاموس هو «الحرية»، فإنه يمثل شيئًا قريبًا من العكس. فمنذ قيام الثورة الإسلامية فى عام ١٩٧٩ والنساء محظور عليهن مشاهدة كرة القدم فى أزدى. وهذا الحظر ليس مقصورًا على هذا الموضع أو حتى على إيران، بل ينطبق على مساحات كبيرة من العالم الإسلامى، مازالت أشكال الحظر مستمرة دون جدل كبير. إلا أن الحقيقة الأساسية فى إيران هى أنها ليست المملكة العربية السعودية. فهى فى العقود الأخيرة للشاه لم تحبس النساء فى البراقع السوداء. بل تولت النساء مناصب حكومية رفيعة، وكن كاتبات ومحاميات ومشجعات للعبة الجميلة.

مع تدفق أعداد كبيرة من الناس من خلال مداخل أزدى، من المستحيل ضمان الالتزام حرفيًا بمبادئ الشريعة. ذلك أن المشجعين سوف يسبون بأقذر لغة ويأشد الألفاظ المحظورة. وسوف يلقون بكلمات التوبيخ التى لا يمكن تبريرها بأى تفسير معقول للقرآن. وبعض هؤلاء الرجال حليقو الذقون ويرتدون ملابس واسعة بشكل يثير الشك. ومع التفتيش الدقيق، قد يتضح أن هؤلاء الرجال ليسوا رجالاً فى الواقع. فنساء طهران يغامرن بالتعرض للعقوبة القاسية لكونهن عاجزات عن ارتياد أزدى. وهن يضغطن صدورهن، ويلففن شعرهن الطويل، ويرتدين الزى الرجالى، ويتسللن إلى داخل الاستاد.

يقال إن هذه الفئة المظلومة من النساء المتعطشات إلى كرة القدم تضم بنات رجال الدين المهمين، وهن النساء الوحيدات اللائى لهن رأى فى حكم البلاد. ومن الواضح أن شكاواهن التى لا تنقطع قد مست وترًا أبويًا حساسًا للتغلب على السابقة الشرعية. ففى عام ١٩٨٧ أصدر دكتاتور البلاد الدينى والسياسى فتوى عدلت الحظر المطلق الذى فرضه النظام على تشجيع الإناث للرياضة. فبينما كان يتحدث من خلال لحيته البيضاء الطويلة، أجاز مشاهدة النساء لمباريات كرة القدم على شاشة التليفزيون الذى نقل الألعاب الرياضية لأول مرة فى الحقبة الإسلامية، ولكنهن لا زلن ممنوعات من الذهاب إلى الاستاد الحافل بهورمون التستسترون. وقد أرضى الحل الوسط الذى قدمه الخمينى الجميع لبعض الوقت.

لكن اللمسة الحكيمة للملالى لم يمكنها تهدئة الرغبة العميقة لدى الإيرانيات. وكشأن كل المشجعين الجيدين، فإنهن يفهمن أن التليفزيون بديل ضعيف للتجربة الحقيقية التى من لحم ودم. ولو عدنا بالنظر إلى الوراء لكان من المحتم أن تطالب المرأة بالعودة إلى استاد البلاد. ومع ذلك، فإن هذا الطلب الجسور يقتضى قدرًا كبيرًا من الشجاعة ووجود ذريعة ما. وقد منحت البطولات التى حققها الفريق القومى فى نوفمبر من عام ١٩٩٧ الأمرين معًا للمرأة الإيرانية.

كانت حملة إيران للتأهل لكأس العالم ترتكز على مباراة نهائية ضد أستراليا تقام فى ملبورن. وكان الإيرانيون فى معظم المباراة يشتتون الكرة وكأن حكومتهم أمرتهم بأن يخسروا المباراة متعمدين، لمنع احتفالات النصر فى طهران التى قد تخرج عن السيطرة (استنتاج غريب. المترجم). ولكن الإيرانيين فى الخمس عشرة دقيقة الأخيرة من مباراة التأهل لكأس العالم. وكانت لحظات تتسم بالرعب واليأس. تخلصوا من كسلهم وأحرزوا هدفين مذهلين أنقذا الفريق من الهزيمة.

فصل من كتاب:
How Soccer Explains the World: An Unlikely Theory of Globalization
(كيف تفسر العالم من خلال كرة القدم؟.. نظرية فى العولمة)
Franklin Foer
261PP. 2004 .Harper Collins. Pub.

ترجمة: أحمد محمود

للطمـــوحات الإســلامية!

وبذلك تقدمت إيران إلى كأس العالم لأول مرة منذ إعادة الطائرة من طراز ٧٤٧ آية الله الخمينى من المنفى قبل ذلك بثمانية عشر عاماً.

وبما أن النظام الإيرانى يملك أنفاً رومانيًا فيما يتعلق بالحفاظ على النفس، فقد بدأ على الفور الاستعداد للاحتفال، وهو يعرف أن الجماهير الفرحة قد أعطت أجازة لعقلانيتها، وبدون عقلانية ترشدهم قد يكونون من الجنون بحيث يزيلون المتاريس. وكان مشهد كرة القدم قد أخذ يعكس الطموحات الخاصة بإيران الجديدة الأكثر تحرراً. وهى نفس الروح التى قذفت بالإصلاحى محمد خاتمى إلى الرئاسة قبل ذلك ببضعة أشهر. ولأول مرة فى تاريخ الجمهورية الإسلامية، قاد الفريق مدرب أجنبى، وكان برازيليًا اسمه فالدير فييرا. وحين كان يجلس على الخط، كان يرتدى ربطة عنق. وهى الموضة التى دفع بها الشاه لتكون رمزاً لإيران الحديثة، بينما رفضها رجال الدين باعتبارها أمراً مفروضاً من الغرب. وكان الكثير من لاعبى فييرا قد صنعوا حياتهم الرياضية فى الدورى الأوروبى والدورى الآسيوى، وكانوا نماذج مشجعة لتفاعل إيران مع الاقتصاد الكونى.

كانت الحكومة محقة فى شعورها بالقلق. فبعد الانتصار امتلأت شوارع طهران بالمحتفلين. وقد جعلهم الفرح يُحلُّون أنفسهم من الأخلاق الرسمية. وأصبح الرقص والشرب وموسيقى البوب الغربية، وهى الأمور التى كانت تقتصر فى العادة على البيوت، أى على المجال الخاص، مادة للاحتفال العام. وإذا كان المحتفلون رجالاً، فقد كان ذلك شيئًا عاديًا. ولكن فى الأحياء الراقية، وخاصة بين الشباب، كان المحتفلون من الجنسين. وقد ألقت بعض النساء بالحجاب واحتفلن بدون أغطية الرأس المأمور بها. وحين كان الباسيجى، أى أعضاء الميليشيا شبه العسكرية الدينية، يصلون لفض المظاهرات، كانوا يُقنَعون بالانضمام للمحتفلين أنفسهم.

جرى نزع فتيل الأزمة إلى حد ما. وطلبت الحكومة من الفريق التلكؤ فى العودة من أستراليا، حيث يتوقف فى دبى كسباً للوقت كى يهدأ الوضع فى طهران. وحذرت الإذاعة المواطنين من الاحتفالات العلمانية التى تغضب الله. وخاطبت بعض الرسائل الأخرى نساء البلاد على وجه التحديد ودعتهن «أخواتنا العزيزات» حيث حثتهن على البقاء فى بيوتهن أثناء احتفالات عودة الفريق إلى الوطن.



حين عاد الفريق أخيراً، بعد ثلاثة أيام، أقامت الحكومة الاحتفال فى استاد أزدى. وصل الأبطال إلى الاستاد بالطائرات الهليكوبتر، وكأن سيلفيو بيرلسكونى هو الذى خطط الحدث. ولكن المشهد الحقيقى لم يكن داخل الاستاد. فقد تحدت آلاف النساء نداءات الدولة وتجمعن على الجانب الآخر من بوابات أزدى، فى درجة حرارة مقدارها ٢٧ درجة. وكما قال عالم الأنثروبولوجيا كريستيان برومبرجر، فإنه حين رفضت الشرطة دخول هؤلاء النساء الاستاد، بدأن الصياح قائلات «ألسن جزءاً من هذا البلد؟ نريد أن نحتفل كذلك». وخوفًا من الزحام، سمحت الشرطة لثلاثة آلاف امرأة بدخول الاستاد فى مقاعد خاصة مفصولة عن بقية الاستاد. ولكن ماذا عن حوالى ألفى امرأة أخرى على الجانب الآخر من المداخل لم يدخلن أزدى؟ فدخول أخواتهن لم يهدئهن. وفى تصميم منهن على الحصول على نصيبهن من الاحتفال، اقتحمن البوابات التى أقامتها الشرطة وشققن طريقهن إلى داخل الاستاد. واعتزاماً على تجنب المشاغبات الكبيرة التى قد توجه المشاعر الفطرية الخاصة بذلك اليوم فى اتجاه خاطئ، لم يكن أمام الشرطة خيار سوى التغاضى عن دخولهن والإقرار بالهزيمة.



الحل الكروى للطموحات الإسلامية

[٢]

حين يكتب مؤرخون آخرون عن تحول الشرق الأوسط، فمن المحتمل أن يتحمسوا لهذه اللحظة التى باتت بالفعل تُعرف بـ«ثورة كرة القدم». وكما هو الحال بالنسبة لحفل شاى بوسطن - ١٠ مايو ١٧٧٣، حين ثار الأمريكيون على عدم إلغاء الرسوم المفروضة على الشاى وقاموا بإلقاء الشاى الموجود على ثلاث سفن فى البحر - سوف تصبح اللحظة التى أدرك فيها الناس لأول مرة أن بإمكانهم تحدى حكامهم الطغاة. وبالنسبة للإيرانيين، كان الحدث بمثابة انتفاضة نموذجية، ذلك أن كل مباراة تأهيلية لاحقة جعلت الإيرانيين ينزلون الشوارع. وبمرور الوقت، أصبح المعنى السياسى الضمنى لهذه التدفقات واضحاً بصورة كبيرة. وخلال حملة ٢٠٠٢، ومع كل فوز إيرانى. على السعودية، وعلى العراق، وعلى الإمارات العربية المتحدة. كان المشجعون المحتفلون ينشدون «زندباد أزدى» (فليحيا أزدى) و «نحن نحب أمريكا». ولكن هذا قد يقلل من أهمية ثورة كرة القدم. إنها أكثر من مجرد حدث. فثورة كرة القدم تمسك بمفتاح المستقبل فى الشرق الأوسط. وربما أمكن تصور هذا المستقبل فى ظل خفقان الراية القومية الموالية للإسلام، والكتابات الموجودة على الجدران التى تمتدح «شعب إيران النبيل»، وهتاف المحتفلين باسم رضا بهلوى ابن الشاه الراحل المقيم فى المنفى. وهى جذور انتفاضة قومية ضد الإسلام.



لكن هل ثورة كرة القدم هى الثورة التى تريدها الولايات المتحدة؟ من فترة ليست ببعيدة كانت النزعة القومية العلمانية تبدو العدو الكبير فى الشرق الأوسط. فالحكام المستبدون مثل جمال عبد الناصر ومعمر القذافى وحافظ الأسد كانوا أكبر شوكة فى خاصرة أمريكا (المعروف أن وفاة عبد الناصر كانت قبل بداية ظاهرة خطف الطائرات.. **المحرر**)، وكانوا يرعون اختطاف الطائرات وشن الحرب ضد إسرائيل. إلا أن القوميين العرب مروا بأوقات عصيبة فى الثمانينيات. فلم يعد بإمكانهم اللجوء إلى الاتحاد السوفيتى من أجل الرعاية، وكشفت حرب الخليج الأولى كيف أنه بإمكان الأمريكان أن يسحقوا بسهولة حتى أقوى من فى هذه الحزمة. بل إنه منذ أيام ناصر وهؤلاء العلمانيون يتنافسون مع الحركات الإسلامية التى كانت تمولها المملكة العربية السعودية. والآن، وبينما كان هؤلاء القوميون لا حول لهم ولا قوة، حققت حماس والقاعدة والواعظون الوهابيون المتشددون الانتصار فى معركتهم للهيمنة على العقل المسلم.

لا شك فى أن الحكام المستبدين القدامى قد أحدثوا قدراً كبيراً من الصداع، ولكن أمريكا كانت تعرف أساساً كيف تتعامل معهم. فقد استطاعت أن تقضى عليهم الواحد تلو الآخر، وتنبذهم فى النهاية باعتبارهم حمقى لا ضرر منهم نسبياً. ومن ناحية أخرى كان الإسلاميون مشكلة غير معتادة لا يمكن احتواؤها. فما هو السبيل لمواجهتهم؟ كان أحد الأجوبة هو ضخ المزيد من العولمة فى المنطقة. ولكن ذلك لم يفلح حتى الآن. ففى أماكن مثل باكستان، زادت مطاعم كنتاكى وأفلام بوليوود - مدينة السينما الهندية - من تفاقم المشكلة. فقد لفتوا عن طريق عرض أسلوب الحياة الغربية الانتباه إلى افتقار العالم الإسلامى المهين إلى الحداثة. ويشير الحل الآخر لمشكلة النزعة الإسلامية، وهو الحل المحافظ الجديد، إلى أن الولايات المتحدة تدفع الشرق الأوسط بكثافة وسرعة نحو الديمقراطية. إلا أن مجرد حقيقة أن الولايات المتحدة هى القوة الوحيدة الملتزمة التزاماً جاداً بوسائل التحول الديمقراطى تعنى أن الكراهية العمياء للرسول قد تقضى على الرسالة. وتبين ثورة كرة القدم أن أفضل ترياق للنزعة الإسلامية قد لا يكون شيئاً جديداً، بل قديماً. ألا وهو العودة إلى النزعة القومية العلمانية.

الواقع أن ثورة كرة القدم تتنبأ بسيناريو واحد، وهو أن الناس لن تقبل بحكم رجال الدين للأبد، خاصة حين يتذكرون تلك الفترة من الحرية الأكبر التى كانت قبل حكم رجال الدين. وحين يثورون، فإنهم قد يلتمسون العون الأمريكى بشكل عابر. ولكنهم سوف يثورون فى الغالب باسم أمتهم. وقد لا نتفق دائماً مع القوميين الجدد. وقد يوجهون انتقاداتهم تجاه الولايات المتحدة. ولكنهم البديل الممكن الوحيد للحكم بالإسلام.

[٣]

يمكن رواية تاريخ إيران الحديثة كما يُروى تاريخ كرة القدم الإيرانية. فهو يبدأ بعد الحرب العالمية الأولى بالشاه رضا الكبير، ملك الملوك، ظل الله، ممثل الله ومركز الكون، مؤسس الأسرة البهلوية. لم يولد رضا خان، الرجل الذى أصبح رضا شاه فى سن النضوج حين كان فى السابعة والأربعين، فى القصر. فقد كان جندياً شبه عسكرى من الأقاليم صنع اسمه بقيادة فرقة من القازاق المدربين تدريباً روسياً. ولكنه كان فى نظر البريطانيين، الذين قفزوا على بحيرة البترول الإيرانية وحاولوا إدارة البلاد بهدوء، الشخص التافه المناسب. حيث كان رجلاً بلا طموحات سياسية، ومعتاداً على تلقى الأوامر. وفى عام ١٩٢١ اتخذ الجنرال السير إدموند أيرنسايد مقراً له فى طهران، وقد اقترح بتواضع أن رضا قد يرغب فى تولى السلطة. وكانت الحكومة القديمة قد باتت ذات نزعة قومية قوية ولا يمكن الاعتماد عليها حسب مذاق أيرنسايد. ونجح انقلاب رضا بمباركة بريطانية. وبعد أربع سنوات تلقى رضا المكافأة النهائية على تعاونه. فقد أرسل العاهل العجوز إلى أوروبا، وحمل هو لقبه المطول ومعه كل مظاهر الملكية. وكانت قفزة أكبر من أن يقوم بها فتى قروى بسيط. ولكن كما سيشهد البريطانيون، فقد أثبت أنه يختلف كثيراً عن ذلك الريفى الساذج الطيع الذى تخيلوه فى البداية. إذ سوف يستخدم الجيش كأداته التى لا ترحم لإعادة تشكيل المجتمع الفارسى على صورة المجتمع البروسى، ليكون أمة حديثة تنافس أوروبا. وكما هو شأن نموذجه الآخر المحدث التركى العظيم كمال أتاتورك، فقد شق الطرق ومد السكك الحديدية، وأخمد الممارسات التقليدية، وقلل من شأن الملالى، وحظر التشادور. وأصدر تشريعاً يقضى بتخلص الرجال من عباءاتهم وارتدائهم الحلل الغربية. ولكى يخلق أمة حديثة، أراد خلق رجل إيرانى حديث يفهم قيم الصحة والتنافس الرجالى والتعاون.

أصبح رضا شاه مؤيداً متحمساً للتربية الرياضية، وكان ذلك ميلاً ناحية الرياضة البدنية الألمانية التى أدخلها ضمن المناهج المدرسية. وسرعان ما أصبحت كرة القدم النشاط المميز لدى النظام. وأمر رضا شاه بأن تلعب القوات المسلحة المباريات، حتى فى الأقاليم، حيث لم تكن الأحذية الأوروبية قد ظهرت بعد. وكما قال مؤرخه صاحب العقل الثاقب هوتشانج شهابى فإنه «بحلول منتصف العشرينيات كانت كرة القدم قد أصبحت رمزاً للتمدن، وسرعان ما جرى الترويج للعبة على أعلى مستويات الدولة».

وكما هو حال رضا شاه نفسه، فإن كرة القدم الإيرانية تدين بقوتها فى البداية للبريطانيين. فقد تعلمت النخبة الإيرانية كرة القدم فى المدارس التبشيرية التى يديرها الأجانب. وتعلمت الجماهير الإيرانية اللعبة بالوقوف على خطوط التماس تشاهد موظفى شركة النفط الأنجلو إيرانية. وكانت فكرة التحديث بصورة عامة، وكرة القدم على وجه الخصوص، تمثل صدمة للنظام الإسلامى. ومع أن رضا شاه قمع رجال الدين، فقد كانوا لا يزالون يمارسون المقاومة الهادئة. ففى القرى أمر الملالى برجم لاعبى كرة القدم الإيرانيين. فعند اللعب فى الزى البريطانى كان الإيرانيون يرتدون الشورتات، مما يخالف الشريعة التى تفرض على الرجال تغطية المنطقة ما بين الصرة والركبة.

لكن الأساليب القديمة لم تُتَح لها



كان مشهد كرة القدم قد أخذ يعكس الطموحات الخاصة بإيران الجديدة الأكثر تحرراً. وهى نفس الروح التى قذفت بالإصلاحى محمد خاتمى إلى الرئاسة قبل ذلك ببضعة أشهر





الحل الكروى للطموحات الإسلامية

فرصة الصمود أمام جبروت المحدثين الذين تدعمهم الدولة القوية. فقد استولى نظام رضا شاه على الأراضى من المساجد وحولها إلى ملاعب لكرة القدم. وبمرور الوقت أصبح حماس الدولة أشد. وبينما احتضن رضا شاه اللعبة لأسباب نظرية إلى حد كبير، فقد عشقها ابنه بحب كهواية. ولعبها ولى العهد محمد رضا بهلوى فى مدرسة روزى بسويسرا. وحين عاد إلى الوطن فى عام ١٩٣٦ لعب كمهاجم فى مدرسة الضباط التى التحق بها. وحين أجبر البريطانيون رضا شاه على التنازل عن عرش الطاووس لابنه فى عام ١٩٤١، بعد أن أقدم بغباء على إقامة علاقات حميمة مع النازيين، وضعوا على العرش أكبر متعصب لكرة القدم فى البلاد.

رغم بعد إيران عن كل من الجبهتين الآسيوية والأوروبية، عانى الاندفاع البهلوى تجاه الحداثة من نكسة كبيرة بسبب الاختلالات الاقتصادية الناجمة عن الحرب العالمية الثانية. وفى ظروف البلاد السيئة، أصبح النفوذ الأجنبى. وكان لا يزال هو النفوذ البريطانى مع تزايد النفوذ الأمريكى. بارزًا كما كان من قبل، وبلغ ذروته بالانقلاب الذى قادته الولايات المتحدة للإطاحة برئيس الوزراء المنتخب محمد مُصَدِّق فى عام ١٩٥٣.

وفى المدن، بدأت طبقة المثقفين الاشتراكيين ورجال الدين التقليديين تأكيد وجودهم. وكانت أمور مهمة خاصة بالدولة تشغل ذهن الشاه الجديد. ورغم ذلك، وباعتباره مشجعًا مخلصًا، لم يمكنه التغاضى عن الخسائر التى لحقت بالفريق القومى الإيرانى فى الخمسينيات. ولذلك بدأ فى تخصيص الموارد لخلق فريق عظيم.

فى العقد الثانى من حكمه، أثمر العمل الشاق، وكجزء من برنامج النظام المتواصل للنمو المحموم والتحديث، امتلأت المدن التى تحولت حديثًا إلى الصناعة بملايين المهاجرين من الأقاليم. وقد بدأ هؤلاء الوافدون، الذين يتمتعون لأول مرة بالراحة من العمل الشاق فى الزراعة، فى ملء أوقات فراغهم بكرة القدم. وكان المتحضرون حديثًا الذين لا يمكنهم الحصول على تذاكر لدخول الاستاد يشاهدون كرة القدم على شاشة التلفزيون؛ وهى الوسيلة التى ازدادت جماهيرية فى أواخر الستينيات. ولكن شعبية هذه الرياضة ترتكز على مباراة واحدة لُعبت ضد إسرائيل فى أعقاب حرب ١٩٦٧.

وعلى عكس سائر العالم الإسلامى، كان للإيرانيين تحالف هادئ مع الدولة اليهودية مخالف لصخب أواخر الستينيات. (كثيرًا ما حققت إسرائيل نجاحًا كبيرًا فى تنمية التحالفات غير العربية على حواف العالم الإسلامى). وبسبب هذا التحالف لم ينضم الإيرانيون إلى الدول المسلمة الأخرى التى رفضت حتى دخول المجال الرياضى مع الإسرائيليين.

وقد لُعبت المباراة ضمن دور الأربعة فى كأس الأمم الآسيوية. وبينما احتفظ النظام بعلاقات مع إسرائيل، لم يكن الشعب الإيرانى يتبنى الموقف نفسه على الإطلاق. وفى وقت سابق من الدورة، حين لعبت إسرائيل مع هونج كونج، رمى الإيرانيون المشجعين اليهود بالزجاجات. وكما قال هوتشانج شهابى، فقد كانت المباراة مع إسرائيل دراسة حالة فى القبح. فقد أطلق المشجعون البالونات المغطاة بالصليب المعقوف. كما هتفوا «الهدف الثانى فى الشبكة، مؤخرة موشى ديان المسكينة مشقوقة وملتهبة».



هناك نظريات كثيرة تفسر المنطق الذى وراء قرار الشاه السماح بإجراء هذه المباراة. ويقول إيرانيون كثيرون باقتناع إن الشاه نظم المباراة لتنفيس الشعور المعادى لإسرائيل بطريقة غير ضارة. ويؤكد آخرون أن الإسرائيليين جعلوا نتيجة المباراة ٢-١ مساندة لصديقهم الشاه. ومهما كان الأساس المنطقى لقرار الشاه، فقد اكتسب انتصار إيران أهمية أسطورية. وقد سجله المغنون الشعبيون فى أغنية. وأصبح اللاعبون شخصيات قومية يقلدها الأطفال فى آلاف من مباريات الكرة الشراب التى تقام فى الشوارع.

وإذا كان النظام استغل المباراة بذكاء ضد إسرائيل كى يدعم موقفه، فقد كان استغلاله أكثر وضوحًا فى السنوات التالية. وانتعشت اللعبة فى السبعينيات مع المنافسة المكثفة بين الأندية. وتعلق أفراد العائلة المالكة فى الشعبية الجديدة وبدءوا علانية تأييد نادى التاج. وللتغطية على قواعد الملكية، تعاطفت زوجة الشاه مع فريق بارسبوليس منافس التاج الكبير. ومع ارتباط الملكية الشديد هذا بكرة القدم، فمن المحتم أن يستهدف معارضو النظام الإسلاميين ذلك، وغالبًا ما كانوا يقاطعون المباريات لإعلان احتجاجاتهم.

وكان لنظام الشاه الكثير من الأخطاء، وخاصة التعامل مع معارضيه بوحشية لا سبيل إلى إنكارها. ولكن أكبر عيوبه، وهو العيب القاتل، هو برنامج الشاه الخاص بالتحديث. فقد كان يدفع بالبلاد بشدة، وبسرعة، كى تصبح حضرية وصناعية. فقد تم القضاء على قرون من الحياة الفارسية خلال جيل من التحول المحموم. إلا أنه حين طرد الثوريون الشاه فى عام ١٩٧٩ حاولوا بشدة القضاء على الرمز الرياضى لبرنامج التحديث هذا. فقد استولوا على ملعب كرة القدم فى جامعة طهران، واستخدموا الاستادات أماكن للصلاة فى يوم الجمعة. كما أمموا نوادى كرة القدم، وحولوا التاج إلى الاستقلال وبارسبوليس إلى بيروزى (النصر). وأوضح المتزمتون المتقشفون فى صحفهم ومنشوراتهم أنهم يعتبرون كرة القدم دعوة منحطة. ويقول شجب ثورى نمطى: «ألم يكن من الأفضل بدلاً من التصرف كالمهرجين مثل البريطانيين والأمريكيين من أجل «اللمعان» فى الحلبات الدولية أن يلمع - اللاعبون. فى صحبة أخوة... الجهاد فى قرانا، حيث تنقص أبسط أسباب الراحة؟ هل حلت كل مشاكلنا السياسية والاقتصادية والثقافية حتى نتحول إلى الرياضة؟».

[٤]

خلال فترة قصيرة جدًا نجح النظام الإسلامى بالفعل فى القضاء على الثقافة الشعبية الإيرانية، وتخلص من المغنيات والمطربين، رافضًا أى فيلم سينمائى يكشف عن قدر زائد عن الحد من اللحم. ولكن حين امتد ذلك الحظر إلى كرة القدم، أصبح من المستحيل الدفاع عن موقف النظام. فقد وضع الحكومة الجديدة فى معارضة مباشرة مع هواية كبيرة للشعب الإيرانى. وبسرعة كبيرة أدرك الملالى أن القضاء على كرة القدم لا يستحق ثمنه السياسى. وبما أن رجال الدين لم يتمكنوا من تدمير كرة القدم، فقد فعلوا ثانى أفضل شىء. ذلك أنهم حاولوا الاستفادة منها واستغلال اللعبة من أجل كل ما لها من قيمة. فقد اندس عملاء النظام بين جماهير المشجعين وحاولوا قيادة الهتافات التى تحمد الله. وجرب النظام كذلك وضع شعاراته على لوحات تحيط بالملعب. فبدلاً من الإعلان عن توشيبا وكوكاكولا، كانت اللوحات تصرخ قائلة: «فلتسقط الولايات المتحدة» و«لابد من تدمير إسرائيل».

لكن ربما لم تتخيل الحكومة بشكل جاد أن تلك الرسائل السياسية يمكن أن تنجح. ولو بطريقة لا شعورية. فى شد انتباه المشجعين. فالواقع أن الجماهير فعلت شيئًا قريبًا من عكس هز قبضاتها والصياح بالهتافات الإسلامية. فقد طردوا قادة الهتافات المتدينين خارج الاستاد. وكانت تلك رسالة لا لبس فيها لإخراج المسجد من الرياضة سمعتها الحكومة فى النهاية. وتوقف النظام عن الزج بالدعاية السياسية الموجهة فى كرة القدم. وبدأ يرسم مسارًا أكثر واقعية مع التركيز على تقليل خسائره والحد من التأثيرات غير الإسلامية التى تصاحب اللعبة. وكان فى ذلك شديد الحيلة والذكاء بشكل غير عادى. فقد أصر فى بعض المباريات على تأخير طفيف فى البث، بحيث يكون لدى الرقباء الوقت الكافى لمحو لغة الجماهير السيئة أو الرسائل السياسية



إنها أكثر من مجرد حدث. فثورة كرة القدم تمسك بمفتاح المستقبل فى الشرق الأوسط. وربما أمكن تصور هذا المستقبل فى ظل خفقان الراية القومية الموالية للإسلام

كتاب الزاوية



حب الوطن فرض عليّه

محمد يونس القاضى

حب الوطن فرض عليّه — أفديه بروحى وعينيه
ليه بس ناح البلبل ليه — فكرنى بالوطن الغالى
قضيت أعز شبابى فيه — وفيه حبايبى وعزالى
وإن شاف هوان والا أسية — أفديه بروحى وعينيه
يا مصر أنا رضعت هواك — بيجرى فى دمى
أحب نيلك وسماك — أنت أبويا إنت أمى
أرواحنا وشبابنا فداك — وفداكى روحى وعينيه
ماليش يا مصر حبيب غيرك — أميل إليه فى الدنيا دى
ونا اللى متربى فى خيرك — وإزاى راح أنسى هوا بلادى
ونيلك الحلو الصافى — أفديه بروحى وعينيه
حب الوطن فرض عليّه — ومن يلومنى فى حبه ده مين
ده ورده أحلى فى عنيه — من كل ورد تشوفه العين
يا أعيش كريم يا أموت كريم — وأفديه بروحى وعينيه
حب الوطن فرض عليّه — أفديه بروحى وعينيه

لا شك فى أن الحكام المستبدين القدامى قد أحدثوا قدراً كبيراً من الصداع، ولكن أمريكا كانت تعرف أساساً كيف تتعامل معهم. فقد استطاعت أن تقضى عليهم الواحد تلو الآخر



التى يمكن سماعها من خلال التلفزيون. وبالنسبة لمباريات أخرى، كان يخفف صياح الجماهير بطريقة إلكترونية ليصبح مجرد ضجيج مسموع وغير مفهوم. وأثناء كأس العالم لعام ١٩٩٨ كانت الحكومة الإيرانية تعيش فى حالة خوف من معارضيها فى المنفى، وخاصة جماعة من شبه الماركسيين تسمى «مجاهدى خلق» كانت تملأ الاستاد فى فرنسا، وكانت تأتى معها بالرايات وتعد الهتافات بعناية. ولتحاشى نقل رسائلها المدمرة بشكل يثير الارتباك، لم يكن التليفزيون الإيرانى يذيع أية لقطات للجمهور الحقيقى. بل كان يقوم بعمل مونتاج يضع من خلاله صوراً من مباريات سابقة، ولم تكن الصور مقنعة بصورة كبيرة. إذ كانت الجماهير التى يعرضها التلفزيون ترتدى المعاطف الشتوية الثقيلة، وهى الملابس التى لا تتناسب بحال من الأحوال مع فرنسا فى شهر يونيو.

فما الذى يخشاه النظام إذن من كرة القدم؟ فى مشهد كوميدى مؤثر فى فيلم للمخرج عباس كياروستامى «الحياة تمضى» الذى تدور أحداثه فى اعقاب وقوع زلزال، يكافح الرجال لضبط الهوائى لاستقبال مباراة بين النمسا واسكوتلندا. ولابد من ملاحظة أن هاتين ليستا من بين عمالقة كرة القدم المعاصرة. وهذا هو المثير فى الأمر. فالإيرانيون يرغبون بشدة فى مشاهدة كرة القدم الدولية لأنها تربطهم بالغرب المتقدم الرأسمالى غير المسلم. وحين تذاع مباريات من كأس العالم، لا يمكنهم تحاشى اللافتات الموضوعة على جانب الملعب تعلن عن «بلاى ستيشن» و«دوريتوس» و«نايكى» وهذا أسلوب حياة محظور على الإيرانيين الانضمام إليه. وهذه الصلة يدركها المحافظون. وفى صحفهم يطمس من يقومون بعمل مونتاج للصور الفوتوغرافية الإعلانات التى تمجد الملابس الغربية.

مرة أخرى، ليس هناك سوى ذلك القدر الكبير من الحد من الأضرار الذى يمكن للمحافظين القيام به. ذلك أن بإمكانهم طمس الإعلانات وليس اللاعبين أنفسهم. فأية صورة لديفيد بيكام، على سبيل المثال، بشعره الذى تتنوع تسريحاته بين «بظ» و«موهوك» و«ديل الحصان»، تمثل فكرة الحرية. وهى الفكرة التى وعاها اللاعبون الإيرانيون. وبلا استثناء تقريباً، يلعب أفراد الفريق القومى بلا لحى وبشعر جرى تسريحه بعناية. وهم يحظون بحب كبير، واحترف كثير منهم اللعب فى ألمانيا وإنجلترا وسنغافورة، وغيرها من مواقع الاقتصاد الكونى المتقدمة. ولم يمكنهم أن يكونوا أكثر اختلافاً عن نموذج الرجولة الإيرانية المتدينة الذى يود رجال الدين فى مدينة قُم المقدسة نقله.

[٥]

أبرزت انتخابات الرئاسة فى عام ١٩٩٧ الأمل الأبيض الكبير، وهو رجل الدين والمفكر محمد خاتمى. وكان خاتمى قد أيد فى كتاباته تطابق الإسلام والليبرالية. وكان مؤيدوه يحلمون بصوت عال بأن يؤدى انتخابه إلى حقبة جديدة من الديمقراطية والمجتمع المدنى وحرية التعبير وحقوق أكبر للمرأة. وبينما كانت آمال الكثير من الإيرانيين ترتكز على خاتمى، فلم يسمح معظمهم بقدر أكثر من اللازم من التفاؤل. إذ كان خاتمى الجواد المتوقع خسارته فى السباق. ذلك أن منافسه على أكبر ناطق نورى، وهو رجل دين كذلك، جاء بمباركة المرشد الأعلى آية الله خامنه إى، وكان يمثل قوى النزعة المحافظة فى المؤسسة الحاكمة. وفى إيران يمكن لرجال الدين، متى شاءوا تقريباً، مد ذراعهم الطويلة باستخدام الميليشيات لشق طريقهم بالقوة.

أبرز خاتمى أجزاء من أجندة أكثر ليبرالية. ولكن الخطاب السياسى الإيرانى ليس سوقاً نموذجية للأفكار. فهناك بعض الأفكار التى لا يمكن الجهر بها. فلا بد من نقلها بطريقة ضمنية وباستخدام الرموز، مثل الأبطال الرياضيين المحيطين بالمرشح.

من بين ألعاب وأنشطة وقت الفراغ الإيرانية نجد أن أقدمها وأكثرها احتراماً هو «زورخانه» أو دار القوة. وبشكل أكثر تحديداً ليست «زورخانه» رياضة وإنما



الحل الكروى للطموحات الإسلامية

صالة ألعاب تمارس فيها الرياضة. وهى ألعاب محلية تشمل حمل الأشياء الثقيلة وعروض القوة الوحشية الأخرى التى تشبه المصارعة ورفع الأثقال. وطقوس «زورخانه» محددة بعناية. فالحركات تبدأ بمدح آل البيت. وبسبب هذه الأصول الإسلامية، فلدى المحافظين الإيرانيين انجذاب لا يدعو للدهشة نحو «زورخانه». وتخصص صحفهم أكواماً من التغطية للرياضة. وتتجاهل كرة القدم بشكل أساسى. والتقى ناطق نورى فى حملته الانتخابية بالمصارعين وأشاع حبه للرياضة على نطاق واسع.



كان ناطق نورى قد حول نفسه دون أن يدرى إلى سيف ماض فى يد خاتمى. فبدون أن يُضطر خاتمى إلى نطق الكثير من الكلمات عن الديمقراطية أو الغرب، استطاع أن يثبت نفسه للإيرانيين المتعطشين للإصلاح عن طريق الانحياز إلى استاد كرة القدم. فقد أحاط خاتمى نفسه باللاعبين المشهورين الذين أيدوه. وما من سبيل لقياس الأثر المطلق لهذه الإستراتيجية. ولكن المنطق واضح وضوحاً كافياً. فقد كان أهل البلاد من الشباب الناشئ فى إيران ينظرون إلى الغرب وإلى كرة القدم كمصدر للإلهام. فقد كانوا ينظرون إلى التحالف مع كرة القدم على أنه يشير إلى المكان الذى ترتكز عليه مشاعر خاتمى. وفى النهاية فاجأ خاتمى الجمهور وحصل على الرئاسة.

ولكن الحصول على الرئاسة وتحقيق آمال مؤيديك العليا أمران مختلفان. ومن سوء الحظ أن خاتمى لم يمكنه قط تحقيق أحلام الشباب الإيرانى ذى الميول العلمانية، لأنه لم يكن قط ذلك المخلوق الذى تخيلوه. فقد كان مفكراً ليست لديه الشجاعة أو القوة كى يتحدى رجال الدين الحاكمين تحدياً تاماً. والأهم من ذلك أنه نفسه كان رجل دين تقليدياً.

خلال السنوات الثلاث الماضية، كان السخط على خاتمى يخرج من مكمنه من حين لآخر. وقد أعقب الكثير من مناسبات السخط تلك كأس العالم. أى المباريات المتصلة به. وكما يحدث دائماً، حاول النظام استباق تلك الانفجارات بإشارات نموذجية. فبعد مباراة مهمة تؤهل لكأس العالم لعام ٢٠٠٢، صنعت الحكومة كعكة باستخدام ١٢ ألف بيضة وزعتها فى أنحاء طهران فى شاحنات مبردة. ولكن الحلوى لم تكن كافية لاستعادة ولاء الشباب. فقد بدأوا البحث عن بديل لكل من الملالى المحافظين والملالى الإصلاحيين مثل خاتمى. وحتى الآن لم يتخذ البديل شكلاً واضحاً، إلا أن هناك أمارات تدل على الاتجاه. فهناك حنين قوى بين الشباب إلى أيام الشاه، حتى وإن لم يعيشوا هم أنفسهم تلك الأيام. وتوزع الأشرطة المهربة للنجوم الشعبيين من الماضى على نطاق واسع. وهاهى ربطة العنق تُبعث من جديد. إنه نفس الدافع الذى وراء ثورات كرة القدم التى تهتف باسم ابن الشاه.

فما الذى ينبغى أن يحققه الغرب من ثورة كرة القدم؟ المقبول ظاهرياً أنها تمثل التحدى الحتمى الذى تشكله العولمة للإسلام. ولكن هذه ليست القصة كاملة. فكُرَة القدم تحقق نجاحاً كبيراً فى العالم الإسلامى دون أن تلغى التشدد. وهاهو حزب الله يرعى فريق كرة قدم فى لبنان، وكان فيما مضى قد اشترى حقوق بث كأس الأمم الأفريقية لشبكة الإذاعة الخاصة به. كما استوردت دول الخليج العربى ذات التوجه الوهابى نجوم الغرب العواجيز للعب فى بطولات الدورى الخاصة بها. وقد شيدت الملاعب الفخمة بالرخام وورق الذهب، مثل استاد الملك فهد الدولى المهيب بالرياض ذى التأثير البدوى.

إن ما يجعل ثورة كرة القدم مختلفة هو أنها دخلت بهدوء فى العاطفة القومية وحولتها ضد الدولة. ذلك أن الإخلاص الإيرانى للإسلام فى عظم الإخلاص الإيرانى لإيران. فدائماً لم يكن الاثنان الشىء نفسه، وهناك تاريخ قريب من العلمانية القومية، العلمانية التى تقوم مقام البديل. قد لا تكون البديل الأمثل، ولكنها سوف يجب أن تكون كذلك فى الوقت الراهن. ■

كتاب الزاوية



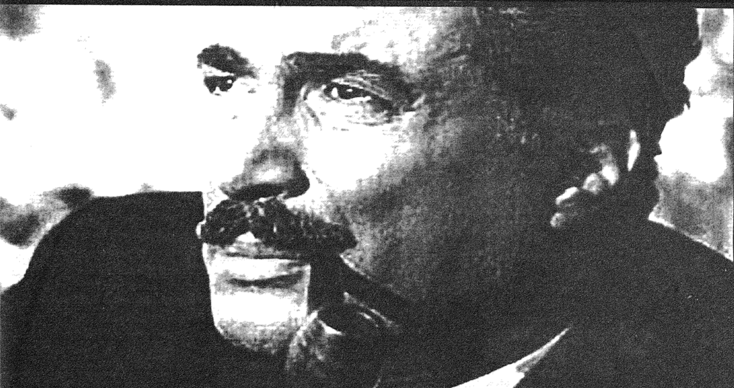
زورونى كل سنة مرة

محمد يونس القاضى

زورونى كل سنة مرة   حرام تنسونى بالمرة
أنا عملت إيه فيكم   تشاكونى وأشاكيكم
أنا طول عمرى أداديكم   حرام تنسونى بالمرة
يا كبدى ع اللى مالوش حد   بطول عمره يقاسى الوجد
وتنزل دمعته ع الخد   حرام تنسونى بالمرة

أنا هويت وانتهيت

أنا هويت وانتهيت   وليه بقى لوم العزول
يجب إنى أقول يا ريت   الحب ده عنى يزول
مادمت أنا بهجره ارتضيت   خلى بقى اللى يلوم يلوم
أنا وحبيبى فى الغرام   مافيش كده ولا فى المنام
أحبه حتى فى الخصام   وبُعده عنى يا ناس حرام
مادمت أنا بهجره ارتضيت   منى على الدنيا السلام



أفكـــار غائبـــة
أو مفتعـــلـة
أو سطحية
سينما بلا هوية!







ســـــــينما بلا هــــــويــة!

ســــعـــد الـــــقـــرش

■■ هل يمكن أن تكون للسينما قومية وهوية؟
وهل مطلوب منها ذلك؟
هذا مقال يقدم «وجهة نظر» فى الموضوع من خلال قراءة لتاريخ السينما ولعدد من الأفلام المصرية والعربية.

بعد مرور نحو مائة عام على بدايات فن الرواية العربية، حصل نجيب محفوظ على أرفع جائزة عالمية فى الآداب، (جائزة نوبل عام ١٩٨٨). ولكن السينما العربية لم تستغرق هذا الوقت، كى تعبُر الضفة الأخرى من العالم، بمشاركات مشرِّفة فى مهرجانات دولية، حصل بعضها على جوائز. وقبل مشاركة هذه الأفلام، ممثلة العالم العربى، إلى جانب أعمال من دول راسخة فى الإنتاج السينمائى، كان الجمهور المحلى قد تجاوب مع الفن الجديد، الذى جمع أفضل ما فى الفنون الستة السابقة؛ فلأول مرة يجد الناس، على اختلاف مستوياتهم الثقافية والاجتماعية والطبقية، فناً يصلح لمخاطبة الجميع، ولا يملك أحد إزاءه حق ادعاء فهم فن موجه للنخبة، أو التعالى باحتكار ملكية عمل إبداعى، فى صالونات البيوت.

ولدت السينما بعافية مستمدة من خبرة مبدعى الفنون الأخرى، لتنطلق مباشرة من الاستوديوهات إلى الشارع.

فإلى أى مدى ساعدت الأفلام العربية جمهورها، الذى كان من بين أهم أسباب نجاحها التجارى، فى رفع وعيه، وتنبيهه إلى حقوقه السياسية والثقافية والجمالية؟

كان بالإمكان أن يحدث ذلك، لو توفر فائض وعى وطنى وثقافى، لدى رواد هذه «الصناعة». ولكن كثيرين منهم لم يفعلوا؛ إما لأنهم يريدون الربح السريع وحده، أو أن لهم قضية وهماً، كما فى حالة بعض رائدات السينما المصرية، وتنقصهم المعرفة الثقافية السابقة على السينما، فضلاً عن عدم الإيمان بالجمهور، أو المعرفة به.

والآن وبعد هذه السنين، ورغم الاعتراف بجهد كل من وضع لَبِنة، فى صرح السينما العربية، يمكن القول إنها، رغم المحاولات المهمة شكلاً ومضموناً، أخطأت فى حق الجمهور، ولم تتبن قضاياه الحقيقية، وأضاعت سنوات من عمر الوطن، فى أفلام يُغنى بعضها عن الآخر، ولا تضيف كثيراً إلى رصيد جماليات السينما، أو تنبيه الشارع إلى حقوقه.

كانت البدايات لأجانب، مقيمين أو عابرين أو مستثمرين، إلى أن انتبه اقتصاديون وطنيون ومثقفون، إلى خطورة هذا الفن، وأهميته فى تشكيل الوعى العام، فأنشأوا الاستوديوهات، فى مقدمتها ستوديو مصر، على يد الاقتصادى المصرى طلعت حرب.

وتنهض السينما العربية فى هذه المهمة القومية، على وعى صانعيها وثقافتهم، فلم يعودوا هواة، بل متخصصين، يحملون فى ذاكرتهم تاريخاً يمتد آلاف السنين، ورصيداً سينمائياً بعضه يتصدى للمقارنة بما تقدمه الدول الكبرى سينمائياً.

ويعى المثقفون من السينمائيين العرب، أن العالم لم يعد يريد منا أفلاماً، ليفهم بها كيف نفكر، على غرار روايات عربية تستهدف إثارة دهشة القارئ الغربى، وتكرس صورتنا الذهنية السيئة، وغير الحقيقية فى إدراكه الجمعى التاريخى، حيث تجد هذه الأعمال رواجاً، لأنها كتبت على مقاس خياله «الاستشراقى»، وبالطريقة التى تمنى هو أن يكتب بها عنا.

السينما القومية التى نطمح إلى أن تكون تياراً، وليس مجرد تجارب لمبدعين أفراد، لا يريدها العالم أن تكون بالطبع نسخة سبق أن صدرها إلينا، بل صيغة جمالية، لا تشبه إلا نفسها. وتحمل رائحة تاريخنا، وهمومنا الخاصة، باعتبارها من بين القضايا التى تؤكد أشواق الإنسان، إلى الحب والخير والعدل والجمال. وتجمع الخاص والعام، المحلى والخارجى، فى لغة لا تتجاهل المدارس والتيارات السينمائية والثقافية العالمية، وتبدع لنفسها نهجاً خاصاً، يدل عليها مثل بصمات الأصابع.

عن الهوية القومية والسينما

قبل البحث عن هوية قومية للسينما العربية، ينبغى التسليم بأن هذه السينما ليست كتلة متجانسة، ولا يصح النظر إليها كمعنى كلى مطلق، بل كتيارات وتوجهات، تتأثر بالمعطيات المحيطة بكل بلد، وبتغيراتها فى البلد نفسه، بل فى أفلام المخرج الواحد.

والهوية القومية للسينما لا تعنى أن يتبنى المخرج، وهو المسئول الأول عن الفيلم، شعارات وطنية زاعقة، أو الإثقال على الفيلم بقضايا ذهنية، تحول دون المتعة، وهى الشرط الأول للفن، بقدر ما تعنى امتلاك المخرج حداً أدنى من الوعى، بشروط الفن والحرفة والانتماء معاً، فالفيلم الجيد وطن وهوية، مادام يتمتع بالصدق الفنى، ولا يهم كثيراً «ماذا يقول»، بل «كيف» تُحكى الحكاية.

ولا يكتسب الفيلم، أو الفن عموماً، صفة «العالمية» التى تتردد بلا معنى، منذ حصل نجيب محفوظ على نوبل. إلا من قدرة مخرجه على التوجه إلى الإنسان عموماً، بغض النظر عن لغة الفيلم. ولا تتحقق العالمية، إلا من الوعى بالهوية القومية، حين يستوعب المخرج تراثه الحضارى، وقضاياه الآنية، فى رؤية لا تتشابه مع غيرها، وإنما تكون هى ما هى، أى تدل على نفسها، حتى يقول المشاهد: «هذا فيلم عربى»، ثم يزداد التخصيص، فيقول فيلم مصرى أو سورى أو تونسى.

ولأن انتقاد السينما والسينمائيين، فى كل مكان، لم يكن بحاجة إلى تخصص أو تعب، إذ يسهل توجيه أصابع الاتهام بإدانة من تشاء، فإن المدخل الأهم يجب أن ينصب على مدى وجود تيار قومى عربى قبل اختراع السينما، وامتداده فى الفكر العربى.

إن طرح سؤال الهوية يؤكد أزمة مزمنة، فالأمم فى مرحلة الصعود، لا تنشغل إلا بالبناء، والزهو بالتحقق، والرغبة فى الإضافة، والنظر إلى أعلى، والتفاعل المتكافىء مع القوى الأخرى. أما فى مراحل الضعف، فيتم الاكتفاء بعقد مؤتمرات وندوات، تعويضية ذات طابع دفاعى، عن الجذور والانتماء والهوية..إلخ.

وإذا قلنا «سينما عربية»، فإن لمصر منها النصيب الأكبر. فهل كانت لدى السينمائى المصرى، منذ البداية، الدراية الكافية بأهمية هذا الفن وخطورته، على مدى نحو مائة عام؟

فى نهاية القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، كانت التيارات الفكرية العربية متعارضة، بين المشرقيين والمغاربة والمصريين، لدرجة التصادم، وبينهم ضاع مفهوم العروبة، ولم يجد من يتحمس لبلورته كمصطلح؛ فقد كان المفكر التونسى خير الدين التونسى (١٨١٠ / ١٨٨٩ م) بعيداً عن روح القومية الحديثة التى تعتبر كل أمة فريدة بحد ذاتها. فما يقوله عن الأمة العربية ينطبق على جميع الأمم الإسلامية.

فى حين كان مفكر مثل شبلى شميل (١٨٥٠ / ١٩١٧ م) يتوق إلى اليوتوبيا بالدعوة إلى الوطنية العالمية بديلاً للتضامن الدينى والرابطة القومية، وقد قاده موقفه إلى مساندة وجهة نظر الاحتلال الإنجليزى بشأن مد امتياز قناة السويس عند مناقشته فى مجلس التشريع فى سنة ١٩٠٩.

ولعل مصطلح (الأمة العربية) يعود إلى المفكر الكاثوليكى السورى نجيب عازورى (١٨٧٠ / ١٩١٦ م) الذى نشر فى باريس عام ١٩٠٥ كتاب (يقظة الأمة العربية) ونادى فيه بأن تكون «بلاد العرب للعرب»، مؤكداً أن المصريين «غير جديرين بعد بأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وعليهم أن يكونوا شاكرين على تمتعهم بإدارة بريطانية صالحة».

وشأن معظم الذين يدعون امتلاك الحقيقة المطلقة، ويفرضون الوصاية على التوجه المستقبلى، لمصر وغيرها، كان المثقفون العرب فى ذلك الوقت. ولا أدرى هل كان أحمد لطفى السيد (١٨٧٢ / ١٩٦٣) فى دعوته المصرية، ينطلق من رد فعل لمحاولات فرض الوصاية، أم أنه كان مقتنعاً بفكرة عدم اعتبار المصريين جزءاً من الأمة العربية.

ووسط الغلاة، من دعاة الشوفينية المصرية، و«الوطنية العالمية»، كان صاحب صحيفة (المؤيد) الشيخ على يوسف (١٨٦٣ / ١٩١٣ م) يريد ألا يغضب أحداً بتأكيده على أن «القطر المصرى قبلة الشعوب العربية وروح نهضتها المنتظرة، فهى ترقبه كما يرقب الملاح إبرة البوصلة التى أمامه ليهتدى بها وينعطف إلى الجهة التى تدل عليها».

ولم يقتنع الذين دعوا إلى عزل مصر عن محيطها العربى، بكفاية اللغة دليلاً على عروبتها، فاللسان الفرنسى فى الجزائر لا يعنى فرنسة البلد، و اللغة الإنجليزية فى الولايات المتحدة لا تؤكد أن الثقافة الأمريكية، إن وجدت، إنجليزية الهوى أو الهوية؛ فاللغات «لم تصنع التاريخ القومى، بل التاريخ «القومى» هو الذى صنع هذه اللغات. المجتمعات التى تشعر بهوية واحدة كانت فى الواقع تخلق لغة خاصة بها إن لم تجد لغة متوفرة لها».(د. نديم البيطار. حدود الهوية القومية).

كانت المرحلة التاريخية شديدة الاضطراب، وفى ضباب معاركها غير المتكافئة، يسهل الخلط، بحسن نية أو بسوء؛ فقد كانت معظم الدول العربية تحت الاحتلال، أو مرشحة له، أو للحماية، تمهيداً لإعلان حرب أوروبية، أطلق عليها ظلماً (الحرب العالمية الأولى). ولم يكن



. «يعنى ايه كلمة وطن ؟
يعنى أرض ؟، حدود ؟، مكان ؟
ولا حالة م الشجن ؟»

(أمريكا شيكا بيكا)



الاتصال بين الشعوب العربية ميسوراً، ولعل هذا ما دفع مفكرى كل بلد، للتفكير فى تاريخه الخاص، وتراكم خبراته وثقافاته، وصولاً إلى حد أدنى من الاطمئنان، إلى وجود هوية قُطرية.

وبينما كانت معارك الصالونات بين المثقفين العرب دائرة، فى العواصم العربية والأوروبية، كان الشارع المصرى غائباً عنها أو مغيباً، إذ «تجنبت كل الحركات القومية، أو القُطرية ذات الطابع السياسى فى المشرق العربى منذ البداية الدخول إلى ساحة مصر الملكية، وربما إلى ساحة مصر الجمهورية أيضاً بعد ثورة ١٩٥٢.. ولعل ذلك يعكس فى مجمله غيبة هذه الحركات عن الشعب المصرى الذى كان مشغولاً بمقاومة الاحتلال البريطانى فى إطار الوطنية المصرية». حتى حزب الوفد، وهو أول حزب شعبى مصرى يحظى بالأغلبية، فى الحياة السياسية المصرية، فى النصف الأول من القرن العشرين، «لم يكن بطبيعته، خصوصا فى سنواته الأولى متحمساً للاتجاهات العربية».

ويفرق الدكتور عبد العظيم أنيس بين تحفظ قيادات ثورة ١٩١٩ فى مصر إزاء الفكر القومى العربى المشرقى، وتعاطف المصريين الشديد مع نضال الشعوب العربية، فى المشرق ضد الاستعمار، بعد الحرب العالمية الأولى، موضحاً أن هذا التعاطف كان شيئاً مختلفاً عن الالتزام القومى بالمعنى المعروف فى المشرق، وبقى التيار الليبرالى المصرى مرتبطاً بفكرة الوطنية المصرية، التى أعادها أدباء مثل توفيق الحكيم إلى جذورها الفرعونية فى (عودة الروح)، كما أعادها طه حسين ثقافياً إلى جذور بحر متوسطية فى كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر).

ولعل نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ كانت بداية اهتمام الشارع المصرى بالشأن العربى العام، حيث قامت مظاهرات بالقاهرة يوم السبت الثالث من مارس عام ١٩٥١، احتجاجاً على حصار قوات فرنسية قصر السلطان محمد الخامس فى المغرب، وأصدرت جماعة العلماء بالأزهر الشريف بياناً تطلب فيه مقاطعة كل ما هو فرنسى، «واعتبرت فرنسا أن مصر تتحمل مسئولية كبرى فى الاضطرابات (فى المغرب) وتشجيعها واتهمتها بأنها تتدخل بذلك فى شئون فرنسا الداخلية، بل إن المقيم الفرنسى فى مراكش أدلى بتصريح للصحف الفرنسية فى ٧ مارس ١٩٥١. نشرته صحيفة (المصرى) القاهرية. قال فيه: وإذا كان هناك أى هياج، فإنه فى القاهرة. والشعب المصرى هو الذى سيدفع الثمن».

فى تلك الأجواء، هل كنا ننتظر من السينما، فى ذلك الوقت المبكر، أن تتبنى قضايا ذات توجهات عروبية؟

وليس فى مراجعة السينما العربية الآن، أى تعسف، بمطالبتها مثلاً بخصوصية قومية ما، كما أن هذا الطموح، إن وجد، لا يسىء للسينما أو السينمائيين العرب، الذين صنعوا فى سنوات لاحقة، أفلاماً ذات توجهات وطنية أو قومية أو تحررية، ذات أبعاد إنسانية، من دون التنازل عن شروط الفن. ولاتزال بعض هذه الأفلام تتصدى لاختبار الزمن، خاصة ما كان منها لمخرجين يملكون الوعى بأنهم لا يخاطبون جمهور أزمة، ولايرصدون حدثاً مؤقتاً، يفقد الفيلم بعده قيمته الفنية، التى يفترض أنها صالحة لجيل لم يولد بعد.

وربما أمكن تفسير غياب الرؤية الوطنية عن كثير من الأفلام العربية، فى النصف الأول من القرن العشرين، بعدم وجود تاريخ طويل للطبقة المتوسطة، التى كان بإمكانها أن تختصر سنوات من عمر هذه السينما، ورغم وجود ممثلين لهذه الطبقة، فقد ظلوا مجرد ممثلين لها، وغير مؤثرين على المستوى العام. كما أن السينما «عندنا لم تبدأ فناً وإنما بدأت حرفة»، ومن المتوقع أن تكون السينما التى يصنعها «حرفيون متخلفون فكرياً، على مقاس صانعيها، وهم غالباً «بلا قضية جاءوا إلى السينما ليعبروا عنها ولا يؤمنون بهذا الإنسان الذى يصنعون من أجله سينماهم».

ومن يراجع مضمون أفلام السنوات العشرين الأولى، من عمر السينما المصرية، يجد بيسر اتجاهاً قوياً لإطالة مدى الظروف غير الآدمية للمواطنين، الذين أصبحوا أقرب إلى الرعايا، فى بلد لايخص إلا الأثرياء، سياسياً واجتماعياً ومالياً؛ وكانوا هم المستفيدين من سينما تميل إلى تخدير البسطاء، ولا يرغب صانعوها فى توعيتهم، وربما لا يملكون القدرة على أداء هذا الدور أصلاً. هذا يؤكد أن «تاريخ السينما المصرية لا يعدو أن يكون تاريخاً تجارياً.. تاريخاً لإثارة غرائز الجمهور بكل الوسائل سعياً وراء الكسب المادى».

وإذا كانت السينما العربية، كأحد مصادر البهجة الشعبية، قد تجاهلت السياسة، والقضايا الكبرى، فى السنوات الأولى، فإن عيون رجال الحكم كانت شديدة اليقظة، تحسباً لمغامرة مخرج بإثارة قضايا فساد الحكم، وهذا يثبت إدراك الساسة لخطورة السينما فى تشكيل الوعى العام، وقدرتها على التأثير، كما حدث حين صدور فيلم (لاشين)، الذى أخرجه فريتز كرامب، عام ١٩٣٨، (جاء ترتيب الفيلم رقم ٢٢ فى قائمة أحسن فيلم مصرى، التى اختارها سينمائيون مصريون عام ١٩٩٦، بمناسبة الاحتفال بمئوية السينما)، وصودر الفيلم بحجة أن به مساساً بالذات الملكية ونظام الحكم، حيث يتناول فساد أحد الحكام، وغضبه على شاب مخلص، بتدبير اتهام، ينتهى به إلى السجن، فيثور الشعب، ويخرج الشاب الوطنى من سجنه، وتعم العدالة.

وكان مقرراً عرض الفيلم فى الأشهر الأولى من عام ١٩٣٨، ولكن منتج الفيلم، ستوديو مصر أجبر على تغيير النهاية التى انتصر فيها السلطان العادل (بدلاً من قتله) وحظى بحب الشعب بعد سحق المؤامرة والمتآمرين. وأعيد عرض الفيلم مرة أخرى فى ١٤ / ١١ / ١٩٣٨.

ولم يكن (لاشين) أول فيلم مصرى يؤكد خوف مؤسسة الحكم من الفن، وتربصها به، فقد سبقه، عام ١٩٣٧، فيلم (ليلى بنت الصحراء) الذى قامت ببطولته وأخرجته بهيجة حافظ (١٩٠٨ / ١٩٨٣)، وتدور أحداثه حول محاولات كسرى أنو شروان اغتصاب فتاة عربية، ولكنها تقاومه. ومن المصادفات السيئة قبل عرض الفيلم، أن تزوج شاه إيران الأميرة فوزية، شقيقة ملك مصر آنذاك. ومنع عرضه، ودفعت الحكومة المصرية تعويضاً مالياً للسيدة بهيجة حافظ بسبب خسائرها الناجمة عن منع عرض الفيلم، وتم اختصار بعض مشاهد الفيلم، وتغيير اسمه إلى (ليلى البدوية)، قبل إعادة عرضه، يوم ١٣ / ٣ / ١٩٤٤.

وبعد معركة السلطة مع هذين الفيلمين، تجنب صناع الأفلام الاقتراب من السياسة، إلا قليلاً، وجاءت معالجاتهم فى حدود لا تثير جهاز الحكم، المتأهب لهدم البهجة، والتضحية بالصناعة معاً، إلى أن حلت نكبة فلسطين عام ١٩٤٨، فبدأ اللجوء إلى أفلام تمتص الغضب الشعبى، كفرصة لإنقاذ شرف السينما والحكم الفاسد أيضاً.

وعقب تأميم قناة السويس، عام ١٩٥٦، سعت السينما العربية، مدفوعة بفورة حماسة مستمدة من الزهو الوطنى، عبر أفلام متفاوتة المستوى، إلى إنتاج أعمال تخرج من حدود الشوفينية المحلية، نحو آفاق قومية، ولو بإعادة معالجة قضايا وحوادث تاريخية قديمة، على نحو يرضى «سلطة قائمة». ففى (الناصر صلاح الدين)، الذى أخرجه يوسف شاهين وعرض عام ١٩٦٣، كانت معظم جمل الحوار مكتوبة على مقاس جمال عبد الناصر شخصياً، ومنها:

. «يا سلطان العرب»، (وكان الإسلام آنذاك هو كلمة السر والسحر).

. «يا منقذ العروبة»، (أية عروبة فى زمن صلاح الدين الأيوبى / الكردى؟)، حتى تستطيع أن تقرأ اسم الفيلم هكذا: جمال عبد «الناصر صلاح الدين».

وإذا كان مصطلح «العروبة» شاذاً ومتعسفاً، ويلوى عنق الحقيقة التاريخية، بحسن نية، فى فيلم (الناصر صلاح الدين)، فإن فيلم (ناصر ٥٦) الذى أخرجه محمد فاضل وعرض عام ١٩٩٦، يلمح فى نهايته، إلى وجود «الشارع العربى» بكثير من الصدق الفنى، فى حوار بين عبد الحكيم عامر وجمال عبد الناصر بعد إعلانه تأميم شركة قناة السويس، وكانت أصداء القرار وتبعاته أكثر صعوبة مما قدر الثوار، وأوضح ناصر طبيعة المعركة التى بدأت، فيما بعد، بشن العدوان الثلاثى (الإسرائيلى / البريطانى / الفرنسى):

. «الأسلحة اللى فى ايدينا أقل وأنبل..
والأسلحة اللى فى ايديهم أكتر وأسوأ».

وسوف يظل عبد الناصر، لخمسين عاماً تالية، موضع اختلاف واتفاق السينمائيين العرب، لدرجة أن يستهين مواطن سورى، فى فيلم (رؤى حالمة) للمخرجة السورية واحة الراهب، بمظاهرات الغضب الشعبية، فى الشارع الذى رفض تنحى عبد الناصر، بعد هزيمة يونيو حزيران عام ١٩٦٧، ويقول لبطل الفيلم، وهو ناصرى الهوى:

. «فليحرّرنا منه (عبد الناصر) أولاً، وبعدها نقاتل معه».

إن الوطن يكتسب أهميته من البشر، الذين يستحقهم أو يستحقونه، والمواطنة كالأبوة ليست منحة من أحد، أباً كان أم مسئولاً؛ ففى فيلم خيرى بشارة (أمريكا شيكا بيكا)، الذى عرض عام ١٩٩٣، يشعر عدد من الشباب بالهوان، والضياع الجسدى والنفسى، فى غابات رومانيا، فى طريق أوهمهم أحد اللصوص الجدد فى مصر، بأنه سيصل بهم إلى الولايات المتحدة، لتحقيق أحلامهم هناك، ويموت أحدهم ويتعرضون للسطو والمهانة، فيصرخ أحدهم متسائلاً:

. «يعنى ايه كلمة وطن ؟
يعنى أرض ؟، حدود ؟، مكان ؟
ولا حالة م الشجن ؟».

وحين تنهار العلاقات

سينما بلا هوية!



بين أبناء الأسرة، فى فيلم يوسف شاهين (عودة الابن الضال)، الذى عرض عام ١٩٧٦، ويفتقدون الحد الأدنى للغة حوار تصلح للتفاهم، تنتهى الأحداث بمذبحة تأتى على الجيل القديم، الذى أوصلهم إلى هذه المأساة، ولا يستطيع أن يجد حلاً. ويبقى هذا الأمل رهناً بقدرة الناجيين من المذبحة: فتى وفتاة يتأهبان لدخول الجامعة.

هذا الوطن، الذى نتنفسه ونرتديه تحت جلودنا، من المستحيل نزعه أو التبرؤ منه، وفى فيلم محمد فاضل (حب فى الزنزانة)، الذى عرض عام ١٩٨٣، يضيق الحبيبان بمطاردات الشرطة، وظلم لصوص الانفتاح، ويصبح الوطن طارداً، لا يسع اثنين ينشدان الأمان. ويلتمسان هذا الأمان فى الهجرة، ويدبر لهما شخص جوازى سفر، يمكنهما من المغادرة بسلام، ويسألها عن البلد الذى يعجبها، وتفضل أن تعيش به، فتقول بعفوية وسرعة:

.«ما هى دى البلد اللى تعجبنى».

ولكن..

هل فشلت التيارات القومية والحركات السينمائية فى بلورة ملامح سينما عربية؟

يصعب التعميم؛ لأن السينما فن جماهيرى يحقق ديموقراطية المشاهدة، بقدر ما يؤكد خصوصية كل مخرج، فى صياغة فيلمه بأدوات جمالية وفكرية، لا تتجاهل الظروف المحلية، كما تتفاعل مع العصر، فى صيغة تدل على المخرج وعلى انتمائه القومى معاً.

فلسطين.. تحولات القضية

عبر نحو أربعة آلاف فيلم، منذ بدأ إنتاج أفلام روائية عربية، لم تطرح السينما قضية فلسطين، بصورة تناسب مأساة، ستصبح جرحاً مزمناً، يستهلك أجيالاً من المشاهدين، والسينمائيين، والدبلوماسيين، والعسكريين، والخانعين، والخونة، بعد انتهاء زمن الثوار.

جاءت البداية بفيلم (فتاة من فلسطين)، ويحمل رقم ٣٧٧ فى ترتيب إنتاج السينما العربية، وعرض فى الأول من نوفمبر عام ١٩٤٨، وأخرجه وقام ببطولته محمود ذو الفقار (المصرى) (١٩١٢ / ١٩٧٠)، أمام المطربة السورية سعاد محمد. ويحكى قصة حب بين طيار مصرى وابنة خالته التى قتل الإسرائيليون أباها. وخلال مشاركة البطل فى حرب ١٩٤٨، تسقط طائرته، فى قرية فلسطينية، ويعالج فى بيت فتاة فلسطينية، كان مركزاً لإمداد الفدائيين بالسلاح، ولكنه يصاب بعاهة مستديمة، ويقع فى صراع نفسى، يدفعه للإعراض عن التفكير فى الارتباط بمن عجز عن الانتقام لها فى الحرب، من قتلة أبيها، إلا أنها لاتزال تعتبره بطلاً، أدى واجبه الوطنى، وأمامه رسالة أخرى فى الحياة، تتلخص فى تحقيق السعادة لنفسه ولها، بتكوين أسرة، تكون ذخيرة، لنضال قادم، وتؤكد له أن «عاهات الحروب زينة الأبطال».

أنتج فيلم (فتاة من فلسطين) بمبادرة من صناع سينما وطنيين، أدركوا أنهم يقومون بدور فى إيقاظ الشعوب العربية، التى لابد أنها أدركت أيضاً أن اسم الفيلم يكاد يصبح (فتاة هى فلسطين). فى السنوات التالية، تحولت فلسطين إلى (أرض الأبطال) و(أرض السلام)، ما بين الأقواس فيلمان أخرجهما، على التوالى، نيازى مصطفى وكمال الشيخ، ويتناولان قضية المقاومة المسلحة المشروعة، وأبطالها فدائيون يتسللون إلى داخل فلسطين. وأثار الفيلمان قضايا أخرى، من بينها مأساة اللاجئين، الذين طردهم الصهاينة ومنهم بعض أهالى قرية دير ياسين، التى تعرضت لمذبحة شهيرة، ارتكبها الصهاينة. فضلاً عن تناول قضية الأسلحة الفاسدة التى قضت على مقاتلين مصريين فى حرب ١٩٤٨، وإلقاء جانب من المسئولية عنها، على خونة لا يترددون فى الإثراء، ولو بالمتاجرة بدماء الشهداء من أبنائهم.

وتصبح قضية فلسطين، إلا فيما ندر، عبئاً فنياً على كثير من الأفلام العربية، تماماً مثلما تحولت القضية، إلى مبرر لاستمرار كثير من الأنظمة الدكتاتورية، بحجة انتظار المواجهة مع العدو الصهيونى، المدعوم بمساندة معلنة من القوى العالمية.

ولا تكتسب الأفلام عن القضية الفلسطينية أهميتها الفنية، من حسن نية صانعيها؛ فما أكثر الأعمال التى تسىء، بحسن نية أيضاً، إلى القضايا الكبرى. ومن بين إساءات السينما العربية لقضية فلسطين، أن الإشارة إليها تكون عابرة، من باب إبراء الذمة أحياناً، والفدائى الذى يهب نفسه للدفاع عنها، يذهب كنوع من الانتحار، لا الاختيار الحر، مدفوعاً بتجربة شخصية مريرة، يريد الخلاص منها، بإيهام نفسه بأنه أهل للقضايا الكبرى. كما فعل بطل فيلم (أرض الأبطال)، حيث تطوع فى حرب فلسطين، بعد اكتشافه زواج أبيه بفتاة كان يريدها لنفسه. ولو أن بطل فيلم (نهر الحب)، الذى أخرجه عز الدين ذو الفقار عام ١٩٦٠، فاز بحبيبته، لأصبحت للفيلم نهاية أخرى، أكثر صدقا، من مغازلة الحماس الوطنى للجمهور، بتطوع البطل فى حرب ١٩٤٨، ليذهب شهيد القضية، لا السيدة!

كان على السينمائيين العرب الانتظار، عشرات السنين، إلى أن تنهض من الداخل، وبإمكانات متواضعة، أشبه بحجارة الأطفال المقاومين فى مواجهة الدبابات والجرافات، صناعة سينمائية «حقيقية» فى فلسطين.

وإذا اختلفنا على القيمة الفنية لبعض هذه الأفلام، فإن لها وظيفة أخرى شديدة الأهمية، وهى أنها تصحح مفاهيمنا الخاطئة، عن الفلسطينى فى الداخل، الذى أصبح فى الصورة الذهنية العربية، عبئاً على الحياة نفسها، ويائساً منها ومن نفسه، كأنه مشروع للانتحار والموت لا للحياة.

ومن بين الأفلام الفلسطينية، التى تعد سلاحاً مهماً لفنانين فلسطينيين يقدمون أفلاماً ذات أبعاد إنسانية «زواج رانا»، و«يد إلهية». وهى أفلام تنهى فكرة أن تكون «القضية» ضيفاً على أفلام عربية أخرى؛ بعضها يكاد يحمل الفلسطينيين جزءاً من المسئولية عن المأساة، وبعضها يحنو عليها حنواً قاسياً، أشبه بمعاملة الأوصياء، وكبار أفراد الأسرة، لطفل يتيم، تعويضاً له عن فقد أبيه. والأغرب من هذين النمطين، هو عدم وضوح الرؤية، وغياب الوعى أو تسطيحه؛ ففى فيلم (إسكندرية ليه)، الذى أخرجه يوسف شاهين، وعرض عام ١٩٧٩، ومن بين كثير من القصص، والتفاصيل، والعلاقات التى لا يتسع لها فيلم واحد، توجد قصة حب بين الفتاة اليهودية سارا سوريل وطالب مسلم فقير وثائر، وتثمر هذه العلاقة طفلاً أشقر، بعد هجرة الأم من مصر؛ بما يشير إلى أنهم «يهود ديموقراطيون جداً ومستعدون للاختلاط والامتزاج مع كل الأجناس والأديان ولو بعلاقة غير شرعية»، حيث يكتشف شاهين فى اليهود «مزايا لم يكتشفوها هم أنفسهم فى أنفسهم»، وحمل الفيلم «تعاطفاً مع اليهود بلا مناسبة وشرحاً ساذجاً لقصة إسرائيل». (والرأى لسامى السلامونى).

ويرجح أحمد رأفت بهجت أن علاقة الحب بين اليهودية والمسلم «كانت محصلتها فى اعتقادى فوز الفيلم بجائزة مهرجان برلين عام ١٩٧٩ مناصفة مع الفيلم الألمانى (ديفيد)».

وسيعود شاهين لإثارة هذا الموضوع لاحقاً، فى فيلم (الآخر) الذى عرض عام ١٩٩٩، ويعانى قدراً هائلاً من الخلط والارتباك؛ فالمخرج يريد أن يحذرنا من مخاطر العولمة، ولأنه يفكر ويكتب أعماله ويخرجها بالطبع، فلا وقت لديه ليدرك أن العولمة ليست هى «الآخر»، وأن «الآخر» الفرنسى، ليس أكثر رحمة من «الآخر» الأمريكى، إلا فى الدرجة لا النوع. ولا نجد خيطاً متصاعداً لهم ما، يشغل المخرج، ويريد الفيلم أن يعالجه: من ظهور المفكر الفلسطينى الراحل إدوارد سعيد، فى المشاهد الأولى، فى مكتبه بجامعة كولومبيا، مع البطل الشاب العائد من الولايات المتحدة، إلى الحفل الغريب الذى أعلن فيه إقامة مجمع للأديان الثلاثة، بجوار منتجع يملكه والدا البطل الشاب (أمه أمريكية رمز للعولمة!!). فى هذا الحفل، وبلا مناسبة، تسمع حواراً مباشراً وجافاً وتقريرياً مثل:

.«لا خوف من العولمة».

.«مش هى دى العولمة».

ثم فجأة يعلن أحدهم، وسط التفاف المتعولمين وحفاوتهم:

.«كأس للعولمة».

ويلاحظ أنه يقولها بحماسة المدافع المقتنع المنتفع، إلا أن سياقها وطريقة نطقها، يشير إلى السخرية من العولمة والمتعولمين معاً.

خطورة التحول بالقضية، أنه يأتى على لسان إدوارد سعيد الذى يظهر، فى الفيلم، باسمه وشخصيته الحقيقية، حيث يدعو بطل الفيلم، إلى التخلى عما ظنه «الملتزمون» العرب جزءاً من «الثوابت»، حين ينصح سعيد الشاب المصرى بالتخلى عن ثنائية «الأنا» و«الآخر»، وأن نستبدل بكلمتى «أنا» و«أنت» كلمة واحدة، هى «نحن»، ولم يقل لنا (الفيلم أو سعيد): هل يقبلنا الآخر بالشروط نفسها، التى نتخلى بها عن هذه «الأنا»، وكيف ومتى يتخلى هو عن أناه؟[1]

وإذا كانت الجماعات الدينية ترى أن لمشكلات الحياة حلاً سحرياً، فى النص المقدس، الذى ربما لم يطبق أو يختبر عبر أكثر من ألف عام، قائلين: «كل شىء موجود فى النص»، فإن الفنان يجب أن يتجاوز هذه الأحلام، بمزيد من الجرأة. وقد تنازل شاهين عن ذلك، بالإغراق فى الحلم المجانى، إذ يرى على لسان البطل، أن مشكلة التطرف والإرهاب، فى الجزائر تحديداً، يمكن أن يحلها الحب:

.«كان أحسن نتعلّم نحب بعض بدل ما نقطع بعض حتت».



من بين الأفلام الفلسطينية، التى تعد سلاحاً مهماً لفنانين فلسطينيين يقدمون أفلاما ذات أبعاد إنسانية «زواج رانا» و«يد إلهية». وهى أفلام تنهى فكرة أن تكون «القضية» ضيفاً على أفلام عربية أخرى



قائل هذا «الكلام» المسطح شاب مزدوج الجنسية والثقافة، يجهل الواقع المركب، الذى أدى إلى إرهاب تختلف صوره من بلد إلى آخر، وفقاً للسياق الاجتماعى والسياسى والثقافى، فضلاً عن المحيط الإقليمى.

وفى عام ٢٠٠١، عرض فيلم (أيام السادات) للمخرج محمد خان. ومن بين أكثر من مائة وخمسين دقيقة، هى زمن الفيلم، تحظى القضية الفلسطينية بأقل من دقيقة، فى حوار بين السادات وحلاقه!

قال السادات للحلاق إنه ليس من الحكمة أن يتنازل. الحلاق. عن جزء من حقه المغتصب، انتظاراً لاستعادته كاملاً، كما يقول الرافضون لاتفاقيات كامب ديفيد. وسأل الحلاق عن عدد الكراسى، فى محل الحلاقة الخاص به، فأجاب :ثمانية. فقال له السادات:

. «المحل ده، فجأة اتسرق، اتنهب، لقيت نفسك فى الشارع.. جبِت لك كرسى جوه المحل بتاعك، تقوم تقول: يا المحل كله يا بلاش؟».

وأضاف:

. «جبت لك كرسى، وأنت وشطارتك» (فى استرداد بقية الكراسى).

وعن العرب قال السادات للحلاق:

. «مش عايزين يجتهدوا، ومش عايزين يفهموا».

وقال له الحلاق:

. «الناس (المصريون) زعلانين علشان العرب والفلسطينيين ما حضروش مؤتمر ميناهاوس».

ردَ السادات:

. «ما جوش علشان مش فاهمين».

تحتل القضية الفلسطينية فى «أيام السادات»، من دون أن يقصد إلى ذلك كاتب الفيلم، زمناً يتناسب مع ما كانت تشغله، فى رأس السادات من هموم ومشكلات. حيث لم يعِ أنه يواجه ظاهرة صهيونية شديدة التركيب، وظل يبسِّط الأمور كما أراد أن يفهمها الحلاق فى الفيلم. والمشكلة أن مثل هذا الفيلم أحادى النظرة والملىء بالمغالطات التاريخية، سيصبح «وثيقة فنية» تعتمد عليها الأجيال القادمة، حين تريد أن تفهم «ماذا حدث».

أحادية هذا الفيلم كانت ببساطة لأن كاتب السيناريو ومستوحاة من مؤلفيْن لا ثالث لهما، هما «البحث عن الذات» وصاحبه السادات، و«سيدة من مصر» وصاحبته أرملته «جيهان» متجاهلاً مثلاً ما حكاه محمد إبراهيم كامل وزير الخارجية (الذى استقال احتجاجًا على كامب دافيد) فى مذكراته الثرية بالمواقف الدرامية.

طيارة من لغم!

إذا كان فيلم (أيام السادات) يسهم فى تسطيح الوعى وتزويره، فإن فيلماً لبنانياً (إنتاج مشترك مع الجانب الفرنسى) قد أثار جدلاً، ووجهت إليه أصابع اتهام، باعتباره يروج للتطبيع مع إسرائيل. ويحمل فيلم المخرجة اللبنانية رندة الشهال صباغ اسم (طيارة من ورق)، وقوبل بحفاوة كبرى، مستمدة من حصوله على جائزة الأسد الفضى، من مهرجان البندقية السينمائى عام ٢٠٠٣. وتنطلق مخرجته من الدعوة إلى التسامح الإنسانى، والانتصار لحق الفتاة العربية، فى عمل يبدو بسيطاً، ولكنه يناقش قضايا مهمة وجادة، وتتخلل هذه الجدية مشاهد تدعو للضحك، فى سرد كوميدى.

ولأول مرة تعالج السينما العربية قضية الانفصام الذى يعانيه الدروز العرب، الواقعون تحت الاحتلال الإسرائيلى؛ إذ يفترض أنهم عربيو الانتماء، ولكنهم مضطرون إلى أداء «الخدمة» العسكرية، تحت جيش الاحتلال. موضوع شائك، اختارت المخرجة لبطولته وجهاً معبراً (فلافيا بشارة)، حيث أدت دور فتاة درزية، تعيش مع أسرتها فى قرية على الحدود مع إسرائيل، وتربطها علاقة حب بجندى درزى عربى، يؤدى الخدمة فى جيش الاحتلال الإسرائيلى.

تبدأ الأحداث بلغم أرضى لا ينفجر، وينتهى الفيلم بانفجار لغم آخر، تختفى فى دخانه الحدود، والأسلاك الشائكة، والفتاة نفسها، بما يوحى بعدم وضوح الرؤية، وانفتاح النهاية على توقعات متعددة.

فى بداية الفيلم تلعب (لميا)، مع شقيقها الصغير، بطائرة ورقية تطيحها الريح، فتذهب لاستعادتها، حيث استقرت فوق الأسلاك الشائكة، وهى منطقة محظورة وخطرة، ويحذرها مجند شاب، داعياً إياها إلى العودة، خوفاً عليها من الألغام، ومن رصاص الإسرائيليين الجاهز للانطلاق، على من يتجاوز الحدود. هذا المجند يقف فى برج المراقبة الحدودى، ويسجل كل شىء، بحكم الواجب الموكول إليه، وهو يعرف الكثير من أسرار أهل المنطقة، التى لم تعد أسراراً، فهم يتبادلون الأحاديث، مع أهالى القرى الواقعة داخل الأرض المحتلة، عبر مكبرات الصوت، ومن بين مهام الحارس العسكرية، أن يسجل كل هذه الأحاديث، كما يراقب أصحابها بالمنظار.

كاميرا المخرجة تبدو محايدة، فى سرد التفاصيل الإنسانية الصغيرة، من دون رفع أية شعارات، فى مشاهد مشحونة، تؤكد خضوع الأهل لتقاليد تسرق براءة صبية لاتزال طفلة، لا تعرف عن الزواج شيئاً، وحُزن شقيقها الصغير عليها، حيث يمشط لها شعرها، ثم بعد رحيلها إلى منطقة محتلة لن يبلغها يوماً، يظل محتفظاً بفرشاة شهدت آخر ذكرى بينها.

تفرض التقاليد العشائرية على البنت أن تتزوج أحد الأقارب، من داخل الطائفة، وهكذا تم انتزاع الصبية (لميا)، وهى فى السادسة عشرة، من زميلاتها وطائراتها الورقية، ليدفع بها إلى الجانب الآخر، زوجة ينتظرها قريب، أصبح زوجاً، لا يعرفها ولا تريده. أما الفتى الذى تريده، فينتمى إلى الطائفة نفسها، ولكنه مجند فى الجيش الإسرائيلى.

وحدها تذهب الصبية، التى أصبحت عروساً إلى زوجها، فى الأرض المحتلة، بعد أن شهدت الحدود بين الأسرتين شداً وجذباً، حول ترتيبات العرس، وهى القضايا والتفاصيل السرية، بين أفراد العائلة، فى الأحوال الطبيعية، بينما تفرض قسوة الاحتلال انتهاك هذه الأسرار، وإشاعتها فى مكبرات الصوت. وتذهب البنت إلى بيت الزوجية، وتشعر أنه أشد قسوة من سجن الاحتلال ذاته. وهى فى هذه السن، لا تشعر بوطأة الاحتلال أصلاً، حيث لا تنظر إلا إلى السماء، بفضائها الرحب، فى لهوها بطيارتها الورقية. ويزيد قسوة السجنين معاً (البيت والاحتلال) أن من تحبه موجود هنا، ويراقب خطوات الزواج.

وتنضج الصبية على المأساة؛ فلم تعد صغيرة، كما لم تصبح زوجة. ترفض لميا زوجها، وتصرح له، بعيداً عن الميلودراما المفتعلة، بأنها لا تحبه، ولا تريد الاستمرار معه. بينما يزداد تعلق الحارس بها، ويغرم بمتابعتها بمنظاره، معجباً بجمالها وفتنتها، وجرأتها على التمسك بحبها له، حيث ترضى بالنظر إليه، عوضاً عن أهلها، بل لم تعد تريد العودة إليهم. وبالتوازى مع الشجارات الزوجية، وروح النفور بين الزوجين الصغيرين، يجد الحارس بعض العزاء، إذ يخدم معه مجند درزى أكبر سناً (قام بالدور زياد رحبانى)، لايزال قلبه يخفق، هو الآخر بحب قديم، طرفه الآخر على الناحية الأخرى من الحدود، ولكنه يعيش أيامه، كما يليق بفيلسوف بوهيمى.

ولأن الصبية لم تفقد روح التمرد، فهى تغامر بإنقاذ روحها فى نهاية الفيلم، كما غامرت بدون وعى فى بدايته، لإنقاذ الطيارة الورقية غير العابئة بالحدود.

فى المغامرة الأولى حذَرها الحارس، وفى الأخيرة كانت قد نضجت، بالقدر الذى يدفعها إلى الجرأة، على أن تواجه ما ترفض، حيث يتحول التمرد إلى ثورة، والفكرة المجردة إلى خطوة على أرض لا تعرفها جيداً، حتى لو انتهى ذلك بانفجار لغم، فى كل العلاقات والتقاليد ودوائر القيود التى تبدأ بالأسرة، ولا تنتهى بالاحتلال.

ذكاء الفيلم يتجلى فى حياد السرد، وهو حياد ظاهرى خادع، يخفى تحت السطح بركاناً، قابلاً للانفجار بحممه الملتهبة، وكأن المخرجة تريد أن تضعنا فى مواجهة الأزمات العشائرية والعائلية والسياسية والعنصرية، وتقول: ابحثوا عن حل. هذا بعض ما تسبب فيه الاحتلال، أمام مجتمع عاجز سياسياً وعائلياً.

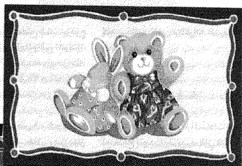
تحت سطح هذا الحياد، يعيد الفيلم الاعتبار إلى الفرد، الإنسان، الذى تحول فى نظر كثير من النظم العربى. التى تدعى الثورية. إلى مجرد رقم فى قائمة الرعايا لا المواطنين، وبالتالى يفرض الوصاية على أحلامه الصغيرة، ويتم تأجيلها إجبارياً، حتى ينتهى الأوصياء من حسم «القضية»! ■

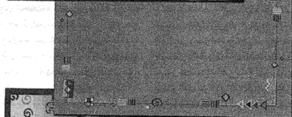
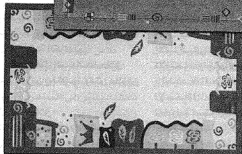
هامش

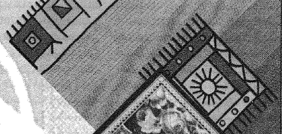
(١) توفى إدوارد سعيد فى نهاية سبتمبر عام ٢٠٠٣، وفى الثانى من نوفمبر عام ٢٠٠٣، أقيمت ندوة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة تكريما لدوره الفكرى، وأثارت جدلاً بين بعض المثقفين العرب إزاء بعض الأفكار التى طرحها، فى حوار مصور، يعود تاريخه إلى وقت تصوير مشاهد سعيد فى الفيلم، وأجراه معه فى مكتبه، المخرج خالد يوسف، الذى كان مساعداً لشاهين فى فيلم (الآخر).

وقال سعيد إنه يفضل أن يزور العرب أشقاءهم الفلسطينيين معتبراً أن هذه دعوة للتضامن مع «الشعب الفلسطينى المدنى» وجزء من المقاومة بدلاً من مجرد المراقبة من الخارج، كما استنكر ما وصفه بمنطق المثقفين العرب، عن التطبيع مع إسرائيل، مؤكداً أن التطبيع «فكرة نظرية».

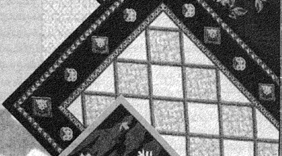
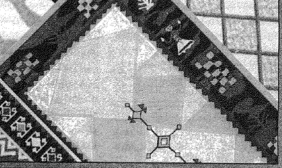
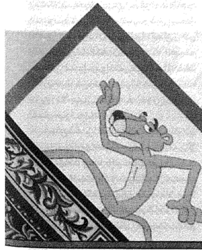
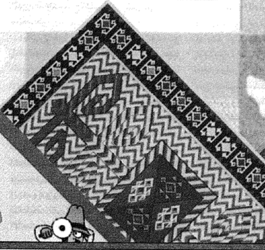
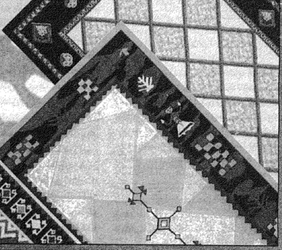
وأضاف أن حل القضية يتلخص فى قيام دولة واحدة، يتعايش على أرضها شعبان، مطالبا بوضع أسس جديدة للتعايش، حيث لاتزال إسرائيل الدولة الوحيدة فى العالم، التى تعد وطناً لليهود، فى أى مكان، بالمخالفة للتعريف العادى لفكرة المواطنة.



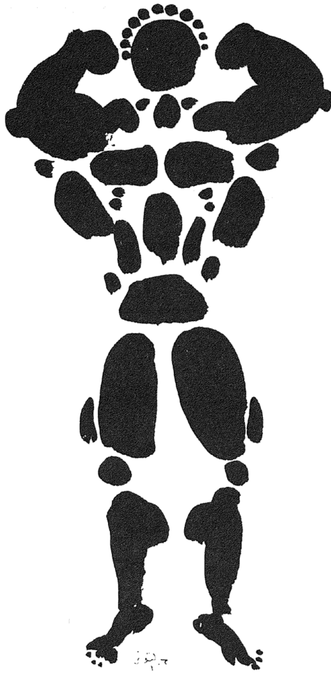







https://t.me/megallat https://www.facebook.com/books4all.net oldbookz@gmail.com



تجارة العضلات!



أندروسيمز ومات ريندل

■■ فيما مضى كان العالم الغنى يسلب أفريقيا ثرواتها المعدنية أما الآن فإنه يسرق - كما نرى فى الألعاب الأولمبية - مواهبها الرياضية بثمن بخس.

فى أغسطس من العام الماضى ذهب افضل عداء حواجز فى كينيا إلى سريره ليلا وهو يحمل اسمه: ستيفن تشيرونو لآخر مرة ليستيقظ فى صباح اليوم التالى أكبر سنا بأربعة شهور وباسم آخر هو: سيف سعيد شاهين من قطر حسبما هو مدون فى جواز سفره الجديد. ولكن عندما نودى على اسمه لتسلم الجائزة الكبرى فى سباق الحواجز فى زيورخ يوم ١٥ أغسطس ٢٠٠٣ لم يستطع تذكر اسمه الجديد!!

منذ عام ٢٠٠٠ حصلت قطر على عدة عدائين للمسافات الطويلة من كينيا وفريق كامل من رافعى الأثقال البلغار أما منافستها فى المنطقة البحرين التى استضافت سباق السيارات (فورميولا وان) (تاريخ البحرين فى سباق السيارات: صفر) كانت تتسوق أيضا فى أفريقيا. فى عام ٢٠٠٢ اصبح ثلاثة لاعبين من كينيا وهم ايبل تشيروليوت وليونارد موتشيرو وجريجورى كونتشيلا مواطنين بحرينيين. ولا يتوقف تدفق الرياضيين من البلدان الفقيرة إلى الغنية: يذهب الرياضيون من انجولا والكاميرون والجابون والسنغال والمغرب وكينيا إلى فرنسا، ومن جامايكا وغويانا الى كندا ومن نيجيريا إلى أسبانيا والبرتغال وألمانيا، ومن الصومال واريتريا إلى الولايات المتحدة. وفى الألعاب الأولمبية القادمة، سوف يمثل العشرات من الرياضيين بلدانا لم يولدوا بها ولا علاقة لهم بها.

كان الزحف إلى أفريقيا فيما مضى من اجل ثرواتها المعدنية.. الآن من أجل مادتها الرياضية الخام!

وصف جون بيل من جامعة كيل ذلك بأنه (هجرة العضلات)(١) وقد حدث دائما انتقال الثروات بكل أنواعها من عالم الأغلبية الفقيرة إلى عالم الأقلية الغنية ولكن الثروات الآن تشمل العضلات أيضا.

لقد اغتنت بلجيكا من مطاط أفريقيا الوسطى والآن يعمل نادى كرة القدم (رويال انتويرب) مع (مانشستر يونايتد) على حصد اللاعبين الأفارقة من (نوادى المزرعة)(٢) وتقديمهم إلى الأطراف الأوروبية.

وتعتبر هذه (المدارس) التى كان من روادها النادى الهولندى (اجاكس) ثم تبعه (اف سى كوبنهاجن) وفينورد وباريس سانت جرمان وموناكو، بمثابة النظائر الحديثة للمخافر الكولونيالية. إنها موجودة من اجل العمل على ازدهار السلطة والثروة الاقتصادية لرياضة العالم الغنى. يقول بيل (من ٣١١ لاعباً يشكلون الفرق الوطنية الستة عشر فى كأس الأمم الأفريقية لعام ٢٠٠٢ كان ١٩٣ أو ما يعادل ٦٢٪ يعملون بالأجر كامل الوقت فى الفرق الأوروبية).

إن المركز العالمى لصناعة كرة القدم يحقق الثروة على حساب أمم فى الأطراف وتفرغ الاتحادات الأفريقية من مهاراتها. ويحدث ذلك فى كل الالعاب تقريبا ففى جمهورية الدومنيكان هناك أكاديميات تابعة لنوادى كرة القدم الأمريكية الشمالية، وفى نيوزلندا يشترى اتحاد الرجبى باستمرار لاعبين من الجزر البولونيزية: ساموا وفيجى وتونجا، ففى كأس العالم ٢٠٠٣ كان ٩ من ٣١ لاعباً نيوزلندياً، من أصول بولونيزية.

ويقول ستيفن جونز مراسل الصنداى تايمز للعبة الرجبى أن فرق الجزيرة تتعرض للتدمير.



إن ازدهار عملية تغيير الهويات الرياضية يعنى أن الموقع العالمى فى عالم الرياضة مهم مثل إحساس أمة ما بنفسها كعضو على مائدة الصدارة السياسية مثلا فى مجلس الأمن. وهكذا توصل الرياضة رسالة: أنه لا مكان فى النظام العالمى إلا للأفراد الموهوبين. وتساق أجيال من الرياضيين إلى خارج بلدانهم ويعتبر الأبطال المحليون نموذجا وقدوة للشباب فى تحقيق الهجرة والوصول إلى من يدفع من السادة الأغنياء.

إنها القصة القديمة ذاتها: الفقراء يقدمون العضلات فى حين يسيطر الأغنياء على قواعد اللعبة ويقبضون الفوائد. إذا كنت رياضيا موهوبا فإن الباب إلى الرياضة العالمية مفتوح أمامك. والفضل لثقافة «القعود والمشاهدة»(٣) التى تنتشر فى البلاد الغنية حيث يتضاءل دور الشباب الغنى المتخم والمترهل والبدين فى ميدان الألعاب، فى حين تمتلئ دورات الألعاب الرياضية وسباقات كرة القدم وركوب الدراجات بالأفارقة والأوروبيين الشرقيين والأمريكيين الجنوبيين

عن مجلة:

The New Statesman

ترجمة بثينة الناصرى

ولكنهم يلعبون لحساب صاحب المال الغربى تحت توجيه مدربين وخبراء فنيين غربيين.

هل لهذا أهمية؟ بالتأكيد: إن الرياضة هى أقصى تعبير ثقافى واقتصادى فى أزماننا ولكن المكانة والمساحة الإذاعية التى تحتلها بعض (الألعاب العالمية الرسمية) تضمن التهام الألعاب الرياضية الشعبية المحلية.

لقد تضاءل وتهمش تنوع التعبيرات الرياضية (مثله مثل تنوع اللغات) فلم تعد ثمة أهمية للسباقات المحلية والدورات الإقليمية أو ما كان معروفا عالميا من السباقات القومية مثل (جولة كولومبيا) لسباق الدراجات. إن الرياضة العالمية الحديثة تنمط المكان وتثبت وتراقب قواعد الزى وتوزيع أسطح الملاعب الخ.



فى كتابه الأخير الذى يؤرخ للألعاب الأولمبية أشار ديفد ميلر إلى أن عدد الناس حول العالم (٧٨٪) الذين يتعرفون على الحلقات التى ترمز للألعاب الاولمبية اكبر من عدد الناس الذين يتعرفون على الرموز الأخرى مثل: رمز شركة شل (٧٢٪) واقواس ماكدونالد (٦٦٪) ورمز سيارة مرسيدس (٦١٪). وتقدر قيمة سوق الألعاب فى أنحاء العالم بمبلغ ٥٠٠ بليون دولار سنويا، اكثر من ضعف الدين الخارجي الكلى لأفريقيا وتقدر رعاية الألعاب العالمية وحدها بمبلغ ٢٦ بليون دولار. وفى ٢٠٠٣ أنفقت بريطانيا اكثر من ٤ بلايين جنيه إسترلينى على معدات وأجهزة رياضية. وينقل ميلر عن ديك باوند رئيس لجنة الألعاب الأولمبية قوله: «ابعد الرعاية والتجارة عن الرياضة اليوم، فماذا يبقى؟ ماكينة ضخمة معقدة وجيدة التشغيل جرى تطويرها على مدى ١٠٠ سنة.. ولكن بدون وقود».

تلتهم برامج الألعاب الرياضية الحديثة الميزانيات بما يجاوز إمكانية أكثر البلدان الفقيرة. رغم ذلك فإن عدائى كينيا، وراكبى دراجات كولومبيا، وملاكمى المكسيك، ورياضيين من كل الأنواع من الاتحاد السوفيتى السابق ولاعبى كرة القدم من كل جزء من أجزاء العالم الفقير يلهمون مشاهدين غربيين، ويجذبون جمهور الملاعب ومشاهدى التلفزيون. ويستثمر العالم الغنى قليلا فى إنتاجهم ولا يقدم للبلدان المنتجة شيئا من أرباح صادراتهم. ويواجه مدراء دورى كرة القدم إنجلترا طلبات اللاعبين الأفريقيين عن اجازات لتمثيل أممهم فى المسابقات غير الأوروبية بالاحتقار الذى لا يستطيعون إخفاءه. وللمفارقة، ظهر آرسن فينغر، مدير آرسنال على شاشة التلفزيون مؤخرا أثناء حفلة جمع تبرعات إغاثة الرياضة برعاية البى بى سى لتقديم صك بمبلغ ١٠٠٠٠٠ إسترلينى نيابة عن كامل الدورى للمشاريع التى تعنى بفقراء العالم. وذلك المبلغ يساوى أجر أسبوع واحد للاعب كبير فى إنجلترا.

يمكنك القول أن ما يهم فى الحياة، هو توفير مياه نظيفة إلى العالم الفقير، وليس مسلسلا تلفزيونيا رائجا للرياضة العالمية. ولكن الواقع غير ذلك تماما: فجدول أوسمة الألعاب الأولمبية وكلّ بطولة عالمية رئيسية، وبيان نتائج نهائيات كأس عالم لاتحاد كرة القدم العالمى والتصنيف العامّ لجولة فرنسا(تور دى فرانس) كلّ ذلك يعطى صورة للمجتمع العالمى الحديث. فالذين يتصفحونها فى الانترنيت أكثر من أولئك الذين يتصفحون جداول البنك الدولى أو الأمم المتّحدة لنسبة الأمية أو وفيات الأطفال فى العالم. وربما كان من الممكن ان تكون التجارة العالمية فى العضلات قضية شخصية تماما لا تعنى سوى الرياضيين المعنيين لولا أن الرياضة المعاصرة أصبحت نظاما رمزيا يعكس، أو يبدو انه يعكس، المعرفة بالعالم، وبذلك يؤثر على القرارات السياسية.

نشرت التايمس مؤخرا جدول نقاط «نهائية» للأداء الأولمبى منذ عام ١٨٩٦. وضع الولايات المتّحدة على القمّة، مع بريطانيا العظمى فى المركز الثالث. والسودان جاءت فى آخر القائمة، مع رواندا ودولتين أخريين. ولم يذكر المسح بأنّه لسنوات طويلة لم تتنافس العديد من البلدان فى العالم. وأن أى جدول أوسمة يأخذ فى الحسبان الأصول الإثنية - بالعودة إلى أصول الرياضيين - سيأتى بنتيجة نهائية مختلفة جدا. حيث سوف تنزلق الولايات المتّحدة وكندا وفرنسا بسرعة إلى القاع. وعلى اكثر احتمال لن تجنى قطر والبحرين شيئا. ويمكن أن يكون لدينا جدول آخر للمجتمعات التى تنتج معظم ملابس وأجهزة الألعاب الرياضية.

كيف يمكن إنقاذ الرياضة من تجارة العضلات؟ بالتأكيد يجب أن يكون هناك هيئة واحدة تتخذ القرارات فى مسألة تغيير الانتماءات. ينبغى ألا تترك المسألة كما هى الآن إلى هيئات الألعاب الرياضية القومية الهشة، مثل تلك التى فى كينيا، لإعطاء الموافقة على تغيير جنسية الرياضيين. كما لا يجب أن تقتصر مسألة استضافة البطولات الدولية وما تجلبه من مكانة وازدهار اقتصادى، على الدول الغنية.

على سبيل المثال، حصول الولايات المتّحدة على كأس العالم فى كرة القدم لعام ١٩٩٤ بالرغم من أنّ لعبة كرة القدم للرجال ليست من الألعاب التى لها أهمية تذكر فى الولايات المتحدة. ومن جهة أخرى من المخزى أنّه رغم النجاح الضخم للرياضيين الكينيين والأثيوبيين فى دول أخرى ولكن أيا من الدولتين (كينيا وأثيوبيا) لم تحصل على بطولات ألعاب رياضية عالمية.

ويقترح راكب الدراجة الأسترالى برادلى ماك جى الفائز فى السباق التمهيدى لجولة فرنسا (تور دى فرانس) للسنة الماضية استراتيجية أكثر شمولا. فقد اشتمل عقده للسنوات الماضية الثلاث مادة تلزم فريق ركوب الدراجات الفرنسى (إف دى جى دوت كوم) الذى ينتمى إليه ماك جى، لتمويل برنامج تنمية للراكبين الناشئين فى مسقط رأسه نيو ساوث ويلز باستراليا. وينبغى أن تتضمن عقود الرياضيين القادمين من دول نامية - بصرف النظر عن نوع اللعبة التى يمارسونها - مواد شبيهة بذلك، فمقابل كل نجم يمتصه النظام العالمى، يجب ان تنشأ بدائل من خلال ضمان التمويل للمناطق التى لها سجل ثابت فى إنتاج الرياضيين.

أما فى الوضع الراهن فإن صناعة الألعاب الرياضية غير مدعومة. والتجارة العالمية فى العضلات فقط صناعة استخلاص أخرى تأخذ اكثر مما تعطى. عندما ننتقد العولمة، وندعو إلى إصلاح القواعد التجارية العالمية لكى يتاح للبلدان الفقيرة فرصة عادلة لبيع المنتجات الأولية مثل القطن فى الغرب، يجب أن نضيف مطلبا جديدا: التجارة العادلة للرياضيين. ■





كيف يمكن إنقاذ الرياضة من تجارة العضلات؟ ينبغى ألا تُترك إلى هيئات الألعاب القومية الهشة كما لا يجب أن تقتصر مسألة استضافة البطولات الدولية وما تجلبه من مكانة وازدهار اقتصادى، على الدول الغنية

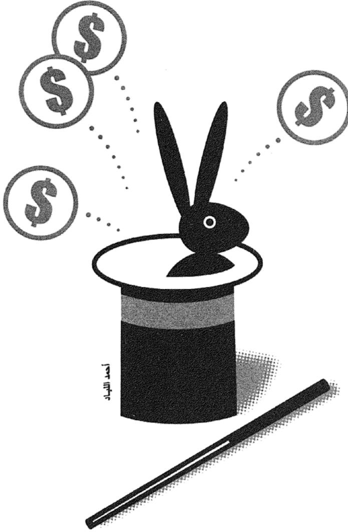


هوامش:

(١) كان المصطلح الذى استخدمه الكاتب ويعنى به (هجرة العضلات) brawn drain وربما يبدو مقابلا لمصطلح شائع آخر هو (هجرة العقول) Brain drain - المترجمة

(٢) (نوادى المزرعة) يقصد بها (فرق الحارات) أو النوادى المحلية - المترجمة

(٣) (القعود والمشاهدة) يقصد بها ثقافة الكومبيوتر والإنترنت حيث ينشغل بها اكثر الشباب فى البلاد الغنية التى يتوفر فيها ذلك مما يجعلهم يقضون معظم وقتهم جالسين أمام الأجهزة لا يفعلون شيئا سوى التهام الطعام والتحديق فى الشاشة - المترجمة.



إذا كان العالم كله مدينا فمن الدَّائن ؟!

محمد يوسف عدس

■■ يتحدث هذا الكتاب عن الاقتصاد بلغة جديدة ويتناول الأفكار والمسلمات الاقتصادية التقليدية بالتحليل والنقد، ويثير حولها شكوكا منطقية ويكشف عما فيها من تناقض، وفى كل هذا تنكشف للقارئ حقائق مذهلة لم تكن لتخطر له على بال.

فهل تصدق مثلاً أن دول العالم كله مدينة، ليس فقط الدول الفقيرة أو دول العالم الثالث، بل إن أكثر الدول ديونًا هى الدول الأغنى والأكثر إنتاجًا وتقدمًا، وديون هذه الدول هائلة.. لا تتناقص أبداً بل فى صعود مستمر، وقد وصفها المؤلف بحق بأنها: «اللامعقول واللامنطقى.. الذى يصعب على العقول فهمه».

من أمثلة هذا «اللامعقول» أن بريطانيا مدينة بمبلغ ٤٠٠ بليون جنيه إسترلينى، وتبلغ ديون كندا ٦٥٠ بليون دولار، وألمانيا مدينة بأكثر من خمسين بليون مارك، أما اليابان فقد بلغ دينها العام ٢ تريليون دولار، وأصبح دين الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من ٥ تريليونات دولار.

يقول المؤلف: هذا الدين المتصاعد أبدا يتناقض تناقضًا صارخًا مع وجود ثروة حقيقية واضحة فى هذه الدول التى توصف بأنها دول غنية ومتقدمة. علمًا بأن هذه الأرقام تمثل الديون العامة فقط أى الديون الحكومية، فإذا أضفت إليها الديون الخاصة (المتعلقة بالأفراد والشركات) تجد نفسك أمام أرقام فلكية.. فمثلاً مجموع الديون العامة والخاصة فى الولايات المتحدة بلغ ٢٦ تريليون دولار، ولست أزعم أننى أعرف كم صفرًا ينبغى وضعها على يمين هذا الرقم ليصور حقيقته، ولكنى على يقين أنه رقم مفزع، كما أننى أعرف أنه من الناحية العملية يستحيل تسديد هذا الدين الهائل لأسباب اقتصادية كثيرة لعل أبسطها أن مجموع ما فى بنوك أمريكا والعالم وما فى خزائن الشركات وجيوب الأفراد من دولارات لا يبلغ خُمس هذا الرقم، وهذا واحد من عدد كبير من الألغاز الخفية فى عالم الاقتصاد.

The Grip of Death: A Study of modern money, Debt Slavery and Destructive Economics

(قبضة الموت: دراسة فى النقود الحديثة وعبودية الدين والاقتصاد التدميرى)

Michael Rowbotham

Jon Carpenter Pub, 1998, pp. 336, $29.95

فإذا كانت كل دول العالم، بلا استثناء مدينة، فإن هذا يجعلنا نعتقد أن العالم بأسره فى حالة اقتصادية مزرية.. وهذا شىء يبدو غير منطقى وغير مفهوم.. ويسلمنا هذا الاعتقاد إلى أن نتساءل: إذا كان العالم كله مدينًا فمن هو الدائن؟ وكيف حدثت كل هذه الديون؟ ومن أين جاءت؟

وماذا نقول عن دول العالم الثالث التى ترزح تحت أعباء ديون ثقيلة وقد أسلمت زمام قيادتها للدول المتقدمة وأخذت تقلد وتبنى مؤسساتها المالية والاقتصادية على غرار مؤسسات هذه الدول، ويُقال لشعوبها اكدحوا فى العمل والإنتاج والتصدير، وسوف تتخلصون من الديون وتتحررون من الفقر وتصبحون مثل أمريكا، ولكن أحداً لا يذكر لنا أبداً حقيقة أن أمريكا هذه هى أكبر دولة مدينة فى العالم؟

فهل هذه حالة عبثية أم أننا لا نحسن فهم ما نراه؟!

وهل نستطيع أن نفهم حقيقة أن يكون الشعب الأمريكى وهو أغنى من دبّ على هذه الأرض من البشر هو أكثر شعوب العالم مديونية!

كان من المفترض وفقًا للمبادئ الاقتصادية المتداولة أن النقود هى وسيط طبيعى ومقياس دقيق وأنها لا تفعل أكثر من أن تعكس حقائق الواقع الاقتصادى، ولكنها فى الحالة التى عرضناها لا تفعل ذلك، فهناك ندرة مزمنة فى النقود حتى أن الدول المتقدمة تقلص ميزانيات المشروعات والخدمات الصحية والتعليمية بحجة عدم توفر المال الكافى.. إذن لابد أن يكون هناك خلل جوهرى فى المنظومات الاقتصادية، خلل يجعلنا لا نثق فى كثير من الافتراضات والمسلمات الاقتصادية، بل فى كل المعطيات المالية الأخرى التى تضع الاقتصاد وخصوصًا الاقتصاد النقدى والديون غير الواقعية فى نطاق اللامعقول.

محاولة للفهم:

يأتى هذا الكتاب ليتحدى هذه المسلمات ويكشف لنا: أن الثقة العامة فى النقود والأحكام النقدية ليست فى موضعها، وأن الحياد الظاهرى للمنظومات المالية الحالية زيف كامل،



إن بريطانيا مدينة بمبلغ ٤٠٠ بليون جنيه إسترلينى، وتبلغ ديون كندا ٦٥٠ بليون دولار، وألمانيا مدينة بأكثر من خمسين بليون مارك، أما اليابان فقد بلغ دينها العام ٢ تريليون دولار، وأصبح دين الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من ٥ تريليونات دولار



وأن النقود (الحديثة) ليست وسطًا طبيعيًا محايدًا، وأنها . كما يتم خلقها الآن . تمنح نفسها طبيعة خاصة وتحيزًا خطيرًا، وهى تعمل فى إطار عالمها الحسابى الخاص بها، وتعكس حقائقها الخاصة وتصورها الاقتصادى الخاص، ويحيطها سدنتها بعبارات غامضة زائفة ومضللة.

فإذا انتهى الكتاب من تقرير هذه الحقائق مفصلة ينتقل بعد ذلك إلى تفسير هذه الألغاز، وأول هذه الألغاز هو الندرة النقدية فى مجتمعات متقدمة تتمتع بالثراء ووفرة الإنتاج، وأول ما يصدمنا من حقائق أن نعرف السبب وهو كما يشرحه المؤلف راجع إلى أن النظام المالى النقدى قائم على أساس من الديون، وبتعبير مباشر وأكثر دقة يقول: «إن النقود تنشأ فى توازٍ مع الديون، ذلك لأن خلق النقود وتداولها متروك للبنوك إلى جانب عدد من مؤسسات الإقراض الأخرى. ويظن أكثر الناس أنهم عندما يقترضون من البنك فإنهم يقترضون أموال أناس آخرين سبق أن قاموا بإيداع نقودهم فى البنك، وهذا وإن كان يمثل بعض الحقيقة إلا أنه لا يمثل الحقيقة كلها، فالصحيح أن نقود القرض لا تكون بالضرورة موجودة فى البنك لحظة طلبها وإنما هى تنشأ ابتداء عندما تتم عملية الاقتراض. وهذه حقيقة أخرى بالغة الإثارة: أن البنك بعملية القرض نفسها يضيف إلى رصيده نقودًا جديدة لم يكن يملكها (قبل القرض)، وأن البنك بهذه القروض يرفع رصيده ولا ينقصه!.

أعترف أننى شخصيًا لم أستطع أن أفهم أو أستسيغ هذه الحقيقة لأول وهلة.. وقلت لنفسى لابد أن مؤلف هذا الكتاب يهزأ بعقلى.. كما أعترف أيضًا أن هذا اللغز الذى صدمنى وحيرنى كثيرًا بدأ ينحل خطوة خطوة كلما تقدمت فى قراءة الكتاب، وأدركت أننى أمام مؤلف عبقرى استطاع أن يحرر عقله من أسر الأفكار التقليدية السائدة فى عالم الاقتصاد وأن يتخلص من جبروتها، بل استطاع أن يحطم الهالة المقدسة التى تحيط بها وأن يقدمها إلينا عارية من كل زيف أو ادعاء.. وتأكدت أن مثل هذا الرجل لابد أن يُتهم بالجنون وقد حدث بالفعل.. ولكنه لم يثنه عن عزمه أو يحرفه عن مواصلة رسالته فى الكشف عن التزييف والخداع الذى تمارسه مراكز القوى الاقتصادية الكبرى فى العالم على الشعوب بدعوى التنمية والتقدم وإشاعة الرخاء.

المـؤلـف:

لم أشعر برغبة ملحة فى لقاء مؤلف كتاب قرأته كما شعرت بالنسبة لمؤلف «قبضة الموت» فقد لمست فى كتابته حرارة الداعية المخلص جنبًا إلى جنب مع رسوخ فكره الأكاديمى فى مجال تخصصه.. اقترحت على جامعة جرينتش دعوة «مايكل رُوبثَام» مؤلف الكتاب فى محاضرة يعرض فيها أفكاره وتكون فرصة للطلاب والأساتذة لمناقشته.. وقد تولى ابنى . وهو محاضر بالجامعة . دعوة «روبثام» فاستجاب على الفور.. استمتعت بمحاضرة ذات مذاق خاص لمست فيها قوة منطق المؤلف وقدرته على التحليل والإقناع.. ثم دعاه ابنى بعد المحاضرة لتناول طعام الإفطار وكان شهر رمضان قد انتصف، ووجدها «روبثام» مناسبة مثيرة للاطلاع على تقاليد الأسر المسلمة فى رمضان فقبل الدعوة مبديًا شكره وامتنانه.

أما بالنسبة لى فكانت فرصة متاحة لمزيد من الحوار حول أفكار هذا الرجل العجيب وحياته، استغرق الحوار شطرًا من الليل دون ملل، فعلمت كثيرًا عن منطلقاته الإنسانية وأنه صاحب رؤية إصلاحية يشاركه فيها كثيرون مثله من أحرار الفكر فى بريطانيا وكندا واستراليا وفى دول أوروبا.. إنه يدعو إلى بناء اقتصاد متحرر من الفائدة وإلى نظام نقدى غير مؤسس على الديون، فلما لمس شدة اهتمامى بهذه الأفكار الجديدة قال: أدرك مصدر اهتمامك هذا. إن لم أكن مخطئًا فى تقديرى... إنه عقيدتك الإسلامية.. أليس كذلك؟ فأجبت: بلى.. لقد أصبت الحقيقة.. وما يثيرنى حقًا هو أنك بجهدك العقلى وتوجهك الأخلاقى متجردًا من أى أيديولوجية إسلامية مسبقة قد توصلت إلى نفس النتيجة. كان حوارًا مثمرًا وممتعًا بلا شك، سمه. إن شئت . حوار حضارات أو حوار أديان، أو حوارًا إنسانيًا خالصًا لوجه الله والحقيقة، ففيه شىء من كل هذا.. بلا قصد ولا ترتيب مسبق ولا مؤتمرات دولية!

نقود تنشأ من لا شىء:

نعود إلى كتاب «قبضة الموت» الذى لا مفر منه!، وقد انتهينا إلى نقطة رأينا فيها كيف تخلق البنوك أرصدتها من خلال القروض، ولنا أن نستنتج أن حجم الديون فى اقتصاد ما هو مقياس لكمية الأموال التى يجرى عليها التداول، وفى هذا أمثلة شارحة يوردها المؤلف بالتفصيل، منها: أنه قد جاء فى تقرير للبنك المركزى «بنك إنجلترا» سنة ١٩٩٧ تقرير لجملة النقد الوطنى بمبلغ ٦٨٠ بليون جنيه إسترلينى، من هذا المبلغ أصدرت وزارة الاقتصاد البريطانية ٢٥ بليون جنيه فقط، وهنا نتساءل: من أين جاءت بقية المبلغ وهو ٦٥٥ بليون جنيه وهو يمثل ٩٧٪ من جملة النقود المتداولة فى الاقتصاد البريطانى؟ والإجابة ببساطة: أن الذى خلق هذه النقود هى البنوك التجارية، وأن هذه الكمية الهائلة من النقود نشأت من لا شىء.. وسوف يصاب الناس بالذهول لأنهم يعلمون أنه إذا فعل هذا واحد منهم اعتبر مزيفًا للنقود، وليس لمرتكب هذه الجريمة مكان إلا السجن يقضى فيه بقية عمره.. والفرق الوحيد بين جريمة التزييف وما تفعله البنوك التجارية أن النقود التى تخلقها البنوك ليست هى الأوراق النقدية ولا العملات المعدنية وإنما هى نقود غير حقيقية أو غير طبيعية تمثل قيمة الديون والعقارات والمنازل المرهونة، ومعنى هذا أن الحكومة تعتمد فى إنشاء النقود اللازمة لتسيير الاقتصاد على وقوع أبناء شعبها فى الديون، ومعناه أيضًا أن كل جنيه موجود سواء فى التداول أو مودع فى حساب بنكى هو دين معلق فى رقبة شخص ما أو مؤسسة أو شركة..

هنا سيتوقف الناس عن الأسئلة وينظرون إليك بريبة ولسان حالهم يقول: هذا رجل قد خرج من عقله!.. وقد يعترض أحدهم فيقول إذا كان خلق النقود بهذه الطريقة متروكًا للبنوك فلابد أن يكون هناك سبب وجيه لذلك.. ويقول المؤلف: «على العكس تمامًا فليس هناك أى سبب وجيه لذلك.. بل أكثر من هذا: توجد أدلة لا حصر لها على الآثار المدمرة لهذه الطريقة فى خلق النقود المعتمدة على استخدام القروض وما يترتب عليها من فوائد، ليس فى حياة الأفراد فقط بل فى حياة الشعوب أيضًا.

الشراء بالرهن:

ويسمى اصطلاحًا Mortgage وهى عبارة فرنسية الأصل ومعناها «رهن الموت» أو «قبضة الموت» وهى الترجمة الحرفية باللغة الإنجليزية التى اختارها المؤلف عنوانًا لكتابه.

وكان شراء الأراضى بهذه الطريقة معروفًا منذ القرون الوسطى ولكنه كان محرمًا بحكم القانون المسيحى، لأن الإنسان لا يضمن بقاءه على قيد الحياة حتى يتم تسديد أقساط ثمن الأرض، فإذا مات تُنتزع ملكيتها منه بمقتضى العقد المبرم.. وقد تبدو الصورة فى أيامنا هذه أقل كآبة، حيث يتمكن قلة من الناس من تسديد قروضهم بفوائدها فى مجرى حياتهم بينما تظل الأغلبية من المشترين ديونهم معلقة فى رقابهم حتى الموت.

من هذا البند وحده تضخمت أرصدة البنوك بأرقام فلكية: ففى أستراليا مثلاً بدأ بنك «الكومنويلث» سنة ١٩١٢ برصيد بلغ مقداره عشرين ألف دولار، فإذا به سنة ١٩٨٤ يقفز إلى ما يقرب من ثلاثين ونصف بليون دولار، وكان تعليق «المعهد الأسترالى للديمقراطية الاقتصادية» سنة ١٩٨٩ فى تقرير له بعنوان «لعبة النقود» كالآتى: «فى تقييم الثروة الأسترالية بالنقد قامت البنوك بإصدار نقود على شكل ديون، ومن ثم حصلت على أرصدة تساوى ما يقرب من ثلث إجمالى الثروة فى أستراليا.. فهل تنبهت إلى اللعبة؟! هل صدم هذا الواقع عقلك كشىء مخالف لكل منطق؟: إن مؤسسة ما لا تنتج شيئًا أكثر من أرقام فى سجلات يمكن أن تستولى على ملكية موجودات أعظم بكثير مما تملكه صناعتنا الكبرى التى يعمل فيها مئات الألوف من الناس، والذين يعتمد على إنتاجهم المادى كل اقتصاد أستراليا!

وجاء التحذير الأقوى والأكثر وضوحًا على لسان لورد «جوشوا ستامب» وكان مديرًا سابقًا لبنك إنجلترا.. قال فى محاضرة ألقاها سنة ١٩٣٧: «يخلق النظام البنكى الحديث النقود من لا شىء فالعملية ليست أكثر من «خفة يد» بارعة هى أكثر الأشياء التى اخترعها عقل الإنسان إثارة للذهول.. ذلك لأن هذه البنوك ولدت فى سفاح وعاشت فى خطيئة متواصلة الحلقات.. فالبنوك تكاد تملك الكرة الأرضية.. فإذا شئت إن تكون عبدًا للبنوك وفى نفس الوقت تدفع ثمن عبوديتك فدع البنوك تُصدر النقود».

ولا يتوقف خطر النظام البنكى القائم على الديون والفوائد المركبة على أن يسلب الأفراد ملكيتهم للمنازل التى يشترونها لسكانهم، أو أن يخرج الشركات والمؤسسات من ملكياتها ويدفعها إلى الإفلاس، بل يمتد هذا الخطر إلى الحكومات والدول التى تضطر إلى الاقتراض لإطعام شعوبها الجائعة فإذا هى تهوى فى

الدائن والمدين



مستنقع من الديون لا تستطيع تسديدها ولا حتى تسديد فوائدها فتضطر للاقتراض من جديد لتتمكن من تسديد الفوائد المستحقة على الديون، وتدخل بذلك فى حلقة جهنمية مفرغة لا سبيل إلى الفكاك منها، كما هو حادث بالنسبة للدول الأفريقية خاصة ودول العالم الثالث بصفة عامة.

الديون شرط أساسى لتوفير النقود:

فى المنظومات المالية الغربية. كما رأينا. لابد من وجود الديون لأنها هى الشرط الأساسى لتوفير المال اللازم لحركة الاقتصاد، وليست هذه حالة باقية عند مستوى معين تثبت عنده وإنما هى حالة دائمة التعاظم والتفاقم، فقد كان مجموع الديون الصناعية سنة ١٩٦٣م (فى بريطانيا) ٣,٣ بليون جنيه إسترلينى بنسبة ١١٪ تقريباً من الدخل القومى الذى بلغ آنذاك ثلاثين بليون جنيه، ارتفع هذا الدين سنة ١٩٩٦م (أى بعد ثلاث وثلاثين سنة إلى ١٤٠ بليون جنيه بنسبة ٢٠٪ من الدخل القومى البالغ قيمته ٧٢٠ بليون جنيه.

أما ديون الأفراد سنة ١٩٦٣ فقد كانت ٤ بلايين جنيه بنسبة ١٤٪ من الدخل القومى فإذا بها ترتفع سنة ١٩٩٦ إلى ٤٩٠ بليون جنيه بنسبة ٧٠٪ من الدخل القومى.

هذا الطراز من النمو الاقتصادى القائم على تصاعد الديون له انعكاسه المباشر على الأسعار والدخول، فالمنتجون يرفعون أسعار السلع لتعويض الديون والفوائد البنكية، وبذلك تزداد تكاليف الحياة المعيشية على المستهلكين، ويضطرون لمزيد من القروض وتسديد أقساطها وفوائدها، وبهذا تزداد الهوة بين الدخول المتدنية والأسعار الصاعدة مما يؤدى إلى تضاؤل القوة الشرائية عند المستهلكين.

الكوابح والضوابط:

لكى تعمل البنوك فى المنظومة الاقتصادية الغربية بفاعلية تضع لها الحكومات. عادة. ضوابط أو كوابح حتى لا تسرف فى خلق نقود على هيئة ديون إلى ما لا نهاية، حيث يُفترض أن يمثل النظام النقدى هرماً من الرصيد Credit له قاعدة راسخة من النقود الحقيقية أو (الطبيعية) وأعنى بذلك العملات المعدنية والنقود الورقية التى تصكها الحكومة، على هذه القاعدة يتم بناء هرم تتقارب أضلاعه كلما ارتفع بفعل قوانين تضعها الدولة تحدد بها حجم هذا الهرم ونموه، ومن ثم يتوقف نمو الهرم عند نقطة معينة وارتفاع معين لا يمكن أو لا يصح تجاوزه.. من أهم هذه القيود ما يسمى بـ «نسبة السيولة» التى لا يصح أن تقل عن ١٠٪ من الأموال المتداولة فى البنك، ومعنى هذا أنه من حق البنك أن ينشئ فى تعاملاته نقوداً بنسبة ٩٠٪ عن طريق القروض، حتى إذا بلغ الهرم قمته لم يعد من حق البنك أن يمنح عملاءه قروضاً جديدة، حتى يتم حقنه بدفعة جديدة من النقود الحقيقية «السيولة» التى تصدرها الحكومة محررة من الديون، وبذلك يستطيع البنك حينئذ أن ينشئ هرماً جديداً من القروض على أساس من هذه القاعدة الجديدة. هذا هو المفترض من الناحية النظرية، ولكن هذه النظرية لا يتم تطبيقها فى الواقع العملى، فقد وجدت البنوك سبلاً كثيرة للالتفاف حول هذا القيد، يذكرها المؤلف بالتفصيل فى كتابه..

يلفت المؤلف نظرنا أيضاً إلى حقيقة أخرى من استغلال البنوك الشائن للعملاء، تتمثل فى الفرق الهائل بين الفوائد التى تمنحها للمودعين على ودائعهم، والفوائد الباهظة التى تفرضها على المقترضين، وهكذا نرى أن المنظومات البنكية تقوم على الربا الفاحش منذ عصور، حتى أصبحت مصدراً للاضطرابات الاقتصادية وأصبحت بقروضها وفوائدها الباهظة عبئاً على المواطنين وعلى الاقتصاد الوطنى.

والخلاصة هنا أن الاقتصاديين يصورون لنا أن النظام البنكى يعمل فى إطار ضوابط وكوابح صارمة فى حين أن هذا لم يحدث فى الماضى ولا هو حادث الآن!

من أهم وأخطر الضوابط الحكومية هو تدخل الحكومة فى تحديد سعر الفائدة على القروض، فمن خلال رفع سعر الفائدة أو خفضه تتحكم الدولة فى النشاط الاقتصادى العام، لأن سعر الفائدة هو الذى يشجع أو يثبط الاقتراض، ومن ثم يتم التحكم فى حجم النقود المتداولة وفى حركة النمو الاقتصادى. فإذا رفعت الحكومة سعر الفائدة يُفاجأ الناس وأصحاب الأعمال بأعباء إضافية على الديون والفوائد المستحقة عليهم، ومعنى هذا أن الحكومة فى سعيها لتقليل حجم الأموال المقترضة تفرض «أوتوماتيكياً» على أناس آخرين أعباء جديدة تؤدى بهم إلى الإفلاس، أو الخروج من ممتلكاتهم نهائياً، مثلاً يجد أصحاب المنازل المشتراة عن طريق «الرهن العقارى» أنفسهم عاجزين عن دفع أقساط الديون والفوائد الصاعدة فيتدخل البنك ويستولى على مساكنهم ويطردهم منها.. ويقول المؤلف: «لا أجد فى هذا ذرة من عدل على الإطلاق.. وهو أمر مناف للأديان وللأخلاق الإنسانية».

جوهر المشكلة كامن فى قلب النظام البنكى القائم على القروض والفوائد المركبة وهو نظام. بطبيعته. محكوم بالغلو والشطط والجشع، مما يؤدى بالضرورة إلى فواجع إنسانية وكوارث اقتصادية متكررة.

وفى هذا يصف لنا المؤلف السيناريو المتكرر لدورة الازدهار والأزمات الاقتصادية.

يبدأ الاقتصاد فى الانتعاش والحركة وتتوفر الاستثمارات وتنشأ وظائف جديدة ويتسع حجم العمالة ويزيد الإنتاج ويعم الرخاء، حتى إذا بلغت الحركة الاقتصادية قمة سخونتها وازدهارها يهبط غول التضخم المالى.. ويهرع أصحاب النظريات الاقتصادية يهددون وينذرون: أوقفوا التضخم المالى فالاقتصاد يندفع نحو الركود، فى هذه الأثناء تكون كثير من الشركات والأعمال قد أعلنت إفلاسها، واستولت البنوك على منازل وعقارات وأملاك آلاف من البشر، وفقد ملايين الموظفين والعمال وظائفهم بسبب إفلاس الأعمال وإغلاق الشركات والمصانع. ولكى يخفض أطباء الاقتصاد المحموم حرارته المفرطة، ولكى يهبط التضخم المالى، يرفعون سعر الفائدة ويفرضون مزيداً من القيود على القروض ويخفضون سقف الإنفاق الحكومى إلى أدنى مستوى، فيتراوح الاقتصاد فى مكانه ويعم الركود والكساد ويغرق الناس فى بحر من البؤس الإنسانى، ويقبض الناس أيديهم عن الإنفاق والشراء حتى لا يتبخر ما بقى من مدخراتهم، فلا يجدون ما ينفقون عندما يزج بهم إلى طابور العاطلين.

ثم تبدأ دورة اقتصادية جديدة بتخفيض سعر الفائدة.. وتمر فترة انتظار حتى تعود الثقة من جديد عند المستثمرين والمستهلكين، ويتوفر المناخ الاقتصادى المناسب لانطلاق دورة جديدة من الانتعاش.. حتى إذا بلغت ذروتها نبدأ فى فترة ركود اقتصادى أخرى ويتكرر السيناريو!

فما معنى هذا؟.. معناه أن هذه الدورات الاقتصادية المضطربة صعوداً وهبوطاً، وما يترتب عليها من مآس لا تأتى محض صدفة وليست حادثاً طارئاً أو عارضاً، إنما هى جزء لا يتجزأ من طبيعة النظام المالى نفسه.. هى حريق لابد أن يشتعل بفعل آليات «جوانية» تتنامى مع حركة النمو الاقتصادى وسخونته، حتى إذا بلغت نقطة معينة يشتعل الحريق وتنطلق صفارات الإنذار ويأتى رجال الإطفاء للإنقاذ.

ومعنى هذا أيضاً أن الضوابط والكوابح التقليدية فى أى نظام مالى لا تعمل عملها. كما نظن. بطريقة تلقائية

تقول البنوك إن القروض جُعلت لخدمة العملاء، ولكن الحقيقة التى لا يتحدث عنها أحد هى أن البنوك تُقرض النقود لتعود إليها أضعافاً مضاعفة، فكأنها تخلق النقود لخدمة نفسها لا لخدمة العملاء



لتؤدى النتائج المتوقعة منها، ولكن تضطر الحكومات للتدخل من وقت لآخر لكبح جماح التقلبات الاقتصادية قبل حلول الكارثة.

وهناك مشكلات أخرى كثيرة فى النظريات الاقتصادية الشائعة تؤكد تناقضها واضطرابها، وهناك أسئلة قد لا تخطر على بال أحد منها مثلاً: إذا كان أغلب الناس والشركات والحكومات كلها غارقة فى الديون.. فمن يملك النقود؟!

تقول البنوك إن القروض جُعلت لخدمة العملاء، ولكن الحقيقة التى لا يتحدث عنها أحد هى أن البنوك تُقرض النقود لتعود إليها أضعافًا مضاعفة، فكأنها تخلق النقود لخدمة نفسها لا لخدمة العملاء.. وأكبر دليل على ذلك هو أن البنوك عندما يحدث الركود الاقتصادى ويكف الناس عن طلب القروض تتوفر لدى البنوك فوائض مالية تستثمرها فى سوق المال العالمى فى شراء الأسهم والسندات، وتستحوذ على مزيد من العقارات والأراضى بأسعار رخيصة غير تنافسية فى السوق المحلية، فالبنوك تفترض أن لها حقًا مقدسًا فى امتلاك ثروة الأمة بما يساوى الديون التى تقرضها للعملاء.

وشراء المنازل فى بريطانيا مثلاً (بنظام الرهن) يعطى هذه الحقيقة شحمها ولحمها، ذلك لأنه إذا كان ٣٦٪ من المنازل المسكونة مشتراة عن هذا الطريق فمعناه أن البنوك تمتلك بالفعل ٣٦٪ من مجموع المنازل فى بريطانيا.

والخلاصة: أن المنظومات الاقتصادية فى العالم تنطوى على خفايا وكوارث كامنة تتربص بالناس من حيث لا يشعرون، وفى النظريات الاقتصادية السائدة فروض ومسلمات ما أنزل الله بها من سلطان، لا يمكن أن تثبت أمام التحليل الدقيق القائم على منطق العدل ولا أمام مبادئ الأخلاق والدين، وستظل أوضاع المحتاجين والمستضعفين فى تدهور مستمر ما بقى النظام المالى والبنكى مؤسسًا على الديون والفوائد.

وإذا كان «مايكل موبثام» قد أطلعنا فى كتابه «قبضة الموت» على أطراف مأساوية من تطبيقات هذا النظام فى الدول المتقدمة مثل بريطانيا وأمريكا وأستراليا فإن المأساة الحقيقية الكبرى تتمثل فى ديون العالم الثالث التى عالجها بتحليلاته الجزئية ونظراته الثاقبة، ويقترح لها حلولاً عبقرية فى كتاب آخر له بعنوان: «وداعاً أمريكا: العولمة والديون وإمبراطورية الدولار». ■

نهب.. ومضاربات.. واتفاقات مجحفة

الثراء الزائف

أحمد السيد النجار

■■ تبدو الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة كصورة مبهرة للثراء والرفاهية والقوة الاقتصادية التى تشكل أساسا متينا للقوة الشاملة فى تلك الدول، وتبدو هذه الدول المتقدمة كحلم وصورة للمستقبل الاقتصادى الذى تأمل الدول النامية فى الوصول إليه عبر مسيرة تطورها المأمولة إلى دول صناعية متقدمة. وعند تأمل تجربة التطور الاقتصادى فى تلك البلدان، فإنه يتم التركيز عادة على العوامل الاقتصادية-الاجتماعية-السياسية الداخلية كعوامل تقف وراء هذا التطور الاقتصادى والثراء الشديد الذى تتمتع به تلك البلدان، ويضاف إلى تلك العوامل فى الكثير من الحالات، ما نهبته الدول الاستعمارية من ثروات وخيرات وعمال البلدان التى خضعت للاستعمار فى العهد الاستعمارى، كما يضاف إليها أيضا اختلال معدل التبادل الدولى بين السلع التى تنتجها الدول النامية وبين السلع التى تنتجها الدول المتقدمة لصالح الأخيرة، كعامل مساعد لاستمرار ثراء الدول المتقدمة. كما يظهر الاقتصاد الطفيلى المتمثل فى أسواق العملات ومجالات المضاربة الساخنة، كآلية لنزح الأموال من الدول النامية إلى الشركات والمضاربين من الدول المتقدمة، فى ظل تحرير تجارة الخدمات ضمن اتفاقات جات والاتفاقات اللاحقة لها التى عقدت فى إطار منظمة التجارة العالمية. وتظهر الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة فى النهاية كدول غنية ومانحة للقروض ودائنة للدول النامية، وتظهر أيضا كدول تتدفق منها الاستثمارات المباشرة وغير المباشرة لكل دول العالم التى تسعى دائما لجذب الاستثمارات من هذه الدول الغنية.

لكن الصورة النهائية للدول الغنية كدول مقرضة ودائنة تتدفق منها الاستثمارات إلى مختلف بلدان العالم، هى صورة زائفة بدرجة كبيرة، لأن الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة هى أكبر الدول المدينة فى العالم. بل إن البعض منها وبالتحديد الولايات المتحدة وبريطانيا تثريان بالأساس من خلال ريع الوضع الخاص لعملتيهما كعملتى احتياط لكل بلدان العالم، حيث يهيمن الدولار على قرابة ثلثى سلة الاحتياطات الدولية بينما تدور حصة الاسترلينى من هذه السلة حول نسبة ٥٪ من الإجمالى العالمى، وتقوم الدولتان بإصدار أوراق نقدية اعتمادا على النمو فى التجارة الدولية التى تقوم الدول المختلفة بتسوية التزاماتها الناجمة عنها بالعملات الحرة الرئيسية وعلى رأسها الدولار الأمريكى، بما يمكن الولايات المتحدة والدول المتقدمة صاحبة العملات الحرة الرئيسية من إصدار أوراق نقدية وإطلاقها للأسواق العالمية والحصول مقابلها على السلع والخدمات التى تنتجها مختلف دول العالم.

وبعيدا عن نهب الدول صاحبة العملات الحرة الرئيسية لباقى دول العالم بالاستناد لوضع عملاتها كعملات احتياط دولية، تتم من خلالها تسوية الالتزامات الدولية الناجمة عن التجارة فى السلع والخدمات، بما يسمح لهذه الدول بالتوسع فى إصدارها بناء على ذلك بشكل يتجاوز أى نمو فى اقتصاداتها، فإن مديونية الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة هى عبارة عن المديونية الحكومية فى تلك البلدان، للأجانب الحائزين للسندات التى أصدرتها وباعتها لهم، وهى أيضا عبارة عن قيمة الأسهم وسندات الشركات والاستثمارات المباشرة فى كافة القطاعات والودائع المصرفية والعقارات وحتى السلع المعمرة المملوكة للأجانب داخل الدولة والتى يحق لهم بيعها أو سحبها بشكل فورى أو فى أجل محدد والحصول مقابل ذلك على ثمنها السوقى، وإخراجه من اقتصاد هذه الدولة أو تلك من الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة. لكن مثل هذه المديونية تتسم بأنها بلا أعباء سياسية، كما أن الدولة المدينة تتحول إلى الطرف الأقوى لأنها ببساطة فى وضع مهيمن وتستطيع من خلال قوانينها المحلية أن تتحكم فى حركة الاستثمارات الأجنبية المباشرة واستثمارات الحافظة والودائع المصرفية وكل الاستثمارات التى دخلت فعليا إلى اقتصاد هذه الدولة. بل إن الدول الرأسمالية المتقدمة التى تعد فى مجموعها المدين الأكبر فى العالم، تعيد ضخ جزء مهم من الأموال الأجنبية التى تتدفق إليها من بلدان العالم النامى والفقير، إلى هذه البلدان نفسها بشروطها السياسية والاقتصادية التى قد لا تتوافق مع مصالح الشعوب وحتى الحكومات فى غالبية الدول النامية والفقيرة.



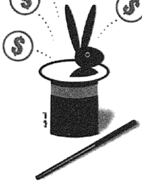
المديونية الخارجية الصافية للولايات المتحدة تبلغ نحو ١,٧ مرة قدر مديونية الدول العشر المدينة الكبرى فى العالم وهى البرازيل والصين وروسيا والمكسيك والأرجنتين واندونيسيا وتركيا والهند وبولندا والفلبين



أولا: الأثرياء المدينون:

للوهلة الأولى، يبدو وصف بعض الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة بأنها أكبر الدول المدينة فى العالم، وكأنه نوع من الدعاية الأيديولوجية المضادة للنموذج الاقتصادى-السياسى الذى تتبعه هذه الدول، لكن قراءة البيانات الصادرة عن صندوق النقد والبنك الدوليين، وهما مؤسستان اقتصاديتان حكوميتان دوليتان تمتلك الدول الرأسمالية الصناعية الكبرى هيمنة على صناعة القرار فيهما، توضح أن وصف هذه الدول بأنها أكبر الدول المدينة فى العالم وبأنها تنمو وتثرى بأموال العالم، هو أمر دقيق للغاية وفقا للبيانات التى تقدمها هذه الدول لصندوق النقد والبنك الدوليين. وتبرز الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا ومنطقة اليورو كدول مدينة كبيرة، كما هو واضح من الجدول (١).

الدائن والمدين



١ـ الولايات المتحدة:

إذا نظرنا إلى جدول ١، سنجد أن الالتزامات المستحقة لمختلف دول العالم لدى الولايات المتحدة قد بلغت نحو ٩١٢٧.١ مليار دولار فى عام ٢٠٠١، أى ما يوازى الناتج المحلى الإجمالى الأمريكى فى العام المذكور. ونظرا لأن الولايات المتحدة لها مستحقات لدى مختلف دول العالم تقدر بنحو ٦٨٦٣ مليار دولار فى العام نفسه، فإن صافى التزامات الولايات المتحدة المستحقة لمختلف دول العالم أى المديونية الأمريكية لدول العالم قد بلغت نحو ٢٢٦٤.١ مليار دولار فى عام ٢٠٠١، أى ما يوازى قرابة عشرة أضعاف الديون الخارجية للبرازيل التى تعد «أكبر» دولة مدينة فى العالم والتى بلغت مديونيتها الخارجية نحو ٢٢٧.٩ مليار دولار فى عام ٢٠٠٢. كذلك فإن المديونية الخارجية الصافية للولايات المتحدة تبلغ نحو ١.٧ مرة قدر مديونية الدول العشر المدينة الكبرى فى العالم وهى البرازيل والصين وروسيا والمكسيك والأرجنتين وإندونيسيا وتركيا والهند وبولندا والفلبين الذين بلغت مديونية كل منهم بالترتيب نحو ٢٢٧.٩، ١٦٨.٣، ١٤٧، ١٤١، ١٣٢.٣، ١٣٢.٢، ١٣١، ١٠٤.٤، ٦٩.٥، ٦١.٢ مليار دولار فى عام ٢٠٠٢، وبلغت مديونيتهم مجتمعين نحو ١٣١٥ مليار دولار عام ٢٠٠٢، ونظرا لأن عدد سكان هذه الدول العشر المدينة الكبرى قد بلغ نحو ٣١٨٤.٧ مليون نسمة فى عام ٢٠٠٢، فإن نصيب الفرد من الديون الخارجية فى تلك الدول بلغ نحو ٤١٢.٩ دولار فى العام المذكور. وبالمقابل فإن عدد سكان الولايات المتحدة بلغ ٢٨٨.٤ مليون نسمة، وبالتالى فإن نصيب الفرد من المديونية الخارجية الصافية المستحقة على الولايات المتحدة، بلغ نحو ٧٨٥٠.٦ دولار فى عام ٢٠٠١، أى أن نصيب الفرد الأمريكى من المديونية الخارجية الصافية لبلاده يبلغ أكثر من ١٩ ضعف متوسط نصيب الفرد من المديونية فى الدول العشر المدينة الكبرى فى العالم والتى أوردناها آنفا (جمعت وحسبت من: World Bank, World Development Indicators 2004, Several Tables). انظر الجدول رقم «١».

٢ ـ بريطانيا:

تمثل بريطانيا حالة فريدة فيما يتعلق بميزان علاقاتها المالية مع باقى دول العالم، فهى تتمتع بفائض كبير فى ميزان استثماراتها الخارجية المباشرة بقيمة ٣٦٧.٨ مليار دولار، بينما تسجل عجزا قيمته ٨٧.٥ مليار دولار فى استثمارات الحافظة، لكن الودائع المصرفية العائدة لبريطانيين فى مختلف بلدان العالم لا تتجاوز ١٨٩١.٥ مليار دولار، ويقابلها ودائع مصرفية موجودة فى بريطانيا ومملوكة لمواطنى الدول الأخرى بقيمة ٢٣٢٢.١ مليار دولار، بما يجعل التزامات بريطانيا المصرفية إزاء الخارج تزيد بمقدار ٤٣٠.٦ مليار دولار عن حقوق مواطنيها لدى الخارج. والنتيجة النهائية لكل ذلك هى أن بريطانيا مدينة صافية للدول الأخرى بمقدار ٤١ مليار دولار، بما يعنى أن نصيب الفرد من المديونية فى بريطانيا بلغ نحو ٦٩٢.٦ دولار فى عام ٢٠٠١، والشىء الفريد فى وضع بريطانيا هو القدرة الهائلة لجهازها المصرفى على جذب المدخرات من مواطنى وشركات الدول الأخرى، إذ تزيد الودائع الأجنبية فى الجهاز المصرفى البريطانى، عن قيمة الودائع الأجنبية فى مجمل الأجهزة المصرفية فى كل دول منطقة اليورو بأكثر من ٢٠٠ مليار دولار، كما تزيد عن الودائع الأجنبية فى الجهاز المصرفى الأمريكى العملاق بمقدار ٩٠٠.٨ مليار دولار فى عام ٢٠٠١، ويعود هذا الوضع الفريد إلى أن بريطانيا رغم انتهاء إمبراطوريتها الاستعمارية، إلا أنها احتفظت بتدفقات مالية كبيرة من مواطنى وشركات مستعمراتها السابقة، ربما من باب الدراية بقطاعها المصرفى الذى يتمتع بسمعة طيبة وانطباع دولى جيد. كذلك فإن سعر الفائدة على الاسترلينى يزيد كثيرا عن سعر الفائدة على اليورو الأوروبى والدولار الأمريكى منذ عدة أعوام. وقد بلغ سعر الفائدة على الاسترلينى فى شهر أغسطس ٢٠٠٤، نحو ٤.٩٪، مقارنة بنحو ١.٦٪ على الدولار الأمريكى، ونحو ٢.١٪ على اليورو الأوروبى، وهو ما يجعل الودائع الإسترلينية أكثر جاذبية للمودعين من مختلف بلدان العالم فى السنوات الأخيرة. كما أن بريطانيا كانت من أقل البلدان تدقيقا فى طبيعة الأموال الأجنبية التى تتدفق عليها، أو بمعنى آخر كانت واحدة من المحطات المفضلة لغسيل أموال الفساد والاقتصاد الأسود.

٣ـ كندا:

بلغت قيمة المديونية الخارجية الصافية لكندا نحو ١٢٧.٧ مليار دولار عام ٢٠٠١، بما يعنى أن كل مواطن كندى مدين بنحو ٤٠٦٧ دولارا. ورغم أن الاستثمارات الكندية المباشرة فى الخارج تزيد عن الاستثمارات الأجنبية المباشرة فى كندا بمقدار ٤٣ مليار دولار، بما يعنى أن كندا دولة دائنة فى هذا الصدد، إلا أنها مدينة فى مجالات أخرى بشكل أكبر كثيرا. والحقيقة أن الديون الكندية ناتجة بالأساس عن وجود استثمارات أجنبية فى الحافظة فى كندا بقيمة ٣٣١ مليار دولار وبما يزيد بمقدار ١٨٥.٨ مليار دولار عن قيمة استثمارات الكنديين فى الحافظة فى بلدان أجنبية، وناتجة أيضا عن وجود ودائع مصرفية أجنبية فى كندا قيمتها ١١٨.٥ مليار دولار بما يزيد بمقدار ٥٠.٤ مليار دولار عن قيمة الودائع الكندية فى مصارف الدول الأجنبية. ولولا أن كندا دولة دائنة فيما يتعلق بالاستثمارات الأخرى لكانت مديونيتها الصافية أكبر كثيرا.

٤ـ دول اليورو:

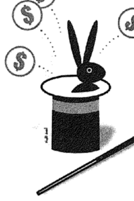
بلغت قيمة التزامات دول منطقة اليورو، لصالح الدول الأخرى، نحو ٦٧٠٨.١ مليار دولار عام ٢٠٠١، فى حين بلغت مستحقاتها لدى الدول الأخرى نحو ٦٥٧٣.٥ مليار دولار، أى أن ديونها لمختلف دول العالم بلغت نحو ١٣٤.٦ مليار دولار فى العام المذكور، بما يعنى أن متوسط نصيب الفرد فيها من هذه الديون قد بلغ نحو ٣٥٥ دولارا. ومن الضرورى الإشارة إلى أن هناك تفاوتا حادا بين أوضاع الدول المختلفة الموجودة فى منطقة اليورو فيما يتعلق بمديونيتها الخارجية، حيث تعتبر الدول الثلاث الرئيسية فى هذه المنطقة وهى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، دولا دائنة، حيث زادت الأصول الخارجية الإجمالية لهذه الدول بالترتيب عن التزاماتها أو ديونها الخارجية بقيمة ١٠٢.١، ١٩١، ١٨.٥ مليار دولار فى عام ٢٠٠١. لكن الدول الأخرى فى منطقة اليورو تعد دولا مدينة بقيمة تزيد كثيرا عن دائنية ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، بما أدى فى النهاية إلى ظهور منطقة اليورو كمنطقة مدينة.

٥ ـ اليابان:

تعد اليابان، حالة عكسية تماما، حيث أن إجمالى الأصول العائدة لمواطنيها فى الخارج، تزيد عن إجمالى الأصول العائدة للأجانب داخل اليابان بمقدار ١٤٦٢.٤ مليار دولار فى عام ٢٠٠١، وهو وضع ناجم عن تحقيق هذه الدولة لفائض هائل فى موازينها الخارجية وبالأساس ميزانها التجارى بما يجعلها مصدرة لرأس المال من خلال الإقراض وكل أشكال الاستثمارات المباشرة وغير المباشرة بصورة اضطرارية تقريبا لأن بقاء أموال الفوائض التجارية التى تزيد عن طاقة الاقتصاد اليابانى على استيعاب الاستثمارات الجديدة ستجعل من اقتصادها اقتصادا محموما ومن سوق رأس المال وأسواق العملات فيها، أسواقا محمومة ومضطربة بصورة تهدد الاستقرار الاقتصادى فيها.

نصيب الفرد الأمريكى من المديونية الخارجية الصافية لبلاده يبلغ أكثر من ١٩ ضعف متوسط نصيب الفرد من المديونية فى الدول العشر المدينة الكبرى فى العالم

الدائن والمدين



وكما هو واضح من كل ما سبق فإن الغالبية الساحقة من مديونية الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة، هى عبارة عن المديونية الأمريكية الهائلة التى كان من الممكن أن تتضاعف عدة مرات لولا توظيف الولايات المتحدة لوضع عملتها كعملة احتياط دولية لنزح السلع والخدمات والثروات من العالم مقابل أوراق نقدية أمريكية لا يوجد لها رصيد أمريكى من الإنتاج أو المعادن النفيسة، لذا فإن الولايات المتحدة تستحق أن تكون محور هذه الدراسة باعتبارها أكثر بلدان العالم ثراء وأكثرها مديونية فى الوقت نفسه!!

ثانيا: العملاق الثرى والمدين الأكبر:

قبل تناول المديونية الأمريكية لابد من التعرف على مستوى الثراء الأمريكى المتمثل فى قيمة الناتج القومى الإجمالى لهذه الدولة ومتوسط نصيب الفرد فيها من هذا الناتج، والترتيب الأمريكى بين دول العالم فى الحالتين.

١ـ الثراء الأمريكى:

تعد الولايات المتحدة هى أكبر دولة مدينة فى العالم، رغم أنها تعتبر فى الوقت نفسه أكثر بلدان العالم ثراء، وفقا لكل التقارير التى تصدرها المؤسسات الدولية مثل صندوق النقد والبنك الدوليين والأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها. وقد بلغ متوسط نصيب الفرد من الناتج القومى الإجمالى فى الولايات المتحدة نحو ٣٥٤٠٠ دولار عام ٢٠٠٢، وهو ما وضعها فى المرتبة الثالثة عالميا بعد النرويج (٣٨٧٣٠ دولارا للفرد)، وسويسرا (٣٦١٧٠ دولارا للفرد). كما بلغ الناتج القومى الإجمالى للولايات المتحدة نحو ١٠٢٠٧ مليار دولار وتلتها اليابان بناتج قومى إجمالى بلغ ٤٣٢٣.٩ مليار دولار فى عام ٢٠٠٢ وفقا لحساب هذا الناتج على أساس سعر الصرف السائد.

وإذا أخذنا بنصيب الفرد من الناتج القومى الإجمالى الحقيقى المحسوب وفقا لتعادل القوى الشرائية بين العملات المختلفة وبين الدولار، فإن نصيب الفرد من الناتج القومى الإجمالى فى الولايات المتحدة يأتى فى المركز الثانى عالميا بعد النرويج، حيث بلغ ٣٦١١٠ دولارات، مقابل ٣٦٦٩٠ دولارا للفرد فى النرويج، فى حين يتراجع متوسط نصيب الفرد من الناتج القومى الإجمالى فى سويسرا إلى ٣١٨٤٠ دولارا، نظرا لأن أسعار الصرف السائدة للفرنك السويسرى مقابل الدولار، تزيد كثيرا عن قيمته الحقيقية تجاهه والتى تتحدد بتوازن القدرات الشرائية بينهما.

كما بلغ الناتج القومى الإجمالى الأمريكى المحسوب وفقا لتعادل القوى الشرائية ١٠٤١٤ مليار دولار، وتلاه الناتج القومى الإجمالى الصينى الذى بلغ ٥٧٩٢ مليار دولار، بينما تراجعت اليابان للمركز الثالث بناتج بلغ ٣٤٨١ مليار دولار فى عام ٢٠٠٢.

ووفقا لكل المؤشرات تعتبر الولايات المتحدة دولة شديدة الثراء. ويسود تصور انطباعى أن هذه الدولة لديها من الموارد والثروات والقدرات والأصول الإنتاجية ما يحقق لها هذا الثراء الهائل، لكن هذا الانطباع بعيد عن الحقيقة والصواب، فصحيح أن الإمبراطورية الأمريكية كانت لديها ثروات معدنية ونفطية هائلة، فضلا عن الموارد المائية والغابات والأراضى الصالحة للزراعة والرعى، إلا أنها استنزفت الجانب الأعظم من مواردها القابلة للنضوب، ولم تعد ثرواتها الطبيعية هى سر ثرائها، بل مجرد جزء محدود من أساس ثرائها.

ورغم الأهمية الكبيرة للتقدم الصناعى والتكنولوجى للولايات المتحدة كسبب رئيسى لثرائها وكقاعدة تمكنها من أن تقف فى موقع متقدم وسط الدول الغنية، إلا أنه لا يكفى لتفسير المستوى البالغ الارتفاع للثراء الأمريكى فى الوقت الراهن والذى يجد تفسيره فيما يمكن تسميته بالإثراء الأمريكى بأموال العالم التى تتدفق على السوق الأمريكية كاستثمارات مباشرة وغير مباشرة، تساهم بصورة كبيرة وفعالة فى تمويل التنمية فى الاقتصاد الأمريكى. وكانت الولايات المتحدة تعد من أكثر الدول تساهلا مع تدفق أموال الفساد والاقتصاد الأسود من البلدان النامية إليها، بما جعلها قبلة لهذه الأموال لزمن طويل، قبل أن تتخذ إجراءات مشددة لمكافحة تجارة المخدرات وأموالها فى تسعينيات القرن العشرين، وتتخذ إجراءات أكثر تشددا لمواجهة تدفق الأموال إلى المنظمات التى تعتبرها واشنطن إرهابية. كما تثرى الولايات المتحدة على حساب العالم من خلال استغلال وضعية الدولار الأمريكى باعتباره عملة الاحتياط الدولية الرئيسية، حيث يشكل الدولار عملة الاحتياط الرئيسية فى العالم، وهو العملة التى يتم تسعير العديد من المواد الخام بها وعلى رأسها النفط، وهو أيضا العملة التى يتم بواسطتها تسوية الجانب الأكبر من مدفوعات التجارة الدولية فى السلع والخدمات، فضلا عن أن جانبا مهما من حركة الإقراض الدولية يتم بالدولار. وقد وظفت الولايات المتحدة دور عملتها كعملة احتياط دولية لتحقيق مصالحها الاقتصادية والسياسية الخارجية حتى لو كان ذلك من خلال إجراءات تنطوى على استغلال باقى دول العالم ونزح مواردها.

٢ ـ المديونية الخارجية الأمريكية وهيكلها:

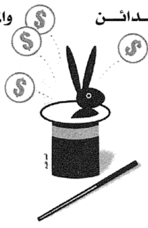
تتركز المديونية الأمريكية التى أشرنا إليها آنفا، فى إجمالى استثمارات الحافظة المملوكة للأجانب فى الولايات المتحدة، والتى بلغت قيمتها فى عام ٢٠٠١، نحو ٤١٣٢.٢ مليار دولار. والتى تعتبر ديونا على الحكومة الأمريكية بقيمة سنداتها التى باعتها للأجانب، وديون على القطاع الخاص بقيمة أسهم وسندات الشركات الأمريكية التى يمتلكها الأجانب. وللعلم فإن جزءا مهما من ممتلكات الأجانب مزدوجى الجنسية من الأسهم والسندات والودائع ومختلف أنواع الأصول، لا تحتسب على أنها التزامات خارجية أو ديون أمريكية، بل تحتسب على أنها ممتلكات لأمريكيين، رغم أن كثيرين من مزدوجى الجنسية ينتمون بالفعل لبلدانهم الأصلية وليس للولايات المتحدة.

ونظرا لأن مواطنى الولايات المتحدة بمن فيهم مزدوجو الجنسية، يمتلكون استثمارات غير مباشرة أو استثمارات فى الحافظة فى بلدان أجنبية بقيمة بلغت نحو ٢١١٠.٥ مليار دولار عام ٢٠٠١، فإن صافى المديونية الأمريكية فيما يتعلق باستثمارات الحافظة، بلغ نحو ٢٠٢١.٧ مليار دولار، أى نحو ٨٩.٣٪ من صافى المديونية الخارجية الشاملة للولايات المتحدة الأمريكية. وهذا الأمر يعنى أن الغالبية الساحقة من الأموال المملوكة للأجانب والمستثمرة فى الولايات المتحدة فى الأسهم والسندات، أو بمعنى آخر غالبية الديون الخارجية الأمريكية، هى عبارة عن أصول ورقية يتلقى مالكوها الأجانب عوائدها، لكنهم بلا سلطان فى إدارتها، إلا فى الحالات التى يمتلك فيها بعض المستثمرين الأجانب نسبة كبيرة من أسهم بعض المشروعات بما يتيح لهم المشاركة فى إدارتها. أما فى الظروف العادية وفى الغالبية الساحقة من الحالات، فإن مديرين تنفيذيين أمريكيين يديرون الأصول العينية الإنتاجية والخدمية التى يمتلك الأجانب أسهما وسندات فيها.

أما القسم الثانى من المديونية الأمريكية فهو المتمثل فى الاستثمارات الأجنبية المباشرة الموجودة فى الولايات المتحدة والتى بلغت قيمتها نحو ٢٥٢٦.٧ مليار دولار فى

كانت الولايات المتحدة تعد من أكثر الدول تساهلا مع تدفق أموال الفساد والاقتصاد الأسود من البلدان النامية إليها، بما جعلها قبلة لهذه الأموال لزمن طويل، قبل أن تتخذ إجراءات مشددة لمكافحة تجارة المخدرات وأموالها فى تسعينيات القرن العشرين





عام ٢٠٠١، والتى تعد ممتلكات عائدة للأجانب فى الولايات المتحدة وتشكل بالتالى التزامات خارجية على الولايات المتحدة، إذ يمكن للمستثمرين الأجانب، إذا أرادوا بيع استثماراتهم المباشرة أو الخروج منها أن يحصلوا على القيمة السوقية لهذه الاستثمارات ويخرجوها من الاقتصاد الأمريكى الذى يمكن بالفعل أن يتعرض لزلزال عنيف لو حدثت حالة نزوح للاستثمارات الأجنبية المباشرة وغير المباشرة منه.

ونظرا لأن مواطنى الولايات المتحدة بمن فيهم مزدوجو الجنسية، لهم استثمارات مباشرة فى الخارج تقدر قيمتها بنحو ٢٢٨٩.٩ مليار دولار، فإن صافى المديونية الأمريكية الناجمة عن ميزان الاستثمارات المباشرة، بلغ نحو ٢٣٦.٨ مليار دولار فى عام ٢٠٠١، أى ما يزيد بنحو ٨.٩ مليار دولار عن قيمة الديون الخارجية الإجمالية للبرازيل.

أما بالنسبة للودائع المصرفية فإن الولايات المتحدة لديها ودائع أجنبية بلغت قيمتها نحو ١٤٢١.٣ مليار دولار عام ٢٠٠١، ويقابلها ودائع مصرفية أمريكية فى الخارج بقيمة ١٤١٦.٨ مليار دولار فى الخارج، بما يعنى أن المديونية الأمريكية الصافية فى هذا المجال محدودة ولا تتجاوز ٤.٥ مليار دولار فى العام المذكور.

وبناء على كل ما سبق، يمكننا القول أن الولايات هى الدولة التى عليها أكبر التزامات إزاء الدول الأخرى ومواطنيها، أو بمعنى آخر هى الدولة المدينة الأكبر فى العالم، ولو افترضنا أن كل الأجانب من دول وأفراد وشركات، الذين يمتلكون أصولا وأسهما وسندات وودائع مصرفية لديها، قرروا التخلص منها والحصول على قيمتها، فإن ذلك سيعنى بلا أدنى شك، حدوث زلزال كبير فى الاقتصاد الأمريكى وانهيارا مروعا فى قيمة العملة الأمريكية وفى المكانة الاقتصادية الأمريكية فى العالم. وتعد الطريقة الوحيدة لمنع مثل هذا الانهيار فى هذه الحالة الخيالية، هى لجوء الولايات المتحدة لسياسات تسلطية تتناقض تماما مع أى منهج ليبرالى، لتأجيل وتقسيط سداد التزاماتها للدائنين لآجال طويلة ملائمة لقدرات الاقتصاد الأمريكى على السداد، بل وربما تلجأ إلى مختلف أشكال الالتفاف واختلاق الذرائع لتعطيل هذا السداد أو حتى لمصادرة الأموال والسطو المباشر على أصول بعض الدائنين لها.

ولعل السلوك الأمريكى فى مواجهة الأموال العربية منذ أحداث ١١ سبتمبر، نموذجا على السياسات التسلطية التى يمكن أن تتبعها الولايات المتحدة فى مواجهة الأموال التى تريد أن تخرج من السوق الأمريكية، فمع صعود النزعات العنصرية المعادية للعرب وللمسلمين عامة فى الولايات المتحدة بعد أحداث ١١ سبتمبر، تحت دعاوى محاصرة التمويل المالى للجماعات الأصولية والتى شملت الإجراءات الخاصة بها، مراقبة أموال الجمعيات الخيرية الدينية الإسلامية، بدأت بعض الأموال والاستثمارات العربية المتوطنة فى الولايات المتحدة تتجه نحو النزوح، فواجه بعض ممن يملكون هذه الأموال والاستثمارات من أفراد وشركات وجمعيات، إجراءات تمييزية، وتعرض البعض منهم لتجميد أمواله تحت دعاوى تجفيف التمويل الذى يذهب للجماعات «الإرهابية»، خاصة بعد أن أصدرت الولايات المتحدة قانون تشديد مكافحة غسيل الأموال الذى وضع الأموال العربية بالذات، تحت مراقبة مكثفة وتمييزية تشكل مصدرا للإزعاج وللمخاوف للمستثمرين العرب. كذلك فإن إقامة عدد من الأمريكيين لدعاوى تعويض تبلغ قيمتها نحو تريليون دولار ضد عدد من رجال الأعمال السعوديين وضمنهم بعض الأمراء من الأسرة المالكة بدعوى مسئوليتهم الضمنية عن أحداث ١١ سبتمبر بسبب تمويلهم لبعض الجمعيات الخيرية الإسلامية، قد أثار الكثير من المخاوف لدى كل المستثمرين العرب فى الولايات المتحدة بأن تكون أموالهم هدفا لمثل هذه الدعاوى التى تشكل نوعا من الاستهداف العنصرى الذى يشكل محاولة صريحة للسطو على أموال يمكن أن تخرج من الاقتصاد الأمريكى.

كما أن التراجع التاريخى لسعر الفائدة على الدولار الأمريكى لأدنى مستوى له منذ نصف قرن تقريبا حيث بلغ فى نهاية عام ٢٠٠٣ وبدايات عام ٢٠٠٤، نحو ١٪، قد جعل الاستثمارات الأجنبية وضمنها الاستثمارات العربية فى الودائع المصرفية الدولارية فى الولايات المتحدة، غير مجزية اقتصاديا، وتستحق الانسحاب منها بالفعل. وقد تراجع سعر صرف الدولار الأمريكى من نحو ١.١١ يورو فى يناير ٢٠٠٢، إلى نحو ٠.٩٥ يورو فى يناير ٢٠٠٣، قبل أن ينحدر إلى نحو ٠.٨٢ فى شهر أغسطس من العام الحالى.

وقد تعرض المستثمرون العرب فى الأسهم الأمريكية بالذات لخسائر كبيرة بسبب تباطؤ الاقتصاد الأمريكى وتخبطه وانفجار قضايا الفساد الأمريكى الذى فاق أكثر التوقعات تشاؤما. وكان من الطبيعى أن تنسحب بعض الاستثمارات الأجنبية الموجودة فى الولايات المتحدة وضمنها بعض الاستثمارات العربية، هربا من بورصة متخبطة وتعيش واحدة من أسوأ لحظاتها بسبب الفساد الذى يسيطر على إدارات بعض شركاتها الكبرى.

وعلى ضوء كل هذه التطورات حدثت بعض عمليات السحب للأموال العربية من الولايات المتحدة، فضلا عن تراجع التدفقات الاستثمارية العربية الجديدة إلى الولايات المتحدة بما ساهم فى تخفيض تدفقات الاستثمارات الأجنبية المباشرة إليها من نحو ٣١٤ مليار دولار عام ٢٠٠٠ إلى نحو ١٤٤ مليار دولار عام ٢٠٠١، إلى نحو ٣٠ مليار دولار فقط فى عام ٢٠٠٢ (راجع: United Nations conference on Trade and Development, World Investment Report 2003, p.٢٤٩).

وتفاوتت التقديرات بشأن حجم الأموال العربية المسحوبة من الولايات المتحدة، حيث أشارت صحيفة الفاينانشيال تايمز البريطانية المتخصصة فى الاقتصاد والمال فى شهر أغسطس من عام ٢٠٠٢، إلى أن ما يتراوح بين ١٠٠ و ٢٠٠ مليار دولار من الأموال العربية قد تم سحبها من الولايات المتحدة منذ أحداث ١١ سبتمبر. وفى نوفمبر من نفس العام أشارت صحيفة فرنسية أسبوعية هى «لو جورنال دو ديمانش»، إلى أن ما يزيد على ٤٠٠ مليار دولار من الأموال السعودية والخليجية المستثمرة فى الولايات المتحدة قد سحبت منها بسبب المخاوف من قيام إدارة بوش بإصدار قانون جديد يزيد من صعوبة سحب الأموال العربية من الولايات المتحدة الأمريكية ويجمدها لحين الانتهاء من التحقيقات الخاصة بشبكة القاعدة ومصادر تمويلها. وكان قرار الإدارة الأمريكية بتجميد أموال ١٥٠ من رجال الأعمال العرب منذ أحداث ١١ سبتمبر قد أثار الهلع بين الكثيرين من رجال الأعمال العرب بصفة عامة، وأعطى انطباعا لكل الدول والمستثمرين عما يمكن أن تفعله الولايات المتحدة إذا حاولت الأموال الأجنبية المتوطنة فيها أن تخرج منها.

وهذا يعنى أن الإمبراطورية الأمريكية المهيمنة عالميا والتى تعد أثقل الدول مديونية، لديها القدرة على التحكم فى الدائنين لها، وليس العكس، وذلك لأن مديونيتها الخارجية تعود إلى دول وأشخاص دخلوا للسوق الأمريكية وفقا للقوانين الداخلية التى تعمل بها والتى يمكن أن تغيرها واشنطن عند الضرورة لعرقلة نزوح هذه الأموال، فى حين أن الديون العادية للدول المدينة

الدولار باختصار، عملة لها نفوذ وهيمنة دولية وتستند فى مكانتها كعملة احتياط دولية إلى الوضع الذى حازته منذ الحرب العالمية الثانية والذى تأسس واستقر على دعائم القوة العسكرية والهيمنة السياسية للولايات المتحدة على الصعيد العالمى





العادية مثل البرازيل والمكسيك وروسيا والصين والجزائر وتركيا ومصر، تترسب عن قروض حصلت عليها هذه الدول بشروط اقتصادية وسياسية فى إطار اتفاقات دولية بينها وبين الدول أو المؤسسات التى قدمت إليها هذه القروض، ولابد من الالتزام بآجال سدادها وبالفوائد المتفق عليها، وإلا اعتبرت الدولة فى حالة عجز مالى أو حتى إفلاس إذا توقفت عن الوفاء بالتزاماتها الدولية، وعندها تضطر للخضوع لبرنامج اقتصادى يعده صندوق النقد الدولى كوكيل للدول الدائنة، مقابل إعادة جدولة ديونها.

ثالثا: الدولار.. عملة نهب العالم:

حظى الدولار بوضعه كعملة احتياط دولية منذ الحرب العالمية الثانية، نتيجة خروج الاقتصاد الأمريكى من تلك الحرب وهو أقوى وأكبر اقتصاد فى العالم حيث كان ناتجه المحلى الإجمالى يشكل قرابة ٤٥٪ من الناتج العالمى آنذاك. وقد استمر هذا الوضع بقوة الدفع الذاتى وبحفاظ الولايات المتحدة على قيادتها السياسية والعسكرية للغرب أثناء الحرب الباردة رغم تراجع حصة ناتجها المحلى الإجمالى من الناتج العالمى إلى نحو ثلثه عام ١٩٦٥، ثم إلى نحو ٢٨٪ منه عام ١٩٩٠. وبعد انتهاء الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفيتى السابق وما ترتب على ذلك من انفراد الولايات المتحدة بموقع القوة الأعظم منذ ذلك الحين وحتى الآن، استمر الدولار محافظا على وضعه كعملة الاحتياط الدولية الرئيسية رغم تراجع حصة الناتج الأمريكى من الناتج العالمى إلى ما يزيد قليلا على خمس الناتج العالمى عام ١٩٩٥، وعزز الدولار مكانته عام ٢٠٠٠ بعد دورة طويلة وقوية من النمو وبالذات فى المجمع الصناعى العسكرى الذى تعزز بقوة بسبب صفقات الأسلحة الضخمة التى باعتها الولايات المتحدة للدول العربية الخليجية بعد حرب الخليج الثانية، والتى لم تكن تلبى حاجة حقيقية لتلك الدول، بقدر ما تعد «ضريبة حماية» مدفوعة للمجمع الصناعى العسكرى الأمريكى، وهى فى النهاية أسلحة تتقادم وتتقادم فى مخازنها بلا جدوى، بما يجعل المدفوعات المتعلقة بشرائها، هدرا حقيقيا للأموال العربية، لمصلحة المجمع الصناعى العسكرى الأمريكى كنوع من الإذعان من بعض الحكومات الخليجية لمطالب هذا المجمع، فى مقابل الحماية التى تسبغها الولايات المتحدة على هذه الحكومات. وقد أدت دورة النمو القوية للاقتصاد الأمريكى فى عهد كلينتون إلى رفع حصة الناتج المحلى الإجمالى الأمريكى من الناتج العالمى.

والدولار باختصار، عملة لها نفوذ وهيمنة دولية وتستند فى مكانتها كعملة احتياط دولية إلى الوضع الذى حازته منذ الحرب العالمية الثانية والذى تأسس واستقر على دعائم القوة العسكرية والهيمنة السياسية للولايات المتحدة على الصعيد العالمى، فضلا عن ضخامة الاقتصاد الأمريكى وموقعه القيادى العالمى الذى تراجع بشكل متواصل حتى منتصف تسعينيات القرن الماضى، لكنه ظل حتى فى ذروة تراجعه، يحتل موقع القيادة فى الحجم والتطور التكنولوجى عالميا، قبل أن يحقق صعودا قويا لحصته من الناتج العالمى، فى الفترة الثانية للرئيس السابق بيل كلينتون، قبل أن يبدأ رحلة التراجع مع انتخاب الرئيس الأمريكى الحالى جورج بوش الابن الذى يتبع سياسات اقتصادية يمينية متطرفة من الصعب أن تؤدى إلى إنعاش الاقتصاد الأمريكى الذى يراوح على حافة الركود، والذى تعتمد الإدارة الأمريكية اليمينية المتطرفة فى محاولة إنعاشه، على خلق طلب خارجى على منتجاته العسكرية عبر إثارة الاضطرابات والحروب، من حرب الخليج الثانية، إلى حرب البلقان، إلى حرب أفغانستان، وأخيرا الغزو الاستعمارى للعراق واحتلاله، وتعتمد فى خلق طلب خارجى على السلع والخدمات المدنية الأمريكية، على استخدام نفوذها السياسى وبرنامج مساعداتها المالية، وأحيانا من خلال الضغط بقوتها العسكرية واستخدامها بشكل مباشر وعنيف كما هو الحال فى العراق، بغرض فتح قطاع النفط فى ذلك البلد العربى الكبير أمام الشركات الأمريكية، وفتح أعمال كبرى للشركات الأمريكية فى عمليات إعادة إعمار ذلك البلد، لو استقر الحكم الاستعمارى الأمريكى فى العراق.

ولأن الولايات المتحدة تدرك الوضع الخاص لعملتها كعملة احتياط دولية فإنها استغلتها لتحقيق مصالحها على حساب العالم. أما كيف تم ذلك، والبلدان التى أضيرت منه، واحتمالات تغيير هذا الوضع، وكيف ستواجه الولايات المتحدة مثل هذا التغيير فهذا ما سنحاول تناوله. لكن قبل الدخول فى تفاصيل هذه القضية لابد من الإشارة أولا إلى طبيعة الوضع الذى يتمتع به الدولار كعملة احتياط دولية فى الوقت الراهن.

١. آلة التفوق الأمريكية:

تشير بيانات صندوق النقد الدولى (Annual Report 2003, p.99)، إلى أن حصة الدولار الاحتياطيات الدولية من العملات الحرة لكل دول العالم قد بلغت نحو ٨.٦٤٪ عام ٢٠٠٢، مقارنة بنحو ٦.١٤٪ لليورو الأوروبى، ونحو ٥.٤٪ للين اليابانى، ونحو ٤٠.٤٪ للجنيه الاسترلينى فى العام نفسه. وكانت تلك الحصص قد بلغت فى عام ٢٠٠١، نحو ٧.٦٧٪، ٢.١٣٪، ٩.٤٪، ٤٪ للعملات المذكورة بالترتيب. كما تشير بيانات البنك الدولى فى تقريره السنوى (Global Development Finance2004)، إلى أن حصة الدولار من الديون طويلة الأجل للدول النامية قد بلغت ٩.٦١٪ عام ٢٠٠٢، مقارنة بنحو ٣.١٥٪ لليورو، ونحو ٨.١٠٪ للين اليابانى. وهو ما يشير إلى تمتع الدولار بوضع مهيمن على الاحتياطيات الدولية من العملات الحرة، وعلى حركة الإقراض الدولية. وهذه الوضعية المهيمنة للدولار الأمريكى تعطى الولايات المتحدة فرصة استثنائية لتحديد حركة الإصدار النقدى من الدولار، بناء على حركة الاقتصاد العالمى فى مجمله وحركة التجارة الدولية فى السلع والخدمات، وليس بناء على نمو الاقتصاد الأمريكى البطىء أو التجارة الخارجية الأمريكية فى السلع والخدمات. لكن كيف حصل الدولار الأمريكى على مكانته المهيمنة وكيف وظفتها واشنطن فى الواقع لاستغلال العالم بأسره ونهب موارده بدون طلقة واحدة؟

٢. النزح الأمريكى لموارد العالم

لم تكن الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها بشكل نهائى فى عام ١٩٤٤، لكنها كانت قد حسمت وبدا من هو المنتصر ومن هو المهزوم. وضمن قافلة المنتصرين، كانت الولايات المتحدة التى دارت الحرب بعيدا عن أراضيها، قد حققت نموا اقتصاديا مذهلا بينما كانت اقتصادات القارة الأوروبية بشرقها وغربها بمنتصريها ومهزوميها، تعانى من دمار مروع. وفى هذه الأجواء عقدت اتفاقيتا بريتون وودز لتأسيس صندوق النقد والبنك الدوليين. وكانت آية الانتصار الأمريكى هى إقرار الدولار كعملة احتياط دولية مرتبطة بالذهب الذى كانت الولايات المتحدة قد كدست كميات هائلة منه، وجاء ذلك بشكل صريح فى ميثاق صندوق النقد الدولى الذى نص على أن القيمة التبادلية لعملة أى دولة عضو بالصندوق سيعبر عنها بالذهب أو بالدولار الأمريكى، علما بأن الولايات المتحدة التزمت بقابلية عملتها للتحويل إلى ذهب بسعر ثابت كان يبلغ ٣٥ دولارا للأوقية (الأونصة).

وخلال الفترة من تأسيس صندوق النقد



رغم تحول الولايات المتحدة لتحقيق فائض فى الموازنة العامة للدولة بلغ ٥٥٨ مليار دولار فى الفترة من عام ١٩٩٨ حتى عام ٢٠٠١، إلا أن العجز فى الموازنة العامة قد عاد بقوة منذ عام ٢٠٠٢، ليبلغ نحو ٦٤٦٩,٥ مليار دولار





الدولى عام ١٩٤٤ وحتى عام ١٩٧٠، كانت الولايات المتحدة تحقق فائضا مستمرا فى ميزانها التجارى وفى ميزان الحساب الجارى، وبالتالى كانت قادرة على الوفاء بالتزامها بتحويل الدولار إلى ذهب، ولم تستخدم وضعية عملتها كعملة احتياط دولية بشكل سيئ ومنظم للإثراء على حساب العالم أو لنهب موارده. لكن فى عام ١٩٧١، تعرضت الولايات المتحدة لأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية، لعجز فى ميزانها التجارى وفى ميزان الحساب الجارى. وبدلا من أن تحاول إصلاح هذا العجز حتى تفى بمتطلبات استمرار عملتها كعملة احتياط دولية، فإنها أعلنت إلغاء قابلية تحويل الدولار إلى ذهب فى ١٥ أغسطس ١٩٧١، واتفقت الدول العشر الكبرى المهيمنة على صندوق النقد الدولى (الولايات المتحدة، ألمانيا، اليابان، فرنسا، إيطاليا، بريطانيا، السويد، بلجيكا، كندا، هولندا)، على توسيع هامش تذبذب العملات من ١٪ إلى ٢.٢٥٪، لكن ذلك لم يوقف تدهور الدولار مقابل الذهب حيث بلغ فى عام ١٩٧٣ نحو ١٠٠ دولار للأوقية، مما دفع البلدان الصناعية الكبرى إلى تعويم عملاتها، وبدأت مرحلة أمريكية من سوء استغلال وضع الدولار كعملة احتياط دولية، لتمويل جانب من العجز فى ميزان الادخار والاستثمار، وفى الموازنة العامة للدولة، وفى ميزان الحساب الجارى للولايات المتحدة من خلال إصدار أوراق نقدية أمريكية وإطلاقها إلى أسواق العالم مقابل سلع وخدمات تنتجها مختلف بلدان العالم، وهو الوضع المستمر حتى الآن.

وبالنسبة لتوظيف الولايات المتحدة لوضع عملتها كعملة احتياط دولية فى سد الفجوة بين الادخار المحلى المحدود والاستثمارات المحلية الأكبر منه كثيرا، فإنه كان أقدم أشكال التوظيف وأقربها للتلقائية، حيث أن وجود الدولار كعملة مهيمنة فى سلة احتياطيات العملات الحرة لدى الدول والشركات والمستثمرين فى كل أنحاء العالم، يضع السوق الأمريكية فى مقدمة الأسواق التى يمكن أن تفكر الدول أو الشركات أو المستثمرين من مختلف البلدان فى استثمار الأموال المتاحة لديها للاستثمار الخارجى. ولذلك كان معدل الاستثمار فى الولايات المتحدة أعلى كثيرا من معدل الادخار لديها دون أن تضطر للاقتراض المباشر، حيث كانت الاستثمارات الأجنبية تتولى سد تلك الفجوة.

ووفقا لبيانات صندوق النقد الدولى (IMF, World Economic Outlook, April 2004, p257)، بلغ متوسط معدل الادخار الأمريكى نحو ١٧.٩٪ من الناتج المحلى الإجمالى خلال الفترة من عام ١٩٨٢ حتى عام ١٩٩٠، فى حين كان متوسط معدل الاستثمار السنوى فى الفترة نفسها، نحو ٢٠.٣٪ من الناتج المحلى. كما بلغ متوسط معدل الادخار نحو ١٥.٩٪ خلال الفترة من عام ١٩٩٠ حتى عام ١٩٩٧، فى حين كان معدل الاستثمار الأمريكى فى الفترة نفسها، نحو ١٨.٣٪ من الناتج المحلى الإجمالى الأمريكى. وخلال الفترة من عام ١٩٩٨ حتى عام ٢٠٠٣، بلغ المتوسط السنوى لمعدل الادخار الأمريكى نحو ١٦.٤٪ من الناتج المحلى الإجمالى، فى حين بلغ المتوسط السنوى لمعدل الاستثمار فى الولايات المتحدة نحو ١٩.٦٪ من الناتج المحلى الإجمالى خلال الفترة نفسها (راجع جدول ٢). ولإدراك حجم الأموال المطلوبة لسد الفجوة بين الادخار والاستثمار فى الولايات المتحدة، يكفى أن نذكر أن هذه الفجوة قد بلغت ٣.٧٪ من الناتج المحلى الإجمالى الأمريكى الذى بلغ نحو ١٠٢٠٧ مليار دولار فى عام ٢٠٠٢، بما يعنى أن قيمة الفجوة بلغت نحو ٣٧٧.٧ مليار دولار فى العام المذكور وحده.

انظر جدول رقم «٢»

وطوال الوقت كانت الدول والشركات والمستثمرون الأجانب يتولون سد الفجوة بين معدل الادخار المنخفض ومعدل الاستثمار الأعلى فى الولايات المتحدة ليساهموا بذلك فى زيادة الأصول الإنتاجية وتعظيم جبروت الاقتصاد الأمريكى وتحقيق النمو الاقتصادى والثراء لتلك الدولة. وكان وضع الدولار كعملة احتياط دولية مملوكة لأقوى دولة فى العالم، عاملا مهما فى توجه الاستثمارات الدولية إلى الولايات المتحدة.

أما بالنسبة لاستخدام وضع الدولار كعملة احتياط دولية فى سد عجز الموازنة الأمريكية، فإن الحكومة الأمريكية وبالذات منذ عهد الرئيس الأسبق رونالد ريجان، قد عمدت إلى الإفراط فى الإصدار النقدى لتمويل الإنفاق العام، أو ما يشبه التمويل بالعجز فى البلدان النامية، معتمدة على أن الطلب على الدولار لا يتحدد فى السوق الأمريكية فقط، بل إن هناك طلبا دوليا عليه يتوسع باطراد مع زيادة حجم التجارة الدولية فى السلع والخدمات التى يشكل الدولار العملة الرئيسية فى تسوية مدفوعاتها. وبالتالى فإن توسعها فى الإصدار النقدى بدون مبررات اقتصادية أمريكية حقيقية لا يؤدى إلى اضطراب نقدى أو إلى زيادة التضخم بدرجة كبيرة، طالما أنه تتم تغطيته بطلب عالمى فى ظل توسع التجارة الدولية فى السلع والخدمات، ولذلك فإن أى تراجع فى التجارة الدولية فى السلع والخدمات لابد أن يضغط على سعر الدولار بشدة، مثلما حدث بعد انخفاض قيمة التجارة الدولية فى السلع والخدمات بمقدار ٢٧٩ مليار دولار أو بنسبة ٣.٦٪ فى عام ٢٠٠١ مقارنة بمستواها عام ٢٠٠٠، وذلك على ضوء آثار أحداث ١١ سبتمبر وكل تداعياتها.

وقد بلغ المجموع التراكمى لعجز الموازنة العامة للدولة فى الولايات المتحدة والذى لم ينقطع منذ عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٩٧، نحو ٣٤٠٠ مليار دولار، منها نحو ٢٤٠١ مليار دولار خلال الفترة من عام ١٩٨٠ حتى عام ١٩٩١ حسب بيانات صندوق النقد الدولى (International Financial Statistics Yearbook). وهذا العجز الضخم، يعنى أنه كان على الحكومة الأمريكية أن تقترض من الداخل والخارج لمواجهته، لكنها واعتمادا على وضع عملتها كعملة احتياط دولية طرحت سندات وتم بيع جانب مهم منها للأجانب، بما مكنها من تغطية هذا العجز.

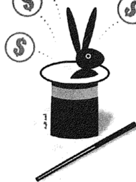
ورغم تحول الولايات المتحدة لتحقيق فائض فى الموازنة العامة للدولة بلغ ٥٥٨ مليار دولار فى الفترة من عام ١٩٩٨ حتى عام ٢٠٠١، إلا أن العجز فى الموازنة العامة للدولة الأمريكية قد عاد بقوة منذ عام ٢٠٠٢، حيث بلغ نحو ٤.٦٪ من الناتج المحلى الإجمالى الأمريكى فى عام ٢٠٠٢، أى نحو ٤٦٩.٥ مليار دولار بسبب التزايد فى الإنفاق العسكرى والأمنى أساساً، على ضوء الهستيريا الأمنية بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، كما تزايد العجز بصورة أكبر فى عام ٢٠٠٣، على ضوء المغامرات العسكرية العدوانية ضد الدول الأخرى وبالذات فى العراق وأفغانستان.

ولعل النموذج الذى ضربته الولايات المتحدة خلال مواجهتها للآثار الاقتصادية السلبية لأحداث ١١ سبتمبر، هى خير دليل على سوء استغلال هذه الدولة لوضع عملتها كعملة احتياط دولية، فبعد وقوع تلك الأحداث مباشرة، قام بنك الاحتياط الفيدرالى الأمريكى (البنك المركزى الأمريكى)، بإضافة سيولة نقدية قدرها ٨١.٢٥ مليار دولار لتمويل مواجهة الأزمة. ولأن هذا الإصدار النقدى ليس له غطاء من الإنتاج أو المعادن النفيسة، فإنه يعنى تحميل الاقتصاد العالمى بجانب كبير من العبء الاقتصادى الأمريكى الناجم عن أحداث ١١ سبتمبر، عوضا عن أن تتحمل الولايات المتحدة أعباءها بنفسها. وهذا الإجراء هو صورة من ريع الوضع المهيمن للدولار فى سلة عملات الاحتياط الدولية.

أما العجز التجارى الأمريكى المتراكم خلال الفترة من ١٩٨١ حتى عام ٢٠٠٣ فقد بلغ ٤٥٦٤ مليار دولار، وهو عجز لم يستطع فائض تجارة الخدمات الأمريكية أن يعوضه، فظهر عجز فى

بعد أن أصبحت الولايات المتحدة تعانى من عجز مزدوج فى الميزان التجارى وميزان الحساب الجارى، وبعد عودة العجز الكبير فى الموازنة العامة للدولة، فإنها أضحت أكثر حاجة إلى التشبث بوضع الدولار كعملة احتياط دولية

"الدائن والمدين"



ميزان الحساب الجارى الأمريكى فى الفترة نفسها، بلغ نحو ٣٩٤٥ مليار دولار. وهذا العجز الهائل يعنى أنه كان على الولايات المتحدة أن تحصل على قروض خارجية بنفس القيمة لسد هذا العجز، لكنها اعتمدت على تدفق الأموال الأجنبية إليها فى ظل حقيقة أن عملتها هى عملة الاحتياط الدولية الرئيسية، كما اعتمدت أيضا على التوسع فى الإصدار النقدى بالتوازى مع تزايد الناتج العالمى والتجارة الدولية، وليس بالتوازى مع تزايد الناتج الأمريكى كما هو مفترض بالنسبة للدول العادية.

وخلاصة ما سبق، هى أن الاقتصاد الأمريكى استغل وضع الدولار كعملة الاحتياط الدولية الرئيسية لتحقيق جانب مهم من نموه ومن معالجة اختلالاته الداخلية والخارجية، ومن رفع مستويات معيشة مواطنيه الذين يتمتعون بأعلى مستوى معيشى حقيقى فى العالم دون وجه حق كما أوردنا آنفا، وهو وضع لن يتغير إلا عندما تتراجع المكانة المهيمنة للدولار الأمريكى لصالح العملات الحرة الرئيسية الأخرى مثل اليورو والين اليابانى، وربما اليوان الصينى فى مرحلة قادمة على ضوء الصعود الصاعق للاقتصاد الصينى الذى يتقدم بالفعل للمنافسة على عرش الاقتصاد العالمى.

لكن الولايات المتحدة التى تمتعت طويلا بمزايا كون عملتها هى عملة الاحتياط الدولية الرئيسية، لن تستسلم لهذه التغيرات بسهولة. ولا يمكن للعالم أن ينسى العبث الذى قام به الأمريكيون وعلى رأسهم المضارب الأكثر شهرة، جورج سورس فى أسواق العملات الأوروبية فى عام ١٩٩٢، عندما كانت أوروبا تتهيأ لبدء السوق الموحدة وتتقدم باتجاه العملة الموحدة الحقيقية وليست الحسابية. وقد أدت المضاربات الأمريكية المدمرة فى أسواق العملات الأوروبية إلى أكبر اضطراب نقدى تشهده القارة الأوروبية مما أدى لاضطراب آلية أسعار الصرف الأوروبية وخروج الاسترلينى والبيزيتا الإسبانية والليرة الإيطالية منها فى سبتمبر عام ١٩٩٢. وقد عادت الليرة والبيزيتا إلى آلية أسعار الصرف الأوروبية ودخلتا فى العملة الموحدة اليورو، بينما خرج الاسترلينى ولم يعد حتى الآن مما أفقد العملة الأوروبية الموحدة ثانى أهم عملة أوروبية بعد المارك الألمانى.

وفى الوقت الراهن وبعد أن أصبحت الولايات المتحدة تعانى من عجز مزدوج فى الميزان التجارى وميزان الحساب الجارى، وبعد عودة العجز الكبير فى الموازنة العامة للدولة، فإنها أضحت أكثر حاجة إلى التشبث بوضع الدولار كعملة احتياط دولية من أجل توظيف هذا الوضع فى معالجة كل أنماط العجز فى موازينها الداخلية والخارجية.

وإذا كانت الولايات المتحدة قد حققت جانبا مهما من ثرائها من خلال توظيف وضع الدولار كعملة احتياط دولية من أجل الحصول على السلع والخدمات من مختلف بلدان العالم مقابل «أوراق» نقدية أمريكية ليس لها أى غطاء إنتاجى محلى، فإن الولايات المتحدة تدرك قبل أى طرف آخر أنها ليست وحدها على الساحة النقدية الدولية، حيث إن القوى الاقتصادية العملاقة المتحققة حاليا مثل أوروبا واليابان، والقوى الصاعدة بقوة فى آسيا وعلى رأسها الصين سوف تعمل بقوة ثقلها الاقتصادى الصاعد على إعادة تشكيل صورة الاقتصاد العالمى وأوضاع العملات الرئيسية فيه. وخلال العقد الثانى من القرن الحالى ستبدأ المعادلة التى تحكم العلاقات التبادلية بين العملات الحرة الرئيسية فى التغير القوى الذى لن يكون فى مصلحة الدولار الأمريكى على الأرجح.

لكن الدول النامية التى يتدفق منها الجانب الأكبر من الأموال التى تذهب للولايات المتحدة وللدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة والغنية الأخرى، والتى تصر أيضا على جعل العملات الحرة لهذه الدول الكبرى هى العملات التى تسوى بها تعاملاتها الاقتصادية الدولية، مدعوة لعمل جماعى وقوى من أجل إصلاح أنظمتها الاقتصادية الداخلية المفعمة بالفساد فى الكثير من الأحيان، وإلى بناء نظم اقتصادية تتوفر فيها الحرية والعدالة والقدرة على مكافحة الفساد من خلال نظام ديموقراطى كامل يتيح رقابة شعبية فعالة، وذلك لحفز المستثمرين من أبنائها على إبقاء أموالهم فى بلدانهم، ومدعوة أيضا للعمل الدءوب من أجل تغيير نظام التسويات الدولية الذى يعتمد على العملات الحرة الرئيسية، وذلك من خلال توسيع نطاق استخدام العملات المحلية والإقليمية الحرة أو التى تتمتع بمعدلات تحويل ثابتة فى التعاملات الخارجية على غرار ما فعلته دول شرق وجنوب شرق آسيا بعد أزماتها المالية والاقتصادية فى عام ١٩٩٧، وذلك بدلا من الوضع الراهن الذى يسمح للولايات المتحدة الأمريكية ولبعض الدول الغربية بالإثراء على حساب العالم بدون أى وجه حق من خلال إصدار «أوراق نقدية» بدون أى غطاء داخلى، والحصول فى مقابلها على السلع والخدمات من كل بلدان العالم، بما يحقق للولايات المتحدة والدول الكبرى ثراء هائلا ينهض أساس على نهب باقى دول العالم. ■

جدول ١

مديونية أو دائنية الدول الكبرى وهيكلها

القيمة بالمليار دولار

	الولايات المتحدة	اليابان	ألمانيا	فرنسا	بريطانيا	إيطاليا	كندا	منطقة اليورو
إجمالى الأصول	٦٨٦٢.٩	٣٠٥٢.١	٢٦٦٨.٨	٢٦٧٨.٤	٥١٩٠	١٠٦٦.١	٥٦٨	٦٥٧٣.٥
منها: استثمارات خارجية مباشرة	٢٢٨٩.٩	٣٠٤.٢	٥٠٥.٣	٨٧٣.٧	١٠٠٨.٦	١٨٢.٤	٢٤٤.٥	١٦٣٩.١
استثمارات الحافظة بالخارج	٢١١٠.٥	١٣٩٤.٥	١٠٠٤.٦	٨٦٥.٩	١٣٩٥.٣	٥٥٢	١٤٥.٢	٢٢٠٣
ودائع مصرفية بالخارج	١٤١٦.٨	٤٨٦.٧	٧٦٨.٩	٥٣٨.٥	١٨٩١.٥	١١٩.١	٦٨.١	١٥١٥.٤
الديون الإجمالية	٩١٢٧.١	١٥٨٩.٩	٢٥٦٦.٧	٢٤٨٧.٢	٥٢٣١	١٠٤٧.٦	٦٩٥.٧	٦٧٠٨.١
منها: استثمارات أجنبية مباشرة بالدولة	٢٥٢٦.٧	٧٨.١	٤٤٧.٦	٥٤٧.٥	٦٤٠.٨	١٠٧.٩	٢٠١.٥	١١٧١.٤
استثمارات أجنبية فى الحافظة	٤١٣٢.٢	٦١٠.٤	١٠٣٦.٦	١٠٢١.٦	١٤٨٢.٨	٥٦١	٣٣١	٢٨٠٤.٧
ودائع مصرفية أجنبية بالدولة	١٤٢١.٣	٦٣١.١	٨٦٣	٦٥٦.٧	٢٣٢٢.١	٢٦٠.٨	١١٨.٥	٢١٢١.٦
صافى المديونية أو الدائنية	-٢٢٦٤.٢	+١٤٦٢.٢	+١٠٢.١	+١٩١	-٤١	+١٨.٥	-١٢٧.٧	-١٣٤.٦
نصيب الفرد من المديونية أو الدائنية	-٧٨٥٠.٦	+١١٤٩٥.٣	+١٣٣٧.٦	+٣٢١٠.١	-٦٩٢.٦	+٣٢٠.٦	-٤٠٦٧	-٣٥٤

المرجع: جمعت وحسبت من: IMF, International Financial Statistics Yearbook 2003, p. 211, 287, 296, 307, 356, 363, 598, & 601

جدول ٢

الادخار والاستثمار والفجوة بينهما فى الولايات المتحدة

	المتوسط السنوى خلال الفترة ١٩٨٢ - ١٩٨٩	المتوسط السنوى خلال الفترة ١٩٩٠ - ١٩٩٧	المتوسط السنوى خلال الفترة ١٩٩٨ - ٢٠٠٣	١٩٩٨	١٩٩٩	٢٠٠٠	٢٠٠١	٢٠٠٢	٢٠٠٣
الادخار كنسبة من الناتج المحلى الإجمالى	١٧.٩٪	١٥.٩٪	١٦.٤٪	١٨.٣٪	١٨.١٪	١٨٪	١٦.٤٪	١٤.٧٪	١٣٪
الاستثمار كنسبة من الناتج المحلى الإجمالى	٢٠.٣٪	١٨.٣٪	١٩.٦٪	٢٠.٣٪	٢٠.٦٪	٢٠.٨٪	١٩.١٪	١٨.٤٪	١٨.٤٪
الفجوة بين الاستثمار والادخار (كنسبة من الناتج المحلى الإجمالى)	- ٢.٤٪	- ٢.٤٪	- ٣.٢٪	- ٢٪	- ٢.٥٪	- ٢.٨٪	- ٢.٧٪	- ٣.٧٪	- ٥.٤٪

المرجع: جمعت وحسبت من: IMF, World Economic Outlook, April 2004, p257.

الجامعات فى عصر



معتز خورشيد



قبل أربعة أشهر ناقشت «وجهات نظر» موضوع التعليم الجامعى فى مقال للدكتور صبرى حافظ لفت انتباه الكثيرين، وفى العدد الماضى كتب دكتور نبيل على عن الشكل الجديد لاستنزاف العقول العربية. وهنا دراسة ذات صلة بالمقالين تتناول معطيات الوضع الراهن لقطاع التعليم العالى، واتجاهات التغيير المتوقعة خلال الربع الأول من الألفية الثالثة، ثم تناقش بشىء من التفصيل التوجه الحالى لتحرير تجارة الخدمات التعليمية من خلال اتفاقيات الجات. وتتعرض فى النهاية لأزمة التعليم العالى فى الدول النامية واستراتيجيات التطوير المقترحة.

■■ اتسمت حقبة التسعينيات من القرن الماضى وبداية الألفية الثالثة بخصائص غير مسبوقة ستؤثر بشكل كبير فى برامج التعليم العالى، ونظمها وآليات عملها. ويمكن تجميع هذه الخصائص - بشكل عام - فى النقاط الرئيسية التالية:

١. تنامى دور العلم والمعرفة بالشكل الذى أسهم فى ربط استدامة التنمية الاقتصادية والاجتماعية بمدى نجاح الدول النامية فى تحقيق مستويات عالية من «التقدم العلمى والتطوير التقنى». وقد ساهم ذلك فى ظهور الأنشطة الاقتصادية ذات القيمة المضافة العالية «High Value Added Activities»، التى يمثل بها جانب العلم والمعرفة عنصراً أساسياً من عناصر الإنتاج الرئيسية، إلى جانب العمل، ورأس المال.

٢. التطور غير المسبوق فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وتعاظم تأثيراته فى طرق التعلم والتدريب والبحث العلمى من ناحية، والأنشطة الاقتصادية والمجتمعية، من ناحية أخرى.

٣. التأثيرات المتزايدة لظاهرة العولمة - بما تمثله من حرية تدفق التكنولوجيا، والاقتصاد، والمعرفة، والأفراد، والقيم، والأفكار عبر الحدود - واتساع نطاق اتفاقيات التجارة الدولية لتشمل الخدمات التعليمية، مما أدى إلى سرعة التوجه نحو تدويل نظم التعليم العالى من ناحية، وساهم فى تراجع دور الدولة فى صياغة سياساتها الوطنية فى مجال التعليم وتنمية الموارد البشرية، من ناحية أخرى.

٤. اتساع نطاق التوجه التنموى نحو الخصخصة، وإعادة صياغة دور الدولة فى النشاط الاقتصادى، وانعكاس هذا التوجه على نظم التعليم العالى وهياكله الأكاديمية.

وقد ساهمت هذه الخصائص - غير المألوفة سابقاً - فى التوسع الكمى فى أعداد الطلاب والمؤسسات التعليمية بوجه عام، والتباين فى الهياكل المؤسسية للتعليم العالى وبرامجها الأكاديمية على وجه الخصوص. ويمكن تلخيص السمات الجديدة لنظم التعليم العالى - فى الألفية الثالثة - على النحو التالى:

❖ تنامى ملحوظ فى معدلات الطلب على خدمات التعليم العالى، وتزايد الضغوط على مؤسسات التعليم العالى الوطنية لإعداد خريجيها للعمل فى إطار دولى يتواءم مع قواعد العولمة ومجتمع المعرفة.

❖ ظهور مقدمين جدد للخدمات التعليمية، مثل الشركات الخاصة فى مجال التعليم، والمؤسسات متعددة الجنسيات التى تقدم فرص التعليم العالى عبر الحدود.

❖ ظهور أشكال وتقنيات جديدة متطورة لتقديم الخدمات التعليمية والتدريبية، مثل التعليم الإلكترونى، والتعليم من بعد، والجامعات الافتراضية.

❖ تزايد الحراك الأكاديمى للطلاب، والأساتذة، والبرامج التعليمية عبر الحدود. مما ساهم فى خلق مناخ تنافسى أكثر انفتاحا على المستوى العالمى وحدوث تغيرات هيكلية فى أسواق العمل وأساليب البحث العلمى.

❖ تنامى الحاجة إلى وجود أنماط وبرامج للتعليم المستمر، مثل التعليم المفتوح، وتعليم الكبار، والتعليم مدى الحياة.

❖ تزايد الضغوط على مؤسسات التعليم العالى لتنويع مصادر التمويل المتاحة بفعل تراجع قدرة القطاع العام على تمويل الاستثمارات اللازمة لتحقيق النقلة النوعية المرغوبة فى التعليم العالى، مما قد يُغذى - بشكل عام - التوجه إلى التعامل مع مؤسسات التعليم العالى كوحدات تجارية، أو اعتبار خدمة التعليم العالى كسلعة تخضع لآليات وقواعد عمل الأسواق التجارية «Commercialization or Commodification of higher education».

❖ تنامى التوجه نحو العلوم البينية (interdisciplinary) والتطبيقات العلمية متعددة التخصصات، والتزاوج بين المجالات البحثية، وظهور العديد من العلوم المستقبلية، مما ساهم فى التنوع غير المسبوق فى الكفاءات والشهادات العلمية، وتعاظم الطلب على آليات متطورة وحديثة للاعتماد الأكاديمى وتوكيد الجودة.

❖ الاختلاف فى حجم الجامعات والمؤسسات التعليمية فيما يخص أعداد الطلاب والأساتذة والإمكانات المادية. والتباين فى الهيكل الأكاديمى للتخصصات العلمية ومستويات الدراسة.

❖ تزايد عدد الطلاب المنتسبين إلى الجامعات والذين يسعون للحصول على دراسات متخصصة لا تؤدى بالضرورة إلى الحصول على درجة علمية. كما تشير المؤشرات التعليمية إلى تزايد عدد الطلاب الذين يتوجهون إلى الدراسة بعد الحصول على بعض الخبرات العملية والمهنية (من خلال مراكز التعليم المفتوح)، وهو ما ساهم فى تنوع الهيكل العمرى لطلاب التعليم العالى والدراسات العليا.

❖ تنوع مصادر التمويل من خلال البحث فى إيجاد أساليب غير تقليدية للإنفاق على المتطلبات التدريسية والبحثية بنظم التعليم العالى. ويتم ذلك فى الجامعات المصرية - على سبيل المثال - من خلال البرامج البحثية المشتركة، وإنشاء وحدات ذات طابع خاص لتقديم خدمات تعليمية وبحثية لقطاعات المجتمع المدنى بمقابل مادى، والحصول على الدعم المالى من قطاع الأعمال الخاص.

ومما لا شك فيه، أن التغيرات السابقة فى نظم التعليم العالى وآلياتها ستتطلب من الدول النامية تبنى بدائل تعليمية متطورة، وعلى درجة عالية من الشفافية والكفاءة والقدرة على التواؤم مع المتغيرات العالمية. وبرغم أن هذه التغيرات - تجاه العولمة وتدويل الأنظمة التعليمية - كفيلة بأن توفر لبعض الدول فرصاً متاحة لتطوير نظمها التعليمية العليا، إلا أنها تتضمن - من ناحية أخرى - العديد من التحديات والمخاطر التى يتعين على الدول النامية مجابهتها. ويمكن تلخيص الفرص المتاحة أو المزايا المتوقعة من المناخ العالمى الجديد، فيما يلى:

١. تؤدى ثورة الاتصالات والمعلومات إلى سهولة وسرعة الحصول على البيانات والمعلومات بما يسهم فى دعم البحوث العلمية والارتقاء بمستويات الأداء على كافة المستويات.

٢. تسمح عملية تدويل أسواق العمل بسهولة الحصول على الخبرات والمهارات المهنية ليس فقط على المستوى الوطنى، ولكن أيضاً عبر الحدود والدول.

٣. تساهم التغيرات السياسية والاجتماعية والتوجه نحو نظم أكثر

«الجـــات» .. ومستقبل التعليم العالى



ديمقراطية وشفافية إلى خلق مناخ أكثر ملاءمة لدعم جهود الإصلاح الوطنية.

كما يمكن حصر المخاطر المتوقعة من الانتقال إلى مجتمع العولمة فى النقاط التالية:

١. عدم ضمان مستوى جودة الخدمات التعليمية المقدمة من المؤسسات الخاصة - الهادفة إلى الربح - والمنظمات الأهلية، وعدم التأكد من شفافية وعدالة قواعد الالتحاق، من الممكن أن يؤدى إلى إزدواجية فى نظم التعليم العالى فيما يخص جودة العملية التعليمية، والإمكانات المتاحة للطلاب والدارسين.

٢. توقع تزايد الاستنزاف الطبيعى والافتراضى لعقول وكفاءات الدول النامية، وذوبان الخصائص الثقافية المميزة لهذه الدول بدعوى ضرورة تناغم وتجانس الثقافات فى مجتمع العولمة.

٣. احتمال حدوث نمو غير متزن بين التخصصات العلمية المطلوبة بإلحاح فى سوق العمل، مثل إدارة الأعمال وتكنولوجيا المعلومات من جهة، وبرامج العلوم الأساسية من جهة أخرى، مما قد يؤدى إلى حدوث اختلال فى تركيبة التخصصات العلمية بعرض قوة العمل.

٤. تناقص دور الدولة فى وضع الأهداف والسياسات الوطنية الأكثر ملاءمة لطبيعة سوق العمل الوطنى، ومتطلبات الحفاظ على الهوية الثقافية وتوجهات تطوير نظم التعليم العالى.

فى مصر..

وتُظهر بيانات نظام التعليم العالى بمصر - خلال حقبة التسعينيات وبداية الألفية الثالثة - توجه غير مسبوق نحو التنوع فى الهياكل التنظيمية والنظم الأكاديمية. ويمكن حصر هذا التنوع فى الأنماط الأكاديمية التالية:

١. الجامعات الحكومية التى تخضع لقانون تنظيم الجامعات.

٢. الجامعات الخاصة المصرية ومعاهد التعليم العالى الأهلية والخاصة التى تمنح درجات جامعية.

٣. الجامعات الأجنبية والمشتركة مثل الجامعات الألمانية والفرنسية والكندية والأمريكية.

٤. معاهد الدراسات العليا المتخصصة التابعة للجامعات الحكومية مثل معهد الدراسات والبحوث الإحصائية، ومعهد البحوث والدراسات الإفريقية، ومعهد الدراسات والبحوث التربوية، والمعهد القومى لعلوم الليزر، والمعهد القومى للأورام.

٥. الأكاديميات العليا المتخصصة مثل أكاديمية السادات للعلوم الإدارية، والأكاديمية العربية للعلوم والتكنولوجيا.

٦. الكليات العسكرية التى تمنح درجات عليا مثل أكاديمية ناصر، والكلية الفنية العسكرية.

٧. أنماط أكاديمية أخرى مثل جامعة الأزهر، وجامعة سنجور بالإسكندرية، والمعاهد الفنية التابعة لأكاديمية الفنون.

كما انعكست التطورات التكنولوجية الحديثة فى مجال المعلومات والاتصالات فى ظهور أنماط تعليمية جديدة - ساهمت بدورها فى تنويع نظم التعليم العالى - مثل الجامعة المفتوحة (مركز التعليم المفتوح بجامعة القاهرة والجامعة العربية المفتوحة) والدرجات الجامعية المشتركة (بين الجامعات المصرية والأجنبية).

ويتعين التأكيد فى هذا المجال، أن تنوع نظم وبرامج التعليم العالى يمثل توجهاً مرغوباً يجب تشجيعه، شريطة ألا يؤثر هذا التوجه على جودة أداء المؤسسات التعليمية، وحق التقدم للدراسة من معظم شرائح السكان، والأهداف التنموية لمؤسسات التعليم العالى، ودرجة استقلالية الجامعات فى اتخاذ القرار.

التدويل:

ساهمت التغيرات الحديثة فى المناخ العالمى - من تنامى مجتمع العلم والمعرفة، وثورة الاتصالات والمعلومات، واتساع نطاق ظاهرة العولمة - فى دعم التوجه نحو تدويل التعليم العالى وإعادة النظر فى العلاقات التعليمية الدولية للجامعات.

حيث أكد المؤتمر الدولى للتعليم العالى - الذى عُقد بمنظمة اليونسكو فى عام ١٩٩٨ - أن كفاءة وجودة نظم التعليم تعتمد على نجاح مؤسسات التعليم العالى فى إضافة البُعد الدولى إلى أنشطتها من خلال ما يلى:

- التبادل العلمى والمعرفى عبر الدول.
- إنشاء اتحادات دولية وإقليمية لزيادة الارتباط بين مؤسسات التعليم العالى والجامعات عبر الحدود.
- حركة الأساتذة والطلاب عبر الدول.
- دعم البحوث المشتركة على المستوى الدولى.
- التوسع فى الشبكات الرقمية (أو الإلكترونية) التى تربط الأنشطة التعليمية والبحثية للجامعات على المستوى الدولى.

ومن هنا، أصبح «البُعد الدولى للجامعات»، أو قدرة مؤسسات التعليم العالى على تدويل أنشطتها، يمثل معياراً أساسياً لجودة نظم التعليم العالى.

كما ركز المؤتمر الدولى لليونسكو فى يونيو ٢٠٠٣، على اتجاهات تطوير التعليم العالى منذ عام ١٩٩٨ فيما يخص التوجه نحو التدويل. حيث حدد أن تدويل التعليم العالى يعنى أساساً إضفاء البُعد الدولى - أو بُعد متعدد الثقافات - على كافة النواحى التعليمية والبحثية بالجامعات. كما أكد المؤتمر على أن عملية التدويل لا تعنى فقط التوسع الجغرافى للنشاط الجامعى، ولكن أيضاً التحول الداخلى فى مؤسسات التعليم العالى للتفاعل مع توجهات التدويل. ومن هنا، فإنه يتعين على الجامعات صياغة توجه استراتيجى نحو التدويل ينبع من أهداف محددة، ويتضمن وسائل تحقيقه، ونظم لمتابعة تقدمه.

التجارة:

كان من الطبيعى - فى ظل تدويل أسواق الاقتصاد والمال واتساع نطاق التجارة الدولية من خلال اتفاقيات تحرير انتقال السلع والخدمات عبر الحدود الجغرافية للدول والأقاليم - أن تمتد هذه الاتفاقيات لتشمل قطاع التعليم العالى من خلال الاتفاقية العامة للتجارة فى الخدمات، أو باختصار اتفاقية الجاتس (General Agreement on Trades in Services-GATS). وتمثل الجاتس أول

تشير إحصائيات التعليم العالى - التى أعدتها منظمة اليونسكو - إلى تنامى عدد الطلاب المسجلين فى مرحلة التعليم العالى على المستوى العالمى من (٦٥) مليون طالب فى عام ١٩٩١ إلى (٧٩) مليون طالب فى عام ٢٠٠٠، ومن المتوقع أن يرتفع هذا العدد ليصل إلى (٩٧) مليون طالب فى عام ٢٠١٥، وما يقارب (١٠٠) مليون طالب فى عام ٢٠٢٥. ويتضح من مؤشرات التعليم العالى بمصر، أن أعداد الطلاب المقيدين بالجامعة قد ارتفع من (٥٢٠) ألف طالب فى عام ١٩٩٤/٩٣ إلى نحو (١,٢٤٠) ألف طالب فى عام ٢٠٠٣/٢٠٠٢، وبما يعادل معدل نمو كلى يصل إلى (١٣٩٪)، ومعدل نمو متوسط يقدر بنحو (١٥٪) سنوياً. كما تشير تقديرات المجلس الأعلى للجامعات إلى زيادة أعداد الطلاب المقيدين بمرحلة الدراسات العليا من (١٠٠) ألف طالب فى عام ١٩٩٤/٩٣ إلى ما يقارب (١٥٨) ألف طالب فى عام ٢٠٠٣/٢٠٠٢، بمعدل نمو يصل إلى (٢,٦٪) سنوياً فى المتوسط خلال نفس الفترة.



اتفاقية لتحرير التجارة تركز على قطاع الخدمات (النقل - التخزين - الخدمات المالية - الصحة - التعليم - ....إلخ). وهى تدار من خلال منظمة التجارة الدولية (World Trade Organization- WTO) التى تضم نحو ١٤٤ دولة. وتهدف الجاتس إلى تحقيق الانتقال التدريجى والمنظم لتحرير التجارة فى الخدمات من خلال إلغاء العديد من القيود والعوائق المحددة للتوسع فى انتقال الخدمات عبر الحدود.

وبرغم أن الطلب على التعليم العالى يشهد نمواً ثابتاً، وتزايداً فى الحراك الأكاديمى للطلاب والأساتذة منذ حقبة الثمانينيات، إلا أن الألفية الثالثة تشهد إضافة هامة نحو عولمة التعليم العالى تتمثل فى انتقال البرامج الأكاديمية والمؤسسات التعليمية عبر الحدود. يضاف إلى ما سبق، أن المنطق الاقتصادى والعائد التجارى أصبح يحكم - بشكل كبير - عرض الخدمات التعليمية على المستوى العالمى، وبحيث أضحى دافع التجارة والربحية حقيقة واقعة على مستوى الجامعات والمعاهد الخاصة، وفى بعض الأحيان على مستوى مؤسسات التعليم الحكومية.

وفى ظل الطبيعة الخاصة لخدمات التعليم العالى، انقسم خبراء التعليم حول المزايا الناجمة عن الأخذ باتفاقية الجاتس، والمخاطر المترتبة على تطبيقها. إذ تركز الاعتراضات على التأثيرات السالبة الناجمة عن تراجع الدور الحكومى فى وضع استراتيجيات التطوير الوطنية، واختلال مفهوم التعليم العالى كسلعة عامة يتعين عدم خضوعها لقواعد وآليات السوق، وعدم ضمان مستوى الجودة المطلوبة فى أداء برامج التعليم العالى. أما المدافعون عن تطبيق اتفاقية الجاتس فيرتكزون على الأثر الموجب لتحرير تجارة الخدمات فى تطوير وتحديث العملية التعليمية والبحثية، وزيادة أعداد المسجلين بنظم التعليم العالى، ذلك بالإضافة إلى النمو المتوقع فى العائد الاقتصادى والمالى بفعل تبنى هذه الاتفاقية.

ويجدر الإشارة فى هذا المجال إلى أن هناك فرقًا بين مفهوم تدويل التعليم العالى، وسياسة تحرير أو عولمة خدمات التعليم (من خلال الجاتس). إذ يركز «التدويل» على إضافة البُعد الدولى إلى الأنشطة التعليمية والبحثية والإدارية بالجامعات، وبالتالى فإن تدويل التعليم العالى يرتبط أساساً بالقيمة الأكاديمية للأنشطة الدولية، وليس بالعائد الاقتصادى للتدويل، ومن هنا ظهر حديثاً مسمى «التدويل غير الهادف إلى الربح» للتفرقة بين التدويل وبين مفهوم التجارة فى خدمات التعليم.

وتأسيساً على ما سبق، فإنه يتعين النظر إلى عولمة الخدمات التعليمية كمجموعة من القواعد والسياسات التى تسعى إلى إلغاء القيود على حرية حركة الخدمات بين الدول وعبر الحدود الجغرافية.

وسنركز فى العرض الحالى على جانبين رئيسيين لاتفاقية الجاتس من حيث تأثيراتها على التعليم العالى. يختص الجانب الأول بالمفاهيم والقواعد الحاكمة لعمل هذه الاتفاقية، ومدى القدرة على تطبيق عناصرها فى كل من الدول المتقدمة والنامية. فى حين يسعى الجزء الثانى إلى مناقشة متطلبات تحرير تجارة خدمات التعليم العالى.

تصنيف التجارة فى الخدمات:

يمكن حصر أربع فئات رئيسية للتجارة فى الخدمات عبر الحدود (أو بين الدول) من خلال اتفاقية الجاتس:

١. عرض الخدمة عبر الحدود (Cross-Border Supply):

بما يعنى تقديم خدمة عابرة للحدود دون الحاجة إلى انتقال مستهلك هذه الخدمة من مقره أو مكان تواجده. وتتمثل هذه النوعية من خدمات التعليم العالى فى التعليم من بُعد، والتعليم الالكترونى باستخدام شبكة الإنترنت، والجامعات الافتراضية التى تعتمد على تكنولوجيا المعلومات والاتصالات. ويُعتبر هذا الأسلوب التجارى فى الخدمات من الطرق الواعدة مستقبلاً فى ظل التطورات المتوقعة فى مجال الحاسبات والمعلومات وتقنية الاتصالات. ولكن يظل سوق هذه الخدمات التعليمية محدوداً - فى الوقت الراهن - على مستوى الدول النامية.

٢. استهلاك الخدمة عبر الحدود (Consumption Abroad):

بما يعنى انتقال مستهلك خدمة التعليم العالى (أو الطلاب) إلى الدولة المقدمة للخدمة. وتتمثل هذه النوعية فى انتقال الطلاب إلى دولة أخرى لاستكمال الدراسة بها. وتحتل هذه النوعية من تجارة الخدمات التعليمية النصيب الأكبر من السوق العالمى للتعليم العالى.

٣. التواجد التجارى (Commercial Presence):

بمعنى انتقال المؤسسة التعليمية المنتجة للخدمة - أو أحد فروعها - من دولة إلى أخرى لتقديم خدمة التعليم العالى عبر الحدود وبشكل مباشر. وتأخذ هذه النوعية من تجارة الخدمات التعليمية أشكالاً متعددة مثل إنشاء فرع محلى (Local Branch) لجامعة أجنبية بإحدى الدول، أو بناء حرم جامعى لإحدى المؤسسات التعليمية بالخارج (Satellite Campus)، أو الحصول على توكيل يسمح للمنتج المحلى بتسويق خدمات تعليمية لجامعات أجنبية (Franchising Arrangement). وتمثل هذه النوعية من تجارة الخدمات التعليمية توجهاً مرغوباً يُنتظر تزايده فى المستقبل القريب، ولكنه يتطلب - بالضرورة - صياغة قوانين دولية شفافة تنظم حركة الاستثمارات الخارجية والقدرة على تخصيصها فى المجالات التعليمية، فضلاً عن ضرورة وجود قناعة لدى السلطات الوطنية لقبول إنشاء كيانات أجنبية على أرضها.

٤. انتقال الأفراد لتقديم الخدمة عبر الحدود (Presence of Natural Persons):

وهو ما يعنى انتقال أستاذ الجامعة أو المدرس أو الباحث العلمى - بشكل مؤقت - إلى دولة أخرى لتقديم خدمات التعليم العالى. وهو نمط تعليمى منتشر - بشكل كبير - على مستوى كل من الدول الصناعية والدول النامية، على حد سواء.

وبصرف النظر عن الأساليب المتبعة فى تجارة خدمات التعليم العالى عبر الحدود، فإن اتفاقية الجاتس تفرض عدداً من الالتزامات أو القيود التى يتعين على الدول المُوقعة على الاتفاقية الالتزام بها. ويمكن تقسيم هذه الالتزامات إلى قواعد عامة تُطبق على معظم الدول المُوقعة على الاتفاقية، وقواعد تتحدد من خلال نتائج المفاوضات بين كل دولة على حدة، والمنظمة العالمية للتجارة (WTO) فيما يخص القطاعات الخدمية التى ستخضع لاتفاقية الجاتس ودور الحكومات ومؤسسات التعليم العالى الوطنية فى هذا المجال.

وتشير وثائق منظمة التجارة العالمية إلى أن الالتزامات العامة لاتفاقية الجاتس تتضمن ضرورة التعامل بشكل متساو مع كل الشركاء التجاريين دون تفرقة بين دولة وأخرى من حيث الفرص المتاحة لتحقيق المعدلات المرغوبة للتبادل التجارى. فقبول أحد الدول بإنشاء جامعة أجنبية على أراضيها، يترتب عليه إعطاء نفس الحق لكل الدول الأعضاء بمنظمة التجارة العالمية والموقعين على اتفاقية الجاتس بإنشاء مؤسسات تعليمية بتلك الدولة، كذلك يتطلب الأمر الشفافية فى انتقال المعلومات بين الدول ووجود آليات واضحة لفض المنازعات بين الدول فى حالة نشوئها.

أما الالتزامات الخاصة - التى تنشأ عن نتائج المفاوضات الثنائية بين إحدى الدول ومنظمة التجارة الدولية - فتتحدد بمبدأين رئيسيين على النحو التالى:

١. المعاملة الوطنية (National Treatment): وهى تختص بإعطاء نفس الحقوق لكل من مؤسسات التعليم الوطنية ومثيلتها الأجنبية بالسوق الوطنى لخدمات التعليم. أى أن سماح الدولة (أ) للدولة (ب) بتقديم خدمات التعليم العالى على أراضيها يقتضى عدم التفرقة بين مقدم الخدمة من الدولة الأجنبية (ب) وبين مؤسسات التعليم المحلية بالدولة (أ) من حيث الحقوق والواجبات.

٢. مدخل السوق (Market Access):

وهو يمثل مستويات سماح السلطات الوطنية بإحدى الدول لدولة أخرى بدخول سوقها فى أحد القطاعات الخدمية. وقد حددت اتفاقية الجاتس - فى هذا المجال - نحو ستة قيود يمكن للدولة المستضيفة أن تضعها لتنظيم



هناك فرق بين مفهوم تدويل التعليم العالى، وسياسة تحرير أو عولمة خدمات التعليم (من خلال الجاتس)





دخول مؤسسات التعليم الأجنبية فى سوق التعليم الوطنى.

وتوضح مؤشرات التجارة الدولية، أن قطاع خدمات التعليم هو أقل القطاعات تطبيقاً لاتفاقية الجاتس. ويعود ذلك - فى كثير من الأحيان - إلى صعوبة المواءمة بين قواعد تحرير تجارة خدمات التعليم واستراتيجيات التعليم الوطنية. إذ تنبع صعوبة التحرير الاقتصادى من الطبيعة الخاصة لخدمة التعليم وما تتضمنه من أبعاد ثقافية واجتماعية. وتشير الإحصاءات التعليمية أن (٤٤ دولة) فقط - من إجمالى (١٤٤ دولة) أعضاء فى منظمة التجارة العالمية (WTO) - قد وافقت على تطبيق اتفاقية الجاتس على خدمات التعليم العالى حتى عام ٢٠٠١.

ويمكن حصر القضايا التى تتطلب مزيداً من الدراسة والتحليل - فيما يخص تحرير التجارة فى خدمات التعليم العالى - فى النقاط التالية:

١. دور الحكومات الوطنية:

حيث تفيد اتفاقيات الجاتس أن الخدمات التى تتم فى إطار ممارسة الحكومة لسلطاتها يمكن إعفاؤها من التزامات الجاتس. وهو أمر يشوبه الغموض ويحتاج إلى تفسير فى ظل تزايد درجة تعقيد الدور الحكومى فى قطاع التعليم. حيث تتكون نظم التعليم العالى بالدول النامية - فى غالب الأحيان - من جامعات حكومية تتمتع باستقلالية الإدارة - فى إطار خطة استراتيجية تقوم بصياغتها الحكومة المركزية - وعدد من مؤسسات التعليم العالى الخاصة التى تعمل من خلال مجموعة من القواعد التنظيمية التى تصدر عن وزارات التعليم العالى.

٢. منطق ومزايا التطبيق:

حيث تشير نتائج المفاوضات الخاصة باتفاقيات الجاتس إلى وجود تباين بين الدول فيما يخص المنطق الاقتصادى والأكاديمى لتحرير تجارة الخدمات التعليمية. إذ تسعى استراليا - على سبيل المثال - إلى تعظيم الحراك الأكاديمى للطلاب عبر الدول والقارات. فى حين تهتم نيوزيلانده بالمزايا الاقتصادية والاجتماعية التى تعود من تطبيق اتفاقية الجاتس. وتتحدد اهتمامات الولايات المتحدة الأمريكية بزيادة القدرة المعرفية والارتفاع بكفاءة عنصر العمل وتركز - فى نفس الوقت - على انعكاسات الجاتس على بناء نظم الاقتصاد المعرفى وتحسين مناخ المنافسة. وبرغم عدم التحديد الصريح للمنطق الحاكم للمفاوضات مع اليابان، فإنها أشارت إلى أهمية توكيد الجودة ونظم الاعتماد لحماية مستهلك الخدمة التعليمية وتحسين جودة التعليم العالى والبحث العلمى. وتفيد هذه التجارب، أنه برغم أهمية البُعد الاقتصادى فى اتفاقيات الجاتس إلا أن البُعدين الاجتماعى والأكاديمى، مثلا أيضاً قضايا أساسية فى إطار مفاوضات تحرير خدمات التعليم العالى.

٣. الحاجة إلى مزيد من التحليل:

إذ يتضح من سير المفاوضات أن هناك حاجة متزايدة إلى تحليل العوامل المؤثرة على التزام (أو عدم التزام) الدول باتفاقيات تحرير التجارة فى الخدمات. ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى تباين مستويات طموح الدول فيما يخص الدور المتوقع للجاتس فى تحقيق الأهداف القومية لنظم التعليم العالى. وهنا طفت على سطح المفاوضات مفاهيم متباينة. فالبعض يفسر «المنطق الداعم لمستهلك الخدمة التعليمية» بمدى الحاجة إلى التوسع فى الفرص المتاحة للحصول على الخدمة التعليمية. فى حين يتجه آخرون إلى ربط هذا المنطق بضمان عدالة الحصول على الخدمة ومدى كفاءة تقديمها للطلاب. ويمكن فهم «المنطق الاقتصادى» كوسيلة أو أداة لجذب الاستثمارات فى مجال التعليم، فى حين يرى فريق آخر أن هذا المنطق الاقتصادى من الممكن أن يدمر أهداف التنمية الاجتماعية من خلال التعليم، وفى بعض الأحيان العائد العلمى والمعرفى للعملية التعليمية. ومن هنا تظهر مستويات للاختلاف بين المهتمين بالقضايا التعليمية من حيث تفسيرهم لانعكاسات اتفاقية الجاتس فى مجال التعليم. وهو الأمر الذى يتطلب المزيد من الدراسة والتحليل.

٤. مجال اهتمام الدول النامية:

حيث يتعين التعرف على وجهة نظر الدول النامية وعدم التقليل من جهودهم الوطنية للارتقاء بنظم وبرامج التعليم العالى، مع توضيح المزايا والمخاطر المترتبة على تحرير خدمات التعليم العالى بدرجة مقبولة من الشفافية. وتقع قضايا الجودة والاعتماد فى قلب هذه المناظرة. حيث تمثل الأطر التنظيمية للترخيص والاعتماد والاعتراف بالكفاءات وتوكيد الجودة درجة مرتفعة من الأهمية لكل من الدول النامية والمتقدمة. حيث أظهرت الدول النامية قلقها من إمكانية توفير الأطر الملائمة للجودة والاعتماد فى ظل التوجه القوى نحو تحرير التجارة وتعاظم تقديم الخدمات التعليمية عبر الحدود. ومن ناحية أخرى، تعتبر اتفاقية الجاتس أحد العوامل أو الأدوات التى تشجع الحراك المهنى. وبرغم تركيز الاتفاقية على الانتقال المؤقت لقوة العمل، فإنها من الممكن أن تؤدى إلى الهجرة الدائمة للكفاءات المهنية والأكاديمية من الجنوب إلى الشمال. ومن هنا فإن الآثار المترتبة على انتقال الأساتذة والباحثين عبر الحدود تمثل أحد مجالات اهتمام الدول النامية. وبطبيعة الحال، سيكون من الصعوبة على الدول النامية تحقيق معدلات الارتقاء المطلوبة فى نظم للتعليم العالى بها، فى ظل اجتذاب الكفاءات والكوادر الفنية والأكاديمية المؤهلة للعمل بدول أخرى. ونخلص مما سبق، أن الدول النامية ترى أن هناك العديد من الصعوبات التى تعوق تواؤمها وقدرتها على التفاعل مع النظام العالمى لتحرير التجارة، ومن هنا يعتقد العديد من المهتمين بالقضايا التعليمية بالدول النامية أن تطبيق قواعد اتفاقية الجاتس من المتوقع أن تؤدى إلى زيادة تدنى مستويات المعيشة بالدول الفقيرة أكثر من تقليل الفجوة العلمية والمعرفية والاقتصادية بين الدول النامية والدول الصناعية المتقدمة.

قبول دولة بإنشاء جامعة أجنبية يعطى الحق لكل الدول الأعضاء بمنظمة التجارة بإنشاء مؤسسات تعليمية بتلك الدولة



أزمة الدول النامية

يُجمع خبراء التعليم العالى - فى العديد من دول العالم - أن نظم التعليم مازالت تعتمد بشكل أساسى على القطاع الحكومى، وأن التكلفة الفعلية للطالب بمرحلة التعليم العالى تعتبر مرتفعة مقارنةً بباقى مراحل التعليم. وفى عصر يتسم بتنامى القيود المالية وعجز الموازنة العامة، فإن كلا من الدول النامية والصناعية - على حد سواء - تواجه التحدى الأساسى المتمثل فى «كيفية الحفاظ على - أو تحسين - مستويات أداء التعليم العالى، فى ظل تناقص نصيب الطالب الحقيقى من الإنفاق على خدمات التعليم».

فعلى مستوى الدول النامية، مثلت معدلات التسجيل بالتعليم العالى أعلى المعدلات بالمقارنة بمراحل التعليم الأخرى خلال العشرين سنة الماضية. حيث حققت الدول منخفضة ومتوسطة الدخل معدلات نمو فى عدد المسجلين بمرحلة التعليم العالى تُقدر بنحو (٢,٦٪) سنوياً، فى حين وصلت معدلات النمو للدول ذات الدخل المتوسط المرتفع إلى (٣,٧٪) سنوياً. وقد صاحب هذا النمو مستويات مرتفعة من الدعم الحكومى، وفى غالب الأحيان معدلات مرتفعة للتشغيل بالقطاع الحكومى، برغم تشبع هذا القطاع بالعمالة، وتدنى مستويات الأجور به.

وبرغم وجود بعض الحالات الاستثنائية، فقد تراجعت معدلات الأداء التدريسى والبحثى فى مؤسسات التعليم الحكومى بالدول النامية. فالعديد من نظم التعليم العالى الحكومى تعمل فى ظل إمكانات مادية محدودة، وهيئة تدريسية غير ملائمة، ومكتبات فقيرة فى عدد الكتب والدوريات، وأجهزة ومعامل وأدوات تدريبية غير كافية. وفى العديد من الدول النامية، اتجهت كفاءة الأداء الداخلى بالجامعات إلى الانخفاض، واستمرت الزيادة فى معدلات البطالة بين الخريجين. وأخيراً فقد اتسعت الفوارق فى معدلات التسجيل وتخصيص الموارد التعليمية بحسب المستوى الاجتماعى والاقتصادى للطلاب.

وتشير بيانات البنك الدولى إلى أن تراجع الموارد المالية العامة مع الزيادة الملحوظة فى

كتـــاب الـزاويــــة



أهو ده اللى صار

محمد يونس القاضى

أهو ده اللى صار وآدى اللى كان ... مـالـكـش حـق تـلـوم عـلـيـه
تلوم عليـه إزاى يـا سيـدنـا ... وخير بلادنا ماهوش فى إيدنا
قولى عن أشياء تفيـدنـا ... وبعدهـــــا لـــوم عليـــه
بدال ما يشمت فينا حاسد ... إيدك فى إيدى نقوم نجاهـد
واحنا نبقى الكل واحد ... والأيـادى تكـــون قويـــة
مـصـــر يـــا أم الـعـجـايـب ... سعدك أصيل والخصم عايب
خللى بالك م الحبايب ... دولا أنصـــار القضيـــة

قـــرش المصــــرى

إمتى بقى نشوف قرش المصرى ... يفضل فى بلده ولا يطلعش
اللـه لـو كـانـوا الأغـنـيـاء ... يتلموا ويمضوا لنا شيكات
والنبى تو ما عقدوا النية ... تتفرج عالفوريكسات
وتعيش مصر فى عيشة هنية ... دولة وتحكم ممتلكات

يـا ولـــد عمــى

مش بزيادانا بقينا عرة ... وكل حاجة من شغل بره
شوف الخواجا قلع عنينا ... وآخر المتمة فلس علينا

الجامعات فى عصر «الجات»



معدلات نمو المسجلين فى مرحلة التعليم العالى، قد ساهم فى تناقص نصيب الطالب من الإنفاق بالأسعار الثابتة (أى بعد استبعاد أثر التضخم فى الأسعار). وقد ظهر هذا التناقص بشكل أكثر وضوحاً فى كل من قارة أفريقيا، ومنطقة الشرق الأوسط. حيث انخفض متوسط نصيب الطالب من الإنفاق الحكومى فى منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا - خلال حقبة التسعينيات - من (٢٠٠,٣) دولار إلى نحو (١٩٠٠) دولار سنوياً. وقد أدى هذا الوضع إلى تراجع مستويات جودة العملية التدريسية والبحثية فى العديد من جامعات الدول النامية.

وقد انعكس تراجع الأداء أساساً على مؤشرات أعضاء هيئة التدريس من ناحية، وتدهور البنية التحتية للخدمات التعليمية، من ناحية أخرى. إذ تؤكد إحصاءات التعليم العالى أن مرتبات أساتذة الجامعة قد انخفضت بالأسعار الثابتة، مما نتج عنه عدم قدرة مؤسسات التعليم العالى العامة على المحافظة على الكفاءات الأكاديمية التى بدأت تتجه إلى وظائف أخرى تتميز بارتفاع معدل الأجور. يُضاف إلى ما سبق، أن أساتذة الجامعة أصبحوا يكرسون جزءاً غير قليل من وقتهم للأعمال الخارجية بهدف الحصول على دخول إضافية.

كما اتضح من الدراسات - التى قام بها كل من البنك الدولى ومنظمة اليونسكو - أن زيادة عدد الطلاب بمرحلة التعليم العالى، وانخفاض الموارد المالية الحقيقية، قد نتج عنه تقادم البنية التحتية لمؤسسات التعليم العالى الحكومية (الأبنية التعليمية والأجهزة والمعدات والمعامل.......إلخ)، وازدحام هذه المؤسسات بأعداد متزايدة من الطلبة. وقد أدى ذلك الوضع إلى توجه الإدارة العليا بالجامعات الحكومية إلى تخصيص معظم الموارد المالية لدعم المتطلبات الحالية وتخفيض الإنفاق على الصيانة والإحلال. وأصبح تقادم البنية التعليمية من قاعات محاضرات ومعامل ومكتبات يمثل ظاهرة عامة على مستوى معظم الدول النامية.

وإلى جانب انخفاض مستويات الأداء الداخلى بمؤسسات التعليم العالى، فقد ظهر عدد من المشاكل ترتبط بالكفاءة الخارجية لنظم التعليم العالى من حيث علاقتها بالمجتمع. حيث أظهرت المؤشرات الإحصائية ارتفاع معدلات البطالة بين الخريجين منذ حقبة الثمانينيات وحتى الآن. ويمكن تفسير هذه الظاهرة إما بتناقص الطلب على الكفاءات والتخصصات العلمية التى تتخرج من الجامعة، أو بعدم قدرة الجامعات على توفير نوعية الخريج المطلوبة فى سوق العمل من حيث المستويات المعرفية، والقدرة البحثية، وإمكانية التعامل مع تقنيات العصر الحديث. وتشير الإحصاءات الرسمية بمصر إلى زيادة معدلات البطالة بين خريجى الجامعات من (٦,٩٪) فى المتوسط خلال فترة السبعينيات إلى نحو (١٦٪) فى بداية حقبة التسعينيات. كما ارتفع معدل البطالة فى الأردن إلى نحو (١٦,٥٪) فى عام ١٩٩١. ويصل معدل البطالة بين خريجى الجامعات فى أمريكا اللاتينية إلى نحو (١٠٪) فى المتوسط. هذا ومن المنتظر تفاقم مشكلة البطالة فى المدى القريب والمتوسط، حيث إن الأداء الاقتصادى بالدول النامية لا يسمح باستيعاب الأعداد المتزايدة من خريجى الجامعات بهذه الدول. ومما يزيد من صعوبة مشكلة البطالة أن عملية ربط مخرجات التعليم العالى فى الدول النامية بمتطلبات سوق العمل لا تتم بالشكل الأمثل.

وبرغم تركز نسبة غير قليلة من الإنفاق على البحث العلمى بالدول النامية فى الجامعات، فإن هذه الدول لم تنجح فى تطوير قدراتها البحثية للتواؤم مع معطيات العصر. ومع تنامى المشاكل المالية العامة، وتناقص معدلات الإنفاق على البحث العلمى، وارتفاع تكلفة اقتناء الأجهزة والمعدات العلمية، تراجعت مخرجات العملية البحثية كماً وكيفاً. كما أظهرت دراسات التقييم للعملية البحثية، أن البحوث التى تتم فى إطار الجامعات لا تؤثر بصورة فعالة فى الأداء الاقتصادى. ومن هنا فإن العديد من الجامعات - بالدول النامية - تركز على العملية التدريسية أساساً، وتتراجع جدوى الأبحاث التى تقوم بها على المستوى التطبيقى. وتشير المؤشرات فى

تنبع صعوبة التحرير الاقتصادى من الطبيعة الخاصة لخدمة التعليم وما تتضمنه من أبعـاد ثقافيـة واجتماعيـة

هذا المجال إلى تراجع معدلات النشر العلمى فى معظم الدول النامية.

وتُظهر خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتوجهاتها الاستراتيجية خلال حقبة التسعينيات من القرن الماضى والسنوات الأولى من الألفية الثالثة، عدم حدوث نمو كبير فى حجم الإنفاق الحكومى على برامج التعليم العالى لمقابلة التنامى الملحوظ فى أعداد الطلاب المسجلين فى نظم التعليم الجامعى. وعلى الرغم من ذلك، فإن العديد من الدول النامية قد التزمت سياسياً باستيعاب الطلب المتزايد على خدمات التعليم العالى دون الأخذ فى الاعتبار بالموارد البشرية والمالية المتاحة، وضمانات جودة العملية التعليمية، وتطور هيكل الطلب بأسواق العمل الوطنية. وحيث أن نجاح جهود التنمية المستدامة يرتبط بشكل أساسى - فى عصرنا الحالى - بالتطوير العلمى والتقنى والتنمية المعرفية، فإنه يتعين على الدول النامية تبنى برامج وسياسات ملائمة لتطوير نظمها التعليمية، والارتقاء بمستويات جودتها وقدرتها على التفاعل مع معطيات عصر المعرفة.

وتشير إحصاءات التعليم العالى إلى نجاح بعض الدول الصناعية الكبرى - مثل دول الاتحاد الأوربى واستراليا - فى وضع سياسات متطورة تهدف إلى الارتقاء بكفاءة أداء برامج التعليم العالى. وبرغم ما تعانيه معظم الدول النامية من ضغوط مالية واقتصادية، وتراجع فى نصيب الطالب من الإنفاق الحكومى على التعليم، فقد نجح البعض فى تحقيق معدلات أداء مرتفعة وتنوع فى الأنشطة والهياكل الأكاديمية لنظم التعليم العالى.

ويكمن هذا النجاح - أساساً - فى تحقيق التخصيص الأمثل للموارد المالية والمادية والبشرية بين قطاعات التعليم الثلاث: التعليم الأولى، والثانوى، والجامعى. وحيث أن العائد الاجتماعى للاستثمار فى مرحلتى التعليم الأولى والثانوى يتعدى - فى غالب الأحيان - العائد الاجتماعى للاستثمار فى مرحلة التعليم العالى، فإن تخصيص الاستثمارات العامة والخاصة يجب أن يعتمد على مستوى العائد الاقتصادى والاجتماعى من ناحية، والتكامل المطلوب بين مراحل التعليم المختلفة، من ناحية أخرى. فجودة التعليم العالى تعتمد - بشكل كبير - على مستوى خريجى المدارس الأولية والثانوية. كما أن إعداد المعلم للمرحلة الثانوية (أو الأولية) يتم على مستوى المرحلة الجامعية، فضلاً عن أن تصميم برامج ومقررات المراحل الأولى من التعليم يتم بواسطة خبراء التعليم العالى.

وتشير نتائج الدراسات المقارنة التى قام بها كل من البنك الدولى ومنظمة اليونسكو لتقييم تجارب الدول النامية فى مجال التعليم العالى إلى ضرورة الأخذ بالتوجهات والسياسات الإصلاحية التالية لتحقيق أهداف تطوير الأداء فى ظل تراجع التمويل الحكومى:

١. تشجيع التنوع فى نظم وبرامج التعليم العالى بما فى ذلك التوجه نحو إنشاء مؤسسات تعليم خاصة.

٢. وضع نظم متطورة لتحفيز مؤسسات التعليم الحكومية على تنويع مصادر تمويلها من خلال مشاركة الطلاب فى الرسوم الدراسية، وإنشاء برامج أكاديمية مشتركة مع القطاع الخاص المحلى والجامعات الأجنبية، وربط تخصيص التمويل الحكومى بمعدلات الأداء.

٣. إعادة صياغة دور الحكومة فى دعم نظم وبرامج التعليم العالى فى ظل معطيات الوضع الراهن والتغيرات المتوقعة فى مناخ التعليم العالى.

٤. وضع حزمة متكاملة من السياسات تُوجه أساساً لإعطاء أولوية لمعيارى جودة وعدالة نظم التعليم العالى.

ويتعين الإشارة فى هذا المجال، أن نجاح التوجهات المقترحة فى تحقيق التطوير المرغوب يتطلب وجود القناعة الكاملة لدى السلطات الحكومية بالدول النامية من ناحية، واتخاذ مؤسسات التعليم العالى الوطنية كافة الإجراءات والتدابير والبرامج التنفيذية المناسبة، من ناحية أخرى. وهو أمر يتطلب إعداد دراسة منفصلة تركز على السمات الخاصة بنظم التعليم العالى الوطنية والمناخ الاقتصادى والاجتماعى والسياسى السائد بالدولة محل الدراسة. ■

كتـــاب الـزاويـــة



يمـامة بيضـاء

محمد يونس القاضى

يمامة حلوة ومنين أجيبها ... طارت يا نينة عند صاحبها
وخدها البلبل وطار وياها ... قصده يا نينة يعرف لغاها
شعرها يهفهف وعلى ترفرف ... وأنا بدى أعرف مطرح ما هيا
شعرها أصفر حلو يضفر ... ماشية تتمخطر قلبى عشقها
تسرح وتجينى وإيدها تصحينى ... وتحلف بدينى لم كانت بره
العين سودة والبدلة موضة ... طلعت م الأوضة قلبى هواها
طارت فى قصرى إمبارح العصرى ... لصاحبها المصرى طالع يجيبها
جم يخبوها منى ويخدوها ... ويسجلوها فى الحقانية
البلبل خدها وطار وياها ... بده يا نينة يعرف لغاها
يمامة حلوة ومنين أجيبها ... طارت يا نينة عند صاحبها

عشـقت حسـنك

عشقت حسنك وأنت ليه ... حرقت قلبى بنار الجوى
صدك وهجرك يصعب عليه ... وأنـت داوه وإنـت الـدوى
الصبـر ضـاع يـوم الـوداع ... يـا رب تجـمـعـنـا سـوى
يا قلبى ليه تعشق جميل ... تحب وصله يبخل عليك
فى حبه شفت المستحيل ... وهـوّه لـم يـنـظـر إلـيـك
يا حلو شوف قلب العليل ... واصلنى مرة أبوس إيديك



مؤتمرات كثيرة ولا حصاد ...

محمد يحيى جمال

ثلاثون عاما مرت على تغيير اليافطة على بوابة الألسن من المعهد العالى للألسن إلى كلية الألسن التابعة لجامعة عين شمس ومعها كانت بداية مرحلة جديدة مملوءة بالأمل نحو غد مضىء، وفى نفس العام دخلت اللغة العربية المجال الدولى وأصبحت لغة رسمية من لغات العمل الست فى منظمة الأمم المتحدة، وانعقدت الآمال على أن تكون تلك بادرة خطة عمل طويلة الأمد وبعيدة النظر يقوم بها أبناء العربية، وكان تغيير اليافطة على بوابة كلية الألسن يحمل اكثر من مجرد تبديل اسم، فقد كان يعنى فى طياته إعادة الهيبة والتقدير إلى مهنة مازالت مصر ومعها العالم العربى بأسره فى حاجة إلى الالتفات لها والالتفاف حولها: مهنة الترجمة.



و المهنة فى عالمنا العربى . فى الحقيقة . لا تلفت الأنظار ولا تبهر الصغار: كم طفل يقول فى رده على السؤال المعتاد: ماذا تحب أن تصبح عندما تكبر؟ الكل يريد أن يكون طبيبا أو مهندسا أو محاميا أو طيارا ولكن هل سمعنا من يريد أن يكون مترجما؟

والسبب فى ذلك يعود إلى نظرة المجتمع إلى المهنة و إلى المترجم،

وإذا نظرنا إلى الجهات الرسمية التى تضطلع بالإشراف على الترجمة فى مصر . ومعها العالم العربى . نرى أن الإشراف الحكومى . السائد دوما . ليس على المهنة ولكن على نتاج المهنة، بمعنى انه لا توجد نقابة لمترجمى مصر ولا يوجد مؤتمر لمترجمى العربية ولا ناد ولا مقر ولا قهوة لتجمع المترجمين حيث يتقابل الممارسون ويتحاورون مع الأساتذة حتى يرى الجيل الجديد الخبراء أمامه ويلتفوا حولهم، وإنما تشرف الحكومة . فقط . على نتاج ترجمة أساتذة الترجمة وتقيم المؤتمرات والحفلات حولها، ولا خلاف على أهمية الاحتفال بأى نتاج أكاديمى وعقلى يقوم به المترجمون ولكن النقطة هنا هى إن الإشراف والرعاية الحكومية تأتى فى مرحلة متأخرة وفى لحظة تشريفية وليست تشجيعية، والنتيجة أن أصبحت الترجمة هواية فردية وليست حرفة جماعية، والعكس هو المطلوب: أن تقوم الحكومة بإنجاز ما أراده محمد على باشا وأن تستمر فى سياسته الحكيمة: الاستثمارات القومية فى صناعة الترجمة،

وهذا الكلام ليس جديدا فقد سبق أن طالب به العديد من مترجمى العرب على صفحات الجرائد على مدى السنوات الثلاثين الماضية ولكن ماذا حدث خلال الثلاثة عقود الخالية:

انعقدت العديد من المؤتمرات حول الترجمة: والغريب أن العديد من هذه المؤتمرات يحمل اسم المؤتمر الدولى الأول للترجمة بمعنى غياب الاستمرارية فى النشاط، وهذا يدعو للتساؤل: هل يعود الأمر لقلة الموارد أم لانعدام التخطيط أم للتخبط، ويلاحظ أيضا أن معظم المؤتمرات يعقد كما لو كانت هى أول وآخر ما انعقد من مؤتمرات الترجمة، بمعنى أنه لا ربط بين ما سبق ولا ارتباط بما سيأتى من مؤتمرات لاحقة.

ولوحظ أيضا فى العديد من المؤتمرات العربية فى القاهرة وغيرها من العواصم العربية التكرار - الذى يكاد يصل إلى التقديس - على أهمية الترجمة، وتاريخ الترجمة والدولة العباسية وكأن الأمر يحتاج إلى تذكير وتركيز على هذا الشق المعروف والذى أصبح تكراره موضعا للشك لماذا نتوقف عند هذه البديهية التاريخية ولا نتخطاها، كثرت الندوات والمؤتمرات وما زلنا نتحدث عن أهمية الترجمة.

هل هو جمود الفكر؟ أم هل يرجع الأمر إلى انعدام البيئة المناسبة لخلق جيل من المترجمين يقومون بالمهمة الرئيسية التى ذهب من اجلها الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى إلى باريس والتى عاد بها إلى القاهرة ليؤسس مدرسة الألسن؟ هل الإشراف الحكومى عاجز عن تولى المهمة القومية؟ إن السنوات الثلاثين الماضية أثبتت أن مهنة الترجمة فى اضعف حالاتها التاريخية وأن الجمود قد تطرق إلى اوجه كثيرة، منها جهات متعددة تشرف على إعداد أو استخدام أو توظيف المترجمين، والأساس أنه لا ترجمة بدون مترجم، واع، مثقف ومدرب وإذا كانت وزارات الثقافة العربية تحتفى بالأساتذة بعد بلوغهم سن الخبرة والإنتاج فمن يشرف على الإعداد والتدريب والتكوين، ومع رحيل الأساتذة تذهب الخبرة ونعيد الكرة وننتظر جيلا آخر، وفى تلك الأثناء تأخذ الهوة بيننا وبينهم فى الاتساع ونلهث وراءهم ثم نعيد الدعوة إلى المؤتمر الأول للترجمة لنعيد

العرب "ضاعوا" في الترجمة!

تكرار ما سبق أن قلناه: أهمية الترجمة في الحوار وتاريخ الترجمة العربية والدولة العباسية، ومع ذلك سقطت بغداد يوم التاسع من أبريل ٢٠٠٣.

التركيز على المترجم

على مدى السنوات الثلاثين الأخيرة انعقدت الكثير من الدورات والندوات حول الترجمة في أماكن عدة في الوطن العربي كان معظم النقاش فيها ترفا أكاديميا يرتكز في الغالب على الترجمة الأدبية بألوانها المختلفة، والواقع يشير إلى صورة مختلفة تماما عن الانطباع الذي تقدمه المؤتمرات: في محيط من التخلف في كافة المجالات نرى مؤتمرات تم إنفاق أموال أصلا شحيحة على مناقشات لا تهم إلا أصحابها والذين هم أصلا أو معظمهم من طاقم التدريس الأكاديمي ولا تعكس الأبحاث أية نتائج اجتماعية ولا تقدم أفكارا يمكن أن تعود بالفائدة على قطاع كبير في المجتمع العربي، وأبحاث الترجمة مهمة مهما ابتعدت اهتماماتها أو ارتفعت أهدافها أو شطحت مجالاتها ولكن في العالم العربي هناك حاجة إلى ربط الجامعة بالمجتمع وأن نتدرب على التفكير الخلاق الذي يصب في نهاية الأمر في صالح المجتمع، إن هواية الفكر للفكر، رفاهية لا تقدر عليها مجتمعاتنا العربية حاليا، وهي هواية مستوردة بمعنى أنها توجد في الجامعات الأجنبية حيث التعليم بمصروفات وهذه. بالتالي. رفاهية لا يصح أن تقوم بها الجامعات العربية الحكومية.

كم طفل يقول في رده على السؤال المعتاد: ماذا تحب أن تصبح عندما تكبر؟ الكل يريد أن يكون طبيبا أو مهندسا أو محاميا أو طيارا ولكن هل سمعنا من يريد أن يكون مترجما؟ والسبب في ذلك يعود إلى نظرة المجتمع إلى المهنة وإلى المترجم

من هنا وجب التركيز على حسن اختيار وحسن إعداد المترجم، وهذه مهمة قومية لا تقل عن إعداد الجندي أو الطبيب أو المعلم أو المهندس، بل إن الإبقاء على المترجم الجيد والمتخصص يعتبر مهمة قومية، فهناك العديد من المهن والصناعات اللامعة التي تخطف المترجمين من خريجي كليات ومعاهد الترجمة وتجذبهم إليها بعيدا عن مجال الترجمة مثل: السياحة والإعلام والعلاقات العامة والسياسة الخارجية والصحافة وتعليم اللغات والشركات الخاصة، وهذا هدر للقدرات وللمواهب. والسبب يعود إلى انعدام التخطيط السليم لخلق بيئة مناسبة لمهنة الترجمة.

وإعداد المترجم الجيد مهمة ليست سهلة بل تحتاج إلى سنوات طويلة تبدأ في مرحلة التعليم الثانوي حيث يبدأ الطالب والطالبة في إدراك اهتماماتهم والتعرف على قدراتهم، وتصقل الجامعة الموهبة من خلال الإعداد التكويني لمهنة الترجمة، وبعد التخرج تشرف الصناعة على الخريجين وتقوم بالإشراف على الإعداد التراكمي وذلك من خلال النقابة والدورات التخصصية والمشروعات المختلفة والعمل مع أساتذة ومراجعين والاستفادة من خبرات الجيل السابق، هذا بالإضافة إلى الإيمان بالتعليم المستمر.

وهنا تبرز نقطة هامة جدا: كلنا نعرف المترجم الجيد من المترجم الضعيف وندرك أن كلية الألسن لها تاريخ في إعداد المترجمين الأكفاء، ولكن من يقوم بإعداد والإشراف على صقل مواهب أستاذ الترجمة في المعاهد والكليات؟؟ وإذا كان السؤال يسبب حرجا أكاديميا ويدعو إلى السفسطة الأكاديمية المعروفة باسم الدجاجة أم البيضة نجد أن هناك حاجة ماسة إلى إشراف أكبر من الأفراد والجامعات على مهنة الترجمة، إشراف تتولى مهمته صناعة حرة قوية وغنية مرتبطة باقتصاد السوق ولها أهداف تجارية وقومية، الموضوع خطير بسبب القصور في كافة أجهزة التفكير والإعداد والتمويل والنشر والتوزيع والاستثمار والدعاية، وفي هذه الأثناء تزداد الهوة بين المترجم إليهم والمترجم منهم بمعدلات يكاد يشيب لها الولدان.

في منتصف السبعينيات كان المترجم يعمل بالقلم الرصاص والمحاية ورزمة من أوراق الفلوسكاب، وكان لديه قاموس واحد أو اثنان هما قاموس المورد أو قاموس الياس، ولم تكن هناك قواميس متخصصة معروفة سوى معجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية للدكتور أحمد شفيق الخطيب الصادر سنة ١٩٧١، وكانت الآلة الوحيدة التي يستخدمها المترجم المستقل هي الآلة الكاتبة أوليفتي، هذا إن كان مترجما محترفا ويعمل من مكتبه سواء كان في المنزل أو في العمل «بعد ساعات الدوام»، وكانت طبيعة العمل تتطلب أن يذهب المترجم إلى مكان العمل لتسلم وتسليم الترجمة، أو أن يرسلها بالبريد المستعجل إن تطلب الأمر إلى خارج البلاد، كان من النادر أن يحصل المترجم على أعمال ترجمة من بلاد أخرى إلا إذا كان قد سافر إليها أو قام باتصالات شخصية.

أما اليوم، في منتصف العشرية الأولى من القرن الحادي والعشرين، فنرى المترجم يعمل من منزله في غرفة مزودة بإمكانات تفوق عشرات المرات ما كان يستخدمه والده في سنة ١٩٧٤. حيث يترجم المترجم على الكمبيوتر مباشرة ويستخدم برامج لتصحيح الطباعة ولمراجعة الكلمات وبرامج تشرح له مرادفاتها بل والبحث في القاموس الموجود بالفعل على الكمبيوتر، ولا يطبع المترجم المادة لكي يرسلها بالبريد العادي «إلا إذا كان ذلك ضروريا» بل في ٩٥٪ من الحالات يرسلها المترجم بالبريد الإلكتروني، بل ويستلم النص الأصلي في لحظة سريعة ويترجم ما استطاع ويرسلها قبل ميعاد بدء العمل في الصباح التالي، وكل هذا بفضل الإنترنت، بل وتستفيد بعض الشركات الأمريكية من فارق التوقيت وسرعة الإنترنت بالاتصال بمترجمين في استراليا لإنجاز ترجمات عاجلة على مدار الساعات الأربع والعشرين، وفوائد الإنترنت بالنسبة للمترجم المستقل تتعلق أساسا بأسلوب العمل وكفاءة الإنتاج والقدرة على الاتصال مع مصادر العمل سواء كانت وكالات ترجمة أو هيئات تطلب خدمة ترجمة سريعة لكن رفيعة المستوى، وكما أن الإنترنت أصبحت أداة من أدوات الترجمة فهي أصبحت سلاحا للمنافسة وتتطلب السيطرة التامة على قدراتها لتكون عونا للمترجم وليست عبئا عليه.

فإذا كانت الصورة هكذا والاختلاف مثلما نرى اليوم فهل اختلف نمط المترجم العربي في التفكير على مدى السنوات الثلاثين؟ والسؤال الأخطر إذا كانت الإنترنت.وهي اختراع أمريكي.هي ما أعلنت عنه الحضارة الغربية فيا ترى ما هي الاختراعات التي تملكها ولم تفصح عنها؟

إن التركيز على إعداد المترجم هو عصب القضية التي يفضل أن تخاطبها مؤتمرات الترجمة، وخلق البيئة المناسبة لتكوين جيل من المترجمين الذي يشكلون جيشا قوميا يعمل على مدار الساعة لإنجاز ترجمات تمس الأمن القومي: الاقتصاد الحر والزراعة العضوية والفكر الجديد والوعي العام بالقضايا الاجتماعية والحلول العملية للمشاكل القومية بصورة تساعد في زيادة الإقبال على التفكير والتدبر والانشغال في المجتمع المدني بصورة تساعد على الإصلاح والتغيير.

إن ذلك الهدف من الحركة القومية للترجمة لن يتأتى إلا عن طريق تأسيس نقابة قوية وغنية وتحت قيادة معروف عنها الإبداع والفكر المستنير، إن الانخراط في الحركة النقابية والاحتكاك مع

"العرب ضاعوا فى الترجمة!"



العديد من الممارسين والمحترفين من خلال الندوات والدورات التدريبية من شأنه أن يرفع من قيمة العمل الترجمى ومن قيمة المترجم وفى النهاية من قدرة المهنة على الوفاء بواجباتها القومية.

من مهنة الترجمة

إلى صناعة الترجمة

لا زالت الترجمة. رغم أهميتها الحيوية فى تكوين النهضة. نشاطا فرديا يتركز على الترجمة الأدبية، وفى ثقافة تعتمد على المستورد الأجنبى فى كافة نواحيها من العلم والتكنولوجيا والطب والإدارة وحتى الترفيه وأدب الأطفال والسينما يظن المرء أن هناك هيئة قومية تشرف على هذا الإنجاز الكبير وأن هناك مؤتمرا قوميا يحمل اسم المؤتمر العربى الثلاثين للترجمة والذى يقام كل سنة فى جامعة عربية مختلفة والحقيقة عكس ذلك، ويدرك المترجم أو من هو فى مهنة الترجمة المعوقات التى تصادف المترجم العربى من حيث الدراسة وتعلم اللغات والخبرة الحياتية فى بلد اللغة المترجم منها إلى التعلم المستمر والاحتكاك المهنى وتواصل الخبرات مع الأساتذة وحتى المراجع الأجنبية ناهيك عن قصور الموارد العربية المتمثلة فى وفرة القواميس والموسوعات والمراجع العربية، ووصولا إلى قضايا النشر والتوزيع، ومشكلة الكتاب وعادة القراءة فى البلد، كل تلك المعوقات تمت الإشارة إليها فى مقالات وأبحاث تكرر ذكرها على مر السنوات.

والنتيجة أننا ما زلنا فى دائرة مفرغة وأصبح مفهوم الترجمة فى الواقع العربى متمثلاً فى أسلوب بخيت وعديلة كما ورد فى فيلم هاللو أمريكا لعادل إمام.

إن صورة المترجم العربى التى تظهرها السينما العربية صورة ساخرة تعتمد على الأداء الحركى الفهلوى الذى يصعب معه الاعتقاد بأن مهنة الترجمة مهنة محترمة تتطلب سنوات عديدة من التدريب وصقل الموهبة وتعتمد أساسا على تعلم سليم للغة وتدريب مستمر تحت إشراف أساتذة محترفين. وإلا كان من الأفضل استخدام مترجم إشارة بدلا من الأسلوب الكوميدى فى محاولة رديئة للتغلب على صعوبة اللغة واختلاف الثقافة والبعد الجيوبولتيكى بين البلدين.

وعلى الرغم من نجاح الفيلم فى عرض أهدافه السياسية وإقبال الجماهير عليه إلا أن القضية المهنية لصورة المترجم كانت سطحية وتعكس اتجاها سائدا منذ مدة طويلة ساعدت فى ترسيخه عدة أعمال، وفى الحقيقة فان السينما المصرية لم تقدم صورة جيدة إطلاقا للمترجم ابتداءً من فيلم سى عمر الذى قدم صورة للمترجم الهندى تعطى الانطباع بأن المترجم شخص لا يثق به وأن المترجم يستطيع التغلب على صعوبة المفردات والمصطلحات باختراع ما يراه مناسبا وانتهاءً بفيلم اللمبى الذى قدم كوميديا شعبية ناجحة. وان كانت. رخيصة ولكنها صورت مهارة اللغات الأجنبية على أنها مقدرة غريبة وثانوية لا طائل من ورائها، بل وقدمت السينما أفلاما ومسرحيات كثيرة تصور أستاذ اللغة العربية فى صورة شخص آت من عالم قديم وغريب عفى عليه الزمن وقدمته فى إطار ينفر من احترام اللغة القومية ناهيك عن التشجيع على تعلم اللغات الأجنبية والقدرة على التعبير بلغة أو لغتين أجنبيتين بمهارة.

والأمر قد يختلف لو كانت هناك نقابة مهنية قوية تعمل على تقديم صورة مهنية محترفة عن المترجم وتدعو إلى مؤتمر وطنى عام يتناول قضايا المهنة من حيث الانطباع العام وفرص العمل ومكانة المترجم فى المجتمع ودوره فى العملية الثقافية وحقوقه ومسئولياته وآداب المهنة وتدعو الكتاب والفنانين إلى الغوص فى شخصية المترجم لاستكشاف مواضيع جيدة وجديدة لكى تعالجها سينمائيا، ومازالت شخصية ليلى المترجمة التى وردت فى قصة نجيب محفوظ ثرثرة فوق النيل تثير الاشمئزاز والسخط لدى العديد من المترجمين والمترجمات، ويخلو الأدب العربى. عموما. من قصة أو رواية تعتمد أساسا على شخصية ومهارة المترجم.

وعلى النقيض من ذلك نرى أن السينما الأمريكية ستقدم فى العام المقبل ٢٠٠٥ فيلما جديدا بعنوان المترجمة بطولة الممثلة الأسترالية نيكول كيدمان الذى تقوم فيه بدور مترجمة تعمل فى الأمم المتحدة، ويتطرق الفيلم إلى مهارة المترجمة التى تكتشف مؤامرة دبلوماسية داخل المقر الدولى فى نيويورك وتتناول آداب المهنة والصعوبات التى يمكن أن يتعرض لها المترجم.

إن فرص النهوض بمهنة الترجمة تتمثل فى الاهتمام بها بحيث تصبح صناعة قوية وقائمة على أسس محترفة، ولكى تصبح فى مصاف المهن الأخرى الكبرى فى المجتمع لابد أن يكون لها هيكل تجارى تشرف عليه هيئة عربية عليا تتبع سياسة واضحة لا تتغير مع تغير القائمين عليها ولا تكون تحت رحمة الحكومات المساهمة فى ميزانيتها، وأيضا هذا ليس جديدا وقد ذكر أكثر من مرة على صفحات الجرائد المصرية والعربية، بل وتم الإعلان أكثر من مرة عن مبادرات عربية على مستوى عال بشأن تأسيس جهاز أو مركز أو هيئة عربية قومية للترجمة ولكن تبدلت الأولويات مع الأيام.

ولتفعيل صناعة الترجمة فى الوطن العربى لابد أن تكون هناك حركة مهنية تتمثل فى نقابة نشطة وقوية لها برنامج عمل سنوى دائم ومؤتمر عام ومجلات ودوريات منتظمة تعمل على بث روح التعاون وإنماء عادة النشر وتقوية حركة التفاعل بين الأجيال والتعاون مع المترجمين الآخرين فى كافة العواصم العربية، إن مثل ذلك الإطار من شأنه أن يفعل حركة الاتصال والترابط بين الجامعات العربية وأساتذة الترجمة ومترجمى اللغة الواحدة مثل إنشاء رابطة المترجمين من اللغة الفرنسية ورابطة المترجمين من اللغة الصينية وهكذا، ولكن التجربة الغربية أثبتت ضرورة التفاف أعداد كبيرة من المترجمين الممارسين وطلاب وأساتذة الترجمة حول جمعية أو منتدى يمثلهم للحصول على الكتلة الحرجة ليكون لذاك التمثيل تأثير فى السوق، وأثبتت كذلك أن الممارسة الفردية قد تعرقل فرص التكتل فى ناد أو اتحاد ولذلك تعقد الدورات المتلاحقة لتحقيق عملية الاتصال الدائمة عن طريق ربط اهتمامات الأعضاء فى منتديات متخصصة تعمل على الفائدة المشتركة بدلا من التنافس غير الهادف والذى قد لا يساعد على النهوض بمستوى المهنة، هذا على مستوى القطر العربى الواحد ثم الانطلاق إلى الوطن العربى بأسرة والتوصل إلى تكتل كبير فى عالم أصبح لا ينظر إلا للتكتلات الاقتصادية ذات التأثير الواضح والفرص المتبادلة، وفى عالمنا العربى، هناك حاجة إلى مثل هذا التجمع، حينئذ يمكن أن نرى مؤتمرا عربيا على مستوى الوطن العربى يشمل كل قدراته ويغطى كافة احتياجاته فى مؤتمر علمى كبير يركز على إنجازات سبقت وطموحات لاحقة ولا يكتفى بالإشارة إلى أهمية الترجمة وتاريخها.

والرغبة فى انعقاد المؤتمر العربى الثانى مازالت قوية، فقد مضت ست عشرة سنة على انعقاد المؤتمر العربى الأول فى بغداد فى سنة ١٩٨٨.

الجمعية الدولية

للمترجمين العرب (واتا)

المترجم العربى. رغم قدراته الفردية المحدودة. أدرك أن هناك خللا فى واقع المهنة وان هناك حاجة إلى التغيير ومن هنا جاءت مبادرة خلاقة من الخليج العربى حيث استشرف الأستاذ عامر محمود العظم المستقبل المهنى وترجم فكرة النقابة العربية للترجمة إلى واقع ملموس، وبمجهود شخصى وبمساعدة مجموعة من الزملاء من أصحاب الرؤية والإيمان الراسخ بان الترجمة صناعة حيوية لابد أن ترسخ أقدامها فى محيط مهنى واع وقوى، أطلق الأستاذ عامر محمود العظم الجمعية الدولية للمترجمين العرب:واتا:على شبكة الإنترنت فى يوم الخميس الأول من يناير سنة ٢٠٠٤ وإدارة الجمعية مجهود جماعى يشرف عليه أساتذة من خيرة المترجمين العرب فى كافة أنحاء المعمورة، وباستغلال الإمكانيات التى لا حدود لها المتوفرة على الإنترنت اصبح للمترجم العربى بيت دائم ومرجع يعمل على مدار الساعة، ويشارك فى الجمعية الحديثة مترجمون يعملون فى العديد من الهيئات الدولية والجامعات العربية والأجنبية والدوائر الحكومية العربية والشركات العالمية فى



صورة المترجم العربى التى تظهرها السينما العربية صورة ساخرة تعتمد على الأداء الحركى الفهلوى الذى يصعب معه الاعتقاد بأن الترجمة مهنة محترمة تتطلب سنوات من التدريب وصقل الموهبة



العرب ضاعوا فى الترجمة!



بلاد المهجر وفى بلاد تسمع فيها العربية وأخرى بعيدة كل البعد عن العربية، والنتيجة أن أصبح للمترجم العربي ـ بين عشية وضحاها ـ زملاء فى كافة أنحاء الكرة الأرضية ويمكنه الاستفادة من المعلومات والأخبار الخاصة بالترجمة لحظة صدورها ويمكن زيارة موقع الجمعية على عنوان:

www.arabicwata.org

و على الموقع يجد العضو المسجل والزائر أبوابا تهم كل مترجم ولغوى ومنها على سبيل المثال قسم لمقابلة ضيوف الجمعية فى مقابلات فريدة فى أهميتها حيث تلخص خبرة أساتذة وممارسين فى حقول الترجمة المتعددة، وتوجد أيضا قائمة بالمترجمين واختصاصاتهم وعناوين الاتصال بهم إذا احتاج المترجم الاتصال بزميل فى نفس التخصص مما يساعد على إنجاز مهمة الاستفسار بأسرع ما يمكن، وهناك قسم خاص بالخبراء فى أوجه متعددة فى صناعة الترجمة ولجان خاصة باللغات ويمكن المشاركة بالأفكار والاستفسارات والمناقشات فى أسلوب حضارى يسخر الإنترنت لخدمة مهنة كانت أصلا تعتمد على الانفرادية فى التفكير والانعزالية فى الأداء.

إن المتتبع لحركة الترجمة العربية فى التاريخ الحديث يدرك أن هناك عدة مراحل زمنية معينة وإنجازات محددة هى التى أثرت حركة الترجمة العربية إثراء كبيرا مثل: بعثة محمد على باشا إلى فرنسا وتأسيس مدرسة الألسن وإنشاء لجنة التأليف والترجمة والنشر وإنشاء مجامع اللغة العربية ومكتب توحيد المصطلحات ومشروع الألف كتاب هى محطات تاريخية هامة وجاءت الجمعية الدولية للمترجمين العرب تتويجا لكل المحطات السابقة، والجمعية تحتفل بإنجازها ولها كل الحق ومع ذلك نرى القائمين عليها عاكفين على البناء والإضافة والتعديل بصورة ديمقراطية ستصبح المثل الذى يحتذى به عن قريب، إذ أنها قد جمعت العديد من خبراء المهنة والعاملين الممتازين فى مجال صناعة الترجمة من المتخصصين فى اللغويات والترجمة والإعلام والصحافة والتدريس والممارسين فى كافة المجالات وعلى كافة المستويات:من المترجم التحريرى إلى المترجم الإعلامى إلى مترجمى الأمم المتحدة: وكذلك طلاب الترجمة فى العديد من الجامعات العربية، كل ذلك على موقع واحد على الإنترنت يؤمه المئات يوميا وقادر على استيعاب الآلاف من القراء والمشاركين.

إن الجمعية الدولية للمترجمين العرب بقيامها هذه السنة حققت إنجازا كبيرا عجزت عن تحقيقه حكومات الوطن العربى كله، ومازلنا نهنئ أنفسنا بالجمعية ونشارك فى تشييد صرح من صروح الثقافة العربية التى أثبتت التجربة العملية أن المترجم يعتبر من صفوة مثقفيها وقادر على القيام بدور فعال فى الرقى بمهنته واخذ زمام المبادرة.

تطوير كلية الألسن

إن الاهتمام بقضية الترجمة ليس وليد اليوم بدليل أن الكثير من الأدباء العرب والمثقفين يتحدثون اللغات الأجنبية ودرسوا فى الجامعات الأجنبية ومنهم عدد ليس قليلا ممن اقبل على الترجمة، بل إن أمير الشعراء أحمد شوقى حصل على دبلوم الترجمة من باريس، وهناك من ألف كتبا بالإنجليزية ثم ترجمها . بنفسه . إلى العربية منهم على سبيل المثال «احمد فخرى . الأهرامات المصرية «ومحمد حسنين هيكل «ملفات السويس» خريف الغضب، وبطرس بطرس غالى «طريق مصر إلى القدس».

وعلى الرغم من تواجد الترجمة أكاديميا . فى حياتنا ابتداء من سؤال الترجمة فى امتحانات اللغات فى المرحلة الثانوية إلى ظهور المعاهد الخاصة لتعليم اللغات والترجمة وانتهاء بإنشاء الجامعات الخاصة والمعاهد الأكاديمية التى تتخصص فى تدريس الترجمة، بل. وصل الأمر . إلى اقتباس الاسم التاريخى كلية الألسن وتم إنشاء كلية للغات والترجمة تحمل نفس الاسم فى جامعة مصر الدولية، ومما لاشك فيه أن هناك خبرات جيدة فى كل تلك المراكز الأكاديمية ولم تعد كلية الألسن» جامعة عين شمس» هى الوحيدة القادرة على التخصص فى مجال الترجمة وتخريج أفضل المترجمين فى مصر أو فى الوطن العربى، فهناك منافسة قوية من مدرسة الملك فهد العليا للترجمة فى طنجة بالمغرب وكذلك المعهد العالى للترجمة فى الجامعة اليسوعية فى بيروت، وهما على قدر عال جد من المهنية والكفاءة، ولكن تبقى كلية الألسن فى مصاف فريد، فلها السبق ولها المكانة وتتمتع بالعامل الجغرافى والتاريخى وتمتلك من المقومات العددية والأكاديمية والتجارية ما يؤهلها أن تتبوأ مكانة عربية وعالمية، ولكن الأمر يحتاج إلى تغيير وإصلاح.

ففى زيارة إلى القاهرة فى شتاء ٢٠٠٣ وأثناء توقف قصير فى مكتبة الشروق بميدان سليمان باشا فى وسط القاهرة تطرق إلى سمع الكاتب سؤال من فتاة للبائع فى المكتبة تستفسر فيه عن عنوان قصتين من الأدب والدراما لكل من هنريك ابسن وشكسبير، فتبادر إلى ذهن الكاتب أن الفتاة قد تكون طالبة فى السنة الأولى من قسم اللغة الإنجليزية بكلية الألسن فانتظر حتى انتهت من استفساراها وسألها: هل تدرسين فى كلية الألسن؟ أجابت: نعم، وهل أنت فى السنة الأولى فى قسم اللغة الإنجليزية؟ أجابت: نعم، وهنا كانت المفاجاة مازالت المناهج الأكاديمية على ما كانت عليه منذ ثلاثين عاما، صحيح أن اللغة والأدب وشكسبير لا يتغيران وأن الكتب المطلوبة كانت لطلاب السنة الأولى المبتدئين وان الأمر قد يمر على أنه مصادفة ولكننا الآن فى عصر مختلف أصبحت فيه الولايات المتحدة هى القوة العظمى الوحيدة وفى ظروف العولمة وموجة الهجوم الأمريكى على الدين الإسلامى والهوية العربية والهيمنة الأمريكية على السياسة المصرية والعربية لابد أن تتجه الدراسات إلى كل ما هو أمريكى حتى نتعلم كيف يفكر هذا الآخر. الأمريكى. وأن ندرك أن طريقة الحوار معه لن تكون أبدا على طريقة بخيت وعديلة التى وردت فى فيلم هاللو أمريكا.

إن إصلاح الألسن يكمن فى أن تطلق يداها وتتمتع باستقلالية تامة: أكاديمية وإعلامية وتجارية، وأن يتولى إدارتها مدير أعمال لا موظف حكومى، وتكون الإدارة الجديدة واعية لدور الألسن فى المجتمع المصرى والثقافة العربية وذلك لجعل الألسن نقطة جذب للاستثمارات ومنارة فكرية وأن يديرها على أنها شركة تجارية لها ميزانية ولها أهداف وعليها مسئوليات.

وهذا النمط فى التفكير والإدارة . وإن كان جديدا . إلا أنه ليس غريبا، فهذا هو الحال فى الجامعات الخاصة فى مصر الآن، والفرق يكمن فى فلسفة الإدارة وحدود الحرية المتاحة حتى تسعى الكلية نحو المستثمرين والمجتمع ودور النشر وقطاعات تشغيل الطلاب أثناء الدراسة: من قطاع السياحة والاستثمار والصحافة والتدريس: والخريجين بعد التخرج: فى كافة المجالات التى تقبل على تشغيل خريجى الألسن:، إنها دائرة واسعة تتطلب برنامج إعداد يتخطى العام الدراسى الواحد بل يتعداه إلى سياسة طويلة الأمد لا ترتبط بفرد وإنما ترتبط بمؤسسة.



والألسن . الحديثة . لا بد أن ترتبط بالواقع وأن تفى باحتياجات المجتمع وأن تخلص لفلسفتها كما أراد لها الشيخ المؤسس الطهطاوى عند إنشائه لمدرسة الألسن. إن الإدارة لابد أن تعى أن فرص عمل الخريجين من صميم مهمتها وأن تسعى للإجابة عن السؤال الخطير: لماذا يقبل الكثير من الخريجين:المترجمين: على العمل فى قطاع السياحة والفنادق بل وقطاع الأمن هذا سؤال خطير يدل على خلل ما فى عملية اختيار المقبولين: إن نسبة الـ ٩٣٪ من مجموع الثانوية العامة كحد أدنى للقبول لا تعنى أى شىء: وأن هناك قصورا فى فلسفة التدريس وانعدام الصلة بين الجامعة والمجتمع وإهدار للكفاءات وضياع للعائد من العملية التعليمية وانعدام لقيمة المترجم فى المجتمع.

مثال من كرة القدم المصرية:

بعد نتيجة المونديال، أدرك الجميع أن هناك مشكلة فى قطاع كرة القدم فى مصر، ولكن من قبل ذلك اتضح أن الأندية الكبرى تلهث وراء اللاعبين النجوم من النوادى الأخرى وتدفع فيهم مئات الآلاف من الجنيهات، وهذا خطأ كبير نتج عن طريقة الترجمة من اللغات الأجنبية: ففى البلاد الأجنبية تسعى الأندية إلى سد حاجة ما بشراء لاعب نجم وتدفع فيه المقابل بسعر السوق، ولكن الأندية هناك تدار على أنها شركة لها مصالح

لتفعيل صناعة الترجمة فى الوطن العربى لابد أن تكون هناك حركة مهنية تتمثل فى نقابة نشطة وتقوية حركة التفاعل بين الأجيال والتعاون مع المترجمين الآخرين فى كافة العواصم العربية



كتـــاب الزاويـــة



فى شرع مين قاضى الهوى

محمد يونس القاضى

فى شرع مين قاضى الهوى　　يذله خصمه ويحكمه
هو الطبيب مالوش دوا　　وسرى إزاى أكتمه
وآدى النواح بالسر باح　　يكفى افتضاح
بين العباد　　أمرى اشتهر
الصبر من بعدك هلك　　والصبر له أحسن طبيب
تركت أهلى وملت لك　　والناس بتعطف ع الغريب
وأنت لك أخلاق ملك　　قلبى انشبك
إمتى وصالك يا قمر　　إمتى وصالك يا قمر

إرخى الستارة

إرخى الستارة اللى فى ريحنا　　لاحسن جيرانا تجرحنا
يا فرحانين يا مبسوطين　　يا مفرفشين يا مزقططين ياحنا
دلوقت أنا بس ارتحت　　لا حد فوق ولا حد تحت
يعرفنى جيت ولا رحت　　ولا حدش يقدر يلمحنا

يا فرحانين

قلبى بيطب أوى وخايفة　　عندك شباك نواحى العطفة
افتح درفة واقفل درفة　　وقوم نغير مطرحنا

العرب ضاعوا فى الترجمة!



تجارية وعليها التزامات لحملة الأسهم والمستثمرين:طريقة تفكير مختلفة تماما، والخطأ يكمن فى الترجمة . السطحية . التى تتمثل أنه من الممكن أن أترجم أى شىء بعيدا عن سياقه الثقافى، هذا ترف لا تقدر عليه الأندية العربية: والأمثلة واضحة وضوح الشمس فى العديد من الأندية المصرية والعربية من المحيط إلى الخليج؛ والحل: هو أن تستثمر الأندية المحلية فى أبنائها عن طريق إنشاء كوادر لها من سن الطفولة وأن تغرس فيهم حب الرياضة والولاء لاسم النادى وشعار الشركة التى انخرط تحت لوائها، وما اللهث وراء اللاعبين الأفارقة من بلاد تدعى الكاميرون ومالى ونيجيريا والسنغال إلا خرفا أصبحت معه كلمة أفارقة تعنى عملاقة وزنا ومعنى.

مواضيع الترجمة الجديدة

فى القرن الحادى والعشرين أصبحت الترجمة العربية قضية حساسة تمس الأمن القومى وينبغى لها أن تدرك أن الترجمة الأدبية هى ترف لا يصح منحه اكثر من حجمه، هذا على الرغم من الإعلان مؤخرا عن اتفاقية ثقافية بين مصر والمجر يتم بموجبها ترجمة روائع الأدب المجرى إلى العربية وترجمة الأدب المصرى إلى المجرية إن الهوة آخذة فى الازدياد بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية لأسباب باتت واضحة وضوح شمس الإسكندرية وبدت تلوح فى الأفق فكرة الترشيد فى الأعمال المترجمة وفى مجهود المترجمين أساسا: هل من الأجدر أن نولى وجهنا شطر الشرق ونحاول الانفتاح عليه بعدما تأكدنا من العجز عن اللحاق بالغرب؟ هل من الأجدر أن نطلب العلم ولو فى الصين واليابان وكوريا وماليزيا وسنغافورة وتايلاند، هل من الأفضل أن نعمل على تأسيس كليات للغات الآسيوية همها الأول التعلم من تجربة النمور الآسيوية؟

أم نحاول إصلاح البيت من الداخل ونعيد التخطيط بصورة افضل ونحاول التفكير بصورة إبداعية تجعل الجامعة اكثر ارتباطا بالمجتمع وتمنح القائمين على إدارة الكليات سلطات أوسع تؤهلهم لجعل الجامعة مكانا للإبداع وليس مجرد مدرسة للتعليم وتفريخ الخريجين.

إن مواضيع الترجمة فى المرحلة التاريخية الراهنة اختلفت تماما عن المواضيع السائدة من ثلاثين سنة فأصبحت: إدارة الوقت، حماية البيئة،العولمة، التعلم المستمر، علوم الكمبيوتر، خلق الفرص الشخصية، إصدار الموسوعات وتبسيط العلوم والخيال العلمى ومكافحة التصحر وظاهرة الاحتباس الحرارى وزيادة الموارد المائية وقطاع الخدمات ورعاية المعوقين والانخراط فى المجتمع المدنى هى المواضيع الحيوية التى تعيشها المجتمعات الغربية؛ وعلى العكس تماما نرى أن هذه الموضوعات على أهميتها لا تجد صدى لها فى المجتمعات العربية لأسباب سياسية واقتصادية ومفاهيم اجتماعية عقيمة ولكن سائدة.

ولعل أهم الموضوعات التى يجدر بالمترجم العربى التعامل معها فى الفترة التالية تتعلق بالعمل الإعلامى خاصة فى القنوات الفضائية الموجهة والترجمة التلفزيونية والإعداد المتميز للصحافة العربية الصادرة باللغات الأجنبية والتى تخاطب القارئ الأجنبى بصورة اكثر حرفية وعلى درجة عالية من المصداقية، وتجدر الإشارة إلى أن العالم الغربى عندما يريد أن يتعرف على الشرق الأوسط ويبحث عن معلومة باللغة الإنجليزية يعتمد أساسا على صحيفة الـ جيروزالم بوست الإسرائيلية ولا يلتفت كثيرا إلى الصحف العربية الصادرة بالإنجليزية.

وتبقى قضية الحوار مع الآخر ومرادفات هذه القضية من تلاقى الحضارات ومخاطبة الثقافات والتواصل الفكرى تصب فى صميم نطاق الترجمة التى أثبتت أن خير من يقوم بدور المحاور والمفاوض والشارح والسفير والمقدم والمعلق والمتحدث لا غير سوى المترجم.

وهذه نقطة فى غاية الأهمية وجديرة بالبحث فى مؤتمرات الترجمة: كيف نقوم بإعداد شباب المترجمين ليتولوا مهام صناعة الترجمة وتحدياتها المقبلة طوال القرن الأمريكى الحادى والعشرين، وكيف نستثمر طاقاتنا وخبرات الباحثين فى دراسات الترجمة والإعلام والثقافة والسياسة الدولية واللغات والعلوم لإعداد نوعية جديدة من المترجمين . فوق العادة . المحاورين الثقافيين: فى أهم عشر لغات:وعشر أخرى آسيوية: وأن نضمن الاستمرارية فى الإعداد والتدريب. ■

فــــــن



مــن حَميَّــة كليوباتـرا إلــى المــآدب الفيكتـوريـة



إنجـــــريـــــد د. رولانــــــد

■■ يظهر نقش حجرى قليل البروز من تل العمارنة بمصر الملكة نفرتيتى أثناء حضورها مأدبة عشاء مع زوجها الفرعون المنشق إخناتون، ولو أنَ كلمة «حضور مأدبة» قد تكون تعبيراً منقى لوصف هذا العرض النهم. والملكة نفرتيتى – هذا الجمال البارد القادم من مكان بعيد والمعروفة لدينا عن طريق تمثالها النصفى المشهور فى برلين – تظهر هنا كشخصية نهمة تستخدم كلتا اليدين فى الأكل حيث تظهر فى الرسم وهى جالسة على عرش رائع، ممسكة بدجاجة بكلتا الأيدى وتمزِّقها بأسنانها دون أن يكون هناك سكين أو منديل مائدة أو إناء لغسل الأنامل ظاهرين فى أى مكان على مرمى البصر. أما إخناتون فيظهر مناقضا لشهرته كشخص حالم ضعيف حيث يلوِّح بقوة بقطعة لحم ضخمة كما لو كانت لا شىء أكثر من قطع صغيرة من الشيش كباب – ناهيك عن ذكر شهيته – التى تناسب هرقل، كما يبتلع القسم الأعلى من شريحة لحم البقر كما لو كان رمسيس العظيم. وفى الواقع، نادرا ما ظهر الاستهلاك المنافى للذوق بهذا الوضوح.

إلا أن إقامة الولائم وحضورها، كما يوضح روى سترونج فى كتابه الذى يجب قرءاته والمصوَّر بشكل جيد، كان دائما عملاً شاقًا. فالملوك بدءا من الملك بيلشازار إلى لويس الرابع عشر قد استغلوا وسيلة الاستهلاك العلنى للغذاء وتوزيعه للتعبير بشكل مسرحى عن سلطتهم، وكانوا يتباهون بسيادتهم على طرق التجارة بأكل الطيبات القادمة من أنحاء الأرض البعيدة حيث يتمتعون بشدة بنقاء المذاق، أو ينغمسون ببساطة فى أروع الخطايا القاتلة السبع. فى أغلب الأحيان، كانت بقايا الولائم الملكية توزَّع على الفقراء كرشوة مطبخية لكسب اعجاب الجماهير واسكات استيائهم، لحظيا على الأقل. وقد لعبت قاعات الولائم على مرِّ السنين أدواراً سياسية بنفس القدر الذى لعبته قاعات العرش– و فى أغلب الأحيان حققوا نفس الأهداف.

Feast: A History of Grand Eating
(مأدبة: تاريخ الأكل الفاخر)
Roy Strong
Harcourt 349pp. 2004

عن مجلة:
New York Review of Books
ترجمة: إنجى غنام وخالد ممدوح

وربما حدد الأثرياء وأصحاب النفوذ من الرومان القدماء بداية حريَتهم من الاستبداد منذ طرد وترحيل السادة الأعلى منهم من حكام إتروريا فى عام ٥١٠ قبل الميلاد. و لكنَهم ظلوا يؤدَون دور الطاغية أثناء تناولهم الطعام على أرائك العشاء حيث يأمرون العبيد و كبار الطبَاخين والضيوف الذين لبوا دعوتهم. وليس مصادفة أن يحكم فرسان الملك آرثر وهم جالسون على مائدة مستديرة. روى سترونج يكرِّس فصلا ساحرا لوصف غرفة الطعام الفيكتورية، موضحا بأنَها يمكن أن تصبح مكانًا رسميًا مليئًا بالمناسك والقواعد كمدينة أخناتون المقدَسة لقرص الشمس أو حفلة العشاء اللانهائية على جبل أوليمبوس. ومن المحزن لكن الحتمى أن ينهى سترونج بحثه بنظرة يائسة على عصر الوجبات السريعة الذى نعيش فيه، حيث – كما يقول الكاتب المسرحى كين ليزيبنيك – تدنت الولائم القديمة لتصبح «أكل سطحى»: محطة توقَف للتزود بالوقود فى المطبخ، مع مرور لحظى بين الحنفية والثلاجة.

إن العلاقة بين الولائم والسلطة قد تكون فى مثل قدم ووضوح سلسلة الغذاء نفسها، ولهذا اثبت هذا الموضوع أنه سيستمر للأبد فى كونه آسرا بالنسبة إلى الحيوانات الإنسانية التى تكدح فى عبوديتها له. فى كوميديا من ٤٢٣ قبل الميلاد، الفرسان، حاول الكاتب المسرحى الأثينى الغاضب الصغير آريستوفانيس كشف مكائد زعيم دهمائى محلى، يدعى كليون، عن طريق تصويره فى المسرحيَة كخادم فى منزل يتصف بالعنف وحيث يقوم بالطحن والطهى وتخزين المؤن وتقديم الطعام إلى سيده المسن الفظ ديموس – «شعب» أثينا الديمقراطية – منافقا ومتملقا اياه. وهناك عدو آخر من أعداء كليون، وهو المؤرخ ثيسيديس، الذى صاغ التحليل الحذر والمدمَر للقوَة مكونا الكتاب الثالث والرابع من حرب بيلوبونيسيان، حيث يجسد آريستوفانيس بشكل مثير فى مسابقة طويلة على الطعام، محرضا خادم المنزل كليون ضد بائع مقانق فاسد من السوق الأثينى فى مسابقة الألف خطَ لتملق وكسب رضا السيد ديموس. (لإيجاد مهنة مثل هذه مريبة ومتورطة فى تشويه وإعادة تقديم رمز القوة الرئيسى للثقافة، ربَما قد نضطر الآن لتقديم بائع المقانق كبائع سيارات مستعملة.)



ويأخذ تملَقهم المتذلل شكل ملموس سريعا، فيحاولون إرضاء الشخص الأشهب السمين الذى يمثل المجتمع السياسى عن طريق تقديم الطعام له، فكل متملق منهم يقدم إلى ديموس صنف طعام شهى تلو الآخر فى سيل منفر من التملق. وفى النهاية، يقوم بائع المقانق- بازدهار المنتصر- بكشف أنَ كليون يكتنز لنفسه بقدر ما يقدم إلى سيده، بينما البائع الذليل أعطى ديموس – الناس – كل ما معه. وهكذا، و بدقة مميزة، استطاع آريستوفانيس أن يكشف كلا من جوع كليون الفج وأنانيته الضرورية. الغذاء، كما اتضح، هو الاستعارة المثالية للدلالة على السلطة السياسية، المفهوم الذى كان ثيسيديس نفسه قد بدأ بإيجاد الكلمات المناسبة له. (جاء بكلمتين محددتين: dynamis، «قوة»، و paraskeue، التى تعنى شيئًا ما بين «المصادر» و«الاستعداد»).

إن استغلال المعنى الاستعارى او المجازى للطعام ظل فعالاً لمدة ألفى عام بعد عصر أديب الحركة الإنسانية فى توسكان إنى سيلفيو بيكولومنى، الذى أدان فساد الحياة فى الفاتيكان فى رسالة سياسية بعنوان «تعاسات مسئولى كيوريا» (De Curialium Miseriis). موجها الكتيب إلى محامى ألمانى، يقول الكاتب أنَ صديقه «نبح مثل تلك الكلاب المجاملة بضع سنوات». ومثل تلك الكلاب فى مأدبة، كان المسئولون الصغار فى كيوريا يظلون فى اماكنهم تحت إغراء مفروشات المائدة الفاخرة ومذاق بقايا الطعام. و الجزء الأكثر وضوحا والملىء بالحيوية من هجاء بيكولومنى يشرح فيه بالتفصيل الظلم الذى كان يرتكب فى الولائم البابوية؛ وكما هو الحال مع آريستوفانيس، الغذاء هو افضل استعارة ممكنة للكناية عن السلطة:

أولئك الذين يجدون ان هذا هو السبب الوحيد لوجودهم فى القصر هم حمقى، ويعيشون حياة الخراف، وليس الرجال.... فهم مثل الذباب بالنسبة إلى نزهة، يرفرفون حول مآدب السادة، لكن مهما يكن مستوى المأدبة ملكيا، فإنهم يحصلون على نصيب أقل من الذباب. دعنا نرى، من ثمَ، ما هى المتعة التى يجنيها أهالى كيوريا من الأكل والشرب وسط البهاء الملكى.

فماذا كان شكل العشاء مثل فى ذلك الوقت؟ كانوا يقدمون نبيذا لا تتنازل خرقة صوفية لتلعقه – كما وصفه جوفينال – و إذا كنت مجنونًا بما فيه الكفاية لشربه، سيجعلك نكداً وهزيلاً وعفن النفس ومنتفخًا ومتجهمًا بالإضافة لشعور إما بالبرَد أو بالفتور، كما يتصف هذا النبيذ بلون ومذاق سيئين.... ولا تعتقد بأنَك ستشرب فى أوان من الفضة أو الزجاج؛ فهناك دائما الخوف من سرقة الأولى ومن كسر الأخيرة. وبالتالى فستجد نفسك تشرب من كأس خشبى أسود نتن وقديم مع وجود حثالة متكتِلة فى قاعه حيث كان اللوردات يستعملونه لقضاء حاجتهم. وأنت لن تحصل على كأسك الخاص: لذا سواء كنت تريد نبيذك صافيًا أو مخلوطًا بالماء، فإنك ستحصل على الذى يريده الآخرون، وكلما هممت بشرب رشفة من الكأس قد تجد أن اللحية المليئة بالقمل أو الشفة ذات اللعاب السائل أو الأسنان المتعفنَة قد سبقتك. و فى هذه الأثناء، ستجد الملك يشرب نخبه من النبيذ المعتق الممتاز ذى الرائحة النفاذة

فــــن الأكـــــل



التى تملأ القصر بأكمله.... وستشعر أنك تريد أن تشرب لكنك لن تستطيع ذلك حتى يشرب من هم أعلى منك.. أما الجبن فنادرا ما سيمر أمامك؛ و إذا حدث واستطعت الحصول على قطعة منه، فستجده مليئًا بالديدان ومليئًا بالخروع و قذر و أصلب من الحجارة. وسيكون الزبد النتن وشحم الخنزير الفاسد هم التوابل التى تستطيع الحصول عليها. وستحصل على البيض فقط عندما يكون قديمًا لدرجة وجود أفراخ صغيرة بداخله؛ خبزك وتفاحك سيكون متعفنًا أو أخضر، وإذا لم تأكلهم فسيذهبون إلى الخنازير.... فاللوردات يحبون ملاحظة التفاوت بين أنفسهم وخدمهم.

ملاحظات روى القوية توضح كيف رافقت الأفعال السادية فى أغلب الأحيان المآدب، بدءا من ربّ الأسرة الرومانى الذى قطع أيدى عبد وأغرقه فى بركة أسماك لكى يلتقط قدحا ملقى فى القاع، وصولا إلى الفلسطينيين القدماء الذين قدموا شامشون المعمى كفاصل ترفيهى لوليمتهم (على الأقل حتى قام هو بهدم قاعة الولائم على رؤوسهم). متعشو عصر نهضة كان عندهم تنويعاتهم للتسلية، وهى بالكاد أكثر تفتحا من الرومان القدماء الذين الهموهم فى الأساس. وتقول الإشاعة الشريرة أن البابا ألكساندر السادس بورجيا دعا فى احدى المرات خمسين فتاة ليل عارية وأمرهن بالعدو خلف فرس كستنائى اللون على واحدة من أرضيات القصر البابوى بينما هو والكاردينالات وابنته لوكريزيا يتفرجون. و قد قام أحد الكاردينالات باستضافة مأدبة مشهورة سُميت «مأدبة جحيم» حيث وصل ضيوفه إلى فيللته المغطاة بالأسود للشرب من الجماجم؛ فى حين أن المحظية المتغطرسة التى تدعى «Matremma non vole» أو«أمى لا تريدنى أن» - تقيأت من الخوف. أما البابا ليو إكس، ابن لورينزو العظيم، فقد أقنع مهرج بلاطه بأن يأكل سترة جلدية كاملة طبخت فى الصلصة اللذيذة.



لكن الولائم التى وصفها سترونج بأفضل صورة، ومن الواضح إنها المفضّلة لديه، فكانت تلك الاجتماعات المتسمة بالشراهة والبهجة التى كان الناس منذ قديم الأزل يقيمونها لترقيم أيام السنة. وأغلب هذه الولائم كانت لإحياء مناسبات دينية أوكانت الولائم نفسها مناسك دينية: عيد الفصح والعشاء الربانى وحلوى عيد الميلاد. ولكنه حذف أى حديث عن عيد الشكر، العطلة الأكثر شهرة فى الولايات المتّحدة الأمريكية، وهو عشاء ذو طقوس تقوم مكوناته الثقافية المختلفة، فى كل الأحوال، بالإلمام بقصة قارة. فعيد الشكر الأول جمع المستعمرين الأوروبيين الأصلاف والعائلات الأصلية فى لحظة هدنة حذرة، سواء من نضالهم المشترك ضد العناصر أو من تعاملاتهم مع بعضهم البعض. لكن نفس هذا النضال ونفس هذه الهدنات يمكن أن نرى صورة تقريبا طبق الأصل منها فى ولائم أخرى من مختلف الأزمنة والأمكنة، كما وضح لنا سترونج فى ثروة من التفاصيل القصصية والنوادر - وفى الكتب التى تتحدث عن الغذاء، كما هو الحال فى الحوارات حول الغذاء، الحكايات والنوادر ضرورية.

وهو يبدأ بما اسماه - وله الحق فى ذلك - «أشهر وصف كُتب عن وليمة»، وهى المأدبة التى مثلت الجزء الأساسى من كتاب ساتيريكون للكاتب الرومانى بيترونيوس والذى كُتب فى ذروة عهد الإمبراطور نيرو (و ذلك من المحتمل أن يكون سنة ٦٣ -٦٥ بعد المسيح عليه السلام). يقوم بيترونيوس بالاستهزاء من سوقية مضيف مأدبته الخيالية، العبد الذى تحرروأصبح ترمالتشيو البلوتوقراطى، الذى كانت أخطاؤه النحوية متنوعة ومتكررة تماما مثل أخطائه الاجتماعية الفاضحة. وقد صوّر فيلينى هذا العشاء فى فيلم، لكن وصف بيترونيوس كان غريب بما فيه الكفايه:

فى بداية الوجبة، ستجد حماراً من البرونز الكورينثيانى يحمل سلّة بشقين يحتوى أحدهما على الزيتون الأبيض والآخر على الزيتون الأسود... متصل بهما عن طريق جسر صغيرة مجموعة من الصحون التى تحتوى على حيوان الزغبة المغموس فى العسل والمرشوش ببذرة الخشخاش. كان هناك أيضا مقانق حارة موضوعة على شواية فضية، وتحتها بذور الرمانة والأجاص.

و مأدبة ترمالتشيو مشهورة قبل كل شىء بالغذاء الذى صمّم ليظهر على شكل شىء آخر: مثل الأرنب البرى الذى يظهر على شكل حصان مجنح، والدجاجة الخشبية التى تضع بيضا مصنوعا من المعجنات ومليئا بالطير الصغير، والخنزير البرى الذى يرعى خنازير صغيرة مصنوعة من المعجنات، وتنطلق من جوانبها المثقوبة طيور الدجَ الحية.

من الواضح أنّ الأذواق الرومانية تحولت إلى مجموعة من الأذواق المختلفة عن أذواقنا. فكما يوضح سترونج أنه «بالرغم من ذوقهم البسيط نظريا، كان الرومان يكرهون أىَ مكون فى شكله الصافى. فنادرا ما وجِدت عندهم وصفة بدون صلصة تقوم بتغيير مذاق المكون الرئيسى بشكل جذرى». الصلصات الحلوة كانت تضاف بكثرة على اللحم (كما هو الحال مع تلك الزغبات المغموسة فى العسل). السمك كان يقدم مع صلصة الحلو والحامض. بدءا من بريطانيا إلى بيريتوس (بيروت اليوم)، كانت صلصة السمك المالحة التى تُدعى garum تمر عبر طرق تجارة البحر الأبيض المتوسط لتقدم للناس الطريقة الرومانية لصلصة ورسيسترشاير (صلصة السمك التايلاندية والفيتنامية المعاصرة تتكون من مكونات مشابهة ولها مذاق مشابه). بعض الوجبات الخفيفة الرومانية القديمة ما زالت مستمرة حتىَ اليوم فى شكل أغنية الشارع الإيطالى: الفاصوليا المملّحة المسماة lupini والكستناء المحمص.



سترونج يؤكّد أن الكتابات الرومانية عن الغذاء تدين بالكثير إلى اليونان القديمة، وهذا هو الواقع بالتأكيد. ولكن من المحزن أنه لا توجد وثائق باقية لتخبرنا ما يدين به المتعشون الرومان إلى الإتروري القديم، الذى كان - و ربما مازال - تأثيره على عادات الرومان الغذائية عظيما. ولنتأكد من ذلك كلّ ما علينا أن نفعله هو أن ننظر على الوجبات الإترورية العديدة، وخطّافات اللحم والتماثيل التى تمثل صور لرجال ذى بطون كبيرة ونساء ذات ذقون ممتلئة وأطفال ممتلئين. الإتروريين كانوا معروفين بالأجسام الحسنة التغذية، وهذا لسبب وجيه؛ فباستثناء مساهمة العالم الجديد وتقديمه العصيدة المصنوعة من دقيق الذرة والطماطم والفلفل، فإن ولائم الإتروريين لربما لم تتغيّر كل هذا التغيير على مدى الألفية، وهى بالتأكيد لا تُقاوم.

قد يكون الطعام اليونانى القديم أمرا أكثر غرابة فى وجود مثل تلك الأطعمة الشهية كالجبن والثوم مبشورة فى النبيذ. إنها نسخة يونانية من الهاجس الاسكتلندى. على الجانب الآخر، فإن قائمة الطعام التى حافظ عليها الكاتب أثيناوس من نوكراتيس، والذى عاش فى نهاية القرن الثانى بعد الميلاد، تقدم ببساطة غنيمة غير ملوثة من بحر أيجه فى وفرة مشوقة: الأنقليس والورنك والهس والشفنين البحرى والحبار والسبيد والقريدس المغطى بالعسل، والمقدمة بين الأطباق الرئيسية من الشعير الأبيض والكرواسون مع الكريمة المتجمدة. لقد حظى الطهاة اليونانيون بقوة سحرية، فقد كانوا يهدفون إلى الاحتفاظ بالصحة من خلال الطعام بالمحافظة على السوائل الأربعة للجسم وهى الدم والمخاط والعصارة الصفراوية السوداء والعصارة الصفراوية الصفراء فى اتزان. إن كان التوافق والتوازن يبدو أنه يحكم التفكير عن الطعام فى كل تقاليد الطهى، فإن الأساليب التى يتحقق بها هذا الاتزان قد أتت بنتائج مختلفة جذريا، فطبقا لليونانيين، على كبار السن تفادى النشويات والجبن والبيض المسلوق جيدا، وينبغى أن تكون الأطعمة التى يتم تناولها فى الشتاء حريفة وأكثر قوة وجفافا من تلك التى يتم تناولها فى الصيف.

روى سترونج يكرّس فصلا ساحرا لوصف غرفة الطعام الفيكتورية، موضحا بأنها يمكن أن تصبح مكانًا رسميًا مليئًا بالمناسك والقواعد كمدينة أخناتون المقدّسة لقرص الشمس أو حفلة العشاء اللانهائية على جبل أوليمبوس





لقد ظهرت محاكاة ساخرة وسفيهة لفلسفة الطهى هذه فى وقت مبكر من القرن السابع عشر على يد عالم ألمانى ولص للكتب يدعى ملشيور جولدست، قام فى حوالى عام ١٦٠٦ بتلفيق سلسلة من الخطابات بين كليوباترا ومارك أنطونيو والطبيب كونتس سارونس (الذى فى الواقع عاش بعدهما بجيلين)، طلب فيها أنطونيو النصح بخصوص كيفية الحد من الشهوة الجنسية لكليوباترا، فكوفئ بمجموعة من الوصفات. فمن أجل تلك الطبيعة الحارة لكليوباترا، نصح الطبيب سارونس بنظام غذائى من خبز الحبوب والخس والخل والقليل من الملح والنبيذ القابض الطعم واللحم والأشياء عديمة الطعم، ومن أجل أنطونيو البليد، نصح بالفجل الحريف. لم يكن جولدست، بشخصيته المنفرة، شيئا سوى عالم بالمؤلفين القدامى.

استمر الطهى فى العصور الوسطى فى السير على هدى الاعتقاد أن الطعام دواء لسوائل الجسم، لكن الأعياد التى كان يتم فيها التهام هذا الدواء أخذت أشكالا طقوسية جديدة مع ظهور المسيحية. حتى يتم نقل مدى تناول الطعام فى العصور الوسطى، يقارن سترونج بين وجبة فى حجرة طعام أحد الأديرة ومأدبة فى قاعة الملك. كلاهما تظهران المدعوين وهم يجلسون فى وضع مستقيم بدلا من الاتكاء طبقا للأسلوب القديم للبحر الأبيض المتوسط، وفى كلتا الحالتين، تكسو الوجبة نغمة العشاء الأخير. بيد أن مآدب العصور الوسطى لم تختلف كثيرا عن المآدب فى اليونان وروما، فمثل الكثير من الناس حول العالم، ربط اليونانيون القدماء بين الولائم والتضحية بالحيوانات (مؤكدين بهذا التسلسل الغذائى). إن العشاء الأخير ذاته وجبة للأضحية، عشاء عيد الفصح اليهودى الذى أصبحت أضحيته رمزا للمسيح الذى قبضت عليه السلطة الرومانية فى نفس الليلة وقتلته اليوم التالى.

أكثر ما يربط بينه سترونج وبين مائدة المسيح هو انبعاث الأخلاق، متمثلة فى التحضير الفائق للمكان والاحترام الشديد الذى كان يبديه رهبان العصور الوسطى:

كان الرهبان يجتمعون ويغسلون أيديهم ثم يدخلون قاعة الطعام. أمام كل راهب، كان هناك سكين وقدح وقطعة من الخبز مغطاة بقطع من القماش. كانت الأقداح تحمل بكلتا اليدين ولا تنظف بالأصابع، ولكن بقطعة من القماش، وكان ينبغى بداية مسح الأصابع والسكاكين بقطعة من الخبز، ثم بمنشفة المائدة، وكان الملح يؤخذ بطرف السكين ولا يتم مناولة أى شىء دون الانحناء المتبادل تعبيرا عن الاحترام.

عند انتقاله مباشرة من هذه الرؤية الهادئة إلى قاعة ولائم الفايكنج، يوضح سترونج بجلاء أنه لا ينبغى علينا انتظار اتباع آداب المائدة بعد، لكن الشهامة لتأتى بآثارها فى النهاية، فبحلول عام ١٢١٥، وضع إيطالى من تريستا يدعى توماسينو دا سركلاريا ١٥٠٠٠ سطر من الشعر لترويض الأخلاق الألمانية على المائدة:

ينبغى للرجل أن يكون حريصا
ألا يضع الطعام
على جانبى تجويف الفم
وأن يحترس عندئذ
من تناول الشراب والحديث
بينما هناك شىء فى فمه

فى الجيل التالى، وصل التهذيب حد كون التمخط فى منشفة المائدة واستخدام السكين لتنظيف ما بين الأسنان، وهو مازال يحدث هنا وهناك، من التصرفات غير الطيبة.

بحلول القرن الخامس عشر، أعاد إحياء الاهتمام بالأعمال الكلاسيكية اليونانية والرومانية مرة أخرى الأفكار الكلاسيكية لتناول العشاء، خاصة بين الإيطاليين، وليس من المدهش أن نجد مآدب مقاطعة برجندى فى ١٤٦٨ للاحتفال بزواج شارل الشجاع من مارجرت أميرة يورك، كانت ثورة فى الطعام.

لقد دخل الضيوف ليجدوا خمسة عشر من طيور البجع المطلية بالذهب وستة بالفضة، ترتدى كل منها رباط نوط الصوف الذهبى ورمز كل فارس، وكانت المائدة تضم تشكيلة من الأفيال تحمل قصورا، وجمال تحمل سلالا كبيرة وأيائل وأحاديات القرن، كلها من الذهب والفضة واللازوردى، ومملوءة بالحلوى، وكل شكل يحمل راية شارة مقاطعة الدوق.

وفرت مآدب عصر النهضة لسترونج الكثير من الحكايات، خاصة فى روما وحيث تحولت مآدب العشاء الفاخرة إلى نوعية بذاتها، ولم يستطع الباباوات أو الكرادلة مضاهاة حفلات العشاء التى كان يقيمها ثرى سيينا، أجوستينو شيجى، التى كانت استراتيجيته الماكرة وأمواله التى لا تحصى تدعم المشروعات العظيمة للبابا يوليوس الثانى والبابا ليو العاشر فى العقدين الأول والثانى من القرن السادس عشر. لقد كان شيجى يتباهى باتصالاته بالسلطان باجازيت الثانى بامتطاء الجواد الرائع الذى جاءه هدية من الباب العالى، وبتقديمه صلصلة ألسنة الببغاوات القادمة من القسطنطينية فى حفلاته الليلية.



يكرس سترونج صفحة لعدد من مآدب شيجى التى لا تنسى، بما فيها تلك التى أقيمت فى الشرفة الخارجية الخاصة به بجوار نهر تايبر، ربما فى عام ١٥١٤. فقد تم تقديم الطعام إلى الكرادلة الذين حضروا فى أطباق من الذهب تحمل رموزهم، وكان يتم إلقاؤها فى النهر بعد الانتهاء مما فيها. لكن شيجى الذى كان من كبار المخادعين طبقا للتقاليد التسكانية، كان قد مد الشباك تحت سطح المياه لجمع الأطباق مرة أخرى. فقد أجوستينو أحد عشر إناء فضيا يظن أنها تم إخفاؤها أسفل الملابس الفضفاضة لأحد الكرادلة البدناء. ومن السخرية أن خطابات شيجى تكشف كونه رجلا ذا ذوق عادى فى الطعام، فيبدو أنه لم يرق له أكثر من ثمرة كمثرى طيبة والجبن الطازج الملفوف فى نبات يدعى رافيجيللو.

مهما تمت دراسة التاريخ الكلاسيكى لمآدب عصر النهضة، فهى تختلف جذريا عن سابقاتها القديمة فى وجه واحد وهو انتصار السكر الذى جىء من العالم الجديد وجزر الكنارى فى انتشار مستمر، فمنذ بداية القرن الخامس عشر تم تشكيل السكر على هيئة تماثيل مدهشة كانت تسمى تريونفى. كذلك شق المسحوق الحلو طريقه إلى أطباق المائدة، حيث بدأ وجوده يغير من خامات الطهى الأوروبى من الجمع القديم بين اللحوم والصلصات الحلوة، إلى التناقض الأكثر وضوحا بين الحلو والمذاق اللذيذ. وفى نفس الوقت تقريبا بدأ ظهور الشوك، بداية فى إيطاليا ثم فى بقية أوروبا (بالرغم من صعوبة تخيل هنرى الثامن يستخدم شيئا بهذه الرقة، فحتى الملكة اليزابيث كانت تكتفى باستخدام سكين للتذوق).

جاء منتصف القرن السابع عشر بالقهوة والشاى والشكولاته والشمبانيا، إضافة إلى الترتيب الدقيق للمائدة: مناشف المائدة مطوية فى أشكال خلابة وتماثيل من السكر أو البرونز تزين المائدة. وفى الفاتيكان، كانت الموضوعات المقدسة، مثل حب المسيح، قد تظهر فى ترايونفى من السكر وسط الكنابيه، وكذلك كانت المناظر الأسطورية أحيانا، مثل الطفل هرقل يخنق الثعابين. أصبحت طاولة المأدبة منظرا طبيعيا، أو مسرحا بذاتها، كما كان من الممكن أن تصبح مسرحا للأزمات الدولية كما حدث عندما التقى البابا الكسندر السابع عام ١٦٥٥ فى البورتا دال بوبولو فى روما بالملكة السويد كريستينل التى تحولت حديثا إلى الكاثوليكية. كان الكسندر يتطلع بشغف إلى اللقاء، فقد كانت تحول الملكة وتنازلها عن عرش السويد يعده بحليف قوى جديد للكاثوليكية، ولكنك كريستينا لم تكن كما توقع البابا تماما. لقد كان هو رجلا إيطاليا فى النهاية (من نفس عائلة أجوستينو شيجى)، ولابد أنه كان ينتظر محاربية شقراء، لكنه بدلا من هذا ينعى فى مذكراته ملكة صغيرة الحجم وداكنة البشرة وبارزة العينين بتعليق: «إنها ليست جميلة». وعندما اصطحبها معه إلى المأدبة، شكت أن منضدتها أقل ارتفاعا من منضدته، ورفضت الجلوس إلى المائدة

إن العلاقة بين الولائم والسلطة قد تكون فى مثل قدم ووضوح سلسلة الغذاء نفسها، ولهذا اثبت هذا الموضوع أنه سيستمر للأبد فى كونه آسرا بالنسبة إلى الحيوانات الإنسانية التى تكدح



كتـــاب الــزاويـــة



ما يجيش زيى إن لف الكون

محمد يونس القاضى

ميجيش زيى إن لف الكون دنا أبويا توت عنخ آمون
اسـأل الـتـاريـخ يـنـبـيـك عن مجدنا وبعدين أمشيك
إنت تغر الـنـاس حـتـاويك وأنا أبويا توت عنخ آمون
ظهرت غـرايب فـى الآثار تخلى جميع الناس تحتار
ووصفى كم حير أفكار وأنا أبويا توت عنخ آمون
وعمر قلبى إن كان يرتاح إلا إن رجع مجدى اللى راح
وأعمل سياسة السلام سلاح وأنا أبويا توت عنخ آمون
بإيه تـزيـد إنـت عـلـى وبـلادى مـهـد الـحـريـة
ومـصـر أم الـمـدنـيـة وأنا أبويا توت عنخ آمون

حتى تم تقديم الطعام لهما على منضدتين متساويتى الارتفاع.

بسبب قصص لا نهاية لها كتلك، ومع وصول رواية سترونج إلى عصر التنوير، افسحت طقوس المأدبة الملكية، بنغمتها الخاصة بالأضحية والدينية، أفسحت الطريق للرسميات المدروسة الخاصة بمدام دو بومبيدور، حيث يمكن للحوارات الذكية أن تحل محل المراسم التى لا نهاية لها، وأن يتخلص الملك من بعض أجواء الإلهية، وتبدأ حفلات العشاء التى نعرفها فى التكون. كذلك انتشر هذا بين صفوف الطبقة البورجوازية المتزايد فى الاتساع، وعلى عكس رجال الأعمال الرومانى تريمالشيو أو أوجستينو شيجى، الذى كان وضعه كمصرفى متاجر محل استخفاف من قبل المتعجرفة الأولى إليزابيث حونزاجا، فإن مضيفى ومضيفات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر انحدروا من قطاع عريض من المجتمع. مستهلكين غير خجولين، استثمروا الكثير فى كتب اللياقة والطهى والنكهات المتطورة للأيس كريم والهلام اللحمى ووضع الشموع على الموائد.

كيف يمكن أن ينتهى كل هذا إلى كلأ، ونظم غذائية سريعة ووجبات سريعة التجهيز وفقد الشهية؟ حتى وجبات العشاء التى كان يتم تناولها أمام التليفزيون فى الخمسينيات على صوان خاصة بالتليفزيون كانت لها أماكنها الخاصة، كانت لها فضيلة التجربة الجماعية. الآن سلكت صوانى التلفزيون فى نفسك طريق طاولة العشاء لتصبح أثرا من آثار عصر أكثر بهجة. لقد كان حدثا ذا أهمية محلية كبيرة أن يتناول هنرى الثامن العشاء بمفرده أمام جمع هائل من الخدم والرعية، ولكن بالنسبة لم يتناول الطعام بمفرده، فإن كلمات سترونج: «لم يعد لفظ وليمة يبدو ذا قيمة». ربما هذه هى أكثر نقاط هذا الكتاب تسلية: فهو يتتبع تاريخ تجربة نخاطر الآن بفقدها برمتها، تجربة مجتمع، تجربة إنسانية مشتركة، كانت محورية بالنسبة لتجربتنا المجمعة على امتداد الفترة التى نتذكرها. إن أحد أكثر التقاليد الإنسانية تحملا، تبدو الآن أكثر وهنا مما نتخيل. ■

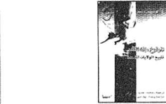
هـــامـــش:

الهاجس: طبق إسكتلندى مكون من خليط مفروم من قلب ورئة وكبد خروف أو عجل صغير مع البصل والدهن والدقيق والتوابل ويتم غلى كل ذلك فى معدة الحيوان المذبوح.

❞ تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات. ❝

المولوخ: إله الشر
تاريخ الولايات المتحدة
كارلهاينتس دشنر

ترجمة: محمد جديد
مراجعة وإعداد: زياد منى
دمشق: دار قدمس، ٢٠٠٤ «طبعة ثانية»، ٥٧٨ صفحة، ١٥ يورو



المولوخ، كما تفيد التوراة، إله الأشرار أو الخبثاء.. هو إله الكنعانيين والعمونيين، هو الوثن الذى يذبح على مذبحة البشر.

وفى هذا الكتاب، يبدو المولوخ وكأنه المرجعية التى تستند إليها الولايات المتحدة الأمريكية فى سياساتها، وأسلوب الحياة فيها، وطريقة إدارتها لعلاقاتها الخارجية، فمنذ وجدت الولايات المتحدة وهى تحمى العنف.. والناس هناك يدينون له بكل شىء، فالمزرعة والمدينة والدولة والأمة نشأت من رحم العنف الذى بدأ مع جيل الرواد والمستوطنين الذين أزالوا كل ما كان يقف فى طريقهم، ولم يقتصر هذا على السكان الأصليين الذين سلبوهم كل شىء ولا على الطبيعة التى نهبوها من أجل منفعتهم وحدهم فقط، بل شمل أيضًا جيرانهم المسيحيين من منافسيهم فى طلب الرزق، لأن كلا منهم كان أخًا لنفسه فقط، وكل امرئ آخر عداه خصمًا وعدوًا تجب محاربته بلا هوادة إذا تعارضت مصالحهما.. فهؤلاء قاموا باستئصال الهنود الحمر بالقتل، وبطرد الهولنديين والبريطانيين والأسبان والفرنسيين، حتى قامت الحرب الأهلية التى شهدت أهوالاً رهيبة، واستمر هذا التاريخ الدموى بأعمال المستوطنين الإجرامية الدائمة، وبالقتال من أجل الأعمال، وفظائع الشرطة، والفظائع ضد الشرطة، وجرائم القتل التى ترتكبها العدالة، وجرائم القتل من دون محاكمة قانونية، والحروب العائلية.. وكل هذا دعا الكثير من المؤرخين الأمريكيين إلى القول بأن: الأمة الأمريكية تنزع إلى العنف وأنه لا سبيل إلى إصلاحها.

وبجانب هذا العنف هناك سمة أخرى تميز تاريخ الولايات المتحدة وهو ما أمكن أن يسمى بـ الزحف التوسعى الذى لم يكن له مثيل، ورغبات لا تشبع فى امتلاك الأرض والسلطان والأسواق، وجوع يدفع هؤلاء الأمريكيين إلى قارات ومحيطات يستأصلون من أجل السيطرة عليها السكان الأصليين، باستخدام النفوذ الدبلوماسى والمالى والاستثمارات الخاصة والقروض الحكومية وألوان الحظر الاقتصادى، وإقامة قواعد عسكرية واستخدام الأسلحة فى البحر والبر والجو وبالحرب فى الشمال والجنوب.

ورغم أن تاريخ الولايات المتحدة لم يشهد استعمارًا لدول العالم الثالث كما فعل الأوروبيون المتوحشون، إلا أن سياساتها كانت تعتمد على القرصنة للاستيلاء على ثروات العالم والسيطرة على مناطق المواد الخام فى مزارع أمريكا الوسطى وموارد أمريكا اللاتينية، ومنابع النفط فى الخليج العربى والنحاس فى تشيلى والجوت فى الهند والمطاط فى إندونيسيا.. فالمولوخ الأمريكى ينتشر فى كل أركان الأرض بدون أن يضع حدًا لشراهته ونهمه أو سقفًا لطموحاته الشريرة أو حدودًا لنفوذه، فهو يبعث بقواته إلى الخارج مع دبلوماسييه ومبشريه ومصرفييه ودون أن يتورع عن الكذب والتهديد وشراء الذمم بالرشاوى أو ارتكاب جرائم القتل الخبيثة، من أجل تحقيق منفعته الخاصة وخدمة أهداف قومية لا يتورع صانعوها عن عقد أقذر الصفقات فى سبيل تحقيقها.

■

اليوم الأول
قبل هيروشيما وبعدها

بيتر وايدن
ترجمة: هاشم حبيب الله
أبو ظبى: المجمع الثقافى، ٤٦٢ صفحة، ٥٠ درهمًا



يحكى هذا الكتاب قصة مدينة هيروشيما حين دوت صفارات الإنذار فى سمائها طويلاً، مشيرة إلى انتهاء الغارة عند الساعة السابعة والنصف من صباح يوم السادس من أغسطس عام ١٩٤٥. ولم يدر سكانها أن طائرة أمريكية ستحمل لهم مفاجأة مروعة فى الساعة الثامنة والربع من صباح ذلك اليوم الحار الرطب، حينما أحالت إحدى الطائرات الأمريكية التى تحمل أول قنبلة ذرية فى التاريخ هذه المدينة إلى قطعة من الجحيم.

سقطت القنبلة فوق مستوصف الدكتور «شيما»، وفى ثوان تبخر المستوصف بمن فيه، ومات ٨٨٪ من الذين كانوا متواجدين فى دائرة قطرها ١٥٠٠ قدم على الفور. وفقد الباقون منهم حياتهم فى الأسابيع أو الأشهر التالية بسبب الإشعاع.

يستعرض الكتاب من ناحية ثانية الإصرار على إنتاج هذه القنبلة الوحشية، وكيف كانت هى الحل السحرى لدى العديد من السياسيين الأمريكيين لإخراج اليابان من الحرب، دون التورط فى هجوم عسكرى تقليدى لاحتلال اليابان ومواجهة مقاومة عنيفة من اليابانيين المتعصبين!

ويقول المؤلف إن التاريخ النووى الأمريكى يظهر أن رؤساء أمريكا ظلوا دومًا يقعون بسهولة فى مصيدة المتحمسين للأسلحة الفتاكة، وظلوا يفتقرون إلى القدرات والمهارات الفنية اللازمة لتقييم أخطار الاستخدام السيئ للتكنولوجيا فى مجال التسليح. وهو الأمر الذى يتطلب البحث عن آلية تنظيمية جديدة عبارة عن هيئة صارمة محايدة تعمل باستقلالية عن الرئيس وقيمه النسبية، وتقدم للناخبين والرأى العام الصورة واضحة وكاملة بكل المخاطر والمكاسب، حتى يتاح للجماهير الحق فى الاختيار الواعى بين المكاسب قصيرة المدى، والمخاطر البعيدة المدى.

ويؤكد المؤلف أن الدرس المستفاد من هيروشيما هو طرح قضية: العقل مقابل الإبادة.. بعد أن جاء الفجر النووى بوعد كاذب يحمل الدمار للإنسانية وللعقل البشرى.

■

اقتسام العالم

كبير مصطفى عمّى
ترجمة: د. على نجيب إبراهيم
دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٤، ١٣٩ صفحة

فى هذه الرواية، تنصهر ثقافتان: العربية حيث تدور أحداثها فى المغرب.. والفرنسية حيث تمت كتابتها بهذه اللغة بكل تأثيراتها الثقافية والجمالية على المؤلف.

بطل الرواية طفل فى العاشرة من عمره لم يتحرج لحظة واحدة فى أن يبوح بكل ما يدور فى خلده، من طفولة قضاها فى مركز الأيتام، والسرقة والتسول والعمل فى السياحة، حتى أحلامه فى عبور البحار والمحيطات بحثًا عن الفردوس الأوروبى.

والمسار العام للأحداث يشى بما يشبه السيرة الذاتية للمؤلف والتى يكتبها بطله «إبراهيم» فى رسالة موجهة إلى شخص يعرفه، ونتبين فيما بعد أن هذا الشخص هو رئيس الجمهورية الفرنسية، ثم يكتشف القارئ أن الرسالة لم تكتب وبالتالى لم ترسل، بل بقيت تدور فى فلك أفكار الطفل المغربى الذى يحلم مثل كل أحلام فقراء العالم، بشىء من العدالة على الأرض.

ورغم ذلك فقصة إبراهيم لم تكن لتعكس سيرة المؤلف بل هى صورة فنية تسبر غور أولئك الباحثين عن فردوس مفقود، الذين يموتون فى عنابر السفن أو يبلغون شواطئ أوروبا ليكابدوا ما هو أفظع من الموت، حيث تطفو قضاياهم على السطح تمامًا مثلما تطفو جثثهم المبعثرة على الشواطئ.

■

الحكاية الشعبية.. دراسة فى الأصول والقوانين الشكلية

سامى عبد الوهاب بطة
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٤، ٣٠٢ صفحة



لعبت الحكاية دورًا مهمًا فى حياة الإنسان منذ وجوده على ظهر الأرض وتكوينه لمجتمعات بدائية، فهى أعرق الفنون على وجه الإطلاق، واجه بها الإنسان الأول غريته، ورسم من خلالها أفكاره وخواطره، كما جسد بها أيضًا كل رؤاه عن الكون والبشر والمخلوقات المشاركة له فى الأرض، وجسد فيها توجهه، وبهجته وأحلامه وآلامه.

وكما يقول أديبنا الكبير خيرى شلبى كانت الحكاية هى أول مصادر الأنس فى الوجود.. وفى القول المأثور: فى البدء كانت الكلمة، وما إن وجدت الكلمة حتى تكونت الحكاية فى الحال.. والحكاية هى مأثور الكلمة وتاريخها ومضمونها، والحكاية بالضرورة شعبية فى المنشأ والاتجاه.

ويـنقسم هذا الكتاب إلى قسمين، رصد المؤلف فى قسمه الأول عبر خمسة فصول: الأصول الأسطورية للحكاية الشعبية، وأنواعها، والقوانين الشكلية والموضوعية ودراسات تطبيقية، والبطل فى الحكاية الشعبية.

أما فى القسم الثانى فقدم مجموعة من نصوص لحواديت شعبية بعضها مشهور وبعضها غير معروف.

التلميذة الخالدة

أحمد الصاوى محمد

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٤، ٢٢٨ صفحة، ٣ جنيهات



التلميذة الخالدة هى «مدام كورى» ١٨٦٧ - ١٩٤٣ العالمة الفرنسية العبقرية الشهيرة والتى نالت جائزة نوبل مرتين: الأولى عام ١٩٠٣، والثانية عام ١٩١١.

وفى هذا الكتاب يقدم الصحفى والأديب الراحل أحمد الصاوى محمد قصة كفاح مدام كورى على المستوى العلمى والإنسانى والعاطفى. وقد اعتمد الصاوى فى كتابه على مصدر رئيسى هو ما كتبته «إيف» بنت مدام كورى عن أمها فى كتاب فرنسى نال شهرة عالمية لما تضمنه من دقة علمية وأسرار غير معروفة وأسلوب يأسر القلوب.

كانت قصة حياة مدام كورى أشبه بالأسطورة التى بدأت أول فصولها عندما شعرت أن نداء قويًا يدعوها إلى مغادرة وطنها «بولونيا» لتدرس فى باريس حيث عاشت سنين فى وحدة وإملاق، ثم التقت برجل عبقرى مثلها فتزوجته، ويهبان حياتهما للعلم حتى اكتشفت هى وزوجها «بيير» عنصر الراديوم الذى كان إيذانًا بمولد علم جديد وفلسفة جديدة، كما هيأ للجنس البشرى كله سبيل علاج ناجع لداء فظيع.

وعندما خطف الموت زوجها ورفيق حياتها وعملها فى طرفة عين، مضت مدام كورى تمارس عملها رغم جزع القلب وأوجاع البدن دون أن تأبه للمال أو الحياة الثرية.

وحينما ماتت مدام كورى التى كان اسمها «ماريا سكودوفسكى»، كانت ابنتها إيف تؤكد أن أمها كانت طوال حياتها هذه الطالبة الفقيرة المسحورة بالأحلام الكبيرة التى لم تفسدها الشهرة أو المجد.

الليـــــل

محمد ملص

دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٤، ٩٩ صفحة



فى هذا الكتاب يقدم المخرج السورى محمد ملص ما يمكن أن نطلق عليه: سيناريو أدبى.. يجمع ما بين سحر السينما ولغز الكتابة حيث تشتعل الصورة السينمائية على الورق.

وفى عالم الليل حيث تختلط الأحلام بالانكسارات بالأصوات الغامضة والتحليلات الصاخبة، استقى ملص مادة شغله على نصه، وهو يريد أن يغوص كل منا فى أرق الليل ليكتشف نفسه فى سحر القراءة.

كل هذا من خلال كتابة سينمائية مغايرة تتجول بوعى وبحرية معًا فى الأساطير المنتقاة من كتب الأولين والحكائين الكبار وسط سكون الليل ببرده الذى لا يخلو من زخات الأسئلة وربما المطر أيضًا.

حيونة الإنسان

ممدوح عدوان

دمشق: دار قدمس، ٢٠٠٤ «طبعة ثانية»، ٢٢٤ صفحة، ٧ يورو



يبحث هذا الكتاب فى عالم القمع، المنظم منه والعشوائى، الذى يعيشه إنسان هذا العصر.. وهو عالم لا يصلح للإنسان ولا لنمو إنسانيته، بل هو عالم يعمل على «حيونة الإنسان» أى تحويله إلى حيوان، كما يقول المؤلف.

فحين نتلمس حجم خسائرنا فى مسيرتنا الإنسانية، سندرك أنه سينتهى بنا الحال إلى أن نصبح مخلوقات من نوع آخر كان اسمه «الإنسان»، من دون أن يعنى هذا تغييرًا فى شكله، فالتغيير الأكثر خطورة هو الذى جرى ويجرى فى بنيته الداخلية: العقلية والنفسية.. طالما أن عمليات القمع والإذلال والاستغلال قائمة ومستمرة. وإذا كان الأمر كذلك، فكم فقدنا من كرامتنا وتضامننا الإنسانى، وإحساسنا بإنسانيتنا حتى صرنا نتعود على الإذلال المحيط بنا، لنا ولغيرنا!؟ وحتى صرنا نقبل هذا العنف والتعامل غير الإنسانى الذى نعامل به نحن أو يعامل به غيرنا على مرأى منا. وينعكس تعودنا على هذا الإذلال فى أننا صرنا نعتبر تعذيب السجين أمرًا مفروغًا منه، لم نعد نتساءل عن أثر ذلك التعذيب فى السجين الضحية، حتى بعد خروجه من السجن، كما أننا لم نعد نتساءل عن أثر التعذيب فى منفذه، وهل يستطيع بسهولة أن يعود إلى حياته اليومية العادية بعد خروجه من غرفة التعذيب.

وباعتراف المؤلف نفسه، فإنه تناول هذا الكتاب بعقلية الأديب بمزاجه وأسلوبه، لا بعقلية الباحث وبمنهجيته العلمية الدقيقة، وربما هذا ما أعطى الكتاب روحه النبيلة التى تتمسك بضرورة عودة الإنسان إلى إنسانيته التى كاد أن يفقدها للأبد.

آفاق فلسفة عربية معاصرة

د. أبو يعرب المرزوقى - د. طيب تيزينى

دمشق: دار الفكر، سلسلة «حوارات لقرن جديد»، ٢٣٤ صفحة، ٢٠٠ ليرة سورية



هل يمكن إنشاء فلسفة عربية معاصرة ومميزة عالميًا؟.. هذا هو السؤال الكبير الذى يطرحه هذا الكتاب، ويحاول البحث عن إجابته من خلال محاورة بين مفكرين عربيين مرموقين فى مجال الفلسفة، يخوضان فى ثنايا هذا السؤال، لاستخلاص أنساق فكرية تصلح لتيار فكر عربى أصيل ومتميز.

وبين فصول هذه المحاورة يطرح المؤلفان عددًا من الأسئلة الصعبة مثل: ما الذى يحول بيننا وبين النظر العقلى الفلسفى؟.. هل هو الغرب الذى نلهث وراءه فى كل صغيرة وكبيرة؟ أم هى طبيعة تفكيرنا غير العقلانية أم أن لغتنا ليست لغة فكر وثقافة؟ أم لأن المفكرين الإسلاميين قد أضاعوا الفرصة بالسعى وراء تعقيل الدين وتديين العقل؟

وتتبدى قيمة الكتاب فى أنه يشدد على أهمية التواصل مع الفلسفة التى قدمها العرب المسلمون مع نهايات القرن الثانى للهجرة فى القرن التاسع للهجرة تاريخ وفاة آخر فلاسفة العرب ابن خلدون، خاصة أن المحاولة العربية الثانية للتفلسف بدأت مع بداية القرن التاسع عشر ولازالت مستمرة حتى الآن دون أن تحقق هوية خاصة بها..

ومع اتفاق مؤلفى الكتاب حينًا واختلافهما حينًا آخر، فقد استطاعا تقديم محاولة جادة لقدح زناد الفكر الفلسفى العربى الإسلامى، من أجل إنتاج فلسفة عربية معاصرة تتيح للإنسان العربى أن يتقدم بخطى ثابتة على هدى وبصيرة فى مواجهة تحديات شرسة تحاول اقتلاعه من جذوره وسلبه روحه وانتزاعه من تاريخه وهويته.

حقوق الأرض

سو جريج - جراهام بايك - ديفيد سلبى

ترجمة: إياد ملحم

أبو ظبى: المجمع الثقافى، ١٤٦ صفحة، ١٥ درهمًا



يحتوى هذا الكتاب على شهادات علمية حية عن القضايا المعاصرة التى تعكر صفاء هذا الكوكب، ونقاءه جراء ثقب الأوزون أو ارتفاع درجة حرارة الأرض أو الأمطار الحمضية، لتقدم هذه الشهادات فى مبتغاها الأخير: نموذجًا واضحًا لما ينبغى أن تكون عليه طريقة حياتنا فى التعامل البيئى السليم مع هذا الكوكب الجميل.

ينطلق الكتاب من حكمة بليغة تقول: إننا لم نرث الأرض عن آبائنا، وإنما نحن نستعيرها من أبنائنا.. ولكى نستمر فى الحياة على هذا الكوكب لابد من الحرص على صيانة خيراته بنفس القدر الذى نحرص فيه على ممتلكاتنا.. فالإنسان الذى يستنزف اليوم ثروات الأرض لن يجد فى الغد ما يقتات به.. كما أن هذا الإنسان مسئول أيضًا عن تزايد الاستهلاك وتكدس أطنان النفايات التى يصعب التخلص منها بطرق آمنة خاصة مع انتشار ما تفرزه المصانع من إشعاع وسموم وكيماويات وغازات وملوثات فى البلدان المتقدمة، إضافة إلى استعمال المخصبات والهرمونات لتعويض فقر التربة الزراعية.

كل هذا يفرض علينا أن نتوقف لمراجعة مفاهيمنا السائدة وسلوكياتنا الخاطئة، مع مراجعة قيمنا التربوية، ومناهجنا الدراسية، لإعادة التوازن بين مصلحة الإنسان وحقوق الأرض، للحفاظ على صحة هذا الكوكب وبالتالى صحة الإنسان.

ويؤكد الكتاب أن «التربية» تتحمل القسط الأكبر من مسئولية التغيير نحو تعامل أفضل مع الأرض، كما يقدم نماذج وطرق تدريس شيقة وعملية لتحقيق أهداف هذه التربية لتنمية قيم وسلوكيات صديقة للبيئة.

على ضفاف الشعر دراسة فى الشعر الليبى الحديث

صلاح الحداد

القاهرة: دار البستانى للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ١٥٢ صفحة



يقدم هذا الكتاب حكاية الشعر العربى الليبى الحديث على مدى قرن من الزمان، فى محاولة جادة وممتعة للوقوف على ماهيته، والتعرف على قيمته، وتحديد مساراته واتجاهاته، ورسم خطوط صعوده وهبوطه..

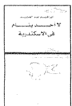
يثبت الكتاب أن ليبيا ليست بلداً عقيماً من الشعراء والأدباء، وأن شعرهم يرقى إلى مستوى معاناتهم وشعورهم الإنسانى حيث يأتى الشعر فياضاً رقراقاً صافياً عذباً من نفس صافية عذبة شقيت فى هذه الحياة وتعبت، وهذا هو الشعر الحقيقى، الذى ينبع من أعماق النفس الإنسانية فيترجم آلامها وآمالها.

والشعر الليبى ليس بحاجة إلى شىء، بقدر ما هو بحاجة إلى تمازج أكثر بالثقافات الأخرى، وانفتاح أوسع فى التعبير والكلمات.

لا أحد ينام فى الإسكندرية

إبراهيم عبد المجيد

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٤٥٣ صفحة



لعبت الإسكندرية فى عالم إبراهيم عبد المجيد الروائى دوراً مركزياً، كانت خلاله مسرحاً لأحداث أغلب رواياته وقصصه القصيرة.

فالإسكندرية فى أدبه مدينة مصرية وأيضاً مدينة عالمية..

والعالمية فى أدب عبد المجيد تأتى من الصدق الفنى من خلال التعبير عن الحياة تعبيراً فنياً جيداً وصادقاً، ولا تأتى من خلال التوغل فى المحلية.

بل مَن خلال رصد الروح الإنسانية والتغيرات التى تتعرض لها فى إطار الحقبة التاريخية التى تناولتها أحداث الرواية كل صخبها السياسى والاجتماعى.

وهذه الرواية التى تقع أحداثها فى أتون الحرب العالمية الثانية ما بين سنتى ١٩٣٩ و ١٩٤٢، تدور عن الشيخ مجد الذى طرد من قريته فى دلتا مصر بقرار ظالم من عمدتها، ليلحق بأخيه البهى فى الإسكندرية، ويستقر فى منزل يملكه قبطى يلتحم معه ويبدأ فى مواجهة الحياة بكل صعوباتها.

وهو يطرح عبر الرواية تساؤلات تمس القلب والوجدان حول حيرة المهمشين بكل أحلامهم وانكساراتهم، وسط صراع دولى دام بين قوى عظمى، يفتح فى كثير من الأحيان أبواباً من الجحيم فى وجه هؤلاء الناس العاديين.

الحضارة الأوروبية فى عصر الأنوار

بيير شونو

ترجمة: سلمان حرفوش

دمشق: دار كنعان، ٥٣٥ صفحة



فتحت عبقرية عصر الأنوار فى أوروبا إبان القرن الثامن عشر، دروب الثورة المعرفية أمام عصرنا الحديث فى جميع الميادين: العلوم النظرية، الثورة الصناعية، الاكتشافات الكبرى، العمارة، الفنون، المواصلات البحرية والبرية، الفلسفة، والأدب، اللاهوت، اللغات، الصناعة، التجارة، الزراعة.. وغيرها الكثير.

وفى هذا الكتاب يقدم مؤلفه دراسة موسوعية شاملة حول عصر الأنوار فى القرن الثامن عشر وعلاقته بأحداث القرن السابع عشر الذى شهد تحضيرات لثورات كبرى فى أوروبا مع سيادة العلم والنزعة إلى العقل فى تفسير المتغيرات الاجتماعية، وأيضاً تأثيرات هذا العصر على زماننا الحاضر.

يقول المؤلف إن أوروبا الأنوار حكمت علينا بالنمو المتواصل وخوض أقسى المغامرات، مثلما سحبت منا اختيار الرجوع إلى الحياة البدائية، وحتى وهم العودة المستحيلة إلى حضن الأمومة.

ولم يعرف التاريخ مثل تلك الحقبة التى هى على حد سواء بداية ونهاية.. هى بداية النمو المتواصل، مثلما هى نهاية مجتمع تقليدى.

كانت المعرفة والأخلاق فيه تنتقل من جيل إلى جيل بالمشاهدة والسماع، وهى غاية العالم المسيحى، الذى كان القرن السادس عشر قد أجهز عليه على مستوى الأمراء إبان زمن الإقطاع، وأعاد القرن السابع عشر الروح إليه وسط شعب تكاثر عدد أفراده.

القدس.. سيرة مدينة

خالد محمد غازى

القاهرة: وكالة الصحافة العربية، ٢٠٠٤، ٣٦٤ صفحة



دفاع شرس ونبيل تخوضه سطور هذا الكتاب، دفاعاً عن عروبة القدس ضد المحاولات الصهيونية لتهويدها وطرد الفلسطينيين منها.

يتساءل المؤلف فى مقدمة الكتاب: لماذا يقبل العرب بعد أكثر من ١٤٠٠ عام من عروبة القدس تهويد المدينة راضين بالصلاة تحت الحراب الإسرائيلية فى الأقصى الأسير، وتحت حصار الكنائس، ويتيدون بما يتوهمونه سلاماً.. مصيراً مشكوكاً فيه، ومستقبلاً يكتنفه الغموض.

يعود تاريخ نشأة القدس إلى أكثر من ٣ آلاف عام قبل الميلاد، ويذكر علماء الآثار والتاريخ أن إحدى القبائل الكنعانية. العمورية. التى نزحت من الجزيرة العربية هى التى أنشأت المدينة، والتى تبدلت عليها القبائل والأجناس واللغات والحضارات، كما أن اليبوسيين العرب هم أول من أحاطوا المدينة بالأسوار وكان ذلك عام ٢٥٠٠ق. م.

يتتبع الكتاب تاريخ القدس مؤكداً أن الوجود اليهودى بها كان وجوداً عابراً، بجانب الوجود العربى الأول والآشورى والبابلى والفارسى واليونانى والرومانى، إلى الفتح الإسلامى، كما يلقى الضوء على الغزو الصليبى للمدينة، حتى حررها صلاح الدين بعد معركة حطين عام ١١٨٧، ثم تولى المماليك حكمها فى القرن الثالث عشر، وبعدهم الأتراك العثمانيون، إلى محاولات الاستيطان اليهودى التغلغل فى فلسطين والقدس والذى ارتبط بالمشاريع الاستعمارية البريطانية فى المنطقة.

وفى فصل بعنوان «المقدسات الدينية فى القدس» يؤكد الكتاب أنه ليس لليهود فى القدس أثر يهودى مقدس بارز إلا حائط المبكى وبعض كنائس حديثة العهد بالإضافة إلى بعض القبور، أما الآثار المسيحية بالمدينة فهى كثيرة نظراً لأن المسيحيين تواجدوا بأعداد غير قليلة فى القدس عبر العصور، وهناك كنيسة القيامة ودير السلطان وعشرات الكنائس الأخرى للعديد من القديسين.

أما المقدسات الإسلامية بالقدس، فقد بدأت منذ أن اتخذ المسلمون بيت المقدس قبلة لهم قبل أن يولوا وجوههم شطر مكة فى السنة الثانية للإسراء والمعراج. ومن أبرز هذه المقدسات المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة وعشرات الجوامع والزوايا.

وفى فصل تال يحذر المؤلف من خطر المستوطنات على تقويض الهوية الإسلامية والعربية فى المدينة التى لا توجد أى مدينة مماثلة لها فى العالم كله تحتوى على هذا العدد من المقدسات للديانات الثلاث، كما يحذر أيضاً من المؤامرات الصهيونية لتدمير المسجد الأقصى ومسجد الصخرة المشرفة.

يضم الكتاب كذلك عدداً كبيراً من المقالات حول المدينة كتبها رجال دين وسياسيون وأساتذة قانون دولى، تؤكد عروبة القدس وضرورة التصدى للمخططات الصهيونية الرامية لاقتلاعها من جذورها العربية وهويتها الإسلامية السمحاء.

أنثوية العلم

د. ليندا جين شيفرد

ترجمة: د. يمنى طريف الخولى

الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٤



الفلسفة النسوية من أهم تيارات الفكر الغربى الراهن والفلسفة المعاصرة. وظهرت فلسفة العلم النسوية كاتجاه واعد بالجديد فى فلسفة العلوم، يرفض اعتبار التفسير الذكورى المطروح هو التفسير الواحد والوحيد للعلم، فليس الرجل هو الإنسان، وليست الذكورية مرادفة للإنسانية، وليست المرأة جنساً آخر أو نوعية أدنى من البشر. الذكورة والأنوثة هما الجانبان الجوهريان للوجود البشرى، لكل منهما خصائصه وسماته ودوره، وتتكامل جميعها فى سائر جوانب الحضارة الإنسانية، وعلى رأسها أمضى الجوانب وأشدها فاعلية وحسماً، أى العلم.

وحين نكشف النقاب عن حقيقة العلم والممارسة العلمية، العلم بوصفه كياناً تتكامل فيه سائر الخصائص الإنسانية الإيجابية، الذكورية والأنثوية على السواء، وليس الذكورية فقط كما هو سائد الآن، سوف يغدو العلم أكثر جاذبية وكفاءة، يؤدى إلى حصائل أكثر سخاء وتوازناً وأقل أضراراً جانبية. من قبيل تدمير البيئة وتصنيع أسلحة الدمار الشامل، واتخاذه أداة لقهر الثقافات والشعوب الأخرى.

لا يطرح الكتاب تفسيراً نسوياً مقابلاً، بل يعمل على اكتشاف الأنثوية كجانب جوهرى للعلم، لابد أن يقوم بدوره فى صياغة قيم العلم وأهدافه ومناهجه وشرائع ممارسة البحث العلمى.

الشامل فى الصناعة الطبية الأدوية والأغذية: كتاب الهمزة (الجزء الأول)

علاء الدين «ابن النفيس» القرشي

تحقيق: د. يوسف زيدان

أبو ظبي: المجمع الثقافي، ٢٧٥ صفحة



هذا الكتاب، هو أكبر موسوعة علمية فى التاريخ الإنساني يكتبها شخص واحد، فالكتابة العلمية اتجهت منذ بداياتها الأولى إلى شكل الرسائل القصيرة والفوائد الموجزة. وقد كان العلاء القرشي امتدادًا للتقاليد الطبية التى أرساها من قبله إعلام من نوع الرازي وابن سيناء، وإن كانت علاقته بالأخير أقوى وشروحه على مؤلفاته أكثر.

ولد العلاء فى دمشق فى السنة السابعة من مطلع القرن السابع الهجري، فى فترة اهتزت فيها الخلافة العباسية تحت وطأة مؤامرات القصور وتهديدات المغول الذين دخلوا بغداد عام ٦٥٦ هجرية.

ويقول محقق الكتاب د. يوسف زيدان أن الكتب الثمانية والعشرين من موسوعة الشامل المخصصة للأغذية والأدوية المفردة أضخم عمل صيدلانى فى تاريخ الإسلام والحضارات القديمة، وقد انطلق العلاء فى تناوله التفصيلى للأغذية والأدوية من النظريات التى انطلقت منها بحوثه وكتاباته الطبية الأخرى، كنظرية العلاج بالضد، والقوة الشافية الكامنة فى الجسم وغيرها.. كما انطلق من قاعدة منهجية مفادها أن الطبيب يهتم من النباتات بأفعالها فى بدن الإنسان، لا بخواصها من حيث هي نباتات، فهذا عمل الطبيعيين لا الأطباء.

ويوضح المحقق أنه مع ضخامة الموسوعة وبلوغ صفحاتها الألوف، إلا أن مؤلفها ظل دومًا حيوى الأسلوب متدفق العبارات مع حرص شديد على استعمال الألفاظ السهلة الواضحة.

■

هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة

د. عبد الرحمن على الحجر

أبو ظبي: المجمع الثقافي، السلسلة الأندلسية، ٢٩٠ صفحة



يتتبع هذا الكتاب مسيرة العلماء العرب فى الأندلس والذين هاجروا منها قبيل وخلال وبعد سقوط غرناطة، ويبين ظروف هذه الهجرة والتى كان لها تأثيرات سلبية خطيرة على الوجود الإسلامى فى أوروبا.

وقد رصد المؤلف أسماء ثلاثة عشر عالمًا عربيًا هاجروا من الأندلس، مستعينًا بالعديد من المخطوطات والكتابات التاريخية، وهو لا يستبعد وجود علماء آخرين قتلوا خلال سقوط غرناطة أو المدن والقرى التى أحرقت، أو الذين رفضوا التنصير فواجهوا القمع والموت من خلال محاكم التفتيش.

يلقى الكتاب الضوء على الأوضاع السياسية والاجتماعية فى الأندلس، وكيف تخاصم أمراء الممالك الإسلامية هناك واستعانوا بأعدائهم وبطانة تضمر لهم الشر، فأدى ذلك فى النهاية إلى خروجهم كلهم من الأندلس بعد ثمانية قرون من الوجود الإسلامى والحضارة الإسلامية التى قدمت للإنسانية لا للأندلس فقط إعلامًا وعلماء فى كل مناحى المعرفة.

■

دوريات

فنون مصرية

القاهرة: وزارة الثقافة، العدد الأول، يوليو ٢٠٠٤



فى طباعة أنيقة فاخرة، صدر العدد الأول من مجلة فنون مصرية الفصلية التى تصدرها وزارة الثقافة، برئاسة تحرير الكاتب الصحفى منير عامر الذى نجح فى أن يقدم للقارئ مجلة شديدة التميز والحرفية تمثل اضافة حقيقية فى عالم الفنون والثقافة.

تصدر العدد كلمة من الوزير فاروق حسنى أوضح فيه طبيعة المجلة باعتبارها «خلاصة جامعة لجماليات الثقافة المصرية بخاصة تلك التى لا تجد نوافذ ناشرة لخصائصها وسماتها وإسهاماتها».. أما كلمة التحرير فقد أشارت إلى أن صفحات المجلة مغامرة مصرية تؤكد من جديد القدرة على أن تتعانق البساطة مع الرصانة، والجمال مع المعرفة، وتتجول فيها عين القارئ من خلال اللوحات وكأنه يزور معرضًا مطبوعًا يضم بعضًا مما هو جوهرى فى الفنون الرفيعة.

جمهور هذه المجلة كما يؤكد المشرفون عليها هم غالبية الأشخاص الذين يترددون على المكتبات ممن تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والخامسة والثلاثين، والذين يشعرون بأن أحدًا لا يهتم بهم على الرغم من كثرة الكلام عن الشباب.

فى مقال بعنوان «بطاقة دخول إلى عالم الفن الجميل» يستعرض منير عامر موضوعات العدد مؤكدًا أنه يحلم بأن تكون هذه المجلة قادرة على بناء الجسور بين قرائها وبين الجمال باعتباره القيمة التى تنشد المجلة الوصول إليها وتقديمها ببساطة إلى القراء.

ضم العدد وقائع الندوة التى عقدتها لجنة العمارة بالمجلس الأعلى للثقافة على مدى يومين وضمت نخبة من أساتذة العمارة والبيئة والأطباء ومسئولين سابقين بمحافظة القاهرة، بعنوان «الحديقة والمجتمع» والتى استهدفت الدفاع عن واحد من أهم حقوق الإنسان فى الحياة وهو: حق التنفس.

شددت الندوة على أهمية الحدائق فى مواجهة التلوث الذى يجثم على صدر القاهرة، خاصة أن نصيب كل فرد من سكانها من الحدائق لا يتعدى ٣٥ سنتيمترا مربعا، فى حين يصل فى مدن أوروبية إلى ٢٢,٨ متر مربع، كما تناولت الندوة وقائع اغتيال حديقة الأزبكية التاريخية.

واشتمل العدد أيضًا دراسة كتبها د. خالد سامى عن المهندس المعمارى الإسبانى أنطونيو جاودى الذى يلقب بمهندس العمارة البليغة، والذى جاءت أعماله لتكون جسرًا بين الفن والحرفية.

وفى باب «الآثار» قدم الدكتور إبراهيم النواوى دراسة عن رحلات الملك توت عنخ آمون، تناول فيها سيرة حياته والجدل المستمر حول نسبه وحول ظروف مماته، وكذلك الآثار التى تم اكتشافها فى مقبرته، ورحلة هذه الكنوز فى متاحف العالم.

وتناول باب الآثار أيضًا موضوعًا عن متحف الإسكندرية القومى أعده أحمد عبد الفتاح ومحمد إسماعيل.

وفى باب الفنون التشكيلية، قدم الفنان مصطفى عبد المعطى موضوعًا بعنوان: محمود مختار.. الفنان الذى تسلم الإزميل من يد النحات المصرى القديم، تناول فيه سيرة حياة مختار الفنية وكيف تجلت عبقريته فى تماثيله التى استوحت عبقرية نحاتى المصريين القدماء، وكيف اتصل بالحركة الثقافية والفنية الفرنسية عندما ذهب للدراسة فى باريس، وعندما عاد قرر أن يمسك بتلابيب الشخصية المصرية.

وفى موضوع بعنوان: «كنعان وأنا.. زهرة المشمش» تناولت سناء البيسى المستشار الفنى للمجلة قصة لقائها وزواجها من الفنان التشكيلى الراحل منير كنعان، وكيف وهب نفسه وعمره للفن.

وفى باب الموسيقى كتب د. محمد الجوادى عن الدكتورة سمحة الخولى وجهودها الرائدة فى أكاديمية الفنون ومعاهدها، وتناول أيضًا نشأتها فى بيئة ثقافية راقية فى أسرة تهتم بالعلم والثقافة والتنوير. ومع تعلمها أصول العزف على البيانو وهى طفلة صغيرة، تعلقت بمرور الوقت بالموسيقى العربية واتقنت العزف على العود. وتلقى الدراسة الضوء على أفكار سمحة الخولى وعلاقتها بوالدها الشيخ أمين الخولى وبزوجها المؤلف الموسيقى الراحل جمال عبد الرحيم، وعن أستاذها العظيم الدكتور حسين فوزى، وأيضًا على مشوارها الأكاديمى فى التحليل الموسيقى لروائع أعلام الموسيقى العربية المعاصرين.

واشتمل باب الموسيقى موضوعًا بعنوان «هذا المايسترو نادر عباس: قل لى من أنت؟» حول الموسيقى الغربية الاوبرالية، ودور المايسترو فى قيادة العازفين، والذى لم تظهر الحاجة إليه إلا فى أوائل القرن التاسع عشر حين بلغت الموسيقى الغربية أوج عظمتها، واكتملت القدرة على أدائها بواسطة الفرق الكبيرة العدد.

■

Capital of the Mind: How Edinburgh Changed the World
(عاصمة العقل.. كيف غيرت أدنبرة العالم)
James Buchan
John Murray, 2004, £ 9.99



يتناول الكتاب دور العاصمة الأسكتلندية أدنبرة في الثورة الفكرية والعلمية التي شهدتها أوروبا والعالم في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر بشكل خاص.

ويقول المؤلف أن مفكري أدنبرة التنويريين خلقوا عالما أساسه المساواة والديمقراطية. وقد انتشرت أفكارهم في شتى أنحاء العالم بفضل اللغة الإنجليزية وبفضل التوسع البريطاني والأمريكي.

ويطلق الكتاب على أدنبرة لقب أثينا الشمال وهي جديرة بهذا اللقب، فقد انتشرت فيها الجامعات التي كانت منارات للفكر والمعرفة والعلم وخرج منها مفكرون وأدباء وعلماء أشهرهم آدم سميث وديفيد هيوم وغيرهما، ومازالت المدينة تحتفظ حتى الآن باستقلالية جامعاتها وقدرتها على الإسهام العلمي في الأبحاث والاكتشافات. وقد كان معهد علمي أسكتلندي قبل سنوات أول مؤسسة علمية تقوم باستنساخ الحيوان حيث جرى استنساخ النعجة الشهيرة دوللي.

■

The Bomb: A life
(قصة حياة القنبلة)
Gerard Degroot
Jonathan Cape, 2004, 397PP., £18.99



كان للرئيس الأمريكي الراحل ريتشارد نيكسون مقولة مشهورة حيث قال يوما خلال رئاسته للولايات المتحدة: «أستطيع أن أذهب إلى مكتب وأرفع سماعة التليفون وأصدر أمرا بإسقاط قنبلة على منطقة معينة وخلال ٢٥ دقيقة فقط سيموت ٧٠ مليون نسمة». وقد كان هذا التصريح مرعبا لكن الرعب الذي يحيط بالقنبلة النووية تحديدا لازال قائما.

إن الأمر المهم بالنسبة للقنبلة النووية، كما يقول بعض الخبراء، هو أنها نجحت في جعل العالم آمنا خلال نحو ٦٠ عاما من الصراع بين العملاقين الأمريكي والسوفيتي وهذا وحده يبرر أن تنفق الولايات المتحدة وحدها ٥,٨ تريليون دولار على الأسلحة النووية، لكن منذ نهاية الحرب الباردة أصبح الحديث عن بقاء القنبلة النووية كرادع أقل تأكيدا، فالمخاوف تصاعدت من أن أسلحة الدمار الشامل يمكن أن تنتشر بشكل من الصعب التحكم فيه وأن تصل هذه القنابل بشتى أنواعها إلى أيد غير مسئولة.

وقد قدم مؤلف الكتاب وهو أستاذ للتاريخ الحديث في الولايات المتحدة كشف حساب لأكثر اختراعات الإنسان دموية وهو يقول إن من الصعب إصدار حكم مطلق على القنبلة، فهناك من يدينها بشدة وهناك من يتحدث عن الفائدة التي أسدتها للبشرية.

ويتحدث المؤلف عن عديد من المآسي والانتهاكات لحقوق الإنسان تم ارتكابها في الولايات المتحدة من خلال إجراء اختبارات على سجناء ومرضى لتجربة البلاتونيوم مثلا كما تم تعريض سجناء للإشعاع لقياس مدى التأثير الذي يمكن أن تحدثه القنابل الإشعاعية.

■

Michael Moore is A Big Fat Stupid White Man
(مايكل مور رجل أبيض سمين وغبي)
David T Hardy and Jason Clarke
Regan Books, 246PP., £14.99



خلال السنوات القليلة الماضية ربما لم يحظ مخرج أمريكي بالشهرة والضجة والجدل كما حظي مايكل مور، فقد أثار مور عاصفة من التأييد والدعم له بعد سلسلة من الأفلام السياسية التي تميزت بالخروج عن الخط العام للمؤسسة السياسية الأمريكية خاصة المحافظة.

وكان آخر أفلامه وهو حول أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ قد فجر ضجة كبيرة داخل وخارج الولايات المتحدة وصفق للفيلم كثيرون بينما سخرت منه إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش باعتباره نوعا من الفانتازيا الفنية ورفضت عدة دول عرضه لأنه يهاجم بعض الدول.

وقد ألف مور كتابا قبل عدة شهور بعنوان «رجل أبيض غبي» انتقد فيه بشكل كبير سياسات الرئيس بوش وشخصه وحقق الكتاب شهرة واسعة واحتل قائمة أفضل الكتب مبيعا لأسابيع طويلة.

وبينما نددت الدوائر المحافظة في الولايات المتحدة بالكتاب ومؤلفه وكذلك أعماله السينمائية فإن التيار الليبرالي احتضن مايكل مور واعتبره أحد نجومه الصاعدين.

والكتاب الحالي يناقش مور وأعماله بشكل مختلف وهو مكون من عديد من المقالات والتحليلات حول مور وأعماله وتصريحاته. وأهم ما في الكتاب هو أن مؤلفيه يتهمون مور بالتلاعب في الحقائق والإحصاءات، وكذلك الصور لصالح تحقيق أهدافه. والكتاب يقول إن فبركة مور للحقائق والأرقام هي السر وراء جاذبية أعماله. وعلى غرار عنوان كتابه جاء عنوان الكتاب الجديد.

■

Gangs: A Journey into the Heart of he British Underworld
(عصابات.. رحلة في قلب عالم الجريمة في بريطانيا)
Tony Thompson
Hodder, 404PP., £18.99



يقول المؤلف في كتابه أن المافيا الألبانية تتنافس مع نظيرتها الصينية في بريطانيا للسيطرة على تجارة الهجرة غير الشرعية وأن اللصوص الجامايكيين هم ملوك السطو وأن المحتالين النيجيريين بارعون في النصب بشأن أمور البنك.

أما مستوردو الهيروين من الأتراك فإنهم يستخدمون بعض البقالات التي يملكونها في لندن كواجهات لعملهم. ويشير المؤلف إلى أنه كما أن بريطانيا أصبحت دولة متنوعة الثقافات والأعراق فإن الجريمة فيها أصبحت متعددة الأهداف والأغراض والأعراق كذلك.

وهناك من يربط الجريمة المنظمة أو التي يطلق عليها عابرة الدول والقارات بتهريب المخدرات. وفي هذا المجال فإن لندن أصبحت، كما ذكرت صحف بريطانية، عاصمة ترويج المخدرات في العالم. لكن المخدرات عنصر واحد من عناصر عديدة في عالم الجريمة المنظمة التي تتنوع أعمالها من تهريب البشر والمخدرات إلى تهريب الأموال وغسيلها والتجارة في السلاح.

وقد تمكن المؤلف، وهو محرر صحفي متخصص في تغطية الحوادث والجرائم وفاز بجائزة على عمله، من التسلل إلى هذه العصابات لكي يتعرف على كيفية عملها وطبيعة أفرادها وأحدث الوسائل التي تستخدمها، بل إنه أصبح صديقا لبعض المجرمين واضطر إلى تعاطي المخدرات معهم، ولذلك فإن الكتاب يحتوي على لقاءات وأحاديث وحوارات مع أفراد من هذه العصابات بالطبع مع تغيير في الأسماء ضمانا للسرية وحفاظا على مصادر الصحفي.

■

Cities
(المـــدن)
John Reader
Heinemann, 2004, £20.00



كيف ظهرت المدن؟ هناك إجابات كثيرة لكن البعض يقول إنها بدأت كأماكن أو تجمعات يقيم فيها الناس على أرض طينية مستوية بعيدا عن الغابات أو الجبال. وهي تعبير عن العبقرية الإنسانية وتطورها.

وقد ارتبط ظهور المدن بالناحية الدينية ولذلك أطلق البعض أسماء دينية على المدن لكن التطور استمر وأصبحت المدن تعبر عن عقل وتطور الإنسان وتحولت إلى مخزون للتقدم البشري على مدى العصور.

وفي هذا الكتاب يحاول المؤلف أن يفهم ظاهرة المدن ومدى الاهتمام الإنساني بالكتابة عن هذه الظاهرة ويورد الكتاب ٥٠٠ عنوان لكتب عن المدن منها كتاب لويس مافورد عن «المدينة في التاريخ» وجين جاكوب عن «اقتصاديات المدن» والسير بيتر هول عن «المدن والحضارة».

ويورد المؤلف إحصاءات وأرقاما طريفة عن المدن وسكانها ويشير إلى أنه على سبيل المثال فإن البطاطس نضجت وأصبحت صالحة للأكل في مدينة هيروشيما اليابانية بسبب القنبلة النووية التي ضربت بها الولايات المتحدة المدينة، ويقول أن لندن عاصمة بريطانيا أنتجت عام ٢٠٠٣ حوالي ١٠٪ من عسل النحل الذي يأكله سكانها.

ثم تحدث المؤلف عن قضايا أكثر جدية فيشير إلى أنه في الفترة من ١٩٥٠ حتى ٢٠٠٠ ارتفع عدد سكان الحضر أو المدينة في أفريقيا من ٣٢,٧ مليون شخص إلى ٣٠٩,٦ مليون. وأكبر المدن سكانا حاليا هي تلك المدن التي تنتشر حولها الأحياء العشوائية في دول العالم الثالث.

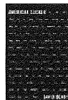
■

Kate Rememberd: Katharine Hepburn, A Personal
(كاترين هيبورن ـ سيرة ذاتية)
Ascott Berg
Pocket Books, 2004, £ 7.99



عندما قبل مؤلف الكتاب تكليفاً بالكتابة عن النجمة العالمية كاترين هيبورن لم يكن يتخيل أن إجراء مقابلة معها سيتحول إلى قصة صداقة استمرت ٢٠ عاماً ودامت حتى توفيت هذه النجمة. ولأن المؤلف يعرف موضوعه جيداً فإنه يغوص فى أعماق شخصية كاترين هيبورن وعلاقاتها بالوسط الفنى وأدوارها السينمائية الشهيرة وكذلك سر الشخصية الأسرة والكاريزمية التى كانت تتمتع بها هيبورن. ويحتوى الكتاب على أسرار ولحظات حميمة لا يعرفها سوى شخص اقترب كثيراً من الشخصية التى يكتب عنها وعلى سبيل المثال يصف المؤلف بشكل ساخر وكوميدى الليلة التى جاء فيها مايكل جاكسون للعشاء مع كاترين هيبورن لكنه جلس أمام الباب وكتب رسالة إليها يكاد يستجدى فيها هيبورن بأن توقع عليها كتذكار.

American Sucker
(مغفل أمريكى)
David Denby
Viking Penguin, 2004, 337PP., £12.99



ديفيد دينبى مؤلف هذا الكتاب ناقد سينمائى لمجلة النيويوركر فى عام ١٩٩٩ أبلغته زوجته الروائية أن زواجهما انتهى وكان لهما ولدان مراهقان وكذلك شقة واسعة فى حى مانهاتن فى نيويورك. وقد قرر دينبى أن يشترى نصيب مطلقته من الشقة، ولكى يحصل على ذلك، كان عليه أن يدفع مليون دولار، فماذا يفعل؟ وجد دينبى أن أسرع وسيلة لذلك هى الاستثمار فى أسهم التكنولوجيا التى قال الخبراء إنها سريعة الربح بشكل قياسى ولسوء حظه، قرر المؤلف أن يدفع ما يملك فى شراء أسهم تكنولوجيا، وبدلاً من أن يحصل على المليون دولار المطلوبة خسر ٩٠٠ ألف دولار، وعندها قرر أن يضع كتاباً يحكى فيه قصته ربما يستطيع من خلال مبيعات الكتاب أن يعوض خسارته.

والكتاب مشوق ومكتوب بشكل جيد وعباراته واضحة سلسة، لكن المؤلف لا يوضح لقارئه بشكل منطقى وعلمى سبب خسارته لأمواله.

Losing America.. Confronting Areckless and Arrogant Presidency
(أمريكا الخاسرة.. مواجهة رئاسة طائشة ومغرورة)
Robert C. Byrd
Norton, 2004, 263PP., $19.95



عندما غادر بنيامين فرانكلين مكان اجتماع المؤتمر الدستورى الأمريكى عام ١٧٨٧ سأله أحد معجبيه:

د. فرانكلين.. ماذا أعطيتنا؟ فالتفت فرانكلين إلى السائل وقال.. «أعطيتكم جمهورية.. إذا حافظتم عليها». وبعد ٢١٧ عاماً مازالت الولايات المتحدة تناضل من أجل بقاء هذه الجمهورية كما أرادها الآباء المؤسسون. وطبقاً لمؤلف هذا الكتاب روبرت بايرد وهو السيناتور البارز عن ولاية ويست فرجينيا، فإن الأمريكيين يخسرون معركة الحفاظ على الجمهورية منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

ويقول إنه تحت رئاسة جورج بوش زادت التهديدات التى يواجهها الدستور ويستطرد قائلاً: لم أر فى حياتى رئيساً خطيراً كما هو الأمر مع بوش.

ويعدد المؤلف السيناتور نواحى الاعتداء على الأسس الدستورية فى الولايات المتحدة فمن التعدى على الحريات المدنية إلى الهجوم على الكونجرس ثم فرض أشد أنواع السرية على أعمال الحكومة وكذلك ابتكار عقيدة الحرب الاستباقية.

ويحذر الكتاب من عواقب وجود رئاسة أمريكية طائشة ومغرورة. وينقل عن أحد المؤرخين قوله: «من سوف يقيم من جديد أعمدة الحرية الدستورية المؤسسة جيداً.. إذا سقطت تلك الأعمدة فلن يرفعها أحد بعد ذلك».

ولأن الجمهورية الأمريكية تعتمد على نظام سياسى قائم على التوازن بين السلطات فإن انتقادات سياسى بارز مثل بايرد لتزايد سلطات الرئاسة على حساب السلطات الأخرى تستحق الاهتمام. وكذلك آراء المحكمة العليا، ففى شهر يوليو الماضى عارض ٨ قضاة فى المحكمة بما يقرب الإجماع ادعاء إدارة بوش بأنه باسم محاربة الإرهاب فإن الرئيس يمكنه أن يحرم مواطناً أمريكياً من حقوق أساسية نص عليها الدستور.

ويلاحظ أن من النادر أن تصدر المحكمة العليا مثل هذا التوبيخ لسلطة رئاسية خاصة فيما يتعلق بإحدى الحريات المدنية.

ويقول المؤلف مذكراً إدارة بوش بأن الأساس المتين للحرية الأمريكية هو حظر قيام السلطة التنفيذية بإيداع شخص ما السجن إلى أجل غير مسمى دون توجيه أى اتهام ضده.

ويوجه السيناتور بايرد سهام نقده كذلك إلى المؤسسة السياسية الأمريكية التى قضى فيه سنوات طويلة من حياته.

ويشير إلى أن الكونجرس بدا منذ ١١ سبتمبر غير راغب أو قادر على تأكيد سلطته وتراجع وتعرضت حركته للشلل تقريباً مقابل سلطة رئاسية تتغول على سلطته. ولا يجد السيناتور مثالاً على ذلك أوضح من الحرب على العراق، ففى أكتوبر ٢٠٠٢ كان غالبية الأعضاء متحمسين لإعطاء بوش حرية كاملة فى استخدام القوات المسلحة الأمريكية بالطريقة التى يراها ضرورية.

وفى هذا حسب المؤلف تخلٌ من الكونجرس عن سلطته الدستورية مما يمثل حالة غير مسبوقة من الضعف الشديد.

The Fixer: A Story from Sarajevo
(قصة من سراييفو)
Joe Sacco
Jonathan Cape, 2004, 112PP., £12.99



مازال العالم لم يستوعب حتى الآن كارثة حرب البوسنة التى وقعت قبل حوالى ١٠ سنوات.

فما حدث فى هذا الجزء من أوروبا من تطهير عرقى وتدمير واغتصاب وتعذيب ومحاولة للقضاء على الهوية الإسلامية فى هذه الحالة، من الصعب أن نجد له تفسيراً بسيطاً ثم إن رد فعل العالم كان سيئاً، فقد ترك المذابح تحدث وهو يتفرج ثم تدخل بعد فوات الأوان.

وهذا الكتاب يركز على مأساة شخص عمل مترجماً للمؤلف خلال سنوات الحرب وتحول إلى صديق حميم. يقول المؤلف إن هذا الشخص ولد فى المدينة الخطأ وفى الزمن الخطأ.

إن أهمية هذا الشخص هى أنه بالإضافة إلى كونه مترجماً إلا أنه كان يحصل على مواعيد لإجراء مقابلات مع الرئيس البوسنى وقد نجح فى تكوين صداقات كثيرة مع الصحفيين الغربيين الذين كانوا يغطون الحرب. ومن خلال قصة حياته خلال سنوات الحرب، فإن القارئ يتعرف بشكل مثير على تراجيديا سنوات الجنون فى البوسنة.

Judgement Day: The Trial of Slobodan Milosevic
(محاكمة سلوبودان ميلوسيفيتش)
Chris Stephan
Atlantic Books, 2004, 420PP., £14.44



مؤلف الكتاب صحفى تابع عن قرب محاكمة الرئيس اليوجوسلافى السابق سلوبودان ميلوسيفيتش فى لاهاى. وقد قام بتوثيق المحاكمة وجمع المعلومات عن سير محاكمة ميلوسيفيتش التى لم تنته بعد.

والكتاب ملىء بالتفاصيل عن محاكمة ميلوسيفيتش وموقف وزارات الخارجية فى الدول الغربية الرئيسية منها، كما أنه يحتوى على تفاصيل عن كيفية عمل المحكمة وسير أعمال محاكمة السجين رقم ١٠١٩٨٠ وهو سلوبودان ميلوسيفيتش.

ويتخذ المؤلف موقفاً مبدئياً ضد ميلوسيفيتش ويورد الكثير من الاتهامات ضده.

الأمر الذى يوحى للقارئ بأنه بالفعل جرت المحاكمة بل وهناك إدانة فى النهاية لميلوسيفيتش، الأمر الذى جعل بعض الخبراء يقولون إن المؤلف بدا فى كتابه كما لو كان قد استبق الأحداث لأن هناك من يقول إن المحاكمة قد تصل فى نهاية المطاف إلى تبرئة ميلوسيفيتش ليس لأنه غير مذنب ولكن لعدم كفاية الأدلة.

كـــــتب فرنســــيـة

Mozart,la luniere du dieu (مـوتـسـارت. نـور الـرب)
Mildred clory
Ed.Gerard waralet Pygmalion, 22 euros



كانت اللحظات التى أمضتها المؤلفة ميلدريد كلورى مع الموسيقار العالمى موتسارت، لحظات اقرب إلى الأساطير، لمست فيها بريق عبقريته الذى كان يحرقه هو أحيانا، وعرفت عنه اكثر معتقداته رسوخا وعمقا، تذوقت حس السخرية لديه، ورأته بكل تناقضاته وقصص حبه الملتهبة، وكل مراحل ارتقائه بذاته وارتقائه بموسيقاه. شاهدت معه لقاءاته التى لا تحصى بأشخاص لا يعرفهم من خلال رحلاته العديدة، وكل ما صادف فيها من انكسارات وانتصارات.

رسمت ميلدريد فى كتابها صورة شديدة التعقيد والثراء لذلك المؤلف الموسيقى الأسطورى الذى نزع عنه كثير من الأدباء والمفكرين ثوبه الإنسانى وحولوه إلى مجرد آلة تصدر أصواتا موسيقية لا يمكن أن تصدر من بشر. فجاء كتاب ملدريد احدث محاولة لرسم عبقرية موتسارت بملامحها المتقلبة، التى تضم كل تناقضات ضعفها الإنسانى.

femmes d autorite dans l asie centrale contemporaire‘ (نساء السلطة فى آسيا الوسطى المعاصرة)
habiba fathi
ed.maisonneuve et larose, 26 euros



ترسم المؤلفة فى ذلك الكتاب صورة مناقضة لما يتصوره الناس عن مكانة المرأة فى الإسلام، فهى تؤكد انه ، على العكس مما يتصوره كثيرون من أن المرأة المسلمة تحتل مكانة متدنية فى الدين، إلا أن مجرد إلقاء نظرة اكثر عمقا على الممارسات الدينية الإسلامية تؤكد على إن المرأة لا يمكنها المشاركة فى الحياة الدينية والاجتماعية فحسب، وانما يمكنها أيضا أن تتولى مواقع السلطة.

لقد جاء هذا الكتاب كثمرة لتجربة المؤلفة ، أستاذة العلوم الإنسانية والمتخصصة فى الشئون الإسلامية فى اسيا الوسطى المعاصرة، بعدما قررت أن تقوم بإجراء تحقيق ميدانى فى ٥ بلاد فى آسيا الصغرى فى مرحلة ما بعد السيطرة السوفيتية عليها، وهى بلدان اوزباكستان وكازاخستان وطاجيكستان وتركمانستان وكيرجيكستان، لتخلص فى النهاية إلى أن بلدان آسيا الوسطى تمثل نموذجا للبلدان التى تتفهم مكانة المرأة الحقيقية فى الاسلام.

les agha khan (ملوك أغاخان)
yann kerlau
ed.perrin, 22 euros



من باريس إلى نيويورك، ومن جنوب أفريقيا وحتى الهند وباكستان ، امتدت الإمبراطورية القديمة لملوك أغاخان الذين تنحدر أصولهم من فارس القديمة، أما إمبراطوريتهم الحديثة فتتناثرت ما بين آبار البترول والفنادق الكبرى، بينما تنتشر أراضيهم المقدسة فى تنزانيا وباكستان ومصر وسوريا وسنغافورة والهند.

إن هناك اكثر من ٢٥ مليون شخص على امتداد القارات الخمس ، يدينون بالولاء لأسرة أغاخان التى يقال إنها تنحدر من نسل الرسول، هؤلاء الأفراد يقدمون وجها مختلفا للإسلام ، هم الذين يمثلون مزيجا من عدة ثقافات ويشكلون بدورهم ثقافة بلا وطن، تربطهم بأكثر العائلات نفوذا وثراء فى أوروبا كلها ، ويلقى الكتاب مزيدا من الضوء على شخصية كريم أغاخان ، الامام التاسع والأربعين لطائفة الاسماعيليين.

Un arabe face a Auschwitz: le combat d enile shoufani pour la memoire er pour la paix (عربى أمام اوشفيتز: معركة اميل شوفانى من أجل التاريخ ومن أجل السلام)
Jean mouttapa
Ed.albin michel, 19euros



يلقى هذا الكتاب الوثائقى الضوء على المبادرة الجريئة التى قام بها اميل شوفانى عام ٢٠٠٢، فى أوج الانتفاضة الفلسطينية الثانية واشتعال الموقف الإسرائيلى فى الشرق الأوسط، عندما قرر شوفانى تنظيم رحلة يهودية عربية مشتركة إلى معتقل اوشفيتز الذى كان أحد أهم مناطق المحارق النازية لليهود كما يقولون.

أطلق شوفانى على هذه الرحلة لقب «مذكرة للسلام»، وضمت ما يقرب من ٥٠٠ فرد، جاءوا من إسرائيل وفرنسا وبلجيكا، مسلمين ومسيحيين ويهود وملحدين، وتتبع المؤلف مراحل هذه المغامرة التى سعى فيها شوفانى إلى تجاوز العديد من الصعاب ، والأساليب التى اتبعها لتقليل العداوة المتبادلة بين اليهود والعرب ، مركزا على الصور الجديدة لمعاداة السامية فى أوروبا، ومؤكدا فى كل خطوة يخطوها على أن الرفض العنيف للآخر، هو اقصر الطرق لتدمير العالم كله.

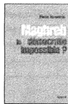
Dieu et la science (الله والعلم)
Jean guitton et igor bogdanovEd.
L.g.f. livre de poche, 6 euros



هل تلاشت تلك الفوارق القديمة بين العلم والإيمان مع بدايات القرن الحادى والعشرين؟ هل صار الإيمان بالغيبيات وسيلة جديدة لتفسير العديد من ظواهر الكون الغامضة دون أن يتنافى ذلك مع المنطق العلمى السليم؟ .يراهن المؤلفان فى هذا الكتاب على وجود عدة مسائل بسيطة لم يستطع العلم حسمها بدقة حتى الآن، ومنها مثلا: من أين بدأ الكون؟ ما هو الحقيقى فيه؟ ما هى العلاقة بين العلم وبين الواقع والوعى؟ إن الإجابة على كل هذه الأسئلة تقود أحيانا إلى التسليم بأن ما هو غيبى يمكن أن يصبح جزءاً من العلم، وان ما هو غير مادى وغير محسوس يمكن أن يصبح جزءاً من قوانين الفيزياء إذا لم يكن هناك غيره لتفسير الظواهر الغامضة فى الكون.

وتلك هى نقطة البداية الحقيقية التى يمكن أن ينطلق منها أى حوار معاصر بين المتدينين والعلماء، وهو الحوار الذى يدعو إليه المؤلفان بكتابهما، على اعتبار انه ليس مجرد تحاور فكرى، ولكنه محطة محورية لتبادل الآراء ، حول مسألة تحدد ماهية الإنسان ، وموقعه الحقيقى فى هذا الكون.

Maghreb,la democratie impossible (المغرب، الديمقراطية المستحيلة)
Pierre vermeren
Ed. Fayard, 22 euros

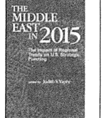


يحاول المؤلف أن يرد على تساؤل:هل من الممكن أن تجد الديمقراطية طريقها إلى النور فى المغرب العربى ، وسط التهديدات التى يفرضها التطرف الإسلامى والسلطة الحاكمة؟ يرى المؤلف أن المغرب العربى يمثل الغرب بالنسبة للعالم العربى بينما يمثل الشرق الأدنى بالنسبة للفرنسيين .. عالمًا قريباً عند القيام بتحديد موقعه الجغرافى، بعيداً عن محاولات فهمه أو تعريفه.

ويرسم المؤلف بدقة ملامح دول المغرب العربى الثلاث من خلال كل الصراعات التى صهرته على مدى ٢٠ قرنا من الزمان ، محاولا بذلك أن يستشرف الموقع الذى يمكن أن تحتله كل من الجزائر والمغرب وتونس فى المستقبل، وفقا للدور الذى سترسمه لها قوى العالم الكبرى المقبلة. ويرى المؤلف فى كتابه أن مفاهيم الديمقراطية الأمريكية لا تتلاقى مع مثيلاتها العربية أو الأوروبية، حيث ترى النخبة العربية المحافظة الجديدة فى المنطقة أن هذه المفاهيم كلها أمور لا يمكن تقبلها . لأنها تهدد امتيازاتها وحرياتها الأساسية من وجهة نظر المؤلف.

سيناريوهات أمريكية للشرق الأوسط عام ٢٠١٥

The Middle East in 2015: The Impact of Regional Trends on U.S. Strategic Planning
(الشرق الأوسط عام ٢٠١٥)
Judith Yaphe (editor)
Washington D.C, National Defense University Press, 2002



إذا كان المثل الشعبى لدينا يقول: «الجواب بيبان من عنوانه»، فبإمكاننا سحب هذا الكلام على الكتاب لنقول إن «الكتاب بيبان من عنوانه» أيضًا. عنوان الكتاب «الشرق الأوسط عام ٢٠١٥» مع عنوان فرعى «أثر التوجهات الإقليمية على التخطيط الاستراتيجى الأمريكى». تعمل محررة الكتاب د. جوديث إس. يافى الآن كأستاذة باحثة ومديرة لمشروع الشرق الأوسط فى معهد الدراسات الاستراتيجية الأمريكية بجامعة الدفاع القومى الأمريكى، كما عملت أيضًا كمحللة سياسية بمكتب الشرق الأدنى وجنوب آسيا التابع لوكالة الاستخبارات الأمريكية (سى. آى. إيه). الاستنتاج الأول الذى لابد أن ينصرف الذهن إليه هو أن موضوع الكتاب ينتمى إلى التخصص الدقيق لمحررة الكتاب. هذا أمر له دلالات متعددة أبسطها. أو لعله أوضحها. الإيهام بأن ما يذكره هذا الكتاب هو «الحقيقة» ليتحول بذلك من مجرد كتاب فى المستقبليات أو تنبؤات يصيب أصحابها حينًا ويخطئون أحيانًا إلى «كتاب حقائق» Factbook يتناول ما سيكون عليه الشرق الأوسط بعد حوالى عقد أو أكثر من الزمان!

نُشر هذا الكتاب ضمن أدبيات «الحرب على الإرهاب»، تلك الحرب التى شنتها الولايات المتحدة فى أعقاب الهجمات الإرهابية التى استهدفت برجى مركز التجارة العالمى بنيويورك ومبنى وزارة الدفاع (البنتاجون) وراح ضحيتها أكثر من ثلاثة آلاف شخص لتشير أصابع الاتهام (الأمريكية) إلى تنظيم القاعدة بزعامة المنشق بن لادن. وإذا كانت إدارة بوش الابن قد جعلت من «الحرب على الإرهاب». كما يطلق عليها. أهم أهدافها الاستراتيجية بل وفى أعلى القائمة فى أجندة السياسة الخارجية، فمن البديهى أن يتساءل مجلس الاستخبارات القومى التابع للسى. آى. إيه عن مستقبل الشرق الأوسط خاصة أن منفذى هجمات سبتمبر الإرهابية التسعة عشر ينتمون. جميعًا. إلى هذا الشرق الأوسط.

طرح السؤال كالتالى: ماذا سيكون حال الشرق الأوسط بعد حوالى عشر سنوات؟ وجاءت الإجابة مكونة من اثنى عشر فصلاً. أو بالأحرى ورقة بحثية. تتناول الجزائر والمغرب ومصر وإسرائيل وفلسطين وإيران والعراق ودول الخليج بالإضافة إلى فصلين عن السيطرة على انتشار الأسلحة فى الشرق الأوسط والعلاقات التركية الإسرائيلية.

تقول جوديث يافى إن العمل بدأ فى هذا الكتاب عام ١٩٩٩ أى قبل أحداث سبتمبر بعامين، ورغم ذلك لم يتعرض أى من المؤلفين إلى الشرق الأوسط كمصدر أو مُصدِّر للإرهاب إلى أمريكا/ العالم. كما يعتبر الفصل الثامن المخصص لبحث مستقبل العراق دليلاً آخر يهدم أسطورة «كتاب الحقائق» التى لا تكاد تبرح نبرتها شديدة الثقة بنفسها فقرة واحدة من الكتاب كله؛ فعنوان الفصل/ الورقة البحثية «العراق: هل هناك صدام آخر فى الأفق؟» مراوغ حيث يتوقع القارئ أن تفرد مساحة أكبر لما يتوقع أن يحدث فى العراق فى المستقبل وفقًا لرأى «عديد داويشة» و«جوديث يافى» مؤلفى الفصل. يركز الفصل بدلاً من ذلك على العراق عام ٢٠٠٠ (سنة تأليف الورقة البحثية) متناولاً بالتحليل أمورًا اكتظت بها الكتب والدوريات مثل الظروف التى أحاطت بسيطرة صدام حسين على السلطة فى العراق فى السبعينيات وخلفية عن حزب البعث العراقى وطبيعة التكوين الديموجرافى للعراق، إلخ. رأى داويشة ويافى أن صدام سيظل فى السلطة حتى عام ٢٠١٥ أو ستنتقل السلطة إلى ابنه قصى. هذا الطرح أضعف نقطة. بطبيعة الحال. فى كتاب يتحدث عن المستقبل السياسى لدولة من دول الشرق الأوسط بعد أن اغتصبت الولايات المتحدة نفسها مقاليد السلطة من يد حاكمها وقتلت قواتها أو قوات حلفائها ابنيه!

تبدأ يافى مقدمة الكتاب بالحديث عن نظرة الأمريكيين «المقولبة» (الراهنة) إلى الشرق الأوسط شعوبًا وحكومات التى تختزل هذا الفضاء الجيوسياسى إلى دول صغيرة غنية بالثروات (النفط غالبًا) وفقيرة فى الموارد البشرية، ودول كبيرة غنية بالموارد البشرية وفقيرة فى الموارد الطبيعية. الحاكم فى هذه الدول رجل تقليدى «ينتخب» بالإجماع من أسرته أو قبيلته أو حزبه. يعانى هذا الشرق الأوسط من تضخم سكانى خاصة فى ظل تزايد أعداد الأطفال والشباب مقابل كبار السن. النساء لازلن يعانين من عدم وصولهن إلى التعليم العالى. التعليم بشكل عام دينى اختزل أيضًا فى «كتاتيب» تحفيظ القرآن الكريم مما أدى لإهمال المهارات العملية اللازمة لدخول السوق العالمية.

يقسم الكتاب بلدان الشرق الأوسط التى اختار تناولها إلى ثلاثة أقسام على أساس جغرافى هى: بلاد «المغرب» وهى الجزائر والمغرب ومصر (لاحظ أن إدراج مصر ضمن بلاد «المغرب» بدلاً من «المشرق» إهدار للبعد التاريخى والجغرافى والدور السياسى الذى تريد ولابد لمصر أن تلعبه فى الصراع العربى الإسرائيلى)، وبلاد «المشرق» وهى إسرائيل وفلسطين وإيران والعراق، ودول «الخليج» العربى.

بالنسبة لما يتوقع حدوثه فى بلاد «المغرب» فإن محررة الكتاب ترى أن مصر هى الدولة الأكثر تماسكًا وبعثًا على التفاؤل. تظهر قوة الجيش بالتعاون مع رجال الأعمال لتحدد أية سلطة سياسية فى المستقبل. وفقًا للمبدأ الاستدلالى وليس الاستقرائى، يتوقع أن ينهمك الجيل المقبل عام ٢٠١٥ فى مشكلاته ومصلحته الذاتية ليبتعد عن اهتمامه بالصراع الفلسطينى الإسرائيلى. وفى ظل سعى القيادة السياسية المستقبلية للريادة الإقليمية، فإن الولايات المتحدة ستنظر إلى العلاقات الأمريكية المصرية باعتبارها علاقات تكتيكية وليست استراتيجية. المثير فى هذا المقام إلحاح التخطيط الاستراتيجى الأمريكى على مستقبل مصر، لن يعتبر مستقبلاً «واعدًا» إلا فى ظل المزيد من الاستقرار السياسى والخصخصة وفتح الباب أمام الاستثمارات الأجنبية.

الانفجار السكانى المتوقع فى الجزائر سيجعل خلق المزيد من الوظائف للشباب الهم الأول والأخير للحكومة الجزائرية عام ٢٠١٥. من المتوقع. فى ظل هذه الظروف. أن يزيد العنف والمطالبة بالإصلاح السياسى. لذا، يحتمل أن تبتعد الجزائر عن الصراع العربى الإسرائيلى لتتجه نحو الغرب والشمال. أما بالنسبة للمغرب، فرغم الآمال المعقودة على الملك محمد السادس للقيام بالإصلاحات السياسية والاقتصادية، لم يبد حتى الآن أى تقدم ملموس فى تغيير ما كان عليه الوضع فى عهد أبيه.

رغم نبرة التشاؤم التى تطفو على السطح هنا وهناك، يرى الكاتب أن القضية الفلسطينية ستكون فى طريقها إلى حل بما لا يجعل الصراع العربى الإسرائيلى عاملاً محوريًا فى التوجهات الإقليمية وبالتالى فى التخطيط الاستراتيجى الأمريكى. يأتى هذا الطرح من خلال توقع ميل الشباب الإسرائيلى (خاصة المهاجرين الروس) إلى تحقيق المكاسب الاقتصادية والاجتماعية بدلاً من الصراع على الأرض. إلا أن جهود السلام التى يؤيدها الفلسطينيون المعتدلون واليهود الليبراليون يمكن أن تتحطم على صخرة التطرف من كلا الجانبين.

بالنسبة لدول الخليج، فإنها ستظل تعتمد على موارد النفط والغاز الطبيعى. من الطبيعى أن يرسم الشباب الخليجى. وفقًا لرؤية الكتاب. نظرته للمستقبل من خلال الاستفادة من عوائد النفط. يسيطر على الدول الخليجية اتجاه نحو زيادة عدد السكان مما سيؤدى عام ٢٠١٥ إلى زيادة معدل البطالة وعدم التمتع بمستوى الرفاه الاجتماعى الذى تمتع به جيل الآباء. من جانب آخر، يؤدى غياب «البعد التاريخى». أى جهل الخليجيين بفترة ما قبل ظهور النفط وجهل الشباب العراقى بمرحلة ما قبل صدام وجهل الشباب الإيرانى بما قبل الثورة الإسلامية. إلى ضعف الرؤية السياسية وزيادة الشعور بالإحباط.

التغير ليس حتميًا فى إيران ٢٠١٥. ولن يشكل التوجه المعتدل فى السياسة الخارجية والدفاعية الإيرانية أى تهديد إذا استمر فى المستقبل على المصالح الأمريكية فى المنطقة. الوضع الأمثل للعلاقات الأمريكية الإيرانية هو التعاون البناء خاصة فى ظل سيطرة الإصلاحيين على مقاليد السلطة فى العقد القادم إلى جانب زيادة التعاون السياسى مع أوروبا. أما فى الفصل المخصص لمناقشة العلاقات التركية الإسرائيلية، فيرى آلان ماكوفسكى أنه رغم وصف تلك العلاقات بأنها «استراتيجية» أكثر من وصفها «بالتحالف» فإنه يتوقع أنها لو تجاوزت نقاط الخلاف الاستراتيجية خاصة قضية الأكراد وتقسيم العراق والعلاقات مع إيران، فسوف تعتبر نموذجًا يحتذى به لباقى دول الشرق الأوسط فى ظل سلام وتطبيع شامل مع إسرائيل.

إلى جانب تعبيره عن توقعات كتّاب وباحثين لهم وزنهم، فإن هذا الكتاب لا يجب قراءته على أنه مصدر للمعلومات. سواء عن الوضع الراهن أو المتوقع فى الشرق الأوسط. أكثر من قراءته ككاشف عن العقل الأمريكى فى ثوبه الليبرالى المحافظ الجديد!

علاء الدين محمود عبدالرحمن

قـــــــــراءة ..

الحبـــــل المشـــــدود

ربما كانت السياسة ـ بالتعريف ـ هى فنَّ اللعب بالمتناقضات أو السباحة «أمنًا» بينها. ولكن لعلها لم تكن يوماً كما نراها اليوم فى العراق أو بسببه «حبلا مشدوداً» فوق الجحيم. فالجميع: حكاماً ومحكومين، ساسة ومسوسين، متورطين ومتفرجين، قريبين أو بعيدين، مجاورين أو على الطرف الآخر من العالم. يسيرون مرغمين على حبل العراق المشدود. أملاً فى ألا يصطلوا بناره، أو ينالهم بعضٌ من شرره. هكذا الحال فى «دول الجوار».. العراقى هذه المرة، بعد أن كان للفظة معنى آخر لعقود. وهكذا هو فى دولٍ رغبت أن تصبح فى معية سيد العالم الجديد، فقفزت فى وجه حكوماتها أسئلة العراق الصعبة، مع تزايد حالات الاختطاف و إحراجات مطالب الخاطفين. وهكذا الحال حتى داخل العراق نفسه: حكومته المؤقته، وجنود جيشه المتمركزون فى معسكرات تدريب تابعة «لمن كنا نحاربه عدواً غازيًا قبل عام..!!»، وساسته موزّعو الولاء طائفيا وحزبيا وعشائريا.. وبالطبع مقاومود متعددو الأهداف والانتماءات .. والحسابات. وقبل كل ذلك مواطنوه: الذين أنهكتهم سنوات القمع والحصار .. والحروب. والذين يبحثون عن طريق مستقبلهم بين تجاذبات ماضٍ مستبد وحاضرٍ محتل.



فحكومة «المحتل» المؤقتة، والتى يرى كثيرون أنها الطريقُ الوحيدُ «المتاح» لولادة عراق جديد، يطلبون منها أن تثبت أن العراق يستطيع أن يحكم نفسه. وهو أمر لو أنصفوا لا يحتاج إلى إثبات فى بلد كان هو الذى اخترع القانون قبل آلاف السنين. والإثبات عند طالبيه يعنى ابتداء بسط الأمن. وهى مهمة إن حاولتها فى بلد محتل، تسير حتما على حبل مشدود، تتجاذبك شرعيتان: شرعية الحكم.. وشرعية المقاومة.

وكذلك حال المقاومين، على اختلاف أطيافهم وأهدافهم. والصدر أبرز رموزهم. تتجاذبه من ناحية تقاليد الحوزة القاضية بالابتعاد عن العمل السياسى المباشر، ومن ناحية أخرى ارثه.. وتجاوب الكثيرين مع خطابه المناهض للاحتلال، ومابدا أمامه من طريق للزعامة. ولكنه بالضرورة يعرف أن طريقه هذا ماهو إلا حبلٌ مشدودٌ عليه إن انتهجه أن يوازن ويراعى قوى المرجعيات من ناحية، ومذكرةً قانونيةً بحقه من ناحية أخرى، وسؤالا ربما تسلل إلى عقول بعض أتباعه عن البرنامج والرؤية.

وهكذا حال الشيعة: القوة الأولى فى العراق؛ ساسةً ومرجعيات وأتباعاً و«مقلدين». تتجاذبهم جميعا على «الحبل المشدود» أحلام وحقائق على الأرض. ففى الأفق يبدو بازغًا حلمٌ لم يكن بالمنظور أبدا أيام صدام: أن تصبح لهم «الغلبة» التى تعكس ما يحاججون به على الدوام من «أغلبية» عددية. فرئيس الحكومة «القوى» جاء منهم. رغم أن أكثريتهم يودون التبرؤ من تاريخ عمالته، ويتغافلون «تقية» عن حقيقة أنه الوجه الدموى الآخر لصدام. وعن حقيقة أنه لم يكن ليتورع عن «سحق» تمرد فقرائهم. كما قال بذلك صراحة وزير دفاعه مذكرا ـ وإن لم ينطق ـ بما جرى لمتمردى الشيعة على يد جيش صدام عشية حرب الكويت (١٩٩١).

على الحبل المشدود يمضى السيستانى: المرجعُ «الأعلى» إلى لندن.. مريضًا أو متمارضًا أو متفاهمًا.. لا يهم. ولكنه فى جميع الأحوال «مبتعد».. حتى بدا أن النيران ستطول طرف عباءته فى المدينة «المقدسة». فكان لابد من العودة فى اللحظة ذاتها التى تقول فيها عودته أنه ـ لاغيره ـ قادرٌ على حسم مالم يقدر جموحُ الصدر ولا دهاءُ علاوى ولا القوةُ الأمريكية الطاغية على حسمه. وحده بحكمة السبعين، بعث «السيد» من خلف لحيته البيضاء الوقور برسالة «إلى من يهمه الأمر».

على الحبل المشدود ذاته يمضى «ساسة الشيعة» فى العراق. تتجاذبهم رغبةٌ فى إنهاء التيار الصدرى، الذى يرون استحالة ترويضه. ولكنهم فى نفس الوقت لا يستطيعون إغفال أن هذا تيار «شيعى» ساهم بتمرده ـ شاءوا أم أبوا ـ فى إعطاء رقم الشيعة وزنا أكبر فى المعادلة العراقية التى يتم صوغها. وأنه فى اللحظات «المائجة» كما فى العراق، تصبح للذراع القوية أهميتها ويصبح لإبراز «الثقل» الشعبى دوره. ولكن على «الحبل المشدود» ومع حساب كل «التجاذبات» الإقليمية والمحلية يبقى «اللعبُ بالثقل» مغامرة.

يعرف ساسةُ الشيعة ـ لأنهم ساسةٌ ـ ذلك. ولأنهم لا يهدفون إلا لتحقيق الانتقالات السياسية المطلوبة يخشون من أن يهدد جموح التيار الصدرى (بتوليفته الخطرة من الفقر واستشهادية العقيدة) بانقلاب على المسرح الشيعى بل العراقى برمته. مهددا ـ وهذا بيتُ القصيد عند الساسة ـ مكاسب تبدو مضمونةً عندما يذهب العراقيون إلى صناديق الاقتراع.

فى الطريق إلى صناديق الاقتراع تبدو إدارة بوش الأمريكية أيضا تسير على حبل مشدود.

ففى الطريق، وفى وسط ساحة «تايمز سكوير» فى نيويورك ينتصب عدادٌ إلكترونى ضخم (ارتفاعه ١٧ مترا) يهدف إلى تسجيل نفقات الحرب التى تتزايد يوميا فى العراق.

وتقول الأرقام الصادمة لعابرى الطريق أن «الحرب فى العراق كلفت دافعى الضرائب الأميركيين مبلغ ١٣٤. ٥ مليار دولار حتى الآن». ويزداد هذا الرقم بمعدل ١٧٧ مليون دولار يوميا و٨٢٠. ١٢٢ دولارا فى الدقيقة. وانتخابات نوفمبر الأمريكية ـ رغم حقيقة أن لا اختلاف فعليا بين المتنافسين ـ ستجرى حتما فى ظلال ما يحدث فى العراق. فرغم حقيقة أن «العراقيون يذبحون الرهائن على الانترنت» كما قال مانشيت فى جريدة أمريكية قبل أسابيع، إلا أن البنتاجون لا يستطيع أن يدافع أمام الناخب الأمريكى عن سلوكيات جنوده فى سجن أبو غريب. كما أنه ورغم حاجة بوش الانتخابية الماسة لأن يستقر الوضعُ فورا فى العراق «الحر»، إلا أن العنفَ المفرط فى قمع انتفاضات شعبية يبقى مُربكًا إعلامياً. خاصة إذا طال هذا العنف الطائفة الشيعية التى طالما قال الأمريكيون أنها عانت أيام صدام.

ماذا يفعل الأمريكيون؟ تبقى كل الخيارات مرة حتى وإن كان الضرب بـ «يد علاوى الحديدية». فالخدعة «لا تنطلى طوال الوقت على الجميع» كما يقول المثل المعروف. و«عميلُنا السابق قضى على ما بقى من أهدافنا الخيرة فى العراق..» كما قالت النيوزويك الأمريكية فى افتتاحيتها قبل أسابيع



العربِ أيضاً: بدا وكأن الزلزال العراقى ـ رغم انه كان متوقعاً ـ أصابهم بالصدمة. والصدمةُ بحكم طبيعتها تؤدى إلى حالةٍ من عدم الاتزان.. فالحيرةِ والارتباك. ثم وبعد أن تبين للجميع ـ ورغم الأمنيات ـ أن ما حدث قد حدث وأن «الظن لا يغنى من الحق شيئا». راجع تصريحات زعماء عرب قبل اجتياح العراق بأن لديهم تأكيداتٍ أمريكية بأن واشنطن لن تفعلها (!) ـ بدا وكأن العرب لم يجدوا لديهم غير بديلين:

١. القعود فى انتظار ما لا يأتى. أو بتوهم أن «ليس لنا علاقة».

٢. التخبط بين الترحيب والتنديد؛ تقريباً بكل ما له علاقة. راجع نشرات الأخبار فى الإذاعات «الرسمية» العربية. ولاحظ تضارب الأوصاف والمسميات. فالقواتُ الأمريكية مثلاً هى قوات «الاحتلال» فى نشرة الصباح، ثم «الائتلاف» فى نشرة الظهيرة.. فـ «متعددة الجنسيات» فى نشرة المساء.. وربما ـ ولا أبالغ ـ تصبح الشرطة العراقية «المدعومة» فى موجز منتصف الليل.

وصار الموقف غريباً وصعباً. فالذين لا يطيقون، أو لا يريدون ـ ولذلك منطقه ـ الحلَ الزرقاوى أو الصدرى، بات وكأن ليس أمامهم غير الترحيب، أو على الأقل الرضا ـ وان على مضض ـ بالاحتلال، والأفاقين القادمين فى ظلال مدافعه. والأهم من ذلك اعتماد «صيغة المشرط الأمريكى». ولم يكن ذلك بأى المقاييس سهلاً.

حاول العربُ إذن: حكوماتِهم، بل وبعضِ مفكريهم، أنِ يلوذوا بحكمةِ الصمت أو أن يختفوا وسط جلبة الزعيق والصراخ والضجيج. ولكن إنْ كان الحريقُ على الأبواب لم يكن الصمتُ لينفع.. و إن كان حكمةً، ولا الصراخ.. وان كان شكوى أو حماسةً. هذا وقت الخيارات الصعبة. والتوازناتِ الدقيقة. واسألوا رجالَ الإطفاء، أو لاعبى السيرك.

حتى المواطنين العاديين لم ينجوا من لعنة الحبل المشدود فوق الجحيم. بعد أن اختلطت المفاهيم، وغامت الرؤى وفقدت اللغةُ معانيها التى استقرت عليها لقرون. فضاعت ـ أو كادت ـ المسافاتُ الفاصلةُ بين «التحرير» و«الاحتلال» .. و «المقاومةِ» و «الترويع» (يسمونه رغم أنف اللغة «إرهابا» بعد أن أصبحت اللفظة ـ رغم أنف اللغة مرة أخرى ـ الجريمةَ الأولى التى تبيح كل «الجرائم الاستباقية»).

فالذين يقفون «مبدئيا» ضد الاحتلال، وما يترتب على باطله، وجدوا أنفسَهم وكأنما هم يدافعون عن التفجيرات العشوائية ومسلسلات الذبح «الانترنتية» بعد أن استباحت حربُ الصدمة والترويع فائقةُ العنف والجبروت كلَ المحرمات. وبعد أن حرثت القنابلُ الذكية الأرضَ لكل بذور الفتنةِ والعنف.

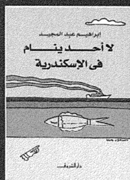


الحاصلُ أن العراقَ؛ الذى هو مهيأ أصلاً ـ بحكم تاريخه وجغرافيته وتركيبته ـ للانفجار، اشتعلت فيه النيران. وبدا وكأننا أمام كومةٍ من القش تراكمت عبر سنوات من كبت القهر «الصدامى» وظلم الحصار «الأمريكى». ثم كان أن أشعل أحدهم، متغطرساً بقوته متباهياً بسطوته المتفردة، عودَ الثقاب الأرعن فى كومةِ القش العائمة على بحر من النفط.. فكان ما كان. وبتنا جميعا نتراقصُ ـ أو نتوازنُ ـ على الحبل المشدود. ولا عزاء لمن يقع.

أيمـــن الصيــــاد

أحدث الاصدارات من

دار الشروق









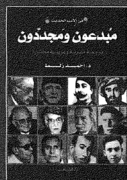


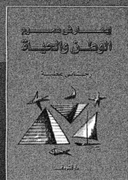
















تطلب من

دار الشروق: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ ومكتبة الشروق: ١ ميدان طلعت حرب تليفون: ٣٩١٢٤٨٠

ومكتبة الشروق: مبنى فرست أمام حديقة الحيوان ٣٥ ش الجيزة محل رقم ١٩ تليفون: ٥٧٣٥٠٣٥

كما يمكنكم شرائها الكترونيا **www.e-kotob.com**

الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 6 - Issue 69 - October 2004

مجلة شهرية - العدد التاسع والستون - السنة السادسة - أكتوبر ٢٠٠٤ - الثمن عشرة جنيهات

عائد من دارفور محمد سليم العوّا / نحن والشمبانزى أحمد مستجير

البحث عن الحرب البديل يحيى الرخاوى / أسئلة هيكل أيمن الصياد



السنة السادسة
العدد التاسع والستون
أكتوبر ٢٠٠٤

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفني
حلمي التوني
مدير التحرير
أيمن الصياد



محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أحمد مستجير.. أستاذ بكلية الزراعة جامعة القاهرة
- إلياس عطا الله.. محاضر جامعي من فلسطين
- أيمن الصياد.. صحفي
- برونو رونفارد.. باحث مهتم بالفنون التشكيلية
- بيل ماكيبين.. كاتب أمريكي مهتم بشئون البيئة
- جون بيلجر.. صحفي بريطاني
- صالح محمد النعامي.. صحفي من فلسطين
- صبري حافظ.. أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة لندن
- صفوت الزيات.. محلل عسكري
- عبد العليم الأبيض.. المستشار الإعلامي المصري في واشنطن سابقا
- محمد سليم العوّا.. أمين عام الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين
- والتر ترنس ستيس.. فيلسوف بريطاني (١٨٨٦ ـ ١٩٧٦)
- وليد عبد الناصر.. دبلوماسي مصري
- يحيى الرخاوي.. أستاذ الطب النفسي بجامعة القاهرة

رسوم العدد للفنانين :
محمد حجي ـ سعد الدين شحاتة





المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري ـ اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري ـ ص. ب : ٢٣ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ . فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة :

في مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

عـــائــــد مـــن

محمـــد ســـليم العـــواً

فى العدد الماضى، ناقشت «وجهات نظر» الوضع فى دارفور فى مقالين: الأول للدكتور حسن مكى ربط فيه ما يجرى فى الإقليم بالسياق العام للأزمة التى يعيشها السودان بينما تناول أليكس دى وال فى الثانى التفاعلات التى حدثت فى دارفور ووصلت بالوضع إلى ما هو عليه حاليًا..

كثيرون ـ على اختلاف انتماءاتهم وتوجهاتهم فكريًا ومهنيًا ـ ذهبوا إلى هناك، رسميون وصحفيون ورجال إغاثة.. وعادوا جميعًا بقصص كثيرة. د. العوا ذهب وعاد برواية مختلفة.

«المحـــرر»



■ منذ بداية هذا العام (٢٠٠٤) يتابع العالم كله سلسلة من المعلومات المكذوبة، أو المبالغ فيها مبالغة هائلة، حول النزاع القائم فى دارفور، وآثاره الإنسانية، وأسبابه الحقيقية أو المزعومة.

وقد توجهت بعثات من مناطق شتى من العالم إلى دارفور أو إلى السودان، دون أن تعنّى نفسها بالذهاب إلى دارفور. ونقلت إلى وسائل الإعلام تلك المعلومات الخاطئة، أو المكذوبة عمداً، أو سكتت عن نفيها بعد أن تيقنت من عدم صحتها، فشاركت بذلك فى شيوع الصورة غير الصحيحة عما يجرى فى تلك المنطقة من العالم.

الصورة الشائعة تقول: إن الصراع فى دارفور هو صراع عرقى بين القبائل العربية والقبائل الإفريقية؛ وإن القبائل العربية تمارس إبادة جماعية أو تطهيراً عرقياً ضد القبائل الإفريقية؛ وإن هناك حملات منظمة للاغتصاب الجماعى للنساء على مرأى من الرجال (!)؛ وإن الحكومة السودانية ضالعة فى ارتكاب هذه الجرائم، أو التستر عليها بغض الطرف عنها، لأن الذين يرتكبونها هم فرق من ميليشيات الجنجويد الذين تسلحهم الحكومة، وهم ينتمون إلى القبائل العربية؛ وإن ضحايا هذا الصراع المسلح جاوزوا الخمسين ألف قتيل وملايين اللاجئين والنازحين والمشردين (لكل لفظ مدلوله الخاص فى القانون الدولى الإنسانى) فأصبحنا أمام أسوأ كارثة إنسانية فى التاريخ (!)

الإعلام الغربى يسوق هذه الصورة، والإعلام العربى، القابع فى جُحر الضب، يروجها مجاناً، ومجلس الأمن اتخذ حتى الآن (سبتمبر ٢٠٠٤) قرارين ضد السودان وقد يكون القرار الثالث فى الطريق!

والناس، الذين ليس لديهم مصدر آخر للمعرفة، يصدقون هذه الصورة الشائعة، أو يقفون أمامها حائرين لا يملكون تصديقاً ولا تكذيباً.

ولا يستطيع المرء أن يقف على حقائق الحال فى دارفور دون أن يتعرف على تكوينها السكانى، وموقعها الجغرافى، وتاريخها الثقافى، والثروات التى تختزنها أرضها وعلاقتها الحالية والتاريخية بالمركز (الخرطوم/ حكومة السودان)، والقوى التى تغذى الصراع الدائر على أرضها وتلك التى تظن أنها قد تستفيد منه.

وهذا الحديث بتفصيلاته وأسانيدها لا يحتمله المقام هنا. لكن الإجمال قد يكفى لإيقاف القارئ على حقيقة الواقع التى تخالف كل المخالفة الصورة الشائعة التى يتلقاها الناس فى بلادنا بين مصدق وحائر.

عندما أصبحت دارفور هى الخبر الأول فى نشرات الأنباء والعنوان الرئيس فى الصحافة العالمية والعربية، رأى اتحاد العلماء المسلمين أنه لابد أن يطلّع على الحقيقة القائمة هناك، وأن يقدم النصيحة الواجبة شرعاً إلى أهل السودان، وأن يحاول جهده الإصلاح بين المتنازعين أداءً لواجبه باعتباره يمثل المرجعية الشعبية الإسلامية العامة، وقياماً بدوره فى تيسير الحوار وممارسته والإقناع به سبيلاً إلى رأب الصدع وتجسير هوة الخلاف وبديلاً عن إراقة الدماء واستباحة الأموال والأوطان. وهذان هما المحوران الرئيسيان اللذان أقرتهما الجمعية العمومية للاتحاد فى اجتماعها التأسيسى المنعقد فى لندن فى ٢٣ جمادى الأولى ١٤٢٥ هـ = ١١/٧/٢٠٠٤م.

شكّل الاتحاد وفداً لزيارة السودان ودارفور من رئيسه، العلامة الدكتور يوسف القرضاوى، وأمينه العام، كاتب هذه السطور، والأستاذ الشيخ المستشار فيصل المولوى، والأستاذ الدكتور على القره داغى عضوى مجلس أمناء الاتحاد ولجنته التنفيذية. ورافق الوفد فى أثناء الزيارة عضو مجلس الأمناء الدكتور عصام البشير وزير الإرشاد والأوقاف فى السودان.

كان الوفد حريصاً منذ تقرر سفره على أن لا يقول كلمته ولا يكوِّن رأيه فيما يجرى فى دارفور إلا بعد أن يقابل ممثلين لجميع الأطراف، ويزور أرض دارفور ويلتقى بأهلها، حتى تكون كلمته معبرة تعبيراً صادقاً عما يطمئن إليه ضمير أعضائه.

وقد وجد الوفد كل ترحيب وعون، من المسئولين فى السودان، لتحقيق هذه الرغبة. ولم يطلب لقاء أحد أو زيارة جهة إلا تمكن من ذلك، حتى الدكتور حسن الترابى زعيم حزب المؤتمر الشعبى، الذى كان آنذاك رهن الإقامة الجبرية. قام أمين عام الاتحاد بزيارته لمدة ثلاث ساعات كاملة لم يقطع خلوتهما فيها أحد.

التقى الوفد برئيس جمهورية السودان الفريق عمر البشير، وبنائبه الأول الشيخ على عثمان طه، وبمستشاريه للشئون السياسية مهدى إبراهيم ولشئون التأصيل الدكتور أحمد على الإمام وللشئون الإفريقية الدكتور على حسن تاج الدين. وكانت هذه اللقاءات كلها لقاءات عمل مكثف لمدد لم تقل عن الساعة، وبلغت أحياناً أكثر من ثلاث ساعات، فضلاً عن الرفقة عدة أيام من الدكتور أحمد على الإمام فى الخرطوم ودارفور.



واجتمع الوفد بالوزراء المعنيين بالمشكلة: وزير الداخلية اللواء الركن عبد الرحيم محمد حسين (وهو مهندس طيار)، وهو المفوض بسلطات رئيس الجمهورية فى دارفور؛ ووزير الشئون الإنسانية السيد إبراهيم محمود حامد، ووزير الخارجية الدكتور مصطفى عثمان إسماعيل، وقيادات أبناء دارفور المقيمين بالخرطوم (حضر اللقاء نحو ٥٠ شخصاً)، والمشير عبد الرحمن سوار الذهب رئيس الجمهورية السابق، والأستاذ دفع الله الحاج يوسف رئيس القضاء الأسبق، وعضوات الاتحاد

دار فــــور

العام للمرأة السودانية (كان اللقاء مخصصاً للعضوات من دارفور)، والقيادات السياسية الموالية للحكومة والمعارضة لها، وأعضاء المجمع الفقهى الإسلامى وأعضاء هيئة علماء السودان، ووالى شمال دارفور، ونائبه، ومدير الشئون الاجتماعية بولاية شمال دارفور وجمع من المسئولين التنفيذيين والسياسيين بالولاية، القيادات السياسية والفكرية وعدد من أساتذة الجامعة ورجال القضاء فى دارفور؛ وقام الوفد بزيارة معسكر أبو شوك للاجئين وهو يضم ٤٢ ألف لاجئ وتديره الحكومة السودانية وبعض منظمات الإغاثة التى منها البعثة الطبية العسكرية المصرية، وبعثة الهلال الأحمر السعودى، وبعثة منظمة OXFAM البريطانية الإغاثية، والتقى الوفد بقيادات حزب المؤتمر الشعبى حيث عقد اللقاء فى منزل السيد/ ياسين عمر الإمام فى أم درمان وحضره السيد/ إبراهيم السنوسى والسيد/ محمد حسن الأمين والسيد/ محمد الأمين خليفة وعدد آخر من قيادات الحزب.

ومن مجموع ما رأى، وقرأ، وسمع، أصدر وفد الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين بياناً وافياً عن الحالة فى دارفور، تناول أسباب الأزمة، واقتراحات للوصول إلى حلول ناجعة لها. وقد نشر البيان فى عديد من وسائل الإعلام وعلى مواقع متعددة على الشبكة الدولية للمعلومات من أشهرها موقع (إسلام أون لاين. نت).

دارفور وسكانها

دارفور جغرافياً هى غرب السودان، لها حدود مع ليبيا (فى الشمال الغربى) ومع تشاد (فى الغرب) ومع إفريقيا الوسطى (فى الجنوب).

وطبيعتها متنوعة تنوع أهلها ففيها صحارى واسعة، وجبال، ووديان، وأنهار صغيرة، وأراض صخرية ورملية وطينية، وفيها منطقة جبل مرّة التى تتمتع بمناخ البحر الأبيض المتوسط (!) ويصف أهلها بلادهم بأنها «أرض بكر ومية شبر»! وهى غنية بينابيع المياه الطبيعية، وبساتينها تنتج أجمل ثمار بلدان البحر الأبيض المتوسط (ولم ينزح من سكانها أحد).

مساحة دارفور ٥٤٧,٨٠٧ كم٢ أى إنها نحو نصف مساحة مصر، وأكبر من مساحة فرنسا. وهى خمس مساحة السودان أو أكثر قليلاً. وثمانون فى المائة من هذه المساحة صالحة للزراعة فوراً (وهى نحو ٤٣,٥٠٠,٠٠٠ فدان بكراً لا تحتاج إلى استصلاح!).

سكانها عددهم أقل من ستة ملايين نسمة.

ثرواتها الطبيعية هى الحديد (نقاوته من ٨٠-٩٠٪) والنحاس (بها منطقة تسمى حفرة النحاس لا يحتاج نحاسها عالى النقاء إلى تعدين لوجوده فوق سطح الأرض!) والبترول (هى المربع رقم ١٢ فى تقسيم النفط السودانى وحقولها متاخمة لحقول تشاد الغنية) واليورانيوم، والجير، والصودا وهذه الأخيرة كلها فى شمال دارفور.

ثروتها من الإبل والماشية (الأبقار) نحو ٨٨ مليون رأس، أما الأغنام فلا تكاد تحصى (فى أحداث محلية كُتم وحدها كانت الخسائر من الأغنام ٢,٢٣٩,٧٣٤) وفى تقدير حكومى لثروة دارفور من الأغنام جاء أنها ٢٨,٩٨٧,٦١٠ رءوس من الضأن والمعز، وهو تقدير تقريبى على كل حال.

ويتوزع أهالى دارفور على ١٨٠ قبيلة منها ٣٠ قبيلة كبيرة والباقى قبائل متوسطة أو صغيرة. والجميع يتكلمون اللغة العربية، ويفخرون بفصاحة ألسنتهم وبلاغتهم؛ وبعض القبائل ذات الأصول الإفريقية ليس لها لغة غير العربية، والقبائل التى لها لغة تتكلم بها فيما بينها كما لو كانت لهجة محلية لا لغةً بالمعنى الكامل للغة.

ووصف القبائل بأنها «عربية» أو «إفريقية» ليس وصفاً دالاً على نقاء عرقى أو صفاء وراثى لكل جنس من الجنسين: العرب والأفارقة، وإنما هو وصف أغلبى يرجع إلى الأصول التى تنتمى إليها القبيلة، أو إلى وجود لغة محلية خاصة بها حافظت على بعض خصائص ومفردات لغتها الأصلية قبل تحولها إلى اللغة العربية. ذلك أن القبائل قد امتزجت على مر التاريخ امتزاجاً لم يعد أحد معه يستطيع التفرقة بين العربى والإفريقى من أهل تلك البلاد. ولذلك سماها الرحالة محمد بن عمر التونسى (ت ١٨٥٧ فى القاهرة) بلاد «العرب والسودان» لاختلاطهما معاً اختلاطاً جعلهما شعباً واحداً (تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٥ بتحقيق خليل عساكر ومصطفى سعد).

وقد زار العلامة الأستاذ إحسان عباس ـ رحمه الله ـ دارفور، فى إحدى زياراته للسودان، فسمع امرأة من قبيلة الزغاوة تقول لابنتها: «أسرعى هذى المُزْنة إن هطلت سيرنا يتعطل» فقال إحسان عباس لمرافقيه: هذه المرأة الزغاوية أفصح من أهل الخرطوم!

والعرب لا ينظرون إلى العروبة على أنها عرق أو جنس، لكنهم يرون أن العروبة لسان، فمن تكلم العربية فهو عربى، ومع أن المحدثين والفقهاء يضعفون الحديث المروى فى هذا الخصوص فإنهم يقولون: «إن معناه ليس ببعيد، بل هو صحيح من بعض الوجوه» (ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ط١ محمد حامد الفقى، القاهرة، ١٩٥٠ ص ١٦٩). وابن تيمية نفسه يقرر أن «العرب» اسم لأقوام منهم «ما غلب على أهله لسان العرب مع ما دخل لسان العرب من اللحن، وإن كان لهم لسان غيره» (ص١٦٦). وهذا هو حال سكان دارفور، فالعربية لسانهم كافة، وإن كان بعضهم يعرف غير لسان العرب. ولست بذلك أنفى عن ذوى الأصول الإفريقية أصولهم الثابتة لهم، وإنما أقرر أن العروبة وسعتهم كما وسعت سواهم من أهل الأمصار التى تعربت بعد أن لم تكن عربية ولا كان أهلها عرباً، وهى التى يسميها ابن تيمية «البقاع العربية انتقالاً» أى التى انتقلت إلى العربية، ويدخل فيها مصر والشام والعراق والأندلس، وأرض فارس وخراسان قديماً. والناس ـ فى كل تلك البلاد ـ فيهم من لا يزال يحتفظ بنسبه الضارب فى القدم إلى آباء أو قبائل وجدوا ووجدت قبل أن تعرف العربية طريقها إلى ديارهم، ولا ينفى هذا الانتساب عروبتهم ولا يقدح فيها.

ومن طرائف التركيب السكانى لدارفور أن «الزغاوة» التى هى أكبر القبائل الإفريقية ـ بعد الفور ـ قد وفدت أصلاً من ليبيا، وأدى اختلاط العرب والوافدين بالأفارقة أهل البلاد الأصليين إلى ظهور طبقة «الكنجارا» التى حكمت دارفور (سلطنة الفور) منذ القرن السابع عشر حتى نهاية حكم السلطان على دينار فى نوفمبر سنة ١٩١٦م.

وأهل دارفور كلهم مسلمون، وتاريخ الإسلام فى بلادهم يبدأ من القرن الثالث عشر الميلادى أو قبله، وكلهم يتبعون المذهب المالكى، وكلهم يقرأون القرآن الكريم بقراءة (ورش)، وكلهم ينتمون إلى الطريقة الصوفية التيجانية. ولفظ كلهم فى الجمل السابقة حقيقى لا مجازى(!) ولذلك فالوحدة السكانية فى دارفور أعلى منها فى أماكن أخرى كثيرة من السودان، بل من العالم العربى والإسلامى قاطبة.

ولا يستطيع أحد أن يفرق بين ذى الأصل العربى وذى الأصل الإفريقى من أهل دارفور بالنظر إلى الملامح أو الصفات الجسمية. وعندما كرر كولن باول وزير الخارجية الأمريكى الكلام عن الصراع العرقى فى زيارته لدارفور، طلب منه الوالى أن يتعرف على من هو عربى ومن هو إفريقى، فأخطأ فى تحديد هوية كل من حاول التعرف على أصله القبلى: من ظنه منهم عربياً تبين أنه إفريقى ومن ظنه إفريقياً تبين أنه عربى(!) وأبدى كثير من الأجانب الذين زاروا دارفور تعجبهم من أن اللغة العربية هى لغة الجميع وأن الفارق الوحيد بين العربى وغير العربى هو ما يقوله كل منهم عن انتمائه القبلى!

يحق للقارئ بعد أن وقف على الحقائق التى أسلفت بيانها عن المكان والإنسان واللغة والدين فى دارفور أن يتساءل مع أمير الشعراء:

إلام الخلف بينكم إلام؟
وهذى الضجة الكبرى علام؟!

وهو السؤال عن الأزمة الحالية: ما حقيقة أسبابها وما الواقع فيها؟

سكان دارفور ينقسمون إلى مزارعين ورعاة. رعاة





مساحة دارفور ٥٤٧,٨٠٧ كم أى إنها نحو نصف مساحة مصر، وأكبر من مساحة فرنسا. وهى خمس مساحة السودان أو أكثر قليلاً. وثمانون فى المائة من هذه المساحة صالحة للزراعة فوراً



يرعون الإبل (الأبَّالة) أو يرعون البقر (البقَّارة). والجميع يمتلكون مع الإبل والبقر كميات هائلة من الأغنام.

والرعى يقتضى التنقل وراء العشب والكلأ والماء، ورحلة الرعاة تتجه عادة من الشمال إلى الجنوب ثم تعود من الجنوب إلى الشمال سالكة طرقاً قديمة محددة منذ عهد حكومات السلاطين الذى انتهى سنة ١٩١٦ تسمى (المراحيل) ومفردها (مرحال) وهو طريق يتسع بعرض من ١٠ إلى ١٥ كم ويضيق فى بعض المواضع حتى يبلغ عدة مئات من الأمتار. وعلى مسافات متفاوتة توجد فى كل مرحال أماكن واسعة (ميادين) لراحة الرعاة وإبلهم أو أبقارهم (يسمون الواحد منها صينية ويجمعونها على صوانى). وعلى جانبى كل مرحال توجد أراضى المزارعين، وقريب منها قراهم وبيوتهم.

وفى أحوال سخاء الماء لم تكن تجرى أية مشكلة بسبب المرعى أو النزول للراحة فى أثنائه فى الصوانى المخصصة لذلك. ولكن الجفاف الذى أصاب إفريقيا، وخص السودان بنصيب كبير منه، منذ أواسط السبعينيات حتى أواسط الثمانينيات أدى إلى أن تبدأ رحلات الرعاة من الشمال إلى الجنوب مبكرة عن مواعيدها المعتادة، وقل العشب فى الأرض (أرض المرحال) فأكلت الإبل والأبقار زروع المزارعين فى بعض الأراضى، وأراد المزارعون الانتقام فحرقوا ما فى الأرض من عشب وكلأ نكاية فى الرعاة وماشيتهم، أو وسعوا نطاق زراعاتهم أو الأراضى المحجوزة للزراعة اقتطاعاً من أرض المراحيل، وتوالى الفعل ورد الفعل حتى ترتب على ذلك نزاعات كثيرة وقع فيها قتلى من العرب والأفارقة وعقدت الحكومة لتسويتها نحو (١٥) مؤتمراً للصلح بين المتنازعين انتهت كلها بتسوية النزاع وسداد ديات القتلى. وفى سنة ٢٠٠١ وقع نزاع بين قبيلة الزغاوة (الإفريقية) وقبيلة أبناء زيد (العربية) قتل فيه من الزغاوة ٧٦ رجلاً، واتفق على الصلح، وحددت قيم الديات، لكنها لم تدفع فى المواعيد المحددة لذلك، وكان المتفق عليه أن تدفعها الحكومة السودانية، فلم يُرض ذلك شباب الزغاوة، واعتقلوا زعماءهم الذين عقدوا الصلح وبدأ التمرد. وأعقبت ذلك حادثة قتل فيها بعض العرب فى منطقة جبال مَرَّة فنشب صراع مسلح بين العرب والفور فى تلك المنطقة... وهكذا توالت النزاعات المسلحة التى سببها أصلاً الخلاف على الماء والعشب.

وللأرض دور فى النزاع بين القبائل الإفريقية بعضها وبعض. فالأرض فى دارفور مقسمة بأوامر سلطانية (من عهد السلطنات الإسلامية) وموزعة على القبائل، لكل قبيلة (حاكورة) أى أرض خاصة بها لا يشاركها فيها سواها، فلما ضرب الجفاف إفريقيا نزحت قبائل من تشاد وإفريقيا الوسطى إلى دارفور (حيث أبناء عمومتهم من القبيلة نفسها: فالزغاوة مثلاً ثلثهم فى دارفور وثلثاهم فى تشاد) وكان طبيعياً أن يقبل أهل البلاد. أصحاب الحاكورات. هؤلاء الوافدين ضيوفاً مؤقتين، فلما طالت سنوات الجفاف وتحولت الضيافة إلى إقامة أثار ذلك منازعات بين الطرفين وقع فيها قتلى ونشأت بسببها ثارات!



والرعى والزراعة يتقاسمهما العرب والأفارقة، فأغلبية العرب رعاة ومنهم مزارعون وأغلب الأفارقة مزارعون ومنهم رعاة. وللمزارعين ديارهم وحواكيرهم وللرعاة ديارهم وحواكيرهم كذلك. لذلك تداخلت القبلية مع الصراع الرعوى/ الزراعى، وتسبب تقصير الحكومة فى تنامى حركة الرفض التى استغلتها حركتا التمرد المسلح الرئيسيتان «حركة العدل والمساواة» و«حركة تحرير السودان». الأولى زعامتها لبعض عناصر حزب المؤتمر الشعبى (على رأسهم خليل إبراهيم الذى كان وزيراً فى حكومة الإنقاذ!) والثانية زعامتها لبعض اليساريين (على رأسهم أحمد إبراهيم على دريج، واسم دريج ليس عربياً ولا إفريقياً ولكنه اسم مفتش فى الجيش البريطانى كان يعمل فى «زالنجيا» وهى قرية أحمد إبراهيم على، فلما وُلد أحمد أعطاه أبوه اسم هذا المفتش الإنجليزى! وقد حدثنى بذلك المؤرخ الثقة مولانا جبريل عبد الله على فى أثناء زيارتنا لمعسكر أبو شوك ظهر يوم الاثنين ٢٠٠٤/٩/٦). وهذه الحركة «حركة تحرير السودان» هى محاولة لبعث الصلة التى أراد جون جارانج إنشاءها بين حركته «جيش تحرير السودان» وبين دارفور عندما بعث قوة من نحو ستة آلاف جندى بقيادة داوود يحيى بولاد (من قبيلة الفور وكان أحد المنتمين للحركة الإسلامية وانضم إلى الفريق الذى كون حزب المؤتمر الشعبى بعد خلاف الدكتور حسن الترابى مع الحكومة) فأبيد هذا الجيش عن آخره لأن أهل دارفور أبوا أن يدخل عليهم جيش فاتح من الجنوب مراهنا على خلافاتهم حول المرعى والماء ليوقع بينهم وبين إخوانهم الحاكمين فى الخرطوم، وقاتل ضد هذا الجيش قبيلة قائده نفسها (قبيلة الفور) وسائر القبائل الإفريقية الأصل كالزغاوة والمساليت وغيرها (حسن مكى، دارفور.. من أشعل الحريق؟، وجهات نظر، العدد ٦٨، سبتمبر ٢٠٠٤ ص ١٦).

وقيام الحركات المسلحة كان يسيراً، وكذلك تسليح الأفراد. وأهل المنطقة من قديم، يعتبرون السلاح ضرورة، لكنه كان السلاح التقليدى من مثل السيف والرمح والحربة وما إليها، فلما كثرت النزاعات المسلحة فى دول الجوار، وتوالت الانقلابات العسكرية ما نجح منها وما أخفق فى تشاد وأفريقيا الوسطى، كانت دارفور هى ملجأ الفارين من أولئك الانقلابيين، وكان أكثرهم يبيع السلاح بأثمان رخيصة حتى أصبح المثل السائر بين أهل دارفور (بندقية بجلابية)! والسلاح عندما يفشو فى أيدى الناس يسهل استعماله، ويتقوى به حاملوه على غيرهم. وهؤلاء يحتاجون للدفاع عن أنفسهم إلى سلاح يواجهه، وهكذا تتسع الحلقة الشيطانية وينشأ العنف والعنف المضاد له... وكان واجبًا على الحكومة السودانية أن تنتبه لهذه المخاطر منذ بداياتها، لكنها لم تفعل بل إنها لم تتدخل لحفظ الأمن إلا فى ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٣ واستطاعت بنهاية يناير ٢٠٠٤ أن تقضى على التمرد المسلح وتستعيد سيطرتها على المدن التى كانت فى يد الحركتين المسلحتين. وفى أثناء هذه المحاولة لاستعادة سلطة الدولة حدث حرق القرى، وحدثت المصادمات العسكرية التى كان ضحاياها من غير المقاتلين أكثر من ضحاياها من المقاتلين(!) وحدثت المأساة الإنسانية الحالية التى هى أكبر بكثير من مشكلة القتلى من الفرقاء جميعاً. فعدد القتلى منذ عام ٢٠٠٠ حتى الآن لم يتجاوز خمسة آلاف قتيل بينما عدد اللاجئين والنازحين والمشردين فى السودان وخارجه يبلغ نحو مليون ومائة ألف شخص منهم ٢٥٠ ألفاً فى تشاد والباقون داخل ولايات دارفور الثلاث وهم موزعون على نحو عشرين مخيماً أكثرها كثافة ما تديره الحكومة السودانية. وهذه الحقيقة وحدها ترد على المزاعم القائلة إن القوات الحكومية، والموالية لها، هى التى ارتكبت مجازر ضد السكان وأحرقت قراهم، إذ لو كان الأمر كذلك ما لجأ إلى مخيمات الحكومة أحد.

الماء والعشب والكلأ والأرض هى. إذن. أصل النزاعات التى تحولت إلى حروب. والمنافسة السياسية الإسلامية. الإسلامية، والجنوبية. الشمالية من ناحية، والثروات المغرية بالتدخل الأجنبى من ناحية أخرى، هى العوامل المساعدة على استمرار النزاع، وإطالة أمده والتشجيع على حمل السلاح وتيسيره لمن أراد. فأين التطهير العرقى،





عندما كرر كولن باول وزير الخارجية الأمريكي الكلام عن الصراع العرقي فى زيارته لدارفـــور، طلب منـه الوالى أن يتعـرف علـى مـن هو عربي ومن هو إفريقي، فأخطأ فى تحديد هوية كل من حاول التعرف على أصله القبلى



والإبادة الجماعية والجرائم ضد الإنسانية من ذلك كله؟

التطهير العرقى جريمة تفترض أن قوماً ينتسبون إلى أصل واحد. حقيقى أو مزعوم. يسعون إلى إبادة قوم آخرين. وليس فى دارفور. بل ربما ليس فى السودان كله. من يزعم أنه من عرق متفرد نقى لم يختلط بغيره من الأعراق والأصول. إن قادة الجماعات المسلحة أنفسهم من أصول يختلط فيها العربى بالإفريقى، وبعضهم وهو من أصل إفريقى (مثل خليل إبراهيم رئيس حركة العدل والمساواة) زوجته عربية، والعكس صحيح.

والقتلى الذين يصلون إلى نحو خمسة آلاف، أو أقل قليلاً، هم من القبائل كافة العربية والإفريقية سواء بسواء. واللاجئون والنازحون والمشردون تتوزعهم القبائل العربية والإفريقية بلا تمييز. والقرى التى أحرقت والأموال التى أتلفت يملكها عرب وأفارقة فالنار حين تسرى فى الأرض لا تميز بين بيت عربى وبيت إفريقى ولا بين غنم أو إبل أصل صاحبها من العرب وأخرى أصل صاحبها من الأفارقة.

والمضرور الأكبر كان نفوذ الحكومة السودانية وسلطانها وهيبتها؛ فقد دُمِّرَ أكثر من ثمانين مركز للشرطة وذبح من كان فيها من ضباط وجنود، وهوجم مطار الفاشر وأحرقت فيه سبع طائرات عسكرية وذبح فى هذا الهجوم أكثر من سبعين جندى وضابط وأسر قائد الطيران السودانى الذى تصادف وجوده فى مطار الفاشر، ودمرت مبانى المحاكم والمدارس والمستشفيات... فهل كان من فعلوا ذلك يمارسون تطهيراً عرقياً ضد الحكومة؟!

إن التطهير العرقى الذى تتحدث عنه وسائل الإعلام الغربية والصهيونية ليس إلا أكذوبة كبرى لا أصل لها فى الحالة السودانية ابتداءً، إذ ليس هناك عرق ضد عرق، وإنما هناك نزاع على الماء والأرض والعشب، وغياب حكومى طال أمده، وإهمال للتنمية مكافئ لإهمال سائر المناطق فى السودان. وإن شئت قلت فى إفريقيا وآسيا أيضاً. استغلته عناصر ثائرة عليه، وعلى طول أمده، وحاولت. ولا تزال تحاول. استثماره القوى السياسية الطامعة فى السيطرة على السودان كله وثرواته جميعاً، من الداخل والخارج، أحدهما يعضد الآخر، وعين كل منهما على مصالحه الحقيقية أو المتوهمة، وأذنه تصغى لوعود وعهود أكثرها لن يصدق حين تحين ساعة اقتسام الغنيمة التى يستأثر بها، بعد كل صراع، الأقوى وحده دون سواه.

والإبادة الجماعية تهمة أو هى من تهمة التطهير العرقى، وهو أمر تثبته أعداد القتلى من أهل دارفور. فليس هناك أغلبية ولا أقلية فيمن لقوا مصرعهم فى أثناء النزاعات المسلحة هناك، وليس هناك قتل على الهوية كما حدث فى حروب أهلية إفريقية وعربية معاصرة، وليس هناك فريق بيده السلاح وفريق أعزل، وما يسمى بالميليشيات المسلحة موجود لدى كل القبائل، فالفور مسلحوهم يطلق عليهم اسم (تورابورا) لأنهم يتحصنون فى منطقة جبل مَرَّة وهى سلسلة جبال متفاوتة ارتفاعاً ووعورة فشبههم أهل دارفور بمقاتلى جبال تورابورا الأفغانية (!) والزغاوة والمساليت، المقيمون فى منطقة الكابكابية أسفل جبل مَرَّة، مسلحوهم يطلق عليهم اسم (البشمركة) وهو اسم الفدائيين الأكراد فى العراق (!) وهؤلاء المسلحون كان توجههم الأصلى إلى حماية ديارهم وقراهم، والانتقام ممن بدأوا الاعتداء عليهم. فليس هناك إبادة منظمة لأحد حتى يقال إن الذى يجرى فى دارفور يصل إلى حد الإبادة الجماعية التى تزعم وجود أدلة عليها (لم تقدم دليلاً واحداً منها) الولايات المتحدة الأمريكية، ومنظمة العفو الدولية، ومنظمة هيومان رايتس واتش وغيرها من المنظمات والجهات الإعلامية الغربية.

هل قام الجنجويد بعمليات إبادة جماعية أو تطهير عرقى؟

لعل كلمة الجنجويد، التى دخلت كل لغات العالم بعد أزمة دارفور، هى أخطر الكلمات تأثيراً فى نفوس السامعين والمشاهدين والقراء لأى خبر عن دارفور والسودان منذ سنة ٢٠٠٣ حتى اليوم. فما معنى هذه الكلمة؟ ومن هم الجنجويد أساساً؟

الجنجويد كلمة مركبة من كلمتى «جن» و«جواد». وهى كلمة إفريقية وفدت من لغات غرب إفريقيا المحلية إلى لغة أهل دارفور العربية بمعنى جنٍ يركب جواداً، وتطور معناها بعد الصراع المسلح فى دارفور ليتضمن حمل راكب الجواد سلاحاً آلياً، لأنه فى الماضى كان يحمل سيفاً أو رمحاً أو حربة.

وهذا الجن راكب الجواد هو لص يتكسب عيشه من قطع الطريق على المسافرين وقوافل التجار. وهو قد يكون عربياً وقد يكون إفريقياً إذ لا يخلو قوم من اللصوص ولا تخلو بادية من قطاع طريق. وهؤلاء لا يسير الواحد منهم عادة وحده لكنهم يكونون فى رفقة يسطون على القوافل أو المسافرين أو أهل القرى ويقتسمون المال المسروق معاً. وقد يكون لهم قائد أو زعيم (هو الذى نسميه فى اللغة العامية المصرية شيخ منسر) وقد يختلفون بعد الغنيمة أو الهزيمة فيقتتلون أو يتفرقون، وهم أشبه ما يكونون بصعاليك العرب فى الجاهلية الذين كانوا يُطردون من قبائلهم أو يهجرونها فيتخذون النهب وسيلة للعيش.

ففى العرب جنجويد وفى الأفارقة جنجويد، وجماعاتهم قد يختلط فيها العرب بالأفارقة لأن الذى يجمعهم ليس العرق أو الانتماء القبلى وإنما السطو والنهب واستقواء بعضهم ببعض دون نظر إلى نسب أو أصل أو قرابة.

وعندما زارت بعثة رؤساء منظمات الأمم المتحدة دارفور وتحدث أحد الأجانب هناك عن الجنجويد وأن خطورتهم كبيرة لأنهم يركبون جواداً أو جملاً ويحملون سلاحاً آلياً، سأله رئيس إحدى المنظمات عن المسلحين الآخرين ماذا يركبون؟ فقال له إنهم يركبون سيارات جيب و GMC ويضعون عليها مدافعهم وسلاحهم!

ولا شك أن النهب يكثر فى أوقات الصراع المسلح، وفى غيبة السلطة القوية المسيطرة، ومن هنا كان نشاط الجنجويد ملحوظاً فى السنين الثلاث الأخيرة فى دارفور. لكنهم. من ناحية أخرى. ساهموا فى منع حملة السلاح من المنتمين إلى الحركتين السياسيتين فى حالات كثيرة من دخول القرى وترويع أهلها لحملهم على اللجوء أو النزوح طلباً لاتساع نطاق المأساة الإنسانية لحمل المجتمع الدولى. والولايات المتحدة خاصة. على تدخل عسكرى فى السودان تظنه هاتان الحركتان سيكون محققاً لمصالحهما أو لمطامعهما!

ولم يستطع وفد الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين أن يقف على دليل أو شبهة دليل على أن الحكومة السودانية سلحت الجنجويد أو استعانت بهم فى حربها ضد الحركتين السياسيتين المسلحتين فى دارفور. لكن الحكومة استنفرت (عبأت) المتطوعين من الجيش الشعبى، واستجاب لهذه التعبئة أعداد كبيرة من شباب القبائل العربية والإفريقية معاً فى ولايات دارفور الثلاث، وهذه هى القوة التى ساعدت الجيش النظامى فى استرداد سيطرة الدولة على مدن دارفور ما بين ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٣ ونهاية يناير ٢٠٠٤. وقد سُرِّح ٨٠٪ من هؤلاء واستردت القوات النظامية



ما كان بأيديهم من سلاح. وانضم الباقون إلى القوات النظامية لحفظ الأمن فى مختلف أنحاء دارفور.

فلا الجنجويد جماعة مسلحة منظمة ذات قيادة، ولا الحكومة سلحتهم واستعانت بهم ضد الأفارقة، وإنما هى كلمة ذات وقع خاص استعملت لتأكيد مزاعم ضلوع الحكومة فى التطهير العرقى والإبادة الجماعية اللذين لم يقعا أصلاً.





القتلى الذين يصلون إلى نحو خمسة آلاف، هم من القبائل كافة، العربية والإفريقية سواء بسواء. واللاجئون والنازحون والمشردون تتوزعهم القبائل العربية والإفريقية بلا تمييز. والقرى التى أحرقت والأموال التى أتلفت يملكها عرب وأفارقة



هل عانت نساء دارفور من اغتصاب جماعى؟

تلك كانت التهمة الثالثة التى أريد من إشاعتها تسويغ التدخل الدولى العسكرى فى السودان بزعم حماية نساء دارفور من قوات الحكومة.

سألنا أول من قابلناه فى الخرطوم عن هذه التهمة فنفاها نفياً قاطعا، وقال إنها شائعات تروجها جهات معادية للحكومة السودانية، وللصورة العربية للسودان الإفريقى، وإنها ليس لها فى الواقع أصل البتة، وإنها تنافى أخلاق أهل دارفور وأهل السودان عامة.

وتكرر النفى من الجميع، الحكومة والمعارضة، إلا رجلين اثنين رددا أمام وفد اتحاد العلماء ما كنا قرأناه وسمعناه عن الاغتصاب الجماعى، والاغتصاب الذى أدى على حمل أربعمائة امرأة دارفورية نقلتهم الطائرات العسكرية إلى الخرطوم ليضعن فيها حملهن(!)

عندما ذهبنا إلى دارفور سألت الشرتاى (لقب قبلى قديم يعنى فى العرف الحالى نائب رئيس القبيلة وكان فى أصله، كما قال ابن عمر التونسى، يعنى ملكاً على مملكة صغيرة تتبع نائب السلطان فى أرض الزغاوة) إبراهيم عبد الله نائب والى شمال دارفور عن مسألة الاغتصاب، فتأفف من السؤال فلما ألححت عليه قال لى: هل تقولون إن أهل دارفور زنوا بنسائها؟ واستعاذ بالله من أن يكون ذلك قد حدث على أية صورة من الصور ونفاه نفياً قاطعاً.

فى معسكر أبو شوك للنازحين سمعت النفى نفسه من العاملات فى المعسكر وبعض المقيمات فيه ممن يشرفن على خيام التعليم (١٥٠ خيمة كل خيمة هى فصل دراسى لسن متقارب).

فى لقاء على الغداء بدار الوالى لقيت رئيس المحكمة الجنائية العامة (محكمة جنايات شمال دارفور)، الأستاذ صلاح الدين سر الختم على، وبحكم الصلة المهنية سألته عن جرائم الاغتصاب فقال لى إنه لم يبلغ إلا عن جريمتين فقط وقعتا منذ بدء الأحداث فى يونيو ٢٠٠٣ حتى الآن. الأولى، ارتكبها مراهقان (١٩و١٨سنة) والمجنى عليها فتاة سنها نحو ١٤ سنة وقد قدم الفتيان للمحاكمة وطبق القانون عليهما، ولم يكن لديه معلومات تفصيلية عن هذه الواقعة لأنها لم تكن فى نطاق اختصاص محكمته. والثانية، هى القضية رقم ٢٣٤٦ لسنة ٢٠٠٤ وأحداثها ضبطت فى ٨/٩/ ٢٠٠٤ فى القسم الأوسط من مدينة الفاشر، والمتهمون فيها ثلاث نسوة وأربعة رجال اعترفوا أمام القاضى نفسه بأنهم استئجروا من قبل إحدى الحركتين المسلحتين لتصوير فيلم جنسى يبدو الرجال فيه مرتدين زياً عسكرياً وكأنهم يغتصبون النساء لكى يسرب الفيلم إلى خارج السودان لتأييد المزاعم القائلة إن القوات النظامية الحكومية تمارس اغتصاباً جماعياً، ودفع المحرضون لكل واحد من الجناة السبعة نصف مليون دينار سودانى (= ٢٠٠ دولار أمريكى!) وقد جرت هذه الواقعة فى مدينة مَلّيط التى تقع على بعد ٤٥ كم شمال مدينة الفاشر. وقد كتب لى القاضى صلاح الدين سر الختم بيانات الدعوى وأسماء المتهمين فيها وخلاصة اعترافاتهم فيها بخط يده واحتفظت بها لدى ودونت منها ما ذكرته آنفاً.

تهاوت بذلك قصة الاغتصاب. وإن بقى فى النفس شىء يتعلق بما قاله الرجلان الوحيدان اللذان تحدثا عنه من خجل النساء من ذكر مثل تلك الوقائع. فلما لقيت الأستاذ دفع الله الحاج يوسف، الذى تفضل فزار وفد اتحاد العلماء فى مكان إقامته بفندق هيلتون سألته. وهو القاضى العادل. عن قضية الاغتصاب فأخبرنى أنه بصفته رئيس لجنة تقصى الحقائق التى شكلتها الحكومة بمقتضى قانون لجان التحقيق لسنة ١٩٥٤ حاول الوقوف على حقيقة هذه التهمة فانتدب لذلك لجنة نسائية ترأسها قاضية فى المحكمة العليا، وتضم طبيبة وضابطة شرطة ومستشارة اجتماعية، وزارت هذه اللجنة ولايات دارفور الثلاث وجميع معسكرات النازحين واللاجئين فى جميع الأنحاء، واستمعت إلى مندوبى لجان الإغاثة دون حضور مندوب للحكومة، فلم تجد اللجنة أى قرينة. فضلاً عن دليل. على وقوع أى حالة اغتصاب فردى أو جماعى، وقد عرضت اللجنة على مندوبى المنظمات الإغاثية ومن سألتهم من النساء أن يدلوا بشهاداتهم مقرونة باليمين، فلم يقْدِم على ذلك أحد منهم.

فى الليلة نفسها التى حدثنا فيها رئيس القضاء الأسبق دفع الله الحاج يوسف، بهذا الحديث سألت أحد السياسيين السودانيين الحكماء عن مسألة حمل ٤٠٠ امرأة ونقلهن إلى الخرطوم لوضع أطفالهن، فقال لى: إن الأحداث كلها بدأت فى فبراير ٢٠٠٤ بعد نجاح الحكومة فى السيطرة على جميع مدن ولايات دارفور فى نهاية يناير. فهل حملت جميع هؤلاء النسوة فى وقت واحد، وكلهن جاء حملهن مكتملاً بعد أدنى مدة الحمل (٦ أشهر)؟! وأردف قائلاً: فى مصر عندكم مثل يقول «إن كان المتكلم مجنوناً ألا يكون المستمع عاقلاً»؟! قلت له: صدقت، هذه فاتتنى!

الجرائم الثلاث المنسوبة إلى المقاتلين الموالين لحكومة السودان هى فى واقع الأمر افتراءات محضة، لا يقوم على واحدة منها دليل، وقد جاء فى تقرير بعثة منظمة المؤتمر الإسلامى التى شكلها الأمين العام للمنظمة بناء على طلب السيد/ كوفى أنان الأمين العام للأمم المتحدة ما نصه: «ولم تجد البعثة أى دليل على وجود أسوأ وضع إنسانى فى العالم، أو أى وجه للمقارنة مهما كان مع الإبادة والتطهير العرقى».

وقال وفد الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين فى بيانه الصادر بعد زيارته لدارفور «... نشرت أخبار عن التطهير العرقى، والإبادة الجماعية، والاغتصاب الجماعى تبين الوفد أنها عارية عن الصحة».

ومع ذلك فإن إعلامنا العربى لا يزال يردد ما تقوله وسائل الإعلام الأجنبية، وتردده الدول الطامعة فى ثروات السودان الهائلة التى يسوؤها أن تقوم فيه حكومة مركزية قوية أو يتماسك نسيجه الاجتماعى بحيث يقوى على مقاومة الضغوط أو رد الاعتداءات.

هـل دارفـور لـهـا قـيـمـة ثـقـافـيـة؟

عن طريق دارفور دخل الإسلام معظم بلدان غرب إفريقيا، ولم تزل دارفور منذ عمَّها الإسلام تعرف بدارفور القرآن لكثرة ما فيها من حفاظ القرآن الكريم وقرائه، وفى دارفور أكثر من ٢٨٠٠ خلوة لتعليم القرآن (الخلوة = الكتّاب)، واللغة العربية هى اللغة الأصلية فى دارفور لأبنائها كافة، وقد لاحظ بعض من زاروها أن أبناء القبائل الإفريقية يحرصون على البراعة فى تعلم العربية والكتابة بها تقديراً منهم لصلتها بالقرآن الكريم والسنة النبوية. وقد قال لنا أحد أبناء دارفور الذين قابلناهم فى الخرطوم إن جميع مساجد العاصمة السودانية فيها إمام أو مؤذن أو خادم من أهل دارفور، فهؤلاء هم الذين يحافظون على الثقافة العربية القرآنية ليس فى السودان فحسب بل فى إفريقيا جنوب الصحراء كلها.

والوشائج الثقافية بين مصر ودارفور بالغة القوة، فقد كان فى الأزهر رواق خاص لأبناء دارفور، وقد حدثنا الدكتور على

حسن تاج الدين مستشار الرئيس السودانى للشئون الإفريقية (وهو من قبيلة المساليت الدارفورية) بأنه التحق بهذا الرواق سنة ١٩٥٣م. وكان رقم بطاقته فيه ٨٣٢، ومنذ أيام السلطنة الإسلامية فى دارفور كانت هناك رحلة سنوية من دارفور إلى الحرمين الشريفين (مكة والمدينة) تحمل فيها صرة من النقود، ومحمل يسهم فى كسوة الكعبة المشرفة حيث كان ريش النعام وسن الفيل والصمغ، وغيرها من خيرات دارفور، تحمل إلى مصر كل عام فتباع ويكمل بثمنها المال المحمول إلى الحرمين، ويخرج وفد دارفور مع الركب المصرى عبر البحر الأحمر إلى الحج. ولآخر سلاطين الفور السلطان على دينار أوقاف بأرض الحرمين معروفة إلى الآن أشهرها (أبيار على) عند ذى الحليفة على طريق الخارج من المدينة إلى مكة، وهى ميقات أهل المدينة الذى يحرمون منه بالحج والعمرة.

هذا العمق الثقافى الإسلامى. العربى بدارفور يضيف إلى مطامع القوى الدولية الطامعة فيها مطمعاً خاصاً بحصار القلب الإسلامى بتمزيق أوصال أطرافه القريبة بعد أن عزلوه عزلة شبه تامة عن أطرافه البعيدة.

دارفــور ومــصــر:

العلاقة بين مصر ودارفور قديمة جداً، فقد زار القائد الفرعونى (حركوف) دارفور فى رحلة له، وذكر أماكن رآها فى جبل الميدوب وهو إحدى مناطق دارفور المعروفة حتى الآن.

ويربط مصر بدارفور «درب الأربعين» الذى يصل بين دارفور وأسيوط، وهو طريق مستعمل حتى الآن، وقد وصف معالمه ومواضع النزول فيه، وآبار المياه بها الرحالة محمد بن عمر التونسى وصفاً جميلاً (تشحيذ الأذهان، ص ٤١ وما يليها). ولما أراد علماء الحملة الفرنسية وصف قوافل التجارة البرية التى ترد إلى مصر جعلوا أهمها قافلة دارفور التى تصل إلى أسيوط عن طريق درب الأربعين حاملة سن الفيل والتمر هندى وريش النعام والصمغ وغيرها، وكانت هذه القافلة مكونة من نحو عشرة آلاف من الإبل وتصل إلى أسيوط على دفعتين، والقوافل التى كانت تعبر درب الأربعين هى التى أنعشت اقتصاد أسيوط وصنعت منها العاصمة الاقتصادية للصعيد.

وبين مصر ودارفور تاريخ سياسى قديم يبدأ منذ عهد محمد على (سنة ١٨٢١) ويستمر إلى استقلال السودان سنة ١٩٥٦.

ويفخر العلماء الأزهريون من أهل دارفور بصلاتهم العلمية بمصر وأزهرها، بل لقد لقيت من يفخر بأن آباءه تخرج فى رواق دارفور بالأزهر الشريف. لذلك كله أقول إن الصديق الدكتور يونان لبيب رزق كان يعبر عن شعور المصريين والسودانيين معاً حين كتب يقول إن «على مصر مسئولية تاريخية تجاه ما يحدث فى هذا الإقليم السودانى، وهى أولى من جميع الأطراف الدولية والإفريقية فى تحمل مسئوليتها عن الأزمة الدارفورية وإصلاح ما أفسدته الحكومات السودانية المتعاقبة» (الأهرام: ٢٠٠٤/٨/٧).

وحديثه عن إفساد الحكومات السودانية المتعاقبة يقودنى إلى ذكر ما قاله السيد/ على عثمان طه النائب الأول للرئيس عمر البشير لوفد اتحاد العلماء، قال: «إن لدينا إخفاقاً نتحمل مسئوليته ويجب استدراكه، ويجب بذل جهد فى الحوار السياسى والعمل الاجتماعى لرأب الصدع وتجديد الثقة بين الناس بعضهم وبعض وبينهم وبين الحكومة، ويجب العمل على تحرير النفوس من الضغائن التى ولدها النزاع المسلح وما قبله من نزاعات المرعى والماء، ونحن نعمل على مضاعفة وتيرة التنمية والخدمات وعلى إعادة الحياة إلى طبيعتها من خلال مشروع العودة الطوعية للنازحين واللاجئين الذى يتضمن تعويض المضرورين، والحكومة مسئولة عن جبر الضرر لمن ثبت أنه تضرر أو تعرض لأذى جنائى» وأضاف الوفد إنها مسئولة أيضاً عن معاقبة من ثبت ارتكابه جريمة مهما يكن وضعه القبلى أو الوظيفى، وذكر ذلك صراحة فى بيانه عن زيارته لدارفور.

وأنا أتطلع إلى التزام الحكومة السودانية بهذه التعهدات التى قطعها أمامنا على نفسه السيد/ على عثمان طه، وإلى الاستجابة للمطالب التنموية العادلة لأهل دارفور، بل لأهل سائر المناطق السودانية، فإن تحقيق التنمية المطلوبة هو العاصم من تكرار ما حدث فى دارفور فى مناطق أخرى من السودان الشقيق مرشحة لمثل أزمة دارفور ترشيحاً شبه مؤكد، وقديما قيل:

أرى تحت الرماد وميض نار
ويوشك أن يكون لها ضرام
لئن لم يطفها عقلاء قوم
يكون وقودها جثث وهام!!

والحكومة السودانية وحدها لا تملك الموارد الضرورية لحل المشكلة التنموية فى جميع أنحاء السودان، لذلك لابد من التعاون العربى والإسلامى، وعلى رأسه التعاون المصرى، فإن ما يستهدف السودان يستهدف مصر: معه وقبله؛ والله أعلم. ■

كتاب الزاوية



حيــــاتى

عـــلى مبـــارك

على مبارك أحد أركان نهضة مصر العلمية فى العصر الحديث من خلال أعماله وإنجازاته التى لازالت حتى الآن شاهدة على مدى عبقرية هذا العالم والمهندس والمفكر المصرى.

ولد على مبارك فى قرية برنبال بالدقهلية عام ١٢٣٩ هجرية الموافق ١٨٢٢ ميلادية ودرس بمدرسة المهندسخانة وأرسله محمد على والى مصر عام ١٨٤٤ إلى فرنسا للدراسة، وعندما عاد أنعم عليه برتبة يوزباشى وألحقه بالجيش المصرى ثم أوعز إليه الخديو عباس باشا بتنظيم المدارس فى مصر وكان فى أثناء ذلك يؤلف الكتب الدراسية. وقد رافق الحملة العسكرية المصرية التى حاربت روسيا فى عهد سعيد باشا عام ١٨٥٣ وعندما عاد أصبح معاونًا فى وزارة الجهادية ثم عينه الخديو إسماعيل فى نظارة القناطر الخيرية وأوكلت إليه مهام إدارة السكك الحديدية وديوان المدارس والأشغال العامة ونظارة الأوقاف. وسعى على مبارك إلى إنشاء دار الكتب المصرية ومدرسة دار العلوم ونظم شوارع القاهرة وميادينها وبنى جسر قصر النيل، ولما انتهت الثورة العرابية باحتلال مصر عام ١٨٨٢ ركز اهتمامه على الرى وإقامة الجسور وحفر القنوات وتوفى عام ١٨٩٢. وله مؤلفات عديدة منها الخطط التوفيقية وعلم الدين وغيرها والكتاب الذى ننشر مقتطفات منه هو «حياتى» وقد أعادت مكتبة الآداب بالقاهرة نشره عام ١٩٨٩.

بوش مقابل كيرى



■■ وافق مجلس النواب الأمريكى فى السادس من مايو الماضى على قرار يجيز شن هجوم «استباقى» على إيران. وكانت نسبة الأصوات ٣٧٦ إلى٣. وكتب أحد المعلقين قائلاً إن الجمهوريين والديمقراطيين الذين لم تردعهم الكارثة المتصاعدة فى العراق «تعاونوا من جديد لتأكيد مسئوليات النفوذ الأمريكى».

الواقع أن للتعاون عبر الحاجز السياسى الوهمى الأمريكى تاريخًا طويلاً. فقد ذُبح الأمريكيون الأصليون، وضُيعت الفيليبين سدى، وأُخضعت كوبا وجزء كبير من أمريكا اللاتينية بدعم مشترك من الحزبين. وخوضًا فى الدماء، نسجت السلالة الجديدة من المؤرخين الشعبيين، أى الصحفيين الذين يعملون فى خدمة أصحاب الصحف الأثرياء، الأساطير البطولية الخاصة بطائفة فائقة تسمى النزعة الأمريكية صَوَّرها الإعلان والعلاقات العامة فى القرن العشرين على أنها أيديولوجيا تشمل النزعتين المحافظة والليبرالية.

لقد كان من شن معظم حروب أمريكا فى العصر الحديث رؤساء ديمقراطيين ليبراليين: ترومان فى كوريا، وكنيدى وجونسون فى فيتنام، وكارتر فى أفغانستان. وقد اخترع الليبراليون التابعون لكنيدى «فجوة الصواريخ» لتكون أساسًا منطقيًا لاستمرار الحرب الباردة. وفى عام ١٩٦٤ أجاز كونجرس يسيطر عليه الديمقراطيون للرئيس جونسون مهاجمة فيتنام، تلك الدولة من الفلاحين التى لا حول لها ولا قوة ولا تشكل أى تهديد للولايات المتحدة. وكما هو الحال بالنسبة لأسلحة الدمار الشامل التى لا وجود لها فى العراق، كان المبرر «حادثة» لا وجود لها، حيث قيل إن قاربى دورية من فيتنام الشمالية هاجما سفينة حربية أمريكية. وأعقب ذلك إزهاق ثلاثة ملايين روح وتدمير أرض كانت فى يوم من الأيام تتمتع بالوفرة والنماء.

عن مجلة: نيوستيسمان

ترجمة: أحمد محمود

.. القضـــــــية الزائفـــــــة!

جـــــون بيلجـــر

وخلال الستين عامًا الماضية لم يصوت الكونجرس سوى مرة واحدة لتقييد «حق» الرئيس فى إرهاب الدول الأخرى. وفى عام ١٩٨٤ ألغى رونالد ريجان هذا الخروج عن القاعدة، وهو تعديل كلارك لعام ١٩٧٥ ويعد إحدى ثمار الحركة المناهضة لحرب فيتنام. وأثناء الهجمات التى شنها ريجان على أمريكا الوسطى فى الثمانينيات، كانت الأصوات الليبرالية مثل توم ويكر من صحيفة «نيويورك تايمز»، وعميد «الحمائم»، تناقش بجدية ما إذا كانت نيكاراجوا المعدمة متناهية الصغر تهدد الولايات المتحدة أم لا. والآن يحل الإرهاب محل الخطر الشيوعى، وهذه قضية زائفة أخرى تمضى قدمًا.

ومع أنه لدى القليل من الناخبين أصحاب العقلية الليبرالية أوهام بشأن جون كيرى، فإن رغبتهم الشديدة فى التخلص من حكومة بوش «المارقة» تستنفد كل طاقتهم وانتباههم. وتقول صحيفة «الجارديان» التى تمثلهم فى بريطانيا إن انتخابات الرئاسة المقبلة «استثنائية». وتضيف الصحيفة أن «عيوب مستر كيرى ونقاط ضعفه واضحة، ولكنها تتضاءل بجوار أجندة المحافظين الجدد وفواجع الحروب التى يشنها مستر بوش. فهذه انتخابات سوف يتنفس فيها العالم أجمع الصعداء إذا هُزم الرئيس الحالى».

حقًا، فقد يتنفس العالم أجمع الصعداء؛ ذلك أن نظام بوش خطير ومكروه عالميًا فى آن واحد. ولكن ليس هذا هو المهم. فما أكثر ما ناقشنا نزعة الشر الأهون والأقل شأنًا على جانبى الأطلنطى، حتى أن الوقت قد حان كى نتوقف عن الإشارة إلى ما هو واضح ونبحث بطريقة نقدية النظام الذى يفرز آل بوش وصورهم الديمقراطية الباهتة. والمسألة الحقيقية واضحة وجلية لمن يتساءلون بيننا عما إن كنا سنبلغ سنوات النضج دون أن يفجرنا أمراء حرب النزعة الأمريكية، جمهوريين وديمقراطيين، ومحافظين وليبراليين، إلى أشلاء أم لا، وهى كذلك للملايين فى أنحاء العالم ممن يرفضون التأثير الأمريكى الضار فى الحياة السياسية. فهى استمرار لمشروع بدأ منذ أكثر من ٥٠٠ سنة.





لقد استعيض عن امتيازات «الاكتشاف والفتح» التى منحت لكريستوفر كولومبس فى عام ١٤٩٢، فى عالم كان البابا فيه «يرى أن أملاكه توزع حسب مشيئته»، بقرصنة أخرى تحولت إلى إرادة النزعة الأمريكية الإلهية يستديمها التقدم التكنولوجى، وخاصة فى مجال الإعلام. وكتب إدوارد سعيد فى «الثقافة والإمبريالية»: «قد يكون خطر الإلكترونيات الجديدة على الاستقلال فى أواخر القرن العشرين أكبر مما كانت عليه الكولونيالية نفسها. وقد بدأنا فى معرفة أن نقض الكولونيالية لم يكن قضاءً على العلاقات الإمبريالية، بل مجرد توسيع الشبكة الجيوبوليتكية التى كان يجرى نسجها منذ عصر النهضة. فالإعلام الجديد لديه القدرة على أن يخترق أية ثقافة «متلقية» اختراقاً عميقاً يزيد على اختراق تجليات التكنولوجيا الغربية السابقة لها».

كل رئيس فى العصر الحديث هو فى الغالب من صنع الإعلام. وهكذا فإن ريجان القاتل لا يزال مبرأً من الذنوب. ولم تختلف قناة «فوكس» التى يمتلكها مردوخ عن «بى بى سى» ما بعد هتون إلا فى أشكال التزلف والتملق. وينظر الليبراليون إلى كلينتون نظرة تتسم بالحنين للماضى باعتبار أن به عيوباً ولكنه مستنير؛ إلا أن السنوات التى أمضاها كلينتون فى الرئاسة كانت أكثر عنفاً بكثير من سنوات بوش وكان هدفهما واحداً وهو «توحيد البلاد فى مجتمع السوق الحرة الكونية»، الذى تقتضى شروطه كما أشارت صحيفة «نيويورك تايمز» «مشاركة الولايات المتحدة فى سبر غور الشئون الداخلية للدولة وتحريكها بشكل أكثر عمقاً من أى وقت مضى». ولم تكن «هيمنة الطيف الكامل» الخاصة بالبنتاجون من صنع «المحافظين الجدد» بل هى من خلق الليبرالى كلينتون الذى وافق على ما كانت وقتها أكبر نفقات حرب فى التاريخ. وطبقاً لما جاء فى صحيفة «الجارديان»، فإن جون كيرى يرسل إلينا «نداءات تقدمية تبعث على النشاط والحركة». والواقع أن الوقت قد حان لوقف هذا الهراء.



التفوق هو جوهر النزعة الأمريكية؛ وما يحدث هو أن الساتر يتغير أو ينسدل.

ففى عام ١٩٧٦ أعلن الديمقراطى جيمى كارتر عن «سياسة خارجية تحترم حقوق الإنسان». وكان يؤيد فى السر الإبادة الجماعية التى تمارسها إندونيسيا فى تيمور الشرقية وأنشأ تنظيم المجاهدين فى أفغانستان ليكون تنظيماً إرهابياً يستهدف الإطاحة بالاتحاد السوفيتى، ومنه خرجت طالبان والقاعدة. وكان الليبرالى كارتر، وليس ريجان، هو الذى وضع الأساس لبوش. وفى العام المنصرم أجريت مقابلة مع واضعى السياسة الخارجية الأساسيين فى عهد كارتر، وهما زبجنيو بريجنسكى مستشاره للأمن القومى، وجيمس شليسنجر وزير دفاعه. ولم يحظ مشروع للإمبريالية الجديدة بمثل ما حظى به مشروع بريجنسكى من احترام. ويصف كتابه الصادر فى عام ١٩٩٧ بعنوان «رقعة الشطرنج الكبيرة: السيادة الأمريكية وضروراتها الجيواستراتيجية» واستثمرته عصابة بوش بموجب السلطة التوراتية، الأولويات الأمريكية على انها الإخضاع الاقتصادى للاتحاد السوفيتى والسيطرة على وسط آسيا والشرق الأوسط. ويقول تحليله إن «الحروب المحلية» ليست سوى بداية الصراع النهائى الذى يؤدى حتماً إلى هيمنة الولايات المتحدة على العالم. كما يقول: «ولكى نعبر عن الأمر باللغة التى تعود بنا إلى عصر الإمبراطوريات القديمة الأكثر وحشية، لابد أن تكون ضرورات الجيوإستراتيجيا الإمبريالية الكبيرة هى منع التآمر والحفاظ على الأمن والاستقلال بين الوكلاء من أجل الحفاظ على مرونة الدول التابعة وحمايتها، ومنع البرابرة من أن يلتقوا معاً».

ربما كان من السهل فى يوم من الأيام رفض هذا الكلام باعتباره رسالة من اليمين. غير أن بريجنسكى هو التيار العام. ومن بين تلاميذه المخلصين مادلين أولبرايت وزيرة خارجية كلينتون التى وصفت موت نصف مليون طفل فى العراق فى ظل الحظر المفروض على العراق بقيادة الولايات المتحدة بأنه «ثمن يستحق الدفع»، وجون نجروبونتى العقل المدبر للإرهاب الأمريكى فى أمريكا الوسطى فى عهد ريجان و«السفير» الحالى فى بغداد. وفى الوقت الراهن يعتبر جيمس روبن، الذى كان يدافع بحماس عن أولبرايت فى وزارة الخارجية الأمريكية، مستشار الأمن القومى لجون كيرى. وهو صهيونى كذلك؛ أى أن إسرائيل ودورها كدولة إرهابية أمر خارج المناقشة.



ولنلق نظرة على سائر العالم. بينما بات العراق يزحم الصفحات الأولى، لم تعد التحركات الأمريكية فى اتجاه أفريقيا تلفت الانتباه بشكل كبير. وهنا نجد أنه لا اختلاف بين سياستى كلينتون وبوش. ذلك أنه فى التسعينيات استهل قانون «النمو الأفريقى والفرصة» تزاحماً جديداً على أفريقيا. ويتساءل المقاتلون الإنسانيون عن سبب عدم مهاجمة بوش وبلير السودان و«تحرير» دارفور، أو التدخل فى زمبابوى أو الكونغو. والإجابة هى أنه لا اهتمام لهما بالمحن وحقوق الإنسان وأنهما مشغولان بتأمين نفس الثروات التى أدت إلى التدافع الأوروبى فى أواخر القرن التاسع عشر باستعمال وسائل القهر والرشوة التقليدية المعروفة بتعددية الأطراف. فالكونغو به ٥٠ بالمائة من احتياطى الكوبالت العالمى، كما أن ٩٨ بالمائة من احتياطى العالم من الكروم موجود فى زمبابوى وجنوب أفريقيا. والأهم من ذلك أن هناك نفطاً وغازاً طبيعياً فى غرب أفريقيا، من نيجيريا حتى أنجولا، وفى حوض الهجليج فى السودان. وفى عهد كلينتون وضعت مبادرة حل الأزمات الأفريقية سراً. وتسمح هذه المبادرة للولايات المتحدة بوضع «برامج للمساعدات العسكرية» فى السنغال وأوغندا ومالاوى وغانا وبنين والجزائر والنيجر ومالى وتشاد. ويدير هذه المبادرة الكولونيل نستور بينو مارينا، وهو كوبى يعيش فى المنفى شارك فى إنزال خليج الخنازير عام ١٩٦١، وأصبح ضابط قوات خاصة فى فيتنام ولاوس، وساعد فى عهد ريجان فى قيادة غزو كونترا فى نيكاراجوا. إن الأصول لا تتغير أبداً.

ولا يناقش أى مما سبق فى أية حملة انتخابية يكافح فيها جون كيرى لإخراج بوش من الرئاسة. فتعددية الأطراف أو «النزعة الدولية العضلية» التى يقدمها كيرى فى مقابل أحادية الطرف الخاصة ببوش لا يرى فيها أملاً إلا ساذج شديد السذاجة؛ فالواقع أنها تنذر بأخطار أشد وأقوى. ويكتب المؤرخ جابرييل كولكو أنه بعد أن قدم بوش للنخبة الأمريكية أعظم كوارثها منذ فيتنام، «فالأرجح أنه سوف يستمر فى تدمير نظام التحالف الضرورى جداً للنفوذ الأمريكى. ولسنا مضطرين لتصديق أنه كلما ساءت الأمور كان ذلك أفضل، ولكن لابد أن ندرس بصراحة نتائج السياسة الخارجية الخاصة بتجديد فترة رئاسة بوش. ذلك أن إعادة انتخاب بوش على ما هى من خطورة قد تكون أهون الشرين». ومع عودة الناتو فى ظل رئاسة كيرى، وإبداء الفرنسيين والألمان للطاعة، سوف تمضى الطموحات الأمريكية بدون العوائق النابليونية الخاصة بعصابة بوش. والقليل من هذا هو ما يظهر فى الصحف الأمريكية الجديرة بالقراءة. فلم يقطع اعتذار «واشنطن بوست» شديد الأسى إلى قرائها فى ١٤ أغسطس، لعدم «إعطاء الاهتمام الكافى للأصوات التى تثير الشكوك بشأن الحرب (ضد العراق)». سكوتها بشأن الخطر الذى تمثله الدولة الأمريكية للعالم. لقد ارتفعت نسبة تأييد بوش فى استطلاعات الرأى إلى

كل رئيس فى العصر الحديث
هو فى الغالب من صنع الإعلام.
وهكذا فإن ريجان القاتل
لا يزال مبرأً من الذنوب





أكثر من ٥٠ بالمائة، وهو مستوى فى هذه المرحلة من الحملة الانتخابية لم يخسر معه قط الرئيس الذى فى السلطة. وها هى فضائل «كلامه الصريح» التى روجت لها منذ أربع سنوات الآلة الإعلامية بكاملها . فوكس وواشنطن بوست على السواء . تحظى بالتصديق من جديد.

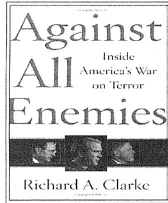
وكما حدث فى أعقاب هجمات الحادى عشر من سبتمبر، يُحرَم الأمريكيون من ذلك النزر اليسير من فهم ما أسماه نورمان ميلر «مناخ ما قبل الفاشية». ولا نتيجة لمخاوف الباقين منا. وهو ما كان لليبراليين المحترفين على جانبى الأطلنطى دور كبير فيه. وتدل على ذلك الحملة التى شُنت ضد فيلم مايكل مور «فهرنهايت ٩/١١». فالفيلم ليس متشدداً ولا يقدم ادعاءات غريبة؛ بل إن ما يفعله هو الاندفاع متجاوزاً هؤلاء الذين يحرسون حدود المعارضة «المحترمة». وهذا هو سبب استحسان الجمهور وتصفيقه له. إذ إنه يحطم قوانين الصحافة التآمرية التى يفضحها. كما يسمح للناس بالبدء فى تفكيك الدعاية الليلية التى تتخذ شكل الأخبار ويرد فيها أن «حكومة عراقية ذات سيادة تسعى لتحقيق الديمقراطية» وهؤلاء الذين يقاتلون فى النجف والفلوجة والبصرة دائماً «متشددون» أو «متمردون» أو أعضاء فى «جيش خاص»، وليسوا بحال من الأحوال وطنيين يدافعون عن وطنهم، وربما أجلت مقاومتهم شن هجمات على إيران أو سوريا أو كوريا الشمالية.

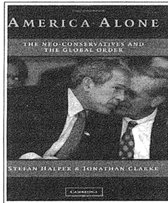
إن القضية الحقيقية ليست بوش ولا كيرى، بل النظام الذى يمثلانه؛ إنها انهيار الديمقراطية الحقة وظهور دولة «الأمن القومى» الأمريكية فى بريطانيا وغيرها من الدول التى تدعى أنها ديمقراطية، وفيها يلقى بالناس فى السجون ويلقى بالمفتاح بعيداً، كما يرتكب قادتها جرائم عقوبتها الإعدام فى أماكن بعيدة، دون أن يردعهم رادع. وبعد ذلك يدعون السفاح الذى نصبوه ليلقى كلمة فى مؤتمر حزب العمال، مثلما فعل بلير قاسى القلب.

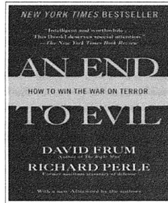
إن القضية الحقيقية هى إخضاع الاقتصادات القومية لنظام يقسم الإنسانية تقسيماً لم يحدث من قبل ويؤيد وفاة ٢٤ ألف جائع كل يوم. كما أن القضية الحقيقية هى القضاء على اللغة السياسية الخاصة بالقضية ذاتها، وربما على احترامنا لأنفسنا فى النهاية. ■

فى عام الانتخابات
مائة كتاب حول الرئيس

وليد محمود عبد الناصر







■■ فى عام الانتخابات الرئاسية. وأيضاً التشريعية والمحلية. الأمريكية صدر عدد من الكتب يكاد يقترب من المائة عن الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن . الرئيس الثانى والأربعين للولايات المتحدة منذ استقلالها . وعن سياسته وفريق إدارته خلال ولايته الرئاسية. ومن هذه الكتب ما صدر مع بوش، ولكن غالبية هذه الكتب صدرت ضده. واللافت للنظر أن هذه الكتب. سواء المؤيدة أو المعارضة للرئيس الأمريكى أو التى وصفت نفسها بالموضوعية أو الحياد . ركزت بجانب الرئيس. بل أحياناً بدرجة أكبر منه. على المجموعة التى جرى على تسميتها بـ «المحافظين الجدد» - NEO CONSERVATIVES وهى المحيطة بالرئيس والمتنفذة فى دوائر الحكم فى عهده، وإن كانت بالتأكيد ليست الوحيدة فى هذا الوضع.

وسنتناول هنا عدداً محدوداً من هذه الكتب نظراً لعدم إمكانية التعرض لها جميعاً، كما أننا سنتعرض للكتب التى نتناولها بشكل مجمع يركز على ملاحظات تتصل بالقضايا المطروحة دون تجاهل لشخصية الكاتب وخلفيته أو التقليل من قيمتها وتأثيرها على مضمون الكتاب. إلا أننا نزعم أن هذه النظرة المجمعة تساهم فى التعرف بصورة أفضل على الأجواء التى توجدها هذه الكتب فى عام الانتخابات الرئاسية، وإن كنا نحتفظ لأنفسنا بإبداء ملاحظة ختامية موجزة عن طبيعة هذا التأثير فى ختام هذا المقال الذى يجمع بين العرض والتحليل والنقد.

ونبدأ بسرد الكتب التى نتناولها وهى:

كتاب للمحافظين الجدد مؤيد لسياسات بوش فى مجملها دون خلوه من انتقادات ذات طابع تكتيكى لها وهو:

Richard Perle & David Frum, An End To Evil : How To Win The War On Terror.

ثم كتاب مؤيد لسياسات الرئيس بوش من منطلق محافظ تقليدى ذى نزعة دينية وهو: Peter & Rochelle Schweizer. The Bushes : Portrait Of a Dynasty. والكتاب الثالث نستطيع وصفه بالسعى للتحليل الموضوعى للشخصيات الأساسية فى إدارة الرئيس بوش، وتحديداً نائب الرئيس «تشينى»، مستشارة الأمن القومى «رايس»، وزير الخارجية «باول» ونائبه «ارميتاج»، وزير الدفاع «رامسفيلد» ونائبه «وولفوتيز» ولخلفيتها الفكرية وتطور دورها السياسى وصراعاتها وهو:

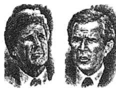
James Man , Rise Of The Vulcans . USA : Penguin Group, ٢٠٠٤.

أما الكتاب الرابع فهو هجوم على سياسات بوش والمحافظين الجدد من دوائر اليمين التقليدى داخل الحزب الجمهورى، وأعنى بها بعض التيارات الموالية فكرياً للرئيس الراحل ريجان مثل أحد مؤلفى الكتاب وهو ستيفن هالبر الذى شغل منصب نائب مساعد وزير الخارجية فى عهد ريجان، وعنوان الكتاب هو:

Stefan Halper & Jonathan Clarke . America Alone. USA & UK: Cambridge University Press, ٢٠٠٤ .

وكتاب خامس يهاجم أيضاً سياسات الرئيس الأمريكى والمحافظين الجدد، ولكن من منطلق شعبوى محافظ، ومؤلفه هو المرشح السابق للحصول على ترشيح

بـــــوش وكيـــــرى



الحزب الجمهورى لانتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٩٢ Pat Bucchanan واسم الكتاب: Patrick J. Bucchanan . When The Right Went Wrong. Thomas Duane Brothers / St. Martin Press,٢٠٠٤ .

أما الكتاب السادس فهو أحد الكتب التى هاجمت الرئيس بوش من شخصيات شغلت مناصب رفيعة فى إدارته ثم خرجت منها وهو كتاب Richard Clarke المسئول عن مكافحة الإرهاب فى عهد عدة إدارات أمريكية متعاقبة وعنوانه:

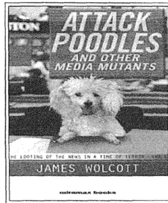
Richard A. Clarke, Against All Enemies .

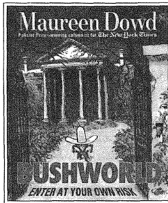
وأخيراً، هناك ثلاثة كتب قادمة مما يمكن تسميته طبقاً لتعريف المشهد السياسى الأمريكى بـ «اليسار». تجاوزاً عن التعريف العام على المستوى العالمى لهذا المفهوم. واليسار هنا يعنى به التيار الليبرالى الديمقراطى وهى كتب لكاتبين صحفيين وناقد أدبى وهى:

Maureen Dowd , Bushworld . G.P Putnam,s Sons,2004.

James Wolcott , Attack Poodles. Miramax Books,2004.

Graydon Carter , What We Have Lost. Farrar, Straus & Giroux,2004.





وأول ما نشير إليه هو ما نكاد نلحظه فى غالبية هذه الكتب أنها تمثل رؤى لمعسكرين لا ثالث لهما، فلا مجال للمنطقة الرمادية، بل اتهام من اليمين لليسار فى حالات الدفاع عن إدارة بوش وسياستها، أو من اليسار لليمين فى بعض حالات الهجوم على الإدارة الجمهورية القادمة من الحزب الديمقراطى، أو من الفصائل الليبرالية واليسارية خارج صفوف الحزب الديمقراطى، كذلك فهناك الاتهام المتبادل بين المتشددين Hardliners والمتراخين Softliners داخل صفوف الحزب الجمهورى والدوائر المحافظة الأمريكية. وعلى الجانب الآخر هناك الاتهامات بالتباين بين الجمهوريين التقليديين المخلصين لإنجازات وروح فترتى ولاية الرئيس ريجان وبين المحافظين الجدد المتهمين بمحاولة «تأميم» الريجانية لمصلحتهم وإعادة تفسيرها بما يخدم أطروحاتهم. ونستثنى من هذه الثنائية كتاب «كلارك» الى درجة ما بالرغم من انحيازه الواضح لحقبة كلينتون على حساب حقبة بوش الإبن، وكذلك كتاب بيتر ووشيل شفايزر نسبياً، أيضاً بالرغم من إعادتهما الى إيماءاتهما إلى دور الإيمان بالمسيحية فى السياسة مقارنة بغير المؤمنين، وأخيراً كتاب «جيمس مان»، بالرغم مما حواه ضمنياً من انتقادات للمجموعة المحيطة بالرئيس الأمريكى.

أما ثانى ملاحظاتنا فتتعلق بحرب العراق وموقعها فى الهجوم على الرئيس أو الدفاع عنه. ففى مقابل النظر للنظام السابق العراقى باعتباره خطراً محدقاً على أمن الولايات المتحدة، وإعادة التأكيد على صلته بالإرهاب العالمى. بل وبهجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١. وفى مقدمته تنظيم القاعدة من خلال لقاء بين مسئولى المخابرات العراقية ومحمد عطا قائد عمليات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى العاصمة التشيكية براغ، وتأكيد تطوير ذلك النظام لأسلحة دمار شامل وتهديده لجيرانه ولإمدادات النفط وللنظم الصديقة للولايات المتحدة فى المنطقة وفى مقدمتها بالطبع إسرائيل، وذلك حسبما ورد فى كتاب «بيرل وفرام»، وأيضاً فى مقابل نظرة «بيتر ووشيل شفايزر» لحرب العراق باعتبارها تعبيراً عن قناعة دينية لدى الرئيس الأمريكى بضرورة الالتزام الأخلاقى بمساعدة المحتاجين لذلك الذين يعانون من القمع، وبالتالى مساعدة الشعب العراقى للتخلص من نظام «شرير»، فإننا نكاد نرى اتفاقاً فى بقية الكتب محل العرض هنا على عدد من العناصر: اتهام الإدارة الحالية إما صراحةً بالكذب والتضليل بتقديم معلومات غير صحيحة للرأى العام الأمريكى والكونجرس بغرض تعبئته لدعم الحرب ضد العراق، أو بتفسير بعض الوقائع بشكل يضمن لى حقيقتها ليتم استخلاص نتائج منها لا تمت لها بصلة، أو على الأقل انتقاء أمور وربطها ببعضها فى غير موضع لهذا الربط بهدف تبرير الحرب وإسباغ شرعية. ولو داخلية. عليها وأخيراً بتحوير الولاية التى منحها الكونجرس للرئيس لجعلها مسوغاً للحرب بدلاً من الغرض الأصلى منها وهو التلويح لمجلس الأمن بورقة الدعم الداخلى للإدارة بهدف حثه على اتخاذ قرار بالتفويض باستخدام القوة ضد العراق، وذلك على النحو الذى أورده عدد من أعضاء الكونجرس أنفسهم.



وتتداخل هنا عوامل عديدة لتفسير الحرب. فمن تحليل نفسى ورد فى كتاب «مورين دود» لحاجة الرئيس الأمريكى لاستكمال ما لم يفعله أبوه الرئيس بوش الأب عام ١٩٩١ لإثبات أنه الابن الأكثر نجاحاً من والده وليس العكس، إلى إلقاء التبعية على المحافظين الجدد وأجندتهم السياسية كما ورد فى كتاب «هالبر وكلارك»، وأيضاً بحسب ما ورد فى كتاب «بوكانان» الذى رأى ان العراق لم تمثل يوماً أى تهديد للولايات المتحدة أو مصالحها. وترد كل هذه الكتب على كل مبررات الحرب بالنفى. فليس فقط مجرد نقد عدم وجود دليل على وجود علاقة بين نظام البعث العلمانى فى العراق و«القاعدة»، ذلك التنظيم السلفى المتشدد، بل إن الحرب على العراق أدت بحسب الخبير فى مكافحة الإرهاب «ريتشارد كلارك». إلى اتساع نطاق وتزايد قوة التنظيمات الإسلامية المتطرفة المعادية للولايات المتحدة والتى تتبنى الإرهاب بل وتزايد شعبيتها وبالتالى قدرتها على تجنيد آلاف الأعضاء الجدد الذين لا تعلم عنهم الأجهزة الأمنية او الاستخباراتية شيئاً، فى ضوء تصاعد لموجة العداء للولايات المتحدة، خاصة فى العالمين العربى والإسلامى. كما أن حرب العراق فتحت ميداناً جديداً أمام «الإرهابيين» للقتال ضد الأمريكيين، وكون هذا الميدان بعيداً جغرافياً عن الولايات المتحدة لم يجعلها. بحسب رأى «كلارك» وبعكس رأى «فرام وبيرل». أكثر أمناً نظراً لتزايد التحذيرات ورفع حالة الطوارئ داخل الولايات المتحدة الأمريكية بشكل منتظم بسبب الخوف من عمليات إرهابية جديدة.

بل إنه حتى مقولة تبرير الحرب على العراق من منطلق بناء نظام ديمقراطى على النسق الغربى هناك يكون نموذجاً لبقية بلدان المنطقة وينشر الديمقراطية بها وبالتالى ينتزع جذور العداء للولايات المتحدة كما يقول «فرام وبيرل» ويكون له تفوق أخلاقى كما ذكر «بيتر ووشيل شفايزر»، بل إنه أدى. بحسب رأى «هالبر وكلارك» إلى أن الولايات المتحدة صارت فى حالة حرب دائمة وأن ما نما فى العراق والمنطقة لم يكن الديمقراطية وإنما كان العداء للولايات المتحدة والكراهية لها والنظر لها كمحتل وقوة تسعى لفرض آرائها عبر الوسائل العسكرية، أو. حسب رأى «بوكنان». كثقافة غازية تسعى لفرض نفسها على الآخر وتجريده من ثقافته الأصلية.

ويتفق «مورين دود» مع كل من «جيمس وولكوت» و«جرايدان كارتر» فى إعلان المعارضة لاحتلال إدارة بوش «الكارثى» وغير المحسوب جيداً للعراق، والذى أدى إلى استعداء حلفاء وأصدقاء الولايات المتحدة عليها، وكشف انحياز إدارة بوش للدفاع عن مصالح الأغنياء وقطاع شركات النفط الأمريكية، وهو احتلال أكد أيضاً. بحسب رأى هؤلاء. عداء الإدارة لحماية البيئة، وهى كلها اتهامات منطقية عندما تأتى من يسار المشهد السياسى الأمريكى.

ويذهب دود أيضاً إلى ربط الحرب على العراق بالطبيعة «المغامرة» للأيديولوجية اليمينية السائدة للإدارة الحالية للرئيس بوش الابن، والتى تسعى لتمرير وتسويق «أجندات» مصالح خاصة. ويساوى «وولكوت» فى المسئولية بين إدارة الرئيس بوش وشبكات التليفزيون الكبرى (CNN/ FOX/ MSNBC) فى تضليل الشعب الأمريكى بشأن الحرب فى العراق ودوافعها، سواء ما يتعلق بعلاقة الحكم العراقى السابق بالإرهاب ودوره فى أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، أو بادعاء امتلاكه لأسلحة دمار شامل. ويستنكر «كارتر» غزو العراق



بـــوش

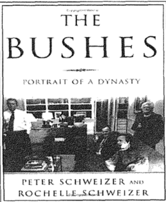


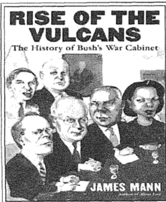
وكيـــرى

باعتباره حرب اختيار وليس حرباً مفروضة كما صورها أنصار الرئيس بوش الابن، لأن العراق لم يكن عدواً ولا تهديداً للولايات المتحدة. ويتفق «كارتر» هنا. وياللمفارقة. مع «بات بوكانان» اليمينى الشعبوى المحافظ. ولكن «دود» و«وولكوت» و«كارتر» لا يذكرون الدور الذى لعبه الموقف المؤيد للحرب فى العراق من جانب أعضاء الكونجرس بمجلسيه من الحزب الديمقراطى فى ممارسة نفس الدور الذى لعبته وسائل الإعلام، أو ربما حتى دوراً أخطر فيما يتعلق بقواعد الحزب وأنصاره.

أما ثالث الملاحظات هنا فتتصل بقضية الإرهاب والحرب الأمريكية ضده. وبما أن هذا الموضوع هو صلب طرح الرئيس بوش ونائبه تشينى فى حملتهما الانتخابية للرئاسة لعام ٢٠٠٤، فمن الطبيعى أن يكون ميداناً للنقاش الحاد، بل وتبادل الاتهامات بين أنصار الرئيس الجمهورى وخصومه، وان يكون جوهر أى دفاع عنه وعن سياساته وفترة حكمه. فبالنسبة لـ «فرام وبيرل» فإن الحرب ضد الإرهاب هى «معركة حياة أو موت» للولايات المتحدة، وأن أمام الولايات المتحدة خيارين لا ثالث لهما إما تحقيق النصر أو التعرض «للمحرقة» (الهولوكوست)، وذلك فى تشبيه لا يخلو من مغزى يبين تصوير كل من اليهود فى زمن المحرقة والأمريكيين فى حربهم ضد «الإرهاب» فى صورة مماثلة.

وفى كتابهما عن أسرة الرئيس بوش، يعتبر «بيتر وروشيل شفايزر» أن هناك علاقة لا انفصام فيها بين الحرب ضد الإرهاب من جانب إدارة الرئيس بوش وقناعات الرئيس الدينية وتربيته الأخلاقية، بل أوردوا ان بعض المقربين عائلياً من الرئيس بوش الابن اعتبروا الحرب التى أعلنها الرئيس على الإرهاب حرباً دينية لأن الإرهابيين «يسعون لقتل المسيحيين»، وأن على المسيحيين الرد بقوة أكبر وحمية أكثر على هؤلاء الإرهابيين. ويرى هؤلاء أن الرئيس يدرك أن الذين هاجموا الولايات المتحدة فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فعلوا ذلك باسم دينهم (فى إشارة للإسلام)، وبالرغم من أن بوش الابن أعلن أكثر من مرة أنه ليس فى حالة حرب ضد الإسلام، فإنه يعى تداعيات ما جرى على المستوى الدينى. ولذلك شبه كثيرون حرب بوش على الإرهاب . بمن فيهم بوش نفسه فى مرحلة ما . بأنها «حرب صليبية» وإن كان عاد ليعيد تفسير هذا التعبير بشكل أكثر ملاءمة من الناحية السياسية بحيث يتجنب تشبيه البعض لخطابه السياسى بخطاب الجماعات الإسلامية المتطرفة. وعقب أحداث سبتمبر ٢٠٠١، استخدم بوش الابن اللفظ الإنجيلى «صناع الشر» لوصف الإرهابيين. إذن ينكر المؤلفان أن تكون الحرب ضد الإرهاب هى حرب من اجل النفط أو لأسباب سياسية، وإنما هى بالنسبة لهما حرب حول معتقدات ونظم قيمية، وهى حرب على ظاهرة تمثل نتيجة وليس سبباً فى حد ذاتها. وعلى الجانب الآخر، ركز خبير مكافحة الإرهاب «ريتشارد كلارك». كما هو متوقع. فى كتابه على ما أسماه بفشل إدارة بوش فى الأخذ بجدية تحذيراته وتحذيرات آخرين فى الإدارة من خطورة تنظيم القاعدة باعتباره التهديد الرئيسى للولايات المتحدة، وبالتالى عدم فاعلية الإدارة فى تعبئة المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالى والبنتاجون فى إطار استراتيجية متكاملة لمكافحة الإرهاب. ورأى كلارك أن الطرح البديل الذى كان يجب على إدارة بوش اتباعه هو بدء حملة فكرية وثقافية عالمية من أجل مواجهة ما يمثله تنظيم القاعدة وغيره من الجماعات الإسلامية المتشددة من طرح فكرى متطرف وإبراز أن بديل «القاعدة» هو نشر الأفكار الإسلامية الصحيحة بما يظهرها قريبة من القيم الغربية، ويؤكد طرح «كلارك» أن القنابل والرصاصات والسجون لا تصلح وحدها لمواجهة خطر عقائدى وفكرى. ولكن كلارك لا يقتصر على تناول البعد الخارجى للحرب ضد الإرهاب فى انتقاده لإدارة الرئيس بوش، بل انتقل إلى الداخل حيث ركز هجومه على قرار إدارة الرئيس بوش بإنشاء وزارة للأمن الداخلى والذى اعتبره جعل الإدارة اقل قدرة على التعامل مع قضايا الأمن الداخلى وفى مقدمتها الإرهاب، بينما سبق أن رفضت نفس الإدارة إنشاء مثل هذه الوزارة قبل ذلك بأسابيع واتهمت من يطالب بذلك بعدم الوطنية. كما انتقد كلارك الحرب فى أفغانستان لأنها لم تأت بسرعة عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ويؤكد أن الأفضل كان إرسال القوات الأمريكية سريعاً لاعتقال قادة الطالبان والقاعدة. ويدعو كلارك الإدارة الأمريكية لتركيز الحرب ضد الإرهاب على إيران التى يتهمها هى. وليس نظام صدام حسين. بأنها شكلت موقع لجوء وتنقل لعناصر القاعدة ولديها برنامج تطوير لأسلحة دمار شامل.







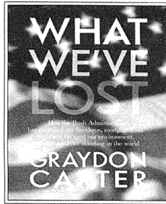
أما «مورن دود» و «جيمس وولكوت» و«جرايدون كارتر» فيرون من موقعهم الليبرالى أن إدارة الرئيس بوش استغلت كلاً من أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ والحرب على العراق لشن حملة على الحقوق المدنية والحد من الحريات داخل الولايات المتحدة مما كشف. بحسب رأيهم. عن التوجهات اليمينية التى تمثلها الإدارة والمصالح التى تعبر عنها.

وتتصل رابع الملاحظات بالعلاقة بين الرئيس بوش الابن والرئيس الراحل رونالد ريجان. ومرة أخرى نبدأ بكتاب «بيرل وفرام» اللذين يريان أن الرئيس بوش الابن هو الامتداد الطبيعى لحقبة الرئيس ريجان، وهو الذى استكمل إنجازات ريجان، خاصة على صعيد السياسة الخارجية والأمن الداخلى. فهما يريان مواقف بوش «الصلبة والشجاعة» فى الحرب ضد الإرهاب والدول الداعمة له مثل «عراق صدام حسين» استمراراً لمواقف ريجان الحاسمة فى مواجهة الاتحاد السوفيتى السابق والشيوعية الدولية. وكما أفضى الموقف المبدئى غير المهادن لريجان إلى محاصرة الخطر الشيوعى السوفيتى وإسقاطه فإن استمرار موقف الإدارة الصلب، بل واتساعه ليشمل كافة الدول المؤيدة للإرهاب. بحسب تعريف الكاتبين. هو الضمانة للنصر فى الحرب ضد الإرهاب كنهاية حتمية. وهنا يحذر الكاتبان من مظاهر تراجع أو تهاون من الإدارة فى هذه الحرب، ولكن كتابهما صدر قبل أن يعلن الرئيس الأمريكى نفسه أن الحرب ضد الإرهاب هى حرب بلا نهاية وأنه لا وجود فيها لمعنى النهاية أو لمعنى الانتصار النهائى. وننتقل الى «بيتر وروشيل شفايزر» اللذين يقارنان بين ريجان من جهة والذى مكنه إيمانه الدينى المسيحى والتزامه الأخلاقى العميق من تحقيق فهم للحرب الباردة والحرب ضد الإرهاب ليس باعتبارها حرباً حول الصواريخ أو حول الاستراتيجيات الجيوبولتيكية بقدر ما كانت حرب عقائد ومبادئ فكرية ومرجعيات أيديولوجية. وكما أطلق الرئيس ريجان على الاتحاد السوفيتى تعبير «إمبراطورية الشر» وتحدث عن حرب روحية ضد الشيوعية على الصعيد العالمى، فإن الرئيس بوش الابن أطلق على الدول التى اتهمها برعاية الإرهاب تعبير «محور الشر» وأعلن حرباً «مقدسة» ضد الإرهاب على الصعيد العالمى. وبحسب رأى المؤلفين فإن إيمان ريجان الدينى هو الذى دفعه لاتخاذ موقف أخلاقى. وليس نفعياً. تجاه صراع القوتين الأعظم كما أهله لتقديم الدعم للمنشقين داخل الاتحاد السوفيتى السابق والدول الشيوعية لتمكينهم من المقاومة وفى النهاية تحقيق النصر. ويقارن المؤلفان بين هذا الموقف وبين موقف جورج بوش الابن الذى مكنه إيمانه الدينى من اتخاذ موقف أخلاقى واضح فى الحرب ضد الإرهاب وفى العراق وممارسة «الصبر» والاستماع لكل الآراء بالرغم من تضاعف الضغوط من حوله. وبالتالى، انحاز بوش إلى جانب «الله» والخيارات الأخلاقية السليمة دون أن يأخذ كأمر مسلم به مساندة الله له بل وعى أن عليه تبنى الأسس اليهودية/ المسيحية للكتاب المقدس حتى ينصره «الله». وبناء على أرضية التحليل تلك، خلص المؤلفان إلى نفس نتيجة «فرام وبيرل». ولكن من زاوية مختلفة. وهى أن بوش الابن

امتداد لريجان. ويقترب موقف «جيمس مان» فى كتابه من هذا الموقف عندما يتحدث عن الشخصيات الستة الرئيسية حول الرئيس بوش الابن وتتبع صعودها وتربيتها الفكرية وتأهلها السياسى وخبراتها فى عهد الرئيس ريجان ثم الرئيس بوش الأب. وبالرغم من ذلك فإن «مان» يقر بأن أفكار هؤلاء مرت بمراحل تطور خاصة خلال عودتهما للمؤسسات الأكاديمية أو مراكز الأبحاث أو القطاع الخاص فى ظل فترتى حكم الرئيس الديمقراطى بيل كلينتون، دون أن يؤدى ذلك إلى تغير كافة القناعات أو تعديل كل الأفكار. ومن هنا يقف «مان» موقفاً أقرب لموقف «بيرل وفرام» و«بيتر وروشيل شفايزر» منه إلى مواقف «بوكانان» و«هالبر وكلارك» المناهضين لهذا الطرح من داخل خندق اليمين الجمهورى الأمريكى.

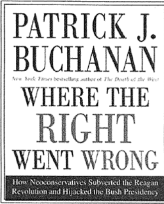


أما «بوكانان» فيبرز التباينات بين ريجان وبوش الابن، فالأول يراه حارب فقط للدفاع عن الولايات المتحدة من تهديدات على حدودها الجنوبية أى فى الفناء الخلفى فى أمريكا الوسطى سواء حرباً غير مباشرة فى نيكاراجوا ضد الساندنيستا أو فى السلفادور ضد ثوار «فارابوندو مارتى» أو مباشرة فى جرينادا عندما غزاها الجيش الأمريكى لإسقاط نظام يسارى منتخب ديمقراطياً. ولم يحارب ريجان فى أفغانستان، بل كانت حرباً بالوكالة وكانت ناجحة فى إنهاك واستنزاف الاتحاد السوفيتى حتى انتهى احتلاله لأفغانستان ثم انهار وتفكك كليةً فيما بعد. أما الرئيس بوش. فبحسب بوكانان .ذهب بجيشه بعيداً إلى العراق ليغزو ويحتل بلداً لم تشكل أى تهديد للولايات المتحدة ويسقط المئات من الأمريكيين قتلى بدون أمل حقيقى فى نصر سريع أو قريب. وعلى الصعيد الداخلى، يطرح. بوكانان . المفارقة بين ريجان الذى حقق نهضة صناعية وتجارية بعد سنوات الأزمة الاقتصادية فى السبعينيات، خاصة فى عهد الرئيس الديمقراطى جيمى كارتر، وبين تراجع الاقتصاد الأمريكى فى عهد الرئيس بوش الابن وتزايد معدلات البطالة وتراجع معدلات النشاط الاقتصادى



وذلك بعد سنوات من الفائض فى الموازنة ومن الرواج الاقتصادى وتضاعف فرص العمل المتاحة فى عهد الرئيس الديمقراطى السابق كلينتون. ولا ينسى «بوكانان» أن يدعو إلى إحياء اليمين المثالى والحقيقى الذى مثله ريجان وذلك عبر تمرد أو ثورة تضم كلا من المحافظين المبدئيين (أنصار ريجان) والشعبويين المحافظين (أنصار بوكانان) ضد السلطة الهرمية التى تحكم الحزب الجمهورى حالياً وتسيطر عليه متمثلة . بحسب رأيه . فى المحافظين الجدد، ولكنه لا يذكر كيف سيتم هذا التمرد وبواسطة من، خاصة بعدما ظهر خلال مؤتمر الحزب الجمهورى فى نيويورك فى نهاية أغسطس ومطلع سبتمبر ٢٠٠٤ من شبه توافق عام حول دعم برنامج الرئيس بوش ونائبه تشينى.

ولكن الرد الأقوى على القائلين بالامتداد بين ريجان وبوش الابن يأتى بشكل أشمل وأكثر اتساقاً فى منهجيته من «هالبر وكلارك». فهما يتهمان المحافظين الجدد بمحاولة خلط الأوراق عبر «ادعاء» التواصل بين الرئيسين، ويتهمانهم بتجاهل الفوارق الأساسية: فريجان كان نموذجاً للعمل على نزع السلاح والالتزام به وبالاتفاقات الدولية بشأنه، كما أنه قلل بشكل كبير فى استخدامه الفعلى للقوة المسلحة فى العلاقات الدولية والذى يكاد يقتصر على حالة «جرينادا». كما أنهما يشيران إلى رفض ريجان المبدئى للمذاهب الخاصة بتوظيف السلاح النووى للآباء الروحيين لفكر المحافظين الجدد مثل Albert Wohlstetter . كما أن المحافظين الجدد تجاهلوا سياسة ريجان المرنة إزاء الصين وإزالة الكثير من العقوبات المفروضة على



الاتحاد السوفيتى السابق، وهى مواقف اتخذها ريجان من منطلق إيمانه بأن هذه القرارات ستؤدى الى حوار ذى معنى ومضمون بشكل بناء بما يساعد فى تحقيق الالتزام المشترك بالتوصل إلى سلام عالمى شامل ودائم. كذلك لا يتحدث المحافظون الجدد عن صفقة «إيران جيت» والتى قدم ريجان بموجبها أسلحة لإيران ولا عن فشله فى لبنان والخروج المخزى للقوات الأمريكية من هناك بعد أحداث ١٩٨٢. ويذهب «هالبر وكلارك» بعيداً فى اتهام المحافظين الجدد بـ«تزوير التاريخ» والقيام بعملية «نصب سياسى» لنسبة أنفسهم إلى الرئيس ريجان وحقبته وربطهما بالرئيس بوش الابن، وذلك من منطلق نسبة أنفسهم إلى ماض مجيد فى نظر الكثير من الأمريكيين، وبالتالى يظهرون كحملة شعلة الريجانية الحقيقيين ومشاركين فى نجاحات ذلك العهد مما يؤهلهم للحصول على دعم شعبى على أمل تحقيق أمجاد أخرى فى عهد بوش الابن وتحت ولايته.

وتتصل بتلك الملاحظات ملاحظة خامسة وهى الصلة بين الرئيس بوش الأب والرئيس بوش الابن ليس على المستوى الشخصى والعائلى بل فيما يتعلق بالمستوى السياسى.

فنلاحظ فى كتاب «فرام وبيرل» انتقادات ضمنية لعدم وجود الحسم الكافى فترة حكم الرئيس بوش الأب خاصة تجاه الوضع فى العراق وعدم استكمال الحرب حتى إسقاط النظام العراقى بعد احتلال بغداد أو على الأقل لعب دور نشط فى دعم التمردين الكردى والشيعى فى شمال وجنوب العراق. وهذا بخلاف كتاب «بيتر وروشيل شفايزر» اللذين يريان أن بوش الابن تأثر بتدين أبيه وبقناعاته الدينية بضرورة مساعدة من يحتاج إلى مساعدة ومن يخضع للقمع. وقد واصل بوش الابن قناعات أبيه الدينية بل وتعززت لديه اكثر نتيجة ما واجهه من مواقف أدت الى تهذيبه وتهدئة ردود أفعاله، دائماً بحسب مؤلف الكتاب.

ونعود الى كتاب الديمقراطى «مورين دود» الذى رأى فى «ديك تشينى» المعلم الذى أوكل اليه الوالد مهمة تعليم وتدريب وتوجيه النصح للابن، وهو نفس ما يذهب اليه «مان» مع اختلاف عدم افتراض وجود تطابق فكرى أو أيديولوجى بين بوش الأب وتشينى. ويرى «دود» أن تناقضاً حكم موقف بوش الابن تجاه أبيه، فمن جهة يسعى للحصول على احترامه وتقديره، ومن جهة أخرى فان لديه رغبة رمزية بداخله فى إثبات أنه الأفضل والأخذ بسياساته وبتصحيحه للسياسات الخاطئة لوالده بدلاً من اتهامه بتخريب ما قام به والده. وتصدق نفس ملاحظة «مان» السابق الإشارة إليها بشأن العلاقة بين بوش الابن وريجان على علاقة بوش الابن بأبيه من الناحية السياسية والفكرية.

أما «هالبر وكلارك» فيريان وجه الخلاف بين بوش الأب وبوش الابن، ويركزان هنا على الموقف من المحافظين الجدد والموقف من الحرب فى العراق دون تجاهل الصلة بين المسألتين. فالمحافظون الجدد الذين كانوا متحمسين لدعم العراق بالسلاح خلال ثمانى سنوات من الحرب ضد إيران، انقلبوا عليه بعد ذلك وسعوا لإسقاط النظام العراقى، ولكن الرئيس بوش الأب احتوى تأثيرهم وحيده لما اعتبره من أنه لا يتفق مع المصالح القومية الامريكية. فبينما كان المحافظون الجدد يروجون لمقولة أن الإطاحة بحكم صدام حسين سيجعل الولايات المتحدة قادرة على جعل منطقة الشرق الأوسط أكثر تجاوباً من الناحية السياسية مع الرغبات والمخططات والطموحات الأمريكية، أدرك الرئيس بوش الأب بحرصه أن دخول بغداد كان سيزيد الدور الأمريكى فى المنطقة تعقيداً ويهدد الائتلاف

بـــــوش وحيـــــرى





يـــركـــز «بـــات بوكانـــــان» من جانبه على الشخصيات اليهودية ضمن المحافظين الجدد والذين يصفهم بـ «صناع الشر» وهو يلقى بتبعية الحرب على العراق على هؤلاء «اليهــود»



الدولى الواسع الذى تشكل بقيادة الولايات المتحدة وتحت مظلة الأمم المتحدة ممثلة للشرعية الدولية، وبالتالى تجنب بوش الأب ما أقدم عليه بوش الابن بعد ذلك بأكثر من عقد من الزمان، ربما أيضاً. ولو جزئياً. بتأثير من المحافظين الجدد.

وإذا تناولنا الملاحظة السادسة نجد أنها تتعلق بما ورد فى الكتب محل العرض والتحليل هنا بشأن موقع إسرائيل فى الحكم على فترة حكم الرئيس بوش الابن. وبينما يرى «كلارك» أن إدارة الرئيس بوش لم تبد أى حساسية تجاه التحرك بجدية للظهور بمظهر المهتم بالصراع العربى/ الإسرائيلى، أو حتى الفلسطينى/ الإسرائيلى أو بمظهر الساعى للتوازن فى رؤيته باعتبار الولايات المتحدة مفترض أنها الوسيط فى هذا الصراع، كما اتهم الإدارة الحالية بأنها فى أفضل الأحوال لم تمنح هذا الصراع سوى اليسير من الاهتمام والوقت، وهو ما يمثل فرصة لأعداء الولايات المتحدة فى العالم العربى والإسلامى للإشارة إلى هذا النقص وإبراز أن واشنطون لا تهتم بأهم قضية تهم العرب والمسلمين.

أما «هالبر وكلارك» فيتساءلان فى كتابهما إن كان من المصادفة أن تكون المجموعة التى دفعت باتجاه الحرب على العراق عام ٢٠٠٣ هى نفس المجموعة تقريباً من المحافظين الجدد التى أعدت بقيادة «ريتشارد بيرل» و«دوجلاس فايث» تقريراً رفعته إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى اليمينى الليكودى حينذاك «بنيامين نيتنياهو» فى النصف الثانى من التسعينيات من القرن الماضى تدعو فيه إلى تعاون أمريكى/إسرائيلى فعال. سواء معلن أو سرى. لإسقاط الحكومات القائمة فى سوريا والعراق، وتساءلا عما إذا كانت حرب العراق تفيد الولايات المتحدة أكثر أم إسرائيل.

ويركز «بات بوكانان» من جانبه على الشخصيات اليهودية ضمن المحافظين الجدد والذين يصفهم بـ «صناع الشر» Evil Doers . وهو تعبير انجيلى كما ذكرنا من قبل. ولكن دون أن يشير إلى دور قياديين فى مجموعة المحافظين الجدد من غير اليهود، وهو يلقى بتبعية الحرب على العراق على هؤلاء «اليهود» من المحافظين الجدد. أما «بيتر وروشيل شفايزر» فيتحدثان عن الإرث اليهودى المسيحى المشترك فى المكون الدينى للرئيس بوش الابن، ويركزان على تأثير العهد القديم على بلورة الرئيس للعديد من آرائه واستراتيجياته السياسية.



ونلحظ فى كتاب «مان» هنا وهناك إشارات إلى الارتباطات اليهودية أو الصهيونية أو الإسرائيلية لهذه الشخصية أو تلك من الشخصيات القيادية فى الأمن والدفاع والسياسة الخارجية فى إدارة الرئيس بوش الابن. ومن جانبهما، فإن «بيرل وفرام» يصفان ضمنياً أحياناً وصراحةً أحياناً أخرى العداء لإسرائيل بما يساوى العداء للولايات المتحدة، مشيرين إلى أن على الولايات المتحدة التزاماً بالحفاظ على أمن إسرائيل ودعمها. ودوماً بالشكل الذى تراه الأخيرة. ومرددين المبررات التقليدية لتلك المقولة، خاصة تلك ذات الطابع الحضارى والثقافى المتصلة بوحدة الانتماء للحضارة الغربية الحديثة وقيمها من جهة ووحدة المرجعية التراثية اليهودية/المسيحية من جهة أخرى مع ما يتضمنه ذلك من إشارة إلى الديمقراطية الإسرائيلية (الوحيدة فى الشرق الأوسط) وربط أى دور أمريكى فى عملية السلام بين العرب والإسرائيليين بوقف العداء للسامية ولإسرائيل أو التحريض عليها بين العرب وبناء نظم «ديمقراطية» فى الدول العربية، وغير ذلك من معايير مكررة من جهة ولكنها تزداد تكبيلاً من جهة وتمتلئ بالثقوب المتزايدة فى الاتساع لإسرائيل من جهة أخرى.

وآخر ملاحظاتنا فى هذا المقال النقدى التحليلى هى تلك المتعلقة بمجمل الموقف من العرب والمسلمين، وبالطبع تناولنا أجزاء منها فى الملاحظات الخاصة بحرب العراق والحرب على الإرهاب والصراع العربى/ الإسرائيلى. ولكننا نضيف إليها هنا فى الإطار العام للرؤية. فـ «كلارك» يؤكد الحاجة للاقتداء بما قامت به الولايات المتحدة فى حربها ضد الشيوعية عندما ساعدت الأحزاب الديمقراطية المسيحية فى أوروبا الغربية وأمريكا اللاتينية على التصدى لأفكار الشيوعية بل وعندما أيدت حركات إسلامية ضد الاتحاد السوفيتى ونظم يسارية أخرى كما فى أفغانستان. وتكون الحملة الجديدة موجهة لإعلاء قيم التسامح بين الديانات المختلفة ومعالجة الظروف الاقتصادية والثقافية التى تغذى مشاعر الكراهية والحث على توسيع رقعة المشاركة السياسية، وهى أفكار تذكرنا بأفكار ومبادرات الإدارة الأمريكية الحالية بشأن الدعوة لـ «الإصلاح» فى الشرق الأوسط والإعلان عن حملة أمريكية لدعم التحول نحو الديمقراطية من جانب الدول العربية والإسلامية. ويتناول «كلارك» فى السياق نفسه موضوعى إصلاح نظم التعليم وتقديم المساعدات الاقتصادية، ويؤكد أن التنوع والحرية والأمن قيم مشتركة للبشر. وهو ما يردده الرئيس بوش أيضاً. ولكنه يبرز أن الولايات المتحدة بمحاولاتها فرض أيديولوجيتها عبر الحرب تفتقد الحجة لمقارعة الإسلاميين المتطرفين الذين يسعون هم أيضاً لفرض أفكارهم بالعنف، ويحذر من تحرك واشنطون ضد نظم عربية وإسلامية أخرى بعد العراق لأن هذا سيحقق نبوءة «صمويل هنتنجتون» الخاصة بصدام الحضارات حيث مشاهد العنف فى العراق تعمق كراهية العرب والمسلمين للولايات المتحدة. وحث «كلارك» الإدارة الأمريكية على التشاور مع أصدقائها فى صفوف العرب والمسلمين.

وبالمقابل يواجهنا «بيتر وروشيل شفايزر» بصدمة القول أن الإرهاب ناتج عن صعوبات يواجهها الإسلام فى التأقلم مع النظام القيمى الغربى السائد فى العالم حاليا. وبالرغم من اعتراض «بوكانان» على الحرب فى العراق، فإنه يتحدث بشكل سلبى عن النخب الثقافية غير المسيحية فى العالم، ويتحدث عن تخوف المسلمين من الثقافة الأمريكية المهيمنة عالمياً أكثر من الخوف من الاحتلال العسكرى، كما انه. وبدون مناسبة. يشيد بالحملات الصليبية التاريخية ضد العالم الإسلامى. أما «فرام وبيرل» فيشيران الى ما على العالم الإسلامى عمله للحاق بركب الحداثة والتحضر والديمقراطية والتسامح، ويعودان بالكثير من مشاكل العالم الإسلامى بل العالم بأسره على الأفكار السائدة والثقافة المهيمنة فى بلدان المسلمين وهى نظرة تجمع بين «الحس الرسالى» من جهة و«النظرة إلى أدنى» من جهة ثانية وتأكيد التمايز مع إنكار المسئولية عن معاناة الآخر من جهة ثالثة.



وأخيراً، كيف ستنعكس هذه الكتب وما ورد بها على الانتخابات الرئاسية الأمريكية وما سيصاحبها من انتخابات تشريعية ومحلية فى نوفمبر ٢٠٠٤؟ ويبقى هذا سؤالاً مفتوحاً تجيب عليه الأيام القادمة. ولكن الثابت أن حسابات الماضى لن تكون المرجعية للمواطن الأمريكى العادى عندما ينتخب بل سيحكمه واقع يعايشه، سواء فيما يتعلق بأوضاع اقتصادية أو خدمات اجتماعية أو مطالب قانونية ودستورية، أو حالة الأمن الداخلى، أو الوضع فى العراق، وبدرجة أقل فى أفغانستان، لتشكل هذه الاعتبارات أطراف المعادلة الانتخابية القادمة. ■

استراتيجية الحرب الاستباقية الأمريكية..

الرئيس الأمريكي جورج بوش مشهور بصفات عديدة مثيرة للجدل، حتى لا نقول مرفوضة، أبرزها العناد والتشبث بالرأي. ورغم أن تطورات الأحداث في العراق أثبتت خطأ استراتيجيات كثيرة طبقتها الإدارة الأمريكية وفي مقدمتها استراتيجية الحرب الاستباقية إلا أن بوش أصر، في بداية سبتمبر الماضي خلال كلمته في مؤتمر الحزب الجمهوري الذي رشحه للرئاسة، على أنه غير نادم وسينفذ هذه الاستراتيجية مرة أخرى لو تطلب الأمر.

كاتب هذا المقال يخلص بعد تحليل معمق عسكريًا وسياسيًا إلى أن عقيدة الحرب الاستباقية تموت الآن في العراق.

المحـــرر

■ يبدو التناقض شديداً في صورة الولايات المتحدة على جانبي يوم التاسع من أبريل ٢٠٠٣ وهو اليوم الذي شهد أرتال المدرعات الأمريكية تهدر في الرصافة والكرخ دون رقيب أو حسيب أو مقاوم في إعلان صريح لنصر أسطوري خاطف احتلت فيه بغداد، وتلاشى معه نظام حكم سلطوي بغيض، وتأكدت معه سطوة لامعة غير مسبوقة لقوة عظمى فريدة في قوتها وفي نزعتها لتوظيف العنف أداة رئيسية في سياستها الخارجية، وإدارة شئون علاقاتها الدولية.

الصورة قبل يوم احتلال بغداد تتداخل في خلفياتها مشاهد الولايات المتحدة في مطلع التسعينيات، قوة عظمى وحيدة خرجت منتصرة في حربها الباردة الكونية أمام الاتحاد السوفيتي الذي انهار وتفكك في أواخر العام ١٩٩١، وقبلها في حربها الساخنة الإقليمية ضد العراق في أوائل ذات العام، والتي استعرضت فيها قدرات عسكرية غير مسبوقة ودشنت لعصر ثورة جديدة في الشئون العسكرية كانت قد بشرت بها منذ مبادرة الدفاع الاستراتيجي SDI التي تبناها الرئيس الأسبق رونالد ريجان في منتصف الثمانينيات، وفي ذات الخلفية أيضاً تتراءى مشاهد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وتهاوي برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك، ومعها كان الغضب الذي أصاب العالم عاصفاً على الإرهاب الفاعل، والتعاطف كان بالغاً مع الضحية وبدا آنذاك أن العالم قد احتشد صفاً واحداً خلف الولايات المتحدة لمواجهة الذين نفذوا هذه الجريمة البشعة.

الصورة التي لم تكن في الحسبان هي صورة الولايات المتحدة في اليوم التالي لدخول قواتها بغداد، قوة عظمى تبدو شبه وحيدة في حربها ضد الإرهاب، تفنن رئيسها وإدارته في تمزيق صفوف المؤيدين في أنحاء العالم وبعثرتها على نحو مذهل، فقد حل مصطلح «الإرهاب» محل وصمة «الشيوعية» كتهمة تلصق بمن يناهض الهيمنة الأمريكية، وعلى المستوى الدولي فالتهديد الأمريكي قائم للجميع من ليس «معنا» فهو «ضدنا» ولا مجال لحيادية أو تجنب لعواقب عاتية، وعلى المستوى المحلي أصبح معياراً لامتحان الولاء، والتعاون، والخير والشر وسوية النفس: فليست هناك منزلة وسط، فالحرب على «الأشرار» واجب أخلاقي على كل إنسان متحضر، والغريب أن «الإرهاب» الذي تحاربه الولايات المتحدة ما يزال دون تعريف أو نهاية محددة، بينما «الأشرار» انحصروا في المسلمين/ العرب مهما حاول الرئيس التظاهر باحترام دياناتهم وثقافتهم. وهكذا تبدو المشاهد الخلفية لصورة اليوم التالي لدخول الأمريكيين بغداد تحتوي آثار دمار ورائحة موت لثلاث حروب شنتها إدارة بوش خلال أقل من عامين: الحرب في أفغانستان التي أزالت نظام طالبان الحاكم والمتواطئين معه في تنظيم القاعدة، و«الحرب على الإرهاب» الأوسع نطاقاً لتمزيق الشبكات والخلايا الإسلامية «الإرهابية» حول العالم من إندونيسيا شرقاً إلى أراضي الولايات المتحدة غرباً باستخدام قدرات المخابرات وقوة فرض القانون. ثم الحرب على العراق، فيما يزعم ظاهرياً أنه لتغيير نظام حاكم يحوز أسلحة دمار شامل ضخمة ويملك إرادة استخدامها، وعلى صلات وثيقة بمنظمات إرهابية دولية، وتبدو وسط تلك المشاهد لقطات لافتة شديدة الوضوح عميقة الأثر منها مكان البرجين في نيويورك وقد تمت إزالة الحطام عنه وأصبح ساحة كبيرة مهيأة للبناء عليها، وكذلك مبنى البنتاجون وقد عاد إليه رونقه بعد إعادة بناء الجناح المدمر فيه، بينما في المدن العراقية تبدو سحب الدخان الناجمة عن انفجارات العبوات الناسفة التي زرعت على جوانب الطرق مصحوبة بهياكل معدنية لآليات أمريكية مدمرة، وضحايا من المدنيين ومن قوات التحالف الذي شكلته وقادته الولايات المتحدة، إضافة إلى طائرات النقل الضخمة التي تعود بنعوش هؤلاء الجنود إلى وطنهم دليلاً دامغاً على أن وجود أكثر من ١٣٨ ألفاً من قوات التحالف منهم حوالى ١١٤ ألفاً من القوات الأمريكية لم يكن ضامناً. وربما لن يكون. لإدامة نصر بدا بريقه لامعاً وأسطورياً في صباح يوم ربيعي بغدادي خادع للرئيس الأمريكي وشلة الرجال الخطرين المحيطين به في البيت الأبيض وفي البنتاجون على وجه التحديد.



التناقض بين الصورتين على جانبي اليوم التاسع من أبريل ٢٠٠٣ يطرح تساؤلاً حول ذلك التحول الدراماتيكي المذهل من عنفوان تقدم عسكري أمريكي حاسم وسريع عبر الأرض العراقية استغرق قرابة ثلاثة أسابيع من صفوان في أقصى الجنوب إلى تكريت مسقط رأس الرئيس العراقي مروراً بالعاصمة بغداد قاطعاً مسافة تزيد على ٨٠٠ كم كاسحاً ومدمراً بقايا آلة عسكرية متقادمة للخصم، إلى تعثر عسكري أمريكي واضح على الأرض هناك في ضبط الأمن وفرض القانون ووقف نزيف الخسائر البشرية في الجنود الذين يتهيأون كل لحظة لاستقبال هجوم خاطف أو تفجير لافح. من غطرسة أمريكية مترفعة أدارت ظهرها للمجتمع الدولي ومؤسساته وقررت الانفراد بشن حرب وغزو دولة دون صك دولي يبيح ويبرر لها ذلك العمل، إلى هرولة أمريكية منهكة بين مبنى البيت الأبيض في واشنطن ومبنى الأمم المتحدة في نيويورك في سعي دءوب لاستصدار قرارات دولية من مجلس الأمن توفر لها غطاء شرعية دولية للاحتلال كما في القرار ١٤٨٣ في الثاني والعشرين من مايو ٢٠٠٣، وانتهاء بالقرار ١٥٤٦ في الثامن من يونيو ٢٠٠٤ الذي ينهي حالة الاحتلال شكلياً ويحول قوات التحالف الغازية إلى قوة متعددة الجنسيات تنعش الآمال الأمريكية في استجلاب قوات من دول أخرى تبدو حذرة حتى الآن في إعانتها على الخروج من ورطتها في هذا البلد.

السعي لسبر غور هذا التناقض يقودنا لتلك الإجابة الأمريكية الخاطئة والمتأخرة في بدايات العام ٢٠٠٢ على أسئلة صحيحة وملحة طرحت في بدايات العام ١٩٩٢ وتحديداً بعد التفكك المدوي للاتحاد السوفيتي في ديسمبر من



جاءت عقيدة بوش محصلة لتقاطع عوامل ثلاثة في لحظة تاريخية لتؤكد على انفرادية غير معهودة بتحديد العدو واتهامه. وعلى معاقبته، وعلى استباقية غير مسبوقة في مهاجمته وضربه من حيث لا يحتسب وفي أي مكان في العالم



الأفــــول مبكـــــرا فى العـــــراق!

صـــفـــوت الـــزيــــات

العام ١٩٩١ والانفراد الأمريكى بقمة نظام دولى بدت فيه القوى الدولية الأخرى عند السفوح البعيدة، وهو ما عبر عنه آنذاك جوزيف ناى المفكر الأمريكى الشهير بقوله «ستستمر معاناة روسيا كنتيجة للضعف الاقتصادى وإصلاحاتها مسألة ستأخذ عقوداً وليس سنوات، والصين دولة نامية وعلى رغم معدلات نموها المرضية فإنها ستستمر كذلك حتى القرن القادم، أما أوروبا التى تتكافأ تقريباً مع الولايات المتحدة سكانياً واقتصادياً فإنها تفتقد الإدارة السياسية الواحدة التى كان يمكن فى حالة توفرها أن تجعل منها قوة دولية عظمى، وبالنسبة لليابان فهى تملك قوة اقتصادية وتكنولوجية مرموقة، ولكنها تفتقر إلى القوة العسكرية».

إذا كانت الأسئلة حول كيفية إدارة نظام دولى جديد وغير مسبوق تقوده قوة عظمى وحيدة وفريدة أيضاً فى حجم ونوعية قوتها القومية؟! وهى أسئلة صحيحة بل ومشروعة لهذه القوة العظمى بحكم الدور وباعتبار المسئولية.

لكن الإجابة التى جاءت متأخرة بمسافة عقد كامل من الزمن وهى استراتيجية جديدة للأمن القومى، أطلق عليها ما اصطلح على تسميته باستراتيجية «الحرب الاستباقية» Pre-emptive War كانت الإجابة الخطأ التى بدأت إرهاصات صياغتها على لسان الرئيس الأمريكى فى خطاب حالة الاتحاد فى يناير ٢٠٠٢ بقوله «لن أنتظر على الأحداث فيما يدلهم الخطر، ولن أقف متفرجاً فيما تقترب منا التهلكة.. إن حربنا على الإرهاب قد بدأت فعلاً، ولكنها ما تزال فى بدايتها. إن هذه الحملة قد لا تنتهى فى زماننا، ولكنها يجب أن تشن فى زماننا. إننا لا نستطيع أن نتوقف فجأة.. إن التاريخ يهيب بأمريكا وحلفائنا أن نعمل، وأنه لمن مسئوليتنا وخصائصنا أن نحارب حرب الحرية». هذه الكلمات امتزجت فيها الدعوة لنشر القوة الإمبراطورية فى العالم بديلاً عن الدبلوماسية، وفكرة الحرب الاستباقية بديلاً عن الاحتواء والردع، والاعتقاد الراسخ بأن الولايات المتحدة فى مهمة أخلاقية لنشر وتعزيز قيم الحرية كلفها بها التاريخ!

إن التناقض فى صورة القوة العظمى الوحيدة على جانبى يوم التاسع من أبريل ٢٠٠٣ يشير إلى استراتيجية الأمن القومى الجديدة التى صدرت وثيقتها الرسمية من البيت الأبيض فى ١٧ سبتمبر ٢٠٠٢، وأطلق عليها فيما بعد عديد من الأسماء كـ«مبدأ بوش»، وعقيدة «الحرب الاستباقية» أو «الضربات الاستباقية»، وجاء تطبيقها العملى الأول فى الحرب التى شنتها الولايات المتحدة وبريطانيا ضد العراق فى ربيع ٢٠٠٣ والتى وضح من نتائجها الوهن الشديد لهذه العقيدة والتى ربما تقود إلى موتها أو على الأقل تجميد العمل بها فى ظاهرة سياسية غير مسبوقة عند مراجعة تطور السياسات الخارجية للقوى العظمى فى التاريخ المعاصر الأمر الذى يدفع لتناول هذه العقيدة الاستراتيجية الظاهرة وما آلت إليه من خلال استعراض العوامل الدافعة لإطلاقها، ومعوقاتها الأساسية، وصولاً إلى ماهية الجدل الذى أثارته، والوهن الذى أبرزته فى ساحة الحرب الأمريكية ضد العراق.



عوامل دافعة:

ثلاثة عوامل أخذت مسارات مختلفة جاءت للتقاطع فى لحظة تاريخية لتنتج هذه العقيدة الاستراتيجية فى خريف العام ٢٠٠٢، وقد تكون نقطة بدء مسار كل منها مختلفة من حيث الزمان والمكان، لكن المؤكد أن نقطة التقاطع للجميع كانت واحدة.

العامل الأول: وجود استراتيجية أمن قومى أمريكية متقادمة تأسست ووظفت

لإدارة الصراع في عصر الحرب الباردة ونظام القطبين على مدار أربعة عقود وأكثر. اعتمدت من جانب الولايات المتحدة على فكرة الاحتواء المرتكز على ردع الخصم عن القيام بعمل أو تصرف يضر بأمن ومصالح الولايات المتحدة، وذلك بدفع الخصم ذاته إلى استنتاج أن التكلفة التي سيدفعها سوف تزيد على تلك المنافع التي سيجنيها من وراء هذا العمل أو التصرف، وقد تطور الردع من جانب واحد. وهو الولايات المتحدة. إلى ردع متعادل بين القطبين الأمريكي والسوفيتي بدءاً من منتصف الستينيات عندما حاز كل منهما قدرات الثالوث النووي (القاذفات الاستراتيجية. الصواريخ الباليستية عابرة القارات. الغواصات النووية) مما يكفل إمكانية تلقي الضربة الأولى من الخصم والقيام بالضربة المضادة التي ستوقع بالخصم عقاباً على هيئة إبادة وطنية، وهي الاستراتيجية التي سميت بالردع القائم على الدمار المؤكد المتبادل mutual assured distraction، مع تفكك الاتحاد السوفيتي وتباعد شبح الصراع في مستوياته الكونية أمام الولايات المتحدة، وانحصاره في المستويات الإقليمية فإن مثل هذه الاستراتيجية القائمة على ردع الخصم عبر آليات التهديد بالانتقام، أو الحرمان من تأثير قوته العسكرية عبر إجراءات دفاعية إيجابية وسلبية، أو الإقناع بالعدول عن العمل dissuasion عبر إدراكه لقدرات وإرادة الطرف الرادع، تصبح جميعها غير ذات جدوى باعتبار الخصائص الشخصية والاستراتيجية للخصوم الإقليميين والتي لا تتسم بالعقلانية أو الرشد التي كان عليها القادة السوفييت في تقدير حسابات العائد والتكلفة أو المكسب والخسارة والتي حكمت مسار الردع المتبادل فيما بينهم وبين الولايات المتحدة، فهذه الأخيرة أصبحت تواجه الآن أنظمة إقليمية خارجة على القانون، أو ما اصطلح على تسميته بالدول المارقة Rogue States الأكثر استعداداً. من وجهة نظر أمريكية!. على المخاطرة والتضحية بالثروات الوطنية، ثم إن عدداً منهم يمتلك أسلحة دمار شامل ينظرون إليها. خاصة الكيماوية والبيولوجية منها. باعتبارها أسلحة خيار قد تستخدم في الفترات المبكرة من الصراع لمواجهة تفوق الغرب عامة والولايات المتحدة على نحو خاص في مضمار الأسلحة التقليدية، كما أبرزته نتائج حملة عاصفة الصحراء المدوية في شتاء العام ١٩٩١، ومن ثم فهي ليست ولن تكون أسلحة الملاذ الأخير كما كان الحال إبان الحرب الباردة بين القوتين العظميين.

كان كل ذلك يشير إلى احتمالات عالية لإخفاق استراتيجية الاحتواء القائم على الردع في مواجهة خصوم إقليميين. ومعها كانت الحاجة تبدو ملحة أكثر إلى تبني صياغة جديدة لاستراتيجية أمن قومي أمريكي جديدة تتعامل مع هذه التحديات بحقائقها ومخاطرها، وتوفر الحفاظ على السلام العالمي وعلى النفوذ الأمريكي معاً دون حدوث نتائج خطيرة وكوارث غير متوقعة. وعلى مدار عقد التسعينيات لم تكن العوامل الأخرى قد تقاربت لتضغط بقدر كاف لإنتاج استراتيجية جديدة، كما أن الإدارات الأمريكية آنذاك قد رأت ممارسة الهيمنة والنفوذ العالمي بأدواتها الخاصة التي لا تتطلب تغييراً دراماتيكياً في الاستراتيجية القائمة، فإدارتا بوش الأب وبيل كلينتون استخدمتا الدبلوماسية التعسفية عبر توظيف الأمم المتحدة لتأمين غطاء شرعية دولية قبل الإقدام على استخدام القوة عبر تحالف دولي. أيضاً. ضد الخصوم الإقليميين على النحو الذي شهده العالم في حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١، وفي الصومال العام ١٩٩٣، وفي البلقان عامي ١٩٩٥ و ١٩٩٩ وجميعها أحداث تؤشر إلى سطوة القوة والنفوذ الأمريكي المصحوب بمبدأ التعددية الدولية multilateralism المحكوم بقيادة أمريكية.

العامل الثاني: وصول إدارة أمريكية جديدة إلى سدة الحكم في يناير ٢٠٠١ يقودها رئيس قدم بحكم قضائي بدلاً من انتخابه لا تسعفه الذاكرة السياسية سوى بأفكار رسالية يقينية عن دور تكليفي إلهي بنشر القيم الأمريكية حول الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان في أرجاء العالم ليس فقط كدور تاريخي للولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة المكلفة بذلك، ولكن كالتزام أخلاقي في الأساس. أما غير ذلك من رسم لسياسات وإدارة لعلاقات دولية مع العالم الخارجي فقد ترك إلى مجموعة «المحافظين الجدد» neoconservatives التي تمكنت من النفاذ إلى مقاعد حاكمة في صناعة القرار السياسي في واشنطن بدءاً من نائب الرئيس ديك تشيني، ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد، ونائبه بول ولفويتز، ورئيس مجلس سياسات الدفاع ريتشارد بيرل، ومساعد وزير الدفاع للسياسات دوجلاس فيث، ونائب وزير الخارجية ريتشارد أرميتاج وآخرين تمرسوا في مقاعد الإدارة الخلفية، أو في مراكز الأبحاث اليمينية مثل «هدسون إنستيتوت» Hudson Institute، و«أمريكان انتر برايز إنستيتون» American Enterprise Institute، و«المعهد اليهودي للأمن القومي» الذي يطلق عليه للاختصار «جينسا» Jinsa وهو المعهد المناصر لسياسات الليكود اليميني الإسرائيلي والذي ضم في مجلس مستشاريه لاعبين نافذين في إدارة بوش الابن منهم ديك تشيني، ريتشارد بيرل، ودوجلاس فيث، جون بولتون وكيل وزارة الخارجية، وجيمس وولس مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأسبق، والذي أسسه في منتصف السبعينيات مجموعة من المحافظين الجدد المولعين بأمن إسرائيل.

هذه الشبكة للمحافظين الجدد المتأثرة بنفوذ مصالح الجناح اليميني في إسرائيل، والتي تعود بأصولها إلى بدايات الحرب الباردة، سواء عبر «لجنة الخطر الماثل» التي تأسست في العام ١٩٥٠ لمواجهة الخطر الشيوعي، أو «الفريق ب» الذي أنشئ في العام ١٩٧٦ بقرار من الرئيس جيرالد فورد لتوفير تقديرات مستقلة عن القدرات السوفيتية بعيداً عن تقديرات وكالة الاستخبارات المركزية الأكثر تعقلاً والتزاماً، وكان يرأس الفريق ريتشارد بايبس Richard Pipes أحد أبرز الصقور المحافظين آنذاك وأستاذ التاريخ الروسي في جامعة هارفارد، والذي تعزز موقفه بعنوان لأحد مقالاته وهو «لماذا يظن الاتحاد السوفيتي أنه قادر على خوض وكسب حرب نووية؟»، وفي وقت متقارب من ذلك أنشأ مجموعة من هؤلاء المحافظين الجدد منظمة «جينسا» Jinsa التي أشرنا إليها، وحينما تولى رونالد ريجان الرئاسة في عام ١٩٨١ كانت فرصتهم لإدخال مزيد من السياسات اليمينية المتشددة تجاه الاتحاد السوفيتي وكذلك تجاه أعداء إسرائيل.



في أوائل عقد التسعينيات استمر المحافظون الجدد يشغلون مواقع في إدارة بوش الأب عندما تفكك الاتحاد السوفيتي ووضح أن الخطر التاريخي الذي أشعل قلقهم قد خبا، وكان عليهم السعي من جديد لصناعة خطر آخر وأعداء آخرين فالولايات المتحدة في قناعتهم. لا تزال تواجه أخطاراً عديدة من اتجاهات عدة، والغريب أن ما تصوره المحافظون الجدد من تهديد آنذاك وطرحوه في وثيقة استراتيجية للبنتاجون في العام ١٩٩٢ أعدها بول ولفويتز مساعد وزير الدفاع للسياسات في ذلك الوقت تركز حول خطر احتمال ظهور قوة عظمى منافسة للولايات المتحدة تهدد المصالح الأمريكية في مناطق أوروبا الغربية، وأقاليم الاتحاد السوفيتي السابق، إضافة إلى شرق آسيا وجنوب غرب آسيا، لذا فإن اليابان وألمانيا وروسيا الاتحادية تبدو خصوماً محتملة، ووجه الغرابة أن الصين لم تذكر، وكذلك «الإرهاب» الذي لم يكن قد برز بعد كخطر مفهوم، ولا كان الشرق الأوسط أو العالم الإسلامي قد أظهر بروزاً فيما عدا واحد من السيناريوهات التي تتطلع إلى حرب ضد الإرهاب إذا ما هاجم «جارته الجنوبية» التي يفترض أنها العربية السعودية، باختصار كان صقور اليمين



السياسة الخارجية للقوة العظمى الوحيدة صنعت من قبل قلة لا تمثل سكان الولايات المتحدة أو التيار السائد في مؤسسة الخارجية



أو المحافظون الجدد يبحثون عن تهديدات فى كل الأماكن الخطأ! عندما غادروا مع بوش الأب مبانى البيت الأبيض والبنتاجون والخارجية فى يناير ١٩٩٣ يرقبون عن كثب سياسات الإدارة الجديدة لـ كلينتون التى اعتمدت مفاهيم العولمة الاقتصادية كوسيلة أيديولوجية قوية لاحتواء المعارضة للهيمنة والنفوذ الأمريكى الكونى، واعتمدت آليات العولمة التى تتضمن «مجموعة الدول الثمانى الكبار» G-8، ومنظمة التجارة العالمية، وصندوق النقد الدولى، والبنك الدولى كأسلحة أمريكية للتسلط فى عالم وحيد القطب، ولطالما نظر المحافظون الجدد، الذين أسرعوا فى العام ١٩٩٧ لتأسيس منظمة «مشروع القرن الأمريكى الجديد» New American century Project إلى سياسات كلينتون باعتبارها مفرطة فى التنازل عن دور أمريكى مطلوب لقيادة العالم، وبكونها تتسم بالجبن والخوف على نفس النحو الذى كانت تنظر به مجموعة ريجان لسياسات إدارة كارتر الديمقراطية السابقة لها واعتبرته آنذاك «رعديداً».

ما يهمنا فى السنوات تلك التى سبقت العودة الثالثة للمحافظين الجدد مع إدارة بوش الابن ذلك التوجه السائد لديهم فى إدارة شئون السياسة الخارجية إذا ما أصبحوا منفذين عليها والذى ضمنوه «إعلان المبادئ» التى صدر عن منظمتهم المذكورة فى ٣ يونيو ١٩٩٧ والذى دعا إلى «سياسة ريجانية تعتمد القوة العسكرية والوضوح الأخلاقى من أجل البناء على إنجازات هذا القرن الماضى وعلى عظمتنا فى القرن التالى»، كما دعا إلى اعتماد الانفرادية الأمريكية American Unitateralism فى إدارة شئون السياسة الدولية وليس التعددية multilateralism التى تفترض التفاوض مع قوى دولية أخرى بما فيها الأمم المتحدة، وإلى توافر قوة عسكرية هائلة للولايات المتحدة تتطلب زيادة ضخمة فى الإنفاق الدفاعى ولو كان ذلك على حساب تحسين الخدمات الاجتماعية للشعب الأمريكى! كان ذلك إذاً جدول أعمال راديكالياً ولج به المحافظون الجدد عتبات مبانى الإدارة الأمريكية فى العاصمة واشنطن برفقة الرئيس بوش الابن، وكان عليهم أن يتمركزوا أولاً فى مناصبها الحساسة وأن يتهيأوا لانتهاز لحظة تاريخية معينة لفرض ذلك الجدول، وهى اللحظة التى ستجىء سريعة ومذهلة فى صباح يوم صيفى بدا هادئاً ومشمساً فى كل من نيويورك وواشنطن، كان تاريخ اليوم هو الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وكانت اللحظة ارتطام الطائرات ببرجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك، ومبنى البنتاجون فى واشنطن العاصمة والتى عندها كشف النقاب عن حقيقة الدور وقوة التأثر وعمق الأثر الذى سيحدثه هؤلاء المحافظون الجدد وليس فى الولايات المتحدة فقط ولكن فى أصقاع عديدة من العالم، وهو ما عبر عنه ميخائيل ليند مدير مشروع «الاستراتيجية الأمريكية» فى «مؤسسة أمريكا الجديدة» بقوله «نتيجة لعدد من المصادفات الغريبة وغير المتوقعة، مثل اختيار جورج بوش بدلاً من انتخابه للرئاسة وأحداث ١١ سبتمبر، فإن السياسة الخارجية للقوة العظمى الوحيدة صنعت من قبل قلة لا تمثل سكان الولايات المتحدة أو التيار السائد فى مؤسسة الخارجية.. فلمعظم مثقفى المحافظين الجدد فى وزارة الدفاع جذور فى اليسار، وليس فى اليمين. وهم بمعظمهم من اليهود الأمريكيين المنتمين إلى حركة الثلاثينيات والأربعينيات التروتسكية التى تحولت إلى ليبرالية معادية للشيوعية بين الخمسينيات والسبعينيات، ثم أصبحت أخيراً شكلاً يمينياً ذا نزعة إمبراطورية عسكرية لا سابق لها فى تاريخ الثقافة السياسية الأمريكية».



العامل الثالث: هجمات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ التى زودت الرئيس بوش الابن فرصة نادرة لتبرير سياسة خارجية ومجالاً لدور أمريكى جديد فى القرن الحادى والعشرين كانت بالفعل جاهزة ومتأهبة فى أجندة المحافظين الجدد المتمركزين حول الرئيس خاصة فى البيت الأبيض ووزارة الدفاع، ففى خضم هذه الفاجعة المأساوية غير المسبوقة، لن يتردد الرئيس باستدعاء المعنى الرسالى الإلهى لدور أمريكا التاريخى ليس فقط فى نشر قيم العدالة والحرية وبناء الديمقراطية فى المناطق التى انطلق منها الإرهاب، وإنما فى نشر القوة الإمبراطورية الماحقة بديلاً عن الدبلوماسية وفن إدارة الدولة لعقاب وتدمير دول مارقة منهكة القوى تؤوى الإرهابيين والبداية ستكون أفغانستان، ودول مارقة تمتلك أسلحة دمار شامل ووسائط إطلاقها على قائمة «محور الشر» التى أفرزتها تلك الهجمات وأعلنها الرئيس فى خطاب حالة الاتحاد فى يناير ٢٠٠٢ والبداية ستكون فى أضعف حلقاتها العراق. ووسط هذا الجو الصاخب المفعم بحريق الغضب والتعطش للانتقام الذى ساد الجمهور الأمريكى المصدوم وغير المتحسب لعواقب محتملة، جاءت الفرصة التاريخية للرئيس ورجاله من المحافظين الجدد ليس فقط للقفز فوق المحرمات الدستورية الأمريكية التى تحكم إطلاق آلة الحرب الأمريكية الجبارة، أو التى تؤمن الحريات المدنية والحقوق الدستورية للأمريكيين عامة وللمسلمين العرب منهم بشكل خاص، ولكن لتمرير استراتيجية جديدة للأمن القومى من أجل هيمنة دائمة وسيادة مطلقة على العالم تمنح فيها الولايات المتحدة نفسها تخويلاً مطلقاً باستباق استخدام القوة العسكرية ضد مصادر الخطر الذى تقوم هى بتعريفه وتمييزه!



هكذا جاءت عقيدة بوش محصلة لتقاطع عوامل ثلاثة فى لحظة تاريخية لتؤكد على انفرادية غير معهودة بتحديد العدو واتهامه، وعلى معاقبته، وعلى استباقية غير مسبوقة فى مهاجمته وضربه من حيث لا يحتسب وفى أى مكان فى العالم، كان ذلك ما بدا تعبيراً فى خطاب الرئيس فى الأول من يونيو ٢٠٠٢ بأكاديمية ويست بوينت العسكرية «لا يمكن كسب الحرب على الإرهاب بالاقتصار على الدفاع، يجب نقل ساحة المعركة إلى حيث يوجد العدو، ويجب تعطيل خطته ومواجهة أسوأ الأخطار قبل أن يذر قرنها. إن أمننا يتطلب إعادة صياغة للقوة العسكرية التى تقودها، قوة عسكرية قادرة خلال دقيقة على أن تضرب فى أى بقعة مظلمة من هذا العالم».

العناصر الأساسية

تنسب عقيدة الحرب الاستباقية أو ما يعرف بعقيدة بوش Bush Doctrine إلى مجموعة السياسات الخارجية المعدلة ومنهج تنفيذها التى تبناها الرئيس الأمريكى وضمنها وثيقة استراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة صدرت فى ١٧ سبتمبر ٢٠٠٢، فى إعلان عن أكبر تغيير فى السياسة الخارجية الأمريكية خلال نصف قرن، استبدلت فيها الولايات المتحدة عقيدة الاحتواء القائم على الردع للدفاع عن أمنها ومصالحها، بعقيدة تعتمد الهجمات الاستباقية ضد تهديدات ناشئة وهو ما يعنى الاستخدام الهجومى للقوة العسكرية كأداة للسياسة الخارجية الأمريكية بديلاً عن الاستخدام المؤسس على الردع بالتلويح بالانتقام والعمل على حرمان الخصم من أى جدوى لاستخدامه قوته العسكرية وهو ما يعنى فى النهاية منعه من القيام بأى عمل أو تصرف يضر بأمن ومصالح الولايات المتحدة والملاحظ أن صياغة العقيدة الجديدة مرت بثلاث مراحل، الأولى وهى الصياغة الأولية التى بادر بها الرئيس الأمريكى مباشرة فى أعقاب هجمات الحادى عشر من سبتمبر والتى تركزت حول فكرة عدم التمييز بين الإرهابيين وبين الذين يؤوونهم فى إشارة إلى الدول التى تتواجد على أراضيها منظمات إرهابية حسب قول الرئيس «إن الولايات المتحدة لن تميز بين الإرهابيين الذين ارتكبوا



هذه الأفعال، وهؤلاء الذين يؤوونهم».

وجاء التطبيق الفورى لهذه الصياغة الأولية بغزو أفغانستان فى أوائل أكتوبر ٢٠٠١ فى أعقاب ممانعة حكومة طالبان فى تسليم قادة تنظيم القاعدة إلى الولايات المتحدة لمحاكمتهم، المرحلة الثانية وهى الصياغة الأوسع التى أفصحت عن تغيير كبير فى السياسة الخارجية للعب دور جديد للولايات المتحدة باعتبارها قوة عظمى وحيدة تتحمل أعباء ومسئوليات السلم والأمن الدوليين، وقد جاءت هذه الصياغة فى خطوط عامة أعلن عنها الرئيس الأمريكى فى خطابه الشهير فى كلية وست بوينت العسكرية فى الأول من يونيو ٢٠٠٢ والتى وعد فيه بقرب إصدار استراتيجية جديدة للأمن القومى سوف يقوم بإرسالها إلى الكونجرس فى غضون الشهور القادمة. المرحلة الثالثة وتمثلت فى الصياغة النهائية لوثيقة «استراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة» التى احتوت نصوص استراتيجية جديدة غير مسبوقة تعدت أهدافها مسألة الدفاع عن الولايات المتحدة إلى إعادة تشكيل عالم جديد ليس آمنًا فقط، وإنما مثالى وطوباوى من وجهة النظر الأمريكية، فى نزعة غلبت عليها الدعائية لإبراز الجوانب الأخلاقية والقيمية على خلاف واقع الممارسة الكونية للولايات المتحدة المدفوعة بمصالح ذاتية وسعى دءوب للنفوذ والهيمنة.

إن القراءة الفاحصة لعبارات الوثيقة، وبعيدًا عما احتوته من استعراض لنزعة مثالية تبشيرية ممزوجة برائحة غطرسة القوة وفكرة الدحر التى حلت الآن محل سياسة توازن الرعب النووى التى سادت زمن الحرب الباردة أيام الاتحاد السوفيتى السابق. تدفع المرء إلى استخلاص أربعة عناصر رئيسية لهذه الوثيقة الاستراتيجية العقائدية.

العنصر الأول: تعريف الخطر، حيث حددت الوثيقة مصادر الخطر فى كل من الجماعات الإرهابية والدول المارقة، حيث ركزت «التحديات القاتلة الجديدة تلوح الآن من الإرهابيين ومن الدول المارقة»، وركزت الوثيقة على خطورة قيام هذه الدول المارقة التى تمتلك أسلحة دمار شامل بتوفير أنواع هذه الأسلحة الفتاكة إلى المنظمات الإرهابية حول العالم بذكرها «إن الخطر المأساوى الذى تواجهه أمتنا يقع عند تقاطع الراديكالية والتكنولوجيا معًا».

العنصر الثانى: الاستباقية Preemption، وهى سياسة الحرب الاستباقية، التى بشر بها بوش الابن فى خطاب وست بوينت لأول مرة عندما أعلن عن «نقل المعركة إلى أرض العدو، وتشويش خططه ومواجهة أسوأ التهديدات قبل أن تظهر»، ثم أعيدت صياغتها بتوسع وتركيز أكبر فى وثيقة الاستراتيجية التى حددت أن «الدفاع عن الولايات المتحدة، وعن الشعب الأمريكى، وعن مصالح فى الوطن والخارج سيكون بتمييز التهديد وتدميره قبل وصوله إلى حدودنا»، واستطردت تؤكد على أن «أمريكا ستعمل ضد هذه التهديدات الناشئة قبل أن تتشكل فى صورتها الكاملة».



العنصر الثالث: الانفرادية Unilateralism، ويعنى حق الولايات المتحدة فى القيام بعمل عسكرى منفرد فى الأزمات التى لا تتوافر لها حلول دولية أخرى متعددة الأطراف ومقبولة لدى الولايات المتحدة، وقد شددت الوثيقة على هذا النهج الانفرادى فى نصها على أنه «بينما ستسعى الولايات المتحدة بدأب لحشد الدعم من المجتمع الدولى، فإننا لن نتردد فى التصرف بمفردنا إذا كان ذلك ضروريًا، لممارسة حقوقنا فى الدفاع عن النفس، وذلك بالعمل الاستباقى ضد هؤلاء الإرهابيين، لمنعهم من الإضرار بشعبنا وبلدنا».

العنصر الرابع: قوة عسكرية مهيمنة Strength beyond challenge، وتعنى أن الولايات المتحدة ستعمل على إدامة وضعها كقوة عسكرية غير مسبوقة فى التاريخ، مع عدم إتاحة الفرصة لبروز قوة عالمية أخرى يمكنها تحدى هذه القوة العسكرية الأمريكية، الأمر الذى يوفر تأمين مكانة مستقرة للولايات المتحدة على قمة العالم كقوة عظمى وحيدة، وقد نصت الوثيقة على ذلك بذكرها أن «الولايات المتحدة لديها الآن، وترغب فى الحفاظ على وضع القوة العسكرية التى لا نظير لها.. وعلى العسكرية الأمريكية إثناء الآخرين عن أى تنافس عسكرى فى المستقبل».

العنصر الخامس: نشر مبادئ الديمقراطية الليبرالية Promoting liberal democratic Principles، وهى مسألة يبدو فى ظاهرها الالتزام الأمريكى بالسعى لنشر قيم الديمقراطية والحرية لجميع الشعوب فى كل أنحاء العالم، حيث «لا توجد دولة فى العالم مالكة لهذه التطلعات، ولا توجد دولة مستثناة منها»، وهى إشارة واضحة إلى أن نشر هذه القيم لن يستثنى دولة ما أو نظامًا حاكمًا ما فى العالم، وتعاود الوثيقة التأكيد على أن الولايات المتحدة ستناضل بحزم من أجل توفير متطلبات الكرامة الإنسانية التى تشمل من وجهة نظر الوثيقة «حكم القانون، تقييد السلطة المطلقة للدولة، حرية التعبير، حرية العبادة، المساواة فى العدل، احترام المرأة، التسامح الاثنى والدينى، واحترام الملكية الخاصة»، إن ما تطرحه الوثيقة يحمل فى جوهره مبررات تغيير النظم الحاكمة سواء فى الدول المارقة أو فى غيرها، فى حال اعتبارها أنظمة لا تعنى تقييم الحرية والديمقراطية، أو بمتطلبات الكرامة الإنسانية لأفراد شعوبها التى قررتها الوثيقة، وقررت معها أنه لا استثناء لدولة ما منها!

الجذور عام ١٩٩٢

يبدو التطابق قويًا بين وثيقة «استراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة» التى أصدرت رسميًا فى ١٧ سبتمبر ٢٠٠٢، وبين مسودة وثيقة خطيرة أعدها بول ولفوتيز فى أوائل العام ١٩٩٢ عندما كان يشغل آنذاك مساعد وزير الدفاع (ديك تشينى!) للشئون السياسية تحت مسمى «إرشاد التخطيط الدفاعى»، هى وثيقة تصدر عن وزارة الدفاع كل عامين لتوفر لكبار المدنيين والعسكريين فى الوزارة إطارًا جيوبولتيكيًا لتصور الولايات المتحدة لالتزاماتها الدولية والأخطار المحتملة فى مواجهتها، وهو ما يوفر دليلاً يتولى على أساسه المسئولون تقييم قواتهم واحتياجاتهم لفترة خمسة أعوام قادمة، وتعتبر وثيقة العام ١٩٩٢ ذات أهمية خاصة باعتبارها أول إرشاد للتخطيط الدفاعى الأمريكى يصدر بعد انتهاء حقبة الحرب الباردة وأول سعى جدى لتطوير استراتيجية دفاعية جديدة للولايات المتحدة فى ظل انفرادها بقمة وقيادة العالم.

عودة إلى مسودة الوثيقة التى وزعت على كبار مسئولى البنتاجون فى ١٨ فبراير ١٩٩٢، وتسربت مقتطفات مطولة منها إلى الصحافة الأمريكية فى ١١ مارس ١٩٩٢، فقد حددت مسودة ولفويتز ثلاثة أهداف رئيسية للاستراتيجية السياسية والعسكرية الأمريكية هى بالترتيب:

أولاً: منع ظهور قوة عظمى منافسة للولايات المتحدة: وقد صاغت المسودة استراتيجية مقترحة لتحقيق هذا الهدف من خلال عدد من الإجراءات من أبرزها الحفاظ على وتطوير قوة عسكرية أمريكية مهيمنة قادرة على ردع المنافسين المحتملين من الطموح للعب دور أكبر على المستويين الإقليمى والعالمى، كذلك منع أى قوة منافسة محتملة من السيطرة على أقاليم ذات موارد كافية لدعم قوة عالمية أخرى (حددت المسودة هذه الأقاليم بأوروبا الغربية، شرق آسيا، جنوب غرب آسيا، أراضى ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى السابق)، وكان الأكثر حساسية فى هذا الموضوع إشارة المسودة إلى كل من روسيا، واليابان، وألمانيا،



إن المحافظين الجدد الذين أعدوا هذه الوثيقة فى عام ١٩٩٢، لم يدركوا حجم الخطر المتصاعد من الجماعات الإسلامية الأصولية كما قصروا التهديد العراقى فى احتمال مهاجمته لدول الجوار الجنوبية



والهند باعتبارها خصوماً إقليميين محتملين يمكنها أن تطور قواها لتحدى الولايات المتحدة على الأقل إقليمياً، وقد يصل بها الأمر إلى مستوى القوة العظمى المنافسة دولياً!، والغريب أن المسودة لم تذكر الصين ضمن هذه القوى الصاعدة المنافسة التى يلزم الأمر العمل على تحجيم دورها كما نصت مسودة الوثيقة!

ثانياً: حماية مصالح الولايات المتحدة ونشر القيم الأمريكية: ركزت المسودة على دور القوة العسكرية الأمريكية فى تأمين هذه المصالح على المستوى الكونى، مع تشجيع نشر أشكال الديمقراطية فى نظم الحكم بدول العالم وأنظمة الاقتصاد المفتوح، وقد حددت المسودة أربعة تهديدات رئيسية للمصالح الأمريكية شملت إعاقة الوصول للمواد الخام الحيوية وانتشار أسلحة الدمار الشامل والصواريخ الباليستية، وتهديد مواطنى الولايات المتحدة من قبل الإرهاب أو الصراعات الإقليمية والمحلية، وتهريب المخدرات إلى داخل الأراضى الأمريكية، كما وضعت المسودة تصوراً لـ ٧ سيناريوهات لمواجهة أزمات إقليمية محتملة، خصت منها الشرق الأوسط بمواجهة تهديد عراقى لجيرانه الجنوبيين. ومن الملاحظ فى هذا المجال أن المحافظين الجدد الذين أعدوا هذه الوثيقة فى العام ١٩٩٢، لم يدركوا حجم الخطر المتصاعد من الجماعات الإسلامية الأصولية كما قصروا التهديد العراقى فى احتمال مهاجمته لدول الجوار الجنوبية، وعلى ذلك فقد كان ولفوتيز ورفاقه فى عامهم الأخير فى إدارة بوش الأب يحلقون فى الفضاء الخطأ!

ثالثاً: تهيؤ الولايات المتحدة للعمل منفردة عند الضرورة: لم تأت الورقة على ذكر العمل الجماعى دولياً عبر الأمم المتحدة، بل طرحت فكرة تكوين تجمعات الغرض المحدد ad hoc assemblies التى تتشكل للتعامل مع أزمة محددة، ووفقاً لخصائص ومتطلبات تتناسب وطبيعة تلك الأزمة، والتى قد لا تستمر حتى انتهاء حل الأزمة (لاحظ التحالف الذى قادته الولايات المتحدة فى غزوها للعراق واحتلاله بعيداً عن المنظمة الدولية!)، وقد شددت الورقة على استعداد الولايات المتحدة للعمل منفردة عندما يصعب تنسيق عمل جماعى، أو فى حالة ما إذا لزم الأمر رد فعل سريع، كما أظهرت المسودة اعتزام الولايات المتحدة العسكرى فى استباق أو معاقبة استخدام أسلحة الدمار الشامل من قبل أى دولة حتى فى تلك الصراعات التى لا تمس أمن أو مصالح الولايات المتحدة.

لقد أثارت هذه المسودة فور تسريبها إلى الصحافة الأمريكية جدلاً عنيفاً فى داخل الولايات المتحدة وخارجها، وهو ما دفع الرئيس بوش الأب آنذاك إلى طلب إعادة صياغتها مرة أخرى من وزير الدفاع (نائب الرئيس الحالى بوش الابن) ديك تشينى، وقد صدرت مسودة معدلة جديدة فى ١٦ أبريل ١٩٩٢، سربت مقتطفات منها إلى الصحافة الأمريكية فى ٢٤ مايو ١٩٩٢، اتسمت بلغة أكثر دبلوماسية اختفت منها هدف «منع ظهور قوة عظمى منافسة للولايات المتحدة فى المستقبل» إلا أنها احتوت عبارات غامضة تتيح نفس الأفكار أعدها بعناية سكوتر ليبى نائب ولفوتيز آنذاك (ورئيس طاقم موظفى تشينى نائب الرئيس الحالى)، على غرار «أن الولايات المتحدة ينبغى أن تحتفظ بعمقها الاستراتيجى، وأن تتصرف فى الخارج بغية تشكيل البيئة الأمنية» فى صياغة يفهم منها وجوب استمرار الولايات المتحدة قوة عظمى وحيدة ومهيمنة باعتبار أن «العمق الاستراتيجى» يعنى مراكمة مقدراتها العسكرية وشبكة قواعدها الواسعة إلى حد يحول دون إمكانية وجود منافس لها!، كما يفهم منها أيضاً فى مسألة «تشكيل البيئة الأمنية» أن الولايات المتحدة لن تنتظر حتى ترى منافساً لها يظهر أمام عينيها، بل عليها أن تتصرف لضمان تحرك الأحداث فى اتجاه يلائم مصالحها بدءاً من العمل فى مهمات حفظ السلام ووصولاً إلى الحد من انتشار أسلحة الدمار الشامل، وهكذا فإن وزير الدفاع آنذاك (ونائب الرئيس الحالى) أسهب فى استخدام مفهومى «عمق أمريكا الاستراتيجى»، و«تشكيل البيئة الأمنية» فى جلسات الكونجرس المعنية بالموازنة الدفاعية فى هذا العام إعجاباً بالمهذبين وقناعة بدور أمريكى قادم تقود فيه الولايات المتحدة العالم وفقاً لشروطها، لقد كان ما نجح مسئولو البنتاجون من المحافظين الجدد فى فعله، خلال أشهر بعد الانهيار السوفيتى، هو رسم المخطط الأساسى لعالم جديد هيمنت وتهيمن وستهيمن عليه القوة العسكرية الأمريكية.

إن مسودة وثيقة «إرشاد التخطيط الدفاعى» فى العام ١٩٩٢ ووثيقة «استراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة» فى العام ٢٠٠٢، يوضحان درجة عالية من التطابق فيما بينهما، فالمحافظون الجدد هم نفس اللاعبين الأساسيين فى كلتا الوثيقتين، والأفكار تتطابق فى مساحات كبيرة، والقليل جداً من الاختلاف الظاهر بفعل أن منظور وزارة الدفاع فى العام ١٩٩٢ جاء محصوراً فى التهديدات العسكرية بالدرجة الأولى وفى وقت لم يكن شكل العالم الجديد عقب الحرب الباردة قد اكتمل بعد، بينما أن منظور البيت الأبيض فى العام ٢٠٠٢ وبذات اللاعبين جاء أكثر اتساعاً ليشمل تهديدات غير تقليدية ودعوات رسالية أمريكية تخفى وراءها ذات الأيديولوجية المحافظة الجديدة بجناحيها قوة عسكرية لا حدود لاستخدامها فى السياسة الخارجية، وزهو بنقاء وتفوق أخلاقى، المطلوب توزيعه خيراً وصدقة على العالم!

بين التبرير والنقد

لم تثر عقيدة استراتيجية فى التاريخ السياسى المعاصر مثل هذه الضجة المصاحبة لجدل عنيف بدأ منذ لحظة ولادتها ومازال بين نفر قليل من الداعمين لهذه الاستراتيجية وهم الدائرون فى فلك المحافظين الجدد من مراكز بحث وأجهزة إعلام يمينية أمريكية متطرفة يدعمها لوبى يهودى وجد عوائد أرباح هائلة وراء هذه الاستراتيجية لصالح المشروع الصهيونى فى الشرق الأوسط، وفى المقابل جمهور كبير من الناقدين لهذه الاستراتيجية بمحاذيرهم المتكررة والمتشنجة معاً حول المدى الذى ذهبت إليه هذه العقيدة فى تنصيب القوة العسكرية الأمريكية المهيمنة أداة أساسية فى السياسة الخارجية وانتقال وظيفتها فى الردع التى استمرت لمدى يقارب نصف القرن إلى الهجوم المسبق وفقاً لرؤية وشروط دولة واحدة عظمى تقرر مصير الحرب والسلام العالمى من منظور رؤية أيديولوجية لعدد من قاطنى البيت الأبيض ومبنى البنتاجون!

وسنحاول أن نعرض لمبررات أصحاب العقيدة والداعمين لها، كما سنعرض لنقاط النقد التى وجهها الرافضون لهذه العقيدة، والتى استخدمها كلا الطرفين فى قتالهم الأدبى والفكرى على أمل كسب المعركة ولو بالنقاط على الأقل فى الفترة الزمنية التى امتدت ستة أشهر كاملة بين ١٧ سبتمبر ٢٠٠٢ عند إعلان وثيقة العقيدة الجديدة، وحتى ١٩ مارس ٢٠٠٣ لحظة اندلاع عملية «حرية العراق» أول تطبيق ميدانى لتلك العقيدة الاستراتيجية.

أولاً: مبررات الداعمين للحرب الاستباقية، يركز هؤلاء على عدد من معطيات الأوضاع الدولية القائمة، وطبيعة التهديدات الكامنة فيها والتى تدفع جميعها كمبررات نحو الأخذ بهذه الاستراتيجية لحماية أمن ومصالح الولايات المتحدة داخل الوطن الأمريكى وعبر العالم بأسره، وتتضمن هذه المبررات:

. عدم جدوى استراتيجية الاحتواء القائم على الردع التى سادت حقبة الحرب الباردة، باعتبار أن الولايات المتحدة تواجه أعداء راغبين فى المجازفة مهما كانت

عواقبها سواء على مستوى الدول «المارقة»، أو المنظمات «الإرهابية»، على عكس أعداء «الأمس» الذين حكمت حسابات العائد والتكلفة سياساتهم الخارجية وفرضت حالة السلم العالمى القائم على قناعة كاملة بتوازن الرعب النووى المؤسس على قدرة الخصم فى تحقيق دمار مؤكد متبادل ليس فقط فى الترسانة العسكرية، وإنما يتجاوزها لمستوى الإبادة الوطنية (مراكز سكانية واقتصادية وسياسية).

. أسلحة الدمار الشامل التى كانت تمثل قطبى النظام الدولى إبان الحرب الباردة أسلحة الملاذ الأخير، هى الآن فى يد أعداء «اليوم» الإقليميين أسلحة اختيار قد تستخدم فى افتتاحية الحرب لمواجهة ما شهدوه فى حرب الخليج الأولى من تفوق تقليدى مطلق للولايات المتحدة أطاح بواحدة من أقوى الترسانات العسكرية فى دول العالم الثالث.

. الخسائر البشرية والمادية غير المحتملة من قبل الولايات المتحدة فى حالة استخدام الأعداء «الإقليميين» و«الإرهابيين» لأسلحة دمار شامل، وهو مستوى من الأضرار سيكون غير مسبوق وغير محدود.

فى دراسة مقارنة لتأثير الأسلحة الكيماوية والبيولوجية والنووية على مناطق حضرية ذات كثافة سكانية بين (٣٠٠٠ . ١٠٠٠٠) نسمة/ كم٢ باستخدام رأس حربى صاروخ باليستى زنة (١٠٠٠) كجم فإن نسبة الوفيات فى حالة رأس كيماوى به ٣٠٠ كجم من غاز الأعصاب السارس تكون فى حدود (٦٠ . ٢٠٠) نسمة، وفى حالة رأس بيولوجى به (٣٠) كجم من الإنثراكس تكون فى حدود (٣٠٠٠٠ . ١٠٠٠٠٠)؛ وفى حالة رأس نووى قدرة (٥,١٢) كيلو طن يكون فى حدود (٢٣٠٠٠ . ٨٠٠٠٠).

وقد أشار الرئيس بوش إلى تلك المخاوف بقوله: «تخيلوا مختطفى الطائرات التسعة عشر، أولئك ومعهم أسلحة أخرى وخطط أخرى، هذه المرة وقد سلحهم صدام حسين. لن يحتاج الأمر إلا لتسلل قارورة واحدة، أو علبة معدنية واحدة، أو قفص واحد إلى داخل هذا البلد ليجلب علينا يوم ذعر لم نعرف مثيلاً له».

. أعداء «الأمس» كانوا يستخدمون وسائل تقليدية مرئية للعمل ضد الولايات المتحدة، وهو الأمر الذى يمكن رصده ومهاجمته استباقيًا وفقًا لقواعد القانون الدولى التى توفر حق الدول فى الدفاع عن نفسها فى حالة وجود خطر هجوم وشيك عليها كالحشود العسكرية المتأهبة قرب الحدود. أما أعداء «اليوم» فيستخدمون أسلحة دمار شامل من السهل إخفاؤها، وكذلك إطلاقها فى سرية ودون إنذار مسبق، الأمر الذى لا يتطلب الانتظار كما فى «الأمس» حتى يتم تشكيل التهديد وبروزه على العيان مرئيًا، بل يفرض الاستباق فى التعرف عليه ومهاجمته قبل أن يتشكل، مما يعنى إعادة تكييف مفهوم الخطر الوشيك ليتضمن الإمكانيات المتاحة لدى الخصوم المحتملين على النحو الذى ذكرته وثيقة العقيدة بنصها «علينا تكييف مفهوم التهديد الوشيك ليشمل إمكانيات وأهداف الخصوم الحاليين».. هكذا مجرد امتلاك الخصم لإمكانيات قد تسبب ضررًا للقوات الأمريكية أو المجتمع الأمريكى فإن ذلك سيكون عقابه تهديدا وشيكا يبرر الهجوم الاستباقى ضد ذلك الخصم!

ثانيًا: حجج الناقدين للحرب الاستباقية: من جانب الجمهور العريض من رجال السياسة والفكر الاستراتيجى المعارضين للحرب، تبرز حجج قوية تدحض مبررات هذه العقيدة الاستراتيجية فى أساسها نسوق تاليًا بعضًا منها:



. إن هذه الاستراتيجية فى مضمونها تعنى الحرب الوقائية Preventive War التى تهاجم فيها دولة ما دولة أخرى تحت دعوى الدفاع الوقائى عن النفس دون توافر عنصر التهديد الوشيك من قبل الخصم، حيث تبرير شن هذه الحرب هو احتمال قيام الدولة الخصم بالهجوم فى المستقبل، ومن ثم فالمبادأة بالهجوم عليها يصبح مبررًا لمنع هذا الاحتمال المستقبلى، وعلى ذلك فإن قواعد القانون الدولى لا تمنح حق شن مثل هذا النوع من الحروب التى تفتقر لأى مبررات أخلاقية أو قانونية فى غياب أى خطر هجوم وشيك من قبل الخصم وهى ذات الحالة التى تطرحها هذه العقيدة الاستراتيجية الأمريكية الجديدة للمحافظين الجدد التى تقرر أن مجرد توافر الإمكانيات لدى الخصم يبرر شن الهجوم عليه وهنا يصبح الأمر «وقائيًا» وليس «استباقيًا»، حيث الحرب الاستباقية Pre-emptive War تشن فى محاولة لدفع أو هزيمة هجوم أو غزو وشيك أو لكسب ميزة استراتيجية فى حرب وشيكة يصعب منعها ويتوافر فيها التهديد مرئيًا كالحشود العسكرية قرب حدود الدولة، أو اتخاذ أنظمة القتال أوضاعها القصوى تأهبا لشن هجماتها. وهذا النوع من الحرب يصبح مشروعا كدفاع عن النفس ويستند على أسس أخلاقية تبرر هذا العمل الهجومى المسبق، وهو النوع الذى لم تتناوله العقيدة الجديدة رغم نسبتها إليه كـ «عقيدة حرب استباقية». فالواقع يقرر بلا جدال أنها «عقيدة حرب وقائية» غير مبررة وغير قانونية.

. إن نهج الانفرادية فى العمل العسكرى دون الرجوع إلى مؤسسات الشرعية الدولية، يعنى إثارة فوضى غير مسبوقة فى النظام الدولى تؤكد فكرة أن الحرب نتاج منطق لمقولة «القوة تصنع الحق»، الأمر الذى سيتيح لقوى دولية أخرى فى النظام فرصة المبادرة بحل أزماتها مع الدول الأخرى بشن الحرب عليها طالما تأسست سابقة تغييب الشرعية الدولية، وفرضية قيام الدول من وجهة نظرها بتعريف التهديد وتحديد مستوى الخطر الوشيك كما تطرحها هذه العقيدة بقوة، وقد تنتهجها أيضًا بنفس منطق القوة دول كالهند، وإسرائيل، وروسيا الاتحادية، وربما إيران!

. إن مفهوم الحرب «الوقائية». وليس الاستباقية. الذى تطرحه العقيدة مناهض لمفهوم الحرب العادلة Just War الذى أسس للقواعد الأخلاقية لشن الحرب منذ ما قبل قوانين الحرب التى سنها النظام الدولى المعاصر بشكله الحالى، إن من بين أبرز القواعد الأخلاقية التى تشن على أساسها الحرب العادلة هو أن تكون الحرب الملاذ الأخير الذى استنفدت قبله كل الحلول السلمية لمنعها دون جدوى، وأن تكون من أجل قضية خطيرة، وأن تتم بـ «نية سليمة» بمعنى ألا تشن من أجل خدمة مصالح سياسية ضيقة، أو من أجل تحقيق أهداف مادية، وأن تتناسب درجة العنف المستخدم فيها مع حجم الضرر والمعاناة التى عانتها الدولة القائمة بشن الحرب من جانب الخصم. إن كل معايير الحرب العادلة تلك لا توفرها مثل هذه «الحرب الوقائية» التى تبرر شنها الولايات المتحدة بكل سطوتها العسكرية وبطشها، وهو الأمر الذى طرحه بإصرار الرئيس الأمريكى الأسبق فى رسالة مفتوحة إلى الرئيس بوش الابن قبيل شن حربه على العراق قائلاً فيها: «... بصفتى مسيحيًا ورئيسًا سابقًا طالما استفزته الأزمات العالمية، فقد أدركت إدراكًا تامًا ما تعنيه مبادئ الحرب العادلة، ومن الواضح أن هجومًا أحاديًا إلى حد كبير مثل الذى يخطط له الآن على العراق لا تنطبق عليه هذه المبادئ والمعايير، وليست هذه قناعتى وحدى وإنما هى تكاد تكون قناعة كافة القادة الدينيين على نطاق العالم باستثناء أولئك القلة الذين يتحدثون باسم رابطة الكنائس المعمدانية الجنوبية الذين طالما يتأثرون فى مواقفهم بما يمليه عليهم التزامهم تجاه إسرائيل اعتمادًا على إيمانهم بلاهوت الأخرويات».

. تأكيد العقيدة الاستراتيجية الجديدة بأن الولايات المتحدة ستبقى وتحتفظ بقوة عسكرية غير قابلة للتحدى، وقادرة على «إثناء الآخرين عن أى تنافس عسكرى مستقبلى»، يعنى أن الولايات المتحدة لن تستثنى أى دولة فى العالم من العمل على إرغامها أو إقناعها بتقبل تفوق عسكرى أمريكى غير محدود وغير مسبوق عليها، وهو ما سيطرح حساسية فائقة وشكوكًا عميقة حول نوايا ودور الولايات المتحدة تجاه الدول الكبرى الأخرى فى النظام الدولى خاصة الصناعية المتقدمة منها مثل ألمانيا وفرنسا واليابان، وتلك القوى الواعدة



لقد كان ما نجح مسئولو البنتاجون من المحافظين الجدد فى فعله، خلال أشهر بعد الانهيار السوفيتى، هو رسم المخطط الأساسى لعالم جديد هيمنت وتهيمن وستهيمن عليه القوة العسكرية الأمريكية



دوليًا كالصين والهند وروسيا الاتحادية.

هكذا كانت تبريرات الداعمين، وحجج الرافضين لاستراتيجية «الحرب الاستباقية» التى هى فى الواقع الأكاديمى والعملى استراتيجية «الحرب الوقائية»، وإذا ما تمعنا فى النقاط الرئيسية التى عرضنا لها لكلا الطرفين، ثم حاولنا أن نحمل معنا عناصر هذه الاستراتيجية الأربعة الرئيسية، وهى الاستباقية، والانفرادية، والقوة العسكرية المهيمنة، ونشر قيم الديمقراطية والحرية إلى حيث ساحة الاختبار الأولى لها على المسرح العراقى لعلنا نستطلع على الأرض نتائج هذا الاختبار ثم يكون عندئذ اختيارنا أى الفريقين كان الصواب حليفه!

فى المسرح العراقى تأكد أن الاستباقية، التى تعتمد على توافر خطر التهديد الوشيك، لم تجد على الإطلاق ما يبررها، فالعراق لم تكن لديه آنذاك أسلحة دمار شامل ولم ينشر ميدانيًا أى أنظمة إطلاق لها فضلاً عن استخدامها، ومن ثم فإن الولايات المتحدة وحليفتها بريطانيا لم يوفرا دليلاً واحدًا على تلك الحيازة المزعومة رغم عمليات المسح المحمومة والشاملة لكل مرافق وأراضى هذا البلد منذ اللحظة الأولى لاحتلاله وسقوط نظامه. لقد كان هذا الخطر المزعوم بتهديد وشيك أداة الإدارة الأمريكية ومحافظيها الجدد لشن حرب لها أهدافها الأخرى عبر بناء إجماع وطنى داخلى مشحون بعاطفة وروح انتقام لأحداث الحادى عشر من سبتمبر، ولعل هذا ما أكده مهندس غزو العراق نائب وزير الدفاع الأمريكى بول ولفوتيز بقوله «إن قرار اختيار أسلحة الدمار الشامل كمبرر للغزو اتخذ لأسباب بيروقراطية، لأنه المبرر الذى يمكن أن يوافق عليه كل فرد»!!

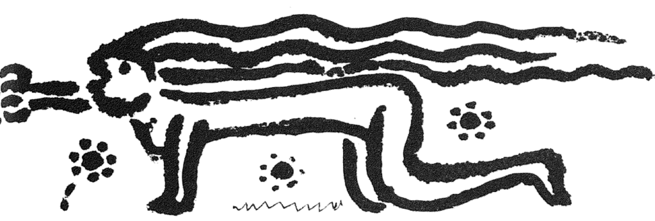
فى المسرح العراقى تأكد وهن العمل الانفرادى والخروج عن الشرعية الدولية وازدراء المؤسسات الدولية، منذ اللحظة الأولى لانتهاء عملياتها العسكرية الرئيسية فى العراق عندما بدأت تواجه سلسلة مآزق متتالية دفعتها فى كل مرة إلى الإسراع إلى مجلس الأمن سعيًا لإيجاد حلول لها والخروج بقرارات دولية تغطى بها ما بدا إخفاقًا واضحًا فى مواجهة مواقف لم تتحسب لها، بدءًا من مأزق الشرعية فى احتلالها للعراق والتصرف باسمه فى المحافل الدولية وهو ما وفره لها قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣ فى الثانى والعشرين من مايو ٢٠٠٣، ثم مأزق الاعتراف الدولى بصيغة «مجلس حكم انتقالى» للعراقيين وهو ما وفره لها قرار مجلس الأمن رقم ١٥٠٠ فى الرابع عشر من أغسطس ٢٠٠٣، ثم مأزق الخسائر المتصاعدة فى القوات الأمريكية بفعل المقاومة العراقية والسعى الأمريكى لتدويل هذه القوات ومشاركة دول أخرى، وهو ما وفره مجلس الأمن رقم ١٥١١ فى السادس عشر من أكتوبر ٢٠٠٣، والذى أذن بتشكيل قوة متعددة الجنسيات تحت قيادة موحدة لتوفير الأمن والاستقرار فى العراق، ومن ثم منح غطاء دوليًا لدول العالم التى قد ترغب فى إرسال قوات إلى العراق بعيدًا عن وضع الاحتلال القائم، ثم أخيرًا القرار ١٥٤٦ فى الثامن من يونيو ٢٠٠٤ والذى يعيد تشكيل حكومة عراقية مؤقتة تتولى كامل المسئولية والسلطة بحلول ٣٠ يونيو ٢٠٠٤ وقت انتهاء الاحتلال وانتهاء وجود سلطة الائتلاف المؤقتة، كما أعاد التأكيد على الجدول الزمنى المقترح للانتقال السياسى للعراق إلى الحكم الديمقراطى بحلول ٣١ ديسمبر ٢٠٠٥، إضافة إلى تنظيم عمل القوة متعددة الجنسيات وفقًا لرسالتى كل من وزير الخارجية الأمريكى ونظيره العراقى إلى مجلس الأمن الدولى حول إنشاء ترتيبات لإقامة شراكة أمنية بين حكومة العراق ذات السيادة والقوة المتعددة الجنسيات. وفى كل ما سبق فإن ما بدا فى أيام التحشد العسكرى الأمريكى على حدود العراق الجنوبية قبل عملية الغزو من قدرة الدولة العظمى على تجاوز غطاء الشرعية الدولية والمضى قدمًا فى العمل منفردة، قد تأكد ليس فقط صعوبته ولكن استحالته، وهذا ما أوضحته سلسلة القرارات الدولية التى هرولت الولايات المتحدة لاستصدارها من مجلس الأمن، الأمر الذى أقر به الرئيس الأمريكى أخيرًا بقوله «أعترف بأن كل أصدقائنا عارضوا قرارنا فرض تطبيق قرارات الأمم المتحدة وإبعاد صدام حسين عن السلطة، لكننا لا نستطيع أن نترك خلافات الماضى تعرقل واجباتنا.. إن قرار اللجوء إلى المنظمة الدولية اتخذ لأن بعض الدول طلبت تفويضًا دوليًا قبل إرسال قواتها إلى العراق» !

فى المسرح العراقى أيضًا تأكد وضع القوة العسكرية المهيمنة الصعب عندما تواجه بيئة «الحرب غير المتناظرة» asymmetric Warfare، التى تدار بأسلوب حرب العصابات غير التقليدى، فهذه القوة التى شنت حربًا تقليدية سريعة وحاسمة دمرت فيها قوة الخصم العسكرية واقتحمت عاصمته فى فترة لم تتجاوز ثلاثة أسابيع وبخسائر بشرية بالغة التدنى فى صفوفها (١٣٧ قتيلاً منهم ١٢٦ قتيلاً فى عمليات قتالية)، تواجه الآن على الصعيد الأمنى وضعًا حرجًا بفعل عمليات المقاومة (وكذلك الإرهاب) التى تشهدها المدن العراقية والتى لم تستطع معها فرض الأمن وإقامة القانون العام فى الوقت الذى تستمر فيه خسائرها البشرية فى التصاعد (وصلت الخسائر البشرية من القتلى فى صفوف الجنود الأمريكيين فى نهاية شهر مايو ٢٠٠٤ إلى ٨٧٤ قتيلاً) حتى أن شهر أبريل ٢٠٠٤ كلف القوات الأمريكية ١٥٧ قتيلاً، وهو رقم يزيد عن كلفة القتلى الأمريكيين إبان فترة العمليات العسكرية الرئيسية التى بدأت فى ١٩ مارس ٢٠٠٣ وانتهت فى أول مايو ٢٠٠٣ والتى أشرنا إليها سابقًا (١٣٧ قتيلاً).

فى المسرح العراقى كذلك تأكد وهن نشر قيم الديمقراطية والحرية، والتى تستوجب تغيير النظم الحاكمة فى الدول المارقة وغيرها، فالتفكير الرغبوى للمحافظين الجدد الذى يتصور أن مجرد تغيير النظام الحاكم سيوفر فى المقابل نظامًا بديلاً حضاريًا وإنسانيًا متقدمًا يراعى تلك القيم المطلوب نشرها قد وضح خطؤه فى العراق الذى يبدو غارقًا فى فوضى عارمة لتيارات متضاربة ومتصارعة تستدعى العصبيات المذهبية والإثنية والعشائرية على حساب مفهوم «الدولة. الأمة» والمواطنة، وهاهى تنهمك فى السعى لمكاسبها السياسية سواء شمل ذلك اقتسام السلطة على أسس طائفية وإثنية وجغرافية، أو التهيؤ لحكم ذاتى يمهد الطريق إلى انفصال قادم عن الوطن كما فى الحالة الكردية مهما تلونت العبارات والتوت فى داخلها النوايا. ثم إن متطلبات الكرامة الإنسانية التى بشرت بها الوثيقة الاستراتيجية للأمن القومى الأمريكى والتى أكدت على حرية التعبير، وحرية العبادة، والتسامح الإثنى والدينى، وحكم القانون، إلى جانب أشياء أخرى عديدة، ضلت طريقها فى ساحة العراق، بل وتأكد عدم مصداقيتها من قبل أصحابها الذين بشروا بها، ويكفى فقط أن نراجع ما حدث من إهانة إنسانية فى سجون العراق التى أشرف عليها ومارسها قادة وجنود الولايات المتحدة فى أسلوب منهجى تم التخطيط له مسبقًا وبعلم ودراية كاملة من قبل كبار المسئولين فى وزارة الدفاع الأمريكية، وهو ما كشف عنه تقرير الجنرال «تاجوبا»، وكشفت عنه أيضًا جلسات الاستماع التى عقدها الكونجرس الأمريكى بمجلسيه.

هكذا تبدو تبعات تطبيق استراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة التى تعتمد مبدأ «الحرب الاستباقية» التى هى فى واقع الأمر «الحرب الوقائية» التى لا تستند لمبررات قانونية أو أخلاقية فى شن الحرب ليس على أساس تهديد قائم وشيك دائمًا على أساس افتراضات باحتمال نشوء مخاطر مستقبلية، وهى ذات الاستراتيجية التى تضع تصورًا للعمل المنفرد بعيدًا عن مؤسسات الشرعية الدولية، الأمر الذى جعل العالم أجمع بلغات مختلفة وعلى مستويات عدة يحقق تحليقًا أعمى، طالما أن العمى قد أصاب من يقود سرب طيرانه المحلق، وهى ذات الاستراتيجية التى حددت واجبات دور إلهى للولايات المتحدة يضطلع بتوفير متطلبات الكرامة الإنسانية لكل البشر، فجاء إهدار الكرامة الإنسانية فى سجون العراق على نحو لم يشهده بشر.. الواقع يقول إن هذه الاستراتيجية تموت الآن! ■





الصراع ضرورة حياتية

يحيى الرخاوى

فيم يتنافس العالم الآن؟ كيف يتنافس؟ لأى غرض؟ لأى مدى؟ البقاء لمن؟ للأقوى؟ للأشطر؟ للأذكى؟ للأنفع؟ (أنفع لمن؟). للأكثر مالا؟ للأمضى سلاحا؟ ماذا نقدم لأطفالنا ليكونوا أحسن؟ أحسن مِن مَن؟ أحسن من ماذا؟ لماذا؟ لمن البقاء؟

هل ما زال تاريخ الحياة سلسلة من الصراعات المتتالية أو المتصلة أو المتناوبة؟ وهل ما زالت قوانين الصراعات هى هى لم تتغير على مر تاريخ التطور؟

بعد كل هذه التغيرات الرائعة الرهيبة: هل يستمر الصراع كما هو بما هو؟ هل كل ما تعلمناه من انهيار الاتحاد السوفيتى هو أن نقدس صراع الأسواق بديلا عن تقديس صراع الأيديولوجيات؟ هل كل ما تعلمناه من فشل الحروب الدينية هو أن نقلبها حروبا تقنية تتذرع بأوهام جديدة تحت عناوين صراع الحضارات أو نهاية التاريخ؟ ليكن الصراع هو قانون الحياة، وليكن العدوان غريزة أساسية لحفظ الذات فالنوع، لكن لكل مرحلة تفاصيلها الفرعية التى تستوعب القانون الأصل لتقوم بتحديثه بما يجعله يؤدى وظيفته الجديدة بما يليق بما أنجز.

حين انهار الاتحاد السوفيتى وتفككت أوربا الشرقية اختفى نوع من الصراع (الحرب الباردة) كان يقربنا من نبل صراع الحيوانات «من النوع الواحد». والتى تكتفى بعلامات الإذعان بديلا عن القتال حتى موت أحد أطراف النزاع. اقرأ الحديث الشريف الذى معناه أن المتقاتلين المسلمين (القاتل والمقتول) هما كلاهما فى النار (لأن المقتول كان ينوى قتل القاتل)، اقرأه بتعميم يشمل كل البشر، صانعو ١١ سبتمبر وغزاة أفغانستان والعراق وفلسطين (لعلهم واحد، ولسوف نرى!!) هم جميعا فى النار (نار الدنيا والآخرة معا).

متى يعلن العمر الافتراضى للحروب؟

إذن ماذا؟ هل يمكن أن نضع فرضا يقول: إن الحروب (بما فى ذلك الإرهاب فهو حرب من نوع آخر) قد اقترب عمرها الافتراضى من نهايته؟ ومن ثم فعلينا أن نبحث عن بديل عنها يحتوى حتمية الصراع وغريزة العدوان، وفى نفس الوقت يرتقى بإنسانية الإنسان بما يليق برحلته التطورية، وأيضا بإنجازاته الرائعة الأحدث فالأحدث؟

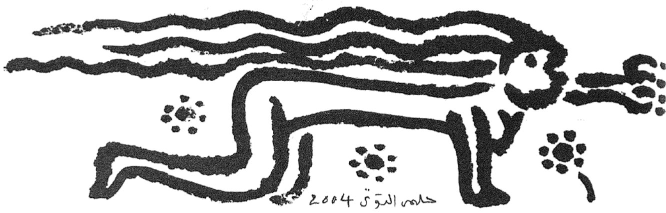
أحسب أن إلحاح هذا السعى (البحث عن بديل) قد مرّ على وعى البشر بشكل أو بآخر عبر التاريخ، ربما من هنا بدأ تقليد ما يسمى الألعاب الأولمبية سنة ٧٧٦ قبل الميلاد، كانت الفكرة هى البحث عن تنافس أرقى، فكان على كل ولاية أن ترسل أفضل رياضييها ليتنافسوا على شرف الإله زيوس بديلا عن الحرب. هل قام هذا الإبدال أو الإزاحة أو التسامى بالواجب بديلا عن الحرب؟

الذين عاشوا أربعينيات مصر والعالم، وعاصروا حلم الاشتراكية وهو يخرج إلى التطبيق، يعرفون ماذا كانت تعنى حركة «أنصار السلام» عبر العالم. منذ ذلك الحين، وقبله بقرون طبعا، وحلم السلام يعاود كل البشر بلا استثناء، حتى مجرمى الحرب الحاليين يقومون بإبادة الأبرياء دون رحمة ودون محاكمة وهم يرفعون شعار السلام. لا يمكن أن يتحقق حلم السلام هذا - رغم إلحاح وظاهر مشروعيته - بمجرد أن نتنازل عن الحرب أو نخاف منها أو نتبين فشل الإرهاب فى تحقيق ما نتصور أنه يمكن تحقيقه بهذا الدمار والقتل. الحرب تنتهى حين ينتهى عمرها الافتراضى، (الذى يمكن تحريكه بجهودنا نحو حمل مسئولية إبداع البديل)، والإرهاب يختفى حين تزول أسبابه ويتكرر فشله التطورى (وليس فقط الواقعى أو المرحلى). ربما يكون فى تلاحق المصائب والكوارث هكذا - مع تواكب الشفافية الملاحقة - ما يسمح بأن يدرك جميع الأطراف (بما فى ذلك أقوى الدول وأغباها) أن الحرب، بكل تنويعاتها وتبريراتها الأحدث هى عاجزة عن تحقيق إنسانية المنتصر، بل إنها تعمل فى عكس الاتجاه، أليس القاتل والمقتول فى النار، نار الدنيا هى أن يعيش القاتل (المنتصر) أدنى من أى حيوان نبيل لا يقتل بنى نوعه مكتفيا بعلامات الإذعان. بهذه الصورة، وبتطوير الحلم البشرى اللحوح يمكن أن نقول إن الحروب على وشك بلوغ غاية عمرها الافتراضى، وأنه لم يبق إلا أن يعلن النبأ حين نكون أهلا له، حالة كوننا قد وجدنا البديل الأرقى القادر على أن يحتوى تركيبنا الغائر المبنى على دوام الصراع لاستمرار الحياة.

الحرب الباردة كانت أنبل

كان المأمول أن تصلنا هذه الرسالة بدرجة كافية بعد انهيار وتفكك الاتحاد السوفيتى، وهى إعلان يقول: إن ترسانة هذا المعسكر المتهاوى، بكل ما فيها من أسلحة وذخيرة وتعصب (دون استثناء النووية منها) لم تزد ناسه (ولا ناسنا) إنسانية كما وعدت نظريتهم الرائعة. كان المأمول أن يتعلم القاتل فى أقصى الناحية الغربية (أعنى المنتصر على الجانب الآخر) أن ترسانته هو أيضا من سلاح وأوهام أيديولوجية هى من نفس النوع، خاصة بعد أن احتوتها راديكالية أصولية سلفية ظاهرة وخفية، كان المأمول أن يتعظ المنتصر وقد أصبح مسئولا عن تعديل مسار العالم باعتباره الوريث الأوحد للقوة المنهارة. الذى حدث للأسف هو عكس ذلك تماما: أصابهم الغرور، فأعلنوا، وتحدثوا وروجوا لما يسمى صراع الحضارات، وراحوا يبحثون عن أعداء حقيقيين حتى لو كانوا تحت الأرض، كما راحوا يصنعون ثم يحاربون أعداء وهميين حتى القتل الجماعى، قتل البشر دون قتل الأوهام.

تصور كثير من الناس أن العالم قد تقدم خطوة أو خطوات نحو السلام مع اختفاء الحرب الباردة، الذى حدث هو العكس تماما. مع اختفاء الحرب الباردة (الأرقى) قفزت على السطح أعداد



والعـــدوان غـــريزة بقـــائية

البـــحــــث عـــن الحــــرب «البــــديــــل»

متزايدة من الحروب الساخنة جدا: حروب بين الصغار والصغار، جنبا إلى جنب مع «حروب» الكبار لإبادة الصغار، ومن ثم اكتسبت الجريمة الصريحة مكسبا سمح لها أن تتسمى بأسماء حركية أو أسماء تدليل مثل «الحرب الاستباقية» أو «الدفاع عن النفس» أو «فى سبيل الديمقراطية»!!!! إلخ.

الصورة - فى ظاهرها - تبعدنا عما يسمى السلام المأمول، ولكن برغم ذلك فنحن نقترب مما أتصوره توقيت إعلان انتهاء العمر الافتراضى للحروب حتى القتل.

الحركية الإيجابية المضادة

برغم كل ما ذكرنا مما يشير إلى تسارع خطير نحو التدهور فالانقراض، فإن حركية الناس معا عبر العالم فى مواجهة السلطات الغاشمة على ناحية، وفى محاولة احتواء دوافع الإرهاب على ناحية أخرى، هذه الحركية التلقائية المتشابكة تتزايد باستمرار بفضل إنجازات العقل البشرى العلمية فالتقنية مؤخرا.

إن الناس، كل الناس، بالأصالة والنيابة، يتواصلون مع بعضهم البعض مباشرة لأول مرة فى التاريخ. هذه الحركية الجماهيرية الجارية فعلا فى الوقت الحالى ليس لها أية قوة اقتصادية أو عسكرية أو إعلامية قادرة تطمئننا أنه يمكن أن يكون لها أى أثر قريب، لكن الذى لا شك فيه أنها تتكون، وتتمادى، وأن عبثيتها الضرورية تتراجع لحساب جدية تتزايد قدرتها بقدر ما تتسع وعودها. إن ما يجرى على هذا المستوى هو أشبه بالحمل الذى يتخلق منه مولود غير مضمون سلامته إلا أنه يتشكل، إنه البنية الأساسية التى يمكن أن تمثل أساسا صالحا لوراثة فشل القشرة السلطوية الصلبة، التى يسمع حفيف تشققها فى كل موقع، رغم جبروت قوتها على جانب، (الحروب الإبادية) وجنون اندفاعها على الجانب الآخر (الإرهاب).

افتراضات وفروض

يمكن تلخيص الافتراضات الأساسية مع الفروض التى تولدت منها حتى هذه المرحلة على الوجه التالى:

أولا: ما زال الصراع ضرورة حياتية، بقدر ما أن العدوان غريزة بقائية.

ثانيا: إن الشكل القديم للصراع لم يعد صالحا لخدمة النوع.

ثالثا: التحايل لإنكار الصراع تحت مزاعم الحوار الشكلى، والسلام السلبى فشل وسيفشل أكثر.

(لا بد من التوقف طويلا قبل أن نأمل فى أوهام الشعارات الكلامية عن قبول الآخر أو حوار الأديان، هذا كله تسكين كاذب مهما حسنت النوايا، لأن المطلوب هو صراع الإبداع الشريف إلى غاية مشتركة: انظر بعد).

رابعا: إن تجليات الصراع فى صورتى الحرب الظالمة على ناحية، والإرهاب المتفجر على الناحية الأخرى، يؤكد اقتراب إعلان نهاية العمر الافتراضى لهذه الانحرافات السلبية (الحرب والإرهاب).

خامسا: إن ابتداع عداوات مهددة، وتجييش فرق جديدة، واصطناع معارك باعتبارها حتمية، (صراع الحضارات، والخطر الأخضر بعد الخطر الأحمر وتجنيبا للخطر الأصفر..إلخ) هى محاولة لتأجيل صور الصراع التناحرى الأدنى والأغبى.

سادسا: إن ميكانزمات الإزاحة، والتسامى، والإبدال...إلخ. (بمحاولات مثل حفز التنافس الأكاديمى، أو الرياضى، أو المهاراتى عامة) أصبحت عاجزة عن استيعاب طاقة غريزة العدوان الكامنة وراء الصراع البقائى الحتمى.

سابعا: إن إدراك الوعى العام (البشرى عبر العالم) لخطر كل هذا موجود ومتفاعل ونشط ويتزايد تماسكا، وتعاونا، وتفاهما، وتكاملا، مع أنه شديد البطء، ضعيف التأثير حتى الآن.

ثامنا: إن علامات فشل الانحراف بالصراع عن أصله، وتمادى أشكاله السلبية تظهر باستمرار من داخله، فصراع بورصات المال يحذر منه «سورس» نفسه، وإعلان نهاية التاريخ بانتصار نظام أوحد يتبعها نفس المؤلف «فوكوياما» بتحذير من «نهاية الإنسان»، وحرب العراق تعرى المنتصر أكثر من معايرة المهزوم، وسجن أبو غريب يكشف تنازل المعتدى عن إنسانيته بقدر ما يعلن سلب المعتدى عليه من إنسانيته...إلخ

بأى لغة يمكن أن نقرأ هذه الافتراضات أو نفهم هذه الفروض، وعلى مدى أى وحدة زمنية؟

الرد على هذا التساؤل يتطلب التذكرة ببعض الأساسيات.

معلومات وتاريخ

تاريخ الحياة (التطور) تاريخ حافل بما لا نعرف، وما نعرفه عنه هو حافل أيضا بما لا نستفيد منه. وبعض ما نحاول أن نستفيد منه نجهضه قبل أن يأخذ دورا إيجابيا فى مسيرتنا التطورية. الإنسان عامة، المعاصر خاصة، أصبح شريكا فاعلا أكثر فأكثر فى مسيرة التطور، شريكا له مواصفات وقدرات لم يعرف مثلها فيما سبقه من أحياء. من هنا أصبح تطوره معرضا للتأثر بأخطائه مساهما فى هذه الشراكة، ومرتبطا بمسئوليته وقدرته على الإسهام فى تقرير مصيره.

تاريخ الانقراض تاريخ أخطر من تاريخ البقاء، هو تاريخ غير معروف أيضا على وجه التحديد، بل ولا على وجه التقريب. كلها اجتهادات هامة، وفروض جيدة لا أكثر، ومع ذلك فما نعرفه عنه وعن الطبيعة البشرية، ينبغى أن يسدد خطانا أكثر فأكثر نحو تحمل مسئولية حياتنا ومصيرنا.

الصراع بين الأنواع موجود عبر التاريخ، والصراع داخل أفراد نفس النوع موجود أيضا خاصة بين الذكور، وفى أحوال محدودة ينشأ مثل هذا الصراع عندما تضيق الموارد

فتعجز عن الوفاء بحاجات البقاء لمجموع أفراد النوع، ظل هذا الأمر كذلك حتى ظهر ما (من) يسمى بالإنسان.

الإنسان حيوان يحتوى تاريخه. وهو يعيش أغلب وجوده بوعيه الأحدث، بقدر ما هو مشروع وعى يتخلق باستمرار: «بالتناوب» من خلال الإيقاع الحيوى، «وبالجدل» من خلال الإبداع على كل المستويات، بينه وبينه (بين مستويات وعيه وبعضها)، وبينه وبين «الآخر البشرى»، حالة كون هذا الآخر يمارس نفس الإيقاع ذى الحركية النابضة. وبينه وبين الطبيعة: خاصة إذا ما استشعر خطرها، أو خشى من انسلاخه عنها. من هذا المنطلق، لا يكون الإنسان إنسانا إلا إذا أضيف هذا البعد الذى يسمى الوعى (بكافة مستوياته) إلى كل نشاطاته ووظائفه وغرائزه، ليحقق من خلال هذه الإضافة تجليات حضور تركيبه القديم فى تشكيل جديد لا يلغى أو يهمل ما يحتوى من قديم لكنه لا يستسلم له ولا يدعه يقوده.

الرقم الخطير الذى يعلنه علماء التطور وعلماء الباليونتولوجيا (الباحثون فى أشكال الحياة فى العصور القديمة) يقول: إنه من بين ٥٠ بليون نوع من الحيوانات والنباتات التى ظهرت على الأرض لا يوجد حيا إلا ما يقرب من ٤٠ مليون نوع، أى أن نسبة انقراض الأنواع على مدى تاريخ الحياة هى ٩٩.٩٪. هذا الرقم لا يدعو للاستسلام بقدر ما ينبه إلى أن دور الجنس البشرى، بما نعرفه عنه حتى الآن، ليس هينا فى منع هذا الاحتمال الغالب.

الكائن البشرى، فيما نعلم، قد أصبح مشاركا أكثر فأكثر فى مساره باكتسابه كلا من الوعى والإبداع «معا».

مواجهة ومراجعة

من أهم المناطق الواجب مراجعتها بشجاعة مناسبة منطقة التاريخ الحيوى الذى نحتويه نحن البشر «هنا والآن». إن بعض هذا التاريخ يزعجنا مع أننا لا نكون بشرا بدونه، من بين ذلك ما نسميه «الغرائز»، ومن أهم ما لم نتصالح معه من بين هذه الغرائز غريزة العدوان التى هى المحور الأساسى لهذه الأطروحة.

نحن نحتاج إلى أن نعرف عن هذه الغريزة أشمل وأعمق وخاصة أنها أهملت وهمشت وشوهت أكثر بكثير من الغرائز الأخرى بما فى ذلك غريزة الجنس. ولكن قبل أن نبين بعض ذلك دعونا أولا نراجع إشكالية علاقتنا السيئة بغرائزنا عامة.

نبدأ بمراجعة أشمل لماهية الغرائز وما آلت إليه مما يعد مهربا علميا (شبه علمى) لا يليق.

أين موقع ما هو «غريزة» الآن؟

كاد الغرور الإنسانى (العلمى) يصيب «نظرية الغرائز» فى مقتل دون وجه حق، وذلك منذ ثارت نزعة مضادة ضدها، وقد توالت الضربات عليها من مصدرين أساسيين، هما الاتجاه السلوكى من ناحية، والاتجاه الاجتماعى من ناحية أخرى. إن مواقف اتجاهات علم النفس المعاصر، فى أغلبها، لم تدعم نظرية الغرائز بقدر ما حطت من قدرها أو أهملتها، وحتى غريزة الجنس كما هى، أو كما قدمها فرويد، لم تأخذ حقها فى الاستيعاب البيولوجى / الوجودى المناسب. إن سيجموند فرويد نفسه لم يعطها حقها على الرغم مما شاع عن فكره، بل جعل كبتها والتسامى فوقها (فيما هو «موقف أخلاقى»، أولصناعة حضارة ما) هو السبيل إلى التحكم فيها، ثم إنه بالغ فى عقلنتها (فيما هو نظرية) على حساب إحيائها باعتبارها لغة تواصل

المقارن فيما لم تنله غريزة العدوان بالمقابل. الجنس يجد مخرجا شرعيا واجتماعيا ودينيا مباشرا فى الزواج (قبل وبعد فرويد). وهو يجد كذلك مخرجا اجتماعيا (ومدنيا أحيانا) فى صورة العلاقات التلقائية قبل وخارج منظمات الأسرة فى كثير من المجتمعات شديدة البدائية وفى المجتمعات المتقدمة على حد سواء، كما أن الحديث عن الميل الجنسى بما يحمل من فرص التنفيس والإرضاء الجزئى يعتبر حديثا مقبولا ومحببا، بل وأحيانا فخرا وزهوا. غبيا. للرجال على الأقل، وللجنس حضور كاف ومطلوب ومرحب به عادة، فى صورته الصريحة أو المحورة، فى كثير من الأعمال الأدبية والفنية وحتى فى بعض مظاهر التدين (العشق الإلهى والغزل فى الأنبياء والأولياء... الخ).

أما غريزة العدوان فسمعتها سيئة على طول الخط، وبالتالى فإن إنكارها جاهز وفورى، فإن لم ينجح فإن

المتنافسين من الوضع «جلوسا» مصفقين على أحسن الفروض (!!)، وهذا غير كاف. فضلا عن احتمال الخداع والتشويه.

الأمر يبدو وكأنه لا توجد فى عالمنا المعاصر أية فرصة حقيقية لإطلاق غريزة العدوان ولا للتنفيس عنها أو حتى لمجرد الاعتراف بما يسمح باستيعابها، كما أنه يثبت كل يوم أكثر فأكثر أن التنافس - هكذا - لم يعد يكفى، وكأننا يمكننا إعلان أن درجة الكبت والمنع والإنكار لغريزة العدوان قد وصلت إلى أضعاف ما أزعج فرويد بالنسبة لغريزة الجنس وآثار كبتها.



الصورة - فى ظاهرها - تبعدنا عما يسمى السلام المأمول، ولكن برغم ذلك فنحن نقترب مما أتصوره توقيت إعلان انتهاء العمر الافتراضى للحروب حتى القتل



ارقى وأشمل، حتى ليمكن أن نأخذ نقد هـ. لورانس مأخذ الجد إذ يقول... «إن تناول فرويد للعمليات الغريزية فى الإنسان كان محملا بثقل الشعور بالذات لدرجة خليقة بأن تكتفى بإعلان الميل الشبقى بعيدا عن (فعل) الحياة، لتطيح باحتمال أن يحقق الإنسان براءته التلقائية وانبعاثه الخلاق بحق»، ثم يمضى لورنس فيقول «... إن نظرية التحليل النفسى قد أعدت لتصيبنا بحالة من «الجنس فى الرأس» (الدماغ)، ولا أحسب أن هذا هو المكان اللائق به». برغم كل ذلك فإن غريزة الجنس لها مجال ومتنفس وتجليات كادت تستوعبها أكثر من غريزة العدوان بكثير، ولكن تظل المحاولات لتهميش الغرائز تتمادى تحت مبرر أخلاقى أو مثالى لاشعورى عادة عند أغلب المفكرين (فالناس)، الأمر الذى ترتبت عليه عقلنة أو تشويه الأصل البيولوجى للطبيعة البشرية، بما يحول دون تطورها التلقائى.

برغم كل ذلك فإن فيما نالته غريزة الجنس من الانتباه والقبول والعناية والدراسة ما جعلها تصلح مرجعا للنظر

ميكانزمات الإبدال والإحلال والإزاحة والترميز جاهزة ونشطة دائما أبدا. وقد بدا مؤخرا أن ما يسمى التنافس بكافة تجلياته هو الأقرب إلى احتواء طاقة العدوان بشكل أو بآخر.

عن التنافس

تتجه التربية عموما، إلى حفز التنافس لاستيعاب طاقة غريزة العدوان بشكل أو بآخر، يشمل ذلك التنافس الأكاديمى، والتنافس الرياضى، والتنافس الاجتماعى (الشهرة)، والتنافس الجوائزى (التقدير الرسمى وشبه الرسمى)، لكن يبدو أن كل ذلك ليس (أو لم يعُد) كافيا لامتصاص طاقة العدوان، فضلا عن احتمال الضرر من الإفراط فى التنافس حتى الانشقاق أو الاغتراب أو كليهما. فالتنافس الرياضى. مثلا. لا يشمل إلا نسبة ضئيلة من الناس، فهو - حتى لو نجح فى احتواء طاقة العدوان - لا يشارك فيه عامة الناس إلا بتقمص

تذكرة من غريزة الجنس

إن الغريزة، باعتبارها سلوكا أوليا مطبوعا، ومن ثم موروثا للنوع كافة، وموروثا للفرد، مع بعض التفاصيل المختلفة بين الأفراد، هى تنظيم «خلوى نيورونى» قائم فى ذاته، ثم إن لكل غريزة تعبيراً بدائيًا مباشراً، كما أن لها فى نفس الوقت، من خلال ارتباطات تنظيمها النيورونى والخلوى، تعبيرات محورة تخدم أيضا المستويات الأعلى من الوجود الحيوى للنوع أو الفرد على حد سواء. إن الغريزة لا تظهر فى صورتها البدائية الأولية الفجة تماما إلا إذا انفصلت عن سائر الغرائز الأخرى من ناحية، وكذلك إذا انفصلت عن سائر الوظائف الأعلى من ناحية أخرى. ومتى عجزت الغريزة عن التكامل فى الارتباطات الأعلى والأشمل فإن وظيفتها تقتصر على دورها الدافعى الأدنى، وهو دور هام جدا لكنه لا يكون كافيا إلا فى أحياء لم تتطور إلى ما تطور إليه الإنسان. وبما أن الإنسان لم يصل بعد إلى التكامل المناسب مع تاريخه فإنه يعامل احتمال شطط غرائزه بالميكانزمات المناسبة لضبطها مرحليا على الأقل.

المسار الطبيعى لأى غريزة هو أن تتسع ترابطاتها مع اتساع وشمولية نمو الوعى حتى تصبح قادرة على الالتحام الولائى فى حركية التكامل الجدلى، سواء كان ذلك مع ما يبدو نقيضها من غرائز أو مع وظائف أخرى أحدث وأقدر (فلا تعود تحتاج إلى التعامل بالميكانزمات المناسبة بقدر جسيم أو طول الوقت).

من خلال هذه الافتراضات المبدئية يمكن إعادة النظر فى التصورات والمعلومات والمظاهر المتعلقة بغريزة الجنس بوصفها نموذجا نال حظا وافرا من الدراسة، وكذلك بوصفها معرضة لاتهامات أقل بأنها مجرد تعلم مكتسب!!

إن الغريزة الجنسية، بكل صورها البدائية والتالية، موجودة فى التركيب البشرى بتاريخه الحيوى كله، من أول

مضاجعة المحارم حتى أجمل أشكال الحب المبدع «معا» (وليس مجرد الغرام)، ولقد زعم فرويد أن الميكانزم الإبدالي السليم، لحركية الغريزة الجنسية هو «التسامي» الذي اعتبره فرويد بشكل ما أساسا لكثير من مظاهر الحضارة، ومازال هذا التصور يمثل نوعا من الترضية لغريزة الجنس مع أنها ترضية تتم على حسابها وليس لحساب نموها وتكاملها. ليست هذه الغريزة هي موضوعنا الأول هنا على أي حال، نحن نتناول غريزة العدوان اساسا.

قـيـاس واجـب

لا يوجد مبرر علمي (أو حتى أخلاقي) للتعامل مع غريزة العدوان بشكل مختلف عن تعاملنا (الميكانزماتي والحقيقي) مع غريزة الجنس. إن غريزة العدوان في صورتها البدائية (القتل والالتهام) موجودة في التركيب البشري بتاريخه الحيوي. وقتل الأكبر سنا (مثلا: الوالد) لتوفير الطعام وإعطاء فرصة للاستمرار الحيوي قد يفسر بعض جذور السلوك البشري دون حاجة للتمحك في تفسيرات درامية ذكرياتية فرويدية أوديبية تثبيتية خاصة. إن وظيفة غريزة العدوان (البدائية) الرئيسة هي حفظ الحياة (الاستمرار الفيزيائي) ولو بالقتل، أما وظيفتها الأرقى نسبيا فهي السيطرة للتنظيم الطبقي التمييزي المرحلي بالضرورة. إن من أهم أشكال التعبير المعاصر عن هذه الغريزة هو «تأكيد الذات» في مواجهة الآخرين، كما أن الميكانزم الإبدالي في حالة عجز هذه الغريزة (النسبي أو المطلق) عن التعبير المباشر وغير المباشر هو التعويض التفوقي بالنجاح والمكسب والسيطرة والانتصار بكل صوره (كما ذكرنا في البداية)، لكن كل ذلك يمكن أن يندرج تحت الحلول التعويضية أو التوفيقية وهي حلول لا تنتمي إلى التطور الحقيقي الذي أنتج الإنسان ويعد بإنتاج ما بعده. هذه الحلول ربما كانت تصلح حين كنا نتصور أن العقل هو أرقى ما وصل إليه الإنسان وأنه قادر على تنظيم حياتنا وحل مشاكلنا بمنطقه السليم وحساباته الجاهزة، أو حين أملنا أنه متى انفصل الدين السلطوي عن الدولة (السلطة) فإننا - نحن البشر - سنصبح أحرارا قادرين على التخطيط المطلق دون وصاية كهنوتية فوقية، أو حين تصورنا أن العلم الحديث هو على درجة من الموضوعية كافية لحل مأزق الإنسان المعاصر الآن ومستقبلا (تطورا). كل هذا بدأ يتبين أنه ليس كافيا من واقع المسار الواقعي لمجريات الأمور.

الذي حدث ويحدث هو ثورة معرفية إبداعية، ليست فقط تقنية علمية، ثورة حقيقية شاملة تعد بتصحيح ما، لعله ينفع.

الوعي أشمل من العقل والمعرفة أرحب من العلم

إن ما يطلق عليه «العقل» لم يعد هو أكثر ما يميز الإنسان ليفخر به كل هذا الفخر. الأرجح أن ما نسميه العقل هو ليس إلا بعض ما يتجلى ظاهرا مما يسمح به التواصل الممكن بين البشر، أما عمق الوجود فهو يتمثل أكثر فأكثر فيما يسمى الوعي الذي يشمل عقولنا الكثيرة معا، كما يشمل ما هو أكثر. هذا ما حقق بعضه ما يسمى العلم المعرفي، والعلم المعرفي العصبي خاصة، والتحليل النفسي التركيبي (وليس التحليل النفسي الفرويدي)، كل هذه العلوم تشير إلى أن لنا أكثر من عقل، تتضفر معا، جنبا إلى جنب مع مستويات الوجدان والجسد ليتكون منها الوعي البشري المتخلق باستمرار.

أعلم أن هذا تكثيف مخل، لكنها إشارة شديدة الأهمية للتنبيه إلى ضرورة تجاوز اختزال الإنسان إلى أنه «حيوان عاقل» أو «حيوان ناطق» أو «حيوان مفكر». هذه التعريفات (بما وراءها من موقف تنظيري) هي التي همشت الجسد وسطحت دور الغرائز خاصة في مجال المعرفة والتكامل الجدلي فالتطور.



تـاريـخ الانقـراض تـاريـخ أخطـر من تـاريـخ البـقـاء، وهـو تـاريـخ غيـر معـروف أيضا علـى وجـه التحـديـد، بـل ولا عـلى وجـه التقـريب



حتى لا تحل الوسيلة محل الغاية

الجهود البشرية المتواصلة العلمية والممارساتية تجرى- دون اتفاق مسبق - في اتجاهات مختلفة، اتجاهات ضامة في النهاية، إلى ما يبدو أنه يمكن أن يعد بإنقاذ نوعنا من الانقراض ما أمكن ذلك. إن مستقبل الإنسان لن يتوقف على كم الإنجازات الرائعة المتلاحقة، ولا على الإسراع بالحركة في أي اتجاه، وكل اتجاه، ولا على مدى تمتع أفراد البشر بما يسمى الرفاهية (أو السعادة أحيانا!!)، ولا على إطالة عمر الإنسان في صحة بدنية متميزة، ولا على كم الأدوات ودقتها التي تتاح للشخص العادي، ولا على تهويمات تصور حرية انطلاقنا (في كل مجال)، ولا على تنمية مهارات افراد أو جماعات لتحقيق إنجازات نادرة غير مسبوقة (في الرياضة أو في أي مهارة كانت)..إلخ. كل هذا غير مرفوض، شريطة أن يكون وسيلة لما يليق بالإنسان، فلا يعيقنا بالتوقف عنده، ولا ينحرف بنا وهو يتعملق فيختزل ما هو أشمل منه.

إننا لن نتطور بدون كل هذا، وأيضا إننا لن نتطور بهذا فحسب!!

حركية التطور وجدل الآتي

إنما يتوقف مستقبل الإنسان على مدى استيعاب وعيه لحركية التطوتم وقوانينه، ثم نجاحه في كف إعاقتها بانحرافات إنجازاته الجزئية (الاختزالية مثل العقل - العلم - التكنولوجيا..إلخ)، ثم على مدى قدرته على الإسهام في دفعها (دفع قوانين التطور) إلى ما هي، وما تعد به.

لا يمكن بداهة أن أقدم أية توصيات مفصلة كافية أو مفيدة في هذا الصدد، كل ما أستطيع حالا هو تقديم خطوط عريضة يمكن أن تكون ملاحظات لبدايات محتملة، في اتجاه المحافظة على حركية جدل التطور ثم ليكن ما يكون، ومن ذلك:

١- رفض التسليم لمقدسات شائعة، وألا يقتصر الرفض على مسلمات جامدة تمثلها سلطات ميتة فعلا. لا مفر من أن يمتد الرفض إلى أية مسلمات تقدمها لنا السلطة. أية سلطة. على أنها مسلمات منتهية، مهما بلغ حسن سمعتها، أو بداهة مشروعيتها، وأيضا مهما افتقدنا بديلا جاهزا لها (أهم مسلمات معروضة الآن مما يحتاج بحثا مبدعا في اتجاه نقدها فرفضها فتطويرها أو تحديثها أو إبدالها: ما يسمى الديمقراطية وحقوق الإنسان المكتوبة). يشمل ذلك أيضا كثيرا من المسلمات التي تهبط علينا من أنفسنا، ومن افراد حولنا حين نكسل أو نتراجع.

٢- تجاوز التقسيمات المرحلية (الاستقطابية عادة) التي أدت دورها بنجاح حقيقي، لكن يبدو أنها لم تعد قادرة على استيعاب النقلة التطورية الحالية التي تهددنا فعلا بالانقراض إذا نحن لم نستوعبها، والتي - في نفس الوقت. تعد بالطفرة إذا نحن تحملنا مسئوليتها. من أشهر ذلك تلك التقسيمات إلى عقل في مقابل عاطفة، ودين في مقابل علم، وفن في مقابل منطق، وجسد في مقابل روح، كل هذه التقسيمات أصبحت غير مفيدة، وغير حقيقية، بل ومختزلة، ثم معيقة، برغم دورها الرائع حين كانت لازمة لمرحلة ظهورها.

٣- مع تجاوز ذلك الاستقطاب إلى جسد وروح، يعود الجسد إلى موقعه المحوري في التطور، بدءا بدوره المعرفي (الذي استعاد بعضه من خلال العلم المعرفي الحديث)، فيتخلص من كونه مجرد أداة لغيره، أو مجالا لما هو فوقه، أو منفصلا عما يقوم به. الجسد هو وعي حركي مشتمل يتخلق مع، وبما، يقوم به من جنس وحركة ومعرفة وإبداع.

٤- إعادة النظر فيما تصورنا أنه نهاية قوانين البقاء، نعيد النظر بشجاعة المهدد بالانقراض، فننظر -مثلا في الزعم بأن «البقاء للأقوى» بالمعنى الذي يؤكد على أهمية الأنانية الفردية الدالة على التفوق الظاهر، فنكتشف أنها ليست هي وحدها التي تحافظ على الفرد فالنوع، إن الإيثار هو أيضا غريزة تؤكد أن البقاء للأحرص على صغار (وكبار) نوعه، ولو على حسابه مرحليا. إن الأبحاث الجارية في هذه المنطقة تعلن بكل وضوح أن ثمة ما يسمى «الإيثار البيولوجي»، وإن ثمة ما يسمى «تطور التعاون» (بيولوجيا) وأيضا أن ثمة علاقة وثيقة بين الاخلاق والتطور بالمعنى البقائي والمؤكد لهارمونية الجمال وليس فقط لاستمرارية الوجود المادي. إن مواجهة الإشكالية الداروينية بمزيد من البحث فيها وفي بدائلها جدير بأن يقدم لنا مجالات أرحب للنظر والمراجعة، لعلنا نفيق ونحن نتعرف من جديد على معنى كيف يكون القاتل والمقتول في النار، للمسلم وغير المسلم.

٥- أن يصبح إسهام الوعي في حركية كل الوظائف (والغرائز) جزءا لا يتجزأ من سلامة تلك الوظيفة أو هذه الغريزة. لا أقصد بحركية الوعي أن نكون واعين (عندنا علم شعوري بـ) بما يجرى، بل إن مثل هذه العقلنة الشعورية يمكن أن تكون وصية على حركية الوظيفة أو الغريزة حتى تشوهها أو تعوقها، وإنما أعني بالوعي تلك الإحاطة الكلية الغامضة الفعالة بما هو حالة الوجود المشتمل، بما في ذلك الإسهام الفعلي في حركية النشاط المعين في أي اتجاه، والإسهام الإدراكي لكلية التعامل مع المحيط (يستحيل التفصيل هنا بداهة).



الصـــــــراع ضـــــــرورة

٦- مع إسهام حضور الوعى بالمعنى السابق فى كل وظيفة (وغريزة) على حدة، ثم فيها مجتمعة، تتضفر الوظائف مع بعضها البعض من عمق معين. إن ذلك إنما يسهم فى تجاوز الاستقطاب الذى أشرنا إليه فى بند «٢» حالا. من ذلك كيف يتضفر الجسد مع ما يسمى العقل فى مجال المعرفة، وهذا بعض إنجازات العلم المعرفى الأحدث كما ذكرنا، وأيضا كيف يتضفر التفكير مع برمجة الوجدان، وهذا بعض إنجازات العلم المعرفى العصبى، ومن ذلك أيضا كيف يتضفر الجسد مع الجنس مع العدوان الإيجابى مع المعرفة مع الإيمان وهو بعض ما أظهرته متابعة تطور الوظيفة الجنسية من التناسل إلى التواصل، وأيضا هو بعض ما كشفت عنه الأسس البيولوجية للإيمان، وهكذا.

٧- ما دام الإنسان يتميز أكثر ما يتميز باكتساب الوعى الفائق المتعدد المستويات فى آن، وأن ذلك لا يكون إنسانيا بحق إلا إذا واكب وتجادل مع وعى إنسان آخر، فى طريقهما معا إلى الوعى بدوائر المحيط حتى الكون الأوسع بلا نهاية، فإن الأمل ينمو ويتجدد مع التطور فى هذا الاتجاه بديلا عن استعمال الآخر لتثبيت حوصلة الذات وتفوقها، وأيضا ربما يكون حضور الوعى الكونى مشتملا وعى الأفراد هو السبيل الأرقى لمرحلة تطور الإنسان المأمولة، الأمر الذى يستحيل تفصيله أيضا فى هذه الإشارة.

(لم أقدم فى هذه الخطوط العريضة أية إشارة عن علاقة الإنسان مع الطبيعة حتى لا يقتصر مفهوم الطبيعة على المحيط المادى المحدد، أو للإشارة إلى ما يسمى تجنب تلوث الطبيعة..إلخ. إن هذا البعد شديد الأهمية حين تشمل الطبيعة الإنسان «الآخر» امتدادا إلى الوعى الكونى، مرورا بتجلياتهما معا فى كل آن وموقع، وهذا حديث آخر)

وفى ذلك فليتنافس المتنافسون

أتوقف عند هذه المرحلة لإدراكى مدى ما يمكن أن يترتب على التمادى فيها حتى تبدو شطحا حالما أكثر منها وعدا قائما، ثم إننى إذ أقر وأعترف كيف يمكن أن يكون كل هذا الذى تقدم أبعد عن استقبال الشخص العادى (القارئ العادى) إلا أنه أبعد أكثر عن مدى استقبال العالم المتحذلق، ومع ذلك فقد تصورت أنه - فى نفس الوقت - هو أقرب ما يكون إلى الشخص العادى الذى كتبت له المقال وأنا على يقين من أنه لن يقرأه إلا قليلا.

هذه ليست دعوة للتهوين من شأن إنجازات العلم والتكنولوجيا مثلا، ولا هى دفاع عن قدرة تلقائية لفطرة غامضة.

فى أطروحة سابقة للكاتب عن «العدوان والإبداع»، كان الفرض المقترح يزعم أنه يمكن استيعاب العدوان (لا التسامى به أو عنه) فيما أسميته «الإبداع الخالقى» تمييزا له عن «الإبداع التواصلى»، القادر على استيعاب طاقة الجنس (كما زعم الفرض السابق). فإذا كان لى أن أنهى هذه الأطروحة الحالية بما هدفت إليه، فإن ذلك قد يكون بدعوة كل من يهمه الأمر (فعلا) للمشاركة فى توجيه تنافسنا فيما بيننا إلى مجال أرحب يستوعب طاقة العدوان لنا جميعا بعيدا عن القتل والعدوان، وربما بديلا عن بورصة الأوراق المالية والأولمبياد (دون التقليل من شأن أى منهما).

إذا كان لنا أن نختبر بعض ما ذهبت إليه هذه الأطروحة فلن يكون ذلك إلا من خلال كل إنجازات العقل والعلم والفن والخبرة الإيمانية الوجودية واحترام دور الجسد والممارسة جميعا، ليس بالإضافة المتجاورة (فن + علم + خبرة + إيمان + جسد..إلخ)، وإنما بالاستيعاب المشتمل القادر على التجلى المتعدد بلغات مختلفة فى مجالات مختلفة.

إن التنافس الذى أتصور أنه يجرى وسيجرى فى مجال التكامل الواعى (وغير الواعى) نحو تجاوز الحلول الحالية الرائعة (التى لم تعد رائعة) هو تنافس آخر يحاول استيعاب التاريخ الحيوى الذى هو بداخلنا كله فى انطلاقة التطور التى تعد جهودنا المعرفية والحياتية (وليس فقط العلمية والتقنية) بتحقيقها من خلال وعى مشتمل يتنافس إبداعاً فى مجالات أصبحت لا تحتمل الانتظار.

أمران يعتبران بداية طيبة لما أدعو إليه: الأول: ألا نستسلم للمسلمات الحديثة منها والقديمة على حد سواء، حتى لو لم يظهر لها بديل جاهز الآن، والثانى: ألا نكف عن المحاولة عن البحث عن (إبداع) بديل يمكن أن يكون أقدر على استيعاب تاريخنا الواعد بطفرة لا تحت معالمها فعلا.

يقينى - أو لعله أملى الذى يبرر استمرارى - يقول:

إنه فى إمكان إنسان اليوم، من خلال التواصل الأحدث والأسرع والمباشر أن يتجاوز سجن المنهج، وجمود السلف، وأوهام السوق، ووصاية السلطة، وغباء الحرب، بمواصلة الإبداع بوعى فائق فى كل المجالات.

ربما. ▪

البقـــــــاء.. لمـــــــن؟!

وأنا أكتب هذا المقال حول «التنافس لإبداع حلول أقدر على استيعاب طاقة العدوان»، لأطور تفصيلا ما جاء فى مقال سابق لى وصل معناه للبعض، وكأننى ضد التنافس الرياضى برغم روعته. وإذا بزميل فاضل يتصل بى ليبلغنى نبأ رحيل أخ كريم. شعرت بثقل يكاد يغوص بى فى مقعدى. سيقان من رصاص وقلب مفعم بكل تلك المشاعر التى لم تقتصر على فجيعة المفاجأة، وصدمة الفقد.

نظرت فى الأوراق أمامى قبل أن أطويها فإذا بها تساؤلات أخرى عن حقيقة الصراعات التى يعيش فيها العالم الآن وعلاقتها بقانون البقاء: صراع الحضارات، صراع السوق، الصراع العرقى، صراع محاور الخير والشر لكل حقيقته!.. إلخ.

تساءلت من جديد: ماذا نعلم أطفالنا ليكونوا أحسن؟ أحسن من من؟ أحسن من ماذا؟ لماذا؟ لمن البقاء فعلا؟

دق جرس الهاتف من جديد فإذا بإحدى من بناتى طالباتى تعزينى فى فقد الزميل الكريم وهى تجهش بالبكاء حتى لم تكمل المكالمة؟ كان من بين ما قالت ذلك التعبير الشائع الذى لم أفهم معناه أبدا «البقية فى حياتك»، رددت بشكل آلى: حياتك الباقية.

وضعت السماعة وأنا أتساءل عن معنى ما اعتدنا أن نردده بصدق فى مثل هذه المناسبات: أى بقية تلك التى نتحدث عنها؟ ما هذا؟ وكيف أن حياتها - حياة ابنتى تلك - هى الباقية؟ قفزت إلى وعيى مواساة أخرى أقرب إلى نفسى حين نذكر أهل الفقيد - وأنفسنا - أن الله سبحانه استرد وديعته. نحن ودائع. نحن ودائع لأجل، ولكل أجل كتاب، حتى إذا جاء أجلنا لا نستأخر ساعة ولا نستقدم.

رجعت إلى المسودة فوجدت التحدى يحتد من جديد وهو يهز «قانون البقاء» الحيوى الأشهر.

ألا يحتاج هذا القانون الداروينى إلى أن نطالب بتعديله مثلما نطالب بتعديل قانون معاشات أساتذة الجامعات؟ لمن البقاء فعلا بين البشر عبر العالم؟ البقاء للأقوى أم للأشطر أم للأمضى سلاحا؟ أم للأخبث مخابرات؟ أم للأحذق إعلاما؟ وجدتنى أرد بتلقائية دون تفكير أن البقاء لله.

هل هى كلمات عابرة ثم ننساها كما ننسى الحزن والعظة والحكمة بعد كل فقد عزيز أو غير عزيز؟ ألم يئن الأوان أن نتعمق فهم تلك الكلمات القليلة الرائعة لعلنا ندرك من واقع إبداع حلول جديدة، تليق بتاريخ الإنسان الرائع، فهما جديدا لها يصبرنا على فقد أعزائنا ويقربنا من معنى أعمق لحياتنا، ونحن نواصل السعى لنتصاعد بهارمونية التسبيح وهو يقربنا بشرا من بعضنا البعض، إذ نتوجه إلى الحق سبحانه وتعالى بدلا من تصارعنا حتى تبيد كل فرقة الأخرى بلا وعى أو بوعى أعمى، وبشكل لا تمارسه الحيوانات من النوع الواحد حفاظا على بقائها.

حين نتعلم من فقد عزيز، وظلم قاهر متغطرس، وغباء إرهابى، وبلادة مستغل، كيف أن البقاء لله، تصبح التعزية بردا وسلاما على أهل الفقيد ومحبيه، وعلينا.

يحيى ..

نَحْنُ والشِّمْبَانْزِى

أحمد مستجير

■■ حدثت هذه الواقعةُ فى جامعة أكسفورد يوم السبت ٣٠ يونيو ١٨٦٠، بعد ستة أشهر مِن صدور كتاب «أصل الأنواع» لتشارلس داروين C.Darwin. انعقد اجتماعُ المؤتمرِ السنوى للجمعية البريطانية لتَقَدمِ العلوم فى هذا التاريخ، وحضره نحو ٧٠٠ شخص، وكان الموضوع هو «التطور». بدأ الاجتماع بمحاضرةٍ للدكتور جون و. دريبر W. J. Draper الأمريكى، وكانت عن «التطور الفكرى لأوروبا، بالإشارة إلى أفكار المستر داروين». استغرقت المحاضرةُ ساعةً، ثم بدأ غَيرُه يتحدثون يعالجون نفسَ القضية. على المنصة كان يجلس عددٌ مِن رجال الكنيسة، من بينهم الأُسقُفُ صمويل ويلبرفورس S.Wilberforce. عُرِفَ عن هذا الرجلِ أنه محاورٌ بارع. طَلَب الجمهورُ منه أن يتحدث، فحاول التملصَ. لم يكن الرجلُ متعمقاً فى العلوم البيولوجية، ولم يكن على ما يبدو قد قرأ كتاب داروين بالعناية الكافية. كل ما كان يعرفه قد جاءَ عن جلوسِه واستماعِه إلى السير ريتشارد أوين R.Owen، عَالِم التشريح الشهير، وأَحَد كبارِ معارضى داروين. عندما وقف ويلبرفورس ليتحدث، انتقد النظريةَ بشكلٍ ساخرٍ للغاية، وجعلها تبدو سخيفةً مضحكةً. وفى نهاية حديثه التَفَتَ إلى الشابُ توماس هنرى هَكسلى T. H. Huxley، وكان يجلسُ بجواره على المنصةِ، وسألَهُ فى تهكم:

« تقولُ إنك من سلالةِ القرود، فهل يا تُرَى وصلَكَ منها الإرثُ عن طريق جَدتِكَ أم عن طريق جَدكَ؟».

هنا ضرب هكسلى بيده على ركبتيه وتمتم لنفسه « لقد سَعَيْتَ إلى حَتْفِكَ بِظلْفِكَ. لن أتركَكَ!».

جلس الأُسقُفُ وعاصفةٌ من التصفيقِ والضحك تملأُ القاعةَ. طَلَب الحضورُ من هَكسلى أن يتكلم. نَهَضَ متحدياً. بدا وكأنه قد تجاهلَ أنَّ الأُسقُفَ لم يكنْ يهاجم فكرةَ التطورِ، وإنما يهاجمه هو شخصيًا. شرح هكسلى الأفكارَ الأساسيةَ للنظرية، وفَضَح ما رأى انه جَهلٌ فى حديثِ ويلبرفورس. وفجأة تحول ليواجه الأُسقُفَ المغرور. تَفَحَّصَهُ بعينيه أولاً كما لو كان أحفورةً قديمةً غريبةً، ثم قال:

«إننى لا اخجلُ من انِ يكونَ القردُ من اسلافى، لكننى اخجلُ من ان ارتبطَ برجلٍ يستغلُ مواهبَه وفَصَاحَتَهُ فى أن يُعَهِّرَ الحقيقةَ ويُخفيها، ويُشَوِّهَ صورةَ علماءِ أفنوا حياتَهم يبحثون عنها!».

كانتْ هذه هى المعركةَ الأولى فى حرب طويلة، مستمرةٍ. لا زالت. حتى اليوم. القضيةُ لم تَمُتْ، بل إنها فى الحق تزداد اشتعالاً، تذكيها نتائجُ علميةٌ جديدةٌ، يأتى معظمُها عن علمِ الوراثة الجزيئية الحديث، الذى حَوَّلَ كثيراً من اهتمامِه الآنَ إلى دراسة جينومات الرئيسات primates، ولاسيما الشمبانزى Chimpanzee (أو الشُمْبُ Chimp).

«من» يكون الشُمْبَانزى؟

هناك من الشُمبانزى نوعان يمثلان أرقى القردة العليا: بان تراجلودايتس Pan traglodytes وهو الشُمبانزى الشائعُ المعروفُ ويستوطن الضفةَ اليمنى من نهر الكونغو، وبانِ بانيسكَص Pan paniscus أو البُونُوبُو Bonobo، ويسمى الشِمبانزى القزم، أو شِمبانزى الضفة اليسرى لنهر الكونغو. يعتقد علماءُ البيولوجيا أن الشُمْبَ هو أقربُ أقاربنا فى سجل التطور، وأنه قد جاء عن انشعابٍ من سَلَفٍ شائعٍ معنا منذ ٤ - ٧ ملايين عام، وأنه يُشَاطِرُنا فى ٩٨٪ من المادة الوراثية كما قالتْ مارى كلير كينج C.M. King عام ١٩٧٥. الأمر الذى حدا بجاريد دياموند J. Diamond أن يطلقَ على البشرِ اسمَ «الشمبانزى الثالث».

ينتشرُ الشمبانزى فى الغابات الاستوائية والسافانا المطيرة بغرب ووسط افريقيا، لكن موطنَهُ قد اخْتُزِلَ كثيراً فى السنين الأخيرة، وأصبحَ النوعُ مهدداً بالانقراض، إذ يبلغ تعداده الحالى ما بين ١٠٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠٠ فرد، وكان منه الملايين منذ مائة سنة!

بنيةُ الشمبانزى أقوى كثيراً من بنية البشر، ويصل طول الأنثى البالغة إلى ٦٦ - ١٠٠سم، أما الذكر البالغ فما بين ٩٠ و١٢٠سم. أما وزنُ الأنثى البالغة فيتراوح ما بين ٢٦ و ٥٠كجم، والذكر البالغ ما بين ٣٥ و٧٠كجم. يُغطى الجسمَ شعرٌ أسود داكن خشن، فيما عدا الوجه (إلاَّ من لحيةٍ بيضاءَ قصيرةٍ فى البالغين من الذكور والإناث) وأصابع اليد والقدم وراحة اليدِ وباطن القدم وتحت الإبط. الإبهامُ وإصبعُ القدمِ الكبير يُمَكِّنَانِ الحيوانَ من القبضة المتينة بيديه ورِجلَيه. وهو بلا ذيل وذراعاه طويلان أطول مِن رجليه.

يصل الذكرُ إلى النضج الجنسى فى عمر ٧ - ٨ سنوات، والأنثى فى عمر ٦ - ١٠ سنوات. تبلغ فترةُ الحمل نحو ثمانية أشهر، ويندر أن يُولَدَ توائم. تُفْطَمُ الصغارُ على عمر ٣ سنوات، وإن بَقِيَتْ ملازمةً للأمِ سبع سنوات أو نحوها. يبلغ متوسط طول العمر فى الأسرِ نحو ٦٠ عاماً، أما فى الغابةِ فيتراوح ما بين ٣٥ و٤٠ عاماً.

الشمبانزى حيوانٌ اجتماعى للغاية يعيش فى مجاميع أو مجتمعاتٍ تتراوح أعدادها ما بين ٢٠ و ١٥٠ فرداً. على أنه يتحرك معظم الوقت فى مجاميع صغيرة من بضعة أفرادٍ لا أكثرٍ (٦ أو ٧ أفراد). وهو حيوان نهارى شَجَرِى وأَرضِى، يُنفق وقتاً متساوياً فى الأشجارِ وعلى الأرض. يمشى الحيوان طبيعيًا على أربع، لكنه يستطيع المشىِ على اثنتين لمسافاتٍ قصيرة. يَسْتَخدم الحيوان تعبيراتِ الوجه والصوتَ ولغةَ الجسد، حتى الأحضان والقُبَل، للتواصل معِ أفراد جماعته، بل ولقد يَسْتَجدِى الفرد الطعامَ من زميلِهِ، فيقترب منه مُسْتَعْطِفاً . مفتوحَ اليدين!

غذاءُ الشمبانزى أساساً نباتىٌ (الثمار والأزهار والبذور والسوق والقلف والدرنات) مع بعضِ الحشراتِ والفرائسِ الصغيرة. وقد رُصِدَتْ حالاتٌ يقومُ فيها بالصيد، إن تكنْ على ما يبدو حالاتٍ وقائيةٍ يحركها الجوعُ. على أن أفرادً الشمبانزى قد يتجمعون لاصطياد قردٍ وأكلِ لحمه، الأمر الذى قد يعنى أن الشُمبانزى قادرٌ كالبشرِ على الصيد الجماعى، وأنه يَسْتَطعِمُ اللحمَ.



الشمبانزى حيوانٌ اجتماعى للغاية يعيش فى مجاميع أو مجتمعات تتراوح أعدادها ما بين ٢٠ و ١٥٠ فرداً. على أنه يتحرك معظم الوقت فى مجاميع صغيرة من بضعة أفراد لا أكثر (٦ أو ٧ أفراد)





قصتنا مع الشمبانزى

فى تسعينيات القرن السابع عشر، قام العالم الإنجليزى إدوارد تايسون E.Tyson بتشريح أول شمبانزى، ولاحظ أنَّ بين مُخِّه ومخ الإنسان تشابهاً «مدهشاً»، لكن عالم التشريح السير ريتشارد أوين، فى القرن التاسع عشر، قال إن هناك بين المُخَّين فارقاً واضحاً للغاية، وليس بين البشر مَنْ يمكن اعتباره شمبانزى مُحوَّراً. كان أوين معارضاً عنيفاً لآراء داروين فى التطور، ولآراء الفرنسى جان بابتيست لامارك B. J.Lamarck منْ قبله، ومن ثم فقد بَحَثَ عن شىء يتفرد به مخ الإنسان ولا يوجد له مثيل فى بقية الرئيسات. وقد وجَدَ ضَالَّتَهُ فى طيَّة صغيرة توجد بمؤخر المخ البشرى ولا توجد فى غيره، واعتبرها مركزَ العقل والفطنة، حتى ليضعَ بسببها الإنسانَ فى مرتبة رفيعة وحده. إلى أن جاء خصمه اللدود توماس هنرى هكسلى، لينفى الرواية ويقول إن أوين قد أهمل فى حماقة وجود «الطيَّة البشرية» فى القِردة العليا.

وعلى بداية القرن العشرين، بدأ العلماء ينتبهون إلى الرابطة البيوكيماوية بين البشر والشمبانزى، فاكتشفوا أن شكل الكثير من بروتينات الشمبْ يشبه بروتينات البشر، بل ويكاد يطابقها. وعلى أوائل ثمانينيات ذلك القرن، تحول العلماء من البروتينات إلى مادة الوراثة. واكتشفوا أن مادتنا الوراثية تشبه المادة الوراثية للشمب كثيراً: فى الكروموزومات وفى التشريح الجزيئى.

الكروموزومات

يحمل الكائن الحى جهازَه الوراثىَّ فى نواة كلِّ خلية فى خلاياه. يتألفُ هذا الجهازُ أساساً من عدد (مزدوج) من الكروموزومات chromosomes مُحدَّد فى كل نوع (هو فى الإنسان مثلاً ٢٣ زوجاً فى الشمب ٢٤ زوجاً وفى ذبابة الفاكهة ٤ أزواج)، يأتى نصفُ العدد من الأب (فى الحيوان المنوى) والنصفُ الآخر من الأم (فى البويضة). الكروموزومات أجسامٌ عَصَوِيَّة تتكون أساساً من دنا DNA ملفوف لَفًّا مضاعفاً، مع بروتينات مرافقة، وبه منطقةٌ منقبضة تسمى السنترومير centromere تقسم الكروموزوم إلى ذراعين غير متساويتين عادة، واحدة قصيرة (ق= p) والأخرى طويلة (ط= q). فى كل من طرفى جديلتىْ كل كروموزوم يوجد تتابعُ من القواعد يسمى التيلومير telomere وظيفتُه حمايةُ الجديلة أثناء الانقسام. يتآكل التيلومير مع توالى الانقسام وقد يُعاد تطويله ويكون ذلك عن طريق إنزيم يسمى التيلوميريز. فإذا ما أصبح التيلومير



قصيراً للغاية فى الخلايا الجسدية غدًا عرضةً عند الانقسام للأخطاء التى قد تؤدى إلى السرطان.

إذا صُبغت الكروموزوماتُ فى المعمل بصبغة جيمسا Giemsa اتخذت نمطاً معيناً من التشريط (شرائط داكنة وفاتحة متعاقبة ذات أحجام مختلفة) يمكن به تمييز الكروموزومات عن بعضها بعضا. للبشر ٢٣ زوجاً من الكروموزومات يسمى كل منها أوتوزوماً، فيما عدا اثنين، هما كروموزوما الجنس، واحد يُسمَّى س X (ومنه اثنان فى الإناث وواحد فى الذكور) والآخر يسمى ص Y (ومنه فى الذكور نسخةٌ واحدة). تُرقّم كروموزومات الإنسان حسب طولها من ١ (الأطول) حتى ٢٢، بجانب كروموزومى الجنس. ويُطلَق على الذراع اسم ق أو ط حسب طوله كما ذكرنا. فإذا قلنا ٧ ط 7q، فإن هذا يعنى الذراعَ الطويلةَ للكروموزوم السابع، كما تقسم كلُ ذراعٍ إلى ٣ مناطق: ١، ٢، ٣، ويبدأ الترقيم فى كُلٍ من السنترومير فى اتجاه التيلومير. وعلى هذا فإن ٧ط١ 7q1 تعنى المنطقة الأولى (الملاصقة للسنترومير) من الذراع الطويلة للكروموزوم السابع. وهناك تقسيمات أدنى من ذلك، تقسم فيها كل منطقة إلى شرائط داكنة وفاتحة تُرَقَّم هى الأخرى. وقد يُقسَّم الشريط إلى تحت شرائط.

الطفرات للكروموزومية

كثيراً ما يحدثُ أثناء عملية الانقسام الاختزالى للخلايا أن يُعَادَ ترتيبُ مقاطعَ كاملة من الكروموزومات، فتتحرك داخل نفس الكروموزوم، أو إلى كروموزوم آخر، الأمر الذى يتسببُ فى تغيرات فى مورفولوجيا الكروموزوم نفسه. يُطلَق على هذه الحالات اسم الشذوذ الكروموزومى aberrations، ومنه صُوَرٌ عديدة. فالانقلاب inversion، يعنى أن ينكسر الكروموزوم فى مكانين منه، ثم ينقلبُ هذا المقطع المكسورُ ويستقر مقلوباً فى نفس موضعه. والاقتضابُ deletion يعنى أن يَفْقِدَ الكروموزومُ قطعةً منه. والإيلاج insertion يعنى أن يُضَافَ إلى الكروموزوم مقطعٌ من مصدرٍ مجهولٍ ويصبحَ بعضاً منه. أما الانتقال translocation فهو أن يتحركَ جزءٌ من مادة الكروموزوم إلى مكان آخر، قد يكونُ بنفس الكروموزوم أو يكونُ فى غيره.

كروموزوماتُ الشمبانزى متشابهة فى التشريط مع كروموزومات البشر. وأهم اختلاف هو أن للبشر زوجاً من الكروموزومات أقل من الشمبانزى (وكل القردة العليا)، وهناك اختلافاتٌ أخرى بين البشر والشمبانزى، إذ توجدُ انقلاباتٌ فى مقاطع كروموزومية لكروموزومات البشرية: ١، ٤، ٥، ٩، ١٢، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، بجانب طفرة انتقال، واختلافات أخرى غير هذه ضئيلة.

الدنا DNA

المادةُ الوراثية التى تحملها الكروموزوماتُ هى الحمضُ النووىُ الديوكسى ريبوزى، أو الدنا، وفيه تُخزَّنُ المعلوماتُ الوراثية. وكما يقول ليد آدلمان Led Adleman فإن المعلومات بالجرام الواحد من الدنا تعادل ما يحمله مليون مليون قرص مضغوط CD.

وجزءُ الدنا عبارة عن جديلتين، كلٌ يتألف من تتابع sequence طويل لأربع قواعد bases، أو نوتيدات nucleotides، هى الأدنين (أ) والثايمين (ث) والجوانين (ج) والسيتوزين (س). والقاعدة أ على جديلة تقابلها القاعدة ث على الجديلة الرفيقة المكملة (والعكس بالعكس)، أما القاعدة س فتقابلها القاعدة ج (والعكس بالعكس). والجينُ gene هو امتدادٌ من أزواج القواعد على طول جديلتى دنا الكروموزوم، ويقاس طوله بعددها. فيقال إن طول هذا الجين مثلاً هو عشرة آلاف من أزواج القواعد (أو ١٠٠٠٠ زق)، أو عشرة آلاف نوتيدة. ومتوسط طول الجين البشرى يبلغ نحو ثلاثة آلاف زق، وإن كان هناك جين يصل طوله ٢.٤ مليون زق (جين اسمه dystrophin). يُشفِّرُ الجينُ لبروتين معين، وذلك بأن يُنْسَخَ الجينُ بحامضٍ نووى آخر. هو الحامض النووى الريبوزى، أو الرنا RNA. يخرجُ من نواة الخلية إلى السيتوبلازم لينفذ التعليمات. توجد التعليماتُ فى الدنا فى صورة كودونات codons متتابعة، والكودون عبارة عن ثلاث قواعد متتابعة تشفر لحمض أمينى (وأول كودون فى أى جين هو أ س ج، الذى يشفر لحمض المثيونين الأمينى). والبروتينُ سلسلةٌ من الأحماض الأمينية، ترتيبها يناظر ترتيبَ الكودونات بالدنا المُشفِّر له. وفى وجود أربع نوتيدات فقط (أ،ث،ج،س) سيكون لدينا ٦٤ كودوناً ممكناً: ثلاثة منها تحدد نهايات الجينات، والباقى يشفر لأحماض أمينية. ولما كان عدد الأحماض الأمينية عشرين فقط، فقد يشفَّر للحمض الأمينىِ الواحد عددٌ من الكودونات. فحمض البرولين مثلاً يُشَفَّرُ له أربعةُ كودونات هى: س س ج، س س أ، س س س، س س ث، أما حمض المثيونين فَيُشَفَّرُ له كودون واحد (أ س ج).

قد تحدث بالجين طفرةٌ نُقْطيةٌ point mutation تتحولُ بها قاعدةٌ إلى قاعدة أخرى، فتتحول القاعدة أ مثلاً إلى س أو ج أو ث. وقد يُغَيِّرُ هذا من حمضٍ أمينى بالبروتين الذى يُشَفِّرُ له الجين، وربما تسبب هذا فى أن يصبحَ البروتينُ الناتجُ مختلفاً.

وقد يحدث أن تُحذَفَ نوتيدةٌ أو أن تُضَافَ نوتيدةٌ، ومن شأن مثل هذا الاقتضاب أو الإيلاج أن يُحَوِّرَ كلَ الكودونات التالية إذا وقع فى الدنا المُشَفِّر. فإذا كان الترتيبُ الأصلى لمقطع ما داخل جين هو (أ س ج س س ث ج ....) وبه الكودونان أ س ج (يُشَفِّر لحمض الثرايونين) يليه الكودون س س ث (يُشَفِّر لحمض البرولين)، ثم اقتُضِبت أى حُذِفَت القاعدة أ فسيكون الباقى س ج س س ث ج ويصبح الكودونُ الأول هنا هو س ج س (يُشَفِّرُ للأرجنين) والثانى هو س ث ج (يشفر لليوسين) وتتغير أيضاً كلُ الكودونات التالية لينتج بروتين جديد يختلف عن البروتين الأصلى. ومن الواضح أن إضافة حرف ستؤدى إلى نفس النتيجة. حرفٌ واحد يُضاف أو يُحذَف يكفى لتغيير البروتين!

سَقَطُ الدنا

تُشَكِّل الجيناتُ نسبةً ضئيلة من دنا الكائنات العليا، أما بقيةُ الدنا، الذى يُسَمَّى سَقَط الدنا Junk DNA، فلا تُعرف له حتى الآن وظيفةٌ واضحة، وإنْ كانت نتائجُ الأبحاث التى ظهرت مؤخراً (عام ٢٠٠٤) تُشير، كما سنرى، إلى أن لهذا السَّقَط وظائف لم تُكْتَشَف بعد. يبلغ طول الجينوم البشرى نحو ٣١٠٠ مليون قاعدة، لا تُشكِّلُ الجيناتُ منه أكثرَ من ٣٪. وقد يتخلل السَّقَطُ الجينات نفسَها، فى مناطق منها تسمى الإنترونات introns تمييزاً لها عن الدنا المُشَفِّر الذى يُسَمَّى عندئذ بالإكسونات exons. يبلغ طول جينوم نبات البصل ١٢ ضعف طول الجينوم البشرى، ويُفترض أن هذا يرجع إلى زيادة نسبة السقط فيه، أما جينوم السمكة الكروية Pufferfish، الذى يتميز بخاصة بقلة محتواه من سقط الدنا، فلا يزيد طولُه عن تُسعِ طول جينومنا، لكنه يحمل تقريباً نفس عدد جيناتنا. يبدو أن نسبةَ سَقَطِ الدنا تختلفُ اختلافاً واسعاً بين الأنواع. أما سببُ وجود كلِ هذا السقط، فيعزوه البعضُ إلى أن ثمة جينات قد فقدت وظيفتها وأصبحت «جينات كاذبة»، فَتَشَظَّت وبقيت عبئاً فى الجينوم، بينما يرى آخرون أنه مجرد مستودع من الدنا يمكن أن تنشأ منه جيناتٌ أخرى مفيدة، فيما يعتقد البعض الآخر أن له وظيفةً فى التنامى أو فى تعبير جيناتٍ تجاوره.

الدنَا المَصُون

يكتسبُ الدنا عادةً طفرات عشوائية، فإذا وقعت هذه الطفراتُ فى مناطق من الدنا ذات وظيفة أساسية هامة، تسببت فى موت الأفراد. هذا يعنى أن التتابعات الدناوية الأساسية للبقاء لابد أن تبقى محفوظةً بلا تغيير، حتى بين الأنواع. وعلى هذا فعندما يقارن الوراثيون جينومات أنواع مختلفة، ثم يجدون مناطقَ من الدنا ثابتةً فيها، فإنهم يعتبرون أن لهذه المناطق وظيفةً حيوية أساسية. من المستبعد بناء على هذا أن يجد العلماءُ



على بداية القرن العشرين، بدأ العلماء ينتبهون إلى الرابطة البيوكيماوية بين البشر والشمبانزى، فاكتشفوا أن شكلَ الكثير من بروتينات الشمب يشبه بروتينات البشر، بل ويكاد يطابقها



مناطق مصونة داخل سقط الدنا، إذا كان هذا بالفعل بلا وظيفة. لكن الحقيقة هي أن بعض العلماء قد وجد في السقط مثل هذه المناطق المصونة من الدنا واقترح انها تؤثر في تعبير الجينات المجاورة لها.

وتتابع التيلومير (في طرفي كل كروموزوم) تتابع مصون للغاية في المجاميع المختلفة من الكائنات. وعلى سبيل المثال فإن للفقريات تتابعاً. هو: ث ث أ ج ج ج. يتكرر مرات ومرات يصل تعدادها إلى ما بين ٥٠٠ و ٣٥٠٠ مرة في الرئيسات (يبلغ طول التيلومير في كروموزومات البشر نحو عشرة آلاف زق، أما في الشمبانزي فيصل إلى ٢٣ ألف زق). يلاصق التيلومير، إلى الداخل، مناطق بها مكررات دناوية أخرى، إن تكن غير مصونة تماماً، فبها تباينات عديدة داخل النوع ذاته، لكن يسهل تمييزها في الأنواع وثيقة القرابة.

نتائج مذهلة

لا يحدث كثيراً أن يلهث الحاضرون في اجتماع علمي وهم يستمعون إلى عالم يتحدث أمامهم على المنصة. لكن هذا هو ما حدث يوم ٣ يونيو ٢٠٠٤، عندما أعلن إدوارد روبين E. Robin، في جلسة اجتماع عقدت بمعمل سبرينج هاربور في نيويورك، أن فريقه العلمي قد اقتضب مقاطع ضخمة من دنا جينوم الفأر، ولم يظهر أي أثر ملحوظ على الفئران التي ولدت «منقوصة الدنا». لم يكن هناك من يتوقع هذه النتيجة، فالتتابعات الدناوية المحذوفة كانت تضم «مناطق مصونة»، يظن أن لها وظائف هامة.

كان العلماء يفترضون أن التتابعات المصونة لابد أن تكون أساساً في متن الجينات التي تشفر للبروتينات. لكنهم ذهلوا عند مقارنة جينومي الفأر والإنسان، إذ وجدوا أن هناك بالفعل تتابعات كثيرة مصونة داخل صحاري سقط الدنا لا تشفر لأي بروتين!

للتوصل إلى وظيفة مثل هذه المناطق المصونة في سقط الدنا بالثدييات، قام فريق إدوارد روبين في كاليفورنيا بحذف مقطعين هائلين من هذا السقط في الفئران، مقطعين يحملان ١٠٠٠ تتابع محفوظ شائعة بين البشر والفأر. كان طول واحد منهما يزيد على ٨٠٠ ألف قاعدة، أما الآخر فيصل طوله إلى نحو ١.٠٦ مليون قاعدة. توقع الفريق أن تعاني الفئران الناتجة، من مشاكل مختلفة في الحياة وفي البقاء.

لكن ما حدث هو أن الفئران التي ولدت لم تظهر أي اختلاف واضح عن الفئران الطبيعية في كل الصفات التي قيست: النمو، وظائف الأيض، طول الحياة، التنامي. قال روبين: «لقد ذهلت فعلاً!». أمعقول ألا تلعب التتابعات المصونة هذه أي دور في النمو والتنامي؟ إذن، فلأي سبب حفظت؟ ربما كانت هذه التتابعات تخدم غرضاً مراوغاً لم تتطرق إليه الاختبارات التي أجراها الفريق على الفئران المنقوصة الدنا؟ أم ترى أن تتابعات أخرى، بمناطق أخرى من الجينوم، قد قامت على الفور بتأدية وظيفة الجزء المقتضب من الدنا، فلم يظهر للحذف أثر؟

مشروع الجينوم الشمبي

في أغسطس عام ٢٠٠٠ طالب لفيف من علماء الوراثة الأمريكيين بإقامة مشروع لجينوم الشمبانزي. وفي يناير ٢٠٠٣ بدأ المشروع بالفعل استخدام دنا ستة أفراد، وكان مشروع الجينوم البشري آنذاك على وشك الانتهاء (انتهى في أبريل ٢٠٠٣). كان من أهم المبررات التي قدمت لإقامة المشروع، أن مقارنة التفاصيل الجزيئية لجينوم الشمبانزي، بمثيلاتها البشرية قد تساعد في الوصول إلى علاجات بشرية لأمراض خطيرة للغاية. فالشمبانزي مثلاً لا يصاب بالملاريا التي تقتل ملايين البشر، وهو لا يصاب بمرض الإيدز. وعلى الرغم من أنه يشاركنا في جين يجعلنا عرضة للإصابة بمرض الألزهايمر، فإنه لا يصاب به، لأن جينه ينتج بروتيناً مختلفاً بعض الشيء. ثم إن نسبة إصابته بسرطانات القولون والمعدة والثدي والبروستاتا منخفضة كثيراً عنها في البشر.

وفي ١٠ ديسمبر ٢٠٠٣ أعلن عن الانتهاء من خرطنة mapping مسودة جينوم الشمبانزي. الخريطة الكاملة مع بعض فجوات وأخطاء قليلة. ونشر ذلك في عدد ١٢ ديسمبر من مجلة «ساينس». كانت تكاليف السلسلة قد بلغت نحو ٢٠ مليون دولار. وفي ٢٧ مايو ٢٠٠٤ ظهر بمجلة «نيتشر» تقرير لخمسة وأربعين عالماً يعلن الانتهاء من سلسلة sequencing نوتيدات كروموزوم ٢٢ الشمبي (ويبلغ عددها نحو ٣٣.٣مليون قاعدة) بدقة بلغت ٩٩.٩٩٨٪، نفس الدقة التي فحصت بها كروموزومات الجينوم البشري. وهذا الكروموزوم الشمبي هو النظير للكروموزوم ٢١ البشري. الكروموزوم المسئول عن متلازمة داون أو الطفل المغولي (التي تظهر في الإنسان وفي الشمب) ومرض الألزهايمر، واللوكيميا الحادة. والمقارنة بين الكروموزومين ستساعد في كشف البعض من الطفرات التي أدت إلى الفروق بين النوعين، والعوامل المختلفة التي لعبت دوراً رئيسياً في تطور الرئيسات.

نتائج التشريح الجزيئي
لجينوم الشمبانزي

تقول النتائج التي ظهرت أن درجة تطابق تتابع النوتيدات في جينومي الشمب والإنسان تصل إلى ٩٨.٧٪. قد يشير هذا إلى أن عدداً محدوداً فقط من الجينات هو الذي يحدد جوهر «البشرية». رصد العلماء ٧٦٤٥ جيناً مشتركاً بين الإنسان والشمب والفأر، وبحثوا بينها عن الجينات التي كابدت التغير، وميزت هذا عن ذاك، فاتضح أن تغيرات سريعة قد وقعت في ١٥٤٧ جيناً بشرياً (ومن ثم في البروتينات التي تنتجها) وفي ١٥٣٤ جيناً شمبياً. وذلك بمقارنة هذين النوعين بالفأر، الأدنى مرتبة على سلم التطور. يرى البيولوجيون إذن أن الانتخاب الطبيعي قد حور في البشر ١٥٤٧ جيناً أضفت علينا صفة البشرية، حورت لتتلاءم مع البيئة التي نحيا بها. وقد قدر ديريك وايلدمان E.D Wildeman وزملاؤه أن عدد الجينات التي ميزتنا يتراوح ما بين ٢٨٠٠ و٤٠٠٠، وهذه تختلف جوهرياً عن نظيراتها في الشمبانزي. والبعض من هذه الجينات لابد أن قد تخصص في تنظيم عمل جينات غيرها، فالجينات التنظيمية تعمل في فتح أو إغلاق البعض غيرها من الجينات، ومن ثم تشجع أو تثبط انتاج بروتينات هذه الجينات الأخرى. وتغيير جين منظم واحد قد يغير، ليس فقط من إنتاج بروتينات عديدة، بل وأيضاً من توقيت إنتاجها وموقعه في الجسم.

فحص روي بريتين Roy J. Britten ٧٧٩ ألف نوتيدة في الشمبانزي وفي الإنسان، وأعلن في تقرير للأكاديمية الأمريكية للعلوم أن ١.٤٪ من النوتيدات قد استبدلت. جاء هذا التقرير نتيجة فحص الطفرات النقطية التي تؤثر في نوتيدة واحدة فقط. هناك بالطبع طفرات حذف أو إضافة (إنديلات indels) تحدث في مقاطع طولها ٢ - ٤ نوتيدات، بل وهناك قلة يصل طول الإنديل منها إلى أكثر من ١٠٠٠ نوتيدة. وضع بريتين هذا الأمر في اعتباره، فجاء تقديره للتطابق بين الجينومين: ٩٥٪! واختلاف قدره ٥٪ من الدنا يعني في الحقيقة فارقاً بين النوعين يصل إلى ١٥٠ مليون نوتيدة!

نتائج كروموزوم ٢٢ الشمبي

وعند مقارنة نتائج تحليل كروموزوم ٢٢ الشمبي، الذي تمت سلسلته النهائية، بنظيراتها على الكروموزوم ٢١ البشري، اتضح وجود فروق قدرها ١.٤٤٪ ناتجة عن استبدالات لقواعد دنا مفردة. هذا الفارق الضئيل كان كافياً لتغيير تتابع الأحماض الأمينية في ٨٣٪ من البروتينات التي يشفر لها ٢٣١ جيناً وجدت مشتركة بين الكروموزومين! والحق أن اختلاف البروتينات بين النوعين هنا كان في حفنة ضئيلة من الأحماض الأمينية داخلها، ومن ثم فمن المفترض أن تظل وظائفها متشابهة للغاية.

اتضح أيضاً أن هناك نحو ٦٨٠٠ منطقة في الدنا. لا يزيد طول معظمها



اللغة صفة يتفرد بها البشر. من الممكن أن يدرب الشمبانزي على الاتصال بالآخرين باستخدام مجموعة معقدة من الإشارات، لكنه لا يستطيع أن يقوم بحركات الوجه المطلوبة



عن بضع قواعد، وإنْ وَصَلَ طولُ البعض منها إلى ٥٤٠٠ نوتيدة. قد حدَثَ بها إيلاج أو اقتضاب، وكانت هذه كافيةً لتسبب فروقاً ضخمةً فى تركيب أكثر من ٢٠٪ من البروتينات، وهذا اختلافٌ يزيد كثيراً عما كان متوقَّعاً. ثم ان البحث فى وقت فتح الجينات ودرجة فتحها قد أوضح أن ٢٠٪ من الجينات قد بَيَّنَتْ «فروقاً معنوية فى نمط نشاطها».

كيف نُحَدِّدُ إذنْ درجةَ التشابه بين الأنواع؟ هذا أمرٌ قد يكون ذاتياً، لا موضوعياً. إذا نظرنا إلى شِدَّةِ التشابه بين نوتيدات الدنا فسنجد تشابهاً قد يصل إلى ٩٨٪ بين جينومى البشر والشمبانزى، فإذا أخذنا فى اعتبارنا المُولِّجات والاقتضابات (الإنديلات) تَحوَّلَتْ درجةُ التشابه إلى ٩٥٪! أما على مستوى الجينات فقد اتضح أن كلَّ الجينات المعروفة الموجودة على الكروموزوم ٢١ البشرى موجودة أيضاً على الكروموزوم ٢٢ الشمبى. لكن كان ثمة اختلافات جزيئية فى الكثير منها. وسنعرض الآن نبذةً عن بعض الجينات الهامة المشتركة، والمختلفة فى نفس الوقت، فى جينومى البشر والشمبانزى.

جيـــنٌ لِـــلُّـــغَـــة

عرف المجتمعُ العلمى عن عائلة (أُطلِقَ عليها اسم K.E) منذ نحو عام ١٩٩٠، كان نِصفُ أفرادها، وعلى مدى ثلاثة أجيال، يعانون من مشاكل أوضحها الصعوبة فى الكلام، حتى لَيُصبح حديثُهم غيرَ مفهوم، فيتطلبُ الأمر تدريبَهم وهم أطفال على لغة الإشارة. ظهر من البداية أن هذه حالةٌ وراثية، وأنها صفةٌ سائدة أوتوزومية (أى غير مرتبطة بكروموزوم الجنس س X) يعانى فيها المصابون من قصورٍ فى إنشاء الجُمَل وعدم التمكن من تفهم بعض نواحى قواعد اللغة، ومن عدم القدرة على تشكيل كلام مفهوم، وقُصورٍ فى القدرة على تحريك الفك الأسفل والفم، لاسيما الشفة العليا واللسان، بجانب انخفاض معامل الذكاء (المتوسط = ٨٢ نقطة).

ظهر أولُ بحث عن هذه العائلة فى مجلة «نيتشر» فى ٤ أكتوبر ٢٠٠١، واتضح أن الجينَ المسئول (وقد أُطلِقَ عليه اسم FOXP) موجودٌ على الكروموزوم السابع. وأن طفرةً بهذا الجين تغيرت به نوتيدةٌ واحدة فقط. من بين الخمسمائة نوتيدة التى تؤلف الجينَ. هى المسئولةُ عن المرض بعائلة K.E، إذ فَقَدَ بها هذا الجينُ قدرتَه على تنشيط التتابع الطبيعى للجينات اللازمة للتنامى المبكر للمخ، مما تسبب فى تغير غير طبيعى فى عُقَد عصبية بالمخ تختص بالحركة (ومن هنا صعوبة تحريك الشفتين واللسان).

وقد اتضح أن هذا الجينَ جين تنظيمى مُصَوِّن، يشفر لبروتين يتألف من ٧١٥ حمضاً أمينياً، وتوجد منه صِيَغٌ مختلفة فى الشمبانزى والغوريلا والأورانج يوتان وقرد الريزوس والفأر. وإنْ كُنَّا لا نفهم له وظيفة لدى هذه الحيوانات جميعاً. تُبيِّن الصيغةُ البشرية للجين دلائلَ على تغيرٍ تطورىٍّ متسارع حدث خلال المائتى ألف سنة الأخيرة، اكتسب به الجينُ وظيفةً جديدةً ساعدتْ فى إضفاء مَلَكَة الكلام على البشر. فثمة تَحوُّرٌ طفيف بهذا الجين لم يُعثَر عليه فى أى ثديى آخر. يتحول فيه حمض ثريونين فى الصيَغ غير البشرية إلى حمض أسبارجين. قد تَسبَّبَ فى أن يُطوِّرَ الإنسانُ بِنْيَةَ الوجه والفك والقدرةَ على التحريك الرهيف للفم والحنجرة، لتصبح إمكاناتُنا المتفردةُ على الكلام واللغة أمراً ممكناً.

هذا الجين نشط جداً، وهو يعمل فى الكبد والرئة والمخ، وله على الأغلب مهام أخرى فى الجسم، لكنه يبدأ نشاطَه مبكراً جداً فى مخ الجنين أثناء تناميه فى رحم الأم، ويبلغ نشاطه غايتَه فى مناطق المخ التى تتحكم فى الحركة.

يُشكِّلُ هذا الجينُ، على ما يبدو، بدايةَ وضع الأساس الوراثى لِلُّغة البشرية. هو ليس جينَ «اللغة»، إنما هو جين «لِلُّغَة». واللغةُ صفةٌ يتفرد بها البشر. من الممكن أن يُدرَّبَ الشمبانزى على الاتصال بالآخرين باستخدام مجموعة معقدة من الإشارات، لكنه لا يستطيع أن يقوم بحركات الوجه المطلوبة. باللغة تَمكَّنَ الإنسانُ من نَقل كميات هائلة من المعلومات بين الأجيال، ومن ثم فقد كانت قوةً دافعةً هامة فى انتشار الإنسان على وجه الأرض وفى قيام الحضارة.

جيـــنٌ لِـــلـسَّـــمْـــع

ربما كانت الجيناتُ التى تُمَكِّنُ الإنسانَ من تفهم اللغة لا تعمل فى المخ وحده، وإنما تعمل أيضاً على حاسة السَّمْع. جاءت الإشارةُ الواضحةُ على هذا من جين، أُطلِق عليه اسم ألفا تكتورين alpha tectorin (ويقع على الكروموزوم ١١ البشرى)، يُشفِّر لبروتين غامض فى الغشاء التكتورى بالأذن الداخلية للإنسان، وتُؤدى طفرةٌ (سائدة) فيه إلى إحدى صور الصَّمَم. وهذا الجين البشرى (وهو أحد ثلاثة، من بين ٢١ جيناً مسئولة عن السمع، كابدت تغيرات متسارعةً) يختلف كثيراً عن نظيره فى الشمبانزى، ويُظَن أن الصورةَ البشرية قد تطورت على الأغلب مع جينات الكلام لتجعلَ حاسةَ السمع فى الإنسان أكثرَ حدةً وأكثر دقة. فهذا أمر يصبح ضرورياً لتفهم اللغة المعقدة المنطوقة. حتى ليرى البعضُ أن صعوبةَ تدريب حيوانات الشمبانزى على تَفَهُّم لغتنا إنما ترجع إلى أن حاسةَ السَّمْع لديها لا ترتقى إلى المرتبة التى نتمتع بها نحن البشر.

جينٌ لهذا السُّكَّر اللعين

من بين الجينات التى تختلف بين البشر والشمبانزى، هناك الجين CMAH الذى يُشفِّر لإنزيم يصنع سُكَّراً يغلف أسطحَ خلايا الجسم. سُكَّراً يُطلَق عليه اسم Neu5Gc. يوجد هذا السكّر على أغشية خلايا جسم الشمبانزى وغيره من الثدييات التى دُرِست، لكنه غير موجود فى البشر، ففينا يصبح هذا الجين بلا عمل: ثمة مقطع طويل من سَقَط الدنا قد حَلَّ محلَّ جزء من الجين فأصبح بلا عمل. يتألف البروتين الذى يُشفِّر له جينُ الشمبانزى من ٥٨٠ حمضاً أمينياً، أما بروتين الجين البشرى فمن ٧٢ حمضاً فقط. هذه الصيغة من الجين العديمةُ الجدوى توجد الآن فى كلِّ إنسان على سطح الأرض، ولا توجد فى أىّ ثديى آخر.

يوجد هذا السكّر إذن على أغشية كل خلايا جسم الشمبانزى وغيره من الثدييات، لكن فى مخاخ نفس هذه الحيوانات تعمل جيناتٌ أخرى تبطئ من إنتاج هذا السكر، فلا نجد منه إلا القليل جداً على أسطح الخلايا العصبية (النيورونات)، الأمر الذى قد يشير إلى أن لهذا السكر أثراً ما جانبياً ضاراً على خلايا المخ. لا نعرفه (حتى الآن). وعلى هذا يمكن القول إن الإنسانَ قد حظى بنعمة غالية بتوقف الجين CMAH هذا عن العمل بخلاياه، فربما كان هذا من بين أسباب استمرار تطور مخه إلى الحد الذى جعله يتميز عن كل مخلوقات الله.

جيناتٌ أخرى مشتركة

هناك فروقٌ أخرى بين البشر والشمب فيما قد يصل إلى ٨٠ جيناً تختص بإعادة تدوير الأحماض الأمينية عند

هضم البروتينات، وهذه الفروق قد تعكس ما حدث من تغير فى الطعام عندما تحول الأسلاف من طعام نباتى أساساً إلى أكل اللحوم.

ثمة اختلافات أخرى قد حدثت فى الجينات التى تعمل على حاسة الشم، الحاسة التى تختلف بوضوح بين البشر والشمبانزى. فالكثير من الجينات الخمسين المهمة المرتبطة بالشم، والتى تشفر لمستقبلات فى الأنف، تبدو فى البشر وقد توقفت تماماً عن العمل، وأصبحت «جينات كاذبة»، ربما لتعكس تضاؤل أهمية الشم فى أسلوب حياتنا مقارنة بالشمب. فى نفس الوقت، هناك من بين هذه الجينات الخاصة بالشم جينات قد تطورت وبسرعة فى البشر، وتضم هذه الجينات اللازمة للعثور على الطعام وتمييز طبيعته وطزاجته (وربما أيضاً لاختيار الرفيق). صحيح أن حاسة الشم قد تدهورت كثيراً فى البشر، لكن الله قد عوضهم عنها برؤية للألوان أفضل، ومقدرة أفضل على التواصل مع الآخرين عن طريق الوجه بديلاً عن الرائحة.

هناك جينات أخرى تختص بتنامى المخ، من بينها جين هام أطلق عليه اسم SEMA3B يساعد فى توجيه المحاور العصبية axons النامية إلى المناطق الصحيحة من الجسم، والفروق فى الصيغة البشرية لهذا الجين مقارنة بالصيغة الشمبية قد تفسر بعضاً من الاختلافات فى الشبكة العصبية بين البشر والشمبانزى.

ولقد حدد الباحثون أيضاً هوية جينين، هما NCAM2 EGRIK1، لهما علاقة بوظائف الأعصاب، وكانت الصيغة البشرية لكل منهما تحمل مقاطع طويلة من الدنا لا توجد فى الشمبانزى، يصل طولها فى الجين الأول إلى ١٠٠٠٠ نوتيدة، وفى الجين الثانى إلى ٤٠٠ نوتيدة.

عن الكروموزوم البشرى رقم ٢

مثلما وجد الباحثون كل هذه الفروق بين البشر والشمبانزى، فقد وجدوا أيضاً طفرات مختلفة فى هيكل الكروموزومات ذاتها. للشمبانزى جينوم يضم أربعة وعشرين زوجاً من الكروموزومات، ويحمل هذا الجينوم تقريباً نفس عدد النوتيدات الموجودة بالجينوم البشرى المكون من ثلاثة وعشرين زوجاً. اكتشف العلماء بمقارنة أنماط التشريط على الكروموزومات فى كلا النوعين أن الكروموزوم رقم ٢ البشرى قد يكون ناتجاً عن «انتقال» اندمج فيه كروموزومان صغيران من جينوم الشمبانزى (أنظر الشكل ٢)، بمعنى أن اختلافنا عن الشمب فى عدد الكروموزومات لم ينشأ عن فقدنا لكروموزوم، وإنما عن التحام اثنين من كروموزومات الشمب ليظهرا ككروموزوم واحد.

فإذا كان هذا صحيحاً، فإن معناه أن تيلوميرى هذين الكروموزومين الصغيرين لابد أنهما قد اندمجا ليمكثا فى وسط الكروموزوم البشرى. والتيلومير هنا يتكون من عدد كبير من مكررات كل منها كما ذكرنا مؤلف من ست نوتيدات هى ث ث أ ج ج ج، ووجود هذه المكررات بالمئات فى وسط الكروموزوم. أى كروموزوم، فى أى كائن. هو أمر مستحيل، فهى لا توجد إلا فى أطراف الكروموزومات وتلاصقها، وقبلها مباشرة، توجد بالطبع المكررات المصاحبة للتيلومير.

بالفحص الجزيئى للتتابعات النوتيدات بوسط الكروموزوم ٢ البشرى اتضح أنه يحمل:

[تتابع ما قبل التيلومير. تتابع التيلومير. تتابع التيلومير مقلوباً. تتابع ما قبل التيلومير مقلوباً].

بهذا الترتيب! ومقلوب تتابع المكرر هنا يعنى س س س ث أ أ، فهذه هى القواعد الست المكملة للمكرر الأصلى (ث ث أ ج ج ج) مقلوباً. ما الذى جاء بهذه المكررات فى وسط الكروموزوم؟ سوى أن يكون بالفعل ناتجاً عن دمج كروموزومين؟

ثم إن سنترومير الكروموزوم٢ البشرى يوجد فى نفس مكانه بالكروموزوم٢ ق الشمبى (الأقصر). كذا يقول تشابه التتابع. كما أن تتابع النوتيدات فى الذراع الطويلة للكروموزوم٢ البشرى تحمل البقايا المؤكدة لنوتيدات السنترومير الأصلى للكروموزوم٢ط الشمبى (الأطول) (وهو بالطبع لا يعمل كسنترومير بالكروموزوم البشرى).

يبدو أن الشواهد على أن الكروموزوم الثانى البشرى قد جاء عن دمج كروموزومى الشمبانزى شواهد دامغة فعلاً.

طفرة انقلاب فى الكروموزوم البشرى رقم ٥

إذا قارنا بين تشريط الكروموزوم البشرى الخامس والكروموزوم الشمبى النظير فسنلاحظ أن الكروموزومين متماثلان، ويتطابقان فى التشريط، وفى موقع السنترومير، إذا قلبنا المنطقة فى الكروموزوم الشمبى ما بين P14.1 و q 14.1، الأمر الذى يشير إلى أن الكروموزوم البشرى قد جاء عن طفرة انقلاب فى هذه المنطقة من الكروموزوم الشمبى.

ما بين الدنا (DNA) والدين

ثمة شىء من التوتر يسود دائماً العلاقة بين رجال العلم ورجال الدين. العلم يقدم نتائجه، وتفسيرها عادة ما يكون السبب فى هذا التوتر. العلم بالضرورة يقود إلى الإيمان، والدين بالتأكيد يدعو إلى العلم. ومن الصعب أن نجد تبريراً لهذا التوتر إلا إذا كان منشؤه الاختلاف فى وجهات النظر عند تفسير نتائج العلم، أو عند تفسير دلالات الألفاظ فى الكتب المقدسة. عندما نشر جاليليو كتابه «حوار عن نظم العالم الفسيح»، سنة ١٦٣٢، معضداً فكرة كوبرنيق بأن الأرض هى التى تدور حول الشمس. لا العكس. حوكم أمام محكمة تفتيش حكمت عليه بالسجن فى ٢٢ يونيو ١٦٣٣. كانت آراء جاليليو تعارض آراء بطليموس وأرسطو الضحلة، ولم تكن تعارض الإنجيل، سوى أن الكنيسة كانت قد اعتبرت آراء هذين من صلب الدين، وأن الخروج عليها كفر. وبعد ٣٥٩ سنة وفى ٣١ أكتوبر ١٩٩٢ ألغى البابا جون بول الثانى الحكم، بعد أن اتضح له أن الكنيسة قد أخطأت.

أحس الناس عندما ظهر كتاب جاليليو بأن الأرض قد فقدت مكانها الأسمى، ولم تعد هى مركز الكون. ولما نشر داروين كتابه «أصل الأنواع» عن نظرية التطور، أصيب الناس بالفزع، هذه المرة لأنهم أحسوا بأن الإنسان يفقد بها مكانته الرفيعة كسيد للكون. يروى آنئذ أن زوجة أسقف ورشستر عندما سمعت عن نظرية داروين صرخت قائلة: «يا فضيحتى! نحن من نسل القرود؟ أمل ألا يكون هذا صحيحاً. فإذا كان صحيحاً فأرجو من الله ألا يعرف به أحد!». وقفت الكنيسة صراحة ضد النظرية، وربما كان أول صدام علنى هو ما حدث بين ديلبرفورس وهكسلى بعد ستة أشهر من صدور «أصل الأنواع».

يقول معارضو نظرية التطور من رجال الدين. ورجال العلم أيضاً. إنه إذا كانت الأبحاث قد أثبتت صحة ما جاء به جاليليو، فإن نظرية التطور لم تثبت، وأن أحداً لم يلحظ التطور، وليس ثم أحافير انتقالية تمثل كل الصور التى مرت بها الكائنات الحية عبر تطورها، فالسجل الحفرى لا يبين عملية التطور إنما يكشف عن الظهور الفجائى للصور الجديدة من الحياة. ثم إن الوضع مع نظرية التطور مختلف. فالإنجيل قد ذكر صراحة أن الله قد خلق الكون كله فى ستة أيام. والإنسان به. ورجال التطور يدعون أن الإنسان قد تطور عبر ملايين السنين. والمعلومات المضمنة فى الدنا ليست من صنع الدنا. فمن أين جاءت؟ من يكون مؤلفها؟ ثم ماذا يحدث لو اكتشفنا بعض الجينات التى تضفى علينا صفات «البشرية»، ثم رأى بعض العلماء أن يولجوها فى الشمبانزى. من يا ترى سيتحمل نتيجة مثل هذا التهجين الدناوى؟ ومن يا ترى يتحمل نتيجة أن يحاول العلماء هندسة بشر أكثر «بشرية»، يجمعون بهم «أفضل» صيغ الجينات التى تنفرد بها؟ ثم، إذا كان الصحيح أن ١٨ زوجاً من الكروموزومات تكاد تكون متطابقة فى البشر والشمبانزى فإن الكروموزومات ٤ و٩ و١٢ تبين شواهد على أنه قد «أعيد تشكيلها»، نعنى أن الجينات الواسمات markers على هذه الكروموزومات

يروى أن زوجة أسقف ورشستر عندما سمعت عن نظرية داروين صرخت قائلة: «يا فضيحتى! نحن من نسل القرود؟ أمل ألا يكون هذا صحيحاً. فإذا كان صحيحاً فأرجو من الله ألا يعرف به أحد!»

الثلاثة ليست بنفس الترتيب فى النوعين. وبدلاً من «إعادة التشكيل» التى يقترحها التطوريون، لماذا لا نقول إنها فروق جوهرية بسبب «الخلق المنفصل» الذى يقول به الخَلْقويون؟ هم يؤكدون أن القرن العشرين قد شهد سقوطَ اثنين من «الثلاثة الكبار» الذين كان لهم أكبرُ الأثر فى تشكيل الحضارة الغربية: سيجموند فرويد S. Freud وكارل ماركس .K.Marx، وأن القرنَ الحادى والعشرين سيشهد سقوطَ الثالث: تشارلس داروين.

لكن فرانسيس كولينز .F.Collins رئيسَ مشروع الجينوم البشرى يقول: «إننى أرى أن اللهَ بحكمته قد استخدمَ التطورَ مُخَطَّطاً للخَلْقِ، ولا أعرف سبباً فى أن تكونَ فكرتى هذه سخيفة!». ثمة دراسة مثيرة قام بها الصديق الدكتور حسن عطية فى أحد كتبه، فقد حاول تفسيرَ معانى الكلمات: «الناس، البشر، الإنس، الإنسان». كما جاءت بالقرآن الكريم. ورأى باجتهاداته أنها لا تعنى نفس الشئ، وأن تفسيراته لها قد تحتوى اجتهادات العلماء بشأن نشأة الجنس البشرى. أما البابا جون بول الثانى، فقد وجَّه رسالةً فى ٢٣ أكتوبر ١٩٩٦ يقول فيها إن النتائج التى تجمعتْ عَبْرَ الخمسين سنة الماضية قد أدَّت إلى الاعتراف بأن نظريةَ التطور هى أكثرُ من مجرد فَرْض، وأن الخَلْقَويةَ creationism والتطورَ يمكن أن يعملا سويًا دون تضارب، طالما أكَدْنا أن اللهَ لا سواه هو مَنْ يَنْفُخُ الروحَ فى البشر. والواقع أن التَّطوريين والخَلْقويين سوياً لا يعملون فى العلم التجريبى عندما يعالجون قضيةَ نشأة الحياة، فهذه لا يمكن أن تُكَرَّر، أو أن تُوضَعَ فى أنبوبة اختبارٍ لتُفْحَصَ. إن ما يقومون به جميعاً هو تمارينُ جدليةٌ يحاول فيها كلُّ فريقٍ أن يطرحَ نظريةً حول الماضى ترتكز على بيانات تجريبية نلاحظها اليوم. والنظريةُ التى ستُقَدَّم ستكون، أولاً وأخيراً، مجردَ هيكلٍ فلسفىً لتفسير آخِرِ البيانات التى جُمِعَت، «فالحقيقةُ بنتُ الزمن»، كما يقولُ المثلُ اللاتينىُ القديم!

النتائج العلميةُ التى عُرِضَتْ هنا عن الجينوم البشرى وجينوم الشمْبَانْزى، صَمَّمَها وجَمَعَها ونَشَرَها وفَسَّرَها مَنْ يُعضدونَ التطورَ. كلُّ تفسيراتهم تقول إن البيئةَ والانتخابَ الطبيعىَ كانا من وراء التباينات فى الدَّنَا بين النوعين. وجدوا أن تشابُهَ تتابعات الدَّنَا بينهما أَوْثَقُ من أن يكون مجردَ صُدْفَة، فقالوا إنهما قد انْشَعَبا عن أصل مشترك. ثم أنهم قدموا اثباتَهم العجيبَ على أن كروموزوماً بشريًا قد جاء عن اندماج كروموزومين شمبيَّين، وأن كروموزوماتٍ بشريةً أخرى قد جاءت عن انقلاباتٍ داخل كروموزومات شمبية. لكنَّ معنى التشابهِ وقَدْرَهُ يختلفان حتى بين العلماء. لقد وَفَّرَ تتابعُ الدنا لهم معياراً جديداً يقيسون به التشابهَ بين كائناتٍ كان من المستحيل قبلاً أن تُجرى بينها مقارنةٌ ذات معنى، لكن المعيارَ على ما يبدو لا يزال يحتاج إلى ضبط. التشابه بين دَنَانا ودَنَا الشمبانزى كما رأينا يبلغ نحو ٩٨.٧٪، ورغم ذلك فحجم مُخِنا يبلغ مِثْلَيْن أو ثلاثة أمثال حجم مخ الشمبانزى، كما نتميز عنه بالقدَمانية bipedalism (أى المشى على قدمين) والثقافة المتطورة وبالحجم الأصغر للأسنان الخلفية. فإذا نظرنا إلى مدى التشابه بين دنانا ودنا كائنات أخرى، رأينا العجب: فهو مع الغوريلا ٩٨.٤٪، ومع القط ٩٧٪ (ودنا الكروموزوم A١ فى القط مؤلف من أجزاء من الكروموزومين ٥و١٣ البشريين)، ومع الكلب ٩٥٪ ومع الحصان ٨٠٪ (وكل دنا الكروموزوم البشرى الثامن موجود بالكروموزوم التاسع للحصان)، ومع الفأر ٨٥٪، ومع نبات الذُرة ٦٧٪، ومع نبات الموز ٥٠٪، فهل مَنْ يقول إن نبات الموز نِصفُ بشر؟! أو أن الذرةَ ثُلُثا بشر؟! ليس على أىٍ منا أن يبحثَ عن الشمبانزى بداخله!

لكن، ماذا يعنى هذا التشابه حقاً؟ وكيف لا نتوقعه؟ لقد خَلَقَ اللهُ الكائناتِ جميعاً ولها نفسُ المادة الوراثية، حتى ليمكن بالهندسة الوراثية أن ننقلَ الدنا بين الكائنات جميعاً نحن وكلُّ حىٍ أقاربُ فى الدَّنا. كذا كانت مشيئتُهُ، «وما كانت مشيئتُه بلا معنى» كما يقول الشاعر إيليًا أبوماضى. لو شاء لَجَعَلَ لكلٍّ مادتَهُ الخاصة. من المستحيل ألاَّ تكونَ بيننا وبين كلِّ الأحياء صلةٌ. كُلُّنَا من عجينةٍ واحدة، أو قُلْ من «طينة» واحدة، اسمها الدنا، يختلف مقدارُها، ترتيبُها، تجميعُها، معمارُها، فتختلف الكائنات، وتتشابه. اللهُ لم يميزنا نحن بمادةٍ وراثيةٍ تَخُصُّنَا وَحْدَنَا ولا يشترك فيها معنا الشمبانزى أو غيرُه. والبحثُ فى الدنا المقارنِ يُوَسِّع قدراتِنا، وخيالَنا، وفَلْسَفَتَنَا، وتَفَهُّمَنَا للحياة، ويفسح المجالَ أمام اكتشاف علاجات جديدة للأمراض لم تكن تَخْطُر لنا قَبْلاً على بال!

ومثلما يقول إيليًا أبوماضى «أَرَادَ اللهُ أَنْ نَعشَقَ لَمَّا أَوْجَدَ الحُسْنَا»، فربما كان لنا أيضاً أن نقولَ «أرادَ اللهُ أَنْ نَعرفَ لَمَّا أَوْجَدَ العَقْلاَ»! فلو أراد ألاَّ نعرف لَسَوَّانَا بلا عَقلٍ يُفكرا ■

صفحات من كتاب

كفى!

بيل ماكيبين

■■ بِحَاجَةٍ نحن إلى أن نقوم بفعل مستبعد الحدوث: بحاجة نحن إلى أن نمسح العالم الذى نسكنه وأن ننادى به عالمًا طيباً. ليس فى كل تفاصيله. هناك الآلاف من التحسينات. تقنية وثقافية. التى يمكن أن نصنعها، هى طيبة بما يكفى فى الخطوط العريضة وفى الجوهر. حياتنا. حياة معظمنا فى الغرب. طويلة إلى حد معقول. بحاجة نحن إلى أن نعلن أننا نحيا فى الغرب فى يُسرٍ ودَعَةٍ، فلا ينهك منا فى العمل إلا قلة. فى مجتمعات يحتاج فيها معظمنا إلى خزائن لممتلكاته أكثر من حاجته إلى صناديق أعاجيب الناتوتك، علينا أن نعلن بصراحة أن لدينا ما يكفى من الأشياء. ما يكفى من الذكاء. ما يكفى من القدرات. وكفى.

قبل أن يدمرنا جنون العلماء
كفى!
بيل ماكيبين
القاهرة: دار سطور ٢٠٠٤.

ترجمة: أحمد مستجير، فاطمة نصر



ذاك هو قطب المسألة التى يدور حولها هذا النقاش. لا أمتلك رؤية جديدة براقة تنافس رؤى المستقبليين الذين يحلمون بجعلنا «فوق البشر». إنما نحتاج إلى أسلوب جديد للنظر إلى الحاضر. إذا ما أمكننا أن نعتبره كافياً، فربما استطعنا أن نجد وسيلة نتجنب بها هذه التقنيات وما تجره من مخاطر. فيزيائية ووجودية، ربما استطعنا بديلاً عنها أن نكشف بداخلنا غريزة حافظة تجعل مقاومتنا صلبة. سنأتى فيما بعد إلى تفاصيل كيف يتأتى لنا فعل هذا، فالواضح أن إطفاء جذوة الزخم التكنولوجى سيكون صعباً. لكن، علينا أولاً أن نجيب على السؤال الجديد: هل نصلح فعلاً فى شكلنا الحالى لأداء المطلوب.

يجيب الحالمون التقنيون صائحين: لا! نحن نمتلئ فى عيونهم بالعيوب، بدءاً من أجسامنا ذاتها. خذ مثلاً روبرت إتينجر، عالم التجميل العالمى الذى يقول من زمان طويل إن الهندسة الوراثية وغيرها من التقنيات الجديدة ستأتى لنا «بعصر ذهبى». إنه يرى أن «التخلص من الإخراج» سيكون من بين الملامح البارزة لهذا العصر. يجادل قائلاً: إذا كانت النظافة تلى التقوى والصلاح، فلابد أن يكون السوبرمان أكثر نظافة من الإنسان. ستكون أعمال الصرف فى المستقبل (لمن يتم تذويبهم بعد التجفيف، وأيضا للمواليد الجدد) أكثر صحية ولياقة. سيتناول من يختار منهم أطعمة لا تخلف فضلات، ويتبخر الزائد من الماء من خلال مسام الجلد. أو قد تقوم بعض الأعضاء، بعد أن عدلت بالتخلص من فضلات صغيرة جافة مدمجة. واجه إتينجر أيضا مشاكل بشأن فتحات الجسم الأخرى: أشار أحد أصدقائه إلى أن «الفم متعدد الوظائف» «مربك وبدائى أيضا لدرجة «السخف». ولقد يلفت نظر المخلوق الفضائى أن لدينا عضواً واحداً يقوم بالتنفس

هل سمعنا عن كاتب مسرحى فى السنين الأخيرة يفوق شكسبير أو يوريبيدس؟ لقد تعلمنا الكثير فى الألفى سنة الأخيرة، لكن الكثير من الحكمة القديمة لا يزال راجحًا

وتناول الطعام والتذوق والمضغ والعض، والتشاجر فى المناسبات، والمساعدة فى لضم الإبرة، والصياح والصفير وإلقاء المحاضرات، وتقطيب الوجه».

لم يكن إتينجر وحده فى كره الذات.

كره الذات يسود هذه الثقافة الفرعية؛ العويل الدائم لأن الناس فى أفضل حالاتهم لا يماثلون إلا - قُل مثلاً - البوجو، وهذه تقنية أساسية مقبولة سعرها معقول، لكن ليس بها ما يدعو إلى الاهتمام. تأمل هانس مورافيك ذات مرة قصة عظيموف القصيرة عن إنسان آلى أراد أن يصبح شخصًا حقيقيًا. قال: «إنها قصة لطيفة، لكنى عندما قرأتها سألت نفسى: لماذا بحق الجحيم تريد أن تصبح رجلاً وأنت بادئ ذى بدء أفضل منه؟ إن هذا لا يشبه إلا إنسانًا يريد أن يصبح قردًا: يا رباه! أتمنى لو كان شعرى أغزر، وقامتى أكثر انحناء، ورائحتى أفظع، عمرى أقصرا».

يبدو أن بعض الناس - كما يعترف مارفين مينسكى رائد الذكاء الاصطناعى - يقبلون أنفسهم كما هم. ربما كانوا غير أنانيين بما يكفى، أو غير خياليين، أو غير طموحين. أما عن نفسى، فأنا لا يروقنى كثيراً ما عليه البشر الآن، إننا سطحيون للغاية أغبياء جهلة. أشار أيضًا إلى أننا كنوع «نبدو وقد بلغنا منتهى التنامى الفكرى. ليس من دليل على أن ذكاءنا ينمو.. هل سمعنا عن كاتب مسرحى فى السنين الأخيرة يفوق شكسبير أو يوريبيدس؟ لقد تعلمنا الكثير فى الألفى سنة الأخيرة، لكن الكثير من الحكمة القديمة لا يزال راجحًا، الأمر الذى يدفعنى إلى الشك فى أننا قد حققنا الكثير من التقدم. يزعم مينسكى أنها مشكلة عتاد بالدرجة الأولى: يستشهد بدراسة تمت بمعامل بل، ويقوم بحسابات تقول إن الإنسان يمكنه أن يتعلم ويتذكر بيتتين فقط فى الثانية. وعلى هذا، فحتى لو لم تفعل سوى أن تدرس لمدة ١٢ ساعة يوميًا لمدة مائة عام، فلن تحصل إلا نحو ثلاثة بلايين بيتة، «أقل مما يمكن تخزينه اليوم على قرص مضغوط عادى قطره خمس بوصات».

فى كتابهما «ما بعد البشرية» يتوسل جريجورى بول وإيرل كوكس قائلين: «لابد أن هناك طريقًا أفضل.. لماذا لا نمتلك إلا قلبًا واحداً؟ لماذا لا نمتلك قلبين حتى إذا فشل أحدهما أنقذنا الآخر؟ لماذا لا يكون لنا كبدان؟ لقد تطورنا لنصبح «صائدين جامعى ثمار نُحسن جمع الجذر والبندق والتوت». ولقد اتضح أن تكيفنا تكيف هامشى بالنسبة لممارسة الفيزياء رفيعة المستوى ولكتابة الروايات، تمامًا مثل الديناصورات الأولى ذات الأجنحة التى تمكنت من «طيران كان بالكاد يكفى». فى جوهرنا، نحن الإخفاق بعينه: «حتى جسمنا القدمانى المنتصب الذى نزهو به كثيراً، يجعلنا مزعزعين، إذا سقطنا على الأرض قد نُدمر».

لكن أجسادنا وعقولنا ليست وحدها ما يبدو فجًا بشكل لا يصدق. يصاب النبوئيون أيضًا باليأس حينما ينظرون إلى المجتمعات التى أقامتها تلك الأجساد والعقول، ويبدو مما يقولونه أنهم يشبهون أتباع الفيلسوف هوبز المتطرفين. يقول جورج جيلدر، الذى عادة ما يوصف بأنه واحد من «كبار كهنة» وادى السليكون بسبب مقالاته المؤثرة وحلقاته الدراسية، يقول إنه لن ينقذ «الملايين من الناس، أو حتى البلايين، من تاريخهم القديم كهمجيين جهلة، إلا موجات بعد موجات من التقنيات الرفيعة. ستجد فى مجالس تحرير نشرات الويب أناسًا «عَبْر بشريين» متعصبين، لا يكتفون فقط بتبيان كيف سيتطور العالم ويترك وراءه جنسنا البشرى، وإنما يناقشون أيضًا قضايا أخلاقية من قبيل ما إذا كان من الواجب أخلاقيًا قتل «اللاضيين» الذين يعترضون سبيل مثل

كفى!

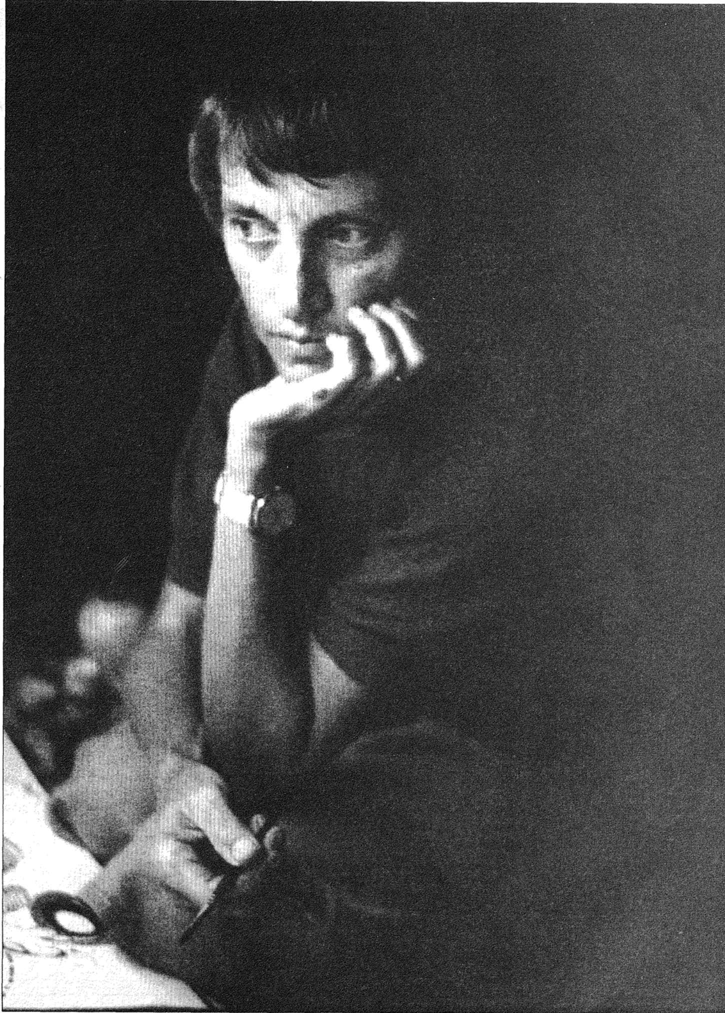
هذا التقدم. «إذا لم نضع الأسس لمستقبل عَبْر بشرى، فسيواجه كوكبنا الأرض، لا محالة، مستقبلاً مالثوسيا كئيبًا يباد فيه البشر من المرض والجوع ونضوب الموارد. إذا لم نبن مستقبلاً عبر بشرى، فسوف يموت بلايين البشر.. ماذا أنتم فاعلون بهذا الصدد؟ أية وسائل ستقبلونها لتحقيق هذه الغايات؟».

إذا بدأت مثل هذه القتامة تسيطر على فكرنا، فسيصبح الأمر أمر وقت حتى يتولى أنبياء التقنية زمام الأمور، على الأقل لأن اليأس الوجودى سيجعل من الصعب علينا التخلص من الكآبة وبدء المقاومة. فى عام ١٩٩٨ نَشَر الكاتب الفرنسى ميشيل أويلبيك كتابه «الجزيئات الأولية»، وكان هو الكتاب الأفضل مبيعًا فى بلاده. يؤرخ هذا الكتاب لصعود جنس عبر بشرى يتسامى فوق عيون البشر المأساوية. يكتب فيقول «مازال هناك بعض البشر من الجنس القديم. يبدو فى الوقت الحالى أن اندثارهم أمرٌ لا مناص منه.

وخلافًا لما يقوله رُسل الشؤم، يمضى اندثارهم فى سلام، رغم وقوع بعض أعمال عنف عرضية، أخذت تتناقص هى الأخرى. كان من المثير للدهشة أن نلحظ ذلك الخنوع والاستسلام، بل وربما حتى الارتياح غير المعلن، الذى واكب موافقة البشر على فنائهم.

لكن، كيف وصلنا إلى هذه النقطة؟ أخشى أن أقول إن البيئيين يتحملون قدرًا من المسئولية. إن حركتهم تهتم بكل شىء آخر على الأرض، أما حديثنا عن البشر فكثيرًا ما يكون بلا مبالاة، فتذيع بذلك فكرة أننا جنس ضار يتعذر التحكم فيه، حلية سرطانية تتكاثر وتتحرك بلا وازع داخل نسيج الطبيعة الأعزل. فما أن دفع الكاهن مالتوس للمرة الأولى بنظريته التى تقول إن التكاثر سيفوق إنتاج الطعام حتمًا، حتى أخذ نوع ما من اليأس يشكل ما أطلقنا عليه أخيرًا اسم «البيئية». ما من مرة حاضرت فيها عن الأساليب التى يمكن بها إصلاح مشاكلنا البيئية، إلا وقام واحد من الحضور يسأل عما إذا كان ارتفاع درجة حرارة جو الأرض هو طريق الطبيعة «للتخلص منا»، نحن الجنس الذى يسبب من المشاكل أكثر من قيمته، يعترينى أحيانًا نفس هذا اليأس؛ ثمة أوقات تُقنعنى فيها شراهتى الاستهلاكية وميلى الأساسى إلى اللامبالاة، بأن فناءنا أمر محتوم.

تتركنا هذه الحالة المزاجية عُرضة للوقوع فى أسر سحر ما بعد البشرية الفتان. لفكرة ضرورة أن يعاد تشكيلنا جذريًا، أو الأفضل، أن تحل محلنا سلالة أخرى أكثر حكمة؛ لفكرة أن التقنية الجديدة ستنقذنا من أنفسنا. يعدنا الدكتور ريتشارد سمولى، حامل جائزة نوبل، والذى يقود فريق نانوتك بجامعة رايس، يعدنا بأن «تقوم النانوتكنولوجيا بإصلاح ما سببته الثورة الصناعية من أضرار». يكتب إريك دريكسلر ليقول: «إن الأفكار الدارجة ترسم مستقبلاً يكتظ بالمعضلات الرهيبة». أما الهندسة الجزيئية فستمنحنا «ثروة خضراء تتكشف عن عملية نظيفة كما الشجرة النامية». كتب البيئيون كتابات مؤثرة عن أخطار الزراعة الصناعية، عن مواطن الكائنات تدمرها حقولنا، عن الأنواع تندثر بسبب توسعنا، كيف إذن نناقش من يريدون «إنقاذ» الأنواع باستنساخها؟ أو الذين يتخيلون المنابلة النانوتقنية تحل محل الزراعة؟ فى بهجة يقول أحد الكتاب: «ستصبح البشرية نظامًا قليل التلويث، منفصلاً عن الطبيعة الأرضية إلى حد كبير. مرة أخرى سيعود البيزون ليجوب السهول الواسعة المفتوحة». إذا كانت كل الاحتمالات مبهجة، وكان الإنسان وحده هو الكريه، فالحل إذن قد يكون هو اختفاء الإنسان من الصورة. تدخل البوتات هنا على سحابة خضراء. ■



مارجو فييون وفرشاتها

يوميات مصرية

برونو رونفارد

■ الذهاب إلى زيارة مارجو فييون يعنى أن تصل إلى بقعة هادئة فى المعادى، من ضواحى القاهرة، وإلى البيت الذى شيدته نهاية الأربعينيات، وفى الوسط منه يوجد مرسمها الكبير المطلة نوافذه إلى جهة الشمال فيتخللها الضوء غير المباشر الذى يحتاج إليه الرسام. بتجاوز البوابة الخضراء يجد المرء نفسه وسط حديقة مورقة الأزهار والأشجار والشجيرات الكثيفة المتداخلة المشذبة. وهذا الركن الصغير من الأرض يعكس حياتها فى الرسم، فهى حافلة متعددة الأنماط زاخرة بالرنين والأصداء. تشكلت «حديقتها السرية» من تضافر الأماكن البعيدة والعلاقات على مدار عمرها المديد. وليس من السهل تصنيف حياة طويلة مليئة بالنشاط الفنى، كحياة مارجو فييون. فقد اقتربت لبعض الوقت من المرحلة الثانية للمدرسة التكعيبية فى باريس، ثم تحولت إلى كلاسيكية كى تجسد موهبتها فى الرسم وإحساسها بالتكوينات، قبل أن تطلق ليدها، وخيالها العنان فى التعبير، ثم توفق ما بين الأساليب الثلاثة بأبعاد كونية، متتالية، خاصة بها. هناك من يظل متتبعًا لأخدودٍ واحدٍ بدأب وفى ظلال، تجعلك تتذكر أعمال Balthus[1] وهناك المغالاة واللامحدودية على طريقة بيكاسو. وقد اختارت مارجو فييون أن تحتضن كل ذلك، ولكن بمنأى عن الاتجاهات الكبرى والاطراد فى المشهد الفنى.

رغم ذلك نستطيع تتبع عدة اتجاهات فنية واضحة فى نسيجها المتدفق المزدان بالرسوم والصور عن مصر، التى علمتها كيف تنظر وتمسك بأصل كل إيماءة أو لحظة حياة.

نسيج يكمن فيه متحفها المتخيل: لوحات لكل العصور، جنبًا إلى جنب مع الأرض والفضاءات المحيطة والصحراء والأبعاد الكونية باعتبارها اكتشافها الكبير.



بعد باريس، عادت مارجو إلى مدرستها المصرية البسيطة الغنية كى تمسك بحركة الأشياء والإيماءات، وحقيقتها، عبر رسوم معبرة وقوية التأثير. رسمت فى القرى المحيطة بضاحية المعادى أشهر ما عرفت به من أعمالها الفنية. آلاف اللوحات عن حياة مصر فى الثلاثينيات، لوحات حية تشكلت داخلها الإيماءات المتوارثة وتلونت بالحقيقة. وما كان على مارجو الماهرة فى الرسم إلا أن تنقل كل هذا إلى لوحاتها. كان عليها أيضًا أن تتعلم كيف تنظر وترى عمق كل عمل من أعمالها عن الحياة اليومية الحافلة لكى تعبر عما تراه فى الاحتفالات والعمل فى الحقول وحياة المرأة. لم تكن الحقيقة وحدها التى أرادت إظهارها لنا كى نراها، كان هناك أيضًا، ويعمق أكبر، ذلك الجمال الكامن فى العالم وما به من انضباط وعاطفة.

كان العالم المرئى بالنسبة لها لابد أن يكون ساحرًا وبدرجة قوية لكى نختاره موضوعًا لعمل من أعمالها. تحت هذا التوصيف يمكن لنا إدراج كل أعمالها التى أنجزتها خلال إقامتها المؤقتة فى محلة مالك فى وادى النيل عن موسم الحصاد، والتى تضمنت كذلك صورة فوتوغرافية لعين صقر من وراء يد، وكذلك أعمالها عن بلطيم فى نهاية الخمسينيات، وأيضًا العديد من أعمالها عن الاحتفالات فى مصر.



ولدت فى مصر عام ١٩٠٧، لأسرة من الطبقة المتوسطة لرحالة سويسرى يعمل بالتجارة، وأم نمساوية. وقررت الطفلة أن تصبح رسامة. تقول «دائمًا كنت ألهو، ومنذ الصغر، بأن أتتبع بإصبعى رسومات أتخيلها فوق أخشاب ورخام الطاولات». فيما بعد، وكان عمرها ٢٢ عامًا، سافرت إلى باريس لمدة عامين وصفتهما بأنهما كانا البداية. كان ذلك فى نهاية العشرينيات، وسرعان ما هجرت التعليم الرسمى وانتقلت، مع رسامين آخرين غير فرنسيين، إلى مرسم بالقرب من حى مونبارناس. راحت، مع الأيام، تتعلم من صديقتها المثالة الروسية سانجار رابينوفيتش، التحرر من المحاكاة الأكاديمية وترسم ببطء، وفى ضربات قصيرة من يدها، دون أن ترفع بصرها عن الأنموذج «الموديل». خرجت من التجربة ببعض رسومات قوية قريبة من المدرسة السوريالية مع تأثيرات من المدرسة التكعيبية، إذا كان ولابد من استخدام العناوين الأكاديمية.

تركت فترة التلمذة التجريبية هذه علامات عميقة وخصبة فى حياة مارجو لكنها اتخذت أكبر القرارات الحاسمة فى حياتها الفنية والخاصة بأن عادت إلى مصر لتعيش بها. كانت كثيرة الترحال (إلى ابيزر ووادى النيل وبالتحديد مع الرسام الألمانى مارتن سيدل، الذى توفى مبكرًا لكنه ترك تأثيرًا كبيرًا على أعمالها). ومنذ الستينيات اعتادت السفر خلال الصيف إلى أوروبا.

يبدأ متحف مارجو فييون التخيلى بلوحتين بسيطتين علقتهما عند مدخل مرسمها، بعد وقت قصير من انتقالها إلى المنزل، وهما عبارة عن وجهين شخصيين «بورتريه» أحدهما لـ Rembrandt والآخر لـ Brueghel[2] ومن المؤكد أنها أخذت عن هذين الفنانين الرائدين، وكذلك عن Velasquez[3]، Cranachg[4]، الإحساس الفطرى بالتكوين والقدرة على تذوق الأعمال الجيدة وولعها بالعملين «البورتريه الشخصى» مع التباين المطلق الذى يسمح للفنان بأن يركز على ما هو أساسى فى الصورة والبورتريه الشخصى والطبيعة الصامتة.

من المؤكد أيضًا أن بيكاسو شكل مصدر إلهام كبيرًا لها

Margo Veillon
Painting Egypt

مارجو فييون : رسم مصر
Edited by Bruno Ronfard
AUC Press - Cairo

ترجمة: جمال إسماعيل





وإلى درجة أنها كانت كثيراً ما تحلم به فى نومها. وقد وجدت نفسها . فى المنام . مرة فى ميدان تغمره الشمس، جالسة تتحدث إليه وترسم ما بين نافورة وسوق، وقد أطلعها على محتويات صناديقه الزاخرة بأشياء متعددة الأشكال والأحجام. وقد سألته إن كان يتخلص أحيانًا من بعض هذه الأشياء. وقد أجابها قائلاً: بالقطع لا، أبداً. وما قاله بيكاسو فى الحلم ينسحب على مارجو نفسها التى جمعت واحتفظت وصنفت، بعيداً عن الرسومات والوجوه، المئات من الأحجار والأشياء الأخرى المتنوعة. تظل صناديق بيكاسو الزاخرة بالأشياء تذكرها بواحدة من رسوماتها الرمزية التى أنجزتها فى باريس مثل لوحة «أشكال التاجر».

لكن ومثل أستاذها الكبير، تنقلت مارجو بين تجارب وأساليب تراوحت ما بين الرسم التخيلى المتحرر من القيود، وأحدث طرق وأساليب الرسم بالقلم الرصاص. كانت تسير فى نهج ثم تتركه إلى نهج آخر. وقد تعود إليه من جديد.

فى متحف مارجو هناك آلاف الأعمال الجديرة بالاكتشاف. تتراوح ما بين أعمال الحفر «الأكليشيهات»، وخاصة المطبوعة فى العشرينيات، وفيما بعد عودتها من باريس، وأخرى تشكل مجموعة مدهشة من الأحجار والمنحوتات الأصلية، فى أشكال فريدة جمعتها من صحراء مصر التى لم تتوقف يومًا عن اكتشافها. وقد أتاح لها النزوع الكلاسيكى أن تطلق يدها حرة فى الرسم فلم تعد مجرد صدى لحقائق الأشياء وإنما تعبير عن الأصل فيها وحركتها والبناء الداخلى لها. وقد تجلى هذا فى خطها المكتمل فى لوحة «العرى» منذ فترة باريس إلى مرحلة أصالة التكوين ومئات الارتجالات المفعمة بالتوق والعاطفة والتى عرضت لأول مرة أثناء حرب الخليج.

الخط هو «توقيع» وشخصية الرسامة وملمحها المميز، حتى وهى تنهى رسمة سريعة تخطها دون اكتراث. والعمق، فى الوقت نفسه هو السؤال الذى ظل يلح، وظلت تواجهه طوال حياتها، وجاءت استجابتها فائقة المهارة والذاتية فى أعمال متتالية أطلقت عليها اسم «أبعاد كونية».

كانت . وبكلمات أخرى . تريد تقديم ليس فقط ما تستطيع أن تراه، ولكن المعنى وراء وجوده فى هذا المكان، تقديم المرئى والمحسوس معًا. لقد وضعت كل ما لديها من طاقة فى أعمال متتالية مؤثرة، حوالى ٢٠ لوحة زيتية كبيرة وعدد ضخم من الرسومات التحضيرية بالجواش والألوان المائيـة، وكأنها كانت تصنـع لوحة أصلية. هذه الرؤية الكلية الشاملة التى أرادت نسجها على «كنافا»، يوجد بينها وبين المدرسة التكعيبية قواسم مشتركة، لكنها تكعيبية لا تختفى بالشكليات.



وكما تقول مارجو نفسها: «يبدو كل هذا لى اليوم وكأنه يأتى من زمن بعيد، من سنوات باريس ما بين عامى ١٩٢٩ و ١٩٣١، سنوات الاكتشاف من عمل تضمن وقتها مشاهد ذاتية فى مرسمى».

وإذا كان الهدف فى أعمالها عن الحياة اليومية الحصرية هو رؤية العالم المرسوم من خلال الإيماءات، الوجوه، الاحتفالات والأبعاد الكونية، فإن أعمالها اللاحقة تناولت، وبأساليب مختلفة، قضية وحدة العالم المشتت. وفى الأعمال الزيتية المتتالية من ١٩٨٦ إلى ١٩٩٨، تجلى الحل الذى توصلت إليه فى «تحريف» وإعادة بناء الأفق المحيط، وأحيانًا مساحات كبيرة من الألوان الصماء. إنها لا تسعى إلى تقديم مرسم تعمه الفوضى، بل تحتويه وحدة حقيقية. لا ترسم ما تراه العين ولكن ما تظهره لها يدها. وتفسر ما تفعله فتقول: «أنا لست مهمومة بالشىء ذاته، الخط ومدى صلاحيته للتصوير، لكننى أشعر بالشىء من زاوية مختلفة، فى علاقته بالكل وعلاقته باللاشىء وعلاقته بى. الشىء لم يعد مرئية بسيطة». فى هذه الرسومات تكون الفنانة حاضرة دائمًا، ترسم أو تلون. تراها عادة من الخلف وأحيانًا فى ثلاثة أرباع المشهد، وتكون . غالبًا . ممسكة بقلم رصاص أو فرشاة. دائمًا تكون هناك نوافذ أمامها تذكر المرء بماتييس الذى استخدم النوافذ كى يضع العالم فى رسوماته. الفنانة هنا واضحة معنا، إنها تتأمل لوحاتها ونحن دائمًا خلفها. وتمثل «الكانافا» مراقبتها ورسمها ويدها هى الوسيط بيننا وبين العالم. لهذا لا نفاجأ بما لليد من أهمية فى كل أعمال مارجو فييون. ■

هـــــوامـــــش:

(١) رسام فرنسى (١٩٠٨ . ٢٠٠١).

(٢) رسام بلجيكى تميز فى رسم الفضاءات المحيطة.

(٣) رسام إسبانى (١٥٩٩ . ١٦٨٠).

(٤) رسام ألمانى (١٤٧٢ . ١٥٥٣).

كتاب الزاوية



ديوان المدارس

علـــى مبـــارك

فى شهر جمادى الآخرة من سنة أربع وثمانين (١٨٦٧م) أحيلت علىّ وكالة ديوان المدارس تحت رئاسة شريف باشا، مع بقاء نظارة القناطر الخيرية، وبعد قليل انتدبنى الخديو إسماعيل للسفر إلى باريس فى مسألة تخص المالية، فكانت مدة غيابى ذهابًا وإيابًا وإقامتى بها خمسة وأربعين يومًا، وكان سفرًا مفيدًا، اغتنمت فيه فرصة الاطلاع على ما بهذه المدينة وقتئذ من المدارس والمكاتب الجمة، واستحوذت على فهارس تعليماتهم والاطلاع على كتبهم المطبوعة هناك، وتفرجت على مجاريها العمومية المعدة لقذف القاذورات والسائلات بها. وهى عبارة عن مبان متسعة عظيمة الارتفاع تحت شوارع المدينة معقودة من أعلاها يتوصل إليها بسلالم فى فتحات مخصوصة فى الشوارع، يدخل منها النور والهواء وفى جنبيها حوالى المجرى مصطبتان تمشى عليهما الشغالة والفعلة، وينصب فى المجرى قاذورات المراحيض والمطابخ وغيرها، ومياه الأمطار ونحوها بكيفية مدبرة بحيث لا يشم لها رائحة من كثرة ما يسيل فيها.

وكنت قد حصلت على الإذن بنقل المدارس من العباسية إلى القاهرة رفقًا بالتلامذة وأهليهم، لما كان يلحقهم فى الذهاب إلى العباسية من المشاق والنفقة الزائدة، فأُحسن إلى المدارس بسراى درب الجماميز، التى كانت قد اشتريت من المرحوم مصطفى باشا فاضل، فنقلت إليها التلامذة وأجريت فيها إصلاحًا لازمًا للمصالح، وجعل السلاملك للديوان، ووضعت كل مدرسة فى جهة من السراى، وجعل بها أيضًا ديوان الأوقاف، وديوان الأشغال، فسهل علىَّ القيام بها.

تحـــليل فلســـفى لأخـطـــر مشـكلة

■■ ظهرت هذه المقالة فى مجلة «Atlantic Monthly» الأمريكية، فى فبراير من عام ١٩٤٧ أى قبيل صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين وقبل عام من قيام الدولة العبرية على أرض فلسطين المغتصبة! ولعل هذه المقالة هى السبب فى تجاهل قدر هذا الفيلسوف الكبير فى تاريخ الفكر المعاصر والسبب وفى الحملة الصهيونية الضارية عليه.

«والتر ترنس ستيس» (١٨٨٦ - ١٩٦٧) فيلسوف بريطانى الأصل يُعدُّ منذ مطالع القرن العشرين من أشهر الفلاسفة الأنجلوأمريكيين. دَرَّس الفلسفة بجامعة «برنستون» وتولَّى رئاسة الجمعية الفلسفية الأمريكية من عام ١٩٤٩ وحتى وفاته. يُعْرَف بدراسته الهامة عن «فلسفة هيجل» وببحوثه الفلسفية المبتكرة فى المنطق والأخلاق وفلسفة الدين وبتحليلاته العميقة لأبرز مشكلات عصرنا، ويتميَّز بنقده للنزعات التجريبية الساذجة وللوضعية المنطقية وللنزعات الشمولية التى سادت الكثير من مجالات الفكر فى النصف الأول من القرن العشرين.

تكشف فلسفته، على وجه العموم، عن أنه كان نصيراً للفيلسوف الألمانى الأشهر «إمانويل كانط» (١٧٢٤ - ١٨٠٤) فى نزعته النقدية التى تُوحِّد بين المثالية والواقعية والتى ترى فى مجرد النظر العقلى المبرَّأ من المصلحة والهوى المحكَّ الأخير للحق، وفى تأسيسه لـ «السياسة الأخلاقية»، وفى دفاعه عن الدساتير الديمقراطية، وفى إيمانه بأن «العقل يُنكر أن تكون الحرب سبيلا من سبل الحق ويجعل من السلم واجباً مباشراً لكل دولة»، وفى تأكيده أن الطبيعة الناطقة توجد بما هى غاية فى ذاتها وأن من الافتئات على الكرامة الإنسانية أن يُستعمل إنسانٌ أو أمةٌ وسيلةً أو آلةً لمصلحة إنسان آخر أو أمة أخرى، وفى يقينه بأن «الواقعة» - مهما بلغت من الرسوخ - لا يمكن أن تؤسس «حقا»، وذلك على نحو ما عَبَّر عنه الفيلسوف الألمانى فى كتابيه «نقد العقل العملى» و«مشروع للسلام الدائم».

وقد ظهر كتاب كانط «مشروع للسلام الدائم» فى عام ١٧٩٥. ومنذ ما يقرب من أربعين عاما أصدر له أستاذنا المرحوم عثمان أمين ترجمة عربية وقدَّم له بدراسة دقيقة وافية. وجاء فى نص المادة الثالثة من هذا المشروع قول «كانط»: «إنه لا يجوز لأى دولة أن تتدخَّل بالقوة فى نظام دولة أخرى أو فى طريقة الحكم فيها».

وجدير بالتنويه أن لأستاذنا المرحوم زكريا إبراهيم ترجمة عربية لكتاب «ستيس» الهام فى فلسفة الدين صدرت بعنوان: «الزمان والأزل» مقال فى فلسفة الدين عام ١٩٦٧، وأن صديقنا الدكتور إمام عبدالفتاح إمام قد وَجَّه عنايته منذ أكثر من عشرين عاما إلى أعمال «ستيس» فترجم منها إلى العربية على التوالى: «فلسفة هيجل» و«الدين والعقل الحديث» و«التصوف والفلسفة» و «معنى الجمال - نظرية فى الاستطيقا».

كما أصدر صديقنا الدكتور محمد محمد مدين مؤخراً أول دراسة بالعربية عن نظرية المعرفة عنده بعنوان: «نظرية المعنى عند والترستيس». ومن المأمول أن يكون فى هذه الجهود الطيبة ما يدفع إلى مزيد من تعاطف المشتغلين بالفلسفة من العرب للاهتمام بإبراز البعد الإنسانى عند هذا الفيلسوف.

وفيما يلى ترجمة نصيَّة لمقالة «ستيس»: «الوهم الصهيونى» - التى نراها شديدة الأهمية، بالغة العمق، فائقة الجرأة - والتى ظهرت منذ سبعة وخمسين عاماً وكأنها كُتِبت اليوم فى وقت تجسَّد فيه ما رآه الكاتب - من قبلُ - وهما فصار واقعاً كئيباً جاثماً على حاضر الإنسان العربى مهدداً لمستقبله. وهذه المقالة - التى توضِّح تهافت ادعاءات الصهاينة وتستهدف - فى الأساس - أن تستثير فى الوعى الإنسانى حكم العقل والضمير بأن «الواقعة» لاتؤسس «حقا» نقدمها اليوم، بعد أن ران عليها صمت طويل مريب - للقرّاء العرب على وجه العموم - ولمحترفى السياسة ولمحترفى الفلسفة كذلك وللمتباكين على حقوق الإنسان وللناظرين فى أمر التطبيع على وجه الخصوص؛ دونما تعليق!

مصطفى لبيب عبد الغنى

تيـــودور هـــرتـزل



سياسية .. الوهم الصهيونى!

والتر ترنس ستيس

فلسطين بلد صغير. لكن ما يجرى فى فلسطين هو عَرَضٌ دال على حالة العالم فى مجموعه. وما أريد توجيه الانتباه إليه هو أساليب الاستيطان الحاصلة فى فلسطين على نحو يفوق أى استيطان بعينه يمكن حدوثه. وسوف أحاول بيان كيف أن هذه الأساليب مأساوية، ولو صممنا على ممارستها فى مكان آخر من العالم. وهناك كل ما يشير إلى أننا سنفعل ذلك. فسوف لا يترتب على ذلك غير العنف وغير الحرب.

إن الحرب العالمية الثانية بقدر ما كان لها غاية أخلاقية اهتمت بمسألة ما إذا كان يجب أن تُحكم العلاقاتُ الدولية بالقوة أو أن يحكمها القانون. ويعنى القانون تطبيق مبادئ العدالة على المنازعات. وعلى هذا فإن القضية بالفعل هى قضية سيادة القوة أو سيادة العدالة. لقد انتهينا من الحرب، ونحن نفترض أن العدالة قد هزمت القوة. لكن هل نحن الآن حقا فى زمن السلم، نسلك مسالك العدالة أم أننا نسلك مسالك القوة؟ على الإجابة يتوقف مستقبل العالم، وقضية الحرب أو السلام. ومن الأفضل أن نأخذ حالة راهنة بعينها ونحللها بالتفصيل، لنكتشف توجهنا، وذلك بدلا من أن نُلقى بأحكام عامة. وفلسطين هى أساسٌ لاختبار ذلك من الطراز الأول. إنه غالباً ما تتشكل آراء الناس فى المسائل السياسية والدولية على أساس من عواطفهم ومشاعرهم الوطنية، على الدوام، ونادرا ما تتأسس على العقل بحال ما. وفى هذا تكمن العلة الأولى للحروب وإراقة الدماء التى تسود العالم. فالعاطفة والشعور الوطنى، من غير أن يحكمهما العقل يؤديان بالضرورة إلى العنف. والعقل هو مبدأ الديمقراطية والعدالة. فهو يزن الأمور بميزان الحياد. والقاضى الكفء إنما يصل إلى قراره من خلال بحثه لمختلف جوانب قضيته لا بأن يمر عليها سريعا. فالعقل دون العاطفة، ودون الاهتمام الشخصى، هو الذى يجب أن يكون رائده. ولن تنتهى الحروب حتى يتعلم الناس، فى العلاقات الدولية - كيف يتحكمون فى آرائهم وأفعالهم بعدالة نزيهة محايدة، وكيف يقيمون آراءهم وأفعالهم على أساس من العقل.

إن فلسطين حالةٌ فى صميم الموضوع. فليس اليهود والعرب وحدهم هم من تؤججهم العواطف، التى يسمونها وطنيةً، لكن الأمم الأكبر المعنيَّة، والتى ينبغى لها أن تكون على الأقل محايدة، لا تبذل أى محاولة لكى تقضى بحياد فى النزاع بين اليهود والعرب. بدلا من ذلك نجد كل دولة منها معنيةً بمصالحها الخاصة فجعلت من المسألة إما نضالا من أجل القوة الوطنية، أو جعلت منها، وهو الأسوأ، فرصة لاقتناص أصوات حزب من الأحزاب المحليّة.

إن أى محاولة لتطبيق قواعد العدالة على المسألة الفلسطينية هى محاولة حافلة بمصاعب خطيرة. فهى، فى المقام الأول، تواجه بحائط صلب من التحيّزات، فضلا عن أن محاولة من هذا القبيل تُنتقد انتقادا عنيفا. وبما أن العدالة مفهوم أخلاقى فإنه لا يمكن النظر إليها دون إثارة مسألة «الصواب» و«الخطأ». حينئذ سوف ترتفع صيحةٌ تقول إن المرء يتحدث بطريقة أكاديمية وإنه يحاول أن يُقرر مسائل عملية عن طريق قواعد أخلاقية «مجردة» ليس لها تطبيق ما وليست بـ «واقعية». لكن، كيف يمكن أن يتقدّم العالم أصلا - بطريقة أخرى - نحو أى نوع من العدالة الدولية، وهو الهدف الصريح للأمم المتحدة المتضمن فى ميثاقها بناء على اقتراح الأمريكان، دون أن يُطبّق على مواقف عينية أو مبادئ هى فى ذاتها مجردة؟ إن المبادئ التى تطبقها المحاكم القانونية على أفعال الناس، على نحو ما هو مقرر فى الكتب القانونية وفى المراكز القانونية، هى مبادئ مجردة؛ وفضلا عن ذلك، هى فى التحليل الأخير، نتاج أفكار «أخلاقية».

إن المشهد فى فلسطين يتبدَّل بسرعة فائقة، حتى إنه قد يبدو مستحيلا أن نقول عنه شيئا سوف لا يكون قد فات أوانه بعد شهر واحد. لكن مبادئ القانون والعدالة لاتتغيَّر، أو هى، على الأقل، تتغيّر ببطء شديد. وأيضا، فإن المبدأ الأساسى للعدالة الدولية هو ما وُضع فى ميثاق الأطلنطى: يجب أن يكون للأمم الحقُ فى تقرير مصيرها دون عدوان عليها من الخارج من أى أمة. ليس هذا بشىء جديد اخترعه روزفلت أو «تشرشل» فلقد كان متضمنا، من قبل، فى سياسة «ولسون» وتصريحاته. وكان مساويا للفكرة التى يُفترض أن «عصبة الأمم» قد قامت على أساسها، والتى كانت على الدوام هى الفكرة الجوهرية للديمقراطية. فحق تقرير المصير أو الديمقراطية لأمة من الأمم يعنى أن تكون شئونها محكومة برغبات أفرادها. وحيث إن رغبات شعب ما لاتكون أبدا محل إجماع، فإن ذلك يعنى أنه يكون محكوما برغبات الأغلبية.

إن إرغام أمة من الأمم لأمة أخرى بالقوة أو بالتهديد لكى تتصرف على النقيض من إرادتها الذاتية، أوعلى النقيض من رغبات الأكثرية فيها هو عدوان. وهو مناقض لمبادئ العدالة، والديمقراطية، ولتقرير المصير، فى تطبيقها الخارجى والداخلى. وفرض الأقلية داخل أمة من الأمم لإرادتها على الأغلبية بالقوة هو بالمثل عدوان كذلك، لكنه، عادة ما يُسمَّى «طغيانا». إنه سلب لمبادئ العدالة، والديمقراطية، وتقرير المصير فى التطبيق الداخلى أو المحلى. هذا هو المبدأ «المجرد» أو «الأخلاقى» الوحيد اللازم للحكم على المشكلة الفلسطينية. وهذا مالايبدله تغيّرات فى المشهد المحلى، أو ما يطرأ على الحوادث من أوضاع متباينة. وهو لن يكون باليا متقادما بعد عام أو بعد خمسين عاما! فكيف ينطبق هذا المبدأ على المشكلة القائمة بين اليهود والعرب؟

هذا هو جوهر قضية العرب. إن العرب يُشكّلون أغلبية السكان فى فلسطين. وليس هذا صحيحا الآن فحسب بل كان صحيحا من بداية الفترة المسيحية تقريبا، أى من قرابة ألفى عام. والعرب، فى فلسطين، ووجهوا، بالحق أو بالباطل، بهجرة اليهود الجماعية إليهم. وفُرضت على غالبية سكان فلسطين هجرة جماعية كهذه. لكن طبقا لمبدأ تقرير المصير، وهو المبدأ المقبول للعدالة الدولية، يجب أن تتقرر شئون بلد ما برغبات أغلبية سكانه، وأى محاولة من بلد خارجى لتجاهل رغبات هذه الأغلبية بالقوة إنما هى «عدوان». وعلى ذلك فإن أعمال الصهاينة وبريطانيا العظمى وأمريكا، فى سعيهم جميعا إلى فرض هجرة جماعية لليهود إلى فلسطين على النقيض من رغبات الأغلبية العربية، إنما تشكل أعمالا عدوانية مناقضة لمبادئ العدالة الدولية، ولتقرير المصير، وللديمقراطية.

وإنه لن يجدى فى دفع هذا أن يقال إن الأكثرية فى فلسطين «يخطئون» باعتراضهم على الهجرة اليهودية، أو أن يُقال، إنه نظرا إلى معاناة الشعب اليهودى، «ينبغى» على العرب الترحيب بهم. ذلك لأنه طبقا لمبدأ العدالة المشار إليه كذلك تكون غالبية الشعب الفلسطينى هى وحدها المنوطة بتقرير ما ينبغى فعله. هذا هو جوهر المبدأ. ومحاولتنا لإجبار الفلسطينيين على ماينبغى عليهم فعله، أو فرض رأينا، فى هذه المسألة، بالقوة أو بالتهديد، إنما يُشكّل عدوانا.

نستطيع رؤية هذا المبدأ على نحو أكثر وضوحا لو طبقناه فى حالة تكون أقرب إلى وطننا. إن غالبية سكان الولايات المتحدة الأمريكية تعترض على الهجرة الجماعية للشعوب غير البيضاء إلى أمريكا وتُستبعد تلك الشعوب بموجب القانون. فلنفترض أن أمة ما من الأمم الخارجية كانت من القوة بما يكفى لتحاول أن تفرض على الولايات المتحدة السماح للمهاجرين من غير الشعوب البيضاء بالقدوم إليها بمئات الألوف ضد إرادتنا، فإننا سوف نعتبر هذا بالتأكيد عملا من أعمال العدوان: على الرغم من أنه يصدق القول بأن اعتراضنا على هجرة الشعوب غير البيضاء هو «خطأ». وإذن فمن الواجب أن نسمح لغالبية السكان فى فلسطين بممارسة نفس الحق فى تقرير هذه المسائل - المتعلقة بالصواب أو الخطأ - بأنفسهم تماما كما نطالب بذلك لأغلبية سكان الولايات المتحدة.

قد يُحتج على ذلك بأنه على الرغم من أن النظرية الديمقراطية فى حكم الأغلبية تنطبق تماما على بلد بين سكانه تماثل إلى حد

عن مجلة:
The Atlantic (1932 - 1971)
Feb. 1947, vol. 179.

ترجمة: مصطفى لبيب عبد الغنى

معقول، مثل إنجلترا أو الولايات المتحدة، فإنها لا يمكن أن تنطبق بالمثل على بلد تُواجَه فيه أقلية دينية أو عرقية، على الدوام، بعداء أغلبية دينية أو عرقية، كما هو الحال فى فلسطين أو فى الهند. مثل هذا الموقف يخلق حقا مصاعب خطيرة لحكومة ديمقراطية، ويمكن أن يُتخذ دليلا على التقسيم أو على ما سُمِّى فى الهند «بالتمثيل الطائفى». وهذا يبيِّن أنه عندما تُطبَّق مبادئ ديمقراطية على بلد كهذا فمن الواجب ابتداع بعض الترتيبات الخاصة لحماية الأقلية من العسف. لكن كيف يمكن لهذه الاعتبارات، على الرغم من أنها قد تثبت الحاجة إلى بدع دستورية خاصة، أن تؤثر فى المسألة المطروحة الآن امامنا. وبالطبع لا يمكن الاحتجاج بأنه طالما أن حكم الأغلبية صعب فى غياب التجانس السكانى، فيجب أن يكون مسموحا إذن بسيادة حكم الأقلية، فى بعض الحالات الخاصة على الأقل مثل قوانين الهجرة. هذا هو ما يمكن أن تبلغه الحجة التى ننظر فيها الآن. وعلى ذلك فإن هذا الاعتراض على العرب يجب استبعاده.

هكذا تبدو قضية العرب مستندة تماما على مبادئ العدالة الدولية، وأن هذه المبادئ تنطبق مباشرة على المسألة الفلسطينية. ويظهر منطق الحجة بالنسبة لها حاسما لأول وهلة لا يُردّ. ولنرى الآن، على أية حال، ما هى القضية التى يمكن للصهاينة طرحها فى مقابل ذلك.



تقوم القضية الصهيونية على حجج خمس. وهذه الحجج لا تبوب عادة وإنما تبقى منفصلة. وشأنها شأن معظم الحجج على معظم الموضوعات تقدَّم للملأ فى الغالب ممتزجة معا فى كومة مختلطة. ولما كان علينا أن نقوم بتحليلها وتقسيمها بدقة على نحو صائب فمن الواجب أن تبقى منفصلة فننظر فيها حجة حجة. وأى إجراء آخر لا يمكن أن يؤدى إلا إلى تشويش فكرى.

الحجة الأولى هى أن فلسطين كانت فى الأزمنة القديمة منذ عصور طويلة وطناً قومياً لليهود. ربما يكون من المعقول أن نقول إنها أرض «تنتمى» إلى اليهود، وإنهم فضلا عن ذلك لم يغادروها بمحض إرادتهم، وإنهم أُنتزعوا منها قسرا. وهذا ما يعطيهم الحق فى العودة إليها الآن وفى جعلها وطنا قوميا لهم.

تُرى أى قوة، إن كانت ثمة قوة أصلا، فى هذه القضية الخلافية؟ إنه لا يمكن الإجابة على السؤال إلا بعد أن نكون قد قررنا أولا ما هى أصول الحق هذه التى يمكن بموجبها أن تدعى أمة من الأمم حقها فى القطر الذى تشغله. والإجابة واضحة. ليس لأمة أى حق فى الأرض التى تستحوذ الآن عليها إلا أمد الاستحواذ الطويل. فما حق الأمريكان فى أن يعيشوا، ويشغلوا، ويسيطروا على هذه الولايات المتحدة؟ ليس لهم حق بالمرة إلا كونهم قد عاشوا بالفعل هنا لمائتين أو لثلاثمائة من الأعوام. صحيح أنه وُجدت حالات لما يُسمَّى بـ عقد صفقة مع الهنود. لكن أحداً لن يدعى أن الحق العام للشعب الأمريكى فى احتلال هذا البلد مؤسس على صفقات كهذه. وعلى وجه العموم فإننا قد أمسكنا بالأرض تماما بأى وسيلة بدت، فى وقتها، هى الأكثر ملاءمة. وفى معظم الحالات كان الهنود يُطردون قسرا. والدعوى الأمريكية مؤسسة إذن على ما يقول عنه رجال القانون دعوى «حق التقادم».

ويصدق نفس الشىء على أى شعب آخر فى العالم. ففى معظم الحالات لم يكن هناك حتى ادعاء عقد الصفقة هذا الذى نجده فى أمريكا. إن البريطانيين، والفرنسيين، والألمان، واليابانيين، والزولو، ليس لهم أن يَدَّعوا بأى حق فى البلاد التى يعيشون فيها سوى حق امتلاكها منذ أمد طويل.

لو حكمنا بهذا المبدأ، الذى هو المبدأ الوحيد الممكن التطبيق، تكون دعوى العرب أحقيتهم فى أرض فلسطين أفضل بكثير من دعوى الأمريكيين بأحقيتهم فى أمريكا. فالعرب قد شغلوا هذا البلد بالفعل منذ ما يقرب من ألفى عام. ربما كانت توجد دائما أقلية يهودية صغيرة فى فلسطين، تماما كما توجد دائما أقلية هندية صغيرة فى أمريكا، منذ احتلال البيض لها، وهى لاتزال موجودة حتى الآن. وهذا سوف يعطى ليهود فلسطين الحق فى التصويت وفى معاملة لائقة، كما يُعطى تماما نفس الحق بالمثل للهنود فى أمريكا. لكن، هذا هو كل ما فى الأمر.

توضح هذه الاعتبارات أن كون فلسطين كانت أرضا يهودية من أزمنة قديمة لا يمكن أن يعطى اليهود الآن بسهولة حق الدخول الجماعى إلى هناك. وليس مهما كيف حدث أن امتلك شعبٌ أصلاً بلدا من البلاد، سواء بالعدوان، أو بالحرب، أو بأى طريقة أخرى. فلنا فى نهاية الأمر - أى بعد فترة إقامة طويلة بما فيه الكفاية - أن نقرر حقَّه المطلق فيها، وهو ما يعنى بالطبع، أن كل المزاعم السابقة قد اتضحت للعلن. لأن ذلك هو الأساس الوحيد الذى يمكن بمقتضاه أن يزعم شعب كائنا من كان ادعاء حقه فى البلد الذى يسكنه. فما هى «الفترة الطويلة الكافية»؟ إن ألفى عام هى بالتأكيد فترة كافية. وعلى هذا فالحجة الصهيونية الأولى لاتمتلك أى قوة على الإطلاق.

الحجة الثانية هى أن لفلسطين دلالة دينية مقدسة لليهود على وجه الخصوص. فهل يمكن لنا أن نقرر أن المشاعر الدينية تعطى أى نوع من الزعم بحق الهجرة الجماعية إلى بلد من البلاد؟ هل يمكننا أن نسمح بادعاء كهذا فى أى قضية أخرى بخلاف القضية الفلسطينية؟ إن الإجابة، فيما هو واضح، بالنفى. فالتايلانديون لا يمكن تأكيد أى حق لهم فى الهجرة إلى الهند لكونهم بوذيين، مع أن للهند، حيث وُلد بوذا وعاش، دلالة دينية خاصة بالنسبة لهم. ولا يستطيع البريطانيون ولا الأمريكان الذين هم مسيحيون، الزعم بأن لهم حق الإقامة الجماعية فى فلسطين على أساس أن لها عندهم، كما هو الشأن مع اليهود تماما، دلالة دينية عميقة. «لكن التايلانديين، والإنجليز، والأمريكان لديهم أصلا أوطانهم، على حين أن اليهود لا وطن لهم ومن ثم فإن القضايا هنا ليست متوازية». غير أن هذه أمثلة على الفكر المختلط الناتج عن مزج القضايا المتمايزة فيما بينها معا. ومسألة كون اليهود بلا وطن لا يغيِّر من القضية بحال ما، فهذه مسألة منفصلة سوف أعالجها فى موضعها.

الحجة الصهيونية الثالثة هى أن الحكومة البريطانية وعدت اليهود فى عام ١٩١٧ أنه سيكون لهم وطن قومى فى فلسطين. وهنا تقوم دعوى أخلاقية على أساس من المبدأ العام لقُدسية الوعود. على هذا الأساس وصفت المفوَّضية البريطانية دعوى العرب بحق تقرير المصير ودعوى اليهود بموجب وعد بلفور بأنها صراع حق مع حق، فى الأساس. وهذا نموذج مثير للغاية على تشويش الذهن. فهذا الوصف يقرر، فى المقام الأول، وجوب تطبيق معايير أخلاقية «للصواب» و«الخطأ» على المشكلة محلَ النزاع. وهذا صحيح. ويقرر، ثانيا، أن دعوى العرب تستند إلى حق تقرير المصير، وعلى هذا فهى دعوى «صائبة». وهذا أيضا صحيح. وهو يتضمن، ثالثا، أن الدعوى الصهيونية المستندة إلى الوعد البريطانى، تعطى اليهود حقا أخلاقيا (إزاء البريطانيين). لكن كل مايبرهن هذا الزعم الأخير عليه هو أن المفوضين الملكيين (الممثلين للانتداب البريطانى) كانوا غير أكفاء، بما هم محللون أخلاقيون، إلى أبعد حد. فالوضع المطروح هنا يُقبل قبولا واسعا بترخص شديد؛ لأنه لا الصهيونى العادى، ولا الرجل العادى، كائنا من كان، ولا المفوض الملكى العادى، فيما يبدو لى الآن، بقادر على أن يخطو



توضح هذه الاعتبارات أن كون فلسطين كانت أرضا يهودية من أزمنة قديمة لا يمكن أن يعطى اليهود الآن بسهولة حق الدخول الجماعى إلى هناك



أكثر من الخطوة الأولى فى تحليل كهذا. فهم يظنون أن «الوعود يجب الوفاء بها، وأن من يتلقى وعودا له حق أخلاقى فى المطالبة بتنفيذه. وعلى ذلك، فلليهود فى هذه الحالة مثل هذا الحق».

وهذا نموذج فجٌ للتحليل الأخلاقى. ذلك أن الوعود الخاطئة أو غير العادلة، لا يجب تنفيذها، ولا يجب أن تعطى حقوقا واجبة القضاء بل هى وعود يجب استبعادها. فمثلا، لايمكنك أن تدّعى حقا أخلاقيا فى أن تنفذ وعدا بالسرقة. ولو أنك فعلت ذلك فانت تُعين على السرقة. وإذن، فالسؤال الواجب الآن طرحه هو ما إذا كان للبريطانيين أى حق فى الوعد بالتصرف فى فلسطين على نقيض رغبات أغلبية سكان ذلك البلد. من الواضح تماما، طبقا لمبادئ الديمقراطية وتقرير المصير، وهى المبادئ المقبولة للعدالة الدولية؛ أنه لم يكن للإنجليز هذا الحق أصلا، وأن ما فعلوه بوعدهم ذاك إنما هو عمل من أعمال العدوان. ومن ثم فإن وعد «بلفور» لايعطى الصهاينة أى حق أخلاقى، وإنْ هم أصروا على تنفيذه يكونون عونا على العدوان.



نأتى الآن إلى مسألة ما إذا كان عدم وجود وطن لليهود، ونضيف إليه بالضرورة المعاناة الرهيبة التى تحملوها ولا يزالون، والاضطهادات والمذابح، وكل صنوف الرعب الأخرى، يمكن أن يُتخذ أساسا لحق الهجرة الجماعية إلى فلسطين. نثبت هذا على أنه السبب الرابع الذى يحتج به الصهاينة.

إنه لايمكن لموجود بشرى أن يرى هذه الوقائع دون أن يشعر بمشاعر عميقة من الشفقة والخجل. الشفقة على الضحايا، والخجل من فظاعة وشرور الجنس البشرى. لكن علينا أن نتساءل: ما هى الحقوق الأخلاقية التى يمكن تأسيسها على ذلك. غالبا ما سوف تنبعث بالتأكيد مطالبة لكل دول العالم بضرورة معاملة اليهود معاملة كريمة. غير أن مرجع ذلك تماما هو أن تلك الوقائع تستدعى حقا متكافئا قبل كل البلدان المتمدينة (اللهم إلا أن يكون هذا الحق أقوى قبل تلك البلدان التى كانت مسئولة أكثر من غيرها عن هذه المعاناة)، ولايمكن أن تستدعى أى حق خاص قبِل فلسطين. فهذا الحق تُطالَبُ به إنجلترا وأمريكا وروسيا وفرنسا وفلسطين أيضا (لو أن فلسطين بلد عطوف ومتمدين)، لكن لا تُطالَبُ به فلسطين وحدها-أكثر مما يُطالَب به أى بلد آخر.

وفى القانون المدنى يكون علينا الإقرار بهذا المبدأ. فلو أن مواطنا فى بلد من البلاد لا مأوى له، مقهورا وجائعا، فإنه يكون من حقه أن يُنقذ من وطأة هذه الظروف. لكن هذا الحق يكون له قبل الجماعة بأسرها. لا قبل أى فرد بعينه من أفرادها (مالم يكن هذا الفرد هو الذى كان قد تسبب بظلم فى شقائه). والظرف الذى يعانيه هذا الفرد لايعطيه حقا فى أن يتخذ من منزل السيد «سميث» أو السيد «جونز» مسكنا له، ولا أن يطالبهما بإطعامه. حقا، إن على السيد «سميث» والسيد «جونز» واجبات ومسئوليات فى هذا الشأن؛ لكن باعتبارهما فقط عضوين من أعضاء مجتمع، ويكونان فى ذلك متساويين مع كل المواطنين الآخرين تماما. هكذا، أيضا، يكون على الإنسانية ككل واجب جلى فى أن تجد حلا للمشكلة اليهودية وفى أن تضع حداً للاضطهادات وللشقاء الواقع على اليهود. لكن ليس الحل هو فلسطين. أما ما هو الحل الصحيح، فذلك ما سوف أناقشه فيما بعد. ماهى تلك الاعتبارات التى قدمت للتو التى تبين أن حجة الصهاينة الرابعة هذه ليس فيها من القوة أكثر مما فى سواها من الحجج. إنه مايسميه رجال القانون بـ «التماس الرحمة».

الحجة الأخيرة التى تقدّم لحساب الصهيونية هى كون المهاجرين اليهود فى فلسطين جعلوا البلد (:فلسطين) تتقدّم تقدما هائلا بالفعل، وأن من شأن مزيد من الهجرة أن تؤدى بالتالى إلى فائدته. هذه واقعة يجب الاعتراف بها، ولايلزم فى الحقيقة أن ندخل هنا فى تفصيلات تتعلقُ بالتحسينات الاقتصادية والثقافية التى أحدثها اليهود فى فلسطين. فهم قوم معروفون جيداً، لكن السؤال الواجب طرحه هو ما إذا كان هذا يؤسس حجة واضحة للصهيونية؟ نقيصة هذه الحجة أنها غالبا ما يمكن استخدامها لتبرير أى عدوان، مهما كان، أى عدوان من أمة متقدمة وعلى درجة عالية من المدنية ضد أمة أكثر تخلفا. فلقد احتج «هتلر» بأنه سوف يجعل من فرنسا وانجلترا وحتى من أمريكا بلاداً أكثر فاعلية مما يحققه لها الحكام الحاليون لتلك البلاد. وربما لاتكون هذه الدعوى مفتقدة للصواب بالكلية. والحاصل أنه قد احتج فعلا - وهذا هو ما فعله - بأن غزواته سوف تؤدى إلى فائدة العالم فى النهاية. ولو أننا نعتبر مثل هذه الدعاوى دعاوى عنصرية، فعلينا أن نعتبر غيرها من الدعاوى المماثلة دعاوى عنصرية كذلك. فالبريطانيون برّروا دائما وجودهم فى الهند بالفوائد التى حققوها لهذا البلد. ودعواهم هذه بأنهم قد رفعوا من شأن الهند، هى، برغم دعاية «حزب المؤتمر» المضادة، صحيحة من بعض الجوانب حتى وإن لم تكن صحيحه من جوانب أخرى. لقد برّر «موسلينى» غزوه للحبشة بادعاء أنه سيقضى على العبودية وسيُدخل على وجه العموم أنماطا من الحياة أكثر تمدنا. وقد يكون هنالك شيء من الريب فى أنه كان سيفعل ذلك حقا، لو كان قد تيسّر له ما يكفى من الوقت.

هذه كلها، دون ريب، حالات مثيرة للجدل إلى أبعد حدٍّ. لكن المبدأ واضح. فالناس الأكثر تقدما، بغزوهم لأناس متخلفين سوف يعملون دائما وفى القريب العاجل على تحسين أحوال البلاد المحتلة. وعلى ذلك، لو أن فى هذه الحجة مبررا للصهيونية، فسوف يكون فيها تبرير لأى عدوان تقوم به أمة أكثر تقدما ضد أمة أكثر تخلفا. وهذا ما لايسعنا إقراره دون أن نقوّض وأن نهدم فى النهاية تصورنا للعدالة الدولية التى نعترف أننا متشبثون بها. وفضلا عن ذلك، فإننا لو قبلنا هذا التصور، فلن نستطيع إنكار أن للناس (أى للغالبية فى أى شعب) الحق فى أن يدبروا أمورهم الخاصة تدبيرا سيئاً وأن يقاوموا كل محاولات يبذلها غرباء لتدبير أمورهم قسراً (بالنيابة عنهم) تدبيراً حسناً.



هناك خطر بالفعل أن نصبح هنا أكاديميين. فلربما كان من الخطأ لـ«قيصر» أن يُخضع كل الغاليين (سكان بلاد الغال). لكن هل نستطيع حقا أن نأسف على أن السلام الرومانى قد مدّن أوربا؟ ربما نكون «أخطأنا» بسلب الهنود بلدهم. لكن أكان سيغدو «صوابا» أن نستبعد إلى الأبد، من أجل عدد متفرق من أنصاف المتمدينين، أولئك الذين كانوا أكثر كفاءة منهم لكى تُستغل ما فى هذه القارة الشاسعة من فرص؟

وبرغم ذلك، فإن المبدأ القائل بأن لأناس الحق فى أن يدخلوا بالقوة إلى بلد آخر إذا كان بوسعهم إظهار أنهم يعملون على رفعة شأنها - وهو الأساس الحقيقى للادعاء الصهيونى، مع أنهم لم يضعوا المسألة على هذا النحو - إنما يبدو لى مبدأ فى غاية الخطورة فى الحالة الراهنة للعالم إلى حد أنه لايجب مطلقا السماح بإقراره. وعلاوة على ذلك، من الأفضل أن ندين الحماس الزائد ضد العدوان، وأن نرفض تأييد حتى مايمكن النظر إليه على أنه نوع من العدوان المبرر - وياله من قولة خطيرة! - من أن نتبنى فى فلسفتنا فى العلاقات الدولية مبدأ يمكن بغاية



المبدأ القائل بأن لأناس الحق فى أن يدخلوا بالقوة إلى بلد آخر إذا كان بوسعهم إظهار أنهم يعملون على رفعة شأنها - وهو الأساس الحقيقى للادعاء الصهيونى، مع أنهم لم يضعوا المسألة على هذا النحو - إنما يبدو لى مبدأ فى غاية الخطورة





كتاب الزاوية

دار الكتب

على مبارك

لما لم يكن بمصر دار كتب جامعة عامة يرجع إليها المعلمون للاستعانة على التعليم كما فى مدارس البلاد الأجنبية، أنشئ محل بجوار المدارس من داخل سراى درب الجماميز المذكورة لهذا الغرض، وصرف عليه من مربوط المدارس، فجاء محلاً متسعًا يزيد عن لوازم المدارس من الكتب وأدوات التعليم، وقد كان الخديو إسماعيل يرغب فى إنشاء كتبخانة عمومية تجمع الكتب المتفرقة فى الجهات الأميرية، وجهات الأوقاف فى المساجد ونحوها، وأمرنى بالنظر فى ذلك، فوصفت له المحل الذى أنشئ، فعين لمعاينته جماعة من الأمراء والعلماء، فاستحسنوه ووجدوه فوق المرام، فصدر الأمر بأن تجمع فيه الكتب المتفرقة، فجمعت من كل جهة، وجعل لها ناظر وخدمة، وخصص لها مغير (رجل متعمق النظر) من علماء الأزهر لمباشرة الكتب العربية، وآخر لمباشرة الكتب التركية، ونظمت لها لائحة، ثم نشرت تؤذن بإباحة الانتفاع بها للطالبين، وسهولة التناول للراغبين مع الصيانة لها، وعدم التفريط فيها، فجاءت بحمد الله من أنفع الإنشاءات، وأثنى عليها الخاص والعام من الأهلين والأغراب.

وجعل بها محل للاطلاع على الكتب والمطالعة والمراجعة فيها، والنسخ والنقل منها، ورتب فيه ما يلزم للكتابة من الأدوات بحيث يتيسر بهذا الموضع لكل من شاء غرضه من ذلك متى شاء، وأمكن الاطلاع على خطوط الملوك والمؤلفين والعلماء والمتقدمين ومشاهير الخطاطين كابن مقلة وغيره، مما كان يسمع به الإنسان ولا يراه، أو لا يسمع به.



الدرس الحقيقى المستفاد من المسألة الفلسطينية. إنها ليست مسألة معزولة تُترك وشأنها. إنها تمس مستقبل العالم كله



اليسر تطويعه لتبرير أى عدوان أو أية حرب كائنة ماكانت.

تحليل القضية الصهيونية ومايقابلها، فيما أوردناه، يبدو لى غير قابل على الإطلاق لأن يُناقش مناقشة يحكمها المنطق. ربما تكون قد حدثت أخطاء صغيرة فى عرض المسألة. فمن الممكن على الدوام أن نُمسك بالأقوال أو العبارات ونجد فيها خطأ ما. لكن منطق القضية ككل واضح تماما بالنسبة لأى خطأ نجده فى النتيجة العامة، إلى حد أنه، فى النزاع بين اليهود والعرب، تكون دعوى العرب صحيحة ودعوى الصهيونية بغير أساس. هذه هى النتيجة المحتومة التى يمكن أن يصل إليها أى قاض نزيه.

بالطبع، سوف يُدفَع هذا بضراوة، لكن عدم القبول لن يكون قائما إلا على التعصب، وعلى العاطفة، وعلى الشعور بالانحياز. ولندع الصهيونى الغاضب، أو الذى يطفح بالازدراء لما قيل، يفحص عقله ويسائل نفسه: هل هو متحرر من تعصبه ومن عاطفته، ومن شعوره بالانحياز، وهل آراؤه الخاصة قد أُسست على تحليل نزيه لجانبى القضية (أى جانبها اليهودى وجانبها العربى)؟ وإذا ما تساءل قائلا: كيف يمكن أن يتوقع منه الحياد فى مسألة معنى بها هو وشعبه بما هى مسألة حياة وموت؟ فينبغى أن تكون الإجابة بقول هو. قطعا. ثقيل: إن النزاهة بين المرء وغيره، بين دعاوى المرء والدعاوى التى يطرحها الآخر، هى جوهر العدالة وجوهر الأخلاقية، وهى الطريقة الوحيدة التى يمكن بها للمرء أن يتصرّف بعدالة نحو الآخرين فى هذا العالم.

لكن حالة اليهود غير السعيدة فى أوربا تعطيهم، كما رأينا، حقا متكافئا على كل الدول المتمدينة فى العالم. ومن ثمّ يبرز الحل الصحيح للمشكلة إلى العلن على نحو صارخ. إن كل أقطار العالم غير المأهولة بالسكان: استراليا وكندا وأجزاء من الولايات المتحدة، وفلسطين ذاتها، وغيرها من الأقطار. يجب أن تُعدّل من سياسات الهجرة لديها حتى يتسنى أن تأخذ، كل منها على حدة، حصتها السليمة من المهاجرين طبقا للمكان الخالى القابل لذلك. هذا، فيما يتضح بجلاء، هو الحل الوحيد العادل لكل الأطراف، والذى لايمكن لأحد أن يقول عنه إن فيه افتئاتا على حقوقه. فلماذا إذن لايتم من قادة العالم تَبنىّ هذا الحل؟ وعلى الرغم من أن التزام كل البلاد باستيعاب المهاجرين لو أنّ بها أمكنة خالية هو التزام معترفٌ به فى التقرير الأنجلو. أمريكى الحالى، فلماذا ذَوَى هذا الالتزام هنالك تماما وتمّ فى المقابل التأكيد على هجرة اليهود إلى فلسطين وحدها؟ ولماذا لم يتم الانتباه إلى هذا الأمر فى الأغلب ولم تتم مناقشته؟

صحيح إن الرئيس «ترومان» عَبَّر عن نيته أن يطلب من الكونجرس زيادة حصة الهجرة للاجئين، بما فيهم اليهود. لكن هذا لم يكن مصحوبا بأى اعتراف بأنه عَبر هذا الطريق وحده يكمن الحل الوحيد العادل للمشكلة اليهودية. ولم يكن مصحوبا كذلك «بالتخلى» عن سياسة الظلم بالنسبة لفلسطين. فلم يغيِّر هذا من الموقف فى الأساس. وهنا علينا أن نعيد طرح السؤال: لماذا، على الرغم من هذا الاعتراف المريب والمضنون به لدعاوى الحل العادل، نُلقى بكل ثقلنا فى جانب الحل غير العادل. لو وجدنا على هذا السؤال الجواب الصحيح فسوف نضع إصبعنا على ما هو فاسد فى عالم اليوم، وعلى ما يجعل مستقبل العالم بالقطع كابوسا من الحرب، وعلى ما يجعل كل جهودنا من أجل السلام بلا معنى. والجواب هو أننا نحن، سكان الولايات المتحدة، وكندا، واستراليا، وبريطانيا العظمى، وبقية الأقطار المعنيّة، لانريد الاعتراف بالتزاماتنا الأخلاقية الواضحة فى المسألة. ولانريد أن نشارك فى تحمل العبء. لقد وجدنا بلدا صغيرا، هو فلسطين، نائيا، أناسه لاحول لهم وهم العرب فيمكن إذن أن نحملهم تبعة واجباتنا بدون أى عدالة. إنه غالبا مايُقال إن اليهود أنفسهم متعطشون للذهاب إلى فلسطين، وهم ـ فى معظمهم ـ لايريدون الذهاب إلى بلدان

"الوهم الصهيوني"

أخرى. وهذا صحيح بما فيه الكفاية.
غير أنه لايجب علينا افتراض أن هذا دليل على عدالة الدعوى الصهيونية، طالما أصبحت المسألة هى مبدأ العدالة: ومتى كانت الرغبة القوية لحزب من الأحزاب فى أن ينال ما هو محل نزاع متعلق بالملكية أو بأى شيء آخر تعطيه حقاً فى المطالبة به؟ إن مايريده الناس لايبرهن إلا على أنهم يريدون مايريدونه، لكنه لايبرهن على أنهم يسعون إلى نيله بعدالة. ولو تُظهر الدول المعنيةُ أن على فلسطين تحمل نصيبها العادل من اللاجئين (اليهود)، جنبا إلى جنب مع بقية الأمم الأخرى فى العالم، وتقف الدول بحزم وراء هذا القرار فلسوف يذهب يهود أوربا إلى أمريكا وكندا، أو إلى أى بلد آخر يلقون فيه معاملة حسنة، وهم فرحون بما فيه الكفاية. أما أن تَجعل هذه البلاد من الرغبة العاطفية لليهود فى الذهاب إلى فلسطين سببا لعدم تخفيف قيودها الخاصة على الهجرة، فإن هذا لن يكون بأكثر من عذر زائف.

إن العلّة الحقيقية وراء معارضة هذه البلاد تخفيف القيود على الهجرة تكمن فى شيء آخر. وعندما قال السيد «بيفن» وزير خارجية بريطانيا إن أمريكا تضغط على بريطانيا للسماح بمزيد من هجرة اليهود إلى فلسطين لأننا نريد ذهابهم إلى أمريكا، قوبلت ملاحظته هذه بعاصفة من الشجب؛ طالما أن الحقيقة تصدمنا، بالطبع، وتكشف عن شرنا ونفاقنا! لكن ملاحظته صحيحة بالنسبة للإمبراطورية البريطانية بقدر ماهى صحيحة تماما بالنسبة للولايات المتحدة. وعلينا أن نواجه الحقيقة العارية، مهما يمكن أن تكون غير سارة لنا ومهما تكن مخزية، وهى أن أى أمة من الأمم العظمى لاتريدُ هؤلاء اللاجئين، وعلى ذلك فإنها تحاول فرضهم قسْرا على بلد عربى صغير. والسبب فى أن أمريكا على وجه الخصوص تحاول أن تفرض اتخاذ هذه الخطوة، على حين أن بريطانيا تتلكأ فى ذلك، إنما يرجع ببساطة إلى أن الصوت اليهودى الانتخابى قوى فى أمريكا بينما للعرب نفوذ هام فى الإمبراطورية البريطانية.

لكن، سوف يُقال إن مسار التفكير هذا بأكمله ليس هو من السياسة العملية فى شيء. إنه ليس «واقعيا». فالولايات المتحدة والإمبراطورية البريطانية يرفضان تخفيف قيودهما بما يكفى لحل المشكلة وليس من المفيد محاولة إغرائهما لفعل ذلك أو لتبنّى الحل الذى نوصى به هنا للمشكلة اليهودية. والسياسيون العمليون عليهم إدراك ذلك. لكن ما أريد إبرازه هو أن هذا اللون من سياستهم «العملية»، أو «الواقعية»، هو الذى يؤدى إلى الحرب، ولسوف يؤدى بالضرورة إلى الحرب من جديد، لا فى فلسطين وحدها، وإنما فى أرجاء العالم كله.

هل نحن نريد السلام أو لا نريده؟ لو أننا نريد السلام فهناك، إذن، سبيل واحدة للظفر به: أنْ نكف عن تقرير المسائل الدولية على أساس من تصيّد الأصوات الانتخابية، والمصالح الذاتية، والقوة، والشره، والتعصب، والهوى، أو على أى أساس قَلّ أو كثر من العواطف المقنّعة بقناع الوطنية. وعلينا أن نبدأ تقريرها بالعقل على أساس من النزاهة ومبادئ العدالة.

هذا هو الدرس الحقيقى المستفاد من المسألة الفلسطينية. إنها ليست مسألة معزولة تُترك وشأنها. إنها تمس مستقبل العالم كله. وكما أن الجيورنيكا Guernica كانت أساساً صادقا لاختبار أساليب الألمان والايطاليين فى الحرب، فكذلك الحال تماما مع فلسطين، إنها أساس لاختبار سياستنا من أجل السلام. فطرائقنا هناك، بتناولنا العاطفى واللاعقلى للمشكلة، إنما يكشف عن تفاهة احتجاجاتنا (المزعومة) دفاعاً عن السلام. ■

الحاجز

مشـــهدية الوجـــع الفلســـطينى



الـيـــــــاس عـطـــا الـلـــه

أثيـنــــا وبـيـــروت

■■ كان من المفترَض. وأنا المفترِضُ. أن أكون أوّل الكاتبين فى «حاجز» عزمى بشارة، لا لامتيازات منحتنيها الدّولة العليّة، سواء كانت الأستانة عاصمتها أو القدس، بل لأنّنى اطّلعت على بعضٍ من نصّه قبل أن تتلقفه دور النّشر، وقبل أن يرتئى الكاتب جعله شظايا رواية، وكان قد اختار له اسم: «وجد فى بلاد الحواجز»، الذى جعله عنوانا ثانويًا يتصدّر القسم الأوّل من روايته. قرأت العمل كاملا، وتريّثت، من باب رهبة الولوج تارة، وأخرى من باب محاولة لملمة ما تشظّى منّى، وثالثة لأفسح مجالا فى النّفس لوجع القلب، وهو ضرب من الأمراض المزمنة التى يعيشها الفلسطينى، حتّى صارت من مقوّمات جبلته.

فى محاولة بائسة منى للهرب من الحاجز، تابعت بمشاعر، لا أعرف دافعها، دورة الألعاب الأولمبيّة فى أثينا، وخاصّة رياضة العدو وقفز الحواجز، وساءنى أو لم يسؤنى، أنّ ممثّلينا من الرّياضيّين لم يفلحوا فى سباق قفز الحواجز، ونحن أكثر أمم الأرض معايشة مدمنة للحواجز، وتيقّنت أنّنا كبرنا على الحاجز، ولم نتدرّب على تعديه، لا قفزا، ولا مناطحة، تدرّبنا عليه شيئا من بنية نظام حياتنا، سنّة، لا تستقيم حياتنا إلا به، وأىّ محاولة منّا لتجاوزه، أو تجاهله، أو للالتفاف عنه هى المروق والهرطقة، أو هى التّمرّد والتّخريب، ولذا أفلحنا فى كلّ ما لا يرتبط بالحاجز والرّياضات الأرضيّة، أفلحنا فى التّحليق والفضائيّة المرادفة لرحب الصّحراء فى رياضة الرّماية،

استمرارا لما عُلّمناه فى عهود الإسلام الأولى، فعلناها من باب الإيمان والبرّ والتّقوى، وأفلحنا، ولعلّنى مخطئ، فى رفع الأثقال، مصطلحا راقيا لرفع الأحمال، أو للقدرة على الصّبر فى حمل الأعباء.

كانت متابعتى لأثينا مصحوبة بانقطاعات، فرضها واجب التّثقيف العصرىّ للذّات، وذلك بمتابعة بيروت وما آلت إليه هموم الأمّة العربيّة فى اختيار سوبر ستارها، وكيف سينعكس ذلك على المسألة الفلسطينيّة العتيقة، والمسألة الليبيّة الطازجة، ولم يكن الأمر ليتطلّب منّى جهدا ذكائيًا حصريًا، فالموضوع يحاصرك فى حلّك وترحالك، ضربا من الحاجز غير المرئى، إنّه حديث الأمّة، والصّحافة، والحكومات، احتشدت له، وحشّدت، لنصرة القضيّة المطروحة، أو صاحب القضيّة، وأفلحنا بكلّ الدّيموقراطيّة التى ننعم بها بكسر وتجاوز كلّ الحواجز؛ ثلاثة ملايين ومائتا ألف عربىّ من أصقاع الدّنيا، وقفوا وقفة

رجل واحد، كحال المؤتمرين فى دار النّدوة، وانتصروا للقضيّة، قضيّتهم المنزوعة من سمة العروبة التى صارت نوعا من الإقليميّة، وحاصرتنى النّكبة والاجتياحات وجنين وبغداد، فتسلّل إلى الذّاكرة الضّرير البصير أبو العلاء، والهائج الشّقىّ المتنبّى، وقبل أن يكثر الحجيج، ويتململ هاجعون نسيهم العرب فى رحلة حضارتهم القسريّة، قمعت ذاكرتى المشتقّة من فلسطينيّتى المزمنة فى المرض.

قـــــوالـــــــب

دعوا كلّ الهذيان السّابق، فهذا مما أقحمنى فيه حاجز عزمى بشارة، وأنا مزمع على اقتحامه، هذه هى القضيّة الأساسيّة فى هذا الحاجز، تحاول أن تقتحمه وتذرّره شخوصا ومرامى ومضامين، فيحاصرك، وأنت ترمى إلى محاصرته... هل جرّب أحدكم الكتابة

تحت الحصار؟ التّركيزَ فى حالة التّشعّث والتّبعثر؟

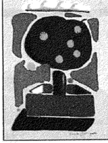
رأى الكاتب أن يسمّى روايته «الحاجز»، وأضاف إليها فى مرحلة ما سمة «شظايا»، والوالدُ لا يُسأل فى مثل هذه الحالات، وإن حاول بعض الأدباء تحليل هذه الشّظايا غير المندرجة فى مصطلحيّة أجناسهم الرّوائيّة، ولأنّنى تعمّدت ألاّ أقرأ ما كتبوه عن الحاجز، على الغالب، كى لا أعيش فى حواجز أخرى تفرض قيودها علىّ دون أن أدرى، رأيت أن حاجز عزمى بشارة رواية متضامّة، لا شظايا رواية، تحكى عن تشظّى الحالة القضيّة الإنسان الأمّة الزّمان المكان، يشظّيها الحاجز، ثمّ يبئّرها لتشظّينا من جديد. والحاجز هو البطل عند بعضهم، ولست أدرى كيف نمارس مصطلحيّة حَجْزها حدّ الرّواية الجامع المانع، والحاجز مانع غير جامع، وإن جمع، فإنّه فاعل ذلك بعد أن نكون قد تشظّينا ورغبنا عن الجمع والاجتماع وحتى عن الجماع!

تتبدّل إبداعاتنا الأدبيّة، وتظلّ مصطلحاتنا محجوزة فى قوقعة ما، فعلينا أن نستظهر مقوّمات الرّواية، من ضرورة وجود بطل، يوصف حينا بالتّسطّح أو بالتّنامى أو...، ونظلّ نبحث عن الحوار والسّرد، والزّمان والمكان... وماذا نفعل فى حالة «الحاجز»، وهو عمل قلبها رأسا على عقب؟ ماذا نقول عن المهزوم البطل، أو اللابطل البطل، أو اللّغة البطل، أو الكاتب البطل؟ بل ماذا يضيرنا لو محونا البطل؟ كيف أتعامل مع شعر لأنسى الحاج أو نذير العظمة أو أدونيس، وأنا مثقل بأدوات السّجع التام والسّجع النّاقص والطّباق والمقابلة والتّخميس وردّ العجز على الصّدر والزّحاف، وأحكام من نحو: أحكم بيت وأغزل بيت وأهجى بيت وأرثى بيت...؟ فعلى هذا لا يختلف عن أىّ محاولة لحجز الحاجز فى قاموس النّقد المتعارف عليه، لا من منطلق ديالكتيكى، بل للمفارقة بين تزاوج المتعارف

> نحـــن أكثـر أمـم الأرض
> معايشـة مدمنـــة للحواجـز، وتيقّـنت
> أنّنا كبرنا على الحاجز، ولم نتدرّب على تعديه،
> لا قفـزا، ولا مناطحـــة، تدرّبنـا عليـه
> شيئا من بنيـة نظام حياتنا

الحاجز.. شظايا رواية
عزمى بشارة
بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٤


حلمي التوني 2004



الحــاجــز

عليه ولعبة الحاجز المتنافر المتضام. ولذا، أفلحت، على ندرة، في الانعتاق من الحاجز، فلم تشغلني قضية تجنيسه أو تجنيره، وهيكلة مقوماته، لقد كفاني بشره شرَّ الانشغال في القوالب.

وجــد

قد ننشغل في «وجد» الكاتب، أثناء القراءة وبعدها، صحيح أن ابنته ملائكيّة الطلعة تحمل هذا الاسم، وصحيح أن الوجد له في معاجمنا دلالات من الأحاسيس تستوطن النص، ولكنني. إن كنت أقرأ الكاتب جيدًا . أرى أن ملهمه الأول في التسمية هو ملاكه البيتي، بتأثير من متانة العلاقة بين الطفل و«أليس في بلاد العجائب»، وبإثراء من ثقافته اللغوية وثقافته الإسلامية الرحبة الشاملة للصوفية ومعجمها، فالوجد والفقد عندهم رديفان للمحو والإثبات القرآنيتين (سورة الرعد: الآية ٣٩)، وكلها من الحالات الوجودية التي يمر بها المتصوفة، والوجد عندهم ليس الوجدان ولا الوجود، فهو أن يغمر النفس أو الباطن فيضٌ أو واردٌ إلهي يخلف الحزن أو السرور، ولا يكون ثمة وجد إلا بعد فقد، وكان ابن الفارض في تائيته الكبرى قد أورد المصطلحات الأربعة، إضافة إلى المعنى المعجمي الشائع:

وقلتُ وحالي بالصبابة شاهد
وجدي بها ماحيَّ والفقدُ مثبتي
هبي، قبل يُفني الحبُ مني بقيّة
أراك بها، لي نظرةَ المتلفت
...
وطاحَ وجودي في شهودي، وبنتُ عن
وجود شهودي ماحيا غيرَ مثبت
وعانقت ما شاهدتُ في محو شاهدي
بمشهدِه للصحو من بعد سكرتي
...
أروح بفقد بالشهود مؤلّفي
وأغدو بوجد بالوجود مشتّتي
يفرّقني لبّى التزاما بمحضري
ويجمعني سلبي اصطلاما بغيبتي
...
ومأخوذ محو الطمس، محقًا، وزنته
بمحذوذ صحو الحس فرقًا بكفّة
...
وما فاقدٌ بالصحو في المحو واجدٌ
لتلوينه أهلا لتمكين زلفة

(ديوان ابن الفارض (١٩٦٢). بيروت: دار صادر، دار بيروت. ص ٤٦ . ١١٦ . وانظر: د. عاطف نصر، شعر عمر بن الفارض. بيروت: دار الأندلس).

ومهما يكن من أمر وجد المتصوفة الذي لا يكون إلا بعد فقد، فلندعهم ومصطلحيتهم، لنبقى في غمرة الفقد التي لا نعرف بعدها وجدا، أو في غمرة وجدنا بعد أن فقدنا كل شيء... وفقدنا.

وثمة هاجس يراودني في أن «طروحات عن النهضة المعاقة»، والذي صدر قبل هذه الرواية، فيه من الأسلوبية في بعض فصوله، ما أراه قوة دافعة لإيصال الموقف والرؤية والرؤيا بالأسلوب الأدبي وبالنفس الروائي الذي لم يفاجئني به الكاتب في حاجزه.

أما ملهمه النصي، فهو المعاناة، بكل تفاصيلها، الممتدة على مساحة الكتاب، يمثلها الحاجز المتحدث بالأصالة وبالنيابة عن كل أشكال الحجز في المكان كله، وفي الزمان كله، معاناة خلقت عملا صادقا، ولا يطل على الدنيا شيء جميل بلا ألم.

الرحلة الصعبة

أصدق من يكتب عن هذه الرواية ذلك الذي يسألك قراءتها... فالكتابة عنها بأسلوب العجالات والكلمات المعدودة التي يحصيها المحرر، ويحجزها رئيس التحرير، مفضية لا محالة إلى التقصير، فالتفاصيل كثيرة، وتنزرها وتضامها أو تراصها يتمان بسرعة مدوخة؛ تنتقل من الثانية التي تتنفسها إلى مائة سنة قبلها، أو بعدها، من السم (السنتيم) الذي «ترتع» فوقه، إلى عوالم بعيدة، من طقوس الحياة إلى طقوس الموت، من وجع الدماغ إلى صرخة طفل إلى انكسار عقب حذاء امرأة إلى اندلاقة كرش وإشفاقة يساري على حقوق المتلاوطين والسحاقيات... وعليك أن تكمل دراستك في أكاديمية الحاجز؛ من علوم المجتمعية، إلى مدرسة علم النفس، إلى الطب فإدارة الأعمال، ومن الأرصاد الجوية، التي لم نحفل بها يوما إلا في مراسلاتنا بالإنجليزية في عهد التلمذة بتأثير من المرسل إليهم عبر البحار، فالسماء المكفهرة القاتمة عندهم جعلت الأحوال الجوية شيئا أساسيا في حديثهم، وما لنا نحن أصحاب الشمس المشرقة؟. إلى مدرسة الألسن، وتدخل في الفصول المتداخلة لترى وحل الشتاء في غبار الصيف... والتفاصيل كثيرة، حتى لتخشى أن تتقافز حولك «تفصيلة» أو أكثر سائلة إن أهملتها «ليش مش أنا»؟ بلغة الكاتب. (طروحات عن النهضة المعاقة (٢٠٠٣). رام الله: مواطن. ص ٩٣).

أن أكون صادقا، يعني أن أوصي بالقراءة وأصمت! ورغم هذا سأناور عبر محاور شدتني، ولا تبطل مناورتي قضية الصدق المذكورة، فالرواية التي لا نعرف من أي زاوية نأتيها، صعبة، ولأقرر. وليُقل ما يُقال. : إن الحاجز أهم وأصعب وأعمق ما كتب عزمي بشارة، رغم اللبوس الروائي الجميل الخادع ذي الحواريات المضمخة بعبق اللغة المحكية.

الحـــاجــز

كتلة من الإسمنت، لا يغيّر شكلها شيئا، تعددت الأشكال والوظيفة واحدة. هو مكان في اللامكان، إنه شيء خارق موجود كما الخالق في كل مكان، مخترقا الزمن والتضاريس والإنسان، تجده حينا في جواز مرورك، أو مستوطنا عند عتبة بيتك، أو أزليا أبديا بين الراعي والرعية، وإن استبطنت، وجدته يقظا أو هاجعا متململا في الأنا فيك. والحاجز هذا يرسم خارطة الوطن، والوطن دوائر تبدأ حيث سقط رأسك، في المرة الأولى قبل جسدك لتطل على الحاجز، وفي الثانية بعد أن تهاوى جسدك لتغمض عينيك على الحاجز، وتتسع لتشكل مدارج صبا وحارة، وتنفلش لتشكل قرية، فمدينة... أما الوطن، فتشكله في البال لما يزل. والحاجز كما الخالق قادر على كل شيء، وإن كانت مهمته أن يقتل الخالق وخلقه، بيده الوجود والعدم، الحركة والسكون، المبتدأ والمنتهى، هو النقطة التي تقسم الزمان والمكان إلى ما قبل وما بعد، فلا التقويم الميلادي يجدي، ولا الهجري، أما توقيتات جرينتش ومكة المكرمة، فليست في حساباته. هو شيء ممتد من اللامية الأولى التي تعلمناها، لامية السموءل بن عاديا اليهودي المتمترس بين ظهراني العرب منذ الجاهلية. والحاجز محور الدنيا، كل شيء يدور حوله ويتوقف وفق إيقاعاته، ووفق ما يعتريه من حالات نفسية لا يتوقعها إلا علام الغيب... لا أعرف لم أعادني هذا الحاجز لأقرأ لامية السموءل من جديد، ومن زوايا ما خطرت في البال من قبل، قراءة أوقفتني بلا حول أمام المتفرد كأبلقه الفرد، وكادت تضعني في مواجهة التاريخ في أن نواة الحاجز مستكنة فيها،

وننكر إن شئنا على الناس قولهم
ولا ينكرون القول حين نقول
وأسيافنا في كل غرب ومشرق
بها من قراع الدارعين فلول
معوّدةٌ ألا تُسل نصالها
فتغمد حتى يُستباح قبيل...
فإنّ بني الديّان قطب لقومهم
تدور رحاهم حولهم وتجول

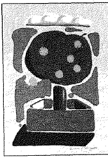
وأعود إلى دفاتر التلمذة وأقرأ أن اللامية «من أشهر قصائد العرب في الفخر»!

علمني الحاجز الكثير من المثالب، فصرت أقتحم الزمان والمكان، وأعود إليه لأحافظ على تسلسل الفكر، أعود حيث لا مناص، والفلسطيني يعيش في الحاجز حتى بات الحاجز يعشش فيه



الرواية التي لا نعرف من أي زاوية نأتيها، صعبة، ولأقرر. وليُقل ما يُقال. : إن الحاجز أهم وأصعب وأعمق ما كتب عزمي بشارة، رغم اللبوس الروائي الجميل الخادع ذي الحواريات المضمخة بعبق اللغة المحكية





الحاجز

ضربا من الاحتلال والاستيطان، يلهث وراء انتماء بعيد عن الحاجز وحضارة الحاجز، بعيدا عن الأهل والوطن، يرحل وهو لا يدري أنه يحمل الحاجز معه، وكل طرقه مؤدية إلى الجلجثة. لطالما حاول الكاتب الإفلات من الحاجز(انظر مثلا الصفحات ١٠٧، ١٦١، ٢٣٣، ٢٥٣ وما يليها)، والإفلات متنفس، يتمثل بالتداعيات التي تنبش الماضي لتحل كان بدلا من كائن، أو لتؤول كان إلى سيكون، وسرعان أو بطآن. لا أهمية للزمن في حضرة الحاجز. ما يعود الزمنان إلى الانصباب في الحاضر المسمى حاجزا، وكأنه «يذبل» الذي لا يريد لليل امرئ القيس نهاية، حتى محاولة استحضار فرح ولو في الصفنة يحجزها الحاجز، والحاجز أرجوس الأسطوري ذو العيون المئة، التي لا تنام منها إلا اثنتان على التوالي، لتظل الثماني والتسعون مشرفة على كل مكان، ترى كل شيء، حتى الصفنة المزمار الذي لجأ إليه الكاتب، ما افلح في المناورة، فعاد من صفنته إلى الحاجز، منتظرا تدخلا إلهيا، أو معجزة عودة ابنة ساتورن لتزين بالعيون المائة ذنب طائر مختال منفوش.

مشهدية

شتان بين تصوير العذاب والتعذيب، الإهانة والمهانة في حضرة الحاجز، انتظارا، ووقفة، واجتيازا أو قفولا، فوسائل الإعلام قد تكون قادرة على رصد المرئي، أما ما في العمق، فيبقى فوق عدساتها، لا تسبره الكاميرا وزاوية التصوير، بل لا تعرف كيف تتعامل معه، فمنذ أن أطلت الفضائيات علينا، صورة تنقل جحيم الحدث، ونحن نرى شلالات الدم المنهرق في أفغانستان أو العراق أو فلسطين. لا أذكر أنني شاهدت ولو جثة يوم تهاوى برجا نيويورك. . «عناية مكثفة» بالجثث المبتورة، الرؤوس المتشظية، والأمعاء المندلقة، وللأطفال من بين المتشظين/ المغتالين/ الشهداء مساحة خاصة، وتعاد الصورة مثنى وثلاث ورباع... ومعشر، تخاطب فيك، مشاهدا محايدا أو غير محايد. ولا حيدة في مشهد طفل أغفت عيناه غزلانيا مضرجا بدمه. غريزتك الإنسانية النافرة من المجزرة، وردة فعلك الآنية المصحوبة بشتم الخالق والعرب والمسلمين وإسرائيل والولايات المتحدة... جلبة مصحوبة بتهدج الشرايين ورفع ضغط الدم، قلما أخرجتك إلى الشارع، وإن خرجت حُجزت، لا تملك إلا سذاجة الصرخة بفتح الحدود، لنصرة الأهل، والحاجز في مثل هذه الحالة يتموضع في أي شارع عربي، أمام الجامعة أو الجامع، بله الحدود. وتألف عيناك المشهد، ويخبو التأثير ويؤول إلى ضرب من التقزز... هذا هو خطاب ردات الفعل، هو موقف اللاموقف، يجعلك عبر الشتيمة والجلبة تتنفس وتمج ما فيك من غضب، ولا نستطيع أن نقلل من كم الغضب وقدسيته في مثل هذه الحالة، ولكن الإثارة والتركيز على الضحية وعلى الأشلاء فيهما تضليل واستعطاف ومحورة المعاناة في الشهادة، وعلى قدسية هذه، تظل المعاناة نصيب الباقين المتنفسين، أولئك الذين عُني بهم «الحاجز»، مشهدية للوجع الفلسطيني، تخاطب القلب والعقل، وتفضي إلى بلورة موقف، عندك وعند القارئ الإنسان، وما أبعد هذه التي أفلح فيها الكاتب (اقرأ ٣٩، ٥٥ وما يليهما)، عن ردة الفعل الغاضبة الزائلة التي سمرتك أمام الشاشة!

وحدة الأعراس والجنائز

في كل أصقاع الأرض طقوس خاصة بالأعراس، وأخرى خاصة بالجنائز، طقوس متناقضة تفرضها جدلية الحدثين، فالفرح فرح والحزن حزن، إلا في حقيقة الحاجز، حيث تذوب الفروق، ويتحد الفرح والحزن في طقس حاجزي واحد، تذوب فيه الأعراف والتقاليد، فالتخطيط والتوقيت وإجراء الحسابات يقررها الحاجز، لا أهل المحمول على آلة حدباء، ولا مقولة«كرامة الميت في دفنه»، ولا رغبة العروسين المحمولين على الأكف وسط طلقات الزغاريد... هكذا «يشقلب» الحاجز كل شيء، حتى إنه اخترع مساء في وهج الظهيرة، بحيث صارت السهرة في الساعة الواحدة بعد الظهر وبالتوقيت المحلي. هذا هو الحاجز الذي رصده الكاتب، ولم تقو الفضائية على نقله، إنه الوجع الذي لا يتصبب الدم منه، ولا أدري أي الوجعين أكثر إيلاما؟

حقيقة على غاية من البساطة؛ ما يمر به أهل الحياة بانسيابية وتلقائية، يمر به أهل التنفس بشق الأنفس، وأشقى ما في الأمر أن تحكمك كتلة اسمنتية، حولها نفر من الصفيح المدجج بالرصاص والعربية الفصيحة والملحونة، مشفوعة على الغالب بالكلمة الرهيبة الآمرة «أخورا»(= إلى الخلف) وما يترتب عنها(انظر ص ٦٤ وما يتبعها)، والمنغرسة في ذاكرتنا مصطلحا كيبوتسيا يفهمه البقر في الحظيرة، أو أي من سائمة الكيبوتس(وأصله الدلالي اللم والضم). ولى عهد الكيبوتس الاشتراكي الصهيوني، وظلت القطعان بشرية تُسام، تروح وتغدو، وتُضام، في وطن الحاجز الذي لا يعرف لا لمًا ولا ضمًا.

العدسة اللاقطة

عزمي بشارة روائي من الجنس النادر، لا لأنه طوع فلسفة وسياسة في أسلوب أدبي، بل لقدرته شبه الحصرية في رصد التفاصيل، إنها أمور تمر بنا، ونمر بها يوميا دون أن نعيرها اهتماما، وفجأة نراها في الرواية قد تصدرت مشهدية كاملة، أو عبرت عن فلسفة حياتية، أو رصدت أشياء من نفسياتنا ومعتقداتنا المتقلبة المتغيرة، وتهمس في نفسك أو تصرخ بأنك قرأت هذه التفاهة المسجوعة، أو ذلك الشعار المختزل لقناعة، والذي قد يتبدل غداة اليوم التالي، بفعل الجو العام في دولة الحاجز، أو بفعل فوز لفريق كرة قدم، أو بفعل انتظار يتيح لك المراقبة أو الصفنة، والعاديون ينتظرون في الانتظار، يحلقون في اللاشيء، «ينتظرون» ليس فعلا يحمل دلالة عمل، إنه صيغة فعلية منزوع منها الفعل، والروائي المتمرس، ذلك الذي لا تفلت منه مثل هذه «التفاهات».(انظر ص ٤٠، ٤٢، ٦٤، والجنازة الثانية).

وأخيرا

لا أعرف إن كان ختامها مسكا، أو إمساكا عن... إنه إقرار بعدم ولوج الأهم، والأهم في الرواية هو الربط بين التصدير المنسول من لسان العرب في بعض الفصول، والتذييل الذي تنتهي به الفصول، قطبان من أكثر مواقع الرواية ترابطا، فالتصديرات اللسانية مدخل دلالي حدثي، والقفلات، تبقيك معلقا لا تملك قرارا، تماما كما هو حالك في حضرة الحاجز.

قارئ الحاجز أحد اثنين، إما أنه يعرف الأماكن والأسماء، فتنضاف إلى متعته متعة، وإما أنه لا يعرف هذه التفاصيل، فيكتفي بمتعة واحدة، وفي الحالتين كلتيهما، يجب أن يكون قارئا مثقفا.

وأخيرا،
اقرأ الحاجز ثلاثا؛
الأولى من باب مراودة النص،
والثانية لتدخل في حالة متعة الوجع ولا مازوخية،
والثالثة، لتعرف طعم وجع المتعة.
«والأوله آه... والتالته آه». ■



أولئك الذين عُني بهم «الحاجز»، مشهدية للوجع الفلسطيني، تخاطب القلب والعقل، وتفضي إلى بلورة موقف، عندك وعند القارئ الإنسان





الدروز في إسرائيل

عرب في الحقوق يهود في الواجبات

صالح محمد النعامي

■ لشدة ما ألم به انفجر باكياً في مركز الشرطة بعد أن اقتيد إليه مكبلاً بالسلاسل. في الطريق من البار وحتى المركز باءت كل محاولاته للاستفسار من الشرطي الذي ألقى القبض عليه عن الأسباب التي دفعته للإقدام على مثل هذا الإجراء ضده. الشرطي أبلغ رؤساءه أنه ألقى القبض على هذا الشاب بعد أن سمعه يتحدث في هاتفه النقال باللغة العربية، فظن أنه فدائي فلسطيني يعتزم تفجير نفسه في نزلاء البار، فألقى القبض عليه للتحقيق معه. سرعان ما أطلق سراح هذا الشاب «العربي» بعد أن تبين أنه قائد لأحد أكثر ألوية المشاة في الجيش الإسرائيلي نخبوية. هذا ما حدث في سبتمبر من العام الماضي، في مدينة «نهاريا»، شمال إسرائيل، للعقيد عماد فارس، الدرزي، الذي يقود لواء «جفعاتي». هذا اللواء الذي أخذ على نفسه قمع الانتفاضة الفلسطينية في قطاع غزة. فعندما تنقل وسائل الإعلام خبر عملية اقتحام، أو قتل، أو تدمير للمنازل، قام بها جيش الاحتلال في قطاع غزة، فبشكل تلقائي يعرف أن لواء «جفعاتي» بقيادة العقيد عماد فارس، هو الذي نفذها. فهذا الشاب الذي تجاوز بقليل سن السادسة والثلاثين، لم تغفر حقيقة خدمته في صفوف الجيش الإسرائيلي ثمانية عشر عاماً حتى الآن، فيقاد إلى مخفر الشرطة لكونه تلفظ بكلمات بالعربية في مكان كل من يتحدث فيه العربية يثير الشبهات. هذا أحد أعراض أزمة الهوية المتفاقمة التي يعيشها آلاف العرب الفلسطينيين من أبناء الطائفة الدرزية في الدولة العبرية. فمن ناحية يؤدي الدروز كل «الواجبات»، التي يؤديها اليهود لدولة إسرائيل، وعلى رأسها الخدمة الإجبارية في الجيش الإسرائيلي مع كل ما يقتضيه ذلك من التصادم مع أبناء شعبهم، ومن ناحية ثانية تتعامل الدولة العبرية مع الدروز كما تتعامل مع بقية العرب الفلسطينيين الذين يعيشون داخل الخط الأخضر في كل ما يتعلق بـ «حقوق المواطنة»، مع كل ما يعنيه هذا من إجحاف على كل المستويات.

وقد بدأ أبناء الطائفة الدرزية في إسرائيل يشعرون أن خدمتهم في الجيش الإسرائيلي، وهلاك المئات منهم في الحروب التي خاضتها إسرائيل لم يقنع دائرة صنع القرار في الدولة العبرية بإنصافهم ومساواتهم على الأقل باليهود الذين لا يخدمون في الجيش الإسرائيلي، من أمثال أتباع التيار الديني الأرثوذكسي. إزاء هذا الواقع فإن الكثيرين من المثقفين الدروز أخذوا ينادون علناً برفض الخدمة الإجبارية في الجيش الإسرائيلي وحل إشكالية الهوية القومية للدروز في إسرائيل بإعادة الالتحام بالبعد القومي العربي والوطني الفلسطيني، لدرجة أن حسين عباس، هو درزي خدم في الجيش الإسرائيلي ثلاثين عاماً، حتى حصل على رتبة عميد يقول «أن ممارسة الإجراءات العنصرية ضد الدروز جعلتني أشعر بعد هذه الخدمة الطويلة في الجيش الإسرائيلي أني عربي رغم أنفي، ولذا فإني لن أجعل أياً من أبنائي يخدم في هذا الجيش مهما كان الثمن».

جذور الأزمة:

في العام ١٩٥٦ أصدر رئيس الوزراء الإسرائيلي الأول دفيد بن جوريون قراراً بصفته وزيراً للدفاع يلزم أبناء الطائفة الدرزية بالخدمة الإجبارية في الجيش الإسرائيلي، ومنذ ذلك الوقت والشباب الدرزي يخدم في معظم وحدات الجيش الإسرائيلي المقاتلة. فلماذا وافق الدروز على دفع هذه الضريبة الدموية؟ وكيف استطاعت إسرائيل أن تقنع الدروز بعقد حلف الدم هذا معها؟. يقول سليمان الناطور، وهو كاتب وأديب درزي من ذوي التوجهات الوطنية والعروبية «أن هذا يعود لكون الدروز أقلية هامشية، وقد اعتقد قادتها التقليديون أن هذا يتطلب منهم البحث عن جهة أجنبية تمنحهم الحماية من أجل البقاء». ويضيف الناطور «أن الخلافات المذهبية بين الفلسطينيين في ذلك الوقت لعبت دوراً كبيراً في خلق هذا الواقع. فالطائفة الدرزية هي طائفة مذهبية صغيرة تعيش في وسط إسلامي كبير لم يكن يرضى عن طقوسها وعاداتها الدينية، الأمر الذي تولد عنه احتكاكات شعر الدروز على أثرها، بحاجة إلى من يدعمهم في مواجهة الأغلبية الإسلامية». ويواصل الناطور «أن أقطاب الحركة الصهيونية فطنوا إلى حقيقة الخلافات المذهبية بين الدروز وباقي العرب الفلسطينيين، فاتصلوا بهم من أجل تعميق هذه الخلافات وتشعيبها وأقاموا معهم علاقات حميمة، وقد برز من بين القادة الصهاينة في هذا المجال «أبا حوشن» رئيس بلدية حيفا، في ذلك الوقت الذي أقنع الكثيرين من الدروز بالتعاون مع المنظمات الصهيونية العسكرية قبل الإعلان عن الدولة العبرية وخصوصاً «الهاجناة». وبعد إقامة الدولة العبرية، صادرت الحكومة الإسرائيلية معظم الأراضي التي تعود للدروز، فحرموا من مصدر رزقهم الوحيد: الزراعة، وبذلك وجد الدروز في الخدمة في الجيش الإسرائيلي مصدراً للرزق، حتى أن الكثيرين من القيادات الدرزية قد وقعت في العام ١٩٥٥ على عريضة تطالب الحكومة الإسرائيلية بفرض الخدمة الإجبارية على الدروز، وهذا ما كان في العام الثاني. وكما يقول الصحافي الدرزي هشام نفاع فقد أدت خدمة الدروز في الجيش الإسرائيلي لعشرات السنين إلى فقدان معظمهم للشعور بالانتماء للأمة العربية والشعب الفلسطيني.

وقد عملت الدولة العبرية على قتل انتماء الدروز للعروبة والشعب الفلسطيني. فهم لا يعتبرون أن الدروز عرب ولا فلسطينيون، وقد تواطأت قيادة الدروز التقليدية مع الدولة العبرية في ذلك. وأصبحت القيادات الدرزية تشدد على أن الدروز إسرائيليون وكفى. لكن لم تقتصر جهود الصهاينة من أجل سلخ الدروز نهائيا عن قوميتهم العربية على التأثير فقط على القيادات التقليدية، بل قاموا بإعداد خطة منهجية لقتل روح الانتماء بأسس تربوية محددة الأهداف، فألزموا الطلاب الدروز بتلقي مناهج تربوية خاصة، غير تلك التي يتلقاها بقية الطلاب العرب. وكما يضيف الصحافي هشام نفاع فإن هذه المناهج تهدف إلى خلق الشعور لدى الطالب الدرزي أنه ينتمي الى طائفة مستقلة ولا يربطها بالعرب والفلسطينيين أي رابط. فقد درس هؤلاء الطلاب التاريخ الدرزي الذي يركز بشكل خاص على العلاقة التاريخية الخاصة بين الدروز ودولة إسرائيل. ومع أن العربية لغة الدروز، فقد درسوهم بما يسمى بالأدب الدرزي، حيث كانوا يقدمون الأديب والشاعر شكيب أرسلان على أنه أديب درزي فقط، بالرغم من أنه أمير البيان العربي في العصر الحديث كما يقول نفاع، وكل هذا من أجل تعميق الشعور باستقلالية الهوية الدرزية. ويواصل نفاع قائلاً: «لقد وصل الاستخفاف بوعي الدروز إلى درجة أن أعدوا لهم مناهج خاصة بالعلوم والطبيعة، فتجد: «كيمياء الدروز»، و«فيزياء للدروز»... الخ. ويقول نكد نكد، عضو في «لجنة المبادرة العربية الدرزية»، وهي أهم المنظمات الدرزية التي تطالب بإلغاء الخدمة العسكرية الإلزامية على الشبان الدروز إن «وزارة التربية والتعليم الإسرائيلية تقوم عملياً بتجهيز الدروز ليكونوا جزءاً من الجيش. ومنذ عشرين عاماً تفرض الوزارة خطة تعليمية تطلق عليها «المنهاج التعليمي الدرزي»، مضامينها عبارة عن كمية من المعلومات بدون مضمون مفيد. فعلى سبيل المثال يعلمون الأولاد ما يسمى بـ «التقاليد الدرزية»، معظم الحقائق التي يتم عرضها خلال دروس هذه المادة تعتبر تزييفاً للتاريخ. كذلك لم تتردد الدولة نفسها في التدخل في قضايا دينية، حيث ألغت أعياداً مسلمة احتفل بها الدروز، واخترعت أعياداً جديدة خاصة بالدروز».

مقاولو الأعمال القذرة

وتفرض الخدمة الإلزامية على جميع الشبان الدروز، باستثناء الذين تفرغوا للعبادة. وبعد انقضاء الخدمة الإلزامية التي تمتد

الـــــدروز فـى إســـرائـيـل





لم تقتصر جهود الصهاينة من أجل سلخ الدروز نهائيا عن قوميتهم العربية على التأثير فقط على القيادات التقليدية، بل قاموا بإعداد خطة منهجية لقتل روح الانتماء بأسس تربوية محددة الأهداف

إلى ثلاث سنوات، يواصل معظم الشباب الدرزى لدوافع اقتصادية الخدمة فى الجيش. ويخدم الدروز بشكل خاص فى ألوية المشاة المختارة المقاتلة. وقد وصل عدد كبير منهم نسبياً إلى رتب عالية فى الجيش، ويعتبر ارفع ضابط درزى فى الجيش الإسرائيلى هو الجنرال يوسف مشلف، منسق شئون الضفة الغربية وقطاع غزة فى وزارة الدفاع الإسرائيلية وقد سبق له أن شغل منصب قائد الجبهة الداخلية. وإلى جانب الخدمة فى الجيش، ينخرط الدروز فى أفرع الشرطة الإسرائيلية المختلفة، وخصوصا فى شرطة «حرس الحدود»، حيث أن درزيا يقود هذه الشرطة حاليا، وهو الجنرال حسين فارس. ولزيادة الشعور بالكراهية والحقد المتبادل بين الدروز وبقية أبناء الشعب الفلسطينى، فقد تم استخدام الكثير من الشباب الدرزى فى الخدمة فى هذا الفرع من أفرع الشرطة الإسرائيلية، حيث إن شرطة «حرس الحدود» كانت ومازال لها الباع الطويل فى قمع الفلسطينيين، حيث تنص التعليمات الصادرة لأفراد «حرس الحدود» على التعامل بشكل مهين وحتى سادى مع الفلسطينيين. ويرى الشيخ جمال معدى رئيس لجنة المبادرة الدرزية أن هدف الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة كان واضحا وهو توجيه نقمة الجماهير الفلسطينية إلى غير عنوانها الصحيح، حيث تولد الانطباع أن الجندى الدرزى يقوم بالأعمال القذرة عبر إبراز الممارسات غير الأخلاقية لهؤلاء الجنود بأنهم ينفذون تعليمات وسياسة الحكومة الإسرائيلية. اللافت للنظر أن الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية تستعين بخدمات الدروز فى المحاولات لتجنيد عملاء لها من بين الفلسطينيين، إلى جانب قيامهم بالتجسس على الدولة العربية. ففى أواسط الثمانينيات من القرن الماضى أصدر الأسرى الفلسطينيون فى السجون الإسرائيلية بياناً أكدوا فيه أن عدداً من الممرضين الدروز الذين يعملون فى السجون يربطون استعدادهم لتقديم الخدمات الطبية للمرضى من الأسرى وبين موافقة هؤلاء على التعاون مع المخابرات الإسرائيلية بحيث يتجسسون على إخوانهم من قادة الأسرى. إلى جانب ذلك فإن عدداً من الدروز الذى يعملون على المعابر الحدودية التى تفصل الضفة الغربية وقطاع غزة عن إسرائيل يساومون الفلسطينيين على منحهم التصاريح اللازمة لدخول الدولة العبرية بحيث يتم ربط خدمة منح التصاريح بالموافقة على التعامل مع المخابرات الإسرائيلية. الممارسات المشينة للجنود الدروز ضد إخوانهم من فلسطينيى الضفة الغربية دفعت حركات المقاومة الفلسطينية إلى حد التهديد بتنفيذ عمليات استشهادية فى قلب التجمعات السكانية الدرزية. أما التجسس على الدول العربية وتنظيم شبكات تجسس فيها فيعتبر مثال عزام عزام المعتقل فى مصر أحد أمثلتها.

لكن التضحية بالانتماء للعروبة لم يقنع قادة الدولة العبرية باستثناء الدروز من سياسة التمييز العنصرى التى تمارسها ضد بقية الفلسطينيين داخل حدود ٤٨، ويؤكد نزيه خير سكرتير اتحاد الكتاب العرب فى إسرائيل وهو درزى أن إسرائيل قامت بمصادرة ٧٠٪ من الأراضى التى يملكها الدروز، وأقامت عليها كيبوتسات ومستوطنات زراعية لليهود. ويكاد يجمع قادة ومثقفو الطائفة الدرزية على ذكر ما يحدث الآن لقرية «بيت جن»، وهى القرية الدرزية التى فقدت أكبر عدد من أبنائها فى حروب إسرائيل ضد العرب والفلسطينيين، حيث أن وزارة الإسكان الإسرائيلية، صادرت جميع الأراضى المحيطة بالقرية بحجة أنها تقع ضمن محميات طبيعية ومنعت بذلك أى فرصة لاستغلال هذا الأراضى بالزراعة والإسكان، حيث يعانى الأزواج الشباب فى هذه القرية من ضائقة سكن خانقة، وفى مقابل ذلك يقول نفاع وهو من «بيت جن».

إن القرى اليهودية تتوسع فى كل اتجاه دون أن يعترض على ذلك أحد. ويلفت الشيخ جمال معدى الأنظار إلى حقيقة أن هناك بوناً شاسعاً بين معدل الدخل السنوى لليهود والدروز. فمعدل دخل الفرد الشهرى فى بلدة «معلوت» اليهودية يصل إلى اثنى عشر ألف شيكل (ألفان وثمانمائة دولار)، بينما لا يتجاوز الألفى شيكل لدى جارتها الدرزية «حورفيش». ويقول جهاد سعد، من قادة «لجنة المبادرة العربية الدرزية»، «إننى أشرح للدروز أن الادعاء الإسرائيلى بأنهم سيحصلون على حقوق أكثر من غيرهم إذا خدموا فى الجيش غير صحيحة. نعرف أن هناك قرى عربية فى إسرائيل لا يخدم أبناؤها فى الجيش الإسرائيلى وتعيش أوضاعاً اجتماعية واقتصادية أفضل بكثير من القرى الدرزية». ويقول نهاد ملحم، عضو حركة «المعروفيون الأحرار»، وهى حركة تناضل ضد الخدمة الإجبارية للشبان الدروز من قرية كفر ياسيف: «إن المشكلة المركزية هى إقناع الشبان بأنه يمكن التحرر من الاتكال على الجيش، إذ من الصعب إقناع أولئك الذين يعتمدون على الجيش كمصدر رزقهم بذلك، دون توفير بدائل أخرى. يتوجب إحداث التغيير عبر التربية. علينا أن نعلم أولادنا بأن يختاروا الدراسة الأكاديمية بدل الخدمة العسكرية وتشجيعهم على عدم الاتكال اقتصادياً على الجيش.



وعلى الرغم من الحديث عن الشراكة فى الدم بين اليهود والدروز، فإن إسرائيل قد استثنت الدروز من العمل فى مؤسسات الدولة الهامة فى الدولة العبرية. وباستثناء مرة واحدة ولحسابات سياسية محضة، فلم يحدث أن تم تعيين درزى فى منصب وزير، فى حين لم يحدث أن تم تعيين درزى فى منصب مدير عام أو قاض فى المحكمة العليا، وحتى بعد أن خدم الدروز لعشرات السنين فى صفوف الجيش الإسرائيلى، وأثبتوا إخلاصهم للدولة اليهودية، إلا أن هيئة أركان الجيش ترفض تجنيدهم فى بعض أفرع الجيش مثل سلاح الجو، أو الاستخبارات العسكرية، أو صفوف المخابرات العامة. ويؤكد المعلق العسكرى لصحيفة «هارتس» زئيف شيف أن المؤسسة العسكرية لازالت تتعامل مع الدروز بصفتهم عرباً. ويتحدث فؤاد داهش، وهو طالب درزى فى جامعة حيفا بمرارة عن تردى أوضاع الدروز. ويقول أن الدروز لم يستفيدوا من خدمتهم فى الجيش الإسرائيلى على صعيد الرقى بأبنائهم ورفع مستوى معيشتهم، ويكفى أن نعلم أن الدروز هم أقل الطوائف العربية تمثيلاً فى الجامعات، مع أن فؤاد نفسه رفض الخدمة فى الجيش الإسرائيلى لأسباب ضميرية، وبقى فترة طويلة فى السجن بسبب هذا الموقف.

نـظـرة عـنـصـريـة

عندما سأل أحد الصحافيين الحاخام مئير كهانا الزعيم الهالك لحركة «كاخ» المتطرفة، التى تدعو إلى طرد جميع العرب إلى خارج حدود فلسطين «هل تطالب بطرد أبناء الطائفة الدرزية من إسرائيل على الرغم من خدمتهم فى الجيش الإسرائيلى؟»، فرد كهانا بكل ثقة «نعم، ولكننا سنحرص على توفير حافلات مكيفة لهم أثناء الطرد». وقد امتدت الممارسات العنصرية ضد الدروز لتصبح ملاحظة جلية فى كل المجالات، حتى فى الجيش، والتى تدعى إسرائيل أنه «البوتقة» التى انصهر فيها الدروز واليهود. فقد قالت ضابطة يهودية كبيرة فى الجيش الإسرائيلى مؤخراً أن السبب الذى دفع إسرائيل لتجنيد الدروز وهو من أجل منعهم من الانضمام لصفوف حماس والجهاد الإسلامى. وقد رفض أحد الضباط أن يستقل جندى درزى سيارته بحجة أنه «عربى قذر»، كما أن شركة الطيران الإسرائيلية الحكومية «آل عال» رفضت أن يجلس ضابط درزى فى أركان الطائرة بحجة أنه يمثل خطراً على من يجلسون حوله من الركاب. وأفردت الصحف العبرية مساحات كبيرة للحديث عن الأساليب العنصرية التى يتعرض لها الجنود الدروز الذين يلقى بهم فى السجون العسكرية بسبب تجاوزات انضباطية.

ويعتبر الدكتور أسعد غانم المحاضر فى جامعة حيفا أن الحالة الدرزية تجسد أقصى درجات الضياع الوطنى والقومى. فالدروز فى إسرائيل تحدو أبناء شعبهم وأمتهم من أجل الحصول على امتيازات مادية قد تحققها خدمتهم فى الجيش، لكنهم وجدوا أنفسهم ضحايا لنفس السياسة العنصرية التى يتعرض لها سائر العرب فى إسرائيل. وحسب أقوال حاتم حلبى، عضو لجنة «المعروفيون الأحرار»، التى تناضل ضد خدمة الدروز فى الجيش الإسرائيلى فإن «إلزام الدروز فى إسرائيل بالخدمة العسكرية أتت للفصل بين الدروز وغيرهم من الفلسطينيين من ناحية، وبينهم وبين الدروز فى سوريا ولبنان». ويضيف «من المؤسف أن المؤسسة

الإسرائيلية نجحت إلى حد ما فى ذلك. إسرائيل تريد أن تجعل الدروز جزءاً من الصراع العربى الإسرائيلى وزعزعة استقرار المنطقة. الدروز فى إسرائيل هم الأضعف بين الطوائف الأخرى وقامت إسرائيل باستغلال ذلك لخدمة مصالحها الخاصة». ويواصل حلبى قائلاً «الموضوع بمجمله مادى إذ أن هناك محاولات لتحويل أبناء الطائفة الدرزية إلى متعلقين بالاقتصاد الإسرائيلى. مصدر الرزق الوحيد لـ٢٧٪ من أبناء الطائفة الدرزية هو الجيش الإسرائيلى. ويأتى هذا على حساب التعليم الأكاديمى، وبلورة الهوية القومية وشعور الانتماء للشعب الفلسطينى والعربى». ومن ناحيته يشن سلمان الناطور هجوماً حاداً على القيادة التقليدية للدروز التى وافقت على خدمة الشباب الدرزى فى الجيش الإسرائيلى من أجل مكتسبات على صعيد الخدمات، ويقول «إذا كانت إسرائيل دولة ديموقراطية فإن كل مواطنيها يجب أن يتمتعوا بالحقوق المدنية ماداموا يدفعون الضرائب». ويحمل الصحافى هشام نفاع على قيادة الطائفة الدرزية التى قادت أبناءها إلى هذا الوقع البائس. ويتساءل «ترى لو حدث سلام بين إسرائيل والدول العربية، فماذا سيقول دروز إسرائيل لإخوانهم الدروز فى الجولان وسوريا ولبنان». ويضيف «أن خدمة الشباب الدرزى فى الجيش الإسرائيلى عار يلطخ شرف كل الدروز أينما كانوا وحيثما حلوا». وقد تبين أن عملية حساب النفس الجادة والعميقة أتت أكلها فى أوساط الشباب الدرزى. ففى مطلع حزيران، يونيو الماضى، أصيبت دوائر صنع القرار فى الدولة العبرية، والقيادة الدرزية التقليدية المتواطئة معها بالصدمة جراء الكشف عن نتائج دراسة أجرتها لجنة المبادرة الدرزية، وتبين من خلالها أن ٤٠٪ من الشباب الدرزى يرفضون أداء الخدمة العسكرية الإلزامية فى صفوف جيش الاحتلال. وأكدت الدراسة التى اعتمدت على استطلاع رأى واسع فى صفوف الشباب الدرزى، أن الشباب الدرزى أصبح على استعداد للتصريح بأنه عربى فلسطينى ويرفض الخدمة العسكرية، مع كل ما يترتب على ذلك من اعتقال فى سجون الشرطة العسكرية لجيش الاحتلال. وحسب الدراسة فإنه يمكن فى كل أسبوع العثور فى السجون العسكرية على ٣٠ سجيناً درزياً رافضاً للخدمة العسكرية و٣٠ متهرباً من صفوف الجيش لأسباب مبدئية أو ضميرية أو اقتصادية. ويتم الإفراج عن خمسة إلى عشرة سجناء دروز، شهرياً. والمنظمات والجمعيات واللجان الدرزية الأهلية التى تشجع رفض خدمة الشبان الدروز فى الجيش الإسرائيلى تتزايد فى الآونة الأخيرة وتعمل بشكل مكشوف. وقد أقيمت «لجنة المبادرة الدرزية العربية» فى العام ١٩٧٢، وهى واحدة من ثلاثة تنظيمات تمارس نشاطات فى هذا المجال. كذلك تنشط فى هذا المجال حركة «المعروفيون الأحرار» التى أقيمت خلال الانتفاضة الأخيرة. وتأخذ الحركات المختلفة على نفسها مسئولية تغيير قانون

أبناء الطائفة الدرزية فى إسرائيل يشعرون أن خدمتهم فى الجيش الإسرائيلى، وهلاك المئات منهم فى الحروب التى خاضتها إسرائيل لم يقنع دائرة صنع القرار فى الدولة العبرية بإنصافهم ومساواتهم على الأقل باليهود الذين لا يخدمون فى الجيش الإسرائيلى، من أمثال أتباع التيار الدينى الأرثوذكسى



الخدمة العسكرية الإلزامية للدروز، الذى أصبح سارى المفعول فى العام ١٩٥٦، وتحويله إلى خدمة اختيارية. وحسب إحصاءات حركة «المعروفيون الأحرار» فإن عدد الرافضين للخدمة يتزايد بشكل مستمر، وقد سجل فى قرية البقيعة وحدها، ٧٠ رافضاً جديداً للخدمة العسكرية فى الشهرين الأخيرين، فقط. ويقول أحد الشبان الدروز الذى حصل مؤخراً على إعفاء من الخدمة العسكرية، ويدعى صقر نفاع وهو من سكان قرية بيت جن: «أرفض الخدمة العسكرية فى الجيش الإسرائيلى بدوافع قومية. إننى عربى فلسطينى وغير مستعد لأن أكون جزءاً من الإرهاب العسكرى الممارس على الفلسطينيين. كذلك لدى أقارب فى سوريا ولبنان وأنا أنتمى إليهم وجزء منهم». وتلقى صقر فى السنتين الأخيرتين أوامر بالمثول من أجل التجند للجيش فى دائرة التجنيد فى حيفا. ويقول صقر: «بعد سنة ونصف من إرسال الرسائل، أخبرتهم أننى غير معنى بتأدية الخدمة العسكرية. لقد أعطونى مهلة زمنية للتفكير، وحذرونى من أنه قد يتم اعتقالى إذا لم أتجند للجيش. لم أفكر مرتين، بل قمت بتسليم نفسى لأقرب محطة شرطة وسجنت خمس مرات، حيث بلغ عدد أيام السجن ٨٤ يوماً، خلال ستة أشهر». ويضيف صقر نفاع أن الكثيرين حاولوا إثناءه عن قراره، لكنه كان يرد عليهم بأن إسرائيل دولة عنصرية لا تعطى حقوقاً متساوية للأقلية العربية فيها. ويضيف أن السجن قوى عزيمته، فقد التقى بجنود ندموا على خدمتهم فى الجيش الإسرائيلى، فضلا عن تشجيعه من قبل رافضى الخدمة اليهود الذين مكثوا فى السجن، أيضاً. ويتابع صقر نفاع سرد حكايته قائلاً «بعد سجنى ٥٦ يوماً، قاموا بتحويلى إلى لجنة لفحص قضية رفضى تأدية الخدمة العسكرية. عندما أخبرتهم أننى عربى قبل كل شىء ولا أريد الخدمة فى الجيش، كان من الصعب عليهم تصديق ما سمعوا، وقالوا إنهم يعتبروننى درزياً. وقد طلبوا منى تقديم وثائق تثبت أننى عربى فأخبرتهم أنه لا توجد لدى وثائق كهذه، فأعادونى إلى السجن!!!!. واقتنعت لجنة الإعفاء فى نهاية الأمر أننى غير ملائم للخدمة فى الجيش وحصلت على إعفاء»». ويقول والد نفاع الذى سبق له أن خدم فى جيش الاحتلال لمدة ثلاث سنوات «إننى فخور بولدى لأنه فعل ما لم أقدر أنا على فعله». ويضيف الأب أنه مقتنع تماماً بأن رفض الخدمة العسكرية من ناحية الدروز يختلف عن دوافعه لدى اليهود ويقول فى هذا الصدد: «رفضنا يأتى على خلفية قومية، فنحن فلسطينيون ولا نوافق على قتال أبناء الشعب الفلسطينى. رافضو الخدمة اليهود يرفضون أن يكونوا جزءاً من جيش يمارس القمع ضد شعب آخر. لكن ظاهرة رفض الخدمة لديهم عززت موقفنا».. وقبل عامين عقد مؤتمر لرافضى الخدمة العسكرية الدروز فى قرية يركا فى الجليل، حضره ألف من مؤيدى رفض الخدمة العسكرية، بينهم أعضاء كنيست ورجال دين. وتم فى المؤتمر المذكور الذى نظمته «لجنة المبادرة العربية الدرزية»، جمع عشرة آلاف توقيع مؤيدة لرفض الخدمة. وتقول اللجنة الآن أن هذا العدد الآن أكبر بكثير. ومن ناحيته يؤكد نكد نكد أن «هناك عدداً لا بأس به من الشباب الدروز المستعدين لفعل أى شىء كى لا يخدموا فى الجيش. لقد تحول الكثير منهم إلى متدينين، حيث يعفى الذين يتفرغون للعبادة من الخدمة بالجيش، حاول بعضهم الانتحار، وتظاهر البعض الآخر بأنهم مجانين ليحصلوا على إعفاء. الكثير من الذين يرفضون الخدمة فى الجيش أو يتركونه يفعلون ذلك بدوافع اقتصادية أو ضميرية أو قومية، وبرأيى فإن هذه الظاهرة آخذة بالاتساع. ويضيف أنه «يوجد اليوم انفتاح أكبر فى المجتمع الدرزى تجاه رافضى الخدمة، إذ بدأ الأشخاص يفهمون أن الطائفة الدرزية تدفع بدمها ولا تحصل على شىء فى المقابل. الخدمة العسكرية فى الجيش الإسرائيلى جلبت للدروز العار. بعض الدروز فى الجولان وكذلك الفلسطينيين يقولون إن الدروز خائنون. سمعت هذه الكلمة التى تثير القشعريرة أكثر من مرة».



فى العام ٢٠٠٠، شارك مندوبون عن «المعروفيون الأحرار» فى مؤتمر فى العاصمة الأردنية، عمان، شارك فيه دروز من سوريا ولبنان. وقال حاتم حلبى، عضو اللجنة، من عسفيا: «لقد سمعنا تحفظات إخواننا فى سوريا ولبنان بشأن خدمة الدروز فى الجيش الإسرائيلى، فأوضحنا لهم أن الخدمة إلزامية». ونظراً لعنصرية مؤسسات القضاء فى الدولة العبرية، فإن قادة الحركات الوطنية فى أوساط الدروز، يدرسون فكرة التوجه إلى محكمة الدولية فى لاهاى، وإقحام المجتمع الدولى فى قضيتهم. ويشير حلبى إلى أن الدول فى العالم لا تلزم الأقليات فيها بالخدمة العسكرية، خاصة إذا كان القتال ضد شعبهم المحتل.

وسائل الإعلام الإسرائيلية تتواطأ مع الطبقة الحاكمة فى عدم تغطية رفض الخدمة فى صفوف الشبان الدروز، حتى لا تتسع الظاهرة أكثر. ويقول سعيد نفاع، رئيس حركة «المعروفيون الأحرار» إن «هناك تجاهلاً إعلامياً مطلقاً لظاهرة رفض الخدمة العسكرية فى المجتمع الدرزى».

إن الفلسطينيين العرب من أبناء الطائفة الدرزية يعيشون أزمة هوية، لعبت قيادتها التقليدية دوراً هاماً فى تفاقمها، لكن كل الشواهد تؤكد أن بوادر نهوض قومى ووطنى تنمو فى أوساط هؤلاء، بعدما ذاقوا ويلات وتبعات الولاء والانتماء المزيف للدولة العبرية. وقد أجاد خليل أسعد، وهو درزى ترقى فى المناصب فى الجيش الإسرائيلى حتى رتبة عميد، عندما قال «ما العمل فالدروز فى إسرائيل سيبقون عرباً فى الحقوق يهوداً فى الواجبات». ■

تجليـــات العـــداء

عبدالعـــليم الأبيـــض



■ بداية يستخدم المؤلفان كلمة الاستغراب Occidentalism على عكس الاستشراق بمعنى الغرب فى عيون أعداء الغرب مثل المسلمين الأصوليين أو الراديكاليين الآن، ومثل اليابانيين والصينيين وغيرهم فى حقبة قريبة. ولا يقتصر استخدام المصطلح لدى المؤلفين على غير الغربيين بل يشمل روسيا وألمانيا فى مرحلة سابقة. يحاول المؤلفان نقض أصول الفكر المناهض للغرب بما فى ذلك الولايات المتحدة والذى يثير مشاعر الكراهية الشديدة لدى شعوب وجماعات متعددة ومتنوعة، ولا تقتصر هذه المشاعر العدائية على الحركات الإسلامية المتطرفة. بل نرى هذه المشاعر فى اليابان فى أوائل مراحل التحديث اليابانى فى عهد أسرة «الميجاى» (١٨٦٨ . ١٩١٢) وحتى الحربين العالميتين الأولى والثانية. ونراها أيضًا فى ألمانيا فى فترة اجتياح نابليون بونابرت لأوروبا، وفى روسيا القيصرية والشيوعية كما نراها فى الصين وغيرها.

الكاتبان هما إيان بادوما الأستاذ بكلية بارد بالمملكة المتحدة وأفيشاى مارجليت أستاذ الفلسفة بالجامعة العبرية فى القدس. فى البداية يعبر الكاتبان عن حيرتهما بشأن أى نهج ينهجانه فى بحثهما. هل يقومان بتتبع أصول الظاهرة وارتباطاتها وتداخلاتها فى التاريخ بداية من عصر الإصلاح الدينى إلى الحركة المناهضة للتنوير فى أوروبا مرورًا بالصور العديدة للفاشية والقومية الاشتراكية والحركات المناهضة للرأسمالية والعولمة وانتهاء بحركات التطرف الأصولية. فى نهاية المطاف يقرر الكاتبان التركيز على أهم روافد الظاهرة على مر العصور عوضًا عن اتباع نهج التسلسل التاريخى الزمنى لشيوع الظاهرة.

فى رأى المؤلفين ثمة روابط تشترك فيها ظاهرة العداء للغرب على اختلاف مصادرها، وتتمثل هذه الروابط فى العداء لفكرة المدينة الكبيرة باعتبار المدينة أو الحاضرة مصدر شرور كثيرة. المدينة وسكانها منزوعة الجذور ومثال للجشع والانحلال الخلقى والجنسى ومثال للتكبر والصلف. تتمثل هذه الروابط أيضًا فى فكرة العقلية الغربية التى تقوم على العلم والسلوك العقلانى المجرد من المشاعر والأخلاق والدين، وفى شدة العداء للرأسمالية والطبقة البورجوازية التى قامت الرأسمالية على فكرها وسلوكها وشرهها وتفضيلها لحياة السلم وبعدها عن المثالية وتسامى الروح والرابطة الأخيرة هى التطرف الدينى أو العقائدى الذى يسعى لسحق مملكة الكفر والوثنية وإقامة مدينة الله.

وقبل أن نستعرض هذه الروابط بين روافد أو وجوه العداء للغرب تجدر الإشارة إلى كتاب آخر يبدو أنه كان الدافع وراء كتاب الاستغراب. ونقصد كتاب الراحل الكبير إدوارد سعيد بعنوان: «الاستشراق» الذى يتعرض لكتابات المستشرقين الأوروبيين عن الشرق التى وضعت الأساس الفكرى، والتبريرى لمرحلة الاستعمار الكبير. ولا يصح أن نقارن بين الكتابين فكتاب إدوارد سعيد قد أحدث تموجات فكرية ضخمة على مستوى العالم ويعتبر من أهم ٢٠ كتابًا صدرت فى القرن العشرين. فكتاب سعيد يتميز بأصالة البحث وعمق التفكير. وليس هذا المجال للتعرض لكتاب الاستشراق الذى يجب أن يكون قراءة إجبارية على كل من يرغب فى الكتابة عن العلاقة بين الشرق والغرب. وهذا لا ينتقص من محاولة الكاتبين إثباته فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا. ولكن بداية نلاحظ أن الكاتبين قد بذلا جهدًا فى تجميع الأفكار المتداولة عن أصول العداء للحضارة الغربية وفلسفاتها فى شقها الليبرالى الرأسمالى والذى يعتبره مفكر كبير مثل فرانسيس فوكوياما أنه نهاية المطاف خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى والانتشار السريع للفكر الليبرالى السياسى والاقتصادى فى العالم، وهو قول فيه كثير من الصحة.

الكتاب المعروض كتاب من القطع المتوسط (١٤٩ صفحة) يتتبع كما سبق الكلام أصول العداء للغرب، وإن كانت الفكرة الأساسية فى الكتاب هى محاولة إثبات أن العداء الإسلامى الأصولى للغرب ومنتجاته الفكرية هى ظاهرة غير مسبوقة فى التاريخ لا يمكن مقارنتها بأى حال من الأحوال بتجليات العداء للغرب فى الحضارات الأخرى. هذا وإن الكاتبين لم يجانبا الصواب عندما تعرضا لهوس المتطرفين الإسلاميين وتسلط فكرة الانحلال الجنسى والأخلاقى لدى الغربيين ورفضهم القاطع لأى نسبية فيما يتعلق بالأديان والحضارات. حيث ينظر المتطرفون إلى كل الديانات، ماعدا الإسلام، باعتبارها ديانات وثنية. وإن كانت بعض الطوائف الإنجيلية المعمدانية وجنوب الولايات المتحدة تنحو هذا المنحى وتنظر نظرة دونية إلى كل الأديان الأخرى عدا المسيحية وهو ما لم يتطرق إليه الكاتبان إلا بصورة عارضة جدًا.

تجدر أيضًا ملاحظة الإهمال الشديد للمؤلفين لأثر الاستعمار الصهيونى لفلسطين فى سلوك وفكر الأصولية الإسلامية وخاصة فى فكر تنظيم القاعدة والجماعات الأخرى المشابهة.

فكرة العداء للمدنية:

قبل الشروع فى طرح أفكار الكاتبين لهذه الظاهرة يجب أن ننوه أن الكاتبين محقان تمامًا فى النظر إلى ظاهرة العداء للغرب لا باعتبارها صراعا بين حضارات بقدر ما هى ظاهرة عالمية أسهمت فيها تيارات فكرية كثيرة وإن كانت أوروبا هى المصدر الفكرى الأساسى للظاهرة. وفى بداية هذا الفصل الذى يتناول فكرة العداء للمدينة الكبيرة منزوعة الجذور ومصدر شرور كثيرة باقتباس من أسامة بن لادن بعد تدمير برجى مركز التجارة الدولى بنيويورك ومبنى وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاجون». وهو اقتباس يقول فيه بن لادن أن تدمير البرجين هو تدمير لقيم الحضارة الغربية بزعامة أمريكا إذ يرمز البرجان إلى قيم الحرية وحقوق الإنسان وقد تحولت إلى دخان.

وفى تأكيد للفكرة يشير المؤلفان إلى أن فكرة المدينة الآثمة هى من الأفكار القديمة إذ ترمز المدينة إلى بناء الإمبراطوريات وقيم الفردية والاستعلاء والتحدى للإله. وهذا ما كانت ترمز إليه مدينة بابل.

فبابل فى سفر الرؤيا هى أم العاهرات ومباءات الأرض. كانت بابل مثل مدينة فلورنسا فى القرن الرابع عشر ومدينة نيويورك الآن رمزًا لشهوة المال والجسد. ألم يعتقد الكثيرون فى العالم الإسلامى



ثمة ارتباط دائم بين حياة المدنيـة واليهـود. أعـداء المدنيـة يقدمون صورة للمدنية تلتهم بأنيابها البراقة سـكان الريف، وهى صـورة يبرز فيها اليهـودى بشـكل خـاص



Occidentalism: The West in the Eyes of Its Enemies
(الاستغراب: الغرب فى عيون أعدائه)
Ian Buruma & Avishai Margalit
Penguin Press 2004, PP165

أن «الموساد» وراء تدمير البرجين. أو لم يرد الاعتقاد بمؤامرات رأسمالية فى كتاب حكماء صهيون. أو لم تكن البلشفية من صنع اليهود. إن وصف المدينة الكبيرة كعاهرة ليس مجرد وصف للطبيعة الجنسية للمرأة. تلك الصورة المشبعة بالدنس لدى التطهيريين الإسلاميين من أمثال محمد عطا، الذى أوصى أن تغسل امرأة جسده بعد أن يموت، وأن يلبس مغسله قفازًا حتى لا يمس عورته بيده!

فالمدينة أيضًا وصف للمجتمع الذى تدور حياته حول التجارة، وكل شىء فيه للبيع. إنها صورة المدينة أيضًا عند الشاعر الرومانى جوفينال حيث ينعى حظ روما:

«المال الدنس كان وراء الانحلال الأخلاقى الذى أتى به الأجانب إلينا، ذلك الحال المخنث الذى دمرنا بالانغماس فى الملذات والشهوات».

المدينة لا روح لها، تمامًا كالعاهرة، جسد بلا روح.

ثمة أيضًا ارتباط دائم بين حياة المدنية واليهود. أعداء المدنية يقدمون صورة للمدينة تلتهم بأنيابها البراقة سكان الريف، وهى صورة يبرز فيها اليهودى بشكل خاص. أنظر إلى الشاعر تى. إس. إليوت يتحدث عن المدينة فى قصيدة من قصائده:

بيتى بيت سرى فيه العفن وفى عتبة الشباك يجلس اليهودى القرفصاء، أى أفرزته سفينة قديمة فى أنتورب وجرى ترقيعه فى بروكسل ثم.. قشر فى لندن.

وكارل ماركس الذى كان أبوه حاخامًا يحمل الازدراء الشديد لليهود الذين يعبدون مامون إله المال عند الإغريق أما المفكر الفرنسى بيير جوزيف برودون فيعتبرهم: «أعداء الإنتاج بطبيعتهم، اليهود وسيط مزور ومزيف ومساوم فظ».



نشأ كره المدنية عند فلاسفة وأدباء أوروبا من الرومانسيين. كما نشأت معاداة الاستعمار. كانت العاصمة الاستعمارية مصدر الأفكار والخبرة الفنية والمبتكرات العلمية والإدارة ورجال الأعمال. وكان الرون مصدر العمالة الرخيصة وجنود المشاة، وقود الحروب. وكانت الدول الاستعمارية تؤمن بعبء الرجل الأبيض فى تحضير الشعوب الهمجية التى تحكمها. عارض الفلاسفة الألمان المثاليون هذه النظرة وعارضوا خطط فرنسا فى المجال الثقافى. وبالنسبة للألمان، وبالذات فى عهد نابليون، كانت فرنسا رمزًا للمدنية التوسعية التى تحركها العقلانية المزيفة. وذهب الفيلسوف جوتفريد فون هيردر بأن المجتمعات ما هى إلا كيانات عضوية لها روحها الخاص يعبر عنه أدبها وفلكلورها ولغتها وتبعث فيها الحياة.

للغــــرب

لدى الرومانسيين اقترنت معارضته بما يمثله العقل الجانى بنظام التجارة الأوروبى الذى لا قلب له، هذا النظام الذى أتى بالهلاك على ثقافات القارة الأوروبية الدافئة. كان هيردر يؤمن بالتنوع الثقافى والثقافات الهجينة، وكان ينظر إلى سكان المناطق الاستوائية باعتبارهم «أولاد الطبيعة» الذين يحيون حياة بسيطة فى ظل ملوك وآلهة وحكماء مستبدين. وكان ضد الاستعمار.

والحقيقة أن انتقال الأفكار السياسية من أوروبا إلى رعاياها إلى الدول الخاضعة للاستعمار صاحبه أيضًا انتقال الأفكار الاقتصادية والاجتماعية. أما دول مثل اليابان التى لم تخضع للاستعمار فإن عليها تبنى بعض الأفكار الأوروبية لصد هجمات الاستعمار الأوروبى. ولكن ما هى تلك الأفكار التى انتقلت إلى هذه الشعوب، فى الأغلب لم تخرج هذه الأفكار عن تنويعات من العولمة المتوحشة، أو نقيضها البغيض: القومية المتطرفة أو فكرة النقاء الدينى.

تمثل الصين أيام ماوتسى تونج على نحو ممتاز هذا الصراع بين المدينة والقرية. تاريخيًا استند حكم أباطرة الصين إلى نظام كونى تحتل فيه الصين مركز العالم، ويحتل فيه عرش التنين المركز السياسى والروحى للإمبراطورية. فإن التحدى لهذا النظام هو الأفكار المستوردة من الغرب، وبالذات الفكر الليبرالى والحريات الفردية والمسيحية. وكان رفض هذه الأفكار هو فى الواقع دفاع عن احتكار السلطة للإمبراطور والحاشية الملكية لجأ مفكرو الصين إلى ما لجأ إليه المسلمون وغيرهم، أى الاستعارة على نحو انتقائى من الفكر الأوروبى، وخاصة فيما يتعلق بالسلاح والتكنولوجيا، والإبقاء على نظمهم الروحية والسياسية.



ولكن الأمور ليست بهذه البساطة، إذ أن الفصل بين نوعى المعرفة ليس بالأمر الهين، وغالبًا ما تسربت الأفكار الليبرالية والعقلية مع المعارف العملية. كانت المعضلة بالنسبة لرواد الإصلاح الراديكاليين هى كيفية التحديث دون التحول إلى مجرد نسخة من الغرب. وهل توجد وسيلة للتحديث مع استبعاد المسيحية والصور الأخرى لهذا التلوث الروحى؛ ولكن

كان وقع هذا المسألة أشد على العالم الإسلامى، إذ شعرت دول العالم الإسلامى بالمهانة والذل إزاء هذا التفوق الساحق للغرب، لذا كان من الأسهل على الصين والدول الإسلامية تبنى الأفكار الاشتراكية إذ تتحدث هذه الأفكار عن المساواة. وجربت هذه الأفكار فى مصر والعراق وكوريا وغيرها. ولكن أخفقت التجربة، ومع إخفاقها تولدت ألد المشاعر عداوة للغرب فى الدول الإسلامية.

يتجلى ذلك بوضوح عندما اجتاح الطالبان مدينة كابول. وبعد تسليط مدافعهم الثقيلة على المدينة بزعامة الملا محمد عمر الفلاح الأعور الذى تلفع بجلباب قيل أنه كان للرسول محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن نزع من أحد الأضرحة المقدسة، كان أول عمل قام به الطالبان بعد سقوط الحكم الماركسى هو تعذيب الرئيس نجيب الله بسحله بعد انتزاع خصيتيه ثم تعليق جثته على عمود إضاءة. كان هدف الطالبان هو إقامة مدينة الله فى كابول. ومن ثم حرمت الموسيقى وحبست النساء فى بيوتهن كما حرم التليفزيون وحرمت الموسيقى والأغانى وكرة القدم! ونشهد نفس الشىء تقريباً فى اجتياح الصرب للبوسنة ومدينتها المتحضرة الليبرالية المتسامحة، سرايفو، كان نيقولا كولجوفيتش المتخصص فى شكسبير وأستاذ الأدب الإنجليزى هو الذى تولى أمر إطلاق المدافع على هذه المدينة.



يعـلق المؤلفـان عـلى ذلك بقولهمـا بأن صــورة الغـرب لـدى المجاهدين الأفغان هى أن الغرب عبارة عن حضارة هشـة وسقيمة يسـودها الانحـلال الخـلقى والعربدة الجنسـية



أبـطـال وتجـارة

يبدأ المؤلفان هذا الفصل وهو الرافد الثانى لتجليات العداء للغرب باقتباس من جهادى أفغانى فى حديث مع صحفى أمريكى فى الأسبوع الأول من الحرب فى أفغانستان إذ قال: «إن الأمريكيين لن يكسبوا هذه الحرب، فهم يحبون البيبسى كولا، ونحن نعشق الموت».

ويعلق المؤلفان على ذلك بقولهما بأن صورة الغرب لدى المجاهدين الأفغان هى أن الغرب عبارة عن حضارة هشة وسقيمة يسودها الانحلال الخلقى والعربدة الجنسية. هذه النظرة غير مقتصرة على الجهاديين الأفغان. فقد كانت هذه الصورة موجودة لدى الطيارين اليابانيين قبيل الانتحار فى هجمات الكاما كازى. قبل ارتطام أجسادهم بالسفن الأمريكية فى بيرل هاربور، كانوا يفتحون الراديو على محطة هونولولو التى تذيع موسيقى الجاز، رمز الانحلال الأمريكى.

عنوان هذا الفصل هو نفس عنوان كتاب الاقتصادى الألمانى الكبير فيريز سومبارت. فى ه...

العدد التاسع والستون - أكتوبر ٢٠٠٤ م

سومبارت الحرب ب...

وفى رأيه أن إنجلترا وفرنسا يمثلان الحضارة الأوروبية وأفكار الثورة الفرنسية. أما ألمانيا فهى أمة من الأبطال دائماً على استعداد للتضحية بالنفس فى سبيل مثل عليا، على عكس إنجلترا وفرنسا وحذا حذوهما دول بورجوازية تنشد الحياة المريحة وتأنف من حياة البطولة والتضحية والفداء. والموت والفداء يقدمان التفوق الروحى على مبدأ اللذة والراحة والحياة الرغدة. يمثل هذا الفكر أيضاً المفكر الألمانى إرنست يونجر عندما يقول:

«إن كل اللذة تحيا داخل العقل كما تحيا كل مغامرة من خلال التصاقها بالموت الذى يحوم حولها. نقيض ذلك الثقافة البورجوازية وبالطبع، تكون الليبرالية هى الفكر المناسب للبرجوازية».



مثل هذا التفكير يعادى فكر البطولة والتضحية فى سبيل المثل العليا. وعلى الرغم من فساد هذا الرأى إلا أن فلاسفة الألمان كانوا من هذا الرأى ومن ثم اعتنقه العرب والمسلمون على النحو الذى نراه فى تفكير ساطع الحصرى ومفكرى حزب البعث بشقيه السورى والعراقى. كان هذا الفكر جذاباً لليابانيين. وكلنا يعرف نزوع اليابانيين للتضحية، الأمر الذى عبر عنه الجنود اليابانيون عندما كانوا يحولون أجسادهم إلى طوربيدات فى هجماتهم على الأسطول الأمريكى. لقد ثار كثير من المفكرين اليابانيين على فكر الحضارة الغربية وجشع الرأسمالية ... وضحالة الثقافة ...ز هذا الفكر لديهم تحت تأثير نيتشه وفيخت وماركس.

نلمس ذلك جلياً فى لغة أسامة بن لادن التى تحض أتباعه على الموت، كما نلمسه فى فكر الجماعات الأصولية الإسلامية بدءاً من جماعة الإخوان المسلمين إلى تنظيمات الجهاد وحزب الله وحماس وكل الحركات التى خرجت من عباءة الإخوان المسلمين. انظر إلى بن لادن وهو يقارن بين المقاتلين الأمريكيين والمقاتلين من أتباعه:

«المشكلة هى فى كيف تقنعون جنودكم لدخول القتال، بالنسبة لنا هى كيف نمنعهم من الاندفاع إلى دورهم فى الفداء».

بداية من القرن التاسع عشر فصاعداً عندما شرعت الصفوات الحاكمة فى مصر وأجزاء أخرى من العالم الإسلامى فى تبنى الأخذ بالأفكار الغربية فيما يتعلق بالقانون الوضعى والحكومة الدستورية ارتبط الغرب فى أذهان الكثيرين بعبادة المال. وأعلن الإخوان المسلمون الحرب المقدسة ضد حركات الإصلاح والتغريب وجند اليهود والمثقفون المصريون العلمانيين الذين أفسدتهم وكونتهم الحضارة الغربية وكان شعار الإخوان المسلمين وما يزال:

«الله مقصدنا، والقرآن دستورنا والرسول إمامنا، والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا».

الغرب كما يعرفه أعداؤه هو مصدر تهديد، لا لأنه يطرح نظاماً من القيم البديلة، ولكن لأنه يبشر بالنعيم المادى والحرية.

العقل الغربى:

العقل الغربى فى عيون أعدائه هو نوع من البلاهة والتشويه الذهنى وإن كان له ملكة إتقان الرياضيات ولكنه عقل بلا روح. هو عقل يستطيع إنجاز أمور كثيرة، ويستطيع أن يحقق التفوق الاقتصادى والتكنولوجى ولكنه مقصور على تدبر الأمور الروحية وخاصة فيما يتعلق بفهم قدرة المسلمين على تحمل المصاعب والمعاناة ويتتبع المؤلفان هذا النوع من التفكير عند مفكرى الأفلاطونية الجديدة والفلاسفة الألمان من أمثال شيلر ونظرائهم فى روسيا القيصرية. لقد ساد هذا الفكر فى ألمانيا أثناء احتلال نابليون بونابرت لمعظم أوروبا. ويذهب المؤلفان أن الشعوب المحتلة تشعر بالمذلة والهوان، ويكون الخيار المتاح أمامهم هو الهروب إلى حياتهم الداخلية حيث يشعرون بالحرية والتخلص من فساد السلطة والحذلقة. ويحل الأدب والفلسفة محل المداولات السياسية. وكان هذا صحيحاً بالنسبة لألمانيا وروسيا فى القرن التاسع عشر حيث سادت أفكار تمجيد الروح لدى الرومانسيين فى حركة مناهضة لروح العقل وعصر التنوير، ومناهضة لفكرة التقدم الخطر للبشر. الفكر الرومانسى فكر متشائم دائماً، ينعى غربة الإنسان عن الله وعبادته لإله العقل الفاسد.

غـضـب الـلـه:

هذا هو الفصل الأخير من الكتاب وفيه يصل إلى بيت القصيد والهدف الذى سعى إلى توضيحه الكاتبان، إذ يفرقان بين الحروب التى تشن ضد الغرب باسم الروح الروسية أو العرق الألمانى أو الشيوعية ودين الدولة فى اليابان وبين العقيدة الدينية. الفريق الأول يحارب فى سبيل عرق أو عقيدة سياسية أو دينية. الفريق الأول يعمل على إقصاء الآخرين. الفريق الثانى يزعم شمولية فكره وأنه يقاتل فى سبيل

خلاص العالم بأسره. ثم إن هناك فرقا بين المناوئين للغرب العلمانيين والمناوئين الدينيين.

وهنا يصل الكاتبان إلى ما حاولا أن يثبتاه بطرق كثيرة، وهو أن التطرف الإسلامى يشكل الخطر الأكبر على الغرب.

الإسلام كعقيدة لم يتأثر كثيراً بالفكر الغربى، وهو يعتبر الحضارة الغربية كنوع من البربرية الوثنية وهو ما يمثل إسهاماً فريداً فى الفكر المعادى للغرب، بل إنه يتجاوز فكرة العداء. فالحضارة الغربية حضارة وثنية بعبادتها للمال وانغماسها فى الماديات. ومن ثم فإن على المؤمنين جميعاً فريضة سلوك كل السبل المتاحة للقضاء عليها.

وأصل فكرة الوثنية هى فكرة يهودية ولكن لأن اليهودية تمثل طائفة تحليلية غير تبشيرية، فهى لا تمثل خطراً كبيراً.

فى الانجيل يتم التعبير عن الوثنية

التى تخون زوجها باتخاذها عشيقاً غير الرب. ولعل هذا الاقتباس من سفر هوشيع، الإصحاح الثالث، يعبر عن هذا القصد أبلغ تعبير:

«وقال الرب لى اذهب أيضاً أحبب امرأة حبيبة صاحب وزانية كمحبة الرب لبنى إسرائيل. وهم ملتفتون إلى آلهة أخرى ومحبون لأقراص الزبيب.. فاشتريتها لنفسى بخمسة عشر شاقله فضية.. وقلت لها تقعدين أياماً كثيرة لا تزنى ولا تكونى لرجل آخر، وأنا كذلك..».

وأيضاً هذا الاقتباس من سفر حزقيال:

«.. وأخذت من ثيابك وزنيت على اسمك وسكبت زناك على كل عابر فكان له. وأخذت من ثيابك وصنعت لنفسك مرتفعات موشاه وزنيت عليها.. وأخذت أمتعة زينتك من ذهبى ومن فضتى التى أعطيتك، وصنعت لنفسك صور ذكور وزنيت بها ووضعت أمامها زيتى وبخورى وخبزى الذى أعطيتك.. فى كل رجاستك وزناك لم تذكرى أيام.. إذ كنت عريانة وعارية وكنت مدوسة بدمك. وكان بعد كل شرك. ويل، ويل لك، يقول السيد الرب.. فى رأس كل طريق بنيت مرتفعتك ورجست جمالك وفرجت لرجليك لكل عام وأكثرت زناك. وزنيت مع جيرانك بنى مصر الغلاظ اللحم وزدت فى زناك لإغاظتى».

تأخذ الوثنية فى الديانتين المسيحية واليهودية صورتين: عبادة الإله الخطأ وهو ما يعد صورة من صور البغاء، أو عبادة الله على نحو خاطئ. فى الإسلام يختلف الأمر أشد الاختلاف. فأكبر الآثام والخطايا هى خطيئة الشرك بالله. ومن ثم فإن عبادة الغرب للمال هو شرك وجاهلية. ويشير المؤلفان فى هذا الفصل إلى سلسلة من المفكرين الإسلاميين ممن دعوا إلى إعلان الحرب على الحضارة الغربية والذى أسماها مفكر إيرانى «بالتلوث عن طريق التغريب» West Oxficaion فهناك السيد/ محمد طلقانى (١٩١٠ . ١٩٧٩) المفكر الإيرانى الذى ترك أثره على الفكر الإسلامى الثورى، والذى أول من ابتدع فكرة عيش الغرب فى جاهلية جديدة.



وهناك سيد قطب المصرى الذى ذهب بالفكرة إلى آفاق التطرف والشطط الشديدين. بالنسبة لسيد قطب العالم أجمع، من القاهرة إلى نيويورك يعيش فى حالة من الجاهلية والغرب هو ماخور ضخم يتفشى فيه الانحلال وغياب الأخلاق. جاء سيد قطب بفكرة الحاكمية والتى استحدثت من أبو الأعلى المودودى الباكستانى، ولن تستقيم الأمور حتى يسود حكم الله على البسيطة كلها. ومن ثم فالموت فى سبيل الله هو أسمى الأمانى. وبداية أعلن سيد قطب الحرب على حكام مصر العلمانيين. ولا تقتصر الجاهلية عند سيد قطب على الغرب، بل تشمل الهنود واليابانيين وكل ديانة غير الإسلام، ثم يتعرض الكاتبان إلى الفكر الوهابى فى السعودية الذى صدرته السعودية إلى العالم الإسلامى والتى يعتبرانها الخطر الأكبر عبر العالم. وختاماً يطرح المؤلفان السؤال: كيف يواجه الغرب هذا الخطر؟ فالمسيحية الأصولية فى الولايات المتحدة تتحدث عن حرب صليبية، ولكن الغرب ليس فى حالة حرب مع الإسلام، فالحقيقة هى أن أشرس معارك التطرف الإسلامى ستدور رحاها فى العالم الإسلامى ذاته! حيث توجد الثورة وحيث يتحتم إيقافها تفضيلاً على أيدى المسلمين أنفسهم. ■

كتاب الزاوية



إصلاح الأوقاف

على مبارك

ثم إنه قد حصل من انضمام الأوقاف للمدارس مساعدة كل منهما للآخر مساعدة كلية، إذ صار التعليم فى المكاتب ملحوظًا بعين المدارس، فكان سيرهما فى التعليمات والتنبيهات والامتحانات السنوية وغيرها سواء، وتيسر لمن أكملوا دروسهم الابتدائية فى مكاتب الأوقاف والمكاتب الأهلية المنتظمة دخول المدرسة التجهيزية، والتدرج منها إلى المدارس العالية، وبذلك صار يؤخذ منهم بالرغبة والأهلية كل سنة عدد عديد، كما يؤخذ من تلامذة المدارس الابتدائية الأميرية؛ وأحيت المدار الأوقاف المندرسة وانتفعت بها.

وكم من أهل خير فى الزمن السابق كانوا قد أنشأوا مدارس بالمحروسة والإسكندرية وكثير من مدن القطر للتعليم والتربية حسبة لله تعالى، ووقفوا عليها أوقافًا خيرية جمة يصرف عليها ريعها، رغبة فى نشر العلوم، وعود الفوائد على عموم الناس، بل كثير منهم ألحق بذلك خزائن كتب شاملة لما يحتاج إليه فى التعليم، ولكن لسوء تصرف نظارها انحرفت عن الصراط المستقيم صراط الواقفين الراغبين فى الخيرات، وصار ما يسلم من الهدم والتخريب يستعمل أكثره فى أغراض أخرى، فحصل رجوع كثير من هذه العمائر إلى أصلها المقصود منها، والفائدة الموضوعة لها، وانضمت إلى ديوان الأوقاف العمومى، لتكون إدارتها تحت نظره مشمولة بمناظرة ديوان المعارف وترتيبه، فتخلص من أطماع النظار، وحصل رم (ترميم) ما احتاج إلى الإصلاح من المدارس ومن أوقافها التى يأتى منها الريع، وانتزع ما استولت عليه الأيدى من غير استحقاق، فانضبط أمرها وإيرادها.

■■ لن اتحدث هذه المرة عن المناخ العام الذي يسود في هذا المهرجان الكبير، أو بالأحرى المهرجان الثامن والخمسين للمسرح في أفينيون Festival 58 D'Avignon فقد سبق أن كتبت للقراء عنه. ولا عن العدد الضخم من المسرحيات التي ينطوي عليها برنامجاه الرسمي والهامشي، فلابد أن القارئ قد عرف الآن، وبعد عدة تقارير نشرتها عن هذا المهرجان المسرحي الكبير، أن أضخم مهرجان مسرحي في أوروبا لابد أن به مئات العروض والمسرحيات المختلفة، وأنه يغطي كل الأجناس المسرحية من مسرح الظل والدمى، إلى المسرح الإيمائي، والمسرح الموسيقي أو الراقص، إلى المسرح الدرامي بشقيه المأساوي والملهاوي. ولكني سأركز على عدد من التيمات التي تمحورت حولها مسرحيات عديدة. لأن التعرف على الموضوعات الملحة التي تتكرر في أكثر من مسرحية في هذا المهرجان تقدم للقارئ مدخلا للعقل الأوروبي المعاصر، ولما يهتم به من قضايا، وما يشغله من هواجس ملحة أو متكررة. وأول هذه القضايا وأهمها هي قضية الحرب التي تنشغل بها مسرحيات المهرجان الرسمي بقدر ما تنشغل بها مسرحيات المهرجان الهامشي أو التجريبي Avignon Off. وما يجعل هذا الانشغال بالحرب من الأمور الدالة أنه ليس الموضوع المطروح على أي من المهرجانين، ولكنه يكشف لنا عما يؤرق الضمير الأوروبي أو ما يتحسسه العقل الإبداعي، وهو يختار النصوص التي يعتبرها مناسبة للحظة، أو قادرة على إثارة اهتمام الجمهور.

Festival d'Avignon 2004
مهرجان أفينيون المسرحي «فرنسا» ٢٠٠٤.

لأن الشاغل الأساسي أو المحوري للمهرجان الرسمي هذا العام هو تقديم المسرح الألماني، وتعريف الجمهور بكل انجازاته المتنوعة في مجال العرض المسرحي. هذا بالإضافة إلى تسليط الضوء على كاتب ما، وتقديم عدد من التنويعات المهمة على ما في جعبة المسرح الأوروبي من إنجازات جديدة. وإذا بدأنا بالمسرح الألماني الذي جعله المهرجان محوره الأساسي سنجد أنه يقدم أربعة عروض مسرحية مختلفة - سنتوقف عندها بشيء من التفصيل - لنجم المسرح الألماني الصاعد توماس أوسترماير Thomas Ostermeier وهو مدير مسرح الشوبوهنا Schaubühne الشهير في برلين الغربية، بالمشاركة مع شاسا والتز Sasha Waltz. المديرة الثانية له. وقد قدم لها المهرجان في دورته السابقة عرضا من عروض الرقص الحركي الشهيرة، على ساحة الشرف بالقصر الباباوي، وجاءت هذه المرة ثانية ضمن المحور الألماني بعرض راقص آخر بعنوان (ارتجالات Impromptus). وإلى جانب مديري مسرح الشوبوهنا، وهو بالقطع أهم مسارح القسم الغربي من ألمانيا جلب المهرجان عرضا لفرانك كاستورف Frank Castorf بعنوان (كوكايين Cocaïne) وهو من أبرز مخرجي ما كان يعرف بألمانيا الشرقية، ومدير مسرح الفولكسبوهنا Volksbühne بها. وهو عرض يعتمد على التركيب البصري وفنون الفيديو والفنون البلاستيكية ويقدم لنا أوديسة فوضوية جديدة هي أوديسا المدمن التائه في سمادير الإدمان وشطحاته. الضائع في أدغال الواقع الحضري الجديد الذي جلبته الرأسمالية إلى القسم الشرقي الذي استمتع طويلا بضمانات اجتماعية للعمل والسكن والتعليم والصحة لم تعد متوفرة، وإن توفرت له حريات جديدة مثل الإدمان وتدمير الذات.



كما استجلب المهرجان عرضا آخر لرينيه بوليش René Pollesch المدير الفني لمسرح الفولكسبوهنا بعنوان (بابلو بتاع السوبرماركت Pablo au Supermarché Plus) الذي يستخدم هو الآخر لغة بصرية متطورة تعتمد على استخدام تقنيات السينما، والفيديو كليب والشاشات الضخمة ليجسد لنا طبيعة الحياة في ألمانيا العصرية التي يسيطر عليها سعار الاستهلاك، وتحيل حياة العاملين في السوبرماركات إلى جحيم تحاول الشخصيات قلب بنيته التراتبية واختراع استراتيجيات جديدة للتمرد واستقطار الحياة من قلب هذا الموات الآلي. ووسع المهرجان مفهومه للمسرح الألماني كي لا يقتصر على ألمانيا وحدها بشطريها الشرقي والغربي، وإنما يمتد إلى سويسرا الألمانية وذلك من خلال مسرح المخرج السويسري كريستوف مارتلر Christoph Marthaler مدير مسرح شوسبيلهاوس Schauspielhaus في زيورخ. الذي أتى بعرض بعنوان (تجذيرات: تنويع على الأمل Groundings: une variation de l'Espoir) يسعى إلى تقديم استقصاءاته الدرامية على أسباب انهيار شركة «سويس إير» التي كانت رمزا قوميا لسويسرا، ودقتها ونجاحاتها الاقتصادية، ويستفيد من تجربة المخرج نفسه الذي تعرض للتهديد بطرده من مسرح الشوسبيلهاوس، ليطرح تساؤلاته الدرامية حول منطق المؤسسة الرأسمالية، واستراتيجياتها غير الإنسانية التي تضع الربح قبل الإنسان، وحتى قبل القيم والأخلاق. ويعتقد المهرجان أن أي تقديم للمسرح الألماني سيكون ناقصا ما لم يقدم أثر هذا المسرح على المسرح الفرنسي المعاصر. ولذلك قدم عرضا للمخرج الفرنسي برنارد سوبيل Bernard Sobel الذي اكتشف مسرح برتولت بريخت الشهير «البرلينر إنسامبل» في الشهور الأخيرة من حياة بريخت. وتتلمذ عليه، وأصبح مخرجا فرنسيا له بصمته المتميزة والتي استفادت كثيرا من المسرح البريختي. ولذلك قدم له المهرجان هذا العام عرضه لمسرحية بريخت الشهيرة (الإنسان هو الإنسان) التي تتقصى قدرة الإنسان على إعادة ابتكار نفسه بعدما أخفق حلمه في اليوتوبيا والإنسان الجديد.

هذه البانوراما الكبيرة على المسرح الألماني جسدت لنا الكثير من إنجازاته

دقات المسرح..

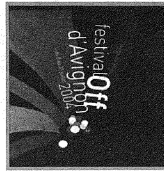
صبرى حافظ



انشغال مسرحيات مهرجان أفينيون الرسمية والهامشية أو التجريبية بالحرب يكشف لنا عما يؤرق الضمير الأوروبى وما يشغله من هواجس ملحة أو متكررة الأمر الذى يشكل مدخلا للتعرف على العقل الأوروبى المعاصر وما يهتم به من قضايا



البارزة في الوقت الراهن، وكان أبرزها بالطبع إنجاز المخرج الألماني الشاب توماس أوسترماير الذي عرض له المهرجان أربع مسرحيات، كان أحدها هو العرض الذي اختير لافتتاح أكبر فضاءات المهرجان المسرحية، وهي ساحة الشرف بالقصر الباباوي، وهو تأويله الإخراجي المتميز لمسرحية جورج بوشنر (١٨١٣-١٨٣٧) الشهيرة وآخر نصوصه (فويتزيك Woyzeck) التي تتسم ببنيتها المتشظية التي تعد سابقة لأوانها، وبقدرتها الرؤيوية على اختراق حجب المستقبل. وهي مسرحية سبق ترجمتها للعربية عدة مرات، ولذلك فلن ألخص أحداثها للقارئ الذي يستطيع العودة إليها في أكثر من ترجمة متاحة لها. وتتسم أعمال هذا المخرج المسرحي الشاب الذي لم يتعد الخامسة والثلاثين من العمر، ولكنه حقق شهرة واسعة في ألمانيا بسبب أعماله الإخراجية المتميزة. وبسبب قدرته على رؤية البعد المعاصر في الأعمال الكلاسيكية وتأويلها تأويلا عصريا. لأن أوسترماير يخبرنا في البرنامج الجيد الذي أعدته معه محطة «آرتي Arte» الألمانية الفرنسية المشتركة أنه تأثر بمنهج ستانسلافيسكس الأخراجي، وبميكانيكا المسرح عند ميرهولد، وبروح الفريق الجمعية عند آريان ميشكين. أي أنه ينحدر من أرومة مسرحية تجمع عددا من العناصر التي تمزج بين جماليات العمل المسرحي ودلالاته الاجتماعية والسياسية دون أن تسمح لأحد الجوانب بالطغيان على الأخرى. كما أنه يستفيد من تراث



المسرح الألماني الذي يهتم بالمسرح الشامل الذي تلعب فيه العناصر البصرية والحركية والسمعية أدوارا لاتقل أهمية عن دور الكلمة المكتوبة. حيث يمتزج فيه الرقص بالموسيقى بالغناء بالتمثيل.

فقد شاهدت له هذا العمل الافتتاحي لبوشنر، كما شاهدت له كذلك تأويله العصري لمسرحية هنريك إبسن الشهيرة (بيت الدمية Maison de Poupée) والذي قدمه بعنوان «نورا» وهو بالطبع اسم البطلة الرئيسية لهذه المسرحية الشهيرة. وقد نقل المخرج مكان العرض الأول ليدور في واحدة من بلوكات المساكن الشعبية في أحراش المدينة وفي أكثر أحيائها عنفا وفقرا. حيث تسيطر على تصميم المشهد الدرامي أنبوبة المجاري العملاقة التي تصب قاذوراتها في بركة لايتورع أفراد العصابة عن السباحة في مياهها العطنة. كما تقع في خلفيته ثلاث شاشات كبيرة تعرض وسطاها صورة إعلان فج بغواياته، بينما تعرض على الشاشتين الباقيتين مشاهد ابراج المساكن الشعبية القبيحة في الأحياء الأوروبية. وتصاحب العرض موسيقى الراب الصاخبة. وكأن المخرج يؤسس عبر هذا مفردات عالم الغابة الحضرية المختلفة. حيث يمارس الجميع ـ الكبار منهم والصغار ـ حياتهم العادية في هذا المناخ الذي يتصاعد فيه كريشندو العنف باستمرار. وتتسم فيه الأحداث بقدر كبير من القسوة، ولا يصبح العري صادما أو جنسيا، بل نوعا من الإهانة الجارحة. وتصبح المسرحية كله بسبب جمالياتها الدرامية الراقية، درسا في قسوة الحياة في أحراش المدينة العصرية وأدغالها، حيث يتحول الفقر والإحباط إلى عنف عضوي، صوتي، حركي، موسيقي يستخدم حركات الراب في تجسيد هذا العنف وآليات الحياة القاسية بشكل فني راق. في هذا المناخ تقع شخصية «فويتزيك» المعذبة المنطوية تحت رحمة «فرانز» قائد عصابة شبان الحي مرة، والطبيب المجنون أخرى. ويبحث عن إنسانيته أو عن مخرج من هذا الواقع الذي تدور أحداثه تحت عيني أندراس صاحب دكان الحي، دون أن يحرك لها ساكنا، في علاقة حب مع «ماري». ولكنه هذا الحب لا يصمد لاستشراء العنف في هذا الواقع الفظ الخشن الفقير الذي يعد فيه العنف الوسيلة التعويضية الوحيدة المتاحة أمام أفراده المحبطين.

أما مسرحيته الثانية «نورا Nora» فقد أختار أن يديرها في عالم المجلات النسائية المصقولة حيث ترفض نورا كوميديا النعيم الزوجي من أجل حريتها، واستقلالها، وتحققها كأمرأة متميزة. ويستخدم في هذه المسرحية نفس المفردات البصرية والحركية المتميزة التي توشك أن تكون من حيث جمالياتها البصرية واللونية النقيض الكامل لمناخ مسرحية (فويتزيك). وبالإضافة لهاتين المسرحيتين قدم مسرحية ثالثة هي (كونسير بالطلب Concert à la Carte)، ورابعة هي (خنازير الديسكو Disco Pigs). وبالرغم من أن هذه المسرحيات تبدو وكأنها غير مشغولة على الإطلاق بهاجس الحرب الذي انطلق من اضطراب أوروبا بسبب الحرب الأنجلوأمريكية على العراق، والذي يسفر عن نفسه بشكل كامل في أكثر من مسرحية، فإن موضوع الحرب والعنف ليس غائبا عنها، سواء أكانت الحرب الدائرة في أحراش المدينة، أو الحرب الاجتماعية الدائرة بين الجنسين منذ أغلقت «نورا» الباب خلفها في مسرحية (بيت الدمية). لكن الحرب بمعناها الحرفي قد أسفرت عن وجهها القبيح في إعداد بيبو ديلبونو الأوركسترالي لنص (هنري الخامس Henri V) لشكسبير الذي أحاله إلى قصيدة درامية طويلة تنعي جبروت القوة وغطرستها، وتدعو إلى الحاجة إلى عالم أكثر عدلا وعقلانية.



وإذا ما تركنا هذا المحور الذي دار حول المسرح الألماني، سنجد أن المهرجان يسلط الضوء على كاتب إيراني معاصر هو رضا باراهيني Reza Baraheni. استضافه مهرجان أفينيون باعتباره كاتب المهرجان في

دقات الحرب!



هذا العام. ورضا باراهيني كاتب إيراني مخضرم تعرفت عليه منذ عدة سنوات في المؤتمرات السنوية لنادي القلم الدولي، والتي مثلت في بعضها نادي القلم المصري. وقد ولد رضا عام ١٩٣٥ في تبريز الواقعة في أقليم أذربيجان في غرب إيران، وأجبر على التخلي عن لغته الأم، وهي اللغة الأزارية أو الأذربيجانية إحدى اللهجات التركية المحظورة في إيران. وواصل دراسته في اللغة الفارسية، لكنه توجه بعدها إلى أسطنبول لدراسة الأدب المقارن حيث حصل على الدكتوراة فيه منها. وعاد للتدريس في جامعة طهران من ١٩٦٤ إلى ١٩٨٢، كما عمل خلال هذه الفترة أستاذا زائرا في عدد من الجامعات الأمريكية. وقد عانى من قمع كل من نظام الشاة والنظام الإسلامي في إيران من بعده، لأن الأول كان ضد نزعته التحررية، بينما كان الثاني ضد نزعته الحداثية. فقد كون جمعية للكتاب الإيرانيين منذ عام ١٩٦٧ وترأس هذه الجمعية منذ عام ١٩٩٣، كما كان من ضمن الموقعين على بيان الكتاب الإيرانيين ضد الرقابة الذي وقعه ١٣٤ كاتبا ونشر عام ١٩٩٦، وأضطر بعدها لترك أيران والإقامة في كندا منذ عام ١٩٩٨، حيث أصبح رئيس نادي القلم الكندي في تورنتو منذ ذلك التاريخ. ويكتب رضا الشعر والقصة والمسرحية والنقد الأدبي. وقد بدأ النشر في الفرنسية، أو بالأحرى ترجمت أعماله إليها منذ عام ٢٠٠٠، ففرنسا مولعة باكتشاف الكتاب من الثقافات المختلفة وتقديمهم إلى جمهورها العريض. لأنها تعي أن لها دورا في تخليق المكانات داخل ما تدعوه باسكال كازانوفا «جمهورية الأدب العالمية»، وفي وضع هذه المكانات على خريطة الاهتمام الغربي العام.

ولا أدري إذا ما كان الاهتمام برضا باراهيني في هذه الدورة من المهرجان نوعا من طرحه كاسم محتمل للفوز بجائزة نوبل للآداب أم لا. لأن هذا أيضا ما فعله المهرجان عام ٢٠٠٠ للكاتب الصيني جاو زينغجيان الذي فاز بجائزة نوبل عام ٢٠٠١. حيث يقدم المهرجان الرسمي لرضا باراهيني أربعة عروض ثلاثة منها تتركز حول شخصه ككاتب، وهو أمر نادر الحدوث عادة في هذا المهرجان. وهي عروض (قصاقيص: QesKes: Trois ثلاثة دروس في الشعر Leçons de Poétique) وهي ثلاثة عروض مختلفة تحمل نفس الإسم ولكن لكل منها رقم من (قصاقيص ١) إلى (قصاقيص ٣). شاهدت أحدها فأغناني عن مشاهدة الباقيين. وإن أثار في نفسي هذا التساؤل حول دور الثقافة الفرنسية في إبراز الكتاب الأجانب ووضعهم في ساحة الأدب الدولية. والواقع أن العرض الوحيد الذي شاهدته من (قصاقيص) هو أقرب إلى القراءة الشعرية أو الأدبية المسرحة منه إلى المسرح الحقيقي. حيث يجلس الكاتب في المنتصف على خشبة المسرح، ويحيط به أربعة قراء آخرين يحيلون القراءة باللغة الفارسية والترجمة إلى نوع من التوزيع الأوركسترالي الجيد والمشوق. صحيح أن لهذه السهرة المسرحية التي امتدت لساعة وربع موضوعا واحدا هو موقف الكاتب من اللغة، اللغة الأم واللغة كأم، وولعه بكتابة التشظي والتفتت، وإشاراته إلى الكتاب الذين كانوا مصادر إلهامه من جيمس جويس ولوي بورخيز إلى مولانا جلال الدين الرومي وصادق عنايات. أو تناوله لما يدعوه قطع الحبل السري بينه وبين الميتافيزيقا، وبداية الكتابة الرؤيوية التي تكتب التاريخ من داخل التاريخ كما تكتب (ألف ليلة وليلة) القصص من داخل القصص، أو حديثه عن (ألف ليلة وليلة) التي استوحى منها روايته الأولى والتي قدم قراءات منها، وهو حديث فيه الكثير من الخلط والتخليط. أو عن استعادة دور الشاعر الحكواتي الذي يتحدث عن كل شيء: عن الشعر والموت والمرأة والحب والحرب. إلا أنه يمس كل هذه الموضوعات مسا خفيفا لا يبرر ثمن التذكرة المرتفع الذي يعادل ١٧ جنيها أسترلينيا (٢٣ يورو).



أما العمل الرابع الذي قدمه المهرجان له فهو مسرحية (في الجحيم En Enfer) التي كانت من أجمل المسرحيات التي شاهدتها في هذا المهرجان، ومن أكثرها جدة وأصالة. فقد كان أول كتب رضا باراهيني التي ترجمت للفرنسية هو (فصول في الجحيم لأياز الصغير Les Saisons en Enfer du Jeune AyyaZ) الذي أخذت عنه هذه المسرحية (في الجحيم) وتم إعدادها للمسرح بالتعاون مع مخرج العرض تيري بيدار Thierry Bedard الذي سبق له أن أعد نصوصا عديدة لكتاب عانوا من القمع أو الاضطهاد ضمن فعاليات البرلمان العالمي للكتاب، قبل أن تحل هذه المنظمة الأدبية المهمة في العام الماضي ٢٠٠٣ بسبب معارضة الولايات المتحدة الأمريكية لنشاطاتها التي كانت تقدم للكتاب منبرا اتسم بمواقفه النقدية للسياسات الأمريكية في العالم، وخاصة بعدما أوفد هذا المهرجان عددا من الكتاب المرموقين عالميا وفي مقدمتهم اثنان من الحاصلين على جائزة نوبل ـ وهما ساراماجو البرتغالي وسوينكا الأفريقي ـ للأرض الفلسطينية المحتلة، وكتبوا بعد زيارتهم لها ضد وحشية الاحتلال الصهيوني وفظاعاته. بعد هذه المقدمة التي طالت قليلا عن كاتب العرض ومخرجه، ولكنها ضرورية للتعرف على خلفياته، علينا التوقف عند هذا العرض المسرحي المتميز الذي يعد فيه الشكل المسرحي جزءا أساسيا من المحتوى الفكري والدرامي للعمل. لأن هذا العمل الذي لم يكتب أساسا للمسرح، وإنما كتب كنص شعري عن معاناة معتقل سياسي عاني من التعذيب المروع الذي تفنن فيه زبانية السافاك أزاء حكم الشاقز الذي كان مدعوما من أمريكا والعدو الصهيوني معا. لكن العرض المسرحي يجرد النص من أي سياق تاريخي، ويجعله تجسيدا لوضع إنساني مطلق يمكن أن يحدث في أي بلد في العالم، وخاصة بلدان العالم الثالث التي تحاصر فيه الحريات، بما في ذلك الجولاج الأمريكي الجديد الممتد من جوانتانامو حتى قاعدة باجرام الأمريكية في أفغانستان. كما استطاع المخرج الفرنسي أن يمنح هذا النص شكلا دراميا جديدا ودالا، بل يوشك هذا الشكل أن يكون إضافة إبداعية خلاقة للعمل، ما كان له أن يحقق دراميته المؤثرة بدونها.



لأن المخرج اتبع سياسة إخراجية متميزة تتحكم في كل عناصر العمل والتلقي معا. فقد أخبرنا شباك التذاكر أن الدخول للمسرح لن يكون إلا في آخر لحظة، أي في الوقت المحدد للعرض بدقه، وليس قبله حيث يترك للمشاهدين عادة دخول المسرح والجلوس في مقاعدهم والثرثرة معا حتى يبدأ العرض. وحينما فتحت أبواب المسرح، وسمح للجمهور بالدخول إليه، ظلت أبوابه مغلقة، حتى تجمع كل الجمهور في الردهة الداخلية، ثم اقتيد في جماعات إلى ما يشبه الغرف أو الزنازين المصنوعة من حيطان مكونة من بطانيات معلقة بمشابك، وما ان تمتلئ غرفة حتى يؤخذ الباقون إلى غرفة أخرى. ولم يعرف المشاهدون حقيقة تركيب المسرح، ولا كل ما يدور فيه إلا في النهاية. حينما تسقط كل البطاطين وتتكشف المساحة المسرحية كلها أمامنا في نهاية العرض، لنكتشف أنه مكون من أربع غرف كل غرفتين تعكسان بعضهما البعض وكأن أحدهما صورة للأخرى في المرآة. لأن في كل غرفة ثلاثة صفوف من الدكك الخشبية التي تتسع لما يقرب من ستين مشاهدا، وأمامها مائدة ودكتان تشكلان المسرح الذي كان عليه ممثل يرتدي قميصا أسود وبنطلونا أسود. وكان يئن ويصدر بعض الأصوات التي تتجاوب مع أصوات أخرى. ثم بدأ في الحديث، وكنت تسمع بعد بداية جملته بثوان نفس الجملة تصدر عن الممثل الذي يقوم بنفس الدور في الغرفة المجاورة. حيث ثمة ممثل آخر، يوجه جمهورا مماثلا، وظهره لظهر الممثل الذي يواجهك، ويقوم بتجسيد النص نفسه لهم. وقد زود المخرج كل ممثل بسماعة صغيرة في أذنه، فكان يوجه بها الممثلين بحيث يقوم كل ممثل بدور القائد، أي الذي يبدأ الجملة قبل الآخرين، في فترة محددة من العرض، ثم يقوم بهذا الدور ممثل آخر، بحيث يبدو الباقون وكأنهم يرجعون أصداء ما يقول. وهكذا باستمرار، في جو مسكون بأصداء الألم والخوف والتوقع والعذاب. يعرفه جيدا من تعرض للسجن وعانى من الأصوات التي تصدر عن الزنازين المجاورة قدر معاناته من التعذيب وزبانيته. لأن النص نفسه هو نص عن تعذيب مسجون يتمسك برأيه وبما يوقن أنه الحق، بتقطيع أطرافه واحدا إثر الآخر، ثم بسمل عينيه، وأخيرا بقطع لسانه، أي حرمانه من اللغة التي كانت أداته ليقض مضاجع من سجنوه.

وإذا كان المسرح قد استطاع أن يخلق المعادل الدرامي للمعتقل السياسي المسكون بأصوات التعذيب واسترابات



مسرحية (كسكس بلحم الخنزير المدخن)
لفريد بن عمري هي مسرحية كوميدية ساخرة عن التوتر الثقافي والاجتماعي بين الثقافتين العربية والفرنسية في المجتمع الفرنسي



توقعه في أي لحظة، فإن المسرحية لاتكتفي بهذا الجانب وحده، ولكنها تقدم لنا وقع هذا التعذيب على النساء اللواتي تركهن المعتقلون وراءهم. لأن بين كل غرفتين هناك صفين من الدكك استخدما فيما بعد حينما كانت بعض البطاطين تزاح لنجد ممثلتين ترتديان نفس الملابس السوداء المكونة من بلوزة وبنطلون أسود، وتمارسان نوعا من التمثيل الإيمائي الصامت الذي يجسد صنوفا مختلفة من الجدل والمعاناة الجسدية، التي تشكل وقع هذا كله على المرأة. وحينما ينتهي التعذيب بقطع الألسنة، ويتحول الصوت إلى نشيج وفحيح تسقط كل البطاطين لنكتشف أن الجمهور يواجه جمهورا آخر يتفرج على مأساة مماثلة. وأنه بشكل من الأشكال مسئولا في نظر الجمهور المواجه عما دار، ولو بالصمت والتواطؤ. وليتحول التأثير الصاعق للعمل إلى نوع من إعادة التفكير فيما يدور في هذا العالم المكتظ بالتعذيب لافرق في ذلك بين دول ديكتاتورية يحمي تسلطها بالقمع والتعذيب، ودول تدعي الديموقراطية مثل الولايات المتحدة الأمريكية التي نعرف الآن أنها والغة في وحول التعذيب في جولاجها الممتد من جوانتانامو حتى أفغانستان والعراق.



مسرحية (جوانتانامور Guantanamour) لجيرار جيلاس التي سبق أن أعدها كاتبها على عجل لمهرجان عام ٢٠٠٢، ولكنه أعاد كتابتها من جديد لهذا المهرجان وأنضجها وركزها وكثف مقولاتها ورؤاها. لأنها تدور في الحاضر الراهن بعد احتلال العراق، وبعد تكشف المزيد من الحقائق عن الجولاج الأمريكي البشع الذي يمتد لأكثر من أربعة عشر بلدا، وتتعدد فيه السجون التي تنتهك فيها القوانين الدولية وقوانين حقوق الإنسان. وتتم في هذه المسرحية المواجهة بين مغربي متهم بالانتماء للقاعدة وبين محققه الذي يكتشف بالتدريج طبيعة «الإنسانية» الأمريكية وبنية القهر والعنف السارية فيها. حتى العلاقة بين الرجل والمرأة، تقدمها مسرحية إلسا سولال بعنوان (الحرب الأخرى- LAutre-Guerre) وترى فيها نوعا آخر من الحروب التي ظلت دائرة على مدى الأجيال دون أن تتوصل البشرية إلى حل مقنع لها. أو عن (آدم وحواء والهبوط Adam, Eve et Descendance) لباسكال بانكو على أن هذا الهبوط من الفردوس إلى الأرض كان هبوطا من حالة السلام إلى حالة الحرب.

جانب مهم آخر هو الذاكرة الثقافية التي تولع الثقافة الغربية عموما بالحفاظ عليها حية وفاعلة في حاضرها. فعلى العكس من ثقافتنا العربية التي تعاني من فقدان الذاكرة التاريخية منها والثقافية على السواء، فإن الثقافة الغربية مولعة بالحوار الدائم مع ماضيها، وبإنعاش ذاكرتها المستمر.

لذلك نجد هناك (La Baronne et la Truie) التي تدير حوارها مع رؤى جان جاك روسو أحد كتاب الاستنارة الفرنسية المرموقين. و(La Vulpius) التي تدير حوارها مع كريستين، بطلة جوته الغيورة، أو العديد من المسرحيات التي تحاور كوميديات جورج فيدو المختلفة أو روايات روبرت لويس ستيفينسون من (جزيرة الكنز) إلى (فاليسا) التي تدور مغامراتها في المحيط الهادئ، والتي كانت أول تناول للعلاقة بين الشمال والجنوب.

المراجعة الدائمة لتاريخ أوروبا الديني أو حتى إعادة تقديم آلام السيد المسيح بطريقة عصرية كما في (Le Grand Braque) أو إعادة كتابة قصة أيوب وآلامه في (La Nouvelle Hostoire de Job) أو قصة فرانسوا الأسيسي في (Francois d' Assise) من القرن الرابع عشر لفرانسوا أجنيللو الكاتب الذي يهتم بتحويل المسرح إلى أداة لإعادة الجمهور إلى حظيرة الكنيسة، ومن هنا فإنه يستخدم كنيسة «سان لويس» الصغيرة الجميلة من حيث تصميمها المعماري البسيط في وسط أفينيون ويحولها إلى مسرح يقدم فيه مسرحيتيه، بالإضافة إلى مسرحته لكتاب (النبي) الشهير لجبران خليل جبران. ومسرحيته الأولى في هذا المجال والتي سبق أن قدمتها للقراء في دورة مهرجان عام ٢٠٠٢ هي مسرحية القديس فرانسي الأسيسي، وهو الراهب المسيحي الذي تمرد على ثراء الكنيسة وبذخها المناهض لجوهر الفكرة المسيحية في تصوره، وأراد أن يعيد للمسيحية تقشفها الأول باعتبارها الديانة التي جاءت لتنصف الفقراء، والذي أسس رهبنة الفرانسيسكان الشهيرة. ويقدم في دورة هذا المهرجان ٢٠٠٤ شخصية كاترين السينية في مسرحية جديدة هي (كاترين السينية Catherine de Sienne) وهي راهبة إيطالية من سيينا ولدت عام ١٣٤٧ وكانت امرأة من عامة الشعب تدعى كاترين بينيكاسا، ولكن تدينها الشديد منذ شبابها زودها بعدد من القدرات الخارقة على شفاء المرضى، وهداية الضالين، وإصلاح ما بين الأطراف المتصارعة في المدينة. ولعبت دورا مرموقا في توحيد الكنيسة أثناء فترة من فترات تاريخها العصيبة، وذلك من خلال أقناع البابا في التخلي عن مقره الباذخ في أفينون والانتقال إلى روما من أجل توحيد الكنيسة الكاثوليكية التي كانت على وشك الانشقاق. وقد ماتت كاثرين وهي في الثالثة والثلاثين من عمرها، وقد استحوذت شخصيتها على اهتمام الكاتب «فرانسيسكو أجنيللو» ودفعته لاستقصاء قدراتها الدبلوماسية الخارقة، وهي شخصية بسيطة من عامة الشعب، ولكنها تتمتع بتلك القدرة الروحية على تجاوز السياق الذي وجدت نفسها فيه. بحيث لعبت دورا تاريخيا فريدا يفوق مؤهلاتها بشكل كبير. لذلك قام بتحويل قصتها إلى عمل مسرحي باعتبارها نموذجا فريدا لدور المرأة الديني في العصور الوسطى. وقد شاهدت هذه المرة مسرحيته الثانية تلك، والتي تحاول أن تعيد تأسيس تاريخ الكنيسة بالصورة التي تضع فيها المرأة في مكان محوري غير مسبوق في تواريخها المكتوبة. ذلك لأن المسرحية التي تعتمد على شخصية كاترين التاريخية تقدم لها هذه المرأة التي تمتلك تلك القدرات النورانية الفائقة والتي تزودها بطاقة داخلية جبارة تجعلها قادرة على إقناع البابا، بقدر قدرتها على شفاء المرضى أو هداية الضالين والحمقى. واعتمدت دراميا على شخصية هذه المرأة وحدها التي تحكي لنا قصتها، وتقدم لنا في الوقت نفسه وحدها تجسيدا دراميا لمختلف المواقف التي وجدت نفسها فيها في مواجهة مع جبروت الكنيسة. ولا يصاحبها في هذا كله إلا شخص واحد يلعب على مجموعة من الآلات الموسيقية التي تخلق مناخا مصاحبا لما تسرده علينا دراميا أو تجسده أمامنا على خشبة المسرح المنصوبة وسط هذه الكنيسة الصغيرة الجميلة.



ناهيك عن الحوار مع المسرحيات التي دخلت الضمير المسرحي الأوروبي، سواء مسرحيات شكسبير وراسين وموليير وجورج فيدو المختلفة، أو (خادمات) جان جينيه، و(خطاب حب مثل تعذيب صيني) لفرديناند آرابال، و(العرس Noce) لجان لوك لاجراس.

وهناك تلك النزعة النسوية لإعادة كتابة التاريخ الأوروبي وتصحيح تحيزاته الدائمة ضد المرأة مثل (Camille Claudell, etre Matier).

وهناك مسرحيات تستلهم الأعمال الفنية، اثنان منهما عن فرانسيس بيكون، أولهما بعنوان (أنا وفرانسيس بيكون وجانين: لوحة ثلاثية)

وواحدة عن لوحة بيكاسو الشهيرة «جيرنيكا» بعنوان استمعوا لجرنيكا (Ecoute Guernica)



المسرحيات العربية في هذا المهرجان كثيرة، من (الفرابيل La Frabyle) للطيب بلميهوب التي تتناول التوتر بين الثقافتين العربية والغربية، وصعوبة تقبل إحداهما للأخرى، وفقدان التسامح والعنف الناجم عن هذا كله. وتحاول التغلب على هذا كله من خلال البعد الإنساني العام والارتفاع فوق الخصوصيات إلى الإنسانيات.

مسرحية (كسكس بلحم الخنزير المدخن) لفريد بن عمري هي مسرحية كوميدية ساخرة عن التوتر الثقافي والاجتماعي بين الثقافتين العربية والفرنسية في المجتمع الفرنسي. وعن دور الثقافة في صياغة سلوكنا، والتحكم في توقعاتنا في المواقف المختلفة. فهي مسرحية عن العلاقة بين «رشيد بوجمعة» العربي



الأصل، و«ماري صوفي بلانشار» الفرنسية، فقد تلاقيا وتحابا، وقررا الزواج. ومن مشهد هذا القرار الأول تبدأ المسرحية في طرح التوتر الثقافي والتوقعات المحبطة، ودورهما في إسعاد الإنسان أو إشقائه. وتبدأ منذ المشهد الأول في بلورة منهجها الدرامي الذي يستقطر الضحك من خلال التجاور بين هذه التوقعات مرة أو بين السلوكيات والتصرفات المختلفة أخرى. لأن « ماري صوفي» برغم تغلبها على كل التصورات المسبقة عن العرب في ثقافتها، ووقوعها في غرام «رشيد»، وقبولها الزواج منه، لاتستسيغ طلبه الزواج منها بالطريقة العربية البسيطة. لأنها تحلم ككل البنات الفرنسيات بأن يكون طلب حبيبها الزواج منها ذروة العلاقة الرومانسية بينهما، وأن يكون لحظة العمر التي لايمكن نسيانها في المستقبل. وتتهمه بأنه يطلب منها الزواج، وكأنه يطلب «بيتزا» من نادل في مطعم. فيقرر أن يقوم بالدور الرومانسي المرسوم، الذي يعرفه العربي الذي يعيش في فرنسا حق المعرفة. لأن المسرحية تكشف لنا عن أن ابن الثقافة الأخرى يعرف ثقافته وثقافة الآخر، ولكن الآخر ابن الثقافة السائدة والمسيطرة لايعرف الكثير عن ثقافة الآخر، حتى ولو توفرت لديه حسن النية التي تصل هنا إلى أقصى درجاتها، ألا وهي القبول بالزواج منه. ويقوم «رشيد» بالدور الرومانسي التقليدي، ويردد كلماته المحفوظة بشكل تهكمي، لأنه لا يستطيع أن يمضي في لعبة الإدعاء الثقافي حتى نهاية الشوط دون أن ينفجر ضاحكا من نفسه ومن الموقف معا.

وما أن يقررا الزواج، ويدخلا في كل التفاصيل الاجتماعية التي تشرك بقية العناصر الاجتماعية في الموقف، حتى يبدأ التوتر الثقافي في السفور عن وجوهه الاجتماعية والدينية والثقافية المختلفة. فبقدر ما تفاجأ أسرته بأنه ينوي الزواج من فرنسية، تفاجأ أسرتها بأنها تعتزم الزواج من عربي. وبقدر ما يحتج على طلبها أن يكون حفل الزواج في أحد المطاعم الفرنسية التي تخصصت في إعداد مثل هذه الحفلات وما يقدم فيها من «شمبانيا» وطعام، لايكلف سوى مئة يورو للشخص الواحد. باعتبار هذا الأمر نوعا من الإسراف الذي لاطاقة له على تحمل تكاليفه الباهظة، ولأن ثقافته لا توافق على تقديم الخمور، بالرغم من أنه يشرب النبيذ معها. تحتج هي الأخرى على اقتراحه أن تقوم أمه بطهي «كسكس» يكفي لمائة مدعو. ومن هنا جاء عنوان المسرحية «كسكس بلحم الخنزير» لأنها تسخر من عدم تضمن الكسكس «للاردون» وهو لحم الخنزير المدخن. وترد على احتجاجه على «الشمبانيا» التي لاتتصور فرحها بدونها، بأنها ستقدم «شمبانيا» حلال، وستوصي النادل بأن يوجه الزجاجة صوب مكة قبل أن يفتحها. لكن الحب ـ كما يقولون ـ يتغلب على كل الصعاب. وتتم مراسيم الزواج المدني بينهما في مكتب لايستطيع فيه من يقوم بهذه المراسيم نطق اسم «رشيد بوجمعة» ويتعثر فيه أكثر من مرة، بينما ينزلق اسم «ماري صوفي بلانشار» من على لسانه بسهولة ويسر. والواقع أن المسرحية قد وفقت في اختيار اسماء شخصياتها، لأنه إذا كان اسم عائلة «ماري صوفي بلانشار» هو اسم فرنسي خالص، فإنه يلعب على دلالة اسم «بلانشار» المستقى من كلمة بلانش الفرنسية التي تعني البيضاء، أي الأوروبية. بينما اسم «بوجمعة» الذي سيصبح اسمها العائلي بعد الزواج يشير هو الآخر إلى دلالة يوم الجمعة في الثقافة العربية الإسلامية، وإلى ما تنطوي عليه هذه الدلالة من صراع مضمر مع الثقافة الأوروبية البيضاء.



ويمضي الزواج، وتبدأ علاقات الزوجين مع الحماوات، ومع الثقافة الأخرى في عدد من المواقف الساخرة التي تزود المسرحية ببعد إنساني واضح، وبقدرة متميزة على استقطار الضحك من أكثر المواقف عبثية وإيلاما. وقد اهتمت المسرحية بأن تتعاطف بشكل عميق مع منظور الثقافتين، وهذا ما جعل سخريتها من النوع الناجع الذي يلمس شغاف الخلاف والتوتر الثقافي الراهن في المجتمع الفرنسي، دون أن يتجنى على أي من جانبيه. فحينما تبلغ «ماري صوفي» زوجها «رشيد» أنها قد حملت يتصور أو بالأحرى يتمنى أن يكون الحمل ولدا، مما يضير «ماري صوفي». كما أنه يسارع بإعلان الخبر السعيد على كل أفراد أسرته الذين يفرحون له، ولما تحاول «ماري صوفي» أن تبلغ أمها، بعد مشاجرة معه لأن أسرته تقدم التليفون لكل فرد ليتكلم معه ويهنئه، مما يعوق محاولتها هي الأخرى لإبلاغ أمها، ينهي مكالمته غاضبا، فتكلم أمها التي تخبرها ببرود أوروبي ملحوظ أنها مشغولة الآن، ويمكنها أن تتحدث معها فيما بعد بشيء من التطويل مما يصيبها بخيبة أمل كبيرة، خاصة وقد تم التجاور الدرامي بين استجابة أسرة «رشيد» للخبر السعيد واستجابة أمها الباردة أو غير المبالية به. وعندما تلد «ماري صوفي» بنتا، يبدأ خلاف من نوع آخر على ديانة البنت: أهي الإسلام كما يقضي بذلك شرع الأب، أم الكاثوليكية كما تقتضي شريعة الأم. وتلجأ المسرحية إلى الحل الأغريقي الشهير المعروف بـ «الإله في الآلة» الذي يتكلم عبره الرب ليحل الموقف بأن يعلن أنها كاثلمة لا كاثوليكية ولا مسلمة، وإنما كاثولمة مما يثير الكثير من الضحك، ولكن شر البلية ما يضحك كما يقول المثل.



على نفس اللحن يعزف عرض الممثل الواحد One Man Show الذي قام به سامي توزاني والذي لاقى نجاحا كبيرا في بلجيكا حيث عرض لأكثر من مائتي مرة. ويلعب مؤلف العرض ومؤديه على اسم عرض الممثل الواحد الانجليزي ليجعل اسم عرضه بالانجليزية (عرض إنساني واحد One Human Show) بعد أن يحرف اسم الرجل إلى الإنسانية. ويتناول في هذا العرض بطريقة ساخرة، تتسم بها معظم عروض الممثل الواحد، مسألة الهجرة، وكيف يظل المهاجر مهاجرا، حتى بعد مرور أكثر من جيل على هجرته. فهو كما هو الحال مع بطل (كسكس بلحم الخنزير) من أبناء الجيل الثاني من المهاجرين العرب في بلجيكا هذه المرة، وليس في فرنسا، ومع أنه ولد فيها، واختصر اسمه إلى «سام» كي يبدو مألوفا وعاديا، وعاش كل حياته بها، إلا أنه ما زال يعامل كمهاجر، تماما كما حدث لأبيه «محمد» باسمه الأجنبي غير المألوف. ويقتنص العرض عددا من المفارقات الكاشفة عن مدى صلابة الحاجز الذي تقيمه الثقافة الغربية في وجه المهاجرين من ثقافة عربية أو إسلامية مغايرة. فبعد أن تعبت أمه «رحمة» من انتظار زوجها الغائب في أوروبا، وأضناها الفراق، حملت أمتعتها ووصلت إلى بروكسل مع أطفالها، لتكتشف أن الأب لم يكن يريد حضورها خوفا عليها وعلى أبنائه معا من المعاناة من ألم الهجرة العنصري. والتعرض لما يتعرض له من مهانات يومية صغيرة. ويكشف العرض عن أن «سام» لايختلف بأي حال من الأحوال عن بقية مواطنيه، اللهم إلا في نظرة هؤلاء المواطنين غير العقلية له.

وما يجعل موضوع العنصرية من موضوعات المهرجان الملحة، أن الأمر لايقتصر على العرب وحدهم. فها هو الممثل الزائيري الأسود «بي تشيباندا» يقدم عرضا مماثلا من عروض الممثل الواحد يدور حول نفس القضايا التي اشتكى منها عرض سامي توزاني، وينطوي على نفس المرارات. وهو عرض بعنوان (مهرج أسود في بلاد البيض Un Fou Noir au Pays des Blancs)، يتناول المفارقات المضحكة المؤسية التي يتعرض في بروكسيل مهاجر كونجولي أسود وأب لستة أطفال. منذ أن هبط في مطار بروكسل، وكيف افتقد منذ تلك اللحظة الأولى قاعدة افتراض البراءة في الإنسان حتى تثبت إدانته، التي ينهض عليها أي مجتمع سليم. لأن ما واجهه وواجهته أسرته من البداية هو العكس، افتراض الإذناب حتى تثبت براءته من اتهامات تنهض في وجهه ووجه أطفاله باستمرار دون ذنب اقترفوه أو جريرة. ولذلك وجد نفسه في ساحة قتال مستمرة قواعدها مغايرة لقواعد تلك التي تركها وراءه في الكونجو الممزق بين الجماعات المقتتلة. إنها الحرب العنصرية التي تدور رحاها في بلاد البيض، والتي لاتقل عنفا وضراوة عن تلك التي خلفها وراءه في بلاد السود. ■


Three Men From Baghdad
Tales of Thieves and Robbers
Denys Johnson-Davies
New Horizons Award
The Companions Of The Prophet Muhammad
The Jar Of Olives
Zaynab The Beautiful
On a Desert Island
Hayy Ibn Yaqzan
Abridged and adapted by
Salah Abdul Sabour
The Cat and the Artist
The World's GREATEST TRAVELLER IBN BATTOUTA
Tales from SYRIA
SUNFLOWER BOOKS
SEBEK
The Lonely Crocodile
By Mandy
A Desert Adventure
The love story of Antar and Abla
Denys Johnson-Davies
Illustrated by Safaa Nabaa
The Magic Horse
Denys Johnson-Davies
THE ACROBATS OF MARRAKESH
Denys Johnson-Davies
THE TWO ABDULLAHS
DENYS JOHNSON-DAVIES
WALID TAHER
A Special Smile
Mandy Reaner
Mostafa Rahma

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

نورس الفضاء الضيق

إيهاب ياسر بسيسو

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤، ١٣١ صفحة



هذه هي المجموعة الشعرية الأولى للشاعر والأكاديمي الفلسطيني إيهاب بسيسو، والتي تجلت فيها موهبة صادقة وهي ترصد ملامح معاناة إنسانية تتجاوز فيها وتتشابك الأحلام مع الانكسارات، ورائحة الياسمين مع أزيز الرصاص.

تنقسم المجموعة إلى: فضاء أول ويضم العديد من العناوين منها الليل ومرايا الموت، أحاديث الساعة العاشرة، كتابة بفعل الموت، أجنحة في مهب الريح وغيرها.. أما الفضاء الثاني فيحتوي على: أسئلة في مدى ضيق، سؤال، لغة الغرباء، تفاصيل ليلية، احتراق صامت وغيرها.

وفي أولى قصائد الديوان، يأخذنا الشاعر إلى عالمه الشعري مباشرة، يفتح أعيننا على صراع الحياة والموت خلف النوافذ الرمادية في قصيدة «أحاديث الساعة العاشرة» والتي يقول فيها (والوقت المطعون بعقربين تدلى من شفرة سكين/ حين غاصت أول الطلقات/ في جسدي).. وفي قصيدة «إلى جندي» تبدو معركة الشاعر محتدمة حينما يقول (ما بينك وبينك.. طفل في غزة/ يحاول إضاءة قنديل في وجهك الليلي/ المحقون بالرصاص).. والمعركة هنا تشتعل بين طفل فلسطيني يرسم البهجة على وجه الحياة، وجندي صهيوني يطلق رصاصاته ليجعل رائحة جدران المنازل بنكهة اللحم المحترق..

الهم الفلسطيني يبدو متجليًا بوضوح في عناوين القصائد وفي الإطار العام للديوان، ورغم ذلك فالقصائد تبتعد تمامًا عن المباشرة والخطابية، وهي تقترب من مفردات وتفاصيل الواقع الإنساني، وتحديدًا هموم وأحلام وانكسارات الإنسان على شتى المستويات وليس المستوى السياسي فقط.

كما تدير القصائد حوارًا شعريًا مع الموت والكتابة والفضاء والبحر والجسد والحرية، وتسعى من خلال لغة عميقة وبسيطة في آن لإقامة جسر بين الشاعر والمتلقي، بعيدًا عن الاستغراق في التجريبية والغموض المفتعل التي وقعت في فخاخه نصوص شعرية أخرى.

ولن يخفى على قارئ هذه القصائد نبض الشريان الحكائي السردي بين سطورها، وقد ظهر ذلك في طول بعض القصائد. وأخيرًا وليس آخرًا تحاول القصائد دمج مشاهد الذاكرة مع فقرات التأمل، ووصل الأخيرة مع حكايات وذكريات وطن مسلوب وبشر يقتلون كل يوم.

■

المقدمات التاريخية للعلم الحديث.. من الإغريق القدماء إلى عصر النهضة

توماس جولدشتاين

ترجمة: أحمد حسان عبد الواحد

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤، ٢٦٥صفحة



متى يبدأ العلم الحديث؟!

ثمة إجابة تقليدية عن هذا السؤال تقول إنه في عام ١٥٤٣ كان عالم فلك بولندي اسمه نيكولاس كوبر نيكوس يرقد محتضرًا في فراشه، وكان كتابه ورائعته «ثورة الأفلاك السماوية» قد نشر لتوه ولم تطبع منه سوى بضع مئات من النسخ، وطبقًا للتقاليد، وضعت نسخة في يد كوبر نيكوس وهو يرقد محتضرًا، وربما لم يتمكن حتى من رؤيتها.. لكن بسبب ذلك الكتاب كان شيء آخر يحتضر بالإضافة إلى المؤلف، وهو المفهوم العتيق للكون الذي تحتل الأرض مركزه، فقد كان كوبر نيكوس قد كتب تعليمات رياضية كاملة لحساب حركة الكواكب على أساس افتراض أن الكواكب بما فيها الأرض تدور حول الشمس.

وفي نفس العام أيضًا نشر عالم التشريح أندرياس فيساليوس كتابًا بعنوان «بنية جسم الإنسان»، وكان الأول من نوعه في عالم التشريح.. وكان هذا الكتاب بمثابة ثورة دشنت العلم الحديث، إلا أن مؤلفيهما لم يولدا مكتملي النضج، ولم تطرأ على رأس أي منهما مفاهيم أتت من العدم، ولكنهما درسا علوم عصرهما ثم قدما أفكارهما الجديدة بعد ذلك.

ومؤلف الكتاب لا يبدأ كتابه بهذين العالمين الفذين، ولكنه يعود إلى ما وراء عصر النهضة، إلى الدارسين الذين ترجموا الأعمال العربية، وإلى العرب أنفسهم الذين حفظوا العلم الإغريقي في وقت كانت فيه أوروبا قد نسيته، بل إن الإغريقيين أنفسهم لم يكونوا بداية حقيقية للعلم الحديث، فقد تعلموا من الحكماء البابليين الذين اعتمدوا على علوم السومريين أول من درس النجوم وأول من بدأ في تتبع حركات الكواكب.

■

في عالم عبد الوهاب المسيري حوار نقدي حضاري المجلد الأول: الإطار النظري والموسوعة

تقديم: محمد حسنين هيكل

تحرير: د. أحمد عبد الحليم عطية

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٦٢٩صفحة



كما يقول الأستاذ هيكل في مقدمته لهذا الكتاب، فإن مجموعة المقالات التي يضمها بين دفتيه هي رد تحية واجب للدكتور المسيري، مصداقًا لقوله تعالى ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ (النساء: ٨٦). لأن د. المسيري حيا عصره وزمانه وأمته بعمل جامع قدمه للمكتبة العربية على شكل موسوعة كاملة عن: «اليهود واليهودية والصهيونية».

ويقول الأستاذ هيكل إن العقل العربي ومعه الفعل العربي، كلاهما - في حاجة إلى هذه الموسوعة/ المرجع لقيمتها المعرفية أولاً، ولقيمتها السياسية ثانيًا، فهذا المرجع كشاف قوي موجه - باتساع كبير - وتركيز شديد في نفس الوقت - إلى ساحة دار عليها صراع من أخطر وأعنف ما عرفته الأمة العربية طوال تاريخها..

وقد جاء هذا الكتاب بجهد وقيمة كل المشاركين فيه رد تحية لرجل أعطى أحلى سنوات عمره حاملاً عبئًا علميًا وبحثيًا وتنظيميًا وماليًا ليقدم هذا العمل الموسوعي.

وهذا الكتاب كما يقول محرره يسعى إلى تأسيس تقاليد للحوار الفكري في ثقافتنا العربية المعاصرة التي منيت في العقود الأخيرة بآفة الصوت الواحد والرأي الواحد والذي عادة ما يكون صوت السلطة ورأي التراث والتقاليد.

ويتكون الكتاب من مجلدين أولهما يحمل العنوان التالي «الإطار النظري والموسوعة» تناول الباب الأول منه الإطار النظري والرؤية العامة، وفيه دراسات تحليلية نقدية للرؤية الفلسفية والنماذج المعرفية التفسيرية التي يقدمها المسيري.

أما الباب الثاني فيتناول الحلولية الكمونية والعلمانية الشاملة والجماعات الوظيفية، وتدور دراسات القسم الثالث حول القضايا المتخصصة في الموسوعة، الفكر الصهيوني، التاريخ، اللغة، المصطلح، البنية والمنهج، الشخصية اليهودية.

وقد شارك في هذا العمل وجوه بارزة في الحياة الثقافية المصرية والعربية، وبعض أصدقاء وزملاء المسيري في الغرب، وعدد من التلاميذ والمريدين يمثلون مختلف التخصصات من الأدب الإنجليزي والنقد الأدبي والتاريخ والآثار والفلسفة والاقتصاد والسياسة، منهم كتاب ونقاد وأطباء وفنانون تشكيليون وروائيون ونقاد سينمائيون ومحللون سياسيون وصحفيون وأساتذة جامعات ومفكرون بارزون، وهم جميعًا يؤمنون بدور وقيمة الذي قدمه المسيري في تأسيس وعي سياسي وحضاري عربي بمشكلاتنا وعلاقتنا بالغرب ومواجهتنا للصهيونية.

■

نظرية النمو روبرت صولو

ترجمة: ليلى عبود

لبنان: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٤، ٣٢٧ صفحة، ١٠ دولارات أو ما يعادلها



بعد حصوله على جائزة نوبل، عمل روبرت صولو على تقديم هذه الطبعة الثانية من كتابه نظرية النمو الذي صدر في صيغته الأولى عام ١٩٧٠، مضيفًا إليه ست محاضرات جديدة.

في هذا الكتاب إبراز لبعض الدروس المستمدة من نظرية النمو الحديثة: فيه اعتراف بمساهمات كبرى، وفيه رفض للبعض منها، وإشارة إلى ثغرات يجب سدها في أبحاث جديدة.

ويقدم الكتاب قراءة أساسية في علم الاقتصاد يحتاج إليها الطلبة في كل مستويات دراستهم الجامعية، كما يحتاج إليها الباحثون. وقد يكون من الصعب العثور على كتاب كهذا: يزودهم برؤية تجمع بين الدقة العلمية المتخصصة وبين اتساع النظرة إلى مجال النمو وإلى التحولات الكبرى الطارئة فيه.

الكتاب موزع على ١٢ فصلاً:

الأول: خصائص الأوضاع المتواترة. الثانى: معامل رأس المال/ الناتج المتغير. الثالث: نموذج من دون إحلال مباشر. الرابع: نموذج بنوعين من الأصول الرأسمالية. الخامس: السياسة الاقتصادية فى نموذج النمو. السادس: مظاهر السياسة الاقتصادية. السابع: النموذج المعيارى مرة أخرى. الثامن: رأس المال البشرى: نموذج لوكاس. التاسع: التكنولوجيا الداخلية: نموذج رومر. العاشر: السلع الاستهلاكية الجديدة: غروسمان وهلبمان. الحادى عشر: أفكار شومبيترية: أغيون. هوميت (Aghion - Homitt). الثانى عشر: دروس واقتراحات حول نظرية النمو الكلى.

وروبرت صولو: أستاذ الاقتصاد فى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. حصل على جائزة نوبل لعام ١٩٨٧ فى العلوم الاقتصادية، بناءً على مساهماته الرائدة فى الصيغة الأولى لهذا الكتاب.

■

أبعاد الاستهداف الأمريكى

د. خلف الجراد

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٤، ٢٤٨ صفحة



يشير تاريخ الولايات المتحدة إلى أن «عبادة إسرائيل» تأصلت فى الروح وتشربها الجسد الأمريكى فى النخاع، ويعزى ذلك - كما يقول المؤلف - إلى أن التهود البروتستنتى منذ كتب مارتن لوثر تحت ذريعة «يهودية المسيح» أن على غير اليهود أن يقنعوا بأن يقعوا كالكلاب تحت مائدة اليهود ليلتقطوا الفتات المتساقط من مأدبة أبيهم أى يهوه.

وهذا الكتاب يبحث فى صور الصراع العربى - الصهيونى التى يجرى إيصالها إلى الرأى العام الغربى عامة والأمريكى خاصة، كما يبحث فى العديد من المؤشرات والمعايير التى توضح موقف الرأى العام الأمريكى المؤيد للصهيونية وإسرائيل، منها الكتب المدرسية والصحف والمجلات ذات النفوذ الكبير، بالإضافة إلى الخلفية الروحية الدينية لدى الأمريكيين.

وفى مثل هذه الأوضاع، أصبح الموقف الأمريكى من إسرائيل نموذجًا واضحًا ومميزًا لاختلاط الدين بالسياسة، وقد أدى هذا الخلط إلى تأثر القادة السياسيين الأمريكيين بهذه الأفكار الدينية حول «يهودية المسيح»، ودرجوا على استخدام رموز خطابية تستقى من «العهد القديم» الذى يدور فى غالبيته حول تاريخ إسرائيل ومستقبلها. ولم تعد كلمة «إسرائيل» اصطلاحًا سياسيًا، بل أضحت رمزًا دينيًا مهمًا فى ثقافة الأمريكيين وعقول السياسيين، كما أصبح قادة الحركة المسيحية الأصولية فى أمريكا يؤمنون بأن لليهود حقًا تاريخيًا ولاهوتيًا وقانونيًا فى أرض فلسطين، وأن الله يتعامل مع الأمم حسبما تتعامل هذه الأمم مع إسرائيل، وبالتالى فإن الوقوف ضد إسرائيل هو الوقوف ضد الله.. ومثل هذه المعانى تتردد فى معظم برامج ومنشورات المسيحية الأصولية التى تستقطب نحو ٤٧٪ من سكان أمريكا.

وفى فصل تال، يشير الكتاب إلى الدور الخطير الذى لعبه الاستشراق الغربى فى تشكيل قوالب وأنماط ذهنية - فكرية - نفسية - لدى الغربيين تجاه العرب والمسلمين، والذى قدم صورة سلبية ومشوهة عنهم استمرت منذ القرن السادس عشر وحتى اليوم.

ويقدم الكتاب أيضًا تحليلاً لدور مراكز البحوث الأمريكية فى صناعة الفكر والسياسة والقرار الأمريكى، بالإضافة إلى التوجهات الفكرية للعناصر الفاعلة فى إدارة الرئيس جورج بوش، ونبذة عن حياة المحافظين الجدد فيها.

■

أزمة الإرادة والوجدان المسلم البعد الغائب فى مشروع إصلاح الأمة (فى إصلاح الثقافة والتربية: رؤية إسلامية معاصرة)

أ. د. عبد الحميد أبو سليمان

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٤، ٣٣٦ صفحة



يوضح هذا الكتاب أن هناك بعدًا غائبًا - مازال - فى مشروع الإصلاح الإسلامى، هذا البعد هو: الطفل.. الذى يمثل البذرة التى تحدد نوع الشجرة وطعم الثمرة.

وهو - الكتاب - محاولة لفهم أثر غياب الجانب النفسى والوجدانى فى الخطاب التربوى الإسلامى للطفل، ليكون هذا الفهم أساسًا لإرساء طاقات الإدارة والقدرة والمبادرة والإبداع فى البناء النفسى والوجدانى، وهو أيضًا محاولة لمعرفة الأبعاد الثقافية والفكرية التى تسببت فى هذا الغياب، ولمعرفة المفاهيم والمنطلقات التى تمكن الأمة من استكمال هذا النقص، من أجل استعادة الوحدة بين المعرفى والنفسى والوجدانى فى بناء نفسية الطفل.

يقدم الكتاب العديد من الأمثلة لبناء شخصية الطفل، ويؤكد أن النظام والانضباط - تربويًا - لا يعنى القسر والإذلال والإرهاب والتبعية والطاعة العمياء، ولكنه يعنى بالدرجة الأولى والأخيرة تعويد النفس وتربيتها على أداء الحقوق وتحمل المسئوليات، وحتى فى الحالات المرضية، فإن عقاب الطفل بدنيًا لا يجب أن يتم إلا بواسطة الأبوين أو بحضور أو تفويض منهما، وأن يمارس هذا النوع من العقاب بأقل قدر ممكن من الضرر النفسى والبدنى، وألا يلجأ إليه إلا بعد أن يتم استنفاد كافة الأساليب العقابية الأخرى.

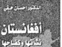
والكتاب فى مجمله يقدم رؤية جديدة لأساليب تربية الأطفال فى المجتمع الإسلامى، انطلاقًا من قناعة المؤلف التامة بأن الآباء والأمم مطالبون برعاية الطفولة بكل ما فى قدراتهم من طاقة، لأنهم لن يستطيعوا تحقيق أى استثمار أهم وأعظم فائدة من الاستثمار فى تربية وتعليم الأطفال.

■

أفغانستان.. نشأتها وكفاحها

د. إحسان حقى

دمشق: دار الفكر، ٢٧٢ صفحة



يقدم هذا الكتاب بإيجاز دقيق تاريخ أفغانستان القديم حتى العصر الراهن، مرورًا بالفتح الإسلامى لها وحكم الدول المتعاقبة عليها. كما يقدم أيضًا تفاصيل دخول الاتحاد السوفيتى وقيام حركة الطالبان «الطلاب»، وتنظيم القاعدة، ثم دخول القوات الأمريكية وسيطرتها على كابول.

ومؤلف هذا الكتاب حصل على الدكتوراة من جامعة لوزان بسويسرا، واتقن اللغة الأردية كأحد أبنائها، كما كان أستاذًا بجامعة عليكره بالهند، وكان عضوًا بالمجمع العلمى الإسلامى الذى أنشأه العلامة الفيلسوف محمد إقبال سنة ١٩٣٢.

يلقى الكتاب الضوء على جغرافية أفغانستان ومدنها وسكانها، ويشير إلى بعض الكتب القديمة التى قدمت الكثير من الأكاذيب حول أصل الأفغان حيث زعمت أنهم أحفاد طالوت ملك بنى إسرائيل قبل داود. هناك رواية ثانية تقول إن أصل الأفغان من قبط مصر فروا منها زمن موسى عليه السلام، واستوطنوا كوهستان شرقى إيران، وتقول رواية أخرى إن أصولهم تعود إلى بلاد الشام وأن بختنصر عندما أخرج اليهود منها ذهب فريق منهم إلى الجزيرة العربية وكان العرب يطلقون على هؤلاء اسم بنى إسرائيل أو بنى أفغنة، وتقول رواية رابعة منسوبة لجمال الدين الأفغانى أن الفرس أطلقوا على الأفغان اسمهم هذا لأنه عندما أسرهم بختنصر كان لهم أنين وحنين. والأنين يسمى بالفارسية «أفغان» فأطلق عليهم هذا الاسم منذ ذلك الوقت.

يستعرض الكتاب فى أحد فصوله قصة اعتداء الإنجليز على أفغانستان، بقصد احتلالها لتأمين مصالحهم فى الهند، إلا أنهم فوجئوا بمقاومة ضارية أجبرتهم على الانسحاب، بعد أن فقدوا فى إحدى المعارك مع القوات الأفغانية بقيادة محمد أكبر خان، كل جنودهم ما بين قتيل وجريح وأسير، كما يستعرض مؤامرات الإنجليز المستمرة ضد حكام أفغانستان. ويتناول الكتاب أيضًا قصة الغزوات الروسية لأفغانستان منذ القرن الثامن عشر ومقاومة الشعب الأفغانى الجسورة للقوات الروسية.

كما يحفل الكتاب أيضًا بالكثير من المواقف التى مر بها المؤلف نفسه خلال زياراته لأفغانستان.

■

المجالس السبعة

جلال الدين الرومى

ترجمة وتقديم: د. عيسى على العاكوب

دمشق: دار الفكر، ١٥٨ صفحة



يتكون هذا الكتاب - كما هو واضح من اسمه - من سبع خطب أو سبعة مجالس وعظ، كتبها مولانا جلال الدين الرومى بالفارسية، والذى بدأ كل مجلس من المجالس بخطبة عربية، كان يتخللها آيات من القرآن الكريم، وبعد الخطبة تأتى مناجاة، هى نوع من الدعاء والاستغاثة بجمل فارسية مسجعة.

ثم يبدأ الكلام الأصلى بذكر حديث للرسول عليه الصلاة والسلام، ثم تعرض على المستمعين حكايات وقصص وآيات وأحاديث فى شرح الحديث الأول.

وهكذا تضمنت المجالس السبعة مائة وسبعًا وخمسين آية، وأربعين حديثًا شريفًا، وحديثًا لأمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

وثمة أمر يتكرر كثيرًا فى المجالس، وهو أن الرومى كان يحرص على عرض تفاصيل القصة التى يلقيها على مستمعيه بكل جزئياتها الدقيقة ثم يعقب عليها بإيضاح نهائى.

وكان من الذين يستخدمون القصص والأحداث المختلفة كرموز لأفكار عرفانية صوفية.

ويساعد ذلك فى فهم مقاصده من الحديث، بنفس القدر الذى يضفى على كلامه جماليات أدبية راقية تقدم مثالاً

مدهشًا لرمزية إسلامية قوية الوشائج بثقافة الشعوب العربية.

وتتجلى أهمية المجالس السبعة فى أنه يقدم ضربًا عميقًا من التربية الروحية فى قالب من المناقشة يمزج بين القلب والعقل.

نساء نوبل الفائزات بالجائزة فى الآداب

خالد محمد غازى

القاهرة: وكالة الصحافة العربية، ٢٠٠٤، ١٨٢ صفحة



حينما حصلت السويدية سلمى لاجيرلوف على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٠٩ كانت فى قمة شهرتها وعطائها، وكانت قد أصيبت بالشلل فى ساقيها وهى فى التاسعة من عمرها، فاستغرقت تمامًا فى القراءة والتردد على المسارح وبدأت فى كتابة الشعر، ثم نشرت سلسلة من الروايات والقصص القصيرة متأثرة بالتيار الأدبى الرومانسى السائد آنذاك.

وفى هذا الكتاب استعراض لقصة حياة هذه الأديبة السويدية، بالإضافة إلى ٨ أديبات أخريات حصلن على جائزة نوبل، وهن جراتسيا ديليدا التى حصلت على نوبل عام ١٩٢٦، والزنجية الأمريكية تونى موريسون ١٩٩٣، والألمانية نيللى ساخس ١٩٦٦، والكاتبة الجنوب أفريقية البيضاء نادين جورديمر ١٩٩١، والبولندية فيسلافا شيمبورسكا ١٩٩٦، والدانماركية سيجريد أندسيت ١٩٢٦، والأمريكية بيرل بك ١٩٣٨، والشاعرة التشيلية جابريللا ميسترال ١٩٤٥.

يستعرض الكتاب أيضًا القواسم المشتركة والتجارب المريرة التى جمعت بين نساء نوبل، كما يستعرض تاريخ الجائزة وكيف تطورت وقصة حياة صاحبها ألفريد برنهارد نوبل العالم السويدى الشهير.

وفى فصل آخر من الكتاب يستعرض المؤلف أسباب تجاهل جائزة نوبل للأدباء العرب حتى حصل عليها نجيب محفوظ عام ١٩٨٨.

ساعة عصارى

عمرو عبد السميع

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٤، ٢١٥ صفحة



فى حب الوطن وناس ذلك الوطن، يذوب قلم الدكتور عمرو عبد السميع مسطرًا - عبر صفحات نصه الجديد - وثيقة أدبية جميلة.. رومانسية.. صادقة.. وصافية، تستكمل ما بداه فى نصوصه السابقة من وصف دقيق للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية لمصر.

فى هذه الرواية يقدم الكاتب صيغة درامية عجيبة تبدو وكأنها استدعاء - بالأمر المباشر - لأصوات تنادى على أجمل ما فى عقولنا، ولأصداء صدق تتردد بين جنبات نفوسنا، وأطياف تعبر بنا إلى المستقبل، وتحرضنا على أن نجعله جميلاً.

أحداث الرواية تدور حول رنده العيسوى الفتاة خريجة مدارس الليسيه والتى عاشت طفولة قلقة ما بين أصول أمها الأرستقراطية وأصول أبيها الريفية، والتى تصدم أيضًا فى قصة حبها مع أحمد الضابط الذى عاد مقهورًا عقب أسره فى حرب ١٩٦٧.

ومع التغيرات التى شهدتها مصر بعد النكسة والتحولات الاجتماعية والاقتصادية فى السبعينيات من القرن الماضى، تشتعل أحداث الرواية، وتتزوج رنده من رجل آخر يعانى من العجز ينتمى لبلدة أبيها، ثم ترتكب أخطاء عديدة وهى تعتقد أنها تحقق أحلامها فى الحياة خاصة بعد أن تصبح وكيلاً لإحدى شركات السيارات الأمريكية فى الشرق الأوسط.

وقد تجلت جماليات الرواية فى بنائها الرشيق والعميق فى آن، والذى نجح من خلاله المؤلف فى أن يقدم لوحة رومانسية/ سياسية تعبر عن صخب السبعينيات الاجتماعى الذى ولد من رحم نكسة يونيو ١٩٦٧، والذى لم يستقر حتى الآن تحت سطح حياتنا الساكن!

دوريات

المستقبل العربى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، سبتمبر، ٢٠٠٤، ٣ جنيهات



صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية العدد (٣٠٧) من مجلة المستقبل العربى، وفيه «المشاهد المستقبلية المحتملة فى العراق»، وهى دراسة لخير الدين حسيب. وفى العدد أيضًا دراسات بعنوان: «نهاية الاحتلال فى العراق (٢٠٠٤)» لآدم روبرتس، و«عزرا - نحميا».. والحديث عن حقوق يهودية فى العراق «لحسن عبيد عيسى». وفى العدد وثيقة بعنوان: «إسرائيل والأراضى المحتلة: تقطيع الأوصال: تشتيت شمل العائلات نتيجة السياسات القائمة على التمييز، إعداد منظمة العفو الدولية. وفى باب «آراء ومناقشات» نقل اليورانيوم من العراق والتسمم الإشعاعى: جريمة إدارة بوش، كتبها كاظم المقدادى.

وفى هذا العدد مقابلة مع الموسيقار وليد غلمية يركز فيها على أن الإبداعات الموسيقية الغربية الكبرى هى ذات جذور شرقية عربية، وقد حاوره هاشم قاسم.

جريدة الفنون

الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، سبتمبر ٢٠٠٤



فى عددها الأخير تحتفى جريدة الفنون بأكثر من فنان عربى أثروا، كل فى مجاله، تأثيرًا بالغًا فى حركة الفنون العربية. ففى مجال الموسيقى والغناء على سبيل المثال اختارت الفنون الشاعر الكويتى عبد الله العتيبى.

وفى مجال العمارة احتفت الفنون بالمعمارية العالمية العراقية زهاء حديد، وفى مجال المسرح كان الفنان نجيب الريحانى هو المحتفى به بمناسبة الذكرى السادسة والخمسين لوفاته.

وفى مجال المسرح أيضًا كان للفنان الكويتى كنعان حمد نصيب من التكريم والاحتفاء، وذلك من خلال عرض لكتاب «الفنان كنعان حمد.. سنوات عطاء من قلب كبير».

وفى التشكيل اختارت الفنون حسين ماضى فنانًا للعدد. وهو أحد الفنانين اللبنانيين الذين يشكلون معالم الفن التشكيلى اللبنانى.

الفنان العالمى أيضًا كان له حضوره القوى فى هذا العدد. ففى مجال التشكيل كان هناك موضوع عن الفنان بول سيزان. وفى مجال السينما اختارت الفنون المخرج العالمى ستيفن سودربرج، لتنشر له حوارًا كانت قد أجرته معه مجلة «فيلم ثريت».

أدب ونقد

القاهرة: حزب التجمع، العدد ٢٢٨، ٢٠٠٤



فى ذكرى ميلاد المئوية، يقدم هذا العدد تحية إلى روح شاعر تشيلى الراحل بابلو نيرودا بعرض نبذات من قصة حياته وعدد من قصائده أعدها وقدمها فريد أبو سعده. وفى العدد أيضًا ملف عن الكاتب سيد عبد الخالق بعنوان «صانع البهجة». كما يحتوى العدد على مقال للدكتور محمد إسماعيل بعنوان: «أثر جمهورية أفلاطون فى فكر الفارابى والقرامطة»، وآخر لوديع أمين فى «الحسن بن الهيثم»، بالإضافة إلى صفحات من كتاب النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية للدكتور حسين مروة.

أحلام مستغانمى.. الولادة والموت فى وطن عابر



عابر سرير
أحلام مستغانمى
بيروت - منشورات أحلام مستغانمى
٢٠٠٤

١ - (عابر سرير).. شهادة عن وطن فقد تاريخ وشهادة ميلاده، وفى يده، ومرسوم فى خيوط وجهه الشاحب شهادة وفاة فقط، وهى ممهورة بتوقيع زمن غادر، وسلطة مراوغة، وسذاجة الكثيرين، وعفوية وعذرية الصادقين، وتقاعد العدالة فى هذا الوطن.

شهادة عن القتل الذى فاق حدود المعقول والبشاعة، فجسد زمن الخيانة المشروعة ومدن اللامعقول وهى من قش ورمل، ولكنها تحكم، تتدخل فى صياغة أبجدية الحياة وهى تشيد دهاليز طويلة من الظلمة والرطوبة والدخان والضجر..! شهادة عن المذابح اليومية - مذبحة أمل وصبح ووطن - ينفذها أناس مجهولون، أسماؤهم فى ذاكرة الدم الذى يسيل، ووجوههم محفوظة فى كاميرات الظلمة، وخُطاهم مرسومة فى شريط الرعب اليومى، لا ينتسبون إلى تربة هذا الوطن، والوطن قد تقيأ أجسادهم النتنة، وهو برىء منهم، وهم لا ينتسبون حتى إلى خرية، أفواههم منجم للحقد والعدوان والبشاعة والجرم.. قاتلون بامتياز بشع فاضح، وسفاحون بشراسة وكراهية لا توصف، بلا آدمية.. بلا ماض.. وبلا تاريخ فقط حاضر صدئ، دقائقه أسفلت، وتراب، وصديد وخيانة: (أنت متورط فى تغذية عالم نهم للجثث، مولع بالضحايا، وكل أنواع الموت الغريب فى بشاعته) ص٢٨.

٢ - (عابر سرير).. رواية حالمة، وقد كانت الروائية أحلام مستغانمى بارعة فى (صهر الحلم بالواقع) ومن شخصياتها الحالمين، الرسام المبتلى بالرسم، متعته الكبرى، حيث يتحول العالم لديه إلى فرشاة وألوان وورق، وهو يسعى إلى رسم لوحة تحمل عنوان الولادة والموت لوطن عابر، باللون والخطوط وحركة الفرشاة يكتب زيان تاريخ بلاده الجارح، دون أن يخفى عشقه المغنط بسحر لوحاته - قصائده الصامتة، كمنظم لحياته، التى فيها الكثير من فوضى اللوحة وسحر القصيدة: (لا تملك إلا أن تتعاطف معه، وهو يواجه الخسائر بفرشاة، ذلك أن هذا المعرض فى فن بعثرة الحزن على الجسور والأبواب التى تصهل بها اللوحات، ليس سوى إعادة اعتبار للخسارات الجميلة) ص٨٢.

٣ - (عابر سرير).. هى سيرة وطن!! كتبها وقت حرج بدمع دقائقه، والدم النازف أبداً، والصراخ والبراءة المتهمة فى المهد، وشمس الحقيقة الخجولة، والقصائد التى ظلت الطريق!!.. سيرة وطن مثخن بالجراح، متوج بالهموم، وسامه الآلام التى تزوره كالمطر البربرى، والانتظار فى طابور طويل من أجل (روشتة) لحياة عابرة.. كليلة مقلقة وطارئة فى سرير عابر: (سنوات وهم مستغرقون فى الاستشهاد حتى أنهم فى انشغالهم بالبحث عن ذريعة لموت جميل، نسوا لماذا هم يموتون، بينما أثناء انشغالهم نحن بالبقاء أحياناً نسينا أن نحيا، فلا هؤلاء هنئوا بموتهم ولا نحن نعمنا بحياتنا) ص ١٢٨.

وطنٌ - الجزائر ركن من أركانه تحكم فيها الظلمة، ويشيع القتلُ ويحمل أبناؤه أرواحهم فوق أكفهم فى الداخل - الكابوس اللانهائى، والخارج - الغربة والرعب معاً: (كان لى دائماً إحساس بأننى قد عرفتهم فرداً فرداً، لذا عز علىَ أن أصور موتهم البائس مكومين أمامى جثثاً فى أكياس من النايلون؟ ما أحزننى أن أكون شاهد تصوير على ولائم رؤوسهم المقطوفة) ص ٣٠.

الجزائريون الذين يحملون وطنهم معهم.. فى باريس جزائرُ أخرى، وطنٌ عابرٌ داخل وطن عذاباتٌ، ومفارقات النفى: موتٌ لا شبيه له، ولادة عسيرة، عشق تحت المراقبة، وغربة ووحدة وجوع، وظمأ، وحنين، وعلاقات عابرة، وطنٌ يبحث عن وطن، خارطة للعذاب اللانهائى: (أما زال الجسر يذكر قبلة جزائريين ائتمناه على حبهما؟ وتحت قدميه الأبديتين يجرى نهر لم يؤتمن على أرواح الجزائريين ذات أكتوبر ١٩٦١ عندما طفت على سطحه عشرات الجثث التى ألقيت إليه مُكبلة؟.. لو أن للسين ذاكرة لغير مجراه) ص ١٠١.

٤ - (اسمى خالد بن طوبال.. أعمل مصوراً صحافياً، لم يبد أن الاسم كان يعنى لها شيئاً، ولكننى لم أكن لأنتبه لحظتها أنه سيكون علىَ أن أحافظ على الاسم بعد الآن كما لو كان اسمى، حتى عندما ستضعنى الأقدار بعد ذلك أمام زيان نفسه..) ص٦٤.

خالد بن طوبال هذا هو الجزائر النابضة، المغيبة، والمقتولة، وهو كل الجزائريين الذين لم يجدوا وطناً آمناً يلبسونه كثوب فوجدوا حالة عشق تحمل دفئاً أهم وأخلد بكثير من شعارات وأحلام ووعود وطن عابر.. فكروا فى الوطن، صلوا له، ولم يجدوا إلا الكوابيس فى النهار والليل، بكوا أرضهم.. وطفولتهم.. وذكرياتهم.. وقصص عشقهم الأولى، فحاكمهم الرغيف!!

٥ - (تتمنى لو أطلقت النار على كل الطغاة بالجملة..) - الرواية ص ٩٣.

شهادة أخرى ضد الموت المجانى، بإمضاء الورود التى لم تكمل نومها المخملى، والسنابل التى فقدت ضفائرها الذهبية، والحقول التى لم تعد شمس النهار تطرق بابها، والبيوت التى اشتاقت لرائحة الرغيف، والعشاق الذين تجسس الصبحُ عليهم، والموتى - الأحياء فى الجزائر.. وفى بغداد، وتحت كل نجمة عربية حزينة، بحاجة إلى بكاء، وأنها تعيش لحظة اختناق لن تمحوها رقصات زوربا اليونانى العابثة المتشبثة بالحياة.. ولحظات الحُب العابرة حتى الجنون!!

ترسم لتشكل حياة أخرى!! وتكتب لتنجو من الملك، وتبكى لتقتل يأسك وضجرك، وتذوب وتتلاشى لتنجو من حب عابر، وتصرخ (لتحاول الثأر لكل الدم العربى بكتاب).. وماذا تفيد الكلمات، بل الكتاب و (ومازال للقتلة متسع من الجاه) ص ٩٣.

٦ - (الغربة ليست محطة.. إنها قاطرة أركبها حتى الوصول الأخير) ص١١٠.

فى الرواية الغربة وطن، إقامة دائمة، كل شىء فيها مسموح، تسقط كل علامات الاستفهام أمام الحُب، والميلاد، والموت، والعلاقات، والشتائم الفاضحة والملائكية، والكتابة الخارجة على كل القوانين. قسوتها أعذب من نسمات وطن عابر، لياليها أكثر أماناً من ليالى الوطن المطرزة بنجوم الرعب، والخوف والغموض والسلاح الأبيض، والموت المباغت!!

الرسم والكتابة وسيلتا مقاومة.. رغيفا الغرفة الساخنان، يمكنك أن تكتب حالة عشقك بيد ليست مشلولة بحب الوطن، يمكنك أن ترسم وجه امرأة تُحبها، وعلاقات صباحية تحلم بها، وأوطاناً جديدة، وحقولاً، وأطفالاً، وجسوراً، بريشة لا ترتعش عند ذكر الوطن، يمكنك أن تصرخ بحنجرة الله دون الحاجة إلى ملائكة.. الغربة كما الحب والرسم والكتابة: (أن تعود إلى الرسم أى أن تعود إلى الحب) (الرسم كما الكتابة) ص١١٣. وأن تعيش الغربة يعنى أن تعيش الوطن.. هكذا تكون المعادلة صحيحة!!

٧ - الموتُ لا يوقف نستولوجيا الوطن!!

(إنه الموت طريق حقاً.. لم أسمع بهذه التفاصيل من قبل..) ص١٦٤.

الموت المرادف للولادة، أو بطعمها. له شهوته التى نادراً ما تتكرر كحالة عشق صادقة، وهى تمنحك عمراً آخر دقائقه من ذهب، وفسفور، وريحان.. (لا يحدث للإنسان ما يستحقه بل ما يشبهه) - أندريه مالرو.

موت كاتب ياسين كحياته: (موت موجع ومشاغب ومسرحى ومحرض وساحر) ص ١٦٣ وهو ولادة لما فيه من تصحيح للتاريخ، وتجديد لحظات الصدق فى سطوره، يوم موته حدث زلزال فى الجزائر، فالأرض تولد وهى تجدد ثوبها مستعدة لزفاف أكثر صخباً على شرف الشمس والنوارس: (حملت نعشه النساء كما الرجال لأول مرة رجل تحمل نعشه فرقة مسرحية بكاملها) ص ١٦٣ موت مسرحى ووداع كرنفالى ودفن على إيقاع طبول الثورة الجزائرية (كان أول من أدخل الفوضى والديمقراطية والزغاريد إلى المقابر.. وأدخلها قبل ذلك إلى المعتقلات والسجون) ص ١٦٤.

وموت تراجيكوميدى!! فهذا عبد الحفيظ بو الصوف - مدير الاستخبارات العسكرية أثناء الثورة يموت إثر أزمة قلبية وهو يضحك على نكتة سمعها عبر الهاتف.. وسليمان عميرات مات حزناً بسكتة قلبية وهو يقرأ الفاتحة على روح الرئيس الجزائرى بوضياف الذى سقط مغتالاً.. مصطفى بن بولعيد مات على أيدى الفرنسيين، وابنه عبد الوهاب اغتاله الوطن يوم استشهاد أبيه (ربما كانت فى هذه الميتة بالذات كل فاجعة جيلنا) ص١٦٥. يتعدد الموت، تتعدد الولادة، وحالات العشق فى وطن عابر!!

٨ - الروائية أحلام مستغانمى حالمة!!

(إن الكاتب يتحدث عنا، عن ذاتنا نحن الحالمين) - غاستون باشلار - شاعرية أحلام اليقظة و(عابر سرير) محطات شعرية.. زف إليها الضوء حماس الأرض العاشقة للانهائى.. واللازمان.. واللامكان.. واللاوطن..!!

ملصقات محرضة لونها وخطوطها من دمع الأرض وأنين إنسانها..!! شهادات صادقة على واقع مريض.. وانسان سجين.. ووطن عابر.. وكون كل شىء فيه مطارد حتى الحلم.. والنسمة.. والفراشات.. وحرية تسجنها علامات الاستفهام.. ومستقبل مظلم.. غامض كدهليز مصمم لفرار حاكم عربى..

عذاب الركابى

Will in the World
How Shakespeare Became Shakespeare
(ويل فى العالم: كيف أصبح شكسبير شكسبير)
Stephen Greenblatt
Jonathan Cape, 2004, 320pp,
$ 20.55



يسعى الكتاب لاستقطاب أكبرعدد من القراء. ويعد أكثر المؤلفات التى كتبت عن شكسبير وأعماله وعصره، عبقرية وشمولية.

المسرح الذى كتب له شكسبير ومثله، كان يعد عملا تجاريا ترفيهيا، ومع ذلك جاءت مسرحياته شديدة اليقظة للواقع السياسى والاجتماعى فى عصره. كان عليه أن يقدم بعض التنازلات للعالم التجارى.

المسرح كان شركة شكسبير هو المساهم ... ما بين

... م حتى ... ه وسط منافسيه وليظل دائما طافيا على السطح.

كان مفتاح الحفاظ على هذه المكانة هو عدم الإكثار من الموضوعات المتعلقة بالأحداث الجارية فى ظل وجود الرقابة الحكومية.

وجد شكسبير العزاء فى الالتفات لأعمق المشاعر الإنسانية، والانشغال برغبات ومخاوف مشاهديه.

كتاب (ويل فى العالم) يروى قصة نجاح لم تفسر بعد. يهدف إلى أن يكون أفضل وأشمل ما قدم عن شخصية شكسبير وتفتح موهبته. بالطبع هناك العديد من المراجع والمؤلفات عن حياة شكسبير، ولكنها جميعا تنقصها وفرة المصادر الكاشفة عن حياة هذا الأديب.

المؤلفات السابقة لم تتضمن لغة شكسبير المعبرة عن خيالاته وأحاسيسه، ومخاوفه، ورغباته، بينما يعرض لنا هذا الكتاب العلاقة بين شكسبير وعالمه الخاص، والذى من خلاله نستطيع أن نكون صورة شخصية أو بورتريه كاملا وحيا لوليم شكسبير. إنها رحلة تستجلب مخاوف وتجليات خياله الخصب، وقدرته على التوحد مع الآخرين ليمنحهم قوته الروحية، ويجعلهم يعيشون، ويتنفسون كأشخاص مستقلين بذواتهم، كما لم يفعل أديب من قبل.

Great Thinkers A-Z
(مفكرون عظماء من الألف إلى الياء)
Edited by Julian, Baggini & Jeremy Stangroom
Continuum, 2004, 256 pp,
£ 9.99



يعرض الكتاب ١٠١ مقال عن المفكرين الذين ساهموا فى صياغة الفكر الغربى من العصور القديمة حتى العصر الحديث.

يضم الكتاب الأسماء الكبيرة من كافة المذاهب الفلسفية، ومن كل العصور ٠٠٠ من ادورنو إلى سقراط، ومن هايك إلى هيدجر، ومن نجرى إلى نيتشه، ومن أفلاطون إلى بوبر، ومن سينجر إلى سبينوزا.

كما يضم أيضا أسماء مفكرين كبار آخرين تركوا علامات واضحة على الفلسفة مثل فرويد، وداروين، وإينشتين. الكتاب رؤية شاملة وممتعة لعالم الفلسفة الغربية. يهم كل مهتم بتاريخ الفكر الغربى، ويعتبر مرجعا هاما لطلبة الفلسفة، والمجالات المتعلقة بها.

What Philosophy is?
(ما هى الفلسفة؟)
Edited by Havi Carel & David Gamez
Continuum, 2004, 352pp.,
£ 9.99



يضم الكتاب مجموعة من المقالات التى تناقش تصنيف الفلسفة ضمن الثقافة المعاصرة. بعض المقالات تناقش العلاقة بين الفلسفة والعلوم، والسياسة، والأدب، وأيضا علم النفس. وبعضها يقتصر على مناقشة مدى احتمالية تصنيف الفلسفة فى عالم يتصف بالحدة التخصصية.

إن كثرة المعارف فى العصر الحديث وتشعب التخصصات ونموها الدائم يؤكد حتمية استمرارية الفلسفة لضرورة احتوائها على كل ما يجد من جديد.

ماذا نقصد عندما نتحدث عن الفلسفة اليوم؟

ما هى العلاقة بين الفلسفة والعلوم، والسياسة، والأدب؟

ما هى طرق البحث التى يستخدمها الفلاسفة المعاصرون.. وكيف تتقدم الفلسفة؟

هل تختلف الفلسفة باختلاف المكان؟

وفى النهاية ماذا تقدم لنا الفلسفة وما الذى لا تستطيع أن تقدمه؟

يحتوى هذا الكتاب فى طياته على آراء فلاسفة مؤثرين معاصرين، كما يعرض صوره عن ماهية الفلسفة وطرق البحث فيها وإمكانياتها وحدودها.

إن هذا الكتاب فى حد ذاته جزء من الفلسفة والتى لا تجيبنا على أسئلة فقط، بل تحفزنا إلى مزيد من التساؤل وإلى صياغة فلسفة لأنفسنا.

يضم كل قسم من أقسامه مقدمة لمحررى الكتاب، ويجتهد كل مساهم من خلالها بتقديم مجمل قصير عن الموضوع مع نقاش موجز حول المشاركين فى الكتاب.

The Infinite Book
Where things Happen that don't Happen
(الكتاب المطلق «اللانهائى»: كيف يحدث ما لا يحدث؟)
John D Barrow
Johnathan Cape, 2004, 256 pp.
£ 17,99

كل شىء تريد أن تعرفه عن فكرة اللانهائية فى التاريخ والعلوم والى يومنا هذا سوف تجده فى هذا الكتاب.

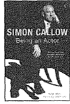
تعتبر فكرة اللانهائية هى أغرب فكرة خطرت على فكر البشر. من أين أنت؟ وماذا تقول لنا عن الكون؟ هل بالفعل توجد اللانهائيات أم هى دلالة على شىء لا يمكن الوصول إليه مهما استمر العد؟ هل اللانهائية مثل الأرقام توجد بعضها أقل أو أكثر من الأخرى؟ هل يمكن إحصاء عدد لانهائى من الأشياء فى وقت محدد؟ هل الكون لانهائى؟ هل فكرة اللانهائية قديمة وسيستمر وجودها للأبد؟ هل فكرة اللانهائية قابلة للقسمة إلى ما هو أصغر؟

لكن اللانهائية أيضا هى المكان الذى تحدث فيه أشياء لا تحدث. فإذا كان الكون لانهائيا، فإن عددا ما منسوخًا منك قد يقرأ نفس الجملة فى نفس الوقت على كوكب مماثل فى الكون. إذن ما هو الحال إذا عشت فى كون لا يوجد فيه شىء أصلى. مكان يمكن أن تعيش فيه للأبد. مكان يحدث فيه أى شىء يمكن حدوثه مرارا وتكرارا.

هذه بعض التساؤلات التى تثيرها فكرة اللانهائية. وعبر التاريخ كانت دائما فكرة المطلق فكرة خطرة. حيث فقد الكثير حياتهم، وحرياتهم، وأعمالهم لمجرد التحدث ومناقشة هذه الفكرة.

هذا الكتاب يأخذك فى رحلة تساؤلات غريبة وخطرة، وينتقل بك إلى إجابات أغرب من علماء، وعلماء رياضة، وفلاسفة ورجال دين حاولوا التعامل مع مخاطر المطلق من أجل سلامة وصحة العقل.

Simon Callow : Being an Actor
(سيمون كالو: كونى ممثلاً)
Simon Callow
Vintage, 2004, 368pp, £ 7.99



قلة من الممثلين تتمتع بالصراحة والمتعة عند حديثها عن حياتها الشخصية مثل سيمون كالو.

يتتبع هذا الكتاب خطوات رحلته منذ أول رسالة كتبها لـ لورنس أوليفر والتى أتاحت له أول فرصة عمل إلى أن وصل إلى النجومية. يستكمل الكتاب رو... أه...

تناقضاته فى بعض الأحيان، مع شغفه وحبه الدائم للسينما والمسرح. إنه دليل لكل محترف للتمثيل، وأيضاً دليل لتفاصيل وتداخلات هذا المجال من الفن.

Library : An unquiet History
(المكتبة وتاريخ عاصف)
Matthaw Battler
Vintage, 2004, 256 pp., £ 7.99



تعتبر المكتبات عبر العصور ليست فقط موقعاً لتراكم وحفظ وتصنيف المعرفة، وإنما أيضاً موقعاً لتصحيح معرفة خاطئة.

يأخذنا مؤلف هذا الكتاب فى رحلة من بوسطن إلى بغداد ٠٠٠ من حجر النساخ الأوائل إلى أديرة القرون الوسطى. ومن الفاتيكان إلى المكتبة البريطانية.

كانت المكتبة دائماً ساحة تنافس للأفكار، والاتجاهات المختلفة بما تقدمه لنا الكتب من مصادر معرفية. ينتقل بنا مؤلف هذا الكتاب من مجموعات اللوح

الطينى الرافدى إلى مكتبة الإسكندرية ومن نظام ديوى العشرى إلى الإنترنت. كان دور المكتبات دائماً هو الحفاظ على تراث الإنسانية من مؤلفات ضمت أفكاراً متعارضة وربما متناقضة فى سبيل الارتفاع بالمعايير الأدبية مع الاحتفاظ والاحتفاء بأفضل المؤلفات لاحتواء كل أشكال المعارف الإنسانية.

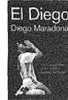
المكتبة فى رعايتها للكتب واجهت مشاكل التكنولوجيا الحديثة وتعقيداتها، ولكنها استفادت منها وواكبت عصر التغيير بجدارة.

■

El Diego: The Autobiography of the World's Greatest Footballer

(ديجو.. السيرة الذاتية لأعظم لاعب كرة قدم فى العالم)

Diego Armando Maradona
Yellow Jersey, 2004, 320 pp, £ 16,99



«أشعر أحيانا أن حياتى بأكملها تعرض فى فيلم. حياتى تبدو كنسخة مطبوعة... ولكنها ليست كذلك، فهناك أشياء تعتمل فقط فى قلبى ولا يعرفها أحد... أخيرا قررت أن أقول كل شىء».

لا يحتاج ديجو أرمندو مارادونا إلى مقدمة طويلة، فقد بدأ حياته كفتى فقير فى بلدة صغيرة. عبقريته فى كرة القدم أوصلته إلى أفضل المراكز فى ملاعب أوروبا والعالم، ولكن ضغوط الحياة داخل وخارج الملعب أدت إلى تراجعه للوراء مرة أخرى. سواء كان بطلا أو ساذجا، فإن شيئا واحدا هو الأكيد.. إنه أفضل لاعب كرة قدم فى جيله، وقد يكون لكل الأزمنة اللاحقة.

لم يسبق أن روى مارادونا بكلماته وتعبيراته قصته، إلا فى هذا الكتاب... من الفقر إلى العظمة يروى مارادونا بصدق متناه، وبصيرة لاعب كرة ذكى، اللحظات الهامة فى حياة أسطورية... من الضغوط التى أحاطت بالطفل العبقرى، إلى مباراته ضد إنجلترا فى كأس العالم عام ١٩٨٦، وإنجازه المذهل فى نابولى، والحلم الذى تحول إلى كابوس والعار والخزى فى مباراة أمريكا عام ١٩٩٤.

يطالعنا هذا الكتاب بما يدور فى عقل أفضل لاعبى الرياضة فى زماننا. رجل تشتت بين متطلبات رؤساء النوادى والمعجبين، والإعلام... وحياته الخاصة.

■

Philosophy in the New Century

(الفلسفة فى القرن الجديد)

Anthony O' Hear
Continuum, Dec 2003, 208 pp, £ 7.99



يناقش مؤلف هذا الكتاب ما يجب أن تراعيه الفلسفة من توافق مع العادات والفطرة السليمة لتساعدنا بالتالى على فهم السياسة، والدين، والجمال، والإجابة على العديد من التساؤلات الأخلاقية والتى ستستمر فى التوالد باستمرار الثورة العلمية والتقنية.

يعرض المؤلف لرؤية منطقية متماسكة وحتمية لاستعادة الحكمة فى زماننا المعاصر.

■

Things : A Spectrum of photography 1850 - 2001

(أشياء : آفاق التصوير الفوتوغرافى ١٨٥٠ - ٢٠٠١)

Mark Haworth - Booth
Jonathan Cape, 2004, 224pp, £ 35



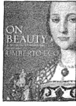
فوكس تالبوت المخترع البريطانى للتصوير الفوتوغرافى وصف التصوير الفوتوغرافى بأنه «قلم رصاص الطبيعة». استخدمت هذه الوسيلة كل قوانين الكيمياء والفيزياء لتخلق وصفاً تفصيلياً على مستوى العالم المادى المحسوس، وتفوقت على كل أنواع الإعلام المطبوع. وكانت المواد المرئية هى أول موضوعات التصوير الفوتوغرافى.

نشر هذا الكتاب صوراً لأعمال ٩٠ مصوراً من المشاهير أمثال فوكس تالبوت وجوليا مارجرت كاميرون وادورد ويستون وكارتير بريسون وأرفينج بن وديان أربس، وأيضاً صوراً لأعمال الجيل الجديد المستعين بالتكنولوجيا الحديثة. إنه كتاب يبحث فى كيفية رؤية العالم المادى من خلال تاريخ التصوير الفوتوغرافى.

On Beauty: A History of A Western Idea

(الجمال : تاريخ فكرة غربية)

Umberto Eco
Secker & Warburg, 2004, 400pp, £ 25.00



لا ينشغل هذا الكتاب فقط بتاريخ الفن أو تاريخ علم الجمال، لكن مؤلفه يحاول اجتذاب من يؤرخ للفن أو لعلم الجمال لتبين مفاهيم الجمال كما صيغت وتشكلت ونمت من الزمن الكلاسيكى إلى الزمن الحديث.

أسلوب الكتاب يحاول استقطاب أكبر عدد من القراء فهو يتحدث عن فنون الرسم، والنحت، والعمارة، والسينما، والتصوير الفوتوغرافى، والفنون الزخرفية، وأيضاً عالمى الشعر والرواية. من خلال بانوراما ذكية وثرية لعدة قضايا جمالية. يستقصى فلسفة الجمال عبر الحقب التاريخية، ويختبر ويفحص بعض البحوث والرسائل التى سعت لتعريف الجمال.

لا نقرأ فيه فقط عن مايكل انجلو أو بوتشيلى، ولكن أيضاً عن مؤثرات فنون الأزياء المصرية القديمة فى خطوط أزياء الستينيات من القرن الماضى. ونتبين من خلال بحثه التشابه بين تسريحات الشعر فى القرن الثامن عشر، وتسريحات النساء الرومانيات قديماً.

الكتاب يخرج ببراعته المألوف من إطاره الساكن، ويلقى الضوء على ما هو غير مألوف، وهو مزود بصور إيضاحية عالية الجودة وفاخرة المستوى.

■

Lifelines: Biology, Freedom, Determinism

(أطواق النجاة : علم الأحياء، الحرية، الحتمية)

Steven Rose
Vintage, 2004, 352pp, £ 8.99



يعرض طبيب الأمراض العصبية مؤلف الكتاب ستيفن روز نظرية الحياة والتى تفترض أننا كبشر، وأيضاً بقية المخلوقات، نصنع مستقبلنا بأنفسنا على الرغم مما يحيطنا من ظروف ليست من اختيارنا.

فى هذا الكتاب يعارض المؤلف وبصورة مباشرة نظرية الاختزال والداروينية المتطرفة، عندما يضع الكائن الحى فى مركز الحياة.

كان التوجه السابق يتطرق إلى أن كل جوانب الحياة البشرية .. سواء كانت تفاضلاً جنسياً، أو اغتيالاً للطفولة، أو اتجاهات سياسية، أو عنفاً أو سيطرة ذكورية، أو إدمان كحوليات مخزونة فى جيناتنا، وأنها النتيجة الحتمية للاختيار الطبيعى.

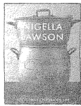
يؤكد المؤلف أن هذا التوجه القديم فيه ادعاءات ليست فقط ساذجة اجتماعياً، ولكنها أيضاً أساءت فهم طبيعة طرق العيش وتميزها بالنشاط والتشابك. يعتبر الكتاب رداً حاسماً على مؤيدى علم الجينات والذين فى رأيه ينكرون تعقيدات الحياة.

■

Feast: Food That Celebrates Life

(الوليمة : الطعام للاحتفال بالحياة)

Nigella Lawson
Chatto & Windus, 2004, 384pp, £ 25.00



الطعام لا يتعلق بوصفة الطهى. الطعام له دلالة أكثر أهمية. دلالة على من نكون ؟ وكيف نريد أن نعيش ؟ عندما نهتم مثلاً بمناسبة خاصة فإننا نربطها بوجبة أو طعام بعينه. مثل كعكة عيد الميلاد، أو إفطار العرس. ولكن الوليمة لا تتعلق فقط بالمناسبات الخاصة، ولكن أيضاً بكيفية تشكيل الطعام للاحتفال بالحياة.

هذا الكتاب يتعلق بالطعام، والعائلات، والأعياد العامة، والأحاسيس الخاصة وكيف تدخل جميعها فى نسيج الاستمتاع بالحياة اليومية والمناسبات الكبيرة. ينساب من أعياد الكريسماس، إلى عيد الشكر وأعياد الميلاد، ليصب فى عيد الفصح وعيد شم النسيم.

ويستهل الوجبات بالإفطار ليعرض بعدها وجبات الأقارب والأنساب. وينتقل بعدها لمأكولات المواسم من الفراولة، إلى كعكة الشيكولاته، بل ومن طعام حفلات

الكوكتيل وعيد الحب إلى ولائم الجنائز، ومن أفضل الوجبات عند المؤلفة إلى صيام السنة الجديدة.

الكتاب بسيط، كتب بأسلوب سهل غنى بالأفكار يتضمن أكثر من ٢٠٠ وصفة طهى من جميع أنحاء العالم. مشفوعاً بأكثر من ١٢٠ صورة ملونة، وبقدر ما يفصح عن إقبال المؤلفة على الحياة والطعام الشهى، بقدر ما يعلمنا كيفية الاحتفاء بالحياة من خلال الاهتمام بالموائد.

■

The Pig Who Sang to the Moon

(الخنزير الذى غنى للقمر)

Jeffrey Masson

Vintage, 2004, 304pp, £ 7.99



يقوم هذا الكتاب بجولة خاصة فى دخيلة حيوانات المزرعة .. ما تفكر فيه، وما تشعر به. يوضح المؤلف بجلاء أن لهذه المخلوقات مشاعر عميقة، بل ومعقدة تتراوح بين الحب، والولاء، والصداقة، وبين الحزن والأسى.

الحيوانات الأليفة فى المزرعة بقدر ما يدور فى داخلها بقايا الوحشية التى نشأت فى أصولها، بقدر ما تحتفظ فى ذاكرتها بأيام الانطلاق والحرية كما عاشها أجدادها. إنها تعانى فى المزرعة من مشاعر الخضوع والبقاء على هذا الحال.

يناقش مؤلف الكتاب سعادة الحيوان، وارتهان ذلك بالعيش فى ظروف تسمح له بسلوك طبيعى تشعره بهذه السعادة.

■

killing Freud

(قتل فرويد)

Todd Du Fresne

Continuum, Nov 2003, 224pp, £ 16.99



يشن هذا الكتاب هجوماً على كلٍ من الثقافة النظرية، والثقافة التطبيقية العلاجية، موضحاً أن معظم الحقائق المتعلقة بالتحليل النفسى تعتمد على القراءة الخاطئة، وسوء الفهم، والزيف الصاخب.

يصلح هذا الكتاب للقراء المهتمين بتاريخ التحليل النفسى وعلوم الإنسان. فهو خريطة لكنوز فرويد أو فيصل بين نظرية رفيعة وثقافة متدنية.

ويعتبر بالتالى إعادة تقييم جادة لعلم التحليل النفسى ووضعه فى المكان الصحيح فى القرن العشرين.

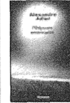
■

Odyssé américaine

(الأوديسة الأمريكية)

Alexandre adler

Ed.grasset, 17 euros



ألكسندر أدلر هو واحد من المفكرين اليهود الذين شن عليهم المفكر الاسلامى طارق رمضان حملة عنيفة تسببت فى اتهامه بمعاداة السامية. و فى كتابه الاخير «الاوديسة الامريكية»، يرسم ادلر صورة وردية للعالم تحت السيطرة الامريكية فى المستقبل، فنظريته الجديدة تتلخص فى أن النظام السياسى الامريكى الذى يقوم على الفصل الصارم بين السلطات، يمكن أن يكبح الميول الامبريالية فيه. ويرى ادلر إن النموذج الامريكى هو الوحيد القادر على أن يقود العالم إلى المستقبل ، نظرا لقدرته على امتصاص كل الأفكار الوافدة إليه.

وعلى العكس من المجتمع الأمريكى يبدو المجتمع الأوروبى فى نظر ادلر وكأنه يتمسك بنماذج مجتمعات ما قبل الحرب. ليست لديه القدرة على استيعاب الافكار الجديدة والتعامل معها ، ويخلص ادلر الى أنه مجتمع «يتصور أنه يبنى عالما جديدا بينما هو فى الواقع عالم يتجمد بانغلاقه على نفسه»، أما أمريكا فهى «المعمل العالمى للديمقراطية»، الذى وجدت فيه كتل كبيرة من الشعوب مثل الأيرلنديين و اليهود والألمان حرية لم تجدها فى مجتمعاتهم الأصلية على حد قوله .

ويؤمن المؤلف بأن أمريكا قادرة على أن تخرج نفسها بنفسها من أزماتها ، كما أنها قادرة على أن تقود أوروبا والعالم من بعدها إلى طريق جديد للرأسمالية التى يخرج منها الكل منتصرا.

■

The Medici: Godfathers of the Renaissa

(عائلة دى ميديتشى: الآباء الروحيون لعصر النهضة)

Paul Strathern

Pimlico, 2004, 256 pp, £ 8.99



يروى لنا هذا الكتاب تاريخًا رائعًا لعائلة متواضعة. عزمت على الظهور وأصبحت إحدى أقوى العائلات نفوذاً فى أوروبا... أنها قصة عائلة ميديتشى التى تعددت أنشطتها بين النفوذ، والسلطة، والمال، والطموح.

يكشف لنا المؤلف من خلال كتابه عن درامية نهوض وسقوط عائلة دى ميديتشى فى فلورنسا، وكذلك صعود وهبوط النهضة التى ساهمت فيها هذه الأسرة بالتمويل والتشجيع.

وبالإضافة إلى تتبع المؤلف لحياة كثير من عظماء الفنانين فى عصر النهضة الذين تعاملت معهم هذه الأسرة مثل دافنشى، وانجلو، ودوناتلو، تتبع أيضاً أسماء علماء وعظماء.

أمثال جاليليو وبيكو ديلا ميراندولا .

كما أحصى المؤلف ثروات أعضاء هذه العائلة الذين حققوا نجاحاً خارج فلورنسا ومنهم اثنان من الباباوات.

فضلا عن كاترين دى ميديتشى التى أصبحت ملكة فرنسا، ولعبت دوراً حيوياً فى هذا البلد خلال ثلاثة عهود اتسمت بالاضطراب.

■

Namier

(نامير)

Linda Colley

Pimlico, 2004, 144pp, £ 10.00



اعتبر ليوس نامير قبل وفاته عام ١٩٦٠ أهم وأذكى مؤرخ فى العالم الغربى. واختص تعبير النامبرية NAMIERISM فى اللغة الإنجليزية بوصف أسلوب مميز من الكتابة كما أنه يرمز للتفكير فى الماضى.

وبالرغم من سمعته وشهرته التى لم تكن لها حدود، فإن مؤلفاته المتنوعة نادرا ما تقرأ اليوم أو حتى تفهم بشكل صحيح.

هذه الدراسة الذكية تسعى فيها المؤلفة، وهى مؤرخة بريطانية معروفة، لإعادة تقييم إسهامات نامير وتاريخ بريطانيا وأوروبا.

كما تحاول الكشف عن همزة الوصل بين مجموعة الاضطرابات التى طرات على حياته، مع محاولة البرهنة على أنه مؤرخ اجتماعى وليس فقط مؤرخا سياسيا.

بالإضافة إلى إلقاء الضوء على بعض التناقضات التى رسمت مستقبله المهنى متسائلة كيف تمكن دارس أصله أجنبى أن يصبح مؤرخا جليلا لصفوة السياسيين فى بريطانيا.

■

The Devil's Disciples: The Lives & Times Of Hitler's inner Circle

(أتباع الشيطان، حياة وأوقات دائرة هتلر الداخلية)

Anthony Read

Pimlico, 2004, 512pp, £ 9.99



النظام النازى كان فى أساسه دينيًا طائفيًا، معتمدا ومرتكزا على شخصية رجل له تأثير مغناطيسى هو أدولف هتلر..

وقدر لهذا النظام أن يموت معه. أثناء النازية كان أقرب لواءات الجيش يتنافسون بشراسة من أجل السلطة، أو الطموح لأن يمسك أحدهم بزمام الحكم من بعده.

كتاب اتباع الشيطان هو أول كتاب رئيسى للعامة.

يسعى للتعريف بهؤلاء اللواءات عن قرب.

ليس فقط كأفراد، ولكن أيضا كمجموعة. إنه يركز على أقرب ثلاثة من انصار هتلر وهم: هيملر، وجوبلز، وجورنج.

بالإضافة إلى أقرب منافسيهم وهم: ريبنتروب وسبير، وبورمان.

يظهر هذا الكتاب كيف تطورت شخصيات الدائرة المقربة من هتلر، وكيف أثرت علاقات الغيرة بينهم، وخداعهم المستمر، فى نظام الحكم والحرب... وفى هتلر نفسه.

■

كـــــتب ألمـــانيــــة

Wladimir Putin
(فلاديمير بوتين)
Boris Reitschuster
Rowohlt Berlin 2004 ,
EUR 19,90



من هو فلاديمير بوتين؟ فهو يحكم بلاده بقبضة من حديد و برغم ذلك فإن شعبيته فى بلاده كبيرة ويعتبره قادة الغرب شريكاً يعتمد عليه.

يتـنـاول رايـتـشـوسـتـر فـى كـتـابـه «فلاديمير بوتين» قصة صعود بوتين السلم السياسى ونجاحه الساحق فى انتخابات الرئاسة عام ٢٠٠٠ حيث تفوق على منافسه بنسبة أصوات تفوق ٥٠٪. لماذا استطاع بوتين بالذات والذى حتى أغسطس/آب ١٩٩٨ لم يكن قد ظهر على الساحة السياسية بعد الجلوس على مقعد السلطة؟ كيف استطاع أن ينتشل روسيا من الكوارث وأن يؤثر فى مستقبل أوروبا؟ يحاول رايتشوستر الإجابة عن هذه الاسئلة فى كتابه الجديد.

Die Bush Bilanz
(رصيد بوش)
Elmar Theveben
Droemer/Knaur 2004,
EUR 18



عندما نشرت الصحف للمرة الأولى صور التعذيب بسجن أبو غريب بالعراق أجمع المحللون على أن بوش وادارته قد فقدا مصداقيتهما. ولكن بوش كان قد فقدها قبل ذلك بكثير. هذا ما يوضحه تيفسن صحفى ألمانى الجنسية عمل ست سنوات كمراسل للتليفزيون الألمانى بالولايات المتحدة الأمريكية. يراجع تيفسن «رصيد بوش» ويستعرض الأساليب الملتوية التى فاز بها فى الانتخابات.

Zwoelf Gramm Gluek
(اثنا عشر جراما من السعادة)
Feridun Zaimoglu
Kiepenheuer und Witchveralg,
2004, EUR 17,90



اثنتا عشرة قصة عن الحب، عن نجاحه ومعاناته يقدمها زايمجولو فى كتابه الجديد. تدور أحداث أول سبع قصص «فى الدنيا» فى مدن ألمانية كبرى مثل برلين وهامبرج. أما الخمس قصص الأخيرة قصص «الآخرة» فتدور أحداثها فى مناطق قروية نائية فى منطقة الأناضول حيث هاجر زايمجولو ووالداه الى ألمانيا قبل أكثر من ثلاثين سنة.

يلاحظ القارئ، على الرغم من تقسيم القصص الى جزءين مختلفين، أن قصص «الدنيا» لا تختلف كثيراً عن قصص «الآخرة». فالجزء الأول تدور أحداثه حول المهاجرين الأتراك الذين يعيشون فى الغرب فيما تدور أحداث الجزء الثانى حول غربيين اتخذوا من بلاد شرقية منغلقة على تقاليد و مبادئ دينية. فى الجزءين يبحث الجميع عن الحب والسعادة.

Das Tier das weint
Libanisches Reisetage Buch
(الحيوان الباكى: يوميات رحلة لبنانية)
Michael Kleeberg
Deutsche Verlagsanstalt 2004,
EUR 17.9



يستعرض كتاب ميشيل كليبرج رحلته الى لبنان التى استغرقت أربعة أسابيع ضمن برنامج أدبى. بأسلوب شيق يسرد الكاتب يومياته فى لبنان وعلاقته المتميزة مع الاديب العربى عباس بيضون رئيس تحرير صفحة الثقافة بجريدة السفير اللبنانية. يصف الكاتب لقاءاته العديدة مع كتاب عرب و ألمان على أرض مشتركة للفلسفة والأدب. عدد كبير من المشاهد والذكريات تضفى البهجة على كتاب كليبرج. فيحكى على سبيل المثال عن قصة الزوجين أورسولا الألمانية ويوسف عساف اللبنانى اللذين خاطرا بحياتهما لابقاء أبواب معهد جوتة مفتوحة أثناء الحرب الأهلية اللبنانية.

Nadia Budde Selbstdenken!
(فكر بنفسك: ٢٠ تطبيقاً للفلسفة)
Jens Soentgen
Peter Hammer Verlag 2003,
EUR 19,90



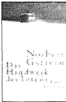
نجح ينس زونتغن فى أن يجعل من الفلسفة أمرا مبسطا ومفهوما، وأن يقدمها فى حلة مسلية وظريفة. إن هذا الكتاب المقتبس عن كتاب أرسطو Topik يطرح عشرين تطبيقا للفلسفة، ويوضح كيف يمكن للمرء أن يستعملها بطريقة مثمرة. إنه يقدم العديد من الحوافز التى تساعد على قدح زناد الفكر، ليس فقط عبر الأمثلة المسليةولكن أيضا عبر تمارين تطبيقية أو اقتراحات ألعاب، عن طريقها تتيح للقارىء الفرصة لتطبيق ما يقرأ.

In Deutschland Leben
Ein Gespr?ch mit Wieland
Freund
(أن تعيش فى ألمانيا.. حديث مع فيلاند فروند)
SAID
Verlag, 2004 , EUR 14.9



يتحدث سعيد مع الصحفى الألمانى فيلاند فروند الذى يصغره بعشرين عاماً عن حياته فى ألمانيا. فى البداية يسترجع سعيد طفولته فى ايران بداية رحلته وانطباعاته الأولى بعد وصوله إلى ألمانيا حيث لم تكن ألمانيا وحدها المنفى بل اللغة أيضاً. يصف سعيد انغماسه فى الحياة الألمانية و عمله السياسى مع منظمة طلاب ايرانية. فى حوار ذاتى عاطفى يتحدث سعيد مع فروند فى خمسة موضوعات. فحديثه الأول يتناول الشخصية الألمانية سلوكها وروحها. يتناول حديثان من الأحاديث فترات هامة من التاريخ الألمانى كزيارة شاه إيران لألمانيا وحركة الطلاب التى أعقبت ذلك و سقوط سور برلين و الأحداث و التغيرات التى أعقبت ذلك. تتناول الأحاديث الأخرى الأدب و السياسة وموقف السياسة من الثقافة فى ألمانيا.

Das Handwerk des Toetens
(أداة القتل ـ رواية)
Norbert Gstrein
Suhrkamp Verlag, 2003,
EUR 22.90



ثلاثة صحفيين وامرأة يبحثون عن القصة الحقيقية فى رواية الأديب نوربرت جسترين «أداة القتل» والذى حاز من خلالها مؤخراً جائزة «اوفى يونسون» الألمانية. يحاول أبطال الرواية الثلاثة من خلال الأحداث أن يجيبوا عن سؤال ألا وهو: هل من الممكن تقليص حرب الى رواية فى وقت تؤثر فيه الدعاية والإعلام تأثيراً كبيراً على حياتنا.

تدور أحداث الرواية خلال حرب البلقان حول كريستيان الماير صحفى نمساوى يلقى حتفه غدراً فى كوسوفو عام ١٩٩٩. يترك الماير وراءه عدداً لا بأس به من مذكراته وسجلاته الخاصة الى جانب تسجيل صحفى مع القائد الكرواتى سلافكو الذى يسأله الماير عن شعوره عندما يقتل نفساً. تودى به اجابة هذا السؤال الى التهلكة.

تدفع نهاية الماير المأساوية صديقه بول صحفى وكاتب أدب الرحلات الى كتابة رواية عن صديقه فيبدأ بتقصى المعلومات عن حياة الماير وأعماله الصحفية فى مناطق القتال بكرواتيا والبوسنة بمساعدة صديقته هيلينا وصحفى آخر والذى تأتى الرواية على لسانه.

كتاب الزاوية

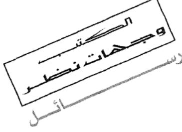


تحديث القاهرة

علي مبارك

صدرت الأوامر الخديوية لديوان الأشغال، ونحن به، لتوسعة الشوارع والحارات وتقويمها، وتجديد ما يلزم تجديده منها. لتكون شوارع المدينة (القاهرة) ومبانيها كافية صالحة لأحوالها الحاضرة من اتساع دائرة التجارة والثروة التي اكتسبها القطر، إذ بذلك كثرت عربات الركوب وعربات البضائع والعمائر، فصار غير لائق بها بقاء الحالة القديمة على ما كانت عليه من ضيق الحارات والشوارع واعوجاجها، إذ كان الازدحام بها يترتب عليه النصَب والعطب الخطر والضرر. وكان قبل ذلك رسم القاهرة محولاً على فرقة من المهندسين تحت رئاسة المرحوم محمود باشا الفلكي، فرسموها على ما كانت عليه، وبناء على هذا الرسم كتبت الإشارة فوقه بعمل هذه التنظيمات الموجودة بالمدينة المشاهدة الآن، مثل شارع محمد علي وميدانه، وشوارع الأزبكية وميدانها، وما بعابدين من الشوارع ونحوها، وباب اللوق وغير ذلك مما هو بداخل المدينة وخارجها، وجرى العمل على ذلك، فظهرت كل هذه المباني الحسنة والشوارع المستقيمة المتسعة المحفوفة بالأشجار الخضرة النضرة المستوجبة للقادمين على المدينة انشراح الصدور والفرح والسرور، وأزيل ما كان بجهتها البحرية من التلال التي كانت تمتد من جهة الفجالة إلى قرب باب الفتوح.

ثم تبرع الخديو إسماعيل باشا على الراغبين بمواضع كثيرة، فأنشأوا بها المباني المشيدة والبساتين العديدة. وناهيك بقصور الإسماعيلية ودورها وبساتينها وشوارعها التي يكل الوصف عن محاسن بهجتها وأحاسن رونقها ونضرتها.



"ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو هيئة تحريرها"

دروب الحياة

الأستاذ سلامة أحمد سلامة رئيس التحرير: قرأت مقالتكم الأخيرة بعدد سبتمبر من مجلتكم الموقرة «وجهات نظر» وأصابتني ردود فعلكم مع الانتكاسة الصحية الأخيرة التي ألمت بكم وطحنتك كما يبدو خلال مقالكم.. أصابتني تلك الردود بحزن عميق لما يعتري الإنسان الناجح الفعال المؤثر فيما وفيمن حوله بالجزع الشديد عنصر الإحساس بخطورة المرض وخوف فقد الحياة الواسعة المؤثرة.. هذا بينما ـ من خلال عملي كطبيب حوالي ثلاثين عاماً حتى الآن ـ أرى أن هناك قسماً آخر من البشر أصابه ما أصاب سيادتكم بعنف ولكنه جلس آمنًا سالمًا ينتظر نهايته في هدوء غريب.. ما هي المسألة.. المسألة أنك وأنت على سرير المرض الشديد الداهم وشبح الموت يتراقص من حولك كنت محبطًا جداً وشعرت أن مشوار حياتك لم يفض إلى شيء مما كنت تريده.. فأنت يا أستاذ سلامة صاحب عقل مدرك لمشاكل وطنك بكل ما يحمله هذا الاسم من فسيفساء عديدة والمشكلة الأخطر أنك تحب هذا الوطن عظيماً محترماً قادراً لا ذليلاً وهيناً عاجزًا.. وهنا أحسست بالهوان وأنت تعبر اختبار الموت.. لا يا أستاذ سلامة.. حتى لو سافرت إلى جبال سويسرا ونعمت بهدوئها أو سافرت إلى هاواي ونعمت بحياتها فلن تشعر بهدوء.. لأن الإحساس بالنيران داخل صدرك وليس في نقطة واحدة محددة.. اذهب إلى الريف المصري الذي نشأت فيه وابحث عن حقوله الباقية وطيور سمائه الآمنة واشتر سنارة لصيد الأسماك في ترعة القرية واختر بضعة من العوام الدهماء لتتجاذب معهم أطراف حديث عشوائي لا ينتهي.. فقط هناك.. أو هنا.. ستشعر بالراحة والهدوء وربما.. تعيش أطول.

د/ سمير عنتر

استشاري حميات ـ الهرم



«وجهات نظر» بين الفكر العربي والغربي

يشرفني أنني من قراء المجلة منذ صدور عددها الأول من ست سنوات وسعدت بالمستوى الفكري والأدبي الرفيع لموضوعات المجلة وإن كنت لا أتفق دائماً مع ما تضم من آراء.

وقد لاحظت أن بعض الموضوعات أصبحت عرضًا لكتب مترجمة ـ وهذا مطلوب إلى حد ما. ولكن تزايد هذا الاتجاه عدداً بعد آخر حتى وصل في العدد السابع والستين إلى أن يشغل ثمانين في المائة من صفحات المجلة تقريبًا (١١ موضوعًا من ١٣) مما يجعل المجلة تقرب من أن تكون عرضًا للكتب (book review) ووضع مجلة «وجهات نظر» رفيعة المستوى على هذا الشكل يتضمن أمرين:

الأول: أننا أصبحنا عالة على الفكر الأجنبي (والغربي بالتحديد).

والثاني: أن مصر والعالم العربي قد خلوا من كاتب يملك القدرة على الخلق والإبداع الفكري.

وكلا الأمرين يثيران تحفظًا وتساؤلاً.

أرجو أن يكون لدى هيئة تحرير المجلة تفسير لهذه الملاحظات (ولا أقول المآخذ).

دكتور/ أمين الجمل

المدير التنفيذي للجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية



القوة.. والعدل

الأستاذ الصياد قراءتك (أغسطس ٢٠٠٤) مكثفة وعميقة وهي تقلب الأوجاع وتذكرنا بمقولة شهيرة لداهية الدبلوماسية كيسنجر: القانون الدولي أشبه بخيوط العنكبوت لا يصطاد إلا الضعفاء.

د. عصام عبد الله

آداب عين شمس

ربما كان مقالك الأخير في غاية الجمال وأنت تتحدث عن مفهوم القوة، ولكن أليست العشرة جنيهات «قوية» على القراء غير القادرين على ثمن المجلة؟ هل لديكم شجاعة لنشر رأيي؟

عمر أحمد ضيف الله

محاسب

رأى

«العامل الدينى» والصراعات الإنسانية

عندما وصف البعض الحرب التى يشنها الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية على (الإرهاب) بالحرب الصليبية، تصدى البعض لنقد تلك المقولة ودحض ذلك الوصف.

فقد اعتبرها بعضهم مزاعم ليس إلا، مدعين أن هذه المقولة فيها مغالاة وهى مستقاة من فكر وعقلية (المؤامرة) السائدة فى الذهنية العربية والإسلامية حسب زعمهم - وكأن هذا الفكر أو تلك العقلية استولت على عقولنا من كوكب خارجى وهمى أو تخيلناها فاقتنعنا بها ومن ثم لصقت بنا بمحض الصدفة وبإرادتنا. وتناسوا أنها وليدة ونتيجة لأحداث زؤام عاشها ويعيشها العالم الثالث والذى يشكل العرب والمسلمون الغالبية العظمى من سواده.

فيما فسر البعض الآخر هذه الحرب على أساس التناقض الموجود بين مجتمعات مختلفة بعضها تشكل كإفراز طبيعى للتطور الاجتماعى والحضارى ونعم بالديمقراطية (المجتمعات الغربية)، فيما المجتمعات الأخرى بقيت تعيش فى تخلفها وجهلها وتعصبها (المجتمعات العربية الإسلامية) ولم تستوعب التطورات الحضارية ولم تنعم بالديمقراطية.

وسواء أصحت الرؤية التى يمتلكها الفريق الأول أم الرؤية التى يمارسها الفريق الثانى فالثابت هو وجود قواسم مشتركة بين كل تلك التسميات، فبينما يفصح عنها الفريق الأول مباشرة بادعائه أن ما يجرى هو حرب «صليبية»، مستندًا فى ذلك على الكثير من الوقائع والأحداث التى يغلب عليها الطابع «الجيوديني» والتى تدعم ادعاءه، يحاول الفريق الثانى القفز على الحقائق رغم جعجعة كل أنواع السلاح والذى لم يعد يسمع غير صوته من خلال حربى القرن الحادى والعشرين فى أفغانستان والعراق أو من خلال حروب القرن الماضى (الحروب العربية الإسرائيلية، وحربى الخليج الأولى والثانية)، والتى بتقديرى يمكن إسقاطها كمقدمات وجزء من الصورة الشاملة للصراع.

إن الدراسة المتأنية للتاريخ ومنذ نشأة البشرية وظهور الاتصال الأول بين السماء والأرض عن طريق الرسل والأنبياء تدل على وجود وتوافر دوافع وعوامل بشرية نفسية طبيعية، حتمت ظهور ونشوء مثل هذه الصراعات والتى كانت فى جزئها الأكبر والأعنف والأشمل (صراع ديانات)، والتى كانت ومازالت وستبقى حقيقة لا يمكننا إنكارها أو القفز عليها إذا أردنا مواجهتها ومعالجتها.

لا بل إن تلك الصراعات الدينية كانت ومازالت قائمة حتى بين اتباع الديانات الواحدة من خلال التناحر الدرامى بين طوائفها لا بل وحتى داخل الطائفة الواحدة أحيانًا.

ومع اختلاف الأزمنة والعصور وتغير وتنوع المعايير، والتطور الهائل الذى شهدته التجمعات البشرية وإن بتفاوت، فقد تطورت أشكال الصراعات الإنسانية وعناوينها بما يتناسب مع تطور ورقى المحيط البيئى والبنية التحتية المحيطة حيث أصبحت تأخذ مسميات (حضارية) كالحرص على إحلال الديمقراطية ومحاربة الدكتاتورية والعناية بالفرد (الإنسان) وحقوقه، هذا الفرد الذى دفعته وربما أجبرته حالة التحضر النسبى الظاهرى لبعض المجتمعات على لبس هالة تكسو بنيانه الخارجى بقشور ذلك التطور فى الوقت الذى احتفظ فيه بأعماقه بجذوة متقدة من تلك العصبية الدينية أو القومية.

إن مثل هذا الإنسان ومع الكثير من السلطة والأحلام والرؤى (السماوية) لابد أن يشكل خطرًا كبيرًا على الإنسانية جمعاء لأن اندفاعه لتحقيق رؤاه وتجسيد إيمانه لن يحكمه أى ضابط وسيغالى حتمًا فى استخدام العنف لأتفه الأسباب، وقد يكون على استعداد لأن يعيد البشرية جمعاء إلى طبيعتها الأولى طبيعة الغاب ويلغى الشرعية الدولية، ويغلق أبواب الحوار ويحول كل اختلاف إلى صراع أو حرب على الإرهاب «الهدف» لا سيما إذا أيقن أن فترة تسلطه وإمساكه بزمام السلطة هى فرصته الأخيرة ولن يكون بوسعه ترشيح نفسه لدورة ثالثة.

د. يوسف الفقهاء

كتاب الزاوية



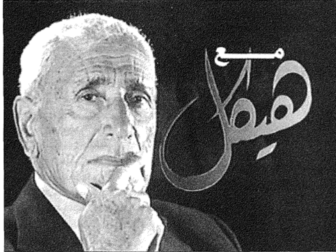
العمل بنظام المسئولية التضامنية لمجلس الوزراء

علـى مبـارك

فى سنة ١٨٧٨ ميلادية تشكلت هيئة نظارة يرأسها دولتلو نوبار باشا، فكنت من رجالها ناظرًا على ديوانى الأوقاف والمعارف. وصدر الدكريتو من لدن الحضرة الخديوية من منطوقه أنى أريد عوضًا عن الانفراد المتخذ الآن طريقًا فى الحكومة المصرية أن تكون لهذه الهيئة إدارة عامة على المصالح، بمعنى أنى أروم القيام بالأمر من الآن فصاعدًا بالاستعانة بمجلس النظار والاشتراك معهم فى تسيير المصالح، وأن يكون أعضاء مجلس النظار كل منهم كفيلاً بالآخر، يتفاوضون فى جميع المهمات، ويتداولون الرأى فيها، ويقررون ما تستقر عليه أغلبية الآراء، وتصدر قرارات المجلس على حسب الأغلبية، وأقررها بالتصديق عليها. ثم ينفذها النظار. فجرى العمل بذلك، وأخذت هيئة النظارة فى إدارة المصالح على هذا النمط، وشرعت فى تسديد الديون من دخل البلاد ومن قرضة استدانتها من بنك روتشلد بلوندره وهى ثمانية ملايين ونصف مليون من الجنيه الإنجليزى، ورهنت فى ذلك أملاك العائلة الخديوية من أراض زراعية وغيرها بعد تنازلهم عنها للحكومة، وكان مبلغ إيرادها سنويًا أربعمائة ألف وستة وعشرين ألف جنيه إنجليزى، وجعلت لإدارة تلك الأملاك مصلحة مستقلة عرفت بمصلحة الدومين (الأملاك).

وفى تلك المدة صرفت ما فى وسعى فى توسيع دائرة المعارف، فشرعت فى بناء بعض المدارس كمدرسة طنتدا (طنطا) ومدرسة المنصورة، وفى تكثير عدد المكاتب وترتيب المدرسين وما يلزم للتعليم من أدوات وكتب.

أســــــئلة هيـــــكل



على مركب فى الخليج العربى، وبمناسبة ختام مهرجان سينمائى «محترم» نظمه قبل حوالى العام المجمع الثقافى بأبو ظبى، جمعتنى طاولة الغداء مع المخرج السورى المعروف محمد ملص. ويومها حكى لى، حين عرف علاقتى بهذه المطبوعة: «إننا كنا فى مقتبل العمر، وحين لانجد فى جيوبنا ثمن الجريدة، نقرأ أهرام الجمعة معلقًا عند باعة الصحف حتى لا يفوتنا ما كتبه (الأستاذ) فى مقاله الأسبوعى (بصراحة)». تذكرت ساعتها - وحكيت بدورى - كيف كانت معلمتنا تطلب منا أن نلخص «بصراحة/هيكل» أسبوعياً، لتختار منا من يقرأ الملخص أمام الفصل كله فى حصة صباح السبت. كانت الأيام غير الأيام.. وكنا وقتها فى الصف الخامس الابتدائى. وكان «هكذا مستوى» تعليم القراءة والكتابة والإلقاء.

فى فصلٍ صغيرٍ فى مدرسة «النصر» الابتدائية بالسنطة فى قلب دلتا النيل كنا نقف لنقرأ «هيكل». وعلى قارعة الطريق فى «القنيطرة» السورية، كان محمد ملص ورفاقه يقفون ليقرأوا «بصراحة».

تذكرتُ المشهدَ واتساعه، حينما عرفت من الزملاء فى «الجزيرة» أن نسبة المشاهدة للقناة وقت بث برنامج «مع هيكل» على مدى الشهرين الماضيين بلغت أرقاماً غير مسبوقة. وكنت قد لاحظت أن رسائل القراء/ المشاهدين إلى موقع «وجهات نظر» على «الجزيرة نت» قد سجلت أعلى نسبةً من ردود الفعل. كما أن الموضوعات التى طُرحت فى الحلقات كانت مادة لكثير من منتديات النقاش العربية على الإنترنت. والتى كانت قد اعتادت لسنوات أن يستغرقها الجدل حول أسامة بن لادن ومن بعده الزرقاوى.



وفى حين كان مفهوماً أن أفكاراً بهذه الأهمية، من رجلٍ بهذا الحجم والتاريخ، ومن على منصة لها هذا الذيوع والانتشار، لابد لها أن تجدَ ما وجدته من صدى. إلا أن المراقبَ عن كثب لابد وأن يستوقفه ما بدا فى بعض الحالات من غيابٍ لثقافة الاختلاف، ومن استقطابٍ كاد يصبح مرضاً فى حياة العرب الفكرية. فرأينا من يقف فى مربع لايعكس فى واقع الأمر «رأيه» اللاحق فى الموضوع، بل «موقفه» المسبق من الآخر. ورأينا كيف اختلف المختلفون - أو بعضهم - لا على آراء قالها هيكل - رغم أهميتها - وإنما مع هيكل نفسه. بعد أن استخرجوا من أعماق ذاكرتهم، ومن مخزون ذكرياتهم، ومن جديد حساباتهم - ربما - موقفاً «معلباً» سابق التجهيز.

ورغم اتفاقٍ بدا على أهمية ماقام به الأستاذ من «طرق على الطاولة».. تذكيراً ببديهيات «تعرضت أو كادت للإهدار والإنكار فى خطابنا السياسى والثقافى»، خرجَ البعض عماً بدا إجماعاً ليعتبرَ «أحاديثَ المستقبل» اجتراراً للماضى (!) مذكراً «باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح»، ونافياً حقائق التاريخ والجغرافيا. كما كان لافتاً - ومحزناً - أن البعض جرفته المسائل الفرعية بعيداً عن القضايا الرئيسية. فبعض التعليقات تجاهلت ما قاله الأستاذ لتتساءل لماذا الجزيرة.. ولماذا قطر؟ وبعضها - وكان ذلك غريباً - لم يلتفت أصلاً إلى الأفكار والآراء والقضايا التى ازدحمت بها عشر ساعات من البث عن «ما نواجهه الآن» مصمماً على أن تتوقف به عجلة التاريخ عند العام السابع والستين من العقد الأخير فى القرن الفائت. وهو عَرَضٌ وصفه الأستاذ فى حديثه بثقافة الهزيمة. وكان قد حذر منه فى «وجهات نظر» من قبل: حين يقصد القاصدون «أن تظل الأمة حبيسة لإحساس الهزيمة وأسيرة لذلها حتى تقبل فى أمورها الداخلية والخارجية ما هو مطلوب منها أن تقبله، دون مراجعة أو احتجاج..».

هل نعانى فعلاً من ثقافة الهزيمة؟

لم يكن هذا سؤال هيكل الوحيد فى حلقات «الجزيرة». فأسئلة الحاضر والمستقبل و «الأيام القادمة» كانت كثيرة. وضعها أمامنا، وأمام أجيال قادمة رجلٌ يحرص دائماً على أن يقول أن «أيامه وراءه».



عن شأن العرب الجارى، كان حديثُ هيكل، وكانت أسئلته، وكانت طرقاتُ مطرقته/قلمه على الطاولة؛ منبهةً ومحذرةً.. وغاضبة. فى زمنٍ هو بالضرورةِ غير زمانٍ «عربى» كان محمد ملص يشبُ فيه على أصابع قدميه ليقرأ «بصراحة» معلقةً على الحائط. وكانت «الأستاذة عطيات» تطلبُ من تلاميذها الصغار أن يلخصوا مقالَ الجمعة. فالعرب - وإن لم يعترف البعض - فى مواجهة الطوفان. وهو طوفانٌ. وبغض النظر عن الاختلاف حول الأسباب، أو حتى الوصف و«التكييف». تتسارعُ وتيرتُه وتتلاطمُ أمواجه.. وككل طوفانٍ - وبحكم الطبيعة - يتسع إطاره الجغرافى؛ من تدميرٍ وإنهاءٍ بات واقعاً لقوةٍ كانت مفترضَةً فى وادى الفرات، إلى غيومٍ تجمعت داكنةً فى الأفق الجنوبى لوادى النيل. ومن محاولات لمحو قضية العرب المحورية فى فلسطين «نهائياً»، إلى محاولاتٍ لمحو الهوية ذاتها، بدعوى التطوير أو التشذيب. ومن ملاحقاتٍ عنصريةٍ بالتوقيف و«التبصيم» فى المطارات والموانئ، إلى مطالبات بالتغيير، تحملُ شكلاً واسماً عنوان «الإصلاح» أو «الشراكة» وتأخذُ - بواقع منظومة العلاقات والقوى - سلطةَ الجبر. وإن أبدى المجبورون - مع اختلافِ أسبابهم - غيرَ ذلك. محاولين «هم أيضاً» تسميةَ الأشياء بغير أسمائها. رافعين حيناً شعارَ الواقعية، ومحتمين حيناً آخر بحكمة «بيدى لا بيد عمرو». أو مؤكدين - إعلامياً على الأقل - أننا already على الطريق: فالنساءُ مُمَكَّنات.. وتطوير التعليم على قدمٍ وساق.. والديمقراطيةُ «مطابقةٌ للمواصفات».. وكل شىء إذن على ما يرام. ولسنا - نحن - المقصودين بالخطاب أو المطالبة.



ماذا قال الأستاذ هيكل عبر «الجزيرة»؟

كما لم يكن سهلاً على ابن الحادية عشرة تلخيص «بصراحة» فى تلك الأيام البعيدة، يصبح من قبيل المغامرة غير المأمونة محاولة الإحاطة فى تلك السطور القليلة بكل ماطرحه الأستاذ من أفكار على مدى عشر ساعات كاملة. وإن كنت - شخصيا - أود التذكير بماقاله بشأن قضية الإصلاح، والجدل الذى بدا سفسطائيا بين أن يأتى الإصلاح «من الداخل أو من الخارج». أوضح هيكل على «الجزيرة» ماكان قد فصله سابقاً من أنه وإن كان يتحفظ على مقولات الإصلاح الأمريكى، إلا أنه يستغرب بعض ما يرى ويسمع، «لأن طلب الإصلاح الأمريكى المزعوم للمجتمعات العربية ليس أول ما يقدم إلى عدد من النظم العربية.. ثم يكون جوابه السمع والطاعة».

لماذا يرفض البعضُ «إصلاحا يمس أنظمتهم» من بين كل الواردات الأمريكية التى ظلت مرحبا بها لعشرات السنين. لعقود طويلة استجاب العرب لكل المطالب الأمريكية؛ عندما طلبوا سلاما مع إسرائيل، أتيناها «هرولة» - حسب التعبير الشهير لعمرو موسى - بعد أن أعلنا أكتوبر آخر الحروب، وعندما نادوا بتعميم الرأسمالية، فتح الاشتراكيون أسواقهم ورفعوا الدعم وباعوا قطاعهم العام وبدأوا خصخصة التعليم. وعندما قرروا كسر السوفيات فى أفغانستان، شحن العرب أبناءهم إلى هناك، ليعودوا «بألغام فى الدماغ ومتفجرات فى الحقيبة».. لماذا الآن فقط نتذكر أن «الإصلاح مطلب أمريكى»؟!

أسئلة .. وأسئلة .. و«طرقات قلم» على الطاولة.

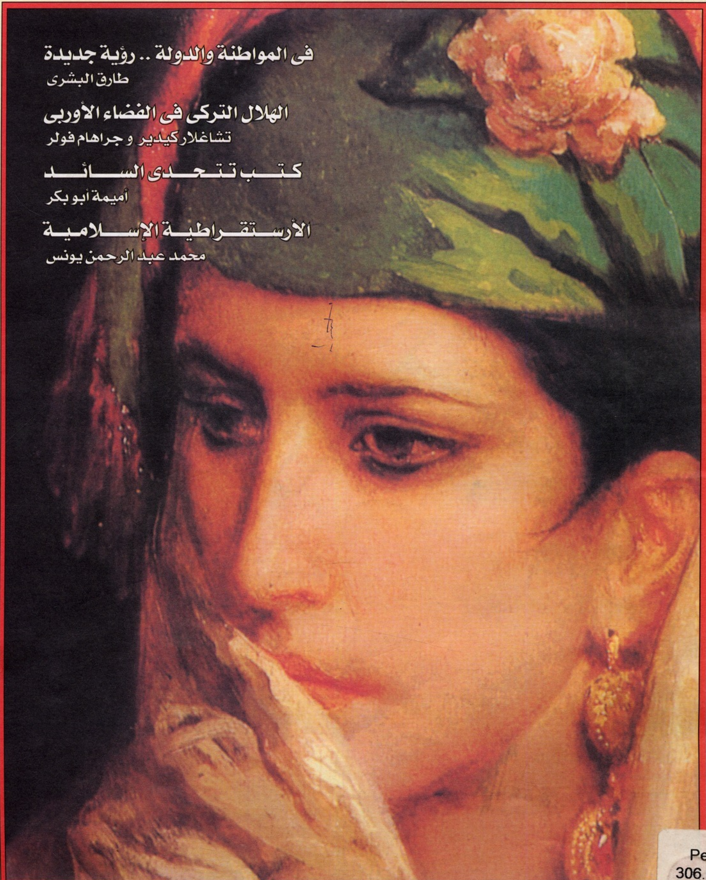
أيمـــن الصيـــاد

وجهات نظر الكتب

فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد السبعون . السنة السادسة . نوفمبر ٢٠٠٤ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 6 - Issue 70 - November 2004



فى المواطنة والدولة .. رؤية جديدة
طارق البشرى

الهلال التركى فى الفضاء الأوربى
تشاغلار كيدير و جراهام فولر

كتب تتحدى السائد
أميمة أبو بكر

الأرستقراطية الإسلامية
محمد عبد الرحمن يونس





مبادرة ترعاها
ADSL
وزارة الإتصالات وتكنولوجيا المعلومات



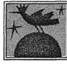
السنة السادسة
العدد السبعون
نوفمبر ٢٠٠٤

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

الكتب وجهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد



محتويات العدد:

كتَّاب العدد:

- أميمة أبو بكر.. أستاذة الأدب الإنجليزى المقارن بجامعة القاهرة.
- أمينة شفيق.. صحفية.
- أيمن الصياد.. صحفى.
- تشاغلار كيدير.. أستاذ علم الاجتماع بجامعة بنهامتون فى نيويورك.
- جان شَلَبى.. أستاذ علم الاجتماع بجامعة سيتى - لندن.
- جراهام فولر.. باحث ونائب سابق لرئيس المجلس الوطنى التابع لوكالة المخابرات الأمريكية.
- حسن مكى.. عميد مركز البحوث الأفريقية بجامعة أفريقيا العالمية بالخرطوم.
- دنيس جونسون ديفيز.. كاتب ومترجم مهتم بالأدب العربى.
- رجب سعد السيد.. كبير الإخصائيين العلميين بالمعهد القومى لعلوم البحار والمصايد (مصر).
- طارق البشرى.. كاتب ومؤرخ.
- علاء الدين وحيد.. كاتب.
- محمد عبد الرحمن يونس.. محاضر فى جامعة الدراسات الأجنبية ببكين.
- محمد المهدى... مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى - سعد الدين شحاتة - أحمد اللباد





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عددًا) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

فى المواطنة

منهج النظر فى تشكيل الجماعة السياسية

[١]

طارق البشرى

■■ أقصد بالجماعة السياسية، هذه المجموعة من البشر التى تتحدد وفقًا لتصنيف معين يقوم على وصف فعال يصدق عليهم ويميزهم عن غيرهم من المجموعات، وذلك متى كانت الأوضاع التاريخية قد رشحت الجماعة المصنفة - وفقًا لهذا الوصف - بأن تقوم بوظيفة محددة لحماية صالحها المشترك بعيد المدى.

فثمة وصف يلحق بالجماعة وغيرها، وثمة وظيفة تؤديها الجماعة الموصوفة بهذا الوصف.

والوصف يتعين أن يكون لصيقًا وفعالاً. والإلصاق يعنى ألا يكون الوصف طارئًا أو عابرًا أو يسهل كسبه ويسهل تركه. لأن الوصف الذى تقوم به جماعة يتعين أن يكون أكثر ثباتًا من الناحية النسبية. والجماعة تشكلٌ تاريخى، تنشأ وتقوم وتبقى عبر مراحل تاريخية ممتدة، فهى لا تتبلور بموجب الطارئ سريع الكسب أو الفقد، مثل المهارات وأوضاع التنقل، وهى تلتزم من الأوصاف ما لا يتغير مثل علاقات النسب مثلاً، أو ما يكون قابلاً للتغيير ولكن بصعوبة وبطء وعبر ما يحسب بالزمن التاريخى وليس بأزمان الحياة اليومية، أى بما لا تصلح الحياة الفردية لأن تستوعبه كاملاً بآثاره، بله أن تستوعب عددًا منه، وذلك مثل اللغة باعتبارها وصفًا جماعيًا أو الدين باعتباره كذلك.

كما يجب أن يكون الوصف فعالاً، أقصد بذلك أثره فى تغذية التفاعل الذى يربط بين المتصفين به ليمكن لديهم الشعور بالانتماء، لأن الجماعة عندما تنشأ إنما تكون ذات تميز عن أفرادها. وإذا كان آحاد الأفراد هم من تتشكل منهم، فإنها تكون هى من يقيم الوصف المهيمن عليهم، ولا منافاة بين إسهام الآحاد فى المشاركة وبين انتمائهم وخضوعهم من بعد لما تشاركوا فيه؛ فإن من ينتمى لدين معين باختياره إنما يخضع من بعد لهذا الدين، ومن ينضم إلى نقابة أو لحزب مثلاً يمتثل من بعد لقرارات ما انضم إليه بإرادته، ناهيك عمن يكون انتماؤه إلى الجماعة لم يتم بموجب توجه إرادى طوعى لواحد من بدائل اختيارية متساوية، وإنما يكون جرى بموجب وصف لصيق لا يملك تعديله أو الخروج منه بالطواعية السهلة السريعة. لذلك فإن أوصافًا بشرية مثل طول القامة أو وزن الجسم أو مستوى التعليم لم تصلح أبدًا أن تكون وصفًا فعالاً بالمعنى المقصود هنا. والأمثلة ذات التكرار فى التاريخ



والانتمـــــاء والـــدولـــة

مع ما يجرى على التخوم العربية شرقًا وجنوبًا، ومع الدعوات الـ «شرق أوسطية» الملحة والمتلاحقة، يرتجُّ عالمُنا العربى. إن لم يكن بفعل قذائف تنهمرُ علينا هنا وهناك، فتحت وطأة أسئلة ثقيلة وصعبة.

يتواترُ الحديث، يعلو حينًا ويخفت أحيانًا أخرى، عن إعادة رسم خرائط المنطقة، إن لم يكن حدودًا سياسية على الأرض، فحدودا للقوة والمكانة والنفوذ. فضلاً عن محاولات لتذويب الانتماءات والمرجعيات. أو على الأقل تهميشها. وبغض النظرِ عن مدى واقعية هذا الحديث، أو قدر المبالغة فيه، تبقى العواملُ الديموجرافية وطبيعة تكون الجماعات السياسية رقمًا أساسيًا فى المعادلة. وليس العراق والسودان، بل وحتى سوريا ولبنان، الا مجرد أمثلة. كاتبنا ومؤرخنا طارق البشرى، المشغول دومًا بقضية المواطنة، ينظر فى التاريخ والجغرافيا ليقدم لنا منهجًا للنظر فى تشكيل الجماعة السياسية وحركيتها.

المحــرر

للأوصاف الفعالة ذات الأثر فى تكون الجماعات، إنما تتعلق بالعقيدة من الأديان إلى الماركسية، وباللغة مثل القوميات، وبالنسب مثل القبائل والعشائر، وبالإقليم الجغرافى.

والعنصر الفعال - هنا - هو ما يمكن للصيرورة التاريخية أن تشكل من تفاعلاته مناطًا لقيام الجماعة السياسية، وما تشكل تفاعلاته قوة تماسك لأفراد هذه الجماعة ووحداتها الفرعية المتعددة. والفاعلية هنا يتحول بها العنصر المكون للجماعة إلى معيار معرِف للجماعة يجمع أفرادها ووحداتها ويميزهم عمن عداهم؛ لأن الفاعلية أو التفاعل بموجب كونها صيرورة تاريخية، تنشئ إدراكًا ذهنيًا بالتوحد وبالمشترك العام داخل الجماعة المعنية، كما تنشئ شعورًا وجدانيًا بالانتماء لهذه الجماعة وقابلية للاندراج بين وحداتها.

وقد سبقت الإشارة، إلى أن الأوصاف التى بنيت منها التصنيفات الأساسية المتكررة فى التاريخ البشرى للجماعات السياسية، كانت فى الغالب الأعم هى ما يلى:

- التصنيف القبلى القائم على وحدة الانتماء الأسرى وعلاقة النسب.
- التصنيف الدينى القائم على وحدة الانتماء العقيدى والرؤية الثقافية للكون وللمجتمع.
- التصنيف القومى القائم على وحدة الانتماء اللغوى.

ويمكن القول بأن أيـاً من هذه العناصر المذكورة هو مثل المادة الخام، لا تؤتى أثرها إلا بتفاعل يقوم بين وحدات من تضمهم، وهو تفاعل لا يتأتى إلا بتوافر ظرفى المكان والزمان، أى الجغرافيا والتاريخ، فإن أمة قبلية أو دينية أو قومية، لا تقوم إلا بتفاعل أفرادها فى بيئة جغرافية معينة، وإلا بصيرورة تاريخية بما يُنشئ ذاكرة مشتركة واشتراكًا فى أحداث واحدة وتكوين ثقافى واحد. وأقصد بالثقافة التكوين العقلى والوجدانى معًا، أى التكوين النفسى المشترك الذى يتيح للأنا الفردية أن تندمج فى «أنا» جماعية يقوم بها الضمير «نحن». إن الشعور بالانتماء إنما يكون لتكوين كلى خارج عن الذات، ولكنها تكون قابلة للانجذاب إليه والاندراج فيه بموجب إدراكها لتحققها فيه.

وإذا كانت أوصاف الانتماء قائمة فى الصورة السابقة، وأمثالها فى التاريخ البشرى موجودة دائمًا، فإن التاريخ وأحداثه هو ما يصنع الوظائف التى تقوم بها هذه الأوصاف. ودائمًا هناك أوصاف جماعية تقيم مشاعر بالانتماء المشترك بين من تضمهم هذه الأوصاف، أسرية قبلية كانت أو عقيدية أو قومية لغوية، ولكن أحداث التاريخ وحركة البشر والمجموعات هى ما يحدد مدى الأثر والفاعلية التى تقوم بها أى من هذه الأوصاف فى جماعاتها، كما تحدد ترتيب الأولويات بين بعضها البعض، بما يقوم به الوصف الجماعى الحاكم لغيره من الأوصاف الجماعية فى كل مرحلة تاريخية.

وأنا لست على ثقة من أن هذه الانتماءات تترتب مع بعضها البعض وفقًا لحتمية تاريخية عالمية، باعتبار ظهور التكوينات القبلية أولاً، ثم التكوينات العقيدية، ثم التكوينات القومية. إن هذا الترتيب التاريخى حدث فى أوروبا، واعتبرته أوروبا - ومؤرخوها خاصة - أساسا للترتيب الجماعى العالمى، لما وَقَر فى ذهن الأوروبيين عامة من أن تجربتهم هى معيار تشكل تجارب العالم كله، وأن تاريخهم هو ما يقاس به تاريخ شعوب العالم جمعاء.

ولكن الأوروبيين أنفسهم، والغربيين بعامة، هم من نقض هذا التصور من بعد، فإن الوحدة التى أساسها الماركسية هى وحدة عقيدية وقامت فى داخل الفكر الأوروبى وحركته السياسية، وكانت تنقض التكوين القومى، كما أن الحركة الصهيونية نشأت هى الأخرى فى الرحم الأوروبى وهى تقيم وحدة انتماء أساسها الدين اليهودى. ثم العولمة الآن ترد من أقصى الفكر الغربى؛ من الولايات المتحدة الأمريكية.

إن وحدات الانتماء هى «مكنات» تتواجد وتتزاحم وتتبادل الترتيب والتأثير وفقًا لعوامل تاريخية أخرى، تمكن من ظهور بعضها وخفوت الأخرى، ومن سيادة بعضها وحاكميته على غيرها. فحيث سادت القبيلة كانت هى الانتماء الحاكم، وكان اختلاف المعتقد يشكل انتماء محكومًا وتابعًا. ونحن نعرف كيف أن قريشًا وبنى هاشم كانوا يحمون رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، رغم اختلافهم مع دعوته ورغم حربهم له. وحيث سادت الوحدة الدينية، سواء الوحدة الإسلامية حتى الدولة العثمانية، أو الوحدة المسيحية الأوروبية فى القرون الوسطى، كانت التكوينات اللغوية أو القبلية تشكل وحدات انتماء محكومة بالوحدة الدينية الشاملة هذه. وعلى العكس عندما سادت التكوينات القومية صارت الوحدة المؤسسة على العقيدة مما يشكل وحدات انتماء فرعية محكومة بالجماعة القومية.. هكذا.

وفى الأدب السياسى الإسلامى كان تآزر الجماعة مع بعضها البعض يسمى العصبية أو الحمية، وهى هذا الشعور الداعى إلى نصرة الجماعة. وكان تحسينه أو تقبيحه يتوقف على ما إذا كان يقوم بنصرة الجماعة ضد أعدائها فيكون حسنًا مدعوًا إليه، أو يقوم بنصرة جماعة فرعية ضد الانتماء العام فيكون قبيحًا منهيًا عنه. ومن هنا فإنه عندما تتراتب وحدات الانتماء بين عام وخاص وبين حاكم وتابع، بفعل ما يقوم فى مرحلة تاريخية ما من ترتيب يصون الجماعة الأشمل، فإنه يقوم لدى الجماعة العامة الحاكمة واجب أن تحمى الجماعات الفرعية المندرجة تحتها، أن تحميها من تهديدات الخارج وأن تحفظ لها نصيبها فى الوجود الذاتى إزاء الجماعات الفرعية الأخرى. وهى إن لم تفعل، إن لم تقم بواجب ما نسميه الآن بحفظ أمن الجماعة الأشمل وتحقيق التوازن بين الجماعات الفرعية، فإنها تنكسر وتنفك على المدى الزمنى المناسب لذلك.

وأذكر هنا عبارة رفيق العظم عندما قال: «للاجتماعات نظامات وروابط هى العصبيات، تكاد تكون طبيعية بين البشر، أهمها الروابط العامة التى تجمع قومًا أو أقوامًا على كلمة واحدة، وهى رابطة العشيرة أو الجنس أو الوطن أو الدين..»، «كل مجتمع مهدد فى كيانه من المجتمع الآخر، ما لم يكن ذا رابطة تجعله متكافئًا معه فى القوة، تراعى فيها النسبة فى القوة بين الرابطتين، فكلما اتخذ المجتمع رابطة أوسع تحتم على الآخر أن يتخذ ما يقابلها..»، «ولا يصح أن نقابل أية رابطة أو عصبية برابطة أو بعصبية أقل منها: عشيرية كانت أو وطنية أو دينية». وكان يقول ذلك ليزكى الجامعة الإسلامية العامة فى ظروف الهجمة الأوروبية العامة على الديار الإسلامية. وهذا الذى زكاه - وقتها - لم يحدث؛ ولذلك

لم يحتل الغرب الأرض ويستعمر الشعوب فقط، ولكنه انتهك الجماعات السياسية فى توحدها وتكاملها، وقسم الأقطار والأقاليم لا على وفق هذه الجماعات، هذا الفعل الاستعمارى كافحته حركات التحرير، ولكن لم تلغ مشيئته فى التقسيمات الحاصلة منه

انكسرت الجماعات الإسلامية المفككة أمام الطغيان الأوروبي في بداية القرن العشرين.

[٢]

إن ظاهرة الاستعمار التي عانت منها بلادنا كانت أعمق أثرًا مما يبدو في الكثير من الدراسات التي عالجت أوضاعنا السياسية والاجتماعية ومشاكلنا الحياتية. أقول ذلك لأننا عادة ما نعالج هذه الظاهرة في نشأتها وفي مقاومتنا لها كما لو كانت مسألة خارجية متميزة عن سياق التطور والتغيير الذي يمس كيان الجماعة السياسية، ونظم إدارتها، ومجمل الأفكار التي تسود وتتداول، والوظائف الفعلية لكل من ذلك في الحياة الواقعية. وإن ما يمس ذلك في الموضوع الذي نتعرض له في هذه الورقة، إنما يتعلق بالجماعة الوطنية أو الجماعة السياسية بعامة، وبنظم إدارتها.

ونحن عندما ننظر في التاريخ المعاصر لبلادنا الإسلامية والعربية، نلحظ أنه حتى نهاية القرن التاسع عشر كانت الجامعة السياسية الحاكمة في إدراك المواطنين، هي الجامعة الإسلامية التي قامت على أساس حفظ الجماعة السياسية برباط الدين الإسلامي، وكانت الدولة المشخصة لها في إدراك المواطنين هي الدولة العثمانية، وعلى الشاطئ الحضاري - المقابل في أوروبا، وفي أوروبا الغربية بخاصة، كانت الجامعات السياسية الحاكمة قد تبلورت على أساس الجماعات القومية التي تقوم برباط اللغة، وقامت على أساسها الدول المشخصة لها.

وإن ما حدث لدينا في المشرق، لم يجر على المنوال الأوروبي الغربي، من حيث قيام التناثر الإقطاعي هناك، ثم تبلور الجامعات القومية في حركات توحيد ونشوء للدول القومية، وذلك من خلال التفكك وإعادة التصنيف والتجميع الذاتي. إنما جرى لدينا على أساس إضعاف الدولة العثمانية القائمة على أساس الدين، أو بعبارة أدق استغلال ضعفها الذاتي والتلقائي لإبقائها على تلك الحالة من الوهن ومن فقدان القدرة على النهوض، ومن السعي لإفشال حركات الإصلاح التي بدت أحيانًا مبشرة بالنهوض، وذلك لاقتسام أشلاء هذه الدولة شلوًا شلوًا، حسبما تسنح الظروف لأي من القوى السياسية الأوروبية الطامعة في استعمار هذه البلاد. وإن الظروف لتسنح لذلك وفق موازين القوى بين الدول الأوروبية المتنافسة، ووفق ظهور الفرص التاريخية لاستعمار قطر ما أو لاحتلال صُقع ما. وهذا ما عبر عنه المؤرخون والكتاب الأوروبيون باسم «المسألة الشرقية» في القرن التاسع عشر، وما عبرت عنه السياسة البريطانية وقتها باسم «الرجل العثماني المريض»، الذي يحرصون على استبقائه مريضًا لكي يستثمروا الفرص في الاقتطاع من جسده إربًا إربًا.

في ١٨٣٠ احتلت فرنسا الجزائر، وفي ١٨٣٩ احتل الإنجليز عدن للسيطرة على باب المندب جنوب البحر الأحمر لتأمين طريقهم إلى الهند، وفي ١٨٨٢ احتل الإنجليز مصر للسيطرة عليها وللسيطرة على شمال البحر الأحمر، وفي ١٨٨١ سيطرت فرنسا على تونس، وفي ١٩١٢ سيطر الفرنسيون على المغرب وسيطر الإيطاليون على ليبيا. وبقي للدولة العثمانية أرض الأناضول والبر الشامي حتى العراق. وفي ١٨٩٩ سيطر الإنجليز على السودان حتى منابع النيل، واقتطع الصومال بين الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين فضلاً عن الأحباش، واقتطعت أفريقيا جنوب الصحراء بين الإنجليز والبرتغاليين والبلجيك والفرنسيين والألمان.

أقصد من ذلك أن أوضح أن عمليات الاقتطاع الاستعماري لم تتوخ التكوينات الجامعة التي تقوم بها وحدات سياسية ووحدات انتماء شعبي، ولا كان هدفها أن تصون أمرًا من ذلك، إنما كان الاقتطاع يتم حسب القدرة الذاتية للدولة الاستعمارية على اختلاس إقليم ما، وحسب موازين القوى بين الدول الاستعمارية بعضها وبعض، لأن الأمر كان أمر اقتسام وتوزيع، وهو أمر انعقدت له المؤتمرات الأوروبية عندما استدعت الحاجة ذلك لتوزيع الأقطار والأقاليم، كما حدث في مؤتمر برلين ١٨٨٤ - ١٨٨٥ الذي قسمت فيه أقاليم أفريقيا بين الدول الاستعمارية الأوروبية، وكما حدث أيضًا في اتفاق سايكس بيكو ١٩١٦ الذي جرى وعقد سريًا أثناء الحرب العالمية الأولى بين بريطانيا وفرنسا لاقتسام بلاد الشام والعراق بعد الهزيمة المتوقعة للدولة العثمانية.

من ذلك يظهر أن التكوينات السياسية التي ظهرت، من أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين لم تكن تتطابق مع تكوينات الجماعات السياسية حسب أي من معايير التصنيف التي تجمع هذه الجماعات وتميزها عن غيرها، سواء كانت نسبية قبلية أو لغوية أو دينية عقيدية. إنما عكست أكثر ما عكست موازين القوى بين الدول الاستعمارية، سواء بالنسبة لكل منها إزاء الأخرى، أو بالنسبة لسابق وجود لها في الإقليم المعنى، أو بالنسبة للأهمية الاستراتيجية والجغرافية لإقليم أو قطر معين بالنسبة لدول استعمارية معينة إزاء الدول الاستعمارية الأخرى.

وهذا التقسيم الذي روعيت فيه العلاقات الدولية للمستعمرين، وبما لم تراع فيه الوحدات القبلية أو اللغوية أو الدينية، هو الذي تشكلت به «الحدود الدولية» لكل إقليم أو قطر أو صُقع في كل من البلاد الإفريقية أو بلاد ما أطلق عليه «الشرق الأدنى»، «والشرق الأوسط»، «والشرق الأقصى». باعتبارها مناطق دولية توصف لا بوصف ذاتي يتعلق بأي منها، ولكنها توصف بمدى قربها أو بعدها عن المكان الأوروبي، وذلك بما يفيد تجريدها من أية أوصاف ذاتية تتعلق بالجماعات التي تحيا في أي من هذه المناطق.



وقد جاءت هذه الحدود السياسية بين الأقاليم والأقطار، بموجب موازين القوى بين الدول المستعمرة، لذلك لم تراع الجوامع السياسية الاجتماعية بين البشر، ولم تراع الوحدات القبلية مثلاً في البلاد الأفريقية، ولا راعت التكوينات اللغوية والدينية، فصارت وحدات الانتماء الجماعية، في كل من هذه التقسيمات، تدور بين التعدد داخل حدود كل تقسيم وبين عدم الاكتمال؛ لأن جزءًا أو أجزاء في داخل كل تقسيم يجد كماله وتمامه مع ذويه خارج حدود هذا التقسيم. وهذا يظهر أوضح ما يظهر في بلدان أفريقيا من حيث التداخل والتعدد والتنافر، ومن حيث تقسيم المتجانس والمتناسب، وتجميع المتنافر والمتعاكس.

وبالنسبة للبلاد العربية، لا يظهر ما الذي يضم أجزاء سوريا الحالية بعضها إلى بعض مما لا يضم لبنان مثلاً والأردن أيضًا، وما الذي يجمع بين العراقيين بعضهم مع بعض، ولا يضم أجزاء من الخليج العربي شرقًا وغربًا إليها، وما الذي يفصل المملكة السعودية عن أجزاء من شرق الجزيرة العربية من حيث التجانس القبلي والعشيري فضلاً عن توحد اللغة والدين والتاريخ. ولا يُعرف سبب جماعي لاعتبار عدن إقليمًا سياسيًا منفصلاً عن اليمن. وبالنسبة لباكستان والهند فلا يعرف سبب جماعي أيضًا يفصل كشمير عن باكستان ويضم إليها باكستان الشرقية التي نعرفها بمنطقة البنغال التي انفصلت من بعد وكونت دولة بنجلاديش.

وبالنسبة لمصر، فقد يظهر على السطح أن جماعتها السياسية البشرية مؤتلفة وتشكل جماعة مكتملة، وقد يمكن أن يساعد على هذا التصور ما يحيط بها من الصحاري غربًا وجنوبًا ومن البحار شرقًا وشمالاً، وما فعله التجمع قرب نهر النيل من النوبة إلى الإسكندرية ودمياط، ما فعله ذلك من



إسباغ وصف «دولة» على إقليم معين إنما جرى - لا بسبب يتعلق بالجماعة السياسية ذات الوجود المتجانس التي تعبر عنها هذه الدولة وتشخصها جماعة ومصالح - إنما صارت الدولة تنشأ أولاً لاحتياج خارجي، وتترسم حدودها الجغرافية وفقًا لهذه الاحتياجات



تداخل بشرى كثيف ومن تزاحم وتفاعل موحد فى الشعور والخبرات التاريخية والتكون النفسى المتجانس، وكل ذلك صحيح جداً، ولكنه رغم صوابه ينطوى على نقص خطير يتعلق بتمام الانتظام البشرى. ذلك أن الحدود الجغرافية لمصر تنحسر عن أن تستوعب أوضاع أمنها القومى، ومصدر الحياة لمصر وشعبها هو مصدر شبه وحيد، وهو نهر النيل، وهو نهر واحد، وهو يأتى بالمياه من مصادر تبتعد عن مصر بمسافات تتراوح بين الفى كيلو متر وثلاثة آلاف كيلو متر من حدود مصر الجنوبية. فمصر باعتبارها كائناً حياً (بشراً وحيواناً ونباتاً) توجد أمعاؤه خارج جسمه. أرأيت إلى النخلة، تريد أن تفصل تاجها وجزءها العلوى عن جذعها وجذرها. ومن جهة أخرى، فمصر، أغلب ما جاءها من الغزو العسكرى أو التهديد بالغزو إنما جاءها من حدودها الشمالية الشرقية. ولسنا فى مجال سرد تفاصيل التاريخ فى هذا المجال، ولكن واقع الخبرة التاريخية يُظهر أن مصر ومنطقة الشام والحجاز هى منطقة أمن واحدة، ولا أظن أن النظرية العسكرية الحالية فى بدايات القرن الحادى والعشرين، قد عدلت من هذا النظر ومما خلصت إليه خبرة التاريخ. وكتابات العسكريين فى هذا الشأن، وحتى اليوم، سافرة الدلالة، واضحة المعنى على أن الأمن العسكرى لمصر يدور فى منطقة تبدأ من باب المندب جنوب البحر الأحمر شرقاً وغرباً إلى شمال سوريا شمالاً بشرق.

وبهذا يبين أن هذا الكائن الحى الذى اسمه «مصر»، توجد أمعاؤه خارج جسمه فى الجنوب، ويصوب الرصاص إلى رأسه من خارج حدوده المتاخمة شمالاً بشرق.

ومن هنا، فإن الجماعة المصرية - وإن كانت متجانسة تماماً من الناحية البشرية والثقافية والتاريخية - إلا أن القسم الغالب من أمنها يقف خارج حدودها، فهى غير مكتملة، وأن هذه الحدود التى حُدّت بها مصر، ليست إلا نتاج عمل استعمارى غربى أقرته ووقعته معاهدة لندن فى ١٨٤٠، ورسم هذا الحد فى لندن، ولم تجتمع الدول الأوروبية الكبرى على أمر كما اجتمعت على هذا الأمر وقتها.

[٣]

عندما ظهرت حركات التحرير الوطنية فى بلادنا، كان من الطبيعى أن تظهر فى كل قطر وفى حدوده، وذلك لاختلاف الظروف السياسية والاجتماعية التى جدت، ولاختلاف أساليب حكم كل إقليم والتنوع الكبير للوسائل المستخدمة فى الاحتلال، وأنماط الحكومات، وطرائق التعامل.

وكان لكل دولة استعمارية أساليب تعامل تختلف عن أساليب تعامل الدولة الاستعمارية الأخرى، كما كان للطريقة التى وقع بها الاحتلال أثر فى تحديد أساليب الحكم والتعامل التالية للاحتلال، كما أن طريقة مقاومة الشعب المحتل أثرت فى تحديد وجوه التعامل الاستعمارى معه، فضلاً عن أن الهدف من الاحتلال، ثروة معدنية أو حيوانية أو طريقاً عالمياً، كان له أثره فى التحديد.

وكذلك، تأثر الأمر كله بالمرحلة التاريخية التى جرت فيها واقعة الاحتلال والحكم مع تغير أوضاع القارة الأوروبية وبلدانها على مدى القرون من السادس عشر إلى القرن العشرين، واختلافات تطوير أدوات الحرب ووسائل الاتصال وتغير الثقافة الاستعمارية، ذاتها بحكم النمو والانتشار وتغير موازين القوى بين القوى الاستعمارية من جهة، وبين كل منها والبلد المحتل من جهة أخرى.

يضاف إلى ذلك أن حركات التحرر ومقاومة السيطرة الأجنبية، لم يكن كل منها فقط على تنوع وتباين مع الحركات التحررية الأخرى. بل قام أحياناً بين بعضها البعض أنواع ودرجات من الصراع، ونتج هذا الصراع أو التباين بسبب طبيعة الصراع وأنواعه أحياناً، أو بسبب سياسة التحالفات أحياناً أخرى. وبالنسبة لصيغة الصراع، وهل يكون سلمياً حيث تتيح الظروف له ذلك؟ أو عنيفاً حيث تضطره الظروف إلى العنف؟، فإن ذلك يولد درجات من عدم التفهم بين حركات التحرر المتجاورة أو تلك التى يضمها سياق واحد، بمثل ما ظهر التباين بين حركة التحرر العنيف فى الصين مثلاً وبين حركة المقاومة السلمية فى الهند، فإن ذلك يجعل قوى التحرر الوطنى متعارضة من حيث الطبيعة السياسية والانتقاء الشعبى من طبقات وفئات معينة، ومن حيث الثقافة السياسية ذاتها.



أما الاختلافات الناتجة عن سياسات التحالفات بين حركات التحرير والحركات الثورية، فيسهل ملاحظة أن أية حركة تحرير أو مقاومة إنما تتطلع دائماً إلى مدد يأتيها من حلفاء لها فى الخارج تقوى به ضعفها، وتستعين به - فيما تستعين - على مواجهة جبروت الاحتلال والاستعمار. وإن التنافس الشديد الذى عرفته الدول الاستعمارية بعضها ضد بعض، ألجأ حركات التحرير أن يستند كل منها إلى الدولة الاستعمارية المنافسة، وكل يلجأ إلى خصم عدوه، يستمد منه الدعم، فتتصارع الحركات الوطنية فى حركة معاكسة لتصارع الدول الاستعمارية.

وجدنا الحزب الوطنى المصرى فى بداية القرن العشرين يستعين بفرنسا ضد الاحتلال الإنجليزى لمصر، ووجدنا الحركات الديمقراطية العربية فى الشام يستعين بعضها بالإنجليز فى مصر ضد حركة التتريك التى ظهرت وحكمت الدولة العثمانية بواسطة حزب الاتحاد والترقى، وذلك قبل الحرب العالمية الأولى، ووجدنا حركة التحرير فى عدن تستعين بإمام اليمن ضد الاحتلال الإنجليزى، فى حين أن ثوار اليمن ضد إمامهم، كانوا يركنون إلى الإنجليز فى عدن. ثم وجدنا فى النصف الثانى من القرن العشرين، أن حركة التحرير العربية تستعين بالحليف الروسى ضد الطغيان الغربى الأمريكى الصهيونى، بينما كل من إيران وتركيا يخشون الأطماع الروسية التاريخية فى بلادهم المتاخمة لروسيا، ويركنون إلى الدعم الأمريكى الغربى لهم، وهذا التطلع يشجع حكومات إيران وتركيا وقتها على التحالف مع الغرب وإنشاء القواعد العسكرية فى بلادهم للصالح الأمريكى الغربى العام.

بذلك اصطبغت حركات التحرر بالطابع القطرى الإقليمى الذى يلتزم بالحدود السياسية المضروبة عليها بفعل الاحتلال الاستعمارى والتقسيم الذى أجراه. لأن أساليب العمل عندما تتحدد بطريقة معينة وتتقيد بالإمكانات المتاحة لها، وتنحصر فى غايات تتوافق مع هذه المكنات، فهى أيضاً تنعكس على التشكل الثقافى والرؤية الذاتية، وتتحدد بها مناظير للأحداث، فتكون الحدود القطرية المرسومة على الأرض وفى الخرائط، هى ذاتها تقوم بها حدود فكرية ومنظور للرؤية يتحدد بها، وفقاً للأهداف المحدودة وللأساليب المتاحة، ويختار الرجال العاملون فى هذا الإطار ضمن التكوين الاجتماعى والطبقى والثقافى، ثم تتراكم خبراتهم العملية فى هذا الإطار أيضاً، فتشكل الحركة بوصفها حركة إقليمية قطرية، أياً كانت الدعاوى النظرية التى يتشدق بها البعض.

أضرب لذلك مثلاً من الحركة الوطنية المصرية المقاومة للاحتلال الإنجليزى فى النصف الأول من القرن العشرين، كانت حركة تهدف لإجلاء الإنجليز عن مصر واسترداد وحدة مصر مع السودان. وكان يفصل مصر عن السودان حد رسم عند خط العرض رقم ٢٢ شمال خط الاستواء. ورغم أن الوطنيين المصريين وضعوا مطلب وحدة مصر مع



حركات التحرر الوطنى إن كانت استطاعت أن تزيح الاحتلال الأجنبى الاستعمارى عن أراضيها فى داخل أقطارها إلا أنها احتفظت بالحدود الاقليمية والقطرية التى سبق أن وضعتها الفترة الاستعمارية



السودان وضعًا مثيلاً لمطلب جلاء الإنجليز عن مصر، فإن المكنات السياسية لحركة التحرير المصرية قصُرت عن أن تتخطى خط العرض المرسوم، وكانت تتشكل تشكلاً مصريًا بحتًا ليس للسودانيين فيه نصيب، وكانت تتشكل بمراعاة ممكنات المواجهة مع المستعمر فى نطاق الظروف المصرية، دون حساب لما تستلزمه أهداف الوحدة مع السودان من أنواع مواجهات مختلفة. وتحدد الفعل المصرى المكافح فى إطار الرؤية المحدودة بظروف مصر فقط؛ لذلك لم يكتب لهذا المطلب المصرى الجاد أى نصيب من التحقق، ولا وسعت الخبرة المصرية ظروف السودان وشعبه.

وأضرب لذلك مثلاً آخر، يتعلق بتجربة حزب البعث العربى فى بلاد المشرق العربى. وهو حزب واحد، وتكون تكوينًا قوميًا بقيادة قومية واحدة، ظهرت فى سوريا وأرض الشام، ثم صار ذا فروع فى بلاد عربية عديدة، ومطلبه الأساسى بعث العروبة وتحقيق الوحدة العربية، وكان أقوى انتشار له فى سوريا والعراق، وتولى فريق البعث فى كل من البلدين الحكم فى بلده مستقلاً عن الآخر فى عملية سياسية أنتجتها ظروف كل بلد مستقلاً عن الآخر، وفى أوقات منفصلة. وما لبث الفريقان أن تدابرا وصارت بينهما من الجفوة السياسية الحزبية والحكومية، ما يكون من خصام الغرباء المتنافسين المتضادين، واستخدمت آلة الدولة فى كل من البلدين ضد مؤيدى الفريق الآخر من مواطنيها.

وفضلاً عن ذلك، فإن حكومات هذه الأقطار كانت نشأت فى الإطار الإقليمى الذى تحدد على وفق التقسيمات التى رسمتها موازين القوى الاستعمارية حسبما سلفت الإشارة، وحيثما كانت هذه الأقطار منسلخة من جماعات أخرى ومن دول قديمة سابقة، لم يكن لديها جهاز حكومة قديم مستقل مدرب على ممارسة الحكم وإدارة شئون الجماعة المحكومة. ومثل هذه الأقطار ساهم الاحتلال الأجنبى فى تشكيل أجهزتها الحاكمة وفى تشكيل إدارتها، وبعضها تشكل من أقليات دينية أو مذهبية أو قبلية ليسهل إلحاقها بسياسة الاحتلال، وبعضها تشكل من فئات لم تكن من النخب التى شاركت سابقًا فى الإدارة؛ حتى يسهل ارتباطهم بسياسة الاحتلال من حيث الموالاة، ومن حيث الخبرات المكتسبة التى لا تزاحمها خبرات تقليدية قديمة، إلى غير ذلك من الاعتبارات التى تجعل فئة الحكم والإدارة الجديدة أكثر موالاة لسلطة الاحتلال القائم، منها إلى الجماعة أو الجماعات السياسية التى يضمها القطر المحتل أو الإقليم. ويستثنى من ذلك أقطار مثل مصر التى لم تتعدد فيها الجماعات السياسية المتزاحمة على الاختلافات الدينية أو المذهبية أو القبلية أو اللغوية، وإن كانت هذه الأقطار لم تكن تعكس جماعة مكتملة، حسبما سبقت الإشارة عن مصر.

والحاصل أنه عندما انتصرت حركات التحرير فى النطاق الإقليمى القطرى، كل حسب ظروف نصره وأزمان نصره، سيطرت على حكومات بلادنا فى النطاق الإقليمى القطرى أيضًا، ولم تتجاوزه بطبيعة الحال، وأن حركات التحرير الوطنى التى سيطرت على دولها وأجهزة الحكم فى أقطارها، وإن عدلت وحورت من أجهزة الحكم السابقة بما يتناسب مع السياسة الوطنية الجديدة، وهى وإن غيرت فى تشكيلات كبار العاملين فى هذه الأجهزة وأحلت محلهم من أنصارها وذوى نظرتها وسياستها المستقلة المتحررة، إلا أن نطاق الحكم ظل قطريًا وإقليميًا، واصطبغت حكومات التحرر الوطنى بالصبغة القطرية الإقليمية، ولم تستطع أن تتجاوزها لا من حيث السياسات ولا من حيث الخبرة وتراكمها، وعكست فى ذلك أوضاع التقسيمات القديمة التى آلت إليها من عهد الاستعمار.

والأخطر من ذلك، أن حكومات التحرر الوطنى استمر معها قيام الفجوة بين جماعة سياسية وجماعات سياسية شعبية متعددة وغير مكتملة، فهى متعددة داخل الكيان القطرى الإقليمى الواحد الذى تحدد بالسياسات الاستعمارية وموازين التنافس بين الدول الكبرى، ولم تتكامل على حدود الجماعة السياسية وفقًا لأى من التصنيفات الفاعلة فى هذا الشأن، أى لم تتكامل تكامل الفرنسيين فى فرنسا ولا تكامل الإنجليز فى بلادهم، إنما قامت وفقًا للحدود الإقليمية والقطرية التى سبق أن وضعتها الفترة الاستعمارية التى قامت ضدها حركات التحرر الوطنى وانتصرت عليها فى القطر المحرر سابق الاحتلال.



وهذه مفارقة مهمة، فإن الفعل الاستعمارى الذى قامت به الوحدات القطرية الإقليمية، والذى لم يحتل الأرض ويستعمر الشعوب فقط، ولكنه انتهك الجماعات السياسية فى توحدها وتكاملها، وقسم الأقطار والأقاليم لا على وفق هذه الجماعات، هذا الفعل الاستعمارى بوجهيه كافحته حركات التحرير فيما يتعلق بالاحتلال والاستعمار، ولكن لم تلغ مشيئته فى التقسيمات الحاصلة منه، وما أدت إليه من تمزيق وتبعثر للجماعات السياسية المعنية. وأكثر من ذلك فإن حكومات التحرر الوطنى أبقت هذه التقسيمات واعتمدتها وأرجأت النظر فيها، إما دعمًا لها من بعض هذه الحركات وحكوماتها، وإما تفاديًا لصراعات تنشأ ولا يُعرف لها مآل بالنسبة لحكومات التحرر الوطنى حديثة التشكيل.

ولعل أهم مثال على ذلك ما حصل بالنسبة للدول الأفريقية حديثة الاستقلال فى الستينيات من القرن العشرين وما بعدها. فقد قامت منظمة الوحدة الأفريقية فى ١٩٦٣، ووقع ميثاقها فى ٢٥ مايو ١٩٦٣ فى أديس أبابا من اثنتين وثلاثين دولة مستقلة، زادت بعد ذلك بما انضم إليها تباعًا من الدول التى استقلت. وكان قد أثير موضوع الحدود لهذه الدول مما سبق للاستعمار المنحسر عن القارة أن فرضه. واختلف الأعضاء فيما إذا كان ينظر فى إعادة رسمها وفق الجماعات السياسية الشعبية أم لا، ولكن الاتجاه الغالب رجح بوضوح الإبقاء على الحدود كما هى. وهذا الاتجاه ذاته لم يشأ أن يطرح - صراحة - مبدأ المحافظة على الحدود بوصفه حكمًا فى الميثاق، لا لعدم الاقتناع به ولكن خشية ألا تحظى الموافقة على المبدأ بالإجماع المطلوب، أو أن ينكشف الخلاف ويتطور فى هذا الشأن، والمهم أن المحافظة على الحدود الاستعمارية السابقة صار مبدأ لدى حكومات الاستقلال الوطنى. وإن استمسكت دول التحرر الوطنى بميراث الحدود الإقليمية الذى آل إليها من الاستعمار.

ونحن فى عالمنا العربى نعرف أيضًا ما حدث من تمسك بحدود اتفاقية سايكس بيكو فى بلاد المشرق العربى، فقد ظلت بعد الاستقلال فى الأربعينيات من القرن العشرين على ما كانت عليه أيام الاحتلال الفرنسى الإنجليزى لهذه البلاد، إلا ما حدث فى فلسطين مما كان له شأن آخر، وقد ظهرت بعد ذلك مشروعات توحيد باسم «الهلال الخصيب» تضم بر الشام كله والعراق، ومثل «سوريا الكبرى» تضم بر الشام كله، ولم يفض شىء من ذلك إلى شىء فى الواقع.

ومصر، بترت عن جاراتها فى الشمال الشرقى، أى فى بر الشام، منذ اتفاقية لندن فى ١٨٤٠ مع بقائها الشكلى فى الإطار العثمانى، ثم بُترت عن حدودها الجنوبية مع السودان بعد الاحتلال الإنجليزى لها فى ١٨٨٢ وإنهائهم الوجود المصرى فى السودان، ثم إعادة فتح السودان لصالح الإنجليز وإبرام اتفاقية ١٨٩٩ حول هذا الأمر، وظهرت دعوة وحدة وادى النيل بين مصر والسودان، وهى دعوة صنو، لدعوة الجلاء البريطانى عن مصر، ولكن تحقق الجلاء عن مصر فى ١٩٥٦ فى ذات الوقت وفى ذات السنة التى



الجماعة المصرية - وإن كانت متجانسة تمامًا من الناحية البشرية والثقافية والتاريخية - إلا أن القسم الغالب من أمنها يقف خارج حدودها، فهى غير مكتملة، وأن هذه الحدود التى حدِّت بها مصر، ليست إلا نتاج عمل استعمارى غربى



تحقق فيها الانفصال بين مصر والسودان، بجلاء الإنجليز عن السودان بموجب اتفاقية ١٩٥٣ ونشوء حكومة السودان المستقلة فى ذات السنة.

[٤]

إن الاستعمار ليس عدوانًا فقط، وليس ظاهرة سياسية عسكرية تأتى ثم تذهب منفردة، ولكنه مثل أى مؤثر سياسى اجتماعى تاريخى ذى فاعلية، يولد آثارًا ويغير من أوضاع، وإن وجوده من شأنه أن يغير من هيكل الأوضاع التى كانت قائمة قبل وفوده، فينهى عناصر قوة كانت موجودة، وينهى أيضًا عناصر ضعف كانت قائمة قبله، وكانت هى ما تسبب فى تحقيق الاحتلال، ولكن تنشأ فى ظله عناصر قوة جديدة من أنواع مستحدثة لم تكن قائمة، كما تنشأ فى ظله عناصر ضعف ووهن واضطراب جديدة من أنواع مستحدثة أيضًا لم تكن قائمة بهذه الصورة أو الكيفية من قبل، أرأيت إلى الشخص يمرض لعلل فيه، ثم يورثه المرض عللاً جديدة لم تكن فيه، فإذا أبل من مرضه الأول لزمه علاج جديد لعلته الطارئة.

وأظهر مثال على ذلك، ما سبقت الإشارة إليه، من أن الاستعمار بإمكاناته الذاتية وبموازين علاقاته مع الدول الاستعمارية الأخرى، قد أنتج تقسيمات وحدودًا للأرض المحتلة لم تكن قائمة بهذه الصورة من قبل، وهذه الحدود والتقسيمات نشأت فى ظلها مؤسسات تحددت فى نشاطها بهذا النطاق، سواء كانت حكومات عهود الاحتلال المؤيدة له، أو حركات التحرر والمقاومة لهذا الاحتلال، نشأ ذلك محصورًا كل منه فى النطاق المضروب، فصار ذا خصائص إقليمية قطرية محدودة بهذا النطاق.

أرأيت إلى المادة تنضغط فى وعاء أو تنشأ منضغطة فيه، فإذا انفك الوعاء منها وسقط، بقيت هى فى تشكلها الداخلى تتخذ حجم الوعاء المنفك وقده، وتمارس وظائفها فى هذا النطاق؛ لأنها بطاقاتها وإمكاناتها صارت محكومة بهذا القد، كما أن علاقاتها الداخلية وقدراتها الذاتية بين أجزائها صارت مترابطة على هذا الوضع، وبحيث إن امتدت أطرافها وتباعدت أوصالها، فإنها تتفكك وتتفسخ. ومن هنا تقوم هذه الذاتية - من حيث تدرى أو لا تدرى - بالمحافظة على هذا الوضع الراهن.

هكذا كان الشأن بالنسبة لحركات التحرر الوطنى التى أجلت المحتل الأجنبى وأنهت فترة الاستعمار الغربى التقليدية السابقة، وهكذا كان الشأن بالنسبة لحكومات التحرر الوطنى التى ورثت عهود الاستعمار السابقة، وحلت محلها فى حكومة مجتمعاتها، صارت محدودة القد والوظيفة والقدرة والنظرة فى الإطار الإقليمى الذى مارست حركتها السياسية فيه من قبل الإطاحة بالاستعمار، وصارت محدودة فى كل ذلك من آلة الحكم التى ورثتها وشغلتها من بعد جلاء المستعمر وحلولها محله.

ونحن نعرف أن التشكل العضوى لأىّ تنظيم سياسى حركى، من حيث صفات الأعضاء المنتظمين فيه، ومن حيث علاقات تبادل المعلومات والخبرات، وأساليب اتخاذ القرارات، والالتزام بها وتنفيذها، هذا التشكل العضوى واللائحى فى التنظيم السياسى الحركى يصير هو ذاته التشكل الذى تنبنى به الدولة التى سيطر عليها ويشغلها من بعد، وتتشكل به خرائط توزيع القرارات واتخاذها وتنفيذها، وهو ذاته الذى تتحدد به أوصاف الأعضاء ونوعياتهم. ومثال ذلك مثلاً، فإن الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط قامت فى مصر بموجب التشكل المختلط من ذوى الديانتين من المصريين، سواء فى التشكيلات الحزبية التى ظهرت فى مصر تطالب بالاستقلال واستكماله وإجلاء الإنجليز، أو فى التشكل الذى بُنِىَ به جهاز الدولة ومن بعده؛ لذلك لم تقم مشكلة حقيقية فى مصر تتصل بهذا الشأن. أما ما كان بالنسبة للسودان، فقد كان أمرًا مختلفًا، إذ لم يَبْنِ أى من حركات السياسة التحريرية فى مصر بتكوين مشترك من مصريين وسودانيين، ولا كان ذلك مما تشكلت به أجهزة إدارة الدولة فى مصر ولا فى السودان؛ لذلك لم يكتب للوحدة أن تتم بين مصر والسودان. وصار الجهاز الحكومى فى كل من مصر والسودان جهازًا معوقًا لتحقيق ما صبا إليه الجانبان من وحدة بينهما، أيقنا معًا أن صالحهما المشترك يقتضيها، فى مدى النصف الأول من القرن العشرين.

ومثال آخر، فإن حزب المؤتمر فى الهند نشأ ونما على أساس تكوين عضوى هندوسى فى الأساس، وما لبث أن ظهر بجواره حزب آخر هو العصبة الإسلامية، ورغم أن كلاً منهما كان معارضًا للوجود الاستعمارى الإنجليزى فى الهند، وكلاهما ينشد استقلال الهند من الحكم البريطانى، فإن هذا التركيب العضوى للتنظيم الحركى فى صورته الانفصالية لكل من الهندوس والمسلمين، هو ما حَكَم تشكل الجماعة السياسية من بعد، وحمل فى طياته القدر التاريخى المرسوم لانفصال مسلمى الهند عن هندوسها، ونشوء جماعتين سياسيتين مستقلتين فى ربوع الهند الكبير. وصار تكوين حركتين وتنظيمين هو جنين التكوين لجماعتين سياسيتين، ثم صار تكون حكومتين لكل من الهند وباكستان عائقًا صلدًا دون تحقيق الوحدة بينهما من بعد. وإذا كان الاحتلال البريطانى هو من أغرى كلا من الفريقين بالنشوء المستقل عن الآخر، فقد صار هذا النشوء نفسه عائقًا صلدًا حتى بعد خروج الإنجليز من الهند. وآل الأمر إلى ما نعرف جميعًا من جفوة وعداء، ومن وقوع باكستان فى براثن الهيمنة الغربية، ومن تمكن الغرب (الإنجليزى ثم الأمريكى) من الإفادة من عداء كل من الجماعتين الهنديتين للأخرى. فالهند الضعيفة أفضت إلى الاحتلال الإنجليزى، والاحتلال الإنجليزى أفضى إلى التقسيم، وزال الاحتلال وبقى التقسيم. وقام التهديد المتبادل يعمق الخلافات بين أهالى الدولتين.



وفضلاً عن ذلك جميعه، فإنه إذا كانت الدولة القطرية هى من معوقات الوحدة بين من يشتركون فى جماعة سياسية أشمل، وبين من يحتاجون إلى الاندراج فى هذه الجماعة الأشمل ليستقووا بها على ما يواجهون من مخاطر مشتركة، فإن ما حد - أيضًا - من القدرة على توحيد الأقطار المتشاركة فى جماعة أشمل، يتعلق بموازين القوى بين حركات التحرر وبين القوى الاستعمارية بخاصة والقوى الدولية الكبرى بعامة. نحن نلحظ أنه على مدى القرن العشرين تحقق الاستقلال السياسى للغالب الأعم من بلاد العالم وأقطاره التى كان تم اقتسامها بين الدول الغربية الكبرى فى مفتتح هذا القرن نفسه. ومع ذلك ورغم تحقق الاستقلال السياسى للغالب الأغلب منها، فلا نكاد نلحظ واقعة توحد جرت ونجحت بين بعض هذه الأقطار وبعضها الآخر.

ومصر والسودان، لم تستطيعا أن تتوحدا رغم دعاوى وحدة وادى النيل، ورغم الاحتياج الشعبى الحقيقى للوحدة لدى تيارات جد مؤثرة فى البلدين، وتحقق الانفصال السياسى فى منتصف الخمسينيات، ومصر وسوريا حققتا وحدة سياسية فى ١٩٥٨ وأنشأتا دولة واحدة، وسط زخم سياسى دعوى هائل تزكيه دعوى العروبة والتشوق للأمة الواحدة، ويدعمه الحس الحقيقى بالخطر المحدق من وجود دولة إسرائيل وتهديدها كلا الإقليمين المصرى والسورى فيما تهدد من أقطار العرب والمسلمين وشعوبهم، ويقويه سيطرة الوطنيين الوحدويين على الحكم فى كلا الإقليمين، فى شعور تعبوى عام يشمل العرب جميعًا ويحتضن أملهم.

ومع ذلك لم تستمر الوحدة أكثر من ثلاث سنوات ونصف (من فبراير ١٩٥٨ حتى سبتمبر ١٩٦١)، وكانت سياسات

الحدود الجغرافية لمصر تنحسر عن أن تستوعب أوضاع أمنها القومى، ومصدر الحياة لمصر وشعبها هو النيل، وهو يأتى بالمياه من مصادر تبتعد عن مصر بمسافات تتراوح بين ألفى كيلو متر وثلاثة آلاف كيلو متر. فمصر باعتبارها كائنًا حيًا توجد أمعاؤه خارج جسمه



الدول الكبرى مما أسهم فى حدوث الانفصام. فضلاً عن التكوين المؤسسى الحكومى الذى سبقت الإشارة إليه. ومحاولات توحيد مصر وليبيا والسودان فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات لم تسفر عن شىء متحقق، سواء فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر أو فى عهد خلفه الرئيس أنور السادات، وكانت الإرادة الوطنية تتكسر من دون ما تطمح إليه من توحيد، أو كانت المشيئة الاستعمارية تتغلغل فى الإرادة «الوطنية» لأى من الأقطار بما يفشل مسعى التوحيد.

وبالنسبة لغير العرب حدث ذات الأمر، فإن باكستان انشقت دولتين بانفصال بنجلاديش عنها فى السبعينيات، ويوغوسلافيا تناثرت دويلاتها شعاعًا فى شبه جزيرة البلقان، ومع انهيار الاتحاد السوفيتى، سقطت منه الجمهوريات الإسلامية لوسط آسيا والواقعة فى جنوبه، سقطت مكونة خمس جمهوريات. وهى إن كانت لم تجمعها من قبل جامعة سياسية ووحدة انتماء أشمل مع روسيا القيصرية أو روسيا الشيوعية، إلا أنها كان حريًا بها عند انهيار الاتحاد السوفيتى فى بداية التسعينيات أن تتجمع بجامع الإسلام أو جامع قومياتها التركية أو غيرها، ولكن لم يحدث شىء من ذلك، وما كان لروسيا ولا لأمريكا ولا للغرب بعامة - على تعارض مصالحه - أن يسمح بشىء من ذلك، يقوم فى بطن آسيا فى جنوب روسيا وغرب الصين وشمال الهند وباكستان وشرق إيران وتركيا، كما سقط من روسيا أيضًا جمهوريات البلطيق فى شمال أوروبا عند روسيا الغربية، وتناثرت فى بضع جمهوريات منها أوكرانيا وروسيا البيضاء وغيرها من ساحل البلطيق غربًا إلى ساحل البحر الأسود جنوبًا.

لا أخال أن وحدة جرت إلا ما كان من وحدة اليمن الشمالى مع جنوب اليمن المكون أساسًا من عدن وحضرموت عند شاطئ بحر العرب والبحر الأحمر. وكانت هذه حالة فريدة جرت فى «غفلة من الزمان الاستعمارى» إن صح هذا «التعبير الشاعرى»، ولعل من عناصر ما يحيط بهذا الحدث السياسى، أن زمان الحدث كان يواكب بدء سقوط الثنائية الدولية وبدء انهيار الاتحاد السوفيتى دون أن يظهر بوضوح ما تستقر عليه الأحوال، وأن المنطقة ذاتها لم تكن ذات أولوية سياسية تجعلها فى بؤرة الفعل الدولى للدول الكبرى، وأن الحكم اليسارى السابق لعدن كان انهياره بغير بديل داخلى معقول.

والمهم المقصود من ذلك كله، بيان أن حركات التحرر الوطنى إن كانت استطاعت أن تزيح الاحتلال الأجنبى الاستعمارى عن أراضيها فى داخل أقطارها، وإن كانت استطاعت أن تسترد قدرًا مهمًا من إرادتها الوطنية تتوخى بها صالح شعوبها فى هذه الفترة لما بعد الاستقلال، فإنها لم تستطع أن تحقق إرادتها الوطنية ولا أن تستجيب لموجبات توحيد الجماعات السياسية بما يضمن لها الموقع الأمثل والأفعل فى الإطار الدولى. وإن كان ذلك بسبب عاملين أساسيين، أولهما: أن الإرادة الذاتية لمؤسسات الاستقلال الوطنى القطرى صارت معوقًا للتوحيد، والثانى: أن موازين القوى الدولية لم تكن تمكن من تحقيق هذه الأقطار التى تنشئ كيانات دولية ذات بأس وقوة ومنعة.

[٥]

المواطنة - فى ظنى - هى واحد من وجوه الانتماء للجماعة السياسية، لأن المواطنة هى صفة للفرد الذى ينتمى لجماعة سياسية معينة، قامت على أساسها الدولة. والمبدأ النظرى أن الدولة تعتبر المؤسسات ذات السلطان التى تدير الشئون العامة للجماعة السياسية، وهى - بموجب حاكميتها للجماعة وإدارتها لشئونها العامة - تكون ذات سطوة وولاية عليها، بقدر يضيق ويتسع، ويشتد ويضعف، حسب التنوع الهائل الحاصل فى هذا الشأن، ولكنه بموجب هذه الحاكمية يظهر إزاءه فى المقابل وصف المواطنة، بحسبانه وصفًا سياسيًا يتحدد به الطرف الآخر للعلاقة مع الدولة. والمواطنة بذلك هى الصفة التى تتعلق بالفرد بما توافر فيه من وصف سياسى قامت الدولة على أساسه.

والفارق - فى ظنى - بين «المواطنة» وبين «الجنسية»، هو فارق بين الوصف السياسى وبين المصطلح القانونى. الوصف السياسى هو وصف واقعى يُستخرج من أوضاع الحياة المعيشة، ويتعين بالاستقراء مثل ظواهر الطبيعة والظواهر الاجتماعية، وهو بذلك يعتريه التدرج بين الظهور والخفوت، وبين التحدد والتداخل، وبين الانضباط والتردد، وبين التيبس والمرونة. بينما المصطلح القانونى تتحدد به مراكز للحقوق تكون ثابتة كما تكون باتة وحاسمة، وتقطع بين الأمر وغيره. والقانون لا يحيط بالظاهرة ولا يحصى أفرادها، ولكنه يكتفى بما يتوافر «غالبًا» فقط، لأن الضبط لديه أولى، ولأن الظهور أجدى من حيث ما يتغيا من كفالة الحقوق وتحديدها وتعيين الواجبات والالتزام بها. وإذا كان الوصف السياسى يصدر عن أصحاب رأى فى مجتمعهم، فإن المصطلح القانونى يصدر عن ذوى ولاية بسلطانهم، ومن ثم يملكون التقرير وإن كان يتضمن قدرًا من التحكم.

فالمواطنة والجنسية، أمران يشيران إلى ظاهرة واحدة تتعلق بالوصف الذى يلحق الفرد بموجب انتمائه لجماعة سياسية قامت على أساسها الدولة. ولكن الأول يتناوله رجال السياسة والاجتماع بآرائهم ودعاواهم، والآخر يملكه رجال الحكم بقراراتهم وسلطانهم وتحديدهم لحد الواجب وحد الحق.



والمواطنة - باعتبارها وصفًا - يكفى فيه التقبل العام والتراضى العام حسبما يشيع بين الناس وتتقبله الحياة الاجتماعية، وقد كان ذلك كافيًا فى المجتمعات القديمة، وقبل ظهور الدولة الحديثة فى القرنين الماضيين. أما الجنسية فهى بما يتعين أن يتوافر لها من ضبط وتحدد، إنما ظهرت مع ظهور الدولة الحديثة من حيث ما انكفل لأداة هذه الدولة من كامل الهيمنة على المجتمع، ومن حيث ثبوت الحدود الإقليمية للدول بالضبط الذى بينته الخرائط، ومن حيث ما صار لهذه الدولة من ولايات محددة لإصدار القرارات والقوانين وما كفلته أساليب الإدارة الحديثة من الإثبات الكتابى وحفظ المكاتبات وغير ذلك من ضبط السجلات والأضابير.

والمواطنة تكشف عن انتماء سياسى للجماعة، وعن علاقة بالدولة التى تحكم وتدير هذه الجماعة، ولا يقوم مشكل فى ذلك ما بقى الأصل النظرى سائدًا ومطبقًا فى الواقع العملى؛ أى ما بقيت الدولة تصدر وتؤسس على جماعة سياسية محددة ومتبلورة. ولكن الخلل يظهر عندما نلحظ ما لاحظناه من أثر الاستعمار على الجماعات السياسية وعلى نشأة الدول فيها بالنسبة لشعوب آسيا وأفريقيا، وما حدث من تقسيم وتفتيت لم يراع الضوابط والميزات التى تميز كل جماعة سياسية عن غيرها، من حيث الوصف والتصنيف السائد لدى شعوبها والذى يرتضونه مميزًا لهم عن غيرهم وكافلاً لمصالحهم المشتركة.

ولقد كان من شأن هذا التقسيم والتفتيت أن يُفضى إلى وضع من أوضاع الاستحالة بالنسبة لعلاقة الجماعة السياسية مع الدولة، من حيث عدم إمكان تحرير وصف المواطنة الذى يتصل بعلاقة الدولة برعاياها، ولكن الحادث أن الدولة الحديثة كانت قد نشأت وظهرت بما تتحلى به من مكنات التشريع والإقرار بالحقوق والواجبات لرعاياها، وظهرت قواعد الجنسية وأحكامها. وقد سبقت الإشارة إلى أن من الفروق بين مفهوم «المواطنة» ومفهوم «الجنسية»، أن مفهوم المواطنة تقرره



التكوينات السياسية التى ظهرت، من أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين لم تكن تتطابق مع تكوينات الجماعات السياسية حسب أى من معايير التصنيف التى تجمع هذه الجماعات وتميزها عن غيرها



الجماعة بالنسبة لأفرادها أو لجماعاتها المندرجة فى تشكيلها العام، وذلك بالتقبل والتعارف العام وفقًا لما يسود لديها من أعراف، أو بما يتداوله مفكروها وساستها من آراء يستخرجونها بالاستقراء والملاحظة لأوضاع الواقع والجماعات، بينما الجنسية تتحدد بمركز قانونى يحدد حقوقًا وواجبات، وتقرره الدولة بما تملك من سلطات التشريع والإنفاذ لقراراتها.

صار الوضع من الناحية الواقعية بالنسبة للجماعات والشعوب والبلاد التى خضعت للاستعمار، صار الوضع يتحدد - كما سبقت الإشارة - لا بموجب ما تكشف عنه التصنيفات البشرية من جماعات سياسية، ولكن بموجب علاقات القوى بين الدول الاستعمارية فى تحديد الحدود الجغرافية لمناطق نفوذها، أو بموجب علاقات القوى بين حركات التحرر الوطنى فى هذه الأقاليم والقوى الاستعمارية، وذلك بصرف النظر عن التميزات العرقية واللغوية والدينية والمذهبية والإقليمية، والتى تفرز جماعة عن جماعة، فصار الإقليم يتحدد أولاً بموجب توازنات القوى الخارجة عنه والمؤثرة فيه، ثم تتحدد على أساسه الدولة، ثم تظهر المواطنة بموجب ما تضعه الدولة من أحكام وقواعد للجنسية التى يتحدد بها رعاياها. وهذا بالضبط هو عكس الوضع الطبيعى الذى ينبغى أن يحدث.

ونحن نعرف أنه طبقًا للفكر السائد فى فقه القانون الدولى العام، أن الدولة هى جماعة من الناس تقيم فى إقليم معين وتقوم عليها حكومة، والتعريف يحدد المسألة، بما يكشف أن الجماعة السياسية هى الأساس، وهذا تكوين ثقافى - بطبيعة الحال - يعتمد على الإدراك لعلاقة الانتماء التى تربط ناسًا بعضهم ببعض، بالتفصيل الذى ورد فيما سبق بصدد هذا الموضوع، وأن الإقليم هو ما يتحدد به وجود الجماعة ذات الصيرورة التاريخية، وأن الدولة هى نتاج هذا الوضع؛ لأنها مؤسسة إدارة الجماعة والذود عنها مما هو مشترك وعام لديها. أما الصورة التى صيغت بها دول ما بعد الخضوع للاستعمار، فقد تعينت - أولاً - بموجب حدود جغرافية، ثم قامت الدولة على أساس هذه الحدود وما بها من شعوب أو جماعات بصرف النظر عن مدى التجانس والتوحد بينهم، وبصرف النظر عن مدى انتماء بعضهم لباقى جماعاتهم خارج الحدود الإقليمية المضروبة عليهم. ثم إن هذه الدولة هى من أصدر قانون الجنسية الذى تحدد به من هم مواطنوها. أى أنه بدلاً من أن يكون الشعب هو من عين دولته، صارت الدولة هى من عين شعبها. أرأيت إلى جمعية من الجمعيات أو شركة مساهمة من الشركات أو نقابة من النقابات؟ الأصل فيها أن جمعيتها العامة هى من يشكل مجلس إدارتها، أرأيت صورة هذه التكوينات: أن صار مجلس الإدارة هو الأصل وهو من يعين جمعيته العمومية؟



ترتب على ذلك ما نراه فى عالم اليوم من كيانات عجيبة، اتخذت وصف «الدول»، وأقر لها النظام الدولى الذى تسيطر عليه الدول الكبرى منذ القرن التاسع عشر، أقر لها بالوجود الشرعى بوصفها دولاً، وهى فى الحقيقة دول بغير جماعات سياسية ذات تميز وتكامل متبلور. فعرفنا دولاً هى فى الحقيقة مساحات أرض لإنتاج أو استخراج مواد معينة من باطنها؛ فهى تقوم بوظائف تقتضيها الأوضاع العالمية: متطلبات واحتياجات؛ بصرف النظر عن المتطلبات والاحتياجات التى يقتضيها شعب هذه الدولة، وهى تقوم بهذه الوظائف فى إطار القدرات والممكنات العالمية، بصرف النظر عن قصور القدرات والممكنات التى يطيقها شعب هذه الدول. ومن ثم، لوحظ أن عدد الأجانب فى بعض من هذه الدول يزيد على عدد من أقر لهم بالمواطنة بموجب قوانين الجنسية.

وعرفنا أيضًا دولاً هى فى الحقيقة قواعد عسكرية وجدت لتدافع عن المصالح الاستراتيجية للدول الكبرى فى إقليم معين، وجرت حركة تهجير شعوب إليها؛ ليقوموا بوظائف الخدمة والإدارة والتعزيز للوظائف العسكرية المنوطة بهذه الدول. وعرفنا دولاً تقوم بوظائف الأسواق التجارية فقط فى المنطقة التى وجدت بها، وتعتمد فى ذلك على حركة بيع للسلع التى ترد إليها من الخارج، وحركة شراء لذات السلع التى تصدر منها للخارج، والبائع والمشترى كلاهما أجنبى، والتجار أكثرهم أجانب، أو هم وكلاء لأجانب.

وعرفنا دولاً هى مجرد نقط مرور تقوم فى مضايق البحار أو وسط المحيطات لتقدم الخدمات الملاحية لمن يمرون عليها فى طرق التجارة الدولية. وصار إسباغ وصف «دولة» على إقليم معين إنما يجرى - لا بسبب يتعلق بالجماعة السياسية ذات الوجود المتجانس التى تعبر عنها هذه الدولة وتشخصها جماعة ومصالح - إنما صارت الدولة تنشأ أولاً لاحتياج خارجى، وتترسم حدودها الجغرافية وفقًا لهذه الاحتياجات، ثم تكتسب حماية المجتمع الدولى ومنظماته - لا لرعاية شعبها وجماعاتها ولا ذودًا عن شعبها وتحقيقًا لمصالحه - ولكن لرعاية الوظائف التى نيطت بها خدمة مجموعة الدول الكبرى المستعمرة، وسلس كل ذلك وسهل بموجب أن الإقليم كُون أولاً، ثم نشأت الدولة، ثم قامت الدولة بتعيين شعبها، وتحديد وصف المواطنة والذى يُسبغ على من ترى جدارتهم لتحقيق الوظائف المنوطة بالدولة من الخارج.

صارت الدولة - فى هذا النطاق وبهذه الوظائف المنوطة بها - ليست فقط عائقًا فى وجه تحقيق وحدة من يخضعون لها من فصائل شعبها ومن الجماعات السياسية التى تمتد خارج الحدود الإقليمية لهذه الدولة، ولكنها أيضًا دولة تنتمى إلى نظام الدول الكبرى المهيمنة فى العالم، وتخدم صوالح هذه الدول الكبرى، بصرف النظر عن وجوه الصلاح للجماعات السياسية الخاضعة لها، وصارت منافذ للوفود الأجنبى للجماعات الخاضعة لها، بدلاً من أن تقوم بالواجب الأول الذى يتعين أن تقوم به الدولة؛ وهو حماية شعبها من المخاطر الخارجية.

وقد لا تكون مصر على هذه الصورة الأخيرة بالنسبة لعلاقة الدولة مع الجماعة؛ بسبب ما لشعبها من تجانس، وما لذلك من أثر مهم فى تشكل دولتها، ولكن لا ننسى قط أن مصر غير مكتملة؛ لأن ما يتهدد أمنها القومى يوجد خارج حدودها الدولية المرسومة؛ ولذلك أثره الكبير فى أنها ما بقيت منكمشة داخل هذه الحدود، فهى بالضرورة ستكون خاضعة للقوة الأجنبية.

[٦]

إن هذا الذى حدث أوجد شرخًا مؤسسيًا فى بناء العلاقة بين الجماعة السياسية وبين الدولة، وذلك فى الغالب فى البلاد السابق استعمارها، أو البلاد التى نجح الاستعمار فى خط حدودها، بل الظن القوى أن هذا الحادث لم يشرخ تلك العلاقة فقط، بل صدعها فى الكثير من الحالات، فصارت الدولة تشكيلاً مؤسسيًا خارجيًا عن الجماعة مفروضًا عليها، وصار الخاضعون لها أشتاتًا من جماعات تتدرج بين التنافر وعدم التجانس وتوزع الأجزاء. وأوضح الأمثلة على ذلك الكثير من البلاد الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى.

وكما سبقت الإشارة، فإن الأصل أن تتبلور وتتعين الجماعة السياسية، وأن تقوم الدولة على هذا الأساس وفى هذا النطاق، ويتحقق وصف المواطنة لذويها. وأن ذلك يشكل البنية الأساسية التى يقوم عليها أى كيان سياسى أو



لا أخال أن وحدة جرت إلا ما كان من وحدة اليمن الشمالى مع جنوب اليمن المكون أساسًا من عدن وحضرموت عند شاطئ بحر العرب والبحر الأحمر. وكانت هذه حالة فريدة جرت فى «غفلة من الزمان الاستعمارى»



مؤسسة تنظيمية تظهر فى نطاقها.

لذلك من الطبيعى أنه كلما اختلت البنية الأساسية أو اضطربت عناصر تكوينها، كلما اختل واضطرب كل بناء يقوم عليها.

إن الجماعة السياسية تضم جماعات عديدة. وإن ما يميزها عنهم أنها الجماعة التى صارت مرشحة لأن تقوم بوظيفة تاريخية تتعلق بحفظ وحماية «المشترك العام» الذى يجمع عناصر هذه الجماعة؛ تصونها من مخاطر الخارج وتضمن لعناصرها أفراداً وجماعات إمكان العيش المشترك وتحقيق المستوى المعقول للعيش المشترك للجماعة بعناصرها المتضمنة فيها من النواحى المادية والثقافية، وبما لا يضمنه ولا يكفله تاريخياً إلا هذا التجمع. ومن ثم تعتبر الأوصاف القائمة بين عناصر هذه الجماعة السياسية الأساسية أوصافاً تابعة، تقوم بها جماعات انتماء فرعية محكومة بهذا الانتماء العام والذى يقوم به وصف الجماعة السياسية، ويعتبر به حاكماً لغيره بقدر ما يكون حامياً وحافظاً لهذا الغير.

والجماعة السياسية بهذا الاعتبار، لابد أن تكون هى الجماعة الحاكمة؛ لأنها هى ما يبلور فى مرحلة تاريخية معينة أصول الصالح المشترك بعيد المدى لمن يندرج فيها من أفراد وجماعات ووحدات اجتماعية، فهى حاكمة بمعنى أنها ترعى الصالح التاريخى المشترك لمكوناتها، وهى حاكمة بمعنى أنها توجد الصياغات السياسية والاجتماعية المناسبة لتحقيق توازن الوجود وتوازن المصالح المادية وتوازن الهويات الثقافية لما اندرج فيها من جماعات ثقافية وعقيدية ولغوية وإقليمية وعرقية، بحيث يكون اندراج هذه الجماعات الفرعية فى الجماعة السياسية الأساسية محققاً لها للقدر المناسب من الوجود الذاتى والثقافى والمادى، وكافلاً لهذا الوجود بما لا يكفله ولا يضمنه خيار تاريخى آخر، وبما يكفل لها جميعاً من الأمن تجاه مخاطر الخارج، ما لا يكفله خيار تاريخى آخر كذلك.

وبموجب كون الجماعة السياسية هى الجماعة الحاكمة وفقاً للوظائف السابقة، تقوم الدولة على وفق هذه الجماعة السياسية الأساسية، بما تتيحه مؤسسة الدولة من مكنات وصلاحيات لممارسة واجبات الحماية من مخاطر الخارج، وحفظ قوى التماسك الداخلى. وتصير الدولة وجهازها هى المشخص للجماعة السياسية، والمعبر عنها، والمحقق لإرادتها عندما تتهيأ الإرادة، ولفاعليتها وولاية نفاذها عندما تتقرر الفاعلية.

والدولة - بوصفها المعبر والمشخص الفاعل للإرادة الجماعية - يتعين أن تبنى على وفق ما اتصفت به الجماعة السياسية من وصف مميز لها، وجامع لوحداتها، ومانع من التباس غيرها بها، كوصف الإسلام إن كان هو ما جمعها، أو وصف العروبة إن كانت صارت كذلك، أو وصف المصرية أو السورية أو غيرها، ما بقيت كذلك، أو حتى الوصف القبلى أوالعشائرى حيث يكون هو ما تميزت به جماعة سياسية ما فى زمان أو مكان ما.

وإذا قامت الدولة لا بموجب الوصف العام الذى يجمع الجماعة السياسية ويميزها، ولكن بموجب وصف يتعلق بأى من الجماعات الفرعية المندرجة فى الجماعة السياسية، واقتصرت على من يضمهم انتماء فرعى فحسب، ولو فى مستوياتها العليا الخاصة باتخاذ القرارات ورسم السياسات، فإن ذلك من شأنه أن يكون مهدداً للصيغة العامة التى تقوم عليها الجماعة السياسية، ولقوة التماسك الواجب وجودها لوجود الجماعة العامة؛ ذلك لأن أى جماعة أو مؤسسة أو كيان تنظيمى، إنما تقوم له ذاتية خاصة به، وتستوعب هذه الذاتية مع الوقت فاعلية الكيان التنظيمى، وأن مما تنبنى عليه هذه الذاتية ما يضم القائمين على هذا الكيان التنظيمى من أوصاف مشتركة تمزج بينهم وتفرقهم عن غيرهم.



ونحن نعرف من تجارب الدول أن طوائف أو قبائل أو أهل إقليم اجتمع منهم ما صاغ المراكز الرئيسية فى تكوين لدول بعينها، فاصطبغت الدولة بهذا الوصف الإقليمى أو الطائفى أو القبلى، وصارت الدولة مفروضة على الجماعة كلها بموجب هذا الوصف الخاص، ولاحظنا ذلك فى باكستان مثلاً - عندما قامت الدولة الموحدة من باكستان الشرقية (البنجال) والغربية، وسيطر عليها أهل الغرب وحدهم، وانتهى الأمر إلى انفصال بنجلاديش عنها. ونلاحظه أيضاً فى مشاكل شمال السودان مع جنوبه، ولاحظناه مثلاً فى سيطرة أهل تكريت بخاصة على العراق، ونلاحظه فيما ترتب على سيطرة السنة العرب على العراق جميعه مما تجرى فصوله إلى الآن.

لذلك، فإنه يتعين فى صياغة مؤسسات الدولة أن تكون من حيث التكوين العضوى لها، ومن حيث الشاغلين لمناصبها الرئيسية وذوى الإرادة والنفوذ فيها، القابضين على مفاتيح حركتها، يتعين أن يكونوا ممن يضمهم الوصف المميز للجماعة السياسية التى قامت الدولة على أساسها، وألا يقوم مانع من شغل مناصبها يتعلق بمن توافر فيهم الوصف العام المذكور، ولا أن يقوم بالقانون أو بالعرف العملى المطبق ما يمنع ذوى انتماءات فرعية ما من تولى مناصب الدولة وشغلها، مادامت انتماءاتهم الفرعية مندرجة فى شمول الانتماء العام الذى تبلورت به الجماعة السياسية وانبنت به الدولة.

ومن هنا، يظهر أن الدولة لا تتكامل وظائفها ولا تتهيأ للقيام بها على النحو التاريخى المأمول، إلا إذا كانت تعكس فى تكوينها العضوى والذاتى ما تبلورت الجماعة السياسية على أساسه؛ ولذلك فإن ما حدث من اضطراب فى تشكل الجماعات السياسية بسبب الحدود الاصطناعية التى فرضتها أوضاع الاستعمار على بلاد آسيا وأفريقيا، وبناء الدول لا على وفق تشكل متكامل للجماعات السياسية، هذا الذى حدث جعل الدول المذكورة - فى أغلب صورها - لا تعكس فى تكوينها العضوى إلا أقساماً محدودة من القاعدة الشعبية التى تحكمها، والتى تتكون من أجزاء وأشلاء من جماعات شتى مبتورة وموزعة عبر حدود دولية مفروضة. ومن هنا لا نلحظ نظام حكم مستمراً منضبطاً فى تداوله، وفى تغيراته، وفى اتصاله بجمهوره، بصرف النظر عن مدى ما ينبنى عليه من ديمقراطية أو استبداد. أى أنه حتى الحكم المستبد قديماً كانت له منظومة يقوم عليها وأعراف تحكم تداولاته. أما الظاهرة المشار إليها هنا فهى تتخطى ذلك وتتجاوزه إلى أنواع من الاضطراب ناتجة عن هذا الصراع القائم بين الجماعة والدولة، لأن الدولة لا تعكس تكوينات الجماعة.

والحاصل - فى ظنى - أن اتصال الدولة بالجماعة السياسية من حيث إن الجماعة تكون متبلورة ومتكاملة، ومن حيث إن الدولة يتعين أن يكون تركيبها العضوى متجانساً ومتناسباً مع الوصف الذى تصنفت به الجماعة السياسية وتبلورت، هذا الاتصال هو شرط مسبق أو هو ما يمثل البنية الأساسية التى يقوم عليها نظام سياسى فعال، وجماعة قادرة على القيام بوظائفها التاريخية الفعالة، ودولة قادرة على تشخيص هذه الجماعة والتعبير عنها.

ونحن عندما ننظر فى أنظمة



على مدى القرن العشرين تحقق الاستقلال السياسى للغالب الأعم من بلاد العالم وأقطاره التى تم اقتسامها بين الدول الغربية الكبرى، ومع ذلك، فلا نكاد نلحظ واقعة توحد جرت ونجحت بين بعض هذه الأقطار وبعضها الآخر



الحكم فى التجارب المختلفة، يتعين علينا أن ننظر أولاً فى أوضاع البنية الأساسية للجماعة السياسية، والتى تقوم عليها هياكل البناء الحاكم. وإذا كنا فى هذا العصر الحديث المعيش نصدر عن مسلّمة فكرية تتعلق بأفضلية النظم الديمقراطية على نظم الاستبداد السياسى، وأن هذه الأفضلية إنما تقوم على مستوى الفاعلية السياسية فى حفظ أمن الجماعة السياسية وكفالة تماسك قواها، كما تقوم على مستوى الرشد فى النظر إلى الواقع وفهم أوضاعه وتقرير السياسات الخارجية والداخلية المناسبة، وكما تقوم على المستوى الأخلاقى فى ضمان الحد الأدنى المرجو من تحقق المساواة والنأى عن الظلم والجور، أو بالأقل ضمان السعى لهذا الأمر.

إذ كنا على هذه الدرجة من الإدراك، فإننا عندما ننظر فى تجاربنا فى هذا الشأن ومدى ما حاق بها من تعثر أو تعطيل أو فشل، فإننا يتعين أن نوجه بعض جهودنا البحثية إلى النظر فى أصل تبلور الجماعة السياسية فى الإطار المضروب عليها مما سبق شرحه أو الإشارة إليه، كما يتعين النظر إلى التركيب العضوى للدولة، ومدى ما يعبر هذا التركيب عن كمال العلاقة بين هذه الجماعة السياسية المتبلورة وبين الدولة المشخصة لها والمعبرة عنها إرادة وفعلاً.

فمثلاً، لقد سبقت الإشارة إلى صلة الجماعة السياسية بالمواطنة وبالدولة، والديمقراطية تتعلق بالجانب التنظيمى الذى تبنى به الدولة بوصفها مؤسسة، وتتشكل به هيئاتها. وأسس الديمقراطية هى الأصول العامة لنوع من أنواع إدارة شئون الجماعات، ويمكن أن تتشكل وفقاً لها تنظيمات عديدة تقوم بمهام مختلفة ومتنوعة، سواء فى إدارة شئون مصالح إقليمية كالإدارات المحلية، أو وحدات الانتماء الفرعية كالجمعيات والنقابات، أو ذوات المصالح المالية كالشركات أو غير ذلك. وغنى عن البيان أن الدولة، وهى المؤسسة القائمة على أساس الجماعة السياسية وهى ما يهيمن على إدارة المجتمع برمته، هى أوضح وأهم مثال فى هذا الشأن.

والديمقراطية - من ناحية البناء التنظيمى للمؤسسات - تقوم على مبدأ النيابة أو التمثيل النيابى الذى يصدر من الجماعات فى عمومها إلى من يتولون شئونهم، وعلى مبدأ توزيع السلطة على العديد من الهيئات التى تتداول أمورها كى لا تستبد بالأمر والنهى والفعل هيئة وحيدة، وكى يقوم نوع توازن بين هذه الهيئات. كما تقوم على مبدأ القرار الجماعى الذى يصدر عن أية هيئة من جماعة بها، وليس من فرد، ويصدر القرار بالأغلبية، بما يعنى أن رأى الكثرة يرجح رأى القلة.

وإن مبدأ المساواة هو ما به يسلس اتخاذ القرار الجماعى؛ لأنه يقوم على العدد، وذوو العدد الأكبر فى أى تشكيل يترجح رأيهم على رأى ذوى العدد الأقل. والعدد يقتضى التجريد؛ أى تجريد الفرد من كل ما سوى الوصف الذى يجلسه مع غيره من المعدودين ويجعل له صوتاً بين أصواتهم. ولا يتأتى ذلك إلا بالمساواة. فوصف العضوية فى مجلس ما يلحق بالعضو فيجعله مساوياً تماماً لغيره من الأعضاء عند اتخاذ القرار، سواء كان ذلك مجلس إدارة شركة أو جمعية أو نقابة أو جماعة.

وعلى هذا الوضع التنظيمى بالضبط، يكون مبدأ المساواة هو نقطة الوصل التى لا فكاك منها بين الديمقراطية وبين مبدأ المواطنة، بحسبان المواطنة هى الوصف المتخذ أساساً لتصنيف الجماعة السياسية التى تشخصها الدولة، وهو الوصف الحاسم فى اكتشاف الكثرة والقلة التى تتخلق بها الإرادة وتنبنى على أساسها الأفعال الجماعية.



ومن هنا، تظهر جلية الصلة العضوية بين قيام الجماعة السياسية المتبلورة، وصلة ذلك بقيام الدولة المشخصة لها والمعبرة عنها، وعلاقة ذلك بالمبدأ الأساس الذى يقوم به البناء الديمقراطى، وكل ذلك له آثاره المتبادلة فى الواقع الفعلى لهذه المفاهيم.

وما بقيت الدولة الحديثة فى غالب البلاد حديثة الاستقلال على حالها المتعارض مع ما يتعين أن تشخصه من جماعات سياسية متبلورة ومتكاملة، وما بقيت الجماعات السياسية مجزأة ومنقسمة وموزعة أشلاء، وما بقى الصراع بين التركيب العضوى للدولة وأجهزتها وبين التشكل والتبلور للجماعة السياسية المحكومة بهذه الدولة، ما بقى ذلك كذلك فلا أظن أن الدول تكون قادرة على القيام بواجبيها الأساسيين؛ وهما حفظ الأمن القومى للجماعة، وحراسة قوى التماسك الداخلى لها. ولا أظنها تكون دولاً قادرة على تحقيق ما يتعين أن نصبو إليه من توحيد، أو من استقلال، أو من تحقيق لنظام ديمقراطى. ■

كتاب الزاوية



عباس محمود العقاد

عبقرية محمد

عباس محمود العقاد أحد أهم رموز النهضة الأدبية والفكرية فى مصر والعالم العربى فى النصف الأول من القرن العشرين.

ولد العقاد فى أسوان عام ١٩٨٩ ودخل المدرسة الابتدائية لكنه لم يتجاوز هذه المرحلة لعجز أسرته عن إرساله للقاهرة لكى يواصل تعليمه، لكن هذا الانقطاع لم يقف حاجزًا بينه وبين المعرفة الحديثة، فقد علم نفسه وثابر وأتقن الإنجليزية بشكل مكنه من الاطلاع على المعرفة فى مصادرها الأصلية ليكون أحد أبرز الكتاب الموسوعيين العرب.

وقد خاض العقاد غمار السياسة والصحافة إلا أن أهم إنجازاته تتمثل فى رؤيته النقدية للكتابة الشعرية وظهر ذلك من خلال جماعة الديوان مع إبراهيم المازنى وعبد الرحمن شكرى، كما أن قدرته الشعرية لا تقل عن النقدية وله دواوين عديدة رائعة القيمة.

أشهر أعماله هى سلسلة العبقريات الإسلامية مثل عبقرية محمد وعبقرية الصديق وعبقرية عمر وعبقرية على.

وللعقاد ٨٣ كتابًا فى شتى صنوف المعرفة منها «رجعة إلى أبى العلاء»، و«الفصول»، و«ساعات بين الكتب»، و«ابن الرومى» و«عن الله»، وغيرها. وقد توفى عام ١٩٦٤.

تركيا

من قيود العسكر إلى قيود بروكسل

صعود تركيا الجديدة



تشاغلار كيدير

▪▪ شهد صيف ٢٠٠٤ إحساسًا جديدًا بالتفاؤل فى تركيا. فقد توالى ما حققته الحكومة المستقرة من نجاح فى الإصلاحات الديمقراطية التشريعية والدبلوماسية الدولية. كما أعلن الاتحاد الأوروبى أن تركيا أوفت بشروط الإصلاح السياسى، ولم تعد بحاجة إلى المراقبة. وقد أعطت المفوضية الأوروبية الشهر الماضى توصية ببدء المفاوضات مع تركيا من أجل عضوية الاتحاد الأوروبى ومن المتوقع أن يحدد الزعماء الأوروبيون خلال أسابيع موعدًا رسميًا لبدء هذه المفاوضات. وربما يبدأ رأس المال الأجنبى فى التدفق. ونجد كذلك أن معدل التضخم انخفض، بينما يتحسن الاقتصاد فى الوقت الراهن بشكل واضح مسجلاً معدل نمو يتعدى ١٠ بالمائة فى الربع الثانى. إلا أنه منذ ثلاث سنوات تقريبًا أدى عدم الاستقرار السياسى فى تركيا. الذى بدأ بشجار علنى بين رئيس الدولة ورئيس الوزراء. إلى حدوث أزمة مالية، حيث هبطت قيمة العملة بمقدار ٥٠ بالمائة، وكان هناك كساد شديد وارتفاع كبير فى معدل البطالة. وبعد عام، أى فى سنة ٢٠٠٢، انهارت الحكومية الائتلافية (وهى الحكومة التركية السابعة خلال عشر سنوات) مما أدى إلى حدوث حالة من الفوضى. وقد كُشف النقاب عن النتائج السياسية والاقتصادية لتلك الكوارث المفاجئة فى سياق حرب العراق والاحتلال الذى تتزعمه الولايات المتحدة، وضغوط الاتحاد الأوروبى من أجل إصلاح نظام الدولة الذى يتسم بقدر كبير من الاستبداد، والنجاح الساحق لحزب التنمية والعدالة.

كانت أزمة ٢٠٠١ نفسها بمثابة انهيار محاولة دامت عقدين من الزمان من قبل النخبة التقليدية فى تركيا لتعزيز سيطرتها الأيديولوجية المتداعية عن طريق اللجوء إلى القمع الذى تمارسه الدولة. وكانت هيمنة الدولة قد نشأت من خلال بناء الدولة القومية من رماد الهزيمة العثمانية، وجرى الحفاظ عليها عن طريق الأجهزة العادية الخاصة بالمدارس والثكنات العسكرية. كما جرى تأبيدها من خلال القيود المفروضة على التعامل فى النقد الأجنبى والائتمان خلال ثلاثة عقود من النزعة التنموية أعقبت الحرب العالمية الثانية. وهيمنت ترسانة الدولة من السياسات والموارد على البرجوازية الضعيفة وجعلت من أكبر رجال الأعمال تحالفًا على استعداد لتقديم الخدمات المطلوبة منه فى إطار إستراتيجية للتنمية القومية تقوم على التنسيق المركزى وتتبع نموذج إحلال الواردات.

وكما حدث فى أمريكا اللاتينية، توقفت التنمية لعدم قدرة الاقتصاد المغلق انغلاقًا شديداً على مواصلة الإنجاز. ونشأت الأزمة بسبب حدوث مشاكل فى توفير النقد الأجنبى. فقد ضمن التحضر والتصنيع إنتاج معظم السلع الاستهلاكية، بما فى ذلك السلع المعمرة، محليًا. وأنتج الاقتصاد التركى كميات كافية من السلع الأساسية مثل الصلب والبتروكيماويات. إلا أن أيًا من هذين القطاعين لم يمكنه المنافسة فى السوق العالمية. كما أنه أثقل كاهل مشروعات الدولة بالعمالة الزائدة، بينما تُرجمت الأوضاع الاحتكارية فى القطاع الخاص إلى أرباح كبيرة وأجور مرتفعة. وبرغم وجود معدل نمو محترم، لم يستطع الاقتصاد توليد مكاسب بالنقد الأجنبى الذى كان لازمًا لشراء الواردات الأساسية كالنفط والتكنولوجيا الجديدة.

كان رد فعل المؤسسة السياسية التركية فى السبعينيات هو تأبيد اللغة التنموية القومية، واقتراض الدولارات من الخارج، والاستمرار فى حماية الصناعة، ودعم الزراعة، وتقديم الدعم للمستهلكين. وقد حاولت التحكم فى السوق عن طريق الأوامر الاستبدادية، وتحديد أسعار صرف النقد الأجنبى عند مستويات مصطنعة، بينما وقفت لا حول لها ولا قوة أمام تزايد العجز وانتعاش السوق السوداء. وعززت الأزمة الاقتصادية والاضطراب الاجتماعى الذى أثارته الصراع السياسى المستعر بالفعل بين اليمين المتشدد واليسار الثورى. وهكذا كان انقلاب ١٩٨٠ حلاً للمأزق الاقتصادى وكذلك للأزمة السياسية. وقد أتى بنظام حاكم استثنائى نجح فى ظله تحالف مصالح الدولة والاستبداد فى تعطيل كل محاولاته لشق طريقه فى ضباب الأيديولوجيا القومية.

كان الميراث المؤسسى لثلاث سنوات من الوصاية العسكرية الصريحة (١٩٨٠-١٩٨٣) هو دستور ١٩٨٢. فقد جرى فى ظل هذا القانون الأساسى توسيع نفوذ مجلس الأمن القومى بحيث بات يشكل ما يعد حكومة موازية، بينما أصبحت محاكم أمن الدولة جهازًا قضائيًا موازيًا يتمتع بسلطة «نظر الجرائم المعادية للدولة والفصل فيها». وكان مجلس الأمن القومى مزودًا بسكرتارية دائمة وهيئة عاملين، وكان المقصود به تجميع المعلومات الاستخبارية ووضع سياسة ينفذها الجهاز البيروقراطى ذو الصلة، وذلك فى الغالب بالتحايل على الوزراء المعينين بالطريقة السياسية.[1] وشيئًا فشيئًا وسع المجلس من سلطاته كى تغطى كل قضية يمكن الحكم بأنها مهمة فى الحرب الشاملة ضد النزعة الانفصالية والحركة الإسلامية. وبدءاً من انتصار تورجوت أوزال فى انتخابات ١٩٨٣، شغلت الحكومات المدنية التى تولت مقاليد السلطة بعد ذلك نفسها بالسياسة الاقتصادية وإدارة الدَّين فى المقام الأول. وأثناء ذلك كانت محاكم أمن الدولة بمثابة أدوات صريحة لـ«الدولة المتغلغلة»؛ حيث اتسعت سلطاتها لتشمل كل ما هو سياسى، بدءا من حقوق الإنسان حتى أى شىء تفسره الدولة على أنه دعاية انفصالية، حيث كان من الممكن أن يدخل ضمن ذلك مجرد أداء أغنية باللغة الكردية.

إعادة البناء الاقتصادى

فى ظل نظام مجلس الأمن القومى العسكرى، أمكن البدء فى تحسين جذرى للاقتصاد يلقى أقل قدر ممكن من المقاومة. كما جرى تفكيك القطاع الصناعى القائم على إحلال الواردات على خلفية من توزيع الدخل الذى يزداد سوءاً. ومع الخصخصة وإلغاء القيود والعمالة المرنة، تناقصت بسرعة المزايا التى كان يتمتع بها العمال فى الصناعات المملوكة للدولة فى قطاع التصنيع المحمى. وأصبحت المقاولات من الباطن وانتشار المشروعات الصغيرة والعمل بالقطعة هى الممارسات القياسية، خاصة مع اتساع قطاع الخدمات وزيادة ظروف العمل غير الرسمية والمتنوعة.[2]

فى الوقت نفسه أطلق



كان انقلاب ١٩٨٠ حلاً للمأزق الاقتصادى وكذلك للأزمة السياسية. وقد أتى بنظام حاكم نجح فى ظله تحالف مصالح الدولة والاستبداد فى تعطيل كل محاولاته لشق طريقه فى ضباب الأيديولوجيا القومية



بترتيب مع
New left review
ترجمة: أحمد محمود



تركيا

من قيود العسكر إلى قيود بروكسل

تحرير السوق الطاقات الاستثمارية على كل مستوى، حيث سمح فجأة للتجار بممارسة أمور كانوا يعاقبون عليها بالسجن قبل بضع سنوات. وكانت البنى الصناعية للحقبة التنموية تتسم باحتكار القلة الذى يمارسه عدد قليل من الشركات القابضة المتشعبة التى استطاعت من خلالها برجوازية إحلال الواردات فى استنبول، بما لها من قدرة على الوصول إلى واضعى السياسات فى أنقرة، من إحكام قبضتها الحديدية على الاقتصاد. ومع التحرر الاقتصادى نشأ نوع جديد من المستثمرين كان عليهم المنافسة فى الأسواق المعولمة، وأصبحت تصرفاتهم تقوم على إشارات المستهلكين وليس القرارات البيروقراطية. ومن ثم كان اعتمادهم على السياسة أقل مباشرةً. وبما أن الصادرات التركية كانت تنجذب نحو الصناعات كثيفة العمالة، فقد بدأت بعض مدن الأناضول الصغيرة، التى لها تراث من الحرف وبها قوى عاملة لا تجمعها أية نقابات، فى الظهور باعتبارها مراكز صناعية إقليمية. وكان معظم إنتاج تلك المدن، التى تسمى النمور الأناضولية، يقوم على شبكات يحركها المشترى؛ حيث كان رجال الأعمال يتعاقدون مباشرة مع سلاسل البيع بالتجزئة ومشترى الكميات فى أوروبا.

وهكذا شهدت الثمانينيات ظهور قطاعات جديدة، وأسواق جديدة، وأشكال جديدة من تنظيم العمل، وجغرافيات جديدة. وزادت الصادرات من ٣ مليارات دولار فى ١٩٨٠ إلى ١٣ مليارًا فى ١٩٩٠، وإلى ٥٠ مليار دولار فى ٢٠٠٣؛ وكان الفضل فى الاتساع يعود بالكامل إلى شركات التصنيع، وخاصة شركات النسيج. ومن وجهة نظر أنقرة، كان رجال الأعمال الجدد يعملون خارج شبكات النفوذ والامتيازات التقليدية، ولم يشاركوا فى الأسلوب الغربى والعلمانية المتشددة الخاص بنظرائهم الأكثر رسوخًا فى استنبول؛ وكان من الأرجح أن يؤيدوا الحزب الإسلامى، وأن يرتبطوا باتحاد رجال الأعمال الإسلاميين MUSIAD الذى أصبح ثقلاً اجتماعيًا وسياسيًا موازنًا لاتحاد صناعيى استنبول TUSIAD.

الحركة الإسلامية

أدى الانفتاح على السوق الدولية وإعادة هيكلة الاقتصاد إلى نضوب الموارد التى كانت تخدم شراء الرضا الشعبى. وبعد أن فقدت قوى الدولة المشروعية التى تمتعت بها خلال الحقبة التنموية، اعتمدت تلك القوى اعتمادًا كبيرًا على أشكال القمع المختلفة للحفاظ على توازن الدولة فى مواجهة القوى الناشئة التى تسعى لتحقيق استقلالها الاقتصادى والثقافى والسياسى. وشكَّل ظهور الأحزاب الإسلامية مأزقًا للطبقة الحاكمة التقليدية. وكانت العلمانية، حسب تعريفها بأنها السيطرة الصارمة للدولة على الدين، الهم الأول للنخبة التركية منذ بداية الجمهورية. وكان لابد من تبنى أنماط السلوك الغربية، بتصورها للتحضر، كى تحل محل النزعات الطائفية والإقليمية المحلية؛ وكان الإسلام تعبيرًا شديد الوضوح عن المحلى. بل إن التفسير الأصولى للشريعة الإسلامية يتعارض مع كل من الولاء الذى تطالب به الدولة مواطنيها، ومع النظام القانونى الفريد الذى كان المذهب الكمالى (نسبة إلى كمال أتاتورك) يريد فرضه. إلا أنه فيما يعد تناقضًا مع خطاب الجمهوريين الحذر، فقد كانوا براجماتيين بالفعل فى تعاملاتهم حتى مع الصور الأكثر تطرفًا من الانتماء الدينى؛ ذلك أن علمانيتهم تخفى نفاقًا ضمنيًا تجاه الإسلام والإسلامويين. واعتبارًا من الأربعينيات عقدت الأحزاب السياسية صفقات مع زعماء الطوائف، حيث منحتهم امتيازات بشأن المدارس الدينية مقابل أصوات أتباعهم. وبعد انقلاب ١٩٨٠ وافقت الطغمة العسكرية الحاكمة بلا قيد ولا شرط على السياسة الأمريكية التى تشجع النزعة الإسلامية لتكون منطقة عازلة فى وجه الحركة الاشتراكية.[3] وبعد قضاء الإجراءات التقشفية لصندوق النقد الدولى على نظام التعليم تزايد الالتحاق بالمدارس الدينية، التى تدعمها الحكومة، بشكل أسرع من الالتحاق بالمدارس الثانوية العامة خلال الثمانينيات، وأصبح الدين مادة إجبارية فى مناهج التعليم. وخلال تلك السنوات تنافس زعماء الأحزاب على إقامة علاقات طيبة مع الفصائل الإسلامية المعتدلة والحداثية، حيث كسب أوزال تأييدها فى عام ١٩٨٣.

زاد نصيب الإسلامويين من الأصوات باطراد منذ منتصف الثمانينيات. ويقول مراقبو الإسلام السياسى إن البرنامج الأصولى، الذى يعرَّف بأنه مشروع لاستبدال الدولة الإسلامية والشريعة الإسلامية بالدولة الحديثة والقانون الغربى، لا يحظى إلا بتأييد ٧ بالمائة فقط من عدد السكان. والأعداد الأكبر بكثير التى صوتت لمصلحة الأحزاب الإسلامية لم تفعل ذلك رغبة منها فى إحداث تغيير شامل مناوئ للعلمانية، بل لأنها تؤيد الانفتاح وتوسيع القاعدة التى يعترف بها النظام. وكان الإسلام بمثابة صيحة لحشد القوى بالنسبة لمن اضطروا للبقاء خارج أسوار المدينة الخيالية حين بدأ التحضر واسع النطاق، وبالنسبة لصغار المستثمرين ضد برجوازية استنبول التى تدعمها الدولة، وبالنسبة للساسة الذين لم يتمتعوا بخاتم موافقة الجيش.[4]

كانت النماذج الأولى من الأحزاب الإسلامية تتراوح بين تحدى النظام والتكيف معه، وقد فشلت فى ربط ذلك الدافع الشعبوى ببرنامج يمكن أن يكون مقبولاً من النخبة التركية. وكان حزب الفضيلة قد حل محل حزب الرفاه الذى حُل تحت ضغط مجلس الأمن القومى فى عام ١٩٩٨ فى أعقاب ائتلافه الذى لم يدم طويلاً مع حزب يمين الوسط، الطريق القويم، برئاسة تانسو تشيلر، ثم أُغلق حزب الفضيلة فى عام ٢٠٠١. وشهد الانشقاق الذى حدث فى ٢٠٠١ فى الصفوف الإسلاموية بعد حظر حزب الفضيلة إنشاء حزب العدالة والتنمية بقيادة عبد الله جول وطيب أردوغان، بينما أنشأ الحرس القديم المحيط بإربكان حزب السعادة. ووحد حزب العدالة والتنمية الخطاب الانتخابى الذى يستهدف من جرى إقصاؤهم برسالة إلى النخبة مفادها أن تغيير النظام ليس على أجندتها. وفى انتخابات نوفمبر ٢٠٠٢ حصل حزبان إسلاميان على ٣٧ بالمائة من عدد الأصوات، بينما حصل حزب العدالة والتنمية على ٣٤ بالمائة. وجعل حد العشرة بالمائة الذى فرضه دستور مجلس الأمن القومى الأحزاب الأخرى، ما عدا حزب واحد، غير مؤهلة للفوز، مما جعل حزب العدالة والتنمية يفوز بثلثين بالمائة من عدد المقاعد.

يعتمد القبول الشعبى لحزب العدالة والتنمية على كونه بمثابة صوت لمن كانوا حتى ذلك الوقت مُقصَين، بينما تنبع وعوده المادية فى أغلبها من سجل الحكم المحلى لتشكيلاته السياسية السابقة التى نجحت فى بناء سمعة للأمانة النسبية فى إدارات جرت العادة أن تكون غارقة فى الفساد. فقد بدأت تلك البلديات سياسات للمساعدة الاجتماعية فى بيئة كانت خالية بالفعل من أية سياسة حكومية للرعاية الاجتماعية تستهدف الفقراء، فى الوقت الذى شحت فيه الأعمال الخيرة المنظمة. كما أنشأت مطاعم لتقديم الطعام للفقراء وكذلك مراكز صحية، وكانت تقدم مساعدات عينية للمعدمين، وتنظم حملات المساعدات الاجتماعية خلال شهر رمضان، حيث تضغط على رجال الأعمال المحليين كى يتبرعوا بالسلع والمبانى والمال. وشمل ذلك الالتزام أعدادًا كبيرة من الناشطين فى الحزب (وخاصة الشابات) الذين يقيمون الشبكات ويرتبطون بالناس. وكان طيب إردوغان نفسه عمدة استنبول يتمتع بشعبية كبيرة منذ عام ١٩٩٤ حتى سجنه فى عام ١٩٩٨. وبذلك كانت الأحزاب الإسلامية القناة الرئيسية للتعبير عن الاستياء الاقتصادى. ومع أن الالتزام الأصلى لزعماء حزب العدالة والتنمية هو بالمعتقد السليم الذى يتسم بالنزعة الليبرالية الجديدة، ومع أنهم يبرزون كذلك مطامح البرجوازية الأناضولية الناشئة وسخطها على احتكار القلة الراسخ لرجال الأعمال، فقد حصلوا على الجزء الأكبر من الأصوات من الفقراء. ويعود هذا التأييد ممن جرى إقصاؤهم إلى انتقاد النظام السياسى وفساده أكثر منه إلى الوعود الصريحة بإعادة الهيكلة الاقتصادية أو السياسة الاجتماعية القائمة على الحقوق.



المسائل الكردية

إضافة إلى الحركة الإسلامية، كانت المسألة التى تشغل الأجندة التركية باستمرار منذ ١٩٨٠ هى المشكلة الكردية. فقد كان أى تصريح بالنزعة الكردية أو أية نزعة انفصالية أخرى ممنوعةً منعًا باتًا بالطبع عند تأسيس الجمهورية، وكان استخدام اللغة الكردية فى الحديث العام أو التعليم مجرمًا بشدة منذ ذلك الحين. وكان لابد أن يغذى القمع الثقافى الوحشى المقترن بالتخلف الاقتصادى المقاومة. واستمر العمل بقانون الطوارئ فى الأقاليم الكردية بعد ١٩٨٣، حيث واكبت ذلك اعتقالات بالجملة، إلى جانب التعذيب والترحيل الإجبارى للقرويين. وفى عام ١٩٨٤ عاد عبد الله أوجلان من منفاه فى سوريا ليقود حزب العمال الكردستانى فى حرب عصابات ضد قوى الأمن. وفى المقابل ازداد قمع الدولة؛ حيث حصدت الحرب أرواح ٣٠ ألف شخص قبل أن تضع أوزارها فى ١٩٩٩.

خلال التسعينيات استُخدمت الحرب ضد القوى الكردية لتبرير التحول التدريجى نحو الدولة الأمنية، حيث كانت

شكّل ظهور الأحزاب الإسلامية مأزقاً للطبقة الحاكمة التقليدية. وكانت العلمانية، حسب تعريفها بأنها السيطرة الصارمة للدولة على الدين، الهم الأول للنخبة التركية منذ بداية الجمهورية. وكان لابد من تبنى أنماط السلوك الغربية، بتصورها للتحضر، كى تحل محل النزعات الطائفية والإقليمية المحلية.





رجـب طـيب أردوغـان

الغلبة للنمط الذى اختاره الجيش للرد على التمرد، وهو الانتصار العسكرى أولاً، ثم الحريات الثقافية بعد ذلك. وسمحت الحرب بعودة الدولة الدستورية Rechtsstaat كعباءة ازدهرت تحتها حقبة جديدة من الحكم القمعى والاستبدادى. وانكمشت مرة أخرى الثغرات المؤقتة التى ظهرت فى عهد أوزال، مثل التوسعات التى شهدها المجال الاجتماعى وبلغت حد الاعتراف بأساليب حياة تحرير السوق التى كان محرمة حتى ذلك الوقت. وقد تميز ذلك العقد بالنزعة الاستبدادية التى يسيطر عليها الجيش مقرونة بعد المحاسبة.

اتخذ الجيش الحرب مبرراً لوصايته، إلا أن الحرب أضرت موقفه كذلك. فقد اشتهرت «القوات الخاصة» بالوحشية فى تعاملها مع المدنيين. وغادر الكثير من السكان منطقة الحرب. وتحدث المجندون عن تجربتهم المجردة من الصفات الإنسانية وهم تحت السلاح.

ما كانت إستراتيجية الجيش الخاصة بهزيمة قوات حرب العصابات قبل التمكن من إجراء أية محادثات بشأن الحقوق الثقافية والسياسية لتحقق نجاحها باهظ الثمن لو لم يتمتع البرنامج الانفصالى بقدر أكبر من الدعم. وكان الاستيعاب هو المعيار فى حالة الأكراد الذين نزحوا من الجنوب الشرقى والشرق إلى غرب تركيا. وكان الأكراد عناصر بارزة فى السياسة منذ زمن بعيد، بل كان لهم تمثيل فى البرلمان يفوق ما يتناسب مع عددهم. إلا أن ثمن الاستيعاب كان هو كبت الهوية العرقية. وهكذا فبينما كانت سياسة الهوية والاعتراف السياسى تلقى قبولاً أكبر بكثير بين الأكراد المقيمين خارج المنطقة، لم تكن النزعة الانفصالية تحظى بذلك القدر من القبول.

وليست هناك أرقام موثوق بها بشأن التركيبة العرقية للسكان فى تركيا، حيث يتحاشى التعداد مسائل الأصول العرقية أو اللغة الأصلية. وتشير أفضل التقديرات إلى أن نسبة السكان الأكراد تتراوح بين ١٠ و٢٠ بالمائة من إجمالى عدد السكان، إلا أن التزاوج يجعل الحصر مستحيلاً. ومن المحتمل أن ثلث الأكراد كانوا يعيشون فى المناطق الغربية من البلاد فى عام ١٩٩١. وفى عام ٢٠٠٠، وبعد عشر سنوات من الحرب، زادت النسبة إلى ٥٠ بالمائة. وتعد استنبول إلى حد بعيد أكبر المدن الكردية، حيث يوجد بها أكثر من مليون نسمة من الأكراد. وقد يكون من الصعب العثور على الكثير من مؤيدى الحركة الانفصالية الذين يؤيدون هدف كردستان المحصورة فى مكان معين من الأرض بين هؤلاء المقيمين فى غرب تركيا. والذين هاجروا مؤخراً إلى استنبول والمدن الكبرى فى غرب الأناضول كانوا فلاحين فقراء طُردوا من قراهم، وليست لديهم رغبة كبيرة فى العودة.

كان هناك بُعد إضافى صعّب على النخبة التركية، الحضرية منها أو الريفية، وهو مناصرة الحركة الوطنية. فبينما كان العصيان المسلح الكردى السابق فى العشرينيات والثلاثينيات قد نشأ بين طبقة أصحاب الأملاك ورجال الدين، فقد تأصلت الحركة الحديثة بين طبقة الفلاحين الفقراء. وبدأ حزب العمال الكردستانى كحركة مناهضة للإقطاع استهدفت أصحاب الأملاك فى جنوب شرقى تركيا الذين كانوا الحلفاء المطيعين للدولة الجمهورية فى المحافظة على السيطرة الاجتماعية. وفى أماكن أخرى تحالف بناة الدولة التركية مع الفلاحين المستقلين، بل وأيدوا المزارعين الفقراء فى احتلال الأرض، إلا أنهم امتنعوا عن تغيير الميزان الاجتماعى فى الجنوب الشرقى. وحين بدأت حركة الفلاحين فى السبعينيات، أرسلت أنقرة رجال الدرك لحماية أصحاب الأملاك من العصيان المسلح. ويفسر هذا «اشتراكية» حزب العمال الكردستانى، وتآلفه مع حركات مثل «الطريق المضىء»، ولكنه يفسر كذلك عدم كفاية ما تحظى به أيديولوجيا حزب العمال الكردستانى وتكتيكات حرب العصابات الخاصة به وقائده أوجلان بين النخبة الكردية.

أصدر مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة قراره الأول بشأن المسألة الكردية فى أعقاب حرب الخليج، وذلك بإقامة منطقة حظر الطيران التى تراقبها الولايات المتحدة فى شمال العراق؛ وبذلك وُضعت مسألة حقوق الإنسان الكردية بشكل رسمى على الأجندة الدولية. وفى العام نفسه اقترح أوزال تعديل الحظر اللغوى بحيث يسمح بالحديث غير الرسمى. وفى عام ١٩٩٣ أعلن أوجلان وقف إطلاق النار وتخلى عن المطالبة بكردستان مستقلة، مطالباً بدلاً من ذلك بالحرية الثقافية والحرية السياسية. وحالت وفاة أوزال المفاجئة دون إجراء المزيد من المفاوضات، وسارع من خلفوه إلى تعزيز وجود الجيش فى الجنوب الشرقى. وأُنهيت الحرب أخيراً فى عام ١٩٩٩، وألقى القبض على أوجلان فى كينيا بمساعدة من الأمريكيين والإسرائيليين، وأعيد إلى تركيا لتحاكمه إحدى محاكم أمن الدولة ويصدر ضده حكم بالإعدام. وفى أغسطس طلب أوجلان من جيش العمال الكردستانى إلقاء سلاحه.

منذ وفاة أوزال لم يأت أى اقتراح من الساسة المدنيين بوجوب التوصل إلى حل غير عسكرى. واعترض مجلس الأمن القومى على أية محاولة لفتح موضوع الحقوق الثقافية، وإن بات مقبولاً شيئاً فشيئاً الحديث عما سمى تخفيفاً «الواقع الكردى». وحتى تلك المكاسب الرمزية كان الفضل فيها يعود إلى جماعات حقوق الإنسان والصحفيين، وليس إلى الساسة. وعلى خلفية الحرب، ظلت الأحزاب السياسية صامتة فى الغالب؛ فيما يعد من الناحية الضمنية قبولاً لاستراتيجية الجيش، دون التساؤل عن آثار الفرض الصارم للهوية القومية على السكان.

كانت إحدى وظائف حد العشرة بالمائة هى ضمان عدم تمثيل الحركة الكردية فى البرلمان. وبعد أن أصبح البرلمان مسألة ثانوية لا صلة لها بالموضوع إلى حد كبير، تحول الجدل السياسى الحقيقى بشأن قضايا الديمقراطية والتمثيل العرقى وآثار التحرر الاقتصادى إلى منتديات عديدة خارج قاعات البرلمان، مثل جماعات حقوق الإنسان، والحركة النسائية، والبرامج المناوئة للحرب، والمنظمات غير الحكومية.

أزمـــة الديـــون

من الناحية الاقتصادية كذلك، كانت التسعينيات هى عقد تركيا الضائع. فبينما كان متوسط النمو ٥.٣ بالمائة خلال الثمانينيات، انكمش الاقتصاد بمقدار ٦ بالمائة فى عامى الأزمة، ١٩٩٤ و١٩٩٩، وبمقدار ٩ بالمائة فى عام ٢٠٠١، حيث انخفض الاستثمار بينما تفشت حالات الإفلاس والبطالة. وكان متوسط معدل التضخم ٨٠ بالمائة. وبدءاً من المستويات التى يسهل التحكم فيها فى أوائل التسعينيات، بلغت مديونية الدولة مستوى مفزعاً مقداره ١٥٠ بالمائة من إجمالى الناتج القومى بحلول عام ٢٠٠١. ومع التراكم الذى يزداد العام تلو الآخر، كان عائد تركيا من الضرائب مطلوباً بالكامل لخدمة الدَين؛ ذلك أنه لكى تعمل الحكومة بعد إدارة الدَين، كان لابد لها من اللجوء إلى قروض جديدة. وبما أن إقراض الحكومة يأتى بتلك العوائد، فقد عانى الاستثمار فى القطاع الحقيقى. واشترت البنوك السندات التى أصدرتها الخزانة وعرضت أسعار فائدة مغرية على الودائع. وكان الجزء الأكبر من الدَين فى حوزة مجموعة صغيرة على قمة تركيز الثروة كانت تمتلك الودائع ذات الفائدة العالية فى البنوك. وفى عام ٢٠٠٢ بلغت نسبة المدفوعات ٢٠ بالمائة من إجمالى الناتج القومى، تسعة أعشارها للدَين الداخلى. ومنذ قرن مضى وصفت الزعيمة الاشتراكية الألمانية روزا لوكسمبرج كيف كانت الدولة العثمانية تُستخدم كقناة لجباية الضرائب كى يستولى الممولون الدوليون على الفائض؛ أما

تركيا

من قيود العسكر إلى قيود بروكسل

المستفيدون في الوقت الراهن فهم مجموعة صغيرة من أصحاب السندات المحليين.

كان لابد أن يخلق نقل الحكومة المنظم لعائدات الضرائب إلى طبقة أصحاب السندات حالة من الاستياء بين «العناصر النشطة والعاملة» في الاقتصاد الحقيقي. فهذه العناصر لم تعان فقط من توزيع الدخل الذي يزداد سوءاً، بل إنها حُرمت كذلك من نفقات القطاع العام بسبب الاستنزاف المالي. وأحدث اقتصاد الدَين كذلك تشوهاً آخر على هيئة الربحية غير العادية للنشاط المالي، الذي يتكون في معظمه من تعاملات في السندات الحكومية. وقد تقترض البنوك من الأسواق الخارجية لشراء دَين الدولة، في مقامرة على الفرق بين سعر الفائدة وانخفاض قيمة الليرة التركية. واحتفظ أصحاب المدخرات والمستثمرون بأموال سائلة من العملات المحلية والأجنبية للشراء والبيع بناء على توقعاتهم. وشجع عدم الاستقرار اللاحق على المزيد من المضاربة. وفي هذا التنافس المحموم على جزء من الغنائم، جمع القطاع المالي عائدات مرتفعة مقابل الوساطة، كما شجع على التطفل السياسي والمحسوبية. وكانت هناك كذلك زيادة في الاستثمار المتقاطع بين القطاع المالي والإعلام المؤثر: إذ زاد أصحاب وسائل الإعلام نفوذهم بشرائهم البنوك، وحمى رجال البنوك وضعهم بشراء وسائل الإعلام. وشملت أكبر أحداث الفساد ساسة متحالفين مع رجال البنوك الذين ينهبون خزانة الدولة.

في تلك الأثناء وجدت الحكومات المتعاقبة أن الأموال تُبتز منها. وبينما كانت العولمة ذات النزعة الليبرالية الجديدة تشن غارات أعمق، كانت الطبقة السياسية عاجزة عن توفير أي قدر من الحماية للسكان ضد الآثار المدمرة لقوى السوق. وبدلاً من اللجوء إلى الإصلاح الضريبي غير المقبول، جرى تقييد النفقات كافة بما يتفق مع وصفات صندوق النقد الدولي. وبذلك ترك التعليم العام والخدمات الصحية تتدهور (بحلول عام ٢٠٠٠ كان الإنفاق على الصحة والتعليم قد انخفض إلى ٣٫٥ و٢٫٢ بالمائة من إجمالي الدخل القومي على التوالي). وجرى تخصيص الشركات المملوكة للدولة، وقُطع الدعم المقدم للمستهلكين، وخُفض الدعم الزراعي. ونضب الاستثمار العام ولم تُتخذ أية إجراءات للمساعدات الاجتماعية رغم الآثار المدمرة الملحوظة على نطاق واسع لما استجد من فقر. والآن تحتل تركيا المرتبة رقم ٨٥ في تقارير التنمية البشرية، وهو ما يقل كثيراً عن ترتيبها من حيث نصيب الفرد فيها من إجمالي الدخل القومي.

الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي

ربما كان المحدد الأساسي للمشهد السياسي المحلي خلال السنوات القليلة الماضية هو ترشيح تركيا لعضوية الاتحاد الأوروبي؛ ويقال إن هذا هو المشروع القومي الوحيد الذي يتمتع بتأييد شعبي. ولم يكن ذلك هو الحال دائماً. ففي عام ١٩٨٧، حين تقدم أوزال لأول مرة بطلب العضوية، كانت القوى السياسية الإسلامية والقومية تعارض الارتباط الأوثق بأوروبا معارضة شديدة، وما تبقى من اليسار لم يكن قد تخلص بالكامل بعد من افتتانه بنظرية العالم الثالث. ورغم تخفيف سيطرة الدولة على الاقتصاد، كانت البرجوازية التركية المدللة ما تزال بعيدة عن تحديد مسار مستقل لها، وذلك خوفاً من ضياع الأرباح الوفيرة التي تحققها من الاقتصاد المحمي ودعم الدولة. وفي التسعينيات بدأ ذلك يتغير. فقد أخذ صبر الطبقة الوسطى الحضرية الناشئة ينفد بالنسبة للأبنية الرسمية للهوية القومية التي روج لها واضعو مشروع التحديث. وبدأت عناصر داخل الطبقة المثقفة في التشكيك في المقدمات المنطقية للنزعة التنموية الخاصة بالدولة. وبينما كان الجدل السياسي فيما مضى يحدد بناءً على سلسلة متصلة من اليسار واليمين، يركز برنامج المعارضة في الوقت الراهن بشكل متزايد على الحقوق المدنية. وأصبح الترشيح لعضوية الاتحاد الأوروبي ورقة مهمة للعب بها في هذه المرحلة الحاسمة. وإدراكاً من جماعات المعارضة أنه ليست لديها الموارد ولا القدرة على تعبئة القوى الاجتماعية لهزيمة الدولة، فقد باتت ترى عملية الترشيح على أنها الطريقة الوحيدة لكسب التأييد لقدر أكبر من الديمقراطية، وحكم القانون، والتعددية الموسعة، بالشكل الذي جرى تصويره في معايير كوبنهاجن. ومع نهاية العقد، كانت الأجنحة المعتدلة في الحركات الإسلامية والكردية قد انضمت إلى صفوف ناشطي المجتمع المدني وحقوق الإنسان المطالبين بالوفاء السريع بالشروط التي حددتها بروكسل.

الواقع أن الاتحاد الأوروبي كان قد اكتسب وجوداً كبيراً في تركيا بحلول أواخر التسعينيات. وكان أعضاء البرلمان الأوروبي يزورون مناطق الصراع بانتظام، ويتفقدون أحوال السجون، ويقدمون دعماً صريحاً لمنظمات حقوق الإنسان. وموّل مكتب الاتحاد الأوروبي في أنقرة مشروعات تهدف إلى تقوية المجتمع المدني، كما بدئت اتصالات من خلال أنشطة المنظمات غير الحكومية تراوحت بين العمل مع الأطفال المشردين ورعاية ناشطي حماية البيئة.



إضافة إلى ذلك، تلقى برجوازية استنبول الكبيرة بثقلها في الوقت الراهن وراء مشروع الاتحاد الأوروبي. ومع أن طلب العضوية الذي تقدم به أوزال في عام ١٩٨٧ قوبل بالرفض من جانب المفوضية، إذ أبدت في ردها عام ١٩٨٩ شكوكاً بشأن التوسيع وكذلك نزعة الاقتصاد التركي الحمائية وما فيه من خلل. فقد اقترحت بدلاً من ذلك اتحاداً جمركياً للتجارة الحرة يباشر عمله اعتباراً من عام ١٩٩٥. وفي البداية قوبلت اتفاقية التجارة الحرة بشك من جانب بعض كبار رجال الصناعة الأتراك من الجيل الأول. وذلك بينما كان الكثير من رجال الأعمال الصغار ذوي العقلية التصديرية لا يرون في الاتحاد الجمركي أسواقاً واعدة فحسب، بل كان بمثابة أمل في إبعاد الوزارات وسلطة التخطيط متقلبة الأهواء عن شئونهم. ومع حلول منتصف التسعينيات، كان اتحاد صناعات استنبول والبرجوازية الأناضولية الجديدة قد تبنيا خطة للتحول الديمقراطي والإصلاح تسعى إلى تحقيق برنامج ثابت نسبياً للتحرر الاقتصادي والسياسي. واتفق كل من رجال أعمال الأناضول واستنبول على أنه لابد من الحد من سلطات الدولة المبالغ فيها. وأدى عدم توفر الإرادة السياسية لتقديم العلاج الجذري، ووجود تحمس لا يخفى على أحد للكسب غير المشروع، إلى جعل أنقرة زائدة غير طبيعية يصعب عليهم احتمالها.

الأمر الذي جعل معارضة «المجتمع المدني» لتسلط الدولة المستمر ممكناً هو أن نخبة الدولة وساسة المؤسسة الحاكمة لم يترددوا قط في التزامهم المعلن بالنموذج الأوروبي. وجعلت هذه النزعة الرسمية الموالية لأوروبا تأييد المعايير الديمقراطية اللازمة للترشيح للاتحاد الأوروبي شكلاً مشروعاً من الانتقاد؛ وهو ما كان في الواقع الشكل الوحيد المتاح لمن يطالبون بحريات مدنية أكبر. وأشارت استطلاعات الرأي أن هناك أغلبية قوية تتراوح بين ٦٥ و٧٥ في المائة وراء ذلك الائتلاف العريض للمصالح؛ حتى وإن لم يكن ذلك يعكس فهماً واضحاً لما تستتبعه عضوية الاتحاد الأوروبي في الواقع.

وفي ديسمبر من عام ١٩٩٩، أي بعد عامين من رفض لوكسمبورج، وافق رؤساء دول الاتحاد الأوروبي على قبول حصول تركيا على وضع الدولة المرشحة لعضوية الاتحاد. وأشار المراقبون إلى عدد من العوامل. ففي ألمانيا، كان شرودر قد حل محل كول الأكثر تشدداً. وكان سجن أوجلان واستسلام حزب العمال الكردستاني قد نزع فتيل القضية الكردية. وكانت حكومة بلير قد بدأت حملة قوية تدعو إلى توسيع عضوية الاتحاد الأوروبي ترياقاً للتكامل. وكان هناك تقارب جديد في العلاقات مع اليونان، وهو ما كان في جزء منه نتيجة لدبلوماسية الزلزال، في عام ١٩٩٩، وقد نجح اتحاد صناعات استنبول في حشد التأييد في بروكسل. وقد نُظر كذلك إلى التأييد الأمريكي. وخاصة جهود كلينتون في قمة منظمة الأمن والتعاون الأوروبي OSCE باستنبول في نوفمبر من عام ١٩٩٩. على أنه مفيد في ضمان نتيجة إيجابية في هلسنكي، وإن كانت تدخل الولايات المتحدة المستمر لمصلحة انضمام تركيا يُقابل باستياء من بروكسل، وخاصة منذ تولى جورج دبليو بوش رئاسة الولايات المتحدة. وبالطبع أثبتت تركيا أنها مصدر قوة مخلص في فترة ما بعد الحرب الباردة، وقيل إن دخول الاتحاد الأوروبي سوف يساعد على استقرار تركيا داخلياً، دون أن يكلف ذلك الولايات المتحدة و«التحالف الغربي» شيئاً.

رغم ذلك فاجأ قرار الاتحاد الأوروبي منح تركيا وضع الدولة المرشحة لعضويته بعض أفراد نخبة الدولة في أنقرة. فبعد أن اعتمدوا على التأجيل الدائم، هاهم يجدون أن الإصلاحات المطلوبة منهم فجأة تقتضي تعديلات كبيرة في نظام الأمن القومي الخاص بهم وفي دعائمه الأيديولوجية. إذ كان لابد أن يترك نموذج الأمة باعتبارها جماعة ذات مصالح مشتركة مكانه لحكم القانون، كما أن تطبيق الحريات المدنية والسياسية سوف يعزز القوى المعارضة. وكان لابد كذلك من الاعتراف بالحقوق الثقافية للأقلية الكردية وإعادة تعريف العلمانية بحيث تسمح بحرية إنشاء المنظمات الدينية والتعبير عن الآراء الدينية. وربما كان الأمر الأكثر إثارة للجدل هو تخلي الجيش عن وصايته على الدولة. وبناء على ذلك كان هناك لأول مرة تعبير علني عن معارضة المشروع الأوروبي، وخاصة من الجيش وكذلك من داخل صفوف البيروقراطية والقضاء. وبينما كان الاتحاد الأوروبي في البداية مشروع دولة بالنسبة للنخبة التركية، هاهو قد أصبح برنامجاً لمن أرادوا كبح جماح استبداد نخبة أنقرة. إلا أن وقوع حزب الدولة في مصيدة

يعتمد القبول الشعبى لحزب العدالة على كونه صوتا لمن كانوا حتى ذلك الوقت مُقْصَين، بينما تنبع وعوده من سجل الحكم لتشكيلاته التى نجحت فى بناء سمعة للأمانة فى إدارات جرت العادة أن تكون غارقة فى الفساد



اللغة خدم مؤيدى التحول الديمقراطى خدمة كبيرة أثناء النقاش. إذ بلغ الأمر بعدد قليل جداً من الأصوات حد اقتراح الانفصال تماماً عن الاتحاد الأوروبى. ولم يكن الخطاب الكمالى الرسمى ليسمح بهذا النبذ للنموذج الغربى.

كان عدم ارتياح الجيش وامتداداته فى الحكومة المدنية بشأن توقعات العضوية يتغذى على شكوك الجانب الأوروبى. فقد كانت النخب الأوروبية التى تتطلع إلى تكوين اتحاد فدرالى موحد سياسيا تعارض انضمام تركيا على نفس الأسس التى عارض بها ديجول انضمام بريطانيا فى الستينيات. وكان الديمقراطيون المسيحيون فى النمسا وألمانيا يعتقدون أن تركيا من الناحية الثقافية ليست أوروبية بالقدر الكافى، أو أنها إسلامية أكثر مما ينبغى. وأظهرت استطلاعات الرأى أن أقلية فقط هى التى تؤيد ترشيح تركيا، وإن كانت النسبة أعلى فى جنوب أوروبا منها فى شمالها. واتهم جيسكار ديستان الساسة الآخرين بالنفاق، معلناً أن قبول تركيا فى الاتحاد الأوروبى سوف يعنى نهاية أوروبا.[٥] إلا أن الاتحاد الأوروبى نفسه وقع فى فخ خطابه باعتباره «اتحاد المستعدين»: فمن الناحية الظاهرية يمكن لكل من يفى بمعايير كوبنهاجن أن ينضم إليه. ومن ثم كان لابد من السماح بإجراء المفاوضات بالسير فى القنوات المحددة، وكانت الغلبة لقوة الدفع البيروقراطية، حيث أعدت المفوضية تقارير تقدم سنوية.

حكومة حزب العدالة والتنمية

حققت القوة المؤيدة للاتحاد الأوروبى فى تركيا انجازاً غير متوقع بفوز حزب العدالة والتنمية فى انتخابات نوفمبر ٢٠٠٢، ولم يكن الحزب قد وعد فى الواقع بالعمل من أجل عضوية الاتحاد الأوروبى فحسب، بل كان كذلك القوة السياسية الوحيدة التى لم تلحق بها علاقتها بنخبة الدولة أية أضرار. وحتى قبل تشكيل الحكومة، بدأ إردوغان جولات فى العواصم الأوروبية لحشد الدعم لتحديد موعد لدخول تركيا المفاوضات. وكانت تلك هى المرة الأولى منذ خمس عشرة سنة التى يشكل فيها حزب واحد الحكومة التركية، مع وجود رئيس وزراء يمكن أن يعد بتنفيذ إصلاحات دون خوف من أى تخريب تقوم به الأحزاب المشاركة فى الائتلاف، أو الاختباء وراءه. وعملت حكومة حزب العدالة والتنمية بحماس شديد للتعجيل بالتشريع الذى كان قد بدأ فى عهد أجاويد. فقد قُلِّلت امتيازات مجلس الأمن القومى، وسوف يوسع ليشمل أغلبية من المدنيين الذين سيكون أحدهم رئيسه. وفى عام ٢٠٠٤ أُطلق سراح النواب الأكراد، وبدأ بث برنامج باللغة الكردية باسم «ثرواتنا الثقافية» على قناة TRT التى تديرها الدولة. ويبقى أن نرى ما إذا كان للتشريع الذى يحمى الأفراد من أية أجهزة قمعية تابعة للدولة أى أثر على السلوك الفعلى للشرطة والمحاكم أم لا.

حصل إردوغان على رد فاتر بشأن تحديد موعد للانضمام فى قمة كوبنهاجن فى ديسمبر ٢٠٠٢، فى ذروة الاضطرابات التى شهدتها العلاقات بين جانبى الأطلنطى قبل حرب العراق. وجرى تأجيل قضية تركيا للبحث حتى ديسمبر ٢٠٠٤، إلا أن التمرد المسلح الذى حدث خلال العام المنصرم فى العراق، إلى جانب التقدم الجرىء الذى حققه حزب العدالة والتنمية، أدى إلى توكيد مختلف. ففى مايو ٢٠٠٤، وصف كريس باتن مفوض الشئون الخارجية بالاتحاد الأوروبى تصويت المجلس الأوروبى فى ديسمبر ٢٠٠٤ بأنه «الاختبار الأساسى لالتزام الاتحاد الأوروبى بالمقاربة التعددية والشاملة للإسلام». وفى يونيو أعلن المجلس أنه راض عن تحول تركيا الديمقراطى وسوف يوقف مراقبة تقدمها. وباستثناء بعض القلق البارز، يبدو أن ديسمبر ٢٠٠٤ سوف يشهد السماح لتركيا بالجلوس فى قاعة انتظار الاتحاد الأوروبى، حتى وإن طال انتظارها هناك بينما تحاول بروكسل إدخال ما يكفى من الخيارات والمسارات المتعددة ومنافذ تقديم الدعم لتمييز الدعم الزراعى فى المستقبل وتقييد حركة الباحثين الجدد عن فرص العمل.



وبالطبع لن يقدم بدء المفاوضات مع الاتحاد الأوروبى من أجل الانضمام النهائى حلاً سحرياً للتوترات التى تولِّدها الحياة السياسية والاجتماعية التركية. وبالنسبة للوقت الراهن، يبدو أن الجيش قد كيَّف نفسه مع القيام بدور أصغر منحته له مناورة إردوغان الماهرة، غير أن الدعوات إلى إعادة ارتدائه عباءة الوصى اليقظ لم تختف. وسوف يتوقف ظهور الصراع على نجاح حزب العدالة والتنمية فى الحصول على قبول قاعدته الإسلامية على السير فى اتجاه حكم أكثر مركزية يرضى كذلك المؤسسة العلمانية والجيش. ويتوقف الدور الذى يحتمل أن يقوم به الجيش كذلك على مدى التزام الجيش التركى بالحروب الجديدة والمشروعات الأمنية التى يخططها البنتاجون. ولا يبدو تكرار اعتراض البرلمان على عبور الأراضى التركية إلى العراق فى مارس ٢٠٠٣ أمراً محتملاً؛ فقد خالف ثلث نواب حزب العدالة والتنمية المنتخبين حديثاً أوامر الحزب بالتصويت مع حزب الشعب الجمهورى. وأثار العصيان التركى غير المسبوق غضباً شديداً فى البيت الأبيض يسعى إردوغان منذ ذلك الوقت سعياً جاداً للتعويض عنه. وبحلول أكتوبر ٢٠٠٣ كان إردوغان قد نجح فى إقناع صفوف حزب العدالة والتنمية بالتصويب لمصلحة إرسال قوات لدعم التحالف الذى تتزعمه الولايات المتحدة مستخدماً المنطق العسكرى القائل بأن الوجود التركى المسلح ضرورى لمنع قيام دولة كردية. إلا أن طلبات مجلس الحكم العراقى الملحة منعت حدوث نشر القوات. ويظل الجنرالات على نفس ما كانوا عليه من أهمية بالنسبة لواشنطن، كما تعهد إردوغان نفسه بترضية الولايات المتحدة. وليس واضحاً أنه سيكون من السهل التوفيق بين المكانة المهنية المتسعة للجيش وتناقص وجوده المعتاد فى الشئون السياسية: خاصة فى حالة عودة نشاط حرب العصابات الكردى داخل الحدود التركية.

على الجانب المالى، مازال عبء الدَين فى ازدياد. وحتى فى حال نجاح حزب العدالة والتنمية فى تخفيض أسعار الفائدة شيئاً فشيئاً، فلا يبدو أنه سيكون من الممكن حل المشكلة جذرياً. فمن غير المحتمل أن تعلن الحكومة الإفلاس التام فى المستقبل القريب، ولكن ما إن ينقشع جو الأزمة الدائم حتى يكون عليها مواجهة الاستياء المتزايد من التقشف وشح مخصصات الميزانية للنفقات الاجتماعية. وبينما كان الانتعاش الاقتصادى أمراً مهماً منذ أزمة ٢٠٠١، يدفع القطاع الشاب والمتزايد من سكان تركيا فى كل عام إلى سوق العمل دفعة جديدة من العمال الشبان الذين تتسم توقعاتهم فى عصر تزايد البطالة بقدر كبير من خيبة الأمل. فقد خلقت إعادة هيكلة القوى العاملة استقطاب واضح فى المدن الكبرى لا يمكن علاجه بالآليات التقليدية الخاصة بالأسر الكبيرة وتضامن الأحياء السكنية.

كان الفقراء الحضريون بمثابة تجمع كبير للأصوات المؤيدة لحزب العدالة والتنمية، إلا أنهم مازالوا عاملاً لا يمكن التنبؤ به. وفى الوقت الراهن ما زال حزب العدالة والتنمية يستفيد من سجله السابق النظيف نسبياً فيما يتعلق بالفساد. ولا تكمن جاذبيته الأساسية بالنسبة للفقراء الحضريين بصورة كبيرة فى مقترحات ملموسة بقدر ما تكمن فى تصورها للتعاطف: كما أنه يستفيد من غياب أية قناة سياسية بديلة للتعبير عن سخطهم. وبعد ذهاب الجِدة، سوف يكثر التوتر فى الصراع بين سياسات حزب العدالة والتنمية ومطالب جماهيره الأساسية التى يشجعها الخطاب الشعبوى. وبينما سوف يمثل الاعتراف الرسمى من جانب الاتحاد الأوروبى باحتمال نهائى للعضوية تعزيزاً محدداً، فإن مستقبل «منارة الديمقراطية فى العالم الإسلامى» كما تصفها واشنطن مازال غير مؤكد. ■

هوامش:

(١) ظهرت المكانة الحقيقية لمجلس الأمن القومى أثناء أحداث الحرب ضد السكان الأكراد فى الجنوب الشرقى. فقد أصبحت إدارة منطقة الحرب وكل الأمور المتعلقة بحرية الرأى وممارسة الحقوق المرتبطة بالمشكلة الكردية والمسائل العرقية ضمن سلطة مجلس الأمن.

(٢) فى الوقت الراهن ٥ بالمائة فقط من القوى العاملة أعضاء فى نقابات. حوالى مليون مما يزيد على عشرين مليون عامل. داخل بيئة مؤسسية على قدر كبير من التشظى.

(٣) أثناء الحرب الكردية، تعاقدت «الدولة المتغلغلة» مع فصيل متطرف وحشى من الإسلامويين، هو حزب الله، للتخلص من رجال الأعمال المتعاطفين مع الجانب الكردى. وبما أن أعضاء حزب الله كانوا فى أغلبهم من الأكراد، فقد كان فصيلاً سنياً أصولياً لا علاقة له بالحزب الشيعى الذى يحمل الاسم نفسه. ويبدو أن هذه الرعاية مستمرة حتى الآن بعد توقف العمليات القتالية فى الجنوب الشرقى، مما يَسَّر الحركة الدولية لحزب الله ومشاركته المزعومة فى التفجيرات الانتحارية فى استنبول فى نوفمبر من عام ٢٠٠٣، وتظاهر قوات الأمن بأنها قادرة على السيطرة على الأصوليين من أجل أغراضها أدى إلى عكس النتائج المرجوة.

(٤) هناك الكثير مما كُتب عن الحركة الإسلامية فى تركيا، منه على سبيل المثال Binnaz Toprak, Islam and Political Development in Turkey, Leiden 1981. Nilüfer Gole, Modern Civilization and Veiling, Ann Arbor. Jenny White, Islamic Mobilization. The Social Base of Turkey's Welfare Party, International Journal of Middle East Studies, 2001 vol. 33, No 3.

(٥) اشترك جيسكار ديستان وهلموت شمت فى كتابة مقال رافض عقب قمة هلسنكى التى تمت فيها الموافقة على ترشيح تركيا. وكان جيسكار صريحاً إلى حد كبير فى نوفمبر ٢٠٠٢ حين أعلن أن تركيا ليست بلداً أوروبياً من الناحيتين الجغرافية والدينية. انظر «Europe sans frontier», Le Monde, November 9, 2002. وبصورة عامة كان ترشيح تركيا أكثر قبولاً بين اليسار منه بين اليمين (بريطانيا نموذج لذلك)، وكان فى دول جنوب أوروبا أكثر منه فى الشمال.

"النموذج"



جراهام فولر



أصبح «الورع» عنوانًا للتخلف وصفة للعقول التقليدية فى وسط الأناضول. الدولة هى التى تقرر ما يبنى من مساجد، من يتولى إدارتها، وتكتب الخطب الموحدة لصلاة الجمعة فى كل تركيا



لدى الغرب صورة مضللة عن تركيا: «دولة علمانية، ديمقراطية، صديق ثابت للولايات المتحدة، دولة يتوافق مشهدها الاستراتيجى مع المصالح الأمريكية فى الإقليم، والمثال القدوة لكل المسلمين». وطوال الـ ٥٠ عامًا الماضية لم يتطابق معظم هذه «الصفات» مع الواقع، ولم يجسد سوى أسطورة مريحة لم تختبر. وإذا كان الغرب يرى أن ماضى تركيا «أسطورة» فالأنباء الجيدة هى أن حاضر تركيا، مستندًا إلى حقائق جديرة بالملاحظة فى حركتها خلال سنوات جديدة، يتحول الآن إلى المثال «الأصيل» الذى يقدم - أخيرًا - درجة من الإغواء «الأصيل» فى الإقليم. هذا المثال الجديد يرتكز إلى: انتفاع جاد بالعملية الديمقراطية، واستعداد لأداء دوره ليس كمجرد قوة غربية ولكن كقوة شرقية أيضًا، ممارسة أوسع لسيادة وطنية تستند إلى الشعب، استقلالية أكبر لفعل لم يعد يتعلق بضمانات أمن من الولايات المتحدة أو أى قوى فى رسم السياسة الخارجية. هذا المثال «النموذج» يحقق أيضًا تقدمًا معتبرًا فى اتجاه حل قضية «الأكراد» الأقلية العرقية الملتهبة، ولديه اليوم قدرة ظاهرة لمواجهة التحدى الأول فى العالم الإسلامى اليوم: عملية التكامل الإدارى والسياسى للإسلام. هذا «النموذج» الجديد هو الأفضل كثيرًا لتركيا، الأفضل للإقليم، والأفضل لأوروبا والعالم حتى وإن كان فى واشنطن من لا يزال يأمل فى بقاء «نموذج» أسطورة تركيا القديمة. هناك محاور رئيسية للتحول فى تركيا، وستقود المشهد الاستراتيجى للدولة وسياساتها خلال العقد المقبل، وهى الإسلام، القومية التركية الشائكة، الانضمام إلى الاتحاد الأوروبى، دورها كدولة شرق أوسطية وكدولة متعددة العرقيات، وروابطها مع الولايات المتحدة.

الإسلام

ما يسمى بـ «تركيا العلمانية» هو - تقليديًا - أكثر ما أحبه الغرب عن هذه الدولة، وراه كنوع من الإيماء بالرأس اعترافًا بالمقام الرفيع للنموذج السياسى الثقافى الغربى. لكن تركيا لم تكن أبدًا علمانية أصيلة. وعلى خلاف النموذج العلمانى للولايات المتحدة، الذى يفصل الكنيسة - بصرامة - عن الدولة ويوجب على الدولة أن تبقى بعيدة عن شئون الدين، ولدت العلمانية التركية سيطرة مطلقة وتحكما من الدولة فى الدين على كل المستويات. لقد استند النموذج القديم الذى أرسى دعائمه مصطفى كمال أتاتورك الإصلاحى المشهور ومؤسس تركيا الحديثة فى العشرينيات من القرن العشرين. هذا النموذج استند إلى رؤية فرنسية للعلمانية، بزغت فى أعقاب الثورة الفرنسية، تستخف بالديانة وتنظر إليها كأثر قديم من آثار التخلف والشعوذة لابد من إزالته برؤية علمية حديثة. وقد تعاملت إصلاحات أتاتورك مع الإسلام برؤية مشابهة. كما أن عددًا لا يستهان من النخب الحاكمة تجنب، وبشدة، كل ممارسة عامة للمعتقدات الدينية.

ورغم أن «الإسلام» لم يُمنع، إلا أن الدولة أخذت فى تهميشه أصبح «الورع» عنوانًا للتخلف وصفة للعقول التقليدية فى وسط الأناضول. الدولة هى التى تقرر ما يبنى من مساجد، من يتولى إدارتها، وتكتب الخطب الموحدة لصلاة الجمعة فى كل تركيا. وتولت العسكرية التركية، المتحمسة الغيورة وحامية العقيدة الأتاتوركية، قيادة الصراع لقمع أى شكل لقوة دينية منظمة، أو تدخل من رجال الدين فى السياسة. لكن «حالة الدولة» هذه تراجعت - بوضوح - إلى الوراء خلال العقود القليلة الماضية أمام تنامى العملية الديمقراطية إلى أن وصل المشهد إلى ذروة غير مسبوقة فى تركيا بمجىء حزب دينى معلن إلى السلطة قبل سنتين، حتى وإن كان حصيفًا وحرص على عدم إعلان جذوره الدينية.

نزوع تركيا المعروف تجاه الغرب تحرك باتجاه أكثر واقعية وأصبح أعمق تجزرا. كانت تركيا - بالفعل - غربية النزوع بمعنى أن المتطلبات الاستراتيجية، فى مواجهة التهديد السوفيتى خلال فترة الحرب الباردة، قادت أنقرة إلى معانقة حلف الناتو بشدة، والبحث عن ضمانات أمن غربية. كما أن تركيا لم تصبح غربية بين ليلة وضحاها. لقد كانت دول الإمبراطورية التركية العثمانية أكثر الدول الإسلامية نزوعًا نحو الغرب بحكم الجوار الجغرافى والتواصل والتداخل لمئات السنين سواء كأعداء دوريين أو حلفاء موسميين. وخلال المائة سنة الأخيرة من عمر الإمبراطورية العثمانية، والتى انهارت مع نهاية الحرب العالمية الأولى، سلكت تركيا سياسة تحرر وإصلاحات غربية مثل توحيد النظام الشرعى وتبنى صيغ برلمانية فى الحكم ومحاولة التوفيق بين الإسلام والقانون الغربى، وتعديل نظام التعليم ليواكب النمط الغربى. وهكذا، ورغم أن إصلاحات أتاتورك فى الجمهورية التركية الجديدة، بعد الحرب العالمية الثانية، قدمت فصلاً ثوريًا جديدًا فى عملية «تغريب» تركيا، إلا أنها لم تكن عادلة. لقد ترك سحق أتاتورك لقوة وهيبة الدين فى تركيا الجديدة، ندبات روحية واجتماعية، بطيئة الالتئام، على مدار الـ ٧٠ - ٨٠ سنة الماضية. كان تأثير الغرب لا يذكر بالنسبة للأغلبية الساحقة من سكان تركيا التى لم تشارك الصفوة الأتاتوركية فى روابطها مع الغرب. الأغلبية ظلت متدينة وفخورة بالميراث العثمانى حتى وهى تتحول إلى «مواطنين يدينون بالولاء للجمهورية الجديدة». لقد استغرق الأمر من سكان الأناضول، قلب تركيا، عدة أجيال للاستفادة من النظام التعليمى والإصلاح الاقتصادى والخصخصة لتوسيع التقدم الاقتصادى فى الدولة والبزوغ كقوة جديدة لها أهميتها فى المشاهد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى تركيا. وعلى مدار الأعوام، دعمت هذه القوة الجديدة المسماة بـ «نمور الأناضول»، وبشكل متزايد، الأحزاب السياسية التى تحترم التقاليد الدينية ولا تقلل من شأن الموروث الإسلامى التركى أو تحد من حرية التعبير عنه. ذروة هذه العملية، التى قبلت على مضض من الصفوة لهذا البروز المتزايد لأحزاب توجهاتها دينية، تمثلت فى مشهد انتصار حزب العدالة والتقدم (AKP) فى انتخابات عام ٢٠٠٢. هذا الحزب الشعبى، ذائع الصيت، الذى يصف نفسه - بحصافة - بأنه «ذو خلفية إسلامية»، أصبح الحزب الحاكم فى البلاد. ويعد هذا التطور، فوق ذلك، نتاج تقاليد إسلامية تركية نمت باعتدال، وزاد اقترابها من حقائق السياسة ومتطلبات البراجماتية، تحت العين الراصدة للصفوة العلمانية داخل الجيش، وأعمدة البناء القديم. وفى القلب نفسه التقليدى لتركيا (الأناضول) تفجرت أيضًا، وعلى وجه مقارب، أكبر حركة شعبية فى تركيا «حركة النور» (وفرعها الأكبر والأكثر بروزًا «حركة فتح الله جولين») التى تتبنى تجديد الإسلام القائم على التسامح والتسامى، والانفتاح على التعليم والديمقراطية وبناء المجتمع المدنى القائم على المبادئ الأخلاقية للإسلام. هاتان الحركتان المهمتان تجسدان - بالفعل - صفوة أناضولية جديدة متسقة مع موروثها الإسلامى وتكافح، فى الوقت نفسه، من أجل التحديث والأخذ بالتكنولوجيا، ولكى تكون جزءًا من النظام الأوروبى طالما أن هذا لا يعنى فقدان الهوية الإسلامية. والحقيقة أن تركيا العلمانية هى أول دولة فى تاريخ العالم الإسلامى تنتخب بحرية حزبًا إسلاميًا للسلطة الوطنية. هذه الحقيقة مذهلة. لقد كان على الجيش التركى، الحارس القديم اليقظ لأى تأثير للدين على الحكومة، أن يرضى بالحقيقة وبأن الجماهير انتخبت هذا الحزب وأن الحزب يعمل من داخل المحددات الأيديولوجية للنظام السياسى للمؤسسة التركية. لكن ما حدث فى تركيا قد لا يثير دهشة كبيرة فى ضوء ما للأحزاب الإسلامية من سطوة فى كل العالم الإسلامى طوال العقدين الماضيين أو يزيد.

لقد أدت سيطرة الدولة الشديدة على الدين، وتهميشه ومحاصرته، إلى انبعاثة إسلامية جديدة، تدريجية ولكن مثابرة،

عن: The Washington Quarterly

ترجمة: جمال إسماعيل

داخل المسرح السياسي والاقتصادي والاجتماعي في تركيا. كان من الطبيعي ألا يظل المفتاح الرئيسي للهوية التركية، المرتبط عبر مئات السنين بحماية ونشر الإسلام، مقموعاً إلى الأبد حتى وإن كان أتاتورك قد فكر في نفي ماضي تركيا الإسلامي بعيداً عن إدراك وتعبير الجماهير. ورغم أهمية العديد من الإصلاحات الغربية التي قادها أتاتورك إلا أن محاولة قمعه للدين بين الجماهير لم تنجح، وعادت تركيا ثانية إلى التعبير الطبيعي عن الشعور الديني، وخاصة في السياسة. كانت الديمقراطية السائرة مفتاحاً إلى هذه العملية وبالطريقة نفسها التي دعمت بها الديمقراطية الإسلام السياسي في كل الدول الإسلامية تقريباً، وعلى حد سواء. وهكذا فإن الوسيلة الأولى والمهمة، التي جعلت من تركيا النموذج في العالم الإسلامي، هي أنها واحدة من دول إسلامية قليلة شهدت بزوغاً فعلياً لتمثيل نيابي وسياسي حقيقي وجاد.

وبعد عقود عديدة من الكر والفر والبدايات، وصلت الديمقراطية التركية مرحلة نضج نسبية. لقد حلت تركيا - بالحوار وإلى الحد الذي يمكن منه اعتبار أي مشكلة سياسية محلولة بشكل دائم - مشكلة الإسلام السياسي بواسطة مزيج على درجة مناسبة من الضغوط والحريات يسمح لحزب إسلامي، شديد الحساسية، بالبزوغ، والتألق أيضاً. وعندما يأتي اليوم الذي يشعر فيه الناخب أن هذا الحزب الإسلامي فقد طاقة استمراره، فسوف يُهزم في صناديق الاقتراع، بطبيعة الحال، ويحل محله حزب آخر وتستمر عملية تبادل طبيعية للسلطة السياسية، وهي العملية التي تجعل الأحزاب الإسلامية مثلها كمثل بقية الأحزاب.

إذا كانت هذه هي المرة الأولى في تركيا التي ينتخب فيها حزب إسلامي كحزب حاكم، فهي المرة الأولى أيضاً لواشنطن. لقد كانت الولايات المتحدة تشعر دائماً بـ «حرقة» إزاء السياسات الإسلامية. وهي حرقة لها ما يبررها منذ الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، أزمة الرهائن (السفارة الأمريكية في طهران)، الهجمات التدميرية لرجال حرب العصابات من شيعة لبنان ضد التواجد الأمريكي والإسرائيلي في لبنان في الثمانينيات، بالإضافة إلى ظهور جماعات إرهابية وإسلامية متطرفة حول العالم. وقد تُوِّجَت الحرقة - بطبيعة الحال - بهجمات القاعدة المروعة في ١١ سبتمبر ٢٠٠١. رغم ذلك، توصلت واشنطن - بنجاح تام - إلى علاقات متبادلة مع حكم حزب العدالة والتقدم، مبرهنة أن حزباً إسلامياً واحداً، على الأقل، في العالم، يمكن أن يكون الشريك الممكن الذي يقود إلى الاستقرار في الإقليم. وقد زار «زعيم الحزب»، رئيس الوزراء التركي، واشنطن وجرت المشاورات وتبادل الآراء بين الدولتين حول قضايا مثل العراق، قبرص، التعاون الثنائي العسكري في مجالات محددة.

لقد اجتاز حزب العدالة العتبة، والأمل أن تشعر الولايات المتحدة أن بإمكانها العمل في المستقبل مع أحزاب إسلامية في دول أخرى.

ولماذا لا؟ إن الولايات المتحدة لا تستطيع، أحبت ذلك أم كرهته، تجنب التعامل مع الحركة السياسية الوحيدة والأكبر في العالم الإسلامي، أي الحركة الإسلامية بكل تنوعاتها واختلافاتها وتطوراتها الجارية. إن الجميع يدرك أن العالم الإسلامي حافل بالمظالم والإحباطات والغضب. تعبر هذه المظالم عن نفسها اليوم راكبة «عربة العقيدة». لقد كانت المظالم نفسها قائمة خلال عقود عديدة مضت، وراكبة عربات عقائدية مختلفة، قومية عربية وراديكالية وغيرها. وعندما فشل عبد الناصر في تحقيق نتائج، ظهرت الماركسية - اللينينية وبعدها «الإسلامية»، كخلف طبيعي. كذلك فإن قمع أو تدمير عربة عقائدية، ما، كان يدفع بالمظالم وأصحابها إلى البحث عن عربة جديدة. لهذا يمكن للاستيعاب، وليس القمع، أن يمكن الإسلاميين من التعبير عن العديد من المظالم الشعبية وتسويتها. ولهذا يمكن لما حدث في تركيا أن يشكل سابقة مهمة للعالم الإسلامي.



كمـــال أتـــاتـورك

الوطنية التركية الشائكة

يدرك أي أمريكي دخل يوماً في مفاوضات مع الحكومة التركية أن التركي مفاوض صلب وساخط. يبدو التركي على درجة عالية من الحساسية إزاء الكرامة الوطنية والمصالح القومية التركية. ولا يخفى المفاوض التركي ارتيابه إزاء دوافع الدبلوماسية الغربية. هذه النزعات تعد نتاجاً طبيعياً لحقيقة معاناة تركيا، منذ عدة قرون، من الإمبريالية الغربية التي اقتطعت، وبانتظام، مساحات كبيرة من الإمبراطورية العثمانية في البلقان، الشرق الأوسط، والقوقاز. كما أن الدولة التركية الجديدة كادت تتفكك بواسطة قوى أوروبية متحمسة، منها اليونان، بعد الحرب العالمية الأولى ولم تحفظ وحدة أراضيها سوى المقاومة غير العادية التي قادها أتاتورك. تجارب تاريخية دعمت من الخط القوي القومي المناهض للإمبريالية في التركيبة الوطنية التركية ولم يخفف منه سوى أن الدولة أصبحت قادرة على الحفاظ على قوتها واستقلالها بعد طرد القوى الإمبريالية الجائعة، في عام ١٩٢١ (بخلاف معظم الدول العربية التي لم تنل الاستقلال الحقيقي إلا فيما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية). وبقي الارتياب في التحركات الأوروبية والأمريكية تحت السطح ويظهر دائماً بقوة من وقت إلى آخر، وأصبح العامل المشترك داخل المشهد السياسي التركي: الجيش، القوميون الأتراك، اليساريون، الإسلاميون، وأيضاً داخل أكثر الدوائر التركية غربية. ويعكس السؤال عن الروابط الحالية ما بين أنقرة والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي «غريزتين متحاربتين» داخل طبيعة الوطنية التركية: رغبة تحقيق فائدة من الديمقراطية الغربية، تبادل السلطة، ونجاحات اقتصادية، وتحديث يناهض الارتياب المعتاد إزاء مناورات الغرب. ويرى القوميون المتشددون أن شخصية تركيا واستقلالها تعرضا لتوفيقات بسبب ضغوط يفرضها الغرب عليها لإصلاح متعدد الثقافات واندماج أعمق في النظام الاقتصادي الأوروبي.

ومن المفارقات المثيرة في التاريخ أن يأتي الطلب التركي، لعضوية الاتحاد الأوروبي، أكثر إلحاحاً واقناعاً، في وقت يترأس فيه البلاد حزب إسلامي. وراء هذا التطور سياسات معقدة لكنها على درجة كبيرة من الأهمية. إن الإسلاميين، أو أصحاب الاتجاهات الإسلامية، ضجوا بالشكوى من نفوذ العسكرية التركية على النظام السياسي والذي أدى إلى قمع حرية التعبير «الإسلامي» وحرمانه من إيجاد تمثيل نيابي له داخل النظام. لهذا، وعندما بدأت مفاوضات دخول تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، وجد الإسلاميون، وكذلك الأحرار، أن مطالب الإصلاح المفروضة من الاتحاد الأوروبي لدخول تركيا إلى عضويته، تصب في مصالحهم إلى حد كبير. الديمقراطية هي «المطلوب» من الجانبين: الاتحاد الأوروبي، و«الإسلاميون المعتدلون». الديمقراطية بما فيها من انفتاح النظام السياسي وانحسار تأثير العسكرية على السياسات. كثير من الأتراك يسعون إلى هذه الأهداف، لكن الإسلاميين كانوا هم المستفيدون الرئيسيون.

اليوم، يبقى ما يسمى بقلق العسكرية، شديدة العلمانية، المؤيدة للغرب، إزاء الإصلاحات المطلوبة من الاتحاد الأوروبي لكونها قد تكسب التيار الإسلامي المعتدل مزيداً من الشرعية التي قد تمتد أيضاً إلى الحركة الكردية داخل الدولة.

لكن الأخبار الطيبة هي أن العسكرية التركية مؤسسة تحظى باحترام رفيع ولم يطلها الفساد، ووسعت، عبر السنوات، من أفاقها الديمقراطية في مواكبة للتقدم الحاصل على المستوى المدني. لقد قلصت، ويتزايد، من تدخلاتها السابقة ومن دورها، في السياسة سامحة للدولة بأن تتطور في اتجاه ديمقراطية أصيلة. وفي هذا السياق يبدو اليوم مستقبل تركيا السياسي، والاجتماعي أيضاً، أكثر إضاءة مما كان عليه الوضع في عقود ماضية. ورغم «مشاكسات» داخلية حول طبيعة الإصلاحات المكثفة المطلوبة من الاتحاد الأوروبي، تتحرك

تركيا "النموذج"

الدولة التركية فى الاتجاه الصحيح على طريق قبول الحاجة إلى إصلاح يستجيب للمتطلبات الأوروبية.

والشعور السائد لدى الأغلبية هو أن المكاسب التى يمكن تحقيقها عبر العضوية الأوروبية تفوق فى قيمتها التوفيقات المتعلقة بالسيادة وصيانة النظام القديم. الإصلاحات هى، بالفعل، وفوق كل مطلب آخر للاتحاد الأوروبى، الوسيلة الوحيدة الأكثر قوة لإحداث إصلاحات سياسية واقتصادية وتشريعية كان من الصعب تبريرها وتطبيقها إذا لم تكن هناك تلك الرغبة التركية لدخول الاتحاد.

وداخل الاتحاد الأوروبى نفسه، هناك من يشعر بالقلق إزاء الانضمام المستقبلى المحتمل لتركيا، وإزاء ما إذا كانت تركيا تستطيع - حقاً - تنفيذ الشروط المسبقة للعضوية. بعض الأوروبيين يصل إلى حد التخوف من أن تكون ثقافة تركيا الإسلامية غير مألوفة إلى درجة يصعب على الاتحاد الأوروبى هضمها. وبعض المخاوف الأوروبية المشروعة تتعلق بحجم التعداد السكانى التركى، وملامح الاقتصاد التركى، وكلاهما يمكن أن يكون له انعكاسات حادة على الاتحاد الأوروبى. على الجانب الآخر، كان حزب العدالة والتقدم وراء الدفعة القوية لتسوية الأزمة الملحة حول تقسيم قبرص طبقاً لخطوط مقترحة من الأمم المتحدة. وهى دفعة جددت الأمل فى حل قريب للمشكلة التى بدت وكأنها غير قابلة للحل طوال أكثر من ثلاثة عقود. هنا أيضاً يبدو التقدم الاستراتيجى التركى ملحوظاً.. وفى الصميم.

تركيا والاتحاد الأوروبى

قدم طلب تركيا لعضوية الاتحاد الأوروبى الحافز الحيوى لاتخاذ إصلاحات داخلية سياسية واقتصادية، وقد تحصل تركيا على العضوية رغم الكثير من التشاؤم الذى يسود بعض الدوائر فى تركيا، والكثير من الهواجس داخل دوائر بعينها فى الاتحاد الأوروبى. وإذا كان منطق التوسع فى عضوية الاتحاد الأوروبى يسمح بانضمام دول أقل تقدماً سياسياً أو اقتصادياً، مثل بلغاريا ورومانيا، فإن عضوية تركيا تصبح مؤكدة واستبعادها هو أمر لا تحتمله طموحات أوروبا الكونية المتعددة الثقافات.

من جانب آخر تزيد آمال تركيا فى الانضمام إلى عضوية الاتحاد الأوروبى من التوتر على صعيد العلاقات الأمريكية الأوروبية. وتمارس الولايات المتحدة، الراغبة فى الإبقاء على تركيا كشريك استراتيجى فى الشرق الأوسط، قدراً من الإزعاج المتصل للاتحاد الأوروبى لكى يسرع من دخول تركيا إليه. لكن الاتحاد يظل محتفظاً بهواجسه حول مدى توافق تركيا مع أوروبا، ومتخوفاً من التعداد السكانى الكبير الذى يمكن أن يغرق أوروبا بالمزيد من العمالة المهاجرة، يعترف الاتحاد الأوروبى بما للولايات المتحدة من مصالح استراتيجية أساسية ويعطى اهتماماً هامشياً لانعكاسات اقتصادية أو سياسية تركية على الاتحاد الأوروبى نفسه. كما يبدى الاتحاد الأوروبى قلقاً مضافاً إزاء «استيراد» المشاكل الاستراتيجية على الحدود التركية المشتركة مع جيران غير مستقرين مثل إيران، العراق، سوريا وجيران تركيا فى القوقاز.

ويعطى الاتحاد الأوروبى أيضاً اهتماماً بجهود أمريكية محتملة من شأنها محاولة تخريب الاتحاد الأوروبى ومنعه من التحول إلى منافس لسيطرة القوة الأمريكية. وفى هذا السياق يرى الاتحاد أن إصرار الولايات المتحدة على إضافة دول كثيرة من الشرق، بما فى ذلك تركيا، إنما يهدف إلى إضعاف التجانس الثقافى للاتحاد الأوروبى.

ورغم صعوبة تضارب عضوية تركيا، أو أى دولة أخرى، مع علاقات متزامنة وقوية مع الولايات المتحدة، فإن التنافس بين واشنطن وبروكسل يتطلب من تركيا أن تمارس بعض اختيارات صعبة، وقد بدأت تظهر بالفعل بوادر انقسام داخل صفوة صانعى القرار السياسى التركى بين أصحاب الميول الأمريكية وأصحاب الميول الأوروبية. أصحاب الميول الأمريكية يأملون العون من الصفوة القديمة، من الجيش وارتباطاته مع واشنطن التى تعود إلى فترة الحرب الباردة، وهؤلاء الذين يعتقدون أن الولايات المتحدة ستكون أقل مطالبة للإصلاحات الداخلية التركية، وخاصة تلك التى تتطلب تبنى المطالب العرقية للأقلية الكردية. وكلما زاد احتضان الجماعات الأوروبية التوجه، للقوى الاشتراكية و/أو أصحاب التوجهات المناهضة للإمبريالية، جيل الشباب الأكثر تعرضاً ومعايشة لأوروبا، وخاصة من ملايين العائلات التركية التى عملت فى، أو هاجرت إلى، ألمانيا. هؤلاء الذين جذبهم المشروع الأوروبى، وهؤلاء أقل تخوفاً من التهديد الروسى القديم لتركيا.

ورغم أن وضع تركيا الجيو/ سياسى لا يزال يشجع على احتفاظها بروابط استراتيجية مع الولايات المتحدة، لكن روابطها الاقتصادية مع الاتحاد الأوروبى، ستنمو بشكل أقوى. مدى شدة المناظرة ما بين «الاختيارين» الأمريكى والأوروبى «داخل تركيا»، يتوقف، على مدى حدة اختلاف المصالح الاستراتيجية الأمريكية الأوروبية خلال العقود الآتية. وفى اعتقادى أن العالم من المحتمل أن يشهد اختلافات تكتيكية، وربما استراتيجية، بين الولايات المتحدة وأوروبا، يكون طبيعياً إلى حد ما، بصرف النظر عن من يمسك بالسلطة السياسية فى واشنطن. كل الأطراف عليها الانتباه للتحولات الجارية فى هذه المنطقة والعمل على تقليص ما ينجم عنها من توترات.

ماض غير سعيد

تركيا جزء من الشرق الأوسط. وفهم العلاقة الاستراتيجية بين تركيا والإقليم يتطلب إدراك أن جوهر الأتاتوركية كان ربط تركيا بالغرب لتحويلها إلى دولة غربية متقدمة. ولأكثر من نصف قرن، فى ظل الحكم الأتاتوركى، تصرفت تركيا وكأن الشرق الأوسط لا وجود له. فهذا الإقليم يجسد الارتباط غير السعيد مع ماضى تركيا والذى فيه تبادل العرب والأتراك العدوانية. العرب بدافع اتساع السيطرة التركية على العالم العربى وسياسات الدولة الموالية للغرب. والأتراك بسبب «خيانة» العرب للإمبراطورية العثمانية الأولى. لم تكن تركيا الأتاتوركية راغبة فى ارتباط، ولو من بعيد، بالعالم العربى أو الإسلام. ولفترة طويلة كانت وزارة الخارجية التركية تتفاخر بأنها لا تدرب كوادرها على العمل الدبلوماسى فى العالم العربى. أضف إلى ذلك أن جغرافية تركيا لعبت دوراً محورياً فى دعم النوايا السيئة بين تركيا وجيرانها العرب فى الشرق والجنوب. لقد هددت روسيا وحدة الأراضى التركية لأكثر من ٥٠٠ عام، وكانت لاعباً رئيسياً فى تفكيك الإمبراطورية العثمانية. وفيما بعد، خلال الانبعاثة السوفيتية، عادت روسيا تهدد بجدية استقلال وسيادة أراضى تركيا. على الجانب الآخر، كان العديد من الدول العربية فى حالة غضب إزاء الغرب صاحب الماضى الاستعمارى والإمبراطورى فى الشرق الأوسط، والذى أوجد أيضاً دولة إسرائيل على أرض عربية. وكان التوجه إلى الاتحاد السوفيتى كقوة مناهضة لسيطرة القوة الغربية. على صعيد الأرض والحدود لم يكن هناك ما يدعو العرب إلى التخوف من مطامع روسية لأن الاتحاد السوفيتى ليس متاخماً. الوضع بالنسبة لتركيا كان مختلفاً.

فيما بعد الحقبة السوفيتية شعرت تركيا بأنها مجبرة على مخاطبة جيرانها العرب بما يتجاوز برودة الموقف الدفاعى. والحقيقة أن تركيا أصبحت فى السبعينيات وخلال سنوات الطفرة النفطية ناشطة اقتصادياً، فى البداية، وفى دول مثل السعودية وليبيا. بعد الثورة الإيرانية، عام ١٩٧٩، تحول الإسلام الإقليمى إلى اتجاهات راديكالية وشعرت تركيا بأنها تواجه تهديدات من إيران، العراق، وسوريا، تبنت إيران تصوير الثورة الإسلامية، بينما اصطدمت سوريا مع تركيا حول قضايا تقاسم مياه نهر الفرات وساعدت فى تحريض أكراد تركيا على التمرد (وهذا ما فعله العراق أيضاً فى عدة مناسبات رغم تعاون بغداد وأنقرة لسحق أكراد العراق فى مناسبات متفرقة)، قادت هذه الحقائق تركيا إلى زيادة اقترابها من إسرائيل خلال الـ ٢٠ عاماً الماضية ووصلت العلاقات بين البلدين إلى الذروة فى منتصف التسعينيات. وحدت تل أبيب وأنقرة من قدراتها الاستراتيجية لاعتصار إيران، العراق، وسوريا، فى محاولة لتغيير المواقف العدائية.

هذا الوضع يتغير الآن إقليمياً. ومنذ سنوات مضت أخذت سوريا تغير من استراتيجيتها إزاء تركيا، وطردت من أراضيها وتحت ضغط تركى زعيم حزب العمال الكردستانى، الحركة الانفصالية المؤمنة بالعنف الثورى فى تركيا، وهو الطرد الذى أدى إلى اعتقاله. بالإضافة إلى تعرض سوريا لضغوط للإصلاح والتخفيف من دعمها للراديكاليين فى الإقليم. أما صدام حسين العدائى فقد ذهب الآن (رغم ما تفرضه الحالة العراقية من تهديدات جديدة ناجمة عن عدم الاستقرار الداخلى واحتمالات حرب أهلية تخشى تركيا أن تؤدى إلى انفصال كردى -



إن تركيا العلمانية هى أول دولة فى تاريخ العالم الإسلامى تنتخب بحرية حزباً إسلامياً للسلطة الوطنية. هذه الحقيقة مذهلة. لقد كان على الجيش التركى، الحارس القديم اليقظ لأى تأثير للدين على الحكومة، أن يرضى بالحقيقة



توصلت واشنطن - بنجاح تام - إلى علاقات متبادلة مع حكم حزب العدالة والتقدم، مبرهنة أن حزباً إسلامياً واحداً، على الأقل، فى العالم، يمكن أن يكون الشريك الممكن الذى يقود إلى الاستقرار فى الإقليم



عراقى يشجع على انفصال كردى - تركى).

وتبقى إيران التى تشهد تصاعداً فى البراجماتية السياسية واتخذت خطوات عرجاء لكنها مهمة، فى اتجاه العملية الديمقراطية رغم عمق ما يعيبها.

وفى الوقت الذى تلاشت فيه مخاطر التهديدات من إيران، سوريا، العراق، حققت تركيا تفوقاً فى القدرات العسكرية والاستراتيجية يكفل لها احتواء أى تهديد عسكرى محتمل.

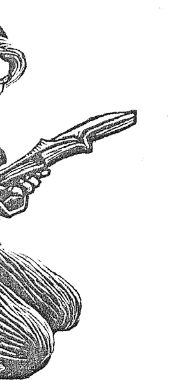
واللافت للنظر أن النجاح المتعلق بالدور الأمريكى، المباشر أو غير المباشر، فى التقليل من التهديدات الاستراتيجية لكل دولة من الدول الثلاث الشرق أوسطية، هو ذاته الذى يغير من حسابات الاعتماد التركى السابق على الولايات المتحدة لضمان حماية استراتيجية فى المنطقة. تركيا تتحرك بثقة فى اتجاه تحسين علاقاتها مع الدول الثلاث معمقة محاور ثنائية ومطورة مصالح اقتصادية تتجاوز، بكثير، اهتماماتها الدفاعية الخاصة. وبعد علاقات بلغت الذروة فى منتصف التسعينيات بدأت روابط تركيا مع إسرائيل رحلة الاضمحلال. سوف تستمر تركيا فى سعيها وراء التكنولوجيا العسكرية التى لا تتوافر إلا فى إسرائيل، وتستمر فى تجيير التأثير القوى للوبى الإسرائيلى، داخل الكونجرس الأمريكى، لخدمتها كوسيط مع الإدارة الأمريكية. لكن استراتيجية «الأوامر الواجبة» لم تعد قائمة. كما أن ضعف العلاقات التركية - الإسرائيلية يعود أيضاً إلى التعاطف الإسلامى المتنامى لحزب العدالة والتقدم، وكذلك تعاطف الرأى العام التركى، مع الفلسطينيين ضد السياسات التعسفية لليكود الحاكم فى إسرائيل. ولدى تركيا الآن أسبابها الوجيهة كى تسعى إلى علاقات مستقلة مع العديد من دول الجوار الإسلامى التى قد تختلف معها فى درجة التحول السياسى لكنها لم تعد من الأعداء. وفى المقابل، فإن هذه الدول ذاتها ترى تركيا قدوة خيرة وهى تقدم براهين إعادة اكتشاف جذورها الإسلامية وتمارس المزيد من الاستقلالية عن واشنطن. العرب، على وجه الدقة، يجلسون ويسجلون الملاحظات عن تركيا الديمقراطية التى تستطيع أن تقول لا لواشنطن بشأن مساعدة غزو الولايات المتحدة للعراق. أمر لم يجرؤ على فعله طغاة الحكام العرب.

وباختصار، فإن تركيا تحولت نحو مزيد من الاستقلال عن واشنطن، تحسين روابطها مع جيرانها العرب والإيرانيين، روابط جيدة مع روسيا، ومزيد من الاعتراف المعلن بماضيها الإسلامى وكل ذلك يخدم فى جعل تركيا جزءاً من الشرق الأوسط أكبر مما كانت عليه من قبل. وتحظى هذه الصورة التركية بتعاطف أكبر بين الدول الإسلامية التى تنظر إلى إنجازاتها الداخلية بتعاطف واحترام كبيرين، وهذا يسهل أن تصبح تركيا النموذج الإقليمى الذى ما كان ليتحقق عندما كانت متورطة بعمق مع الناتو ومناطحة استراتيجية مع العالم العربى وقت أن لجأ إلى دعم موسكو.

المسألة الكردية

تأثرت العلاقات ما بين تركيا وكل من إيران، العراق، وسوريا، باختلاف الاهتمامات العقائدية ومتطلبات الحرب





الباردة، لكن تأثير القضية الكردية على هذه العلاقات كان أقوى وأوضح. لدى تركيا تعداد سكانى من الأكراد يفوق تعدادهم السكانى فى أى دولة أخرى فى الإقليم.

وخلال الثمانينيات والتسعينيات زادت المخاوف التركية الدائمة من انفصال كردى داخل الدولة، وخاصة بعد أن قادت سياساتها «الخام» إزاء الأكراد داخل الدولة إلى خلق حركة انفصالية مسلحة. وقد تشكلت سياسات تركيا تجاه إيران، سوريا، والعراق على وجه الخصوص، تبعاً لـ «حالة» المشكلة الكردية داخل تركيا. أضف إلى ذلك أن كل دولة أرادت زعزعة استقرار، أو إضعاف تركيا، لعبت الورقة الكردية فى مواجهة تركيا، (بريطانيا، روسيا، أمريكا، اليونان، العراق، إيران، سوريا) ويمكن القول - ببساطة - إن شعور دياربكر، العاصمة غير الرسمية لأكراد تركيا، بعدم السعادة يمثل تهديداً مستمراً لاستقرار تركيا وسط أجواء بالغة الحساسية إزاء المناورات الخارجية من الأعداء. احتواء دياربكر، فى اندماج سعيد للأكراد مع تركيا، والتمتع بمزايا كثيرة للدولة، صورة تقلب ديناميكية المعادلة: كردستان التركية. هذا السيناريو يشكل تهديداً للدول الثلاث الأخرى الأقل احتواء للأقليات التركية. هذا السيناريو يجعل من تركيا القوة الجاذبة لكل الأكراد داخل إطار من التقدم والتعددية الثقافية والحياة الديمقراطية المرتبطة بأوروبا. الدول الأخرى. فى السيناريو نفسه - تصبح تحت ضغط: أى أن تقدم لأكرادها ما تستطيع تركيا أن تقدمه أو تتصاعد الروح الانفصالية بين سكانها الأكراد.

وخلال السنوات الخمس الماضية بدأت تركيا الاعتراف بما لهذه الرؤية - السيناريو من حكمة، واتخذت خطوات معتبرة، وإن لم تكن كافية، فى اتجاه الاستجابة للرغبات الكردية فى أمن ثقافى، حكم ذاتى، حقوق لغوية، واعتراف بهوية للأكراد كشعب منفصل. وتبدو المشكلة فى طريقها إلى حل فى الاتجاه الصحيح وتخطى الخطوات بتشجيع من الاتحاد الأوروبى باعتبارها تصب ضمن الإصلاحات المطلوبة فى المنطقة.

الدور الأمريكى

إذا استمرت سياسات واشنطن محكومة برغبة الإبقاء على تركيا داخل المعسكر الأمريكى كى تستجيب - بالكامل - لأهداف السياسة الأمريكية فى الإقليم فإن التوتر الأمريكى - التركى سوف يزداد حدة. إن تركيا تنمو بعقلية أكثر استقلالية وأقل عشقاً وافتتاناً بواشنطن. واحتياجها لنظام «جنمان أمن» هو احتياج تضاءل مع تلاشى «أعداء» الجوار أو تهديداتهم التى لا يمكن أن تمس أمن أنقرة طالما بقيت تركيا مستقرة داخلياً.

يجب على واشنطن إدراك أن تركيا مؤهلة اليوم لأداء دور متزايد القوة فى الشرق الأوسط ولكن عبر أطر صممت لخدمة المصالح الوطنية القومية التركية. ومن المرجح أن تكون أنقرة أقل استجابة لاحتياجات واشنطن داخل الإقليم. ولدى تركيا إمكانية تحقيق مزيد من التقدم فى الاتجاه الذى تسير إليه الآن مع جيرانها وإدارة صيغ لإسلام سياسى من شأنها أن تسهم فى استقرار الإقليم على المدى البعيد. وقد تصطدم تركيا، صاحبة القرار المستقل، بخلاف «دورى» مع الولايات المتحدة، لكنه لن يكون مدمراً. وكلما زاد تمسك واشنطن بسياسات السيطرة كلما زاد التوتر وزاد احتمال أن تجد تركيا نفسها أكثر تعاطفاً مع اتحاد أوروبى يقود - أيضاً - إلى استقلال استراتيجى.

ومن بين كل دول الإقليم العريض، من البلقان الجنوبى، إلى الشرق الأوسط، إلى القوقاز، تحقق تركيا تقدماً كبيراً وتطور، بعناية أكبر، وعلى نحو أكثر عمقاً، ديمقراطيتها الصاعدة. تحسن علاقاتها مع الجيران، تطور اقتصادها، وتتعامل مع الإسلام السياسى. تركيا هذه المستقلة القرار، الجديدة، تتحرك فى اتجاه حل القضايا التقليدية الإسلامية والتركية بعيداً عن الرؤية القديمة المبتذلة لدولة علمانية مؤيدة للولايات المتحدة. تركيا هذه فى طريقها لكى تصبح المثال - النموذج - الأصيل للعالم الإسلامى.

تتغير المصالح القومية التركية لكى تقوى من روابطها الإقليمية وروابطها مع الاتحاد الأوروبى وتخفف من مركزية الدور الأمريكى. هذه النزعات ليست مقصورة على تركيا، على الإطلاق لكنها تعكس التحولات الاستراتيجية الضخمة المهمة على مستوى الكرة الأرضية منذ نهاية عصر الحرب الباردة. لكن عشق الولايات المتحدة للسيطرة العالمية أوجد معادله الطبيعى فى أكبر دولة مستقلة القرار كانت ذات يوم دولة حليفة. سوف تزدهر العلاقات التركية الأمريكية، وسوف تسهم تركيا فى تحقيق استقرار الإقليم ككل إذا لم تحاول الولايات المتحدة صيانة النموذج القديم للحليف «الذى تعتمد عليه» بدلاً من السماح له بتطوير علاقاته الإقليمية المستقلة الخاصة. ■

مصـــر.. والســـودان.. والقـرن الأفـــريقى

حســـــــــن مكــــــــــى

أما مصر فلا نعنى بها فقط مصر المعاصرة بحدودها المعروفة والتى لا تتجاوز الأربعمائة الف ميل مربع، لأن هذا اختزال لمصر فى الجغرافيا واختزال لمصر فى التاريخ إذ ظلت مصر مركز الإشعاع الحضارى فى العالم القديم كما أن شخصية مصر، ومصالح مصر، وحدود مصر ظلت متحركة عبر التاريخ، وارتبطت مصر بالقرن الأفريقى منذ أيام الفراعنة، لأن القرن الأفريقى كان يعنى المجال الحيوى لمصر، لأن القرن الأفريقى هو البحر الأحمر، والمحيط الهندى، وحوض النيل.

ولكن ما هو تعريف القرن الأفريقى؟ القرن الأفريقى هو تلك الرقعة من الأرض التى تمدد فيها الصوماليون، فهى بذلك تعنى جمهورية الصومال وجيبوتى وأثيوبيا وكينيا واريتريا، ولكن الناظر لهذه المنطقة يجدها ترتكز على السودان، وتتداخل مع السودان من الناحية الطبيعية بمئات الأنهار وآلاف الخيران بالإضافة إلى وجود القبائل المشتركة والتداخل السكانى، وبذلك يدخل السودان فى القرن الأفريقى.

ودخول السودان فى القرن الأفريقى يجذب معه مصر، لأن السودان هو الجزء الجنوبى فى وادى النيل الذى تشكل مصر جزءه الشمالى. وظل السودان منذ فجر التاريخ يمثل العمق الاستراتيجى لمصر لأن السودان يعنى، منابع النيل ويعنى الرجال الأشداء والأرض. وظلت مصر منذ فجر التاريخ منفذ السودان للخارج عن طريق مصر والبحر الأحمر تكاملت حركة الحياة بما فيها من تجارة وثقافة، وجيوش ولحظات سراء وضراء. وقد برز السودان كمجال حيوى لمصر، بعد حرب يونيو ١٩٦٧م، حيث كانت الخرطوم المركز الثانى بعد القاهرة، الذى رد لعبد الناصر اعتباره، فإن كانت الجماهير المصرية، هى التى ردت ثقة عبد الناصر بنفسه وشعبه بعد حادثة الاستقالة، فإن الخرطوم التى خرجت لاستقباله هاتفة (نحن نناصر عبد الناصر) فى مؤتمر اللاءات الثلاث، هى التى مكنت مصر من إعادة بناء قواتها المسلحة وسهلت مهمة إخراج الجيش المصرى من اليمن ووفرت الدعم العربى الذى مكن من الصمود الاقتصادى، كما أصبحت الخرطوم أرض السلامة بالنسبة للطيران المصرى وقاعدة ناصر العسكرية.

يمكن القول بأن دور مصر فى منطقة القرن الأفريقى جدده محمد على باعث مصر الحديثة والذى نجح فى سياساته الرامية للتوفيق بين مصر الدولة ومصر الطبيعة، لأن مصر الطبيعة هى حوض النيل، وفى عهد إسماعيل باشا امتدت الحدود المصرية لتضع يدها على منبع النيل الأبيض، بحيرة فكتوريا والتى هى أكبر مسطح مائى عذب على وجه الكرة الأرضية وكذلك دخل المصريون الأطراف الشرقية من أثيوبيا عام ١٨٧٥م وتمركزوا فى هرر وحينها كانت هرر مدينة إسلامية لذا رحبت بالمصريين وإسلامية هرر فى التاريخ ثابتة وحين دخلها المستشرق البريطانى ريتشارد بيرتون لم يجد فيها مسيحياً واحداً وأصبح الأسطول المصرى بعد شق قناة السويس فى ١٨٦٩م سيداً فى البحر الأحمر وأصبحت موانى البحر الأحمر مثل سواكن وباضع مصوع ثغورا مصرية وحتى اسم السودان لم يعرفه السودان الحالى، إلا بعد أن سماه بذلك الخديوى إسماعيل فى أحد فرماناته وإلا فإن السودان كان يعرف بممالكه وهى السلطنة الزرقاء أو سنار ودارفور وتقلى والمسبعات.

وتراجع الدور المصرى فى منطقة القرن الأفريقى فى القرن التاسع عشر، نتيجة للاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢م ومثل هذا الاحتلال كارثة على الدور الإقليمى لمصر حيث دعمت بريطانيا وفرنسا وروسيا منليك الثانى الذى نجح فى إنهاء الدور المصرى فى هرر عام ١٨٨٦م، حيث أباد الحامية المصرية ودمر مسجد هرر الكبير وبنى مكانه كنيسة هرر التى ما تزال شاخصة وجاءت الطامة الثانية بالنسبة للمصالح المصرية، ممثلة فى سياسات إخلاء السودان، التى قام بتنفيذها جارلس غردون، مما أدى إلى اشتداد لهيب الثورة المهدية والتى مثلت مصيبة على مصالح مصر، لأنها أدت إلى الانسحاب من حدود مصر الطبيعية، شاملة الانسحاب من بحيرة فكتوريا والبحيرات وهرر ومصر ولم يبق إلا سواكن والبحر الأحمر شكلاً تحت اسم مصر ولكن فعلاً وروحاً تحت الإدارة العسكرية الإنجليزية.

لم يؤد قيام إسرائيل إلى إضعاف دور مصر فقط فى فلسطين ومنطقة الشام وإنما كذلك إلى غل يدها فى البحر الأحمر، وحروب إسرائيل الثلاثة (٥٦، ٦٧، ٧٣) إنما كانت من أجل فتح البحر الأحمر للملاحة والتجارة والهيمنة الإسرائيلية، وبما أن دول القرن الأفريقى تمتد على ساحل البحر الأحمر (السودان واريتريا. أثيوبيا سابقاً) والصومال وكينيا وجيبوتى امتداد طبيعى على المحيط الهندى، لذا نظرت إليها إسرائيل وسعت إسرائيل للاستفادة من الأساطير المؤسسة للعقل الأثيوبى القائلة بتحدر الأسرة الأثيوبية الحاكمة من صلب يهوذا. أى سيدنا سليمان (زواج بلقيس والتى فى المصادر الأثيوبية هى مكادا من نبى الله سليمان وإنجاب أول ملوك أثيوبيا منليك الأول).

وبدأت الاتصالات الأولية فى بداية الخمسينيات، ومع بروز الثورة المصرية ودوائر عبد الناصر الثلاث (دائرة عربية ودائرة إسلامية ودائرة أفريقية) وفى إطار الدائرة الأفريقية حدث التصادم ما بين المد القومى المصرى العروبى بطابعه الإسلامى والمد الإسرائيلى الصهيونى، والمعروف أن الضابط البريطانى اليهودى أوردى وينجت Orde Wingate والذى أسس قوة الدفاع الإسرائيلى هو ذاته الذى قاد فى ١٩٤١م معارك الغوريلا ضد الإيطاليين فى أثيوبيا لإعادة تنصيب الإمبراطور هيلاسلاسى فى عرشه ودحر الفاشيين.

مكنت هذه الروابط من التأسيس لعلاقة مع نظام الإمبراطور هيلاسلاسى فيما بعد قيام إسرائيل وأصبحت أثيوبيا مهمة فى



بوجود إسرائيل فى ميناء إيلات، والـــــذى يعطيهــــــا ٥,٣ ميـــــــل على البحر الأحمر، تجد نفسها فى منظومة دول البحـــر الأحمـــر وتـــريد أن تدخـــل نـــادى البحر الأحمر كقوة إقليمية مهابة



جدول الأعمال الإسرائيلى، لأن لأثيوبيا امتداداً على البحر الأحمر ولوجود قومية أثيوبية يهودية وكذلك تأسيساً لرؤية استراتيجية تكمن فى أهمية أثيوبيا كحاضنة لمنابع الإمداد المائى، بالإضافة إلى الطمع الإسرائيلى فى أن تصبح أثيوبيا عوناً وحليفاً فى كسر الحصار العربى حولها بأبعاده السياسية والعسكرية كما أن بناء أثيوبيا وازدهارها كان ينظر إليه فى الأعين الإسرائيلية كخطوة فى بناء الشرق الأوسط المتعدد، عليه يمكن قبول الترويج لفكرة الإقليم المتعدد الثقافات والهويات والذى يقبل فى عضويته غير الغرب بدلاً من نفى وجودهم بدأ رئيس وزراء إسرائيل السابق ديفيد بن جوريون فى تشكيل استراتيجية شد الأطراف والتى على ضوئها، عملت إسرائيل فى تركيا وإيران وأثيوبيا، وأصبحت أثيوبيا فى هذه الاستراتيجية أرض ميعاد إسرائيلية نسبة لمركزيتها لأفريقيا ولدول حوض النيل.

لم تكن الثورة المصرية الواعية لدرس الوصاية الإنجليزية التى جردت مصر من نفوذها ودورها الإقليمى، غافلة عن أبعاد الصراع مع إسرائيل وأنه صراع شامل مجاله الأرض والتجارة والبحر الأحمر ودول حوض النيل وتمثلت الاستجابة بأن أمسك بالملف السودانى أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة وهو الصاغ صلاح سالم حتى يجادل الاستراتيجية الإنجليزية فى أمر تقرير مصير السودان، وأمسك الأستاذ محمد فائق بالملف الأفريقى والتى كانت أثيوبيا دائرة من دوائره، بينما تفرغ السيد كمال صلاح الدين لملف الصومال فى عام ١٩٥٤م. وكان كمال يشغل منصب مدير الشئون السياسية فى وزارة الخارجية المصرية وعمل فى إيران وتركيا والكنغو. ووصل المندوب المصرى الجديد لمجلس الوصاية الاستشارى فى عام ١٩٥٤ وقضى ثلاث سنوات فى الصومال ٥٤. ١٩٥٧م وأطلق عليه الرصاص القاتل فى أبريل ١٩٥٧م وقد اتهم المصريون حينها الحكومة الأثيوبية بتدبير الحادث، ولكن مثل ذلك تبسيطاً للمسألة، لأن العقل الذى يدبر المسألة الصومالية أكبر من أثيوبيا، حيث كانت تتصارع الإرادتان الإيطالية والبريطانية وكان كلاهما يخشى دور مصر وعبد الناصر من وراء إيطاليا وبريطانيا وإسرائيل.

وقد استعاض الشهيد عن دور مصر السابق القائم على التمرد العسكرى فى القرن الأفريقى برؤية فكرية ثقافية سياسية قامت على ركيزتين هما:

- توحيد الحركة السياسية الصومالية فى شمال وجنوب الصومال حتى يتحرر الصومال من النفوذين الإيطالى والبريطانى ويبرز كيان وحدوى صومالى فى تلك المنطقة الحساسة من القرن الأفريقى.
- تأسيس حركة تعليم مستندة إلى الحرف العربى فى ربوع الصومال جنوباً وشمالاً، مما أدى إلى قيام بعثة تعليمية مصرية نشطة فى مقديشو وهرجيسا، ضمت خمس مدارس ثانوية وخمسة معاهد دينية بالإضافة إلى مركزين ثقافيين وبدأت نواة البعثة فى عام ٥٥/ ١٩٥٦م بـ ٢٥ مدرساً مصرياً ثم وصلت فى عام ٥٨/ ١٩٥٩م إلى ٧٢ مدرساً وبلغت أوجها فى عام ١٩٨٠م حيث أصبح هناك ٢٥٣ مدرساً ينتمون للبعثة التعليمية المصرية والأزهرية وأدت البذرة التى بذرها كمال صلاح الدين لإعلان انضمام الصومال للجامعة العربية لاحقاً فى فبراير ١٩٧٤م.

ولكن يا حسرتاه تبددت تلك الجهود مع أحداث الصومال الدامية التى أدت لتفكك الصومال والحرب الأهلية وإنهاء الدور الحضارى لمصر فيه وكان للأيادى الإسرائيلية دور كبير سيكشفه التاريخ.

إســـــــــرائيل عـــلى الخـــط!



وبعد انهيار نظام سياد برى، سعت مصر لإعادة بناء الدولة الصومالية وارتطم ذلك بأثيوبيا التى لا تريد دوراً عربياً يعزلها عن التسوية فى الصومال، لأن الصومال الموحد قد تستهويه عقيدة الصومال الكبير، الذى يصبح مهدداً لأمن المنطقة، بأحلام استعادة الأوجادين من أثيوبيا والمنطقة الشمالية الشرقية من كينيا.

فشلت كل محاولات إعادة بناء الدولة الصومالية، لأن الإدارة الدولية الغالبة، لا تريد بروز دولة صومالية فى الظرف الحاضر، ولذلك ورغم حضور الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى وجامعة الدول العربية والاتحاد الأفريقى، لمؤتمر جيبوتى بين القوى والقبائل الصومالية والذى استمر لمدة ثلاثة أشهر وبرزت عنه حكومة شرعية هى حكومة الرئيس عبد السلام صلاد الحالية، إلا أن المجتمع الدولى أحجم عن دعم هذه الحكومة كما سعت أثيوبيا لتقويضها من الداخل وانتهى الوضع إلى أن يصبح تأثير الحكومة الحالية أضعف من تأثير بعض الفصائل ويكفى أن حرس الرئيس قام باحتجازه لعجزه عن دفع مرتباتهم.

مصر وإسرائيل والثورة الأثيوبية:

سعت إسرائيل للاستثمار فى أثيوبيا التى امتنعت عن التصويت على قرار التقسيم الصادر من الأمم المتحدة فى ١٩٤٨م ولكنها أقامت علاقات دبلوماسية مع إسرائيل بعد ١٤ عاماً من إعلان تأسيسها، وأرسلت إسرائيل فى الستينيات من القرن المنصرم أفضل خبرائها فى الأمن والتعليم والاتصالات والزراعة والصحة والتخطيط الاقتصادى لأثيوبيا. وأصبحت السفارة الإسرائيلية فى أثيوبيا الأكبر فى العالم بعد السفارة الإسرائيلية فى امريكا. وفى عام ١٩٥٩م قطعت الكنيسة القبطية الأثيوبية علاقاتها المؤسسية كفرع من كرسى الإسكندرية وفى عام ١٩٦٩م، منحت إسرائيل الكهنة الأثيوبيين مفاتيح دير السلطان فى القدس، والذى ظلت تديره الكنيسة القبطية المصرية منذ عام ١٨٣٤م. ولكن اضطرت أثيوبيا بعد حرب أكتوبر المجيدة فى عام ١٩٧٣م، لقطع علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل، تماشياً مع المد الأفريقى الذى انحاز لمصر ولكن هناك من الأدلة ما يشير إلى أن هيلاسلاسى حينما قطع علاقاته مع إسرائيل، كان يتوهم أن تتفهم إسرائيل ذلك بطريقة أخوية وتقدر ظروف أثيوبيا.

ولكن بعد عدة أشهر من قطع العلاقات، أطلت نذر الثورة الأثيوبية، فى وقت تغلغلت فيه القدرات الإسرائيلية فى كل قطاعات الدولة الأثيوبية، حيث استقر الخبراء الإسرائيليون فى كل الأجهزة الحساسة. واستلم الجيش

الأثيوبى بقيادة منجستو عمليًا وتحت واجهة رئيس الدولة أمان عندوم الإريترى الأصل السلطة ابتداء من عام ١٩٧٤م.

ما أن استقرت الأمور وتم القضاء على هيلاسلاسى الذى اغتيل ودفن فى مرحاض فى قصره، حتى انتهت الأمور إلى منجستو بعد اغتيال أمان عندوم وفى عام ١٩٧٥م. قام منجستو «لم يصبح بعد رئيس دولة» بإعادة استدعاء الخبراء الإسرائيليين مصرًا على أن يعود وزن إسرائيل إلى ما كان عليه قبل حرب أكتوبر المجيدة. وأرسلت إسرائيل ١٢ خبيرًا لإعادة بناء الجيش الأثيوبى، مما مكن الجيش من الصمود فى وجه هجمة الثوار الإريتريين من الغرب والجيش الصومالى من الشرق فى عام ١٩٧٨/٧٧م. فى وقت كذلك أخذ السوفييت يزداد نفوذهم فى أثيوبيا.

وفى عام ١٩٧٩م طفت أحداث الحرب الإيرانية/ العراقية، مما أدى إلى ميل ميزان المصالح الاستراتيجية عن القرن الإفريقى والصراع الأثيوبى مع إريتريا والصومال، كما أدى توقيع اتفاق كامب ديفيد عام ١٩٧٩م المعزز بفرص سلام مع العالم العربى إلى تخفيض قيمة أثيوبيا فى الميزان الإسرائيلى خصوصا أن أثيوبيا أصبحت حليفًا للاتحاد السوفيتى حليف العرب كما أصبحت أثيوبيا جزءًا من حلف عدن مما أدى إلى أن تصبح استراتيجية شد الأطراف ومواجهة مصر فى أثيوبيا والقرن الأفريقى غير ذات جدوى.

وبعد الإطاحة بنظام منجستو، ظلت إسرائيل تراقب الأوضاع فى القرن الأفريقى. ونجحت فى التسلل إلى دولة إريتريا الوليدة، علمًا بأنها كانت من الناحية الاستراتيجية ضد قيام دولة إريتريا، حيث نظرت إليها كتقوية للحزام العربى فى البحر الأحمر وقام الرئيس أسياس أفورقى بثلاث زيارات إلى إسرائيل، كما فتحت إسرائيل سفارة لها فى أسمرا، وإبان الحرب الإريترية/ الأثيوبية فى مايو ١٩٩٨م دعمت إسرائيل الطرفين وإن كان دعمها لأثيوبيا معلنًا ولإريتريا مغلفًا مما أدى إلى غضب أثيوبى غير معلن.

ولكن نجحت إسرائيل أخيرًا فى استدراج رئيس وزراء أثيوبيا مليس زناوى لزيارة إسرائيل فى بداية يونيو ٢٠٠٤م، ولمدة ثلاثة أيام ومثلت الزيارة أهمية استراتيجية كبرى لأنها أول زيارة يقوم بها مسئول أثيوبى رفيع إلى أثيوبيا. وسبقت زيارة الرئيس زناوى زيارة وزير الخارجية سيوم مسفين والذى زار القدس من قبل فى ديسمبر ٢٠٠٣م ورد عليها سيلفان شالوم وزير الخارجية الإسرائيلى بزيارة أديس أبابا فى يناير ٢٠٠٤م على رأس وفد من رجال الأعمال الإسرائيلى مؤلفًا من ٢٢ شخصًا وتأتى زيارة الرئيس زناوى متوافقة مع اجتماع دول حوض النيل فى يوغندا للنظر فى إعادة خصخصة حصص جديدة وحقوق مائية جديدة لكل دول الحوض بإلغاء اتفاقية عام ١٩٢٩م. وورد فى كلمة الرئيس زناوى أمام موشيه كاتساف الرئيس الإسرائيلى بأنه لم يحضر إلى إسرائيل «لمجرد طلب تعاون وثيق بين دولتى ودولتكم الواعدة ولكن لبناء اتفاقية تعاون وتآخ».

وكان من ردود زيارة الرئيس زناوى لإسرائيل أن قررت إريتريا بعد انصرام شهر عن زيارة الرئيس زناوى كشف علاقاتها مع إسرائيل وإعلان فتح سفارة لها فى إسرائيل علمًا بأن لإسرائيل سفارة فى أسمرا منذ عام ١٩٩١م.

أصابع إسرائيلية:

كانت إسرائيل متوجسة من مشروع الاتحاد بين مصر والسودان وسعت لاختراق النخب الحاكمة ممثلة فى جبهة الاستقلاليين، كما برز ذلك فى كتاب «أمراء الموساد»، وكذلك ما كشفت عنه الوثائق البريطانية من اتصالات برجال السياسة فى السودان، ولكن لم يثمر التوجه الصهيونى فى السودان، شمالاً إلا فى حقبة الرئيس جعفر نميرى، حينما بارك السودان اتفاقية كامب ديفيد فى ١٩٧٨ وجنوبًا حينما دخلت فى علاقات تحالفية مع قيادة حركة التمرد فى الجنوب المعروفة بأنانيا ابتداء من الستينيات، حيث كشف طرفًا من ذلك أحد قادة أنانيا فى مذكراته وهو سيفريانو فولى فى كتابه «تشكيل جنوب السودان حر» أنه تم تعيينه سكرتيرًا إداريًا فى يوليو ١٩٦٣ إلى حين اعتقاله فى يوغندا أكتوبر ١٩٦٣. وأن جوزيف أدهو قام بتقديمه إلى السفارات الصديقة فى كمبالا، وعلى رأسها السفارة الإسرائيلية وأصبح حلقة الوصل الأساسية مع إسرائيل وأنه تابع هذا الدور كذلك فى دورة أقرى جادين «١٩٦٤ - ١٩٦٥» وتابع الاتصالات بإسرائيل عبر مسئول الأنانيا المهندس سيرافينو وانى سواكا، وفى عهده تمت زيارة كل من أقرى جادين وغوردون مورتات وجوزيف لاقو لإسرائيل، حيث تم تنصيب جوزيف لاقو مسئولاً عن التنسيق مع إسرائيل فيما يختص بالتدريب والتسليح كما تم إعداد مطار أوبيخ فى بول وأرسلت إسرائيل أعضاء من قواتها المسلحة للإشراف على إسقاط السلاح وإرسال ضباط الأنانيا للخارج للتدريب.

وحينما قامت حكومة الرئيس ملتون أبوتى رئيس يوغندا السابق بالتضييق على حركة التمرد وكذلك اعتقال وتسليم المرتزق الألمانى الشهير إشتاينر لحكومة الرئيس جعفر نميرى والتى قامت بمحاكمته لدوره فى حرب جنوب السودان وسجنه مدى الحياة، قامت المخابرات الإسرائيلية بتنسيق الإطاحة بالرئيس أبوتى والذى كان يحضر اجتماعات رؤساء دول الكمنولث فى سنغافورا فى ٥ يناير ١٩٧١، وظهر الملحق العسكرى الإسرائيلى بارليف فى يوم الانقلاب، يجوب كمبالا مع الرئيس عيدى أمين الذى ذهب فى أكثر من دورة تدريبية عسكرية إلى إسرائيل ولكن لم يدم شهر العسل طويلاً حيث انقلب الرئيس عيدى أمين بعد أقل من سنة على إسرائيل وتم إغلاق السفارة الإسرائيلية فى يوغندا وانتقل التنسيق مع حركة التمرد إلى سفارتى نيروبى وأديس أبابا.

وسعت إسرائيل لتعويق إكمال التوقيع على اتفاقية أديس أبابا ولكن تدخل الإمبراطور هيلاسلاسى محذرًا السفير الإسرائيلى، من أنه إذا قامت إسرائيل بتعويق مسار المفاوضات، فإن ذلك سيضر بالعلاقات الأثيوبية. الإسرائيلية ولم يكن أمام إسرائيل إلا الحفاظ على علاقاتها مع أثيوبيا والانسحاب التكتيكى من جنوب السودان.

تهجير الفلاشا:

ركزت إسرائيل جهودها فى الفترة التالية لاتفاقية أديس أبابا للسلام، على مشروع تهجير الفلاشا إلى إسرائيل على الأخص بعد إنهاء الجيش الأثيوبى فى عام ١٩٧٤ لوضع الإمبراطور هيلاسلاسى وقيام النظام العسكرى الجمهورى.

وأحست إسرائيل بعد حرب أكتوبر مع مصر فى ١٩٧٣، أنها إذا أرادت تأمين بقائها فلابد لها من زيادة طاقتها البشرية زيادة تمكنها من مواجهة النمو السكانى الفلسطينى والعربى، فى وقت برزت فيه الهجرة المضادة بالنزوح من إسرائيل.

ومع بروز الثورة الأثيوبية، أحيت إسرائيل مشروع تهجير الفلاشا والذى كان مبثوثًا فى الأوراق والسجلات منذ أيام اللورد كرومر المندوب السامى البريطانى فى مصر.

وجرت العملية الكبرى بعد موافقة الكونجرس الأمريكى على تمويل مشروع تهجير الفلاشا فى سبتمبر ١٩٨٤م وفى شهر نوفمبر ١٩٨٤ بدأت المخابرات الإسرائيلية بالتعاون مع المخابرات الأمريكية والسودانية عمليتى «موسى» و«سبأ» الشهيرتين فى وقت طغت فى وسائل الإعلام قضايا تطبيق الشريعة الإسلامية فى السودان وإعدام محمود محمد طه وتلى ذلك تطورات داخلية أدت إلى الإطاحة بنظام الرئيس جعفر نميرى.

ولم ينقطع سعى إسرائيل إلى التغلغل فى الشأن السودانى عبر البوابتين الشمالية والجنوبية ولكن لماذا أرادت إسرائيل أن تجد لها موطئ قدم فى السودان؟ وما هى أهداف إسرائيل فى السودان؟ وأين وصلت إسرائيل من أهدافها؟

يمكن تلخيص ذلك، فى أن إسرائيل قسمت الدول المحيطة بها إلى دول طوق ودول محيط، أما دول الطوق فهى مصر وسوريا والأردن ولبنان، وقد تمكنت تمامًا من كسر الطوق، حيث تتمتع بعلاقات مباشرة مع مصر والأردن، كما لها جسور مع لبنان، كما أنها بوجودها فى الجولان، تسعى لضغط علاقاتها مع سوريا.

أما عن دول المحيط، فهى، تركيا وإيران والعراق وأثيوبيا والسودان والسعودية وليبيا، وبالنسبة لأثيوبيا فهناك وجود دبلوماسى وأمنى إسرائيلى وعلاقاتها متطورة مع إسرائيل مما مكنها من تنفيذ برنامجها تجاه الفلاشا وكذلك التنسيق فيما يتعلق بالسياسات المائية لحوض النيل. وكذلك دخلت إسرائيل فى علاقات تحالف تكتيكية مع إريتريا مكنها من الإطلالة على البحر الأحمر والدول التى تستشرفه، كما نجحت فى استخدام إريتريا فى مخططاتها تجاه السودان.

وترغب إسرائيل فى إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع السودان، وعلى طريقة موريتانيا، نسبة لأن لإسرائيل طوقا من السفارات الدبلوماسية شمالاً وجنوبًا، كمبالا، نيروبى، كنشاسا جنوبًا، وعمان والقاهرة شمالاً، وأديس وأسمرا شرقًا، فلماذا ليس الخرطوم.

كما أن إسرائيل بوجودها فى ميناء إيلات، التى تعطيها ٥,٣ ميل على البحر الأحمر، تجد نفسها فى منظومة دول البحر الأحمر وتريد أن تدخل نادى البحر الأحمر كقوة إقليمية مهابة، كما تنظر إلى السودان كسوق وكمدخل للسوق الإفريقى لأن مستقبل تجارة إسرائيل فى افريقيا حيث يمكن أن تمتد التجارة الإسرائيلية عبر السودان إلى مئات



الملايين من الأفارقة، كما أن أقرب أنبوب بترول لإسرائيل هو الأنبوب السودانى حيث لا يكاد يفصل ما بين إسرائيل وبورتسودان إلا مسافة لسان إيلات للبحر الأحمر. كما أن وجود إسرائيل فى السودان يفتح إسرائيل على الشارعين الأفريقى والإسلامى.

كما تنظر إسرائيل إلى أن أكبر استثماراتها فى المنطقة تمثل فى المقاومة الجنوبية، التى غذتها بالمال والسلاح والتدريب والتسهيلات الدبلوماسية.

أثمرت الانطلاقة الإسرائيلية النشطة فى أفريقيا فى فتح أكثر من أربعين سفارة وقنصلية فى القارة أى قرابة عدد السفارات السودانية فى كل العالم. كما يجوب إفريقيا أكثر من خمسة آلاف خبير إسرائيلى يعملون فى الزراعة والصناعة والأمن والتجارة ويرتبطون بمؤسسات العمل الطوعى والمدنى حسب مقولة الرئيس السابق المؤسس بن جوريون: (إن الجهد الإسرائيلى لإضعاف الدول العربية، لا يجب أن يحشد على خطوط المواجهة بل الجماعات غير العربية التى تعيش على التخوم فى شمال العراق وجنوب السودان وجبال لبنان) ومنذ الخمسينيات شكل بن جوريون فريق عمل من العقول الإسرائيلية لوضع الاستراتيجيات الملائمة وتحويل دول المحيط إلى عوامل قوة فى الحسابات الإسرائيلية.

تفكيك السودان فى العقل الإسرائيلى:

تنظر إسرائيل إلى المجتمع السودانى كمجموعة عرقيات وأقليات بدون تاريخ موحد لذا سعت إلى اختراق قلب وعقل النخب بأوهام أن لكل أقلية أو عرق تاريخًا وشخصية على حدة واضعة فى الاعتبار تهديد الصمت المصرى، إذ السودان يعاقب ويحاصر لأنه عمق مصر وجنوب مصر ولم يقدم على ما أقدمت عليه مصر من تطبيع.

لذا أخذ العقل الإسرائيلى يسعى بإصرار لتمكين الأقليات أو الأعراق الأفريقية من الشأن السودانى وتمليكه المزايا الاستراتيجية التى تهم إسرائيل كالممرات البحرية والمجالات الجوية وخطوط المواصلات والثروات المعدنية.

وقد نجحت إسرائيل فى اختراق أجهزة الأمن فى أثيوبيا وأوغندا وكينيا فى مرحلة مبكرة حتى أصبحت جاهزة كمواقع للوثوب والانطلاق نحو السودان. كما تم إنشاء الواجهات الاستثمارية والخيرية والتجارية ومن أبرزها شركة «إينكودا» العاملة فى مجال الثروة الحيوانية واللحوم وكان يديرها بن ناتان وهو أول من تولى إجراء اتصالات مع الزعماء الجنوبيين.

كما أقامت إسرائيل عدة قواعد جوية فى المدن المحيطة بالسودان وجزر البحر الأحمر وحتى فى تشاد حيث كانت تملك بحيرة إيرو ومطار الزاكومة ومطار مقور.

كما ورد سابقًا، فإن فى المرحلة الأولى ركزت إسرائيل على تجنيد الاستوائيين من النخب وكذلك الذين خدموا فى الجيش السودانى وبدأ تدفق المساعدات الإنسانية، أدوية وأغذية وأطباء ثم التدريب على فنون القتال فى مراكز خاصة فى أثيوبيا ووجدت إسرائيل فى العناصر الكنسية والجمعيات الطوعية بنية جاهزة للاستخدام ومهيأة للثورة. وتمثل التغذية بالسلاح للتمويه فى إرسال الأسلحة الروسية التى غنمتها إسرائيل من مصر والدول العربية فى حروبها المختلفة وحينما تسلم أورى لوبرانى منصب سفير إسرائيل فى أوغندا (١٩٦٥ . ١٩٦٦م) ثم سفيرًا لإسرائيل فى أثيوبيا (١٩٦٧ . ١٩٧٢م) تطور هذا الدعم إلى حد انتقال ضباط وجنود من الوحدات الخاصة الإسرائيلية لتدريب المتمردين، كما برز تاجر الأسلحة الإسرائيلى جابى شفيق كوسيط بين شركات السلاح والاستخبارات الإسرائيلية والمتمردين كما قامت إسرائيل بإنشاء مدرسة لضباط المشاة فى «ونجى. كابول» كما اشتركت عناصر إسرائيلية فى بعض المعارك التكتيكية.

سجلت إسرائيل نجاحًا باهرًا فى عدوانها على السودان، إذ ما يزال هذا العدوان مستمرًا دون معرفة الأصابع الإسرائيلية، لأن جهابذة من العقول الإسرائيلية تولوا أمر هذا الملف كما نجحت فى توريط الحكومات الأفريقية والأمريكية والأوروبية فى هذا الشأن، فقد نصت مثلاً معظم الاتفاقيات العسكرية بين حكومة إسرائيل ومنجستو على تخصيص نسبة مقدرة من الأسلحة المرسلة من إسرائيل إلى أثيوبيا لحركة التمرد فى جنوب السودان، كما تم استيعاب كثير من النخب الجنوبية فى المعاهد العسكرية الإسرائيلية، بمن فى ذلك الطيارون على قيادة مقاتلات خفيفة والطائرات العمودية والمروحية.

وقد وصلت الثقة إلى حد طلب العقيد جون قرنق كما ورد فى كتاب «إسرائيل وحركة تحرير جنوب السودان، من رئيس أركان الجيش الإسرائيلى دان شمرون ووزير الدفاع الإسرائيلى إسحاق رابين تقديم تسهيلات واسعة لرجاله فى القواعد البحرية والبرية الإسرائيلية فى أثيوبيا لاستقبال الأسلحة التى ستصل إليه وذلك لمنع إحراج الحكومة الأثيوبية بشكل رسمى.

وقامت إسرائيل بتقديم الدعم والمعلومات بالأقمار الصناعية عن تحركات الجيش السودانى كما تم الكشف عن مقتل خمسة ضباط إسرائيليين فى معارك داخل الجنوب السودانى فى نهاية عام ١٩٨٨م.

ويقدر الخبراء المساعدات التى قدمتها إسرائيل وأجهزة المخابرات الأمريكية والغربية وحدها بحوالى خمسمائة مليون دولار، وكانت إسرائيل وراء نقل المعارك إلى شمال السودان وإسقاط الكرمك وقيسان، وضمن هذه التسهيلات أعلن مئير بوحاس سفير إسرائيل فى زائير عام ١٩٩٠م أن إسرائيل تؤيد بلا حدود التطلعات القومية لسكان جنوب السودان، كما والت فى ذات الوقت قيادة الحركة الشعبية لتحرير السودان بأجنحتها المختلفة زياراتها لإسرائيل.



فى ظروف الاستقلال أهدت مصر للسودان، جامعة القاهرة فرع الخرطوم ونمت العلاقات الثقافية والتعليمية إلى حد أن أصبح حجم الطلاب السودانيين فى مؤسسات التعليم العالى المصرى ضعف عددهم فى مؤسسات التعليم العالى السودانية ولكن تعرض الوجود المصرى فى السودان إلى انحسار شديد فى كل مستوياته السياسية والتجارية والاقتصادية فى فواتح سنوات ثورة الإنقاذ الوطنى التى هبت مصر لدعمها فى البداية ووصل هذا الوجود إلى مستوى ضعيف للغاية فيما بعد عام ١٩٩٩م، فيما دفع النظام السودانى الاتجاه للإيقاد وشركائها فى محاولة للحفاظ على أمن البلد واستقرارها وإنهاء الحرب الأهلية فى جنوب السودان والخروج من العزلة الدولية وعقوبات مجلس الأمن المتعلقة بمحاولة اغتيال الرئيس مبارك والتى ساندتها فى فترة مصر. وحينها انتبهت مصر لمخاطر ترك السودان وحده، يجادل عن وحدة ومصالحة فى مائدة تضم أمريكا وإيطاليا وبريطانيا والنرويج وكينيا وإرتريا ويوغندا وأثيوبيا كان قد فات الأوان، لأن الحكومة السودانية كانت قد التزمت بقرار تقرير مصير لجنوب السودان وسبقها على ذلك المعارضة السودانية التى دعمتها مصر والتى تبنت كذلك تقرير المصير فى مؤتمر المعارضة بأسمرا للقرارات المصيرية.

وجاء ما يسمى بالمبادرة الليبية/ المصرية والتى سعت لطرح حل لمشكلة السودان بتفادى تقرير المصير كمجرد إبراء ذمة، حيث افتقرت المبادرة للمساندة الدولية، كما أن الحركة الشعبية لتحرير السودان رفضتها ولم تكن الحركات السياسية السودانية الموصولة بمصر والمتحالفة مع الحركة الشعبية تملك من الشجاعة والقدرة لتبنى المبادرة، كما أن مصر لم تكن شديدة الحماس للمبادرة لأن المبادرة فى الأساس صناعة ليبية.

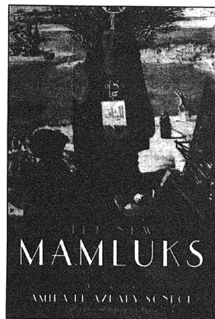
وانتبهت مصر إلى أن محيطها يتفتت، فالصومال يتفكك والجامعة العربية لا تكاد تنجح فى فعل يتكافأ مع تفكك الصومال وتمزقه والدور المصرى فى أثيوبيا يتلاشى، بينما النفوذ الإسرائيلى يزداد على الأخص فى المجال المالى والأمنى، والمصالح المصرية فى السودان تتعرض للضياع.

وفى هذه الظروف تطرح أمريكا مشروع الشرق الأوسط الكبير وهو مشروع بديل للجامعة العربية، ستكون من مفرداته الدولة العربية بالإضافة إلى إسرائيل وأثيوبيا وإريتريا وإيران وتركيا وبعض هذه الدول قدمت بطاقاتها لعضوية الجامعة العربية بصفة مراقب. وهذه مجرد دفعة لجعل الجامعة العربية أكثر تنوعًا حتى تتأهل لدخول إسرائيل وحسب المخطط الإسرائيلى، فإنه حينما تصبح إسرائيل عضوًا كامل العضوية فى نادى الشرق الأوسط، فإن بعض الحكومات تكون قد تغيرت تمامًا من الناحية الديموجرافية والخريطة السكانية والسياسية، وربما ينطبق ذلك على السودان الذى قد يجىء للنادى بنائب رئيس دولته ووزير خارجيته وهم ينطقون بمفاهيم لا يعرفها العرب.

ربما تكون الصورة متشائمة ولكن مع ذلك هذا الوضع، يقابله إحساس شديد بضرورة عمل شىء ولعل تأزم العقل العربى وتأزم الموقف العربى سيدفع فى اتجاه مخاض ثم ولادة لمشروع يستوعب التحدى. ومصر موعودة بهذا الميلاد لأن مصر هى محط الأمل ومحط الرجاء ومحط الرهان. ■



فهم جديد



كتب تتحدى

أميمة أبو بكر

قليلة تلك الكتب والدراسات التى تتحدى قوالب النمطية والمسلّمات فى مواضيع ومجالات علمية شتى فتحاول أن تمحص وتدقق وتحلل من منظور مغاير لتطرح فكراً بديلاً أو تشير إلى طريق أكثر إنصافاً ورشداً. وكثيرة هى تلك الكتب التى تطبع فى سرعة البرق لتستغل رواج اتجاهات معينة فى المجتمع أو صرعات فى النظرة إلى أمر ما لتلجأ إلى التبسيط المخل وخلط الأوراق وتكرس النمطية وتمشى مع تيار التعميم والتسطيح.

وهناك علامة فارقة أخرى فى معالجة القضايا بين مجموعات الكتب هذه، ألا وهى معيار «العلمية» فى دراسة الموضوع وأصله وتطوره وتداعياته مع تحليل متعمق وعرض لأدلة وبراهين، وذلك على عكس الكلام الإنشائى الانطباعي غير المدعم بقراءات ومراجع مهمة فى ذات الموضوع.

والكتابان اللذان نناقشهما هنا قد يظهر من أول وهلة التباين الكبير بينهما فى الموضوع المباشر ومجال التخصص، فأحدهما كتاب تاريخى يرصد مسيرة مصر فى القرون الثلاثة الأخيرة (١٨ - ٢٠ق) والتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى صاحبت هذه الرحلة الطويلة أو كيف حدثت النقلة من مرحلة ما قبل الحداثة إلى الحداثة، وهو كتاب The New Mamlunks : Egyptian) (Society and Modern Feudalism (المماليك الجدد: المجتمع المصرى والإقطاع الحديث - عام ٢٠٠٠) للباحثة الكاتبة المصرية د. أميرة الأزهرى سنبل أستاذة التاريخ والمجتمعات الإسلامية بجامعة جورج تاون الأمريكية، صاحبة الدراسات السابقة فى تاريخ القوانين بمصر ومحررة الكتاب الأشهر الذى ترجمه المجلس الأعلى للثقافة إلى العربية بعنوان: (النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامي، الصادر بالإنجليزية عام ١٩٩٦)، والآخر كتاب تحليلى فى العلوم السياسية يتناول واقعاً سياسياً بالعالم العربى الإسلامى، وهو (Face to Face with Political Islam) (الإسلام السياسى وجهاً لوجه - عام ٢٠٠٣) للكاتب والمحلل السياسى الفرنسى المعروف فرنسوا بورجا الذى قضى سبع سنوات بالجزائر وخمساً بمصر حتى ينجز هذه الدراسة وهو حالياً مدير المركز الفرنسى للعلوم الاجتماعية فى صنعاء باليمن، وهو أيضاً له باع طويل فى دراسة ما يسمى بالتيارات الإسلامية الحديثة فى المجتمعات العربية وصاحب كتاب (صوت من الجنوب - عام ١٩٨٨) حول الإسلام فى المغرب العربي الذى تولى تقديم الترجمة العربية له الدكتور نصر حامد أبو زيد.

يشترك الكتابان رغم ذلك فى إرساء هدف أعم وهو دعوة مبنية على تحليل علمى جاد لإعادة التفكير فى تقييم الظاهرة الإسلامية فى العصر الحديث وبذل الجهد البحثى لتقديم وجهة نظر مغايرة عن السائد، وسوف يتضح بالضبط المقصود بهذا عند التطرق إلى موضوعات الكتابين بالتفصيل. أما النواحى أو الملامح المشتركة الأخرى فهى تتلخص فى: (أ) التركيز على البعد الثقافى للمسألة ومناقشة مشكلة الحداثة. (ب) الرجوع إلى الجذور والبدايات حتى يرى القارئ الصورة الكلية، أى تقديم «بانوراما» ورؤية شاملة للموضوع. (ج) استخدام آلية الفرز والتصنيف الناتجة عن «زووم» يقرب عدسة التحليل من الظاهرة. (د) محور خاص عن المرأة وعلاقتها بالحداثة أو الحركات الإسلامية المعاصرة.

هذه هى تقريباً الركائز الأربع التي سيرتكز عرضنا عليها، وسنلاحظ أن اثنتين منها تشيران إلى نواح منهجية واثنتين تختصان بنواح مفاهيمية. أما المنهجية فنقصد بها اعتماد الكاتبين على حركتين فى التحليل: حركة ترجع بالوراء قليلاً لتدرس جذور وأصول المسألة وتطورها من مرحلة إلى أخرى وليس فقط جزءاً مبتسراً منها، ثم حركة تقرب المنظار كثيراً وكأنه «زووم سينمائى» وتقوم بالفرز والتصنيف بين التدرجات والمستويات المتعددة والفروقات البسيطة والمهمة فى الوقت نفسه. أما النقطتان الأخريان فتتعلقان بمفاهيم النموذج الثقافى الأصيل للشعوب العربية والإسلامية فى مقابل معضلة النموذج الحداثى الخارجى المفروض، ثم مغزى أحوال النساء ماضياً وحاضراً.

كيف نرى تاريخنا وحاضرنا؟

يقوم كتاب (المماليك الجدد) بمجهود ضخم ليس فقط لتقديم عرض تاريخي تقليدي ولكن أيضاً لشرح رؤية خاصة لهذا التاريخ الثرى الذى يكوّن بتراكماته المتعددة هوية أصيلة ومركبة لمجتمعاتنا، مع نقد لبعض المدارس التاريخية التقليدية التى ما فتئت تقدم وتفسر تاريخ المنطقة العربية - خاصة مصر - قبل «حداثة» القرنين الـ ١٩ و الـ٢٠ أى الفترة المملوكية والعثمانية على أنه تاريخ مظلم تماماً ولم يتسن لمصر أى «تنوير» حضارى إلا بعد أن تمت قطيعة حاسمة مع كل أشكال الحياة فى الفترات السابقة، وهذا هو ما أتى بثمار التحديث والعصرنة. ولهذا تبدأ الدكتورة أميرة سنبل فى مقدمتها بمناقشة هذه الفرضية وتقدم الطرح الأساسى الذى سيشكل الإطار النظرى المرجعى للعرض التاريخي بعد ذلك، تشرح فكرتى «النظرية الاستثنائية» فى تفسير التاريخ فى مقابل «الاستمرارية الثقافية»، كما تُطبق على مصر، ربما كنموذج واضح لبقية العالم العربى والإسلامي.

يتم تفنيد خطاب الاستثنائية فى معظم الدراسات الغربية التى تفسر ظاهرة «الإحياء الدينى» فى مصر المعاصرة من خلال النظرية التى تقرر أن التاريخ العربى والإسلامي مختلف وغريب فى نشأته وتطوره بهدف إبراز السمة السلبية فى هذا الاختلاف غير الطبيعى والاستثنائي عن أى تطورات موازية فى أى جزء آخر فى العالم، (ولا يفوتنا بالطبع التعرف على هذه العنصرية الاستشراقية التى ترجع الظواهر إلى «جوهرية» ثابتة وجامدة لا تتطور فى أصل الثقافة العربية الإسلامية). إن المشروع الرئيسى للكتاب كما تُنظّر له الكاتبة فى هذه المقدمة هو نقد لهذه الفكرة الأساسية التى تزعم أنها سيطرت على تفسير التطور التاريخى للمجتمعات الإسلامية - ومصر خاصة - من الفترة المملوكية إلى العثمانيين إلى الدولة الحديثة

The New Mamluks:
Egyptian Society and Modern Feudalism
(المماليك الجدد: المجتمع المصري والإقطاع الحديث)

Amira El-Azhary Sonbol
New York: Syracuse
University Press, 2000

Face to Face With Political Islam
(الإسلام السياسي وجهًا لوجه)
Francois Burgat
London, New York: I. B. Tauris, 2003

للصحوة الإسلامية



ظاهرة «الصحوة الإسلامية» العريضة في آخر القرن العشرين ما هي إلا إحياء ثقافي/ حضاري شامل، أو بمعنى آخر هي تعبير في هذه اللحظة التاريخية الراهنة عن استعادة حق ضائع مسلوب ألا وهو الثقافة الأصيلة للشعوب

السائد

والمعاصرة. فهي من خلال هذا المسح تطرح في المقابل فكرة تاريخنا وثقافتنا الأصيلة كسلسلة متصلة ومستمرة ومتطورة من مختلف الروافد والعناصر وقد تعرضت هذه الاستمرارية الضاربة بجذورها في أعماق القرون لانقطاع بتكون الدولة القومية المركزية الحديثة (nation-state) وتأثير الاستعمار، وما ظاهرة «الصحوة الإسلامية» العريضة في آخر القرن العشرين إلا إحياء ثقافي/ حضاري شامل، أو بمعنى آخر كأنها تعبير في هذه اللحظة التاريخية الراهنة عن استعادة حق ضائع مسلوب ألا وهو الثقافة الأصيلة للشعوب. وهي هنا لا تستأصل هذا الموقف أو تستثنيه عن الأنماط التاريخية العامة في مجتمعات أخرى تعرضت لظروف مشابهة وكان من الطبيعي أن تسعى إلى ما أسمته «بالاندماج الثقافي الحضاري» للفئات الاجتماعية التي تعرضت للاستبعاد والتهميش تحت دعاوى التحديث وإلى نزع حق ومشروعية التواجد على الساحة. وتضرب الباحثة مثالاً سريعاً ولكنه دال كيف أن ربط فكرة «لاهوت التحرير» في أمريكا اللاتينية وأفريقيا بحركات جماهيرية من القاعدة الاجتماعية وكذلك التعاطف معها واحترامها لم يفرز أي استعداد مماثل لفهم ظواهر الإحياء والصحوة والتحرر في العالم الإسلامي.

وهي ترى أن ما يسمى بالصحوة الإسلامية المعاصرة ليس معناها كما يزعم أمثال الكاتبة الأمريكية جيليس كيبل «عودة إلى الله» أي عودة مفاجئة إلى الدين، فالدين كان دائماً موجوداً ومتأصلاً في نسيج مجتمعاتنا ولكن هي «عودة» إلى ما أسمته ثقافة القاعدة الجماهيرية أو المحلية (the base) وهذه الظاهرة الاجتماعية والثقافية آخذة في تقليل الفجوة الهائلة بين طبقات وفئات المجتمع التي تخلّقت منذ قدوم الحداثة مصاحبة للاستعمار وتدخلاته في مسيرة هذا المجتمع وفي إعادة تشكيل شخصيته وشرائحه. نحن إذن أمام عمل ليس تاريخياً تقليدياً ولكن هو في المقام الأول عمل تنقيحي نقدي يراجع عمليات التأريخ للعالم العربي الإسلامي ويرد على نظريات التاريخ الاستشراقية - كما قلنا - التي إذا ما حاولت تفسير الظاهرة الإسلامية الحديثة فستختزلها في كونها برمتها رد فعل محافظًا رجعيًا للتغيير أو لصدمة التحديث والعصرنة وليس استمراراً منطقياً وطبيعياً لعمليات تحول سياسية واقتصادية واجتماعية تفضي إلى تداعيات متوقعة وطبيعية أيضاً. تكوّن هذه التحولات بالتفصيل محتوى الفصول السبعة في هذا الكتاب حيث يبدأ في حركة الاقتراب الشديد - التي أشرنا إليها - من مجتمع مصر منذ القرن الثامن عشر بهدف تشريح كل تفاصيله وتفاصيل طبقاته وفئاته والعلاقات المركبة بينها في عرض مدعم بقراءات ومراجع عدة قد يشق على غير المتخصص أحياناً ولكنه في نفس الوقت يزيد من انجذابه إلى متابعة سبر غور المجتمع المصري في أواخر العصر العثماني وسيطرة المماليك الفعلية عليه ووصول الحملة الفرنسية ثم دولة محمد علي ثم الاستعمار البريطاني حتى قيام ثورة ١٩٥٢ والحكومات المتعاقبة لجمال عبد الناصر وأنور السادات وحتى الحكومة الحالية.

مماليك القرن العشرين:

لكن قبل هذا الاقتراب التمحيصي تحدد الكاتبة أدواتها التحليلية ومصطلحاتها، مثلاً في استخدامها لمصطلحين يمثلان شريحتين اجتماعيتين سترصد وتتابع تطورهما من الفترة العثمانية - المملوكية حتى الوقت الحاضر وهما فئتا «الخاصة» و«العامة». لا تقصد بالخاصة في تاريخ المجتمع المصري بالذات طبقة أرستقراطية متوارثة محددة أو طبقة عليا ثابتة، ولكن أي مجموعة أو فئة تكون في يدها سلطة على البلاد ومتعارف على ذلك، وقد تتغير هذه الفئة من وقت إلى آخر تتسع أو تتقلص وتتغير مكوناتها حسب المتغيرات والظروف المجتمعية الأخرى. مثلاً قد يكون الجيش / العسكرية بسبب حصول أفراده على امتيازات اقتصادية وسلطوية واسعة جزءاً من شريحة الخاصة المهيمنة في وقت من الأوقات، وقد يحدث في وقت آخر صعود طبقة أخرى تجارية فتكون بالتالي جزءاً من الخاصة. وفي رأي الباحثة أن تاريخ مصر في هذه القرون الأخيرة ظل يشهد تناقلا أو تبادلا للمواقع داخل الخاصة بين مجموعتي «المماليك» و«التجار» فعندما كان هناك تدخل أجنبي خارجي للسيطرة المباشرة على أمور البلاد مثل فترة الاحتلال البريطاني أو لدى فترات الاعتماد الشديد على المعونات الأجنبية مثل فترة حكم السادات والفترة الراهنة سادت هيمنة «الخاصة غير العسكرية» أي طبقة رجال الأعمال والمستثمرين والمستفيدين من رجال الحكومة. أما في فترات وجود قدر من الاستقلالية في البلاد مثل في حالة المماليك وحكم محمد علي وجمال عبد الناصر فإن العسكرية أصبحت هي القوة الرئيسية داخل الخاصة.

أما شريحة «العامة» فليس لها هنا المعنى الضيق المحدود للطبقة الشعبية التي تُقدم على أنها طبقة غير متعلمة أو غير واعية وغير منظمة. ولذلك قد يفيد أكثر الإشارة الى تلك الشريحة العريضة بالقاعدة (base) وبدون تجاهل للعلاقات المركبة والتحالفات التي قامت دائماً ولا تزال بين فصائل الخاصة والعامة. الخلاصة أن كلا من الشريحتين لا تشكل طبقة ثابتة بطبيعتها ولكن فصائل متحركة داخل المجتمع تحكمها علاقات مصالح ومنافع أو رغبة في البقاء، وتتغير العناصر المكونة لها على مدار الزمن والعقود، والمعيار هو تملك وممارسة السلطة داخل المجتمع.

ثم تتطرق الكاتبة إلى داخل الخاصة وترصد فصائلها: من النخبة الحاكمة إلى الهيئة العسكرية (الجيش) إلى طبقة المستثمرين وكبار التجار ثم حلفائهم من رجال المؤسسة الدينية الرسمية وبعض المتعلمين والمثقفين. وتمضي في تحديد فئات مجتمعية أخرى لها جذور تاريخية مثل التجار - الملتزمين (من نظام الالتزام الزراعي) - مماليك... إلخ وهي فئات سوف تتعقب تطورها وتغير أشكالها الخارجية وتحركاتها داخل الخاصة حتى الوقت الحاضر، وذلك بهدف - كما أشرنا سابقاً - تحقيق عنصر الاستمرارية الزمنية والخصوصية في التحليل التاريخي وليس الإصرار على نظرية القطيعة التي يروجها مناصرو «صدمة الحداثة المفاجئة» و «التنوير الاستعماري»، كما يحقق ذلك للقارئ أثرين في وقت واحد: بانوراما زمنية هائلة تربط التطورات والتداعيات بالجذور، وعدسة تقربه من المجتمع وتمكنه من الفرز والتمييز. وهكذا تتعقب د. أميرة الصراع الطويل بين الخاصة والعامة وتظهر كيف أنه منذ دولة محمد علي المركزية وسيطرتها على وسائل الإنتاج والتجارة والتصدير والربح كان الهدف دائماً الحفاظ على هذه الهيكلة والتأكد من سيطرة الخاصة على الشئون التجارية والنشاط الاقتصادي داخل وخارج

مصر لتحقيق الثروة التى تضمن بدورها استمرار الهيمنة على زمام الأمور وعلى السلطة.

وحتى نفهم مغزى عنوان الكتاب فإن الكاتبة تزعم أن المفهوم العسكرى الحديث والمعاصر للقوة والسيطرة ترجع جذوره إلى فكرة أمراء المماليك المحاربين وما نعرفه من تاريخهم، وأن النظام الاقتصادي الذى يهدف إلى احتكار الدولة أو أى سلطة فعلية للتجارة الخارجية وتعزيز ثروتها المعروف بالـ (merchantilism) قد بدأ فى مصر على يد المماليك ثم أصبح سياسة مباشرة واضحة فى عهد محمد على ومارسها الإنجليز أثناء الاحتلال لتحقيق الاستغلال والكسب واستمر فى شكل الاشتراكية القومية واحتكار الدولة والجيش فى عهد عبد الناصر وحتى سياسة الانفتاح فى عهد السادات، وما حدث فى مصر خلال الخمسين سنة الأخيرة هو نوع من «الإقطاع الحديث» الذى اتخذ أشكالا مختلفة (فليس من الضرورى أن يكون الإقطاع مقتصراً على الأراضى الزراعية فقد استبدل عبد الناصر إقطاعاً بإقطاع)، يعضده أيديولوجيات متغيرة ويبقى الهدف واحداً: الحفاظ على توازن العلاقة الدقيقة بين الشريحة التى تملك كل الثروة والامتيازات والقوة والشريحة المضطرة لقبول المبررات حتى تحافظ على بقائها.

كتب تتحدى السائد







إن تاريخ مصر ظل يشهد تبادلاً للمواقع بين مجموعتى «المماليك» و«التجار»، فعندما كان هناك تدخل أجنبى سادت هيمنة «الخاصة غير العسكرية» أى طبقة رجال الأعمال والمستثمرين



التحرر الثقافي:

أما اليوم، فقراءتها للتحولات الحاصلة هى أن البعد الثقافى - وليس فقط الاقتصادي - بدأ يلعب دوره، وأن قاعدة العامة بدأت تتحرك لتضع نهاية لهذا التقسيم التاريخي الذى طال عقوداً وبدأ جمهوره فى تكوين خطاب خاص به مرتبط بجذوره يتحدى خطابات الهيمنة والتهميش التى كونتها على مر العقود نخب الدولة المركزية الحديثة وفرضتها عليهم. والباحثة تصفها أنها عملية «تحرر ذاتى تتخلص من الازدواج الثقافى» (المقدمة)، لأن الأيديولوجيات والخطابات الثقافية لكل النخب الخاصة التى تعاقبت على حكم المجتمع المصرى والسيطرة على مقاليد الأمور فيه كانت دائماً أجنبية أو وافدة، «وهذا يسرى على أمراء المماليك وأسرة محمد على والبريطانيين والناصريين الاشتراكيين وبرجوازية الانفتاح فى العصر الساداتى» أما الآن فإن ثقافة الجماهير العامة هى الآخذة فى الصعود: «وما يتم وصفه الآن بالإحياء أو الصحوة الإسلامية ما هو إلا جزء من عملية متنامية يحاول المجتمع المصرى من خلالها أن يصبح أكثر تجانساً واتساقاً مع نفسه لتقليل الفجوة الثقافية بين شرائحه وفصائله» كمؤرخة ترى د. أميرة أن القوة الدافعة للتغيير فى الوقت الحاضر أصبحت بأيدى «العامة» لأن شخصيتها الثقافية العضوية هى الآن المعيار الرئيسى للمجتمع بأسره وبسبب التأثير الكبير لمفكريها ومثقفيها ومتعلميها فيما يكتبون وينتجون من فكر، أما الاشتراكية أو الليبرالية فقد تم ارتباطهما فى الغالب بالخاصة والطبقة الحاكمة.

إن تحرك العامة لاسترداد حق ومشروعية التواجد والتأثير فى المجتمع والمشاركة فى الحياة الثقافية هو إذن تحرك له أسبابه التاريخية والاقتصادية والسياسية المتشابكة، إلا أن الكاتبة لا تزال تؤكد على أهمية الجانب الاجتماعي والثقافى وعلى عملية «التجانس/ الاندماج الثقافى» التى فى طريقها للقضاء على عقود من الازدواجية والتناقض.

العثمانية والحداثة:

من الصعب إعطاء هذا الكتاب حقه الكامل أو تلخيص محتواه فى مقال، لكن بإمكاننا أن نضمن هنا مثالاً أو اثنين يدللان على المقدمة النظرية والخلاصة العامة التى تصل إليها الباحثة. فى بداية الرحلة وفى تركيزها على مجتمع القرن الثامن عشر - أى بعد قرنين تقريباً من بداية الفترة العثمانية - تفند الفرضية الخاطئة أن التدهور والفوضى فى كل مناحى الحياة كانتا هما سمة العصر فى الولايات العثمانية وخاصة مصر، وذلك عن طريق قراءة تحليلية لمصادر تاريخية جديدة وغير تقليدية للاقتراب من وقائع الحياة اليومية الاجتماعية للناس وأنشطتهم الفعلية بدلاً من الاسترشاد فقط بالتاريخ والحوليات الرسمية التى ترصد صعود وهبوط الطبقات الحاكمة ووقائع ونتائج الحروب.. إلى آخره. المقصود هنا مراجعة وثائق وسجلات المحاكم الشرعية لرصد حركة المجتمع المدنى من زواج وطلاق وقضايا نفقة وحضانة ووقفيات وحجج وعقود بيع وشراء ومعاملات مالية تجارية ونزاعات وأحكامها.. الخ. تنوه د. أميرة إلى أعمال كل من المؤرخين والباحثين د. بيتر جران و د. عفاف لطفى السيد و د. نيللى حنا[1] التى تنفى عن القرن الثامن عشر - بل وحتى السابع عشر - صفة الفوضى هذه، وجدير بالذكر هنا أن هؤلاء الباحثين يمثلون مدرسة تاريخية جديدة فى دراسات الشرق الأوسط العربى والإسلامي تستخدم مصادر لم يلتفت إليها من قبل لاستنطاقها والوصول إلى نتائج مختلفة عن حقيقة مجتمعات ما قبل الحملة الفرنسية والاستعمار البريطاني والتنوير الحداثى المرتبط بهما، بل حتى قبل دولة محمد على.

باختصار تبين هذه الأرشيفات وجود حياة طبيعية تماماً ومجتمع مدنى حيوى (وإن لم يقل أحد أنه كان مثالياً) يتميز بتحالفات وتعاون بين فئاته المختلفة وعمل سياسى نشط ومتطور بمقياس ذلك الزمان. ونسترجع هنا مقولة رددتها أكثر من مرة د. نيللى حنا (فى كتابها المذكور بالهامش) أنه لا يجب أن نحكم على أوضاع الولايات العربية العثمانية بما كان يجرى فى الأناضول لأن الأحوال كانت تختلف تماماً ولم يكن لإسطنبول السيطرة الكاملة على سريان أمور هذه المجتمعات الفعلية كما يتصور البعض. وحتى تدحض د. أميرة فكرة استشراقية أخرى عن مجتمع الدكتاتور الأوحد الذى يسير بالكرباج شعبه الخانع المستسلم كالقطيع وتتحدى التفسير السائد لدور محمد على - الصورة النمطية للباشا العثماني القاسى الطاغية - وتستخدم وصف د. عفاف لطفى السيد له بأنه يعد فى حقيقة الأمر «آخر المماليك العظام» بمصر (ص٣) لأنه يشكل استمرارية أو نتيجة لأوضاع معينة داخل المجتمع المصرى كانت حاصلة منذ قرون قبله. أما صورته النمطية التى أشرنا إليها فهى تغذى الفكرة الاستشراقية عن «استبدادية الشرق» المتأصلة (oriental despotism)؛ لذلك فإن كل هذه التفنيدات والمراجعات تصب فى تيار «نقد الحداثة» الذى يحاول إعادة دراسة هذه المجتمعات التى تم وسمها بأنها «تقليدية» أى مرادفة للتخلف والركود والجمود وعدم القدرة على التجديد والتطور والديناميكية، ولا يتكون هذا التيار من باحثات وباحثين عرب ومصريين فقط ولكن أيضاً من بعض الدارسين الغربيين فى الخارج الذين أدركوا أن الوقت قد حان لمراجعة نظريات ومناهج بحثية أثبتت خطأها الكبير فى تحليل المجتمعات والدول ماضياً وحاضراً. وهنا يجوز توجيه دعوة الى بعض من كاتبينا المعاصرين للتزود من هذه الدراسات حتى يصححوا نظرتهم إلى تاريخنا وحاضرنا ويتخلصوا من مناهج ونظريات عفى عليها الزمن ولم يعد يستخدمها أحد الآن، فمطلوب منهم إذن تحرى بعض الدقة العلمية فى تقديم المعلومات إلى القراء وعند استخدامهم بعض التعبيرات التى أصبحت فارغة المضمون ولا معنى لها مثل «ظلامية العصور الوسطى» و«عصور التخلف والركود أثناء الحكم العثمانى».. إلخ.

حداثة القرن التاسع عشر:

وتتوالى الأمثلة فى هذا المجال عندما تشرح لنا الكاتبة النظام القانوني السائد فى المحاكم الشرعية قبل وبعد الفترة العثمانية عندما لم يمنع تطبيق مذهب الإمبراطورية الرئيسى (الحنفى) على معاملات الدولة وإداراتها الرسمية من السماح للولايات أن تمارس اجراءاتها القانونية الفعلية داخل المجتمع بناء على العرف المحلى واستخدام المذاهب الأخرى مما أتاح مرونة وحرية فى اختيار الناس للمذاهب التى يمتثلون لأحكامها.

مثلاً إلى جانب قاضي القضاة المعين رسمياً من قبل اسطنبول، تواجد عدد كبير من القضاة والمحاكم المستقلة التى تتبع المدن والقرى المحلية وتخدم حاجات سكانها بدون سيطرة قانونية مركزية، أى أن المحاكم كان لها ارتباط عضوى بالمجتمع وأفراده وليست الذراع الطويلة لسيطرة الدولة كما حدث بعد إصلاحات القرن الـ ١٩ (ص٦٧ - ٦٨).

للكثيرين من معتنقى نموذج التنوير الحداثى تؤكد الكاتبة أن القرن الـ ١٩ (دولة محمد على ثم الاستعمار البريطانى) يمثل بداية للشيزوفرينيا الثقافية أو الانشقاق بين ما هو «تقليدى» وما هو «حديث» أو «عصرى»، وهى تعتقد أن هذه الازدواجية تبنتها النخب القومية والثقافية ورواد النهضة فى مصر بعد ذلك التى تمسكت بهذا النموذج التنويرى العصرى والذى أصبح ليس فقط هدفاً ولكن أيديولوجية مؤثرة بشدة على كل التيارات السياسية من اشتراكيين وماركسيين ورأسماليين الذين نظروا إلى شخصية المصريين «التقليدية» على أنها «تشد البلد إلى الوراء» (ص٦٠).

أصبح التغريب ضرورة للحراك الاجتماعى وبالتالى معرفة لغة اجنبية حتى أن آلاف الأجانب والبريطانيين الذين عاشوا فى مصر لم يتعلموا أو حتى فكروا فى تعلم العربية لأن المصرى هو الذى كان عليه أن يتعلم لغة غربية أجنبية حتى يرقى ويصير «عصرياً» وجزءاً من «العالم المتحضر» وهكذا لعبت اللغة والتعليم دوراً فى توليد هذه الفجوة الثقافية وزرع الشعور بالاستعلاء والانفصال عن الثقافة المحلية التقليدية، وهى أسس قامت عليها الدولة القومية المركزية الحديثة فى تبنيها لثقافة الخاصة. أى أن الحداثة بهذا الشكل التغريبى ومن هذا المنطلق أصبحت أداة هيمنة فى يد الدولة والخاصة معاً.

وقد انعكس هذا مثلاً على الإصلاحات القانونية التى تمس أوضاع النساء وقوانين الأحوال الشخصية التى عقّدت قوانين وإجراءات الطلاق والنفقة والحضانة بسبب إدخال القانون الفرنسى النابليونى المبنى على فلسفة أبوية غاية فى السيطرة والتمييز ويقول بالحرف الواحد فى أحد نصوصه: «الحقوق المعطاة إلى الأب كرئيس العائلة تطغى على حقوق الزوجة والأطفال» (ص٧٤)، أى أن فلسفة تأسيس وتقنين السلطة الأبوية المطلقة فوق نساء وأطفال المنزل حتى بعد سن الرشد والبلوغ كان إجراء جديداً من الناحية القانونية فى مصر فى بداية القرن العشرين. ومن الأمثلة الغربية أيضاً فى هذا المجال أن إجراء «بيت الطاعة» المعروف تم تأسيسه فقط مع الإصلاحات القانونية الحديثة وليس قبلها. حتى فيما يسمى بالقضاء العام فقد عكس أيضاً الازدواجية والانشقاق عندما تلاحظ الكاتبة أن فكرة «الدرجة الأولى» و«الثانية» و«الثالثة» ظهرت فى المواصلات العامة والمستشفيات والمرافق العامة لأول مرة فى ذلك الوقت وكان اختراعا بريطانياً، بينما ظلت المساجد بالطبع مستثناة من ذلك وترمز إلى الأصل الإسلامى فى التساوى وعدم الطبقية، فكان إذن التقسيم الطبقى المنظم والمقنن فى بداياته وافداً من أوروبا (ص٨٣).

كتب تتحدى السائد







ما حدث فى مصر خلال الخمسين سنة الأخيرة نوع من «الإقطاع الحديث» الذى اتخذ أشكالا مختلفة، والهدف واحد: الحفاظ على توازن العلاقة الدقيقة بين الشريحة التى تملك والشريحة المضطرة للحفاظ على بقائها



من العلمنة إلى الأسلمة:

يبدأ كتاب فرنسوا بورجا (وجهاً لوجه مع الإسلام السياسى) من النقطة التى ينتهى عندها كتاب (المماليك الجدد): أهمية ودلالة الظاهرة الإسلامية المعاصرة فى أنها تمثل ربما لأول مرة اختياراً ووعياً لدى الشعوب بإحياء ثقافى/ حضارى وتحرر ذاتى من عصور الشعور بالدونية والإقصاء وعدم المساواة والاعتماد على الآخر الأجنبى، لأن العنصر الثقافى الأصيل هو الذى أصبح الآن العنصر الموحد للشعوب وليس الأيديولوجيات الفوقية المفروضة من قبل الدولة مثل العلمانية والقومية (ص٢٠٩) أو سائر الأيديولوجيات من اشتراكية وليبرالية وماركسية وناصرية.

أما عن الكاتب الفرنسى والمحلل السياسى المعروف فرنسوا بورجا فإن من المعروف أن له اهتماما بحثيا وعلميا بالحركات الإسلامية المعاصرة فى العالم العربى على الأخص وله دراسات سابقة عنها. ويذكر هنا أن تقديم د. نصر حامد أبو زيد للترجمة العربية لكتاب (صوت من الجنوب) قد أثارت جدلاً وقتها عندما اعترض د. أبو زيد على ما بدا له تعاطفاً غير مقبول من الكاتب الفرنسى. أما أحدث كتاب لبورجا بين أيدينا فهو أيضاً كتاب قد يعترض عليه بل يمقته الكثيرون ممن يفضلون التعرض إلى الظاهرة الإسلامية بالتعميم والاتهامات الجاهزة إلى حد صياغة المصطلحات للتحقير والطعن (مثلاً «التأسلم») وسوف يعتبرون الدراسة وتحليلها المتعمق تبريراً «للاستبداد الدينى» و«العنف الإسلامى» و«التطرف الأصولى» - وهى كلها تعبيرات لم يستخدمها بورجا على الإطلاق حتى لا يجنح إلى الاستسهال والتسطيح.

وعودة بنا إلى العناصر الأربعة التى يرتكز عليها عرضنا للكتابين. نلاحظ تميز هذا الكتاب بالذات فى فكرة «الفرز والتصنيف» بين التيارات لتحديد الفروقات البسيطة المهمة والتداخلات والوان الطيف المتدرجة داخل الظاهرة، وهى الآلية أو التقنية التى أسميتها «زووم» يقرب العدسة التحليلية من التفاصيل: يحلل الكتاب حركات ما أسماها فى العنوان «الإسلام السياسى» وهو بالطبع ليس أول أو آخر كتاب عن الموضوع، ولكن أطروحاته ورؤيته الخاصة هى التى نعتبرها سيراً ضد التيار الذى إما هو جزء من الاستشراقية الجديدة (new-orientalism) وحملة التشويه للإسلام لأغراض سياسية وإمبراطورية توسعية باتت غير خفية على أى واحد منا، أو جزء من خطاب مصرى وعربى محلى لا يزال واقعاً تحت تأثير خطاب الاستشراقية والمنظور الحداثى ولذا يسير فى طريق سياسة التخويف من أى مشروع فكرى يستلهم الدين الإسلامى.(٢) راجع مثلا الدكتور جابر عصفور - وهو الكاتب الكبير والناقد المخضرم الذى نكن له كل احترام - لجوؤه فى كثير من كتاباته إلى اختزال الظاهرة الإسلامية العريضة فى «ثقافة عنف» و«عقلية نقلية اتباعية» و«الإفراط فى تديين كل شىء» و«الأبنية الاتباعية للثقافة التقليدية».. إلخ (ضد التعصب، المركز الثقافى العربى ٢٠٠١)، أى الاعتماد فى الأغلب على تحليل سيكولوجى «جوهرى» (essentialist) وليس تحليلاً اجتماعيا أو سياسياً يعود إلى الجذور والأسباب ويهتم بالسياق.

شمول المشهد الإسلامى:

أما كتاب بورجا فيعود إلى الجذور السياسية والثقافية للمسألة ويدعو القارئ أن يرى الصورة الكلية لهذه المجتمعات وتطورها وظروف انتقالها من مرحلة الاستعمار إلى الاستقلال وما بعد الاستقلال. يتفادى بورجا عامداً مصطلح الأصولية (fundamentalism) الشهير ويستخدم على مدى مناقشاته مصطلحاً آخر له دلالة ومغزى وهو (re-Islamization) أى استعادة أو استرجاع «إسلامية» المجتمع. الظاهرة الإسلامية فى رأى بورجا لها بعد ثقافى هام يجب عدم إغفاله، فهى تعبير عن مقاومة الجنوب لهيمنة الشمال أو الغرب ونوع من الـ (exorcism) طرد وتطهر من الأرواح الشريرة التى جثمت على صدر هذه البلاد طويلاً فى فترات الاستعمار (ص١٢)، وبعد طول تهميش للرموز والمرجعيات الثقافية المحلية أو الأصيلة. أما عن رد فعل الغرب الحالى لهذه الحركات فما هو إلا إعادة لنفس رد الفعل المعادى تجاه القوميين العرب فى العقود السابقة: التحقير والطعن ضد هذا التيار المقاوم فى وقته وضد سعيه إلى الاستقلال. وبنظرة ثاقبة ونقد أمين لموقف الغرب يشرح بورجا كيف أنه حتى الآن عندما انطلق العالم العربى الإسلامى فى موجة أو مرحلة أخرى من المقاومة راغباً فى إعادة التواصل مع ميراثه الحضارى والثقافى قبل الاستعمار وفى تكوين منظومة قيمية خاصة به - لم ير الغرب فى كل ذلك إلا عدوانية موجهة له. يتساوى فى هذا الموقف كل من اليمين واليسار: يرى اليمين الغربى فى الصحوة الإسلامية تأكيداً «لتعصباته القديمة ضد الإسلام والعالم الثالث والعرب» (ص١٨)، أما اليسار فإذا كان على استعداد أكثر أن يتقبل الآخر إلا أنه يقف عند حد معين: فيتقبل

العرب ولكنه يفقد عقلانيته تماماً عند تعامله مع المسلمين ولا يستطيع أن يتخلص من مشكلته التاريخية الخاصة مع الأديان والمؤسسات الدينية ويتشدد تشدداً «أصولياً» في «علمانيته»، فلا يستطيع أن يتقبل أن هناك فئة أخرى من البشر لهم صيرورة تاريخية منفصلة ولا يزالون محتفظين بمرجعية دينية.

ومن هنا يتطرق بورجا إلى فكرة الهوية الضائعة أو المسلوبة ويرفض التعويل على النظرية الاقتصادية لتفسير الظاهرة الإسلامية (يدفع الفقر بطبقات الشعب الدنيا إلى التشبث بالإسلام، فأكثر الإسلاميين هم الفقراء أو من الطبقات الشعبية)، ويرى أن الأمور أعمق وأعقد من هذا فنحن نتحدث عن سلسلة من السياسات الفاشلة لهذه الدول على مدى عقود والتي أدت إلى فقدان المكانة الاجتماعية ومن ثم احترام الذات والهوية لقطاعات هائلة من الشعوب، كما تم استبعادهم من الثروات والقوة والتأثير (وهذا يذكرنا بتحليل د. أميرة سنبل للخاصة والعامة). الشق الآخر من تفسيره الذي لا يزال يدور حول مسألة الهوية هو أن الكاتب يعتقد أن التيارات الإسلامية (Islamism) هي الشكل الجديد أو التطور الطبيعي لحركة القومية العربية العلمانية في منتصف القرن العشرين لأنها الأقرب إلى استعادة وتثبيت الهوية الثقافية الضاربة بجذورها في التاريخ الحضاري لهذه الأمة. وهنا يفرد بورجا باباً كاملاً (الباب الثاني) من الكتاب للاستشهاد بفقرات مطولة من كتابات يعتبرها شهادات شخصية وتمثيلاً لبعض جوانب الفكر الإسلامي الحديث لرواد المفكرين الذين أصبحوا جزءاً رئيسياً من هذه الحركة كخطاب وكفكر، مثل عادل حسين وطارق البشري وراشد غنوشي.

إلى هنا قد يبرز انتقادان لطرح بورجا: أولهما أن التأكيد المستمر على عنصر الخصوصية الثقافية وخصوصية الهوية قد ينزلق بنا إلى «الاستثنائية الاستشراقية» التي كتبت تفندها بالتفصيل د. أميرة سنبل وحذرتنا منها. وثانياً: أن الأفكار الراقية المعتدلة المصقولة في خطابات هؤلاء المفكرين الإسلاميين تمثل فقط النخبة الإسلامية المستنيرة وهي محدودة التأثير على الشارع ولا تنفذ إلى السلوكيات العنيفة المتشددة التي تحكم الجماهير غير المتعلمة غير الواعية على أرض الواقع. والرد على هذين الاعتراضين هو أولاً أننا نتحدث بالتحديد عن التخلي عن المرجعية الغربية في إنتاج المعارف والتحليل التاريخي وصياغة الهويات والخطابات لتأكيد الاستقلالية عن هذا النموذج الذي يطرح نفسه دائماً على أنه الأوحد والأولى بالاقتداء. أما الخطاب الاستشراقي فقد اعتمد على تناقض أساسي وجوهري بين الغرب والشرق وفكر قائم على عنصرية عميقة تجاه كل من هو ليس «أبيض»، وتعصب وتحقير للغريب والأجنبي. لابد أن تكون هناك مساحة وسط تسمح باستقلالية الثقافات واحترام الذات واختلاف المرجعيات دون الحط من شأن هذا الآخر المختلف أو إقصائه من الصورة العامة للإنسانية. أما النقد الثاني: فيجب الاستمرار في قراءة الكتاب الذي يحاول فيه الكاتب صفحة بعد صفحة توسيع مجال الرؤية أو النظر إلى هذه الظاهرة بدلاً من تضييقها ويصر على أنها مسألة إعادة بناء للهوية ولذا فهي ليست أيديولوجية نخبوية فوقية، بل على العكس هي حركة اثبتت قدرتها الفائقة على اى تيار آخر في تعبئة الجماهير وكسب تأييدهم وثقتهم. ثم لماذا الافتراض الاستعلائي أن هذه الجماهير العامة هي بالضرورة مجموعات غوغائية جاهلة يسهل خداعها وقيادها؟

كتب تتحدى السائد







يدحض كتاب «المماليك الجدد» فكرة استشراقية عن مجتمع الدكتاتور الذي يسيِّر بالكرباج شعبه الخانع كالقطيع ويتحدى التفسير السائد لدور محمد علي ـ الصورة النمطية للباشا العثماني الطاغية



المدهش في تحليل بورجا لأسباب ونتائج وشيوع التيار الإسلامي - اجتماعياً وثقافياً - أنه لم يعقد العزم أنفا أن يدين هذا التيار ويكيل له النعوت التي أصبحنا نحفظها عن ظهر قلب دون وعي أو تمحيص: مثل التأسلم - التطرف الديني - الإرهاب الإسلامي - التعصب - جماعات التكفير.. إلخ. ونذكر مرة أخرى أنه لا يستخدم هذه المصطلحات إطلاقاً، والمرة الواحدة التي استخدم فيها «الأصولية»، كانت بالإشارة إلى اليسار الغربي العلماني في تشدده، ولذا آثر أن يتوخى الأمانة العلمية كباحث ومحلل سياسي ليغوص إلى الأعماق شارحاً العدسة التي يرى من خلالها الإسلاميون موقعهم في العالم حالياً وفي أوطانهم داعياً القارئ أن يضع نفسه افتراضاً في مكانهم. وهنا يذكر مشكلة الحداثة التي تم فرضها في هذه البلاد «ليس من داخل المنظومة الأصلية للإسلام ولكن بدونها تماماً إن لم يكن ضدها» (ص ٤٥). ثم يطرح رأياً يذكرنا بإحدى أطروحات د. أميرة سنبل عندما تقرر أن الثورة المصرية استبدلت إقطاعاً بإقطاع وأن تاريخ مصر الحديث ظل يفرز طبقة منتفعة من «المماليك» جيلاً بعد جيل، فهو يقول : «من المفارقات التاريخية أنه بعد تحقيق الاستقلال السياسي مباشرة في البلاد العربية، حققت ثقافة المستعمر نجاحاً من نوع آخر عندما استخدمت حكومات هذه الدول المستقلة في سياساتها التنموية وفي التطوير نفس دلالات ومعاني ورموز ومفاهيم الغرب» (ص ٤٧).

وهكذا فإن عمليات التحديث في فترة ما بعد الاستعمار عمقت من القطيعة مع الهوية الثقافية الأصيلة ولم تراب هذا الصدع الذي سعى إليه الاستعمار عقوداً طويلة من قبل. أصبح التحديث مرادفاً لعمليات نزع أو التخلص من الشخصية الإسلامية لهذه البلاد؛ ويستخدم بورجا فعلاً مصطلح (de-Islamization) (ص ٤٧). فهو يرفض صراحة التفسيرات الخاصة بتشجيع السادات التيارات الإسلامية أو مسألة سفر العمالة المصرية إلى بلاد النفط الصحراوية وتأثرها بأساليبها في الحياة وثقافتها، ويقول إن هذين العاملين لا يكفيان كأسباب رئيسية لهذا الإحياء الإسلامي الشامل والمستمر الذي تشهده البلاد العربية المختلفة.

جماعات التيار الإسلامي تحت المجهر:

على عكس الكتابات العربية التي لا ترى في عموم الحركات الإسلامية إلا كل ما هو قاتم وأسود وشرير، يتحاشى هذا الكتاب عرض الظاهرة ككتلة واحدة مصمتة ويصر على فرز مختلف الاتجاهات والمجموعات أو حتى التنظيمات المسلحة ويشرح الفروقات بينها مؤكدا أن حفنة الجماعات العنيفة هذه لا تمثل بالضرورة التيار الإسلامي الاجتماعي والثقافي والفكري الواسع، بل تقع على حواف هذا التيار، وهو حتى يحاول أن يشرح التمايزات بين الإخوان والجماعة الإسلامية وتنظيم الجهاد.... إلخ ويتساءل: لماذا التركيز دائماً على أكثر الجوانب ثورية وراديكالية في مقابل التعتيم على البعد الاجتماعي والأنشطة الخيرية والمدنية والتأثير الثقافي الايجابي. ويضرب مثلاً في سخرية أن الغرب لا يمانع أن تنفق شخصية أجنبية مثل الراهبة الفرنسية إيمانويل مبالغ طائلة على شبكة أعمال خيرية كبيرة ومساعدات إنسانية في مصر ولكن ستقوم قائمته لو أجرت نشاطاً اجتماعياً وتربوياً مماثلاً مدرسة ذات غطاء على رأسها أو طبيب ذو لحية، وسيكون التفسير المقدم لهذا النشاط أنه اختراق خطر من الأصوليين.

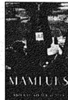
ومما يحسب لتحليل الكاتب هنا في اقترابه الشديد من المسألة هو توجيه نظر القارئ إلى السياق المباشر المحيط بهذه الظاهرة - ليس فقط في شكل التطور التاريخي ودور الغرب - ولكن في شكل تصرفات الدولة وسياساتها إزاء هذه الحركات فهو يكرر في أكثر من موضع أن رد فعل الأنظمة لها يحدد في كثير من الأحيان مسار هذه المجموعات وطرق التعبير عن نفسها بل يكون مسئولاً عن دفعها إلى العنف أحياناً واستراتيجيات السرية. يجب أن ندرك أن خصائص الحركات الإسلامية هي وليدة سياقها المحدد بظروف الزمان والمكان وهي بالتالي رد فعل لهذا، وخاصة رد فعل لعنف الدولة. ويعطي بورجا مثالاً بسيطاً عندما ينسى المتأملون والمحللون لخطاب سيد قطب الذي اتسم في آخر مراحله بالتطرف والمرارة أنه ما هو إلا رد فعل لظروف خاصة جداً مثل سجنه ومعاصرته لتعذيب وتصفية زملائه، أي أن العنف الذي أفرزه هو رد فعل رئيسي لعنف النظام؛ يتناسى ويتجاهل أي تحليل لفكر سيد قطب والإخوان بصفة عامة هذه الحقيقة. وهذه نقطة مثيرة

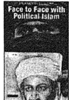
خاصة إذا قارنا ذلك الرأي بكتاب د. رفعت السعيد (الإرهاب المتأسلم - الجزء الأول - دار أخبار اليوم ٢٠٠٤) الذى ينتهج فعلاً هذا النهج وينفى بشدة تعرض سيد قطب لأى عنف من أى شكل حتى ينتفى دور أى ظروف وملابسات فى الموضوع. يذهب بورجا إلى أبعد من هذا عندما يقول أن عنف بعض الاسلاميين وردود أفعالهم فى أى مكان ووقت هو «نتاج السياق الدنيوى الخاص وليس راجعاً لأى مبدأ إسلامى عالمى» (ص ٢١). أى يجب البحث فى الواقع السياسى والاجتماعي وليس فى الإسلام كديانة وعقيدة فى محاولة لاستخراج دوافع العنف من تعاليمه ونصوصه.

وحتى يبرهن على مقولاته هذه يبدأ الكاتب فى تقريب عدسته التحليلية من كل بلد على حدة - مثل الجزائر والأردن واليمن وفلسطين ومصر - فى إصراره أن حالة الانبعاث الإسلامي فى كل بلد تمثل «رد اعتبار لمنظومة ورموز الثقافات المحلية التى ما زالت تحاول تجاوز محنة الاستعمار لتستعيد سمتها العالمية السابقة» (ص ٧١). ولا يتسع المجال هنا بالطبع لعرض الحالة السياسية الراهنة فى كل بلد، إلا أن من أجرأ الفصول الفصل الخامس الذى يذكرنا فيه الكاتب بمبادرة الدولة بالعنف تجاه الإسلاميين فى الماضى (مثل شنق أتاتورك للمدافعين عن الطربوش ولجوء حكومة شاه إيران إلى تمزيق الشادور على النساء) بغرض استفزازهم الدائم والضغط عليهم ومن ثم دفعهم إلى خانة الراديكالية واللاعقلانية والعنف، لاستخدام ذلك كذريعة دائمة لتخويف الشعوب منهم. وهو يسجل لنا أمثلة من وقائع فعلية فى المغرب والجزائر ومصر وسوريا والسعودية لينوه إلى حد ارتكاب الجرائم باسمهم فى بعض الأحيان، أى أنه يزعم أن بعض هذه الجماعات تم اختراقها وتوريطها من قبل أجهزة المخابرات المحلية. هذا إلى جانب المبالغة الشديدة فى معاقبة حكومات وأجهزة أمن هذه الدول لهم أو فى الرد على أى نشاط فتستمر حلقة الانتقام والعنف إلى ما لا نهاية.

يذكر كذلك بصراحة إجراءات قمعية مارستها هذه الحكومات (مدعماً ذلك بأسماء ووقائع وتواريخ) على المشبوهين من تعذيب وتنكيل وهدم منازل وقرى بأكملها وتدمير أراض زراعية وترويع لأمهاتهم وزوجاتهم.. إلخ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك - خاصة فى حالة الجزائر - عندما يقول أن بعض ضحايا العنف من الصحفيين والمثقفين والأدباء «قبلوا القيام بمهمة الترويج لغطاء أيديولوجي لقمع الدولة» (ص ١٠٦)، حتى يتم تبرير خيار التصفية أمام الرأى العام العالمى وأمام شعوبهم. وهكذا يمضى الكاتب فى ذكر حقائق وملابسات مذهلة عن الوضع المعقد فى الجزائر ويخلص إلى أن عنف الدولة والأمن هو الذى ولد وغذى عنف الجماعات، وأن خوف النظام والعسكرية من انتخابات حرة تظهر عدم رغبة شعوبهم لهم أكثر من خوفهم من بعض

كتب تتحدى السائد





الكاتبة توثق لنا من خلال عرض لهذه الحالات حركة المجتمع وتفتح نافذة على الواقع «العثماني» بمصر المغيب فى خطابات بعض الكتاب الذين يجهلون هذا التاريخ ومع ذلك لا يتحرجون من إطلاق التعميمات والمعلومات الخاطئة



القنابل العشوائية التى قد تفجرها هذه الجماعات هنا وهناك، بل إن ذلك يساعد على إظهارهم فى صورة حماة السلام المدنى والحرية.

وفى آخر فصل من الكتاب كما فى الخلاصة يستمر بورجا فى تفسيره للظاهرة الإسلامية من منطلق الغوص فى دلالاتها الثقافية الأكثر شمولاً والتنبيه إلى أن المغالاة الظاهرة فى بعض الخطابات الإسلامية العنيفة إنما تقع على حواف التيار الإسلامي العريض ولا تمثله، بل إن وراء هذا الخطاب الرافض أحياناً طاقات هائلة وقيماً إيجابية ليست بهادمة للحداثة الديمقراطية الغربية كما يتصور الغربيون، الذين يرون الظاهرة من منطلق الاستقطاب التاريخي السائد بين «الثقافة الإسلامية التقليدية» و«الثقافة الحداثية» فالمشروع الإسلامي إنما هو محاولة لإعادة كتابة هذه الحداثة من منظور الثقافات المحلية الأصلية وما يبدو أنه رفض العالم الإسلامي أو العربى للتحديث والإصلاح هو نابع من الظروف التاريخية الخاصة التى صاحبت عملية التحديث هذه التى كانت مقرونة فى أغلب الأحيان بالتغريب الفوقى المفروض والتدخل الاستعمارى وليس نتاجاً طبيعياً «للنسيج الإسلامي» لهذه المجتمعات.

يستشرف الكاتب مستقبل هذه الحركات ويطرح رؤية مستقبلية متفائلة ومنصفة حين يزعم أن هناك إشارات لتطور وتنامى كثير من الفصائل المعتدلة المستنيرة وإشارات تبشر بنضوجها وتحركها فى الاتجاه الصحيح نحو «أسلمة الحداثة» - أى التمسك بالقيم الإرشادية والإيمانية للإسلام مع إعادة التعبير عن مكونات هذه الحداثة لصياغة المفهوم الإسلامي لليبرالية السياسية والتنمية الاجتماعية، وإن هناك إمكانية لمرحلة يطلق عليها «ما بعد الإسلامية» (post-Islamism) ولكن ليس بمعنى انتهائها أو فشلها - بالعكس - بمعنى النجاح فى التطور والنضوج إلى مرحلة ما بعد «رد الفعل الدفاعى» إلى مرحلة أكثر ثقة بالنفس وبناءة. وسوف يتأتى هذا عندما يعطى للإسلاميين الفرصة للمشاركة السياسية ليواجهوا تحدى تحقيق أجندتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية بنجاح.

أما نصيحته الأخيرة إلى الغرب أو الشمال فى النظام العولمى الحالى فتتمحور حول أن يراجع فكرة احتكاره لمسيرة تاريخ البشرية وأن يعى مكانه المحدد والمحدود فى هذه المسيرة الهائلة حتى يتخلى عن غروره وسيطرته على تاريخ الأفكار والفلسفات والقيم، ويغير اعتقاده أنه وحده النموذج الحضارى الأحرى بالاقتداء به لأنه صانع الحداثة والعالمية، ولتحطيم وهم أن «الإنسان المتحضر هو حقيقة الإنسان الغربى» على الشمال أن يتفهم حق الجنوب فى صياغة قيم نابعة من ميراثه التاريخى والثقافى وأن يعبر عن الحداثة والتنمية والتطور من خلال أشكال وأنماط خاصة به دون حرمانه من المشاركة فى العالمية والإنسانية. ما كان على الشمال أن يحتكر الوصول إلى هذه العالمية (universality) بهذا الشكل ويجب أن يعرف انه غير مسموح له أن يفعل هذا مرة أخرى حتى يتسنى للبشرية جمعاء أن تصل إلى مرحلة من «حداثة مشتركة ومتفق عليها» (ص ١٨٥).

الخلاصة:

قد يرى البعض أن نهاية كتاب (وجها لوجه مع الإسلام السياسى) هكذا تجنح إلى نزعة «يوطوباوية» مثالية وغير واقعية وأن نزعة التوحيد هذه بين الشعوب والمجتمعات قد تناقض الطرح الأساسى للكتاب عن قبول الآخر المختلف كما هو. ولكن ربما أراد الكاتب أن ينهى الدراسة بنبرة إيجابية متفائلة عن إمكانية إيجاد المشترك. أما (المماليك الجدد) فقد يصر على رفضه غلاة الحداثيين الأصوليين ويسيئون فهم مقصده أنه دعوة سطحية رجعية إلى ماضوية الزمن الجميل، إلا أن الكتاب ليس دفاعاً عن العثمانيين بالتحديد أو تمجيداً لزمنهم ولكن هو إعادة نظر فى المعطيات التاريخية للوصول إلى الموضوعية بشأن كل مراحل تاريخنا - نذكر ما لها وما عليها - دون الانصياع لما يفرضه الآخر فى كيفية رؤية وتقييم هذا التاريخ الخاص بنا. كان من الأسهل لكل من الكاتبين وتماشياً مع تيارات سائدة لا تتوخى الدقة البحثية فى التفسير التاريخى أو السياسى أن يلجآ إلى التسطيح والتحامل على «ما قبل الحداثة» وعلى «الإسلام السياسى»، ولكن كم المعلومات والأدلة واستخدام منظور بديل لمقاربة هذه الموضوعات يجعل من الكتابين إضافة محمودة فى مجاليهما. ■

الهوامش

(١) خاصة كتابها الأخير الذى ترجمة د. رءوف عباس (ثقافة الطبقة الوسطى فى القاهرة العثمانية: ق ١٦م - ق ١٨م)، الدار اللبنانية المصرية، ٢٠٠٣) والذى نشرت «وجهات نظر» مراجعة د. خالد فهمى له فى عدد مايو ٢٠٠٤.

(٢) سبق كذلك أن نشرت المجلة مراجعة الدكتورة هبة رءوف للكاتب والباحث المتخصص الأمريكي جون اسبوزيتو لكتابة (Unholy WAR: Terror in the Name of Islam,200)، ونشرت دار الشروق الترجمة العربية لكتابة الأسبق (التهديد الإسلامي: وهم أم حقيقة، ٢٠٠٢) - وهى دراسات تهدف كذلك إلى استيضاح الصورة عن تيارات الإسلام السياسي.

(٣) انظر كذلك دراسة مماثلة عن مصر فى كتاب (العلمانية والجند فى الشرق الأوسط : الحركة النسائية المصرية، ٢٠٠٠) الصادر بالإنجليزية للكاتبة نادية العلى.



الأرستقراطية الإسلامية



محمد عبد الرحمن يونس

■■ منذ أن نشأ الإنسان على ظهر الأرض ظهرت عنده غريزة التملك، ودفعته هذه الغريزة للبحث الدائب عن مصادر الرزق، وعندما استولى على هذه المصادر، وسد حاجته من مأكل وملبس ومأوى زادت هذه النزعة تحكما فى عقليته وتصوراته للعلاقات المادية فى مجتمعه، فأصبح يطمح إلى تحسين واقعه وظروف عيشه. وإذا كان هذا الطموح مشروعا فى بعض توجهاته فإنه أصبح فيما بعد لوثة خبيثة دفعته للتكالب على جمع المال، وابتناء القصور والجوارى، وشراء العقارات والاعتداء على غيره، ومحاولة الاستيلاء على ما يملكه، إما بالسطوة وإما بالحيلة. ولم يسلم العرب والمسلمون، عبر مسيرتهم التاريخية من لوثة التملك، بل غرقوا فيها، وقامت معظم علاقاتهم الإنسانية على هذه النزعة.

وإذا كانت الجزيرة العربية مركزا مهما فى العالم القديم لأنها احتلت مركزا متوسطا فيه، فإن حياة السكان المادية والفكرية تأثرت بشكل واضح بالحضارات التى جاورت هذه الجزيرة وتزامنت معها، وأثرت فيها فى آن، عن طريق التبادل التجارى والسلعى. وكان قدوم الإسلام دافعا رئيسا لهؤلاء العرب لأن يحملوا رايات الفتح، مبشرين بالدين الجديد، حاملين رسالته صوب أصقاع بعيدة، إلى الهند والصين وفارس وأسبانيا وغيرها من البلدان. وانتقالهم هذا صوب الأمم الأخرى لم يقلل من أهمية بيئتهم الجغرافية باعتبارها مركزا وسطا بين القارات، بل زادت هذه البيئة أهمية إذ اتسعت وزادت غنى وثراء، وأصبح هؤلاء العرب فاعلين أساسيين فى حركة التجارة والزراعة، ومن خلال تفاعلاتهم مع غيرهم ثقافيا ومعرفيا وتجاريا دخلت متغيرات جديدة على بنيتهم الاقتصادية والاجتماعية وعلاقاتهم الإنتاجية، فقد زادت أموالهم وقطاعاتهم الزراعية، وتحول قسم منهم إلى إقطاعيين، بمفهوم القاموس الاقتصادى الجديد، فى الأرياف، وإلى ملاك وتجار فى المدن الرئيسة، على أن هذا الثراء لم يصب جميع أفراد الطبقات الاجتماعية، بل ظلت الغالبية العظمى من هذه الطبقات تعانى الجوع والفاقة والحرمان.



مع توسع الفتوحات الإسلامية زاد نشاط العرب التجارى، وزادت أرباحهم وذلك باستغلالهم الظروف الجديدة التى ساعدتهم على المبادلات السلعية، وبالتالى على تحقيق الأرباح، ومن ثم زيادة رأس المال، وتعدد طرق استثماره بأشكال شتى. وإذا كانت حياة القبائل العربية فى الجاهلية تعتمد بشكل أساسى على الرعى فإن هذا لا ينفى وجود امتيازات لفرد ما أكثر من فرد آخر، فامتيازات سيد القبيلة أكثر من غيره من أفراد القبيلة، من حيث عدد المواشى، ومن حيث نفوذه السلطوى، وبالتالى يمكن القول: إن التباين الطبقى فى المجتمعات العربية ظهر ابتداء من القبيلة مرورا بالإسلام، وتجذر فى المجتمعين الأموى والعباسى، حتى امتد قويا إلى مجتمعاتنا المعاصرة. فالقبائل القوية كثيرة العدد لهى أقوى من القبائل الضعيفة قليلة العدد، بطبيعة الحال، وقد لعبت نزعة التملك عند القبائل القوية على الاستئثار بفىء غيرها من القبائل الأخرى، فهجمت عليها، وملكت أراضيها ومواشيها، وسبت نساءها، وحولت رجالها إلى عبيد انضووا تحت لوائها، لكنهم ظلوا عبيدا على الرغم من هذا الانضواء. ففى مجتمع الجزيرة العربية، وتحديدا فى مكة، سيطرت قبيلة قريش القوية، كثيرة العدد على الخط التجارى الرئيس الواصل بين آسيا وأفريقيا ودول البحر الأبيض المتوسط، ومن خلال هذا الخط توسعت علاقات القرشيين التجارية، وتدفقت الأموال عليهم، وحولوا مدينتهم مكة إلى مركز كبير للأسواق والتبادلات التجارية، وزادوا سيطرة ونفوذا ماليا. ومع سيطرة قبيلة قريش، وجمعها رؤوس الأموال التى تدخل عليها نتيجة علاقاتها التجارية النشطة برزت طبقتان فى المجتمع المكى: غنية، وفقيرة. وقد مارست الغنية على الفقيرة سطوة واستلابا، ولم تتورع هذه الغنية ممارسة جميع الوسائل غير الأخلاقية وغير النظيفة لزيادة أموالها وتثميرها، إذ مارست الغش فى الكيل والميزان، وفى نوعية البضاعة، وبالتالى تراكمت الأموال فى خزائنها، ولم تسهم هذه الأموال المتراكمة فى إقامة صلات إنسانية نبيلة مع الطبقات الفقيرة، بل عاملتها بمنطق الاستغلال والربا. وقد أشار القرآن الكريم فى غير موضع إلى بطر هذه الطبقة وممارساتها، محذرا لها، وناهيا إياها عن الغش فى الميزان وأكل الربا. تقول الآيات الكريمة: (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) الأنعام ١٥٢، و(ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) المطففين: ١، ٢، ٣ وغيرها من الآيات الكثيرة التى تنهى عن الغش والتلاعب بالميزان، وتدعو إلى القسط فى الوزن والكيل. (ينظر على سبيل المثال: الإسراء: ٣٥. الشعراء: ١٨٢. الرحمن: ٨، ٩. الأعراف: ٨٥، هود: ٨٤، ٨٥ وجميع هذه الآيات الكريمة تدعو إلى عدم استغلال الناس فى البيع والشراء).

أما الآيات الكريمة التى تنهى المسلمين عن الربا فهى غير قليلة أيضا: (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) . آل عمران: ١٣٠، و: (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا



الرسم للفنان حلمى التونى، بتصرف عن لوحة جدارية من العصر العباسى ـ سامراء



يحبّ كلّ كفّار أثيم». البقرة: ٢٧٥. ٢٧٦ وغيرها من الآيات الكريمة. (ينظر على سبيل المثال: البقرة: ٢٧٨، النساء: ١٦١، الروم: ٣٩).

ولقد أسهمت التجارة وظاهرة الربا في زيادة أملاك الناس من أموال وعقارات زراعية ومتاجر ومواشي وإماء ونساء حرائر. وساعد موقع الجزيرة العربية المتميز عرب هذه الجزيرة على التوغل بعيدا صوب آسيا وأفريقيا والاستفادة من ثرواتهما الطبيعية، وبالتالي زيادة صلاتهم التجارية التي أسهمت في ثرائهم الفاحش (فالمياه تحيط بشبه الجزيرة العربية، فمن الجنوب مياه بحر العرب، ومن الغرب البحر الأحمر، ومن الشرق الخليج العربي. وكان لهذا الموقع إلى جانب تلك الصحراء الجدبة أثر كبير في تعامل العرب مع المياه، وركوبهم البحر منذ الأزمنة القديمة، حيث برعوا في الملاحة وفي بناء السفن رغم ندرة الأخشاب ببلادهم، كما تفوقوا في الشؤون التجارية وخصوصا الحضارمة، وكانت وجهتهم الأساسية تجاه المناطق ذات الثراء الطبيعي والتنوع الإنتاجي سواء في آسيا أو أفريقيا. وقد كان لانتشار الإسلام، وعظمة مكانة الإمبراطورية الإسلامية وهيبتها أثر عظيم في تدعيم المكانة التجارية للعرب. ولا يعتبر من المبالغة في شيء إذا قلنا إنه بحلول القرون الأولى من الهجرة أصبح العرب سادة المحيط الهندي ملاحيا وتجاريا، بل إنهم حولوا المحيط إلى بحيرة عربية). (د. شوقي عبدالقوي عثمان، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ١٥١، يوليو/تموز، ١٩٩٠م، ص ٤٢).

غير أن المجتمع في شبه الجزيرة العربية عرف التجارة قبل الإسلام وبرع فيها، المكي وقد أشار القرآن الكريم إلى رحلة أبناء عبد مناف التجارية صيفا وشتاء إلى الشام واليمن والحبشة وبلاد فارس، تقول الآيات الكريمة: (لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا ربّ هذا البيت. الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف). قريش: الآيات: من ١ إلى ٤.

وقد أسهمت التجارة في مجتمع قريش في نمو هذا المجتمع وازدهاره من جهة، وفي تشكيله تشكيلا طبقيا من جهة أخرى، إذ تحققت السيطرة والسيادة فيه للفئة المالكة، وتحديدا الفئة التي تسيّر دفة التجارة، إذ قامت هذه الفئة. التي يمكن أن نقول عنها: إنها فئة منتعشة اقتصاديا. بفرض قوانين السوق والتجارة التي تخدم مصالحها بالدرجة الأولى، وبالتالي لعبت دورا حاسما في تشكيل فئات اجتماعية أخرى عن طريق نفوذها المالي والاقتصادي والسياسي، وأسهمت أيضا في رسم معالم المجتمع المكي الجديد، وحركته الاجتماعية، والتأثير على بنياته كافة. يضاف إلى ذلك إشراف هذه الطبقة على الكعبة، وتنظيم عمليات الحجيج إليها، مما درّ عليها أموالا كثيرة. ومن خلال العملية التجارية النشطة في مكة تشكلت (طبقتان اجتماعيتان، لهما مصالح ومطامح اجتماعية واقتصادية وحقوقية متعارضة. فمن الطرف الأول برز المسيطرون على التجارة والمنظمون لها أكثر الأحيان كمرابين وأصحاب بنوك وكارستقراطيي الكعبة الدينيين ذوي الامتيازات. وقد كان القرشيون في طليعة هؤلاء، وبالتالي في طليعة سكان مكة والمدن العربية الأخرى على العموم، فبأيديهم تركزت السلطات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحقوقية والدينية. وقد ساعدهم على ذلك كونهم القيمين على الكعبة وسدنتها). (د. طيب تيزيني: علم الكلام والفلسفة العربية، منشورات جامعة دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٢م، ص ٢٠).

ويقابل هذه الطبقة طبقة أخرى، وهي تشكل شريحة واسعة من المجتمع المكي، تفتقر إلى أسباب التملك وشروطه، وهي مرغمة على أن تعايش أوضاعا اقتصادية سيئة، وعلى أن تعمل تحت مظلّة الطبقة المسيطرة، من تجار ومرابين، وزعماء عشائر وقبائل، وبالتالي ستفتقر هذه الطبقة إلى شروط السيادة، وسيكون تأثيرها في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية محدودا جدا، لأن جلّ همومها ستنحصر في البحث عن كفاف عيشها، وهذه الطبقة هي طبقة (العوام الأحرار وأنصاف الأحرار والأرقاء (العبيد) الذي كان وضعهم الاجتماعي والاقتصادي مترديا ويزداد سوءاً... لقد وجدوا أنفسهم من خلال عملية كسب حياتهم متعارضين في مصالحهم مع التجار الكبار وأصحاب البنوك والمرابين). (المرجع السابق، ص٢١).



ومع زيادة نشاط الحركة التجارية في مكة ستزداد حاجة التجار إلى تسيير قوافل جديدة، وستحتاج هذه القوافل بدورها إلى من يحميها من هجمات اللصوص وقطاع الطرق والبدو. وسيتولّى أرقاء مكة حماية هذه القوافل، ومن هنا يصبح هؤلاء الأرقاء سلعاً مهمة بالنسبة للتجار، ويزدادون كلما زاد عدد القوافل، وكلما توسعت التجارة وغزت مدناً وبلداناً جديدة، ويصبحون مهمين في العملية الاقتصادية والتجارية كأهمية السلع المستوردة أو المصدرة، من توابل وبخور وصوف وحرير ومجوهرات وغيرها. فحياة هؤلاء العبيد واستمرارها ترتبط اقتصاديا بتوسع رقعة التجارة وازدهارها من جهة، وبمدى طاعتهم المطلقة لأسيادهم من جهة أخرى.

إنّ نزعة التملك تطوّرت بفعل سيادة منطق التجارة لتتعدى كونها امتلاكا للأموال والعقارات، ولتصبح نزعة تدميرية جشعة هدفها امتلاك الرجال والنساء والأطفال، وتحويلهم إلى سلع مهمة في العملية الإنتاجية، ومع نمو عملية الاستيراد والتصدير وافتتاح الأسواق الجديدة سيشتري التجار مزيدا من العبيد والإماء والجواري من أصقاع بعيدة ويحشرونهم في أسواق مكة ومنازلها ليقوموا بأحطّ المهن وأقساها روحيا وجسديا. وسيتكاثرون ويلدون عبيداً مثلهم، وسيصل التشريع التجاري والاقتصادي السلعي في مكة إلى اعتبار أنّ الأطفال الذين يولدون من أب حرّ وأمّ مسترقة هم عبيد أيضاً. وهكذا تتناسل سلالات العبيد، ويتكاثرون وفق حمّى التجارة والتبادل السلعي، ويصبحون جميعا،هم وأولادهم، ملكا للسادة زعماء القبائل وأصحاب القوافل التجارية.

ومع ظهور الإسلام وانتشاره في الجزيرة العربية لم يتوقف العرب عن تثمير أموالهم، فقد نشطت التجارة وازدهرت، وغرق الناس في حمّى البيع والشراء، وزادت أملاكهم التجارية وقطاعاتهم الزراعية، ونهاهم القرآن الكريم عن تعاطي الربا، إذ حرم الربا تحريما مطلقاً، وحدد السبل الجائزة لتثمير الأموال، ونهى عن المحرّمة منها، ولم يحارب التجارة، بل أشاد بها، واعتبر أرباحها فضلا من الله. تقول الآيات الكريمة: « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون»، الجمعة: ١٠، «وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله»، المزمل: ٢٠ «وربّكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنّه كان بكم رحيما» الإسراء: ٦٦، «ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون». الروم: ٤٦ وغيرها من الآيات الكريمة.

وعندما انصرف نفر من هؤلاء العرب عن أمورهم الدينية، وتقاعسوا عن أداء واجباتهم الدينية والإنسانية، وأصبحت



إنّ التباين الطبقي في المجتمعات العربية ظهر ابتداء من القبيلة مرورا بالإسلام، وتجذّر في المجتمعين الأموي والعباسي، حتى امتدّ قويا إلى مجتمعاتنا المعاصرة





الدنيا وأموالها شغلهم الشاغل، وضمرت مشاعرهم الإنسانية النبيلة، وبدأت تذبل شعلة الإيمان فى صدورهم، عاد القرآن الكريم وحذّرهم من لهو الدنيا وتجارتها، والتمادى فى تكديس الأموال وكنزها، وأكّد لهم أنّ الإيمان بالله ورسوله، والجهاد فى سبيله، والابتعاد عن الغى والضلال هو التجارة الرابحة، تقول الآيات الكريمة: «وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين». الجمعة:١١، «وأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين». البقرة: ١٦، «ويا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون». الصف: ١٠. ١١ «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم» التوبة:٣٤.

وإذا كانت التجارة فى بنيتها العميقة تشكّل حاجة شديدة الضرورة لتواصل الناس والمجتمعات البشرية فيما بينها، وسبباً رئيسا من أسباب الانتعاش الاقتصادى، وعصبا مهما فى حياة الناس، فإنها أسهمت من خلال غشّ التجار واحتكارهم وتلاعبهم بالأوزان إلى تكريس التباين الطبقى، وزيادة إفقار الفقراء، وزيادة الملكية الفاحشة لدى الأغنياء والتجار والأمراء وأصحاب السلطة عن طريق الربح، ودورة رأس المال المستمرة.

يقول ابن خلدون: «إنّ معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأغلى من ثمن الشراء، إما بانتظار حوالة الأسواق أو نقلها إلى بلد هى فيه أنفق وأغلى، أو بيعها بالغلاء على الآجال. وهذا الربح بالنسبة إلى أصل المال يسير. إلاّ أنّ المال إذا كان كثيرا عظم الربح. لأنّ القليل فى الكثير كثير. ثمّ لا بد فى محاولة هذه التنمية الذى هو الربح من حصول هذا المال بأيدى الباعة بشراء البضائع وبيعها وتقاضى أثمانها. وأهل النصفة قليل؛ فلا بدّ من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع، ومن المطل فى الأثمان المجحف بالربح، كتعطيل المحاولة فى تلك المدة وبها نماؤه، ومن الجحود والإنكار المسحت لرأس المال إن لم يتقيّد بالكتابة والشهادة»(١). (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. عبد الواحد وافى، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة، دون تاريخ، ٢/ ٩٢٨).

ومع انتشار الإسلام وتوسع رقعة الدولة الإسلامية ازدهرت التجارة، وتدفقت الأموال الكثيرة على المسلمين، وزادت أملاكهم، نتيجة لدورة رأس المال النشطة، ولقدوم الثروات من البلاد البعيدة الغنية التى دخلها المسلمون غانمين فاتحين، أو فارضين الجزية، وعرفت الطبقة الأرستقراطية فى قريش فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٢٣ . ٣٥ هـ /٦٤٤ . ٦٥٦م)، الثراء الفاحش، فأكثرت من امتلاك كلّ شىء: الضياع والبساتين والمنازل والعبيد والجوارى. وإذا كانت حمى التملك قد هدأت قليلا فى عهد النبى محمد (ص)، وفى عهدى الخليفتين: أبو بكر الصديق (١١ . ١٣ هـ /٦٣٢ . ٦٣٤م)، وعمر بن الخطاب (١٣ . ٢٣هـ /٦٣٤ . ٦٤٤م)، بسبب تشذيب الإسلام لها، والحدّ من نزعتها المتأججة، فإنها سرعان ما فارت من جديد فى عهد الخليفة عثمان بن عفان، حتى أننا نجد أن الخليفة نفسه قد أصابته هذه الحمى، فقد كان من كبار ملاك الأموال والعقارات كما يؤكّد المسعودى حين يقول: «وبنى داره (أى عثمان) فى المدينة وشيدها بالحجر والكلس، وجعل أبوابها من الساج والعرعر واقتنى أموالا وجنانا وعيونا بالمدينة، وذكر عبد الله بن عتبة أنّ عثمان يوم قتل كان له عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف خيلا كثيرا وإبلاً». (أبو الحسين على المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمى للطباعة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩١م، ٢/ ٣٤٩ . ٣٥٠).



وقد شاركه الصحابة فى الثراء وامتلاك الضياع والمتاع، وزادوا عليه فى العبيد والإماء، يقول المسعودى أيضا: «وفى أيام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور: منهم الزبير بن العوام، بنى داره بالبصرة(...) نزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهاز من البحريين وغيرهم، وابتنى أيضا دورا بمصر والكوفة والإسكندرية(...) وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وألف عبد وأمة». (المصدر السابق، ص٣٥٠).

وإذ أثرى كبار القوم، وامتلكوا فى عهد عثمان، وعاشوا عيشة الملوك فى مأكلهم ومشربهم، وبذخوا وأسرفوا، واقتنوا الضياع والجوارى والعبيد، وتركوا بقية المسلمين يتضورون جوعا وفقرا مدقعا، فإننا نجد أن الوضع كان مغايرا فى عهد الخلفاء: أبو بكر وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب. فقد مات أبو بكر وما ترك درهما ولا دينارا، كما يذكر ابن حجر فى كتابه: الإصابة فى تمييز الصحابة،. ، أمّا عمر بن الخطاب فقد حجّ «فأنفق فى ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر دينارا، وقال لولده عبد الله: لقد أسرفنا فى نفقتنا فى سفرنا هذا». (مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٢/٣٥١). أمّا الإمام على بن أبى طالب (٣٥ . ٤٠ هـ/٦٥٦ . ٦٦١م)، فلم يترك صفراء ولا بيضاء، إلاّ سبعمائة درهم بقيت من عطائه، أراد أن يشترى بها خادما لأهله، وقال بعضهم: ترك لأهله مائتين وخمسين درهما ومصحفه وسيفه». (المصدر السابق، ٢/ ٤٣٤).

إنّ السياسة التى اتّبعها الخليفة عثمان بن عفان وحاشيته الأرستقراطية عمّقت التباين الطبقى فى المجتمع الإسلامى، وقد عملت هذه السياسة على تشكيل طبقة أرستقراطية أسهمت فى استثمار بيت أموال المسلمين وتثميرها لحسابها الخاص، وقرّبت هذه السياسة الأثرياء والتجار، وأبعدت الفقراء، واستضعفتهم، وتحت ظلّ هذه السياسة وتوجهاتها أتت الخيرات الكثيرة من الأصقاع البعيدة، وصبت فى أرصدة هؤلاء الأثرياء. (لمزيد من الاطلاع ينظر: المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، عندها سيكتشف القارئ مدى ثراء طلحة ابن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، وسيرى إلى أىّ مدى وصل إليه فجور الأثرياء وتهتكهم فى عهد الخليفة عثمان ابن عفان، ومن هؤلاء الأثرياء الوليد بن عقبة وغيره) .

ومن جراء هذه السياسة أصابت الفاقة والحرمان معظم أبناء الأمة، ولم يسلم منها رجال عرفوا بدورهم الحضارى والإنسانى فى نصرة الرسول (ص) والدين الحنيف، ومنهم أبو ذر الغفارى الذى استشعر الخطر المحدق بالأمة، فيما إذا استمرّ ثراء بطانة الخليفة وأعوانه، وبطرهم، فما كان منه إلاّ أن رفع صوته عاليا داعيا إلى تطبيق السنة النبوية، محرضا ضدّ جميع مظاهر الترف والبطر والفساد المستشرى، فتذمّرت هذه الطبقة من أبى ذر، وخافت من ردود أفعال البسطاء والفقراء ضدّها، فما كان من مروان بن الحكم إلا أن رفع «أمر أبى ذر إلى أمير المؤمنين عثمان، فبعث إليه أن يجىء، فلما دخل عليه بادره بقوله: ما هذا الذى بلغنى عنك يا أبا ذر. قال وما بلغك عنى يا أمير المؤمنين؟ قال عثمان: إنّك تحرّض الناس علىّ. فقال أبو ذر: وكيف ذلك؟ قال عثمان: إنّك لا تقرأ فى المسجد إلاّ: «والذين يكنزون الذهب



مات أبو بكر وما ترك درهما ولا دينارا ، أمّا عمر بن الخطاب فقد حجّ «فأنفق فى ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر دينارا، وقال لولده عبد الله: لقد أسرفنا فى نفقتنا فى سفرنا هذا»





والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم. فابتسم أبو ذر برصانته وهدوئه، وقال: أو فى هذا تحريض على أمير المؤمنين!! أم أنّ أمير المؤمنين. لأمر ما. يريد أن يمنعنى من قراءة كتاب الله. إننى ماض فى قراءة كتاب الله وتعليمه المسلمين، وحملهم على قراءته، وإن أسخط هذا أمير المؤمنين. وما كنت أحسب أنّه يسخطه. فلئن كنت حريصا على رضاك، أنك أمير المؤمنين، فإننى على رضى الله أحرص. هذا ما علمنيه كتاب رسول الله، وأنا أؤمن بالذى تعلّمت وعلّمت». (عن/ على ناصر هلال، أبو ذر الغفارى، سلسلة «الثائرون العرب فى التاريخ»، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الثانية، دون تاريخ، ص ١٠٦).

ومع أفول عصر الخلفاء الراشدين، واستلام الأمويين مقاليد الحكم فى الدولة الإسلامية، زادت حمّى التملك وغرق الناس فى النعيم والثراء، وغنائم الحروب والفتوحات، واترف الناس وبطروا، ورقّ الدين، وابتعد كثير من المسلمين عن مسار الإسلام الصحيح الذى خطّه النبى محمد بن عبد الله (ص) تأسيسا على ما جاء فى كتاب الله.

وأثرى القادة والأمراء والخلفاء وعمال الأقاليم ثراء فاحشا، وزاد فقراء الناس فقرا وحرماناً، وتكرّس التباين الطبقى، وكانت كل محاولة لتقليص البون الشاسع بين الطبقات أمراً مستحيلاً بعد أن أشادت الأرستقراطية الأموية دعائم الغنى والثراء والرشاوى والفساد، والاغتيالات السياسية لجميع معارضيها، وعملت على تهميش الفقراء والمستضعفين، واتخمت المدن نساء وأملاكاً وإماء وعبيداً، وكلّ ما لذّ وطاب فى مكة والمدينة والكوفة وبغداد والبصرة وغيرها من الأقاليم الأخرى. ويقول الدكتور شوقى ضيف بهذا الصدد، استنادا إلى ما جاء فى كتاب الأغانى لأبى فرج الأصفهانى: «فمكّة لم تكن تقلّ فى هذا العصر (عصر الأمويين) ثراء عن المدينة، وهو ثراء استتبع بناء القصور المشيدة التى تختال جمالا وبهاء، وقد بنى معاوية لنفسه فيها دورا لقّبت «بالرقط» لاختلاف ألوانها، أحضر لها بنائين من الفرس، ومع ذلك كان إذا حجّ وقف مبهوتاً إزاء بعض قصورها الأخرى. ومعروف أنّه اتسع فيها بناء القصور والدور اتساعا كبيراً لعهد عبد الله بن الزبير حين اتخذها مقرّا لخلافته (...) ولم تغرق مكة فى دور وقصور وعيون فحسب، بل لقد أخذت تغرق إلى آذانها فى الترف والنعيم. فإذا نفر من أهلها يأكلون ويشربون فى صحاف الذهب والفضة، ونفر يلبسون مقطعات الخزّ والسندس والديباج والحلل الموشاة على كل لون، والطيب وأنواع العطور تفوح منهم. وبالغ النساء فى ذلك كله وفى اتخاذ الحلى وصنوف الجواهر». (العصر الإسلامى، دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٧٧م، ص ١٤٥ . ١٤٦).



وفى دمشق أثرت الطبقة الأرستقراطية الأموية ثراء أسطوريا فاحشا، وابتعدت عن القيم الإسلامية السمحة، ومفاهيم الدين الصحيح، باعتباره ديناً أمميا، أرسل لجميع بنى البشر. واستغلت هذه الطبقة جميع الطبقات التى هى أدنى منها، وسادت منظومة جديدة من القيم التى رأت فى المال والثراء والعربدة والخمور جنة أرضية لا زوال لها. وأثرى الخلفاء والأمراء وسدنتهم، وجميع من رضوا عنه من مداحين ومنافقين ومقربين ونساء وجوارى وحظيات، ودخلت الأموال إلى دمشق لتملأ خزائن الخلفاء وأعوانهم. ويقول الدكتور شوقى ضيف استنادا إلى المصادر: «ولم تكن حمول الذهب والفضة تُحمل وحدها إلى بنى أمية من الآفاق، فقد كانت تُحمل معها حمول الجواهر واللآلئ كما يحدثنا الجهشيارى، ويروى الطبرى أنّ يوسف بن عمر حمل إلى هشام بن عبد الملك لألئ حبها أعظم ما يكون وحجرا من الياقوت يخرج طرفاه من الكف، قوّم بثلاثة وسبعين ألف دينار، وقد بلغ الترف أقصاه فى عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذى عاش اللهو والغناء، حتّى تحوّل قصر الخلافة فى عهده إلى ما يشبه دارا كبيرة من دور اللهو، ويقولون إنّه «كان يلبس حول عنقه قلائد ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة، ويغيّرها فى اليوم مرارا كما تغيّر الثياب شغفاً». (المرجع السابق، ص ١٩٥).

وسيكون لقناطير المال الداخلة إلى دمشق دور فى إفساد الذمم والضمائر، وسيفتتن الناس بالحياة الجديدة، ويبطرون، وسيكون المال والامتلاك والتجارة، غايات كلية فى حياة الأثرياء، وسيؤدى هذا المال إلى تسليع المرأة، وشراء آلاف الجوارى من الأصقاع البعيدة المفتوحة، ليفتتن الناس بها، ويبتعدوا تدريجيا عن قيم الحق والخير والعدل، ويستكينوا لواقع الدعة والرفاهية هذا. ألم يؤكد القرآن الكريم أنّ المال فتنة: «واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة وأنّ الله عنده أجر عظيم»، الأنفال: ٢٨.

وسيزداد سعار الخلفاء والأمراء الجنسى، ورغبتهم فى امتلاك النساء فائقات الجمال الضاجّات بالإثارة الجنسية، واستهدائهنّ من عمّالهم على ولايات الدولة الإسلامية، وستلعب هذه الجوارى فيما بعد دورا كبيرا فى إلهاء هؤلاء الخلفاء وأولادهم الأمراء وقادة شعوبهم، عن النهوض بمهامهم وواجباتهم تجاه مواطنيهم، وستربى هذه الجوارى جيلا من المولدين لا همّ له إلاّ النهل من الملذات وجمع الأموال والبطر والعبث بأموال بيت مال المسلمين وأقواتهم. وها هو الخليفة هشام بن عبد الملك، على الرغم من كثرة جواريه وحظاياه فى دمشق يطلب من عامله على إفريقية أن يرسل له مزيدا من الجوارى المتميزات عن جوارى دمشق وبمقاييس جمالية خاصة لا تتحقق فى جوارى دمشق. كما يروى محمد بن أحمد التجانى (ت ٧٠٩ هـ /١٣٠٩م) حين يقول: «كتب هشام بن عبد الملك إلى عامله على إفريقية: أمّا بعد فإن أمير المؤمنين لما رأى ما كان يبعث به موسى بن نصير إلى عبد الملك (أى إلى والده عبد الملك بن مروان) أراد مثله منك، وعندك من الجوارى البربريات المالئات للأعين، الآخذات للقلوب ما هو معوز لنا بالشام وما والاه، فتلطف فى الانتقاء، وتوخّ أنيق الجمال، وعظم الأكفال، وسعة الصدور، ولين الأجساد، ورقّة الأنامل، (...) وجدالة الأسوق (السيقان)، وجثول الفروع (أصول) ونجالة الأعين، وسهولة الخدور، وصغر الأفواه، وحسن الثغور، وشطاط الأجسام، واعتدال القوام، ورخامة الكلام، ومع ذلك فاقصد رشدة المولد وطهارة المنشأ فإنهنّ يتخذن أمهات أولاد، والسلام». (تحفة العروس ومتعة النفوس، تحقيق د. جليل العطية، دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن/ ليماسول، الطبعة الأولى، حزيران/ يونيو، ١٩٩٢م، ص ١٧٦).

وقد أسهم ترف الخلفاء الأمويين وبطرهم الأسطوريان فيما بعد فى تقويض أركان دولتهم، وقد أحسّ المستضعفون والفقراء وبعض الفقهاء فى هذه الدولة، بظلم حكامهم وسفههم، وأعربوا عن رغبتهم العميقة بزوال هؤلاء الحكام. وها هو الفقيه شقيق بن سلمة يقول لسليمان بن مهران الأسدى الأعمش المحدث المشهور (٦١ . ١٤٨ هـ /٦٨١ . ٧٦٥م) عن خلفاء بنى أميّة: «يا سليمان والله ما عند هؤلاء تقوى أهل الإسلام ولا أحلام أهل الجاهلية». (عن/ هادى العلوى، فى السياسة الإسلامية، دار صحارى، بودابست، الطبعة الثانية، ١٩٩١م، ص ٦٦).

ومع زيادة الملكية فى الدولة الأموية والاستئثار بها من قبل فئة معينة فى هذه الدولة، ظهرت كثير من مظاهر العبث والشذوذ والانحرافات فى القيم والضمائر والعادات والأخلاق، وازداد الأغنياء أنانية

مع أفول عصر الخلفاء الراشدين، واستلام الأمويين مقاليد الحكم فى الدولة الإسلامية، زادت حمّى التملك وغرق الناس فى النعيم والثراء، ورقّ الدين، وابتعد كثير من المسلمين عن مسار الإسلام الصحيح

وفردية وتسلطا وصلفا وغروراً، وهذه حال كثير من الخلفاء والقادة والتجار وذوى النفوذ فى الدولة الأموية، ويمثّل الخليفة يزيد بن معاوية (٦٠ . ٦٣ هـ / ٦٨٠ . ٦٨٤م) قمّة مظاهر الترف والبطر التى حلّت بالدولة الأموية، إذ يقول المسعودى عنه: «كان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب، وجلس ذات يوم على شرابه، وعن يمينه ابن زياد، وذلك بعد قتل الحسين، فأقبل على ساقيه فقال:

اسقنى شربة تروى حشاشى
ثمّ مل فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السرّ والأمانة عندى
ولتسديد مغنمى وجهادى

ثمّ أمر المغنين فغنوا به.

وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهى، وأظهر الناس شرب الشراب، وكان له قرد يكنى بأبى قيس يحضره مجلس منادمته، ويطرح له متكأ، وكان قردا خبيثا وكان يحمله على أتان وحشية قد ريضت وذُلّلت لذلك بسرج ولجام ويسابق بها الخيل يوم الحلبة، فجاء فى بعض الأيام سابقا، فتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيل، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق، وعلى الأتان سرج من الحرير الأحمر منقوش ملمع بأنواع من الألوان(...). وفى يزيد وتملكه وتجبره وانقياد الناس إلى ملكه يقوله الأحوص:

ملك تدين له الملوك مبارك
كادت لهيبته الجبال تزول
تُجبى له بلخ ودجلة كلها
وله الفرات وما سقى والنيل».

(مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٣/٧٩ . ٨٠).

وإذا كان حكام الأمويين غرقوا فى نعيم الحضارة ومباهجها، وتفننوا فى مأكلهم ومشربهم، وغرقوا فى الأموال والجوارى والإماء، وامتلأت خزائنهم بأموال الجزية وغنائم الحروب، وأموال الدولة ورواتبها العالية المنهوبة من خيرات الشعب، وتحضروا وأُترفوا و ابتنوا القصور، وأكلوا فى صحاف من الذهب والفضة ما لذّ وطاب، ولبسوا السندس والديباج المزركش، وقلائد الذهب والأحجار الثمينة، وألبسوا حيواناتهم الأليفة مثلما لبسوا، وتعطّروا بجميع أنواع الطيب، فإنّ ذلك لا يعود إلى أن الحضارة متأصلة فى طباعهم، بل لأنه يعود إلى انفتاحهم على العالم الخارجى، وتثاقفهم مع هذا العالم وتأثرهم به من منحى، ومن منحى آخر لا يستهان بدور الموالى والجوارى الأنيقات المتعلمات القادمات من الفرس والروم والأصقاع البعيدة، الذين كانوا وراء كثير من مظاهر عادات الحكام الأمويين فى المأكل والملبس والسلوك، ولو لم يتأثر هؤلاء بالعالم الخارجى السابق عليهم حضارة لما رقّت طباع بعضهم، ولما عرفوا البذخ والترف والتفنن فى المأكل والمشرب ونظام الحياة اليومية، ولو لم يفتحوا البلدان الأخرى لما أصبحوا أثرياء. ولا نغالى إذا قلنا أنّ ثراءهم الفاحش لم يكن بجهودهم وعرقهم، بل كان نتيجة حتمية لاستغلال شعبهم المطحون بمرارة خبزه اليومى من جهة، و استغلالهم خيرات غيرهم من الأقوام الأخرى التى سبقتهم حضارة ومعرفة ورقياً من جهة أخرى.

ويرى ابن خلدون أنّ الدولة عندما تنتقل من مرحلة البداوة إلى مرحلة الحضارة، فإنها تقلّد دولاً سابقة لها فى الازدهار، وأكثر رقيا وحضارة منها، يقول: «وأهل الدول أبداً يقلّدون فى طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم فأحوالهم يشاهدون؛ ومنهم فى الغالب يأخذون. ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم، ولم يكونوا لذلك العهد فى شىء من الحضارة. فقد حُكى أنّه قُدّم لهم المُرقّق (نسيج خاص يلبسه الأثرياء) فكانوا يحسبونه رقاعاً، وعثروا على الكافور فى خزائن كسرى فاستعملوه فى عجينهم ملحاً. وأمثال ذلك. فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم فى مهنهم وحاجات منازلهم، واختاروا منهم المهرة فى أمثال ذلك والقومة عليهم أفادوهم علاج ذلك، والقيام على عمله، والتفنن فيه، مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن فى أحواله. فبلغوا الغاية فى ذلك. وتطوروا بطور الحضارة والترف فى الأحوال، واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمبانى والأسلحة والفُرش والآنية وسائر الماعون والخُرثى (أثاث البيت). وكذلك أحوالهم فى أيام المباهاة والولائم وليالى الأعراس، فأتوا من ذلك وراء الغاية».

(مقدمة ابن خلدون، ٢/ ٥٤٨ . ٥٤٩).

وتزول الدولة الأموية على يد عدو كان قد عقد العزم على تقويضها. أقصد العباسيين. نظرا لفقدان الأمويين شرعية استمرارهم فى السلطة، ولابتعادهم عن مفاهيم القرآن وتعاليمه، وسنة رسول الله محمد (ص)، «والحقّ أنّ رؤية الخليفة (الأموى) يتباهى بأعماله الطائشة على مشهد من الناس ومسمع أثار غيظ العنصر المتدين فى مجتمع كان أساس وجوده الرئيسى هو الدين. بل إنّ المزاج الدنيوى الخالص الذى غلب على الأمويين المتأخرين جعل سيل النقمة الأخير يبلغ الزبى فانضاف إلى نهر الكراهية الجبار المندفع نحو دمشق»، على حدّ تعبير روم لاندو. (الإسلام والعرب، تعريب: منير البعلبكى، دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الثانية، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٧م، ص ٧١ . ٧٢).

أحسّ المستضعفون والفقراء وبعض الفقهاء فى الدولة الأموية، بظلم حكامهم وسفههم، وأعربوا عن رغبتهم العميقة بزوال هؤلاء الحكام

وقد أضفى العباسيون على دولتهم الطابع الدينى الذى يضمن لهم الاستمرار، وجمع المستضعفين والبؤساء حولهم، وتأجيج صدورهم ضدّ الأمويين.

ويهلل لقيام العباسيين ودعوتهم كثير من الناس والجماعات المعارضة للنظام الأموى فى كثير من ولايات الدولة الإسلامية. ويتنفسون رياح التغيير والثورة بعمق، إذ يعتقدون أنّ كابوس الاستغلال والتباين الطبقى الذى عانوا منه سابقاً سرعان ما سيتلاشى، وذلك بإعادة رجال السلطة المسلمين إلى المسار الصحيح الذى رسمه لهم، ورفع رايته محمد بن عبد الله (ص)، ونزعهم مما علق بهم من عادات الترف والبطر والاستغلال والبطش والاستبداد، لكنّ هؤلاء الجماعات الطامحة إلى التغيير وبناء دولة الحق سرعان ما يصابون بالخيبة والإحباط، فقد سلك العباسيون الطريق نفسها التى سلكها عدوهم (الأمويون)، بل زادوا عليه بطرا وفسوقا وتسلطاً، واستعباداً وثراء، واستغلالا لغيرهم، و«وقد زعم العباسيون أنهم قضوا على دولة عصبية لا تعمل بالإسلام ليقيموا مكانها خلافة صحيحة. والواقع أنّ العباسيين تظاهروا بالدين ثمّ استخدموه فى سبيل الحصول على فوائده (التى تجمع الأقوام المتفرقين على هدف واحد) لا حباً بخصائصه الروحية. ثمّ إنّ مسلكهم لم يكن يدلّ على أنهم كانوا أقلّ انغماسا فى أحوال الدنيا من أهل الدولة التى قضوا عليها. وكان العباسيون أبعد ما يكون البعد عن جعل دولتهم إسلاميّة، ولكنهم استخدموا الدين حتى يخلعوا على دولتهم تلك شيئاً من الشرعية ويكسبوا لها شيئاً من الاحترام». (د. فيليب حتى، الإسلام منهج حياة، تعريب: د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، آذار (مارس)، ١٩٨٣م، ص ١٧٩).

ونتيجة لسلوك العباسيين الاستبدادى قام الفلاحون والعبيد بانتفاضات عديدة فى كثير من الأقاليم التابعة للدولة العباسية، وأعربوا عن استيائهم الشديد من موجة الاضطهاد والاستبداد التى تعرضوا لها بفعل سطوة الأمراء العباسيين وعمالهم وممثليهم على الأقاليم والولايات. لكنّ هذه الانتفاضات كانت كثيرا ما تُقمع بعنف ووحشية.

وأثرى العباسيون،



وتدفقت عليهم الأموال من مختلف ولايات الدولة، وازدهرت حياة الأمراء والتجار والأثرياء وقادة الجند الاقتصادية، ونشطت التجارة نشاطا كبيرا في رقعة مكانية مترامية الأطراف تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى الصين شرقا، ومن شمال المتوسط وبحيرة قزوين شمالاً إلى النيجر جنوباً. وبذخ العباسيون، وأترفوا تخمة وخمورا ورقصا وموسيقى وجواري ونساء فائقات الجمال قادمات من أبعد دساكر ولايات الدولة العباسية. وأسرف علية القوم في تبذير أموال الدولة على ملذاتهم الشخصية، وانصرفوا «إلى صنوف البذخ وضروب التبذير والترف، فاقتنوا الجواري واتخذوا الفرش من الخز والديباج والحرير والمسامير الفضة، وابتنوا المتنزهات والقصور والمدن واقتنوا الندماء وأنشأوا مجالس الغناء، وارتكبوا سائر ضروب الترف، والتأنق في الطعام واللباس والرياش. وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الإسلامي، وأطلقوا أيدي نسائهم وأمهاتهم و خاصتهم في الأموال»، كما يذكر جرجي زيدان. (تاريخ التمدن الإسلامي، المجلد الأول، الجزء الثاني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، ص ٣٧٩).

ومارس بعض الخلفاء العباسيين، وبعض أمرائهم، وقادة جيوشهم، وعمالهم على ولاياتهم، استبدادا وبطشا واغتصابا للخيرات والأموال والنساء، وبزوا خلفاء الأمويين وقادتهم في ذلك، ومارسوا تخريب كل ما هو إنساني و جميل وأصيل في الحياة الاجتماعية و الاقتصادية، وارتكبوا جميع أنواع الموبقات والمفاسد. وما يثير الانتباه والعجب في مسلكهم أنهم انفجروا سعارا جنسيا جامحا، إذ استنفروا غرائزهم الجنسية واندفعوا بها لاهثين صوب أجساد النساء، واندفعوا لاهثين لامتلاك النساء والجواري والحرائر وبكثرة مذهلة تكاد لا تصدق، وعلى سبيل المثال تشير المصادر التاريخية إلى أن الخليفة هارون الرشيد كان يملك في قصوره (٢٠٠٠) جارية، و(٣٠٠) قينة للترفيه عنه بالغناء والموسيقى، أما المعتصم بالله فقد كان في مقاصير قصوره (٨٠٠٠) جارية، واكتفى المتوكل على الله باتخاذ (٤٠٠٠) جارية وحظية من أجمل النساء. (عن/د. خليل أحمد خليل، المرأة العربية وقضايا التغيير، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٢م ص ٧٠). وفي جو الامتلاك هذا عانت المرأة استلابا وتقزيما، لأنها مضطرة لأن ترضى جموح الخليفة الجنسي وأولاده، فقد تحولت من امرأة كريمة معطاءة ومنتجة إلى امرأة مستهلكة ينحصر همها في ترفيه الرجل السلطوي وإطفاء سعاره الجنسي، بل إلى أن تكون سلعة تنتقل من خليفة إلى آخر، ومن أمير إلى آخر، ومن نخاس إلى آخر بفعل نشاط تجارة الرقيق، حتى يلاحظ أن جارية متميزة جماليا كعريب تناوب على شرائها خمسة خلفاء من خلفاء الدولة العباسية، وهم: الأمين وأخوه المأمون، ثم المعتصم بالله، فالواثق بالله، إلى أن استقرت في قصور المتوكل على الله. ولم يكتف بعض الخلفاء بما في قصورهم من نساء شرعيات حرائر، وغير حرائر ممن وقعن تحت حكم الامتلاك، بفعل الإهداء أو الشراء، بل لجأ بعضهم إلى تسخير زوجاتهم الشرعيات ليكن أداة مساعدة على الاحتيال على نساء أخريات خارج دائرة الامتلاك السابقة، ثم الوصول إليهن جنسيا سواء أكان ذلك بالرضى أم بالاغتصاب. ويروى محمد بن أحمد التجاني نقلا عن كتاب (تاريخ بغداد) لابن أبي طاهر ما يلي: «كان في المهدي حب وغزل في النساء فبلغه عن عونة بنت أبي عون جمال وهيئة فقال للخيزران (زوجة المهدي) استزيريها فاستزارتها، فلما سارت عونة إليها قالت لها الخيزران: هل لك في الحمام؟ قالت لها: إذا شئت، فدخلت معها فلم تشعر عونة إلا والمهدي قائم على رأسها وهي عريانة فدخلت خلف الخيزران واستترت منه فجذبها، فأخذت كرسياً وقالت: والله لئن دخلت علي أو دنوت مني لأهشمن به وجهك، فقال لها: إنما أردت أن أنظر إليك لأتزوجك، فقالت: لا سبيل إلى ذلك. فانصرف عنها.

وبلغه عن بنت الوزير أبي عبيد الله مثل ذلك ففعلت الخيزران الفعلة بعينها، ودخل المهدي فجذبها فقالت: أنا أمتك فافعل بي ما أحببت فصرف الخيزران ووقع عليها، فنال منها ما أحب، فلما انصرفت أخبرت أخاها عبيد الله بذلك فكلفها باستزارة الخيزران، ودخلت الحمام معها، فلم تشعر الخيزران إلا بعبيد الله قد هجم عليها فاستترت فقال لها: أما إنا لو أردنا أن نفعل ما فعلتم في حرمتنا لفعلنا و لكنا لا نستحل ذلك، فانصرفت الخيزران وأعلمت المهدي بذلك فتجنى عليه بعد مدة فقتله». (تحفة العروس ومتعة النفوس، ص ٤٣٧-٤٣٨).

وقد بلغ التملك والثراء، والبذخ والبطر والترف، والفساد وتبذير أموال المسلمين على تشييد القصور، وعلى السراري والحظايا أوجه في عصر الخليفة العباسي المتوكل على الله، ويقول المسعودي عن هذا العصر: «إنه لم تكن النفقات في عصر من العصور ولا وقت من الأوقات مثلها أيام المتوكل. ويقال: إنه أنفق على الهاروني والجوسق الجعفري (قصران من قصور المتوكل) أكثر من مائة ألف ألف درهم، هذا مع كثرة الموالي والجند والشاكرية ودرور العطاء لهم وجليل ما كانوا يقبضونه في كل شهر من الجوائز والهبات.

ويقال: إنه كان له أربعة آلاف سرية وطئهن كلهن (...)، ولا يعلم أحد في صناعته في جد ولا هزال إلا وقد حظي في دولته، وسعد بأيامه، ووصل إليه نصيب وافر من ماله». (مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤/١٣٥).

لقد أسهمت الأموال التي غصت بها خزائن الخلفاء العباسيين، وخزائن بقية أفراد الطبقة الأرستقراطية في المجتمع العباسي، في زيادة تهميش المستضعفين (بفتح العين والفاء)، وزيادة بؤسهم وشقائهم، وزادت من استغلالهم، وذلك بتحويلهم إلى خدم وأجراء بسطاء يبيعون قوة عملهم لهؤلاء الخلفاء والأرستقراطيين البطرين الغارقين في مختلف صنوف الفساد وأشكاله، والذين بددوا أموالهم وأموال الدولة على الجواري والخمور والمغنيات، وعلى كل من دان لهم بالطاعة والولاء في فضاءات قصور واقعية باذخة بدت وكأنها من نسيج المخيلة. ويحكى عن «أحد أبناء العمال (الولاة العباسيين) أنه أضاع ثروته على بعض المغنيات، ثم مات خادم كان مولى لأبيه، وابن عم في يوم واحد، فحصل له من تركتهما أربعون ألف دينار، فعمر داراً بألف دينار، واشترى آلات وفرشا وثياباً وجواري ثلاثاً بسبعة آلاف دينار، وسلم لتاجر ألفي دينار يتجر له فيها وأودع في بطن الأرض عشرة آلاف للشدائد، وابتاع بالباقي ضيعة تغل في كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته»، كما يذكر آدم متز. (الحضارة الإسلامية، ترجمة أبي ريدة، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٥٧م).

وإذا كانت السيدة الخيزران، زوج الخليفة المهدي، قد ملكت ثمانية عشر ألف ثوب موشى بأفخر أنواع الوشي، وإذا كانت زوج ابنها. الخليفة هارن الرشيد. السيدة زبيدة أم جعفر، قد صرفت من خزينة الدولة العباسية مبلغ خمسين ألف دينار ثمن ثوب واحد من الوشي من بين ثيابها الكثيرة، كما أشرنا سابقاً، فإن فقراء بغداد كانوا يتضورون جوعا وحرمانا، وكانوا شبه عراة يجوسون متشردين مكسورين ومقهورين بحثاً عما

نتيجة لسلوك العباسيين الاستبدادي قام الفلاحون والعبيد بانتفاضات عديدة في كثير من الأقاليم التابعة للدولة العباسية، وأعربوا عن استيائهم الشديد من موجة الاضطهاد والاستبداد

يسدّ رمقهم، وهاهو أحد ممثلي طبقتهم وكان يسمى برأس النعجة، يصرخ محتجاً على هذا التباين الهائل بين طبقته، وبين طبقة السلطة والأثرياء. ويعترض طريق محمد بن سليمان (والى الخليفة هارون الرشيد على البصرة الذى كانت ثروته خمسين ألف ألف درهم سوى الضياع والدور وغيرها من الأملاك، والذى كان دخله اليومى مائة ألف درهم)، ويقول له: «يا محمد، أمن العدل أن تكون نحلتك فى كلّ يوم مائة ألف درهم وأنا أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه؟ ثمّ التفت إلى سوّار (قاضى البصرة فى عهد محمد بن سليمان) فقال: إن كان هذا عدلاً فأنا أكفر به»، كما يروى المسعودى. (مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٣/٣٧٠).

وإزاء مظاهر الثراء الفاحش التى غرق بها قادة النظام العباسى وأعوانه ومريدوه، أحسّ كثير من مثقفى الدولة العباسية بزيف دعوى هذا النظام، وأدانوا سلوك قادته وأمرائه، وأعلنوا رفضهم لهذا الواقع واجترءوا على قادته وخلفائه. وها هو الشاعر العباسى بشار بن برد يطعن بأخلاق الخليفة المهدى ويهجوه ساخطاً:

خليفة يزنى بعمّاته
يلعب بالدبّوق والصولجان
أبدلنا الله به غيره ودسّ موسى فى
حِرِ أمه. (الطبرى، ٨/١٨١).

وها هو بشار يسخر من عبث الخليفة المهدى ومجونه، هو ووزيره يعقوب بن داود الذى آلت إليه كثير من مقاليد الدولة العباسية أيام المهدى. ويقول:

بنى أمية هبّوا طال نومكم
إنّ الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فاطّلبوا
خليفة الله بين الدف والعود.
(الطبرى، ٨/١٥٦).



لقد أعطت بغداد الثرية رجالَ سلطتها وتجارها كل ما يشاءون من عزّ وجبروت ونساء وأموال وضياع وبساتين، وحرمت فقراءها من أبسط الأشياء، وحتى من نصف الدرهم على حدّ تعبيرِ رأس النعجة كما أشير إلى ذلك سابقاً.

ويمكن القول فى نهاية هذا المقال إنّ المال والتجارة على الرغم من أهميتهما فى المجتمعات الإسلامية، ودورهما فى الانتعاش الاقتصادى والاجتماعى، والازدهار العمرانى فى هذه المجتمعات، أسهما بشكل غير مباشر فى تكريس العبودية، وظهور طبقة الضعفاء ابتداء من العصر الجاهلى حتى العصر الرأسمالى الحالى، وما كان الفرز الطبقى والتباين الحاد بين الجماعات الإنسانية عبر تشكّلها التاريخى إلا نتيجة رئيسة لاستبداد السلطة من جهة، واستثمار المال وتكثيره، بطرق تقوم على الاستغلال والخداع والمكر من جهة أخرى. ولا نغالى إذا قلنا إنّ نشاط التجارة بأرباحها الفاحشة، وغشّ تجارها، وظهور طبقة المرابين، وخروجها عن مفاهيم القرآن الكريم والإسلام الصحيحة، وتثمين المال بشتى طرق الحرام، كانت العامل الأساسى فى إفساد السياسة والسلطة والحكام والوزراء والقضاة والولاة، وغيرهم، وهى بدورها مهّدت لظهور البغاء بين الغلمان والجوارى والإماء والحرائر أيضاً، ودفعت النساء والرجال إلى الرذيلة والفجور، وارتكاب كل ما هو منكر وحرام، وهى أسهمت إسهاما كبيرا فى انحلال كثير من القيم الإنسانية الأصيلة، وتكريس قيم الاستهلاك والسلعة والبطر والفجور بدلا منها.

وبعد أن ارتبطت التجارة بالسياسة، وأصبح كثير من الحكام من كبار التجّار والمرابين، أصبحت تشكّل قوة تسيّر بينات المجتمع وتوجهاته وعلاقاته، وقد أسهمت هذه القوة فيما بعد فى انحطاط المجتمعات الإنسانية، إذ سادت جميع مظاهر الغشّ والتزوير والاحتيال والنصب والاختلاس والمكايد والمؤامرات، وعملت على تخريب الحس الجمالى والإنسانى عند كثير من الناس، وفجرتَ فيهم نزعتهم التدميرية الوحشية نحو التملك والقتل والجريمة، وامتلاك النساء وتأبيد عبوديتهن، وتحويلهن إلى سلع جميلة مثيرة يتداولها من كان ذا سطوة ومال. ■

(١) شرح المفردات فى نص ابن خلدون:

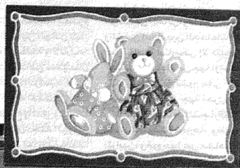
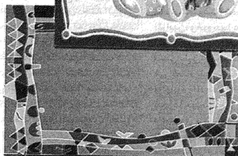
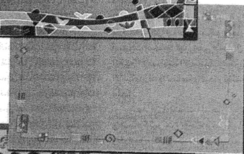
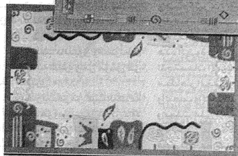
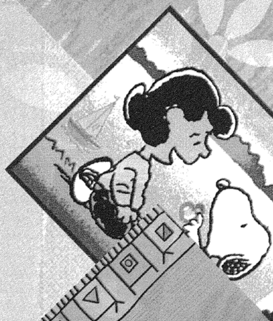
بانتظار حوالة: أى الأمل فى أن تتحول الأسواق، فترتفع أثمانها، عندئذ يستطيع التجار لرؤوس أموالهم ربحا وفيرا.

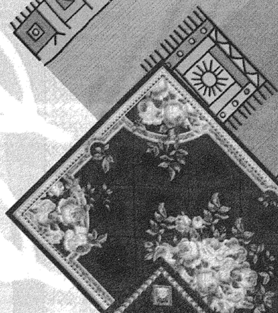
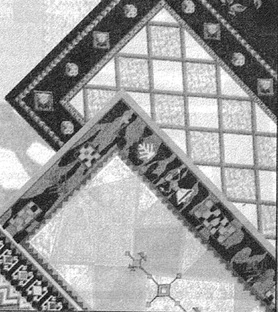
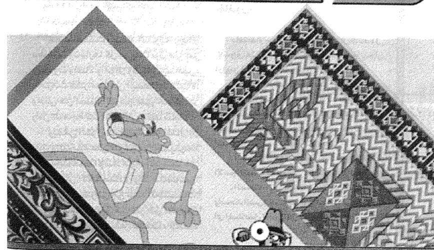
. نفقت البضاعة: راجت وكثر طلابها.

. فى تقاضى أثمانها: أى لا بدّ فى محاولة هذه التنمية من حصول هذا المال بأيدى الباعة فى شراء البضائع وبيعها ومعاملتهم فى تقاضى أثمانها..

. أنصفت الرجل: عاملته بالعدل والقسط، الاسم النصفة بفتحتين على الصاد والفاء.

. السحت: الحرام وما خبث من المكاسب، وأسحت الشىء: استأصله، والمسحت لرأس المال: أى المستأصل لرأس المال.

الفاطميون.. الحكم..

علاء الدين وحيد

مع الاتفاق على أن معظم صفحات التاريخ تكتب بمداد السلطان، لم يتوقف يوماً الجدل حول محطات كثيرة فى التاريخ الإسلامى أو بالأحرى فى تاريخ الممالك الإسلامية.

هذا كتاب آخر يتناول تاريخ «الدولة الفاطمية» الملتبس فى مصر.

يظن الكثيرون أن أسلوب الإلهاء الذى يلجأ إليه الحكام العرب والمسلمون المستبدون بشتى الوسائل، لإبعاد الجماهير عن التفكير فى حقوقها والمطالبة بها.. هو ابتكار جديد بينما العكس صحيح. وأوضح نموذج لذلك الدولة الفاطمية، التى تعد من أكثر الدول قهراً لأمتها. وبرعت فى الإلهاء إلى درجة يحتذى بها فى خداع الشعوب.

وعن هذا الجانب فى تاريخ الفاطميين الذين استمرت دولتهم قرنين من الزمان تحكم شطراً كبيراً من العالم الإسلامى، يقدم جمال بدوى مؤلفه الجديد «الفاطمية دولة التفاريح والتباريح».. دفاعاً عن العقيدة والأمة وحرية الشعوب.. حلقة من حلقات كتابات مفكرنا السياسية والحزبية والقومية والتاريخية وغيرها، التى تستهدف فى المقام الأول الوعى الكامل ليقظة حقيقية ضد الاستبداد والقهر والظلم والانحراف فى الماضى والحاضر - التى تعرض الوطن للانهيار.. ضد كل المفاهيم التى تهمش العقل وتغيب الوعى وتقصى الأمة عن القيام بمسئولياتها فى الدفاع عن حرياتها وحقوقها.. هذه المفاهيم المريبة التى تفرض السير مع التيار التواكلى والاستسلام لقوى الطغيان.

يقول مفكرنا فى مقدمة كتابه: «التهاون فى الدفاع الوطنى والاستقلال الذاتى، يؤدى إلى ضياع الوطن.. وخضوعه لكل طارق مشبوه». (ص٥).

يقع هذا اليوم كما حدث بالأمس وأدى إلى ضياع استقلال مصر أكثر من مرة.. «وما كان للفاطميين أن ينجحوا فى غلبة مصر لولا ضعف النظام الحاكم، وغفلة الشعب المحكوم، والفراغ الذى أتاح للعملاء والطابور الخامس أن يمهد الأرض للجيش القادم ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جوراً.. فامتلأت الأرض خللا واضطراباً وإلحاداً. إنه درس لا ينبغى أن ننساه». (ص٥٢).

وما أشبه الليلة بالبارحة..

وبلغ من نجاح الفاطميين الأسطورى فى إلهاء الشعب المصرى عن مقاصدهم السرية، ومحاولة تحويله من مذهبه السنى إلى مذهبهم الشيعى، أن ظلت مظاهر هذا الإلهاء قائمة منبثة فى حياتنا إلى اليوم بعد زوال حكمهم بمئات السنين، فى الإقبال على ما أذاعوه من احتفالات وتقاليد وبدع لم يكن للمسلمين بها عهد من قبل، فى استغلال المناسبات الدينية مثل الاحتفاء بالمولد النبوى والإسراء والمعراج والنصف من شعبان وغيرها، وتفريغها من محتواها الحقيقى إلى مظاهر هامشية تبعدهم عن جوهر العقيدة لتمكين السيطرة عليهم وتسييرهم وفق المخطط الإسماعيلى المرسوم.. وهو الأسلوب التقليدى لنظم الحكم المستبدة. وتغلغل هذا الإلهاء أبقى للفاطميين فى الحس الشعبى على مر العصور ذكرى طيبة تقترن بالهزل واللهو والحلوى الشهية كالقطايف والكنافة وعاشوراء فى شهر رمضان وغيره.

لم تكن الفاطمية وهى دعوة سياسية بالدرجة الأولى مجرد مذهب دينى كما يظن الكثيرون، يصب فى توكيد الجوهر الروحى للإسلام ويقدس قيمه فى الحياة ويساوى بين معتنقيه فى الصغيرة والكبيرة، بل هو يعلى من شأن «على» على حساب أبى بكر وعمر. ويصل بابن عم النبى إلى مرتبة القداسة، ويذهب بعض فرقه إلى أنه أولى بالنبوة من محمد صلى الله عليه وسلم. والأخطر من هذا كله سياسياً «أن تراث النبى العربى، لم يكن تراث أمة هداها الله إلى الإسلام، وتراث رياسة معنوية جاءت ثمرة الرسالة النبوية، وإنما كانت تراثاً شخصياً، وميراثاً خالصاً لأسرة النبى، صاحب هذه الرسالة، وأن النبى أوصى بهذا التراث إلى ابن عمه على بن أبى طالب، زوج ابنته فاطمة الزهراء، وبنيه من بعده، أبناء ولديه الحسن والحسين. وهكذا تغدو رياسة الأمة الإسلامية فى نظرهم، ووفقاً لتأويلاتهم ورواياتهم، ميراثاً خاصاً، لا يليها «حتى يوم القيامة» أحد سوى آل البيت». (ص١٧-١٨).

ولأن الحكام المسلمين تحولوا قبل ظهور الفاطميين بأزمنة طويلة إلى حكام مستبدين، لا يعملون بما أنزل الله بل بما تفرضه مصالحهم الشخصية، فقد أصبحت المبادئ الإسلامية مجرد لافتات خادعة لا تطبق مضامينها بل عكسها، الذى يقع بحماية الحديد والنار. فلا عجب أن يبدأ المعز لدين الله الفاطمى عهده بالخداع أيضاً، موهماً المصريين أنهم وما يعتقدون فى ظل مذهبهم السنى فى أمان. وعندما تتوطد أركان حكمه يكشر - كما يفعل حكام القهر - عن أنيابه ولا يعبأ أن يصدم الجماهير بما يكرهون. ورغم كل الإلهاء الذى بذل ومع استمرار دولتهم قرابة قرنين ظلت مصر سنية. ولم يتأثر الإنسان المصرى مهضوم الحق بمظاهر الإغراق فى الترف والسرف والأبهة التى فضحت من ناحية أخرى تقواهم المزعومة، والتى واكبت نظام الحكم وأصبحت للمتسلقة والمرتزقة القدوة والمثال.

والدعوات المهتزة غير الواثقة من نفسها ومن قوة ما تحمل من مثل، تلجأ دائماً إلى الأساليب الملتوية التى تدغدغ غرائز الجماهير وتشبع نهمهم فيها، مستغلة جهلهم بالاستزادة فى فكر المذهب من المعجزات والأوهام، وكذلك فعلت الفاطمية. فإذا بدعوة الإمامة فيها تتلبس بادعاء الغيب والمقدرة على إتيان الخوارق، ورأينا كيف يؤيد بعض دعاة الإسماعيلية هذه المزاعم فى كتبهم. بل وكيف يرفعون بعض الأئمة إلى مرتبة النبوة، وينسبون إليهم بالفعل إتيان الخوارق والمعجزات. وكيف ينفى بعض الدعاة من جهة أخرى نسبة هذه المزاعم إلى الأئمة. ثم رأينا بعد ذلك كيف كان الخلفاء الفاطميون يتجهون إلى التعلق بمدارك الغيب، ويغلب عليهم شغف الخفاء». (ص٢٩). وهكذا كان من الطبيعى أن يتسق ذلك مع ادعاء الحاكم بأمر الله الألوهية!

يقول جمال بدوى: «هذه الحقبة الطويلة التى عاشتها الدولة الفاطمية لم تثمر تحولاً مذهبياً فى الشارع المصرى بالرغم من أساليب الدعاية

«تلك حلقة من حلقات التاريخ المصرى فى مطلع الألفية الثانية لم تأخذ حقها فى الذيوع والانتشار، رغم أهميتها القصوى فى الكشف عن صلابة الشعب المصرى، ورفضه الصارم لكل ما يمس عقيدته الخالصة فى التوحيد. والمؤسف أن هذه الصفحة المجيدة - من تاريخ مصر فى العصر الفاطمى - ضاعت فى زحام الدعاية التى يروج لها بعض أنصار الفاطمية عن الأعياد والاحتفالات والسهرات والنفحات وأصناف الحلوى التى كانت سمة من سمات العصر، ولم تكن كل هذه المباهج إلا ستاراً لإخفاء حقيقة الدعوة الفاطمية وما تحمله من أسرار غريبة وأفكار شاذة، ومعتقدات مناقضة للعقيدة الإسلامية الخالصة. ولم تكن دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله إلا تطوراً طبيعياً للفكر الإسماعيلى الذى جاء به الفاطميون، وظل خافياً عن الشعب المصرى طوال عهد المعز لدين الله، وابنه العزيز، ثم كشفت عن وجهها السافر فى عهد الحاكم بأمر الله».

جمال بدوى

«الفاطمية دولة التفاريح والتباريح» - ص٧٥

الفاطمية دولة التفاريح والتباريح
جمال بدوى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤.

القهـــــر.. والإلهـــــاء

الجبارة وأفانين المغريات التى قدمها الفاطميون.. لقد أكل المصريون الكنافة والقطايف والخشاف وحلاوة المولد وذرفوا الدموع على مصرع الحسين وعملوا فى خدمة الدولة ومؤسساتها وإداراتها ومصالحها وقبضوا مرتباتها.. ولكنهم وقفوا موقف المستريب من فكرها وعقيدتها ومذهبها، خاصة فى المرحلة التى كشف فيها النظام عن صبغته المذهبية، وخلع النقاب عن حقيقة دعوته السرية.. وعندها بلغ الصدام بين الدولة والشعب درجة التلاحم بالخناجر والبلط فى شوارع القاهرة»! (ص١١-١٢).

وكما تقول المقدمة فكتابنا ليس تأريخاً للدولة الفاطمية ولكنه «محطات» ذات دلالة توقف عندها صاحبها، تتناول تكوين الشعوب صعوداً وهبوطاً واتجاهات الحكام المسلمين قرباً وبعداً عن العقيدة ووقع الأحداث المصيرية إخلاصاً وافتعالاً.. وهى كلها تنبض بالواقع المأساوى الذى يفرضه تجبر المسئولين واستكانة المواطنين أو مقاومتهم. من هذه الجوانب.. اطمئنان الجمهور المصرى لقدوم الفاطميين - الذين جهل مقاصدهم - وترحيبه بهم وعدم صدهم كمغيرين فى أواخر حكم الإخشيديين. يفسر جمال بدوى ذلك





بقوله: «فبعد وفاة «كافور» تعرضت البلاد لمحنة اقتصادية، واشتدت عليها الضائقة. والشعوب إذا بلغت حد اليأس وتكالب عليها المفسدون، نفضت يدها من الحاكم المحلى، ومدت يدها إلى المنقذ حتى لو كان أجنبياً». (ص٤٣).



ويكذب الكثيرون إلى اليوم مزاعم الفواطم فى اتصال نسبهم بعلى بن أبى طالب، ويزيد من الشكوك أن أغلب أعمالهم تناقض مواقف ابن عم النبى. وقد حفلت صفحتهم بالقسوة والعنف والقتل التى بلغت ذروتها فى عهد الحاكم بأمر الله، الذى ولغ منذ صباه فى سفك الدماء وأعمل سيفه فى رقاب وزرائه وكل من يغضب عليه وما أكثرهم. وبلغ افتراؤه على الإسلام درجة الإلحاد وإعلان نفسه إلهاً. «إن كبيرة الكبائر التى ارتكبها الحاكم: هى ادعاؤه الألوهية.. ورعايته الدعوات الإلحادية التى هبت على مصر من جانب دعاة الفرس الإسماعيليين الذين وجدوا فى شخصية الحاكم واضطرابه العقلى، فرصة سانحة للكشف عن أغراضهم الخبيثة فى هدم الإسلام، وصارت مصر مهداً خصباً لطائفة من الدعاة السريين، والدعوات المذهبية والإلحادية المغرقة، وكان الحاكم من وراء هذه الدعوات يرعاها ويرقب تطوراتها حتى استحالت فى أواخر عهده إلى دعوة جريئة إلى «ألوهيته» تمخضت هذه التيارات الخفية عن عاصفة دموية مروعة اختتم بها ذلك العهد الحافل بصنوف المفاجآت والأحداث العجيبة». (ص٥٩).

ولعل أشهر الحركات الإلحادية التى واكبت تأليه الحاكم بأمر الله ظهور المذهب الدرزى نسبة إلى منشئه محمد بن إسماعيل الدرزى - أحد مرتزقة الحكم الفاطمى - الذى لا يزال أصحابه يؤمنون إلى اليوم برجعة الحاكم بأمر الله!

لم تكن عمليات غزو الفواطم للمصريين قائمة على الإلهاء والخداع والشعارات فحسب بل اعتمدت أيضاً على الفكر الفلسفى والعقائدى المشبوه الذى تبلور فى «دار الحكمة» بعد إنشاء الأزهر. «إن نظام الحكم الفاطمى كان أشبه بجمعية سرية هدفها هدم الإسلام من داخله تمهيداً لإقامة الدعوة الإسماعيلية التى تستمد أصولها من مذاهب وتيارات فلسفية مناقضة للإسلام». (ص٧٥-٧٦).

ومن إفرازات حكم القهر السامة فى مختلف الأزمنة خيانة الوطن إلى درجة تحالف الحاكم المسلم مع أعداء قومه من الصليبيين. إن التكالب على السلطة والحرص على الحكم والعض بالنواجذ على الرئاسة والمغانم، يطيش العقل وتصبح القضية حياة أو موتًا.. وهكذا يقتل السلطان فلذة كبده أو شقيقه ويدوس على قومه فى سبيل التمسك بالحكم، وهو ما أدى فى النهاية إلى انهيار الدولة الفاطمية.

وإحدى «المحطات» التى توقف عندها جمال بدوى ما يمثل الأدب المرتزق الذى يخون شعبه وهو يضع فنه فى خدمة أولياء النعم الحكام المستبدين، ويتجسد فى الشاعر عمارة اليمنى الذى عاش زمناً طويلاً فى ركاب الفاطميين منافقاً مرتزقاً مادحاً هجاء. وتكون سطور «عمارة شاعر لكل العهود». وإن تساءل بعض القراء ألم يكن الشاعر ابن هانئ الأندلسى أولى فى هذا المجال بالتقديم، وهو الذى لا يزال يضرب به المثل فى الانحطاط والسقوط والفجور، عندما خاطب المعز لدين الله الفاطمى بقوله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار ■

فــى غـــابــة الفكـــر.. الأســـد

محمد المهدى

هناك أسطورة أفريقية تقول إن الأسد (الشاطر) كان يستعرض قوته فى كل مكان.. وحينما دعا الحيوانات لاجتماع دفع الإتاوة اليومية لم يحضر الفيل (العاقل) الذى يحفظ سيرة الإنسان والأجيال عبر الزمان. ثار الأسد وقال: إذا كان الفيل يختال بخرطومه فأنا أستطيع أن أقطعه بقضمة واحدة.. وإذا كان معجبا بثقل قدمه فأنا أستطيع أن أشلها بطعنة من مخالبى.. وإذا كان واثقا لضخامته فأنا أستطيع أن أجره من ذيله إلى الأرض. تطورت الأحداث والتقى الأسد والفيل. هجم الأسد على خرطوم الفيل بأنيابه فلم تنغرز فى لحمه. وهجم على قدمه الضخمة بمخالبه فلم تصل إلا لسطح جلده.. وتقدم أخيرا إلى ذيل الفيل فى محاولة لجره وإذلاله فتحرك الفيل فى وقار وجر معه الأسد.. فر الأسد لاعنا ساخطا. ضحكت الحيوانات وتوقفت عن دفع الإتاوة.

أهل أوروبا يشبهون علاقتهم بأمريكا بعلاقة الأسد بالفيل. الصداقة قائمة فى أمور السياسة والاقتصاد، أما الثقافة فموضوع آخر. يستعرض فيه الأسد الأمريكى، ويتوقر الفيل الأوروبى، ولأن الصداقة لابد أن تستمر بينهما، ولأن القوة لا تحل عقدة الثقافة عند الأمريكى، لذلك لجأ إلى أمرين... إما الاستهانة، أو السخرية من المنجزات التى تذكر بالأصول الأوروبية، أو خلق قاعدة ثقافية أو مبدأ فلسفى يناقش الواقع الحاضر تحت شعار البحث عن الحلول العملية، أو الاهتمام بالعلوم العلمية التى باتت تتحكم فى مقدرات العالم الحديث.

وعقدة النقص هذه هى التى جعلت الفيل الفرنسى (ديجول) يرفض الاتجاهات الأمريكية من السياسة الدولية، إلى نشرة الأخبار الإنجليزية.. وكان يعتبر الإنجليز فى جزيرتهم ملحقين بالأمريكيين طالما أصروا على الانعزال فى جزيرة تعتبر نفسها الأصل وأوروبا هى الفرع. كان يعتبر الإنجليز مصابين بعقدة العظمة. رفضوا الالتحاق بأوروبا، ولكن تحت شعار وهم السطوة الثقافية على أمريكا، قبلوا أن يكونوا ذيلا لأمريكا. وكان تاريخ إنجلترا يدرس فى المدارس الأمريكية كمادة مستقلة إلى أواخر القرن ١٩ رغم مرور أكثر من مائة عام على استقلال أمريكا عن إنجلترا. وفى أوائل القرن العشرين بدأ الوعى القومى الأمريكى فى تدريس التاريخ، وإن ظلت السطوة الثقافية لإنجلترا، إلى أن لجأ الأمريكيون إلى الحلول الخاصة، وهى الاستهانة بالماضى، أو خلق نمط خاص يعتمد فقط على الحاضر، وإن ظل الفيل الأوروبى متوقرا واثقا.

والاستهانة بالتاريخ أو محاولة التخلص من الماضى صاحبت بعض الثورات. الثورة الفرنسية أرادت التخلص من التاريخ السابق، وكذلك الثورة الروسية، وعدلت الأولى عن موقفها، وانتهت دراسة التاريخ فى فرنسا إلى موضوعية جاءت فى تقرير عام ١٩٠٢ عن تدريس التاريخ يقول:

«أن يكتسب التلميذ بصيرة فى الحكم على أمته نتيجة لمقارنة أحوالها بأحوال غيرها من الدول. وأن يعلمه أن يولى الأمم الأخرى ما هى جديرة به من الاحترام، وأن يوسع أفقه العقلى. وأخيرا يوضح له عن طريق العلم بأحوال بلاده، وأحوال العالم واجباته كفرنسى وكإنسان». وعدلت الدولة السوفيتية عن عزل التاريخ عن التلاميذ عام ١٩٣٣ وقبلت مبدأ العودة لدراسة التاريخ وتدريسه بالتسلسل عوضا عن المجردات التى كانت تدرس من خلال علم الاجتماع.

وتعرض التاريخ لهزة أخرى أيام هتلر وموسيلينى. وفى نفس العام الذى عادت فيه روسيا إلى التاريخ المتسلسل عام ١٩٣٣، وازن هتلر منطقه قائلا: إن الموضوعية هى أحد الأوهام العديدة التى تنطوى عليها الليبرالية، إننا لا نعالج التاريخ مجردين عن الهوى، ولكننا سنعالجه كألمان. إننا لا يعنينا السرد للحقائق الموضوعية. إننا نكتب تاريخا للألمان. أما موسيلينى فقد ألغى تدريس التاريخ من أساسه إلى حين كتابة التاريخ على الصورة الرومانية.

وأعجبت هذه النتيجة كل الدكتاتوريات.

علم التاريخ كان دائما موضع نزاع، اعتبره البعض أبا للعلوم. وأقدم العلوم. وقال آخرون إن ملاحظة حشرة وهى تتحرك تعطى من الحكمة أكثر مما يعطى التاريخ اليونانى والرومانى القديم. وتخوف منه البعض، أو احترس فى تدريسه، أو فى محاولة تزويد الأطفال ثم الشباب بأحداثه. طالب البعض بجعله مادة حية يتولاها المؤرخ الخلاق. ووصلوا به إلى حد التركيب الدرامى، أو الروائى، كما يقدمه الآن الروائى أمين معلوف، أو الروائية رضوى عاشور.

وفى الستينيات من القرن الماضى نشر عالم الرياضيات المعروف (برتراند راسل) بحثا مهما لا يعتبر فيه التاريخ علما بل فنا. على المؤرخ أن يقرأ ويقرأ كل ما تصل إليه معارفه حول الفترة المراد تقديمها، ثم يستبعد المصادر ويبدأ فى الكتابة معتمدا على إحياء وحيثيات الحدث الذى نسجت خيوطه فى ذهنه.

التبسيط على الطريقة الأمريكية

وفى أبريل عام ١٩٨٠ دعيت لندوة هامة عقدتها مجلة هستوريا (HISTORIA) الفرنسية فى باريس بمناسبة صدور العدد ٤٠٠ تحت عنوان (الفرنسيون وتعليم التاريخ). ودارت فى مجملها حول الصراع بين المزاج الأوروبى أو الفيل الأوروبى الوقور، والمزاج الأمريكى أو الأسد الأمريكى المتهور فى غابة الفكر الغربى. شارك فيها بالمناقشة تسعة علماء تاريخ، مع اثنين من وزراء التعليم السابقين هما (إدجار فور EDGAR FAURE) و (ميشيل دبريه MICHEL DEBRE تولى سابقا رئاسة الوزراء). مع مشاركة وزير التعليم آنذاك (كريستان بولاك CHRISTIAN BEULLAC). وعدد آخر كبير من رجال الفكر والثقافة، والمناصب الرسمية، والسفراء ورجال التعليم. سجل الندوة التليفزيون، وعدة إذاعات، وعدد كبير من الصحفيين. ويكفى أن أذكر أن عدد الوقوف فقط فى القاعة بلغ ٢٠٠ مشارك.



بعد أحداث ١٩٦٨ ظهرت محاولتان ضد التاريخ. الأولى تقول بأنه لم يعد هناك ما يستحق العناية أو الرعاية فى التاريخ. والثانية تنادى بالتعديل أو إعفاء المراحل الأولى من دراسة التاريخ لصعوبة إدراك أهميته



أدار الندوة المؤرخ المعروف (آلان ديكو ALAIN DECAUX) وله سلسلة دراسات تاريخية هامة منشورة، أو تليفزيونية درامية. كان السبب فى عقد الندوة، أو السبب المباشر الذى فجر الأزمة برنامجاً تليفزيونياً أذيع من محطة أوروبا رقم (١) دار فيه حوار مع طلبة تتراوح أعمارهم ما بين ١٢ إلى ١٥ حول معلومات أولية عن التاريخ الفرنسى.. سأل المذيع:

❖ هل تعرف من هى جان دارك؟
- نعم... إنها امرأة كانت... لا أعرف.

❖ وحرب الجزائر هل سمعت عنها؟
- لا.

❖ ألا تعرف كانت ضد من؟
- كانت الجزائر ضد... لا أعرف.

❖ اذكر لنا معركة انتصر فيها نابليون؟
- وترلو.

❖ ١٥١٥ ماذا يعنى لك هذا التاريخ؟
- القرن الخامس عشر.

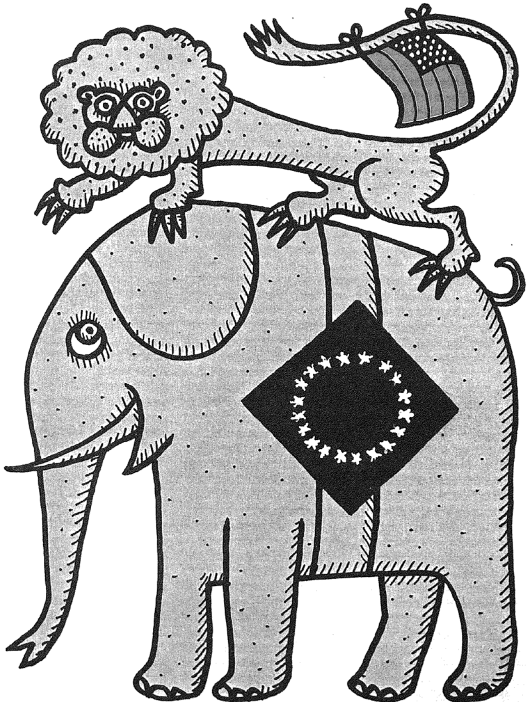
وكما هو معروف (وترلو) هزم فيها نابليون الهزيمة الساحقة، وعام ١٥١٥ دارت فيه معركة هامة انتصر فيها الفرنسيون ولا تنسب إلى القرن ١٥ كما ذكر الطالب، ولكن للقرن ١٦ كما هو واضح.

أثارت إجابات الطلبة الذعر، وجرى التساؤل: ماذا حدث لمستوى تعليم التاريخ فى فرنسا؟ ما مصدر هذا الخلل؟ هل هو التسيب العام؟ هل هو إهمال التاريخ؟ وإذا كان هل مصدره إدخال الأنظمة الأمريكية فى التعليم القائم على الدمج والتبسيط، والعموميات والاختيار من متعدد أو تجاهل المواد النظرية لحساب المواد العملية.

بدأ الندوة (آلان ديكو) بالحديث عن الاهتمام العام بالتاريخ، وكيف أنه نشر عام ١٩٤٦ مقالا حول تعليم التاريخ أثار ضجة لم يحدثها أى مقال آخر كتبه فى حياته. هذا الاهتمام العام بالتاريخ وتدريسه يجعلنا ننتبه لأهميته فى الوجدان العام. فالاتجاهات السياسية المعاصرة ما هى إلا حصيلة تراكمات تاريخية سابقة لا يمكن تجاهلها. وبالتالى لا يمكن أن نترك تدريس التاريخ للصدفة أو الغموض. والملاحظ أن التلميذ ينتقل من المرحلة الأولى من التعليم إلى الثانية دون الوصول إلى

الأمـــريكـــــى والفـيـــــل الأوروبــــى!

فـى أوائـــل القـــرن العشــرين بدأ الوعـــى القــومى الأمريكى فى تدريس التاريخ، إلى أن لجأ الأمريكيون إلى الحلول الخاصة، وهى الاستهانة بالماضى، أو خلـــق نمـط خـــاص يعتمـــد فقـــط علـــى الحاضـــر



تحديد واضح لأحداث التاريخ أو سنوات وقوعها، أو دور الشخصيات فيها. هذه الطريقة توقع التلميذ فى مجردات ولا تربطه بالواقع ولا تثير أيضا خياله.

وفى استفتاء أجرى حول أهمية تدريس التاريخ أقر ٦٢٪ بأهميته و ٦٤٪ طلبوا أن تخصص له دراسة خاصة. و٧٧٪ طالبوا أن يكون مادة إجبارية إلى آخر مراحل التعليم. وفى النهاية تحمس ٧٠٪ لضرورة العناية الخاصة والتركيز على تدريس التاريخ لأن الأحداث الحالية وسطوة القطب الواحد ما هى إلا نتيجة لخطوات الماضى.

وعلق ميشيل دوبريه فى حديثه الذى تلى آلان ديكو فقال:

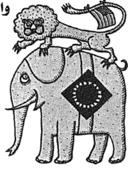
إننا لا ندرس بإمكانية المشاركة، بقدر ما نقوم باستدعاء المشاركة نفسها. هذه المشاركة تقوم بدور التنبيه فقط. يقصد الاهتمام بالجانب التجريدى دون الواقعى. وهذا يعنى أن الطالب يخرج من المدرسة وليست لديه معلومات محددة عن تاريخه. وفى المراحل المتقدمة من التعليم لا يعرض على الطالب التاريخ المحدد مما يوقعه فى الغموض وعدم الاحساس بتتابع الأحداث. كما أننا نهمل التاريخ القومى لحساب الدعوة العالمية.

وبعد أحداث ١٩٦٨ (الاضطرابات الداخلية وترك ديجول الحكم) ظهرت محاولتان ضد التاريخ. الأولى تقول بأنه لم يعد هناك ما يستحق العناية أو الرعاية فى التاريخ. والثانية تنادى بالتعديل أو إعفاء المراحل الأولى من دراسة التاريخ لصعوبة إدراك أهميته. ثم ظهرت دعوة جديدة تقول بأن المشاعر العامة تتجه الآن إلى العالمية، لذلك يجب طرح العواطف القومية جانبا. واعتبر (دوبريه) أن هذه الدعوة هى أخطر الدعوات.

وتحدث (بيير جوبير PIERRE GOUBERT) أستاذ التاريخ فى السربون فقال: إن ما حدث من تعديل فى تدريس التاريخ أو دمجه فى مواد أخرى بدأ منذ عام ١٩٦٩. إن هذا الاتجاه هو الذى ألغى تدريس التاريخ فى الواقع. وتعجب من كيفية قبول تعديل تدريس التاريخ مع أنه لم يحظ بالتأييد فى استفتاء أجرى منذ عشرة أعوام (من تاريخ عقد الندوة) إلا بنسبة بين ١٠ أو ٢٠ ٪ فقط. ولكنه عاد ووضع يده على العلة - كما ذكر - وهى الأخذ بالأنظمة الأمريكية التى استهانت بالتاريخ والتى صارت هى نفسها موضع مراجعة شديدة.

وقال البروفيسور (جان

الأسد الأمريكى والفيل الأوروبى!





يقول شوفونيمون ماذا لو فقدنا الإحساس بقيمة التاريخ؟ أو غرقنا فى ظروف الحاضر؟ أليست هذه خطوات واضحة نحو (الأمركة).. أمركة التفكير الفرنسى



تيلار (JEAN TULARD) المتخصص فى المرحلة النابوليونية، إن التاريخ فى مراحل التعليم يجب أن يعتمد على التسجيل المحدد. والملاحظ أن بعض الآراء الغريبة التى وردت عند بعض المؤرخين ما يزال لها صدى فى مراحل التعليم، أو أنها أصابت بعض الأحداث التاريخية بالسكونية. فكيف يمكن قبول قول المؤرخ (لافيس LAVISSE) ... (فى ملكية يوليو زاد عدد العمال، وبالتالى صاروا أكثر استقرارا). أو قوله (بعد عام ١٨٤٨ بدأت المآسى العالمية، وبالتالى فإن أسباب الثورات الهامة فى بعض الأحيان ليست لها صلة بأيامنا هذه). وإذا كانت بعض الأحداث العظيمة أو الشخصيات الكبيرة لم تمنع وقوع البؤس أو المآسى التاريخية، فإن الواجب يقتضى الحرص على عدم تجميد المفاهيم فى أذهان الطلبة. وكيف نتوقع أن يفهم التلاميذ هذه العبارة (إن الأقنان كانوا يباعون مع الأرض فى القرن ١٣) ما لم تكن هناك مقدمات تشرح نظام الرقيق فى القرن ١٣. إن القاعدة يجب أن تسبق حتى نشرح الحدث فى المرحلة التعليمية الأولى.

نحو الأمركة

وتحدث النائب الاشتراكى (جان بيير شوفونيمون JEAN PIERRE CHEVENEMENT) عن حجج الداعين إلى إلغاء التاريخ قائلا: أولا الاهتمام بتدريس التكنولوجيا العصرية، ثانيا: الاكتفاء بدراسة العلوم الاجتماعية عن التاريخ. ثالثا: قلة عدد المتخرجين من الفروع النظرية فى التاريخ، فى عام ١٩٧٢ كان هناك ٢٢٥ تخصصاً عالياً فى التاريخ. وفى عام ١٩٧٩ تقلص العدد إلى ٤٨ فقط. ناقش الحجج من زاوية سياسية فقال: إن محاولة تقليص التاريخ القومى لحساب التاريخ العالمى أو الاقتصاد العالمى هو فى الحقيقة محاولة رأسمالية أكثر منها دولية. هذه المحاولة التى تعطى أولوية للأحداث المعاصرة أو اللغة العالمية لا يوقفها إلا موقف سياسى حازم يستقيم به التاريخ الفرنسى على صفحات الكتب المدرسية. إنها محاولة إفقاد الذاكرة. إن صب الأفراد فى قوالب مكررة تحت شعار ثقافة حديثة هى محاولة تسعى لمصلحة قلة على خلاف ما تدعو إليه من عالمية فى الظاهر.

وتساءل النائب: ماذا لو ارتبطت فكرة إلغاء التاريخ بسياسة الدولة الرسمية؟

يقول شوفونيمون: ماذا لو فقدنا الإحساس بقيمة التاريخ؟ أو غرقنا فى ظروف الحاضر أو العموميات التى تحكم البعض.. هل هذه صدفة؟

أليست هذه خطوات واضحة نحو (الأمركة).. أمركة التفكير الفرنسى. وقال ساخرا... إنها دعوة لإلغاء الحلم. دعوة للاهتمام بالسوبرمان. وطالب بإعطاء التاريخ حقه.

هنا قال مقدم الندوة (آلان ديكو) إنه تلقى تعليقات مكتوبة بعضها يقول أن دعوة إلغاء التاريخ مؤامرة شيوعية. وقالت تعليقات أخرى إنها مؤامرة أمريكية. وقالت ثالثة إنها مؤامرة جيسكاردية (نسبة إلى جيسكار ديستان).

وتحدث البروفيسور (إيمانويل لو روى لادورى EMMANUEL LE ROY LADURIE) فى الكوليج دى فرانس فقال:

إن القضية فى رأيه ليست سياسية. إن الذاكرة لا تتصف بالثورية أو الرجعية. إنها التفكير بطريقة جمعية لما تنتمى إليه. التاريخ تتابع أجيال ومن المهم معرفة الأزمات التى مرت بها الأجيال من قرن لآخر. إن الطاعون الأسود الذى مر بأوروبا عام ١٣٤٨ لأجدر بالاهتمام فى أبعاده من معركة مارينان عام ١٥١٥ (انتصر فيها فرانسو الأول على السويسريين). وفى تدريس التاريخ لا يجب ترك جانب لحساب الآخر. التاريخ أحداث وشخصيات وتواريخ وظواهر اجتماعية. إن الطالب لديه الاستعداد للاهتمام بـ لويس ١٤ بقدر ما لديه الاستعداد لمعرفة أحوال الفلاح فى عصره. إن التعارض هنا مصطنع. الأساطير اليونانية والرومانية تثير شغف الطفل، وفى سن الثانية عشرة يصير أكثر اهتماما بالبطولات والشخصيات الكبيرة، ولا يؤثر هذا كما يصور البعض على تفكيره فى سن الثلاثين فيصير فاشستيا. وفى سن الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة يبدأ فى الاهتمام بالتاريخ البنائى. الانعزال أو المحلية يثيران الذعر. ولكن تحقيق الذات شىء لا يختلف عليه أحد... إذن لماذا لا يسعى الطالب لتحقيق ذاته عبر تاريخه، كمثل ما يحاول تحقيق ذاته عبر فريق كرة القدم؟ الخطوات الطبيعية هى التى تسير من المعرفة الأقل، إلى المعرفة الأكثر. ولكن يجب الاحتراس من تسييس التاريخ. النتيجة الطبيعية لذلك هى نفور الطالب من هذه المادة فى المستوى العام. وفى مستوى القوى الوطنية.

وتحدث (إدجار فور).. وزير التعليم السابق فوضع للتاريخ ثلاث ثمرات هى:

* التدريب على أدوات البحث، وتنمية قدرة النقد خاصة نقد الجذور نفسها. هنا يأتى دور الأرشيف والمكتبة، والوثائق المصورة الحية.
* التاريخ يعتمد على قاعدة يغذيها الماضى. ومعرفة الماضى مهمة فى إدراك أبعاد الحاضر. الماضى لا يعطينا تراكيب جاهزة قابلة للتطبيق. إنه يعطينا إدراكاً معمقاً للحاضر بوعى.
* التاريخ يشكل شخصية الفرد. يزوده بذاكرة إضافية. إننا نعيش فى عصر أصاب الفرد بالاختلال، ويستطيع التاريخ أن يعيد توازنه. واذكركم بقول الفيلسوف جان لاكروا «حقيقة الذكرى (الماضى) هى بما تعد (فى المستقبل)».

انتهت الندوة بحديث كريستان بولاك (وزير التعليم آنذاك) تعرض فيه للمشاكل العملية من زيادة عدد التلاميذ وقلة مدرسى التاريخ. وأعلن عدة قرارات اتخذها بناء على ما أوضحته الندوة. بدءا من مناقشة دور التاريخ فى التربية القومية، إلى ما يحمل الأزمة آنذاك. والتى استمرت واحتدت الآن... وهى ضرورة التوازن بين ميراث تاريخ يجب الحفاظ عليه، وحاضر سياسى يكاد يفرض التغييب للتاريخ.

وانهى آلان ديكو الجلسة الأخيرة للندوة بالتذكير بكتاب (القياصرة القادمون) لمؤلفه أمورى د. رينكور.

فماذا عن هذا الكتاب ونبوءته التاريخية؟

القياصرة القادمون

كتاب (القياصرة القادمون) صدر فى الستينيات من القرن الماضى، ويعتمد فى قراءته للتاريخ على فكرة الدوران أو صعود الحضارات وهبوطها، ويستبعد بالتالى النظرية العنصرية القائلة بأن حضارات البشرية جميعا صبت فى حضارة الغرب، فهى القمة وهى النهاية (كما صورها فيما بعد فوكوياما) وهى الإبداع المتكامل. التاريخ فى نظر (رينكور) نبضات تنقبض وتنبسط، والانقباض هو لحظة الإبداع، ولحظة الإبداع هى إفراز للثقافة الأصلية، ولحظة الانبساط هى لحظة توزيع هذه الثقافة على أنحاء بعيدة وتحويلها إلى حضارة. فالثقافة فى نظره إذن لها صفة الفردية المبدعة فى كافة الأنشطة الإبداعية للإنسان، والحضارة لها صفة الجمعية، والانتشار، والمنفعة العملية. ويطبق هذه القاعدة على شعوب الأرض المبدعة قديمها وحديثها.

كيف أبدعت ثقافة؟ كيف تحولت إلى حضارة؟ كيف تدهورت؟

فى موضوع حديثنا يرى رينكور فى أوروبا ممثلة واضحة لحضارة اليونان القديمة، ويرى فى أمريكا ممثلة لحضارة الرومان القديمة. أوروبا عصر النهضة من ١٣ إلى ١٥ م أعادت ثقافة اليونان بمواصفات الإبداع وأيضا النقص (نترجم عادة رينيسانس RENAISSANCE بنهضة وترجمتها الدقيقة التى تفصح عن مغزاها هو إعادة الميلاد، والمقصود إعادة ميلاد الحضارة اليونانية) وظهور أمريكا وتطورها كجوهر أعاد دور الرومان قديما فى مفهوم نفعى، عملى، عسكرى.

ويستمر فى قراءته للتاريخ فيرى أن استمرار هذه الحضارة بنفس المواصفات القديمة سينتهى بها إلى نفس المصير... القيصرية ثم الدكتاتورية. وانهيار الإمبراطورية الرومانية الجديدة أى أمريكا بيد فرد سيعنى انهيارا وتهديدا للعالم. لأن قيصر الجديد يتحكم فى قوة مدمرة ستهدم المعبد على رؤوس الجميع.. العدو والصديق.

كانت بلاد اليونان مزدهرة قبل ميلاد المسيح بـ ٧٠٠ سنة، وبدأت أوروبا نهضتها بعد ميلاد المسيح بألف عام. وكما أعطت اليونان إبداعا على يد (يوربيد،سوفكليس، وارستوفان)

الأســد الأمـريكــى والفيــل الأوروبــى!



و(سـقـراط، وأفـلاطـون، وأرسـطـو)... وغيرهم أعطى عصر النهضة الأوروبية إبداعا على يد (دانتى، بوكاشيو، وإنجلو، ودافنشى، ورفائيل)... وغيرهم. وكأمثلة لتحول السلطة قامت المدينة اليونانية «اسبرطة» بالتخلص من الملكية وإعلان الجمهورية، أى التخلص من حكم الفرد والانتقال إلى حكم القلة المتميزة.. وقامت أوروبا بنقل السلطة من يد الملك إلى يد الاقطاعى فى (الماجناكارتا) بإنجلترا عام ١٢١٥، ومجلس طبقات الأمة ١٣٠٢ فى فرنسا.

وحينما بدأت الثقافة اليونانية فى التدهور قام إلى جوارها الرومان بطبيعة خشنة.. يلبس الجميع (التوجا) البسيطة، ولا يعرفون طبقة النبلاء اليونانية. يعرفون ضبط النفس، وأهمية العمل الجماعى والسلوك النفعى، ولا يهتمون بالابداعات الفردية. وقد قال إنجليزى عن الأمريكيين أيام ثورتهم على الإنجليز (أن أهل أمريكا متخلفون عن بلاد العالم القديم من ناحية التهذيب بمائة عام). وفى المقابل قال أمريكى آنذاك (أما من حيث الإنسانية والعفة، والطهارة، والعدالة، واحترام حقوق الإنسان وكل فضيلة خلقية فهم - أى الأوروبيين - متخلفون عنا مائة عام). ويجب أن نلاحظ أن أحكام أهل أوروبا على أهل أمريكا أو العكس تنطبق عليهم فقط دون غيرهم من الشعوب، كما كانت رؤية اليونان والرومان قديما للعالم... خاليا إلا منهم كبشر، وما عداهم فهم من البرابرة. هذا يعنى أن الفرع تعارك مع الأصل، أهل أمريكا اصطدموا بأهل أوروبا.

كما اصطدم أهل اليونان بأهل روما قديما. وحاولت اليونان أن تستعيد يقظتها فى القرن ٤ ق.م على يد الإسكندر قديما.. وحاولت أوروبا أيضا على يد نابليون فى القرنين ١٨/ ١٩. وكلاهما فشل فى الشرق. يندرج فى هذا أيضا محاولات إنجلترا أيام الملكة فيكتوريا لمدة ستين عاما، ولكنها أيضا فشلت. وأخليت الساحة لشعب يمزج الواقعية بالمثالية. وانتهى إلى جعل الواقع هو أساس الحكم، ومصدر التشريع، وميزان العدالة... طرد الأسبان، والهولنديون، والفرنسيون.. وأخيرا إنجلترا من أمريكا، وأخليت الساحة بكاملها لجماعة جديدة.

تناول الأبناء أجدادهم بالنقد والتشريح، وربما بالاستهانة، أو الاحتقار فقال (جون آدامز) الرئيس الثانى لأمريكا (يجب على أولادى أن يدرسوا الرياضيات والفلسفة والجغرافيا، والتاريخ الطبيعى والبحرية، ليعطوا لأطفالهم حق دراسة التصوير، والشعر، والموسيقى، والعمارة، والتماثيل، والطنافس والخزف). وقال فرانكلين: (إن فى أمريكا حفنة قليلة من أولئك الذين يستطيعون دفع الأثمان الباهظة التى يدفعها الأوروبيون فى شراء الصور، والتماثيل، وأعمال العمارة والفن. وكلها غريبة أكثر منها مفيدة).

هذه أقوال تشابه ما قاله المهندس الرومانى (فرونتينوس) عام ١٠٤م الذى نظم شبكة روما المائية الشهيرة (من الذى يجرؤ على أن يقارن هذه الساقيات العظيمة التى تنقل الماء بالأهرام العقيمة، أو بأعمال اليونان الشهيرة العديمة النفع).



قال إنجليزى عن الأمريكيين أيام ثورتهم على الإنجليز (إنهم متخلفون من ناحية التهذيب بمائة عام). وفى المقابل قال أمريكى آنذاك (أما من حيث الإنسانية والعفة، فإن الأوروبيين متخلفون عنا مائة عام)



بشائر القيصرية

وابتداء من الرئيس جاكسون (١٧٦٧/ ١٨٤٥) يضع الكتاب الخط الذى ستبدأ منه بشائر القيصرية الأمريكية... والسبب لا يعود إلى دكتاتورية جاكسون ولكن لشعبيته.. هنا يجب أن نفرق بين النظام الاستبدادى الفردى الظالم الذى يفرض نفسه بالقوة والسلطان والأعوان، وعادة لا يعم طويلا وينتهى بانقلاب دموى، وبين النظام القيصرى، أى تحلق الجماهير حول شخصية تاريخية ترتفع بها إلى درجة البطولة، ولا تسمح بخلق حاجز بينها وبينه فى صورة مجلس شيوخ أو نواب أو غيره.... الصلة مباشرة، والأوامر مباشرة، والتنفيذ مباشر من المحكومين لأوامر الحاكم.

الرئيس جاكسون استخدم حق الفيتو أمام الكونجرس اثنتى عشرة مرة، فى مقابل تسع مرات فقط طول حكم السابقين عليه، وارتفعت النسبة بشكل واضح أيام رئيس آخر ستتمثل فيه مرحلة أخرى من القيصرية هو (روزفلت) فقد استخدم حق الفيتو ٦٣١ مرة أمام الكونجرس.

جاءت الثورة الصناعية بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية، فأعطت الفرصة بشكل قوى لسيطرة رأس المال، وحولت الإنسان إلى آلة، أو جزء من التركيب الآلى على حساب الإنسان... ويكفى أن نتأمل كيف ألغى الرق فى أمريكا، ولكنه تحول إلى قيمة من قيم المجتمع الأمريكى يصعب التنازل عنه. وفى ذلك يقول زعيم زنجى (لقد تحرر العبد المعتق من ربقة سيده ولكنه ظل عبدا للمجتمع. ليس له مال ولا عقار ولا أصدقاء... لقد تحرر من الضيعة القديمة، ولكنه ظل يتمرغ فى التراب)... وظهر نظام المنبوذين فى أمريكا.

أكد هذه النزعة الرومانية العنصرية الاتجاه الاستعمارى على الطريقة الرومانية... السيطرة على البحار لفرض السلم الأمريكى أو الرومانى... وفى مقابل ذلك كان الشاطئ الأوروبى أو الهيلينى أو اليونانى يأخذ فى الأفول. ولم تكن محاولة الملكة فيكتوريا فى إنجلترا إلا المهرجان الأخير لأفول نجم آلهة الثقافة اليونانية أو ثقافة أوروبا. ويعتبر كتاب (رينكور) مسرحية (فاجنر) الشهيرة (غروب الآلهة) رمزا لغروب ثقافة أوروبا، أو وقوعها فى الاضطراب نتيجة لسيطرة وسائل الانتاج الضخمة على حساب الابداع الفنى والأدبى والمعمارى الأصيل... وأكدت الصراعات القومية بين دول أوروبا هذا الاضطراب. حولت الابداع الفنى الأدبى، إلى صراع سياسى عسكرى واستعمارى. اختفى زمان (بتهوفن)، و(موزار) و(شوبان) المنتمين إلى أوروبا كما اختفى زمان سقراط، وأفلاطون، وأرسطو المنتمين إلى الثقافة الهيلينية، وليس لمدينة أو ولاية بعينها.

ولما ساءت الاحوال بين الاجداد، أى تصارع أهل أوروبا فى الحرب العالمية الأولى، تدخل الابن البار أمريكا لفض الاشتباك، ولكن تدخله ولد أمرين:

الأول: ارتفاع سلطان (ويلسون) الرئيس الأمريكى أمام الكونجرس فقد صار (الملك ورئيس الوزراء الذى يهيمن على السلطة التشريعية)، والقائد العام، وزعيم الحزب، والدكتاتور الاقتصادى، ووزير الخارجية.

الثانى: نمو بذور الشك بين الأجداد والأبناء... الشك بين أوروبا وأمريكا.. ظهر أسلوب رجل الأعمال (اليانكى) الذى يريد أن يرث الاجداد وهم على قيد الحياة. ذهبت ربة الحرية المثالية، وأعطت مكانها لشخص العم (سام) الفظ.

ونتيجة الحرب العالمية الأولى انعكست أيضا على المجتمع الأمريكى... زاد غرور الأمريكى... زاد سلطان صاحب المال... ظهر الانحلال الخلقى، وهوس المضاربات، وتهريب الخمور، وعصابات المافيا، والفساد والمؤسسات الصناعية الضخمة، والمبانى العملاقة... ويصف روائيو هذه الفترة هذا الجيل الضائع. انتهى الجيل الضائع إلى أزمة اقتصادية عالمية بدأت عام ١٩٢٩، وتحولت سيطرة رؤوس الأموال من الجانب الاقتصادى إلى الجانب النفسى... أصبح الأمريكى يؤمن بالبطل (رجل الأعمال)... ولما جاء (روزفلت) محاولا انقاذ الموقف تحول بدوره إلى بطل من لون آخر. تضاءل الفرد أمام ضخامة أجهزة المجتمع، وأصبح مستعدا للتنازل عن قسط من حريته مقابل الامن الاقتصادى. وحظى روزفلت بالرئاسة ثلاث مرات بعد تعديل الدستور، ومات قبل انتهاء مدته الثالثة، ولذلك اعتبر دكتاتورا مدى الحياة. وحينما اشار فى إحدى خطبه عام ١٩٤٠ إلى تركه الرئاسة بعد أربع سنوات، ارتفعت الأصوات مهللة (كلا.. كلا).

مشكلة الناخب الأمريكى

أراد الأمريكيون روزفلت كما أراد أهل روما يوليوس قيصر زعيما مدى الحياة.. واتفق ذلك مع نزعتهم العملية، وقلة خيالهم، واهتمامهم بالكم قبل الكيف، واهتمامهم بالتعليم لصب قوالب عملية ترى الإنسان نموذجا قابلا للتعديل، والتحوير حسب الحاجة، أما الحقائق الميتافيزيقية فيجب إغفالها أو هى غير موجودة. انتجت هذه الفلسفة (البرجماتية) العملية طبيعة تبدو متضاربة للوهلة الأولى. محافظة متقلبة فى آن. متقلبة نتيجة لطبيعتهم العملية النفعية، ومحافظة لإصرارهم على أن فلسفتهم فى الحياة هى أفضل ما أنتجته البشرية.

من هنا كما يقول الكاتب

كتـــاب الـزاويــة



رجــــل

عبقــرية محمــد

عالم يتطلع إلى نبى.. وأمة تتطلع إلى نبى، ومدينة تتطلع إلى نبى، وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكونان لإنجاب ذلك النبى.

ثم ها هو ذا رجل لا يشركه رجل آخر فى صفاته ومقدماته، ولا يدانيه رجل آخر فى مناقبه الفضلى التى هيأته لتلك الرسالة الروحية المأمولة فى المدينة.. وفى الجزيرة، وفى العالم بأسره.

نبيل عريق النسب وليس بالوضيع الخامل، فيصغر قدره فى أمَّة الأنساب والأحساب..

فقير.. وليس بالغنى المترف فيطغيه بأس النبلاء والأغنياء، ويغلق قلبه ما يغلق القلوب من جشع القوة واليسار.

يتيم بين رحماء.. فليس هو بالمدلل الذى يقتل فيه التدليل ملكة الجد والإرادة والاستقلال، وليس هو بالمهجور المنبوذ الذى تقتل فيه القسوة روح الأمل وعزة النفس وسليقة الطموح، وفضيلة العطف على الآخرين.

خبير بكل ما يختبره العرب من ضروب العيش فى البادية والحاضرة، تربى فى الصحراء وألف المدينة، ورعى القطعان واشتغل بالتجارة وشهد الحروب والأحلاف، واقترب من السراة ولم يبتعد عن الفقراء.

فهو خلاصة الكفاية العربية فى خير ما تكون عليه الكفاية العربية..

أصلح رجل من أصلح بيت فى أصلح زمان لرسالة النجاة المرقوبة، على غير علم من الدنيا التى ترقبها..

الأســد الأمريكــى والفيــل الأوروبــى!



- كانت سيطرة المرأة الأمريكية بطبيعتها المحافظة، وكانت فى المجتمع الرومانى قد غزت عالم السياسة، شهدت المؤتمرات وأخذت من الحرية ما يعادل الرجل. وتعددت حوادث الطلاق بشكل فاضح واهتزت سلطة رب الأسرة الاستبدادى. وكان الزوج الخنوع المستسلم لزوجته قد غدا فعلا شخصية مألوفة مبتذلة فى المسرحيات الهزلية.

وفى مجال الابداع الأدبى والفنى لم تكن روما كما لم تكن أمريكا، إلا تقليدا وإنتاجا ضخما بالجملة، وتنمية لما تم إبداعه فى أوروبا. ولما كان المجتمع الأمريكى بسيطا يسوى بين الجميع دون البحث عن الأصل، مع حسابه بالكم دون الكيف، لذلك ارتفع شأن الدولار، وأصبح مقياس النجاح. فدخلك هو الذى يحدد اقترابك أو ابتعادك من الناس، من هنا كان زيف استقلالية المرأة. فهى استقلالية مرهونة بقدرتها الحالية وليس لمساواتها كإنسان بالرجل. من هنا كانت مأساة سن الشيخوخة أو المعاش... فهى تعنى عجز الإنسان عن العمل، أو عدم قيمته لأنه لم يدرب من صغره على ما يعرف بالحياة الثقافية كالأوروبى واعتبارها جزءا مكملا لحياته. وكان الرومان يعتبرون الشيخوخة والعجز مهانة، واستقرت عندهم فكرة انتحار كبار السن، وجعلوا لذلك موضعا بعينه.

وكما حاول الرومان بقتل قيصر إعادة الجمهورية ولكنهم فشلوا... حاول الأمريكيون بعد روزفلت الحد من سلطان الرئيس. ولكن كانت المشكلة ليست رغبة الرئيس فى السلطة، بقدر ما كانت رغبة الناخب فى الاتكال على السلطة التى تحقق له ذاته دون تعديل أو نقد. لقد بدأت القصة بدعوة المساواة بين جماعة مهاجرة ترفض أى شكل من أشكال السلطة التقليدية إلا سلطان القدرة على العمل والإنتاج.. وكان الإمعان فى المساواة فيما بينهم معناه إضعاف التدرج الهرمى. وإضعاف التدرج الهرمى أضعف بدوره السلطة الرقابية المتخصصة (الكونجرس). وإضعاف الكونجرس معناه الاعتماد على الصلة المباشرة بين الرئيس والجماهير... والاتصال المباشر ينمى عادة السلطة عند الفرد الحاكم.... ويعنى ازدياد سلطة الرئيس الأمريكى، ازدياد سلطة القائد العام الذى يتحكم فى قوة يمكن أن تدمر العالم.

وتأسيسا على ما ذكره (رينكور)...

تكون المأساة حينما يصل إلى القيصرية الأمريكية شخصية ضعيفة، والأسوأ أن يصل إليها شخصية تافهة.

وقبل وصول (رونالد ريجان) إلى السلطة عام ١٩٨٠ كان الحديث يجرى بشكل تلقائى عن تفاهته.. يلهو بالقطارات يعجب بنفسه على شاشة التليفزيون. يجهل كل ما يجرى فى العالم الخارجى تكتب له الخطب القصيرة. يتهرب من التصريحات السريعة. يدهش من حوله إذا تورط فى تعليق، يطلق (بوب هوب) عليه النكات. وعلق الممثل الراحل (مارلون براندو) على انتخابه قائلا... إننى أعرفه تماما وأعرف محدودية ثقافته فهو لا يعرف كيف يفرق بين الضغط على زر الإضاءة، والزر النووى.

أليست نفس الصورة التى قدمت عن (بوش) الأب عند انتخابه وتأكدت بصورة أكثر وضوحا عن بوش الابن؟

ونعود لكتاب (القياصرة القادمون) فنراه يقول أن لدى الأمريكى نزعة عنيفة، ولكنها لا تظهر فى صورة جماعية لنزعته الفردية. وهى نزعة لا ترفض فى الوقت نفسه الدخول فى قالب الجماعة، أو قبول القيصرية... الأمريكى يطلب المساواة، ويريد فى الوقت نفسه واحد منهم. ليس بأفضلهم يتولى المسئولية... يسخرون منه وينادونه باسمه، ويستهينون بانتصاراته كاستهانة الرومان بأبطالهم. يريد الرئيس موظفا بامتيازات خاصة فى مقابل تحمل الأعباء. ولكنه لا يفطن إلى أن كثرة الاتكال عليه تؤدى إلى زيادة نفوذه على الجميع. وإذا زاد نفوذه أصبح من الصعب انتزاعه، وقد يطالب الجميع أنفسهم ببقائه. وتكون هذه قمة القيصرية... نوعا من اتكال الجماعة على الفرد ليحل المشاكل، ويأتى بالترياق، ولكنهم لا يدركون أنه قد يأتى أيضا بكارثة.

وكلها دلائل تشير إلى أن نبوءة (رينكور) فى كتابه قد تحققت.

ونعود لندوة (ديكو) حول الدعوة الأمريكية لإلغاء التاريخ، مقرونة بفكرة صراع الفيل الأوروبى مع الأسد الأمريكى، أو النموذج الأوروبى الهيلينى مع النموذج الأمريكى الرومانى.

قد تخدعنا الوقائع الأخيرة من مصالحة بينهما بعد مؤتمر الثمانية، أو بعد احتفالات مرور ٦٠ عاما على تحرير أمريكا لفرنسا أو لأوروبا بكاملها من الحكم الهتلرى، وقد شارك فى الاحتفالات ألمانيا نفسها.

المصالحة لن تتم بين أوروبا وأمريكا. إنه قدر تاريخى. إنها إطالة فقط لمدة العرض... القصة مكررة ولأن التاريخ لا يعيد نفسه، فإنها أيضا عبرة منسية.. وهذه حكمة حضارية. ■

عولمة فضائية.. التلفزة عابرة

جان شلبي



■■ حققت قنوات التلفزة عابرة الحدود، خلال العقدين الماضيين، تطوراً ملحوظاً عبر العالم: فى جنوب آسيا تحدت شبكات تلفزة مثل ستار تى فى Star TV وزى Zee، إذاعات الدولة بنجاح وفتحت أبواب سوق التلفزة. وفى الشرق الأوسط رفعت قنوات فضائية مثل إم بى سى MBC مستوى التغطية الإخبارية وأثار الصوت المستقل لقناة «الجزيرة» قلق الحكومات. وفى أمريكا الشمالية وأوروبا، أحدثت سى إن إن CNN، على سبيل المثال، تحولاً فى التغطية الإخبارية العالمية وتدفق أخبار الكون.

لقد كان لقنوات التلفزة عابرة الحدود انعكاسات متباينة فى العديد من أسواق الإعلام لكنها طرحت فى تطورها قضايا مهمة تتعلق بالعولمة. قدمت صيغة تليفزيونية غير مناطقية فى ملمحها الرئيسى وتختلف عن الصيغة الخاصة بالقنوات القومية. كما أن

كاتب هذا المقال باحث أكاديمى ومحاضر دائم فى قسم الاجتماع - جامعة سيتى البريطانية - فى لندن. والمقال دراسة تبحث العلاقة بين شبكات التلفزة العالمية، عابرة الحدود القومية، وإجراءات العولمة وتشكيل النظام العالمى الجديد وإلباسه الزى السائد (الموضة). وتستند الدراسة إلى عشرات المراجع والمؤلفات والإحصاءات الصادرة عالميًا منذ منتصف الثمانينيات وحتى عام ٢٠٠٢. وتستفيد من ٤٠ مقابلة شخصية أجراها الباحث على مدار سنتين مع قيادات تنفيذية عاملة فى شبكات التلفزة العالمية.

المحرر

القنوات مجموعة من حوالى ١٥ قناة حققت مكانة عالية تعود إلى اتساع انتشارها أو طبيعة محتواها.

من بين تلك النخبة أول قناة عابرة للحدود انطلقت ولاتزال تعمل وهى قناة تى فى٥ TV5 الفرانكوفونية التى تديرها ٥ قنوات عامة من فرنسا، بلجيكا، وسويسرا. صنعت هذه القناة التاريخ عندما بدأت البث إلى أوروبا عام ١٩٨٤ عبر القمر الصناعى 2FI أول الأقمار الصناعية الأوروبية. فى العام التالى بدأت شبكة أخبار سى إن إن CNN الأمريكية بثها إلى عموم أوروبا، وتبعتها قناة إم تى فى MTV فى عام ١٩٨٧. فى عام ١٩٨٩ انطلقت ثلاث قنوات: ديسكفرى Discovery، شبكة التسجيلات الوثائقية الأمريكية، يوروسبورت Eurosport، القناة الرياضية التى أطلقها اتحاد الإذاعات الأوروبية EBU، إلى عموم أوروبا، وقناة SKY الإخبارية BSKYB's،



تغطيتها عابرة الحدود، وجمهورها متعدد الجنسيات، وكذلك عمليات إنتاجها العالمى، كل ذلك جعلها تنسف العلاقة ما بين الإرسال والدولة - الأمة.

لم تتكيف التلفزة عابرة الحدود بسهولة مع العولمة، لكنها ساعدت فى إلباس النظام العالمى الجديد الزى السائد (الموضة). ساعدت هذه القنوات إجراءات العولمة بأن شكلت مناطق تعددت بتعدد الثقافة والتمويل والسياسة. حققت إضافات على صعيد تدفق المعلومات، وقدمت شبكات اتصال ونظم تبادل تقود إلى إحداث عمليات دمج على نطاق عالمى.

يلاحق القسم الأول، من الدراسة، تطور التلفزة متخطية الحدود القومية فى أوروبا على مدار العقدين الماضيين. ويقدم القسم الثانى شرحًا لكيفية اختلاف التلفزة عابرة الحدود عن التلفزة القومية، وتطويرها لصيغ إذاعية تتخطى تلك الحدود. ويحلل القسم الثالث إسهام هذه القنوات التليفزيونية فى إجراءات العولمة على أربعة محاور رئيسية للأنشطة: الإعلام، الموسيقى، السياسة، والتمويل.

مرحلة الانطلاق

هناك فترتان بارزتان فى تاريخ التلفزة عابرة الحدود. الفترة الأولى هى المرحلة الاستهلالية والتى امتدت من بداية الثمانينيات إلى منتصف التسعينيات، وخلالها خاضت صناعة التلفزة تجارب لنماذج متعددة، وعانت القنوات عابرة الحدود من صعوبات، ولم تستمر معظم القنوات التى انطلقت خلال تلك الفترة لأكثر من بضعة أعوام. من بين تلك القنوات قناة سوبر Super Channel، التى بدأت عبر شركتين: آى تى فى ITV وفيرجن Virgen، النسخة الأوروبية لقناة سكاى Sky التى تمتلكها مجموعة ميردوخ للصحافة العالمية، إضافة إلى قناتين متخصصتين أطلقتهما دبليو إتش سميث WH Smith، دار التوزيع البريطانية، وهما: لايف ستايل Life style وسكرين بورت Screen Port. وهناك تجارب عمرها قصير لإذاعات عامة تشمل تى فى يوروب TV Eurp التى أطلقتها الـ BBC، هيئة الإذاعة البريطانية، وأوروبا تى فى Europe TV التى أطلقها «EBU» اتحاد الإذاعات الأوروبية.

ما يسمى بالمرحلة الثانية بدأ منتصف التسعينيات عندما تحسنت فى أوروبا آفاق التلفزة عابرة الحدود، بشكل ملحوظ. فى ذلك الوقت كانت صناعة التلفزة قد نضجت وتوحدت. القادمون الجدد، مثل دبليو إتش سميث التى حاولت دخول صناعة التلفزة من طريق عموم أوروبا، انسحبوا من السوق. والإذاعات جيدة التأسيس، التى أساءت تقدير صعوبات التلفزة العالمية تراجعت إلى حدود أوطانها أو طورت مشاريع جديدة. وخلال تلك الفترة تطورت قنوات التلفزة عابرة الحدود بثبات وارتفع عددها من ١٥ قناة فى عام ١٩٩١ إلى ما يقدر بـ ١٠٨ قنوات فى عام ٢٠٠٠، رغم المنافسة الشديدة من العديد من القنوات القومية الكبل «السلكية» والفضائية.

تخصصت معظم القنوات عابرة الحدود فى نوعيات ملائمة من البرامج تتراوح ما بين منوعات الأطفال والأفلام السينمائية والرياضة. من بين هذه الموجهة إلى عموم الإقليم الأوروبى. فى عام ١٩٩١ انطلقت آرتى Arte وفق معاهدة فرنسية ألمانية بإنشاء قناة ثقافية. وفى عام ١٩٩٣ بدأت يورونيوز Euronews بـ ١١ عضواً من الـ EBU، وتبعتها شبكة «أفلام وبرامج، كارتون «رسوم متحركة» (قناة للأطفال تدار من قبل «نظام تيرنر للإذاعة». وفى عام ١٩٩٥ بدأت BBC بثها الأولى إلى عموم أوروبا عبر بى بى سى برايم BBC Prime، وهى قناة ترفيهية، وبى بى سى وورلد BBC World، القناة الإخبارية. فى العام نفسه بدأت CNBC، قناة أخبار المال والأعمال، بثها إلى أوروبا، وتبعتها، عام ١٩٩٦ قناة بلومبيرج Bloomberg، شركة معلومات التمويل التى تتخذ من نيويورك مقراً لها. وفى العام نفسه بدأت فوكس كيدز Fox Kids، قناة الأطفال، عملياتها الأوروبية. وانطلقت قناة ناشيونال جيوجرافيك National Geographic إرسالها من لندن فى عام ١٩٩٧.

وعبر السنوات، ضاعفت هذه القنوات من توزيعها ويحقق معظمها اليوم تغطية لكل أوروبا. وبين عامى ١٩٩٧ و٢٠٠٢ ارتفع معدل توزيعها من ٣٣٫٣ إلى ٤٧٫٨ مليون جهاز استقبال عبر الإقليم محققة بذلك نسبة نمو قدرها ٤٣٫٦ بالمائة على مدار

عن: الجريدة العالمية للدراسات الإعلامية
The International Journal for Communication Studies

ترجمة: جمال إسماعيل

الحــــدود والنظــــام العــــالمى الجــــديد

الفترة المشار إليها (انظر الجدول رقم ١). وأقل توزيع لـ ١٦ قناة رائدة تبث إلى كل أوروبا بلغ فى عام ٢٠٠٢ أكثر من ضعفى حجم التوزيع فى أسواق التلفزة القومية الأوروبية عدا ألمانيا. ففى عام ٢٠٠١ كان هناك ٢١.٧ مليون جهاز استقبال منزلى فى إيطاليا، ٩.٢٢ مليون فى فرنسا ٢٥ مليون فى بريطانيا، و٣٧.١ مليون فى ألمانيا. وتشير تقديرات إلى وجود ٢٣٢ مليون جهاز تليفزيون منزلى فى أوروبا (بما فى ذلك دول شرق أوروبا) بينها ١٠٧ ملايين مزودة بإمكانية الدخول إلى قنوات «الكبل» والأقمار الصناعية. وهكذا تكون قنوات عموم أوروبا تبث برامجها إلى خُمس أجهزة الاستقبال المنزلية فى كل أوروبا وما يقرب من نصف عدد الأجهزة المرتبطة بالكبل والأقمار الصناعية. وبعد سنوات من نقص الموارد المالية، تظهر معظم القنوات عابرة الحدود، حاليًا، عودة معقولة إلى الاستثمار: كبرت عائدات علاماتها التجارية عالمية. ويؤسس الدور الذى لعبته هذه الشبكات فى تسهيل التجارة العالمية لأول اتصال بالعولمة. ولكن هناك عوامل أخرى كثيرة جعلت منها الجزء المتمم لإجراءات العولمة.

تلفزة لا ترتبط بأرض

لشبكات التلفزة عابرة الحدود علاقة بالزمان والمكان تختلف كلية عن تلك التى لقنوات التلفزة المرتبطة بأرض. وتقليديًا ارتبطت التلفزة بحدود الأرض القومية. كما ارتبط التمويل، وخاصة فى إذاعات الخدمة العامة، بالمشاهد الداخلى. شبكات التلفزة عابرة الحدود تحدت تلك العلاقة الثابتة بين التلفزة والدولة - الأمة، وأصبحت تصل إلى مشاهدين عبر الحدود. ولتحقيق هذا «الوصول» يمكن تمييز ثلاثة أنماط من أسواق التلفزة الأوروبية لكنها تصل إلى ما لا يقل عن ٣٠ منطقة. وتقدم فوكس كيدز ويوروسبورت تغطيات أكثر اتساعاً وتبثان فى ٥٦ و ٥٥ منطقة، على التوالى، وبأكثر من ١٥ لغة مختلفة.

المجموعة الثالثة من شبكات التلفزة عابرة الحدود تبث داخل أوروبا وعبر العالم. ويعد نظام تغذية بثها إلى عموم أوروبا جزءاً من تغطية كونية تتضمن أيضًا الشرق الأوسط، جنوب آسيا، آسيا الباسيفيكية، الأمريكتين، وأحيانًا أفريقيا. ثمانى شبكات حققت هذا الإنجاز من بينها إم تى فى MTV وسى إن إن CNN وديسكفرى Discovery، وأصبحت متاحة فى أكثر من ١٥٠ دولة (انظر الجدول رقم ٢).

وتستخدم هذه الشبكات ما يصل إلى التوقيت المحلى لضمان استمرار بث الأخبار والمواد التسجيلية وشرائط الموسيقى والفيديو.

لقد تم تبنى البث التليفزيونى على مدار ٢٤ ساعة من أجل عرض أساليب حياة بشر يعيشون فى مراكز كونية مثل لندن ونيويورك ويعملون بالليل والنهار. وتسمح التغذية المستمرة للإذاعات العالمية بعبور مناطق الزمن بأسلوب أكثر جودة. لا يوجد اختلاف يذكر بين برامج



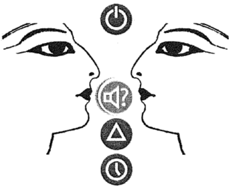
التوزيع واتسعت إمكانيات جذب الإعلان. كانت قيمة سوق الإعلان الأوروبية قدرت بـ ٣١ مليون يورو عام ١٩٨٨. بعد أربعة عشر عامًا ارتفعت هذه القيمة إلى ٦٢٨ مليون يورو، بزيادة ٢٠ ضعفًا. هذا التوسع يقارن بإيجابية مع تنامى إجمالى الإنفاق على الإعلان فى أوروبا خلال فترة مشابهة ارتفع فيها من ١١.٩ بليون يورو عام ١٩٩١، إلى ٢٩.٥ بليون يورو عام ٢٠٠٠، بزيادة ٢.٥ ضعف. وفى بداية التسعينيات كتب ريتشارد كولينز يقول: «إن المشاهدين عبر الحدود لا يهتمون إلا بقلة من المعلنين نظرًا لقلة ما يباع عالميًا من سلع». اليوم نرى تزايدًا فى مبيعات أعداد متنامية من المنتجات عبر الحدود. ويتصدر قائمة المعلنين على شاشات قنوات عموم أوروبا لاعبون عالميون مثل نوكيا، فودافون، البنك المتحد السويسرى، ويونيفرسال ميوزيك. وتتيح الحملات الإعلانية عابرة الحدود لهذه الشركات أن تحقق رسالة متناغمة ثابتة للعلامات التجارية لمنتجاتها على مستوى إقليمى يضمن تنامى العلم بها ويضعها فى ترابط ٣ أسواق الإقليم. لقد قدمت شبكات التلفزة عابرة الحدود، إلى الشركات متعددة الجنسيات الساعية إلى توسيع مبيعاتها فى الخارج، ساحة عرض نموذجية جعلت التغطية: واحدة متعددة المناطق، وأخرى لعموم الإقليم، والثالثة كونية.

القنوات متعددة المناطق تبث - على الأغلب، فى منطقتين أو ست مناطق. وقد سارت محطات البث على هذا المنوال لأنها لا تملك مصادر نشر بثها على مستوى عموم الإقليم أو تخشى عدم توافر مصنفات وموارد كافية لتغطية أوسع. الأمثلة على ذلك تشمل آر تى Arte، القناة الثقافية الرفيعة المستوى التى انطلقت بناء على معاهدة وقعت فى الثانى من أكتوبر عام ١٩٩٠ بين فرنسا وألمانيا. تحاول آر تى توسيع استقبالها عالميًا لكن توزيعها يظل مركزًا فى أربع دول: فرنسا، ألمانيا، بلجيكا، وسويسرا. فى فرنسا يتم البث عبر القناة الأرضية الخامسة، من السابعة مساء وحتى الثالثة صباحًا وهذا يسمح لإرسالها بالوصول إلى ٢.٨ فى المائة من حصة المشاهدين، وهذه نسبة عالية لقناة عابرة للحدود. قنوات عموم أوروبا تغطى كل أوروبا. وتشمل يورونيوز Euronews، يوروسبورت Eurosport (التى تدار الآن بواسطة TFI، الإذاعة التجارية الفرنسية)، ميزو Mezzo، قناة الموسيقى الكلاسيكية، وفوكس كيدز Fox Kids. هذه القنوات لا تتوافر فى كل سوق من ثمانى محطات تغذية متناثرة لتغطية الكرة الأرضية. ولدى CNN العالمية ٦ وTV5 و ٨ محطات تغذية، على التوالى، ووقعت اتفاقيات توزيع شاملة. وتستخدم TV5 ٣٩ قناة عبر ١٠ أقمار صناعية مختلفة، ولديها شراكة مع حزمة من ٢٥ قمرًا صناعيًا وأكثر من ٥٠٠٠ شبكة كبل «سلكية» عبر العالم. أما سى إن إن CNN العالمية فهى تستخدم «تشكيلة» من ٢٣ قمرًا صناعيًا لتغطية العالم. وبانطلاقها فى عام ١٩٨٥ كانت أول قناة كونية عندما أصبحت متاحة عبر العالم ٢٤ ساعة فى اليوم. وفى أغسطس عام ١٩٨٩، وعبر قمر صناعى سوفيتى، وصلت إلى أفريقيا، الشرق الأوسط، شبه القارة الهندية، وجنوب شرق آسيا.

شبكات التلفزة عابرة الحدود أقل ارتباطا من التلفزة القومية بالتوقيت المحدد. تعتمد برامج التلفزة القومية على توقيتات المشاهدة فى منطقة بعينها وتفاضل ما بين ساعات النهار وبرامج الساعات الأولى وإعادة البث والعروض الليلية قليلة التكلفة. وقد تكيف الإذاعات الكونية برامجها حسب التوقيتات المحلية لكنها تراعى فى الأساس، بث برامجها بفارق ساعتين بعد BBC العالمية أو ديسكفرى فى الساعة الثالثة صباحًا، والثالثة مساء، فى أى بقعة فى العالم. لكن عمليات البث ٢٤ ساعة فى شبكات الأخبار العالمية تسمح بتغطية آنية للعالم. وتستطيع سى إن إن وبى بى سى تغطية أزمات العالم وصراعاته وقت حدوثها. بينما تقدم CNBC وبلومبيرج التقارير المتابعة عن أسواق المال الكونية. واللافت أن CNN صعدت الذروة خلال حرب الخليج لما قدمته من تقارير آنية، على مدار الساعة كل يوم من موقع الأحداث.

وتستند القنوات عابرة الحدود، فى اختلافها عن التلفزة القومية إلى أسس مفادها أنها تقدم شكلاً من البث لا يرتبط بأرض. المشاهدون من جنسيات متعددة، والتغطية تمتد عبر الحدود، والبرامج صممت كى تعبر مناطق التوقيتات. تتكيف هذه القنوات مع طبيعة العصر بنسف العلاقة بين المكان والتلفزة التى تجلت - تقليديًا - عبر تاريخ الإذاعة.

وتصب عمليات الدمج الحاصلة حاليًا على المستوى



العالمى، فى العديد من المجالات، فى صالح أنظمة عالمية. وتشمل عولمة هذه المجالات العديد من العمليات التى من ضمنها بزوغ شبكات وأنظمة مقايضة وتشبيك، العلاقات. والتى تستلزم أيضًا بزوغ المنظمات متعددة الجنسيات، أو، والعالمية، وربط اللاعبين ببعضهم البعض، وتطوير شبكات اتصال. ويرتبط الطرح هنا من فرضية أن قنوات التلفزة عابرة الحدود هى جزء لا يستهان به ضمن عملية العولمة، ولها التأثير على قطاعات متعددة فى المجتمع. إنها تضيف إلى تدفق المعلومات الكونية شبكات اتصال وأنظمة تبادل من شأنها زيادة القدرة على إحداث ترابط. ولقد أخضعت للبحث والدراسة كيفية تشابك قنوات التلفزة عابرة الحدود مع أربعة نظم كونية: الإعلام، الموسيقى، السياسة، والتمويل.

صناعة الإعلام الكونية

وُصفت صناعة الإعلام الكونية بأنها ثنائية الصف. تتربع فى المجموعة الأولى ثمانى مؤسسات إعلامية عابرة للحدود، تندمج رأسيًا وتمتد أنشطتها إلى أنحاء الكرة الأرضية وتطال معظم قطاعات الإعلام. الصف الثانى يشمل شركات متعددة الجنسيات لها مبيعات إقليمية قوية، أو باع عالمى، لكنها متخصصة فى سوق ملائمة. لدى مؤسسات الصف الأول الإعلامية عائدات تقارب ١٩.٧ بليون دولار أمريكى. وباستثناء برتلسمان «مؤسسة، فجميعها يلعب دورًا قياديًا فى التلفزة عابرة الحدود القومية، كما أن الكثير من القنوات عابرة الحدود وذات الريادة العالمية تكون بين أيديها (انظر جدول رقم ٣).

ويدير نظام «تيرنر للإذاعة، أحد فروع مجموعة وارنر وأمريكا أون لاين، قناتين للمنوعات: شبكة كارتون «رسوم متحركة، وهى قناة الأطفال الرائدة فى أوروبا وتيرنر للأفلام الكلاسيكية، التى أعيد إطلاقها مؤخرًا. فى عام ١٩٩٦ امتص «وارنر، نظام «تيرنر، واشترى أيضًا أكبر شبكة تلفزة إخبارية فى العالم، سى إن إن. والت ديزنى، التى أسست قناة خاصة بإنتاج ديزنى تبث فى مناطق أوروبية عديدة، أصبحت مالكة لمعظم أسهم فوكس كيدز منذ يناير ٢٠٠١. مؤسسة الأخبار التى باعت فوكس كيدز إلى ديزنى احتفظت بسكاى نيوز (التى تعمل من خلال فرعها البريطانى بى سكاى بى B Sky B) ولها مصالح مشتركة مع ناشيونال جيوجرافيك، كما تدير عدة قنوات للأقليات العرقية فى أوروبا. تجلب قناة ستار بلَس Star Plus من الهند، التى تديرها عبر فرعها ستار تى فى Star TV، كما تجلب شبكة فيونكس سى إن إن Phoenix CNN باللغة الصينية من هونج كونج، وهى ملكية مشتركة بين ستار تى فى والوكيل «لو تشينج لى». وتمتلك فياكوم Viacom، ثالث شركة إعلام فى العالم، شبكتين للتلفزة الموسيقية، إم تى فى وشقيقتها VH1 فى إتش وان، تستهدفان سوق الكبار، ونيكيلوديون Nicelodeon، وهى قناة للأطفال. كنال بلَس Canal Plus، التابعة لفيفيندى يونيفرسال Vivendi Universal، أكبر تليفزيون أوروبى «مدفوع، ويبث لـ ١١ مليون مشترك فى ٥ أسواق أوروبية: فرنسا، إسبانيا، دول الاتحاد الجمركى (بلجيكا، هولندا، ولوكسمبرج)، دول إسكندنافيا، وبولندا. وكمنصة قمر صناعى تحمل كنال بلَس بعض قنوات كطرف ثالث لكنها تبث أيضًا العديد من قنواتها. أضف إلى ذلك أن فيفيندى عندما اشترت يونيفرسال فى عام ٢٠٠٠ ورثت منها عدة قنوات عابرة للحدود لذلك تُبث من المنصة نفسها قناتان للأفلام السينمائية، عبر ستديو يونيفرسال والشارع رقم ١٣، إلى أوروبا. فى عام ٢٠٠١ حققت «لاجارديرى، Lagardere للإعلام، والتى هى جزء من مجمع صناعى فرنسى كبير إجمالى مبيعات يقدر بـ ٨.٧ بليون من الدولارات الأمريكية. ويمكن اعتبارها أصغر شركات الصف الأول وهى دار نشر رائدة فى أوروبا تتصدر ناشرى الكتب ومجلات الصفوة وتصدر ٢٢٢ مطبوعة وتوزع فى ٣٠ دولة. وتملك الشركة، فى فرنسا، ثانى أهم مجموعة إذاعية لديها ثلاث شبكات قومية وتدير بعض أهم قنوات تلفزة الكبل «السلكية، والأقمار الصناعية. كما أنها أول منتج أوروبى يشبع رغبات القنوات ذات الاهتمامات الخاصة. ومن بين القنوات التى تملكها لاجارديرى قناتان عابرتان للحدود: إم سى إم MCM، قناة التلفزة الموسيقية الأولى فى فرنسا وبلجيكا والتى لها تغذية عالمية تمتد إلى وسط وشرق أوروبا، وقناة ميزو Mezzo الرائدة فى تلفزة الموسيقى الكلاسيكية والمتاحة فى ٢٦ منطقة أوروبية.

تسيطر فيفيندى يونيفرسال، ولاجارديرى للإعلام، على ٥٤ بالمائة من مالتى ثيماتيكس Multi thematiques، الشركة التى تتخذ من باريس مقرًا لها وتدير ست قنوات تليفزيونية متميزة: سينى سينماز Cinecinemas، سينى كلاسيك Cinecalssics، بلانيتى Planete وبلانيتى فيوتشر Planete future (للأفلام والبرامج التسجيلية)، سيزونس Seasons (نشاطات خارجية) وقنال جيمى Canal Jimmy (للشباب والخيال والمسلسلات). ويتراوح التوزيع الأوروبى لهذه القنوات ما بين منطقتين وست مناطق. بقيت الشركة الأخيرة فى شركات الصف الثانى، والتى تحتل المرتبة الحادية عشرة من ناحية العائدات: شبكة NBC الأمريكية مالكة الأسهم فى قناة ناشيونال جرافيك ومديرة CNBC شبكة أخبار المال والأعمال العالمية، مع مؤشر داوجونز.



تسهم قنوات التلفزة عابرة الحدود فى دمج صناعة الإعلام على نطاق عالمى لأن فى ذلك فائدة جمة للشركات ومجموعات الإعلام المسيطرة بالفعل. وتدرج المؤسسات الإعلامية العابرة للحدود ضمن الشركات القليلة التى لديها مصادر تمويل، خبرة إدارية، مكتبة عروض تليفزيونية، وتسهيلات جمع أخبار، تمكنها من إدارة قناة تليفزيونية على نطاق متعدد الجنسيات. وهى تستثمر فى التلفزة عابرة الحدود لرغبتها فى التوسع عالميًا وزيادة نسبة عائدات السوق الخارجية فى إجمالى العائدات. وتقدم هذه القنوات مصادر دخل إضافية إلى الشركات التى تملك مكتبات مواد فيلمية «رسوم متحركة، مسلسلات، أفلام وغيرها». ولقد ظل نظام تيرنر الإذاعى يعمل وفق هذه الاستراتيجية منذ منتصف التسعينيات وعرض مواد فيلمية متميزة عبر قناتين عابرتين للحدود. إذ تعتمد قناة تيرنر للأفلام السينمائية الكلاسيكية على مكتبة «مترو جولدن ماير، التى تضم ٧٠٠ من الأفلام الروائية من بينها كلاسيكيات مثل Casablanca «الدار البيضاء، Gone with the Wind «ذهب مع الريح». وتستفيد شبكة الرسوم المتحركة من مكتبة Warner bros «إخوان وارنر، التى تحتوى على عناوين مثل Batman «الرجل الوطواط»، توم وجيرى، وFlintstones «أحجار الصوان».

موسيقى كونية

تشتهر صناعة الموسيقى العالمية بأنها صناعة «مغلقة، إذ تسيطر عليها حفنة من الشركات تشمل BMG، مجموعة شركات بيرتلسمان للموسيقى، EMI مجموعة وارنر للموسيقى، سونى للمنوعات الموسيقية، ويونيفرسال الموسيقية. هذه الشركات تسيطر على ٨٠ بالمائة من مبيعات الموسيقى عالميًا وتمتلك أهم التسجيلات ويعيش فى منتجعات هذه الشركات أشهر الفنانين العالميين. وخلال أقل من عقدين أصبحت MTV لاعبًا آخر متميزًا داخل هذا الحقل.

بدأت «إم تى فى، بثها داخل الولايات المتحدة عام ١٩٨١. وفى عام ١٩٨٧ أطلقت أول قناة لعموم الإقليم فى أوروبا، وامتد بثها إلى أمريكا اللاتينية فى بداية التسعينيات، وإلى آسيا فى منتصفها. وفى عام ٢٠٠٣ أصبحت أكبر شبكة تلفزة فى العالم، بتغطية لا تنافس وتصل إلى ٣٨٠ مليون جهاز استقبال منزلى فى أنحاء العالم. ويعيش ٨٠ فى المائة من مشاهديها خارج الولايات المتحدة، وتوزع الشبكة فى ٨٠ بالمائة من دول العالم. كان مصدر الدخل الأساسى للشبكة - فى بدايتها - يأتى من عمليات البث عبر «الكبل»، وساهم المردود فى تقديم إنتاج متميز النوعية. لكن «الخدمة» فى بدايتها تشابهت إلى حد كبير مع ما تقدمه قناتها الأمريكية إذ لم تبذل الشركة الجهد الكافى للتكيف مع الذوق المحلى. وقد عابها أن ما تقدمه، وكذلك أطقم المذيعين، كان أمريكى الصبغة إنجليزى اللغة. بدت الشبكة وكأنها تؤمن بشعار تسويقى واحد مفاده «كوكب واحد - موسيقى واحدة». لكن، وفى بداية التسعينيات، وعندما بدأت حصة المشاهدة تتآكل لحساب بعض المنافسين المحليين مع انتشار قنوات «الكبل» فى مناطق رئيسية مثل ألمانيا وهولندا، راحت الشبكة تعيد النظر فى استراتيجيتها وقررت الإدارة أن تكيف بثها إلى عموم أوروبا مع أذواق الأسواق المحلية وأطلقت قنوات بعينها لتحقيق هذا الهدف.

وتعد شبكة إم تى فى الأوروبية اليوم شبكة إقليمية لها ست قنوات تخدم فرنسا، إيطاليا، هولندا، رومانيا، وإسبانيا. وثلاث قنوات تغطى الدول متحدثة الألمانية (ألمانيا، النمسا، وقسم من سويسرا)، دول اسكندنافيا، والمملكة

المتحدة وايرلندا. تتضمن هذه القنوات العديد من العروض التى تنتج محلياً وتتصدر شاشاتها وجوه محلية لمذيعين ومقدمات برامج، وتحتل الدراما المحلية ٦٠ بالمائة من إجمالى ما يقدم من دراما. ورغم أن هذه القنوات تضع الذوق المحلى فى اعتبارها إلا أنها لا تستطيع أن تكون فى محلية المنافس المحلى. ويقدر عدد القنوات الموسيقية فى أوروبا بحوالى ١٠٠ قناة، ويتضمن هذا العدد قناة فيفا Viva فى ألمانيا وأجزاء من وسط أوروبا، قنوات إيماب Emap فى المملكة المتحدة، (لأكثر الألبومات مبيعاً وانتشاراً)، وشبكة إم سى إم التى تبث عبر أوروبا لكنها أكثر انتشاراً فى فرنسا وبلجيكا. وفى مواجهة هذا التزايد القوى قررت إدارة إم تى فى أن تحافظ قنواتها الإقليمية والمحلية على جاذبيتها العالمية ويقول مسئول تنفيذى للشبكة الأم فى لندن إن المشاهد يسعى إلى إم تى فى لأنها تحظى بفتنة، أو بريق، أمريكى - عالمى. ومن بين المحاسن التى تتمتع بها، كشبكة كونية للتلفزة الموسيقية، أنها تملك اتصالات جيدة بنجوم الموسيقى العالميين. وفى عام ٢٠٠٢ قدمت عدة برامج تسجيلية عبر قنواتها عن الحياة الخاصة والفنية وأسلوب معيشة نجوم موسيقى الـ Hip Hop الأمريكية، كما أنتجت فيلم «الاسبورنى» التسجيلى عن الحياة العائلية للمغنى الأمريكى Ozzy Osbourne.

وتحرص على بث المقابلات التليفزيونية مع النجوم وتنظم المسابقات والمهرجانات لهم فى مختلف المدن الأوروبية وتبثها على قنواتها وتسهم فى حملات الترويج الأوروبية للفنانين الأمريكيين وتسجيلاتهم الجديدة عبر مقابلات تجريها معهم فى أماكن تواجدهم وتقوم بذلك بدور الجسر بينهم وبين الأسواق الخارجية. هكذا أصبح للشبكة علاقات مركبة بالمشهد الموسيقى العالمى وأصبحت قوة عالمية فى هذه الصناعة عندما عرفت كيف تصل إلى المشاهد المحلى، وتتكيف مع ثقافات محلية. كما استطاعت تغليف الموسيقى العالمية بالذوق المحلى. إنها شبكة عالمية ذات صبغات محلية قادرة على عولمة صناعة الموسيقى.

عولمة السياسة

بدأت السياسة تتعولم، وبطرق متعددة، منذ الحرب العالمية الثانية. أصبحت العلاقات السياسية والاقتصادية بين الدول أكثر متانة وتشابكاً عبر شبكة من المعاهدات والاتفاقات. ظهر نظام عالمى تحكمه الأمم المتحدة ومنظمات حكومية دولية (IGO) مثل منظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولى. هذه المؤسسات ساعدت فى تأسيس أنظمة دولية (أو مجموعة قواعد) فى مجالات تتراوح ما بين حقوق الإنسان والاتصالات. تزايد استخدام الحكومات لـ «الحكومة العالمية» التى تضم منظمات دولية وقومية، حكومية وغير حكومية، فى قضايا عالمية مثل المخدرات والهجرة والتلوث.

وخلال العقدين الماضيين طُورت شبكتان عالميتان: BBC العالمية وCNN الدولية، كل ما من شأنه مواءمة النظام العالمى البازغ، وحققتا تغطية كونية وأصبح بإمكانهما نشر أطقم مصادر وجمع أخبار على نطاق العالم لضمان تغطية آنية للأحداث العالمية المهمة. وفى عام ٢٠٠٣ كان لدى CNN الدولية ٤٢ مركزاً للأخبار: ١١ فى الولايات المتحدة، ١٠ فى أوروبا، ٤ فى الشرق الأوسط، ٤ فى أفريقيا، ٩ فى آسيا، و٤ فى أمريكا اللاتينية. كما طورت شبكة عالمية من قنوات إقليمية ومحلية لها تسهيلاتها الإخبارية الخاصة بها. أعادت CNN هيكلة التغذية للشبكة العالمية على المستويات الإقليمية فى ستة برامج منفصلة: أمريكا الشمالية، أوروبا، الشرق الأوسط، أفريقيا، آسيا الباسيفيكية، جنوب آسيا، وأمريكا اللاتينية. ما يقرب من نصف البث الأسبوعى لهذه البرامج يتم إنتاجه محلياً، وهو يعادل ٥٠ ساعة بث وتستفيد هذه التغذية من ثلاثة مراكز إخبارية مندمجة كلية وتعمل خارج الولايات المتحدة: فى هونج كونج، المكسيك، ولندن.

وتعتمد BBC العالمية على ٥٨ من مراكز الأخبار كانت هيئة الإذاعة البريطانية قد أنشأتها فى مناطق متفرقة من العالم. وتستفيد القناة من ٥ مراكز تغذية تغطى أوروبا، الأمريكتين، أفريقيا، جنوب آسيا، والشرق الأوسط عبر بانام سات Panam sat ويوتل سات Eutel sat. ويتمثل مفهوم الـ بى بى سى فى إذاعة الأخبار نفسها إلى الجميع مع التنويع فى برامج شئون الساعة، الأفلام والبرامج التسجيلية، وبرامج أسلوب المعيشة. وعلى خلاف ما سارت عليه الـ BBC، كان لـ CNN سلسلة مشاريع مشتركة مع شركاء محليين فى دول منها إسبانيا وتركيا حيث يتم إنتاج ما يبث فى كل من مدريد واستنبول مستعينة بالفنيين والإعلاميين والمهارات المحلية. كما تستفيد شبكة CNN الإخبارية العالمية من التسهيلات المتوفرة لفروعها المحلية فى الحصول على أخبار ما كانت لتحصل عليها بدونها. وقد تجلت هذه الفائدة خلال الهزات الأرضية التى ضربت شمال غرب تركيا عام ١٩٩٩. وكانت أطقم CNN التركية المحلية أول من تواجدت فى موقع الأحداث. كما كان للقنوات الإقليمية والمحلية مدخل على مصادر وأطقم أخبار CNN وادت هذه الميزة دورها فى أحداث ١١ سبتمبر.



ولكل من BBC و CNN وضعه الفريد فى التعامل مع تعقيدات السياسات العالمية وتغطية نشاطات الأمم المتحدة. وتعد CNN اول شبكة تقيم مركز أخبار فى مقر المنظمة الدولية لبث التقارير الإخبارية المنتظمة عن أنشطتها. وتعطى التسهيلات المكرسة لأطقمها الإخبارية القدرة على تحقيق السبق الإخبارى العالمى، وتقديم خدمة متميزة لبناء مفهوم عالمى، للأحداث العالمية المهمة، يوسع الزاوية التى تحدد ملامح معالجة الأخبار العالمية فى الإذاعات الأرضية. ودائماً ما تتضمن التغطيات تقارير إخبارية وعرضاً لوجهات نظر مختلف الأطراف سامحة بذلك للصحفيين والمحللين إظهار التشعبات العالمية للأحداث. لقد صممت بى بى سى العالمية وسى إن إن الدولية نوعيات من البرامج فُصلت لكى تتناسب مع مشاهدين متعددى الجنسيات. وبالإضافة إلى نشرات الأخبار التى تبث على رأس الساعة. تشمل البرامج الإخبارية لـ BBC العالمية تغطيات لعالم المال والأعمال والبيئة والرياضة وبرامج التقارير الإخبارية للمراسلين والمحققين الصحفيين وشهود العيان والبرامج التحليلية مثل برنامج عالم سيمبسون الذى يقدمه جون سيمبسون محرر الشئون العالمية فى هيئة الإذاعة البريطانية، إضافة إلى المسلسلات الدرامية مثل مسلسل Life الدرامى المكرس لتناول انعكاسات العولمة على حياة البشر، وعروض المناقشات والمقابلات التليفزيونية التى تناقش قضايا الساعة وبعض البرامج الإخبارية الخاصة عن وسطاء متنفذين على المسرح العالمى ولديهم القدرة على إضفاء المفهوم الكونى على الأحداث العالمية. أما CNN فقد أطلقت فى أكتوبر ١٩٨٧ نشرة إخبارية عالمية باسم «العالم اليوم» تتضمن التقارير الإخبارية التى تذاع لأول مرة من خلال حشد من المراسلين والمعلقين. وتبث اليوم حشداً من البرامج الإخبارية السياسية والاقتصادية والرياضية والتسجيلية والآنية من موقع الأحداث. إن ما تقدمه قنوات الأخبار العالمية يمثل أيضاً إضافة قيمة على شبكات المعلومات التى تلعب دوراً متزايداً فى الدبلوماسية العالمية. وتعتمد قيادات سياسية ودبلوماسية وأعضاء فى منظمات عالمية على هذه القنوات كمصادر للأخبار الموثقة. وخلال الحرب فى أفغانستان عام ٢٠٠٢، نصح كولن باول، وزير خارجية الولايات المتحدة، رئيسه ونائب الرئيس بالابتعاد عن مشاهدة CNN بسبب الضغوط المضافة الناجمة عن استمرار التغطية الإخبارية للحرب.

كما تساعد شبكات الأخبار العالمية المشاهد على التأقلم مع تعقيدات السياسات العالمية. فالتدفق المستمر للمعلومات المستندة إلى مصادر إخبارية قوية، فى إطار منظور عالمى للأحداث، يمد المشاهد بإطار أفضل للتحليل يمكنه من فهم أفضل للأحداث العالمية. وهناك رغبة متنامية لتلقى الأخبار العالمية. كما أن كل الشبكات التليفزيونية عابرة الحدود حققت المزيد من الشعبية منذ أحداث ١١ سبتمبر.



خلال الحرب فى أفغانستان عام ٢٠٠٢، نصح كولن باول، وزير خارجية الولايات المتحدة، رئيسه ونائب الرئيس بالابتعاد عن مشاهدة CNN بسبب الضغوط المضافة الناجمة عن استمرار التغطية الإخبارية للحرب



التمويل العالمى

تحيط بالتمويل العالمى حقائق كثيرة تشمل تنامى الدمج لأسواق المال القومية ما بين بعضها البعض، التوسع فى تدفق

المال العالمى، وعولمة المؤسسات المالية مثل البنوك وبورصات الأوراق المالية والأسهم والسندات. كانت أنشطة التمويل العالمية تتطلب دائماً أنظمة معلومات عالمية، تقدم - عادة - من متخصصين فى المعلومات مثل وكالة رويترز للأنباء. اليوم نجد أن قناتين تليفزيونيتين تقدمان أنباء المال والأعمال، وأوجدتا تسهيلات لأطقم جمع الأخبار لتغطية قطاع التمويل العالمى. فمنذ عام ١٩٨١ تقدم قناة «بلومبيرج» معلومات مالية إلى دوائر التجارة ومحللى السوق، وقد أضافت التليفزيون كوسيلة أكثر تأثيراً لتقديم خدماتها، وذلك فى بداية التسعينيات. بدأت بلومبيرج البث من نيويورك وتوسعت عالمياً بإطلاق ٩ قنوات تلفزة بـ ٧ لغات حول العالم منها ٥ فى أوروبا لخدمة بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، إسبانيا، وإيطاليا. جميعها يتمتع باستقلالية ولكن بتنسيق مع مكتب لندن، لتقديم الأنباء العالمية، بيانات السوق، جديد المال فى الأسواق، أخبار آنية، وأنباء الطقس. وتستعين الشبكة بأكثر من ألف من الصحفيين الذين ينتشرون فى أنحاء العالم، وتستفيد القنوات الأوروبية من استوديوهات التلفزة فى لندن، فرانكفورت، ميلانو، باريس، ومدريد. كذلك نصبت الشبكة ٤٠ كاميرا تليفزيونية فى بنوك ومراكز أخبار مالية حول العالم، ولديها ١٠٠ كاميرا أخرى فى مناطق متفرقة.

وتحظى CNBC، أول شبكة عالمية لأخبار المال والأعمال، بانتشار عالمى واسع يمتد عبر ثلاثة أقاليم لتغذية التغطيات إلى أمريكا الشمالية، آسيا، أوروبا. وبدأ مؤشر داو جونز عمليات تلفزة داخل الولايات المتحدة فى عام ١٩٨٧، وانتقل إلى آسيا فى عام ١٩٩٣، وبدأ البث الأوروبى عام ١٩٩٥. بعد ذلك بعامين اندمجت شبكة داو جونز مع CNBC وتغير اسمها من «أخبار الأعمال فى آسيا» و«أخبار الأعمال فى أوروبا» إلى «CNBC آسيا وأوروبا». وتستفيد شبكة البث الأوروبية اليوم من التسهيلات المقدمة لأطقم الأخبار داخل هيكل CNBC فى آسيا وأمريكا الشمالية، وكذلك من الشركتين الأم اللتين تديران مشروعات إعلامية خاصة، وتقدم صحيفة «وول ستريت» التابعة لداو جونز وخدمته الإخبارية، إلى CNBC الأوروبية تغطية لا تنافس لأسواق المال العالمية. ومثل «بلومبيرج»، يوجد لدى CNBC مراسلون لدى جميع مراكز التجارة الرئيسية، وكاميرات للبث المباشر من منصات التبادل التجارى. وعندما تكون هناك

جـــدول ١

حجم التوزيع - للوقت الكامل - لـ ١٦ قناة تلفزة رئيسية لعموم أوروبا ١٩٩٧ - ٢٠٠٢ بالمليون جهاز تليفزيون منزلى

القنـــاة	١٩٩٧	١٩٩٨	١٩٩٩	٢٠٠٠	٢٠٠١	٢٠٠٢
ارتى Arte	-	٧٨,٩	٦١,٩	٦١,٩	٦٥,٠	٦٥,٠
بى بى سى برايم BBC Prime	-	-	-	٨,٢	١٠,٥	١٠,٨
بى بى سى العالمية BBC world	٢٥,١	٣٣,١	٣٩,٣	٤٥,٥	٩٤,٤	٥٦,٤
بلومبيرج Bloomberg	-	٢٧,٧	١٠,٣	٢٤,٦	٣٠,١	٣٧,٦
شبكة الرسوم المتحركة Cartoon Network	-	-	-	٢١,٠	٢٨,٦	٢٦,٩
سى إن بى الأوروبية CNB Europe	١٢,٦	٢١,٠	٢٦,٧	٣٢,٩	٤٠,٢	٤١,٩
سى إن إن العالمية CNN International	٥٨,٩	٦٧,٨	٦٨,٨	٧٣,٢	٨١,٠	٨٤,٧
ديسكفرى Discovery	٧,٠	١٦,٣	٢٠,٤	٢٦,٦	٣١,٤	٣٢,٩
يوروسبورت Eurosport	٧١,٩	٧٥,٦	٨٠,٦	٨٨,٣	٩٣,٠	٩٥,٣
يورونيوز Euronews	٣٠,٤	٣٤,٣	٣٤,٩	٣٤,٠	٤٤,٠	٤٨,٩
فوكس كيدز Fox Kids	-	-	١٥,٤	٢٣,١	٢٥,٠	٣١,٠
إم تى فى MTV	٤٤,٠	٥٨,٨	٧٩,١	٨٣,٦	٩٤,٢	٩٢,٨
ناشيونال جيوجرافيك National Geographic	٤,٠	١٤,٩	١٥,٣	١٩,٢	٢٢,٩	٢٦,٩
سكاى نيوز Sky News	-	-	٣٨,٩	١٨,٦	٢٢,٧	٢٤,٠
تى فى ٥ TV 5	٤٥,٥	٥٥,٧	٥٧,٦	٦٦,١	٦٨,٠	٧١,٤
فى إتش ١ VH 1	-	-	٢٠,٣	٢٣,١	١٩,١	١٨,٥
معدل التوزيع	٣٣,٣	٤٤,٠	٤٠,٧	٣٩,١	٤٥,٣	٤٧,٧

جـــدول ٢

التوزيع العالمى والأوروبى لمجموعة قنوات عالمية ولعموم أوروبا لعام ٢٠٠٢

(بالملايين من أجهزة الاستقبال المنزلية)

القنـــاة	التوزيع الأوروبى	التوزيع العالمى
بى بى سى العالمية BBC World	٤٩	٩٤
بلومبيرج Bloomberg	٣٨	٧٥
سى إن إن العالمية CNN International	٨٧	١٧٢
سى إن بى CNB	٥٥	١٨٠
ديسكفرى Discovery	٣٥	٢٢٢
إم تى فى MTV	٩٤	٣٨٢
تى فى ٥ TV5	٦٨	١٢٩
فى إتش ١ VH1	١٩	١٠٢

جـــدول ٣

أنشطة التلفزة عابرة الحدود فى أوروبا والتجمعات الإعلامية الرئيسية فى العالم

الترتيب العالمى لعائدات الإعلام (بين الأقواس)	عائدات الإعلام بالبليون دولار عام ٢٠٠١	المصالح فى قنوات التلفزة عابرة الحدود
أمريكا أون لاين - تايم وارنر (١)	٤٠.٣	شبكة رسوم متحركة - سى إن إن - أفلام تيرنر الكلاسيكية
والت ديزنى (٢)	٢٥.٣	ديزنى - فوكس كيدز
فياكوم (٣)	٢٤.٠	إم تى فى - نيكلوديون - فى إتش وان
بيرتلسمان (٤)	١٧,٦	—
فيفيندى - يونيفرسال (٥)	١٥,٥	قنال بلس: ستديو يونيفرسال، الشارع ١٣، سينيماز، سينيتلاسيك، بلانيتى، سيزونس، قنال جيمى
سونى (٦)	١٤.٩	سونى تى فى آسيا
مؤسسة الأخبار (٧)	١٣.٠	سكاى نيوز، ناشيونال جيوجرافيك، ستار بلس، فيونكس سى إن إن آى
لاجارديرى للإعلام (٨)	٧.٨	إم سى إم - ميزو - سينماز، سينلاسيك - سيزونس، بلانيتى، قنال جيمى
إن بى سى (١١)	٥.٨	سى إن إن بى - ناشيونال جيوجرافيك

أنباء مهمة تبث CNBC تقارير مراسليها على الهواء مباشرة وخلال دقائق من وقوع الحدث تقدم المعلومات الآنية. ويذهب جيرمى بينك Jeremy Pink، وهو مسئول تنفيذى فى الشبكة، إلى القول بأن CNBC تستطيع رفع سعر السهم إلى خانة بلايين الدولارات عندما تبث أنباء مهمة. وتحتفظ CNBC بقدرات تغذية على مستوى عموم الإقليم تغطى أوروبا وأعادت هيكلتها مع إعادة هيكلة القطاع المالى فى الإقليم على مدار العقد الماضى. ولم تعد الاتصالات تتم بين دولة ودولة ولكن بين قطاع مالى وآخر استناداً إلى أسس توحيد تحكم كل أوروبا.

إن عولمة التمويل، والربط بين أسواق المال، أوجبت التوسع العالمى فى تسهيلات أطقم الأخبار والتغطيات على مدار الساعة. وحققت «بلومبيرج» و«سى إن إن» الاستخدام الأشمل لشبكتيهما كى يواكبا، وعلى مدار الساعة أنشطة بورصات الأوراق المالية والأسهم. وتبدأ CNN الأوروبية تغطيتها للأسواق الأوروبية فى الصباح الباكر عبر برنامج Before the Bell «قبل أن يدق الناقوس» الذى يستعرض أهم أخبار الغد التجارية والأسواق الجديدة حول القارة ويستمر فى المتابعة إلى ما بعد منتصف اليوم. وتقدم CNBC فى برنامج لها عرضاً بالرسوم الإيضاحية وأعمال «الجرافيكس» حول أداء بورصات الأسهم والأوراق المالية فى مختلف دول أوروبا، حيث يشير اللون الأحمر إلى انخفاض السهم، والأخضر إلى ارتفاعه. تنتقل إلى تغطية الولايات المتحدة فى الساعة الرابعة مساء لمتابعة بورصة نيويورك، وتعود إلى أوروبا بعد نصف ساعة لاحقة لتغطية إغلاق بورصة لندن، ثم فرانكفورت. وفى المساء تعود إلى الولايات المتحدة لتغطية إغلاق بورصة الساحل الشرقى. وفى منتصف الليل تنتقل إلى آسيا لمتابعة افتتاح بورصتها. وبعد تتبع أخبار التجارة هناك تعود CNBC ثانية إلى البث المباشر من لندن، فى الساعة الخامسة صباحاً لعرض أهم ما فى اليوم من أخبار التجارة.

أسواق لا تعرف الحدود وتلفزة تتابع أحوال العالم دون تقيد بوقت أو حدود. تتخطى الزمان والمكان. وتسهم فى بناء نظام عالمى جديد. وقد تبدو التلفزة متخطية الحدود القومية كأيقونات لعصر العولمة لكنها تلبس العولمة الزى السائد.. على أحدث الطرز. ■







الإعلام الوطنى
وسط أعاصير الفضاء العالمى

أمينة شفيق



بات إعلامنا كالجيش الذى يزيد عدد جنرالاته على عدد جنوده. فى حين أن الإعلام الغربى لا يضم إلا الجنود القادرين على ملء الساحة الحوارية والفكرية



■■ لمجرد التذكرة بالتغييرات الكبيرة التى حدثت فى المجال الإعلامى، نلقى الضوء على عدة أحداث لجأنا فيها إلى الإعلام الوطنى والخارجى خلال الفترة الزمنية الأخيرة التى تزيد قليلا على ربع القرن. نغطى التغييرات التى طرأت على أساليب وصول المتلقى لبعض الأحداث التى جرت فى الفترة من عام ١٩٨١ إلى عام ٢٠٠٤.

فى السادس من أكتوبر عام ١٩٨١ اغتيل الرئيس محمد أنور السادات. كنا، نحن المصريين، نتابع الاستعراض العسكرى السنوى الذى كان يقام بمناسبة انتصار أكتوبر المجيد، عندما انطلقت «رصاصات» وتوقف الإرسال التليفزيونى المصرى. فأحسسنا أن شيئا ما حدث. وبعد فترة، أحسسناها ثقيلة وممتدة، عاد الإرسال، باثا نشيدا حماسيا للفنانة فايدة كامل ثم تلاه قراءة ممتدة لآيات من الكتاب الكريم. بناء على هذه المؤشرات، تيقن المصريون من خطورة ما حدث ولكن كان عليهم تحمل ساعات الانتظار الشديد الصعوبة حتى يفيق إعلامهم من «غفوته الرسمية»، ويبلغهم بحقيقة ما حدث.

حينذاك، لم نمتلك، نحن المصريين، إلا إدارة مؤشرات الراديو وتكرار إدارتها. أتصور أننا ركزنا جميعا على ثلاث محطات إذاعية عالمية هى الـ بى.بى.سى. وصوت أمريكا ومونت كارلو. وذلك لمحاولة التعرف على حقيقة الأحداث وتقدير أبعادها، حيث إن الإذاعات المصرية كانت تبث هى الأخرى آيات من الكتاب الكريم دون أن تشير إلى الحدث ومتتالياته السياسية. كنا قلقين على وطننا وشعبنا. كنا نبحث عن الخبر الجلل. فبالإضافة إلى أن الوصول إلى الحقائق الوطنية يشكل أحد الحقوق الأصيلة لنا كمواطنين، فهو واجب كل مصرى محب لوطنه.

عندما لم يسعفنا إعلامنا الوطنى، لم ننتظره. تركناه واتجهنا إلى الإعلام العالمى.

حتى عام ١٩٨١ كان للإعلام المرئى الوطنى سيادته على كل أرض الوطن. فى حين، كان للإعلام المسموع بعداه الوطنى والعالمى. فكان البعد العالمى الإذاعى الملجأ الأساسى والأكثر سرعة للوصول بالخبر إلى المستمع الذى هو فى حالتنا هذه، المواطن المصرى. أما الإعلام المطبوع من صحف ومجلات، فكان يحتاج إلى الوقت اللازم والممتد ليصل بالخبر وبالرأى وبالتحليل إلى يد القارئ فى اليوم التالى على الأقل.

وجاء عام ١٩٩١ عندما شنت قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية حربها على الجيش العراقى المحتل للكويت. حتى هذا العام كانت الإذاعات الثلاث، الـ بى.بى.سى. وصوت أمريكا ومونت كارلو، لا تزال المصادر الأساسية السريعة للحصول على المعلومات والأخبار المتعلقة بحرب الخليج. ولكن بدت وسائل الإعلام المطبوعة أكثر تنوعا. حيث بدأت بعض الصحف الممولة خليجيا تصدر طبعاتها الخاصة العربية المشرقية والعربية المغربية. كانت طبعاتها تصلنا فى مصر بشكل منتظم.

فى هذه الحرب استجد الجديد فى مصر، عندما ظهرت على أحد الترددات التليفزيونية المصرية برامج محطة إرسال غير مصرية كانت قد اكتسبت شهرة عالمية كمحطة إرسال كونية تبث من مدينة أطلنطا عاصمة ولاية جورجيا الأمريكية وهى محطة الـ سى. إن. إن. استمرت الـ سى. إن. إن. تبث إرسالها المباشر عن حرب الخليج الثانية على مدار الأربع والعشرين ساعة على شاشات كل أجهزة التليفزيون العربية، بلا اشتراك نقدى وبلا احتياج من المتفرج إلى طبق استقبال فضائى.

هذا الجديد المستجد، أحدث تحولا نوعيا فى علاقة المتفرج والمستمع والقارئ المصرى بالخبر وبالحدث المرئيين. هذا التحول النوعى لم يأت بالخبر إلى المتفرج بسرعة وبمصداقية فحسب، وإنما جاء بالحدث ذاته إلى المتفرج وهو مستلق على مقعده وجالس بين أهل بيته. جاء هذا الجديد بالحدث لحظة وقوعه وبحجمه الطبيعى. وتجسد التحول بشكل هائل عندما كان الخبر الأول الذى قدمه هو واقعة حرب شرسة تشنها قوات دولية على جيش عربى محتل لبلد عربى آخر. وينتمى البلد الغازى والآخر المغزو إلى مجموعة بلدان منابع النفط العربى.

وربما كانت هذه هى المرة الأولى التى تصبح فيها الحرب مادة للتفرج والمتابعة وكأنها فيلم سينمائى أو مسلسل أمريكى «للأكشن» أى أفلام ومسلسلات الحركة والعنف.

وبجانب هذا المستجد الذى جسدته الـ سى. إن. إن. لابد من ذكر أن قسم الإذاعة البريطانية الذى يبث باللغة العربية والمعروف بالـ بى. بى. سى. استغل الفرصة ودشن مشروعه للإرسال الممتد لأربع وعشرين ساعة. كانت حرب الخليج الثانية فرصة لتقديم هذه الخدمة الإعلامية الجديدة بحجة الامتداد بالإرسال لنقل تفاصيل المعارك الدائرة فى الحرب. وبالتالى حقق القسم العربى للـ بى.بى.سى. دنوا هائلا من المستمع العربى بسبب كم ساعات الإرسال ونوعيته المهنية المتميزة.

ثم جاء الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ ليفاجأ المتفرج وهو يتابع شاشات التليفزيون فى بيته، مشهد لأحد أبراج نيويورك وهو مشتعل من جانب نصفه العلوى. بدأ بث الحدث بعد دقيقة واحدة من وقوعه. ثم بعد حوالى ربع ساعة استطاع المتفرج أن يشاهد الطائرة الثانية وهى تصطدم بالبرج الثانى. لتستمر متابعة المشاهد للانهيار الكبير الذى لحق بأحد رموز الرأسمالية الأمريكية المطلة على الأطلنطى. لم يتلهف المتفرج إلى جريدة اليوم التالى ليعلم منها تفاصيل الحدث. كان يعرفها جيدا لأنه شاهد وقوعها. فركز على تحليلها وتوقعات نتائجها.

أما الأحداث الكبار

التالية لواقعة برجي نيويورك، فلم تحتج هذه الأحداث إلى الاستئذان للدخول إلى بيت كل منا. فقد كانت الفضائيات قد ملأت الفضاء بكل اللغات ومن كل البلدان والقارات. وباتت الأطباق التى تعلو البنايات لاستقبال البث الفضائى وكأنها جزء من هندسة البنايات وديكورها العلوى. صنعت الأطباق غابة واسعة على أعلى كل بناية. بل تجاوزت حدود العواصم لتصل إلى مراكز المحافظات وحتى إلى عدد لا بأس به من القرى. كما تجاوزت خصوصية المنازل لتنتشر فى المقاهى والنوادى والنقابات والأماكن الاجتماعية العامة. وأصبح المتفرج أمام مئات الخيارات الإعلامية التى يستطيع أن يقارن بينها وبالتالى يستكمل الخبر من كل جوانبه.

لقد عايشنا تفاصيل غزو التحالف الغربى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لأفغانستان ونتذكر ذلك المشهد الدرامى لمراسل فضائية «الجزيرة»، وهو يتابع سقوط الصواريخ على البنايات المتهدمة، فى الأصل، فى كابول وفى ذات الوقت يتابع سقوط زميله المصور من أعلى البناية التى يبث منها الإرسال.

ثم تابعنا تفاصيل الغزو الأنجلو أمريكى للعراق. شاهدنا الصواريخ وهى تصيب البنايات الواحدة بعد الأخرى. شاهدنا النيران وهى تشتعل فى أحياء بغداد. كنا نقارن بين بيانات وخيالات وزير الإعلام العراقى السابق وبين الواقع العسكرى الجديد الذى تنشئه الهجمات العسكرية الأنجلو أمريكية.

الخلاصة أننا لم نعد ننتظر جريدة الصباح أو النشرة الإذاعية أو التليفزيونية المحليتين لنتلقى منها الخبر.

أصبح الخبر يدخل إلينا لحظة وقوعه ويخدش خصوصيتنا ويتحول إلى حدث منزلى يشغل كل أفراد الأسرة ويحتل مكانا ومساحة فى اهتماماتها ونقاشاتها. باتت عبارة «خبر عاجل» عبارة نعرفها جيدا كمتفرجين.

ولم يعد الإعلام الفضائى الواسع الانتشار، بكل تقنياته الحديثة المتلاحقة والمتسارعة وبأسعاره التى تميل إلى الانخفاض بحيث تصبح فى متناول شرائح جديدة من المواطنين فى كل مكان، يفرق بين أحداث حرب إقليمية أو صراع داخلى فى دارفور أو حركة معارضة شعبية تسقط رئيس جمهورية جورجيا لتجرى انتخابات جديدة فى البلاد أو حادث إرهابى فى جزيرة بالى الأندونيسية أو حادث قطار فى الهند أو تركيا أو مشاهد الدمار التى أحدثها زلزال شمال إيران أو حتى تفاصيل مسابقات الجمال والمباريات الرياضية. باتت كل الأحداث، ضيوفا مفروضين، على المشاهد الجالس وسط أسرته فى منزله فى حى وطنى راق فى لندن أو جوهانسبيرج أو الرباط أو فى قرية صغيرة تعيش على الاقتصاد الزراعى فى مصر أو سوريا أو الهند أو جمهورية جورجيا الأسيوية.

بل امتد التأثير لما هو «أعظم» عندما قدم هذا الفضاء لكل مشاهدى العالم الحوارات السياسية التى دارت بين حزبى المحافظين والعمال إبان انتخابات عام ١٩٩٧ البريطانية عندما ألغى تونى بلير زعيم حزب العمال والمرشح حينذاك لرئاسة الوزارة، المادة الرابعة من القانون الأساسى للحزب وهى المادة الخاصة بمبدأ «التأميم» ونقل الملكية الخاصة إلى الملكية العامة، ثم عندما قدم الفضاء تفاصيل محاكمة بيل كلينتون إبان أحداث فضيحة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية مع مونيكا ليونسكى وما أحاط ذلك من تحقيق معلن تابعه ملايين البشر، ثم تلك المناقشات البرلمانية الحادة والحامية التى جرت داخل مجلس العموم البريطانى والتى هدفت لمحاسبة تونى بلير رئيس الوزراء البريطانى على أسباب اشتراكه فى الغزو على العراق ثم على أدائه فى هذه الحرب، والعديد والعديد من الأحداث السياسية التى تأخذ المشاهد وتقوده إلى عقد المقارنات بين ما يحدث هنا وما يدور هناك.

هذا ما يقع يوميا بالنسبة للحدث الذى يأتى إلينا عبر الأثير أو الفضاء أو الورقة المكتوبة. لكن توجد أحداث أخرى يسعى إليها القارئ أو المستمع أو المشاهد. يسعى الإنسان إلى العالم وأحداثه من خلال تقنية أخرى غزت بيوت الكثيرين منا وسوف تغزو بيوت العديدين الآخرين فى المستقبل القريب. باتت شبكة المعلومات العالمية كتابا مفتوحا وموسوعة مجانية أمام كل البشر القادر على شراء أدواتها، كذلك أمام الآلاف الساعين إليها عبر «مقاهى النت» والتجمعات التى باتت تتزايد فى أعدادها يوما بعد يوم.

تجاوزت شبكة المعلومات العالمية حدود الأثير والفضاء والورقات المطبوعة، لأنها لم تعد تقدم الحدث فحسب وإنما باتت ساحة للحوارات والمناقشات التى تدور بين المشاركين فيها عبر القارات والمحيطات. ولا تدور الحوارات «الكونية» هذه عن الموضة أو عن أحدث برامج «خفض الوزن والحفاظ بالرشاقة» فحسب وإنما تدور فى الأساس، وفى الغالب والأعم، حول ما يهم البشر من اهتمامات سياسية وثقافية واجتماعية. كل فى وطنه وفى أوطان الآخرين.

الخلاصة هى أن العقل الإنسانى يقع الآن تحت مؤثرات إعلامية عامة لم تكن فى حسبان مخططى الإعلام الوطنى المحلى منذ ما يقرب من ربع قرن من الزمان، عندما وقع حادث اغتيال الرئيس السادات فى العرض العسكرى. حينذاك، كانت كل ساحة وطنية من صياغة المؤثرات الوطنية المحلية فحسب. أو الأكثر دقة، عندما كانت وسائل الإعلام والاتصال التى تقدم الخبر والمعلومة والتحليل لمواطنى كل بلد، لها حدود وطنية صلبة يصعب اختراقها أو التسلل منها. وبتعبير آخر، عندما كانت الحدود الوطنية لوسائل الإعلام والاتصال مثل الحدود الوطنية للوطن ذاته، قوية صلبة. أما الآن فحدودها كحدود الأوطان مسامية رخوة تسمح بمرور الأفكار والآراء والأخبار، كما تسمح حدود الوطن بمرور السلع والمال والأفراد.

وهنا تكمن الخطورة. لأن كل هذه الأفكار والآراء والأخبار تتجه إلى عقل المواطن حيثما كان. حتى لو كان هذا المواطن من أبناء إحدى الجزر النائية فى أى من المحيطات الواسعة.

والإعلام ليس مجرد تقنية حديثة تنحصر مهمتها فى انتقال الكلمة أو الصورة وإنما هو فى الأساس فكر ومضمون يتجهان إلى عقل ووجدان الإنسان. يعكس الإعلام ما يجرى فى المجتمع المحلى والعالمى من حركة سياسية واجتماعية. كما يشارك فى تطوير هذه الحركة لصالح تقدم المجتمع ذاته. وفى ذات الوقت يحتضن ويبشر بكل ما هو جاد من قيم وأنساق تدعم من الديمقراطية والعدل والمساواة والتسامح وقبول الآخر. ويستطيع الإعلام أن يسهم فى خلق أوسع الحوارات الفكرية حول قضايا المجتمع بحيث يحقق أكبر مشاركة فيها للوصول إلى أعمق الحلول لها. ولنا أن نتابع هذه الحقيقة فى تلك الأدوات الإعلامية المطبوعة أو المرئية أو المسموعة التى تتمسك فى كونها أدوات إعلام سياسية فحسب، والدور الذى تلعبه فى برامجها الحوارية.

لا نعنى بذلك تلك «الخناقات» العربية التى تأتى فى بعض الفضائيات العربية والتى لا يمكن فهمها أو متابعتها. وإنما نعنى تلك الحوارات التى تحمل إلى وسائل الإعلام هموم الناس وقضاياها ومشاكلها وتطرحها من جوانبها المتعددة بكل شفافية وصراحة. كما أننا لا نعنى تلك الرسائل الإعلامية الموجهة إلى غرائز الناس ولكننا نعنى تلك الرسائل التى تتحدث إلى عقل البشر السياسى والاجتماعى والتى تهدف فى النهاية إلى الارتفاع بدرجة وعيهم بمصالحهم الوطنية والاجتماعية وإلى دعم كل القيم الإنسانية الجادة التى لابد أن تتسلح بها كل الإنسانية.

فى التاريخ القديم كانت الأفكار والآراء تنقل فى الأساس من خلال الكتاب المنسوخ بالأيدى وفى مرحلة لاحقة، كانت تنقل بواسطة الكتاب المطبوع وذلك بعد اختراع أوروبا للمطبعة فى القرن الخامس عشر. ولكن ظلت

فى أقطار عربية، خاصة تلك البلدان المالكة للسيولة المالية العالية، استمر الإعلام إما حكوميا أو مملوكا من أفراد ينتمون إلى الأسر المالكة للسلطة والثروة فى البلاد أو فى بلدان أخرى يمتلك هذه الوسائل أفراد قريبون من السلطة السياسية



حركة الانتقال هذه محدودة فى إطار عدد البشر الممسكين بمفاتيح اللغات التى تؤلف بها الكتب الحاملة للفكر والرأى. إلى أن قام المثقفون العظام القدامى بترجمة الكتاب إلى كل اللغات المحلية. ومع اتساع حركة الترجمة، انتشرت الأفكار بعض الشىء ولكن استمرت تأثيراتها فى حدود العارفين بمفاتيح القراءة والاطلاع. قديما، كان عدد هؤلاء القادرين على القراءة قليلا. ثم اتسع عددهم مع انتشار التعليم الذى بات الآن حقا إنسانيا مسجلا كأحد الحقوق الواردة فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر عام ١٩٤٨. ثم ازدادت حركة انتقال الأفكار والآراء مع صدور الكلمة المكتوبة التى يتابعها القراء من الصحف اليومية والمجلات والدوريات.

ولكن تستمر الكلمة المكتوبة ملكا للذين تعلموا القراءة ويستطيعون شراء الكتاب والجريدة والمجلة والدورية. أتصور انهم لايزالون أقلية فى هذا العالم وخاصة فى عالمنا النامى الفقير وتحديدا فى بلدنا، مصر.

وإذا جئنا إلى البث الإذاعى فسوف نجده أكثر انتشارا من الإعلام المطبوع وذلك لانخفاض أسعار أجهزة الراديو بالإضافة إلى سهولة تحركها، تحديدا بعد اختراع الترانزيستور وبطارياته الصغيرة. فى محافظة مصرية حدودية كمحافظة مطروح، يقال أن الراديو هو صديق المرأة البدوية. تستطيع هذه الريفية المطروحية حمل جهاز الترانزيستور إلى أى مكان تمتد إليه أغنامها للرعى. تستمع إلى إذاعة مطروح المحلية والبرنامج العام المركزى ويمكنها، إذا أرادت أو وعت، أن تدير المؤشر إلى أى إذاعة عالمية.

نتذكر جميعا تلك النقلة الإعلامية الكبيرة التى أحدثها انتشار الترانزيستور بدءا من العقد الستينى خاصة بعد أن أنتجت الدولة المصرية من خلال القطاع العام الإلكترونى أجهزة ترانزيستور شعبية، كان الفلاحون المصريون يحملون أجهزتهم إلى حقولهم بعد أن صمموا لها أغطية نسيجية خاصة تحميها من الأتربة.

الذى نركز عليه الآن هذا الحادث بخصوص تلك النقلة الجديدة الفضائية الهائلة التى تقدم الحدث الذى يشاهده ويتابعه المتفرج المنتمى لكل الشرائح، الأمية والمتعلمة ونصف المتعلمة والمثقفة. وهى نقلة تعتبر، فى واقعها الجامع هذا، نقلة إنسانية ديمقراطية لأنها ساوت بين البشر وجعلت من كل المشاهدين، بغض النظر عن مستواهم التعليمى، أصحاب حق أصيل ليس فى الحصول على المعلومة والخبر بحسب، وإنما فى رؤية الخبر والمعلومة لحظة وقوعهما. من لا يستطيع الحصول عليهما باللغات الأجنبية يمكنه الحصول عليهما بلغته المحلية ومن لا يستطيع الحصول عليهما فى البيت يمكنه التوجه إلى المقهى أو النادى أو النقابة.. إلى آخر هذه التجمعات. والأهم والأكثر أهمية، من لم يستطع الحصول عليهما من إعلام بلاده يمكنه الحصول عليهما من الإعلام الخارجى.



فى النهاية بات الحدث والخبر والمعلومة ملكا لكل البشر الساكنين هذا الكوكب الذى هو الأرض.

ألا تشكل هذه النهاية السعيدة موقفا ديمقراطيا أصيلا لابد من أن «يشارك» فيه إعلامنا الوطنى (المصرى كمثال) بحيث يسهم بشكل جدى فى إثرائه وتطويره؟

وفى هذا الشأن لابد من ذكر نقاط أساسية تمثل وجهة نظر فى هذه المشاركة.

الأولى هى أن الإعلام المقروء والمسموع والمرئى لا يحقق نجاحاته إلا إذا كان انعكاسا لفكر اجتماعى جمعى محدد. يترجم الإعلاميون هذا الفكر إلى رسالة جيدة التكوين المهنى ويسعون إلى التعبير عنها ونشرها وكسب المؤيدين لها وطرح آراء المعارضين لها. إذا كان المجتمع يمر من مرحلة تطور إلى أخرى أكثر رقيا وتقدما، يقوم الإعلام والإعلاميون القائمون عليه بحمل رسالة التطور هذه، بوعى وإدراك، فى أعمالهم بحيث يسهمون فى سرعة إنجازها بنجاح.

ولمحاولة التوضيح، فالمجتمع المصرى مثلاً يمر الآن بمرحلة تقتضى استكمال مرحلة التحديث التى بدأت منذ قرنين من الزمان. مرحلة تحديث، امتدت حلقاتها طويلا دون إنجازها. كما أنه وبحكم الظروف العالمية والإقليمية المحيطة به والمؤثرة فيه، يحتاج المصريون إلى مساندة هذا التحديث بأفكار وقيم وأنساق الحداثة. فتحديث الاقتصاد والمؤسسات والهياكل والعلاقات لابد من مصاحبته بحداثة فكرية تعترف بقيم الديمقراطية والمساواة والعدل والحرية وقبول الآخر والمختلف والتسامح معه بحيث تصبح هذه القيم جزءا من الوجدان الإنسانى المصرى لدى الجميع، بدءا من الحكام ونهاية بالمحكومين. وللإعلام المصرى دوره، الأصيل، فى تحقيق التحديث وفى نشر قيم وأنساق الحداثة.

الثانية هى أن الإعلام المصرى كمثال، سواء اعترفنا أو لم نعترف، ينظر إليه عالميا كجزء من منظومة إعلامية عربية لها ما لها وعليها ما عليها. يمثل جانب كبير منها توجها حكوميا سلطويا مباشرا لا يحتضن إلا السياسات الرسمية سواء استندت على إرادة شعبية أو لم تستند. ويقف هذا الإعلام من هذه السياسات الموقف السلبى دون محاولة معارضتها أو حتى نقدها وتقييمها. تستخدم السلطات هذا الإعلام «بحرفنة عربية ساذجة» لدى أصدقائها فى حالة الصفاء كما تستخدمه لدى أعدائها فى حالة الجفاء. وهو الجانب الممثل لأغلبية وسائل الإعلام العربية ومنها أجهزة الإعلام المصرية المقروءة والمسموعة والمرئية.

ثم يأتى الجانب الآخر الذى يمثل الحيز الأصغر لوسائل الإعلام والاتصال كإعلام قائم على أساس المشروع الخاص المالك لمساحة من الحرية والاستقلالية التنظيمية أو الأصح الاستقلالية الإدارية المعلنة، ولو ظاهريا، عن الجالسين على سدة الحكم العربى.

وعندما ينظر عالميا لهذه المنظومة الإعلامية العربية من قاعدتى الاستقلالية أو التبعية فإن النظرة تصبح أكثر نقدا وانتقادا عندما يحدث هذا التقييم على أرضية التحولات الاقتصادية الجذرية التى جرت خلال ربع القرن الأخير والتى انتقلت فيها أعداد من الوحدات الإنتاجية من الملكية العامة إلى الملكية الخاصة. فى عدد كبير من الأقطار العربية تمت خصخصة الاقتصاد دون إجراء خصخصة حقيقية لمجالين آخرين أساسيين الأول هو المجال السياسى والثانى هو المجال الإعلامى. وفى أقطار عربية أخرى، خاصة تلك البلدان المالكة للسيولة المالية العالية، استمر الإعلام إما حكوميًا أو - وهذا فى أكثر الأحوال - مملوكًا من أفراد ينتمون إلى الأسر المالكة للسلطة والثروة فى البلاد، أوفى بلدان أخرى يمتلك هذه الوسائل أفراد قريبون من السلطة وكتلها السياسية.

وفى الحالتين استمر الإعلام «مربوطا» و«مقيدا» بمقاعد السلطة وبمن هم جالسون على سدتها.



الثالثة هى أن الإعلام المصرى يعمل ويمارس نشاطه وسط إعلام عربى رسمى تتباين قدراته. وكما أن الدول العربية تتباين فى قدراتها الاقتصادية وتنقسم إلى دول تملك السيولة وأخرى لا تملكها، فإن الإعلام يقع تحت ذات التقسيمات. يوجد إعلام عربى مملوك لدول عربية غنية وبالتالى ينعكس هذا الثراء فى عدد المطبوعات التى تصدرها وعلى نوع وفخامة إخراجها. كما ينعكس على عدد الفضائيات التى تنطلق حاملة علمها ونشيدها الوطنيين. ويوجد إعلام عربى مملوك لدول عربية فقيرة، فينعكس هذا الفقر على قدراتها فى إصدار المطبوعات وفى عدد الفضائيات التى تبثها وعلى نوعية برامجها. فالواقع الاقتصادى لكل بلد عربى ينعكس على «آلة» إعلامها الرسمى السائد وسواء كان موجها للداخل أو للخارج.

هذا إذا تحدثنا عن حجم الإعلام، أما إذا دلفنا

من الأهمية بمكان إحداث نقلة فى الإعلام المصرى بعد أن تحققت «المرحلة الأولى» التى يشار إليها كمرحلة أنجز الإعلام الوطنى فيها انتشاره فى شكل مساحات زمنية وترددات فضائية عديدة




إلى نوعه فسوف نواجه بمادة إعلامية تتشابه فى نوعية رسالتها الرسمية المباشرة مع بعض التعديلات التى تصنعها الأسماء الرسمية التى عادة ما تحتل أولوية البث حتى لو تحققت هذه الأولوية على حساب حدث جلل كحدث سقوط بغداد فى أبريل عام ٢٠٠٣.

ومع اتساع المساحة الزمنية الإعلامية فى كل وسائل الإعلام العربى الرسمى عامة والمصرى خاصة ومع عدم قدرة كل بلد على حدة على ملء هذه المساحات فإن المشاهد العربى يواجه بـ «توحد» إعلامى عربى موجه له فى شكل الأفلام المصرية القديمة والجديدة و«الأبيض وأسود» أو «الألوان» والمسرحيات المصرية وخاصة الكوميدية ثم المسلسلات التليفزيونية المصرية وخاصة ما ينتج منها لشهر رمضان الكريم. هذا بالإضافة إلى كم الأفلام الأمريكية المتنوعة التوجه السياسى والقيمى والمتفاوتة فى النوعية والجودة والتى تسهم هى الأخرى فى ملء المساحات الزمنية الممتدة لأربع وعشرين ساعة. فتكون لدى المشاهد المصرى والعربى معا «حالة مزاجية» غريبة تنبع فى الأساس من هذه المتابعة الفنية المتكررة التى تضعه بين عالمين، الأول عالم خارجى ملىء بالحركة السياسية وأحداثها والثانى عالم داخلى محاط بالاسترخاء والتهميش الفكريين.

ويمكن متابعة العناصر المكونة لهذه «الحالة المزاجية» عندما نرصد مجموعات الأغانى التى تبث على فترات متقاربة على شاشات كل أجهزة التليفزيون المصرية والعربية المحلية والفضائية، أو الأفلام المصرية التى يكاد المشاهدون يحفظون حواراتها عن ظهر قلب نتيجة تكرار عرضها والمسرحيات التى تبث لمئات المرات أو المسلسلات الدرامية المصرية التى تتناول الفضائيات بثها بترتيب زمنى غير متضارب، يصعب تصديق أنه غير مخطط من الجميع. ناهينا عن البرامج الحوارية الفنية، السينمائية أو الغنائية، التى تبدأ فكرتها من القاهرة لتنتشر على طول المنطقة العربية لتعطى إحساسا أننا لا نملك إلا الفن الدرامى والموسيقى دونًا عن كل الفنون الأخرى ودونًا عن كل مجالات العلوم والإنتاج التى تقيم دعائم أى مجتمع.

أقل ما يمكن أن يقال أن هذه الكثافة الإعلامية الفنية تعبر عن عجز أجهزة الإعلام العربية وفى مقدمتها الأجهزة المصرية عن ملء المساحات الزمنية الممتدة، التى التزمت بها، دون امتلاك مجتمعاتها لحركة ديناميكية عامة تقدم لها المادة الوفيرة السياسية والثقافية والاجتماعية الضرورية ودون أن تمتلك هذه الأجهزة للكوادر الفنية اللازمة لتحويل الحركة المجتمعية إلى رسالة إعلامية راقية.

والرابعة هى أن التقييد الإدارى للإعلام يتباين من وسيلة إعلامية إلى أخرى. ويحدد مدى انتشار الوسيلة قدر التضييق والتقييد. فكلما اتسع الانتشار زاد التضييق وكلما ضاق الانتشار كلما قل التضييق. فعادة ما يكون الكتاب أكثر حرية من المجلة ثم تكون المجلة أكثر حرية من الجريدة فى حين أن الجريدة تكون أكثر حرية من الإذاعة. لتأتى فى النهاية شاشة التليفزيون لتتحمل أكبر حجم من التقييد.



الخامسة هى أن لدينا إحساساً دائماً بأن الهرم الوظيفى فى الإعلام المصرى المرئى والمسموع مقلوب. وقد نما هذا الإحساس بعد المتابعة الدقيقة لمحطات الإذاعة والفضائيات الغربية بالتحديد. ويتأكد هذا الإحساس إبان الأحداث الإقليمية أو العالمية الهامة عندما نتعرف على حجم التباين بين نوع الخدمات الخبرية التى تقدمها الفضائيات أو الإذاعات المختلفة. فالملاحظة التى تحيط بوسائل الإعلام الخارجى هى كبر حجم المراسلين المنتشرين فى كل مناطق العالم الجغرافية بالمقارنة بحجم وعدد مقدمى ومقدمات البرامج أو عدد قارئى وقارئات نشرات الأخبار من الإعلاميين. فى إحدى الفقرات الفاصلة بين البرامج لإحدى المحطات الأوروبية تذكر الفضائية أن لها أكثر من مائتين وخمسين مراسلاً ومراسلة ينتشرون فى غالبية المواقع الحساسة وغير الحساسة من العالم. فى حين أن هذه الفضائية تحديدا لا يظهر على شاشاتها أكثر من ثلاثين مذيعًا ومذيعة ومقدم ومقدمة برامج وقارئًا وقارئة للنشرات الإخبارية. وهى حقيقة تقدم السبب الذى يجعل هذه الفضائية سباقة فى التغطية الخبرية فى كل الأحداث التى وقعت فى الشرق الأوسط وفى غيرها من المناطق خلال الفترة الماضية. هذا بالإضافة إلى نوعية التدريب المهنى والسياسى التى يحصل عليها أو يمر بها، بشكل مباشر فى ساحة العمل، كل الذين يظهرون على الشاشة. فى غالبية الأحوال يمضى مقدم البرامج أو قارئ النشرة فترة ممتدة من حياته المهنية كمراسل لهذه الفضائية فى مواقع الاحتكاك. وبالتالى يمكننا فهم السبب فى هذا المستوى الرفيع من الحوارات السياسية التى يجريها هؤلاء الإعلاميون مع السياسيين والاقتصاديين الذين تتم دعوتهم إلى حوارات الفضائية. ولو نتذكر ما كان يحدث فى إعلامنا المصرى فى العقد الستينى فسوف نسترجع أن هذا المنحى كان فى بداياته الأول مع الإذاعيين المصريين ثم توقف لأسباب لا نعلمها.

بات البناء الوظيفى لإعلامنا المرئى والمسموع كالجيش الذى يزيد عدد جنرالاته على عدد جنوده. فى حين أن البناء الوظيفى لأجهزة الإعلام الغربى لا يضم إلا الجنود القادرين على ملء الساحة الحوارية والفكرية فى أى وقت وفى أى موضوع يثار.

كانت هذه ملاحظات عامة تحيط بإعلامنا المصرى وخاصة بإعلامنا المرئى والمسموع. وهى ملاحظات تبدو فى مجملها سلبية ولكننا نشعر أنها ملاحظات فعلية لابد من أخذها فى الاعتبار ونحن نسعى إلى المشاركة الإعلامية المصرية الحقيقية فى صياغة هذه النقلة الفضائية الكونية الجديدة التى، كما ذكرنا، تحمل سمات ديمقراطية وإنسانية أكثر من كل تلك السمات التى حملتها أية نقلة إعلامية سابقة أخرى.



وفى كل الاحوال هذا هو الحادث فى إعلامنا من ملاحظات.

ويحدث هذا فى الوقت الذى تتسع فيه، مع صباح كل يوم، ساعات الإرسال الفضائية ومصادرها العالمية المتنوعة التوجه السياسى والثقافى، التى تخترق فضاء مصر وكل المنطقة العربية، كما تخترق كل بلدان ومناطق العالم، حاملة معها الآراء والأفكار فى شكل بيانات إخبارية وحوارات فكرية مليئة بالرأى والرأى الآخر وما بينهما من ألوان الطيف الفكرى. هذا بجانب الأفلام التسجيلية التى تقدم للقارئ المعلومة الجادة عن الحقائق المتنوعة للعالم الذى يعيش فيه. كما يحمل هذا الإرسال الفضائى المتنوع الأحداث التى تجرى فى مصر والتى لا ترد فى شاشاتنا التليفزيونية أو عبر أثير الإذاعة بنفس السرعة وبذات الشفافية والدقة.

فى هذا المناخ تطرح آراء ومقولات تشير إلى أهمية إحداث نقلة نوعية فى الإعلام المصرى بعد أن تحققت «المرحلة الأولى» التى يشار إليها كمرحلة أنجز الإعلام الوطنى فيها انتشاره فى شكل مساحات زمنية وترددات فضائية عديدة. فما هى عناصر تلك «النقلة النوعية» التى تتم الإشارة إليها الآن كما نتصورها؟

فى البداية لابد من مناقشة هذا الحيز المتاح من حرية التعبير فى وسائل إعلامنا. ولابد من الاعتراف أن هذه المساحة المتاحة الآن لحرية الرأى والتعبير للمختلف مع كل ما هو رسمى لم تعد كافية لبناء إعلام يستطيع أن يشارك فى تحقيق فضاء ديمقراطى يسهم فى إثراء المجتمع الإنسانى ككل. وإذا كنا نطلب من الدول الكبرى ذات السيادة على الاقتصاد العالمى وبالتالى على العديد من المجالات الأخرى ومنها المجال الإعلامى، أن تجعل من العلاقات الدولية ومن أسسها الاقتصادية، علاقات تراعى مصالح كل شعوب العالم، الفقيرة قبل الغنية، فلابد من أن نقدم النموذج الذى نراه قابلا للنقل والتطبيق والمطالبة. ولاشك أن الإعلام



الديمقراطية والحرية التى نطالب بها الآخرين، لابد أن تصبح فى المقام الأول منهاجا سياسيا واجتماعيا ثابتا فى تعاملنا الداخلى قبل أن نطالب به فى تعاملنا الخارجى. وإلا فلن يتعامل معنا العالم على أساس الجدية والمصداقية



يمكن أن يقدم الكثير فى هذا المجال إذا تحول بالفعل إلى منبر عام لكل المصريين بحيث يسهم فى بناء مناخ اجتماعى ديمقراطى حقيقى لا صورى كما يحدث الآن فى مناسبات عديدة. فالملاحظ، على سبيل المثال أن المعارضة المصرية لا تدعى إلى الإعلام المرئى والمسموع لمناقشة القضايا الداخلية. ولكنها تدعى عندما تريد الدولة استخدامها فى خلافاتها مع الآخرين وخاصة مع الإسرائيليين.

فالديمقراطية والحرية التى نطالب بها الآخرين، لابد أن تصبح فى المقام الأول منهاجا سياسيا واجتماعيا ثابتا فى تعاملنا الداخلى قبل أن نطالب به فى تعاملنا الخارجى. وإلا فلن يتعامل معنا العالم على أساس الجدية والمصداقية.

إذا سعينا إلى إحداث هذه «النقلة النوعية» فى إعلامنا المصرى، أتصور أن بداية النقلة لابد أن تكون من القاعدة الإعلامية ذات العلاقة المباشرة بعموم الشعب المصرى. وفى تقديرى أن هذه «النقلة النوعية» تبدأ بالإعلام المحلى الذى تتواجد بالفعل بمساحات معقولة فى محافظات مصر. ونعنى بالإعلام المحلى، كل المطبوعات سواء كانت صحيفة أو مجلة كما نعنى به القنوات التليفزيونية بالإضافة إلى الإذاعات المحلية التى تصدر أو تبث فى أقاليم مصر. فى كل محافظة توجد على الأقل مطبوعة تصدر من إدارة المحافظة. كما توجد إذاعة محلية بالإضافة إلى وجود خمسة مراكز تليفزيونية تقدم خدمة لمجموعة محافظات متجاورة جغرافيا وهى الخدمة التليفزيونية التى تقدمها القنوات الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة. وهى وسائل إعلام، بكل تنوعها، تملك إمكانية التفاعل مع عموم المصريين فى كل المواقع التى يتواجد فيها أى إنسان مصرى لأنها الأقرب إليهم من حيث الطبيعة والموقع والمشاكل واللغة وحتى من حيث الإحساس والرؤية المستقبلية. وهى التى تملك القدرة على فتح مساحات واسعة لآراء عموم المصريين هؤلاء بحيث يجدون أنفسهم وكياناتهم فى إعلامهم الذى يملكونه فى الإقليم.

حتى الآن يعمل إعلامنا، المطبوع والمسموع والمرئى، فى المحافظات بإمكانيات تقنية متواضعة للغاية. وتحد هذه الإمكانيات المتواضعة من قدرته على الحركة داخل المحافظات التى يغطيها بحيث إن العاملين فيه يمارسون عملهم وكأنهم كـ «الكتيبة الثانية» من الإعلاميين. الذى نرجوه هو أن نجعلهم يعملون كـ «الكتيبة الأولى» التى تستطيع أن تحقق المحلية الحقيقية للإعلام أى أن يصبح الإعلام المحلى مرآة حقيقية لهذا الواقع المحلى. يجد فيه الإنسان المصرى كل ما يحتاجه من معرفة خبرية وتحليلية تخص محيطه الأقرب إليه.

فى هذا المجال لابد للمسئولين عن الإعلام أن يقدموا دعما أكبر للإعلام المسموع وللإعلاميين القائمين عليه سواء كان ذلك على المستوى المحلى أو المركزى. فى دراسة أجرتها إذاعة أسوان منذ عامين، ونشرت نتائجها، سجلت نسبة ٨٥٪ من عينة الشباب الأسوانى أنهم يستمعون لبرامج إذاعة أسوان بانتظام. هذا بالإضافة إلى أن المرأة الريفية لا تزال شديدة التمسك بالراديو وما يبث فيه خاصة إذا كانت ربة بيت تنتمى إلى الشريحة الاجتماعية البسيطة. وهى الشريحة التى نحتاجها فى عملية نشر القيم الإنسانية الجادة التى تحتاجها مرحلتنا استكمال التحديث والحداثة. فالإعلام المسموع لا يزال الأكثر انتشارا بالرغم من كل الضجيج الذى يحدثه الإعلام المرئى. وخاصة فى بلاد لا تزال الأمية تقف حائلا بين الإنسان وبين الكلمة المطبوعة.

وإذا سعينا بالفعل إلى إحداث هذه «النقلة النوعية» فلا يجب أن نتصور أن قيم الديمقراطية والحرية وطرح الرأى والرأى الآخر والعدل والتسامح والمساواة مع التنوع الاثنى والنوعى والدينى، قيم تتعارض مع كون الإعلام علما وفنا فى آن واحد. لابد أن يؤسس على العلم والمعرفة والإبداع والتنوع والتعدد والمهارة المهنية التى تجعل منه سلة من المواد السياسية والاجتماعية والثقافية والفنية والرياضية التى تحقق للإنسان القارئ أو المستمع أو المشاهد، بكل شرائحه الاجتماعية والثقافية، إشباعا ثقافيا وإدراكا واعيا بمحيطه المحلى والعالمى.

فالجدية، لا تتعارض مع الإبداع أو مع الفنون الراقية التى تمس العقل والوجدان معا.

ولاشك أن إحداث هذه «النقلة النوعية» يحتاج إلى توجيه عناية فائقة للكوادر البشرية الإعلامية المتنوعة التخصصات والقائمة على كل مراحل العمل الإعلامى. وهى الكوادر التى ستصوغ هذه «النقلة النوعية» وتقود تفعيلها، كعمل يومى، يقدم للمتلقى. ولنا أن نتابع بعض الفضائيات الغربية والعربية معا لتبيان حجم الجهد الذى يحتاجه إعلاميونا من أجل إنجاح هذه النقلة النوعية.

فمنذ بداية هذا المقال تحدثنا عن الإعلام ليس فقط كتقنية حديثة أو كمساحة زمنية ممتدة وإنما كفكر يطرح ويدار حوله الجدل والحوار والمناقشات. وهو عمل يقوم به فى الأساس إعلاميون متمكنون من فكرهم ومن لغتهم ومن معلوماتهم ومن رسالتهم التى يتقدمون بها للمتلقى المصرى أو العربى أو الأجنبى.

فالحادث الآن هو أن جهاز التليفزيون يتجه إلى إعلاميين من خارج كوادره الأساسية فى حالة سعيه إلى تقديم برامج حوارية متخصصة فى حين أن فى أجهزة الفضائيات الغربية والعربية تسند هذه البرامج إلى إعلاميين من داخل جهازها. بما يعنى أن جهاز التليفزيون المصرى لا يجد من بين أبنائه من هو قادر على إعداد وإدارة هذه الحوارات.

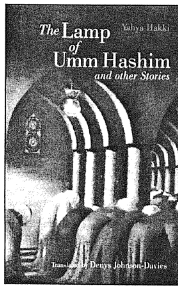
لذا يأتى التدريب المتخصص والأساسى والمستمر الذى يتلقاه الإعلامى، كعامل حيوى فى إعادة تأهيل الكثير من الإعلاميين المصريين الحاليين.

وفى مجال الحديث عن الإعلاميين المصريين، أود أن أشير إلى أن كل الفضائيات الغربية تتمتع بميزة، أعتبرها جديدة علينا ولم نأخذها فى اعتبارنا، وربما لم نلتفت إليها. وهى أن هذه الفضائيات تعكس ما فى مجتمعاتها من تنوع اثنى. نجد على شاشاتها قارئات للنشرات من أصول أفريقية وأمريكية لاتينية أو آسيوية وحتى من أصول عربية. بمعنى أن الإعلاميات العاملات فى هذه الفضائيات الغربية لسن جميعا شقراوات متأنقات ذوات شعر أصفر متهدل. بل نجدهن إعلاميات، متنوعات من حيث لون البشرة والشعر ومن حيث تفاصيل ملامح الوجه بحيث يمكننا استنتاج جذورهن العرقية بكل سهولة ويسر. لا يتميزن بالجمال الجسدى بقدر تمتعهن بالقدرات الثقافية والمعلوماتية العالية التى تغطى على بساطة الملبس الذى ترتديه كل واحدة منهن. كما يتميزن بأناقة اللغة التى يتحدثن بها. بحيث تشدنا الحوارات السياسية، فلا نتنبه إلى النظر إلى وجوههن غير الفاتنة وهن يناقشن ضيوفهن، بكل جدية وعلم، فى القضية الفلسطينية أو العراقية أو الصراع فى دارفور.

وينطبق ذات الشىء على المراسلين العاملين لهذه الفضائيات. إبان الغزو الأنجلو أمريكى للعراق كان مراسل إحدى الفضائيات الأوروبية المتحدثة بالإنجليزية شابا فى الثلاثينيات من عمره من أصل صومالى.

فى سعينا إلى إحداث «النقلة النوعية» التى نريدها لإعلامنا فلابد أن نهدف دائما إلى الحديث إلى عقل القارئ والمستمع والمشاهد المصرى. فهدفنا فى كل توجهاتنا هو عقل الإنسان المصرى. لذا لابد لحديثنا معه أن يكون صادقا متنوعا شفافا وسريعا وممتعا. إذا أخطأنا هذا الهدف فسوف يستمر المتلقى المصرى يدير جهاز مؤشر المحطات إلى أى مصدر يقدم له الخبر والمعلومة، فى حجمها وزمانها الصحيحين، تاركا إيانا مع البرامج الفنية والأفلام الروائية ومسلسلات شهر رمضان الكريم. ■

الإعلام المسموع لا يزال الأكثر انتشارا بالرغم من كل الضجيج الذى يحدثه الإعلام المرئى. وخاصة فى بلاد لا تزال الأمية تقف حائلا بين الإنسان وبين الكلمة المطبوعة



كنت صديقا ليحيى حقى



دنيس جونسون ديفيز

كان واحداً من تلك المجموعة الصغيرة التى أرست أسس النهضة الأدبية للأدب العربى فى مصر مع منتصف القرن العشرين. لقد ضمت تلك الجوقة من الكتاب الذين شاركوا فى هذه النهضة أسماءً مثل الطالب المجد والأديب طه حسين، والكاتب المسرحى توفيق الحكيم، ورائد كتابة القصة القصيرة محمود تيمور، وبالطبع الروائى نجيب محفوظ.

تتعدد أعمال يحيى حقى ١٩٠٥-١٩٩٠ لتملأ كتباً كثيرة فى القصة القصيرة والكتابات النقدية، متضمنة كتاباً موجزاً حول القصة القصيرة المصرية بعنوان «فجر القصة القصيرة». كان لحقى تأثير نافذ فى تشجيعه وعطائه للأجيال اللاحقة من الكتاب وذلك من خلال اتصالاته الشخصية بهم وبحكم منصبه كرئيس لتحرير المجلة الشهرية «المجلة»، والتى تولى مهمة تحريرها بقدر عال من الذكاء والموهبة الطبيعية والقدرة على التخيل.

«قنديل أم هاشم» هى أطول أعمال يحيى حقى وأكثرها شهرة، وقد نشرت للمرة الأولى عام ١٩٤٤. لقد كانت تلك الرواية القصيرة العمل الإبداعى الأول الذى يصدر بالعربية لمعالجة الصعوبات النفسية التى يواجهها الطلبة العائدون للوطن بعد إرسالهم لأوروبا لاستكمال دراستهم. وعلى الرغم من أنها نشرت منذ أكثر من نصف قرن مضى، فلازال يمكن قراءتها باستمتاع، بفضل الأفكار التى تدور حولها - كما لخصتها سطور كبلنج حول استحالة التقاء الشرق والغرب، تلك الأفكار التى لا تزال وثيقة الصلة بالواقع الذى نعيشه.

تدور الرواية القصيرة حول شاب يرحل إلى لندن بعد تضحيات مالية من قبل والده، لاستكمال دراسته فى الطب. ولأن الشاب قد أتى من خلفية اجتماعية محافظة، فإن الشاب يجد نفسه فريسة لصراع بين المؤثرات الجديدة التى تعرض لها فى بريطانيا، كعلاقته الغرامية مع فتاة بريطانية التى تناقضت مع أسس تربيته الدينية. عند عودته للقاهرة، تصاعد الصراع بشكل صارخ حينما كان عليه معالجة شكوى فاطمة من عينيها، تلك كانت ابنة عمه وخطيبته، وعلى هذا المنوال تحكى الرواية محاولاته لإنجاز تصالح بين المعرفة العلمية التى حصل عليها فى الغرب والمعتقدات الخرافية التى تتمسك بها أمه وسكان الحى الفقير الذى قرر أن يمارس الطب فيه.

لقد وصفت «قنديل أم هاشم» بأنها عمل إبداعى ممتع عقليا خاصة لذوى الثقافة الرفيعة حين صدورها. بنفس القدر تعاملت روايات أخرى صدرت فى وقت لاحق مع أفكار مشابهة، أبرزها رواية توفيق الحكيم «عصفور من الشرق»، وأخيرا أكثرها صراحة «موسم الهجرة إلى الشمال» للروائى السودانى الطيب صالح.

وفى بداية حياته العملية كمحام- حيث أصبح بعد سنوات دبلوماسياً يقضى أوقاتاً طويلة فى العمل بالسلك الدبلوماسى فى العالم العربى وأوروبا - عمل يحيى حقى لفترة فى صعيد مصر، حيث اكتسب وعياً تختلط به مشاعر الحب للفلاحين الذين يعملون تحت وطأة الشمس الحارقة وظروف العمل القاسية. وتعد «قصة فى سجن» من أطول الثلاثيات التى كتبت عن صعيد مصر فى تاريخ القصة القصيرة، والتى صدرت فى كتاب بعنوان الدم والطين. إن القصة، مثل العديد من كتاباته تتعامل مع شخصيات، بالرغم من كونها بمثابة العمود الفقرى للوطن، فإنها تظهر بشكل نادر للغاية فى الأعمال الأدبية فى مصر - فى الحقيقة إن هذا الأمر ليس خاصاً أو لصيقاً بالكتابة العربية وحدها، حيث إن الفلاحين بشكل عام لا يتم الإشارة إليهم إلا بشكل نادر فى الأدب العالمى.

إن حقى، على الرغم من ذلك يستحوذ بدرجة ملحوظة على صلة ودية بالمظلومين والمضطهدين، ويرتبط ذلك بقدرته على وصف شخصيات متواضعة من الحياة بطريقة تخلو من الشعور بالتفوق. ويمكن ملاحظة ذلك فى قصة «أم العواجز»، والتى خلق فيها مناخاً غير متباين مع ذلك الذى فى روايته القصيرة، وحيث «الكورس» فى هذه القصة الخرافية يتكون من هذه الكتلة الضخمة من الزخم الإنسانى الذى يصنع زحاماً فى الميدان حيث تدور الكثير من أحداث القصة.

وتظهر قصته القصيرة جداً «قصة فى شكل التوسل»، تلك التى ظهرت فى وقت مبكر للغاية، والتى قمت بترجمتها ونشرها على نطاق محلى فى الأربعينيات، استعداد يحيى حقى لتبنى أساليب جديدة من الحكى الروائى.

لدى تصديه للكتابة عن الفلاحين، كما حدث فى «قصة فى سجن»، يرينا حقى كيف أن اللغة العامية يمكن أن تستخدم لإضفاء بعد رائع للكتابة الإبداعية، وبشكل خاص فى جزئية الحوار. إن غالبية



كان يحيى حقى من ذلك الصنف من الناس الذى يحب الاعتناء بمن حوله، لقد طوق باهتمامه جميع من حوله من الناس من كل طبقات المجتمع



مقدمة كتاب:
The Lamp of Umm Hashim and other Stories
(قنديل أم هاشم وقصص أخرى)
Translated by Denys Johnson-Davies
Cairo, The AUC Press, 2004, 90pp.

ترجمة: رانيا خلاف



يحيى حقي

كتـــاب الـزاويـــة



عبقـــرية الداعـــى

عبقـــرية محمـــد

اتفقت أحوال العالم إذن على انتظار رسالة..

واتفقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة..

وكان من الممكن أن تتفق أحوال العالم وأحوال محمد، ولا تتفق معها الوسائل التى تؤدى بها رسالته على أحسن الوجوه.

كان من الممكن أن ينتظر العالم الرسول، ثم لا يظهر الرسول.

وكان من الممكن أن يظهر الرسول فى البيت الصالح وفى البيئة الصالحة، ثم لا تتهيأ له الصفات التى يتم بها أداء الرسالة.

ولكن الذى اتفق فى رسالة محمد قد كان أعجب أعاجيب الاتفاق، وكان المعجزة التى تفوق المعجزات.. لأنها مع ضخامتها وتعدد أجزائها وتوافق تلك الأجزاء جميعها، مما يقبله العقل قبولاً سائغًا بغير عنت ولا استكراه..

فكان محمد مستكملاً للصفات التى لا غنى عنها فى إنجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ.

كانت له فصاحة اللسان واللغة..

وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة..

وكانت له قوة الإيمان بدعوته وغيرته البالغة على نجاحها..

وهذه صفات للرسول غير أحوال الرسول.. ولكنها هى التى عليها المدار فى تبليغ الرسالة، ولو اتفقت فيما عداها جميع الأحوال.





القصة تحكى بكلمات بطل القصة وهو واحد من الغجر، مبينة كيف أن الكاتب، المعروف بأسلوبه المكثف والثرى باللغة العربية الفصحى، كان قادراً على توظيف اللغة العامية بحس خيالى مماثل لكى يرسم بورتريه نابض بالحياة لشخصية قد تكون غير قادرة تماماً على التعبير عن نفسها بلغة أدبية. إن درجة من الواقعية يمكن الوصول إليها إذن بدرجة كان من المستحيل الوصول إليها إذا ما استخدمت اللغة الفصحى بشكل كامل فى مثل هذا النوع من القصص.

قد يتساءل البعض، من يتحدث بلغة فصحى بخلاف الشخصيات فى معظم الروايات العربية؟ إنه أمر ذو مغزى. بالتأكيد أن توفيق الحكيم، وهو من المساهمين الرواد فى خلق الأدب العربى الحديث، قد استغل أيضاً الثراء الفريد للغة العامية فى مصر فى العديد من كتاباته، متضمنة الرواية التى ترجمت تحت اسم Maze of Justice. تمكن يوسف إدريس أيضاً، وهو كاتب أصغر سناً كان قد لقى استحساناً من حقى، من إثراء العديد من قصصه القصيرة معتمداً على تمكنه من اللغة العامية. إذا كان المعيار الذى يؤخذ فى الاعتبار هو معيار جمالى صرف، فلابد أن اللغة العامية بالتأكيد تشكل سلاحاً إضافيا ضمن ذخيرة كل من يكتب باللغة العربية.إن الكُتاب كل على حدة يجب بالطبع أن يتوصلوا إلى قناعات شخصية فيما يتعلق بهذا الأمر.

من بين أهم الكتاب فى مصر، نجد أن نجيب محفوظ قد اتخذ موقفاً متفرداً حيث تجنب استخدام اللغة العامية، برغم ذلك وحينما تحولت رواياته إلى أعمال تليفزيونية، استعادت شخصياته أصواتها الطبيعية.

على خلاف المعتاد، فإن يحيى حقى الذى سلك حياته العملية خارج النطاق الأكاديمى، كان يتمتع بمقروئية عالية بين متداولى الأدب الكلاسيكى، فى كل من الشعر والنثر.

كان يحيى حقى يؤكد دوماً فى نصيحته للكتاب الناشئين على أهمية امتلاك سطوة حقيقية للغة التى يسعى الكاتب أن ينقل أفكاره عبرها. لقد كان حزينا بسبب الانحدار المحسوس لمعرفة الناس على كل المستويات باللغة العربية.

لقد طالب القائمون على السلطة الثقافية بمواجهة حقيقة أن اللغة العربية، على عكس اللغات الأوروبية، تتميز بامتلاكها لشكلين مكتوب ومنطوق، لقد شعر أن المشكلة تكمن فى حقيقة أن اللغة الفصحى كانت تدرس وكأنها لغة أجنبية.

كان يحيى حقى، بصفته الإنسانية، محباً للسفر شرقاً وغرباً. لقد عاش خارج مصر خلال سنوات عمله كدبلوماسى، وقد استقال من العمل الدبلوماسى فقط عند زواجه من امرأة فرنسية. لقد كانت تلك زيجته الثانية، حيث توفيت زوجته الشابة الأولى بشكل درامى بعد وضعها لطفلتهما. وهكذا وبعد مشوار عمل قصير فى المحاماة، تبعتها سنوات عديدة فى العمل الدبلوماسى، بدأ حقى فى تخصيص كل وقته فى خلق اسم يحيى حقى فى عالم الأدب.



على الرغم من الفارق فى العمر، أصبحت أنا وحقى صديقين خلال السنوات بين ١٩٤٥ و١٩٤٩ حينما كنت أعيش بشكل دائم فى القاهرة كمحاضر فى جامعة القاهرة. يبدو أننا رحلنا عن القاهرة معاً فى الوقت ذاته تقريباً، حيث إننى حينما اطلعت على بعض الأوراق مؤخراً، وجدت خطاباً منه قد أرسله إلىّ حينما كنت فى طهران. على رأس تلك الرسالة كان مطبوعاً اسم السفارة المصرية فى باريس. لقد كتبت الرسالة بكثير من الدفء والفطنة بأسلوب جزل تمتزج فيه اللغتان العامية والفصحى، كما اعتاد أن يكتب رسائله لابنته نهى. لقد جمعت تلك الخطابات ونشرت تحت عنوان «رسائل يحيى حقى لابنته»، وقد كتب مقدمة هذا الكتاب نجيب محفوظ، الذى كان صديقاً حميماً ليحيى حقى حيث كان يحمل له قدراً كبيراً من الإعجاب وكان يعمل فى وقت ما تحت رئاسته.

قبل رحيلى من القاهرة عام ١٩٤٩ ناقشت مع يحيى حقى رغبتى فى نشر كتاب عام مترجم للإنجليزية بهدف إظهار كيفية ممارسة كتابة القصة

كنت صـــديقا
ليحيـــــــى
حقـــــــى

القصيرة فى العالم العربى. لم يسبق أن طرح مثل هذا المشروع، وكان يمكن، كما شعرت، أن يضع الأدب العربى الحديث «على الخريطة»، وخاصة إذا ما قام ناشر إنجليزى معروف بهذا العمل.

بينما كنت أعيش خارج مصر، كنت أقوم بزيارات على فترات منتظمة للقاهرة، وفى كل مرة كنت أحرص على الاتصال بيحيى حقى. فى كل مناسبة كان يحيينى بابتسامة عابثة، مستفهماً، كمن يشارك فى مؤامرة، ماذا أصاب كتابى الشهير عن القصة العربية. لقد كان لدينا سوياً ذلك الشعور بأن هذا لم يكن سوى أمل كاذب! فى الحقيقة، اقتضى تحقيق هذه الفكرة عشرين عاماً قبل أن أنتهى من جمع المادة الكافية لمثل هذا الكتاب، بعد ذلك كانت لا تزال تواجهنى مهمة شاقة أخرى، بالنسبة لشخص ليس لديه العلاقات الضرورية لإيجاد ناشر باللغة الإنجليزية تتوفر لديه الرغبة فى الاضطلاع بمثل ذلك المشروع الاستثنائى. على الرغم من ذلك، جاء اليوم المنتظر، حينما تعرفت بقدر كبير من الحظ الطيب على شخص على صلة بشخص آخر فى دار نشر جامعة أكسفورد. لقد تمت الموافقة على نشر الكتاب فى إطار كونه منحة تعليمية. بشكل طبيعى، لم أبد أى اعتراض؛ بل كنت سعيداً أننى سأزف إلى يحيى حقى فى زيارتى القادمة للقاهرة أنه لم يكن قادراً على نشر كتاب «القصة العربية القصيرة الحديثة» سوى دار نشر جامعة أكسفورد. وكأمر مسلم به، كان الكتاب يحتوى على قصة لحقى.

كان يحيى حقى من ذلك الصنف من الناس الذى يحب الاعتناء بمن حوله، لقد طوق باهتمامه جميع من حوله من الناس من كل طبقات المجتمع، حتى أن رعايته تلك امتدت إلى الحيوانات. إن ذلك يمكن تلمسه فى الكثير من أعماله الإبداعية، على سبيل المثال فى وصفه لوفاة كلب بسبب تسممه فى «قصة فى سجن» من بين الأقوال المأثورة للكاتب والمذكورة فى كتابه لابنته هذه المقولة: « لا أعرف شيئاً يمكن أن يكمل إنسانية المرء مثل إكرام الحيوانات الخرساء».

لقد أصابتنى الدهشة حينما علمت، وأنا أقرأ مؤخرا عن بداية حياة حقى، أنه ولد لأبوين متواضعين فى حى فقير بالقاهرة، وأنه قد عانى من الصعوبات المادية لفترات طويلة، وخاصة فى الفترة التى سبقت انتهاء حياته الطويلة.

فى فترة ما، تم اقتراح اسمه لنيل جائزة صدام حسين، ولكنه أصابه الرعب من فكرة قبوله لهذه الجائزة واضطراره لمصافحة يد تلوثت بدماء المسلمين الأبرياء.



فى الحقيقة، لقد ساعدته جائزة الملك فيصل للخروج من ضائقته المادية، على الرغم من أنه فى ذلك الوقت لم يكن لائقاً من الناحية الصحية للسفر إلى السعودية لاستلام الجائزة.

المناسبة الأخيرة التى جمعتنا معاً كانت حينما طلب منه إلقاء كلمة فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة لدى فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب. لم يلق محاضرة فى ذلك اليوم، ولكنه قام بالإجابة بأسلوب تلقائى غير معد سلفاً لأسئلة أرسلت له على قطع صغيرة من الورق من الجمهور، وكانت الأسئلة تقرأ لحقى بصوت عال.

كان سؤالى الشخصى يستفهم عن أمر محير بالنسبة لى: كيف أن الأدب المصرى يعكس قدراً قليلا من المرح والفكاهة، برغم أن المصريين قد اشتهروا بحسهم بالدعابة والفكاهة. لم يجب بالقدر الكافى على سؤالى ولكنه اتفق معى فى الرأى، ربما لأنه، كما علمت فيما بعد، قد كتب مقالاً يأسى فيه للحس الاكتئابى العام الذى يظهر فى الكثير من الكتابات العربية الحديثة.

أتذكر أن أحد الحاضرين سأله عما إذا كانت قد راودته فكرة أنه فى يوم من الأيام قد يحصل على جائزة نوبل. ابتسم ابتسامته الساخرة تلك، قبل أن يجيبه بأنه لم يمنِّ نفسه قط بمثل هذا الحلم، لأنه كان يعى جيداً أنه فى مكان آخر فى القاهرة، هناك شخص ما يكتب بدرجة عالية من الموهبة، والإخلاص والمثابرة بدرجة تفوقه شخصياً.

لقد كان دوماً أكثر الناس تواضعاً. ■

كـتـــاب الــزاويـــة



القـــائـد البصيـــر

عبقـــرية محمـــد

لم يكن الإسلام إذن دين قتال ولم يكن النبى رجلاً مقاتلاً يطلب الحرب للحرب أو يطلبها وله مندوحة عنها، ولكنه مع هذا كان نعم القائد البصير إذا وجبت الحرب ودعته إليها المصلحة اللازمة، يعلم من فنونها بالإلهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمران، ويصيب فى اختيار وقته وتسيير جيشه وترسيم خططه إصابة التوفيق وإصابة الحساب وإصابة الاستشارة، وقد يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة تقترن بآية الابتكار والإنشاء، لأن القيادة الحسنة هى القيادة التى تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع، وهى التى تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام.

وقد كانت غزوة بدر هى التجربة الأولى للنبى - صلى الله عليه وسلم - فى إدارة المعارك الكبيرة، فلم يأنف أن يستمع فيها إلى مشورة الحباب بن المنذر حين اقترح عليه الانتقال إلى غير المكان الذى نزل فيه، ثم وعى من تجربة واحدة ما قل أن يعيه القادة المنقطعون للحرب من تجارب شتى فلو تتبع - صلى الله عليه وسلم - ناقد عسكرى من أساطين فن الحرب فى العصر الحديث ليقترح وراء خططه مقترحًا أو ينبه إلى خطأ، لأعياه التعديل.

مستهلكون وجوعى

■ يبلغ تعداد مجتمع المستهلكين فى العالم بليونا وسبعمائة مليون آدمى. إنه المجتمع المسئول عن الضغوط الواقعة على الأنظمة البيئية، بما ينتج عنها من مستودعات قمامة متضخمة، واستنزاف للموارد الطبيعية، وانتشار لظاهرة البدانة، بكل مدلولاتها، بين عدد كبير ممن ينتمون لهذا المجتمع. إن شهية مجتمع المستهلكين تزدرد كل الفرص لتحسين أحوال الحياة، لصالح أغنياء العالم وفقرائه، على السواء؛ فأعضاء هذا المجتمع يفرطون فى استهلاك السلع والبضائع والخدمات على نحو يضرب عرض الحائط بكل مفهوم لمعنى الاستدامة؛ فذلك السلوك الاستهلاكى الجامح يدوس فى طريقه كل شىء، ويسىء إلى حياة المستهلكين أنفسهم، ويجعل العالم يفقد اتزانه الطبيعى، ويترنح!. وفى مقابل هذا المجتمع المتخم، يوجد مجتمع آخر من الجوعى والفقراء والمشردين، يبلغ تعداده بليونين وثمانمائة مليون إنسان.

إن أحداً لا يمكنه إنكار أن الاستهلاك ضرورى لإقامة الصناعات وتنشيط حركة التجارة، وخلق فرص عمل جديدة؛ ولكن زيادته بهذا المعدل غير المسبوق، كفيلة بتقويض أسس أنظمة الأرض الطبيعية، التى تعتمد عليها حياة كل البشر، مما يجعل الفقراء أشد بؤساً.

إن هذا المجتمع الاستهلاكى يقوم على، ويدعم - بالوقت ذاته - ما يمكن تسميته بالصناعات الإتلافية، مثل صناعات السيارات، ومرابى الدواجن، وصناعات الأخشاب. وبالرغم من قوة هذه العلاقة، فمن الممكن مدافعها، إذا تبنى قطاع الأعمال والحكومات ومؤسسات المجتمع المدنى خططاً لتشجيع المنتجات الأقل خطراً على البيئة.

وكما سبق أن أشرنا، فإن للاستهلاك فوائده؛ ولكن معدلاته الحالية، وبخاصة عند كبار المستهلكين، فى الولايات المتحدة وغيرها من الأمم الغنية، فاقت كل حدود، وتجاوزت قدرة الأرض على التحمل؛ وأحياناً، تبدو الحالة مستعصية؛ وعلى سبيل المثال، لا يزال ٩٠٪ من الورق المستهلك فى العالم يأتى على حساب أشجار الغابات، إذ تأكل صناعة الورق، فى الوقت الراهن، خمس ما يستقطع من هذه الأشجار. أما المخزون السمكى العالمى، فقد جارت عليه شباك الجر القاعية، التى تكتسح كل ما تقابله على قاع المحيط، فكانت النتيجة أن تعرض ٧٥٪ من مساحة مسامك العالم المهمة لاهتزازات فى مخزونها، مما يعنى تناقص إنتاجيتها مستقبلاً بشكل يؤثر على كل من يفرطون فى استهلاك الأسماك، وأولئك الذين يأملون أن يروها - يوماً ما - على موائدهم!

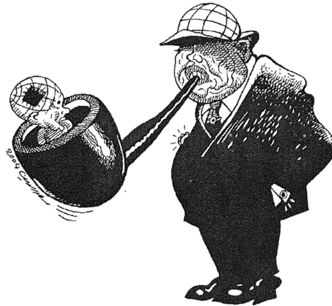


وفى الذكرى الثلاثين لتأسيس هيئة (وورلد ووتش إنستيتيوت) - مرصد العالم - صدر هذا العدد من تقرير (حالة العالم)؛ ليهتم برصد توجهات مجتمع المستهلكين، وليخبرنا كيف نستهلك، ولماذا، وتبعات خياراتنا الاستهلاكية على الحالة العامة للبيئة البشرية على الأرض، وعلى رفاق لنا فى الإنسانية، يشاركوننا الحياة فى هذا الكوكب المرهق. ويشتمل هذا التقرير على فصول للطعام، والماء، والطاقة، والسياسات الاستهلاكية؛ بالإضافة إلى فصل يحاول أن يحدد لنا ملامح ومعنى (الحياة الطيبة)؛ وقد شارك بكتابة هذا التقرير خبراء اختصاصيون، حاولوا - فى مجمل إسهاماتهم - أن يجيبوا على سؤال مهم، هو: هل بإمكاننا، نحن البشر، أن نحقق مجتمعاً إنسانياً أقل استهلاكاً ؟؛ ويؤكد التقرير، فى عموميته، على أن مثل هذا المجتمع ضرورة.

ويشير التقرير، فى الفصل الأول، إلى أن عالمنا المعاصر ينتج ويستهلك بمعدل أكبر من مجمل ما أنتج واستهلك، على مر تاريخ البشرية؛ إذ ينتج عمال الصناعة المعاصرون، فى أسبوع واحد، ما كان نظراؤهم، بالقرن الثامن عشر، ينتجونه فى أربع سنوات!. أما عن الاستهلاك، فيكفى أن نراجع إحصائية بسيطة، تقول أرقامها بأن قيمة الإنفاق الاستهلاكى الخاص، أى ما أنفقه الأفراد على السلع والخدمات، تضاعف أربع مرات، فى الأربعين سنة الأخيرة من القرن العشرين، ووصل إلى ٢٠ تريليون دولار، بالعام ٢٠٠٠.

ومن ملامح هذا العالم، أيضاً، أن حدود طبقة المستهلكين، التى كانت مقصورة، فيما مضى، على أغنى أغنياء العالم بأوربا وأمريكا الشمالية واليابان، اتسعت، ودخل فيها (أغنياء جدد)، ينتمون إلى الطبقات المتوسطة، فى الصين والهند وكثير من الدول النامية، حتى أصبح تعداد هذه الطبقة بليونا وسبعمائة مليون مستهلك عالمى (انظر الجدول رقم ١)؛ لهم اختياراتهم الخاصة من الطعام، ولا يكفون عن السفر والانتقال من مكان لآخر فى أنحاء الدنيا، بما يتفق وأساليبهم فى العيش؛ ثم إن السلوك الاستهلاكى قد تجاوز وظيفته الأساسية، وهى إشباع كل الرغبات، وتحقيق كل الأحلام فى حياة رغدة هائلة، فأصبح هدفاً بحد ذاته.

كما أن هذا العالم المعاصر ملىء بالمتناقضات، فبينما طبقة المستهلكين متخمة، يصارع بليونان وثمانمائة مليون من سكان العالم، من أجل الاستمرار فى الحياة، اعتماداً على دخل فردى لا يزيد على دولارين، فى اليوم الواحد؛ وبين هؤلاء المعدمين، بليون إنسان لا يجدون سبيلاً إلى مياه تصلح للشرب (يجسد الجدول رقم ٢ المفارقات الشديدة بين أوجه





بينما طبقة المستهلكين متخمة، يصارع بليونان وثمانمائة مليون من سكان العالم، من أجل الاستمرار فى الحياة، اعتماداً على دخل فردى لا يزيد على دولارين، فى اليوم الواحد



State of the World 2004 - Special Focus: The Consumer Society
(تقرير حالة العالم ٢٠٠٤ . نظرة خاصة إلى توجهات مجتمع المستهلكين)
World Watch Institute
January 2004 - 245 pages.

... معدة العالم فى خطر

رجب سعد السيد

إنفاق الأغنياء وتكلفة تلبية احتياجات فقراء العالم). كما أن توزيع المستهلكين فى العالم يضيف إلى هذه التناقضات ما يؤكدها؛ فالمستهلكون الأغنياء فى الشمال الأمريكى والغرب الأوروبى، وهم لا يمثلون إلا ١٢٪ من تعداد سكان العالم، يبلغ نصيبهم ٦٠٪ من مجمل الإنفاق الاستهلاكى العالمى، بينما لا تزيد نسبة إنفاق ٣٣٪ من سكان العالم، وهم فقراء جنوب آسيا وجنوب الصحراء فى إفريقيا، على ٣,٢٪. والمثير للدهشة والاستغراب أن هؤلاء الفقراء، الذين لا يقدرون على الإنفاق الاستهلاكى، يعيشون فى بلاد غنية بالموارد الطبيعية، التى تتسرب إلى أغنياء عالم غلاة المستهلكين عبر حركة تجارة عالمية متزايدة، بمباركة أنظمة إدارة (وطنية) يضربها الفساد!. ويجدر بنا، هنا، أن نتوقف لنراجع مقولة وردت إلينا من الغرب - وليس كل ما يأتى من الغرب يسرّ القلب! - هى (الاستدامة)، أو أى ترجمة تشاء للاصطلاح الأعجمى (Sustainability)، والذى يعنى، فى ظاهره، تقنين أو ترشيد استهلاك الموارد الطبيعية، حتى لا ننهك قدراتها الإنتاجية، لتخدمنا بالوقت الراهن، ولتظل محتفظة بقدرتها على خدمة أجيال تالية؛ وثمة شواهد كثيرة تكشف ما وراء هذا المفهوم؛ ففى وجود الأنظمة الإدارية الفاسدة، والحيتان من التجار، تتسرب هذه الموارد، لتغذى أنماط الاستهلاك فى الدول الغنية، التى تملك شراء منتجات هذه الموارد الطبيعية؛ ومعها ضمائر نفر من القائمين على إدارتها، متسترين وراء فكرة الاستدامة، التى هى، فى واقع الأمر، ليست أكثر من (سقف)، لا يجب على مؤسسات التنمية الوطنية تجاوزه، وإلا اتهمت بالإساءة للأنظمة البيئية ومواردها الطبيعية!.

إن من حق هؤلاء الفقراء أن يجدوا ما ينفقونه على سلع وخدمات تحسّن أحوالهم المعيشية؛ أما أن تستمر الصورة على ما هى عليه، وأن يمضى العالم بهذا المسار المختل، فهذا أمر منذر بالخطر، وذلك لأن الأنظمة البيئية الطبيعية لا يمكنها أن تحتمل أكثر هذا الوضع الذى ترسّخ فى القرن العشرين، وبات يمثل تحديا حقيقياً للبشرية، فى القرن الحالى.

ويخلص هذا الفصل إلى أننا نحن البشر بحاجة لإعادة النظر فى أساليب استهلاكنا، وإعادة ترتيب أولوياتنا الاستهلاكية، فلا يكون تركيزنا على إنتاج هائل الحجم من سلع تغرق الأسواق، بل يسبقه توجه إلى تحقيق حياة أفضل، تأسيساً على نوعية أفضل، وليس أكثر، من السلع والخدمات، تتضاءل أضرارها البيئية.



ويفرد التقرير الفصل الثانى لاستهلاك الطاقة؛ فلا أحد يستغنى عنها، فعليها تقوم كل عمليات إنتاج مقومات الحياة، من طعام وشراب وملبس ومسكن. وقد شهد النصف الثانى من القرن العشرين تطوراً كبيراً فى كفاءة استخدام الطاقة، وكان ذلك أجدر بأن يخفف من الضغط على مصادرها؛ غير أن ذلك لم يحدث، إذ صاحب ذلك التطور تبدلات هائلة فى أساليب حياة طبقة المستهلكين المعاصرين، فازداد نهمها للطاقة، لتركب سيارات أكثر وأكبر وأسرع، ولتعيش فى منازل لا تتوقف فيها أجهزة التكييف، وغيرها من أجهزة منزلية كهربية، عن العمل؛ ومن جانب آخر، أصبحت موارد الطاقة بالعالم محدودة القدرات، ولم تعد قادرة - حسب التقرير - على أن تحقق لكل إنسان فى العالم رغبته فى أن يعيش بأسلوب حياة الفرد الأمريكى أو الأوروبى متوسط الحال. حسناً، لقد غاب عن محرر هذا الفصل من التقرير أن (أطماع) من يعانون (عوز الطاقة) فى العالم أقل من ذلك بكثير، فهم لا يتطلعون - فى الغالب - إلى نمط الحياة الأوروبية أو الأمريكية، بل يرضيهم قدر من الطاقة يفى بحاجتهم الضرورية من الضوء، ليأمنوا ويتعلموا، وليضخوا المياه، ليشربوا ويزرعوا لقمة عيشهم، وقد تصل أحلام الطاقة عندهم إلى (السقف) إذا فكروا فى ثلاجة كهربية تحفظ أطعمتهم!؛ فالبون شاسع بين استهلاك أغنياء العالم وفقرائه من الطاقة، إذ يستهلك الفقراء أقل من الأغنياء بمقدار ٢٥ مرة. إننا نتحدث هنا عن (أغنياء مسرفين)؛ بينما يوجد أغنياء يستهلكون الطاقة بغير إفراط، ويعيشون (حياة طيبة)؛ وثمة مثالان واضحان على ذلك: اليابان، والنرويج؛ حيث يرتفع مستوى معيشة الأفراد، بينما يقل كثيراً معدل استهلاك الفرد من الطاقة عن نظيره الأمريكى.

وعلى كل حال، فإن بيد الحكومات أن تفعل الكثير من أجل استدامة الطاقة وتخضيرها، أو بمعنى آخر، تنظيف وترشيد إنتاجها واستهلاكها، صونا لمواردها، وحماية للبيئة؛ فيمكنها - على سبيل المثال - تبنّى سياسات للطاقة تعتمد على قوانين حازمة ومعايير قياسية، تدعم الملتزمين، وتفرض الضرائب على المخالفين. كذلك، يمكن للأفراد أن يؤثروا فى قضايا الطاقة، بمراجعة القرارات اليومية، التى يتخذونها كمستهلكين، فلا يقبلوا على المنتجات والخدمات التى تستهلك كميات كبيرة من الطاقة؛ كما يمكنهم - كرأى عام، وكأعضاء فى مؤسسات المجتمع المدنى - التأثير على مراكز صنع سياسات إنتاج واستهلاك الطاقة.

ويتناول التقرير، فى الفصل الثالث، مسائل إنتاج واستهلاك المياه العذبة، وهى مسائل حاكمة فى خطط التنمية؛ فالمجتمع الآمن، الذى يتوخى أن يتوفر لبرامج التنمية فيه عنصر الاستدامة، هو الذى يسعى لتلبية احتياجات أفراده من المياه، دون أن يجور على الأنظمة البيئية؛ ويرى محرر هذا الفصل من التقرير أن هذا الهدف قابل للتحقق، بتنظيم الجهود، فى مواجهة تحديات حقيقية...

لقد تعاظم تأثير البشر على أنظمة وموارد المياه





من حقنا - بل من واجبنا إزاء أنفسنا وإزاء بيئتنا - أن نتحقق من أن ما نأكله خال من المواد الحافظة المشبوهة، ومن المبيدات والهورمونات ومضادات الحيوية؛ وهى كلها كيماويات تضر بصحة البشر وسلامة البيئة





العذبة، في نصف القرن الماضي، مع تزايد تعداد سكان العالم، وتبدل أساليب استهلاكهم للمياه، فتضاعف الطلب على المياه ثلاث مرات، خلال هذه المدة؛ وقد استدعى هذا الطلب المتزايد إنشاء مزيد من السدود في العالم؛ فقفز عددها من ٥ آلاف سد، في العام ١٩٥٠، إلى ٤٥ ألف سد، بالعام ٢٠٠٤. ويسجل التقرير ملاحظة مهمة، وهي أن المراقبين - في مجملهم - لا يهتمون إلا بتسجيل الجوانب الإيجابية لهذه القفزة الهائلة في عدد السدود ومشاريع الري وتنظيم المياه العذبة في العالم، متجاهلين، أو مهونين من كلفتها الاجتماعية والبيئية، المتمثلة في النازحين والمهجرين، وتمليح التربة الزراعية، وتغير أنظمة المصايد، وفقدان أنواع من الكائنات المائية المهمة؛ وفي معظم الأحيان، تحسم القضية لصالح المشروعات التي توفر المياه لخطط التنمية؛ والتحدي هنا، هو: كيف يتحقق التوازن بين إيجابيات هذه المشروعات وسلبياتها.

ومن التحديات التي تطرحها قضية موارد المياه العذبة في العالم، أيضاً، التباين الشديد في الاحتياجات وأنماط استهلاك المياه العذبة في العالمين، الفقير والغني: فأول الأولويات في الأول، الذي يسمى - دائما - بالنامي، هو إمداد الناس بحاجاتهم الضرورية من المياه النظيفة والمرافق الصحية، غير أن القدرات السياسية والتمويلية، في كثير من الدول التي تنتمي لهذا العالم، تعاني قصوراً يعجزها عن توفير هذه الاحتياجات الأساسية. على العكس من ذلك، يتخذ التحدي، في عالم الأغنياء، شكلاً آخر، حيث تعجز إدارات إنتاج وتوزيع المياه في العالم الصناعي المتقدم، عن كبح جماح استهلاك المياه في أغراض ترفيهية، مثل ري مروج رياضة الجولف!. وبالرغم من هذا التباين في الاحتياجات وأنماط استهلاك المياه العذبة، يشترك العالمان، الصناعي والنامي، في تلويث وإهدار كميات كبيرة من هذه المياه؛ وأيضاً في الحاجة إلى تفعيل وزيادة كفاءة الإدارات القائمة على استهلاك المياه.

ويدعونا الفصل الرابع من التقرير إلى أن ننظر، كأفراد، لقوائم طعامنا. إن كلمة (أفراد) تعني ٦ بلايين إنسان، هم سكان البسيطة: ولك أن تتخيل حجم تأثير قرارات يجتمع عليها هذا العدد الهائل من البشر - أو، حتى، نصفه - فيما يخص الطعام فقط؛ فمجمل احتياجاتنا كمستهلكين هو الذي يحدد طرق الإنتاج وأساليب الاستهلاك؛ وعلى هذه القوة المستهلكة، وهي تنتقي أطعمتها، أن تكون على وعي بالأنظمة الزراعية والتصنيعية المنتجة للطعام، وأن تنحاز إلى جانب تلك التي تراعي صحة الآكلين وسلامة البيئة. إن بعضنا يتناول أطعمة لا يعرف عنها إلا الدولة التي صنعت فيها، كما تقول البيانات الملصقة على عبواتها. لقد تضخمت أنشطة تجارة المواد الغذائية، وباعدت بيننا وبين مواقع إنتاج وتصنيع هذه الأغذية؛ ولم يقتصر هذا التباعد على الجانب الجغرافي، بل إن ثمة تباعداً نفسياً؛ فإنك حين تعرف أين وكيف يصنع الطعام الذي تضعه على مائدتك، ويلتف حوله أفراد أسرتك، ينشأ لديك حال من الاطمئنان، تفتقده في حالة العكس. فعلينا، كمستهلكين، إدراك أن الأطعمة التي تصنّع وتغلّف، وتقطع آلاف الأميال، في عمليات نقل وتوزيع، قبل أن تصل إلى موائدنا، يتعدى ثمنها ما ندفعه من جيوبنا؛ فثمة كلفة إضافية، متمثلة في التبعات البيئية والصحية المترتبة على إنتاجها وشيوعها بين الناس؛ وأهم هذه التبعات: صور من التلوث المرتبط بعمليات الإنتاج - ازدياد ظاهرة البدانة - تراجع عادة الاجتماع حول الوجبات، أمام النزعة إلى (التقاط) الوجبات السريعة (تيك أواي)!

ومن جهة أخرى، يجعلنا أسلوب استهلاك الطعام، واختيارنا لما نأكل، عرضة لأخطار صحية كثيرة؛ وعلى سبيل المثال، يعاني ٦٥٪ من الأمريكيين درجات متفاوتة من السمنة، تكلفتها: ٣٠٠ ألف حالة وفاة، سنوياً، بالإضافة إلى مصاريف الرعاية الصحية، التي بلغت، في عام ١٩٩٩ وحده، ١١٧ بليون دولار؛ إن ذلك يدعونا إلى مراجعة اختياراتنا وأساليبنا الغذائية؛ وقد تكون الخطوة الأولى في هذه المراجعة هي تأسيس معايير صحية للطعام، توفر لنا السلامة، فلا نكتفي بمعيار وحيد، مثل محتوى الطعام من السعرات الحرارية؛ فمن حقنا - بل من واجبنا إزاء أنفسنا وإزاء بيئتنا - أن نتحقق من أن ما نأكله خال من المواد الحافظة المشبوهة، ومن المبيدات والهورمونات ومضادات الحيوية؛ وهي كلها كيماويات تضر بصحة البشر وسلامة البيئة. وبالإضافة إلى هذه المعايير الضرورية، فإن بمقدور (الآكلين) أن يحدثوا تغييرات عميقة ومؤثرة، من خلال ما يضعونه على موائدهم، إذا قللوا من اللحوم، وقاطعوا المنتجات الزراعية المعتمدة على الكيماويات، ولم يهتموا بالطعام المستورد (القادم من بعيد)، لصالح المنتج المحلي. وعلى أي حال، فإذا لم يكن لنا حيلة في اختيار طعامنا، وإذا كان علينا أن نأكل ما يقدم لنا، فمن حقنا - كآدميين - بل من مسئوليتنا، أن نعرف أسلوب إنتاج هذا الطعام الذي أرغمنا على ازدراده!



ويتعرض الفصل الخامس من التقرير للعلاقة بين النظام الاقتصادي وأساليب الاستهلاك؛ فيشير إلى أن معظم الأنظمة الاقتصادية في العالم الصناعي لا يهتم بإنتاج سلع معمّرة، بقدر اهتمامه بالسلع الوقتية، أي تلك التي تستخدم لمرة واحدة ثم تهمل، ليعود المستهلك - حين يحتاج إليها مجدداً - ليشتريها مرة ثانية، وثالثة... إلخ. ويساعد على إقرار هذا النمط الاستهلاكي سهولة إنتاج كميات ضخمة من تلك السلع، وانخفاض ثمنها نسبياً. ومن جهة أخرى، فقد عمل السلوك الاستهلاكي الجامح على ترسيخ هذا التوجه الاقتصادي، كما غذاه رغبة دائمة في تحقيق معدلات متزايدة من النمو الاقتصادي. وقد أدى ذلك كله لسحب البشرية إلى شفا هوة بيئية سحيقة؛ فنحن نعيش في عالم أفرط جانب من سكانه في استغلال موارده، بل جاروا عليها؛ ومن ناحية أخرى، فإن التلوث يضرب هواء ومياه الأرض، التي اختل مناخها وتدهورت أحوال أنظمتها البيئية، على وجه العموم. وهذه الأحوال، التي نعاينها ونعانيها، تضع أهل الأرض أمام تحد بالغ الصعوبة؛ فهم مطالبون بتخفيف وطأة ضغوطهم على الموارد الطبيعية المنهكة، بما يستدعي أن يبادر الأغنياء بالاستغناء عن بعض مظاهر الرغد والرفاهية، لينخفض استهلاكهم من الطاقة والمواد الأولية المختلفة بمقدار ٩٠٪، في العقود القليلة القادمة؛ ولعلنا نجد من يشاركنا التشكك في احتمال أن يتحقق ذلك!.

ويكشف لنا الفصل السادس عن نوع من (الإنفاق) الاستهلاكي، يلعب دوراً خطيراً في رسم ملامح خريطة الاستهلاك العالمي، هو (الإنفاق الحكومي، أو المؤسساتي)؛ إذ تبين أن مجمل ما تنفقه الشركات، والإدارات الحكومية، والمنظمات الدولية، والجامعات، وما شابه ذلك من مؤسسات وهيئات، على شراء السلع وطلب الخدمات، في السنة الواحدة، ما يفوق الناتج الإجمالي المحلي لعدة دول؛ وفي بعض الدول الصناعية الكبرى، تبلغ قيمة المشتريات الحكومية ٢٥٪ من قيمة ناتجها الإجمالي المحلي؛ وقد اشترت حكومات دول الاتحاد الأوربي، بالعام ٢٠٠١، بضائع وخدمات زادت قيمتها على تريليون دولار، أي ما يوازي ١٤٪ من الناتج الإجمالي المحلي لتلك الدول؛ وتبلغ هذه النسبة، في دول أمريكا الشمالية، ١٨٪، وتزيد قيمتها الفعلية على ٢ تريليون دولار في السنة؛ كما بلغ إنفاق الأمم المتحدة على السلع والخدمات التي

الجدول رقم (١)

توزيع الأنصبة من الاستهلاك على المستوى الخاص، مقابل تعداد السكان، في مناطق مختلفة من العالم

(نسبة مئوية)

المنطقة	نصيبها من الاستهلاك الخاص، عالميا	تعداد السكان (بالنسبة للتعداد العالمي)
الولايات المتحدة وكندا	٣١.٥	٥.٢
أوروبا الغربية	٢٨.٧	٦.٤
شرق آسيا	٢١.٤	٣٢.٩
أمريكا اللاتينية ودول الكاريبي	٦.٧	٨.٥
أوروبا الشرقية وأواسط آسيا	٣.٣	٧.٩
جنوب آسيا	٢.٠	٢٢.٤
أستراليا ونيوزيلندا	١.٥	٠.٤
الشرق الأوسط وشمال أفريقيا	١.٤	٤.١
جنوب الصحراء الأفريقية	١.٢	١٠.٩



استهلكتها هيئاتها وبرامجها المختلفة، في العام ٢٠٠٠، أربعة عشر بليون دولار. وتتميز الجامعات بين المؤسسات والهيئات التي تفرط في الإنفاق على استهلاك السلع والخدمات؛ وهذا أمر مثير للدهشة: فالجامعات، كما هو متوقع، مؤسسات خدمية بالدرجة الأولى، تنتج وتقدم خدمات التعليم والبحث العلمي للأفراد، ولغيرها من مؤسسات المجتمع، فالأولى بها والأليق لها أن تسبق صفتها كمؤسسات منتجة صفتها كمؤسسات مستهلكة، غير أن هذا التقرير يشير إلى أن إنفاق الجامعات في العالم على شراء السلع والخدمات يقدر ببلايين الدولارات، سنوياً؛ وتشتمل قائمة الإنفاق الاستهلاكي لها على بنود متنوعة، من مبان ومنشآت ومخيمات، إلى الوجبات السريعة. وقد أنفقت الجامعات الأمريكية، على سبيل المثال، في العام ١٩٩٩، أكثر من ٢٥٠ بليون دولار، على السلع والخدمات، وهو ما يوازي ٣٪ من الناتج الإجمالي المحلي الأمريكي.

إن نشاط هؤلاء المستهلكين الكبار يؤثر على استهلاك الأفراد؛ فقدراتهم الإنفاقية الضخمة تلحق هزات كبيرة بالأسواق، وتسحب السلع من أمام آلاف المستهلكين الأفراد.

ويتصدر الفصل السابع عنوان: الاستهلاك والعولمة والحاجة للانضباط، ويعالج - كما هو واضح - الارتباط الذي شهده عقد التسعينيات من القرن المنقضي، بين تيار العولمة الجارف وتنامي الاقتصاديات الاستهلاكية. لقد كان ذلك مصحوباً بانتعاش اقتصادي وفر المزيد من السلع والخدمات، وجعلها بمتناول القوى الشرائية الاستهلاكية، كما واكبه تدفق لرؤوس الأموال عبر الحدود الدولية. وقد اعتمد ذلك كله على تضخم واضح وسريع في حركة تجارة مواد أولية، جاءت من موارد طبيعية واقعة، أصلاً - ومنذ زمن طويل - تحت ضغوط استغلال جائر وإدارة بيئية جانبها السداد، مثل مسامك العالم، والغابات الاستوائية، وبعض المناجم. ويتساءل التقرير: ألا يمكن للعولمة أن تغذي توجهاً نحو أنماط وأنساق إنتاجية واستهلاكية يتحقق فيها عنصر الاستدامة، بمعنى أن تمهد السبل لخلق اقتصاد عالمي يتأسس على صون وحماية موارد العالم، لا على إنهاكها أكثر بالاستغلال غير الرشيد ؟. يقول التقرير إن ذلك ممكن، شريطة أن تتم بعض الإجراءات، مثل تقوية الاتفاقيات والمعاهدات البيئية الدولية، والمؤسسات المهتمة بشئون البيئة؛ وإصلاح أسس التجارة العالمية؛ ودعم أنشطة القطاع الخاص ومؤسسات المجتمع المدني.



وينتهي التقرير بفصل ثامن، يدعو إلى إعادة النظر في معنى (الحياة الطيبة)؛ ويرى أن طيب العيش لا يرتبط - بالضرورة - بالغنى؛ و يلفت التقرير نظرنا إلى أن معظم الجدل الدائر حالياً حول مبدأ الاستدامة يتركز في الاعتبارات البيئية والاقتصادية المطلوب مراعاتها لضمان عالم صحي؛ ولا يكاد المتجادلون يلتفتون إلى المسائل الاجتماعية والنفسية، في هذا الخصوص، على ضرورتها وأهميتها في تكوين الثقافات، ومن ثم تحقيق عنصر الاستدامة. وتأسيساً على هذا التصور، تحرص الحكومات على أن يستمر النمو في الناتج الإجمالي المحلي، مفترضة أن الزيادة في الدخل تحقق مستوى معيشة طيباً، يتيح فرصاً أكبر للاستهلاك؛ والحقيقة، هي أن ذلك قد تكون له مردودات محبطة؛ والدليل على ذلك أن نوعية الحياة في بعض دول العالم الغني تعاني ضغوطاً متزايدة، وتمر بأوقات عسرة، ويعتريها اضطرابات في العلاقات الاجتماعية.

والمزعج في قضية الاستهلاك والمستهلكين أن ليس ثمة ما يشير إلى احتمال كبح جماح هذه الموجة الاستهلاكية الشرسة، وبصفة خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يغرق المستهلكون في طوفان من السلع الاستهلاكية والخدمية، وحيث يتسم السلوك الاستهلاكي بالمغالاة؛ وعلى سبيل المثال، ازداد عدد المنازل في ربع قرن (١٩٧٥ - ٢٠٠٠) بنسبة ٣٨٪، مع انخفاض متوسط عدد سكان المنزل الواحد؛ كما أن عدد السيارات الخاصة التي تجري على الطرق الأمريكية يفوق العدد المأذون له بالعمل من قبل الجهات الإدارية؛ ومن مؤشرات زيادة الاستهلاك الأمريكي، أيضاً، زيادة متوسط حجم المبردات المنزلية بنسبة ١٠٪؛ في الفترة من ١٩٧٢ إلى ٢٠٠١، مع زيادة متوسط عدد وحدات التبريد في المنزل الواحد. فهل ارتبطت هذه الزيادة في الاستهلاك بسعادة المواطن الأمريكي؟. لقد أجري استقصاء للرأي، في العام ٢٠٠١، لقياس ارتباط درجة الغنى والقدرة الاستهلاكية بالسعادة الشخصية، وتبين منه أن ثلث الأمريكيين، فقط، يمكن أن يوصفوا بأنهم (سعداء جداً)؛ وهي نتيجة مشابهة لأخرى، تم التحصل عليها بالعام ١٩٥٧، حين كان الأمريكيون أقل ثراء، بمقدار النصف! ومن جهة أخرى، فلكي يضاعف الأمريكيون مستوى ثرائهم، في نصف القرن الماضي، كان عليهم أن يعملوا أكثر: فازداد متوسط عدد أسابيع العمل، بالسنة الواحدة، بمقدار تسعة أسابيع، مقارنةً بأحوال العمل عند الأوروبيين؛ فكانت النتيجة أن أرهق العمل الزائد المواطن الأمريكي، وبالوقت ذاته، لم يجعل الدخل الإضافي، المقابل لهذا العمل، حياة الأمريكيين أكثر سعادة!. وفي عملية مسح استقصائي، أجرتها مؤسسة مراقبة العالم (وورلد ووتش إنستيتيوت)، في مختتم القرن الماضي (١٩٩٩/٢٠٠٠)، لدراسة أحوال المعيشة في ٦٥ دولة، تبين أن الرضا عن الحياة، والدخل، يسيران في تساوق، حتى يصل الدخل السنوي للفرد إلى ١٣ ألف دولار (بالقيمة الشرائية للدولار في العام ١٩٩٥)، بعدها، لا تضيف الزيادة في الدخل إلا ارتفاعاً طفيفاً في الإحساس الشخصي بمعنى السعادة!

وينتهي الفصل الأخير من التقرير بالدعوة إلى ضرورة مراجعة ما استقر لدينا من معنى للرغد والازدهار على أنه جمع وتكديس للسلع؛ فلا يكفي الثراء، وحده، لتحقيق مستوى معيشة طيب، إذ يسبقه عوامل أخرى، مثل الحرية والصحة والأمن والعلاقات الاجتماعية المرضية.

وكان من الطبيعي أن تثير هذه التوجهات الاستهلاكية الجامحة كدر وسخط بعض أنصار البيئة وصانعي السياسات الاقتصادية؛ وقد تمخض ذلك عن بعض الأفكار والإجراءات المقترحة، التي يرونها كفيلة بوقف هذه الموجة الاستهلاكية المندفعة: منها:

١ - فرض ضرائب على المصنوعات المتسببة في إيذاء البيئة، بتلويثها أو بالضغط على مواردها الطبيعية؛ وبالوقت ذاته، وضع معايير وآليات لمراقبة الإنتاج، من شأنها التقليل من الآثار السلبية على حيوية الموارد الطبيعية.

٢ - تنشيط سياسة استعادة المنتجات بعد انتهاء استخدامها واستنفاد الغرض منها، وإلزام الشركات المنتجة بأن تسترد هذه المنتجات، بعد انتهاء فترة صلاحيتها، فلا تلقى في مستودعات المخلفات، ولا تحرق؛ مما يخفف الضغط على طبيعة الأنظمة البيئية.

٣ - إطالة عمر المنتجات، وتصنيعها بحيث يسهل إصلاحها إذا عطبت، وتحديثها عند الضرورة؛ وتقليل كمية وعدد الخامات المستخدمة في تصنيعها؛ وهذا إجراء إضافي، كفيل بصون الموارد الطبيعية، وتقليل المخلفات.

٤ - كما أن السلوكيات الاستهلاكية بحاجة إلى قرارات أخرى، تعد بالملايين، يتخذها المستهلكون أنفسهم، على المستوى الفردي، وتتعلق بما يستهلكونه في حياتهم اليومية من طعام وماء وطاقة... إن هذه القرارات - في مجموعها - تشكل قوة هائلة، توجه سياسات الإنتاج والاستهلاك. ■

الجدول رقم (٢)
تكلفة إنفاق الأغنياء على سلع الرفاهية
مقارنة بتكلفة الوفاء باحتياجات أساسية للفقراء
(القيمة بالبليون دولار في السنة)

أوجه إنفاق الأغنياء	قيمتها	احتياجات الفقراء	قيمتها
مستلزمات (الماكياج)	١٨.٠	رعاية الحوامل	١٢.٠
طعام الحيوانات الأليفة	١٧.٠	مكافحة الجوع وسوء التغذية	١٩.٠
العطور	١٥.٠	مكافحة الأمية	٥.٠
رحلات بحرية ترفيهية	١٤.٠	توفير مياه صالحة للشرب	١٠.٠
استهلاك المرطبات (في أوربا فقط)	١١.٠	تطعيم الأطفال ضد الأوبئة	١.٣
مجمل إنفاق أغنياء العالم على السلع والخدمات غير الأساسية	٧٥.٠	المطلوب لتحسين حياة الفقراء	٤٧.٣

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

هزيمة أمريكا فى فيتنام مقارنة بين التجربة الفيتنامية والتجربة الفلسطينية

د. أمل خليفة

القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٥، ١٤٧صفحة



تأتى أهمية هذا الكتاب من حيث كونه يلقى الأضواء على تجربة أمريكا فى فيتنام كنموذج لحروبها الحديثة التى كان آخرها احتلال العراق..

من بين سطور الكتاب، تتكشف الكثير من جوانب العقل العسكرى/ السياسى الأمريكى بكل أهدافه الساعية إلى تغيير خرائط المنطقة العربية، وإعادة ترتيب أولوياتنا الثقافية والسياسية بما يتناسب مع مصالحها هى فى المقام الأول وربما الأخير.

تقول مؤلفة الكتاب: إن أيدى الأمريكيين ممتدة نحو رؤوسنا يتهيأون لشقها بالمشارط، وفى نيتهم أن يحذفوا من تلافيف عقولنا ما لا يروق لهم، ثم يوسعون موضعاً لبعض الأسلاك تتصل بما فى أيديهم من أزرار للتحكم فينا عن بعد فيما يسمونه نظام «الريموت كونترول».

يقدم الكتاب الهزيمة العسكرية والسياسية التى منيت بها أمريكا فى فيتنام لعل العقل العربى يستفيد من دروسها وخبراتها وهو فى مواجهة الطوفان الأمريكى الذى بدأ فى العراق ولا أحد يعلم إلى أين ستقوده خطواته القادمة فى منطقتنا.. خاصة أن الحملات العسكرية التى شنتها الولايات المتحدة فى النصف الثانى من القرن العشرين - أى خلال ٥٠ عامًا - أكثر من خمسين حملة، وفى السنوات الأربع الماضية من القرن الحادى والعشرين احتلت أمريكا دولتين: أفغانستان والعراق.

وسطور الكتاب تقدم أهم وقائع الحرب الأمريكية فى فيتنام، وتبين كيف استطاعت هذه الدولة الفقيرة أن تهزم عسكريًا أكبر قوى فى العالم فى ستينيات وسبعينيات القرن الماضى.

كما تقدم أيضاً مقارنة بين التجربة الفيتنامية والتجربة الفلسطينية.

■

الحقيقة والشريعة فى الفكر الصوفى.. قراءة فى نصوص الحلاج والغزالى

عبد السلام نور الدين

دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٤، ١٩٩ صفحة



اتسم الفكر الذى تبلور فى باطن الحضارة الإسلامية، بالتوفيق بين الثنائيات المتباينة، رغم أن الإسلام نفسه دين التوحيد.. هذه الملاحظة المنهجية هى جوهر هذا الكتاب الذى يؤكد أن نزعة التوفيق بين هذه الثنائيات: التسيير والتخيير، العقل والنقل، الحكمة والشريعة، أدت بأصحابها إلى النجاة من التهلكة، فى حين سقطت تهمة الزندقة على أولئك الذين ساروا بواحدية العقل إلى نهايته المنطقية مثل ابن الراوندى والرازى والحلاج.. إلا أن هذه الثنائية وتوفيقية العقل العربى - كما يقول الكتاب - ظلت عائقًا أمام تطور هذا العقل، وظلت أيضاً حائلاً دون أن يرى الأشياء فى تجسدها العينى الكامل وفى تجددها المطلق.

يقول المؤلف إن الكندى والفارابى وابن سينا قد عبدوا الطريق لابن رشد ليبسط مقال الاتصال بين الحكمة والشريعة. ولكن تلاميذ ابن رشد الأوروبيين حينما فصلوا بين الحكمة والشريعة على الرغم من معارضة توماس الاكوينى قبيل عصر النهضة، انفتحت مسالك الفصل بين الكنيسة والدولة، ولم تكن العلمانية الأوروبية فى عصر النهضة الأوروبية (فى بعض ملامحها الفكرية) سوى ثمرة غصنى العقل والنقل، الحكمة والشريعة الإسلامية، بعد أن قضى تلاميذ ابن رشد المسيحيون الالتفاف بينهما، وتدلى كل فرع بثماره حيث شاء.

وإذا كانت أفكار ابن رشد قد عبرت مضيق جبل طارق لتحرك بحيرة القرون الوسطى المسيحية الراكدة، إلا أن مجرى الثنائية والتوفيق قد ازداد عمقًا فى العالم الإسلامى، وانتقلت من علم الكلام والفلسفة إلى العرفان الصوفى فى صورة الثنائية والتوفيق بين الحقيقة والشريعة: الحقيقة الإلهية فى تنزيهها وتجريدها المطلق.. والشريعة فى تجسيدها المطلق فى صورة الدولة.

يؤكد المؤلف: إنه إذا كان سيد المرسلين محمد ﷺ قد نقل العرب من الظلمات إلى النور بفضل لا إله إلا الله وهدم الأوثان وحرر الكعبة من حيث اعتبار المشركين لها بيت الله والأصنام معًا، فإن قريش استشعرت الخطر فى الدعوة الجديدة التى ترمى إلى فصل الدين عن التجارة، والدولة عن القبيلة، وفصل ثنائية بيت الله والأصنام، وانتصر الإسلام وأصبح الدين كله لله، لكن سرعان ما عادت العقلية العربية التقليدية إلى قواعد ثنائياتها وتوفيقها.

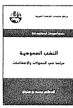
وفيما غامر الحلاج بتجاوز الثنائية وتمسك بواحدية الحقيقة الإلهية وارتقائها على الشريعة، كان قد قرر عن طيب خاطر أن يتنازل عن عنقه فى سبيل الظفر بجوهرة جمال الحقيقة، وهو ما اعتبره بعض وزراء دولة المقتدر العباسية تحريضًا للعامة وتحرشًا بالخلافة وتحريضًا بالوزراء، فعلقوه على الخشبة. أما الغزالى فقد توقف دون ذلك رغبة فى وصال الدولة وخوفًا منها، وإن كان قد توصل بعد مكابدة وتمزق وفى وقت متأخر إلى أن يتخلى عن خدمة دولة آل سلجوق بعد أن حاول عبثًا أن يوفق بينها وبين الحقيقة الإلهية.

■

النخب السعودية، دراسة فى التحولات والإخفاقات

د. محمد صنيتان

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ٢٢٠ صفحة، ٦ دولارات أو ما يعادلها



صدر حديثًا عن مركز دراسات الوحدة العربية كتاب «النخب السعودية: دراسة فى التحولات والإخفاقات» للدكتور محمد بن صنيتان ضمن سلسلة أطروحات الدكتوراة.

ينصب اهتمام هذا الكتاب على دراسة مكونات النخب السعودية ميدانيًا، ومحاولة تشخيص جملة الأسباب التى حدّت من فاعليتها وأعاقت أداءها لجملة وظائفها الريادية، وفى جملتها المساهمة من موقع متقدم فى التحديث الاجتماعى والسياسى الحقيقى بما يدعم المواطنة والمشاركة السياسية الواسعة والعدالة الاجتماعية.

لقد استطاع المجتمع السعودى أن يفرز نخبًا كان وراءها بالأساس متغير التعليم، ومتغير النفط والإرادة السياسية. وتشير أهم نتائج هذه الدراسة إلى أن هذه النخب لم تفلح فى أن تكون ريادية، بل هى عامل يغذى أحيانًا الثنائيات القديمة ونزعات التفاخر الإقليمى أو المناطقى، والمفاضلة بين البدو والحضر، مع ما للاستتباعات الخطيرة التى غذاها النفط: كالسلوك الاستهلاكى، والبذخ التفاخرى وعلاقات السمسرة والمحسوبية من أثر حاسم.

غير أن العقد الأخير، بما تضمنه من ضغط حرب الخليج وتبعاتها الاقتصادية والمالية، وما يحدث فى دول الجوار من تحولات قد يدفعان هذه النخب إلى مراجعة مقولاتها وسلوكها.

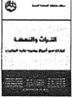
■

التراث والنهضة، قراءات فى أعمال محمد عابد الجابرى

نخبة من المؤلفين

إعداد: د. عماد عبد اللطيف

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ٢٨٧ صفحة، ٨ دولارات أو ما يعادلها



يحتل مشروع نقد العقل العربى مكانة متميزة فى مجال التفكير فى أسئلة التراث فى الفكر العربى المعاصر. ويعود السبب فى ذلك إلى نوعية التأليف خلال ما يزيد على ثلاثة عقود فى مجال الدراسات التراثية.

لقد اعتنى الجابرى منذ منتصف الستينيات بابن خلدون والخلدونية، ثم اهتم بأسئلة الفلسفة الإسلامية وقضاياها، واتجه بحكم تكوينه الفلسفى وانخراطه السياسى فى إشكالات العمل الوطنى والقومى وقضايا التحرر العالمى إلى بناء مشروع نظرى يروم بناء تصور شمولى لأسئلة التراث وقضاياه فى ثقافتنا المعاصرة.

يحتوى هذا الكتاب على أبحاث مهداة لمحمد عابد الجابرى بمناسبة مرور عشرين عاماً على بداية صدور مشروعه فى نقد العقل العربى، أعدتها نخبة من الباحثين بهدف المساهمة فى تحليل أعمال الجابرى ومناقشتها بأسلوب نقدى حوارى يساهم فى تعزيز مساحة الفكر النقدى العقلانى التجديدى فى فضاء الفكر العربى.

■

حياة مستقرة

عادل عصمت

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٤، ١٣٥صفحة



هذه هي الرواية الثالثة للروائي عادل عصمت بعد «هاجس موت» ١٩٩٥، و«الرجل العاري» ١٩٩٨، كما أن له روايتين تحت الطبع هما «قرية منسية» و«حالة سرد».

وفي هذه الرواية التي يبدو عنوانها مراوغا عن عمد، يعيش بطلها صراعات ساخنة داخل أسرته وخاصة مع شقيقه الأصغر، وتتفاقم هذه الصراعات مع موت أمهما، ودخول البطل في تجارب مع السفر والغربة في العراق وعلاقاته المفتوحة هناك، ثم عودته لمصر ليعيد ترتيب أوراقه أو في واقع الأمر محاولاته الدءوبة لترتيبها.

■

المعتزلة: نشأتهم.. فرقهم.. آراؤهم الفكرية

صلاح أبو السعود

القاهرة: مكتبة النافذة، ٢٠٠٤، ١٢٨ صفحة، ١٥ جنيهًا



يتفق المعتزلة بكافة فرقهم على أن الإنسان عليه أن يعرف الله عز وجل، وأن يفعل الحسن ويتجنب القبيح، والسبيل إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، والتمييز بين الحسن والقبيح هو: النظر العقلي.

وبعض المعتزلة يقولون بأن تقصير الإنسان في الوصول إلى هذه المعرفة يستوجب العقوبة، فالعقل عند المعتزلة هو ميدان معركتهم الكبرى مع المذاهب الإسلامية الأخرى، ويقوم الاعتزال على خمسة أصول، من قام بها فهو معتزل وهي: التوحيد، والعدل والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وباقتناعهم بوحدة الذات والصفات أي أن الله وصفاته شيء واحد، دخل المعتزلة معارك فكرية وفقهية ضارية مع خصومهم، إلى الحد الذي دفع هؤلاء الخصوم إلى تكفير المعتزلة، إضافة أيضًا إلى إيمان المعتزلة بخلق القرآن، فإنه إذا لم يكن مخلوقًا فهو قديم، وإن كان قديمًا فقد شارك الله سبحانه وتعالى في قدمه وأزليته، وهذا يعد عندهم شركًا، كما أنهم أيضًا ينكرون رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة.

يستعرض الكتاب بشيء من التفصيل أسباب تسمية المعتزلة بهذا الاسم، وكل آرائهم الفكرية والفقهية عند مختلف فرقهم الكبرى، كما يلقي الضوء على معاركهم السياسية في عصر الخليفة المأمون فيما حمل المعتزلة الناس على القول بخلق القرآن، وكان التعذيب والقتل نصيب المخالفين لهم في الرأي، كما يستعرض الكتاب أيضًا اندثار هذه السلطة السياسية للمعتزلة في عصر المتوكل الذي أظهر عداءه للاعتزال وأهله.

وتتبدى أهمية الكتاب في أنه يقدم بموضوعية أفكار الاعتزال مالها وما عليها، ودور الاعتزال في إعلاء شأن العقل في مسيرة الفكر الإسلامي عبر التاريخ.

■

القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين

تأليف: مجموعة من الأدباء المتحدثين بالإسبانية

ترجمة وتقديم: صالح علماني

مراجعة: د. محمد حسن موسى

الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة إبداعات عالمية، ٢٠٠٤



يحاول هذا الكتاب أن يرصد نماذج وتيارات مختلفة في مرحلة فسيحة عرفت إنتاجًا غزيرًا من القصة الأمريكية الإسبانية، ابتداء من قصة «الدجاجة المذبوحة» لهوراسيو كيروغا، المنشورة عام ١٩٠٧، وحتى قصة «نهاية الأسبوع» لماريو بينيديتي المنشورة عام ١٩٩٩، ضمن مجموعة «صندوق بريد الزمن».

والقراءة التي يمكن لهذا الكتاب أن يقدمها هي الاطلاع على تجربة الحداثة الإسبانو أمريكية كما تجلت في القصة القصيرة، وحركة التجديد فيها.

لقد كانت أمريكا الإسبانية، على امتداد حوالي أربعة قرون - مثل كل المستعمرات الأخرى - مجرد مورد للمواد الأولية، ومستورد ومستهلك للمنتجات المصنعة، ومن ضمن تلك المنتجات المستوردة، كانت تستهلك أدبًا يكتب على بعد آلاف الأميال عن واقعها، بعيدًا كل البعد عن مشاكلها وهمومها اليومية، ونجد أن أبرز الروائيين والقصاصين بهذه اللغة في النصف الثاني من القرن العشرين هم من أمريكا اللاتينية أيضًا. ومع ذلك، فإن أصالة القصة الأمريكية اللاتينية كانت قد استقرت ونضجت إبداعيًا منذ النصف الأول من القرن العشرين.

ومسيرة التجديد الحقيقية في القصة القصيرة تبدأ مع قصص هوراسيو كيروغا، أحد أبرز ملهمي الروح التجديدية في الإنتاج الأدبي الإسبانو أمريكي. فقد كان كيروغا أول من حاول وضع نظرية للقصة القصيرة الأمريكية الإسبانية، فحدد بدقة أطر هذا الجنس الأدبي وعناصره الأسلوبية.

وكان يرى أن «الإلهام»، هذا البعد الغامض في الإبداع، هو عنصر ضروري لا غنى عنه فعلاً، ولكنه كان يدرك في الوقت نفسه أن الافتقار إلى الملكة التقنية يمكن أن يفسد أرقى رؤية إبداعية.

وقد اهتم كيروغا، بصورة خاصة، في رسم الحدود الجوهرية الفاصلة بين القصة القصيرة والرواية، على الرغم مما بينهما من تداخل في الظاهر.

ومع أن المختارات الأدبية في هذا الكتاب كانت محاولة انتقائية لا تدعي الإحاطة الكاملة بالتاريخ الأدبي لأمريكا الإسبانية، إلا أنها نجحت بالفعل في تقديم إبداعات رموز الأدب والعديد من التيارات والنماذج الأدبية المميزة لهذه المنطقة التي لا يعرف عنها القارئ العربي الكثير.

■

عندليب

أميرة الشاذلي

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٤، ٨٤صفحة



تحمل سطور هذه القصة - بكل براءة وعفوية - آلام الشعب الفلسطيني في المخيمات، وكيف يترصد الموت عبر بنادق الصهاينة للأطفال الصغار؟

وكيف يرحلون عن الدنيا وهم بعد أعواد خضراء لا يعرفون للحياة معنى سوى اللهو واللعب مع أقرانهم.

بطلة هذه القصة واسمها عندليب فقدت أباها وهي طفلة صغيرة، شعرت بأنها تفتقر إلى الأمان وتأكد هذا الشعور الذي لم يبارح روحها وهي ترى طائرات إسرائيل تقصف أبناء شعبها، وأيضًا عندما اعتقلت إسرائيل أخاها بدر لمدة ثلاثة وثلاثين شهرًا ليخرج من المعتقل مصابًا بفقدان الذاكرة ورعشة في جميع أطرافه.

ورغم كل هذا التوحش الإسرائيلي الذي أصاب أفراد عائلتها. إلا أن عندليب دائمًا تبدو كعصفور يحب الحياة، يتحرر من خوفه من أجل مواصلة الطيران والتغريد.

■

الفيلسوف ابن رشد ومستقبل الثقافة العربية

د. عاطف العراقي

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤، ٦٥٥ صفحة

كان الفيلسوف العربي ابن رشد يدعو إلى دراسة مشكلات المعرفة على أساس العقل، وكان يؤمن بأن التمييز بين الخير والشر إنما يقوم على العقل وحده، كما درس مشكلة حرية الإرادة على أساس برهاني عقلاني.

كما خاض ابن رشد العديد من المعارك الفكرية مع الغزالي، وفكر الأشاعرة عمومًا وخالفهم في الكثير من القضايا، كما نقد أفكار الصوفية.

ويقول مؤلف الكتاب أن هذا الفيلسوف العملاق. ابن رشد قدم نسقًا فلسفيًا محكمًا كان تعبيرًا عن ثورة العقل وانتصاره، وبذل في التوصل إلى الآراء التي يتكون منها نسقه الفلسفي جهدًا كبيرًا.

كما استفاد من فلاسفة اليونان وفلاسفة العرب الذين سبقوه ومهدوا له الطريق: طريق العقل والاستنارة.. كما كان اشتغاله بالطب وكتابته فيه أكثر من كتاب ورسالة دليلاً على اعتزازه بالعلم.

وينقسم هذا الكتاب إلى قسمين: الأول، عن الفلسفة الرشدية من خلال أبعاد متنوعة يجمعها هدف واحد، هو النظر إلى مستقبل الثقافة العربية من منظور تجديدي تنويري، وكيفية الاستفادة من فلسفة ابن رشد ومبادئه العقلية النقدية، والثاني، عن تاريخ المؤلف نفسه مع ابن رشد وأفكاره طوال أكثر من أربعين عامًا.

■

عبد الحسين شعبان - صورة قلمية

القاهرة: مركز المحروسة، ٢٠٠٤، ٢٩٨ صفحة



يضم هذا الكتاب بين دفتيه وقائع حفل تكريم عبد الحسين شعبان، وهو

واحد من أبرز مناضلى حقوق الإنسان فى العالم العربى، والذى نظمه البرنامج العربى لنشطاء حقوق الإنسان.

ولد عبد الحسين فى مدينة النجف الأشرف فى ٢١ مارس ١٩٤٥ لأسرة عربية كبيرة يعود أصلها إلى اليمن، تخرج من جامعة بغداد واستكمل دراسته العليا فى براج حيث نال درجتى الماجستير والدكتوراة وتخصص فى القانون الدولى، وانخرط منذ فجر شبابه فى العمل السياسى، وكانت أول مشاركة له هى مظاهرة ضد العدوان الثلاثى حمله المتظاهرون خلالها على أكتافهم وكان يقرأ الشعر ويندد بسقوط حكومة نورى السعيد وبحياة جمال عبد الناصر. كما عمل فى صفوف الحركات الشيوعية واليسارية فى مجالات اختصاصية قيادية عديدة منها: العمل المهنى والنقابى والعلاقات والعمل الأيديولوجى والإعلامى والثقافى.

وللدكتور عبد الحسين العديد من المؤلفات فى مجالات السياسة والأدب والثقافة والإسلام وحقوق الإنسان.

وفى هذا الكتاب/ الاحتفالية كانت إسهامات عبد الحسين شعبان فى مختلف الأصعدة السياسية والثقافية، محوراً لكتابات الكثير من رفاقه فى كل الدول العربية، الذين رسموا بأقلامهم صورة بانورامية لنشاطه الإبداعى وعمله التنويرى.

وقد ضرب د. شعبان مثالاً يحتذى به حين رفض تجديد رئاسته للمنظمة العربية لحقوق الإنسان فى بريطانيا، رغم مناشدات العديد من الأوساط لكى يتراجع عن قراره، إلا أنه أصر على موقفه وناشد زملاءه من أعضاء اللجنة التنفيذية الذين مضى على وجودهم دورتان عدم ترشيح أنفسهم لإفساح المجال أمام وجوه جديدة لتتولى المسئولية، مؤكداً بذلك على أهمية العمل من تحت وليس من فوق فقط.

وخلال مشوار كفاحه كانت التقاليد التى حاول أن يرسيها فى عمل المنظمة بمثابة درس خارج الدوام الرسمى العربى.

■

أغانى الخبرة والحيرة والبراءة سيرة شعرية شبه ذاتية شبه موضوعية

عبد الوهاب المسيرى

القاهرة: دار الشروق، ١٦٢ صفحة



هذا الكتاب هو سيرة شعرية كتبها الدكتور المسيرى ما بين عامى ١٩٥٦ و٢٠٠٢ كاستمرار لرحلة المؤلف الفكرية، والتى يسعى فيها إلى إلقاء الضوء على بعض اللحظات الدالة فى حياته.

تبدأ أولى صفحات الكتاب/ الرحلة بعنوان «الأفراح الأولى» يفتتحها د. المسيرى بقصيدة من أربعة سطور يوجهها للكرة الأرضية ويقول فيها «لو كان لى ألف ذراع/ لو كان لى ألف قدم/ لضممت الأرض إلى صدرى/ وأغمضت عينى فى شغف». وتضم هذه المرحلة الشعرية التى تمتد من عام ١٩٥٦ حتى ١٩٦٠ العديد من القصائد التى تشى بالبهجة حتى فى قصيدة «أزمة» التى يفتقد فيها الشاعر عينى حبيبته التى تأتيه كل ليلة فى الصقيع البارد فتمتلئ حياته بربيع وشموس ساطعة.

وتبدأ المرحلة الثانية من عام ١٩٦١ حتى ١٩٦٤ بعنوان «الأحزان الأولى» يحوى عددا من القصائد التى تحمل سخط الشاعر على الأحزان التى تداهمه وهو يمثل وقائع تاريخية منها المكان الذى يفترض حسب العقيدة المسيحية أن المسيح قد صلب فيه، كما فى قصيدة «الكلمات التى لا تولد» ويوليسيس، البطل الأسطورى اليونانى الذى قضى عشرين عاماً فى رحلة العودة إلى جزيرته والذى ظلت زوجته الوفية بينيلوبى تنتظره رافضة كل عروض الزواج من أحد غيره، كما فى قصيدة «الرحلة المجيدة».

وتمضى صفحات الديوان وهى تحمل عناوين دالة مثل «أغانى الفردوس الأرضى ١٩٦٩ - ١٩٧٣»، ثم «أغانى الحيرة والعودة ١٩٧٣ - ١٩٧٦»، ثم «أغانى البراءة ١٩٧٦ - ١٩٨٥» ثم «أميرة القهوة ١٩٨٧ ـ ٢٠٠٠»، وأخيراً «أغانى اللقاء والوداع ٢٠٠١-٢٠٠٢»، والتى يختتمها الشاعر بقصيدة بعنوان «عبرتها وحيداً . عبرتها جميعاً».

■

دوريات

دبى الثقافية مجلة فصلية تعنى بالأدب والفن والفكر

دبى: دار الصدى، العدد الأول، أكتوبر ٢٠٠٤



فى طباعة فاخرة صدر العدد الأول من مجلة «دبى الثقافية»، برئاسة تحرير سيف محمد المرى، ويدير تحريرها ناصر عراق، وهى تحتوى على العديد من الموضوعات المميزة. ففى باب «قضايا وتحقيقات» تفتح المجلة ملف الصحافة العربية، وتطرح التساؤلات حول أسباب تدنى مستواها المهنى، وغياب قيم العمل الميدانى الحقيقى عن الذهنية الصحفية العربية، ولماذا يلجأ بعض الصحفيين إلى «الفبركة» فى تحرير موادهم ويهملون الواقع الثرى بمشكلاته ومتناقضاته؟

فى تحقيق آخر تستعرض المجلة فلسفة الأسماء عند الفلسطينيين، وفى تحقيق ثالث بعنوان: «صعاليك بغداد: أسماء لها رنين وشعراء بلا قصائد» يتجول محرره فى الشوارع الخلفية للثقافة العراقية حيث تنتشر ظاهرة «الصعلكة» خاصة فى مقهى حسن عجمى بشارع الرشيد وحديقة نادى اتحاد الأدباء وغيرها من الأماكن.

ويتناول باب القضايا والتحقيقات أيضاً دور المراكز الثقافية الأجنبية فى الأردن، وهل تلعب دوراً مشبوهاً أم تدعم حوار الحضارات؟!، بالإضافة إلى تحقيق آخر حول الكاتبات المغربيات اللاتى يخشين البوح ويهربن من الرواية إلى القصة القصيرة.

وفى باب الحوارات، يفجر الشاعر الفلسطينى الكبير محمود درويش فى لقاء مع المجلة قضايا ساخنة مؤكداً أن القصيدة العربية الآن لا تتحمل ركاكة الواقع، وأنه لا يوجد لدينا تيار نقدى كجزء من الحركة الثقافية العامة، ويعترف بأنه يكتب الشعر ثم ينقد نفسه، وأنه يحب النثر ويمجده أكثر من الشعر. كما تنشر المجلة قصيدة «طباق - إلى إدوارد سعيد» لمحمود درويش كاملة لأول مرة.

وتحاور المجلة أيضاً د. عبد العزيز المقالح من خلال كتاباته الشعرية والنقدية والفكرية.

كما تحاور أيضاً الشاعر الإماراتى إبراهيم محمد إبراهيم حول دور الإنترنت فى عالم الأدب بعد أن أطلق الشاعر مجلة إلكترونية تعنى بالإبداع.

وهناك أيضاً حوار مع الشاعرة التونسية آمال موسى التى تقول عن نفسها «أنا الشاعر الأوفى بعد أدونيس ومحمود درويش»، وكذلك حوار مع الروائى المغربى بهاء الدين الطود صاحب رواية «البعيدون» التى أثارت اهتماماً كبيراً فى المغرب.

وفى باب بعنوان «دراما الحياة» تشتبك المجلة مع عوالم المسرح والسينما والتليفزيون والإذاعة، من خلال العديد من الموضوعات العميقة والساخنة منها حكايات وأساطير فى الإذاعة المصرية و٨٥ عاماً من الضحك فى السينما المصرية، بالإضافة إلى موضوع عن «ورش السيناريو» باعتباره فعلا فاضحا يمارسه كتاب كبار، وموضوع عن المسرح اليمنى الذى ينتظر الموت وآخر عن تليفزيون الواقع أم تلفيق الواقع؟

وفى باب «ألوان وظلال» كان هناك احتفاء كبير بالفنون التشكيلية والمتاحف ويلقى الضوء على «دار بلغازى» أول متحف خاص فى المغرب، بالإضافة إلى عدد من الموضوعات المتميزة منها عن الفنان فيرمير الذى مات جوعاً رغم أن إحدى لوحاته بيعت بخمسين مليون دولار، وعن فنانة إنجليزية تتخصص فى رسم الدجاج.

وفى باب «الدراسات» كانت هناك دراسة عن «اليهود فى الشعر العربى» وأخرى عن «بنية الإخفاق فى قصص فاطمة الكعبى»، ودراسة ثالثة عن الهوية الثقافية للسودان. كما احتوى الباب على دراسة نقدية متميزة بعنوان «أدباء بارزون خلف سور الصين العظيم»، ودراسة أخرى عن قسطاكى الحمصى ١٨٥٨/١٩٤١ باعتباره أول ناقد عربى فى العصر الحديث، ودراسة عن قصة جمال الغيطانى «رشحات الحمراء».

وفى باب الترجمات كانت هناك عدة قصائد شعرية لشعراء أكراد وأرمن وإنجليز وهنود بالإضافة إلى قصص قصيرة لأديب مكسيكى وأفريقى من جمهورية مالى.

وفى باب الموسيقى والغناء، كان هناك موضوع عن اختفاء الأغنية الوطنية، وآخر بعنوان «ملامح ضبابية للأغنية السورية»، وثالث عن بيتهوفن المتمرد الحزين.

وبثراء أبوابها، نجحت المجلة فى تقديم أصوات أدبية وفنية وفكرية من المشرق والمغرب العربى لأول مرة بهذا التنوع والثراء، بالإضافة إلى أصوات من أفريقيا وآسيا وأوروبا.

الديمقراطية العربية.. واشتراطات العولمة الأمريكية



صفحات من كتاب:
المأزق العربي.. غياب الفعل الجماعي وعنف الأقلية
صالح السنوسي
مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٤، ١٤٢ صفحة

قد يكون الذين اصطدموا بالسلطة ودفعوا الثمن من أجل الديمقراطية، هم فئة قليلة من المثقفين، ولكن الأغلبية العظمى من المثقفين العرب بمختلف اتجاهاتهم منذ بداية التسعينيات مجمعون على تبني الديمقراطية، ولم يسبق أن حصل هذا التوافق حول أية قضية أخرى في السابق، فقد كان هناك مثقفون قطريون ارتبطوا بأنظمة الدول القطرية ودافعوا عنها، في مواجهة الدعوة القومية، ولم يلتقوا مع المثقفين القوميين، وهناك مثقفون ليبراليون لم يتفقوا مع اليساريين في أطروحاتهم، كما أن الدعوة إلى السلام والتطبيع مع إسرائيل وجدت مثقفين يدافعون عنها، ويخالفون رأي الذين يتبنون المواجهة كأسلوب وحيد مع إسرائيل، كذلك الأمر بالنسبة للتحالف مع الغرب، والقبول بوجوده العسكري ونفوذه السياسي والاقتصادي في المنطقة، يجد من المثقفين من يدافع عنه، خلافًا لنظرائهم الرافضين له.

أما الديمقراطية، فإن الخلاف حولها لم يبلغ الحد الذي بلغه حول تلك القضايا، فالديمقراطية تحظى بقبول واتفاق لم تظفر به أية قضية أخرى بين المثقفين العرب. ولكن ليس بإمكان المثقفين وحدهم أن يصنعوا فعلاً جماعيًا، دونما حاجة للجماعة، فدور هؤلاء أن يهيئوا ظروف قيام الفعل الجماعي، عن طريق المساهمة في خلق حالة من الإدراك والوعي بالمطالب والقضايا والطموحات بين أفراد الجماعة، «وهل فعل روسو، وفولتير، وديدرو في فرنسا، أكثر من أنهم وضعوا أيديهم على مواطن الداء، وبالغوا للفرنسيين في تصوير البلاء، حتى أحس الناس يومئذ أنهم مظلومون، ثم كان إحساسهم بالظلم هو وحده السبب الحقيقي في قيام الثورة الفرنسية».

لا يمكن أن تهبط الديمقراطية من السماء بمجرد أن ينادي بها المثقفون، فالنضال الواقعي، الذي تسنده أغلبية المجتمع المدركة لمصلحتها في الديمقراطية، هو الشرط الأول والأساسي لتحقيق هذا المطلب. فالديمقراطية لم تظهر في الغرب لأن مجموعة من العباقرة قد أرادوا ذلك، بل لأن هناك تغذية اجتماعية مرتدة.

كذلك الأمر بالنسبة للجماعة العربية، فلن يكون بإمكانها تحقيق مجتمع ديمقراطي في مواجهة الظروف والمصاعب المتمثلة في السلطة والغرب، إلا إذا كانت الأغلبية قادرة على صنع فعل جماعي عبر آليات الفعل الجماعي المتمثلة في الأحزاب والاتحادات والنقابات ومنظمات المجتمع المدني الأخرى. ولكن هذه التنظيمات لا يمكن لها أن تقوم وتكون فاعلة إلا إذا كانت ثمرة إصرار الأغلبية، فهذه التنظيمات لم تولد مع الإنسان، بل أوجدتها المجتمعات الغربية أثناء صراعها مع حكامها، لتصبح فيما بعد الآليات، التي يتم من خلالها التعبير عن إرادة الأغلبية بواسطة أشكال مختلفة من الفعل الجماعي، ولكن هذه الآليات أو التنظيمات ليست هي، التي خلقت الفعل الجماعي، بل كانت مجرد مطالب وطموحات حولتها روح الفعل الجماعي لدى الأغلبية إلى حقائق، فإن لم تتوافر روح الفعل الجماعي لدى الفرد العربي، أي القبول بالمخاطرة والتضحية، فلن تقوم هذه التنظيمات وتؤدي دورها كآليات فاعلة، طالما هناك خوف من تأسيسها، والانتماء إليها بسبب حظر السلطة لها. ولهذا فإن الحديث عن الديمقراطية دون توفر روح الفعل الجماعي لدى غالبية أفراد الجماعة، هو بمثابة وضع العربة أمام الحصان.

إن مثل هذه التنظيمات الموجودة في بعض الأقطار العربية، لم تكن ثمرة فعل جماعي قامت به الأغلبية، رغم معارضة السلطة، بل إن بعض هذه الأنظمة السياسية هي التي أنشأت هذه الهياكل الصورية، لتجعل منها أدوات ضمن آليات السلطة لمزيد من السيطرة والضبط. ولم تستطع الأغلبية المعنية بهذه المؤسسات أن تحولها إلى أدوات تؤدي دورها الحقيقي رغم إرادة السلطة، بل سيطرت عليها هذه الأخيرة، فوضعت لها المقاييس والمعايير وشروط الحركة، فأصبح أي شخص ينتمي إليها هو مجرد رقم سلبي، يضاف إلى كم مهمل، تحركه السلطة متى شاءت، كما أن هذه الأغلبية لم تقم بمقاطعة هذه المؤسسات، من خلال حركة عصيان ترفض التعامل معها، طالما هي بتلك المقاييس والشروط وبهذه التبعية للسلطة، فالمقاطعة والإضراب هي من أكثر أشكال الفعل الاجتماعي فاعلية.

فالنقد والرفض والمعارضة العلنية، هي التي تمهد الطريق لتشكيل الفعل الجماعي، إذا كانت أغلبية الجماعة تملك فعلاً روح الفعل الجماعي.

قد تكون الديمقراطية هي الدواء الشافي لكثير من أمراض الواقع العربي. ولكن لا يمكن الحصول على هذا الدواء ما لم تتوافر أولاً روح الفعل الجماعي لدى الفرد العربي، فالديمقراطية ثمرة، لا يمكن تصور وجودها دون وجود شجرة الفعل الجماعي، إلا إذا أتى هذا الفعل من خارج الجماعة كحالة التدخل العسكري الغربي المباشرة، للإطاحة بحاكم والإتيان بحكومة ترفع شعار الديمقراطية، غير أن الحكومة التي تصل تحت خفق رايات فيالق الغرب المنتصرة على بعض الحكام العرب المشاكسين للغرب، لا يمكن اعتبار ديمقراطيتها ثمرة للفعل الجماعي، بل ديمقراطية الغزو، وبالتالي لن تكون هي تلك الوصفة، التي يتفق الكثيرون على أنها البلسم الشافي لمعظم أمراض الواقع العربي، لأن أغلب تلك الأمراض والإشكاليات هي أيضًا الوجه الآخر لمصالح الغرب السياسية والاقتصادية والاستراتيجية في المنطقة، وقد لا يكون من الحكمة في شيء تصور أن الغرب يمكن أن يسعى بإخلاص لخلق أوضاع، تتناقض مع ما يعتبرها مصالحه ومكتسباته.

إن الإرث السياسي والثقافي الغربي لا يعوزه الجانب التبشيري بالمبادئ والقيم الإنسانية، حتى في مرحلة أعتى موجات الاستعمار في القرن التاسع عشر، فها هو الجنرال الفرنسي «بول بير» بعد أن احتل هانوي يأمر «بتعليق ملصقات تحمل بنودًا من إعلان حقوق الإنسان لكي يتعلم الفيتناميون قيم ومبادئ الثورة الفرنسية، ويعتنقوا ما تبشر به من معتقدات سياسية، ولم يجد الجنرال «جارنر» أول حاكم عسكري أمريكي للعراق، حرجًا في التناقض بين ما يبشر به العراقيين من ديمقراطية وحقوق إنسان، وبين حقيقة أنه غزا واحتل بلادهم بالقوة وأخضعها لمشيئة بلاده.

لعل إشكالية «الديمقراطية الهبة» لا تكمن فقط في كونها تأتي مع الغزو، فالمنطقة العربية مغزوة عمليًا على كل صعيد، بل الإشكالية الحقيقية، هي أن الغرب لا يريد فقط، إدخال الديمقراطية كطريقة في الحكم، وإنما يريد أيضًا تمحيص وغربلة الإرث الثقافي والحضاري للجماعة العربية، لأجل فرز الغث من السمين، وتجنيب الأجيال القادمة ما يراه سلبيًا في هذا الإرث، وذلك من خلال إدخال مناهج تعليم وطرق تنشئة وغرس عادات وسلوكيات وتصورات ورؤية للعالم، أي صياغة هوية جديدة للجماعة، وهو أمر قد يصعب على الجماعة تقبله، رغم أنها - على الأغلب - لا تستطيع أن ترفضه إذا ما تضافرت جهود الغرب والحكام، ولكن ذلك يقلل في كل الأحوال من فرص نجاحه ونجاح ديمقراطيته.

قد تواجه الديمقراطية التي يهديها الغرب للجماعة العربية مشكلة حقيقية، في ظل اشتراطات العولمة حسب المفهوم الأمريكي. فالبعض يتساءل عن مدى جدوى ممارسة السياسة في ظل تلك الاشتراطات والظروف، لأن الدولة وما يتعلق بها من شئون تعتبر هي موضوع السياسة، فإذا ما تخلت عن وظائفها وفاعليتها للشركات المتعدية الجنسية والمؤسسات المالية والاقتصادية والمنظمات الدولية، فإن السياسة قد تفقد جدواها، وإذا ما صح هذا التصور وتخلت الدولة عن وظائفها وانتهت الأيديولوجيا، وانتهى معها اختلاف الوعي، وأنعم الغرب على العرب بالديمقراطية، فإن هذه النعمة - في تلك الحالة - قد تكون وصلت إليهم في زمن لم تعد بلسمًا لأمراضهم المستجدة عوضًا عن أمراضهم المزمنة، مادامت «الدولة صارت تستمد شرعيتها من قبول المؤسسات العالمية، سواء كانت الأسواق المالية والمؤسسات الدولية، وليس من قبول المؤسسات الوطنية حتى المنتجة منها شعبيًا»، فحكومات الدول والكيانات الهزيلة مهما بلغت شرعيتها الداخلية، لا تستطيع أن تستمر في السلطة، ما لم تتكيف مع اشتراطات العولمة، وتثبت أنها منضبطة حسب قواعد حسن السير والسلوك، التي تحددها الولايات المتحدة والغرب عمومًا، فهذا الأخير وحسبما تشهد به التجربة الاستعمارية مع بعض مستعمراته - لا يقبل إلا بالديمقراطية التي تضفي الشرعية على هيمنته ومركزيته، ولهذا فإن المراهنة على الغزو الغربي لتحقيق الديمقراطية وانتظار مجيء الفرج على يديه قد يكون انتظارًا في غير محله.

صالح السنوسي

كـــــتب دينيـــــة

خطابنا الإسلامي في عصر العولمة

يوسف القرضاوي
دار الشروق، ٢٠٠٤



يقدم القرضاوي لكتابه:
كتب كثيرون يطالبون بوجوب المراجعة لخطابنا الديني الإسلامي، وخصوصاً بالنسبة للآخر، ونظرتنا إليه، وموقفنا منه.

وهذا الكلام بعضه حق، وبعضه باطل، وبعضه حق أريد به باطل. إننا نرحب بتجديد الخطاب الديني، والارتقاء به، وتطويره إلى ما هو أحسن وأمثل: فكرة وأسلوباً. ولكنا نحذر من خطوة التنادي المستمر بتغيير الخطاب الديني الإسلامي في هذا الوقت خاصة، ولاسيما من أقلام مشبوهة، لا يهمها الدين ولا أهله، وليس لله ولا للآخرة مكان في حياتها الفكرية أو السلوكية.

فالواقع أننا نخشى من تيارين كلاهما أشد خطرا من الآخر:

١-تيار الغلو والتشدد والتنطع، الذي يريد أن يضيق على الأمة ما وسع الله.

٢-وتيار الانفلات والتسيب، الذي اتخذ إلهه هواه، فلا يتقيد بنص، ولا يستند إلى إمام معتبر.

لهذا كان على أهل العلم والدعوة، أن يقولوا كلمتهم، ويبينوا وجهتهم، وعليهم أن يعضوا بالنواجذ على الحق الذي ائتمنهم الله عليه، معتصمين بحبل الله المتين، يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله.

■

لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟

تأليف: شكيب إرسلان
ترجمة وتحقيق: حسن السماحي سويدان
الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤



إن تخلف المسلمين هو معضلة المعضلات، التي وقف أمامها العلماء والمفكرون، يقلبون فيها وجوه النظر، فمنهم من نظر إلى جانب وأغفل جانباً، فجاء حله ناقصاً. ومنهم من نظر نظرة شمولية كالأمير شكيب. رحمه الله. في كتابه هذا فجاء الجواب أدنى إلى الحقيقة، ورصد مظاهر التخلف الداخلية والخارجية وعدم إغفال أي منها هو الخطوة الأولى لمعرفة الأسباب التي أدت إلى هذا الواقع المزري الذي تعيشه الأمة من المحيط إلى المحيط.

والأمير شكيب بما عرف عنه من العلم الواسع، والتجربة العميقة المتميزة، والاهتمام الصادق بشئون الأمة المسلمة، والمتابعة الحثيثة لمشكلاتها وأحوالها هو أحرى من يتصدى لبيان سبب تخلف المسلمين وتقدم غيرهم. لقد تحدث الأمير عن مظاهر التخلف وأسبابه، فذكر منها الجهل والتقليد والبخل والخوف من المغامرة، وبين أن ذلك يورث في الأمة الوهن، الذي هو حب الدعة والكسل والتواني والنظرة الجامدة. كما تحدث الأمير عن الفساد الذي هو السبب الأكبر للتخلف، وخاصة فساد الأمراء والعلماء، وما يجره على الأمة من بلاء.

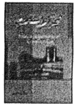
وخص الأمير دعاة الفرنجة بالحديث الطويل، ففند شبهاتهم التي يريدون من خلالها عزل الإسلام -الذي هو عصب الأمة الذي يحركها- عن الحياة، ورد على دعاة التثبيط، الذين يشككون الأمة في قدراتها، ويسلبونها ثقتها بنفسها، ويزرعون الفشل والشك في قلوب أبنائها، وأنهم أعجز من أن يصنعوا شيئاً ذا بال.

والكتاب بما تضمنه من نظرات ثاقبة وآراء حصيفة لا يزال يمثل ورقة عمل يمكن الانطلاق منها إلى درس ملف التخلف الذي يزداد كل يوم تعقيداً، ويحتاج لجهود قد لا يطيقها فرد مهما أوتي من علم وخبرة، ولا بد أن تنهض به مؤسسات إسلامية متخصصة.

■

فجر الإسلام

أحمد أمين
دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤



كتاب مهم يتناول فيه المؤلف الحياة العقلية في صدر الاسلام الى اواخر الدولة الاموية وقد جلى الاستاذ احمد امين كل مظاهر الحياة انذاك فكرية او ادبية او دينية واظهر العرب على حقيقتهم وطبيعتهم في تلك الحقبة وقد نال الكتاب استحسان العديد من العلماء العرب والمستشرقين.

■

حجابي هويتي. فتاتان تدافعان عن حجابهما

ألما وليلى ليفي
دار الفارابي – لبنان(٢٠٠٤)



ألما البالغة من العمر ست عشرة سنة وليلى ذات الثماني عشرة منذ كانتا تلميذتين في ثانوية هنري-والون في اوبرفيلييه. اختارتا منذ بضعة اشهر أن ترتديا الحجاب الذي يغطي الشعر والأذنين والعنق. في ١١ تشرين الأول/ أكتوبر سنة ٢٠٠٣ قرر المجلس التأديبي في الثانوية طردهما بصورة نهائية لأنهما رفضتا التخلي عن الحجاب. بعد فصلهما الفظ من المدرسة الرسمية، ها هما تعرضان هنا تجربتهما كفتاتين فرنسيتين ومسلمتين.

أجرت فيرونيك جيرو وكذلك إيف سانتومير، على مدى أسابيع طويلة، أحاديث بلا مجاملة، تحدثنا خلالها عن معنى قناعاتهما وأسباب خيارهما.

كيف اكتشفتا الإسلام؟ ما هي رؤيتهما وممارستهما للدين الإسلامي؟ كيف تتصوران العلاقات بين الرجل والنساء؟ ماذا تمثل العلمانية في نظرهما، في المدرسة وفي الحياة العامة؟ ما هي نظرتهما إلى المجتمع الفرنسي وقيمه؟ إن الأجوبة المعطاة عن هذه الأسئلة-مهما كانت مدهشة ومحيرة- تساعد على تجاوز التبسيطات والأفكار المسبقة السائدة في النقاش العام. وهي تسمح بعدم نسيان أن الفتيات اللواتي اخترن ارتداء الحجاب كما فعلت ألما وليلى. هن أولاً فتيات كسائر الفتيات.

إن فهم هذه الأحاديث هو أولا مساعدة القراء على الفهم قبل الحكم. فماذا نعرف، في الحقيقة، عن دوافع وممارسات هاتين الفتاتين اللتين تتراوح سنهما بين السادسة عشرة والثامنة عشرة؟

لقد أمسى لدينا تحقيقات سوسيولوجية غنية وقوية الإسناد... تجاهلها بصورة منهجية المسئولون السياسيون ومعظم المثقفين الذين تحدثوا الى وسائل الإعلام. ويتمنى هذا الكتاب أن يندرج في سياق مواصلة تلك الأعمال. أما طرافته العلمية فهي في كونه يقدم صورة كاملة لشخصين، تكمل النموذجيات الأوسع التي يعرضها باحثون من أمثال فرنسوا غاسبار وفرهد خوسروخافار وجيل كيبيل وأوليفيه روي، نصيره غينيف ونانسي فينيل. إنه نتاج خمس عشرة ساعة من الأحاديث المسجلة، التي أضيفت إليها أحاديث كثيرة أخرى دارت أمام آلة التسجيل.

■

مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب (في علم التصوف)

تأليف: أبي حامد محمد بن محمد الغزالي
ترجمة، تحقيق: نعيم زرزور – محمد إبراهيم
المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ٢٠٠٤



مكاشفة القلوب درب لهدي القلوب، والانعتاق من الذنوب. كتاب أراده الإمام أبو حامد الغزالي نبراساً للمؤمنين في الزمن الصعب حيث الدنيا ومفاتنها والمال ومفاسده، في زمن أصبح فيه التدين شاقاً على الطامعين في مباهج الحياة، والغافلين عن الآخرة، ويوم البعث والنشور، هذا الكتاب في أبوابه المتنوعة هو خير دواء لمن أراد لنفسه الطمأنينة، ولمن أراد لقلبه النور والسعادة، ورضا الله...

كتاب مزين بالآيات القرآنية، معطر بأحاديث سيد البشرية محمد صلى الله عليه وسلم، التي تخبر بيقين عن نعيم جنان الله والخلود في جوار الرحمن ويحذر قساة القلوب من عذاب الجحيم وغضب الله. إنه تذكير لبني البشر في زمن النسيان...

وبالنظر للأهمية التي يحتلها هذا الكتاب فقد اهتم بتحقيقه وتصحيحه من الأخطاء اللغوية، والنحوية، واضعين علامات الوقف في مكانها المناسب، مخرجين آياته محققين لأحاديثه وذلك من أجل أن يغدو تقديمه وإخراجه بمستوى يليق بمضمونه.

■

كتب دينية باللغة الإنجليزية للصغار

is for a llah A
(ألف تشير إلى الله)
yusuf islam
.mountaim of light, $ 9.00

ولد يوسف اسلام فى لندن عام ١٩٤٨، كان يحمل اسم «كات ستيفنز» وكان مطربا عالميا قبل أن يشهر اسلامه. هو ابن لأم سويدية واب يونانى، بلغت شهرته كمطرب فى الستينيات والسبعينيات حدا جعل مبيعات اسطواناته تصل إلى اكثر من ٤٥ مليون نسخة فى العالم كله.

اعتنق كات ستيفنز الاسلام عام ١٩٧٧ وصار اسمه يوسف اسلام،وتزوج منذ ذلك الحين وانجب خمسة اطفال.

كما انه عضو نشط فى المجتمع البريطانى المسلم، ويركز جهوده كلها على مجالات التعليم والارتقاء الروحانى للانسان.

الف يوسف اسلام هذا الكتاب ليفتح نافذة رائعة على عالم الفكر الاسلامى المبسط، عنوان الكتاب نفسه مأخوذ عن اغنية شهيرة ليوسف اسلام، كتبها ليعلم طفله الاول إن حرف الألف يشير دائما وابدا إلى الله عز وجل وليس لكلمات اخرى نعلمها للاطفال عند بدء كلامهم مثل ام وابرة وانف وهكذا.

إن فلسفة الحياة التى تتحكم فى العالم الغربى تبدأ، كما يرى يوسف اسلام، باول درس يتلقاه الطفل فى المدرسة.

فالتركيز الذى يقوم به الاساتذة على شىء ما يترك اثرا لا يمحى فى عقول الاطفال البكر. وعادة لا يركز هؤلاء المدرسون على اول واهم الرغبات الانسانية، وهى الشوق إلى معرفة الخالق عز وجل.

وهكذا، وباستخدام الحروف الهجائية، يقود يوسف اسلام القارئ ليقدم له او يذكره بالجوانب الاساسية فى الاسلام، كلمات مثل الله، والجنة، والقرآن، ويوم القيامة، موضحا افكاره برسومات وصور جذابة. لقد تم اعداد ذلك الكتاب من اجل اولئك الذين يريدون إن يقدموا لابنائهم صورة عن عالم، يقف فيه الله تعالى وراء كل الاشياء فيه، مهما بلغت ضالتها.

young muslim guide to the A modern world
دليل المسلم الصغير إلى العالم الحديث
seyyed Hussein nasr,
paperback 270 pp,$ 17

يرى مؤلف الكتاب «سيد حسين نصر» أن الغرب قد افرز العديد من المستشرقين الذين يدرسون الاسلام من زاوية واحدة، بينما افرزت الحضارة الاسلامية عددا كبيرا من العلماء الذين تخصصوا فى دراسة الحضارة الغربية من كل اوجه الحياة فيها، من الفنون والاداب والحياة الاجتماعية والدين فيها من وجهة نظر اسلامية.لقد رسم المسلمون ما يمكن تسميته بالخرائط الفكرية للعالم الحديث، وهى خرائط يسعى مؤلف الكتاب إلى عرضها على شباب المسلمين كى يصبحوا اكثر دراية بالجذور الدينية لاسلامهم عند وضعه فى مقارنة مع الديانات الاخرى، وكى يمكنهم تكوين رؤية شاملة للعالم من وجهة نظر اسلامية.

إن ذلك الكتاب يمثل اول محاولة من نوعها لوضع حقائق الاسلام الازلية فى مواجهة القيم الغربية الدينية والفكرية، بشكل محايد جذاب فى ظل المواجهة العنيفة التى تحدث بينهما فى عالم اليوم. اما سيد حسين نصر مؤلف الكتاب، فيعتبر من الم الاكاديميين فى جيله، ولد فى طهران فى عائلة من الاطباء واساتذة الجامعة الذين تخصصوا فى دراسة الشريعة الاسلامية. تلقى تعليمه الاول فى طهران ثم سافر إلى امريكا لدراسة الفيزياء وتاريخ العلم والفلسفة فى جامعات مثل هارفارد وماساشوسيتس، وعمل استاذا فى جامعة طهران وهو مؤسس الاكاديمية الايرانية للفلسفة، ويعمل اليوم أستاذا فى الدراسات الإسلامية فى جامعة جورجتاون.

يقدم الكتاب عرضا شاملا لتعاليم الاسلام كما ترد فى القرآن والحديث والسنة، كما انه يضم عددا من التعليقات والتفسيرات التى قدمها ائمة المسلمين على اختلاف توجهاتهم، إلى جوار عدد من اراء المتخصصين فى الحضارة الاسلامية من الغربيين.

Celebrating Ramadan
(الاحتفال برمضان)
diane hoyt goldsmith
Hardcover, 32 pp, 14 $

كتاب يمزج الصورة بالكلمة، والرسم باللغة، ليقدم فى النهاية صورة عن الحياة فى رمضان وحياة مسلم امريكى صغير يدعى ابراهيم. يضم مقدمة عامة عن بدايات الاسلام وعقائده الاساسية والوحى الذى نزل على محمد (ص)، اضافة إلى عدد من مبادىء القران وحركات الصلاة.

يقدم الكتاب صورة للمسلم الامريكى الصغير ابراهيم وهو يحتفل مع عائلته بحلول الشهر الكريم، سواء فى مدرسته الاسلامية او فى مسجده، ويظهر مدى الدفء الذى يسرى فى عروق الكل مع حلول شهر رمضان، ويضم الكتاب وصفا دقيقا لذلك القطاع من العالم الذى يعد الاسلام فيه من اكثر الديانات انتشارا، ويركز على تنوع الثقافات التى تذوب فى الثقافة الاسلامية الواسعة، من خلال عرض عائلة ابراهيم التى تعود جذورها إلى مصر والبوسنة

The Atlas of islam: people, daily life and traditions
(اطلس الاسلام: الناس والحياة اليومية والتقاليد)
Neil Morris
Barrons Juveniles 64 pp, $ 15

كتاب من القطع الكبير، كتب من أجل القراء الصغار كى يقدم لهم صورة واضحة عن احد اكثر ديانات العالم انتشارا، تضم كل صفحة خمس او ست صور تصحب القارئ إلى عدد من البلاد الإسلامية المختلفة التى يشاهد فيها طقوس اهلها كأنه يقف بينهم. اضافة إلى شرح واف لكل الفنون والعمارة والتاريخ والأنشطة اليومية التى يمارسها المسلمون فى جميع أنحاء العالم.

إن الكتاب مقسم إلى ٢٧ جزءا، يركز كل واحد منها على زاوية منفصلة من التاريخ والثقافة الاسلامية واهم الموضوعات الواردة فيه تشمل تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام، وحياة الرسول(ص)، والفتوحات الاسلامية، وحضارة الاندلس والاتراك السلاجقة، والحملات الصليبية، اضافة إلى اشكال العبادات الاسلامية، والاحتفالات الدينية والفنون والعمارة الاسلامية، و تفاصيل شاملة عن الدول الاسلامية فى عالم اليوم.

على الرغم من عنوانه، فان ذلك الكتاب ليس «اطلس» بالمعنى المفهوم، هو اقرب إلى مسح شامل جذاب لحياة المسلمين اليومية فى العالم كله، ويناقش كذلك عادات الحياة اليومية للعديد من الجماعات الاسلامية فى العصور الغابرة مثل العباسيين والأمويين والاتراك، إلى جوار جماعات الصوفية ومسلمى وسط اسيا، كل ذلك كى يقدم رؤية شاملة لحياة العالم الاسلامى إلى شباب القراء الذين لم يروا هذه المشاهد رأى العين

Better than athousand month
(خير من الف شهر، احتفال عائلة أمريكية بالشهر الكريم)
Hassaun ali jones bey
Ibn Musa Publishing, 168 pp $ 13

عنوان هذا الكتب ماخوذ من آية قرانية تصف ليلة القدر، وهى افضل ليالى شهر رمضان.يحاول الكتاب وضع يده على النقاط المشتركة بين الاسلام والمسيحية، مقللا من الخلافات بينهما، يرويها اب مسلم ينحدر من اسرة امريكية ذات اصول افريقية.. اسرة تحاول إن ترد دائما على أسئلة ابنائها بشأن الدين الاسلامى بدقة واستفاضة.

يروى الكتاب حياة اسرة امريكية خلال شهرين، شهر رمضان والشهر الذى يليه، ويشير العنوان الفرعى للكتاب «احتفال عائلة امريكية مسلمة برمضان» إلى العدد المتزايد للاسر الامريكية التى تعتنق الاسلام،خاصة فى مجتمع الامريكيين الافارقة هناك.

He is just not that into you
(إنه ببساطة غير معجب بك!)
Greg Behredent
Simon Spotlight Entertainment
176 pp. 2004, $11.97



كتاب تحليل نفسي وعاطفي ساخر حقق اعلى المبيعات بمجرد صدوره في أمريكا، مؤلفه هو كاتب حلقات المسلسل التليفزيوني الشهير «الجنس والمدينة»، وهو يرتكز على حلقة نالت اعجاب النساء عند عرضها . الكتاب يندرج تحت قائمة الكتب التي تناقش علاقة النساء بالرجال، مثله مثل كتاب «ادم من المريخ حواء من الزهرة» الذي الفه الدكتور جون جراي، ويقوم بنفس المهمة، محاولة توضيح تفكير الرجال الغامض بالنسبة للنساء.

مؤلف الكتاب يتعامل بوضوح شديد، يستخدم لغة قاسية لابلاغ المراة التي تلتمس العذر دائما للرجل. بأنه قد لا يكون معجبا بها في نهاية المطاف. يستعرض الاعذار التاريخية التي ترددها النساء كلما وجدن أن الرجل الذي يهتممن به لا يبادلهن اهتماما مماثلا. تقول المراة لنفسها أن الرجل لا يحاول بدء علاقة معها ربما لانه مشغول، او لانه خائف، او لانه مصاب بجرح غائر من صدمة عاطفية قاسية، او لانه لا يريد إن يلتزم، او لانه خائف من افساد علاقة الصداقة بينهما، او لانه خائف من أن تصده.

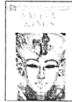
كلها اعذار واهية، من وجهة نظر مؤلف الكتاب، لا تساوي ثمن المجهود الذي تبذله المراة في مجرد النطق بها، ولا حجم المعاناة التي يمر بها عقلها وهي تحاول تفسير مواقف الرجل المتضاربة من وجهة نظرها والتي لا تشير الا إلى رغبته في عدم الارتباط بها، عنوان الكتاب: انه فقط ليس معجبا بك إلى هذا الحد، يتكرر في عناوين كل فصوله، مع اضافة تفصيلات اخرى.

فالرجل في الفصل الأول من الكتب لا يحب المرأة إذا كان لا يتصل بها، أو إذا كان لا يدعوها إلى العشاء، أو اذا كان لا يريد أن يراها الا وهو في حالة احباط، او اذا كان لا يريد الا العبث معها، او اذا كان يريد أن يعبث مع الأخيرات رغم انه يحبها، او لانه لا يريد أن يتزوجها.

كتاب يثير الجدل، والسخرية احيانا، لكن المؤكد انه يحمل لمحة ما من الصواب، والا لما حقق كل هذه المبيعات في امريكا.

■

The illustrated guide to the valley of the kings
(الدليل المصور لوادي الملوك)
alberto siliotti
AUC Press, 2004, LE 75



يقدم ذلك الكتاب لاول مرة الصورة المعمارية الكاملة لمنطقة طيبة. يصف كل مقبرة بشكل تفصيلي ومكثف في الوقت نفسه. مع خريطة موضح عليها أهم الرسومات ومقتنيات المقابر. ووصف المؤلف البناء المعماري والتصميمات الزخرفية للمعابد الموجودة هناك باستخدام العديد من الخرائط الطبوغرافية.

■

Cairo ,City of sand
(القاهرة، مدينة الرمال)
Maria golia
AUC Press, 2004, LE 80



تختبر ضغوط الحياة طاقة المصريين على الاحتمال حتى أقصى حدودها. ترسم ملامحها بوضوح على وجوه ١٦ مليون نسمة، هم أولئك الذين يعيشون في القاهرة، يتمركزون حول النيل وتحيط بهم الصحراء. إن ذلك الكتاب يروي العديد من المواقف والأحاديث، يصف ظروف القاهرة واساليب المعيشة فيها، وردود فعل الناس إزاءها. كتاب لا يركز على تاريخ القاهرة قدرما يلقي الضوء على حاضرها ولحظاتها الحالية.

تتغلغل القاهرة إلى داخل مسام أهلها، ليتأمل الكتاب الروابط التي تربط بين الأسر، والعادات والتقاليد، وبيروقراطية الحياة اليومية، كما يلقي نظرة على علاقة القاهرة بالآخر، سواء كان ذلك الآخر هو الاحتلال البريطاني او الفرنسي، او كان ممثلا في التأثيرات الحديثة القادمة من الخارج مثل السياحة، ويناقش الكتاب كذلك أسلوب حوار القاهريين ونكاتهم ومفرداتهم اللغوية الخاصة، لان كل هذا هو ما نسج القاهرة.

قالوا عن الكتاب انه تحليل رائع شديد الذكاء، يكشف بوضوح أسرار أحد اكثر مدن العالم غموضا، لان مؤلفته تتمتع بوضوح رؤية من يشاهد الأشياء من أعلى، في الوقت الذي تغوص فيه إلى قلب القاهرة وأهلها كي تقرا مشاعرهم. وهذا هو ما جعل تلك السيدة، ماريا جوليا، تؤلف كتابا مختلفا عن القاهرة، وضعت فيه كل مشاعرها ورؤيتها وانطباعاتها، عن تلك المدينة المثيرة التي تحيا فيها منذ زمن طويل.

■

The Complete Cartoons of The New Yorker
(الرسوم الكارتونية الكاملة لمجلة نيويوركر)
David Remnick
Black Dog & Leventhal Publishers
655 pp. 2004, $ 40.80



موسوعة ضخمة، تضم افضل رسوم كاريكاتير نشرت في مجلة «نيويوركر» الامريكية الشهيرة، على اختلاف مواضيعها، سياسية واجتماعية واقتصادية، والتي نشرت في الثمانين عاما الاخيرة. يحاول محررو النيويوركر إن يكتبوا ملخصا قصيرا قبل كل فصل يشرحون فيه الحقبة التي رسم فيها هذا الكاريكاتير، والضغوط السياسية او الاقتصادية التي كانت سائدة في هذه الفترة.

منذ أن تأسست في عام ١٩٢٠، ومجلة نيويوركر، تمتاز بتاثير واضح على الرأي العام الامريكي والعالمي احيانا، يساعدها على ذلك قوتها في مناقشة كل الموضوعات المطروحة على الساحة السياسية بجرأة لا تتميز بها العديد من الصحف الاخرى التي تحكمها المصالح، والاهم انها تمتاز بقوة التحليل والعرض باستخدام كل الفنون الصحفية، و على رأسها فن الكاريكاتير. حولت النيويوركر الكاريكاتير إلى فن له مذاق خاص.. لاذع، تتطور خطوطه مع تطور الزمن، وتتحول تعليقاته إلى طلقات اقرب إلى طلقات الرصاص، لا تعترف بحدود، ولا تحسب حسابا لعشرات المصالح التي تقيد غيرها من الصحف.

كان الكاريكاتير ورسوم الكارتون فنا مستقلا بذاته في مجلة النيويوركر، ولذلك قام الرسامون فيها بجمعها في كتاب، وهو كتاب يضم اسطوانتين مدمجتين تحملان كل رسوم النيويوركر منذ ثمانين عاما بالالوان، ومزودة بمحرك بحثي يبحث في الكاريكاتير بوساطة اسم الفنان. او اسم الموضوع الذي يعبر عنه.

■

The red sea mountains of Egypt and Egyptian years
(جبال البحر الأحمر في مصر والسنوات المصرية)
L. A. treganza
AUC Press
2004, LE 100

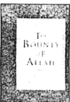


إن ليو ارثر تريجانزا، مؤلف الكتاب، هو مكتشف وأكاديمي إنجليزي، وصل إلى مصر عام ١٩٢٧ ليعمل مدرسا في إحدى المدارس. وظل يحيا في مصر حتى قيام الثورة عام ١٩٥٢. ويصف تريجانزا في كتابه «جبال البحر الأحمر في مصر والسنوات المصرية» جانبا من مصر ظل مجهولا بالنسبة إلينا لوقت طويل.

في ذلك العالم ما زالت مياه النيل تفيض، وما زال بدو الصحراء يحافظون على نمط حياتهم الذي لم يتغير لآلاف السنين. ويضم الكتاب اكثر من ٣٢ صورة تدعم الوصف الذي يرد فيه.

■

Daily reflections from the Koran and Islamic traditions
(تأملات يومية في القرآن والتقاليد الإسلامية)
Aneela khaled arshad
Crossroad 8th Avenue
384 pp, $ 11



يوفر ذلك الكتاب صورة شاملة عن الاسلام ونصوصه المقدسة، من خلال اختيارات واضحة لآيات قرآنية واذكار صوفية، والاحاديث النبوية، تم اختيارها وترجمتها بدقة على يد المؤلفة «انيلا

خـالـد ارشـد»، وهـى عـضـو فـى المـركـز الاسلامى فى لـونج ايلاند، ولدت فى باكستان ولها اهتمام خاص بممارسات الصوفية وتأملاتهم الروحانية، وتحمل درجة الماجستير فى الفنون والدكتوراه فى الأدب الانجليزى، مما يجعلها اكثر تمكنا مـن اللـغـة الـتـى تـنـقـل الـيـهـا ترجمتها.

تحاول انيلا فى مقدمة كتابها أن تقدم صورة شاملة عن السلام والمبادئ الأساسية فيه، اضافة إلى شرح واف لمعانى اسماء الله الحسنى التى تلعب دورا هاما فى الـذكـر الـصـوفـى، وفـى الـعـقـيـدة الاسلامية عموما، ثم تركز على معانى كلمات النصوص الاسلامية التى اختارتها فى كتابها، وبلغ عددها ٣٦٥ نصا بعدد ايام السنة، ووضعتها بحيث يصبح كل نص منها صالحا للتأمل يوما.

■

Our Oldest Enemy : A History of America's Disastrous Relationship with France

(اقدم عدو لنا: تاريخ علاقة امريكا الكارثية مع فرنسا)

john j.miller and mar molesky

Doubleday 304 pp, 2004, $ 16.97



شعر الامريكيون بنوع من الصدمة (وربما الاهـانـة) عـنـدمـا قـرر الـرئـيـس الفرنسى جاك شيراك أن يقف فى وجه الحرب على العراق، ردد بعض الامريكيين كلمات عن الصداقة التاريخية التى تربط بين الولايات المتحدة وفرنسا، او على الاقل، المصالح المشتركة التى تربط بينهما، الا إن مؤلفى ذلك الكتاب يصران على اثبات أن فرنسا لم تكن قط حليفا للولايات المتحدة، بل انها كانت دائما بـالـنـسـبـة لـلـولايـات المتحدة مجرد عدو، او شوكة فى الحلق، وان الموقف الذى اتخذته الحكومة الفرنسية من الحرب على العراق ليس سوى حلقة جديدة فى مسلسل العداوة التاريخى الذى يربط بين البلدين.

يعود المؤلفان بكتابهما إلى السنوات الاولى للتاريخ الامريكى المكتوب، حيث يرويان قصة غير معروفة لكثيرين، تدور احداثها حول مذبحة ارتكبها الفرنسيون والهنود الحمر ضد الضباط الامريكيين الأوائل، ويؤكد المؤلفان أن فرنسا لم تهب لمساعدة الامريكيين على الاستقلال الا بعد نهاية الثورة الامريكية على امل ايذاء البريطانيين وليس مـسـاعـدة الامـريـكـان على الاستقلال. ويذكر المؤلفان بالعديد من المواقف التى اتخذتها فرنسا قبيل الحرب العالمية واعتبرها العالم كله دليلا على خرق لا شك فيه، ومنها مثلا قيام الرئيس الفرنسى الاسبق شارل ديجول بالانسحاب من الناتو، اضافة إلى تحميل فرنسا مسئولية انتاج وتفريخ الديكتاتور الكمبودى الاشهر بول بوت.

هـو بـبـسـاطـة كـتـاب يـغـذى مـوجـة الكراهية الامريكية المتزايدة لكل ما هو فـرنـسـى، مـعـتـمـدا عـلـى المـبـالـغـات او المغالطات التاريخية احيانا، كى يصل بمن يقرأ الكتاب إلى أن يؤمن بما يروج له فى نهاية الامر.

■

Historical dictionary of Egypt

(القاموس التاريخى لمصر)

Arthur goldsmith junior and Robert Johnston

AUC Press 2004

150 l.e.



تغطى هذه النسخة الجديدة والمعدلة من القاموس تاريخ مصر فى آخر قرنين ونصف. وتم تطويره بحيث يضم العديد من الأحداث الفاصلة فى السنوات العشر الأخيرة ويظل ذلك الكتاب مرجعا هاما لكل من يحتاج إلى معلومات دقيقة وحديثة عن مصر، كما انه يضم عددا من المداخل المهمة حول الأشخاص والأماكن والمؤسسات المؤثرة فى سير الأحداث.

■

Feast: Food to Celebrate Life

(العيد: طعام للاحتفال بالحياة)

nigella Lawson

Hyperion 480 pp, 2004, $ 23.80



ناجيلا لاوسون مـؤلـفـة الـكـتـاب هـى واحـدة مـن اشـهـر نـاقـدات الـطـعـام فـى امريكا، تكتب فى اشهر المجلات والصحف وعلى رأسها نيويورك تايمز وجورميه، قررت أن تقوم بمشروع كتاب طموح، هو محاولة الاحتفال بالحياة عن طريق الطعام. ببساطة تضع ناجيلا فى كتابها عدة وصفات لعيد الشكر، والكريسماس، وعيد الحانوكا اليهودى، وعيدى الفطر والاضحـى الاسـلامـيـيـن، اضـافـة إلـى وصفات اخرى لاعياد رأس السنة، واعياد الميلاد من جميع انحاء العالم.

تقول ناجيلا فى كتابها إن العالم كله على اختلاف عاداته ودياناته يعتبر الطعام احدى وسائل الاحتفال فى الاعياد، مما يجعل الطعام بالتالى هو احدى الوسائل المعروفة للاستمتاع بالحياة. تستخدم ناجيلا وصفات الطعام على اختلافها وتنوعها قائلة انها تريد إن تنقل لكل انسان الطريقة التى يستمتع بها انسان اخر، وان تساعد الكل على الاحـتـفـال بالحياة بطرق جديدة غير تلك التى اعتادوا عليها، وافقدتهم الاحساس بمذاق السعادة فى بعض الاحيان.

■

THE OFFICIAL GUIDE TO FAHRENHEIT 9/11

(الدليل الرسـمـى لفيـلـم فهرنهايت ٩/١١)

Michael moore

Simon & Schuste

256 pp. 2004, $ 11.20



قررت لجنة التحكيم فى مهرجان كان منح فيلم المخرج الامريكى مايكل مور جائزة السعفة الذهبية لاحسن فيلم فى المهرجان، وكان ذلك ايذانا بأن يحقق الفيلم اعلى الايرادات فى العالم كله، بوصفه اهم فيلم وثائقى اثار الجدل حول ادارة بوش، والاسلوب الذى تدير به سـيـاسـتـهـا الـخـارجـيـة وحـروبـهـا ضـد الارهاب.

ولان الفيلم مثير للجدل، تعرض احيانا للحذف او للرقابة فى بعض المناطق والدول، وربما تم منع الفيلم تماما فى بعض البلاد التى تسعى للحفاظ على مصالحها مع الولايات المتحدة او الدول التى يمسها الفيلم، لذلك قرر مايكل مور «المشاغب»، أن يصدر كتابه الجديد، ليضع فيه النص الكامل لفيلمه دون حذف، كى يدرك الكل ما تم اقتطاعه من الفيلم عند عرضه. ووضع فى كتابه ايضا كل المصادر و الوثائق التى تؤكد كلامه ووجهة نظره التى اوردها فى الفيلم، اضافة إلى العديد من الروابط والمواقع التى تؤكد صدق معلوماته.

ويضم الكتاب كذلك كل المقالات والصور والرسوم الكاريكاتورية والخطابات التى ارسلت إلى مخرج ومؤلف اكثر فيلم اثارة للجدل فى العام الحالى، فيلم فهرنهايت ٩/١١.

■

The employment crisis of female graduates in Egypt

(ازمة توظيف الخريجات فى مصر)

ghada f. barsoun

Aucpress, LE 15



ترى هذه الدراسة أن سوق العمل فى مصر يميل إلى تفضيل الخريجات اللواتى يتحدثن لغات أجنبية، ويملكن مظهر وحضور النخبة. الأمر الذى يضع الخريجات اللواتى لا يتمتعن بهذه المواصفات فى مرتبة أدنى.

وتهدف الدراسة إلى توثيق الكيفية التى تتم بها عملية الاستبعاد، والكيفية التى تقوم بها خريجات يملكن قدرا أدنى من المواصفات بتحديد إمكانياتهن كى تتلاءم مع أبنية سوق العمل.

■

History of the middle east

(تاريخ الشرق الأوسط)

Arthur goldsmith

AUC Press 2004, LE 100

Seventh edition



تمت مراجعة الطبعة السابعة من الكتاب بشكل موسع، كى تعكس الأحداث الأخيرة والمعاصرة فى الشرق الأوسط. بما فيها توابع حرب الخليج والمسألة الفلسطينية. و يركز الكتاب على تطور المؤسسات والثقافة الإسلامية، وعلى تأثير الغرب، والصراع من اجل الاستقلال السياسى، اضافة إلى الصراع العربى الإسرائيلى، وعملية إعادة إحياء القيم والقوى الإسلامية.

■

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات، وتحرص على نشرها، مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

اقتراح

اكتشفت مجلتكم اليوم، على موقع الجزيرة. نت. وكم سعدت بها بدرجة وأطلب منكم ألا تتوقفوا فبفضلكم تظل صلتى بالعالم العربى قريبة، وبصراحة أحترم كل ما تقومون به من عمل، ولأنكم من المجلات التى لها صدى فى الوطن العربى كله، لذا سأقترح عليكم أن تحثوا المكتبات المصرية أن تشجع الشباب المصرى على القيام بأعمال تطوعية فى المكتبات. مساهمة فى توسيع دائرة الثقافة وشغل الشباب الصغير بما هو مفيد. كما أرى هنا.

نسرين رضا
الولايات المتحدة



ألف سلامة

الأستاذ الكبير الفاضل سلامة أحمد سلامة

.. هل علينا عدد أكتوبر من «وجهات نظر» خالياً من مقالكم المميز الرئيسى الذى اعتدناه وأدمناه منذ صدور المجلة قبل سنوات عديدة، ولعل المانع يكون خيراً، لأن المقال الأسبق فى عدد سبتمبر من المجلة كان يصدر منه أنات وتوجعات الأزمة الصحية الداهمة التى ألمت بكم مؤخراً، ولهذا فنحن منزعجون جداً لذلك الغياب.. لأن ضربتين فى الرأس يوجعان فعلاً يا أستاذ سلامة..

.. فلقد استأذن أستاذنا هيكل فى الانصراف وترك صفحات المجلة ذاهلة فى نفس الموعد ونفس الشهر من العام الماضى.. وبعده أنت فى نفس الشهر.. لماذا؟؟

.. لكن أستاذنا هيكل ترك الأرض وحلق فى الفضائيات لتسمعه آذاننا بعد أن حرمت العين من قراءته.. أرجو أن تكون أخذت بنصيحتى الساذجة واشتريت السنارة التى تنقذ بها ما تبقى لك من أيام وعثرت على الدهماء.. وهم كثر.. لتتحدث.. وتتحدث.. وكفى.. بلا لوم.. أو أدنى عتاب.. أو إحباط.. أو سراب أمل..

أستاذنا سلامة.. ألف سلامة.. مليون سلامة.

«ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً».

ابنكم: د. سمير عنتر
استشارى حميات - الهرم



عندما تتحكم الأيديولوجية فى صنع القرار السياسى

فى مقالته الأخيرة بمجلة «وجهات نظر» يكاد يكون الحاضر الغائب فى مقال عميد معهد دراسات الشرق الأوسط بجامعة كولومبيا/ نيويورك البروفيسور رشيد الخالدى - والذى تناول فيه الخالدى مجمل الأفكار الأساسية فى كتابه الأخير «آثار أقدام الغرب: الطريق الأمريكى المحفوف بالمخاطر فى الشرق الأوسط»؟ والتى تدور الفكرة الأساسية والرئيسية فى هذا الكتاب حول سيطرة أيديولوجية فكرية معينة على صناع القرار الأمريكى.

هذه الأيديولوجية الفكرية تكون بمثابة نقطة الارتكاز فى اتخاذ جميع القرارات السياسية الأمريكية تجاه دول العالم الخارجى - بالطبع منها الدول العربية والإسلامية - وعلى سبيل المثال لا الحصر - فإن الأيديولوجية التى تتحكم فى صنع السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الشرق العربى - الأوسط الكبير حالياً - هى الأيديولوجية الإسرائيلية بمعنى «سيطرة إسرائيل على مراكز صنع القرار الأمريكى تجاه الشرق الأوسط» فمن مراكز صنع/ اتخاذ القرار الأمريكى الرسمية من وزارة الخارجية إلى الدفاع ومن وكالة الأمن القومى إلى السلك الدبلوماسى الأمريكى حتى الكونجرس؟

وكذلك الوسائل والآليات غير الرسمية فى التأثير على صنع/ اتخاذ القرار السياسى الخارجى الأمريكى مثل: جماعات الضغط والمؤسسات الجماهيرية ومراكز العصف الفكرى. وقد باتت السياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط ذات صبغة إسرائيلية - أو بتعبير بول فندلى؛ «إسرائيلية» السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط، وللأسف الشديد سادت هذه النظرة حتى لدى علماء السياسة والعلاقات الدولية والسياسة الخارجية وإدارة الأزمات الذين يفترض فيهم الحيادية العلمية والفكرية. فباتت هذه المؤسسات والمراكز تنبع وتصب فى مصب واحد هو «كيفية تحقيق المصالح الأمريكية فى المقام الأول ثم المصالح الإسرائيلية فى المقام الثانى دون أدنى اهتمام بالآخرين» حتى بات ما هو فى صالح الولايات المتحدة هو بالتالى فى صالح إسرائيل والعكس كذلك.

ما يميز الإمبراطورية الأمريكية عن غيرها من الإمبراطوريات التى سبقتها فى التاريخ الحضارى البشرى أنها إمبراطورية مفتوحة.

أى يمكن التأثير على الاستراتيجية الخارجية لهذه الإمبراطورية من الداخل وليس من الخارج كما كان الحال مع الإمبراطوريات التى سبقتها. فالولايات المتحدة الأمريكية تسمح لكافة ألوان الطيف السياسى بالاختلاط والذوبان فى العملية السياسية الأمريكية فمن أقصى الليبراليين إلى أقصى المتطرفين، ومن عتاة الأصوليين الدينيين إلى عتاة الملحدين والعلمانيين.. إلخ. وذلك دون أدنى اختلاف أو تمييز وعلى أساس الحريات السياسية المكفولة للجميع على شرط وحيد هو «عدم المساس بالنظام السياسى الأمريكى» هذه الحرية السياسية الكاملة استفادت منها إسرائيل بصورة غير مسبوقة (لإسرائيل ما يزيد على ٥٠ ألف منظمة ومؤسسة داخل الأراضى الأمريكية) وهو الأمر الذى يفسر شدة الاهتمام الأمريكى الرسمى والشعبى بالوضع الإسرائيلى حتى بات الوضع فى إسرائيل أمراً سياسياً أمريكياً داخلياً يدافع عنه المواطن الأمريكى قبل الإسرائيلى.

لقد استفادت إسرائيل من صدور قانون اللوبيات والذى صدر عام ١٩٤٦ بغرض تقنين مسألة إنشاء المنظمات والمؤسسات الشعبية والمدنية - سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية.. إلخ، فأصبح لها بموجب هذا القانون آلاف من المنظمات والمؤسسات والمراكز الضاغطة التى تعمل ليلاً ونهاراً من أجل خدمة إسرائيل وتلبية احتياجاتها السياسية والعسكرية والاقتصادية من الخزانة الأمريكية ومن أموال الضرائب التى يدفعها المواطن الأمريكى، بل وبرضاء المواطن الأمريكى فى أغلب الأحيان وأحياناً أخرى متبرعاً.

إن هذه الطغمة الأيديولوجية ومنذ صعودها من إدارة الرئيس «جورج بوش الابن» أصبحت لا تنظر إلى الشرق الأوسط إلا من المنظور الإسرائيلى الذى لا يرى فى الشرق الأوسط إلا إسرائيل فقط؟ فتمت صياغة الاستراتيجية الأمريكية لهذه الإدارة على أيدى عتاة الصهاينة والمسيحيين الأصوليين المعادين لما هو عربى أو شرق أوسطى غير إسرائيلى؟ فهطلت علينا المشروعات الإسرائيلية فى ثوب أمريكى.

هذه المشروعات لا هدف لها سوى تحويل الشرق الأوسط إلى منطقة نفوذ إسرائيلى - أمريكى مشترك خلال العقود الأولى من القرن الحادى والعشرين. هذا ما تريده إسرائيل والولايات المتحدة بالضبط من المشروعات والمبادرات التى تدعو للإصلاح.

إن محاولة الوصول إلى آليات عمل مع الإمبراطورية الأمريكية تحتاج إلى جهود العلماء العرب المتخصصين فى مجالات العلوم السياسية والعلاقات الدولية وصنع القرار والسياسة الخارجية والاقتصاد.. إلخ. من أجل الوصول لتشخيص صحيح لأهم أزمة سياسية تواجه العرب بصورة خاصة؟ ودول العالم الثالث بصورة عامة ألا وهى كيفية التعامل مع الإمبراطورية الأمريكية.

أحمد أبو زيد
تمهيدى ماجستير العلوم السياسية
جامعة أسيوط

رسائل الكتّاب — وجهات نظر

الترجمة: أهي أيضًا عربيًا مكبلة؟!..

في سبتمبر الماضي، ناقشت «وجهات نظر» من خلال مقال للأستاذ محمد يحيى جمال، قضية الترجمة والمترجم في العالم العربي وكيفية تفعيل صناعة الترجمة من خلال حركة مهنية نشطة ودور أكبر للدولة وإعادة الاعتبار للمترجم العربي.. هنا إضافة ثرية للحوار.

لا شك أن مشاعر الغم والألم قد انتابت كل عربي أتيح له الاطلاع على تقرير الأمم المتحدة عن التنمية البشرية والذي اعتمد «مشروع الشرق الأوسط الكبير» على الكثير مما جاء فيه في صياغة ديباجته، التي جاء فيها فيما يتعلق بالترجمة: (إن ما يترجم في اليونان التي لا يزيد عدد سكانها على ١١ مليون نسمة يفوق بخمسة أضعاف ما يترجم لجميع سكان الدول العربية مجتمعة!).

ما يضاعف إيلام تلك الحقيقة المرة، أن آباء وأجداد من يقرأها لم يكونوا فرسان حملة عادية من حملات الترجمة التي عرفتها وتفتخر بها العديد من أمم البشرية، بل كانوا حملة أقلام أكبر حملة ترجمة شهدتها البشرية على الإطلاق في حينها. فعلى سبيل المثال لا الحصر، يذكر أستاذ اللغة العربية وآدابها في جامعة «ييل» الأمريكية الدكتور «ديمتري غوتاس» في مؤلفه المترجم للعربية (الفكر اليوناني والثقافة العربية) أنه اعتمد في تأليفه على (٤٥) مرجعًا عربيًا معظمها تراثي، وما يزيد على (٢٦٤) مصدرًا غربيًا معاصرًا، كما ذكرها في ملحق المراجع والمصادر، ولعل في المقارنة ما بين أعداد المراجع التراثية العربية والمصادر المعاصرة الغربية، خير دليل على ما يفصل الثقافة والترجمة العربية من سحيق هوة، لا فيما يخص المعارف والعلوم الإنسانية الحاضرة فحسب، بل وحتى فيما يتعلق بالتراث والمعارف العربية الغابرة مقارنة بحالتها الراهنة.

لا يكتفي ذلك الأكاديمي الموضوعي المنصف في كتابه الصادر عام (١٩٩٨م) بتأكيد تلك الحقيقة الناصعة نصًا وحرفيًا، بل ويمضي ليفند العديد من ادعاءات مستشرقي القرن التاسع عشر من مسلمات زائفة، ربما كان من أبرزها:

أولاً: إن حركة الترجمة إلى العربية ما كانت لتتم بذلك الزخم والكمية لولا رعاية الخلفاء، والعباسيين منهم على وجه الخصوص.. ومع الاعتراف بتلك الرعاية وأهميتها إلا أن رعاية ودعم الترجمة اشتركت بها شرائح أخرى لا تقل أثرًا كالندماء والوزراء من أمثال بني المنجم في عهد المنصور والبرامكة في عصر الرشيد.

ثانيًا: الاعتقاد بأن الترجمة انحصرت في عصري الرشيد والمأمون دون غيرهما وما اشتهر عن مكتبة «دار الحكمة» في عهديهما وهو اعتقاد مضلل، فقد كان خالد بن يزيد بن معاوية أول من أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان وأمر بنقل الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي كما جاء في (الفهرست)، وتم نقل وترجمة الدواوين الرسمية، من الرومية إلى العربية أيام عبد الملك أو ابنه هشام، ومن الفارسية للعربية في العراق على يد الحجاج.

ثالثًا: تفنيد أسطورة الرفض أو المقاومة الإسلامية لترجمة العلوم والفلسفة، للغة العربية وخاصة من أتباع المذهب الحنبلي، اعتمادًا على قاعدتين كثيرًا ما أهملهما المستشرقون ومن تأثروا بطروحاتهم، أولاهما أن الدين الإسلامي لا يقر ولا يبيح النظام الكهنوتي، وثاني الأسس هو الاعتقاد المضلل بوجود صراع في العالم الإسلامي بين ما اصطلح عليه مدرستي «العقل» و«النقل» أو العقل والإيمان، فذلك المصطلح هو في أصله مصطلح غربي وليس عربيًا، فالمناظرات والمجادلات كانت مباحة بل وبتشجيع ورعاية من أعلى السلطات في مختلف العلوم والآداب من مختلف المشارب والأديان.

ولابد من القول إن ما قد يدعو للتفاؤل، أن مسيرة الترجمة العربية المعاصرة، قد انبثقت وسارت على ذات خطى مثيلتها السابقة، التي مهدت لسموق الحضارة الإسلامية الباهرة، فيما تماثل أقرب ما يكون إلى التطابق! فمثلما بدأت الترجمة بعد عصور من ظلام الجاهلية قبل بزوغ شمس الإسلام، فقد بدأت الرحلة الحاضرة بعد قرون من ظلام جهل وتخلف بعد انهيار الإمبراطورية العربية الإسلامية.. ومثلما بدأت الرحلة الأولى بقطرات ترجمة متناثرة لم تنهمر إلا في القرن الثاني للهجرة عند بداية عصر التدوين، فقد مضى قرن من الزمان قبل أن ينهمر مطر سحب الترجمة الحديثة التي بدأت في أوائل القرن التاسع عشر، بعدما تم إنشاء مدرسة «الألسن» لتعليم اللغات، وعودة أوائل البعثات التي من أشهرها تلك التي ترأسها الفقيه الأزهري «رفاعة الطهطاوي» وما قام به من ترجمات كانت بمثابة قطرات إلى جانب ترجمات متناثرة أخرى في ذلك القرن والتي قد يكون من أبرزها ما قام به «فارس الشدياق» الذي أضاف إلى اسمه «أحمد» بعدما أعلن إسلامه، تمامًا كإسلام المترجم العالم ثابت بن قره في العهود السابقة.

ذلك التماثل في البدايات، يزيد من حرارة التساؤل حول ما آلت إليه النهايات من فارق شاسع ما بين حركة «ترجمة» فاقت كل ما سبقها وعاصرها من حركات إبان عصرنا الذهبي الزاهر، وأخرى في عصرنا الحاضر تدنت إلى ما لا يزيد على خمس ما يترجم لإحدى أقل دول أوروبا سكانًا؟! تساؤل لا يمكن الإجابة عليه بالتذرع بانتشار ما لم يكن متاحًا في العصور الغابرة من مسارح وأفلام وفضائيات، تلهي الشيب والشباب عن القراءة والمطالعة، فجميع تلك البدائل متوافرة في الدول الأوروبية بما يزيد أضعافًا مضاعفة عما هو موجود في الدول العربية، كمًا ونوعًا وإثارة، ومع ذلك فإن «الترجمة» ليست في تراجع بل هي في تزايد، كما أن ما يفند بشدة مقولة عزوف العرب عن القراءة، هو ذلك الإقبال المتعاظم سنة بعد أخرى على معارض الكتب وافتتاح المزيد من المكتبات عامًا بعد عام! وربما كان من أهم الأسباب العديدة لتراجع حركة الترجمة الحالية اثنان:

أولهما: يكمن في الحافز المادي، فمقارنة بما كان يحصل عليه المترجم آنذاك، فعلى سبيل المثال، ذكر ابن النديم في «الفهرست» أن أبناء موسى ابن شاكر (في عصر المأمون) كانوا يدفعون خمسمائة دينار شهريًا للعمل وقتًا كاملاً في الترجمة وكان الدينار آنذاك يساوي ٤,٢٥ جرام ذهبًا، فعليه يكون راتب المترجم الشهري ما يساوي ٢١٢٥ جم من الذهب وهو ما يعادل ٧٥ أونصه، فإذا ما حسبت بسعر ٣٦٠ دولارًا للأونصه حسب القيمة الحاضرة، فإن راتب المترجم يصل إلى ٢٧٠٠٠ دولار شهريا، أو ما يزيد على مائة ألف ريال شهريًا وهو ما يفوق ربما بأضعاف مضاعفة ما قد يحصل عليه أمهر مترجم عربي حالي، عن ترجمة كتاب قد تستغرق ترجمته شهورًا طويلة، بل وحتى سنوات!

وثانيهما: ما يعترض الترجمة من منع، بل وقمع أحيانًا إما من سلطات سياسية بحجة محاربة أفكار هدامة، أو من عصبة دينية متطرفة تكفر وتمنع بحجة الإلحاد والهرطقة تمامًا مثلما كانت الكنائس المتسببة في إظلام أوروبا تفعل، أو من خليط منهم من المحافظين بدعوى الخصوصية والخروج على الأعراف والتقاليد مثلما كان يجري في اليابان والصين إبان عصور الانغلاق.. فيما لم تحظر مطلقًا أية قيود على الترجمة في عصورنا.

يوسف الذكير
yathekair@hotmail.com

قـــــــــراءة ..

قصـــــــــــة

في الحادي والعشرين من أكتوبر، وبعد عشرين عاما كاملة من المطاردة، وبصاروخين أطلقتهما طائرةٌ بدون طيار، تمكن الإسرائيليون من اغتيال عدنان الغول (٤٨ عاما) المسؤول العسكري لحركة حماس في غزة. وكانوا قد اغتالوا من قبل ولديه: بلال/البِكْر (١٨ عاما) ومحمد (١٥ عاما) وابن عمه عمران ونسفوا بيته مرةً.. ثم أخرى بعد أن أعاد بناءه. وكانوا قد فشلوا في اغتياله: مرتين بالصواريخ ومرة بفنجان مسمم من القهوة. ثم كان أن نجحت المحاولة. وليلتها شرب الإسرائيليون الأنخاب، وخرج شارون إلى شاشات التلفزيون ليهنئ قادة جيشه. وليلتها أيضا حكى «أحدُهم» هذه القصة:

حتى عام ١٩٤٨، كان جد عدنان الغول هو مختار (عمدة) القرية العربية «عقير» (اسمها العربي الحقيقي: «هربيا»)، التي ارتبطت بعلاقات جيرة حسنة مع البلدة اليهودية «عقرون»، المسماة حاليا «كريات عقرون». وكانت تربط بين البلدتين: العربية واليهودية، علاقات جوار وصداقة رسختها العلاقة بين «شكولنيك»؛ مختار البلدة اليهودية التي كانت تضم قرابة ١٠٠ نسمة، وجد عدنان الغول؛ مختار البلدة العربية، التي كان يعيش فيها قرابة ٢٥٠٠ نسمة (لاحظ الأعداد).

وكان أنه في بداية الثلاثينيات، وكدليل على الصداقة التي ربطت بينهما، أن تبادل الرجلان (شكولنيك / اليهودي ومختار القرية العربية) العصي التي كانا يتكئان عليها، ليستخدم كلٌ منهما عصا الآخر في حياته.

وفي عام ١٩٣٦ عندما اندلعت الثورة العربية، حمل جد عدنان الغول، العصا التي حصل عليها من شكولنيك، وجلس على الطريق المؤدي إلى «كريات عقرون» اليهودية. وضع العصا إلى جانبه، والبندقية على ركبتيه، وأبلغ أهالي القرية أنه سيتحتم على من يسعى إلى المس بيهود كريات عقرون، المرور على جثته هو، أولاً.

وكان أن اجتازت القريةُ اليهودية السنوات الثلاث للثورة، دون أن تسقط ولو شعرة واحدة من رؤوس سكانها. واستمرت العلاقات بين اليهود والعرب، في القريتين الجارتين طيبة... ثم جاء العام الثامن والأربعون. وفي الرابع من أيار/مايو وصلت الوحدة ٥٢ «اليهودية» التابعة للواء الخامس (جبعاتي)، إلى القرية العربية وأبلغت سكانها أن عليهم الرحيل والتوجه جنوبا، نحو غزة. فحمل جدُ الغول عصاه وتوجه نحو كريات عقرون، لمقابلة شكولنيك. وقال له: «الآن جاء دورك كي تدافع عنا».

حمل شكولنيك عصاه، التي أهداها له الغول، وتوجه إلى خيام ضباط جبعاتي التي أقيمت على مسافة قريبة. وروى لهم كيف دافع سكان القرية العربية عقير / هربيا عن الجيرة الحسنة، وما الذي فعله جد الغول. إلا أن حديث شكولنيك لم يثر أي انطباع لدى ضباط جبعاتي الذين أصروا على عدم وجود أي اعتبار لكون القرية صديقة، وأنه لابد من طرد سكانها.. «فورا».

عاد شكولنيك إلى جيرانه العرب في عقير / هربيا ليخبر أهلها بأنه لا يستطيع فعل أي شيء، لأن الأوامر جاءت من الجهات العليا. فحمل العربُ، الذين ظنوا أنهم عائدون لاحقا، ماخف من متاعهم، واتجهوا شرقا نحو أسدود، ومنها جنوبا، نحو المجدل، ثم إلى وادي غزة... حيث مازالوا هناك؛ يحتفظ شيوخهم بمفاتيح بيوتهم القديمة «يحلمون بالعودة»، ويحتفظُ شبابهم بالبنادق والمتفجرات... والحجارة، يدافعون بها عن «الشبر الأخير» في أرضهم ضد الدبابات والمجنزرات والطائرات.. والجرافات الإسرائيلية اليومية.

لو كانت القصةُ نشرت في صحيفة عربية لكانت قد وجدت طريقها السريع إلى صفحات «ميمري» ورسائلها المنتظمة «الضاغطة» إلى ذوي النفوذ في الولايات المتحدة، مقرونة باتهام زاعق، لا يقبل المراجعة، لصاحب القصة وناشرها بـ«اللاسامية». لولا أنه قد تصادف أن الراوي إسرائيلي هو البروفيسور عميرام شكولنيك: حفيد المختار اليهودي نفسه (توفي الجد قبل شهرين فقط)، وأن ناشر القصة أيضا إسرائيلي: «يديعوت أحرينوت» (١٠/٢٣).



لا جديد في القصة. فالكل - وإن نسي أو تجاهل - يعرف ما جرى عامي ١٩٤٧، ١٩٤٨. والشهادات الموثقة تزدحم بها كتب المؤرخين الإسرائيليين الجدد أنفسهم. المفارقة أن قصة الجد «الفلسطيني»، الذي حمى بعصاه أولئك الذين اغتالوا بعد سنوات أربعةً من أحفاده، نُشرت في الأسبوع ذاته الذي وقع فيه جورج دبليو بوش قانونا لمراقبة «معاداة السامية»، وبعد أيام فقط من استخدام واشنطن حق الفيتو (للمرة السابعة حماية لإسرائيل) لإجهاض قرار لمجلس الأمن يدعو إسرائيل (المحتلة) لإيقاف عملياتها في الأراضي الفلسطينية (المحتلة). والتي أسفرت «إجمالا» وحتى تاريخ الفيتو الأمريكي عن استشهاد ٣٦٥١ بينهم ٦٥٤ طفلاً وصبياً و٢٤٢ امرأة آخرهن عجوز في السبعين كانت تجلس «داخل منزلها» إلى مائدة الإفطار في اليوم الأول من شهر رمضان. فضلا عن مايقرب من ٤٣ ألفا من الجرحى، وتدمير ٦٠٦٨٥ منزلا. (لا عداء للسامية هنا يستوجب مراقبة سيد واشنطن العادل لما يجري).

الفيتو الأمريكي، وقانون الكونجرس الذي وقعه بوش صدرا في الشهر ذاته الذي أصدر فيه الإسرائيليون «المحتلون» قرارا (غير معادٍ للسامية!!) بعدم السماح للمزارعين الفلسطينيين «أصحاب الأرض» بقطف ثمار زيتونهم «مصدر معيشتهم الوحيد» إلا لثلاثة أيام فقط، الأمر الذي يترتب عليه عمليا أن تذبل ٩٠٪ من الثمار على أشجارها. فضلا عن أن معظمهم لن يمكنهم الوصول أصلاً إلى كرومهم بسبب «الجدار».



نعرف أن ظاهرة العداء للسامية ظاهرةٌ اجتماعيةٌ تاريخيةٌ مثلت تاريخياً أحد أبشع أشكال العنصرية داخل أوروبا. وكذلك نعرفُ أن السياسة الإسرائيلية، وهي وحشية من دون أي مجاز، لن تؤدي إلا إلى زيادة العنف وتعظيم المشاعر اللاسامية. ونعرفُ أن «إسرائيل تختبئ خلف أسوار اللاسامية وادعاء العدالة متجاهلةً حقيقة أن أفعالها تدفع بها نحو التفرقة العنصرية والتحول لدولة منبوذة في نظر العالم» (والرأي هنا لميرون بنفنستي في هآرتس ٢٠٠٣/١١/٦) وفي حين نفهمُ أن اللاسامية (التي نرفضها وندينها) تعني معاداة اليهود «لمجرد كونهم يهودا»، إلا أننا نخشى يوماً يصبح فيه انتقادُ السياسات الإسرائيلية، أو وصفها بالوحشية «معاداةً للسامية». ويومها نصبحُ جميعا مدانين.

ونعرف أيضا - بحكم تراثنا الديني والفكري والتاريخي، وبدليل مافعله جدُ الغول مع جاره اليهودي - أن الناسَ سواسية. ولسنا بحاجة لأن يعلمنا أحد أن معاداة السامية (بوصفها تمييزًا للناس على أساس يهوديتهم) عنصريةٌ بغيضة. وكنا بالتأكيد سنرحب بقانون «السيد الأمريكي» إذا كان ضد العنصرية بجميع أشكالها: سواء كان مقصودا بها اليهود أو العرب أو المسلمون أو المسيحيون أو الأكراد أو الزنوج... الخ. ولكننا نستشعرُ قلقًا مشروعا من «زئبقية» نعرف - بحكم السوابق وموازين القوى - ومحاولة التماهي بين اليهودية والدولة - أنها ستطول التعريف والتفسير.

ثم إننا نستغرب لماذا ينسى الأمريكيون أن الحركة العنصرية الفاشية في أوروبا تستهدف العرب والمسلمين كما اليهود. ولماذا يتجاهلون أن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في عالمنا المعاصر التي تمارس الاستعمار (على الأقل بمنطق حدود ماقبل ٦٧)، وترفض تطبيق قرارات الشرعية الدولية، وتقيم جداراً عازلا على أسس عنصرية، وتمارس العقوبات الجماعية كما فعل النازيون. ولماذا يتناسى السادة في واشنطن أن هناك يهودا ضد سياسات إسرائيل ومن بينهم أيضاً أمريكيون، وليس «ناعوم تشومسكي» عالم اللسانيات اليهودي الأمريكي بمثال فريد.

نستغربُ.. ونشعرُ بكثير من القلق والغضب لما نستشعره من أشكال أخرى للتمييز. نراه مثلا في عدم معاملة ما يُسفك من دماء الفلسطينيين والعراقيين على المستوى نفسه من الشجب والاستنكار والاهتمام الذي تحظى به الدماءُ الإسرائيلية، أو حتى دماءُ الغربيين في العراق. ورغم أننا نستنكر مايجري هناك (على يد أفراد) من إطاحة للرؤوس بالسيوف، إلا أننا - وبمنطق أن الدماء هي الدماء - لا نرى ذلك الفارق الهائل بين هذا الأسلوب «البدائي» وبين أسلوب القتل بالصاروخ الذي يمزّق الجسدَ أشلاءً، أو القنبلة المسمارية التي تفتت أضلع طفلة حتى تكاد تشطرها شطرين. مثلما حدث (بعد أيام من الفيتو الأمريكي) للطفلة الفلسطينية حسناء شهوان، ابنة الستة أعوام في خان يونس جنوب قطاع غزة. وهل ثمة ما هو أسوأ وأكثر عنصرية من المفاضلة بين دماء المدنيين أو التمييز بين أساليب قتلهم؟

تكمن المفارقة في أن الفيتو الأمريكي (السابع) أجهض الإرادة الدولية التي استهدفت حماية المدنيين في غزة في الأسبوع نفسه الذي وقع فيه الرئيس الأمريكي قانونَه دفاعا عن اليهود «ومنعاً لانتقادهم».

أليس في هذا تمييزٌ وعنصرية تشبهان ما في «اللاسامية» من تمييز وعنصرية؟!



هل أخطأ الجدُ العربي حين حملَ عصاه قبل ثمانية وستين عاما ليدافعَ عن جيرانه اليهود؟ أم كان عدنان الغول (الحفيد) هو المخطئ حين استبدلَ بالعصا صواريخ القسّام؟

في بلادنا العربية، من أوجد مشاعرَ اللاسامية؟ ومن روجها؟

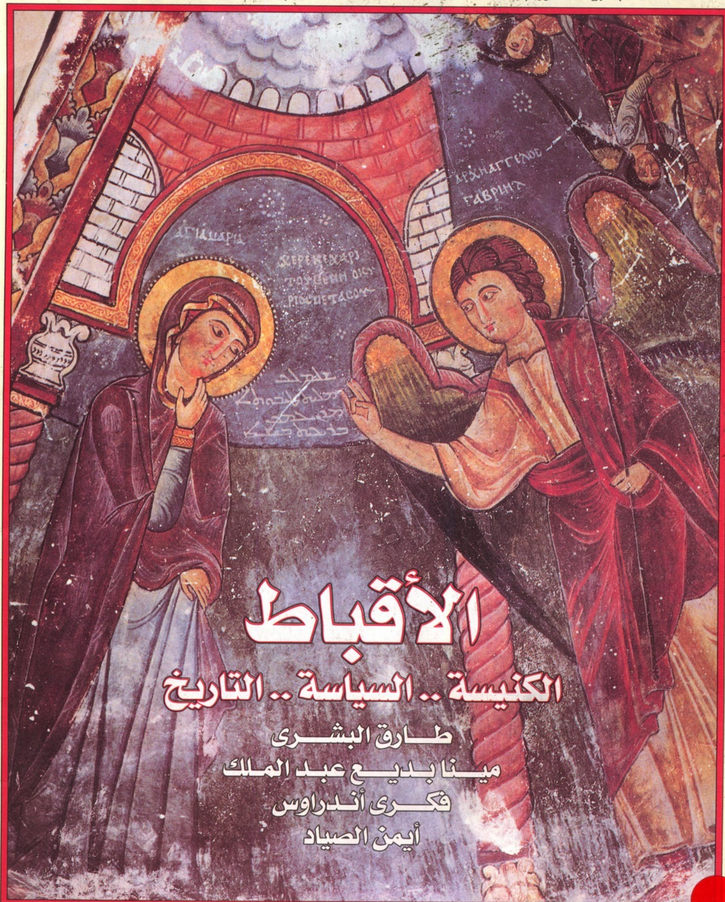
اسألوا من فجّرَ الفندقَ في طابا.. وأعيدوا قراءةَ القصة.

أيمـــن الصيـــاد

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 6 - Issue 72 - January 2005

مجلة شهرية . العدد الثانى والسبعون . السنة السادسة . يناير ٢٠٠٥ . الثمن عشرة جنيهات



الأقباط

الكنيسة .. السياسة .. التاريخ

طارق البشرى
مينا بديع عبد الملك
فكرى أندراوس
أيمن الصياد


أكثر من
٢٠٠٠ مصري
بيخدموك من القلب

السنة السادسة

العدد الثاني والسبعون

يناير ٢٠٠٥

الكتب وجهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن: الشركة المصرية للنشر العربي والدولي



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

البحوث والمتابعة
هديل غنيم



محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أحمد مستجير .. أستاذ بكلية الزراعة جامعة القاهرة.
- أيمن الصياد .. صحفي.
- جمال بيومي.. أمين عام اتحاد المستثمرين العرب ومساعد وزير الخارجية المصري سابقًا.
- رءوف عباس.. أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة.
- طارق البشرى .. كاتب ومؤرخ.
- فكري أندراوس .. كاتب مصري مقيم بالولايات المتحدة.
- محمد السماك .. كاتب لبناني.
- محمد عبد المطلب .. أستاذ البلاغة والنقد الأدبي بجامعة عين شمس.
- محمد فؤاد الذاكري.. باحث في التراث العلمي، من سوريا.
- مينا بديع عبد الملك .. أستاذ الرياضيات بالجامعة الأمريكية في القاهرة.
- نيل آتشرسون.. كاتب بريطاني.
- هشام السلاموني.. ناقد أدبي وفني.
- هنري سيجمان.. الرئيس السابق للمؤتمر اليهودي الأمريكي وزميل بارز في مجلس العلاقات الخارجية.
- وليد محمود عبد الناصر.. كاتب مصري مقيم في واشنطن.

رسوم العدد للفنان:
محمد حجي





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب . القاهرة . جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري، ص . ب: ٣٣ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ . فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . e-mail: weghat @alkotob.com

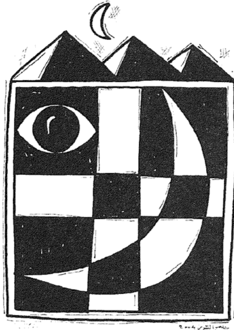
ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية . السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

وفــاء قســطنطين .. بـين

طـــــارق البشــــرى



هـــذا أمـــر يتعـــين أن تنكشـــف تفاصـــيل وقائعـــه لنعـــرف الحقـــائق ويمكـــن التصـــدى لهـــا بالمناقشـــة والعـــلاج

[١]

ونحن نتابع ما يمكن أن نسميه حدث «أبو المطامير» الذى جرى فى نوفمبر وديسمبر ٢٠٠٤. يمكن أن نتذكر حدثًا آخر سابقًا نسميه حدث «النبأ» الذى جرى فى يونيه ويوليه ٢٠٠١. وذلك لنتبين ما اتفق فيه الحدثان وما اختلفا فيه.

كلاهما اشتمل على هياج للشباب القبطى فى ساحة الكاتدرائية، وكلاهما أعلن فيه البطريرك الأنبا شنودة الثالث غضبه وغادر المقر البابوى وسافر إلى دير الأنبا بيشوى معلنًا اعتكافه الغاضب. وكلاهما استجابت فيه الدولة لطلب البطريرك وأنفذت مشيئته. وفى كليهما وقعت اشتباكات مؤسفة بين الشباب الهائج وبين قوات الأمن.

ولكن ثمة فروقًا، فإن أصل حادث «النبأ» أن صحيفة أسبوعية ضيقة الانتشار هى «النبأ» نشرت صورًا وتعليقات عن راهب فى دير المحرق أبعد بسبب انحرافاته الأخلاقية ولما قدم فيه من شكاوى، وكانت الصور شائنة وكان النشر والتعليقات عملاً شائنًا أيضًا. فثار شباب قبطى وأقبلوا إلى الكاتدرائية معتصمين بها، وكان ما كان، وهنا كان هياج الشباب مفهومًا ومقدرة بواعثه، وبدا تظاهرهم أمرًا تلقائيًا حث عليه شعور نبيل للذود عن المقدسات، وعن معنى «الرهبانية» ومعنى «الدير». وإن كل ما رأى المعلقون فيه جنوحًا، هو أن احتجاج الشباب جاوز حده وجاوز سببه، وأن الكنيسة حملت الدولة وحملت الجماعة الوطنية تبعة حادث ليست الدولة مسئولة عنه، وليست الجماعة الوطنية تنجرح به ولا تنخدش. ومسئولية الحدث تدور وتنحصر فى فاعليه والناشرين عنه.

أما حادث «أبو المطامير»، فهو شأن آخر، ونحن هنا أمام حدث ليس تلقائيًا فى حركته وملابساته، بل إن الحركة فيه يبدو عليها التدبير وليس التلقائية، وهو مرتبط بأحداث أخرى أقل شأنًا ولكنها أرهصت له وعاصرته وساعدته، أو ثمة ما يشير إلى هذه الشبهات كما سيرد البيان إن شاء الله. ونحن نعرف من خبراتنا فى كل مجالات العمل أن ما نتكشفه من تلقائيات ردود الفعل أولاً ما يلبث بتراكم الخبرات أن يصير من أساليب تدابيرنا فى العمل. إن حادث «النبأ» يمكن القول أنه بدأ حركة شباب تلقائى وانتهى سياسات كنسية، أما حادث «أبو المطامير» فالظن فى شأنه هو العكس، بدأ تدبيرًا وسياسة ولم ينته بعد.

[٢]

بدأ التفات الرأى العام للمسألة المثارة، لا من «أبو المطامير» ولكن من أسيوط، فنشرت صحيفة العربى الأسبوعية فى ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٤ أن ثمة فتنة طائفية فى أسيوط، وأن القمص أبانوب من كنيسة الملاك ميخائيل يتهم محمد عبد المحسن صالح أمين الحزب الوطنى بأسيوط بأنه يضغط على مسيحيين ليعلنوا إسلامهم، وأن شائعة أخرى تقول إن القمص أبانوب يثير المشاكل وأنه على صلة وطيدة بأقباط المهجر. وذكر القمص أن أمين الحزب الوطنى يغرى المسيحيين المتهمين فى جرائم أن يبرئهم من تهمهم إن أسلموا، سواء كانت جرائم مخدرات أو سرقة أو غيرها.

ثم ذكر قصة الفتاة «كريمة» التى أسلمت وتزوجت من مسلم، وتكلم عن بناء الكنائس وغير ذلك، وطلب تدخل رئيس الجمهورية شخصيًا، ورفض اقتراح الصحيفة حل المشاكل فى اجتماع تعقده قيادات أسيوط، وذكر أنه إذا لم يأت أحد من مسئولى القاهرة، فسيوزع بيانًا على شعب أسيوط بأن جهاز الدولة عاد إلى مستوى الدولة العثمانية.

أما أمين الحزب الوطنى فقد دافع عن نفسه بإنكار ما نسب إليه وذكر عن الفتاة المسيحية التى قيل أنها أسلمت وتزوجت مسلمًا، ذكر أنها من قريته درنكة وأن أباها أتاه شاكيًا من أن ابنته طلبت إعلان إسلامها وزواجها، وأن أمين الحزب حلاً للمشكلة دفع بالفتاة إلى مكتب الصحة «ليتم تسنينها بسن صغيرة حتى تأمر النيابة بإعادتها إلى والدها على أنها قاصر ولا يجوز أن تزوج نفسها».

وفى ٦ ديسمبر ٢٠٠٤ نشرت صحيفة الأسبوع عن أحداث أسيوط، وأن القمص أبانوب أعلن فى عظته يوم ١٧ أغسطس ٢٠٠٤ أن رب أسرة مسيحيًا أعلن إسلامه هو وأمه البالغة ثمانين سنة، وأن زوجته وأولاده الخمسة لم يعلنوا إسلامهم، وتكلم عن أمين الحزب الوطنى ودوره. وتقول الصحيفة إنها من متابعتها الأحداث فى أسيوط تبين أن أكثر من سألتهم عن نشاط أمين الحزب استبعدوا أن يكون حض المسيحيين على الإسلام واحدة من المهام التى يكرس لها جهوده، وأن جهوده تنصرف إلى الأمور المالية والسياسية فحسب. وأن أبانوب أعاد أحاديث شتى عن أمر إسلام مسيحيين بضغوط رجال الحكم بأسيوط وأن ثمة مشاكل تتعلق ببناء الكنائس وأن ثمة أرضًا يريدون ضمها لتوسعة خدمات الكنيسة. ودافع أمين الحزب عن نفسه بأن أبانوب يريد الإثارة لتصل إلى خارج مصر لإعطاء العالم صورة أن المسيحيين مضطهدون فى مصر، ثم قال «إنه على استعداد تام للذهاب إلى المطرانية وأن يخضع لمحاكمة هناك وليحاسب المخطئ...».

وبعد هذه الإثارة، ظهر من حديث أبى الفتاة «كريمة» المقول بأنها أغويت على الإسلام، أنها كانت انجذبت إلى فتى مسلم، فذهب أبوها «بدر رشدى» إلى أمين الحزب، وهو يعمل لديه، «فطلب محمد عبد المحسن من الضابط أن يحرر للبنت شهادة ميلاد بسن ١٤ عامًا.. الراجل يشكر خدمنا وأنا أخذت بنتى ورجعت البيت» واستبعد الأب أن يكون ثمة غواية له أو ضغط عليه ليتحول إلى الإسلام، وهذا ما ذكرته صحيفة العربى فى ١٢ ديسمبر ٢٠٠٤. ثم لما ذهب الأستاذ نبيل زكى رئيس تحرير صحيفة الأهالى إلى أسيوط كتب فى الأهالى فى ١٥ ديسمبر ٢٠٠٤ يقول «الغريب أن هذه الواقعة حدثت منذ سنة، وبالتحديد فى شهر رمضان قبل الماضى، ولكنها لم تنفجر كمشكلة إلا فى هذه الأيام!» (علامة التعجب من الأستاذ نبيل زكى)، ثم ذكر أن الفتاة اصطحبها أحد الشباب إلى مركز أسيوط لتغيير ديانتها وأن الأب «حاول إقناع ابنته بالعدول عن قرارها وفشل الوالد فاستعان بمحمد عبد المحسن صالح عضو مجلس الشعب الذى اتصل بمفتش الصحة وطلب منه تسنين الفتاة وحيث ظهر أن عمرها ١٤ سنة، وتمت إحالة الفتاة إلى النيابة التى قررت تسليمها إلى ولى أمرها (الوالد) على أساس أنها قاصر».

وفى حديث أمين الحزب الوطنى مع «الأسبوع» فى ١٣ ديسمبر ٢٠٠٤ أن واقعة هذه الفتاة محرر عنها محضر سنة ٢٠٠٣ مركز شرطة ابنوب وذكر أن القس أبانوب «قابل الفتاة محاولاً الضغط عليها

الدولة و "الإدارة" الكنسية

لتعدل عن إشهار إسلامها. وأحضرنا هذه الفتاة فى حضور والدها وحاولنا معها كثيرًا إلا أنها أصرت على إشهار إسلامها. وهنا اقترحت على الحاضرين من الشرطة وأمن الدولة أن يتم عمل محضر بالواقعة وإرسالها إلى النيابة على أنها صغيرة فى السن، وهو ما حدث وأمرت النيابة بتسنينها عن طريق مفتش صحة المركز وفعلاً تم تسنينها بـ (١٤ سنة) وأمرت النيابة بتسليمها لوالدها..» ثم ذكر أمين الحزب عن علاقته بالقمص أبانوب «أؤكد لك وعلى مسئوليتى أننى طلبت أكثر من مرة من القس مينا ممثل السيد المطران ميخائيل أن التقى بالمطران ومستعد - ومازلت - أن أحاسب داخل الكنيسة وأمام شعب الكنيسة وأطلب أن يكون المطران نفسه حكمًا..» ثم نفى عن نفسه تهمة أنه لا يستجيب لطلبات الكنيسة ذاكرًا أنه استصدر قرارًا من مجلس محلى المحافظة بتخصيص ١٣ فدانًا تجاور الدير للدير فى ١٩٩٧ وصارت ملكًا له. فضلاً عن نصف فدان آخر ومساحة للصرف الصحى، وأن ما يزيد على ٤٠٪ من كنائس أسيوط أنشئت فى السنوات الخمس الأخيرة وأنه منذ ١٩٩٩ بنى وجدد ورمم ١٣٩ كنيسة وأن ٣٩١ كنيسة فى أسيوط وبها عشر مطرانيات منها ست للأرثوذكس.

واتفقت تعليقات الصحف التى تعرضت لموضوع أسيوط هذا على أن محمد عبد المحسن صالح أمين الحزب الوطنى بأسيوط له نفوذ كبير جدًا بالمحافظة. وقد يكون من المبالغة ما قيل عنه أن نفوذه يفوق نفوذ المحافظين، ولكن هذه المبالغة ترسم مؤشرًا على مدى النفوذ الواسع الذى يمارسه لأكثر من عشرين سنة وفى عهود محافظين عدة. وهذا صاحب النفوذ الواسع الكبير الذى يقال أنه ممتد من ثلاث وعشرين سنة ماضية ولا يزال قائمًا، نراه هنا كيف يعامله القمص بانوب ويوجه له العبارات الحادة العنيفة، وكيف يتلقى أمين الحزب سيل التهم منه وهو خافض الجناح مذكرا بما أسلفه من استجابات وطالبًا أن يحاكم محاكمة كنسية وأن يكون المطران هو من يحاسبه وأمام شعب الكنيسة ويكرر ذلك فى كل أحاديثه، ونحن نخلص من ذلك كله إلى:

١ - أن هذا الحدث الخاص بالفتاة كريمة بدر رشدى، كان انتهى تمامًا من أكثر من سنة، ثم أعيدت إثارته.

٢ - وأن من أعاد إثارته هو القمص أبانوب، وأن المطران ميخائيل ترك الأمر يثور وابتعد بالصمت عن لا ونعم، فى أمر يتعلق بمطرانيته وبقساوسته.

٣ - فى حدود البيانات التى أمامنا، فإن الفتاة التى قيل أنها كانت تصر على الإسلام وعلى الزواج، نحن لا نعلم سنها الحقيقى، ولكننا نعلم أنها أحيلت بتوصية من أمين الحزب إلى مفتش الصحة ليسننها فسننها بسن ١٤ سنة لكى تسلم لأبيها. كما أننا لا نعلم حقيقة اقتناعها بالإسلام ولكننا نعلم أنها سلمت لأبيها بعد تحديد سنها بالأقل لتفادى تمسكها بالزواج وبالتحول الدينى. وهذا ما ذكره والد الفتاة الأستاذ نبيل زكى وهو ما أقر به على نفسه محمد عبد المحسن صالح، وما شهد به أيضًا على غيره. وهو أيضًا ما نقله الأستاذ عادل حمودة وعبد الحفيظ سعد فى صحيفة صوت الأمة فى ١٣ ديسمبر ٢٠٠٤.

٤ - نحن لذلك أمام شبهات قوية أن تواطؤا مشهودًا به جرى بين موظفين عموميين لإثبات غير الحقيقة فى أوراق رسمية بغية التغلب على رغبات ملحة ومشروعة عبرت عنها الفتاة، وهى مواطنة مصرية وظلت مصرة عليها حتى سلمت إلى والدها بقرار النيابة العامة بناء على أن سنها ١٤ سنة. وهذه أمور تستدعى التحقيق من جهات الرقابة الإدارية ووزارتى الصحة والداخلية، كما أنها تستدعى التحقيق من نقابة الأطباء عن مدى الشبهة التى تلحق بتقرير مفتش الصحة لسن الفتاة المذكورة.

٥ - إن ما أقر به أمين الحزب على نفسه من تحريض على تسنين الفتاة بأربع عشرة سنة ليمكن إعادتها إلى أبيها تخلصًا من إصرارها على تحقيق رغباتها الجائزة والمسموح بها قانونًا، أن ذلك يقتضى فيما أظن أن ينظر فيه مجلس الشعب بحسبان المذكور عضوًا به، للتثبت مما فعل ولتقدير ما إذا كان ذلك مما يفقده الثقة والاعتبار اللذين يمكن بتقدير فقدهما إسقاط العضوية عنه طبقًا للمادة ٩٦ من الدستور.

[٣]

يتداخل مع الحادث السابق، ما يمكن تسميته حادث «أبو المطامير» وهو يبدأ ظهوره فيما ذكرت الصحف يوم ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٤، ذلك أن السيدة وفاء قسطنطين وهى مهندسة زراعية تعمل بهيئة الإصلاح الزراعى بمحافظة البحيرة وتبلغ السادسة والأربعين من عمرها، وهى تعيش فى «أبو المطامير» بمحافظة البحيرة ومتزوجة من القس يوسف معوض ولها ابن مهندس متخرج من هندسة جامعة الإسكندرية وابنة فى كلية العلوم بذات الجامعة، وزوجها مريض بترت ساقه من مضاعفات مرض السكر.

فى ذلك اليوم خرجت السيدة وفاء من بيتها ولم تعد إليه حسبما ذكرت صحيفة وطنى فى ١٢ ديسمبر، وأبلغ شقيقها مسيحة قسطنطين السلطات عن تغيبها. وتذكر مجلة المصور فى ١٧ ديسمبر أن السيدة وفاء تقدمت فى الأول من ديسمبر إلى قسم الشرطة فى حى السلام بصحبة سيدة مسلمة هى ابنة جار قديم لأسرة وفاء فى «حصة مليج» بالمنوفية حيث نشأت هى. وذكرت فى القسم كل ما يتعلق بحالتها الاجتماعية من مؤهل وزواج وأولاد، وأنها تقيم مع صديقتها لعلاقة قديمة بين أسرتيهما وأنها «تطلب إشهار إسلامها». وذكرت أنها قرأت للشيخ متولى الشعراوى واستمعت إلى أحاديث الداعية السورى يوسف طورى وإلى أحاديث عمرو خالد وأنها تتلو سور: يس والكهف والرحمن وتحفظ كل قصار السور وأنها صامت شهر رمضان والأيام الستة من شوال. وليس من سبب يتعلق بزواج جديد يحدوها إلى الإسلام، إنما هى الرغبة الشديدة فى الإسلام التى «لم تستطع إقناع نفسها بالعدول» رغم ألمها لما يمكن أن يحدث لأسرتها. وأنها كاشفت ابنتها بالحقيقة.



«الإدارة الكنسية»
أفسدت على نفسها وعلى ذويها
حجة كانت دائمًا تستحسن استخدامها
متعلقة بحرية الأديان
وحرية الاعتقاد



فأبلغ مأمور القسم مباحث أمن الدولة واستدعيت إليها السيدة المذكورة. وأن أسرة السيدة وفاء لم تبلغ عن غيابها حتى أبلغ أخوها عن ذلك فى قسم «أبو المطامير» صبيحة اليوم الثانى من ديسمبر.

من اليوم الثانى من ديسمبر فيما يبدو بدأ التحرك القبطى قلقًا وشغبًا وشائعات. وانتشرت شائعات تقول أنها اختطفت وأنها هربت مع زميل لها مسلم تريد أن تتزوجه وأنها لم تطق العيش مع زوجها المريض، وأن ثمة من أغراها وحرضها وأن «غسيل مخ» حدث لها. وكل ذلك كان ظلمًا وافتراء وثبت عدم صحته. ولم ترع الشائعات حرمة السيدة ولا ذمة ناقلى الأخبار. ولا أقول ذلك لأننى مسلم يتكلم عن سيدة انتقلت إلى الإسلام، ولكن أقوله نقلاً عما قاله الأنبا باخوميوس مطران محافظة البحيرة والذى يعرف السيدة وزوجها ويتبعه زوجها ويتبعه محال عمل السيدة وزوجها ومحال سكنهما. قال غبطته لصحيفة صوت الأمة فى ١٣ ديسمبر «كانت سيدة تمتاز بالخلق والهدوء.. وحتى مساء يوم الجمعة (أى ٢٦ نوفمبر) وقبل أن تختفى بساعات كانت ترافق زوجها، بل قامت بتغيير جرح زوجها الذى يعانى من بتر فى ساقه اليمنى وفى اليسرى غرغرينة سكر، وكانت رفيقة بارة بأسرتها وتحملت زوجها أثناء فترة مرضه، كما أنها أحسنت رعاية ولديها مينا خريج الهندسة وشيرى التى تدرس بكلية العلوم جامعة الإسكندرية، ولم تكن الأسرة تعانى أية مشكلات مالية، فالمطرانية ولظروف زوجها المرضية كانت توفر لها كل شىء ولم تشتك هى من أى شىء». وزميلتها فى العمل سهير عصمت الخربوطلى تذكر فى «المصور» أنها «مثال للأخلاق والأدب وعفة اللسان وحفظ السر وكانت عاطفية جدًا وقلبها يعرف الرحمة وكريمة مع الجميع وسخية وأسلوبها راق ولا تخدش حياء أحد» (عدد ١٧ ديسمبر ٢٠٠٤)، كما قال ذلك عنها الأب مينا صبحى من أبو حمص بالبحيرة إذ كانت تسهر على مرض زوجها بالمستشفى ثلاثة أشهر وإنها لم تخرج من بيت طيب (العربى فى ١٢ ديسمبر ٢٠٠٤).

وتذكر صحيفة العربى فى ١٢ ديسمبر ٢٠٠٤ أن شائعة الاختطاف انتشرت كالنار فى الهشيم فتجمهرت أعداد من المسيحيين فى المطرانية بالبحيرة يطالبون بعودة السيدة وفاء وتسليمها إلى زوجها، باعتبار أنها أجبرت على الإسلام وأنها تزوجت زميلها واعتصم المتجمهرون. وبدا أن الأنبا باخوميوس يعمل على تحويل المسألة إلى مسألة عامة وسياسية فذكر «أناس لهم اتجاهات» سبق أن أبلغ عنهم السلطات وأن «هؤلاء الناس» هم من خططوا وأن لديه أسماء «هؤلاء الناس». وقال كثيرون

بعدها فى البحيرة أو فى اعتصامات البطريركية بالقاهرة أنها أجبرت على الإسلام وأنها اختطفت، وأن الاختطاف لا يكون فقط بالسلاسل والحديد إنما يكون أيضًا بالترغيب.

وطبعًا تحركت أجهزة الأمن فى محافظة البحيرة لعلاج هذا الموقف، مع ما حدث من تجمهر ومن اعتصام، وتحرك المحافظ وذهب الدكتور عبد الرحيم شحاتة وزير الإدارة المحلية إلى البحيرة ليلتقى برجال الدولة والكنيسة، وانتهى إلى أن السيدة وفاء قد أسلمت، وقد أصدر المجلس الملى للأقباط الأرثوذكس بالإسكندرية بيانًا نشرته صحيفة الوطن، واستنكر قول الدكتور عبد الرحيم شحاتة. كما استنكر نشر «الأهرام» لذلك باعتباره يهدد الوحدة الوطنية.

وبدأ التوافد على القاهرة فى الأيام التالية لما صدرت تصريحات بالبحيرة بأن الأمر يكون حله فى القاهرة، فتوافدت الوفود من الشباب القبطى الغاضب إلى مقر البطريركية فى العباسية. وتذكر صحيفة صوت الأمة أنه من مساء الأحد ٦ ديسمبر وطوال الثلاثاء ٨ ديسمبر ساهمت مواقع على الإنترنت للأقباط فى النشر عما يحدث فى الكاتدرائية، ومنها خبر عن تحرك عدد كبير من الحافلات تحمل أعدادًا كبيرة من أقباط البحيرة يتجهون إلى الكاتدرائية، وكان ذلك فى ذات وقت وصول الحافلات، ثم انضم إلى هؤلاء مجموعات من القاهريين ومن المحافظات الأخرى. وفى يوم الأربعاء وصل المئات إلى الكاتدرائية لأنه يوم محاضرة البابا الذى كان عاد من سوريا.



وتذكر صحيفة العربى أن الكاتدرائية استقبلت المئات جاءوا من مختلف المحافظات فى اعتصام مفتوح، وأن ذلك تزامن مع قداس للصلاة بمناسبة وفاة الكاتب الأستاذ سعيد سنبل، وحضره لفيف من كبار رجال الدولة ففوجئوا بالمتظاهرين يحملون اللافتات ويهجم بعضهم على القاعة الكبيرة ويحاصر عددًا من المسئولين. ورغم الوعود التى قدمت بإعادة السيدة وفاء لم تهدأ الأمور وانضم إلى المتظاهرين مئات من الشباب والفتيات ومن الأسر ومعهم أطفالهم، كما ذكرت الصحيفة أنه حتى ذلك الوقت لم يتدخل الأمن وكان المتظاهرون موجودين خلف البوابة، وأمامهم القساوسة وبعض المسئولين عن الكاتدرائية وعلى رأسهم الأنبا أرميا، كانوا يجبرون أى متظاهر يرغب فى الخروج من باب الكاتدرائية على الدخول مرة أخرى وسط هتافات الشباب الغاضبين».

ومما يمكن الإشارة إليه هنا أن وظيفة الشائعات فضلاً عن كونها تؤجج الغضب وتثير الحماس وتساعد على التجمهر والإحساس بالإهانة والخطر، فإنها أيضًا تنقل المسألة من كونها حادثًا فرديًا إلى أن تصير حدثًا ذا دلالة عامة، ومن هنا نلحظ أن الأنبا باخوميوس من بداية أحاديثه كان يذكر «هؤلاء الناس» الذين يعرفهم وأبلغ عنهم السلطات، ويشير إلى إمام مسجد وزميل عمل وغير ذلك، ثم الإشارة إلى الضغوط والإغراءات كما لو أن جهازًا يقوم بالحض على ترك الدين واعتناق دين آخر، ثم يزيد الإحساس بالخطر وافتقاد الأمن الجماعى، فلا يكون بعد ذلك ملجأ من هذا الخطر للشباب المسيحى إلا المطرانية فى البحيرة والكاتدرائية فى القاهرة.

هذه النقطة الأخيرة تلزم الإشارة إليها عند النظر فى آثار مواقف غبطة البابا شنودة الثالث بطريرك الكنيسة، إزاء هذا الحادث. لقد ترك غبطته الأمر عند أول توافد الشباب إلى البطريركية، تركهم مسافرًا إلى دمشق لحضور اجتماع مجلس الكنائس، ثم عاد بعد يومين وقد غص المكان بمن ينتظرون عودته ليعالج الأمر ويهب القلقين شعور الأمن والأمل. وكل ذلك يتصاعد مع موعد محاضرته يوم الأربعاء، وغص المكان أيضًا بسبب قداس الراحل الكريم سعيد سنبل، وهو قداس ذكر الأستاذ عادل حموده فى صوت الأمة أنه كان سيقام فى كنيسة أخرى أقيم فيها سرادق العزاء، ولكن طُلب إلى أسرة الراحل بالتليفون أن يكون القداس فى الكاتدرائية «وبدا أن ذلك نوع من التكريم، فوافقت العائلة دون أن تتصور هى وكل أصدقاء سعيد سنبل أن هناك هدفًا آخر هو المرور على الشباب الغاضب بكل ما يحمله من لافتات وبكل ما يقول من هتافات» (عدد ١٣ ديسمبر ٢٠٠٤)، وليشمل ذلك جذب كبار الشخصيات وكبار المسئولين الذين سيحضرون القداس.

ثم بعد أن حضر غبطة البطريرك وبعد الإعلان عن قرب حل الأزمة وتسليم السيدة وفاء للكنيسة، وقبل أن يلقى محاضرته، عرف الجميع أن غبطته غضب وأنه غادر المقر البابوى ذاهبًا إلى دير الأنبا بيشوى للاعتكاف، ولنا أن نتصور شعور اليتم والضياع الذى يشعر به شباب ثائر مستفز بالخوف وعدم الأمن ويلجأ إلى حيث ينتظر التزود بالثقة والأمن والطمأنينة لدى صاحب المكان، فيتركه ويذهب، يتركه فى العراء ويذهب. هنا انفجر الموقف وبدأ خروج الشباب وبدأ قذفهم الشرطة بالطوب، فأصيب ٥٥ من الجنود بينهم ٥ من الضباط، وأصيب عدد من الشباب قال أحد رجال الكنيسة أنه بلغ ١٥٠ شخصًا، وقبضت الشرطة على ٣٤ من المتظاهرين.

[٤]

كان هذا المسلك الأخير فى ظنى هو ما فجر الموقف، أو هو من أهم ما تفجر به الموقف، والمسألة كلها فى ظنى ليست مسألة بين المسلمين والمسيحيين فى مصر، ولا هى فى الأساس مسألة مسلم يأتى أو مسيحى يذهب، وأن كل الشهادات التى وردت فى الصحف فى هذه الأيام، سواء كانت من آباء للكنيسة أو من غيرهم قالت أن مسألة السيدة وفاء قسطنطين بوصفها مسيحية، إنما هى مسألة أنها زوجة قسيس، وقد قالها الأنبا باخوميوس صراحة. لقد قال لصحيفة العربى «سلامة الوطن يجب أن نحافظ عليها، ولكن المشكلة أن رجال الدين فى مجتمعنا المصرى رمز وليس شخصية عادية وزوجة رجل الدين هى أيضًا رمز..» وقال القس اسطفانوس حبيب من كنيسة كفر الدوار أنه عندما يمس الأمر «زوجة كاهن فالمقصود هنا هو الكنيسة». وقال الأنبا باخوميوس فى صوت الأمة «إنها زوجة لأحد رجال الكهنوت»، فلما سئل عن ماذا يريدون قال «أن يتم تسليم زوجة القس لنا» فلما سئل عن ماذا إن رفضت. قال «الموضوع لا يحتمل فلا بد أن يتم تسليمها فهى زوجة رجل كهنوت وتعلم أنه ليس لها حرية الإرادة فيما تفعله». وهذه العبارة تكشف عن التناقض مع ما قاله فى موضع آخر بصحيفة العربى من أن المهم أن نتأكد أن «تكون لها الأهلية والحرية فى اتخاذ القرار لأنها حينما تأخذ القرار وهى فاقدة الأهلية والحرية فى تنفيذه فهذا غير معقول».



وهكذا يفكر غبطته، مواطنة مصرية تعمل مهندسة زراعية من سنة ١٩٨١ وهى فى السادسة والأربعين من عمرها وربت شابين: مهندسًا وطالبة بكلية العلوم وعرفت بما أقر به غبطته نفسه من حميد السجايا وشهد لها بذلك زملاؤها، ومع ذلك يرى غبطته أن لا حرية لها ولا إرادة لأن الأمر يتعلق بالكنيسة بوصفها مؤسسة. ونحن إذا استخدمنا المفاهيم الحديثة، نقول أن الأمر هنا ليس أمر «المسيحيين» إنما هو مشكلة البيروقراطية الكنسية التى وجدت فى الحادث - صوابًا أو خطأ - ما يجرح عزوتها لدى جماهيرها. والأنبا بيشوى يقول لصحيفة العربى إن الأمر كان يمكن تداركه فى «أبو المطامير» «ولكن الأجهزة ظلت تتلاعب بالكنيسة وهو ما كان له أثره البالغ فى تصاعد الأزمة وتفجير الموقف. ويظهر بذلك أن سبب الحادث يتعلق بالبيروقراطية الكنسية وأن تصعيده جاء منها وأن الصراع بشأنه دار بين «الأجهزة» وبين «الكنيسة». وظهرت قوة المؤسسة الكنسية فى أنها نقلت المسألة من كونها مسألة سيدة انتقلت من المسيحية إلى الإسلام إلى كونها مسألة تتعلق بالأمن المسيحى، بزعم أن السيدة خطفت وأنها تزوجت وأن ثمة أناسًا حرضوها وجهات أغرتها، فضلاً عن استخدام نوع من التشنيع الأخلاقى على السيدة وفاء، فمثلاً يقول الأنبا بيشوى سكرتير المجمع المقدس عنها «إذا ذهبت للإسلام حبًا وعشقًا فى رجل آخر غير زوجها، فهذا ما ترفضه الكنيسة حتى لو سمحت الأجهزة الأمنية..» (العربى ١٢ ديسمبر ٢٠٠٤)، ولا أدرى كيف سمح له ورعه الدينى أن يقذف سيدة أشار إليها بالفضل والاحترام كل من تكلم عنها ممن عرفها، وحتى رجال الكنيسة فى إقليمها شهدوا بذلك.

كان المطلب أولاً تسليم السيدة وفاء إلى أسرتها، ثم سرعان ما تغير، واطرد على ألسنة رجال الإكليروس مطلب تسليمها إلى الكنيسة، ظهر ذلك على لسان الأنبا باخوميوس أولاً ثم استشرى، وصار فى ساحة الكاتدرائية بين المحتشدين المعتصمين مطلبًا شعبيًا. وصار هذا الحشد هو أداة الضغط على الحكومة للرضوخ لمطلب الكنيسة. والوقت مناسب جدًا للضغط، فهو وقت التسليم فى



إن الكنيسة حملت الدولة وحملت الجماعة الوطنية تبعة حادث ليست الدولة مسئولة عنه، وليست الجماعة الوطنية تنجرح به ولا تنخدش



الثوابت، وهو موسم الفكر الجديد الذى يدعو إلى عدم التمسك بشىء، هو موسم عزام عزام واتفاقية الكويز وغير ذلك. ومن المؤسف حقًا أن الكنيسة الوطنية المصرية تستغل فى صراعها مع الدولة ظروفًا غير مناسبة لتحقق الإرادة الوطنية، وتقف مع من يتربصون بمصر الدوائر فى هذا الظرف النكد.

صدر القرار السياسى بتسليم السيدة وفاء للكنيسة، وأعلنه الأنبا يؤانس على جمهور المعتصمين بمقر الكاتدرائية، ذكر أن السيدة وفاء «وصلت فى مكان آمن يتبع الكنيسة..» فلما طالب الجمهور المثار بضرورة رؤيتها خرج إليهم الأنبا باخوميوس وأعلن أنها فى مكان آمن يتبع الكنيسة فعلاً «وأنه جلس معها». وبعد أن سلمت السيدة إلى الكنيسة أودعتها الكنيسة بيتًا للمكرسات فى أرض النعام بعين شمس، وأحاط بها هناك عدد من الراهبات، كما وفد عليها من المطارنة الأنبا باخوميوس والأنبا موسى أسقف الشباب والأنبا أرميا سكرتير البابا والأنبا بيشوى سكرتير المجمع المقدس. وصرح باخوميوس لصحيفة العربى بأن السيدة «كانت ولا تزال تحت ضغط لدرجة تفقدها الحرية والأهلية لاتخاذ القرار السليم». وصرح الأنبا موسى بأنها كانت فى حالة من الإعياء والوهن فلم يتحدثوا إليها عند مجيئها ثم «استيقظت بعد أربعة أيام» وتمسكت بمسيحيتها (صحيفة الحياة ١٦ ديسمبر٢٠٠٤). وصرح القس فليوباتير عزيز بأنها كانت فى حالة من الإجهاد والإعياء يوم الأربعاء ٨ ديسمبر عندما ذهبت إلى هذه الدار، وفى يوم الجمعة التالى «استعادت توازنها» وأكدت أنها لا تزال على المسيحية (صحيفة المصرى اليوم ١٦ ديسمبر ٢٠٠٤).

وفى ذات الوقت الذى دخلت فيه إلى دار المكرسات وصارت فى حوزة الكنيسة، صرح مصدر كنسى بما نشرته منى الملاخ فى مجلة المصور بأن مفاوضات تجرى مع وفد الكنيسة والسيدة وفاء «لإقناعها بالعدول عن قرار رغبتها فى إشهار إسلامها، والتى بدأت منذ سبعة أيام قد تطول وتمتد شهورًا» (المصور ١٧ ديسمبر٢٠٠٤). كما صدر تصريح آخر لأحد المطارنة بأن الأمر قد يستغرق سنة كاملة لأن السيدة وفاء فى حالة نفسية سيئة.



وعلى كل حال فمن أول ما سلمتها أجهزة الدولة للإدارة الكنسية بناء على القرار السياسى الصادر بذلك، لم يعد فى إمكان أحد فى مصر كلها أن يعرف عن السيدة وفاء قسطنطين شيئًا إلا عن طريق الإدارة الكنسية، والحاصل أنه بعد نحو أسبوع من تسليمها إلى الكنيسة وتردد المطارنة عليها تقدم طلب باسمها إلى النيابة العامة وذهبت إلى مقر النيابة التابعة له عين شمس، وكان يصحبها المطارنة الأربعة وعدد من محامى الإدارة الكنسية، ولقد علمنا أن النيابة العامة طلبت دخول السيدة وفاء إليها وحدها كما هى العادة المتبعة قانونًا لتدلى بما تريد الإدلاء به فلم يوافق مصاحبو السيدة على تركها مع النيابة العامة وحدها وأصروا على وجودهم معها فى هذا اللقاء، وأن أمر هذا الخلاف استمر وقتًا قدره البعض بساعة أو ساعتين، ثم استقر الأمر على أن يدخل معها محامون من الكنيسة ليحضروا اللقاء ويسمعوا ما تدلى به السيدة فى محضر النيابة. وقد تضمنت أقوالها أنها عدلت عن رغبتها فى الدخول إلى الإسلام وأنها ستظل مسيحية، وذكرت صحيفة المصرى اليوم إن كان ذلك «لتنتهى الأزمة التى تواصلت خلال الأيام الماضية وتتخلص من الحصار المفروض عليها» (عدد ١٦ ديسمبر ٢٠٠٤)، كما ذكرت صحيفة الحياة أن السيدة وفاء طلبت التوجه إلى النيابة العامة لتثبت أنها «مازالت على مسيحيتها» مبررة الطلب بأنها «تريد الخلاص من الحصار المفروض عليها». (عدد ١٥ ديسمبر٢٠٠٤).

وأعلن النائب العام بيانًا بحضور السيدة وبعدولها عن رغبتها فى الإسلام، وأنها بعد ذلك انصرفت من لدى النيابة العامة. والحاصل أنه بعد خروجها من مكتب رئيس النيابة لم تطلق لها حريتها فى الانتقال والتحرك، ولم تعد مواطنة عادية، رغم أن بيان النيابة صرح أنه لا توجد شبهة جريمة، ومن ثم كان يتعين إطلاقها لتذهب كما تشاء، ولكنها أخذت مع السادة المطارنة بسيارة إلى دير الأنبا بيشوى بوادى النطرون حيث كان البطريرك قد ذهب إليه مغاضبًا ومعتكفًا لأن سيدة مواطنة مصرية لم تسلم إليه عند طلبه إياها. وأقيم قداس بالدير بعد ذلك. ونحن ولا أحد يعلم عنها شيئًا، فقد صارت شأنًا كنسيًا وديريًا خالصًا.

تنحسر عنه كل سلطات الدولة والمجتمع ويقوم مغلقًا وبعيدًا ومتعاليًا حتى عن الجماعة الوطنية.

[٥]

تحقق لإدارة المؤسسة الكنسية ولرجلها الأوحد كل ما طلب، ولكن لم يتحقق له بعد كل ما يريد. ونحن لا نعلم كل ما يريد. وأظن أن غبطته لا يعرف عن أمر نفسه كل ما يريد. فالإرادة مفتوحة للمزيد والمزيد من الرغبات كلما تحقق له المزيد والمزيد من الطلبات. وغاية علمنا عن هذا الأمر المثار ما ورد فى (المصرى اليوم ١٦ ديسمبر) بعد عودة السيدة وفاء إلى المسيحية «أعلن أن البابا ناقش مع كهنة الكرازة المرقسية الأحداث الأخيرة وكيفية تلافيها فى المستقبل، حيث أكد البابا أنه سيطلب من الحكومة تسليم أى حالة تريد إشهار إسلامها إلى الكنيسة لعقد جلسة الإرشاد..». وصرح الأنبا موسى «أكد حق الكنيسة قانونًا فى تقديم النصح لكل من يفكر فى إشهار إسلامه خشية أن يكون ذلك تحت ضغط أو ظروف نفسية أو عائلية أو مادية أو إغراءات من أى نوع» (الحياة ١٦ ديسمبر٢٠٠٤). ثم بعد ذلك اطرد الحديث فى كل المصادر الإعلامية أن غبطة البطريرك باق على اعتكافه حتى يفرج عن أبنائه الـ ٣٤ شابًا الذين قبضت عليهم الشرطة أثناء التراشق الذى جرى عند مقر البطريركية، مع التلويح بأن أعياد الميلاد مقبلة، وأن إبقاء البطريرك على غضبه من شأنه أن يؤثر فى ممارسة شعائر العيد.

والسؤال الذى يمكن أن يثور الآن، إذا لم يكن كل هذا سياسة فما هى السياسة إذًا؟ من عدد من السنين مضت. كتب الدكتور رفيق حبيب كتابًا عن «الكنيسة والسياسة»، وغضب البطريرك من هذا الزعم الذى نفاه بشدة وغضب وقتها على صحيفة الأهرام لأنها نشرت للأستاذ فهمى هويدى عرضًا وتعليقًا على هذا الكتاب.



طريقـــة تنــاول الإدارة الكنســيـة لمفهــوم «الوحـــدة الوطنيـــة» يـفـيـد مصادرة هـذا المفهـوم لـلصـالح الـكـنـسـى وحـــــده وهــــو فـى الحقيقـــة أوســـع مـــن ذلك وأشـــمل



ونحن نلحظ دائمًا فى كل ما قيل وما صدر عن أباء الكنيسة فى هذا الحادث الأخير، حادث «أبو المطامير» أنهم دائمًا يضعون المطالب باسم «الوحدة الوطنية» ويقيمون مواقف الأخر المؤيدة لمطالبهم أو المعارضة، باعتبار أن من يؤيدها حريص على «الوحدة الوطنية»، وأن من يعارضهم يخاطر «بالوحدة الوطنية». وفى البيان الذى أصدره المجلس الملى للأقباط الأرثوذكس بالإسكندرية، انتقاد لصحيفة الأهرام وللدكتور عبد الرحيم شحاتة وزير الإدارة المحلية لأن الوزير قال أن السيدة وفاء صارت مسلمة ولأن الأهرام نشر هذا الخبر، وقال البيان أن «نشر هذا الخبر بالأسلوب المثير للمشاعر مما يهدد كيان الوحدة الوطنية الذى نحرص عليه جميعًا (صحيفة الوطن ١٢ ديسمبر٢٠٠٤) ولا أريد أن أثقل على القارئ بالمزيد من المقتطفات حول هذا الأمر، ويكفى أن يطالع أى شخص صحف الفترة وبيانات الإدارة الكنسية وتصريحاتهم وإجاباتهم حتى يلتقط منها هذا الخيط.

إن إطراد الحديث عن الوحدة الوطنية فى هذا الشأن يفيد مصادرة مفهوم الوحدة الوطنية للصالح الكنسى وحده، وهو محاولة ذاتية للمزج بين الصالح القبطى كما تراه الإدارة الكنسية، وكما تروج له بين شبابها، وبين الصالح الوطنى العام لمصر بمسلميها ومسيحييها، وقد تكون كثرة الكتابات عن الوحدة الوطنية وما يستدعيه المصرى من تصور عن نجاحه فى تحقيقها ورغبته النبيلة فى حفظها، قد يكون ذلك مما أوحى للكنيسة ورجالها أنهم ما داموا هم «الطرف الثانى» فى معادلة الوحدة الوطنية، فلا بأس أن يكونوا هم «الدليل» على وجود الوحدة أو عدم وجودها. وهو باعتباره «الدليل» فهو من يستطيع إسباغ وصف الوحدة الوطنية على الجماعة أو سحب هذا الوصف. ويمكنه بذلك السيطرة على هذا المفهوم واحتكاره ويصير صالحه هو «المعيار» لوجود الوحدة أو عدمها، فيتحول من كونه «دليلاً» إلى كونه «معيارًا». والحقيقة أنه ليس دليلاً وليس معيارًا وليس طرفًا ثانيًا فى اتفاق ثنائى، إن الجماعة السياسية الوطنية العامة تفرض نفسها على كل محتوياتها من ذوى أديان وطوائف وأقاليم ومهن ومذاهب، وتراعى فى كل ذلك الأحجام والمقادير التى تتكون منها الجماعة الوطنية والا اختلت الموازين وفقد المجتمع توازنه.

ونحن نرجو ألا يكون وراء مصادرة مفهوم الوحدة الوطنية، نوع من الإشارة إلى الضغوط الأجنبية. وإن المواقف الوطنية التى تتخذها الكنيسة بالنسبة للخارج مثل عدم الذهاب إلى القدس، هذا أمر لا تمنحه الكنيسة لمصر لأنها المفروض أنها جزء من مصر وأن الصالح المصرى والوطنى هو ما يتعين أن يكون غالبًا لصالح الجميع

وانصياعاً للمشترك العام لكل مكونات الجماعة الوطنية. ونحن ملتزمون إزاء وطننا أن نكون وطنيين، ولا يجوز أن يمن أحد على نفسه ولا على جماعته.

وليست مصر كالسودان من حيث تميز جماعاتها الدينية والقبلية والإقليمية، مصر ممتزجة ومتداخلة فى جماعاتها بحيث أن أحداً منها أو جماعة إذا رمى أصابه سهمه، ودولة مصر ليست كدولة السودان، دولة السودان أصغر من السودان نفسه فهى غير قادرة عليه بسبب الانتشار وقلة الكثافة والتنوع الهائل. أما دولة مصر فأكاد أقول أنها أكبر من جماعتها السياسية رغم أن جماعتها سبعون مليوناً من البشر. وذلك بسبب تمركز السكان وكثافتهم وانتشار الدولة فى ربوع مصر كلها وتكونها العضوى من كل فصائل المجتمع المصرى وجماعاته الفرعية، وهى إن كان أصابها الوهن والهزال. فالوهن والهزال طارئان سيزولان إن شاء الله، فالحجم والقدم والخبرة والإحاطة فهى باقية إن شاء الله.

وإن مؤسسة الكنيسة عندما تستغل فرصة الوهن، فإنها تكون تستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير، وخيرها فى النهاية هو خير المسيحيين فى انضوائهم فى الجماعة الوطنية، وهو فى خير هذه الجماعة الوطنية. هكذا فهم الأمر الوطنيون الأقباط من بدء القرن العشرين، حتى عندما كانت مصر محتلة من الإنجليز عسكراً وسياسة. ولذلك فإن هتافات الشباب فى مقر البطريركية مما يتجاوز النداءات الوطنية بطلب التدخل الأمريكى وغير ذلك، هذا أمر يتعين أن تقلق منه البطريركية ورجالها، وألا تتسامح فيه وأن تعمل على معرفة مصادره وتقطع عليها السبل، وليس أن تضغط به على الجماعة الوطنية وعلى أجهزة الدولة المصرية. إن مما يجمعنا هو الصالح الوطنى وباعتبار ارتباط المصير، فإن انفك هذا الجامع فلا جامع وليس هذا فى صالح أحد.

[٦]

بقى الحديث عن السيدة الفاضلة الجليلة وفاء قسطنطين، وهى فاضلة وجليلة بشهادة رجال الدين المسيحى فى البحيرة وبشهادة من زاملوها فى عملها كما سبقت الإشارة، وحسب أقوال زوجها عنها وولديها رعاهما الله وآنس وحشتهما.

السيدة وفاء أسلمت والشواهد توقن بأنها صحيحة الإسلام، ولا يشك فى ذلك من يكون تابع أحداث هذا الأمر فيما نقلته الصحافة على اختلاف الصحف والتصريحات والأقوال وتوجهات الصحفيين وتنوع المصادر. هى صارت مسلمة صحيحة الإسلام. والقدر المتيقن إن كان ذلك من سنتين وأنها كانت تكتم إيمانها بالإسلام حيناً، ثم بدأ الأمر يظهر وأن مرض زوجها أجل اتخاذها خطوة البوح الرسمى، وقيل أنها أعلمت ابنتها بذلك، وماذا نقول عن سيدة عرفنا عنها أنها أسلمت وأنها تقرأ سوراً طويلة من القرآن وأنها تحفظ قصار السور، وأنها تصوم رمضان، وأنها كانت تصلى بعينيها ثم صارت تصلى جهرة، وإنها بعد إعلانها عن ذلك ارتدت الحجاب. هل كل ذلك يشكل فيما يقول رجال الإكليروس رغبة لم تكتمل. وإذا لم يكن هذا اكتمالاً فما هو الاكتمال؟



ونحن نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عندما ذكر له أحد الصحابة فى الحرب أن مقتولاً كان نطق بالشهادتين، فلم يحمل الصحابى ذلك على الجدية وقتله، وغضب الرسول الكريم وقال له «هلا شققت عن قلبه». نعرف من ذلك أنه يكفى للدخول فى الإسلام أن ينطق الإنسان بالشهادتين، ولنا الظاهر والله سبحانه أعلم بالقلوب. ومع ذلك فنحن هنا نعرف القلوب أيضاً، ومن يفعل فعل ما فعلت «وفاء» فلا تقوم شبهة عن صدق ما فى القلب مما أظهرته الجوارح ونطق به اللسان.

إن وفاء مسلمة تجاوزت مرحلة التفكر والتردد والتدبر، تجاوزت ذلك يقيناً بينها وبين نفسها وبينها وبين الناس وجهرت بالأمر وأفصحت عنه جهاراً وعياناً. وتركت بيتها وذهبت إلى بيت صديقة قديمة مسلمة استضافتها. فلما أبلغت أجهزة الأمن لتتعامل مع الدولة على هذا الوضع المعلن، كفلت لها أجهزة الأمن ما تستطيع من حماية حتى تستقر بها الأوضاع. ومطلوب من الأجهزة أن تكفل حماية المواطن حتى يستقر إن كان ذلك فى المكنة وجهد الطاقة. وقد لا يرضى ذوو النشاط السياسى عن النشاط السياسى لأجهزة الأمن. لأسباب مقدرة طبعاً، ولكن يبقى أن الوظيفة الأساسية لها هى كفالة أمن المواطن، وأن تقوم بهذا الواجب مهما تباينت أديان المواطنين. ولا يمكن أن تلام أجهزة الأمن لأنها وفرت الأمن لمواطنة تركت بيتها لأسباب جدية وتبحث عن مستقر لها فى وضعها الجديد.

والحاصل أن قراراً سياسياً صدر، ولم أتيقن من أصدره، بتسليم السيدة وفاء إلى الإدارة الكنسية، أدعو الله أن يغفر لمن أصدره بأن يرجع عنه، هذا الأمر تحول به جهاز الأمن الملزم بالتنفيذ، تحول من حام للمواطنة إلى قابض عليها ومسلم لها لهيئة كنسية، كانت هذه المواطنة تركتها وقصدت الابتعاد عنها كما نشدت المواطنة الأمن لها فى هذا البعد عن الكنيسة، أياً كان صواب نظر هذه المواطنة للأمر: بمعنى أنها لابد أن تكون سلمت رغماً عنها، وسلمت إلى من كانت تريد الابتعاد عنهم. وهذه الدولة التى كانت المواطنة لجأت إليها لمساعدتها على إنفاذ ما كان صح عزمها عليه بموجب ما يتعين أن يكفل لها من حرية فى الاعتقاد والرأى. فيما تجيزه القوانين المعمول بها، هذه الدولة تحولت بالقرار السياسى من واجب حماية المواطنة إلى موقع القبض عليها وتسليمها رغماً عنها. وكان الأصح أن يتركوها وشأنها تذهب حيث تذهب.

والنقطة الثانية الأكثر خطورة، إننا لا نعرف بموجب أى قانون من قوانين الدولة المصرية يساق إنسان فى هذا المساق، فى أسيوط تحايل أمين الحزب الوطنى بأن اصطنع سناً غير حقيقية للمواطنة «كريمة» وجعل سنها ١٤ سنة وسلمت لأبيها بوصفه ولياً طبيعياً عليها، فهو ولى النفس وولى المال عليها، أما السيدة وفاء فإن ابنها يتجاوز سن الرشد، ولا يمكن الاصطناع، فبأى شريعة وبأى قانون وضعى تسلم وفاء قسطنطين إلى الكنيسة. إنها حتى لم تسلم إلى أسرتها، بل سلمت إلى الكنيسة، مطاردة وبيت تكريس ثم دير. ونحن فعلاً نريد أن نعرف بأى قانون يجرى هذا الأمر. إن القانون الوضعى الذى نطبقه يعرف الحبس ويعرف الحبس الاحتياطى ويعرف الاعتقال فى ظروف حالة الطوارئ القائمة، ولكنه لم يعرف أبداً أن يمسك بإنسان ويسلم لآخر ليس ولياً عليه ولا قيماً. وهو إنسان لم يرتكب إثماً ولا خطأ.

والنقطة الثالثة الأكثر خطورة، من هى الكنيسة التى يسلم إليها إنسان. الإدارة الكنسية طالبت بتسليمها السيدة وفاء لها، ولم يجل بذهن أحد من رجالها سؤال عما هى الشرعية القانونية التى يستندون إليها فى المطالبة بتسليم هذه السيدة المصونة إليهم. وصدر القرار السياسى بتسليمها إليهم، ولم يجل بالخاطر فيما أظن، السؤال عما هو القانون الذى يمكن من تسليم شخص ليس متهماً ولا عليه أدنى شبهة فى أى شىء، تسليماً إلى جهة ليس لها عليه أية ولاية قانونية نظامية. هنا نتذكر المأثورة السياسية القديمة «إن من لا يملك أعطى من لا يستحق» قيلت من قديم عن إعطاء الإنجليز وعداً لليهود بإنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين سنة ١٩١٧. وحتى بالنسبة للمسيحى الباقى على مسيحيته الذى لم يشتبه فى تركه دينه فلا يوجد أى قانون من قوانين الدولة يجيز تسليم مسيحى إلى كنيسته.



والنقطة الرابعة الأكثر خطورة، أنه لأول مرة فيما أظن أن الدولة تسلم شخصاً من المواطنين المصريين لجهة مصرية، وليس على الدولة ولا على أجهزة الأمن فيها ولاية على هذه الجهة وليس للدولة ولا لأجهزتها سيطرة عليها، إلا بوسائل التنصت الخفى غير المرئى، وهى الوسائل التى تتبع وحدها فى أراضى الدول الأخرى. والسيدة وفاء «رد الله غربتها وآنس وحشتها» لا نعلم عنها شيئاً منذ سلمت، ولم تخرج من هذا المكان الذى أودعت فيه إلا إلى النيابة العامة لتعلن مسيحيتها، ولم تترك وحدها مع النيابة العامة ولا أذن لأى من سلطات الدولة المصرية أن تلتقى بها إلا فى لقاء النيابة وكانت مصحوبة برجال الكنيسة طول الوقت. فقد زايلها سلطان الدولة المصرية رغم أنها مصرية ولا تزال على أرض مصر.

وبذلك صيرت الإدارة الكنسية نفسها واسطة بين الدولة وبين مواطنيها، فلا تصل الدولة لبعض مواطنيها تعاملاً ومخاطبة إلا عن طريق الإدارة الكنسية، التى تستطيع أن تحجب «رعاياها» عن الدولة.

وهذا وضع لا أقول أنه غير قانونى فقط، ولكنى أقول أنه غير دستورى أيضاً، لما به من تمييز بين المواطنين على أساس



صيَّرت الإدارة الكنسية نفسها واسطة بين الدولة وبين بعض مواطنيها، وهذا وضع غير قانونى وغير دستورى لما به من تمييز بين المواطنين على أساس طائفى



طائفي، أي أن الدولة لا تملك أن تتنازل عن سيادتها وتقبله.

والنقطة الخامسة الأكثر خطورة، إن الإدارة الكنسية هي من طلب، أي هي من أصدرت القرار الأصلي، وأن أجهزة الدولة قامت بالتنفيذ، وأن غبطة البطريرك حسبما سبقت الإشارة، وبعد تمام حصول ما يريد، أعلن طلبه أن يكون ذلك أمرا مستمرا، فأي قبطي يريد أن يغير دينه يكون على الدولة أن تقبض عليه وتسلمه للكنيسة، ثم لا نعلم من بعد عنه شيئا، إلا حسبما يقول رجال الكنيسة. ومن هنا نفهم لماذا هذا الهجوم الكثيف الذي يشنه رجال من رجالات الكنيسة على أجهزة الأمن وأجهزة الإدارة المحلية وأجهزة أخرى في الدولة، قد يكون في ممارسات هذه الأجهزة سلبيات نعلمها، ولكن سياق الأحداث يظهر أن ثمة في هذا الهجوم المتتابع المستمر سنين طويلة، فيه نوع من صراعات الإرادات لتليين أجهزة الدولة وغيرها من أجهزة التنفيذ. فنحن أمام إرادة سياسية داخل الكنيسة تجهد من أن تجد لنفسها مجال إعمال وأن توسع أمامها هذه المجالات، إزاء الدولة وسلطاتها. والحال إن لم تلن إرادة الدولة لأحد من مصر الآن إلا للكنيسة.

هذه النقاط الخمس السابقة تتعلق بعلاقة الإدارة الكنسية بالدولة وبالنظام القانوني القائم.

[٧]

بقيت مسائل تتعلق بعودتها إلى المسيحية وبالعلاقة بين الكنيسة والجماعة الوطنية في مصر مما ينتج عن مسلك الإدارة الكنسية وأذكرها تباعا. فإن القدر المتيقن مما عرفناه بما يشبه التواتر فيما نشر، أن السيدة وفاء كانت صارت مسلمة، وأنها سلمت للكنيسة وهي على إسلامها. والقدر المتيقن أيضا أنها لم تكن في إسلامها مكرهة ولا مغواة ولا ثبت ولا ظهر شيء من ذلك، رغم شنيع الاتهامات والشائعات التي أثيرت أخيرا حولها. ولا يصح في الأذهان القول بأنها أكرهت على الإسلام وهي تحيا في بيئتها المسيحية الكاملة زوجا وأولادا وأسرة وأهل دين، ثم يقال إن إرادتها تحررت ولم تجبر على العودة إلى المسيحية، بعد أن سلمت إلى الكنيسة مقبوضا عليها واعتقلت داخل الكنيسة في بيت التكريس ثم في الدير، ولم يؤذن لها قط بأن تتصل بأحد من خارج إطار القرار البابوي.

وهل مطلوب منا أن نقتنع بأنها أسلمت مكرهة، وأنها عادت للمسيحية بمحض إرادتها، ثم هي الآن في دير الأنبا بيشوى بوادي النطرون، ومدى علمنا أنه دير للرهبان وليس للراهبات. وإن غبطة البطريرك عينها مشرفة زراعية على مزرعة الدير، حتى يوجد لها «مركزا قانونيا» أو وظيفة وصفة تبقى بها في الدير تحت سيطرة «رب العمل». وإن الشائعات في البداية ذكرت أنها مخطوفة رغم أنها كانت ذهبت إلى صديقتها تقيم عندها بإرادتها الحرة. ويقال الآن أنها تحررت رغم أنها في الواقع خطفت يوم سلمت إلى الكنيسة رغما عنها. ولا تزال على وضعها هذا. فهل مطلوب منا أن نقتنع أنها عندما كانت حرة كانت مخطوفة، وعندما خطفت فعلا ورسميا وأمامنا جميعا صارت حرة.



ومسألة ثانية تتعلق بشهر الإسلام أو شهر تغيير الدين، إن الإنسان يعتنق الإسلام بنطق الشهادتين والتصديق بما يقتضيه ذلك من إيمان بالغيب وما عرف من الدين بالضرورة، أقصد القول بأن لا يوجد في هذا الأمر شروط شكلية. ولا يوجد قانون ينظم أمرا كهذا ولا يمكن فيما أظن أن يصدر قانون يبطل ويصحح ما هو معلق ومرتبط بالضمائر والقلوب مما تنبئ عنه الجوارح وينطق به اللسان وتعرفه العامة من أهل الجماعة ويتعاملون به.

والمسلم يكون مسلما حتى لو لم يذهب إلى الإدارة المختصة بالأزهر وحتى لو لم يذهب إلى أقسام الشرطة وجهات الحكومة. والأزهر والحكومة بوزاراتها ومصالحها وأقسامها ليست واسطة بين المرء وربه، وليست أي منها بابا للدخول أو الخروج من دين إلى دين. وأن كل ما يتصل بالإجراءات الخاصة بإبلاغ قسم الشرطة والإدارة الخاصة بالأزهر، هو مسألة خاصة بالتعديل في السجلات حتى يعامل الإنسان بوضعه الجديد من حيث العلاقات والمراكز القانونية التي تتصل بهذا الوضع، مثل البطاقة الشخصية وما يكتب بها عن الديانة والحقوق المرتبة الخاصة بحالة الزواج والميراث وغير ذلك. وكل هذه الأمور يمكن أن تثبت بطريقة أخرى غير الذهاب لإدارة الأزهر وأقسام الشرطة، لأن الأمر هنا أمر إثبات واقعة تثبت بكل طرق الإثبات.

ولذلك فإن القول بأن السيدة وفاء قسطنطين في بيانها أمام النيابة العامة بحضرة محامي الإدارة الكنسية، القول بأنها لم تكن أسلمت بعد لأنها لم تشهر إسلامها، هذا القول غير صحيح. لأن إسلام المسيحية يتم حسبما سبق ذكره وإثبات الأمر جرى بما أثبتته المحاضر وشاع بين الناس، ولا نعرف حالة شاع فيها التحول إلى الإسلام بمثل ما شاع في هذه الحالة. وكان سبب الشيوع هو مسلك الكنيسة تجاه الأمر الذي جعلت منه مسألة سياسية. ولم ينطرح على الرأي العام أمر كهذا بمثل هذا الوضوح. ومن ثم فلا يقال إن إسلامها لم يتم. إن كل ما يمكن أن يقال أنها عادت إلى المسيحية مضطرة ومكرهة. وثمة شواهد وقرائن تنبئ بذلك «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان» صدق الله العظيم.

ومسألة ثالثة، وهي إن الإدارة الكنسية في إثارتها هذا الموضوع، وفي إدارتها الصراع السياسي بشأنه، كسبت وخسرت، كسبت اعتقالها السيدة وفاء قسطنطين وسيطرتها المادية عليها، وكسبت ما تشيعه من ذلك لدى أي من أتباعها من أنه لن يكون أبدا بعيدا عن سيطرة الإدارة الكنسية، وأن يدها ستطوله أينما كان. وكسبت تأكيد هيمنتها على جماهير الأقباط، ولكنها خسرت قدرا لا أقول كبيرا ولكن أقول قدرا معتبرا، من مشاعر المودة والتراحم وحسن الظن في إطار الجماعة الوطنية، وبدت لدى الجميع متحيزة تبغي الانفراد والعزلة والسيطرة، وتبغي التميز وأن تكون ذات حقوق متميزة عن حقوق الآخرين، وهي لم تستدع المشترك الوطني العام في شأن ما تواجهه، مما تبدو به هذه الإدارة مستغنية عن هذا الاستدعاء، وهذا نظر قصير المدى فيما أظن، لم نلقه أبدا في عهود الإدارات الكنسية السابقة في العصر الحديث. ولا كان هو مسلكها في سنين ماضية. كما أنها مست مشاعر إيمانية لدى المسلمين بالإصرار على أن تسلم مواطنة أسلمت إلى الكنيسة وعلى الانفراد بها من بعد دون إتاحة أية فرصة للاتصال بها من خارج رجال الإدارة الكنسية. تم الاكتفاء بإعلان السيدة وفاء عودتها إلى دينها السابق إعلانا مظنونا بصدوره عنوة وكرها. ثم هي أيضا تورطت في تأكيد الخصومة مع عدد من أجهزة الدولة، تحت مظنة الاطمئنان إلى استجابة القرار السياسي لها.

ومسألة رابعة، خسرتها الإدارة الكنسية، وهي أنها أفسدت على نفسها وعلى ذويها حجة كانت دائما تستحسن استخدامها متعلقة بحرية الأديان وحرية الاعتناق سواء دخولا في الإسلام أو خروجا منه. وذلك بما أصرت عليه من تسليم سيدة أسلمت إليها وبما أصرت عليه من عودتها إلى سابق دينها وعزلها عن الناس. فجاء مسلك الإدارة الكنسية هنا يناقض دعواها السابقة ويناقض مطلبها السابق.

ومن هنا نتكشف أن الإدارة الكنسية التي تعمل في مثل هذه المسائل يعوزها حسن التقدير وحسن الفهم للأوضاع والظروف. وهذا في ظني يحدث لأن الإدارة الكنسية عزلت نفسها فيما عزلت عن المدنيين من الأقباط الذين يندمجون في مجتمعهم ويحيون الحياة المشتركة مع مشاركيهم في الوطنية. حياة يومية مستمرة ومنتظمة في الأعمال الفنية والثقافية وغيرها ويكتسبون من ذلك حسا مشتركا ووعيا مشتركا وثقافة مشتركة. ونحن اليوم لا نجد أمثال مرقص حنا ولا ويصا واصف ولا مكرم عبيد ولا إبراهيم فرج. إن انفراد الإدارة الكنسية بالأمور عزلها عن رجالها أنفسهم وعن خبراتهم وتوازناتهم.

ومسألة خامسة، إننا في ذات الوقت الذي عرفنا فيه موضوع السيدة وفاء قسطنطين، مر علينا موضوع «الزاوية الحمراء» واختفى في طيات ما لا نعرف من خفايا. إن السيدة ماري عبد الله زكي زوج القس لويس نصر عزيز بكنيسة الزاوية الحمراء، قالت المصادر الكنسية أنها غابت عن منزلها اختلافا مع زوجها ثم عادت إليه، ولكن ثمة مصادر أخرى تقول أنها كانت أسلمت وأعلنت إسلامها. وقال البعض أنها أشهرت إسلامها أمام شيخ الأزهر. وهذا أمر يتعين أن تنكشف تفاصيل وقائعه لنعرف الحقائق ويمكن التصدي لها بالمناقشة والعلاج بما يؤمن أفراد الناس ويرفع عنهم الإصر والأغلال وبما يحفظ على الجماعة الوطنية تماسكها بغير إفراط ولا تفريط وبالتقدير الصحيح للأوضاع والتوازنات. ■



هتافات الشباب في مقر البطريركية بطلب التدخل الأمريكي أمر يتعين أن تقلق منه البطريركية ورجالها



لا تراهنــــــــوا على ديجـــــول إســـــرائيلى

الرجل الذى لا يتغير!

هنــــــرى ســـيجمان



■■ حين أعلن أريئيل شارون لأول مرة اعتزامه «فك الارتباط» من جانب واحد بغزة وتفكيك أربع مستوطنات معزولة شمالى الضفة الغربية، اعتقد الكثير من المراقبين أنه فى سبيله لتحقيق توقعهم بتحويله نفسه عاجلاً أم آجلاً إلى ديجول الإسرائيلى واتخاذه قرارات صعبة تنهى فى آخر الأمر الصراع الإسرائيلى الفلسطينى. وحتى هؤلاء الذين كان لديهم شك فى احتمال حدوث مثل هذا التحول، وكانوا يعتقدون أن شارون يقصد بالانسحاب من غزة خلق فعالية تؤدى فى الوقت ذاته إلى مزيد من الانسحاب من الضفة الغربية، إذ أنه يقضى بذلك على خرافة أن أى سعى لتفكيك المستوطنات سوف يجر البلاد إلى حرب أهلية. ولهذا السبب حظيت مبادرة شارون بالترحيب، ليس فقط من حكومة بوش، التى لم تجد أن شارون قد اتخذ أى إجراء من الفظاعة بحيث لا يستحق التأييد الأمريكى، بل كذلك من الاتحاد الأوروبى والأمم المتحدة وروسيا (الأعضاء الثلاثة الآخرون فى اللجنة الرباعية التى شُكِّلت للإشراف على تنفيذ «خارطة الطريق»).

ما عزز تصور أن يتحول المهندس الرئيسى لمشروع المستوطنات إلى قائد لحملة تدعو إلى إزالتها هو ذلك الصدع الذى يزداد اتساعًا بين شارون والكثيرين من حزبه الحاكم الليكود؛ الذى رفض بشدة اقتراحه طرح الانسحاب من غزة للاستفتاء فى ٢ مايو. وقد أخزت اللجنة المركزية لليكود شارون مرة أخرى فى ٣١ يوليو بالتصويت ضد اقتراحه إدخال حزب العمل فى الحكومة لخلق أغلبية فى مجلس وزرائه تؤيد الانسحاب (صوتت اللجنة لمصلحة القرار فى ٩ ديسمبر). وفى ١١ أكتوبر انضم كثيرون من حزب شارون الحاكم إلى المعارضة السياسية تأييداً لتحرك شكلى لرفض خطاب «حالة الأمة» بمناسبة افتتاح الدورة الشتوية للبرلمان الإسرائيلى. وكانت تلك هى المرة الأولى فى تاريخ إسرائيل التى تصوت فيها الكنيست الإسرائيلية للتعبير عن عدم الثقة فى خطاب الافتتاح الذى يلقيه رئيس الوزراء. وفى أعقاب ذلك صوتت أغلبية واضحة من أعضاء الكنيست فى ٢٦ أكتوبر تأييداً لخطة شارون، لتطغى بذلك على معارضته داخل حزب الليكود.

أقنع استعداد شارون للمخاطرة برئاسته للوزارة ولانقسام حزبه حول قضية الانسحاب من غزة الكثيرين فى

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: أحمد محمود

أبعد الجهات احتمالاً بأنه أدرك أخيرًا أنه «لا يمكنه محو حلم الفلسطينيين القومى بالقوة»، كما جاء فى مجلة «ذى إيكونوميست». ودعت المجلة «العالم الذى اعتاد تصوير مستر شارون على أنه شيطان» إلى أن يتمنى «له النجاح».

وبالمثل تساءل الكاتب الصحفى أفراهام تال «هل يتخلص شارون يومًا من الصورة الشيطانية الملتصقة به؟ إنه حتى حين يقرر اتخاذ الإجراءات لا يتخيل أحد قط أنه قادر على ذلك، حيث إنه يكافح ببسالة ضد قوى متشبثة بآرائها داخل حزبه وتحاول القضاء عليه. ومازال شارون يُصوَّر على أنه سياسى ماكر يموه نواياه الحقيقية باستمرار».

استشهاداً بمقال كنت قد نشرته فى صفحة الرأى بصحيفة «إنترناشونال هيرالد تريبيون»، انتقد تال «سيجمان ومن على شاكلته» لعدم فهمهم مقدار ما طرأ على شارون من تغيير. وأكد تال أن «شارون يدرك الآن أنه لكى تظل هناك دولة يهودية، لابد لإسرائيل من فك ارتباطها بأكبر عدد ممكن من الفلسطينيين»، وهو ما يعنى التخلص من غزة ومعظم الضفة الغربية.

بناء على ما قاله مراقبون كثيرون من هذا النوع، فليس شارون وحده هو الذى تغير، بل كذلك الجانب الفلسطينى. وهم يشيرون إلى «الحرس الجديد» الفلسطينى الذى يتحدى من يسمون «الأبوهات» (جمع أبو) الذين جاءوا من تونس مع ياسر عرفات؛ هؤلاء القادة الذين ينظر إليهم الجيل الشاب من الفلسطينيين الذين حصلوا على حقهم فى أن تُسمع أصواتهم، بالمشاركة فى الانتفاضة الأولى ويقبعون فى السجون الإسرائيلية، على أنهم فسدة وعجزة. وانتهت مقالة «ذى إيكونوميست» التى أشرت إليها إلى أن هذا الجيل الشاب من الفلسطينيين تعلم أنه «لا يمكنهم إزالة إسرائيل بالقوة».

ما يؤسف له أن هذه الآراء تقوم على قراءة مغلوطة لكل من الواقعين الإسرائيلى والفلسطينى. فشارون لا يوشك أن يوافق على شروط الحد الأدنى الخاصة بدولة فلسطينية يمكن أن تقوم. ذلك أن إصراره الشديد على تحاشى التعامل مع الفلسطينيين. ولو لمنع الفوضى فى أعقاب الانسحاب الموعود من غزة. وتوسيع النشاط الاستيطانى فى أنحاء الضفة الغربية، وهو ما زاد فى أعقاب خطط انسحابه، يدحض مثل هذا التفكير الذى توحى به الأمانى بأنه تغير.

إصرار شارون الشديد على تحاشى التعامل مع الفلسطينيين. ولو لمنع الفوضى فى أعقاب الانسحاب الموعود من غزة. وتوسيع النشاط الاستيطانى فى أنحاء الضفة الغربية، وهو ما زاد فى أعقاب خطط انسحابه، يدحض مثل هذا التفكير بأنه تغير



أظهر أحدث تقرير من مراقبة المستوطنات فى حركة السلام الآن أن أعمال التشييد ووضع البنية التحتية تجرى فى ٤٧٤ موقعًا استيطانيًا فى الضفة الغربية وغزة، بما فى ذلك خمسون موقعًا تعدى فيها التوسع أو التشييد الجديد حدود المستوطنات، وذلك انتهاكًا للوعود التى قدمها شارون للرئيس بوش. فبحلول نهاية شهر أغسطس كان هناك حوالى ٣٧٠٠ وحدة سكنية تحت الإنشاء فى أنحاء الأراضى المحتلة. بل جرى إعداد الأرض لإقامة الآلاف من المنازل الأخرى: حتى فى مواقع حددها شارون باعتبار أنه سيتم الجلاء عنها ضمن خطة فك الارتباط. ويساعد ما يجرى تنفيذه الآن فى الوقت الراهن من تنمية وتوسيع للمستوطنات الرئيسية فى الضفة الغربية على تقسيمها إلى كانتونات فلسطينية غير متجاورة، هى فى واقع الأمر بانتوستانات يمكن أن يعيش فيها الفلسطينيون تحت الرقابة الإسرائيلية دون أن تكون لهم دولة موحدة خاصة بهم.

استمرت حكومة شارون فى نزع ملكية الأراضى فى الضفة الغربية، بدعوى أنها «أراضى الدولة»، لتوسيع المستوطنات بناء على معلومات من الإدارة المدنية الإسرائيلية. ومنذ بداية ٢٠٠٤، أُعلن أن حوالى ٢٢٠٠ دونم (٥٥٠ فدانًا) فى الضفة الغربية أراضى دولة، مقابل ١٧٠٠ دونم خُصصت لهذا الغرض فى العام السابق. وكما أشارت مراقبة المستوطنات فى حركة السلام الآن، فإن هذا التخصيص يسمح للحكومات الإسرائيلية دائمًا بإقامة المستوطنات وتوسيعها، مما يمكنها من الالتفاف حول تعهدها بعدم نزع ملكية أية أراض فلسطينية أخرى من أجل بناء المستوطنات.

يرى شارون أن الانسحاب من غزة هو الثمن الذى لابد لإسرائيل أن تدفعه إن هى أرادت استكمال تحويل الضفة الغربية إلى كانتونات تخضع لسيطرة إسرائيل. ومن المهم كذلك تحويل غزة إلى نموذج حى للسبب فى عدم استحقاق الفلسطينيين أن تكون لهم دولة مستقلة. وفى ظل الشروط التى ألحقها شارون بفك الارتباط، سوف توجد غزة. وهى مساحة تساوى ١.٢٥ بالمائة من فلسطين زمن الانتداب وتضم ٣٧ بالمائة من السكان الفلسطينيين. فى المقام الأول باعتبارها سجنًا كبيرًا معزولاً عن العالم، بما فى ذلك جيرانها المباشرون: أى مصر والأردن والضفة الغربية. وسوف يُحرم سكانها من حرية الحركة اللازمة لأى احتمال للانتعاش الاقتصادى والاستثمارات الخارجية. ويبدو أن المقصود بإصرار شارون على أن يكون الانسحاب من غزة مبادرة إسرائيلية بالكامل، وألا يكون هناك تفاوض مع أى زعماء فلسطينيين. هو خلق حالة من الفوضى فى غزة تمكنه من القول: «انظروا إلى هؤلاء الناس العنيفين والفسدة والبدائيين الذين يجب أن نتجادل معهم: إنهم عاجزون عن إدارة أى شىء بأنفسهم».



حتى وقت قريب كان كثيرون يرفضون مثل هذه القراءة القاسية لنوايا شارون باعتبار أن فيها افتراء. إلا أن هذا مستحيل الآن، ذلك أن أقرب أصدقاء شارون وزملائه، وهو دوف فايسجلاس الذى شارك عن قرب فى صياغة وتنفيذ سياسات شارون باعتباره كبير مستشارى رئيس الوزراء ورئيسًا لهيئة الأركان، وصف بتفصيل شديد مضمون فك الانسحاب من غزة وغرض شارون منه. فقد أكد بصراحة فى مقابلة مطولة أجرتها معه صحيفة «ها آرتس» أن الغرض من فك الارتباط، الذى أقنع به هو وشارون الرئيس بوش ومجلسى الكونجرس لإقراره، هو منع أية عملية سلام، وإلقاء خارطة الطريق الخاصة ببوش فى غياهب النسيان، وإعاقة قيام دولة فلسطينية من أى نوع.

من الواضح أن فايسجلاس كان يخشى من وجود إسرائيليين لا يزالون يعتقدون، حتى بعد المقابلة التى أُجريت معه، أن الانسحاب من مستوطنات غزة وقليل من مستوطنات الضفة الغربية الذى اقترحه شارون قد يؤدى إلى مزيد من الانسحابات فى الضفة الغربية؛ وهى مقولة روَّج لها شيمون بيرس رئيس حزب العمل الذى ينتظر على أحر من الجمر دعوة من شارون للانضمام إلى حكومته (وقد تلقاها). ويؤكد لنا فايسجلاس أنه بناء على الشروط التى ربطها شارون باستئناف عملية السلام فإن «الفلسطينيين سوف يتحولون إلى كائنات وهمية» قبل أن يحدث هذا. وقال فايسجلاس: «لقد أزيلت بالفعل هذه الرزمة المسماة بالدولة الفلسطينية. بكل مستلزماتها من أجندتنا. وكل هذا ... بمباركة من الرئاسة (الأمريكية) وتصديق من مجلسى الكونجرس». وتحسبًا لأن يكون هناك من قد لا تزال لديه أوهام، فإنه يفسر فك الارتباط المقترح بأنه «فى الواقع فورمالديهايد. ذلك أنه يوفر الكمية اللازمة من الفورمالديهايد وبذلك فلن تكون هناك عملية سياسية مع الفلسطينيين». وكما أشار إفرايم سنيح عضو الكنيست من حزب العمل، فإنه «لابد من الإشارة إلى أن الفورمالديهايد هو السائل الذى تُحفظ فيه الأجسام الميتة».

من الواضح أن الأشخاص الوحيدين الذين لا يزالون غير مدركين لذلك، رغم توضيحات فايسجلاس شديدة التحديد، هم المسئولون فى واشنطن. فبعد إصدار مكتب شارون لبيان متوقع. ومضلل. تمامًا بأنه مازال ملتزمًا بخارطة الطريق، أعلن على الفور متحدث باسم الخارجية الأمريكية عدم شك هذه الإدارة فى التزام إسرائيل المستمر بخارطة الطريق وبـ«رؤية» الدولتين الخاصة بالرئيس بوش، بل إنه «ليس هناك ما يدعو إلى» هذا الشك.

ليس ما يلفت الانتباه أكثر من غيره بشأن هذا كله هو خداع شارون فيما يتعلق بأغراض فك ارتباطه أو ترويج الإدارة الأمريكية أثناء انتخابات الرئاسة: بل هو بالأحرى تلك العجرفة التى تسمح لفايسجلاس بالتباهى بغش إسرائيل وخداعها دون خوف مما قد يلحقه ذلك من ضرر بخطة شارون، حيث إنه وشارون متأكدان من وجود بوش والكونجرس فى جيبيهما.

والشىء غير المؤكد هو لماذا وقَّع بوش خطابه المؤرخ فى ١٤ أبريل الذى وضع فايسجلاس مسودته، ليعطى بذلك موافقة أمريكا على خطة شارون لدفن القضية القومية الفلسطينية بإضفاء الشرعية على المستوطنات الإسرائيلية. هل فعل ذلك انطلاقًا من السذاجة الشديدة، أم لأنه تواطأ مع خداع شارون وهو يعلم أنه يفعل ذلك؟

حتى بدون إجراء مقابلة



فايسجلاس الموسعة، كان لابد أن يكون واضحًا منذ وقت بعيد أن «القيادة الفلسطينية الجديدة»، التى كان شارون يدعو إليها، لن توافق أبداً على أى اتفاق سلام: أى على ذلك الترتيب «المؤقت» الذى يدع إسرائيل تسيطر على الضفة الغربية ويرجئ قيام الدولة الفلسطينية عقوداً، بينما تستمر إسرائيل فى ضم المناطق وتشظية ما بقى إلى كانتونات منعزلة.

لا أساس للادعاء الإسرائيلى الذى يروج له إيهود باراك، و«ذى إيكونوميست»، بأن هدف الجيل الفلسطينى القديم هو القضاء على إسرائيل. ذلك أنه لا الحرس القديم ولا الحرس الجديد يؤمن بهذا الهدف؛ فهم يدركون أن ذلك أمر لا يمكن تحقيقه بحال من الأحوال. إلا أن المجموعتين سوف تقاومان تقديم تنازلات إقليمية لإسرائيل، ما لم تكن مصحوبة بمقايضة عادلة للأراضى على جانبى حدود ما قبل ١٩٦٧ يتفق عليها الطرفان فى مفاوضات السلام. وليس هناك أى فرق فى هذه المسألة بين «الأبوهات» ومن يتحدونهم.



يطالب من يرتبطون بالحرس الجديد بوضع حد لفساد قادة فتح من الزمن القديم الذين يهيمنون على السلطة الفلسطينية؛ كما أنهم يطالبون القيادات الجديدة التى يمكنها صياغة منهج إستراتيجى مترابط للكفاح من أجل إقامة الدولة الفلسطينية، وهو الشىء الذى عجز عرفات عن تقديمه. أما إذا كان الحرس الجديد سينجح فى إيجاد تلك الإستراتيجية أم لا، وإذا كانت تلك الإستراتيجية ستقوم على العنف أم ستنبذه، فأمر يحدده إلى حد كبير استعداد إسرائيل لأن تؤكد للفلسطينيين أن الدولة القابلة للتطبيق يمكن تحقيقها بالوسائل غير العنيفة. وهذا التأكيد لا يقدمه اقتراح شارون فك الارتباط مع غزة من جانب واحد. فالواقع هو أن هناك عزماً على إعاقة قيامها، كما يعلم الجميع من مقابلة فايسجلاس.

[٢]

أسىء فهم هجمات اليمين على شارون. فشارون ومنتقدوه اليمينيون مختلفون على ما إذا كان ينبغى السماح للفلسطينيين بتسمية ترتيب أشبه بالفصل العنصرى يتكون من ثلاثة كانتونات منفصلة ومعزولة بالضفة الغربية دولة أم لا. ذلك أنه بينما يؤكد شارون أنه يمكنهم تسميتها كذلك، وإلا فإن الولايات المتحدة سوف ترفض الترتيب، يقول كثيرون فى حزب الليكود، ومنهم بنيامين نتنياهو، إنه فى حال منح إسرائيل الفلسطينيين الحق ولو فى إقامة دولة اسمية، فسوف يثير هذا حركة ديناميكية تجاه السيادة لن يمكن لإسرائيل السيطرة عليها.

ورغم الخطاب المسىء والعنيف الذى يوجهه معظم قادة حركة الاستيطان لشارون، فهم يفهمون أن ما يدعو إليه شارون من فك ارتباط بغزة من جانب واحد مقصود به فى الواقع ضمان سيطرة إسرائيل الدائمة على الضفة الغربية. إلا أنهم يخشون كذلك ما يأمل فيه اليسار الإسرائيلى؛ وهو أن إزالة أية مستوطنة سوف يرفع الحظر الذى طالما كان موجوداً ويفتح الباب أمام إزالة المستوطنات حتى فى الضفة الغربية. بل إنهم لا يتفقون مع شارون على كون هذا الانسحاب ثمنًا لابد لإسرائيل أن تدفعه. وهم مقتنعون بأن عدم موافقة الولايات المتحدة على استمرار ضم إسرائيل للأراضى الفلسطينية، حتى فى الضفة الغربية، لن يحدث فرقاً كبيراً، ذلك أن الغلبة فى النهاية لـ«الواقع على الأرض». ثم ألم يقل الرئيس بوش فى خطابه إلى شارون فى ١٤ أبريل إن الولايات المتحدة تعترف بأن على الفلسطينيين الاعتراف بـ«الواقع الجديد» على الأرض (الذى خلقته إسرائيل من جانب واحد) فى أى اتفاق للسلام؟

إلا أن هناك سببًا آخر لذلك الغضب الشديد الذى يميز رد فعل بعض المستوطنين المتطرفين وحاخاماتهم (ومن بينهم هؤلاء المعروفون داخل إسرائيل بـ«شباب قمة التل» الذين شجعهم شارون حين كان وزيرًا للخارجية بعد التوقيع على مذكرة واى ريفر عام ١٩٩٨ بين إسرائيل والفلسطينيين، التى نصت على «إعادة نشر» تدريجى للقوات الإسرائيلية فى الضفة الغربية. على «اغتصاب أكبر عدد ممكن من قمم التلال فى الضفة الغربية»). وكما أشار بعض المراقبين الإسرائيليين، فإن هناك دولتين بالفعل بين نهر الأردن والبحر المتوسط؛ وهما دولة إسرائيل ودولة المستوطنين اليهود فى الضفة الغربية وغزة. وفى دولة المستوطنين هذه، لا تطبق الأعراف والقوانين الإسرائيلية، وتذعن الشرطة الإسرائيلية وقوات الدفاع الإسرائيلية للمستوطنين إلى حد كبير. ونادراً ما يلقى القبض على المستوطنين الذين يلحقون أضراراً بالمزارعين الفلسطينيين أو يقتلونهم ويتلفون أملاكهم وأراضيهم الزراعية، ثم يفلتون فى كل الحالات تقريبًا من العقاب.

نجحت دولة المستوطنين هذه فى تجنيد شبكة من المؤيدين داخل دولة إسرائيل، بما فى ذلك أعضاء مجلس الوزراء الذين يرأسون وزارات عديدة تمدهم، سرًا وبطريقة إجرامية، ودون أية محاسبة علنية، بمئات الملايين من الدولارات لتوسيع المستوطنات والبنية التحتية. ولا يعترف هؤلاء المستوطنون بحق دولة إسرائيل ومسئوليها المنتخبين فى التدخل فى حكمهم الذى يوحى به إيمانهم بصحة ما يقومون به فى دولة المستوطنين هذه. ويرى هؤلاء قرار شارون تفكيك المستوطنات فى غزة تحديًا لسيادتهم.

رغم ذلك فإنه مهما كانت خلافات شارون ومنتقديه من الليكود بشأن دلالات الألفاظ والتكتيكات، وحول ما إذا كان سيُسمح بالخروج من غزة أم لا، فإنهم يشتركون أساسًا فى تطابق فهمهم لعلاقات إسرائيل مع الشعب الفلسطينى ومع المناطق. ولم يصف أحد هذا الفهم بوضوح أكثر مما وصفه به عوزى آراد مستشار السياسة الخارجية حين كان نتنياهو رئيسًا للوزراء. ويعمل آراد الآن فى معهد العلوم المتكاملة فى هرتزليا الذى يدلى فيه شارون ورؤساء المؤسسة الأمنية بإسرائيل فى اجتماعاته السنوية ببعض أهم تصريحاتهم. وفى الاجتماع الذى عقد فى شهر ديسمبر من عام ٢٠٠٣ أعلن شارون اعتزامه اللجوء إلى إجراءات من طرف واحد سوف تخدم احتياجات إسرائيل.



فى مقال فى صحيفة «ها آرتس»، سخر آراد من مقولة إنه بما أن اليهود سوف يصبحون أقلية فى فلسطين بسبب ارتفاع معدل المواليد بين الفلسطينيين، فإن عليهم إما أن ينسحبوا من المناطق أو يفرضوا نظامًا للفصل العنصرى على الفلسطينيين، إن هم أرادوا الحفاظ على الهوية اليهودية للدولة. وقد كتب يقول إنه «طوال العقد المنصرم كانت الحكومات الإسرائيلية كافة تنفذ فك ارتباط سياسيًا عن الشعب الفلسطينى فى المناطق. وقد مضى وقت طويل على الجلاء عن مدن وبلدات الضفة الغربية. ولم يعد عدد الفلسطينيين من النهر للبحر متناسبًا مع إسرائيل باعتبارها دولة ديمقراطية يهودية».

الواقع أن حكومة جنوب أفريقيا العنصرية «فكت الارتباط» كذلك عن البانتوستانات التى أقامتها وطنًا للأغلبية السوداء. ولا يبدو أن آراد ومن يؤيدون سياسات شارون لا يدركون، أو لا يهمهم، أن «فك ارتباط» جنوب أفريقيا على وجه الدقة هو ما ميَّز نظامها العنصرى، وأن فك الارتباط سوف يسفر



يرى شارون أن الانسحاب من غزة هو الثمن الذى لابد لإسرائيل أن تدفعه إن هى أرادت استكمال تحويل الضفة الغربية إلى كانتونات تخضع لسيطرة إسرائيل





عن نتيجة مشابهة بالنسبة لإسرائيل، إن هى أصرت على اتباع نموذج جنوب أفريقيا بتمسكها بجزء كبير من الضفة الغربية و«كنتنة» الباقى.

إحدى مفارقات التاريخ أن اليهود، سواء فى الولايات المتحدة أو أوروبا أو إسرائيل، الذين شاركوا بصورة كبيرة جداً فى الكفاح من أجل حقوق الإنسان العالمية والحريات المدنية مضطرون الآن لتأييد سياسة الحكومة اليمينية التى تهدد بتحويل إسرائيل إلى دولة عنصرية. ذلك أنه إذا حوّل شارون انسحابه الموعود من غزة إلى وجود فى الضفة الغربية لا سبيل إلى إخراجه منها. وهى النقطة التى يصر كثير من المراقبين على أن بلوغها قد تحقق. فمن المؤكد أن تفضى سياساته إلى نظام عنصرى.

هذا الاحتلال كابوس لا يقتصر الشعور به على منتقدى شارون بين اليسار. بل نجد أن اليمينى إيهود أولمرت، نائب رئيس وزراء إسرائيل، قد حذر من دولة الفصل العنصرى هى الاتجاه الذى تسير فيه الدولة اليهودية. ومؤخراً كتب أكثر المعلقين الإسرائيليين احتراماً ناحوم بارنيا يقول أنه:

«بعد سبعة وثلاثين عاماً من الاحتلال، أصبحت إسرائيل تبدو فى أعين جزء كبير من العالم دولة منبوذة. فهى وإن لم تصبح بعد جنوب أفريقيا الفصل العنصرى، فإنها تنتمى بالقطع إلى العائلة نفسها».



لا شك فى أن الإرهاب الذى لجأت إليه بعض العناصر داخل الحركة الوطنية الفلسطينية، وخاصة ذلك الإرهاب الذى يستهدف المدنيين، كان تهديداً أمنياً كبيراً للشعب الإسرائيلى. ولكن لا يمكن اتخاذ هذا التهديد ذريعة لسياسات سوف تأتى بحكم الفصل العنصرى إلى غزة والضفة الغربية. فليس صحيحاً أن الإرهاب يهدد وجود دولة إسرائيل. وحتى إذا كان هذا صحيحاً، فإنه تهديد يمكن أن تتصدى له إسرائيل بفاعلية أكبر من داخل حدودها ما قبل ١٩٦٧، ذلك أن تلك هى دولتهم. ولسوف يخسر الفلسطينيون الكثير إن هم استمروا فى الإرهاب، وسوف يسعون إلى وقفه. والحقيقة هى أن إسرائيل حققت قدراً أكبر من النجاح فى مواجهة الإرهاب العابر للحدود القادم من الدول المجاورة أكثر مما حققته فى مواجهة إرهاب الشعب الغاضب الخاضع لاحتلالها.

ليست فكرة أن الطريقة الوحيدة لمحاربة الإرهاب هى استمرار الاحتلال ما تؤمن به أعداد كبيرة داخل إسرائيل بشأن أمن البلاد ويتناقض مع المنطق والتجربة. فمنذ حوالى عشرين عاماً كانت غالبية كبيرة من الإسرائيليين تؤمن بأن مصالحها الأمنية الأكثر أهمية تقتضى منهم البقاء فى جنوب لبنان. وهم يؤمنون بالشىء نفسه فيما يتعلق بوجودهم فى مرتفعات الجولان. ولكن أمن إسرائيل على طول الحدود الشمالية تحسن منذ انسحابها من جنوب لبنان، ولم يزدد سوءاً، رغم حقيقة أن حزب الله استطاع التباهى بأنه طرد قوات الدفاع الإسرائيلية الجبارة. ومؤخراً قال موشى يعالون رئيس هيئة أركان قوات الدفاع الإسرائيلية إنه. شأنه شأن أسلافه الثلاثة من رؤساء هيئة الأركان. يعتقد أن أمن إسرائيل لن يضار بشىء إن أعيدت الجولان إلى سوريا.

الإسرائيليون مقتنعون كذلك بأن دخول جدار إسرائيل العازل بعمق فى الأراضى الفلسطينية ضرورى لأمنهم، وأن رأى محكمة العدل الدولية الأخير بعدم قانونيته وضرورة إزالته يمكن تفسيره فقط من خلال ما يزعمونه من معاداة المحكمة للسامية. إلا أن ناحوم بارنيا عرض فى مقاله الأخير فى «يديعوت أحرونوت» الرأى المعاكس الذى يؤمن به كثيرون من أفضل خبراء الأمن فى إسرائيل. فقد قال إن الجدار العازل كان لابد أن يقوم على الخط الأخضر دون انحرافات أو خداع. وبهذه الطريقة كان يمكن بناؤه بسرعة ودون عواقب قانونية وأضرار سياسية، باعتباره سوراً أمنياً، وليس حدوداً سياسية....إلا أن مخططى خط سير السور، من رئيس الوزراء فما أدنى. فضلوا محاولة خداع العالم. فقد فضلوا لعب السياسة على التركيز على الأمن.

وكتب شلومو جازيت، الجنرال المتقاعد الذى كان مسئولاً من قبل عن الاستخبارات العسكرية بقوات الدفاع الإسرائيلية، فى صحيفة «معاريف»:

فلنواجه الحقائق. لقد حولنا السور، الذى هو شديد الأهمية، من سور أمنى إلى سور سياسى، وهذا هو السبب فى هزيمتنا الشديدة. ما قيل فى لاهاى لم يكن بشأن احتياجات إسرائيل الأمنية. بل إنه يتعلق بحق إسرائيل فى أن تقيم مستعمرات يهودية سياسية فى عمق يهودا والسامرة.

[٣]

من الواضح أنه لم يكن هناك شىء أكثر مباشرة فى جعل شارون يصمم على تحاشى أية عملية سياسية من الإرهاب الفلسطينى الموجه إلى المدنيين الإسرائيليين. فقد استغل شارون الإرهاب وإخفاقات عرفات القاتلة فى بناء المؤسسات الفلسطينية للتشكيك فى المشروع القومى الفلسطينى برمته وللقضاء على من سعوا إلى مساعدته على النجاح سواء أكانوا داخل إسرائيل أم فى المجتمع الدولى. ولكن الإخفاقات الفلسطينية لا تضفى المشروعية على سياسات شارون، أو سياسات حكومة بوش: فللفلسطينيين الحق فى إقامة دولة فى الضفة الغربية وغزة ليس لأنهم اتبعوا معايير معينة حددها شارون، ذلك الرجل الذى يأمل فى الاستيلاء على جزء كبير من أرضهم، أو لأن بوش لديه «رؤية» خاصة بدولتين تعيشان جنباً إلى جنب، بل بناء على مبادئ تقرير المصير القومى المقبولة عالمياً.

سبق أن اعترف المجتمع الدولى بتطبيق هذه المبادئ على عرب فلسطين وأقرها حين تبنت الأمم المتحدة القرار الذى يقسم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية فى عام ١٩٤٧. وحق الفلسطينيين فيما أكده المجتمع الدولى فى ذلك القرار باعتباره إرثاً لهم لم يلغه سلوك عرفات السيئ أو فشل مؤسسات السلطة الفلسطينية، التى يجب الإشارة إلى أنها وفرت حرية ومحاسبة أكبر بكثير مما هو عليه الحال فى كثير من الدول العربية المجاورة.



من المؤسف أن ما كشف عنه فايسجلاس بشأن دوافع شارون للانسحاب من غزة. وهو ما يشير إلى أن الفلسطينيين ليس لهم شريك إسرائيلى فى السلام. سوف يكون له أثر ضعيف على إدعاء إسرائيل المستمر بعدم وجود شريك فلسطينى يمكنهم التفاوض معه. وربما لن يكون لتصريح فايسجلاس أثر يزيد عن أثر ما كشف عنه من قبل أكبر مسئولى الاستخبارات والأمن فى إسرائيل من أن انتفاضة سبتمبر ٢٠٠٠ لم يخطط لها عرفات، وإنما كانت نوبة غضب فلسطينية عفوية تنبئوا بها قبل وقت طويل من حدوثها.

حذر عامى يعالون رئيس الشين بيت الإسرائيلية فى عهد إيهود باراك (وقبل ذلك رئيس البحرية الإسرائيلية) رئيس الوزراء باراك من أن تزايد المستوطنات الذى لا قيد عليه فى ظل حكومته وإهماله لعملية السلام الفلسطينية لمصلحة التوصل إلى اتفاقية سورية (نعرف الآن من مذكرات الرئيس كلينتون ودينيس روس أنها فشلت لأن باراك تراجع عن الاتفاق)، وفوق هذا وذاك، خلق ما عانى منه الفلسطينيون فى المناطق من شدائد ومهانة موقفاً متفجراً لم يكن



لا أساس للادعاء الإسرائيلى الذى يروج له إيهود باراك. و«ذى إيكونوميست». بأن هدف الجيل الفلسطينى القديم هو القضاء على إسرائيل. ذلك أنه لا الحرس القديم ولا الحرس الجديد يؤمن بهذا الهدف





يحتاج سوى إلى شرارة كى تشعله. وطبقًا لما قاله أيالون، فقد كانت تلك الشرارة هى زيارة شارون إلى جبل المعبد فى سبتمبر من عام ٢٠٠٠ التى قُصد بها أن تكون مستفزة. وكانت تلك كذلك هى النتيجة التى توصلت إليها لجنة ميتشل فى أعقاب بحثها المتأنى لأسباب الانتفاضة. وذكر أيالون مرارًا أنه لم يكن لدى الشين بيت أية أدلة على تخطيط عرفات للانتفاضة الثانية. فلو كان فعل ذلك لعلمته الشين بيت.

فرضية شارون وكثيرين غيره من القادة الإسرائيليين بأن هدف عرفات لم يكن دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وغزة وإنما فى كل فلسطين استبعدها الجنرال الاحتياط عاموس مالكا الذى كان رئيسًا لاستخبارات قوات الدفاع الإسرائيلية فى عهد باراك، باعتبار أنه لا أساس لها. وقد اتهم ومعه غيره من كبار مسئولى الاستخبارات عاموس جيلاد الذى كان مسئولاً عن فرع الأبحاث باستخبارات قوات الدفاع الإسرائيلية بالكذب حين ألمح إلى أن رأيه القائل بأن هدف عرفات هو تفكيك إسرائيل يقوم على معلومات استخباراتية. وعلى خلاف ذلك قال مالكا:

تحدثت كل التقييمات الاستخباراتية عن رغبة عرفات فى الاستمرار فى العملية السلمية للوصول إلى تسوية دائمة تقوم على وجود دولتين.... ولو أُجيبت مطالبه لوقّع الاتفاقية. أما إذا لم تجب فكان سيسير فى اتجاه الأزمة ليخلق ضغطًا محليًا وعالميًا على إسرائيل كى تكون أكثر مرونة فى مواقفها، تمامًا مثلما فعل فى الماضى.

كما استبعد مالكا اتهام عرفات بالتآمر للقضاء على إسرائيل باعتباره «محض هراء».



ومع ذلك لم تحقق كل تلك الأمور التى كُشف النقاب عنها أى تقدم وسط ذلك الاقتناع واسع الانتشار بأن عرفات هو صاحب الانتفاضة، وأنه من قادها ونسقها حتى قبل أن يدخل محادثات السلام مع باراك فى كامب ديفيد، وأنه رفض مقترحات السلام التى قدمها باراك لأن هدفه الحقيقى كان ولا يزال القضاء على دولة إسرائيل. ولا يمكن للإسرائيليين أن يتصوروا أى تفسير آخر لرفض عرفات مقترحات باراك «السخية» فى كامب ديفيد. ومن الواضح



بعد سبعة وثلاثين عامًا من الاحتلال، أصبحت إسرائيل تبدو فى أعين جزء كبير من العالم دولة منبوذة. فهى وإن لم تصبح بعد جنوب أفريقيا الفصل العنصرى، فإنها تنتمى بالقطع إلى العائلة نفسها



أن احتلال إسرائيل للضفة الغربية الذى دام أربعة عقود قد أصاب خيال المواطنين الإسرائيليين الأخلاقى بالبلادة بحيث لم يرد على بالهم أن طلب باراك توسيع أرض إسرائيل التى تمثل بالفعل ٧٨٪ من فلسطين بإضافة أراض فلسطينية مستقطعة من الـ٢٢ بالمائة. وهى أقل من نصف ما خصصته الأمم المتحدة للدولة الفلسطينية فى عام ١٩٤٧. التى بقيت للفلسطينيين لا يمكن لأى فلسطينى أن يعتبره سخيًا بحال من الأحوال.

[٤]

بعد أن رحل عرفات، سوف تتاح لشارون الفرصة كى يثبت بطلان اتهامات منتقديه له بأنه استغل عرفات دون خجل، وكذلك بطلان استغلاله مقولة «عدم وجود شريك» كذريعة لاستمرار ضم إسرائيل للضفة الغربية. وهو بإمكانه أن يفعل ذلك بإنهاء الإجراءات الأحادية واستئناف محادثات السلام القائمة على القبول غير المشروط لخارطة الطريق مع القيادة الفلسطينية الجديدة، أى بدون التحفظات الأربعة عشر المنطوية على التعجيز التى تبناها مجلس وزرائه فى ٢٧ مايو عام ٢٠٠٣ وأفرغت قبول إسرائيل لخارطة الطريقة من أى معنى.

تتطلب خارطة الطريق من السلطة الفلسطينية بذلك جهود تدل على حسن النية لوقف العنف بتعزيزها قوات الأمن التابعة لها وتفكيك الميليشيات والجماعات الإرهابية. ولن يحدث هذا بين عشية وضحاها، ولكن لكى ينجح سوف يتعين على إسرائيل دعم القيادة الجديدة بوقف النشاط الاستيطانى وإزالة نقاط التفتيش والسحب التدريجى لقوات الدفاع الإسرائيلية إلى مواقعها قبل الانتفاضة. وإذا أصر شارون من جديد على عدم حدوث ذلك إلى أن يتوقف العنف وتقوم الديمقراطية الجيفرسونية فى الضفة الغربية وغزة، فحينئذ سوف نعرف أنه مازال على خداعه القديم ولا يعتزم إشراك الفلسطينيين فى المفاوضات السياسية.

إذا ارتفع شارون إلى مستوى الحدث، فسوف يثبت أنه حوّل نفسه بالفعل إلى رجل دولة، ولن يدين له الإسرائيليون والفلسطينيون وحدهم بهذا الفضل، بل العالم كله. أما إذا سوّف وقضى على القيادة الفلسطينية الجديدة مثلما قضى على محمود عباس حين تولى رئاسة مجلس الوزراء الفلسطينى منذ أكثر من عام، فحينئذ لابد أن يتضح دور شارون المدمر فى عملية السلام للجميع فى آخر الأمر.

تتحدى نهاية رئاسة عرفات كذلك الإدارة الأمريكية المقبلة. فهل ستكرر عدم وفاء الرئيس بوش بوعده فى العام الماضى بـ«توجيه القطيع» على الجانبين نحو ضمان الالتزام بخارطة الطريق، أم هل ستقوم بدور الوسيط الأمين المستعد للقيام بما لا يمكن أن يقوم به سوى القوة الكبرى لإنهاء الصراع؟

إذا لم يستجب أى من الفلسطينيين أو الإسرائيليين أو كلاهما لهذه الانفراجة غير المتوقعة للعودة إلى خارطة الطريق، ولم تتدخل الولايات المتحدة بقوة لمنع مثل هذا الإخفاق، فلابد للمجتمع الدولى أن يتخلى فى آخر الأمر عن نموذج «التيسير» الذى كان أساسًا لكل ما سبق من مبادرات سلام الشرق الأوسط الأمريكية وغير الأمريكية. فالتيسير يفترض أن يفضل الخصوم رغم خلافاتهم التوصل إلى حل لصراعهم على استمراره، وهو الموقف الذى كان قائمًا أثناء فترة أوسلو من عام ١٩٩٣ حتى ٢٠٠٠ (باستثناء فترة تولى بنيامين نتنياهو لرئاسة الوزراء). ويقصر التيسير دور الطرف الثالث على مساعدة الطرفين فى التغلب على العقبات التى تقف فى سبيل تحقيق الهدف الذى يرجوه كل منهما. إلا أنه حين تولى شارون السلطة، بات الطرفان يعتقدان أنهما سوف يكسبان من استمرار الصراع أكثر مما يحققانه نتيجة لحله، وبات بذلك نموذج التيسير غير ذى صلة بالموضوع.



لابد أن يكون واضحًا أن التيسير لم يعد يحمل أى أمل فى إنهاء الصراع. بل إن النزعة التدخلية وحدها هى التى تحمل هذا الأمل فى طياتها. وبما أن الصراع يقتضى تكلفة بشرية غير متوقعة ويعرّض المصالح الإستراتيجية المهمة لكثير من الدول الأخرى للخطر، فلم يعد ينبغى للمجتمع الدولى السماح له بالاستمرار. وعليه فإنه ينبغى أن تدعو الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبى وروسيا والولايات المتحدة، إن أمكن، إلى عقد مؤتمر دولى لا يتوقف على موافقة، أو حتى مشاركة، الفلسطينيين والإسرائيليين الذين أثبتوا بما لا يدع مجالاً للشك أنهم لو تُركوا لرغباتهم فسوف يدعون الصراع يزداد سوءًا على سوء. ولسوف يكون هدف هذا المؤتمر الدولى هو تبنى المبادئ التى أُقرت دوليًا فيما يخص قضايا الحل الدائم الرئيسية فى الصراع الإسرائيلى الفلسطينى.

هذه المبادئ معروفة على نطاق واسع وتحظى بقدر كبير من التأييد، ولا ينبغى أن يكون من الصعب التوصل إلى إجماع دولى على دعمها. وبالإضافة إلى شرط أن تكون حدود ما قبل ١٩٦٧ هى النقطة التى لابد أن تبدأ من عندها المفاوضات، وهو الشرط الذى تتضمنه بالفعل

خارطة الطريق، سوف تتضمن كذلك الشروط التالية: قيام التغييرات الإقليمية على مبادلات متكافئة على الجانبين، وممارسة حق عودة اللاجئين الفلسطينيين في دولة فلسطين الجديدة، وتحول الأجزاء العربية من القدس إلى جزء من الدولة الفلسطينية وعاصمة لها. إضافة إلى ذلك، سوف يتعين عمل ترتيبات خاصة لجبل المعبد/ الحرم الشريف. إذ ينبغي تقسيم السيادة على تلك الأماكن المقدسة بناء على المقترحات السابقة؛ أى أن تكون السيادة على الحرم للفلسطينيين وعلى حائط المبكى وما يتصل به من مبان لإسرائيل، أو أن يوضع حاجز «أفقى» يعطى السيادة فوق الأرض فى جبل المعبد/الحرم الشريف للفلسطينيين، والسيادة تحت الأرض للإسرائيليين. وبديل ذلك هو الالتفاف حول مسألة السيادة الإسرائيلية أو الفلسطينية على الأماكن المقدسة بوضع ترتيبات إدارية يشارك فيها طرف دولى ثالث.

لن يكون بمقدور أى من الطرفين تغيير هذه الشروط إلا بالاتفاق فيما بينهما. وسوف يخضع الطرف الذى يرفضها أو يتخذ إجراءات أحادية مخالفة لتلك الشروط للعقوبات الاقتصادية والدبلوماسية. وعلى أقل تقدير، سوف يحرم هذا التدخل الدولى الواضح والحاسم الطرف المعتدى من أى احتمال للحصول على الاعتراف الدولى بالإجراءات المخالفة للمبادئ التى جرى إقرارها دوليًا فيما يخص اتفاقية السلام الإسرائيلية الفلسطينية.



لا شك فى أنه من غير المحتمل إلى حد كبير أن توافق إدارة بوش المنتخبة حديثًا على الانضمام إلى هذا المؤتمر أو دعم هذا الدور التدخلى. وسوف تجد واشنطن نفسها فى وضع حرج يضطرها إلى القول بأن الشروط المحتمل صدورها عن هذا المؤتمر الدولى ليست ضمن خارطة الطريق أو دعم بوش المتكرر لحل الدولتين. كما أنه ليس من المستحيل أن تكون الإدارة الجديدة أكثر انفتاحًا على الأفكار الجديدة الخاصة بإنهاء الصراع مما كان المتحدث باسمها على استعداد للاعتراف به أثناء الحملة الانتخابية الساخنة. وأعتقد أن الشىء المؤكد هو أنه بعد أن كانت أوروبا والأمم المتحدة وروسيا ذيولاً للطائرة الورقية الأمريكية فى جهود اللجنة الرباعية التى لا طائل من ورائها لتنفيذ خارطة الطريق، لن يوافق أى منها على الاستمرار فى القيام بهذا الدور. وبينما لم يقطع الاتحاد الأوروبى والأمم المتحدة شوطًا كبيرًا فى إنهاء الصراع الإسرائيلى الفلسطينى قبل الانضمام إلى اللجنة الرباعية، فقد بات وضعها منذ ذلك الوقت أكثر تهميشًا. فلم يزد نفوذها على إسرائيل أو الفلسطينيين، بينما ازداد الصراع بشاعة عن أى وقت مضى.

من الواضح أن إطار المبادئ هذا الذى يحظى بموافقة دولية لن ينفذ نفسه بنفسه، وسوف ترفضه إسرائيل، التى هى أقوى الطرفين. وربما اعترض الفلسطينيون كذلك على بعض الشروط، كذلك الشرط الذى ينص على إعادة توطين اللاجئين الفلسطينيين فى الدولة الفلسطينية الجديدة وفى الدول المستعدة لاستقبالهم. غير أن أهمية هذا الجهد الدولى هى أنه سوف يغير حساب التكلفة والأرباح الذى سوف يهتم به الجانبان. وسوف يتأثر ذلك الحساب كثيرًا بتوقع حدوث أضرار لعلاقات الطرف المعتدى الدبلوماسية والاقتصادية مع جزء كبير من المجتمع الدولى، وعدم توقع حصوله على الاعتراف الدولى بما قد يتخذه من إجراءات أحادية.

لا يمكن أن يغفل هذه النتيجة حتى حكومة إسرائيل اليمينية، كما يتضح من الإشارات الأخيرة الصادرة من داخل وزارة الخارجية الإسرائيلية بشأن الآثار المدمرة للسياسات الإسرائيلية التى يرى الاتحاد الأوروبى أنها تحول إسرائيل إلى دولة فصل عنصرى. ورغم السخرية الصادرة عن شارون وحكومته ردًا على رأى محكمة العدل الدولية بشأن عدم مشروعية مسار الجدار العازل الإسرائيلى، فقد أثر ذلك الرأى على بعض القرارات التى اتخذتها منذ ذلك الوقت المحكمة الإسرائيلية العليا وقوات الدفاع الإسرائيلية بشأن مسار السور. بل إن حكومة شارون اليمينية نفسها أصيبت بصدمة جعلتها تفيق حين صوتت كل الدول الأعضاء فى الاتحاد الأوروبى، بما فى ذلك الدول العشر الجديدة، التى كان شارون يعتقد أنها أكثر تعاطفًا مع سياساتها، فى ٢٠ يوليو لمصلحة قرار مجلس الأمن الداعى إلى إزالة السور العازل.

ويتوقف الكثير الآن على احتمال أن تكون تلك الوحدة الأوروبية غير المتوقعة بشأن عملية السلام فى الشرق الأوسط بشيرًا بأشياء فى سبيلها للحدوث. ■

كتاب الزاوية



نجيب محفوظ

أصداء من الحكمة

نجيب محفوظ لم يعد يحتاج لهذه الاحتفالية بمناسبة عيد ميلاده الثالث والتسعين في ١١ ديسمبر الماضى بل نحن، كما يقول الدكتور يحيى الرخاوى أحد أهم أصدقاء الكاتب الكبير، من حقنا أن نحتفل بأنه مازال بيننا. ويستطرد الرخاوى قائلاً: أخشى ما أخشاه أن ينسينا التكرار والإلحاح في هذا الوقت العصيب حقيقة هذا الرجل وجوهر معنى بقائه بيننا.. علينا قبل وبعد الاحتفال أن نُبلغ هذا الشيخ الشاب الجميل أننا أهل لأن نكون أهله.. كيف يقول الرخاوى:

نجيب محفوظ مازال يشارك ناسه آلامهم وأحزانهم يومًا بيوم، آكثر من فرحته باحتفالهم به وتهنئتهم له بعيد ميلاده، هو يعلم ما وصلنا إليه أكثر من أى متابع مباشر، ومع ذلك مازال هو المتفائل العنيد. تفاؤله أقوى من كل ما يجرى وما يبلغه، لكن هذا التفاؤل نفسه هو ما يزيد ألمه ويقلق مضجعه. هذا الرجل مازال يتحدى وهو يواصل مسئولية الحياة، لا أحد يعرف، ربما ولا هو نفسه حقيقة أثر توقف يده اليمنى عن الكتابة نهائيًا، لقد ظل يمرنها بعد الحادث خمس أو ست سنوات حتى استطاعت أن تعاود «الشخبطة». فى إصرار منه على مواصلة العطاء، فظهرت «أحلام فترة النقاهة». أظن أن ما يسعده أكثر هو أن يجد بين شبابنا نجيبًا محفوظًا صغيرًا واعدًا يطمئنه أنه يستمر. إن توقفنا عند نجيب محفوظ أو عند مرحلة نجيب محفوظ هو أمر أدعى للأسف بل والأسى.

وقد اختارت «وجهات نظر» أن تحتفى بوجود نجيب محفوظ بيننا من خلال تقديم مقتطفات بعض من أعماله التى تربت عليها أجيال عديدة ومازالت قادرة على الإبهار.

الخطــــــــــر الأقـــــــــى



المطلوب العمل بجدٍ وبمسـئولية أيضا
لردع التوحـــش الإســـرائيلى فى مصـــادرة الأراضـى
وبنـاء المسـتوطنـات وتـهويـد المـدينـة المقـدسـة. والمطـلوب العـمـل بـجـد
وبمســـــــئولية لإنقـــاذ المســـجد الأقصـــى
مـن الخطــر الــذى يتعـرض لـه



على المسجد الأقصى

محمد السماك

■■في الحادي والعشرين من أغسطس من عام ١٩٦٩ امتدت يد الإجرام الصهيونية إلى المسجد الأقصى وأشعلت فيه النار. أتى الحريق على ١٥٠٠ متر مربع من اصل ٤٤٠٠ متر مربع هى مساحة المسجد الإجمالية. فدمر الحريق بالكامل منبر صلاح الدين الأيوبى ومسجد عمر ومحراب زكريا، ومقام الأربعين، وثلاثة أروقة من الأعمدة والأقواس، كما دمر السقف وأجزاء من القبة الخشبية الداخلية و٤٨ شباكاً مصنوعاً من الجص والزجاج الملون، واحترقت مفروشاته من السجاد القديم، وأتت النيران كذلك على مجسم لصورة الإسراء مصنوع من الفسيفساء.

كان الهدف من وراء تلك العملية تدمير المسجد الأقصى. لم تكن تلك المحاولة الأولى ولن تكون الأخيرة. ولعل آخر محاولة هى التى اعترف بها وزير الأمن فى الحكومة الإسرائيلية تساحى هنغبى فى ٢٤ يوليو الماضى ٢٠٠٤.

جرت عدة محاولات صهيونية حتى الآن للتخلص من المسجد الأقصى.

كانت المحاولة الأولى مباشرة بعد احتلال القدس.

ففى أغسطس ١٩٦٧ . أى بعد شهرين من احتلال القدس . اقتحم الحرم الإبراهيمى خمسون مسلحاً يهودياً يتقدمهم حاخام الجيش الإسرائيلى شلومو غورن (الذى اصبح فيما بعد حاخام إسرائيل الأكبر). وكان هذا الاقتحام المسلح أول تدنيس للحرم القدسى، كما كان أول خرق يهودى لقانون «هالاشا» اليهودى الذى يحرم على اليهود دخول «جبل الهيكل» قبل مجىء المسيح. حاول المقتحمون يومها تدمير المسجد الأقصى ولكنهم فشلوا ثم مُنعوا.. وقد مُنعوا لأنهم فشلوا وانكشفوا.

وجرت المحاولة الثانية بعد ذلك بعامين. فى أغسطس ١٩٦٩ والتى أشرت إلى بعض نتائجها المدمرة.

وفى أغسطس من ١٩٧٩ قامت جماعة غوش ايمونيم بالمحاولة الثالثة. جرى التخطيط لهذه المحاولة (أثناء حكومة مناحيم بيغن) فى مستعمرة كريات أربع التى تقع فى قلب مدينة الخليل. وكان جهاز المخابرات «الشين بيت» على علم بها. وقد وضعت الجماعة مخططين لتدمير المسجد الأقصى. يقضى الأول بتزنير المسجد بالمتفجرات ونسفه. ولكن الخوف على ما يسميه اليهود «حائط المبكى» أدى إلى صرف النظر عن هذا المخطط. أما المخطط الثانى فهو قيام طائرة حربية يخطفها طيار عسكرى بإلقاء القنابل المحرقة والمدمرة من الجو على المسجد. ولكن الخوف من أن تصيب أشلاء المسجد المتطايرة المستوطنين اليهود فى القدس القديمة، أدى إلى صرف النظر عن هذا المخطط أيضا.

لم تفشل هذه المحاولات، ولم تُكتشف، ولكن اعتُرف بها بعد أن تخلى عنها أصحابها. فالمخططان اللذان وضعتهما غوش ايمونيم لم يُعلن عنهما إلا فى عام ١٩٨٤ اى بعد مرور خمس سنوات على محاولة تنفيذهما. إن الذين خططوا لكل هذه المحاولات لم يكونوا يهوداً فقط. الذى أحرق المسجد الأقصى فى عام ١٩٦٩ لم يكن يهودياً. كان صهيونياً مهاجراً من استراليا من أعضاء الحركة الصهيونية المسيحانية التى تعتبر قيام إسرائيل واحتلال القدس وبناء هيكل يهودى على أنقاض المسجد الأقصى شروطاً لازمة التحقيق للعودة الثانية للمسيح.

كذلك لم يكن اختيار أغسطس من ذلك العام صدفة.

ففى التاسع من أغسطس من عام ٥٨٦ قبل الميلاد سقطت مملكة يهوذا على يد نبوخذ نصر ملك بابل ؛ فأحرق جيشه مدينة القدس وهدم الهيكل اليهودى وسبى اليهود إلى بابل، إلى أن أعادهم إليها بعد ٧٠ عاماً قورش ملك الفرس.

وفى التاسع من أغسطس أيضا من عام ٧٠ بعد الميلاد، انتقم الرومان من اليهود ودمروا الهيكل الثانى الذى أُعيد بناؤه بعد العودة من بابل، وقد دام الحكم الرومانى على فلسطين ٧٠٠ عام إلى أن حررها العرب المسلمون فى عام ٦٣٧ ميلادية.

لذلك تشكل ذكرى التاسع من أغسطس من كل عام مناسبة دينية حيث يتجمع اليهود أمام حائط البراق الذى يعتقدون أنه الجزء الوحيد المتبقى من الهيكل بعد تدميره الثانى، ولذلك يسمونه بحائط المبكى. وهناك يجددون العهد بإعادة بناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى، وفى موقعه.

فى ٢٠ أغسطس من عام ١٩٢٩ حاول اليهود لأول مرة السيطرة على الجدار بالقوة. فتصدى لهم أهل القدس. كانت فلسطين يومذاك تحت الاحتلال البريطانى. وكانت بريطانيا تتواطأ مع اليهود وتحميهم. إلا أن المظاهرات الشعبية التى عمت المدن الفلسطينية حملت سلطات الاحتلال على التراجع. فوافقت على تشكيل لجنة دولية للتحقيق وللتوصية بما يجب أن يلتزم به الطرفان المسلمون واليهود. وقد أقرت اللجنة الدولية التوصيات الثلاث التالية:

١. تعود للمسلمين وحدهم ملكية الحائط الغربى، أى حائط البراق كما يسميه المسلمون أو حائط المبكى كما يسميه اليهود. ولهم وحدهم. أى للمسلمين الحق العينى فيه لكونه يؤلف جزءاً لا يتجزأ من ساحة الحرم القدسى الشريف.

٢. تعود للمسلمين أيضا ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط وأمام المحلة المعروفة بـ«حارة المغاربة» المقابلة للحائط لكونه موقوفاً حسب أحكام الشرع الإسلامى لجهات البر والخير.(أُزيلت حارة المغاربة عن آخرها فور احتلال القدس فى حزيران عام ١٩٦٧).

٣. لا يجوز اعتبار أدوات العبادة التى يحق لليهود وضعها بالقرب من الحائط، أمرا من شأنه ترتيب أى حق عينى لليهود فى الحائط أو فى الرصيف المجاور له.

فى شهر آب. أغسطس من عام ١٨٩٧ عقد فى مدينة بال بسويسرا المؤتمر الصهيونى الأول بدعوة من ثيودور هرتزل. كان مؤتمراً لليهود الصهاينة وكان نواة وقاعدة انطلاق الحركة الصهيونية. وفى عام ١٩٨٥، أى بعد ٨٨ عاماً، عُقد فى نفس المدينة السويسرية بال، وفى الفندق نفسه، وفى القاعة ذاتها من الفندق وفى الشهر ذاته أيضا آب. أغسطس، مؤتمر صهيونى من نوع آخر ضم عدداً من الكنائس الإنجيلية المتصهينة التى تعتبر قيام «صهيون» أمرا تمهيدياً لا بد منه للعودة الثانية للمسيح.

وجه الدعوة إلى هذا «المؤتمر الصهيونى المسيحانى» الدكتور دوغلاس يونغ مدير المعهد الأمريكى لدراسات الأرض المقدسة. وترأسه الدكتور فان ديرهوفين رئيس الكنيسة الإنجيلية الهولندية. وحضر المؤتمر التأسيسى ٥٨٩ شخصية دينية من الولايات المتحدة وأوروبا، ومن كنائس مماثلة فى دول أفريقية وآسيوية أخرى بلغ عددها ٢٧ دولة.

ومنذ ذلك الوقت يعقد فى شهر آب. أغسطس من كل عام مؤتمران، الأول للحركة الصهيونية. اليهودية استكمالاً لمسيرة المؤتمر الأول الذى نظمه هرتزل، والثانى للحركة الصهيونية المسيحية الذى أعده دوغلاس يونغ.

انبثقت عن مؤتمر ١٩٨٥ منظمة جديدة تحمل اسم «السفارة المسيحية الدولية من أجل القدس»، مهمتها توظيف النفوذ المعنوى والمادى من أجل تمكين المؤسسة الجديدة من تحقيق النبوءات التوراتية المتعلقة بمتطلبات العودة الثانية للمسيح وأهمها تثبيت أقدام الدولة الصهيونية وتجميع بقية اليهود فيها بعد ضم كل الأرض التى وعدهم الله بها (؟). وبناء الهيكل اليهودى على أنقاض المسجد الأقصى.

وقد عملت السفارة المسيحية الدولية على تحقيق معظم الأهداف التى أعلنتها فى عام ١٩٨٥. ومن أبرزها نقل يهود الاتحاد السوفيتى السابق إلى إسرائيل، وإنهاء المقاطعة ضد المصالح الإسرائيلية، والضغط على دول أوروبا الشرقية والوسطى لتطبيع علاقاتها مع إسرائيل، ودعوة العالم إلى الاعتراف بالقدس عاصمة أبدية موحدة لإسرائيل. وقد لعبت هذه المنظمة الدور الأبرز فى استصدار القرار الأول عن مجلسى الكونغرس الأمريكى (الشيوخ والنواب) فى أبريل. نيسان ١٩٩٠، الذى نص على دعوة الإدارة الأمريكية إلى الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل. ثم باستصدار القرار الثانى فى عام ١٩٩٥ بنقل مقر السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس.

وللسفارة المسيحية الدولية فروع فى عدد كبير من دول العالم تقوم بالمهمة نفسها. ويشكل المؤتمر السنوى الذى تعقده فى شهر آب. أغسطس من كل عام مناسبة لتقييم المنجزات التى حققتها، ولوضع برنامج عمل للعام الجديد. وتتولى هذه المنظمة بشكل أساسى تنظيم عمل ٢٥٠ هيئة وجمعية أمريكية (غير يهودية) تعمل فى الولايات المتحدة على قاعدة تفسيرات صهيونية لما يعتقد أنه نبوءات توراتية تتعلق بعودة اليهود إلى فلسطين وإقامة دولة صهيون التى يظهر فيها المسيح ثانية مخلصاً الإنسانية من الشرور التى تغرق فيها.

إلى جانب مؤسسة «السفارة المسيحية من أجل القدس» هناك مؤسسات إنجيلية من اليمين المسيحى الأمريكى تتنافس على دعم إسرائيل وعلى تمويل مشروعاتها الاستيطانية، منها على سبيل المثال لا الحصر مؤسسة الصداقة الدولية بين المسيحيين واليهود ومقرها فى شيكاغو، وهى تجمع التبرعات من المسيحيين اليمينيين فى الولايات المتحدة لتشجيع الاستيطان اليهودى. ومنها مؤسسة أبناء الهيكل، ومهمتها العمل على بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى.

تؤمن هذه المؤسسات الواسعة الانتشار بأن إرادة الله

الصور مأخوذة من كتاب «القدس فى صور»
مركز الإعلام الفلسطينى
بالتعاون مع وزارة الثقافة الفلسطينية
أبو ظبى - المجمع الثقافى، ٢٠٠٢.

متمثلة بقيام إسرائيل. وأن الله يساعد من يساعد إسرائيل ويعادى من يعاديها. وأن قيام إسرائيل يؤكد توافر الشروط التى طال انتظارها من أجل العودة الثانية للمسيح. وبالتالى فإن الدفاع عن إسرائيل هو عمل دينى يتعلق بثوابت إيمانية وليس مجرد موقف سياسى يتأثر بالمتغيرات من الأحداث.

إن فى الولايات المتحدة الدولة العلمانية (والتى ينص دستورها على فصل الدين عن الدولة) ١٤٠٠ محطة دينية يعمل فيها ٨٠ ألف قسيس إنجيلى أكثريتهم الساحقة من أتباع هذه المدرسة التى تعتبر إسرائيل تجلياً إلهيا وتجسيداً لنعمه من أجل خلاص بنى البشر !!.

لذلك ما أن تواجه إسرائيل أزمة أو مأزقاً. حتى يتحرك هذا الجيش الإعلامى. الدينى عبر شبكة الكنائس الإنجيلية اليمينية المتطرفة ومحطات الإذاعة والتلفزيون وسلسلة المطبوعات اليومية والأسبوعية التى تتولى إصدارها.

ينطلق التحرك من مقولة ثابتة من مقولات هذه الحركات الدينية، وهى أن القوانين الدولية الوضعية لا تطبق على إسرائيل لأن إسرائيل تختلف عن كل الكيانات السياسية الأخرى فى العالم من حيث إن وجودها هو تجسيد لإرادة إلهية وليس استجابة لحاجة إنسانية. وتالياً فإن ما يجب أن يطبق على إسرائيل هو الإرادة الإلهية التى وردت فى الكتب المقدسة وأبرزها الوعد الإلهى لشعب الله المختار. وما يقرره الله لا تلغيه ولا تعدله قرارات الأمم المتحدة، ولا يعطله أو يؤخره القانون الدولى.

تكوّنت هذه الأدبيات الدينية التى تجعل من اليهود الشعب المؤتَمن على الخطة الإلهية التى يتحدد بمقتضاها مصير البشرية جمعاء، والتى تجعل من إقامة دولتهم المدخل الوحيد الذى لا بد منه إلى هذه الخطة بما تعنيه من تمهيد للعودة الثانية للمسيح. وهى العودة التى تحسم مصير صراع الإيمان والفكر والتى تنتهى بانتصار المسيح وسيادته على العالم مدة ألف عام ومن ثم تقوم الساعة.

من خلال هذه الأدبيات اصبح الإيمان بمساعدة اليهود فى إقامة دولة فى فلسطين نوعاً من العبادة التى تعبّر عن المشاركة الإنسانية فى تحقيق الإرادة الإلهية. أى أن الإنسان يعرف ما يريده الله من خلال قراءته للنبوءات التوراتية. ثم يعمل على تحقيق ما يريده الله فى ضوء ما توحى له هذه القراءة.

فى ضوء هذه الأدبيات الدينية، وفى ضوء هيمنة المؤسسات التى تعتنق هذه الخلفية وتروّج لها، على القرار السياسى الأمريكى، يمكن فهم خلفية الموقف الرسمى الأمريكى المعارض لمبدأ عودة الفلسطينيين إلى ديارهم عملاً بقرار مجلس الأمن الدولى ١٩٤، والذى يشجع فى الوقت نفسه اليهود على الاستيطان فى إسرائيل وفى بقية الأراضى الفلسطينية المحتلة !!. كما يمكن فهم التشجيع والتمويل الأمريكيين لمشاريع الاستيطان فى غزة والضفة الغربية والتأييد المطلق لكل ما تقوم به إسرائيل من أعمال بصرف النظر عن الشرعية الدولية. فالمهم هنا شرع الله لا الشرعة الدولية.

ومن الواضح أن سياسة الرئيس جورج بوش ومواقفه من الانتفاضة الفلسطينية وتغطيته للجرائم التى يرتكبها شارون تتم على قاعدة هذا الإيمان.

وكان الكونغرس الأمريكى جدّد تبنّيه لقرار نقل السفارة الأمريكية إلى القدس فى شهر أيلول. سبتمبر ٢٠٠٢ ووقّع عليه الرئيس بوش نفسه استجابة لطلب اليمين الإنجيلى المتطرف. وهو ما لم يفعله أى رئيس الأمريكى قبله.

صحيح أن الكنيسة الكاثوليكية، والكنيسة الأرثوذكسية، وكذلك العديد من الكنائس الإنجيلية الأمريكية الأخرى تعارض عمليات التهويد العقدى والتوظيف السياسى للمسيحية وتعتبرها تشويها لها وتضليلاً للمسيحيين المؤمنين، إلا أن الصحيح فى الوقت نفسه أن الدور السياسى الذى تقوم به منظمة السفارة المسيحية الدولية باختطاف المسيحية واستغلال اسمها وشعاراتها ، يكاد يصبح الدور الأهم فى التأثير على صناعة القرار الأمريكى من قضايا الشرق الأوسط عامة ومن الصراع العربى. الإسرائيلى تحديداً.

فى المؤتمر السنوى الذى عقدته هذه الحركة فى واشنطن فى تشرين الثانى. نوفمبر ٢٠٠٢، قال أحد قساوستها بات روبرتسون «إن الفلسطينيين ليسوا سوى مجموعة من العرب قدمت إلى إسرائيل منذ عدة عقود فقط، وان ادعاءهم بالأرض هو ادعاء حديث بينما ادعاء اليهود يعود إلى ثلاثة آلاف عام. وان جبل الهيكل هو لإسرائيل وليس للفلسطينيين». واستشهد بالفصل ٣٣ من التوراة (الأرقام) حيث يدعو الرب موسى إلى وراثة ارض كنعان محذراً من أن يبقى فيها على أحد من الكنعانيين «لأنهم سيتحولون إلى أشواك فى الخواصر وإلى عيدان فى العيون لينغصوا عليكم حياة الهناء فى أرضكم».

إن هذه الحركة الدينية، باعتقاداتها وبتعاليمها التوراتية. المخالفة للمبادئ المسيحية الكاثوليكية والأرثوذكسية والإنجيلية. تهيمن على المطبخ السياسى الأمريكى فيما يتعلق بالشرق الأوسط وهى التى تتولى بلورة وصياغة القرارات المتعلقة بالقضية الفلسطينية وبقضية القدس تحديداً.

ومن اتباع هذه الحركة شخصيات الأمريكية سياسية ودبلوماسية وإعلامية وعسكرية تتبوأ مراكز قيادية بارزة. كان منها مثلاً قبل الرئيس الحالى جورج دبليو بوش، الرئيس الأسبق رونالد ريغان.

ففى عهده ، اصبح تقليديا دعوة شخصية دينية أو اكثر من هذه الحركة إلى البيت الأبيض فى كل مرة يجد الرئيس الأمريكى نفسه مدعوا لاتخاذ قرار جوهرى يتعلق بالشرق الأوسط. أهمية هذه المشاركة الدينية هى العمل على توجيه القرار السياسى الأمريكى بحيث يتوافق مع إرادة الله كما تحددها النبوءات التوراتية. ومنذ حادث ١١ أيلول. سبتمبر ٢٠٠١ والقس جيرى فولويل يلعب هذا الدور فى إدارة الرئيس جورج بوش. ففى مفهوم هذه الحركة الأصولية، إن إرادة الله تحددها التفسيرات الموضوعة لمجموعة من النبوءات الدينية التى ورد ذكرها فى بعض أسفار التوراة والعهد القديم، مثل سفر الرؤية، وسفر حزقيال، وسفر يوحنا، وغيرها. ومن هذه النبوءات معركة هرمجيدون التى تليها مباشرة العودة الثانية للمسيح.

لقد كان القس روبرتسون فى دبابة الجنرال دايان عندما احتلّ القدس فى عام ١٩٦٧، وكان القس جيرى فولويل فى دبابة الجنرال شارون عندما احتلّ بيروت فى عام ١٩٨٢.

السؤال الآن : ما العمل ؟

فى عام ١٩٧٩ أى بعد عشر سنوات من حريق المسجد الأقصى، شكلت منظمة المؤتمر الإسلامى لجنة خاصة لوضع استراتيجية مشتركة لتحرير القدس. وبعد ٢٥ عاماً على تشكيلها فإن السؤال الذى يفرض نفسه هو ماذا حققت هذه اللجنة حتى الآن ؟. إن الجواب الذى لا يحتاج إلى عناء بحث وتفكير هو لا شىء. ولكن بالمقارنة، تأسست فى واشنطن «مؤسسة معبد القدس» برئاسة رايزنهوف رئيس منظمة السفارة المسيحية الدولية. التى سبقت الإشارة إليها. مهمتها جمع التبرعات والمساهمات المالية لتدمير الأقصى وبناء الهيكل. وأنشأت هذه المؤسسة فى مدينة القدس القديمة معهداً خاصاً باسم «ياشيف اتيريت كوهانيم» أى معهد تاج الحاخاميين لإعداد الكهنة الذين سيخدمون فى الهيكل الثالث بعد بنائه بما فى ذلك مناسك التضحية بالحيوان.

كما موّلت عملية تجرى منذ سنوات لاختيار حجارة البناء وصقلها وتجميعها فى موقع خاص إلى أن تحين ساعة الصفر. وساعة الصفر، هى تدمير المسجد الأقصى .

وفى كتابه The Last Late Planet Earth يقول القس هول ليندسى مؤلف الكتاب، وهو من كبار منظرى الحركة الصهيونية المسيحية فى الولايات المتحدة :«لم يبقَ سوى حدث واحد ليكتمل المسرح تماماً أمام دور إسرائيل فى المشهد العظيم الأخير من مأساتها التاريخية. وهو إعادة بناء الهيكل القديم فى موقعه القديم. ولا يوجد سوى مكان واحد يمكن بناء الهيكل عليه استناداً إلى قانون موسى فى جبل موريا حيث شيد الهيكلان السابقان».

ورغم أن كل أعمال التنقيب عن بقايا الهيكلين المدمرين تحت الحرم القدسى الشريف لم تعثر على دليل واحد أو حتى على حجر واحد.. فإن ثمة إصرارا على أن المسجد الأقصى يقوم فى موقعهما، وانه لا بد من تدميره لبناء الهيكل الثالث على أنقاضه !!.

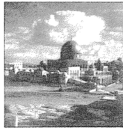
وضع المهندس اليهودى «ايفى يوناه» تصميم الهيكل الثالث . وأقرّت التصميم الحاخامية فى إسرائيل والدياسبورا. كما أقرّته المنظمات اليهودية المختلفة. يبقى تهديم المسجد الأقصى. فالقرار بالتهديم اتُخذ منذ سنوات أما التنفيذ فإنه يتم تدريجياً وعلى مراحل بمعولين:

معول التطرف الدينى الصهيونى ومعول الخنوع العربى والإسلامى. ولا شك فى أن المعول الثانى أشد خطراً على المسجد وأكثر فعالية فى مخطط تدميره.

من هنا فإن إنقاذ المسجد الأقصى، وبالتالى إنقاذ القدس، وفلسطين يتطلب وعياً عربياً إسلاميا حقيقياً، وتعاوناً إسلاميا. مسيحياً عالمياً حقيقياً أيضا حتى تتحرر القدس من دنس الاحتلال وحتى تستعيد دورها عاصمة للسلام والإخاء بين المؤمنين جميعاً. ولكن هل هذا التعاون ممكن ؟.

فى ٢٤ كانون الثانى. يناير ١٩٠٤، وجه البابا بيوس العاشر رسالة الى تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية ردا على رسالة كان هرتزل قد وجهها إلى البابا طالبا فيها دعم الفاتيكان لمشروع تهجير اليهود إلى فلسطين.

الدور السياسى الذى تقوم به منظمة السفارة المسيحية الدولية باختطاف المسيحية واستغلال اسمها وشعاراتها ، يكاد يصبح الدور الأهم فى التأثير على صناعة القرار الأمريكى من قضايا الشرق الأوسط عامة



قال البابا فى رسالته الجوابية :
«نحن لا نستطيع أبدا أن نتعاطف مع الحركة الصهيونية. إننا لا نقدر على منع اليهود من التوجه إلى القدس، ولكننا لا يمكن أبدا أن نقره، وبصفتى قيما على الكنيسة لا أستطيع أن أجيبك بشكل آخر. لم يعترف اليهود بسيدنا (المسيح)، ولذلك لا نستطيع أن نعترف بالشعب اليهودى، وبالتالى، فإذا جئتم إلى فلسطين، وإذا أقمتم هناك، فإننا سنكون مستعدين كنائس ورهبانا أن نعمدكم (أى نحولكم إلى المسيحية) جميعا».

وجاء فى وثيقة فاتيكانية صادرة فى الأول من آيار. مايو ١٨٩٧، ونشرتها Civilta Cattolica (عشية المؤتمر الصهيونى الأول الذى عقد فى بازل فى سويسرا): «مر ١٨٢٧ عام على تحقيق نبوءة المسيح بأن القدس سوف تدمر .. ولذلك فان إعادة بناء القدس لتصبح مركزا لدولة إسرائيل بعد تكوينها يتناقض كل التناقض مع نبوءات المسيح الذى اخبرنا مسبقا بأن العامة (أى غير اليهود) سوف تسيطر على القدس حتى نهاية زمن العامة (جنتيل)، أى حتى نهاية الزمن».

أملى هذا الموقف المبدئى للفاتيكان ثوابت إيمانية لعل من أبرزها :

١. حكم الإدانة الذى أصدره البابا غريغورى الثالث عشر فى عام ١٥٨١ ضد اليهود.
٢. الإيمان المسيحى بعدم جعل القدس عاصمة لدولة يهودية حتى قيام الساعة وفقا لما ورد فى إنجيل لوقا ٢١/٢٤.
٣. عدم الاعتراف بالشعب اليهودى طالما أن هذا الشعب لا يعترف بالمسيح. (رسالة البابا بيوس العاشر).
٤. لا لسيادة اليهود على الأرض المقدسة فى فلسطين. (رسالة البابا بندكيت الخامس عشر إلى ناحوم سوكولوف مبعوث الحركة الصهيونية).

غير أن المتغيرات السياسية التى عصفت بالشرق الأوسط منذ اعتراف الأمم المتحدة بإسرائيل فى عام ١٩٤٨، ثم احتلال إسرائيل للقدس فى عام ١٩٦٧، وبعد ذلك عقد معاهدة الصلح المصرية. الإسرائيلية فى عام ١٩٧٩، ثم عقد مؤتمر مدريد فى عام ١٩٩١ وإطلاق مسيرة التسوية السياسية التى تجاوزت محطة أوسلو الفلسطينية فى عام ١٩٩٣ (ثم محطة نهر واى قرب واشنطن فى عام ١٩٩٨) ومحطة وادى عربة الأردنية فى عام ١٩٩٤، هذه المتغيرات دفعت بالفاتيكان إلى التحرك للمحافظة على مصالحه كراع للكاثوليك فى المنطقة وكقيّم على المراكز الدينية المسيحية فى القدس.

هزت هذه المتغيرات الثوابت الفاتيكانية، إلا أنها لم ترس ثوابت دينية من نوع معاكس أو حتى من نوع آخر. فالمجال لا يزال مفتوحاً أمام العالم العربى خاصة وأمام العالم الإسلامى عامة للتحرك باتجاه الفاتيكان ولتلقف يد التفاهم والتعاون التى يمدها البابا يوحنا بولس الثانى رغم خيبة الأمل العربية والإسلامية من العلاقات الجديدة التى أقامها مع إسرائيل ومع يهود العالم أسوة بالعديد من الدول العربية والإسلامية. إن الرفض والتنديد والإدانة أمر سهل، وهو يفرّج عن النفس، إلا أنه لا يصون حقاً ولا يردع ظلماً ولا يبنى علاقة. والمطلوب العمل بجد وبمسئولية لصون الحق العربى فى فلسطين وفى القدس دينياً (إسلاميا ومسيحياً) ووطنياً. والمطلوب العمل بجدٍ وبمسئولية أيضا لردع التوحش الإسرائيلى فى مصادرة الأراضى وبناء المستوطنات وتهويد المدينة المقدسة. والمطلوب العمل بجد وبمسئولية لإنقاذ المسجد الأقصى من الخطر الأقسى الذى يتعرض له. لقد بدأ العد العكسى لتدمير المسجد بكل ما يرمز إليه منذ سنوات وتحديداً منذ احتلال القدس فى عام ١٩٦٧. فابن غوريون هو القائل: «لا إسرائيل بدون القدس، ولا قدس بدون الهيكل. ولا هيكل مع وجود المسجد الأقصى».. وإذا كان تحقيق هذا الهدف قد تأخر حتى الآن فلأسباب سياسية و تقنية يهودية. صهيونية. وليس لأن العرب والمسلمين يمنعون تنفيذها.

فى الأساس ليس تحرير القدس قضية إسلامية فقط. ولا هو قضية مسيحية فقط. لا بد من تضافر الجهود الإسلامية والمسيحية على المستويين القومى ثم الدولى. ولا بد من وضع استراتيجية إسلامية مسيحية واحدة تنقذ المقدسات الدينية مما تتعرض له من انتهاكات وأخطار. وتعيد للقدس هويتها العربية. فما كان للخطر أن يحدق بالمسجد الأقصى لو لم يكن هناك تخلٍ مسيحى بلغ حده الأقصى، ولو لم يكن هناك تهاون عربى وإسلامى تجاوز حده الأقصى. ■

رغم ترحيب المستفيدين..

QIZ

المخاطر واردة!

جمال بيومي

اتجهت العلاقات الدولية في العقدين الأخيرين نحو تعزيز الحريات السياسية ، والانفتاح على الاقتصاد العالمي. وعملت مؤسسات التمويل الدولية (الصندوق والبنك) ومنظمة التجارة العالمية ، كآليات تنفيذية لتحقيق هذه التوجهات. بينما ازداد في نفس الوقت سعى الدول نحو إقامة التكتلات الإقليمية تسعى لبلوغ درجات أعمق للعلاقات بين أعضائها ، لا يسهل بلوغها في إطار منظمة التجارة العالمية التي توقفت المزايا المتبادلة فيها عند شرط الدولة الاولى بالرعاية. وبدا النظام الاقليمي وكأنه خروج على النظام متعدد الاطراف من وجهة نظر البعض، أو نوع من استكمال النظام لتطوير علاقات أطرافه على المستوى الاقليمي من وجهة نظر أخرى.

وأدى تطور العلاقات في الاتجاه الاقليمي إلى تعميقها إلى حد يتخطى مفاهيم وممارسات السيادة المتعارف عليها بين الدول في أزمنة سابقة. فاتجهت القوى العالمية الكبرى والمؤثرة نحو التوسع والاندماج. وهو ما حدث بقيام تحالف منطقة التجارة الحرة لدول أمريكا الشمالية NAFTA بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك (١٩٩٣). وتواصل بمعدلات أسرع بين بلدان الاتحاد الاوربي التي قطعت منذ عام ١٩٥٧ شوطا طويلا في التوسع الافقي من سبعة أعضاء إلى خمسة وعشرين. وفي التوسع الرأسي لتعميق علاقاتها البينية، وتوحيد سياساتها المالية والنقدية. واستخدام عملة موحدة ، وتخلى الاعضاء عن سلطاتهم لتحصيل الجمارك لآليات الاتحاد، وأوكلوا للمفوضية الأوربية رسم سياساتهم التجارية ، وتخلت سبع دول عن السيطرة على الحدود البينية وسمحت بإصدار تأشيرة دخول موحدة. وكلها أمور تتفوق على ما يمكن أن توفره مسارات التعاون في إطار المنظمات الدولية.

منظمة التجارة العالمية وقواعدها

نشأت الاتفاقية العامة للتجارة والتعريفات GATT ، للعمل على تيسير سبل التجارة الدولية وانسيابها. وتحقيق التوازن بين مصالح أطراف السوق، من منتجين ومستهلكين، ومصدرين ومستوردين. والهدف الاسمى وراء ذلك هو خلق مصالح تتولد عن حركة التعاون الدولي والإقليمي، وتجعل النزاعات والحروب الكبرى أمرا مكلفا أو لا مبرر له ، عن طريق اقتسام الفرص والمكاسب وتجنب التحديات وتحقيق المصالح للجميع. ومنذ نشأتها في عام ١٩٤٧ ، عقدت الجات ثماني جولات للمفاوضات التجارية. كانت ثامنها هي جولة أورجواي - التي بدأت في سبتمبر ١٩٨٦ وانتهت في أبريل ١٩٩٤، وتعتبر أكثر الجولات تميزا واتساعا من حيث :

- معالجة موضوعات جديدة ، كتجارة المنسوجات والسلع الزراعية والخدمات، ، وحماية الملكية الفكرية.
- والفترة التي استغرقتها (٨ سنوات)
- حجم التجارة الاضافية المحررة (٧٥٥ مليار دولار) والدول المشاركة (١٢٤).
- قيام منظمة التجارة العالمية لترث الجات ومسئولية النظام التجاري الدولي.

وتسعى منظمة التجارة العالمية لإقامة مناخ تجاري يقوم على المنافسة العادلة عن طريق إقرار أربع قواعد أساسية :

القاعدة الأولى:

حماية الصناعة المحلية بالرسوم فقط ، واستخدام نظام الحصص كاستثناء. وكانت هناك ثلاثة مجالات خلافية جرت محاولات للتغلب عليها وهي :

١. القطاع الزراعي ونظم الحصص والحماية للمنتجات الزراعية.

٢. تجارة المنسوجات : حيث اتفق على إلغاء اتفاقيتها ونظام الحصص اعتبارا من أول يناير ٢٠٠٥.

٣. ميزان المدفوعات : واتفق على عدم جواز علاج عجز الميزان بنظام الحد من الواردات عن طريق الحصص ، الا إذا فشلت الوسائل الأخرى.

القاعدة الثانية:

تثبيت الرسوم الجمركية وعدم زيادتها. وتتعهد الدول بعدم إضافة قيود كمية. ويعني ذلك أن منظمة التجارة العالمية لا تلزم أعضاءها بإلغاء الرسوم الجمركية ، خلافا للخطأ الشائع المتداول في هذا الشأن.

ولهذا يجب أن نتذكر الاتي قبل أن نتخذ قرارات أساسية في شأن التجارة الخارجية :

قواعد التجارة العالمية لا تلغي ولا تخفض الرسوم الجمركية ولا توحد وإنما تثبتها عند مستوى حددته كل دولة منذ سنة ١٩٩٥.

ومنذ اجتماع مراكش في ديسمبر ١٩٩٤. صار لكل دولة عضو في المنظمة جدول تعريفات جمركية خاص ترتبط به وتتحول فيه الضريبة من عمل سيادي إلى ضريبة تعاقدية ضمن الالتزامات المترتبة على اتفاقية الجات.

القاعدة الثالثة:

معاملة الدولة الاولى بالرعاية، وتهدف إلى القضاء على أشكال التمييز بين الدول في التجارة السلعية ، عن طريق سريان المزايا التي يتبادلها أعضاء الجات، على كل أطراف الاتفاقية. ويستثنى من هذه القاعدة ما جاء بالمادة ٢٤ حول التكتلات الاقليمية التي يحق لأعضائها قصر تبادل المزايا التفضيلية والجمركية عليهم ، والمزايا التفضيلية المقدمة للدول النامية والاقل نموا بمختلف أشكالها.

القاعدة الرابعة:

المعاملة الوطنية ، وتعني عدم التمييز بين الواردات الاجنبية والمنتجات المحلية، بحيث لا تفرض عوائق داخلية إضافية على الواردات تتجاوز تلك المطبقة على المنتجات الوطنية.

وتتيح حرية التجارة انسياب السلع والخدمات باستخدام مبادئ التخصص والمنافسة وفتح الاسواق، والاستخدام الامثل للموارد والدخول في دائرة اقتصاد الوفرة، فيما يوجه رسالة للمستثمر الذي يسعى لكسب فرص في أسواق أوسع ، ويؤدي إلى مزيد من التشغيل وتوليد الوظائف. وقد لعبت التجارة دور قاطرة النمو ومكافحة الفقر في كثير من التجارب بعد الحرب الثانية.

ويتطلب الاصلاح الاقتصادي في مصر مضاعفة الصادرات لتحقيق معدل نمو للناتج المحلي الاجمالي

اتفاقات المشاركة الأوروبية المتوسطية تشجع - أيضا - التعاون الإقليمي. ولكن بمشروطية أقل استفزازا



يصل لنسبة ٧٪. ويقتضى ذلك زيادة الصادرات الصناعية إلى ضعف معدل نمو التجارة العالمية. وللوصول إلى هذا الهدف استخدمت ثلاثة نماذج تدور حول :

١. إحلال الواردات.

٢. حماية الصناعات الوليدة.

٣. نموذج عدم التدخل، والاعتماد على أدوات السوق.

وقد تبنت عدة دول عربية - من بينها لبنان والأردن ومصر وتونس والمغرب - استراتيجيات لتنمية الصادرات تعتمد أسلوبا يجمع بين دعم الصناعات الوليدة، وبين تخفيض التعريفات الجمركية والقيود على الواردات وبخاصة مدخلات الانتاج. وسلكت مصر ثلاثة مسارات متكاملة :

١. تثبيت الرسوم الجمركية وإزالة العوائق غير الجمركية فى إطار التزاماتها تجاه منظمة التجارة العالمية.

٢. التخفيضات الجمركية والاعفاءات الضريبية وتشريعات حفز الاستثمار فى إطار برامج الاصلاح الاقتصادى المصرى.

٣. الارتباط باتفاقات إقليمية تقيم مناطق للتجارة الحرة مع أهم شركاء التجارة الخارجية فى العالم العربى وأوروبا وإفريقيا، وغيرها.

أوصى البنك الدولى مصر والدول العربية باتباع سياسات نجحت فى تجارب دول شرق وجنوب شرق آسيا، ودول منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OECD من بينها :

- الشفافية فى اتخاذ القرارات الاقتصادية وزيادة القدرة على التنبؤ وكفاءة الادارة.
- دعم المنافسة وتحسين الجودة، والاستثمار فى البنية الاساسية وتحريرها من القيود.
- تقليص البيروقراطية وممارسات جماعات المصالح والمنتفعين بالحماية التى تحول دون تنفيذ التزامات تحرير التجارة وتقيم العوائق للحيلولة دون تطبيقها.
- تطبيق الدول العربية المتوسطية لبرامج الإصلاح الهيكلى ومقررات جولة أوروجواى دعما لفرص التنمية وتشجيع التبادل التجارى العربى ونفاذ الصادرات من خلال اتفاقات المشاركة الأوروبية التى توفر «البيئة المناسبة» لجذب الاستثمار الأجنبى.

لماذا التوجه الإقليمى؟

أدى الإخفاق المتكرر لمفاوضات التجارة الدولية متعددة الاطراف التى عقدت على مستوى وزراء تجارة منظمة التجارة العالمية - التى عقدت فى سياتل بالولايات المتحدة سنة ١٩٩٩ والدوحة فى قطر سنة ٢٠٠١، وكانكون بالمكسيك سنة ٢٠٠٣ - إلى زيادة الادراك بأهمية دور التكتلات الاقليمية.

وقد اتضح أن نجاح المفاوضات التجارية متعددة الاطراف، يتوقف على توافق مصالح ١٤٧ دولة أعضاء فى منظمة التجارة العالمية حول السياسات التى تتبع والمزايا المتبادلة فيما بينهم.

وبالتالى يصعب التوصل لقاسم مشترك يجمع أطراف هذا الاطار الواسع. ولهذا يتزايد قيام وتطوير التكتلات الاقليمية.

وتتعدد وجهات النظر حول تفسير الظاهرة الاقليمية. فهى - من جهة - تعتبر مكملة لظاهرة العالمية فى التجارة وتوفر خطوة إضافية إقليمية لتحرير التجارة.

ويؤدى تأسيس مناطق التجارة الحرة الى تغييرات واسعة فى الهياكل الاقتصادية لأعضائها، تنعكس على حجم تجارتهم البينية، وتركيبها، وعلى التحول فى التجارة، وحجم تدفق الاستثمارات وحركة رؤوس الاموال.

كما تؤدى الى اعادة تقسيم العمل والتخصص فى الانتاج. وقد نتج عن التوجه الاقليمى زيادة ملموسة فى وزن وتأثير ثلاثة تجمعات إقليمية فى حركة الاقتصاد والتجارة العالمية، وهى :

- الاتحاد الأوروبى EU .
- الولايات المتحدة ومنطقة التجارة الحرة لدول شمال أمريكا NAFTA.
- تجمعات جنوب شرق آسيا.

وأصبح من الصعب النفاذ للأسواق الرئيسية فى التجارة العالمية دون التعامل والتعاون - بشكل أو بآخر - مع هذه التجمعات وأنظمتها، خاصة فى مجالات تحرير التجارة وتيسيرها.

اختيارات مصر الإقليمية :

بعد التزامها بالاندماج فى الاقتصاد العالمى ومؤسساته الدولية (الصندوق، البنك، الجات) سعت مصر لتحرير تجارتها فى إطار «إقليمى» ومواصلة دعم قدراتها الاقتصادية. وصار التوجه لإقامة مناطق تجارة حرة، واحدا من أفضل وسائل تنمية التجارة.

وتستطيع مصر أن تلعب دورا إقليميا يحافظ على مصالحها كلما تمكنت من إدارة حوار تفاوضى مع شركائها الاقتصاديين والتجاريين الاساسيين لتحقيق المصالح والتحالفات المشتركة.

فشركاء مصر على المستوى الاقليمى يتمركزون فى المناطق: العربية والأفريقية والأوروبية والأمريكية. ويتوقف ترتيب أهميتهم على نظرة مصرية أشمل من منظور التجارة تحدد الأولويات على النحو التالى :

أ - المسار العربى :

تستكمل منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى تحرير الرسوم الجمركية اعتبارا من أول يناير ٢٠٠٥. وهو ما يمكن أن يعزز العلاقات البينية العربية، ويشجع فرص الاستثمار، ويزيد من قوة المساومة الجماعية العربية تجاه التكتلات الاخرى، وداخل منظمة التجارة العالمية. ويعتبر الاستثمار أفضل ما يربط المصالح المصرية بالدول العربية وخاصة دول الخليج. فأكبر الدول التى تستثمر فى مصر هى المملكة العربية السعودية والكويت والامارات وليبيا وقطر. كما تمثل الدول العربية أكبر سوق للعمالة المصرية وأكبر مصدر لتحويلاتهم، ومصدرًا رئيسيًا للسياحة. ويتطلب الأمر تجاوز مرحلة منطقة التجارة الحرة ومواصلة تطوير العلاقات إلى مستوى الاتحاد الجمركى والسوق المشتركة والموحدة.

ب - المسار الأوروبى (العلاقات المتوسطية) :

يحتل المسار المتوسطى دائرة هامة من دوائر السياسة الخارجية المصرية. حيث ينظم إعلان برشلونة علاقات ٢٥ دولة أوروبية و١١ دولة متوسطية، منها ٩ دول عربية. ويعتبر الاتحاد الاوربى أكبر شريك تجارى لمصر. ويشغل نحو ٤٠٪ من حجم التجارة الخارجية المصرية. وتتميز عملية تحرير التجارة مع الاتحاد الاوربى بالاتى :

- تحرير صادرات مصر للسوق الاوروبى اعتبارا من يناير ٢٠٠٤، مقابل تحرير واردات مصر من الاتحاد الاوربى على فترة تمتد إلى عام ٢٠٢٠.
- يقدم الاتحاد الاوروبى مساعدات مالية إضافية لدعم وتحديث قدرات مصر الاقتصادية.

ج - المسار الأفريقى:

وترتبط مصر وعشرون دولة فى شرق وجنوب القارة باتفاق للسوق المشتركة (كوميسا



تؤدى إقامة هذه المناطق إلى ارتباط جانب هام - ومتزايد - من الاقتصاد المصرى بأداء الاقتصاد الاسرائيلى الذى يمتلك مقومات تكنولوجية متطورة فى القطاعات المطروحة



QIZ

) ألغى الرسوم الجمركية بين أعضائه اعتبارا من نوفمبر سنة ٢٠٠٠ .

د ـ المسار الأمريكى:

وتسعى مصر لعقد اتفاق تجارة حرة مع الولايات المتحدة، حرصا على علاقاتهما التجارة التى يمكن أن تتأثر سلبا بتحرير تجارة مصر باتجاه الدول العربية والإفريقية والاتحاد الأوربى. بينما تعرض الولايات المتحدة قيام مناطق صناعية مؤهلة تربط صادرات مصرية محددة من مناطق مختارة بنوع من التراكم الإقليمى للمنشأ الصناعى مع إسرائيل بشروط معينة تؤهلها للدخول بإعفاء جمركى إلى الولايات المتحدة.

محددات التعاون الاقتصادى:

تسعى مصر للانفتاح على شركائها جميعا، حيث لا يغنى احدهم عن الآخر أو يتعارض معه. وقد أكد الرئيس مبارك فى خطابه فى افتتاح الدورة البرلمانية عام ١٩٩٦ أنه لا يوجد من وجهة النظر المصرية تعارض بين مسارات التعاون مع العالم العربى والاتحاد الاوربى وأفريقيا أو الولايات المتحدة. ولهذا يتعين الاخذ فى الاعتبار المعايير التالية :

- أنه ما لم يكن لدينا مركز احتكارى فى التجارة الدولية فمن الافضل التمسك بمبادئ المنافسة الحرة وفتح الاسواق وتحرير التجارة فى الصادرات والواردات.
- يؤدى تحرير التجارة مع منطقة اقتصادية واحدة، إلى تحول التجارة تجاهها على حساب المناطق الاخرى، وعلى حساب تكلفة وجودة مدخلات الإنتاج فى مصر. والافضل تحرير التجارة مع أهم الشركاء وخفض الحماية الجمركية إلى مستويات مقبولة بالمعايير الدولية.
- يولد قيام مناطق تجارة حرة عربية أجنبية ضغطا دافعا نحو قيام منطقة تجارة حرة عربية أكثر فعالية، خشية أن تتفوق المزايا الممنوحة عربيا لأطراف أجنبية، عن تلك التى تتبادلها الدول العربية فيما بينها. علما بأن الاتفاق العربى يحظر منح مزايا لطرف أجنبى أكبر من تلك التى يتعامل بها فى الإطار العربى. ويتطلب ذلك المبادرة بإحياء أنشطة العمل العربى المشترك بالتوازى مع جهود فتح التجارة العربية مع أطراف خارج المنطقة.

وقد قطعت مصر شوطا طويلا فى تحرير سياساتها الاقتصادية. وصارت ملتزمة بصورة تعاقدية أو بإرادتها الذاتية بتحقيق تلك الاهداف فى ثلاثة مسارات:

- الانضمام إلى الجات (١٩٧٠) وبعدها لوريثتها منظمة التجارة العالمية ١٩٩٤.
- اتفاقات تحرير التجارة مع أهم الشركاء التجاريين (العرب أوروبا وأفريقيا وأمريكا).
- سياسات الاصلاح الاقتصادى الوطنى اللازمة لنجاح سياسات تحرير التجارة.



وتتدرج ترتيبات التعاون والتكامل الاقتصادى من أبسطها، المتمثلة فى منطقة التجارة الحرة، إلى الاتحاد الجمركى، وصولاً إلى المستويات الأرقى كالسوق المشتركة والموحدة والوحدة الاقتصادية. ويأخذ التكتل الاقتصادى أحد الاشكال التالية حسب قوة وعمق العلاقات التى تستهدفها أطرافه.

ويعنى ذلك أن مناطق التجارة الحرة هى الخطوة الاولى فى عملية التعاون والتكامل الاقتصادى بين أعضاء التكتل. ويتعين التفرقة بين إقامة منطقة تجارة حرة أو سوق مشتركة، وبين إقامة نظام اقتصادى متكامل وفعال. فالهدف الثانى أجدر بالتطبيق لإقامة النسق والانظمة المختلفة التى تعمل فى خدمة التنمية بجانب التجارة الحرة وتؤدى لقيام تجمع متناسق النظم والتشريعات.

المناطق الصناعية المؤهلة

وقعت كل من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل فى عام ١٩٨٥ اتفاقية لإنشاء منطقة تجارة حرة. وفى أكتوبر ١٩٩٦ وافق الكونجرس الامريكى على تعديل إضافى يخول للرئيس الامريكى سلطة إلغاء أو تعديل أى رسوم جمركية يراها ضرورية لإعفاء السلع التالية من الرسوم :

- السلع التى تنتج أو تصنع فى قطاع غزة والضفة الغربية أو فى المناطق الصناعية المؤهلة فيهما ،
- السلع التى تستورد مباشرة من الضفة الغربية وقطاع غزة وإسرائيل أو المناطق الصناعية المؤهلة التى يتفق عليها. على أن تكون قيمة المواد المنتجة فيها -بالاضافة إلى التكلفة المباشرة للعمليات التصنيعية فى تلك المناطق - لا تقل عن ٣٥ ٪ من قيمة السلعة عند تصديرها إلى السوق الامريكى.

ويوفر هذا التشريع الاطار المنظم لعمل المناطق الصناعية المؤهلة التى تتطلب توافر ثلاثة شروط لكى تتمتع منتجاتها بالاعفاء الجمركى :

- أن تشمل أراضى من إسرائيل والأردن، (أو من إسرائيل ومصر).
- تحدد السلطات المحلية تلك الاراضى كمناطق جمركية أجنبية Enclaves تدخلها مدخلات الانتاج دون سداد رسوم أو ضرائب.
- يقوم الرئيس الامريكى بإسباغ صفة المناطق الصناعية المؤهلة على هذه المناطق.

وفى نوفمبر ١٩٩٨ أصدر الرئيس الامريكى إعلانا Proclamation برقم ٦٦٥٥ يتضمن عددا من الاجراءات التنفيذية لتعديل الاتفاق الصادر عن الكونجرس، ويقرر اعفاء صادرات الضفة الغربية وقطاع غزة والمناطق الصناعية المؤهلة من الرسوم، ومعاملة السلع المستوردة من تلك المناطق كسلع مستوردة من إسرائيل مباشرة إذا توفرت فيها متطلبات محددة، ويخول قرار الرئيس الامريكى ممثل التجارة الامريكية USTR الصلاحيات الموكلة للرئيس فى شأن تحديد المناطق الصناعية المؤهلة.

ثانيا ـ المناطق الصناعية المؤهلة فى الأردن:

وقعت كل من الأردن وإسرائيل فى ١٦ نوفمبر ١٩٩٧ فى الدوحة/قطر - على هامش المؤتمر الاقتصادى الرابع لدول الشرق الاوسط وشمال إفريقيا (MENA) - اتفاقا بإنشاء المنطقة الصناعية المؤهلة بينهما فى مدينة اربد. ويحدد الملحق الثالث بالاتفاقية طبيعة هذه المناطق وخصوصيتها من حيث:

أ ـ حدود المنطقة المؤهلة :

منطقة أربد فى الأردن، وساحة قرب معبر الشيخ حسين فى إسرائيل، وتعتبر خارج النطاق الجمركى للدولة Enclaves، تدخلها البضائع دون رسوم جمركية بصرف النظر عن منشئها.

ب ـ حدود التعاون الاقتصادى :

تتولى لجنة مشتركة إسرائيلية أردنية، يشارك فيها ممثل الولايات المتحدة، تحديد ما إذا كانت المنطقة المؤهلة تمارس انشطة كافية لاعتبارها من قبيل التعاون الاقتصادى الرئيسى Substantial بين الأردن وإسرائيل الذى يتيح للسلع المنتجة فيها التأهل لدخول السوق الامريكية، بشرط مساهمة مصنع أردنى ومصنع إسرائيلى فى إضافة ثلث قيمة المنتج على الاقل.

QIZ

يعتبر الاستثمار أفضل ما يربط مصر بالعرب. فأكبر الدول التى تستثمر فيها هى السعودية والكويت والامارات وليبيا وقطر. كما تمثل الدول العربية أكبر سوق للعمالة المصرية وأكبر مصدر لتحويلاتها



QIZ

ج ـ التعاون الجمركى :

تساعد حكومتا الأردن وإسرائيل السلطات الأمريكية للتحقق من أن السلع المصدرة إلى السوق الامريكية تتوفر فيها شروط الاعفاءات الجمركية.

وفى ٢٣ نوفمبر ١٩٩٨ وقع وزيرا التجارة والصناعة الاسرائيلى والأردنى بروتوكولات إضافية تتضمن إقامة منطقة صناعية مؤهلة ثانية فى معبر وادى الأردن. وتوالت إقامة المناطق الصناعية المؤهلة بين الأردن وإسرائيل حتى بلغت ١١ منطقة.

وتتمتع صادرات المناطق الصناعية المؤهلة بالاعفاء الجمركى الكامل عند الدخول إلى السوق الامريكية بشرط أن يشكل المكون المحلى نسبة ٣٥٪ على الاقل من تكلفة المنتج أو قيمة المواد النهائية المنتجة، ويمكن استيفاء هذه النسبة وفقاً لأحد البدائل التالية :

البديل الاول :

أن يسهم مصنع مقام فى المنطقة الصناعية المؤهلة بنسبة ١١,٧٪ على الاقل من قيمة السلعة، وتسهم إسرائيل بنسبة ٨٪ (تنخفض إلى ٧ ٪ فى حالة تصدير السلع عالية التقنية)، وتستوفى باقى نسبة ٣٥ ٪ (أى ١٥,٣ ٪) من أحد المصانع المعتمدة فى المناطق الصناعية المؤهلة فى الأردن أو إسرائيل أو الضفة الغربية وقطاع غزة أو الولايات المتحدة الامريكية. أما النسبة المتبقية (٦٥٪) من قيمة السلعة فيمكن الحصول عليها من البلدين أو من أى مكان فى العالم.

البديل الثانى :

أن يسهم المصنع المقام فى المنطقة الصناعية المؤهلة بنسبة ٢٠ ٪، والمنتج الاسرائيلى بنسبة ٢٠ ٪ من التكلفة الاجمالية. أما النسبة المتبقية (٦٠٪) فتستوفى من البلدين أو من أى مكان فى العالم.

البديل الثالث :

إمكانية المزج بين البديلين السابقين بشرط الا تقل نسبة المكون الاسرائيلى فى السلع المصدرة إلى السوق الامريكية عن ٨ ٪.

وفى حين يشترط استيفاء المكون الاسرائيلى فى صادرات الأردن من المناطق الصناعية المؤهلة لتعفى من الرسوم الجمركية الأمريكية، فإن صادرات إسرائيل تتمتع بالاعفاء دون شروط مماثلة. ولهذا سعى الأردن لتوقيع اتفاق تجارة حرة مع الولايات المتحدة فى أكتوبر ٢٠٠٠ لكى تستفيد الصادرات من كل الاراضى الأردنية بالإعفاء، وليس فقط صادرات المناطق الصناعية المؤهلة.



وفقا لتقرير بنك التمويل والصادرات الأردنى (يونيو ٢٠٠٣) فقد زادت صادرات الأردن إلى الولايات المتحدة خاصة من الملابس والمنسوجات فى الفترة من ١٩٩٩ حتى ٢٠٠٢، من ٢,٤ مليون دولار إلى ٣٨٢ مليون دولار. وتمثل ١٧,٦٪ من إجمالى الصادرات الأردنية التى تبلغ حوالى مليارى دينار أردنى، بما يعكس الاعتماد المتزايد على صادرات تلك المناطق فى تجارة الأردن الخارجية، وتحول التجارة باتجاه الولايات المتحدة على حساب الشركاء الآخرين، وحصر فرص خلق التجارة فى اتجاه إسرائيل. ويبلغ حجم الاستثمارات فى المناطق الصناعية المؤهلة السبع بنهاية عام ٢٠٠٢، حوالى ٣٨٣ مليون دينار أردنى فى ٦٢.

وتتركز غالبية الاستثمارات فى قطاع الملابس والمنسوجات، ويأتى أغلبها من دول أسيوية (الصين وباكستان و تايوان وهونج كونج وكوريا وبنجلادش وسريلانكا والفلبين) رخيصة التكلفة. ومن دول عربية (الإمارات - عمان الأردن وفلسطين وعرب إسرائيل). ووفرت تلك المناطق ١٨ ألف فرصة عمل يشغلها أردنيون، وعمالة أجنبية تبلغ نحو ٥٠٠٠ عامل تمثل ٣٥٪ من إجمالى عمالة تلك المناطق.

وفى المقابل تستفيد إسرائيل من الايدى العاملة الرخيصة، ومن الاستثمارات الاجنبية، وربط الاقتصاد الأردنى بالاقتصاد الاسرائيلى ذى الإمكانيات الأكثر تقدماً من النواحى التكنولوجية بما يزيد من فرص الاعتماد عليه ويكرس التبعية له.

مصر والمناطق الصناعية المؤهلة:

تطرح الادارة الامريكية على مصر منذ عدة سنوات إنشاء المناطق الصناعية المؤهلة. وأخيرا وقعت مصر وإسرائيل والولايات المتحدة يوم ١٤ ديسمبر ٢٠٠٤ بروتوكول تجارة يتيح لصادرات مصر - من مناطق صناعية مؤهلة ومحددة Qualified Industrial Zones (QIZ) - النفاذ إلى السوق الأمريكية بإعفاءات جمركية، بشرط أن تحتوى تلك المنتجات على مكونات إسرائيلية المنشأ بنسبة لا تقل عن ١١,٧٪، مع إمكانية استخدام مكونات أجنبية من خارج الدول الثلاث المتعاقدة تصل إلى ٦٥٪.

وترى مجموعة من المصدرين المصريين المستفيدة من الاتفاق أهمية إقامة تلك المناطق للاعتبارات التالية:

- انتهاء العمل بنظام الحصص فى تجارة المنسوجات بحلول عام ٢٠٠٥. مما يزيد حدة منافسة منتجات الدول الاسيوية (الصين وبنجلادش وباكستان والهند وفيتنام) للصادرات المصرية فى السوق الامريكية. وكان نظام الحصص يوفر حماية ضمنية للمنسوجات المصرية.
- إمكانية تحول الاستثمارات الاجنبية فى قطاع الملابس من مصر لتتجه نحو الدول التى تنعم بمعاملة تفضيلية فى السوق الامريكية (الأردن) أو تتمتع بقدرة تنافسية عالية كالصين. وقد يؤدى ذلك إلى فقدان وظائف كثيرة فى قطاع الملابس الجاهزة المصرى.
- الخشية من أن التفاوض مع الولايات المتحدة حول اتفاق التجارة الحرة قد يستغرق عدة سنوات.

ومن جانب آخر يرى مستثمرون معارضون فى صناعة المنسوجات المصرية. أن إنشاء مناطق صناعية مؤهلة بالصياغة الامريكية المطروحة ينطوى على عدد من المحاذير على النحو التالى:

- تمثل صناعة الغزل والنسيج والملابس الجاهزة أهم الأنشطة وعصب الصناعة المصرية وذات حساسية وأهمية اقتصادية واجتماعية وسياسية. ويمكن وفقا لقواعد المنشأ المعروضة للمناطق الصناعية المؤهلة الاكتفاء بمكون مصرى يهبط إلى نسبة ٢٣٪، بما يعنى إمكانية الاستغناء عن المنسوجات المصرية فى صناعة الملابس فى تلك المناطق. ويمثل ذلك ضربة فى مقتل لصناعة المنسوجات المصرية.
- مخاطر ربط صادرات مصر من الملابس والمنسوجات بالسوق الامريكية وبوساطة إسرائيلية، والتمييز بين المنتجين الذين لا يستطيعون العمل وفقاً لهذا النظام، وبين المصدرين من تلك المناطق.
- تؤدى إقامة هذه المناطق إلى ارتباط جانب هام ـ ومتزايد ـ من الاقتصاد المصرى بأداء الاقتصاد الاسرائيلى الذى يمتلك مقومات تكنولوجية متطورة فى القطاعات المطروحة.
- ربط العمالة المصرية فى مجال الملابس والمنسوجات بأداء الصادرات المصرية إلى السوق الأمريكية والتعاون مع إسرائيل. والخشية من تأثر عمل هذه المناطق لأسباب سياسية أو اقتصادية.
- وجود بدائل للنهوض بقطاع الملابس والمنسوجات

QIZ

يتساءل البعض عما إذا كان من قبيل المصادفة أن الذين أسهموا فى تعطيل مسار الاتفاق الأوربى ينتمون لمجموعة المستفيدين بالاتفاق الأمريكى



QIZ

فى منطقة التجارة الحرة العربية واتفاقية المشاركة المصرية الأوروبية واتفاق الكوميسا. وكلها أسواق تسمح بنفاذ الصادرات المصرية دون رسوم جمركية أو حصص أو وساطة إسرائيلية. كما تطرح منطقة التجارة الحرة لدول إعلان أغادير إمكانية التراكم بين الدول العربية الأربع الموقعة عليه دون شرط وجود مكونات إسرائيلية.

● تثير المناطق الصناعية المؤهلة التساؤل حول مدى تمشيها مع أحكام اتفاقية الجات، حيث تعتمد على حصول الصادرات من بعض السلع على مزايا تفضيلية للنفاذ للسوق الامريكية لا يقابلها التزام.



أحيط الاتفاق بقدر كبير من الترحيب البالغ ممن يستفيدون منه، وتقديمه كطوق للنجاة لصناعة المنسوجات (التى لا يلتزم باستخدام مكوناتها فى إنتاجه المصدر للولايات المتحدة). كما لقى الاتفاق عدم ترحيب من الأوساط المعارضة له تضمنت مبالغات كثيرة حول الأبعاد السياسية، وحول دور أمريكى ضاغط على مصر لتوقيعه لحساب استفادة اسرائيلية. بينما لا تخفى مصر علاقاتها بإسرائيل والتى تشمل التجارة والسياحة والتعاون الفنى. وقد عبرت مصر عن موقف واضح يقول بـ التعاون الإقليمى فى خدمة السلام وخلق رأى عام مستفيد من هذا التعاون وبما يخلقه من مصالح تجعل أصحابها يقفون فى وجه تطرف ممارسات حكومة إسرائيل.

إلا أن الواقع يقول إن اتفاقات المشاركة الأوربية المتوسطية تشجع - أيضا - التعاون الإقليمى. ولكن بمشروطية أقل استفزازا. حيث تشترط مكونات مصرية فى الصادرات نسبتها ٦٠٪ على الأقل، واستكمالها بمكونات من منشأ الاثنتى عشرة دولة فى جنوب وشرق البحر المتوسط. بما يشمل ثمانى دول عربية بالإضافة إلى تركيا وقبرص ومالطا وإسرائيل. وبذلك لم تبتسر التعاون الإقليمى لكى يبدأ وينتهى عند إسرائيل.

لكن التوقيع على الاتفاق دون تمهيد مسرح عملياته - بالصورة التى حرصت الحكومة عليها فى الاتفاقات مع الدول العربية والاتحاد الأوربى ومع دول كوميسا - زاد من قدر التشكك فى أهدافه ونواياه. خاصة أنه يعقد مع دولة لها تاريخ طويل فى العداء لمصر والعرب والفلسطينيين. قبل أن نعقد معها معاهدة للسلام. ولا يخفى قادتها الآن نواياهم فى تعطيل مسيرة السلام.

وعلى النطاق الفنى والاقتصادى فقد قدم الاتفاق على أنه بديل يساهم فى حل عدة معضلات:

الأولى تتعلق بكيفية تخطى مشكلة انتهاء نظام حصص المنسوجات. رغم أن انهاء نظام الحصص كان معروفا من أكثر من عشر سنوات مع انتهاء مفاوضات جولة أورجواى على الأقل عام ١٩٩٤، وتواجهه كل دول العالم النامى.

والثانية تتعلق بالرغبة فى عقد اتفاق للتجارة الحرة مع الولايات المتحدة بالتوازى مع الاتفاق الأوربى، تحاشيا لتحول تجارة مصر فى الاتجاه الأوربى. ويتساءل البعض عما إذا كان من قبيل المصادفة أن الذين أسهموا فى تعطيل مسار الاتفاق الأوربى ينتمون لمجموعة المستفيدين بالاتفاق الأمريكى.

غير أن أهم ما وجه للاتفاق من نقد فنى يدور حول الآتى :

١- قبول مصر برفض الولايات المتحدة غير المبرر لعقد اتفاق للتجارة الحرة، فى الوقت الذى وقعت اتفاقات مماثلة مع إسرائيل والمكسيك وكندا والأردن والبحرين والمغرب. فما العيب فى مصر التى تعتبر عامل التوازن ورائدة جهود السلام فى المنطقة.

٢- يتحيز الاتفاق لصالح إسرائيل ضد كل صناعات المنطقة. فالسلعة التى يمكن انتاجها بمكونات مصرية وعربية لا تستفيد بالإعفاء الأمريكى. وحتى السلعة التى تصنع من مكونات مصرية مائة بالمائة لا تستفيد من هذا الإعفاء.

٣- ستمنح مصر شهادة منشأ مصرية لصادراتها إلى السوق الأمريكية إذا انتجت بمكونات غير مصرية تصل إلى نسبة ٦٧.٧٪ (تمثل حاصل جمع المكون الإسرائيلى والمكون الأجنبى). وإذا توفرت صادرات مصرية تتضمن مكونات وطنية تصل إلى ٨٨.٣٪ واستكملت بمكونات من دول منطقة التجارة الحرة العربية بنسبة ١١.٧٪، فلن تتمتع بالإعفاء الأمريكى ما لم تتضمن ١١.٧٪ من المكونات الإسرائيلية حتى وإن لم يكن للمكونات الإسرائيلية أى لزوم.

٤- وإذا استطاعت الصناعة المصرية إنتاج ملابس بمكونات مصرية بنسبة ١٠٠٪، فلن تتمتع بالإعفاء الجمركى الأمريكى ما لم تستخدم نسبة ١١.٧٪ على الأقل من المكونات الإسرائيلية.

٥- ويعنى ذلك أن مصر وقعت على اتفاق تمنح بمقتضاه مزايا للمكونات ذات المنشأ الإسرائيلى تعلو تلك التى تمنحها للسلع والمكونات ذات المنشأ العربى. بل وتعلو على أفضلية المكونات ذات المنشأ المصرى. وأصبح للمكونات الإسرائيلية وضع الشرط المانع للتصدير للولايات المتحدة. وربما يتعارض ذلك مع التزام مصر فى منطقة التجارة الحرة العربية الشاملة والذى ينص على عدم جواز منح مزايا لأطراف أجنبية تتفوق على تلك المتبادلة فى الإطار العربى.

٦- يعكس الاتفاق تناقضا فى الموقف المصرى من قواعد المنشأ فى كل من الاتفاقين العربى والأوربى. فتلك الاتفاقات تتطلب استخدام أقمشة مصرية كشرط لاعتبار منشأ الملابس من مصر. وتتمسك مصر عربيا وأوربيا بهذا الشرط حفاظا على صناعة المنسوجات. لكنها قلبت فى الاتفاق الإسرائيلى بإكساب صفة المنشأ لملابس مصنوعة فى مصر من أقمشة غير مصرية. فكيف ستفسر ذلك للدول العربية التى طالبت بمعاملة مماثلة.

ورغم كل ذلك فربما كان من الممكن القبول بالاتفاق من منطلق :

● أن المفاوض المصرى مع إسرائيل وأمريكا قبل بالصفقة كأحسن عرض (متاح)، ولدينا الثقة فى أن القرار السياسى قد يرى ما لا نراه، بحكم فارق المعلومات.

● أن الصفقة تمثل عرضا يفيد فئة من مصانع الملابس المصرية التى لا تستخدم المنسوجات الناشئة فى مصر. وأنها تتم فى سياق التعاون الإقليمى الذى يشجع قوى معينة فى إسرائيل على التعاون الاقتصادى مع جيرانها كبديل للعدوان واحتلال الأراضى.

لكن الأمر يتطلب التأكد من عدم التوسع فى هذا النوع من الاتفاقيات لما يفرضه من ارتباط غير مبرر بالصناعة الإسرائيلية. ولأنها تسمح بصناعة ملابس لا تستخدم منسوجات مصرية. ولأن مصر تستحق معاملة أفضل من الصديق الأمريكى. ■

درجة التكامل	إجراءات التكامل
١. منظمة التجارة العالمية	● تكفل لأعضائها المعاملة وفقا لشرط الدولة الأولى بالرعاية. حيث تحصل الدولة العضو على أفضل معاملة تتبادلها الدول الأعضاء عدا الاستثناءات التى تشمل المزايا المقدمة للتجمعات الإقليمية وغيرها.
٢. منطقة تجارة حرة	● توفر حرية انتقال السلع بين الاعضاء دون رسوم أو قيود، وتحتفظ كل دولة عضو بتعريفتها الجمركية المستقلة تجاه الدول غير الاعضاء
٣. اتحاد جمركى	● يضاف لما سبق إزالة القيود الجمركية بين الدول الاعضاء مع إقامة جدار جمركى موحد فى مواجهة الدول الاخرى، وتفرض تعريفة جمركية مشتركة تجاه الاطراف غير المتعاقدة.
٤. سوق مشتركة	● تشمل كل الخطوات السابقة، بالاضافة لتحرير الخدمات وحركة الافراد ورأس المال، وتبنى سياسات تجارية ومالية مشتركة.
٥. وحدة اقتصادية ونقدية:	● تجمع بين إلغاء القيود وتنسيق السياسات الاقتصادية، وترتيبات تسهيل المدفوعات بإحلال عملة موحدة محل العملات الوطنية، وإيجاد سلطة عليا تدير الاقتصاديات المتكاملة فى كيان واحد.

تحت القبة وهم!!

رءوف عباس





رءوف عباس أحد أبرز المؤرخين المعاصرين المهمومين بآلام الوطن وآماله، انتمى إلى مدرسة حولت دراسة التاريخ من مجرد سرد لوقائع وأحداث إلى اشتباك مع الماضى لصالح الحاضر والمستقبل ومن عرض لتاريخ الحكام ودهاليز السلطة إلى بحث دءوب عن دور للمواطن العادى.

عباس الذى ارتبط بالجامعة لمدة تزيد على ٤٠ عامًا عمل خلالها معيدًا ثم أستاذًا ورئيسًا لقسم التاريخ بجامعة القاهرة، ولد عام ١٩٣٩ لأسرة فقيرة وحصل على الدكتوراة عام ١٩٧١ وبعد عام واحد سافر إلى اليابان فى مهمة علمية ليكون أحد أهم الأكاديميين العرب الذين لفتوا الانتباه إلى المجتمع اليابانى. لم يقتصر دور رءوف عباس على العمل الأكاديمى بل عمل على نقل المعرفة التاريخية إلى المواطن العادى، من خلال نشر المقالات والدراسات فى الصحف، كما رأس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. أصدر مؤلفات مهمة عديدة فى التاريخ المصرى الحديث وتاريخ اليابان، كما ترجم العديد من الكتب التى أثرت المكتبة العربية، وأخيرا كتب عباس سيرته الذاتية. وهنا أحد فصولها.

■■ كانت الجامعة عند صاحبنا حلمًا ورديًا، بعد أن قُدر له أن يكون من طلابها، وكانت صورة الجامعة عنده هى تلك التى عرفها فى آداب عين شمس: الاهتمام بتكوين الطلاب علميًا، ورعايتهم. كان مثله الأعلى أحمد عبد الرحيم مصطفى الأستاذ القدير الذى يصادق تلاميذه، وأحمد عزت عبد الكريم الذى يعامل تلاميذه معاملة الأبناء، ويرعاهم، ويوفر الحماية لهم، حقًا كانت هناك نماذج أخرى مختلفة إلا أنها كانت خروجًا على القاعدة، فقد كان أساتذة عين شمس - عندئذ - يحرصون على أن يرقوا بمستوى خريجيهم، فى تنافس واضح مع جامعتى القاهرة والإسكندرية.

وعندما داعبت صاحبنا أحلام الانتماء إلى هيئة التدريس بالجامعة، كانت صورة المناخ العلمى بآداب عين شمس هى النموذج الذى يتوقع وجوده بالجامعة، ولكن التحاقه بقسم التاريخ بآداب القاهرة، وما واجهه من مناخ مغاير تمامًا، هز صورة الجامعة عنده، فاهتمامات الأساتذة فى جلساتهم الخاصة بالنميمة، وتناقل أخبار «معسكر الأعداء» داخل القسم هى السائدة. أما القضايا العلمية والمنهجية، فلم يجدها إلا فى مجلس محمد أنيس، وكان ذلك نادرًا.

كذلك أدى استوزار أساتذة الجامعات، والتركيز على جامعة القاهرة فى هذا الصدد، إلى تآكل استقلال الجامعة، نتيجة تملق أعضاء هيئة التدريس للسلطة، وقبولهم لما فرضه القانون الخاص بالجامعات من ضوابط قيدت الحريات، وأخضعت الجامعة لسلطان أجهزة الأمن، فكان مدير إدارة الأمن بوزارة التعليم العالى يمارس نفوذًا على الجامعات يفوق سلطات الوزير نفسه، وتسابق المنافقون لتملقه، فهو الذى يملك السماح لهذا بالسفر، وتعطيل سفر ذاك، ويملك تبديد فرصة الإعارة لمن يشاء. وبلغ التملق ذروته عندما حصل الرجل على درجة الدكتوراة من إحدى كليات الآداب، وتكرر نموذج «دكترة» مدير أمن التعليم العالى، بل ومديرى أمن الجامعات.

هان الأساتذة على السلطة، عندما هانت عليهم أنفسهم، فلم يستطع الحريصون على استقلال الجامعة وتقاليدها تنظيم حركات احتجاجية على ما يجرى للجامعة. وإذا كان هذا المناخ لم يكن محسوسًا بآداب عين شمس، فليس معنى هذا أن جامعة عين شمس سلمت من هذا التلوث، فسرعان ما انتقلت إليها العدوى بعد تشكيل الاتحاد الاشتراكى. وبدأت منذ ذلك الحين تظهر حمى التنافس فى غير المجال العلمى. فتملق قيادات التنظيم السياسى، والتطوع للتعاون مع أجهزة الأمن (كتابة التقارير عن الزملاء) كانت الطريق التى سلكها الانتهازيون للحصول على المكافآت: مناصب المستشار الثقافى بالسفارات المصرية بالخارج، ومناصب الهيئات الدولية، وانتظار «حلول الدور» لتولى منصب «الوزير».

❦

وبلغ تملق أعضاء هيئة التدريس للسلطة مداه فى عصر السادات، فعُدلت قواعد القبول بالجامعات لتسمح لحملة الـ GCE وهى شهادة التعليم العام البريطانية التى تعادل الإعدادية (من حيث المستوى العام) حتى يتسنى لزوجة الرئيس وبناتها الالتحاق بالجامعة، فكانت الآداب وجهتهن، وكال الأساتذة الدرجات لهن، وكانت رسالة الماجستير التى تقدمت بها زوجة الرئيس، فصلاً محزنًا فى تاريخ الجامعات المصرية. أُذيعت المناقشة كاملة بالتليفزيون المصرى، وأُعيدت إذاعتها مرة أخرى، فقد حضرها الرئيس. وجاء على لسان أحد أعضاء اللجنة (بعد أن ألقى قصيدة مدح من نظمه) أن الرسالة تستحق عن جدارة درجة الدكتوراة وليس الماجستير، ونعى على القانون قصوره فى هذه الناحية، واضطرت سهير القلماوى أن تتدارك الموقف، وتفسر ما قاله الأستاذ المنافق بأنه شكل من أشكال التعبير عن الإعجاب بالرسالة.

كانت جيهان السادات بعد تخرجها بامتياز قد عُينت معيدة بقسم اللغة العربية، وكانت تدرس مادة اللغة العربية لطلبة الفرقة الأولى بقسم اللغة الألمانية وتخصصت إحدى عضوات هيئة التدريس (وكانت بدرجة أستاذ مساعد) من قسم اللغة الألمانية فى استقبالها عند حضورها إلى الكلية، وإعداد القهوة لها بنفسها، وكوفئت بعد ذلك على هذه «المهمة الوطنية» بتولى منصب المستشار الثقافى بسفارة مصر بألمانيا. وتسابق أعضاء هيئة التدريس فى تقديم الالتماسات إلى المعيدة «السيدة الأولى» فهذا يطلب تعيين ابنته فى وظيفة مهمة، وذاك يطلب «شقة» لكل من ولديه، إلى غير ذلك من طلبات، وتولى بعض أساتذة قسم اللغة العربية التدريس لها فى منزل الرئيس، وكوفئ منهم من كوفئ بمناصب المستشار الثقافى، والمراكز الرئيسية فى حزب السلطة، ولكن ذلك لا يبلغ ما بلغته مكافأة عميد الكلية الذى صعد إلى منصب نائب رئيس الجامعة، ثم كان أول رئيس لمجلس الشورى، وكوفئ رئيس الجامعة بتوليه رئاسة مجلس الشعب.

وعندما حصلت جيهان السادات على

صفحات من كتاب:
«مشيناها خطى - سيرة ذاتية»
رءوف عباس
دار الهلال: ٣٣٦ صفحة، ٢٠٠٤

الماجستير عُينت مدرساً مساعداً، وكان الإجراء المتبع فى الجامعات المصرية تطبيقاً لقانون الجامعات هو اعتماد الدرجة العلمية بمجلس القسم ومجلس الكلية، ثم اتخاذ قرار التعيين بالجلسة التالية (بعد شهر)، ولكن تم تغيير الإجراء فى الجامعة كلها، فأصبح اعتماد الدرجة يتم فى البند الأول من جدول أعمال المجلس، ثم يتم التعيين فى البند الأخير بنفس الجلسة، وأصبحت تلك البدعة الإجرائية هى الإجراء المتبع حتى اليوم فى تعيين المدرسين المساعدين والمدرسين.

ولعل جيهان السادات لم تطلب ذلك، فأغلب الظن أنه جاء بمبادرة من جانب العميد، أقرها رئيس الجامعة، ولا أدل على ذلك مما لقيه العالم الجليل حسن حنفى من تنكيل الرجلين (العميد ورئيس الجامعة) به لمجرد اعتراضه على حصول جيهان السادات على درجة «ممتاز» فى الليسانس، واحتجاجه على فساد ذمم من كالوا لها الدرجات، فتأخرت ترقية الرجل (رغم أن تقرير اللجنة العلمية أوصى بترقيته عن جدارة) حتى رحل عميد الكلية ورئيس الجامعة ليتربعا على مقاعد المجلسين النيابيين. فقام الدكتور إبراهيم بدران بعرض التقرير على مجلس الجامعة، بعدما أفهمه بعض الشرفاء من أساتذة الجامعة حقيقة الموقف. وشتان بين هذا الرجل وسلفه، فقد كان عالمًا جليلاً منصفاً، لا يخشى فى الحق لومة لائم.

ولم يكن الأخذ بمبدأ انتخاب العميد (الذى نص عليه قانون تنظيم الجامعات وأُلغى فيما بعد) أداة فعالة للإصلاح ولتمتع أعضاء هيئة التدريس بحق اختيار رئاستهم العلمية. يرجع ذلك إلى النص على أن يختار رئيس الجامعة من بين الثلاثة الأول من يعين عميداً. ولم يُنص على مبدأ الترشيح، بحيث يتقدم من يرغب فى ترشيح نفسه للعمادة بطلب بهذا المعنى، فتكون هناك فرصة لأعضاء هيئة التدريس للاطلاع على برنامج كل مرشح والمفاضلة بين المرشحين حسب تاريخهم الشخصى، وما يمكن أن يؤديه كل منهم للكلية، وقيل فى تبرير ذلك أن الترشيح سيؤدى إلى تراشق المرشحين بالكلمات وكشف عورات كل منهم أمام أعضاء هيئة تدريس الكلية، مما يجعل موقف من يقع عليه الاختيار ضعيفاً. واقتصر على أن يشترك أعضاء مجلس الكلية والأساتذة فقط من غير أعضاء مجلس الكلية فى اختيار العميد. أى أن القاعدة العريضة من أعضاء هيئة التدريس (المدرسون والأساتذة المساعدون) لا صوت لهم فى ذلك الانتخاب.

ولكن كان من يرغب فى المنصب يتصل بهذه الدائرة المحدودة من أصحاب الأصوات فرداً فرداً، ويعد هذا بأن يستبعد فلانًا من بين من يختارونهم لمنصب الوكيل (لأن صاحب الصوت على خصومة معه)، أو يعد شخصاً بعينه (قد يكون صاحب الصوت أو من يزكيه للمنصب) ليصبح أحد الوكيلين. ووصل الأمر إلى حد زيارة البيوت، وطلب القسم على المصحف للتأكد من الحصول على الأصوات. وهى مهزلة بكل المعايير لا علاقة لها بالديمقراطية من قريب أو بعيد. فقد كان من له حق التصويت أن يختار ثلاثة أسماء من بين القائمة التى تضم أسماء أساتذة الكلية حسب أقدميتهم، ثم تُحصر الأصوات، ليكون هناك فى النهاية ثلاثة أسماء يُبين أمام كل منها عدد ما حصل عليه من أصوات، وتُرتب أسماء الفائزين ترتيباً تنازلياً (أول. ثان. ثالث) ثم تُرسل لرئيس الجامعة ليختار واحداً منهم ويصدر القرار بتعيينه، وهو (عادة) يختار من لا يعترض الأمن على اختياره.

فقد كانت لأجهزة الأمن الكلمة العليا فى الترشيح للمناصب الإدارية الجامعية عامة، ومنصب العميد خاصة، نظراً لأهمية منصب العميد فى تحديد أسلوب التعامل مع الطلاب، و«طبخ» انتخابات اتحاد الطلاب على مستوى الكلية التى كانت دائمًا قضية «أمن» بالدرجة الأولى. لذلك وقع اختيار رؤساء الجامعات - فى بعض الحالات - على من جاء فى الترتيب الثالث وحصل على أصوات لا تزيد على ١٠٪ من مجموع أصوات الناخبين، ناهيك عن حرص المتطلعين إلى المنصب على حسن تقديم أنفسهم للأمن (من خلال من لهم صلة بالأمن من مؤيديهم). ولما كان منصب العميد بداية الصعود إلى مناصب القيادة بالجامعة (نائب الرئيس والرئيس) وهى مناصب لا ينالها إلا من لا يعترض عليه الأمن، فقد كان معظم العمداء المنتخبين يبنون علاقة «حميمة» مع أجهزة الأمن، تبدأ بحسن الأداء فى عملية «طبخ» انتخابات اتحاد الطلبة، والاستجابة لطلبات الأمن بهذا الخصوص لمنع طلاب بعينهم من الترشيح، وهنا تتجلى قدرات العميد الهمام، فيحيل الطلاب (الذين يطلب الأمن إبعادهم) إلى التحقيق بأى تهمة، ولتكن تهمة «الإخلال بنظام الدراسة» هى أبرز تلك التهم، ويمتد التحقيق إلى انتهاء موعد الترشيح، وحبذا لو استمر إلى ما بعد الانتخابات، ثم توقع على الطلاب عقوبات تافهة بعد أن ينتهى الغرض الذى حولوا للتحقيق من أجله.

أما العميد «العقر» الخادم المخلص للأجهزة الأمنية، فيوحى إلى أعضاء هيئة التدريس بالإعلان لطلابهم أنه لن تكون هناك محاضرات يوم الانتخابات، فإذا امتنع أحدهم عن القيام بذلك، فهناك عشرات من زملائه يتمنون رضا العميد عنهم لتسهيل مصالحهم الشخصية، وتكون النتيجة عدم وجود الحد الأدنى من الناخبين يوم الانتخاب، مما يعطى الحق القانونى للعميد الهمام أن يعين أعضاء اتحاد الطلبة. وقائمة الأمن جاهزة دائماً.





بلغ تملق أعضاء هيئة التدريس للسلطة مداه فى عصر السادات، فعُدلت قواعد القبول بالجامعات حتى يتسنى لزوجة الرئيس وبناتها الالتحاق بالجامعة



فإذا رفض العميد الاستماع إلى «النصائح الملزمة» التى يقدمها له رجال الأمن، فإنه بذلك يغامر بمستقبله الإدارى، فعليه ألا يتوقع ترشيحه لمنصب رئيس الجامعة الذى يضعه كل عميد نصب عينيه أثناء أدائه لعمله، كما أن مطالب الكلية - فى عهده - لن تلقى استجابة من رئيس الجامعة (إذا لم يكن على شاكلة إبراهيم بدران)، فلا يستجيب رئيس الجامعة لطلاب الكلية فى المسائل المالية والإدارية، وتتعثر قرارات مجلس الكلية فى الاعتماد من رئيس الجامعة أو من مجلس الجامعة.

فإذا أصبح العميد نائباً لرئيس الجامعة، وضع نصب عينيه التربع على «الكرسى الكبير» أى رئاسة الجامعة، فيزيد من إبراز «ولائه» لأجهزة الأمن بتقديم «خدمات» عامة أو خاصة فى مجال اختصاصه، ولكن الأمل الأكبر هو «الكرسى العالى» أى الوزارة، التى تتطلب تحركات من نوع آخر خارج الجامعة، مع المتنفذين من رجال حزب الحكومة، ومع من يتيح له قربه من الرئيس اقتراح بعض من يُختارون لمناصب الوزارة.

أما اختيار رئيس الجامعة فيتم من خلال تزكية أجهزة الأمن لأحد المرشحين الثلاثة الذين يتقدم وزير التعليم العالى بأسمائهم إلى الرئيس، وأحياناً يأتى القرار بتعيين شخص لم يرد اسمه بين المرشحين، كما حدث عند تعيين أحد رؤساء جامعة القاهرة، لذلك كان رئيس الجامعة أحرص الجميع على التفانى فى خدمة أجهزة الأمن، ولا يرفض لأحد من كبار ضباطها طلباً «شخصياً»، وتجاوز أحدهم حدود إبداء الولاء للأمن بعدم تطبيق القاعدة القانونية التى جرى اتباعها، وهى بقاء من يتولى منصباً إدارياً من الأساتذة فى ممارسة أعمال منصبه حتى نهاية العام الدراسى (آخر يوليو) فى حالة بلوغه سن الستين قبل هذا التاريخ. فقام رئيس جامعة القاهرة بتعيين عميد للتجارة بديلاً للعميد القديم فور بلوغه الستين (فى منتصف العام الدراسى) لأنه رفض طلب الأمن الذى أبلغه له رئيس الجامعة بالعمل على استبعاد مجموعة من الطلاب من الترشيح لانتخابات اتحاد الطلاب، ولما نبهه رئيس الجامعة إلى أنه «موظف حكومى» وأن عليه أن يطيع «أوامر الحكومة»، رد عليه الرجل بأنه «أستاذ جامعى - أولاً وأخيراً - وأن ضميره لا يسمح له بأن يتردى إلى هذا المستوى فى التعامل مع طلابه».

نفس رئيس الجامعة طلب من عميد الآداب فى اليوم الأول لتوليه منصبه رفع اسم أحد أساتذة قسم التاريخ (وكان رئيساً سابقاً للقسم) من جدول التدريس بمرحلة الليسانس، ولما كان قرار تعيين ذلك العميد أول ما اتخذه الرئيس الجديد من قرارات



فقد وعده خيرًا، وعندما اطلع صاحبنا على طلب رئيس الجامعة (وكان صاحبنا وكيلاً للدراسات العليا) حذر العميد من التورط فى هذا العمل غير القانونى، لأنه لا يجوز وقف عضو هيئة تدريس عن العمل إلا بناء على قرار سلطة التحقيق فى حالة ارتكابه مخالفة جسيمة من تلك المنصوص عليها بالقانون. ولما كان الأستاذ المطلوب رفع اسمه من جداول الدراسة يتعرض بذلك للوقف عن العمل دون مبرر، فإن ذلك يعرض العميد نفسه للمتاعب من جانب أعضاء هيئة التدريس بالكلية، كما أنه يعطى للأستاذ المعنى الحق فى مقاضاته شخصياً، لأنه يتحمل وحده وزر منع زميله من العمل دون أن يكون هناك قرار رسمى مكتوب من رئيس الجامعة بهذا الصدد.

وقع العميد الجديد فى حيص بيص، ثم اقترح على صاحبنا وزميله (وكيل شئون الطلاب) أن يصحباه لمقابلة رئيس الجامعة وتسوية الأمر معه، وذهب ثلاثتهم إلى المكتب الذى كان غاصا بالمهنئين. فطلب صاحبنا من رئيس الجامعة أن ينتحى بهم جانبًا لأمر مهم، وعندما استجاب الرجل، سأله صاحبنا عن أسباب طلب منع الأستاذ إياه من التدريس، فأجاب رئيس الجامعة: «ده عامل قلق للدولة المصرية» فقال صاحبنا: «هل رسب عنده أحد أبناء أو بنات مسئول أمنى؟»، فرد الرئيس «طب ما أنت عارف أهو.. أنا قلت ما يدرسش يعنى ما يدرسش» قال صاحبنا للرئيس: «سيادتك تجلس الآن على كرسى أحمد لطفى السيد، مدير الجامعة الذى رفض المساس باستقلالها، ولا يجب أن تقدم على تصرف مخالف للقانون». فقال: «ما وجه المخالفة للقانون»، فشرح له حكم القانون فى وقف عضو هيئة التدريس عن العمل. ونصحه باستشارة المستشار القانونى للجامعة (وكان عميدًا لكلية الحقوق)، فإذا أيد موقفه، فعليه أن يصدر قرارًا مكتوبًا يوجه لعميد الكلية للعمل بموجبه، وانصرف الثلاثة، واتصل رئيس الجامعة بالعميد فى صباح اليوم التالى، ليعلمه بعدم وجود داع لرفع اسم الأستاذ من الجدول، وأن يبقى الحال كما هو عليه. وهذه الواقعة بالغة الدلالة على مدى تفانى بعض رؤساء الجامعات فى إرضاء نزوات كبار ضباط الأمن.

ولعل أبرز دليل على اختلال معايير اختيار رؤساء الجامعات، ما اكتشفه صاحبنا بعد عدة شهور، من أن نفس رئيس الجامعة الذى ذكره بأنه يجلس على كرسى أحمد لطفى السيد، لم يكن يعرف من هو أحمد لطفى السيد الذى كانت قاعة اجتماعات مجلس الجامعة تحمل اسمه!

فقد كان صاحبنا عضواً بلجنة موسعة شكلها رئيس الجامعة للإعداد لاحتفالية ضخمة بالعيد التسعين لجامعة القاهرة، ضمت معظم عمداء الكليات ونواب رئيس الجامعة وبعض وكلاء الكليات، وبعض الأساتذة الذين لتخصصاتهم علاقة بالاحتفالية، وكانت اللجنة تنعقد مرة كل أسبوعين برئاسة رئيس الجامعة لمدة عام دراسى كامل، فقد كان رئيس الجامعة حريصًا على أن يجعل من المناسبة «حملة علاقات عامة» يروج فيها لنفسه تطلعاً إلى «الكرسى الكبير» (الوزارة). وفى أحد تلك الاجتماعات كان صاحبنا يعرض على اللجنة قائمة كُلف بإعدادها عن رؤساء الجامعة السابقين ليتم تكريم الأحياء منهم بهذه المناسبة وتكريم ذكرى من رحلوا منهم، وكانت هناك نسخة من القائمة بيد كل عضو من أعضاء اللجنة يتصدرها اسم «أحمد لطفى السيد» تليه أسماء من تولوا رئاسة الجامعة بعده، وقد سبقت أسماءهم المختصر الدال على «أستاذ دكتور (أ. د)»، ففوجئ صاحبنا برئيس الجامعة يستوقفه ويقول: «لقد وجدنا غلطة لفلان بك.. من فضلكم ضعوا أ. د. أمام اسم أحمد لطفى السيد»، فإذا بالكل يشرعون أقلامهم ويضعون الإضافة، مما أصاب صاحبنا بالانزعاج، فقد يكون رئيس الجامعة يجهل أحمد لطفى السيد، فهل شاع الجهل بين العمداء والوكلاء ونواب الرئيس، والأعضاء من الأساتذة، أم أنه النفاق؟ واعترض صاحبنا بقوله: «يا ريس، أحمد لطفى السيد لم يحمل الدكتوراة، ولم يحصل على درجة الأستاذية، فقد كان أعلم ممن حملوا الدكتوراة، وكان أستاذًا لأجيال متعاقبة من المصريين»، فضحك الرئيس (وضحك لضحكه الجميع)، وقال موجهاً الكلام لصاحبنا: «يعنى عملوه مدير جامعة لأن ما كانش عندهم غيره»!!! ولا تعليق.

استن النظام منذ عهد السادات سنة قُدر لها أن تدوم، وهى اختيار عناصر منتقاة معروفة بولائها للنظام أو محسوبة على أحد أركانه لتتولى رئاسة كل مؤسسة من القطاع العام إلى الوزارات إلى الجامعات، واعتبار معيار الولاء هو المحدد الأساسى فى الاختيار، وترك كل من يتولى أمر مؤسسة يديرها وكأنها «عزبته» الخاصة، يفعل بها ما يشاء دون حسيب أو رقيب، بل لم يعد للأجهزة الرقابية تلك الهيبة التى كانت لها قبل عهد السادات، فالعبرة برسوخ أقدام المسئول، وقوة الشخصية التى يستند إليها، أو يُعد من محاسيبها. وانعكس ذلك على اختيار رؤساء الجامعات فى معظم الحالات فإذا أفلت أحد ممن اختير رئيساً لجامعة من تلك المواصفات، وأوقف جهده لإصلاح شأن الجامعة دون اعتبار لضغوط أجهزة الأمن ومحاسيب النظام، كان عرضة للإزاحة من منصبه، كما حدث مع محمد محمود الجوهرى الذى كانت عمادته لكلية الآداب عهد إصلاح وإعادة هيكلة الأداء الأكاديمى بالكلية، وعندما أصبح نائب رئيس جامعة القاهرة لشئون فرع الفيوم، حمل على عاتقه - بأمانة - مهمة استكمال منشآت الفرع ووضع هيكله الأكاديمى، وعندما أصبح رئيساً لجامعة حلوان، قدم نموذجاً يحتذى لبناء جامعة من بين كليات ومعاهد متناثرة، ويضع هيكلها الأكاديمى، ويدعم هيئة التدريس بأكثر العناصر كفاءة، ويكمل منشآت الجامعة بأنسب الشروط فى زمن أصبح الفساد فيه هو القاعدة والمصلحة العامة هى الاستثناء. ولكن أداء الجوهرى كان «نشازًا» وسط جوقة أصحاب «العزب»، فتناهشته الذئاب، وأزيح عن منصبه لعجزه عن إرضاء مصالح ونزوات صُنّاع الفساد.





كانت جيهان السادات قد عينت معيدة، وتخصصت إحدى عضوات هيئة التدريس فى استقبالها عند حضورها إلى الكلية، وإعداد القهوة لها، وكوفئت على هذه «المهمة الوطنية» بتولى منصب المستشار الثقافى المصرى بألمانيا



ولم يكن أسلوب اختيار القيادات الجامعية وحده أبرز مظاهر الفساد الجامعى الذى بدأ مع عهد السادات، وترعرع بعده واستشرى واستوحش، فقد ابتدعت فى العقدين الأخيرين من القرن العشرين آليات للفساد هى: دعم الكتاب الدراسى والصناديق الخاصة، ولجان الممتحنين.

ودعم الكتاب الجامعى يبدو أمرًا إيجابيًا وحيويًا، وخاصة أن النظام قد قطع شوطًا طويلاً فى إلغاء الدعم على السلع التى يستهلكها السواد الأعظم من الشعب، فالإبقاء على دعم الكتاب الجامعى يُعد - من هذه الناحية - استثناءً إيجابيًا، غير أن تمويل دعم الكتاب الجامعى تقدمه هيئة المعونة الأمريكية، وهى - على أرجح الأقوال - صاحبة الفكرة، تتخذها سلاحاً ذا حدين، تهدئة الأمور بين الطلاب لمصلحة النظام، فيكون دعم الكتاب - على هذا النحو - بمثابة صمام الأمان، وإثارة المتاعب للنظام - من ناحية أخرى - فى حالة التوقف عن تمويل دعم الكتاب الجامعى فجأة كسلاح للضغط السياسى.

على كلٍ، مبدأ دعم الكتاب الجامعى له جانبه الإيجابى، وخاصة إذا وصل الدعم لمستحقيه، ولكن ما يحدث فعلاً هو تحديد عدد محدد من الكتب تُعطى للطلاب بنسبة تخفيض عالية، يتم اختيارها بما يخدم مصالح أساتذة بعينهم فى كل قسم لضمان توزيع كتبهم فى زمن قصير، وتحصيل عائدها المادى، هذا فضلاً عن الحالة المتردية التى وصلت إليها الكتب الجامعية (فى معظمها) من حيث المحتوى وأسلوب المعالجة، والتخلف عن مواكبة الجديد فى التخصص، واتخاذها سبلاً للتكسب على حساب

طلاب طحنتهم وذويهم الأزمة الاقتصادية. ويجد الطالب نفسه مضطرًا لشراء كتاب لا نفع فيه بسبب الأساليب الدنيئة التى يتبعها معظم أعضاء هيئة التدريس لضمان تصريف الكتب والمذكرات، بل أصبح بعضهم يبيع المذكرة، ثم ملحقًا لها يضم بعض الأسئلة النموذجية وإجاباتها، ثم يطرح للبيع قبل الامتحان ملخصًا للمذكرة التى تعد - فى حد ذاتها - عرضًا ملخصًا للمادة، وترتب على ذلك انحطاط المستوى الدراسى بالجامعة من ناحية، وخلل العلاقة بين الأستاذ والطالب من ناحية أخرى، حين يتحول الأستاذ إلى شخص يتطلع إلى ما فى جيوب تلاميذه، ولا يعنيه أمر ما قد يكون فى عقولهم.

ولو كانت المصلحة العامة هى المعيار، لاستخدم دعم الكتاب الجامعى فى تحسين مستوى التأليف، والتشجيع على التأليف الجماعى لمراجع معتمدة فى المقررات الدراسية، مقابل مكافأة محددة، على أن يتولى قسم النشر بالجامعة (المطبعة) نشر تلك الكتب وبيعها بأسعار معتدلة، كما يمكن أن يتم تزويد مكتبة الكلية بنسخ كافية منها ليستعيرها غير القادرين على اقتناء الكتب.

والبدعة الثانية «الصناديق الخاصة» لا تقل أهمية عن دعم الكتاب الجامعى من حيث الشكل، ولكنها أكثر فسادًا من حيث المضمون، فلما كان التعليم مجانيًا بجميع مراحله وفقًا للدستور، اخترع المجلس الأعلى للجامعات مبدأ أن يكون بكل كلية «صندوق خاص» يتم تمويله من مبالغ إضافية يدفعها كل طالب إلى جانب الرسوم المحددة بحكم القانون. وأطلق العنان لتحديد المبالغ الإضافية التى قد تصل إلى ما يتراوح بين ٣٠ - ٥٠ ضعفًا من قيمة رسوم القيد. ووزعت هذه المبالغ بشكل يضمن حصول إدارة الجامعة على حوالى الربع وتحتفظ الكلية بالباقى الذى يصل إلى ما يقرب من عشرة ملايين جنيه فى الكليات ذات الأعداد الكبيرة، من المفروض أن تُصرف على الخدمات التعليمية، أى توفير ما تحتاج إليه الكلية من وسائل تعليمية وأجهزة وأدوات معملية إلى غير ذلك من مستلزمات، كما يتم منها رعاية الطلاب، ولما كانت هذه المبالغ التى تمول الصناديق الخاصة، لا تُعد من موارد الخزينة العامة للدولة لأنها لم تُفرض بقانون باعتبارها «رسومًا»، فهى لا تخضع للرقابة المالية التى تخضع لها حسابات الجهات الحكومية، ولا تدرج فى الميزانية الخاصة بالكليات أو الجامعة باعتبارها أموالاً «خاصة» وليست «عامة»، ولذلك لا يراجعها أو يراقبها «الجهاز المركزى للمحاسبات»، كما أن الصرف منها من سلطة العميد على مستوى الكلية ورئيس الجامعة على مستوى الجامعة.

كان من الممكن أن تُستخدم هذه الأموال الطائلة لدعم البحث العلمى، وتمويل مشروعات بحثية فى مختلف التخصصات، أو دعم المعامل بأحدث الأجهزة العلمية، وإنشاء ما ليس موجودًا منها، كذلك كان من الممكن استخدامها فى دعم النشاط الثقافى والرياضى للطلاب، غير أن هذه الأموال تُستخدم - فى الغالب - لخدمة مصالح من لهم حق التصرف فيها، وليس سرًا أن الكثير من رؤساء الجامعات يمنح مكافآت شهرية من تلك الصناديق لبعض المحاسيب من الأساتذة الذين تُقدم لهم مبالغ شهرية تحت مُسمى «مكافأة مستشار»، ولرئيس الجامعة الحق المطلق فى تحديد أرقام تلك المكافآت، وينال بعض الصحفيين منها نصيبًا تحت مختلف المسميات لزوم «تلميع» صورة رئيس الجامعة على صفحات صحفهم، كما تمول منها الهدايا العبثية التى يقدمها رئيس الجامعة فى بعض المناسبات للشخصيات التى يبنى الجسور معها، والكثير من رؤساء الجامعات يتعامل مع الصناديق الخاصة وكأنها إيراد «العزبة» يبعثره كيف شاء.



هان الأساتذة على السلطة، عندما هانت عليهم أنفسهم، فلم يستطع الحريصون على استقلال الجامعة وتقاليدها تنظيم حركات احتجاجية على ما يجرى للجامعة



حقًا استخدم بعض العمداء هذه الأموال فى تجديد وترميم المبانى وتجهيزها بالوسائل السمعية وتزويد المدرجات بأجهزة التكييف، ولكن ذلك تم أيام أن كان «الحزب الوطنى الديمقراطى» يعقد مؤتمره السنوى بحرم الجامعة، فيتم إيقاف الدراسة بالجامعة لمدة أسبوع، وتعد المدينة الجامعية لسكنى الأعضاء، فيتم تجديدها وتزويدها بوسائل الراحة، التى حرم منها الطلاب، على حساب الطلاب أنفسهم من أموال الصناديق الخاصة. واتجه بعض العمداء إلى تجديد أثاث مكاتبهم فاستبدلوا به أثاثًا «مستوردًا»، إلى غير ذلك من مظاهر تبديد هذه الأموال التى لا حسيب عليها ولا رقيب، والتى تعد بابًا واسعًا للفساد والإفساد.

أما الآفة الثالثة، فهى «لجان الممتحنين» وهى آلية تقرر العمل بها فى أوائل التسعينيات من القرن العشرين، تعطى للعميد حق تشكيل لجنة برئاسته أو رئاسة وكيل الكلية لشئون الطلاب، للنظر فى نتيجة المادة التى يقل مستوى النجاح فيها عن ٥٠٪، فتقرر اللجنة إضافة رقم محدد من الدرجات إلى الدرجة التى حصل عليها كل طالب فى تلك المادة، بما يكفل رفع نسبة النجاح إلى ما يصل إلى ٥٠٪ أو يتجاوزها قليلاً.

وأخذًا فى الاعتبار لمناخ الفساد السائد فى الجامعة، يبدو أن هذه «البدعة» وضعت لخدمة أبناء بعض أهل الحظوة الذين تعثروا فى بعض المواد، لأن تطبيقها فى السنوات التى عاصرها صاحبنا كان الهدف منه خدمة أبناء بعض الأساتذة، أو المسئولين الكبار، أو كبار ضباط الأمن، وقيل فى تبرير هذه الجريمة أن رسوب الطلاب فى مثل تلك المواد يؤدى إلى اكتظاظ الكلية بالطلاب المتخلفين، ويوجد صعوبة فى تدبير أماكن لهم بلجان الامتحان.

وتتم هذه العملية فى الغالب دون الرجوع إلى أستاذ المادة إذا كان من ذوى المكانة، فتتم من وراء ظهره، أما إذا كان صاحب المادة ممن يسهل الضغط عليهم قام بإجراء التعديل بنفسه حتى لا يغضب العميد، فيضع العقبات فى طريق إعارة أو ترقية ينتظرها، وهو عادة لا يتأخر عن الاستجابة للطلب، طالما كان من حق العميد أن يعدل النتيجة عن طريق «لجنة الممتحنين».

أخطر ما فى الأمر، أن الدرجات تضاف لجميع الطلاب فلا تساعد الراسب فقط على النجاح، ولكنها ترفع تقدير الناجح ليصبح «جيد جدًا» بدلاً من جيد أو «ممتاز» بدلاً من «جيد جدًا»، فيؤثر هذا التعديل على فرص خريج معين فى التعيين فى وظيفة معيد، وهو ما يتم عادة لصالح طلاب بعينهم، ويفسر المستوى المتدنى للخريجين عامة والمعيدين خاصة.

وامتد الفساد ليتناول تعديل شروط الإعارة للجامعات الأخرى المنصوص عليها فى قانون تنظيم الجامعات. كان القانون السابق عليه يجيز الإعارة لمدة ثلاث سنوات كحد أقصى، فجاء القانون الحالى ليجعلها لمدة عامين قابلة للتجديد مرة واحدة (أى أربع سنوات)، ولعضو هيئة التدريس الحق فى الإعارة لمدد تبلغ مجموع سنواتها عشر سنوات خلال مدة الخدمة.

وحدث أن كانت سيدة تشغل درجة الأستاذية بإحدى كليات جامعة القاهرة معارة للسعودية، وطلبت مد إعارتها لمدة ثالثة (ست سنوات)، ولما كانت تلك السيدة شقيقة رئيس الوزراء، فقد حصل حسن حمدى رئيس الجامعة على موافقة مجلس الجامعة على إعارتها رغم رفض مجلس الكلية لذلك، واستند رئيس الجامعة إلى فتوى فصلها له المستشار القانونى للجامعة باعتبار أن تقدير مدى ضرورة مد الإعارة من صلاحيات رئيس الجامعة وحده.

وظن رئيس الجامعة أن المسألة ستتوقف عند هذا الحد، ولم يدر أنه - بمجاملته لرئيس الوزراء وكسره القانون - قد وضع سابقة لا فكاك منها، فقد شاع خبر المد الاستثنائى لمدة عامين إضافيين بين المعارين فى السعودية والخليج، وحصل الكثير منهم على موافقات من جهة الإعارة على المد عامين آخرين، أو حتى عام واحد (خامس). وأمطرت مجالس الأقسام بطلبات المد، فكان يتم رفضها، ثم

كتاب الزاوية



نجيب محفوظ

أصداء من الحكمة

تنهد كمال وقال:

- دعنى أخبرك بما قال لى أحمد ابن أختى عندما زرته فى سجن القسم قبل نقله إلى المعتقل..

- على فكرة، أما من جديد عنهما؟

- لقد رُحِّلا مع كثيرين إلى معتقل الطور..

فتساءل رياض باسمًا:

- الذى يعبد الله والذى لا يعبده؟

- يجب أن تعبد الحكومة أولاً كى تعيش مطمئنًا..

- على أى حال الاعتقال أخف فى نظرى من المحاكمة!

- هذا رأيى، ولكن متى تنكشف هذه الغمة؟، متى ترفع الأحكام العرفية؟، متى يعود السلطان إلى القانون الطبيعى والدستور!، متى يعامل المصريون كالآدميين؟!

فجعل رياض يعبث بخاتم الزواج فى يسراه، ثم قال بحزن:

- نعم متى؟، ما علينا، ماذا قال أحمد فى سجن القسم؟

- نعم، قال لى إن الحياة عمل وزواج وواجب إنسانى عام، وليست هذه المناسبة للحديث عن واجب الفرد نحو مهنته أو زوجه، أما الواجب الإنسانى العام فهو الثورة الأبدية، وما ذلك إلا العمل الدائب على تحقيق إرادة الحياة ممثلة فى تطورها نحو المثل الأعلى..

عن السكرية

تُعرض على رئيس الجامعة فيوافق عليها. وعندما تفاقمت الظاهرة حولها مجلس الجامعة إلى قاعدة عامة، فأصبح من حق كل معار أن يتغيب عن الجامعة ست سنوات كاملة، بل تفنن بعضهم، وبحث لزوجته عن عقد عمل، ليستمر موجوداً فى الجامعة التى يعمل بها بحجة «مرافقة الزوجة»، ليظل بذلك عشر سنوات بعيداً عن الجامعة، يتم ترقيته خلالها إلى الدرجات الجامعية الأعلى، وقد يعود إلى الجامعة أستاذًا بعد أن تركها مدرسًا.

وامتداد الفساد إلى تعديل شروط الإعارة بالمخالفة للقانون مسئول عن تردى المستوى العلمى لأعضاء هيئة التدريس، واختلال معايير تقييم أعمال المتقدمين للجان الترقيات نتيجة خراب ذمم بعض مقررى وأعضاء تلك اللجان، وسهلت قواعد عمل هذه اللجان، بما حوته من ثغرات، حصول الكثير من المتقدمين على ترقيات لا تؤهلهم لها الأعمال التى يتقدمون بها للترقية، مما ينعكس سلبيًا على أدائهم الجامعى: تدريسًا وإشرافًا، فإذا كان المتقدم للترقية إلى درجة جامعية أعلى من أهل الحظوة أو من أصحاب «النفحات» اختار له أصحاب الذمم الخربة من بعض المسيطرين على لجان الترقيات، لجنة ثلاثية لفحص أعماله، تناسب المقام (ممن هم على شاكلتهم)، فتجعل من التبن تبراً، ومن الحصى لؤلؤاً، أما إذا كان من غير هؤلاء، اختيرت له لجنة ثلاثية من الأساتذة «المتشددين» (وهو المصطلح الذى يطلقونه على الأساتذة الشرفاء)، ولما كان هؤلاء أساتذة بحق، فهم لا يرقون إلا من كانت أعماله تؤهله للدرجة المتقدم إليها.

فإذا تقدم عالم رفيع القدر فى تخصصه، تحظى أعماله العلمية باعتراف دولى، لوظيفة الأستاذية من خارج الجامعة، حرصوا على إبعاده عن الجامعة، حتى لا يغطى وجوده عليهم، ويكشف حقيقة مستواهم العلمى، حدث هذا مع العالم الجليل أيمن فؤاد سيد عندما تقدم لوظيفة أستاذ فى التاريخ الإسلامى أعلنت عنها جامعة حلوان، وكانت اللجنة العلمية (عندئذ) مكونة من سبعة أعضاء كان رئيسها وأربعة على الأقل من الأعضاء من فصيلة الموظفين بدرجة أستاذ ذوى الإمكانيات العلمية المتواضعة، فاختاروا له لجنة فحص من أناس لا يصلحون للتتلمذ على يديه، رأوا عدم صلاحيته للأستاذية، ولكن بعد ست سنوات من التقاضى رد القضاء العادل له حقه، ولكن بعد أن حرمت الجامعة من وجوده فيها طوال تلك السنوات.

ولا يمكن أن يتوقع المرء أن يكون أداء الدراسات العليا فى جامعة غالبية أساتذتها من الموظفين الذين يحملون درجة الأستاذية، والقلة منهم أساتذة بحق على مستوى يليق بأم الجامعات العربية، أو يكون مستوى البحوث فيها (فى قطاع الإنسانيات على الأقل) مواكبًا للتطور العالمى فى مجالات تلك العلوم، فلا يوجد مشروعات بحثية عند أساتذة التخصصات، يوجهون تلاميذهم إلى اختيار نقاط البحث فى





لأجهزة الأمن الكلمة العليا فى الترشيح للمناصب الإدارية الجامعية، ومنصب العميد خاصة، نظرًا لأهمية ذلك فى «طبخ» انتخابات اتحاد الطلاب التى كانت دائماً قضية «أمن» بالدرجة الأولى



إطارها حتى إذا تكاملت محاور المشروع، كان إضافة علمية معرفية لها قيمتها، بل يترك الأمر للصدفة، ولمدى قدرة الطالب على الاختيار أو استعانته (من وراء ظهر أستاذه) بأحد الأساتذة المتميزين ليساعده على الاختيار، وهَم الأستاذ (من أولئك الموظفين بدرجة أستاذ) أن يجمع تحت إشرافه أكبر عدد من الرسائل حتى وصل العدد عند بعضهم ٢٥ رسالة (فى أحد فروع الطب) ناهيك عن الدراسات الإنسانية التى زاد عدد الرسائل المسجلة عند البعض إلى أكثر من أربعين رسالة، وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على الابتذال والفوضى، فلا يظن صاحبنا أن ذاكرة الأستاذ تتسع لمثل هذا العدد من أسماء الطلاب المسجلين تحت إشرافه، ناهيك عن موضوعات رسائلهم التى لابد أن يكون كل منها «قضية» فى حاجة إلى متابعة دقيقة من الأستاذ، خاصة فى مرحلة الكتابة، ولابد أن يكون الأستاذ عبقرى زمانه حتى تسع ذاكرته هذا الكم الهائل من «القضايا»، فما بالنا لو كان تكوينه العلمى هشًا على نحو ما تقدم!

نتج عن ذلك أن تعامل الأساتذة مع الطلاب باعتبارهم مجموعة من الأقنان، كان أحد أساتذة التاريخ (ممن تسلقوا مناصب الإدارة العليا) يعامل المعيدين معاملة الخدم، يكلف أحدهم مثلاً بالوقوف فى طابور خزينة كلية الهندسة ليسدد الرسوم بدلاً من نجله، ويكلف المعيد بجمع مادة علمية لطلاب سعوديين يعملون تحت إشرافه، ويبقى المعيد فى كل رسالة سبع سنوات بينما لا تستغرق المدة التى يحصل فيها الطالب الخليجى معه أكثر من عام بالنسبة للماجستير من تاريخ التسجيل وعامين بالنسبة للدكتوراة، فإذا سُئل عن أسباب تأخر المعيد، زعم أنه بذلك يريد «إنضاج» المعيد خدمة للتخصص، وهو - فى حقيقة الأمر - ينشد إذلاله، وإبقاءه مطية له لأطول فترة ممكنة.

ولن ينسى صاحبنا تلك المعركة التى دارت بين أستاذين بقسمه تنافسا على الإشراف على طالب تقدم لتسجيل للدكتوراة من آل ثان (حكام قطر)، وعندما وجه أحد أهل التخصص انتقاداً لمشروع الرسالة الذى تقدم به الطالب، صرخ أحدهما قائلاً: «يكفينا أن سعادته اختار قسمنا للدراسة فيه.. شرف كبير والله العظيم».

وعندما وضعت مجالس الدراسات العليا بالجامعات حداً أعلى لعدد الرسائل التى يشرف عليها الأستاذ جعلتها جامعة القاهرة عشر رسائل، ثم فتح باب الاستثناء لخمس أخرى، وجعلتها عين شمس خمس عشرة رسالة مع إمكانية الاستثناء بحجة «ندرة» التخصص. فعندما كان صاحبنا وكيلاً للكلية للدراسات العليا وعضواً بمجلس الدراسات العليا بالجامعة، عُرض على المجلس النظر فى استثناء أستاذ بطب القاهرة لديه ٢٥ رسالة من قيود التسجيل حتى يمكن أن يسجل رسائل تسعة طلاب جدد من الطلاب العرب بحجة ندرة التخصص. وعندما اتجه المجلس إلى رفض الطلب لتجاوزه عن الحد المسموح بخمس عشرة رسالة فإذا سجل التسع أصبح التجاوز ٢٤ رسالة، أرجأ رئيس المجلس (نائب رئيس الجامعة) التصويت للجلسة التالية (بعد شهر). وفى بداية الجلسة الموعودة، أخطر الأعضاء أن رئيس الجامعة قد اقتنع بما قدمه الأستاذ من حجج، ووافق له وأن هذا من حق رئيس الجامعة!!



وعندما كان صاحبنا وكيلاً للدراسات العليا، أقنع مجلس الكلية بضرورة تطوير الدراسات العليا بالكلية، وشُكلت لجنة لهذا الغرض استمر عملها عدة شهور. ووضعت مشروعا يضع من الضوابط والقيود ما يكفل رفع مستوى الدراسات العليا، ومواكبتها لإيقاع التطور فى المجال الأكاديمى العالمى بقدر الإمكان. ولقى مشروع اللجنة عند العرض على مجلس الكلية من الحذف والإضافة ما أفقده ٥٠٪ من قيمته، وعندما أجيز بعد عام آخر، كان هم الأقسام الأساسى التحايل للالتفاف حول الضوابط التى وضعتها اللائحة الجديدة، ولم يرتح لهم بال إلا بعد إلغاء العمل بها عام ٢٠٠٣.

هذا غيض من فيض عايشه صاحبنا تحت قبة الجامعة، التى ظنها يومًا مثالاً للنزاهة والنقاء خلت من الآفات التى يعانيها المجتمع، كان يظن أن الجامعة «بيت الحكمة»، العقل المفكر الذى يرسم للأمة خطاها، فاكتشف أنه كان واهمًا، وتبين له أن الجامعة خلية من خلايا المجتمع، تتأثر بما يصيب بقية الخلايا من عطب، ومن أمراض، وأدرك أن الجامعة مرآة تنعكس على صفحتها صورة المجتمع بما فيه من تناقضات وما يعانيه من علل وأوجاع. ■

كتاب الزاوية



نجيب محفوظ

أصداء من الحكمة

زحف نحو الشرفة فرأى القمر من جديد متألقًا فى مركز القبة المرصعة. ناجاه مغمغمًا أن ليس كعوامتنا شىء، الحب لعبة قديمة بالية ولكنه رياضة فى عوامتنا، الفسق رذيلة فى المجالس والمعاهد ولكنه حرية فى عوامتنا. والنساء تقاليد ووثائق فى البيوت ولكنهن مراهقة وفتنة فى عوامتنا. والقمر كوكب سيار خامد ولكنه شعر فى عوامتنا. والجنون مرض فى أى مكان ولكنه فلسفة فى عوامتنا. والشىء شىء حيثما كان ولكنه لا شىء فى عوامتنا. أيها الحكيم القديم (ايبو - ور) أقدم بعصرك الذى اضمحل فيه كل شىء إلا الشعر وأسمعنا الغناء. حدثنى ماذا قلت لفرعون. أقبل الحكيم (ايبو - ور) وهو ينشد:

إن ندماءك كذبوا عليك
هذه سنوات حرب وبلاء
قلت أسمعنى مزيدًا أيها الحكيم! فأنشد:
ما هو الذى حدث فى مصر
إن النيل لا يزال يأتى بفيضانه
إن من كان لا يمتلك أضحى الآن من الأثرياء
يا ليتنى رفعت صوتى فى ذلك الوقت
قلت ماذا قلت أيضًا أيها الحكيم (ايبو - ور)؟ فقال:
لديك الحكمة والبصيرة والعدالة
ولكنك تترك الفساد ينهش البلاد
انظر كيف تمتهن أوامرك
وهل لك أن تأمر حتى يأتيك من يحدثك بالحقيقة؟

عن ثرثرة فوق النيل

الحياة اليومية عند الأقباط

مينا بديع عبد الملك

لوحة الميلاد
رسم جدارى من دير
السريان
كنيسة السيدة العذراء

■■ عثر فى مخطوطات مكتبة النمسا الوطنية، التى تحوى عشرات الآلاف من المخطوطات النادرة، على الكثير من الكتب ومنها كتاب «حياة الأقباط» الذى يشمل العديد من الموضوعات منها: كيف كان يحيا الأقباط قديمًا؟ كيف كان نظام التجارة فى البيع والشراء والعملات؟ كيف كانوا يتنقلون من مدينة إلى أخرى؟ كيف كانوا يكاتبون بعضهم البعض؟ كيف كانوا يسجلون مواليدهم وأين؟ ماذا كانوا يأكلون ويشربون؟... وكثير من الأسئلة

عالم الأقباط: الحياة اليومية عند الأقباط قديمًا (بالألمانية)
هيرمان هارور. هيلموت برشهاوزن. أولريكا هوراك
ترجمه من الألمانية للعربية: هلجاديل. ناصر البرونوهى
النمسا: دار ايبارشيه - ٢٠٠٤

■■

الصور مأخوذة من كتاب:
Christian Egypt.. Coptic Art and Monuments through two Millennia
(مصر المسيحية.. الفن والآثار القبطية خلال ألفي عام)
Massimo Capuani, Otto. F.A. Meinardus, Marie-Helene Rutschowscaya, , Gawdat Gabra
Cairo-AUC Press, 2003





التى تكشف عن تفاصيل حياة الأقباط الأولين.

هذه المخطوطات مدونة باللغة القبطية فقام كل من د. هيرمان هارور (مدير متحف البرديات بالمكتبة الوطنية)، د. هيلموت برشهاوزن (الباحث فى القبطيات)، د. أولريكا هوراك (توفيت حديثًا) بترجمة هذه المخطوطات من القبطية إلى الألمانية.

فى الفترة ٢٢ مايو - ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٩٥ أقامت المكتبة الوطنية النمساوية بفيينا معرضًا بعنوان «عالم الأقباط» تم فيه عرض المئات من المخطوطات وقطع النسيج والآثار القبطية المختلفة يعود تاريخها إلى القرنين السابع والثامن الميلادى.

وفى حفل افتتاح المعرض قام د. هيرمان هارور - مدير المتحف الوطنى بفيينا - بإلقاء كلمة فى وجود مجموعة من الزائرين الأقباط، قال فيها: «لقد استخدمنا كل خبراتنا وإمكاناتنا العلمية فى ترجمة النصوص القبطية التى وجدناها مكتوبة على أوراق البردى وقطع الفخار المكسور، وبذلنا المجهود الضخم فى ترجمتها للألمانية، ولكننا كثيرًا ما كنا نقف حائرين أمام نصوص معينة، نحاول فهم المعنى الذى كان يقصده الكاتب القبطى على الرغم من ترجمتنا الحرفية لها بدقة. نحن نعلم بأنكم أنتم الأقباط وحدكم القادرون على فهم المعانى والأسرار المكتوبة فى الآثار بسهولة، لأنكم ببساطة اليوم تحملون الإجابات على كل الأسئلة فى حياتكم اليومية».

قامت المكتبة بتوثيق الآثار المعروضة فى «دليل» تم نشره بواسطة علماء وباحثى متحف البرديات فى المكتبة الوطنية النمساوية، وجاء الدليل فى ٣٠٨ صفحات من القطع الكبير مزود بصور كثيرة للآثار المعروضة مع مقدمات للمترجمين من القبطية إلى الألمانية، ثم ترجمة حرفية لنصوص المخطوطات، أو شرح مفصل لقطع النسيج، لكن جاءت ترجماتهم جافة. فقام كل من هلجا ديل وناصر البردنوهى - بالاتفاق مع إدارة المتحف - بكتابة بعض التعليقات التوضيحية اللازمة، ومن هنا صدر الجزء الأول الخاص «بالحياة اليومية عند الأقباط قديمًا» يتبعه بعد ذلك سلسلة من الحلقات الخاصة بعالم الأقباط.

هذا الجزء الأول من سلسلة «عالم الأقباط» يستعرض العديد من الموضوعات، اخترت الموضوعات الآتية لعرضها:

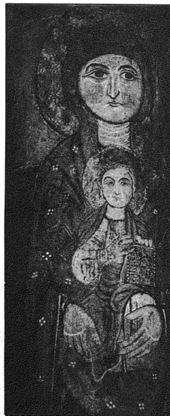
الأسماء المتداولة فى ذلك الوقت، أسلوب الكتابة، العمليات الحسابية، المأكل والمشرب والملبس، الأعمال الزراعية والتجارية، الأدوات المنزلية المستخدمة، الحياة الاجتماعية، المهن المختلفة التى كانوا يمارسونها، الضرائب التى كانوا يدفعونها، ثم علاج الأمراض.



فى الأفـــراح كان طعام الأقباط يتكون من: لحوم الخراف المتبلة المشوية مع خبز وفطير وخضار، والشراب كان يتكون من فواكه وعصير الكرمة الممزوج بالماء، أما الحلويات فكانت فاكهة وكحكًا محشوًا بالعجـــوة



السيدة العذراء والطفل



(١) الأسماء المتداولة فــى ذلــك الــوقــت

فى أوستراكا (قطع الفخار المكسور) يعود تاريخها إلى القرن الثامن الميلادى مساحتها ١٠ × ١٦ سنتيمترًا، وردت الأسماء الآتية:

شنوتى، بتروس، كوزما، هارون، نيوسجوروس (ديسفوروس)، فيبى، نازه، قلته، بيشا، سويروس، جيراجوس (جوارجيوس أى جورج)، ستيفانوس، باولا (بولا)، ميناس (مينا)، هيلياتس.

وفى بردية يرجع تاريخها للقرن الثامن الميلادى مساحتها ٢٠.٥ × ١٥.٥ سنتيمتر وجدت مجموعة من أسماء عمال يعملون فى الزراعة وهم:

أباسير (المعروف حاليًا أباكير)، بشتشال، كولتوس، إيلياس (أى إيليا)، فويبامون، سرفروس، باهومو، دافيد، أبوللو، أنوت، ابراهام، بامو.

هناك أيضًا بردية أخرى يعود تاريخها إلى القرن السابع أو الثامن الميلادى مساحتها ١٧ × ١٠ سنتيمترات تحوى مجموعة أخرى من الأسماء:

أكو ابن مكارى، باباشنوتى، كيرنس ابن بيلتوس، تاخون، صامويل ابن ابلو، بله، مينا ابن كؤر، سيون ابن أبوللو، بابا يوهانس، إيليا ابن باولى، لوتسون، ناراو ابن أنوب، سوستا بنت نوب، ابيولى البنا.

ويعلق د. محرم كمال فى كتابه (آثار حضارة الفراعنة فى حياتنا الحالية) الصادر عام ١٩٥٦ عن الأسماء القديمة يقول: إننا نحمل أسماء قديمة جدًا توارثناها عن أجدادنا منذ آلاف السنين. ومن هنا فإن الحفاظ على الاسم القبطى المصرى هو الحفاظ على الشخصية القبطية المصرية.

(٢) أسلوب الكتابة

استخدم الأقباط العديد من الأدوات الكتابية، والتى مازالت محفوظة بالمتاحف القومية أو الدولية وهى:

البردى: وهو كان الأكثر استعمالاً من بين المواد الأخرى. وكان قد بُدئ استخدامه فى الكتابة من حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م إلى ما بعد ١٠٠٠ بعد الميلاد. ويكون أوراق البردى تفقد مع الوقت مرونتها، لذلك لم تكن جيدة لعمل الكتب أو اللفائف.

الرق: وهو يصنع من جلود الحيوانات وهو أكثر مرونة من ورق البردى ولا يتلف بسرعة لذلك استخدم بكثرة فى صناعة الكتب وبالأخص فى الكتب الدينية. ونظرًا لارتفاع أسعاره فلم يستخدم فى الكتابة فى أمور الحياة اليومية العادية.

الأوستراكا: وهو اسم يطلق على شقف الفخار، قطع الحجر الجيرى وحجر الصوان. وكانت أسعاره زهيدة. وكان يستخدم عند عدم توافر ورق البردى. فقد عثر على أوستراكا يعود تاريخها إلى القرن السابع الميلادى سجل بها خطاب جاء فيه: (أنا آسف.. لأنى لا أملك بردية فى الوقت الحالى.. أنا أود أن أبلغك بالمستجدات فى الأمور التى كتبت لك عنها فى خطابى السابق..).

الورق: ظهر الورق فى مصر فى القرن التاسع الميلادى، وبدأ يتفوق على البردى حتى انتشر استخدامه بينما توقف استخدام البردى.

الألواح الخشبية: وهذه استخدمت فى كتابة النصوص المستديمة مثل قطع الصلوات، والصيغ القانونية الثابتة فى مكاتب الكتبة أو مكاتب الشهر العقارى.

الألواح الشمعية: وهى عبارة عن ألواح خشبية سميكة كانت تصب عليها طبقة من الشمع ثم يسوى سطحه ثم بقلم مصنع من الخشب أو المعدن كان يتم الكتابة عليه. وعند الاستغناء عن المكتوب فيه، يمكن تسوية الشمع من جديد ثم يعاد الكتابة عليه مرة أخرى.

الأقلام: استعمل القبطى «القلموس» Kalamos المصنوع من الغاب فى الكتابة على البردى والورق والفخار والحجر الجيرى وحجر الصوان. ولكن للكتابة على لوح الشمع فقد استخدم «الأستيلوس» Stilus وهو قلم مصنوع من مادة شديدة الصلابة.

الأحبار: الهباب والصمغ والماء كانت مكونات الحبر الذى استخدمه الأقباط فى الكتابة وكان جيدًا. فى القرن الثالث الميلادى استخدم الأقباط حبر بنى اللون. سهل الذوبان فى الماء - يدعى «جاولوس بازيس» Gauilus-basis، وكان هناك نوع آخر من الحبر يدعى «فيتريول» Vitriol.

لكن كيف كانت تصحح الأخطاء عند الكتابة؟

الكتابة التى تسجل على البرديات والفخار والحجارة ولوح الخشب كانت تزال بالغسيل وبعد تجفيفها يعاد الكتابة عليها مرة أخرى. أما تلك المسجلة على الرق فكانت تكشط هذه الكتابة ويعاد الكتابة عليه من جديد، وكان يطلق على الرق المكشوط والمعاد استعماله اسم «باليمبيستين» Palimpsesten. أما المكتوب على لوح الشمع. فكما سبق ذكره. توضع طبقة أخرى من الشمع ويعاد الكتابة عليها.

عرف الأقباط فن كتابة القواميس. فقد عثر على ورقة قاموس يونانى - قبطى يعود تاريخها إلى القرن ١٠ - ١١ الميلادى ومساحتها ٩ × ١٢ سنتيمترًا وفيها صفت الكلمات فى تتابع الحروف الأبجدية. ففى المخطوط الذى عثر عليه كتبت الكلمات اليونانية التى تبدأ بحرف (O) ثم بعد الكلمة وضعت نقطتان (:) وبعدها كتبت الترجمة باللغة القبطية لتلك الكلمات.

أيضًا عثر على ورقة بردية يعود تاريخها إلى القرن ١٠-١١م وتبلغ مساحتها ٨.٥× ١٠ سنتيمترات، توضح أسلوب التعليم فى المدرسة. كان المدرس يطلب من التلاميذ كتابة كل حروف الأبجدية القبطية بالترتيب، ثم يكتب تحت كل حرف الكلمات التى يعرفها والتى تبدأ بذلك الحرف وأيضًا بترتيب أبجدى سليم. ومن خلال هذا التمرين كانت تظهر كفاءة التلميذ التعليمية وأيضًا الثروة اللغوية التى يمتلكها التلميذ بالفعل.

(٣) (العمليات الحسابية)

حتى القرن الحادى عشر كانت الأرقام تكتب بالأبجدية القبطية فكان الحرف الأبجدى «الفا» يمثل الرقم «١»، الحرف الأبجدى «بيتا» يمثل الرقم «٢» وهكذا وبعد ذلك تكرر هذه الأحرف لكتابة أرقام العشرات ثم المئات وهكذا. أما فى الآلاف فاستخدم القبطى حرف الألفا مرة أخرى لكن مع شرطة توضع قبله وهكذا حتى رقم ٩٠٠٠ (الذى يكتب بحرف «الثيتا» وقبلها شرطة) أما رقم الـ ١٠.٠٠٠ فكان يطلق عليه «١» ميريادة ورقم ٢٠.٠٠٠ كان يطلق عليه «٢» ميريادة وهكذا.

بالنسبة لعمليات الضرب الحسابية كان يوضع جدول يوضح هذه العمليات كما وردت فى ورقة قبطية عربية كتبت فى القرن ١١ الميلادى ومساحتها تبلغ ٢٠.٤ × ١٨ سنتيمترًا. وجاءت العمليات كالآتى:

٨ × ٦ = ٤٨
٨ × ٦٠ = ٤٨٠
٨ × ٦٠٠ = ٤٨٠٠
٨ × ٦٠٠٠ = ٤٨٠٠٠

٨ × ٧ = ٥٦
٨ × ٧٠ = ٥٦٠
٨ × ٧٠٠ = ٥٦٠٠
٨ × ٧٠٠٠ = ٥٦٠٠٠

٨ × ٨ = ٦٤
٨ × ٨٠ = ٦٤٠
٨ × ٨٠٠ = ٦٤٠٠
٨ × ٨٠٠٠ = ٦٤٠٠٠

٨ × ٩ = ٧٢
٨ × ٩٠ = ٧٢٠
٨ × ٩٠٠ = ٧٢٠٠
٨ × ٩٠٠٠ = ٧٢٠٠٠

٨ × ١٠ = ٨٠
٨ × ١٠٠ = ٨٠٠
٨ × ١٠٠٠ = ٨٠٠٠
٨ × ١٠٠٠٠ = ٨٠٠٠٠

٩ × ١ = ٩
٩ × ١٠ = ٩٠
٩ × ١٠٠ = ٩٠٠
٩ × ١٠٠٠ = ٩٠٠٠

أما بالنسبة لعمليات القسمة فالجداول التى وجدت هى جداول أرباع وأنصاف كما كانت متبعة فى العصر اليونانى الرومانى فى مصر.

فجدول الأنصاف كان على الصورة:

من ٨ = ٤
من ٩ = ٤.٥
من ١٠ = ٥
من ٢٠ = ١٠
وهكذا

من ١٠٠٠ = ٥٠٠
من ٢٠٠٠ = ١٠٠٠
من ٣٠٠٠ = ١٥٠٠
من ٤٠٠٠ = ٢٠٠٠
وهكذا

(٤) المأكل والمشرب والملبس

فى الأفراح كان طعام الأقباط يتكون من: لحوم الخراف المتبلة المشوية مع خبز وفطير وخضار، والشراب كان يتكون من فواكه وعصير الكرمة الممزوج بالماء، أما الحلويات فكانت فاكهة وكحكًا محشوًا بالعجوة.

فى الأيام العادية كان الطعام يتكون من خبز وخضار مثل الكرنب الأرتيشوك والسبانخ وكان يطهى بالسلق فى الماء مباشرة أو يطهى بالبخار ثم تقدم كقطع كاملة أو تقطع لقطع صغيرة بالإضافة إلى السمك المملح (الفسيخ) أو اللحم المملح أو المنبار، وللشراب كان يقدم الماء أو عصير الكرمة الممزوج بالماء وهذا للكبار فقط، أما الحلويات فكانت قطع الكيك المصنوعة بالسكر أو عسل النحل.

من دير الشهداء، قرب إسنا

عثر على بردية قبطية يعود تاريخها إلى القرن ٧ ـ ٨ م مساحتها ١٢ × ٢٠ سنتيمترًا ومكتوبة على وجهين توضح كشف حساب المصاريف التى كان يدفعها بيت قبطى لشراء ملابس وطعام، لكن البردية لم توضح نوع النقود المستعملة فى عملية الشراء.

جاء فى الوجه الأمامى من البردية ما يلى:

للجاكيت (٠٠٠)، لثوب «بيروشات» على الأكتاف ٢٤، لثوب الأفراح ٢٤١، لزينة الملابس ٤، للألوان ٣، للنطرون ٤، للكتان ٧، للحمة ٤، للأرنيشوكن ٢، للتبرع، ٦، للعامل ٦، للطعم ٥، للسمك ٤.

وجاء فى الوجه الخلفى من البردية ما يلى:

للحمة ٨، للحمة ٨، للحمة ٤، للكرنب ٦، للعدس ١، للسجق ٢، للشغل ٢، أرتيشوكن ١، لتصنيع الصابون ٢، للحمة ٤، للخضار ١، للقرع العسل ١، للكتان الخام ٩، للكتان الخام ٥.

ثم فى قطعة استراكون قبطى يعود تاريخها إلى القرن ٨ م مساحتها تبلغ ١٢ × ١٢.٥ سنتيمتر توجد قائمة بأشياء مطلوبة للبيت جاء بها:

ربطة كتان خام، ثلاث أكواب دلو من البرونز. ثم من المواد الغذائية: قمح وبلح. ثم شىء آخر غير معروف حاليًا يسمى بالقبطية «ساخار».

على ورقة بردى بسيطة تعود إلى القرن ٨ م مساحتها ٢١ × ١٨.٥ سنتيمتر كتب رجل يدعى «موِى» إيصال استلام مبلغ نظير استلام مبلغ عن بيع فول جاء بالبردية:

باسم الله أولاً أنا موِى أكتب إلى ياكوب ابن (...) إنى استلمت منك «نوميا» واحدة ثمن لتسعة أردب فول صافية بسعر واحد «نوميا».

(٥) الأعمال الزراعية والتجارية

بجانب الزراعة واستغلال الأرض، قام الأقباط بتربية الحيوانات. وقد كانت هناك حيوانات يتم تربيتها بغرض الذبح للأكل والأخرى بغرض العمل والنقل كالحمير والجمال.

فقد عثر على مئات الإيصالات كتب فيها ـ على سبيل المثال ـ «تم استلام ثلاثة حمير، والقصد من ذلك أنه تم استلام تسعة أكياس من الحبوب أو الغلال. فقد كان الحمار يقوم بنقل ثلاثة أكياس فى وقت واحد، أحد هذه الأكياس يوضع على الجهة اليمنى، والآخر على الجهة اليسرى، أما الثالث فكان يوضع على الظهر فى المنتصف. أما الجياد فكانت تستخدم فى الجيش.

النوع الآخر من الحيوانات التى كانت تربى بغرض الذبح فقد كانت مثل الثيران والحيوانات الصغيرة مثل الخراف والماعز.

أما بالنسبة للزراعة فقد كانت هناك زراعة للبصل والقمح والكتان. ففى أوستراكا قبطى من القرن ٨ م مساحتها ٧.٥ × ٧.٥ سنتيمتر جاء فيها: «أعطيها (شقفة الفخار) ليوسف الحقير بين الأخوة، لو لم تكن قد بذرت بالفعل الواحد ونصف مكيال بصل».

كلمة «يوسف الحقير بين الأخوة» هى كلمة مستخدمة بين الرهبان على سبيل الاتضاع وتحقير الذات. ويتضح من هذا النص أن الرهبان كانوا يقومون بالزراعة فى أديرتهم، ويزرعون أيضًا الخضروات وعلى سبيل المثال هنا البصل.

أيضًا من بعض شقفات الفخار الأخرى التى وجدت أمكن معرفة أنه فى القرن ٧ م كان ثمن ١١ أردب قمح يبلغ قطعة ذهبية واحدة (نوميسا) وهذا معناه أن القمح كان من النوعية الجيدة جداً. وقطعة الأوستراكا هذه التى عثر عليها وجد عليها أسلوب رقيق فى الكتابة فيقول كاتبها: (قبل



الحيـاة اليوميـة عنـد الأقبـاط

كل شيء أحييكم من كل روحي، الرب يباركم بعد أن رحلت من عندي أرسلت أنا أخي بيكوسن إلى الشمال من أجل القمح، لقد قيل لي أنه لم يتبق في الشمال قمح بـ ١١.٥ للبيع بعد. على كل حال أحدهم يبيع في بشيناي قمح جيد حوالي ١١ أردب لو أصبحت أرسل لي المال مع بساتي أنا سوف أبعث وأشتري.

أيضاً كانت هناك زراعة الكتان ومنه كانت تستخدم الحبال العادية لصناعة شباك صيد الأسماك أما الحبال السميكة فقد كانت تستخدم لربط السفن.

(٦) الأدوات المنزلية المستخدمة

في بردية قبطي من القرن ٨٠٧م مساحتها ١١.٢ × ١٠.٧ سنتيمتر، ذكر فيها بضاعة عند تاجر يبيع مستلزمات منزلية جاء فيها:

إناء، ٤٠ كوباً صغيراً، ٨ أواني، ١٠ أكواب صغيرة، ٨ أفران.

كما كان الخشب من المواد الأساسية التي تدخل في صناعة الأثاث. ففي أوستراكا قبطي من القرن ٨ م مساحتها ١١ × ٧.٥ سنتيمتر جاء فيها:

«الحقيران آرون وأندرياس يترجيان الأخ الحبيب باولوس أن يرسل العربة محملة بالأخشاب».

هذا في الوقت الذي كانت فيه الأخشاب نادرة في مصر.

أيضاً كان الزيت من المواد الغذائية الأساسية في الاقتصاد القبطي. وكانت بذور الفجل تعصر ويستخلص منها الزيت وكان يعرف «بزيت بذرة الفجل».

(٧) الحياة الاجتماعية

وجدت مخطوطات قبطية عديدة توضح الأوضاع القانونية في البلاد والتي يتم من خلالها تنظيم العلاقات بين الناس، والمحافظة على حقوق المواطن أثناء عمليات البيع والشراء والعمل والزواج وغيرها. وكان النكوص فيها يؤدي إلى عقوبات حادة. فأي عقد كان يبرم بين شخصين كان يحتاج إلى تاريخ محدد، موضوع العقد، شروط جزائية لمن ينقض الاتفاق وشهود وإمضاءات وتسجيل في الشهر العقاري.

ففي الأفراح كان الأقباط يدعون الكثير من إخوانهم الأقباط في احتفالات كبيرة للمشاركة في أفراحهم، وهؤلاء المدعوون هم أفراد العائلتين وكبار البلد من موظفي الحكومة وأصحاب أملاك الآباء الكهنة والشمامسة والجيران والأصدقاء. أما بالنسبة لجهاز العروسين . للقادرين مادياً . كان مكوناً من صناديق خشب محفور عليها أشكال صلبان أو زخارف أو مناظر طبيعية. وفي هذه الصناديق يوضع جهاز العروس الذي كان عبارة عن ملابس جديدة مصنوعة من الكتان والحرير الملون وبعضها مطرز بالإضافة إلى الملابس المنزلية، ثم أدوات التجميل وأدوات للشعر كالأمشاط والبنس وشباك الكتان لتثبيت تسريحة الشعر وأيضاً بعض الأسلاك الذهبية أو الفضية التي تضفر مع الشعر. أيضاً كان من ضمن جهاز العروس وسائل جديدة: أغطية، بطاطين، سجاجيد للأرض وأخرى تعلق على الحوائط كنوع من التجميل. هذا بالإضافة إلى ملاعق وسكاكين وأطباق وأواني للطبخ ثم مجموعة من مصابيح الإضاءة التي تعمل بالزيت. كذلك هدية خاصة من الوالدين للعروسين لمساعدتهما في حياتهما الجديدة المستقلة مثل تكعيبة عنب أو حقل مرعى للحيوانات. وكانت هذه تسجل في الشهر العقاري.

(٨) المهن المختلفة التي كانوا يمارسونها

مارس الأقباط العديد من المهن المختلفة من أهمها كانت مهنة «صناعة الكتب» والتي كانت تتلخص في ثلاث مراحل: عملية النسخ، عمل الرسوم والزخارف سواء داخل الكتاب أو غلافه، ثم عملية التجليد. وكانت الأديرة من أكثر الأماكن التي يتم فيها إعداد الكتب الدينية.

عملية نسخ الكتاب الواحد كانت تستغرق وقتاً كبيراً جداً. وبعد الانتهاء من مرحلتي النسخ والرسم تأتي مرحلة عمل الغلاف السميك الخارجي. وفي هذا كان الرهبان المسئولون عن هذه العملية يقومون بشراء كميات من ورق البردي القديم الذي سبق استخدامه سواء في المصالح الحكومية أو كراسات طلبة المدارس وبعد ذلك يقص هذا الورق إلى قطع صغيرة ويوضع في الماء لبعض الوقت ثم توضع هذه القطع فوق بعضها البعض على شكل طبقات وتترك لتجف تماماً، بعدها تصبح قوية جداً مثل طبقة من الخشب. بعد ذلك تثبت على ورق الكتاب لحمايته من التلف. ثم تأتي مرحلة التجليد وفيها يستخدم الجلد الملون الجميل الذي يتم تثبيته على الكتاب من الخارج.

من المهن الأخرى مهنة مساعد نجار فقد ورد في بردية قبطي من القرن السابع الميلادي مساحتها ٩.٥ × ١٥ سنتيمتراً: أن نجاراً يدعى قلته اتفق مع رجل آخر للعمل معه «كمساعد نجار» وجاء في العقد الرسمي أنه يتعهد بدفع أجرة للمساعدة في العام الواحد متمثلة في ٧ أرادب قمح، ٢٨ أبريق عصير الكرمة، بالإضافة إلى خشب أقفاص فاكهة.

أيضاً مهنة مساعد تربية بهائم من المهن التي كانت منتشرة في ذلك الوقت نظراً لكثرة المراعي التي كان يمتلكها الأقباط.

(٩) الضرائب التي كانوا يدفعونها

إيصالات دفع الضرائب كانت تكتب على الأستراكون بسبب مقاومته للرطوبة ومن هنا فإنه كان أفضل من ورق البردي.

ونظراً لتعدد الضرائب فإنها كانت تحتاج لمجموعة ضخمة من العاملين للقيام بها وإنجازها. ونظراً لأن الكاهن يعتبر كبير الكنيسة لذلك فإن السلطات جعلته المسئول أمامها عن جمع الضرائب من شعب كنيسته وتقديمها كاملة للسلطة. كما كان يطلب من الرهبان دفع ضرائب!! على الرغم من أنهم كانوا يعيشون معتزلين عن العالم لكن كان يطلب من رئيس الدير أن يسدد ضرائب عن العمال الذين قاموا بأعمال حدادة أو نجارة.. إلخ في الدير.

كانت هناك ضريبة تعرف باسم «ضريبة الأجنبي». فقد حدث بعد دخول العرب مصر سنة ٦٤١م أن صدر مرسوم بإلزام العائلات القبطية بإعاشة جندي غريب (ضريبة الأجنبي) ولأن بعض العائلات أبدت عدم رغبة في استقبال جندي أجنبي ليعيش بينهم رغماً عنهم فقد كانت هناك إمكانية دفع مبالغ من المال مقابل السماح لهم بعدم استقبال جندي في البيت. فقط القادرون مادياً استطاعوا دفع هذه الضريبة التي عرفت باسم «ضريبة الأجنبي». ففي بردية قبطية مؤرخة في سنة ٣٣١ هجرية (أي حوالي عام ٩٠٠م) جاء فيها أن رجلاً يسمى «باتيوس» قام بدفع ضريبة الأجنبي بالنيابة عن ابنه «موسس» نوميا واحدة. ونص هذه الوثيقة مسجل باللغة القبطية الرسمية. في ذلك الوقت - وكتبه ووقع عليه الكاتب «بوكير ابن تيودور».

(١٠) علاج الأمراض

لعلاج الأمراض عند الأقباط كانت تستخدم الأدوية التي يدخل في تكوينها أجزاء من نباتات مختلفة مخلوطة ببعضها البعض. ففي أستراكون قبطي من القرن الثامن الميلادي تركيبة في دواء تدعى «لوبينه» وهي ثمرة شجرة اللوتس. لكن معظم وصفات الأدوية هذه كتبت باللغة اليونانية والقليل منها كتب باللغة القبطية.

أيضاً كانت الصلاة التي يقوم بها الكاهن إحدى طرق العلاج التي كان يلجأ إليها الأقباط.

إنها بالحقيقة حياة تستحق الدراسة والبحث والتنقيب لما كانت تحويه من فكر ومنهج وأسلوب في الحياة.

وهناك تكملة لهذه السلسلة الرائعة تتناول: أسلوب قضاء وقت الفراغ والتسلية، نظرة الأقباط للموت والجمال والزينة.. وهكذا. ■



كان من ضمن جهاز العروس
أغطيـة، بطاطين، سجاجيد
للأرض وأخرى تعلق على الحوائط.
هذا بالإضافة إلى ملاعق وسكاكين
وأطباق وأوان للطبخ



حين أصبحت الكنيسة.. مصرية

فكري أندراوس

بقايا رسوم على جدران دير القديس مكاريوس بوادى النطرون

في يوم مشمس فى شهر ديسمبر سنة ١٩٤٥ فى قرية جبل الطارف بالقرب من نجع حمادى كانت المصادفة حليفة الإنسانية فى اكتشاف يعده البعض أهم اكتشاف أثرى فى القرن العشرين. فى ذلك اليوم كان المزارع محمد على السمان وأخوه أبو المجد ينقبان عن سباخ لتسميد الزراعة وإذ بهم يكتشفون وعاء من الفخار طوله أكثر من متر. أثار ذلك الاكتشاف الدهشة والأمل والخوف بين الأخوين. كان الخوف من أن يحتوى الوعاء على عفريت أو روح شريرة ولكن الأمل كان يداعبهم في اكتشاف كنز يحل مشاكل الفقر والتى تعانى منها الأسرة بعد قتل عائلها.

لم يتردد الأخوان كثيراً ففتحوا الوعاء يحدوهم الأمل فى كنز. فتح الوعاء ولم يخرج عفريت ولكن لم يكن هناك كنز أيضاً. كانت خيبة أملهم كبيرة حين اكتشفوا أن محتويات الوعاء عبارة عن بعض الكتب مكتوبة بلغة غير معروفة على أوراق لم يروها من قبل. حمل الأخوان محتويات الوعاء مع بعض السباخ على ظهر الجمل وعادوا إلى منزلهم يلعنان حظهما السيئ. ابتدأت والدتهما تستخدم بعض هذه الأوراق لتسهيل إشعال وقود الفرن لطهو الطعام وإنضاج الخبز.

لم ترغب العائلة فى بقاء تلك الكتب فى منزلهم لأنه كان عرضة للتفتيش فى أى وقت لاتهام محمد فى قتل قاتل والده ثأراً. أخذ محمد على هذه الكتب إلى

أقباط مصر تركوا بصماتهم على مفهوم المسيحية فى العالم فمنهم خرج فلاسفة المسيحية الأوائل من مدرسة اللاهوت بالإسكندرية، ومنهم خرج رواد الرهبنة الأوائل والتى انتشرت بعد ذلك فى العالم المسيحى

كاهن القرية الأب باسيليوس عبد المسيح وصرح للكاهن أن يأخذ أحد هذه الكتب على أن يحفظ الباقى لديه كأمانة. وجدت بعض هذه الكتب طريقها للقاهرة وتسرب الخبر لتجار الآثار وكذلك لمصلحة الآثار. وقد وجد بعض هذه الكتب طريقه إلى الخارج، وقد استطاعت مصلحة الآثار والمتحف القبطى فيما بعد الحصول على الكتب كافة حتى التى وجدت طريقها للخارج. وقد عرف أن هذه الكتب وعددها ١٣ مجلداً تحتوى على أناجيل لم تكن معروفة من قبل مكتوبة على أوراق البردى باللغة القبطية. وقد أطلق على تلك الكتب فيما بعد مكتبة نجع حمادى.

لم يعرف العالم الكثير عن تفاصيل ذلك الاكتشاف حتى سبعينيات القرن الماضى حيث استطاعت هيئة اليونسكو مع هيئة الآثار المصرية تصوير الكتب كافة والتى تحتوى على ٥٢ كتيباً ٤١ منها لم يكن معروفاً من قبل وعدد صفحات الكتب المكتشفة ١١٥٢ صفحة. بعد التصوير أصبحت محتويات المكتبة متاحة للباحثين الذين نشروا آلاف الكتب والمقالات.

لقد سلطت مكتبة نجع حمادى الكثير من الأضواء على المسيحية فى قرونها الأولى. أهم محتويات تلك المكتبة: إنجيل توماس، إنجيل فيليب، إنجيل الحقيقة، إنجيل وليم، إنجيل المصريين، الكتاب السرى ليوحنا، الكتاب السرى لجيمز، حكمة المسيح، جمهورية أفلاطون، أصل العالم، وبعض رسائل تحمل اسم تلاميذ المسيح. كل هذه الأناجيل والكتابات المسيحية لم تعترف بها الكنيسة الأولى التى اعترفت فقط بأناجيل أربعة منذ أواخر القرن الثانى وتلك هى أناجيل مرقص، يوحنا، متى ولوقا. وكل تلك الأناجيل تحكى قصة حياة المسيح إلا أن هناك بعض الاختلافات المهمة بين تلك الأناجيل. وقد حاربت الكنيسة منذ أواخر القرن الثانى باقى الأناجيل وقد نجحت تماماً فى إخفائها إلى أن عثرنا على مكتبة نجع حمادى.

حوالى ٩٠٪ من مكتبة نجع حمادى يعتبر كتباً أغنوسطية Gnostisism والكلمة أصلها يونانى تعنى المعرفة ويعرفها قاموس المورد بأنها «مذهب بعض المسيحيين الذين اعتقدوا أن المادة شر وأن الخلاص يأتى عن طريق المعرفة الروحية». أما القاموس العصرى فيعرفها بأنها «مسيحيين يعتقدون بأن الخلاص بالمعرفة دون الإيمان». والحقيقة أن تعريف الغنوسطية أمر صعب حيث إن هناك أيضاً غنوسطية يهودية وغنوسطية إسلامية (مثل آراء المعتزلة الخاصة بالتفسير) وكذلك غنوسطية معاصرة. ومن الممكن تعريف الغنوسطية التى نحن بصددها أنها حركة دينية مسيحية فلسفية عرفت فى القرن الثانى الميلادى تعتمد على التفسير الرمزى المستنير ولها جذور فى الفلسفة القديمة لليونان وبلاد فارس والهند. وقد حاربت الكنيسة هذه الحركة وقضت عليها فى أواخر القرن الرابع. من هنا



حين أصبحت الكنيسة مصرية

كان اهتمام الباحثين بمكتبة نجع حمادى حيث إنها أضافت لمعلوماتنا الكثير عن المسيحية فى قرونها الأولى وكيف استقرت الكنيسة إلى ما تمارسه الكنائس الآن خصوصاً الأرثوذكسية)وتعنى التفكير المستقيم (والكاثوليكية (وتعنى كنيسة جامعة).

كيف كانت المسيحية إذاً فى مصر فى قرونها الأولى؟ نحن نعلم من قديم أن أقباط مصر تركوا بصماتهم على مفهوم المسيحية فى العالم فمنهم خرج فلاسفة المسيحية الأوائل من مدرسة اللاهوت بالإسكندرية، ومنهم خرج رواد الرهبنة الأوائل والتى انتشرت بعد ذلك فى العالم المسيحى. ومنهم من دافع ببطولة وتضحيات كثيرة عما اعتبره الإيمان الأرثوذكسى السليم. وإن كنت سأتعرض لهذا المقال بإيجاز شديد عن بعض المهم فى مكتبة نجع حمادى إلا أننى سأهتم أكثر بتاريخ المسيحية فى مصر حتى القرن الرابع حيث استقرت الكنيسة المصرية.

اختيار بعض الأناجيل دون الأخرى

المفهوم السائد بين الأقباط أن المسيحية دخلت مصر على يد القديس مرقص عام ٤٣ حين زار الإسكندرية ورسم حنانيا كأول أسقف بمصر ليبشر بالمسيحية. ولكن غالباً ما تكون المسيحية قد دخلت مصر قبل ذلك التاريخ حيث إن العلاقات بين فلسطين والإسكندرية كانت قوية وسريعة وقد كان بالإسكندرية جالية يهودية كبيرة. وحنانيا هذا الذى رسمه القديس مرقص كان يهودياً قبل تحوله إلى المسيحية، وقد اعتبرت المسيحية فى أوائل عهدها كمذهب يهودى. يذكر لنا التقليد الكنسى أيضاً أن القديس مرقص زار الإسكندرية للمرة الثانية ما بين عام ٦٤ وعام ٦٨ وكان عدد المسيحيين قد زاد كثيراً وأصبحوا عرضة للاضطهاد. وفى خلال هذه الزيارة كتب القديس مرقص أحد الأناجيل الأربعة والذى يحمل اسمه وقد استشهد بعد ذلك بقليل على أيدى الغوغاء بعد احتفال معبد السيرابيوم Serapis. وقد ظلت بقايا القديس بالإسكندرية حتى القرن الحادى عشر حين سرقها تجار فينيسيون وأخذوها إلى فينسيا (مدينة البندقية بإيطاليا) وشيدوا بها كاتدرائية ضخمة مازالت موجودة وسميت فينسيا جمهورية القديس مرقص.

نحن لا نعلم الكثير عن المسيحية حتى أواخر القرن الثانى وإن كنا نعلم أن عدد المسيحيين قد زاد كثيراً ومع زيادة العدد زاد الاضطهاد. وكان الاعتقاد السائد بين كثيرين أن نهاية العالم قريبة وأن المسيح سيعود سريعاً لخلاص العالم.



من الأسباب التى ساعدت المصريين على الدخول فى المسيحية بعض الشبه بينها وبين ديانات مصر القديمة والتى منها: مفهوم القيامة فى الأموات ويوم الحساب، الثلاثى إيزيس وأزوريس وحورس، والولادة من عذراء



ومن الأسباب التى ساعدت المصريين على الدخول فى المسيحية بعض الشبه بينها وبين ديانات مصر القديمة والتى منها: مفهوم القيامة فى الأموات ويوم الحساب، الثلاثى إيزيس وأزوريس وحورس، والولادة من عذراء. وقد استقطبت المسيحية الكثير من الفقراء الذين لم يجدوا أملاً فى الخلاص من عذاب المعيشة تحت القهر الرومانى الاقتصادى والسياسى كما يتضح ذلك من هجرة الكثير من المصريين إلى الصحراء للترهبن وسنعود إلى ذلك. ولم تكن زيادة عدد المسيحيين فى مصر فقط بل كان فى أغلب أنحاء الإمبراطورية الرومانية، مع زيادة عدد المسيحيين ابتدأت المسيحية تتبلور ومع ذلك التبلور ابتدأ يظهر للكنيسة كيان ورئاسات قوية وابتدأ يظهر الشقاق بظهور العديد من الأناجيل. فى ذلك الوقت ظهر بمدينة ليون بفرنسا أسقف اسمه إيرانيوس Irenaeus حاول توحيد المسيحية وكان يخشى عليها من كثرة الآراء والأناجيل المتداولة. يعتقد بعض المتخصصين أن إيرانيوس كان المسئول عن تجميع أناجيل العهد الجديد كما نعرفها الآن. وقد أرجع إيرانيوس كتابة تلك الأناجيل إلى هؤلاء الذين تحمل أسماءهم وهم مرقص، متى، لوقا، يوحنا، إلا أن المتخصصين يرون أن الأناجيل الأربعة كتبت بمجهود جماعى ونسبت لهؤلاء بعد استشهادهم بسنين طويلة. فمثلاً إنجيل مرقص كتب ما بين سنة ٧٠ و ٨٠ أما باقى الأناجيل فقد كتبت ما بين سنة ٩٠ و ١١٠ من تقليد شفهى متوارث.

ونحن بهذا الصدد يجب أن نذكر أن العهد القديم وهو كتاب اليهود قد حفظ بالتقليد الشفوى لمدد طويلة وقد صاحب ذلك الكثير من التغير وعندما نسخ لأول مرة بعد مئات السنين تعرض بعد ذلك لكثير من التغير المتعمد وهناك خمسة تنقيحات معروفة للمتخصصين وأخيراً استقرت إلى النسخة المتداولة الآن بعد أكثر من ألف عام من خروج اليهود المزعوم من مصر. ويرى المتخصصون أن هناك الكثير من التناقض فى كتاب اليهود والتى لا مجال لها هنا. أما القرآن فقد ابتدأ تجميع ما هو مكتوب منذ حياة الرسول وقد جمعه زيد بن ثابت فى عهد الخليفة أبو بكر الصديق ثم احتفظت بتلك النسخة، حفصة بنت عمر بن الخطاب. لم يكتب القرآن بالصورة التى نعرفها الآن إلا أثناء خلافة عثمان بن عفان. فى ذلك الوقت أصبح للمسلمين إمبراطورية وابتدأ ظهور نسخ من القرآن مختلفة بعض الشيء وخصوصاً فى اللهجة الكتابية. وقد كلف عثمان زيد بن ثابت وآخرين بإعادة كتابة القرآن من النسخة التى لدى حفصة على أن تسودها لهجة قريش. ولم يكتب القرآن وفق تاريخ نزوله بل كتبت الآيات التنظيمية فى الأول وتلتها آيات الدعوة. بعد الانتهاء من كتابة النسخة المتداولة للآن والتى عرفت بأنها نسخة عثمان، قرر عثمان إعدام باقى النسخ الموجودة وكانت آخر نسخة أعدمت هى نسخة حفصة والتى أعدمت فقط بعد وفاتها.

إيرانيوس الذى سبقت الإشارة إليه حارب باقى الأناجيل (الغنوسطية) لأسباب ستتضح بعد قليل. وقد كتب خمسة أجزاء للتشكيك فى صدق تلك الأناجيل وهى:

The Destruction and Overthrow of Falsely So-Called Knowledge

ولكننا لم نعرف أى شيء يذكر عن الأناجيل المرفوضة إلى أن اكتشفت مكتبة نجع حمادى. ومن أناجيل نجع حمادى المهمة إنجيل توماس والذى يقع فى حوالى ١٥ صفحة ولم يحك قصة حياة المسيح كما فى الأناجيل التى اعتبرت رسمية بل هو عبارة عن ١١٩ قولاً من أقوال المسيح أو المنسوبة إليه. وتلك الأقوال بسيطة وجميلة ورغم بساطتها تحتمل العديد من التفسيرات وتكاد تكون خالية تماماً من الأساطير والمعجزات. وإن كانت ترجمة تلك الأناجيل خارج نطاق هذا المقال إلا أننى اخترت عشرة من الأقوال المنسوبة للمسيح فى إنجيل توماس للعرض على القارئ لإعطاء فكرة مبسطة عما تحتويه الأناجيل الغنوسطية. وقد ترجمتها من الإنجليزية مع بعض التصرف للحفاظ على المعنى:

١. المسيح قال: إذا قالوا لك الملكة فى السماء فسيسبقك الطير وإذا قالوا لك إن الملكة فى البحر فسيسبقك السمك. لكن الملكة داخل الإنسان وخارجه وإذا عرف الإنسان ذلك فسيفهم أن الناس أولاد الأب الذى يعيش وإن لم يعرف الإنسان ذلك سيعيش فى فقر وسيكون هو الفقر.

٢. الإنسان كالصياد الذى يطرح الشبكة فى البحر ويسحبها مليئة بالسمك. الصياد الحكيم يكتشف السمك الكبير ويعيد السمك الصغير للبحر ويحتفظ بالسمك الكبير. من له أذن فليسمع.

٣. المسيح قال لتلاميذه: قارنوا بينى وبين آخرين وقولوا لى من أشابه؟

بطرس قال: أنت كرسول صادق.

ماثيو قال: أنت كفيلسوف حكيم.

توماس قال: سيدى فمى غير قادر أن يجد لك شبيهاً.

المسيح قال: أنا لست سيدك، لأنك ارتويت فثملت من الينبوع الذى اعتنيت به.

٤. سأل التلاميذ المسيح عن مملكة السماء؟ المسيح قال إنها كحبة الخردل التى هى أصغر الحبوب لكنها لو سقطت على تربة جيدة ستنمو إلى نبات كبير يأوى طيور السماء.

٥. سأل التلاميذ: أرشدنا إلى مكانتك التى يجب علينا التماسها؟

المسيح قال: من له أذن فليسمع، هناك نور داخل الإنسان يضيء العالم كله إن لم يضئ سيكون هناك ظلام.

٦. المسيح قال: الكتبة والفريسيون أخذوا مفاتيح المعرفة وأخفوها فلم يدخلوا ولم يسمحوا للآخرين بالدخول أما أنتم فكونوا حكماء كالحيات ودعاء كالحمام.

٧. سأل التلاميذ المسيح: من أنت لتقول لنا هذه الأقوال؟ المسيح قال: لم تفهموا من أنا مما أقول لقد أصبحتم كاليهود الذين أحبوا الشجرة ولكنهم كرهوا ثمارها أو أحبوا الثمار ولكنهم كرهوا الشجرة.



حين أصبحت الكنيسة مصرية

٨. المسيح قال: إذا قدمت ما بداخلك، ما بداخلك سينقذك. إذا لم تقدم ما بداخلك، ما لم تقدمه سيهلكك.

٩. المسيح قال: من أصبح غنياً (بالمعرفة) يجب أن يحكم ومن عنده القوة يجب أن يتنازل عنها.

١٠. من يتشرب مما أقول سيكون مثلي وأنا سأكون مثله وسيكتشف الغموض.

المسيح في إنجيل توماس يعتبر كمعلم روحاني وليس كإله، ومفهوم الجنة والنار والخلاص في الأناجيل الغنوسطية مفهوم رمزي وهناك خلاف آخر مهم بين ما وجد في تلك الأناجيل وما تعترف به الكنيسة من قيامة المسيح بعد الوفاة وصعوده بالجسد. فأناجيل نجع حمادي تعتبر أن القيامة في الأموات هي قيامة رمزية للخلاص وتعتبر أن التفسير الحرفي للقيامة هو إيمان الجهلة والضعفاء.

وقد استمر وجود الأناجيل الغنوسطية في مصر حتى عام ٣٦٧ حين طلب البطريرك المصري اثناسيوس Athanasius في خطابه للرهبان بمناسبة عيد القيامة الخلاص من كل الأناجيل والكتابات التي لم تعترف بها الكنيسة. وربما كان ذلك العام هو نفسه الذي دفنت فيه مكتبة نجع حمادي لإخفائها. ولا أعتقد أنها مصادفة أن تكون قد دفنت بجوار أحد أديرة الأنبا باخوميوس القديمة. في ذلك الوقت أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية وقد التحمت الكنيسة بالدولة وغالباً ما تكون الكنيسة قد استعملت القوة والعنف للخلاص من الأناجيل المخالفة والتي اعتبر اقتناؤها جريمة.



استمر وجود الأناجيل الغنوسطية في مصر حتى عام ٣٦٧ حين طلب البطريرك المصرى اثناسيوس في خطابه للرهبان بمناسبة عيد القيامة الخلاص من كل الأناجيل والكتابات التى لم تعترف بها الكنيسة



مدرسة الإسكندرية للاهوت

شهدت مسيحية مصر منذ أواخر القرن الثاني مولد مدرسة اللاهوت بالإسكندرية والتي بعد سنوات قليلة تألقت بفلسفة رائدة أثرت في مسيحية العالم. أول رئيس لتلك المدرسة ذاعت شهرته هو بنتينوس Panaenus وكان ذلك سنة ١٨٠ ويقال إنه أسهم في تطوير اللغة القبطية وهي الهيروغليفية مكتوبة بحروف يونانية بعد إضافة سبعة حروف إليها. وابتدأت المدرسة خلال تلك الفترة تتحول من مجرد كائن صغير لتعليم بعض قوانين المسيحية إلى مدرسة تدرس مواد أخرى بجوار المسيحية. سنة ١٩٠ أرسل البطريرك المصرى بنتيوس في مهمة إلى الهند وحل محله تلميذه كلمنتص Clements وهو يوناني الأصل وكان عليماً بالفلسفة اليونانية وطوعها لتفسير المسيحية وابتدأ حواراً مع فلاسفة مدرسة الإسكندرية. ومن أقواله الشهيرة: إن الجهل أسوأ من الخطيئة. وله ثلاثة كتب عن المسيحية بمفهوم مستنير وبعض كتاباته لم توافق عليها الكنيسة في أوقات لاحقة، مما أدى إلى اتهامه بالهرطقة. وقد اضطر كليمنتص لترك الإسكندرية سنة ٢٠٢ لشدة الاضطهاد الروماني.

خلف كليمنتص تلميذه أوروجينوس Origen (الاسم فرعوني مشتق من اسم حورس) وكان عمره يقارب العشرين. كان ذلك الشاب أسطورة خلال حياته فقد كانت عنده قدرة خارقة للعادة في تحصيل العلم وفي التفكير المستقبل وفي الكتابة. خلال رئاسته للمدرسة تقدم بها كثيراً وأصبحت ندا لمدرسة الإسكندرية الشهيرة والتي كان يحضر بعض محاضراتها. أصبحت المدرسة تدرس بالإضافة إلى المسيحية: اللغة، الموسيقى، الفلسفة اليونانية، علم الرياضة والطبيعة. أصبحت مدرسة اللاهوت ذات شهرة واسعة داخل وخارج مصر فقصدها الكثيرون في خارج مصر وأصبحوا فيما بعد رؤساء كنائس وكان أوروجينوس يحاضر كثيراً خارج مصر وقد كتب ما يقرب من ٦٠٠ كتاب بعضها يعتمد على التفسير المجازي الذي وضع له أسساً وقواعد. وكان اوروجينوس رغم شهرته الواسعة إنساناً شديد التقشف وقد أثر ذلك في مسار الرهبنة فيما بعد فكان الكثير من الرهبان الأوائل متعلمين على عكس ما أشيع بعد ذلك من أنهم رهبان أو نساك بسطاء. وقد لاقى أوروجينوس الكثير من المضايقات من البطريرك المصري الذي ضايقه أن ينال أوروجينوس تلك الشهرة الواسعة. سنة ٢٣٣ طرد البطريرك المصري ديمتريوس Demetrius, أوروجينوس لأسباب يعتقد المؤرخون أنها شخصية و لكن لم يصدر ضده أي اتهام بالهرطقة حتى ذلك الوقت. ذهب أوروجينوس إلى مدينة صور بلبنان الحالية واستمر في الكتابة والتعليم إلى أن توفى عام ٢٥٤. نتيجة نبوغه في التفسير المجازي المستنير وعندما أصبحت الكنيسة ومؤسساتها محافظة والتحمت بالدولة أدين أوروجينوس بقرارات كنسية عديدة من الاسكندرية، القسطنطينية، وروما. وكان ذلك سنة ٤٠٣ و٥٥٣ أي بعد وفاته بحوالي ١٥٠ إلى ٣٠٠ عام واتهم بالهرطقة ليس فقط من الكنيسة بل أيضاً من الإمبراطور جوستين Justinian سنة ٥٤٣. بكل تلك الإدانات أصبحت كتابات أوروجينوس كافة محرمة من الكنيسة ومن الدولة مما أدى إلى اختفاء وتحريف الكثير من أعماله. ويعتبر بعض المؤرخين المعاصرين أن المسئولين عن إدانة أوروجينوس وأعماله قد خذلوا المسيحية وخدموا أعداءها. ويكفينا اليوم أن نعلم أن المتخصصين في الغرب اعتباراً من عام ١٩٧٣ وحتى الآن يعقدون مؤتمرات دورية عن ذلك الفيلسوف المصرى القديم والذى أصبحت كتاباته تخص الحاضر والمستقبل.

تولى رئاسة المدرسة بعد أوروجينوس خمسة من تلاميذه وإن كانوا دون مستواه إلا أنه كانت لهم مساهمات لا يستهان بها وقد أصبح بعضهم بطريرك الإسكندرية وكان آخر هؤلاء العظام ديديموس Didymus الضرير الذى توفى عام ٣٩٨ وهو الذى ابتكر طريقة تمكن العميان من القراءة تشبه طريقة بريل Braille وإن سبقته بحوالي ١٥٠٠ سنة. بعد ديديموس دخلت المدرسة في عالم النسيان واختفت بذلك مؤسسة مسيحية اعتمدت على العلم والمعرفة وانتهت بذلك فترة تنويرية مهمة أعيد اكتشافها في العصور الحديثة.

من الصدف الغريبة أن يكون القرن الثاني وحتى القرن الرابع الميلادي والقرن الثاني وحتى القرن الرابع الهجري عصور تنوير في المسيحية والإسلام تعتمد على العلم والعقل والفلسفة اليونانية للوصول لتفسيرات دينية مستنيرة. وكما كان رواد مدرسة اللاهوت بالإسكندرية مصدر إشعاع للتفسير المستنير كان فرسان المعتزلة مصدر إثراء للتفسير الإسلامي المستنير. كلاهما اعتمدوا على التفسير المجازي ولم يقفوا عند ظواهر النصوص. وكما اتهم أوروجينوس وكليمنتص بالهرطقة فقد اتهم فرسان المعتزلة بالهرطقة وزج بهم في السجون بقوانين الدولة والتي كان آخرها التي سنها الخليفة العباسي القادر (٣٨١-٤٢٣ هـ) وكان ذلك قمة المحنة في المفهوم الإسلامي والسياسي كما قال د. محمد عمارة أو كما قال المفكر الإسلامي الكبير أحمد أمين إن من أكبر مصائب المسلمين موت المعتزلة والتي أصبحت أعمالهم محرمة واختفى الكثير منها. وكما يعاد اكتشاف أعمال مدرسة الإسكندرية يعاد اكتشاف أعمال المعتزلة.

المصريون رواد الرهبنة المسيحية

الرهبنة هي الانعزال عن العالم للتعبد والتأمل، وذلك الانعزال قد يأخذ عدة صور. هدف الرهبنة هو التجرد من الدنيا والالتحام بالخالق كما في الرهبنة المسيحية أو الصوفية في الإسلام أو بكل الكائنات وكما في الرهبنة البوذية أو بالطبيعة كما في بعض مذاهب الرهبنة الحديثة. والرهبنة البوذية سبقت الرهبنة المسيحية بحوالي ٢٠٠٠ عام وإن كان البعد عن العالم للتفكير والتعبد قد يكون قديماً قدم الإنسانية. الرهبنة المسيحية تعود لرائدها المصري أنطونيوس والمولود عام ٢٥١ في قرية قمن العروس بالجيزة. وعندما كان أنطونيوس في سن العشرين وبعد وفاة والديه بفترة قصيرة سمع كاهن الكنيسة يقرأ فقرة من الإنجيل تقول «إذا أردت أن تدخل ملكوت السماوات فاذهب وبع كل ما تملك وأعطه للفقراء واتبعني». نفذ أنطونيوس وصية الإنجيل حرفيا وذهب ليعيش وحيدا للتعبد بجوار المقابر. كانت هذه بداية رحلة أنطونيوس في حياة الوحدة والرهبنة والتي استمرت لأكثر من ثمانين عاماً. عاش أولا بجوار المقابر المهجورة ثم انتقل ليعيش وحيدا في مبنى روماني مهجور هو الآن دير الميمون بجوار بني سويف. كان أنطونيوس في وحدته قليل الأكل، قليل النوم، كثير الصلاة والتعبد. أصهرت تلك الحياة أنطونيوس وأصبح نقي الروح ذا احتياجات دنيوية قليلة. ابتدا ذلك المسلك يجذب بعض راغبي النسك وكانوا كثيرين



حين أصبحت الكنيسة مصرية



ازدهرت الرهبنة المصرية وأصبحت زيارة رهبانها مكملة لزيارة القدس وقد زارها في ذلك الزمان الكثير من الأجانب بعضهم ترك لنا مذكرات تستحق القراءة



ومنتشرين في مصر. ابتدأ تجمع البعض بجوار أنطونيوس يفسد عليه حياة الوحدة فترك مكانه وذهب شرقا على بعد ٣٠ كم من البحر الأحمر وعاش في مغارة علي جبل القلزم حتي توفي سنة ٣٥٦ عن ١٠٥ سنوات.

تتبع بعض النساك انطونيوس في مكانه الجديد واعتبارا من سنة ٣٠٥ ابتدأ يرشد المتجمعين حوله في حياة النسك والفضيلة ويعتبر هذا أول تجمع رهباني فيما يسمي الآن دير الأنبا أنطونيوس. لم يكن لهذا التجمع خواص ثابتة فأغلب المتجمعين كانوا يعيشون فرادي كل في مغارة علي الجبل يجمعهم وجود انطونيوس بينهم. ذاعت شهرة انطونيوس داخل مصر وخارجها وأصبح إنساناً روحانياً يقصده الكثيرون.

كتبت سيرة القديس انطونيوس بعد وفاته بسنين قليلة بواسطة اثناسيوس البطريرك المصري والذي كان منفيا خارج مصر حوالي سنة ٣٦٠ وكان اثناسيوس أحد تلاميذ انطونيوس. وقد ساعد كتاب سيرة أنطونيوس في انتشار الرهبنة خارج وداخل مصر.

لم يكتب أنطونيوس سوي سبع رسائل عن حياة النسك وقد كان الاعتقاد السائد أن انطونيوس انسان بسيط غير متعلم إلا أن التحليل الحديث لتلك الرسائل أثبت أنه كان علي علم بفلسفة الإغريق وعلي الأقل ببعض كتابات أوروحينوس وأنه استخدمها في بعض رسائله. ولم تكن أعمال أوروحينوس قد أدينت بعد. والسؤال الواجب الآن هو: لماذا أحيطت سمعة انطونيوس بالبساطة وعدم العلم؟ والإجابة عن هذا السؤال سيستشفها القارئ مما سبق ومما سيأتي.

وإن كان أنطونيوس قد ابتدأ أول تجمع رهباني في القرن الرابع فقد شهد هذا القرن تجمعات رهبانية اخري مستقلة وابتدأت الرهبنة تنتظم داخل تجمعات رهبانية كبيرة وصل عدد رهبان بعضها لبضعة آلاف. وبمرور الوقت تغير الوجه البسيط للرهبنة والتي كانت في مهدها مستقلة عن الكنيسة إلي مؤسسة قوية مرتبطة بالكنيسة بل أصبحت جزءاً من الكنيسة. ومن الرهبان الذين تركوا بصماتهم علي الرهبنة في صعيد مصر باخوميوس وشنودة.

كان باخوميوس (ويعني بالمصرية القديمة نسر) من منطقة طيبة وكان معاصرا لأنطونيوس. ابتكر القديس باخوميوس نظاماً جديداً ودقيقاً للرهبنة فرتب عملاً لكل راهب ونظم مواعيد ومناهج للصلاة ومواعيد ثابتة للطعام وعين أحد كبار الرهبان للإشراف علي الدير وعين مساعداً له. أصبحت أديرة القديس باخوميوس مؤسسة كبيرة جيدة النظام وقد أنشأ في حياته أحد عشر من الأديرة اثنان منها للراهبات. وقد رتب باخوميوس مكان إقامة الرهبان في قلايات (غرف صغيرة) فيسكن كل منها ثلاثة رهبان وقد حدد زياً معيناً للرهبان مازال يعمل به للآن، وقد رتب اجتماعات سنوية للرهبان لانتخاب المشرفين علي الدير وقد اهتم بالتعليم وعين طائفة لنسخ الكتب وأخري للزراعة وثالثة للمخازن ومسك الدفاتر والميزانية ومجموعة اخرى للخدمة خارج الدير ومنهم من كان يساعد الفلاحين في مواسم الزراعة. توفي باخوميوس عام ٣٤٦ عن ٥١ عاماً. وقد أثار النظام الباخومى انتباه العالم المسيحي والذي اقتبس الكثير منه في أديرة الغرب وخصوصا أديرة البندكتين (Bendictine).

أما شنودة (الاسم أصله شنوتى وتعنى بالمصرية القديمة ابن الله) فقد أسس ديراً كبيراً بجوار مدينة أخميم ويسمي بالدير الأبيض وقد اتبع نظام أديرة القديس باخوميوس وكان ذا شخصية قوية وجذابة وقد تجمع في الدير الأبيض في حياته ٢٢٠٠ راهب كما أسس ديراً للراهبات تجمع به حوالي ١٨٠٠ راهبة. ومن مميزات شنودة أنه اهتم كثيرا بالتعليم وقام بتعليم الرهبان الأميين، وقد سن قوانين قبول الرهبان مازال يعمل ببعضها. وقد فتح شنودة الدير للأهالي مقدما لهم ما يحتاجونه من طعام وخدمات وامتد نطاق خدماته خارج الدير فقد كان الأهالي يلجأون إليه لحل بعض مشاكلهم، كان شنودة يخطب ويعظ في مناسبات عديدة وكثيرا ماكان يهاجم الظلم الواقع علي الفلاحين لحساب الأغنياء. وقد ترك ثروة ثقافية ضخمة ومازالت بعض عظاته تتلي في الكنائس. وكنيسة الدير الأبيض الأثرية مازالت حوائطها قائمة وهي تشابه المعابد الفرعونية وقد استخدم في بنائها كتلاً حجرية كبيرة أخذت من المعابد القديمة والتي دمر المسيحيون الكثير منها. توفي شنودة سنة ٤٥١ عن حوالي مائة عام.

أما في الوجه البحري فقد كان هناك عدة نشاطات رهبانية في غرب الدلتا علي حدود الصحراء وفي وادي النطرون، كان أول هذه النشاطات في منطقة نتريا قرب جبل البرنوج حوالي ١٥كم غرب مدينة دمنهور وقد توحد في ذلك الجبل ناسك اسمه آمون سنة ٣١٥ وكان معاصراً للقديس أنطونيوس. وقد تجمع حول آمون بعض المتوحدين ولم يكن هذا التجمع في بدايته منتظما إلا أنه بمرور الوقت اشتهر ومع زيادة عدد النساك التزم آمون ببعض النظام وكان بمثابة أب ومرشد روحي ولم يمض وقت طويل إلا وكانت منطقة نتريا تكتظ بالرهبان الذين وصل عددهم لبضعة آلاف، ولقرب جبل نتريا من الإسكندرية فكان الكثير من رهبانه متعلمين وعلي علم بتعاليم أوروحينوس وقد أثر ذلك في سلوك الرهبان العقلاني. وقد اجتذب هذا التجمع الرهباني بعض الأجانب الذين ترهبنوا هناك وأرخوا تلك الفترة. ابتدأت شمس نتريا تغيب منذ أواخر القرن الرابع حين ظهرت مشكلة تضخمت بين بعض الرهبان المستنيرين وبعض الرهبان البسطاء. وكانت المشكلة تتعلق بصورة الله ومشابهة الإنسان لتلك الصورة. ورأى المستنيرون منهم أنها مشابهة رمزية بينما رأى البسطاء أنها مشابهة فعلية. وقد تذبذب رأى البطريرك المصرى تاوفيلس Theophilus (٤١٢-٣٨٥) حول هذه المشكلة مما نتج عنها استفحالها. وقد استخدم البطريرك العنف تساعده عساكر الدولة فنفى مئات من الرهبان وحرق بعض مساكنهم. ومن الأسباب التى أعطاها البطريرك لهذا العنف أن الرهبان المستنيرين قد تأثروا بتعاليم الفيلسوف أوروحينوس فجمع مجمعاً كنسياً سنة ٤٠٣ وأدان أعمال أوروحينوس رغم أنه لم تكن هناك مشاكل مع تعاليم أوروحينوس قبل ذلك بل إن البطريرك كان على علاقة طيبة مع رهبان نتريا وقد أرسل ابن أخيه ليترهبن بينهم والذى خلفه كبطريرك. بعد هذه الفترة الشائكة ابتدأ غروب شمس الرهبان المستنيرين وابتدأ عهد الرهبان البسطاء وعهد الأساطير.

ابتدأ تجمع رهبانى آخر فى منطقة تبعد ١٥كم غرب نتريا وسميت بالقلالى لانتشار قلالى الرهبان بها وكان هناك تجمع رهبانى آخر فى منطقة وادى النطرون وأصبحت تلك المنطقة تكتظ بالرهبان وأنشئ بها العديد من الأديرة مازال منها أربعة عامرة بالرهبان. أسس أديرة وادى النطرون مقار (اسم فرعونى معناه صادق الصوت) وكان معاصراً لأنطونيوس. ابتدأ مقار تجمعه الرهبانى سنة ٣٤٠ وكان مشابهاً لتجمع رهبان نتريا إلا أنه كان أكثر انعزالاً. لم يمض وقت طويل قبل أن يصل عدد الرهبان هناك لبضعة آلاف. وقد أسهمت الظروف فى تشكيل النمط الرهبانى فى وادى النطرون.

ازدادت شهرة رهبان غرب الدلتا ووادى النطرون وأصبحت مزاراً للحجاج من داخل وخارج مصر وترهبن بها بعض ذوى النفوذ وابتدأت الهبات ترد إلى تلك المنطقة فى وقت أصبحت فيه المسيحية الديانة الرسمية الوحيدة للإمبراطورية. أثار هذا النشاط قبائل البربر الذين يقطنون الصحراء ويتعيشون أحياناً من الهجوم على أطراف الوادى للنهب خاصة فى أوقات الحصاد. ابتدأ هؤلاء البربر يهاجمون أماكن الرهبان ويسلبون ما عندهم وأحياناً يقتلونهم، نتيجة لذلك ابتدأ الرهبان يحيطون مبانيهم بأسوار للحماية ازداد ارتفاعها وأصبحت الطراز المتبع حتى فى المناطق التى لم يهاجم رهبانها.

وقد اشتهر بعض رهبان وادى النطرون بالروحانية العالية والنسك والبساطة والتاريخ الكنسى يذكر الكثير من أسماء الرهبان والكثير من الأساطير التى أصبحت جزءاً من التراث القبطى. وهكذا ازدهرت الرهبنة المصرية وأصبحت زيارة رهبانها مكملة لزيارة القدس وقد زارها فى ذلك الزمان الكثير من الأجانب بعضهم ترك لنا مذكرات تستحق القراءة.

وقد أثرت الرهبنة المصرية على مسار الرهبنة خارج مصر فكان القرن الرابع ليس قرن انتشار الرهبنة فى مصر فقط بل نقل نظام الرهبنة من مصر إلى العالم المسيحى ونحن نعرف على الأقل عشرة من تلك الأديرة والتى أصبحت مراكز لانتشار الرهبنة فى بلاد كثيرة.



حين أصبحت الكنيسة مصرية

الأرثوذكسية السليمة

فى أوائل القرن الرابع ابتدأت المسيحية تشهد تغيرات واسعة منها ازدياد الاضطهاد خلال حكم الإمبراطور دقلديانوس Diocletian (٢٨٣-٣٠٥) وانتهاء الاضطهاد واعتراف الإمبراطورية بالمسيحية كأحد أديان الدولة حوالى سنة ٣١٢ خلال حكم قسطنطين. Constantine وشهد هذا القرن مشكلة دينية هزت العالم المسيحى واستمرت تهزه لحوالى نصف قرن. كانت مصر مصدر تلك المشكلة والتى عرفت فيما بعد باسم بدعة أريوس Arian والتى ابتدأت عام ٣١٩. كان أريوس كاهناً مشهور بالإسكندرية وكان ذا علم وله الكثير من المؤمنين بتعاليمه داخل مصر وخارجها. كانت تلك البدعة ببساطة تنادى بأن المسيح مخلوق ولا يساوى الأب (الله) فى الجوهر. لم يوافق البطريرك المصرى ألسكندروس ومعه آخرون على تعاليم أريوس وقرر حرمانه بمجمع كنسى سنة ٣٢١. تصاعدت تلك المشكلة وتحولت إلى صراع بين أريوس ومؤيديه داخل وخارج مصر وبين رئاسة الكنيسة المصرية. كان بعض أصدقاء أريوس على صلة بالإمبراطور قسطنطين الذى حاول أن يعيد أريوس للكنيسة المصرية إلا أن البطريرك المصرى رفض ذلك. كان قسطنطين قد تحول إلى المسيحية حديثاً بمسرحية جميلة لا مكان لها هنا إلا انه كان رجل دولة ذا رؤية وحاول تلافى أى انقسام فى الكنيسة والتى كانت فى طريقها لتكون إحدى مؤسسات الدولة القوية.. اقتنع الإمبراطور بضرورة عقد مؤتمر كنسى لتلافى تلك المشكلة المتصاعدة وحدد له الزمان والمكان. ولكن البطريرك المصرى الذكى والقوى تساندة سمعة مدرسة اللاهوت السكندرى أرسل خطابات تفصيلية تحكى وجهة نظره فى هذا الصراع إلى حوالى ٧٠ من رؤساء الكنائس خارج مصر.

عقد المؤتمر سنة ٣٢٥ فى مدينة نيقية يحفه الكرم الإمبراطورى ومركزه وكان قسطنطين رئيساً للمؤتمر إلا أنه لم يتدخل فى قراراته. حضر هذا المؤتمر ويعد الأول من نوعه فى العالم المسيحى الكثير من الأساقفة ورؤساء الكنائس. وقد ذهب ألسكندروس إلى المؤتمر تساندة مظاهرة من الأساقفة التابعين للكرسى البابوى وكان معه أيضاً سكرتيره الشاب الطموح والعنيد أثناسيوس. نوقش فى هذا المؤتمر العديد من مشاكل الكنيسة إلا أن أهم ما كان يتعلق بأريوس وآرائه وقد ساد المؤتمر آراء البطريرك المصرى وقرر المؤتمرون قانوناً سمى بقانون الإيمان



لم تقبل الإسكندرية الخضوع أو التسليم وقد زاد من قوة الصراع نفوذ الكنيسة المصرية الذى لم يكن ممكنا تجاهله وقوة أثناسيوس والتفاف المصريين حوله



والذى مازال يعمل به للآن فى الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية. ويهمنا فى هذا القانون الجزء الذى يقول «الأب والابن والروح القدس إله واحد» (عائلة الإله المقدسة اختراع فرعونى قديم). خسر أريوس هذه الجولة إلا أن المعركة لم تنته خصوصاً أن بعض مؤيديه كانوا قريبين من سلطة الدولة.

كان أثناسيوس سكرتير الكسندروس وشديد القرب منه وكان تحت رئاسة الكنيسة المصرية ما يقرب من مائة أسقف من مصر ومن بعض مدن شمال أفريقيا. وقد تعرف أثناسيوس على الكثيرين من رؤساء الكنائس الأخرى خلال مؤتمر نيقية. بعد وفاة الكسندروس عام ٣٢٨ لم يكن من العسير على أثناسيوس أن يخلفه فى رئاسة الكنيسة وكان عمره حوالى الثلاثين عاماً إلا أنه كانت هناك بعض المشاكل فى اختياره والتى لن أتعرض لها هنا.

لم تنته مشكلة أريوس بانتهاء مجمع نيقية بل ابتدأت سلسلة من المشاكل تدخل فيها الأباطرة الرومان لغرض قبول أريوس يساندهم فيها بعض رؤساء الكنائس إلا أن الكنيسة المصرية والتى كانت ذا نفوذ قوى رفضت أى تغير فى قرار مجمع نيقية وكانت فى ذلك الوقت تحت رئاسة أثناسيوس. وقد حارب أثناسيوس حرباً طويلة دفع ثمنها ومعه الشعب المصرى. وفى رأيى أن أثناسيوس أصبح رمزاً مصرياً لمقاومة الرومان التف حوله المصريون ورفضوا أى بديل عنه ولا أعتقد أن أغلب الشعب المصرى كان يستوعب المشكلة اللاهوتية. قرر الأباطرة الرومان وبعض المجامع الكنسية نفى أثناسيوس وتعيين بديل له من القسطنطينية وكان هناك شبه إجماع ضد تمسك أثناسيوس وقال له أحد أصدقائه «العالم كله ضدك يا أثناسيوس

فقال أثناسيوس: وأثناسيوس ضد العالم».

نفى أثناسيوس أو طرد من منصبه سبع مرات لفترات مختلفة كان أطولها لمدة عشر سنين وكان يعود بعد كل مرة لمنصبه أقوى وأشد مما كان. كان مجموع سنوات النفى ١٨ عاماً وزاول مهام منصبه لمدة سبعة وعشرين عاماً فى فترات متقطعة. حاولت المؤسسة الدينية فى القسطنطينية والمتحالفة مع الإمبراطور فرض بطاركة آخرين على المصريين بديلاً عن أثناسيوس ولكن المصريين رفضوا أى بديل للزعيم المصرى والذى أصبح رمزاً لمقاومة التعسف الرومانى. كانت بعض فترات النفى خارج مصر أما أغلبها فكان عبارة عن اختفاء أثناسيوس داخل مصر ولم يستطع الرومان وأصدقاؤهم بمصر العثور عليه.

لم يتزحزح أثناسيوس قيد أنملة عما اعتقد أنه الإيمان السليم ولولاه لتغير وجه المسيحية فى العالم. ومن أهم أعمال أثناسيوس أنه وحد الكنيسة من الاضطرابات التى عاصرتها وكانت بدعة أريوس أهمها وكادت تشق الكنيسة. كما أنه ربط حركة الرهبنة بالكنيسة والتى كانت من قبله مستقلة عن الكنيسة. وقد ابتدأ فى تعيين أساقفة ومطارنة من بين الرهبان وابتدأ البطاركة من بعده يعينون رؤساء الأديرة وأصبح التقليد المتبع للآن أن يختار البطريرك من بين الرهبان. وقد كتب أثناسيوس حوالى ٤٥ رسالة وكتاباً كان أوسعها انتشاراً سيرة حياة القديس أنطونيوس المتداولة للآن وإن كانت محل نقاش من البعض. اعتباراً من عام ٣٦٦ وحتى وفاة أثناسيوس عام ٣٧٣ استقر فى الكرسى البابوى واستقرت معه الكنيسة المصرية ولم تتغير كثيراً حتى الآن.

لم تكن المشاكل مع أثناسيوس لاهوتية فقط بل كان لها بعد سياسى مهم. كانت رئاسة الإمبراطورية الرومانية فى القسطنطينية وفى روما بينما كانت الرئاسة الدينية فى الإسكندرية ولم يكن ذلك أمراً مقبولاً فى وقت التحمت فيه الكنيسة بالدولة وأصبحت إحدى مؤسساتها المهمة. ولم يكن مقبولاً من الحكام أن تكون رئاسة المؤسسة الدينية خارج العاصمة. لم تقبل الإسكندرية الخضوع أو التسليم وقد زاد من قوة الصراع نفوذ الكنيسة المصرية الذى لم يكن ممكناً تجاهله وقوة أثناسيوس والتفاف المصريين حوله. ولم يكن من الممكن لهذا الصراع أن ينتهى دون أن يسلم أحد الأطراف للآخر. ولهذا لم ينته الصراع. كانت هناك بعض فترات هدوء فى المظهر فقط فقد انفجر الصراع مرة أخرى عام ٤٥١. كان الصراع هذه المرة حول خلاف لاهوتى بسيط لن أتعرض له الآن. عقد مجمع كنسى فى ذلك العام عرف باسم مجمع خلقدونيا انفصلت على أثره الكنيسة المصرية ومعها السورية عن باقى الكنائس وسأنهى هذا المقال بما قاله المؤرخ الأمريكى ساويرس جوردن تعليقاً على انفصال الكنيسة المصرية:

عندما ذهب المصريون إلى خلقدونيا كانوا فخورين بتاريخهم الفرعونى وكانوا على حق بذلك وكانوا فخورين بآباء مدرسة وكنيسة الإسكندرية وكانوا على حق فى ذلك قالوا لأعضاء المؤتمر ما يعتقدون أنه الصواب وعندما رفض المؤتمر وجهة نظرهم خرجوا من المؤتمر وكانوا على حق فى ذلك أيضاً.

منذ عام ٤٥١ أصبحت الكنيسة المصرية كنيسة قومية مستقلة تعرضت لكثير من المشاكل ولكنها لم تغير هديتها المصرية وككنيسة لم تتغير كثيراً خلال ١٥٠٠ عام. ■

المراجع

(1) The Nag Hammadi Library, James M. Robinson, General Editor, Harper & Row Publisher, 1977.

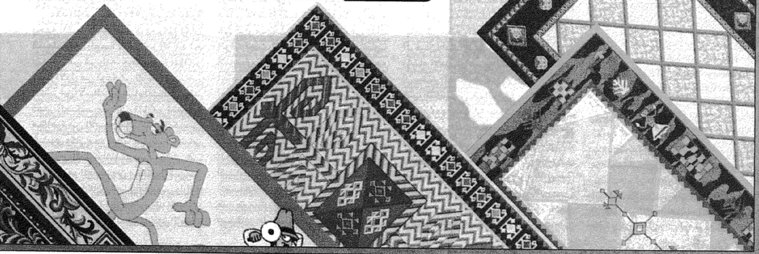
(2) The Gnostic Gaspels, Elaine. Pagels, Vintage Books, 1998

(3) The Roots of Egyptians Christianity, Birger A. Pearson and James E. Geohring, Editors, Fortress Press, 1986

(4) The Letters of St. Antony, Samuel Rubenson, Studies in Antiquity, 1990.

(5) Athanasius and Asceticism, David Brakke, John Hopkins University Press, 1995

(٦) الاب متى المسكين، القديس أثناسيوس الرسولى، دير القديس أنبا مقار، الطبعة الثانية، سنة ٢٠٠٢.



نجيب محفوظ.. الحائر



■■ نجيب محفوظ هو نجيب محفوظ هو الأول بين كتاب الرواية، من باب الريادة، ومن باب الإجادة قضى فى عمره الطويل - أطال الله سنيه بيننا - أكثر من ستين عاماً متربعاً على القمة، دون أن يستطيع أحد - من الكاتبين بالعربية - أن يزاحمه فى المكان والمكانة.

ومكان نجيب محفوظ ومكانته لم يأتيا من فراغ، جاءا نتيجة أعمال - جيدة كثيرة - أراد لها أن تستقرئ واقعنا الوجودى،

بين الغائب والمتروك!

هشام السلاموني

والسياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي، فاستطاعت - الأعمال - أن تقرأ بأكثر مما أراد، بل وبأكثر مما علم شخصيًا ويعلم، وهذه إحدى خصائص الفن، الذي لا يحيد مبدعه عن التمسك بالصدق الفني وحده، فالصدق الفني - وحده - هو مربط الفرس في الفن، يعطيه عمقه الإنساني الخالص، ورؤيته الكشفية البصيرة الثاقبة، ويهب مبدعه - كما يهب فنه - البقاء والاستمرار والخلود.

ولقد حير نجيب محفوظ نقاده (وإن كان القارئ «البرىء» لأعماله لم يعان نفس الحيرة العجيبة!)، وهكذا تطوح النقاد بأدبه إلى اليمين، حتى أقصاه في الصوفية والقدرية، وإلى اليسار، فأخذه بعض المشايخ والمتفقهين حتى ساحات الكفر والضلالة والإضلال، حدث هذا بينما تراوح به بعض ثالث في حركة بندولية لا تتوقف عن التأرجح في غياهب الطبقة الوسطى المحافظة، وشريحتها الدنيا، التي لا تستطيع التخلص من عجزها، ولا يخيفها إلا التردي إلى قاع المجتمع حيث الفقر والجوع والمرض، ومن ثم لا تتمسك بمبادئ، وخلال هذا التخبط النقدي، الذي عمد إلى تقويل النصوص، أكثر مما عمد إلى تأويلها[1]، رسموا عدة صور للرجل - وليس لأعماله - وهو أمر غير مستحب نقديًا لكونه مضللاً، فوق كونه شديد الخطورة على الفن، بل ويحمل بذور إفنائه في مجتمعاتنا التي غاب عنها كل ما هو أصيل، فهددتها أصولية لا تستحب إمعان الرؤية والتفكير.

في مواجهة كل هذا، لا يكون من الغريب أن نبدأ مقالاً - نقديًا - عن قراءة جديدة لأعمال نجيب محفوظ العظيمة، وفنه العالي الجميل الخالد، بالتفرقة بين الفيلسوف، والمفكر، والمثقف، وعالم النفس، وصاحب الرأي، والأديب، لا حيلة لنا في الأمر، والكثيرون - في حياتنا الثقافية - يخلطون بين الأقانيم الستة، ويتعاملون معها - أو مع أغلبها - وكأنها شيء واحد!، أو على أنها صفات يمكن أن يوصف بها أديب فنان!! (بعض الناقدين إذا أرادوا مدح أديب وصفوه بواحدة أو أكثر من هذه التوصيفات «الأقانيم»، أو بكلها مجتمعة!! غير عارفين أنهم بها أو بإحداها ينفون عنه صفة الأديب العملاق، التي يريدون جادين أن يتوجوه بها!!).

ليس لنا حيلة، وهذا الشيء الواحد هو عين الظلم الفادح، الذي عاناه أديبنا الكبير في تأويل أعماله، وتقويلها، وهو السبب الرئيس وراء تلك الواقعة الشنعاء الرهيبة، التي كاد يدفع نجيب محفوظ حياته النبيلة ثمنًا لها، حين كمن له بضعة ممن لم يقرءوا حرفًا في رواياته، وطعنوه طعنات غادرة، مازال يعاني آثارها في ذراعه الأيمن، وأصابعه التي أمسكت سنين بالقلم لتهبنا أغلى ما لدينا من الروايات، ثم كان - هذا الظلم الفادح - أُسَّ ما عاناه من تبعه من الفنانين الحقيقيين الموهوبين، من مطاردة وتضييق، بل وما يعانيه حرية الإبداع ذاتها (الأمر خطير إذن)، وأظن أنني بالإضافة لهذا - في مواجهة الأمر الخطير - أمتلك القدرة والشجاعة لأقول - نقديًا وعلى أسس فنية - إن هذا الظلم الفادح هو نفس الشيء الذي صنع من أنصاف الموهوبين، ومن عديمي الموهبة، من يشار إليهم - في الساحة الأدبية - بالبنان في مجتمعنا العربي (حين يفتعلون الفن افتعالاً، بقصدية لا تنتمي إلى الفن، ويقدمون أعمالاً قصيرة العمر وجماهيرية، وهو أمر في الحقيقة لا يقل خطورة عن سابقه)، وصنع فئة ثالثة يتعيش أصحابها ويتكسبون على اتهامات، يستجلبونها بأعمالهم عمدًا، ومع سبق الإصرار والترصد، لكي تتعقبهم - الاتهامات - محققين الشهرة، دون فن يهبونه (وهو أمر ثالث بالغ الخطورة في حياتنا الثقافية وبالغ الخطر، بل هو شيء مدمر).

ليتحملنا القارئ قليلاً إذن (مادام الأمر جللاً)، ولنبدأ في التفرقة، مستعينين بالفلسفة والفكر وعلم الجمال.

الأقانيم الستة:

الفيلسوف صاحب نظرة كلية للوجود، يصل إليها في محاولة لأن يحصل على منظومة من أجوبة للمسائل أو الأسئلة الكبرى في الكون وحياة الناس ومصائرهم.

والمفكر صاحب معطيات يراها مؤكدة، يستهدف منها الحصول على منظومة من الأجوبة على مسائل أو أسئلة يظنها مهمة أو ضرورية أو عاجلة.

والمثقف صاحب هموم واقعية، يحولها إلى أسئلة، مجاهدًا من أجل الحصول لها على إجابات من الأيديولوجيات المتاحة (غالبًا من أيديولوجية واحدة).

وصاحب الرأي صاحب ثقة فيما توصل إليه - ذهنيًا - في معالجته لإحدى القضايا.

أما عالم النفس فيرى الإنسان كلاً (هو النفس الإنسانية الواحدة - العامة - في تجلياتها المجتمعية العديدة والمختلفة) يحاول سبر أغواره، والوصول إلى كنه التحول في حالاته، وكيفية العودة به إلى التوافق مع المجتمع (والتوافق الإيجابي الذي يسعى إلى تغيير المجتمع - إلى الأفضل - نوع عظيم وسام من التوافق، إذ لا يغفل التوافق مع النفس خلال الرغبة في التوافق مع المجتمع).

والأديب (ونعني الأديب العظيم حين نتكلم عن الأديب) غير هؤلاء جميعاً، إنه شيء آخر غير الفيلسوف والمفكر والمثقف وصاحب الرأي والعالم النفسي (حتى لو زعم بعض الفنانين وقالوا بغير هذا!! أو أحبوا أن يزعموا بغير هذا!).

الأديب لا يبدع بنظرة كلية (كالفيلسوف)، إن ما يستغرقه هي التفاصيل الصغيرة في حياة إنسان بعينه (أو مجموعة من البشر بعينها، كما رسمها ووصفها هو)، يبني بها - الأديب - سلمه الصاعد من منتهى الخصوصية إلى العام والمشترك الرحب، دون تعمد أو قصدية (فالقصدية اصطناع يشوه الفن، وهي ضلال - في الفن - أكثر من كونها وسيلة معرفة!).

والأديب وهو يبدع لا يكون صاحب معطيات يراها مؤكدة، إنه يبدأ من حدث غائم (هو واقع فني، وليس واقعًا معيشًا، أو هو واقع معيش لم تتحدد أبعاده كلها بعد ليصبح فنيًا، إن لم يكن - في بعض الأحيان واقعًا يتم تخليقه في الخيال)، يشاغله - هذا الواقع الفني - ويخاتله، ولا يتحدد - في صورة شبه مفهومة أو متفهمة - إلا أثناء الكتابة، وهو - الواقع المعيش - حين يتحدد يفرض نفسه (كما هو، وليس كما يحب أن يراه الأديب) ويفرض معطياته الخاصة (شديدة الخصوصية)، بل ويفرض تناميه على المبدع الخالق نفسه.

والأديب لا يكتب بثقافته (الثقافة هي الطريقة التي تعيش حياتك على نهجها، وتتعايش بها مع الآخرين) لكنه يغوص ويتلبس - ويكون - شخصيات عمله، ومن ثم يكتب على ضوء ثقافات تلك الشخصيات (ولا يكتب الثقافة المُحصلة في مجتمعه، أو ما يسمى ثقافة المجتمع في فترة زمنية معينة وفي مكان معين).

والأديب يعرف أن التصرفات وليدة الشخصية المتفاعلة مع الواقع (الحدث الذي يُنسج من خيوط الواقع أو الأحداث/ المحاكاة) في عمله، وليست وليدة لتفاعلات الإنسان بشكل عام (كُلي) مع عناصر الواقع الكلي في فترة راهنة، ومن هنا فإن فارقًا كبيرًا ينشأ بين الأديب والعالم النفسي، الذي يحاول أن يصل في طريق البحث عن المشترك، إلى قوانين عامة تحكم أو تكشف التصرفات الإنسانية.

الأديب - واقعيًا - صاحب حيرة، يبدأ من حيرته (حدث

سألت مرة الأستاذ نجيب محفوظ:
- في «ثرثرة على النيل» توقعت حضرتك النكسة قبل أن تدهمنا بعام، كيف عرفت أن النكسة قادمة؟!!
رد الأستاذ بصدق وتواضع معروفين عنه: - هل كان في مصر وقتها من يتوقع نكسة، حتى أعرف أنا أنها آتية؟!!

غائم أو فكرة غائمة)، وقد يصل منها إلى حيرة أشد، أو هو بالتأكيد يصل منها إلى حيرة أشد، وإلى رغبة فى المعرفة لا تنطفئ لها جذوة، ولو كان الأمر غير هذا، غير كونه - الأمر - حيرة تتجدد، لكتب الأديب عملاً واحداً واكتفى.

هذا المحير المسمى الأدب!:

الأديب - واقعياً - يستهويه أمر، فيحاول أن يمسك بهذا الأمر أثناء الكتابة، متمنياً (لكى يحصل على اللذة بعد الألم) أن ينتهى من اجتلاء هذا الأمر.

والكتابة - لو أمعنا فى التجريد - محاولة للتخلص من الحيرة فى مواجهة الوجود، وأحداث الحياة، وتصرفات الإنسان خلال ضغوطها، وفى مواجهة الضغوط، وأيضاً فى وجه المصير الدنيوى والميتافيزيقى الغيبى.

وقديماً قال أرسطو أن الدراما وسيلة للمعرفة، ولأنه لم يقل وسيلة معرفة لمن، فإننى أسمح لنفسى - بقناعة - أن أقول أن الكتابة الدرامية كفعل (والفنون جميعاً) وسيلة للمعرفة يستعين بها الأديب لحظة الخلق الفنى ليعرف (حين يستطيع الإمساك بما يخاتله، وحين ينمو هذا المخاتل مصنوعاً على عينه)، وأن ناتج الكتابة (وأرى أن كلمة ناتج أفضل من كلمة منتوج فى هذا السياق، فكلمة منتوج تقربنا من معنى القصدية، التى لا أراها واقعية فى الأدب العظيم إلا فى اختيار الموضوع) وسيلة معرفة للمتلقى (والناقد يمثل درجة عليا سامية فى التلقى).

نعم يكتب الأديب العظيم ليعرف، لا ليعرِّف، يكتب ليَعلَم لا ليُعلِم أو يُعلِّم، يكتب لتقول له الكتابة شيئاً، لا ليقول بالكتابة شيئاً.

وحتى لو حاول الأديب أن يكتب ليعرِّف ويعلِّم ويقول، فإن الكتابة الحقيقية (الصدق الفنى) قادرة على تغيير المفاهيم التى بدأ بها، وتغيير الأديب نفسه!! (لا يخرج الأديب من الكتابة الحقيقية كما دخل - أبداً - إنه يخرج أكثر معرفة بالحياة، وبالإنسان، يخرج متغيراً).

ثم إن الكتابة واحدة من تجربتين، تجربة مستعادة (عاشها الأديب أو تعايش فيها مع آخرين عاشوها)، وهذه التجربة لا تُكتب كما تَصوّر الأديب أنها حدثت فى الواقع تماماً، لكن الأديب يجد فيها آفاقاً جديدة قد انفتحت على ما لم يتصور إنه يعرفه، أو هى - الكتابة - تجربة متخيلة، تجيب عن سؤال يبدأ بـ «ماذا لو حدث كذا أو كيت لفلان أو علان..»، والأديب وهو يكتب التجربة المتخيلة، يستعين فيها بخبراته المعيشة، أو تلك المستقاة من معايشته لتجارب من عاشوا حوله وتعايش معهم فى تجاربهم (الأديب يكتب عما لا يعرف بعناصر مما عرف وخبر، وهكذا الأدباء الذين يكتبون الخيال العلمى أيضاً)، والنتائج فى كل الحالات تكون محصلة جدلية لما يعرفه الأديب ولما لا يتصور أنه يعرفه، ولما تكشف عنه القراءات المتعددة (بلا حصر للعمل الواحد).

والحقيقة أن للحدس (وهو نشاط الجزء الوظيفى المعروف بـ «ما دون الوعى»، بعد إجهاد مضن للعقل الواعى، وهو - واقعياً - نشاط يصل إلى نتائج، لا ترتبط بشرطية السبب والنتيجة، أو العلة والمعلول فى العقل الواعى، وقد تبدو نتائجه أو منتوجاته غير ذات صلة مفهومة بمقدماتها، إذ تقفز قفزاً مكتملة إلى الوعى، هى فى أغلب الظن نتيجة اتحاد النقائض فى منظومة، نجهل تراتباتها، اتحاداً جدلياً «دياليكتيكيا»)، الحدس عامل مشترك فى كل إبداع، لكن الحدس فى الأعمال الأدبية هو الأساس، وهو السيرورة والصيرورة فى عملية الخلق الفنى، وهو بالضرورة سابق لإعمال الذهن فى توضيب الناتج.

إن الأعمال الأدبية - فى لحظة الخلق، نتاج تفكير حدسى، وهو نوع من التفكير لا يشبه التفكير المنطقى المترتب على التوفيق بين المعطيات، أو التفكير العلمى المعروف القائم على التجربة والمشاهدة والاستنتاج، إنه نوع ثالث من التفكير أقرب ما يكون إلى الفتوح الصوفية.

إن العمل الفنى العظيم يدهش - أول ما يدهش - كاتبه (وكثيراً ما يتساءل الكاتب الكبير، حين يتوقف عن الكتابة - ولو إلى حين - ويعاين ما كتبه، «هل حقيقة أنا من كتب هذا؟!.. كيف؟!!»).

فالكاتب يرى فى عمله، وهو يراجعه، أو وهو يعيد قراءاته بعد تمامه (بفترة زمنية طالت أو قصرت)، ما لم يلفته فيه أثناء الخلق الفنى.

والدراما (والرواية نوع من أنواعها غير المكتملة بتمام التجسيد «الفعل»، كما يحدث فى المسرح، إذ يتدخل السرد فيها فى قمع الصراع الجدلى ولو بنسبة ضئيلة، وهو أمر لا يستطاع فى المسرح مهما حاولنا)، الدراما هى صراع بين مختلفين أو متعارضين، صراع تتلاحم فيه عقول ورغبات وإرادات وأفعال، هذه العقول والرغبات والإرادات والأفعال تصنع الحدث، مثلما يصنعها هو. الحدث ـ ويحركها ويفعل بها، الدراما فعل جدلى.



الدراما اقتطاع فى زمان متواصل وفى مكان، تظهر الحدث المشتعل فى لحظات قد تمر كغيرها، دون إدراك عميق لمكوناتها وتفاعلاتها، فى حياة البشر، ولنتائجها أيضاً (من هنا جاءت المحاكاة)، ليتم فى هذا الاقتطاع معاينة الحدث (زمنياً ومكانياً) معاينة تسمح بالتأمل، والتصادم الجدلى مع المتلقى، الذى يعاين ويتمعن الأفكار والرغبات والإرادات والمصائر، وقد سلط الضوء عليها جميعاً.

ليس فى الدراما رأى واحد (ولا رغبة واحدة ولا إرادة واحدة، ولا فعل وحيد).

لهذا - ومنذ اكتشفت الإنسانية الدراما (هذا الفن الجدلى)، ابتعد المؤلف، والمنفذ الفنى الخلاق (المخرج.. مصمم الديكور، الموسيقى...) والمؤدى، ابتعد كل هؤلاء عن ذواتهم، واقتربوا من شخصيات العمل، التى لا تشبههم فى الحياة، بل وأصبحنا نحكم على موهبتهم وإنجازهم الفنى بمقدار ابتعادهم عن ذواتهم وآرائهم ولغتهم أيضاً، ومدى تلبسهم الشخصية الفنية.

إن تعدد الأصوات فى العمل الفنى، يعنى أن ليس صوت المؤلف موجوداً فى العمل، وقد يعنى - وهذا هو الاحتمال الفنى الأعظم - أن العمل لا يتضمن صوتاً للمؤلف على الإطلاق، بل الصوت الكائن هو تلبسه للشخصيات ورؤيته من خلالهم.

إن المؤلف الدرامى الجيد، والعظيم، يذوب كلاهما فى شخصياته، ولا يستأجر أيهما الشخصيات لإبراز صوته (مثلما يفعل أنصاف الموهوبين ومن هم دونهم، وهؤلاء الذين يحبونه أن تلاحقهم الاتهامات، ومن ثم الشهرة، أكثر مما يحبون الفن الكشاف كوسيلة للمعرفة).

ومرة أخرى نحن نتكلم عن الفن الجيد والعظيم.

الفن الملتزم بالصدق الفنى.

هذه اللحظة الزئبقية المسماة لحظة الخلق الفنى!:

بكل ما فات فإن المؤلف (لكل أشكال الدراما/ الأدب) لا يكون نفسه فى لحظة الخلق، الملتزمة بالصدق الفنى، واقعياً يكون المؤلف عناصر من مكوناته فى اشتباك مع عناصر من الواقع المستفز والمستنفر للحيرة، وبهذا تكون العناصر المتشاركة فى لحظة الخلق الفنى بعضها خارجى (الواقع بعناصر منه) وبعضها داخلى (عناصر التجربة الحياتية العريضة للمؤلف، وهى مبعث ثقافته)، منها ما هو موضوعى (ينتمى إلى بنية الواقع) وبعضها ذاتى، وبعضها يعى بها المؤلف (عناصر ذهنية) وبعضها يكمن فيما دون وعيه (عناصر حدسية).

هذه العناصر غير قابلة للحصر ولا للتوصيف الكامل حتى الآن.

لهذا قلنا إن المؤلف الجيد والعظيم يكونان أول المندهشين بالناتج المكتوب (نتيجة حتمية للعناصر التى لا نستطيع توصيفها حتى الآن، ولا يعيها المؤلف نفسه، وبعض العناصر التى لم يكن المؤلف يتصور وجودها فى وعيه أيضاً).

ولهذا نقول إن العمل الفنى يكون أكبر مما كان عليه مؤلفه قبل لحظة الخلق الفنى (التى يعرف فيها ما لم يكن يعرف، وتستخرج منه - أيضاً ما لم يكن يتصور أنه يعرفه)، بل وبعدها - كذلك - إذ يكتشف المتلقى لأعماله (ناقداً/ قارئاً) ما لم يعلمه المؤلف فى عمله، ومنطقياً



الغريب أن أغلب النقاد لا يصدقون نجيب محفوظ (وهو صادق - كامل الصدق - فيما يقوله عن فنه، وفيما لا يقوله أيضاً)، ويرون فى كلماته نوعاً من المكر الجميل



بالجمع بين كلا الحالتين (قبل الخلق الفنى وبعده) يكون العمل الفنى - حقيقة - أكبر من كاتبه (يعرف أكثر من كاتبه، وإن رفض الكاتبون الاعتراف بتلك الحقيقة).

بقى أن نتكلم فى ثلاثة أمور.

أولها: أن لحظة الخلق الفنى (بكل ما حاولنا شرحه) لا تجعل من العمل الفنى شيئًا يصلح أن نسميه رأى المؤلف فى موضوع ما، العمل الفنى ليس شيئًا غير العمل الفنى، وهو بعد الولادة الفنية يُقطع حبله السُرّى عن المؤلف (كأى وليد)، فلا يبقى للوليد من أبيه (المؤلف) إلا أن يحمل بعضًا من ملامحه (وبخاصة الأسلوب فى السرد، وليس فى الحوار).

الأمر الثانى هو العلاقة بين الأيديولوجية والكتابة، ولنقل أن الأيديولوجية قد تتدخل فى اختيار الموضوع، لكن لكون الإنسان هو مادة الأدب، فإن لحظات الخلق الفنى، الملتزمة بالصدق الفنى وحده، لها شأن آخر، فهى لا تستطيع الالتزام بغير الصدق الفنى، وبغير إنسان (واحد أو أكثر) له مواصفات خاصة، فى حدث يتمتع هو الآخر بالخصوصية، وإن كان جزءًا فاعلاً ومتفاعلاً - جدليًا - فى بنية الواقع المادى كله، هذا الالتزام الفنى (الصدق الفنى) يجعل الفن كاشفًا لنقائص الأيديولوجيا السائدة، ويجعله فوق الأيديولوجيا، ولأن الأيديولوجيات بطبعها متحركة فى مواجهة واقع لا يعرف الثبات، ذلك لأن جمودها - الأيديولوجيات - يجعلها عاجزة عن الإجابة عن أسئلة لا ينفك الواقع يطرحها، فهى فى حاجة إلى الفن الكشاف عن وضعية الإنسان فى ظل تطبيقاتها، فى حاجة إلى حرية الفن، فى ألا يكون بوقًا لما هو متسيد، بل لما هو مأمول، فلا يمكن محاسبة الفن بالأيديولوجيا، إن الأيديولوجيات تُحاسَب بالفن الملتزم بأمرين - وهى «الأيديولوجيا» مثل الفن فى خدمتهما، أو أن المتصور والغائى أنهما فى خدمتها، الصدق والإنسان.

الفن يحاسب الأيديولوجيا.

الأيديولوجيا لا تحاسِب الفن.

الأيديولوجيا تنتقص من القدرة الكامنة فى الفن.

الفن يساعد فى تعميق الأيديولوجيا التى تستهدف صالح الإنسان.

والأمر الثالث أن فارقًا كبيرًا يكمن بين الموضوع والمضمون، الموضوع (المبدئى/ الأولى) يكون من اختيار المؤلف، وإن كان فى أغلب الأحيان يفرض نفسه فرضًا على المؤلف، فلا يستطيع التهرب من الكتابة، وإلا طارده العمل الفنى، وطرده من واحات الراحة والشبع النفسى، وإن كان الموضوع هو «المدخلات» التى يدخلها المؤلف إلى العمل الفنى مختارًا، أو مضطرًا للاختيار، فإنه يصح أن نقول إن الموضوع ينتمى إلى المؤلف (وإن كان محتواه يتعرض للتغيير أثناء عملية الخلق الفنى، لهذا نقول الموضوع المبدئى/ الأولى)، لكن المضمون، وهو «مخرجات» العمل الفنى فى لحظات الخلق (التى لا يكون فيها المؤلف نفسه كما يتصورها ويعيها)، شىء ينتمى إلى العمل الفنى، وليس للمؤلف، من هنا لا يستطيع المؤلف أن يحدد مضمون عمله تحديدًا كاملاً ونهائيًا، ويبقى التحديد النهائى عملاً من إعادة الخلق تتم عبر قراءات عديدة (تتضمن اختلافات) للعمل يقوم بها المتلقى (نقادًا وقراء)، فى زمن المؤلف وبعده، فالتلقى درجات، وله صيرورة عبر الزمن (هل نتلقى التراجيديات اليونانية الآن، ونستمتع بها بنفس الكيفية التى تلقاها بها أهل أثينا، لا يمكن ذلك، لقد تلقاها أهل أثينا كجزء من نظرتهم الميافيزيقية للكون نشأة وسيرورة ومصيرًا، بينما تُخلق فينا نحن معارف - ممتعة - أخرى مختلفة.

بعدما سبق لا يحق لأحد أن يقول أن أديبًا يقصد إلى ذلك فى عمله، أو أن أديبًا قال فى عمله، الصحيح الوحيد أن نقول إن العمل الفنى قال (من خلال قراءتنا نحن له)، لا يصح أن نتصور أن العمل الفنى هو رأى الأديب، هذا ينطبق على المعنى الكلى للعمل الفنى، فما بال القارئ، بجُملة حوارية، تنطقها شخصية فى العمل (ليست هى المؤلف بالتأكيد)، أو جملة سردية فى خضم الجمل، التى يزخر بها العمل الفنى، أو جزء من العمل طال أو قصر، إن المعنى الكلى محصلة جدلية - متفاعلة - لأجزاء العمل، وليس حاصل جمع جبرى لمكوناته، وما ينتمى للشخصيات ينتمى لها، داخل الحدث المعين، ينتمى لرأيها، لثقافتها، لرغباتها، وإرادتها.

الأديب يُسأل عن أمر وحيد، هل تحرّى الصدق الفنى، أو افتعل، ولوى عنق شخصيات عمله لتقول ما لا يمكن أن تقوله، بعد أن رسمها - هو - لنا، وحدد خصائصها التفاعلية، الأديب يحاسب - فقط - على الصدق الفنى.

أما المتلقى فهو المسئول عن تأويل العمل.

والبعض يسأل عن تقويله.



ولكن لماذا نمضى بعيدًا هكذا؟!!

أعترف الآن بأن القارئ يكاد - أو أنه - بالفعل يعتقد أننا فتحنا موضوعًا عن نجيب محفوظ، ثم أخذنا علم الجمال (وأمور أخرى) بعيدًا، لكننى كنت استمحت القارئ عذرًا فى البداية، وطلبت منه أن يتحملنا قليلاً (وإن كنت - معترفًا - أخذتها فرصة، وأثقلت عليه، بما رأيته ضروريًا فى قراءة جديدة لأعمال الكاتب الكبير!).

الآن لن نذهب بعيدًا.

سألت مرة الأستاذ نجيب محفوظ:

- فى «ثرثرة على النيل» توقعت حضرتك النكسة قبل أن تدهمنا بعام، كيف عرفت أن النكسة قادمة؟!!

رد الأستاذ بصدق وتواضع معروفين عنه:

- هل كان فى مصر وقتها من يتوقع نكسة، حتى أعرف أنا أنها آتية؟!!

(هكذا قال الأستاذ إن العمل الفنى الجيد يعرف، ويتشوق، ويرى ما لم يكن يعرفه الأديب العظيم قبل عملية الخلق الفنى، بل وأثناءها، وبعدها بوقت أيضًا، وأن التفكير الحدسى أثناء عملية الخلق يصل إلى نتائج محيرة حتى للأديب نفسه، وأن النص يكون - فى حالة الأدب العظيم - أكبر من كاتبه، وأن التفكير الحدسى هو وسيلة الفن العظيم فى التشوف المستقبلى والنبوءة).

وفى كتاب جمال الغيطانى «نجيب محفوظ يتذكر» قرأت ما أذهلنى - وقتها - فسألت الأستاذ:

- أحقًا أردت أن تكتب بداية ونهاية كوميديا؟!

- فعلاً حدث، أردت أن أكتبها كوميديًا، عن بطليها، اللذين كان معنا فى المدرسة، وكانا يمارسان علينا كل حيل النصب (القرارى)، ليخرجا من جيوبنا (بضعة لطافة) كل قرش فيها، ويأخذاه منا، ولكنها - الرواية - انقلبت فى يدى إلى هذا القدر الهائل - الذى استشعره الناس - من الحزن على من أردت الضحك منهما!!

(وهكذا قال الأستاذ إن العمل الفنى يفرض على مبدعه ما لم يكن يتصور أن يفرضه عليه قبل أن يبدأ عملية الخلق، وأن النص قد تعاطف - حين كشف المغمض فى حياة أبطاله - مع الأبطال عكس رغبة كاتبه وإرادته الأولية، أى عكس الفكرة المبدئية باختياراتها الإرادية).

وذات مرة قال نجيب محفوظ لجلسائه:

- أنا كتبت «خان الخليلى» عن شخصية حقيقية، كان صاحبها موظفًا فى إدارة الجامعة، وبقيت خايف موت يقراها، ويعمل معايا جناية، الغريب إنه قراها وما عرفش نفسه فيها!

(ألم نقل أن الشخصية الفنية ليست مرآة سلبية لمصدرها الواقعى؟، إنها مرآة لما لا تعرفه الشخصية الواقعية عن نفسها، وما يمكن ألا تصدقه أيضًا عن النفس، ومرآة تعكس ما لم يكن يتصور الأديب أنه يعرفه عنها).

وفى إحدى الليالى - فى منزل الأستاذ الدكتور يحيى الرخاوى (أستاذ الطب النفسى بكلية الطب، جامعة القاهرة)، قلت للأستاذ نجيب محفوظ:

- أنت دائمًا تقول إنك تحب وتقدر الرئيس السادات، بينما لم يدِن عمل فنى السادات، وعصره مثلما أدانته مجموعتا «الشيطان يعظ» و«الحب فوق هضبة الهرم»، بل إن رواية «ليالى ألف ليلة» قالت إنه لابد مقتول!!

وتساءل الأستاذ مفكرًا،



إن نجيب محفوظ الذى كتب «أولاد حارتنا»، ليس هو نجيب محفوظ الذى كتب - بنفس حيرته، ولكن بعد أن تنامت بشكل مذهل لنا ومؤرق له - «الحرافيش»



وهو الذي يعرف أن للعمل الفنى أكثر من قراءة:

- حقيقى الكلام ده؟!

(هذا يعنى أن العمل الفنى يقول بالحدس ما لا يتصور الفنان أنه مقتنع به!، ولينتبه القارئ إلى أننى قلت إن «ليالى ألف ليلة» قالت، ولم أقل إن الأستاذ نجيب محفوظ قال فيها، فالواقع أن العمل الفنى هو الذي يقول ما يعرفه المؤلف، وما لم يكن يتصور أنه يعرفه، حتى عرفه من العمل، أو تعرف عليه فيتابع الكتابة، فالعمل الفنى - كما ألحنا ليس رأى كاتبه).

وفى الخطابات المتبادلة بين الأستاذ الدكتور أدهم رجب (رئيس قسم الطفيليات - السابق - فى كلية الطب جامعة القاهرة) وصديق نجيب محفوظ(٢)، عاتب الدكتور أدهم (وكان فى لندن وقتها) نجيب محفوظ، لأنه لم يعط الثورة حقها فى روايته الجديدة (فى حينها) «رادوبيس»، فرد الأستاذ عليه فى خطاب، بأن الثورة التى جاءت فى نهاية العمل لم تكن هى ما يهمه، وأن ما كان يهمه هو هذه العلاقة بينه الملك والفرعون والغانية «رادوبيس».

(هكذا قال الأستاذ إن ما كان يهمه هو الالتزام بالشخصيات والحدث والصدق الفنى، أما العمل - وهذه وجهة نظرى ولم يقل بها الأستاذ - فقد قال رأيه فى ضرورة الثورة على هذا الفرعون، دون أن يشغل الكاتب نفسه بغير الصدق الفنى، أو دون أن ينشغل بالأيديولوجيا).

وألف مرة (إن لم يكن أكثر) قال الأستاذ:

- لا يغيظنى شىء بقدر ما يغيظنى سؤال يحرص عليه البعض «ماذا أردت أن تقول فى العمل الفلانى أو العلانى؟».

وفى كل تلك المرات كان يتنهد الأستاذ ويقول:

- لو كنت أعرف ما الذى أريد قوله، كان إيه لزوم التعب، كنت قلته فى مقال وانتهى الأمر.. ما أريد قوله، أو ما كنت أريد قوله، هو كل ما كتبته فى العمل، وكل ما يمكن أن يفهمه القراء منه.

وفى كل مرة كان الأستاذ يسأل مستفسريه:

- ما الذى فهمته أنت من العمل؟!

ولم يحدث مرة أن اعترض الأستاذ على أى فهم يبديه أمامه مستفسره، فهو يعرف أن قراءات العمل الفنى تتعدد وتختلف عند التلقى تعدداً واختلافاً ليس بالقليل، وأن فيها لدى المتلقى ما هو ذاتى وموضوعى، وقد كانت ولازالت إجابة الأستاذ الخالدة على من يناقشونه فى أعماله:

- يجوز.. ممكن برضه.

(هكذا قال الأستاذ إن المعنى الكلى «المضمون» للعمل الفنى يخص النص «ناتج الكتابة» ولا يتعلق بقصد الكاتب).



والآن.. من يصدق نجيب محفوظ؟!!

الغريب أن أغلب النقاد لا يصدقون نجيب محفوظ (وهو صادق - كامل الصدق - فيما يقوله عن فنه، وفيما لا يقوله أيضاً)، ويرون فى كلماته نوعاً من المكر الجميل، بل والدفاع عن فنه بعدم التصريح بما يريد أن يقوله فى العمل، والأغرب أن بين النقاد - الذين لا يصدقون - مبدعين من المفترض أنهم تعايشوا - فى لحظات الخلق الفنى - مع ما يصرح به نجيب محفوظ!!

هؤلاء النقاد لا يصدقون أن نجيب محفوظ - كأى أديب عظيم - صاحب حيرة عظيمة.

لا يصدقون أنه - حين اختار الأدب - لظروف حرمانه من البعثة العلمية - بعد أن درس الفلسفة، فى كلية الآداب، جامعة فؤاد (القاهرة الآن)، وتفوق فى دراستها، لم يعد إلا مستفيداً من الفلسفة، ربما فى اختيار موضوعاته، لكنه فى لحظة الخلق الفنى (الكتابة)، لا يلتزم بغير الصدق الفنى مع الحدث المكتوب، والمحاكاة الفنية للواقع (التى لا تجعله يستبعد الصدفة فى أعماله، أو القدرية - كما يسميها البعض، لأنها جزء من التفاعل الحيوى للواقع، كما تقر الفلسفة المادية الآن)، ولا يلتزم - أيضاً - بغير الشخصيات (الروائية أو القصصية أو المسرحية)، التى يصنعها الحدث مثلما يصنعون هم الحدث، لهذا لا ينتمى المضمون الكلى لأى عمل من أعماله لفلسفة بعينها، ولا يشكل مجموع مضامينه فلسفة خاصة، بل يشكل حيرة هى الأعظم (هذا إذا افترضنا أننا ملتزمون بالمعنى الكلى للأعمال كما هو، وأننا لا نلوى عنق النصوص، ونجرها وراء أفكار مسبقة، بحبال مصنوعة من جملة نقتطعها فى السرد من هنا أو هناك، أو نعمم معنى جملة فى الحوار، منتزعة من السياق، ومن المزاج التكوينى لقائلها - فى النص - على النص كله).

ثم من قال إن كل دارس للفلسفة فيلسوف؟!!

لقد بدأ نجيب محفوظ مقالاته، فى الثلاثينيات من القرن الفائت، وهو صاحب حيرة عظيمة(٣)، وأصبح فى أصداء سيرته الذاتية - بعدما يقرب من ستين عاماً، مترعة بالإنتاج الفنى الشديد التميز - الأستاذ الشيخ: «عبد الله التائه».

هكذا الأديب العظيم يبدأ حائراً، ويقترب من النهاية - أطال الله عمره - عبد الله التائه.

فى واحدة من «أصداء السيرة الذاتية»(٤)، كتب نجيب محفوظ:

- كان أول ظهور الشيخ عبد ربه فى حينا حين سمع ينادى:

«عيل تائه يا أولاد الحلال»..

- ولما سئل عن أوصاف الولد المفقود قال:

«فقدته منذ أكثر من سبعين عاماً فغابت عنى جميع أوصافه».

من يصدق نجيب محفوظ؟!!

أنا أصدقه، ولولا هذا لما كتبت هذه المقالة على هذا النحو.

أنا أصدق أنه، منذ بدأ الكتابة، وهو صاحب حيرة عظيمة، وأنه حتى الآن عبد الله التائه.



فى أعمال نجيب محفوظ هناك «غائب» دائماً! وفى أعماله «متروك» دائماً. وفى أعماله يرتحل المتروك (كادحاً كدحاً) فى اتجاه الغائب

سلسلة مفاتيح لقراءة أعمال نجيب محفوظ:

أول المفاتيح هو القراءة البريئة، أو التلقى البرىء، فالحقيقة أن قد تولدت لدينا - نتيجة تأويلات تعسفية لبعض النقاد، وتقويلات مختلفة لبعض آخر - صورة ذهنية عن نجيب محفوظ تصاحب أعيننا ونحن نقرأ، وتصل مع ما نقرأه عبر الشبكات العصبية إلى العقل، وتشغل الوجدان، ومن ثم تحرم قراءتنا من البراءة الضرورية للاستمتاع - المشبع - بالعمل الفنى، ومن استخلاص قراءاتنا الخاصة - الواهبة للمعرفة - لهذا العمل.

والصورة الخاصة التى نكونها لأى أديب هى صورة مضللة، ومضللة، بالضرورة، ذلك أن أى أديب عظيم يكون فى حراك مستمر، لا يوجد أديب عظيم لا تغيره أعماله، مثلما يغيرنا هو بأعماله، الأعمال التى تجعلنا أكثر فهماً للحياة، تجعل كاتبها - قبلنا - أكثر فهماً، وتغيره، والحقيقة أن العمل الفنى يرسم صورة للأديب فى فترة من فترات حياته، قبلها كان إنساناً آخر، وبعدها بالتأكيد هو إنسان ثالث، لكن الأديب لا يتحكم فى صورة عمله الإبداعى.

إن نجيب محفوظ الذى كتب «أولاد حارتنا»، ليس هو نجيب محفوظ الذى كتب - بنفس حيرته، ولكن بعد أن تنامت بشكل مذهل لنا ومؤرق له - «الحرافيش»، ليس هو فى الشكل الفنى، أو فى المضمون أو المعنى الكلى، الأديب - لولا ملامح مشتركة - لا يكون نفس الأديب فى عملين متتاليين، فما بالك بمن استمر فى الكتابة - وننتظر منه المزيد - لما يقارب السبعين عاماً!!، ومثلما يكون الأديب غير نفسه فى كل عمل، فإن كل عمل بالضرورة شىء قائم بنفسه، فى لحظة إبداعه، ويجب أن يكون كذلك - لكى يكون أكثر إمتاعاً - عند التلقى.

إذن فلنقرأ كل عمل، ونحن متأكدون أنه لنجيب محفوظ جديد أو مختلف، غير سامحين لصورة الأديب الثابتة فى أذهاننا بالتشويش على قراءتنا.

بغير هذا نحن نظلم الأدب العظيم والأديب العظيم.

المفتاح الثانى هو قناعتنا بأننا نقرأ للأديب نجيب محفوظ، الذى استغرقه الصدق الفنى، والتزم به وحده، ليس للفيلسوف، أو المفكر، أو المثقف، أو العالم النفسى، أو صاحب الرأى الأيديولوجى نجيب محفوظ، أى بقناعتنا بأن نقرأ

عملاً أدبيًا، مادته وغايته الإنسان (بصفات وملامح خاصة) كما هو كائن فى لحظة معينة، وفى حدث له خصوصية، يحاول فيه الأديب فهم ما هو كلى وعام بالاستغراق فيما هو جزئى وخاص، يحاول بالكتابة فى غير المفهوم أن يفهم، ونحن فى التلقى نحاول معه، أو نحاول بما كتبه أن نزداد فهماً.

المفتاح الثالث هو قناعتنا بأننا نطالع أدباً إنسانياً، صالحًا لكل زمان ومكان، أدباً إنسانياً لأنه ارتبط بإنسان (أو مجموعة من البشر فى أزمة، نحن ندخلها معه أو معهم، أو ندخل شبيهتها عند القراءة أو التلقى أو على الأقل نتمثلها، وهذا أضعف الفن)، وأن نقتنع بأن ليس للعمل الفنى العظيم مرجعية خارجة عند التلقى، (وإن كنت أوافق جولدمان[٥] والبنيويين فى المرجعية الخارجية - الواقع المادى - إذا اقتصر كلامهم على لحظات الخلق الفنى فى كل مراحله، وتتضمن موافقتى كون الأديب غير واع - بصورة كلية متكاملة بهذه المرجعية. وأن عمله الفنى هو الذى يكشفها، إذ تكمن عناصر كثيرة منها فيما دون وعى الأديب، يستخرجها له تفكيره الحدسى، وهو تفكير أعمق من التفكير الذى عهدناه، فالحادث، والكائن أن للتلقى سيرورة مع الزمن وصيرورة أيضًا، ولأن هناك للتلقى سيرورة وصيرورة، فإن المرجعية الخارجية - فى لحظة الخلق - تفقد نفس قدرتها على التأثير فى المتلقى، الذى فارقها بسنوات بعيدة أو شديدة البعد، ولا يبقى منها إلا الإنسان - داخل العمل الفنى - فى أزمة (أيضاً داخله)، نتمثلها ونعايشها، وحقيقة أن الأزمة تتضمن مرجعيتها التاريخية، لكن وعى المتلقى - من غير الناقدين المتخصصين - لا يستطيع أن يراها وحدها، أو يفصلها عن ثنايا العمل الأخرى، لا يستطيع أن يرى منها غير جزئها الطافى وحده، فالعمل الأدبى يتضمن التاريخ فى عناصره، لكن العمل الأدبى (العظيم) مهما حاول لا يستطيع أن يكون تأريخًا بمعنى التأريخ، وهكذا فإن ما يصلح لتفسير لحظة الخلق الفنى، لا يحكم التلقى بالضرورة، ولا يعنى كلامى هذا - على الإطلاق - أن الأعمال الفنية العظيمة، فى وقت، تفقد قيمتها - أو بعضها - مع مرور الزمن، إن كلامى يعنى العكس تماماً، ألم نقل إن للتلقى سيرورة وصيرورة؟!، وهاتان - السيرورة والصيرورة - قادرتان على إثراء العمل الفنى بأكثر مما نتصور، فيما لو تخطى زمان كتابته).

والحقيقة أننى أركز على هذه النقطة تركيزًا كبيرًا، فقد دأب بعض النقاد على أن يصلوا إلى ما يتصورونه المعنى الكلى بأعمال نجيب محفوظ، عن طريق البحث عن رمز يشير للواقع الآنى (وقت إنتاجها)، وبعضهم - فى أحسن الأحوال - قدم واحدة من قراءات عديدة للعمل العظيم، والإسقاط السياسى، الذى دأبوا عليه، لم يعد ضرورياً لفهم الأعمال، إن شيئًا أكبر مما عاينه هؤلاء، يكمن فى قراءة الأعمال، وقد انقضت ظروف إنتاجها، هو الذى يقفز إلى السطح فى القراءات الحالية، وهذا شأن العمل الأدبى العظيم، وهو ما يجعله عملاً خالدًا، وينفى عنه وقتيته، وهذا أيضًا الفارق بين نجيب محفوظ، وبعض من لمعوا فى بعض الأوقات المتزامنة مع أعماله، ثم خبا نورهم الزائف.

المفتاح الخامس - وهو مفتاح ذو خصوصية بأعمال نجيب محفوظ، وليس مفتاحاً عاماً للقراءات المشبعة - وهو الأهم فى نظرى، هو الحيرة العظيمة للأديب العظيم، حيرته بين الغائب والمتروك.

فى أعمال نجيب محفوظ هناك «غائب» دائماً!

وفى أعماله «متروك» دائماً.

وفى أعماله يرتحل المتروك (كادحًا كدحًا) فى اتجاه الغائب.

وفى أعماله يسقط المتروك قبل أن يصل إلى الغائب.

فى أعمال نجيب محفوظ حيرته العظمى بين الغائب والمتروك.

والمتروك فى أعمال نجيب محفوظ، هو الإنسان بالمعنى الكلى، وهو الشخصية الرئيسية، التى تعى الترك وتعانيه فى العمل الفنى.

المتروك عند نجيب محفوظ هو الإنسان فى كل زمان ومكان، والترك يعنى افتقاد الحماية، ومن ثم الأمان، ويحمل فى طياته فرض الاضطرار عليه حين يريد الاختيار، والإنسان يؤرقه الخطأ وتؤرقه الخطيئة، مثلما يؤرقه افتقاده للحماية، ويؤرقه الاضطرار.

الإنسان يستطيع الاختيار، لكنه - فعليًا - يرسف فى قيود الأضرار.

ولا تكمن مأساة الإنسان فى اضطراره وحده، ولكن تكمن أيضًا فى قدرته على الاختيار.

الإنسان يؤرقه اضطراره..

ويؤرقه أيضاً أنه مع اضطراره قادر على الاختيار.



عند نجيب محفوظ حيرة بين الاختيار والاضطرار، فالإنسان عنده يحاول الاختيار فى نفس الآن الذى يقع فيه فريسة لأنياب الاضطرار شديدة الشراسة، الهوجاء، التى لا ترحم، ومن هنا كان المنبع - الذى لا يمكن اتقاؤه - للتراجيديا الإنسانية، فى نظره، ومن هنا يكون مفتاح كبير للقراءة الجديدة لأعمال كاتبنا العظيم، الحاصل - بجدارة - على جائزة نوبل فى الأدب.

وأعمال نجيب محفوظ ترى أن الإنسان عاجز عن أن يقدم الاختيار على الاضطرار، لأسباب كثيرة، منها أن الاضطرار لا يرحمه، ومنها أن تاريخ النوع البشرى يثبت أن فى الإنسان عجزا يقعده عن - إن لم ينفره - من الاختيار، إنه - فى لحظات حاسمة - يفضل أن يكون كالمحيطين به، إذ هو أضعف من أن يشذ عنهم، ومن أن يتحمل نتائج شذوذه، لو هو طرد من واحة الأمن الذى يحققه وجوده فى جماعة ما، ثم إنه يحصل على خبراته من تلك الجماعة، وهى خبرات قد جربت، ولهذا فإن لها مصداقية كبيرة ومريحة وقتيًا لديهم (وإن كانت اضطرارية زائفة فى حقيقتها)، ومن ثم تصبح لها نفس المصداقية لديه (بنفس الخواص المرتبكة)، والحقيقة أن الجماعة بكل صورها بدءاً من العائلة الصغيرة إلى الكبيرة، وصولاً إلى الانتماءات الكبرى تلوث براءة الإنسان، ولا تقضى عليها قضاء مبرماً، لهذا لا يرتاح الإنسان أبداً، فبراءته - التى لوثت - تعذبه، وعجزه عن استعادة نقائها هو العذاب الأكبر، ورضائه عن اضطراره من رابع المستحيلات.

المتروك عند نجيب محفوظ هو الإنسان فى كل زمان ومكان، والترك يعنى افتقاد الحماية، ومن ثم الأمان





والإنسان عند نجيب محفوظ متروك - لاضطراره - لأن هناك غائباً.

والغائب عند نجيب محفوظ يتخذ صوراً تتكامل ولا تضاد.

الغائب قد يكون الله، وقد يكون العدل الاجتماعى، وفى كل الأحيان هو أمان النفس.

والله غائبًا لا تعنى عند شخصيات نجيب محفوظ أنه غير موجود (ولا يمكن - كما أسلفنا - أن نرى رأى نجيب محفوظ فى آراء شخصياته الفنية)، ولكن تعنى - عند الشخصيات - أنه محجوب، والحقيقة أن الله غيب، والغيب فى اللغة يعنى الغياب ويعنى الشك معًا[٦]، (ألم يقل إبراهيم لربه إنه يريد أن يرى كيف يحيى الموتى لكى يطمئن قلبه؟!).

الشك لا ينفى الوجود، ولا ينفى الإيمان بالغائب الموجود[٧]، الله غيب لأنه محجوب عن حواسنا، ولسان العرب يقول: إن الغيب هو كل ما غاب عن العيون «سواء كان محصلاً فى القلوب أو غير محصل»[٨].

والغياب أو الحجب، له جانبه الملازم لما قلناه، والجانب الملازم هو أن الإنسان - بالضرورة - محجوب عن الله (هل نتمعن قليلاً فى اسم محجوب عبد الدايم، فى «القاهرة الجديدة» لنجيب محفوظ؟)، ولأن أسماء الشخصيات هى فعل واع من الكاتب، ولأن بعض الأسماء لها دلالات فى بعض أعمال نجيب محفوظ، فإننا نجزم بأن محجوب عبد الدايم، مثل شخصيات محفوظية كثيرة - عند نجيب محفوظ - مغيَّب عن الغيب، محجوب عنه (وهذا بما شرحناه عن الغياب والغيب، يجعل ما ارتكبه الذين لم يقرءوا حرفًا من كتابات نجيب محفوظ - باعترافهم - عملاً أخرق أحمق فى حق الكاتب العظيم، والإنسانية معًا، ومؤثماً، وإن ارتضاه بعض من يقصرون اسم رجال الدين على أنفسهم).

ولعلى ممن يرون أن «أولاد حارتنا»

رواية دون مستوى روايات الكاتب العظيم، وأن ضعفها جاء نتيجة لكونها تحتاج إلى مرجعية من خارجها (هى بنية موازية للتاريخ بذهنية ملحوظة، تحتاج لكى نفهمها أن نردها للتاريخ بتفصيلاته أكثر من أن تعلمنا هى بتفصيلاتها)، ولأن نجيب محفوظ فيها - وحدها - حاول التخلص من حيرته العظيمة بقصد، لا يبرره التصاعد الروائى المبنى على الحيرة، لذا جاءت النهاية فيها مفتعلة، وذهنية، لم يفرضها الصدق الفنى، فى رأيى، ولقد عاد نجيب محفوظ لنفس موضوعها الأثير عنده، والمحير له ولنا - فى «الطريق» ولكن بفنيات عظيمة، وبحيرة لا تنتهى بصورة قصدية مفتعلة، ولعل هذا الأمر كان شاغله - أيضاً - فى «حضرة المحترم»، وفى «الحرافيش»، وفى «رحلة ابن فطومة»، وفى «ليالى ألف ليلة»، وفى قصص قصيرة كثيرة، وروايات قصيرة عديدة كذلك، وهذا دليل على أن الكتابة - وهى تزيد كاتبها وعياً بالحياة وفهماً للإنسان - لا تخلص الكاتب من حيرته، بل من الممكن أن تزيد الحيرة، وقد ازداد فهماً، بدليل عودة الكاتب إلى نفس الموضوع، منتجاً عملاً جديداً - أو أعمالاً - ومضموناً جديداً - أو مضامين.

هل يصح أن أحيل القارئ إلى ما تضمنه كتاب رجاء النقاش «نجيب محفوظ.. صفحات من مذكراته، وأضواء على أدبه وحياته» من اعترافات، كان منها قوله: إن فى أعمال قلبى وروحى إيماناً بالله لم تنتزعه منى دراستى للفلسفة، ولا تفكيرى المتصل فى مشاكل الإنسان والمجتمع والكون (٩)، هل يصح ذلك وقد أجهدت القارئ معى فى تبيان ضرورة الفصل بين رأى نجيب محفوظ وآراء شخصياته فى أعماله؟ لا أظن أنه يصح، ولكن الهجمات الشرسة لمن لا يستوعبون الكثير من علم الجمال، وضرورة وأهمية الفن، اضطرتنى. كأبطال نجيب محفوظ - لما لست مقتنعاً به، فليس من وظيفة النقد البحث فى النيات والحكم عليها.

ولقد قلنا أن الغائب فى روايات نجيب محفوظ هو العدل الاجتماعى أيضاً، وهو الأمن النفسى للإنسان فى كل الأحوال، وأن الغائب يتكامل فى أعماله ولا يتضاد، وقصة ارتحال الإنسان المتروك إلى الغائب بالمفهومين الآخرين، أو بالمفاهيم الثلاثة المتكاملة، نستطيع أن نراها بوضوح فى قلب الليل، وفى اللص والكلاب، وفى الحرافيش، وليالى ألف ليلة وليلة، وفى ليلة قتل الزعيم.. بل فى كل أعمال نجيب محفوظ دون استثناء، بشكل ظاهر أو خفي، وأننا يمكن أن نرى لها تلخيصاً مذهلاً. وإن كان لا يمكن الاستعاضة به - فى روايته «الشحاذ»، بحيث نستطيع أن نقول باطمئنان إن من المفاتيح الكبرى فى قراءة أعمال نجيب محفوظ حيرته بين الغائب والمتروك، حيرته فى ارتحال المتروك إلى الغائب، والسقوط التراجيدى للمتروك قبل الوصول (حتى لو قيضت له حياة أخرى غير حياته، يحاول أن يصلح فيها ما أفسده فى حياته الأولى، وهو رأى فنى، واضح فى «ليالى ألف ليلة»).

أليست حيرة نجيب محفوظ عظيمة مثله، ومثل حيرتنا؟!! ■

هـــــوامـــــش:

١ - راجع مقال الدكتور جابر عصفور «نقاد نجيب محفوظ»، فى كتاب «نجيب محفوظ، إبداع نصف قرن»، إعداد وتقديم: الدكتور غالى شكرى، دار الشروق، القاهرة١٩٨٩.

٢ - نشره ضياء الدين بيبرس فى ملحق خاص فى مجلة أكتوبر، بعد حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل.

٣ - راجع «القصة القصيرة فى مسرح القرن العشرين»، هشام السلامونى، المجلس الأعلى للفنون والآداب، القاهرة ٢٠٠٤.

٤ - «أصداء السيرة الذاتية.. نجيب محفوظ»، مطبوعات مكتبة مصر، القاهرة ١٩٩٥. ١٠١ صفحة.

٥ - نظريات معاصرة، جابر عصفور، الأعمال الفكرية، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٨، جولدمان ورئية العالم، ١٠٧ صفحة وما بعدها.

٦ - لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، مادة «غيب».

٧ - للرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه لمحاوريه ما معناه، إذا كنتم قد وجدتم الشك فقد آمنتم، أو كما قال.

٨ - لسان العرب، مرجع سابق، صفحة ٣٣٢٢.

٩ - نجيب محفوظ، صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه، مركز الأهرام للترجمة والنشر، مؤسسة الأهرام، القاهرة ١٩٨٩، صفحة ٢٩٨.



الأسطورة الشخصية

محمـــــد عبد المطلب

[١]

■ عندما نقترب من شخصية عادية لنتعرف عليها، من الضروري أن نهيئ أنفسنا لهذا الاقتراب بتجميع قدر كاف من المعلومات التي تجعل من هذا الاقتراب أمراً مفيداً ومجدياً. لكن عندما نقترب من إنسان يفارق المألوف ويخرج على (العادي) فإن التهيئة لا تكتفي بمثل هذه المعلومات السريعة العجلة، وإنما تحتاج إلى نوع من الإعداد العقلي والنفسي على صعيد واحد. فإذا انتقلنا بالاقتراب إلى منطقة الأسطورة، فإن التهيئة يجب أن تصعد إلى أفق التخيل بكل طاقته في إدراك ما وراء الواقع، أو ما فوق الواقع.

كان هذا كله في الوعي ونحن بصدد مقاربة (نجيب محفوظ) أسطورة مصر في القرن العشرين. وهو أسطورة مدت أبعادها وتأثيراتها إلى العالم العربي والعالم الإنساني.

لقد تحققت أسطورة محفوظ من عمره الإبداعي الذي كاد يستغرق عمره الزمني، ذلك أن الأساطير لا تقاس بمساحتها الزمنية، وإنما تقاس بمساحاتها التأثيرية، وبقدر اتساع هذه المساحة تزداد قامتها شموخاً يوازي شموخ الآثار الخالدة.

ومن طبيعة الأسطورة أن تبدأ تجلياتها في دائرة زمنية بعينها، لكنها تتغلب على الزمن المحدود. لتفرض وجودها في الزمن المطلق، وخلال هذا التحول تمتص إضافات وركائز في الأسس واللواحق الإضافية إلى أن تأتي لحظة التوقف الموازية للحظة الاكتمال، حيث تستحيل إلى كائن يعيش في الذاكرة الإنسانية ويخايلها في كل مراحلها الحضارية.

لكن على مستوى (الأسطورة الشخصية) يكون الزمن طوع هذه الشخصية، فيقدم لها عناصر الحيوية. ويفتح أمامها نوافذ التجربة والخبرة، ويسمح لها بالاستمرار في مرحلة شبابها لا تغادرها إلا لتعود إليها. أو لنقل: إن الزمن يتوقف بها في مرحلة النضج، ويعمل على تعميقها رأسياً. وتوسيع مداها أفقياً، ومن ثم تصير إلى حالة دائمة من التحفز للاقتحام والمغامرة المحسوبة التي لا تعرف النكوص أو النقص، وإنما تعتاد التنامي الصاعد مع الحفاظ على البكارة والنقاء.

وهكذا نجيب محفوظ يعيش زمن الشباب المقتحم الذي يلتحم بحاضره دون أن يحول نظره بعيداً عن أفق الآتي بكل احتمالاته المتوقعة أو غير المتوقعة، وبرغم استقرار محفوظ. بعمره الإبداعي. في زمن الشباب، فإنه - في عمره الفعلي قد بلغ مراحل الكهولة والشيخوخة والكبر والهرم. بل إن بلوغ هذه المراحل المتتالية كان فاعلاً بالغ التأثير في تشكيل (البصمة

المحفوظية) بكل خصوصيتها في إطار العمومية، وبكل فرديتها في خضم الجماعية، فنجيب محفوظ المصري في إطار عروبته، والمصري العربي في إطار إنسانيته، وكأن الزمن مع محفوظ قد خرج عن قانون وجوده، فهو يتحرك حركة مزدوجة، للأمام تارة، وللوراء تارة أخرى. أو لنقل إن حركته أصبحت حركة واحدة لا نتبين فيها وراء أو أماماً، لأنها خاضعة لحركة محفوظ الذهنية والنفسية، فماضيه هو مستقبله، ومستقبله هو ماضيه بكل شموخهما الباذخ.

إن هذه المسيرة الممتدة زمنياً وإبداعياً بطبيعتها الجدلية بين الماضي والحاضر والآتي، قد أكسبت نجيب محفوظ قدرة غير محدودة على العطاء، وعظمة هذه القدرة في أنها لا تنتظر مردوداً لعطائها. صحيح أن المردود قد يكون أحياناً، من دوافع الاستمرار في العطاء، لكن ذلك لا يكون إلا مع الشخوص المألوفة التي تمر عليها الحياة، أو تمر هي على الحياة مروراً مألوفاً يتشابه بمرورها على الشخوص العادية، لكن يتغير الموقف تماماً مع الشخوص الأسطورية التي تطول بقامتها عنان السماء، حيث تمارس الأسطورية فاعليتها بين الناس دون أن تنتظر جزاء ولا شكوراً.

لقد أتاحت الخصوصية والتفرد لمحفوظ إمكانية الرؤية الشاملة العميقة التي تعايش واقعها المباشر، ثم ترصد تحولاته الداخلية والخارجية، الجزئية والكلية، دون أن تعوقها هذه المعايشة الحميمة عن معاينة الواقع الإنساني في نماذجه العليا والدنيا، وفي تحولاته السياسية والاجتماعية والثقافية، فمحفوظ مصري وطني، وعربي قومي، وإنساني كوني على صعيد وعيه الذاتي، وعلي صعيد وعيه الإبداعي.

[٢]

إن طبيعة الأسطورة أن تغيب شخوصها وأحداثها عن الواقع لتحتل الذاكرة التخيلية، ويغيب معاصروها، أو من عايشوها في تجليها المتخيل، لكن أسطورتنا تنفرد بحضورها المباشر الذي يلازم الواقع، ويصعد به إلى أفق التخيل، وكثير ممن عايشوها، مازالوا يعايشونها، ويتشبعون بحضورها وإن استحال معظمهم إلى كتاب مفتوح يسجل أحاديث الأسطورة أحياناً، ويسجل ما يدور عنها وحولها أحياناً أخرى أو لنقل إن كل واحد من الحواريين قد تحول إلى ذاكرة محفوظية تسجل ما تراه، وتحفظ ما تسمعه، وتضيف إلى هذا وذاك انطباعها الذاتي في قدر كبير من الدقة والأمانة، ومن ثم فقد تراكم عن محفوظ سجل شفاهي حافل يقرب الأسطورة من الواقع، ويحيطها بكم وافر من الوثائق الشفاهية والكتابية التي تتساوق مع كثرة الصحاب والرواد، وأظن أن هذه الصفحات سوف تستمد من هذه الوثائق معظم معارفها عن أسطورة نجيب محفوظ الحياتية والإبداعية.

تقول الوثائق إن نجيب محفوظ ولد سنة ١٩١١، وكان هذا المولد بشارة مرحلة التحول في الواقع المصري. فقد انفتحت نافذة الوعي الأكاديمي قبله بسنوات قليلة، حيث أنشئت جامعة فؤاد الأول (القاهرة) سنة ١٩٠٨، وهو عام وفاة الزعيم مصطفى كامل الذي ظل صوته مدوياً في أسماع المصريين بعد وفاته، وكانت أصوات شوقي وحافظ وإسماعيل صبري وسواهم من المبدعين تملأ سماء الوطن، وكان سعد زغلول يقود حركة الوعي إلى ذروتها في سنة ١٩١٩. وكانت المرحلة إرهاصاً بالفن الذي سوف ينبغ فيه محفوظ، إذ صدرت رواية (زينب) لهيكل سنة ١٩١٤.

ولكي تكتمل للأسطورة مكوناتها الجوهرية، كان التحاقها بكلية الآداب. قسم الفلسفة سنة ١٩٣٠، حيث تخرج فيها سنة ١٩٣٤، وقد صاغ القسم محفوظاً صياغة عقلية ونفسية من طراز خاص، هذه الصياغة التي شكلت رؤيته للعالم بكل عمقها وشمولها، وبكل توجهاتها في البحث عن الجوهر الذي لا تحجبه الأعراض والهوامش، صحيح أن العرض والهامش قد يكونان مطلوبين أحياناً عند محفوظ. لكنهما مطلوبان لخدمة الجوهر الأصيل بوصفه المادة الأولية للوجود.

وفي مرحلة مبكرة من العمر أخذت العبقرية الأسطورية لمحفوظ تمارس تجلياتها في الكتابة، حتى إنه ترجم (كتاب مصر القديمة) لجيمس بيكر عن الإنجليزية وهو طالب في المرحلة الثانوية، وقد نشره سلامة موسى بوصفه نوعاً من التشجيع لهذه الموهبة المبكرة التي بدأت أولى خطواتها في كتابة تاريخها الإبداعي العظيم.

لكن التجلي التنفيذي لهذه الأسطورة كان في كتابة (المقال) الذي بدأه سنة ١٩٣٠ وعمره تسعة عشر عاماً. واستمرت عملية الإنتاج حتى سنة ١٩٥٢، حيث قدم في هذه الفترة ما يقرب من سبعة وأربعين مقالاً، وقد تداخلت مرحلة المقال مع مرحلة (القصة)، حيث كانت بدايتها سنة ١٩٣٢. ثم تداخلت المرحلتان من زمن (الرواية) التي كانت بواكيرها سنة ١٩٣٩.

[٣]

ومن سمات الأسطورية الإبداعية أن تتوازى مسيرتها الحياتية ومسيرتها الثقافية، فمنذ الصغر دفع والد محفوظ بابنه إلى رحاب المعرفة الأولية في (الكتاب) لتكون منابعه الأولى في (القرآن)، وكانت قراءة القرآن وحفظه من مهيئاته لاستقبال الثقافة العربية من منابعها المركزية التي كان يزداد إقباله عليها في شهر رمضان، فقرأ كتب السيرة والتراجم، وقرأ الشعر الجاهلي، ثم أقبل على أبي نواس وبشار بن برد والبحتري والمتنبي وأبي العلاء، ثم أقبل على التصوف وقرأ ابن عربي والسهروردي والنفري، ومن طبيعة التداعي أن يقوده التصوف إلى الفلسفة التي أصبحت ركيزة معرفية حرة، ومعرفة أكاديمية منهجية بعد التحاقه بقسم الفلسفة.

لقد كانت قراءة الفلسفة ودراستها نوعاً من الإضاءة المبهرة، وأكسبته طبيعة منهجية في مسلكه الخاص والعام، وكان هذا كله ذا أثر بالغ في مسيرته الإبداعية، لأن المبدع الحق في حاجة أساسية للثقافة الشاملة، ومن أهمها الثقافة الفلسفية، لأنها تؤسس المنهج من ناحية، وتنظم الفكر من ناحية ثانية، وتوسع دائرة الرؤية من ناحية ثالثة.

ونعتقد اعتقاداً يقينياً أن الوعي الفلسفي كان الركيزة لمشروع نجيب محفوظ الروائي من حيث النسق المعرفي، والتنظيم المنهجي، والحرص على القيم والأعراف والتقاليد، وإعطاء الرؤية قدراً وافراً من الشمول والاتساع، وإكسابها كماً وفيراً من الوعي التأملي الذي يلاحظ مفردات العالم في مصيرها المعقد، وصيرورتها الغامضة.

وعظمة ثقافة محفوظ أنها خصبت نفسها بالانفتاح على الثقافة الغربية في مستوياتها وأشكالها المختلفة، وقد بدأت مرحلة التخصيب مبكراً، حيث يقول محفوظ أنه في سنة ١٩٣٠ اقتنى كتاباً



أجنبيًا هو (المعرفة الجديدة) وكان أشبه بدائرة للمعارف، وكان به شغوفًا، لأنه يحيط بكافة الأنشطة الإنسانية التي كانت تلح عليه بالأسئلة، وقد نقله هذا الكتاب من حالة اللا معرفة إلى حالة المعرفة، وقد دفعه هذا الكتاب إلى قراءة سواء من كتب القمم الثقافية والفكرية.

والعجيب أن يقول محفوظ: إنني كلما قرأت كتابًا أشعر بأن الجهل يطاردني، فأتغلب عليه بالاستزادة من القراءة، وبخاصة في مجال القراءة الإبداعية، فقد قرأ (بيكيت)، وأحب (ديستويفسكي) و(بروست) و(كافكا) و(شكسبير) و(يوجين أونيل) و(باسترناك) و(توماس مان) و(طاغور) و(حافظ الشيرازي)، كما قرأ (جويس وتشيكوف وهمنجواي وفوكنر).

واللافت أن هذه الخبرة الثقافية النظرية قد تم تخصيبها بالخبرة الثقافية العملية التي اتاحتها محفوظ من مجموع الوظائف التي تولاها، فقد كانت وظيفته في وزارة الأوقاف بمثابة مصدر معرفة أدبي واجتماعي على صعيد واحد، وذلك أن الوظيفة قدمت له (المعمل الواقعي) بكل محتوياته من القيم والأعراف والعادات والتقاليد وبكل محتوياته من النماذج البشرية المتباينة، وقد اتسع هذا (المعمل) بمجموعة الوظائف اللاحقة، فقد عمل مديرًا للرقابة، ومديرًا لمؤسسة دعم السينما، ورئيسًا لمجلس إدارتها، ثم رئيسًا لمؤسسة السينما ثم مستشارًا لوزير الثقافة لشئون السينما، حتى أحيل للمعاش سنة ١٩٧١.

لقد أمده كل موقع وظيفي بمجموع المكونات البشرية التي تعامل معها أو التقى بها، كما أمده بكثير من الأحداث والحكايات، وكشف له كثيرًا من أبعاد الواقع المحيط به، أي أننا يمكن أن نعتبر هذه الوظائف نافذة أطل منها وعي محفوظ على عالمه المباشر، خاصة إذا أدركنا أنه كان بعيدًا عن العمل السياسي والحزبي، وربما كان انتماؤه الحزبي الوحيد هو حزب الوفد قبل الثورة.

[٤]

إن نمط الحياة ومكونات الثقافة كان لهما أثر بالغ في مسيرة نجيب محفوظ، ولا شك أنهما قد ساعدا على إكساب هذه المسيرة طابعها الأسطوري الذي افترضناه بداية. وذلك أن الأسطورة تكتسب إنسانيتها وعمقها من الواقع الذي تلتحم به أولاً، ثم ترتفع بهذا الواقع إلى منطقة التخيل ثانيًا، وسواء ظلت الأسطورة ملتحمة بالواقع، أو حلقت به إلى منطقة التخيل فإنها تحتفظ لأسطورتها بقدر هائل من الانتظام، أو لنقل: إن الأسطورة تستحيل إلى بنية نظامية لا تعرف العشوائية، ويستوعب هذا النظام الذات في مسلكها الخاص والعام، ويستوعب مجموع الأحداث التي تعايشها أو تحولها إلى بناء حكائي، كما يستوعب مجموع الشخوص وما يغلفها من أبعاد مكانية وزمانية، والذات المتكلمة تأتي في مقدمة الشخوص المنضوية في بنية النظام.

وقد كان نجيب محفوظ (بنية نظامية) في أساسياته وهوامشه، وربما كانت الهوامش أوغل في الدلالة على هذه البنية من المتون.

ومن هوامش النظام عنده التزامه في مسيرته اليومية للرياضة، فكان يلزم طريقًا محددًا لا يحيد عنه، حريصًا أن يمر على الأماكن التي يمر بها كل يوم ويدور حولها كعادته، كما لو كان هذا النظام المروري طقسًا مقدسًا لا يجوز الانحراف عنه.

ويمكن القول إن جغرافيا المكان كانت ركيزة أساسية في إبداع نجيب محفوظ، حيث استحوذت عليه أماكن بعينها في أحياء القاهرة الشعبية، وكثير من رواياته تتخذ مدخلها من (العنوان) لأحد الأماكن مثل: (كفاح طيبة) (القاهرة الجديدة) (خان الخليلي) (زقاق المدق) (بين القصرين) (قصر الشوق) (السكرية) (الطريق) (ثرثرة فوق النيل) (ميرامار) (الكرنك) (حكايات حارتنا) (الحب فوق هضبة الأهرام) (قشتمر) (أولاد حارتنا).

والمقهى بين حقل المكان. احتل مساحة واسعة في معظم أعمال محفوظ الروائية، ولا نبالغ إذا قلنا أنه (ابن المقهى) و(عاشق المقهى)، ويكاد المقهى ينافس (الحارة) في هذه المساحة، فإذا قلنا إنه (عاشق المقهى)، فإننا نقول إنه (معشوق الحارة) الحارة المصرية بعالمها الفريد، وهذه العلاقة المعجبة أتاحت له أن ينقل المكان من بعده المادي المحدود إلى بعد نفسي واجتماعي غير محدود، فالمقهى عنده ليس مجرد مكان للقاء الأصدقاء، والحارة ليست مجرد مكان لسكانها أو المارين بها، وإنما استحال هذا أو ذاك إلى فضاء اجتماعي مزدحم بالحياة الإنسانية، والتقلبات الاجتماعية والسياسية، وإلى ذاكرة ثقافية لا تنفد.

لقد امتلك محفوظ قدرة مدهشة على تحرير الأماكن من قيودها الجغرافية، ومن حدودها الفيزيائية، وفتح نوافذها لتنطلق معبأتها من العادات والتقاليد والأحداث والشخوص، ولم تنحصر الأماكن في حدود المقهى والحارة، بل اتسعت لتستوعب أماكن إضافية مثل: الوقف والتكية والزاوية والسبيل والقرافة والحانة.

وبنية النظام المكاني تلتحم ببنية (النظام الزماني)، وكما استوعبت البنية الأولى المتون والهوامش، فكذلك استوعبت الثانية المتون والهوامش أيضًا، والهوامش بطبيعتها أكثر تعبيرًا عن حقيقة البنية النظامية، ومن هذه الهوامش عادة التدخين عند محفوظ التي بدأت في الأربعينيات، ومنذ بدأت وهي مرتبطة بالنظام الصارم، فقد كان يلتزم بمرور ساعة كاملة بين كل (سيجارتين).

أما الصورة النظامية الأدق، فكانت في التزامه بمواعيد العمل الوظيفي، والعمل الإبداعي، فلا يخلط زمن هذا بزمن ذاك، فعندما يحين وقت العمل، يعطيه حقه كاملاً، وعندما يحين وقت الكتابة يتفرغ له بكل كيانه ويحتشد لزمنه دون نقص أو زيادة، وعندما ينتهي الوقت المحدد يتوقف تمامًا مهما ألحت عليه الأفكار والخواطر.

ولا ينحصر زمن الكتابة في المساحة اليومية، بل يمتد إلى الزمن السنوي حيث يتوقف عن الكتابة في نهاية شهر أبريل من كل عام، وكان يردد دائمًا: أنه أديب شتوي، أما في الصيف فهو موظف فقط.

[٥]

لاشك أن المحاور السابقة كانت تتلاحق لتبلغ هدفها الرئيسي عن (أسطورة نجيب محفوظ) الإبداعية، وهي أسطورية لا تنحصر في إنتاجه من حيث الكيف، فهذا ما يكاد يكون حقيقة وجود، وإنما الأسطورية المدهشة كانت. أيضًا. من حيث الكم، فقد أبدع محفوظ ما يربو على خمسين رواية، وثلاثمائة وخمسين قصة، وخمس مسرحيات من ذوات الفصل الواحد، فضلاً عن مقالاته التي بلغت سبعة وأربعين مقالاً، ومازال العطاء مستمرًا حتى لحظة الحاضر.

أي أن هناك توازيًا بين الإنتاج الكمي والكيفي، وكلاهما يتوازى مع الامتداد الزمني، ومن ثم كانت تأثيرات هذا الإنتاج ممتدة في الزمان والمكان والشخوص داخليًا وخارجيًا، وهذه التأثيرات تستمد فاعليتها من عظمة المادة الروائية وقدرتها على الاقتحام الفني والجمالي للمناطق الممنوعة أو القابلة للتفجر، وقدرتها على تحريك الراكد وهز الثوابت، وقدرتها على إنطاق السكوت عنه، وفتح النوافذ لانطلاق المكبوت والمقموع السياسي والاجتماعي والنفسي، وكل ذلك أتاح للمجتمع المصري أن يتأمل نفسه في حالة من الانكشاف والتعرية، حتى ولو جاء الانكشاف خلال الأقنعة والرموز، لأنها أقنعة شفافة تسمح لمن يواجهها باختراقها إلى ما وراءها، وهي رموز فصيحة، تكاد من الإفصاح تتكلم بما تهدف إليه على المستوى الفردي أو الجماعي.

لقد كان إبداع محفوظ كتابًا مفتوحًا للواقع المصري بكل تحولاته في القرن العشرين، لكنه كتاب يستوعب قضايا الإنسان على وجه الإطلاق، قضايا الظلم والعدل، القيود والحرية، والتخلف والتقدم، ويمكن القول على نحو من الأنحاء أنه اخترق المحرمات الثلاثة: الدين والجنس والسياسة، لكنه اختراق محسوب بدقة ومهارة فنية لا تجرح ولا تعتدي.

أما المرحلة الثانية، فهي مرحلة الواقعية التي بدأت تجلياتها بروايته (القاهرة الجديدة) سنة ١٩٤٥، وقد صدرت إحدى طبعاتها تحت اسم (فضيحة في القاهرة) وأخذت في السينما اسمًا ثالثًا (القاهرة ٣٠).

ولا شك أن دخول هذه المرحلة كان إشارة بالغة على النضج الفني للمشروع وصاحبه، لأن محفوظًا لم يكن. في هذه المرحلة. مجرد أداة لتسجيل الواقع، بل كان بمثابة (المشاهد) بالمعنى الصوفي، لأن هذا المشاهد هو الذي يدرك. في



مشاهداته. المادة الأولى (الخام) لمكونات هذا الواقع، كما يدرك تحولاتها الداخلية والخارجية، الظاهرة والخفية، ومن ثم كان صاحب حق شرعي في إبداء الرأي، وتحديد وجهة النظر خلال النص، سواء تم ذلك بوصفه شخصية مشاركة من الداخل، أو مطلة من الخارج، وسواء تم ذلك على نحو مباشر، أو عن طريق الأقنعة والإسقاط، أي أن السرد لم يكن مجرد رصد وصفي، وإنما هو تعرية وكشف لمفارقات الطبقية والاجتماعية، وتناقضاته الاقتصادية والسياسية، وتصادماته الفكرية والثقافية.

إن أعمال محفوظ. في هذه المرحلة. كانت فضاء واسعًا لمجموع الأيديولوجيات السائدة، وبؤرًا عميقة لمجموع التوترات بين الجمود والتطور، وبين ما هو كائن وما يجب أن يكون. كما كانت الأعمال عالمًا مزدحمًا بمفارقات الأجيال والأحداث والشخوص ومفارقات الثورية والانتهازية، والاستقرار والقلق والاستواء والشذوذ، والانتظام والفوضى.

وإذا كانت (القاهرة الجديدة) هي باكورة المرحلة الواقعية، فإن الأعمال التالية قد أدخلت الواقعية في تحول حاسم للمصارحة والمواجهة نلاحظه في (زقاق المدق) سنة ١٩٤٦، و(بداية ونهاية) سنة ١٩٤٨. ثم أخذت الواقعية صورتها الأكمل في الثلاثية: (بين القصرين. قصر الشوق. السكرية) من سنة ١٩٤٩ إلى سنة ١٩٥٧، ويقول عنها (يوسف القعيد) إنها كانت عملاً واحداً يجاوز ألف صفحة، وقد طالبه الناشر بتقسيمها، فجعلها على ثلاثة أجزاء كما هي بين أيدينا اليوم.

وتأتي المرحلة الثالثة ملتحمة بالثانية في (الواقعية الرمزية) والتي تلتحم بمرحلة التجريب الشكلي، ونقل السرد إلى نوع من الوعي التأملي والفلسفي، وهو ما نلمح صداه في روايات مثل (أولاد حارتنا) سنة ١٩٦٢، و(اللص والكلاب) سنة ١٩٦٣، و(الطريق) سنة ١٩٦٥، و(الشحاذ) سنة ١٩٦٧، و(حكاية بلا بداية ولا نهاية) سنة ١٩٧١، و(قلب الليل) سنة ١٩٧٥، ثم (الحرافيش) سنة ١٩٧٧، و(رحلة ابن فطومة) سنة ١٩٨٣.

لكن التأمل الفلسفي يكاد يكون مسيطراً سنة ١٩٩٤، دخل في طور طارئ خلال كتابه (أصداء السيرة الذاتية) في نصوص قصيرة متعددة الملامح يصعب إدخالها في نطاق مفهومي محدد، وهي نوع من التوافق مع المرحلة السنية التي بلغها بكل ما تحمله من ضعف في الحواس والجسد لا يسمح بكتابة النصوص الطويلة. لكن من المؤكد أن دخول هذه المرحلة الطارئة يرسخ الاعتقاد بأن المبدع إذا بلغ مرحلة الأسطورية، فإن حياته تصبح قرينة الإبداع، وتوقفه نوع من الموت التقديري.

[٦]

لا نجاوز الصواب إذا قلنا أن أعمال محفوظ الإبداعية تمثل لوحة حية لمصر خلال القرن العشرين، وفي الوقت نفسه تمثل خريطة جغرافية وتاريخية لها، لكنها الخريطة التي لا تعرف التوقف أو التجمد، بل هي متنامية مع حركة التاريخ وامتداد الجغرافيا، ومن يقرأ ثلاثيته الخالدة يستوثق من هذه الحقيقة الفريدة، فقد رصدت تحولات أجيال ثلاثة في أسرة واحدة، بدءاً من سنة ١٩١٩، ومن يتابع (زقاق المدق) يلحظ تحولات الأزمنة ومصائر الشخوص، ثم تأتي (الكرنك) سنة ١٩٧٤ لترصد سلبيات المرحلة الناصرية، أما تاريخ السلطة، فقد سيطر في (الحرافيش) سنة ١٩٧٧، وفي (يوم مقتل الزعيم) سنة ١٩٨٥ تم رصد المرحلة الساداتية، وسجلت (أهل القمة) و(الحب فوق هضبة الهرم) مرحلة الانفتاح بكل سلبياتها.

إن هذه اللوحة الحية التي يمتزج فيها التاريخ بالجغرافيا بالشخوص شكلت كماً هائلاً من التوافقات والتصادمات، امتدت خطوطها لتلتحم بالفلسفة والاجتماع وعلم النفس، ومن ثم كان من العسير حصر أعمال محفوظ في مجموعة من الأطر المحفوظية، بل يمكن القول إن كل عمل من أعماله كان يستدعي الإطار الذي يلائمه، ويحتكم إلى الإجراءات التي تفرضها خصوصيته ومن ثم يمكن تلقيه بوصفه نصاً (حمال أوجه) يقوم متلقيه بإعادة إنتاجه على النحو الذي استقبله في أفقه، فـ (حكايات حارتنا) يمكن تلقيها بوصفها نصاً روائياً واحداً، وبوصفها مجموعة قصصية متعددة الركائز والأركان، ويمكن تلقيها بوصفها نوعاً من السيرة الذاتية نتيجة لسيطرة ضمير المتكلم عليها، و(الكرنك) يمكن تلقيها بوصفها نصاً روائياً، ويمكن استقبالها في أفق مسرحي نتيجة لسيطرة الحوار على متنها، واستحواذه على قطاع كبير منها إذ تبلغ أسطر هذا النص ألفين وثمانية وستين سطراً، يستحوذ الحوار على ألف وواحد وسبعين سطراً، وفي إطار التلقي يمكن استقبال النص في أفق السيرة. أيضاً. حيث بلغت ضمائر الذات المتكلمة خمسمائة وسبعة وسبعين ضميراً، بمعدل ضمير لكل سطرين تقريباً.

وهذا التلقي الاحتمالي يصلح لكثير من أعمال نجيب محفوظ، لأنها. أحياناً. تعمد إلى المعاينة المباشرة، وأحياناً. تقود المعاينة إلى تجريدات فلسفية كما في (الطريق)، وكثير من الأعمال يمكن اعتبارها نوعاً من (الكناية) حيث تقول شيئاً على السطح، وتشير إلى غير المقول في العمق مثل (الشحاذ) و(اللص والكلاب) و(حضرة المحترم)، أي أن قراءة محفوظ تحتاج إلى قدر من اليقظة والتنبه، فكل بناء صياغي. عنده. له أهدافه المحددة، وكل بناء نصي له فضاؤه الاحتمالي الفسيح، وهو فضاء يحوج المتلقي إلى استحضار المعادل الموضوعي حيناً، والفلسفي حيناً آخر.

[٧]

ويبدو من متممات هذه الأسطورة الإبداعية، عروبته المتجذرة في ذاته، وسكناه في اللغة العربية سكنى العاشق المتوحد بمعشوقه، وربما لهذا كان على يقين ثابت من المقولة التراثية (الشعر ديوان العرب)، وهذا اليقين جعله يتحفظ على بعض المقولات الطارئة: (الرواية ديوان العرب)، (المسلسل التليفزيوني ديوان العرب)، ولا شك أن إيثار المقولة الأولى مؤشر على وعي محفوظ بالحقيقة الجوهرية للإبداع. على وجه العموم، فالشعر فن اللغة بكل جمالياتها، واللغة فيه أداة وغاية معاً، أما الرواية فإنها تستخدم اللغة بوصفها أداة، ثم تقدم إضافات وهوامش على هذه الأداة.

ونعتقد أن عشقه للغة وسكناه في دروبها هو الذي باعد بينه وبين كتابة (الحوار) للسينما، لعدم قدرته على التعامل بالعامية تعاملاً فنياً، وذلك برغم أنه كتب ما يقرب من مائة (سيناريو) لأفلام سينمائية أولها: (عنتر وعبلة)، وأكثر من ثلاثين سهرة تليفزيونية، واثنى عشر مسلسلاً تليفزيونياً، لكنه كان حريصاً على أن يردد: (إن أدبي في كتبي، وليس في السينما أو التليفزيون).

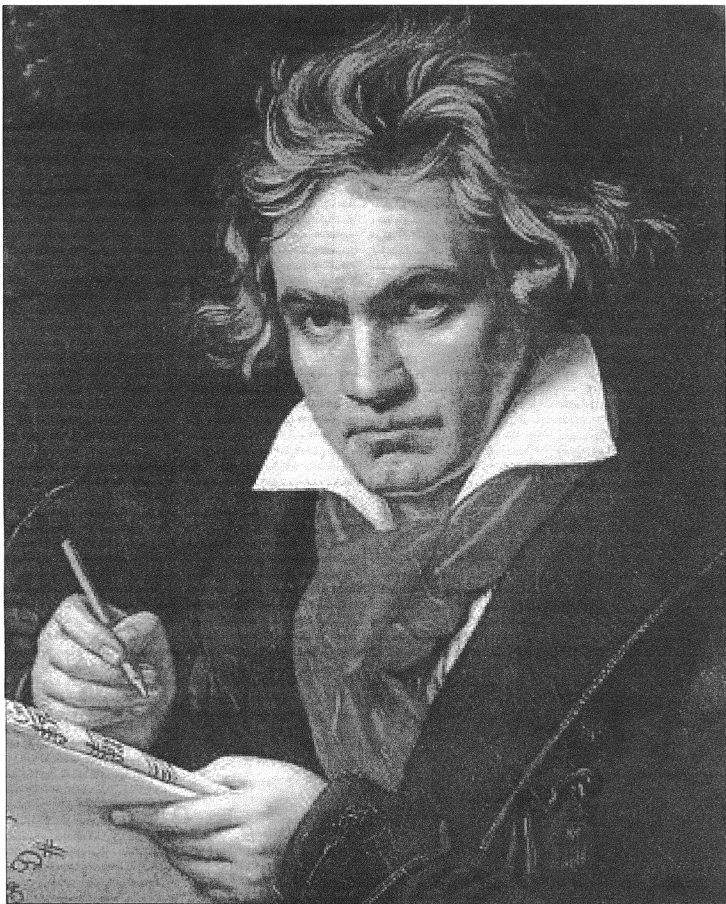
وعظمة محفوظ الإبداعية تتمثل في تجدده وتناميه، حتى إننا ونحن نتابع مقولات الحداثة وإجراءاتها النقدية، سوف نجد كثيراً من وثائقها التطبيقية وفيرة في نصوصه، سوى مقولة واحدة هي مقولة: (موت المؤلف)، فهذه العظمة حاضرة في إبداعها حضوراً مبهراً بذاكرتها اليقظة التي تحارب النسيان أو التناسي، ووعيها المتفتح الذي تحارب الانغلاق والتجمد، ولعل هذا بعض ما أسست عليه جائزة نوبل حيثياتها عندما قالت:

«نجيب محفوظ يكتب منذ خمسين عاماً، وهو الآن في السابعة والسبعين، يواصل الإنتاج، وأعظم إنجازاته في الرواية والقصة القصيرة، لقد أعطى إنتاجه دفعة كبرى للقصة كمذهب يتخذ من الحياة اليومية مادة له، كما أنه أسهم في تطوير اللغة العربية كلغة أدبية، ولكن ما حققه نجيب محفوظ أعظم من ذلك، فأعماله تخاطب البشرية جمعاء». ■

أهم المراجع:

١. نجيب محفوظ. رجاء النقاش. مركز الأهرام للترجمة والنشر سنة ١٩٩٨.
٢. نجيب محفوظ. الثورة والتصوف. د. مصطفى عبد الغني. الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٤.
٣. نجيب محفوظ. الطريق والصدى. د. علي شلش. الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة ١٩٩٣.
٤. نجيب محفوظ. من الجمالية إلى نوبل. د. غالي شكري. الهيئة العامة للاستعلامات سنة ١٩٨٨.
٥. نجيب محفوظ. وطني مصر. محمد سلماوي. الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠.
٦. نجيب محفوظ يتذكر. جمال الغيطاني. دار المسيرة. بيروت سنة ١٩٨٠.
٧. نجيب محفوظ يقول. رجب حسن. الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٣.
٨. مجموع حوارات ومقالات حول نجيب محفوظ في عيد ميلاده التسعين.





بيولوچيا الموسيقى.. خُصْلَةٌ

من شعر بيتهوفن

أحمد مستجير

■■ الموسيقى تَغلغُلنا. لا يخلو منها في حياتنا مكانٌ. هي في الموج يلاقي الشط. هي في أوراق شجرة تعابثها الريح. في صوت نحلة تغازل زهرة. في غناء طير يناجي إلفه. في ضحكة طفلة. وفي نبضات قلوبنا نحن. عندما يخاطب المحب حبيبتَه، ويقول مع إليوت: «أنت الموسيقى، طالما كان ثمة موسيقى»، فإنه يسمو بحبيبته إلى عنان السماء. هو يختزل في الموسيقى عاطفته، ويجعلها حياة أسمى. ألم يَقُل بيتشر إن أعماق السماء لا يصلها من الموسيقى أجمل من نبض قلب المحب؟ الموسيقى هي رائحة الحب، هي لغة القلوب بين المحبين، لغة الملائكة الطيبين، فحيث توجد الموسيقى يختفي كل شر. إذا فاض الشعور ولم يَعُد في مقدور الكلمات أن تُفصح، أسعفتنا الموسيقى. في أعمق أعماق الكون تسرى الموسيقى. اختزل فيثاغورث الحركة الإيقاعية للأجرام السماوية من نجوم وكواكب في موسيقى تحكي جمال الكون وهارمونيته. ومثل كل معنى عميق غزير في حياتنا، يَصعُب أن نجد لها تعريفاً يرضي الجميع. مثلها مثل مفهوم الخير أو الإنسانية أو الشعر. الموسيقى شعرٌ استبدلت فيه بالكلمات الأنغام، من هنا فإنها تتسلل إذ تتسلل إلى الروح، إلى الجوهر منا. هي عند بيتهوفن إلهام يسمو على كل الحكمة وكل الفلسفة. إنها التفكير بالصوت النقي الخالص. في حضرتها تحس «بلذة العودة إلى الإنسانية والروح»، كما يقول توفيق الحكيم. بلا موسيقى تُصبح الحياة خطأً، وليس ما يُعبر عن هذا أفضل من الصمت. هكذا قال نيتشه، الذي قال أيضاً: «من أجل الموسيقى، تصبح الحياة على الأرض شيئاً يستحق». هل منا من يستطيع أن يتخيل عالماً صامتاً بلا صوت، بلا موسيقى؟ عالماً أصمَّ يحيى به أناس كلهم صُمَّان؟!

فلوت ديفيي

قديمةٌ هي الموسيقى، هي في قدم الإنسان العاقل (هومو سابينس Homo sapiens). هي أقدم كثيراً من الزراعة بل وربما سبقت حتى اللغة ذاتها. في عام ١٩٩٥ عُثر في أحد الكهوف عند سفوح جبال الألب بوادي نهر إدريكا Idrijca، غربي سلوفانيا، على قطعة من فلوت من العظم طولها ١١ سنتيمتراً، أثارت ضجة كبرى، وقُدِّر عمرها بما لا يقل عن ٤٣٠٠٠ عام، وما قد يصل إلى ٨٢٠٠٠ سنة. صُنع هذا الفلوت إذن. وقد قُدر طوله الأصلي بنحو ٢١ سنتيمتراً. في زمن لم تكن قد ظهرت به تكنولوجيا معالجة العظام، ولا ما تتطلبه من فن. كان الفلوت (فلوت ديفيي Divje) عبارة عن قطعة مجوفة من عظمة فخذ شبل من أشبال دب الكهوف المنقرض، وكان يحمل أربعة ثقوب متساوية القطر، ثُقبت صنعياً بأداة ما (ربما كانت سنةً من أسنان حيوان لاحم، كالضبع). كانت الثقوب تجري في خط مستقيم على ناحية واحدة من العظمة، بحيث تتوافق في ترتيبها مع المسافات بين أصابع اليد البشرية، ثم إن المسافة بين الثقب الثاني والثقب الثالث كانت ضعف المسافة بين الثالث والرابع، الأمر الذي يسمح للعازف بأن يعزف النغمات الكاملة، ونصف النغمات أيضاً. غيّر هذا الفلوت من رؤيتنا إلى صانعه، إنسان نياندرتال (هومو نياندرتاليس Homo neandertalis) الذي انقرض منذ نحو ثلاثين ألف عام، وكان هو النوع البشري الوحيد الذي تطوّر في أوروبا. يبدو أن إنسان نياندرتال كان يعرف الموسيقى ويعزفها. موسيقى العصر الحجري. وتسبَّب هذا الفلوت في أن يمد المؤرخون تاريخ الإبداع الموسيقي للإنسان إلى الوراء في الزمن نحو عشرة آلاف سنة على الأقل، فأقدم ما عُثر عليه قبله من جنس الفلوت في أوروبا أو آسيا كان عمره يتراوح ما بين ٢٢ ألف عام و٣٥ ألف عام.

لكن الفلوت الخشبي، بلاشك، قد سبق هذا، فهو أسهل صنعاً من الفلوت العظمي. ثم لابد وأن قد كانت قبله أيضاً الآلات الإيقاعية التي يصدر عنها الصوت عن طريق القرع (كالطبول). الأداء الموسيقي إذن كما يرى العلماء الآن يعود إلى أكثر من ٢٥٠ ألف سنة إلى الوراء، بل وربما إلى ٥٠٠ ألف سنة.

من زمان سحيق والإنسان يعزف الموسيقى، ويبحث كي يصنع لنفسه آلة تعزفها. ماذا يا تُرى في الموسيقى يدفع الإنسانَ البدائيَ إلى أن يبتكر آلةً للعزف؟

من زمان سحيق والإنسان يعزف الموسيقى، ويبحث كي يصنع لنفسه آلةً تعزفها. ماذا يا تُرى في الموسيقى يدفع الإنسانَ البدائيَ إلى أن يبتكر آلةً للعزف؟

هل الموسيقى ضرورةٌ من ضروريات بقاء الإنسان؟ وإذا ما كانت الموسيقى قديمةً هكذا، فهل هي سلوك تطوري؟ أم تُراها صورةٌ من صور التنامي الثقافي؟ إنها في الحق تميز كلَّ الثقافات البشرية. هي عالمية بمعنى الكلمة، كانت مصاحبةً للبشر في كل الحضارات. إنها توجد في كل ثقافة وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالثقافة في مجتمعاتنا، حتى ليصعب أن يُنظر إليها في أي ضوء آخر. لو أن الموسيقى قد نشأت منذ بضعة آلاف من السنين فقط، لكان الأغلب ألاّ تعتبر تكيفاً تطورياً، فالتطور لا يعمل بهذه السرعة. ولكنها قديمة، وقد تكون بالفعل قد وقعت تحت طائلة التطور.

في الموسيقى سرٌ بيولوجي. على ما يبدو - آسر. لماذا نحب الموسيقى جميعاً؟ لماذا تنتزع منّا العواطف؟ لماذا تنتشر هكذا في كل المجتمعات المعروفة على اتساع العالم؟ الوليد في عمر شهرين يلتفت برأسه نحو الصوت الجميل، ويشيح بوجهه عن الصوت المُنفّر. التصعيد المبهج للأوركسترا يدفع بالدمع إلى أعيننا ويثير الرعشة في أجسادنا. إذا ما اقتربت السمفونية من نهايتها سرت قشعريرة لذيذة في كياننا تُغلِّف نفس مراكز السعادة في المخ، نفس أجهزة الإثابة التي تُستثار عند أكل الشيكولاته أو ممارسة الجنس أو تعاطي المخدرات أو... الاستماع إلى النكت!

أهيَ صفةٌ بيولوجية؟

لو أن الموسيقى كانت صفةً بيولوجية يعمل عليها التطور، فلابد أن تكون بحيث يعبر عنها البشر قبل أن تؤثر فيهم الثقافة: في الأطفال مثلاً. الأطفال والرضع يحسون بالفعل بالمنبهات الموسيقية ويصغون إليها. تقول الأبحاث إنهم يمتلكون القدرة الموسيقية، تماماً مثل الكبار. هم لا يميزون فقط الاختلافات بين النغمات المتشابهة، إنما هم يحسون الكنتور اللحني ويتذكرونه، ويستخدمون في ذلك استراتيجية البالغين في الاستماع، فيهتمون بالعلاقات بين طبقات الصوت قبل النغمات ذاتها، ويكتشفون التغيرات في الإيقاع، ويدركون اللحن أياً كانت سرعة أدائه. وهذا كله هو ما يقوم به الكبار عندما يعالجون الموسيقى. الأطفال قبل سن المدرسة ينهمكون في الغناء في أثناء اللعب، وفي مقدورهم أن يؤلفوا أغانيهم الخاصة، وأن يؤدوها، لا أن يقلدوا الكبار فقط.

الأم تُغنّي لوليدها بنفس الطريقة: في طبقة صوت عالية، بسرعة متمهلة، بنغمة مميزة. ولكل ثقافة، لكل قبيلة، هدهداتها للأطفال. وهي جميعاً متشابهة، حتى لتقترح أن الموسيقى ليست من ابتكار الإنسان، وإنما هي فطرية. الأمهات اللواتي يتقن الموسيقى، يهدهدن أطفالهن بشكل أسهل. والطفل الذي ينام بسهولة دون جلبة يغلب أن يحيا حتى سن البلوغ، لاسيما في القبائل البدائية التي تسكن الأحراش. لن يصرخ الطفل فينبه المفترسات. إذا ما ظهر الاستعداد الوراثي للموسيقى مبكراً في البشر، فسيحيا من نسل من يتمتع بالملكة الموسيقية عدد أكبر، ليسهم أكثر في بناء القبيلة، وتنتشر الصفة مع الأجيال.

أما تَشهد حالات تجري فيها الموسيقى في العائلة؟ أما نسمع عن أطفال في عمر ٣ سنوات يستطيعون العزف على الآلات الموسيقية؟ ويفهمون الموسيقى الكلاسيكية جيداً؟ أهناك جين لعشق الموسيقى؟

الموسيقى على ما يبدو صفةٌ ذات علاقات بيولوجية. هي تستوفي شرط القدم ليعمل عليها التطور وهي تفصح عن نفسها في الأطفال قبل أن يتأثروا بالثقافة السائدة حولهم. ثمة تجربة مثيرة نُشرت مؤخراً (سبتمبر ٢٠٠٤) أُجريت على مدى ٦ سنوات على أكثر من ٣٠٠٠ من الأطفال الرضع قبل خروجهم من مستشفى الولادة مع أمهاتهم، كانت التجربة عن التمييز في الأذن بين ما يُسمع من كلام ومن أنغام. دعنا نرى أولاً كيف نسمع.

كيف نسمع؟

عرف العلماء من زمان طويل أن المناطق السمعية بنصفي المخ تختلف في تصنيفها

للأصوات: النصفُ الأيسرُ يسود عند فَكِّ مغاليق الكلام وغيره من الإشارات الصوتية السريعة التَّغيُّر، بينما يسودُ النصفُ الأيمن في معالجة الأنغام والموسيقى، فَبِهِ من كثافة الأعصاب ما يزيد عن النصف الأيسر، ممَّا يسمح بتمثيل أكثرَ تفصيلاً لترددات صوت الموسيقى. وبسبب طريقة تنظيم شبكة المخ العصبية، فإن النصفَ الأيسرَ من المخ يتحكَّم في الجانب الأيمن من الجسم، والأذن اليسرى ترتبط بالنصف الأيمن من المخ. وكُلّنا بالطبع يفترض أنَّ الأذنَ اليمنى والأذنَ اليسرى تعملان بنفس الطريقة. لكن كيف تعمل الأذن؟ كيف نسمع؟

تتحرك الموجاتُ الصوتية على طول قناة الأذن، حتى تصطدمَ بطبلة الأذن، وهذه غشاء رقيق يفصل الأذن الخارجية عن الأذن الوسطى. تهتز طبلة الأذن وتمرر الاهتزازات إلى ثلاث عُظَيمات صغيرة في الأذن الوسطى خلف الطبلة (المطرقة والسندان والرِّكاب)، فتقوم بتمرير الاهتزازات إلى غشاء نسيجي رقيق في مدخل الأذن الداخلية يسمى «النافذة البيضاوية». تتحرك هذه النافذةُ لتحرك سائلاً في قوقعة الأذن يحتوي على خلايا شَعْرِيَّة دقيقة مرتبطة بالأعصاب، فَتَتَمَدَّد وتتقلص لتضخيم الاهتزاز الناجم عن الصوت. تُنْقَل هذه الدفقات عبر عصب السمع إلى محطة بالمخ الأوسط، ثم إلى مسالك أخرى تنتهي إلى القشرة السمعية للمخ. يتم النقل عن طريق بروتين اسمه TRPA 1 موجود على أطراف الخلايا الشَّعرية يقوم بتحويل موجات الصوت إلى إشارات كهربائية. الخلايا الشَّعرية التي لا تحمل هذا البروتين لا تستطيع أن تُوَلِّد الإشارات الكهربائية استجابةً للاهتزاز. الغريب أن قوقعةَ الأذن لا تحمل من الخلايا الشَّعرية إلا نحو ٣٥٠٠ خلية فقط، مقارنةً بنمو مائة مليون خلية من مستقبلات الضوء في العين. تتسربُ هذه الاهتزازاتُ المُضَخَّمَةُ أيضاً عائدة إلى الأذن في ظاهرة تُسَمَّى «الظاهرة الأذنية السمعية»، وهذه يمكن رَصْدُها وقياسُها بميكروفون دقيق يوضع في قناة الأذن لقياس السمع، في الرضع.

الأذن اليمنى ليست كاليسرى

فوجئ العلماء إذ وَجَدُوا أن الأذنَ اليسرى للرُّضَّع تقوم بتضخيم إضافيٍّ لنغمات الموسيقى، بينما تقوم الأذنُ اليمنى بالتضخيم الإضافيِّ للأصوات السريعة (كالكلام). القعقعةُ (بديل الكلام) تُضَخَّمُ أكثر في الأذن اليمنى، بينما تَقَدُّمُ الألحانُ زادَ تضخيم أكثر في الأذن اليسرى. وهذا يناظر طريقةَ عمل المخ عند معالجة الكلام والموسيقى. هذا أمر «خلقي»، يُمَيِّزُ الطفلَ عند ولادته. المخ مُهَيَّأ منذ الولادة للتمييز بين الموسيقى والكلام. والأذن أيضاً. الأذن اليمنى ليست كالأذن اليسرى. وهناك من الأبحاث الأقدم ما يعضد هذه الفكرة، فقد اتضح على سبيل المثال في بعض التجارب على الأطفال أنَّ مَنْ كان يعاني من ضَعف السمع في الأذن اليمنى يواجه مشاكل أكثر في التَّعلُّم بالمدرسة، مقارنةً بمن يُعاني من ضعف السمع في الأذن اليُسْرَى.

الموسيقى والمجتمع

ثمة مَنْ يقول إن الموسيقى تلعب دوراً خطيراً في تعزيز الروابط الاجتماعية، فهي تقوِّي الروابط على المستوى الفردي. بين الأم ووليدها مثلاً، وعلى مستوى الجماعة أيضاً. فَتُبْعِدُ الناس عن التشاجر والتقاتل فيما بينهم. ثم إن الغناءَ الجماعيَّ لابد أنه كان يشجعُ الصائدين عند صيد الفريسة، الأمر الذي نشهده الآن لا نَزال عند قيام مجموعة من العمال بعمل شاق. والموسيقى تُعَزِّزُ الروابطَ بين الأفراد في مجتمعاتنا المعاصرة بعد أن تكاثرت أعدادنا وأصبحتْ المداعبةُ بين الجنسين أمراً صعباً: هي تعزز بقاءَ البشر لأنها تُعَزِّزُ الغَزَل، أصبحتْ سلوكاً للغَزَل يُفَسِّر افتتانَ البشر بأغاني الحب. لقد كتب تشارلس داروين منذ سنة ١٨٧١ يقول: «يبدو من المحتمل أن أسلاف الإنسان. ذكوراً أو إناثاً، أو هما معاً. قد حاولوا، قبل أن يكتسبوا القدرة على التعبير عن الحب باللغة، أن يجذبوا بعضهم بعضاً بالأنغام والإيقاع».



هناك إذن من الشواهد الكثيرُ مما يُوحى بأن الموسيقى تكيفٌ تطوري قبل أن تكون تنامياً ثقافياً، هي جزء من بيولوجيا الإنسان. كل فرد منَّا له القدرة على أن يصنعَ الموسيقى، بصوته أو بالآلة، بِغَضِّ النظر عن موهبته أو مهارته. سوى أن أمر بيولوجية الموسيقى لن يستقر تماماً حتى يتضح بالتجربة أن صفةً ما موسيقية لها أساس في مادتنا الوراثية.

إدراك طبقة النَّغَم

صفةُ الإدراك الفوري المُطْلَقُ لحدة النغمة (Perfect Pitch) صفةٌ نادرة في البشر ولكنها مميزة جداً، يتحلى بها فرد واحد من بين كل ٥٠٠ فرد (ويصل البعض بهذه النسبة إلى واحد بين كل عشرة آلاف) يستطيع حاملها أن يُمَيِّز اختلافاً في تردد النغمة قدره ٦٪ فقط. يبدو أن نصف كبار الموسيقيين يحملونها. تصبح النغمةُ المفردة على السلم الموسيقي لديهم وكأنها «شيء» محدد يُدرَكُ فوراً (أهذه مثلاً «صول» أم «صول مخفوضة»؟)، معرفتُها لا تحتاج إلى نغمة أخرى معيارية يُقَاسُ عليها. هذه صفة قد تشبه إمكانية إدراك المكسور من الشعر دون ما دراسة. أذكرُ أنني قرأت ذات يوم بعيد، وكان عمري نحو ٩ سنوات، إعلاناً في إحدى المجلات، كُتب في صورة زجل، عن صنف من السجائر. يقول الإعلان:

قابِلْنا واحد مِنْ أُسْبُوعْ
بِيشتِري بِضَاعَة فْ دُكَّان
بَايِنْ عَلَيه ذُوقُه كوَيِّس
مِن الْجَمَاعَة الجِنْتِلْمَان
■■■
جِيبِ الصِّدِيري فِيه عِلْبَه
«أَرْجُوتْ» أَبُو الوَرَق الهَفَّاف
بِالطَّبْع عُشَّاق التَّدْخِين
يدُوقُوا أحْسَن الأصْنَاف...

أحسستُ أن الشطرَ الأخيرَ قلقٌ، شيء به أقْلَقَ أُذُني، وما زلتُ أذكره حتى الآن! لا أعرف كم من القراء مِمَّن لم يدرسوا موسيقى الشعر سيقلقه هذا الشطر!

كان للعالم الأمريكي دينيس درايْنا D. Drayna صديقٌ يهتم بالموسيقى والسيكولوجيا. كان هذا الصديق يتمتع بصفة الإدراك المطلق لحدة النغمة، ولاحظ أن البعضَ فقط من أبنائه يَتَحلَّى بها، لا كلُّهم. فسأل درايْنا عن السبب. كان هناك في الأبحاث المنشورة ما يقول إن احتمال أن يكون لحامل هذه الصفة أقارب يحملون نفس الصفة، يبلغ أربعة أمثال الاحتمال بالنسبة لمن لا يحملونها. قرر هذا الأخيرُ أن يفحص الأمرَ وراثياً، وقام بدراسة هامة نشرها عام ٢٠٠١، استخدم فيها ٢٨٤ زوجاً من التوائم البريطانيات: ١٣٦ زوجاً من التوائم المتطابقة و١٤٨ زوجاً من التوائم غير المتطابقة، وكان عمرهن يتراوح ما بين ١٨ و٧٤ سنة. (لا تختلف الذكور عن الإناث بالنسبة لهذه الصفة). طَلَبَ من كُلٍّ من هؤلاء أن تستمع لمدة ٨ دقائق إلى ٢٦ لحناً معروفة (٣٧ ثانية لكل لحن)، بعد أن سُجِّلَتْ الألحان وبعضها يحمل طبقة الصوت الخاطئة، ثم سُئِلَتْ أن تحدد الألحانَ الخاطئة. اتضح أن هناك قدراً كبيراً من التباين بين الأفراد في مهارة الإحساس بالأنغام، وأن معظم هذا التباين كان وراثياً (٧١ - ٨٠٪) والباقي منه (٢٠ - ٢٩٪) يرجع إلى الخبرة الحياتية. كما ظهر أيضاً بعد فحص درجة السمع في التوائم هذه، أن درجة إدراك النغمة يتم في المخ، لا في الأذن. أملُ درايْنا أن تُستَخدَمَ أدواتُ الجينوميا في العثور على الجينات المسئولة التي تُورَّثُ للنسل، تلك التي تتحكم في مناطق من المخ متفردة، وتُحدد درجةَ الإحساس بالنغم. والحق أن صفةَ الإدراك الفوري للنغمة هذه تستحق المزيدَ من الدراسات لما لها أيضاً من علاقات بالذاكرة واللغة والتنامي المبكر.

يبدو أن كل فرد منا يولد ومعه هذه الخصيصة. ثم إنه يفقدها مع تقدم العُمْر، فَحَيَاتُنا عندئذ لا تحتاج إلى مثل هذه الحاسة المهذبة للسمع. الطفل كما يرى بعض العلماء يحتاج إلى الإدراك الدقيق لحدة النغمات يساعده حتى يَتَعَلَّم الكلام. فإذا ما تم له ذلك لم يعد في حاجة إلى هذه الحاسة المهذبة، فيفقدها بالإهمال. هذا إذا لم تكن لغته نغمية ترتكز على تمييز طبقة الصوت، مثل بعض اللغات الأسيوية التي يُلْفَظ فيها نفس الصوت أحياناً في طبقتين ليمثل كلمتين تختلفان في المعنى. (من معاني كلمة «ما ma» في اللغة الصينية الرئيسية (المَنْدَرين) Mandarin: «أم» أو «امرأة سليطة اللسان» أو «حصان» أو «قِنَّب»، وطبقة الصوت عند النطق بها هي التي تحدد المعنى). أما مَنْ يتعلم من الأطفال العزفَ على آلة موسيقية في السنين المبكرة جداً من العمر، فإن نسبةً كبيرة منهم تبقى محتفظة بهذه الخصيصة، لا يفقدونها. ومثلهم أيضاً من يَفْقِدُ نَظَرَه من الأطفال، إذ تظل هذه الصفة هامةً في حياتهم، يدركون بها مثلاً صوتَ عربة تتحرك، أو خُطَى شخص يقترب أو يبتعد.

قد تكون هناك إذن جيناتٌ تحدد الإدراك التلقائي للنغمة، لكننا قد نجد دليلاً أوضح على علاقة الموسيقى بالجينات إذا تَفَحَّصْنا «متلازمة ويليامز» (Williams syndrome)، وعشرين في المائة ممن يحملون هذه المتلازمة يحملون أيضاً صفة الإدراك التلقائي للنغمة.

متلازمة ويليامز

متلازمة ويليامز عيبٌ خلقيٌ نادر، يولد به طفلٌ بين كل عشرين ألف ولادة، اكتشفه سنة ١٩٦١ طبيب نيوزيلندى اختصاصىٌ فى القلب اسمه J.C.P. Williams، ونشر عنه ورقةً علمية، ثم اختفى ولم يُعثَر له على أثر. تظهر المتلازمةُ فى الذكور وفى الإناث على السواء، وفى كل الأجناس. أطفال ويليامز قصار القامة عادةً ويعانون من ضيقٍ فى الأورطى والأوعية الدموية الرئيسية، ومن لَغَطٍ فى القلب، وتخلف ذهنى، إذ يبلغ معامل الذكاء لديهم ٥٥ . ٦٠، ومخهم يقل فى الحجم عن الطبيعى بنسبة ١٥٪. وهم يشيخون مبكراً، ولا يستطيعون أن يقوموا بأبسط العمليات الحسابية. لا يستطيعون مثلاً أن يجمعوا ٢+٣، كما أن قدرتَهم على التَّكَيُّف المكانىّ منخفضةٌ، إذا مشوا خارج المنزل بضع دقائق فقد لا يستطيعون العودة. قدراتهم الحركية ضعيفة. الكثيرون منهم يقضون سنوات حياتهم الأولى فى التردد على مستشفى القلب. وهم ممتازون فى التعرف على الوجوه، وفى التحدث، فهم اجتماعيون للغاية. إذا استمعتَ إلى واحدة من هؤلاء تغنى تساءلت عن جوهر ما نعنيه بكلمة «ذكاء». وهم للأسف يعرفون ما يكفى كى يعرفوا أنهم مختلفون، ويتحملون. عارفين. مضايقات رفاق الدراسة، والنظرات المُحَدِّقة، والوحدة. استمع إلى واحدة من هؤلاء تقول عن حياتها مع أقرانها بالمدرسة: «كنتُ اتجه إليهم أحياناً وأسألهم: هل تريدون أن تعرفوا ما بى؟ ولماذا أمشى بهذه الطريقة؟ ولماذا أبدو هكذا؟ البعض ينظرون إلىَّ فى أسى نَظرَتَهم إلى شخصٍ مخيفٍ غامض. هذا يؤلمنى. يزعجنى. لكنك لا تستطيع أن تتحكَّم فيما يفكر فيه الناس أو يفعلون». ولكنك لا تملك إلا أن تُحِبَّهم. وجوهُهم بشوشة. لا يكفون عن الابتسام. كلهم عواطف وشفقة. يحبون الناس ويقتربون منهم ويدركون أحزانهم.

ويعشقون الموسيقى عشقاً. علاقتهم بها متينة وعميقة. قد لا يُرَكِّزُون طويلاً فى أى شأنٍ من شئون الحياة، لكنهم ينفقون الساعات والساعات بلا ملل يستمعون إلى الموسيقى أو يعزفونها. شغفهم بالموسيقى لا يُحَد. واحدةٌ منهم جلوريا لينهوف G. Lenhoff. تستطيع أن تغنى ٢٠٠٠ أغنية من ٢٥ لغة، من بينها اليابانية والعربية والعبرية. مرةً وَقَفَت فى المطار تُغَنِّى باللغة البوسنية أمام حَمَّالٍ بوسنى، فانخرط يبكى!

يُولَدُ طفلُ ويليامز وقد اقتُضِبَ مقطع، طوله ١,٥ مليون قاعدة يحمل نحو ١٧ جيناً، من الذراع الطويلة لإحدى نُسْخَتَىّ الكروموزوم السابع من الجينوم. اكتشف ذلك عام ١٩٩٣. من بين هذه الجينات المُقْتَضَبَة جين اسمه ELN يشفر لبروتين الإيلاستين Elastin، المسئول عن مرونة الأوعية الدموية، والذى يُشَكِّلُ نحو نصف الوزن الجاف للشرايين. هذا يُفَسِّر السبب فى إصابة أطفال ويليامز بأمراض القلب. فالنسخة الباقية من الجين (الموجودة على النسخة الأخرى من الكروموزوم السابع) لا تكفى لتشفير القدر الكافى من الإيلاستين. من بين ما يحمله المقطع المُقْتَضَب من جينات هناك الجينُ LIMK 1، وثمة علاقة معروفة عن تَحَكُّمِه هو والجين ELN فى القدرات البصرية الفراغية. التى يعانى من تدهورها أطفالُ ويليامز. بالمقطع المقتضب أيضاً جينان آخران هما WSCR 1 و FZD 3 ويعملان مع LIMK 1 فى المخ، فيظهر أثرها فى تطوره وعمله.



والأغلب أنْ سنجد فى هذا المقطع المحذوف من الكروموزوم السابع جينات تتدخل فى نمو المخ وعمله. لقد فُتِحَتْ أمام العلماء نافذةٌ يمكن منها أن يُطِلُّوا على المخ ووظائفه، وأن يتحركوا ليعرفوا عن الجينات التى تسبب وَلَعَ أصحاب متلازمة ويليامز بالموسيقى وباللغة، وحساسيتهم البالغة للضجة، واستجابتهم العاطفية العجيبة للأنغام، وارتفاع نسبة مَن يَتَحَلُّون بالإدراك التلقائى لطبقة النغم بينهم.

يفقد أصحابُ متلازمة ويليامز بعضاً من مادتهم الوراثية، جزءٌ من كيانهم المادىّ يختفى، فيستبدلون به الموسيقى، لبّ الكون! إذا اختفت الجيناتُ جميعاً، تَبْقَى الموسيقى! فى البَدْءِ كانت الموسيقى!

٥×٨= ٤٠

الجيناتُ والبيئةُ تعملان سوياً فى تحديد ما يُفَكِّرُ فيه الناسُ ويحسونه ويفعلونه، وتحددان كلَّ خصائص البشر. والقول إن هذه الصفةَ أو تلك وراثيةٌ بحتة، أو بيئيةٌ بحتة، هو أمر عسيرٌ وخاطئٌ فى معظم الأحوال. هل نستطيع أن نسألَ أيهما يؤثر فى مساحة المستطيل: طوله أم عرضه؟ السؤالُ بلا معنى. لا هذا وحده ولا ذاك، هما سوياً. فبدون أيهما لن يكون ثمة مستطيل. ٥×٨=٤٠، فهل الرقم ٤٠ يحدده الرقم ٥ أم الرقم ٨؟ السؤال لا معنى له. كذا الأمر بالنسبة للوراثة والبيئة فى آثارهما على الصفات البشرية، ولاسيما السلوكية منها، كالتذوق الموسيقى أو المَلَكَة الموسيقية أو الإدراك الفورى لطبقة النغم.

والبيئةُ. ونعنى بها كلَّ ما يؤثر فى الصفات خارجَ ما يعملُ عليها من جينات. تؤثر فى كل خصائصنا المتعلقة بالموسيقى. صوتُ الموسيقى يصل من الأذن إلى المخ، وبالمخ. الذى تحكمه المادة الوراثية. يحدث الأثر.

الموسيقى والمخ

يُولَد الطفلُ وهو يحمل البلايين من الخلايا العصبية فى مُخِّه. النيورونات. وفى خلال السنين الثلاثة الأولى من عمره تنشأ الروابط بين هذه النيورونات. تصبح هذه الروابط أقوى كثيراً فى قشرة المخ إذا نشأ الطفل وهو يستمع إلى الموسيقى. «إعزفْ لطفلك، غَنِّ له وارقص». الغناءُ الجماعى فى روضة الأطفال، والتدريبات على لوحة مفاتيح البيانو تحسن كثيراً من نوع الذكاء المطلوب للمستوى الرفيع من العلوم والرياضيات. غناؤك تحت «الدش» يُشفى مُخَّك. عُرِفَ من زمان أن الغناء يُشفى. إذا كنتَ تغنى وتدندنُ فأنت فى حالة نفسية طيبة. الأغنيةُ بهجة من مباهج الحياة، أياً كانت طريقةُ غنائك. تُنْسِيك متاعبك، وتحس معها بالراحة والأمان. الطفلُ يتعلم موادَه الدراسية بصورة أفضل إذا تم ذلك عن طريق الأغنية. يتذكر المادةَ بسهولة. غَنِّ إذن كلما استطعتَ، وحيثما تمكنتَ. إن شَتَّى صور التعبير بالصوت تُشفى: الغناء، الصفير، الترتيل، الدَّنْدَنَة، الهَمْهَمَة، إلقاء الشِّعر، الكلام، بل وحتى قولك... آآآآآآ!!

حكّة المخ

هناك بعضُ الأغانى «تلتصق» برءوسنا، وتسبب «حكَّة المخ»، وهى حكَّةٌ لا يمكن أن «تُهرَش» إلاّ بأن تُكرِّر اللحن وتعيده مرة وراء مرة، حتى وأنت تسير وحدك فى الشارع. تُسمى مثل هذه الأغانى باسم «دودة الأذن». قد تأسرك هذه الدودة وقد تزعجك. هى مثل الهِستَامينات سوى أنها تَستَحِكُّ المخ. وما من طريق إلى «الهرش» سوى بأن تكرر اللحن فى عقلك وتكرره. معظم الناس مُعرَّضون لهذه الدودة. يعانى منها حتى كبار الموسيقيين. موتسارت كان يعانى منها. وليس من طريقة نعرفها تخلصنا منها. لكن المؤكد أنّ البعضَ منا أكثر عُرضةً من غيرهم. النساءُ أكثر عرضةً من الرجال. الموسيقيون أكثر عُرضةً من غيرهم. فهل للوقوع فى أسر دودة الأذن علاقةٌ بالوراثة؟

الموسيقى والتغير الفسيولوجى

تستثير الموسيقى فينا استجابةً عاطفية. ثمانون بالمائة من الكبار يستجيبون فيزيقياً للموسيقى، بالرعشة، أو الضحك، أو الدموع. الموسيقى تَستَلّ منهم العواطف والانفعالات. سُجِّلَ معدلُ النبض وضغطُ الدم ومعدلُ التنفس، وغيرُ هذه من المقاييس الفسيولوجية، أثناء الاستماع إلى قطعٍ موسيقيةٍ مختلفة تُعَبِّر عن السعادة وعن الخوف وعن التوتر، فاتضح أن لكل نمط من الموسيقى نَمَطَه المختلف من التغير الفسيولوجى. وعندما سَجَّلَ العلماء مخاخَ الموسيقيين الذين تتملكهم النشوة عند الاستماع إلى الموسيقى، اتضح أن الموسيقى تُنَشِّط نفسَ أجهزة الإثابة بالمخ التى ينبهها الطعام والجنس والمخدرات.

الموسيقى والقشرة السمعية بالمخ

تتم معالجةُ الموسيقى كما قُلنا فى القشرة السمعية بالمخ، التى تتألف من طبقات من خلايا المخ والسبل التى تربطها. وهى الجزء من المخ الذى تجرى به عمليات التفكير. والروابط بين خلايا المخ هى مفتاح عمله. واستجابةُ الموسيقيين للموسيقى فى هذه القشرة أكبر، إذ تصبح لديهم أكثر اتساعاً. حجم القشرة عندهم يزيد بمقدار ١٣٠٪ عنه لدى غير الموسيقيين. يرتبط مدى الزيادة بمستوى التدريب الموسيقى، مما يشير إلى أن تَعَلُّم الموسيقى يزيد عددَ الروابط بين النيورونات التى تُعَالِج الموسيقى. ثم إن مخ الموسيقى يخصص



مساحة أكبر للتحكم الحركى فى الأصابع التى تُستخدم فى العزف على الآلة. فالمناطق من المخ التى تتلقى المُدخَلات الحسيَّة من أصابع اليد اليسرى الأربعة، من السبابة حتى الخنصر، وهى المستخدمة فى عزف الكمان، تكون أكبر بكثير فى عازفى الكمان. هل هذه الصفات جميعاً تقع أصلاً تحت تحكم البيئة؟

كيف «يسمع» الصم؟

يحس الصُمّ باهتزازات الصوت بنفس المنطقة من المخ التى يستخدمها غير الصم فى السمع، الأمر الذى يُفسِّر كيف يستمتع الصُمّ بالموسيقى، ويُفسِّر كيف أن البعض منهم يصبح عازفاً ومؤلفاً موسيقياً. عُرِضَت أيادى عدد من الطلبة الصمّ، ومجموعة أخرى من الطلبة الطبيعيين لاهتزازات مُتقطِّعة. نَشِطَت فى كلتا المجموعتين نفس المنطقة من المخ التى تُعالَج فيها الاهتزازات طبيعياً. لكن الطلبة الصمّ أظهروا نشاطاً فى منطقة بالقشرة المخية لا تنشط عادة عند الأفراد الطبيعيين إلا أثناء التنبيه الصوتى. لم يظهر هذا الأثر فى غير الصم. هذا يعنى أن اختلاف الخبرة يمكن أن يؤثر فى تنظيم عمل المخ. مخاخ الصمّ تعيد برمجة نفسها لتسمع الموسيقى!

ظاهرة موتسارت

صاغ ألفريد توماتيس A. Tomatis. مصطلح «ظاهرة موتسارت The Mozart Effect»، ليعنى به ما يحدث من زيادة فى تنامى مخ الأطفال تحت سن الثالثة عندما يستمعون إلى موسيقى فولفجانج أماديوس موتسارت (W.A. Mozart) (أو موزار). ولقد أصبح الآن مصطلحاً شاملاً يشير إلى قدرة الموسيقى على تحسين الصحة والذاكرة والانتباه والإبداع، وعلى تخفيض الاكتئاب والقلق. نشأت الفكرة عام ١٩٩٣ بجامعة كاليفورنيا عندما أُجريت تجربة على ستٍ وثلاثين من الطلبة لدراسة أثر الاستماع لمدة عشر دقائق لصوناتا البيانو K 448 لموتسارت. قالت النتائج إن هذه الصوناتا تعزز التعقل المكانى (أى القدرة الذهنية على معالجة الأشياء فى الفضاء ثلاثى الأبعاد)، الذى يقيسه اختبار ستانفورد - بينيه. بلغت الزيادة ٨-٩ نقاط، وكانت هذه أعلى زيادة نُشر عنها فى أى بحث. لكن هذا التعزيز لم يستمر إلا ١٠ - ١٥ دقيقة. قشرة المخ، بجانب إسهاماتها فى التفكير النظرى المجرد، وفى التخطيط، تُسهم فى التحكم فى الحركة واللغة والذاكرة والسمع. ربما كانت الموسيقى تُنعش الناقلات العصبية داخل قشرة المخ، ومن ثم يتحسن الأداء الذهنى المكانى.

أظهرت تجارب تالية على الفئران أن أداءها الذهنى يتحسن إذا استمعت إلى نفس الصوناتا، فهى تستطيع فى سرعة أن تجد طريقها فى تعقيدات المتاهات.

وقالت نتائج البحوث بعد ذلك أن هذه الموسيقى ترفع من تعبير بضعة جينات ذات علاقة بالاتصالات بين خلايا المخ. يَستخدم مخ الإنسان عند الاستماع إلى الموسيقى مجالاً عريضاً من المناطق: الإيقاع وطبقة الصوت تُعالَج بالنصف الأيسر من المخ، والجرْس واللحن بالنصف الأيمن. والمناطق من المخ التى نستخدمها فى المهام المكانية الزمانية تتراكب بالفعل مع مناطق معالجة الموسيقى. ويقترح البعض أن الاستماع إلى الموسيقى يُركِّز على مناطق المخ التى تختص بالتعقل المكانى. أمل الباحثون أن تساعد هذه النتائج فى تصميم علاجات للمصابين ببعض الأمراض العصبية كالصرع والألزهايمر. ثمة أبحاث عن الصرع بيّنت مؤخراً وبوضوح أهمية «ظاهرة موتسارت» فى خفض نشاط نوبات المرض بعد الاستماع إلى صوناتا K 448 قيل إن الخصائص الإيقاعية لموسيقى موتسارت تُحاكى الدورات الإيقاعية التى تحدث بمخ الإنسان.

قامت شكوكٌ كثيرة حول ظاهرة موتسارت، فلقد أُعيدت التجربة على أيدى علماء آخرين ولم يتوصلوا إلى نفس النتائج الإيجابية. قالوا إنه إذا ما كانت موسيقى موتسارت تُحسِّن الصحة، فلماذا كان موتسارت نفسه كثير المرض. إذا كان الاستماع إلى موتسارت يرفع الذكاء فلماذا لا يكون أذكى الناس وأكثرهم روحانية من المتخصصين فى موتسارت؟

خصلة من شعر بيتهوفن

فى فيينا، عاصمة النمسا، وفى أصيل يوم ٢٦ مارس ١٨٢٧ كانت عاصفة رعدية رهيبة تزأر، والمطر ينهمر بغزارة. غير أن المريض بيتهوفن على فراش موته لم يكن يسمع. كان قد أصيب بالالتهاب البلورى أثناء عودته إلى فيينا من إحدى رحلاته فى ديسمبر ١٨٢٦، فأضاف إلى ما به من مرض. ستة من مُحبيه كانو حول سريره. أقنعوه أن يَسمح للكاهن بأن يؤدى طقوسه الأخيرة. عندما انتهى الكاهن من صلواته رفع بيتهوفن قبضة يده إلى أعلى وقد أطبق أصابعها وهو يشهد البرق يُعربد بالخارج، ثم همس بآخر كلماته: «هللوا يا أصدقاء، لقد انتهت المَلهاة!». ومات. مات أعظم عبقرى موسيقى فى التاريخ، آخر الموسيقيين الكلاسيكيين وأول الموسيقيين الرومانيكيين. كان على سرير موته قد خطط سمفونيته العاشرة واكتملت فى رأسه، لكنها لم ترَ النور أبداً. يا خسارة! ماتت معه. موسيقياً كان الرجل حتى آخر لحظة فى حياته.



اسمه لودفيج فان بيتهوفن، وكلمة «فان» بالفلمنكية تعنى «ابن»، وهو من أصل فلمنكى (وهى ليست «فون» الألمانية التى تشير إلى النبالة)، أما كلمة بيتهوفن نفسها فتعنى بالهولندية «حديقة البنجر». وُلِد فى مدينة بون فى ١٧ فبراير ١٧٧٠، وإن كان هو يقول إن ميلاده الحقيقى كان عام ١٨٧٢، أما ١٧٧٠ فهو عام ميلاد أخيه الأكبر الذى توفى رضيعاً وكان اسمه أيضاً لودفيج. لم تكن طفولته سعيدة. كان والده مغنياً فظّاً، قرّر أن يصبح ابنه فى عبقرية موتسارت الموسيقية، أن يكون «موتسارت الثانى». بدأ إذن فى قسوة يدرب ابنه فى عمر ٥ سنوات على العزف على الكمان والبيانو. كان هذا الوالد فقيراً سكيراً. كان يعود سكراناً مع أحد أصدقائه فى منتصف الليل ليوقظ ابنه الطفل كى يعزف لهما على البيانو. وعلى عمر الثامنة كان على الصغير أن يتكسب من العزف. وفى عام ١٧٨٧ زار فيينا ليدرس على يدى موتسارت. قال عنه موتسارت فيما بعد: «سيترك هذا الشاب بصمته على العالم». لكن بيتهوفن عاد سريعاً إلى بون عندما عرف أن والدته تحتضر، ليرجع ثانية إلى فيينا عام ١٧٩٢ حيث مكث حتى آخر عمره.

فى أوائل عشرينيات عمره، فى عام ١٨٠١، اكتشف بيتهوفن أن سمعه يضعف. عذّبه ذلك، مثلما عذّبه ما يسمعه من طنين مستمر وصفير. كتب عام ١٨٠٢ «وصية المدينة المقدسة». وقد عُثر عليها بعد وفاته. وفيها يُفصح بالموسيقى عمّا لاقاه من عذابات فى بدايات صممه. ومع تفاقم حالته، أصبح سريع الغضب والانفعال. فَقَد معظم أصدقائه المقربين، ولم يبق له منهم إلا قلة. لكنه استمر يكتب الموسيقى. وعلى عام ١٨١٩ كان قد فَقَد سمعه تماماً. لم يعد فى إمكانه أن يعزف البيانو عزف الماهر الصنّاع، لم يعد يسمع الأنغام إلا فى عقله. انعزل عن الناس. أصبح وحيداً. اتجه إلى الله يبحث عن العزاء والسلوان الروحى. قال: «سأسمع فى السماء». كتب وهو أصم سيمفونيته التاسعة التى توّج بها منجزاته الموسيقية.

عندما انتهى العرض الأول لسيمفونيته التاسعة هذه (عام ١٨٢٤) انفجر جمهور المستمعين فى تصفيق مجنون. كان بيتهوفن يقف وظهره للجمهور. لم يسمع شيئاً. أدارته واحدة من الفرقة الموسيقية ليواجه الجمهور. انحنى شكراً. رأى التصفيق. لم يسمعه. «سينتهى كل شئ، سيفنى العالم، وستبقى السيمفونية التاسعة». هذا ما قاله ميكائيل باكونين M. Bakunin.

فى ٢٧ مارس ١٨٢٧، اليوم التالى لوفاة بيتهوفن، وصل إلى فيينا موسيقى يهودى شاب عمره ١٥ سنة، يُدعى فيرديناند هيلر F. Hiller. فى صحبة يوهان هوميل J. Hummel، ليلقيا النظرة الأخيرة على بيتهوفن. كان هيلر قد زاره يوم ٢٠ مارس، قبل أسبوع، وسمعه يقول: «إننى أعتقد أننى سأشرع قريباً فى رحلتى إلى السماء». كان من عادة أصدقاء المتوفين فى تلك الأيام أن يأخذوا، كذكرى، خصلة من شعر الفقيد. وكان رأس بيتهوفن عندما وصل هيلر يكاد يكون أصلع بعد أن «عالجه» قبلاً العديد من الأصدقاء. تمكن هيلر من الحصول على خصلة من شعر بيتهوفن واحتفظ بها حتى ١ مايو ١٨٨٣، عندما أهداها إلى ابنه باول Paul، الصحفى، فى عيد ميلاده. ثم اختفت الخصلة من تاريخ موت باول عام ١٩٣٤، حتى ظهرت ثانية عام ١٩٤٣، عندما اتضح أنها قد أُهديت، كمكافأة، إلى الطبيب الدانيمركى كيى ألكزندر فريمنج K. A Fermming. الذى ساعد اليهود كثيراً أثناء الحرب العالمية الثانية فى تهريبهم بحراً إلى السويد. عندما مات الدكتور فريمنج، آلت خصلة الشعر إلى ابنته بالتبنى، التى أرسلتها، بسبب ضائقة مالية، إلى «سوثبى» فى

لندن، لتباع هناك بالمزاد العلني. بيعت الخصلة في ديسمبر سنة ١٩٩٤ بمبلغ ٣٦٠٠ جنيهاً استرلينياً، اشتراها أربعة من الأمريكيين ينتمون إلى جمعية بيتهوفن الأمريكية. أصبح مألوفاً في السنين الخمسة الأخيرة بيع خصلات من شعر الشخصيات التاريخية والعامة: مثل ابراهام لنكولن، وزوجته ماري، ونابليون، وهنري فورد، وإلفيس بريسلي، ومارلين مونرو.

في عام ١٩٩٦ رأت الجمعية الأمريكية أن تقوم بتحليل بعض الشعر من خصلة بيتهوفن (وهي تضم ٥٨٢ شعرة) لفحصها كيمائياً ووراثياً، في محاولة لمعرفة الكثير من الأسرار التي تكتنف حياة بيتهوفن. ما السبب في موته المبكر نسبياً (٥٧ عاماً)، وربما أيضاً لمعرفة شئ عن جينوم فنان عبقري. كان بيتهوفن يزور الطبيب بعد الطبيب بحثاً عن علاج لأمراضه. كان يعاني من سوء الهضم، ومن آلام مزمنة في البطن، ومن حدة الطبع، ومن الاكتئاب. كانت آلامه الجسدية هذه تقلقه كثيراً، حتى ليكتب لأخويه خطاباً قبل وفاته ببضع سنين يقول فيه: «عندما أموت، وإذا كان الدكتور شميت لم يزل حياً، فاسألاه باسمي أن يكتشف مرضي، وأرفقا هذه الوثيقة المكتوبة، بتقريره عن مرضي، فقد يُصالحني العالم، على الأقل بعد موتي».

تحليل الشعر يعطي دلالات مهمة عن حياة صاحبه. ولقد نتذكر قصة التحليل الكيماوي لشعر نابليون. حُللت من شعر نابليون خصلة أُخذت من متحف كيب تاون، وكان قد أهداها إليه قسيس من جزيرة سانت هيلانة، حيث نُفي نابليون، ليمكث بها ست سنوات إلى أن توفي في ١٥ مايو ١٨٢١ وعمره ٥١ سنة. أثبت تحليل الشعر بمعمل ماكرون McCrone للبحوث أن نابليون لم يمت كما قيل من التسمم البطئ بالزرنيخ، الذي اتُّهم أحد معاونيه (الكونت تشارلس ده مونتولون C de Montholon) بأنه كان يدسه في طعام الرجل بناءً على أوامر من الملكيين الفرنسيين، الذين كانوا يخشون من عودته ليقود ثورة جديدة. ولقد أجري أيضاً مثل هذا التحليل على شعر الملكة الروسية أناستازيا Anastasia التي ماتت سنة ١٥٦١، إذ فُتح تابوتها عام ١٩٩٦، وحُلل شعرها، واتضح أنها ماتت مسمومة بالزئبق. الشعر يحفظ السم أكثر من أي جزء آخر من الجسم.

لإجراء الاختبارات الكيماوية والوراثية على خصلة شعر بيتهوفن، كان من الضروري بادئ ذي بدء التأكد من أنه بالفعل شعر بيتهوفن! أُخذت عينات من عظام جثته وقورنت تتابعات دنا DNA السبحيات بها بتتابعات دنا السبحيات الموجودة ببصيلات الشعر. كانت هناك ٨ شعرات تحمل البصيلات بالفعل. واتضح أن الشعر لبيتهوفن.

حُللت شعرتان في معمل ماكرون، وست شعرات في معمل أرجون Argonne. أعلن وليام وولش W.A Walsh، رئيس مشروع بيتهوفن البحثي، النتائج في مؤتمر صحفي عقد يوم ١٧ أكتوبر سنة ٢٠٠٠، أظهرت النتائج أن الشعرات الثمانية كانت جميعاً تحمل مستوى عالياً للغاية من الرصاص، يبلغ في الحق نحو مائة ضعف التركيز المعروف في شعر الأفراد الطبيعيين. ربما كان التسمم بالرصاص هو السبب في كل الأعراض المرضية التي قاسى منها بيتهوفن في حياته وأثرت في شخصيته وسلوكه. لقد عرفنا الآن السبب في مرضه المزمن، والذي طلب هو يوماً من طبيبه أن يكشفه. إن تكن قد تأخرنا نحو قرنين من الزمان.

لم يظهر بالشعر أثر من الزئبق. كان مرضى الزهري في ذلك الزمان يعالجون بمركبات الزئبق. الرجل لم يصب بالزهري بالفعل كما يقول كل دارسيه. ولم يظهر أيضاً أن بيتهوفن كان يتعاطى أية مسكنات، كالأفيون، يخفف بها آلامه في الفترة الطويلة التي قضاها على سرير الموت. كان الرجل على ما يبدو قد قرر أن يحفظ مخه صافياً للموسيقى. ألم يكن يفكر في سيمفونيته العاشرة؟

حدد تحليل الدنا جزءاً كبيراً من التركيب الوراثي لبيتهوفن، وستتاح البيانات للبحث في قضية التميز الوراثي للعباقرة. إن كان ثمة تميز. وللبحث في أمر إصابة بيتهوفن بالصمم، وهل كان هذا صمماً وراثياً، فقد غدا الآن معروفاً التركيب الجزيئي لعدد من الجينات المسئولة عن الصمم.

بيتهوفن؟ إذا تجسدت الموسيقى كانت هذا الرجل. قاسى كثيراً في حياته. في جيناته، على ما يبدو، كان الصمم. لكن انتصاره على الصمم، قدرته على التأليف الموسيقي بعد أن فقد سمعه، كان معجزة من معجزات الفنان. كان فنه أكبر من آلامه. أكان فنه في جيناته؟ أم هل قدحت آلامه زناد عبقريته الموسيقية؟ كل ما نعرفه هو أنه ذات يوم حزين راعد، انفلت من جسده وآلامه، من وراثته ومن بيئته، وحمل معه سيمفونيته العاشرة بعيداً إلى عالم الأنغام الأرحب.



كتب أحد العلماء يوماً عن الموسيقى، فقال إنها، مثل غيرها من ضروب الفن، بلا فائدة. إذا استغنى الإنسان عنها فلن يموت. أتذكر يوماً سألتني فيه عن معنى الحب، فأجبت: «لا معنى للحب، الحب هو المعنى». أتراني هنا أود لو أقول: «لا معنى للموسيقى، الموسيقى هي المعنى»؟

العبقرية والوراثة

إذا سُئلت: «لو ان بيتهوفن كان قد تزوج وأنجب، فهل تتوقع أن يكون ابنه عبقرياً في الموسيقى مثله؟»، فالأغلب أن ستكون إجابتك بالنفي. لماذا؟ خبرتك الحياتية وقراءاتك ستقول إن هذا مستبعد. هل سمعت عن شكسبير آخر غير وليام شكسبير؟ الحقيقة أن «العبقرية» البشرية كانت دائماً مشكلة صعبة التفهم. هناك من يعزوها إلى البيئة والوضع الاقتصادي الذي ينشأ فيه الإنسان. وهناك السلوكيون المتطرفون، وكان منهم من قال: «أعطني عشرة أطفال أصحاء، وأعطني ما أطلبه من إمكانيات لتربيتهم، وسأضمن أن أنتقي عشوائياً أي طفل منهم وأدربه ليصبح ما أشاء: طبيباً، محامياً، فناناً، تاجراً، بل وحتى شحاذاً أو لصاً، بغض النظر عن مواهبه أو ميوله أو قدراته أو كفاءاته أو سلوك أسلافه!». الأمر كله أمر بيئة! هناك من يرى أن العبقريات ليست سوى نتيجة التركيز المفرط في العمل. كان داروين يقول إن كل الناس، باستثناء البلهاء، لا يختلفون كثيراً في الذكاء وإنما في الحماس والعمل الجاد. ولما سئل نيوتن كيف توصل إلى اكتشافاته المذهلة أجاب: «إنني أضع الموضوع أمامي طول الوقت (وأفكر فيه) وأنتظر حتى تتكشف الصورة أمامي قليلاً... قليلاً». الممارسة الجادة المتعمدة. لا الفروق في القدرة الموروثة. هي التي تميز هذا الفرد عن ذاك. هناك الرواية التي يحكيها عالم الرياضيات هاردي عن زيارة قام بها للرياضياتي رامانوجان Ramanugan، إذ وصل إليه بالتاكسي متشائماً لأن رقم التاكسي كان ١٧٢٩، فإذا برامانوجان يقول إن هذا رقم عجيب وفريد لأنه أصغر رقم ينتج عن حاصل جمع مكعبين، وبطريقتين. (أجهدت نفسي حتى عرفت الحل: هذا الرقم هو حاصل جمع مكعب الرقم١، زائداً مكعب الرقم ١٢، وهو أيضاً حاصل جمع مكعب الرقم ٩ + مكعب الرقم ١٠). كيف توصل الرجل إلى هذا؟ لأنه كان يفكر دوماً في الأرقام؟

لكن هناك حكاية أخرى عن طفل اسمه كارل فريدريخ جاوس C.F. Gauss. في عمر ١٠ سنوات كان في فصله بالمدرسة، وكان مدرس الفصل قد تغيب، فدخل آخر، كان همه هو إسكات التلاميذ، طلب منهم أن يجمعوا الأرقام من ١ حتى ١٠٠. هذا سيسكتهم حتى نهاية الحصة. بعد دقيقة لاحظ أن جاوس قد جلس صامتاً، فسأله كم حاصل الجمع؟ أجاب الطفل ٥٠٥٠. الإجابة صحيحة!! كيف توصل إليها هذا الطفل؟ أجابه: (١+١٠٠)= (٢+٩٩)= ... =(٥٠+٥١)= ١٠١. هناك خمسون عملية جمع كهذه، فحاصل الجمع هو ١٠١×٥٠= ٥٠٥٠! كم من الأطفال يا ترى يمكنه أن يفكر هكذا؟ إنه «فلتة»، «عبقري» ولا شك. دون تفكير في المشكلة طويل عميق مركز استطاع أن يحلها.

«العبقرية»، إذا أمكن تعريفها لابد أن تكون صفة كمية يؤثر فيها عدد كبير من الجينات، وتنتج عن توليفة من الجينات تتفاعل سوياً مع بعضها بعضاً (ومع البيئة). وحدوث هذه التوليفة أمر بالغ الندرة، فإذا وقعت فإنها لا تورث بالمعنى المفهوم، لأن الفرد لا يورث تركيبه الوراثي، إنما يورث نصفه فقط، تفك التوليفة الوراثية ليحصل النسل على بقية مادته الوراثية من الوالد الآخر.

حلل شعر بيتهوفن، نعم. وفحصت بدقة في خلاياه بقايا مادته الوراثية المهشمة. لكننا أبداً لن نتمكن من السر الوراثي لعبقريته. هذا أمر محال، حتى لو عرفنا التشريح الجزيئي لجينومه كاملاً. فكيف لنا أن نعرف الجينات الخاصة بالعبقرية التي تشكل توليفته المتفردة؟ وأنى لنا أن نعرف العوامل البيئية التي تفاعلت معها؟ العبقرية سر أكبر منا. ■



هموم التراث العربى

محمد فؤاد الذاكرى



إن التراث العلمى العربى يمثل تاريخ العلم وفلسفته، والمراحل والتطورات التى مرت بها المسيرة العلمية من العصور الوسطى أو ما قبلها وحتى الزمن الحاضر



يحكى عن رجل عاش فى زمن بعيد.. كان يحب الترحال والسفر وفى إحدى رحلاته فاجأته عاصفة ثلجية شديدة، اختفى بعدها ولم يعثر له على أثر، وشب ولده الوحيد متابعاً خطى والده وفاقه فى الترحال، وذات ليلة كان يرتاح بجانب صخرة ودهش لما رأى، فقد أحس بأنه ينظر إلى المرآة، فرك عينيه أكثر من مرة وأدام النظر، كان ينظر إلى نفسه، إلى صورته الشخصية مطمورة تحت الثلج وأدرك أخيراً بأنه ينظر إلى جثة والده المفقود والتى حفظها الثلج جيداً من أى فساد، فى وضعيتها التى توقف عندها الزمن، ما عدا أن والده كان يحتفظ بنضارة الشباب، أما الابن فقد ظهرت عليه أمارات الهرم، وللمرة الأولى أصبح الوالد أصغر سنًا من ولده.

تشهد الساحة الثقافية فى الوقت الحاضر، نهضة تراثية علمية إن صح التعبير، تتمثل فى الإقبال على تحقيق ونشر كتب التراث كما تتمتع بنسبة معقولة من القراء.

ونفاجأ جميعًا بما تحويه هذه المخطوطات التراثية والتى لم يكشف عن نقابها إلا القليل من معلومات ومعطيات مهمة قد تغير نظرتنا لكثير من الأمور، فالتراث العلمى العربى ظل محفوظًا فى خزائن الكتب وفى بطون المجلدات والأوراق سليماً على حالته الأولى كما تركه أصحابه، وندهش نحن أبناء وورثة هذا التراث المجيد بأن الآباء والأجداد كانوا أنضر شبابًا وحيوية وأكثر قدرة على الاستنباط والمحاورة وأكثر تسامحاً وقبولاً وكل ما هو مطلوب منا أبناء العصر الحالى: أن نحسن القراءة والفهم.

التراث العلمى العربى، حمّال أوجه، هذه حقيقة لا مراء فيها، ويذكر الجميع فى بداية إرهاصات المشروع الثقافى التراثى منذ فترة ليست طويلة، كثر النقاش حول هذا الاتجاه الجديد الذى لم يسبق التعرف إليه على صعيد عامة القراء التى كانت تزود بمعلومات بسيطة بدائية حول.. أن العرب أول من اكتشف كذا.. وهم أول من فعل كذا.. إلى آخره بدون الدخول فى تفاصيل مهمة ومفيدة. فى البدايات انبرى البعض بتأثير من دوافع أيديولوجية ضيقة وبقصر نظر تاريخى محض لمهاجمة التراث العلمى (العلم العربى) بأنه إزجاء للوقت، وبأن هذه الأعمال التراثية تصلح لعرضها فى المتاحف فقط، أو من باب الترف الفكرى، وحاول البعض أن يلتزم الحياد بموقف توفيقى مطالبين بأن يؤخذ من التراث العلمى الأشياء (الجيدة المفيدة) وينبذ ما عدا ذلك، بحسب المعايير المعاصرة والأحكام المسبقة.

ولابد من القول إن التراث العلمى العربى يمثل تاريخ العلم وفلسفته، والمراحل والتطورات التى مرت بها المسيرة العلمية من العصور الوسطى أو ما قبلها وحتى الزمن الحاضر، ومتى كانت دراسة تاريخ العلم وفلسفته شيئًا قابلاً للمساومة. إن هؤلاء الأفراد ينطلقون من عقيدة (الانتماء الغربى للعلوم) حسب تعبير أستاذنا (رشدى راشد)، فهم انسياقاً مع هذه العقيدة، يعتبرون العلم كنظرية يونانياً، وهو من حيث التجربة والتطبيق وليد القرن السابع عشر، والعلم العربى هو خزان حفظت فيه العلوم اليونانية القديمة (الهلينيستية).

والواقع غير ذلك، فالعلم العربى هو (عالمى) بمصادره ومنابعه بتطوراته وامتداداته، فعن طريقه يمكن قراءة كل الإنتاج العلمى القديم (فلك - رياضيات - هندسة - جغرافيا - ملاحة - نبات وزراعة.. إلخ) لأن العلماء الذين كانوا يكتبون بلغتهم الأم (سريانى - فارسى - سنسكريتى) كانوا يقومون هم بأنفسهم وبتكليف غيرهم لنقل مؤلفاتهم إلى العربية، التى أصبحت لغة العلم بدءاً من القرن التاسع الميلادى وأخذت بعداً كونياً، فلم تعد لغة التعبير عند العرب بل لعدة شعوب، واللغة تمثل ثقافة واحدة معينة بل لغة كل المعارف، ألم يقم (ابن سينا) البخارى الأصل بكتابة مؤلفاته العظيمة باللغة العربية وكذلك فعل (الرازى) الفارسى الأصل وهكذا دشن العالم العربى طرقًا جديدة، وامتد إلى حقول علمية جديدة ومكن من التقاء وتزاوج تيارات علمية مستقلة فى ذلك الحين.

وكيف يمكن فهم واستيعاب تطورات العلوم الحديثة إذا غاب عن بالنا العلم العربى ودوره الجبار الذى لعبه، لقد استقى أسلافنا العلم من الهند والصين إلى اليونان وأضافوه إلى إرث اليمن ومصر وإنطاكية وبلاد بابل وترجموا وطوروا واخترعوا بحيث أضحى علمهم علم العالم على امتداد سبعة قرون ولغتهم لغة العالم.

ويعانى الباحث التراثى من جملة ما يعانيه الحصول على صور المخطوطات العلمية القديمة للتحقيق والدراسة، فالتراث العربى دونه أفراد من مختلف أصقاع العالم من بخارى وسمرقند وفارس والأندلس وبغداد والقيروان ودمشق. جمعوا عصارة فكرهم ونتاج عبقريتهم على الورق وشاءت الظروف أن تنتقل تلك الأوراق والمخطوطات فى رحلة العلم الطويلة إلى أماكن أخرى وتتكدس فيها وتتجمع، فالعلم لا وطن له، مثل أوروبا وأمريكا وبلاد أخرى.. وبقيت مشكلة الحصول على صور أو نسخ من هذه المخطوطات، فبعض الدول يعتبر أن تلك المخطوطات كنز قومى، إلى درجة أنه لا يجوز لأحد مهما كانت صفته العلمية الاطلاع عليها، وهنا لب المشكلة فكيف يمكن أن نقدم تراثنا للعالم إذا لم تتيسر للباحث مهمته، ثم إن الحصول على صور المخطوطات لن ينقص من قيمة المخطوط الأصلى شيئًا بل على العكس ينفض الغبار والنسيان عنه، ويعيد إليه بريقه القديم ويزيد من قيمته المادية.

كما أن هذه المخطوطات العلمية بما تحويه من معلومات ومعطيات، هى إرث إنسانى عالمى، دونها أسلافنا لكل الناس ولتنتفع منها البشرية قاطبة ولا تدخل أبداً فى نطاق المعلومات السرية أو المحظورة ولا يحق لأى جهة مهما كانت مؤسسة أم أفراداً، أن تحجبها عن الاطلاع والمداولة حتى لو كانت مالكة للنسخة الأصلية. إن هذا الفعل يقع تحت نطاق المحاسبة والمساءلة الجزائية.

وفى المقابل يجب الاعتراف بما تؤديه بعض المؤسسات الثقافية العربية بتسهيل الأمور أمام الباحثين وعلى سبيل المثال: معهد التراث العلمى العربى بحلب، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، مركز جمعة الماجد بدبى، وغيرها.. التى تزود الباحث الجاد مشكورة بما يحتاجه من صور للمخطوطات المتوفرة لديها، ولكن هناك الكثير من المخطوطات القيمة فى مكاتب العالم مازالت حبيسة الأدراج، يغطيها الغبار تنتظرها أيدى الباحثين بلهفة، على أمل أن يتحقق مشروع عالمى تقوم به منظمة (اليونسكو) أو غيرها بنشر صور للمخطوطات وهى بالمئات لتصبح متاحة لجميع الباحثين.

ويصادف الباحث فى جملة متاعبه أفراداً يشغلون مراكز حساسة فى مؤسسات تراثية عريقة، وهم بطبيعتهم معادون للتراث ولكل شىء يمت إليه ولا يؤمنون بقضيته، ومع ذلك لهم الكلمة الفصل فى الأمور التراثية ذات الصبغة الإدارية وتواجدوا فى مناصبهم بفعل فاعل ويصح أن نطلق عليهم (مضاد للثقافة والتراث Anti Culture & Heritage).

ويضطر الباحث للتعامل معهم بحكم تواجدهم فى مناصبهم الحساسة وعوضاً أن يكونوا عونًا للباحث ومساعدين له، نراهم يخترعون الأعاجيب والأفاعيل لعرقلة مسيرة البحث التراثى ووضع العصى فى العجلات، بل لا يتورعون عن التضييق والإيذاء، رغم تصريحهم العلنى المستمر بعكس ذلك، إنها حالة ازدواجية تعيشها بعض المؤسسات الثقافية فى الوقت الراهن، لقد أعطى أسلافنا وقدموا للبشرية إنتاجاً علمياً لا يقدر بثمن، بدون أن ينتظروا المكاسب والأرباح المادية كما يفعل البعض، إن البحث التراثى يتطلب الأريحية العلمية وتبادل المعلومات والمعارف، كما يتطلب الصبر والجهد وبعبارة أخرى التضحية فى سبيل رسالة، آمن الباحث بقدسيتها ومشروعيتها.

إن هؤلاء الأشخاص تمثلهم النادرة التالية: أثناء الحرب العالمية الثانية



يصادف الباحث فى جملة متاعبه أفراداً يشغلون مراكز حساسة فى مؤسسات تراثية عريقة، وهم بطبيعتهم معادون للتراث ولكل شىء يمت إليه ولا يؤمنون بقضيته ومع ذلك لهم الكلمة الفصل فى الأمور التراثية ذات الصبغة الإدارية وتواجدوا فى مناصبهم بفعل فاعل ويصح أن نطلق عليهم (مضاد للثقافة والتراث)



حوصر كاتب فى مدينة (ستالنجراد) فى شقته وحيداً معزولاً، تحت وابل القذائف والقنابل، كان يتوقع الموت فى كل لحظة، ولم يكن يوجد لديه سوى كمية كبيرة من التبغ، بدون الورق الخاص المطلوب للف التبغ وتدخينه، وفتش طويلاً، ولكن لم يكن لديه سوى ورق كتابه المخطوط الذى ألفه ويمثل حصيلة جهد سنوات من عمره، وهو النسخة الوحيدة لديه وحار فى أمره.. إذا كان لابد من الموت القريب فما هو الأفضل بالنسبة له تدخين السجائر أم ترك الكتاب لمن بعده، وهكذا بدأ بالتدخين مستخدماً ورق كتابه المخطوط حتى أنهاه كله.

هذه المرارة الشائعة عبر عنها (أبو على البصير) الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى، فقد كان واقفاً بباب الجوسق، وكانت المواكب تمر أمامه فيسأل عن أصحابها فيقال: هذا فلان التركى، وهذا فلان الخزرى، وهذا فلان الفرغانى، وهذا فلان الديلمى، ولا يذكر له أحد من العرب المذكورين ولا من أبناء المهاجرين والأنصار، فيقول: يا بنى النعمة، اصبروا لهم كما صبروا لكم.

مشاكل تراثية

وفى منحى آخر يتعلق بالفجوات العلمية والقراءة الخاطئة، يبرز تساؤل يشكل تحدياً حقيقياً يتعلق بالتأصيل الجديد للحقول المعرفية فى التراث العربى، فقد درج المؤرخون على تقسيم فترات التاريخ العربى لأدوار ضعف وقوة، متناوبة ومتكررة.

ودأب جمهرة من الباحثين على تقييم المؤلفات والمصادر التراثية بحسب هذا الترتيب الزمنى المصطنع الذى تثار حوله أكثر من علامة استفهام، فوصف بعض الفترات التاريخية بالضعف العلمى لا يتسم بالدقة أبداً، فالأحكام تنطلق جزافاً إما اعتماداً على دعاوى بعض المستشرقين أو لدوافع سطحية ضيقة مجال الرؤية فيها خطان متوازيان محددان ليس إلا، وبإسقاط معاصر خاطئ لواقع قديم غنى، أن أى فترة تاريخية فى تراثنا العلمى، تتعلق بنا وبذواتنا، يجب ألا نتردد فى دراستها بشكل موسع ومعمق ونستخرج منها الأحكام والنتائج المطلوبة بدلاً من القفز الآلى وإصدار الأحكام المسبقة.

فعلى سبيل المثال يعتبر البعض أن طلقات المدافع الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر كانت بمثابة دافع ليقظة عربية، ويعتقدون أنها نقطة الانطلاق الأساسية فى كل الميادين وهم بذلك يريدون إثبات الفضل لجيش نابليون فى بداية (عصر علمى جديد) بدأ فى أوائل القرن الثامن عشر يعبر عنه (بالنهضة العربية) بدأ وانتشر من مصر إلى باقى البلاد العربية، وبشكل خاص فى بلاد الشام التى كانت تصنف حسب هذا الاتجاه بعيدة عن كل تماس علمى مع الغرب، وتأسيساً على ما ورد، اعتبر أن تأسيس المدرسة الطبية فى (أبى زعبل) عام ١٨٢٧ بإشراف فرنسى (كلوت بك) (١٧٩٣ - ١٨٦٨) هو بداية لعصر علمى جديد وأن أول كتاب طبى علمى هو كتاب (القول الصريح فى علم التشريح) تأليف الفرنسى (بايل) وترجمة (يوحنا عنحورى) والمطبوع فى بولاق ١٨٣٢، ولكن الأبحاث الحديثة بدأت تكشف بعض النواقص فى هذا الشأن وأظهرت بأن الطبيب الحلبى (صالح بن السلوم) المتوفى عام ١٦٧٠م سبق تلك الترجمات بفترة طويلة إذ قام فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى بدراسة وتلخيص وترجمة معظم أفكار أحد أعلام مؤسسى النهضة الأوروبية وهو (باراسيلز) المتوفى ١٥٤١م عن طريق كتابيه (الطب الكيميائى الجديد) و(الكيمياء الملكية) وهكذا كان لابن السلوم الحلبى الأسبقية فى نقل التيارات والنظريات الطبية التى برزت منذ القرن السادس عشر للميلاد إلى اللغة العربية فى مؤلفاته، وكان واسع الاطلاع على تلك التيارات الطبية الجديدة بالإضافة إلى معرفته بنظريات الطب التقليدى.

هذه الدراسات الموثقة والمعمقة تظهر بشكل عفوى غير منظم، ولكنها تساهم فى تغيير كثير من المفاهيم والنظريات التى نستظل ونتفيأ بظلها ونرددها ونعتبرها من المسلمات والبديهيات ولكن ذلك لا يكفى فكيف يساهم التراث العلمى العربى فى (إعادة كتابة التاريخ) هذه الدعوة القديمة الجديدة التى يتمنى الجميع تحقيقها بدون أن يتصدى لها أحد.

لقد أدرك أجدادنا بأن العلوم ليست مقصورة على حضارة دون سواها أو شعب دون آخر أو أمة دون أخرى، وعرفوا حقيقة غالية بأن توالى الزمن وحده يحمل بذور التراكم العلمى مع مراعاة الظروف المعرفية والأدوات العلمية المتوفرة فى كل زمن، فقد عرف الجغرافيين العرب القدامى أوروبا بأجمعها وكتبوا عنها باستثناء أقصى شماليها وعرفوا النصف الجنوبى من آسيا، كما عرفوا أفريقيا الشمالية وساحل أفريقيا الشرقى وتركوا وصفاً مفصلاً لجميع البلدان، من إسبانيا غرباً ومصب السند شرقاً مع وصف دقيق للأماكن المزروعة وأماكن وجود المعادن وجذب اهتمامهم الجغرافيا الطبيعية والحياة الاجتماعية والصناعة والزراعة واللغة والتعاليم الدينية، ولم تقتصر معرفتهم على بلاد الإسلام وحدها بل تجاوزت بصورة ملحوظة حدود العالم كما عرفه اليونان، وكما يؤكد المستشرق الروسى (كراتشوفسكى) بأن البحث العلمى أثبت أهمية المعلومات التى جمعوها حتى عن بلاد نائية مثل أرخبيل الملايو وجنوب أوروبا.



إن البحث التراثى يتطلب نظرة إنسانية شاملة تعلو الجميع ولا تترفع عنهم والمطلوب أن نتعلم ونعتبر من أخطاء وهفوات السابقين وليس من الضرورى أن نبنى (حداثتنا) بإنقاص وتسفيه جهود السابقين، وعدم وجود أقسام علمية متخصصة فى تاريخ العلوم وفلسفتها فى المراحل الجامعية الأولى فى مختلف الجامعات العربية أدى إلى حالة ضبابية معرفية فى إدراك مدى وأهمية التراث العربى، وغنى عن البيان أن الحصول على شهادة جامعية علمية متخصصة فى أحد الفروع العلمية على اختلافها لا تؤهل حاملها للتعامل الصحيح مع التراث وقضاياه المتشعبة، فالأمر يتطلب وعياً تراثياً حقيقياً تراكمياً لا يمكن إدراكه من خلال الحصول على صور تذكارية وتبادل الأحاديث الجانبية فى الندوات والمؤتمرات.

إن الإشكالية الحقيقية تتعلق بجملة قضايا متفرعة أبرزها: مفهوم التراث العلمى العربى والمواضيع والحقول المعرفية التى يغطيها ويتعرض لها، والمنهجية العلمية الصحيحة فى البحث التراثى، أو التوازن الدقيق بين باحث يحيا فى الألفية الثالثة ويحاول استكناه عقول مجموعة من الأفراد عاشوا فى أوقات بعيدة مختلفة وكشف علومهم وأفكارهم بموضوعية وحياد، ولابد من التصريح بأن الباحث التراثى، قد لا يتبنى أو يدافع عن بعض الآراء والمواضيع التى يتناولها، ولكن الوصول للحقيقة يقتضى العرض المحايد المتوازن والمتكامل.

ومن أكبر الصعوبات التى تواجهنا، أمام التراث العلمى العربى بعموميته وشموليته، وبمقدار ما نتمكن من استكشافه، تكون الفرصة متاحة للوصول إلى رؤية أكثر صواباً. وبالتالى نحن مطالبون بالبحث فى كل ذلك الكم الضخم من المصادر الموروثة والمراجع والمخطوطات باحثين عن أوجه النشاط العلمى العربى، وأن نكون جزءاً من محاولة اكتشاف كيف كان يفكر (السابق) وطريقة تفكيره ومنهجيته، ومن ثم الانطلاق نحو رحاب أوسع حتى نصل إلى نتائج محددة، ولكن بعض الباحثين كما نصادفهم يتأرجحون بين تيار وآخر بدون هدى، كحاطب ليل يحمل كل ما يصادفه ويتخبط بين شجرة وشجيرات، وهذا يعكس بجلاء صورة عن تبديد جهود مضنية لتيار من الباحثين، لمجرد انطلاقهم فى نبش التراث العربى وأخباره والخروج بنتائج تعوزها الموضوعية والدقة العلمية، من مواقع رد الفعل الموجه، أما إلى الآخر المتجنى على الحضارة العربية، أو إلى المشكك فى أصالة التراث العلمى العربى، معتقدين أنهم بذلك يسدون خدمة جليلة لعروبتهم، وما هم فاعلون. إذ ليس فى الحضارة العربية الإسلامية، ولا فى العرب والمسلمين، البحث التراثى على أسس متداعية عمادها تجريد الإنجاز العلمى من سياقه، والتاريخى من أنساقه، والخلط بينهما.

إن التراث العلمى العربى يمكن أن يساهم إلى حد كبير فى (حوار الحضارات) بين الشرق والغرب، ويلعب دوراً فى تقريب وجهات النظر المختلفة والمتنافرة، فهو ثمرة احتكاك وتلاقح ثقافات وحضارات عدة، استطاع أجدادنا ببراعة صياغتها وإغنائها فأصبحت نسيجاً متفرداً ليس مقطوع الجذور، ولكنه تراث حضارى مهم ومتشعب لا يستغنى عنه فى مسيرة الحضارة والمدنية عبر التاريخ.

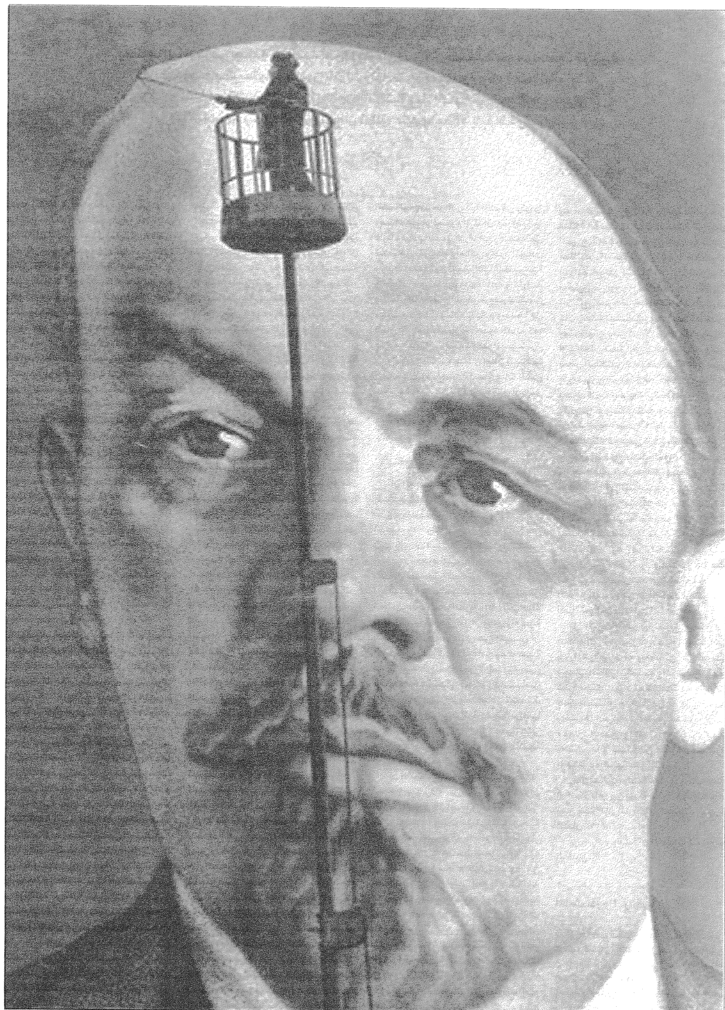
قال تعالى: «ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد» (سورة لقمان: ١٢).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. ■

المصادر والمراجع

١ - تاريخ الأدب الجغرافى العربى - أغناطيوس كراتشكوفيسكى - نقله من الروسية صلاح الدين عثمان هاشم بيروت: دار الغرب الإسلامى - الطبعة الثانية - ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٢ - موسوعة تاريخ العلوم العربية - إشراف رشدى راشد - بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٧.



ثمانون عاما بعد لينين

وليد محمود عبد الناصر

رسام روسى يقوم بتنفيذ جدارية ضخمة تصور وجه لينين

... وفى ذكرى الثورة البلشفية، عدة آلاف من الروس يخرجون فى مسيرة بالأعلام الحمراء عبر الميدان الأحمر فى الطريق إلى ضريح لينين.





عقب نجاح الثورة البلشفية، أى فى مطلع عام ١٩١٨، فإن «المعارضة العمالية» و«الديمقراطيين المركزيين» انتقدوا تزايد النزعات السلطوية والبيروقراطية فى الحزب الشيوعي، وهو ما تم تبريره حينذاك بظروف الحرب العالمية الأولى

■■ لم يكن من المستغرب أن تصدر عشرات الكتب في ذكرى مرور ثمانين عاماً على وفاة الزعيم والفيلسوف السوفيتي الراحل فلاديمير إليتش أوليانوف الشهير باسم لينين. فلم يكن لينين مجرد رئيس دولة من الطراز العادى بل كان قائد ثورة ومؤسس دولة زالت من الوجود عقب وفاته بحوالى سبعة عقود، ولكن بعد أن تركت بصماتها على التاريخ الإنساني وبعد أن أثرت فى مسار العالم بأسره وقدمت طرحاً أيديولوجياً مغايراً لما كان سائداً من قبله، قد نختلف معه أو نتفق، ولكنه بالتأكيد أضاف أبعاداً فكرية وتجارب عملية أثرت فى نهاية الأمر مسيرة البشرية فى القرن العشرين وما بعده. إلا أنه مما لفت نظرى فى العديد من هذه الكتب أنها سعت للنظر بقدر لا بأس به من الموضوعية والتنزه عن التحيز والتجرد العلمى والحياد التاريخى لأحداث جرت فى الاتحاد السوفيتى السابق، خاصة فى مراحله التأسيسية الأولى. وفى هذا السياق، ظهرت العديد من التقييمات المنصفة فى بعض هذه الكتب عن هذه الأحداث مما ساعد كتابها على البعد عن المنهج الانتقائى والاستفادة من مصادر كانت تعتبر إلى عهد قريب فى الغرب من المحظورات وتتعرض للاتهام بالانحياز للماركسية أو الترويج للشيوعية. ومن هذه المصادر التى اعتمدت عليها هذه الكتب ذات الطابع الموضوعى كان كتاب ROBERT VINCENT DANIELS المعنون «ضمير الثورة» THE CONSCIENCE OF THE REVOLUTION الصادر أصلاً فى طبعته الأولى عام ١٩٦٠، وذلك فى أعقاب انتهاء حكم ستالين بسنوات قليلة ومستفيداً من معلومات وردت فى شهادات خرجت من الاتحاد السوفيتى السابق عن فترتى حكم لينين وستالين بعد وفاة الأخير عام ١٩٥٣، واتصف الكتاب بالتالى بنقل هذه الشهادات كمصادر أولية، وساعد على التزامه الموضوعية كانت الأجواء العامة فى الغرب فى ذلك الوقت أكثر انفتاحاً على الاتحاد السوفيتى عما قبل وأكثر تفاؤلاً بقدوم خروتشيف والأمل فى الغرب بقيامه بإحداث انفتاح سياسى واقتصادى وثقافى فى الاتحاد السوفيتى السابق. وقد صدرت طبعات لاحقة من هذا الكتاب. إلا أن ما يعنينا هنا هو تناول الكتاب لحالة التعددية الفكرية والسياسية - داخل الإطار الماركسى - التى سادت روسيا فى ذلك الوقت المبكر للثورة، وتحديداً منذ انتصار الثورة البلشفية عام ١٩١٧ وحتى وفاة لينين عقب ذلك بسبع سنوات. ولئن كانت الضربات التى لحقت بهذه الحالة التعددية قد بدأت فى حياة لينين، فإن الضربة القاضية لها جاءت بلا شك على يد ستالين وخلال فترة حكمه. فالكتاب يُعد بحق أحد أهم الكتب التى تحدثت منذ تاريخ مبكر عن التعددية التى كانت موجودة خلال الفترة الأولى من تنظيم وانطلاق ثم حكم ثورة اكتوبر ١٩١٧ البلشفية فى روسيا، خاصة تلك القوى والتيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية التى كانت لها رؤى تقف داخل مربع الثورة. وقد أكد أهمية هذا الكتاب، بالإضافة إلى الدراسات والكتب التى صدرت مؤخراً فى الغرب أساساً، القليل من الكتب التى صدرت فى عالمنا العربى ومنها كتاب الأستاذ جمال البنا «المعارضة العمالية».

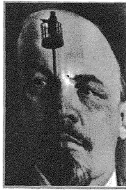


وقد تناول المؤلف أولاً مسألة مركزية، ألا وهى الديمقراطية. ففى عام ١٩١٠، أى بعد أربع سنوات من تبلور البلشفيك كفصيل منفصل فى حزب العمال الديمقراطى الاجتماعى الروسى، فإن أحد فصائل البلشفيك، وهم الفبيريوديست (الطليعيون)، طالب بالتعبير الديمقراطى عن آراء القواعد الشعبية والسماح لكل الفصائل بالتعبير عن مواقفها داخل حدود الموقف البلشفيكى العام. كذلك، فإن فصيلاً بلشفياً آخر هو الأتزوفيست (الدعاة) تشكل إطاره التنظيمى بشكل عفوى فى صفوف الطبقة العاملة وقام بعملية تثقيف سياسى للعمال. وقد هاجمت تلك الفصائل فى عامى ١٩٠٩ و١٩١٠، ما أسمته بجهود لينين لتقوية هيمنته الفردية على الحركة الثورية، كما انتقدت أوجه القصور فى أسلوب قيادته للحركة البلشفية مما أدى -حسب وجهة نظر هذه الفصائل- إلى إيجاد فجوة بين القيادة والجماهير. إلا أن تلك الفصائل التى راهنت على «ثورية» الجماهير، آمنت بضرورة إقامة حزب طليعى من المثقفين والمحترفين الثوريين ليوجه ضربة للنظام القائم بما يشجع الجماهير على بدء انتفاضتها التى ستأتى بديمقراطية الشعب الديكتاتورية.

وعقب نجاح الثورة البلشفية، أى فى مطلع عام ١٩١٨، فإن «المعارضة العمالية» و«الديمقراطيين المركزيين» انتقدوا تزايد النزعات السلطوية والبيروقراطية فى الحزب الشيوعى، وهو ما تم تبريره حينذاك بظروف الحرب العالمية الأولى. وخلال المؤتمر الثامن للحزب فى مارس ١٩١٩، تم تأسيس المكتب السياسى للحزب، وهو ما شكل علامة على النزعة اللينينية لمزيد من المركزية، وقد ردت المعارضة على ذلك باقتراح زيادة التمثيل العمالى فى اللجنة المركزية للحزب وتوسيع عضوية تلك اللجنة لضمان الديمقراطية ومجابهة النزعات البيروقراطية فى المستويات العليا للحزب. وكان يتم حينذاك تبرير المركزية المتزايدة وقمع الممارسات الديمقراطية داخل صفوف الحزب بحجة وجود حالة الحرب الأهلية. وفى نفس المؤتمر الثامن للحزب عام ١٩١٩، عبر ممثلو المعارضة عن رفض استبدال إدارات سياسية ذات طابع بيروقراطى باللجان المحلية للحزب، باعتبار ذلك يستهدف السيطرة على الطبقة العاملة بدلاً من توفير قنوات المشاركة السياسية وتصعيد آراء القواعد والرأى العام على مستويات المصنع والمزرعة والحى إلى القيادة. ورأى ممثلو المعارضة فى هذه الإدارات السياسية وسيلة للدعاية السياسية من أعلى إلى أسفل دون ضمان ردود فعل من أسفل إلى أعلى.

وفى المؤتمر التاسع للحزب عام ١٩٢٠، واصل «الديمقراطيون المركزيون» و«المعارضة العمالية» انتقاداتهما ضد النظام، حيث هاجم الفصيلان البيروقراطية المركزية وسلطة الفرد سواء على مستوى التنظيم السياسى أو إدارة المشروعات الصناعية، وبدلاً من ذلك دعتا إلى سلطة جماعية فى الحزب وفى المؤسسات الصناعية. وفى ضوء التمثيل القوى للمعارضة فى مؤتمر الحزب، قرر المؤتمر تشكيل «لجان سيطرة» للدفاع عن المصالح الأيديولوجية والطبقية للقواعد فى مواجهة هذه المؤسسات. إلا أنه بحلول مطلع عام ١٩٢١، قدرت المعارضة أن النزعة البيروقراطية تتصاعد داخل الحزب، وحملت بيروقراطية الحزب مسئولية اندلاع تمرد «كرونشتاد» فى مارس ١٩٢١، وهو أول تمرد بلشفيكى ضد السلطة يأتى من خارج الحزب.

وجاء المؤتمر العاشر للحزب فى مارس ١٩٢١، حيث عكست مناقشاته وقراراته التناقض غير المحسوم والتوازن النسبى بين المعارضة واللينينيين. ففى ذلك المؤتمر، تم تبنى قرارين متناقضين: الأول خول الحزب سلطة معاقبة أو طرد أى فصيل أو فرد من أعضائه من الحزب، وذلك فى ضربة موجهة لفصائل المعارضة ومطالبتها بالديمقراطية، أما القرار الثانى فحض على الديمقراطية العمالية وحث على ضمان مشاركة العمال الفعالة فى أنشطة الحزب وعملية صنع القرار به، وطالب أيضاً بانتخاب المسئولين الحزبيين وبحرية النقد داخل الحزب فى حدود الديمقراطية المركزية. وفى نوفمبر من العام نفسه، وفى إطار التحضير لمؤتمر الحزب فى موسكو دعت فصائل «المعارضة العمالية»، و«الديمقراطيين المركزيين»، ومجموعة «إيجناتوف» اليسارية فى



موسكو إلى حرية التعبير فى الصحف، وفى مؤتمرات الحزب وهيئاته وداخل السوفيتات. كما طالبوا بتواصل السوفيتات مع الطبقة العاملة، وحثوا قواعد الحزب على ممارسة الضغوط لإجبار بيروقراطية الحزب على احترام الديمقراطية العمالية واستقلالية المنتديات العمالية.

ومما زاد موقف الجناح اللينينى فى الحركة البلشفية سوءاً أن عامى ١٩٢١ و١٩٢٢ جاءا إلى الساحة السياسية بفصيلين جديدين ينتميان إلى المعارضة. كان الفصيل الأول هو «مجموعة العمال» والذى دعا إلى حرية الصحافة والإدارة الديمقراطية للصناعة عبر نقابات العمال وطالب بإقرار حق الإضراب للعمال. وبالرغم من أن هذه المجموعة بدأت داخل صفوف الحزب، فإن زعيمها «مياسينكوف» طرد من الحزب عام ١٩٢٢ حيث اتهم بالترويج لأفكار تخدم البرجوازية، وانتقلت مجموعته للعمل السرى. أما الفصيل الثانى فكان «الحقيقة العمالية» (رابوشايا برافدا) الذى عارض الطبيعة البيروقراطية للنظام ودعا إلى تأسيس حزب عمالى جديد يكون قادراً على توفير ظروف ديمقراطية تمكن العمال من الدفاع عن مصالحهم. ونرى فى المواقف المتطرفة نسبياً لهذين الفصيلين ما يوضح الانعكاسات السلبية لعدم تسامح اللنينيين تجاه «الآخر» ورأيه، مما دفع المعارضين تنظيمياً للعمل من خارج الحزب، أو حتى الاتجاه للعمل السرى، وأيديولوجياً إلى التشكيك فى جدوى الحزب الشيوعى كحزب يعبر بصدق عن مصالح وطموحات الطبقة العاملة.



وفى ختام هذا الجزء عن موقف المعارضة الثورية فى روسيا السوفيتية تجاه المسألة الديمقراطية، يستطيع المرء أن يرى بسهولة أن الأطراف المكونة لهذه المعارضة كررت باستمرار نفس مطالبها منذ ١٩١٨ وحتى ١٩٢٣، وهو ما يدل على أن «الإصلاحات الديمقراطية» التى أقرتها مؤتمرات الحزب المتتالية لم تر طريقها إلى النور بسبب تجاهل سكرتارية الحزب ذات التوجه اللينينى. المسألة الأخرى التى لا ينبغى تجاهلها هى رؤية المعارضة لمفهوم «الطليعة» بوصفه ضروريا ولا يتناقض مع «ديمقراطية الطبقة العاملة».



بمجيء مطلع عام ١٩٢٠ قبل مؤتمر الحزب مبدأ التسلسل الهرمى فى الإدارة، وهو ما تزامن مع التوجه نحو مزيد من المركزية. ويُعد هذا القرار تراجعاً واضحاً عن مبدأ مشاركة العمال فى إدارة وسائل الإنتاج



وربما احتلت مناقشة المسألة الديمقراطية جزءاً كبيراً من هذا البحث، إلا أننى أزعم أنها كانت مسألة مركزية للمعارضة التى آمنت بالحاجة إلى توزيع واسع للسلطة السياسية للقوى الثورية وللجماهير الشعبية، وحاربت من أجل مجتمع لا طبقى تختفى فيه سيطرة طبقة، أو قهر طبقة لأخرى، أو هيمنة مصالح طبقية بعينها. وكان الهدف هو تحقيق السيادة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للطبقة العاملة تنفيذاً لنصوصية شيوعية كارل ماركس.

أما المسألة الثانية التى تعرض لها المؤلف فهى مسألة اللجان الشعبية والجيش الشعبى. فنجد أن أول مؤتمر للسوفيتات فى كل روسيا والذى عُقد فى مارس ١٩١٧ قد دعا إلى منح الشعب الفرصة لممارسة الحريات الديمقراطية من خلال السوفيتات المحلية والمجالس المنتخبة شعبياً فى مواقع العمل، باعتبار هذه المجالس واللجان هى عصب السلطة الثورية، أو هكذا يجب أن تكون. كما طالب المؤتمر بإنشاء «حرس أحمر عمالى» لقيادة النضال ضد الحكومة المؤقتة التى جاءت إلى الحكم بعد ثورة فبراير ١٩١٧.

وإذا كانت هذه المطالب تمثل بالأساس مطالب المعارضة اليسارية، فإنه بحلول مارس ١٩١٨، دعا «الديمقراطيون المركزيون» إلى أن يكون ثلثا أعضاء مجالس إدارة المشروعات الصناعية من العمال المنتجين، إلا أن مؤتمر الحزب قبل فقط أن يكون ثلث الأعضاء من العمال. وفى العام نفسه - أى ١٩١٨- تم تأكيد السيطرة العمالية من خلال لجان بأماكن العمل الصناعية تم إنشاؤها فى عدد كبير من المصانع، وفى صيف نفس العام بدأ اليسار البلشفيكى فى إنشاء ما سُمى بـ «لجان فقراء الريف» حتى تستولى على الأراضى الإضافية التى كان يملكها الإقطاعيون (الكولاك) أو حتى مُلاك الأراضى الريفيين من المنتمين للطبقة الوسطى. وبالرغم من حل هذه اللجان فى روسيا بواسطة اللجنة المركزية للحزب بحلول نهاية ١٩١٨، فإن عدداً منها بقى حتى عام ١٩٢٠ فى أوكرانيا حيث احتفظ اليسار البلشفيكى بالأغلبية فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى.

وبحلول نهاية عام ١٩١٩، تم إنشاء لجان عليا لمركزة اللجان العمالية وجمعها مع الإدارة الاقتصادية للمصانع. إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن مجالس الإدارة -وليس المديرون من الأفراد- هى التى أدارت المصانع فى ذلك الوقت، كما أن ممثلى الحركة النقابية العمالية شاركوا فى عضوية هذه المجالس. إلا أنه بمجئ مطلع عام ١٩٢٠ قبل مؤتمر الحزب مبدأ التسلسل الهرمى فى الإدارة، وهو ما تزامن مع التوجه نحو مزيد من المركزية. ويُعد هذا القرار تراجعاً واضحاً عن مبدأ مشاركة العمال فى إدارة وسائل الإنتاج. وفى ذلك الوقت، بدا أن «الديمقراطيين المركزيين» لم يحسموا أمرهم، فقد أعلنوا تفضيلهم العام لإدارة جماعية للتخلص ممن أسموهم بـ «المتخصصين البرجوازيين»، إلا أنهم دعوا فى نفس الوقت إلى معالجة كل حالة على حدة من حيث المفاضلة بين الإدارة الجماعية أو الفردية. وبشأن نفس المسألة، وقفت النقابات العمالية وبعض تنظيمات الحزب المحلية التى كانت واقعة تحت سيطرة المعارضة بقوة تدعم جماعية الإدارة عبر مجالس الإدارة.

وفيما يتعلق بمسألة «الجيش الشعبى»، فمن المفارقات أن ليون تروتسكى -الذى صار لاحقاً معارضاً يسارياً- هو الذى فرض سيطرة القيادة العسكرية المركزية على حرب العصابات وجماعات القتال الشعبية التى كانت تقاوم كلا من الألمان من جهة ومُلاك الأراضى والبرجوازيين الروس من جهة أخرى، وهى حرب كان يقودها اليسار البلشفيكى حتى عام ١٩١٨. كما أن تروتسكى أيضاً هو الذى أنهى الممارسات الديمقراطية داخل الجيش والتى كانت تتمثل فى انتخاب الضباط وغير ذلك، وأعاد التسلسل الهرمى للجيش.

وفى ختام هذا الجزء، نقول أن المعارضة الثورية فى روسيا اللينينية فى الفترة محل الدراسة فى كتاب «ضمير الثورة»، ناضلت من أجل إدارة جماعية للأحياء وأماكن العمل والإنتاج، وبهدف إيجاد روح جماعية لدى الجماهير وهى روح ذكرت تلك المعارضة أن الماركسية تدعو إليها وتستوجبها. كما أن المعارضة دعت إلى إنشاء جيش شعبى، ولكنها رأت أن يكون هذا الجيش من العمال فقط.



المسألة الثالثة التى يتناولها «روبرت دانيالز» فهى كون القيادة الثورية واقعة فى أيدى خارج نطاق معسكر المعارضة. ففى الحالة الروسية، يعتبر المؤلف أن لينين كان معادياً للنزعات اليسارية واليمينية فى صفوف البلشفيك حتى قبل ثورة ١٩١٧. وفى ١٩١٨ هاجم يسارية «بوخارين» التى أشرنا إليها آنفاً باعتبارها انحرافاً، وكتب: «اليسار الشيوعى: فوضى صبيانية»، وقارن فيه بين ما أسماء جمود خصومه اليساريين -وإن أقر بمبدأيتهم- مع موقفه التكتيكى صاحب النظرة بعيدة المدى، خاصة فيما يتعلق بالأحداث والعلاقات خارج روسيا السوفيتية فى ذلك الوقت. وانتقل لينين من تأييده السابق لعالمية الثورة البلشفية إلى تفضيل حق تقرير المصير للأمم والقوميات ودعا إلى ممارسة الصبر تجاه التطلعات الوطنية للقوميات المختلفة فى ضوء ما أسماه بمشكلات روسيا ذات الطبيعة الخاصة



عارض لينين إدخال الإصلاحات الديمقراطية على الحزب التي طرحتها المعارضة وأصر على أن يكون الحزب هو الجهاز المركزي الذي يسيطر على كافة مناحي الحياة

والحاجة لتأمين سلامة الدولة الاشتراكية الوليدة. وعلى صعيد آخر، عارض لينين إدخال الإصلاحات الديمقراطية على الحزب التي طرحتها المعارضة وأصر على أن يكون الحزب هو الجهاز المركزي الذي يسيطر على كافة مناحي الحياة. كما تراجع عن شعار «كل السلطة للسوفيتات» في عام ١٩١٧ إلى تفضيل بناء هرمي للموظفين المعينين بحلول عام ١٩٢٠. وفي نفس العام، أعلن ضرورة الالتزام بالطاعة المطلقة والنظام من جانب قواعد الحزب وشرائحه الدنيا تجاه القرارات التي تتخذها الشرائح العليا، وهو ما جاء مناقضاً لدعوات توسيع المشاركة السياسية من جانب المعارضة. وتحت ضغط من لينين، استخدم المؤتمر العام العاشر للحزب عام ١٩٢١ تعبير «الانحراف» لوصف التوجه نحو مخالفة الأفكار والسياسات الرسمية للحزب سواء في اتجاه اليسار أو اليمين. وأطلق المؤتمر على «الانحراف لليسار» تعبير «المغامرة» متهماً إياه بالالتزام الأعمى بالماركسية بغض النظر عن الوقائع، وهو ما عده مناقضاً للديمقراطية المركزية كما بلورها لينين، وتهديداً لقوة الحزب ووحدته.

وفيما يتعلق بالشخصية الثانية في القيادة في السنوات محل البحث في الكتاب، وقبل استبعاده لاحقاً، وهي ليون تروتسكي والذي أصبح بوضوح بحلول مايو ١٩٢٢ الرجل الثاني بعد لينين من جهة الثقل الشخصي باعتباره قائد انتفاضة أكتوبر ١٩١٧ ثم مهندس النصر في الحرب الأهلية، فإنه بالرغم من شعبيته في صفوف قواعد الحزب والمثقفين، فإنه لم يكن كذلك بين قياديي الحزب وسكرتاريته من غير المثقفين. وبالإضافة إلى ذلك، فإن تروتسكي لم يتحرك عندما كانت قوى المعارضة تحتاج فقط إلى قيادة تلتف حولها، حيث أن تروتسكي لم يكن يجيد مناورات السياسة الفردية وكان يكره أن يُنظر إليه باعتباره منافساً على السلطة.

وفي ختام هذا الجزء، يمكن القول بأنه في الحالة الروسية، فإن القيادة الثورية استخدمت الشعارات ذات الطابع المثالي -وربما الرومانسي- وذات الجاذبية الشعبية للمعارضة قبل وخلال العملية الثورية، ولكن بمجرد تحقق النصر للثورة، كانت القيادة في حاجة إلى دعم ثابت وصارم وقبول دون منازعة لتلك القيادة. كما أن القيادة كانت في حاجة إلى تنظيم سياسي مركزي يرتكز على نزعة مركزية وبيروقراطية صارمة تضمن الطاعة للقيادة من جهة وسيطرة القيادة على الوضع السياسي/الاجتماعي من جهة أخرى.



أما المسألة الرابعة التي تناولها الكتاب فهي تأميم القيادة الثورية لأهداف وشعارات المعارضة حتى يتسنى لها سحب البساط من تحت أقدامها وكسب شعبية في صفوف أنصارها. ففي أبريل ١٩١٧، وعندما بدت الظروف مهيأة لحدوث انتفاضة ثورية، تخلى لينين عن تحفظه السابق ودعا إلى ما كانت المعارضة تدعو إليه من قبل وهو: معارضة ما أسموه بـ «الحرب الإمبريالية» (في إشارة إلى الحرب العالمية الأولى)، معارضة الحكومة المؤقتة التي جاءت إلى الحكم عقب ثورة فبراير ١٩١٧، والدعوة إلى إقامة نظام ثوري يرتكز على السوفيتات. ودفع هذا الموقف الجديد للينين المعارضة داخل صفوف الشيوعيين إلى دعمه. وبحلول أكتوبر ١٩١٧، تبنى لينين ما كان يدعو إليه تروتسكي منذ عام ١٩٠٥، أي أنه رأى أيضاً أنه نظراً لكون البرجوازية الروسية معنية فقط بحماية وتعظيم ثرواتها الخاصة، فإن على البروليتاريا القيام بأعباء الثورة الوطنية البرجوازية، على أن تقوم البروليتاريا عقب ذلك بأداء مهام الثورة الاجتماعية.

أما المسألة الخامسة التي تعرض لها المؤلف وسأتناولها هنا في عجالة نظراً لأنني أوضحتها في مقدمة هذا المقال فهي ما أسميه بالعلاقة التنظيمية بين المعارضة وبين التيار المؤيد لقيادة الثورة. فقد شكلت المعارضة أحياناً فصائل واضحة المعالم والحدود داخل الحزب - مثل الديمقراطيين المركزيين مثلاً- ولكنهم غالباً دعوا إلى وحدة الحركة الشيوعية وعملوا داخل صفوف الحزب، إلا في حالات قليلة مثل تلك التي تم طردهم فيها من الحزب، كما حدث مع «الحقيقة العمالية» وقائدها «مياسنيكوف»، وكذلك باستثناء حالة تعاون بعض تلك الجماعات المطرودة من الحزب لإنشاء حزب شبه سري عام ١٩٢٣ باسم «المجموعة العمالية للحزب الشيوعي الروسي»، وهو ما أشرت إليه عندما تناولت المسألة الديمقراطية في هذه الدراسة. وفي واقع الأمر، وبخلاف هذه الحالات القليلة، كانت المعارضة هي التي دعمت مركزية أجهزة الحزب وعملية صنع القرار به خلال المؤتمر العام الثامن للحزب الذي عُقد عام ١٩١٩، وخلال نفس المؤتمر أكد «الديمقراطيون المركزيون» على أولوية وحدة الحزب حتى على المطالب التي كان سبق لهم طرحها. ولا يجب أن ننسى أيضاً أن فصيلي «الأتسوفيتس» و«الفبيريوديست» من المعارضة هما اللذان توحدا مع جماعة لينين عام ١٩١٧ حتى ينجح الاستيلاء البلشفيكي على السلطة.

أما المسألة السادسة فهي درجة اتساق وتجانس وتكامل مواقف الأطراف المكونة للمعارضة. فقد انتقل الأفراد والجماعات المنتمية للمعارضة من موقف إلى آخر عبر فترات قصيرة نسبياً، بل إن الأفراد أنفسهم تحركوا من فصيل إلى آخر في أوقات قياسية. ولا شك أن هذه الظاهرة ساهمت في عدم الاتساق الموضوعي والأيديولوجي الواضح في مواقف المعارضة وكذلك في غياب التجانس التنظيمي في صفوفه.

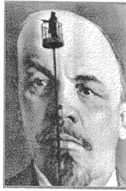
وقد كان تروتسكي اليساري هو الذي دعم لينين عقب ثورة أكتوبر ١٩١٧ بشأن رفض حكومة ائتلافية مع اليسار المنشفيكي والثوريين الاجتماعيين في وقت تبنت فيه فصائل اليسار البلشفيكي هذه الدعوة. كذلك كان اليسار البلشفيكي هو الذي أعلن تأييد الرقابة على الصحافة في نوفمبر ١٩١٧ ثم عاد لاحقاً للمطالبة بحرية الصحافة. وكما ذكرنا آنفاً، كان تروتسكي هو الذي أزال الطابع الديمقراطي عن الجيش وفرض سيطرة قيادة عسكرية مركزية على جماعات القتال الشعبية، وهو موقف عارضه «الديمقراطيون المركزيون». كذلك كان تروتسكي هو الذي أيد معارضة لينين في يناير ١٩٢٠ للإدارة الجماعية للمشروعات الصناعية وأعرب عن تفضيله لسلطة فردية للإدارة، وذلك بالرغم من موقف المعارضة المفضل للإدارة الجماعية.



أما المسألة السابعة التي تناولها روبرت دانيالز في كتابه «ضمير الثورة» فهي الطبيعة الوطنية أو الأممية للثورة من وجهة نظر المعارضة، خاصة اليسار البلشفيكي.

فقد عكست هذه القضية غياب الوحدة الفكرية عن اليسار البلشفيكي. ففي عام ١٩١٧ تحدث تروتسكي عما أسماه «بالولايات المتحدة الأوروبية» كمثل أعلى للاشتراكية وكحل للحرب مع ألمانيا في نفس الوقت، بينما كان بوخارين ينظر لثورة اشتراكية عالمية تبدأ من أوروبا. وعلى الجانب الآخر، فقد تحدث «الفبيريوديست» عن سلام ديموقراطي مع الحفاظ على السلامة الإقليمية لروسيا. وقد عارض اليسار بشكل عام برنامج لينين لممارسة القوميات لحقها في تقرير المصير باعتباره عائقا أمام الثورة الاشتراكية العالمية.

وخلال المؤتمر الثامن للحزب، أعرب بوخارين عن تفضيله دفع الثورة العالمية إلى الأمام على الحفاظ على الدولة الاشتراكية الواحدة في روسيا. ومن جانبهم دعا ممثلو المعارضة خلال نفس



المؤتمر إلى ممارسة حق تقرير المصير للطبقات الكادحة داخل كل أمة، وذلك كحل وسط مع اقتراح لينين. إلا أن العناصر القومية المتطرفة رفضت هذا الحل التوفيقي. ودعا «بياتاكوف» إلى سيطرة مركزية من جانب الحركة الشيوعية العالمية على كافة التنظيمات البروليتارية في العالم باعتبار أن مصالح الثورة الاشتراكية العالمية يجب أن تعلو على مصالح الطبقة العاملة في دول بعينها.

وكان اليساريون البلشفيك هم الذين عارضوا اقتراح لينين بمركزية الحزب الشيوعي، وكان سببهم في ذلك هو أن من شأن هذا أن يؤدي إلى تقييد حرية الحركة لمنظمة الحزب الشيوعي في اوكرانيا التي كانوا يسيطرون عليها وكانوا يأملون في أن تشكل قاعدة مستقلة يبدأون منها حرباً ثورية عالمية تبدأ من ألمانيا وتبتعد عن سياسات لينين الحذرة والحريصة.

وقد أوضح تروتسكي أن الثورة الشعبية المعادية للرأسمالية وللإمبريالية في أوروبا هي شرط لبقاء الثورة الروسية والحفاظ عليها. إلا أنه بحلول منتصف عام ١٩١٨ بدا لينين ميالا إلى التوصل إلى تسوية سلمية مع ألمانيا ومعارضة فكرة الحرب الثورية حيث أنه أدرك أن روسيا لم تتلق أي دعم ثوري من البروليتاريا الأوروبية، وبرر وجهة نظره هذه بأن واجب روسيا هو الاعداد للثورة في أوروبا وليس القيام بهذه الثورة نيابة عن بقية الأوروبيين.

وقد عارض اليسار البلشفيكي هذا السلام المنفرد بين روسيا وألمانيا باعتباره إجراء انتهازياً، وأيضاً نظر إليه كهزيمة للسوفيتات وللبروليتاريا، وكانتصار للرأسماليين والاقطاعيين والبرجوازيين. وتنبأ اليسار البلشفيكي بأن الثورة الروسية ستموت إذا لم تقم الحرب الثورية في أوروبا، وهي نبوءة لم تتحقق في حينها. وكانت المعارضة داخل الحزب الشيوعي، مدعومة من قبل بوخارين، هي التي دعمت عام ١٩٢٢ مطالبة القوميات بحقوق وبدرجة متقدمة من الحكم الذاتي، وذلك في مواجهة من دعوا إلى روسيا الكبرى بنكهة شوفينية.

عقب هذا العرض والتحليل لما ورد في كتاب روبرت دانيالز الهام «ضمير الثورة»، فيما يتعلق بالتعددية الفكرية والسياسية في روسيا السوفيتية، فإنه يمكن للمرء أن يلحظ نمطاً من الأسباب التي دفعت إلى فشل هذه التجربة التعددية قصيرة العمر، مع التحفظ أصلاً على القيود التي كانت مفروضة على حدودها العقائدية ومع الإشادة بالطابع الموضوعي إلى حد كبير في العرض والتحليل الواردين بالكتاب، وهذه الأسباب نوجزها فيما يلي:

فأولاً، كان هناك غياب قيادة لها شعبية جارفة في صفوف المعارضة وتتصف بالفاعلية والالتزام والاصرار عند مواقف معينة، وعدم رغبة عناصر المعارضة التي تحمل هذه الصفات في العمل بحسم في اللحظة المناسبة في مواقف أخرى، والاقتناع الساذج أو البريء من جانب قوى المعارضة بأن السلطة قد تبنت عن صدق أهداف المعارضة، وبالتالي تدعيم قيادة السلطة ومساندتها مما أدى إلى التخلي عن إمكانية تطوير قاعدة سياسية واجتماعية مستقلة لقوى المعارضة. ويتصل بهذه النقطة نجاح قيادات السلطة في مصادرة وتأميم شعارات المعارضة في لحظات حرجة وحساسة مما أدى بها إلى كسب القاعدة الشعبية لفصائل المعارضة.

وثانياً، فإن العامل الحاسم الذي ساهم في تخلي قيادات الثورة عن تحالفها مع واعتمادها على قوى المعارضة الثورية الأخرى تمثل في أن أيديولوجيات المعارضة ربما كانت معنية أكثر مما ينبغي بالممارسات الديمقراطية الشعبية والاجراءات التي تضمن المشاركة السياسية، وهي أمور ربما كانت تبدو جذابة في نظر القيادة الثورية قبل أو بعد الحدث الثوري ذاته، ولكنها لم تكن مفيدة لتلك القيادة في الوقت الذي كانت تسعى فيه القيادة إلى تعميق وتقوية جذور سلطتها الجديدة عقب انتصار الثورة، فما كانت تحتاجه القيادات في تلك المراحل كان تنظيماً هرمياً ومركزياً قوياً تسوده العقلية التي تعلي من شأن الطاعة والولاء من جانب الاتباع بما يعزز سلطة تلك القيادات بأي وسيلة، وعلى حساب الحقوق الديمقراطية التي وعدت تلك القيادات بها شعوبها في مراحل سابقة. فكانت إذن هذه الشخصيات والمؤسسات مفضلة لديها عن المجالس الشعبية أو حرية الحوارات الفكرية والثقافية فيما بين الفصائل الاجتماعية والسياسية والفكرية المختلفة التي كان من شأنها بالضرورة عدم مركزية وربما زعزعة استقرار تلك النظم الثورية المشكلة حديثا في ذلك الوقت.

وثالثاً، فإن غياب المرونة من جانب قوى المعارضة في تطوير وتكييف برامجها بما يتفق مع التطورات السياسية والاجتماعية المتسارعة خلال وعقب مراحل النضال الثوري شكل عائقاً أمام تأثير قوى المعارضة في الحكم أو حتى مجرد استمرارها. وفي هذا المجال فإن التوجهات المغالية في السجالات الثقافية والأيديولوجية والتوجهات الدوجماطيقية والنزعات الفردية لدى فصائل المعارضة داخل مربع اليسار، بما في ذلك التركيز كثيراً على البعد الاممي، كل ذلك ساهم بوضوح من وجهة نظري وكما ظهر من خلال التحليل الوارد في هذه الدراسة في تدني الدعم لقوى المعارضة أو حتى مجرد التعاطف مع وجودها أو السعي للتحاور معها في صفوف قواعد الحزب وكوادره وتحول المعارضة داخل خندق القوى الثورية إلى مجرد أفكار وآراء يعبر عنها في بعض الأحيان بعض القادة الحزبيين أو الشخصيات النقابية والعامة مع الافتقاد لأي قاعدة اجتماعية.

ورابعاً، نجد عوامل ضعف في المعارضة من داخل صفوف الثورة في روسيا من واقع قراءة كتاب «ضمير الثورة» وغيره من الكتب التي تناولت نفس الموضوع، ومن ذلك الصراعات ذات الطابع الشخصي أو الفصيلي التي دارت، والتي خدمت فقط مصالح السلطة. كذلك فإن تحول مواقف المعارضة بشأن بعض القضايا عبر فترات قصيرة نسبياً من الزمن عنى احياناً تحول في مواقف شخصيات وفصائل المعارضة في اتجاه التحالف مع مواقف القيادة في مواجهة فصائل معارضة أخرى. كما أن التزام المعارضة في أغلب الحيان واصرارها على الاستمرار داخل صفوف الحزب اللينيني ساهم بشكل سلبي على تأثيرها وعلى هامش حرية الحركة المتاح لها كما أثبت في نهاية المطاف أنه يصب لصالح لينين الذي كان في الأساس مناضلا من اجل سيطرة الحزب، كما أثبت هذا الموقف أنه شكل ضربة قاضية للمعارضة على المدى الطويل.



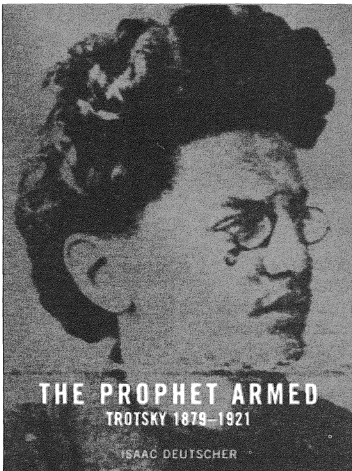
إلا أن فشل المعارضة في الوصول إلى السلطة أو الاحتفاظ بها أو تنفيذ برامجها، أو على الأقل إقناع القيادة بالقبول بمبادئ تداول السلطة فيما بين القوى الثورية أو التحاور الديمقراطي البناء فيما بينها، لا يجب أن يجعلنا نتجاهل التأثير الفكري والثقافي بعيد المدى لفكر هذه المعارضة، سواء كمثال أو كمصدر للدروس التي يتعلمها أصحاب أيديولوجيات أخرى وأتباع حركات سياسية واجتماعية أخرى، أو التقليل من دلالاتها العملية على حدوث هذه التجربة في التعددية الفكرية والسياسية على أرض الواقع لسنوات في سياق ثورة وتجربة كان الكثيرون عبر العالم يصمونها لعقود بشكل مطلق بالاستبداد والشمولية دون التفرقة بين مراحل تطورها المختلفة ودون الانتباه لتلك المرحلة التي تعرضنا لها هنا والتي يمكن وصفها بربيع الديمقراطية في روسيا السوفيتية، وهو ربيع لم يكتمل. ■



أوضح تروتسكي أن الثورة الشعبية المعادية للرأسمالية وللإمبريالية في أوروبا هي شرط لبقاء الثورة الروسية والحفاظ عليها. إلا أنه بحلول منتصف عام ١٩١٨ بدا لينين ميالا إلى التوصل إلى تسوية سلمية مع ألمانيا ومعارضة فكرة الحرب الثورية







المسلح

الأعزل

المشرد

ثلاثية تروتسكى: مرثية

نيل اتشرسون

■■ حظيت أعمال «إيزاك دوتشر» Isaak Deutscher، عن حياة «تروتسكى» Trotsky، باهتمام جيلين: الجيل المعاصر له، والجيل الذى خلفه، وهى تعد - بحق - من أفضل الأعمال فى مجال السيرة الذاتية. صدر المجلد الأول فى عام ١٩٥٤، بعد وفاة «ستالين» Stalin بفترة قصيرة.

ثلاثية المؤلف Isaak Deutscher عن حياة تروتسكى:

(1) The Prophet Armed: Trotsky 1879- 1921

النبى المسلح ١٨٧٩ - ١٩٢١

(2) The Prophet Unarmed: Trotsky 1921-29

النبى الأعزل ١٩٢١ - ١٩٢٩

(3) The Prophet Outcast: Trotsky 1929- 1940

النبى المشرد ١٩٢٩ - ١٩٤٠

وقد أصدرت دار نشر verso طبعة جديدة من هذه الثلاثية عام ٢٠٠١ وكانت الطبعة الأولى قد صدرت نهاية الخمسينيات

بترتيب مع: London Review of Books

ترجمة: جمال إسماعيل

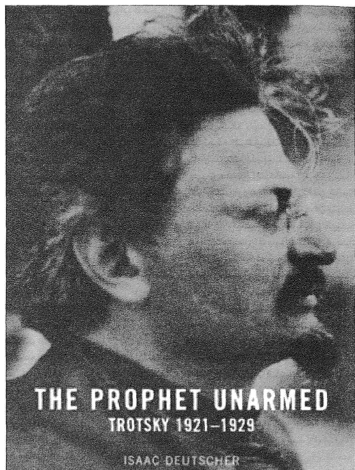
وظهر المجلد الأخير فى عام ١٩٦٣، وقت أن كان «الاتحاد السوفيتى» لا يزال يبدو قويًا واثقًا، وكانت الآمال لا تزال قائمة (ليس عند اليسار فحسب) فى إمكانية أن يأتى اليوم الذى تتخذ فيه إصلاحات تؤدى إلى تحقيق الرؤية السوفيتية للاشتراكية الديمقراطية. اليوم تغيرت الأحوال. لكن الجيلين كانا على حق سواء فيما يتعلق بـ «الاتحاد السوفيتى» أو بكتابات دوتشر عن حياة تروتسكى، التى أعادت «دار فيرسو» Verso «البريطانية» نشرها فى ثلاثة مجلدات، تجعل قارئ اليوم يقف أمام هوة عميقة محدقًا فى تغيرات عمرها أكثر من ٤٠ عامًا.

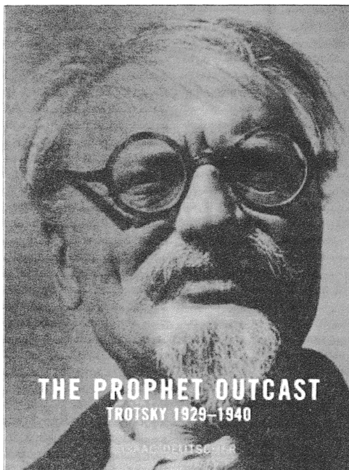
قبل سنوات مضت، كانت هذه «الثلاثية» تعد أجمل هدية يمكن أن تُهرب إلى مثقفى شرق أوروبا (رغم صعوبة إخفائها تحت القميص، إذ يصل وزنها إلى ثلاثة كيلو جرامات). وخلال سنوات «الجلاسنوست» glasnost[1] وحتى عام ١٩٩١، كانت مصدر إلهام للعديد من الذين تطلعوا إلى ديمقراطية سوفيتية جديدة تسع الجميع، لكن هؤلاء سرعان ما اكتشفوا أن المياه كانت تجرى فى الاتجاه المعاكس.

لا أحد يجادل فى أن الثورة البلشفية اعتبرت أهم حدث وقع فى القرن العشرين. لكن هذا الأمر يثير الآن الكثير من الجدل. ويكاد الرأى السائد يجمع، بعد ٣٠ عامًا من انهيار الاتحاد السوفيتى، أن هذه الثورة لم تحقق شيئًا من أهدافها الرئيسية. وأن النجاح الوحيد كان هزيمة هتلر العسكرية بفضل سياسة التصنيع التى فرضها ستالين على روسيا.

هناك، أيضًا، من يرى أن «الثورة الحقيقية» كانت ثورة فبراير ١٩١٧، وأن استيلاء البلاشفة على السلطة، فى أكتوبر، يعد بمثابة «الانقلاب الانتهازى». لقد كان لينين هو الذى أسس لاحتكار البلاشفة للسلطة السياسية. وهو الذى وضع سابقة شجب كل انتقاد لهذا الاحتكار باعتباره «ثورة مضادة»، وشجع البلاشفة على الاعتقاد «المميت» بأنهم يمثلون الطبقة العاملة. كان لينين هو الذى أوجد آلة الظلم غير الإنسانى، التى استمر ستالين فى تشغيلها على نطاق واسع. وهو الذى أجاز «الترويع الأحمر» ضد أعداء الطبقة العاملة. وإذا كان لينين هو الذى وضع تقاليد تحقيق الأهداف بالقوة، فهل يمكن إعطاء أهمية كبيرة لمن كان سيخلفه: ستالين أم تروتسكى؟، خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار طبيعة تروتسكى المندفعة، وإسهاماته فى «الترويع الأحمر» خلال الحرب الأهلية. وإذا كان عمالقة الثورة الثلاثة، فى الشر سواء فلماذا يكون لتروتسكى أهمية خاصة؟!

الباحث التاريخى، حديث التخرج، يزن الثوار بميزان إنسانى بسيط: هل





انتصـــــار فـى هـزيمـــــة

قتلوا الكثير من الضحايا؟ إذا كانوا قد فعلوا فهم أشرار. والقول بأن بعض القتلى، كان أكثر سفكًا للدماء من قاتليه، لا يغير من الأمر شيئًا لأن الوسائل الشريرة لا يمكن تبريرها بالغايات مهما كانت نبيلة.

يرى دوتشر التاريخ من منظور مغاير تحكمه معايير تختلف عن تلك التى تحكم منظمة العفو الدولية. كل شيء عنده يقاس فى ضوء الدافع الثورى. والسؤال الأهم لديه هو: هل ساعد هذا التوجه، أو تلك الفكرة، على إنجاز الثورة أم جرفها بعيداً عن هدفها الحقيقى؟ لقد تحلى دوتشر بإيمان راسخ فى قيمة الهدف النهائى الذى كثيراً ما عبر عنه تروتسكى وقال، وهو فى منفاه السيبيرى وكان عمره وقتها ٢٢ عامًا: «سأظل أناضل من أجل المستقبل طالما بقيت حيًا. هذا المستقبل المشرق الذى يصبح فيه الإنسان قويًا قادرًا على التحكم فى تيار التاريخ وتوجيهه إلى آفاق لا محدودة للجمال والفرح والسعادة».

هكذا تحولت سيرة تروتسكى، بين يدى دوتشر، إلى رواية ملحمية للصراع من أجل روح الثورة، ومن أجل تعهدها بوضع نهاية لعصور الفقر والعوز، وبدء ألفية جديدة لحرية وسيادة كل البشر. وهكذا ظل دوتشر يعتقد فى استمرارية هذا الصراع حتى بعد سقوط وموت بطله، وإلى أن يأتى اليوم الذى ينهض فيه نفر من ثوار روسيا الجدد لإنقاذ «أكتوبر» من مستنقع الاستبداد والاستغلال الذى قادها إليه ستالين. ولإعطاء ماركسيته هذه نكهة عالمية، لم تكن مفاجأة أن يصور دوتشر تروتسكى وكأنه «بروميثيوس Prometheus [٢] يخوض الصعاب من أجل مستقبل البشرية، وليس مجرد ممثل فى دراما سياسية روسية. ويكاد العمود الفقرى «للثلاثية» أن يكون مرافعة أخلاقية عن تروتسكى، رغم أن دوتشر لم يكن «تروتسكيًا» بل كان ثوريًا ماركسيًا مستقلاً، طرد من الحزب الشيوعى البولندى فى عام ١٩٣٢ لانتقاده ستالين (وكان محظوظًا إذ أن ستالين، وبعد طرده بسنوات قليلة، دعا جميع قادة الحزب البولندى إلى موسكو وأعدمهم رميًا بالرصاص).

لم يلتق دوتشر، تروتسكى، فى حياته. ولم يتفق معه فى كثير من سياساته، لكنه كان يرى فيه التجسيد التام لاعتقاده الراسخ أن الاستبداد «الستالينى» لم يكن الشكل الممكن الوحيد للثورة الماركسية: «لقد اعتبرت تروتسكى - بالفعل - أحد أبرز القادة الثوريين، فى كل العصور، كمناضل ومفكر وشهيد. لقد بذلت قصارى جهدى كى أنصف شخصية البطل فى تروتسكى، والتى لم أجد ما يناظرها فى التاريخ. لكننى صورته أيضًا فى الكثير من لحظات حيرته وارتباكه، مثل «تيتان» Titan [٣] وهو يترنح ويجفل ويتحصن، ثم يخرج لكى يلقى مصيره».

لقد حلق دوتشر بعيداً وهو يتحدث عن معاملة تروتسكى الضارية لأعداء الثورة، وقت أن كان قائداً للجيش الأحمر، ويقول: «حتى فى هذه المرحلة كان الاشتراكى الحر حاضراً داخله. وفى معظم أفعاله القاسية وكلماته الحادة، كان توهجه الإنسانى الدافئ يميزه عن معظم فارضى النظام والانضباط». هل كان الأمر كذلك؟ وهل شعر بهذا الدفء هؤلاء الذين واجهوا فصائل الإعدام؟

لم يتفق دوتشر، مع تروتسكى، فى مقت ستالين والتابعين له فحسب. بل اتفقا أيضًا فى التحليل النهائى للوضع القائم فى الاتحاد السوفيتى خلال الثلاثينيات، وأن الثورة قد أدت إلى وجود «دولة ممسوخة للعمال»، وأن هدفها المتمثل فى إزالة سلطة رأس المال وإلغاء الملكية الخاضعة لوسائل الإنتاج، ظل بكراً «لم يمس» فى ظل ديكتاتورية بيروقراطية فى البنية الفوقية، ورقابة وإرهاب دولة. رغم ذلك، ظل دوتشر، وإلى أن رحل فى عام ١٩٦٧، متفائلاً بشأن مستقبل الاتحاد السوفيتى. ومثله مثل تروتسكى رفض التسليم بأن الستالينية كانت - ببساطة - شكلاً من أشكال الدولة الرأسمالية، ولمنفعة طبقة مستغلة جديدة. لكنه اختلف معه فيما يتعلق بواجب الدفاع عن الدولة السوفيتية، حتى وإن كانت دولة ستالين». وعندما أكد تروتسكى أن غزو ستالين لأراض أجنبية (مثل شرق بولندا عام ١٩٣٩) يجب الترحيب به باعتباره «هدفًا تحرريًا» وأن الغزاة «الغوا الملكية الخاصة»، وجد دوتشر أن موقف تروتسكى يفتقد المنطق والاتساق.

استلهم دوتشر عناوين ☞

ثلاثية السيرة الذاتية لتروتسكى من ميكافيللى الذى لاحظ، وكان مخطئًا، أن «المسلحين من الأنبياء هزموا، والعزل منهم دمروا». وقد أشار ميكافيللى أيضًا إلى الطبائع المتباينة البشر و«قد يكون من السهل إقناعهم ولكن من الصعب الإبقاء عليهم فى حالة اقتناع دائمة. ومن الضرورى اتخاذ إجراءات تدفعهم إلى الإيمان إذا فتر إيمانهم». هنا تكمن المعضلة الأخلاقية التى واجهت الثورة البلشفية المنتصرة، والتى لم يجد تروتسكى حلاً لها. الأمر هنا لا يتعلق بـ «الوسائل والغايات»، فحسب، لأن البشر «الطبقة العاملة» لم يكن عليهم مجرد الطاعة، بل كان عليهم - أيضًا - أن يؤمنوا. وعندما فتر الإيمان كان لابد من إعادة تصنيعه فى صيغة حزب يزعم أنه يمثل البروليتاريا، التى لا تستطيع الحفاظ على السلطة إلا بالديكتاتورية.

كان تروتسكى أحد أوائل الثوار الذين عارضوا مثل هذا «التمثيل النيابى». وقد حذر منذ عام ١٩٠٤ من «أن الحزب إذا فوض نفسه لتمثيل الطبقة العاملة فإن منظمة الحزب سوف تفوض نفسها عن الحزب ككل. ثم تفوض اللجنة المركزية نفسها عن المنظمة ثم ينتهى الحال إلى أن ديكتاتورًا واحدًا يفوض نفسه عن اللجنة المركزية».

بعض هذه التنبؤات تحقق بدقة مذهلة. لكن تروتسكى نفسه ساهم فى تحقيقها. وبعد الثورة، بعام واحد - تقريبًا - تبنى مبدأ أن الحزب يجب أن ينوب عن البروليتاريا وقت الأزمات. وفى عام ١٩٢٣، وهو يدافع عن الديمقراطية البروليتارية ضد السلطة الثلاثية بقيادة ستالين، غير ما تبناه وعاد إلى موقفه القديم. لكنه - وقتها - كان متورطًا إلى درجة لم يتمكن معها من التعبير عن رأيه بشكل حاسم. والواضح أن التزام تروتسكى بالحزب البلشفى كان التزامًا ثابتًا؟. وربما يكون الرجل الذى قاد «المناشفة»(٤)، فى يوم من الأيام، قد خانه حماسه «الديمقراطى». وفى عام ١٩٩٤ وصلت «رومانسية الالتزام» إلى درجة جعلته يبلغ المؤتمر الثالث عشر للحزب بأن «المرء لا يستطيع أن يكون على حق إلا داخل الحزب، وعبر الحزب. ولا يوجد سبيل آخر لتحقيق الاستقامة».

فى «النبى المسلح» - المجلد الأول - يتناول دوتشر صعود تروتسكى وتألقه، منذ مولده عام ١٨٧٩، لعائلة يهودية بالقرب من أوديسا، وإلى وصوله إلى قمة النفوذ والتأثير مع نهاية الحرب الأهلية فى عام ١٩٢٠.

يصف انطلاقته كمحرض اشتراكى فى المدن الأوكرانية، وتخرجه فى السجن، والمنفى السيبيرى، وهروبه والتحاقه بلينين فى لندن. وقتها، وبعد توهج الصراع السياسى فى المهجر، عاد إلى روسيا الثائرة فى عام ١٩٠٥، حيث

المسلح

الأعزل

المشرد



لم يكن على الطبقة العاملة مجرد الطاعة بل كان عليها أيضًا أن تؤمن. وعندما فتر الإيمان كان لابد من تصنيعه فى صيغة حزب يزعم أنه يمثل البروليتاريا



أصبح رئيس مجلس نواب العمال البلشفى فى بطرسبرج. وبعد دورة جديدة فى السجن والمنفى، وهروب إلى الغرب وإقامة معظم الوقت فى فيينا، وإلى وقت اندلاع الحرب، ثم أعادته «ثورة فبراير» إلى النشاط الثورى مرة أخرى، حيث سعى إلى دفع مجالس السوفييت «المحليات الحزبية» باتجاه العصيان المسلح الثانى، الذى جاء بالبلاشفة إلى السلطة. وكمفوض للشئون الخارجية، توجه إلى «بريست ليتوفسك» وأدهش العالم بوقفه للحرب - من جانب واحد - مع ألمانيا. وكمفوض لشئون الحرب، أسس وقاد الجيش الأحمر الذى واجه وشتت «الجيوش البيضاء» والقوات الأجنبية المتحالفة.

وإذا كان لينين، بصلابته وصرامته، هو جذع «محور عربة» الثورة، فإن تروتسكى كان هو عربتها الهادرة. وفى ذاك العصر البطولى، كشف عن مجموعة من المواهب قل أن توجد - مجتمعة - فى شخص واحد. كان منظمًا فذًا لديه القدرة على إحلال الانضباط محل كل بلبلة أو ارتباك، وخطيبًا بارعًا يستطيع الاستحواذ على انتباه وتعاطف الآلاف، وأديبًا مفكرًا لا تزال كتاباته، فى الثقافة والتاريخ والفلسفة والسياسة والعلوم العسكرية، محتفظة بجدتها وتألقها. وكان قائدًا عسكريًا نادر الوجود، جمع ما بين براعة السيطرة على سير المعارك وتحريك القوات فى الحرب، والقدرة على رفع معنويات الجنود واستنهاض هممهم. بشخصيته الفاتنة الساحرة. وفى بلد آخر، فإن رجلاً له مثل هذه المواهب ما كان لأحد أن يقف فى طريقه إذا ما حلم بامتطاء الجواد الأبيض والوصول إلى قمة السلطة. لكن تروتسكى لم يكن يعتبر راكبى الخيول البيضاء أضحوكة فجة فحسب، بل كان يبدو، أيضًا، وكأنه لم يفكر أبدًا فى «السياسة» كوسيلة إلى سلطة شخصية. وكان كثير الشك، شديد الإدانة، عندما وجد أن بعض زملائه يفعل ذلك. هذا الموقف قد يكشف عن نزاهته الثورية والتزامه بالديمقراطية، لكنه يكشف أيضًا عن نقاط ضعفه، وعن حيرة حقيقية عاشها وبدت معها كل قدراته الإبداعية «خارج الخدمة» وخاصة عندما توسل إليه زملاء الحزب أن ينضم إلى هذا الفريق أو ذاك فى الصراع على خلافة لينين.

يصور «النبى المسلح» تروتسكى وكأنه «كوريولنس» Coriolanus(٥). وفى «النبى الأعزل» - المجلد الثانى - نراه وقد تحول إلى هاملت(٦). ولم يكن «نبيًا» متوافقًا. كان، وعلى صعيد الشئون الدولية، صاحب بصيرة مدهشة. توقع، وقبل أن تقع الأحداث، صعود الفاشية الأوروبية واندلاع حرب عالمية ثانية، وهجوم ألمانيا النازية على الاتحاد السوفيتى. لكنه أخطأ عندما ظن أن المد الثورى سوف يستمر ويصل إلى أوروبا الغربية، إضافة إلى أوروبا الشرقية، وأن ما حدث فى أعقاب الحرب العالمية الأولى يمكن أن يحدث فى أعقاب الثانية. يكمن خطأ التقدير هنا فى تمسكه بنظرية «الثورة الدائمة» التى تجسد، إلى اليوم، ماهية التروتسكية.

بهذه النظرية تحدى تروتسكى «القوانين الحديدية للتطور التاريخى» حسب مفهوم الماركسية «التقليدية» الأرثوذكسية، وهى القوانين التى تقول بأن «الثورة البورجوازية» لابد أن تسبق «ثورة البروليتاريا» وفى روسيا، التى لم تخض، بعد، ثورة بورجوازية. مثل فرنسا، ألمانيا وبريطانيا، تصبح الثورة الاشتراكية فيها مستبعدة. وبعبارة أخرى، وحسب وجهة نظر الماركسيين «التقليديين»، لا يمكن للاشتراكية أن تتحقق إلا فى مجتمع متطور ومزدهر، وأن الفشل هو مصيرها إذا ما طبقت فى مجتمع زراعى متخلف يفتقد إلى طبقة عمالية حقيقية تكون قاعدة طبيعية للاشتراكية.



كان لينين، ومعه تروتسكى، على دراية تامة بالمعضلة. لكن تروتسكى لم يحتمل التنازل عن رؤية حلمه «روسيا الاشتراكية» يتحقق فى حياته، ووجد فى نظرية «الثورة الدائمة» إمكانية إسقاط المرحلتين فى مرحلة واحدة: ثورة للطبقة الوسطى تطيح بالأوتوقراطية، ثم تأتى جماهير البروليتاريا، وحزبها، للانتقال بها - مباشرة - إلى الاشتراكية عبر تحالف العمال والفلاحين (الذى يتحقق بالإصلاح الزراعى).

كان تروتسكى - فى القلب - ماركسيًا تقليديًا. ورأى أن هذا «الهجين الروسى الفريد» لن يصمد طويلاً، وقد تطيح به ثورة مضادة، أو يتحول (كما حدث) إلى قلعة معزولة يحكمها الخوف. لكنه، وفى إطار إيمانه بنظريته فى «الثورة الدائمة» رأى أيضًا أن هذا «الهجين» يمكن أن يقاوم إذا هبت الطبقة العاملة العالمية إلى إنقاذه. لقد أقنع تروتسكى نفسه بأن هذا على وشك أن يحدث. وفى أوقات من عام ١٩١٧، أقنع لينين أيضًا بأن «هذا على وشك أن يحدث». وبعد وقت طويل من فقد معظم رفاقه الأمل، وتسليمهم بوجهة نظر ستالين عن «اشتراكية فى دولة واحدة»، ظل تروتسكى، المهزوم والمنفى، يبحث عن مؤشرات تفيد بأن الثورة الدائمة على وشك أن تجتاح العالم وتنقذ الاتحاد السوفيتى من العزلة والديكتاتورية.

كانت النظرية مترابطة. لكن تقديرها لـ «نضالية الطبقة العاملة

الأوروبية» لم يكن فى محله. وبدا الأمر وكأن لا بديل عن «الاشتراكية فى بلد واحد». وفى منتصف العشرينيات أحكم ستالين قبضته على الحزب وتحول تروتسكى - ببطء - إلى المعارضة. كان مكرمًا، «لكنه أدار أمور نفسه برداءة منقطعة النظير، وأضاع الكثير من الفرص: فشل فى الإجهاز على ستالين، المكشوفة مساوئه فى عام ١٩٢٤. وأساء إلى حلفائه عندما طالب بتسخير العمال، وبالضغط على الفلاحين، من أجل زيادة الإنتاج. التزم الصمت عندما طالب ٤٦ عضوًا من الحزب برفع الحظر المفروض على التجمعات داخل أروقة الحزب. وفشل أيضًا، داخل اللجنة المركزية، فى معارضة إعاقة تنفيذ وصية لينين وما تضمنته من أحكام فاضحة لستالين. وعندما انفرط عقد القيادة الثلاثية، فى عام ١٩٢٥، وحاول زينوفييف وكيمانييف تنحية ستالين، بدا تروتسكى وكأن فى الأمر مفاجأة أذهلته، رغم أن التحضير لهذه الخطوة، والتحريض عليها، ارتكز إلى ما أقره هو من مبادئ. وفى المؤتمر الرابع عشر، عندما أصبحت «ديمقراطية الحزب المهددة» قضية مطروحة بحماس، للمرة الأولى والأخيرة، ظل تروتسكى على صمته. وفى الحلقة الأخيرة من الصراع ضد ستالين، ما بين عامى ١٩٢٦ و ١٩٢٧، أصاب تروتسكى أتباعه بالشلل التام بأن عارض أى تحالف مع بوخارين ضد ستالين، على أساس أن الأول كان من أنصار الملكية الزراعية.

هذه السلبية تظل نقطة غامضة فى حياة تروتسكى، أوصلته هو، والمعارضة، إلى خاتمة وطريق مسدود تحركت فيه الأحداث ببطء باتجاه الأبعاد والترحيل: فى ١٩٢٧ إلى «ألما آتا» Alma Ata فى كازخستان، والطرد إلى استنبول «تركيا» فى عام ١٩٢٩. وفى الفترة الحرجة (١٩٢٤ . ١٩٢٧) بدا تروتسكى وكأنه هاملت، وليس أحد أبرز شخصيات التاريخ. وقد يكمن السبب فى انفصام مرضى أو فى غطرسة المثقف الذى يرفض التنافس مع من يعتبرهم - فى سريرة نفسه - أدنى منه. ومن المؤكد أنه كان مغرورًا. والمثال - المضحك - على ذلك أنه جلس مرة يقرأ رواية فرنسية ما بين اجتماعات اللجنة المركزية ولم ينتبه إلى نظرات الاستياء من حوله. وكذلك وصفه للاشتراكيين الأمريكيين بأنهم مجموعة من «البابتيين» Babbitts(٧) «الذين يكملون أنشطتهم التجارية بتأملات باهتة أيام الآحاد، فى سبيل مستقبل الإنسانية». وقال عن أحد قادتهم أنه «المتحدث الاشتراكى المثالى لأطباء الأسنان الناجحين». كما أن فظاظته المتقاعسة إزاء ستالين حولت النفور إلى حقد قاتل. وقد أبلغه مرة، على الملأ، بأنه «حفار قبر الثورة».







يرصد «النبى المشرد». المجلد الثالث - سنوات النفى إلى جزيرة برتكيبون قرب استنبول، ومنها توالى الرحيل: إلى الدانمارك ثم فرنسا ثم النرويج، إلى أن عرض عليه، وعلى زوجته، اللجوء السياسى فى المكسيك عام ١٩٣٧. هناك، وبعد ثلاثة أعوام لاحقة، أقدم «رامون ميركاديرا» على طعنه بأداة حادة وأرداه قتيلاً. ويمكن البدء - عند قراءة الثلاثية - بالمجلد الثالث وذلك لسببين: الأول يكمن فى بنائه المأساوى المحكم والتصوير البديع لحالة التيه القريبة من تيه «لير». والسبب الثانى يكمن فى أن تروتسكى، وفى فترة التيه هذه، أيقظ العالم بإدانته الصارخة لمحاكمات موسكو، ووصف ما جرى فيها بأنه محض جنون وافتراء. وهى أيضًا الفترة التى كتب فيها أفضل ما يذكر من كتبه، وفى مقدمتها «حياتى» و«خيانة الثورة». كما أصبح لديه الوقت - كما يبين دوتشر - لكى يطور من أفكاره ومفاهيمه.



إنها - باختصار - الفترة التى يصبح فيها المرء أكثر اقترابًا من تروتسكى، من تفكيره، ومن شخصيته، كانت مرحلة «القصور التام» أيضًا: فى الوطن. تفسخت المعارضة بعد عام ١٩٢٨ عندما تبنى ستالين - فجأة - مطالبها فيما يتعلق بالتصنيع وسيطرة الدولة على الزراعة. وخلال أقل من ثلاث سنوات نفذ حكم الإعدام فى الآلاف من معارضيه، فى الوقت الذى كانت فيه محاكمات موسكو «تزيل القناع عن المخربين الفاشيين ومن ورائهم الخائن تروتسكى».

أما فى الخارج فقد فشل تروتسكى فى إنقاذ «وحدة الشيوعية الدولية» المناهضة للنازية، ولم يفعل شيئًا لوقف التناحر بين فريق مسانديه الذى تمكن عملاء ستالين من اختراق صفوفه، وصفوف الدوائر القريبة من تروتسكى، وربما من قتل ابنه المخلص، ليف سيدوف، بالسم، فى عام ١٩٣٨. وعندما قتل هو فى عام ١٩٤٠، كان قادة الغرب، الذين فتنوا به وفزعوا منه، لا يذكرون شيئًا عنه.

تحفل «ثلاثية تروتسكى» بلحظات غير عادية لفرحة الجذل بالحياة: وهو يصطاد - بسعادة - غزالة فى الجبال القريبة من «ألما آتا»، أو وهو يجمع الصبار فى صحراء المكسيك. وهو يرتدى سترة ريفية فرنسية زرقاء اللون وتنعكس ظلال هيئته بحدة فوق الصخور والهواء يعبث بشعر رأسه الأشيب، أو وهو يستجمع كل طاقته لكى يتعلم كيف يرمى الشباك، على يد صياد شاب فى بحر مرمرة.

كان رجلاً نادرًا وأستاذ قلم وسيف. وعكس رفاقه، كان تروتسكى يفهم الثورة ليس باعتبارها مهمة بناء بل كان يراها حركة متدفقة وطويلة: «الطريق من ما قبل التاريخ إلى قلب التاريخ، و«القفزة الكبرى من الحاجة إلى الحرية». ولم يبق منه الآن غير الكتب باعتبارها «شهود عيان، على عصره». أما الاتحاد السوفيتى، سواء الممسوخ أو المُرمَّم، فقد ذهب وذهبت معه الثورة البلشفية.

لم يعد أحد ينظر إليها باعتبارها الحدث الرئيسى فى القرن العشرين.

لم تعد التضحية بالحاضر، من أجل المستقبل، مقبولة. ولم تعد الغايات النبيلة مبررًا كافيًا للوسائل الشريرة التى سمحت لتروتسكى بأن يأمر بقتل الكثير من الأبرياء. وهذا هو الحال مع بعض أحكام دوتشر نفسه الذى انتقد قتل القيصر وعائلته لسبب واحد هو «أن ما حدث حرم العالم من متابعة أهم محاكمة درامية».

يريد دوتشر أن يوحى - فى ثلاثيته - بأن الأمل لا يزال قائمًا فى «شيوعية سوفيتية قابلة للإصلاح». وكل ما يمكن أن يقال هو أن المناخ «الخيالى»، لعودة مثل هذه الثورة، إذا تحقق وتحققت معه الثورة البعيدة المنال فإن الجيل الصاعد من رجال ونساء الثورة سوف يستفيد بقراءة «الثلاثية». والأمل أن يقدر على ما لم نقدر عليه: فهم تروتسكى ودوتشر معًا. ■

هوامش للمترجم:

(١) جلاسنوست Glasnost: حزمة قوانين اتخذتها الحكومة السوفيتية، نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات، لإجراء مجموعة إصلاحات سياسية واجتماعية واقتصادية.

(٢) Promotheus هو «سارق النار من الآلهة ومعلم البشر استعمالها». فى الأسطورة الإغريقية - المصدر «وبستر».

(٣) Titan" أحد أطفال السماء والأرض فى الأسطورة الإغريقية (وعددهم ١٢ طفلاً) وسحقهم آلهة أوليمبيا بقيادة زيوس Zeus" ما قبل العصر الهلينى - المرجع السابق.

(٤) المنشفية Menshevik، جناح من الحزب الديمقراطى الاشتراكى الروسى، قبل الثورة وخلالها، آمن بتحقيق الاشتراكية بشكل تدريجى، وبالطرق البرلمانية، مخالفًا بذلك سياسة البلاشفة.

(٥) Coriolanus" هو النبيل والجندى المحارب فى الأسطورة الرومانية، الذى نُفى لاضطهاده العامة، وقاد جيشًا قاصدًا أبواب روما القديمة لكنه توقف ولم يكمل زحفه بعد نصيحة من أمه وزوجته.

(٦) هاملت، بطل، وعنوان، المسرحية التى كتبها شكسبير ما بين عامى ١٦٠٢ . ١٦٠٣.

(٧) البابتيون Babbitts وتطلق على رجال المهن التى لا تحتاج إلى إعمال الفكر الذين يمثلون الطبقة الوسطى اجتماعيًا وأخلاقيًا.

(٨) الملك لير، بطل، وعنوان، المسرحية التى كتبها شكسبير ما بين عامى ١٦٠٥ و ١٦٠٦.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

المثقفون العرب وإسرائيل

د. جلال أمين

القاهرة: دار الشروق. الطبعة الثانية، ٢٠٠٥، ٢٣١ صفحة



فتحت حرب ١٩٦٧ الباب أمام المشروع الصهيونى لكى يمضى قدمًا فى بناء «الإمبراطورية الإسرائيلية» من خلال السيطرة على العالم العربى، وفى نفس الوقت كان غزو العراق للكويت والحرب التى تلته وموقف المثقفين العرب منهما، وما جرى إبان هذا كله ولايزال يجرى من محاولات لتشويه العقل العربى، خطوات تالية لبناء هذه الإمبراطورية.

ويؤكد الكتاب أن هزيمة ٦٧ كانت لها تأثيرات خطيرة على العقل العربى سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وثقافيًا، وأننا كعرب لازلنا ندفع ثمن هذه الهزيمة حتى اليوم، رغم توالى العديد من القضايا الساخنة على الساحة العربية منها الأخذ بسياسة الانفتاح الاقتصادى وتورط دول عربية كثيرة فى الديون، والانفجار السكانى والعجز الغذائى، والاتجاه نحو الصلح مع إسرائيل وغزو الكويت وحرب الخليج، وقبل ذلك كله حرب ١٩٧٣، وتضاعف أسعار النفط، وتضاعف ثروة البلاد المنتجة له وتأثيرات ذلك على معدلات التنمية وحركة الهجرة بين البلاد العربية.

يستعرض د. جلال فى كتابه عددًا من القضايا المهمة منها قضية «الأصالة والمعاصرة» وكيف نظر إليها مثقفونا وكيف وقع بعضهم فى تناقض رهيب فى حلها رغم أن هذه القضية مطروحة على العقل العربى منذ أكثر من قرنين كاملين.

يلقى الكتاب أيضًا أضواء كاشفة على تداعيات غزو الكويت وكيف تعارضت مع المصالح العربية، وكيف فتحت الطريق أمام التدخل الأمريكى فى المنطقة.

ويحذر الكتاب من أخطار السوق الشرق أوسطية، رغم أن بعض المدافعين عنها يرون أنها خطوة آتية لا محالة شاء العرب أم أبوا، وأنه من الممكن الاستفادة منها اقتصاديًا، ويؤكد د. جلال أن وجود إسرائيل نفسه ـ كمشروع اقتصادى استعمارى ـ لن يسمح بأى نمو للصناعات والاقتصاديات العربية بشكل يحقق تنمية عربية حقيقية.

فى خاتمة الكتاب، يرصد المؤلف محطات مهمة فى الصراع العربى ـ الإسرائيلى خلال نصف قرن، ويشير إلى أن قرار التقسيم كان ظالمًا من الأساس لأنه أعطى الفلسطينيين ٤٧٪ من الأراضى وأعطى اليهود باقى الأراضى الفلسطينية، رغم أن العرب كانوا يملكون ٩٢٪ من هذه الأراضى، كما كانت نسبة المسلمين والمسيحيين ثلاثة أضعاف اليهود، ويؤكد أن العرب ذاقوا طعم الهزائم أمام إسرائيل لأنهم لم يتصرفوا بإرادة حرة فى أى وقت من الأوقات طوال الخمسين عامًا الماضية، وأن إسرائيل خاضت معاركها ضدهم دائمًا من خلال وسيط يملك القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية.

ورغم ما يشيع فى الكتاب من حزن، فإن المؤلف يؤكد أنه لم يفقد الأمل قط فى الغد، فالشبان والشابات الذين يلتقى بهم يومًا بعد يوم فى العديد من جامعات مصر، يمتلئون بالأمل ويتألقون بالذكاء والحيوية والثقة بالنفس، وهم لا يكفون عن طلب الأمل من جديد فى مستقبل الأمة العربية.

■

سيرة نعل

عبد الله محمد الناصر

بيروت: دار رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٤، ١١٧ صفحة



هذه المجموعة القصصية تقول كلامًا كبيرًا بأقصى درجات الهمس والهدوء، يجمع بينها خيط شديد الرقة شديد القوة فى آن معًا.. وهو ما يعبر عنه ذلك الحنين الملح للهناءة الأولى، للقرية بوصفها مكان الطفولة: طفولة الرجل وطفولة البشر.. وهو أيضًا صوت من الصحراء وواحتها ونخيلها وسرابها.

تضم المجموعة ١٩ قصة، كانت أولاها بعنوان «إشارة مرور» تدور حول «هند» المرأة الغنية المتزوجة من أحد الأثرياء وتعيش فى القصور، وتنتابها ذكريات غامضة عن ماضيها الذى لا تتذكر تفاصيله، وفجأة يغير من حبها طفل صغير يبيع المناديل الورقية فى إشارات المرور، تثور بسبب أحواله المزرية على تقاليد عالمها وأفكاره حينما تندفع من سيارتها التى يقودها زوجها، وهى تقفز لتحتضن هذا الطفل البائس فى صدرها وتبلل وجهه المغبر بالدموع.

أما فى قصة «سيرة نعل» التى يحمل الكتاب اسمها، فيدور من خلالها حوار بين رجل وحذائه يسأله هل يبيعه أم لا بعد إصابة ـ الحذاء بالطبع ـ بالثقوب والشقوق.. وجرح عميق فى البطن.. وينتهى به المطاف لأن يبيعه لأحد الأثرياء بمبلغ طائل وسيارة!

■

معتقل كل العصور.. حياتى فى الوطن

فوزى حبشى

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٤، ٣٥٦صفحة



مؤلف هذا الكتاب كان ضيفًا على كل معتقلات مصر، لا يخرج منها إلا ليعود إليها مرة أخرى أكثر صلابة وأكثر تحديًا ورغبة فى التغيير الاجتماعى من خلال انغماسه فى العمل السرى.

نشأ فوزى حبشى فى أسرة عصامية، والده المزارع قرر الانخراط فى سلك التعليم وتخرج من كلية الحقوق وأصبح محاميًا فكان نموذجًا مشرفًا لأبنائه، وكان الابن فوزى منذ شبابه مقبلاً على القراءة، وحينما جاء إلى القاهرة ليدرس بكلية الهندسة فى جامعة فؤاد الأول، كان وكأنه على موعد مع الشيوعيين فى شبرا، وعرف طريقه إلى مراكز الفكر الشيوعى فى القاهرة: لجنة نشر الثقافة الحديثة ودار الأبحاث العلمية، ووجد نفسه مندمجًا فى العمل السرى يقوم بتوزيع المنشورات ضد الإنجليز، ويكتب على حوائط العمارات والمدارس شعارات الحرية والتحرير.

وفى هذا الكتاب الذى كتبه وهو يناهز الثمانين من عمره المديد بإذن الله ـ يتساءل المؤلف: هل كان ولعى وإيمانى الحار بقضية الاشتراكية خطأ دراميًا؟ ومعركة مع طواحين الهواء؟.. ويجيب قائلاً: كلا وألف كلا فالرأسمالية التى تغزو العراق بالقوة الغاشمة وتمزق برصاصها لحم أبنائنا فى فلسطين، وتهدد كل رقعة فى العالم العربى.. لن تدوم.

فى أول صفحات الكتاب يدخلنا المؤلف وسط عالمه السرى الصاخب من خلال خطاب رقيق أرسله إلى زوجته المناضلة ثريا شاكر وهو فى معتقل الهايكستب الذى قضى فيه عامين كاملين فى دنيا المعتقلات والسجون، التى لم ينس داخلها تخصصه فى الهندسة المعمارية فنراه يصف كل المعتقلات وصفًا معماريًا دقيقًا وكأنه يكتب سيناريو لمسرحية ما تتضمن المناظر، يوضح فيها أيضًا من زاملهم فى السجن من السياسيين، وضباط خربى الذمة يتفاهمون مع موردى الطعام، عمولات، ويخفون محاضر إثبات التعذيب حتى لا تستخدم فى التحقيق، كما يقدم أيضًا الوجه الآخر لحياة المعتقلات حين يعتاد الجميع على الحياة الجماعية و«التعاون الطبقى» وتوزيع المسئوليات، والتعايش مع تيارات سياسية مغايرة وفى مقدمتهم الإخوان المسلمون.

يتضمن الكتاب فى أحد فصوله طبيعة مناقشات الشيوعيين داخل السجون، وكيف صدر قرار حل الحزب الشيوعى المصرى؟ ومن عارض هذا القرار؟ ومن سانده؟.. وكيف تمت عودته عام ١٩٧٥ وإصداره وثيقة انتقد فيها تجربة الحل السابقة.. كما يتضمن أيضًا جوانب إنسانية راقية لا يخلو بعضها من طرافة، منها حينما أصر فوزى حبشى على بناء نافورة فى فناء سجن أبو زعبل، وقامت زوجته بتهريب الجبس والأسمنت والبلاط القيشانى، حتى نجح بالفعل فى بنائها.

والكتاب فى مجمله، وإن كان يشى من عنوانه بأنه سيرة حياة المؤلف داخل المعتقلات، إلا أنه فى وجهه الآخر يحمل لمحات وومضات مهمة من تاريخ مصر السياسى الحديث، خاصة وأن صاحب هذا الكتاب ربما يكون اليسارى الوحيد الذى اعتقل فى عهد الملك فاروق وعبد الناصر والسادات ومبارك.

وهذه المذكرات لا يكتبها كما يؤكد المناضل فوزى حبشى من أجل إثبات وجهة نظره فيما مضى وانقضى، لكنه يكتبها من أجل المستقبل.. وهذا هو شأن المناضلين الحقيقيين على مدار التاريخ البشرى كله.

■

كيف يحكى النقاد؟

د. أمجد أحمد توفيق

القاهرة: دار البستانى، ٢٠٠٤، ١٦٤صفحة



يتناول هذا الكتاب الكيفية التى يسرد بها النقاد محتويات النصوص التى يتناولونها بالتحليل النقدى، معرضين النصوص لعمليات من الحذف والإضافة والتعديل والتأويل، ويصوغون من خلالها

نصًا سرديًا نقديًا موازيًا للنص الأدبي.. بقدر ما يعلق عليه، فهو مستقل عنه.

يتخذ الكتاب من كتابات على الراعي وطه حسين وأنور المعداوي وغنيمي هلال وعباس خضر وجابر عصفور، نماذج مصورة لهذا السرد النقدي، وفي ضوئها يسعى الكتاب إلى أن يحدد طبيعة مفهوم السرد النقدي وآلياته المختلفة، ثم يسائل على هدى منها تاريخ النقد في تحديده لمفهوم الأدب ومفهوم النقد ومفهوم السرد، مقترحًا فضاءً جديدًا لتحليل السرديات.

يستهدف الكتاب كما يقول مؤلفه تشجيع الناس وخاصة الباحثين على أن يقدروا هذه العملية التي يضطر إليها النقاد اضطرارًا، حين يعيدون سرد محتويات النص الذي يعلقون عليه ويسمون سردهم عرضًا وتلخيصًا ونسميه نحن السرد النقدي. والمؤلف يقول إن هذا الكتاب يميط اللثام عن حقيقة مهمة وبسيطة، وهي أن السرد الذي يقدمه الناقد ليس على ما يزعم هو - أو على ما يتوهم الناس، تلخيصًا محضًا، أو عرضًا دقيقًا للنصوص المقروءة، بل هو في حقيقته سردية مختلفة عن النص التي أنشأها الناقد لأسباب تواصلية تتعلق بخطابه النقدي، وهي تصور لنا فهم الناقد للنص وتجعلنا نواجه مخيلة الناقد مباشرة.

وهذه السردية النقدية تنطوي، بنظر المؤلف، على سرديات تحتية غائرة، وأخرى فوقية طافية، ويؤلف تتابع مواد الخطاب النقدي في نصه الخاص تتابعًا سرديًا له بنيته الخاصة. ويستوى أن يكون النص قصة أو قصيدة أو لوحة أو قطعة موسيقية أو أي نوع آخر من أنواع الفنون، فإن الخطاب النقدي آخر الأمر يصنع حكايته مما يتاح له من معطيات يمارس من خلالها ألعاب اليقين والوهم، الحقيقة والخيال، بنشاط خصب.

■

دور المرأة في رأسمالية تستحق السقوط

د. سامي عصاصة

دمشق: ٢٠٠٤، ٢٣١ صفحة



يتجاوز مضمون هذا الكتاب عنوانه على الغلاف الخارجي.. فهناك العديد من القضايا التي عالجها المؤلف لا تتعلق بدور المرأة في الرأسمالية التي تستحق السقوط، منها: التعويضات الألمانية للعمال اليهود وغيرهم في خمسينيات القرن الماضي، وأيضًا فردية الإنسان العربي، وتجربته مع دور النشر في العالم العربي وغيرها..

يقول المؤلف أن ثمة تساؤلاً يطرح نفسه حول صفة هذا الكتاب. فهل هو تحليل اقتصادي سياسي؟ أم أنه مجرد نقد اجتماعي؟ أم دعوة مثالية لا تخلو من خيال يجنح نحو الفضيلة؟.. ويجيب: إن الكتاب مزيج من كل ذلك.

والمؤلف مع رفضه للشيوعية رفضًا باتًا، لا يفكر بالتالي في نسف حرية الاقتصاد ولا في تفكيك ميكانيكية العرض والطلب، ولكنه في الأساس يشجب الرأسمالية المتوحشة التي يعتبرها إفرازات خطيرة للنهضة الصناعية التي انطلقت منذ قرنين من الزمان. فمنذ ظهور التصنيع المكثف حين كشر صاحب العمل عن أنيابه لدى تعامله مع العمال، غابت العدالة وساد الحيف والجور، فقد كان صاحب العمل يستنفد عماله حتى الرمق الأخير ثم يرمي بهم في عرض الطريق، وكان يسرح العمال بدون أية تعويضات إذا ما قل الطلب وانخفضت المبيعات.

وبعد انهيار الشيوعية عاد رأس المال في الانطلاق في مشواره نحو السيادة والسيطرة في مجتمعات الدول المتقدمة دون أن تقف في وجهه معارضة فعالة، فنشأت رأسمالية متوحشة تميزت بكونها ممزوجة بفكر استعماري جديد.

يقول المؤلف أن عدم ظهور حركات إصلاحية فعالة تلجم استخدام رأس المال المتراكم في الغرب يعود إلى اتفاق عفوي للمصالح بين قيادات العمال في الدول الصناعية وبين أصحاب رأس المال على استغلال الطبقة العاملة في جميع دول العالم لصالح الطرفين بدلاً من الاقتصار على استغلال الطبقة العاملة الوطنية في الغرب.

وعن المرأة في المنظومة الرأسمالية يؤكد المؤلف أن النظام الرأسمالي اكتشف أهمية المرأة كوسيلة لترويج سلعه، فسخرها لتحقيق أهدافه مستغلاً أنوثتها في أعمال تتنافى مع الإنسانية.

■

قضايا فكرية

القاهرة: مكتبة مدبولي، الكتاب الحادي والعشرون، يناير ٢٠٠٥، ٥٣٩ صفحة



تحت عنوان «الطريق إلى عولمة بديلة ديمقراطية» حفل هذا العدد من «قضايا فكرية» بالعديد من الدراسات التي تبحث عن عالم جديد يختلف عما تريده له السياسات الأمريكية ومحاولاتها للهيمنة على كوكب الأرض بكل أسواقه بزعم أن التاريخ الإنساني قد بلغ نهاية مطافه عند ضفاف الرأسمالية والفكر الليبرالي الجديد.

في افتتاحية العدد يتناول محمود أمين العالم في مقال بعنوان «الثقافة والديمقراطية والهيمنة الأمريكية» ارتباط مفهوم الثقافة بشكل عام بمفهوم الفعل التغييري التجديدي التنموي، إلا أنها في الواقع العربي تتراوح بين اتجاهين، الأول: امتداد الثقافة العربية الراهنة لحضارتنا العربية الإسلامية بكل توجهاتها وصراعاتها واختلافاتها وصعودها وانكساراتها.. والثاني: يتمثل في استمرار هيمنة رأس المال المعولم عليها سواء من حيث الهيمنة المعنوية أم السياسية.

وبهذين البعدين الداخلي والخارجي، سادت المجتمعات العربية ثقافة ثنائية توفيقية ملتبسة غير متوازنة فضلاً عن هشاشة وسطحية بنيتها المعنوية، فلا القديم التراثي عميق الجذور في تأصيله المعرفي والقيمي والوجداني، كما أن الفاعل الخارجي له تأثيرات سلبية في عرقلة التنمية الذاتية.

ويقترح العالم تشكيل جبهة للمثقفين العرب بمختلف انتماءاتهم للمساهمة في اقتراح صياغة عقد اجتماعي قومي جديد يكون مرجعيتنا في هذه المرحلة المأزومة والمهزومة التي نعيشها الآن.

يشتمل العدد على خمسة محاور، الأول بعنوان «الإطار التحليلي للنظام الرأسمالي في دوره المتأخر» ويدور حول بنى النظام الرأسمالي من خلال عدة محاور وهي: العولمة الاقتصادية هل هي مقولة علمية أم مقولة أيديولوجية، ونقد العولمة الجديد والدعوة إلى عولمة بديلة، وشيخوخة الرأسمالية، وأخلاقيات الرأسمالية تتبلور في أخلاقيات إنسانية، بالإضافة إلى الطموح الإجرامي للولايات المتحدة للسيطرة على العالم اقتصاديًا.

ويتناول المحور الثاني «التجليات المختلفة لظاهرة العولمة الرأسمالية»، يدور في عدة مقالات ودراسات حول المقاومة الفلسطينية بعد حادث ١١ سبتمبر المشئوم، بالإضافة إلى دراسة عن القصور الذاتي في حركة التاريخ للمهندس على نجيب، وحقوق الإنسان في عصر الهيمنة، والعدوان على العراق كمنهج للهيمنة الأمريكية، والنظام العالمي الجديد والمبادرة الشرق أوسطية والهيمنة والغذاء، والعولمة والدواء، والتعليم المصري بين التبعية والاستقلال.

ويدور المحور الثالث حول «تصورات مختلفة لعولمة بديلة»، ويبحث في النظام البديل للنظام النيوليبرالي والمسلح، وعسكرة السياسة الأمريكية: تصورات المستقبل، وكيف يمكن التصدي للهيمنة الأمريكية، ومن العولمة إلى العولمة البديلة.. سؤال الإمكان؟، ومواجهة تحديات العولمة في البلدان النامية، وثقافة الاختلاف وبدائل العولمة، وعوامل تراجع الدور المصري في الاستراتيجية الأمريكية.

أما المحور الرابع فيتناول قضايا نظرية، منها موضوع بعنوان ما بعد الرأسمالية.. ما قبل الاشتراكية للمفكر الفلسطيني سلامة كيلة وهو مناقشة مع د. سمير أمين، وأيضًا مقال لكريم مروة بعنوان كتلة تاريخية جديدة لتأسيس أممية من نوع جديد، بالإضافة إلى دراسات عن العولمة ومسألة الهوية، ودور الفلسفة في الثقافة المعاصرة، والآخر بين الهيمنة والصراع للدكتورة أمينة رشيد، والفن الحديث بين هيمنة التكنولوجيا وحرية التخيل الجمالي.

ويتناول المحور الخامس قراءات وتعليقات، حول قراءة لكتاب «ديكتاتورية رأس المال» للكاتب والمفكر أديب ديمتري، وتناقضات عصر الإمبراطورية ووعوده، وعولمة المقاومة، و«بومباي» ظاهرة جديدة لفخري لبيب، والمجموعة المصرية لمناهضة العولمة للدكتور سيد البحراوي، وكذلك عرضًا لبيان الناشرين المستقلين، ووثائق اللجنة المصرية لمناهضة العولمة، وببليوجرافيا العولمة، بالإضافة إلى مقال لمحمود أمين العالم بعنوان إصلاح أم تبعية.. هذه هي القضية؟ ويناقش فيه كيفية وضع خطة تنمية شاملة متطورة في جانبيها الحداثي والتحديثي بما يتفق مع ظروفنا المصرية والعربية عامة، وفي غير انقطاع عن الخبرات المختلفة عالميًا، بما يفضي إلى عولمة إنسانية ديمقراطية بديلة عن هذه العولمة الاستقطابية الأمريكية المهيمنة أو التي تسعى إلى الهيمنة على العالم.

■

نحو شباب دائم

أكسير الشباب.. من الخرافة إلى العلم

أ. د. الدسوقي عمار

القاهرة: الدار العربية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ٢٧٢ صفحة



كان الناس قديمًا يلجأون إلى بعض المواد والتراكيب الغريبة أو الخرافية التي أسموها «أكسير الشباب» لتعود بهم إلى سن الشباب بعد وصولهم إلى الشيخوخة، ولكن الاكتشافات العلمية الحديثة في علوم التغذية والطب والرياضة البدنية والصحة النفسية، فتحت أبوابًا جديدة لنا جميعًا لنعيش عمرًا أطول في أفضل صحة ممكنة لم نكن نحلم بها من قبل.

وهذا الكتاب يقدم خلاصة تلك المكتشفات العلمية الحديثة، ويبين أن أعراض تقدم العمر تعتبر الآن «مرضًا مركبًا» ليس نتيجة لكبر السن في حد ذاته، ولكن لأسباب كثيرة تصاحب ذلك

مثل سوء التغذية أو قلة الحركة أو التدخين أو العصبية وغير ذلك من العادات السيئة، ويستطيع الإنسان إذا ما اتبع نظاماً غذائياً وسلوكياً معيناً ومعتدلاً في حياته أن يؤجل ظهور تلك الأعراض إلى ما شاء الله وهو يتمتع بالحيوية والنضارة والشباب.

يحتوى الكتاب فصولاً عن التغذية الصحية والهرم الغذائي وهو مجموعة الدهون والسكريات ويجب أن يتناولها الإنسان بأقل كمية ممكنة، ومجموعة البروتينات ويجب أن يتناولها باعتدال، ومجموعة الخضروات والفواكه ويجب تناولها بكثرة، ومجموعة النشويات وهي تكون قاعدة الهرم حيث يتناولها الإنسان عادة بكميات أكبر من غيرها كل يوم.

كما يستعرض الكتاب كيفية مواجهة «الشوارد الحرة» وأثرها في ظهور أعراض الشيخوخة والتي اكتشفها د. هارمان الأستاذ بكلية الطب جامعة نيبراسكا، وهي تنتج خلال استخدام الخلايا للأكسجين في حرق الوقود مثل سكر الجلوكوز الموجود في الدم، حيث تفقد بعض جزيئات الأكسجين أحد الألكترونات «الجسيمات السالبة» وهي ما يطلق عليه الشوارد الحرة أو «المؤكسدات» وهي المسئولة عن الشيخوخة، تماماً مثلما تحدثه الأكسدة في صدأ الحديد. ويقدم الكتاب كيفية مقاومة أخطار هذه الشوارد من خلال تناول فيتامينات ومعادن معينة على رأسها فيتامين E أقوى الفيتامينات لمقاومة الشيخوخة، بالإضافة إلى فيتامين C و A و B مركب، والكالسيوم والماغنيسيوم والكروم والزنك وعسل النحل وغيرها.

ويستعرض الكتاب تأثيرات الميلاتونين والقهوة والشاي والأعشاب الطبيعية على صحة الإنسان ويوضح فوائدها ومحاذير الإكثار منها، ويبين الكتاب أيضاً أهمية الرياضة باعتبارها سر النشاط والحيوية.

وفي فصل آخر، يقدم الكتاب وصفة علمية لمقاومة ضغوط الحياة، ويقدم أيضاً تمارين تساعد على مواجهة التوتر والاكتئاب وتجديد النشاط.

ويولي الكتاب عادة التدخين اهتماماً كبيراً ويؤكد أخطارها التدميرية على صحة الإنسان وكيفية الإقلاع عن التدخين وكذلك الإقلاع عن إدمان الكحول والمخدرات.

كما يقدم الكتاب أيضاً عرضاً لبعض الأمراض والأعراض المرتبطة بالتقدم في العمر وسبل الوقاية منها بالإضافة إلى وصايا عشر للحفاظ على الشباب والحيوية تبدأ بأهمية تناول الكثير من الخضر والفاكهة باعتبارها مصدراً طبيعياً يمد الجسم بالمواد المضادة للأكسدة مما يساعده على مواجهة الكثير من الأمراض كالسرطانات وأمراض القلب ونقص المناعة، مع أهمية تقليل كميات اللحوم الحمراء والسكريات، مع الإكثار من تناول الأسماك والثوم والامتناع عن التدخين وشرب الماء بكثرة، والاحتفاظ بروح المرح والتسامح وبعلاقات اجتماعية طيبة مع ممارسة الرياضة المعتدلة بانتظام والكشف الدوري الشامل وخاصة بعد منتصف العمر.

■

من ذخائر السنة النبوية

تأليف: طه محمد الساكت
ترجمة، تحقيق: محمد بن أحمد مكي
دار البشائر الإسلامية - ٢٠٠٤

«من ذخائر السنة النبوية» كتاب يضم باقة عطرة من رياض السنة النبوية، وهي مجموع الأحاديث النبوية التي قام بشرحها الشيخ طه محمد الساكت في مجلة الأزهر.

وقد بلغت الأحاديث ١١٩ حديثاً نبوياً. وجميعها انتقاها الشيخ الساكت من الصحيحين أو أحدهما، سوى حديثين فقط وهما حديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» وحديث «التماس رضا الله وإن سخط الناس». وقد انتقى الأحاديث التي قام بشرحها من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم، وروائع توجيهاته، حسب المناسبات المقتضية لذلك. ففي افتتاح السنة الهجرية يختار غالباً حديثاً يتعلق بالهجرة النبوية المباركة، مثل حديث: «لا هجرة بعد الفتح»، وحديث «خير القرون».

وفي شهر رمضان يختار في بعض السنوات الأحاديث المتعلقة بالصيام وفضله، كحديث: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم...» وفي شهر ربيع الأول يختار، غالباً، أحاديث تتعلق بالمولد النبوي الشريف، وأخلاقه الحميدة وشمائله المجيدة صلى الله عليه وسلم، فيشرح حديث عبد الله بن عمرو في «صفته صلى الله عليه وسلم في التوراة»، ويشرح حديث عمر بن أبي سلمة بعنوان «من أدب النبوة»، ويكتب حول الجهاد عدة أحاديث في «حي على الجهاد» بمناسبة الغارة على مصر.

وهكذا ينوع اختياراته للأحاديث النبوية، باختلاف الدواعي والمناسبات، وأحياناً يشرح بعض الأحاديث استجابة لرغبة بعض أساتذته وإخوانه.

وأما طريقته في الشرح، فكان الشيخ طه الساكت يختار الكثير من العناوين من تراجم البخاري في صحيحه كما في «قصة أبي طالب».

وقد يختار عنوان الحديث من لفظة الحديث نفسها كما في أول حديث شرحه «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». كما أنه يحسن اختيار العناوين التي يربط فيها الماضي بالحاضر ويطبقه على الواقع. كما في شرحه لحديث «إجلاء اليهود من جزيرة العرب» يختار له عنوان: «عيد الجلاء الأول».

بالإضافة إلى ذلك كان الشيخ الساكت يقتصر في أكثر الأحاديث التي يشرحها على متن حديث واحد. وقد يضيف في بعض الأحيان متوناً أخرى يشرحها في مكان واحد.

وفي بعض الأحيان لا تتسع الصفحات المحدودة في المجلة لشرح الحديث في حلقة واحدة، فيشرحه في موضعين أو ثلاثة. أما بالنسبة لعملية تخريج الأحاديث، فكان المؤلف يخرج الأحاديث بإجمال دون ذكر الكتب والأبواب، ولا سيما أن أكثر الأحاديث التي انتقاها من الصحيحين أو أحدهما. وقد يذكر في بعض الأحيان فروق الألفاظ كما في حديث: «الحب الإلهي»: إذا أحب الله عبداً نادى جبريل..» قال..» قال» رواه الشيخان غير أن مسلماً انفرد بذكر الشطر المقابل: «وإذا أبغض عبداً دعا جبريل...». كما يذكر في بعض الأحيان مواضع رواية الحديث. أما طريقته في الشرح فقد كان الشيخ الساكت يبدأ شرحه في بيان المفردات، ثم المعنى الإجمالي، مشيراً إلى لطائف الحديث وأسراره، شارحاً الحديث بالحديث، مورداً الروايات المتعددة التي تبين معناه، ومنبهاً في أكثر من موضع إلى تحري الصحابة والتابعين فيما يروون عن النبي صلى الله عليه وسلم، وحرصهم على الأمانة والحيطة، ومنبهاً إلى كثير من الأحاديث الموضوعة، وما لا أصل له مما اشتهر على ألسنة الناس، غير متعرض في اختياراته لأحاديث الأحكام، وقد يعرض له أثناء شرحه للحديث بعض الأحكام الفقهية، فيتكلم عنها باختصار، محيلاً من يريد التوسع في الأحكام الفقهية إلى المراجع التي اهتمت بذلك.

■

الإسلام والغرب، حوار الحروف وصدام السيوف

راجي أنور هيفا
دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر، ٢٠٠٤



إن الحضارة الإسلامية، حضارة عريقة أنجبت للعالم المعلمين البارزين في تاريخ البشرية.. المعلم الثاني والثالث بالإضافة إلى الشيخ الرئيس والعديد من العلماء والفلاسفة والمفكرين الذين ساهموا في صنع الحضارة الأوروبية. لذا فإن هذا الكتاب ركز على علاقة الإسلام بالغرب من خلال ما عرف بالصدام والحوار فكان ذلك في تفسير إشارات والتفاتات الإمام الشيرازي. حقيقة تلك العلاقة وأسلوب صحتها باعتباره موضوعاً حساساً ومطلوباً الإطلاع على حقيقة التعامل معه على ضوء تلك المعرفة.

■

تاريخ القراءات القرآنية

عبد الهادي الفضلي
دار القلم، ٢٠٠٤



يحتوى هذا الكتاب على دراسة تحاول تدوين ما يعرف بالقراءات: نشأتها وتطورها، ومعناها، والاختلاف في حقيقتها، ومصادرها التي استقيت منها، وأسباب الاختلاف فيها، وأقسامها والفروق بينها، وأركان كل قسم، ومعنى الاختيار فيها، وما إليها، هذا وقد انتهت الدراسة في عرض ما نشير إليه، إلى طريقة عرض نصوص أقوال العلماء والمغنيين في كل مسألة، مقارنة واستدلالاً... وهكذا جاء الكتاب مقسماً- في ضوء ما تقدم-إلى الفصول التالية: الفصل الأول: نشأة القراءات وتطورها، الفصل الثاني: التعريف بالقراءات، الفصل الثالث: مصادر القراءات، الفصل الرابع: الاختلاف في القراءات وأسبابه، الفصل الخامس: الاختيار في القراءات، الفصل السادس: المقياس القرائي، الفصل السابع: القراءات والتجديد.

■

الركود والنمو.. مشكلات في الاقتصاد المصري المعاصر

عبد الفتاح الجبالي
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بجريدة الأهرام، ٢٠٠٤، ١٧٩ صفحة، ١٠ جنيهات



منذ منتصف السبعينيات من القرن الماضي، طبقت مصر سياسة اقتصادية تعتمد على العرض والطلب في إطار اقتصاد السوق، الذي اختلف عن اقتصار

الأوامر والتخطيط المركزي الذي كان سائداً خلال حقبة الستينيات.

ويؤكد الكتاب أن اقتصاد السوق بشكل عام يمر بأزمات الآن من نوع مختلف، ففي السابق كانت الأزمات تحدث في أسواق السلع ثم تنتقل إلى الأسواق الأخرى النقدية، أما الآن فقد أصبحت الأزمة تحدث في أي من هذه الأسواق.

يتناول الكتاب في فصله الأول «الجنيه المصري من التثبيت في سعر صرفه إلى تحريره» وما شهده سوق الصرف الأجنبي في مصر من تطورات منذ عام ١٨٣٠ حتى الآن، بالإضافة إلى تقديم عدد من السياسات المقترحة لعلاج الأوضاع في هذا السوق بإصلاح الجهاز المصرفي وشركات الصرافة وغيرها من الخطوات.

ويتناول الفصل الثاني بحث ما يتعلق بسعر الفائدة وأثره على الاستثمار والادخار، والتي ينبغي تحديدها في إطار منظومة كاملة من الإجراءات والسياسات تضمن علاج الاختلالات الأساسية في بنية الاقتصاد القومي.

ويتناول الفصل الثالث القطاع الخاص وعملية التنمية في مصر، وضرورة ابتعاده عن الاستثمارات العشوائية كما يحدث الآن. أما الفصل الرابع فيدور حول الاحتكار والمنافسة في السوق المصري، ويبحث في آليات نشوء الاحتكارات، والآثار الناجمة عن الاحتكار وآليات محاربته. ويدور الفصل الخامس حول مشكلة البطالة في مصر، وفي آخر فصل من الكتاب يطرح المؤلف تساؤلاً مهماً حول طبيعة الدولة في مصر.. الرأسمالية أم ديمقراطية السوق.. ويستعرض فيه عدداً من آراء الاقتصاديين البارزين في مصر.

■

آراء في دفتر الأدب والفن

يسري حسين

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٤،

٢٤٣ صفحة



هذا الكتاب هو نتاج رحلة طويلة في عالم الكتابة والقراءة المتصلة، قطعها المؤلف في تأمل العالم من حوله عبر النافذة المصرية رغم إقامته في بريطانيا منذ سنوات عديدة.

يستهل المؤلف كتابه برحلة في العوالم الفكرية والثقافية والإبداعية لدى عدد من الأدباء والشعراء والمفكرين منهم العقاد ونجيب محفوظ ومحمد عفيفي مطر، وحلمي سالم وسعد الدين وهبة ومحمود السعدني ود. مصطفى بدوي والطيب صالح وإحسان عبد القدوس وغيرهم، وفي خلال هذه الرحلة يضيء الكتاب مناطق جديدة لدى هؤلاء الأدباء والمفكرين في ومضات كأنها تعيد اكتشاف جوانب غير معروفة لديهم، وقد يكون هذا صحيحاً بالفعل من خلال رؤية المؤلف الجديدة لهم ولأعمالهم.

ويقدم المؤلف في الجزء الثاني من كتابه آراء نقدية لعدد من القصص والروايات منها المجموعة القصصية «أشباح السراب» لعبد الله محمد ناصر، ومجموعة «ثمة آخر» للأديبة العراقية هيفاء زنكنة وغيرها، كما يطرح أيضاً آراءه النقدية حول الأفلام والأغاني والأوبرا والفنون التشكيلية.

أما في الجزء الثالث من الكتاب، فقد عالج المؤلف عدداً من قضايا الأدب والاجتماع والتراث، استهلها بالحديث عن أدب المرأة والكتابات النسوية، وأعمال الأديبة المصرية أهداف سويف ولقاءاته مع الكاتب الكبير أحمد عباس صالح، بالإضافة إلى دور الناقد الراحل الكبير علي الراعي في دعم مسيرة الأدب العربي.

كما يلقي المؤلف الضوء على الشعر الإنجليزي من خلال دراسة للدكتورة فاطمة موسى، ويتناول أيضاً عبر عدد من العناوين الجذابة قضايا صعبة بأسلوب سهل ممتنع منها «دولة الشعر أم زمن الرواية؟!» الذي يطرح من خلاله المؤلف العلاقة بين الشعر والرواية من خلال دراسة للدكتور جابر عصفور، ويخوض كذلك في بعض كتابات د. نوال السعداوي التي تمت ترجمتها للإنجليزية، كما يعلق أيضاً على كتاب نشر للكاتب الراحل أحمد بهاء الدين بعنوان «المثقفون والسلطة في عالمنا العربي» والذي كتب مقدمته محمد حسنين هيكل، وأيضاً كتاب «ما قيل وما يقول» للكاتب خالد القشطيني، و«الاغتراب والبطل القومي» للدكتور صلاح نيازي، بالإضافة إلى كتاب «انتباهات في التراث» للكاتب والصحفي العراقي عبد المنعم الأعسم.

■

دوريـــات

الآداب

بيروت: ديسمبر ٢٠٠٤



تحت عنوان «اللاجئون الفلسطينيون: المسئولية والحلول» استعرض هذا العدد أكثر من محور في هذه القضية الشائكة في ملف استحوذ على أكثر من نصف صفحات المجلة، ودار حول مسئولية إسرائيل تجاه هؤلاء اللاجئين، ومسئولية الأمم المتحدة، وحماية هؤلاء اللاجئين، والبحث عن حل عادل لمشكلتهم من خلال نقض قانون العودة الإسرائيلي، وحركة العودة الفلسطينية بين الواقع والطموح، وأخيراً اليوم لاجئ: من فلسطين إلى الشتات.

ضم العدد أيضاً الجزء الثاني من دراسة الحركة الشيوعية العربية لعبد الغفار شكر، بالإضافة إلى ملف بعنوان: «الجزائر بعيون مغربية».

■

أدب ونقد

القاهرة: التجمع الوطني التقدمي الوحدوي، العدد ٢٣٢



يحتوي هذا العدد على مقالة كتبها الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر عام ١٩٣٧ بعنوان «مذكرات مسافر» كما تحتوي على دراسة بعنوان «مستقبل الثقافة العربية في عصر العولمة» للدكتور محمود إسماعيل.

أما ملف العدد فيدور حول الكاتب الكبير رجاء النقاش، شارك في كتابة مواده أحمد عبد المعطي حجازي، ود. شهيدة الباز، ود. صلاح السروي وأحمد إسماعيل وحلمي سالم.

يضم العدد أيضاً عدداً من المقالات في النقد الأدبي والسينما والترجمات، وكذلك عرضاً سريعاً لبعض الكتب.

■

دراسات مستقبلية

القاهرة: جامعة أسيوط، مركز دراسات المستقبل



يشتمل هذا العدد من هذه المجلة الفصلية التي يرأس تحريرها د. محمد إبراهيم منصور، على عدد من الأبحاث المميزة، منها بحث بعنوان «النفط والأمن القومي العربي» للدكتور مخلد مبيضين الأستاذ بجامعة مؤتة الأردنية، بالإضافة إلى بحث آخر بعنوان «خيار السوق الشرق أوسطية: رؤية تقويمية» للدكتور منير محمد بدوي الأستاذ المساعد بجامعة أسيوط.

■

مجلة الدراسات الفلسطينية

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٤، ١٩٢ صفحة، ٥ جنيهات



يستهل هذا العدد أولى صفحاته بعرض ما جاء في ندوة بعنوان «الأزمة الفلسطينية الراهنة في ضوء تطورات المشروع الصهيوني».

وتناولت دراسة للدكتور صبري حافظ أستاذ الأدب العربي الحديث والأدب المقارن بجامعة لندن «ميراث إدوارد سعيد الثقافي في العالم العربي»، كما ضم العدد أيضاً ثلاث مقالات عن أحداث غزة.

الظاهرة اليهودية وتحولاتها عبر التاريخ



دفاع عن الإنسان
دراسات نظرية وتطبيقية فى النماذج المركبة
عبد الوهاب المسيرى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣

يتنازع حقل الدراسات فى العلوم الإنسانية ككل اتجاهان متضادان: - أولهما، اتجاه نحو التخصص المتطرف الذى يرمى كل ظاهرة بوصفها ظاهرة فريدة لا يمكن أن تندرج تحت أى نمط أو نموذج فتصبح مكتفية بذاتها ومرجعية ذاتها، وهو ما يسميه الدكتور عبد الوهاب المسيرى «الأيقنة»، (أى تصبح الظاهرة كالأيقونة لا تشير إلا إلى ذاتها).

والاتجاه الثانى، هو الاتجاه نحو التعميم المتطرف الذى يفقد الظاهرة موضع الدراسة أى خصوصية حضارية أو اثنية أو اقتصادية. وكلا الاتجاهين، ينزع نحو التخصيص المتطرف، الذى عادة ما يعبر عن «علموية» مادية لا تخدم خصوصية الظاهرة الإنسانية وتسقط فى تأليه القانون «العلمى» على حساب المنحنى الخاص بالظاهرة الإنسانية»، يجعلنا غير قادرين على فهم الواقع حق الفهم وإدراكه بطريقة مركبة وتفسيره بطريقة معقولة.

ويرى الدكتور عبد الوهاب المسيرى فى كتابه «دفاع عن الإنسان»، أن النماذج المركبة أداة تحليلية تساهم فى تجاوز الاستقطاب والازدواجية والتأرجح بين العام والخاص السابق الإشارة إليها. والنموذج المركب الذى يطرحه الدكتور المسيرى فى هذا الكتاب، هو نموذج «الجماعات الوظيفية» وهو مفهوم تحليلى يمكن أن تصفه بأنه قديم/ جديد، فهو «قديم» بحسبان أن كثيراً من المفكرين فى الغرب قد استخدموه دون تسميته.

وبرغم أهمية هذه المحاولات، وبرغم ارتفاع مقدرتها التفسيرية، فإن الدكتور المسيرى أبدى عدداً من الملاحظات أهمها ما يلى: .

١ - كما هو متوقع، ركز العلماء والدارسون الغربيون، حبيسو التجربة الغربية، جل اهتمامهم على جماعتين وظيفيتين أساسيتين: .

(أ) الجماعات الاثنية التى تضطلع بدور مالى تجارى من خلال رأس المال البدائى أو الربوى فى المجتمعات القديمة أو الوسيطة وهذا يشكل جزءاً من اهتمام العلماء والدارسين الغربيين بتاريخ الرأسمالية الغربية.

(ب) المهاجرون بانتمائهم الاثنى والوظيفى المتميز، وهذا يشكل جزءاً من اهتمام العلماء والدارسين الغربيين بمشكلة أساسية تواجهها المجتمعات الغربية الحديثة.

٢ - أهمل علم الاجتماع الغربى الجماعات الوظيفية الأخرى فلم يدرسوها أصلاً أو قاموا بدراستها وكأنها لا علاقة لها بالجماعات الوظيفية التجارية والمالية، ولذا فهم يتعاملون مع ظواهر مثل الخصيان والجوارى والمماليك والانكشارية والبغايا بوصفها ظواهر غير ذات صلة.

٣ - أهمل علماء الاجتماع الغربيون الجانب غير الاقتصادى «للجماعات الوظيفية»، مثل علاقتهم بالعلمانية الشاملة وميلهم نحو الحلولية الكمونية وتمركزهم حول ذاتهم ورؤيتهم للكون «إذا تعرضوا لها بشكل سطحى».

إن مصطلح الجماعات الوظيفية، قام بوضعه الدكتور المسيرى، استناداً إلى مصطلحات قريبة فى علم الاجتماع لوصف مجموعات بشرية تستجلبها المجتمعات الإنسانية، من خارجها فى معظم الأحيان، أو تجندها من بين أعضاء المجتمع أنفسهم من بين الأقليات الاثنية أو الدينية، أو حتى من بعض القرى أو العائلات.

ثم يوكل لأعضاء هذه المجموعات البشرية أو الجماعات الوظيفية وظائف شتى لا يمكن لغالبية أعضاء المجتمع الاضطلاع بها لأسباب مختلفة.

والسؤال الذى يطرحه علينا الدكتور المسيرى ما هى أسباب وتاريخ تحول الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية؟ وللإجابة عن هذا التساؤل لابد من استخدام نموذج مركب يعود بجذور الظاهرة إلى مراحل تاريخية كثيرة وإلى العناصر الاقتصادية والدينية والسياسية: .

١ - يبدو أن العبرانيين، منذ بداية ظهورهم فى التاريخ، كانوا يشكلون جماعة وظيفية. فقد كانوا بدوا رحل تجندهم المجتمعات المختلفة للاضطلاع ببعض الوظائف التى يأنف أعضاء الأغلبية من القيام بها.

وكلمة «خابيرو» التى يقال أنها أصل كلمة «عبر» تعنى العبد الذى أصبح كذلك بمحض اختياره «أى مرتزق».

٢ - كانت المملكة العبرانية المتحدة «والمملكتان العبرانيتان بعدها» دولة ضعيفة غير قادرة على حماية رعاياها، الأمر الذى أسفر عن أسر العشرات وربما الألوف منهم، حيث هجروا إلى بابل وآشور فتحولوا إلى جماعة بشرية غريبة يمكن تجنيدها بوصفها مرتزقة أو مستوطنين، كما أنهم تخصصوا هناك فى وظائف بعينها دون غيرها.

٣ - استمر العبرانيون فى العمل بالزراعة بعد التهجير البابلى، وإن بدأت تظهر بينهم قطاعات من الأثرياء الذين بدأوا يعملون فى التجارة وأعمال الصرافة، كما تزايد عدد اليهود المرتزقة، وبدأت بعض الجماعات اليهودية تتحول إلى جماعة وظيفية استيطانية وقتالية وتجارية.

٤ - مما عمق هذا الاتجاه، وجود كثير من الجماعات اليهودية فى الشرق الأوسط وفى حوض البحر المتوسط، وهى منطقة سيطرت عليها كثير من الإمبراطوريات، الواحدة تلو الأخرى، وكانت القوى الإمبراطورية الصاعدة تتحالف مع أعضاء الجماعات اليهودية نظراً لعدم خشيتها منهم فى صفوفها بوصفهم مرتزقة أو مستوطنين أو حتى جواسيس.

٥ - كانت فكرة الوطن الأصلى، مركز الاهتمام الدينى لأعضاء الجماعات اليهودية، تساعد على إضعاف علاقتهم بوطنهم الجديد، وعلى عزلتهم عن مجتمعاتهم، وعلى انغلاقهم على أنفسهم وكان من الممكن أن تختفى هذه الجماعات تماماً بسقوط الهيكل، ولكن الذى حدث أن فكرة الوطن الأصلى «الحنين إلى صهيون»: لا محل الوطن الأصلى ذاته، وهو ما أعطى أعضاء الجماعات اليهودية تماسكاً اثنياً، ولكنه تماسك وهمى لأنه لم يعد هناك مركز قومى فعلى يحدد المعايير الدينية أو القومية.

٦ - طبيعة المجتمع الإقطاعى فى الغرب من أهم العوامل التى أدت إلى تحول كثير من الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية.

٧ - وبرغم أهمية كل الأسباب السابقة، فإن أهم أسباب تحول الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية هو علاقتهم بالزراعة وملكية الأرض الزراعية.

ويبين لنا الدكتور عبد الوهاب المسيرى بعض الأسباب المتعينة التى تؤدى إلى ظهور العداء لليهود:

١ - لابد أن نعترف بأن العداء لليهود، بوصفه شكلاً من أشكال العداء للأقليات والغرباء والأجانب، والآخر على وجه العموم، وهو إمكانية كامنة فى النفس البشرية التى تنفر من كل ما هو غير مألوف، وبالتالى فهو إمكانية كامنة فى كل المجتمعات.

٢ - لعل من أهم الأسباب التى أدت إلى ظهور معاداة اليهود وانتقالها من حالة الكمون إلى مستوى البنية والاجتماعية والفعل الاجتماعى أن معظم الجماعات اليهودية كانت تشكل جماعات وظيفية قتالية وتجارية فى المجتمعات القديمة، وكذلك فى المجتمع الغربى فى العصر الوسيط حتى القرن التاسع عشر.

لقد عالج الدكتور عبد الوهاب المسيرى فى الفصل الرابع لقضية «الحسيدية والصهيونية» أهم حركة دينية يهودية فى العصر الحديث بوصفها حركة دينية مشيحانية يهودية خلقت تربة خصبة لظهور الصهيونية.

ويتناول الفصل الخامس لمسألة «معاداة السامية» والسادس «معاداة اليهود» تفكيك وتركيب ثلاث حالات، والسابع: «العبقرية اليهودية»، وتحاول هذه الفصول أن تبين أن من يؤمن بمعاداة السامية ويكره اليهود ويراهم خطراً على البشرية، لا يختلف كثيراً عمن يؤمن بعبقرية اليهودى ويرى أنهم أهم مصدر خير للبشرية. فكلاهما يخرج باليهود من نطاق ما هو إنسانى أو يراهم ملائكة أو شياطين.

ويحاول الفصل الثامن «ما ساداه بين التاريخ المركب والأسطورة الاختزالية» أن يبين كيف وظف الصهاينة واقعة تاريخية مشكوكاً فيها، فحولوها إلى أسطورة قومية أساسية من خلال استخدام النماذج الاختزالية.

ويتناول الفصل التاسع «محاولة تفسير الإبادة النازية ليهود أوروبا» ظاهرة المحرقة النازية، ويحاول تفسيرها من خلال وضعها فى السياق الغربى الحديث، ثم يضعها فى سياقها الألمانى واليهودى.

ويتناول الفصلان العاشر «حملات الفرنجة والجماعات اليهودية» والحادى عشر «الماسونية» ظاهرتين تاريخيتين تشغلان الوجدان العربى فى الوقت الحاضر. ويحاول الفصلان تقديم رؤية مركبة تدرس العناصر الدينية والاقتصادية والحضارية التى أدت إلى تجريد حملات الفرنجة ضد المسلمين وإلى انتشار الماسونية، ويتناول الفصل الثانى عشر والأخير «المتحف والذات القومية» إشكالية جديدة بعض الشىء فى الكتابات العربية وهى إشكالية علاقة معمار المتحف وطريقة ترتيب مقتنياته بنموذج الذات القومية «اختزاليا» كان أم مركباً، الكامن وراءها. وقد تعمد المؤلف اختيار موضوعات مختلفة قد لا يربطها رابط، حتى تتبين القدرة التحليلية والتفسيرية للنماذج المركبة.

محمد صلاح يسين غازى

Upper Egypt
Identity and Change
(صعيد مصر.. الهوية والتغيير)
Nicholas Hopkins
And Reem Saad
AUC Press 2004



غالبا ما يصور صعيد مصر كمصدر للقلق والفوضى في نطاق النظام المصري الأوسع. ولكن هذا الكتاب يصحح الصورة عن طريق رسم النظام في حياة ذى مغزى لأهل الصعيد.

إن هذا النظام مبني على أساس حس قوي بالهوية الإقليمية وأيضا الهوية الدينية والأسرية، وعلى البنى الاقتصادية، السياسية، الدينية التي تقدم سياق أداء سكان هذا الإقليم.

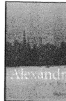
يحتوي الكتاب على إسهامات من أربعة عشر من المؤرخين والمتخصصين في علم الإنسان (الانثروبولوجيا)، يناقشون فيها قضايا مثل العلاقة بين الدين والمجتمع، والكون المتسع من الأسرة إلى المجتمع إلى الإقليم ثم إلى العالم، وموقع القرى، الأقاليم، والقبائل في البنية الإقليمية.

لقد وضع كل ذلك في سياق التغيير الذي أحدثته الرأسمالية، والضغط الذي تمارسه البيروقراطية والنخبة، والأفكار المتطورة عن الهوية الدينية والإقليمية.

يهدف هذا الكتاب للوصول إلى المتخصصين في مجال الديناميـة الاجتماعية في الشرق الأوسط، وكل من يبحث عن منهج متجدد لهذه المنطقة البحثية المهمشة.

■

Alexandria.. City of Memory
(الإسكندرية.. مدينة الذاكرة)
Michael Haag
AUC Press



يرسم هذا الكتاب بورتريه أدبيا واجتماعيا وسياسيا للإسكندرية خلال النصف الأول من القرن العشرين، وهو ما يمثل مرحلة هامة في تاريخ المدينة. معتمدا على المذكرات والخطابات والمقابلات، يستعيد مايكل هاج الحياة المفقودة للمدينة، سكانها الكوزموبوليتانيين وشخصياتها الأدبية.

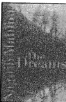
لقد أثارت الإسكندرية دوما خيال الكتاب، ويضفر هاج بعض الحكايات الحميمة عن فورستر، والشاعر اليوناني قنسطنطين كفافيس ولورانس داريل بحكايات من سكان المدينة.

إنه يتذكر أيضا تجربة المدينة في الحربين العالميتين ويكتشف المجتمعات التي منحت الإسكندرية مذاقها الفريد: المجتمعات اليونانية والإيطالية واليهودية.

وبمهارة يربط الكتاب بين الحس العاطفي والحياة الجنسية في هذه المدينة الفريدة، ويلقي الضوء على التغيرات الاجتماعية والسياسية على مر العقود والتي قادت إلى مصر في مرحلة عبد الناصر.

■

The Dreams
(الأحلام)
Naguib Mahfouz
AUC Press, 2004



في هذه المجموعة من أكثر قصصه جدة وقصرا، خفض الروائي العالمي نجيب محفوظ من الشكل القصصي إلى أقل مستوياته، مع الاحتفاظ بأستاذيته المعروفة في فن الحكي القصصي. وفي إحدى قصص المجموعة يجد رجل أن كل الشوارع في محيط جيرانه قد تحولت إلى سيرك- ولكن فرحته بهذا المشهد تتغير إلى غضب حينما يكتشف أنه لا يستطيع الفرار من السيرك إلى أي مكان آخر، حتى في منزله الخاص.

مجموعة من الأصدقاء الحميمين يتقابلون لتبادل النكات في حارة مألوفة -ليواجهوا فجأة بفيضان مدمر والذي هو بمثابة انتقام ملكة مصرية قديمة من رجال قاموا بقتل زوجها.

هذه هي بعض الأحلام الصغيرة المتكررة في كتاب الأحلام -عمله الأول الكبير منذ محاولة الهجوم عليه بسكين من قبل بعض المتعصبين المتدينين عام ١٩٩٤، الحادثة التي أفقدته قدرته على الكتابة لأعوام عديدة. إن هذا الكتاب يمثل مجموعة مكثفة بشكل ثري لأكثر من تسعة عقود من العبقرية الفنية والتجربة اليومية.

■

A Century of Philosophy
(قرن من الفلسفة)
Hanz George Gadamer in Conversation with Ricardo Dottori
Continuum, 162pp, £ 16.99, 2004



هانز جريج جادامير هو أحد الفلاسفة المهمين في القرن الماضي. توفي في مارس ٢٠٠٢، ويحتوي هذا الكتاب بعضا من آخر حواراته التي أدلى بها، عشرة حوارات تضع فلسفة جادامير في سياق ما سمي بأكثر القرون دموية في التاريخ الإنساني. وفي هذا الكتاب يخاطب جدامير أعمال فلاسفة مثل هايدجر، نيتشه، بوبر، فيكو، هابرماس، ودريدا، ويحلل الفلسفة الألمانية خلال الفترة النازية.

يعد هذا الكتاب أكثر الكتب في المكتبة الإنجليزية حتى الآن تعبيرا عن حياة وأعمال جادامير.

■

Science&Politics in Egypt
A life's Journey
(العلم والسياسة فى مصر)
(رحلة حياة)
Rushdi Said
AUC Press 2004



كان رشدي سعيد أحد أفضل الجيولوجيين في مصر، في فترة حكم الرئيس جمال عبد الناصر، حيث كان موظفا عاماً ورئيس مؤسسة المناجم القومية، المسئولة عن مسح الصحراء المصرية من أجل الكشف عن مستودعات المعادن الطبيعية.

إن المذكرات الشخصية لا تلقي الضوء المبهر فقط على المسوح الجيولوجية ومشاريع التنقيب في المناجم في ذلك الوقت، ولكن أيضا على سياسة التصنيع لدى عبد الناصر. التي كان رشدي سعيد مساندا حماسيا لها - وتأثير سياسة الانفتاح الساداتية على ذلك التصنيع، والتي رآها سعيد بمثابة نتيجة للأزمة المالية التي جلبتها حرب أكتوبر عام ١٩٧٣.

وفي هذا الكتاب ينتقد سعيد قرار الرئيس السادات بإعطاء أولوية للسياحة والصناعات الخدمية على حساب التصنيع.

ويوضح كيف أن ذلك القرار بالإضافة إلى زيادة الفساد منذ السبعينيات فصاعدا قد أجبراه على تقديم استقالته.

إن ذروة الأزمة جاءت في عام ١٩٨١، حينما أصدر الرئيس السادات قبل اغتياله بأسابيع قرارا باعتقال سعيد ضمن ألف وخمسمائة شخصية دينية وسياسية عامة.

لقد كان رشدي سعيد شاهد عيان على العديد من المظاهر الهامة في تاريخ مصر الحديث، ولكن تاريخه الخاص - أسرته، تعليمه، اهتمامه كقبطي بهموم الأقباط في المجتمع المصري.

من الأمور الكاشفة والملهمة في هذا الكتاب الذي يعد دليلا لكل المهتمين بمعرفة كيف كانت الحياة تسير في مصر في ماضيها الوشيك.

■

The Mysteries
(الغمــــوض)
Robert McGill
Jonathan Cape 320 PP, £10.99 2004



روبرت، المسافر الصغير، يجد نفسه في مدينة صغيرة تابعة لأونتاريو تدعى سانشاين، في وسط أحد المتنزهات هناك. يعطيه أحد الغرباء نوتة قذرة لونها أصفر كان قد التقطها من الطريق، وطلب منه إعطاءها لامرأة تدعى أليس بيديرسون. ولكن أليس اختفت منذ عامين.

وقبل مجيء روبرت بستة أشهر، وجدت بعض بقايا إنسان على الشاطئ. ألقي القبض على شتودارت فرملين للاشتباه في القتل.

أما دانييل باري، الذي ارتبط بعلاقة غرامية مع أليس والذي كان قد سافر إلى إنجلترا في الحال بعد اختفائها، عاد بشكل غير متوقع إلى سانشاين.

تروى الرواية، لغز اختفاء أليس، من وجهات نظر عدد من أبناء المدينة، وحيث ينكشف اللغز تدريجيا، تنكشف معه أسرار سكان المدينة.

■

Corpus

(الجســـــد)

Michael Symmons Roberts

Jonathan Cape, 80PP, £ 8, 2004



تتركز مجموعة الشعرية الرابعة الطموحة و المبتكرة لمايكل سيمونز روبرتس حول الجسد. إن الأجساد في تلك القصائد أجساد غامضة، فلسفية وشهوانية، حيث تتحرك بين عوالم مختلفة الحياة، و ما بعد الحياة، الموت والبعث مواجهة الخرائط الجينية وجراح الحب والحرب.

تعبر قصائد المجموعة عن مزيج أخاذ بين الحكمة القديمة و المعاصرة، كشف عميق و شاعرى عن الجوانب الغامضة فى الجسد.

يعد روبرتس من الشعراء المتدينين، على الرغم من إيمانه العقائدى لا ينعكس بشكل يقيني في قصائده.

متحولا بسهولة بين المتضادين الحياة و الموت، تتحدث القصائد بشكل مؤثر عن كيف تعيش نصف الحياة بين هذين العنصرين، الحياة و الموت، كيف تعيش بشكل فريد و مبهج فى آن واحد.

■

When We Were Kids

How a Child Becomes a Scientist

(حينما كنا أطفالا

كيف أصبح الطفل عالما؟)

John Brockman

Jonathan Cape, 208PP, £16.99

2004



يحتوي هذا الكتاب على مقالات كتبها مفكرون و علماء، احتلوا من خلال عملهم و كتاباتهم، مكان الثقافة التقليدية

و لعبوا دورا في إعطاء معنى أعمق لحياتنا، حيث أعادوا تعريف التساؤل التقليدي من وماذا نحن نكون؟ إن نقطة البداية للسبعة وعشرين مقالا في هذا الكتاب هى العنوان الفرعي لهذا الكتاب، ولكن بينما تركز الحكايات على المؤثرات والتجارب المبكرة في حياة هؤلاء العلماء، فإن المقالات تحفل بالمعلومات عن الكتابات المتسمة بالتفكير العلمي الذكي الذي اشتهروا به.

و من بين هؤلاء العلماء نيكولاس هامفري (استعادة الوعي)، لين مارجوليس (اكتساب الجينوم)، مارفن مينسكي (مجتمع العقل)، مارتن ريز (ساعتنا الأخيرة).

تكشف تلك المقالات عن تساؤلات مثل «ماذا حدث عندما كنت طفلا و الذي قادك لأن تحيا حياة علمية؟»، «ما الذي جعلك مهتما في مجالك البحثي الحالي؟»، «من كان أبواك، رفاقك، معلموك؟»، «ما هي نقاط التحول، المؤثرات و الأخطاء في حياتك؟». تخبرنا تلك المقالات بشكل شيق و كاشف الكثير عن العلم و عن الحياة.

■

The Heat

(الحـــــرارة)

Bill Buford

Jonathan Cape, 256PP, £16.99

2004



الحرارة هي قصة طباخ هاو يحاول الاستمرار في مهنته العملية. حتى وقت قريب، كان بافورد طباخا متحمسا في منزله الخاص. لقد تميزت وجباته بميزة هامة: عدم خبرته في إعداد الطعام. على الرغم من ذلك، فقد أسف طوال حياته لأنه لم يتخذ طهي الطعام كمهنة له.

واتته الفرصة منذ ثلاث سنوات، عندما طلبت منه مجلة New Yorker الشهيرة أن يكتب بروفايل شخصيا عن ماريو باتالي، شخصية شهيرة في عالم الطهي كان يدير مطاعم ثلاثة نجوم كانت الأكثر نجاحا في نيويورك. لقد تعلم باتالي حرفته عن طريق التدريب في لندن، كاليفورنيا و أخيرا في إيطاليا، حيث تعلم كيف يصنع الباستا بيديه. قبل بادفورد المهمة الموكلة إليه على شرط أن يوافق باتالي أن يدعه يعمل في مطبخه كعبد له.

ينطلق الكتاب من هذه النقطة ليروي سيرة حياة بافورد، و كيف تدرب بعد ذلك على أيدي أمهر الطهاة. لقد أمضى ثلاث سنوات في المطابخ، و في هذا الكتاب توثيق لهذا الفترة. كما يجيب الكتاب على التساؤل: كيف تؤثر الثقافة و التاريخ على احتياجنا لتناول الطعام.

■

Feast

Food that Celebrates Life

(العيــــد

الطعام الذي يحتفل بالحياة)

Nigella Lawson

Chatto& Windus 384pp. £ 25,

2004



«لن يكون الغذاء أبدا مجرد وصفة لأكلة نأكلها: إن الوجبات التي نتناولها تقول شيئا ما أساسيا حول هويتنا و كيف نريد أن نعيش.

حينما نريد الاحتفال بأي مناسبة تعني لنا الكثير، فإننا نجعل الطعام إحدى علامات الاحتفال المميزة، بدءا بكعكة عيد الميلاد إلى عشاء الزواج.

و لكن كتاب العيد لا يعني بالاحتفال بالمناسبات الخاصة، و إنما يعني بالطريقة التي نستخدم بها الطعام للاحتفال بالحياة».

يحوي هذا الكتاب العديد من الأفكار و المعلومات بطريقة سهلة حول كيفية الاحتفال بالمناسبات الصغيرة والكبيرة معا ابتداء من الكريسماس، عيد الشكر، و انتهاء بأعياد الميلاد، والأعياد الموسمية للفراولة، و كيفية صنع كعك الشيكولاتة.

يعد هذا الكتاب من الكتب الكلاسيكية مثل الكتاب الكلاسيكي «كيف نتناول الطعام».

بالإضافة لذلك يحتوي الكتاب على ٢٠٠ وصفة من حول العالم، بالإضافة إلى ١٢٠ من الصور، التي تبين عشق نايجيلا للحياة و الطعام اللذيذ الذي نحتفل معه بالحياة.

■

The Beautiful Game?

Searching for the Soul of

English Football

(اللعبة الجميلة؟.. البحث عن روح

لكرة القدم الإنجليزية)

David Conn

Yellow Jersey 320PP. £ 12,

2004



لم تكن كرة القدم أكثر ثراء، و أكثر مركزية بتاريخ بريطانيا عما هي عليه اليوم. على الرغم من ذلك، فلم تمر بهذه الحالة من الاضطراب من قبل. في يوم ما، كانت كرة القدم تجلب بكبرياء معاني العاطفة، المجتمع، الشرف، و الجمال أيضاً.

اليوم، أصبحت كرة القدم مرادفا للمال. فقد كسب أغنى نوادي كرة القدم في بريطانيا «مانشستر يونيتد» ١٤٦ مليون جنيه استرليني في العام الماضي. و برغم ذلك، منذ ١٩٩٢ فقد أفلس نحو ٣٥ ناديا من مجموع ٧٢ ناديا تابعا لاتحاد الكرة

. إن اللعبة تواجه خطر فقدان دمائها - و روحها أيضاً.

ومما يؤكد كلام المؤلف أن نجوم كرة القدم البريطانيين أصبح شاغلهم الكبير هو جنى المال بأى وسيلة خاصة الاعلانات وفى مقدمة هؤلاء النجوم ديفيد بيكهام نجم المنتخب الإنجليزى الذى يشاهده الناس فى أنحاء العالم المختلفة من خلال الإعلانات أكثر من ملاعب كرة القدم.

يرتحل كون و هو من أفضل الصحفيين المتخصصين في مجال كرة القدم، عبر رحلة خلال قلب كرة القدم البريطانية، مستكشفا كيف فشلت الرياضة المحلية في بريطانيا و من يستحق اللوم على ذلك. و في هذا الكتاب يجري كون عددا من المقابلات الصحفية مع اللاعبين، المديرين، الوكالات، و عشاق الكرة، محاولا بناء صورة للأزمة التي تمر بها هذه اللعبة الشعبية التي يعشقها الملايين.

■

Art and Fear

(الفن و الخوف)

Paul Virilio

Continuum128 pp, £ 9.99, 2004



إن قراءة هذا الكتاب أمر ضرورى لكل من لازال يتساءل: أين ذهب الفن وإلى أين تأخذنا العلوم؟

في هذا الكتاب يتابع فيريلو تطور الفنون و العلوم على مدى القرن العشرين، و هو تطور يظهر كرقصة موت كابوسية. من وجهة نظر فيريلو الصارمة الذي أوضحها بشكل حازم في هذا الكتاب القصير، يتنافس كل من الفن و العلم لهدم الشكل الإنساني الذي نعرفه.

■

كـتـب باللغــة العبـــرية

« الحرب السابعة »
عاموس هارئيل وافي سخاروف
يديعوت احرونوت ، ٢٠٠٤، ٢٨٩ صفحة
המלחמה השביעית
עמוס הראל ، אבי יששכרוף
ידיעות אחרונות، 2004



الإسرائيليون المولعون عادة باشتقاق الأسماء وإطلاقها على عملياتهم العسكرية، فشلوا في الاتفاق على اسم يعكس نظرتهم لانتفاضة الأقصى التي يخوضها الشعب الفلسطيني منذ اكثر من اربعة اعوام. عاموس هارئيل، المراسل العسكرى لصحيفة النخبة «هآرتس»، وآفي سخاروف مراسل اذاعة «صوت اسرائيل» باللغة العبرية للشؤون العربية يعتبران أن هذه الانتفاضة تمثل «الحرب السابعة» التى تخوضها اسرائيل منذ قيامها. فى الكتاب يرصد المؤلفان تطورات الانتفاضة، ويحاولان تفسير الأسباب والظروف التى أدت الى تواصلها الى هذا اليوم بشكل يفوق أكثر التوقعات الاسرائيلية سوداوية. الكتاب يحمل القيادة الاسرائيلية جزءاً كبيراً من المسؤولية عن تواصل الانتفاضة عندما اضاعت الكثير من العروض للتوصل لهدنة. الكتاب يسلط الضوء على واحد من مظاهر الخلل الذى تعانيه الديموقراطية الإسرائيلية، وهو نجاح المؤسسة العسكرية فى املاء أجندتها على المستوى السياسى. الكتاب يحوى مقابلة هامة مع وزير الدفاع الاسرائيلي الأسبق بنيامين بن اليعاز يعبر فيها عن شعور بالمرارة لرفض قيادة الجيش الإلتزام بتعليماته وعدم مواصلة عمليات الاغتيال ضد قادة المقاومة الفلسطينية، على اعتبار أن ذلك ساهم فى مزيد من التدهور فى الأوضاع الامنية داخل اسرائيل. الكتاب يتهم قيادة جيش الاحتلال بالمسؤولية الكاملة عن الزج بالحركات العلمانية الفلسطينية الى دائرة العمليات الاستشهادية، وذلك لقيامها بالتعامل مع هذه الحركات بنفس الوحشية التى تعاملت بها مع حركتى حماس والجهاد الاسلامى، فضلاً عن رفض المستوى السياسى السماح بأى افق سياسى يمكن أن يغرى هذه الحركات بوقف المقاومة.

■

« عرفات: الرجل وحربه ضد اسرائيل »
افرايم كارش
معاريف، ٢٠٠٤، ٣٠٠ صفحة
ערפאת האיש ומלחמתו בישראל
אפרים קארש
מעריב، 2004



عشرات الكتب أصدرتها دور النشر، ومئات الأبحاث أعدها كبار المستشرقين سواء فى المؤسسات الاكايمية المدنية أو فى مؤسسات البحث التابعة للاجهزة الاستخبارية فى إسرائيل حول الرئيس الفلسطينى الراحل ياسر عرفات. معظم الإصدارات التى جاءت بعد التوقيع على اتفاقية اوسلو حاولت الاجابة على السؤال الآتى: هل مثل اتفاق اوسلو توجه استراتيجى من قبل عرفات لحل القضية الفلسطينية عن طريق المفاوضات، أم أن الخطوة كانت مجرد خطوة تكتيكية مرحلية فى الطريق للقضاء على اسرائيل. البرفيسور افرايم كراش، يطرح وجهة نظر يمينية فى تفسير نوايا عرفات من التوصل لاتفاقية اوسلو. ففى هذا الكتاب، الذى صدر قبيل وفاة ابو عمار، يقول كارش ان عرفات بمجرد ان فرغ من القاء خطابه فى احتفال التوقيع على اتفاقية اوسلو، اخذ يستعد لتنظيم انتفاضة الاقصى. كارش وهو اسرائيلى يعمل كرئيس قسم الدراسات الشرق اوسطية فى جامعة لندن، يتهم عرفات بانه لم ينوى الالتزام بأى وعد من الوعود التى قطعها على نفسه فى هذه المناسبة الاحتفالية. الكتاب يتهم عرفات بأنه العقل المدبر لكل العمليات الاستشهادية التى هزت اسرائيل خلال انتفاضة الاقصى. و كما هو الحال بالنسبة لذوى التوجهات اليمينية فى اسرائيل، يرفض كارش الرأى القائل ان زيارة ارئيل شارون، الذى كان زعيما للمعارضة الإسرائيلية للحرم القدسى الشريف فى منتصف سبتمبر من العام ٢٠٠٠ هى التى اشعلت الانتفاضة. الكتاب يزعم ان عرفات قد اعطى الاوامر لخوض الانتفاضة قبل زيارة شارون بوقت طويل. عرفات بالنسبة لكارش هو ارهابى استغل «سذاجة» زعماء اسرائيل والعالم لكى يدفع مخططاته لتدمير اسرائيل قدماً.

■

« ايران من الارهاب الى القنابل النووية: أبعاد التهديد الايرانى »
وزارة الدفاع الاسرائيلية ، ٢٠٠٤، ٥١٨ صفحة
איראן מן הטרור עד הגרעין
משרד הביטחון



منذ عقد من الزمان ينشغل فى اسرائيل كل من المستوى السياسى والنخب العسكرية، فضلاً عن المؤسسات البحثية ووسائل الاعلام بما يسمونه مخاطر البرنامج النووى الإيرانى على الدولة العبرية. هذا الكتاب الذى الفه، أحد أشهر الخبراء فى مجال الاستخبارات والباحث فى «مركز يافا للدراسات الاستراتيجية فى جامعة تل ابيب »، الدكتور افرايم كام، والصادر عن دار النشر التابعة لوزارة الدفاع الاسرائيلية يشكل اضافة جديدة تسلط الضوء على حقيقة خطر البرنامج النووى الايرانى على الدولة العبرية، من وجهة نظر اسرائيلية. تكليف وزارة الدفاع لكام بإعداد هذا الكتاب يندرج ضمن حرص المؤسسة الامنية على اثراء الجدل الدائر حول البرنامج النووى الايرانى. الكتاب يشمل عرضاً لكثير من الوثائق التى ترصد تطور القوة العسكرية الايرانية، فضلا عن الاستغراق فى تحليل الدوافع الكامنة خلف الاستراتيجية التى تتبعها الجمهورية الاسلامية. الكتاب الذى يستند الى الف ومائتى مرجع ووثيقة يصل الى قناعة مفادها ان ايران من ناحية عملية لا تعتبر اسرائيل العدو الاول لها ولا حتى الاكثر أهمية من بين أعدائها. حسب كام، فإنه على الرغم من الخطاب السياسى الايرانى المناكف لاسرائيل اعلاميا، الا ان الاعتبارات التى تحكم الاستراتيجية الايرانية ترتبط بمصالحها ووضعها فى الخليج العربى، وهى تبدى حساسية كبيرة لما يجرى فى دول الجوار، وخاصة فى العراق. كام يوضح معتمدا على الوثائق والمعطيات التحليلية على ان الاستراتيجية العسكرية الإيرانية ذات طبيعة دفاعية فقط. لكن كام لا يستبعد فى المستقبل ان تستخدم ايران اسلحتها التقليدية وغير التقليدية فى هجوم على اسرائيل. ويضيف انه حتى لو لم تستخدم ايران قدراتها النووية فى المستقبل ضد اسرائيل، فإن هذه القدرات بشكل غير مباشر ستمثل «دعماً استراتيجياً » للقوى الاصولية التى تناصب اسرائيل العداء. كام الذى لا ينفك على التشديد على الحسابات «الباردة» للقيادة الايرانية، ينوه فى المقابل الى تأثير ادبيات الخطاب الايرانى المعادى لاسرائيل والذى يتمثل فى العداء لاسرائيل ورفض شرعية وجودها لدوافع دينية وايدلوجية.

■

« انا مصطفى رابينوفيتش »
آشير كرافيتس
الناشر : مكتبة هبوعليم
٢٠٠٤، ١٦٤ صفحة
אני מוסטפא רבינוביץ
אשר קרביץ
ספרית הפועלים



يسلط الكتاب الضوء على واحدة من أكثر الوحدات العسكرية الاسرائيلية الخاصة وحشية فى تعاملها مع العرب والفلسطينيين، وهى وحدات المستعربين. وهى وحدات تعتمد بشكل اساسى على تنكر عناصرها فى ازياء عربية من أجل تسهيل مهماتها فى تصفية واعتقال عناصر المقاومة الفلسطينية فى مدن الضفة الغربية وقطاع غزة. الكتاب هو رواية بطلها مستعرب خدم فى احدى هذه الوحدات. اسم المستعرب هو يائير رابينوفيتش، واسمه كمستعرب «مصطفى».

تعود الرواية الى طفولة البطل، حيث تأثر بالعروض العسكرية التى كان يشاهدها فى الاحتفالات بذكرى «استقلال اسرائيل».

ثم ينتقل الى سرد قصة انخراطه فى الوحدة، والتوجيهات التى تلقاها والعمليات التى شارك فيها. وتكشف الرواية كيف يتحول العنصر فى هذه الوحدات من اطاعة أوامر القادة، الى التلهف من اجل تنفيذ عمليات التصفية. لكنه فجأة يكتشف عدم انسانية هذه الممارسات ويبدأ بطرح الاسئلة الصعبة التى توقظ ضميره.

اهمية الكتاب تكمن فى حقيقة ان مؤلف الكتاب عمل كضابط فى احدى وحدات المستعربين.

■

كتاب الزاوية



نجيب محفوظ

أصداء من الحكمة

فى غمرة الهموم الخاصة الممتعة خفق فؤاد الوطن خفقة أليمة عميقة بموت الزعيم سعد زغلول. شدَّ ما ذهلنا واشتعلت جوانحنا بنار الحزن والحسرات. حتى طاهر عبيد وجم وأسف بعد أن أظلت زعامة الراحل الجميع فى الائتلاف الوطنى وأحبه الخصوم مع المريدين والأتباع. وكل منا له حكاية عن الخبر فى أسرته وما أسال من دموع. كل عين بكت سعد وكل قلب امتلأ بالشجن. وسأل صادق طاهر عبيد:

- كيف تلقى عبيد باشا وإنصاف هانم الخبر؟

فأجاب:

- بالحزن طبعًا. وقال أبى إنه فى أعوامه الأخيرة كفَّر عن ماضيه وأصبح أبًا للشعب والوطنية..

وذهبت جماعتنا إلى ميدان الأوبرا وانحشرنا فى الجموع الحزينة الواجمة ننتظر، وعندما لاح النعش فوق المدفع ارتفعت صرخات الأسى إلى سماء أغسطس الصافية التى تقطر حرارة ورطوبة. وجرفنا التيار وراء الجنازة إلى شارع محمد على، وهناك اختلطت الهتافات بصوات المطلات من النوافذ والشرفات. ورجعنا إلى العباسية صامتين بلا سعد. ونخوض أمواجًا جديدة من تاريخنا المفعم بالحرارة والقلق. فنبايع خليفة سعد ونرقب ما يلوح فى السماء من نذُر وبشائر.

عن قشتمر

رسائل

الكتب وجهات نظر

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

مثقفو المعارضة و«مثقفو السلطة فى مصر»

سرنى أن أقرأ فى العدد الأخير لمجلة «الكتب وجهات نظر» (ديسمبر ٢٠٠٤) عرضًا مطولاً للترجمة العربية لكتابى «بين كتبة وكتاب. الحقل الأدبى فى مصر المعاصرة» (القاهرة، دار المستقبل العربى، ٢٠٠٤)، ونظرًا للاحترام الذى أكنه لمجلتكم الرائدة ولقرائها، أجد نفسى مضطرًا إلى التعليق على بعض ما جاء فى عرض الزميل الدكتور حلمى محمد القاعود. ولا أتصدى فى هذا التعليق للأحكام التى يطلقها الزميل على بحثى وعلى الكتاب الذين تناولتهم فيه، فهو حرّ فيها ولقارئ عرضه، بدوره، كامل الحرية فى أن يقبل هذه الأحكام أو يرفضها. وإنما يهمنى هنا التذكير ببعض قواعد الكتابة - الصحفية والعلمية - التى أهملها، فضلَ وضلل معه قراء «وجهات نظر».

أهم هذه القواعد، خاصة ونحن فى صدد عرض كتاب وفى مجلة متخصصة فى عرض الكتب، هى أن يلتزم الكاتب بالعلامات الكتابية والصياغات التى تحدد هوية صاحب الحديث. فقد استشهد د. القاعود بجمل بل وفقرات كاملة من كتابى دون أن يبين ذلك باستخدام الأقواس أو الأهلة، وبالتالى لا يستطيع قارئ عرضه أن يحدد إن كان ما يقرأه ينسب إلى د. القاعود أم إلىّ. والأدهى أن د. القاعود لا يفرِّق، عندما يستشهد بكتابى، بين حديثى أنا مؤلف الكتاب وأقوال من أستشهد بهم من كتاب ونقاد، فيكتب: «... يوسف السباعى الذى يسميه المؤلف - فى نبرة ساخرة - جنرال جيش الأدب»، مع أن هذا التعبير ورد فى كتابى (ص٣٠) بين هلالين ومنسوبًا إلى جموع الأدباء الذين صاغوا هذا اللقب - الساخر فعلا! أو ينقل د. القاعود وصفين (ساخرين أيضًا) لمقاهى المثقفين استعرتهما من مقالين لمحمد عفيفى مطر وصنع الله إبراهيم دون أى إشارة إليهما وكأننى صاحب هذه الأقوال، وهلم جرا.

والمسألة ليست - كما قد يتصورها القارئ - مسألة شكلية، بل إنها تتعلق بصميم مجهودى ومنهجى العلمى. فأنا بصدد رصد ما يجرى فى الحقل الأدبى وتحليل الخطاب السائد فيه والذى يكون ما أسميه « العقيدة» الأدبية السائدة، وكلمة عقيدة هنا تأتى لترجمة كلمة doxa اليونانية والتى تستخدم فى علم الاجتماع للإشارة إلى مجمل المعتقدات السائدة فى مجتمع ما أو فى فئة اجتماعية ما. من الغريب أن يكتب د. القاعود: «يبدأ جاكمون كتابه بالتركيز على حادثة الاعتداء على نجيب محفوظ (...) ليصل إلى أن الكاتب هو «ضمير مصر الحى»(...)» بينما كتبت: «جميع الأصوات المهمة فى صفوف الانتلجنتسيا المصرية وأصوات أخرى قد تلاقت لتوجيه التحية إلى«ضمير مصر الحى»(...)»(ص١٣ من الكتاب)، ومن البديهى أننى أورد هنا تعبيرًا شائعًا لم أبتكره! بل إن كل ما يشغلنى فى كتابى هذا هو تحليل مثل هذه المقولات الشائعة وشرح شروط إنتاجها الاجتماعية والتاريخية.

والواقع أن د. القاعود، بإلغائه المسافة بين خطابى والخطاب الذى أنسبه للكتاب والنقاد، يصل إلى بغيته، أى ضمى إلى من يسميهم - باختزال غليظ لا يستطيع فهم دوافعه سوى فاعلى الحقل الأدبى المصرى الذين يعلمون موقع د. القاعود فيه - «مثقفى السلطة». إلا أن د. القاعود نفسه لا يستطيع سوى أن يلاحظ تلك المسافة التحليلية التى أضعها بينى وبين موضوع دراستى، فيسميها «نزعة استعمارية استعلائية» وهى صفات أعتب عليه أن يطلقها دون أن يؤتى بأى تبرير أو بداية برهنة عليها. ولكن ما أسهل إطلاق مثل هذه الصفات على الباحث الأجنبى. وفى الآخر، أشكر الزميل د. القاعود على الجهد الذى بذله فى قراءة عملى وعرضه على قراء مجلة «وجهات نظر»، وأعتز بشهادته، الواردة فى الفقرة الأخيرة لعرضه، بأن كتابى «يسجل بصورة بانورامية شاملة ما جرى فى الحقل الأدبى المصرى على امتداد نصف قرن وقد احتشد لهذا التسجيل بأدوات ووثائق ومراجع جعلت له قيمة مهمة».

ريشار جاكمون

باحث فرنسى

وجهات نظر - رسائل الكتاب

كفى أيها السادة!

عهدنا مجلة «وجهات نظر» مجلة معنية بالثقافة الرصينة والتنويرية فى زمن هبطت فيه المستويات، وتفشت السطحية والظلامية. ولكننا قرأنا مقالاً فى عدد نوفمبر ٢٠٠٤ يتعارض مع خط المجلة المعلن.

والمقال المقصود هو «الفاطميون.. الحكم.. القهر.. الإلهاء» للكاتب علاء الدين وحيد الذى يعرض فيه كتاباً للأستاذ جمال بدوى عنوانه «الفاطمية دولة التفاريح والتباريح». وأود هنا أن أوجز بعض الملاحظات حول خلاصة المقال الذى هو خلاصة الكتاب على ما يبدو:

١ - يؤكد الكاتب (والمكتوب عنه طبعاً) أن الاستبداد هو الشر الأعظم الذى نزل بالعرب والمسلمين. ومع أن هذا الاستنتاج ليس بالجديد، فنحن لا نختلف مع الكاتبين على ما جره الاستبداد على شعوبنا فى الماضى والحاضر.

٢ - يرى الكاتبان أن الاستبداد كان - ولا يزال - نتيجة لازمة لانحراف الحكام عن العقيدة الإسلامية. وهذا الكلام فيه تبسيط للاستبداد، وتبسيط للعقيدة الإسلامية، وتبسيط للتفاعل التاريخى بينهما.

٣ - إن «الفكر الإسماعيلى» الذى أتى به الفاطميون يحتوى، حسب رأى الكاتبين، على عقائد وفلسفات تتناقض مع العقيدة الإسلامية. ومشكلة هذا الرأى هى أن التاريخ بحسبه إنما هو صراع بين آلهة وأبالسة، أو بين حقيقة خيرة، وباطل شرير. وهذا ما يجعل الكاتبين يقعان فى المحذور. فهما قد يعلمان أن الاستبداد فى الماضى والحاضر قام ويقوم على تكريس هذا التصور.

٤ - يعتبر الكاتبان أن عهد الفاطميين نجمت عنه مذاهب إلحادية. وهنا أود أن أعلم معنى الإلحاد فى نظرهما. فالمعروف أن الإلحاد معناه إنكار وجود الله. ولا أعرف طائفة دينية فى الشرق أو الغرب تنكر هذا الوجود. فالاختلاف بين الأديان والمذاهب ليس على وجود الله، بل على وسائط بين الله والإنسان، وعلى وسائل تحقيق العلاقة بينهما، سواء أكان فى الممارسة الدينية، أم الاجتماعية، أم الأخلاقية. ولو اعتمدنا هذا الاختلاف (فى الوسائط والوسائل) لكفر الناس بعضهم بعضاً فى أرجاء الأرض كافة (ولأصاب هذا التكفير الكاتبين طبعاً). وهذا لا يصح عند عاقل متديناً كان أم غير متدين.

٥ - إن هذا المنهج فى النظر إلى التاريخ بالغ الخطر، ولاسيما فى الوضع الذى يمر به العرب والمسلمون فى هذا العصر. ونرجو من أهل القلم والصحافة فى مصر، والذين نحبهم ونعتز بهم، أن يكفوا عن نبش أوراق ابن تيمية التى عفى عليها الزمن. كما أننا نربأ بالمجلة العزيزة «وجهات نظر» عن مثل هذه الهفوة، أو المعالنة.. فى المستقبل.

عارف حذيفة

سوريا



مستهلكون وجوعى

لقد قرأت فى مجلتكم الموقرة فى عددها رقم ٧٠ شهر نوفمبر تحت عنوان «مستهلكون وجوعى».. معدة العالم فى خطر» قرأت تقرير «حالة العالم» فى الذكرى الثلاثين لتأسيس هيئة World Watch institute لسنة ٢٠٠٤ للأستاذ رجب سعد السيد، أن هناك مؤتمراً عالمياً تم انعقاده لمناشدة العالم الحد من الاستهلاك فى المياه والطعام والطاقة لأن معدلات الاستهلاك وصلت إلى مرحلة تهدد بالخطر بالنسبة للإنتاج ولا يسعنا فى هذا المقام إلا أن نقول لهؤلاء المؤتمرين أن الإسلام الحنيف قال رسوله عليه الصلاة والسلام «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع» وقال فى خصوصية استهلاك المياه ما معناه أن المسلم إذا توضأ من مياه نهر جارى فلابد أن يقتصد فى استهلاك المياه وأمثلة كثيرة لا أستطيع بعلمى الضعيف أن أذكرها ولكن أناشدكم ومن منبر مجلتكم الموقرة أن تقولوا للمؤتمرين طالعوا على سبيل الاستئناس ما أوصى به الإسلام أفراد المجتمع.

بدوى أبو شنب

محام - الأقصر

كتاب الزاوية



نجيب محفوظ

أصداء من الحكمة

قلب أوزوريس عينيه فى الخالدين وقال:

- ها هي حياة مصر قد عرضت عليكم بكل أفراحها وأحزانها، مذ وحدها مينا وحتى استردت استقلالها على يد السادات، فلعل لبعضكم رؤية يريد أن ينوه بها؟

وطلب الملك إخناتون الكلمة ثم قال: أدعو للاستمساك بعبادة الإله الواحد باعتباره المعنى والخلود والتحرر من أى عبودية أرضية.

وقال الملك مينا: والحرص على وحدة الأرض والشعب فالنكسة لا تجيء إلا نتيجة لخلل يصيب هذه الوحدة.

وقال الملك خوفو: على مصر أن تؤمن بالعمل، به شيدت الهرم، وبه تواصل البناء.

وقال الملك تحتمس الثالث: وأن تؤمن بالقوة التى لا تتحقق حتى تلتحم بجيرانها.

وقال سعد زغلول: وأن يكون الحكم فيها من الشعب، من أجل الشعب.

وقال جمال عبد الناصر: وأن تقوم العلاقات بين الناس على أساس العدالة الاجتماعية المطلقة.

وقال أنور السادات: وأن يكون هدفها الحضارة والسلام.

وهنا قالت إيزيس: ليضرع كل منكم إلى إلهه أن يهب أهل مصر الحكمة والقوة لتبقى على الزمان منارة للهدى والجمال.

فبسط الجميع أكفهم واستغرقوا فى الدعاء.

من أمام العرش

قـــــــــراءة ..

«مـــا هكـــــذا تُــــورَدُ الإبـــــل»

لم نعرف - جيلُنا على الأقل - مصطلح «الوحدة الوطنية» أو مقابله «الفتنة الطائفية» إلا مسكونًا بالسياسة.

عرفناه يوم عنوَن به الساداتُ قانونا «خاصا» فضفاضا كقوانين تلك المرحلة التي مهدت سياساتُها المرتبكة - وهي متعددةٌ ومتداخلةٌ وكثيرة - لخريف غاضب، لم تهدأ أعاصيرُه إلا بالمشهد الدموي صبيحة العرض العسكري «الأخير». مياهٌ كثيرةٌ جرت في النهر.

ذهب من ذهب، وأتى من أتى.. وظل الجنيُّ الذى أطلقوه. لخطأ في حساباتهم - ذات يوم في «الخانكة» ثم في «الزاوية الحمراء» كامنا في قمقم مسكونٍ بالسياسة.

أيًا ما كان أمرُ ما جرى في الأسابيع الماضية، تبقى هناك مجموعة من الحقائق التي ينبغي ألا تختفي في ضباب من «اللا شفافية» بدا كثيفًا، أو في زحام زعيق إعلامي بدا غير مسؤول، أو وسط دخان تؤجج نيرانَه مشاعرُ ملتهبة.. وجهود للإطفاء؛ تباطأت.. فأخطأت.



- ١ -

إن قدرًا من الشفافية كان كافيًا لوأد الفتنة في مهدها. ففي زمن الإنترنت والعولمة الفضائية، لم يعد الإنكارُ ممكنًا. كما لم يعد التجاهلُ بقادر على أن يمنعَ سريان معلومة «كالنار في الهشيم» بكل ما يَعلَقُ بها - عفواً - من شوائب، وبكل ما تحمله - قصداً - من أطياف لأغراض، أو ألوان لأهداف.

ماذا كان يجري لو أن السيدة الفاضلة: بطلة القصة، التي «قيل» أنها اختُطفت..! و«قيل» أنها غُيبت عن الوعي! و«قيل» أنها غيرت دينها - لو أنها ظهرت على شاشة التليفزيون المصري، لتُبينَ للجميع؛ شبابهم قبل شيوخهم، وعامتهم قبل صفوتهم «الحقيقةَ كاملةً». ألم يكن ذلك كفيلاً بإيقاف التيار الجارف - المتضارب - من الشائعات.

- ٢ -

غاب القانون «المجرد» ليفسح المجال للسياسة، وهي بحكم التعريف غير مجردة من حسابات «ولا نقول أهواء». فرأينا من رجال السلطة من يتباهى علنًا بالتزوير في أوراق رسمية «بدعوى درء الفتن». و«التزوير» في القانون المجرد جريمة! ورأينا من رجال التحقيق من يُفرط أو يُفرِّط؛ مواءمة أو استجابة أو إرضاء. ورأينا من رجال الدين من كانت فتواه عن سياسة، لا عن قرآن أو سنة أو كتاب مقدس.

غاب القانون «المجرد» إذن، ليترك الساحة لرجال أمن أو دين أو أحزاب. وهؤلاء أو أولئك تحكمهم - بحكم الوظيفة أو الانتماء - حساباتٌ، هي بالتعريف ليست بحيادية القانون أو بتجرده.

أشعل الفتيلَ الأول للأزمة ما قيل وتردد.. وتواتر؛ أننا بصدد حادثة اختطاف. ومن المعلوم للكافة أن واقعة «اختطاف أنثى». وبغض النظر عن أي تمييز طائفي مرفوض - هي في القانون «المجرد» جناية، تستدعي تحقيقًا وتحريات وجمع أدلة لمعرفة الجاني - إن كان ثمةَ جريمة - أو لنفي الواقعة من أساسها. وهو أمر - مرة أخرى - لو كان قد حدث لأظهر الحقيقةَ - أيًا كانت - ناصعةً. ولنزعَ فتيل أزمة انتظرنا عليها حتى وصلت إلى العاصمة «بزحامها وحساباتها» تظاهرًا وصداماً واستقواءً بقوى أجنبية؛ يعرفُ الكثيرون كم اقتربت من تخوم سيادة أردناها مصونة. ويعرفُ الجميعُ كم دفع أبناءُ هذا الوطن بعنصريه (وأنا أكره التعبير) ثمنًا لذلك.

- ٣ -

رغم هتافات تهورت - فتجاوزت - بفرط من حماس، أو بدوافع ضيقة الأفق، أو حتى تحت ضغط «إحساس» خانق بظلم أو تمييز، تبقى أهميةُ تذكير الجميع - من هتفوا ومن أزعجتهم الهتافات - بوطنية الكنيسة و«مصريتها». وبأهمية أن «أبانا» هنا لا هناك، في عالم تذوبُ فيه حدودُ الانتماءات وتتماهى فيه الولاءات.

وأحسبُ أن أقباط مصر يعلمون - قبل غيرهم - قصة نضالهم التاريخي من أجل الاستقلال بكنيستهم «المصرية». ويعلمون هم - لا غيرهم - الحكايات القديمة والجديدة لبعثات «التبشير» القادمة عبر الأطلنطي. ويعرفُ أقباطُ مصر - أكثر من غيرهم - من يدفع الأموالَ لفقرائهم في الصعيد، ليغيروا ملتهم - لا دينهم - مبتعدين عن كنيستهم «الوطنية». ليصبحَ الولاء والانتماء في نهاية المطاف عابرًا للحدود - أو بالأحرى - للمحيط. والتفاصيلُ هنا كثيرةٌ ودالة. والمراقبُ عن كثب يرى الخطوات المتسارعة - رغم ما يبدو من براءتها - واضحة التأثير والنتائج.

تختفي كلُ التفاصيل المهمة، ومعها كلُ القضايا «المشتركة» للوجود والمصير.. والمستقبل المهدَّد - ليطفو على السطح، وتتصدرُ العناوين، وربما «جداول الأعمال» شؤونٌ، مكانها - بحكم التعريف - الضمائر والقلوب؛ أسلمةُ قبطية أو تنصير مسلمة، تذكيرًا وإلحاحًا على حقيقة أن هناك «دينان على أرض وطن واحد».

ولعلي مذكرٌ هنا بما قاله الأستاذ هيكل في هذا المكان قبل أربع سنوات كاملة - منبهًا إلى أن أهمية الوحدة الوطنية لمصر لا تدانيها إلا أهمية نهر النيل نبع الحياة والخصب في أرض الكنانة. مشيرًا إلى فترات من التاريخ تعرضت مصر فيها لمحاولات الاختراق. وكان الذي يحدث في تلك الفترات - والكلام للأستاذ - أن الاختلاف في الدين، وهو موجود في كل الأحوال، وغير مرئي مثل خطوط الطول والعرض على كوكب الأرض، يجري التركيز عليه. وهكذا «فإن الخط غير المرئي (في ظروف العافية) يتحول بإثارة الحساسيات حوله إلى علامة ظاهرة أشبه ما تكون بخيط أو شعرة. ثم يزداد الضغط على مواقع الحساسيات، وتتحول العلامة (خيطًا أو شعرة) إلى مساحة واضحة تباعد بين ناحيتين. وتبلغ الأحمال والأثقال مداها، ويتحول الفاصل إلى خط، ويتحول الخط إلى شرخ، ثم إلى فلق، ثم إلى ما يشبه الكسر! ثم يتنبه الكل إلى أن الفتنة استيقظت، ويكتشف الكل قبل أن يفوت الأوان - بشبه معجزة - أنهم تخطوا حدود الأمان».

وينبه الأستاذُ إلى «صناعة الفتن في الأزمنة الحديثة» مشيرًا إلى أن طول الجدل إلى حد الصخب وتبادل الاتهامات وتوزيع المسؤوليات في حوادث متصلة بالعقائد، قادرٌ وحده أن يحول «خطًا غير مرئي» إلى «أخدود عميق بلا قرار» وأن يحرك من المشاعر والغرائز ما يجعل الوهم نفسه يتجسد قضية حياة وموت.

- ٤ -

يحرص الجميع في هذا الوطن - ولا تشكيكَ مقبولاً - على «الوحدة الوطنية»؛ معنى ومغزى، لا مجرد لافتة على موائد إفطار بروتوكولية. ولا موضوع لندوات/ مكلمات يجترُ فيها المتحدثون حديثًا مكرورًا مملاً. ولا تسفر إلا عن صور ملونة لشيخ وقسيس يتصافحان على منصة.

يحرص الجميع في هذا الوطن - ولا تشكيكَ مقبولاً - على «وحدة هذا الوطن». ويعرف الجميع في هذا الوطن قيمة استقلاله ومعنى «سيادته». ورغم الإقرار بحسن النوايا، ربما لزم التذكير بالقول القديم الحكيم: «ما هكذا تُورَدُ الإبل».

أيمـــن الصيـــاد

وجهات نظر

الكتب

فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الثالث والسبعون . السنة السابعة . فبراير ٢٠٠٥ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 7 - Issue 73 - February 2005



«سبيل الباشا» .. / أجنيشكا دوبرولسكا - خالد فهمى



بوش والشرق الأوسط .. دراما الحرب والحرية / دنيس روس - أيمن الصياد

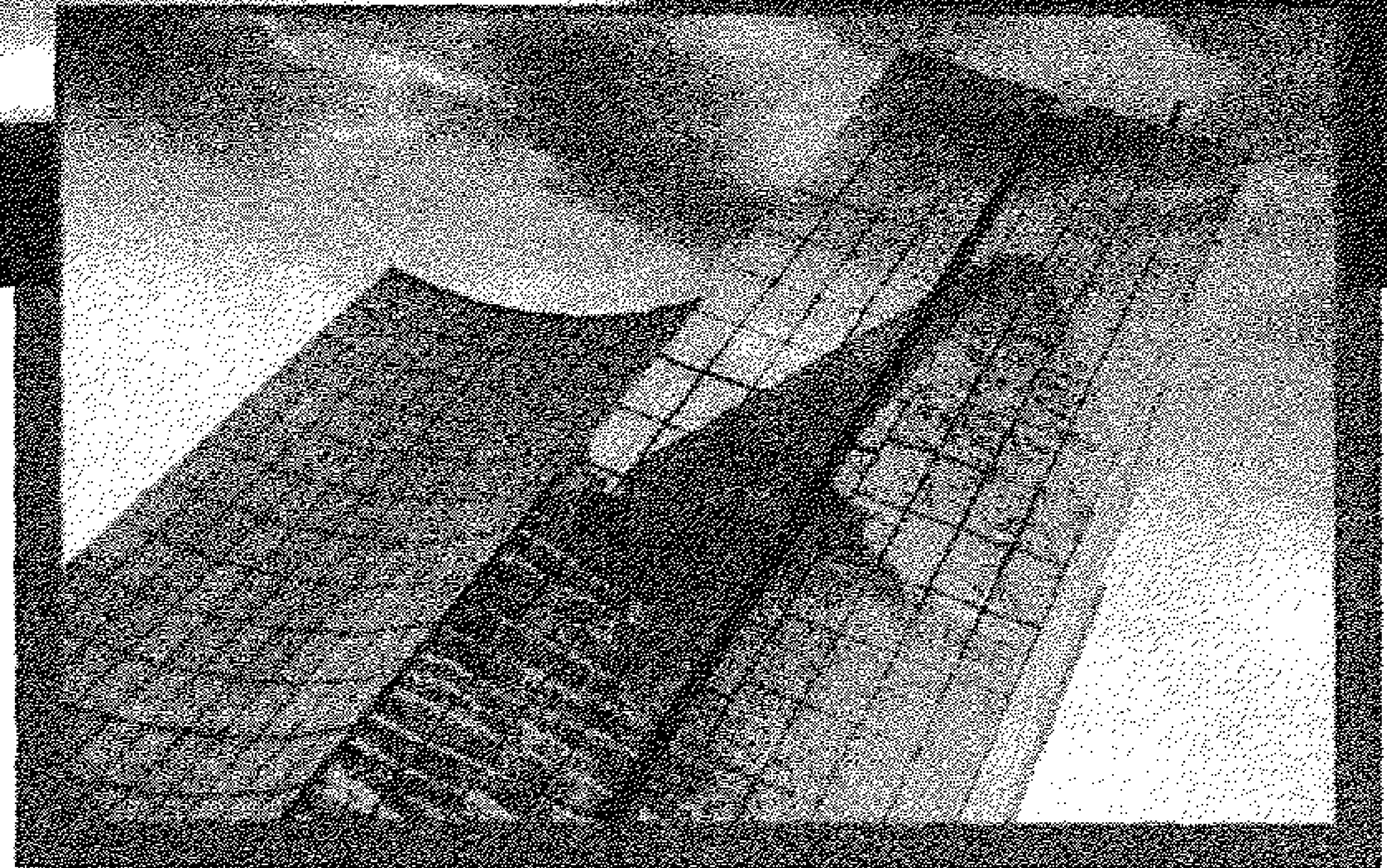
مخاوف القرن الجديد وآماله .. طلب وبيئة وتكنولوجيا / اينياسيو رامونيه - فتح الله الشيخ

المتاهة .. الشرق الأوسط والسلاح النووي / محمد عبد السلام

طه حسين .. وآراء أدبية غير مسئولة / رجاء النقاش

لأننا نعيش نفس الآمال ... لدينا نفس الرؤى
... نملك نفس الطموحات





فقد اخترنا أن نبقى دائماً على
إتصال
ما دامت هناك حياة ...

تعتبر اوراسكوم تيلكوم أكبر مشغل لشبكات المحمول فى الشرق الأوسط وإفريقيا والتى تعمل بنظام (جى. إس. إم.)، وبفضل خبراتها فى إدارة شبكات المحمول والمعلومات أصبحت تقدم خدماتها فى البلدان الآتية: مصر، الجزائر، تونس، باكستان، العراق وعدة بلاد إفريقية أهمها: كونغو برازافيل، الكونغو الديمقراطية وزيمبابوى.

والآن فى بنجلادش



The Communication Community of the Middle East

www.orascomtelecom.com

ADVISION

السنة السابعة
العدد الثالث والسبعون
فبراير ٢٠٠٥

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

الكتب وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أجنيشكا دوبرولسكا.. مهندسة أمريكية متخصصة فى الترميم المعمارى.
- أحمد أشقر.. باحث فى مقارنة الأديان.
- أمارتيا سين.. أستاذ بجامعة هارفارد وحاصل على نوبل فى الاقتصاد ١٩٩٨.
- أيمن الصياد.. صحفى.
- إينياسيو رامونيه.. رئيس تحرير لوموند دبلوماتيك.
- باتريك هانى.. باحث سويسرى.
- دنيس روس.. المبعوث الأمريكى السابق فى الشرق الأوسط.
- رجاء النقاش.. ناقد أدبى.
- حسام تمام.. باحث مصرى.
- خالد فهمى.. أستاذ مساعد تاريخ الشرق الأوسط الحديث فى قسم دراسات الشرق الأوسط والإسلام بجامعة نيويورك.
- فتح الله الشيخ.. أستاذ الكيمياء الفيزيائية بجامعة جنوب الوادى.
- ماجد شبر.. باحث عراقى.
- محمد عبد السلام.. خبير بالوحدة العسكرية - مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.
- نايل محمد شامة.. باحث فى العلاقات الدولية - جامعة سانت أندروز - بريطانيا.
- هشام شرابى.. مفكر فلسطينى.

رسوم العدد للفنان:
محمد حجى - سعد الدين شحاته





المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٩٣٠٤٩٠/ ٢٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

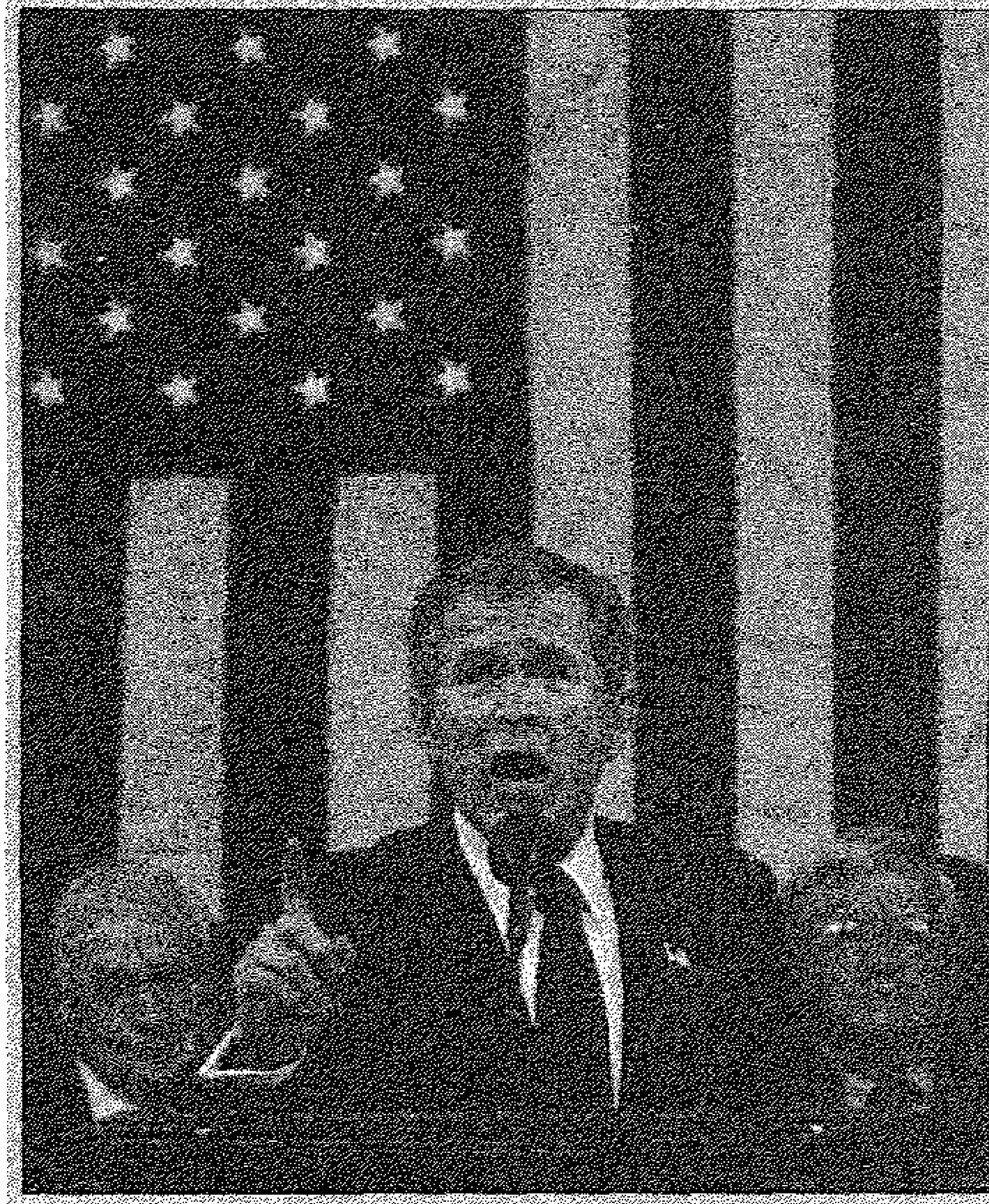
الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى . ص . ب: ٣٢ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . e-mail: weghat@alkotob.com

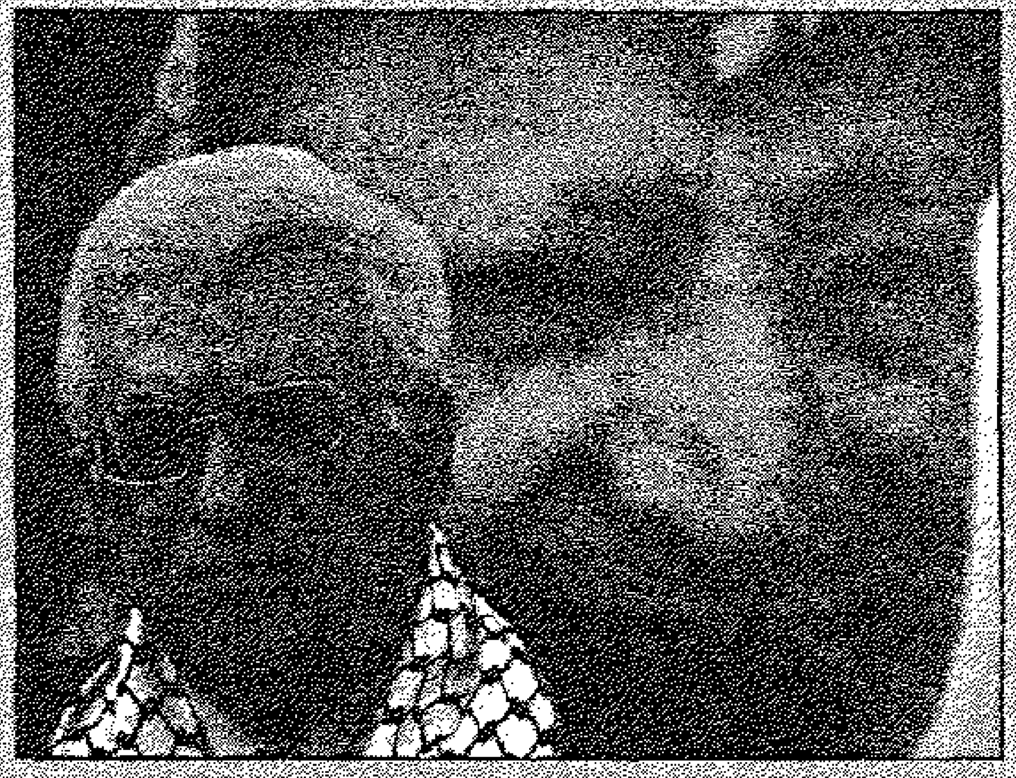
ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

واشنطن في الشرق الأوسط









دنيس روس

بترتيب مع:
«Foreign Affairs»
عدد يناير - فبراير ٢٠٠٥

ترجمة: جمال إسماعيل

كانت للولايات المتحدة مصالح «شائكة» في الشرق الأوسط منذ أصبحت قوة كونية. إلا أن تأمين تدفق نفط الإقليم إلى الاقتصاد العالمي احتل دائماً مركز أولويات مصالحها. وخلال الحرب الباردة جاء التنافس مع الاتحاد السوفيتي، حول الحلفاء في المنطقة، في مرتبة تالية. بينما ظل تقديم العون من أجل حماية إسرائيل والإبقاء على الصراع العربي - الإسرائيلي دون تصعيد إلى معركة فاصلة في مرتبة ثالثة. ورغم أن واشنطن تعاملت مع أزمة الرهائن في إيران، والعدوان العراقي، والصراع العربي - الإسرائيلي. إلا أن «أجندتها» السياسية الخارجية ظلت بشكل عام منشغلة بمناطق أخرى، مثل أوروبا وآسيا. الآن لم يعد ذلك صحيحاً، فلأول مرة في تاريخ الولايات المتحدة أصبح الشرق الأوسط هو مركز اهتمامها الأول.

وإذا ما ألقت الإدارة الجديدة للرئيس جورج دبليو بوش نظرة فاحصة على مصالح الولايات المتحدة والمخاطر التي تهددها سوف تجد أن همومها الرئيسية تبزغ من الشرق الأوسط بشكل أساسي. الحرب على الإرهاب ربما تكون عالمية لكن جذورها توجد هناك: في العراق حيث الفوضى التي لن تستطيع الولايات المتحدة الخروج منها بسهولة، وفي إيران حيث تصطدم الإدارة الأمريكية الجديدة باختبار شديد الصعوبة ليس من السهل تجنبه، وفي الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين حيث تشكل وفاة عرفات، وقرار إسرائيل الانسحاب من غزة، نقطة تحول تحمل إمكانيات جديدة للحل، وربما أيضاً احتمالية المزيد من الاضطرابات. وقد توجد مشاكل أخرى في مناطق أخرى، لكن لن يكون من بينها ما سيأخذ الكثير من وقت وموارد الرئيس بوش وقدرته على الاحتمال خلال السنوات الأربع المقبلة.

مع تواجد أكثر من ١٠٠ ألف من القوات الأمريكية على الأراضي العراقية، إضافة إلى انتخابات شهر يناير، تصبح الأولوية للعراق ويصبح السؤال الحرج الذي يحتاج إلى إجابة هو: هل يصبح العراق أكثر أم أقل أمناً؟ إذا نظرنا إلى هجمات «العصيان»، وتطورها واتساع نطاقها وتنامي عدد المشاركين فيها، وصعوبة التقدم في إعادة الإعمار، فقد يبدو من المعقول القول إن الموقف يزداد سوءاً. هزيمة العصاة في الفلوجة قد تبشر ببزوغ يوم جديد. لكن يبقى علينا الانتظار كي نرى ما إذا كانت هذه الهزيمة ستولد المزيد من المقاومة للولايات المتحدة والاستياء من رئيس الوزراء إياد علاوي أم أن قوات الأمن العراقية سيكون بمقدورها إبقاء الفلوجة، ومناطق أخرى في المثلث السني، بعيدة عن العصاة بعد مغادرة القوات الأمريكية. هناك العديد من الدراسات التي تقدم اختيارات متباينة للسياسة الأمريكية في العراق. والأمر الواضح، على أية حال، هو أن الولايات المتحدة لا تملك أن تفشل. الفشل في العراق سيكون نكسة مدمرة للحرب على الإرهاب إذ من شأنه إقناع المجاهدين بأنهم سوف ينتصرون دائماً في نهاية المطاف. هنا تحتاج الولايات المتحدة، وحلفاؤها، إلى إيجاد إدراك بحتمية هزيمة المجاهدين وليس انتصارهم. ويبقى أن تعريف واشنطن للنجاح يجب أن يصبح، وبقدر كبير، أكثر اعتدالاً.

وأفضل ما يمكن للولايات المتحدة أن تأمله ربما يكمن في قيام نظام حكم فيدرالي يتميز بالمرونة ويتمثل في حكومة مركزية لها سلطات محدودة تترأس أقاليم حكم ذاتي وتضم أغلبية حاكمة ترعى الأقليات. مثل هذه الحكومة إذا ما تعاملت بلطف مع شعبها

ولم تهدد جيرانها، فمن المؤكد أن النتائج تكون مقبولة.

تحسن الأوضاع في العراق لن يبعده عن صدارة نشرات الأخبار في المستقبل المنظور، لكن واشنطن لا تستطيع تجاهل قضايا أخرى حساسة مثل إيران، العلاقات الإسرائيلية - الفلسطينية، والإصلاحات السياسية في الإقليم، وهي قضايا من المحتمل أن تفرض تحديات ليست أقل أهمية من تلك القائمة في العراق.

إيران النووية

خطت إيران خطوات معتبرة على طريق أن تصبح قادرة على إنتاج أسلحة ذرية. ونظراً للتقدم الإيراني في مجال تكنولوجيا الطرد المركزي للغاز، فإن الإيرانيين ربما يحتاجون إلى عام واحد كي يتمكنوا من تخصيب اليورانيوم وتحويله إلى سلاح فتاك دون مساعدات خارجية.

إحراز طهران للتقدم في مجال الأسلحة النووية من شأنه إحداث تحول في الشرق الأوسط. وإذا أصبحت إيران نووية فمن المحتمل أن دولاً أخرى في المنطقة قد تفعل الشيء نفسه.

اللافت هنا أن العالم العربي الذي يفترض امتلاك إسرائيل لرؤوس نووية يدرك أن الإسرائيليين الذين يحيطون برنامجهم النووي بالغموض، لن يلجئوا إلى السلاح النووي إلا كخيار أخير. لكن إيران النووية قصة مختلفة: فالسعودية، التي ربما تكون استفادت من شبكة التهريب الباكستانية للمواد والخبرة النووية قد تقرر أنها في حاجة إلى قنبلة ذرية لردع إيران أو إحداث الثقل الموازي في مواجهتها. ومن المؤكد أن مصر غير الراغبة في التخلي عن مكانتها في العالم العربي، سوف تمارس الضغوط الملائمة للحصول على قدرات نووية. وسوريا التي يبدو أيضاً أنها استفادت من الشبكة الباكستانية لن تتخلف عن الركب. وكذلك الجزائر التي لديها بالفعل مفاعلها الخاص بالأبحاث سيكون لديها الحافز الجديد لكي تصبح نووية.

مشهد «الشرق الأوسط النووي» يثير القلق. ولا يمكن أن نطرح جانباً المخاطر التي قد تنجم عن حادث عارض أو حتى حرب لا مناص منها. وإسرائيل لن تقبل باجتياز إيران عتبة الأسلحة النووية. وقد سبق وأعلن شاؤل موفاز، وزير الدفاع الإسرائيلي، وفي أكثر من مناسبة، أن إسرائيل تعتبر إيران النووية أمراً غير مقبول. ومن المؤكد، في ضوء ما سبق، أن ارئيل شارون، رئيس الوزراء، سوف يسأل بوش، خلال زيارته المقررة في وقت لاحق من هذا العام، سؤالاً بسيطاً: هل ستتحرك واشنطن لفعل شيء في مواجهة إيران، أم أن على إسرائيل أن تقوم بذلك؟

هل تستطيع الولايات المتحدة قطع رأس القنبلة النووية الإيرانية؟ لن يكون

رغم أن واشنطن تعاملت مع أزمة الرهائن في إيران، والعدوان العراقي، والصراع العربي - الإسرائيلي. إلا أن «أجندتها» السياسية الخارجية ظلت بشكل عام منشغلة بمناطق أخرى، مثل أوروبا وآسيا. الآن لم يعد ذلك صحيحاً، فلأول مرة في تاريخ الولايات المتحدة أصبح الشرق الأوسط هو مركز اهتمامها الأول



الأمر سهلاً إذ أن الإيرانيين من مختلف التوجهات والألوان السياسية، يعتقدون أن امتلاكهم للأسلحة النووية ليس رمزاً للقوة القومية فحسب، بل ضرورة استراتيجية وسط محيط عدائي. تبدو إيران أيضاً وكأنها قد تعلمت الدرس من الهجوم الإسرائيلي على المفاعل النووي العراقي في عام ١٩٨١: اختارت إيران طرقاً متعددة لإنتاج المواد القابلة للانشطار مستخدمة لذلك مواقع لمصانع إضافية حولت طاقاتها وإمكانياتها لهذا الهدف بدلاً من تركيز محاولات تحقيقه في موقع واحد بارز. وبهذا يصبح البرنامج النووي الإيراني أقل عرضة للهجمات العسكرية ويتيح لها إعادة تشييد الخبرة والمعرفة النووية من جديد، وفي أعقاب أي هجوم محتمل.

هذه العقبات لا تعني أن لا شيء يمكن أن يحدث لمنع، أو تأخير، البرنامج النووي الإيراني. وقبل وضع البدائل العسكرية في الاختبار يجب على الولايات محاولة تغيير الحسابات الإيرانية إزاء التحول إلى دولة نووية. وترى إيران في الوقت الحالي أن تكلفة سعيها النووي هي تكلفة ضئيلة. وعلى مدار السنوات الماضية اقتربت إيران كثيراً من تطوير القدرة النووية دون عواقب واضحة، الأمر الذي جعل ثقتها تتزايد في أنها تستطيع مواصلة السعي مع تجنب كل خطر داهم أو جزاءات. وتدرك إيران أن الولايات المتحدة غارقة في العراق وأقل قدرة على الفعل العسكري ضدها.

بدت إيران غير عابئة بقرارات الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وعندما دعت الوكالة طهران إلى تعليق جهود الإثراء الشديد لليورانيوم والكشف عن أنشطتها النووية، أعلن الإيرانيون أنهم سيحولون ٤٠ طناً مترياً من اليورانيوم «الخام الضعيف Yellowcake» إلى يورانيوم «سداسي الذرات hexe Floride» لإنتاج مركب يثري وقود الأسلحة «غير النووية».

تعتقد الحكومة الإيرانية أيضاً أن لها فعالية بالنسبة للأوروبيين، وليس العكس. لقد هددت بريطانيا، فرنسا، وألمانيا بالعقوبات لكي تدفع بالإيرانيين إلى وقف الإثراء الشديد لليورانيوم. لكن أوروبا لم تفرض أياً من تلك العقوبات عندما نكثت إيران باتفاق تعليق برنامجها النووي في أكتوبر عام ٢٠٠٣. وبدلاً من ذلك تبدو الدول الأوروبية وإيران على مشارف اتفاقية ثانية، ولو حول المبادئ. وقد أبلغت إيران الوكالة الدولية للطاقة الذرية أنها ستعلق نشاطات التخصيب في انتظار مساعدات مادية وتقنية أوروبية. الدول الأوروبية وبالإضافة إلى امتناعها عن تقديم وعود بعلاقات اقتصادية جديدة مع إيران، ربما تكون استغلت إعادة انتخاب بوش من أجل التفاوض حول العقوبات الحقيقية المتوقعة، والتي ستكون شديدة إذا ما نكثت إيران باتفاقها للمرة الثانية. لكن، وطالما رأت أوروبا أن العقاب هو حجب الفوائد وليس دفع الثمن، فهل تعتقد إيران أن عليها حقاً الوفاء بالتزاماتها بدلاً من مواجهة العواقب؟ هل ستسمح إيران بعمليات تفتيش كافية ومفاجئة لكي تثبت أنها علقت كل جهود وعمليات تخصيب اليورانيوم؟ وهل تكون إيران مستعدة لوقف مساندتها لإرهاب حماس أو حزب الله كجزء من صفقة أوسع؟

من الواضح أن الإجابة هي لا. ولإظهار ما يمكن اعتباره أقل من نوايا طيبة، أكد حسن روحاني، رئيس المفاوضين الإيرانيين أن التعليق سيكون مؤقتاً ويستمر «خلال فترة المحادثات» مع الدول الأوروبية حول حزمة كاملة من المساعدات الاقتصادية والسياسية لصالح إيران. وفي الأيام التالية مباشرة لإعلان التعليق المؤقت، زعم المجلس الوطني للمقاومة، المجموعة الإيرانية المعارضة التي تتخذ من باريس مقراً، أن إيران تصنع الأسلحة سرية في موقع داخل حدود مدينة طهران. بعدها أعلن كولن باول، وزير الخارجية، أنه أطلع على أدلة تدعم هذه المزاعم وأن الإيرانيين يعملون على إنتاج نظام للأسلحة النووية.



بعد ١٨ عاماً من الخداع الإيراني للوكالة الدولية للطاقة الذرية، مع وجود إجماع واسع بين الإيرانيين بأن دولتهم يجب أن تحصل على القدرة النووية، من الصعب الاعتقاد أن إيران سوف تفي بما عليها من التزامات في الصفقة ما لم تقتنع بإمكانية فرض العقوبات أو ما هو أسوأ من ذلك.

ويدرك نظام الملالي الحاكم أنه غير محبوب داخلياً. واعتصار إيران اقتصادياً عن طريق العقوبات الفعالة ربما يحرك قلاقل اجتماعية. لقد قاد تردي الحالة الاقتصادية إلى اضطرابات خلال السنوات الماضية، ومن المحتمل أن تشعر القيادة الإيرانية بالقلق إزاء العواقب الناجمة عن عزلة دولية حقيقية.

العزلة، على أية حال، لا يمكن فرضها ببساطة ولابد من خلق الظروف المهيئة لها. كما يجب أن تستند المحاولة الأمريكية لمعالجة الموقف عبر الاشتباك العسكري إلى فهم واضح مؤداه أن هذا الاشتباك إذا فشل فإن العزلة ستكون العاقبة وهذا قد يتطلب من واشنطن أن تتحدث مباشرة مع طهران، سواء بالتنسيق مع الأوروبيين أو كجزء من الجهد الحالي للوصول إلى اتفاق نهائي. على الولايات



الفشل في العراق سيكون نكسة مدمرة للحرب على الإرهاب إذ من شأنه إقناع المجاهدين بأنهم سوف ينتصرون دائماً في نهاية المطاف



المتحدة أن تحدد العواقب بشكل مباشر وتؤكد أن إيران قد تواجهها إذا انتهكت شروط الاتفاقية. وعلى أوروبا محاكاة تحذيرات الولايات المتحدة. سيكون على الدول الأوروبية إعلان أنها تساند عقوبات فعالة لعزل إيران إذا ما نكثت بالتزاماتها أو امتنعت عن السماح بالتفتيش المفاجئ. وتحتاج واشنطن أيضًا إلى التهديد بتقديم ضمانات أمنية إلى جيران إيران إذا ما أصبحت نووية. هذه الضمانات يمكن أن تشمل تدبيرات وقائية ضد الأسلحة التقليدية والصواريخ المضادة للصواريخ، زيادة تواجد الأسطول الأمريكي في، وبالقرب من، الخليج الفارسي، وربما تشمل أيضًا تقديم ضمانات نووية لأي دولة تهددها إيران. في الوقت نفسه، سيكون من الضروري الإعلان بوضوح أن الولايات المتحدة لا تستبعد الخيار العسكري لتأخير البرنامج النووي الإيراني.

إدارة المحادثات بهذا الشكل ربما تقنع إيران أن الأسلحة النووية لا تساوي ما قد تدفعه من ثمن باهظ. والتهديد بفرض عقوبات اقتصادية ربما يكون من الصعب تنفيذه في وقت وصل فيه سعر برميل النفط إلى ٥٠ دولارًا. إيران تدرك هذه الحقيقة وبدأت بالفعل، أكثر من ذلك، في تحويل تعاملاتها التجارية تجاه الشرق. وخلال العام الماضي توصلت إلى اتفاقيتين بحوالي ١٠٠ بليون دولار لتصدير النفط والغاز إلى الصين. البعض يجادل بأن أفضل وسيلة للتعامل مع المشكلة الإيرانية هي بإحداث تغيير للنظام. ورغم أن تغيير النظام ربما يكون أمرًا مرغوبًا، لكن لا يوجد على أرض الواقع ما يشير إلى أن هذا المشروع المعقد يمكن أن يتحقق قبل إنتاج إيران للأسلحة النووية والذي قد يتم خلال عام أو عامين. يبقى أنه، وإذا لم تستطع الولايات المتحدة وقف إيران من التحول إلى نووية عبر الدبلوماسية والتأثير الاقتصادي، ربما يكون عليها أن تضع في اعتبارها العودة إلى خيار الضربات العسكرية المركزة. في هذه الحالة سوف تحتاج واشنطن إلى النظر بعناية إلى الخيارات الإيرانية وتقدير ما يمكن أن تحصده من جراء مهاجمة التسهيلات النووية الإيرانية.

وبينما يظل الخيار العسكري قائمًا فقد يكون على الولايات المتحدة استخدام عصى متباينة كي تمنع إيران من التصنيع الفعلي للأسلحة. فهل يمكن حتى لهذا الهدف المحدود أن يتحقق؟ ربما. هل يكون كافيًا؟ هذا غير واضح وإن كان لا بد من وضعه في الاعتبار.

نقطة تحول

تعد وفاة عرفات نهاية لحقبة وبداية لأخرى جديدة. فهل تغير الوفاة من الموقف شيئًا أم تبقى على الشكوك والاحتمالات معًا؟

كان عرفات، بالنسبة للإسرائيليين، إرهابيًا ليس مستعدًا لإنهاء الصراع والقبول جديًا بالتعايش مع الدولة اليهودية. وبالنسبة للفلسطينيين كان الأيقونة والأب ورمز القضية والمفوض الأصيل الذي نجح في انتزاع الاعتراف الدولي بأمانيهم الوطنية. ومن الحتمي أن تخلق وفاته الفراغ النفسي والعملي الذي يخشى الفلسطينيون أن يؤدي إلى صراع على السلطة. ومن المفارقات أن هذا الخوف ذاته من شأنه أن يولد الاستقرار، ولو على المدى المنظور. ومن المؤكد أن الفلسطينيين يرون أن الصراع على السلطة يؤدي إلى حرب أهلية هو آخر ما يريدون حيث لن يؤدي إلا إلى مزيد من الضعف بين صفوفهم. لهذا سارع رئيس الوزراء الفلسطيني، أحمد قريع، إلى لقاء كل الفصائل لضمان الاستقرار خلال الفترة الانتقالية. ورغم مطالبة حماس بأن تكون جزءًا من قيادة جماعية إلا أنها تعهدت أيضًا بالحفاظ على التفاهم بين الفلسطينيين. وأدت التفاهمات الداخلية إلى قرار سريع وضع محمود عباس على رأس السلطة الفلسطينية التي تحركت بسرعة لإصدار القانون الأساسي الذي ضمن إجراء الانتخابات التي كانت ضرورية ليس لإدارة أمور خلافة عرفات فحسب، بل السبيل الوحيد لإحلال قيادة جديدة محله تتمتع بالسلطة والشرعية التي كانت له.

يؤخذ في الاعتبار أيضًا أن الانتخابات قدمت المبرر القوي لاستئناف الحوار الإسرائيلي - الفلسطيني. كان على الإسرائيليين والفلسطينيين أن يتوصلوا إلى بعض تفاهمات أساسية لخلق مناخ ملائم للانتخابات التي احتاجها الجانب الفلسطيني للحفاظ على الاستقرار في مرحلة ما بعد الفترة الانتقالية، ورأى فيها الجانب الإسرائيلي مفتاح وجود قيادة فلسطينية مسئولة. كذلك فإن قدرة الجانبين على جعل الانتخابات ممكنة كانت محدودة بدون مساندة دولية. والذين يرون أن الولايات المتحدة لا تدفع ثمن جلوسها خارج الملعب في انتظار حدوث حالة إرهاق للجانبين تسمح للدبلوماسية أن تعمل، عليهم تحمل عواقب خطأين في التقديرات: الأول أن القدرة على تحاشي الإرهاب تتجاوز - بقوة - كل التقديرات. والثاني أن الآثار النفسية - ناهيك عن الخسائر المادية والبشرية - للحرب المستمرة تضعف مصداقية دعاة السلام على الجانبين إلى درجة تجعل من الصعب استئناف الجهود الدبلوماسية.



بعد وفاة عرفات، وفي حضور توني بلير رئيس الوزراء البريطاني، قال بوش إنه سيعمل خلال فترة رئاسته الثانية على جعل الدولة الفلسطينية حقيقة. ولتحقيق ذلك يجب على الولايات المتحدة أن تعيد صياغة موقفها كجسر بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وبؤرة ارتكاز في حوار ثلاثي الأضلاع بطرح القضايا الصعبة حول ما يجب أن يفعله، وما يريده، كل جانب. مثل هذه المناقشات الثلاثية يمكن أن يؤدي إلى تحسين الشروط على أرض الواقع من أجل التنسيق بشأن الخطط الإسرائيلية الخاصة بالانسحاب من غزة وفك الارتباط مع الجزء الشمالي من الضفة الغربية.

لقد سبق وأعلن محمود عباس، في صيف عام ٢٠٠٣، وخلال الأشهر الثلاثة التي تولى فيها رئاسة الحكومة الفلسطينية، أن شارون لو كان انسحب من غزة وأطلق سراح السجناء، لكان بإمكانه (عباس) التغلب على مقاومة عرفات لمسئولياته كرئيس للوزراء والأمر الجوهري أن محمود عباس أثبت للفلسطينيين أن العنف لم يفلح وأن إبراء المسئولية والتمسك بالاعتدال يقود إلى تحقيق الأهداف الفلسطينية. وبالطبع فإن أيًا من هذه الأهداف لم يتحقق وأصاب موقف عرفات، محمود عباس بالشلل وقاد إلى استقالته. الآن تشكل وفاة عرفات نقطة تحول ممكنة لكل من الجانبين إذا ما توصلا، ومعهما الولايات المتحدة، إلى تفاهمات تحدث تغييرًا في العلاقات اليومية بين الشعبين. التصريحات والنوايا الطيبة وحدها يهزمها العنف على الأرض. وعلى إسرائيل مساعدة القيادة الفلسطينية الجديدة، بعد الانتخابات، على إظهار قدرتها على إحداث تغير حقيقي وتحسين أوضاع حياة الفلسطينيين. الانتخابات وغياب عقبة عرفات ستسهل للفلسطينيين الوفاء بالتزاماتهم، وخاصة الأمنية، بعد أن أثبتوا للعالم أن بإمكانهم إدارة انتخابات بأسلوب عادل وسلمي. واشنطن، والآخرون، عليهم التركيز على إمداد فوري للسلطة الفلسطينية بمساعدة مالية معتبرة تسهل مهمة إعادة تنظيم وتدريب المؤسسات المنوطة بالأمن، وتمكن السلطة من إمداد الشعب الفلسطيني بمظلة أمان اجتماعي.

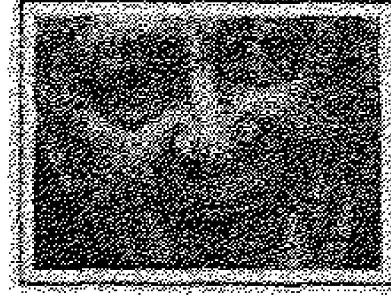
لقد أدى ارتفاع أسعار النفط خلال هذا العام إلى وجود عائدات مفاجئة تقدر لدى السعودية وحدها بـ ٣٥ بليون دولار. ولا يوجد ما يحول دون تقديم دول الخليج بليون دولار لتمويل خطط التنمية الفلسطينية. على واشنطن وحلفائها العرب أن يأخذوا على عاتقهم بعض المسئوليات إذا كانوا يرغبون حقًا في نزع فتيل الصراع ومساعدة كل الفلسطينيين الذين عانوا طويلاً.

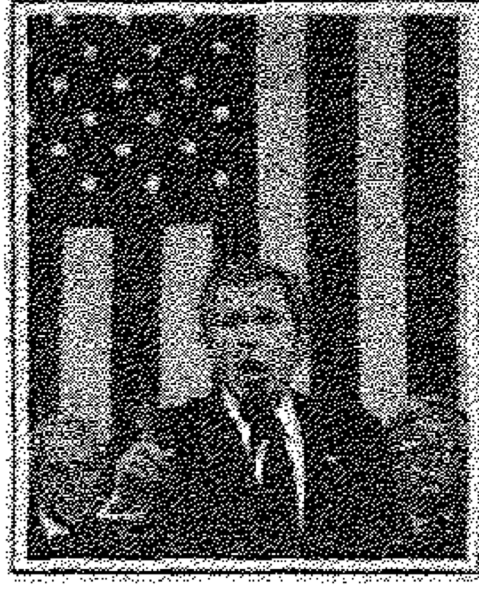
البعض قد يقترح أن الولايات المتحدة يجب أن تكون أكثر طموحًا وتقدم خططًا لحل سريع لقضايا الحل النهائي. وبوضوح، يجب على الولايات المتحدة استغلال اللحظة المواتية خاصة أن الفشل في استغلالها سيكون باهظ التكلفة. الوقت الآن وقت الواقعية لا

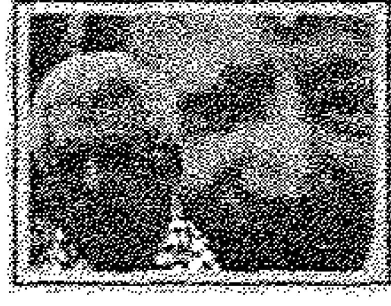


مشهد «الشرق الأوسط النووي» يثير القلق. ولا يمكن أن نطرح جانبًا المخاطر التي قد تنجم عن حادث عارض أو حتى حرب لا مناص منهـا. وإسرائيل لن تقبل باجتياز إيران عتبة الأسلحة النووية









الأوهام والخيال. ولا توجد قيادة فلسطينية، منتخبة من الشعب الفلسطيني أو غير منتخبة، يمكنها تقديم تنازلات بشأن القضايا المصيرية مثل القدس والحدود واللاجئين. الاتفاق بهذا الشأن مستحيل دون تنازلات من الجانبين. ويجب على قيادات السلطة تأسيس سلطتهم أولاً بالبرهنة على فعاليتهم. إنهم يحتاجون إلى طمأنة شعبهم أن حكومته قادرة على إنهاء الفساد وتأسيس حكم القانون وتحقيق حرية الحركة والتحرر من التدخلات العسكرية الإسرائيلية والتنسيق خلال فك إسرائيل لارتباطها بغزة. ورغم أن شارون كان مصراً على عدم التنسيق عندما ظن في عدم وجود شريك للتحدث إليه، الآن يبدو أن موقفه قد تغير. وقد أعلن أن إسرائيل ستبحث تنسيق الأمن والانسحاب مع قيادة فلسطينية «على استعداد لمحاربة الإرهاب». هنا، ومرة أخرى، فإن خلق بيئة صالحة للانتخابات يجب أن يمتد الآن إلى قضايا أخرى باعتبار أن التنسيق يضمن منفعة الطرفين. وبدلاً من اكتفاء إسرائيل بترك الأرض والمستوطنات في غزة فإن تسليمها إلى السلطة الفلسطينية سيسمح لها بالحصول على مصداقية شعبية. إسرائيل سوف تطالب ـ بالتأكيد ـ السلطة الفلسطينية بضمانات وخطط تفصيلية لتطبيق هذه الضمانات لكي يتم تنفيذ هذا التسليم. لقد أرادت حماس أن تخلق الانطباع بأن أساليب العنف وراء قرار إسرائيل بالخروج من «تحرير» غزة، لكن السلطة الفلسطينية يجب عليها توضيح أن هجمات حماس ضد الإسرائيليين ستتوقف وأن عنف حماس سيقابل برد فعل مدمر من جانب شارون.

المساعدات الدولية للمناطق التي تنسحب منها إسرائيل يمكن أن تساعد في ضمان الأمن. ومشروعات إعادة الإعمار التي تفيد الشعب الفلسطيني يمكن أن تلتزم بسلسلة الانسحابات الإسرائيلية وبالتزامات السلطة الفلسطينية لحفظ الهدوء. على سبيل المثال: إسرائيل سوف تفكك المستوطنات. هذا لن يساعد فقط في تخفيف الضغط على الفلسطينيين الذين هدمت مساكنهم. لكنه سيخلق أسباباً إضافية تقنع حماس بتجنب إفساد الانسحاب الإسرائيلي وتمكن السلطة من التعامل مع أي مجموعات مسلحة تعتزم القيام بعمليات أثناء الانسحاب.

يمكن أيضاً للمساعدات الدولية التي ترتبط بانسحابات منضبطة، أن تكون مرهونة بمدى المحافظة على الأمن والهدوء وعدم القيام بعمليات عسكرية ومباشرة السلطة للمسئوليات الأمنية في المناطق التي تخليها إسرائيل.

لا يوجد بين هذه الإجراءات ما يمكن أن يضمن النجاح أو حتى الأمن. لكن الولايات المتحدة تواجه لحظة أو فرصة مواتية جداً. والخلاصة التي لا مفر منها، المستخلصة من الماضي في الشرق الأوسط، أن هذه اللحظة إذا ضاعت فإن العالم يصبح دائماً أكثر سوءاً.

أمل الديمقراطية

يحتاج الرئيس بوش، وهو يأخذ في اعتباره المشهد العام في الشرق الأوسط، وما به من تحديات، مع بداية فترة رئاسته الثانية، يحتاج إلى أن يضع نصب عينيه ثلاثة جزئيات ترسم حكمة غالية: الأولى أن العنف يملأ عادة كل فراغ يحدث. الثانية أن كل بداية دبلوماسية سرعان ما تفضي إلى طريق مسدود. والثالثة أن الحرب على الإرهاب هي، في الواقع، حرب ضد إسلام متطرف. وفي تعاملها ـ بعيد المدى ـ مع مشكلة التطرف الإسلامي أو الحرب على الإرهاب، تحتاج الولايات المتحدة إلى الاعتراف بأن لها حلفاء في العالم الإسلامي. وعلى الدرجة نفسها من ضرورة الإبقاء على الوسائل العسكرية لهزيمة أعداء لا يفهمون إلا لغة العنف، تعتمد استراتيجية الولايات المتحدة أيضاً على وصول دعاة الإصلاح إلى السلطة في الشرق الأوسط. وفي النهاية فإن أنصار الإسلام المعتدل هم فقط القادرون على أفكار دعاة التطرف لمصداقيتهم.

إن التزام الرئيس بوش بـ «ديمقراطية» في الشرق الأوسط يمكن أن يساعد دعاة الإصلاح. وقد ساعد بالفعل إلى حد ما. كما أن التقدميين الذين يعارضون سياسات بوش في العراق وإسرائيل ومع الفلسطينيين، يتجهون إلى الاعتراف بأن دعوة بوش من أجل التغيير أعطتهم مساحة أكبر للعمل والحركة داخل مجتمعاتهم التي لطالما ظلت مغلقة. ومن المؤكد أن مجموعة الثمانية للدول الصناعية المتقدمة، إضافة إلى روسيا، ما كانت لتعلن عن مبادرة «منتدى المستقبل» مع دول الشرق الأوسط ما لم يضغط بوش باتجاه الحاجة إلى ترويج الديمقراطية لمواجهة الغضب الشعبي الذي يستثمره دعاة التطرف. لكن «المنتدى من أجل المستقبل» يعد اقتراباً أقل طموحاً بكثير من التصور الأصلي لدى بوش. إنه يخلق حواراً بين مجموعة الثمانية والشرق الأوسط حول كيفية بناء قطاع خاص والتحول التدريجي للتعليم في الإقليم.

المناقشات الخاصة، غير الرسمية، حول كيفية بناء مجتمعات مدنية سوف تجري أيضاً بشكل موازٍ في المنتدى. لكن، وإلى الآن، فإن المغرب والأردن كانتا أكثر حماسة، إزاء المشاركة، من مصر والسعودية بما لهما من تأثير إقليمي أكبر. بالإضافة إلى ذلك تريد مجموعة الثمانية أن لا تبدو وكأنها تمارس الضغوط أو تفرض أولويات على دول الشرق الأوسط وخاصة تلك التي خففت من ضغوطها المناهضة للتغيير وتوسيع مجال المشاركة السياسية في أنظمة عادة ما قاومت الاحتواء. ويفرض عدم وجود اندفاعة نحو الديمقراطية فإن الإصلاح اليوم يعد مطلباً إقليمياً. وقد أصبح دعاة الإصلاح أكثر إصراراً نتيجة لشعور معظم الأنظمة بضرورة الاستجابة ولو بقدر قليل، وذلك في مواجهة التهديد القادم من المتطرفين. وهو تهديد أكثر إلحاحاً.

وتحتاج إدارة بوش إلى الإنصات للإسلاميين المعتدلين والالتزام بمساندتهم وإدراك أن الوقت قد حان لخلق آليات أكثر انتظاماً لهذه المساندة والتعرف منهم على أفضل الطرق للمساعدة.

الإصلاح الناجح هو في صالح الشرق الأوسط والولايات المتحدة. وكلما حسنت الولايات المتحدة من أدائها في العراق، كلما ازداد دعاة الإصلاح قدرة على الحركة. وكلما قدمت الولايات المتحدة المزيد لنزع فتيل الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، أو للنجاح في احتواء الأزمة مع إيران، كلما تحسنت البيئة الملائمة لإحراز تقدم ذي معنى. وإذا كان رحيل عرفات يخلق فاتحة بين الإسرائيليين والفلسطينيين، فعلى الولايات المتحدة النفاذ منها، وإذا كشفت فاتحة من نوع آخر عن نفسها في إيران، ويكون من شأنها التأثير على رغبتها النووية، فعلى الولايات المتحدة أن تتصرف بشكل عاجل إدراكاً منها أن الوقت قصير والبديل ليس جذاباً.



إذا فشلت الولايات المتحدة في تحقيق تقدم في هذه المناطق فإن هدف الإصلاح الإقليمي سيصاب بنكسة لا محالة. لكن دعاة الإصلاح من الإسلاميين مصرون على المثابرة وبدءوا في التعبير بوضوح عن أنفسهم. وبغض النظر عن أي شيء فإن البيت الأبيض في حاجة إلى مساعدتهم.

وفي النهاية فإن نجاح فترة الرئاسة الثانية لبوش ربما يكون معلقاً بمدى حسن إدارته في التعامل مع التحديات المفروضة في الشرق الأوسط. الإقليم، ومعه العالم، في مفترق طرق. فهل تستقر الأوضاع في العراق أم تستمر الفوضى التي تهدد شعبه وجيرانه؟ هل تتنازل إيران عن طموحاتها النووية أم أنها تأخذ الشرق الأوسط إلى طريق توالد نووي غير مقيد؟ هل تتعايش دولة فلسطينية جديدة مع إسرائيل ـ كما قال بوش ـ أم أن الفرصة المواتية لتهيئة قيادة فلسطينية مسئولة ستضيع وتضيع معها إمكانية السلام؟ هل يزيد المعتدلون الإسلاميون من تحديهم للأوضاع الحالية في مجتمعاتهم، أم أن الإسلاميين المتطرفين يصبحون أكثر سيطرة؟

أسئلة كثيرة لم يحدث من قبل أن كان للإجابات عنها تأثير واضح على حياة الأمريكيين. ■

الإصلاح الناجح هو في صالح الشرق الأوسط والولايات المتحدة. وكلما حسنت الولايات المتحدة من أدائها في العراق، كلما ازداد دعاة الإصلاح قدرة على الحركة

لم تقبل مصر على الإطلاق، ولم يبدُ أبدا أنها يمكن أن تقبل بالوضع القائم، الخاص باستمرار إسرائيل فى امتلاك الأسلحة النووية، فلم تصدر القاهرة أية إشارة بأنها من الممكن أن تتعايش مع حالة الاحتكار النووى الإسرائيلى فى الشرق الأوسط



المتاهة

الشرق الأوسط والسلاح النووى



محمد عبد السلام

واجهت مصر منذ بداية الستينيات فى القرن الماضى ثلاثة خيارات رئيسية للتعامل مع المشكلة النووية التى كانت تتشكل مع الوقت فى المنطقة، وهى التوازن أو التعايش أو الإزالة، فقد كان التصريح الأول للرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٦٠ عندما كشف رئيس الوزراء الإسرائيلى ديفيد بن جوريون عن وجود مفاعل دايمونا، هو أنه « إذا كانت إسرائيل تستطيع أن تصنع قنبلة ذرية، فنحن أيضا نستطيع أن نصنعها»، ثم أضاف « سنحصل على الأسلحة الذرية بأى ثمن كان، لأن الموضوع موضوع مصير، ولن نقبل أن نصبح شعبا من اللاجئين»، وهو تقريبا نفس رد فعل الاتحاد السوفيتى (السابق) أو الأرجنتين أو باكستان، فى مواجهة أطراف مناوئة امتلكت هذا السلاح، أو القدرة على إنتاجه، وفقا لآليات التوازن التى تقرر أن الأسلوب المؤكد لتحييد تأثيرات سلاح يمتلكه الخصم هو امتلاك سلاح مضاد من نفس النوعية.

ويتطلب الأمر جهدا استثنائيا لتتبع ما جرى فى إطار ذلك الخيار، على مستوى التفكير الاستراتيجى (أو السياسى فى واقع الأمر)، و الواقع العملى، لكن الثابت هو أن التفاعلات ذات العلاقة بهذا الاتجاه قد انحسرت رسميا مع الوقت بالقصور الذاتى. وفى وقت ما اتخذت مصر قرارا بوقف التفكير فى «الخيار العسكرى النووى»، مع الاعتماد على مستويات من التوازن، عرفت باسم «روادع الحد الأدنى». واستقر أن مصر تمثل أحد التطبيقات البارزة لنموذج سائد دوليا يرتبط بعدد كبير من الدول الرئيسية التى اتخذت قرارا بعدم امتلاك أسلحة نووية، رغم امتلاكها ـ من الناحية الفنية ـ مستويات من القدرات التى تتيح لها ذلك نسبياً، مثل اليابان وألمانيا والبرازيل والأرجنتين وكوريا الجنوبية وتايوان وإندونيسيا... الخ.

وعلى الرغم من أن بعض أطراف تلك المجموعة تثير فى السنوات الأخيرة بعض «القلق» داخل الولايات المتحدة، بفعل ما أدت إليه تحولات طارئة أو مستجدة فى البيئة الدولية المحيطة بها من طرح لاحتمالات نكوص بعضها عن قراراته القديمة، فى ظل ما يبدو أنه ضغوط أو اعتبارات قد تدفعها لبدء «جولة جديدة» فى اتجاه الانتشار النووى، خاصة بالنسبة لليابان والبرازيل. وعلى الرغم من كثافة الحملة التى استهدفت مصر بالحديث عن أن الوكالة الدولية للطاقة الذرية، لم تحقق فى معلومات أفادت بوجود نشاطات نووية، أو أن مصر قد تعاملت أيضا ـ مثل ليبيا وايران ـ مع شبكة د. عبد القدير خان التى أدارت نشاطات واسعة فى السوق النووية السوداء، أو أن مصدرا نوويا غير محدد مشعا قد وجد خارج المرافق النووية، أو القول أخيرا بأن مصر قد أجرت تجارب معملية تتعلق بإنتاج بعض نظائر اليورانيوم، فإن كل ذلك لم يؤد إلى أى تحول فى التقديرات السائدة بشأن نوايا مصر النووية.

لكن بالتوازى مع ذلك، لم تقبل مصر على الإطلاق، ولم يبدُ أبدا أنها يمكن أن تقبل بالوضع القائم، الخاص باستمرار إسرائيل فى امتلاك الأسلحة النووية، فلم تصدر القاهرة أية إشارة بأنها من الممكن أن تتعايش مع حالة الاحتكار النووى الإسرائيلى فى الشرق الأوسط، وبدا عام ١٩٩٥ على سبيل المثال ـ خلال حملة تمديد أمد معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية إلى ما لانهاية ـ أنها يمكن أن تصطدم بالولايات المتحدة. وتبنت مصر فى هذا الاتجاه خيار إقامة منطقة خالية من الأسلحة النووية (أو أسلحة التدمير الشامل) فى الإقليم، الذى يعنى عمليا ضرورة إزالة ما لدى إسرائيل من أسلحة نووية، وقد اتبعت فى إدارة ذلك الخيار أساليب مثيرة، فبقدر ما كان يمثل مشروعا لإخلاء المنطقة من تلك الأسلحة، كان يمثل موقفا سياسيا تجاه إمكانية التفكير فى التعايش مع وجودها، حتى لو كانت إسرائيل لا تقوم علنا بالتهديد باستخدام تلك الأسلحة فعليا، إذ أن مجرد وجود الأسلحة النووية ينتج تأثيرات سياسية، ترتبط بالمكانة الإقليمية والتأثيرات النفسية والضغط العام، بصرف النظر عن استراتيجية استخدامها عسكريا.

لكن ظل هناك سؤال دائم يرتبط بخيار مصر الثالث عبر ٣٠ سنة تقريبا تفصل بين بداية طرح مشروع الإخلاء فى الأمم المتحدة عن عام ٢٠٠٥ هو : هل يمكن بالفعل إقامة منطقة خالية من الأسلحة النووية (Nuclear- Weapon Free Zones NWFZ) فى الشرق الأوسط؟

وفى الواقع، تبدو أية محاولة للإجابة



التسلح ونزع السلاح والأمن الدولى
(الكتاب السنوى ٢٠٠٤)
مركز دراسات الوحدة العربية
معهد ستوكهولم لأبحاث السلام الدولى
المعهد السويدى بالإسكندرية
بيروت: ١٢٠٠ صفحة، ٢٠٠٤

تشير حالة الشرق الأوسط بوضوح إلى أن إقامة منطقة خالية من الأسلحة النووية فى ذلك الإقليم، لم تكن فكرة قابلة للتطبيق خلال الفترة الماضية، ولا تزال كذلك فى المرحلة الحالية، بفعل عدم توافر معظم شروط إقامتها بمدى واسع



عن هذا السؤال، وكأنها محاولة للسير فى «متاهة»، بعكس ما حدث فى أربعة أقاليم أخرى أقيمت بها فعليا مثل تلك المناطق، فحالة الشرق الأوسط تثير تعقيدات ذات بدايات واضحة، لكنها بلا نهايات محددة، إذ أنه بمجرد عبور المدخل تبدأ المشكلات، فهناك دروب ممتدة على مدى البصر بدون أية لوحات توضح المسافة التى قطعت أو المسافة التى تبقت، وهناك طرق دائرية تلتف حول المشكلة لتعود مرة أخرى إلى البداية، إلا أن هناك ما هو أسوأ، مسالك مسدودة تؤدى رؤية قواطعها إلى حالات من الشلل المؤقت.

لكن الحركة عبر كل ذلك تظل منطقية تماما، ومحددة أيضا، مع شعور دائم بأن ثمة «مخرج» للمتاهة يوجد فى مكان ما، فكل ما يوجد حقيقى وليس سرابا، لكنه يتسم بملامح معقدة، وبالتالى فإن كل ما يمكن القيام به لتحليل احتمالات قيام تلك المنطقة هو رسم «خريطة طريق» تعتمد على ما هو معروف نظريا فى الدراسات الأكاديمية وما اختبر عمليا على الأرض فى أقاليم أخرى، وما حدث فعليا فى عالم الشرق الأوسط خلال الفترة الماضية، فربما يوضح ذلك لافتات الطرق التى تشير إلى مسارات معينة، أو يحدد المسافات التى يجب قطعها للوصول إلى باب الخروج فى النهاية.



وبداية، فإن هناك مجموعة من المشكلات التى تواجه هذا الخيار، إذ أن تاريخ إقامة مثل تلك المناطق يمثل فى حد ذاته مشكلة، فمنذ ظهور فكرة «NWFZs» فى الأمم المتحدة عام ١٩٥٦، توالت المشروعات الخاصة بإقامتها، ليصل عددها إلى ما يزيد على ٢٥ مشروعا تشمل كافة أقاليم العالم تقريبا. لكن بينما تم التقدم عمليا فى اتجاه إنشاء NWFZs «ترتبط بمناطق قارية يابسة آهلة بالسكان» فى أربع حالات هى: أمريكا اللاتينية والبحر الكاريبى (تلاتيلولكو - ١٩٦٧)، ومنطقة جنوب المحيط الهادى (راراتونجا - ١٩٨٥) ومنطقة جنوب شرق آسيا (بانكوك - ١٩٩٥)، وقارة أفريقيا (بليندابا - ١٩٩٦)، واجهت عملية إنشاء NWFZs فى أقاليم العالم الأخرى كشمال أوروبا، والشرق الأوسط، وجنوب آسيا، وشبه الجزيرة الكورية، مشكلات مختلفة، رغم أن أهمية الأطر الإقليمية للتعامل مع مشكلات التسلح النووى كانت تتصاعد مع الوقت فى ظل العقبات التى كانت تواجه الأطر الدولية الخاصة بالتعامل مع تلك المشكلات.

ويندرج مشروع إقامة NWFZ فى إقليم الشرق الأوسط تقليديا ضمن المشروعات الأكثر أهمية وتعقيداً بين كافة المشروعات التى تبلورت عبر مسيرة تطور فكرة إقامة NWFZ، وإن كان يقرن دائماً بمشروع إقامة NWFZ فى جنوب آسيا الذى لم يطبق، ولم تعد هناك إمكانية كبيرة لتطبيقه فعليا بعد عام ١٩٩٨. فقد دأبت معظم التحليلات على التأكيد على أنه بقدر أهمية إقامة NWFZ فى الشرق الأوسط، بقدر صعوبة تحقق هذا الهدف، وعلى حد تعبير بعض المحللين «لا يوجد إقليم، خارج أقاليم الحلفين الكبيرين توجد حاجة لإقامة NWFZ فيه أكثر من الشرق الأوسط، ولا يوجد إقليم توجد به مصالح متعارضة يصعب حلها مثل الشرق الأوسط». وعادة، ما يتم إرجاع أهمية وصعوبة إقامة NWFZ فى الشرق الأوسط إلى مجموعة من العوامل المتداخلة التى تشكل ملامح البيئة الاستراتيجية فى الإقليم، وتجعل منه إقليما فريداً بين أقاليم العالم، فهناك مزاعم تاريخية ذات مضمون صراعى، وشكوك متبادلة، وصراعات مسلحة، وإنكار لحقوق أساسية، وتداخلات سكانية واسعة، وأهمية اقتصادية للتجارة الدولية، وترسانات ضخمة من الأسلحة المعقدة، إضافة إلى العامل الأكثر أهمية، وهو وجود أسلحة نووية فعليا على ساحة الإقليم، بموازاة محاولات مستمرة متتالية من جانب دول أخرى لامتلاك تلك الأسلحة.

إن مجمل هذه الأوضاع يشير إلى أن الشرق الأوسط إقليم ذو سمات خاصة، تختلف نسبياً عن الأقاليم التى شهدت إقامة NWFZs فيها، على نحو دفع بعض المحللين المتطرفين فى انتقاداتهم لتطبيقات مفهوم NWFZs عملياً، إلى القول بأن كل ما أنشئ من قبل من NWFZs لا يمثل أهمية سوى على المستوى الرمزى، ولا يكتسب من خلالها مفهوم NWFZ معناه الحقيقى، مع الإشارة إلى أن ذلك يمكن أن يتحقق فقط إذا تمت إقامتها فى أقاليم مثل الشرق الأوسط «تطرح مشكلات وتحديات عديدة من الصعب للغاية أن يتم التغلب عليها». ورغم أن التيار السائد فى تحليلات NWFZs لا يوافق على مثل هذه التقييمات التى تتضمن أحياناً أخطاء حقيقية فى إدراك عناصر المفهوم وأبعاد تطبيقاته، إلا أن معظم التحليلات يؤكد فى تناوله لآفاق أو مستقبل NWFZs، على أن حالة إقامة NWFZ فى الشرق الأوسط تمثل تحديا حقيقيا بحكم تعقيدات الأوضاع العامة فى الإقليم، سواء فيما يتصل باحتمالات إنشائها من ناحية، أو طبيعة الإطار الذى يمكن أن تقام تبعاً له من ناحية أخرى.

وفى الواقع، فإن الأبعاد الخاصة لحالة الشرق الأوسط قد أدت إلى طرح القضية الجوهرية المتصلة بمسألة NWFZ مباشرة فيما يتعلق بتلك الحالة، بأكثر مما طرح بشأن معظم المشروعات الأخرى - التى لم تطبق - لإقامة NWFZs بما فى ذلك حالة جنوب أسيا، وهى قضية إمكانية نشأة NWFZ فى الإقليم من عدمها، فى ظل وجود تيارين تقليديين بهذا الشأن:



الأول: تيار يشير إلى أن إقامة NWFZ فى الشرق الأوسط غير ممكنة، وأن المنطقة قد تتجه نحو وضع انتشار نووى متعدد، أو يتم التعامل مع مشكلتها النووية من خلال تدابير أخرى لضبط التسلح النووى، أو قد يبقى الحال على ما هو عليه، وهو تيار يمكن ملاحظته فى كثير من الكتابات، ومن خلال تقييمات سائدة لدى قطاع واسع فى «الجماعة الاستراتيجية» الإقليمية. ويستند هذا التوجه على تعقيدات الأوضاع الاستراتيجية العامة فى الشرق الأوسط، وصعوبة التعامل معها على نحو يتيح إقامة مثل هذه المنطقة خلال مدى زمنى يمكن تقديره، إضافة إلى أن الأسلحة النووية قد دخلت إلى ساحة الشرق الأوسط بالفعل، فى ظل شك عميق لدى كثير من المحللين بأن إسرائيل يمكن أن تقبل بإزالتها تحت أية ظروف متصورة، على الرغم من تأييدها لفكرة إقامة NWFZ فى الشرق الأوسط.

لقد تبلور مشروع إقامة NWFZ فى الشرق الأوسط عام ١٩٧٤ داخل الجمعية العامة للأمم المتحدة، وقد مر حوالى ٣٠ عاماً (١٩٧٤ - ٢٠٠٤) على بداية المشروع دون أن تتجاوز عملية إقامة NWFZ بالإقليم، «مرحلة ما قبل المفاوضات»، رغم موافقة إسرائيل على المقترح الخاص بذلك منذ عام ١٩٨٠، ورغم انتقال المقترح عملياً من الإطار الدولى إلى الإطار الإقليمى منذ عام ١٩٩١. ولا يمكن مقارنة الفترة الزمنية لهذه المرحلة (ما قبل المفاوضات) بفترة «العامين» التى استغرقتها مثيلتها فى حالة أمريكا اللاتينية - الكاريبى، كما أنها أطول بكثير مما استغرقته نفس المرحلة فى حالة جنوب الهادى (٨ سنوات)، كما أنها تجاوزت فى طولها ما استغرقته كذلك مرحلة ما قبل المفاوضات فى حالة جنوب شرق أسيا (٢١سنة). والأهم أنه لا يبدو أن تلك العملية قد تتحول فى اتجاه مرحلة المفاوضات الرسمية خلال وقت قصير، فلم يحدث تطور جوهرى فى هذا الاتجاه، بما يشير - تبعاً لذلك - إلى عراقيل حقيقية تعترض طريق إقامة مثل هذه المنطقة فى الشرق الأوسط.

الثانى: تيار يشير إلى أن إقامة NWFZ فى الشرق الأوسط ممكنة التحقيق. فتبعاً لكثير من التقديرات التى يطرحها عدد من محللى NWFZs، يعتبر مشروع إقامة NWFZ فى الشرق الأوسط «مشروعاً واقعياً، أو يمكن اعتباره كذلك»، على الرغم من أن إقامة مثل هذه المنطقة سوف تستغرق وقتاً طويلاً فى الغالب. وتبعاً لتلك التقديرات، فإن التحدى القائم هو الكيفية التى يمكن أن تبدأ بها المحادثات بين أطرافه، وهو تقريباً نفس التوجه السائد فى الأمم المتحدة بهذا الشأن، فالدراسة التى أعدها الخبراء الاستشاريون بالمنظمة حول هذه المسألة عام ١٩٩٠ أشارت إلى أنه «لا يوجد أيضاً أساس متين للشك فى أن جميع الحكومات المعنية تعتقد أن إنشاء NWFZ (فى الشرق الأوسط) يعتبر أفضل من الحالة الراهنة، والمشكلة هى كيفية إنشاء مثل هذه المنطقة والشروط التى تنشأ بها» فإنشاء مثل هذه المنطقة - تبعاً لهذا التيار - ممكن من حيث المبدأ.

يضاف إلى ذلك، أن خبرة عملية إقامة NWFZs تشير إلى أن إنشاءها قد يستغرق عقوداً طويلة تبعاً لخصوصيات كل حالة، ورغم طول مرحلة ما قبل المفاوضات - كما يطرح الاتجاه السابق - فى الشرق الأوسط، إلا أنها لم تخترق بعد الحاجز الزمنى للمنطقة الإفريقية التى استغرقت تلك المرحلة فى عملية إقامتها ٣١ سنة (١٩٦٠ - ١٩٩١). والأهم أن المشروع لم يتعرض خلال هذه الفترة لانهيارات حادة على غرار ما حدث لمشروع إقامة NWFZ فى جنوب أسيا عام ١٩٩٨، بل إن التوافق العام فى الإقليم بشأن إقامتها، وحول بعض العناصر الخاصة بإطارها كان يتعمق مع الوقت، رغم أن ما يطرح بشأن المراحل الانتقالية فى عملية الإقامة أو آليات التفاوض حول إنشائها أو التعقيدات الخاصة بتطبيقها يشير إلى أن تلك العملية قد تستغرق فترة أطول من أية NWFZ قائمة أخرى، كما أنها سوف تتسم بملامح أكثر تعقيداً.

إن المدخل الأساسى الذى يمكن الاقتراب من خلاله بشكل موضوعى من الإجابة على السؤال الرئيسى السابق يرتبط بمحاولة اختبار مدى انطباق شروط Pre-conditions أو متطلبات Prerequisites إقامة المناطق الخالية من الأسلحة النووية، كما حددتها الكتابات النظرية من ناحية، وعلى ضوء خبرة الدول التى أقامت مثل هذه المناطق من ناحية أخرى، لتحليل مدى توافر متطلبات أو شروط أو عوامل إنشاء NWFZ فى الشرق الأوسط، وإمكانية إقامتها فى إطار السمات والملامح الخاصة بها فى الشرق الأوسط. وتتمثل الأسئلة الفرعية التى تشير الكتابات النظرية إلى ضرورة بحثها عبر طريق الاقتراب من الإجابة فى :

. ما هى ملامح النطاق الجغرافى المناسب لإقامة NWFZ؟

. ما هو نمط العلاقات السياسية الملائم لتسهيل إمكانية التوصل إلى إقامة NWFZ؟

. ما هو شكل موازين القوى والقدرات النووية الذى يمثل قاعدة مناسبة لإقامة NWFZ؟

. ما هى أنماط تأثير العامل الدولى فى عملية إنشاء NWFZ؟

وتتمثل النتائج العامة المرتبطة بإجابة تلك التساؤلات فى أنه إذا تم التمييز بين شروط الإقامة وشروط الفعالية الخاصة بأنظمة NWFZs، توجد أربع مجموعات من المحددات الأساسية لإقامة NWFZs، طرح من جانب الباحثين والدول ووثائق الأمم المتحدة، بشأن كل منها عدد من الشروط المسبقة الرئيسية اللازمة لإنشاء تلك المناطق، وهى:

١. المحددات المتصلة بالنطاق الجغرافى للمنطقة، وتتضمن شرط صلاحية الإقليم جغرافيا لإقامة NWFZ، سواء فيما يتصل بحدوده الطبيعية أو حدوده الاستراتيجية، وشرط مشاركة الدول الرئيسية، والهامة عسكريا، فى الإقليم بها.

٢. المحددات المتصلة بالصراعات القائمة فى الإقليم، وتتضمن شرطين مترابطين يتصلان بغياب الصراعات الإقليمية الرئيسية المعرقلة لقيامها، وضرورة حل/ تسوية تلك الصراعات بما يسهل إنشاءها.

٣. المحددات المتصلة بالأوضاع النووية فى الإقليم، وتتضمن شرطاً رئيسياً بعدم وجود أسلحة نووية فيه، مع شرطين مكملين يتصلان بالتوازن النسبى بين القدرات النووية لدوله، وانفصال الموازين العسكرية لفئات التسليح الرئيسية فى الإقليم.

٤. المحددات الخاصة بمواقف القوى النووية الكبرى من إنشاء المنطقة، باعتبارها الفئة الأهم بين الأطراف الخارجية ذات العلاقة بالمنطقة، وتتضمن أحد الشروط المعقدة التى تركز على احترام تلك الدول مركز NWFZ .

وهناك بالطبع شروط أخرى تمت

وجود سلاح نووى لدى إسرائيل، فى ظل تصورات قائمة لديها بأهمية استمرار وجوده، يمثل العامل المركزى بين العوامل الحاسمة الثلاثة المؤثرة على إقامة NWFZ فى المنطقة

الإشارة إليها فى دراسات مختلفة، لكنها إما أنه لم يكن هناك اتفاق بشأنها، أو أنها كانت ثانوية، أو أنها تمثل شروط فعالية.

وقد أكدت الخبرة العملية لإقامة NWFZs فى الأقاليم الأربعة التى تمت إقامة مناطق خالية بها فعليا،على ضوء الشروط المتفق نظرياً على أنها تشكل اتجاه تأثير المحددات الأساسية لإقامتها، إلى أن المحددات العامة لإقامة NWFZs، بمضامينها العملية، تتمثل فى الجدول التالى:

١ - مشاركة الدول الرئيسية فى الأقاليم، فقد وضح من الخبرة العملية أنه شرط تأسيس رئيسى يرتبط بتوافق تلك الدول منذ البداية على المبادئ العامة لإقامة المنطقة، بمستوى يتيح بدء مرحلة المفاوضات، ولا يرتبط مصطلح الدول الرئيسية فقط بالقوى الإقليمية الكبرى فى الإقليم، وإنما ما تعتبره دول الإقليم «دولا مهمة» على أسس إستراتيجية تستند إلى مدركات التهديد، والقدرة على التأثير عسكرياً على الموازين الإقليمية.

٢ - تسوية الصراعات الإقليمية البينية ذات الأبعاد الخاصة، وهو شرط إقامة مزدوج التأثير، كانت له انعكاساته فى معظم الحالات، يرتبط اتجاه تأثيره (تأسيس/استكمال إقامة) بمضمون الصراعات المتصلة بأوضاع كل إقليم، لكن يتمثل أهم أنماط تلك الصراعات فى صراعات الدول الرئيسية /الهامة عسكريا حتى لو لم تكن حادة، خاصة إذا كانت تطرح احتمالات خاصة بامتلاك أو استخدام الأسلحة النووية فى الإقليم.

٣ - عدم وجود أسلحة نووية فى الإقليم عند التأسيس، وهو شرط تأسيس رئيسى يتسم بتعقيدات خاصة ترتبط بتعقيدات مستوى الامتلاك ذاته. وتبعا للخبرة العملية،لا يمنع وجود تلك الأسلحة من تصور إمكانية إقامة NWFZ فى الإقليم، إلا أن بدء عملية إقامتها فعلياً يستلزم عدم وجود تلك الأسلحة قبل التأسيس.

أما بالنسبة لشرط احترام NWSs لمركز NWFZ، فإنه شرط يتسم بأهمية كبيرة بصفة عامة، لكنه - من واقع الخبرة العملية - لم يكن شرط إقامة، وإنما شرط فعالية ذا أبعاد إنشائية، يرتبط بضرورة مراعاة «الدول الإقليمية» المصالح الأساسية للقوى النووية الكبرى فى المنطقة، بما يتيح موافقتها نسبياً على احترام مركز NWFZ فى الإقليم، خاصة فى المناطق التى يرتبط الهدف الخاص لإقامتها بحظر نشاطات نووية تقوم بها NWSs فى المنطقة.



لكن هناك شرطين رئيسيين لم يتم تجاوزهما فى أية منطقة، وهما: شرط مشاركة الدول الرئيسية بالإقليم فى عملية تأسيس المنطقة، وهو شرط مسبق لابد من توافره قبل تأسيس المنطقة. وتبعاً لخبرة عملية إقامة NWFZs الأربع، لم تكن هناك مرونة بهذا الشأن إلا فى حالات فرعية شديدة الخصوصية. والثانى: شرط عدم وجود أسلحة نووية فى الإقليم عند التأسيس، وهو شرط مسبق توافر فى كل الحالات قبل تأسيس المنطقة، فلم تكن أية دولة من الدول تمتلك أسلحة نووية بصرف النظر عن أوضاع تسليح NWSs الخارجية حول المنطقة. وفى الحالات التى كانت هناك أسلحة نووية مملوكة لإحدى دول تلك المناطق، تمت إزالة تلك الأسلحة قبل التأسيس.

وعلى الرغم من أن الصراعات الإقليمية المحددة القائمة فى الإقليم تعتبر محدد إقامة رئيسيا، إلا أن الشرط الأساسى المتصل بها ليس شرطا حاكما مثل الشرطين السابقين، إذ أنه يشكل، من واقع الخبرة العملية، عاملا شديد التعقيد فى تأثيراته بحيث لا توجد قواعد عامة واضحة بشأنه تتجاوز خصوصيات الأقاليم، فقد يكون عامل تأسيس مهماً فى بعض المناطق، وقد يكون عامل اكتمال إقامة فى بعضها الآخر. كما قد لا يتطلب الأمر تسوية كاملة للصراعات فى بعض الأقاليم بينما يستلزم الأمر حلها بشكل شبه كامل فى إقليم آخر، فهى تؤثر يقينا على إقامة NWFZs، لكن اتجاهات تأثيراتها ترتبط بطبيعة الصراعات المحددة فى كل إقليم.

محددات إقامة NWFZs بين الأدب النظرى والخبرة العملية

الأدب النظرى		الخبرة العملية	
المحددات العامة	الشروط المحددة	قائم	حاكم
النطاق الجغرافى	شرط صلاحية الإقليم جغرافيا	×	×
	مشاركة الدول الرئيسية فى الإقليم	√	√
الصراعات الإقليمية	غياب الصراعات الإقليمية الرئيسية	؟	×
	حل/ تسوية الصراعات الإقليمية الرئيسية	√	×
الأوضاع النووية	عدم وجود أسلحة نووية فى الإقليم	√	√
	توازن القدرات النووية + انفصال أنظمة التسليح	؟	×
العامل الدولى	احترام NWSs مركز المنطقة	×	×
	(مراعاة دول المنطقة مصالح NWSs فيها)	√	×

في هذا الإطار، تشير حالة الشرق الأوسط بوضوح إلى أن إقامة NWFZ في ذلك الإقليم، لم تكن فكرة قابلة للتطبيق خلال الفترة الماضية، ولا تزال كذلك في المرحلة الحالية، بفعل عدم توافر معظم شروط إقامتها بمدى واسع في الإقليم، فقد كانت مجمل العوامل التي تؤثر أكثر من غيرها على إقامة NWFZ قائمة في المنطقة، وكانت مجمل أوضاع كل منها، تطرح مشكلات تدفع في اتجاه عرقلة التقدم في اتجاه «مرحلة المفاوضات» الخاصة بإقامتها في ظل تعارضات واسعة بين أطراف الإقليم حول علاقتها بإقامة NWFZ في الإقليم، مع عدم حدوث تقدم في اتجاه التعامل معها بصورة تتيح إمكانية تصور إقامة هذه المنطقة في مدى زمني يمكن تحديده على النحو الذي يمكن توضيحه في الجدول التالي:

المحددات/ التحقق	الشروط الرئيسية	الوجود	التوافر	وزن التأثير	إمكانية التوافر
النطاق الجغرافي	مشاركة (عدم مشاركة) الدول الرئيسية في الإقليم	مطروح بشدة	×	حاسم	غير محددة
الصراعات الإقليمية	غياب (وجود) الصراعات الرئيسية في الإقليم	مطروح بشدة	×	(حاسم)	محدد
الأوضاع النووية	خلو (انتشار) الأسلحة النووية من الأمن الإقليمي	مطروح بشدة	×	حاسم	غير متصورة
العامل الدولي	احترام (أو عدم احترام) NWSs المركز اللانووي للمنطقة	مثار	؟	هام	غير محددة

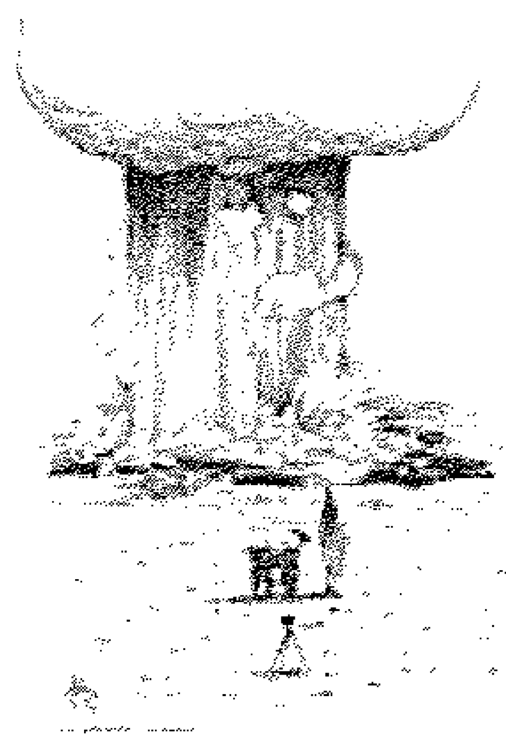
إن ثمة مشكلة تواجه عملية إقامة NWFZ في الشرق الأوسط، فعلى الرغم من أنه لم تكن هناك إشكالية كبيرة في تحديد النطاق الجغرافي للإقليم لأغراض إقامة NWFZ فيه»، بفعل وجود توافق نسبي على تعريفه، كانت هناك إشكالية تتصل بعدم مشاركة غالبية الدول الرئيسية والهامة بالشرق الأوسط في محادثات ACRS ،مع عدم وجود ما يشير إلى إمكانية تجاوز هذا الوضع في المدى القصير. كما كان وجود صراع إقليمي رئيسي متعدد الأطراف والأبعاد هو الصراع العربي الإسرائيلي، وتشابكه مع بؤرة التوتر الحادة في الخليج يمثل عائقا جوهريا أمام إمكانية التقدم في اتجاه إقامة NWFZ ،على الرغم من بداية واستمرار تسويته سلميا، إذ كانت ثمة تعارضات بين مواقف الدول العربية وإسرائيل بشأن أولوية / توازي عمليتي تسوية الصراع - إقامة المنطقة. ويشير عدم وجود مفهوم محدد للتسوية ذاته إلى تعذر إمكانية تجاوز هذا الوضع.

الأهم، أن الشرق الأوسط يشهد فعليا وجود أسلحة نووية على ساحته، في ظل حالة احتكار، لا توحي مستويات القدرات النووية القائمة بإمكانية تجاوزها في المدى الزمني القصير، ولا يوحي الموقف الإسرائيلي بإمكانية تصور «إزالة» هذه الأسلحة في أي مدى زمني محتمل في الشرق الأوسط بصفة عامة. يضاف إلى ذلك، أنه على الرغم من تأييد NWSs لإقامة NWFZ في الشرق الأوسط بصفة عامة، إلا أن مصالحها الإستراتيجية ووجودها العسكري في المنطقة يتطلبان مواقف إقليمية شديدة المرونة تجاههما، في حين لا يوجد يقين بهذا الشأن، بما يوحي بأن احترام هذه الدول المركز اللانووي للمنطقة لدى إقامتها يظل محل نقاش. لكن القضية الأعقد هي أن الوجود العسكري الدولي في الإقليم يمكن أن يطرح آثاراً حادة على عملية إنشاء المنطقة ذاتها عند بدء التفاوض حول تأسيسها، وليس فقط فعاليتها في التطبيق بعد قيامها. فإقامة NWFZ في الشرق الأوسط تواجه مشكلة شديدة التعقيد.

إن تطبيق مشروع إقامة NWFZ في الشرق الأوسط - كما هو واضح - قد واجه معضلة تتصل بعدم توافر الشرطين الذين يقيمان - تبعاً للخبرة العملية لإقامة NWFZ السابقة - على أنهما حاكمين لأي عملية خاصة بإقامة مثل هذه المناطق، بحيث لم يتم تجاوزهما في أية حالة معا، وهما: شرط مشاركة الدول الرئيسية بالإقليم في عملية إقامة / تأسيس المنطقة، وشرط عدم وجود أسلحة نووية في الإقليم بداية الإقامة / التأسيس عملياً، وهما شرطا تأسيس مسبقان.

يضاف إلى ذلك عامل ثالث يعتبره - في ظل خصوصية تأثيره - كثير من المحللين «العامل الرئيسي» في إقامة/ عدم إقامة NWFZ في الشرق الأوسط، وهو استمرارية تأثيرات الصراع العربي - الإسرائيلي. فبصرف النظر عن التعقيدات المحتملة المتصلة بمشكلة احترام أو عدم احترام NWFZ المركز اللانووي للمنطقة، توجد ثلاث عوامل رئيسية - أهمها الأوضاع النووية في الإقليم - تعرقل معاً عملية إقامة NWFZ في المنطقة. وهي كلها عوامل كان لكل منهما أثر حاسم بمفرده في عرقلة إقامة مثل هذه المنطقة في حالات سابقة.

الشرق الأوسط يشهد فعليا وجود أسلحة نووية على ساحته، في ظل حالة احتكار، لا توحي مستويات القدرات النووية القائمة بإمكانية تجاوزها في المدى الزمني القصير



لكن المثير في حالة الشرق الأوسط هو أن عملية إقامة NWFZ في الإقليم لم تتحرك خطوة رسمية واحدة تتجاوز بها «مرحلة ما قبل المفاوضات» القائمة، على الرغم من أن الإقليم قد شهد تطورات مختلفة، أدت إلى تليين حدة تأثير بعض العوامل التي تحول دون بدء التحرك في اتجاه التفاوض حول إقامتها، خلال التسعينيات، على كافة المستويات تقريبا، كالتالي:

١ - النطاق الجغرافي: فقد تم التوصل إلى توافق نسبي حول النطاق الجغرافي «الوظيفي» لمنطقة الشرق الأوسط مع تطوير صيغ مختلفة للتعامل مع الأطراف المجاورة. وشارك أكاديميون ومسئولون سابقون من معظم الدول الرئيسية التي لم تشارك رسميا في محادثات ACRS في نقاشات «المسار الثاني» غير الرسمية، في ظل موافقة ضمنية من جانب حكوماتهم على ذلك.

٢ - الصراعات الإقليمية: فقد شهدت عملية التسوية السلمية للصراع العربي - الإسرائيلي تقدما ملموسا في اتجاه تسوية كثير من قضاياها فعليا، أو التوصل إلى أطر أو تفاهمات للتعامل مع المشكلات التي لم تحل، مع وجود تحولات هامة في توجهات إيران إزائها في ظل رئاسة خاتمي، وبروز تصورات حول إمكانية التمييز بين التفاهم حول إقامة NWFZ (في إطار عملية التسوية)، مع عدم البدء في التطبيق الفعلي لها إلا بعد نهايتها.

٣ - الأوضاع النووية: فقد بلورت مصر «مداخل أكثر تدريجية» بشأن لا نووية إسرائيل، مع التأكيد على وجود تمييز بين المحادثات والمفاوضات، والإخلاء الفعلي، بفواصل زمنية واسعة بين كل مرحلة. والقبول بالتحرك في اتجاه إجراءات بناء الثقة رغم وجود خلاف حول توقيتها وعلاقتها بموضوعات ضبط التسلح، والإقرار بضرورة تشكيل نظام إقليمي للرصد والتحقق في إطار NWFZ المحتملة.

٤ - العامل الدولي: فقد اتسع نطاق التأييد الدولي لإقامة NWFZ أو WMPFZ في الأمم المتحدة. وتم التأكيد على ذلك خلال مؤتمرات مراجعة NPT عامي ١٩٩٥ و ٢٠٠٠، وتم إطلاق عدة مبادرات دولية (كمبادرة بوش ١٩٩١) لفتح الطريق نحو إقامتها، كما صدرت دراسات مختلفة في الأمم المتحدة - ترافقت مع اتصالات رسمية - لتحديد المواقف بشأنها، والتوصل إلى صيغ تفصيلية لكيفية إقامتها.

لكن رغم ذلك - كما تمت الإشارة - لم تتحرك عملية إقامة NWFZ في الشرق الأوسط خطوة واحدة تتجاوز بها «مرحلة ما قبل المفاوضات» القائمة، ولو بإجراء محادثات رسمية غير ملزمة في هذا الاتجاه. ويرتبط ذلك يقينا بعامل ذاتي يضاف إلى العوامل الموضوعية (الهيكلية) التي أعاقت الاقتراب من البدء في

تطبيق مشروع إقامة المنطقة. وهو التصلب الشديد من جانب إسرائيل فى التعامل مع متطلبات إقامة NWFZ فى الشرق الأوسط. فقد حددت إسرائيل مجموعة من الشروط المسبقة المتصلة بمسألة مشاركة الأطراف الرئيسية (أو كل أطراف الإقليم) فى مناقشات ACRS، والتوصل إلى تسوية «حقيقية» للصراع العربى الإسرائيلى، مغلقة الباب تماماً أمام إمكانية تحريك مسالة «التسلح النووى» بأى مستوى رسمى مباشر.

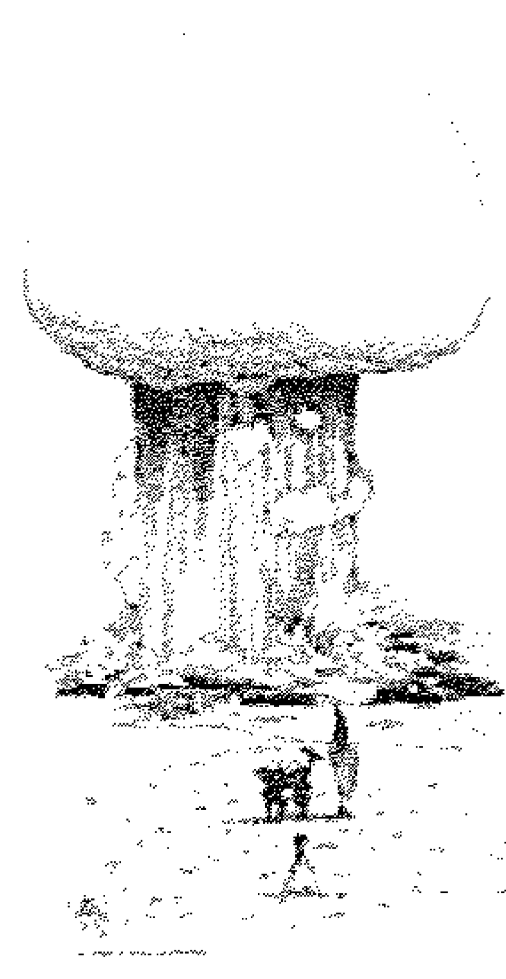
فالتفاوض حول إقامة المنطقة يبدأ - وفقاً لتوجهاتها - بعد اكتمال توافر الشروط المسبقة حسب تقديراتها الخاصة لذلك، وليس بعد توافر مدى معين منهما، فمن الممكن فقط بدء النظر فى ضبط التسلح النووى عندما تستقر «التسوية السلمية» للصراع العربى - الإسرائيلى تماماً، مع توقف أية تهديدات إقليمية محتملة لأمنها من جانب أى طرف ترى أنه يمكن ان يمثل مصدر تهديد، وهو الوضع الذى أشار إليه روجر سميث فى عرضه لوجهات نظر المتشككين فى جدوى ضبط التسلح بقوله «أن ضبط التسلح يكون غير ممكن عندما يكون ضرورياً وغير ضرورى عندما يكون ممكناً.فتبعاً لذلك، على أطراف المنطقة أن تنتظر إلى حين لا يكون لوجود أو عدم وجود السلاح النووى أهمية.

إن هذه الأوضاع فى مجملها هى التى أدت بكثير من الكتابات إلى القول بأن احتمالات إقامة NWFZ فى مثل هذا الإقليم «كانت معدومة تقريبا»، خلال الفترة الماضية، وهى مقولة دقيقة إلى حد كبير، لكن يظل ثمة محدد (زمنى) رئيسى يحيط بدلالات مثل هذه الاستنتاجات بالنسبة لمستقبل إقامة NWFZ فى الشرق الأوسط. فخبرة عمليات إقامة NWFZs السابقة تشير إلى أنها عملية طويلة المدى تمر بمراحل مختلفة، يتم التقدم عبرها خطوة خطوة فى معظم الأحوال، وما يعنيه عدم توافر شروط القابلية لتطبيق مشروع NWFZ فى الشرق الأوسط أنه غير قابل للتطبيق فى مرحلة زمنية معينة، ولمدى زمنى معين يرتبط باستمرارية تأثير العوامل المعوقة لإقامتها. فعدم التطبيق فى المرحلة الحالية، لا يعنى أنه لا يمكن أن يحدث ذلك فى المستقبل، رغم أنه لا يعنى أيضا أنه يمكن يقينا أن يحدث.

وفى الواقع، فإن هناك على الأرجح مستقبلين - وليس مستقبلاً واحداً - لمسار عملية إقامة NWFZ فى الشرق الأوسط، يرتبط أى منهما على الأرجح بمدى استمرارية أو تغير ما يبدو أنه «العامل المركزى» الأكثر تأثيراً فى مسار تلك العملية، وهو «الوضع النووى» فى الإقليم. فعلى الرغم من صعوبة تحديد الأوزان النسبية للعوامل المؤثرة على إقامة NWFZ فى حالة واحدة، لا تزال تمثل مشروعاً، مقارنة ببعضها البعض، إلا أن الواضح هو أن وجود سلاح نووى لدى إسرائيل، فى ظل تصورات قائمة



هناك تصورات مؤثرة فى إسرائيل حول أهمية وجود ودور السلاح النووى فى ظل «حالة السلام». فلن تكون هذه التسوية - خاصة فى ظل عدم وجود مفهوم إسرائيلى محدد لها - حاسمة تماما





لديها بأهمية استمرار وجوده، وعدم وجود أسلحة موازنة له فى المنطقة يمثل العامل المركزى بين العوامل الحاسمة الثلاثة المؤثرة على إقامة NWFZ فى الشرق الأوسط.

إن الأسلوب التى تتعامل به إسرائيل مع متطلبات إقامة المنطقة يشير إلى أن ثمة مشكلة حقيقية ترتبط بالعامل الأول، فعلى الرغم من أنه لا يمكن تصور إمكانية إقامة NWFZ فى الشرق الأوسط بدون مشاركة الدول الرئيسة بالإقليم فى عملية الإقامة، إلا أن مشاركة الدول التى لم تنضم إلى ACRS فى أعمال اللجنة لم تكن لتضمن بدء التفاوض مباشرة حول إقامة تلك المنطقة، إذ أن القضية تتعلق برؤية إسرائيل لنمط العلاقات التى ستقوم بينها وبين تلك الدول، وليس مجرد انضمامها إلى ACRS، وهو الأمر الذى لن يتضح إلا بعد فترة طويلة من التفاعلات فيما بينها، والتى ستخضعها إسرائيل أيضا - مثلما يشير مفهومها للسلام مع دول الطوق - للاختبار المزمن، خاصة وأن ثمة شكاً عميقاً فى بعض الكتابات الإسرائيلية، فى إمكانية تخلى تلك الدول عن «أسلحتها غير التقليدية»، حتى إذا قدمت إسرائيل تنازلات نووية، فلن تكون مثل هذه المشاركة حاسمة تماماً.

من جانب آخر، فان تحليل التأثيرات المتصورة للصراعات الإقليمية قد أوضح - مثلما هو الحال بشأن العامل السابق - أنه إذا كان من غير الممكن تصور إقامة تلك المنطقة بدون إتمام التسوية السلمية للصراع العربى - الإسرائيلى، فان تحقيق هذه التسوية لا يضمن على الإطلاق البدء فى عملية التفاوض الخاصة بإقامتها خلال أى مدى زمنى يمكن تحديده بعدها، بل أن هناك تصورات مؤثرة فى إسرائيل حول أهمية وجود ودور السلاح النووى فى ظل «حالة السلام». فلن تكون هذه التسوية - خاصة فى ظل عدم وجود مفهوم إسرائيلى محدد لها - حاسمة تماماً.

وبالتالى فان بقاء الأوضاع النووية فى الإقليم على ماهى عليه، أو تغيرها هو الذى سيمارس - على الأرجح - تأثيراً مباشرا على عملية الإقامة. فمن المتصور أنه إذا تطورت الأوضاع النووية فى الشرق الأوسط لتصبح أكثر توازناً فى المستقبل، فإن المسار المتصور لعملية إقامة NWFZ فى الإقليم سوف يشهد تحولاً فى اتجاه جعل احتمالات الإقامة أكثر يقينية، وربما تبلور جدول زمنى محدد لها، لكن ربما يكون من المهم التمييز - بشكل أولى - بين مستويين للأوضاع النووية المحتملة فى الإقليم، وهما:

أ - أن تشهد المنطقة تطورات واسعة النطاق فى «القدرات النووية» لبعض الدول، بمستوى يتيح لها «خيارات نووية عسكرية» محتملة. وفى هذه الحالة سوف تتبلور فى الإقليم - أمام إسرائيل بالذات - خيارات محددة وضاغطة، فإما أن يتم الاتجاه بوضوح نحو إقامة NWFZ يتم فى إطارها إزالة أسلحتها النووية خلال مدى زمنى معين، وإما أن تقبل احتمال أن تظهر أسلحة نووية أخرى فى الإقليم. وثمة وعى متصاعد داخل الدول العربية بهذه المسألة، ففى تقرير أعده المجلس المصرى للسلام ونزع السلاح، تمت الإشارة إلى « أننا لا نريد أسلحة نووية، لأننا لن نحتاجها كى نفرض على إسرائيل القبول بمشروع إخلاء الشرق الأوسط من هذه الأسلحة، ويكفى أن تشرع أربع أو خمس بلدان عربية فى بناء عشرة مفاعلات من أجل الاستخدام السلمى للطاقة النووية وفق البند الرابع من NPT ، فهذا وحده كفيل بأن يجبر إسرائيل على الدخول فى محادثات جادة مع العرب بشأن هذه المسألة».



كما أن ثمة إدراكًا فى إسرائيل أيضا لذلك، ففى ظل تحليل حكومة اسحق رابين، خلال النصف الأول من التسعينات لدروس الحالة العراقية، تبلور اتجاه بأنه «يجب على إسرائيل أن تساهم فى استراتيجية نشطة لمنع التسلح النووى من خلال تنسيق سياسى واستخباراتى قوى مع الدول الصديقة، كما يجب عليها، وهذا هو الأهم، أن تسعى لعقد اتفاقيات سلام مع جميع جيرانها من أجل التقليل من محفزات التسلح النووى، ومن الدعم الذى يناله فى العالم العربى، وخاصة لدى إيران. وبدون شك فإنه إذا شهدت المنطقة تطورات ذات أهمية فى القدرات النووية لدولها، سوف تتجه إسرائيل للتفكير فى عقد «اتفاقيات لضبط التسلح» من أجل وقف إمكانية اتجاه تلك التطورات نحو «العسكرة».

ب - أن تشهد المنطقة تطورات درامية أو مفاجئة يظهر فيها سلاح نووى لدى إحدى دولها، بحيث تتجاوز الموازين الجديدة « توازنات الأسلحة - القدرات» إلى حالة « توازن تسليحى نووى» تقليدية. ومن الصعب فى هذه الحالة تصور ما يمكن أن يحدث بالنسبة لمسار عملية إقامة NWFZ فى الشرق الأوسط، فالاحتمال الأول أن تبدأ على الفور «مفاوضات» لإخلاء الشرق الأوسط من الأسلحة النووية بفعل المخاطر التى يمكن أن تترتب على وجود تلك الأسلحة فى ظل عدم الاستقرار المزمن والتقلبات الحادة المفاجئة فى الإقليم. ويتصور أن «مرحلة المفاوضات» وكذلك كافة المراحل التالية حتى اكتمال الإقامة، وبدء التطبيق الفعلى لن تستغرق وقتاً طويلاً.

أما الاحتمال الثانى، فهو أن تتبدد تماما إمكانية إقامة NWFZ فى الشرق الأوسط، وينهار مشروعها فى ظل انتقال الإقليم إلى «حالة الانتشار النووى»، خاصة إذا كانت الدولة النووية الجديدة واقعة خارج دائرة الصراع العربى - الإسرائيلى. فهل كان العراق - لو كان قد امتلك أسلحة نووية فى بداية

التسعينيات. سيزيل تلك الأسلحة مقابل إزالة إسرائيل لأسلحتها المناظرة، أم انه كان سيفضل حالة «توازن قوى ثنائي» إقليمية؟ ونفس السؤال مطروح بالنسبة لإيران. فهناك عدم يقين بشأن ما يمكن أن يكون عليه مستقبل عملية إقامة NWFZ بالمنطقة، في حالة انتشار الأسلحة النووية فيها.

مجمل القول، أنه في إطار الأوضاع الحالية في الإقليم (بافتراض أن إيران لاتمتلك قدرات نووية عسكرية)، خاصة على المستوى النووي، ليست هناك إمكانية لإقامة NWFZ في المدى القصير / المباشر بالشرق الأوسط. وإذا استمرت تلك الأوضاع على ماهي عليه مستقبلاً، ستكون عملية إقامتها طويلة المدى، معقدة، ولا يوجد ما يضمن وصولها إلى النهاية المفترضة لها. أما إذا شهدت تلك الأوضاع - وتحديدا المستوى النووي منها - تحولاً ذا أهمية، فإن عملية الإقامة (في ظل معظم الاحتمالات) سوف تتجه نحو أهدافها النهائية بسرعة تتفاوت تبعاً لمعدلات ونوعية التحولات التي يشهدها الإقليم.

وهكذا، فإن حالة الشرق الأوسط تواجه إشكاليات أكثر تعقيدا مما شهدته الحالات السابقة. فمشكلة مشروع إقامة NWFZ في الشرق الأوسط «تحديدا» - وربما تشترك معه في ذلك مشروعات جنوب آسيا وشبه الجزيرة الكورية - لا ترتبط فقط بالعناصر المستجدة على المفهوم، أو الشروط المحددة المتصلة بتطبيقه، وإنما بما يبدو من ضرورة ترافقه مع عملية معقدة لإعادة ترتيب الأوضاع الأمنية في البيئة الاستراتيجية الإقليمية المحيطة به. فما تم رصده يشير إلى ملمحين أساسيين لعملية إقامة NWFZ في الشرق الأوسط، هما:

١ - أنها ستكون عملية ممتدة، متعددة المراحل، طويلة المدى، يتم التعامل في إطارها مع NWFZ كهدف نهائي وليس كهدف مباشر، وهو ملمح تقليدي لمعظم عمليات إقامة NWFZ السابقة، إلا أن ما يثار بشأن حالة الشرق الأوسط يتسم بطابع شديد الخصوصية، فعلى الرغم من أنه كان قد مر ٢٥ سنة على بداية المشروع عام ١٩٩١، كان هناك شعور داخل ACRS بأنه لا تزال «هناك ١٠ أو ٢٠ أو ٣٠ سنة أسفل الطريق»، وأنه سيتم قطع هذه المسافة بخطوات شطرنجية للأمام، مع تحذيرات تحليلية - تستند على وجهة نظر إسرائيل في الأساس - من أن جميع الأطراف سترتكب خطأ إذا وصلت المساعي السياسية والفكرية للتوصل إلى ترتيبات نووية نهائية (كهدف أول)، فمن شأن هذا الخطأ أن يخلق المأزق والطرق المسدودة والاتهامات المضادة التي تضر بروح عملية بناء جسور الثقة، أو أن «أية محاولات لدفع تلك العملية بالضغط لإقامة NWFZ / WMPFZ في ظل غياب الشروط الضرورية لها سوف يكون نوعا من «هزيمة الذات»»، وهو ما يشير إلى أنه إذا تم الاستناد على تلك التصورات في التعامل مع المشكلة النووية في الشرق الأوسط، ستكون عملية إقامة NWFZ في الشرق الأوسط، أشبه «بالسير وراء سراب». لكن ربما لن يكون هناك مفر من ذلك إذا استمرت اتجاهات تأثير محددات إقامة NWFZ . التي تمت الإشارة إليها - على ما هي عليه.

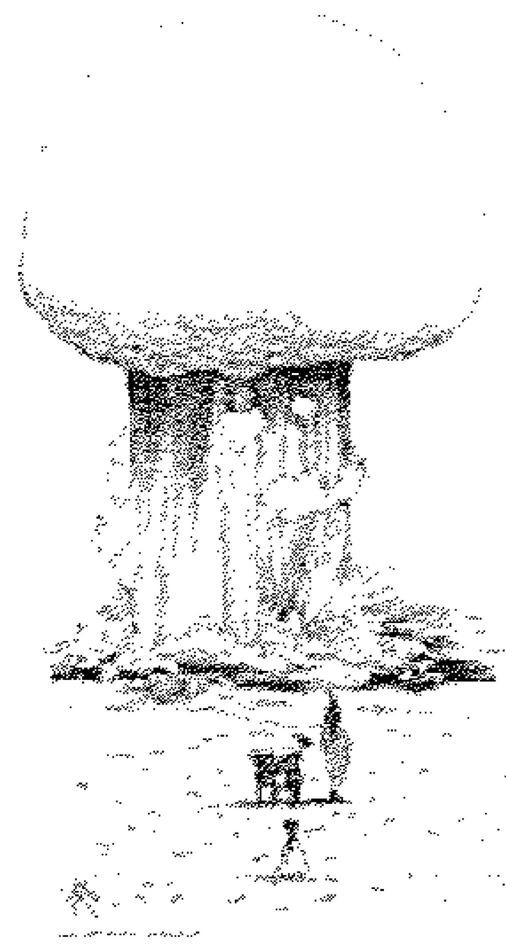
لقد دفع هذا الوضع (المحتمل) مختلف الكتابات الصادرة عن الأمم المتحدة أو مراكز أبحاث غربية أو إسرائيلية، وبعض الكتابات العربية كذلك، إلى اقتراح سيل من «الخطوات الانتقالية» التي تهدف إلى بناء الثقة المتبادلة بين أطراف المنطقة، لتمهيد الطريق نحو إنشاء NWFZ في الشرق الأوسط، أو «البدائل الانتقالية» التي تهدف إلى التعامل مع بعض أبعاد المشكلة النووية في الإقليم دون «إزالة الأسلحة الموجودة» ويمكن أن يشكل بعضها عناصر تدخل ضمن الاتفاق النهائي لإقامة NWFZ المتصورة على المدى الطويل، أهمها - بدون ترتيب أو أولويات - انضمام إسرائيل إلى NPT والإعلان من جانب واحد عن كافة الأنشطة النووية، وتشكيل نظام غير رسمي (عن طريق الدعوة) للتفتيش النووي، ووضع ضوابط للتعامل مع الوقود النووي، وتعميق الشفافية / التعاون النووي، وتقييد حق الانسحاب من NPT ، وعدم تخزين مواد نووية انشطارية، وحظر إجراء تجارب نووية، والالتزام بعدم شن هجمات ضد المنشآت النووية.



وقد وصلت تلك التوجهات إلى اقتراح خطوات انتقالية متطورة كإعلان / اتفاق إقليمي لعدم البدء باستخدام الأسلحة النووية (أولا)، أو إقامة نظام لوقف إنتاج المواد الإنشطارية النووية (على غرار مبادرة بوش - ١٩٩١)، بالتوازي مع إجراء محادثات غير رسمية حول الانتشار النووي والردع في الشرق الأوسط، وإمكانية تطبيق بعض الخطوات والتدابير المشار إليها فعليا، ومتطلبات وشروط إقامة NWFZ في المنطقة. بل وجرت محاولات فعلية لتطبيق بعض إجراءات بناء الثقة على المستوى النووي، لكن ظل منطق الخطوات / البدائل الانتقالية محل نقد من الجانب العربي، فتبعا لما قيل أحيانا «لا يمكن للمنطقة أن تنتظر خمسين سنة لتطوير نظام سليم للأمن في ظل حالة عدم الاستقرار والتقلبات القائمة فيها، ولابد من التكرار بأن الشرق الأوسط ليس أوروبا، وعليه من الضروري التوقف عن الكلام حول CBMS ... فأولاً لابد من معالجة ضبط التسلح في المنطقة نظر للحاجة الماسة له لتعزيز السلام والأمن، فلا تزال تفاعلات التعامل مع طول مدى عملية إقامة NWFZ في الشرق الأوسط مستمرة.



لا يمكن للمنطقة أن تنتظر خمسين سنة لتطوير نظام سليم للأمن في ظل حالة عدم الاستقرار والتقلبات القائمة فيها، ولابد من التكرار بأن الشرق الأوسط ليس أوروبا





٢ - أنها سوف تتم - على الأرجح - في إطار نظام أو ترتيبات أمن إقليمية أكثر شمولية يرتبط بالتعامل مع كافة / معظم مشكلات الأمن الإقليمية في إطار مفاهيم للأمن الشامل أو الجماعي، أو على الأقل كجزء من نظام أو ترتيبات ضبط تسلح إقليمية عامة تتعامل مع كافة / معظم مجالات التسلح غير التقليدية والتقليدية في المنطقة. فالمدخل الوظيفي المستند على مفهوم الأمن المشترك، والذي يعزل «المشكلة النووية» عن بقية القضايا المطروحة على جدول أعمال الأمن / ضبط التسلح الإقليمي، قد لا يتبع في الشرق الأوسط بنفس الأسلوب الذي شهدته معظم الحالات السابقة تقريبا، وإنما في إطار «حزمة ترتيبات» أوسع نطاقا. فعملية الربط ستكون ضرورية إذا كان من المقدر أن تتحقق تحديدات هامة للتسلح في الشرق الأوسط، بل أن البعض يرى أن من المحتمل أن تكون عملية إنشاء WMDFZ تحديدا «أحد مخرجات» إقامة النظام الأمني في الشرق الأوسط، أكثر منها كواحدة من عناصر أو مهام إقامته، أي أنها قد لا تنشأ كجزء من الترتيبات الإقليمية الواسعة، وإنما بعد إقامة واستقرار تلك الترتيبات، فهي ليست من الخطوات الأولى في تلك العملية، وهو ما يحدث فعليا في الشرق الأوسط.

لكن رغم كل التعقيدات التي تواجه مشروع إقامة NWFZ في الشرق الأوسط، مثل كثير من المشروعات المماثلة المطروحة في أقاليم أخرى من العالم، على مستوى تشكيل المفهوم تبعا لظروف الإقليم، أو إمكانية تطبيقه وفق محدداته الذاتية، إضافة إلى ما تمليه أوضاع البيئة الإستراتيجية المحيطة به، فإن ما تم رصده وتحليله في هذا التقرير يشير إلى أنه لا يزال ينظر إليه على أنه مشروع واقعي، ليس «غير قابل للتطبيق»، وسوف يظل كذلك على الأرجح، طالما ظلت هناك مشكلة نووية لا يوجد مدخل دولي ملائم للتعامل معها أو كاف للإحاطة بها، في الشرق الأوسط، وطالما ظلت الأطراف العربية تعتبره خيارا متاحا - ربما لأنه الممكن - للتعامل مع هذه المشكلة، في ظل صعوبة إتباع خيارات أخرى.

فلم يؤد ما جرى حتى نهاية عام ٢٠٠٤ في إطار محاولات تطبيقه، إلى جعل NWFZ مفهوما غير مناسب، أو مشروع فاشل. ولا تزال العملية متوقفة تقريبا في انتظار فرصة أخرى لبدء تحريكها على طريقها الطويل، الذي لن تكون هناك ملامح واضحة لنهايته، طالما ظلت اتجاهات تأثير محددات إقامة NWFZ في المنطقة - خاصة العامل النووي - على ما هي عليه، وإن كان الأمر يتطلب - في النهاية - قيام مصر تحديدا بإعادة دراسة هذا الموضوع برمته، في اتجاه طرح تصور تفصيلي متكامل وواقعي، للكيفية التي يمكن بها إقامة WMDFZ / NWFZ في الشرق الأوسط. ■

طه حسين .. آراء أدبية

الدكتور محمد الدسوقى أستاذ من أساتذة الأدب العربى واللغة العربية، وهو أستاذ معروف فى الأوساط الأدبية والجامعية بالأخلاق الطيبة والاستقامة العلمية والإخلاص للثقافة والعكوف على العلم بعيداً عن الزحام والضوء والثرثرة. وكان الدكتور الدسوقى قبل أن يتفرغ لعمله كأستاذ جامعى أحد العاملين البارزين فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وفى سنة ١٩٦٤ اختاره الدكتور طه حسين بعد أن أصبح رئيساً للمجمع اللغوى سكرتيراً له، وظل الدكتور الدسوقى ملازماً لطه حسين حتى سنة ١٩٧٢، أى قبل وفاة طه حسين فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ بعام أو أقل من عام، حيث انتقل الدكتور الدسوقى إلى العمل فى الجامعة، واضطره وضعه الجديد إلى إنهاء فترة عمله مع طه حسين والتى استمرت حوالى ثمانى سنوات. وأنا لا أعرف شيئاً عن الدكتور الدسوقى الآن، وأرجو أن يكون فى خير حال، فهو رجل جاد وعالم فاضل وشخصية تستحق التقدير والاحترام.

فى خلال السنوات الثمانى التى كان فيها الدكتور محمد الدسوقى قريباً من طه حسين، يقرأ له ويصاحبه فى لقاءاته واجتماعاته المختلفة، استمع الدسوقى من طه حسين إلى آراء عديدة فى الأدب والثقافة والحياة، واستمع منه أيضاً إلى كثير من وجهات نظره الصريحة فى أدباء عصره، وكانت هذه الآراء «شفهية»، أى أن طه حسين لم يشر إليها فى كتاباته المعروفة من قريب أو بعيد، ورأى الدكتور الدسوقى أن ينشر ما سمعه من آراء طه حسين فى كتاب صغير عنوانه «طه حسين يتحدث عن أدباء عصره»، وقد صدرت لهذا الكتاب طبعتان عن «الدار العربية للكتاب فى ليبيا وتونس».

ويحدثنا الدكتور الدسوقى عن منهجه فى تسجيل آراء طه حسين فيقول: «إن هذا الكتاب الذى أقدمه عن علاقة العميد الرائد ببعض أعلام عصره، ليس فيه إلا رواية النصوص والأخبار كما سمعتها، وإن كنت قد أضفت إلى ما سمعت بعض النصوص التى أشار إليها العميد أو أكملت بعض ما تحدث عنه. وتلك الروايات والأخبار التى اشتمل عليها هذا الكتاب يتم نشر معظمها لأول مرة، ولذا تصبح لها قيمتها العلمية المهمة». ثم يقول الدكتور الدسوقى: «والذى أود الإشارة إليه أنى كنت أحرص أبلغ الحرص على ألا يعرف العميد أنى أدون شيئاً مما يقول، وكنت أسمع حديثه وأسجله فور سماعه تسجيلاً كاملاً إن استطعت، أو أدون أفكاره الأساسية ثم أعيد كتابة حديثه فى نفس اليوم بعد انتهاء اللقاء، ويعلم الله أنى ما تقولت على العميد الجليل، أو حذفت أى شىء مما قاله، وأنى كنت أهدف من وراء حرصى على التدوين لكل ما أسمع وأرى خدمة الفكر والتاريخ. على أننى قد أمسكت عن نشر بعض ما أفضى به العميد لأنه لا جدوى منه فى دراسة الحياة الفكرية لهؤلاء الأعلام فضلاً عما فى إذاعته من اهتزاز للصورة المشرقة لهم».

هذا هو تبرير الدكتور محمد الدسوقى لما قام به من تسجيل آراء طه حسين الشفوية ونشرها على الناس فى كتابه «طه حسين يتحدث عن أعلام عصره».



والحقيقة أن الكتاب - فى حد ذاته - هو كتاب ممتع، وهو يعطينا لوناً من ألوان الأدب غير مألوف فى ثقافتنا العربية، أعنى به أدب الصراحة والوضوح والمكاشفة والابتعاد الكامل عن المجاملة. وقد كان من الطبيعى أن تتوفر هذه العناصر جميعاً فى هذا الكتاب الصغير المثير، فقد كان طه حسين يتحدث دون أى تحفظ مع سكرتيره الذى يثق فيه وكأنه يتحدث مع نفسه. وفى مثل هذه الحالة لم يكن طه حسين مضطراً لأن يضع حساباً للاعتبارات الاجتماعية والعلاقات الإنسانية التى لابد أن تدفعه إلى التحفظ والحذر، كما أن طه حسين لم يكن يتصور مطلقاً أن ما يقوله فى هذه الجلسات الشخصية الخاصة سوف يتم نشره فى كتاب.

على أن هناك نقطة يمكن أن نتوقف أمامها وقفة النقد والمراجعة هى ما اعترف به الدكتور الدسوقى من أنه كان يسجل آراء طه حسين دون علمه ودون استئذانه، وذلك ولا شك يعود إلى أن الدكتور الدسوقى كان يريد لآراء طه حسين أن تكون عادية تماماً من أى تحفظ أو تردد فى إعلان تلك الآراء والتصريح بها، فذلك هو ما يضمن لهذه الآراء أن تكون أكثر إثارة، وأن تكون آراء

غيـــر مســـئولـــة!

رجـــــاء النـقـــــاش

جديدة لم يسمعها أحد أو يقرأها لطه حسين من قبل.

وهنا نتساءل: هل هذا الموقف هو أمر مقبول من ناحية الأخلاق العلمية الصحيحة؟ وهل يحق لأحد، مهما كانت نيته حسنة وطيبة، أن ينسب للآخرين آراء قالوا بها عفو الخاطر فى جلسات خاصة، دون أن يراجعوا أنفسهم فى مدى دقة هذه الآراء وصوابها واتفاقها مع الحقيقة والواقع؟ وهل يحق لأحد أن يعلن على الناس آراء للآخرين، دون أن يكون أصحاب هذه الآراء على علم بأنها سوف يتم إعلانها والكشف عنها للجميع؟

إن الثقافة العالمية تقدم إلينا نماذج رائعة لهؤلاء الذين أتيح لهم أن يكونوا تلاميذ لبعض الكبار، فنقلوا عنهم الكثير، ولكنهم وضعوا لهذا النقل ضوابط دقيقة، منها أن يكون ما يتم نقله مرتبطاً بحكمة الكبار وآرائهم الصائبة والعميقة فى الحياة، وقد حرص هؤلاء التلاميذ الأوفياء على تسجيل فلسفة أساتذتهم وما كانوا يرددونه من أفكار عالية سامية، بعد أن خشى التلاميذ على هذه الثروة أن تضيع وتتبدد، لأنها كلها كانت آراء شفهية غير مكتوبة.

ولاشك أن أبرز نموذج عرفه تاريخ الفكر الإنسانى فى هذا المجال هو نموذج أفلاطون «٤٢٨-٣٤٧ قبل الميلاد»، فقد نقل «أفلاطون» عن أستاذه «سقراط» كثيراً من آرائه وقام بتسجيلها فى كتابه الخالد «محاورات أفلاطون»، فقد كان سقراط لا يكتب آراءه وإنما كان يتحدث بها إلى تلاميذه ويتحاور معهم فيها، وكان أفلاطون هو أنبغ تلاميذ سقراط، فاستوعب محاورات أستاذه وسجلها بدقة وأمانة وأسلوب أدبى فنى جميل فبقيت «محاورات أفلاطون» المنقولة عن «سقراط» عملاً من أروع أعمال العقل الإنسانى على مر العصور والأجيال.

هناك تجربة أخرى معروفة فى الأدب العالمى هى تجربة الأديب الألمانى «إكرمان»، واسمه الكامل «يوهان بيتر إكرمان» «١٧٩٢ - ١٨٥٤»، و«إكرمان» هو تلميذ لأديب ألمانيا العظيم جوته «١٧٤٩ - ١٨٣٢»، فقد عاش «إكرمان» إلى جانب أستاذه «جوته» سنوات عديدة حرص فيها على تسجيل أفكاره الشفهية وآرائه المختلفة فى الأدب والحياة، والتى كان يقولها فى مجالسه الخاصة أو يفضى بها إلى تلميذه الأمين «إكرمان». وجاء كتاب «إكرمان» جامعاً لهذه الأحاديث، وكان عنوانه «أحاديث جوته»، وأصبح هذا الكتاب من الكتب الباقية التى يقرأها الناس فى ألمانيا وفى الغرب كله جيلاً بعد جيل، لأن فيها من الحكمة والفلسفة الصافية عن الحياة والإنسان والثقافة ما يكشف عن جوانب مضيئة وغير معروفة فى شخصية «جوته» العظيم. ويقول مؤرخو الأدب إن كتاب «إكرمان» هو أحد المراجع اللازمة لفهم تفكير جوته. وقد وصفه الفيلسوف نيتشه «١٨٤٤ - ١٩٠٠» بأنه «أعظم كتاب فى اللغة الألمانية».

والذى لا شك فيه أن سقراط كان يعرف أن تلميذه أفلاطون يقوم بتسجيل آرائه وأفكاره تسجيلاً دقيقاً، كما أن «جوته» كان يعلم أن «إكرمان» يقوم بتسجيل آرائه وأفكاره وكان راضياً عن هذا التسجيل ومشجعاً له.

فى مقابل هذا كله نجد الدكتور الدسوقى يعترف اعترافاً صريحاً فى مقدمة كتابه بأنه لم يستأذن طه حسين فى تسجيل آرائه، ولم يكن طه حسين يدرى أن مثل هذه الآراء سوف يتم نشرها على الناس فى يوم من الأيام. وكان من الممكن أن نتجاوز عن هذه الملاحظة لو أن ما جاء فى كتاب الدكتور الدسوقى كان آراء لطه حسين فى الأدب والفكر والحياة، فلا شك أن مثل هذه الآراء كانت سوف تحمل إلينا الكثير من خبرة طه حسين الطويلة مع تجارب الحياة والثقافة، خاصة أن طه حسين فى تلك الفترة التى ارتبط فيها مع الدكتور الدسوقى واتخذه سكرتيراً له كان قد تقدم فى العمر وبلغ قمة النضج، فقد ارتبط الدكتور الدسوقى مع طه حسين ابتداء من سنة ١٩٦٤ وحتى سنة ١٩٧٢. وكان طه حسين فى بداية هذه الفترة قد بلغ الخامسة والسبعين من عمره، وكان فى الثالثة والثمانين فى نهاية هذه المرحلة، أى سنة ١٩٧٢. إذ أن طه حسين هو من مواليد ١٨٨٩.

وبدلاً من ذلك كله فقد اختار الدكتور الدسوقى أن يعرض لنا بعض آراء طه حسين الخاصة والشخصية فى عدد من أعلام عصره، ممن اتصل بهم فى الجامعة أو فى الصحافة أو فى العمل العام، وجاءت بعض هذه الآراء أشبه بالصدمة، وكانت فى أحيان كثيرة تبدو آراء تجريحية عدوانية غير مسئولة. كما أنها جاءت خالية من أى دليل يثبتها ويؤكد صحتها، وهى آراء تحمل اتهامات خطيرة جداً لعدد من الشخصيات المهمة فى عصر طه حسين.



من أمثلة ذلك ما جاء على لسان طه حسين فى رواية الدكتور الدسوقى عن الدكتور محمد حسين هيكل حيث يقول:

«الدكتور هيكل لم يكن يؤلف كتبه، وإنما كان يكتبها له آخرون ثم ينسبها لنفسه، ومع هذا تشتمل على أخطاء علمية ضخمة» «صفحة ٨٢ من كتاب الدكتور الدسوقى».

وهكذا بكل بساطة يلغى طه حسين كاتباً من أكبر الكتاب العرب فى العصر الحديث وهو الدكتور محمد حسين هيكل. والدكتور هيكل «١٨٨٨ - ١٩٥٦» كان يكتب ويؤلف ويشارك فى الحياة السياسية منذ حصوله على الدكتوراة من السوربون سنة ١٩١١ وحتى وفاته سنة ١٩٥٦ عن ثمانية وستين عاماً. وللدكتور هيكل أعمال تاريخية وفكرية وأدبية بالغة الأهمية، فروايته المعروفة «زينب» التى ظهرت سنة ١٩١٤ ينظر إليها كثير من النقاد ومؤرخى الأدب على أنها أول رواية عربية تكتمل فيها العناصر الفنية للرواية بمعناها الصحيح، وبهذا المعنى فإن الدكتور «هيكل» يكون هو مؤسس فن الرواية الحديثة فى الأدب العربى المعاصر. ومن ناحية أخرى فإن كتابات الدكتور هيكل الإسلامية عن «حياة محمد» و«أبى بكر الصديق» و«الفاروق عمر بن الخطاب» و«فى منزل الوحى» تحتل جميعاً مكانة رفيعة فى ثقافتنا الحديثة وتجعل من مؤلفها الدكتور هيكل واحداً من أكبر المؤرخين الإسلاميين فى عصرنا الحاضر وفى كل العصور منذ ظهور الإسلام إلى الآن.

لقد بدأ الدكتور هيكل الكتابة فى أوائل القرن العشرين ولم يتوقف عن الكتابة حتى وفاته، ومعنى ذلك أنه ظل يكتب حوالى نصف قرن كتابة مؤثرة وناجحة ولها انتشار واسع بين جماهير المثقفين والمتعلمين العرب، ولم يحدث مطلقاً أثناء الحياة الفكرية الطويلة والخصبة للدكتور هيكل أن أثار أحد من الكتاب أو النقاد من قريب أو بعيد هذه التهمة العجيبة، وهى أن كتابات الدكتور هيكل ليس له فيها غير وضع اسمه عليها، فهى كتابات كتبها غيره ممن استغلهم الدكتور هيكل ووضع اسمه على أعمالهم من باب الاستغلال والتزوير.

والاتهام الذى جاء على لسان طه حسين ليس عليه دليل من أى نوع، فليس فى الاتهام تحديد لأسماء الذين كانوا يكتبون للدكتور هيكل، أو استشهاد باسم واحد من هذه الأسماء. وفى المقابل فإننا نجد أمامنا دليلاً عقلياً منطقياً يقف إلى جانب الدكتور هيكل ويدافع عنه، وهو أن هناك «وحدة» فى المنهج والأسلوب فى كتابات الدكتور هيكل، مما يؤكد أنها كلها صادرة عن شخصية فكرية واحدة، والمفروض أن تكون هذه الشخصية هى شخصية الدكتور هيكل نفسه، ولكن الكلام المنسوب إلى طه حسين يشير إلى أن هناك أشخاصاً متعددين وراء كتابات هيكل، ولا





هل يحق لأحد، مهما كانت نيته حسنة وطيبة، أن ينسب للآخرين آراء قالوا بها عفو الخاطر فى جلسات خاصة، دون أن يراجعوا أنفسهم فى مدى دقة هذه الآراء وصوابها واتفاقها مع الحقيقة والواقع؟



يستطيع أى منهج علمى دقيق أن يقبل وجود عدة أشخاص وراء كتابات الدكتور هيكل، لأن الذى كتب هذه المؤلفات هو شخص واحد، له أسلوب خاص به. وله منهج محدد متميز فى التفكير. ولو افترضنا صحة اتهام طه حسين فمن الضرورى أن يكون وراء كتابات الدكتور هيكل شخص واحد كتب كل هذه الكتابات الخصبة الرائعة، وضحى بنفسه وجهده، وسمح للدكتور هيكل بوضع اسمه على هذه الكتابات. فمن هو هذا الشخص الذى كتب مؤلفات الدكتور هيكل؟ ولماذا رضى أن يقدم كل هذه الأعمال الفكرية والأدبية البارزة إلى الدكتور هيكل ويختفى تماماً وراء هذا الاسم. ويسمح لاسمه الشخصى وموهبته العالية أن يسقطا نهائياً من تاريخ الفكر والثقافة؟ وهل من الممكن أن يكون هناك مفكر وأديب لديه كل هذا العمق وهذه الخصوبة يرضى لنفسه أن يبيع ثقافته وموهبته لشخص آخر بهذه الطريقة المكشوفة وغير المنطقية؟ وما هو المقابل الذى يمكن أن يحصل عليه شخص يقوم بهذه التضحية؟ هل يكون ذلك فى مقابل المال؟ إن المعروف أن الدكتور هيكل قد كسب الكثير من كتبه ومؤلفاته، ولعله كان أول صاحب قلم فى الثقافة العربية المعاصرة يجنى ثروة كبيرة بمقاييس عصره من مؤلفاته، وخاصة كتابه «حياة محمد» الذى لا يزال يعاد نشره إلى الآن وقد تجاوزت طبعاته العشرين، وهو أمر نادر بالنسبة لأى كتاب عربى مهما كانت أهميته وقيمته. ولو كان هناك شخص يكتب للدكتور هيكل، فلا شك أنه كان يملك من العقل والوعى ما يجعله على معرفة بالعائد المادى الكبير الذى حصل عليه الدكتور هيكل من مؤلفاته، حتى يقال إن الدكتور هيكل بنى لنفسه بيتاً كبيراً أنيقاً فى حى الدقى من الأموال التى عادت عليه من كتاب «حياة محمد» فقط. وليس من المعقول أن يعرف الشخص الذى يقال إنه كان يؤلف كتب الدكتور هيكل ذلك كله، ويرضى به ويسكت عنه ويبيع مثل هذا الإنتاج الفكرى الناجح لشخص آخر مقابل أموال كان من الممكن أن يحصل على أضعافها من هذا الإنتاج نفسه.

إن رأى طه حسين فى الدكتور هيكل والذى أورده الدكتور الدسوقى على لسانه فى كتابه «طه حسين» يتحدث عن أعلام عصره» هو رأى غير مسئول، ولا يمكن لأى مقياس علمى مستقيم ونزيه أن يتقبله أو أن يسلم به.

رأى آخر جاء على لسان طه حسين هو رأيه فى الدكتور زكى مبارك حيث يقول عن سبب خروج زكى مبارك من عمله كأستاذ فى جامعة القاهرة فى ثلاثينيات القرن الماضى ما يلى:

«إن خروج زكى مبارك من الجامعة يرجع إلى سلوكه الشخصى، فقد كان هذا السلوك يتنافى مع كرامة أستاذ الجامعة، وقد ذكر لى فؤاد سراج الدين أنه - أى سراج الدين - كان ينجح فى الامتحان حين كان يدرس بكلية الآداب قبل أن يتلقى دروس كلية الحقوق، حيث كان النظام فى ذلك الحين يفرض على طلبة الحقوق أن يدرسوا فى كلية الآداب بعض المناهج فى اللغة والأدب قبل دراسة علوم الحقوق.. ذكر لى فؤاد سراج الدين أنه كان لا يذاكر علوم الآداب، وكان يعطى لأستاذه فى هذه العلوم زكى مبارك زجاجة كولونيا فينجح فى الامتحان». «صفحة ٤٩ من كتاب الدكتور الدسوقى».



وهكذا بكل بساطة، وعلى لسان طه حسين، أصبح واحد من أكبر الأدباء والمفكرين العرب فى القرن العشرين وهو زكى مبارك «١٨٩١ - ١٩٥٢» متهماً ببيع «ذمته العلمية» بزجاجة كولونيا، وهذا أيضاً كلام غير مسئول، فالثابت أن الذى أخرج زكى مبارك من الجامعة سنة ١٩٣٤ هو طه حسين الذى كان رئيساً لقسم اللغة العربية، وكان زكى مبارك مدرساً فى هذا القسم، وعندما حان موعد تجديد عقد زكى مبارك رفض طه حسين أن يوافق على هذا التجديد، وكانت موافقة رئيس القسم شرطاً لذلك، وقد أطلق طه حسين عبارة أصبحت مشهورة عنه يبرر فيها رفضه لتجديد عقد زكى مبارك. وفى هذه العبارة يقول «إن أحداً لم يستشرنى فى تعيين زكى مبارك وأنا لا أقبل أن أستشار فى تجديد عقده». وهذا الكلام الذى جاء على لسان طه حسين هو هروب لفظى من المسئولية، أما نتيجته العملية فكانت إخراج زكى مبارك من عمله كمدرس فى الجامعة. وقد كان موقف طه حسين من زكى مبارك موضع نقد شديد من بعض كبار أدباء مصر فى تلك الفترة «سنة ١٩٣٤»، وكتب الكاتب الكبير إبراهيم عبد القادر المازنى مقالاً يهاجم فيه موقف طه حسين، وكان مقال المازنى عنوانه «طه حسين بين البغى والعقوق» وفيه يقول، وأنا أنقل هذا النص من كتاب «عبقرى من سنتريس - زكى مبارك الملاكم الأدبى» للأستاذ محمد رضوان: «إن الدكتور طه حسين أصبح ممن يملكون إشباع البطون وإجاعتها وأنه صار يضرب اللقمة التى ترتفع بها اليد إلى الفم ويجعلها تطير فتسقط على الأرض لتفوز بها الكلاب ويحرم منها الإنسان». أما زكى مبارك نفسه فقد علق على موقف طه حسين من التجديد له وحرمانه من عمله فى الجامعة بعبارة مشهورة جداً كان أدباء الجيل الماضى يحفظونها ويرددونها لطرافتها وعنفها معاً، فقد قال زكى مبارك «لو جاع أولادى» بسبب إخراجى من عملى فى الجامعة «لشويت لهم طه حسين وأطعمتهم لحمه»!



إن زكى مبارك هو أديب كبير وصاحب إنتاج ثقافى وأدبى غزير ومعروف بقيمته العالية، فهو صاحب «التصوف الإسلامى» و«النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى» و«عبقرية الشريف الرضى» و«ليلى المريضة فى العراق» و«المدائح النبوية» و«مدامع العشاق» وغيرها من روائع الأدب والفكر والتاريخ، مما يرفع مقام زكى مبارك ليكون واحداً من أكبر زعماء الأدب العربى فى القرن العشرين. وزكى مبارك له مواقف معروفة، ومعارك مكشوفة، وكل شىء فى تاريخه يؤكد تعرضه لمتاعب ضخمة بسبب صراحته وأمانته العلمية الصارمة، ولو كان زكى مبارك ممن يبيعون ذمتهم العلمية، بالهدايا والرشاوى، أو ممن يعرضون أقلامهم فى مزادات البيع والشراء، لاتجه إلى ما هو أنفع وأنجح فى ميدان الانتهازية وسوق الانتهازيين، فقد كان زكى مبارك يعيش فى عصر تتقاتل فيه الأحزاب السياسية الكبرى لشراء الأقلام وتزيين صدرها بأسماء كبار الكتاب، وكان قلم زكى مبارك قلماً ذهبياً، وكانت كلماته ساحرة، وكان أى حزب يتمناه ليكون قوة استثنائية فى الدفاع عن هذا الحزب ومهاجمة خصومه، ولم يكن أى حزب يتردد فى شراء قلم زكى مبارك بأعلى سعر، ولكن زكى مبارك رفض ذلك كله وعاش فى ضائقة اقتصادية حتى نهاية حياته سنة ١٩٥٢. فقد كان شديد الحرص على حريته واستقلال كلمته وتوجيه جهوده إلى البحث العلمى والأدبى، وزكى مبارك هو ولا شك واحد من أكبر الأدباء والمفكرين أصحاب الكرامة والعفة والأمانة بين كل أدباء العرب فى كل العصور، والكلام الذى جاء على لسان طه حسين عن زكى مبارك هو كلام غير مسئول مثله فى ذلك مثل الكلام الذى سبقه عن الدكتور هيكل.

والذين يدرسون أدب زكى مبارك وحياته سوف يجدون أنه كان فى غاية الصدق عندما قال عن نفسه يوماً: «لو كان زكى مبارك قد أنفق نشاطه فى الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء، ولكنه - بلا أسف - سيموت فقيراً لأنه أنفق نشاطه فى خدمة الأدب العربى».

ونتوقف أخيراً عند الكلام المنسوب إلى طه حسين عن الدكتور محمد مندور «١٩٠٧ - ١٩٦٥» حيث جاء على لسان طه



هكـــــذا بكل بســاطة، وعلى لسـان طـه حسين، أصبح واحد من أكبر الأدبـاء والمفكـرين العـرب فى القـرن العشـرين وهـــو زكى مبـــارك ١٨٩١ـ ١٩٥٢ «متهماً ببيـع «ذمته العلمية» بزجاجة كولونيا»!

حسين قوله: إن الدكتور مندور ليس ذا بال فى الثقافة وليس له دور فكرى مهم فى حياتنا الثقافية فى هذا القرن، أى فى القرن العشرين، وكتاب مندور عن «النقد المنهجى عند العرب» كتاب «هايف»، وهذا الكتاب هو رسالة دكتوراة تقدم بها مندور إلى جامعة القاهرة. وكنت أنا أى طه حسين. «قد أوفدته فى بعثة إلى باريس وبقى هناك تسع سنوات ولم يتمكن طوال هذه المدة إلى من الحصول على درجة الليسانس فى اليونانى بسبب لهوه وعبثه وعدم إخلاصه للعمل العلمى وبعد عودته من باريس قدم ذلك الكتاب كرسالة حصل بها على الدكتوراة!» «ص٨٣ من كتاب الدكتور الدسوقى».



هذا هو الكلام المنسوب إلى طه حسين عن محمد مندور وهو كلام غير مسئول أيضاً، فإن محمد مندور هو أحد رواد النقد فى الأدب العربى المعاصر، كما أنه أحد رواد النقد فى الأدب العربى المعاصر، كما أنه أحد المفكرين السياسيين الكبار الذين تصدوا للدفاع عن الحرية والعدالة، ودخل السجن بسبب جرأته وشجاعته وصراحته فى الحرب على الطغيان السياسى والظلم الاجتماعى. وجهود مندور فى النقد الأدبى والفكر السياسى هو جهود كبيرة وبالغة القيمة والأهمية وهو على الإجمالى شخصية أدبية وسياسية لها وزنها ودورها وأهميتها الكبيرة ولا يمكن الحديث عنها بمثل هذه الخفة، ومن العجيب حقاً أن يصدر مثل هذا الكلام عن أديب ومفكر فى حجم طه حسين وعلمه وأستاذيته. وما جاء على لسان طه حسين عن كتاب مندور «النقد المنهجى عند العرب» هو كلام بعيد عن الحقيقة تماماً، فهذا الكتاب ليس فيه «هيافة» كما قيل عنه بل هو مرجع أساسى لكل الباحثين فى تاريخ النقد العربى ومدارسه المختلفة منذ صدور الكتاب فى أربعينيات القرن الماضى إلى اليوم.

وأخيراً.. هل نعتبر طه حسين «مسئولاً» عن هذه الآراء «غير المسئولة» أو أن المسئولية فيها تقع على غيره؟

أعتقد أن مسئولية طه حسين عن هذه الآراء محدودة جداً، ويمكن لأى باحث أن يشك فى صحة هذه الآراء وفى نسبتها إلى طه حسين، وخاصة أنه لا يوجد لها أى أصول أولية فى كتب طه حسين. وإذا أعفينا طه حسين من مسئوليته عن هذه الآراء فإن المسئول عنها يكون هو الذى نقلها على لسان طه حسين، ودون إذنه أو معرفته بذلك أو تصريح منه بإعلانها على الناس. والذى نقل هذه الآراء هو الدكتور محمد الدسوقى فى كتابه «طه حسين يتحدث عن أعلام عصره». وقد كتبت من قبل نقداً لهذا الكتاب، وأعود اليوم إلى هذا النقد حتى لا يتعرض الباحثون فى أدبنا المعاصر لأى خطأ إذا اعتبروا هذا الكتاب مرجعاً علمياً يمكن الاعتماد عليه والأخذ بما جاء فيه. وأنا لا أتهم الدكتور الدسوقى بالكذب على طه حسين، ففى حدود معرفتى المحدودة به أثق كل الثقة بأنه رجل فوق الكذب وفوق الافتراء والتلفيق، ولكن الدكتور الدسوقى فى تقديرى قد تعرض لخطأ لابد من الإشارة إليه، وهو أنه اعتبر الآراء التى سمعها من طه حسين آراء يصح نقلها إلى الناس، رغم أن هذه الآراء كانت آراء يلقيها طه حسين فى جلسات خاصة جداً، وهى جلسات راحة واسترخاء لا يراجع فيها نفسه ولا يدقق فيما يقوله، كما أن هذه الآراء قد وردت على لسان طه حسين فى شيخوخته، وبعد أن تجاوز الخامسة والسبعين، ومن المحتمل جداً أن ذاكرته فى هذا العمر كانت قد ضعفت، وربما ردد طه حسين بعض هذه الآراء بتأثير مشاكل قديمة وقعت بينه وبين بعض رجال عصره، وهذه الظروف التى صدرت فيها هذه الآراء لطه حسين تجعل من هذه الآراء مطعوناً فى صحتها ودقتها وانضباطها العلمى. وأظن أنه كان على الأستاذ الفاضل محمد الدسوقى أن ينتبه إلى هذه الأمور جميعاً وأن يضعها فى اعتباره، ولعله لو فعل ذلك لما أصدر هذا الكتاب بهذه الصورة، وقد كان من الأفضل أن ينقل آراء طه حسين فى الحياة وبعض خبراته فى تجاربه الإنسانية والثقافية الواسعة. وليس من المعقول أبداً أن يكون الدكتور محمد الدسوقى قد عمل مع طه حسين وقريباً منه كل هذا القرب الشخصى الذى كان يسمح له بالدخول إلى طه حسين فى غرفة، ثم يقول لنا الدكتور الدسوقى فى كتابه إنه لم يسمع من طه حسين طيلة ثمانى سنوات متصلة، من ١٩٦٤ إلى ١٩٧٢، إلا سب الناس والتشهير بهم والتشكيك فيهم وتصغير شأنهم بإلقاء مجموعة من الاتهامات الخطيرة عليهم، وهى جميعاً اتهامات لا يساندها أى دليل أو برهان. ■

كتاب الزاوية



يحيى حقى

كناسة الدكان

مطلوب منى أن أكتب هنا سيرتى الذاتية:

التحدث عن النفس!

يا له من لذة ساحرة، تواضعها زائف.

يا له من ملل فظيع، يستحب معه الانتحار.

أغلب أحاديثنا - بعد كلمتين ليس غير - تتحول من الموضوع - أياً كان - إلى الذات، الشكوى أو الافتخار، ولكنى أحس أنهما ينبعان من نزعة واحدة متكتمة: استجداء تبرير الوجود.

وأنت معذور حين تقرأ هذه السيرة بعد قليل إذا حكمت - ولا أقول ظننت - أننى لكى أكتبها قد تزينت وجلست أمام مرآة أتغزل، (كم أود أن يكون بين الاختبارات النفسية دراسة مجاوبة الشخص لصورته فى المرآة: العجب، عدم التصديق، الافتتان، النفور) ولكن ثق - وهذا عشمى فيك إن كنت لا تعرفنى - أن شيئًا من هذا لم يحدث.

هكذا بدأ يحيى حقى كتابه الرائع «كناسة الدكان.. سيرة ذاتية» وهو يضم أطرافًا من السيرة الذاتية للكاتب الراحل حيث نعيش معه فى عوالم ربما لم تعد الآن سوى تاريخ، فقد تغير كل شىء سواء المكان أو الإنسان.. لكى يبقى ما خطه قلم يحيى حقى معبرًا عن تلك الرحلة الطويلة بأفضل ما يكون التعبير ليقدم لنا فى النهاية أدبًا تتلقفه الأجيال فى شغف جيلاً بعد جيل. وبمناسبة ذكرى ميلاده المائة التى مرت فى ٧ يناير الماضى تحتفى «وجهات نظر» بالأديب الكبير من خلال تقديم مقتطفات من سيرته الذاتية «كناسة الدكان» والتى أصدرتها دار الهلال فى يناير ١٩٩٢.

"تسونامي".. أولها لا آخرها



هل سيغدو الجنس البشري
موضوعا للصنع حسب الأصول باللجوء
الواسع النطاق إلى البيوتكنولوجيات الثقيلة
من أجل تصنيع أنواع بشرية أو ما بعد بشرية
من البوكيمون؟ وهل نحن متجهون نحو
غزو يقوم به بَشَر معدَّلون جينيا؟



قرن جديد..

يؤكد المؤرخ جان ديليمو Jean Delumeau أنه «في تاريخ الجماعات تتغير المخاوف، ولكن يبقى الخوف». وإلى القرن العشرين، كانت المصائب الكبرى التي تصيب البشر تنشأ بصورة رئيسية عن الطبيعة، والبرد، والتقلبات الجوية، والفيضانات، والتدميرات، والحرائق، والمجاعات، والآفات كالطاعون، والكوليرا، والدرن، والزهري. وقديما عاش الإنسان في بيئة مهددة على الدوام. وكانت المصائب تتربص به بصورة يومية.

وتميز النصف الأول من القرن العشرين برعب الحربين العظميين، حربي ١٩١٤ - ١٩١٨ و١٩٣٩ - ١٩٤٥. الموت على أوسع نطاق، الهجرات الجماعية، التدميرات الشاملة، الملاحقات، معسكرات الترحيل والإبادة. وبعد الحرب العالمية الثانية والتدمير الذري، في ١٩٤٥، لهيروشيما ونجازاكي، عاش العالم تحت وسواس الكارثة النووية. هذا الخوف الذي هدأ قليلا قليلا عند نهاية الحرب الباردة وبعد توقيع معاهدات دولية لحظر الانتشار النووي.

الرعب النووي

غير أن وجود هذه المعاهدات لم يؤدِّ إلى اختفاء المخاطر بصورة كلية. فقد أعاد انفجار مفاعل تشيرنوبيل، في ٢٦ أبريل ١٩٨٦، الرعب النووي بكل قوته. وفي وقت أحدث، أول أكتوبر ١٩٩٩، وقع حادث معمل توكايمورا Tokaïmura، اليابان. ومذهولا بما حدث، اكتشف الرأي العام الدولي عندئذ أنه حتى في بلد كاليابان، معروف بتقنيته العالية، كان يجرى خرق المبادئ الأولية للأمن بصورة منتظمة، مما يعرِّض للخطر صحة وحياة مئات الآلاف من الناس.

وحدث أيضا، في ١٣ أكتوبر ١٩٩٩، أن اتخذ مجلس الشيوخ الأمريكي قراره الذي لا يُصدِّق برفض التصديق على معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية Titen، ضد رأي الرئيس ويليام كلينتون. ويظل هذا الرفض، القائم على حجج سياسية بصورة بائسة، خطورة استثنائية. كارثة حقيقية على أمن الكوكب. لأنه يمكن تفسيره على أنه تفويض ممنوح بالاستئناف العام للتجارب الذرية. إنه يتعدى على مبدأ عدم الانتشار النووي، ويجرد من الشرعية من الآن فصاعدا كل ضغط من واشنطن لصالح وقف التجارب الذرية.

واشنطن، التي ألغت، في نهاية ٢٠٠١، رغم عدم موافقة موسكو، معاهدة ١٩٧٢ للحد من نشر الصواريخ المضادة للصواريخ ABM، بغرض الحماية ضد الأخطار التي تنطوي عليها المنجزات في الشأن الباليستي لعدد من الدول (منها باكستان، وإيران، وكوريا الشمالية). وبعد هذا الرفض من جانب مجلس الشيوخ الأمريكي، كان بوسع روسيا والصين، اللتين كانتا لم تقوما بعد بالتصديق على معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية، أن تجدا ذريعة لإجراء تجارب جديدة بهدف تصغير حجم معداتهما، كما فعلت فرنسا من قبل في ١٩٩٥.

ومن جهته، ادعى رئيس الوزراء الفرنسي ليونيل جوسبان أنه آخذا «من الآن فصاعدا في الاعتبار الأسلحة الباليستية وأسلحة الدمار الشامل التي جهزت نفسها بها قوى بعينها» مستعد للتصدي لـ«تحديث» و«تطوير» الترسانة النووية لفرنسا بهدف «تحدِّي نشوء تهديد ضد مصالحها الحيوية، أيًا كان مصدره. حتى إنْ كان بعيدا. أو طبيعته، أو شكله». ولا شك في أن السيد جوسبان كان يفكر، بين بلدان أخرى، في باكستان، القوة النووية الجديدة، التي جرت الإطاحة، في ١٢ أكتوبر ١٩٩٩، بسلطاتها المدنية، المنتخبة ديمقراطيا، من جانب الجيش والجنرال برفيز مشرف.

تهديدات للهوية

في أوروبا الغربية، تميز النصف الثاني من القرن العشرين بالتهدئة التدريجية للنزاعات المسلحة وبتحقيق رخاء شبه عام. فقد تحسنت شروط المعيشة بصورة ملحوظة. وارتفع العمر المتوقع عند الولادة إلى مستوى لم يتم بلوغه في الماضي.

وسوف يتساءل مؤرخو العقليات ذات يوم عن السر وراء مخاوف أعوام العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وسوف يكتشفون، باستثناء الإرهاب الذي يلاحق المجتمعات الغربية منذ ١١ سبتمبر، أن هذه المخاوف الجديدة لم تعد كما كانت منذ عهد قريب ذات طابع سياسي أو عسكري (نزاعات مسلحة، ملاحقات، حروب). لقد صارت بالأحرى ذات طابع اقتصادي واجتماعي (كوارث في البورصات، تضخم فائق hyperinflation، إفلاسات شركات، تسريحات جماعية من العمل، صور جديدة من الفقر)، وحتى ذات طبيعة صناعية (حوادث مرعبة كما في ميناماتا Minamata، أو سيفيزو Seveso، أو بوبال Bhopal، أو تولوز Toulouse)، وإيكولوجية (اختلال الطبيعة، ثورات البيئة، النوعية الصحية للغذاء، التلوثات من كل الأنواع). وهي تخص الجماعة بقدر ما تخص الفرد (الصحة، الغذاء) والهوية (الإنجاب الصناعي، الهندسة الوراثية).

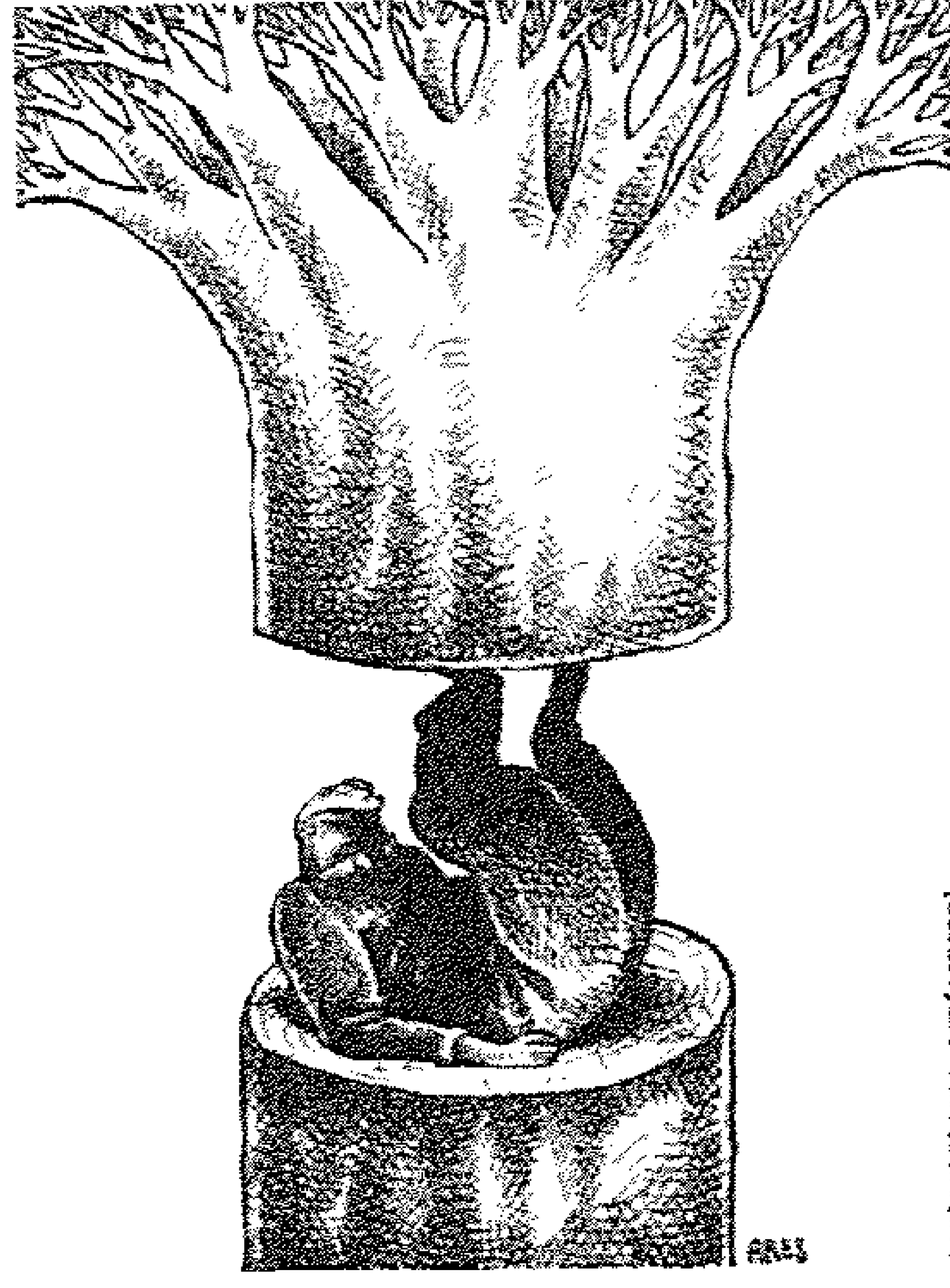
وهذا الجانب الأخير على وجه التحديد يشغل الأذهان بصورة متزايدة. ذلك أن قدرات التدخل في التراث الجيني لا تكف عن التعاظم. كما أن إنتاج الحيوانات المعدلة جينيا، والاستنساخ، وتحديد تسلسلات الجينوم البشري، والعلاج الجيني، ومنح براءات الكائن الحي، والفحص الجيني للأمراض الوراثية، واستخدام التجارب الجينية، تثير جميعا مخاوف خفية.

ونتذكر أنه، منذ الستينيات والسبعينيات، أكد باحثون، في الولايات

فصل من كتاب:
Guerres des XXIe siècle
(حروب القرن الواحد والعشرين)
par Igncio Ramonet
Galilée, Paris, 2002
يصدر قريبا باللغة العربية

إينياسيو رامونيه

ترجمة: خليل كلفت



مخاوف جديدة!

المتحدة، مثل الدكتور خوسيه ديلجادو José Delgado، وهو أحد الأنصار الأكثر حماسا للسيطرة على العقل بهدف الوصول إلى «مجتمع متحضر سيكولوجيا»، أن المسألة الفلسفية الأساسية لم تعد: «ما هو الإنسان؟»، بل: «ما نوع الإنسان الذى ينبغى أن نقوم بتصنيعه؟».

وقد توقع البروفيسور مارفن مينسكى Marvin Minsky، أحد آباء الكمبيوتر، أنه: «فى عام ٢٠٣٥، ربما سيكون المعادل الإلكترونى للمخ، بفضل تكنولوجيا النانو nanotechnologie، أصغر من طرف إصبعك. وهذا يعنى أنه سيتوفر لك بداخل جمجمتك، كل الحيز الذى تريده لتزرع فيه أنظمة وذاكرات إضافية. وعندئذ، سيكون بإمكانك، شيئا فشيئا، أن تتعلم أكثر كل سنة، وأن تضيف أنواعا جديدة من الإدراكات، وطرقا جديدة للتفكير، وأنماطا جديدة للتصور والتخيل».

كما أكد الباحث الأمريكى فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama، من جانبه، أنه «من الآن وحتى الجيلين المقبلين، سوف تمنحنا البيوتكنولوجيات الأدوات التى سوف تسمح لنا بإنجاز ما لم ينجح المتخصصون فى الهندسة الاجتماعية فى عمله. ففى هذه المرحلة، سنكون قد تخلصنا نهائيا من التاريخ البشرى، لأننا سنكون قد نسينا الكائنات البشرية بما هى كذلك. وعندئذ سيبدأ تاريخ جديد، فيما وراء ما هو بشرى».

العلم والخيال

منذ استنساخ النعجة دوللى، فى فبراير ١٩٩٧، نعلم أن استنساخ الإنسان صار فى متناول المختبر. وقد تجاوز العلم قصص الخيال العلمى إلى حد أنه قام بما هو أكثر من «طريقة بوكانوسكى» procédé Bokanosky كما تخيله ألدوس هكسلى Aldous Huxley فى روايته عالم جديد رائع Brave New World «أفضل العوالم Le Meilleur des Mondes، حسب الترجمة الفرنسية. المترجم». فالنعجة دوللى لم تنتج عن أى تخصيب: لقد تم تخليق جنينها عن طريق دمج بسيط لنواة خلية بالغة adulte بالبويضة المستخرجة من نعجة حبلى. ومنذ ذلك الحين، تم استنساخ فئران فى هاواى، وخراف فى نيوزيلندا واليابان، وماعز فى أمريكا الشمالية، إلخ. ومنذ ١٩٩٨، قدرت المجلة العلمية البريطانية ذى لانسيت The Lancet أنه، رغم التحذيرات الأخلاقية والعالمية، صار تخليق الكائنات البشرية عن طريق الاستنساخ «أمرا لا مناص منه»، وطالبت المجتمع الطبى بـ «إقراره من الآن».

وإنما بهذا الروح أعلنت وسائل الإعلام ميلاد عصر جديد فى ٢٦ يونيو ٢٠٠٠، تاريخ فكّ شفرة قرابة ٣ مليارات من الأزواج القاعدية المتسلسلة على طول الـ ٢٣ من الكروموزومات يتألف منها تراثنا الوراثى. وسوف يسمح هذا بتحديد تسلسلات séquençage الجينات المرتبطة ببعض الأمراض. وكإمكانية كامنة فإن المكاسب التى سيجنيها البشر هائلة، حيث يفتح فرز (تحديد، تمييز: فصل) جين مسئول عن مرض وراثى الطريق أمام اكتشاف علاج ممكن وأمام الشفاء منه.

غير أننا ما نزال بعيدين عن الإمساك بالمعيار الدقيق للنتائج المنطقية لهذا الاكتشاف، الذى يمكن أن ينتهى إلى انحرافات خطرة. والحقيقة أن علم الوراثة la génétique يتيح للإنسان من الآن، كما كان الحال دائما، بـ «استحواذ وحشى للعالم»، الطبعة الجديدة من العبودية esclavagisme أو استغلال الموارد الطبيعية، كما أوضحت المشاريع الاستعمارية الكولونيالية». ذلك أن منح براءات تخليق الجينات إنما ينتهى إلى خصخصة التراث المشترك للبشرية. كما أن بيع المعلومات لصناعة الدواء، التى ستحتفظ بهذه المعلومات لبعض أصحاب الامتيازات، يهدد بتحويل هذا الإنجاز العلمى الكبير إلى مصدر جديد للتفرقة.

نحو إيوجينية جديدة؟

وفضلا عن هذا، تجسد الهندسة الوراثية إيوجينية Eugènisme[1] من طراز جديد فاتحة الباب على نوع من ما بعد البشرية transhumainité. ألا نرى فى هذا انبعاث شبح «الطفل الكامل» l'enfant parfait، الذى يتم اصطفاؤه على أساس تفوق شفرته الجينية.

والحقيقة أن مجتمعاتنا لاتكاد تجرؤ على الاعتراف بهذا. إذ يستولى عليها رعب لا يوصف: هل سيغدو الجنس البشرى موضوعا للصنع حسب الأصول؟ باللجوء الواسع النطاق إلى البيوتكنولوجيات الثقيلة؟ من أجل تصنيع أنواع بشرية أو ما بعد بشرية transhumains من البوكيمون Bokémon[2]؟ وهل نحن متجهون نحو غزو يقوم به بَشر معدّلون جينيا (humains génétiquement modifies HGM)...؟

والمواطنون ليسوا فقط قلقين إزاء التلاعبات الجينية الجارية. فالتحذيرات الإيكولوجية التى جرى إطلاقها أثناء مؤتمر ريو فى ١٩٩٢ قد نبهتهم أيضا إلى الأخطار المرتبطة بالنهب الراهن للكوكب.

وعلى أمل تهدئة هذه المخاوف، ومن أجل بحث التدابير التى يجب اتخاذها فى مواجهة دفء (احترار) الأرض الذى يرجع إلى زيادة غازات الدفيئة، اجتمع ممثلو مائة وخمسين بلدا فى كيوتو، اليابان فى ديسمبر ١٩٩٧ .

وقد عقد هذا المؤتمر الرئيسى فى اللحظة التى كانت آسيا تهتز فيها، كما نتذكر، نتيجة سلسلة من الكوارث المالية والإيكولوجية.

فبعد تقديمها منذ وقت طويل من جانب الهيئات الاقتصادية الكبرى . البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى، ومنظمة التعاون الاقتصادى والتنمية، ومنظمة التجارة العالمية ، وكذلك من جانب المتملقين لما فوق الليبرالية ultraliberalisme، باعتبارها المثل المعاكس لـ «إخفاق العالم الثالث»، والنموذج الذى تنبغى محاكاته، شهدت «النمور» القديمة (هونج كونج، سنغافورة، تايوان، كوريا الجنوبية) والجديدة (ماليزيا، إندونيسيا، تايلندا، الفليبين)، فى خريف ١٩٩٧، سلسلة من الاضطرابات البالغة الخطورة فى بورصات الأوراق المالية.

وبعد انهيار بورصة هونج كونج، غرقت الأسواق المالية فى القارات الخمس. بدءاً بـ وول ستريت. فى اضطرابات، وأطلقت شبح

انهيار مالى فى النظام النقدى العالمى أخذ يحوم فوق العالم...

على أن نموذج النمو القائم على أيدٍ عاملة رخيصة، وعملة مخفضة القيمة، وصادرات مفرطة، وأسعار فائدة مرتفعة لجذب المستثمرين، المضاربين الدوليين، وكل هذا محاط بنظام استبدادى، بدا بعد الكارثة الآسيوية فى ١٩٩٧، أقل نموذجية، بل حتى بالغ الخطورة.

كما أن بعض البلدان الأكثر تأثرا بهذه الأعاصير فى البورصات، إندونيسيا وماليزيا، أصيبت فضلا عن هذا بكوارث إيكولوجية على نطاق بالغ الضخامة. فبعد أن أفلتت من كل سيطرة، دمرت آلاف الحرائق الضخمة غابات جزر سومطرة، وبورنيو، وجاوة، وسولاويزى، مساحة تزيد على ٨٠٠ ألف هكتار.... كما أن سُحبًا فى ضخامة نصف قارة، من الأدخنة السامة غطت بالسناج وأغرقت فى شبه ظلام مدنا مثل كوالالومبور، متسببة فى سلسلة من الحوادث (تحطم طائرة إيرباص: ٢٣٤ قتيلاً، تصادم بحرى: ٢٩ قتيلا).

ومن الجلى أن الكارثتين، كارثة البورصة والكارثة البيئية، مترابطتان، لأنه إذا كانت هذه الحرائق تعزَى جزئيا إلى الجفاف الناتج عن ظاهرة مناخية دورية، تدعَى النينيو El Nino، فإن السبب الرئيسى للكارثة يكمن فى سياسة الإزالة الواسعة النطاق للغابات: هذه السياسة المتبعة، منذ عقود، على أساس نموذج مضاربة انتحارى، ومطبوع بطابع الإنتاجوية الفائقة hyperproductiviste، ومتمحور على الصادرات دون غيرها.

وباسم خلط مثير بين النمو والتنمية، تواصل دول الشمال والجنوب على هذا النحو تدمير نسق systématique البيئات الطبيعية. وتتوالى التخريبات من كل نوع، الواقعة على التربة، وعلى المياه، وعلى الغلاف الجوى. الحضرنة المتسارعة، وإزالة الغابات المدارية، وتلويث طبقات المياه الجوفية، والبحار، والأنهار، واحترار المناخ، وإفقار طبقة الأوزون، والسحب الحمضية: إن كل هذه التلوثات تهدد مستقبل البشرية بالأخطار.

وتختفى ستة ملايين هكتار من الأراضى القابلة للزراعة كل عام نتيجة التصحر. وفى كل مكان، يتسبب التحات، وفرط الاستغلال، فى القضم بإيقاع متسارع لمساحة الأراضى المزروعة. كذلك فإن التوازنات الإيكولوجية هشة نتيجة للتلوث الصناعى فى بلدان الشمال ونتيجة لفقر بلدان الجنوب (إزالة الغابات، اختفاء إراحة الأراضى).

والحقيقة أن أنواعا من المنطق logiques اقتصادية وسياسية عبثية تجعل ملايين الكائنات البشرية يموتون أيضا من الجوع.

فى عام ٢٠١٠، سيكون الكساء الغابى للكرة الأرضية قد تقلص بنسبة أكثر من ٤٠٪ بالمقارنة مع ١٩٩٠. وفى عام ٢٠٤٠، يمكن أن يؤدى تراكم غازات الدفيئة إلى ارتفاع قدره ١ إلى ٢ سنتيجراد فى متوسط درجة حرارة الكوكب وارتفاع قدره ٠،٢ إلى ١،٥ متر فى منسوب مياه المحيطات. وهذا ليس أكيدا، غير أننا إذا انتظرنا الحصول على حقائق علمية يقينية، سيكون الوقت قد فات على العمل. والحقيقة أن ارتفاع منسوب مياه المحيطات قد أحدث بالفعل أضرارا غير قابلة للإصلاح.

ويختفى مابين ١٠ و ١٧ مليون هكتار كل عام. وتدمر إزالة الغابات تراثا بيولوجيا فريدا: تؤوى الغابات المدارية الرطبة ٧٠٪ من الأنواع الحيوانية. وكل عام، ينقرض حوالى ٦ آلاف من بينها على الكوكب. ووفقا لـ UICN، فإن ٢٠٪ من كل الأنواع الموجودة حاليا ستكون قد اختفت خلال عشرة أعوام.

الطاعون الجديد

كتب أنطونان أرتو Antonin Artaud: «الطاعون هو انكشاف قاع للقسوة الكامنة تتمحور عن طريقه على فرد أو على شعب كل الإمكانات المنحرفة للروح». والحقيقة أن جائحة l'épizootie «الوباء الحيوانى» الحمى القلاعية، التى فتكت فى ربيع ٢٠٠١ بالأرياف البريطانية، كشفت حقا، مثل الطاعون، عن «قاع للقسوة الكامنة» وعن العديد من «انحرافات الروح». ذلك أن كل وباء، كما يؤكد كل المؤرخين، ليس فقط سببا، بل هو أيضا نتيجة منطقية للحظة تاريخية محددة.

ليس من المصادفة إذن أنه فى إنجلترا التى استخدمت، منذ أكثر من عشرين عاما، معمل ما فوق الليبرالية، تضاعفت الأضواء القروسطية للمحارق الجماعية التى تم فيها، مجانا، إحراق مئات الآلاف من الحيوانات وارتفعت صرخة الأسى والرعب. ولتعاسة المواطنين البريطانيين، جرى تتويج هذا الواقع الكابوسى فى شتاء ٢٠٠٠ - ٢٠٠١ بكل الآفات: «البقرة المجنونة»، فيضانات، مناطق محاصرة تحت الثلوج بلا كهرباء، كوارث السكك الحديدية، إلخ.. وما من لعنة إلهية، ما من «مؤامرة قدرية»، تفسر مثل هذه الكارثة.



والحقيقة أن القرارات التى شجعت على وقوع هذه المآسى تم اتخاذها بوعى كامل استنادا إلى معتقدات محددة، مستمدة من النصوص المقدسة لليبرالية الجديدة. وعلى هذا النحو، يرجع الانتشار الخاطف السرعة لجائحة الحمى القلاعية إلى رغبة فى الربحية دفعت المضاربين إلى خفض التكلفة، وبالتالى الأمن: لزيادة هامش أرباحهم. وباسم تحرير الاقتصاد، فى الثمانينيات، أدارت حكومات مارجاريت تاتشر ظهرها لمبدأ الحيطة وذهبت إلى حد إلغاء الشبكة القومية للبيطريين. وفضلا عن هذا، ومنذ ١٩٩١، ومن أجل توفير مليار يورو وتشجيع الصادرات، جرى اتخاذ قرار آخر مشئوم: حظر تطعيم الحيوانات.

وقد خلق هذان التدبيران، المميزان لزراعة إنتاجوية، شروط جائحة الوباء الحيوانى. كما قيد هذان التدبيران الكفاح ضد انتشاره. حيث ظل من المحظور اللجوء إلى منجزات الطب الباستيرى. بطرق عتيقة، مستوحاة من وصفة أبوقراط: «Cito, Longe, Tarde» («فى الحال، من بعيد، وقتا طويلا»)، ومطبقة منذ العصور القديمة على كل الأوبئة. ومن المفارقات أن هذين التدبيرين: المتخذين باسم «زراعة بلا حدود»، قد أقاما، بالفعل، حمائية صارمة. ذلك أننا نسينا بديهية: الفيروسات أيضا لا تعرف الحدود. وفى زمن العولمة، «تنتشر الفيروسات بسيولة لا تقارن إلا بسيولة حركة رؤوس الأموال».

كذلك فإن السعى المستميت إلى القدرة التنافسية، والركض المنفلت نحو الأضخم والأرخص ماثلان فى منشأ مرض «البقرة المجنونة». «كشفت كل الأبحاث عن وجود صلة بين بعض التعديلات فى عملية تصنيع أنواع الدقيق الحيوانية الإنجليزية وعودة الـ بريون[٣] إلى الظهور. وفى ١٩٨١، قفز الصناع البريطانيون على مرحلة فى عملية التصنيع: خفضوا درجة الحرارة (لتوفير الطاقة) وألغوا المواد المذيبة (لتوفير المواد الأولية). وقد منع هذان التدبيران استئصال الـ بريون. وبالتالى فإن هذا الأخير يمكن أن يزدهر».

وقاد منطق مماثل الحكومات البريطانية، منذ ١٩٧٩، إلى مضاعفة الخصخصات. وعلى هذا النحو بيعت السكك الحديدية للقطاع الخاص منذ ١٩٩٤. ومنذ ذلك الحين، تتابعت الحوادث، التى كانت حصيلتها ٥٦ قتيلا وأكثر من ٧٣٠ جريحًا... وتتهم وسائل الإعلام المضاربين الجدد بالتضحية بالأمن لتضخيم أرباحهم بهدف إرضاء حاملى أسهمهم.

فهل غيَّر من الأمور وصولُ السيد بلير والعماليين إلى السلطة، فى ١٩٩٧؟ ليس بصورة جوهرية. إذ يبقى «طريقه الثالث» الاشتراكى-الديمقراطى مفهوما على أنه مجرد بديل لليبرالية الجديدة للسيدة تاتشر. وفى ظل ولايته، صار نصيب النفقات العامة من الناتج المحلى الإجمالى هو الأدنى منذ أربعين عاما. وتقدم إنجلترا أعنف التناقضات الاجتماعية الصارخة فى أوروبا. وتتواصل الخصخصة الحذرة للتعليم العام. وقد فرض السيد بلير رسوم قيد مرتفعة فى الجامعة، أدخلت تمييزا اصطفائيا وفقا للمال.

وعلى صعيد الرعاية الطبية، يضع بحث لمنظمة الصحة العالمية المملكة المتحدة فى ذيل الاتحاد الأوروبى. وقد تزايدت مختلف أشكال اللامساواة بين



فى عام ٢٠٣٥، ربما سيكون المعادل الإلكترونى للمــــخ، بفضـــل تكنولوجيـــا النـــانو nanotechnologie أصغر من طرف إصبعك. وهذا يعنى أنه سيتوفر لك بداخل جمجمتـــك، كـــل الحيـــز الـــذى تــريـده لتــزرع فيــه أنظمـــة وذاكـــرات إضافيـــة



الأكثر غنى والأكثر فقرا. ويعيش أكثر من ٥ ملايين من البريطانيين فى حالة من الفقر المطلق. كذلك فإن حوالى نصف النساء يعملن بأجر نصف الوقت. ويعيش ربع الأطفال تحت خط الفقر. وتضم بريطانيا العظمى العدد الأكبر من الأطفال الفقراء فى كل البلدان الصناعية....

كذلك فإن هذه المخاوف الجديدة. وعلى وجه التحديد تجاه مرض «البقرة المجنونة» أو الكائنات الحية المعدلة جينياً OGM. تنشأ أيضا من خدعة، من تحرر من الأوهام أحدثته التطورات التقنية. إن جدوى التقدم العلمى لم تعد تبدو بديهية. كما أن هذا التقدم يمتصه بصورة أساسية المجال الاقتصادى، وتستخدمه المشروعات الشرهة للربح.

وفى أغلب الأحيان انتهى الخلط بين المصلحة العامة والمصالح الصناعية لصالح الأخيرة. كذلك فإن موجة الليبرالية الجديدة، وعبادة السوق، وعودة أوضاع من القلاقل الشديدة إلى الظهور، وعودة أشكال من اللامساواة الاجتماعية البالغة، عززت، على مدى العشرين سنة الأخيرة، الإحساس بأن التقدم التقنى قد خان وعده بتحسين قسمة الجميع.

وكان بوسع الجميع أن يتأكدوا من أن المؤسسات (البرلمان، الحكومة، الخبراء) التى كان عليها أن تضمن الأمن كانت، مرارا وتكرارا وخاصة فى قضية «البقرة المجنونة»، دليلا على فقدانه. وأقامت هذه المؤسسات الدليل على غفلتها وتقصيرها. وفضلا عن هذا فقد اعتاد «أصحاب القرار» تولى شئون المصير الجماعى دون الرجوع أولا إلى المعنيين، المواطنين. إن الميثاق الديمقراطى قد تغير.

والنتائج المنطقية: دخول ارتياب عنيد فى الأذهان، رفض متنامٍ لتفويض هؤلاء «المسئولين» سلطة تولى شئون المصير الجماعى بالسماح لهم بممارسة تقوم على تجديدات علمية محفوفة بالمخاطر، وغير مختبرة بصورة كافية. ويلاحق سوء ظن جديد من أطلقوا عفاريت النزعة العلموية الجديدة néoscientisme.

وفيما يتعلق بعدد من «الآفات الصامتة»، تكشفت حقائق مذهلة لتثبت، بصورة بعدية a posteriori، عدم الأهلية المأساوى للسلطات والخبراء. ليس فقط قضية الدم الملوث، بل أيضا قضية الأميانت (الحرير الصخرى) l'amiante، التى صارت من الآن، فى فرنسا، سبب حوالى ١٠ آلاف من الوفيات (العمالية) فى السنة. أو قضية مختلف أنواع عدوى المستشفيات nosocomiales، أى التى تصيب أثناء الإقامة بالمستشفى، إذ يعود منشأ حوالى ١٠ آلاف أيضا من الوفيات فى السنة إلى هذه الأنواع من العدوى. أو قضية تلوث الهواء، التى ترجع بنسبة ٦٠٪ إلى وسائل النقل فى الطرق، التى نعلم أنها تسبب فى هذا الرقم المذهل بوجه خاص وهو ١٧ ألفاً من الوفيات قبل الأوان كل سنة فى فرنسا. أو أيضا قضية الديوكسين dioxine، الناتج المسبب للسرطان المنبعث من آلات تحويل القمامات البيتية إلى رماد، والذى يسبب ما بين ١٨٠٠ و ٥٢٠٠ من الوفيات كل سنة.

ويكفى أن نقرأ تقرير البحث، المعلن فى المملكة المتحدة فى ٢٦ أكتوبر ٢٠٠٠، بشأن الوباء الحيوانى الذى يحمل اسم المرض الدماغى الإسفنجى البقرى encéphalopathie spongiforme bovine (ESB)، لنفهم الارتياب الحالى فى المجتمعات الأوروبية تجاه اللحم البقرى.

لقد تم اتخاذ تدابير شاذة، أخفاها «خبراء»، رغم قوانين الطبيعة والمبادئ الأكثر أولية للحيطة. وتبعتها بعد ذلك أكاذيب وتسترات لأنه كان من الجلى أن المرض قد انتشر وأخذ يمتد إلى الكائنات البشرية. والحقيقة أن التأجيلات، والتضليلات، والإخفاقات، وكذلك الموقف اللامسئول للسلطات، كان لا مناص من أن تقود الرأى العام البريطانى بصورة لا يمكن تفاديها إلى الإحساس بأنه جرى خداعه. وحيث إن سلوك الحكومات فى باقى أوروبا لم يكن مختلفا، فلماذا لم يُبْدِ المواطنون، فى أماكن أخرى، تحديا مماثلا؟ خاصة عندما تأكدوا، كما حدث فى فرنسا، أنه، فيما يتعلق بالكائنات الحية المعدلة جينياً OGM، جرى السماح بتسويق أصناف من الذرة المعدلة جينيا.

وما من توهم بالأمن المطلق أو المخاطرة صفر لدى المواطنين، القلقين بصورة مشروعة تجاه الأولوية التى تمنحها السلطات العامة فى كثير من الأحيان لمجموعات اقتصادية ولمصالح أنانية كورپوراتية أكثر من المنفعة المشتركة والمصلحة العامة. ويغدو تعريف المخاطرة المقبولة قضية الجميع، وليس فقط قضية «الخبراء».

الجغرافيا ـ السياسية للجوع

لنأخذ، على سبيل المثال، حق الغذاء. فالطعام لا ينقصنا. ولم تكن المواد الغذائية بمثل هذه الوفرة فى يوم من الأيام، كما أن الكميات المتاحة يمكن أن تسمح لكل فرد من ٦ مليارات نسمة على ظهر الكوكب باستخدام ٢٧٠٠ سعر حرارى على الأقل فى اليوم. غير أنه لا يكفى إنتاج الأغذية. بل ينبغى أيضا أن يكون من الممكن شراؤها واستهلاكها من جانب الجماعات البشرية التى تحتاج إليها. وهذا أبعد عن أن يكون الحال. وكل سنة، يموت من الجوع ٣٠ مليون شخص. ويعانى ٨٠٠ مليون شخص نقص الغذاء المزمن.



وهنا أيضا ما من شىء حتمى. فأنواع العجز الناتجة عن المناخ تكون متوقعة سلفا فى كثير من الأحيان. ولأن منظمات إنسانية مثل العمل ضد الجوع Action contre la faim لديها إمكانات التدخل فإنها تستطيع أن توقف مجاعة ناشئة فى غضون بضعة أسابيع. ومع هذا فإن الجوع يواصل إبادة جماعات سكانية بأسرها.

لماذا؟ لأن الجوع صار سلاحا سياسيا. ومن الآن فصاعدا، فإنه ما من مجاعة تقع بالمصادفة. لقد تم وضع إستراتيجية حقيقية للجوع، ويديرها بفظاظة لا توصف مديرون أو منظمات حرمتها نهاية الحرب الباردة من ريع مالى. وكما تكتب سيلفى برونيل Silvie Brunel: «لم تعد الشعوب المعادية، الشعوب التى ينبغى غزوها، هى التى يجرى تجويعها، بل سكان نفس بلدان أولئك الذين يريدون أن يستأثروا لحسابهم بهذه العطايا السماوية mannes الجديدة للصراع والتى تتمثل فى پروجكتورات وسائل الإعلام ونتائجها المنطقية، احتدام التعاطف الدولى، هذا المصدر الذى لا ينضب للمال، والغذاء، والمنابر العامة لعرض مطالبها».

وفى الصومال، أو السودان، أو ليبيريا، أو كوريا الشمالية، أو بورما، أو أفغانستان، مسئولون حكوميون أو قادة حربيون يأخذون أبرياء كرهائن، ويجوعونهم لتحقيق غايات سياسية. وأحيانا بأقصى قسوة، كما فى سيراليون، حيث يشن رجال الجبهة المتحدة للمتمردين Rebel United Front (RUF)، بقيادة العريف (الأونباشى)، السابق فوداى سانكو Foday Sankoh، على مدى سنوات، حملة مرعبة من الإرهاب، حيث يبترون بصورة منهجية، بالبلطة، أيدى الفلاحين لمنعهم من الزراعة. وأخيرا، صار دور المناخ فى الصراعات الكبرى هامشيا: من الآن فصاعدا صار الإنسان هو الذى يقوم بتجويع الإنسان.

ويؤكد الدكتور أمارتيا سين Amartya Sen الحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد فى ١٩٩٨، والمعروف بأعماله التى يُثبت فيها كيف أن السياسيين فى بعض الحكومات يمكن أن يُحدثوا مجاعات، حتى عندما تتوافر الأغذية، أنه: «تتمثل حقيقة من أبرز حقائق التاريخ المفزع للمجاعة فى أنه لم تكن هناك مطلقا مجاعة خطيرة فى أى بلد يتمتع بشكل ديموقراطى للحكم ويملك صحافة حرة نسبيا».

ومناوئا للأطروحات الليبرالية الجديدة، يقدر السيد سين أنه ينبغى منح الدولة، وليس السوق، مسئولية أكبر فى تنمية رفاهية المجتمع. دولة تكون فى وقت واحد حساسة تجاه حاجات كل مواطنيها ومنشغلة، على المستوى الكوكبى، بتنمية البشرية جمعاء.

جغرافيا الإيدز

منذ مائة عام أبدى العلماء والأطباء تفاؤلا كبيرا تجاه المستقبل الصحى المشرق الذى تعد به منجزات علم الصحة العامة والثورة الپاستيرية.

ولا جدال فى أن العالم قد



فى عام ٢٠١٠، سيكون الكساء الغابى للكرة الأرضية قد تقلص بنسبة أكثر من ٤٠٪ بالمقارنة مع ١٩٩٠. وفى عام ٢٠٤٠، يمكن أن يؤدى تراكم غازات الدفيئة إلى ارتفاع قدره ١ إلى ٢ سنتيجراد فى متوسط درجة حرارة الكوكب وارتفاع قدره ٠,٢ إلى ١,٥ متر فى منسوب مياه المحيطات



تقدم فى البحث عن صحة أفضل للجميع، غير أن هذه المنجزات يضعفها وجود العار الأشد إثارة للغضب: مختلف أشكال اللامساواة الخطيرة للغاية فى الوصول إلى الرعاية الصحية. وتؤكد السيدة جرو هارلم برونتلاند Gro Harlem Brundtland، المديرة العامة لمنظمة الصحة العالمية OMS أن: «أكثر من مليار شخص سيصلون إلى القرن الحادى والعشرين دون أن يكونوا قد استفادوا من الثورة الصحية: ستظل حياتهم قصيرة جدا ومثقلة بالمرض».

وعلاوة على هذا فإن الفجوة لا تكف عن الاتساع بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة فيما يتعلق بالوصول إلى الأدوية الموجودة حاليا وإلى البحث عن علاجات لأمراض غير موجودة أو قليلة الوجود فى البلدان المتقدمة.

وبين التهديدات الرئيسية التى سوف تصيب صحة الكائنات البشرية خلال القرن الحادى والعشرين تبرز أمراض القلب والأوردة الدموية التى ترتبط، إلى حد كبير، بالأمراض الأيضية métaboliques. فرط تركيز الكوليسترول فى الدم hypercholestérolémie، السمنة، السكر diabète. الآخذة فى الانتشار بسبب انتشار نمط الحياة الغربية، أى طعام أكثر مما ينبغى وأدسم مما ينبغى، مع غياب للتمارين الرياضية.

غير أن الأمراض المعدية ستكون لها أهمية متزايدة وستقتل، كل عام، عشرات الملايين من الأشخاص. خاصة فى الجنوب. وعلى كل حال، مادام العالم صار قرية واحدة، فلا مناص من أن يحدث تأثير مرتد (أو: ارتدادى) un effet boomerang مع عودة الأمراض الوبائية للبلدان الفقيرة إلى البلدان المتقدمة فى الشمال.

ويحتلّ الإيدز (متلازمة نقص المناعة المكتسبة) فى الوقت الحالى مكانه بين عشرة أسباب رئيسية للوفيات فى العالم. ونظرا للمعدلات المتزايدة للعدوى بفيروس نقص المناعة البشرية HIV، فإنه يمكن أن ينتهى فى وقت قريب إلى أن يأخذ مكانه بين الخمسة أسباب الأولى للوفاة على مستوى الكوكب.

ويعيش حوالى ٣٦ مليون شخص فى العالم فى الوقت الحالى حاملين فيروس الإيدز، فيروس نقص المناعة البشرية، منهم أكثر من ٢٤ مليونا فى أفريقيا. وسيموت أغلبهم خلال الأعوام العشرة المقبلة، ليُضافوا إلى ١٤ مليونا من الأفارقة ماتوا من قبل بسبب هذا المرض. وحتى نهاية عام ٢٠٠١، كان قد مات حوالى ١٨ مليون شخص (من البالغين والأطفال) بسبب الإيدز منذ ظهور هذا المرض، أكثر من ٢,٥ مليون شخص منهم فى عام ٢٠٠١.

وتحدث نسبة حوالى ٩٥٪ من حالات عدو الإيدز الجديدة لدى سكان العالم الثالث حيث لا يملكون أى وسيلة لوقف نمو المرض. وهذا ما يجعلنا نتوقع أن يرتفع عدد الوفيات خلال الأعوام القادمة. وبالنسبة لعام ٢٠٠١ وحده، يُقدر عدد المصابين الجدد بالعدوى بـ ٥,٦ مليون شخص، منهم ٥٧٠ ألفا من الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ١٥ عاما. وبينهم ٩٠٪ من الأفارقة؛ وهذا ما يعادل حوالى ١٥ ألف حالة تلوث بالعدوى كل يوم...



وفى مواجهة حقائق أكيدة كهذه، يبدو التضامن الدولى شحيحا، بل حتى معدوما. ففى الممارسة، لم يتم وضع أى شىء موضع التنفيذ من الناحية الفعلية فى سبيل تنظيم مكافحة مشتركة. مكافحة يسرع فيها ما يتوفر لدى البلدان الصناعية من مال وخبرة فيما يتعلق بالتشخيص والعلاج إلى نجدة المرضى الأكثر حرمانا على ظهر الكوكب. إن حُلْم عولمة للنضال ضد الإيدز لا يبشر بأن يغدو واقعا. فَمَنْ ذا الذى سيقوم، فى البلدان المتقدمة، بتعبئة نفسه من أجل وقف انتشار طاعون يضرب، بنسبة ٩٥٪، السكان الفقراء فى بلدان الجنوب؟

والواقع أن المبالغ المرصودة فى العالم للعمل ضد الإيدز بين ١٩٩٠ و ١٩٩٧ لم تزد إلا من ١٦٥إلى ٢٧٣ مليون يورو على حين تضاعف عدد الأشخاص المصابين أكثر من ٣ مرات فى الفترة نفسها، مرتفعا من ٩,٨ مليون إلى ٣٠,٣ مليون. ووفقا للبرنامج المشترك للأمم المتحدة بشأن الفيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز VIH-sida، فإن المبالغ التى أفرجت عنها هيئات مساعدة التنمية فى بلدان الشمال: انخفضت، بالقيمة المطلقة، لكل شخص مصاب، بين ١٩٨٨ و ١٩٩٧، بنسبة أكثر من ٥٠٪!

وتقع تكلفة الوقاية ضد انتشار الإيدز، فى بلدان الجنوب، بين ١,٣ و ٣,٥ يورو للشخص فى السنة. فى حين أن تكلفة العلاج الأساسى تصل إلى أكثر من ٧ يورو للشخص فى السنة. كما أن من المؤكد أن تكلفة العلاج الحقيقى لمريض مصاب بالإيدز أكثر ارتفاعا بصورة فلكية.

ويتراوح المبلغ الكلى الضرورى للوقاية من الإيدز فى أفريقيا، وفقا للبنك الدولى، بين مليار و ٢,٣ مليار يورو. ومع هذا فإن أفريقيا لا تتلقى، فى الوقت الراهن، سوى ١٦٠ مليون يورو من المساعدة الرسمية لمكافحة الإيدز.

وعلى حين يبدأ انحسار الإيدز فى البلدان الغنية، تستمر موجة المد الوبائى مع هذا فى إغراق البلدان النامية. وتستمر معدلات العدوى والوفاة فى الزيادة بسرعة فى أغلب بلدان أوروبا الشرقية، وآسيا، وأفريقيا الوسطى والجنوبية، وكذلك فى عدد من بلدان أمريكا اللاتينية (بيرو، وفينزويلا، وكولومبيا، والأرجنتين، وتشيلى).

وفى مواجهة مثل هذه الأشكال من اللامساواة، لا تفعل بلدان الشمال ولا مؤسسات الأدوية شيئا ذا بال. ويعلن مسئول فى جمعية لمكافحة الإيدز أن: «صناعة الأدوية عليها دَيْن نحو مرضى الإيدز. وعليها أن تسدده. فخلال خمسة عشر عاما، جنت المعامل أرباحا هائلة على حساب حيواتنا؛ واليوم، على حين يتبدل الوباء فى بلدان الشمال وينفجر فى بلدان الجنوب، ترفض المعامل تغيير إستراتيجياتها. وهى تعرقل توزيع الجزيئات الجديدة التى يحتاج إليها المرضى الذين أخفقت معهم كل العلاجات والذين يوشكون على الموت».

ويحث كوفى أنان، الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة، مجلس الأمن، على وجه التحديد لأنه مسئول عن صون السلم، على أن يجعل من النضال الدولى ضد الإيدز «أولوية مباشرة». وفى نظر بيتر پايو Peter Piot، مدير البرنامج المشترك للأمم المتحدة للإيدز Onusida فإن: «الصراع المسلح وفيروس نقص المناعة البشرية شيئان مترابطان مثل توأمين شيطانيين». ووفقا لچيمس وولفنسون James Wolfensohn، رئيس البنك الدولى، فإننا: «مع الإيدز، نجد أنفسنا فى مواجهة حرب تضعف أكثر من الحرب ذاتها. والحقيقة أن كل حرب تحتاج بالضرورة إلى خزينة حرب، غير أن الخزينة التى يشارك بها المجتمع الدولى فارغة».

وتحذر كل التصريحات من النتائج المنطقية للمنافسة الحرة الراهنة. والإيدز، هناك حيث يتفشى، يهز استقرار الاقتصادات، ويفاقم الفقر، ويدفع إلى الحرب؛ وبدورها، تقوم الحرب، بكل ابتزازاتها، وسرقاتها، وقلاقلها، بتسهيل تفشى الوباء. ■



موجة الليبرالية الجديدة، وعبادة السوق، وعودة أوضاع من القلاقل الشديدة إلى الظهور، وعودة أشكال من اللامساواة الاجتماعية البالغة، عززت، على مدى العشرين سنة الأخيرة، الإحساس بأن التقدم التقنى قد خان وعده بتحسين قسمة الجميع



هوامش:

(١) إيوچينية eugénisme أو إيوچينيك eugénique: علم وتقنية وسائل تحسين نسل النوع البشرى سعيا وراء استحداث صفات إيجابية (الإيوچينيك الإيجابى) أو إزالة الأمراض الوراثية (الإيوچينيك السلبى)، وكلمة eugenics وهى الاسم الإنجليزى لهذا العلم من نحت مؤسسه العالم الإنجليزى فرانسيس جالتون Francis Galton ١٨٢٢-١٩١١. المترجم.

(٢) باعتباره فى وقت واحد لعبة ڤيديو، ولعبة تجميع كروت/خرائط حرب النجوم، استطاع الـ پوكيمون Pokémon وتنويعاته الكثيرة جدا من المنتجات الثانوية المأخوذة منه أن يغزو العالم قرب نهاية التسعينيات بسرعة البرق. وتدل لفظة Pokémon، التى تتكون من إدغام الكلمتين «pocket» (جيب) و «monster» (عفريت) «monstre de poche»، أى: «عفريت الجيب»، على أنواع من الجينات المعدلة جينياً.

(٣) البريون prion: جزىء پروتينى مُعْدٍ وهو المسبب لمرض ارتجاف الضأن. المترجم.

بطاقة الأهلى
حاسب لكل بيت

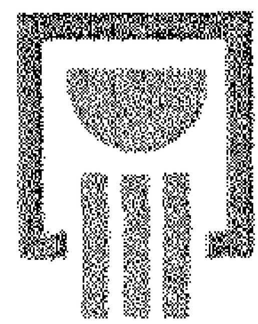
الآن
ومن كافة فروع البنك الأهلى المصرى



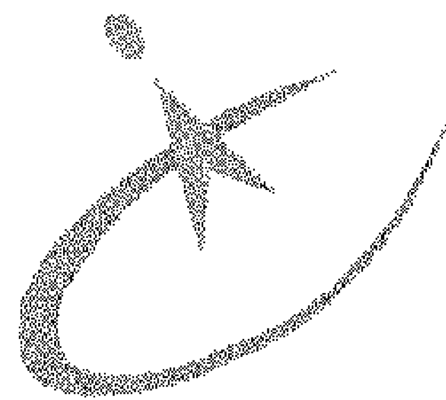
يمكنك الحصول على بطاقة حاسب لكل بيت
والشراء مباشرة من الشركات المشاركة
فى المبادرة.

قسط صغير
لمستقبل كبير

- فترة ضمان الجهاز ٣٦ شهر
- أقل سعر عائد مدين
- تنوع فترات التقسيط من ٦ إلى ٤٠ شهر
- مراكز صيانة منتشرة فى القرى والمحافظات
- الاتصال بخدمة الأهلى فون ٥٧٦٠٧٧٧ للاستعلام عن بطاقة الأهلى حاسب لكل بيت
- للاستعلام عن المبادرة ١٩٢٤٦



البنك الأهلى المصرى
الأقرب اليك



المصرية للاتصالات
Telecom Egypt

مبادرة حاسب لكل بيت برعاية وزارة الإتصالات وتكنولوجيا المعلومات
وبالتعاون مع الشركة المصرية للإتصالات

الخـــلايـــا الجـــذعيـــة

لا تخلو المجلات والصحف اليومية والإذاعات وبرامج التلفزيون في جميع أنحاء العالم، وعلى وجه الخصوص في الدول المتقدمة، من أخبار وتعقيبات وتهليل واستعداء وفرح وغضب وتحليل وتحريم للتكنولوجيا الحيوية أو البيوتكنولوجيا «biotechnology» وتمثل هذه التكنولوجيا آخر ما في جعبتنا . حتى الآن . من محاولات التصالح مع بيئتنا والاندماج في نسيج عالم الحياة الذي يضمنا مع كل أشكال الكائنات من الفيروسات وحتى الرئيسيات وعلى قمتها يقف الإنسان متسيداً، مخرباً وبانيا وهادما، قويا وضعيفا، عارفا وجاهلا. وتشمل التكنولوجيا الحيوية فيما تشمل فروعا عديدة لعل من أهمها الهندسة الوراثية والاستنساخ وتكنولوجيا الخلية، غير أنه بزغ حديثا ومنذ بضع سنوات فقط فرع قوى واعد هو «الخلايا الجذعية stem cells » أو علم وتكنولوجيا الخلايا «الماستر master cells » وقد ساد الحديث عن الخلايا الجذعية بالذات وسائل الإعلام بأنواعها المقروءة والمسموعة والمرئية في السنوات الأربع الأخيرة، وهو حديث ملح وشائك لكنه مطلوب وضروري؛ فالجدل والتعارض حولها (الخلايا الجذعية) شديدان بين المثقفين والمفكرين والعلماء والمبدعين ورجال السياسة ورجال الدين والسلطة التنفيذية والتشريعية وعامة الناس وخاصتهم، ليس في المجتمعات الرائدة في هذا المجال فحسب بل حتى في البلاد النامية. كما أن الحملة الانتخابية الرئاسية الأخيرة في الولايات المتحدة لم تخل من التعرض لقضايا علمية من بينها، بل من أبرزها التناقض في وجهات النظر تجاه «الخلايا الجذعية»، أحد أهم مجالات التكنولوجيا الحيوية. بين المرشحين الرئيسيين. فالعلماء متحمسون كعادتهم يشغلهم كل جديد، والشركات المتخصصة تراهن على الإنجازات وتعبىء الرأى العام وتستخاطف العلماء والمتخصصين. أما رجال الدين فهم عادة ما يعارضون من منطلق عدم التدخل في الإرادة الإلهية أو القدر. وقد وجد الفلاسفة والسياسيون مادة خصبة في هذا الجدل وذلك التعارض. وبلغ الأمر بأهمية وخطورة الخلايا الجذعية أن رئيس القوة العظمى والقطب الأوحد . الولايات المتحدة . قد أدلى بدلوه في هذا الشأن، وكذلك فعل بابا روما يوحنا باولو الثاني الذي طلب من الرئيس بوش في أول لقاء بينهما أن يتدخل بما له من سلطات لمنع «الشيطان من أن يقوم بدور الرب» وأن يحجب كل دعم عن الأبحاث المتعلقة بموضوعات الاستنساخ والخلايا الجذعية. وقد انقسمت الدول حسب تشريعاتها تجاه الخلايا الجذعية بين تحريم شامل وتحريم جزئي أو حرية تامة، حتى أن علماء أستراليا. وهي من الدول المتقدمة في هذا المجال. قد هددوا بنقل نشاطهم وأبحاثهم إلى دولة أخرى إذا صدر تشريع يحد من حريتهم أو يحرم عليهم العمل في مجال الخلايا الجذعية.



وهنا يحين وقت التساؤل عن «الخلايا الجذعية»: ما هي الخلايا الجذعية؟ وأين يمكن الحصول عليها؟ وكيف يمكن توجيهها لتنتج خلايا معينة بالتحديد؟ وما هو المرجو منها؟ وما آخر ما توصلت إليه الأبحاث العلمية في هذا المجال؟ وما موقف الدول والجماعات والاتجاهات المختلفة من أبحاث هذه الخلايا؟ ونستبق القول والأحداث ونبدأ بإجابة فورية قصيرة ومؤقتة عن أحد هذه التساؤلات فنقول إن المرجو والمأمول من الخلايا الجذعية كثير... بل كثير جداً. ويكفي أنها. الخلايا الجذعية. قادرة على الانقسام لتعطي أنسجة من أي نوع ومن كل نوع، وهي بذلك تمثل بديلا مستقبليا لكل عمليات زرع الأعضاء، وتعد بعلاج ناجع لأمراض مستعصية كالسرطان ومرض «باركنسون» (الشلل الرعاش)، ومرض «ألزهايمر» (الخرف الذي يصيب كبار السن) ومرض نقص المناعة المكتسبة «الإيدز».

والخلايا الجذعية هي تلك الخلايا التي لم تتخصص بعد في إنتاج وبناء نسيج معين من الأنسجة الحيوية التي تتكون منها الأعضاء. وكان معروفا أن هذه الخلايا لا توجد إلا في الأجنة، لكن حديثا جدا اتضح أن هناك خلايا جذعية في نخاع العظام عند البالغين الذين اكتمل نموهم، كما اتضح أن أنسجة الجسم المختلفة تحتوي على خلايا جذعية بنسب متفاوتة. وتكتسب الخلايا الجذعية أهمية خاصة نظرا لمقدرتها على الانقسام، كما ذكرنا آنفا، لتكون أي نوع من أنواع الأنسجة المتخصصة المختلفة والتي يبلغ عددها في الإنسان ١٣٠ نوعاً.

ويأمل الأطباء والباحثون أن نتمكن يوما من إعادة تكوين الكبد باستخدام خلايا من نخاع عظام المريض نفسه. وهي الطريقة التي تعد بأن تكون صالحة للمرضى الذين تلفت أكبادهم بفعل الأضرار الجانبية للأدوية أو نتيجة استئصال جراحي للأورام حيث لا يتبقى جزء كاف من الكبد للقيام بوظائفه. كذلك يمكن إصلاح الأعطاب الجينية التي تصيب الكبد باستخدام خلايا جذعية مطعمة بنسخة من الجين الصائب. لكن أكثر ما يثير العلماء هو إمكانية إعادة تكوين الأنسجة الكبدية بواسطة خلايا جذعية من المريض نفسه، وبذلك نتمكن من التغلب على المشاكل الناجمة عن زراعة الأعضاء ورفض الجسم لها. ومما يؤكد الدور الذي تقوم به الخلايا الجذعية الموجودة في نخاع العظام التجارب التي أجريت على كبد امرأة كانت قد تلقت خلايا من نخاع عظام رجل. فقد أثبت التحليل الجيني وجود خلايا ذكورية في كبد المرأة، مصدرها الوحيد هو نخاع العظام الذي زرع لها. وقد اكتشفت كذلك خلايا كبد ذكورية في أكباد نساء مزروعة لرجال. والواضح من هذه التجارب أن خلايا نخاع العظام تصل إلى الأكباد. وقد أكدت التجارب على الحيوانات نجاح تحول الخلايا الجذعية المأخوذة من نخاع العظام إلى خلايا كبدية، والمأمول إثبات ذلك بالنسبة للإنسان.

المصـــــــادر

تستخلص الخلايا الجذعية أساسا من الأجنة البشرية الحديثة والتي يمكن الحصول عليها أثناء علاج الخصوبة أو الإجهاض المسموح به لظروف صحية. ومن المعروف أنه أثناء علاج العقم وزيادة الخصوبة تتوفر أعداد من الأجنة الزائدة يتم الاحتفاظ بها مجمدة، ويزودنا الجنين الواحد بآلاف من الخلايا الجذعية. وقد تمكن العلماء الأمريكيون من معالجة خلايا مستخلصة من نخاع العظام لتنقسم وتعطي نسيجا كلويا. ويعزز هذا الاكتشاف من فرص إعادة تكوين الأكباد التالفة، كما أنه يفتح الباب ويمهد الطريق إلى وسائل علاج جينية جديدة وفعالة. ومن المعروف أن الخلايا الجذعية في نخاع العظام هي المسئولة عن تكوين خلايا الدم، لكن في نهاية الأمر يمكن أن تنقسم هذه الخلايا إلى أنواع مختلفة من الأنسجة. وتعد التقنيات المستخدمة لعزل هذه الخلايا من أهم الاكتشافات العلمية في السنوات الأخيرة.

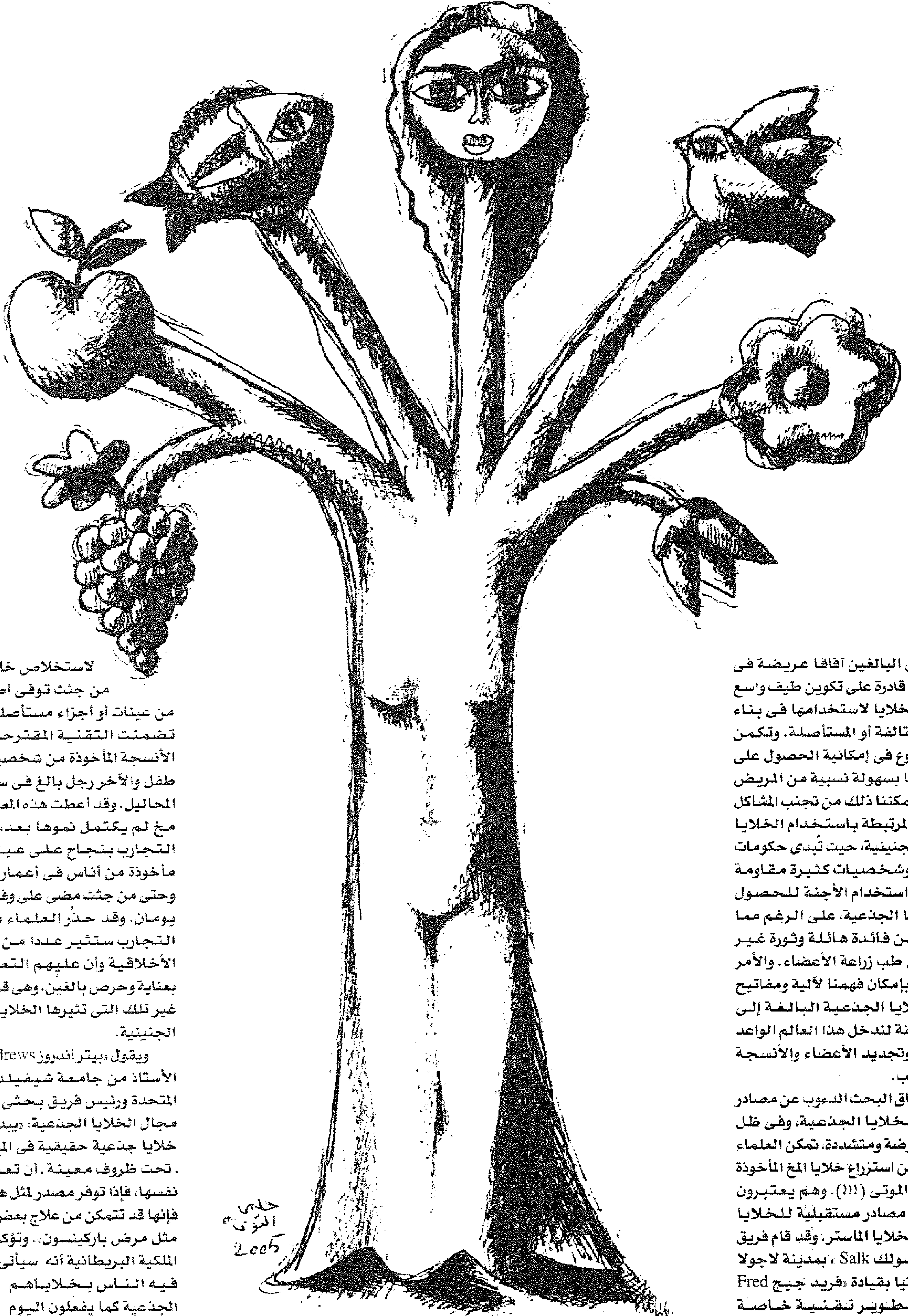
وهكذا تفتح الخلايا الجذعية

«صناع السياسة في البيت الأبيض لا يضيعون وقتهم في مناقشة الجوانب الأخلاقية للقضايا العلمية الراهنة، هم يخضعونها فقط لحساباتهم السياسية، الأمر الذي لا بد أن يثير غضب الأغلبية الصامتة».

رون ريجان (ابن الرئيس الأمريكي الراحل رونالد ريجان)

فتح الله الشيخ

بين السياسة والعلم



المأخوذة من البالغين آفاقا عريضة فى الطب، فهى قادرة على تكوين طيف واسع من أنواع الخلايا لاستخدامها فى بناء الأعضاء التالفة أو المستأصلة. وتكمن روعة الموضوع فى إمكانية الحصول على هذه الخلايا بسهولة نسبية من المريض نفسه. وسيمكننا ذلك من تجنب المشاكل الأخلاقية المرتبطة باستخدام الخلايا الجذعية الجنينية، حيث تُبدى حكومات وجمعيات وشخصيات كثيرة مقاومة عنيدة ضد استخدام الأجنة للحصول على الخلايا الجذعية، على الرغم مما تعدنا به من فائدة هائلة وثورة غير مسبوقة فى طب زراعة الأعضاء. والأمر يتعلق الآن بإمكان فهمنا لآلية ومفاتيح تحول الخلايا الجذعية البالغة إلى أنسجة معينة لندخل هذا العالم الواعد من العلاج وتجديد الأعضاء والأنسجة حسب الطلب.

وفى سياق البحث الدءوب عن مصادر لاجنينية للخلايا الجذعية، وفى ظل سياسة معارضة ومتشددة، تمكن العلماء فى أمريكا من استزراع خلايا المخ المأخوذة من أجساد الموتى (!!!). وهم يعتبرون جثث الموتى مصادر مستقبلية للخلايا الجذعية. الخلايا الماستر. وقد قام فريق من معهد «سولك Salk» بمدينة لاجولا فى كاليفورنيا بقيادة «فريد جيج Fred Gage» بتطوير تقنية خاصة لاستخلاص خلايا جذعية من جثث توفى أصحابها أو من عينات أو أجزاء مستأصلة جراحيا. تضمنت التقنية المقترحة معالجة الأنسجة المأخوذة من شخصين أحدهما طفل والآخر رجل بالغ فى سلسلة من المحاليل. وقد أعطت هذه المعالجة خلايا مخ لم يكتمل نموها بعد. ثم توالت التجارب بنجاح على عينات أخرى مأخوذة من أناس فى أعمار مختلفة، وحتى من جثث مضى على وفاة أصحابها يومان. وقد حذر العلماء من أن هذه التجارب ستثير عددا من القضايا الأخلاقية وأن عليهم التعامل معها بعناية وحرص بالغين، وهى قضايا أخرى غير تلك التى تثيرها الخلايا الجذعية الجنينية.

ويقول «بيتر أندروز Peter Andrews» الأستاذ من جامعة شيفيلد بالمملكة المتحدة ورئيس فريق بحثى يعمل فى مجال الخلايا الجذعية: «يبدو أن هناك خلايا جذعية حقيقية فى المخ تستطيع . تحت ظروف معينة . أن تعيد تجديد نفسها، فإذا توفر مصدر لمثل هذه الخلايا فإننا قد نتمكن من علاج بعض الأمراض مثل مرض باركينسون». وتؤكد الجمعية الملكية البريطانية أنه سيأتى يوم يتبرع فيه الناس بخلاياهم الجذعية كما يفعلون اليوم

بأعضائهم، لكن الجدل والنقاش ما زالا محتدمين حول أخلاقيات الموضوع. وقد وضعت اليابان قواعد صارمة ومقيدة لبحوث الخلايا الجذعية يمكن إيجازها في الآتي: لا تستخدم في التجارب إلا الخلايا الجذعية الجنينية المأخوذة من «الأجنة المستبعدة discarded embryos» من أبحاث الإخصاب، ويحرم استخدام الخلايا الجذعية المأخوذة من أجنة مستنسخة. أما الولايات المتحدة فقد حجبت أي تمويل فيدرالي عن أبحاث الخلايا الجذعية المستخلصة من أجنة مخلقة خصيصا لهذا الغرض. وقد جاء التقييد الأمريكي بعد أن سمحت إحدى عيادات الإخصاب بتخليق أجنة بشرية بغرض الحصول على خلايا جذعية للأبحاث العلمية، الأمر الذي أثار حفيظة عدد كبير من العلماء والسياسيين ورجال الدين.

قد يكون التخليق العذري (Parthenogenesis) تكون الجنين بانقسام خلية البويضة من دون أن تتلقح) لأجنة الرئيسيات وما يمكن أن يتبع ذلك من إنتاج للخلايا الجذعية أقل إثارة للقلق والجدل والاعتراضات الأخلاقية نوعا ما. وقد أعلن فريق من العلماء مؤخرا أنهم تمكنوا من تخليق أجنة للرئيسيات (من أمثال القردة) بطريقة عذرية، أي بدون إخصاب. وما يهمنا هنا أنهم تمكنوا من إثارة الخلايا الجذعية المأخوذة من هذه الأجنة لتنتج أنواعا مختلفة من الخلايا بما فيها خلايا المخ والقلب والعضلات. ولعل أهم ما جاء في الإعلان هو جعل الخلايا العصبية تنتج مادة «دوبامين» في داخل المخ لأول مرة. ويبشر هذا الإنجاز بإمكانيات هائلة في علاج أمراض الجهاز العصبي المركزي مثل مرض باركينسون ومرض هانتنجتون (وأعراضه التقلصات العضلية اللاإرادية التي لا هدف لها). وقد تضمنت طريقة الحصول على الأجنة بالتكاثر العذري إثارة بويضة أنثى قرد لتنمو دون مساعدة من حيوان منوي. وقد استخدم الباحثون مواد كيميائية معينة لحث البويضة (إثارتها بإشارات خاصة) حتى لا تلفظ نصف كروموزوماتها (كما يحدث في التكاثر الجنسي العادي) وتبدأ في الانقسام في نفس الوقت. وتقدم الدراسات من هذا النوع بدائل للأجنة البشرية الحقيقية وتجنبنا كل المشاكل المرتبطة بذلك. غير أن هناك شكوكا كثيرة ما زالت تحيط بسلامة وكفاءة هذه الطريقة، كما أن هناك تحفظات جادة بشأن الاندفاع في سباق نشر المعلومات الجديدة حول الخلايا الجذعية. وقد أضعف هذا السباق من حلقات الانضباط التي توضع عادة في طريق نشر المعلومات العلمية والاكتشافات الجديدة، حتى أنه في بعض الأحيان يتم إعلان نتائج علمية في غاية الخطورة لأول مرة في أجهزة الإعلام وليس في المجلات العلمية المتخصصة (النعجة دوللي المستنسخة). ولعل في ذلك ما يجذب اهتمام الممولين وأصحاب الأسهم الذين يدعمون البحوث في مجالات التكنولوجيا الحيوية، لكن الأمر يتخطى خطوات المراجعة والتحكيم التي صارت جزءا لا يتجزأ من نشر وتوثيق الاكتشافات العلمية. وفي هذا السياق طلع علينا الباحثون في إحدى الشركات الكبرى العاملة في مجال تكنولوجيا الخلية بنجاحهم في تنمية كلية بقرة في المعمل من مستنسخات خلايا جذعية بقرية، غير أن البحث لم يظهر في أية مجلة علمية محكمة بعد.



وقد اكتسبت أبحاث الخلايا الجذعية قوة دفع جديدة بالإعلان عن إمكانية استخلاصها من الدهون والشحوم. داخل أجسام المصابين بالسمنة والزائدة عن حاجة الإنسان. ويرحب الجميع بالتخلص منها (عملية شفط الدهون). ولا شك أن إنماء أنسجة من خلايا جذعية مأخوذة من المريض نفسه لتحل محل الأنسجة التالفة أو المستأصلة سيجنبنا ويجنب المريض مشاكل كثيرة مثل الجانب الأخلاقي في الموضوع ورفض الأنسجة الغريبة عن الجسم.

ويقول «آدم كاتس Adam Katz». جراح التجميل من جامعة بيتسبرج. أن العقبة الوحيدة في المستقبل ستكون إتاحة الخلايا الجذعية، وأن الدهون أكثر انتشارا وأسهل في التعامل معها عن نخاع العظام كمصدر لهذه الخلايا. ويمكن الحصول على لتر كامل من الدهون في المرة الواحدة وهو عبارة عن خليط كريه المنظر من الأنسجة والعصارات التي كان الجراحون يلقون بها في منافذ الصرف الصحي للتخلص منها. أما الآن فإن فريق الدكتور «كاتس» يقوم بمعالجة هذا الخليط المزعج في محاليل مغذية لتنمية الخلايا، ثم يقوم بعد ذلك باختبارات معينة للتعرف على العلامات المميزة للخلايا المختلفة. وقد تعرف الفريق بالفعل على خلايا عظام وعضلات وغضاريف. وتحتوي الحفنة الواحدة من الأنسجة الدهنية على بضع خلايا جذعية لم تتخصص بعد. وتنتج هذه الخلايا العضلات والدم والغضاريف في الأجنة، وتقوم بنفس العمل في البالغين. وليس في الأمر مفاجأة كما تقول «هيلين بلاو Helen Blau» المتخصصة في الخلايا الجذعية في البالغين من جامعة ستانفورد، لأن أنواع الخلايا متقاربة جدا. ويعتبر العلماء والمتخصصون أن من أصعب ما في الموضوع هو دفع الخلايا البالغة لتنتج ما نرغب فيه. أي نوعا محددا من الأنسجة. لكن الجدل والنقاش محتدمان حول الدهون كمصدر للخلايا الجذعية، فيتساءل «ستيفان أوراهيلي Stephen O' Rahilly». أخصائي السمنة المفرطة في جامعة كمبريدج. عما إذا كان فريق الدكتور «كاتس» قد اكتشف جديدا بالفعل؟ فقد قامت فرق كثيرة (!) في السابق باستخلاص خلايا جذعية بطرق مختلفة.

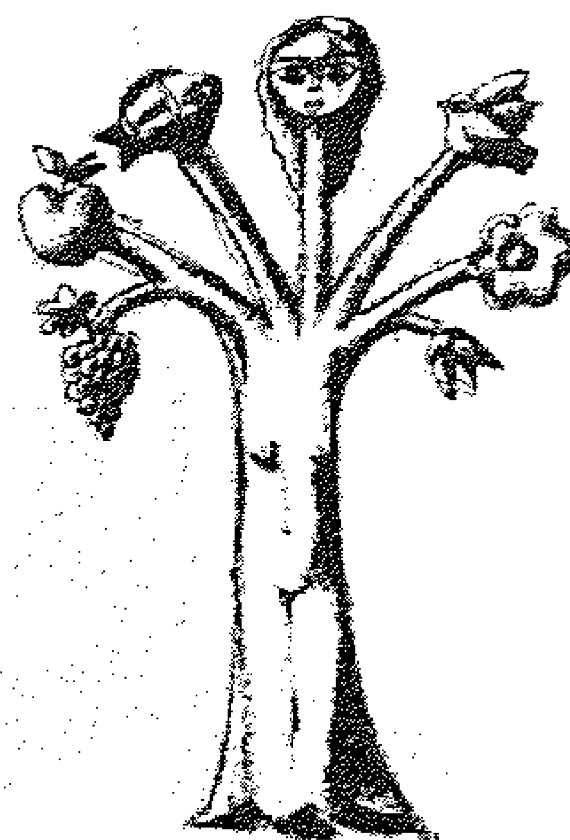
المحاولات

ويحاول العلماء البريطانيون التدخل في حالات السكتة الدماغية (stroke) بالحقن بالخلايا الجذعية حيث يأمل الباحثون أن يساعد ذلك في استعادة المخ لوظائفه وشخصيته. وفي حالة نجاح مثل هذه المعالجات. والأمل كبير. فإن الخطوة القادمة ستكون محاولة علاج أمراض باركينسون والزهايمر. وتتضمن المحاولات الجارية الآن عددا محدودا من المرضى المتطوعين، والذين يأملون في الحصول على الدواء الجديد مع مطلع عام ٢٠٠٦م كما وعدهم الدكتور «سيندين» Syndin. قائد فريق البحث التابع لإحدى الشركات البريطانية المتخصصة. ويستخدم الفريق خلايا جذعية عصبية (الخلايا الماستر) مستخلصة من أجنة مجهضة: ويطلق الفريق على هذه الأجنة «المصدر الضائع للخلايا والأنسجة» حيث يكفي القليل منها لمعالجة أعداد كبيرة من المرضى دون المساس بالأخلاقيات أو الدين. وقد تمكن فريق الدكتور «سيندين» من إدخال «مفتاح جيني» في الخلايا الجذعية بحيث يجعلها تنقسم باستمرار عندما تزرع في درجة حرارة أقل من درجة حرارة الجسم، لكن عند دخول هذه الخلايا إلى الجسم يتوقف «المفتاح الجيني» عن العمل وتصبح الخلايا المزروعة قابلة للفناء مثل كل الخلايا العادية (تتوقف عن الانقسام). وقد اتضح أنه عندما يتم حقن هذه الخلايا في المخ فإنها تهاجر إلى المناطق التالفة وتبدأ في إعادة إصلاحها (بنائها) كما اتضح أن المخ الذي تعرض للتلف في الإنسان البالغ ما زال قادرا على استخدام الخلايا الجذعية، وكل ما علينا هو أن نستزرع الخلايا العصبية الجذعية ثم نحقنها في المخ بعد تحولها إلى النسيج الملائم حيث يستخدمها المخ في إعادة تكوين ما تلف منه.

ويقترب العلماء كثيرا من الوقوف على علاج شاف لمرض باركينسون بواسطة الخلايا الجذعية الجنينية. فقد قام كل من الدكتور «أول إيساكسون Ole Isacson» من كلية الطب بجامعة هارفارد والدكتور «رونالد ماكاي Ronald McKay» من المعهد القومي الأمريكي



الخلايا الجذعية هي تلك الخلايا التي لم تتخصص بعد في إنتاج وبناء نسيج معين من الأنسجة الحيوية التي تتكون منها الأعضاء



للصحة باستخدام هذه الخلايا بنجاح فى معالجة الفئران والأرانب تحت ظروف تحاكى ظروف المرض عند الإنسان. لكن العلماء يواجهون اعتراضات سياسية وأخلاقية تؤخر تطبيق مثل هذه الطرق العلاجية فى محاولات سريرية بشرية. فالدعم المادى لمثل تلك الأبحاث محدود جدا فى الولايات المتحدة وبلاد كثيرة أخرى. وحتى يحين الحين وتتوفر الإمكانات والدعم لهذه الأبحاث سيكون من الصعب تطوير بعض التقنيات الهامة. وقد قام «إيساكسون» و«ماكاى» باستخدام تقنية مختلفة بعض الشىء، لكنها حققت نتائج جيدة. وتتلخص هذه التقنية فى جعل الخلايا الجذعية تفرز مادة «دوبامين Dopamine» عندما تزرع فى دماغ الأرانب والفئران. و«دوبامين» هى المادة الكيميائية المفقودة (الغائبة) فى مخ مرضى «الباركينسون»، الأمر الذى يؤدى إلى الأعراض التقليدية للارتجاف والتصلب.

ولا يدوم علاج مرض باركينسون بالأدوية طويلا، فهو علاج قصير المدى، وفى نفس الوقت يواجه الباحثون صعوبات كبيرة فى الحصول على مصادر مناسبة وكافية للخلايا الجذعية المنتجة لمادة «دوبامين» من أنسجة الأجنة لزرعها فى المخ. ولذلك اتجهت بحوث الخلايا الجذعية الآن لاكتشاف مصادر لهذه الخلايا تكون كافية ومناسبة ويمكن إنتاجها فى المعمل حتى يستطيع جراحو الأعصاب زراعتها. وسيكون ذلك بمثابة ثورة كبرى كما يقول الدكتور «إيساكسون». لكن العلماء يحتاجون إلى دعم من السياسيين، ونظرا للاعتراضات المختلفة فإن العلماء لن يتمكنوا من الحصول على الخلايا الجذعية إلا من المختبرات الخاصة المصرح لها بذلك فى الولايات المتحدة وهى قليلة العدد وتنتج خلايا جذعية مشكوكا فى صلاحيتها للإنسان. لكن الأمور تتجه إلى الأحسن فى كل من المملكة المتحدة وفرنسا وهولندا حيث تتخذ الحكومات هناك مواقف أكثر إيجابية ويسرا من الولايات المتحدة فيما يتعلق بالخلايا الجذعية.

الشكوك.. المنهج العلمى

أثيرت فى الآونة الأخيرة موضوعات كثيرة حول جدوى استخدام الخلايا الجذعية المأخوذة من البالغين، وذلك بعد أن قامت عدة مجلات علمية بإلقاء ظلال من الشك حول مقدرة تلك الخلايا على إعادة تخليق الأنسجة. وكانت التقارير التى نشرت عن إمكانية استخدام الخلايا الجذعية من البالغين فى إصلاح التلف فى أى نسيج قد بعثت الأمال فى إيجاد علاج لكل الأمراض. غير أن سلسلة متلاحقة من الدراسات الحديثة قد جعلت الموضوع محل شك وجدل. فيقول عالم بيولوجيا الخلية «إيرفنج وايزمان Irving Weissman» من جامعة ستانفورد بكاليفورنيا أن علينا إعادة جميع التجارب التى أجريت على الخلايا الجذعية قبل أن نسمح للأخصائيين العلاجيين بملاحقتنا بغرض الحصول على أدوية وعلاجات بواسطتها. ويؤكد «وايزمان» أنه يعجب لقيام البعض من غير المتخصصين بتجربة تقنيات الخلايا الجذعية فى الوقت الذى لم يقف فيه علماء الخلايا على «أرض صلبة» بعد. وتخضع النتائج التى حصل عليها باحثون من خارج مجال الخلايا الجذعية لفحص وتمحيص دقيق الآن. ويلوم الدكتور طارق أنور، من علماء الخلايا الجذعية فى معهد بحوث السرطان بلندن، المجلات العلمية لوقوعها فى مصيدة التسرع فى نشر الأبحاث الخاصة بهذا الموضوع بغرض إحراز قصب السبق فقط.

ويتفق العلماء فى أن بعض الخلايا متعددة الإمكانيات ولها المقدرة على تخليق أنواع مختلفة من الأنسجة، ولكنهم يختلفون حول ما إذا كانت هذه الخلايا موجودة بشكل طبيعى فى جسم الإنسان البالغ أم أنها لا بد أن تخضع لمعالجات معملية لامتلاك تلك المقدرة، وهو أمر هام وخطير. فقد قام فريق علمى بقيادة «ديان كراوس Diane Krause» من جامعة ييل بنشر بحث هام فى مجلة «الخلية» عن نجاح الفريق فى تخليق أنسجة الكبد والرئة والجلد من خلية واحدة مأخوذة من نخاع العظام، وهى من الخلايا المعروفة بأنها تعطى خلايا الدم فقط. لكن «وايزمان» وفريقه ناقضوا هذه النتائج بعد أن أجروا عدة تجارب على الفئران مستخدمين بروتين «مفلور fluorescent» وهو جزىء بروتين يصدر إشعاعات كهرومغناطيسية (ضوئية) يمكن بواسطتها تتبع خط سيره.

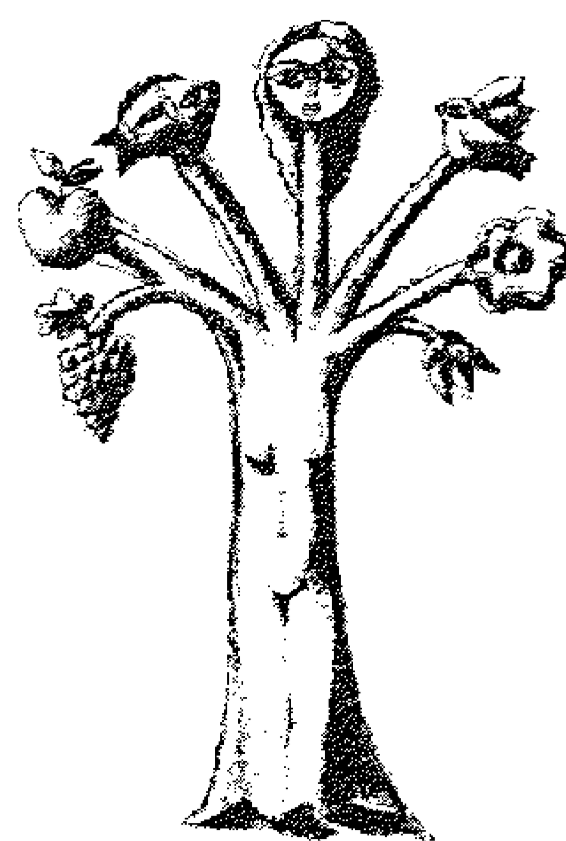


ويعتقد «ستيوارت أوركين Stuart Orkin» من جامعة هارفارد أنه من الصعب مقارنة تجربة بأخرى، لكن يبدو أن إمكانية الانقسام التفاضلى (أو التحول التفاضلى) للخلايا الجذعية أمر مبالغ فيه كثيرا. ومما يزيد من الشكوك تأكيد «أوركين» أن الخلايا التى لها مثل هذه المقدرة نادرة جدا عند البالغين مما يجعل استخلاصها أمرا فى غاية الصعوبة. وقد اتضح بالفعل أن الخلايا الجذعية المأخوذة من البالغين لا بد أن تخضع لمعالجات معملية معقدة وطويلة قبل أن تُزرع لتنقسم بشكل تفاضلى كما جاء فى أبحاث «كاترين فيرفيلى Catherine Verfaillie» من جامعة مينيسوتا فى مينيابوليس. وتحمل الخلايا المعالجة فى المعامل مخاطرة الإصابة بالسرطان أو أمراض أخرى. لذلك فإن «أوركين» يدعو إلى الرجوع إلى الالتزام بالطرق العلمية الدقيقة الموثقة والبعد عن الطرق الاستعراضية التى لا تصلح إلا لإحداث دوى أو «فرقعة» فى أجهزة الإعلام.

ولا يأتى كل هذا الجدل والنقاش من فراغ، فالأمر جد خطير ويتعلق بمستقبل البشرية. وإذا كان اكتشاف واستخدام المضادات الحيوية فى العلاج يقال له ثورة أو طفرة فإن اكتشاف الخلايا الجذعية الجنينية أو البالغة وتطويعها والتحكم فيها لإنتاج خلايا وأنسجة جديدة هو ألف ثورة أو طفرة، يفوق فى قيمته وعائده القيمة والعائد الذى جنته البشرية من المضادات الحيوية وزرع الأعضاء معا. فالاكتشافات والإنجازات تتوالى تباعا مبشرة أحيانا ومثيرة للجدل والبلبلة أحيانا أخرى. فقد أُعلن عن علاج يستطيع إيقاف زحف الإصابة بالعمى الذى يسببه التقدم فى العمر أو مرض السكر، وذلك باستخدام الخلايا الجذعية المأخوذة من نخاع العظام. فعندما حُقنت هذه الخلايا فى السائل الذى يملأ فراغ العين فى أحد فئران التجارب، تحولت هذه الخلايا إلى جزء من الأوعية الدموية فى الشبكية. ومن المعروف أن الخلل الذى يعطل تكوين الشعيرات الدموية هو السبب الرئيسى للعمى عند البالغين نتيجة التقدم فى السن أو الإصابة بمرض السكر. وهناك أكثر من مليون شخص يفقدون البصر سنويا نتيجة تلف الأوعية الدموية. ويقول «لويس سميث Lois Smith» خبير العمى عند الأطفال المبتسرين من جامعة هارفارد: «ومن المثير فى هذه الخلايا أنها تذهب مباشرة إلى حيث الحاجة إليها لتدخل فى طور النمو العادى وتلحق بالجميع». ولا يقتصر الأمر على علاج العمى بل يتعداه إلى الحد الذى أطلق فيه «مارتن فريدلاندر Martin Friedlander» أخصائى العيون على العلاج بالخلايا الجذعية اسم «الرصاصة السحرية» التى تصلح كل عطب.



إذا كان اكتشاف واستخدام المضادات الحيوية فى العلاج يقال له ثورة أو طفرة فإن اكتشاف الخلايا الجذعية الجنينية هو ألف ثورة أو طفرة



آلية العمل.. الإنسان والفأر

لكن، ما الذى يميز الخلايا الجذعية عن العادية؟ للإجابة على هذا السؤال قام فريقان علميان بنشر ما توصلا إليه فى هذا الصدد فى مجلة «ساينس Science» فى عدد أكتوبر ٢٠٠٣. وقد أعلن الفريقان اكتشافهما للجينات المميزة للخلايا الجذعية، وهو الأمر الذى سيساعد كثيرا فى التعرف على أنواع جديدة من الخلايا الجذعية واستدراجها لتنمو وتتحول



إلى أنسجة تحل محل الأنسجة والأعضاء المعيبة أو المستأصلة. وسيمكن ذلك العلماء من المناورة ببعض هذه الجينات لدفع الخلايا الجذعية للقيام بعمل معين في مكان محدد، بعد أن نعرف الدور الذي تلعبه الجينات المميزة للخلايا الجذعية مع كل نوع من أنواع تلك الخلايا. ومن نتائج فحص الخلايا الجذعية الجنينية للفأر والخلايا الجذعية العصبية وتلك الموجودة في الدم اتضح أن هناك ما يقرب من مائتي (٢٠٠) جين أنشط من مرتين إلى ثلاث مرات على الأقل من مثيلاتها في خلايا المخ أو الدم البالغة. ويقول الباحثون المهتمون بالموضوع أنه أصبح من الممكن التعرف على الخلايا الجذعية للقلب أو العظام أو العضلات بفضل القائمة التي أصبحت متاحة الآن. ويقود «دوجلاس ميلتون Douglas Melton» من جامعة هارفارد فريقا من الباحثين «لاصطياد» الخلايا الجذعية في البنكرياس، وسيكون ذلك أعظم هدية من العلم والطب للبشرية. وقد قام فريقا البحث المذكوران هنا بنسخ الجينات النشطة في الخلية على «تشيب» ميكروية تحمل نسخا من كل الجينات الموجودة في الفأر تقريبا. وهكذا أمكن مقارنة (مطابقة) الجينات النشطة في الخلايا الجذعية مع «دنا DNA» على الميكرو تشيب، مما سمح للباحثين بتحديدها والتعرف عليها.

وبدراسة الجينات الأكثر نشاطا (المميزة للخلايا الجذعية) اتضح أن نصفها تقريبا مشغول في التواصل بين الخلايا والتجاوب مع الضغوط الخارجية، أما ما يفعله النصف الآخر من الجينات النشطة فليس معروفا بعد. وفي نفس الوقت يؤكد «إيهور ليميشكا Ihor Lemischka» عالم البيولوجيا الجزيئية بجامعة برينستون أن الخلايا الجذعية البالغة في الدم تحتوي على ٣٢٢ جينا نشطا مشتركا بين الفأر والإنسان. كما يؤكد هو وفريقه البحثي أن الخلايا الجذعية البالغة ليست مفهومة بشكل مقبول حتى الآن، وعلى ذلك فإن الادعاء بأنها تستطيع أن تتحول إلى أنواع عديدة من الأنسجة ما زال محل جدل. وما زال الباحثون مختلفين حول الفروق بين الخلايا الجذعية الجنينية والبالغة. وفي انتظار المزيد من المعلومات، فإنه لا توجد أسباب قوية تؤيد تفوق نوع من الخلايا الجذعية على نوع آخر. ويمكن استخدام قائمة الجينات النشطة للتأكد عموما من أن الخلايا بالفعل جذعية، كما أن القائمة قد تساعد في التعرف على مفتاح عمل الخلايا الجذعية البالغة والذي يجعلها تقوم بإصلاح التالف من الأنسجة.

تتشابه كثيرا مقدرة الحيوانات على إحلال خلايا الدم والأنسجة بخلايا وأنسجة جديدة مع الكيفية التي ينمو بها النبات من أطراف براعمه وجذوره. وقد تم التعرف على وحدة الجينات التي تجعل الخلايا الجذعية جاهزة للعمل وإعادة التجديد الذاتي في الكائنات الحية متعددة الخلايا في النباتات كما في الحيوانات. وقد اكتشف فريق طبي من جامعة ديوك بقيادة «دانيال كوكس Daniel Cox» المزيد من المعلومات حول آلية تأثير الجينات في الخلايا الجذعية وجعلها تنتج بويضات في مبايض أنثى ذبابة الفاكهة «دروسوفيلا». ومن المعروف أن الخلايا الجذعية عندما تتكاثر تعطي خلايا جذعية من نفس النوع وخلايا لنمو النسيج والعضو الذي يحتاج ذلك. وتبعا للسيناريو التقليدي فإن انقسام خلية جذعية يعطي خلية ابنة في شكل خلية جذعية جديدة بينما يعطي النصف الآخر نوعا أو أكثر من أنواع الخلايا الأخرى. ففي الإنسان مثلا تنتج جميع أنواع خلايا الدم من الخلايا الجذعية في نخاع العظام، وهي خلايا في بؤرة اهتمام الباحثين الإكلينيكيين العاملين في مجال زراعة الأعضاء والهندسة الوراثية لنخاع العظام من أجل علاج أمراض الدم.

والسؤال الأكبر الذي يحير علماء البيولوجيا لسنوات عديدة هو: ما الذي يحفظ الخلايا الجذعية غير متخصصة؟ فهي من هذا المنطلق متفردة بين الخلايا التي تتكون منها الكائنات متعددة الخلايا. وللإجابة على هذا السؤال قام كوكس وفريقه بدراسة طبيعة عمل الجين «piwi» في عملية تكوين خلايا الجيرملين (الحيوان المنوي أو البويضة) غير المتخصصة في مبيض ذبابة الفاكهة. والجين «piwi» أحد أفراد عائلة من الجينات مكتشفة حديثا وأعضاؤها موجودون في الإنسان والحيوان والنباتات. وأهم وظائف هذه الجينات الحفاظ على الخلايا الجذعية قادرة على تجديد نفسها ذاتيا. فعندما تنقسم خلية الجيرملين الجذعية (germline stem cell (GSC» ، ينتج عنها عادة خلية جديدة من نفس النوع وخلية أخرى تصبح خلية بويضة. وفي غيبة الجين «piwi» فإن «GSC» تكون عادة لكنها جميعا تصبح متخصصة. وقد تمكن فريق كوكس من التعرف على الإشارة التي يولدها «piwi» لتصل إلى «GSC» من خلال الخلايا الملاصقة لجدار المبيض. كما ثبت أن هذه الإشارة ضرورية للحفاظ على مقدرة التجدد الذاتي في «GSC» . وقد اكتشف علماء آخرون جينا مشابها اسمه «Zwille» في نبات «أرابيدوبسيس Arabidopsis» ، والذي يبدو أنه ضروري للحفاظ على مقدرة التجدد الذاتي في خلايا «meristem» بنفس الطريقة. وقد اتضح أن للجين «piwi» وظيفة مزدوجة، فعندما ينشط هذا الجين في «GSC» نفسها فإنه يحثها على الانقسام أولا، ثم يخمد تدريجيا في الخلية الابنة التي قدر لها أن تعطي خلية البويضة، لكنه يظل نشطا في خلية «GSC» الجديدة. ويؤثر بروتين «piwi» الذي ينتجه الجين في أنوية كل من خلايا جدار المبيض وخلايا «GSC» بشكل مختلف. ففي خلايا جدار المبيض يقوم بتوليد إشارة للحفاظ على «GSC» بينما في داخل «GSC» نفسها فإنه يحثها على الانقسام. أما كيف يحدث ذلك بواسطة هذا الجين والجينات المشابهة في الحيوانات والنباتات فإن الأمر ما زال في حاجة إلى مزيد من الاكتشافات.



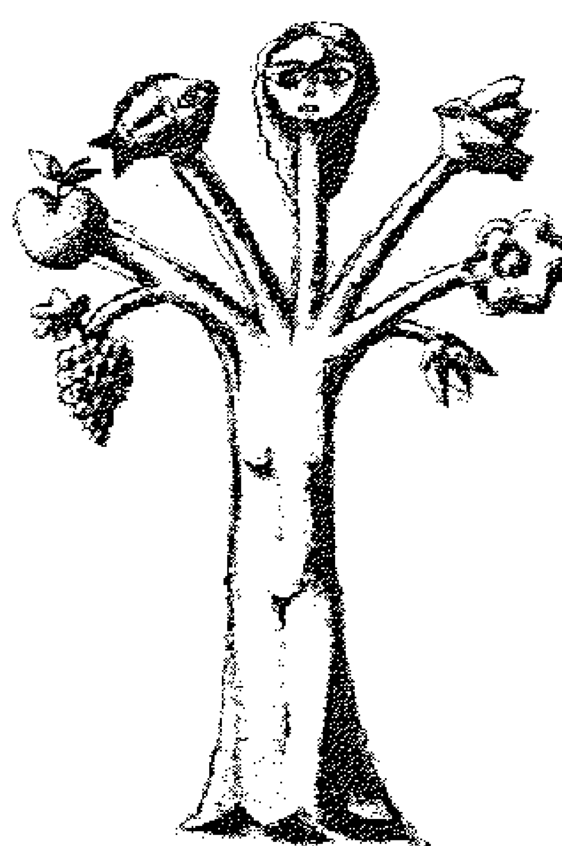
نشر بعض العلماء من معهد «جونس» لطب الإنجاب مقالا في المجلة العلمية «الإخصاب والعقم Fertility & Sterility» أثار ضجة هائلة. جاء في المقال أن العلماء قد نجحوا في تخليق مجموعات من الخلايا الجذعية الجنينية من حيوانات منوية وبويضات من متطوعين ومتطوعات لهذا الغرض. وفي هذه الدراسة المدعمة من القطاع الخاص قامت المتطوعات بإعطاء ١٦٢ بويضة تم إخصاب ١١٠ منها بنجاح. وقد نمت ٥٠ منها حتى وصلت إلى مرحلة «بلاستوسيست blastocyst» ، وأنتجت ثلاث منها خطوطا من الخلايا الجذعية الحية القابلة للنمو والانقسام. وقد حصل العلماء على تمويل خاص لأبحاثهم حيث تمنع اللوائح الفيدرالية مثل هذه الممارسات في الولايات المتحدة. ولا تسمح اللوائح إلا بالأبحاث التي تجرى على الخلايا الجذعية المستخلصة من أجنة بشرية مجمدة لكونها زائدة عن الحاجة أثناء محاولات الإخصاب. وتحرم اللوائح كذلك المتاجرة في هذا الموضوع بالبيع أو الشراء.

هل يعيد التاريخ نفسه؟

ليست تلك هي المرة الأولى التي يتم فيها تخليق الأجنة خصيصا لغرض البحث العلمي، فترجع البداية إلى الأيام الأولى لمحاولات الإخصاب خارج الجسم، وهو تاريخ سابق بكثير على دخول مفهوم الخلايا الجذعية واقع البحث العلمي. وقد استغرق الأمر كثيرا من الجدل في مؤسسة الرئاسة الأمريكية وفي الكونجرس حول هذا الموضوع. وقد خضع الرئيس الأمريكي لضغوط العناصر الدينية فصدرت لائحة المعهد القومي للصحة NIH التي تسمح بإجراء البحوث على الخلايا الجذعية المستخلصة من الأجنة البشرية الفائضة من عمليات



لا تسمح اللوائح الأمريكية إلا بالأبحاث التي تجرى على الخلايا الجذعية المستخلصة من أجنة بشرية مجمدة لكونها زائدة عن الحاجة أثناء محاولات الإخصاب



الإخصاب خارج الجسم أو الإجهاض المسموح به فقط، وغير مسموح بتخليق الأجنة البشرية خصيصا لغرض إجراء التجارب عليها. وقد اعترض الأمريكيون على هذه اللائحة في اقتراع أجرته إحدى وكالات الأنباء (جاءت النتيجة ٢: ١). وفي أول مقابلة بين البابا يوحنا باولو الثاني وجورج بوش الرئيس الحالي للولايات المتحدة في ٢٣ يوليو ٢٠٠١ طلب البابا من الرئيس عدم دعم الأبحاث التي تستخدم الأجنة البشرية ووصفها بأنها من الشيطان. (ها هي المؤسسة الدينية العظمى في الغرب تكاد تلعب نفس الدور القديم الذي دأبت عليه طويلا في مواجهة البحوث العلمية عموما وتلك المتعلقة بجسم الإنسان على وجه الخصوص مثل دوران الأرض حول الشمس والتشريح في العصور الوسطى وقبيل عصر النهضة).

ويعتقد كثير من العلماء والمفكرين أن الأمر يحتاج إلى إعادة النظر في اللوائح الفيدرالية المنظمة لأبحاث الخلايا الجذعية ليتسنى توفير الدعم والتمويل اللازم لها. وكما يقول عالم البيولوجيا «فيرنير هايم Werner Heim»: إن عمل البيولوجي هو الاكتشاف، وعمل التكنولوجيين هو تطوير تطبيق هذا الاكتشاف، أما علماء الإنسانيات والفلاسفة فدورهم أن يبينوا لنا ما إذا كان يجب تطبيق هذا العمل؟ وكيف يتم ذلك؟ وتحت أي ظروف وبأية شروط؟

ومما يثير خيال الناس ويدفع بجهود العلماء الإمكانات الهائلة للخلايا الجذعية والتي اتضحت بجلاء في غضون بضع سنوات فقط. ولنا أن نتخيل وجود مصدر دائم للخلايا المنتجة للإنسولين لنقضي على مرض السكر (!) أو إصلاح عضلات القلب بالخلايا الجديدة المتجددة لنتخلص من الأزمات القلبية الحادة (!) أو إمكانية الشفاء من إصابات العمود الفقري بتكوين خلايا عصبية جديدة (!). وقد نجح فريق علمي من جامعة روكفيلر في فصل خلايا جذعية من ذيل فأر مصاب بالشلل وتحويلها إلى نسيج عصبي حي في النخاع الشوكي، الأمر الذي أعاد للفأر المقدرة على الحركة. غير أن الطريق ما زال طويلا أمام الباحثين للوصول إلى علاج مأمون باستخدام الخلايا الجذعية. فقد تبين أنه من الصعب كبح جماح الخلايا الجذعية حتى لا تتفجر في كتلة سرطانية بعد زراعتها، لتصبح بمثابة «صندوق باندورا» (من الأساطير الإغريقية) أو منبعا للشرور والمصائب.

ولا تقدم تكنولوجيا الخلايا الجذعية حلا لمشكلة التطابق النسيجي (Histocompatability) الحرجة. فحتى الخلايا الجنينية التي نحصل عليها من الإخصاب خارج الجسم أو من مصادر الأجنة الأخرى هي خلايا من أشخاص آخرين، أي أنها معرضة لرفضها من الجسم المزروعة فيه. لذلك تتجه البحوث في مجال تكنولوجيا الخلايا الجذعية المتطورة لإنتاج خلايا جنينية مماثلة تماماً للإنسان البالغ (ذاتية المصدر) بثلاث طرق:

١. النقل النووي للخلايا الجسدية وهي العملية التي يطلق عليها «الاستنساخ البشري العلاجي Human Therapeutic Cloning» حيث تتحد خلية من جسد المريض مع بويضة منزوع منها دنا DNA. ونتيجة لذلك فإن دنا DNA الخلية الجسدية يعاد برمجته إلى حالة جنينية ليعطي خلايا جذعية بعد ذلك ذات إمكانيات شاملة ومماثلة تماما لخلايا المريض.

٢. التكاثر العذري Parthenogenesis، وفي هذه التقنية يتم تنشيط البويضة قبل نضجها مباشرة (cyte) عند المرأة دون أن يُنزع منها دنا DNA لتبدأ في النمو بذاتها وتكون جنينا يمكن استخلاص الخلايا الجذعية الشاملة منه.

٣. النقل البلازمي (Plasmic transfer) وهو عكس النقل النووي ويتضمن إزالة (نزع) السيتوبلازم من بويضة لم تنضج بعد ثم نقله إلى داخل خلية جسدية في المريض فتتحول بذلك خلية المريض إلى خلية جذعية أولية.



ما الذي تفعله السياسة بالعلم؟

أكد الرئيس جورج بوش الابن انحيازه الواضح للتيار الديني المتشدد في تناوله لقضية الخلايا الجذعية، أخطر قضية علمية تتعلق بالإنسان تم طرحها حتى الآن. فلم يسمح بأي دعم فيدرالي لبحوث الخلايا الجذعية الجنينية المستنسخة (الدعم الفيدرالي للأبحاث العلمية في الولايات المتحدة يقدر بمليارات الدولارات) وسمح بدعم تلك البحوث التي قامت قبل التاسع من أغسطس سنة ٢٠٠٤ فقط (!). وهي ٢٢ خطا لخلايا جذعية جنينية تم تنشئتها على «منصات» من خلايا الفئران وفي وسط من سوائل حيوية مأخوذة من الأبقار. وبذلك فإن تلك الخلايا غير صالحة البتة للاستخدام أو التجريب على الإنسان نظرا لإمكانية نقل أمراض غريبة وخطيرة من الحيوانات إلى الإنسان (ولنتذكر قصة انتقال الإيدز من القردة للإنسان)، هذا عدا مقاومة جهاز المناعة البشري لها ولفظها في النهاية. لكل ذلك يطالب العلماء الأمريكيون بدعم فيدرالي لبحوث الخلايا الجذعية التي نمت على «منصات» غير بيولوجية حتى يتجنبوا المحاذير التي ذكرناها هنا.

وفي المقابل اتخذت المملكة المتحدة قرارا تاريخيا يُحسب لحكومة بلير «الليبرالية»، حيث سمحت في أوائل أغسطس ٢٠٠٤ للعلماء باستنساخ أجنة بشرية للحصول على الخلايا الجذعية الجنينية منها، واعتمدت هيئة الخصوبة والأجنة البشرية (Human Fertilisation and Embryology Authority HFEA) طلبا تقدم به عدد من العلماء من مركز نيو كاسل للحياة، وذلك للحصول على خلايا جذعية جنينية باستخدام تقنية قياسية معروفة هي «استبدال نواة الخلية». وهي تتضمن نزع نواة خلية بويضة بشرية وإحلال نواة أخرى محلها، مأخوذة من جسم إنسان. تُعالج الخلية بعد ذلك لتنقسم وهي تسلك في ذلك مسلك جنين في مراحله الأولى تم تخصيبه بحيوان منوي. ويُعد هذا التصريح الأول من نوعه في أوربا. لكن ليس في العالم فقد سبقه ما حدث من استنساخ بشري في كوريا الجنوبية. وقد صرّحت سوزي ليزر Suzi Leather رئيسة هيئة HFEA بأن التصريح قد جاء بعد «دراسة متأنية لكل الاعتبارات العلمية والأخلاقية والقانونية. ونظرا لما يأمل الطب في تحقيقه مستقبلا... وإنه لمجال مهم في البحث العلمي والاستخدام المسئول للتكنولوجيا».



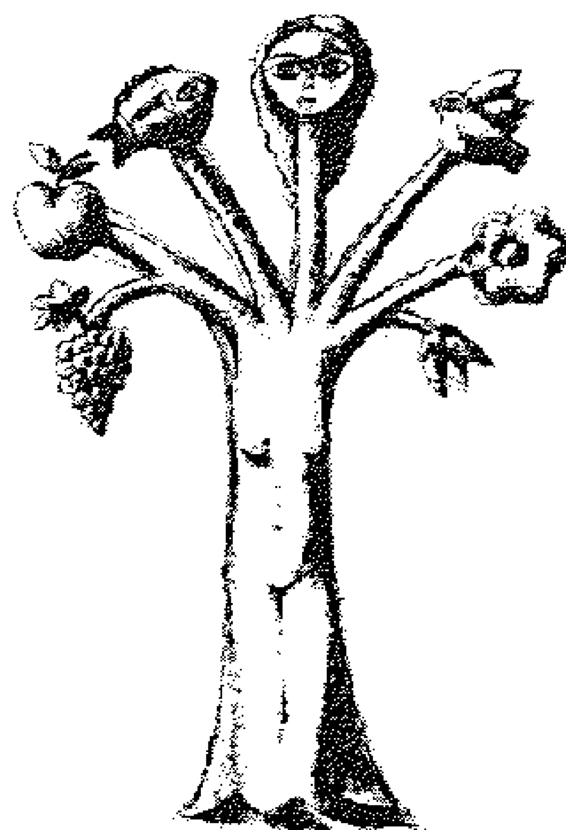
انهالت التعليقات والآراء مؤيدة ومعارضة لما حدث، وانبرى كل من له علاقة بالخلايا الجذعية في الكتابة والتحدث في أجهزة الإعلام، الأمر الذي يصعب حصره. لكن ما قاله وصرح به أساتذة التخصص يستحق الإشارة. ستيفان مينجر Stephen Minger، عالم الخلايا الجذعية من كلية الملك بلندن قال «إنه تقدم هائل للعلوم ليس في بريطانيا وحدها بل في كل المجتمعات العلمية المشتغلة بالخلايا الجذعية في جميع أنحاء العالم». أما جون هاريس John Harris من جامعة مانشستر فيؤكد أنه «علينا تهنئة HFEA على هذه الخطوة الرائعة. فالاستنساخ العلاجي سيصبح في القريب العاجل أداة في غاية الخطورة ستستخدم لكشف واستغلال المقدرات الكامنة في الخلايا الجذعية من أجل علاج بعض الأمراض التي تهدد الجنس البشري». ويقول روبين لوفيل-بادج Robin Lovell-Badge من المعهد الوطني للبحوث الطبية «سيسمح لنا ذلك بدراسة أمراض الوراثة دون اللجوء إلى استخدام الإنسان بدلا من خنازير غينيا، أو بالأحرى خنازير غينيا بدلا من الإنسان».

معركة الخلايا الجذعية في أمريكا

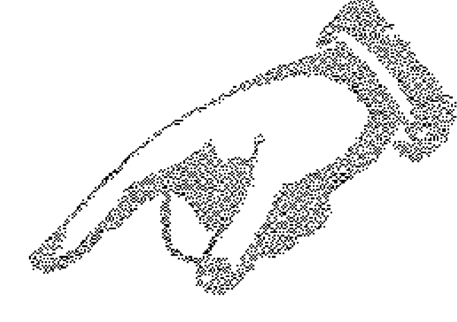
تمول السلطات الفيدرالية في الولايات المتحدة عددا محدودا من خطوط الخلايا



إنحاز بوش للتيار الديني ولم يسمح بأي دعم فيدرالي لبحوث الخلايا الجذعية الجنينية المستنسخة



كتاب الزاوية



يحيى حقى

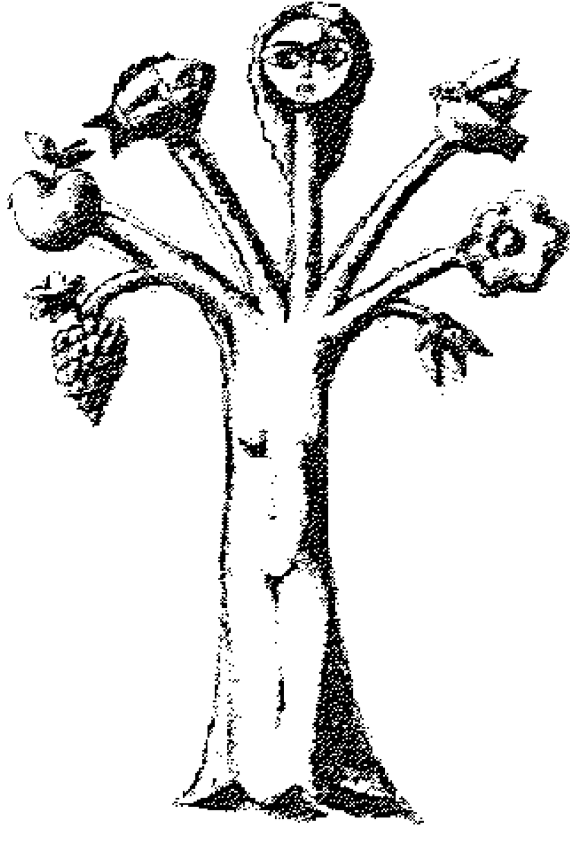
كناسة الدكان

كنت أنا الابن الثالث بين إخوتى.. ولدت فى ٧ يناير سنة ١٩٠٥ بحارة الميضة وراء مقام السيدة زينب فى بيت ضئيل من أملاك وزارة الأوقاف. ورغم أننا غادرنا حى السيدة وأنا لا أزال طفلاً صغيراً، فهيهات أن أنسى تأثيره على حياتى وتكوينى النفسى والفنى، فما زلت إلى اليوم أعيش مع الست «ما شاء الله» بائعة الطعمية، والأسطى حسن حلاق الحى، وبائع الدقة.. ومع جموع الشحاذين والدراويش الملتفين حول مقام «الست».

كانت والدتى شديدة التدين، مغرمة بقراءة القرآن الكريم وكتب الحديث والسيرة النبوية، وكانت تختار أسماء أبنائها من صفحات القرآن، فإذا اقترب موعد الوضع فتحت المصحف على أى صفحة واختارت أول اسم يقابلها. وكثيراً ما كانت تقرأ علينا صفحات من البخارى والغزالى ومقامات الحريرى.

وكان أبى مفتوناً بالمتنبى يحفظ كثيراً من شعره ويلقيه علينا فى جلساتنا المسائية.. وكان مغرماً بالقراءة إلى أبعد حد حتى أنه كان يقرأ وهو يسير فى الطريق.. ومازلت أذكر كيف عاد لنا ذات يوم وجبهته مبطوحة قد نبتت فيها حبة زرقاء، فقد صدم عمود الترام وهو سائر يقرأ فى صحيفة!

وهكذا نشأت فى بيئة تعشق القراءة.. والدتى وأبى.. وكذلك أخى الأكبر إبراهيم الذى يعرفه جميع باعة الكتب فى مصر، جديدها وقديمها.. لقد كون لنفسه مكتبة عربية وإنجليزية كانت أول معين استقيت منه.



الجذعية الجنينية جميعها موجودة من قبل التاسع من أغسطس ٢٠٠١ وجميع هذه الخطوط قد نمت على منصات من خلايا الفئران واكتسبت منها. كما ثبت بالدليل القاطع. نوعا من السكريات (الكربوهيدراتات) الذى يلتصق بالخلايا من الخارج ويوجد فقط فى خلايا القوارض وبعض الثدييات الأخرى ولا يوجد على خلايا الإنسان. لذا فإن هذه الخلايا لن تصلح بأى حال من الأحوال للتعامل مع الإنسان حيث سيلفظها جهاز المناعة لغرابتها. وعندما تأكد العلماء الأمريكان من هذه الحقيقة (علماء الخلايا فى لا جولا وسان دييجو بكاليفورنيا) طالبوا السلطات الفيدرالية بتمويل أبحاث لتنشئة ونمو الخلايا الجذعية الجنينية على منصات غير بيولوجية. لكن السلطات هناك أصمت آذانها ولم تزد على أن رددت ـــ على لسان رئيسها جورج بوش الابن. ما دأبت على ترديده قديما «لا دعم فيدرالى لبحوث الخلايا الجذعية الجنينية إلا لتلك التى قامت قبل التاسع من أغسطس ٢٠٠١». وقد استغل كل من المرشحين الرئيسيين فى انتخابات الرئاسة الأمريكية قضية الخلايا الجذعية فى مناوراتهما الانتخابية: بوش والجمهوريون ينادون بتقييد وعدم دعم البحوث فى مجال الخلايا الجذعية الجنينية، وكيرى والديمقراطيون يقولون بعكس ذلك. وباستمرار بوش فى البيت الأبيض أربع سنوات أخرى استمرت القيود على الدعم الفيدرالى لبحوث الخلايا الجذعية الجنينية.

وتتعرض سياسة جورج بوش حاليا لهجوم متزايد من الديمقراطيين وقد انضم إليهم بعض الجمهوريين من رجال الكونجرس ومجلس الشيوخ. ويعتقد الكثيرون أن الأمر لا يتعلق من قريب أو بعيد بالأخلاقيات أو التدين، لكنها الحسابات السياسية. يقول رون ريجان. ابن الرئيس الأمريكى الجمهورى الأسبق فى حديث لمجلة نيو ساينتست New Scientist يوليو ٢٠٠٤م «إن صناع السياسة فى البيت الأبيض لا يضيعون وقتهم فى مناقشة الجوانب الأخلاقية للقضايا العلمية الراهنة، وهم يخضعونها فقط لحساباتهم السياسية، الأمر الذى لا بد أن يثير غضب الأغلبية الصامتة». وتظهر سياسة الرئيس جورج بوش تضاربا أخلاقيا غريبا، فهو يحجب الدعم الفيدرالى عن بحوث الخلايا الجذعية الجنينية من ناحية لكنه من ناحية أخرى يتباهى بازدهار البحث العلمى فى القطاع الخاص (ومنها بحوث تتعلق بالخلايا الجذعية). وهو يعلم تماما أن الدعم الفيدرالى هو وحده القادر على دفع هذه البحوث للأمام نظرا لإحجام القطاع الخاص عن المجازفة بأموال بحجم ما هو مطلوب فى بحوث الخلايا الجذعية. وهو لا يقدم الدعم إلا لبحوث تعتبر عقيمة لدرجة كبيرة ولا يرجى منها فائدة للإنسان.

ولسوء حظ الرئيس بوش فإن بعض مؤيديه السابقين قد بدأوا يتخلون عنه ويشككون فى جدوى عناد السياسة الأمريكية فى قضية الخلايا الجذعية الجنينية، فيقول السناتور الجمهورى عن ولاية «يوتا»، المورمانى المذهب وهو أحد المذاهب التى كانت تبيح تعدد الزوجات ثم تخلت عن ذلك، وهو يحرم الإجهاض. أورين هاتش Orrin Hatch» لقد أنفقت الساعات التى لا تعد ولا تحصى فى البحث وفى دراسة انعكاسات الموضوع على الناس، وأمضيت مثل هذه الساعات فى الصلاة، وتوصلت فى النهاية إلى أننى إذا كنت من «أنصار الحياة» فإن ذلك يعنى أن أساعد الأحياء.....وأنا واثق أنه من الممكن أن أكون معارضا للإجهاض وفى نفس الوقت مؤيدا لأبحاث الخلايا الجذعية الجنينية». وتوضح تصريحات السناتور هاتش أن مناصرة الحياة ليست أمرا جامدا لا يقبل التطور. وفى نفس الوقت يعلن عضو الكونجرس الجمهورى فيرنون إيثلرز Vernon Ethlers تأييده لدعم بحوث الخلايا الجذعية الجنينية «إذا ثبت أنها هى فقط القادرة على علاج الأمراض المستعصية وليست أية خلايا جذعية أخرى.... وأتوقع أن يتغير المناخ

أين من التاريخ من سحلوا ماري السكندرية وهي من أوائل من قال بكروية الأرض ودورانها حول الشمس؟

المناوئ للخلايا الجذعية الجنينية مع الزمن».

النظافة من سنغافورة

تمكن فريق من العلماء من الجامعة الوطنية بسنغافورة بقيادة عريف بونجسو Ariff Bongso من تنشئة خلايا جذعية جنينية نظيفة لا تتضمن المجازفة بنقل الأمراض من الحيوانات إلى الإنسان، وهو انتصار مدوٍ. فحتى يومنا هذا كانت خلايا الفئران هي المنصة أو الوسيط الذي تنشأ عليه الخلايا الجذعية في وجود سوائل حيوية مستخلصة من الأبقار (بلازما الدم مثلا)، وهي عملية ضرورية لانقسام الخلايا الجذعية الجنينية إلى مثيلاتها. تمكن فريق عريف بونجسو من استخدام خلايا من العضلات البشرية مأخوذة من أجنة مع سائل حيوي بشري لتنشئة الخلايا الجذعية بعد فحص خلايا العضلات والسائل الحيوي فحصا دقيقا بحثا عن فيروسي HIV-1 & HIV-2 وفيروس B الكبدي. ويركز فريق عريف بونجسو الآن على إمكانية استخدام خلايا عضلات وسوائل حيوية بشرية من البالغين بدلا من الأجنة، متعاونين مع منظمة FDA (منظمة الغذاء والدواء) الأمريكية، الأمر الذي سيجنبهم مشاكل أخلاقية عديدة وجدالا مرهقا.

مازالت هناك عقبات كثيرة تواجه التطبيق المتوقع والمأمول للخلايا الجذعية سواء كانت جنينية أم بالغة، وهي عقبات بعضها خارج عن إرادتنا، لا سلطان لنا عليه حتى الآن مثل تكون الأورام السرطانية واكتشاف مفاتيح تنشيط الخلايا الجذعية. وبعضها من صنع أيدينا ونتاج أفكارنا واجتهاداتنا. ويتضمن النوع الأخير العقبات التي يطلق عليها «أخلاقية» والعقبات التشريعية. وأعتقد أن إصدار تشريعات مناسبة لدفع وتنشيط بحوث الخلايا الجذعية لن يقتصر على بريطانيا فقط بل سيتحقق بالتدريج أو على طفرات. فهناك اتصالات عديدة تجرى في السر وفي العلن بين HFEA البريطانية وعلماء ومسئولين من كل من كندا واليابان وتايوان...والبقية تأتي. أما الولايات المتحدة فلا يوجد بها أي ترتيب لهذه الأمور فيما عدا القرار السياسي للرئيس بوش بحجب الدعم الفيدرالي عن بحوث الخلايا الجذعية الجنينية. فهل يشهد عام ٢٠٠٥ تقدما، ولو على المستوى التشريعي. فيما يتعلق بهذا الموضوع فلا نرى تعارضا بين معظم الدول حول تقنية الاستنساخ من أجل الحصول على خلايا جذعية جنينية. الواعدة بأن تكون الدواء لكل ما استعصى من الأمراض حتى الآن؟

الخلاصة...من الماضي إلى المستقبل

يأمل العلماء ويتأمل ويفكر الفلاسفة، أما رجال السياسة والاقتصاد فيعكفون على حساباتهم، بينما يتخوف رجال الدين ويتشنج البعض منهم محرمين ما يأتي به «الشيطان». في رأي الكنيسة الكاثوليكية. لكن التاريخ علمنا أنه لا شيء يقف في طريقه أبدا. قد يتعثر أحيانا بل قد يتراجع خطوة للوراء ليندفع بعدها بقوة أشد للأمام، متغلبا على كل من يقف أمامه. فأين من التاريخ من سحلوا ماري السكندرية وهي من أوائل من قال بكروية الأرض ودورانها حول الشمس، عاشت وعملت في مكتبة الإسكندرية القديمة، وأعدموا كوبرنيكوس ثم اعتذروا أخيرا لذكرى جاليليو وأحرقوا أول من حاول طباعة الإنجيل قبل عصر النهضة وحاربوا الآلة البخارية وعدوها وبالا على الإنسان؟! أين من خوفونا من الكهرباء والكمبيوتر وتندروا على ماركوني «الذي اخترع لعبة يتناجى بها الأطفال». يقصدون الراديو؟! أين من حرموا التشريح ونقل الأعضاء؟! إنهم خارج التاريخ الذي أزاحهم من طريقه جانبا، ليبقى التقدم والتقدم أبدا نبراسا هاديا للبشرية. ■

كتاب الزاوية



يحيى حقي

كناسة الدكان

نقلت من جدة إلى استامبول سنة ١٩٣٠، وهناك أتيح لي أن أرقب من قرب تلك التجربة الخطيرة التي قام بها مصطفى كمال حين حول دولة شرقية إسلامية إلى دولة علمانية حديثة ينفصل فيها الدين عن الدولة، وقد قرأت عن مصطفى كمال كثيرًا والتقيت به أكثر من مرة وربما أتيح لي أن أكتب عنه يومًا.

وفي استامبول ارتديت القبعة لأول مرة، وتعلمت أن للقبعات علمًا وأصولاً، وأن ما يصلح للنهار أو الرحلات لا يصلح للمساء أو السهرة، وأن لكل زي القبعة التي تتناسب معه واضطررت - بحكم الوظيفة - إلى شراء ستة أنواع مختلفة من القبعات بالإضافة إلى الطربوش.

وبذهابي إلى تركيا، عدت إلى الأرض التي هاجر منها جدي وعثرت هناك على أقرباء لنا سكنت عندهم، كما تعلمت التركية على كبر وأتقنتها.. فلم تكن اللغة التركية تستخدم في بيتنا إلا للسباب في لحظات الغضب.. كل ما تعلمته منها في مصر لا يزيد على كلمات مثل: أدب سيس، خرسيس، سكتر بره.

وبعد أربع سنوات حافلة قضيتها في تركيا نقلت إلى روما، فانتقلت من ديكتاتورية أتاتورك إلى فاشستية موسوليني، وكما تعلمت التركية تعلمت الإيطالية، وأقبلت على الأدب الإيطالي أغترف منه.

في تلك السنوات بدأ اتصالي المباشر بالحضارة الأوروبية، وأخذت موقف التلميذ في الموسيقى والتصوير والمعارض والمتاحف والمسارح.

«عبر التجارة وليس الدين بدأت العلاقات بين الهند والصين ومن شأن فهم أفضل لتاريخ العلاقات بين أكبر دولتين من حيث السكان فى العالم أن ينعكس إيجابيا على مجمل القضايا السياسية والاجتماعية المعاصرة»

أمارتيا سين

بوابة التاريخ الواسعة

[١]

للروابط الفكرية بين الصين والهند، والممتدة عبر أكثر من ألفى سنة، تأثيرات عميقة فى تاريخ البلدين، لكنها لا تُستحضر اليوم إلا نادراً. ولا تحظى سوى بملاحظة عابرة من كُتّاب تنصب اهتماماتهم على تاريخ الأديان وخاصة الديانة البوذية التى بدأ انتشارها من الهند إلى الصين فى القرن الأول وأصبحت قوة مسيطرة على نطاق واسع إلى أن حلت محلها «الكونفوشية» Confucianism و«الطاوية» Taoism، بعد ما يقرب من ألف عام. هذا الربط «الدينى» ليس إلا أحد عناصر قصة أكبر هى قصة العلاقات الهند - صينية خلال الألفية الميلادية الأولى. وهناك حاجة ملحة إلى فهم أوسع لهذه العلاقة. ليس لأن هذا الفهم الأوسع يسمح باستيعاب أفضل لتاريخ ثلث سكان الكرة الأرضية، وحسب، بل لأن أهمية العلاقات بين الصين والهند تنعكس بشكل جلى على مجمل القضايا السياسية والاجتماعية المعاصرة.

ولا شك أن الديانة كانت رافداً رئيسيًا فى التواصل بين البلدين، وإن البوذية شكلت بؤرة لحركة الناس والأفكار. لكن التأثير الأوسع تجاوز «الديانة» وامتد فى جوانبه العلمانية، إلى العلوم والرياضيات والأدب واللغات والمعمار والطب والموسيقى. ويتبين لنا من تفاصيل إفادات دونها عدد من الرحالة الصينيين إلى الهند، مثل Foxian فى القرن الخامس وXuanzang و Yijing فى القرن السابع[1] أن اهتمام الباحثين لم يكن مقصوراً على الديانة، بأى حال، سواء كنظرية أو ممارسات (طقوس). الأمر نفسه تلمسه عند رصد إفادات الباحثين الهنود الذين زاروا الصين، وخاصة فى القرنين السابع والثامن، والبعثات الهندية التى ضمت تخصصات متنوعة مثل علماء الفلك والرياضيات إلى جانب علماء الأديان. وفى القرن الثامن أصبح العالم الفلكى الهندى Gautama Siddahartha رئيساً لمجلس الفلك فى الصين. يعانى هذا الزخم، والتنوع، فى الروابط الفكرية المبكرة بين الصين والهند، من تعتيم ساد طويلاً ويقوى بفعل نزعة معاصرة تصنف التعداد السكانى العالمى إلى «حضارات» متمايزة تُعرف - غالباً - بالديانة (مثال ذلك تقسيم صمويل هنتنجتون S. Huntington للعالم إلى تصنيفات مثل «حضارة غربية»، «حضارة إسلامية» و«حضارة هندوسية»). وتوجد - كنتيجة - رغبة عارمة لفهم البشر من خلال المعتقد الدينى فى المقام الأول، حتى وإن افتقد هذا المعتقد الكثير الهام لفهم هؤلاء البشر. لقد ألحقت محدودية هذه الرؤية الكثير من الضرر بطبيعة فهمنا للوجوه الأخرى لتاريخ المعتقدات فى الكرة الأرضية. الكثير الآن عرضة لأن يرى تاريخ المسلمين كأنه تاريخ إسلامى خالص متجاهلاً بذلك الازدهار الذى حققته النخب الإسلامية فى العلوم والرياضيات والأدب، وخاصة فيما بين القرن الثامن والقرن الثالث عشر الميلاديين. إحدى نتائج مثل هذا التأطير الضيق تتجسد فى أن الناشط العربى الساخط يشجع على أن يستمد كبرياءه من الدين فقط وليس من تنوع وثراء التاريخ العربى. فى الهند أيضا هناك محاولات متتابعة لتصوير حضارة عريضة فى الهند باعتبارها «حضارة هندوسية»، وتفعيل هذا المصطلح المفضل عند Huntington وأتباع نظريته داخل أروقة السياسة الهندية.

هناك تناقض، غريب ولافت بين الأساليب التى يتشكل من خلالها الفهم المعاصر للأفكار والمعرفة الثقافية والعلمية الغربية وغير الغربية. عند ترجمة أعمال غير غربية يميل العديد من المعلقين إلى إسباغ الكثير من الأهمية على الدين متجاهلاً الاهتمامات العلمانية لهذه الأعمال. هناك قلة تفترض أن إنجازات إسحاق نيوتن - مثلاً - يجب أن تفهم، فى المقام الأول، باعتبارها مسيحية (رغم أن له - بالفعل - معتقدات مسيحية)، ولا يمكن لمعظمنا أن يسلم - كلية - بأن إسهامات نيوتن فى المعرفة العلمية يجب أن تفسر، بطريقة ما، فى ضوء اهتمامه العميق بالتصوف (وربما تكمن أهمية التأمل الصوفى عند نيوتن فى تشكيل الحافز وراء بعض أعماله). على النقيض، وعندما يتعلق الأمر بثقافات غير غربية تتجه «اختزالية» الدين[*] إلى أن يصبح قوة فعالة. يفترض الباحثون - عادة - أن لا أحد من المبدعين على نطاق واسع فى دراسة بوذا واتباع ممارسة مبادئ هذا المعتقد، يمكن له أن يفهم. بشكل صحيح. إلا فى ضوء خاص من معتقداته وعاداته الدينية.



المتفق عليه أن العلاقات بين الصين والهند تكاد تكون بدأت - بالفعل - عبر التجارة وليس عبر البوذية. ونلمس، منذ حوالى الألفى سنة الماضية، تأثيراً واضحاً لكل جديد قادم من الصين على عادات الهند الاستهلاكية، وخاصة بين الأثرياء منها. هناك دراسة للباحث السنسكريتى الكبير «كوتيليا» Kautilya، فى الاقتصاد والسياسة، كتبها للمرة الأولى فى القرن الرابع قبل الميلاد وروجعت بعد عدة قرون لاحقة. وهى دراسة تعطى أهمية خاصة لـ «الحرير والملابس الحريرية من أرض الصين». ضمن «سلع نفيسة» و«لوازم عالية القيمة». وتوجد إشارات فى الملحمة الهندية القديمة «ماهابهارتا» Mahabharta إلى أثواب الحرير الصينى أو حرير «شينامسوكا» Cinamsuka المقدم هدايا. وهناك إشارات مماثلة فى مخطوطات القوانين القديمة.

لقد صورت العديد من الأعمال الأدبية فى اللغة السنسكريتية القديمة فى عصر مبكر من الألفية الأولى، طبيعة المنتجات الصينية المجلوبة. وفى مسرحية Sakuntala التى كتبها Kalidasa (الدراما الشعرية الأفضل فى الأدب السنسكريتى القديم)، نرى ملك Dusyanta وقد التقى الفتاة الناسكة وهو فى رحلة صيد فشغف بها وأُخذ بسحر جمالها فراح، وقت رقت مشاعره يقارن حاله بحال راية من الحرير الصينى يتلاعب بها الهواء «يدفعنى الجسد إلى الأمام، ويشدنى العقل إلى الخلف، كحرير صينى فوق سارية تهزه الرياح». ويبدع Bana، فى مسرحيته Harsacarta التى كتبها فى القرن السابع، وهو يصور الفتاة الجميلة Rajyasri متألقة يوم عرسها ترتدى ثوباً من الحرير الصينى، كذلك تضمن الأدب السنسكريتى، فى الفترة نفسها، إشارات كثيرة إلى منتجات صينية أخرى، شقت طريقها إلى أسواق الهند، من بينها الكافور والزُّنجُفر والجلود عالية الجودة، جنباً إلى جنب مع فواكه شهية مثل ثمار الكمثرى والخوخ.

وفى الوقت الذى راحت فيه الصين

بترتيب مع:
The New York Review of Books
عدد ديسمبر ٢٠٠٤

ترجمة: جمال إسماعيل



بين الهند والصين

تُثرى عالم المادة فى الهند، خلال الألفى سنة الماضية، كانت الهند تصدر إليها البوذية منذ القرن الأول الميلادى، عندما وجه الإمبراطور Mingdi، من أسرة Han الحاكمة، دعوة لزيارة الصين إلى الراهبين الهنديين Dharmaraska وKasyapa Mantanga من وقتها، وإلى حلول القرن الحادى عشر، تدفق إلى الصين المزيد والمزيد من الباحثين والرهبان الهنود. وقام مئات المترجمين بترجمة آلاف الوثائق السنسكريتية، ومعظمها حول البوذية، إلى اللغة الصينية. واقترنت حركة الترجمة بسرعة مدهشة لكن تدفقها وصل إلى نقطة التباطؤ نهاية القرن الحادى عشر، ورغم ذلك شهدت الفترة ما بين ٩٨٢ و ١٠١١، بعد الميلاد، ترجمة أكثر من مائتى مجلد أخرى من السنسكريتية إلى اللغة الصينية.

يتصدر Faxian قائمة الباحثين الذين سجلوا إفادات ضافية عن زياراتهم إلى الهند. وهو أول دارس للبوذية نشأ فى غرب الصين وأخذ على عاتقه تحقيق النصوص السنسكريتية بنية ترجمتها إلى اللغة الصينية.

وصل Faxian إلى الهند عام ٤٠١ بعد رحلة شاقة سلك خلالها الطريق الشمالية وعبر إقليم Khatan (الذى سادته البوذية بشكل ملحوظ). مكث Faxian فى الهند عشر سنوات مرتحلاً يجمع الوثائق (التى سيقوم بترجمتها فيما بعد). وفى عودته إلى الصين، عن طريق البحر (من منطقة ليست بعيدة عما يعرف اليوم بـ «كلكتا») وتوجه إلى سريلانكا البوذية كى يلتقى والراهب الهندى Java. كانت سجلات Faxian عن «مملكة البوذية» إفادة فائقة الإضاءة عن الهند وسريلانكا. وقد كرس حياته لدراسة نصوص اللغة السنسكريتية وآدابها، إضافة إلى النصوص الدينية، وكانت له أيضاً اهتمامات واضحة، سيأتى ذكرها، بالنظم السائدة فى الهند على صعيد الرعاية الصحية العامة.

أما أشهر باحث صينى زار الهند وحرص أيضاً على جمع النصوص السنسكريتية وترجم معظمها عند عودته إلى الصين فهو Xuanzang الذى أمضى فى الهند ١٦ عاماً منها سنوات التحق فيها بمعهد Nalanda، أهم معاهد التعليم العالى آنذاك، بالقرب من Patna المدينة العاصمة، حيث عكف على دراسة الطب، الفلسفة، المنطق، الرياضيات، الفلك، وقواعد اللغة، بالإضافة إلى البوذية. وعند عودته إلى الصين احتفى به الإمبراطور واستقبله استقبالاً مبهجاً(٢). وعقب عودة Xuanzang بفترة قصيرة غادر الباحث Yijing الصين متوجهاً إلى الهند والتحق - هو أيضاً - بمعهد Nalanda جامعاً فى أبحاثه ما بين البوذية ودراسات عن الطب ونظم الرعاية الصحية العامة.



من بين الأعمال البوذية التى ترجمها Yijing، بعض نصوص عن أتباع «البوقية» Tantrism(**) التى تشدد تقاليدها على ضرورة إعمال التأمل. وساد هذا النوع من البوذية الصين خلال القرنين السابع والثامن. وكان للعديد من دارسيه اهتمامات قوية بالرياضيات (ربما لارتباط ممارسة العقيدة بالأرقام الحسابية)، الأمر الذى انعكس على علوم الرياضيات بشكل عام. ويلاحظ Joseph Needham(٣) أبرز من اعتنق هذا النوع من البوذية هو Yixing (٦٧٢ - ٧١٧)، وكان أكثر علماء عصره، فى الصين نباهة، فى علوم الفلك والرياضيات. كان Yixing يجيد اللغة السنسكريتية، ومن العارفين بالأدب الهندى، وعالم رياضيات، وكان أيضاً راهباً بوذياً لكن من الخطأ افتراض أن إنجازاته فى علم الرياضيات كانت بطريقة ما، دينية المنحى، فهو عالم رياضيات تصادف أن يكون بوذى العقيدة، تعامل مع مشكلات تحليلية وحسابية متنوعة لم يكن للكثير منها علاقة محددة بالعقيدة. لقد عالج معضلات قديمة مثل «حساب العدد الإجمالى للمواقف المحتملة فى لعبة الشطرنج»، كما كان مهتماً بالحسابات التقويمية «الروزنامية» حتى أنه وضع، بتكليف من الإمبراطور، تقويماً جديداً للصين.

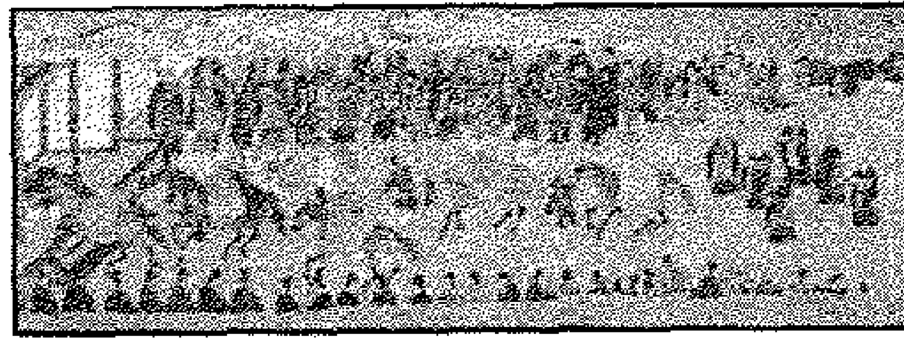
من جانبهم، حرص علماء الفلك الهنود الذين عاشوا فى الصين خلال القرن الثامن، على دراسة الحسابات الروزنامية مستفيدين من التطورات فى علم المثلثات فى الهند. كان ذلك أيضاً فى الوقت الذى تأثرت فيه علوم الفلك والرياضيات، بما فى ذلك علم المثلثات الهندى، بالتطور الحاصل فى هذه العلوم فى العالم العربى، عبر ترجمات إلى الهندية، من اللغة العربية، قام بها العديد من الباحثين ومن بينهم Aryabhata و Varahmihira وBrahmagupta وآخرون.

وتظهر السجلات الصينية أن العديد من الفلكيين وعلماء الرياضيات من الهند، احتلوا مواقع رفيعة المستوى فى مجالس الفلك فى العاصمة الصينية ولا يقتصر الأمر على أن واحداً منهم أصبح رئيساً لمجلس الفلك الصينى «Gautama Siddahartha»، لكنه أعد أيضاً الموجز الصينى الكبير للفلكى Kaiyvan Zhanjing، أحد علماء القرن الثامن الذى اقتبس أهم أبحاث الفلك الهندية وقام بنشرها فى الصين، من بينها دراسة تسبر أغوار الكوكب السيار المتحكم فى التقويم الهندى، للفلكى Jiuzhili، وتستند إلى نص قديم باللغة السنسكريتية حققه عالم الرياضيات Varahamihira حوالى عام ٥٥٠ الميلادى. وتعد هذه الدراسة دليلاً حسابياً للعد والتقدير لقياسات أخرى من بينها، على سبيل المثال، أمد الخسوف ومدى قطر دائرة القمر. وتستند التقنية المستخدمة إلى أسس وضعها Aryabhata أواخر القرن الخامس وقام تلاميذه - فيما بعد - بتطويرها، وكان من بينهم Varahamihira وBrahmagupta.

ويصف عالم الفلك الصينى Yang Jingfeng، نماذج الخلفية العلمية للمسئولين الصينيين عن الفلك فيقول: «أمام الذين يريدون معرفة مواقع النجوم التى يسير وفقها التقويم الهندى خبراء ثلاث عشائر لهذا التقويم: Kumara, Gautama, Kasyapa جميعهم تولوا إدارة مجلس الفلك فى الصين. لكن الاستفادة القصوى تُحصل الآن من طرق التقويم الخاصة بالمعلم Gautama و«عمله الفنى العظيم» الذى أنجزه للحكومة».

لم يذهب الفلكيون الهنود، أمثال كاسيابا وجوتاما وكومار، إلى الصين إلا فى إطار الروابط التى أوجدتها البوذية. لكن من الصعب النظر إلى إنجازاتهم كإسهامات فى البوذية فى المقام الأول.

يحفل أدب الثقافات والحضارات بمناقشات كثيرة تدور حول «عزلة» الصين والادعاء بنزوعها إلى الشك والريبة فى النظر إلى الأفكار القادمة من خارجها. هذا الادعاء هو السائد حالياً فى محاولة لتفسير مقاومة الصين للسياسات الديمقراطية. لكن هذا التبسيط فى التفسير لا يقدم شرحاً لأسباب إقدام الصين على احتضان آليات اقتصاد السوق فى الداخل والخارج وإقدامها، منذ عام ١٩٧٩ إلى



ثلث سكان الكرة الأرضية..

اتخاذ إجراءات حاسمة في الإصلاح الاقتصادي، بينما يقاوم قادتها - بحزم - الديمقراطية السياسية. والحقيقة أن الصين لم تكن معزولة ثقافياً. هنا تصبح لعلاقات الصين مع الهند أهمية محددة. إن الهند هي الدولة الوحيدة، في العالم الخارجي، التي قصدها الباحثون من الصين القديمة سعياً وراء التعليم واكتساب المهارات: لدينا سجلات لأكثر من مائتين من الباحثين الصينيين المتميزين الذين أمضوا فترات مكثفة من الوقت في الهند. خلال النصف الثاني من الألفية الأولى، سعى الصينيون - في المقام الأول - إلى تحصيل المعرفة الخاصة بآداب اللغة السنسكريتية، والديانة البوذية، والكثير غيرهما. وانعكست التأثيرات الهندية في استخدامهم لتعابير ومفاهيم رئيسية مستقاة من اللغة السنسكريتية. مثال ذلك ما نراه في بعض مفردات وأسماء ومفاهيم التأمل، وفي مشاهد من مسرحيات أوبرالية صينية مستمدة من حكايات سنسكريتية، مثل «فتاة السماء تنثر الأزهار»[4]. كما بين الباحث الأمريكي John Kieschick تأثر طرز المعابد والجسور في الصين بالمعمار الهندي[5].



هكذا سارت حركة المعرفة بين الصين والهند في اتجاهين. لكن Needham حاول تقديم قائمة حساب بالأفكار التي بزغت في الصين وانتقلت إلى الهند، وذهب إلى أن الأفكار الصينية التي شقت طريقها إلى الهند أكثر بكثير من تلك التي سلكت الاتجاه المعاكس، ويقول: «كانت الهند هي الأكثر استيعاباً للثقافتين». وهذا افتراض يزعم أن الفكرة تنسب إلى المكان الذي يوجد به أول تسجيل لاستخدامها، في غياب الدليل المباشر لحركة فكرة بعينها في أي اتجاه من الاتجاهين بين الصين والهند. لقد نال هذا الافتراض انتقادات قوية من مؤرخين للعلوم والرياضيات مثل Jean Claude Martzloff. ويبدو واضحاً أن سجلاً مبكراً للأفكار المستخدمة ربما يكون فقط في الهند، وليس الصين. ويبقى الأمر المهم وهو أن ذلك الزخم من الأفكار، في الرياضيات والعلوم والكثير من الموضوعات غير الدينية، قد تحرك في الاتجاهين.

يحتل انتقال أفكار ومهارات العلوم والرياضيات مكانة المركز في حركة التجارة العالمية المعاصرة سواء على صعيد تنمية تكنولوجيا المعلومات أو أساليب الصناعة الحديثة. والأمر، الذي ربما يكون أقل وضوحاً هو كيف يمكن للأمم أن تتعلم من بعضها البعض في توسيع الاتصالات الجماهيرية وفي تحسين رعاية الصحة العامة. والحاصل أن المحوريين كانت لهما أهمية في العلاقات الفكرية بين الصين والهند في الألفية الأولى، وهي أهمية لا تزال قائمة إلى اليوم.

بدأت البوذية، كديانة، بخاصيتين محددتين غير عاديتين: اللاايقينية، والالتزام بالحوار الواسع للقضايا الجماهيرية. بعض أقدم الحوارات الجماهيرية كان هدفها المحدد - حسب ما جاء في السجلات - تسوية نزاعات حول معتقدات دينية، بالإضافة إلى قضايا أخرى في الهند. كانت المناقشات تجرى داخل مجلس البوذية ويدور السجال بين أنصار وجهات النظر حول نقاط الاختلاف. وأول مجلس موسع من هذا النوع عقد في Rajagriha عقب وفاة Gautama Buddha منذ أكثر من ٢٥٠٠ سنة مضت. أما أضخم هذه المجالس فكان ثالثهم وعقد في Patna المدينة العاصمة، تحت رعاية الإمبراطور Ashoka في القرن الثالث قبل الميلاد. حاول Ashoka أيضاً وضع قواعد مبكرة حاكمة للنقاش الجماهيري، وطالب في مدونة بهذا الشأن بـ «ضرورة» الانضباط في الخطاب حتى لا تكون هناك إطالة في إطراء أو مديح لفريق بعينه، أو استخفاف بفرق أخرى في مناسبات غير ملائمة. كما يجب أن يكون الخطاب معتدلاً في كل المناسبات. وأن تنال الفرق كامل الاحترام حتى وإن احتدم النقاش والانشغال». إن أصداء النقاش الجماهيري هي صميم الديمقراطية، ونستطيع تتبع أصول هذه الديمقراطية في قسم من تقاليد النقاش الجماهيري الذي لاقى التشجيع بفعل تعاليم البوذية في الهند والصين (وكذلك في اليابان وكوريا وأماكن أخرى). واللافت أيضاً أن البوذية أخذت على عاتقها معظم محاولات الطباعة المبكرة في الصين، كوريا، اليابان[6]. وأول كتاب طبع في العالم (أو - بالأحرى - أول كتاب طبع ويحمل تاريخ طباعته) كان ترجمة صينية لأطروحة هندية عن الأدب السنسكريتي وصدر في الصين عام ٨٦٨ الميلادي بعنوان «الحكمة الماسية» Diamond Sutra ويعد وثيقة دينية خالصة وكان الإهداء المكتوب عليه «بالبنط العريض» نص على توزيع الكتاب دون مقابل مادي في إشارة واضحة إلى الالتزام بتعليم الجماهير. وقد لاحظ John Kieschlick أن أحد أسباب اكتساب الكتاب لهذه الأهمية في تقاليد البوذية الصينية يكمن في الإيمان بأن فضيلة الإنسان تتجلى في نسخه أو طباعته لكتاب بوذي. وافترض Kieschlick أن أصول هذا الاعتقاد يمكن تتبعها إلى الهند. وهناك بعض خلفية لوجهة النظر هذه، كما أن هناك صلة أكيدة بين الاهتمام بضرورة الاتصال بجمهور عريض وفكر قيادات بوذية مثل الإمبراطور Ashoka الذي لجأ إلى الأقراص الحجرية الكبيرة، المنقوش عليها «مزايا السلوك الجيد وقواعد إدارة الحوار» ونشرها عبر الهند كي تطلع عليها الجماهير.

لقد حقق تطور الطباعة دفعة قوية في تنمية الديمقراطية لكنه، في مداه القصير، فتح أيضاً إمكانات جديدة في الاتصال الجماهيري، وكان لهذا التطور انعكاساته على الحياة الاجتماعية والسياسية في الصين، وتأثيراته في نشر تعاليم الكونفوشية الجديدة. ولاحظ Theodore de Barry أن «تعليم النساء حقق مستوى جديداً من الأهمية (في عصر الإمبراطور Song) وأن امتدادات تعاليمه الكونفوشية الجديدة إلى «إقليم» Ming، اقترنت بالانتشار الواسع للطباعة، ومعرفة القراءة والكتابة، والتعليم.



لا أحد يعرف إلا القليل عن العلاقات بين الهند والصين، في مجال رعاية الصحة العامة، رغم تميز هذه العلاقات. ومنذ وصوله إلى الهند، عام ٤٠١ الميلادي، أبدى Faxian اهتماماً واضحاً بنظم الرعاية الصحية السائدة، كما أبدى تقريراً ملموساً للتسهيلات المدنية الخاصة بالرعاية الصحية في مدينة Patna خلال القرن الخامس: «كل فقير وعاطل في البلاد، وكل من يصاب بمرض، يذهب إلى مساكن مخصصة حيث تقدم إليه كل أنواع المساعدة ويفحصه الأطباء ويجد الغذاء والدواء، حسب متطلبات حالته. وعندما يشعر بالتحسن يغادر من تلقاء نفسه».

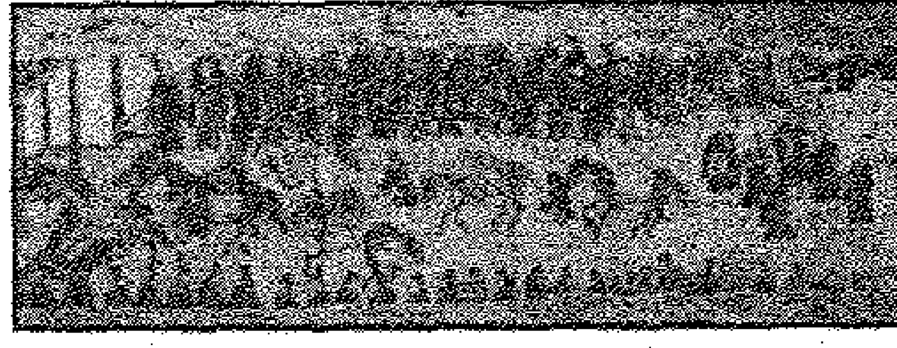
وسواء حمل هذا الوصف بعض المبالغة، أو لم يحمل، يظل اللافت هنا، وبشدة، هو رغبة Faxian في الإلمام بطبيعة التدابير المتخذة في مجال الرعاية الصحية العامة، في البلد الذي زاره لعقد من الزمان.

بعد ذلك بقرنين ونصف القرن أصبح Yijing مهتماً بالصحة العامة، وكرس من أجلها ثلاثة فصول من كتابه عن الهند. كان أكثر إعجاباً بالممارسة في الرعاية الصحية، وليس بالمعرفة الطبية ذاتها، لكنه أعطى الهند فضل اكتشاف بعض العلاجات الطبية، وفي الصدارة منها علاجات تسكين الألم وإراحة المريض (مثل استخدام الجِبة «نوع من الزبدة» الزيت، العسل، أو شراب يزيل أعراض البرد «الرشح أو الزكام»)، وإن كان قد خلص إلى أن «لا يوجد في الهند من تفوق على الصين في فنون التداوي بالإبر والكي ومهارات جس النبض» أو «أدوية إطالة أمد العمر لم توجد إلا في الصين». وعلى الجانب الآخر، كتب يقول: «كان هناك الكثير الواجب تعلمه من الهند عن الرعاية الصحية. هم يستخدمون - مثلاً - القماش الأبيض الجيد في تصفية وترشيح المياه، وفي الصين يجب استخدام أجود أنواع الحرير. إننا نأكل الأسماك والخضروات دون طهي في معظم الأحيان، ولا يوجد في الهند من يقدم على ذلك».

عاد Yijing إلى بلاده فخوراً بأصوله الصينية متسائلاً ببلاغة: هل يوجد في كل أقاليم الهند من لا يعجب بالصين؟ وبقيت له وجهة نظر في تقييم ما يمكن للصين أن تتعلمه من الهند.

وتعد قضية الصحة العامة واحدة من القضايا التي تستطيع دولة ما أن تتعامل معها في ضوء خبرة دولة أخرى. ويجب أن يكون واضحاً أن الهند اليوم أمامها الكثير الذي يمكن أن تستفيد به من الصين. لقد ظل متوسط الأعمار، ولعقود كثيرة، أعلى في الصين عن متوسط الأعمار في الهند. وتحمل محاولات الارتقاء بمتوسط الأعمار في البلدين قصة أكثر تشويقاً: كان للصين الماوية، بعد الثورة، انطلاقة مبكرة في نشر الرعاية الصحية، ولم يكن لها ما يناظرها - في ذلك الوقت - في الهند.

مع مجيء عام ١٩٧٩، وعندما أعلن، للمرة الأولى، عن إصلاحات Deng Xiaoping الاقتصادية، كان متوسط الأعمار الصيني يزيد عن الهندي، بأربعة عشر عاماً. ثم، وبعد إصلاحات عام ١٩٧٩، انطلق الاقتصاد الصيني محققاً معدلات نمو فاقت معدلات نمو اقتصاد الهند. ورغم هذا النمو الاقتصادي السريع، ارتفع معدل الزيادة في متوسط الأعمار في الهند، ومنذ عام ١٩٧٩، إلى حوالي ثلاثة أضعاف سرعة الزيادة في الصين، والآن توجد فجوة، تحسب للصين، حيث يبلغ متوسط العمر حوالي



٧١ عامًا، بعد أن كان ٤٠ عامًا فى عام ١٩٧٩.

ولاية هندية واحدة، هى كيرالا Kerala البالغ تعداد سكانها ٣٠ مليون نسمة، وتعد بذلك أكبر من دول كثيرة، وحققت نجاحًا متميزًا كنموذج هندى لديمقراطية متعددة الأحزاب (تشمل المداولات العامة والمشاركة الشعبية)، وأدخلت، بمبادرات من الولاية، تحسينات فى مجال الصحة العامة، شبيهة بتلك التى قامت بها الصين بعد الثورة(٧). وتكشف مزايا هذا النموذج عن نفسها ليس - فقط - فى أن متوسط الأعمار فى Kerala، وبعض ولايات الهند، يفوق متوسط الأعمار الصينى البالغ ٧١ عامًا، بل فى العديد من المجالات الأخرى. إن نسبة النساء إلى الرجال فى إجمالى عدد السكان تبلغ فى الصين ٠,٩٤٪، وفى الهند - بشكل عام - ٠,٩٣٪ لكن هذه النسبة فى كيرالا وحدها ترتفع إلى ١,٠٦٪ متساوية بذلك مع نسبة النساء إلى الرجال فى أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية. تعكس هذه النسبة مزايا معيشية للنساء، تضعهن فى أوضاع سوية، ومساواة. كان انخفاض معدل الإخصاب فى كيرالا أسرع من مثيله فى الصين، رغم فرضها لسياسات تحديد النسل. ووقت بداية الإصلاحات الصينية عام ١٩٧٩ كان متوسط الأعمار فى كيرالا أقل بفارق ضئيل من مثيله فى الصين، لكنه حقق، ما بين ١٩٩٥ و٢٠٠٠ (الفترة التى لها إحصاءات هندية حاسمة)، ارتفاعًا ملحوظًا، يبلغ ٧٤ عامًا، عن مثيله فى الصين التى تظهر إحصاءاتها الحاسمة أيضًا أن المتوسط وصل إلى ٧١ عامًا عام ٢٠٠٠. أضف إلى ذلك أن معدل الولادة انخفض فى الصين، منذ إصلاحات عام ١٩٧٩ الاقتصادية، ببطء شديد. بينما تميز انخفاض المعدل فى كيرالا بسرعة شديدة جعلته يقترب ويصبح ٣٠٪ تقريبًا، كمثيله الصينى، وهذا معدل لم يتغير كثيرًا فى العقد الماضى.

عاملان، لكل منهما صلة بـ «الديمقراطية»ساعدا فى شرح أسباب تثاقل التقدم الصينى فى «تمديد» الحياة، بصرف النظر عن الانعكاسات الإيجابية للنمو الاقتصادى القوى. يتمثل العامل الأول فى تقليص إصلاحات عام ١٩٧٩، الواضح، لمجانية التأمين الصحى العام، واشتراك معظم المواطنين فى التأمين الصحى الخاص (ما لم يتم التأمين عن طريق صاحب العمل وهو ما يحدث فى حالات قليلة العدد). هذا الانسحاب من خدمة عامة عالية القيمة ووجه بمقارنة سياسية لا تذكر، وهو ما لا يحدث - بلا شك - فى أى ديمقراطية متعددة الأحزاب.

العامل الثانى، أن قيمة الديمقراطية، وكذلك قيمة الحرية السياسية، تكمنان فى القدرة على إيجاد مساهمة مباشرة ومشاركة فى السياسة العامة، بما فى ذلك الرعاية الصحية، من خلال وضع السياسة الاجتماعية تحت الرقابة العامة(٨) سائلة السياسة المفلسة. من المعروف أن الهند تقدم تسهيلات طبية عالية الجودة إلى الأثرياء نسبيًا، وإلى الأجانب الذين يقصدونها بهدف العلاج. من المعروف أيضًا أن مستوى الخدمات الصحية العامة الأساسية فقير ويتعرض إلى انتقادات قوة فى الصحافة الهندية. لكن الانتقادات الحادة، والتقارير المتعاقبة حول العيوب فى الخدمات الصحية، تقدم فرص الإصلاح والتحسين وتعد مصدر قوة للهند تبدو انعكاساتها واضحة فى الخفض الحاد للفجوة بينها وبين الصين على صعيد معدلات متوسط الأعمار، كما تبدو أيضًا فيما حققته كيرالا من نموذج يمزج ما بين المشاركة الديمقراطية والالتزامات الاجتماعية الأساسية. رابط آخر فى العلاقة بين شكل الاتصال الجماهيرى ومستوى الرعاية الصحية يمكن رؤيته فى التأثيرات الرهيبة الناجمة عن التعتيم الذى أحيط به وباء SARS «الالتهاب الرئوى الحاد» الذى بدأ فى الصين فى نوفمبر ٢٠٠٢ وضربت حوله السرية والكتمان حتى ربيع العام التالى(٩).

الخلاصة أن لدى الهند الكثير لتتعلمه وتستفيد به من الصين على الصعيد الاقتصادى، ويمكن للصين أن تستفيد من الهند، بالكثير وخاصة فى الاتصال الجماهيرى، والديمقراطية، ولو على صعيد تنمية الرعاية الصحية.

ومن المفيد استدعاء أن تقاليد عدم توقير السلطة، والاستخفاف بها، التى جاءت مع البوذية من الهند والصين، تعرضت - دون غيرها - لانتقاد شديد من قبل الصينيين ضمن إدانات مبكرة للبوذية وقت أن سلم Fuyi، وهو زعيم كونفوشى متنفذ، شكواه إلى إمبراطور إقليم Tong وفيها جاء:

(لقد تسللت البوذية إلى الصين من آسيا الوسطى «فى» شكل وحشى غريب وأصبحت أقل خطورة فيما بعد، لكن النصوص الهندية بدأت ترجمتها منذ عصر الـ Han «قبيلة حاكمة» وبدأ انتشارها ينعكس سلبًا على الإيمان بالأمراء ويبدأ الورع الجماعى ينحسر. حلق الناس رؤوسهم ورفضوا الانحناء للأمراء وجدودهم الأعلى».

لم يكتف Fuyi باقتراح حظر التبشير بالبوذية، بل طالب بإيجاد طريقة جديدة لـ «التعامل مع عشرات الآلاف من الناشطين المهتاجين فى الصين» يطالب بـ «تزويجهم» وينصح الإمبراطور بأن يأخذ أولادهم ويعمل على تربيتهم وتنشئتهم لكى «يلتحقوا بصفوف جيشكم».لكن الإمبراطور - وكما نعلم - لم ينتصح ورفض هذه الرؤية لتقليص البوذية. وبنجاح باهر أصبحت الصين رائدة فى الاقتصاد العالمى ونقلت عنها الهند، والعديد من الدول، الكثير من تجاربها وخاصة فى السنوات الراهنة؛ لكن إنجازات المشاركة الديمقراطية فى الهند، بما فى ذلك كيرالا، تفيد بأن الصين، من جانبها، أمامها ما تأخذه عن الهند. وواقع الحال أن تاريخ محاولات الصين التغلب على عزلتها، وخاصة خلال النصف الثانى من الألفية الأولى، له أهمية مستمرة باقية و«منافع» كثيرة عملية لعالمنا المعاصر. ■

هوامش

(١) استخدمت نظام Pinyin للترجمة من اللغة الصينية إلى اللغة الإنجليزية، عند التعامل مع الأسماء الواردة فى الدراسة، وهو نظام سائد الآن رغم استخدام الأدب المقارن لطرق تهجئة مختلفة.

(٢) كتابان، صدرا حديثًا، وعلى درجة عالية من الإتقان ويستندان إلى رحلات Xuanzang: الأول هو «رحلة فى المطلق، Ultimate Journey وفيه أعاد Richard Bernstein اكتشاف الممر الذى سار فيه الراهب البوذى القديم عبر آسيا يبحث عن لحظة التنوير، ونشر عام ٢٠٠١. والكتاب الثانى هو «عشرة آلاف ميل بلا سحاب، تأليف Sun Shuyun وصدر عام ٢٠٠٣.

(٣) Joseph Needham - العلم والحضارة فى الصين - المجلد الثانى - ص ٤٢٧ (مطابع جامعة كامبردج -) ١٩٥٦.

(٤) مصطلح Mandarin جاء فى الكلمة السنسكريتية Mantri ومعناها «المستشار الخاص». ولا يزال رئيس وزراء الهند يلقب بـ Pradhan Mantri أو «رئيس المستشارين».

(٥) John Kieschnick - تأثير البوذية على ثقافة الصين المادية (جامعة برنستون -) ٢٠٠٣.

(٦) ربما تكون هناك محاولات مبكرة للطباعة - البدائية على ما يبدو - قام بها بوذيون من الهند. ومن الواضح أن Yijing فوجئ عند زيارته إلى الهند بصور بوذية مطبوعة على الحرير والورق. ومن قبله يقال إن Xuanzang حمل عند عودته إلى الصين بعض صور مطبوعة لباحث هندى اسمه Bhadara. انظر Needham - مرجع سابق - المجلد الخامس - الجزء الأول - صفحات ١٤٨ و ١٤٩.

(٧) كانت كيرالا أقل توفيقًا فى تحقيق معدل نمو مرتفع فى إجمالى المنتج المحلى من خلال التوسع الاقتصادى. وهذا المعدل يساوى إجمالى المتوسط فى الهند وأقل منه فى عدد من الولايات الهندية. ورغم ذلك تميل تقديرات البنك الدولى البنك الدولى إلى إظهار أن كيرالا، وبالإضافة إلى إنجازاتها فى التعليم والرعاية الصحية لديها أحد أسرع معدلات انخفاض دخول حد الفقر فى الهند، ولديها الكثير لكى تتعلمه من الصين حول طرق زيادة النمو الاقتصادى. حول هذه المقارنات والعوامل السببية الخاصة بها راجع كتابى «الهند: النمو والمشاركة» بالاشتراك مع Jean Dreze، الصادر عام ٢٠٠٢ عن جامعة أكسفورد.

(٨) هذا الارتباط شبيه بالملاحظة الأكثر وضوحًا حول عدم وقوع مجاعات رئيسية فى دول تحكمها النظم الديمقراطية حتى وإن كانت تعانى الفقر المدقع. المجاعات الكبيرة التى استمر حدوثها فى الهند البريطانية (مجاعة البنجال عام ١٩٤٣ وقعت قبل استقلال الهند بـ ٤ سنوات) اختفت على نحو مفاجئ مع الأخذ بالديمقراطية متعددة الأحزاب. على النقيض من الصين التى عانت أكبر مجاعة فى التاريخ فى الفترة من ١٩٥٨ إلى ١٩٦١ حيث قدر عدد ضحاياها بـ ٣٠ مليون نسمة.

(٩) من المحتمل أن تكون الزيادة الحادة فى التباين الاقتصادى، خلال السنوات الجارية، قد ساهمت أيضًا فى تباطؤ الارتقاء بمتوسط الأعمار. لكن اللافت أن هذه الزيادة كان لها أوسع تأثير فى هزيمة الحكومة الحاكمة فى نيودلهى، فى انتخابات مايو. وكان من بين أسباب الهزيمة أيضًا أحداث الشغب الطائفية فى ولاية Gujarat. وهذه - بالتأكيد - ضريبة النظام الديمقراطى الذى تستجيب فيه الأغلبية وتفى بالتزاماتها إزاء الأقليات.

هوامش للمترجم

(*) «الاختزالية» Reductionism، مصطلح يستخدم فى العلم عامة ويشير إلى جهد بعض الباحثين لتبسيط طرق البحث أو تحليل العلاقات وصياغة النظريات، بافتراض أن تفسير نوع معين من الظواهر يصلح لتفسير نوع آخر رغم ما قد يبدو بين النوعين من تباين. وأبرز الأمثلة هو تفسير الظواهر الاجتماعية بالرجوع إلى الدين أو العقيدة، ويدخل ضمن ذلك محاولة تفسير ما يتم من تغيرات فى جوانب النشاط المتعددة بإرجاعها إلى تغيرات تقع فى جانب واحد من هذا النشاط كأنما هذا الجانب هو الأصل والجوانب الأخرى أفرع منه - المصدر: معجم العلوم الاجتماعية - الهيئة العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٧٥.

(**) طائفة بوذية نشأت فى شمال الهند ودمجت ما بين تعاليم هندوسية ومعتقدات صوفية فى نظام يشجع ممارسات سحرية لبلوغ لحظة الاستنارة.

"سبيل الباشا!"

حتى عام ١٩٩٨، كان سبيل محمد على باشا بالقاهرة مجرد أثر شديد التهالك على وشك الانهيار، إلا أن جهوداً مصرية ودولية عظيمة أسهمت فى إنقاذ السبيل الذى بناه «الباشا الكبير» عام ١٨٢٠ بحى العقادين فى قلب مصر القديمة.

Muhammad Ali Pasha and His Sabil
(محمد على باشا وسبيله)
Agnieszka Dobrowolska and Khaled Fahmy
Auc Press, 64PP., 2004
تصدر الطبعة العربية قريبا عن دار الشروق

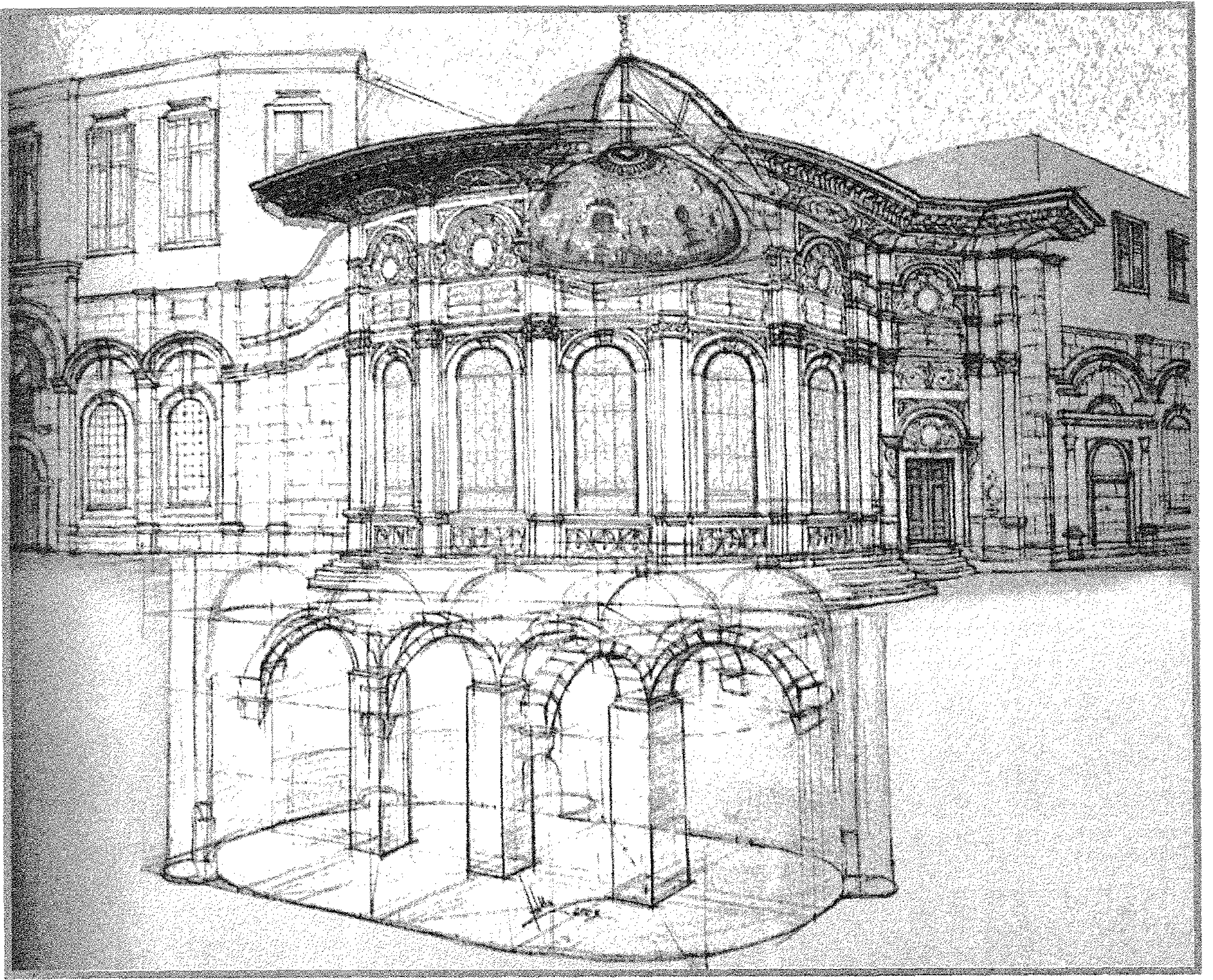
السبيل صهريج لمياه الشرب، موهوب كوقف خيرى لتوزيع مياه شرب مجانية على الناس. وكان معظم مياه الشرب فى القاهرة يجلب من النيل ليبيعه السقاءون فى الشوارع، ولذلك كانت الأسبلة مرغوبا فيها ومفيدة، وبُنى منها الكثير فى المدينة. وكان منشئ السبيل يطمع فى أن يجزيه الله عنه خيرا فى الآخرة، وأيضا فى رفع مكانته الاجتماعية وفى تخليد ذكراه أو ذكراها. والأسبلة موجودة فى كل أنحاء العالم الإسلامى، لأن تقليد مساعدة أبناء السبيل عميق الجذور فى الإسلام. وتنتمى جرار الماء الفخارية وثلاجات الماء المعدنية التى نجدها كثيرا فى شوارع القاهرة حتى الآن إلى نفس التقليد.

وحين ظهرت الأسبلة فى القاهرة للمرة الأولى فى القرن الرابع عشر، كانت ملحقة بالجوامع وبمبان دينية أخرى أقامها السلاطين والصفوة. ثم بنى الأثرياء من الرجال والنساء أسبلة كمبان منفصلة فى مواقع بارزة فى المدينة. وتتميز القاهرة وحدها باشتمال مبنى السبيل على «كُتاب» للتعليم الأولى يقام أعلاه. وأصبحت هذه الأسبلة - الكتاتيب من المعالم التقليدية لمشهد المدينة. وحين غزا نابليون بونابرت مصر عام ١٧٩٨ أحصى مساحوه أكثر من ثلاثمائة سبيل فى القاهرة.

وتعكس أسبلة- كتاتيب القاهرة الطرز المعمارية للعصور التى بنيت فيها. فالأسبلة الأولى تعد أمثلة رائعة للطراز المملوكى، وهو تقليد معمارى عميق الجذور فى القاهرة لدرجة أنه امتد إلى العصر العثمانى. أما الأسبلة- الكتاتيب القاهرية فى أواخر القرن الثامن عشر فهى نماذج رفيعة لطراز معمارى جمع بين التقليد المملوكى وعناصر من الزخرفة العثمانية ظهرت فى الأستانة (اسطنبول عاصمة الدولة العثمانية).



وقد كسر محمد على باشا التقليد المعمارى المملوكى الذى امتد قرونا، ودشن بإقامة هذا السبيل طرازا جديدا تماما. فاختار موقعا بارزا فى المنطقة التجارية النشطة على الشارع الرئيسى فى المدينة، واستورد رخاما أبيض وأخشابا من تركيا، وربما جلب منها بعض الحرفيين أيضا،



سبيل محمد على باشا ١٨٢٠

أجنيشكا دوبرولسكا وخالد فهمي

واختار أن يشيد مبنى بهذه الضخامة والفخامة ليبرز سلطته السياسية. وتعرض اللوحات المنقوشة بكتابة عثمانية على الواجهة أبياتا شعرية واسم محمود الثانى، سلطان الدولة العثمانية آنذاك، والتى كانت مصر جزءا منها وكان محمد علي واليه عليها.

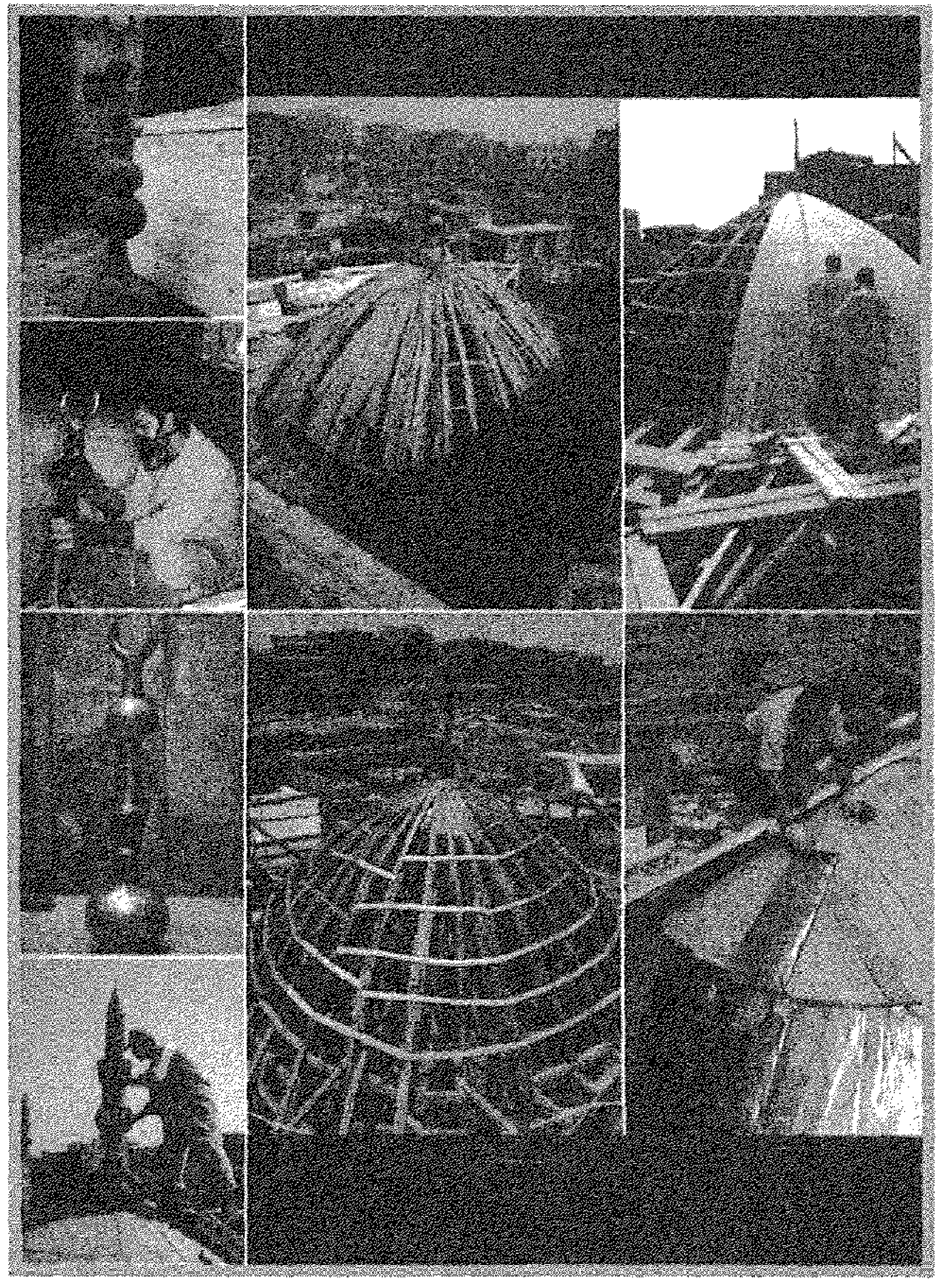
لقد بُنى السبيل ليخلد ذكرى طوسون ابن محمد على الذى مات بالطاعون قبل إنشائه بثلاث سنوات وعمره ٢٢ عاما، وكان أحب أبنائه إليه. ولم يدخر الأب المكلوم جهدا أو مالا فى بناء السبيل ليطبع القاهرة بأثر باق يخلد وجود أسرته وأهميتها. وكان السبيل أيضا نقطة تحول فى معمار القاهرة. فطراز الزخرفة الفنية المنحوتة على الرخام على الواجهة المقوسة كان جديدا تماما. وكان هذا الطراز الذى ظهر فى مبان كثيرة فى الأستانة تحويرا عثمانيا لطراز الباروك الأوروبى، ولكنه كان تحويرا حديثا للغاية فى عصره، مع عنصر كلاسيكى قوى. كذلك كانت الأفاريز الخشبية البارزة المنقوشة الفنية بالنحت موتيفة تركية.

وزيادة في البعد عن تقاليد العصر المملوكى، لم يبن فوق السبيل كُتاب، وإنما قبة مغطاة بالرصاص، على غرار مبانٍ عديدة فى عاصمة الدولة، وكأن الإمعان فى إبراز الاختلاف مقصود، كان باطن القبة مزخرفا بلوحات تصور مشهدا تركيا مدينيا خياليا، لا يشبه بأى حال أفق القاهرة. وكان يتوج المبنى هلال لامع مطلى بالذهب؛ وكانت أبواب المدخل الرئيسى مصبوبة بالبرونز الصافى. وكان المقصود بتغطية القضبان المزخرفة (المصابيح) بالذهب فى النوافذ المقنطرة إبهار الرواد الذين كانوا يرتقون الدرج ليملأوا كوبا من الماء من الأحواض الرخامية خلفها.

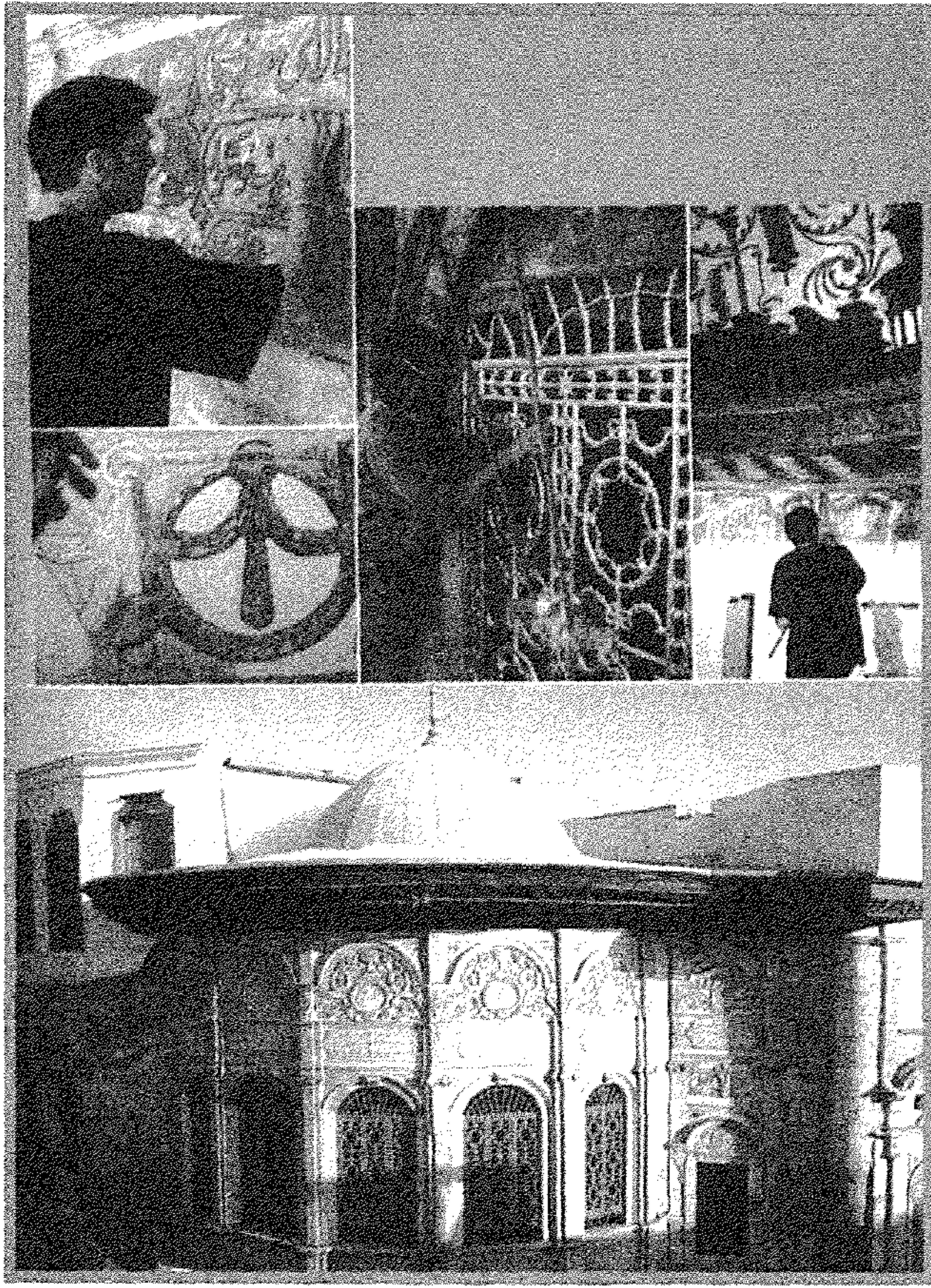
وكان الماء يُحفظ فى صهريج ضخم تحت الأرض، عمقه تسعة أمتار، ومسقوف بتسع قباب حجرية، وجدرانه مبطنة بمونة غير منفذة للماء، على غرار المبانى الرومانية القديمة. وكانت تغذيه بالماء أنابيب تملؤها سواق منصوبة على الترعة التى كانت تخترق المدينة وقتها. وتبلغ سعة الصهريج ٤٥٥ ألف لتر تكفى لملء مليون ونصف مليون كوب من الماء. وكان الناس الذين يشربون من السبيل يتركون عادة عملات رمزية عرفانا بالجميل، وُجد منها الكثير خلال الترميم تحت الدرجات وفقا للعرف الشعبى.

وكان بمستطاع الذين كانوا يرتقون الدرجات من الشارع ليصلوا إلى النوافذ المغطاة بالقضبان ليشربوا أن يلمحوا باطن القبة المزخرف فوق قاعة السبيل. فتوحى لهم المدينة الخيالية والنقوش النباتية المزهرة المنقوشة عليها بصور الجنة.

وبعد عقد من إنشاء السبيل، فى وقت ما بين عامى ١٨٢٨ و١٨٣١، تم توسيع السبيل وأُضيف دور علوى له، خال من الزخرفة تقريبا، مما يؤكد أنه بنى لغرض عملى. ونحن لا نعرف الكثير عن هذه المرحلة من تطور المبنى؛ ولكن يبدو أنها مما ترتب على محاولة محمد على



أعمـال الترميـم فى قبـة السـبيل



السـبيل قبـل وبعـد الترميـم

"سبيل الباشا!"

لإصلاح التعليم فى مصر. فقد احتاج جيشه وبيروقراطيته إلى نوع جديد من المدارس الأولية لتدريس مقررات تعتمدها الدولة لمن سيكونون ضباطها وموظفيها فى المستقبل. وفى ١٨٣٦ عين الباشا لجنة حكومية وضعت خططا لإقامة نظام تعليمى شامل فى البلاد.

وفى نفس هذه السنة أجريت أعمال جديدة فى المبنى كما تشهد اللوحة التذكارية الفنية على الواجهة. غير أن الواقع السياسى والاقتصادى فى مصر قضى على هذه الخطط الطموحة. ففى عام ١٨٤٣ لم تتبق سوى ثلاث مدارس أولية حكومية، كانت هذه المدرسة واحدة منها.

وبعد حوالى ثلاثين عاما، فى عام ١٨٧٠، أعيد إنشاء المدرسة فى عصر الخديوى إسماعيل، الذى أحيا اهتمام جده بالتعليم وطوره. فأُنشئ نظام للتفتيش على المدارس وطُبعت الكتب الدراسية، وأُدخل نظام الامتحانات العامة. ووفقا للمقرر الدراسى الجديد الذى وُضع فى ١٨٧٣- ١٨٧٤؛ تلقى تلاميذ المدارس الأولية دروسا متطورة فى اللغة العربية، ولكنهم درسوا أيضا التركية والفارسية واللغات الأوربية الحديثة. وفى سبعينيات القرن التاسع عشر كان يعمل بهذه المدرسة ستة معلمين، يعلمون اللغة العربية والخط واللغة التركية والحساب وتعاليم القرآن. وسرعان ما أضيفت إلى المقررات الجغرافيا والرسم واللغة الإنجليزية. وكانت المدرسة تتبع نظام الامتحان العام، وأُخضع التلاميذ لفحص طبى كل ثلاثة شهور. وقد ضمت المدرسة ٩٥ طالبا عام ١٨٧٢، و١٤١ طالبا عام ١٨٧٣، و١٧٧ طالبا عام ١٨٧٤.

وفى ثلاثينيات القرن العشرين، دخلت مياه الشرب بالأنابيب إلى المنطقة فأُهمل السبيل، وأصبحت حجرات الدور الأرضى مدرسة للبنات. وظلت المدرسة مفتوحة حتى الزلزال الكبير عام ١٩٩٢، الذى وضع المبنى على حافة الانهيار، فهجرته التلميذات اللاتى حُولن إلى مدارس أخرى، ولكن الكثير من الجارات ما زلن يتذكرن فترة دراستهن فيه.

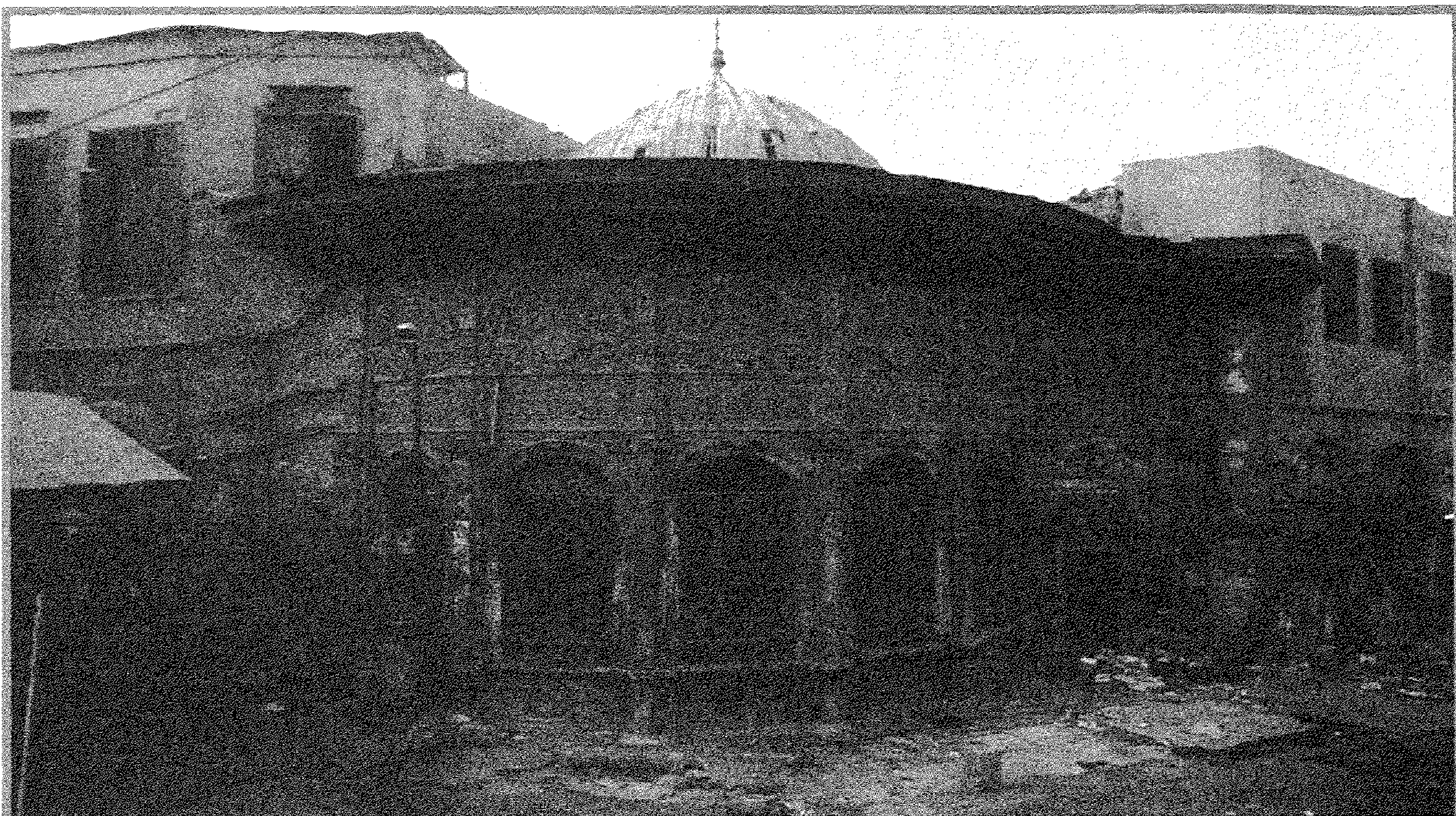
هكذا كان الوضع عام ١٩٩٨ حين بدأ مشروع الترميم الذى تولاه مركز البحوث الأمريكى بمصر، الذى مولته الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، وأُدير بالتعاون مع المجلس الأعلى للآثار. وكان الهدف استعادة وحماية الطراز التاريخى الأصلى للمبنى، بما فى ذلك السمات الزخرفية المعمارية، ولكن لم تُغفل أجزاء المبنى الأخرى التى تحمل آثار تاريخه، حتى لو كانت متواضعة أو غير ظاهرة. وفى إطار ذلك تمت دراسة المبنى دراسة شاملة وتوثيقه.

وعمل فى فريق الترميم حوالى خمسين شخصا، منهم خمسة وثلاثون مصريا بمن فيهم الحرفيون؛ والباقى من المهنيين الأجانب من ستة بلاد مختلفة.

وأعطيت الأولوية للمشكلات المعمارية، حيث كانت أساسات المبنى مستقرة بشكل غير مستوٍ بسبب ارتفاع منسوب المياه الجوفية وضعف التربة، بما يهدد بانهياره. وأخذت الحوائط تتصدع بمعدل ينذر بالخطر، كما أخذت دعامات السقف تنزلق من مواضع استقرارها. ولحل المشكلة تم زرع حوالى مائة ركيزة صغيرة فى ثقوب بعمق ٩ إلى ١٢ مترا حتى تصل إلى الأرض الصلبة، فتدعمت الحوائط بهذا الأساس الصلب. بعد ذلك بدأت الإصلاحات المعمارية للمبنى المتصدع المتدهور. وظهرت مشاكل فى السقوف بسبب الرطوبة المتزايدة والأمطار، لأن السقوف نفسها لم تكن مناسبة: انتُزعت ألواح الرصاص التى كانت تغطى القبة الرئيسية فى ثلاثينيات القرن العشرين، وأحدثت سبعون سنة من الشمس المحرقة صيفا والأمطار الغزيرة شتاء تلفيات كبيرة. وقد استرد مشروع الترميم كل السقوف وعزلها عن الماء، وحصلت القبة على غطاء جديد بعد إصلاحات معمارية شاملة. وقد أُعيد هلال القبة المذهب اللامع إلى مكانه، ولكن تنظيف الهلال ونصبه لم يكن سوى جزء بسيط من المعالجة الترميمية للزخرفة الفنية المتنوعة للمبنى.

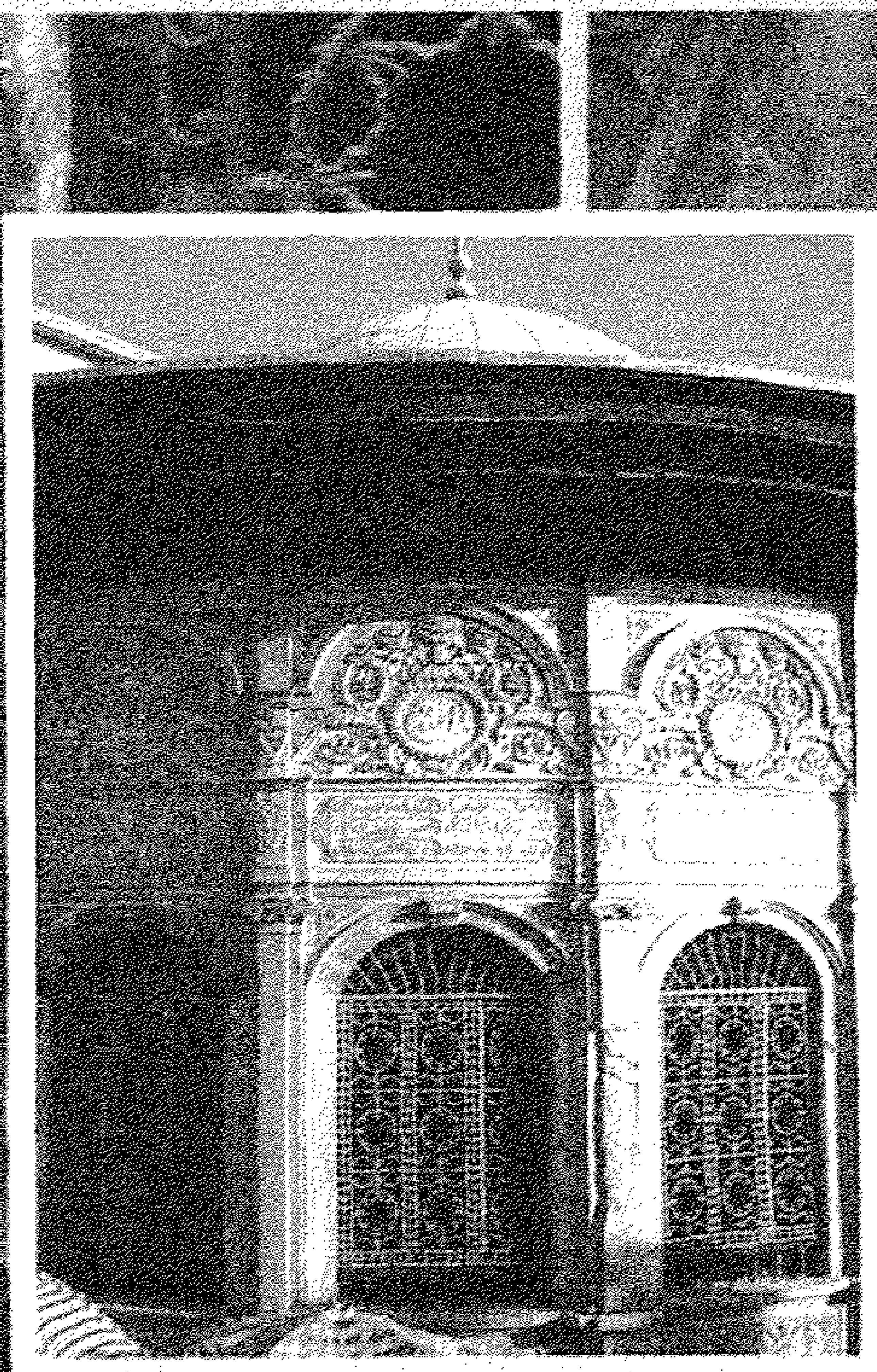
الركائز الصغيرة:

كان السبيل يقع فى جزء نشط ومزدحم من المدينة، ظل يضج بالحياة لأكثر من ألف

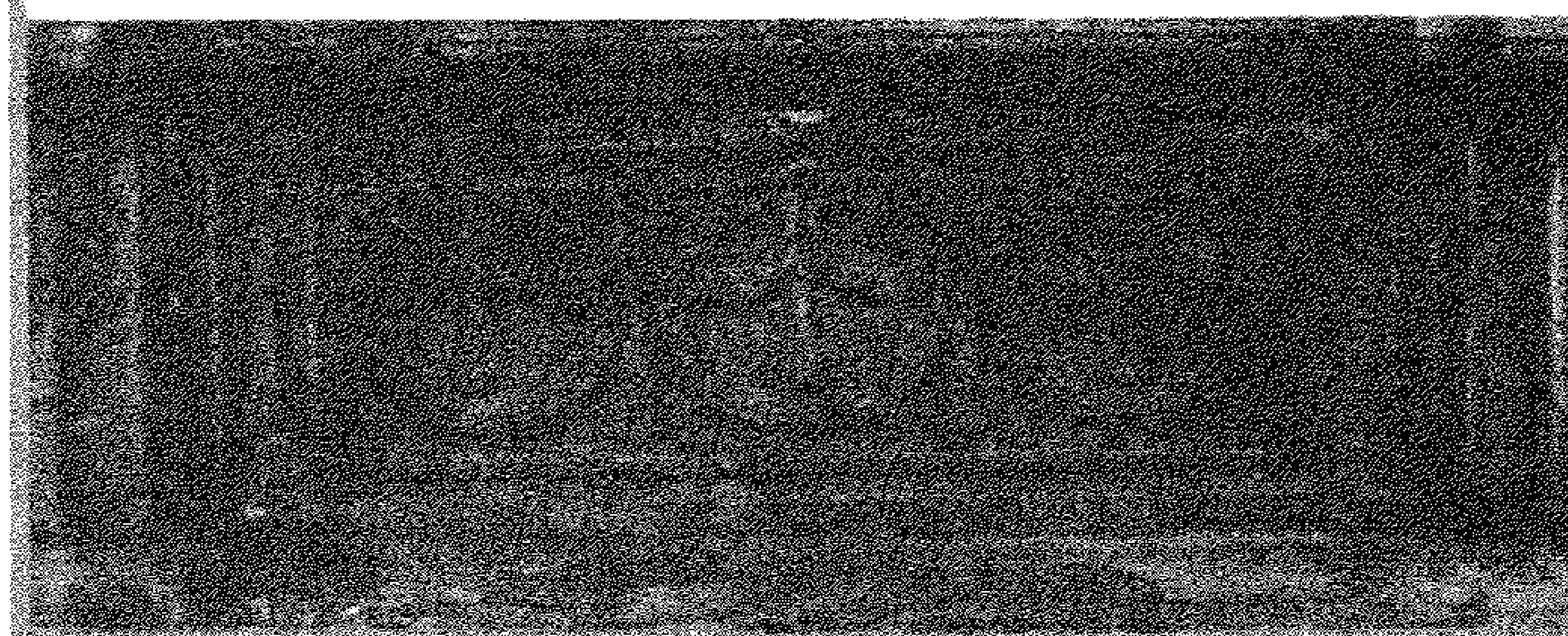


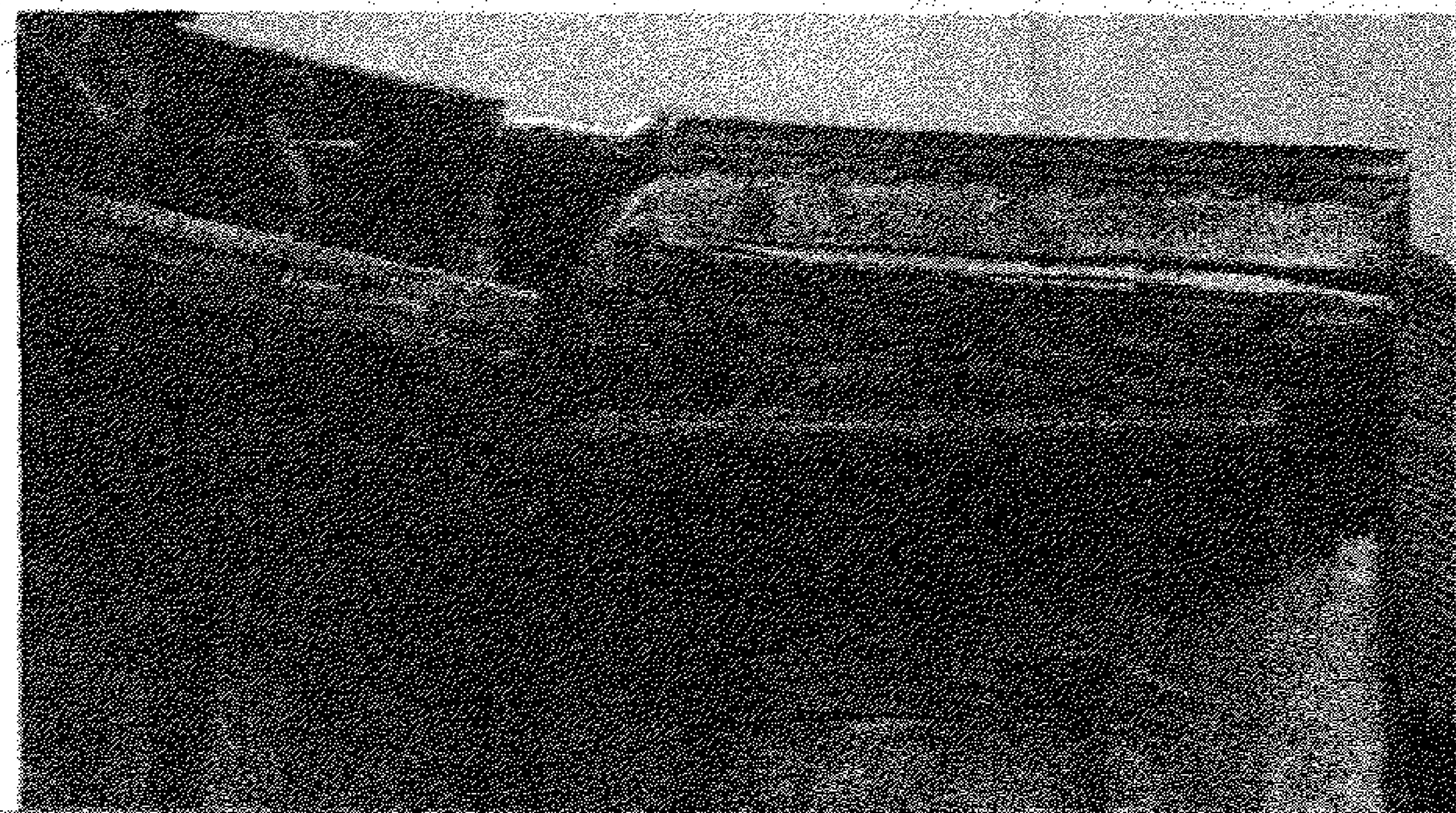
السبيل قبل وبعد الترميم











عام. وبالتالى كان المبنى مستقرا على طبقات ضعيفة من الحشو يفوق سمكها التسعة أمتار، نتجت عن تراكم كسر الطوب من المبانى المتهدمة ونفايات الإنتاج وقمامة المنازل ورمال الصحراء عبر القرون.

ومع تضاعف سكان القاهرة أكثر من عشر مرات فى القرن الأخير، بدأت المياه الجوفية المحصورة فى هذا الحشو فى الارتفاع، وبدأت بحلول سبعينيات القرن العشرين تشكل خطورة على مبانى المدينة عموما، ومعالمها الأثرية خصوصا. وبدأت التربة المشبعة تحت السبيل تتراص بشكل غير مستو، مما هدد بانهياره.

وللحيلولة دون ذلك تم دق أنابيب من الصلب قطرها ثمانية سنتيمترات على عمق تسعة إلى اثنى عشر مترا فى التربة، حتى وصلت إلى الأرض الصلبة، وتم ضخ الأسمنت فيها تحت ضغط. وأخذ الأسمنت يرتفع تدريجيا بدءا من القاع وشكلت هذه الركائز أساسا صلبا للمبنى. وأرسيت الأطراف العلوية للأنابيب فى كتل من خلطة الأسمنت دعمت الحوائط القديمة بشبكة من حديد التسليح الصلب. وتسمى هذه التقنية بالتدعيم بالركائز الصغيرة micropiling.

القبـــة

من الناحية الهندسية، لا يشكل البناء الذى يعلو حجرة السبيل قبة حقيقية. فقد بين الفحص الشامل أثناء الترميم أنه فى الواقع سقف مخروطى من العوارض الخشبية المستقرة على حوائط خارجية وعلى أخشاب ضخمة تشكل قناطر بين الأركان. وفوق هذه البنية المخروطية تستند روافد تكون هذا الشكل الذى يشبه القبة، وثبتت عليها ألواح خشبية وغطاء من الرصاص-الصلب. أما الطبقة الداخلية نصف الكروية المزخرفة من الشرائح الخشبية والجص، مع تصوير جدارى فى الداخل، فهى معلقة من البنية الأساسية بحمالات خشبية.

-وقد أثبت هذا النمط البديع فى البناء كفاءته الكبيرة فى مقاومة الزلازل؛ فلم يتطلب ترميمه إلا إصلاحات محدودة.

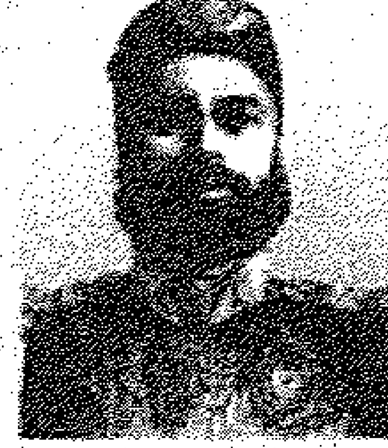
لم تبدأ أعمال الترميم الدقيق لطرز المبنى إلا بعد تدعيمها بدراسات متخصصة. فتم تنظيف رخام الواجهة بكمادات مشبعة بمواد كيماوية. وبعد إذابة الوسخ والشحم المتراكمين تمت الإزالة يدويا بسكاكين المعجون وأدوات جراحية. كما نُظفت الأفاريز الخشبية البارزة من طبقات التراب والوسخ، وعولجت لحمايتها فى المستقبل.





















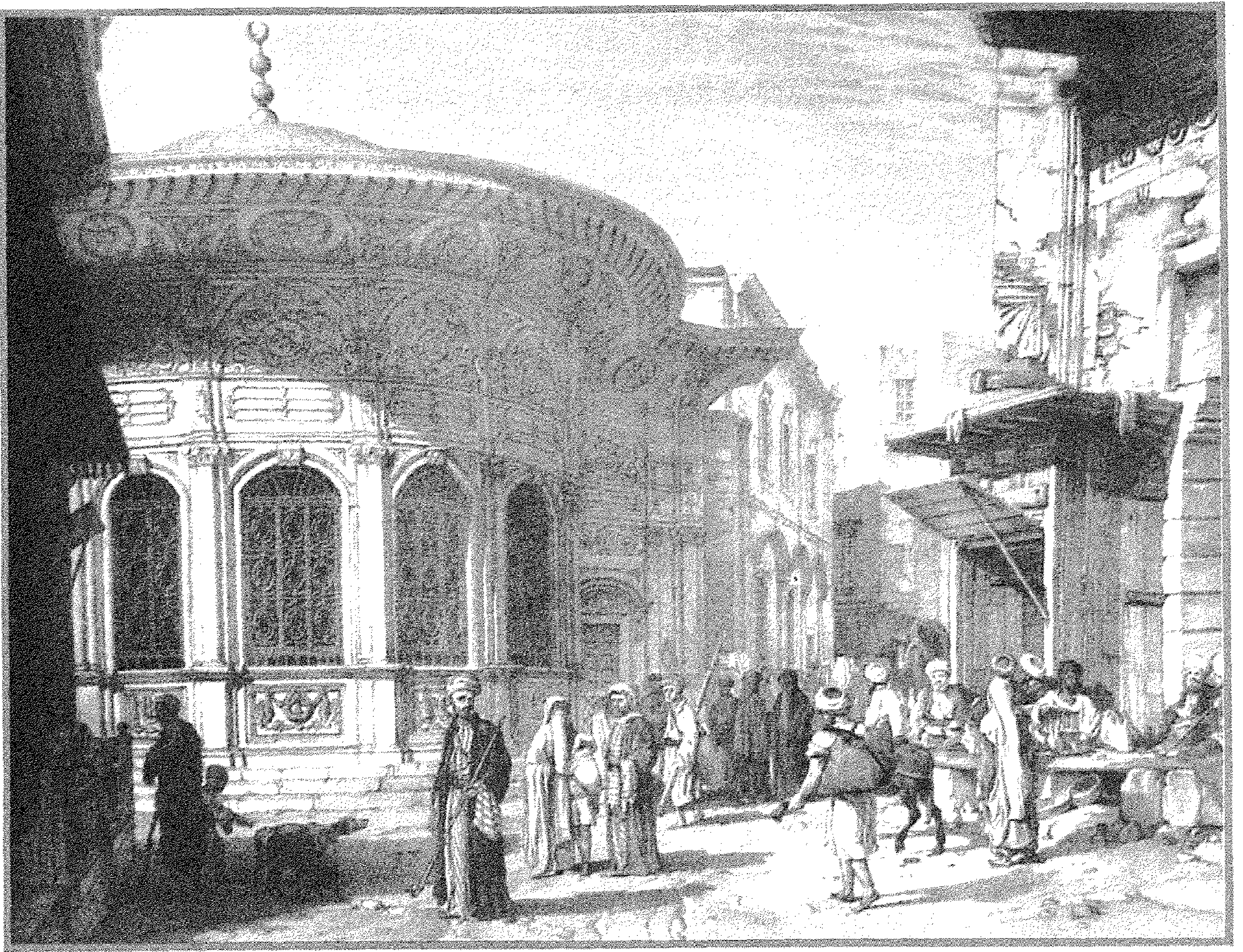


شـجرة عـائلة أسـرة محمـد عـلى

واستغرق ترميم القبة عاما. وأعيد تثبيت الصور الزيتية على خلفياتها ونظفت. وحين عجزت الوسائل الكيميائية، استخدم المرممون مماسح مبللة باللعاب البشرى الذى يحتوى على إنزيمات جعلته وسيلة تنظيف فعالة ورقيقة فى نفس الوقت، لا تدانيها المذيبات الصناعية. ونُظفت الأشغال المعدنية من عوامل الصدأ، ومنعت الكيماويات المزيد منه فى المستقبل.

واستُخدمت المواد والأساليب الحرفية المحلية كلما أمكن، بأقل تدخل فى الأصل. وأجرى الترميم بطريقة تسمح بإزالته واستعادة الوضع السابق بالكامل.

بعد أربع سنوات من العمل الشاق انتهت عملية الترميم عام ٢٠٠٢. وفى العامين التاليين تم إعداد المبنى ليشمل مركزا للزائرين، بهدف عرض وشرح كل معالم المبنى وتقديم شخصية وإنجازات مؤسسه المرحوم، محمد على باشا. ■



السبيل وبجانبه المدرسة التى أقيمت عام ١٨٤٠

«الابــــن المحبــــوب»

كان طوسون أحب أبناء محمد على إليه. وقد وصل طوسون، الذى وُلد عام ١٧٩٣، إلى مصر بعد أن أصبح أبوه واليا بقليل. وعينه محمد على وعمره ثمانية عشر عاما قائدا للحملة على الوهابيين فى الحجاز، فاستولى الشاب على مكة والمدينة عام ١٨١٢ وأرسل مفاتيح المدينتين إلى السلطان فى الأستانة. وحين لاقت الحملة بعد ذلك مصاعب خطيرة، سافر محمد على إلى الحجاز ليساعد ابنه. وتوثقت العلاقة بينهما أثناء تلك الزيارة القصيرة، فأصبحت على النقيض من علاقته بإبراهيم، شقيق طوسون الأكبر، التى اتسمت بالاحترام المتبادل، ولكن أيضا بفتور العواطف. وكان القائد العسكرى الفذ إبراهيم رجلا عنيدا بطبيعته، اعتمد على قواته المصرية، ولكنه اعتبر جنوده مجرد وقود للمدافع. ونحن نعلم بالمقابل أن طوسون كان شخصية ودودة، كما كان كريما وشجاعا، ومغرما حقا بالمصريين، يحبه مرءوسوه ويحترمونه. وعاد طوسون إلى مصر بعد حملته الحجازية واستُقبل استقبال الأبطال، وفى ٢٩ سبتمبر ١٨١٦ عاد إلى قصره فى برنبال، قرب رشيد، وأخذ يعد لمأدبة احتفال بهيجة.

«نقدم هنا شكرنا لك على هذا العمل النبيل وعلى جهودك، ونسأل الله أن يجزيك عنه أحسن الجزاء فى الدنيا والآخرة، وأن يشد أزرك وينصرك فى أعمالك، وأن يعطيك كل ما تشتهيه وتصبو إليه».

ولم يكد الاحتفال يبدأ حتى مرض طوسون بالطاعون، ومات خلال أربع وعشرين ساعة. وحين بلغ النبأ الفاجع محمد على كاد أن يغشى عليه. وأثناء ذلك كان موكب جنازة طوسون فى طريقه للضريح الذى أقامه الباشا فى القاهرة لنفسه ولأسرته. فلحق به الباشا سريعا، وهو دائخ مذهول، غير مصدق بما حصل. وقد وزع سبعين كيسا من العملات الذهبية والفضية على الفقراء أثناء الجنازة، وأُعلن الحداد لمدة أربعين يوما، مُنعت فيها الأفراح والاحتفالات. ولُطخت البيوت بالطين علامة على الحزن. وهذا السبيل هو النُصُب الذى أقامه محمد على لإحياء ذكرى ابنه.

وبرغم أن هذه لم تكن المرة الأولى ولا الأخيرة التى يفقد فيها محمد على أحد أطفاله الذين أنجبهم من زوجاته وسرياته العديدات، فإن حزنه على طوسون لا يقارن بحزنه على أى ابن آخر خلال حياته الطويلة. وتكشف قصة وقعت بعد موت طوسون بسنوات قليلة إجلال الباشا لذكرى ابنه. وهى تروى أنه استقبل طالبا شابا اسمه يوسف أفندى، كان قد أرسله قبل ذلك إلى أوربا ليتعلم زراعة البساتين. وقد جلب يوسف معه بعض أشجار اليوسفى لزراعتها فى مصر، وعرضها على الباشا الذى سأل عن اسمها. فتذكر الشاب أن رجال الحاشية قد أخبروه أن طوسون الراحل هو أحب أبناء الباشا إليه، فأجاب أن اسمها «طوسون باشا». أُعجب محمد على بتملق الشاب المجامل، ورد المجاملة قائلا: «حسنا، سنسميها يوسف أفندى». ومنذ ذلك الحين أصبح الاسم الشائع لهذه الفاكهة فى مصر كلها هو «يوسف أفندى».

عنترة العربي ويفتاح اليهودي

أحـمـــــــد أشـــــــقـر

■■ تاريخ الإنسانية منذ وعى الإنسان الأول («وقام قَين بقتل أخيه هَبل») حتى الآن، سلسلة متواصلة من الصراعات للسيطرة على مصادر النفوذ المادية والثقافية. المعنوية. ومصادر النفوذ المادية تتفاوت من الحيّز/ الجغرافية الإستراتيجية، كالسهول والجبال والأنهار والبحار، عبر السيطرة على الثروات الطبيعية، كالماء ومصادر الطاقة، وتنتهي بقدرة الرأسمال الجمعي المتراكم، على إعادة إنتاج نفسه وممارسة دورا سوسيو - بوليتيا قادرا على الحفاظ على ديمومة طليعته. أما مصادر النفوذ الثقافية - المعنوية، فهي القدرة على إنتاج منظومات فكرية، كالعلوم المختلفة والفلسفة والدين والأخلاق، تكفل للمجموعة تجديد إنتاج نفسها في هوية جمعية، أو هويات تشاركية، تسهم في تطورها. وكي لا نكون داروينيين، نؤكد على أن هويتنا المقصودة، هي الهوية الحرّة وغير المستبدة، التي لا تعتدي وتظلم الآخرين، وتشارك الإنسانية السعي لإنتاج عالم أفضل: ردّ الظالمين وتصفية الظلم، وتوزيع مصادر الثروة والنفوذ وعائدات العمل والشغل بين الجميع بالتساوي.

وتعتبر الهويات القبلية والدينية أقدم الهويات التي لا تزال حيّة. وبما أننا في سياق الهويات اليهمسلامية، (اليهودية المسيحية الإسلامية)، نستطيع التأكيد على أن الديانتين/ الهويتين الإسلامية والمسيحية تقبل الآخرين بيسر نسبي؛ إذ يكفي للغريب أن يصرح بقبوله أحد الدينين، والقيام بأركانه العامة، حتى يصبح شريكا في مصادر الثروة الثقافية - المعنوية. أما اليهودية فتثقل كاهل الغريب الذي يريد اعتناقها، ومشاركتها مصادر الثروة الثقافية - المعنوية. صحيح أن هنالك اختلافات بين التيارات الأرثوذكسية والإصلاحية، إلا أن قبول الغرباء يبقى صعبا للغاية.. وتصل الشروط التي يجب أن يتخطاها من يريد أن يتهوّد بحسب التيارات الأرثوذكسية، كالشروط التي يجب أن يتخطاها من يريد الحصول على الماجستير مع رسالة! في حالة الحاصل على الماجستير، لا تهدده الجامعة بسحبها منه، إن لم يحترمها. أما في حالة الغريب المتهوّد، فإن الطائفة تهدده بسحب اليهودية منه، إن لم يحترمها! قبل عقد تقريبا، كشفت وسائل الإعلام «الإسرائيلية» المختلفة، أن الحاخامية في مدينة طبريا، رفضت تزويج عدة رجال ونساء، لأن أحد أجدادهم ومنذ ألفي سنة... لم يتزوج حسب الشريعة اليهودية... أي أنهم ليسوا يهودا... الحاخامية تحتفظ بسجلاتهم!

في مقالي هذا، سوف أقوم بقراءة وتحليل قصة: (يفتاح الجلعدي) - اخوته وقبيلته، وسيرة عنترة بن شداد - أبوه وقبيلته. فقد اخترتهما: لأن أمّ كل منهما، غريبة. واستدعى الاثنان في أحلك الفترات سوادا من حياة قبيلتيهما، ليقودا جيشهما... وانتصرا. (يفتاح) رفضته القبيلة اليهودية شريكا أصيلا فيها، وعنترة أصبح بطلا في الهوية العربية/ (العربية - الإسلامية) وأحد أبرز رموزها. لا أتعامل مع الشخصيتين من منطلق تاريخي، ولا الأمكنة من منطلق جغرافي. فهذان ليسا مسألتي بحثي، وإنما أحلل قصتهما من منطلق ثقافي، باحثا الرموز والتعيينات والقيم المختلفة.

ابن الضرّة غير اليهودية

ترد قصة يفتاح - اخوته وقبيلته في سفر القضاة. يقول السفر: «وكان يفتاح الجلعدي محاربا باسلا، وهو ابن امرأة (زونَه) ولدته لجلعد» (قضاة ١١: ١). يبدو لي أن جوهر قصته - مشكلته، هو في مكانة أمه: (زونه). فقد اعتادت الترجمات العربية والأجنبية ترجمتها: زانية. إلا أن الأمر ليس بمثل هذه السهولة والبساطة. ما هي مكانة الـ (زونه) يا ترى؟ بالطبع لقد شغلت ولا تزال تشغل فقهاء اليهودية وباحثيها. فقد اعتبرها ر. د. ق/ رابي دود قمحي (١١٦٠ - ١٢٣٥): خليلة. ور. ب. ل. ج (١٢٨٨ ـ ١٣٤٤): امرأة من قبيلة ثانية. واعتبرها كل من: Mendelson.L (١٩١٨)، ومارقوس (١٩٨٤)، وليبونشطام (١٩٩٨): زانية. واعتبرها فليشمان (٢٠٠٤): غريبة. إلا أني أرفض هذه الصفات، وأعتبرها ضرّة من قبيلة ليست يهودية/ غريبة، للأسباب الآتية:

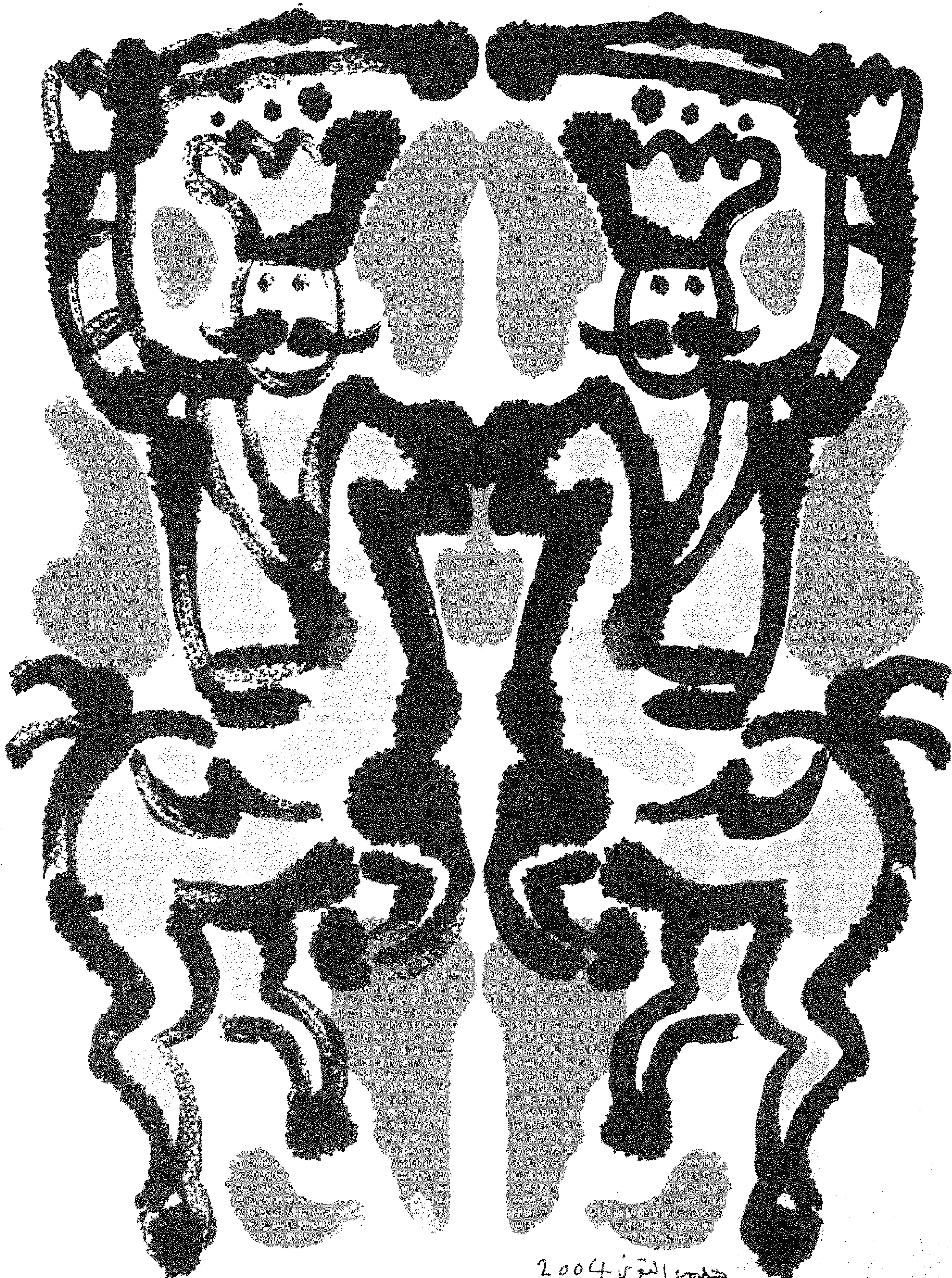
١ - يصف العهد القديم كل امرأة غير يهودية، كانت بعلاقة مع رجل يهودي بـ(زونه). صحيح أنها صفة تحط من قدرها، وقد تكون فعلا من هامش مجتمع الـgoyem ، إلا أنها في حالة أم (يفتاح)، قد يكون الأمر معكوسا - سنوضح ذلك لاحقا. صحيح: أن هذا التفسير لا يكفي للقول أن أمه: ضرّة غريبة.

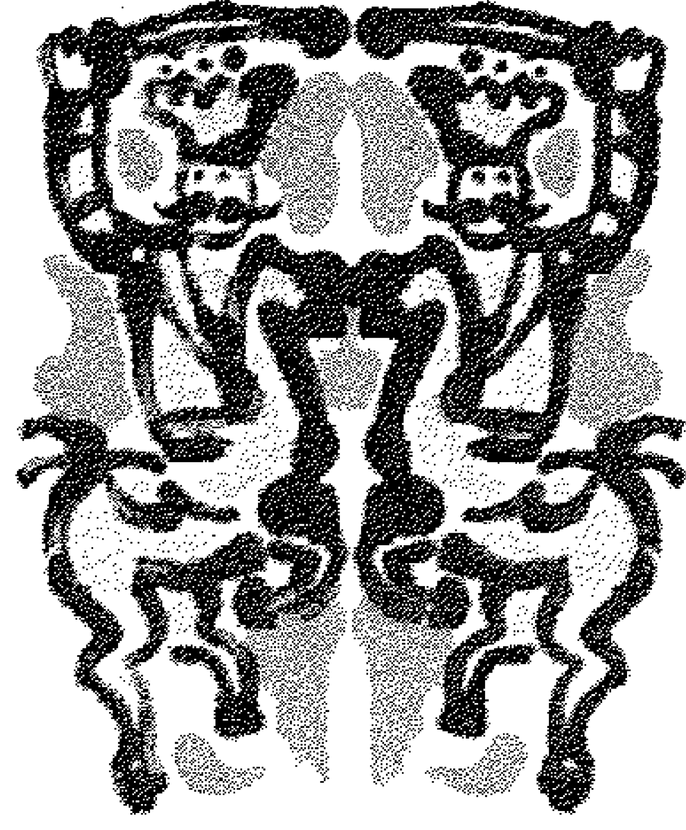
٢ - عندما قرر إخوة (يفتاح) طرده من حيز الثروة بشقيها المادي والثقافي - المعنوي، صرخوا بوجهه قائلين: «ليس لك ميراث في بيت أبينا، لأنك (بِن لِءِشَه شنِيَه) ابن زوجة ثانية/ ضرّة» (قضاة ١١: ٢). لقد آثرت ترجمة «بِن لِءِشه شنِيَه» لـ: ابن زوجة ثانية/ ضره: لأنهم - أي إخوته - هم أبناء الزوجة الأولى، ومنها يستمدون شرعية طرده... لأنه ابن الضرّة. والصراعات والخلافات بين أبناء الضرائر معروفة جيدا في المجتمعات التي تبيح هذا النوع من الزواج.

٣ - والسبب هذا متعلق بمكانة (جلْعَد) أبي (يفتاح): إذ يخبرنا النص عنه قائلا: «وقام بعده [بعد شَمير] يءير الجلعدي [أبو يفتاح]، فتولى القضاء في يسرءيل اثنتين وعشرين سنة. وكان له ثلاثون ابنا يركبون ثلاثين جحشا، وكان لهم ثلاثون مدينة تسمى مزارع يءير إلى هذا اليوم، [...]» (القضاة ٧: ٣-٤). أي أن أبا (يفتاح) كان في مكانة مرموقة في قومه، كان قاضيا وغنيا، الأمر الذي يحتم عليه أن يكون أول الملتزمين بالشرائع التي يتقاضى بحسبها. فالشريعة اليهودية تحرم الزنى، وعقوبة من يزني من الزوجات، بغض النظر عن دين الزاني، هو القتل رجما. أما الزوج الزاني بمتزوجة يهودية (فقط) فيقتل هو الآخر رجما. أما إذا زنى بامرأة غير يهودية، فعقابه ليس القتل بأي حال من الأحوال، وكما يقال: اختلف الفقهاء. أما العازبة الزانية مع غير يهودي، فعقابها هي الأخرى: القتل رجما. أما إذا زنت مع يهودي متزوج أو عازب... فكما يقال: اختلف الفقهاء. مما تقدم نفهم خطورة أن ينجب (جلعد) من زانية، ولأن مصلحته تقتضي عدم مخالفته الشريعة بمثل هذا الوضوح والصراحة. وقد يكون غناه، أو أجزاء منه، نتيجة عمله بالقضاء. فكانت إحدى مهام القضاة - إلى جانب فضّ النزاعات - المصادقة على المبادلات التجارية والزواج والطلاق مقابل أجر معلوم... يبدو أنه راكم ثروته، أو جزءا منها، نتيجة عمله قاضيا. لذا أرجح أنه لم ينجب من زانية - لا أجزم بأنه لم يرتد الزانيات! وأن أم (يفتاح) هي زوجة ثانية له/ ضرّة غير يهودية. وقد تكون من علية قومها، لأن قاضيا بمثل هذا الغنى والجاه، يعرف بدقة تأثير أصول الزواج والمصاهرة والنسب على مكانته بمجتمع قبلي، هو أحد زعمائه.

لذا أعتقد أن جوهر مشكلة (يفتاح) وتراجيدية حياته (لقد ضحّى بابنته الوحيدة)، نابعة من مكانته، كونه ابن ضرّة غير يهودية. لذا طردته الهوية اليهودية وأبعدته عن مصادر ثروتها المادية والثقافية - المعنوية، كما سنبين.

عندما هاجمت قبيلة أخرى من بني (يسرءيل)، القبيلة التي ينتمي إليها إخوة (يفتاح)، وأيقنوا أن حالهم صعب للغاية، أرسلوا في طلبه ويقول النص: «انطلق شيوخ جلعد ليأتوا بيفتاح من ارض طوب (أرض لجوئه). وقالوا ليفتاح: تعال وكن قائدا وحارب بني عمون. فقال يفتاح لشيوخ جلعد: ألم تبغضوني أنتم وطردتموني من بيت أبي؟ فلماذا أتيتموني الآن في شدتكم؟» (قضاة ١١: ٥-٧). هذا النص يكشف لنا أمرين اثنين: أولهما - يكشف لنا (يفتاح) أن قرار طرده لم يصدر فقط من اخوته، بل من مجلس شيوخ القبيلة. يبدو لي أن اخوته بقرارهم طرده، لم يكونوا قادرين على تنفيذه وحدهم؛ لأنه كان «محاربا باسلا» - كما أفادنا النصّ: لذا استعانوا بشيوخ القبيلة؛ والثاني - أن اخوته توجهوا إليه لطلب مساعدته، وبما أنه ابن قاضٍ، ويعرف أصول القضاء والتقاضي، اشترط عليهم


حلمي التوني 2004



حضور جميع الذين اتخذوا قرار طرده، هم والشيوخ. وفعلا حضر جميعهم. ثم يضيف النص قائلا: «فقال شيوخ جلعد ليفتاح: لهذا عدنا إليك الآن، فسر معنا وحارب بنى عمون وكن رئيسا علينا وعلى جميع سكان جلعد». وبما أنه يفقه أصول القضاء والتقاضى - كما أسلفنا - فإنه اشترط عليهم إبطال القرار الذى اتخذوه ضده، قائلا: «إذا أرجعتمونى لمحاربة بنى عمون، فأسلمهم يهوه إلى، أكون رئيسا عليكم». فوافقوا، إلا أن تخوفه وشكوكه من إمكانية تثبيت هذا الاتفاق، بعد النصر المستقبلى، دفعته لتثبيت هذا الاتفاق فى المعبد الذى فى المنطرة، الذى يتخذه (يهوه) شاهدا على أعمال القبيلة (قضاة ١١: ٧-١١). وهكذا أمن (يفتاح) تنفيذ اتفاق عودته إلى سدة ورياسة مصادر الثروات المادية والثقافية - المعنوية لقبيلته.

حاول (يفتاح) حل الخلاف مع بنى (عمون) بالمفاوضات. وعندما رفضوا، سارع إلى المعبد ونذر نذرا أمام (يهوه). فالنذور تنذر فى حالات الشدة القصوى المتعذرة على الحلّ، والأمل بحلها وزوالها بإرادة قوة خفية، (يهوه). وفعلا نذر (يفتاح) قائلا لـ(يهوه): «إن سلمت بنى عمون لى، فكل خارج من يخرج من باب بيتى إلى لقائى، حين عودتى بسلام من عند بنى عمون، يكون ليهوه سأقربنه حرقا» (قضاة ١١: ٣٠-٣١).

انتصر يفتاح... «وعاد من المنطرة إلى بيته، وإذ ابنته خارجة تغنى وترقص وتضرب الدفوف.

كانت وحيدته، لم يكن له ابن ولا ابنة غيرها. ولما رآها مزق ثيابه وقال: آه يا ابنتى! قد أحزنتنى حزنا وصرت فى مكدرى. لأنى فتحت فمى [نذرت متوجها] إلى يهوه ولا يمكننى التراجع. فقالت له: يا أبى، هل فتحت فاك [توجهت] إلى يهوه... فليفعل هذا الأمر [فلتوف بنذرك]» (قضاة ١٢: ٣٤-٣٧). وفعلا اعتزلت شهرين مع صاحبتها... ثم ضحى بها. النص واضح للغاية: (يفتاح) نذر نذرا... وعليه أن يوفى به! إلا أن أسئلة هامة تشغل وعى القارئ: لماذا نذر نذرا، نادرا جدا، وغير مألوف بين بنى (يسرءيل)؟ لماذا لم يسارع (يهوه) إلى حل مشكلة النذر، واستبدال القربان - البنت، بقربان حيوانى، كما فعل (إلوهيم) لـ(أبرهم) وابنه البكر؟ وما هو سبب رمزية النذر؟! والجواب واضح: من أجل تعظيم (extreme) عملية الصد والإقصاء من مصادر الثروة المادية والثقافية - المعنوية، وجعلها دراماتيكية. سوف نعود إلى هذا التحليل، عندما نلخص المقارنة بين هذه القصة، وسيرة عنترة.

ابن الأمة السوداء

تتفق كتب التراث، المعنية بشئون الماضى واسقاطاته على الحاضر، أن عنترة هو: عنترة بن شداد بن معاوية العبسى. وأن أباه شيخ من شيوخ قبيلته. وأمه جارية حبشية، تدعى زبيبة. كان أبوه قد أسرها فى إحدى معاركه ضد قبيلتها. لهذا السبب رفض أبوه البيولوجى والشرعى إلحاقه بنسبة. أى انه رفض إشراكه وقبوله عضوا أصيلا فى مصادر الثروة والنفوذ المادية والثقافية - المعنوية. ويضيف صاحب الأغانى، أبو الفرج الأصفهانى (١٢٧٦ - ١٣٤٩): عندما تضايقت قبيلة والده فى إحدى المعارك مع أعدائها، استنجد والده به، قائلا: كرّ يا عنترة. فرد عنترة: العبد لا يحسن الكرّ، إنما الحلابَ والصرّ. فردّ أبوه قائلا: كرّ وأنت حر. ثم أنشد يقول:

أنا الهجينُ عنترةْ
كلُّ امرئٍ يَحمِى حِرَهْ
أَسْوَدَهُ وَأَحْمَرَهْ
والواردات مِشْفَرَةْ

ومنطلق السيرة يقول، أن عنترة أبلى بلاء حسنا... ثم أصبح عنترة سيدا من سادة قومه. وعنترة، مثل كل فارس أصيل، لا يتنكر لأصله، بل يستدعيه للافتخار به، بدليل قوله:

و:

أنا بن سوداء الجبين كأنها
ضبع ترعرع فى رسوم المنزل
الساق منها مثل ساق نعامة
والشعر منها مثل حب الفلفل

و:

الثغر من تحت اللثام كأنه
برق تلألأ فى الظلام المسدل

و:

أنا العبد الذى خبرت عنه
فقد عاينتنى فدع السماعا
ولو أرسلت رمحى مع جبان
لكان بهيبتى يلقى السباعا

و:

لو أنكرت فرسان عبس نسبتى
فسنان رمحى والحسام يقرّ لى
وبذابلى ومهندى نلت العلا
لا بالقرابة والعديد الأجزل

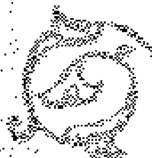
و:

أنا العبد الذى بديار عبس
ربيت بعزة النفس الأبية

وتصل قمة كثافة فخره بنسبه قائلا:

يُقَدِّمُهُ فتى من خير عبس
أبوه، وأمه من آل حام
عجوز من بنى حام بن نوح
كأن جبينها حجر المقام

إن ما يقوله عنترة يشير إلى ثلاثة أمور هامة بالغة الدلالة: الأول - لا يتنكر إلى نسب أمه وواقعها كأمَةٍ، ولا إلى واقعه هو. والثانى - لا يعول البتة على نسبه لأبيه وقبيلته، بل إلى قدرته الشخصية العملية، كفارس ومقاتل، بأن يكون شريكا وعضوا أصيلا فى الهويات المذكورة. وثالثها - أن نسبه الأعلى هو أيضا عالى المقام، فإذا كان العرب نسبوا (أباه) إلى سام بن نوح، فإن نسب أمه، هى الأخرى من نسب حام بن نوح، أى جديه كريمان. ليس جداً واحداً فقط. ويشبه أيضا سواد بشرة أمه بسواد الحجر الأسود، الموجود فى الكعبة قبل الإسلام، وله مكانة خاصة فيها. يقول هذا لأنه يعى ويدرك أن لون بشرته السوداء حاجز بينه وبين هوية قبيلته، لذا يؤكد دائما على قدرته الذاتية، ونسبه لأبيه، واعتزازه بنسب أمه. لذا يقدم نفسه حاميا من حماة قومه ومدافعا عنهم فى وجه الظلم.



نسجت الثقافة العربية/ العربية - الإسلامية سيرة عنترة كملحمة شعبية، وقد استغرقت خمسة قرون من النسيج والتحرير والكتابة، إلى أن وصلتنا فى عدة آلاف من الصفحات، حول بطولاته التى سأكتفى بذكر بعضها، لأنها تعتبر مفاتيحَ للدلالة إلى مدى قبوله شريكا وعضوا أصيلا فى مصادر الثروات والنفوذ المادية والثقافية - المعنوية (الهوية)

العربية - الإسلامية، علما أنه لم يعاصر الإسلام. وعنترة الرمز لا يزال يحضر فى حياتنا المعاصرة.

تبدأ السيرة الحديث عن مكانة أمه من أبيه، فتؤكد على أنه وعدها بالزواج عقب أسرها من مضارب أهلها، ولم يسمح لأحد من شركائه فى المعركة أن يتعرض لها. وفعلا تزوجها... إلا أنه رفض إعطاء الشرعية لابنه، لسواد بشرته. أى أن كتاب السيرة يعتبرونه ابنا شرعيا، رغم رفض أبيه لهذه الشرعية فى بداية حياته. ويتراوح نسب أمه زبيبة، بين كونها أمة لقبيلة بنى جديلة التى حاربها شداد وجماعته، إلى كونها ابنة النجاشى، ملك الحبشة... والنجاشى ملك ليس كأى ملك، فهو نصرانى، وقد أعطى حق اللجوء السياسى - الاجتماعى للمهاجرين الأوائل من المسلمين فى بلاده، ولم يوافق بإعادتهم إلى قريش عندما توجه وفدها إليه. والنجاشى، هو الذى توجه إلى جعفر بن أبى طالب مخاطبا إياه، عن علاقة الدين الإسلامى بالنصرانية: «والله يا جعفر إننا لنشرب من مشكاة واحدة»!

ترسم السيرة الشعبية صورته، بخلاف صور جميع الأشخاص العاديين، فقد بدأ بتمزيق أقماطه عندما كان رضيعا... ويقلع أوتاد الخيام، وهو دون الثانية من عمره... وخلّص قطعة لحم من فم الكلب عندما كان ابن أربعة أعوام... وعندما أصبح صبيا قتل ذئبا وعاد برأسه إلى أبيه... وقتل الأسد وأكل قلبه (وهرقل أيضا قتل أسد نيما) وقتل داجى، عبد شاس بن زهير، بيديه لأن هذا صفعه، ومنع الماء عن نساء القبيلة... وعندما كبر التقى برستم، البطل الفارسى (الشاهنامة)، وصارعه وهزمه... وأنقذ قبيلته، وآخرين مثل كسرى، فى الشدائد...

وتذكر كتب السيرة، أن إحدى زوجات أبيه لفقت تهمة أمام أبيه، أنه راودها عن نفسها، لذا عذبه أبوه عذابا شديدا... واتضحت براءته. فى هذا السياق، لا بدّ أن نشير إلى قصتين: (يوسف) وزوجة (فُطفَر) التوراتية، ويوسُف وزوجة العزيز القرآنية! يبدو أن كتاب السيرة والخيال الشعبى، يريدون التأكيد على أن إحدى صفاته، هى العفة، التى يشارك فيها نبى يهمسلامى.

رغم كون نشأة عنترة (التاريخى) قبل الإسلام، إلا أن كتب السيرة تذكر أن النبى محمدا والصحابة، استحضروا شخصيته مرارا، ولهجوا باسمه وبطولاته. واعتبره بعض المسلمين من:

الأحناف. والأب لويس شيخو (١٨٥٩ - ١٩٢٧) اعتبره: نصرانيا. أما الأب كميل حُشَيمَة، الذي قدم أطروحة الدكتوراة لجامعة السوربون الفرنسية عام ١٩٦٧، حول هوية الشعراء الذين اعتبرهم شيخو نصارى، فيستبعد أن يكون عنترة نصرانيا.

رفض يفتاح وقبول عنترة

لاحظنا عدة عناصر تجمع شخصيتي (يفتاح الجلعدي) وعنترة بن شداد: كلاهما ابنان لأُمين غريبتين، وفارسان محاربان قادا قبيلتيهما إلى نصر مفصلي في حياتهما، وكلاهما بذلا جهودا جبارة كي يصبحا شريكين في مصادر الثروة والنفوذ المادية والثقافية - المعنوية. إلا أن هوية بني (يسرءيل) اليهودية المغلقة، صدته بعنف غير معهود في العلاقة بين الأنا والآخر. وما نذره وإيفاؤه بقربنة ابنته وحيدته، إلا دليل على هذا الصدّ. من المنطقي أن يتوقع المرء استمرار ذريته ونسله في أبنائه وبناته وأحفاده، وغيابهم. قربنة الابنة الوحيدة. هو تأكيد جازم على عمل واع من قبل اللاهوت اليهودي وكتبة العهد القديم ومحرريه، لقطع هذا النسل. علما أن العهد القديم يأمر بني (يسرءيل) قائلا: «تناسلوا تكاثروا واملأوا الأرض». أي أن القائمين على إنتاج اللاهوت والشريعة، خرقوهما خرقا سافراً، يرقى إلى مستوى الجريمة المنظمة. قربنة الابنة الوحيدة. وإهانة أيضا - كما عبرت عنها - ابنته (يفتاح) الوحيدة، التي لجأت إلى الخلاء «وأبكت بتوليتها». فاليهودية تعتبر العذراء المرشحة للزواج وإنجاب الأبناء، أعلى مرتبة بين النساء، إذا قورنت بالمطلقات والأرامل والعاهرات والمفترعات عذريتهن لأي سبب غير الزواج والزنى، كالاغتصاب مثلا. لذا خصت اليهودية، الكهنة بالزواج من العذارى فقط! ويبدو أن مسألة علاقة الأنا والآخر في قصة (يفتاح الجلعدي)، ومسألة قبول الآخر في مصادر الثروة والنفوذ المادية والثقافية - المعنوية اليهودية، لم تشغل بال وعي الفقهاء والباحثين اليهود الأقدمين والمعاصرين. الذي شَغَلَهم هو: مكانة أمه وشرعية طرد إخوته له، هذا ما اتضح لي من قراءتي خمسة عشر مقالا أكاديميا لكتابة هذا النصّ.

إذا كانت شخصية (يفتاح الجلعدي)، تتفق في أصول بعض جوانبها، بشخصية عنترة بن شداد، إلا أنها تختلف عنها، كون (يفتاح) ابن المؤسسة (أبوه كان قاضياً). وعنترة نقيض لها. بينما نرى (يفتاح) يصرّ على الجوانب القانونية (المؤسسية) للعودة إلى مصادر الثروة والنفوذ، كما عبر عنها النصّ في مفاوضاته مع اخوته والشيوخ وتثبيت العهد في معبد (يهوه). بينما عنترة بن شداد يتحدى المؤسسة القائمة/ القبيلة ويتمرد عليها، لأنها تضطهد الفرد العبد والغريب وتمنع التشبب بالحبيبة علنا، إنها ملحمة تمجيد الحرية الفرديّة وبناء مجتمع حرّ. لذا تبناها عامة الناس من أبناء العرب - المسلمين، وأحجم عنها الحكام ومن والوهم من كتبة ومثقفين، وأسقطت عليها العديد من الصفات النادرة والخارقة الأسطورية، فقبلته الهوية الشعبية عنصرا أصيلا وشريكا منتجا في مصادر الثروة والنفوذ المادية والثقافية - المعنوية.. مقابل صدّ اليهودية جميع محاولات (يفتاح الجلعدي). وكما أشرت إلى أن السيرة الشعبية استدعته بملحمة بعدة آلاف من الصفحات، بينما المثقفون لم يكشفوه إلا نتيجة لهزيمة وعار حزيران ١٩٦٧، وأولهم أمل دنقل، المعارض السياسي - الاجتماعي والمثقف الشعبي. وعندما زرت مكتبة جامعة حيفا، الغنية جدا بكتب التراث المختلفة، للبحث عن مصادر لإتمام هذا المقال، فوجئت بشحة المصادر عنه. فقد وجدت السيرة بخمسة مجلدات، وخمس دراسات فقط، واحدة الإنجليزية!

باختصار: إن محاولة (يفتاح الجلعدي) ومسعاه لكي يصبح الغرباء/ الـ goyem شركاء في مصادر الثروة المادية والثقافية - المعنوية اليهودية، هي محاولة تراجيدية عبثية. بينما سيرة عنترة بن شداد الملحمية على النقيض، إن مصادر الثروة والنفوذ المادية والثقافية - المعنوية العربية، ترحب بالآخر الشريك والساعي إلى بناء مجتمع أكثر حرية وتكافلا، من خلال مشاركته وعطائه.

أصــــلاء.. فــــلاليـــح.. هتيـــــم.. حـــوازم

البـدو

قبـــائل وأنســـــاب

مـاجـــــد شـــبَّــر

■■ مؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ المستشرق الأشهر الهر فون اوبنهايم بالاشتراك مع الأستاذ البروفيسور فرنر كاسكل «ارش برونيلش». واستمر البروفيسور كاسكل بعد وفاة زميليه ونشر مجلده الثالث. والمهم أن مؤلفيه استعانا بما كتب عن العشائر من آثار وسياحات ومؤلفات تضم إليها المشاهدات.

إن كتاب البدو هذا يعدُّ من أجلِّ الدراسات وأكثرها عمقاً فى فهم القبائل البدوية ودراستها دراسة تاريخية اجتماعية واقتصادية وسياسية وأنثروبولوجية. وهو يقدم معلومات شاملة وفريدة من نوعها عن تاريخ القبائل وأصولها وأنسابها وهجراتها والترابط القائم بينها.

يقول المؤلف: «إنَّ هذا الكتاب حصيلة أربعين عاماً من العمل والملاحظات والتسجيلات الشخصية التى قمتُ بها فى عين المكان». وقد صدر الجزء الأول والثانى من الكتاب فى حياة مؤلفه أوبنهايم، ومساعده برونيلش، أما الجزءان الثالث والرابع، فقد أخذا عشرين سنة أخرى لكى يبصرا النور، بعدما اشرف عليهما ونقحهما وأضاف إليهما إضافات مهمة البروفيسور كاسكل.

ذكر المؤلف أنه سار باتجاهين فى إعداد الكتاب:

الأول: إنجاز دراسة وافية للحياة المادية والثقافية للبدو.

الثانى: متابعة أعرافهم وعاداتهم ومراقبة حياتهم داخل الأسرة والقبيلة وحيال المنتسبين إليهم وتدوين مأثورات وأساطير قبائلهم. وكذلك تدوين ملاحظات مهمة حول الحياة الداخلية لهذه القبائل، من سلطة الشيوخ والأعراف البدوية وعادات الأعراس والزواج وحق الضيافة والحماية (الإجارة) وكذلك الاهتمام بالحياة الدينية.

وعلى وفق هذين الاتجاهين، قام المؤلف بدراسة عادات وتقاليد القبائل البدوية فى المناطق التى توجد فيها تلك القبائل كمنطقة سيناء، والأردن. حيث سجَل بعض العادات والتقاليد البدوية والتى منها على سبيل المثال اجتماع أفراد إحدى القبائل حول قبر أحد الأشخاص وسبه سباً مقذعاً، أو ذبح بعض الأضاحى ورمى أجزائها فى البحر، بالإضافة إلى قيامه بتسجيل الحكاوى المتعلقة بأصول بعض القبائل، فسجلّها كما رويت له مختلطة بها الأسطورة والتاريخ. لقد قام المؤلف بتسجيل تلك الحكايات، لكنّه وقف منها موقف الباحث الذى يتوخى الجانب العلمى. كمثال على ذلك، إن الحكاية التى تدعيها قبيلة العدوان فى سورية لإثبات نسبها إلى الإمام على بن أبى طالب، هى من تلك الحكايات الأسطورية التى يقوم بتحليلها ومن ثم تفنيد علة ربط ذلك النسب.

ومن خصائص هذا الكتاب أيضاً، قيامه بمعالجة القبائل من الناحية الجغرافية، فهو يقوم بتصنيف القبائل المختلفة إلى مجموعات بحسب المناطق الجغرافية المختلفة على خلاف ما هو متبع بكتب الأنساب. إن المساحة الجغرافية التى يشملها البحث كبيرة من حيث تتوزع بين العراق، سورية، المملكة العربية السعودية بأقاليمها (الحجاز ونجد والإحساء)، وبين الكويت، قطر، البحرين، الإمارات، الأردن، فلسطين، سيناء بالإضافة إلى قسم من القبائل التى تعيش داخل تركية الحالية، وكذلك قبائل وعشائر عربستان أو ما يطلق عليه خوزستان إيران. بل يمكن القول أنه يتناول كل القبائل العربية فى آسيا.

لقد صدر عدد من الكتب التى تبحث فى موضوع القبائل والعشائر بأسلوب أكاديمى ولكن أغلبها يقتصر بحثها على قبيلة واحدة، أو جزء من قبيلة كحال دراسة قبيلة الرولة أو يشمل منطقة جغرافية محدودة. وما قام به الباحث الكبير البروفيسور موزيل فى كتبه المهمة والتى تندرج تحت نفس العنوان العلمى الرصين فإنها أقرب إلى كتب الرحلات التوثيقية منها إلى الأنساب، لكنها لا تخرج عن هذا المسار كمناطق (وسط الفرات) و(شمال الحجاز) و(شمال نجد) و(عادات وتقاليد الرولة) والصحراء العربية.

هناك ناحية مهمة أخرى فى تاريخية البحث ألا وهى الفترة الزمنية التى بحث فيها المؤلف «البدو» حيث تعد فترة فاصلة ومهمة فى تاريخ البدو بشكل خاص والمنطقة العربية بشكل عام. وهى الفترة الزمنية التى بدأت قبل عملية توطين القبائل البدوية، وقبل أن ينتشر نفوذ وسلطة الدولة التى قامت بعد الحرب العالمية الأولى.

يمكن القول إنَ صورة البداوة الجلية، التى تمكن المؤلف من مشاهدتها ميدانياً وتسجيل مفاهيمها وقيمها وعاداتها والتى كانت سائدة منذ آلاف السنين كانت ماثلة أمامه. يقول المؤلف: «لا تختلف حياة البدو اليوم عن الحياة التى كان قد وصفها شعراء، ومؤرخو العصر العربى القديم. من جانبها بقيت سهوب الصحراء هى ذاتها منذ آلاف السنين وكذلك بقى البدو شعب أسياد أصلاء، بدائياً، وحشياً، محارباً لم تمسه الحضارة الأوروبية بعد».



وهناك تساؤل يتردد هو: هل هناك علاقة لبعض أسماء القبائل والعشائر المعاصرة مع القبائل والعشائر القديمة؟ وهل تشابه تسميات بعض القبائل المعاصرة لبعض القبائل القديمة استعارة لتلك الأسماء أم هناك رابط يربطها خصوصاً بعدما ظهر اسمها مجدداً بعد اختفائها زمناً طويلاً. وهناك قبائل وعشائر ظهرت حديثاً، لم نجد لها ذكراً فى كتب الأنساب القديمة فمن أين أتت؟!.

هذه التساؤلات وغيرها كانت دوماً موجودة. عند مراجعة كتب الأنساب القديمة، مثل جمهرة النسب لابن الكلبى ونهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب للقلقشندى وجمهرة الأنساب لابن حزم الأندلسى، وعشرات غيرها، لكنها لم تكن لتغطى الإجابة عن تلك التساؤلات أو ربما تجد إجابة عن مرحلة أو فترة زمنية محددة، دون وجود ترابط وتناسق بالمعلومات، بل إنَّ مادتها مشتّتة، بالرغم من أن قسماً من كتب الأنساب هى كتب تاريخية أصلاً تناثرت بين طياتها أخبار عن القبائل. وعند البحث فى الكتب الحديثة فإنَّ أغلبها قليلة المادة، وربَّما تعالج الأمور بسذاجة، وهى عبارة عن حكايات عن أصول القبائل، وهجرات لم تستند على التوثيق التاريخى بأسلوب يكثر فيه الإطراء والتفخيم والتعظيم وهى أشبه بحكايات السمر منها إلى التاريخ.

البدو (٤ أجزاء فى خمسة مجلدات)
البارون ماكس فون أوبنهايم
أرش برونيلش وفرنر كاسكل
ترجمة: محمود كبيبو
تحقيق وتقديم الطبعة العربية: ماجد شبَّر
لندن. بيروت: شركة دار الوراق للنشر، ٢٠٠٤



الاهتمام بالأنساب

يعد العرب من أكثر الأمم اهتماماً بأنسابها وأصولها، وقد حفل التاريخ العربي بشواهد كثيرة تظهر اعتزاز العرب بأنسابها. إنَّ التوارث لحفظ الأنساب ونقائها يعدُّ من المفاخر التي يعتز بها الإنسان العربي بشكل عام، والإنسان البدوي بشكل خاص. ويمكن أن نشاهد الفخر والتفاخر ظاهرين للعيان في الشعر العربي الذي يعد ديوان العرب، يقول المؤلف: «لا حدود لاعتزاز البدوي بنقاء نسبه الذي يحرص عليه، ويعنى به. في نظر البدوي أنه وحده الأصيل وتتجذَّر فيه بعمق الإيمان القرابة الدموية التي يجب أن يلتزم بها. ومن هنا يفسر الزهو بنقاء النسب».

وقد ظهر في مختلف العصور القديمة والحديثة أشخاص يتميزون بمعرفتهم بالقبائل العربية، ولهم باع في حفظ الأنساب، يطلق عليهم النسّابون. كان عقيل بن أبي طالب أحد هؤلاء قبل الإسلام وفي بداية ظهوره، وكانت المصادر المتعلّقة بأصول الأنساب تنحصر بالحفظ الشفاهي. ولم يظهر الجانب التوثيقي الكتابي إلا في منتصف القرن الثاني الهجري. كانت المرحلة الأولى تتخذ طابع التدوين القبلي، وفي المرحلة الثانية اتخذ تدوين الأنساب شكلاً أوسع فظهرت كتب الأنساب الجامعة.

لقد استقى النسابون مادة مصنفاتهم النسبية من مصادر شتى، فأخذ جلُّ أنساب القبائل العربية عن قدامى نسّابي القبائل، ورجع مصنّفو كتب الأنساب إلى هؤلاء النسّابين فاستقوا مادّة كتبهم منهم.

ويعدُّ كتاب جمهرة النسب لابن الكلبي من الكتب المهمة في بحثها للأنساب العربية، لما عُرف عن ابن الكلبي من أنّه كان عالماً بأنساب وأخبار العرب وأيامهم، وقد اخذ علمه بالنسب من أبيه الذي لم يهتم بتأليف الكتب فجاء ابنه فألف في الأنساب وأيام العرب وأخبارهم وأشعارهم كتباً عديدة، وقد عدَّ المؤلف كتاب ابن الكلبي جمهرة النسب من الكتب المهمة والأكثر مصداقية. فكان مصدراً مهماً في معرفة القبائل والعشائر في عصورها الأولى.

لقد ظهرت على مر العصور عشرات الكتب التي تناولت القبائل العربية وعشائرها والتي تعدُّ ذات أهمية عظيمة، نذكر بعض أسماء كتب هؤلاء في الأنساب والقبائل.

١. كتاب النسب لأبي عبيد القاسم بن سلام (١٥٧ . ٢٢٤هـ)

٢. كتاب نسب عدنان وقحطان لأبي العباس المبرد (٢١٠ . ٢٨٥هـ).

٣. كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه (٢٤٦ . ٣٢٨هـ).

٤. جمهرة الأنساب لابن حزم الأندلسي (٣٨٤ . ٤٥٦هـ).

٥. طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب للسلطان الملك عمر بن يوسف بن رسول ٦٩٦هـ.

٦. نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ٩٨٢ . ٧٣٣هـ.

٧. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، وقلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان للقلقشندي (٧٥٦ . ٨٢١هـ).

٨. سبائك الذهب في معرفة أنساب العرب للسويدي ١٢٤٦هـ

التقسيمات القبلية للقبائل والعشائر

القبيلة تعبير يطلق على مجموعة بشرية ذات لغة أو لهجة مشتركة، بصرف النظر عن استقرارها على أرض ثابتة أو ترحالها من مكان إلى آخر. فالقبيلة مجموعة بشرية متنقلة أو مقيمة على أرض محدودة صحراوية في الغالب، بين أفرادها علاقات خاصة قائمة على التقاليد والأعراف المتوارثة، فهي إذاً مجموعة بشرية متماسكة اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وذات شخصية متميزة وتعمل تحت إمرة زعيم أو شيخ القبيلة الذي أنيطت به إدارة شئون القبيلة، وإقامة التحالفات مع القبائل الأخرى لحماية المجموعة المنتسبة إليه.

ويختلف النسّابون في تقسيم القبائل العربية من حيث توصيفها وتصنيفها، ومتى يطلق عليها قبيلة أو عشيرة. وتكاد تختلط التسميات في التراث العربي، فقد يطلق على العشيرة اسم «فصيلة» أو «بطن» أو «فخذ»، وهي ألفاظ تدل على مستويات مختلفة في التنظيم الاجتماعي، ولا تدل على طرق العيش والكسب.

فالنويري في كتابه «نهاية الأرب في فنون الأدب» يقسم القبائل إلى عشر طبقات فيبدأ أولاً بالجذم فالجمهور فالشعب فالقبيلة فالعمارة فالبطن فالفخذ فالعشيرة فالفصيلة فالرهط.

أما القلقشندي فيصنف طبقات القبائل إلى ست، وهي الشعب فالقبيلة فالعمارة فالبطن فالفخذ فالفصيلة.

أما ابن منظور فقد حدد القبيلة بأنها جمع من الناس ينتمون إلى أب واحد، وهم أصغر من الشعب، وتليها بالصغر العمارة ثم البطن ثم الفخذ. أما عشيرة الرجل فهم بنو أبيه الأدنون.

أما عبد الجليل الطاهر في الدراسات المعاصرة فيبدأ بالقبيلة ثم العشائر التي تنقسم إلى أفخاذ، وكل فخذ إلى أسر. كما قسم عباس العزاوي القبائل والعشائر إلى وحدات بدأ من الأصغر إلى الأكبر على هذه الشاكلة:

أ. البيت (الأسرة) أصل القبيلة.

ب. الفخذ ويقال له (البديدية) وجمعها بدية، والفندة وجمعها (فند)، والفخذ بالأصل عدة بيوت من جد قريب لا يتجاوز الجد الخامس في الأغلب.

جـ. العشيرة: وتتألف من عدة أفخاذ أو بيوت وتعيش مجتمعة بالوجه المتعارف وقد يتفرع الفخذ إلى عدة أفخاذ فرعية.

د. القبيلة: وتتألف من عدة عشائر وتكتسب ضخامة وسعة في تكونها حينئذ يقال لها قبيلة وقد يتساهل في التعبير فتسمى العشيرة قبيلة.

هـ. الأمارة: وهي تقارب عدة قبائل أو تكاثر إلى أن تكون قبائل عديدة فيتولى إمارتها رئيس الفخذ الأول.

وقد شكلت القبيلة الوحدة الأساسية في المجتمعات العربية في الجاهلية والإسلام، فكانت العصبية القبلية هي العنصر الأساس في اجتماع وتكاتف القبيلة فيما بينها، كما كان الانتماء إلى القبيلة عنصراً من عناصر الحماية الفردية. فالفرد في القبيلة يذود عنها والقبيلة بدورها تدافع عنه، حيث قوة الفرد من قوة القبيلة.

كان العرب في الجاهلية يتكونون من قبائل كبيرة وصغيرة، وكانت هناك تحالفات وحروب بين هذه القبائل، حيث كانت القبيلة على الأغلب تحارب وتسالم وتهاجر بشكل جماعي. وعندما جاء الإسلام بقيت التشكيلات القبلية ذاتها، ولم تتغير كثيراً. بل إن القبائل حاربت لنصرة الإسلام ضمن الجيوش الإسلامية كوحدات قبلية. فقد عمل القادة المسلمون الأوائل للحفاظ على التشكيل القبلي كي يكون عنصر تضامن وتمازج يشد بعضه بعضاً ضمن الوحدة القبلية في مواجهة العدو المشترك، ومن أجل أن يمنع الحزازات القديمة من الظهور. «إن سعد بن أبي وقاص أدرك بثاقب بصره أن نظام الأسباع يكون أكثر صلاحاً إذ جمع بين القبائل المشتركة في النسب أو المترابطة بروابط القربى».

يقول سهيل زكار استفاد النبي في مكة من العصبية القبلية، حين تمتع بحماية عمه وعشيرته له، واستمر الحال بعد وفاة (الرسول) حيث دون عمر بن الخطاب الدواوين على أساس قبلي، وعلى الرغم من قيام الفتوحات الكبرى وانتشار القبائل العربية في الأقاليم ظل النظام القبلي معتمداً، وبدلاً من ذوبان القبائل في نظام مجتمعات البلدان المفتوحة، حدث ما هو العكس، حيث تبنت





«لا تختلف حياة البدو اليوم عن الحياة التي كان قد وصفها شعراء، ومؤرخو العصر العربي القديم. من جانبها بقيت سهوب الصحراء هي ذاتها منذ آلاف السنين وكذلك بقي البدو شعب أسياد أصلاء، بدائياً، وحشياً، محارباً لم تمسه الحضارة الأوروبية بعد»



الشعوب المفتوحة النظام القبلي عن طريق «الولاء». لقد هاجرت قبائل عربية بكاملها من الجزيرة إلى العراق مثل بجيلة، وإلى بلاد فارس وما وراء النهر وإلى أفريقيا وقد استقرت هناك وحافظت على وحدتها القبلية وأصولها وجذورها.

وعند تكوين الدول العربية في العصر الحديث، لعبت القبائل والعشائر دوراً أساسياً في تبلور شكل هذه الدول، فهناك قبائل أدمجت في الدول الحديثة الناشئة مثل سورية والعراق وفلسطين، وأصبحت جزءاً من المجتمع المستقر الحضرى حيث إن المكونات الحضرية قوية بحكم وجود الأرض الزراعية وقوة التكوين المدنى ووجود سلطة الدولة. وهناك قبائل سيطرت على قبائل أخرى لتؤسس دولة كبيرة، وهنالك قبائل تحولت إلى دويلات أو إمارات كالكويت، وقطر، والبحرين، والإمارات.

يقول عالم الاجتماع الكبير الدكتور على الوردى إن المجتمع العربى هو أكبر معين للبداوة في العالم. إن التناقض بين الحضارة والبداوة كبير، فإما أن نكون متحضرين أو نعود إلى الصحراء، فلا انتقاء ولا توافق ولا انسجام بين قيم الحضارة والبداوة. إن سمات البداوة هي: القبيلة. الغزو. التفضل (الذى يشمل الكرم والسخاء والنخوة وغيرها).

أما الحضارة فهى على العكس من ذلك تماماً إنها الدولة، العمل اليدوى، وعدم الاهتمام بقيم التفضل. فعلى الرغم من تزايد المدن وعدد سكانها إلا أن قيم البداوة ما زالت في دواخلنا إلى حد كبير.

تصنيفات البدو

البدو والبادية والبداوة: خلاف الحضر. والنسب بدوى منسوب إلى البداوة. وبدأ القوم بدواً أى خرجوا إلى باديتهم. وفى الحديث من بدا جفا، أى من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب. وقال الليث: البادية اسم للأرض التى لا حضر فيها، وإذا خرج الناس من الحضر إلى المراعى في الصحارى، قيل قد بدوا، والاسم البدو.

لقد ميّز ابن خلدون ثلاث فئات من السكان، هم: البدو، والأعراب والحضر. فالبداوة ترتكز على القبيلة والترحال الدائم، أما الأعراب فهم تجمعات البدو المستقرين فى قرى الأرياف والواحات ويقيمون نمط إنتاج زراعى، وهم نواة مرحلة انتقالية بين نظام البداوة والتحضر. إن التصنيف القبلى عند العرب مستمد فى الأصل من القدرة الاقتصادية ونمط العيش، لا من التسلسل الدموى والأصول القبلية العريقة.

إن حالة استمرار قيم ومفاهيم البداوة فى المجتمعات الحضرية حالة قديمة، ولا تبتعد كثيراً عما هو موجود لدينا. إن حالة هؤلاء الناس وإن تحضروا، واستقروا، وأقاموا، وتركوا الحياة الأعرابية إلا أنهم بقوا رغم ذلك على مذهب أهل الوبر، ودينهم فى التمسك بالانتساب إلى الجد الأعلى، وإلى أحياء وبطون، وفى إجابة النخوة العصبية، وما شابه ذلك من سجايا البداوة.

لا يوجد توصيف متفق عليه لدى الباحثين لتقسيمات البدو ومن هنا أجمل القول:

١. بدو رحل وهم الأصلاء أو (الأقحاح) ويسمون أهل الوبر، الذين يرعون الإبل فقط ويسمون أيضاً أهل الإبل. إن القبائل الأصيلة عند العرب، التى تحتل منزلة عالية هى التى تعيش أو كانت تعيش على رعى الإبل.

٢. البدو نصف الرحل: تختلف التسمية للبدو نصف الرحل من منطقة إلى أخرى، فيطلق عليهم «الغنامة» التى تعتمد فيها القبيلة على رعى الأغنام، أو يطلق عليهم الشاوية «الشواوى» فى العراق الجنوبى وهم نصف متحضرين فهم يعملون بالزراعة ونصف بالرعى، ولديهم مساكن، ويقومون بعملية الرعى وبالأخص الأغنام ويطلق عليهم اسم هكرة (حكرة) فى الكويت ونجد ويسمون أيضاً بعرب الدار. وقد تنقسم القبيلة نصف رحل غنّامة فهى تربى الأغنام وتمارس أعمال الزراعة، ويعيش جزء من القبيلة فى أكواخ أو خيام. إن نوع الزراعة محدود بالحبوب فقط دون غيرها. لأن زراعة الخضروات وما شابهها تعد محتقرة ومرفوضة بنظر البدو.

٣. فلح أو فلاليح: وهم مستقرون ضمن مجموعات قبلية وعشائرية، ويقومون بعملية الزراعة وينقسمون إلى قسمين الطبقة العليا هم الزراعة والتى تقوم بزراعة الحبوب من حنطة وشعير، والطبقة الدنيا الحساوية الذين يقومون بزراعة الخضروات.

٤. المعدان: وهم العشائر الموجودة فى العراق الجنوبى والذين يربون الجاموس ويصيدون الأسماك ويقومون بزراعة بعض المحصولات يبيعون الحليب ومشتقاته التى تعد من العيوب الكبيرة ضم المفهوم البدوى.

٥. الهتيم: هنالك مفهوم للهتيم وبالأحرى يطلق على الهتيم من منظورين. الأول هم الناس الذين فقدوا مرجع أصولهم القبلية وبالتالى أصبحوا مجهولى النسب، أما المنظور الثانى وهو الأرجح لدى وهو منظور اجتماعى، بحكم ممارستهم أنواعاً معينة من المهن مثل الصناع (الحداد والحائك وإلى آخر هذه المهن وتعد محتقرة بدرجة كبيرة لديهم فإن من يمارسها يعد هتيمياً. لأن فى الماضى كان لا يمارس هذه المهن إلا الهتيم، من هنا فإن الهتيمى لا يعنى بالضرورة أن يكون مجهول النسب أو ما يسمى (غير أصيل)

٦. الحوازم: الفئات والأفراد الذين يكسبون رزقهم بطريقة محتقرة حسب المفاهيم البدوية وقد تغير حالهم فى العقود الأخيرة.

٧. صليب أو صلبه. وهم مجموعات قبلية صغيرة تقوم بأعمال تعد حقيرة بنظر البدو، مثل بيع أدوية نباتية تصنعها نساؤهم، ويقومون ببعض الحرف البسيطة وتقوم نساؤهم (بطرح الحصا) والذى يسمى عندهم (الطشة). وقول العزاوى على كل حال هم بدو ولكن عيشهم أخس عيشة فلا يزاحمهم فيه أحد، يطاردون الغزلان والحيوانات الوحشية، ومن جلودها يتخذون لباسهم وبيوتهم. أما فؤاد حمزة فيقول، إن صليبى أو أولاد غانم هو الاسم الذى يطلق على مجموعة القبائل التى لا تعرف أنسابها. الصلبة يقسمون إلى بداية ويقال لها آل وهم يقطنون فى أماكن مختلفة. ونظراً لضعف الصلبة وعدم وجود عصبية لها فإنها تلتجىء إلى القبائل المعروفة وتطلب حمايتها مقابل الخاوة.

٨. بنو خضير: هم ليسوا قبيلة وإنما طبقة من الخدم فى نجد ووسط الجزيرة العربية.

شعب شديد البأس

إن الموضوعية التى اتسم بها المؤلف فى بحثه يرافقه فيها حبه للعرب بشكل عام، والبدو بشكل خاص تجعله أكثر مصداقية، فهو لم يذهب إلى وصفهم بالسراق والقتلة كما هو حال الكثير من الرحالة، بل يصفهم بأنهم «شعب أبى محب للحرية، قاس شديد البأس، مضياف ومحارب».

وكذلك لا بد من الإشارة إلى أن احترامه للإسلام كان واضحاً حيث يسمى النبى محمد بالنبى فى كثير من الأحيان وليس بالاسم مجرداً كما هو حال الكثير من المستشرقين. اعتمد أوبنهايم فى بحثه نهجاً علمياً مختلفاً عما جرت عليه العادة فى الكتب التى تبحث فى تاريخ وأصول القبائل والعشائر وقد سار على طريقة تتلخص بما يلى:

أولاً: التقسيم الجغرافى للقبائل فقد بحث عن القبائل التى هى ضمن منطقة جغرافية معينة، فبدأ بدراسة تاريخ المنطقة







«لا حدود لاعتزاز البدوى بنقاء نسبه الذى يحرص عليه، ويعنى به. فى نظر البدوى أنه وحده الأصيل وتتجذر فيه بعمق الإيمان القرابة الدموية التى يجب أن يلتزم بها. ومن هنا يفسر الزهو بنقاء النسب»



الجغرافية التى يتناولها قديماً وحديثاً، وكذلك الأحداث السياسية الهامة مستعرضاً الجانب التضاريسى والاقتصادى فيمزجهما بأسلوب سلس شيق. كما سعى إلى تتبع أهم القبائل العربية القديمة التى أقامت فى هذه المنطقة، والأحداث السياسية الهامة التى مرت بها مدار البحث كما تابع حركة انتقال القبائل العربية وانتشارها بتسلسل زمنى حتى يصل إلى القبائل الحديثة فيبحث فى أصلها وهجراتها وقدومها إلى المنطقة الجغرافية، موضوع البحث.

ثانياً: أسلوب البحث ولغته:

جعل أوبنهايم بحثه مفهوماً من الخاص والعام أى موجها لكل من له اهتمام فى القبائل وليس للمتخصصين فقط. يقول المؤلف عن كتابه أنّه كتاب صيغ بأسلوب علمى رصين، لكنه حرص فى الوقت نفسه أن يكون مفهوماً من الجميع، لذلك فهو لا يخاطب المتعلمين وحدهم بل يتوجه إلى كل من لديه اهتمام بمسألة البدو. «سيقدم كتابنا هذا معطيات إلى كل من يبحث عن معلومات حول سائر المسائل المتعلقة بأبناء الصحراء».

ثالثاً: البحث الميدانى

إن البحث الميدانى فى إعداد الكتاب، والملاحظات التى تمّ تسجيلها، تشكل المادة الحية فيه ملتقطة من الواقع المادى الملموس. المعلومات التى جمعها والتى توفرت لديه، لم يكن يسلّم بها، بل يخضعها لتمحيص شديد، أى لأسلوب التشكيك حتى يثبت دقة المعلومة. ويمكن ملاحظة ذلك فى جداول القبائل. ففى أرقام هوامش الجداول تجد المصادر التى اعتمدها لاسم كل قبيلة وتفرعاتها والطريقة التى تحقق من صحة المعلومة وبالتالى فإن الجداول تلك، تعد من أهم مرتكزات الكتاب. يقول أوبنهايم عن طرق البحث الميدانى، كانت ملاحظاتى الخاصة، وملاحظات مساعدى فى الشرق ومازالت من أكثر مواد كتاب البدو أهمية. إن البدو هم، بوجه عام، أناس قليلو التعبير عن أنفسهم، وهم يخافون المعطيات الرقمية (العددية) لاعتقادهم أن أخبارهم يمكن أن تصير خطراً عليهم بسبب الضرائب وغيرها من الالتزامات التى تفرضها الحكومات. لذا كنت أحتاج دوماً إلى تحضيرات طويلة وإلى كسب ثقتهم بصورة مطلقة، قبل أن أتمكن من تلقى أخبار موثقة فعلاً منهم. وقد ساعدنى على فتح قلوبهم لى معرفتى الدقيقة بأعرافهم، ومشاركتى القلبية فى حياتهم الفريدة وعلامات البهجة التى كانت تبدو على وجهى عندما كنت استمع إلى قصص ومغامرات الغزو والصيد فى تلك اللحظات. كانت تنشأ لعبة سؤال وجواب معقدة ومتواصلة تتيح لى معرفة ما له من قيمة علمية من أحاديث. فهم لم يألفوا الحوارات العلمية أبداً. إنّ الصبر الجميل والمعرفة الدقيقة باللغة العربية هما شرطان ضروريان لدراسة البدو.

صيحات الحرب

قام أوبنهايم بتسجيل أغلب صيحات الحرب (النخوة) للقبائل والعشائر العربية، وكذلك قام برسم وسم الحيوان لكل قبيلة بل كان فى قسم منه يسجل أكثر من وسم موجود لدى القبيلة وهى إحدى الدلائل التى يمكن أن تميز قبيلة عن أخرى، وكذلك لمعرفة ملكية الحيوانات. وبالتالى أصبح لدينا رسوم الوسمات وصيحات الحرب. وقد استفاد المؤلف كثيراً من تسجيله لصيحات الحرب، حيث يمكن اعتبارها إحدى الوسائل التى دلل بها على صلة نسب القبائل بعضها ببعض، فعن طريق صيحة الحرب استطاع أن يربط علاقة شمر طوقة بشمر جربا. علماً بأن العزاوى فى كتابه عشائر العراق قد صعب عليه معرفة ذلك بل بقى يدور حول الموضوع ولكنه لم يستطع الوصول إلى الربط.

وندع المؤلف يقول فى القسم الثانى من الجزء الثالث من الكتاب ص٤٩٦ ج٣.

هناك تعبير «صلته» و«غرير» اللذان يستعملان أيضاً كصرخة حرب لدى بعض القبائل الفرعية صلاتى، غريرى غرير. وبما أن كلاً منهما اسم قبيلة فرعية من أسلم النجدية، فلعله يمكننا الربط بين صرخة الحرب «وهيب». وقبيلة فرعية من الأسلم تحمل الاسم نفسه، ومما يؤيد ذلك بصورة خاصة هو وجود قرابة بين طوقة والأسلم. الواقعتان التاليتان توضحان ذلك. أولاً: كان يوجد فى طوقة فعلاً فخذ يحمل اسم «صلته»، وقد ذكره روسو عام ١٨٠٨م التى تحتوى جميع أفخاذ شمر المرتبطة بفارس الجربا ولكن بما أن هذا الفخذ لا وجود له عند الجربا ولا عند الزقاريط، ولا عند زوبع فيجب أن يكون تابعاً للطوقة، وأما الواقعة الثانية، فهى أنّ أسلم وطوقة يوجد فى كل منهما فرع اسمه (الهراير)، وهو اسم لا وجود له أبداً فى أى مكان آخر.

ويتألف الكتاب من أربعة أجزاء، أُرفق بكل جزء منه مجموعة من الخرائط الجغرافية تظهر توزع وانتشار وتواجد القبائل المذكورة فى ذلك الجزء، وكذلك أرفق المؤلف بعض شجرات أنساب القبائل ووضع بعض الصور فى الجزءين الأول والثانى.

وفى بداية أى جزء أو قسم يقدم لنا فيه تمهيداً كبيراً يتناول ذلك الجزء، ثم يقدم مقالاً لكل قبيلة. إن المقالات والمقدمات الفرعية هى فى الواقع دراسة تاريخية جغرافية سياسية واقتصادية تغطى كل جوانب القسم أو الفصل المبحوث، وفيه يتناول القبائل من حيث تكويناتها وتطورها ودورها السياسى وتاريخ هجراتها. إنّ بحثه يتناول القبائل على ضوء المناطق الجغرافية أى اعتمد على التقسيم الجغرافى للقبائل الجزء الأول (المجلد الأول) صدر باللغة الألمانية عام ١٩٣٩م

ويتكون هذا الجزء من قسمين:

القسم الأول: ما بين النهرين (العراق الشمالى) وتناول المؤلف كل القبائل والعشائر الرحل، ونصف الرحل والفلح (الفلاليح). كما تناول المؤلف الحديث عن القبيلتين عنزة وشمر فى قسم بلاد ما بين النهرين «العراق الشمالى» الذى يقع جزء منه الآن فى سورية. منطقة الجزيرة، والقسم الآخر ضمن العراق الحالى بشكل مفصّل. هنا نجد أنّ المؤلف نفسه لم يقسم عنزة إلى عنزة سورية، أو عنزة العراق، بل جعل الفصل الذى يبحث حول قبائل وعشائر عنزة وشمر قائماً فى جزء بلاد ما بين النهرين. إن أهمية هاتين القبيلتين ودورهما فى تاريخ المنطقة، جعل المؤلف يستغرق فى البحث عن تاريخ وأصول هاتين القبيلتين بشكل يغطى تاريخها من عصر ما قبل الإسلام إلى الوقت الذى تمّ فيه البحث. مضافاً إلى البحث فى قبائل طى وعشائرها، وزبيد بقبائلها ألبو شعبان، وعقيدات، وجيس، وحرب، والنعيم، والحديدين، وغيرها من القبائل والعشائر.



وفى القسم الثانى:

تناول المؤلف القبائل الساكنة فى المنطقة الجغرافية التى تختلف بعض الشئ عمّا هو معروف حالياً باسم سورية، حيث تعد منطقة الجزيرة ضمن التقسيم الجغرافى لمنطقة بلاد ما بين النهرين «العراق الشمالى»، وتشمل سورية فى هذا الجزء كل سورية الحالية ما عدا منطقة الجزيرة. ويشمل البحث القبائل حول حلب المستقر والرحّل وكذلك قبائل حماة، وقبائل ريف دمشق، والجولان، وقبائل عرب الجبل، والموالى، فضل، عمرو، وبنى خالد وغيرها.

وأما الجزء الثانى (المجلد الثانى) صدر باللغة الألمانية عام ١٩٤٣م ويتكون من أربعة أقسام. القسم الأول: قسم فلسطين، يتناول القبائل الفلسطينية المتواجدة شمال وجنوب وبعض مناطق





عند تكوين الدول العربية فى العصر الحديث، لعبت القبائل والعشائر دوراً أساسيا فى تبلور شكل هذه الدول، فهناك قبائل أدمجت فى الدول الحديثة الناشئة مثل سورية والعراق وفلسطين، وأصبحت جزءاً من المجتمع المستقر الحضرى



وسط فلسطين. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المؤلف قد استعمل التعابير التوراتية فى تسمية بعض المناطق الفلسطينية فمثلاً يسمى صحراء يهودا، ويقصد صحراء الخليل، وقد أشرت فى الهوامش إلى التسمية العربية الفلسطينية لتلك المناطق المختصة بالقسم الفلسطينى الذى لم يهود، ولم تفته الإشارة إلى موضوع الدور الصهيونى فى فلسطين.

بعد المقدمة التاريخية التى ابتدأت من العصر القديم إلى العصر الحديث عن فلسطين وجغرافيتها، تناول أوبنهايم القبائل الفلسطينية، والأحداث التاريخية التى حدثت فى القرنين الأخيرين، فقد بدأ بقبائل شمال فلسطين ثم عرج على قبائل أريحا والساحل، ومن ثم تحدث عن قبائل الداخل من الشمالنه، والكعابنة، والمساعيد، والرشايدة إلى القبائل المجاورة لسيناء، كالتياها وغيرها من القبائل والعشائر.

ويتناول القسم الثانى: سيناء حيث سار المؤلف على النسق نفسه من حيث السرد التاريخى والوصف الجغرافى للمنطقة، ثم متناولاً القبائل الساكنة فيه، وعلاقاتها مع بعض القبائل المصرية حيث يثبت انتقال بعض القبائل من مصر إلى سيناء والأردن كحال الحويطات. ومن القبائل التى يتناولها فى البحث الترابين والسواركة والجبالية والتياها، وغيرها.

وفى القسم الثالث: تناول المؤلف إمارة شرق الأردن وسار على النسق نفسه من حيث السرد التاريخى والوصف الجغرافى للمنطقة، متحدثاً عن القبائل الساكنة فيه ومنها سرحان وبنو خالد والعدوان وقبائل الكرك والعمرو والشوبك وغيرها.

ثم تناول المؤلف فى القسم الرابع الحجاز وبحث فى الجانب التاريخى، وتأثير الإسلام فى هذا الإقليم، ودور قريش، ومن ثم دور الأشراف فيه والصراعات التى حدثت فى تاريخ المنطقة، مشيراً بتفصيل إلى القبائل البدوية كهذيل، وحرب، وعنزة، وبنى فهيم، وعدوان، وحرب وبنو عطية.

وأما الجزء الثالث (المجلد الثالث): صدر باللغة الألمانية عام ١٩٥٣م فقد تولى مسئولية الإشراف عليه بعد موت المؤلف مساعده كاسكل وحده وهنا نجد أنَّ الكتاب تضمن بعض المعلومات التى كانت غير متوافرة فى حياة أوبنهايم، وقد شمل منطقة شمال ووسط الجزيرة العربية وتشمل (نجد والكويت، وقطر، والحسا، والإمارات والبحرين)، وقد سار على النسق نفسه من حيث السرد التاريخى والسياسى والوصف الجغرافى للمنطقة، وينقسم هذا الجزء إلى قسمين: القسم الأول: يتناول شمال ووسط وشرق الجزيرة العربية، حيث تتجلى البداوة بأجلى صورها، عند شمر، وحرب، وضفير، والدواسر، وبنى خالد، وبنى هاجر.

و الثانى يتناول: العراق «العراق الجنوبى».

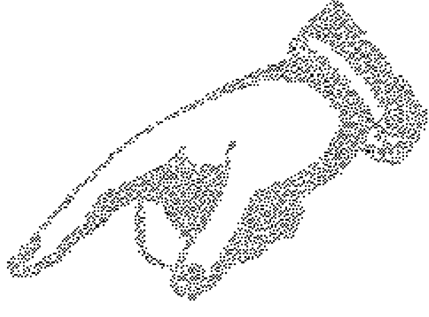
حيث يشكل هذا القسم ثلثى الكتاب لكونه يشمل منطقة ذات كثافة سكانية عالية قياساً إلى كل الأجزاء التى يتناولها الكاتب قبائل وعشائر العراق «العراق الجنوبى»، مثل عقيل، وخفاجة، والجبور، والحميدات، والخزاعل، وفتلة، وبنى تميم، وغيرها من القبائل والعشائر الصغيرة والكبيرة.

وصدر الجزء الرابع (المجلد الرابع): باللغة الألمانية عام ١٩٦٦م حيث سار المؤلف على النسق نفسه من حيث السرد التاريخى والوصف الجغرافى للمنطقة، لكن فى القسم الثانى من هذا الجزء سلط الضوء على نواح مهمة فى فهم النظرة الاجتماعية الدونية لعشائر هتيم وصلبة والخضير.. ولا بد من الإشارة إلى أن الفصل الثانى والثالث من هذا الجزء يختلف عن الأجزاء الأخرى من الكتاب فى معالجة جغرافية القبائل والعشائر «هتيم، شرارات، حوازم، صلبة، والخضير» ويعالجها ليس ضمن التقسيم الجغرافى الذى اتبعه فى معالجة القبائل والعشائر فى أجزاء الكتاب الأخرى بل عالجها بشكل وحدة واحدة. أى عندما يتحدث عن هتيم فيتحدث عن هتيم العراق، وشمال الجزيرة، والحجاز، وهكذا عن صلبه. وقد استعمل المؤلف كلمة غير أصلاء. أما البروفيسور كاسكل (معد ومنقح الكتاب) فقد استبدل كلمة «غير أصلاء» بكلمة المنبوذين، أى الباريا، وقال إنه يجدها أكثر تعبيراً من كلمة «غير أصلاء».

وفى المجلد الخامس من الكتاب وضع المؤلف مشجرات أنساب وخرائط جغرافية فى كل جزء، تبين مكان انتقال وانتشار وتواجد القبائل التى هى موضوع البحث حيث قمنا بجمع هذه الخرائط، وقسم من مشجرات الأنساب فى هذا المجلد.

كما عمدتُ لرسم مشجرات الأنساب لعدد من القبائل معتمداً بالأساس على مادة الكتاب بالإضافة إلى بعض المصادر الأخرى لأنَّ وجود هذه المشجرات، والخرائط فى الكتاب يضيف مادة أخرى إلى هذا العمل الكبير. ■

كتاب الزاوية



يحيى حقى

كناسة الدكان

كان احتفال البيت كله - الأب والأم والأولاد والصغار - بزجل جديد لبيرم - بالعامية - لا يقل - وهم من عشاق الفصحى - عن احتفالهم بقصيدة جديدة لشوقى. وصول الصحيفة اليومية التى نشرت القصيدة - بالتشكيل - فى صفحتها الأولى (فلشعر شوقى دون بقية الشعراء مكان الصدارة مهما كانت الحوادث والأخبار)، أو المجلة الأسبوعية التى نشرت الزجل - بدون تشكيل طبعًا - فى صفحة داخلية (لم تكن الصحف اليومية تنشر بعد شيئًا بالعامية. تركتها لبعض المجلات، فعصر صلاح جاهين كان لا يزال فى عالم الغيب) يا لها من لحظة مضيئة فى حياتهم. إنهم تربوا على حب الكلمة، سواء مكتوبة، سواء منطوقة، والإعجاب بقدرتها حين تنزل منزلها الحق والمبتكر معًا على إمتاع الذهن والروح معًا.

الأيدى تتخاطف الصحيفة أو المجلة والحجة إما مقام الكبير أو دلال الصغير، خطف يعرض الورق للتمزق، ولكنه خطف فى نطاق الود لا العداء. فهو مصحوب بالضحك والمعابثة. إن كان هناك غضب عند الهزيمة، فهو مصطنع، سريع الزوال، ينتهى بالمهادنة. لا يكفيهم أن يقرأها كل منهم بعينه، ولنفسه بنفسه، لابد لهم بعد ذلك أن يتحلقوا حول من هو بينهم أكثرهم تمكنـًا من اللغة وإجادة للإلقاء وهيامًا بالشعر إلى حد أن تأخذه الجلالة، ليتلو النص عليهم ملتزمًا نغمة الإنشاد وحركة الخطيب، لتشترك الأذن أيضًا فى المتعة.

من الباقورى وحسن البنا إلى «الهيب هوب» و«الراب»

دقات الدف الإسلامية

تدريجيًا أخذ النشيد (الإخوانى أو الوهابى كما يصنفه البعض) مكانه فى العديد من المناسبات فى مصر. من التجمعات النقابية والطلابية، وحتى الاحتفال بالزفاف أو قدوم مولود جديد فى العديد من شرائح المجتمع وخاصة الطبقة الوسطى. ورغم التاريخ الطويل لهذه النوعية من الأغنيات، وانتشارها الملحوظ فى السنوات الأخيرة من القرن الفائت. إلا أن ندرة الدراسات الاجتماعية أو النقدية التى تتعرض للظاهرة، وتلاحظ تطورها اللافت، أو تعمد إلى تحليل مضمونها الإعلامى كان ملحوظًا أيضًا.

فى هذه الدراسة التى عكف عليها باحثان فرنسى ومصرى إطلالة على هذا التاريخ الطويل من المحاولات الأولى للباقورى وعبد الحكيم عابدين والبنا وحتى أغنيات «البوب» الإسلامية.. حسب تصنيف منشديها وكثير من مستمعيها.

المحـــرر

حسام تمام وباتريك هانى

■■ كان حسن البنا مؤسس الإخوان المسلمين أول قائد إسلامى حديث يلجأ إلى الأغنية. لقد كان البنا ابنا لحقبة تؤمن بالفنون الاجتماعية، وتعتبرها

بترتيب مع:
مجلة القرن العشرين «الفرنسية»
وهى فصلية محكمة عدد يونيو ٢٠٠٤

ترجمة: يسرا زهران

وسيلة لتحريك وبلورة الميول السياسية. وشكل انخراطه فى الصوفية رؤيته للموسيقى، وبدا أن البنا يسعى إلى نوع جديد من الفن هو ما أطلق عليه اسم «الفن الهادف»، ومن ذلك المنظور، أدخل البنا العديد من صور التعبير الفنى فى برامج تشكيل كوادر حركته، وعلى رأسها الأغانى الدينية و«الاسكتش»، ثم المسرح الإسلامى الذى أسسه شقيقه عبدالرحمن.

كان ذلك فى فترة لم تكن السلفية قد أعلنت عن وجودها بعد فى صفوف الإخوان، وكان للنساء وجود ملحوظ ليس فى صفوف الحركة فقط بل وعلى خشبة المسرح الإخوانى، لا سيما نجمة المسرح الشهيرة آنذاك «فاطمة رشدى» التى عملت فى مسرح الإخوان!.

إذن، كان النشيد حتى ذلك الحين يتبع حركة اجتماعية فى طور التشكيل، وبذلك كان معتمدا كلية على السياسة:

كلماته نضالية، كتبها الشيخ احمد حسن الباقورى، بعضها الآخر كان يكتبه عبد الحكيم عابدين زوج أخت المؤسس. لقد كان النشيد مصاحبا للتظاهرات والتجمعات فى المناسبات والاحتفالات الدينية مثل مولد النبى والعام الهجرى الجديد والعيد، فى تلك الأوقات كان الأفراد جميعهم ينصهرون فى حركة موحدة، يدا بيد، يرفعون أيديهم نحو السماء أثناء التظاهرات.



فى جميع الأحوال، فإننا إذا أردنا البحث عن جذور صوفية عامة فى مفهوم «النشيد» لوجدنا أولا أن محتوى الكلمات نفسه كان جديدا، بلا علاقة حقيقية مع الأشكال الموسيقية التقليدية، وتلك كانت بداية تسييس النشيد، صحيح أنه من الممكن أن نجد علاقة بينه وبين النشيد الصوفى إلا أننا نجد بالمقابل عدة فوارق بينهما، يتمثل أولها فى إخضاع النشيد للسياسة ووضوح الإيقاع فى موسيقى النشيد الذى تصاحبه عدة آلات موسيقية، كى يمثل النشيد فى النهاية منتصف الطريق بين النشيد القومى والمارش العسكرى.

وعليه صار النشيد الذى كتبه الباقورى والذى يحمل اسم «يا رسول الله» أقرب إلى النشيد الرئيسى للإخوان وتقول كلماته:

«يا رسول الله هل يرضيك أنا
إخوة فى الله بالإسلام قمنا
ننفض اليوم غبار النوم عنا
لا نهاب الموت بل نتمنى
أن يرانا الله فى ساح الفداء
....
أشعلت دعوة الإخوان فينا
روح آباء كرام فاتحينا
أسعدوا العالم بالإسلام حينا
فاستجبنا للمعالى ثائرينا
وتسابقنا إلى حمل اللواء
....
إن نفسا ترتضى الإسلام دينا
ثم ترضى بعده أن تستكينا
أو ترى الإسلام فى أرض مهينا
لن تكون فى عداد المسلمين الأوفياء

وبدا أن ساعة المواجهة قد حانت، وتظهر القناعة التامة بقرب النصر فى نشيد الكتائب الذى كتبه زوج أخت حسن البنا، وتقول كلماته:

هو الحق يحشد أجناده
ويعتد للموقف الفاصل

قصفوا الكتائب أساده
ودكوا دولة الباطل
إلى النصر في الموقف الفاصل



مأساة أعوام الرصاص

لكن ليلة النصر الفاصل الموعودة لم تأت أبدا، بل أتت بدلا منها سنوات الرصاص تحت حكم عبد الناصر. والتي شهدت انتقال الجماعة إلى السرية مما أعاق نمو الحركة الفنية للإخوان. وظل النشيد حبيسا وراء القضبان، وفي الوقت الذي كان نشيد أعوام الثلاثينيات والأربعينيات محملا بتفاؤل البدايات الأولى، صار النشيد في الخمسينيات والستينيات محملا بالمأساوية. في تلك المرحلة بزغت أسماء سيد قطب، أبو الأصولية الإسلامية في مصر، وهاشم الرفاعي، الذي كان طالبا بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة واغتيل في ظروف لم يتم الكشف عنها بوضوح إلى اليوم.

كان هاشم قريبا من الإخوان المسلمين ولكن دون أن يكون واحدا منهم وكان ينشد ألم ويأس المرحلة في كلمات قصيدته «أبتاه»:

أبتاه ماذا قد يخط بناني
والحبل والجلاد منتظراني
هذا الكتاب من زنزانة
مقرورة صخرية الجدران
لم تبق إلا ليلة أحيا بها
وأحس أن ظلامها أكفاني

نلاحظ أن نبرة النشيد ليست وحدها هي التي تغيرت، بل تغير معها محتواه نفسه. في زمن حسن البنا كانت المواضيع المسيطرة عليه هي بذل الجهد في سبيل الخير وتوحيد المسلمين أو عودة الخلافة، لكن لم تنته الخمسينيات من القرن الفائت حتى شهد النشيد تفصيلا جديدا للمفاهيم يسيطر عليه أمران: «الجهاد» بمفهومه العسكري، والثاني هو «الغربة»، ذلك الشعور بوجود منفى داخلي في قلب كل مؤمن تقي في مجتمع يبتعد عن الإسلام، وهو ذات الشعور الذي أوجد فرعا كاملا من الأدب هو أدب الغربة. والذي ارتكز على قول النبي «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء».

سعد سرور، وجمال فوزي وزكريا التوابيتي، كلها أسماء لشعراء مقربين من الإخوان، مروا جميعهم بتجربة السجن، وكتبوا حول التعذيب، والتمسك بالإيمان على الرغم من المعاناة، والحياة في ظل السجون. وبدأ الانتقال تحت قلم وكتابات سيد قطب من مجرد توصيف حال الغربة إلى تعظيم فكرة العزلة عن المجتمعات الجاهلة، أو ما يطلق عليه اسم «العزلة الشعورية»، وهو ما ظهر في نشيد سيد قطب الذي يحمل اسم «الغرباء»:

«غرباء ولغير الله لا تحني الجباه
غرباء وارتضيناها شعارا للحياة
إن تسل عنا فإنا لا نبالي بالطغاة
نحن جند الله دربنا درب الأباة

وكان طبيعيا أن تؤكد أناشيد أيامها على الصبر والحفاظ على المبادئ والمثل العليا في زمن الضعف، كما يبدو في نشيد «أخي أنت حر»:

«أخي أنت حر وراء السدود
أخي أنت حر بتلك القيود
إذا كنت بالله مستعصما
فماذا يضيرك كيد الحسود

وفي سياق مزدوج من ضعف الوجود العام للإخوان المسلمين -على الرغم من إعادة تنظيمهم بالكامل بعد خروجهم من السجون عام ١٩٧٣ -وتقاربهم مع المملكة العربية السعودية، بدأت الوهابية تفرض إيقاعها على النشيد الإسلامي : تم منع كل الأدوات الموسيقية فيما عدا الدف، وأضيفت أناشيد المناضلين السوريين الفارين من قمع النظام البعثي الوحشي للإخوان في حماة عام ١٩٨٢، إلى أناشيد سيد قطب. وظهرت السيطرة السياسية والعسكرية الأصولية بعنف على النشيد على يد منشدي هذه الفترة البارزين أبو مازن وأبو راتب وموسى مصطفى، وولدت نشيدا مثل «المجد القادم» الذي ينشد على خلفية من أصوات حوافر الخيول وهي تضرب الأرض، أو نشيد مثل «ثوار..ثوار» الذي يهدر ب:

«ثوار..ثوار
سيف ومصحف يا أحرار
لازم نصبر مهما طال
ويعون الرب الجبار
بعد الليل نهار...»

ما أن انتصفت السبعينيات حتى صارت الحركة الإسلامية من جديد تحت لواء الإخوان، متواجدة في كل مكان: في الاتحادات الطلابية والنقابات المهنية والمجالس المحلية والبرلمان.. كانوا ينظمون المؤتمرات والاحتفالات والمظاهرات والصلوات العامة للاحتفال بالعيد في الخلاء، وظهر جيل جديد لم يعان من ويلات السجون، يسعى للخروج من «ثقافة السرية» التي كانت تسيطر على الأجيال السابقة عليه، كي يبدأ في مد مشروع الأسلمة إلى خارج المحيط السياسي.

تضاعفت التجمعات الإخوانية، وصارت الأناشيد مصاحبة لها باستمرار، وراحت فرق الأغاني تتشكل ما بين القاهرة والإسكندرية: تأسست فرقة الهدى عام ١٩٨٩.. تبعتها فرق الفتح والندى وزهرة المدائن.. في بداية التسعينيات، وانتشرت مهنة جديدة في مصر، هي مهنة المنشد الذي يشدو بالأغنيات الدينية، واتجه رجال مقربون من الإخوان أو ينتمون إليهم إلى هذا اللون الغنائي الجديد، لون الدعوة بالغناء.

ولعب عامل آخر دورا في ذلك، هو عامل المهرجانات الموسيقية التي أقيمت بهدف دعم القضية الفلسطينية، وكانت قد بدأت منذ عام ١٩٨٧ تحت إشراف الإخوان المسلمين الفلسطينيين، كان هؤلاء يتزايدون في بلاد الخليج وخاصة الكويت «ذات التواجد الفلسطيني الكثيف وقتها» انطلاقا من الفرق القريبة بشكل عام من حماس، وهي فرق شديدة الميل نحو العسكرية وبعيدة عن السلفية في آن واحد. وهو ما سمح بالآلات الموسيقية في بلاد الخليج في الوقت الذي كان الضغط السلفي في مصر يمنع أن يصاحب الغناء أي آلة موسيقية باستثناء الدف!. ومنذ عام ١٩٨٩ ومع انفتاح سوق الكاسيت، وجدت حركة مهرجانات الأناشيد لدعم الانتفاضة صدى كبيرا في مصر، وأعادت تشكيل نفسها تحت إشراف الإخوان في الجامعات، خاصة في جامعة الإسكندرية. وظلت تلك المهرجانات تقام كتقليد سنوي هناك حتى عام ١٩٩٣ عندما بدأت ضربات النظام تتوالى على الإخوان.

ثم كان العامل الثالث الذي ساهم في تحويل هذه الفرق إلى الشكل المؤسسي واستقلالها عن السياسة، وهو التوجيه الذي أطلقته المكاتب الإدارية للإخوان في المحافظات خاصة القاهرة والإسكندرية وأعطى لهذه الفرق الحق في أن تستقل بعيدا عن الرقابة التنظيمية المباشرة من الجماعة، وهو ما أتاح لها أن تنمي نفسها خارج نطاق سيطرة الإخوان، ودون أن تلزم نفسها بقواعد الدعوة الكلاسيكية.

وبذلك، وبدءا من العام ١٩٩٢، تحررت فرق النشيد من السيطرة الأيديولوجية للإخوان، وبدأت تبتعد به عن السياسة، ومنذ ذلك الحين صار منطق العرض والطلب هو الذي يحكم تطور النشيد، وليس مشاكل السياسة أو علاقة الإخوان بالسلطة. لقد بدأ النشيد يخضع بوضوح لآليات السوق.

من الجامعة إلى فنادق الخمس نجوم

ولنتأمل حالة فرقة «الهدى»..لقد ظهرت تلك الفرقة في إطار مهرجانات الأناشيد لدعم الانتفاضة الفلسطينية... أشرف على تأسيسها الشيخ عباس السيسي عام ١٩٨٩، وهو أول عسكري ينضم إلى جماعة الإخوان المسلمين في عهد الملك فاروق، وكان وراء تأسيسها فعليا عمرو أبو خليل، الناشط الكبير في الجماعة الإسلامية (الإخوان المسلمين) في جامعة الإسكندرية في الثمانينيات.

كانت الفرقة في بدايتها مكونة من أعضاء اللجنة الفنية للإخوان، وهي مؤسسة تتولى مهمة إدارة كل صور التعبير عن آراء الإخوان، بما فيها الشعارات في المظاهرات والاسكتشات المسرحية في الجامعات وكلمات الأناشيد، كان عدد أعضاء الجماعة يتراوح بين سبعة أو ثمانية أفراد، معظمهم من طلاب جامعة الإسكندرية، نشطت في أول الأمر في المجالات الكلاسيكية للحركة الإسلامية مثل المؤتمرات والمظاهرات والاحتفالات الدينية... ثم بدأوا كذلك في إحياء الأفراح على الرغم من الجناح السلفي في الحركة الذي يقبل بصعوبة صياغة الإسلام في كلمات الأغاني ويقبل بصعوبة اكثر تحصيل عائد منها.

بدأ الزواج الإسلامي يفرض نفسه في قلب البرجوازية المسلمة، وراحت فنادق الخمس نجوم ونادي سموحة نادي البورجوازية الراقي يقدمون عروضا لمثل هذا النوع من الزواج الذي يحتفظ بملامح إسلامية في الجانب والمظهر الأخلاقي أكثر من احتفاظه بها في الممارسات الدينية المحددة.

(يلاحظ أنه في الإسكندرية يرفض

فندق الشيراتون وحده إقامة مثل هذا النوع من الأفراح الذى يصر على عدم الاختلاط بين الرجال والنساء)

وبدأت الهدى تدخل بعدها إلى سوق الكاسيت، فى البداية، كانت تغنى فى الأفراح وتقوم ببيع شرائطها إلى المدعوين، وبعدها راحت المكتبات الإسلامية تنشر هذه الشرائط، ثم جاء دور المساجد، وأخيرا قامت الفرقة بتسجيل سلسلة من شرائط الكاسيت فى الاستديو تحمل اسم «أفراح الهدى».

لقد صمدت الهدى فى وجه الضغوط السلفية التى كانت قوية داخل جماعة الإخوان فى منتصف التسعينيات، وساعدها على ذلك أنها كانت فى ذلك الحين قد استقلت بما يكفى عن الإخوان المسلمين بحيث لا يتم التعامل معها باعتبارها منهم... ومن ثم فقد راحت «الهدى» تستخدم كل الآلات الموسيقية فى أدائها ضاربة عرض الحائط بكل الآراء السلفية، لتنتج ألحانا تتأرجح ما بين الإيقاع الشبابى والشعبى. أما محتوى الأغنيات نفسه، فبدا اكثر نعومة وتلاشت النداءات الثورية منه.

ثم ظهر الجيل الثانى من الفرقة فى نهاية التسعينيات: جيل اكثر احترافا، وقريب كذلك من الإخوان المسلمين، أدار ظهره للسياسة، وفتح ذراعيه للرومانسية، مما دفع الفرقة تدريجيا باتجاه ثقافة الغناء الشعبى الذى كانت السلفية تحاربه لأكثر من ربع قرن.. وبدا ذلك فى شريطها الأخير «من أفراح الهدى» الذى يحمل طابعا شعريا غير ثورى، ويضم أغنيات مثل «عصافير الجنة» «وبلبل الأفراح» و«حور الجنة»!

وتبدو قصة فرقة الهدى متشابهة إلى حد ما مع قصة فرقة البنات التى حملت اسم «سندس» نسبة إلى الحرير الذى تصنع منه ملابس أهل الجنة. لقد بدأ كل شىء فى قلب مجموعة من البنات الطالبات فى جامعة القاهرة، أغلبهن من طالبات كليات الهندسة والطب. كن ينظمن حفلات فى الجامعة للفتيات قبيل الزواج بهدف «إدخال البهجة على قلب الفتاة التى تنوى الزواج» كما تروى رحاب سلامة المسئولة عن المجموعة.

وفى نهاية التسعينيات بدأ الطلب يتزايد على الفرقة لإحياء أمسيات خارج نطاق الجامعة. هنا طرحت مسائل الاحتراف والمكاسب المادية المتحققة للمناقشة، وارتضت الفرقة فى البداية أن تنال مقابلا من الجوائز الرمزية التى تخصصها فقط لتغطية مصاريف التشغيل دون الحصول على أية عوائد أو رواتب إضافية لعضواتها. الأمر الذى أتاح



لهن تحسين نوعية آلاتهن الموسيقية، وابتكرن لأنفسهن زيا موحدا ثم اخترن الاسم فى النهاية : سندس.

وبذلك تشكلت أول فرقة «موسيقى إسلامية» للنساء، وأمام الانتقادات التى وجهتها إليها الفرق النسائية الأخرى، والتى اعتبرت الحصول على مكاسب مادية أمرا يتناقض مع الدعوة، قالت رحاب سلامة: «هل من الضرورى أن يكون كل مشروع إسلامى مشروعا خيريا؟ وهل الإسلام يعارض الربح؟»..

الواقع أن نجاح هذه الفرقة قد صعد بها حتى فنادق الخمس نجوم، وفى الصيف كن يقدمن خمسة عروض أسبوعيا (بدءا بليالى الحناء ومرورا بحفلات الخطبة وحتى احتفالات الحجاب) وهو ما دفعهن لاستخدام الأورج الكهربائى بعد أن صارت الطبول مجهدة بالنسبة لهن، ولنفس السبب بدأن فى استخدام مكبرات الصوت.

لقد أدت مضاعفة أعداد الكوادر والانفتاح المطرد للفرقة على جمهور جديد، إلى أن تقوم الفرقة بتنويع اجندتها فى إطار السياق المحدود الذى تمنحه الأناشيد الإسلامية، والتى لا يوجد بينها ما هو موجه للمرأة. بالتالى وجدت الفرقة أنها مضطرة إلى تركيب كلمات إسلامية على الأغنيات العربية الكلاسيكية الموجودة بالفعل، أو القيام بإنشاد هذه الأغنيات مع حذف المقاطع «غير الملائمة دينيا» منها. وهو ما قامت به المجموعة بالفعل فى ألبومها الأول الذى حمل اسم «زى البنات»، وهو اسم لأغنية شهيرة كتبها المطرب الشهير سيد درويش وكان أبرز أشهر من غناها ممثلة الإغراء مها صبرى فى ثلاثية نجيب محفوظ!

من النشيد إلى الأغنية الإسلامية

فرض النشيد نفسه، بوصفه شكلا موسيقيا جديدا، كعلامة مميزة لديناميات التحول إلى الأسطمة، لقد تمت إعادة اكتشاف النشيد من جديد ليصبح عنصرا فى الحركة الثورية وفى السلفية المتخيلة وفى أزمة الهوية، كل ذلك فى آن واحد، كان النشيد هو ما ظهر على الساحة الموسيقية (هناك أكثر من ٥٠ فرقة تتقاسم السوق فى مصر) وصاحبه الحجاب على ساحة الأزياء، وموائد الرحمن فى مجالات الخير. وأخيرا الدعاة الجدد.

كلها علامات مميزة للتحول إلى الأسلمة التى صارت تدخل فى فكر عام خال من التوجهات السياسية فى التسعينيات ويكافئ نفسه بمنطق السوق وثقافة الجماهير.

كان ذلك هو «النشيد»، الذى كان لابد أن يتحول إلى «الأغنية» الإسلامية وهو الاسم الذى استقر بعد المواجهة مع المنظومة السلفية والتى بدأت مبكرا... ظهرت فرق أغان إسلامية فى سوق الكاسيت متخصصة فى إحياء الحفلات الخاصة - كالأفراح والسبوع والختان- وحملت أسماء جذابة وحالمة مثل أندلسية، زهرة الأندلس، كنوز، تغريد، السراج، الزمن الجميل، الندى، مرحبا. كانت الفرق الإسلامية متشددة عند انطلاقها، تصر على مبدأ منع الاختلاط بين الجنسين، وكانت الفرق النسائية مثل «سندس» و«زهرة البنات» لا تشدو إلا للنساء فى احتفالات خاصة بهن، وبالتالى ظلت هذه الفرق ممنوعة من دخول سوق الكاسيت (فصوت المرأة يثير الرغبة، ومن بعدها الفوضى، لذلك فهو عورة بالنسبة للرجال)، وتحايلت فتيات الفرقة على تلك العقبة بتسجيل أغانى الألبوم فى الاستديو بصوت فتاة صغيرة غير بالغة.

كان الزواج الإسلامى فى بداية الأمر يمنع الاختلاط، ثم صار بعدها احتفالا يتم فى قاعة واحدة مع التأكيد غير الصارم على شكل محترم للاختلاط: وصار ذلك معيارا للاحترام لدى البورجوازية المتدينة التى لم تكن مستعدة لتقبل الرؤية السلفية فى المنع المبدئى للاختلاط.. لقد بدا أن وحدة وتجانس التيار الإسلامى هى أول ضحية لنجاحه وانتشاره.

أما الفرق ذات التوجه التربوى التى لا تحيى الأفراح مثل الجيل، فلم تضطرها الأفراح إلى الميل نحو الشاعرية، وظلت قادرة على الالتزام بنهجها التربوى، ولكن أتاح لها تحررها من منطق الطلب المباشر المزيد من الابتكار فى حقل الموسيقى. فتمزج فرقة مثل الجيل فى ألبومها الأخير ما بين الإيقاع العربى الحديث «new age» وبين الجاز. بشكل أقرب إلى أسلوب المغنى الشهير ربيع أبو خليل، ومن المنتظر أن تعد فيديو كليب إسلامياً لأول مرة فى تاريخ الأغنية الإسلامية(*).

وهنا لا يكون لروح وأجواء أفراح الزواج دور كبير فى التطوير، إذ تصبح الكلمة العليا لقواعد الأداء الموسيقى الصرف واحترافه، فعلى سبيل المثال يمنح عازفو فرقة «النور» أنفسهم كلية للموسيقى، إذ إن الموسيقى تحتاج إلى محترفين، وهو ما يتعارض مع فكرة النضال. والمؤكد أنه فى تقييم الفرق الموجودة فى سوق الكاسيت، فإن المهارة تأتى فى المرتبة الثانية بعد الانخراط الأيديولوجى. أما الملحنون فيتم اللجوء إلى خدماتهم دون أدنى اعتبار لتوجههم أو مظهرهم الدينى، مثل حسن إش إش وياهر الحريرى وكلاهما من الملحنين المعروفين الذين يتعاملون مع المطربين الكبار.

إن «الأسلمة» لم تتلاش، لكنها تميل إلى إعادة صياغة نفسها على أسس غير سياسية، بل أخلاقية مثل السمعة والاحترام والتقوى. بمعنى أنها تستنبط من المجتمع وليس من روح الجماعات التى تكونه.

ولم تتوقف التجديدات فى المحتوى فيما يطلق عليه اسم «الأغنية الإسلامية» بل تتصاعد كلما خرجت الفرق من عباءة الوصاية المباشرة للتنظيم الإخوانى. وكانت كلاسيكيات الأناشيد النضالية هى أول ما فقد جزءاً من رونقه، فكلمات مثل «لبيك إسلام البطولة» و«ثوار» و«أنا عائد» ليوسف القرضاوى، كانت من قبل تلقى دون موسيقى، ثم تم تركيبها على موسيقى ذات إيقاع هجومى، تماما مثل أى أغنية ثورية.. ولكن مع التطور الأخير لانت النبرة التى تشدو بها حناجر أعضاء فرق الغناء الجديدة مثل فرق الجيل وكنوز.

أطلقت فرقة كنوز سلسلة من شرائط الكاسيت تحت اسم «بشائر النصر».. خصصتها لفلسطين وأنشدت فيها أغنيات مثل «خدوا بالكم» ظهر فيها بوضوح

تخفيف الثقافة الجماهيرية للحماس الثورى. وأعادت «كنوز» غناء نشيد «رددى يا جبال» الكلاسيكى الثورى ولكن بصوت هادئ تصاحبه الموسيقى.

فى كل شىء، بدأ محتوى النشيد يميل إلى النعومة، وبدأت الرومانسية تجد طريقها إليه (على سبيل المثال، نداء الحب لفرقة السراج)، وبدأت روح السخرية والفكاهة تتزايد، فتطلق فرقة مثل الوعد على ألبومها الأخير اسم «جوزناه وخلصنا منه»، بينما تشدو جماعة كنوز بهذا المقطع: «يا جماله يا جماله يا جماله..عريسنا تايه فى دلاله»!.

ومن الواضح أيضا تزايد التداخل بين الأغنية الإسلامية وثقافة الجماهير فى فترة التسعينيات، وتزايد معها بالمثل استخدام إيقاعات الأغانى العربية الشائعة التى يتم تركيب كلمات إسلامية عليها، فأغنية لمطرب مثل عمرو دياب يقول مطلعها: «من كام سنة وأنا ميال ميال.. وفى حبك أنا مشغول البال» أصبحت تغنى فى الاحتفالات الإسلامية بنفس الإيقاع ولكن بكلمات أخرى تقول «من كام سنة وأنا دينى الإسلام... وشريعتى أنا سنة وقرآن»!! بل وتحولت أغنية الأطفال الشعبية «بابا فين» إلى أغنية إسلامية تقول: «المسلم فين»، وأعادت زهرة الأندلس غناء أغنية «على دا العودة» وهى أغنية شامية مشهورة غنتها المطربة اللبنانية صباح بتوزيع جديد، بينما يتم الإعداد الآن لوضع أغنية المطربة الشابة شيرين «جرح تانى» فى قالب إسلامى!.

فى أغانى أو زفة الأفراح التقليدية، كانت تتم الإشادة بأسماء الشخصيات الهامة من الحضور أو أبناء الحى وأقارب العروسين. وقد اتبعت الأغانى الإسلامية نفس التقليد ولكن تم محو هذه الأسماء كى يحل محلها أسماء الرموز الإسلامية الكبرى :

«إحنا الإخوان..ما فينا جبان
إخوان البنا..الموت نتمنى
منا الفرغلى..أبدا ما يولى
والتلمسانى.. راجل ربانى
والزعفرانى.. من الجيل التانى»

والفرغلى - أو محمد فرغلى- قيادة تاريخية حكم عليها بالإعدام أيام عبد الناصر، وعمر التلمسانى هو المرشد الثالث، أما إبراهيم الزعفرانى فهو قيادة سكندرية وسيطة.

وهكذا بدأ نوع جديد من الغناء يتشكل على جبهة النشيد الإسلامى والثقافة الجماهيرية، هذا النوع هو ما يطلق عليه اسم «الأغنية الشعبية الإسلامية»، ويستعير أسلوبه من أجندات مختلفة، بدءا من الأناشيد التقليدية، ومرورا بالجاز وحتى إعادة صياغة للبوب المصرى أو الموسيقى الشبابية التى بدأت من جانبها تميل شيئا فشيئا إلى التدين.



وفى الوقت الذى تسيطر السياسة على اهتمامات العالم كله أثناء الانتفاضة، نجد للأمر نكهة مختلفة عند فرق الأغانى الإسلامية: فالاهتمام بقضايا السياسة يتم فى إطار ثقافة جماهيرية منفتحة. تنزع فيه السياسة من الأغنية لا باختفاء الموضوعات السياسية من عناوينها وكلماتها وإنما بتعميم الأسلوب الذى يتم به تناول السياسة. بمعنى آخر: فإننا نعود من جديد إلى صورة من القومية العربية التى تحمل لمسة دينية للعالم أجمع، تمتزج فيها كل الإرهاصات، إلى الحد الذى يجعل فرقة عتيدة من فرق الإخوان المسلمين الغنائية مثل الجيل، تستعير لحن أغنية للمغنية اللبنانية جوليا بطرس المسيحية الأصل تحمل اسم «قاطع» لأنها تدعو إلى مقاطعة البضائع الإسرائيلية.

ومع تضاعف شعبية الأغنية- النشيد، الذى امتد خارج الدوائر الإسلامية بمعناها الحرفى، صار محتوى وموسيقى أغنياته اكثر عمومية، وبدأ مطربو «البوب» العرب «ينشدون»، فأعلن عمرو دياب عن نشيده الصوفى الأول (يا رسول الله يا محمد)، وسجل محمد فؤاد أنشودته فى المدح الدينى مثل «الحق»، وسجل مصطفى قمر أول دعاء له يحمل اسم «الرحماء»، أما محمد الحلو فقد غنى أغنية «صرخة ميلاد» عن فلسطين التى احتلت أولوية كبيرة حتى خصص لها ألبوم كامل باسم «القدس تصرخ» ضم عددا من الأغنيات ذات الطابع الدينى. كما صدر ألبوم متنوع (كوكتيل) يضم ١٢ أغنية دينية لكبار المطربين المصريين، مثل: محمد رشدى، وعلى الحجار، ومحمد ثروت، وهانى شاكر.

أما محمد منير أشهر نجوم الغناء المصريين فقد خصص ألبومه قبل الأخير «الأرض السلام» بأكمله للمدائح الصوفية مستلهما تراث كل من الطائفتين الشاذلية والميرغنية. وكلتاهما متأصلة فى النوبة، بلده الأصلى، وكان ذلك الألبوم هو أيضا ما أتاح لمنير أن ينال شعبية واسعة فى الغرب، إذ كان أول ألبوم يسجله هناك. فوضعته رسالة «الحوار الثقافى والدعوة لإسلام سلمى» فى قلب الأحداث العالمية المتلاحقة والتى يمثل فيها الاهتمام بالإسلام قاسما مشتركا.

وبذلك تمت إعادة تشكيل النشيد فى قلب حركة إسلامية سلفية لكنها فى طور الانفتاح من جديد على الثقافة المحيطة ممثلة فى الغناء العربى، وصار النشيد (الإسلامى سابقا) متأصلا بقوة فى الثقافة الجماهيرية التى تميل إلى التعددية أكثر من الإسلامية، حيث يحتل الإسلام مكانه بين الثقافات الشابة الأخرى دون أن يلغيها كلية، ومرة أخرى بدا أن امتداد الأسلمة يأتى على حساب الإسلاميين، لأنه يبتعد عن السلفية المتخيلة، وعن السياسة من بعدها.

تظل «الأصولية الجديدة»، من دون شك سواء فى صورتها العسكرية أو السلمية هى الطريق الملكى للخروج عن الحركات القومية الإسلامية. فهى تقترح إسلاما عالميا، نموذجا صالحا للتطبيق فى كل زمان ومكان لأنه لا يضرب بجذوره فى مكان محدد، كما أنه يتكيف مع ظروف العولمة، بالتالى فهو يعارض الثقافات المحلية باسم عالمية المرجعية الدينية.

هناك عدة وسائل للخروج من الإسلام السياسى مع البقاء داخل إطار الإسلام، والانخراط فى ديناميات العولمة. وربما تعد إعادة صياغة الأسلمة عبر الثقافة الجماهيرية إحدى هذه الوسائل. لقد أوضحت تلك النبذة القصيرة عن تاريخ النشيد الإسلامى سابقا كيف يمكن أن تستقل أجندة إسلامية استخدمها الإخوان المسلمون كأداة فى المواجهة السياسية، عن إطار المنظومة السلفية؛ إذ إن فكرة الهواية والجمال تتعارضان ولا شك مع السلفية.

وتفرض الثقافة نفسها من جديد على هوامش ديناميه الأسلمة التى وقفت كثيرا ضدها، فالإسلام العالمى وأثيرته السلفية يتعارضان مع التقاليد المحلية بزعم ابتعادها عن حقائق الكتلة الفكرية المعروفة، فى الوقت نفسه فإن هذه الثقافة ليست الثقافة التقليدية التى ترفضها السلفية، بل هى ثقافة شابة تحيا بإيقاع عصرها، فوجود الموسيقى العربية الكلاسيكية يكاد يكون منعدما فى الاستخدامات المختلفة لفرق النشيد، إذ يتم الاعتماد على عمرو دياب وشيرين.. ونجوم الغناء الشبابى العربى، ولكن دون أن تكون هناك نسخة إسلامية من أغانى أم كلثوم مثلا. هذه هى الثقافة الجماهيرية المعارضة للثقافة الكلاسيكية، أى الثقافات الفرعية للشباب الذين يتعايشون مع العولمة ويقبلون التعددية.

لقد أثبت النشيد قدرته على إرساء قواعده من جديد فى مختلف الثقافات الشابة.فهو فى أمريكا مثلا يضرب بجذوره فى موسيقى الهيب هوب، ويستخدمها كتعبير عن الاعتناق الجديد للدين، وكأحد عناصر ثقافة جديدة سوداء تعيد تشكيل نفسها حول الإسلام. وفى جنوب شرق آسيا يتلامس النشيد مع إرهاصات موسيقى العصر الجديد أو new age مع أسماء لفرق مثل «ريحان» و«قطر الندى»، وعلى أنغام موسيقى الأفلام الهندية يضع روما ايراما، مطرب الروك الإندونيسى السابق، كلمات دعوته. وفى هولندا فان فرقة الهدى التى كونها عدد من المهاجرين المغاربة قد استخدمت موسيقى الروك لتعبر بها عن نفسها. بينما ينطلق الراب الإسلامى فى فرنسا من الضواحى على يد الشعراء الأفريقيين الجدد على سبيل المثال، وهم المدافعون القدامى عن الاتحاد بين المؤسسات الإسلامية فى فرنسا والذين ابتعدوا اليوم عن أرضية السياسة الزلقة.

بعبارات أخرى، فإن الثقافة التى ترسى دوافع الأسلمة فى كل مكان، وفى كل الوقائع المحلية، تشهد هذه المرة، ليس على فشل الإسلام السياسى، وإنما على فشل العالمية السلفية التى تصف نفسها بأنها محاولة إرساء دعائم إسلام بلا وطن وبلا ارض على حد تعبير الباحث الفرنسى أوليفيه روا. ■

(●) صدر بعد الدراسة لأول مرة فيديو كليب إسلامى (المعلم) للمطرب البريطانى سامى يوسف تبثه الفضائيات العربية والتلفزيون المصرى باستمرار).





نايل محمد شامة



صيغت كتب المرحلة الأولى بشكل شديد العنصرية فالعربي لا يتم تناوله إلا في صورة الإرهابي القاتل الغشاش اللص وكل أعماله لا تخرج عن نطاق القتل والذبح والعدوان. والعربي كذلك هو المكافئ العصري لألد أعداء اليهود في الكتاب المقدس



زرع الأكاذيب.. وحصد الكراهية

للكلمة المطبوعة سلطة طاغية، فبفضل فصل المتكلم عن الكلام تصبغ الكلمات بصفات الحيادية والموضوعية، وترقى فوق كل مستوى للشك أو النقد. ويزداد فوق هذا تأثير الكلمات إذا كان القارئ طفلاً لم يزل عقله في طور التكوين، ولم تنضج بعد بداخله ملكات التفكير السليم والتحليل الموضوعي والنقد البناء. الكتب للطفل إذن أشبه بالنصوص المقدسة التي لا يجرؤ أحد على التشكيك فيها، كما يستمر تأثيرها على الأرجح مدى العمر.

من هنا جاءت أهمية الكتاب المدرسي كمدخل لفهم التركيبة الإسرائيلي للسلام في مقابل تعنت النخبة السياسية والمؤسسة العسكرية إزاء أطروحاته فإنه يبدو ضرورياً - بل وملحاً - معرفة كيف يفكر هذا الشعب، إذ كيف يمكن تصور التأثير في شعب لا نعرفه جيداً، كيف يفكر ويتصرف، ماذا يحب ويكره، نقاط القوة والضعف فيه... إلخ. ثم من باب أولى ماذا تعلم في طفولته وشبابه؟ وماذا يعرف عن حقائق الصراع العربي الإسرائيلي؟ وهل حجبت عنه بعض الحقائق التي قد تغير نظرته إلى ما يفعله المتطرفون من ساسته (مثل نتنياهو أو شارون)؟ ثم كيف يمكن استثمار التعليمي الإسرائيلي مرت بمراحل رئيسية ثلاث، بدأت الأولى مع بداية استيطان اليهود لفلسطين أوائل القرن العشرين واستمرت حتى العام ١٩٦٧م، أما الثانية فبدأت في أعقاب حرب ٦٧ واستمرت حتى منتصف الثمانينيات عندما بدأت المرحلة الثالثة والمستمرة حتى الآن.

المرحلة الأولى

لم يكن خافياً على الصهاينة الأوائل - ومنهم بن جوريون مؤسس اقترفها. يقول في هذا الصدد نافتالي زون مدير التعليم العالي في الفترة من ١٩٥٨ إلى ١٩٧٢م أن هناك فارقاً بيناً بين المؤرخ ومعلم التاريخ، فمعلم التاريخ يتوجب عليه أن يحفز طلبته على أن يحسوا بهوية شعبهم، وأن يعملوا من أجله ولا يكون هذا إلا بانتقاء الأحداث التاريخية اليهودية التي تعبر عن معاني البطولة والتضحية وتكون بالتالي قادرة على التأثير في وجدانهم فيشعرون بالانتماء إلى أمتهم ويتماثلون مع أبطالها.

لم تخصص كتب المرحلة الأولى إلا النزر اليسير للحديث عن العرب

كتب التاريخ في مدارس إسرائيل

النفسية للشعوب ومواقفها المبدئية من قضايا في غاية الأهمية كالحرب والسلام والموقف من النفس والآخر.... الخ. لذلك أيقن الكثيرون أن تغيير المناهج الدراسية كفيل بتغيير شكل المستقبل فلأن الحروب - كما أشار تقرير لليونسكو صدر في عام ١٩٨٨م - تبدأ في عقول البشر فلابد أن يتم غرس قيم السلام أيضاً في عقولهم. بنفس المنطق تحاول الإدارة الأمريكية الحالية جاهدة تغيير ما ترى أن وجوده في مناهج الدول العربية الدراسية حرى بتكرار مشهد الحادي عشر من سبتمبر، خصوصاً أن الثابت أن الكتاب الدراسي في دول العالم الثالث يعد في كثير من الأحيان الكتاب الوحيد الذي يقرأه الطالب في حياته كلها، وهو بذلك مصدر المعرفة الأوحد تقريباً.

الغريب أن الحملة المثارة - أمريكياً - لتطوير أو تعديل المناهج الدراسية العربية لم يقابلها أي حملة أو حتى اهتمام على مستوى النخب الفكرية العربية بالمناهج الدراسية الإسرائيلية وما تبثه في نفوس أطفال إسرائيل على مدى اثنى عشر عاماً دراسياً من أفكار ومفاهيم. وإذا كانت السياسة الخارجية لبعض الدول العربية - ومنها مصر - تراهن على قبول الشعب تلك المعرفة في محاولات ترمي لحذف ما في تلك المناهج من تعصب وعنصرية وتشويه للحقائق، خاصة أن شعار تغيير المناهج مطروح بالفعل على الساحة الإقليمية منذ فترة؟

في هذا السياق - واستكمالاً لدراسة أنطوان شلحت القيمة المنشورة في عدد نوفمبر ٢٠٠٣م من مجلة «وجهات نظر» عن تأثير سلاسل قصص الأطفال الإسرائيلية على نشئها - تبرز أهمية دراسة الأكاديمي الإسرائيلي ايلي بودة: الصراع العربي الإسرائيلي في المناهج الدراسية الإسرائيلية (١٩٤٨-٢٠٠٠م)، حيث يتناول فيه نظرة كتب التاريخ المدرسية في المدارس العلمانية والدينية على السواء للإسلام والعرب وجذور الصراع بين إسرائيل والدول العربية إضافة إلى الحروب العربية الإسرائيلية الأربع (٤٨-٥٦-٦٧-٧٣) كما يرصد التغييرات التي حدثت بهذه الكتب عبر عقود خمسة.

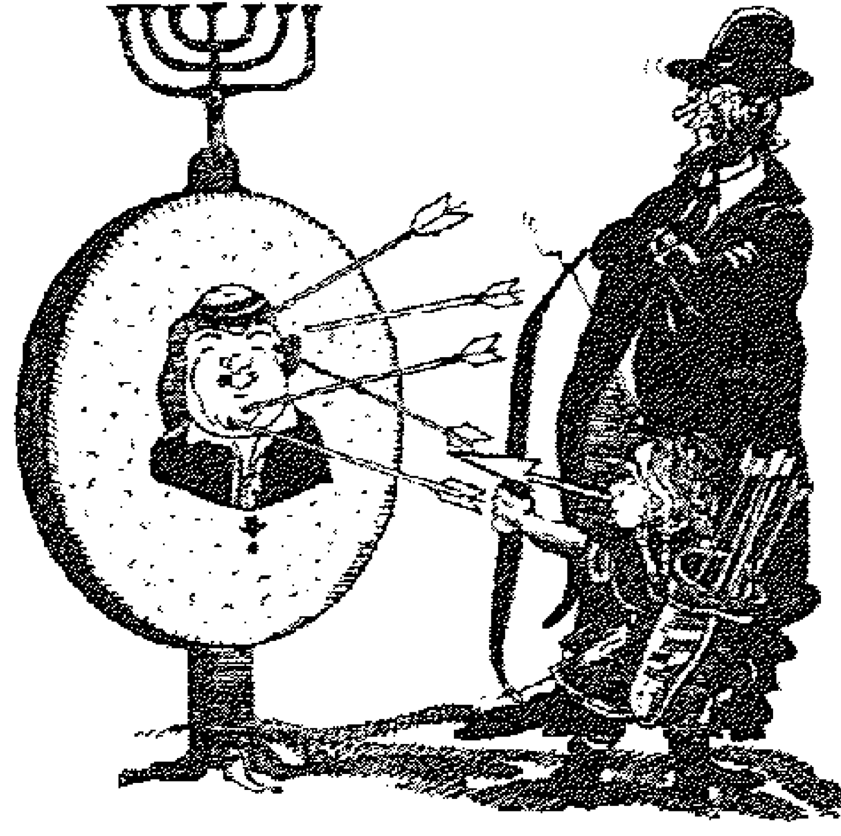
يرى بودة أن كتب التاريخ في النظام دولة إسرائيل - أهمية التعليم في عملية بناء الدولة وغرس المبادئ التي قامت عليها في نفوس أبنائها. ولأن النظام التعليمي في إسرائيل كان قائماً على المركزية الشديدة فقد سهل ذلك من مهمة توظيف الكتب المدرسية لأغراض «وطنية» بدت ملحة وقتها كزرع الانتماء والولاء للدولة الوليدة، وبالتالي خلق جيل قادر وراغب في الدفاع عنها والمشاركة في نهضتها. ولم يكن ذلك ممكناً بالطبع إلا إذا اتسقت رؤى الأبناء للماضي والحاضر مع سياسة الدولة الناشئة ومنهجها. فعلى سبيل المثال، إن أمكن إقناع الجميع بأن «الآخر» العربي هو المخطئ والمبادر بالعدوان أمكن إقناع الشعب كله بحتمية الوقوف ضده «دفاعاً عن النفس». تلك كانت مهمة كتب التاريخ الدراسية: التركيز على عظمة وتميز الشعب اليهودي وتسليط الأضواء على أمجاده التاريخية مع تجاهل تام لأي أخطاء أو تجاوزات يمكن أن يكون قد تاريخاً وثقافة ولغة. فالوقت المتاح لدراسة التاريخ العربي مثلاً لم يتجاوز ٤,١٪ من إجمالي الوقت المخصص لدراسة التاريخ اليهودي والإنساني عامة. ولم تكن دراسة اللغة العربية أوفر حظاً فلم تكن تدرس إلا في ١٠٪ فقط من المدارس اليهودية في الخمسينيات والستينيات فقد فضل معظم الآباء أن يتعلم أبناؤهم الفرنسية بدلاً من العربية التي كان ينظر إليها باعتبارها «لغة دنيا». حتى أن بعض الإسرائيليين تساءلوا عن جدوى تدريسها من الأساس باعتبار أن من يحتاج بالفعل إلى إتقانها من اليهود نتيجة لاحتكاكه المباشر بالعرب عدد ضئيل جداً، «وأن العرب في المقابل هم الذين يجب أن يتعلموا اللغة العبرية». الخلاصة أن كم المعرفة التي كان الطالب الإسرائيلي يحصلها عن العرب أو الفلسطينيين ظل ضئيلاً للغاية حتى أن رئيس تحرير جريدة إسرائيلية أسبوعية كتب متسائلاً: «ماذا نعرف عن حياة العرب الذين يعيشون بيننا؟ هل كتب أي كتاب عن هذا الموضوع؟ إننا نعرف أكثر عن الدول الاسكندنافية مما نعرف عن أولئك الذين نتعامل معهم بشكل يومي».

صيغت كتب المرحلة الأولى أيضاً بشكل شديد العنصرية فالعربي لا يتم تناوله إلا في صورة الإرهابي القاتل الغشاش اللص وكل أعماله لا تخرج عن نطاق القتل والذبح والعدوان. والعربي كذلك هو المكافئ العصري لأبي مالك، ألد أعداء اليهود في الكتاب المقدس. ولم تنكر كتب التاريخ في تلك المرحلة على العرب حقهم في أرض فلسطين فقط بل أعطت



كانت مهمة كتب التاريخ الدراسية: التركيز على عظمة وتميز الشعب اليهودي وتسليط الأضواء على أمجاده التاريخية مع تجاهل تام لأي أخطاء أو تجاوزات يمكن أن يكون قد اقترفها

The Arab-Israeli Conflict in Israeli History Textbooks, 1948-2000.
(الصراع العربي الإسرائيلي في المناهج الدراسية الإسرائيلية ١٩٤٨ - ٢٠٠٠)
Podeh, Elie
Westport: Bergin & Garvey, 2002



للطلبة اليهود الإيحاء بأن على العرب أن يشعروا بالامتنان للمشروع الصهيونى فى إسرائيل أيضا!!!! وبالتدريج فقد العربى - فى نظر طلبة إسرائيل - كل صفاته الإنسانية وتحول إلى معنى مطلق ليس له أى ملامح سوى كونه رمزاً للشر وعنواناً للكراهية. وهو ما ساعد على إضفاء الشرعية على منهج مواجهة العرب بلغة القوة واستبعاد أى تفكير فى التعايش معهم أو تحقيق السلام فى المنطقة.

المرحلتان الثانية والثالثة

مثلت حرب عام ١٩٦٧م نقطة تحول فى تاريخ نظرة التعليم الإسرائيلى لكيفية تدريس كلٍ من المبادئ الصهيونية وتاريخ ولغة العرب على حد سواء. جاء ذلك انعكاساً لتطورات ثلاثة مر بها المجتمع الإسرائيلى آنذاك. يتلخص السبب الأول فى أن احتلال الأراضى العربية وبصفة خاصة الضفة الغربية وغزة قد زادا من احتكاك اليهود بالفلسطينيين فأصبحت شخصية العربى بالتالى أقل نمطية وأكثر وضوحاً. نتيجة لذلك شعر الكثير من الإسرائيليين بالرغبة فى معرفة المزيد عن جيرانهم الذين أصبحوا أكثر قرباً عن ذى قبل وانعكس ذلك فى زيادة الإقبال على دراسة اللغة العربية حتى وصل عدد دارسيها إلى ١٠٢٠٠٠ فى المدارس الابتدائية والإعدادية و٣٠٧٥٠ فى المدارس الثانوية بحلول عام ١٩٨١م.

التطور الثانى يتعلق بالجدال الساخن الذى دار داخل إسرائيل عما إذا كان احتلال الأراضى العربية شرعياً أو مطلوباً. فالمعسكر المتشدد الذى رأى أن إسرائيل لم تحتل بل حررت ارتأى التركيز على الهوية اليهودية الصهيونية حتى يقطع الطريق على أى شكوك تتعلق بمدى شرعية الاحتفاظ بالأراضى، وكان للمناهج الدراسية نصيب من هذه المحاولات. أما التطور الثالث فيتلخص فى أن الشعب الإسرائيلى بدأ يعرف بالفعل المزيد عن العالم العربى وعن منظمة التحرير الفلسطينية والفلسطينيين من خلال وسائل الإعلام والدراسات الأكاديمية خاصة فى ظل بزوغ نجم عدد من الباحثين المهتمين بشئون الشرق الأوسط فى الجامعات الإسرائيلية. لم يكن ممكناً بالتالى استمرار تهميش كل ما يتعلق بالفلسطينيين والعرب على النحو الذى كان عليه الحال طوال المرحلة الأولى.

أسهمت حرب أكتوبر أيضاً فى تغيير العقلية الإسرائيلية وإفساح المجال لإجراء بعض التعديلات فى المناهج. قال أحد المشاركين فى أحد مؤتمرات التعليم التى عقدت فى أعقاب الحرب:

«لقد أدركت فجأة أن المدرسة لم تعلمنى كيف أعيش مع العرب. لم تعلمنى أن أراهم كبشر بل كان هناك دوماً إحساس بالاحتقار تجاههم. عندما حدثت الحرب، وقعت الصدمة. أدركت أن العربى إنسان مثلى تماماً وأن بإمكانه أن يتفوق علىّ. اثنا عشر عاماً من التعليم لم تعلمنى ذلك».

التغيير على أى حال جاء طفيفاً للغاية، وانصب الجانب الأكبر منه فى إقناع التلاميذ بحق اليهود التاريخى فى الأرض ودحض ادعاءات العرب بأحقيتهم فيها. أما الأخطاء التاريخية والتحيز الصارخ والأفكار المبتسرة والقولبة (stereotyping) فيما يتعلق بالعرب والنزاع العربى الإسرائيلى والتى حفلت بها مناهج التاريخ منذ بدايات المرحلة الأولى فلم يطرأ عليها تغيير كبير.

استمرت عملية التغيير فى المرحلة الثالثة فأضيفت موضوعات كان قد تم تجاهلها تماماً فى المراحل السابقة (كتاريخ فترة ما بعد حرب ١٩٤٨م مثلاً) كما حاولت بعض الكتب توجيه نظر الطلبة إلى أن معظم الأحداث التاريخية لا تشترط النظرة الأحادية بل تحتمل عدة رؤى مختلفة. تم أيضاً حذف جزء مما فى تلك المناهج من أخطاء تاريخية وأساطير وتجرأ بعضها فوجه النقد للصهيونية وهو ما لم يكن وارداً من قبل، إلا أنها ظلت فى العموم - برغم تلك التغييرات الإيجابية - حافلة بالكثير من التحريف والتشويه.

يبقى الحديث السابق عاماً ومطلقاً بأكثر من اللازم إن لم يتم دعمه بسرد نماذج مما ورد فى كتب التاريخ لتسليط الضوء على نظرتها تجاه الأحداث التاريخية المختلفة.

التاريخ القديم

بالغت كتب التاريخ المدرسية كثيراً فى قوة القبائل اليهودية الموجودة فى شبه جزيرة العرب فى فترة ما قبل ظهور الإسلام فادعت سيطرتهم على قبائل العرب (وهو ادعاء باطل دون شك). وكالعادة وصفت قبائل العرب بالغدر والمكر والخيانة أما الشرف والصدق والأمانة فكانت من نصيب قبائل اليهود. تطاولت كذلك كتب التاريخ - وبالذات فى المرحلة الأولى - على الإسلام فادعت أن ابتعاد العرب عن اليهودية واعتناقهم للإسلام كان بمثابة «ارتداد إلى الوثنية». تقول إحدى الفقرات فى كتاب صدر عام ١٩٤٨م:

«لم يكن هناك جديد فى تعاليم الإسلام حيث لم يأت محمد بشىء. لم يضف محمد إلى الإسلام شيئاً على ما صادره من تعاليم اليهودية والمسيحية (وربما من المعتقدات الفارسية) ثم مزج كل هذا بشكل غير متجانس».

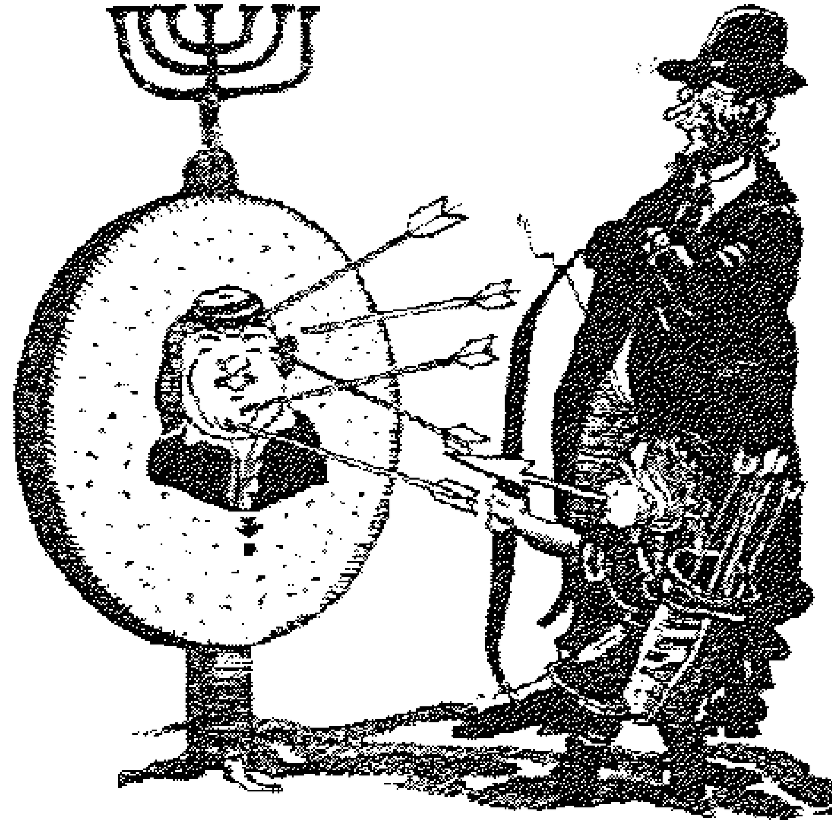
وبشكل متعمد تم التركيز على أهمية الجهاد فى الإسلام فاختزل بهذا فى جانبه العسكرى وخلق الانطباع بأنه دين عدوانى لا يعبأ بشىء إلا لغة القوة وترسخ هذا الانطباع عن طريق وصفه المتكرر «بدين السيف».

أسقطت معظم الكتب الدراسية من حساباتها أربعمائة عام بأكملها هى فترة حكم الدولة العثمانية، فجاء ذكر تلك الفترة مبتسراً للغاية فى أحيان وغير موجود بالمرة فى أحيان أخرى. عاشت طوال هذه الحقبة قلة من اليهود وسط بحر هائل من المسلمين وهو ما حاول واضعو الكتب على ما يبدو أن يتجاوزوه، تماماً كما حاولوا التأكيد على أن الوجود اليهودى فى فلسطين لم ينقطع أبداً:

«لم يتخل اليهود عن أرض إسرائيل أبداً. كان عددهم كبيراً فى أوقات وصغيراً فى أوقات أخرى ولم يكن المجتمع اليهودى يولى أهمية تذكر لمسألة العدد إذ رأى يهود إسرائيل فى أنفسهم تعبيراً عن الأمة اليهودية بأسرها. ضم المجتمع اليهودى (فى فلسطين) الكثير من الرجال الحكماء كالحاخامات والكتاب الذين كتبوا المقالات والكتب. أما العرب والمسيحيون الذين وطنوا أرض إسرائيل فلم ينتجوا شيئاً ذا أهمية ولم يخلفوا وراءهم أى انجاز».

بصفة عامة، اتسمت النظرة إلى العثمانيين بالتحامل الشديد، فاتهموا بالعنصرية والتعصب الدينى ولم تكن هناك أى محاولة لتسليط الضوء على تسامحهم تجاه الأقليات الدينية فى إطار ما عرف بالنظام الملى.

بالغت كتب التاريخ المدرسية كثيراً من قوة القبائل اليهودية الموجودة فى شبه جزيرة العرب فى فترة ما قبل ظهور الإسلام فادعت سيطرتهم على قبائل العرب (وهو إدعاء باطل دون شك)



الهجرة إلى فلسطين

فيما يعد ترديداً لأسطورة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» أكدت كتب التاريخ أن المهاجرين اليهود إلى فلسطين لم يجدوا سوى أرض قاحلة مهجورة لا يسكنها أحد تقريباً، وتم استخدام كافة الوسائل لإنكار الوجود العربى كالخرائط التى تحدد موقع المدن والتجمعات اليهودية وتغفل ذكر المدن والقرى العربية، أو استخدام صور فوتوغرافية لأراض صحراوية خالية للبرهنة على أن المهاجرين اليهود لم يقابلوا بالفعل أى سكان مع عرض صور أخرى للحياة المزدهرة فى المدن التى بناها اليهود عقب استيطانهم للأرض. كما استخدمت الجداول لبيان معدل زيادة السكان اليهود فى فلسطين مع عدم الإشارة نهائياً إلى عدد السكان العرب أو معدل الزيادة بينهم. الهدف الرئيسى من كل هذا التحايل هو إقناع الطلبة بأن عدد العرب كان قليلاً جداً وأنهم - أى العرب - لم يعانوا قط جراء هجرة اليهود بل على العكس تحسنت أحوالهم الاقتصادية وأصبحوا أكثر صحة وسعادة عن ذى قبل!!! وبالطبع تجنبت كل الكتب الإشارة إلى قضية مصادرة أراضى الفلسطينيين بل حاولت وزارة التعليم من خلال كتيب أصدرته عام ١٩٧٥م دحض ما أسمته «أسطورة مصادرة الأراضى العربية».

تم تناول تلك الحقبة التاريخية بشكل أكثر اتزانا فى المرحلة الثالثة فأشارت بعض الكتب إلى أن عدد اليهود لم يتجاوز ٥٪ من إجمالى السكان فى أرض إسرائيل كما أبرزت امتعاض العرب من تزايد أعداد المهاجرين اليهود ومقاومتهم للمشروع الصهيونى الاستيطانى.

من وعد بلفور إلى قيام إسرائيل

أفردت كل كتب التاريخ مساحات واسعة لعرض ومناقشة وعد بلفور ونشر معظمها النص الكامل له معتبرة إياه «بداية تحرير شعب إسرائيل». فى المقابل لم يذكر شىء عن استياء العرب من الإعلان بل وأعطت إحدى الروايات الانطباع بحدوث العكس إذ زعمت بأن إعلان بريطانيا تعهدها بحماية حقوق العرب الدينية والمدنية أرضى قادتهم فتوقفوا عن مهاجمة وعد بلفور!!!

الجدير بالذكر أن كل الكتب تحاشت ذكر كلمة فلسطين أو فلسطينيين مستخدمة لفظ «عرب إسرائيل» بدلاً منه (الغريب أن الكثيرين فى الوطن العربى الآن يستخدمون نفس التعبير بدلاً من تسميتهم بعرب أو فلسطينيى ٤٨ وهو فيما أرى المصطلح الأكثر دقة والأقل تشوشاً) واعتبرت أنه لم يكن هناك أبداً شعب فلسطينى أو أمة فلسطينية. يقول بن زيون دينور وهو وزير أسبق للتعليم ومؤرخ فى الوقت ذاته أنه «لم يكن هناك أبداً شىء اسمه وطن فلسطينى».

أنحت الفقرات المتعلقة بالمواجهات المسلحة بين اليهود والفلسطينيين أيام الانتداب البريطانى باللائمة على العرب اللئام الذين روعوا آمن المستوطنين اليهود حتى اضطروهم إلى تشكيل مجموعات قتالية (مثل الهاجاناه) للدفاع عن أنفسهم وزعمت أن اليهود - رغم تلك الاعتداءات العربية - مدوا أيديهم بالسلام فى كل وقت ومناسبة إلا أن العرب المتأثرين بالدعاية النازية لم يأبهوا وصمموا على مواصلة العدوان (لاحظ ما يخلقه الربط بين العرب والنازية فى عقول اليهود المصابة بعقدة الهولوكوست من تأثير).

الحروب العربية الإسرائيلية

نكبة عام ١٩٤٨م

مثلت حرب عام ١٩٤٨م وإعلان قيام دولة إسرائيل الحدث التاريخى الأبرز فى كتب التاريخ بالمدارس الإسرائيلية، وتم تناول الحدث من منظور إسرائيلى بحت، فلم تتم الإشارة إلى نظرة العرب له باعتباره «نكبة» أو «كارثة». النظرة الإسرائيلية صورت الحرب باعتبارها صراعاً بين الخير والشر، أو بين داود (اليهود) وجالوت (العرب). واستدعاء لأسطورة «القلة فى مواجهة الكثرة» (Few Against Many) الراسخة فى وجدان اليهود، ادعت الكتب أن اليهود كانوا أقل عدداً من العرب (بنسبة سبعة إلى واحد)، وأن سلاحهم كان قليلاً ومنخفض الجودة (وهو قلب كامل للحقيقة). لماذا انتصر اليهود إذن؟ تم تقديم التفسير التالى: «كان لدى اليهود ميزة واحدة هى التفوق الثقافى والاجتماعى على العرب».

وفيما يشبه الهذيان، زعمت إحدى الروايات أن ستين مقاتلاً صهيونياً استطاعوا دحر عشرين ألفاً من المقاتلين العرب فى صفد!!!

يتواصل الهذيان فى الكيفية التى تم بها تصوير مسألة اللاجئين الفلسطينيين إذ برز فى هذا الصدد اتجاهان رئيسيان. الأول يؤكد أن الفلسطينيين «فضلوا أن يغادروا» على الرغم من محاولات اليهود المستميتة إقناعهم بالبقاء!!! وبالطبع تم إغفال كل عمليات التهجير المنظمة بما فيها استخدام سلاح الإرهاب والمذابح (كما حدث فى دير ياسين مثلاً). أما الاتجاه الثانى فيلقى بالمسئولية على قادة العرب الذين أقنعوا الفلسطينيين بمغادرة ديارهم «بشكل مؤقت» حتى تعيد الجيوش العربية الأمور إلى نصابها.

إحدى الروايات اتخذت طريقاً ثالثاً لا يخلو من الطرافة - أيضاً لإعفاء إسرائيل من المسئولية - إذ زعمت أن ما حدث لا يعدو كونه نوعاً من «تبادل السكان»، فكما هاجر إلى إسرائيل اليهود من الدول العربية (كالمغرب ومصر واليمن والعراق)، هاجر عرب إسرائيل إلى الدول العربية!!! (الخلط بين الحالتين لا يحتاج منا إلى تعليق).

العدوان الثلاثى

كانت حرب عام ١٩٥٦م حرباً «لا مفر منها» فنشاط الفدائيين المتزايد وترويعهم لأمن المستوطنات اليهودية وسياسات عبد الناصر العدائية (خصوصاً بعد إبرام صفقة السلاح التشيكية وإنشاء القيادة العربية المشتركة مع سوريا) ضيق الخناق حول رقبة إسرائيل واضطرها إلى «القيام بعمل جسور» للتخلص من عزلتها. امتد التحريف لنتائج الحرب، فبينما يتفق جميع المحللين على أن فشل العدوان أثمر نصراً سياسياً واضحاً لمصر أسس زعامة عبد الناصر فى الوطن العربى والعالم الثالث، أكدت إحدى الروايات العكس: «قل احترام قادة العرب لعبد الناصر ولم يعودوا يتبعون سياساته وتحطمت وحدة العالم العربى». الغريب أن تواطؤ إسرائيل واتفاقها السرى مع بريطانيا وفرنسا لمهاجمة مصر لم تتم الإشارة إليه على الإطلاق وكأن لم يكن.



فيما يعد ترديداً لأسطورة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» أكدت كتب التاريخ الإسرائيلية أن المهاجرين اليهود إلى فلسطين لم يجدوا سوى أرضاً قاحلة مهجورة لا يسكنها أحد، وأنكرت أى وجود عربى فيها



كتب التاريخ فى مدارس إسرائيل

نكسة ١٩٦٧م

مرة أخرى، ألقيت مسئولية نشوب حرب عام ١٩٦٧ على العرب (بالأخص مصر وسوريا) الذين حاصروا إسرائيل وحشدوا الجيوش وأغلقوا الممرات المائية فما كان أمام إسرائيل إلا أن ترد دفاعاً عن النفس. اتسقت الرواية المدرسية بهذا مع الخطاب الرسمى الإسرائيلى الذى أكد دوماً أن إغلاق مضايق تيران كان هو الرصاصة الأولى فى الحرب.

تعاملت الكتب المدرسية بذكاء مع ما تستخدمه من مصطلحات فى أعقاب الحرب، فاستخدم تعبير «حرب الأيام الستة» لإبراز حجم النصر الإسرائيلى وفداحة الهزيمة العربية، كما استبدل مصطلح «الضفة الغربية» بيهودا والسامرة للربط بين الأراضى المحتلة والتاريخ اليهودى القديم. ومجدداً وظفت أسطورة «القلة فى مواجهة الكثرة» للدلالة على تفوق العرب من حيث الأسلحة والمعدات (وهو أمر غير صحيح بالمرة، إذ امتلكت إسرائيل من الأسلحة الأمريكية والفرنسية المتقدمة ما هو أكثر تطوراً بمراحل مما كان فى حوزة العرب وقتها من أسلحة سوفيتية).

لم يخلُ أيضاً تناول تلك الفترة من بعض الادعاءات الطريفة كالقول بأن سيطرة إسرائيل على الضفة الغربية وغزة قد حافظ وثبت هوية السكان الفلسطينية (لا حديث هنا عن الاستيطان السرطانى والتهويد).

أحد ملامح التغيير فى المناهج ظهر فيما يتعلق بطريقة تناول حرب ٦٧ ففى كتاب صدر فى آخر التسعينيات، يقول المؤلف أن إسرائيل كان بإمكانها اتخاذ «قرار شجاع وحكيم» بالانسحاب من الأراضى المحتلة من جانب واحد لإثبات أن «الاحتلال فرض عليها». يضيف المؤلف بأن خطوة كهذه كانت ستغير من طبيعة الصراع فى الشرق الأوسط وتقنع العرب برغبة اليهود الحقيقية فى السلام والتعايش، إلا أن إسرائيل فضلت أن تفعل العكس وهو التشبث بالأرض وانتظار ما سيحدث. هذا الطرح - الذى ببساطة يلوم إسرائيل على سياستها فى أعقاب الحرب - يمثل نقلة كبيرة ويثبت أن بعض ما أصاب الكتب المدرسية من شطط تم تعديله مؤخراً.



على التوازى مع الصراع العسكرى والسياسى مع العرب، أدارت إسرائيل صراعاً لا يقل عنه خطورة، صراع تطلق فيه فوهات المدافع قذائف من أفكار تغسل الأدمغة وتزرع الآلاف من حبوب الحقد والكراهية. لا عجب إذن أن يظهر استطلاع للرأى أن ٤٠٪ من طلبة المدارس الثانوية الإسرائيلية «يكرهون» العرب وأن ٦٠٪ منهم «يشعرون برغبة شديدة فى الأخذ بالثأر»، فتلك هى النتيجة الطبيعية لما تعلموه منذ نعومة أظافرهم عن العرب والفلسطينيين.

على الجانب الآخر، يبدو العالم العربى منهمكاً لأذنيه فى تغيير مناهجه الدراسية استجابة لموقف أمريكى متشدد وغير قابل للتراجع وهو ما حدا بالرئيس اليمنى إلى القول بأن عدم إخضاع المدارس الدينية للإشراف الحكومى سيعرض اليمن لقصف مماثل لما تعرضت له أفغانستان!!! ويبدو أن رياح التغيير قد هبت بالفعل فى كل الدول العربية بدءاً من قطر التى وصف ما أقدمت عليه من تعديلات ثورية «بالزلزال» وصولاً إلى السلطة الفلسطينية التى حذفت الفقرات المتعلقة بتدمير إسرائيل ومروراً بالسعودية وباقى دول الخليج التى تحمل الولايات المتحدة كتبها المدرسية وزر هجمات الحادى عشر من سبتمبر. ازدواجية المعايير امتدت إذن إلى مجال التعليم، وبنفس حجم التنازلات، ففى مقابل كل قيراط تغيره إسرائيل، يعدل العرب مناهجهم بالأفدنة (مثلما يحدث على المسرح السياسى). ناهيك عن أن بعض ما يحذف يمس جوهر عقيدة فى مقابل أن ما ينبغى حذفه فى المعسكر الآخر يتعلق بأخطاء تاريخية صارخة ونظرة عنصرية مقيتة. سنستمر إذن فى إدارة خدنا الأيسر لمن صفعنا على الخد الأيمن ولا عزاء للحكومات العربية. ■

هذا ما جناه علينا "الأبويون"!

هشام شرابي



هشـــام شـــرابى

■■ يمكن النظر إلى البعث الإسلامى كحركة تحرير سياسية ونهضة ثقافية على أنه النقيض المباشر لعملية التغريب، فهو نتيجة لعصر الامبريالية. تماماً كما هى حال «التنوير» و «التحديث».

فعلى الصعيد السياسى العقائدى شهد الشرق الأوسط الحديث ثلاثة تحديات خلال تصادمه مع المعضلة الاجتماعية والاقتصادية التى ولدتها الهجمة الأوروبية. ومثّل التحديان الأولان، أى العلمانية والأصولية، قبولاً واضحاً للنمط الأوروبى ورفضه المبرم على التوالى. أما التحدى الثالث الذى نطلق عليه تعبير الاصلاح فقد انتهج حلاً وسطاً. ومهما يكن من أمر، فلم يكن كل تحد من هذه التحديات عقيدة جديدة أو نظرية اجتماعية بل أشكال وعى نضجت فى رحم المجتمع الأبوى المستحدث وعكست ردود فعل متباينة لمشكلة التحديث المشوه.

وكان المفر الوحيد من سيطرة أوروبا المباشرة يكمن فى البحث عن أشكال مختلفة من المقاومة. وحتى فى المجالات التى بدا فيها النضال مجدياً، فإن علاقات التبعية بقيت سائدة واشتد ساعدها. وتتضح أهمية هذه الحقيقة متى أخذنا بدراسة النمط اليابانى الذى يجسد البرهة التاريخية الوحيدة للتملص الناجح من قبضة الهيمنة الأوروبية المباشرة، وكان ذلك مرده مقدرة اليابانيين على انتهاج تحديث مستقل يمكنهم من التطور بسرعة كافية تحول دون سقوط اليابان عسكرياً. وبالطبع، فإن ذلك نجم عن عدة عوامل هى وجود اليابان فى موقع جغرافى ناء، وعزلتها، إضافة إلى مناعتها النسبية فى مقاومة أى عدوان عليها (أى على النقيض من قرب العالم العربى وانفلاشه وعدم توفر مقاومته العسكرية). ولكن هناك سبباً آخر هو أكثر أهمية، فبدءاً من استعادة الامبراطور ميجى الحكم فى ١٨٦٨ تميز النظام الأبوى اليابانى، وبخلاف نظيره العربى (أو الهندى أو الصينى) بخاصيتين فريدتين: وحدة سياسية. جغرافية وقيادة حكيمة قديرة.

كان أول تحديات النظام العربى الأبوى وأشدها صلابة وأطولها ديمومة بعد إحكام السيطرة الأوروبية عليه قد تجسد فى العودة إلى التقاليد الإسلامية. وأصبح الإسلام بصفته عقيدة ونموذج تنظيم اجتماعى المحور الطبيعى للمقاومة التى تمثلت فى أربع انتفاضات سياسية. دينية ضد الهيمنة الامبريالية: عبدالقادر فى الجزائر ضد فرنسا، والمهدى فى السودان ضد بريطانيا، وعمر المختار فى ليبيا ضد إيطاليا، وعزالدين القسام فى فلسطين ضد الانكليز. ومن الجدير بالاهتمام أنه طيلة حقبة النضال ضد الهيمنة الأوروبية كانت الانتفاضة ما إن ترتبط بالجماهير حتى تتحول من حركة سياسية محدودة أطلقتها القيادة الوطنية إلى ثورة إسلامية عارمة.



فخلال مرحلة النضال لتحقيق الاستقلال لم تتحول أية انتفاضة تقودها الزعامة الوطنية إلى حركة جماهيرية دون استلهام الباعث العقائدى للثورة من التراث الإسلامى. ولذلك فإن النضال الوطنى ضد المستعمر استمد وحيه وقوته من العرف الأبوى وليس من العقائد العلمانية التى بشرت بها النخبة المثقفة. وهذه حقيقة يمكن فى ضوئها تفسير عدم إحداث تحول اجتماعى جذرى عقب الثورات الوطنية الكبرى خلال نصف القرن الأخير. ومن الصعب فهم تطور الإسلام التقليدى أو الأصولية إلى حركة سياسية ملحة دون الأخذ بعين الاعتبار العلاقة الجدلية القائمة بين الأصولية من جهة والامبريالية والتحديث من جهة أخرى. فقد استمدت الأصولية الإسلامية المبكرة صلابتها ومحتواها كحركة مسلحة من مقاومتها العنيدة للهيمنة السياسية والثقافية الأوروبية. واكتسبت هذه الأصولية زخمها كعقيدة ليس من نظريات نقدية، بل من تحديها غير المساوم لوضع اجتماعى. سياسى لا يحتمل. ولذا رأت هذه الأصولية أن خلاصها يكمن ببعث ماضى الإسلام المجيد، فاعتمدت على النص القرآنى للبرهنة على إمكانية إيجاد مجتمع إسلامى أصيل فى هذا الزمن المعاصر، فيما لو أن المسلمين عادوا إلى الصراط المستقيم ووحدوا صفوفهم فى وجه عدوهم التاريخى.

والإسلام التقليدى لهو بالضرورة تصوفى وحنيف وشعائرى ومجرد، إلا أنه يتحول فقط إلى أصولية مسلحة بفعل ما يحدثه وما يقوله قادته الجدد أثناء استجابتهم لأزمة وطنية. وعليه، فإن الطابع العدائى والمطلق للعقيدة الأصولية ليس بالتالى مظهراً مرتبطاً وثيقاً بالمذهب التقليدى. ومن هنا فإن الغليان الأصولى يخمد وتنحل قواه متى حل السلام وتحقق التوازن الاجتماعى من جديد.

ومن الضرورة بمكان ملاحظة أن الإسلام التقليدى فى نضاله ضد الامبريالية قد اكتسب تجربة تحديثية،



Neopatriarchy: Theory of Distorted Change in Arab Society

(النظام الأبوى وإشكالية تخلف المجتمع العربى)

Hisham Sharabi

USA: Oxford University Press Inc. 1988

صدرت له عدة ترجمات عربية إحداها عن دار نلسن (٢٠٠٠)

ليس فقط في أساليبه بل أيضاً في توجهه وممارسته إلى حد ما. قام بتطوير أنماط تنظيمه السياسي ورضى بتعديل بعض نماذج العقلانية الغربية وتقنياتها. إلا أنه بقى يعاند الاختلاف معه، فلم يقبل بالمساومة. ومن هنا فإنه لا يرضى إلا بالنصر أو الشهادة لحسم دفة الصراع. ومتى استوى على سدة الحكم، فإنه يميل إلى المحافظة ويتشبث بالسنة والطاعة السياسية.

ولم يكن الخلاف بين الأصوليين والعلمانيين (الوطنيين واليساريين الثوريين) خلافاً على قضية دينية أو خلقية، بل كان سياسياً محضاً. ولأن الوطنية العلمانية لم تكن قادرة على التعامل بنجاح مع القضية السياسية للهيمنة الأجنبية ولم تتمكن من تحقيق الوحدة العربية، فقد أدت في نهاية المطاف إلى التطرف الديني. وعليه فقد استفادت الحركة الأصولية من إخفاق العلمانية ونجاح الامبريالية.

وحين وجد المصلحون المسلمون أنفسهم محاطين بالمسلمين المحافظين والقوميين العرب، فإنهم اضطروا إلى تبني موقف معتدل، سياسياً وعقائدياً. إلا أنهم أخفقوا في النهاية في مسعاهم هذا، ربما لأنهم مضوا بعيداً في معالجة بعض القضايا ولم يتمكنوا من معالجة غيرها، إلا أن سبب إخفاقهم الرئيسي يعود إلى أنهم قد قبلوا بموقف مساوم ضعيف، ولأنهم عالجوا القضايا الحياتية الملموسة من خلال التجريدات العقائدية، لا من خلال الواقع الحي المعيش. إن أخذهم الساذج بالعقل (على صورة الاجتهاد) قد أوقعهم في مناظرات سياسية عقيمة، بيد أنها لم تخلُ من طرافة. دعوا إلى التغيير، ونادوا بحكومة برلمانية ليبرالية تنهض على مبادئ إسلامية متنورة. ولم يكن مفاجئاً أن بقوا أقلية صغيرة كان أثرها محدوداً، على الرغم من أهميتها في مرحلة تكوين اليقظة العربية، ثم ما لبثت هذه الأقلية أن فقدت تأثيرها بصورة مطردة خلال المراحل المتعاقبة للهيمنة الأوروبية وفي فترة الاستقلال.



الجدير بالذكر أنه بخلاف آراء الأصوليين، فإن آراء المصلحين لم تجد لها صدى مسموعاً في صفوف الجماهير.

وعليه، فإننا نستطيع تكوين فكرة ما عن مدى فعالية الهيمنة الإمبريالية في قولبة الوعي والممارسة السياسية في المجتمع الأبوي المستحدث.

وبإيجاز، ففي المجال السياسي كانت الإمبريالية مسئولة عن تفتيت الوطن العربي سياسياً واقتصادياً وتعزيز السلطة الأبوية التقليدية (بتحديثها)، وبالتالي المساهمة فعلياً في نشوء الأبوية المستحدثة كما نشهدها اليوم. ونتيجة ذلك، فإن الأبوية المستحدثة قد تمكنت اجتماعياً ونفسانياً (على مستوى الطبقة وعلى مستوى العقيدة) من أن تكتسب قوة وزخماً كافيين، بحيث أنها عطلت مسار الإصلاح السياسي الهادف وأعاقت التطور الديمقراطي الصحيح، إضافة إلى أنها اقتلعت جذور أي فكر ماركسي وجذري وأجهزت عليه في مهده. ولذلك، فإنه يتوجب النظر إلى الأبوية والإمبريالية على أنهما، موضوعياً، حليفان متآزران يعيقان تقدم أي تغيير اجتماعي. سياسي طبيعي. لم يصمد هذا التحالف اللاواعي في مرحلة السيادة الوطنية (والاستقلال) فحسب، لكن أيضاً أصبح أكثر فعالية كلما عملت كل دولة عربية استقلت حديثاً على تعزيز سيادتها واستقلالها. فعقب انتهاء مرحلة استعمار الوطن العربي أصبحت الوحدة خطراً على الوضع الراهن ووازتها خطراً الاشتراكية. وكانت هذه الأخيرة تشيع الخوف في بعض الأنظمة العربية أكثر مما كانت عليه في عقر الرأسمالية نفسها. يمكن القول، إذن، إن الإمبريالية الأوروبية قد شوهت عملية التقدم الاجتماعي والسياسي من ناحيتين: بتقويض التطور الاقتصادي الطبيعي (النمو الرأسمالي). لا سيما في مصر، حيث عملت الرأسمالية منذ نهاية حكم «محمد علي» على إعاقة النمو الصناعي، وحجمت الاقتصاد ليقتصر على الإنتاج الزراعي فحسب، وفي الوقت نفسه عرقلت بروز طبقة عاملة في المدن، الأمر الذي أدى إلى ترسيخ البنى الاجتماعية والسياسية للأبوية المستحدثة وتقويتها.

إلا أن أثر التشويه الذي أحدثته الامبريالية كان أكثر وضوحاً في المجال الثقافي. فمن الوجهة الاجتماعية. السياسية كان لاستعمار الوعي (وكذلك اللاوعي) نفوذ أوسع من الاحتلال العسكري أو الهيمنة السياسية في دفع عجلة تطور بنية الأبوية المستحدثة. ومن هذا المنطلق، لا يمكن النظر مجدداً إلى هذه المشكلة كما تأخذ بها نظرية التحديث. أي باعتبار أن التحديث يهدد «المجتمع التقليدي»، أو أن مصاعب التنمية تترسب ثم تؤدي إلى تشكل «متخلف». بل يتوجب الأخذ بوجهة النظر القائلة بأن المجتمع الأبوي قد اضطر إلى تبني النماذج الاقتصادية والأنماط الثقافية الأوروبية في ظل الأوضاع المشوهة الناتجة عن الهيمنة الإمبريالية، والسيطرة الثقافية والتبعية الاقتصادية. ومن هنا نجد أن الثقافة الأبوية المحدثة (الأبوية المستحدثة) فقدت توازنها وانسجامها. واتصفت بالتملق في العلم والدين والسياسة، إضافة إلى عجزها السياسي وتلكؤها الثقافي، وابتعادها عن الحداثة الأصيلة. أي، فقدانها تحرير الذات المنشود. ■

رحـــلة مفكـــر

لأسباب عديدة، أبرزها إقامته شبه الدائمة في الولايات المتحدة ودراساته التي يغلب على معظمها الطابع الأكاديمي الرصين، لم يكن هشام شرابي المفكر الفلسطيني البارز الذي رحل عنا قبل حوالي شهر، حاضراً بقوة لدى جماهير العالم العربي التي أمضى معظم سنوات عمره في الكتابة عن مشاكلها والأسباب التي تحول بينها وبين التقدم.

إلا أن شرابي المولود في يافا عام ١٩٢٧ كان ومازال مؤثراً وبقوة أيضاً في عقل ووجدان النخبة العربية التي ساهم في صياغة أفكارها من خلال مؤلفاته العديدة التي قدم فيها أطروحات متميزة عن عورات المجتمع السلطوي «الأبوي» ومجتمع البداوة وإشكاليات التقدم والتخلف وعلاقة المثقف بالسلطة.

بدأ شرابي نشاطه السياسي مبكراً من خلال الانضمام للحزب السوري القومي الاجتماعي الذي أسسه في لبنان «أنطوان سعادة» ودرس في الجامعة الأمريكية في بيروت وكان للقبض على «سعادة» وإعدامه عام ١٩٤٩ في بيروت الأثر البالغ في حياة شرابي الذي وجد نفسه مدفوعاً للهجرة إلى الولايات المتحدة حيث حصل على الدكتوراة من جامعة شيكاغو عام ١٩٥٣.

وجاءت كارثة يونيو ١٩٦٧ لتجبر شرابي على العودة للاهتمام بقضايا المجتمع العربي وأسباب تخلفه بعد أن شغله العمل الأكاديمي سنوات عديدة. وأصبح شرابي أحد أهم ثلاثة مفكرين فلسطينيين كان لهم حضور مميز خلال النصف الثاني من القرن العشرين سواء في الوسط الأكاديمي الأمريكي أو متابعة الشأن العربي والكتابة بعمق عنه وهم إدوارد سعيد وإبراهيم أبو لغد إضافة إليه.

وكمثقف وأكاديمي وعالم اجتماع، تعمق شرابي في التنظير لأزمات المجتمع العربي وبلغ الذروة في الحديث عن النظام الأبوي باعتباره أحد الأسباب الرئيسية للتخلف وتحدث عن وسائل تغيير هذا النظام الأبوي إلى النظام الديمقراطي الذي يبدو مستحيلاً طالما ظل الأب والزعيم والقائد هو الأساس في بنية المجتمع العربي وهو يقول:

في المجتمع العربي يريد المثقفون إيصال الحقيقة إلى ذوي السلطة وهؤلاء يرفضونها.. فهم لا يريدون حقيقة المثقفين ولا فلسفتهم بل ولاءهم الشخصي.

ولأنه فلسطيني أولاً وأخيراً فقد كان أحد أهم شواغله مسار القضية الفلسطينية حيث أبدى حماساً لاتفاق أوسلو وزار الأراضي الفلسطينية عام ١٩٩٧ للمرة الأولى منذ مغادرته فلسطين عام ١٩٤٧، لكنه أصبح بعد فترة وجيزة أحد أشد منتقدي أوسلو والزعيم الراحل ياسر عرفات.

قدم شرابي للمكتبة مؤلفات عديدة أكاديمية وعامة بينها أعمال سردية عن حياته مثل «الجمر والرماد»، و«الرحلة الأخيرة»، و«صور الماضي». إلا أن الكتاب الذي ارتبط باسمه هو: «النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي». وهنا صفحات من الكتاب.

وجهات نظر

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

صعاليك الزمن الجميل
يوسف الشريف
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ٣٢٨صفحة



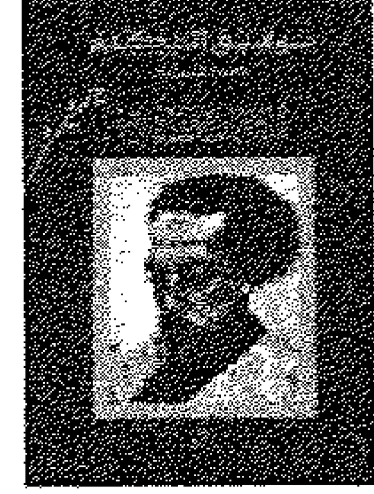
هذا - بالفعل - كتاب ممتع.. يقول عنه الكاتب الصحفى كامل زهيرى إنه يعبر عن رحلة طويلة قام بها مؤلفه الكاتب الصحفى يوسف الشريف مع ظرفاء وصعاليك مصر فى العقود الأربعة الأخيرة، ليعود بذكريات وطرائف وتفاصيل تكشف حنايا القاهرة وأجواءها الثقافية.

ولهذا الكتاب كما يقول مؤلفه قصة طريفة.. فقد تعرف منذ عشرين عاماً على المستشرق اليابانى «نوتاهارا» وكان آنذاك أستاذاً للأدب العربى بجامعة طوكيو، ومع ذلك فقد كان صعلوكاً على غرار صعاليك الشعراء النبلاء إبان العصر الجاهلى، خفيف الظل متوقد الذكاء لا يكل ولا يمل من اللف والدوران والبحث والتجريب فى عوالم القاهرة الشعبية.. وكانت شخصية هذا اليابانى هى الجسر الذى عبرت من خلاله فكرة هذا الكتاب التى كتبها الشريف عن عشرة شخصيات مصرية أسماهم بالحرافيش الظرفاء أو الصعاليك النبلاء، والذين كانوا منارات شامخة فى مجتمع ذلك الزمن وبينهم صحفيون وكتاب كبار وشعراء لامعون ونجوم فى السياسة والفن وقد حباهم الله بمواهب وملكات تميزهم عن غيرهم وتشد الناس للتحلق حولهم.

يسرد الكتاب طرائف مثيرة منها قصة زواج الموسيقار الراحل مدحت عاصم من زوجته الأولى على الموتوسيكل الهارلى، ومقالب حفنى محمود باشا، ومصطفى حمام فاسوخة ثورة ١٩١٩، وعبد الحميد الديب الشاعر الذى تعقبه النحس، ومحمود السعدنى عاشق الحياة، ومأمون الشناوى والزواج فى الثمانين، والشيخ سيد مكاوى فى مقهى الحرامية، وأمين بك المهدى يدخن الحشيش، واللص الشريف نجيب حافظ، والفقير الهندى أستاذ الجيل محمد عودة.

وهذا الكتاب يكمل ثلاثية كتب الشريف عن الصعاليك النبلاء بعد كتابيه «آخر ظرفاء ذلك الزمن» حول سيرة كامل الشناوى و«القديس الصعلوك» عن سيرة عبد الرحمن الخميسى.

أهل الكهف
توفيق الحكيم
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ١٣٥صفحة



أصدرت «دار الشروق» هذه المسرحية ضمن مشروع كبير يتضمن إعادة نشر الأعمال الكاملة لأبى المسرح العربى توفيق الحكيم. وكما يقول الأديب والصحفى محمد سلماوى فى تعليقه على هذا المشروع، إن الأمم لا تنمو ولا تزدهر إلا بمقدار ما يكون تراثها ماثلاً فى حاضرها، وإلا انفرط عقدها وفقدت ماضيها ومستقبلها معا فى التاريخ والسياسة كما فى الآداب والفنون.

ويقول سلماوى أيضاً «إن المشكلة ليست فقط فى عدم إبقاء تراث الحكيم حياً على خشبة المسرح، وإنما أيضاً فى عدم توفره كنص مطبوع، حيث إن الكثير من مسرحياته نفدت من الأسواق ولم يعاد طبعها منذ سنين».

ولا شك أن إعادة طبع هذه المسرحية التى تدور حول قصة أصحاب الكهف التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم، يلبى نداءات عديدة من جمهور القراءة فى العالم العربى لطبع أعمال الرواد الذين ساهموا فى تشكيل العقل الثقافى العربى وفى ترقية ذوقه الفنى.

هوامش ثقافية
د. ماهر شفيق فريد
القاهرة: دار البستانى للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ٤٠٠ صفحة



يضم هذا الكتاب مختارات من مقالات د. شفيق أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة على امتداد ٤٣ عاماً من ١٩٦١ حتى ٢٠٠٤، وينقسم إلى أربعة أقسام: فى النقد الأدبى، والشعر، والرواية والقصة القصيرة، والمسرح.

فى قسم النقد الأدبى يتناول عدداً من القضايا العامة مثل ثقافة الطفل وحوار الثقافات والمعارك الأدبية وأدب المقاومة الفلسطينية وغيرها.

وفى قسم الشعر، يتناول قضية الغموض فى الشعر الحديث وعدداً من الدواوين لفاروق شوشة وحامد طاهر وأحمد تيمور وماجد يوسف وغيرهم.

ومن الساحة الروائية والقصصية يسلط المؤلف الضوء على الروائى الراحل نجيب الكيلانى، وقصاصين معاصرين مثل أحمد جبريل وأحمد درة وغيرهما.

وينتهى الكتاب بقسم المسرح الذى يتراوح ما بين المسرح الشعرى المصرى فى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين عنه نجيب سرور ومحمد إبراهيم أبو سنة، ودفاع عن المسرح الخاص، وعرض لعدد من المسرحيات.

والكتاب لا غنى عنه لدارسى المشهد الأدبى الراهن، إذ يجمع بين دفتيه عدداً من المقالات المهمة والمتنوعة.

مقدمة فى الأصولية المسيحية فى أمريكا والرئيس الذى استدعاه الله
عادل المعلم
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤، ١٧٣ صفحة



منذ مطلع العقد الأخير من القرن الماضى، يتصدر مصطلح الأصولية الإسلامية وسائل الإعلام الأمريكية، ومن ثم الغربية، وحتى العربية، ونادراً ما يذكر الإعلام «الأصولية المسيحية» أو «الأصولية اليهودية» برغم حضورهما النافذ على الحكومتين الأمريكية والإسرائيلية، واللتين تنفذان مخططاتهما بنجاح - منقطع النظير - خاصة فى الشرق الأوسط.

يقول المؤلف إن جورج بوش يتكلم عن الخير والشر وعن الحرب والإرهاب، كما لو كان نبياً ذا رسالة إلهية، ويكشف فى كتابه من خلال عرض لمقال من مجلة دير شبيجل الألمانية عن الكثير من خفايا شخصية الرئيس بوش كيف كان يعشق الخمر ثم كيف أقلع عنها بزعم أن الله يدخره لمهمة مقدسة، وكيف أنه بعد أن أصبح رئيساً أصبح يؤمن إيماناً جاداً بقضيتين: الأولى: إيمانه بعيسى المسيح، والثانية إبراز القوة الإمبريالية الأمريكية أمام العالم كله.

فبوش الذى عاش الأربعين عاماً الأولى من حياته مثالاً للشخص الفاشل، خاصة بعد أن خسر ملايين الجنيهات فى تجارة البترول، أصبح بعد ذلك متأثراً بالأفكار الدينية الأصولية، ومقتنعاً بأن الله وحده هو الذى سمح له بشغل منصبه الرئاسى فى هذه اللحظات الشديدة الأهمية فى تاريخ العالم.

يلقى الكتاب - أيضاً الضوء على الأصولية اليهودية التى تشترك مع البروتستانت فى الكثير من العقائد التى ترجع أصولها إلى العهد القديم، كما يولى الكتاب أيضاً اهتماماً كبيراً بالأصولية المسيحية فى أمريكا منذ هجرة البيوريتانز وهم طائفة شديدة التدين من البروتستانت من إنجلترا إليها، فراراً بدينهم ليعبدوا الله بالطريقة التى يرونها. ويتابع مسيرتهم فى المجتمع الأمريكى بين الخفوت والصحوة. كما يتابع الكتاب خلافات الأصوليين والحداثيين، وتأثيراتها على الجبهات السياسية والثقافية.

فى حب نجيب محفوظ
رجاء النقاش
القاهرة: دار الشروق، ٣١٨ صفحة



هذا الكتاب هو ثمرة أدبية ونقدية لعلاقة حب وثيقة نشأت بين مؤلفه رجاء النقاش، وبين عميد الرواية العربية نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل سنة ١٩٨٨. وقد استمرت هذه العلاقة منذ سنة ١٩٥١ إلى الآن، مما أتاح لهذا الكتاب أن يكون مزيجاً من الدراسة الأدبية وسيرة حياة نجيب محفوظ فى نفس الوقت.

جاءت فصول الكتاب المختلفة كنوع من الطيران فى عالم نجيب محفوظ كما تطير العصافير فوق أشجار حديقة كبيرة واسعة، فتنتقل من غصن إلى غصن، دون أن يقيد أجنحتها قيد أو يعوق حركتها عائق.

سطور الكتاب جاءت بلا تعقيد أو غموض بل اعتمدت على الوضوح والسهولة، لتكشف جوانب مفصلية فى تكوين وعى نجيب محفوظ الأدبى والاجتماعى والسياسى، كيف عاش طفولته فى القاهرة القديمة وكيف تربى ثقافياً على يدى رمزين كبيرين الأول هو

الشيخ مصطفى عبد الرازق والثانى هو المفكر سلامة موسى، وكيف أثرت هاتان الشخصيتان على أدبه وعلى شخصيات رواياته.

كما يكشف الكتاب علاقة محفوظ بالنقد، وكيف أن سيد قطب هو أول من تنبه إلى قيمة نجيب محفوظ الأدبية، وكيف احتفل به فى مقال نقدى فى مجلة الرسالة، ثم كيف هاجمه د. عبد العظيم أنيس بعد الثورة.

والكتاب أيضاً يقدم فى الكثير من فصوله، آراء نقدية مهمة لرجاء النقاش فى العديد من روايات نجيب محفوظ، تلقى الضوء على مسيرته الأدبية التى لم تتوقف أبداً عن التطور بالشكل الذى يجعل من هذا الأديب الكبير ظاهرة أدبية وفنية لا تعرف الصدأ أو الجمود على الإطلاق، خاصة أنه لم يقف عند مدرسة فنية واحدة، بل جعل أدبه وفنه مجالاً للتجارب الجديدة باستمرار.

البكورية فى المجتمع التوراتى

دراسة فى ديانات الشرق الأدنى القديم

علاء عريبى

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥، ٢٠٨ صفحات، ٥٥٠ قرشاً



يحرص اليهود على القول بأنهم أصحاب أول فكر دينى منظم عرفته البشرية، ويؤكدون أصالة هذا الفكر وعبقريته منذ ظهوره فى سنوات ما قبل الميلاد على أيدى أول مجموعة من العبريين، وأشاع بعض هؤلاء اليهود خاصة أصحاب الفكر الصهيونى منهم، أن بنى إسرائيل نسبة إلى أولاد يعقوب النبى هم الذين أدخلوا هذا الفكر المتحضر إلى الشعوب المجاورة لهم فى منطقة الشرق الأدنى القديم، وأنهم أصحاب الفضل فيما وصلت إليه الحضارات المصرية والعراقية والشامية القديمة، ويزعم بعضهم أن بنى إسرائيل شركاء فى هذه الحضارات بما قدموه من فكر أصيل، وأن الديانات التى ظهرت بعد اليهودية - المسيحية والإسلام - قد اعتمدت فى مجملها على الشريعة اليهودية، وأن أتباعها قاموا بإعادة صياغة للنصوص التوراتية، وقد مال إلى هذا الادعاء العديد من الباحثين الغربيين والعرب الذين تناولوا حضارات الشرق الأدنى القديم بالدراسة.

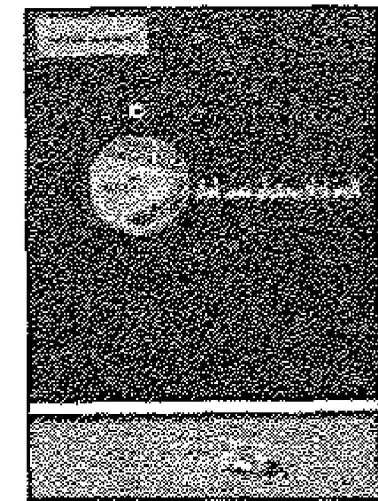
هذا الكتاب يؤكد على أهمية قيام الباحثين العرب بالبحث والتنقيب فى حضاراتهم القديمة، بعد أن تركوا الأمر برمته لسنوات طويلة، للبعثات الأجنبية تنقب عن الآثار وتسجل نصوص المكتشفات وتقوم بترجمتها إلى لغتها، ثم تقوم بقراءة هذه النصوص حسب هواها أو كما يتوافق والنصوص التوراتية أو مرجعياتهم الثقافية. وفى هذه الدراسة يحاول المؤلف أن يقف على بعض من أصول الفكر التوراتى، وهل هو بالفعل من نتاج العقلية العبرية «الفذة» أم إنه نتاج عقليات أخرى؟ وما هى الجذور الحقيقية لهذا الفكر؟.. وذلك من خلال البحث فى قضية «البكورية» كما جاءت فى التوراة، من حيث دلالة هذا المصطلح اللغوية والنصية والاجتماعية والفكرية واللاهوتية والسياسية فى النصوص التوراتية، وفى الحضارات الأخرى أيضاً.

يؤكد الكتاب أن حق البكورية أو اعتبارات البكورية كانت الميراث المادى «التركة» والميراث الروحى «البركة»، وأن الثمرة الحقيقية لهذا الامتياز أو الحق هى توريث النبوة أو الكهنوت للبكورى، وأن هذا النظام كان عرفاً أو قانوناً شرقياً فى الأساس أخذت به الحضارات البابلية والفرعونية والكنعانية والفينيقية والحيثية قبل مئات السنين من ظهور بنى إسرائيل كجماعة أو كأسباط أو كشعب الله المختار، حتى إن بقايا هذا القانون مازالت موجودة فى المجتمعات العربية حتى الآن، ويؤكد المؤلف أن هذا القانون قام محررو التوراة بنقله إلى النصوص التوراتية، ليصبح حجر الأساس الذى شيدوا عليها الأسفار جميعها.

قاموس الأديان ومعتقدات شعوب العالم

إعداد: نخبة من الخبراء

القاهرة: دار الكلمة، ٢٠٠٤، ٦١٦ صفحة



أعد هذا القاموس أكاديميون ومتخصصون فى العلوم الدينية وفلسفة الأديان وتاريخها. ويحتوى على أكثر من ٨٠٠٠ مادة علمية تغطى الأديان السماوية الثلاثة وديانات الشرق الأقصى وديانات العوالم القديمة مثل بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين والتيوتون وقبائل المايا والأزتيك وأستراليا وآسيا وأفريقيا، كما يغطى الممارسات والطقوس التى تفرضها تلك الأديان.

ويعتبر القاموس إضافة مهمة إلى المكتبة العربية التى تفتقر إلى هذه النوعية من الكتب، فهو يقدم للقارئ العربى مساهمة مهمة تلبى احتياجاته للإلمام العاجل بالكثير من المفردات الدينية ومعتقدات الأقدمين فى كل أنحاء العالم.

عمد القاموس إلى تجنب الوقائع والشخصيات التاريخية، وكذلك الأعراف التى لا تتصل مباشرة بالعقيدة أو الأسطورة على السواء، إلا أنه عنى ببيان بعض المذاهب الفلسفية أو أصحابها، والحديث عن بعض الرواد أو المفكرين الذين لا يمكن إغفالهم لأهمية ما أعلنوه من توجهات معينة، أو ما صدر عنهم من أعمال أو آثار تتعلق بجوهر العقائد أو طبيعة الشعائر أو المعاملات.

وقد حرصت دور النشر أن يحرر مادة القاموس وبخاصة فى الديانتين الإسلامية والمسيحية أن يحررها المتخصصون فى كل منهما والمؤمنون بكل منهما بحيث لا تقدم المادة الخاصة بهما على نحو يدعى الحياد أو الموضوعية.

والقاموس يجمع معظم المواد التى تشغل اهتمام الباحثين، كما يتيح الفرصة للاطلاع الواسع والدقيق لجمهرة القراء والباحثين الذين يطمحون إلى مجلد واحد قريب التناول وميسر الفهم ويحيط بأبرز المصطلحات وأهم المعلومات.

خطة الهجوم

بوب ودورد

تعريب: فاضل جتكر

الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٤، ٦٥٨صفحة



يستهدف هذا الكتاب - كما يقول مؤلفه - تقديم صورة ما كان يجرى وراء الكواليس لتوضيح دوافع قيام الرئيس جورج بوش ومجلسه الحربى وحلفائه باتخاذ قرار الحرب الاستباقية فى العراق من أجل إسقاط صدام حسين.

حصل المؤلف على معلومات كتابه من أكثر من ٧٥ شخصاً انخرطوا بشكل مباشر فى الأحداث، بمن فيهم أعضاء مجلس الحرب، وعناصر جهاز العاملين فى البيت الأبيض، وموظفون يتولون مستويات متباينة المناصب فى وزارتى الخارجية والدفاع ووكالة الاستخبارات الأمريكية، بالإضافة إلى لقاء جمع المؤلف مع الرئيس بوش شخصياً لمدة زادت على الثلاث ساعات ونصف الساعة، بالإضافة إلى لقاء آخر مع وزير الدفاع الأمريكى رونالد رامسفيلد. وقد استغرق المؤلف فى التحضير لكتابه أكثر من عام كامل، والذى كشف فيه أن خطة بوش لغزو العراق وإزاحة صدام حسين بدأ الإعداد لها بعد ٣ أيام فقط من هجمات سبتمبر ٢٠٠١، على نحو بالغ السرية، وروى فيه قصة ٨٧ جاسوساً فى العراق تابعوا الملفات الشخصية لـ ٦٠٠ من رجال صدام حسين المقربين.

يوضح الكتاب أيضاً مراحل الإعداد لغزو العراق وصعوبة اتخاذ هذا القرار وصراع الأطراف داخل البيت الأبيض، والنقاشات داخل وزارة الدفاع والسى آى إيه والمواجهات مع وزارة الخارجية ومع العالم فى الأمم المتحدة ومع دول أوروبا، ومع العالم العربى، والأسلحة التى استخدمت فى الحرب، واتصالات بوش وبلير ودور الاستخبارات الإسرائيلية ودور الحلفاء.. وأيضاً لماذا وقعت الحرب؟

تعرض الكتاب أيضاً للأوضاع فى العراق ولمحاولات صدام حسين قطع الطريق أمام خصومه فى أمريكا لشن الحرب على العراق، كما يكشف الكتاب كذلك رؤية وأفكار الحكومة الأمريكية للعراق بعد سقوط صدام والمستقبل المعد له.

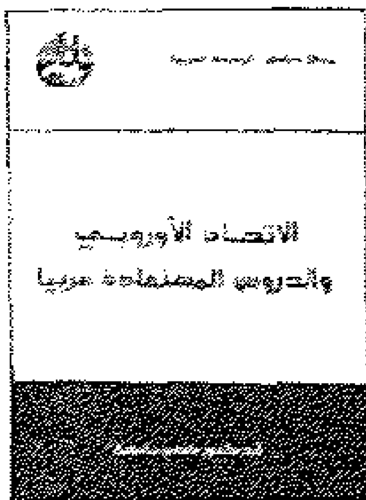
كما يقدم الكتاب فصلاً مهماً فى تاريخ الجيش الأمريكى وسياسة البيت الأبيض وتاريخ منطقتنا وصراع العديد من الأطراف بتوجهاتها المختلفة حول تصوراتها لمستقبل عالمنا.

ومؤلف الكتاب هو الصحفى المشهور الذى ألف كتاباً مع كارل بيرنشتاين عن فضيحة ووترجيت التى أدت إلى سقوط الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون.

الاتحاد الأوروبى والدروس المستفادة عربياً

د. حسن نافعة

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ٦٢٦ صفحة



شهد النصف الثانى من القرن العشرين تجارب عديدة لتحقيق التكامل والاندماج الإقليمى فى مناطق مختلفة من العالم: شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً. غير أن التجربة الأوروبية وحدها هى التى استطاعت أن تفرض نفسها، وأن تحتل موقعاً فريداً ومتميزاً بين جميع التجارب.

يعود هذا التميز إلى أسباب كثيرة أهمها حجم الإنجازات التى حققتها هذه الوحدة الأوروبية من ناحية، وخصوصية المنهج المستخدم فى بناء العملية التكاملية ذاتها، من جهة أخرى.

ولأن تجربتى التكامل العربية والأوروبية كانتا قد انطلقتا فى وقت متزامن تقريباً، فقد توقع الكثيرون أن تحقق التجربة العربية، بسبب تفوق ما

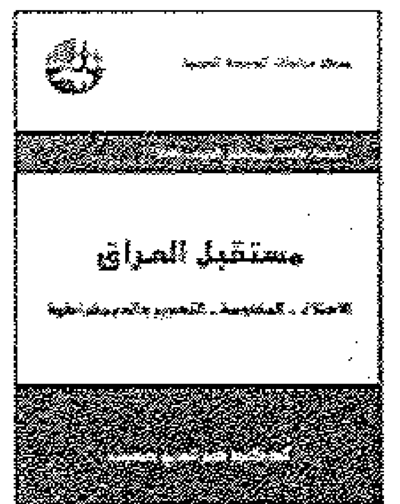
تملكه من مقومات وعناصر الوحدة، إنجازات أكبر وأسرع مما حققته التجربة الأوروبية، غير أن ما حدث جاء مخالفاً لكل التوقعات.

يحتوى هذا الكتاب على دراسة للتجربة الأوروبية بعيون عربية، تستهدف التعرف على الأسباب الحقيقية التي أدت إلى تعثر تجربة التكامل العربي حتى الآن، ووضع اليد على الآليات الكفيلة بإقالة هذه التجربة من عثرتها، وتمكينها من تحقيق انطلاقة جديدة تضمن استمرارها وتطورها في مرحلة يواجه فيها النظام العربي تحدي البقاء أو الفناء.

مستقبل العراق الاحتلال ـ المقاومة ـ التحرير والديمقراطية

د. خير الدين حسيب

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ٢٦٨ صفحة



لهذه النصوص التي يحتويها هذا الكتاب - أكثر من قيمة تبرر قراءتها، أولها أهمية الخطاب الذي تحمله من موقع وطني عراقي.. خطاب يلتزم قضية الوطن، ويلتزم خيار التعبير الشجاع عن الموقف الوطني منها في لحظة حرجة ومفصلية من تاريخ العراق الحديث امتدت تأثيراتها عميقاً في نسيج المجتمع العراقي، وتضع اليوم مصيره الوطني أمام امتحان تاريخي عسير.

وثانيها، يكمن في أن ما قيل في الكتاب لم يقل من موقع وطني عراقي فحسب، بل من موقع قومي عربي أيضاً.

ولأن خير الدين حسيب يمثل اليوم أحد أكبر رموز العمل القومي العربي، فإن آراءه تعني قسماً كبيراً من النخب السياسية والثقافية خارج العراق وفي عموم الوطن العربي.

وفي هذا الكتاب يطرح حسيب من خلال العديد من الحوارات التي أجريت معه عدداً مهماً من القضايا ذات الشأن العراقي بكل امتداداته العربية، وكذلك ذات الشأن العربي بكل تأثيراتها على ما يحدث في العراق.

كما يحكي أيضاً عن نشأته الأولى في العراق، وكيف عانى من الفقر بعد أن ضاعت ثروة عائلته عقب وفاة جده، وكيف بدأ يمارس حياته السياسية ونشاطاته الحزبية، ودخول المعتقلات عقب ثورة ١٩٦٨ في العراق، ثم الإفراج عنه بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر.

ويؤكد الكتاب أنه في أواخر التسعينيات وبانتهاء الحرب الباردة، وصلت أمريكا إلى قناعة مفادها أنه في السابق كانت القوى العسكرية هي المعيار الأول والرئيسي لتحديد من هي القوى الكبرى في العالم، بعد أن بدأ العامل الاقتصادي يأخذ أهمية متزايدة.

ولأن الاتحاد الأوروبي يعادل ناتجه القومي الناتج القومي للولايات المتحدة، والصين سيصبح ناتجها القومي معادلاً للناتج القومي الأمريكي عام ٢٠١٠ أو ٢٠٢٠، بالإضافة إلى تزايد القوة الاقتصادية لدول جنوب شرق آسيا، فقد نشأت فكرة السيطرة على النفط العالمي ليس لتوفير حاجة الولايات المتحدة فقط، ولكن لاستعماله كورقة ضغط في علاقات الولايات المتحدة مع القوى الاقتصادية الأخرى في العالم، فبهذه الورقة تستطيع أمريكا أن تتحكم في توريد النفط وفي أسعاره، وبالتالي تكون أوروبا واليابان والصين والهند كلها مرتهنة بها.

والكتاب يحفل بالعديد من الآراء السياسية المهمة التي تفسر الكثير من السيناريوهات التي اتبعتها أمريكا للسيطرة على العالم العربي، كما يقدم أيضاً عرضاً لمستقبل عربي جديد قابل لأن ينبني بمقتضى الفعالية الإنسانية الواعية.

جامعة الدول العربية والمجتمع المدني العربي

د. عبد الحسين شعبان

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية، ٢٠٠٤، ٩٦ صفحة



يحمل هذا الكتاب الذي يعد رائداً من حيث موضوعه، رؤية مفكر عربي متميز وواحد من أبرز نشطاء المجتمع المدني العربي، حول قضية مهمة، وهي إصلاح جامعة الدول العربية ودور منظمات المجتمع المدني.

وقد جاءت فصول الكتاب لتكشف بعمق ورصانة أزمة جامعة الدول العربية وسبل الإصلاح، والعلاقة بين السيادة ومنطق التدخل الإنساني في زمن العولمة، وقضية الشراكة بين المجتمع المدني العربي وجامعة الدول العربية، لتلبي حاجات العقل العربي إلى اكتشاف سبل جديدة وناجحة لتكريس قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان من المحيط إلى الخليج.

يؤكد د. شعبان أنه لا يمكن الخروج بالجامعة العربية من أزمتها وتفعيل دورها، إلا بوجود مجتمع مدني نشط وحيوي، إضافة إلى خطط الإصلاح السياسي والقانوني والإداري سواء في كل بلد عربي أو على المستوى القومي، فضلاً عن إعادة النظر في ميثاق جامعة الدول العربية وتكييفه ليستجيب للتطورات الدولية الراهنة، وكذلك لتطور الفقه القانوني الدولي ومواثيق حقوق الإنسان.

ويوضح الكتاب أن قضية الحرب على العراق في ٢٠ مارس ٢٠٠٣ طرحت إشكالية خطيرة تتعلق بتعاطي الجامعة مع قرار الحرب، وجاء تنديد بعض الدول والجهات بالجامعة وأمينها العام وتحميلها ما لا طاقة لها به، ليؤكد أن مطلب الإصلاح أصبح مطلباً ضرورياً، خاصة أن البعض حاول ترويج فكرة غير صحيحة وكأن الجامعة هي المسئولة عما حل بالعراق.

يشير الكتاب أيضاً إلى النقص الفادح الذي يعانيه ميثاق الجامعة في مجال المجتمع المدني وحقوق الإنسان، والذي يتطلب معالجته في أسرع وقت.

والكتاب في مجمله يستهدف فتح أبواب النقاش حول مسائل الإصلاح والتحديث وقضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان والمجتمع المدني، خصوصاً أنها أصبحت مطروحة على نطاق واسع، ولم تعد مسئولية الحكام وحدهم، بل أصبحت من خلال مبادئ الشفافية والحكم الصالح والشراكة من مسئولية المجتمع المدني ومؤسساته والمثقفين ودعاة الحداثة، ولا أحد يعفي نفسه من المسئولية أو يتنازل عنها، فالتغيير يدق على الأبواب بقوة، وإن لم يكن سلمياً أو تراكمياً أو تدريجياً ضمن استراتيجيات واضحة ومحددة، فقد يأتي عاصفاً ومدوياً وملتبساً.

نجيب محفوظ.. وطني مصر حوارات مع محمد سلماوي

القاهرة: دار الشروق، ١٠١ صفحة



تعتمد مادة هذا الكتاب على حوارات ممتدة بين كاتب نوبل العربي الشهير نجيب محفوظ، وصديقه الصحفي والأديب محمد سلماوي، وهي حوارات استغرقت أكثر من ٤٠ ساعة مسجلة، يتحدث فيها محفوظ عن مصر التي يعرفها أكثر من أي شخص آخر، يعرف تاريخها وحضارتها وناسها الذين يسكنون الحواري والأزقة في المدينة القديمة، والذين تمتلئ بهم رواياته، كما يعرف أيضاً مشاكلها الحقيقية من الأزمة الاقتصادية إلى التطرف والإرهاب.

ومع انتماء سلماوي لجيل آخر في الثقافة المصرية، فإن هذا الاختلاف يولد شرارة حديث شيق بين الرجلين.

في أولى صفحات الكتاب، يلتقي الحوار بين الرجلين الأضواء على فترة تكوين نجيب محفوظ من خلال كلامه هو شخصياً عن عالمه الخاص في حي الجمالية الذي ولد فيه وتعرف من خلال مبانيه القديمة على شخصية مصر الحضارية وتاريخها العريق، وكان له الأثر الكبير في تكوين شخصيته الأدبية.

وفي حوارات تنساب بهدوء وهي تفجر الأضواء عن جوانب شخصية نجيب محفوظ كإنسان قبل أن يكون أديباً، تكشف فصول الكتاب أفكار نجيب محفوظ عن القاهرة الإسلامية، وكيف أنه يعشق الأحياء المملوكية والأيوبية والفاطمية بشكل خاص، وكيف تشرب بروحها وتمثل كل جوانبها المختلفة، واستخدمها كمسرح لأحداث رواياته.

تطرح الحوارات أيضاً آراء محفوظ في عوالم السياسة والدين والثقافة، وعلاقته بثورة ١٩١٩، وثورة يوليو ١٩٥٢، والعلاقة مع إسرائيل والسعي نحو السلام، والهجوم الإعلامي الذي لاقاه نجيب محفوظ في هذا الخصوص، كما تطرح الحوارات أيضاً آراء محفوظ في المرأة وكيف أثرت الأم في حياته وعلى شخصيته وطريقة نظرته للحياة، وكذلك علاقته بابنتيه فاطمة وأم كلثوم وكيف يتعامل معهما بديمقراطية.

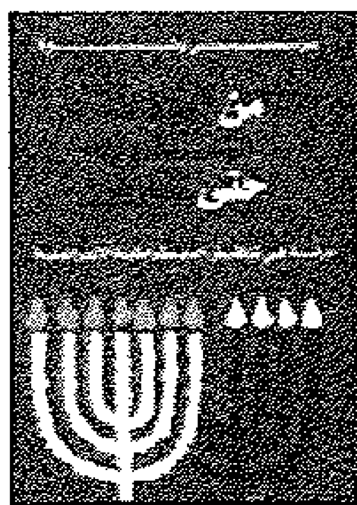
والكتاب بصفة عامة هو جولة ممتعة في ثنايا شخصية نجيب محفوظ وفي آرائه السياسية في مختلف القضايا.

وقد أختير هذا الكتاب كأفضل كتاب في شهر ديسمبر ١٩٩٦ في نادي الكتاب الفرنسي.

من يهودية الدولة حتى شارون

عزمي بشارة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ٢٩٠صفحة



يقدم هذا الكتاب مساهمة بحثية مهمة في تحليل إشكاليات وتناقضات نظام الحكم في نقاط تقاطع السياسة مع الاقتصاد والأيديولوجية السائدة في إسرائيل.

يكشف الكتاب تناقضات الديمقراطية اليهودية بشكل عام وعلاقة الدين بالدولة، وقضايا المواطنين العرب في الكيان الصهيوني، بالإضافة إلى أنه يقدم بشكل مختلف وجديد طبيعة إسرائيل الكولونيالية.

وبشكل ديناميكى تتناول أبواب الكتاب الخارطة الإسرائيلية وتطورها بشكل يجسد التناقضات التى يحفل بها المجتمع الإسرائيلى، كما يتطرق الكتاب إلى الاقتصاد والنموذج الإسرائيلى للتفاعل مع العولمة.

يختلف الكتاب عن غيره فى أنه لا يقدم تحليلاً تاريخياً للصهيونية، ولكنه يتعامل معها كفعل سياسى اجتماعى، ويشخص إشكالياتها الأساسية، فهو يقدم رؤية من الداخل للمجتمع الإسرائيلى، منتقداً فى نفس الوقت العديد من الآراء المسبقة الخاطئة حول إسرائيل والمنتشرة عربياً.

ومؤلف هذا الكتاب هو الدكتور عزمى بشارة الحاصل على درجة الدكتوراة فى الفلسفة، وعضو الكنيست الإسرائيلى، والمناضل القومى وصاحب المواقف الوطنية ضد السياسة الإسرائيلية.

وهو فى هذا الكتاب يقدم حصيلة بحث وتجربة طويلة يمكن اعتبارها تجمع بين النظرية الاجتماعية والفلسفة والمراقبة الميدانية التى تضاف إلى الجهد النظرى الذى بذله المؤلف، والذى يستهدف من كتابه هذا - كما يقول هو - تفكيك ونقد وإعادة تركيب جوانب أساسية فى المجتمع والسياسة الإسرائيلية تمكن من نقد شامل مبنى على المعرفة لهذا المجتمع.

وصف مصر فى نهاية القرن العشرين

د. جلال أمين

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٢٣٧ صفحة



يقدم هذا الكتاب تصويراً بارعاً لما آل إليه المجتمع المصرى فى نهاية القرن العشرين، فى الاقتصاد والسياسة والتعليم والثقافة والإعلام، وفى العلاقات الاجتماعية، بما فى ذلك العلاقة بين الطبقات وبين الناس والحكومة، وبين المسلمين والأقباط.

يوضح الكتاب كيف قلبت سياسة الانفتاح الاقتصادى الكثير من ثوابت المجتمع المصرى وكيف كان لها تأثيرات عديدة على ازدهار الثقافة الوطنية واستقلالها وعلى درجة العدالة فى توزيع الدخل القومى، وعلى أنماط السلوك والعلاقات الاجتماعية السائدة، وعلى قدرة المجتمع المصرى على الإبداع الناتج عن ثقافته الخاصة وشخصيته المتميزة، وكذلك على استقلال الإرادة السياسية للأمة.

وبتحليل علمى دقيق وموسوعية ثقافية يتميز بها د. جلال أمين، تتوالى فصول الكتاب ما بين نقد النموذج اللبنانى فى الانفتاح الاقتصادى والذى اختفى فيه دور الدول، وكيف أصبح النموذج المصرى نسخة مكررة منه تقريباً.. إلى استعراض ظاهرة العمارات الجديدة المنهارة، باعتبارها عينة عشوائية لما يحدث فى المجتمع المصرى منذ تطبيق سياسة الانفتاح.

كما تولى فصول الكتاب اهتماماً كبيراً بالتأثيرات الثقافية لسياسة الانفتاح على المجتمع المصرى، وكيف تغيرت الكثير من إيجابيات العقل المصرى من الإنتاج إلى الاستهلاك، وكيف ظهرت أنماط جديدة من القيم والسلوكيات السلبية أصبحت منتشرة فى شوارعنا ومؤسساتنا المختلفة.

والكتاب فى مجمله رحلة داخل دهاليز المجتمع المصرى يرصد أحوال فئات كبيرة من المصريين فى أسلوب معيشتهم فى مباريات الكرة، وفى قرى الساحل الشمالى، وداخل عربات المترو.. وغيرهما.

ويتحدث الكتاب أيضاً عن الحجاب والنقاب، ونظرة المجتمع إلى المرأة، وعن العنف الدينى سواء بالسلاح أو بالمناظرات السياسية وتكفير الناس، وعلى ازدياد العنف فى الصعيد الذى يعامل من حكام القاهرة على مدى أكثر من نصف قرن معاملة ظالمة ومجحفة.

يتجول الكتاب أيضاً فى نظامنا التعليمى ويكشف سلبياته ونفاقه إلى درجة تقديس الحاكم، وتبجيل سياساته دون إعطاء الطلاب الفرصة لمناقشتها بموضوعية: بإيجابياتها وسلبياتها.

كما يشتمل الكتاب كذلك على الكثير من النقد لوسائل الإعلام، وحياتنا السياسية والاقتصادية ويفرد صفحات عديدة بعنوان دليل «الرجل الذكى إلى بيع القطاع العام»، يربط فيها ما بين السياسة والاقتصاد، ليكشف بوضوح كيف تدار الثروة الوطنية فى مصر لصالح فئات معينة.

التسلح ونزع السلاح والأمن الدولى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ١٢٠٠ صفحة



يقدم مركز دراسات الوحدة العربية فى هذا المجلد الطبعة العربية من كتاب معهد ستوكهولم لأبحاث السلام الدولى «سيبرى»، وذلك بالتعاون مع المعهد السويدى بالإسكندرية.

يوجه هذا الكتاب - وهو الخامس والثلاثون - اهتماماً خاصاً إلى أحداث سنة ٢٠٠٣، والتى يغطيها بمعلوماته وتحليلاته وتعليقاته على التطورات فى مجالات الأمن السياسى والمؤسسى والحد من التسلح وحظر انتشار السلاح فى جميع أنحاء العالم.

كان الحدث الأبرز هو الغزو الأمريكى للعراق واحتلاله، وما طرأ على ذلك من تداعيات أهمها أو أكثرها تأثيراً: ميلاد المقاومة العراقية ونموها وتصاعد دورها.

إن موضوع احتلال العراق يطرح ذاته فى هذا الكتاب السنوى بقوة مهيمنة تجلت فى إفراد المقدمة له، وهى مقدمة شاملة جاءت لتسليط الضوء على عدد كبير من قضايا التسلح ونزع السلاح وسياسة الأمن الدولى من جوانب عديدة، وصولاً إلى استخلاص الدروس العامة للحد من انتشار السلاح.

وما يميز تناول معهد سيبرى عن غيره من التقارير السنوية التى تصدرها مراكز أخرى هو تفوقه فى رصد المعلومات الاستراتيجية والسياسية والدبلوماسية والأمنية، ثم تفوقه فى تحليلها بدرجة عالية من الدقة والموضوعية. ولعل ذلك هو ما ينشده القارئ العربى فى هذه المرحلة الحرجة من تاريخنا.

الأصولية اليهودية فى إسرائيل «الجزء الثالث»

إسرائيل شاحاك - نورتون منير فينسكى

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤، ١١٧ صفحة



يلقى هذا الكتاب الضوء على الدور الذى تلعبه الأصولية اليهودية داخل إسرائيل، وكيف أصبحت خلال السنوات الأخيرة عنصراً أساسياً فى صنع القرار الإسرائيلى: سواء فى الاستمرار فى سياسة الاستيطان أو التمسك بالترسانة النووية أو التطرف فى رفض السلام العادل فى المنطقة وإهدار الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى.

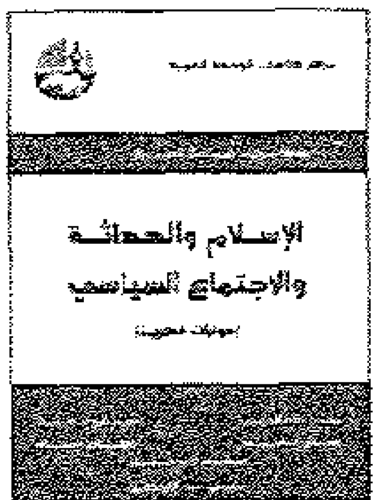
والكتاب بأجزائه يقتفى التاريخ اليهودى وتطور الأصولية اليهودية على أسس الشعب المختار، وأرض الميعاد، ومجىء المسيح، كما يقدم رؤية هؤلاء الأصوليين اليهود للآخر، والمرأة، والديمقراطية، وقيم الحضارة الغربية، وهى قضايا تكتسب أهمية خاصة فى هذه المرحلة، خاصة بعد أن ارتفعت أصوات عدد كبير من مفكرى وكتاب الولايات المتحدة الأمريكية، بأن حضارتها وحضارة الغرب قائمة على أسس يهودية مسيحية.

وفى هذا الجزء الثالث من الكتاب، يكشف المؤلفان أسراراً بالغة الأهمية حول المذبحة التى ارتكبها المتطرف اليهودى باروخ جولد شتاين داخل الحرم الإبراهيمى حينما أطلق النار على المسلمين الذين كانوا يصلون صلاة الفجر فى صحنه فقتل العشرات منهم وأصاب ضعفهم، حتى تمكن منه المصلون، وقتلوه، ثم كيف اعتبره الأصوليون اليهود بعد ذلك قديساً وشهيداً وشفيعهم فى الفردوس، لأنه فعل ذلك - من وجهة نظرهم - باسم الله.

ويستعرض المؤلفان أيضاً فى هذا الجزء، مصرع رئيس الوزراء الإسرائيلى اسحق رابين الذى أطلق عليه أحد المتطرفين اليهود ويدعى إيجال عامير النار مستنداً إلى أحكام الشريعة التى يؤمن بها، وهى ضرورة قتل الواشى.

الإسلام والحداثة والاجتماع السياسى.. حوارات فكرية أجراها عبد الاله بلقزيز

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ١٤٧ صفحة، ٦ دولارات



يتضمن هذا الكتاب حوارات فكرية أجراها عبد الإله بلقزيز مع كل من: محمد عابد الجابرى ورضوان السيد وهشام جعيط ووضاح شرارة وعلى أومليل، متناولاً جملة من أهم القضايا الفكرية التى اشتغل عليها التأليف العربى المعاصر فى العقود الثلاثة الأخيرة كالحداثة، والدولة والمجتمع، والدينى والسياسى، والثقافى والمثقف، والاستشراق، والديمقراطية والاختلاف، والوحدة والانشقاق فى التاريخ العربى.

يجمع بين هذه الحوارات تناولها لموضوعات مترابطة يفضى بعضها إلى بعض، وانطواؤها على نفس فلسفى عُرف به المفكرون الخمسة الذين أجريت معهم هذه الحوارات، وإن كان أكثرهم من ذوى اختصاص آخر لم يقطع صلتهم بالفلسفة، كما تجمع بينها القيمة العلمية الرفيعة لإنتاج هؤلاء المفكرين.

إنها حوارات شاملة تأخذ مداها فى استنطاق المادة الفكرية التى أنتجها أصحابها بأسئلة تطل على معظم ما الفوه من بداية عقد التسعينيات وحتى مطلع هذا القرن عارضة على القارئ غناها فى اختلافها، وتنوع مقارباتها، ومنطلقاتها النظرية.

محمد لطفي جمعة.. انظر حولك في تشاؤم!

في المناخ السائد منذ أكثر من نصف قرن، بسبب ماران على البلاد من استبداد امتص العافية والصحة والحيوية، وداس على الصدق والأمانة والقيم، وشوه المفاهيم بالأكاذيب وعملق الأقزام وقزم العمالقة.. يصبح من الطبيعي أن يتضاعف الجهل وتتقهقر الأسماء العظيمة في زوايا النسيان المتعمد، خدمة للسطحية والتفاهة والارتزاق. وينسى كاتب مجيد مثل محمد لطفي جمعة (١٨ يناير ١٨٨٦ - ١٥ يونية ١٩٥٣). ولولا جهود ابنه رابح في إصدار إبداع أبيه المتنوع، لأصبحت الجريمة كاملة.

ويساق الحديث عن أديبنا بمناسبة ظهور الجزء الثاني الضخم من كتابه «شاهد على العصر مذكرات محمد لطفي جمعة» ويقع في ٨٨٠ ص من القطع المتوسط في عام ٢٠٠٢.

ويتسم هذا الجزء من المذكرات بالتشاؤم والسوداوية في الرؤية إلى البشر والأشياء والمجتمع والمستقبل أيضاً. وترجع هذه المرارة التي تغرق في اليأس.. إلى إحساس صاحبها أنه لم يقدر حق قدره وأن الغبن ظلمه. وهذه الحالة النفسية أفسدت على محمد لطفي جمعة الكثير من أحكامه على الأفراد والجماعات والوطن، وجعلته يرى نصف الكوب الفارغ. ساعد على ذلك أنه لم يصارح نفسه بأخطائه، وأكبرها انضمامه إلى أحد أحزاب الأقليات التي بلا جذور شعبية وإنما تعتمد في وجودها على الملك والإنجليز وتزوير الانتخابات، وهو الحزب السعدي برئاسة أحمد ماهر. ومن المؤسف أن هذا الحزب نفسه هو الذي خذله ولم يحقق له طموحه في أن يرشحه لمجلس النواب.. ووصل به الحال إلى أن يمتن على وطنه بجهاده السابق في سبيله!

ولتغطية موقفه من حزبه الفاسد، يصم كل الأحزاب بلا استثناء بالفساد، ويصم كل الانتخابات منذ بدايتها سنة ١٩٢٤ إلى عام ١٩٤٥ التي كتب فيها يومياته.. بالتزوير، نكاية أيضاً بحزب الوفد الذي يكرهه مفكرنا كراهة التحريم. يكتب في الثلاثاء ٩ يناير ١٩٤٥: «أمس كان الانتخاب العام للبرلمان الجديد وهو انتخاب «مطبوخ» مثل كل انتخاب من سنة ١٩٢٤». (ج٢ - ص ٣٢٠).

شاهد على العصر
مذكرات محمد لطفي جمعة
تقديم ومراجعة: رابح لطفي جمعة
القاهرة: عالم الكتب ٢٠٠٢ الجزء الثاني، ٨٨٠ ص

والإحباط الكثير والتشاؤم المتدافع واليأس المرير تتراكم في المذكرات عن أحوال مصر خاصة في فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها، بينما هي في الواقع من أزهر صفحات اليقظة في تاريخنا الحديث. ويرجع السبب المباشر في ذلك، بجانب حزنه لتجاهل المجتمع له - إلى أن مفكرنا وقد اقترب من الستين.. ابتعد عن نبض الشعب وكفاح شبابه، بحكم اندماجه في مجتمع جيله الذي شاخ هو الآخر وكثر فساده.

إن السوداوية بسبب ضيقها بالنفس والعالم، تنساق إلى التعميم الشديد وتجعل الاستثناء قاعدة، وتطمس المعالم الإيجابية حتى لا تكشف ما تحمل هذه السوداوية من هبوط وافتعال وتشويه.. وهكذا فعل كاتبنا الكبير.. فإذا الحياة كلها في مصر فاسدة منحطة لا أمل معها في شيء!

وتتراوح اليوميات بين سطر واحد إلى عدة صفحات بحيث تتحول إلى مقالات طويلة ليس فيها من روح المذكرات شيء، وقد أثقلت هذه المقالات المذكرات التي ضلت طريقها إليها وبعثت الملل، خاصة وهي تكرر نفس الموضوع السياسي، وأكثرت من عدد الصفحات بلا ضرورة وبعضها نشره الابن لأبيه كمقال مستقل في الصحف، مثل «الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط وفكرة الفرعونية»، من مذكرات عام ١٩٤٣ وشغل ست صفحات من ص ٢٠٤ - ٢٠٩!

وأهمية شاهد العصر أنه يملك بحكم نظرته أدق التفاصيل، التي يمكن أن تغيب عن المراجع. ومذكرات محمد لطفي جمعة زاخرة بذلك والتي تنفث الحياة في الأيام الخوالي.

ومن الأشياء التي يقود إليها صدق المذكرات.. صور الضعف الإنساني في شكل صريح أو ضمني، ومهما حاول صاحبها تبريرها فهي تعلن عن نفسها. وتظهر جلية عندما يخفق محمد لطفي جمعة في مسعى أو يتعرض لنقد. من الأولى تألمه وغضبه لعدم استجابة الحزب السعدي، ومفكرنا من رجاله أيام رئاسة أحمد ماهر للوزارة، لرغبته في ترشيح نفسه لمجلس النواب.. وإذا هو بين إدانتهم والتقرب منهم. ومن اللون الثاني عنفه الغاضب إزاء نقد المستشرق «جب» له.

ومذكراتنا حافلة بخفايا الحياة الفكرية وكثير منها في حكم المجهول، مثل السرقات الأدبية أو ادعاء تأليفها. كقيام أحمد طلعت (زوج الشاعرة الإنجليزية فيليس) بكتابة بعض مؤلفات أحمد الصاوي محمد - رئيس تحرير «الأهرام» الأسبق والأديب المشهور - غير الأدبية مثل «الوحش الأصفر».. لقاء أجر! (ص٣٢٢). ووضع فتحي زغلول اسمه على الكتاب الذي ألفه محمد عمر الموظف بالبريد على كتابه «سر تأخر المصريين»! (ص٣٢١).

وتتضمن الخفايا المباذل أيضاً، كقيام كامل الشناوي وقبله حافظ إبراهيم ليس بدور السمير للكبراء فحسب بل بدور المهرج أيضاً. كما كانا يفعلان في حضرة محمد محمود باشا وغيره! (ص٧٥٤ - ج٢).

وإذا كانت كتابات محمد لطفي جمعة المختلفة تسعى إلى الموضوعية، فهو في مذكراته يسقطها تماماً من حسابه. هل يكتبها لنفسه ولا يعمل حساباً لنشرها؟ - وإذا آراؤه في ظل السوداوية تشوه الآخرين متعمدة، معتمدة على ملامح دون أخرى فيما يتناول يظنها تساعده في التشكيك. ولنتمثل هنا بشخصية واحدة من عديدات أدبية وسياسية وهي توفيق الحكيم. يكتب مفكرنا في يومية ٣ مايو سنة ١٩٤١: «إن جمود قريحة الأستاذ توفيق الحكيم أمر لا شك فيه، فإنه لم يبتكر شيئاً بل عاش على إنتاج الأقدمين والجدد، مثال ذلك أنه انتحل قصة أهل الكهف كما وردت في القرآن وتاريخ جيبون وكتاب Looking Backward، ثم اتخذ اسم شهرزاد وصنع قصته وكتاب البخلاء وغيره ووضع كتاب «تاريخ معدة» وحياة الرسول ووضع كتاباً، وقصة تمثيلية فرنسية اخترع منها «المنتحرة»، ثم سرق قصة «نهر الجنون» ونسبها لنفسه وهي بالإنجليزية في دائرة المعارف لتشامبرز قرأتها بنفسي..». (ص٩٦ ج٤).

ويسقط صاحب المذكرات متعمداً للحكيم أعمالاً أخرى ظهرت إلى وقتها: «عودة الروح، يوميات نائب في الأرياف، عصفور من الشرق، تحت شمس الفكر، عهد الشيطان، براكسا ومشكلة الحكم، حمار الحكيم، سلطان الظلام» وغيرها!

والمذكرات الشخصية كي تثمر فائدتها تحتاج إلى صراحة مطلقة تتصل بحياة صاحبها بالدرجة الأولى، ولكنها ليست كذلك عند كاتبنا.. فهي مقيدة. وقد أرادها كذلك منذ البداية، ولذا فإن مساحة القول في العالم الخارجي المتصل بالآخرين وكشفه. من وجهة نظره التي تخالف الآراء السائدة - أكبر. يرى أن أسوأ ما قدم أحمد شوقي - أمير الشعراء - في دنياه رعايته لمحمد عبد الوهاب! ويلجأ صاحب المذكرات إلى طريقة طريفة في قراءة الكتب ذات الأحجام الكبيرة ومئات الصفحات كرواية توماس مان الحائز على جائزة نوبل «بودنبرو» ٩٠٠ صفحة. «فتحاملت على نفسي لأقرأه فتركت بضعة فصول في أوله ووجدت فصلاً يحسن الابتداء به»! (ص ١٦٩ - ١٧٠ ج٢).

وبالرغم مما هو معروف عن سعة أفق محمد لطفي جمعة ودراسته في الخارج ومعالجاته المتنوعة لقضايا المجتمع المغلقة، إلا أنه في مذكراته لم يكن في مستوى الصراحة التي تتطلبها كتابة المذكرات الشخصية، مما انتقصت من تناوله في نواح كثيرة وهو يترك علامات استفهام عديدة بلا إجابة. والمتلقي الذي أقبل على المذكرات ظناً أن مثقفه الكبير يستهدي روح البوح الحقيقية كما في الآداب الأجنبية التي درسها، فقد أخطأ. فشجاعة أو صراحة كاتبنا لم تمكنه من هذا المدى. فمع شدة نقده لقضايا المجتمع والأعمال الأدبية والفكرية، فلا يزال في كتابة المذكرات رجلاً شرقياً. وتقود هذه السمة إلى أخرى تنبعث من تكوين الكاتب العربي - إلى اليوم.. وهي البون الكبير بين القول والفعل عنده، التي هاجمها محمد لطفي جمعة نفسه كثيراً(!) فمع كل الحديث عن الوطن والتضحية في سبيله بالنفس والنفيس والمال والولد، فهو يرفض لابنه التجنيد في الجيش ويدفع له «البدلية» التي كانت سائدة. وهي مبلغ نقدي - عشرون جنيهاً سنة ١٩٤٧! (ص٧٩٠ ج٢).

ومع الجهد الكبير الذي بذله رابح جمعة، إلا أن القارئ افتقد غياب منهجه في نشر مذكرات أبيه، وعلى أي أساس جاء وعلة الموقف الذي اتخذه. ففصول اليوميات كلها بلا استثناء كما تدل عناوينها، ليست هي «كل» المذكرات بل بعضها فهي «من يوميات سنة».. فهل جاء ذلك في الأصل بقلم صاحبها؟ أم بتحرير ابنه؟ وإذا كان الثاني فماذا ألغى؟ ولماذا؟

وبعد الزمن والأحداث والشخصيات، وتكاثف الجهل في ظل حكم الفرد، تجعل من الماضي - من نصف قرن - ألغازاً تحتاج للقارئ العادي وربما غير العادي أيضاً إلى التفسير، ومن ثم إلى المزيد من الاستعانة بالهامش، خاصة في ظل غياب كتابات محمد لطفي جمعة سنوات طويلة عن نظر المتلقي.

علاء الدين وحيد

فى مواجهة الأمركة

د. محمد أحمد النابلسى
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٤، ٢٠٤ صفحات



يبين هذا الكتاب أن حقيقة الأمركة هى فعل اعتداء ناجز، ومخالفة صريحة للشرعية الدولية والأخلاق، وسطو على ثروات الآخرين لإنقاذ الشركات الأمريكية المفلسة، كما أنها تجعل المواطن الأمريكى يعيش أزمة اقتصادية وعجزًا فى الميزانية، وتهديداً لمدخراته ورخائه وتعويضات تقاعده.

يقدم المؤلف فى كتابه مقترحات لمواجهة الأمركة، من خلال كشف حقيقة الديمقراطية الأمريكية الموعودة، بمراجعة نقدية لمشاريعها وخلفياتها وطموحاتها وأدواتها، وترجمة نصوصها إلى العربية ووضعها أمام القارئ العربية بقراءة نقدية لها، كما يقدم المؤلف دراساته لعدة كتب تلعب دوراً مهماً فى صنع القرار الأمريكى، وفى تحرك المخابرات الأمريكية فى بلادنا، مثل: نهاية التاريخ، ونهاية الإنسان، والمخابرات فى سوق الثقافة، واستندت هذه الدراسات أيضاً إلى تحليل لتحركات الإدارة الأمريكية السياسية، ولجماعات المجتمع المدنى المصطنعة فى مختبرات وكالة المخابرات الأمريكية.

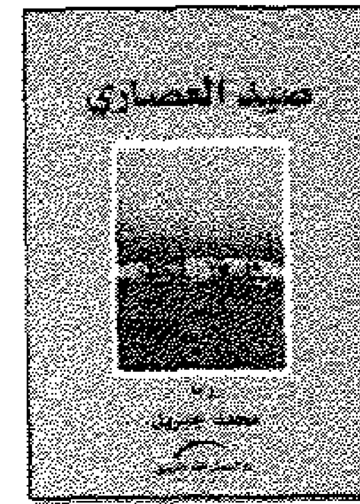
يتوقع الكتاب عودة الاستعمار، ويشرح أهداف الحرب الاستباقية التى تتبناها إدارة بوش، وتغيير الخريطة العربية، والمقاومة الشعبية ضد الأمركة، والقطب الصينى البديل، ويقدوم زمن الفوضى الأمريكية وأزمتها الاقتصادية، وانتهاكاتها للقانون الدولى. كما يناقش الكتاب مشروع بوش للعالم بعد أحداث ١١ سبتمبر وذيولها، واعتماده سياسة الأحلاف العسكرية، ويبين حقيقة المسيحية الصهيونية، وخصوصيات الأمركة الثقافية وكيفية اصطدامها بالخصوصيات الثقافية لبلدان العالم.

ويرى الكتاب أنه بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، ترجمت الولايات المتحدة الأمريكية تفردها كقطب واحد، بحرب العراق الأولى، ثم طرحت بعدها النظام العالمى الجديد، ثم جاءت بقضية عولمة اقتصاد السوق الأمريكية، كما عدلت فى استراتيجية حلف الأطلنطى كى تملك حق التدخل بالمناطق التى ترى فيها تهديد مصالح لدول الحلف، وهذه الذريعة هى التى استخدمها جورج بوش بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ ليشن حربه على ما يسميه بالإرهاب، ثم على العراق متجاوزاً الأمم المتحدة، وهو ما يعتبره مشروعًا لأمركة العالم.

كما يقرأ الكتاب مستقبل المنطقة العربية على ضوء ذلك الهوس الأمريكى.

صيد العصارى

محمد جبريل
القاهرة: دار البستانى للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ١٤٤ صفحة



«صيد العصارى» مثل سابقتها «حكايات الفصول الأربعة» قصة متوسطة الطول، تقع على نقطة ما من الخط الممتد بين الرواية والأقصوصة. وهى شكل أدبى صعب، برع فى معالجته محمد جبريل، ومن أبرز نماذجه فى الأدب العالمى والعربى «موت فى البندقية» لتوماس مان، و«الدب» لفوكنر، والمسخ لكافكا و«قنديل أم هاشم» ليحيى حقى.

هذا العمل الذى تربطه وشائج قوية بأعمال جبريل السابقة «الشاطئ الآخر» و«زمان الوصل» و«زونية»، يواصل البحث من - زاوية جديدة - فى القضية التى ما برحت تشغل بال جبريل فى إبداعاته الأدبية الأخيرة: قضية الهوية القومية، ومعنى الانتماء ومتضمنات المواطنة فى وجه الأجنبى الغريب. ها هنا جدل خصب - بلغة الفن - بين الأنا والآخر، يتجسد فى شخصيات رسم الكاتب أبعادها النفسية والجسمية والاجتماعية بضربات سريعة من فرشاته «فراوى القصة صلاح بكر وهو أديب شاب وكاتب شبح يكتب ما ينشر باسم غيره، والدكتور جارو فارتان الأرمنى طبيب الأمراض الباطنة والقلب، ونورا بابا جيان المصرية من أبوين أرمنيين التى تعد رسالة ماجستير عن مذابح الأرمن على أيدى العثمانيين خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها، بالإضافة إلى شخصيات أخرى هامشية تدور فى أفلاكهم مقتربة تارة ومبتعدة تارة أخرى.

تدور الأحداث فى الإسكندرية فى فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها، حيث الانتماءات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعقائدية تدمدم تحت السطح كزلازل أرضية مكتومة.. وعلى هذا المسرح الساخن تدور دراما الشخصيات، إزاء خلفية من الأحداث العامة فى «عالم غريب معقد مربك من الصعب تغييره».

يهود مصر من الازدهار إلى الشتات

محمد أبو الغار
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٤، ٢٤٦صفحة، ١٥ جنيهًا



يعيش اليهود فى مصر منذ زمن سحيق.. فحسب ما هو مسجل فى الكتب السماوية، فإن اليهود طردوا من مصر فى تاريخ يزيد على ألف عام قبل الميلاد. ويشير علم التاريخ الحديث إلى أنه كان لليهود تواجد دائم فى مصر منذ القرن التاسع الميلادى.

يتناول الكتاب فى بدايته انقسام اليهود المصريين إلى طائفتين حسب الانتماء الدينى: طائفة الربانيين وهى الأغلبية ويؤمنون بالأسفار التسعة والثلاثين من التوراة «العهد القديم» بالإضافة إلى التلمود، والطائفة الثانية هى طائفة القرائين وهى أصغر حجماً وأقل نفوذاً ويؤمنون فقط بالتوراة.

وقد لعب اليهود دوراً مهماً فى مصر الحديثة، والتى يمكن أن يعد قدوم الحملة الفرنسية نقطة بداية لها. حيث وصل عددهم فى مصر إبان حكم محمد على إلى حوالى ٩ آلاف يهودى، وبدأت أعدادهم فى التزايد مع استمرار مناخ التسامح معهم وحصولهم على فرص كبيرة لتكوين الثروات، حتى أصبح عددهم قبل عام ١٩٤٨ أكثر من ٧٥ ألف يهودى.

وفى حين لم يلعب اليهود السفارديم أو الإشكناز أدواراً مهمة فى حركة الثقافة المصرية، فقد برزت بعض الشخصيات اليهودية التى أثرت فى الثقافة المصرية تأثيراً ملموساً مثل يعقوب صنوع «١٨٣٩ - ١٩١٢» الذى انتقد الكثير من العيوب فى المجتمع المصرى بمنتهى الجرأة والشجاعة، وأهمها انتقاداته اللاذعة لاستبداد حكام مصر، ومثل المحامى مراد فرج الذى كان شاعراً وناقداً، فى نفس الوقت قام عدد من اليهود الأثرياء بتمويل عدد من المجلات والجمعيات الثقافية، منها مجلة «الكاتب المصرى» التى كان يرأس تحريرها د. طه حسين. كما حفلت الموسيقى والسينما بالعديد من الفنانين اليهود مثل داود حسنى وليلى مراد ومنير مراد وتوجو مزراحى ونجمة إبراهيم وكاميليا، ونجوى سالم وغيرهم.

ويفرد الكتاب صفحات طويلة لشرح الالتباس فى علاقة اليهود «الأشكيناز» أو «السفارديم» بالحركة الصهيونية وكيف عارض الكثير من اليهود الماركسيين وجود إسرائيل باعتبارها دولة عنصرية. فى حين أيدها فريق آخر منهم، وكيف خرج من عام ١٩٥٦ حتى ١٩٦٠ نحو ٣٦ ألف يهودى من مصر، وبقى من ٨ إلى ١٠ آلاف يهودى حتى نهاية الستينات خرجوا بعد ذلك تباعاً.

أما عن اليهود المصريين داخل إسرائيل، فقد عاشوا منذ عام ١٩٥٠ حتى ١٩٦٠ فى حالة عزلة وإهمال شديدين وكانوا يتولون أعمالاً تافهة ولا ينظر إليهم باحترام داخل المجتمع الإسرائيلى، ثم بدأت أوضاعهم تتغير عقب مفاوضات السلام بين إسرائيل ومصر وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد. حين بدأ هؤلاء اليهود المصريون يعبرون عن أنفسهم وعن الأيام السعيدة التى عاشوها فى مصر قبل هجرتهم لإسرائيل.

ويورد الكتاب أمثلة لقصص وروايات كتبها يهود مصريون فى إسرائيل، عن الحنين إلى الأيام التى عاشوها فى مصر وكيف هاجمها النقاد المنتمون إلى الحركة الصهيونية بعنف.

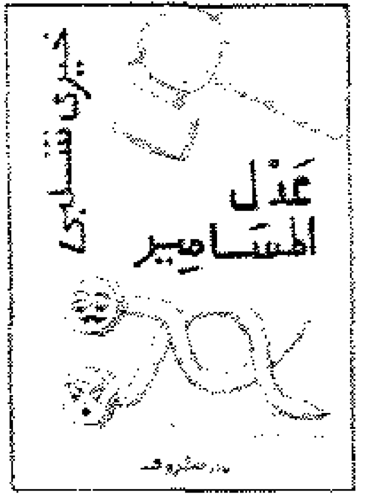
يضم الكتاب أيضاً حوارات أجراها المؤلف مع عدد من اليهود المصريين فى فرنسا منهم يوسف حزان وريمون استمبوللى وألبير أوديز وأندريه كوهين الذين ساهموا بدور بارز فى الحركة السياسية الشيوعية وغيرهم من اليهود الذين يعيشون فى أوروبا ولا يزالون يحلمون بالأيام السعيدة التي عاشوها فى مصر، وهم يرفضون الهجرة أو الاستقرار فى إسرائيل رغم أنهم زاروها عدة مرات.

وكما يقول باحثون يهود فإن وجودهم فى مصر كان يسرى عليه ما يسرى على المسلمين والأقباط، ويؤكد المؤلف أن اليهود خرجوا بأعداد كبيرة من مصر عام ١٩٥٦، ولم يخرجوا بعد حرب ١٩٤٨، لأنه فى خلال هذه السنوات - ما بين هاتين الحربين - شعر اليهود المصريون بأن الظروف السياسية والاقتصادية تغيرت فى غير صالحهم، ولم يصبحوا المميزين بين أفراد الشعب المصرى، وكان اشتراك إسرائيل فى العدوان الثلاثى ضربة نفسية قاصمة لأن هذا العدوان فك أواصر علاقتهم بالوطن لذا قرروا الهجرة، وقد ذهب أكثر من نصفهم إلى أوروبا والولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية وأستراليا، والأقلية ذهبت إلى إسرائيل وكانوا الفقراء والأقل تعليماً وبعضهم كان بدون جنسية.

عدل المسامير

خيرى شلبى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ١٤٠ صفحة



عبر ٢٣ قصة قصيرة تحويها هذه المجموعة، يأخذنا الأديب الكبير خيرى شلبى إلى عالمه الروائى الذى يتميز بثرائه بتفاصيله الدقيقة، وبتنوع شخصياته وبأحداثه التى تقلب حياة أبطاله وتضعهم على أول طريق الوعى بما حدث ويحدث فى حياتهم.

ففى قصته «عدل المسامير» التى أخذت المجموعة اسمها، تتحطم أحلام بطل القصة وهو طفل صغير عندما يحرمه أبوه تحت ضغط الفقر من التعليم، ويرسله إلى أحد النجارين فى بلدتهم لكى يتعلم صنعة.

ويبدأ الطفل مشوارد الجاد مع الحياة التى حرمته من حقه فى اللهو، ووضعته تحت يد المعلم صاحب المزاج ومدمن الأفيون الذى لا يتورع عن ضربه بمنتهى العنف والقسوة بالشاكوش أو علبة المسامير أو قطعة حديد، إلى الحد الذى قام بتعليقه من ذيل جلبابه المبروم بعد أن دقه بالمسامير فى لوح سقف خشبى كان يبنيه، وتركه هكذا معلقًا من قدميه وجسده يتطوح فى الهواء..

وتنتهى القصة بنهاية ذات دلالة موحية حينما يقول الصبى: إنه رغم مرور خمسين عاماً على هذه التجربة القاسية، فإنه لا يزال يشعر بأنه معلق فى الهواء من ذيل جلبابه.. قدماه مصلوبتان فى وجه السماء ورأسه يتدلى فى اتجاه الهاوية.

أحداث قصص المجموعة كلها لها طابع مصرى أصيل، ينسج من خلالها أديبنا الكبير خيرى شلبى، تفاصيل العذابات التى يواجهها أبطاله وأيضًا تفاصيل أفراحهم الصغيرة التى تبدو وكأنها تحيل حياتهم المتعبة إلى لحظات من السعادة الصافية تعوضهم عن شقائهم الطويل.

المجموعة كلها تشع بالبهجة وبالانتصار للحياة وسط أحداث سطرها المؤلف بقدرة وموهبة زادتهما خبرة السنين تألقًا ولمعانًا.

■

صور من الكفاح السياسى والدينى فى مصر الحديثة

المستشار: محمد سعيد الجمل

القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٤، ١٩٧ صفحة



يشرح هذا الكتاب فى جزئه الأول، التطور الدستورى الديمقراطى فى مصر منذ عهد الخديو إسماعيل فى منتصف القرن التاسع عشر وحتى ثورة ١٩١٩، وصدور دستور سنة ١٩٢٣، وانتخاب أول مجلس نيابى فى ظل الدستور الجديد.

يؤكد المؤلف أن هذا الكفاح الدستورى استمر طيلة حياة الزعيم سعد زغلول فى مراحل عمره الأخيرة ضد الملك والاحتلال البريطانى حتى وفاته فى أغسطس سنة ١٩٢٧.

وقد كان هذا الكفاح كما كشف عن تفاصيله هذا الكتاب، هو المحرك الحقيقى لنهضة الشعب المصرى فى كل مجالاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

أما الجزء الثانى من هذا الكتاب، فيوضح مدى الارتباط بين الكفاح الدستورى والتطور الدينى منذ رفاعة الطهطاوى وحتى جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده فى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، كما أشار الكتاب إلى أهم مدارس التطور الدينى خلال القرن العشرين، وأوضح كيف أن تعثر الإصلاح الدستورى كان ينعكس بدوره على الإصلاح الدينى، بما يؤدى إليه هذا التعثر من قيود عديدة على حرية الرأى والتعبير، وهى التى يتيحها عادة وجود إصلاح دستورى.

يؤكد المؤلف أن الإصلاح الدستورى والإصلاح الدينى هو مطلب النخبة المثقفة مهما اختلفت وتعددت مناهجها السياسية، فإن الكتاب يلقى الضوء على التطور الذى حدث فى كلا المجالين.

■

دوريات

الحياة التشكيلية

دمشق: وزارة الثقافة السورية.

العدد ٦٩

يستجيب هذا العدد من المجلة لهواجس الباحثين فى مجال الفنون، حيث يقدم محورها «علوم الفن» عدداً من مقالات النقد التشكيلى.

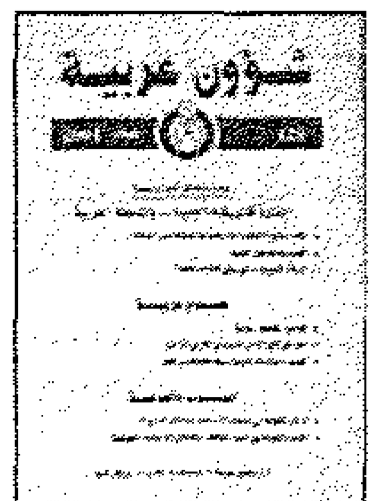
كما يحتوى العدد على حوار مع المصورة أسماء فيومى، بالإضافة إلى دراسة عن «الاستشراق الروسى فى القرن ١٩ وبداية القرن العشرين». ويلقى العدد الضوء على الفنان السعودى «طه الصبان» والفنان السورى «نزار علوش».

بالإضافة إلى مقال بعنوان «فيكتور هوجو.. رساماً». وفى العدد أيضًا مقال بعنوان الشخصية اليابانية فى الإعلان اليابانى المعاصر.

■

شئون عربية

القاهرة: جامعة الدول العربية، شتاء ٢٠٠٤، ٤ جنيهات



بدراسة بعنوان «ياسر عرفات ثائراً ورئيساً» افتتح هذا العدد من المجلة أبوابه التى حفلت بالموضوعات المتنوعة.. منها ملف عن «الإدارة الأمريكية الجديدة والمنطقة العربية» وشملت أربع دراسات لسعيد رفعت ود. محمد السيد سعيد ومحمد وهبى ود. السيد أمين شلبى.

وبالعدد أيضًا دراسة للدكتور سالم البيض حول دور العولمة فى أحداث ١١ سبتمبر واحتلال العراق.

ودراسة أخرى للدكتور أحمد ثابت بعنوان «العرب والعولمة ومخاطر التخطط الثقافى».

■

دبى الثقافية

الإمارات، يناير ٢٠٠٥، ٢٢٦ صفحة



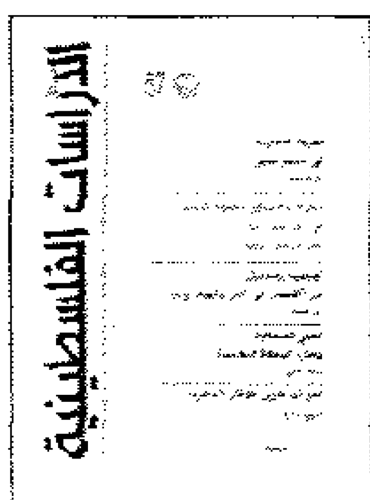
اشتمل هذا العدد على العديد من الموضوعات المتميزة التى تغطى المشهد الثقافى العربى بكافة ظلاله، منها تحقيق بعنوان «المسرح الإماراتى فى غرفة الإنعاش»، تناول المشاكل التى تواجه الإنتاج المسرحى فى الإمارات، وغياب النص وإحجام الجماهير عن ارتياد المسارح إضافة إلى دور جمعية المسرحيين.

واهتم العدد أيضًا بملف عن أحوال السينما فى مصر وسوريا والمغرب، بالإضافة إلى موضوع بعنوان: الروائيون قادمون فى العراق، وحوار مع الشاعر عبد الرحمن الأبنودى. وعلى نفس المستوى المتميز للعدد الأول، حفل هذا العدد بأبوابه الثرية بموضوعاتها، كان منها موضوع عن «أكل لحوم البشر» وجولة فى ثلاث مدن هى روما والشارقة وثلا اليمنية وموضوع ثالث عن «الزار»، ورابع عن الأشرار فى السينما المصرية وغيرها. وانفرد العدد بحوار مع فضيلة لعنان وزيرة الثقافة البلجيكية، المغربية الأصل.

■

مجلة الدراسات الفلسطينية

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، شتاء ٢٠٠٤، ١٩٢ صفحة



حول العراق وفلسطين وهموم الرواية العربية، نشر هذا العدد من المجلة آخر حوار مع الأديب الكبير الراحل عبد الرحمن منيف، وبالعدد أيضًا دراسة عن تجربة المقاومة فى مخيم جنين، ودراسة أخرى عن «التعليم الحريدى فى إسرائيل» وثالثة عن العلاقات النيجيرية الإسرائيلية.

■

Distant Star

(نجـــم بعيـــد)

Roberto Bolano

The Harvill Press:160pp, £ 10.99



فى هذا العمل الأسطورى، يحقق بولانو فى شأن العقلية الخاصة بالفاشية، وحدود الشر فى قدرته على التأثير على الحساسية الأدبية.

ولد روبيرتو بولانو فى سانتياجو، شيلى عام ١٩٥٣ وتوفى فى كاتالونيا عام ٢٠٠٣. ومن أعماله الأخرى فى ليلة فى تشيلى (٢٠٠٣).

وقد أشـادت به سوزان سونتاج بوصفه أكثر الروائيين تأثيرا و إثارة للإعجاب فى جيله فى العالم الناطق بالأسبانية.

Life after Theory

(نظرية الحياة فيما بعد)

Michael Payne and John Schad

Continuum: 208pp, £ 9.99, 2004

يعد هذا الكتاب إسهاما مفيدا لكل المهتمين بموضوع ما بعد البنيوية ونقد المتبقى منها.

يتكون الكتاب من سلسلة أحاديث مع جاك دريدا، فرانك كيرمود، توريل موى وكريستوفر نوريس.

وقد وصفت مجلة الفيلسوف هذا الكتاب المهم بالقول انه يتسم بالطزاجة، كما انه يتناول قضايا شديدة الحيوية ومثار جدل واسع بين المفكرين والفلاسفة فى أنحاء كثيرة من العالم، وأشارت إلى ان الكتاب يذكرنا بأصول التفكير فى أفضل حالاته.

يحاول الكتاب الإجابة عن بعض التساؤلات أهمها: إذا كان موت المؤلف قد تبعه الآن موت مؤلف النظرية، فماذا يتبقى إذن؟

The Face of Battle

(حقيقة المعركة)

John Keegan

Pimilco: 352pp, £ 8.99, 2004



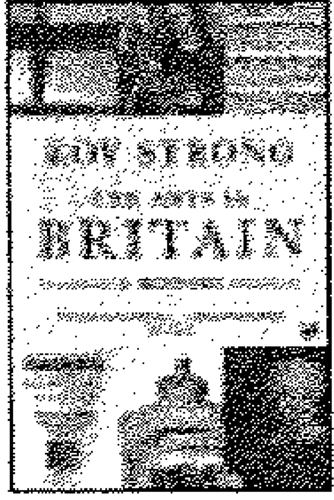
إن «حقيقة المعركة» هو تاريخ عسكرى مأخوذ من أرض المعركة: إنه يقدم نظرة على الخبرة المباشرة للأفراد عند «نقطة الخطر القصوى». إنه يختبر الشروط الجسدية للقتال، المشاعر والسلوكيات الخاصة التى تولدها المعركة، وأيضا الدوافع التى تجبر الجندى على الوقوف والقتال بدلا من الهرب. فى إعادة تقييمه لثلاث معارك هى أجنيكورت، ووترلو، وسوم، ينقل جون كيجان حقيقة ما جرى للمشاركين فيها. إن الكتاب بلا شك هو أحد أفضل الكتب التى نشرت عن حالة الحرب فى اللغة الإنجليزية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية..

Arts in Britain
A History

(تاريخ الفنون فى بريطانيا)

Roy Strong

Pimilico: 720 pp, £ 9.99, 2004



يعد كتاب الفنون فى بريطانيا مدخلا رائعا لكل فرد حيث يعرض لنمو وتطور الأدب والموسيقى والشعر، الفن التشكيلى والمعمارى، والمسرح وكل الموضوعات ذات الصلة بالفن والتى منحت عبر القرون الفكر البريطانى والحياة الثقافية شخصيتها وحيويتها الفريدة.

يعرض الكتاب أيضا بانوراما للقوى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأيديولوجية التى شكلت هذه الفنون. يأتى هذا الكتاب فى وقت يتغير فيه شكل أوروبا، موضحا كيف بقيت بريطانيا بعيدة ثقافيا عن بقية أوروبا وما العوامل التى ساعدت على وحدة الثقافة البريطانية؟

Modern British History.. The Essential A-Z guide

(التاريخ البريطانى الحديث.. الدليل الأساسى من الألف إلى الياء)

Mark Garnet and Richard Weight

Pimilco, 448 pp, £ 9.99, 2004

يعد كتاب التاريخ البريطانى الحديث من قبيل المسوح الشاملة المسلية والمثيرة للاهتمام، حيث يشمل الأحداث، الناس والأفكار التى صنعت الشعب البريطانى المعاصر.

قام بكتابة هذا الكتاب اثنان من كبار أساتذة التاريخ فى بريطانيا. فى مائتى مقالة، تشمل موضوعات غاية فى التنوع بدءا بالدعاية إلى حزب العمل الجديد، يكتشف الكاتبان التضافر الخاص بين نسيج كل من الثقافة والمجتمع والسياسة والاقتصاد فى الماضى القريب.

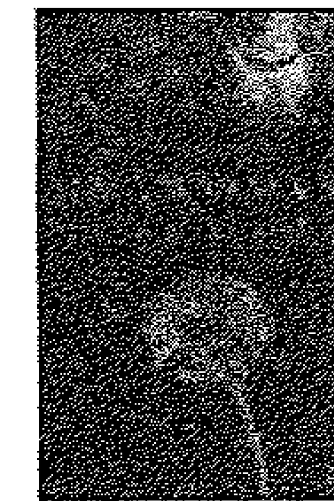
إن المقالات مدعمة بالمعلومات، وتقدم مداخلها بعض المجادلات ولكن فى ذات الوقت تمنح القراء الحقائق الضرورية التى تمكنهم من بناء رأيهم الخاص. وسواء قرئت منفصلة أو مجتمعة، فإن مقالات الكتاب تعد منجما من المعلومات المفيدة، التى تمنح القارئ صورة جدلية حول بريطانيا فى بداية القرن الواحد والعشرين.

Nature and Mortality

(الطبيعة والموت)

Mary Warnock

Continuum: 232 pp, £ 9.99, 2004



مارى وارنوك هى فيلسوفة ومتخصصة فى شئون التعليم ولكنها تعمل الآن فى مجال حدودى بين الأخلاقيات والقانون فى العديد من القضايا المتعلقة بالسياسات العامة.

إن الطبيعة والموت هو نظرة متحدية على بعض القضايا العامة الكبيرة فى عصرنا هذا من خلال عينى أحد أفضل المتخصصين الليبراليين فى العلوم الإنسانية.

إنه رواية صريحة تحدد لنا أين نقف اليوم فى بعض الأمور المزعجة مثل الهندسة الوراثية والإجهاض وعلم الأجنة الإنسانى.

إن آراء وارنوك قد تكون صادمة للبعض، ولكن إسهامها فى هذا الجدال مثير للقراءة دوما.

Being an Actor

(أن تكون ممثلا)

Simon Callow

Vintage: 368pp, £ 7.99, 2004



هذه طبعة جديدة ومنقحة من كتاب أن تكون ممثلا. إن سيمون كالو هو واحد من الممثلين القلائل الذين يتسمون بالإخلاص والفصاحة والمرح. يتتبع هذا الكتاب رحلته المسرحية منذ الرسالة التى كتبها للورانس أوليفر والتى قادته إلى عمله الأول، إلى انتصاره فى شخصية موتسارت فى الإنتاج الأصلى لأماديوس. إن هذه الطبعة الجديدة تخبرنا بالمزيد عن قصته عبر عشرين عاما على المسرح. يحكى كالو عن شعوره غير اليقينى فى بعض الأحيان والجياش بالعاطفة دوما تجاه كل من السينما والمسرح.

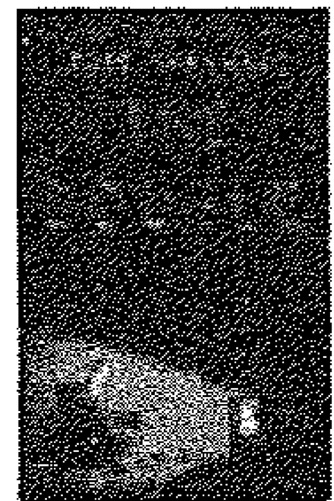
أن تكون ممثلا هو دليل ليس فقط لمن يمتهنون مهنة الفن ولكنه أيضا يوضح صعوبة الفن، محكى بحس من المرح والصراحة لأحد أكبر الشخصيات المسرحية.

The Double

(القــــرين)

Jose' Sarmago

The Harvill Press: 288pp,
£ 15.99, 2004



عمل آخر رائع يمتاز بالحس الكوميدى للكاتب الشهير خوزيه ساراماجو الحائز على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٨.

فى الرواية يقوم أحد المدرسين باستعارة شريط فيديو. إنه يشاهد الفيلم بلا تأثر ولكنه يستيقظ فى الليل منزعجا من شىء ما رآه. عاد المدرس إلى مشاهدة الفيلم مرة ثانية، فشاهد أمرا أصابه بالرعب، لقد أدرك أن أحد الممثلين يمكن أن يكون توأمه.

لم يخبر أحدا، ولكنه بدأ فى البحث للعثور على هذا الممثل. من خلال مشاهدة العديد من الأفلام نجح فى تحديد موقع قرينه. ولكن كيف سيكون رد فعل الممثل عندما يواجه برجل يدعى أنه توأمه المماثل؟

يختبر ساراماجو فى هذه الرواية التى ترجمت عن البرتغالية الطبيعة

الفردية والخوف الذى يظهر حينما تتعرض هوية الفرد للتهديد، حينما لا تستطيع الزوجة أن تفرق بين زوجها وبين أحد الدخلاء.

ولد ساراماجو فى البرتغال عام ١٩٢٢، وبالإضافة إلى رواياته العشر الشهيرة، فله مؤلفات فى القصة القصيرة والشعر والمسرح، ترجمت جميعا إلى أكثر من عشرين لغة.

What's the Matter with America?
The Resistible Rise of American Right
(ماذا حل بأمريكا؟.. صعود اليمين الأمريكى)
Thomas Frank
Secker &Warburg: 320 PP, £12.00, 2004



يحاول أحد أهم المراقبين الاجتماعيين فى آمريكا، وأكثرهم تبصرا فك شفرة الغموض السياسى الكبير فى وقتنا هذا: كيف اجتذب التيار المحافظ، والذى كان يوما ما علامة على التميز الطبقى، الملايين من الأفراد الأمريكيين العاديين.

بيقظته المعروفة، يحول توماس كوك هنا عينه إلى ما أسماه «رد الفعل العنيف» الذى امتد لثلاثين عاما وهو ما يقصد به تمرد رجل الشارع العادى إزاء المؤسسة الليبرالية.

يشير الكاتب إلى نجاح الحزب الجمهورى فى بناء تحالف غير طبيعى: بين العمال فى وسط غرب أمريكا ورجال الأعمال، بين العمال ورؤسائهم، بين الشعبيين، واليمينيين.

يصف فرانك كيف أصبحت ولاية مثل كانساس، والمعروفة باتجاهها الراديكالى، واحدة من أكثر الولايات محافظة.

يطرح الكاتب بعض التساؤلات مثل لماذا صوّت الكثيرون من الأمريكيين ضد مصالحنا الاجتماعية والاقتصادية؟ ماذا حل بالحركة التقدمية الأمريكية؟

يحاول فرانك الكشف عن القصة الحقيقية، مظهرا كيف تم إقناع الناخبين بأن يرفعوا من شأن «القيم الأخلاقية» ويخفضوا من أهمية «القيم الوطنية».

نشر هذا الكتاب قبل الانتخابات الأمريكية الماضية حيث قدم تحليلا نقديا للحالة التى عليها الولايات المتحدة اليوم.

ويحكى كيف أن مجموعة من الصبية والمحامين، والضباط التنفيذيين قد أقنعوا الأمة أنهم يتحدثون بالنيابة عن الشعب.

لقد شهدت الساحة السياسية الأمريكية خلال السنوات القليلة الماضية تحولا غير مسبوق لصالح اليمين الأمريكى سبق وصول الرئيس الحالى جورج بوش إلى السلطة قبل أكثر من أربع سنوات حينما نجح بحكم من المحكمة العليا الأمريكية إلا أن فترة رئاسة بوش الأولى ثم الثانية جعلت هذا التيار خاصة من يسمون بالمحافظين الجدد يمارس نفوذا شديد التأثير داخليا وخارجيا.

ويعتبر بعض المراقبين أن غزو العراق هو أحد تجليات سيادة اليمين المحافظ فى الولايات المتحدة.

Things.. A Spectrum of Photography, 1850-2001
(الأشياء.. جولة فى فن التصوير ١٨٥٠-٢٠٠١)
Johnathan Cape
Mark Haworth-Booth, 244pp., £ 35.00, 2004

وصف مبتكر التصوير الفوتوغرافى البريطانى فوكس تالبوت فن التصوير بأنه «قلم الطبيعة».

لقد استخدم هذا الوسيط قوانين الكيمياء والفيزياء لخلق وصف مفصل للعالم المادى الذى تفوق على كل الوسائل الجرافيكية السابقة.

إن الأشياء كانت أول موضوعات فن التصوير.

نشر هذا الكتاب بالتعاون مع متحف فيكتوريا وألبرت، واستعان ببعض الصور من مجموعة المتحف الخاصة، التى قام بتصويرها الفنانون والعلماء والصحفيون والمصورون التحريريون، كما يعرض لصور رواد فن التصوير وحتى الفنانين المنتمين لما بعد الحداثة.

يتضمن كتاب الأشياء أعمال تسعين مصورا بدءا من فوكس تالبوت وجوليا مارجريت كاميرون إلى إيدوارد ويستون، كارتيه بريسون، إيرفنج بن ودايان أربس، بالإضافة إلى الجيل الجديد الذى يستخدم التقنيات الجديدة فى أعماله.

ويعد الكتاب الأشياء مسحا شاملا يوضح لنا كيف يمكن أن نرى العالم المادى وبين طيات الكتاب نجد تاريخ التصوير الفوتوغرافى ذاته.

The Great War
Perspectives on the First World War
(الحرب العظمى.. وجهات نظر فى الحرب العالمية الأولى)
Robert Cowly
Pimilico: £ 12.99, 512pp, 2004

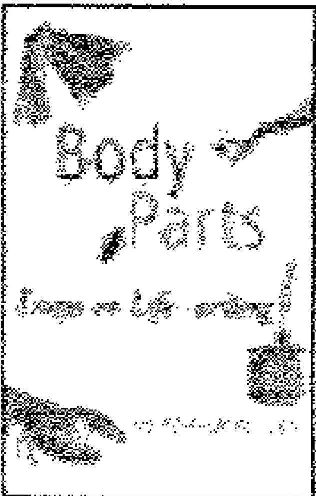


فى هذا الكتاب «الحرب العظمى» يجمع روبرت كاولى ثلاثين مقالة معا كتبها علماء تاريخ بارزون مثل مايكل هوارد، جون كيجان، وجان موريس. يختبر هؤلاء الباحثون الحرب العالمية الأولى فى كل مظاهرها المتنوعة. ويجيب على بعض التساؤلات مثل: ما هى المعارك المنسية التى حطمت الجيش الفرنسى عام ١٩١٥؟ كيف أدى اكتشاف كتاب الشفرات للبحرية الألمانية إلى دخول الولايات المتحدة فى الحرب؟

كما يلقى هذا الكتاب نظرة على أسطورة «مذبحة الأبرياء» فى يابرس عام ١٩١٤ ويصف حملة جاليبولى كما لم توصف أبدا من قبل- من الجانب التركى.

و هنا أيضا نجد المعارك المرعبة للحرب البحرية، كما مر بها البحارة البريطانيون والألمان فى معركة جوتلاند، وقصة صعود وهبوط السير جون فيشر، والقصة النادرة للكارثة البريطانية على نهر الفرات.

Body Parts
Essays on Life- Writing
(أجزاء الجسد.. مقالات حول كتابة الحياة)
Hermione Lee
Chatto & Windus 288pp, £ 18.99 2004.



لم تكن قصص الحياة أكثر شيوعا وشعبية من قبل: نحن جيل من القراء مسحور بتاريخ حياة الأفراد الشخصية. فى هذه المجموعة الشيقة غير التقليدية، تأخذ هيرميون لى بعين الاعتبار الطرق المتغيرة التى تكتب وتناقش بها السير الذاتية، المذكرات والسير المروية عن آخرين. إنها تهتم أيضا فى هذا الكتاب بفكرة عودة الجسد للحياة وحضور حالته المادية والحسية فى قصص الحياة. إن الفصل المعنون «جين أوستين يغشى عليها» تأخذ الكاتبة روايات مختلفة للحظة الانهيار الجسدى لتتساءل: كيف يتعامل الكتاب مع الحياة الخاصة للنساء الشهيرات. أما الفصل الخاص بـ «فرجينيا وولف والمرض» فينظر فى كيف حولت وولف أعراض مرضها نحو الكتابة ويختبر «أنف فرجينيا وولف» ما حدث لجسدها- وكتابتها- فى التحول من السيرة الذاتية إلى الكتابة الأدبية إلى الفيلم. وتكتشف لى المذاهب المختلفة للكتابة عن الحياة. حيث يختبر فصل «القراءة فى السرير» العلاقة بين قراءة النساء فى سن الطفولة، والكتابة الناضجة.

و يتساءل الفصل المعنون «كيف تنهى هذا كله» عما تفعله كتابة السيرة الذاتية بالموت. يحتوى الكتاب على دراسات قيمة حيث تثير قضايا عميقة عن المناهج المختلفة لكتابة وقراءة الحياة.

I Die, but the Memory Lives on
(أموت ولكن تبقى الذكرى)
Henning Mankell
The Harvill Press: 112pp, £ 5.99, 2004.



هذا الكتاب المترجم من السويدية للإنجليزية هو لكاتب من أنجح الكتاب الأوروبيين فى هذا الوقت. يجلب كتابه هذا الأمل إلى منطقة يسودها الحزن بكثافة، وهى قارة أفريقيا التى يفتك بها مرض الإيدز.

يوضح هذا الكتاب أهمية الكتب كوسيلة للاحتفاظ بالذكريات وتبادل الخبرات الحياتية.

فى أفريقيا، وتحديدا فى موزمبيق، حيث يعمل الكاتب نصف العام فى مجال التنشيط الثقافى، يؤدى نقص التعليم والمال لشراء المخدرات إلى انتشار الإيدز. وحيث يموت الأبوان فى سن مبكرة، فإنهما يتركان أبناءهما الأيتام خلفهما. إن «كتب الذكريات» هو مشروع يقوم فيه الآباء المصابون بفيروس الإيدز بكتابة بورتريهات عن حياتهم الشخصية وشهادات عن مدى حبهم لأبنائهم الذين سيعيشون من بعدهم. إن التراث المكتوب الذى سيتركونه سوف يكون مددا بالأمل حتى لا يعانى الجيل الجديد من المصير القاتل ذاته.

A life's Journey
(الرب غير المعروف.. مقالات غير إيمانية)
Continuum: 232pp, £14.99, 2004



كان أنطونى كينى لسنوات عديدة يعمل كاهنا كاثوليكيا، ولكن يبدو أنه استقال من الكهانة وأصبح فيلسوفا معروفا. ولكن، وكما يوضح هذا الكتاب، فإنه لم يستطع قط أن ينفلت من الذات الإلهية، واستمر فى الصراع مع المشاكل الفكرية الناجمة عن الإيمان بإله واحد، وإمكانية هذا الإيمان فى مناخ تسيطر عليه الفلسفة الوضعية المنطقية.

لقد أعاد قراءة «الكتب الخمسة» للقديس توماس الإكوينى، وجادل بأن الكتاب لا يقدم دلائل كافية على تعريف الله. يعمل كينى حاليا كأستاذ فى جامعة جون، أكسفورد.

Margret Thatcher
Volume 2: The Iron Lady
(مارجريت تاتشر.. الجزء الثانى: المرأة الحديدية)
John Campbell
Pimlico: 800 pp, £ 9.99, .2004



حظى الجزء الأول من كتاب السيرة الخاصة بمارجريت تاتشر والذى حمل عنوان «ابنة البقال» باهتمام النقاد، حيث وصفه فرانك جونسون فى الديلى تيليجراف بوصفه «أفضل الكتب التى كتبت عن تاتشر». وبينما تناول الجزء الأولى طفولة تاتشر وحياتها العملية المبكرة حتى الانتخابات العامة عام ١٩٧٩والتى أتت بها إلى مقعد الداونتج ستريت، فإن الجزء الثانى يشمل الأحد عشر عاما ونصفا من قيادتها لمنصب رئيس الوزراء.

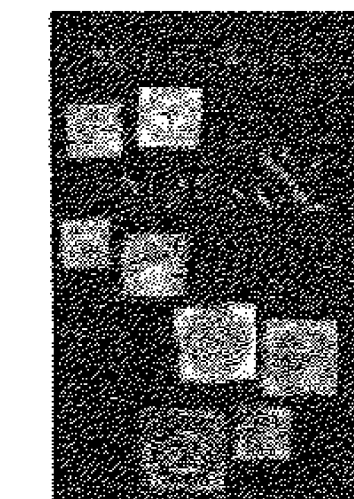
و بعد ثلاثة عشر عاما من تركها للسلطة، فإن هذه هى أول دراسة متعمقة وشاملة لحكومة تاتشر من بدايتها غير الواثقة حتى نهايتها الدرامية. ويروى كامبل عدداً من المذكرات الخاصة بزملاء تاتشر ومساعديها ومستشاريها ومنافسيها أيضا، بالإضافة إلى عشرات من المقابلات الصحفية، كما يحتوى الكتاب على مواد أصلية من أرشيف رونالد ريجان، ملقيا ضوءا جديدا على علاقة ريجان-تاتشر الخاصة.

Winston Churchill
The Wilderness Years
(ونستون تشرشل.. سنوات الارتباك)
Martin Gilbert
Pimilico: 288pp, £ 12.50, 2004



كان تشرشل يبدو فى عام ١٩٢٨ وكأنه فى قمة درجات تفوقه العملى وكانت قيادة الحزب المحافظ ذى النفوذ الواسع تبدو فى قبضته. ولكن حينما شكلت الحكومة الوطنية عام ١٩٣١، لم يطلب من تشرشل الانضمام إليها. منذ ذلك الوقت، وعلى الرغم من خروجه من اللعبة السياسية، فإن يقظة تشرشل وحسه السياسى المرهف لم يضمرا طريقته الخاصة. حصل تشرشل على معلومات تفيد بقرب وصول الخطر النازى. على الرغم من تحذير تشرشل للحكومة البريطانية بالخطر النازى القادم، حتى قبل ظهور هتلر، فإن الحكومة كان تقلل من أهمية رسالته، وقامت بمحاربته فى كل مكان، كما رفضت أيضا السماح له بالإدلاء بأحاديث إذاعية. إلا أن كل ذلك لم يفت فى عضد تشرشل، وحينما بدأ الشعب يدرك حقيقة تحذيراته، كان قد عقد الروابط السياسية التى أفادته فى السنوات التالية.

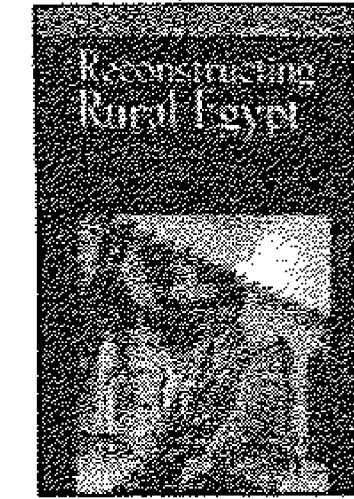
Signs & Wonders
Essays on Literature &
Culture
(علامات تعجب)
مقالات فى الأدب والثقافة
Marina Warner
Vintage: 528pp, £ 8.99, 2004



منذ بداية السبعينيات حينما أرسلت مارينا وورنر تقريرا من فيتنام فإنها كانت واحدة من أكثر المعلقين المتعمقين والمميزين فى الحقل الثقافى الماضى والحاضر، كاشفة عن شبكات من الصور والأفكار والمعتقدات، صانعة ارتباطات جديدة ومستفزة.

إن مجموعة المقالات هذه تجمع ما بين مقالات كتبت على مدى الخمسة والعشرين عاما الماضية، مقدمة مدى واسعا من أفكارها المتطورة. سواء كتبت مارينا وورنر فى الأدب، الدراما، السينما، الدين، فإنها تعكس حسا ثقافيا نادرا يمزج بين الرؤى التاريخية والأنثروبولوجية.

Recontructing Rural Egypt
Ahmed Hussein and the
History of Egyptian
Development
(إعادة تنظيم ريف مصر.. أحمد حسين وتاريخ التنمية المصرية)
Amy J. Johnson
AUC Press: 300PP., 2004



يقدم هذا الكتاب عرضاً شديد العمق لكيفية دخول الأفكار الغربية حول العلوم الاجتماعية إلى مصر وكيف أصبحت بعد ذلك جزءاً من برامج الإصلاح فيها. ويكشف الكتاب عن الصلة أو الرابط بين جهود الماضى والحاضر فى مجال التنمية الاقتصادية والاجتماعية وهو منظور يبدو بعيداً بشكل واضح عن هذا المجال من الدراسات.

ويركز الكتاب على نموذج مصرى بارز هو الدكتور أحمد حسين المصلح البارز وأحد أهم المتخصصين فى العلوم الاجتماعية فى عصره والذى أكمل دراساته فى ألمانيا ثم بدأ عمله الحكومى كمفتش فى الإدارة التعاونية بوزارة الزراعة حتى عام ١٩٤٨.

وكان أحمد حسين ومجموعة من زملائه قد أعدوا خططاً عام ١٩٣٩ لإنشاء وزارة جديدة فى مصر هى وزارة الشئون الاجتماعية ورأس حسين إدارة الفلاح بالوزارة ورسم خططاً لإعادة بناء الريف المصرى وأصبح وزيراً للشئون الاجتماعية عام ١٩٥٠ فى حكومة الوفد.

وكانت النماذج التى أعدها فى المجال الاجتماعى أمثلة يحتذى بها فى العالم إلا أنه بعد عام ١٩٥٢ تضاءل نفوذ أحمد حسين حيث رفض المشاركة فى تنفيذ خطط الرئيس جمال عبد الناصر الاجتماعية.

ووافق على أن يصبح سفيراً لمصر فى الولايات المتحدة إلا أن عدم الانسجام مع التوجهات الجديدة للثورة أدى لاستقالته. ورغم أنه لم يشارك بعد ذلك فى الحياة العامة إلا أنه أسس مدرسة للتفكير الاجتماعى فى مصر مازالت موجودة حتى الآن.

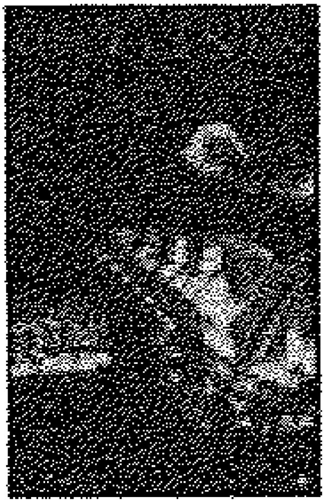
وكان حسين مرآة للعصر الذى عاش فيه، فخبرته فى حكومات ما قبل الثورة وخدماته فى العهد الثورى ثم تقاعده وخلافه مع النظام الجديد تمثل إلى حد كبير مثالاً حدث مع مثقفى عصره.

ويشير الكتاب إلى أن هناك نماذج كثيرة مثل أحمد حسين كان لها أدوار بارزة فى فترة ما قبل ثورة ٢٣ يوليو.

إلا أن اختلافها مع النظام الثورى الجديد حرم مصر من أفكارها وجهودها حيث آثرت الانكفاء على ذواتها فى الوقت الذى لم يفكر هذا النظام فى اغرائها لكى تشارك فى النهضة التى حاول بناءها.

وإذا كان باحث أجنبى قد أخذ على عاتقه اضاءة تاريخ هذا العالم الجليل والسياسى المميز فإن الباحثين المصريين يتحملون مسئولية كبيرة فى التأريخ لهذه المجموعة المهمة من مفكرى وساسة مصر الذين ظهروا فى النصف الأول من القرن العشرين.

Lifelines.. Biology, Freedom,
Determinism
(خطوط الحياة.. البيولوجيا، الحرية، والإرادة)
Steven Rose
Vintage: 352pp, £ 8.99, .2004



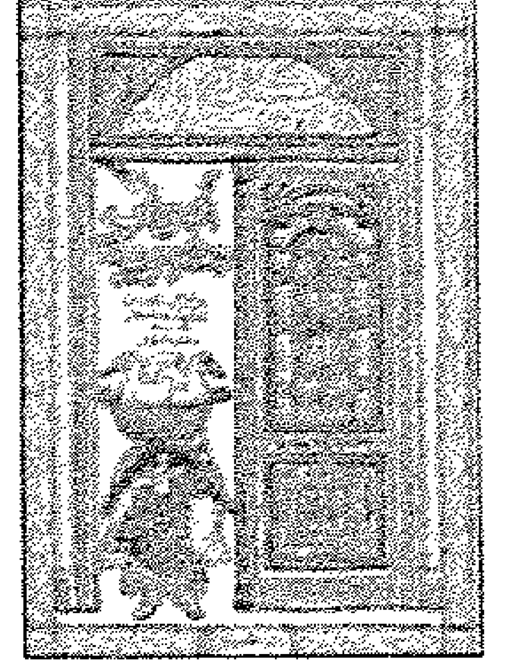
فى خطوط الحياة يقدم عالم الأعصاب ستيفن روز نظرية عن الحياة تصر على أننا نحن البشر - بالتساوق مع كل الكائنات الأخرى - نصنع مستقبلنا الخاص، على الرغم من الظروف التى لا نختارها.

بوضع الكائن الحى فى مركز الحياة، يواجه روز بشكل مباشر أيديولوجية نظرية الإنقاص ونظرية ما بعد الداروينية، بإصرار مفاده أن كل مظاهر الحياة الإنسانية من الأفضليات الجنسية، إلى التوجهات السياسية، العنف، التسلط الذكورى، هى موجودة فى جينات كل منا وهى النتيجة الحتمية لعملية الانتخاب الطبيعى.

كـــــتب للصغـــــــار

كان زمان: أبواب مصرية كتاب تلوين للكبار والصغار

تأليف ورسم حلمى التونى
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٤



كتاب مختلف عما تعود عليه الناس فى كتب التلوين «مجرد كتب للتسلية والهاء الصغار حتى يتفرغ الكبار لعالمهم»، جمع فيه الفنان حلمى التونى من ذاكرته مشاهد وصورا من الحياة الشعبية المصرية، كادت أن تختفى تحت زحف الحياة العصرية. وحمل الكتاب دعوة للكبار أن يتذكروا وأن يحكوا لصغارهم عن ماض بسيط وجميل.

عنون حلمى التونى كتابه الأول «مناظر مصرية»، ثم جاء الدور على الكتاب الثانى على نفس الطريق. طريق انعاش الذاكرة والحفاظ على الذكريات.. وكان الموضوع هذه المرة هو «الأبواب المصرية» التى كانت تشكل لوحات فنية تزين بيوتنا وحياتنا، وكادت تختفى هى الأخرى تحت زحف الزجاج والألومنيوم.

وعبر بحث امتد من أبواب «بيوت بحرى» فى الإسكندرية، أقصى شمال مصر إلى بيوت بلاد النوبة فى أقصى جنوبها، يقدم الكتاب ثروة فنية صغيرة، ولكنها شهادة على خاصية حضارية مصرية، هى اختلاط وانصهار وتعدد الثقافات... دعوة للأسرة، للكبار والصغار، للتلوين، للعب والاستمتاع.. وأيضا للتأمل والتذكر واستخلاص العبر.

ثلاث حكايات وثلاث نهايات.. من هذا الزمان

عبد الوهاب المسيرى
رسوم: صفاء نبعة
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٤



هل قرأت قصصا بلا نهاية؟ هل سمعت قصة طويلة لا تريد أن تنتهى؟ هل صادفتك قصة لها أكثر من نهاية؟ فى هذه القصص الثلاث المليئة بالمفاجآت المضحكة والمتعبة أيضا، نتعرف على قصة الأطفال الذين يبحثون عن مشروب مثلج فى يوم حار. وهى قصة عجيبة لا تريد ان تنتهى، كما نتعرف على قصة الأميرة عاشقة القصص والتى تريد قصة بلا نهاية، وعلى أميرة أخرى حزينة لأنها تريد أن تتحدث مع النجوم والشجر.

د. عبد الوهاب المسيرى، الكاتب والفيلسوف يكتب للأطفال ثلاث حكايات وثلاث نهايات.

القطط العشرة

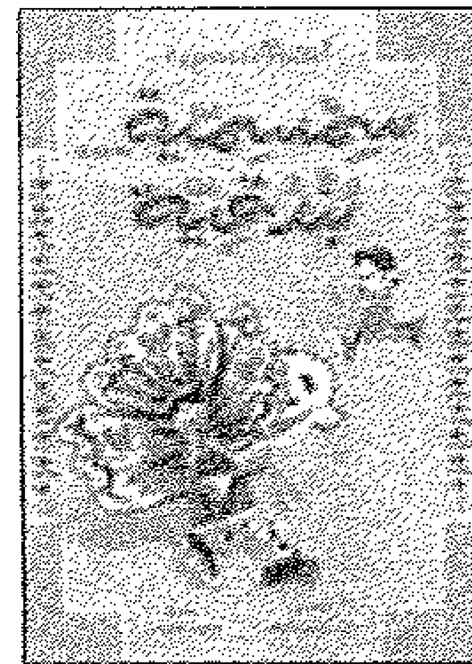
تأليف: سلوى العنانى
رسوم: محمد فايد
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٤



من خلال قصة القطة الأم ومحاولتها تتبع تحركات قطيطاتها العشرة، تصحبنا سلوى العنانى فى رحلة طريفة يتعرف من خلالها القارئ الصغير على مبادئ الحساب من واحد إلى عشرة.

احتفالات مصرية سمسمية بندقية

تأليف: راندا أبو المجد
رسوم: وليد طاهر
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٤



اشتهر الشعب المصرى بحبه للاحتفالات فى المناسبات المختلفة وتفننه فى الاعداد لها بتزيين الأماكن وشراء الملابس واعداد الأطعمة والحلويات الخاصة بكل مناسبة. وفوق ذلك كله بالإكثار من الزيارات العائلية ومشاركة الأهل والجيران أفراحهم وأعيادهم.

وتسعى سلسلة «احتفالات مصرية» الى تعريف القارئ الصغير بجانب بهيج من تراثنا الشعبى عن طريق قصص شيقة تبين له أصل هذه المناسبات، الى جانب مظاهر البهجة والسرور التى ينتظرها الأطفال بشوق من عام الى عام

فراس وأحلام المدينة

تأليف: رجاء نعمة
لندن: دار الساقى للطباعة والنشر ٢٠٠٤



تقع هذه الرواية قبل ألف عام، فى مدينة تدعى العامرة، مدينة عرفت ازدهاراً فريداً قبل أن تدخل فى مسلسل من الحروب ينهى عصرها الذهبى.

فراس، الشخصية المحورية فى الرواية، فنان شاب، ينشأ يتيماً إذ يموت أبواه فى الحرب وتربيه جدته. منذ طفولته وفراس يحلم بأن ترجع مدينته إلى ازدهارها الذى يسمع به ولم يشهده.

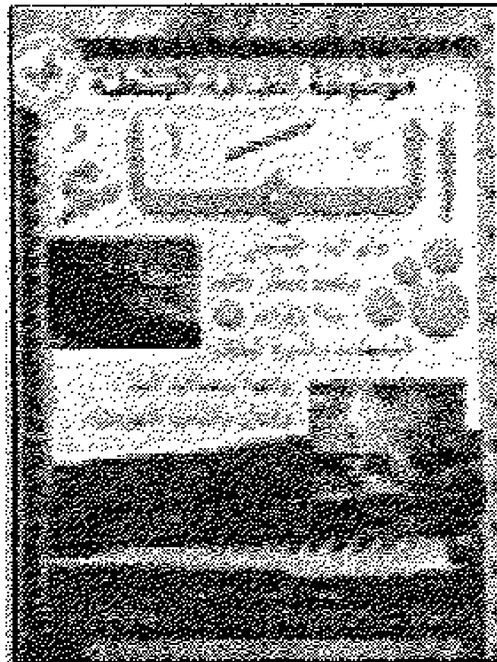
وذات يوم يتراءى له الحل فى ما يشبه المنام... فيدعو سكان المدينة إلى إنقاذها عبر فكرة مبتكرة، من أراد منهم ان يحقق أحلامه، فعليه ان يبنى ما تدمر وأتلف، ويرسم على أحد جدران بيته الأحلام التى يشتهى تحقيقها.

إثر انقضاء المهلة، وبنهضة أهلها، تبدأ الأحلام تتحقق، وتعود المدينة ثانية إلى ازدهارها.

وما بين ازدهار المدينة الأول والثانى، ومروراً بدمارها، تقدم لنا الرواية عدد كبيراً من الأحداث والشخصيات والملابسات والأسرار والعناصر الواقعية والمتخيلة والفانتازية.

المـــــاء

تأليف: مجموعة مؤلفين
بيروت: مكتبة لبنان ٢٠٠٥



هل تعلم أن...؟ الشمس مصدر معظم الطاقة فى عالمنا. السوائل تشغلها الشمس. بالطاقة الشمسية يمكن تشغيل مبان كاملة.

هل تعلم أن...؟ الماء يمكن استخدامه فى توليد الكهرباء. النواعير كانت منذ ألوف السنين مصدراً للطاقة. المياه الجوفية يمكن أن تزود بالكهرباء مدينة كاملة.

هل تعلم أن...؟ الفحم الحجرى تشكل قبل مئات ملايين السنين. المناجم يمكن أن تكون بعمق ألوف الأمتار. الفحم الحجرى يمكن أن يصنع منه صابون.

هل تعلم أن...؟ البلاستيك مصنوع من النفط. الغاز

كــــتب للصغـــــار

يمكن أن يوجد عميقاً تحت قاع البحر. النفط والغاز يتناقصان وسينفدان فى زمن غير بعيد.

هل تعلم أن...؟ طواحين الهواء تستخدم لاستخراج الماء من باطن الأرض.السفن السياحية الحديثة تسخر قدرة الرياح. مزارع الريح تولد الكهرباء.

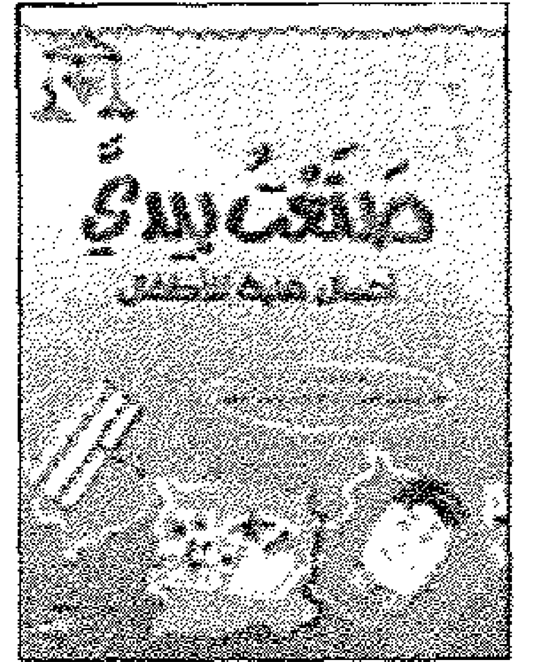
هل تعلم أن...؟ محطات القدرة النووية بدأ بناؤها قبل نحو نصف قرن. السفن والغواصات يمكن أن تزود بمحركات نووية. النفايات النووية يمكن استعمالها فى أغراض طبية.

موسوعة الطاقة المبسطة سلسلة جديدة حافلة بالمعلومات حول المصادر التى تغذى عالمنا بالطاقة.

تتكون الموسوعة من ستة كتب عن الماء والفحم الحجرى والطاقة الشمسية والنفط والغاز والرياح والقدرة النووية كل كتاب يبحث بوضوح ودقة فى شكل مختلف من أشكال الطاقة، وكيف يمكن أن نسخر ما فى ذلك الشكل من قدرة. يزيد الكتب وضوحاً صور معبرة ورسوم بيانية مبسطة ودقيقة.

صنعت بيدى: أعمال فنية للأطفال

تأليف: وفاء إبراهيم السبيل، فاطمة محمد الحسين
بيروت: دار المؤلف للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٤

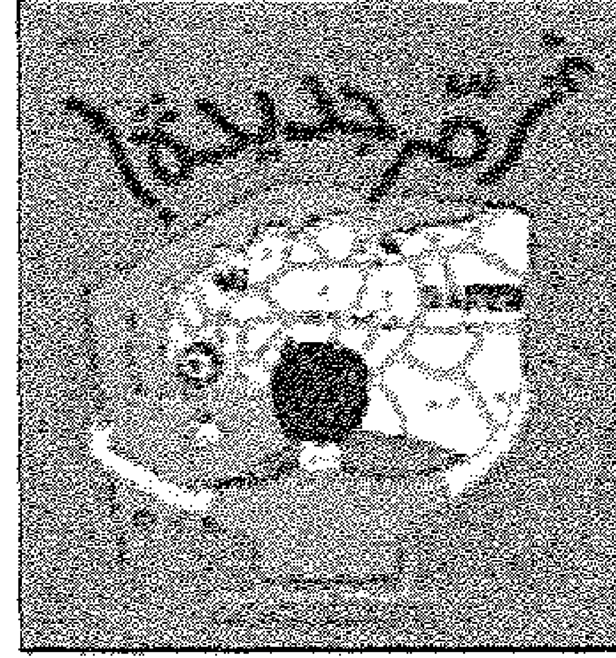


إن الفن هو اللغة التى يعبر بها الفرد عما فى داخله. فنرى بعض الرسامين يرسمون ما يختلج فى أنفسهم وما يحسون به، وما يرونه ويعجبهم ويتفاعلون معه وهم بذلك يعبرون عن أحاسيسهم وأفكارهم.

والطفل كالفنان، لديه طاقة يرغب فى أن يخرجها، وأحاسيس يريد أن يعبر عنها. ولكن ما هى الطرائق السليمة لمساعدة الطفل فى التعبير عن أحاسيسه وإخراج طاقاته الكامنة؟ فالطفل يحتاج إلى المساعدة فى التنمية الجسدية والعقلية. وهنا تبرز أهمية هذا الكتاب الذى بين أيدينا، بحيث يتطرق للأعمال التى تنمى قدرات الطفل ومواهبه ويرشد الوالدين إلى الطرائق الصحيحة لملء وقت فراغ الطفل والمحافظة عليه. ومكتباتنا تحتاج إلى مثل هذا الكتاب، فبعضهم ينظر إلى أعمال الطفل الفنية على أنها مضيعة للوقت وهذا من الأسباب التى عاقت انتشار مثل هذا النوع من الكتب.. فجاء هذا الكتاب ليدحض مثل هذه النظرة الخاطئة. هذا الكتاب يمنح الأم والمعلمة فرصاً كثيرة للعمل مع الطفل والتفاعل معه. ويقلل من الجهد والتشجيع منهما يكتسب الطفل خبرات ومهارات كثيرة إلى جانب استمتاعه بوقته. والأدوات المستخدمة فى هذا الكتاب متوفرة فى المنزل والمدرسة.

أم جـــديدة

تأليف: سماح إدريس
بيروت: دار الآداب ٢٠٠٤



لماذا يريد أسامة أن يفتش عن أم غير أمه؟ وهل هناك امرأة ترضى بولد كهذا: كبير الأنف، وقليل التهذيب؟

تحت السرير الوضع لا يطاق غبار وعناكب، وأسامة مختبئ من والده لأنه قد قام بتمزيق اللوحة التى رسمتها أخته ياسمين فى المدرسة وذلك لغيرته مما رسمت ياسمين.

فماذا سيفعل أسامة ليهرب من العقاب؟

حكايات الحكيم لقمان

تأليف: أمانى العشماوى
رسوم: مصطفى رحمة
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٤



كان الحكيم لقمان يعيش على الجبل الشرقى. فيأتى اليه الكبار والصغار من كل مكان لزيارته واستشارته.

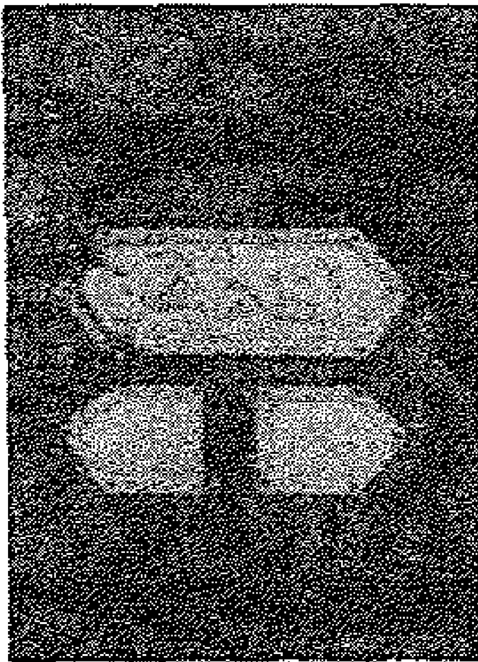
وكان يجوب البلاد.. فيساعد من يحتاج الى المساعدة، وينصح من يطلب النصيحة

كان رقيق القلب. يحب الناس ويرأف بهم.. وكان شجاعا أبيا. يكره الظلم ولايقبل المهانة.. فأحبه الأقوياء وتعلموا من حكمته.. وخافه الجبابرة. فحدوا من طغيانهم.. ولجأ اليه الضعفاء يحتمون به ويستمدون منه القوة.

وهذا الكتاب يقدم أربع عشرة قصة طريفة شائقة من قصص هذا الحكيم العظيم. ليستمتع بقراءتها كل من يسعى فى طلب الحكمة والعلم، لينفع الناس بخبراته أسوة بتلاميذ الحكيم لقمان.

مجموعة شهرزاد

تأليف: يعقوب الشارونى
رسوم: هانى المصرى
القاهرة: دار الياس العصرية للطباعة والنشر ٢٠٠٤



١ - كان الشاطر حسن ابن نائب السلطان شابا ذكيا يترك له والده شئون الحكم. وقررت زوجة أبيه أن تقضى عليه وعلى فرسه التى يحبها كثيراً فطارت به الفرس بعيدا فى رحلة مليئة بالمغامرات.. فياترى أين سيذهبان؟ وماذا سيقابلهما؟

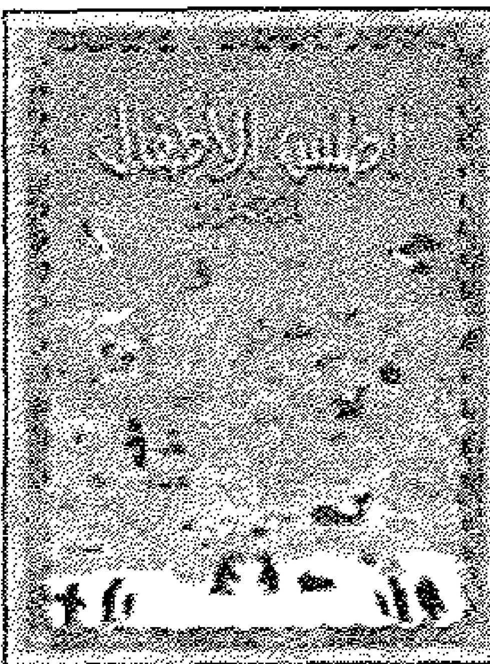
٢ - أثناء بحث حسن الصائغ فى الصحراء عن المادة التى تحول النحاس الى ذهب، رأى عند حافة بحيرة فتاة جميلة لم ير مثل جمالها من قبل تلبس ثوبا من الريش وتطير به. فهام بها وظل المشهد يتأرجح لديه بين الحلم والواقع. فهل سيجد حسن حبيبته الطائرة؟

٣ - يحكى أن الفتاة رادوبيس كانت عبدة فى بيت سيد طيب أعجب بجمالها وذكائها لكنها عانت الكثير من المشاق والمهانة من خادمات القصر. ولم يكن لها أصدقاء الا بقرتها قشدة التى كانت تتنبأ له دائما ببشرى طيبة. فما تلك البشرى؟ وهل ستتحقق؟

الإجابات كلها فى سلسلة «مجموعة شهرزاد» التى صدرت منها ثلاث قصص: الفرس المسحور وأحلام حسن وحكاية رادوبيس.

أطلس الأطفال المصور

القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٤



ما هى الخرائط؟ أين يقع أعلى جبال العالم ارتفاعاً؟ أين تبدأ الأنهار وأين تنتهى؟ ما هو أسرع حيوان؟ وما هو أطول نهر؟ أين تنمو الغابات المطيرة؟

هذا الأطلس يجيب على كل هذه الأسئلة وكثير غيرها، ومن خلال الخرائط الرائعة المزدحمة جداً بالتفاصيل المثيرة والصور البديعة يمكنك التعرف على القارات ومواقع الدول عليها وعلى التضاريس المختلفة، كما يمكنك التعرف على سكان وحيوانات ونباتات كل منطقة.

قـــــــــراءة ..

للحـــــرية .. لا لواشـــــنطن

في ظلال الحراب الأمريكية، ذهب العراقيون - أو بالأحرى المغامرون أو الآملون أو المتهورون منهم - إلى صناديق الاقتراع فيما قد يكون - ولو من باب المحاولة - أول انتخابات «حرة» يشهدها العراق الحديث.

ومع الإقرار بأنها - لعوامل عدة معروفة - انتخاباتٌ مشكوك في شرعيتها، يبقى المشهد ضبابياً وملتبساً ومسكوناً بأسئلة لم تغادر عقولنا وساحاتنا الفكرية منذ سقطت عاصمة الرشيد (أبريل ٢٠٠٣). أو حتى قبل ذلك بسنتين: منذ دكَّ البرجان بزلزال مازالت توابعه تتوالى في دوائر يتسع قطرها يوماً بعد يوم: عسكرياً وأمنياً وسياسياً.. بل وحتى ثقافياً.

حين ذهب جنود بن لادن إلى غزوتهم، كان جورج دبليو بوش قد ذهب قبل أشهر فقط إلى البيت الأبيض رئيساً - بدا يومها ضعيفاً - للولايات المتحدة الأمريكية: مركز القوة في العالم الجديد.

وحين ذهب «بعض» العراقيين إلى صناديق الاقتراع «الأمريكية»، كان الرئيس العائد من حربين: في أفغانستان والعراق، والعائد إلى البيت الأبيض بأغلبية ساحقة اعتبرها تفويضاً من مواطنيه، قد انتهى لتوه من إلقاء خطاب تنصيبه رئيساً للمرة الثانية.

يومها، بدا الرئيسُ الذي يتعمد «كبرياءً واضحة» في مشيته، قوياً وواثقاً و«مؤمناً» بأنه مبعوثٌ إلى العالم برسالة سامية تأتيه «من وراء النجوم» كما ذكر نصاً في خطابه. الذي اعتُبر بمثابة «خارطة طريق» لفترة ولاية ثانية يتحرر فيها من قيود واعتبارات كثيرة.

في أقل من عشرين دقيقة استغرقها الخطاب، وبعبارات «شكسبيرية» قوية، ذكر الرئيس الأمريكي الجديد/ القديم لفظة «الحرية» بتصريفاتها اللغوية المختلفة ثلاثاً وأربعين مرة. ولم يكن غريباً أن التكرار الملح بعث بكثير من القلق إلى كثير من النفوس.

ماذا في نية الرئيس الذي ذهب إلى الحرب - دون تردد - مرتين؟! والذي أعلن يوماً أن واشنطن ليست في حاجة إلى موافقة الآخرين على القيام بما تراه محققاً لأهدافها أو مصالحها؟



رغم لهجة خطاب بوش المتعالية والقوية، تبقى حقيقة الهوة الطبيعية والدائمة بين «فصاحة» الحديث أمام الميكروفون و«تعقيدات» الواقع. إذ يكفي أن نتذكر أن محاولات واشنطن المختلفة في تطبيق ديمقراطيتها في هاييتي الصغيرة فشلت ١٠ مرات متتالية. وأن «باكستان - مشرف»: الحليف الرئيس في ما يعتبره بوش «حربا على الإرهاب» بعيدة كل البعد عن النموذج الذي يجري ترويجه أمريكيا للحداثة والديمقراطية.

ويكفي أن نلاحظ مع الكاتب الأمريكي هندي الأصل فريد زكريا أن الرئيس الروسي فلاديمير بوتن يشرف اليوم على حكومة عملت أكثر من أي حكومة أخرى في العالم على السير في الاتجاه المعاكس للحريات، ومع ذلك لم يجد من الرئيس بوش سوى غض الطرف عن مذابحه في الشيشان، التي أجهز فيها على مائة ألف من المدنيين ضمن حملة وحشية تهدف إلى حرمانهم من حقهم في تقرير المصير. ثم إن الرئيسَ المدافع عن الحرية - يذكِّر الكاتب الأمريكي - استضاف في مزرعته الخاصة في كروفورد زعيم دولة عربية تُصنف على أنها واحدة من الدول الثماني الأكثر قمعاً في العالم في حين أن زعماء منتخبين في الهند أو فرنسا أو تركيا أو إندونيسيا على سبيل المثال لم يحظوا بمثل هذا الشرف.

وعلى هامش ذي صلة، تبقى ملاحظة أن جوهر ما قاله بوش قاله جون كينيدي عام ١٩٦١ عندما وعد في خطاب تنصيبه «بدفع أي ثمن وتحمل أي عبء لضمان استمرار وجود الحرية ونجاحها».

هل يعني ذلك أن لا جديد هناك؟

يبدو أن الأمر في الشرق الأوسط (في الولاية الثانية) مختلف. ففضلاً عن أن رئيس تحرير النيوزويك والذي يبدو أنه يعكس الرأي الذي بات سائداً في الأوساط الفكرية الأمريكية، يرى أن بوش كان محقاً تماماً عندما قال «إن نشر الحرية في هذه المنطقة من العالم هو ما يتطلبه أمن الولايات المتحدة بشكل ملح، وأن هذا هو هدفنا الآن» هناك حقيقة أن منطقتنا - لعوامل متعددة - قد تم تمهيدها لتصبح الوحيدة التي يستطيع الرئيس الأمريكي أن يصنع فيها تاريخه.

أين نحن من هذا البادي في الأفق، تختلط غيومُه القاتمة ببروق رعوده الوامضة؟

بداية - نعرفُ جميعاً السجل الأمريكي غير المشرف في صناعة الديكتاتوريات، سواء بالإزاحة كما حدث ذات يوم مع الليندي في تشيلي. أو بالتثبيت والدعم كما حدث مع كثيرين ليس آخرهم - ويجب ألا ننسى - صدام حسين ذاته.

وتتعثرُ في أفهامنا - فضلاً عن ضمائرنا - المفردات البراقة لخطاب الإصلاح الأمريكي، حين تصطدم بأحجار «ازدواجية المعايير» وبانحياز مطلق لاسرائيل.

ونعرفُ أن خريطة الطريق الأمريكية للمنطقة - حتى لو عَبَّدت مسالكَها الحريات ونظمت مرورَها الدساتير - هي خريطة إسرائيلية صرف.

وندركُ بعد كل هذا، وربما قبله أن الوصفة الأمريكية للحريات فيها من التفاصيل ما هو موغلٌ في تطرفه ابتعاداً عن احترام واجبٍ لخصوصيات ثقافية.

نعرفُ كل هذا.. و«لكن» - وللفظة الاستدراك الشائعة هنا أهميتها الاستثنائية - نعرف «أيضاً» أن سجل أنظمتنا في الديمقراطية «الحقيقية» والشفافية وحقوق الإنسان سجلٌ لا يمكن الدفاع عنه. ويعرف مثقفونا خصوصاً، وبعضهم عن تجربة شخصية، أن ماكشفته «النيويوركر» - لا غيرها - في سجن «أبو غريب» على فظاعته، لم يكن أول ماتشهده زنازين السجن العربي العتيد ذاته - ومثله كثير - على مدى عشرات السنين. ونعرف أيضاً أنه رغم الكلام المنمق واللافتات البراقة. ورغم كل محاولات التجمل اليائسة والزعم بأننا الذين «بدأنا الإصلاح قبل ٢٠ سنة..» فاللفظة - للأسف، ومع كل محاولات استلاب بعدها السياسي - لم تعرف طريقها المُعَبَّد للمانشيتات والبيانات والمؤتمرات العربية إلا بعد أن صارت استحقاقاً أمريكياً، وبعد أن رأى كل القابضين على مواقعهم ما جرى في العراق.

نعرفُ هذا ونعرف وذاك.. ونخشى أن يستدرج مثقفونا لما يحاوله البعض من إيجاد حالة من التماهي بين «واشنطن» - التي هي مرفوضةٌ لسياساتها، وبين «الديمقراطية» - التي هي مطلوبةٌ لذاتها - فنرى - وقد رأينا وقرأنا بالفعل - من يدافع عن بقاء الحال على ما هو عليه (رغم فساد واستبداد وأحكام عرفية تبدو أبدية..) لا لشيء إلا لأن البديل تحمله رياح «تبدو» قادمةً من الغرب. وكان لافتاً أن نرى من يذكي النعرات الطائفية والدينية، إما إلهاءً أو حشداً للعامة ضد «خطر» تغيير قد يبزغ في الأفق.

كما كان لافتاً أن نقرأ مرة أخرى لبعض كتابنا (فضلاً عن مسؤولينا طبعاً) من يصر على أن التزام الدول العربية المختلفة بالإصلاح داخل أوطانها مرتبط «شرطياً» بالتزام الولايات المتحدة بتحقيق السلام بين العرب وإسرائيل. ومرة أخرى يبدو الربط القسري غير مفهوم. إذ يبقى من الطبيعي أن نفهم أن التزام الحاكم بالإصلاح الديمقراطي هو التزامٌ حيال من قُدِّر لهم أن يكونوا من محكوميه، وليس حيالَ أي طرف خارجي أيا كان. وعليه فإن هذا الالتزام يظل قائماً بغض النظر عن سلوك أطراف - هي بحكم المنطق والتعريف القانوني ليست طرفاً في هذه العلاقة.

لا يعني أي من ذلك أبداً أن «واشنطن - بوش» مبرأة من القصد والهوى فيما قد تذهب اليه. فأصحاب البيت الأبيض لم يزعموا يوماً أنهم يديرون جمعية خيرية، بل دولة كبرى لها سياسات ومصالح. وكان لسوء الطالع أن استقر في يقين سياسييها ومفكريها بل وفي خبرتها الواقعية «السبتمبرية»، أن الخطر قادم من «بلاد الأصولية والنفط.. والاستبداد والفساد». وللأسف يجد الأمريكيون من يُذَكِّرهم يوميا بجنسيات محمد عطا ورفاقه. وبأن على رأس «القاعدة» سعودياً ومصرياً.

نعرفُ جميعاً هذا. ولطالما ذكَّرنا بأن الأمريكيين - وهم لا ينكرون ذلك بل يعلنونه كل صباح - يقصدون تغييراً جذريا يهزّ إن لم يقتلع - كل ثابت مستقر: صالحه وطالحه. بداية من ديكتاتورية الفرد وحتى نمط الحياة الأسرية.. ووصولاً إلى استيعاب «الكيان» الإسرائيلي المتفوق نوعيا في «وسط جديد» تفسحُ فيه مفاهيمُ القومية والعروبة وصلةُ الدين والدم مكانها لقيم المصلحة والحداثة بمفهومها الغربي.

وبغض النظر عن طوباوية القصد أو مكره، ومع التأكيد على ضرورة أن ندرك الخطر الحقيقي الذي يتهدد قيمنا وثوابتنا، يبقى ضروريا «أيضاً» أن نعترف - على الأقل لأنفسنا - بأن ليس كل ما يصفُ به الأمريكيون مجتمعاتنا ظلماً وبهتاناً. خاصةً إذا كان الحديثُ عن الديمقراطية (الحقيقية) وحقوق الإنسان.

ويبقى لازما «أيضا» أن لا يذهبَ العداءُ للسياسات الأمريكية ببعض مثقفينا إلى حد التشيع للديكتاتورية والفساد وانتهاك حقوق الإنسان نكاية في الأمريكان. فالحرية لم تكن أبداً صناعة أمريكية. كما أن الديمقراطية لا تحمل جواز سفر مختوما في واشنطن.

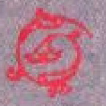
أيمـــن الصيـــاد

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 7 - Issue 74 - March 2005

مجلة شهرية . العدد الرابع والسبعون . السنة السابعة . مارس ٢٠٠٥ . الثمن عشرة جنيهات

الفلسطينى الأخير
حسين أغا
وروبرت مالى



أوربا X أمريكا
تونى يوت

ناطحات سحاب
وبيوت من رمل
إسماعيل سراج الدين

قراءة جديدة
لأندرسن وشوقى
يحيى الرخاوى

ما بعد الحريرى ..
لماذا نحن هنا ؟!
أيمن الصياد



أم كلثوم
إصدارات جديدة




أكثر من
٢٠٠٠ مصري
بيخدموك من القلب

السنة السابعة
العدد الرابع والسبعون
مارس ٢٠٠٥

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

الكتب وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إسماعيل سراج الدين .. مدير مكتبة الإسكندرية.
- إلياس سحاب.. ناقد موسيقى.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- تونى يوت .. أستاذ الدراسات الأوروبية بجامعة نيويورك.
- حسين آغا.. باحث فى كلية سانت أنطونز بجامعة أكسفورد.
- حمدى عزام .. دبلوماسى مصرى سابق.
- رباب المهدى.. باحثة سياسية بجامعة ماكجيل بكندا.
- روبرت مالى.. مدير قسم الشرق الأوسط وأفريقيا فى مجموعة الأزمات الدولية ومساعد سابق للرئيس كلينتون للشئون العربية والإسرائيلية.
- طارق الشناوى.. صحفى.
- فيكتور سحاب.. ناقد موسيقى
- كريستوفر دى بليج.. صحفى فى الإيكونوميست متخصص فى الشئون الإيرانية.
- مايكل تشابون.. مؤلف أمريكى.
- محمد السطوحى .. صحفى مصرى مقيم فى واشنطن.
- محمود الذوادى.. أستاذ علم الاجتماع ـ جامعة تونس.
- يحيى الرخاوى.. أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة.
- يونان لبيب رزق.. أستاذ التاريخ بجامعة عين شمس.

رسوم العدد للفنان:

محمد حجى ـ سعد الدين شحاته ـ أحمد اللباد





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص . ب : ٢٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ e-mail: weghat@alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

الفلسطينى الأخير..

حسين أغا و روبرت مالى



يقاس التحول الجذري، الذى تحدثه وفاة ياسر عرفات، فى المشهد الفلسطينى المعاصر، بما كان للرجل من ماض سياسى جسد المشهد ذاته طوال حياته. كان عرفات، قيادة استثنائية توافقت بشكل استثنائى، مع حالة شعبه فى أعقاب حرب ١٩٤٨: مهزوم، منفى، مشتت، بلا دولة تحميه أو وطن يعيش فيه، أو استراتيجية سياسية توحده. عاش الفلسطينيون التقسيم، أسرة وطبقة وعشيرة. تناثروا فى أنحاء الإقليم، وما وراءه، عرضة للاستغلال، بفعل الأغراض المتصارعة للبعض، وفريسة لطموحات الجميع. وبقوة ما له من تاريخ وشخصية وكاريزما «حضور وجاذبية» ودهاء، أصبح عرفات بالحيلة والاستئساد، بالحظ والمناورة والصبر، الأكثر جدارة بالتعبير عن الفلسطينيين والممثل الشرعى لهم، أمام أنفسهم وأمام العالم.

كانت الوحدة الوطنية هدف عرفات الاسمى، وكان يؤمن بأن لا شىء يمكن أن يتحقق بدونها. كان هو الجسر بين فلسطينيى الشتات، وفلسطينيى الداخل، بين الذين شردوا فى عام ١٩٤٨. والذين عاشوا الاحتلال منذ عام ١٩٦٧. أهالى الضفة الغربية وغزة. كان الجسر بين الصغار والكبار، الأغنياء والفقراء، المتأرجحين والأتباع المخلصين، الحداثيين والتقليديين، أنصار الحرب ودعاة السلام، والإسلاميين والعلمانيين.

كان عرفات زعيماً وطنياً، رجل قبيلة، كبير عائلة، رب عمل، سامرياً «متعاطفاً»، ورئيس حركة وطنية علمانية كرس حياته، ويعمق، لكل ما كانه كى يصبح الرمز المبرز لكل جماعة من الجماعات المتباينة، حتى وإن تبنت هذه الجماعة، أو تلك، وجهات نظر معارضة. وكثيراً ما ووجه أسلوبه بانتقادات أو قوبل باستياء، لكن مكانته المبجلة نادراً ما كانت موضع شك. ولا يوجد الزعيم الفلسطينى الذى يستطيع أن يكون ما كانه عرفات. وجود هذا النموذج السياسى مرة ثانية يكاد يكون مستحيلاً تحت الاحتلال، ولا شك أنه غير مطلوب الآن.

الرجل الذى وقع عليه الاختيار لخلافة عرفات يختلف عنه فى وجوه كثيرة ويتشابه معه فى وجه واحد مهم: أبو مازن، مثله فى ذلك مثل عرفات، شخصية وطنية فلسطينية أصيلة ومتميزة ولكن بأسلوب مغاير بشكل جذرى. وبينما حقق عرفات مكانته الوطنية بالتماهى مع، والانتماء إلى، جماهير الناخبين ومصالح كل الجماعات، ابتعد أبو مازن، بأسلوبه، عن التماهى. غاص عرفات فى بحار السياسات المحلية لكن أبو مازن عام فوقها مكرساً نفسه فى خدمة الحركة الوطنية ككل، وشق طريقه إلى السلطة بشجاعة مثابرة وحضور معنوى ومادى ملموس كرجل قليل الكلام كثير الأفعال. هذا الرئيس الجديد، الذى صنع حياته السياسية بعيداً عن الأضواء المبهرة، ولد عام ١٩٣٥ وخرج من فلسطين عام ١٩٤٨. هو عضو مؤسس فى «فتح» وأمين عام اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية. كان مستشاراً لعرفات والمفاوض الرئيسى، من وراء الكواليس، منذ مؤتمر مدريد فى عام ١٩٩١. وإلى اتفاق أوسلو فى عام ١٩٩٣. كان أبو مازن المؤثر دائماً وغير المرئى فى معظم الأحوال. وكانت الفترة قصيرة العمر التى تولى فيها رئاسة الوزراء فى عام ٢٠٠٣. هى المرة الوحيدة التى احتك فيها بـ «الحكم». ومع رحيل عرفات وَلَتْ سياسات توازن القوى وبدأت سياسات اللمسة الخبيرة الفعالة.

لقد عاش عرفات فى عالم «بورجيسى» Borgesian [1]، حيث يتعايش الشىء وضده فى ذات اللحظة فى الفضاء والزمان، وحيث تكمن أهمية اللغة فى تأثيرها ووقعها، وليس فى معانيها الحقيقية، وحيث تختلط الأساطير بالحقائق ومنهما يتشكل الواقع. عالم أبو مازن أكثر ارتباطاً بما هو سائد ومعروف لمعظم الناس بـ «قانون الأشياء»، ولغته من النوع المقبول الأكثر قرباً إلى قاموس كل يوم. الواقع، عند أبو مازن، أكثر بعداً عن أشباح الماضى. وعوضاً عن السياسات والحماسة الخلاقة، يتبنى سياسات هادئة وحصافة واضحة.



يصل عمق الالتزام عند أبو مازن السياسى إلى درجة يمكن القول معها أنه، وإلى وقت قريب، لم يكن سياسياً على الإطلاق. سلوكياته لا تعرف النهج التآمرى، الأمر الذى يعد ملمحاً يحسب وراء نجاحاته العديدة وليس محطات فشله القليلة. وهذا ملمح أصيل نما داخل تكوينه الوجدانى والمزاجى. نادراً ما يخضع أو يعاود الكرة إذا ما صُدَّ أو تم تجاهله، يقوده فى ذلك إحساس عميق بالأخلاقيات، وبغض شديد للانحرافات السياسية، ويقين زائد بقوة المنطق. ولأنه يؤمن بقوة منطقه وأسبابه، وبأن «المنطق والسبب» يمثلان القدرة والنبراس للآخرين غيره، فمن المرجح أن ينتظر. بإيجابية. مجىء الوقت الذى يرى فيه الآخرون الأمور كما يراها هو. القدرة على التلاعب والخداع، أو التآمر، تكاد تكون معدومة داخله، وفى ذلك يكمن سبب عدم تسامحه لتلاعب الآخرين أو تآمرهم، كما يكمن أيضاً مفتاح علاقته مع عرفات: لم يتردد فى الاختلاف معه، واختار الابتعاد بدلاً من الصدام أو الحلول التوافقية. ولأن دوافعه، حتى وهو فى قمة غضبه، كانت صادقة وغير انتهازية، لم يفقد عرفات ثقته فيه، وكثيراً ما سامحه.

أبو مازن مسلم، أيضاً، شديد الورع. يؤدى فروض الصلاة كل يوم، ويصوم، ويقينه أن فروض العبادة لا يجب أن توظف فى أهداف دعائية وأنها ليست للعرض العام، ولديه حساسية إزاء دور الدين فى السياسة. وفى مفاوضاته الحالية الدائمة مع قادة حماس والجهاد الإسلامى، يتبلور هذا اليقين بوضوح لا تخطئه العين، وثقة كاملة فى أنه لا يقل إسلاماً عن أحد. وعندما يتحاور مع سياسى إسلامى لا يخاطب إلا السياسى فيه.

يتمسك أبو مازن بمجموعة مترابطة وجوهرية من المبادئ غير الراغب فى التنازل عنها أو إحداث توافق بشأنها. ففى خريف عام ١٩٩٩. وإثر انتخاب إيهود باراك كرئيس للوزراء فى إسرائيل، تقدم إلى المسئولين الأمريكيين بعرض مباشر من أجل اتفاق نهائى: دولة فلسطينية داخل حدود ٤ يونيو عام ١٩٦٧. القدس الشرقية عاصمة لها، واعتراف مبادئ بحق اللاجئين فى العودة. وفى إطار هذه الحدود الثابتة والمتوافقة مع الشرعية الدولية، ترك أبو مازن مساحة للحوار تسمح بأن تكون هناك مقايضات محدودة منصفة فيما يتعلق بالأرض، وتضع فى الحسبان بعض المستوطنات الإسرائيلية، وأوضاع تيسر لليهود ارتياد الأماكن المقدسة، وضمانات بأن إعمال حق العودة للاجئين لن يهدد المصالح الديموغرافية «الطبيعة السكانية» لإسرائيل. ووضع أبو مازن القبول المبدئى بهذا العرض شرطاً وأساساً لبدء المفاوضات، باعتبار أن عدم القبول به يعنى عدم وجود شرعية دولية أو سلام عادل. ولقد تجاهلت الولايات المتحدة هذا الشرط. وبدأ. المفاوضات وتحولت إلى ما يشبه دروب السوق المليئة بالأداء والتقمص والصفقات غير المرتبطة بالمبادئ الجوهرية: تعددت، وتراوحت، نسب أراضى الضفة الغربية التى سيكون على إسرائيل إعادتها، وكذلك كان الحال فيما يتعلق بالأجزاء المقترح فرض السيادة عليها فى القدس الشرقية، وعدد من سيسمح لهم من اللاجئين بالعودة والاستقرار فى إسرائيل.

هذا الطراز من المفاوضات كان بغيضاً بالنسبة لـ «أبو مازن» الذى آمن بأن شيئاً جيداً لن يأتى من ورائه، وأدرك أن ما يقدم فى مواجهة العرض الفلسطينى هو «منتج» مضاد يغلق مجال التوصل إلى حلول وسط، أمام الفلسطينيين، ويقدم لهم آمالاً زائفة، وغير أمين بالنسبة للإسرائيليين.

إضافة إلى ذلك، اقترح أبو مازن، فى ربيع عام ٢٠٠٠. مفاوضات سرية بين شخصيات غير رسمية من الجانبين، لكن باراك رفض وتم اختيار مسئولين من مستويات أدنى لقيادة المفاوضات، فى حين نأى أبو مازن بنفسه بعيداً.

ورغم عدم ارتياحه لكيفية تقدم المفاوضات إلى وقت انعقاد قمة كامب ديفيد، كان «أبو مازن» من أشد المعارضين لانفجارة العنف التى أعقبتها. يرى «أبو مازن» أن العنف غير مفيد وغير مؤثر واستهانة باستخدام أضعف الأسلحة للإغارة على أقوى أجنحة الجيش الإسرائيلى. ينظر «أبو مازن» إلى العنف من زاوية شروط التكلفة والفوائد البحتة، ويرى أن التكلفة باهظة والفوائد لا تذكر: أوقف الإسرائيليون التفاهمات، اتخذت الولايات المتحدة مواقف منحازة، أدار المجتمع الدولى ظهره، وانهارت السلطة الفلسطينية.

ويؤمن «أبو مازن»، فى المقابل، بأن ما يجب أن يكون هو: مد حبال الحوار مع مختلف الجماعات السياسية الإسرائيلية، الحديث بلغة تفهمها واشنطن، وحشد العالم وراء الهدف الفلسطينى. وإلى أن يتم ذلك، على الفلسطينيين تهدئة الموقف، استعادة

عن:
The New York Review of Books

ترجمة: جمال إسماعيل

النظام والقانون، كبح جماح الجماعات المسلحة، وبناء مؤسسات مركزية شرعية تتمتع بالشفافية. وفوق ذلك كله، وقف الهجمات المسلحة ضد إسرائيل. وفى تصوره أن من شأن الوسائل أن تلتقى والغايات: إذا تمكن الفلسطينيون من صناعة قضية عادلة يصبح بإمكانهم الحصول على آذان مصغية، وأن الانضباط الفلسطينى يولد المساندة من المجتمع الدولى، ومن الرأى العام الإسرائيلى على وجه الخصوص، وتأتى الاستجابة للمطالب المنطقية.

اعتقاد «أبو مازن» بوجوب تقديم الضغط بالمبادئ والإقناع، على العنف، يبدو كمقامرة محفوفة بالمخاطر فى نظر العديد من الفلسطينيين الذين يرون أن إسرائيل هى التى «عسكرت» المواجهة، وأن أرقام الضحايا تضاعفت، خلال الأسابيع الأولى للانتفاضة، بين الفلسطينيين وليس الإسرائيليين، وأن إسرائيل هى التى تنتهك كل اتفاق وقف إطلاق نار مبدئى يتم التوصل إليه، وأن توقف الفلسطينيين عن إطلاق النار من جانب واحد يعنى التخلى عن سلاحهم ويرفع الضغط من على إسرائيل فتمعن فى المساومة.

لكن موقف «أبو مازن» يستند إلى خبرة طويلة مع إسرائيل، تعود إلى منتصف السبعينيات وقت أن شكل «ثلاثى» منظمة التحرير الفلسطينية مع ياسر عرفات وخليل الوزير «أبو جهاد». وقتها أدار «أبو مازن» اتصالات مع إسرائيليين بدأت بين نشطاء من مناهضى الصهيونية واتسعت - بشكل تدريجى - لتضم بعض عرب إسرائيل، شخصيات من اليسار، ضباط جيش سابقين من المعتدلين، وأعضاء من حزب العمل الإسرائيلى. بعد اتفاق أوسلو، وسع «أبو مازن» اتصالاته لكى تشمل قوى أقل وضوحاً فى مواقفها لكنها أكثر صلة: الليكود، واليهود الأرثوذكس «التقليديون». ومن خلال هذا التبادل فى الآراء والمواقف، خرج باستنتاج مفاده أن المجتمع الإسرائيلى يعانى، بين قطاعاته، من عقدة خداع، لكن لديه بساطة تزيل النقمة، وأمنيات لا تتحقق إلا بالاستقرار والأمن. وإذا تخلى الفلسطينيون عن العنف وضغطوا بالمبادئ والإقناع، فإن الإسرائيليين سيرحبون، بلا حدود، بالموافقة على المطلوب من أجل سلام مستقر عادل. قناعة تحدث صدمة لبعض الفلسطينيين باعتبارها قمة السذاجة، لكنها تبدو، للآخرين، قمة «البراجماتية».



بعد أربعة أعوام من المواجهة المسلحة المدمرة والشاقة مع إسرائيل، ومع فقدان الزعيم الوحيد الذى يعرفه، أصيب الشعب الفلسطينى بصدمة شعر معها بالخوف والإنهاك. أصبح الجميع فى حالة مزاجية ملت الحرب، وأصبح «أبو مازن» الخيار الطبيعى والوحيد للجميع. هو لم يسع إلى حشد الأنصار حوله، ولم يواجه بمعارضة تذكر، وهو اليوم الفلسطينى الأخير صاحب المنزلة الوطنية والمصداقية التاريخية القادر على الحديث - بأصالة - باسم الجميع. أى زعيم آخر كان عليه - إذا أراد السلطة - أن يخوض غمار صراع طويل باهظ التكلفة. لهذا جاء انتخاب «أبو مازن» ممارسة للشرعية وليس مواجهة معها.

لقد التفت حوله الأكثرية

صاحبة المصالح المتعددة المتباينة. الأكثرية التى كانت تخشى أن تؤدى وفاة عرفات إلى مزيد من الاضطراب، ورأت فى «أبو مازن» الرمز الضامن للأمان والاستقرار. والأكثرية من الذين أنهكتهم الانتفاضة ووجدوا فى «أبو مازن» الزعيم الأكثر قدرة على تحقيق الهدوء وربما إدخال بعض التحسينات على أوضاعهم المعيشية. والأكثرية من المقاتلين الذين تطاردهم وتعتقلهم إسرائيل ورأوا فيه القادر على التفاوض من أجل عفو يسمح لهم باستئناف حياتهم الطبيعية. مجتمع رجال الأعمال الذى يدرك تفهم «أبو مازن» لاحتياجاته، وأنه يستطيع خلق مناخ أكثر دعماً للمصالح التجارية. وأعضاء الطبقة البيروقراطية، التى نمت فى ظل السلطة الفلسطينية، ويأملون أن يعيدهم «أبو مازن» إلى مواقعهم التى احتلوها بعد عام ١٩٩٣. وبالنسبة للاجئين الفلسطينيين فى الشتات، والذين يخشون تجاهل مصالحهم عند استئناف المفاوضات، فمن المؤكد أنهم يشعرون بارتياح لمعرفتهم بأصول «أبو مازن» الضاربة فى مدينة صفد، (الإسرائيلية الآن)، وبسجله النضالى خارج الأراضى المحتلة، ومساندته الطويلة لحق العودة. ثم هناك هؤلاء الذين لديهم حلقات مغلقة حول الرجل الذى يعتقد بأنه المكرس من قبل الولايات المتحدة، القوة الوحيدة الموضوعة فى الحسبان، والمفضل لديها الذى أصبح، بالنتيجة، انعكاساً للمفضل المتخيل لدى الآخرين.

ومع الانسحاب الإسرائيلى، المقرر من قطاع غزة، هناك ثقة مفتقدة بين فلسطينيى الضفة الغربية الذين يخشون انفصال القطاع، وأهالى غزة الذين يخشون سعى رفاقهم فى الضفة إلى تحرك يقود إلى انفصال. افتقاد ثقة وصل إلى مرتفعات جديدة، ورغم ذلك فإن الجانبين احتشدا حول أبو مازن مدركين أن مواقفه لن تمثل تهديداً لكليهما. وقد يتوقع البعض أن يقدم الجيل الجديد فى فتح على تحدى سلطة «أبو مازن»، لكن وتيرة نقل السلطة، وإجراء الانتخابات، جنبت القيادة احتمالات الانقسام، وأظهرت أن القيادات المستقبلية الشابة ترى فى «أبو مازن» زعامة غير مقيدة بأى فصيل بعينه وضمانة للاستمرارية، وأهم من ذلك كله تراه أفضل قيادة انتقالية قادرة على تهيئة الأوضاع الممهدة للوصول الطبيعى إلى السلطة. وفى الوقت نفسه، ينظر الكبار من أنصار عرفات، مثل أعضاء اللجنة المركزية لحركة فتح، إلى «أبو مازن» باعتباره الضامن لمصالحهم فى مواجهة أصحاب الطموحات من القيادات الشابة (القادمين الجدد).

«حماس» و«الجهاد الإسلامى» يدركان جيداً أن برنامج «أبو مازن» غير متناغم مع برنامجيهما وأنه يرفض العنف ووجود الجماعات المسلحة. لكنهما «حماس والجهاد» عاشا معه من قبل: وعلى ثقة أن بإمكانهما فعل ذلك ثانية، و«يعرفان» أن أسلوبه هو التعاون أو التحييد وليس التحطيم، وأن إسرائيل لن تمنحه فرصة عادلة وأنه سوف يفشل، وأن باستطاعتهما الانتظار إلى جولة مقبلة والاستفادة من لحظة استرخاء طال انتظارها. وفيما يتعلق بالولايات المتحدة، إسرائيل، أوروبا، والدول العربية، فاليقين أن «أبو مازن» لا يؤمن، وحسب، بالأجندة التى يتمسكون بها جيداً: وقف الهجمات المسلحة، بناء المؤسسات الفلسطينية، تأكيد حكم القانون، بل يُنظر إلى «أبو مازن» أيضاً، وبأهمية أكبر باعتباره الفلسطينى الوحيد القادر إلى حد بعيد على تنفيذ هذه «الأجندة».

وسط هذا العدد الكبير من الدوائر المحلية والدولية هناك قلة من الموالين المخلصين لرؤيته، والكثرة هم هؤلاء الذين يأملون أنه، فى نهاية المطاف، سيرى الأمور على طريقتهم. لكن «أبو مازن»، وفى الوقت الحاضر، لديه كامل الحرية. نسبياً. لكى يقول ويفعل ما يراه على طريقته. إنه، بلا شك، أكثر حرية مما يتوقع هو، أو يتوقع الآخرون، لأنهم هم الذين جاءوا إليه، ولم يذهب هو إليهم، والمراكز المتنافسة على السلطة، والتى وجدت من قبل، تبقى كامنة فى الوقت الحالى وغير راغبة فى، أو قادرة على، تشكيل معارضة منظمة أو فاعلة. والأكثر أهمية أن «أبو مازن» حقق مكانته لأن توجهاته السياسية اتسقت مع الأولويات الفلسطينية الملحة: الأمن والتطلع إلى حياة طبيعية محررة من الخوف من الهجمات الإسرائيلية والجماعات الفلسطينية المسلحة، تحسينات مادية واستئناف للأنشطة الاقتصادية الأساسية، حرية الحركة والحياة دون حواجز طرق ثابتة وحظر تجوال وإهانات. ومن السخرية أن الفلسطينيين يتطلعون الآن إلى أوضاع كانت سائدة ما قبل الانتفاضة، أوضاع تعد، إلى حد بعيد، مفجرة للانتفاضة، وفى يقينهم أن «أبو مازن» هو القادر على إرجاع الأوضاع إلى ما كانت عليه.



يبدو أرئيل شارون الآن، وقد كسب الجولة الحالية فى الصراع الإسرائيلى. الفلسطينى، وكأنه حقق طموحاته. كان هدفه، وضالته التى ظل ينشدها طوال حياته، أن يسأم الفلسطينيون صراعهم الوطنى وأن يؤدى إفقارهم وقنوطهم إلى تحويل تركيزهم بعيداً عن القضايا السياسية، إلى الاهتمامات الدنيوية الأكثر إلحاحاً والخاصة باحتياجات كل يوم. ولقد سبق أن توقع «أبو مازن» هذه المحصلة، ونادى بوقف الانتفاضة المسلحة عند بدايتها فى عام ٢٠٠٠. محذراً من أنها ستكون أكثر إيلاماً للفلسطينيين الذين سيكون عليهم العودة إلى المربع رقم واحد: وقف الانتفاضة وإعادة الإعمار، وهم أكثر انقساماً ومرارة وعزلة عن ذى قبل.

ويبدو «الإنهاك» الفلسطينى، فى الوقت الحاضر، وكأنه يخدم أهداف الرجلين (شارون وأبو مازن)، رغم الاختلافات الحادة فى نوايا كل منهما إزاء توظيف هذا الإنهاك: يرى شارون أن الإنهاك الفلسطينى يقدم وسائل، مرحباً بها، من شأنها «تفريغ» الحركة الوطنية من محتواها السياسى De politicizes أما أبو مازن فيرى فى الإنهاك فرصة، ومرحلة قبل أن تستطيع الأمة الفلسطينية إعادة تفعيل المحتوى السياسى على أسس جديدة.



بفقدان الزعيم الوحيد الذى يعرفه، أصيب الشعب الفلسطينى بصدمة شعر معها بالخوف والإنهاك. أصبح الجميع فى حالة مزاجية ملت الحرب، وأصبح «أبو مازن» الخيار الطبيعى والوحيد للجميع



لدى الزعيم الفلسطينى بصيص أمل فى إمكانية التوصل إلى تسوية شاملة مع أرئيل شارون، رغم المسافات البعيدة الفاصلة بينهما، والتى ليس أقصرها ما يفضله رئيس الوزراء الإسرائيلى: اتفاق فصل طويل المدى يضمن، وبشكل نهائى، وضع القضايا الصعبة جانباً، مثل قضايا الحدود النهائية، وضع القدس، ومصير اللاجئين. وفى ضوء مثل هذه النوايا المتباينة يبدو الوقت الحالى ليس بالوقت المناسب لاتفاق ثنائى بل لاتفاقيات أحادية الجانب: انسحاب إسرائيل من غزة وشمال الضفة الغربية، قيام الجانب الفلسطينى بإعادة ترتيب الأوضاع الداخلية، إعادة بناء المؤسسات، والحركة الوطنية نفسها، التخلى الكامل عن العنف، استعادة الصلات الدولية، والإعراب بوضوح عن المطالب الفلسطينية الأساسية غير القابلة للتغيير. ويعتقد «أبو مازن» أن الجانب الإسرائيلى غير المستعد الآن لمفاوضات تؤدى إلى تسوية دائمة، سيكون مستعداً لذلك فى مرحلة ما بعد شارون، وأن الشعب الفلسطينى يمكنه أن يحصد فوائد مرحلة الهدوء الذى طال انتظاره.

ويظل الدعم المتوافر حالياً لرؤية «أبو مازن» دعماً غير ثابت، وعرضة للتقلب، لأسباب تتجاوز مدى الالتزام بشخصه أو برنامجه. وتتعلق بـ «الحالة السائدة» وحالة الصدمة الراهنة بين الفلسطينيين من المحتمل أن تخبو، ويتلاشى خوفهم، ويزول عنهم الإنهاك فترتفع الأصوات بمطالب سياسية من إسرائيل مثل إطلاق سراح السجناء، وقف بناء المستوطنات، أو إنهاء الاحتلال. ومع مرور الوقت تصبح كثرة الخيارات، والإعداد كذلك، أمام «أبو مازن» مسألة حتمية. سوف ينفض من حوله الذين يؤيدونه بأنصاف قلوبهم، تظل إمكانية وجود معارضة منظمة ومؤثرة، وتكثر الدعوات المطالبة بالعودة إلى العنف. ويأمل «أبو مازن» أن يكون قدم، مع مجىء ذلك الوقت، مكاسب ملموسة ناجمة عن الاستقرار وإعمال النظام والقانون وتحسين مستوى المعيشة وحرية الحركة: تراكمات تضاف إلى رصيده السياسى وتحدث التوازن ما بين المؤيدين لبرنامجه، والمعارضين له فى الدوائر الانتخابية.

ويحتاج «أبو مازن» لكى ينجح إلى مساندة المجتمع الدولى، وخاصة الولايات المتحدة، لكى يتمكن من الوصول إلى ما هو أبعد من التحسينات المادية للأوضاع الفلسطينية. إن إنهاء العنف، وإصلاح المؤسسات وإعمال القانون والديمقراطية، أهداف يؤمن بها «أبو مازن» ويدرك، بعمق، أن تحقيقها هو فى صالح شعبه، لكنه يرى فيها - أيضاً - فائدة «إضافية» ومهمة، وهى أن يضع الرئيس بوش فى اختبار ويواجهه بكلماته. ولأكثر من مرة قال بوش إن كبح جماح الجماعات المسلحة و«دمقرطة» المجتمع الفلسطينى سيؤديان إلى حل وإلى قيام دولة فلسطينية. ويرى «أبو مازن» أن قيام

الجانب الفلسطيني بما عليه من التزامات يعني أن تفي الولايات المتحدة بالتزاماتها وتمارس ضغطًا على إسرائيل من أجل الاعتراف السياسي الذي يحتاجه بشدة لقيام الدولة الفلسطينية».

يعتقد «أبو مازن» أيضًا أن الوضع الأكثر هدوءًا، والمغاير للوضع الراهن، يمكن أن يحدث تغييرًا داخل إسرائيل يسفر عن ضغط داخلي من أجل اتفاق شامل، وأن السعي إلى إحداث هذا التغيير، بالسرعة الكافية، سوف يمكنه من السيطرة على نفاد الصبر الفلسطيني وتجنب العودة إلى المواجهات المسلحة.



خلاصة الأمر أن «أبو مازن» يرى أن عليه الدفع باتجاه خلق حركة كافية، وبالسرعة الكافية، من إسرائيل، ومن المجتمع الدولي، حركة شبيهة بتلك التي حاول خلقها، دون جدوى، في مستهل فترة رئاسته للوزراء، وإن تميزت بثلاثة مستجدات حيوية: رحيل عرفات، اختياره للخلافة وانتخابه، والفارق الزمني بين المحاولتين والذي ربما يكون سمح للولايات المتحدة وإسرائيل بتأمل الدروس المستفادة من تلك المحاولة السابقة المشئومة، والعمل بها.

هنا، أيضًا، يبدو وجه اختلاف آخر، وملموس، ما بين «أبو مازن» وعرفات. ففي الوقت الذي يقف فيه الأول، حيث يقف الآن، بفعل تناغم «المزاج السائد» مع برنامجه، نجد أن الثاني قد جاهد طويلاً، ودون كلل، لكي يحقق التناغم مع «حالة المزاج السائد». لقد ضمن عرفات أن مكانته محصنة إزاء تقلب الأحداث وذلك بالاشتباك النشط مع كل دائرة انتخابية، في حين أن الوضعية التي ضمنها «أبو مازن»، بالارتفاع فوق الشاحنات، تظل وضعية مقيدة بالأحداث وتقلبها. ورغم تمتعه الآن بسلطة تكاد تكون مطلقة، والاحتمال الأكبر أنها مؤقتة. لكن «أبو مازن» محرر من عبء الحاجة إلى إرضاء كل دائرة انتخابية. هامش المناورة يتسع أمامه بشكل ملحوظ، لكن الإجماع الذي تشكل، بسرعة، حوله، سرعان ما يتبخر ويتلاشى إذا ما تغير المزاج السائد، وفشلت الولايات المتحدة في الضغط على إسرائيل، أو فشلت إسرائيل في الاستجابة.

تحديان إضافيان، متناقضان، يواجهان «أبو مازن»: الأول: أن الفلسطينيين لديهم قناعة في قدرة الولايات المتحدة على أن تحصل من إسرائيل على ما لا يستطيعون هم الحصول عليه. وهذه القناعة تقترن الآن بإدراكهم أن رصيد «أبو مازن» الأساسي مستمد من سمعته أو مكانته الدولية أكثر من مصداقيته المحلية، وهم ينتظرون منه أكثر مما كانوا ينتظرون من عرفات. التحدي الثاني يتمثل في أن عودة أبو مازن، وإلى الآن، تعد نتيجة للإنهاك الشعبي. وكلما نجح «أبو مازن» في تحسين الموقف، كلما خف الإنهاك وزاد المطلوب منه فلسطينيًا. وكبرت مخاطر انفضاض الدعم الشعبي من حوله.

وبين الألغام الكامنة هناك لغمان يرقدان، مباشرة، أمام «أبو مازن». الأول يكمن في انسحاب إسرائيل من غزة. الانسحاب خطوة لا يستطيع معارضتها. ولأول مرة، في تاريخ الصراع، ترد الأرض إلى الفلسطينيين ويتم إخلاء المستوطنات. وغزة الحرة من التواجد الإسرائيلي سيعاد إعمارها وتتحول إلى نموذج أمام بقية الأراضي المحتلة. لكن غزة هذه تعني أمرًا ليس في مقدور «أبو مازن» احتضانه بسهولة: خشية الكثير من الفلسطينيين من قيام إسرائيل، مع توجه كل الأنظار إلى غزة والانسحاب منها، بتكثيف أشد لكتل المستوطنات داخل الضفة الغربية وأجزاء داخل المنطقة الاستراتيجية من القدس، والاستمرار في بناء الجدار العازل، وكل ذلك في إطار خطة مشبوهة هدفها فرض حدود الأمر الواقع، التي تقسم الضفة إلى «كنتونات». الموازنة بين الحالتين، وما بهما، ولهما، من اعتبارات، ربما تجعل «أبو مازن» يحيد الانسحاب من غزة كإنجاز يعد جزءًا من خريطة الطريق، ويحتفظ بالتنسيق مع إسرائيل في حده الأدنى، محولاً زخم الاهتمام الدولي إلى الضفة الغربية.

اللغم الثاني الذي يعرفه «أبو مازن» ويعرف أنه موجود بالقرب منه، يتمثل في اقتراح إسرائيل الخاص بإقامة دولة فلسطينية، بحدود فاصلة، في غزة وأجزاء من الضفة الغربية. وقد تؤدي «اللهفة» السائدة لتحقيق إنجاز سياسي، و«الهوس» بأمر البناء المؤسسي، إلى ممارسة الولايات المتحدة، وأوروبا، الضغط على «أبو مازن» لكي يوافق على الاقتراح الإسرائيلي. كما أن بعض الدول العربية، المتلهفة على الاستقرار، قد ينضم إلى «كورس» الضغط. لكن ما يراه البعض كاعتراف إسرائيلي بدولة فلسطينية، يراه أبو مازن كفخ ومحاولة لتنفيس الصراع وتفريغه من قواه المعنوية وتحويله إلى نزاع حدودي بسيط قابل للاحتواء، وإرجاء للتسوية الشاملة. ومن المؤكد أن «أبو مازن» سوف يناضل من أجل إيجاد الوسائل الكفيلة لضمان المساندة الدولية في مواجهة الاقتراح الإسرائيلي. كيف؟ لا أحد يعرف. وهو نفسه لا يعرف.



لا شك أن «أبو مازن» سوف يتأثر بالسلطة كما تأثر بها، من قبله، كل من مارسها. وقد كان عليه، بالفعل، اكتساب، أو اختلاق، نكهة للخطابة وحشد الجماهير، والتي اشتهر بها عرفات. وأكثر من ذلك، يتطلب بقاء «أبو مازن» السياسي، أداء صارم التوازنات من النوع الذي يمقته بطبيعته. وبدلاً من ذلك سوف يصب جهده على إجراء تحسينات مادية، دون إهمال للقضايا السياسية، وأن يحوز ثقة الإسرائيليين والأمريكيين دون أن يفقد ثقة حماس أو الجهاد الإسلامي، أن يفرض الانضباط على الجماعات المسلحة دون تحطيمها، وأن يحافظ على وحدة «فتح» دون أن تعيقه، أن يستجيب لطلبات واشنطن دون أن يظهر كراضخ لكل رغباتها، وأن يضع نهاية للعنف دون أن يبدو كخاضع لإسرائيل، وأن يباعد - بطبيعة الحال - بينه وبين أسطورة عرفات، دون انفصال عنها. والتحدي الأساسي سوف يصبح، مع مرور الوقت، ما إذا كان في إمكانه التوفيق بين هذا الكم من التوقعات التي يجسدها الآن، وتفعيل الدعم، الفاتر بعض الشيء، الذي يحظى به حاليًا من جماعات كثيرًا ما تصارعت. في هذا السياق يمكن القول إن نتائج الانتخابات أسفرت إما عن مبالغة في تقدير قوته، أو إساءة تقدير لها.. إن نسبة «الأكثر من ٦٠ بالمائة» لا تعني أن كل من أعطاه صوته يبارك برنامجه، كما أن نسبة «الأكثر من ٣٠ بالمائة» التي لم تنتخبه لا تعني أن الذين لم يصوتوا له يشكلون وحدة مترابطة، أو معارضة مؤثرة.

هناك أيضًا سلسلة تساؤلات تبحث عن إجابات: ماذا سوف يحدث إذا لم يستطع «أبو مازن» أن يحقق ما تطلبه الولايات المتحدة وإسرائيل؟، وماذا سوف يحدث إذا لم يقدم بوش وشارون ما يحتاجه أبو مازن؟ ماذا لو أن «أبو مازن» غير قادر على التوصل إلى اتفاق مع حماس، الجهاد الإسلامي، ومسلحي فتح، أو توصل إلى اتفاق لم يستمر، أو استمر لكن إسرائيل استمرت في هجماتها العسكرية؟ ماذا لو أن التوافق السياسي الهش انهار من حوله، أو اندلع العنف بين المتنازعين؟

خلال توليه لمنصب رئيس الوزراء في عام ٢٠٠٣، في الوقت الذي نال فيه التأييد من الولايات المتحدة، الأمم المتحدة، أوروبا، والكثير من دول العالم العربي: وقتها تساءلنا: لماذا شعر «أبو مازن» بأنه وحيد وهو وسط كل هذا الحشد[٢]. لقد كان يتحرك وقتها دون مساندة شعبية، ومع وجود معارضة معتبرة، وفي حضور، وظل، «أب» مؤسس وطاغ. بعد ذلك بعام ونصف العام ذهب الأب وأصبح «أبو مازن» آملاً لتحقيق عدد لا يحصى من الرغبات المتعذرة: فهو الحامي والمنقذ، الشخصية الانتقالية وأفضل وآخر من تتطلع إليه أجيال فلسطينية. هو «الشيطان الذي نعرفه» بالنسبة للبعض، و«أهون الأشرار» للبعض الآخر. أصبح «أبو مازن»، بالنسبة للفلسطينيين، هو كل هؤلاء، وفي لحظة أصبح مزدحمًا مشغولاً ولم يعد وحيدًا أو معزولاً. وعندما ينظر إلى ما ينتظره، فيما بعد، لابد أنه يتعجب ويتساءل: من أين جاء كل هؤلاء الناخبين؟، وكم من الوقت سوف يقفون خلفه؟، وماذا فعل لكي يستحق صحبتهم الغزيرة المتدفقة والتي كثيرًا ما تكون ثقيلة باهظة؟ ■



يبدو «الإنهاك» الفلسطيني، في الوقت الحاضر، وكأنه يخدم أهداف الرجلين (شارون وأبو مازن)، رغم الاختلافات الحادة في نوايا كل منهما إزاء توظيف هذا الإنهاك



هوامش:

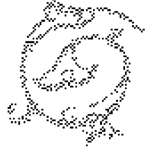
(١) Borgesian، نسبة إلى جورج لويس بورجيس (١٨٩٩ - ١٩٨٦) الكاتب والشاعر والروائي الأرجنتيني الذي تميزت أعماله الإبداعية بأعمال الاستعارة والمجاز. المترجم.

(٢) يشير الكاتبان إلى دراسة لهما بعنوان The Menin a Boat نشرتها مجلة The New York Review (أغسطس ٢٠٠٣).

كتاب يقرؤه بوش

محمد السطوحي





■■ - إن العدل لا يمكن أن ينتظر حتى تتحقق الديمقراطية.

- لا يوجد عدل بدون ديمقراطية.

العبارة الأولى للكاتب الصحفي الأمريكي المحافظ بات بيوكانان، أما العبارة الثانية فكانت الرد الجاهز لناتان شارانسكي الوزير في الحكومة الإسرائيلية وصاحب أشهر الكتب السياسية الصادرة مؤخرا في الولايات المتحدة بعنوان «دفاعا عن الديمقراطية».

وقد وردت هاتان العبارتان في نهاية مناظرة ممتعة لبيوكانان وشارانسكي في برنامج شبكة NBC التليفزيوني الشهير «واجه الصحافة».

والعبارتان على اختزالهما الشديد، إلا أنهما تلخصان إلى حد كبير مجمل الجدل الدائر بشأن كتاب شارانسكي، خاصة عند تطبيق ما ورد فيه من أفكار على قضية الصراع العربي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية.

فقد انتقد بيوكانان السياسات الإسرائيلية الخاصة باستمرار احتلال الأراضي الفلسطينية وبناء المستوطنات، مؤكدا أن سياسة التدخل والاحتلال هي التي تولد العنف والإرهاب، مشيرا إلى أن العنف انتهى في الجزائر بنهاية الاحتلال الفرنسي، وانتهى في أفغانستان بنهاية الاحتلال السوفيتي، وفي لبنان بنهاية الاحتلال الإسرائيلي، ويطالب بيوكانان إسرائيل بعمل الشيء ذاته بالانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة لإنهاء العنف والمشكلة بشكل نهائي، مؤكدا أن تحقيق السلام لايتطلب بالضرورة قيادة ديمقراطية.

أما شارانسكي فيرد بأنه لا يمكن تحقيق السلام بدون وجود ديمقراطية فلسطينية وعربية، وعندما يسأله بيوكانان عما إذا كان مستعدا عندها للانسحاب من كل الضفة الغربية وغزة، يرد بعبارة مطاطة أنه سيكون من الممكن التعايش عندها بين الجانبين وأن التنازلات يجب أن تكون بحجم ما تحقق من ديمقراطية. وهو معيار غريب يعني أن الفلسطينيين يجب أن يتحولوا إلى سويديين إذا كان لهم أن يحصلوا على حقوقهم كاملة، بل ربما يخرج عندها السيد شارانسكي بتحفظاته أيضا على شكل الديمقراطية السويدية.

مثل هذا الحوار بين بيوكانان وشارانسكي ما كان يمكن أن يلفت الأنظار، بل ربما كان من غير المرجح حدوثه من الأساس في الظروف العادية، فشارانسكي أصدر هذا الكتاب منذ أشهر عديدة، لم يلفت فيها نظر الكثيرين، كما وجد فيه البعض عيوبا منهجية سنتعرض لها فيما بعد. إلا أن الاهتمام تفجر فجأة بالكتاب وصاحبه بعد أن ذكر الرئيس بوش في مقابلة مع صحيفة واشنطن تايمز أن كتاب شارانسكي يعبر بشكل دقيق عن فلسفته في الحكم وضرورة نشر الديمقراطية في أنحاء العالم، ودعا بوش الناس لقراءة «هذا الكتاب العظيم» الذي وصفه بأنه يمثل الـ DNA او الحامض النووي لرئاسته. ولم يكتف بوش بذلك، بل إن خطاب توليه السلطة في يناير الماضي، يليه الخطاب الهام عن حالة الاتحاد، اعتمدا بشكل أساسي على ما جاء في هذا الكتاب من أفكار بل أحيانا كان يتم نقل عبارات منه بطريقة تبدو حرفية. عندها انطلق الجميع بحثا عن الكتاب لعل وعسى يفهمون منه ما ينتظرهم في السنوات الأربع القادمة. وقد كنت أنا شخصيا من هذه الفئة الأخيرة التي انتظرت هذا المرسوم الرئاسي البيضاوي، وأعترف أنني بدون ذلك ربما ما خطر لي إدخال مبلغ سبعة وعشرين دولارا في جيب شارانسكي وناشره، إلا أن اهتمامي على مايبدو جاء متأخرا، ووجدت صعوبة في العثور على نسخة من الكتاب بعد أن نفد تقريبًا في العديد من مكتبات منطقة واشنطن التي بحثت فيها هاتفيًا، إلى أن عثرت عليه في مكتبة في إحدى ضواحي العاصمة فطلبت حجز نسخة لي حتى لا تباع قبل وصولي إليها، وهناك وجدت بالفعل عدة نسخ أخرى محجوزة لآخرين.

NATAN SHARANSKY
WITH RON DERMER
THE CASE FOR DEMOCRACY
THE POWER OF FREEDOM TO OVERCOME TYRANNY & TERROR

The Case for democracy: The power of freedom to overcome tyranny and terror
دفاع عن الديمقراطية
Natan Sharansky
public Affairs 2004.

الديمقراطية والسلام:

وقبل أن أعرض لما جاء في الكتاب أود أن ألفت النظر إلى أنني حاولت قدر المستطاع أن يأتي العرض دون تدخل كثير أو تعليق من جانبي، وذلك لكي أعطي القارئ الفرصة للاطلاع على أفكاره كما هي، ثم أبقيت تقييمي للكتاب في نهاية المقال.

غير أن قراءة كتاب شارانسكي في ذاتها لا تقدم الكثير دون الوقوف قليلا عند سيرته الذاتية، فهي التي يستمد منها ما يعتبره مؤيدوه مؤهلات شخصية فريدة تعطيه حق تلقين العالم هذه المحاضرة عن قيمة وأهمية الديمقراطية.

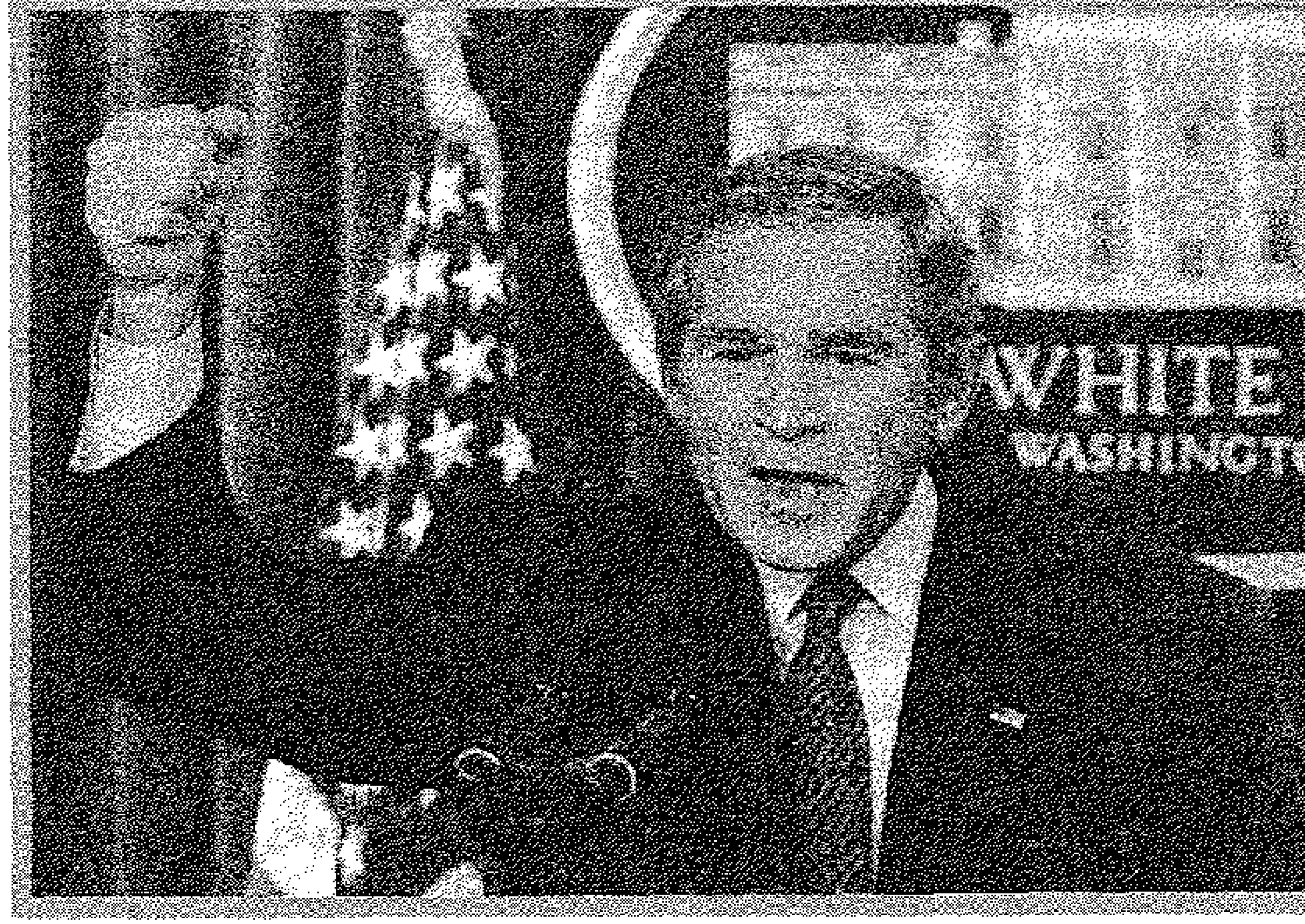
فقد ولد شارانسكي في أوكرانيا عام ١٩٥٤ حيث كانت لاتزال جزءا من الاتحاد السوفيتي قبل انهياره في بداية التسعينيات من القرن الماضي. وقدم طلبا للهجرة إلى إسرائيل عام ١٩٧٣ فرفض لأسباب أمنية، فأصبح ناشطا صاخبا ضمن حركة يهودية معارضة في موسكو مما أدى إلى اعتقاله عام ١٩٧٧ ثم إدانته بالتجسس لصالح الولايات المتحدة والحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة عشر عاما، قضى منها شارانسكي نحو عشر سنوات، نظمت فيها أكبر حملة من نوعها للإفراج عنه، شارك فيها الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان، إلى أن اضطر الرئيس ميخائيل جورباتشوف للإفراج عنه، ضمن صفقة تم

فيها تبادل الإفراج عن بعض الجواسيس من الجانبين. وهاجر بعدها شارانسكى إلى إسرائيل حيث استقبل فيها كبطل قومى وصار صاحب نفوذ هائل فى الحياة السياسية نظرا لدوره فى توجيه أصوات الناخبين من المهاجرين السوفييت إلى إسرائيل وعددهم يتجاوز المليون، أغلبهم من المتعلمين وأصحاب الخبرات العلمية والعملية الكبيرة، كما أن مواقفه من عملية السلام تحسب على تيار المتشددين فى الساحة السياسية داخل إسرائيل؛ وهو ماسنعرض له فيمابعد.

وما يقوله شارانسكى ببساطة هو أن الطريق الوحيد لتحقيق السلام وتأمينه فى العالم كله وفى العالم العربى على وجه الخصوص هو طريق الديمقراطية. وهو فى ذلك يعلن مخالفته للمفاهيم التى يروج لها بعض السياسيين بأن التغيير غير مضمون العواقب وأن التعامل مع الديكتاتوريات القائمة هو ضمانة الاستقرار والحل الأمثل والمضمون.

ولشرح وجهة نظره، يقول شارانسكى إن الحرب ضد الإرهاب ليست مقصورة على منظمة القاعدة لمسئوليتها عن هجمات سبتمبر، لكن أهدافها تمتد لتشمل إزاحة مصادر التهديد الإرهابى وبصفة خاصة الإرهاب الإسلامى الأصولى، بما يضمن أمن العالم الحر، وهذا يقتضى حسب قوله أن يتم بناء مجتمعات حرة فى الشرق الأوسط،ويشير إلى أن ذلك يمثل بالنسبة للرئيس بوش ورئيس الوزراء البريطانى تونى بلير أحد عنصرين لاستراتيجية مكافحة الإرهاب: فالعنصر الأول أو المرحلة الأولى تتضمن إنهاء مساندة الدول للإرهاب، أما الثانية فتكون بتغيير الأنظمة المؤيدة للإرهاب بحكومات ديمقراطية.

ويرفض شارانسكى فكرة أن الانتصار فى الحرب ضد الإرهاب يتطلب فقط استهداف المنظمات الإرهابية وتجفيف ينابيع الإرهاب ومصادر تمويله، حيث يرى مؤيدو هذا الرأى أن إسقاط الأنظمة غير الديمقراطية ليس ضروريا لتحقيق النصر، وبالتالى فلا يجب التمسك بإسقاطها إلا إذا شاركت مباشرة فى عمليات إرهابية. ويرد على ذلك بأن ظاهرة الإرهاب ترتبط أساسا بغياب الديمقراطية. وهو فى ذلك يكرر أيضا ماقاله آخرون من بينهم الكاتب الصحفى المعروف توماس فريدمان بصحيفة نيويورك تايمز الذى كثيرا مايضرب مثالا بأن ثانى أكبر كتلة سكانية إسلامية هى الهند، لكننا لم نر تلك الظاهرة الإرهابية من مسلمى الهند، لأن الديمقراطية الهندية أعطتهم مساحة الحرية التى تستأصل جذور الإرهاب. غير أن شارانسكى يمضى خطوة أبعد من ذلك ليؤكد على ضرورة تدخل ما يصفه بالدول الحرة من أجل ضمان نشر الديمقراطية فى المناطق التى تحكمها أنظمة مستبدة، وبصفة خاصة فى منطقة الشرق الأوسط التى يقول إنه لا يوجد بها نظام ديمقراطى واحد باستثناء إسرائيل.



بوش



شارانسكى

وينفى مقولة إن ما يحدث داخل الدول الأخرى لا علاقة لنا به طالما لا يؤثر على السلام والأمن الدوليين، مؤكدا أن هجمات الحادى عشر من سبتمبر أنهت بشكل قاطع تلك الحجة، بحيث أصبح نشر السلام ومنع الإرهاب مرتبطا تماما بنشر الحرية والديمقراطية. ويركز شارانسكى على السعودية التى يرى الكثيرون فى الغرب أن المهم بالنسبة لها هو الاستقرار وليس الديمقراطية، لكن هجمات سبتمبر كما يقول أكدت أن ثمن الاستقرار فى الدول غير الديمقراطية هو انتشار الإرهاب خارجها. ويشيد بكل من الرئيس بوش ورئيس الوزراء البريطانى تونى بلير لما أظهراه من تصميم على تحقيق الديمقراطية فى العراق وأفغانستان وبقية دول الشرق الأوسط.

ويرد شارانسكى على من يقولون إن نشر الديمقراطية غير ممكن فى بعض المناطق والثقافات، فى إشارة للعالم العربى، وهو فى ذلك يستخدم عبارات وأمثلة مشابهة تماما للتى يستخدمها الرئيس بوش فى حديثه عن التحول الديمقراطى فى كل من ألمانيا واليابان رغم شكوك الكثيرين فى إمكانية ذلك بعد الحرب العالمية الثانية. ويبرر شارانسكى تفاؤله بشأن العالم العربى فقط بأن هناك رغبة عامة فى الطبيعة البشرية وبين كل الشعوب تجعلها تفضل الحرية على الخوف والاستبداد، وهو يقول ذلك بعد مراجعة الآراء التى تشير إلى أن العرب مختلفون. فهم فى منطقة (كما يقول) تتميز بالوحشية، ولم تشهد الديمقراطية فى تاريخها، وعندما كان الناس يضيئون الشموع فى لندن وسول و فى تل أبيب، حزنا على ضحايا مذبحة سبتمبر، كان الناس يرقصون فى رام الله وبغداد؛ كما أن أسامة بن لادن يعد بطلا بالنسبة لعشرات الملايين من المسلمين. ثم ينقل الكثير من المقولات التى تربط بين الدين والدولة فى الإسلام بما يجعل من غير الممكن الفصل بينهما طبقا لمقتضيات الليبرالية الديمقراطية، كما أن المسلمين طبقا لهذه الآراء التى يعرضها يتخلفون بسنوات ضوئية عن الغرب فى أسلوب معاملتهم المرأة والتمييز ضدها، كما أن تعايش المسلمين فى ظل الديمقراطية فى الغرب يمكن الرد عليه حسب قوله بأنهم أقلية مضطرة لذلك. أما وجود الديمقراطية فى بعض الدول الإسلامية حاليا فيمكن القول إنها فقط تمر بمرحلة ديمقراطية عابرة فى ظل مسلسل طويل من الاضطهاد والاستبداد والانقلابات العسكرية. والمدهش بعد كل هذه القرائن التى تشكك فى إمكانية انتشار الديمقراطية فى العالم العربى بما فيها من إساءة لهم وتشويه لتاريخهم، يعود شارانسكى ويقول إنه لا يزال يؤمن بإمكانية انتشار الحرية والديمقراطية فى المنطقة، ليس لأن كل ما يقال خطأ، فهو صحيح من وجهة نظره، لكنه لا يغير من ثقته فى اختيار الشعوب للحرية وليس الاستبداد.

مجتمع الحرية ومجتمع الخوف:

كعادته فى كل فصول الكتاب يتحدث شارانسكى عن قضية ما بشكل عام، ويعرض تجربته السوفيتية بشأنها ثم يعود فيسقط كل ذلك على المشكلة الفلسطينية، وصولا إلى النتيجة التى يسعى لتأكيدها طوال الوقت: وهى أن انعدام الديمقراطية الفلسطينية هو المشكلة، وأن الحل يكمن فقط فى وجود هذه الديمقراطية.

فى هذا الفصل يقول شارانسكى إن الشعوب فى مجتمعات الخوف تنقسم إلى ثلاث جماعات: الأولى مؤمنة بالنظام القائم والأفكار السائدة وتستفيد منها، والثانية تعارضها صراحة، أما الثالثة فهى لا تؤمن بالأيديولوجية السائدة لكنها تخشى المخالفة وتقول مالا تؤمن به تماشيا مع السلطة وسطوتها، وهى تمثل الأغلبية. كما يتحدث عن عمليات غسيل المخ التى تقوم بها السلطات فى مجتمعات الخوف. وهنا ينتقل إلى الفلسطينيين الذين ساعدهم الحكم العسكرى الإسرائيلى فى رأيه على التعرض للديمقراطية فى إسرائيل. إلا أنه مع نقل السلطة إلى ياسر عرفات والسلطة الفلسطينية فإنها بدأت فى عملية غسيل المخ، بتحريض الفلسطينيين على كراهية إسرائيل، وتدريب أطفال الحضانات على العمليات الانتحارية. ويضيف أن كثيرا ممن يتحدثون علنا بين الفلسطينيين عن كراهية إسرائيل ومواجهتها هم من الفئة الثالثة التى تقول مالا تضمر تفاديا لنقمة السلطة الفلسطينية التى تتحكم فى معاشهم وأرزاقهم. إلا أن شارانسكى يؤكد أيضا محدودية تأثير عمليات غسيل المخ. ويشير إلى ظاهرة وجود تأييد أكبر للولايات المتحدة بين الشعوب التى تحكمها أنظمة معادية لواشنطن كما هو الحال فى إيران. أما فى دول مثل مصر والسعودية، فإن كراهية أمريكا تزداد لأنها تؤيد الأنظمة الحاكمة فيها.

لا سلام مع مصر:

يقول شارانسكى إنه لا يمكن تحقيق السلام مع الأنظمة الديكتاتورية، وإنه عندما يذكره بعض الإسرائيليين بأن السلام تحقق مع مصر منذ

عام ١٩٧٩، فإنه يرد عليهم بأن فترة الهدوء على الجبهة المصرية واكبها هدوء آخر على الجبهة السورية دون معاهدة سلام. ثم يؤكد أن الهدوء في الحالتين يعود لقوة الردع الإسرائيلية. ويدعي شارانسكي أن الحكومة المصرية تشجع الناس على كراهية إسرائيل، والسبب من وجهة نظره هو خلق العدو الخارجي من أجل استمرار الاستقرار الداخلي وسطوة الحكم القائم.

الديمقراطية وعملية السلام:

أخطر ما في هذا الكتاب هو الطريقة التي يترجم بها كل الآراء السابقة فيما يتعلق بعملية السلام بين إسرائيل والدول العربية. فهو يربط ما يصفه بالتنازلات الإسرائيلية في المستقبل، بالتطور الديمقراطي في الدول المجاورة، لأنه لا سلام بدون ديمقراطية. وهو هنا يعرض قصة رواها له الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر، الذي يرى أن السلام لا يجب أن ينتظر تحقيق الديمقراطية، ويدلل على ذلك باجتماع له مع الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد عرض فيه كارتر تقريرا استخباريا حول انتهاك سوريا لالتزاماتها في مسألة أمنية وهو ما نفاه الأسد بشدة. وقد أبدى كارتر بعدها أسفه لمعاونيه لأن الأسد لم يكذب عليه من قبل كما فعل في هذه الحالة، إلا أنه وهو في طريقه إلى المطار تلقى مكالمة اعتذار من الأسد بأنه راجع الأمر ووجد أنه كان مخطئا، ووعد بتصحيح الخطأ.

من هذا الكلام يصل كارتر إلى نتيجة أن الأسد لا يكذب وأنه يمكن الثقة به، فهو إن وقع على اتفاق مع إسرائيل سينفذه ويحافظ عليه.

إلا أن شارانسكي يعتبر ما قاله كارتر نموذجا لسهولة فقدان الناس في المجتمعات الحرة لما يصفه «بالوضوح الأخلاقي» بحيث تتحول رغبتهم في السلام إلى سلاح في يد الطغاة.

وعبارة الوضوح الأخلاقي هذه لها حكاية يذكرها المتابعون للسياسة الأمريكية، وتعود إلى بداية هجوم القوات الإسرائيلية عام ٢٠٠٢ لإعادة احتلال المناطق الفلسطينية التي كانت خاضعة للحكم الذاتي الفلسطيني. عندها خرج الرئيس بوش بغضب واضح على وجهه ملوحا بإصبعه وهو يطالب إسرائيل بوقف الهجوم وسرعة سحب قواتها من المناطق التي أعادت احتلالها. في ذلك الحين ومنذ هجمات سبتمبر كان توجيه الانتقاد لبوش وسياسته يعد من وجهة نظر كثير من المعلقين اليمينيين تعبيرا عن نقص الانتماء والمشاعر الوطنية لدى المنتقدين. إلا أنه لم يكد بوش يتعرض لإسرائيل حتى خرج هؤلاء المعلقون أنفسهم متهمين بوش بافتقاد هذا «الوضوح الأخلاقي» وإلا فكيف يساوي بين إسرائيل الديمقراطية، وبين الإرهابيين الفلسطينيين. ولماذا يعطي بوش لنفسه الحق في مهاجمة القاعدة في أفغانستان أو أي مكان آخر، ثم ينتقد إسرائيل إذا دافعت عن نفسها ضد حماس وغيرها من المنظمات الإرهابية؟ وكلنا يعرف بالطبع ما حدث بعد ذلك، فقد تجاهل إيريل شارون تحذيرات بوش، وواصلت قواتها هجماتها، وتراجع بوش عن انتقاداته، بعد أن تبين له بوضوح أن من يقولون في واشنطن إنهم يؤيدونه ويتبعونه، لا يفعلون ذلك في الحقيقة إلا إذا كان هو الذي يتبعهم.

نعود من قضية الوضوح الأخلاقي إلى عملية السلام التي بدأت مع اتفاقية أوسلو عام ١٩٩٣، والتي يقول شارانسكي إنه عارضها منذ البداية، ليس من منطلق رفضه للسلام في ذاته، ولكن لأنها لم تربط السلام بتحقيق الديمقراطية والحرية للفلسطينيين. وهو هنا لا يقول لنا كيف يرى تلك الديمقراطية والحريات تحت الاحتلال الإسرائيلي لعشرات السنين. إلا أنه يعرب عن أسفه لأمر واحد، وهو تصويته في حكومة نيتانياهو لصالح قرار إعادة انتشار القوات الإسرائيلية في الخليل طبقا لاتفاقية أوسلو، ويضيف أنها أضعفت موقف القوات الإسرائيلية في الدفاع عن «الجالية اليهودية» في المدينة. وهو يصف موقف الفلسطينيين من السلام باعتباره مجرد هدنة، يدلل على ذلك بقول ياسر عرفات إن اتفاقية أوسلو مثل صلح الحديبية، ثم يروي قصة هذا الصلح بأنه تم «بين مؤسس الإسلام وقبيلة قريش العربية. وعندما زادت قوة محمد بعدها بعامين، فإنه نقض عهده وقام بتدمير قريش وذبح كل من فيها من ذكور» ومن هنا فإن الفلسطينيين كانوا يرون في السلام مجرد هدنة يمكنهم نقضها عندما تتاح لهم الفرصة على حد تعبيره.

ويخصص شارانسكي الجزء الثاني من كتابه بشكل كامل لعرض تاريخ المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية، بقراءة يمينية خالصة، وبانتقائية واضحة لمسيرة عملية السلام التي عارضها منذ بدايتها لمبررات أيديولوجية، فقد عارض أوسلو، ومفاوضات كامب دافيد، عارض خارطة الطريق التي قدمتها المجموعة الرباعية، بل إنه عارض حتى خطة الانسحاب الإسرائيلي من غزة التي قدمها إيريل شارون، وهي كلها باسم الدفاع عن حرية الفلسطينيين وديمقراطيتهم المفقودة. ومع سرده لكثير من التفاصيل الخاصة بعملية السلام فإن القارئ قد يتساءل عن علاقة هذا الكلام بقضية الحريات والديمقراطية، خاصة عندما يتعلق الأمر بقضايا تفصيلية دقيقة ترتبط بالقدس والمستوطنات والحدود واللاجئين وغيرها. فمواقف شارانسكي بالنسبة لهذه القضايا واضحة تماما، وهو لن يغيرها حتى لو تحول الفلسطينيون في يوم وليلة إلى ديمقراطية جيفرسونية على الطريقة الأمريكية. إلا أنه بعد أن يخوض بنا في تفاصيل كثيرة للتأكيد على موقف اليمين الإسرائيلي من عملية السلام، يعود فيقحم مسألة الديمقراطية بشكل يبدو أحيانا في غير موضعه، رغم اتفاقنا معه في بعض ما يقوله بشأن أسلوب عمل السلطة الفلسطينية خلال السنوات الماضية. وقد لفت نظري في المناظرة التي أشرت إليها في مقدمة هذا المقال أن بات بيوكانان سأل شارانسكي عن المستوطنات الإسرائيلية، ولماذا لا يطرح مصيرها في استفتاء للفلسطينيين إذا كان يؤمن فعلا بالديمقراطية. وبالطبع لم تكن هناك إجابة، سوى أنه يربط التنازلات للفلسطينيين بقدر ما لديهم من ديمقراطية وحريات. إلا أن الإجابة عن سؤال بيوكانان تبدو أكثر وضوحا في كتاب شارانسكي، فهو يرى أن حق اليهود في (يهودا والسامرة) أو ما يسميه الحق التاريخي لليهود في أرض أسرائيل، لا يقل عن حق الفلسطينيين فيها. لكن المدهش أنه يغلف ذلك الموقف المغالي في تطرفه بعبارات منمقة عن الديمقراطية والحريات وحقوق الإنسان للفلسطينيين.

أخطاء منهجية

تذكرت وأنا أطالع هذا الكتاب فيلما شاهدته منذ فترة لوحيد حامد عن شخص خرج من السجن (محمود عبد العزيز) ولكن عندما أتيحت له الفرصة والأموال لبدء حياة جديدة، فإنه اختار أن يبني سجنا آخر يعود إليه. فقد خرج من السجن إلا أن السجن لم يخرج منه.

وربما تكون هذه هي الإشكالية الأساسية في كتاب شارانسكي، فهو رغم مرور نحو سبعة عشر عاما على خروجه من المعتقل السوفيتي في سيبيريا، إلا أنه لا يزال يبدو أسير ذلك السجن في أفكاره المطروحة وفي رؤيته للعالم بشكل عام ولمنطقة الشرق الأوسط بشكل خاص، لذلك فهو يقوم بإسقاط التجربة السوفيتية بما فيها من خصوصية على العالم بكل مافيه من تنوع وتعقيد. كما أنه يختزل القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي في قضية واحدة، هي عدم توافر الحريات والديمقراطية لدى الدول العربية والفلسطينيين بما يسمح بتحقيق السلام معهم.

إلا أن أكبر التناقضات في شخص شارانسكي وأفكاره، هي مواقفه الأساسية من الفلسطينيين. فكيف لرجل مثله يتحدث باسم الدفاع عن الحريات والديمقراطية وحقوق الإنسان، أن يقبل بما حدث للفلسطينيين على مدى العقود الماضية من ظلم وقتل واحتلال وطرد من أراضيهم، دون أن تأرق له عين، بل إنه يدافع عما حدث لهم ويقدم كل التبريرات الممكنة وغير الممكنة؟ لقد طرحت ذلك التساؤل على شخصية أمريكية لها ارتباطها الشديد بالمنطقة، فقال لي إنه أيضا فكر في هذا الأمر وأثاره مع بعض الإسرائيليين الذين يعرفون شارانسكي جيدا، فبرروا ذلك بأنه يعود لتجربته السوفيتية، واعتقاله هناك لسنوات طويلة، وتعمق الهاجس الأمني لديه. ورغم أن ذلك لا يبدو من وجهة نظري تبريرا منطقيا، لأن المفترض أن تساعده هذه التجربة أكثر على تفهم معاناة الفلسطينيين في سجون الاحتلال الإسرائيلي لا أن تزيده تطرفا في مواجهتهم، إلا أنني قلت لمحدثي الأمريكي، إنني قد أتفهم هذا التفسير إذا كنا نتحدث عن مواقف متطرفة لسياسي إسرائيلي متشدد، ولكن كيف نقبل به لشخص يزعم أنه بطل للحريات وحقوق الإنسان.

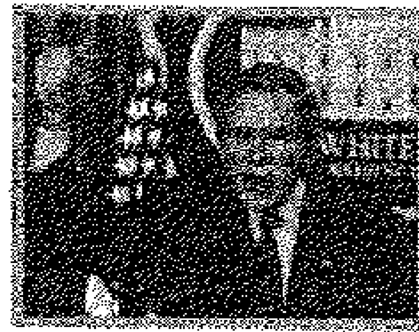
وفي اعتقادي أنه لا يمكن أخذ هذا الكتاب



ما يقوله شارانسكي ببساطة هو أن الطريق الوحيد لتحقيق السلام وتأمينه في العالم كله وفي العالم العربي على وجه الخصوص هو طريق الديمقراطية. وهو في ذلك يعلن مخالفته للمفاهيم التي يروج لها بعض السياسيين بأن التغيير غير مضمون العواقب وأن التعامل مع الديكتاتوريات القائمة هو ضمانة الاستقرار والحل الأمثل والمضمون



كتـــــاب يقرؤه بوش





إلا على أنه لمؤلف صاحب أجندة سياسية، ويروج لأفكار حملها معه من تجربته السوفيتية ويريد فرضها على كل شئون الكون بما يخدم النتيجة التى حددها سلفا. ومن هنا فالتقييم العلمى له يكشف عن ضحالة وخلل فى كثير من الأمور. ولأوضح ذلك فإننى أنقل هنا تحليلا غريبا أورده فى الصفحة ٩٢ لمواقف عدة دول من إسرائيل وهى تركيا والمغرب والأردن ومصر وسوريا، ويقول إنها أكثر قربا وصداقة لإسرائيل بهذا الترتيب، ثم يورد ما ذكره تقرير مؤسسة بيت الحرية (Freedom House) عن مستوى الحريات والديمقراطية فى تلك الدول ويقول إنها أيضا بنفس الترتيب (تركيا أكثرها حرية وسوريا أدناها) ثم يخرج شارانسكى من ذلك بنتيجة أن الدول الأكثر حرية تكون أقل عداء لجيرانها. هكذا، دون أى تحليل تاريخى أو الوقوف عند الأبعاد السياسية والجغرافية والثقافية وارتباطها بمواقف تلك الدول من إسرائيل، ودون اعتبار لأربع حروب مع مصر، أو لاستمرار احتلال إسرائيل لمرتفعات الجولان السورية. إن مثل هذا الخطأ المنهجى لا يقع فيه طالب فى المرحلة الثانوية، إلا أن شارانسكى يردده فى كتابه وفى لقاءاته التليفزيونية دون أن يطرف له جفن، ثم يجد جوقة المهللين فى واشنطن. ليس لأن فيما يقوله ابتكارا أو عبقرية، ولكن لأنه يقول لهم ما يحبون الاستماع له. وربما يصل بنا ذلك إلى ما أريد قوله بصدد مدى تأثير هذا الكتاب. فمع كل الإشادة التى لقيها من الرئيس بوش، إلا أن من الصعب القول إنه تأثر به إلى حد كبير، والأقرب إلى الصواب - فى تقديرى - هو أنه وجد فيه تعبيرا عن أفكاره التى آمن بها منذ سنوات، وسياساته التى طبقها منذ الحادى عشر من سبتمبر. ومن هنا فقراءة الكتاب أو عرضه، هى فى النهاية محاولة لقراءة ما يدور فى عقل ساكن البيت الأبيض للسنوات الأربع القادمة. وهذه النقطة بالتحديد هى ما يهمنا فى الكتاب.

بوش وحديث الديمقراطية

اهتمام بوش بما جاء فى الكتاب ليس مقصورًا فقط على الإشادة به التى أوردناها فى بداية المقال، و لا على نقل بعض عباراته بشكل واضح فى خطاباته، ولكن نلاحظ تطبيقا عمليا لما جاء فى الكتاب فى بعض سياسات إدارته. والنموذج الواضح على ذلك هو تأكيد الرئيس بوش على أن تحقيق الديمقراطية الفلسطينية هو الشرط الأساسى للسلام. وليس المهم هنا إن كان بوش تأثر بما فى الكتاب، أو أن الكتاب يعبر عما كان فى رأس بوش مسبقا، فالمحصلة واحدة: إن هذه هى طريقة تفكير بوش والفريق المحيط به ليس فقط بالنسبة للقضية الفلسطينية، ولكن أيضا فى نظرتهم إلى أوضاع منطقة الشرق الأوسط بشكل عام. فمن الواضح أن واشنطن تعنى ما تقوله عندما تتحدث عن ضرورة الإصلاح فى المنطقة، إلا أنها على ما يبدو لم تحدد بعد كيفية الدفع فى اتجاه الإصلاحات، وإلى أى مدى يمكنها أن تفعل ذلك خاصة مع حكومات الدول الحليفة، كما أن الجدل لا يزال دائرا بين المسئولين وفى المؤسسات الفكرية بشأن مايمكن أن تفرزه العملية الانتخابية الحرة من تيارات أصولية تهدد المصالح الأمريكية. لذلك وجدنا ما يبدو أنه تخبط وأحيانا بعض التضارب فى السياسات. فقد بدأت بوضع ما يشبه روشتة للإصلاح تصورت أن من الممكن تطبيقها بسهولة، ثم فوجئت بردود الفعل المعارضة لها خاصة فى مصر والسعودية، فعادت لتؤكد بصورة مكررة أنها لا تريد أن تفرض الإصلاح على أحد، بل تساعد الآخرين على تنفيذ ما يختارونه لأنفسهم من برامج إصلاحية. و أذكر أننى تحدثت مع مسئول أمريكى كبير قبيل انعقاد مؤتمر الـ G 8 للدول الثمانى فى جورجيا منذ حوالى عام والذى ركز على قضية الإصلاح فى المنطقة، وحضرته بعض الدول العربية ولم تحضره مصر، فلما سألته عن رأيه فى عدم حضور مصر، أجاب ببساطة متعمدة بأنه لا توجد أى مشكلة، ألم نقل إن المسألة اختيارية؟ من أراد أن يحضر فهذا جيد، ومن لم يرد فهذا شأنه.

وتحاول واشنطن أن تجند الدول الأوروبية بالتحديد فى جهودها لدفع الإصلاحات فى المنطقة، إلا أنه ورغم اتفاق الجانبين على ضرورة تشجيع التغيير والإصلاح، فإن هذا الاتفاق جاء كما لو كان الطرفان يبحثان عن شيء يتفقان عليه تعويضا عن الخلاف والتوتر الذى شاب العلاقات الأطلسية بسبب غزو العراق، وقد بدا ذلك واضحا فى جولة الرئيس بوش الأوروبية الأخيرة. إلا أن تلك الرغبة لم تخف الاختلاف بينهما فى الأسلوب، وفى رؤيتهما لإيقاع التغيير وجوانبه. وقد عطل ذلك ظهور الجانب المؤسسى الذى يوفر إطارا تنظيميا للحوار مع الدول العربية بشأن الإصلاح. صحيح أنه تم إنفاق عشرات الملايين من الدولارات خصصتها واشنطن لهذا الهدف، كما عقد أكثر من مؤتمر، وتم الإعلان عن مبادرة الشرق الأوسط الأوسع، وكذلك مبادرة الشراكة، إلا أن هناك تسليما كما تقول إحدى الأوراق التى صدرت مؤخرا عن مؤسسة كارنيجى بواشنطن، بأن الاعتماد الأساسى هو على دعوات الرئيس بوش القوية للتغيير الديمقراطى بما يمثل ضغطا على أنظمة المنطقة لاتخاذ خطوات محددة فى اتجاه الإصلاح[1].

الرئيس بوش من جانبه لم يتوان عن هذه الدعوات، التى خصص لها خطابا هاما فى نوفمبر عام ٢٠٠٣ بالمؤسسة القومية للديمقراطية. كما كان خطاب توليه الفترة الرئاسية الثانية ومن بعده خطابه عن حالة الاتحاد تأكيدا على أن بوش جاد على الأقل فى استخدام المنبر العلنى للدفع فى هذا الاتجاه. إلا أن ذلك ظل فى إطار العبارات العامة والدعوات التى تعبر عن رغبات أكثر منها سياسات محددة. ولكن ينبغى ألا نقلل من تأثير هذه الكلمات المعلنة، وأعرض هنا لحالتين. فقد أحرج بوش ضيفه التونسى فى المكتب البيضاوى بتأكيده على تناول الإصلاحات فى تونس أثناء محادثاتهما، وكذلك فعلت وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس فى مؤتمرها الصحفى مع وزير الخارجية المصرى أحمد أبو الغيط حينما عبرت بوضوح عن قلقها العميق وقلق الرئيس والكونجرس والشعب الأمريكى بشأن قضية اعتقال رئيس حزب الغد أيمن نور، ومؤكدة على أن الدور المصرى فى عملية السلام لا ينبغى أن يعفيها من اتخاذ خطوات أسرع فى اتجاه المزيد من الحريات السياسية.

ورغم أن أسلوب الضغط العلنى لا يلقى القبول من بعض الخبراء ومنهم أنتونى كوردسمان بمركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بواشنطن، باعتبار أنه ليس الأسلوب الملائم لدفع عملية التغيير بكل تعقيداتها، إلا أنه ولا شك يحرج الحكومات المعنية، ويشجع التيارات المعارضة على رفع صوتها أكثر، خاصة بعد أن وعد بوش فى خطاب حالة الاتحاد بأن واشنطن ستساند من يقفون للدفاع عن حرياتهم.

ذكر الرئيس بوش فى مقابلة مع صحيفة واشنطن تايمز أن كتاب شارانسكى يعبر بشكل دقيق عن فلسفته فى الحكم وضرورة نشر الديمقراطية فى أنحاء العالم، ودعا بوش الناس لقراءة «هذا الكتاب العظيم» الذى وصفه بأنه يمثل الـ DNA أو الحامض النووى لرئاسته

بوش ـ شارانسكى

اعتقادى الشخصى أن الرئيس بوش أخطأ بإعلان تأييده لما ورد فى كتاب شارانسكى بصرف النظر عن مضمون الكتاب، فواشنطن تعانى أساسا من الشكوك التاريخية فى المنطقة تجاه النوايا والسياسات الأمريكية، وتجاربها السابقة بمساندة الحكومات الديكتاتورية الحليفة. وانعكست هذه الشكوك على نظرة العرب لمبادرات الديمقراطية الأمريكية، بصرف النظر عن مدى صحة هذه الشكوك. فكثيرا ما ترتبط الرسالة بمن يحملها صوابا كان أو خطأ. لذلك فإن آخر ما تحتاج إليه الولايات المتحدة وبوش تحديدا، هو أن يأتى معه بمن يساعده فى حمل الرسالة، ليس من بين العرب والمسلمين أنفسهم، ولكن من الجانب الإسرائيلى، ومن شخص عرف بمواقفه المتطرفة فى قضايا الصراع العربى الإسرائيلى.

وفى كل الأحوال، فإن الاختبار الحقيقى لمدى التزام بوش بقضايا الديمقراطية والحريات، لن يكون بالخطابات المنمقة مهما كانت أهميتها، ولكن فى أن يترجم ذلك الالتزام إلى سياسات محددة. وقد سبق له هو نفسه أن أدان سياسات إدارات أمريكية سابقة ربطت المصالح الأمريكية بأنظمة ديكتاتورية بحثا عن الاستقرار، فعلينا إذن أن ننتظر لنرى كيف سيغير تلك التوجهات بعيدا عن الميكروفون. لقد ذكر بوش عبارة الحرية بمشتقاتها المختلفة ثلاثا وأربعين مرة فى خطاب تولية الفترة الثانية، ويبقى أن نراه ينحاز لهذه الحرية ولو مرة واحدة حتى إن كان فيها ما يبدو متعارضا مع المصالح الأمريكية. ■

هـــامــش:

(1) Marina Ottaway and Amr Hamzawy (Political Reform in the ME, Can the US and Europe work together?

أمريكا وإيران

[١]

في عام ٢٠٠٢، ساعد كتاب كينيث پولاك «العاصفة الوشيكة: حجة غزو العراق» The Threatening Storm: The Case for Invading Iraq على إقناع البعض بأنه سيكون على الولايات المتحدة عاجلاً أو آجلاً (وحيداً لو كان عاجلاً) الإطاحة بصدام حسين حماية لأمنها. وعرض پولاك حجته بحرص وبراعة يفوقان حرص وبراعة الكثير من الجمهوريين المؤيدين لـ«تغيير النظام» في العراق، ولكنه اتضح أنه كان مثلهم مخطئاً بشأن التهديد الذي يمثله صدام حسين للولايات المتحدة. كما أخفق مثلهم في التكهن بالتداعيات الخطيرة للغزو. وعلى عكس الكثير من الأعضاء الصقور في إدارة بوش، والكثير جداً من الكُتَّاب الصحفيين ورؤساء تحرير الصحف، كان لدى پولاك من الكياسة ما جعله يعتذر عن أخطائه. وبما أن حكومة بوش تحاول اتخاذ قرار بشأن الطريقة التي ينبغي أن ترد بها على دولة معادية ثانية في الشرق الأوسط، وهي إيران التي تشك في أنها تسعى لامتلاك الأسلحة النووية، فقد كتب پولاك كتاباً طويلاً آخر بعنوان «اللغز الفارسي: الصراع بين إيران وأمريكا» The Persian Puzzle: The Conflict Between Iran and America ينصح فيه بما ينبغي عمله.

مع أنه وُجد أن حكم پولاك كان قد جانبه الصواب، فهو أكثر كفاءة من معظم من يكتبون عن السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط. فإلى جانب كونه مديراً لشئون الخليج الفارسي والشرق الأدنى وشئون جنوب آسيا في مجلس الأمن القومي في عهد بيل كلينتون، فقد أعد مراراً دراسات عن السياسة تجاه إيران (وكذلك العراق) لوكالة الاستخبارات الأمريكية وللعديد من مراكز الأبحاث والجامعات. وتبرر مساعي إيران الأخيرة لامتلاك التكنولوجيا النووية المتقدمة مقولته إن الوقت مناسب الآن لتكريس الاهتمام بالجمهورية الإسلامية. وهو يقول: «ما لم ننتهز نافذة الفرص المفتوحة هذه للتعامل مع برنامج إيران النووي، فلا شك في أننا سوف نأسف في يوم من الأيام على عدم انتهازها».

The Persian Puzzle: The Conflict Between Iran and America

(اللغز الفارسي: الصراع بين إيران وأمريكا)

Kenneth M. Pollack

Random House, 539 pp., $26.95

عن New York review of Books

ترجمة: أحمد محمود

تشعر الولايات المتحدة وغيرها من الدول، وخاصة الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي واليابان وكندا وأستراليا، بالقلق مما تحرزه إيران من تقدم نحو قدرتها على تخصيب اليورانيوم وفصل البلوتونيوم، وهما العمليتان اللتان يمكنهما إنتاج إما الوقود لمفاعلات محطات الطاقة المدنية أو للقنابل النووية. وطبقاً لشروط معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية التي صدقت عليها إيران في عام ١٩٧٠، يحق للإيرانيين صنع تلك التكنولوجيات للأغراض المدنية، ولكن الطريقة السرية التي أجروا بها ذلك أثارت الشك في اعتزامهم إنتاج القنابل: إلى جانب الطاقة للاستخدام السلمي. وكجزء من التزام إيران بمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية، وقعت على «اتفاقية الضمانات» مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية، مما يسمح لموظفي الوكالة بمراقبة أنشطتها بانتظام.

اعتباراً من صيف ٢٠٠٢، وفي ضوء الشكوك التي طال أمدها في الأنشطة النووية التي ظلت مخفية عن أعين المفتشين، وضعت الوكالة البرنامج الإيراني تحت المراقبة الدقيقة. وأثبتت المراقبة منذ ذلك الوقت انتهاك إيران لاتفاقية الضمانات التي كان المقصود بها جعل أنشطتها النووية تتسم بالشفافية ومقصورة على الأغراض السلمية، وتشمل هذه الانتهاكات عدم إبلاغ إيران عن شراء وصنع مواد نووية، وعدم الإعلان عن وجود العديد من مواقعها النووية.

استرشاداً بسلوك الحكومة الإيرانية فيما مضى، يتوقع بعض منتقديها حدوث المزيد من الانتهاكات. فهم مقتنعون بأنها تكذب بإصرارها على أن برنامجها النووي مقصور على الأغراض المدنية، كما يعتقدون أنها تعتزم امتلاك القدرة على صنع القنبلة النووية سراً. ولكي تحرم الوكالة إيران من امتلاك هذه القدرة، تحاول إقناعها بالتخلي عن الحق الذي تنص عليه معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية في تطوير «دورة الوقود»، وهي مجموعة من العمليات الصناعية اللازمة لإنتاج الوقود من اليورانيوم أو البلاتينيوم حيث يمكن استخدامه في إنتاج إما الكهرباء أو القنابل النووية.



لنفترض للحظة أن أمريكا نجحت في فرض الاستقرار في العراق وأقامت حكومة موالية للولايات المتحدة هناك. هنا سوف نتساءل عما سيكون لذلك من أثر على تفكير پولاك بشأن إيران وتقدمها تجاه بناء المنشآت النووية، وعما كان سيقوله هو وغيره من المسئولين السابقين في إدارة كلينتون عن غزو الجمهورية الإسلامية. ربما كان العزاء الوحيد الذي يُستمد من الحالة البائسة الحالية في العراق هو أنه لا حاجة إلى طرح هذه الأسئلة.

على أية حال، فإن پولاك الذي كتب «اللغز الفارسي» رجل متعظ. فالفصل الأخير من الكتاب وعنوانه «نحو سياسة إيرانية جديدة» به جزء بعنوان «الحجة ضد غزو إيران» يعتمد إلى حد ما على النموذج العراقي. وهو يقول إن «تهديد امتلاك إيران للأسلحة النووية» لا يبرر «ما يمكن أن يكون غزواً على قدر كبير جداً من التكلفة والمخاطرة». ومن بين تلك العوائق التي يوردها پولاك حجم إيران الضخم، وتضاريسها القاسية، والعداء الذي يعتقد أن الإيرانيين سوف يبدونه تجاه محتليهم.

في الفصل الأخير، ينتقد پولاك الدول الغربية بقسوة وبشكل مبرر لجعلها حسابات الميزة التجارية تؤثر على مقاربتها السياسية لإيران. ويشير پولاك إلى أن الأوروبيين، ابتغاء منهم لعلاقات تجارية أفضل، يودون أن يقدموا للإيرانيين «الجَزَر» مثل فرصة الدخول في اتفاقية تجارية مع الاتحاد الأوروبي،



خاتمي

والقنبلة

كريستوفر دى بيليج

وكذلك التكنولوجيا النووية شديدة التحديد. ومن ناحية أخرى، يمسك جورج بوش، الذى ضم فى ولايته الأولى إيران إلى «محور الشر»، بالعصا فى شكل عداء إدارته لإيران، وتأييده لفرض عقوبات ضد الجمهورية الإسلامية، بالإضافة إلى العقوبات التجارية التى تبقى عليها الولايات المتحدة الآن. ويؤيد پولاك أن تكون هناك توليفة من المقاربتين فيما بين الدول الغنية والقوية؛ بعبارة أخرى أن يكون هناك تصميم عام على مكافأة إيران إن هى أحسنت التصرف، ومعاقبتها إن لم تحسن تصرفها. ومن المؤسف أن پولاك انتهى من تأليف كتابه قبل ١٤ نوفمبر ٢٠٠٤، وإلا فكان سيجد الكثير مما يقوله عن الاتفاق الذى وقعته إيران فى ذلك التاريخ مع فرنسا وبريطانيا وألمانيا.

كان المقصود باتفاقية نوفمبر أن تكون الخطوة الأولى فى اتجاه إزالة الشكوك فى كون برنامج إيران النووى وراءه هدف عسكرى. وكانت فرنسا وألمانيا وبريطانيا قد هددت قبل إبرام الاتفاق، ومساندة من الاتحاد الأوروبى، بدعم الخطوات الأمريكية التى تهدف إلى إحالة البرنامج الإيرانى إلى مجلس الأمن باعتباره انتهاكًا لمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية. واستجابةً للضغط، قبل الإيرانيون المطالب الأوروبية الخاصة بتعليقهم الأنشطة المتصلة بتخصيب اليورانيوم وفصل البلوتونيوم كافة. كما اتفقت إيران مع الدول الأوروبية الثلاث على بدء المفاوضات حول «ترتيبات طويلة المدى» تجعل من المستحيل تحويل برنامج إيران إلى الاستخدامات العسكرية، وكذلك على بدء المفاوضات بشأن «التعاون التكنولوجى والاقتصادى والتعهدات الثابتة بشأن القضايا الأمنية». وحسبما قاله خاڤيير سولانا رئيس السياسة الخارجية للاتحاد الأوروبى، فإن الاتفاقية قد تكتب «فصلاً جديداً» فى العلاقات بين أوروبا وإيران.

الأمر الغريب هو أنه كان من المفترض أن يبدأ هذا الفصل الجديد على وجه التحديد تقريبًا فى وقت سابق. ففى ٢١ أكتوبر ٢٠٠٣ وقعت إيران والدول الغربية الثلاث نفسها اتفاقية تكاد تكون مطابقة تهدف إلى إزالة شكوك مماثلة. ووقتها كذلك كان الإيرانيون قاب قوسين أو أدنى من إحالة أنشطتهم النووية إلى مجلس الأمن. وتحت ضغط من الولايات المتحدة وكذلك من الأوروبيين والوكالة الدولية للطاقة الذرية، تعهدت إيران «بتعليق أنشطة تخصيب اليورانيوم وإعادة معالجته كافة». وكان المأمول أن تمهد هذه الاتفاقية السبيل إلى «التعاون طويل الأمد» الذى يمكن لإيران بمقتضاه «الحصول بطريقة أيسر على التكنولوجيا والإمدادات فى عدد من المجالات». ووافق الإيرانيون على تزويد الوكالة الدولية للطاقة الذرية بسجل كامل لبرنامجها النووى حتى ذلك التاريخ. وأعلن وزير خارجية ألمانيا يوشكا فيشر ٢١ أكتوبر ٢٠٠٣ «يومًا مهمًا... سوف يجعل المنطقة فى حالة استقرار».

الاتفاقية الجديدة مشابهة، والأطراف هى نفسها، ولكن من المؤكد أن خطأ ما قد وقع خلال العام الذى انقضى بين الاتفاقيتين. فمع أن اتفاقية ٢٠٠٣ سمحت للوكالة الدولية للطاقة الذرية والدول الأعضاء فيها بمعرفة قدر كبير عن البرنامج الإيرانى، فهى لم توقف تقدم إيران نحو دورة الوقود النووى بالقدر الذى كان الأوروبيون يعنونه. فقد استغل الإيرانيون ما فى النص من غموض، وخاصة فيما يتعلق بما يشكل «أنشطة التخصيب وإعادة المعالجة». وظلوا كما قال أحد المسئولين «يركلون العلبة الصفيح على أرض الشارع». فقد استمروا فى تجميع آلات الطرد المركزى، وهى تلك الأجهزة التى تخصب اليورانيوم الغازى بإدارته بسرعات عالية. وفيما بعد، وتحت الضغط الدبلوماسى، أوقفوا تجميع آلات الضغط المركزى ليبدءوه من جديد فى صيف ٢٠٠٤. وقد أنتجوا ما يكفى لصنع عدة قنابل نووية من اليورانيوم وغيره من «مواد التغذية» الخاصة بعملية التخصيب، إن هم قرروا صنعها.

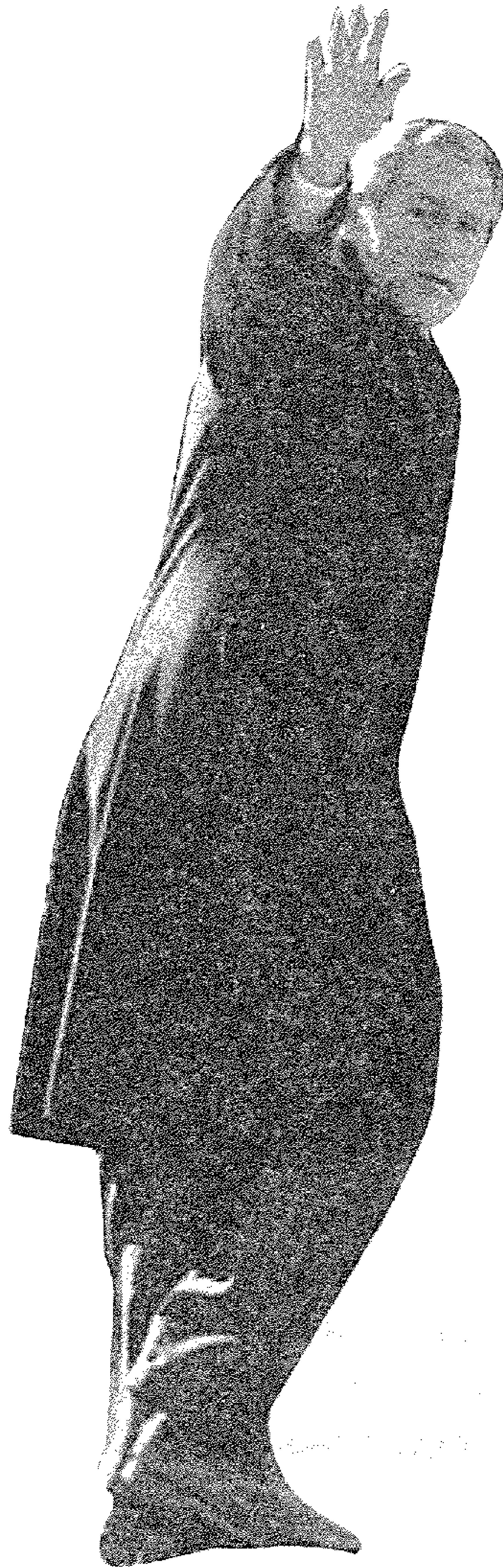
ميزة الاتفاقية الجديدة أن تحديدها الواضح والشامل لـ «الأنشطة المتصلة بالتخصيب وإعادة المعالجة» يصعب على الإيرانيين أن يكونوا ملتبسين من الناحية الدلالية. فإن أنتج الإيرانيون كميات أكبر من اليورانيوم الغازى، فلن يكون هناك شك كبير فى أن مجلس حكام الوكالة الدولية للطاقة الذرية سوف يحيل أعمالهم إلى مجلس الأمن.

يشكو الكثير من الدبلوماسيين الأوروبيين من أن الولايات المتحدة تسيطر عليها فكرة إحالة إيران إلى مجلس الأمن ولكنها لم تتوصل بعد إلى ما تريد عمله فى حال توجيه التهمة إلى إيران. ويشك هؤلاء الدبلوماسيون فى أن اثنتين من الدول دائمة العضوية فى مجلس الأمن، وهما روسيا والصين، لا تريدان لقضية إيران أن تعرض على مجلس الأمن، وسوف تحاولان إثناء الولايات المتحدة وحلفائها عن اتخاذ أى إجراء لمعاقبة الإيرانيين.[1] وبناء على ما نقرؤه بين سطور التقرير الأخير عن البرنامج الإيرانى الذى كتبه محمد البرادعى المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية وصدر فى ١٥ نوفمبر ٢٠٠٤، يتضح أنه لا يعتقد أن هناك أساسًا لإحالة قضية إيران إلى مجلس الأمن.[2] وهو يشير إلى أنه وصف تعاون إيران مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية قبل أكتوبر ٢٠٠٣ بأنه يتسم بـ «الإخفاء الشامل، والمعلومات المضللة وتعطيل الوصول إلى المنشآت». ولكنه يقول إنه منذ ذلك الوقت تحسن هذا التعاون بشكل يستحق التقدير.



تتناقض وجهة نظر البرادعى التى تبدو متفائلة مع نزعة التشاؤم التى يعبر عنها أشد نقاد إيران حدة؛ وهو التناقض الذى يعكس المقاربات المختلفة اختلافًا لا يكاد يدرك لمسئولى الوكالة الدولية للطاقة الذرية من ناحية والدول الأعضاء فيها من ناحية أخرى. وبغض النظر عن أفكار البرادعى عن الموضوع، فهو ليس فى وضع يسمح له بأن يطلب من إيران علنًا التخلى عن دورة الوقود: ففى ظل اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية، وهى الاتفاقية التى من واجب البرادعى الحفاظ عليها ودعمها، يعطى لإيران الحق فى إنجاز هذه الدورة. بل إن إيران لم توقع اتفاقيتها لعام ٢٠٠٣ مع الوكالة وإنما مع ألمانيا وفرنسا وبريطانيا، وبذلك لا يصل انتهاك روح تلك الاتفاقية





بوش

بالضرورة إلى حد انتهاك اتفاقية الضمانات. ويوضح البرادعى فى تقريره لشهر نوفمبر أن الوكالة تخلصت خلال العام المنصرم من معظم شكوكها فيما يتعلق بمدى برنامج إيران النووى المعلن. وقد حققت إيران بنص كلامه «تقدما طيبا» نحو تصحيح الانتهاكات السابقة لاتفاقية الضمانات الخاصة بها. ويعتقد البرادعى أنه لابد من تعديل اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية لتصعيب إنجاز دورة الوقود على الدول. وإلى أن يحدث ذلك فلا يمكن مطالبة إيران بالتخلى عن هدف يعطيها القانون الحق فى تحقيقه.

تتصرف إيران بشكل أفضل من قبل فى إطار اتفاقها مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية. ومن الناحية العملية، تزداد الريبة فى نوايا إيران أكثر من أى وقت مضى.(٣) فسبب نقض إيران لاتفاقية ٢٠٠٣ مع الأوروبيين، يزداد اقتناع منتقدى إيران فى مجلس حكام الوكالة الدولية للطاقة الذرية بأن الإيرانيين عازمون على إساءة استخدام حقهم فى إنجاز دورة الوقود، وعلى تحويل الوقود الذى ينتجونه إلى الاستخدام العسكرى. ولم يقلل عدم كشف المنتقدين عن انتهاكات إيران الأخيرة لاتفاقية الإجراءات الوقائية من شكهم فى أن إيران مشغولة فى أنشطة نووية سرية، أو أنه قد يمكن تصنيفها بالفعل على أنها دولة مسلحة تسليحا نوويا بمجرد إنجازها دورة الوقود.

يؤكد الدبلوماسيون الأوروبيون المتشائمون أن العالم الخارجى كسب الوقت باتفاقية ٢٠٠٤، إن لم يكن قد كسب ما هو أكثر من ذلك. إلا أن مقدار هذا الوقت ليس واضحا على وجه التحديد. فالاتفاقية ليست محددة بزمن معين، غير أن المسئولين الإيرانيين يؤكدون أن الاتفاق لن يدوم طويلا؛ حيث لن يتعدى ذلك ستة أشهر حسب بعض التقديرات. علاوة على ذلك، فقد دخلت إيران ومحاوروها الأوروبيون فى اتفاق ذى أهداف مختلفة. فالأوروبيون يرونه خطوة أولى نحو تفكيك منشآت دورة الوقود الإيرانية. أما الإيرانيون فينظرون إليه على أنه خطوة أولى نحو إقناع الأوروبيين بالسماح بتشغيل تلك المنشآت. وفى ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٤ وصف آية الله خامنئى إى المرشد الأعلى المحافظ لإيران، وصاحب الكلمة الأخيرة فى كل القضايا السياسية، أية تكهنات تشير إلى أنه سيجرى تعليق تخصيب اليورانيوم على المدى البعيد بأنها «غير منطقية». وقد حذر من أن إيران سوف «تعيد النظر» فى تعاونها إذا تورط الأوروبيون فى التهديدات «غير المنطقية». وبعد وقت قصير من عقد الاتفاق الأخير، وصفه الرئيس المعتدل محمد خاتمى بأنه:

ضمان مقابل ضمان. فنحن نضمن ألا تغير مسارنا فى اتجاه الأسلحة النووية، ويضمنون هم لنا فى المقابل أن... تكون لدينا دورة وقود.

فى إطار اتفاقية الرابع عشر من نوفمبر، شكلت الترويكا الأوروبية والإيرانيون ثلاث مجموعات عمل لمناقشة التعاون التكنولوجى والنووى والأمنى. وفى مقابل منح إيران مزايا تجارية وغيرها من المزايا، قيل لى إن الأوروبيين يريدون من إيران تعليق أنشطة دورة الوقود بشكل مؤقت. حيث يطالبونها بالحصول على الوقود اللازم للمفاعلات المدنية من الخارج. مع أنهم قد لا يصرون على الإعلان العلنى عما يفيد ذلك. ولإدراكهم أن الحصول على البلوتونيوم من الصنف اللازم لصنع الأسلحة من مفاعل الماء الثقيل أسهل من مفاعل الماء الخفيف، فسوف يعرضون أن يبيعوا لإيران مفاعل ماء خفيف إن هى تخلت عن برنامجها الحالى الخاص بمفاعل الماء الثقيل. وسوف يعرضون على إيران إمدادات مستمرة من الوقود النووى المناسب لمفاعل الماء الخفيف، على أن تُعاد إلى الدول التى توردها بعد استخدامها، شريطة أن تتخلى إيران عن خططها لتخصيب اليورانيوم وتلتزم بإنتاج الطاقة النووية للاستخدام السلمى.

كنوع من الحوافز، يعرض الأوروبيون دعم طلب إيران إلى منظمة التجارة العالمية الذى لم يبت فيه. وسوف يستأنف الاتحاد الأوروبى وإيران المحادثات المعلقة منذ العام الماضى حول عقد اتفاقية للتجارة والتعاون. وسوف يؤكد الاتحاد الأوروبى فرضيته الحالية التى تقول إن الجماعة الإيرانية المعارضة مجاهدى خلق المتمركزة فى العراق منظمة إرهابية خطيرة، وسوف يفعل الإيرانيون الشىء نفسه فيما يتعلق بالقاعدة.

قال دبلوماسى أوروبى إن جهوده لإقناع الإيرانيين بقبول هذه الشروط تشبه «بيع السجادة نفسها مرتين»؟ وقد أيدت أوروبا منذ فترة طويلة طلب انضمام إيران إلى منظمة التجارة العالمية، إلا أن الولايات المتحدة كانت تستخدم حق النقض ضده باستمرار. وفى ديسمبر لم يعر الأمريكيون أى اهتمام للاعتراضات الأمريكية ومنعوا منظمة التجارة العالمية مرة أخرى من بدء مفاوضات الانضمام مع إيران. وأعلن الاتحاد الأوروبى ككل، إلى جانب بعض الدول الأوروبية منفردة، أن مجاهدى خلق، المنظمة المسلمة اليسارية المعادية لإيران التى كانت تتمتع بشعبية فيما مضى، منظمة إرهابية. ويسعى الإيرانيون إلى ترحيل أعضاء مجاهدى خلق الذين تحتجزهم القوات الأمريكية حاليا فى معسكر شرقى العراق. وفى عام ٢٠٠٣ رفضت الولايات المتحدة طلبا بمبادلة بعض أعضاء مجاهدى خلق ببعض المشتبه فى انتمائهم إلى القاعدة ممن تحتجزهم السلطات الإيرانية. ولا يبدو أن الموقف الأمريكى تغير منذ ذلك الوقت.

هناك كذلك سبب واضح لافتراض أن عقد دورة أخرى من المحادثات بشأن قدرة إيران النووية سيحقق نجاحا. فقد انهارت المحادثات السابقة بسبب عدم تغيير إيران سياساتها التى يعترض عليها الأوروبيون، وخاصة فى مجالى حقوق الإنسان والشئون الخارجية. ورغم ذلك فقد أصبحت إيران منذ ذلك الوقت أكثر عنادا. فهى تُعرِّض التزامها بالديمقراطية لمزيد من الخطر من جراء الانتخابات البرلمانية التى أجريت فى فبراير ٢٠٠٤ التى حُرم فيها ما يزيد على ألفى مرشح إصلاحى من حقهم فى الترشيح. وقد بات التزامها بالتجارة الحرة موضع شك نتيجة للاتجاهات الانعزالية للمتشددين الذين فازوا فى تلك الانتخابات. وبرغم مطالبة الأوروبيين، لم تحسن إيران سجلها الخاص بحقوق الإنسان أو تقلل دعمها للجماعات المتشددة التى تعارض السلام بين إسرائيل والفلسطينيين.

قد يكون الحافز الأكثر إغراء من بين كل الحوافز الأوروبية هو عرض مفاعل المياه الخفيفة. ولدى إيران مفاعل كهذا كاد المقاولون الروس ينتهون من العمل فيه فى ميناء بوشهر على الخليج الفارسى. وتود إيران الحصول على آخر، غير أن الدول الأخرى مترددة فى إثارة غضب الولايات المتحدة بتوريده. إلا أنه ليس من المؤكد أن الإيرانيين على استعداد للتخلى عن برنامجهم الخاص بمفاعل الماء الثقيل مقابل فرصة شراء مفاعل الماء الخفيف الذى سوف يحدث انتعاشا فى برامج الطاقة المدنية لديها.

الأمر الواضح هو أن الولايات المتحدة، وليس أوروبا، هى التى يمكنها تقديم الحوافز الأكثر جاذبية لإيران. فالأمريكان لديهم «مجاهدى خلق» تحت رعايتهم ويمكنهم أن يوافقوا على دخول إيران منظمة التجارة العالمية. وكان للعقوبات الأمريكية التى فُرضت على التجارة مع إيران أثر مدمر على الاقتصاد الإيرانى، ويود الإيرانيون وقف العمل بهذه السياسة. وأهم شىء هو أن الأوروبيين لا يمكنهم أن يقدموا لإيران الضمانات الأمنية التى يسعون إليها، بينما يمكن للأمريكيين أن يقدموها لهم.

غالبا ما تُصور مراوغات إيران وردودها الملتبسة فيما يتعلق ببرامجها النووية على أن وراءها غرضا عدوانيا، غير أنى استنتج من المحادثات التى أجريتها مع المسئولين أن الإيرانيين يرون تكتيكاتهم على أنها رادعة؛ لإسرائيل، خصمهم الإقليمى المسلح تسليحا نوويا، والولايات المتحدة، القوة العظمى المعادية التى غزت اثنتين من الدول المجاورة لها على مدى السنوات الثلاث الماضية. ولا يبدو أن الإيرانيين قد تخلوا عن طموحاتهم فى الحصول على دورة الوقود. وإذا كان لابد من تغيير القيادات الإيرانية لسياساتها تغييرا حاسما والتوقف عن سعيها للحصول على دورة الوقود، فلابد أن تكون مقتنعة بأن أمنها، ومستقبل الجمهورية الإسلامية، سوف يحظى بقدر أكبر من الحماية نتيجة لذلك. ولكن إدارة بوش، التى تكره الجمهورية الإسلامية وترغب فى سقوطها، لم تستوعب هذه الحقيقة غير المستساغة. وزعم سيمور هيرش فى





يشكو الكثير من الدبلوماسيين الأوروبيين من أن الولايات المتحدة تسيطر عليها فكرة إحالة إيران إلى مجلس الأمن ولكنها لم تتوصل بعد إلى ما تريد عمله فى حال توجيه التهمة إلى إيران



عدد ٢٤ يناير الماضى من «ذا نيويوركر» أن الولايات المتحدة «تقوم بمهام استطلاعية داخل إيران منذ الصيف الماضى على الأقل» بهدف تحديد أماكن العشرات من المواقع النووية التى «يمكن تدميرها بضربات شديدة الدقة وغارات فدائية قصيرة المدى».

وقد نفى البنتاجون جزءاً كبيراً من تقرير هيرش. وبالمثل بدا المسئولون الإيرانيون غير مكترثين؛ فمهما كانت حقيقة تأكيدات هيرش، فهم لن يعترفوا طواعية بوقوع انتهاك لحدودهم. ومن الممكن أن يساعد القلق الذى من هذا النوع الأوروبيين على انتزاع تنازلات أثناء مفاوضاتهم. إلا أنهم سوف يرسخون على المدى البعيد الرأى الأوروبى المتشائم القائل بأن الولايات المتحدة تعتزم، بعد تخريبها المحادثات إلى حد كبير برفضها الانضمام إليها، استخدام فشلهم ذريعة لزيادة الضغط على الجمهورية الإسلامية.

[٢]

حاول بيل كلينتون فى ولايته الأولى عزل إيران بفرض عقوبات أشد عليها وبالجهود الدبلوماسية، بفرض منعها من شراء التكنولوجيا النووية، وهو ما لم يحقق إلا نجاحاً جزئياً. وفى عام ١٩٩٦، كما يروى پولاك، كادت الحرب تنشب بين البلدين بعد قصف المجمع السكنى العسكرى الأمريكى فى السعودية على أيدى عملاء كان يعتقد أن إيران تساندهم. وبعد فترة قصيرة من الهجوم وافق الكونجرس على قانون العقوبات الإيرانية الليبية الذى منح الرئيس سلطة فرض عقوبات ثانوية على شركات فى العالم الثالث لها استثمارات فى قطاع الطاقة الإيرانى. وفى العام التالى بدا أن انتخاب الرئيس الإيرانى الإصلاحى محمد خاتمى يشير إلى إمكانية وجود جمهورية إسلامية جديدة معتدلة نسبياً وأقل عنفاً فى معارضتها للمصالح الأمريكية. وأمضى كلينتون ما تبقى من ولايته فى تعديل سياسته لمصلحة إيران. ويصف پولاك كيف شجع كلينتون اتصالات «الأشخاص بالأشخاص» وخفف بعض العقوبات الثنائية ضد التجارة، وأعلن أنه لن يلجأ إلى قانون العقوبات الإيرانية الليبية الذى أقر فى عام ١٩٩٦. كما سمح لمادلين أولبرايت بالاعتذار عن تاريخ أمريكا الخاص بالتدخل فى السياسة الإيرانية الداخلية.

كان المقصود بتنازلات كلينتون، كما يسميها پولاك، إقناع خاتمى بتقديم مقترحات خاصة به، ولكن الرئيس الإيرانى خسر الصراع على النفوذ مع المؤسسة المحافظة التى شعرت بتهديد من محاولاته تعزيز الديمقراطية ونبرته الأكثر هدوءاً تجاه الولايات المتحدة. وفى نهاية فترة رئاسة كلينتون كان من الواضح أن الكلمة العليا فى إيران للمتشددين. ومع ذلك ساهمت إيران بحماس فى أعقاب هجمات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ فى جهود جورج بوش لهزيمة جارتها الشرقية الكريهة حكومة طالبان. وبدأ مسئولو الخارجية الأمريكية فى الحديث إلى الإيرانيين بشأن اتباع سياسة وفاق أوسع نطاقاً. ولكن الإسرائيليين اعترضوا فى بداية ٢٠٠٢ سفينة تحمل أسلحة كان هناك اعتقاد كبير بأنه قد جىء بها من إيران وأنها فى طريقها إلى السلطة الفلسطينية، وهو ما زعموا أنه انتهاك للاتفاقيات التى بين الفلسطينيين وإسرائيل. وتغير الوضع.

بعد بضعة أسابيع وضع بوش إيران ضمن «محور الشر» إلى جانب العراق وكوريا الشمالية. وهو يحاول منذ غزو العراق الضغط على كوريا الشمالية كى تفكك منشآتها النووية، ولكنه مقاربته لإيران يلفها الغموض حتى الآن. وتوضح الحكومة الأمريكية برفضها إقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية مع إيران أن واشنطن لا تعتبر الجمهورية الإسلامية دولة تتمتع بالشرعية. وفى الوقت نفسه تطالب الولايات المتحدة إيران بالتعاون فى جهودها لجعل الأوضاع مستقرة فى العراق ومعارضة حدوث تمرد هناك.

تود الجمهورية الإسلامية من جانبها أن يكون العراق مستقراً. وسوف تضمن الانتخابات الديمقراطية أن تكون السلطة بيد أبناء مذهبهم من الشيعة. ومن ناحية أخرى، فإنهم لا يريدون أن يكون العراق دولة عميلة للولايات المتحدة، أو أن يصبح نموذجاً للأيديولوجيين فى واشنطن الذين يظنون أنه لابد من وضع الديمقراطيين الموالين للولايات المتحدة فى السلطة فى أنحاء الشرق الأوسط.

ويسعى الإيرانيون منذ فترة طويلة للحصول على ضمانات بعدم تعرض أمنهم للخطر عند تعديلهم سياساتهم الخارجية لمصلحة أمريكا، غير أن إدارة بوش رفضت تلك المقترحات.[٤] وكانت نتيجة ذلك أن الإيرانيين يساعدون الأمريكان فى العراق ببعض الطرق ويعوقونهم بطرق أخرى. فقد شجع الإيرانيون حلفاءهم الشيعة فى العراق على دخول الانتخابات المنتظر إجراؤها فى بداية العام الحالى. وفى الوقت نفسه يقول الأمريكيون والبريطانيون إن عملاء الإيرانيين الذين يستخدمون السلاح والمال يرعون جماعات إيرانية كثيرة، ليست جميعها من الشيعية، بما فى ذلك العديد من الجماعات النشطة فى المثلث السنى. ولا يشك أحد فى قدرة إيران على خلق المزيد من الفوضى فى العراق؛ رداً على هجوم إسرائيلى أو أمريكى على المنشآت النووية، على سبيل المثال.

[٣]

نقطة البداية فى كتاب پولاك «اللغز الفارسى» هو اعتقاده أن أمريكا تستحوذ على تفكير القيادات الإيرانية لأسباب تاريخية، وأن «تاريخ العلاقات الأمريكية الإيرانية يتضمن دروساً كثيرة تستفيد منها إدارة السياسة الأمريكية فى المستقبل». ويخصص پولاك حوالى ١٤٠ صفحة لتلخيص تاريخ العلاقات الأمريكية الإيرانية حتى ثورة ١٩٧٩. وهو يولى اهتماماً خاصاً بالانقلاب الذى أطاح بمحمد مصدق رئيس الوزراء الإيرانى الوطنى فى عام ١٩٥٣ بترتيب من وكالة الاستخبارات المركزية، والفهم الإيرانى الشائع للشاه على أنه أداة للسياسة الأمريكية. ويعتقد پولاك أن الأخطاء، الحقيقى منها والمتصور، التى ارتكبتها أمريكا فى إيران قبل الثورة الإسلامية مازال أثرها واضحاً على السياسة الأمريكية، وهو يرجع جزءاً كبيراً من عداء الإيرانيين فى الفترات اللاحقة إلى الرغبة الوطنية فى الانتقام من تلك الأخطاء.

كثيراً ما يكون استعراض پولاك التاريخى غير دقيق[٥] وهو يكتب فى بعض الأحيان بطريقة تبعث على الحيرة والارتباك. ففيما يقوله لا تُحدث الأفعال ردود أفعال؛ بل هى «تستجديها». فقد استطاع الإيرانيون «الفوز سريعاً بالحظوة فى المجتمع اللبنانى». وفيما يتعلق بالحرب الإيرانية العراقية، التى قدمت فيها الولايات المتحدة دعماً كبيراً للعراق، لا يتحدث پولاك عن استئناف القصف الجوى، بل عن «تكراره». وهو لم يستغرق سوى ثلاثة أشهر فحسب فى كتابة كتابه، وهو الأمر الذى يدل عليه الكتاب.

فى الفصل الأخير من الكتاب، وعنوانه «نحو سياسة إيرانية جديدة»، يورد پولاك قائمة بالسياسات الأمريكية التى تجد الولايات المتحدة أنها أبغض ما يكون:

دعمها لـ... الإرهاب الدولى، ومعارضتها العنيفة لإبرام اتفاقية سلام عادل بين العرب والإسرائيليين، وسعيها لامتلاك أسلحة الدمار الشامل النووية... وسجلها السيئ الخاص بحقوق الإنسان.

بولاك محق فى أن أمريكا تستحوذ على تفكير القيادات الإيرانية، غير أن التاريخ ليس السبب الرئيسى أو الأهم وراء ذلك. فلو كان التاريخ هو العامل المحدد لسياسة إيران لما كان للجمهورية الإسلامية علاقات جيدة إلى حد ما مع بريطانيا، معذبتها الإمبريالية الجديدة، أو علاقات طيبة مع روسيا، تلك القوى الكبرى التى سعت إلى السيطرة على بلاد فارس. إن الخلاف بين إيران والولايات المتحدة يدور حول جهود أمريكا لتحديد مستقبل الشرق الأوسط وتعزيز سياستها هناك، والخطر الذى يمثله ذلك بالنسبة للدولة الثورية التى تأسست على مبادئ تتناقض مع مبادئ الولايات المتحدة. فليست هناك دولة غربية تسعى وراء مصالحها فى الشرق الأوسط بقوة ونشاط يزيد عما تسعى به الولايات المتحدة وراء مصالحها فى المنطقة. ومن الطبيعى أن تنظر إيران إلى







فى ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٤ وصف آية الله خامنئى المرشد الأعلى المحافظ لإيران، وصاحب الكلمة الأخيرة فى القضايا السياسية، أية تكهنات تشير إلى أنه سيجرى تعليق تخصيب اليورانيوم «غير منطقية»



أمريكا على أنها أكبر ما يواجهها من تهديدات. ويقوم عداء إيران لإسرائيل في المقام الأول على رؤيتها لإسرائيل على أنها وكيل أمريكي. ويعتقد المسئولون الإيرانيون أن أحداً لا يتخيل ارتكاب إسرائيل فظائعها ضد الفلسطينيين بدون موافقة أمريكية.

مفتاح تفكير پولاك هو إعلانه أن «إيران بصورة كبيرة هي من حدد نبرة واتجاه العلاقات» بين طهران وواشنطن. ومن الغريب، وربما كان تعبيراً عن الصخب أو مجرد البقعة العمياء، أن يبدو پولاك وكأنه لا ينظر إلى وجود أمريكا الكبير والنشط في أنحاء الشرق الأوسط على أن له تأثيراً كبيراً على «نبرة واتجاه» علاقاتها مع إيران. وعلى أية حال فإن هناك اعترافاً على نطاق واسع بأنه لم يكن للإيرانيين ضلع في هجوم الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، وأن «الرؤية الإستراتيجية» لجورج بوش شملت غزو العراق ودعم أريئيل شارون. ولم تعد إيران بالقوة والثقة اللتين يجعلانها تحاول تصدير الثورة. ويكاد سلوكها، طاب أو ساء، يكون تفاعلياً بالكامل.

قد يكون من المفيد التفكير في التكتيكات الإيرانية التي يعد سعي طهران إلى الغموض النووي مثالاً لها. بغض النظر عن مدى عدوانيتها في حد ذاتها. على أنها جزء أساسي من إستراتيجية دفاعية في جوهرها. فالجمهورية الإسلامية في وضع المدافع من أوجه عديدة: ضد الشعب الذي تحرر من الوهم في الداخل، وضد أمريكا المعادية على حدودها الشرقية والغربية. فقد أقامت الولايات المتحدة قواعد عسكرية جديدة على مقربة من إيران في قرغيزستان وأوزبكستان، بالإضافة إلى قواتها المتمركزة في العراق وأفغانستان. ومن الواضح في رأي المصادر العليمة في الخارج أن القيادات الإيرانية تحاول وقف مد التاريخ، الذي يميل عاجلاً أو آجلاً إلى إغراق الأيديولوجيات غير المرنة ومؤيديها المستبدين.



يتسم پولاك بالدهاء حين يصف هذا الموقف في إيران. فهو محق في تحذيره واضعي السياسات الأمريكية من الاعتماد على المشاعر المؤيدة لأمريكا بصورة عامة فيما بين الكثير من الإيرانيين. وهو كذلك على حق في رؤيته هذه المشاعر على أنها إلى حد ما رد فعل لمشاعر حكامهم غير المحبوبين المعادية لأمريكا التي تتسم بالنقد القاسي. وباعتباره أحد أعضاء مجلس الأمن القومي في إدارة كلينتون، فقد كان على صواب في تعريفه الرئيس محمد خاتمي بأنه مؤيد مخلص للإصلاح. ومع أن جهوده لتشجيع خاتمي لم تفض إلى شيء، فقد كانت جهوداً مشرفة وجديرة بالاحترام. وقد وجدت أن ما قاله عن تلك الجهود هو الجزء الأكثر لفتاً للانتباه في الكتاب.

يعتقد پولاك أن القيادات الإيرانية «يمكنها إقناع الشعب الإيراني بتحمل تضحيات كبيرة في السعي وراء أفكار مجردة من قبيل: مقاومة النفوذ الأجنبي»، غير أن قضاء بضعة أيام في طهران قد يقنعه بما هو عكس ذلك. فالقيادات الإيرانية تعلم أن الأفكار المجردة التي تروجها في خطب الجمعة تحظى بالقليل من التأييد الشعبي. وهي تخشى أن تدفع أية فترة من المصاعب الاقتصادية الناس إلى التعبير عن تعاستهم بطرق لا يمكن التنبؤ بها. فالساسة الإيرانيون، وخاصة من يتحكمون في أموال البلاد، يبددون فائض النفط الإيراني في نوبات إنفاق لا ضابط لها ولا رابط. وقد شجعت القيادات الإيرانية ثقافة النزعة الاستهلاكية التي تتناقض مع قيم المساواة التي تزعم الإيمان بها. كما أنها ليست على استعداد للمخاطرة بوجود معدل بطالة أكبر لكي تصلح اقتصادها غير الفعال إلى حد كبير ويسيطر عليه القطاع العام الفاسد المحمي من أية منافسة. ورغم كل ما يبدو على إيران من استقرار، فهي دولة غير واثقة في شعبها.

لو امتلكت إيران القدرة على صنع القنابل النووية على وجه السرعة، إلى جانب إنجازها دورة الوقود اللازمة للأغراض السلمية، فقد تشعر بقدر أكبر من الأمان؛ إلا أنه من غير المرجح أن تعيد تنشيط سياستها الخارجية القديمة التي تتسم بقدر كبير من الولع بالقتال. ولو بدأت من ناحية أخرى في اغتيال المعارضين في الخارج، ووجهت ضربات مباشرة إلى أهداف غربية، فمن المؤكد أنها ستجبر أمريكا وحلفاءها. حتى الأوروبيين منهم الذين يرجح أنهم مهمومون في المقام الأول بمصالحهم. على اتخاذ إجراء قوي. وإيران عرضة لأن تتخذ ضدها إجراءات تفرض عليها المزيد من العزلة. وقد يكون لفرض الاتحاد الأوروبي شريكها التجاري الأساسي عقوبات عليها، أو حتى التهديد بفرض تلك العقوبات، أثر يؤدي زعزعة استقرارها بشكل حاد.

في أعقاب اتفاقية ٢٠٠٣ بين الأوروبيين وإيران، تعجلت في تكهني بأن إيران سوف تلتزم بتعهداتها.[٦] إلا أن الإيرانيين سخروا من روحهم. فأثناء المحادثات اللاحقة كان المفاوضون الإيرانيون يثيرون غضب شركائهم الأجانب بما يقدمونه من طلبات غير متوقعة في لحظات أساسية من المفاوضات؛ كما حدث في نهاية نوفمبر من عام ٢٠٠٣ بينما كان مجلس حكام الوكالة الدولية للطاقة الذرية يعد مسودة القرار الخاص ببرنامج إيران النووي. وفي النهاية ضمن الإيرانيون الصياغة التي تجعل من الأسهل لهم، في رأيهم، استئناف نشاطهم الخاص بالتخصيب وإعادة المعالجة في المستقبل، وذلك في مقابل سحب طلب السماح لهم بإجراء تجارب على عشرين جهاز طرد مركزي.

في غياب استطلاعات الرأي التي يُعوَّل عليها، يعتقد الكثير من المراقبين الأجانب أن معظم الإيرانيين سوف يؤيدون امتلاك إيران للأسلحة النووية. وهم يفترضون بشكل منطقي أن الإيرانيين مستاءون من امتلاك جيرانهم وجيرانهم الأقربين مثل باكستان والهند وإسرائيل أسلحة نووية بينما هم لا يملكونها. وليس مستغرباً أن يشك الإيرانيون في دوافع الدول المسلحة نووياً التي تحمي التكنولوجيات الحساسة. ولكن يبدو كذلك أن المراقبين الأجانب يفترضون أن أعداداً كبيرة إلى حد ما من الإيرانيين تتفق في الرأي مع قادتها ومع القرارات التي يتخذونها. غير أنه قد لا يكون ذلك هو الحال.

على امتداد العام المنصرم، زرت موقعي كارثتين إيرانيتين كبيرتين. كانت الكارثة الأولى في مدينة بام الواقعة في الجنوب الشرقي من إيران حيث قتل الزلزال ما يزيد على ٢٦ ألف نسمة في الشتاء الماضي. أما الثانية فكانت في پاكداشت، ذلك الحي الفقير الواقع خارج طهران حيث حُكم مؤخراً بالإعدام على رجل ارتكب جرائم قتل (واغتصاب في كثير من الحالات) راح ضحيتها عشرون شخصاً، معظمهم صبية صغار. ويعتبر تأخير «إعادة إعمار» بام بسبب العجز والتنازع فيما بين الإدارات والفساد المزعوم فضيحة قومية. وكذلك كان رد الفعل تجاه پاكداشت، حيث كانت السلطات المحلية على امتداد فترة تزيد على السنة تبدي عدم اكتراث واضح عند اختفاء أبناء أناس عاديين بشكل منفرد. وقد وجدت أن سكان تلك المناطق تخلوا عن تردد الإيرانيين المعتاد في سب السلطات أمام الأجانب. فقد فاض بهم الكيل إلى حد كبير من الدولة، ولم يعودوا يثقون في دوافعها، ويرفضون ما تدعيه من كفاءة واقتدار.

هذان نموذجان متطرفان للعلاقة السيئة بين الحكام والمحكومين التي تنعكس على تزايد شك الإيرانيين من سكان المدن في السياسة. (كانت نسبة مشاركة الناخبين في انتخابات فبراير، التي كثرت فيها العيوب والأخطاء، حوالي ٣٥ بالمائة في المدن الكبرى، بما في ذلك طهران.) ولا تعكس افتتاحيات الصحف الملتهبة المؤيدة للبرنامج النووي «جدلاً» قومياً بشأن الموضوع، بل تعكس خطاب الجماعات المتنافسة داخل البلاد. فالبرنامج مهم على المستوى الداخلي بالنسبة لجماعة صغيرة من الساسة الذين يسجلون النقاط على بعضهم بعضاً. (في ١٦ نوفمبر، على سبيل المثال، استدعى البرلمان الإيراني، الذي ليس له تأثير على صياغة السياسة الخارجية،





برغم مطالبة الأوروبيين، لم تحسن إيران سجلها الخاص بحقوق الإنسان أو تقلل دعمها للجماعات المتشددة التي تعارض السلام بين إسرائيل والفلسطينيين



كبير المفاوضين النوويين وأنّبه على الاتفاق مع الأوروبيين، الذين قيل إنهم طالبوا إيران بتقديم تنازلات أكثر مما يجب.) إلا أن معظم الإيرانيين يرون أن ثمن الخبز وفشل الحكومة فى خفضه أكثر أهمية.

لقد أصبحت برامج إيران النووية وما إذا كانت ستسعى لتحقيقها أم لا مسألة مهمة بالنسبة لطموح الجمهورية الإسلامية الأوسع فى الشئون الخارجية. ومن غير المحتمل أن يزعزع تقرير هيرش إيمان معظم الإيرانيين بأن الإسرائيليين أو الولايات المتحدة لا يعتزمون شن هجوم على منشآتهم النووية.(٧) ولكنهم يعرفون ويعرف الأوروبيون أن اتفاقية نوفمبر ٢٠٠٤ لن تحقق الكثير ما لم ينضم الأمريكيون إلى المفاوضات، حيث يقدمون مزايا مثل الضمانات الأمنية وعقد اتفاق بشأن الأصول الإيرانية فى الولايات المتحدة، وإمكانية وجود علاقات اقتصادية طبيعية. ويحذر الأمريكيون إلزام أنفسهم بتلك السياسات ما لم يوافق الأوروبيون وغيرهم، وخاصة روسيا والصين؛ على اتخاذ إجراء عقابى فى حال مضى إيران قُدُماً نحو إنجاز دورة الوقود التى يمكن أن تنتج الأسلحة النووية. والمطلوب للتعامل مع إيران وطموحاتها النووية هو تشكيل تحالف دولى يضم الأمم المتحدة؛ وليست تلك هى البراعة التى يتسم بها جورج بوش. ■

الهــــوامــــش

(١) وافقت الصين فى أكتوبر على شراء كمية كبيرة من الغاز الطبيعى الإيرانى وتطوير أحد حقول النفط الإيرانية. وتتوقع إيران حصولها على الدعم الدبلوماسى الصينى فى مقابل تزويد بكين بالطاقة، ومن المرجح أن يحدث ذلك. وقد تشعر روسيا التى زودت إيران بالتكنولوجيا والمعدات النووية، إلى جانب الطائرات المدنية والسلاح، بالحرج إذا أحيلت إيران إلى مجلس الأمن.

(٢) «تنفيذ اتفاقية الضمانات الخاصة باتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية فى جمهورية إيران الإسلامية» تقرير كتبه المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية فى ١٥ نوفمبر ٢٠٠٤. وكان ذلك التقرير ضرورياً بالنسبة لما ارتكبته إيران من جنح فى السابق، إلا أن نبرته المتفائلة فى مجملها أثارت غضب إدارة بوش التى لا تخفى كراهيتها للبرادعى. وطبقاً لما ذكرته «ذا واشنطن بوست» فقد تجسست حكومة بوش على المكالمات التليفونية بين البرادعى والإيرانيين فى محاولة منها لإيجاد أدلة على تحيز المدير العام المزعوم لإيران من الواضح أنها جزء من السعى للاستغناء عن البرادعى حين تنتهى فترة عمله الثانية كمدير عام فى نهاية العام الحالى. ويحظى البرادعى بدعم معظم الدول الأعضاء فى الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وربما لم تقترح إدارة بوش مرشحاً بديلاً لهذا السبب؛ ويتكهن بعض مسئولى الإدارة الأمريكية الآن بأن يبقى البرادعى فى منصبه. وكان البرادعى قد أثار غضب الإدارة فى البداية حين شكك. واتضح أن لديه سبباً منطقياً فى شكه. فى المعلومات الاستخباراتية الأمريكية بشأن برامج أسلحة الدمار الشامل العراقية قبل غزو ٢٠٠٣ للعراق. وبناء على ما ذكره داريل كمبل المدير التنفيذى لاتحاد منع الأسلحة، وهو جماعة سياسية لمنع الأسلحة مقرها واشنطن، فإن «البعض فى إدارة بوش يسعون للعقاب فحسب».

(٣) يوضح قرار إيران فى بداية العام الحالى بالخضوع للضغط وفتح مجمعها العسكرى التاسع فى پارتشين خارج طهران للمفتشين هذا الاختلاف فى المفاهيم. فطهران ترى أن القرار يقدم المزيد من الأدلة على انفتاح إيران، بينما يؤكد الأمريكان من جانبهم ومنذ فترة طويلة أن الإيرانيين يسعون إلى صنع رأس حربية فى الموقع ويفترضون أنهم قد أخفوا ما يدل على قيامهم بذلك هناك. وإذا لم يجد المفتشون شيئاً فى پاتشين، فلن يقتنع الأمريكيون بأن الإيرانيين صادقون حين يقولون إنه ليس لديهم برنامج لصنع الرءوس الحربية فى پاتشين.

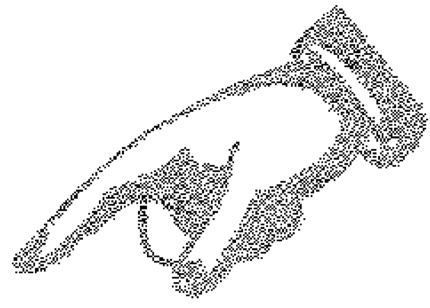
(٤) على هامش المؤتمرات الأكاديمية، ومن خلال مبعوثها إلى الأمم المتحدة، وعن طريق الوساطة، عبرت إيران عن استعدادها لإبرام «صفقة كبيرة» لإنهاء العداء مع الولايات المتحدة. وبناء على ما جاء فى مقال كتبه مؤخراً بارتون جيلمان ودافنا لينزر فى «ذا واشنطن پوست» («مكالمات قوية غير مسبوقة للقوى الخطرة»، ٢٦ أكتوبر ٢٠٠٤)، فقد أبلغ البرادعى بوش فى أكتوبر ٢٠٠٢ أنه «تحدث إلى القيادات الإيرانية ويعتقد أنها مازالت مقتنعة بالعدول عن تخصيب اليورانيوم. وبناء على ما ذكرته مصادر مطلعة على نص مكتوب للقاء بوش والبرادعى، فقد قال البرادعى إن الإيرانيين يريدون إجراء محادثات وعرضوا المساعدة فى فتح قناة للاتصالات الهادئة. ولكن بوش اعترض». وطبقاً لما جاء فى المقال نفسه، فقد رفض جون بولتون وكيل الخارجية الأمريكية لانتشار الأسلحة النووية الذى يتسم بالتشدد مقترحات لاحقة بقوله «لسنا مهتمين بأية صفقة كبيرة».

(٥) على سبيل المثال، لم يكن مجمع الإمبراطور دارا الإكمينى فى پيرسپوليس على وجه التحديد «العاصمة الإمبراطورية» التى يقول پولاك إنها كذلك. لقد كانت مركزاً للطقوس؛ ذلك أنه كان هناك مكان آخر تدار منه الإمبراطورية ويُستقبل فيه المبعوثون الأجانب. ولم يسيطر الميديون الذين خَلَفَهم الإكمينيون على إيران «قروناً طويلة» كما يقول پولاك، بل استمرت إمبراطوريتهم بالكاد ستين سنة. وليس «المُلاّ» كما يقول هو «مصطلح فارسى يعنى رجل الدين»، بل هو كلمة عربية تعنى المُعَلِّم. ولا يعنى رستاخيز، وهو اسم الحزب الوحيد الذى سمح به الحزب السياسى الموالى للشاه فى عام ١٩٧٥، «النهضة» كما يقول پولاك، وإنما «البعث».

(٦) انظر مقالى «صفقة كبيرة فى إيران»، The New York Review of Books, February 26, 2004.

(٧) يتوقع الإيرانيون أن الطابع المشتت لمنشآتهم، والتداعيات المحتملة لتلك الضربة، سوف يبعد أعداءهم. وأجاب وزير الدفاع الإيرانى عن سؤال بشأن الرد الإيرانى على الضربة العقابية بقوله: «لن نقف مكتوفى الأيدى. فأمريكا ليست الوحيدة الموجودة فى المنطقة. ذلك أن لنا وجوداً من خوست إلى قندهار فى أفغانستان، ونحن موجودون فى الخليج الفارسى، ويمكن أن نوجد فى العراق.» وقد يضيف معظم الناس إسرائيل إلى هذه القائمة، حيث يعمل حزب الله وآخرون ممن لهم صلة بإيران. وطبقاً لما قاله سفير الاتحاد الأوروبى فى طهران، فإن الهجوم قد يعطل تطور إيران النووى، ولكنه «سوف يكون أفضل طريقة لضمان تسخير إيران لمواردها وخبراتها كافة للحصول على القنبلة النووية بأسرع ما يمكن».

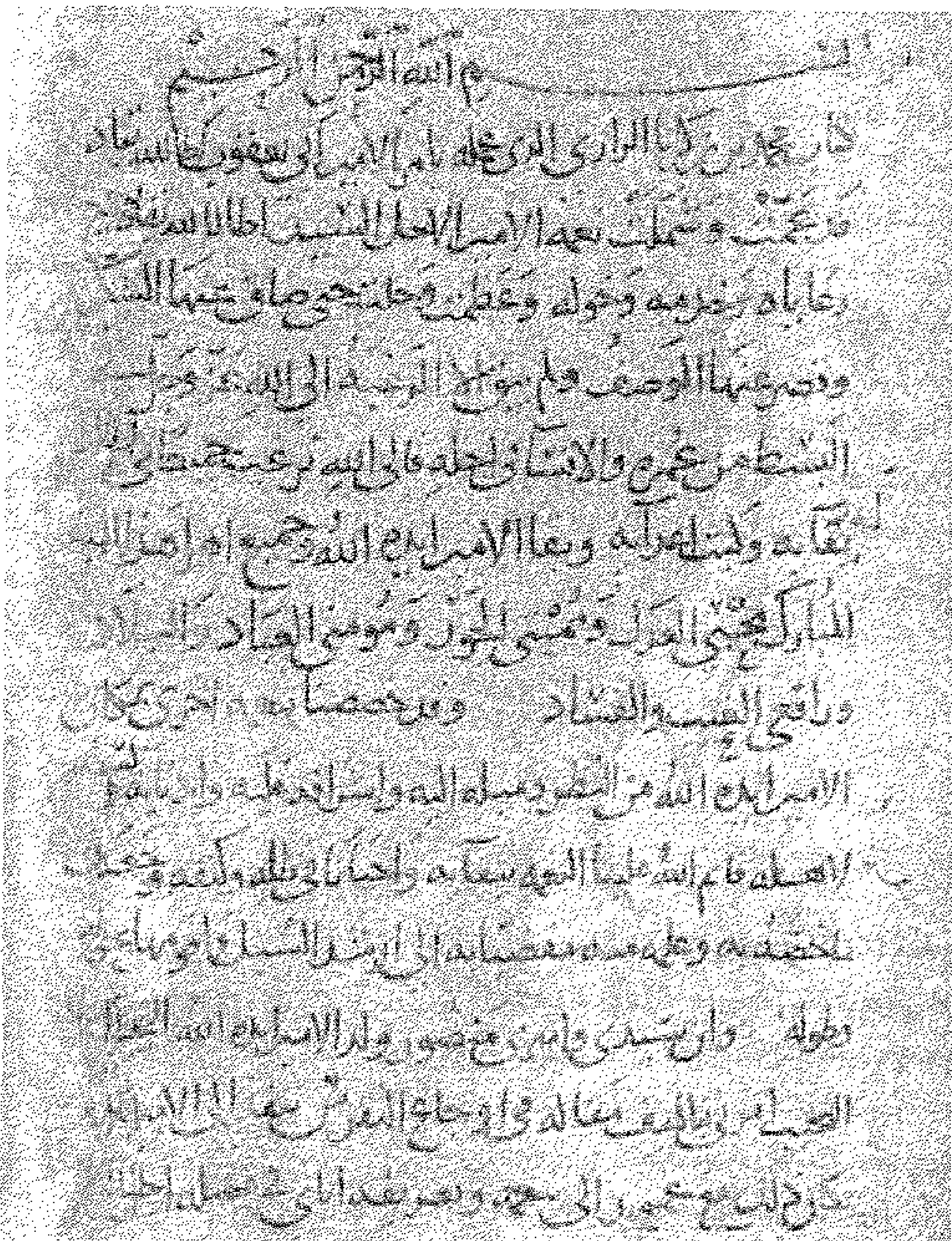
كتــاب الــزاويــة



أبو بكر الرازى

مقــالة فى النقــرس

يعد أبو بكر محمد بن زكريا المعروف بالرازى أحد أهم الشخصيات التى تألقت فى سماء التاريخ العربى الإسلامى، بل الإنسانى عامة. واشتهر الرازى المتوفى عام ٣١٣ هجرية بمنهجيته العلمية وبأنه أرسى الطب على قاعدة البحث الإكلينيكى. ولم يغرق فى البحوث النظرية. وللرازى أعمال أخرى غير الحاوى بعضها فلسفى. وبعضها طبى مثل مقالة فى النقرس. وهي مخطوطة من ضمن مقتنيات مكتبة الإسكندرية. وقد أعادت المكتبة نشرها بعد أن حققها الدكتور يوسف زيدان، وتنشر «وجهات نظر» صفحات من المقالة.


بسم الله الرحمن الرحيم

صورة زنكوغرافية من المخطوطة الأصلية

تأمل (مجّ mug) مملوءاً بالقهوة أمريكية. إنها متوافرة فى كل مكان. يمكن أن يصنعها أى كان. رخيصة وإعادة ملئها مجانا. ولأنها بدون نكهة مميزة تقريبا فيمكن تخفيفها حسب الذوق. فما تفتقده بالجاذبية تعوضه بالحجم.

من بين كل الوسائل التى ابتكرت، هذه هى الأكثر ديمقراطية لضخ الكافيين فى عروق البشر.

الآن خذ قدحا من الاسبريسو الإيطالية. تحتاج لصنعها إلى آلة غالية الثمن ولا مجال لتحديد السعر حسب الحجم فذلك يوحى باللامبالاة بالمستهلك وجهل بالسوق. إن الإحساس بالمتعة الجمالية للمشروب يتجاوز كثيرا تأثيرها الكيماوى على الجسم. إنها ليست مشروبا بل تحفة فنية.

تنطبق هذه المقارنة على الاختلافات بين أمريكا وأوروبا: اختلافات تتأكد هذا اليوم بتكرار متصاعد وحاد على جانبى الأطلنطى. فالانتقاد المتبادل شائع. فالمعلقون الأمريكيون يرون أوروبا متصلبة ويفتقر العمال وأصحاب العمل والقوانين فيها إلى المرونة والقدرة على التكيف الموجودة لدى نظرائهم فى أمريكا.

إن تكاليف دفعات الضمان الاجتماعى الأوروبى والخدمات العامة لا يمكن احتمالها، وسكان أوروبا المتقدمون فى السن مرفهون وغير منتجين. فى دنيا العولمة يبدو (النموذج الاجتماعى الأوروبى) سرابا مقضيا عليه. وهذه نتيجة توصل إليها حتى المراقبون الأمريكيون (الليبراليون) الذين يختلفون عن النقاد المحافظين (والمحافظين الجدد) فى أنهم لا يستمدون بهجة من الانتقاد.

وعلى أية حال وفى نظر أعداد متزايدة من الأوروبيين، فإن أمريكا هى التى فى خطر وكذلك (طريقة الحياة الأمريكية) التى لا يمكن تحمل أعبائها. إن السعى الأمريكى للثروة والحجم والوفرة. حيث تعوض المادة عن السعادة - غير ممتع جماليا وكارثى بيئيا. فالاقتصاد الأمريكى مبنى على رمال (وبتعبير أدق: أموال الآخرين) وبالنسبة لكثير من الأمريكيين يتلاشى الأمل بالوعد بمستقبل أفضل.

وتتسم الثقافة الجماهيرية فى الولايات المتحدة بالسوقية والبرقشة ولهذا لا عجب أن الكثير من الأمريكيين يتحولون الآن إلى الكنيسة للبحث عن السلوى.

تشكل هذه المفاهيم الفجوة الأطلنطية الحقيقية وتوحى بأن شيئا قد تغير. فى العقود الأخيرة بدا من المفترض - سواء برضا أو ندم - أن أوروبا وأمريكا تتمحوران حول نموذج (غربى) منفرد ولدته الرأسمالية المتأخرة بقيادة الولايات المتحدة - كالعادة - وسوف يسحق منطق المعدلات والسوق والكفاءة والربح المتغيرات المحلية والتقاليد الثقافية المتوارثة. الأمركة (أو العولمة وكل من التعبيرين مرادف للآخر) شىء لا يمكن تفاديه والأمل الأفضل - و بالتأكيد الوحيد - للمنتجات والثقافات المحلية هو الانخراط فى دوامة العولمة ثم يعاد تعليبها باعتبارها سلعا (عالمية) للاستهلاك العالمى. وهكذا فإن منتجا إيطاليا هو القهوة الاسبريسو - يمكن أن ترحل إلى الولايات المتحدة وسوف تتحول من سلعة خاصة بذوق الصفوة إلى سلعة شعبية ثم يعاد تعليبها وبيعها إلى الأوروبيين بوساطة سلسلة متاجر أمريكية.

ولكن حدث خطأ ما فى هذه القصة. فلم تصادف محلات ستاربكس مقاومة أجنبية غير متوقعة لصنف القهوة بدون كافايين بالقرفة وبالحليب منزوع الدسم (ماعدا فى المملكة المتحدة) فقط، وإنما قاطع الأوروبيون المسيسون السلع الأمريكية.

أوروبا



... × أمـــــريـــكـــا!!

تــــونــــــى يـــــــوت

لقد أصبح من الجلى أن أمريكا وأوروبا ليستا محطتين على خط الإنتاج التاريخى، مما يمكن للأوروبيين أن يتوقعوا وراثة أو محاكاة التجربة الأمريكية بعد فترة مناسبة من الزمن. انهما كائنان مختلفان تماما وربما يتحركان فى اتجاهين متضادين.

بل إن هناك بعض الكتّاب ممن يرون أن أوروبا ليست هى الواقعة فى فخ الماضى وإنما الولايات المتحدة.

إن غرائب الثقافة الأمريكية (كما تراها أوروبا) معروفة: التدين الواضح، الولع الانتقائى[1]، شغفها بالمسدسات والعنف والسجون (لدى الاتحاد الأوروبى ٨٧ سجينًا لكل ١٠٠ ألف شخص ولدى أمريكا ٦٨٥) وتأييدها لعقوبة الإعدام.



فى السويد تحصل النساء على ٦٤ أسبوعًا إجازة وثلثى الأجور. حتى البرتغال تضمن إجازة أمومة لثلاثة أشهر بكامل الأجر. أما فى الولايات المتحدة فإن الحكومة الفدرالية لا تضمن شيئا



وكما عبر عنه ت.ر. رايد فى كتابه (الولايات الأوروبية المتحدة): «نعم. الأمريكيون يضعون لافتات عملاقة تقول - أحب جارك - ولكنهم يقتلون ويغتصبون جيرانهم بمعدلات تصدم أى شعب أوروبى». ولكن غرائب الاقتصاد الأوروبى والنفقات الاجتماعية هى التى تجذب أنظارنا الآن.

يعمل الأمريكيون ساعات عمل أكثر بكثير من الأوروبيين: فطبقا لـ (منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية OECD) يعمل الموظف الأمريكى النمطى ١٨٧٧ ساعة حسب إحصاء عام ٢٠٠٠ مقارنة بـ ١٥٦٢ ساعة يعملها نظيره الفرنسى. ويعمل واحد من بين كل ثلاثة أمريكيين أكثر من ٥٠ ساعة أسبوعيا ويحصل الأمريكى على إجازات مدفوعة الأجر أقل من الأوروبى.. ففى حين أن السويديين يحصلون على أكثر من ٣٠ يوما إجازة مدفوعة الأجر فى السنة ويحصل البريطانيون على متوسط ٢٣ يوما ولكن كل ما يرجوه الأمريكى هو ما بين ٤-١٠ أيام اعتمادا على مواقع عملهم. والبطالة فى الولايات المتحدة أقل من دول أوروبية كثيرة (ولكن طالما أن العاطل الأمريكى يفقد كل حقوقه فى مزايا البطالة ويحذف من السجلات فإن مثل هذه الإحصائيات غير دقيقة تماما). ويبدو أن أمريكا أفضل فى خلق الوظائف، وهكذا فإن عدد البالغين الأمريكيين الذين يعملون هم أكثر من الأوروبيين كما أنهم يعملون ساعات عمل أكثر ولكن ماذا يحصلون مقابل جهودهم؟

ليس الكثير إلا إذا كانوا أغنياء. إن الولايات المتحدة أفضل مكان للثراء. فى عام ١٩٨٠ كان المدير التنفيذى الاعتيادى يحصل على ٤٠ ضعف ما يحصل عليه العامل فى الإنتاج. الآن معدل الطبقة العليا من رؤساء مجالس الإدارات هو ١/٤٧٥ ويمكن أن تكون هذه النسبة أكبر بكثير إذا أخذنا بعين الاعتبار رؤوس الأموال الثابتة وليس الدخل فقط. وللمقارنة: النسبة فى بريطانيا هى ٢٤/١ وفرنسا ١/١٥ وفى السويد ١/١٣ وهذه الأقلية المتميزة تحصل على أفضل علاج طبى فى العالم ولكن ٤٥ مليون أمريكى لا يملكون أى نوع من التأمين الصحى على إطلاق (من بين دول العالم المتقدمة تنفرد الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا بعدم وجود تغطية طبية عامة). وطبقا لمنظمة الصحة العالمية تتبوأ الولايات المتحدة المركز الأول فى النفقات الصحية لكل فرد والمركز ٣٧ فى نوعية الخدمات الصحية.



نتيجة لذلك يعيش الأمريكيون حياة أقصر من مواطنى أوروبا الغربية وموت أطفالهم بعد الولادة أكثر احتمالا: ترتيب الولايات المتحدة السادس والعشرون بين الدول الصناعية فى وفيات الأطفال بمعدل ضعف الوفيات فى السويد وأعلى من سلوفينيا وأعلى قليلا من لتوانيا. هذا رغم أن الولايات المتحدة تصرف ١٥٪ من الناتج المحلى الأمريكى الكلى على (العناية الصحية) - يستنزف معظمه النفقات الإدارية للشبكات الخاصة التجارية). بالمقارنة بذلك فإن السويد تكرس ٨٪ من دخلها القومى للصحة.

وصورة التعليم لا تختلف. فالولايات المتحدة تصرف أكثر على التعليم بالمقارنة بشعوب أوروبا الغربية ولديها حتى الآن أفضل جامعات البحوث فى العالم ولكن الدراسات الأخيرة تبين أنه مقابل كل دولار تصرفه الولايات المتحدة على التعليم تحصل على أسوأ النتائج من أى دولة صناعية أخرى. والأطفال الأمريكيون أقل أداءً من نظرائهم الأوروبيين سواء فى التعلم والعدد.

حسن جدا. هذا ما يمكن أن تستنتجه: الأوروبيون أفضل وأعدل فى توزيع المنافع الاجتماعية وهذا ليس جديدا. ولكن لا يمكن أن تكون هنالك منافع أو خدمات بدون ثروة وبالتأكيد فإن الشىء الوحيد الذى تحسنه الرأسمالية الأمريكية والتى يحتاج الأوروبيون الميالون إلى الدعة أن يقتبسوه هو التوليد الديناميكى للثروة.. ويبدو هذا واضحا فى يومنا هذا.

الأوروبيون يعملون أقل: ولكنهم يعملون بأقصى طاقاتهم. فى ١٩٧٠ كان الدخل القومى لكل ساعة فى الاتحاد الأوروبى ٣٥٪ أقل من الولايات المتحدة. اليوم الفجوة أقل من ٧٪ وتتقارب بسرعة.

فالإنتاجية لكل ساعة عمل فى إيطاليا والنمسا والدانمارك تماثل حاليا تلك التى فى الولايات المتحدة ولكن أيرلندا وبلجيكا ولكسمبورج وألمانيا وفرنسا يتفوقن على الولايات المتحدة فى هذا القياس.

إن تفوق أمريكا فى الأجور والإنتاجية - نمطية الحجم والموقع والتاريخ - تبدو فى تراجع مما يؤثر على الهيمنة الأمريكية على المشهد التجارى الدولى. فالاقتصاد الأمريكى الحديث ليس فقط مرهونا للصيارفة الدوليين مع دين خارجى يصل إلى ٣,٣ تريليون (٢٨٪ الدخل القومى) بل إن الاقتصاد الأمريكى يصبح يوما بعد آخر ملكا للأجانب. فى عام ٢٠٠٠ تجاوز الاستثمار الأوروبى المباشر فى الولايات المتحدة، الاستثمار الأمريكى فى أوروبا بما يقرب من الخمسين. من بين عشرات الشركات والمنتجات (الأمريكية) المملوكة لأوروبيين: إخوان بروكس وDKNY وراندوم هاوس وسجائر كنت وصابون دوف وكرايسلر وBirds Eye وينزويل ولوس انجيليس دودجرز.

ويبدو أن الأوروبيين افضل من الأمريكيين فى توليد الأعمال الصغيرة ومتوسطة الحجم. هناك شركات صغيرة فى الاتحاد الأوروبى أكثر من الولايات المتحدة وهذه الشركات توفر وظائف (٦٥٪ من الوظائف

---

1 - The United States of Europe: The New Superpower and the End of American Supremacy

(الولايات المتحدة وأوروبا: القوى العظمى الجديدة ونهاية السيطرة الأمريكية)

Reid .R.T

Penguin, 305 pp., $25.95

2 - The European Dream: How Europe's Vision of the Future Is Quietly Eclipsing the American Dream

(الحلم الأوروبي: كيف تتجاوز الرؤية الأوروبية الحلم الأمريكي)

Jeremy Rifkin

Tarcher/Penguin, 434 pp., $25.95

3 - Free World: America, Europe, and the Surprising Future of the West

(عالم حر: أمريكا وأوروبا والمستقبل المباغت للغرب)

by Timothy Garton Ash

Random House, 286 pp. $24.95

عن:

The New York Review of Books

ترجمة: بثينة الناصرى

الأوروبية فى ٢٠٠٢ كانت فى الشركات الصغيرة والمتوسطة مقارنة بـ ٤٦٪ فى الولايات المتحدة) وهم يرعون موظفيهم بشكل أفضل. إن ميثاق الاتحاد الأوروبى للحقوق الأساسية ينص على (حق إجازة الأمومة بعد الولادة أو التبنى) وكل دولة أوروبية غربية توفر دعما ماديا خلال هذه الإجازة. فى السويد تحصل النساء على ٦٤ أسبوعاً إجازة وثلثى الأجور. حتى البرتغال تضمن إجازة أمومة لثلاثة أشهر بكامل الأجر. أما فى الولايات المتحدة فإن الحكومة الفدرالية لا تضمن شيئا. وكما قال فالجارد هوجلاند وزير النرويج الديمقراطى المسيحى لشئون الأطفال والعائلة: « يحب الأمريكيون الحديث عن القيم العائلية ولكننا قررنا أن نتجاوز الحديث إلى الفعل. إننا نستخدم عوائد ضرائبنا لندعم القيم العائلية ».

ورغم التحسر على الإعاقة البيروقراطية والمالية للإنتاج، يبدو أن الأوروبيين يدبرون أمورهم جيدا. ومن الطبيعى أن دولة الرفاهية ليست مجرد قيمة بحد ذاتها. فى تعبير أستاذ الاقتصاد فى مدرسة لندن للاقتصاد نيكولاس بار« إنها وسيلة جيدة ضد عجز السوق». وهى إعاقة حكيمة للمخاطر الاجتماعية والسياسية التى تسببها اللاعدالة المفرطة. كان ونستون تشرتشل هو الذى أعلن فى مارس ١٩٤٣: « ليس هناك استثمار افضل لأى مجتمع من ضخ الحليب فى أطفالنا». وبالنسبة لأتباعه فى أمريكا المعاصرة كان هذا قولا يفوح بالرفاهية. فى أمريكا اليوم تتركز ٣٨٪ من الثروة فى أيدى أغنى ١٪ وهم يعيدون توزيعها طبقا لأولويات مصالحهم. فى حين أن أمريكى بالغ من كل خمسة يعيش فى فقر مدقع - مقارنة بواحد من كل ١٥ فى إيطاليا. ولم تعد المنافع تنهال مطلقا. وبالنسبة لكثير من الأجانب لا تثير هذه الرؤية شهيتهم. إن (أسلوب الحياة الأمريكية) يفقد بريقه. كنموذج اقتصادى ليس من الممكن تكرار الولايات المتحدة[٢]. وكنموذج اجتماعى لم تعد الولايات المتحدة تملك مؤهلات منقذة. وهذا يستدعى إلى الذهن انطباعات الشاعر اوليفر جولدزميث القاتمة حول عصر سابق من الجشع الخاص واللامبالاة العامة:

البلاد فى تردٍ والكارثة القادمة
فريسة..
حيث تتراكم الثروة ويتهالك
الإنسان[٣]

[٢]

هذه هى القضية التى بنى عليها جيرمى رفكن و ت.ر. رايد كتابيهما. رفكن كان الأكثر طموحا بين الاثنين. وفى الواقع كان طموحا أكثر من اللازم: يزخر كتابه (الحلم الأوروبى) بالجهد لتلخيص كل شىء من تاريخ الكنيسة إلى الفلسفة التنويرية إلى نهاية توضح أن أمريكا الانفرادية هى التى وقعت فى مصيدة الزمن وأن أوروبا المتعاونة هى التى تمثل المستقبل.



وهو فى الأساس على صواب ولكن ينتقص من الكتاب: الملخصات التى لا قيمة لها لـ (خلق البرجوازية) أو (قيام دولة الأمة) والشرح الذى يقلل من المادية الأمريكية والإيحاءات المختلطة لنظرية الفوضى (السلسلة العظيمة للوجود) هوبز، ديكارت، هيجل.

إن كتاب (الحلم الأوروبى) ليس سيئا كما قال بعض النقاد وهو يحاول أن يقول شيئا مهما.

يكتب رفكن عن أمريكا المعاصرة:

«بحماستنا الدينية التى ليس لدينا ما نتشبث به غيرها أصبحنا شعبا مختارا مما جعل أمريكا أرضا أكثر خطورة وقفارا». ولكن كان يمكن للكتاب أن يكون أفضل بكثير لو أن رفكن تمسك بما يعرفه بدلا من أن يحاول جهده ليقول شيئا (مهما).

أما ت.ر. رايد فهو صحفى وكتابه عن التفوق الأوروبى يغطى نفس منطقة ومجال رفكن ولكنه أكثر إيجازا وعمقا وإمتاعا وأقل خيلاء. وله أسلوب موجز ومكثف فى الوصف: مثلا الأبرياء الأمريكان: جاك ويليتش وجورج دبليو بوش (ومؤخرا بيل جيتس) واقعون بشرنقة عالم جديد شجاع من القوانين الأوروبية التى لا يستطيعون أن يفهموها أو يتجاهلوها. ورايد مثل رفكن يوضح بكفاءة السبب فى ضرورة أن ينظر الأمريكان إلى الاتحاد الأوروبى بقواه المنظمة وثروته ونموذجه المؤسساتى بجدية شديدة فى العقود القادمة.

ولكن رغم أن كتابى الرجلين يأتيان فى الوقت المناسب فلا يقول أى منهما شيئا جديدا تماما. إن ما ذكراه من خصائص الولايات المتحدة معروف للأوروبيين. فى عام ١٩٥٦ تفوه جيمى بورتر فى مسرحية جون اوزبورن (انظر خلفك بغضب) بملاحظة سوداوية: «من الهول العيش فى العصر الأمريكى »، وقد تردد صدى هذه الكلمات بشكل أو بآخر عبر العقود إلى يومنا الحاضر. ولكن ليس معنى أن هناك شيئا ناقصا فى الولايات المتحدة اليوم وشيئا جذابا فى العقد الاجتماعى الأوروبى: هو رخصة لنا لرواية قصص خيالية.

من يبحث فى هذين الكتابين عن أصول الاتحاد الأوروبى سوف يتوه فى دروبهما. فإن رايد ورفكن يتعثران بامتداح الآباء المؤسسين لأوروبا لبعد نظرهم وحكمتهم فى توجيه أوروبا إلى البزوغ الحالى. طبقا لرايد فى (السنوات التى تلت إعلان شومان اجتاحت الحركة الأوروبية القارة مثل عاصفة) كان مجتمع الفحم والفولاذ الأوروبى (نجاحا اقتصاديا هادرا) ويذهب رفكن أبعد من ذلك: يكتب (أوروبا مختبر تجريبى حر وعملاق لإعادة التكفير فى الوضع البشرى)(١).

إن هذه الآراء عجيبة فالاتحاد الأوروبى هو ما هو عليه: كائن غير مقصود - بشكل كبير - لعقود من المفاوضات بين السياسيين الأوروبيين الغربيين الساعين لتطوير وتنمية مصالحهم القومية والخاصة. وهذا جزء من قضية الاتحاد الأوروبى: إنه توافق على مستوى القارة خططت له مئات اللجان وفى الواقع هذا يجعل الاتحاد الأوروبى أكثر أهمية وأشد تأثيرا مما لو كان مجرد تجسيد لنموذج اليوتوبيا.

وبنفس المنوال يبدو من السخف أن يكتب المرء كما فعل رفكن حول انغماس أمريكا بالصناعات الهامشية مثل صناعة قطاعات الفطائر المنزلية، كمثال على تواضع الموهبة الأمريكية، دون الالتفات إلى القذى فى العين الأوروبية.

هذا رجل لم ير وحشية ما بعد الحرب فى مدينة سارسيليه شمال باريس، ولم يمت قليلا فى ميلتون كينيس، رجل يتفادى الضواحى الخارجية فى مدينة ميلانو المعاصرة.

كان رايد محقا فى الإصرار على أن أوروبا لديها أفضل الطرق وأسرع القطارات وأرخص أسعار طيران. و.. أجل. بالتأكيد أن الاتحاد الأوروبى كما وصفه رفكن، أقرب إلى (نبض التغيير الذى يحول العالم إلى مجتمع عولمى) ولكنه ليس كاملا بأية حال من الأحوال.

بالتأكيد تواجه أوروبا مشاكل حقيقية ولكنها ليست تلك التى يرددها نقاد السوق الحرة الأمريكيون بشماتة قاتمة. ونعم تبدو الفوضية الأوروبية من



نفسها مهرجا كبيرا بين حين وآخر بإصرارها على تنظيم حجم الواقي الذكرى واستدارة الخيار.

لقد انهارت بشدة معاهدة الاستقرار للجم المصاريف والدين القومي والتي تعتبر مفخرة الاتحاد الأوروبي رغم أن انهيارها لم يضر باليورو الذي صممت المعاهدة لحمايته ضررا بالغا.

ودعم المعاش والمنافع الاجتماعية الأخرى سوف لن يجد تمويلا كبيرا في العقود القادمة ما لم يلد الأوروبيون أولادا أكثر ويرحبون بمهاجرين أكثر ويعملون عدة سنوات أخرى دون تقاعد ويأخذون تعويضات بطالة أقل كرما. ويسهلون لأصحاب العمل توظيف الشباب. ولكن هذه ليست عيوبا هيكلية عميقة في أسلوب الحياة الأوروبية. إنها اختيارات سياسية صعبة ذات نتائج سياسية ليس فيها ما يتضمن تفكيك دولة الرفاهية.

ولكن مشاكل أوروبا الحقيقية تكمن في جانب آخر.

في هولندا وفي باريس وانتويرب والمدن الأخرى ينمو العداء وعدم الفهم بين السكان المحليين الأصليين وأقلية من المسلمين (مليون في هولندا؛ اكثر من ٥ ملايين في فرنسا، ربما ١٣ مليونًا في الاتحاد الأوروبي حتى الآن) وقد انتقل هذا العداء من مجرد الكتابة على الجدران إلى مناطق محظورة إلى أسلحة إلى اعتداءات واغتيالات.



لقد بدأ الأتراك والمغاربة والتونسيون والجزائريون في التوافد على أوروبا الغربية منذ ستينيات القرن الماضي. إننا الآن نرى بروز جيل ثالث: جزء كبير منه عاطل عن العمل وغاضب ويشعر بالغربة وعرضة بازدياد لتوجهات الإسلام الأصولي.

على مدى أربعة عقود تقريبا أغمض السياسيون في أوروبا الغربية عيونهم عن كل هذا: تأثير السكن المنعزل والمجتمعات المعزولة غير المندمجة وتصاعد تيار مرعب من الناخبين البيض الذين لديهم قناعة بأن المركب كامل العدد.

وقد تطلب الأمر جان ماري لوبان والسياسي الهولندي القتيل بيم فورتوين ورهط من الأحزاب الديماجوجية - المعادية للمهاجرين - من النرويج إلى إيطاليا من أجل إيقاظ الأوروبيين إلى هذه الكارثة. ومما ينذر بالشؤم أن رد فعل كل شخص من توني بلير إلى فاليري جيسكار ديستان هو الهتاف «كارثة» وطوى الجسر المتحرك.

المشكلة الأخرى التي تواجه أوروبا - والاثنان بطبيعة الحال متصلان - هي الضغط على حافاتها الخارجية. إن الاتحاد الأوروبي جذاب أكثر مما في مصلحته - بالمقارنة مع الولايات المتحدة المكروهة على نطاق واسع لما تفعله.

ويحاول اللاجئون والمهاجرون غير الشرعيين من نصف أفريقيا بين حين وآخر القيام بجهد يائس لعبور مضيق جبل طارق أو النزول على سواحل الجزر الإيطالية الجنوبية أو الهبوط بسلامة لتتم إعادتهم مرة أخرى. وقد حاولت تركيا منذ ٤٠ عاما تقريبا الانضمام إلى النادي الأوروبي قبل أن يقبل طلبها (بتردد) الشهر الماضي. وتأمل أوكرانيا في مستقبل ديمقراطي مستقر داخل أوروبا أو على الأقل هناك أمل في أن تكون هناك يوما ما. وهذا سوف يدعم موقف يوشنكو ومؤيديه في أعقاب فوزهم الأخير.

ونفس الشيء ينطبق على بقية دول يوغسلافيا السابقة. ولكن في حين أن بروكسل على وعي تام بأن أخطار إهمال أفريقيا أو ترك أوكرانيا أو البوسنة تتلوى على أبوابها - أقل كثيرا من رمي ٧٠ مليون مسلم تركي في أحضان الإسلام الأصولي - فإن ما يقلق قادة أوروبا بشدة هو افتراض و(كلفة) توسيع الاتحاد الأوروبي إلى حدود آسيا.

هذه هي التحديات الحقيقية لأوروبا. قد يكون الاتحاد الأوروبي كما أوضح رايد ورفكن نموذجا مشعا للتعاون الدولي والعدالة والانسجام ولكنه لن يكون سهلا للاتحاد الأوروبي أن يدمج أقلياته الاثنية والدينية وتنظيم الهجرة أو يقبل تركيا بشروط قابلة للتطبيق. ومع ذلك إذا أساء الاتحاد الأوروبي إدارة الكارثة الدائمة على حدوده الشرقية والجنوبية ستقع أوروبا بمشاكل كبيرة بالتأكيد.

إن هذا هو سبب غضب الكثير من الأوروبيين وقادتهم من الرئيس جورج بوش وليس السبب هو العداء التقليدي لأمريكا أو حد التسلح.

بالنسبة لإدارة بوش: الإسلام فكرة تجريدية وهي الهدف الفاعل السياسي لما يسميه المسئولون في واشنطن (الحرب الكونية على الإرهاب). بالنسبة للولايات المتحدة تعتبر الشرق الأوسط أرضا نائية. مكانًا مناسبًا لتصدير المشاكل الأمريكية لتفادي معالجتها على أرض الوطن. ولكن الشرق الأوسط بالنسبة لأوروبا هو (الخارج القريب) إضافة إلى أنه الشريك التجاري الرئيسي. من طنجة إلى تبريز أوروبا محاطة بالشرق الأوسط وعدد كبير ويتزايد من الأوروبيين قادمون من هذا الشرق الأوسط. وعندما يبدأ الاتحاد الأوروبي محادثات قبول تركيا سوف يتوقع إدخال الاتحاد الأوروبي في المقابل إلى داخل الشرق الأوسط.

إن استراتيجية أمريكا للمواجهة الكونية مع الإسلام ليست خيار أوروبا. إنها كارثة.

[٣]

لن يعارض تيموثي جارتون آش على أكثر احتمال جل التحليل أعلاه.

في كتابه الجديد الساحر يذهب آش أبعد من رفكن ورايد في بعض المجالات. بصفته مواطنا دوليا يقول إن الولايات المتحدة مقصرة بشكل فادح غير مسئول. لقد قدم الاتحاد الأوروبي ٣٦.٥ بليون دولار لمساعدات التنمية في عام ٢٠٠٣. وقد ساهمت الولايات المتحدة بما قيمته ثلث ذلك المبلغ فقط ومعظم تلك المساعدات الأجنبية ذهبت إما إلى إسرائيل أو عادت بحبال متصلة بها إلى أمريكا. ٨٠٪ تقريبا من كل (مساعدات التنمية الأمريكية) تجبر المنتفعين على صرف الأموال على استيراد البضائع والخدمات الأمريكية. في العراق وحده صرفت الولايات المتحدة ثمانية أضعاف المبلغ الذي قدمته للآخرين. إن الولايات المتحدة هي ابخل كل الدول الغنية. في حين أن الأوروبيين هم الأكثر كرما. وهناك المزيد. تضم الولايات المتحدة ٥٪ من سكان العالم (ويتناقص ذلك باستمرار) ولكنها مسئولة عن ٢٥٪ من إنتاج غاز ثاني أكسيد الكربون في حديقة العالم كل سنة.

ففي كل عام يستوعب جو الكرة الأرضية ٢٠ طنًا متريًا من ثاني أكسيد الكربون لكل رجل وامرأة وطفل أمريكي ولكن ٩ أطنان فقط لكل أوروبي. وتزداد حصة أمريكا باستمرار مع عرقلة إدارة بوش لأي أي إجراء دولي لتقليل التلوث أو الإحماء الكوني.

إن أسلحة الدمار الشامل الحقيقية في نظر جارتون آش هي الفقر العالمي والكارثة البيئية. وهو يسخر بازدراء من المثقفين الأمريكيين المعاصرين الذين يبسطون الأمور بفظاعة والذين يثرثرون بفصاحة عن المريخ وفينوس أو صدام الحضارات. ولكنه لا يتسامح مع اللامبالاة الراهنة للبيت الأبيض: «لقد قيل عن روما القديمة أن الإمبراطور نيرون كان يعزف والمدينة تحترق. في روما الجديدة الرئيس يعزف وكوكب الأرض يحترق».

ومع كل هذا لا يعتبر كتاب (عالم حر) إدانة لأمريكا. فتيموثي جارتون آش يعرف أوروبا أو بالأحرى (الأوروبيات) المتعددة.. الهندسة المتغيرة والمصالح والتحالفات التي تحد من قدرة الاتحاد الأوروبي على أن يجعل نفسه مؤثرا في السياسة العالمية.

إنه يشارك الظنون الإنجليزية الشائعة حول السيئات التي ترتكبها فرنسا ويوازن



ملاحظاته حول الولايات المتحدة مع إطلاقات صائبة يستهدف بها الصندوق الزراعى المشترك ملاحظا أنه بينما فى عام ٢٠٠٠ تبرع الاتحاد الأوروبى بـ ٨ ملايين لكل رأس لأفريقيا الصحراوية، استطاع الاتحاد أن يحصل جانبا بشكل عوائد على ٩١٣ دولارًا لكل بقرة فى أوروبا. ولكل ذلك فإن جارتون آش متفائل تماما فى الواقع فيما يخص أوروبا والولايات المتحدة.

ومما يثير الدهشة أنه متفائل حتى، كما يبدو لى، بشىء من السخرية - حول مستقبل التحالف الأوروبى والدافع فى جزء من هذا هو ما يراه من ضرورة ملحة: يجب على الغرب أن يتوقف عن النزاع ويجد طريقة للعمل معا لخير الجميع لأنه لم يتبق له سوى حوالى عشرين سنة قبل أن تصبح الصين (ثم الهند) قوة كبرى وسوف تختفى الاختلافات الصغيرة النرجسية بين أوروبا وأمريكا: «فى منظور تاريخى أطول قد تكون هذه فرصتنا الأخيرة لوضع أجندة للسياسة الدولية». وتلك الأجندة فى كتاب جارتون آش هو إزاحة الصراعات الراهنة جانبا و«إعادة خلق» غرب ما بعد الحرب الباردة كنموذج وداعية للحرية: الحرية من الفاقة ومن الخوف ومن القهر البشرى والبيئى. (كان عنوان الفصل الخاص بالفقر العالمى والأخطار البيئية موحيا «الجيوش الحمراء الجديدة»)

إن الصدى الروزفلتى ليس مصادفة. كان فى ذهن جارتون آش تحالف أطلنطى جديد وليس صدفة أن ونستون تشرتشل يحتل مركزا بارزا فى مناقشاته إذ أن هذا الكتاب بريطانى قح. والاختيار بين أوروبا وأمريكا مطروح من وجهة نظر أن البريطانيين يفهمون أكثر من أى شخص آخر (فقد عاشوا الأوضاع لمدة ٦٠ عاما) فالمصالحة الأطلنطية هى شىء لن يحققها سوى لندن القابعة بقلق على حافة أوروبا ونصف عينها على واشنطن.

ولكن هل بريطانيا هى حقا (آلة تسجيل زلازل) أو (ترمومتر) العلاقات الأوروبية الأمريكية؟ حقا إن المملكة المتحدة تتمكن اليوم من أن تكون جزءا من الاتحاد الأوروبى وفى نفس الوقت تقتبس تفاهة الثقافة التجارية الأمريكية ولكنى أشك أن هذا ما كان فى ذهن آش. بل إنه يبدو وكأنه يرى دور لندن فى تلطيف الضرر الذى يسببه الانفراد الأمريكى من جهة والديغولية الأوروبية من جهة أخرى (نسخة شيراك للديغولية الأوروبية لا تقود إلى شىء). نموذجه هو (أطلنطية أوروبية) دولية التوجه يجسدها تونى بلير: «لقد فهم تونى بلير واحتضن هذه المصلحة والدور والفرصة القومية البريطانية أفضل من أى من سابقيه». ومن الطبيعى أن جارتون آش لا يملك أن ينكر أن بلير قد تملص حتى الآن من مواجهة تحدى إقناع الشعب البريطانى الشكاك بالدستور الأوروبى. ولا أعتقد أنه يتبنى أية أوهام حول (العلاقة الخاصة) ولكن مع ذلك يستمر فى الإصرار أن بريطانيا العظمى لها دور حيوى تلعبه فى سد الفجوة الأطلنطية. وأرى أن هذا زعم غريب. قد يكون تونى بلير مناورًا سياسيا مع نشاطات جانبية مربحة مع ادعاء أخلاقيات مفصلة حسب المقاس[٤] ولكن مغامراته الدولية أبعدت بريطانيا عن كثير من أعضاء الاتحاد الأوروبى بدون أن يكون لها أى تأثير على واشنطن حيث تتحول زيارات رئيس الوزراء البريطانى إلى تمرين فى الفشل والإذلال.

نعم. فى بعض المجالات أصبحت المملكة المتحدة اليوم شبيهة بأمريكا: معدل الفقر فى بريطانيا وفجوة الدخل بين الأغنياء والفقراء تزداد باطراد منذ سبعينيات القرن الماضى وأصبحت أقرب إلى المعدلات الأمريكية منها إلى أى دولة أوروبية غربية. كما أن الإنتاجية حسب الساعة فى بريطانيا أقل من معظم المعدلات الأوروبية الغربية. ولكن على أية حال كان من المفترض أن يقوم حزب العمال الجديد بالجمع بين أفضل نموذج اجتماعى أوروبى ونموذج المقاولات الأمريكى: ويعترف جارتون آش نفسه أن حزب العمال الجديد لم يتمكن من أن يحقق ذلك[٥].



كتاب (العالم الحر) يقلل من شأن التحدى الذى يواجه البريطانيين - أو الأوروبيين الآخرين - وهو السعى إلى جذب الولايات المتحدة إلى أى مشروع دولى مشترك يتجاوز (الحرب الكونية على الإرهاب). وتيموثى جارتون آش على حق فى إصراره أن أمريكا أكبر من المحافظين الجدد والجهلة الجمهوريين وأن هيمنتها الراهنة سوف تنتهى.

ولكن كتابه يدور حول (هنا) و(الآن) لذلك لا نستطيع تجاهل حقيقة أن صانعى السياسة فى واشنطن لا يهمهم قراءة إعلان (الاستقلال الداخلى) الذى يعلنه جارتون آش، فآخر شىء يريدونه هو (مبادرة مشتركة) ما فى الشرق الأوسط ولا يهمهم أبدا (جيوشه الحمراء الجديدة). اجل، طبقا لمصالحها (لابد أن ترغب أمريكا فى أن تكون أوروبا عامل التوازن لقوتها المتفوقة المنفردة) هذه نصيحة جيدة ولكن لا أحد فى السلطة يستمع إليها. وتتكتل دبابات الفكر المحافظة فى واشنطن ضد أى وجود دولى أوروبى متحد، وبتعبير ديفد فروم وهو عضو معه انتربرايز الأمريكى وكاتب سابق لخطب بوش: «إنها تثير أسئلة استراتيجية مهمة (أى أننا لا نحبها)».

وقد نقل عن وزيرة الخارجية الأمريكية الجديدة كوندوليزا رايس قولها عام ٢٠٠٣: «إن الولايات المتحدة تنوى أن: تسامح روسيا وتتجاهل ألمانيا وتعاقب فرنسا».

وطبقا لتقرير حديث لمجلس الأطلنطى فإن إدارة بوش تعتبر أوروبا مدانا مطلق السراح (تحت المراقبة) حيث يعتمد موقعها المستقبلى مع واشنطن على تحسين سلوكها. ولأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية تظهر أصوات مؤثرة تقول إن أوروبا موحدة ستكون خطرا على المصالح الأمريكية وأن على الولايات المتحدة أن تعرقل ظهورها. فوق كل ذلك، فإن القيم الأوروبية الأمريكية المشتركة التى يبنى عليها تيموثى جارتون آش نقاشه قد لا تكون بهذا التقارب كما يوحى فى كتابه.

إن الولايات المتحدة بتدينها الواسع ومكانة الله فى الشؤون العامة وشكها بالمعارضة وخوفها من التأثير الأجنبى وجهلها بالبلاد البعيدة واعتمادها على القوة العسكرية عند التعامل مع تلك البلاد، قد تتماثل مع دول أخرى بهذه الصفات ولكن بالتأكيد ليس من بينها دول أوروبية.

عندما صدرت معاهدة حظر الألغام الأرضية فى الأمم المتحدة عام ١٩٩٧ بتصويت ١٤٢/٠ امتنعت الولايات المتحدة مع روسيا وحفنة دول أخرى. والولايات المتحدة هى إحدى دولتين فقط (الأخرى الصومال) التى لم توقع على معاهدة حقوق الأطفال فى ١٩٨٩. كما أن معارضتنا للمعاهدة الدولية لحظر الأسلحة البيولوجية تشاركنا فيه الصين وروسيا والهند وباكستان وكوبا وإيران.

إن إلغاء عقوبة الإعدام شرط لعضوية الاتحاد الأوروبى فى حين أن الولايات المتحدة حاليا تعدم السجناء بمعدل لا يضاهيها فيه إلا الصين وإيران والسعودية والكونغو. كما أن معارضة أمريكا لإنشاء محكمة جرائم الحرب الدولية لقيت تأييدا داخل الأمم المتحدة وخارجها من قبل إيران والعراق وباكستان وإندونيسيا وإسرائيل.

أما العقيدة الأمريكية الجديدة وهى (الحرب الوقائية) فإنها تجد صدى الآن فى روسيا باسم (مكافحة الثورة الوقائية)[٦].

أما بالنسبة للأمم المتحدة ذاتها، جوهرة تاج المنظمات الدولية فقد أنشئت بعد الحرب العالمية الثانية من قبل جيل أسبق من القادة الأمريكيين. وبينما اكتب هذا تجرى حملة محمومة من واشنطن للإطاحة بكوفى عنان السكرتير العام ومن أجل تكسيح المنظمة.

إذن، ماذا يمكن أن تفعل أوروبا؟ أولا مقاومة إغراء اعتبار التوترات الحالية فضيلة. إن إنكار وجود توتر مسألة عديمة الجدوى. فى العهود الماضية كان دور (الآخر) بالنسبة لأوروبا - وهو الجار القريب الذى به تقاس هويتهم المتفردة - كان دائما تحتله تركيا وروسيا. اليوم تحتله الولايات المتحدة ولكن مثل جارتون آش، اعتقد أنه من الخطأ اتباع نصيحة جركن هابرماس ومحاولة بناء اتحاد أوروبى قائم باختلافات قيمة عابرة للأطلنطى.

بالتأكيد يحتاج الأوروبيون إلى إيجاد قصد وتحديد دور مشترك ولكن هناك طرقا افضل لتحقيق ذلك. منها التصديق على دستورهم المقترح. إن هذه الوثيقة تثير عصاب وقلق واشنطن (ولندن) ولكنه فى الواقع ممل ولا يعالج المشاكل. معظمه يتكون من وصفات عملية لإجراءات اتخاذ القرار فى هيئة من أكثر من ٢٥ دولة مستقلة ذات سيادة. إن الدستور يدعم أيضا دور المحاكم الأوروبية ويعزز مسألة اعتقال المجرمين عبر الحدود (وهو هدف محمود لأى شخص جاد فى مسألة مكافحة الإرهاب). فيما عدا ذلك لا يقدم الدستور سوى مادة وتطبيق لادعاء الاتحاد الأوروبى فى (تنسيق سياسات العمالة والاقتصاد فى الدول الأعضاء) إنها ليست وثيقة ملهمة كثيرا، ورئيس كتابها فاليرى جسكار ديستان ليس توماس جيفرسون ولكن الدستور مع ذلك سوف يكون من الناحية العملية نافعا إلى حد كبير.

فوق كل شىء، سوف يساعد الدستور أوروبا فى استمرار دعم قوتها الدولية رغم العرقلة الأمريكية ومحاولات إدارة بوش تقريب أو الضغط على بعض الدول الأعضاء بشكل انفرادى. فالاتحاد الأوروبى هذا اليوم ليس مجرد نموذج لقيادة دول متحدة فيما بينها بدون عوائق تجاوز السيادة. لكن أوروبا خبرت القرن العشرين - الغزو والاحتلال والحرب الأهلية والفوضى والمذابح والإبادة والبربرية - إلى درجة لا تضاهى فى أى مكان آخر لهذا فإن المخاطر التى تأتى بها حرب اختيار (العراق) أو تجاهل المنظمات الدولية من أجل مبادرات فردية أو الاعتماد الزائد على القوة العسكرية، يفهمها الأوروبيون أكثر من غيرهم. وكما يقول الفونس فيريلتيس محافظ البنك الوطنى البلجيكى: «يريد الأوروبيون أن يكونوا على يقين من أنه لن تكون هناك

مغامرات فى المستقبل. لقد شبعوا من ذلك.

على عكس من ذلك فإن الولايات المتحدة لم تكن لها تجربة مباشرة بأسوأ أحداث القرن العشرين - ولهذا فهى لا تملك - للأسف - حصانة من دروسها.

إن الوطنية القتالية على الطراز الأمريكى كما يلاحظ جارتون آش نادرة فى أوروبا المعاصرة. إن هذه الكراهية للنزعة القتالية تتجاوز الميل التقليدى للسلام. لم يعد الأوروبيون يفكرون حتى مجرد تفكير بأسلوب عسكرى فيما يخص علاقات الدول ببعضها، وهذا يجعلهم - خلاف ما يظنه النقاد الأمريكيون - أكثر تأثيرا وليس أقل فى معالجة الأزمات الدولية. مازالت الولايات المتحدة ماهرة فى فن صناعة الحروب، ولكن صناعة الحرب هو الاستثناء فى الشئون الدولية المعاصرة. إن التحدى الحقيقى هو منع الحرب وصنع السلام والحفاظ عليه. وهذا فن تجيده أوروبا وسوف تطوره باستمرار.

تقدم دول الاتحاد الأوروبى أكبر حصة من جنود حفظ السلام والشرطة الدوليين. والأوروبيون لديهم قدرة عسكرية حقيقية رغم أنها محدودة ويحتاجون إلى توجيه المزيد من الأرصدة للقوة الأوروبية العسكرية المزمع إنشاؤها من ٦٠ ألف جندى، حتى تكون فاعلة. إن أفضل القوات الأوروبية - مثلا - الجيش البريطانى كان قد تدرب لمدة عقود طويلة للعمل مع السكان المدنيين فى المناطق المحتلة والمحاربة. وهى خبرة يفتقر إليها الجيش الأمريكى بشكل مفزع. سيمر وقت طويل قبل أن يطور الاتحاد الأوروبى وينفذ سياسة خارجية مشتركة - رغم أن الدستور الجديد سوف يسهل ذلك على الأقل بتعيين وزير خارجية أوروبى مفوض بالحديث نيابة عن الاتحاد بشكل عام. ولكن حين يتمكن الاتحاد أخيرا من الحديث ككتلة واحدة سوف يشكل قوة كبيرة.

لن يكون السبب أن الاتحاد غنى أو كبير - رغم أنه يملك كلتا الصفتين. الولايات المتحدة غنية وكبيرة. ويوما ما قد تكون الصين أغنى وأكبر. ولكن أهمية أوروبا تكمن فى مسألة اضمحلال الحدود بين الدول والتى تتمحور حولها أوروبا المعاصرة. إن (العولمة) ليست فى الأساس تخص التجارة والاتصالات والاحتكارات الاقتصادية أو حتى تكوين إمبراطورية. لو كان الأمر كذلك فلن يكون هذا شيئا جديدا. فقد تم (عولمة) مجالات الحياة هذه منذ مائة سنة. إن العولمة هى اختفاء الحدود - الثقافية والاقتصادية والطبيعية واللغوية وتحدى تنظيم عالمنا فى غياب هذه الحدود. وبتعبير جان مارى جينو مدير الأمم المتحدة لعمليات حفظ السلام: «بعد فقدان الراحة التى توفرها الحدود الجغرافية يجب أن نعيد اكتشاف ما يوثق العروة بين البشر ويكون مجتمعا».

وقد بدأ الأوروبيون يفعلون ذلك بكثير من الدهشة أنفسهم وبعض الرعب أحيانا: خلق عروة بين الكائنات البشرية تتجاوز الحدود القديمة ومن أجل خلق مجتمع من هذه الأشكال المؤسساتية الجديدة. وهم لا يحسنون فعل ذلك دائما ومازال هناك بعض الحنين فى بعض القطاعات لتلك الحدود القديمة. ولكن شيئاً أفضل من لاشىء. واللاشىء هو الذى سيبقى لنا إذا تركنا المعاهدات والاتفاقات والوكالات الدولية والقوانين والمؤسسات الهشة والتى أنشأناها منذ ١٩٤٥ تضمر وتتعفن - أو أسوأ أن نتعمد نحن إضعافها وتعفنها. إن الذى يحدث الآن هو أن الأوروبيين يكسرون الحدود ويقيمون المجتمع الواحد أفضل من غيرهم فى حين أن الولايات المتحدة الواقعة مرة أخرى فى كمين أسماه توكفيل: «المديح الأبدى الذاتى» لا تبذل أى جهد حتى من أجل المحاولة. ■

الهوامش:

(١) انتقدت بشدة شبكة التليفزيون الأمريكية مؤخرا لعرضها لمحة من جسد جانيت جاكسون مبررة ذلك بـ (قلة الذوق والأدب) (كانت المغنية جاكسون قد أسقطت حمالة فستانها وأظهرت أحد ثدييها وهى على المسرح باعتباره سهوا غير مقصود - المترجمة): فى حين أن الإعلانات التجارية عن البضائع التى تزيد فحولة الذكر تمر دون تعليق.

(٢) مثير للشهية أم لا، لا يمكن تكرار النموذج الاقتصادى الأمريكى فى أى مكان آخر. إن الأمريكان هم المستهلكون رقم واحد فى العالم ولكن العجز التجارى فى الميزانية يصل إلى مستويات غير مسبوقة. إن ما يمنع الدولار من الانهيار بشكل تام هم الأجانب الراغبون فى التمسك به: إن الآمريكان يصرفون الآن نقود غيرهم على شراء بضائع غيرهم. لو كانت الولايات المتحدة أية دولة أخرى لكانت الآن بين أيدى صندوق النقد الدولى الذى لا يرحم.

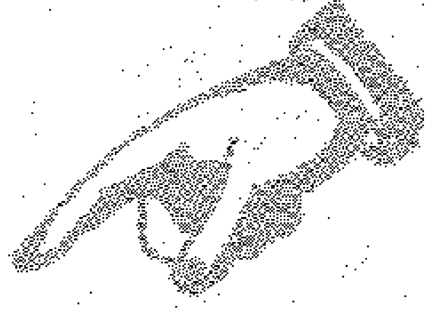
(٣) قصيدة (القرية المهجورة) ١٧٧٠

(٤) فى مؤتمر حزب العمال الجديد الأخير بدلا من محاولة الدفاع عن أسباب الذهاب إلى حرب العراق ابلغ بلير الحاضرين بأنه «يؤمن بأنهم يجب أن يشاركوه إيمانه وفى أى الأحوال إنه (مثل مارتن لوثر) «اقف هنا ولا أستطيع أى شىء آخر».

(٥) إنه يشير إلى نكتة معروفة: «كانت بريطانيا قد وعدت أن الطريق الثالث لبلير سوف يأتى لها بالجامعات الأمريكية والسجون الألمانية - ولكن ما تحصل عليه بريطانيا الآن هو السجون الأمريكية والجامعات الألمانية».

(٦) المصطلح استخدمه مستشار الكرملين غليب بافلوفسكى لوصف استراتيجية بوتين لمعالجة تحديات (الاحتواء) على الحدود الروسية.

كتـــاب الـزاويـــة



النقرس وأسبابه

أبو بكر الرازى

النقرس هو مرض يعرض فى مفاصل القدمين. يؤلم ألمًا شديدًا، ويصير بالإنسان إلى أن يعوقه عن المشى والتصرف بالحركات. والفرق بينه وبين وجع المفاصل - إذا كان حدوثه فى المفاصل - أن وجع المفاصل يعم مفاصل البدن كلها، والنقرس إنما يخص القدمين. فإذا انتشرت الآفة فى اليدين والرجلين معًا حتى تألم فيها المفاصل، كان ذلك وجع المفاصل. وكذلك إن خصت الآفة اليدين، دون الرجلين.

والنقرس يحدث عن اجتماع شيئين، أحدهما: امتلاء فى البدن. والآخر: صحة أعضاء البدن جميعًا، ومساواتها فى القوة. وذلك أن الأعضاء إذا تساوت فى القوة - وكانت صحيحة - وكان فى البدن فضول مجتمعة، دفعها كل واحد من الأعضاء إلى العضو الذى يليه، فلا يزال يتدافع من عضو إلى عضو، حتى يصير إلى أقصى الأعضاء، وهى القدمان. فإذا صار الفضل إليها، لحج (نشب فيه ولزمه) فيها وبقى متحيرًا حتى يخرج منها. إما إخراجًا صناعيًا بالأدوية المشروبة واللطوخات والأضمدة، وما أشبه ذلك. وإما إخراجًا طبيعيًا، بإنضاج الطبيعة للفضول وتحليلها، ودفعها إياها عن العضو.



الرابحون والخاسرون
فى عَـــالم الــغـــد



حمـــدى عـــزام

تصدرت مذكرات الزعماء السياسيين فى أوروبا والولايات المتحدة والمؤلفات التى انتقدت سياسة الرئيس بوش قوائم الكتب الأكثر مبيعاً فى عام ٢٠٠٤ لتعكس قلقاً على مستقبل عالم القرن الواحد والعشرين، ومع نهاية العام المنصرم صدر كتاب جديد للمستشار الألمانى السابق هيلموت شميت بعنوان «مستقبل القوى» وعنوان جانبى «الرابحون والخاسرون فى عالم الغد» ولقى الكتاب الصادر بالألمانية فى ٢٣٨ صفحة اهتماماً كبيراً وتصدر مع بداية ٢٠٠٥ قوائم الكتب الأكثر مبيعاً لتناوله مختلف الأوضاع فى أنحاء العالم واحتمالات تطورها، مع تركيز على سياسة الولايات المتحدة. ورغم اتجاهاته المؤيدة لتحالف الأطلنطى فإنه ينتقد بشدة سياسة بوش والمحافظين الجدد ورد الفعل الهستيرى على أحداث الحادى عشر من سبتمبر، محذراً من خطورة الخطوات الانفرادية الأمريكية على مصالح أوروبا. ولا يتوقع تغيراً فى الاتجاهات الأساسية للسياسة الأمريكية بعد الانتخابات الرئاسية الأمريكية التى قد تشهد تغيرات تكتيكية وفى أساليب التطبيق وأسلوب ولهجة المخاطبة، وباعتباره سياسياً ومفكراً أوروبياً يرى أنه «لا توجد بالنسبة لغالبية الأمم الأوروبية أية مبررات استراتيجية أو أخلاقية تدفعهم للخضوع للإمبريالية الأمريكية المتوقعة رغم استمرار تفوقها على الاتحاد الأوروبى وسيطرتها فى الفترة القادمة وأن على أوروبا الحفاظ على كرامتها المستندة إلى مسئولياتها وما يمليه عليها ضميرها».

Die Machte Der Zukunft

(قوى المستقبل.. الفائزون والخاسرون فى عالم الغد)

Helmut Schmidt

Gewinner und Verlierer in der Welt von Morgen

وخصص شميت فقرات طويلة من كتابه عن الإسلام مقرراً أن الغرب والدول الصناعية التى لا تعلم شيئاً عن الإسلام والعرب وأهملت ذلك لمدة طويلة حتى وقعت تفجيرات برجى التجارة فى نيويورك وما تبعها من رد فعل أمريكى، جعل هذين الموضوعين محور اهتمام عالمى. وينتهى شميت فى تحليله إلى أن «إقامة علاقات حسن جوار مع العالم الإسلامى ضرورة لضمان مصالح وأمن أوروبا»، مركزاً على النزاع العربى الإسرائيلى، وأن دعم الولايات المتحدة المتواصل لإسرائيل أدى إلى تصاعد كراهية الشعوب الإسلامية لها محذراً بقوة من الاتجاه إلى صدام مع العالم الإسلامى. ولا يغفل شميت الإشارة إلى أن استمرار تدهور أوضاع الدول النامية فى ظل العولمة يهدد مصالح وأمن الدول الصناعية وشعوبها ويتطلب جهداً للتخفيف من حدة الهوة السحيقة بين الأغنياء والفقراء فى العالم.

السيناريو المتشائم

تحت عنوان «ما نعرفه وما نجهله عن المستقبل» يطرح المؤلف صورة متشائمة مسجلاً «أنه إذا لم تتغير السياسات التى سادت النصف الأخير من القرن الماضى فستؤدى إلى صدام مدمر بين الغرب والإسلام ولا يصبح تحقق النبوءة البغيضة عن صدام الحضارات أمراً مستحيلاً».

ويستطرد قائلاً: إن خمس سكان العالم يدينون بالإسلام ورغم ذلك وباستثناء دول البترول الصغيرة يعانى غالبيتهم من الفقر. كما أنه باستثناء مصر وتركيا وإيران التى ترجع حدودها إلى تطور تاريخى طويل، فقد رسم المستعمر الأوروبى حدود غالبية الدول الإسلامية بشكل اعتباطى وفق مصالحه لتجمع بين دفتيها قبائل وأعراقاً ولغات وأدياناً متباينة لم يستطع حكمها إلا باستعمال القوة والاحتلال العسكرى. وأن التفاوت بين الغالبية الفقيرة والأقلية مفرطة الثراء وتفشى الفساد أوجد تربة خصبة لانتشار الجريمة والتعصب، وأدى السخط إلى العنف والعنف المضاد من تيمور الشرقية إلى شرق أفريقيا، ومن القوقاز حتى البوسنة، ومن الشرق الأوسط عبر الجزائر حتى غرب أفريقيا.

وبعد انهيار الدولة العثمانية لعبت اللغة العربية والدين الإسلامى دوراً مهماً فى ظهور وتطور شعور قوى بوحدة الانتماء بين العرب دعمه الدور

السياسى للجامعة العربية، ووجود منظمة الأوبك، وحل أعضائها من الدول الإسلامية وازداد هذا الشعور قوة بسبب النزاع القائم منذ نصف قرن بين إسرائيل والفلسطينيين وتطوراته الدموية وتصاعد العداء للولايات المتحدة لدعمها إسرائيل منذ عشرات السنين. وزاد الأمر تعقيداً التدخلات الأجنبية التى كان للولايات المتحدة نصيب الأسد فيها، عن طريق ممارسة الضغوط والتدخل السياسى والعسكرى فى العالم العربى والإسلامى. وقد أرجعته أحياناً إلى التزامها برسالة تبشيرية غير دينية لنشر الحرية والديمقراطية. وإن كانت الأسباب الحقيقية لتدخلها هى الخوف على مصادر تمويلها البترولية ولضمان أمن إسرائيل، ثم جاءت صدمة أحداث سبتمبر التى نالت من أمن أمريكا الداخلى. وأدى شعورها بأنها أصبحت القطب العالمى الأوحد لتنادى بأنه أصبح من واجبها شن حرب شاملة على الإرهاب ولمصلحة الجميع.

إن الولايات المتحدة تملك أكبر القدرات العسكرية والسياسية والاقتصادية والتكنولوجية رغم أنها لا تشكل أكثر من ٦.٤٪ من سكان العالم، فى حين تشكل الصين الخُمس، والهند السُدس، والدول الإسلامية والمسلمون فى مجموعهم خُمس سكان المعمورة. ومازالت دول صغيرة نسبياً فى عدد سكانها ذات تأثير كبير على السياسة الدولية والاقتصاد العالمى من أمثلتها بعض دول أوروبية، وروسيا، ودول أصغر كاليابان وحتى إسرائيل التى يقل سكانها عن سبعة ملايين.

إن اتساع الرقعة الجغرافية للتطرف والعنف الذى يشمل الشرق الأوسط الكبير بالمفهوم الأمريكى ويضم إلى ذلك دولاً إسلامية مهمة من الجزائر وشمال نيجيريا إلى إيران وماليزيا واندونيسيا وغيرها سيدفع الولايات المتحدة إلى طلب وقبول مساعدة حلفائها والدول الدائرة فى فلكها.

وعلى ضوء هذا الوضع الدولى المقلق سيؤدى تراجع أوروبا عن دورها المعتدل والمخفف للنزاع واندفاعها إلى مشاركة عسكرية للولايات المتحدة إلى تزايد احتمالات التصادم بين الغرب والإسلام، مما سيؤدى إلى أضرار جسيمة لمليارى شخص مع تصاعد النزاعات الإقليمية لتحصد العديد من الأرواح وترتب أضراراً اقتصادية ونقدية عالمية تضاعف من خطر الإرهاب الدولى.

تحديات العولمة

العولمة لفظ جديد لوضع قديم، طالما وُجد اقتصاد عالمى وأسواق عالمية. والجديد هو تزايد عدد الدول المشاركة فى الاقتصاد والأسواق العالمية، وتداخل الاقتصاد القومى للدول. ولقد حقق مبدأ حرية التجارة تقدماً كبيراً منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ساعد عليه إنشاء منظمات بأفكار ولمصالح أمريكية كمنظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى وغيرها، ورغم ذلك فما زال الملايين يعانون من الفقر الذى لم تفلح معونات التنمية فى تخفيف وطأته ولا يتوقع أن يزول هذا الخلل فى توزيع الثروات فى وقت قريب. ولعله من الوقاحة بمكان أن يطالب رجال الدولة الغربيون الدول النامية بفتح حدودها أمام السلع ورؤوس الأموال المؤقتة فى نفس الوقت الذى لا يدخرون وسعاً فى منع دخول المنتجات الزراعية وغيرها من منتجات الدول النامية إلى بلادهم.

المستفيدون من العولمة بلا جدال هى الدول الصناعية وشعوبها، تليها مجموعة محدودة من الدول النامية التى قد تنجح فى اتباع سياسات اقتصادية متفتحة وواعية لتطبقها حكومات مركزية قوية داخلياً. وربما كانت من بينها الصين وبعض دول الخليج العربية.. أما الخاسرون فهم غالبية الدول النامية التى تتبع حكوماتها سياسات اقتصادية واجتماعية فاشلة، ولا نستثنى من ذلك الدول التى نطالبها بمجرد تطبيق الديمقراطية فقد أظهرت التجربة الأوروبية عدم كفاية ذلك بمفرده لتحقيق التنمية والتقدم أتوماتيكياً وتطلب الأمر إضافة إلى ذلك سياسة تربوية تشمل جميع السكان وتأمين احتياجات معيشتهم الأساسية على المدى الطويل لترسيخ الديمقراطية وحقوق الإنسان ومن بينها عدد من الدول العربية والإسلامية ذات النظم القبلية والملكية



الرابحــون والخاســرون

والرئاسية ذات الحكم السلطوى الذى قد يلتزم نحو الخارج بالقوانين الدولية السائدة ويساهم بحماس فى عمل الأمم المتحدة ومنظماتها فى حين يطبق فى الداخل سلطات استبدادية على شعوبه وتتمتع طبقة الحكام والأمراء فيه بثراء وبذخ فى ظل فساد يترتب عليه عدم شعبيتها إضافة إلى تشجيعها النشاط الإسلامى المتطرف خارج حدودها والتغاضى عن تجاوزات بعض رجال الدين ممن يدعون امتلاك الحقيقة المطلقة وحدهم وتطلع بعض القيادات والحركات الدينية للاستيلاء على السلطة السياسية الذى أدى إلى الحكم الديكتاتورى فى إيران والممارسات البشعة لنظام الطالبان فى أفغانستان باسم الإسلام.

وتعتبر القارة الأفريقية بدولها الثلاث والخمسين أول المرشحين للخسارة، فكلها دول نامية تعانى من الفقر والانفجار السكانى خاصة الدول الأفريقية جنوب الصحراء التى فشلت فى تحقيق وحدة قومية nation Building وتعانى غياب البنية الأساسية وانهيار مؤسسات الحكم ونظم التعليم والأوضاع الصحية الكارثية فزاد عدد المصابين بالإيدز على ٣٦ مليونًا ولم تنجب فى الماضى من الزعماء البارزين الذين تعدى تأثيرهم حدود بلادهم سوى عبد الناصر والسادات ونلسون مانديلا وربما النيجيرى أوباسانجو رغم ما يقابله من صعوبات جمة ولا يتوقع أن تتغلب القارة على أزماتها فى القريب العاجل رغم البترول والثروات الطبيعية التى تملكها.

أما أمريكا اللاتينية التى تشترك مع أفريقيا فى التفاوت الشديد بين الفقراء والأغنياء وتختلف عنها بوحدة اللغة والدين وتطورها إلى دول قومية، فبالرغم من ارتباط المكسيك وأمريكا الوسطى باقتصاديات الولايات المتحدة وتقدم البرازيل والأرجنتين وشيلى النسبى فى نطاق تجمع دول جنوب القارة فى اتفاقيات الميركوسور تقابله مشاكل كوبا ودول إنتاج المخدرات كولومبيا وبيرو وبوليفيا وكذلك فنزويلا رغم ثروتها البترولية فلا يتوقع رغم احتمال تحسن الأوضاع فى بعض دولها أن تخرج من نطاق الدول النامية على ضوء مشاكلها الداخلية واستمرار التدخل الأجنبى.

أما الصين التى تحقق ارتفاعاً فى دخلها منذ عشرين عاماً بمعدل ٨٪ والمتوقع أن تحتل الصين المركز الثانى فى العالم من حيث الإنتاج القومى فإن مساحاتها الشاسعة وتعداد سكانها الضخم بأكثر من ١.٢ مليار نسمة سيؤدى إلى استمرار انشغالها وتركيزها على الوضع الداخلى لفترة طويلة.

أما الهند التى تشارك الصين فى ضخامة عدد سكانها والتى حققت سنوياً منذ ١٩٩١ ارتفاعاً فى دخلها القومى بنسبة ٥٪ سنوياً وقامت بخطوات لإصلاح وتطوير نظامها الاقتصادى فنصف نسائها أميات وتعانى من انفجار سكانى شديد بعد تخليها عن برامجها القهرية للحد من النسل وتحتاج لوقت طويل لحل مشاكلها الداخلية.

لقد لاقت روسيا صعوبات ومشاكل بانهيار الاتحاد السوفيتى خاصة فى المجال الاقتصادى الذى استشرى فيه الفساد وتصاعد التطرف الإسلامى بين العشرين مليون مسلم من الشعب الروسى إضافة إلى الفقر الذى يعانى منه قسط من المواطنين الذين لا يزيد دخل الفرد منهم على ٧٠ دولاراً شهرياً ومع انضمام الجيل الجديد للإصلاح الاقتصادى فمازال الجيل القديم يتخذ فى سلبية موقف الانتظار وقد نجح بوتين فى الاتجاه إلى إصلاح اقتصادى، فتصاعد النمو وتراجعت نسبة البطالة ونسبة التضخم وازداد تصدير البترول والغاز.

ومازالت روسيا تملك قدراً كبيراً من العلماء والمهندسين فى الصناعات الحربية وبرامج الفضاء يمكنها استخدامهم فى التقدم والتطور المدنى وبحكم اتساع أراضيها وثرواتها الطبيعية الكبيرة وتسلحها الذرى الضخم ستظل روسيا إحدى القوى الاستراتيجية الثلاث فى العالم مع الاتجاه إلى إكمال الإصلاح الاقتصادى ورفع مستوى المعيشة والعمل على ترابط قوى بينها وبين أوكرانيا وروسيا البيضاء الذى إذا تحقق فمن الخطأ والخطورة بمكان محاولة عرقلته أو إضعافه.

وتحيط بالعالم أخطار جمة على رأسها الانفجار السكانى فبعد أن كان عدد سكان العالم منذ ٢٠٠٠ عام فى عهد الإمبراطورية الرومانية لا يزيد على ٣٠٠ مليون تزايد خلال ١٩ قرناً وحتى عام ١٩٠٠ ليصل إلى ١٩٠٠ مليون، ثم حدث الانفجار السكانى فى القرن العشرين ليبلغ عدد السكان ٦٠٠٠ مليون، ومن المنتظر أن يصل إلى ٩٠٠٠ مع حلول منتصف القرن الحالى، مع تزايد الفقر وانتشار الأمراض والكوارث البيئية وارتفاع حرارة الجو ونقص المياه وتزايد النزاعات والحروب والهجرات عبر الحدود.

كما تشكل تجارة الأسلحة وانتشارها تهديداً حقيقياً، فلم يشهد العالم فى تاريخه مثل هذا القدر من الأسلحة فى أيدى عدد كبير من الأفراد، وتبلغ تجارة الأسلحة ٣٠ ملياراً سنوياً، ومازال فى العالم ١٦٠٠٠ رأس نووى، كما انتشرت الأسلحة الصغيرة والمتفجرات بشكل سرطانى. ويوجد ٦٠٠ مصنع لإنتاج الأسلحة الصغيرة والخفيفة وتنتشر ٥٥٠ مليون قطعة سلاح صغيرة فى العالم ولم تنجح فى حظر استعمال الألغام الأرضية، وتتجه جهود التسليح الآن إلى تطوير قنابل ذرية صغيرة، وبالإضافة إلى ما سبق فإن عولمة التكنولوجيا والاقتصاد ووسائل المعلومات والإعلام إضافة إلى صعوبة مراقبة والتحكم فى الأسواق المالية والنقدية تنطوى على أخطار متزايدة.

الإمبراطورية الأمريكية

جاء رد الفعل على أحداث سبتمبر متعجلاً وعصبياً وأعلنت أمريكا الحرب على الإرهاب، وأن يتم ذلك باستعمال القوة العسكرية ووافق الكونجرس على زيادة كبيرة فى ميزانية التسلح.

وأعلنت أمريكا أنها تملك القوة ولا تحتاج لأحد ولا حتى حلف الأطلسى ومع غزو العراق استكمل هذا الاتجاه بالتأكيد على أن قرار الحرب لن يربط بإرادة الغير ولا حاجة للأمم المتحدة أو مجلس الأمن. وأدى ذلك إلى ظهور نقد وشعور عدائى للولايات المتحدة لم تشهده أوروبا من قبل، زاده حدة تعذيب الأسرى فى العراق وجوانتانامو والانطباع بأن أمريكا لا تلتزم بالقوانين الدولية أو حتى بدستورها.

لقد نسى البعض أن تصرفات الولايات المتحدة الأحادية ترجع إلى تقاليد وخلفيات تاريخية لا يغير من حقيقتها تراجع تطبيق ذلك إبان فترة الحرب الباردة لتعود إلى الظهور مرة أخرى بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وبعد أن أصبحت الولايات المتحدة القوة الأعظم الوحيدة بلا منازع معتقدة أنها لا تحتاج لأحد. وانعكس ذلك على حلف الأطلنطى الذى أفرغ من مضمونه السياسى ليصلح ربما فقط أداة لتطويع وتسيير أوروبا. وطرح مبدأ «التدخل لأسباب إنسانية»، وقامت القاذفات الأمريكية بضرب بلجراد وكبارى نهر الدانوب، بعد أن سبقها ضرب جزيرة جرانادا فى عهد ريجان، والسودان فى عهد كلينتون. وازدادت خطوات وقائمة التصرفات الانفرادية فى عهد كلينتون وبوش الابن فأوقف الكونجرس سداد حصة أمريكا فى ميزانية الأمم المتحدة وألغى الالتزام باتفاق الحد من انتشار الأسلحة النووية، واتفاق الحد من الصواريخ العابرة للقارات ABM. ورفض التصديق على اتفاقية وقف التجارب الذرية CTB، وعدم التصديق على الاتفاقيات حول الأسلحة البيولوجية،

ينتهى شميت فى تحليله إلى أن «إقامة علاقات حسن جوار مع العالم الإسلامى ضرورة لضمان مصالح وأمن أوروبا»، مركزاً على النزاع العربى الإسرائيلى



باستثناء مصر وتركيا وإيران التى ترجع حدودها إلى تطور تاريخى طويل، فقد رسم المستعمر الأوروبى حدود غالبية الدول الإسلامية بشكل اعتباطى وفق مصالحه لتجمع بين دفتيها قبائل وأعراقًا ولغات وأديانًا متباينة لم يستطع حكمها إلا باستعمال القوة والاحتلال العسكرى

ومحكمة جرائم الحرب الدولية، واتفاقيات كيوتو، ومنع استخدام الألغام الأرضية، وتبعها فرض الحماية الجمركية على واردات الصلب ونقل الأسرى إلى جوانتانامو.

إن من يرغب فى فهم سياسة الولايات المتحدة اليوم وغدًا عليه الرجوع إلى خلفياتها وتقاليدها التاريخية التى تعكس منذ مائتى عام اتجاهات عامة هى الانعزالية، والإمبريالية، التى قد يتم الخلط بينهما، وعامل ثالث هو الاعتقاد بتكليف إلهى لتغيير العالم وإصلاحه لتسوده الحرية والديمقراطية بمفهومهم.

لقد ظهرت الرغبة الشديدة للتوسع منذ وصول المهاجرين الأوروبيين الأوائل واستيلائهم على أراضى الهنود الحمر بقسوة ثم التوسع غربًا.

واشترى توماس جيفرسون عام ١٨٠٣ منطقة لويزيانا الشاسعة بثمن رمزى واشتريت فلوريدا من إسبانيا ١٨١٢ واقتطعت تكساس من المكسيك ١٨٤٥ وأدت حرب المكسيك فى العام التالى إلى تنازلها عن أراض ضخمة تشكل حاليًا ولايات كاليفورنيا وإريزونا ونيفادا ويوتاه وكولورادو ووايو مينج ونيومكسيكو. ووصل الكوماندوز بيرى بسفنه الحربية فى عملية إمبريالية بحتة فى القرن ١٩ إلى اليابان، ليقضى على حكم الشوجون، وانتزعت الفلبين من سيطرة إسبانيا ١٨٩٨ تبعتها جزر هاواى وجوام وياكه. ثم فصلت بنما عن كولومبيا لبناء قناة بنما الاستراتيجية. وأعلنت الولايات المتحدة حق التدخل البوليسى فى دول أمريكا اللاتينية وتدخل الرئيس ودرو ويلسون فى المكسيك ونيكاراجوا وهايتى والدومينكان، قد يسمى ذلك توسعًا أو يسمى بالإمبريالية المبكرة.

ولقد اتخذ أول رئيس أمريكى مواقف انعزالية بإعلان الحياد فى الحرب بين فرنسا وبريطانيا وحذر فى خطابه الوداعى عام ١٧٩٧ من ربط مصير أمريكا بأى تحالفات خارجية Entangling Alliances ونادى الرئيس جيمس موندو ١٨٣٣ بعدم التدخل فى الحروب الأوروبية وعدم توسع القوى الأوروبية فى شمال القارة الأمريكية وأمريكا اللاتينية.

وبعد الحرب العالمية الأولى رفض مجلس النواب انضمام الولايات المتحدة إلى عصبة الأمم واستمرت العزلة حتى نهاية الثلاثينيات حيث ساندت الولايات المتحدة الحلفاء ضد هتلر وموسولينى واليابان، إلا أنها لم تشترك فى الحرب إلا بعد أن هاجمت اليابان أسطولها فى بيرل هاربور. وخرجت الولايات المتحدة من الحرب منتصرة لتصبح قوة عظمى تقود القوى الغربية فى الحرب الباردة. واتجهت إلى التعددية والتحالفات فوضعت مشروع مارشال وساعدت اليابان وتعاونت مع الأمم المتحدة والمنظمات الدولية واستمر ذلك حتى انهيار الاتحاد السوفيتى وعادت الأفكار والأصوات التى تدعو لمسلك إمبريالى انفرادى إلى الظهور لتبين أن طول فترة التعددية والأحلاف والانفتاح من ١٩٤٥ حتى التسعينيات لا يمثل قاعدة ثابتة فى السياسة الأمريكية، وأصبح تفوق القوة المطلق مغريًا لأى رئيس أمريكى باستعماله.

قوة الولايات المتحدة وضعفها

تعتبر الولايات المتحدة بلا منازع أكبر قوة فى العالم وستستمر على هذا الوضع لفترة من الزمن فلها جنود فى ١٥٧ دولة وقواعد عسكرية وقوات ثابتة فى ٦٣ دولة، وإمكانياتها العسكرية تمكنها من الوصول إلى أى مكان فى العالم وتملك إمكانيات اقتصادية هائلة تمثلها شركاتها العالمية، ويبلغ إنتاجها القومى ٢١٪ من إنتاج العالم وحجم تصديرها ٧٪ من ناتجها القومى مما يقلل من تأثرها بتطورات وتقلبات اقتصاديات العالم الخارجى ومع ذلك فهى تعتمد إلى حد كبير على البترول أكثر من غيرها من الدول الصناعية، ولهذا يمثل استيراد البترول أهمية كبيرة فى استراتيجياتها وتملك قدرات ونتائج متميزة فى مجال البحث والتطوير العلمى مستفيدة من استعمال قسط من ميزانية الدفاع الضخمة لتمويل مراكز البحث العلمى المدنية.

وتقوم جامعات الطليعة ذات المستوى العلمى الذى يفوق نظيراتها الأوروبية بدراسات وأبحاث متقدمة وتؤثر بسياستها المالية على مختلف أنحاء العالم ويستعملها الرئيس الأمريكى لمصلحة بلاده بتعاون بين وزارة الخزانة والبنك المركزى والبورصة وبنوك الاستثمار والعاملين فى البنك الدولى وصندوق النقد الدولى مما يطلق عليه بالتعبير الدارج Washington Consensus.

لقد تزايدت مديونية أمريكا لتصل إلى ٣٠٠٠ مليار دولار، والعجز فى الميزان التجارى ٥٠٠ مليار واستيراد رؤوس الأموال الأجنبية ٥٠٠ مليار فى العام. وظهرت بعض مظاهر الضعف بين طبقة مديرى الشركات من إثراء شخصى ومضاربات وارتفعت قائمة الفضائح المالية التى أدت إلى إفلاس وانهيار عدد من الشركات مما يتطلب إصلاحات اقتصادية. ويشير التطور السكانى إلى أن غالبية الناخبين فى النصف الثانى من القرن ستصبح من اللاتين والسود الذين يطالبون بتحسين وضعهم المعيشى من خدمات ومعاشات وتعليم وفرص عمل وغيرها مما سيؤدى إلى تحول اهتمام الحكام والسياسيين إلى جوانب السياسة الداخلية أكثر من السياسة الخارجية.

ويتمتع الشعب الأمريكى بخصائص وميزات ترجع إلى تكوينه التاريخى الذى ورثته أجياله من المهاجرين الأوائل فهو شعب مضياف ومتدين يتمتع بحيوية وديناميكية وقدرة على مجابهة الصعاب ويتمسك بحرياته الفردية ولا تعبر عنه بالضرورة الصورة السطحية التى نشاهدها فى الأفلام والتليفزيون والشارع. وليست هناك حدود للإثراء والتفاوت بين الأغنياء والفقراء ويؤمنون بالرأسمالية دون اقتصاديات السوق والفكر الاشتراكى ضعيف بينهم ولا يتحدثون عن الثقافة والحضارة الأمريكية بل يتحدثون أكثر عن أسلوب الحياة الأمريكية American way of life وهو شعب فى الغالبية لا يقرأ بل يعتمد على التليفزيون ومعلوماته عن العالم الخارجى قاصرة ويشمل ذلك عددًا من رجال السياسة الذين قد تفوق معلوماتهم عن الإرهاب أكثر مائة مرة مما يعرفون عن الدين الإسلامى وتاريخ وحضارة العرب.

وتقتصر غالبية معلومات مرشحيهم للرئاسة على ما اكتسبوه من خبرة فى أمور السياسة الداخلية والشئون الإدارية خلال عملهم كحكام للولايات ولذا يعتمدون عند وصولهم للبيت الأبيض على الخبراء والمستشارين من كبار رجال الصناعة والسفراء السابقين وأساتذة الجامعات ومراكز الفكر Think Tanks.

ويعتقد الأمريكيون فى سذاجة بأن ما يعيشون فى كنفه من حريات أساسية وديمقراطية هى قيم مطلقة تصلح للتطبيق على العرب والصينيين وباقى شعوب العالم ويلتفون بشكل جماعى حول رئيسهم بمجرد انتخابه خاصة فى موضوعات السياسة الخارجية. وعن الاستراتيجية الأمريكية، فلا شك أنها تتمتع كقوة عظمى بحرية كبيرة ومستمرة فى الحركة ولكنها ليست حرية مطلقة. وأظهر ذلك الوضع الخطر المضطرب فى الشرق الأوسط وأيضًا انسحابها من الصومال وعدم التدخل فى مذابح رواندا والمشكلة النووية مع كوريا الشمالية. ولم يؤد الانتصار على صدام حسين إلى إعادة ترتيب الشرق الأوسط أو حتى تأمين السلام فى العراق، وثارت الشكوك حول جدوى هذه الحرب فى مقاومة الإرهاب وأن كسب الحرب واستعمال الأسلحة بعيدة المدى لا يضمن السيطرة على شعوب العالم.

ربما عرقلت الصدمة ورد الفعل على أحداث سبتمبر ٢٠٠١ وضع استراتيجية عقلانية شاملة ومتكاملة فى الولايات المتحدة وربما أصبح من الممكن بل ومن الضرورى أن تبدأ بعد انتهاء الانتخابات مناقشة عميقة عن استراتيجية أمريكية عامة grand strategy للقطب الأعظم تأخذ فى الاعتبار التخلص من عقدة التركيز على الإرهاب على حساب كل العوامل والمشاكل الأخرى والارتباط بميثاق الأمم المتحدة والاتفاقات والقوانين الدولية رغم ما أصدره بوش فى سبتمبر ٢٠٠٢ «استراتيجيات الأمن للولايات المتحدة» المتضمنة حق القيام بالحروب الوقائية وإعادة بحث العلاقات مع أوروبا وإعطاء أهمية لأسباب التصاعد الشديد فى النقد والشعور المعادى لأمريكا فى العالم الإسلامى والرأى العام الأوروبى والدولى بل وكنائس العالم ودوائره السياسية والبرلمانية والتحدث مع العالم بلهجة مختلفة متذكرة قول تيودور روزفلت «تحدث بصوت منخفض فأنت تحمل عصا غليظة».

وعن العالم الإسلامى يذكر شميت أنه «تنبع من الدين الإسلامى تيارات سياسية

وحضارية قوية صبغت ثلث دول العالم بطابعها، وأن الشرق الأوسط - عدا إسرائيل - يتكون من دول وشعوب إسلامية تملك كما هائلاً من البترول الذى يحتاجه العالم بشدة. وعندما يشاهد المسلمون المتكدسون فى المدن المزدحمة فى التليفزيون صور الحياة فى العالم الغربى الثرى يشعرون بالظلم الذى قد يرافقه تقزز من بعض جوانب التحرر الأخلاقى المفرط المتعارض مع تقاليدهم وللنزاع الإسرائيلى الفلسطينى دور سلبى فاعل فى تكوين الفكر ورد الفعل الشعبى المسلم ومع تصاعد الصدام الدموى أصبح وضع المناطق الفلسطينية التى تحتلها إسرائيل يشكل فى عيون العرب والمسلمين الدليل على سوء نية الغرب خاصة الولايات المتحدة ولا يمكن حل هذا النزاع بدون دور أمريكى نشط وموقف جاد ثابت وعادل لتحقيق السلام. وبعد كامب ديفيد تقاعست أمريكا عن القيام بخطوات فاعلة ومؤثرة واستمرت فى سياسة مهتزة وغير ثابتة منحازة لإسرائيل تحت ضغط ظروفها السياسية الداخلية وأصمت أذنيها عن النصيحة التى قدمها السادات أيضاً بأنه لا يمكن تحقيق السلام والاستقرار فى الشرق الأوسط بدون حل المشكلة الفلسطينية ثم قتل السادات وبعده رابين بأيدى الإرهابيين وأصبح الموقف الإسرائيلى المتشدد يلقى نقداً شديداً فى أوروبا وبعض النقد فى الولايات المتحدة وإسرائيل نفسها، ويجابه ذلك بحملة تتهم من ينتقد الحكومة الإسرائيلية باللاسامية وتعريض اليهود للخطر مما يجعل موقف الألمان أكثر صعوبة من أقرانهم الأوروبيين بسبب الهولوكوست.

من الضرورى إقامة دولة فلسطينية غرب الأردن مع ضمان كيانها وأمنها مع أمن وكيان إسرائيل ويتطلب ذلك تواجد قوات حفظ سلام دولية وأمريكية.

وبالرغم من إقامة عدد كبير من المستوطنات على الأراضى الفلسطينية خارج حدود إسرائيل فمازالت فرص الحل قائمة.

ويجب التخلى عن سراب الاعتقاد بإمكان فرض ديمقراطيتنا الغربية من الخارج على الدول والشعوب الإسلامية والعربية التى لها تقاليدها وحضارتها وممارساتها الدينية لأكثر من ألف عام وأن نشجب محاولات تصعيد الخلاف بإضافة بعد دينى أو القول بأن ديمقراطيتنا نبعت من فكر مسيحى وأن الإسلام يشجع الحكم السلطوى وفى ذلك تزييف ومغالطة تاريخية فطريقنا نحو الديمقراطية نبع من ثورات وأفكار كانت موجهة أساساً ضد ظلم الإقطاعيين وضد الكنيسة الغربية التى عملت على فرض هيمنة ووصاية رجال الدين وبدأت من كوبيرنيكوس وجاليليو والفلاسفة من أمثال فولتير وكانت وروسو والمفكرين مثل مونتيسكيو وهوجو دى جروت وجون لوك وليسينج والمئات من حملة الفكر التنويرى واستغرق ذلك وقتاً طويلاً لترسيخ الديمقراطية الغربية التى يطالب البعض الآن بتصديرها وتطبيقها الفورى على غيرنا من شعوب وحضارات العالم.

إن أوروبا التى تعيش جواراً لصيقاً جغرافياً مع المسلمين الذين أصبحوا يكونون الدين الثانى بين سكان الاتحاد الأوروبى يحتاجون أكثر من غيرهم إلى التفاهم والسلام بين الديانتين الكبيرتين الإسلام والمسيحية، وعلى الغرب الفصل بين التدين الإسلامى والإرهاب والاعتراف وإظهار الاحترام للقيم الإسلامية ولا تكفى زيارة بوش والبابا لأحد المساجد كعمل رمزى بل يجب توجيه دعوة قوية للقيادات الدينية والسياسية والتربوية فى الغرب والعالم الإسلامى لنشر مبادئ التسامح ومقاومة العنف والإرهاب.

ومع تفشى الحروب والعنف لن تستطيع أية قوة عظمى الحفاظ على السلم والاستقرار فى العالم مع تطبيق مبادئ الأنانية المقدسة Sacro Egoismo ويصبح السؤال المهم الذى يطرحه المستقبل علينا ليس سؤال: هل تستمر الهيمنة الأمريكية؟ بل كيف ستستعمل أمريكا هذه الهيمنة؟ وفى هذا السياق نتذكر كتاباً ألفه السيناتور الأمريكى فولبرايت منذ أربعين عاماً بعنوان «غطرسة القوة».

إن التشاؤم الشديد يدعو للخوف واليأس، والتفاؤل المفرط يؤدى إلى أحكام غير سليمة، ومازالت عبر التاريخ عن قدرة أمتنا العربية وعالمنا الإسلامى على تخطى الصعاب تدفعنا إلى الأمل فى مستقبل مشرق، علينا نحن العرب أن نعمل ونساهم فى صنعه بأيدينا. ■

الإصـــلاح وظاهـــرة العصيـــان

ربـــاب المـــهدى

كثر الحديث فى الآونة الأخيرة عن الأوضاع فى العالم العربى، وعن ضرورة إصلاح أوضاعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتعليمية.وتطالعنا فى شأن هذا الإصلاح مبادرات عدة يتحدث عنها القاصى والدانى، ومما يثير الجدل فى هذه المبادرات - محلية كانت أو إقليمية أو عالمية - هو دور «الدولة» فى مقابل الدور الذى يجب أن ينهض به «المجتمع المدنى» وتتراوح الرؤى لهذه الأدوار بين قطبين: أيهما(الدولة والمجتمع المدنى) يكون فاعلا وأيهما يكون مفعولا به؟

وفى هذا الإطار يحتد الجدل حول علاقة الدولة بالمجتمع المدنى من ناحية، وعلاقة كليهما بالإصلاح المنشود، وبمنظومة التنمية فى العالم العربى من ناحية أخرى. وتطرح فى هذا الصدد تصورات حول «النموذج» الذى ينبغى تطويره، - ليتلاءم مع فلسفات وأيديولوجيات مختلفة- والسياسات والإجراءات التى من شأنها تحقيق التنمية المرجوة، وإنجاز الإصلاح المنشود والملاحظ فى هذا الصدد- إن هذه الرؤى تمثل أشتاتا غير مؤتلفات، تصل أحيانا إلى درجة المتناقضات.

ويختلف هذا المقال فى الغاية منه، وبالتالى فى طبيعته عن التيار السائد فى الكتابات، وفى أحاديث الندوات والمؤتمرات التى تعقد بهدف النظر فى إصلاح الأوضاع الراهنة فى العالم العربى فى أنه لا يهدف إلى تقديم «وصفة» معينة للإصلاح المنشود، ولا إلى إسقاط أحكام قيمية على «الوصفات» المختلفة محلية كانت أو خارجية التى تقدم للإصلاح. والبديل الذى يجلبه هذا المقال هو التركيز على عملية الإصلاح، وبوصف أنها مشروع قومى وعقلانى فى آن واحد: وهاتان الوصفتان توجبان أن يكون المشروع نتاجا وطنيا حقيقيا، يسهم فى توليده، وفى وضع سياساته، وتحديد إجراءاته، وتبنى تنفيذه، كافة قطاعات وفئات المجتمع. وأن يقوم هذا المشروع على التوازن فى توظيف الرؤى المستقاة من النخب فى كل القطاعات مع التصورات العامة للجماهير، دون الإفراط أو التفريط فى أى من الجانبين.

والتشبث بأن يكون مشروع الإصلاح قوميا وعقلانيا، مؤسسا على استشراء المرض أو قل ثبوت الخلل فى الأوضاع الراهنة للدولة والمجتمع على حد سواء فى العالم العربى، إذ إنه حين يشمل الخلل النظام السياسى للدولة، وتغيب القاعدة الاقتصادية المنتجة، والنظام العادل لتوزيع الدخل، ويشيع الخلل فى القيم الاجتماعية السائدة فى المجتمع، وتقوم أدلة وقرائن على انعكاسات هذا الخلل فى أنماط السلوك فى قطاعات اجتماعية مختلفة - فى مثل هذه الأوضاع تصبح عملية الإصلاح عملية شديدة التعقيد، متعددة المستويات، وطويلة الأجل، لا تجدى فيها مبادرات نخبوية محدودة، سواء كانت هذه المبادرات رسمية أو غير رسمية، محلية أو أجنبية.

من الفراغ العام إلى المجال العام

وفى ضوء ما أسلفت تبرز أهمية مفهوم «المجال العام» The Public Sphere الذى عنى بتنظيره الفيلسوف الألمانى يورجن هابرماس وقام على متابعته وتطويره آخرون فى مختلف مجالات العلوم الاجتماعية. وتعرف مارجريت سومرز المجال العام على انه: «موقع افتراضى للتشارك، يلتقى فيه فاعلون، تتداخل هوياتهم بوصف أنهم مواطنون بحكم القانون، على الرغم من تعدد واختلاف انتماءاتهم الاجتماعية والأسرية ومصالحهم الاقتصادية.

وفى هذا الملتقى يستغرق هؤلاء المواطنون فى مفاوضات ومجادلات، تدور حول الأمور العامة سياسية واجتماعية».

والمجال العام فى ضوء هذا التعريف ليس هو المجتمع المدنى على النحو الذى يتصوره بعض المفكرين، ولكن يمكن تصوره على أنه نقطة الالتقاء بين الدولة والمجتمع المدنى. وفى عبارة أخرى إذا كان المجتمع المدنى ينظر إليه على أنه المساحة التى تتكون فيها الإرادات الجماعية، التى تعبر عن المصالح المختلفة لفئات من المواطنين، فى صورة كيانات متمايزة عن الدولة، ولكنها تتأثر بسياسة الدولة فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتسعى فى الوقت ذاته إلى التأثير فيها. فإن «المجال العام» هو الجسر الذى يسمح للمجتمع المدنى بالتفاعل مع الدولة والتأثير فى مؤسساتها وسياساتها.



وتكمن أهمية «المجال العام» فى أنه المسرح الذى تلتقى فيه جماعات ذات مصالح واهتمامات متباينة، ويسمح فى هذا المسرح بتبادل وجهات النظر المتناقضة، دون هيمنة أو سيطرة لأى منها إذ تلتقى على خشبة هذا المسرح الثقافات الفرعية داخل المجتمع الواحد لتسهم جميعها بطريقة تشاورية وديموقراطية- فى صياغة خطاب قومى عقلانى تتشكل وفقا له السياسة العامة للدولة، وللمؤسسات الرسمية وغير الرسمية.

وتأسيسا على ما تقدم، يمكن القول إن «المجال العام» لا يوجد تلقائيا أو بالفطرة فى المجتمعات، وإنما يحتاج استحداثه وخلقه فى المجتمعات البشرية بعامة و فى الدول النامية بخاصة، إلى جهود مقصودة تبذلها الدولة والمجتمع المدنى دون تفريط أو تقاعس. إذ أن خلق «المجال العام» يمثل انتصارا للدولة وللمجتمع المدنى، فهو السبيل للأمة للوفاء بحقوق المواطنة لجماهير المجتمع كافة، وهو أيضا الوسيلة التى يمكن عن طريقها تصميم وصياغة وتنفيذ مشروعات إصلاحية تعكس الاتجاهات المختلفة والطموحات المتنوعة لطوائف المجتمع، مشروعات تتسم بأن المواطنين لا يشعرون إزاءها بالاغتراب، أو إنها منحازة إلى منفعة فئات معينة فى المجتمع. ومن شأن هذه المشاعر أن تدفع المواطنين إلى تبنى هذه المشروعات، والمشاركة فى إنجاز متطلباتها وفى تدبير سيرورتها وتقويم عوائدها.

وثمة عاملان أساسيان يحددان مدى قدرة «المجال العام» على إفراز مشاريع إصلاحية وتنموية تتسم بالشمول، وتتصف بالعدالة فى أرحب جوانبها، وتخرج من حيز المبادرات النخبوية لتستقر فى آفاق المشروعات القومية. وهذان العاملان هما:

أ. الإحاطة الشاملة/ الإلمام Inclusiveness؛

ب. الفاعلية Effectiveness

وهنا يبرز السؤال الرئيسى الذى يتصدى هذا المقال للإجابة عنه. وهو: ما شكل «المجال العام» فى مصر؟ بمعنى ما مدى قدرته على إفراز مشروع إصلاحى تنموى، تتقاسمه الدولة والمجتمع المدنى، وتكرس الجهود المبذولة فيه للوفاء بحقوق المواطنين جميعا، وتدفعهم إلى أداء واجباتهم.

وأركز الحديث فى الجزء التالى من المقال للإجابة عن هذا السؤال فى ضوء المتغيرين الأساسيين المشار إليهما.

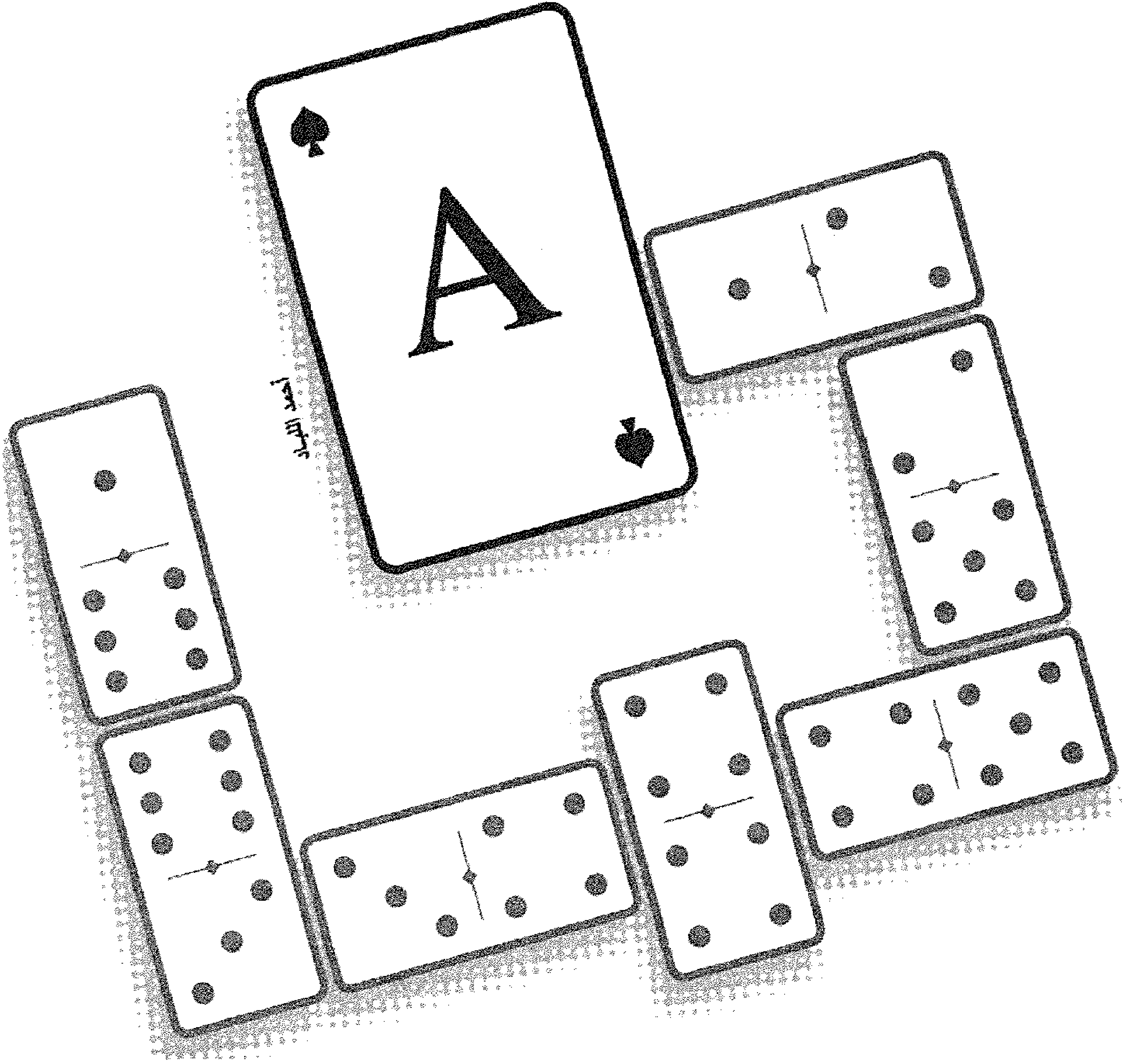
أولا: عند إعمال المتغير الأول (شمول الإحاطة) بوصفه أداة لوصف المجال العام، وتحليله، وتشخيصه - يبدو للمراقب الموضوعى أن المجال العام فى مصر تواجهه معوقات شتى، وتقع المسئولية فى بروز بعض هذه المعوقات على الدولة وفى بعضها الآخر تنصب المسئولية على المجتمع المدنى. فالدولة مثلا قد آثرت فى مشروع الإصلاح الاقتصادى أن تؤصل علاقات التواصل فى هذا المشروع مع بعض فئات المجتمع المدنى على حساب فئات أخرى، إذ أنها فى ضوء التغير الحادث فى منظومة الاقتصاد العالمى، وفى ضوء النغمة السائدة فى خطاب هذا الاقتصاد - لجأت



لجأت الدولة إلى ارتداء ثوب الليبرالية الجديدة، فنشأ عن هذا التوجه شبه تأليه للقطاع الخاص، وتقويض ملحوظ فى دور الدولة فى الضمان الاجتماعى، وارتفاع مطرد فى حجم العمالة غير الرسمية وغير المنظمة



... المدنى فى المجتمع المصرى



الدولة إلى ارتداء ثوب الليبرالية الجديدة، فنشأ عن هذا التوجه شبه تأليه للقطاع الخاص، وتقويض ملحوظ فى دور الدولة فى الضمان الاجتماعى، وارتفاع مطرد فى حجم العمالة غير الرسمية وغير المنظمة، وشاعت مقولات لتبرير زيادة الفقراء فقرا، وزيادة الأغنياء غنى ، وحدث الترويج لمقولة إن معالجة الفقر قوامها الاعتماد على اقتصاديات السوق وحدها.

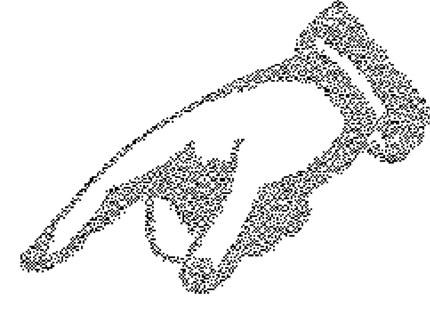
وقد أدى هذا التحول الأيدلوجى والاقتصادى غير المتوازن إلى تهميش قطاعات كاملة فى المجتمع ، ولم يقتصر هذا التهميش على الحرمان من عملية التنمية فى جوانبها المختلفة ، بل إلى الحرمان من الوجود الفاعل ، وتحقيق الذات فى المجال العام . وأدى هذا إلى هيمنة اهتمامات ومصالح فئات معينة ، وسيادة الخطابات التى يرجونها، على المجال العام. فصوت كبار رجال الأعمال، وقنوات تواصلهم مع الدولة تشغل مساحة اكبر وأعظم وأقوى وأخصب من المساحة والمنابر المتاحة لممثلى العمال على سبيل المثال. وتناقص دور الدولة فى مجال تقديم الخدمات الاجتماعية ، أدى إلى تآكل إمكانات وطاقات معظم من ينتمون إلى الطبقتين : المتوسطة والشريحة الدنيا فى هذه الطبقة middle & lower middle بصورة أثرت تأثيراً ملحوظا على الأدوار التى كانوا يسهمون بها فى المجال العام. فالمواطن المصرى الذى كان يرتاد المقهى بعد العمل فى سنوات مضت - أصبح مضطراً إلى أن يعمل عملا إضافيا بعد عمله الأصلى - يعينه على الوفاء بسداد حاجات من يعولهم وقد أدى هذا إلى انحسار وجود كثير ممن ينتمون إلى هاتين الطبقتين من المجال العام، وتحولهم إلى المجال الخاص ، على النحو الذى يجرى فى تجمعات الرجال والنساء الآن، حيث تدور معظم المناقشات : حول كيفية الحصول على لقمة العيش فى إطار فردى. وقد كانت المناقشات فى مثل هذه التجمعات تدور فى فترات المد القومى وعصور النشاط الوطنى حول أمور عامة، تدخل فى نطاق « المجال العام» حيث كان التحاور والجدل والمحاضرات تنصب على أمور عامة (الحكم الجمهورى والحكم الملكى . الاستقلال فى مقابل الاستعمار والتبعية . تأميم القناة . ضبط الأسعار . الانفتاح الاقتصادى مزاياه وعيوبه).

وقد انعكس التحول الراهن الذى طرأ على «المجال العام» على الخطاب الاجتماعى ، وفى المفاهيم التى تحكمه، وأصبح الخروج من الفقر ، والحراك الاجتماعى يتطلبان - من وجهة نظر الأغلبية الساحقة من المواطنين - السعى الفردى ، والاعتماد على الحظ والفهلوة، والحصول على أكبر مردود مادى بأقل جهد ممكن، وفى أقل فترة زمنية- وليس على وجود منظومة سياسية واقتصادية واجتماعية عادلة بمناقشة القضايا العامة ، والمشاركة فى تحسين الظروف العامة ، وإحلالها محل التركيز على المصالح الخاصة ، والتمحور حول الذات.

وأحسب أن ثمة معوقات أخرى ، توحى بتقلص « المجال العام » ، وتقع مسئولية بروز هذه المعوقات على تنظيمات المجتمع المدنى ذاتها ، وذلك حين تنأى تنظيمات المجتمع المدنى عن محاولة تمثيل وتنظيم قطاعات كبيرة فى المجتمع بأشكال تتناسب وتتلاءم مع ظروف هذه القطاعات. ويحضرنى فى هذا الصدد أمثلة منها : تركيز المنظمات المعنية بالمرأة على المرأة الحضرية، وإهمال المرأة الريفية، أو عدم عنايتها بتنظيم وتمثيل العمالة غير الرسمية بدعوى صعوبة ذلك. وأيضا فإن معظم تنظيمات المجتمع المدنى تتبنى فى نشاطها إطارات فكرية وديماجوجية، تعظ الناس بدلا من أن تستثير فيهم النظرة العقلانية إلى مشكلاتهم ومشكلات مجتمعهم، وتملى عليهم أكثر مما تسمع منهم أو تتحاور معهم. وهذا يؤدى إلى إسقاط، اهتمامات ملحة وقطاعات كبيرة يجب أن تمثل فى المجال العام و تتفاعل معه.

أما العامل الثانى الذى يجب إعماله فى وصف وتحليل وتشخيص قدرة «المجال العام» فى مصر فهو متغير الفاعلية effectiveness وإعمال هذا المتغير يؤدى إلى نتيجة ليست أفضل من أعمال المقصد الأول. وفى هذا الصدد تبرز أهمية مقولة هيرماس « إن الخطابات لا تحكم» Discourses do not govern والخطاب بوجه عام، ولأغراض هذا المقال يعنى الكلام الذى يؤدى شفويا أو يسجل كتابيا بوسائل شتى ليبث حول موضوعات تهم فئات معينة من المواطنين، عبر قنوات مختلفة.

والملاحظ أن الخطابات التى تنصب على مشروعات التنمية الشاملة، والإصلاح المتكامل فى مصر مهما اتسمت بالبلاغة اللفظية، ومهما زعمت أنها ترعى حقوق المواطنين، وتنشد تحسين واقع الحياة



لماذا لا ينقرس النساء؟

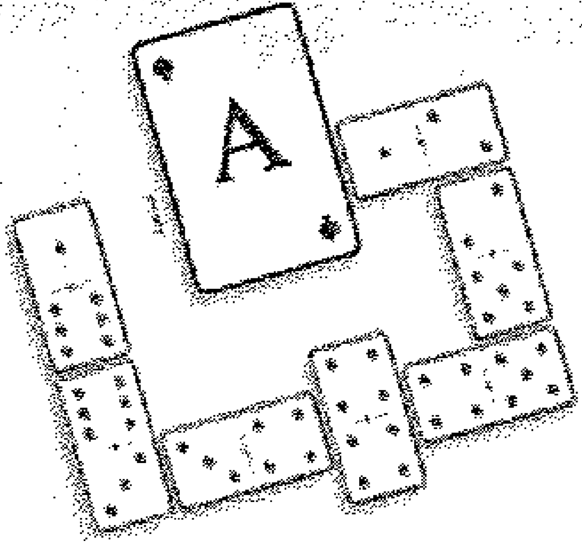
أبو بكر الرازى

قد قلنا فيما تقدم، إن النقرس يحدث عن فضول تجتمع فى البدن، تدفعها الطبيعة إلى الأطراف. وفضول البدن محتقنة أبدًا فى الدم. والنساء يخرج منهن من الدم ـ بالحيض ـ ما تنقى به أبدانهن من هذا الفضل، ولا يبقى فيها ـ منه ـ ما يندفع، فيسيل إلى القدمين.

وأيضًا، فإن أبدان النساء مرطوبة رطوبة مألوفة لذيذة، وليس فى أبدانهن من الحرارة ما يسخن الدم ويحده، حتى يحدث عن ذلك نقرس مُرى حار. ولا فى أبدانهن أيضًا من الحرارة، ما ينضج الخلط البلغمى الغليظ، حتى يجعله مالحًا لذاعًا، فيحدث النقرس.

فمن هاتين الجهتين، لا يحدث النقرس بالنساء والعلة التى لها لا ينقرس الخصيان، مشاركة لإحدى العلتين اللتين لهما لا ينقرس النساء: وهى رطوبة البدن وضعف الأعضاء. وذلك أن الأبدان المرطوبة رطوبة مألوفة محمودة، لا حادة ولا حريفة، ولا تؤلم الأعضاء ولا تنكأها. والأعضاء إذا كانت ضعيفة، لم تدفع الفضول عنها إلى الأطراف، بل يتحير الفضل فى كل واحد من الأعضاء على قدر ضعفه.

فإذا كان مزاج البدن رطبًا، كانت الحرارات الغريزية فيه مختلفة، فلا تسخن رطوباته ولا تحدها. وإذا كانت الأعضاء ليست متساوية القوة، لحجت الفضول فيها ولم تنصب إلى القدمين، فلم يحدث عنها النقرس.



وثابت أن المجال العام قد حرص على المشاركة الفعالة والحوار المنتج حول القضايا التى أشرت إليها آنفا، وبث هذا الحوار عبر قنوات متعددة للتواصل، وكانت النتيجة النهائية لهذه المشاركة إهمالاً مقيتاً، وعزماً أكيداً من الدولة على تجاهل ما أسفرت عنه الحوارات فى المجال العام، مما أشعر الجماهير بأن الدولة تزدرى الرأى العام، وأن الجهد الذى يبذل فى المجال العام ليس له عائد أو جدوى. ومن هنا يرى بعض المراقبين أن المجتمع المصرى فى حالة عصيان مدنى صامت. وتجدر الإشارة هنا إلى تطور حدث فى مصر من شأنه الإسهام فى فاعلية المجال العام، وقوام هذا التطور ظهور قنوات عدة للتواصل تقيمها الدولة متعاونة مع المجتمع المدنى، وتأسيس هذه القنوات أمارة من أمارات انفتاح الدولة على المجتمع المدنى، ودعمها للمجال العام، فتعدد قنوات التواصل وتنوعها يتيح الفرصة لعناصر وتيارات مختلفة فى المجتمع للمشاركة فى المجال العام. والسؤال الذى يفرض نفسه إزاء ظاهرة تعدد قنوات التواصل وتنوعها فى مصر هو هل أحدث هذا التطور توازنا بين الفرص المتاحة للنخب السياسية والاقتصادية والإدارية والثقافية، والفرص المتاحة لممثلى جماهير الشعب؟

ونوجز الإجابة عن هذا السؤال بلفت النظر إلى أن النخب المختلفة لديها فرص واسعة ميسرة ومتعددة للتعبير عن آرائها، وبيان وجهات نظرها، وصيانة مصالحها المادية والمعنوية؛ فكبار رجال الأعمال يدعون إلى لقاءات رسمية مع القيادة السياسية العليا، ومع الوزراء. وتلتقى النخب فى المجتمع برجال الدولة فى المناسبات الاجتماعية التى يدعون إليها (الأفراح، الندوات والمؤتمرات، الأندية، المصايف، ونحو ذلك). وفى مقابل هذا نجد الفرص المتاحة لفئات العمال والفلاحين والشباب وسائر الفئات المهمشة توشك أن تكون منعدمة، وأن الرسمى المتاح منها مقيد بأغلال البيروقراطية المحبطة للجماهير، ولذا فليس عجيبا أن يجد بعض أعضاء هذه الفئات وسائل أخرى بديلة وغير مشروعة للتعبير (الغش الفردى، والغش الجماعى والرشوة، وإتلاف الممتلكات العامة). وإذا كانت الدولة قد أسهمت فى إضعاف فاعلية المجال العام فى مصر فإن منظمات المجتمع المدنى مسئولة أيضا عن هذا الضعف، ففى مصر ما يزيد الذى تعيشه جماهير المواطنين، ومهما ادعت أنها شاملة تغطى اهتمامات كل فئات وطبقات الشعب المختلفة - تظل مجرد أقوال تمثل رغبات وطموحات ونوايا من قاموا بصياغتها، ويظل الحكم على مدى فاعلية هذه الخطابات متوقفا على مدى التأثير الذى أحدثته هذه الخطابات فى تغيير السياسات التى تتبناها الدولة، وعلى مدى استجابة الأجهزة الرسمية وتنظيمات المجتمع المدنى للوفاء بحاجات المواطنين وصيانة حقوقهم فى الحياة. وما لم يظهر أثر تلمسه الجماهير لمشروعات الإصلاح يبقى الخطاب الدائر حولها ألغازا لا مغزى لها بالنسبة لهم، وتنظر الجماهير إلى ألوان الخطاب التى تولد داخل المجال العام بالنسبة للإصلاح على أنها محاولات تدخل فى مجال المهدئات لغضب الجماهير، أو التنفيس عنهم، أو أن تصبح مادة إشعال للثورات (كما حدث فى الثورة الفرنسية).

ويلفت النظر فى المجتمع المصرى اليوم ازدياد شعور الجماهير بعدم جدوى المشاركة السياسية أو الإسهام فى الشأن العام، وعندى أن هذا الشعور نتيجة منطقية لخبرات سيئة متراكمة، تقاعست فيها الدولة وأجهزتها المختلفة عن الاستجابة لمطالب المجال العام سواء فى ذلك التباطؤ الشديد فى سن القوانين والتشريعات ذات العلاقة بالقضايا الجماهيرية أو إغفال مدخلات المجال العام فى بلورة هذه القوانين؛ بدءا بالقانون المنظم لأعمال الجمعيات الأهلية، ومرورا بقانون العمل الجديد، وانتهاء بالتشريعات الخاصة باختيار القيادة السياسية، والامتناع عن تحديث الجهاز التنفيذى للدولة كى يكون أسرع فى الاستجابة للمطالب الجماهيرية.



"الإصلاح" وظاهرة العصيان المدنى

على عشرين ألف جمعية أهلية، بالإضافة إلى النقابات العمالية والعلمية والمهنية ، والاتحادات، ولنا أن نسأل : ما أثر هذه المنظمات فى بناء المجال العام وفى زيادة تفعيل نشاطاته؟

إن الأغلبية الساحقة فى هذه الجمعيات والمنظمات قد قصرت أنشطتها على تقديم الخدمات الاجتماعية، وقد ساعد على ذلك تشجيع الدولة ومنظمات التمويل الدولى ، والإعانات والقروض التى تمنحها الدول المانحة لهذه المنظمات لقصر نشاطها على تقديم الخدمات وعدم تسييس المجتمع المدنى وإبعاد منظماته عن المشاركة فى العمل العام، بوصفها قوى فاعلة فى تطوير النظام السياسى وفى تغييره.

وهكذا نجد أن المجال العام فى مصر مواجه بعائق مركب؛ قوامه استبعاد فئات كثيرة من جماهير الشعب من المشاركة فى المجال العام، وعدم فاعلية المنظمات القائمة تحت مسمى المجتمع المدنى فى تفعيل وتنظيم هذا المجال. وبهذا تحول «المجال العام» إلى «فراغ عام»، وهو ما أوجزه عنوان هذا المقال.

ما العمل إذن؟

أقول بتكثيف شديد: علينا جميعا فى مصر- حكاما ومحكومين- أن تسعى حثيثا لبناء مجال عام نشط وفعال، يعبر عن اهتمامات واحتياجات وتطلعات كافة فئات المواطنين السياسية والاقتصادية والثقافية دون عوائق تنتمى إلى النوع أو المستوى الاجتماعى أو الاقتصادى أو الميل السياسى. وأن تحول الضغوط الموجهة إلى العالم العربى، والمناقشات الدائرة فى مستويات مختلفة حول مبادرات الإصلاح إلى محركات للبدء فى مشروع قومى عقلانى للإصلاح الشامل فى الوطن العربى كله. ولإنجاز هذا المطلب على الدولة ومنظمات المجتمع المدنى فى كل بلد عربى، وعلى النخب الثقافية والاقتصادية والسياسية - عليهم جميعا أن ينهضوا للقيام بأدوار نشطة واعية وحاسمة تجاه ما يلى:

أولا: أن تعيد الدولة النظر فى كيفية التواصل مع فئات المجتمع المختلفة، وذلك بإعطاء المساحة والظروف الملائمة لكل فئة للتعبير عن احتياجاتها الآنية وطموحاتها المستقبلية. وهذا يقتضى إدخال تعديلات على التشريعات وآليات التنفيذ القائمة الآن، أو إصدار تشريعات جديدة واستحداث مؤسسات وقنوات تحقق استيعاب هذا التواصل لكل فئات الشعب.



ثانيا: أن تعيد الدولة النظر فى جدوى المنطلقات الاقتصادية التى تتبناها، وأن تقيم بطريقة موضوعية تتسم بالجدية والشفافية مدى تأثير هذه المنطلقات على عملية توزيع الدخل والثروة داخل المجتمع. وأن تبادر الدولة إلى إصلاح ما أسفرت عنه المنطلقات الاقتصادية الحالية من سلبيات، تمثلت جوهريا فى تزايد التباينات فى الثروات فى المجتمع المصرى، لأن الفروق المتزايدة فى القدرة الاقتصادية مدعاة إلى إضعاف المجال العام، واستلابه ليستقر فى أحضان القوة المهيمنة اقتصاديا. وتلك بادرة تنذر باختلالات وخيمة، وعواقب سيئة قد يصعب تداركها إذا لم نبادر إلى معالجته اليوم وليس غدا.

ثالثا: على منظمات المجتمع المدنى أن تستوعب مكانتها، وتعيد النظر فى دورها، أن تتعرف على وظائفها الجوهرية وليست الشكلية، وأن تستوعب أن الحقوق فى المجتمع البشرى جميعا تأخذ ولا تمنح، ولذا فإن عليها أن تنتظم فى حوار دائم مع الدولة وممثليها، حوار يقوم على الندية، ورفض الهيمنة من أى طرف فى الحوار.

وأخيرا: على النخبة المثقفة أن تتفاعل بصورة أوسع وأعمق مع الجماهير، وأن تعمل جاهدة على تأصيل مفاهيم ونداءات حيوية مثل: الديموقراطية، وتمكين المرأة، بوصفها طرقا وأساليب للحياة، أكثر من كونها مفاهيم تجريدية أو غريبة عن خطاب العامة، وأن تبذل جهوداً منظمة ومتنوعة لجعل مثل هذه المفاهيم واضحة المردود وبارزة فى أهميتها لتوسيع الفرص الحياتية لكل الجماهير. ■

ناطحات سحاب.. وبيوت من رمل
جائزة أغاخان ٢٠٠٤



إسماعيل سراج الدين

■■ طالعتنا جائزة أغاخان للعمارة بباقة جديدة من الإنجازات المعمارية التى تستحق التقريظ وتصدرت القائمة مكتبة الإسكندرية ولنا عن هذا الإنجاز تعليق يطول فيما بعد كما زامل المكتبة فى الإنجازات المبهرة أبراج بتروناس فى ماليزيا، التى صارت رمزًا للبلد ودفعته نحو التقدم والرقى، واحتضانه للعلم الحديث والتكنولوجيا.

ولكن، إذا اكتفت الجائزة بهذين

The Agkhan Award for Architecture
جائزة أغاجان للعمارة ٢٠٠٤.

الخيارين لمشروعات عملاقة، لجاءت رسالتها مبتورة، تخاطب شريحة من المجتمع تاركة السواد الأعظم من المسلمين دون مناقشة لمشاكلهم وبلا تقدير للجهود الفعالة التى يقوم بها الكثير فى نطاق تفاعلهم اليومى مع حقائق حماية التراث فى ظل التنمية واحتياجاتها، أو حاجات مجتمعات معينة للصراع مع السلطة لتأييد الهوية، فى ظل مجابهة التشريد.

وكذلك وجب التذكرة بأن الحس المعمارى والجمالى ليس مرهونًا لضخامة المشروع أو توافر ميزانية كبيرة لتحقيق العمل ولذلك يمكن تصنيف المشروعات الفائزة السبعة من ناحية:

أولاً: الرؤية المستقبلية من الإسكندرية إلى كوالالمبور:

جاءت الرؤية المستقبلية فى التعبير المعمارى بما فى ذلك ما تم تبنيه من التقانات الحديثة، بل وإبداعات جديدة فى تطويع تقنيات التشييد والبناء فى نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الـ ٢١ جاءت واضحة جلية فى مشروعى مكتبة الإسكندرية وأبراج بتروناس، كما أن المشروعين يمثلان الإدارة الوطنية، المصرية والماليزية، للتأكيد على التواصل مع الجديد، ورمزًا لطموحات مستقبلية سواء على المستوى الثقافى (المكتبة) أو على المستوى الاقتصادى (الأبراج). ولكن لكل من المشروعين خصوصياته التى تقتضى مناقشة منفردة.

المشروع الأول: مكتبة الإسكندرية

حصل المبنى على الجائزة لأنه يظهر طريقة مبتكرة لتصميم ووضع شكل ضخم ورمزى فى أحد أهم الواجهات البحرية فى العالم. بدءاً بفكرته، مروراً بالمسابقة الدولية لتصميمه، وحتى تصميمه وإنشائه بواسطة عدة شركات عالمية، وكذلك فى إدارته الحالية. يقدم المشروع نموذجًا تتوحد به جهود المجتمع الدولى ويتم فيه تشجيع التعاون والالتزام من المجتمع بأكمله.

المبنى مبتكر على نحو ملحوظ من الناحيتين المعمارية والإنشائية، وهو يستجيب بحساسية لطيف واسع من القضايا بما فى ذلك السياسة والدين والثقافة والتاريخ. تم استخدام تقنيات متقدمة لاحتواء التحديات التقنية فى إنشاء مشروع كبير الحجم كهذا بالقرب من حافة الماء وضمن محيط حضرى والتعامل معها. فإن الشكل يوفر نظاماً واضحاً ويخدم بشكل جيد التنوع الغنى فى البرامج التى يشتمل عليها، كما أنه يقوم بدور محفز للتحسينات فى المدينة كلها.

إن مكتبة الإسكندرية مكان يدعو لقيم التسامح، ويحتفى بالشمولية بكل جهودها اللا متناهية لدعم التعلم والحوار بين الشعوب والثقافات.

معظم مستخدمى المكتبة هم من طلاب جامعة الإسكندرية والمدارس المحلية. وقد انعقد فى المجمع عدة مؤتمرات تلقت اهتماماً إقليمياً وعالمياً، مما يرفع من



> بيوت أكياس الرمل (إيران)

< أبراج بتروناس (كوالامبور - ماليزيا)


SURIA KLCC



أهمية المدينة بأكملها. وقد لعبت المكتبة دور المحفز لتحسينات فى المدينة بأكملها، مثل تجديد الطرق وبناء الجسور وتطوير الفنادق. وتعد المكتبة معلماً تقدمياً للبلد بأكمله يعيد مصر على الخريطة كمركز مفتوح وحديث للتبادل الثقافى.

صممت المكتبة على شكل قرص مائل يرتفع من الأرض ويضم أربعة مستويات تحت سطح الأرض وسبعة مستويات فوق سطح الأرض. ويضم المجمع الثقافى للمكتبة قاعة قراءة رئيسية، تحتوى على ألفى مقعد للقراء، وست مكتبات متخصصة، وثلاثة متاحف، وسبعة مراكز بحثية، وثلاثة معارض دائمة، وقاعات للمعارض الفنية، وقبة سماوية، وقاعة للاستكشافات، ومركز كبير للمؤتمرات وساحة للحضارات، ومكاتب إدارية، وكافيتيريا، بالإضافة إلى جميع الخدمات اللازمة فى مثل هذا المجمع. كما أن المكتبة تستقبل حوالى ٨٠٠،٠٠٠ زائر سنوياً. وللشكل الدائرى للمكتبة أهمية رمزية كما أن الحوائط الخارجية للمكتبة مكسوة بأربعة آلاف كتلة من الجرانيت نقشت عليها حروف أبجدية من لغات عديدة.

قاعة القراءة الرئيسية عبارة عن حيز واحد مفتوح يتكون من ثمانية مستويات كل منها يحتوى على قسم خاص بموضوع معين، بدءاً بأصول المعرفة (الفلسفة والتاريخ والدين والجغرافيا) وانتهاءً بأحدث التقنيات.

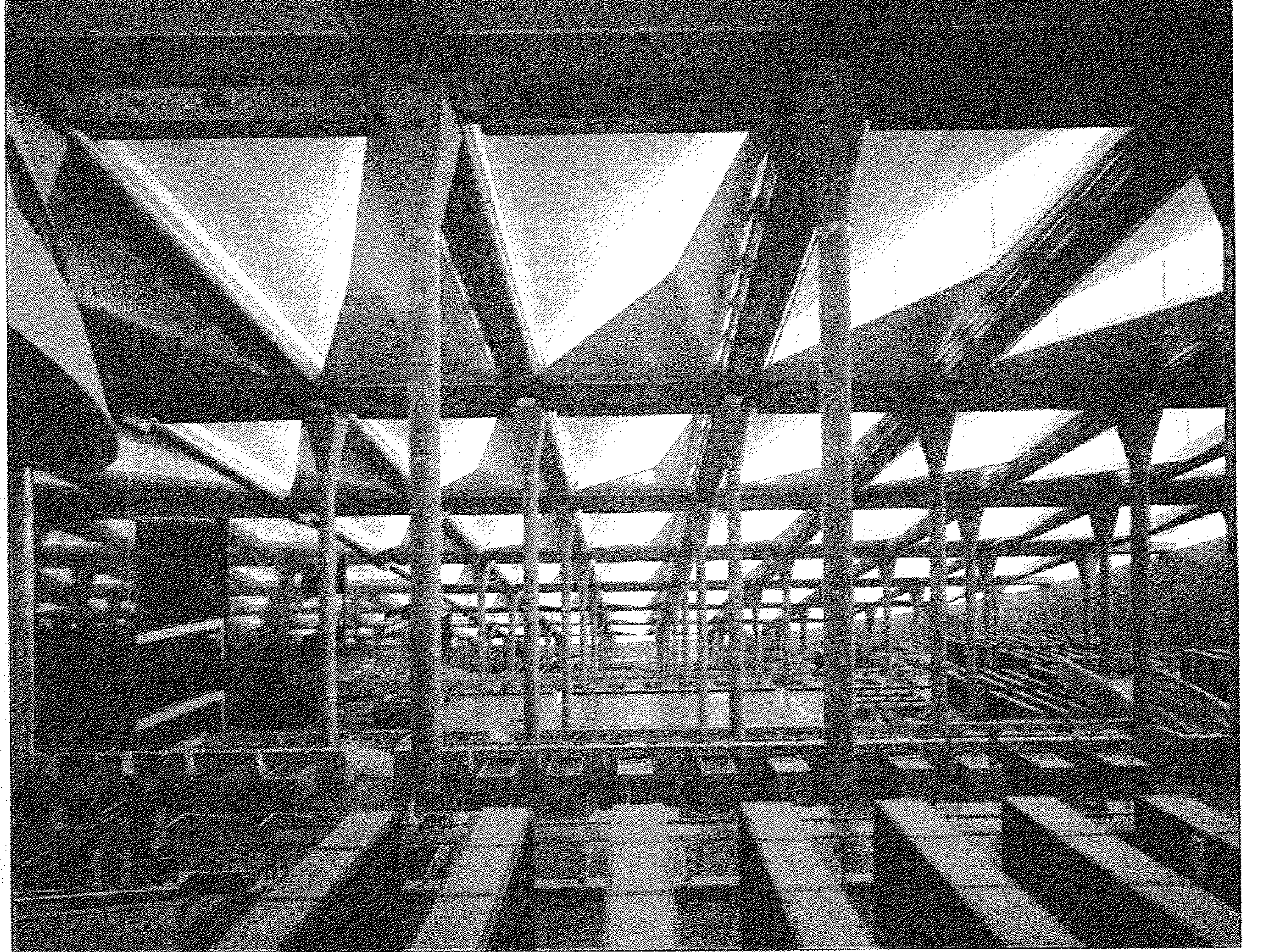
إن أساس المكتبة هو أكثر أجزاء المشروع ابتكاراً. فالانغمار الجزئى للمبنى لعمق ثمانية عشر متراً تحت سطح الأرض فى موقع بالقرب من البحر يثير مشاكل إنشائية جدية. ويعد الجدار الدائرى الحاجز للمكتبة الأضخم من نوعه فى العالم، حيث يبلغ قطره مائة وستين متراً وارتفاعه خمسة وثلاثين متراً. وقواعد المبنى فريدة فى كونها مصممة على شكل خوازيق شد مع قاعدة فرشة (لبشة) ثقيلة فى الجانب الجنوبى وخوازيق ضغط كى تأخذ الوزن فى الجانب الشمالى.

أحد أكثر مقومات المبنى نجاحاً هو استخدامه للضوء الطبيعى الذى يستمد من خلال الألواح الزجاجية على السطح.

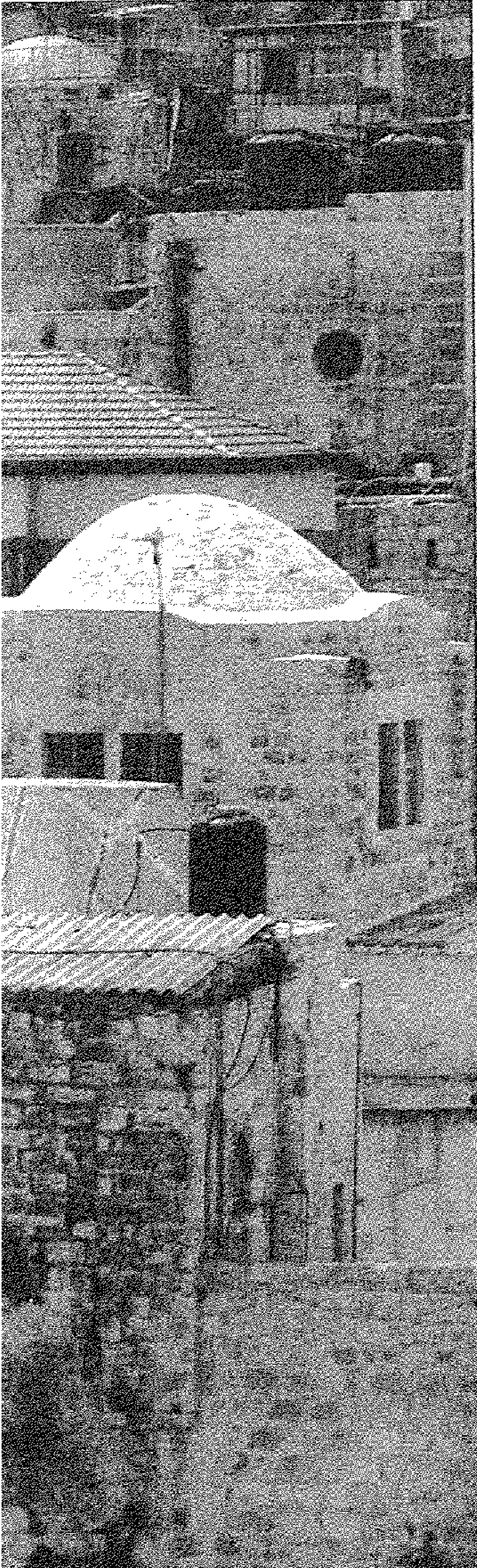
وقد تمت دراسة توجيه سطح المبنى بعناية باستخدام الكمبيوتر، خلال مرحلة التصميم بحيث يسمح بدخول أعلى مستويات الإضاءة الطبيعية بدون نفاذ ضوء الشمس المباشر إلى الداخل.

ويتصل مبنيا المكتبة والقبة السماوية على مستوى تحت سطح الأرض، تحت الساحة العامة، بمركز مؤتمرات قائم، بينما يمتد جسر مشاة فوق الساحة بين الجامعة والطريق الساحلى.

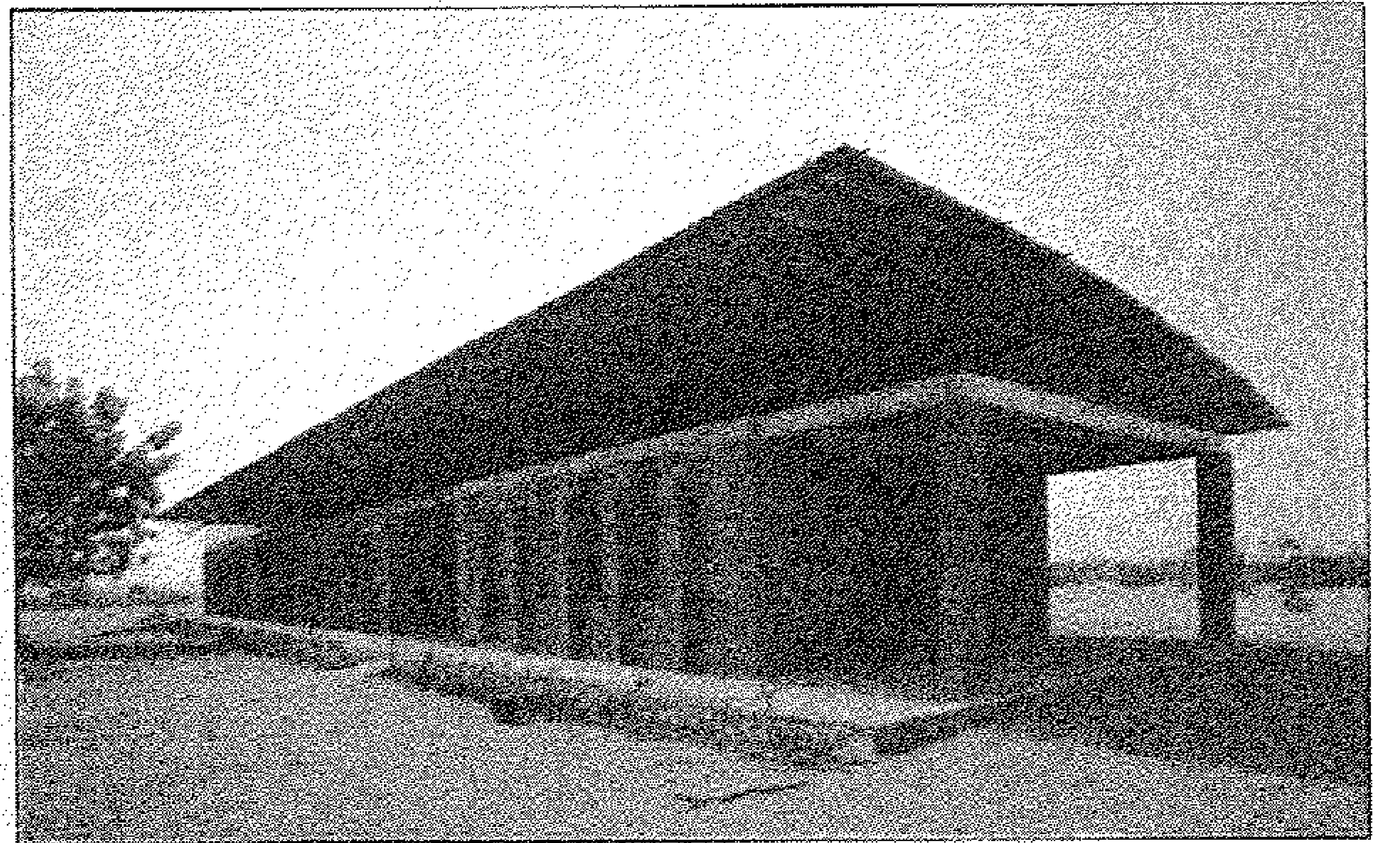
إن مكتبة الإسكندرية إحياء للمكتبة الأسطورية القديمة التى شيدت فى العصر الإغريقى الكلاسيكى. لقد أرجعت إعادة بناء مكتبة الإسكندرية إلى منزلتها الرفيعة السالفة كمركز للتعليم والتبادل،



مكتبة الإسكندرية (مصر)



< البلدة القديمة فى القدس



< مدرسة ابتدائية (بوركينا فاسو)



كما منحت المدينة مبنى يشكل معلماً. إن روح التعاون العالمي الذي تم من خلاله تصور وتمويل وتصميم وتنفيذ المكتبة قد احتفظ به في إدارة المكتبة لإنشاء مؤسسة تكون حقاً عالمية في مظهرها. وفي نفس الوقت، فإن المبنى بحد ذاته متميز تقنياً. كما أن روعة التصميم المعماري للمكتبة إنما تذكرنا بأن المعمار يحمل أكثر من كونه شكلاً أو مجرد مضمون، بل قد يمتد إلى أكثر من ذلك من خلال نشر فكرة بعينها. إن المبنى، من خلال هذا التصميم الرائع، ينادي بتحرير العقول ويساعد على الابتكار والوصول إلى كل ما فيه خير الإنسانية ويعزز قيم الحوار والانفتاح على الآخر.

المشروع الثاني: أبراج بتروناس

حصل هذا المشروع على الجائزة لأنه يمثل اتجاهاً جديداً في تصميم ناطحات السحاب، متضمناً تقنيات متقدمة بينما يرمز إلى الطموحات المحلية والوطنية. يجسد المشروع العديد من الابتكارات التي تتراوح مع استخدام الخرسانة عالية القوة غير المألوفة لتسهيل تكوين نظام إنشائي «أنبوبي لين»، إلى توظيف فكرة نقل رأسي مبتكرة ودمج أحدث أنظمة الحفاظ على الطاقة. إن نجاح هذا المشروع يكمن في الطريقة التي يجمع بها هذه الإبداعات التقنية بينما يولد شكلاً رشيقاً يستجيب بشاعرية لمحيطه الأكثر اتساعاً. لقد أصبح هذا البناء أيقونة تعبر عن تطور المجتمع الماليزي المعاصر وتعتمد على التقاليد الغنية للبلد لتشكيل مدينة عالمية.

يمثل برجا بتروناس حالياً القطع المركزية في مجمع مركز مدينة كوالالمبور ذي الاستعمال المختلط، الذي يقع في قلب المنطقة التجارية في المدينة. بارتفاعهما ٤٥٢ متراً، أقر البرجان في عام ١٩٩٦ كأطول مبنيين في العالم من قبل مجلس المباني العالية والموطن الحضري.

المشروع في المقدمة تكنولوجيا، وهو ذو شكل مشتق من نموذج شكلي إسلامي، واستخدمت فيه المواد المحلية بشكل واسع. وقد أصبح البرجان مثالاً رائجاً للعمارة المعاصرة في ماليزيا. وشكلهما الأنيق يجعلهما أهم معلم حضري في البلد.

يعد برجا بتروناس، أطول برجين في العالم. حيث يبلغ ارتفاع كل برج ٨٨ طابقاً، ٤٥٢ متراً فوق سطح البحر. كما تبلغ مساحة البناء المستغلة في هذا المشروع ٣٤١.٧٦٠ ألف متر مربع. وعلى ارتفاع ١٧٠ متراً يربط جسر معلق طوله ٥٨.٤ متر بين البرجين عند الطابقين ٤١ . ٤٢. والجسر مدعم بذراعين مائلين عند طرفي الجسر ومثبتين في البرجين ويبلغ طول الذراع الواحد ٤٢.٦ متر ويزن كل منهما ٦٠ طناً. كذلك فالبرجان متصلان عند القاعدة ليشكلا مجمعاً تجارياً وترفيهياً من ستة طوابق مع



فناء مركزي. يمتد من الفناء «شارعان» على طول محورين متقابلين صف على جانبيهما أكثر من ٣٠٠ محل تجاري، ومقهى، ومطعم. إضافة لذلك، يضم المجمع قاعة حفلات موسيقية تتسع لـ٨٨٠ شخصاً، ومعرضاً للفنون، ومكتبة متخصصة، ومركز استكشاف علمي تفاعلي، وكذلك موقف سيارات تحت سطح الأرض يتسع لـ ٥٤٠٠ سيارة.

إضافة إلى ما سبق فقد تمت كسوة البرجين بطبقة من الفولاذ المقاوم للصدأ بلغت مساحته ٦٥ ألف متر مربع من ألواح الفولاذ. كما تم استخدام ما مساحته ٧٧ ألف متر مربع من الزجاج. أما فيما يتعلق بالبناء فقد استخدم ما حجمه ١٦٠ ألف متر مكعب من الإسمنت المسلح، بالإضافة إلى ١٣.٢٠٠ ألف متر مكعب من الإسمنت المسلح استخدمت كأساسات أسفل كل برج من البرجين وهو ما يعادل وزنه ٣٢.٥٥٠ ألف طن.

الإنشاء الذي يرتكز عليه كل من البرجين يتكون من حلقة من ستة عشر عموداً أسطوانياً من الخرسانة المسلحة عالية القوة، موضوعة في الزوايا الداخلية للمسقط الأفقي نجمي الشكل لتشكل «أنبوباً ليناً». والأعمدة مرتبطة مع بعضها البعض بواسطة جسور حلقية مقوسة صنعت أيضاً من الخرسانة الإنشائية. أقطار الأعمدة تبلغ حوالي ٢.٤ متر عند قاعدة المبنى، ولكنها تستدق أثناء صعودها خلال طوابق المبنى، كما أنها تميل نحو مركز البرجين. وفي وسط كل برج قلب مربع يحتوي على مصاعد وممرات رأسية للخدمات الميكانيكية وخدمات أخرى، ويمتد من هذا القلب جسور نحو أعمدة المحيط. يحتل القلب ٢٣٪ من المسقط الأفقي - نسبة منخفضة بالمقارنة مع ناطحات سحاب أخرى. يتكون نظام الأساسات لهذين البرجين من قاعدة فرشة (لبشة) بسماكة ٤.٥ متر ترتكز على خوازيق احتكاك مستطيلة يتراوح عمقها من ٤٠ متراً إلى ١٠٥ أمتار. يحتوي كل برج على عدد ٢٩ مصعداً سريعاً يسير بسرعة تتراوح بين ٣.٥ إلى ٧ أمتار في الثانية. بالإضافة إلى ذلك يوجد في المجمع ١٠ سلالم كهربائية تعمل على تسهيل حركة الانتقال داخل أروقة البرجين.

ثانياً: الحفاظ على الهوية

جاء خيار ترميم مسجد العباس باليمن تأكيداً لأهمية حماية التراث في ظل تحديات التنمية الاقتصادية، وعجلة التحديث التي لا تتوقف. أما مشروع إعادة إعمار مدينة القدس، فهو صادق للإرادة الفلسطينية المتمسكة بالتأكيد على الهوية في مواجهة السلطات الإسرائيلية، التي حاولت وتحاول تغيير طابع مدينة القدس، معمارياً واجتماعياً. وبالرغم من الإمكانات الضخمة المجندة ضدهم، تمكنت الجمعيات الأهلية والمجتمع المدني الفلسطيني، أن تسهم في تنمية المجتمع الفلسطيني في القدس، اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، فجاءت التجربة ناجحة نجاحاً فائقاً متمكنة كل التمكن من آليات العمارة والتنمية. لزيادة حيوية المجتمع الفلسطيني بالقدس، فبرزت الهوية وتأكدت مواكبة للحلول الاقتصادية والاجتماعية والمعمارية لمشاكل هذا المجتمع. ولنفرد كلمة عن كل من هذين المشروعين.

المشروع الثالث: برنامج إعمار البلدة القديمة في القدس

نال البرنامج جائزة لطريقته الشاملة نحو دعم حياة المجتمع في محيطه الطبيعي - حياة مهددة بتدهور أوضاعها الفيزيائية والاجتماعية والاقتصادية. ويكمن نجاح المشروع في تناوله عدة قضايا بما في ذلك ترميم وإعادة تأهيل الإسكان، وأيضاً في إعادة استخدام المباني والصروح التاريخية لأغراض جديدة. والمشروع مميز لما يوفره من تدريب في الحفاظ المعماري لكل من المعماريين والمهندسين والمقاولين والحرفيين، وكذلك لتأسيسه لمركز معلومات وقاعدة بيانات للمدينة القديمة بما تشمله من توثيق ومسوحات وبحث ودراسات. وأخيراً، أنشأ المشروع برنامجاً للتواصل مع المجتمع بنشر الوعي بين العامة حول قيمة المباني التاريخية ويشجع مشاركتهم في عملية إعادة التأهيل والترميم.

للقدس تاريخ استثنائي، طويل ومتنوع، ولكن النسيج الحضري الخاص بالمدينة القديمة مهدد بسبب الازدحام المتزايد والخدمات الرديئة وغياب الصيانة. ويهدف برنامج إعمار البلدة القديمة في القدس إلى إعادة تأهيل البلدة والحفاظ على تراثها وخلق نوعية حياة أفضل لساكنيها.

تأسست مؤسسة التعاون، وهي مؤسسة غير حكومية مقرها جنيف في عام ١٩٨٣ كي تتناول هذه القضايا ولكي تدعم الشعب الفلسطيني في جميع مجالات التنمية، وتأسس مكتبها الفني في القدس عام ١٩٩٥. يضم هذا المكتب مختصين في حقول مختلفة مثل العمارة والهندسة والتخطيط والاقتصاد والتاريخ. والهدف الأساسي للمكتب هو تطبيق برنامج شامل لإعادة تأهيل البلدة القديمة يحتوي على عدد من المكونات المتناغمة: خطة إعمار؛ وترميم طارئ؛ وترميم كلي؛ وتدريب في مجال الحفاظ المعماري؛ وبرنامج للتواصل مع المجتمع؛ ومركز معلومات.

تشكل خطة إعمار البلدة القديمة أساس العمل في البرنامج، لقد تم القياس بمسح واسع للتعرف على المباني ذات الوضع الأكثر خطورة ووضع اقتراحات لإعادة تأهيلها. الهدف ليس الترميم العاجل لحي ما، بل تدخلات في كل مكان في المدينة القديمة. العديد من المشاريع عبارة عن مساكن - إما مبان مفردة تتكون من طابقين أو ثلاثة طوابق تسكنها عائلة أو اثنتان، أو مجمعات سكنية تقليدية (حوش) تتكون من عدة وحدات تحيط بفناء ويسكنها ما قد يصل إلى عشر عائلات. كذلك، يركز البرنامج على مبان عامة أو دينية رئيسية - مساجد وكنائس ومدارس ونزل - بعضها مازال يحتفظ بوظيفته الأصلية والبعض الآخر تم تكييفه ليخدم أغراضاً جديدة.

لقد عانى النسيج الحضري للمدينة من الإهمال والاستخدام غير الملائم والخدمات غير الكافية، وهناك أناس كثيرون يعيشون في مبان متهدمة في ظروف غير صحية. يتم اختيار المباني إما للترميم الطارئ أو الترميم الكلي. والترميم الطارئ، في العادة، عبارة عن تدخل سريع ومحدود لحل مشكلات تتسبب في مخاطر حالية صحية أو متعلقة بالسلامة وتتطلب تدخلاً عاجلاً، كما في حال عدم استقرار الإنشاء أو تسرب المياه. وتتنوع مدة المشاريع من حوالي ثلاثة شهور لمنزل صغير إلى عدة أعوام للمشاريع غير السكنية. ويتم تنفيذ العمل في المباني ذات القيمة المعمارية والتاريخية ببطء وحساسية، وتتخذ بشأنها القرارات بعناية فائقة.

تعد دار الأيتام مثالاً على المشاريع غير السكنية ذات القيمة المعمارية التاريخية، وهي عبارة عن مجمع يحوي خمسة مبان



مسجد العباس باليمن
قبل وبعد الترميم



صرحية من الفترتين المملوكية والعثمانية، ومن ضمنها مطبخ للحساء ومخبز أنشأتهما زوجة السلطان سليمان. ويتم حالياً تطوير هذا المجمع التاريخي على مراحل ليصبح مؤسسة تعليمية.

تتمم الجوانب الأخرى من البرنامج أعمال الترميم كي تضمن استدامة التحسينات. إذ يتم توفير التدريب للمعماريين والمهندسين والمقاولين والحرفيين من خلال دورات قصيرة ومنح تدريب ومنح جامعية في الخارج. وهناك برنامج للتواصل مع المجتمع ينشر الوعي بين العامة ويشجعهم على المشاركة في عملية إعادة التأهيل، كما يصدر البرنامج منشورات وينظم لقاءات وورش عمل ومحاضرات للمدارس والمؤسسات الدينية وسكان المباني ومستخدميها. وهناك مكونات أخرى مقترحة للبرنامج: مركز معلومات، وبنك بيانات خاص بمؤسسات الحفاظ المعماري وبالمختصين في هذا المجال، ومعهد القدس للحفاظ على التراث المعماري في فلسطين.

مع نهاية عام ٢٠٠٣ تم من خلال البرنامج ترميم اثنين وثمانين مشروعاً سكنياً وستة وعشرين مبنى عاماً وخمسة وخمسين مبنى تجارياً، مما يوفر للسكان أوضاعاً معيشية مقبولة ويخلق حيزات جديدة للمجتمع ويضمن المحافظة على النسيج التاريخي الغني للمدينة القديمة.

البرنامج عبارة عن مشروع شامل يقصد جميع جوانب الحياة البشرية، وله عدة مكونات تضم الترميم والتدريب والتعليم وتنمية الوعي العام. وترتبط جميع هذه المكونات معاً لتحقيق إعادة إحياء متكاملة ودائمة. تشمل مجموعة الأعمال التي تم إنجازها حتى اليوم ما يفوق مائة وستين مشروعاً، جميعها تم تنفيذها بتعاون وثيق مع مؤسسات محلية ومنظمات دولية ووكالات تمويل.

المشروع الرابع:

ترميم مسجد العباس باليمن

اختير هذا المشروع لينال جائزة لأنه يطبق مقاييس معمارية نموذجية للحفاظ المعماري ويشرك الكبرياء المحلي في حماية هذا الصرح الثقافي المهم للأجيال القادمة. يمثل المشروع تأسيس شراكة ناجحة ومستدامة بين خبرات محلية وخارجية في مجال عملية الحفاظ على الآثار. وبالرغم من أن الترميم امتد قرابة عشرة أعوام خلال ظروف سياسية استثنائية، فإن الثبات على المبدأ والتكريس والالتزام من قبل المشاركين المحليين والخارجيين أمّن أن نسيج المبنى لم يخضع للمساومة بأي حال من الأحوال. في الواقع، عملية الترميم هذه رفعت المقاييس المعمارية للترميم في المنطقة، محيية ممارسات تقليدية بالتوازي مع الطرق الحديثة العلمية للحفاظ على الآثار. وهذه تتراوح من استخدام مونة البناء التقليدية والقصارة (البلاستر) إلى إصلاحات إنشائية معقدة وحفاظ على لوحات السقف التزيينية رفيعة الذوق.

يرجع تاريخه إلى آخر أيام السلالة الصليحية. وهناك نقش في داخل المسجد يؤرخ المبنى بتاريخ ذي الحجة ٥١٩ (ديسمبر ١١٢٥ - يناير ١١٢٦ بالتقويم الغريغوري)، ويسمي النقش مؤسس المسجد السلطان موسى بن محمد الفطلي. ويسمي نقش آخر الباني أو المعمار محمد بن أبو الفتح ابن أرحب. ولكن المسجد في حقيقة الأمر يُنسب إلى شخص معروف قليلاً اسمه «عباس»، وهو رجل صالح يعتقد أنه دفن هناك. ويعد هذا المسجد شاهداً على التقاليد الحية والإنجازات المعمارية لواحدة من أقدم حضارات العالم.

بحلول الثمانينيات من القرن العشرين: كان السقف يعاني من التعفن والاعوجاج. وفي عام ١٩٨٥، طلبت الحكومة اليمنية من المركز الفرنسي للدراسات اليمنية في صنعاء المساعدة في الحفاظ على سقف المسجد. وقد تم تفكيك السقف بدعم مالي من اليونسكو ونقل إلى المتحف الوطني في صنعاء. وفي عام ١٩٨٧، طلب المركز الفرنسي من أخصائية الآثار والحفاظ على الآثار ماريلين باريه أن تقوم بترميم السقف، وهو ما استغرق ثلاثة أعوام. كانت عملية التنظيف والترميم بطيئة واحتاجت إلى جهد كبير في العناية بالتفاصيل، وقد تم احترام أهمية الحفاظ على تاريخ السقف.

كذلك كان السطح بحاجة إلى إصلاحات رئيسية. وقد اتخذ قرار بترميم نسيج المبنى نفسه. نفذت هذا العمل ماريلين باريه مع المعمار اليمني عبد الله الحضرمي ومعهما فريق من الآثاريين اليمنيين والفرنسيين ومجموعة من أفضل الحرفيين المحليين. وتم مشروع الترميم هذا في عام ١٩٩٦.

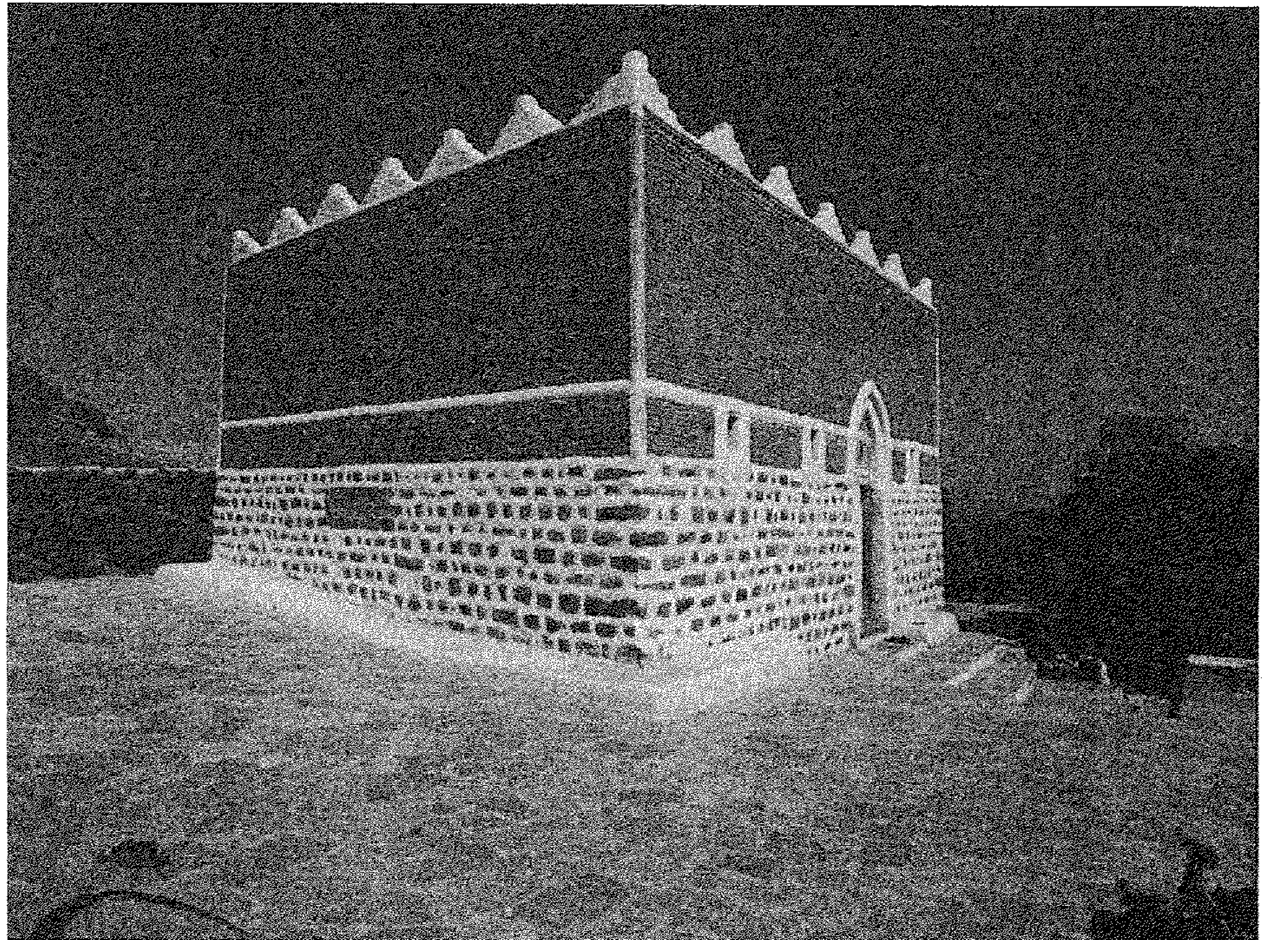
يقع مسجد العباس في المرتفعات اليمنية، على بعد أربعين كيلو متراً وقد بني المسجد منذ أكثر من ثمانمائة عام على بقايا ضريح أو معبد يعود إلى ما قبل الفترة الإسلامية في موقع يعتبر مقدساً منذ قديم الأزل. كذلك فإن شكله المكعب له أسبقيات قديمة بما في ذلك الكعبة في مكة. والسكان المحليون مستمرون في تبجيل المسجد، والموقع اليوم مازال يحتفظ بأهمية خاصة لديهم.

بنيت الأجزاء السفلية من حوائط المسجد من الحجر، واستخدم الطوب الطيني في الأجزاء العليا منها. المسجد مربع في مسقطه الأفقي وذو سطح مستو، مما يجعله مكعب الشكل. ويوجد في داخل المسجد ستة أعمدة، أربعة منها صنعت من الحجر ويعود تاريخها إلى ما قبل الفترة الإسلامية واثنان صنعا من الطوب. ثلاثة من الأعمدة لها تيجان أثرية. وتتميز الأعمدة داخل المسجد إلى أربعة صفوف تقود نحو حائط المحراب. يناقض سقف المسجد المفصل، الذي يتكون من وحدات غائرة متكررة ومنتظمة، تماماً خارج المبنى البسيط. وقد بقي معظم هذا السقف بدون أي تغيير منذ إنشائه. وحدات السقف الاثنتان والعشرون صنعت من الخشب المغطى بزينات معقدة منحوتة ومذهبة ومطلية بدهان التمبرا (نوع من الدهان يتكون بخلط صبغات من الماء وصفار البيض المخفف بالماء، حيث يعمل صفار البيض عمل رابط للصبغات ومثبت للدهان على الأسطح).

وأينما أمكن، استخدمت المواد والتقنيات التقليدية، التي مازال الكثير منها يستخدم اليوم، في الترميم، مثل القداد، وهو مونة بناء تقليدية تتكون من الجير والركام البركاني وتصقل بواسطة حجر ناعم مكسو بالدهن الحيواني. لم يتم إدخال أية عناصر تخمينية: جميع العناصر الجديدة يمكن تعقبها إلى أمثلة أصلية سواء في شكلها أو في موقعها.

بعد الانتهاء من السطح، ركبت بعناية في المتحف ألف قطعة منفصلة ومرقمة خاصة بالسقف. كما تجمع قطع الألغاز. بعد ذلك، تم نقل القطع المجمعة، صف واحد في كل مرة، إلى المسجد. وثبتت على إنشاء داعم جديد وبارع مكون من جسور صندوقية على شكل حرف U هي الآن مخفية بالكامل بواسطة ألواح السقف التي أعيدت إلى موضعها بعد أن تم ترميمها.

منذ أن تم الترميم، عادت أناقة المبنى الأصلية وزينته





للحياة، مما زاد من اهتمام السكان المحليين الفخورين بمسجدهم، وهم بصورة خاصة سعداء برؤية السقف الجميل يعود إلى موضعه. ويمكن لمبادئ الترميم التى وظفت فى مسجد العباس أن تخدم فى توجيه مشاريع لاحقة معنية بالحفاظ على الممتلكات الثقافية. كذلك فإن المشروع قد يحفز مزيداً من البحث، وخاصة بما يتعلق بعدد من الآثار المحيطة بموقع المسجد.

ثالثاً: الفقراء والمهمشون:

اهتمت جائزة الأغاخان للعمارة على عبر السنين بتقدير جهود المعماريين الذين يعملون لحل مشاكل الفقراء والمهمشين، فرأينا الجوائز مشروعات الكمبونج بإندونيسيا (منذ حوالى ١٩٨٠) وإسكان الفقراء فى الريف (مساكن بنك جرامين ١٩٨٩) وكذلك مساكن الفقراء فى المدن ولكن لم يتم حتى الآن تكريم جهود من يعمل من أجل اللاجئين والمشردين. ومن هنالك جاءت الأهمية الكبرى لتكريم مشروع أكياس الرمل، ذلك المشروع الفريد فى أهدافه ومنجزاته.

المشروع الخامس: بيوت أكياس الرمل

نجح المهندس الإيرانى الأصل نادر خليلى، بعد أن كرس حياته لحل مشاكل اللاجئين والمهمشين، وبعد أن أسس فى كاليفورنيا مركزاً خاصاً لدراسة الحلول المعمارية لهذه المشاكل، تمكن من طرح مشروع مبدع، رائع فى بساطته، ومنجزاته. فبدأ بأكياس الرمل والأسلاك الشائكة، وهى معدات الحروب ومقومات المعسكرات ومجمعات اللاجئين، تمكن نادر خليل أن يبنى مساكن برص صف على صف من الأكياس الرملية، مع وضع أسلاك شائكة بين كل صف حتى يرتبط العلوى بالسفلى، وتقوم الأسلاك بدور «المونة» فى البناء التقليدى. ويكتمل البناء بقبة أو قبو، ويمكن تنويع المبنى بإضافة حجرة دائرية إلى حجرة أخرى وإقامة تكوينات متناغمة، متناهية فى إمكانية التنوع Variation التى يمكن تنفيذها. كما أن هذه الحجرات قد أثبتت، تحت التقييم العلمى الدقيق، كفاءة حرارية عالية، وقدرة إنشائية عالية.

وفى حالات معينة، يمكن أن تضاف طبقة من الطين والحصى على الحوائط المكونة من هذه الأكياس الرملية، بروابطها من الأسلاك الشائكة إذا أريد تحويل «المأوى» إلى «مسكن».

بعد بحث شامل فى الطرق المحلية للبناء بالتراب فى إيران، تم تطوير نماذج أولية تفصيلية، تم تطوير نظام أكياس الرمل أو «اللبن الممتاز». تتضمن تقنية الإنشاء الأساسية فى هذا النظام ملء أكياس رمل بالتراب ورصها بشكل مداميك فى مسقط أفقى دائرى. وتبرز المداميك الدائرية العلوية عن بعضها البعض لتشكل قبة. وتمد أسلاك شائكة بين المداميك لمنع أكياس الرمل من الحركة ولتوفير مقاومة للزلازل. وهكذا، فإن المواد المستخدمة فى الحروب - أكياس الرمل والأسلاك الشائكة - استخدمت لغايات سلمية دامجة عمارة التراب التقليدية بالمتطلبات المعاصرة للسلامة العالمية.

يوظف النظام الأشكال الخالدة من أقواس وقباب وأقبية لصنع إنشاءات هيكلية أحادية وثنائية الانحناءات تكون قوية ومرضية من الناحية الجمالية. وفى حين أن هذه الأشكال الحاملة للثقل أو التى تتحمل الضغط تشير إلى عمارة الطوب الطينى القديمة الخاصة بالشرق الأوسط، فإن استخدام الأسلاك الشائكة بصفتها عنصر شد يلمح إلى منشآت الشد القابلة للنقل والخاصة بالثقافات البدوية. النتيجة هى إنشاء آمن جداً. فإضافة الأسلاك الشائكة لإنشاءات الضغط تولد مقاومة للزلازل؛ والشكل الانسيابى يقاوم الأعاصير؛ واستخدام أكياس الرمل يساعد على مقاومة الفيضانات؛ والتراب بحد ذاته يوفر عزلاً ومقاومة للحريق.

إن النظام ملائم بشكل خاص لتوفير ملاجئ مؤقتة، وذلك لأنه رخيص الثمن ويسمح بإنشاء المبانى بسرعة بشكل يدوى من قبل شاغلى المبنى أنفسهم وبتدريب قليل. وتركز الملاجئ على دعم الناس اقتصادياً من خلال مشاركتهم فى صنع بيوتهم الخاصة ومجتمعاتهم.

يشتمل كل ملجأ على حيز رئيسى مقبب ملحق به حيزات للطبخ والخدمات الصحية. ويمكن أيضاً صنع إضافات تزايدية مثل الأفران وحظائر الحيوانات لتوفير وضع أكثر استقراراً. كما يمكن استخدام التقنية لكل من المبانى والبنية التحتية مثل الطرق والحواف والحوائط الساندة وعناصر تنسيق الموقع.

ولما كانت الإنشاءات تستخدم موارد محلية - التراب المتوفر فى الموقع والأيدى البشرية - فهى مستدامة بشكل كامل. الرجال والنساء والكبار والصغار يمكن أن يبنوا، إذ أن أقصى حمل يحتاجون لرفعه هو وعاء مملوء بالتراب يقومون بتفريغه فى الأكياس. الأسلاك الشائكة وأكياس الرمل متوفرة محلياً، والمثبت أيضاً متاح فى العادة محلياً.

تصلح هذه الملاجئ كنماذج أولية للإسكان المؤقت تستخدم فيها وسائل رخيصة جداً لتوفير مساكن آمنة يمكن بناؤها بسرعة وتحقق قيم العزل العالية اللازمة فى المناخ الحار الجاف. وقد جاء شكلها المنحنى استجابة للظروف الزلزالية، كما استخدم فيها الرمل أو التربة الخام ببراعة، إذ أن مرونة هذا المواد تسمح ببناء هياكل ضغط أحادية أو ثنائية الانحناء يمكن أن تتحمل القوى الجانبية للزلازل.

رابعاً: الإنجاز المعمارى على المقياس الصغير

يأتى المشروعان الباقيان من المشروعات الفائزة بجائزة الأغاخان للعمارة لعام ٢٠٠٤ للتذكرة بأهمية الممارسة المعمارية على نطاق المبنى الواحد الصغير: أولهما مدرسة ابتدائية فى جوندو، بوركينا فاسو، من أفقر الأماكن فى العالم، وثانيهما هو بيت استراحة (صينية/ بتركيا قام أخوان بإنشائها بقرية تبعد عن اسطنبول - أنقرة، وأقيم المبنى على ربوة مطلة على القرية ولكن على مسافة منها.

وقد كنت فكرت كثيراً فى فصل هذين المشروعين باعتبار أن مدرسة بوركينا فاسو مشروع ذو بعد اجتماعى واضح، وأنه مشروع يخدم الفقراء بصورة لا خلاف عليها ولكننى فى نهاية الأمر فضلت أن أضعه فى إطار «الإنجاز المعمارى على القياس الصغير»، لأننى أعتبر أن الإنجاز المعمارى فى هذا المشروع أمر رائع يستحق وقفة تحليل وتمحيص.

المشروع السادس: مدرسة ابتدائية فيوندو، بوركينا فاسو

إذا نظرنا إلى الموقع فى قرية جوندو، وجدنا أنفسنا فى مكان الفقر المدقع، ولكن قرية بها روابط أسرية مهمة وشعور من التضامن الاجتماعى بين أفراد القرية. وشاءت الظروف أن ابن القرية المعمارى ديبيدو فرانسيس كيرى تمكن من التعليم، ودرس العمارة بألمانيا، ولكنه عاد إلى قريته ليفيدها بعلمه، فتمكن بعلمه أن ينظم بين البساطة والجمال، بين الكفاءة فأتى ببعض أطوال من حديد التسليح وقام بلحامها فى تكوينات هرمية رفعت السقف المظلل فوق المبنى ما يحمى الفصول من أشعة الشمس، ويظلل الردهة المفتوحة بين الفصول. قاموا بصناعة قوالب الطوب من الطين المحلى، وبدراهم بسيطة تمكن أن يعطى القرية مدرسة ابتدائية، جميلة، نفعية.

حصل المشروع على الجائزة لوضوح تركيبه المعمارى الأنيق الذى تم تحقيقه باستخدام الطرق والمواد الأكثر تواضعاً، ولقيمته التحولية. المدرسة التى تقع فى مستوطنة بعيدة فى بوركينا فاسو هى ثمرة لتصور تم فى البداية توضيحه من قبل المعمار ثم تبنيه من قبل المجتمع. بينما هو يدرس العمارة فى ألمانيا، عقد الشخص الأول من قريته الذى يصل إلى التعليم العالى العزم على تصميم وبناء المدرسة. بعد أن أمن من المؤيدين فى ألمانيا الأموال لمواد البناء، حشد الرجال والنساء والأطفال فى القرية لإنشاء المدرسة.

لقد كان جميع المشاركين فى إدارة المشروع من مواطنى القرية. والمهارات التى تم اكتسابها من هذا المشروع سيتم تطبيقها فى مبادرات أخرى فى القرية وفى أماكن أخرى. إن الطريقة التى نظم فيها المجتمع نفسه ضربت مثلاً يحتذى، إذ قامت قريتان مجاورتان بإنشاء مدارس خاصة بهما بمجهود تعاونى. وقد قدرت السلطات المحلية جدارة المشروع: لم تقم السلطات فقط بتزويد المدرسة بالمدرسين ودفع أجورهم، ولكنها أيضاً سعت إلى توظيف الشباب الذين تدربوا أثناء المشروع فى مشاريع حكومية للبلدة تستخدم نفس التقنيات.

حددت الاعتبارات المناخية بدرجة كبيرة شكل المبنى والمواد المستخدمة لبنائه. المبنى عبارة عن ثلاثة صفوف دراسية مرتبة بطريقة طولية ومفصولة عن بعضها البعض بمساحات خارجية يمكن استخدامها للتدريس أو اللعب.

يتكون الإنشاء من حوائط حاملة تقليدية مصنوعة من الطوب الترابى المضغوط والمستقر. وهناك جسور خرسانية تمتد عبر سقف المبنى، وقضبان فولاذية تقع فوق هذه الجسور يرتكز عليها السقف المصنوع أيضاً من الطوب الترابى المضغوط. وقد تم تأمين الراحة المناخية من خلال ترتيبات شملت السطح الناتئ الذى يظلل الواجهات؛ ورفع السطح المعدنى المتموج على جمالون فولاذى؛ مما يسمح للهواء المبرد أن ينساب بحرية بين السطح والسقف؛ واستخدام الطوب الترابى للحوائط حيث يقوم بامتصاص الحرارة ملطفاً درجة حرارة الغرف.

شكل السطح أملته اعتبارات عملية: لم يكن من الممكن نقل عناصر كبيرة إلى الموقع من مسافات بعيدة، ولم يكن من المجدى اقتصادياً استخدام آلات رفع مثل الرافعات. وهكذا، استخدم المعمارى عملية تم فيها صنع جمالونات خفيفة الوزن من قضبان الإنشاء الفولاذية العادية، ووضع ألواح معدنية مموجة فوق الجمالونات لتشكل السطح. كل الذى كان ضرورياً هو تعليم الناس كيفية استخدام منشار يدوى وآلة لحام صغيرة.

هذه المدرسة هى نتيجة حافز قوى لدى شخص واحد دفعه لتحسين ظروف قريته. إنه لم يقم فقط بتصميم المدرسة وجمع الأموال لبنائها، بل أمن أيضاً دعم الحكومة لتدريب أشخاص على البناء بمواد محلية، واستفاد من التقليد القوى الخاص بالتضامن المجتمعى لإشراك كل القرويين فى إنشاء هذه المدرسة لأطفالهم فكانت النتيجة بناء ذا تناسق ودفء وحنكة ينسجم مع المناخ والثقافة المحليين. لقد انصهر ما هو عملى مع ما هو شعرى. إن المدرسة الابتدائية فى غاندو تلهم مجتمعها الكبرياء وتغرس فيه الأمل واضعة بذلك الأساس لتقدم شعب.



المشروع السابع:

مسكن B2 بتركيا

اختير هذا المشروع لبساطته المتناهية، والتجريد الذى حول علبة خرسانية إلى عمل معمارى مرتبط بالمكان ومتفاعل مع البيئة بقدرته على الانفتاح الكامل على الطبيعة.

أراد أخوا تركيا، سلمان وسها بلال، أن يبنيا منزلاً لهما على الساحل الشمالى لبحر إيجة فى تركيا ليكون مكانًا يقضيان فيه عطلات نهاية الأسبوع فى بقعة يمكنهما أن يجدا فيها الجمال والهدوء والعزلة دون أن يقطعا مسافات طويلة من منزليهما فى اسطنبول.

يقع منزل ب٢ على أطراف بويخوسون، وهى قرية صغيرة بالقرب من أيفاسيك يسكنها مجتمع منسوج بإحكام يتكون من أربعمائة وخمسين شخصاً يعملون بشكل أساسى فى الزراعة. يقع منزل ب٢ بكتلته المستطيلة النقية مباشرة فى خارج الحدود الجنوبية الشرقية للقرية فى موقع مفتوح مدرج.

وقد يتساءل البعض عن مدى رمى هذا المشروع الإنجاز المعمارى الذى يستحق التكريم بجائزة الأغاخان للعمارة، وقد يكون هذا التساؤل فيه الكثير من الصحة، ولكن جوائز الأغاخان للعمارة لها ديناميكية خاصة بها مؤداها أن التفاعل بين مجموعات مستقلة مثل لجنة التحكيم واللجنة التوجيهية يفرز دائماً اختياراً أو اختيارين تدعو إلى التعجب. ولكن هذا الأمر بسيط فى إطار الرسالة المتكاملة للجوائز، وهذا هو موضوع كلماتى الختامية فى هذا المقال.

تم اختيار هذا المنزل لينال جائزة لأنه يجسد حساً من الكمال والازدهار. هو يمثل طريقة تقدمية فى تقدير تاريخ مكانه، المنازل المحيطة به وشكل موقعه الطبيعى، ليشكل خلقاً جديداً وفريداً هو، فى الوقت ذاته، جزء مكمل لمجتمعه. المنزل يقف منفرداً بشكله الجميل وكسوته الأنيقة ويحمل كمية قصوى من الوقار تحققت بواسطة أدنى الوسائل. وهو يحتفل بالتأمل ناظراً نحو الأفق بانفتاح ووضوح. إنه يدمج وفرة من المعرفة المعمارية، ولكنه فى الوقت نفسه يعبر عن فردية طموحات المعمار.

عندما يكون مفعماً بالحياة والنشاط، يصبح المنزل مكانًا ذا دلالة ومرجعية خاصتين بالنسبة للمجتمع، يعانق كل من يرحب بهم كزوار أو عُبار. وعندما يكون خاليا، يستمر فى نيل الاحترام الذى يستحقه كثيراً.

قصد مالكا المنزل تقييد مقياس المنزل لكى يحتفظا بتكاليف الإنشاء مع تحقيق إنشاء بسيط عملى لا يتطلب صيانة كثيرة. لذلك، فإن البرنامج أساسى وبسيط: الطابق الأرضى تشغله غرفة معيشة كبيرة، والطابق الأعلى تشغله غرفتا نوم. والاتصال بين الطابقين تم عبر سلم خارجى مصنوع من الخشب والفولاذ.

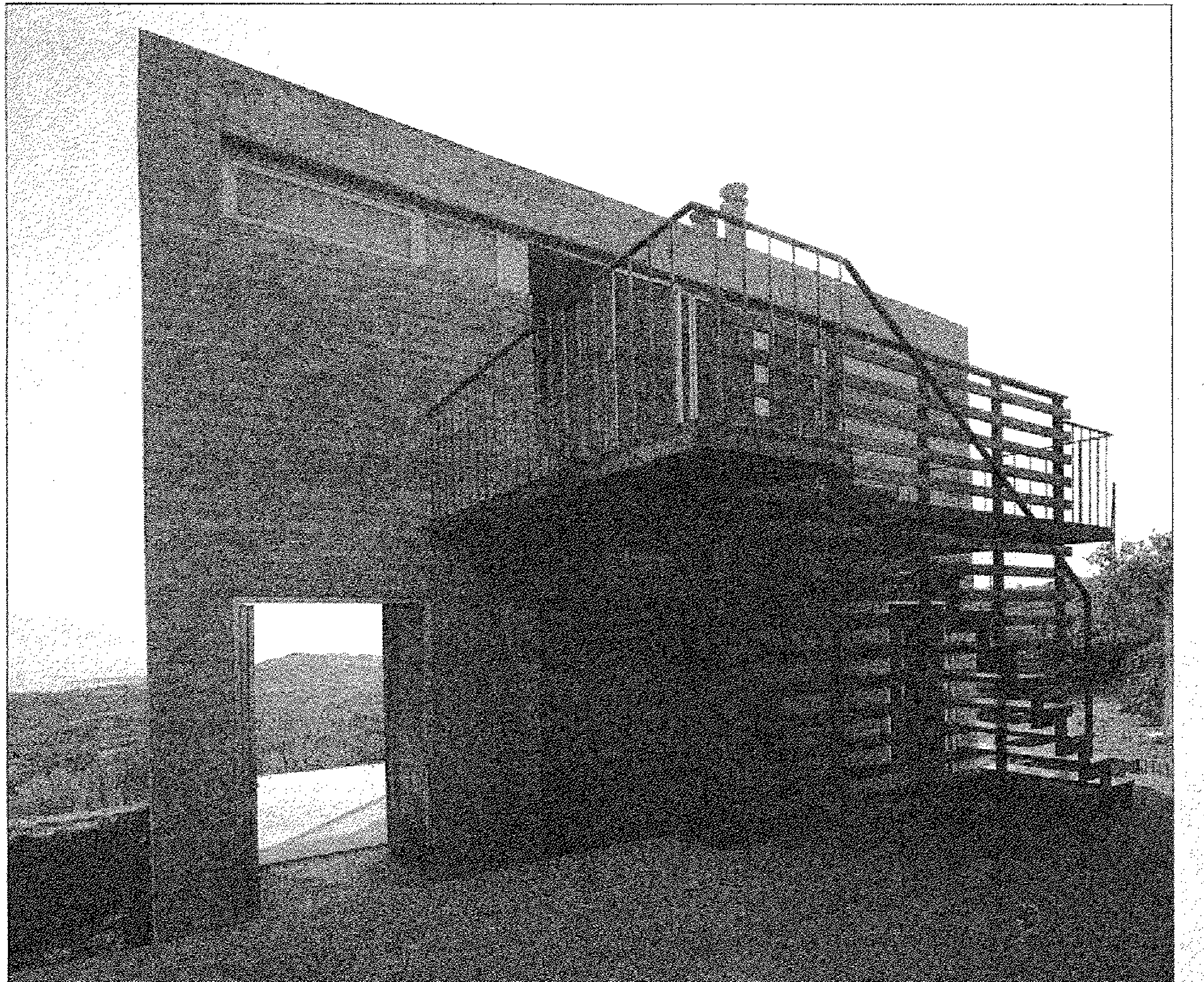
وقد تم الاحتفاظ بنقاء الحيزات الرئيسية والتكامل مع الطبيعة من خلال حيزات شبه خارجية وضعت ضمن حائط منفعى عمقه متران وعشرون سنتيمتراً يحتوى على حمامات ومكان للغسيل ومخزن ومطبخ صغير ومدفأة تفتح على حيز معيشى خارجى تحت السلم. وجميع الحيزات الخارجية تم تصورها على أنها أجزاء مكملة للمنزل.

المنزل حديث بشكل واضح، وهو منفصل عن المنازل التقليدية فى القرية المحيطة، ولكنه يحترم هذه المنازل ويوحد نفسه معها من خلال استخدامه للمواد والتقنيات التقليدية المحلية. يفتح المنزل نفسه على محيطه ويشجع مستخدميه ليس فقط على إدراك تنسيق موقعه الطبيعى ولكن أيضاً على غمر أنفسهم فى الطبيعة من خلال استخدام الأجزاء شبه الخارجية والخارجية من المنزل. إنه مكان أصبح فيه مأوى بسيط حيزاً للاحتفال بالطبيعة وتأملها.

إن استجابة المعمارى التركى هان تومرتكين للطبوغرافية المنحدرة للموقع مثلث الشكل الذى ينحدر سبعة أمتار من الشمال باتجاه الجنوب مبنية على أساس الممارسة المحلية للبناء المدرج. ينقسم الموقع إلى مسطحين يختلفان فى المنسوب بمقدار متر وثلاثين سنتيمتراً مما خلق مصطبة مستطيلة طويلة يقع عليها المنزل، ومصطبة مثلثة خلف المنزل تستخدم كحديقة. ومنزل ب٢ مطمور فى انحدار جانب الجبل كما هو الحال فى المنازل المحلية. ومع ذلك، وعلى النقيض من نماذج البناء المحلى، لا يوجد أسوار حول منزل ب٢ وحديقته. ونتيجة لذلك، امتص الموقع بواسطة الشكل الطبيعى للأرض المحيطة. ولكن المنزل، فى الوقت نفسه، جعل بارزاً ليبدو كما لو كان تمثالاً يرتكز على قاعدة.

إنشاء المبنى مقاوم للزلازل وبسيط للغاية، وتم بناؤه بمواد وتقنية محلية. وتشمل الواجهتان الشرقية والغربية تركيباً ثلاثى الأجزاء يتكون من عنصرين خرسانيين إنشائيين يؤطران حائطاً حجرياً؛ وهذا التركيب مستمر على السطح، مع أن الأحجار هناك غير مثبتة.

لقد تم تحقيق أوضاع فراغية مميزة فى منزل ب٢ باستعمال لغة معمارية مخفضة توظف مواد متواضعة وأشكالاً أولية. فالحيزات اكتسبت حضوراً رفيعاً حول إحساس المسكن إلى صرح. يعمل المنزل كأداة لإدراك الطبيعة مع تأثيرات ساحرة حقاً، محولاً المستخدم باستمرار من النشاط المنزلى إلى حالة من التأمل النقى فى منطقة خالدة. وقدرة المنزل على نقل مستخدميه بين مجالات مختلفة تمتد إلى صورته: الكتلة النقية على قاعدة يتم تخيلها بالعظمة الصامتة والبساطة الرفيعة لصرح، بينما مقياسه ومواده المتواضعة تعيده إلى المجال العامى.



تقييم شامل:.

من الطبيعى أن يجد كل منا ما يتفق عليه وما يختلف معه فى كل مشروع من المشروعات الفائزة هذا العام، وليس هذا بجديد على مؤسسة أغاخان للعمارة، التى طالما أثرت الحوار حول قضايا العمارة والمجتمع، وآثرت أن تشرك المعماريين وغير المعماريين فى الحوار، فجاءت الإضافات المتكررة من كل دورة من دورات الجوائز، مثل قطع الفسيفساء، كل قطعة تختلف بلونها وشكلها، ولكنها تسهم فى الصورة الكبيرة التى تزداد وضوحاً بكل قطعة تضاف إلى المجموع، وإذا اختلفنا على هذا المشروع أو ذاك، لابد لنا أن نعترف أن الصورة الكلية ثرية وجميلة ومعبرة وتدعونا إلى التعمق وتدعونا إلى التعمق فى التفكير والتأمل.

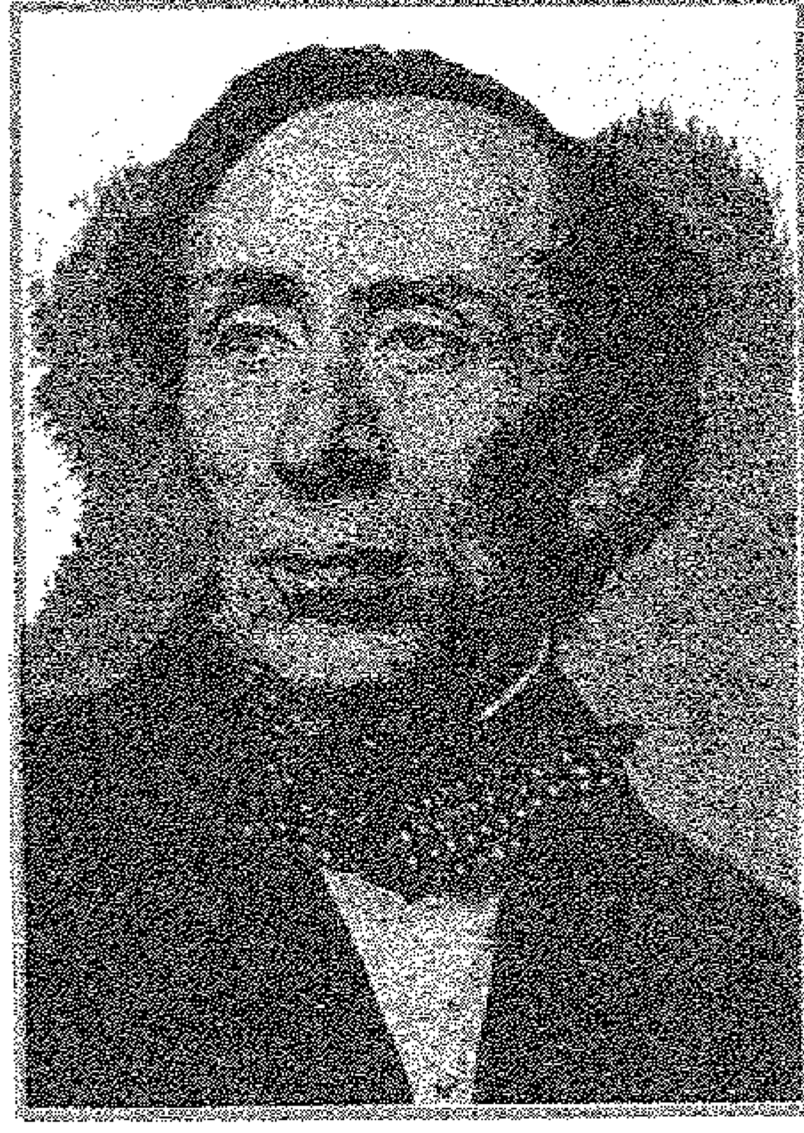
فتحية صادقة للقائمين على جائزة الأغاخان للعمارة، لالتزامهم بالمنهج العلمى، وتأكيد على التواصل الثقافى من حماية التراث إلى فتح باب التجديد للمبدعين وتقريظهم، ولتفانيهم فى الدراسة والتمحيص. ■



متواجد في مراكز







قــراء جـديــدة لأنــدرســون وشـــوقـــى

أطفالنا

بين روح الشعر ونظم الحكمة

يـحــيــى الـرخـــاوى

■■ لم تكن المسألة انفعالا لخبرتين محدودتين مهما كانت دلالاتهما، لكنها كانت كشفا بجرعة مفرطة، ليست مفاجئة بالضرورة، عما تراكم لدىّ أثناء ممارستى الإكلينيكية - من قاع مجتمعنا إلى قمته - عما آل إليه حال التربية والتعلم فى مجتمعنا المعاصر. كاد فزعى من زيارتين لمدرستين فى القاهرة (روض الفرح وباب الشعرية) وحوارى مع الأولاد والمدرسين والأهل، يصيبنى باليأس الذى كنت ومازلت أعتبر نفسى محصنا ضده ما دمت أتنفس هواء هذا الوطن، وأرضى بالاستمرار فى هذه الحياة، إلا أن المسألة بدت لى أكبر من مناعتى.

تشغلنى مرحلة الطفولة، وماهية الطفولة فينا نحن الكبار، كأهم منطقة تحتاج إلى النظر والرعاية، أعتبرها أكبر قضية تتعلق بمستقبلنا، بل ربما بمستقبل الجنس البشرى كافة. بمتابعة الجارى من موقع الممارسة الفعلية (التى هى عندى أهم من الأرقام المغلوطة، والمزيفة والتقريبية، حتى لو سميت أبحاثا انتشارية). لاحظت كيف تتراوح المسألة من تسطيح وعى أطفالنا بمجلات وبرامج الوعظ والإرشاد والخطابة من جهة، إلى ألعاب المغامرات والبطولات الزائفة المميكنة من جهة أخرى. هذا، ناهيك عن زرع قيم سلبية بطريقة منظمة تكاد تكون مقصودة (بلغة من يعتنق نظرية المؤامرة)، الأمر الذى أرفض الاعتراف بأنه وحده السبب. حتى لو صح التآمر فأنا أتحمل مسئوليتى. خذ مثلا انتشار ظاهرة الغش بين الصغار. لقد أصبح الأمر قاعدة تقريبا، وهو أمر ليس خطيرا فقط لما يترتب عليه من وهم التعليم دون تعليم، أو الحصول على الشهادة الابتدائية وأحيانا الإعدادية دون معرفة القراءة والكتابة، ولكن لأن هذه القيمة بدت لى نذير خطر من أكثر من زاوية: أصبح الغش محل فخر الآباء والأبناء من معظم الفئات، الطفل يلوم أباه على أنه لم يعمل ما يكفى من اتصالات حتى يمكنه من الغش، والأب يعتذر لابنه لأنه عمل ما عليه وأكثر، لكن هناك آباء أشطر منه اتصالا ووصولا، ثم إنه يعده (الوالد يعد ابنه) ببذل مزيد من الاتصالات فى الدور الثانى ليضمن غشا أكثر دفعا للحصول على الشهادة بإذن الله. اختلت المفاهيم الدينية والرقابة الذاتية الأخلاقية على العمل والأجر والمقابل، الأمر الذى لا بد أن يستمر - بطبيعة الحال - حتى يصل هذا النشء إلى الجامعة حتى أساتذتها، وإلى البحث العلمى حتى قادته، وإلى مواقع أخرى كثيرة فى السياسة وحتى فى النشاط الثقافى والنقدى، وربما الإبداعى، وكل شىء.

بداية: علينا أن نعترف - قبل أن نثير الشكوك - أن الحديث عن الأطفال، وعن حقوق الطفل، وعن وعود الطفل، وعن علاقة مستقبلنا بمدى عنايتنا بأطفالنا. وما إلى ذلك قد أخذ. ويأخذ حقه، بكل كرم وعناية من الأطراف المحلية والعالمية على حد سواء، أما مدى تناسب ذلك مع الحقيقة التطورية التاريخية من جهة، ومع المتغيرات العالمية المتسارعة من جهة أخرى، فهذا شأن آخر.

هل يمكن أن تؤدى كل هذه الجهود لأى دور إيجابى إلا بعد أن نعرف حقيقة أبعاد ما هى الطفولة؟ وما هو مسارها؟ وما السبيل إلى إطلاق ما يكمن فيها لتحقق وعودها؟ كيف السبيل إلى ذلك؟

الإجابة الأقرب تقول: باتباع أساليب التربية الحديثة. كأنه قد أصبح لما يسمى التربية الحديثة جدول ضرب، أو برنامج حاسوب، نضغط على زره فيأتينا بالنتيجة. العالم كله، حتى المتقدم منه يعيد النظر فى كل شىء من واقع التهديد بالتدهور أو بالانقراض، نعم: يعيد النظر فى كل شىء بما فى ذلك ما يسمى التربية الحديثة. إذا أضفنا إلى ذلك التنوع الثقافى فسوف نكتشف حجم المطلوب ممن يهمه الأمر منا من فحص فتخطيط فعمل بما يعلن أن الأمر لم يعد يحتمل الانتظار، أو الخداع، أو الخطأ المتمادى.

من أيـن نـبـدأ؟

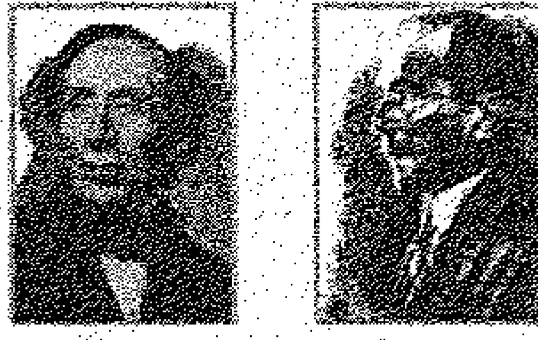
يبدو أن إصلاح الكبار أصبح أبعد من مجرد أن نحلم به، لكن الكبار هم المكلفون بتصحيح المسار، ثم إنهم هم أساسا الذين كانوا أطفالا نشأوا فى مثل هذا الجو أو أقل قليلا؟ كيف يقوم هؤلاء الكبار بالتصحيح وهم نتاج الخطأ؟ معادلة صعبة لا أعرف لها حلا، ومع ذلك فلا مفر من بداية ما.

نحن نواصل الجارى بالقصور الذاتى ولا نتوقف لنتساءل عن بعض البديهيات التى نتصور أننا نعرفها حق المعرفة والحقيقة غير ذلك. مثلا هل نحن نعرف ما هو طفل أصلا؟ هل نحن نفحص بعمق كاف، بعمق جاد، المفاهيم المغلوطة التى شاعت حول هذه المنطقة: الطفولة؟ (تعمدت أن أقول المنطقة وليست المسألة ولا المرحلة باعتبار أنها منطقة حاضرة طول الوقت طول العمر فى كينونتنا النشطة)؟ هل براءة الأطفال حقيقية أو هى تصور؟ هل تحميلنا كل توقعات المستقبل على الأطفال هو مسئولية جارية أم أنها مهرب من الواقع؟ هل خيال الطفل الطليق هو ما ينبغى أن نتدافع عنه على طول الخط ونحن فرحون به، أم أنه ما يجب الحفاظ وتنميته ونحن نحذر من احتمال شطحه فى الفراغ الدوامة؟



أحمد شوقى «المختار من ديوان شوقى للأطفال»
الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٢.

هانز كريستيان أندرسون «قصص وحكايات خرافية» مجلة القاهرة، سلسلة الكتاب للجميع (الجزءان الأول والثانى، فبراير ٢٠٠٥).



أنـدرسـون وشـوقـي

مناهل المعرفة وقنواتها

للإجابة عن بعض تلك الأسئلة البديهية كنقطة بداية علينا أن نستلهم كل مصادر المعرفة التي تستحيل أن تقتصر على برامج مستوردة، نضيف إليها سلبيات سوء الفهم وعبث التطبيق. الآفاق الأحدث فتحت المجال لتعدد مناهل وقنوات المعرفة من كل ناحية، في مسألتنا هذه أصبح الحدس الذاتي (الذي هو ليس مرادفا للاستبصار) من أهم مصادر المعرفة الموضوعية (نعم الموضوعية بالمعنى الأحدث). في مجالنا هذا، وكما سبق للكاتب أن أشار (مجلة الإنسان والتطور، عدد أكتوبر ١٩٨٠).

«... إن القدرة النكوصية الخلاقة هي عماد الإبداع الفني من ناحية والبحث العلمي بمواصفات خاصة، وهي هي وقود الحدس الإكلينيكي المسئول، (خاصة في دراسة الطفل وما يتعلق بالنظريات السيكوباثولوجية .....».

ينطبق ذلك على المبدع الفنان الراوي أو التشكيلي أكثر مما ينطبق على العالم الكمي الملاحظ.

من هذا المنطلق، وحين لم تسعفني المعلومات العلمية الكمية المرتبة من الظاهر حاولت أن أتعرف على الطفولة من الأدب أكثر من تعرفي عليها من العلم الملاحظاتي والسلوكي. رحت أتحسس طريقي إلى عالم الطفولة بدءا بديستويفسكي «نيتوتشكا نزفانوفا»، وهامش من البطل الصغير» (مجلة الإنسان والتطور، عدد أكتوبر ١٩٨٢). لأقدم بعض ملامح تنويعات من الطفولة مثل الطفلة الأم - الطفلة الدمية - الطفلة الطفلة - ثم الطفل الفارس. كان ديستويفسكي ينوي أن يكتب في الطفولة ما شاء، لكنه لم يكمل ما بدأ (لظروف شخصية في الغالب)، ومع ذلك فقد أتاح لي بعض ما كتب ما جعلني أنتبه إلى هذا الثراء الهائل لحدس المبدعين الذي يعجز المنهج العلمي عن ملاحقته.

لكل ذلك فضلت أن أواصل هذا النهج وأنا أستجيب لتشريف هيئة هذه المجلة الغراء للإسهام في إبداء الرأي في ما نحن فيه من إشكال التربية مهتدين بكل ما يمكن (وما لا يمكن) فكانت هذه المداخلة.

شاعران ومنهلان

في توقيت متقارب وصلني هذان العملان اللذان قيل أنهما كتبا للأطفال؟ مختارات من ديوان شوقي للأطفال. ثم مختارات من كتابات هانز كريستيان أندرسن بعنوان قصص وحكايات خرافية «بمناسبة مرور قرنين على ولادته. هانز كريستيان أندرسن شاعر في الأصل، وأحمد شوقي أمير شعرائنا، ربما حتى الآن. شهرة أندرسن ارتبطت بكتاباته للأطفال أكثر من كونه شاعرا، كتاباته للأطفال سميت خطأ (ربما مقصودا) «خرافية». اعتبرتُ ذلك بمثابة الخدعة الذكية، حتى لو كان هو الذي أطلق عليها هذه الصفة. رجحت أنه سماها كذلك ليستدرجنا إلى هول الحقيقة، فيفوت علينا أن نسارع فندمغها بالخرافة. إن مبادأته بتسميتها «خرافية» هي نفي ضمني لاحتمال اتهامنا إياها أنها كذلك. أحمد شوقي هو أحمد شوقي، شدني شاعرا وإنسانا طول عمري، مثل أغلب أعماله، أُخذت بكل هذه السلاسة والجمال وأنا أتجول في مختارات ديوانه للأطفال لأول وهلة، فقد كنت في حاجة إلى أن أتعرف على هذا الشاعر الرقيق إنسانا دمثا شممت رائحة الطفل بداخله أثناء حكايا محمد عبد الوهاب لسعد الدين وهبة وهو يصف خوفه (خوف شوقي) من عبور الشارع وحيدا، فيناديه «حمادة»، ويطلب منه أن يمسك بيده ويعبر الشارع.. إلخ.

السؤال الأول المطروح بالنسبة لأحمد شوقي وهانز أندرسن معا يقول: هل كان كل منهما واعيا وهو يتوجه للأطفال أنه يكتب عنهم، أم لهم؟ يعقب ذلك سؤال أعتقد أنه أهم: من هم هؤلاء الأطفال المعنيون؟ هل هم أطفال لأن شهادات ميلادهم تشهد بذلك؟ أم أنهم الأطفال الذين هم بداخل كل منا مهما كانت أعمارنا؟ نؤجل الإجابة حتى نهاية الدراسة لننتقل للنظر في كتابة ما وصلنا من كتابات أندرسن عبر تلك الهدية الغالية، وقد تجلى فيها البعد المسمى «خرافي» وهو ليس كذلك.

البداية فالمراجعة:

كانت البداية هي تصوري أنه من الممكن أن أعمل مقارنة بين مختارات ديوان شوقي للأطفال وتلك المقتطفات من أندرسن، وكنت في أول الأمر منبهرا بديوان شوقي لخفة الدم، والسخرية، والنقد السياسي، والصور المتقنة المتحركة غالبا، لكنني وجدت نفسي بعد قراءتي كتابَي أندرسن، في بؤرة قضايا نقدية ومعرفية متحدية: عن ماهية الشعر، وماهية الطفل، وواقعية الخيال، وأزمة التربية المعاصرة، وإبداع الشخص العادي دون ناتج معلن! وغريزة الإيمان، وحركية الوجود. يا الله!! هل طُرح أي من ذلك نفسه على وعي أندرسن وهو يكتب؟ الإجابة الأصح هي بالنفي قطعا، الأرجح أن بعض ذلك يمكن أن يكون قد ورد على هامش وعيه أو في جماع مستويات وعيه دون تحديد مسبق أو قصد ظاهر. لا يمكن أن يكتب كاتب أو شاعر قصة مثل قصة «الظل» دون أن يكون حدسه الإبداعي قد وصل إلى عدة حقائق لم تظهر في نظريات سيكوباثولوجية ونقدية وإبداعية إلا بعد أكثر من قرن. على سبيل المثال: نظرية التحليل التفاعلاتي (تعدد الذوات: Transcultural Analysis، ومفهوم «التفرد» Individuation في نظرية يونج، ثم معظم نظريات الإبداع الأعمق المتصل بالعملية الإبداعية، وليس فقط بالناتج الإبداعي.

كيف القراءة والتلقي؟

ليست القضية الاعتراف بسبق حدس أندرسن أو محاولة تفسير إبداعه للطفل بنظريات علمية أو نقدية لاحقة. القضية هي محاولة احترام ما يتحرك في حدس المبدع من أعماق، قبل أن نحسبها بالحذلقة المعقلنة، أو التفسيرات الفوقية، ثم إن هذه الإشكالات التي تبدو للكبار شديدة التعقيد والصعوبة تكاد تكون أمرا طبيعيا للأطفال لقربها من حقيقة الفطرة، دون حاجة إلى برهان، فهي أقدر على الوصول إلى وعي الطفل مباشرة، وأحيانا إلى الكبير أيضا بقدر ما يحوي كيانه من طفل نشط متبادل متكامل معاً. على من يريد أن يقرأ أندرسن بما هو، خاصة من الكبار، أن ينسى حكاية التفرقة بين ما هو خيال وما هو واقع، وأن يستقبل كل شخوص قصصه بعينيه وجسده قبل عقله وتجريداته، فيتخفف من أي تفسير أو تنظير وصي وهو يصاحب شخوص الخيال والواقع معا، وكأنه يلمسهم أحياء لا تصورات. (أعترف أنني كدت أدخل معهم في عالمهم لولا خوفي من جهلي طريق الرجوع).

عن الخيال والإبداع وروح الشعر

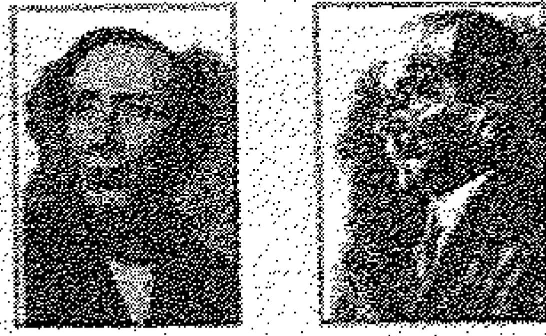
أندرسن لم يكتب للأطفال شعرا بشكل مباشر مثلما فعل شوقي، لكن شاعرية أندرسن فرضت نفسها عليَّ برغم أنني قرأت عمله بالعربية، فما أروع الترجمة. الشاعرية الصوتية تكون أقرب وأوضح في لغتها الأصلية. لكن الشاعرية التصويرية والحركية يمكن أن تصل إلينا بأي لغة. نجح أندرسن بالصورة والحركة بكل هذه البساطة العميقة أن يدافع عن حق الخيال في ان يكون «واقعا آخر» للطفل خاصة، ولنا عامة. وأنا أقرأ أندرسن كنت طول الوقت أقفز من هاري بوتر إلى ألف ليلة وليلة، في حين أنني وأنا أقرأ شوقي كنت أقفز من كليلة ودمنة إلى ميكي!! مرورا بمحمد فوزي أحيانا (هذا ليس قدحا في أي من الثلاثة. فأنا أحب الثلاثة).

يستحيل أن أقدم في هذا الحيز ما وصلني من مختارات أندرسن حيث كل قصة تكاد وحدها تحتاج إلى مثل هذا الحيز، فأكتفي بالإشارة في عجالة إلى ما حاورته من بعض آخر قصص الجزء الثاني:

لا يجوز أي تلخيص لمثل هذا النوع من الإبداع بنفس القدر الذي لا يصلح فيها تلخيص لوحة تشكيلية بإظهار بعض أجزائها، أو إيجاز سمفونية في أقل من وقتها، ومع ذلك فلا مفر من بضعة أسطر: قصة «الظل»، تحكي عن «طالب علم» جاء إلى البلاد الحارة من البلاد الباردة، ولصقت به صفة «طالب العلم» حتى صارت اسمه. حضر من أول القصة وهو يلقى ظله حيثما ذهب (عادي)، لكن ومن البداية ظهر لنا وكأن للظل استقلاله، أو هو يحاول ذلك، وذات ليلة سمح طالب العلم لظله أن يمتد ليدخل عند الجار الغامض (الذي بدا لوهلة سابقة كعذراء مضيئة) ليستكشف مَن هناك، لكن الظل فعلها وتمادى مستقلا حتى تأنسن إنسانا، تاركا طالب العلم بلا ظل، ويدور الظل دورته، ويعرف، وينضج، ويستكشف أن الجار الغامض كان هو «روح الشعر» (إنسانا، وهذا اسمه) ثم يعود لصاحبه

لاحظت كيف تتراوح المسألة من تسطيح وعي أطفالنا بمجلات وبرامج الوعظ والإرشاد والخطابة من جهة، إلى ألعاب المغامرات والبطولات الزائفة المميكنة من جهة أخرى





أنـــدرســــون وشــــوقـــي

طالب العلم ويدور حوار، وتبادل أدوار (يصبح طالب العلم ظلا ويبقى «الظل» إنسانا) وتصالح، وكشف، واتفاق... وغير ذلك.

حين كتبت أطروحتي الأولى عن «الإيقاع الحيوي ونبض الإبداع» (مجلة فصول، المجلد الخامس - العدد الثاني يناير ١٩٨٥)، قابلت بين ما أسميته «الحلم بالقوة» (الذي لا يظهر أبدا) بما أسميته «القصيدة بالقوة». أوضحت كيف أن القصيدة بالقوة مثل الحلم بالقوة هي مشروع الإبداع في عمق تشكيله، وهي ليست مشروعا فحسب، بل إنها كمال الإبداع «المستحيل»، بمعنى أنه رغم تمامه، لا يملك الظهور بما هو، وإنما يمكن ترجمته أو استلهامه للتعبير عما تيسر من المتاح. لا أكثر. هذا ما فهمت أن إليوت يعنيه بقوله: «لم يتعلم المرء إلا انتقاء خير الكلام للشيء الذي لم تعد ثمة ضرورة لقوله، وبالطريقة التي لم يعد ميالا لقوله بها». حين وصلت إلى قصة «الظل» وجدتني أمام حضور كامل لما أسميته «القصيدة بالقوة»، وقد تمثلت في شخص مجسد لحما ودما له اسم محدد (ليس صفة) حيث أسماه أندرسن هكذا مباشرة: «روح الشعر». أعترف أنني فزعت وأنا أضع هذا الفرض الباكر عن مستويات الشعر، خاصة حين حضرني مفهوم «القصيدة بالقوة» حتى امتلأت به وعيي تماما: بلغ إدراكي لعمق هذه الفرضية أنني فسرت من خلالها جدلية الموت، وأصل الوجود ومحوره قلت في أطروحتي تلك «... ولعل كثيرا من حقائق الوجود التي نعجز أصلا عن قولها هي من باب هذا الشعر الذي لا يقال، فالموت - الموت - شعر لا يقال بالنظر إلى الجانب البنائي فيه لا مجرد التحلل، يقول أدونيس في رثاء صلاح عبد الصبور: «... ففي لحظة الشعر، خصوصا لحظة الموت، ذلك الشعر الآخر». حتى أنني أضفت من وجهة نظر تصوف ما: إن «الله» - من منظور تصوفي معين - هو شعر لا يقال (ليس كمثله شيء).

هذا المستوى من الشعر هو ما وصلني من شرح «الظل» لخبرته مع الجار الغامض المسمى «روح الشعر»، ذلك لأنه بعد أن استقل «الظل» عن صاحبه «طالب العلم»، وتجسد إنسانا، عاد يصف خبرة لقائه مع جاره «روح الشعر» يصفها بكل ما وصلني في الفرض السابق الذكر. لم تكتف قصة الظل هذه بكشف الجانب الغامض المبدع للحياة هكذا، بل إنها عمقت التقابل بين «روح الشعر» (كيانا حقيقيا) وبين «طالب العلم» المعلوماتي الظاهر الوصفي، لم يخطئ أندرسن فيتمادى في الاستقطاب بين الظل الذي استوعب روح الشعر، وبين طالب العلم، ليفضل أحدهما على الآخر في مناظرة مسطحة، وإنما مضى ليجعل رحلة «الظل» رحلة معرفية إبداعية شديدة العمق دون إلزام بتنافس سطحي مع «طالب العلم». إن رحلة «الظل» إلى «روح الشعر» لم تكن حكرا على «الظل»، فهذا الأخير يخاطب صاحبه «طالب العلم» بعد أن التقاه لقاء الند للند فيشرح له كيف أن فرصة لقاء «روح الشعر» مفتوحة لمن يريد، على شرط أن يتقدم إليها لا أن يجلس في الشرفة ينتظرها، يقول «الظل» لـ«طالب العلم»: .... حضرتك كنت دائما تجلس وترنو إلى الممر، لم يكن هناك (عند الجار الغامض) ضوء نهائيا، فهناك ما يشبه الشفق، وكل الأبواب كانت جميعا مفتوحة على الآخر على طول الصالات والقاعات...».

هكذا يؤكد أندرسن أن فرصة الإبداع تكاملا هي فرصة كل الناس دون استثناء. هي ليست حكرا على صفوة موهوبة إذن، هذه القضية كانت وما زالت شغلي الشاغل سواء في ممارستي صحبة الجنون كإبداع مجهض، أو في تعاملي مع الأحلام كإبداع يومي. يدور الحوار بين طالب العلم وظله بعد عودته من رحلته المعرفية الواعدة بتخليق ذاته (ذواته معا) وقد تجسد إنسانا، يدور الحوار بمنتهى الاحترام التلقائي، ثم بناء على إصرار «الظل» على أن يخاطبه «طالب العلم» بـ «حضرتك...» حتى لو لم يفعل نفس الشيء بالمقابل. الاستقطاب المباعد بين المتحاورين لم يكن مطروحا، فالظل لم يكن هو «حالة الذات الطفلية الحرة المنطلقة» (حسب نظرية التحليل التفاعلاتي) مع أنه كان يمثل الحرية والبحث عن المعرفة الأخرى، كان نحيفا لكنه يافع تماما، وقوي، وواثق من نفسه، ومطالب بحقوقه برغم شكواه من أن «لحيتي لا تنمو كما يجب».

بحدس إبداعي فائق يدرك أندرسن، فيعلم الأطفال فينا، كيف أن التكامل بين الذوات إنما يتم بالتصالح والرفقة، لا بالتبادل المستقطب، ولا بالتسوية المائعة، حتى قال طالب العلم للظل ذات يوم وهو يرافقه بناء على اتفاق طيب «..بما أننا أصبحنا رفيقي سفر كما نحن الآن، ونحن أيضا قد نشأنا منذ الطفولة معا، ألا نشرب نخب رفع الكلفة بيننا، إنه أمر أكثر ألفة».

في نفس القصة يعلن حدس أندرسون عددا من الحقائق من أعمق ما توصل إليه العلم والإبداع معا: فهو يكشف كيف أن نفاذ البصيرة رائع ومزعج حتى يعتبر داء إذ يصف بنت الملك - في المصح - وكيف استطاعت أن تنتبه إلى أن «الظل» حين جاء إلى المصح لم يحضر «حتى» يجعل لحيته تنمو، ولكني أرى السبب الحقيقي أنه بلا ظل»، فنتذكر كانديرا في «الكائن الذي لم يحتمل خفته» وبدرجة أقل نتذكر فتحي غانم في «الرجل الذي فقد ظله». انظر أيضا ما ورد على لسان «الظل» في عبارة عابرة وهو يحاور صاحبه «طالب العلم»، فيكشف عن دور الإيقاع الحيوي اليوماوي Circadian جنبا إلى جنب مع «الأزمة المفترقية» :Cross-Roads crisis يقول لصاحبه بعد عودته «... أقول لحضرتك، كنت هناك، هل بإمكانك أن تدرك ما يمكن أن يُرى؟ ...عرفت طبيعتي أيضا وما خلقت عليه، علاقتي العائلية بروح الشعر، أجل، عندما كنت مع حضرتك في ذلك الزمن لم أفكر بذلك، ولكن بشروق الشمس، بغيابها، كما تعرف حضرتك، صرت كبيرا بشكل غريب، على ضوء القمر كنت أوشك تقريبا أن أكون أوضح من حضرتك، لم أفهم وقتها طبيعتي. أدركت ذلك في الممر الموزع، صرت إنسانا، خرجت راشدا». كل ذلك يكاد يطابق فروض النظرية الإيقاعية التطورية فيما يتعلق بما سمي «الأزمة المفترقية»، بين الإبداع والنمو والجنون، وفيه تأكيد على العلاقة بين كل ذلك والإيقاع الحيوي. إن تعبير أندرسن عن «الممر الموزع» هو الأقرب إلى فرض أزمة «مفترق الطرق» على مسار النمو التي يمكن أن تنتهي إلى مرحلة أعلى من التكامل والرشاد أو ينتج عنها إبداع متميز، أو تجهض إلى اغتراب متماد، أو تفشل بما يؤدي إلى التفسخ أو الإعاقة في المرض حتى الجنون، لهذا نخافها (الأزمة) حتى يمكن ألا نخوضها فيتوقف النمو. إن دور الإبداع للأطفال خاصة - ودون تنظير، هو أن يرسم مختلف الطرق بعد الممر الموزع، لنطمئن نسبيا ونحن نستمر، كل هذا بتلقائية غير مباشرة، دون تنظير اللهم إلا للنقد والمعرفة.

القصص التالية ليست أقل إبداعا أو كشفا عن الطبيعة الإنسانية، فنقطة المطر تضيف إلى خطورة حقيقة اغتراب البشر في المدينة (أي مدينة) وتنبه إلى بشاعة تقاتل الناس على اللاشيء: «قال العجوز الممسك بالمكبرة الزجاجية التي تكبر الواقع، قال بعد أن رأى من خلال المكبرة... آلافا من الحيوانات الصغيرة تطفر وتقفز، تشد وتلتهم بعضها البعض،»... «ياله من منظر مقرف». «ألا يمكنهم أن يعيشوا في سلام؟، وبدا المنظر مثل مدينة بأكملها برجال عراة متوحشين..». وقد بدت بالفعل مثل مدينة يتراكض فيها الناس عراة، كان شيئا يقشعر له البدن، والذي يزيد من هذا الإحساس هو رؤيتهم وهم يتدافعون، يركل واحدهم الآخر، يقضم الآخر، يقرض الآخر، يتناهشون، ويسحلون بعضهم، وما توجب أن يكون أسفل كان في الأعلى وما توجب أن يكون في الأعلى كان في الأسفل...».

وفي قصة «أم»، يتجسد الموت في شكل شيخ غريب يخطف ابنها برغم توسلاتها، فتهيم على وجهها لتسترده وهي تضحي بكل شيء في سبيل ذلك: نظرها ولسانها و..و...الخ. حتى تصل إلى «مشتل الموت» فإذا به ليس موتا بل مجهولا، فترضى الأم أن تتنازل عن إصرارها على إحياء ابنها، فمشى الموت (شخصا مجسدا)، بابنها إلى البلاد المجهولة. وهي راضية أو موافقة على الأقل: نهاية مفتوحة حتى للموت!! (راجع ما سبق الإشارة إليه من تفسير الموت بعلاقته بالقصيدة بالقوة).

أما قصة الناقوس التي تُجسد السعي إلى الله تعالى من خلال نداء الداخل حتى يتيقن الجميع على اختلافهم من وجوده في الخارج/الداخل، شريطة ألا يعيِّنوه ماثلا مفارقا طول الوقت، بل يستمعوا إلى دقاته (الناقوس) يقينا من الداخل إلى الخارج وبالعكس.

الأرجح أن أندرسن لم يقصد - واعيا - أيا مما ذكرت من نظريات ظهرت بعد قرن أو أكثر، بل إن أرجح الأرجح أنه لو كان أندرسن قد وعى بعض ذلك، لما كتب ما كتب، ولا خاطب به الأطفال داخلنا وخارجنا أصلا.

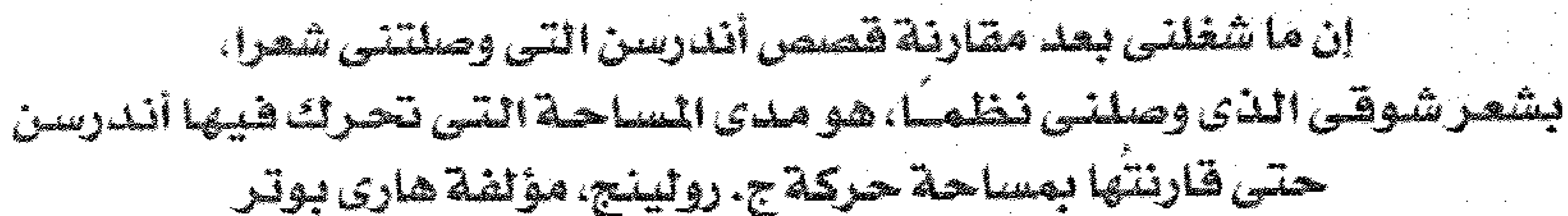


الأرجح أن أندرسن لم يقصد - واعيا - أيا مما ذكرت من نظريات ظهرت بعد قرن أو أكثر، بل إن أرجح الأرجح أنه لو كان أندرسن قد وعى بعض ذلك، لما كتب ما كتب، ولا خاطب به الأطفال داخلنا وخارجنا أصلا



ديــوان شــوقــي

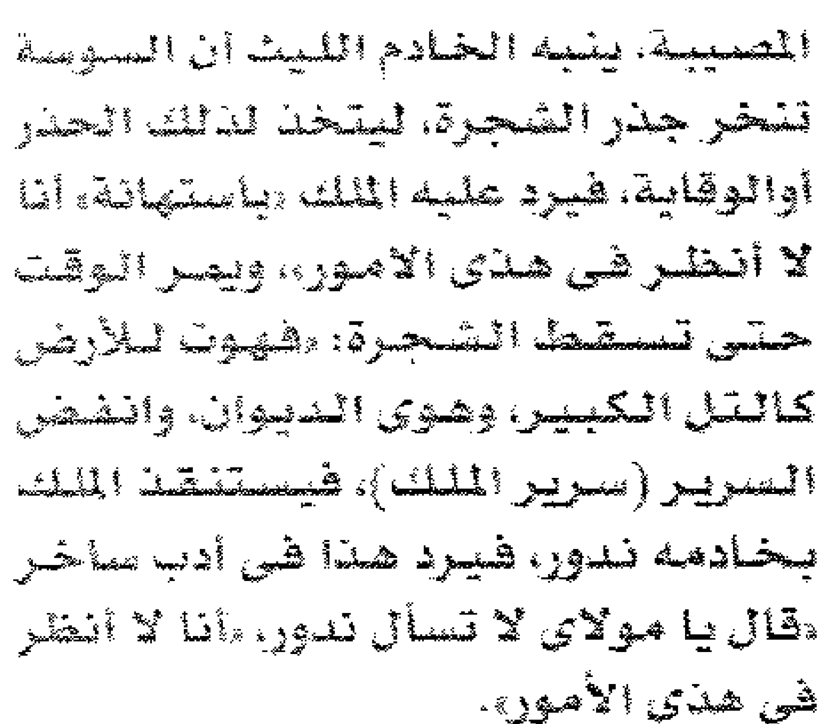
آن الأوان أن ننتقل إلى شعر شوقي للأطفال فنبدأ بنفس التساؤل: هل هو للأطفال أم أنه عن الأطفال؟ أم أن شوقي يستعمل ما هو طفل فيه وفينا ليحقق



إن ما شغلنى بعد مقارنة قصص أندرسن التى وصلتنى شعرا، بشعر شوقى الذى وصلنى نظمــا، هو مدى المساحة التى تحرك فيها أندرسن حتى قارنتُها بمساحة حركة ج. رولينج، مؤلفة هارى بوتر

مأربه بما يبلغه به من رسائل للكبار؟ بالرغم من انبهارى لأول وهلة بالمختار من الديوان فقد وجدت فى قصص أندرسن شعرا أكثر خيالا، وأجمل أضواء، وأعمق أنفاما من نظم شوقى الخفيف الجميل الساخر. ما وصلنى من مختارات شوقى (الأمر الذى لا يسمح بالتعميم) يمكن أن يُقَسَّم إلى أناشيد أقرب إلى الأناشيد الحماسية الطيبة، ثم قصائد الحكمة التى ترد بشكل مباشر فى بدء أو ختام كثير من القصائد، ثم قصائد التسلية والتندر، لتتطور بعض تلك القصائد من السخرية إلى النقد السياسى صراحة. الصور جميلة وخفيفة وبعضها مركب بشكل متداخل (القرد والفيل مثلا)، إلا أننى - بعد أن انتهيت من قصص أندرسن افتقدت الشعر: انسياب الخيال، وزخم الحركة، وتنوع الحضور، وتعدد المستويات. ربما افتقدت كل ذلك لأننى أمام قصائد وليست حكايات، ولكن أليس الأولى بالشعر أن يتصف ببعض ذلك؟ المهم: رحت أراجع القيم التى يقدمها شوقى للأطفال (سواء كانوا أطفالا بالعمر أم أطفالا بداخل الكبار) فوجدت فيها غلبة البعد الأخلاقى ذى المستوى الواحد، دون الحفز الإبداعى والتحريك الخيالى. إن ما شغلنى بعد مقارنة قصص أندرسن التى وصلتنى شعرا، بشعر شوقى الذى وصلنى نظما فكِها أو ساخرا او حكيما، هو مدى المساحة التى تحرك فيها أندرسن حتى قارنتُها بمساحة حركة ج. رولينج، مؤلفة هارى بوتر، وأيضا بمساحة حركية ألف ليلة وليلة، مع شوقى: فوجدتنى - مع شوقى - أتحرك فى المحل، راقصا فى خفة مرحة، لكننى لا أنتقل من مكانى، ولا ينطلق معى خيالى. ثم انتبهت كيف أن خطاب كثير من قصائد شوقى موجه للكبار أكثر منه للصغار، خذ مثلا: قصيدة الجدة والحفيد وهو يلوذ بها من أبيه، إنها تأنيب للوالد وهى تذكّره أنه كان شقيا مثل ابنه «ألم تكن تصنع ما، يصنع إذ أنت صبى»، شوقى شخصيا - يبدو فى أغلب قصائده إما طفلا يلهو، أو حكيما يعظ، لكنه لم يكن متحركا مكتشفا لطبقات وعينا عبر الأطفال داخلنا وخارجنا وهو يخاطبنا متلقين. نهايات شوقى يمكن أن تضع بعدها نقطة ساكنة جدا، كما هو الحال عند معلمينا ووعاظنا ومدرسينا. بعض قصائد شوقى تبدأ بعنوان الحكمة المعنية مثل قوله «اسمع نفائس ما يأتى من حِكَمى، وافهمه فهم لبيب ناقد واعى». لماذا نطلب من أطفالنا أن يفهموا الحكمة «فهم لبيب ناقد واعٍ»؟، هل يصلح هذا الخطاب لمن نريد أن تنطلق خياله إليه؟ أليس هذا كثيراً عليهم؟ أليس هذا سابقاً لأوانه؟ هل هذا هو الذى ينمى طفولتهم، ويطلق إبداعهم، ويحافظ على زخم تلقائيتهم؟ إن حكمة أشعار شوقى قد تأتى أخف فى نهاية القصيدة، لكنها حين تأتى فى أولها تبدو وصية أكثر. أنظر هذه البداية: «الدب معروف بسوء الظن فاسمع حديثه العجيب عنى» أو: «كيف تسمو للعلا يا فتى، إن أنت لم تنفع ولم تشفع - عندى لهذا نبأ صادق، يعجب أهل الفضل فاسمع وعِ». طيب، وماذا عن النبأ الذى لا يعجب «أهل الفضل» يا عمنا شوقى؟ إن طلب السماع المبدئى والانتباه المستسلم يتكرر فى هذه المختارات بشكل يبدو معه أن الطفل ليس إلا إناء نظيفا يُلقى فيه ما ينبغى أن يحتويه، أليس فى ذلك مصادرة على الحركة الطفلية الطليقة حتى لو كان الذى يلقى فيه هو أشهى ما لذ وطاب، أو أنفع ما يفيد ويصلح؟ مع الشاعر القاص هانز أندرسن يكاد لا يوجد إلا قدر ضئيل جدا من المباشرة.

بعض ما يمكن أن يصل من شوقى كان رائعا على مستوى النقد السياسى مثلا، لكن هل ياترى كان يقصد به الأطفال، خذ عندك تعرية إلصاق اللوم بما يسمى مراكز القوى دون الرئيس، أو اتهام الرجل الثانى دون الأول بالخطأ فالإدانة، يكشف ذلك شوقى فى قصيدة «الليث ووزيره الحمار» مثلا، حين ينبرى القرد بعد أن خربها الوزير الحمار حتى تساءل الليث: «أين اقتدارى وبطشى، وهيبتى واعتبارى؟» «فجاءه القرد سرا، وقال بعد اعتذار، ياعالى الجاه فينا كن عالىَ الأنظار، رأى الرعية فيكم كرأيكم فى الحمار»، قد يدرك الطفل بعض ذلك، لكن الكبار أحوج إلى مثل ذلك وأكثر، قصائد أخرى كثيرة تتجاوز ما يحتاجه الطفل فعلا، مثل تعرية المنافقين فى قصيده «نديم الباذنجان». ثم خذ عندك تلك القصيدة التى تنبه إلى عاقبة الانصراف عن التخطيط الوقائى وإهمال النصح الباكر، وهى قصيدة ملك الغربان وندور الخادم، حين يرفض الليث النصح الباكر ثم يعود يطلبه من خادمه ندور بعد أن تقع المصيبة. ينبه الخادم الليث أن السوسة تنخر جذر الشجرة، ليتخذ لذلك الحذر أوالوقاية، فيرد عليه الملك «باستهانة»، أنا لا أنظر فى هذى الأمور»، ويمر الوقت حتى تسقط الشجرة: «فهوت للأرض كالتل الكبير، وهوى الديوان، وانقض السرير (سرير الملك)»، فيستنقد الملك بخادمه ندور، فيرد هذا فى أدب ساخر «قال يا مولاى لا تسأل ندور، أنا لا أنظر فى هذى الأمور».

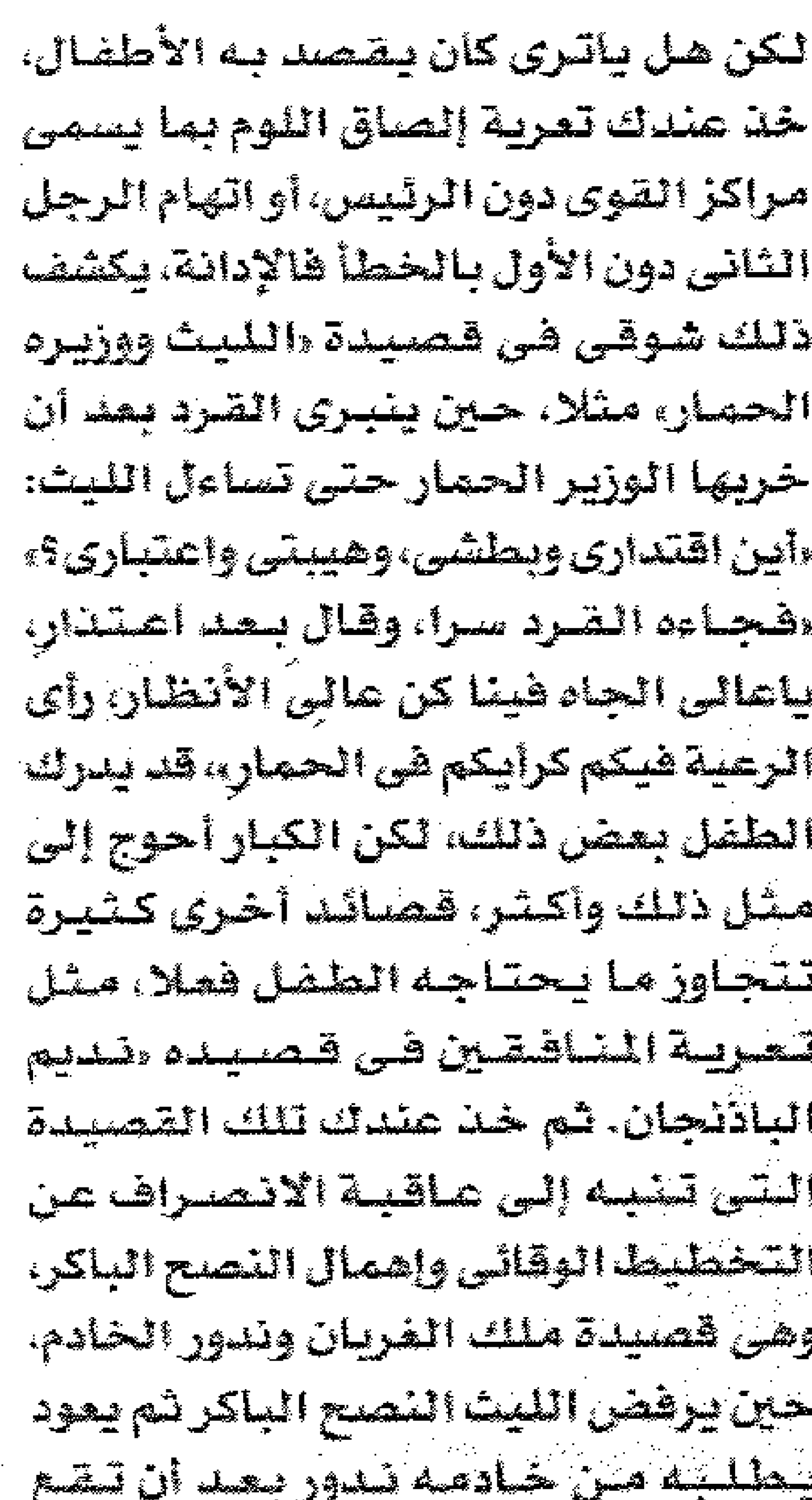


وبعـــد

أنا لا أزعم ولا أتصور أن أندرسن كتب قصصه التى ادعى أنها خرافية لتقتصر على الأطفال، ومع ذلك فإننى أتصور أنها لا تصل إلى أغلب الكبار بالجرعة الفائرة الحقيقية، وربما لذلك لزم النقد فنقد النقد بلا توقف ونحن نتحسس الطريق إلى معرفة نبض الإبداع، لا حكمة الوعاظ أو مجرد جمال التشكيل (كل ذلك يحتاج لتفصيل لاحق).

عند شوقى شعرت أن الطفل بداخله - بداخل شوقى - كتب ما كتب نظما، دون أن يحرك فينا إلا رقصا طريفا وابتسامة زائطة، وهذا طيب فى ذاته: شعرت أن طفل شوقى «يستعبط» ليخاطب الكبار ويلومهم وهو يقول لهم بعض ما غاب عنهم من أصول التربية ومبادئ الحكمة ونقد الرؤساء والساسة

نحن نحتاج أن نستمع إلى نصيحة ندور فى الوقت المناسب، وأن نتحمل مسئولية الأكبر منا والأصغر طول الوقت، وأن نتعرف على أطفالنا بداخلنا وخارجنا من جديد، وأن نتخلص من الوصاية على حركية وعينا تحت أى عنوان، وأن نرفض التوقف عند معلومات «طالب العلم» دون إبداع يحـرك ظلـه إلى «روح الشعـر» فيتكاملان. نحن فى حاجة إلى أن نحسن الانصات إلى نداء «الناقوس» سعيا إلى الكدح إليه دون الاصرار على اختزاله إلى ما نعرف، أو تعيينه - سبحانه - فيما ليس هو. لا ينبغى أن نتوقف عند قول الشعر نظما دون تحمل مسئوليته، وإلا رقصنا مع القصائد الخفيفة فى حركة مكررة، حتى لو كانت زائطة ساخرة فهى حركة فى المحل «محلك سر»، والألعن أن ما يليها هى حركة «للخلف در». نحن فى حاجة إلى روح الشعر، بقدر حاجتنا إلى طلب العلم، أما الاقتصار على رقص النظـم والقـاء النصائح، وحشر المعلومات، فكل ذلك وقفة خادعة، وخطرة، حتى لو بدت إرشاداً أو تسلية أو «كنظام» التعليم.



كل ذلك يبدو صعبا بعد ما صرنا إليه، لكن الصعوبة لا تمنع الأمل ومن ثَمّ التوجه حتى إلى ما يبدو مستحيلا. وهل يفعل الأطفال (داخلنا وخارجنا) غير طرق أبواب المستحيل.■

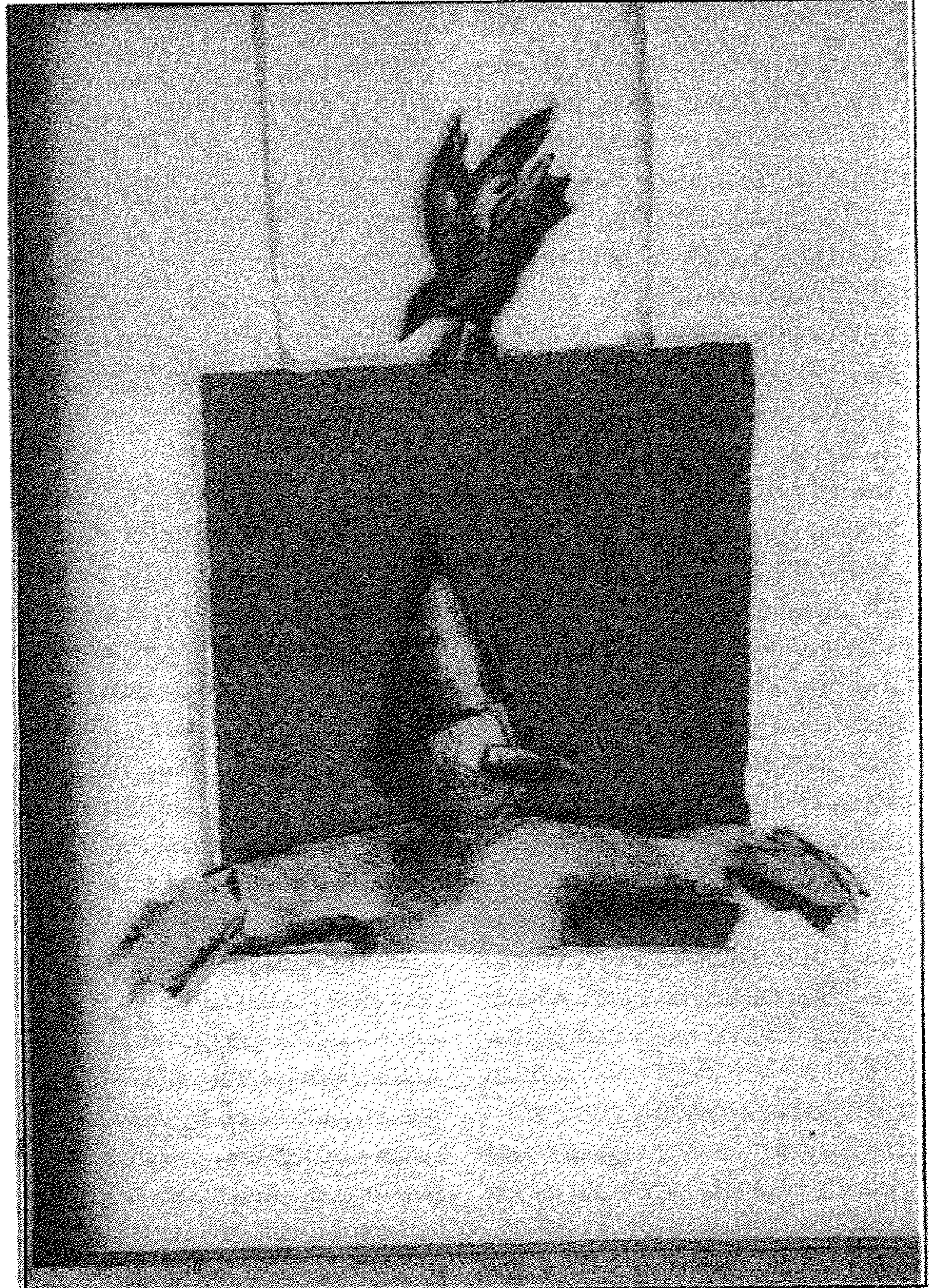
فى معرض الفنان طارق الشيخ

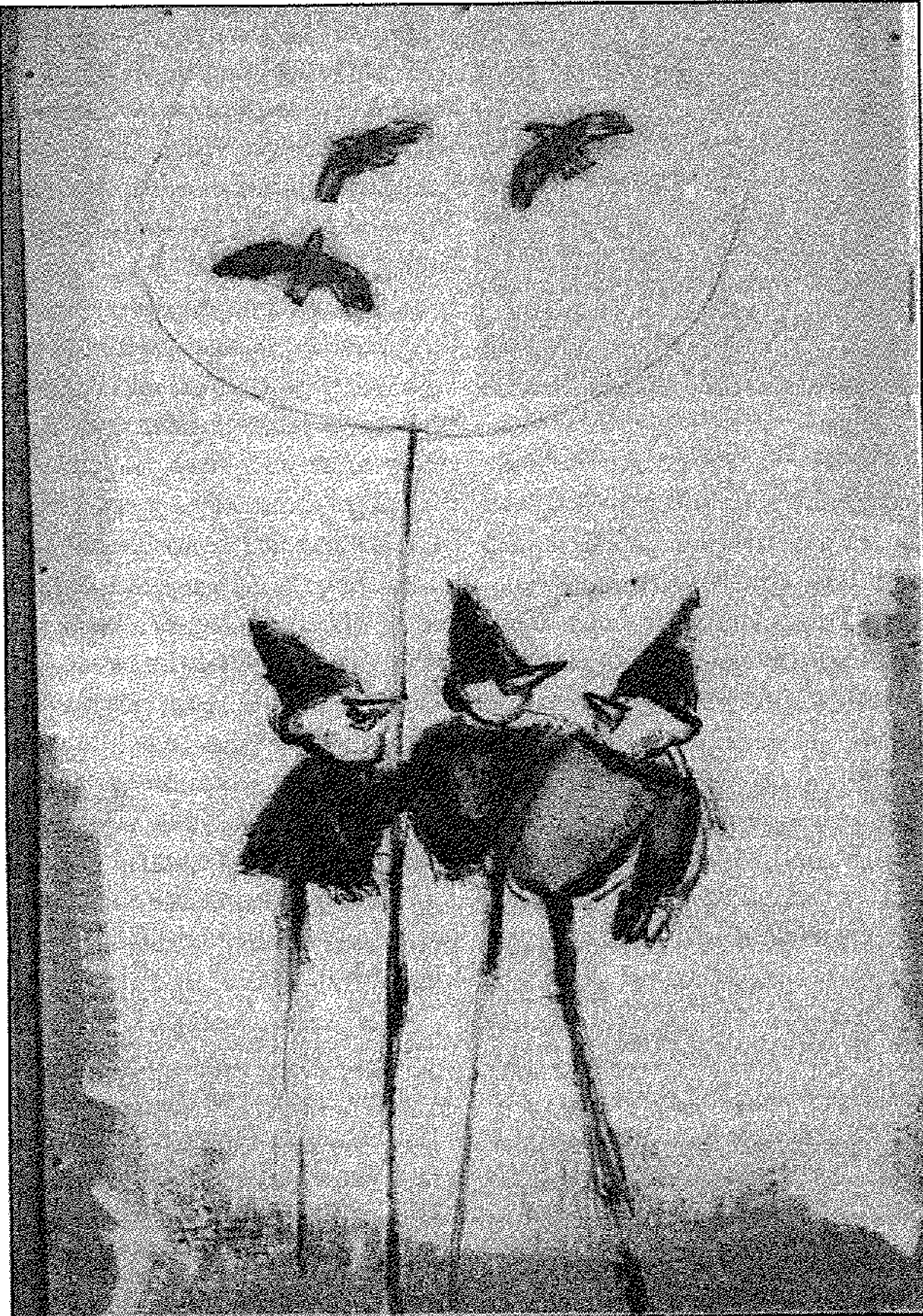
الانشغال بالحرية

وسط زحام المعارض الفنية التى ينشغل معظمها بالشكل، والبحث فى الشكل، والجرى وراء الجديد والحديث، و«توسل» الدهشة والغموض، وتحت شعارات المعاصرة و«اللحاق بالعصر» و«الانتماء إلى العالم المتقدم».. وسط هذا الزحام يغيب فى العادة «الإنسان» وتختفى عن عمد أو عن إهمال قضايا الإنسان الأساسية.. واحتياجات الإنسان الأهم، وفى مقدمتها «الحرية» وشوق الإنسان وبحثه الدائم عنها.. وعلى هذه الصفحات نقدم أعمالاً لفنان شاب (من مواليد حى شبرا القاهرى عام ١٩٦٩)، تنقسم الأعمال إلى مجموعتين.. الأولى عن علاقة الإنسان بالحرية من خلال دراما بسيطة بطلها شخص خيال المآتة (تمثال من القش يصنعه الفلاح ويضعه فى حقله لإخافة وطرد الطيور المغيرة على محاصيل الحقل) وتصوير العلاقة الملتبسة بين «الطرد» و«السعى إلى» الطائر رمز الحرية.. المجموعة الثانية تدور حول علاقة الإنسان بالبر والقارب كرمز لرحلة ومغامرة الحياة..

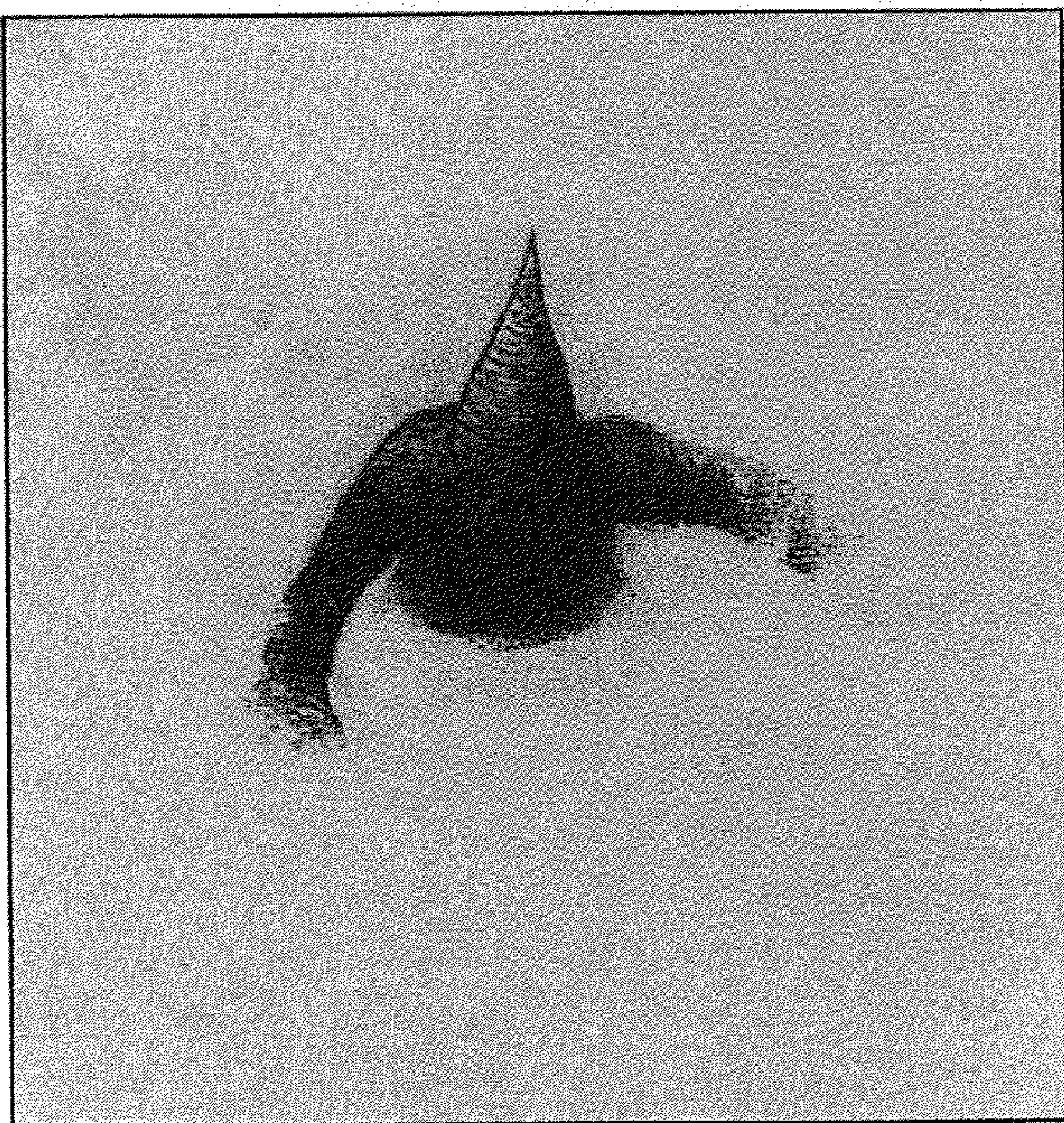
الجميل فى هذا المعرض واللافت هو استخدام الفنان طارق الشيخ لأسلوب بسيط للغاية سواء فى الرسم أو التلوين لخلق جو من البساطة والصفاء المناسبين للموضوع الإنسانى المطروح فى اللوحات.

حلمى التونى









الانشــــغال بالحـــــرية

الثقافة

في الرؤية المعرفية الإسلامية

محمود الذوادي

هناك اليوم أكثر من سبب يحفز الباحث في العلوم الاجتماعية على دراسة الثقافة Culture لمحاولة التعمق في فهم طبيعتها وتجلياتها في سلوك الأفراد والمجتمعات. فالحديث عن العولمة عند الخاصة والعامة أصبح موضوع الساعة في بداية القرن الحادي والعشرين.

هناك بالطبع حضور بارز في عالمنا اليوم للعولمة الاقتصادية. ولكن ليس من المبالغة القول بأن أغلبية الناس في القارات الخمس يشعرون بحضور أكبر للعولمة الثقافية. فثورتا المعلومات والاتصالات تلعبان بالتأكيد دورا حاسما في الازدياد المتواصل لانتشار معالم العولمة الثقافية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا.

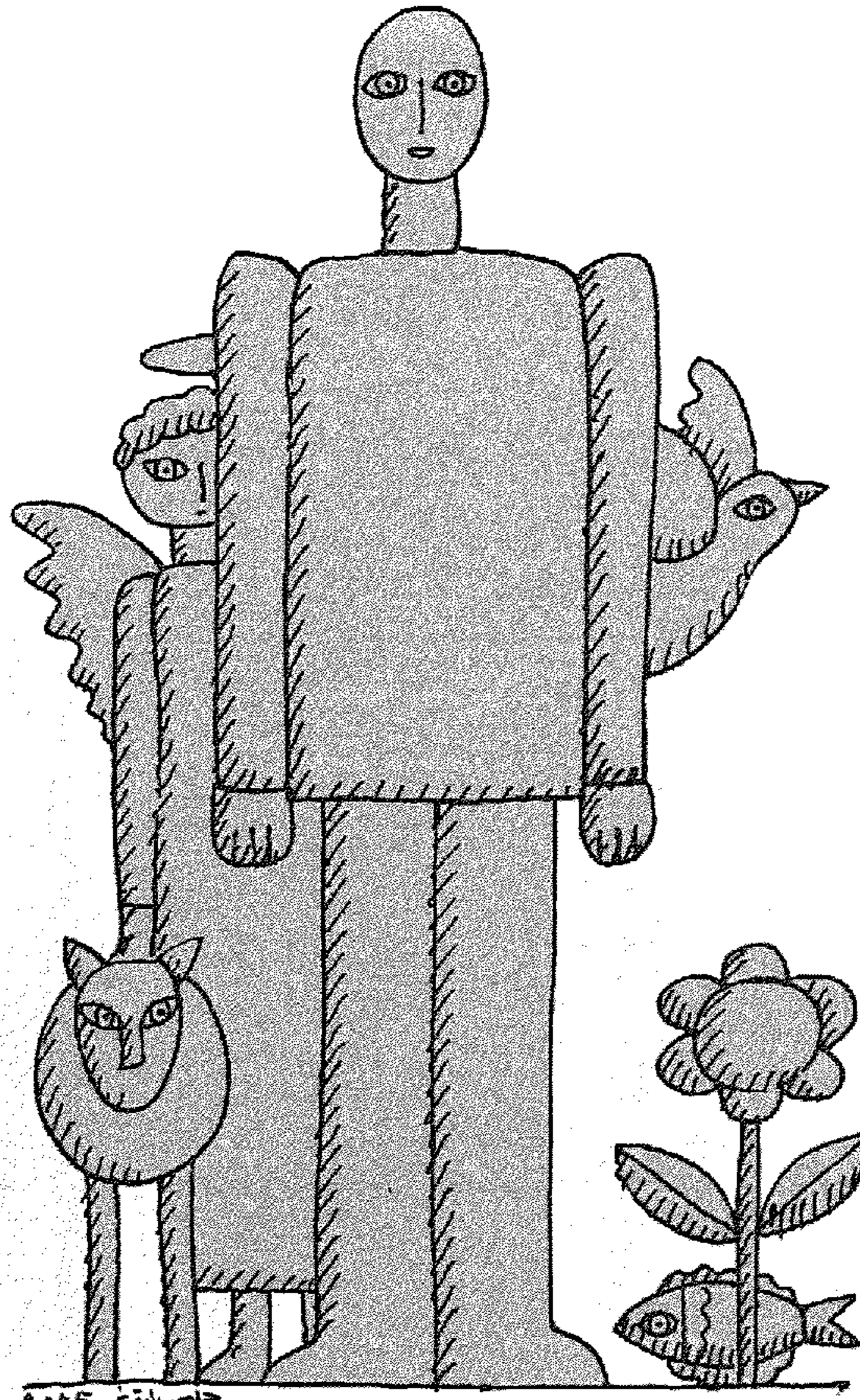
أما على مستوى التخصصات المعرفية في العلوم الاجتماعية، فإن الاهتمام بدراسة الثقافة يتصدر اليوم العديد منها. فقد ظهر حديثا في هاته العلوم ميدان خاص يسمى بالدراسات الثقافية Cultural Studies يركز اهتماماته على دراسة التجليات الثقافية للمجموعات البشرية.

وعند التساؤل اليوم عن فرع التخصص الطلائعي في علمي النفس والاجتماع فإننا نجد، من ناحية، علم النفس المعرفي Cognitive Psychology (ذا العلاقة الوثيقة بالإنسان ككائن ثقافي في المقام الأول) يحظى بمكانة الريادة بين الفروع المتخصصة في علم النفس. ونجد، من ناحية ثانية، فرع علم الاجتماع الثقافي يأخذ اليوم صدارة متزايدة بين علماء الاجتماع.

تعطي هذه العوامل وحدها مشروعية للاهتمام بتكثيف دراسة الثقافة والمساهمة للكشف خاصة عن بعض جوانبها التي أغفلتها بحوث العلوم الاجتماعية المعاصرة. وهي جوانب، كما سوف نرى، ذات أهمية كبرى للقيام بالبحث المتعمق في جوهر الثقافة: كبرى ميزات الجنس البشري التي منحته السيادة في هذا الكون.

وتطمح هذه الدراسة إلى القيام بما يسمى بالبحث الأساسي Basic Research المتعمق في جوهر الأشياء وأسسها حول الثقافة من خلال منظور الرؤية المعرفية (الإيبستيمولوجيا) الإسلامية، وربما تكون الأولى من نوعها في أيامنا هذه التي تطرح مفهوم الثقافة من خلال منظور معرفي إسلامي يختلف في إيبستيمولوجيته عن نظرائه في العلوم الاجتماعية المعاصرة ولا يكتمل القيام بذلك على أسس متينة ذات مصداقية علمية دون التعرض إلى مفهوم الثقافة في أدبيات العلوم الاجتماعية الإنسانية الغربية المعاصرة، إذ اهتمت هذه الأخيرة بالبحث في الثقافة وتجلياتها منذ القرن التاسع عشر خاصة من طرف علمي الأنثروبولوجيا والاجتماع.

وبالطبع ستقودنا مثل هذه المنهجية إلى المقارنة بين مفهوم الثقافة في المنظور المعرفي الإسلامي ونظيره الغربي. والدراسات المقارنة طالما تلقي أضواء جديدة على الظاهرة قيد الدرس تعزز الفهم والتفسير عند الباحثين في العلوم الاجتماعية وبالتالي تدفع بمسيرة المعرفة العلمية إلى الأمام. ويمثل هذا الهدف الأكبر الذي يسعى البحث إلى بلوغه أو القرب منه. فطموحنا هنا يتطلع في المقام الأول إلى المساهمة في بناء أرضية متينة لما سماه أصحاب الاختصاص بعلم الثقافة Cuturology الذي يحتاج، في نظرنا إلى رؤية نقدية فاحصة تشمل إيبستيمولوجيا ونظريات ومفاهيم هذا العلم حتى يمكن أن يتحسن حظه في كسب وتعزيز رهان المصداقية العلمية الناتجة عن مثل هذا الطرح الفكري الذي يمكن أن يساهم في إصلاح فكر دراسة الثقافة.



الثقافة في العلوم الاجتماعية

تعددت تعاريف علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع لمفهوم الثقافة. ويشير ذلك إلى أمرين على الأقل:

١. إما أن الثقافة ذات طبيعة يصعب تعريفها بمقاييس العلوم الاجتماعية الوضعية على الخصوص.

٢. وإما لأن الثقافة ظاهرة معقدة في حد ذاتها.

نقتصر هنا على ذكر ثلاثة تعاريف من علمي الأنثروبولوجيا والاجتماع. فأشهر تعريف لمفهوم الثقافة أتى به عالم الأنثروبولوجيا البريطاني إدوار تيلور Edward B.Tylor في نهاية القرن التاسع عشر. فقد جاء في كتابه الثقافة البدائية Primitive Culture ١٨٧١ تعريف للثقافة / الحضارة يعتبر التعريف المرجع للعلوم الاجتماعية المعاصرة. فالثقافة عند تيلور هي «ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والعقيدة والفن والتقاليد وأي قدرات وعادات أخرى يتعلمها الإنسان كعضو في المجتمع».

أما عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي لسلي وايت Leslie White فإنه يربط مفهوم الثقافة عند الإنسان بقدرة هذا الأخير على إعطاء معان للأشياء. ويسمي ذلك بالقدرة الرموزية ability to symbol التي تسمح للإنسان بفهم معاني الأشياء وكذلك خلقها واستعمالها. ومن ثم يعرف وايت الثقافة باعتبارها تلك القدرة الرموزية عند الإنسان ويخلص إلى القول بأنه لا يوجد إنسان بدون ثقافة ولا توجد ثقافة بدون إنسان.

وحسب عالم الأنثروبولوجيا الشهير ألفرد كروبر Alfred Kroeber فإن زملاءه الأمريكيين الذين درسوا الثقافة وعلاقتها بالشخصية Culture and Personality قد فشلوا في إعطاء تعريف نهائي وواضح لطبيعة الثقافة. ومن ثم فالنقاش يبقى في رأيه مفتوحا حول هذا الأمر رغم الدراسات والمؤلفات التي قام بها رواد علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيون أمثال مارجريت ميد Margaret Mead وروث بندكت Ruth Bendict وادوارد صبير Edward Sapir ورالف لنتن Ralph Linton ; وابرام كردنر Abram Kardiner وفرنزبواس Franz Boas. ولم تقتصر المسألة على غياب تعريف أنثروبولوجي ذي

مصداقية للثقافة بل تجاوز الأمر عند البعض إلى تساؤل خطير حول صعوبة دراسة الثقافة بروح ومنهجية العلم الحديث.فعالم الأنثروبولوجيا راد كليف براون Radcliffe-Brown يرى أن ليس للثقافة حضور مادى بل لها حضور مجرد جدا . ومن ثم يتساءل آخرون مثله كيف يمكن أن يوجد علم حول شيء لا يمكن رؤيته؟ إذ لا وجود لعلم ينبنى على واقع غير محسوس وغير مرئي.

تتجاوز صعوبة دراسة الثقافة عند علماء الأنثروبولوجيا تعريفها إلى جوانب أخرى مهمة فيتساءلون مثلا : هل للثقافة من وجود؟ وأين توجد الثقافة؟ وقد تنوعت إجاباتهم على تلك التساؤلات فقال البعض بأنها توجد فى العقل، وذهب فريق آخر إلى أن الثقافة هى سلوك وأكد البعض الآخر بأن الثقافة هى ملمح مجرد عن السلوك ويوجد حتى من أنكر وجود الثقافة نفسها . ويتبين من كل ذلك أن الباحثين يجدون صعوبة فى تحديد موضع انبثاق وجود الثقافة. ويرى عالم الأنثروبولوجيا وايت White أن الثقافة توجد على ثلاثة مستويات: توجد الثقافة فى الأعضاء البشرية كالأفكار والمشاعر وغيرها وفى السلوكيات بين الأفراد وفى الأشياء وذلك وفقا لمفهومه للثقافة باعتبارها تتكون من أشياء وأحداث حقيقية قابلة للملاحظة.

أما علماء الاجتماع فقد ضيقوا من معنى مصطلح الثقافة فأصبحت تعنى عندهم ما أطلقوا عليه بالأفكار الرئيسية للمجتمع والتى تشمل عقائد ورموز وقيم وأعراف المجتمع. وهذا التعريف السوسيولوجى النموذجى للثقافة نجده متداولا مثلا فى معظم كتب علم الاجتماع الأمريكية الموجهة إلى طلبة الجامعات.

يشير العرض السابق الموجز لمفهوم الثقافة خاصة فى علم الأنثروبولوجيا المعاصر بأن تعريف هذا المفهوم يبقى غير شفاف المعالم، من جهة، وصامتا صمتا شبه كامل، من جهة أخرى، عما نريد أن نسميه هنا بالجوانب الميتافيزيقية للعناصر الثقافية أو ما نطلق عليه نحن بالرموز الثقافية وهى اللغة والفكر والعقيدة والمعرفة / العلم والقيم والأعراف الثقافية والأساطير. ففى بقية صفحات هذه الدراسة نستعمل مفهوم الرموز الثقافية كمرادف لمفهوم الثقافة الواسع الاستعمال فى العلوم الاجتماعية المعاصرة. فالرموز الثقافية تمثل عندنا وعند أغلبية الباحثين فى العلوم الاجتماعية العناصر الرئيسية المميزة للجنس البشرى عن بقية الأجناس الحية الأخرى.

هناك بالفعل، مثلا، غياب شبه كامل للتطرق إلى الطبيعة الميتافيزيقية للرموز الثقافية لدى علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع المعاصرين. فلا نجد عند القلة القليلة من هؤلاء إلا بعض المفردات النادرة والغامضة توحى بأن الثقافة هى عنصر بشرى فوق العضوى superorganic أو أسمى منه كما ذهب إلى ذلك كل من عالم الاجتماع هربرت سبنسر Herbert Spencer وعالم الأنثروبولوجيا ألفريد كروبر Alfred Kroeber أو هى تلك الأشياء

ظل مفهوم الثقافة - وإن اختلفت اللغات - عبر التاريخ الإنسانى متعدد التعريفات وغالبًا حسب زاوية النظر: سياسيًا، اجتماعيًا، فلسفيًا، لغويًا. وبالتأكيد دينيًا

إن صمت العلوم الاجتماعية الغربية عن اللمسات الميتافيزيقية للرموز الثقافية ينسف زعم هذه العلوم تبنيها الموضوعية. فحضور المعالم الميتافيزيقية، حقيقة ذاتية فى صلب هذه الرموز

غير البيولوجية non biological things كما ورد على لسان عالم الأنثروبولوجيا إدوارد تيلور أو هى أشياء غير جسدية extrasomatic things ، كما سماها عالم الأنثروبولوجيا لسلى وايت، أو هى أخيراً تلك الأشياء الخارجية المتجاوزة external suprabiological things لبيولوجيا الإنسان كما تبنى هذا المصطلح البعض من علماء الاجتماع.

إن هذه الإشارات القليلة والمحتشمة إلى أن الثقافة عنصر بشرى يتخطى عضوية وبيولوجيا جسد الإنسان تبقى إشارات مبهمة بخصوص دلالات تلك المفردات حول طبيعة جوهر الرموز الثقافية التى يتميز بها الجنس البشرى ولا يتحسن الأمر أيضا عندما ينظر بعض علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع إلى الثقافة بصفتها شيئا مجردا abstraction أو شيئا ليس له علاقة بالوجود «culture has no ontological reality» ، وبالقصور العام عن إيضاح معانى تلك المصطلحات جاءت أدبيات العلوم الاجتماعية المعاصرة خالية من أطروحات إيبستيمولجية تحاول التعمق فى كنه منظومة الرموز الثقافية. فكان الرصيد الفكرى الهائل الذى جمعته العلوم الاجتماعية المعاصرة حول الثقافة رصيدا يكتفى بوصف العناصر الثقافية دون الحرص على التعمق فى طبيعة الثقافة بطرح الأسئلة الإيبستيمولجية عن ذات الثقافة نفسها التى أقر جل علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع بأن عالم الثقافة عالم يختلف عن عالم بيولوجيا الإنسان كما ورد فى تلك المفردات السابقة. وبناء على ذلك فإن الثقافة كمفهوم غربى معاصر كثير الاستعمال فى العلوم الاجتماعية على الخصوص لم يتعامل معها بالتصور الميتافيزيقى الذى سنجده فى المنظور الإسلامى كما هو مبين فى الجزء الكبير لبقية صفحات هذه المقالة.

وبذلك الإغفال / الغياب لحضور اللمسات الميتافيزيقية فى منظومة الرموز الثقافية تكون العلوم الاجتماعية المعاصرة . رغم ادعائها . بعيدة عن الموضوعية objectivity . إذ تعرف هذه الأخيرة على أنها تلك الحالة المعرفية التى تسمح بالتعرف على الحقيقة فى حد ذاتها باستقلالية كاملة عن عقل الباحث. ومن ثم فالموضوعية هى تلك الحالة المعرفية لدى العالم التى لا تشوبها عواطف وقيم ومفاهيم ورغبات مسبقة وما يشبه ذلك بحيث تضل السبيل فلا تهتدى إلى الحقيقة الموضوعية. أى أن الموضوعية هى صفة للفكر تجعله متفقا مع الواقع. ومن هنا فالموضوعية سمة لأفكارنا الحقة. وهكذا نخلص إلى القول بأن الموضوعية هى فى واقع الأمر مرادفة للحقيقة.

إن صمت العلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة عن اللمسات الميتافيزيقية للرموز الثقافية ينسف زعم هذه العلوم تبنيها الموضوعية فى دراستها للثقافة. فحضور المعالم الميتافيزيقية، حقيقة ذاتية فى صلب الرموز الثقافية. إن العوامل المختلفة المؤثرة فى عقول الباحثين الغربيين فى العلوم الاجتماعية حالت دون قيامهم بتحليلاتهم ودراساتهم للثقافة برؤية ابيستيمولجية تعطى مشروعية كاملة لحضور اللمسات الميتافيزيقية. اى أن الرصيد الفكرى الهائل حول الثقافة الذى جمعته تلك العلوم منذ القرن التاسع عشر لا يمكن أن يتمتع بمصداقية علمية لا كما تنادى بذلك تلك العلوم نفسها . لأنه يغيب، وفى أحسن الأحوال يهمش حقيقة المعالم الميتافيزيقية للرموز الثقافية. وهو بهذا الاعتبار يقدم لنا واقعا منقوصا للمواصفات الحقيقية للرموز الثقافية. وبالتالى، فهذا الرصيد الفكرى يعكس بقوة دور آثار العوامل الشخصية والاجتماعية للباحثين الغربيين فى العلوم الاجتماعية فى تشكيل مفهوم الثقافة والتنظير حولها أكثر من اعتمادهم على الواقع الذاتى للثقافة، الأمر الذى جعل الرؤية الموضوعية للثقافة هى الضحية.

الثقافة فى الرؤية المعرفية الإسلامية

وعند التساؤل عن الرؤية المعرفية الإسلامية للرموز الثقافية/ الثقافة فإن أفضل طريق لتحديد معالمها والفوز بكسب رهان جوهر طبيعتها هو الرجوع إلى القرآن الكريم المصدر الأول للإسلام فى شتى المستويات.

ومن ثم فنحن نقدم هنا الرؤية المعرفية القرآنية لطبيعة الثقافة / الرموز الثقافية. وإذا نجحت قراءتنا فى فهم مضمون الآيات القرآنية التى لها علاقة بالرموز الثقافية فإننا نكون قد كسبنا الرؤية المعرفية الإسلامية الأصح عن طبيعة الثقافة. بذلك نكون قد سلحنا أنفسنا بأقوم مفهوم إسلامى للثقافة يشجع الباحث على ترشيحه للمقارنة وربما المنافسة مع مفهوم الثقافة كما وقع ويقع استعماله فى العلوم الاجتماعية المعاصرة. ويجوز أن تساعد هذه العملية المعرفية على بناء مفهوم للثقافة ذى مصداقية أكبر بالنسبة للباحثين المهتمين بالشأن الثقافى من وجهة الرؤية المعرفية الإسلامية على الخصوص.

إن منهجيتنا فى استكشاف الرموز الثقافية وطبيعتها فى النص القرآنى تتكون من ثلاث خطوات:

. هل هناك إشارات واضحة فى القرآن تميز الإنسان عن غيره فى خلافة الله؟.

. العثور على آيات قرآنية تتحدث بصراحة مطلقة عن تميز الجنس البشرى عن بقية الأجناس الحية الأخرى.

. إلى أى شيء ترجع الآيات القرآنية تميز وتفوق الجنس البشرى؟

١ . يحفل النص القرآنى بالآيات التى تعطى مكانة خاصة ومتميزة للإنسان من بين كل المخلوقات الأخرى سواء كانت كائنات روحية كالملائكة أو حيوانات ودواب أخرى تعيش على هذه الأرض مثل الإنسان. وبعبارة أخرى فصورة الإنسان فى القرآن هى صورة الكائن الفريد الذى يحتل المرتبة

الأولى من حيث الأهمية بعد الله فى هذا الكون. ومن ثم فلا منازع له على الإطلاق فى تأهله لإدارة شئون هذا العالم وأخذ مقاليد السيادة (الخلافة) فيه ولندع آيات القرآن تشخص لنا بقوة تلك المكانة الفريدة التى يتمتع بها الجنس البشرى وحده بين كل الكائنات الأخرى. ونقتصر هنا على إبراز ذلك عبر خمس حالات تحدث فيها القرآن بكل وضوح عن تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات الأخرى.

فضى الآية ٣٠ من سورة البقرة يصف القرآن آدم الإنسان بأنه خليفة الله فى الأرض «وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة...» ولا يحتاج المرء هنا إلى شرح مدى أهمية هذا المنصب (خلافة الله فى الأرض الذى وليه الإنسان دون سواه من الملائكة والمخلوقات الأخرى على الأرض).

٢. أما ميزات الإنسان المطلقة التى تتحدث عنها الآيات القرآنية الثلاث (٣١، ٣٢، ٣٣). من نفس سورة البقرة فهى تتمثل فى اصطفاء الله لآدم بالمعرفة والعلم أكثر من غيره بما فيهم الملائكة «وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما تكتمون».

ونتيجة للميزتين السابقتين اللتين حرمت منهما الملائكة وبقية الكائنات وحصل عليهما الإنسان وحده جاء أمر الله للملائكة بالسجود لآدم دون غيره كعلامة تكريم وتمييز ثالثة لآدم «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين».

أما الآية (٧٠) من سورة الإسراء فهى تستعمل فعلى «كرم» «وفضل» لإبراز سمتى تميز بنى آدم عن غيرهم من مخلوقات الأرض «ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا».

فهذه الآيات القرآنية توضح بما لا يدع مجالا للشك بأن الإنسان كائن خاص متميز ومتفوق على غيره من مخلوقات الأرض والملائكة. ومن ثم فالرؤية القرآنية للجنس البشرى تمثل قطيعة معرفية (ابيستيمولجية) كاملة مع نظرية التطور عند داروين وأصحابه، إذ أن خلق آدم فى الرؤية القرآنية يمثل حالة خاصة فى الخلق هى فى قطيعة مع كل من الملائكة وعوالم المخلوقات هنا على الأرض. إن خلق آدم تميز عن غيره بواسطة هبة المعرفة / العلم التى أعطاها إياه الله دون سواه. فبهذه المقدرة المعرفية العالية جاءت مشروعية خلافة آدم لله بتكريمه وبتفضيله فى الأرض وسجود الملائكة له.

٣. تربط آيتان من القرآن سجود الملائكة لآدم بنفخ روح الله فيه فآية «فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين». نجدها مكررة مرتين فى سورتى الحجر (١٥) وص(٣٨).

إن التساؤل عن معنى كلمة «روحى» الواردة فى السورتين تساؤل مشروع جدا لأن الصيغة التركيبية لكلمات الآية تفيد

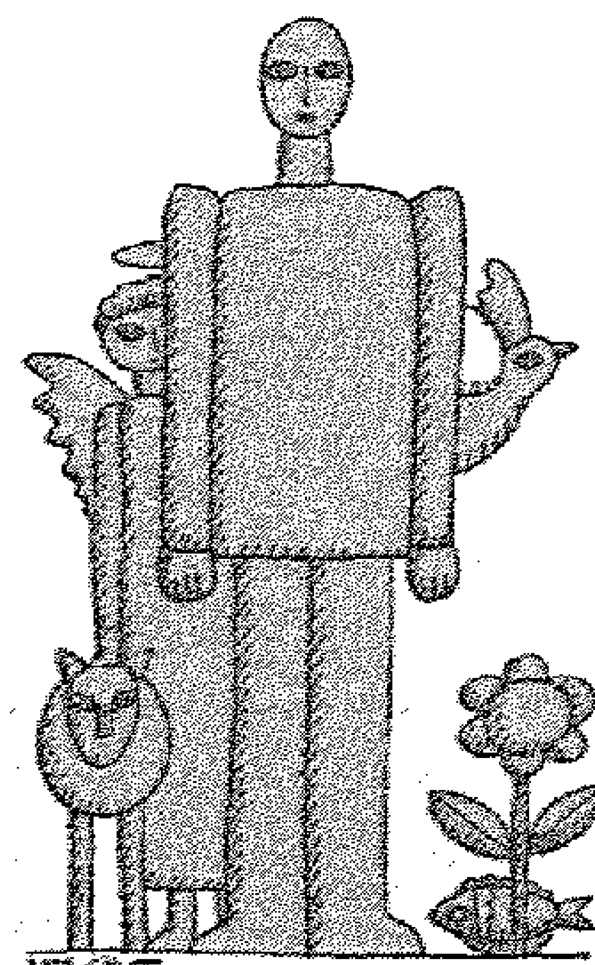


صورة الإنسان فى القرآن هى صورة الكائن الفريد الذى يحتل المرتبة الأولى من حيث الأهمية بعد الله فى هذا الكون. ومن ثم فلا منازع له على الإطلاق فى تأهله لإدارة شئون هذا العالم



المفسرون المحدثون مطالبون، بالإفادة من الرصيد المعرفى العلمى للعلوم الاجتماعية المعاصرة فى ما له علاقة بفهم سلوك الأفراد والجماعات وحركية المجتمعات





بأن طلب سجود الملائكة لآدم تلى نفخ روح الله فيه، أى أن هناك علاقة قوية، إن لم تكن سببية بين عملية نفخ الروح الإلهية فى آدم ودعوة الله الملائكة إلى السجود له. وكما هو معروف فإن كلمة الروح فى القرآن أتت بمعان مختلفة وفى طليعتها بث الحياة فى الكائنات. إن اطلاعى على عدد من كتب المفسرين لكلمة «روحى» فى هذا الآية يشير إلى أن معظمهم رأى أن لفظ «روحى» هنا يعنى القدرة على بث الحياة فى الكائنات. فتفسير الجلالين يقول... «وإضافة الروح إليه تشريف لآدم. والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه...». أما المفسر السورى المشهور عفيف عبد الفتاح طبارة فيقدم لنا هذا الشرح التفسيرى لمعنى كلمة «روحى» فى الآية: «ونفخت فيه من قدرتى أو بعبارة أخرى فإذا أفضت عليه ما يحيا به من الروح التى هى من أمرى... فخروا له ساجدين».

ونختم بتفسير الشيخ متولى الشعراوى أشهر المفسرين المصريين فى العصر الحديث فيصوغ معنى روح الله ونفخها فى آدم كالتالى: «والنفخ من روح الله لا يعنى أن النفخ قد تم بدفع الحياة عن طريق الهواء فى فم آدم. ولكن الأمر تمثيل لانتشار الروح فى جميع أجزاء الجسد وقد اختلف العلماء فى تعريف الروح، وأرى أنه من الأسلم عدم الخوض فى ذلك الأمر لأن الحق سبحانه هو القائل «يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».

فواضح من مضمون هذه التفاسير أن معنى لفظ «روحى» اقتصر على مجرد معنى قدرة الله على بث الحياة فى آدم التى لا يعرف البشر أسرارها ومن ثم دعا الشيخ الشعراوى إلى تحاشى الخوض فيها.

إن الاقتصار على هذا التفسير لمعنى كلمة «روحى» لا يسمح لآدم الإنسان بتبوء منصب خلافة الله فى الأرض وسجود الملائكة له تكريما لخصوصية وتميز خلقه. فالله لم يبث الحياة فى الإنسان فقط بل بثها أيضا فى كل الكائنات الحية. وبالتالى فمجرد بث الحياة فى الإنسان لا تؤهله وحده إلى خلافة الله هنا على الأرض. فلا بد إذن من البحث عن معنى آخر للفظ «روحى» يفسر بقوة مكانة تميز الإنسان وتفوقه على بقية المخلوقات فى إدارة شئون الأرض كخليفة لله.

وهنا يأتى، فى رأينا، دور العلوم الاجتماعية فى مساعدة مفسرى القرآن وهديهم إلى المعنى المناسب الذى ينبغى أن يعطى إلى كلمة «روحى» فى آية «فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين». فالكثير من المفسرين المحدثين يستعينون باكتشافات العلوم الحديثة فى التفسير للعديد من الآيات القرآنية التى لها علاقة بخلق الإنسان وفهم عمل مخ وجسم الإنسان أو لها علاقة بالظواهر الطبيعية فى الكون مثل الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والبراكين والزلازل، مما عزز من فكرة إعجاز القرآن. فازدادت المؤلفات وكثر انعقاد الندوات والمؤتمرات فى هذا الميدان فى العالم الإسلامى الحديث.

وإننا نتفق مع المفكر الإسلامى وعالم الجيولوجيا الكبير الدكتور زغلول النجار الذى يؤكد على أن فهم الكثير من الآيات القرآنية لا يمكن أن يتم بدون الاعتماد على الاكتشافات العلمية ذات المصداقية العالية حول الإنسان والظواهر الطبيعية للكون.

والمفسرون المحدثون مطالبون هم أيضا، وبنفس الدرجة، بالإفادة من الرصيد المعرفى العلمى للعلوم الاجتماعية المعاصرة فى ما له علاقة بفهم سلوك الأفراد والجماعات وحركية المجتمعات والعالم الثقافية البشرية. فهذه العلوم تساعد بالتأكيد على القرب من معنى كلمة «روحى» فى الآية المشار إليها أعلاه. فعلوم الأنثروبولوجيا والاجتماع والنفس تجمع على أن الإنسان يتميز ويتفوق على غيره من الكائنات الأخرى بما تسميه تلك العلوم بالثقافة Culture أو ما أطلقنا عليه نحن الرموز الثقافية: اللغة، الفكر، المعرفة / العلم، الدين، القيم والأعراف الثقافية... أى أن الجنس البشرى ينفرد بتلك المنظومة من الرموز الثقافية وهى التى أهلته وحده فى الماضى وتؤهله اليوم وفى المستقبل إلى لعب دور خليفة الله فى الأرض. وبعبارة أخرى، فمعنى «نفخت فيه من روحى» تصبح يدل على أن النفخة الإلهية فى آدم هى فى المقام الأول نفخة ثقافية بالمعنى المعاصر الذى تعطيه العلوم الاجتماعية لمصطلح الثقافة. إذ بهذه الأخيرة يفسر علماء العلوم الاجتماعية تميز الإنسان وسيادته فى هذا العالم على بقية المخلوقات. ومن ثم... «نفخت فيه من روحى» فلا بد أن يعنى أولا وبالذات نفخة الرموز الثقافية فى آدم وحده التى أعطته، دون سواه، مقاليد الخلافة فى الأرض وما تبعها من سجود الملائكة له. بهذه القراءة الثقافية لمعنى كلمة «روحى» فى الآية يتضح مدى تحسن مصداقية تفسير معانى آيات القرآن لو استعان المفسرون بالرصيد العلمى الحديث لكل من علوم الطبيعة وعلوم الإنسان والمجتمع على حد السواء.

الرؤية المعرفية القرآنية للثقافة

يتجلى مما سبق أن للقرآن رؤية معرفية (إبيستيمولجية) بخصوص الرموز الثقافية كمعلم مميز للجنس البشرى. فالنفخة الثقافية الإلهية فى آدم دون غيره هى إذن نفخة ذات جذور وطبيعة متعالية/ ميتافيزيقية حسب الرؤية القرآنية. فمصدرها ليس عالم الأرض وإنما عالم السماء الذى حرم منها كائنات الأرض ووهبها فقط للإنسان. فالقرآن يتحدث بصراحة كاملة عن الطبيعة الميتافيزيقية للنفخة الثقافية التى اختص بها الإنسان وحده فيقول «فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين». أى أن النفخة الثقافية فى صميم آدم صادرة من الذات الإلهية نفسها. فلا مجال إذن للشك فى الرؤية القرآنية فى جوهر الطبيعة الماورائية (الميتافيزيقية) للرموز الثقافية

التى يتميز بها الجنس البشرى عن سواه من الأجناس الحية.

وفى المقابل، فإن جل أدبيات العلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة حول مفهوم الثقافة تصمت صمتا شبه كامل عن الجوانب الميتافيزيقية للثقافة. فهى تدرس وتحلل ثقافات المجتمعات بطريقة وصفية أو وضعية Positivist دون أن تهتم بإثارة الأسئلة المعرفية (الإبيستيمولجية) عن طبيعة الثقافة كمعلم ينفرد به أفراد الجنس البشرى ومجتمعاته. لقد نجحت تلك العلوم فى إرساء رصيد علمى ضخم حول الثقافة من الدراسات المتعددة لعلماء الأنثروبولوجيا والاجتماع على الخصوص فى القرن العشرين وهو رصيد فكرى يغلب عليه الوصف الوضعى للثقافة وعناصرها. فلا يكاد المرء يجد أى إشارة واضحة، كما هو الأمر فى الرؤية المعرفية الإسلامية، إلى الطبيعة الميتافيزيقية للرموز الثقافية. أى أن هذه الأخيرة وقعت دراستها فى علمى الأنثروبولوجيا والاجتماع الغربيين بالمنظور الوضعى أو غيره الذى ينفر من النظر فى ملامح الأشياء التى لا تخضع إلى عالم الحس والكم. فلا مناص، من وجهة المنظور العلمى الموضوعى، أن يكون لهذا الموقف المنكر حضور اللمسات الميتافيزيقية. رغم وجودها القوى. فى صلب الرموز الثقافية انعكاسات جد سلبية على مصداقية المفاهيم والنظريات الكثيرة التى تستعملها العلوم الاجتماعية المعاصرة فى دراسة الثقافة وتجليات آثارها فى سلوك الأفراد وحركية المجتمعات والحضارات. فالمأخذ الإبيستيمولوجى على هذه العلوم مأخذ خطير، إذ أنه يتجاهل معلما جوهريا للرموز الثقافية. فكيف ينتظر كسب رهان الثقة فى ما تتوصل إليه بحوث العلوم الاجتماعية التى تدرس الثقافة عارية. بسبب أبيستيمولجيتها. من معالمها الجوهرية والمتمثلة فى لمساتها الميتافيزيقية؟. ومن هنا نرى أن لا تقتصر عودة العلوم الاجتماعية الغربية اليوم على الاهتمام بدراسة العوامل الدينية لفهم سلوكيات الأفراد وحركية المجتمعات، بل ينبغى أيضا أن تصبح، مثلا، الرؤية المعرفية (الإبيستيمولوجيا) للديانات مصدرا لفهم طبيعة الأشياء والتنظير حولها فى هذه العلوم كما تحاول هذه الدراسة إبراز ذلك حول طبيعة الثقافة.

وبالنظر المتعمق إلى جوهر طبيعة الرموز الثقافية عند الجنس البشرى تبين أنها تتسم بلمسات متعالية/ ميتافيزيقية تجعلها تختلف عن صفات مكونات الجسم البشرى وعالم المادة. فهوية الإنسان هى إذن هوية ثنائية: منظومة الرموز الثقافية، من ناحية، والعناصر العضوية البيولوجية والفيزيولوجية، من ناحية أخرى. وتبقى الرموز الثقافية هى الطرف الأبرز والأكثر حسما فى تحديد هوية الإنسان ومن ثم سلوكه. ولشرح ما نعنيه باللمسات المتعالية/ الميتافيزيقية للرموز الثقافية، نقتصر هنا على ذكر خمس منها نعتبرها رئيسية:

١. ليس للرموز الثقافية وزن وحجم كما هو الأمر فى المكونات البيولوجية والفيزيولوجية للكائنات الحية وعالم المادة. إن فقدان الرموز الثقافية لعاملى الوزن والحجم يبدو أنه الأساس فى تأهل الرموز الثقافية للاتصاف بالأبعاد المتعالية، الأمر الذى يجعل عالمها مختلفا عن كل من العناصر البيولوجية والفيزيولوجية وعالم العناصر المادية.

٢. تتمتع الرموز الثقافية بسهولة سرعة انتقالها عبر المكان والزمان بسبب ما ورد فى ١. ينطبق هذا بصورة مجسمة كاملة على استعمال الفاكس اليوم. فما يرسل فى لمح البصر بهذا الأخير من رسائل ووثائق كان يحتاج فى الماضى القريب إلى أيام أو أسابيع أو شهور حتى يصل إلى المرسل إليه بسبب إرساله بالبريد الجوى أو البرى أو البحرى. فلماذا هذا الفرق المدهش بين الفاكس والبريد فى سرعة وصول نفس الشىء المكتوب المرسل؟ لأن الإرسال بالفاكس يلغى بكل بساطة صفتى الحجم والوزن من الشىء المرسل.

يجوز أيضا تعميم قانون سهولة سرعة الانتقال على كافة الرموز الثقافية الخالية من عاملى الحجم والوزن كالكلمة المنطوقة المرسلة عبر صوت الإنسان أو عبر الهاتف أو عبر المذياع أو التلفزيون أو أجهزة الاتصال الأخرى الحديثة. وينطبق ذلك أيضا على كل من الكلمة المكتوبة والمرسلة إلكترونيا بواسطة الإنترنت وعلى سرعة انتقال الصورة الحية أو الجامدة اليوم فى لمح البصر عبر آلاف الأميال. ويرجع ذلك فى المقام الأول إلى نزع عاملى الحجم والوزن منهما. فالكلمة المنطوقة والمرسلة مكتوبة على الإنترنت وصورة الفضائيات تفتقد كلها عاملى الوزن والحجم.

٣. لا تتأثر الرموز الثقافية بعملية النقصان عندما نعطى منها للآخرين كما يحدث فى عناصر عالم المادة. فإعطاء الآخرين خمسين دينارا من رأس مالنا وإردباً من قمحنا وعمارة من عماراتنا... كلها عمليات تنقص مما هو عندنا من ممتلكات مادية. أما إذا علّمنا (منحنا) الآخرين شيئا من معرفتنا وعلمنا وفكرنا وعقيدتنا وقيمنا الثقافية ولغتنا... فإن ذلك لا ينقص شيئا من كل واحد من رموزنا الثقافية هذه.

٤. للرموز الثقافية قدرة كبيرة على البقاء طويلا عبر الزمان فى المجتمعات البشرية إذ قد يصل مدى بقائها درجة الخلود. فاللغة، وهى أم الرموز الثقافية، لها قدرة فائقة على تخليد ما يكتب بها بغض النظر عن محتوى المكتوب. فالفكر البشرى لا يكتب له الاستمرار والخلود الكاملان دون أن تحتضن مضمونه اللغات المكتوبة. فما كان لفكر كل من إخناتون وسقراط وأرسطو وابن رشد والغزالى وابن خلدون وروسو وديكارت وهيوم وغيرهم من المفكرين والعلماء... أن يتمتع بمدى حياة طويل من البقاء بدون تسجيله فى حروف وكلمات اللغات البشرية المتنوعة التى تؤهله لكسب رهان حتى الخلود. أما على مستوى الحفاظ وتخليد التراث الجماعى للمجموعات البشرية، فإن للغات دورا بارزا

الثقافة

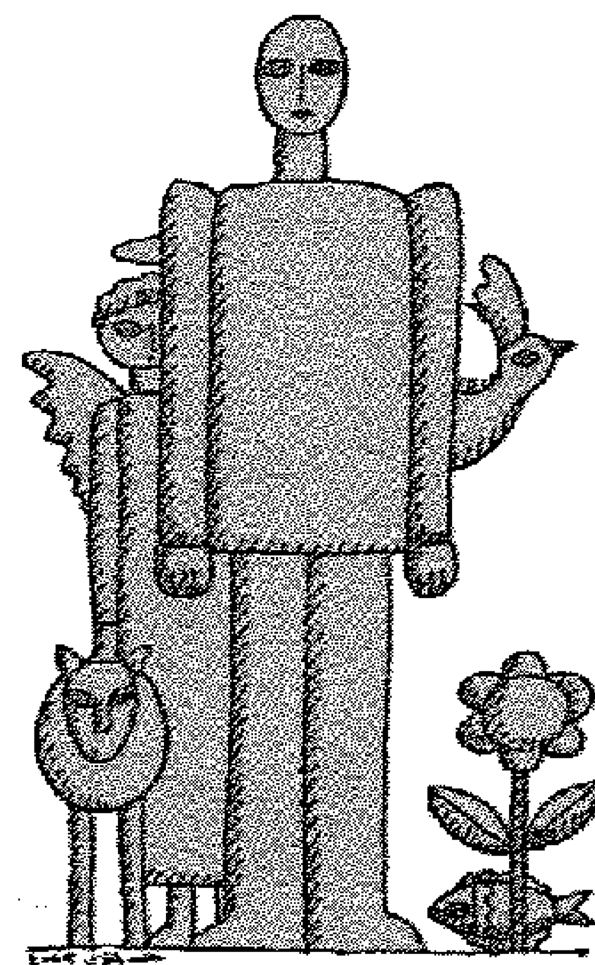


ما كان لفكر كل من إخناتون وسقراط وأرسطو وابن رشد والغزالى وابن خلدون... أن يتمتع بمدى حياة طويل من البقاء بدون تسجيله فى حروف وكلمات اللغات البشرية المتنوعة



معنى «نفخت فيه من روحى» يدل على أن النفخة الإلهية فى آدم هى فى المقام الأول نفخة ثقافية بالمعنى المعاصر الذى تعطيه العلوم الاجتماعية لمصطلح الثقافة





بهذا الشأن. فاللغات المكتوبة على الخصوص تمكن المجموعات البشرية من تسجيل ذاكرتها الجماعية والمحافظة عليها وتخليدها رغم اندثار وجودها العضوى والبيولوجى ككائنات حية ورغم تغييرها للمكان وعيش أجيالها المتلاحقة فى عصور غير عصورها. فمحافظة لغة الضاد محافظة كاملة على النص القرآنى خير مثال على مقدرة اللغة التخليدية بالنسبة لحماية الذاكرة والتراث الجماعيين من واقع الفناء المتأثر كثيرا بعوامل الزمن والبيئة والوجود الجسمى العضوى البيولوجى لذات تلك المجموعات البشرية.



ولا تقتصر هذه الأبعاد المتعالية/ المتافيزيقية للغة المكتوبة فقط، بل إن الاستعمال الشفوى للغة يقترن هو الآخر بدلالات متعالية/ ميتافيزيقية. أفلا يلجأ البشر من كل العقائد والديانات إلى استعمال الكلمة المنطوقة فى تأملاتهم الكونية وتضرعاتهم وابتهالاتهم إلى آلهتهم أو أى شىء آخر يعتقدون فى أزليته أو قدسيته؟ فبانفرادهم بنوعية اللغة البشرية عن بقية الكائنات الحية الأخرى يستطيع أفراد الجنس البشرى أن يحرروا أنفسهم من العراقيل المادية لهذا العالم ويقيموا علاقات وروابط مع العالم المتعالى/ الميتافيزيقى. فبهبة اللغة البشرية ينجح بنو البشر فى فك حصار المشاغل الدنيوية والآنية. وهكذا يصبح لقاؤهم بالبعد الميتافيزيقى فى شتى مظاهره أمرا لا مفر منه، فهم يرونه فى أحلامهم ويحفل به خيالهم ويلتقون به عن قرب فى تجاربهم الدينية.

٥. تملك الرموز الثقافية قوة هائلة تشحن الأفراد والمجموعات بطاقات كبيرة تمكن أصحابها من الانتصار على أكبر التحديات بكل أصنافها المتعددة. فعلى سبيل المثال، قد أثبتت قيم الحرية والعدالة والمساواة عبر التاريخ البشرى الطويل على أنها رموز ثقافية قادرة على شحن الأفراد والمجموعات بطاقات هادرة جبارة تشبه إلى حد ما القوى الماورائية الصاعقة التى لا يستطيع اعتراض سبيلها أحد. وهذا ما يوحى به قول الشاعر العربى التونسى أبى القاسم الشابى:

إذا الشعب يوما أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر

فمصدر إرادة الشعوب الحقة يكمن فى عالم الرموز الثقافية. أى عندما يجمع الناس أمرهم للدفاع عن الحرية والمساواة والعدل وغيرها من القيم البشرية وعن حقهم فى الاستقلال واحترام الذات يصبح رد فعلهم كرد فعل القدر الذى لا يبقى ولا يذر. وهذا ما يفسر لجوء الناس إلى الحديث عن المعجزات فى بعض الأحداث الفردية أو الجماعية التى تدخل سجل التاريخ بالرغم من عدم توفر المعطيات المادية لذلك. إنها تجليات لأثر الرموز الثقافية الحاسم فى ميلاد وتفعيل حركية السلوكيات البشرية فى المجتمعات والحضارات الإنسانية على مر العصور. ■



يونان لبيب رزق

باشا.. خديو سلطان.. ملك

البلاط الملكى فى مصر

في يوم ١٤ مارس عام ١٩٢٢ نشرت الوقائع المصرية «أمرا سلطانيا كريما»، كان آخر الأوامر السلطانية .. جاء هذا الأمر على شكل خطاب لرئيس الوزراء عبد الخالق ثروت باشا من السلطان فؤاد، وتضمن فقرة موجهة «إلى شعبنا الكريم»، كان نصها:

«لقد من الله علينا بأن جعل استقلال البلاد على يدنا وإنا لنبتهل إلى المولى عز وجل بأخلص الشكر، وأجمل الحمد على ذلك، ونعلن على ملأ العالم أن مصر منذ اليوم دولة متمتعة بالسيادة والاستقلال ونتخذ لنفسنا لقب صاحب الجلالة ملك مصر ليكون لبلادنا ما يتفق مع استقلالها من مظاهر الشخصية الدولية وأسباب العزة القومية.

«وهانحن نشهد الله ونشهد أمتنا فى هذه الساعة العظمى أننا لن نألو جهدا فى السعى بكل ما أوتينا من قوة وصدق عزم لخير بلادنا المحبوبة والعمل على إسعاد شعبنا الكريم.

«صدر بسراى عابدين فى ١٦ رجب سنة ١٣٤٠ (١٥ مارس سنة ١٩٢٢) - رقم ١٨ سنة ١٩٢٢»

«فـــؤاد»

وكان هذا الأمر الكريم نهاية قصة طويلة وبداية قصة قصيرة .. الأولى: بدأت قبل ١١٧ سنة، وعلى وجه التحديد فى عام ١٨٠٥، بعد أن تولى محمد على باشا حكم مصر، ونجح من خلال صراعات دموية مع السلطان العثمانى فى أن يجعل الحكم وراثيا فى أسرته، مما تقرر بمقتضى تسوية ١٨٤٠ - ١٨٤١، والثانية: انتهت بعد ٣١ عاما حين ألغى النظام الملكى عام ١٩٥٣، بعد قيام ثورة يوليو بأقل من سنة واحدة.

وقد تعددت ألقاب الحاكم من أبناء الأسرة العلوية خلال المرحلة الأولى؛ باشا، خديو، سلطان، وكان لكل من هذه الألقاب قصة ..

صفحات من كتاب:
«فؤاد الأول .. المعلوم والمجهول»
يونان لبيب رزق
يصدر قريبا عن دار الشروق

اللقب الأول تمتع به كل من محمد على وإبراهيم وعباس الأول وسعيد وإسماعيل، وكان هو ذات اللقب الذى يتمتع به سائر ولاة الإمبراطورية العثمانية حيث انتشر الباشوات فى عديد من أرجاء الإمبراطورية العجوز، ولم يكن الأمر مناسبا بالنسبة لمصر بعد أن حصلت على وضعية خاصة مغايرة لوضع الولايات الأخرى بعد حروب الشام خلال ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

حاول إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) أن يجعل لقب الحاكم من أبناء الأسرة متفقا مع هذه الوضعية المغايرة، وهو ما نجح فيه بعد أربع سنوات من اعتلائه لكرسى الحكم فى مصر حين حصل من الباب العالى على حق التلقيب بالخديو ضمن مزايا عديدة نالها من السلطان العثمانى، الأمر الذى أصبحت معه مصر دولة شبه مستقلة.

صحيح أن هذا الحاكم الأشهر فى التاريخ المصرى الحديث قد دفع «دم قلبه»، أو بالأحرى «دم قلب مصر» للحصول على تلك المزايا، غير أن ما فعله، وإن زاد من حجم الديون وقاد فى النهاية إلى زيادة التدخل الأجنبى وخلعه عن مسند الخديوية، فقد أدى إلى تقطيع كثير من روابط التبعية بين بلاده وبين الدولة العلية، الأمر الذى قاد صاحبنا إلى أن يتصرف فى كثير من الأمور كحاكم مستقل.

من تلك الأمور، فيما يتصل بوصفه حاكما، أن الرجل كان أول من طبق فكرة البلاط Court التى كانت قد عرفتها أوربا مع قيام الممالك القومية خلال القرن التاسع عشر، والتى بلغت أوجها فى عصر الملك لويس الرابع عشر فى فرنسا (١٦٤٣ - ١٧١٥)، وهو ما بدأ إسماعيل فى القيام به بعد بناء عدد من القصور، وانتقاله بعد فترة غير طويلة من القلعة، من حيث كان يحكم الباشوات إلى سراى عابدين، التى أصبحت مقرا للحكم وموضعا للمناسبات الاجتماعية ومؤسسة لها موظفوها الذين عرفوا برجال القصر.



الملاحظ أن هذه المؤسسة ظلت تنمو على عهد خلفاء الخديو المرموق، ويقدم لنا أحد رجالها، أحمد شفيق باشا، وصفا تفصيليا لها فى كتابه المعروف «مذكراتى فى نصف قرن» نتعرف من خلاله على كثير من تفاصيل هذا البلاط الذى اكتسب اسما عربيا .. «المعية السنية»، أى أولئك العاملين (مع) سيد قصر عابدين.

والذى تميز عن سائر باشوات الدولة بلقب صاحب السمو الخديو المعظم.

التسمية الثالثة لحكام مصر من أبناء أسرة محمد على أطلقت فى أواخر عام ١٩١٤، نتيجة لهذا الحدث الجلل الذى تمثل فى إعلان الحماية البريطانية على مصر وقطع علاقة التبعية القانونية التى ظلت تربط بينها وبين حكومة الأستانة بامتداد القرون الأربعة السابقة منذ أن نجح السلطان سليم الأول فى دخول القاهرة عام ١٥١٧ .

وقد جاءت هذه التسمية بعد قرار حكومة لندن خلع الخديو عباس حلمى الثانى الذى لم تطمئن إلى بقائه على عرش البلاد بعد تاريخه الحافل بالصراعات بينه وبين ممثلى الدولة المحتلة فى العاصمة المصرية، وبعد أن بدا صعوبة زحزحة ولائه للدولة العثمانية التى كانت قد دخلت وقتئذ الحرب العظمى فى صف المعسكر المعادى لبريطانيا والمعروف بدول الوسط.

التسمية كانت (بالسلطان)، والتى لم تأت اعتباطا بل بعد مشاورات عديدة بين إدارات وزارة الخارجية البريطانية من جانب، وبين الأمير حسين كامل، ابن إسماعيل وعم الخديو المخلوع، والمستر شيتام Cheetham ممثل الحكومة البريطانية فى القاهرة، وذلك بعد أن تم ترشيح الأمير ليحل محل ابن أخيه القابع فى الأستانة.

فمن ناحية: لم يكن مقبولا أن يتسمى الحاكم المصرى الجديد بالخديوى بعد إنهاء التبعية المصرية للدولة العلية بحكم تركية اللقب، مما كان يشير إلى أن استمراره يعنى الإبقاء على أحد مظاهر تلك التبعية، هذا فضلا عن تخوف السلطات البريطانية من أن تسمية الحاكم الجديد بنفس اللقب قد يعنى وجود «خديويين» وما يمكن أن يترتب على ذلك من البحث عن الشرعى بينهما، وهى مقارنة يمكن أن تنتهى بفوز عباس على عمه، بحكم أنه حصل على لقبه بفرمان سلطانى وليس بقرار من وزارة الخارجية البريطانية.

من ناحية أخرى: إمعانا فى قطع العلاقات بين القاهرة والأستانة فقد تقرر أن يكون اللقب البديل للحاكم المصرى الجديد «السلطان»، وهو نفس اللقب الذى يتمتع به الإمبراطور العثمانى، مما كان يعنى ببساطة استحالة وجود «سلطانين» فى دولة واحدة.

غير أن الحاكمين، الجالس على عرش الدولة العلية والجالس على عرش مصر، قد اختلفا فى ألفاظ التفخيم الملحقة باللقب، فبينما كان سلطان





الجالس على عرش الدولة العلية والجالس على عرش مصر، اختلفا في ألفاظ التفخيم الملحقة باللقب، فبينما كان سلطان الأستانة «صاحب جلالة»، لم يحظ سلطان مصر سوى بوصف «صاحب العظمة»



الأستانة «صاحب جلالة»، لم يحظ سلطان مصر سوى بوصف «صاحب العظمة»، وهي تسمية لها قصة..

ذلك أنه بعد إعلان الحماية، وبعد حصول حسين كامل على لقب السلطان جرت مشاورات حول خيارات التفخيم التي تلحق باللقب.. صاحب الجلالة، وهو الخيار الذي استبعد حيث رأى المسئولون البريطانيون عدم لياقة أن يتمتع حاكم البلد المحمي بنفس لقب ملك بريطانيا، وهي الدولة الحامية، أو أن يبقى لفظ التفخيم صاحب السمو، وهو ما رفضه البرنس حسين كامل بحكم أن عديدا من أمراء الأسرة الحاكمة يتمتعون بهذا اللقب، وأنه من الأفضل أن يتميز عنهم بتفخيم مغاير، وجاء اختيار تسمية صاحب العظمة بمبادرة من حسين كامل نفسه، ولم تجد الخارجية البريطانية بأسا في القبول بها.

على أي الأحوال كان لقب «عظمة السلطان» أقصر الألقاب عمرا في تاريخ أسرة محمد علي، فقد استمر لأقل من ثماني سنوات.. ثلاث منها هي عهد السلطان حسين كامل، والخمس الأخرى هي السنوات الأولى من عهد فؤاد الذي تمتع باللقبين.. السلطان ثم الملك.

ويشير الإطلاع على الوثائق السرية البريطانية أنه لم تكن هناك ثمة مشكلة في تغيير لقب الحاكم المصري عام ١٩٢٢ مثل تلك التي نشبت عند تغيير ذلك اللقب قبل ثماني سنوات، فقد جاء هذا التغيير بمبادرة من السلطان فؤاد ودونما اعتراض من جانب المسئولين البريطانيين في القاهرة، ولعدد من الأسباب..



منها أن هذا اللقب كان قد شاع خلال الفترة التي أعقبت الحرب العظمى في العالم العربي، الشريف حسين الذي أصبح ملكا على الحجاز بعد ثورته على الدولة العثمانية المعروفة باسم الثورة العربية الكبرى، والأمير فيصل الذي أصبح ملكا على سوريا ثم العراق في نفس الفترة، ولم يكن من المتصور أن يتمتع حكام مثل تلك الدول الناشئة بهذا اللقب ولا يتمتع به أبناء أسرة محمد علي في مصر بعد أن قضوا في سدة الحكم تلك الفترة الطويلة التي بدأت منذ مطلع القرن التاسع عشر وحتى الربع الأول من القرن التالي.

ومنها أنه بعد إسقاط الحماية عن البلاد بمقتضى تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ فقد سقطت معها الحجة البريطانية برفض تلقيب الحاكم المصري «بصاحب الجلالة الملك» لئلا يطاول الجالس على عرش الدولة المتبوعة، فمن الناحية القانونية على الأقل لم يعد هناك تابع ومتبوع، كما كان الحال عند إعلان الحماية قبل نحو ثماني سنوات.

المهم أنه مع الأمر السلطاني رقم ١٨ لسنة ١٩٢٢ وهو آخر تلك الأوامر، بدأ عصر جديد بأوامر ملكية، وبتطوير كبير في المؤسسة الحاكمة التي جاء على رأسها فؤاد ثم فاروق، الأمر الذي يستحق المتابعة..



من الناحية الدولية، وفي نفس يوم الأمر السلطاني، بعث رئيس الوزراء عبدالخالق باشا ثروت، بصفته وزيرا للخارجية بمنشور دوري إلى ممثلي الدول في القاهرة ضمنه ترجمة النطق الملكي على أثر إلغاء الحماية البريطانية على مصر معلنا به أن مصر أصبحت دولة متمتعة بالسيادة والاستقلال وأن السلطان اتخذ لنفسه لقب صاحب الجلالة ملك مصر «وإنني أرجوكم التكرم بتبليغ هذا النطق إلى حكومتكم وانتهز هذه الفرصة لأكرر لجنابكم عظيم احترامي»!

وكان رد الملك جورج الخامس «ملك المملكة المتحدة وإمبراطور الهند» أول ما وصل «إلى جلالة الملك فؤاد»، والذي أهداه فيه صادق التهاني «وأرجو من صميم القلب أن تسعد بلادكم بثمار الاستقلال أزمانا طويلة تمنيت وجودها بين بريطانيا العظمى ومصر»، وجاءت أسبقية الرد وصياغته على هذا النحو مقصودة من جانب وزارة الخارجية البريطانية، فيما تشير إليه الوثائق البريطانية السرية.

تتابعت بعد ذلك الردود من عواهل الدول التي وصلها منشور الحكومة المصرية.. أولها جاء من ألبير ملك بلجيكا متضمنا التهنئة لفؤاد بالعرش الملكي «وأرجو من صميم فؤادي أن تكون أيامكم مقرونة بالسعادة وأن تتمتع مملكتكم بالرفاهية»!، تبعها برقيات أخرى وإن اختلفت في الألفاظ إلا أنها

الملك أحمد فؤاد



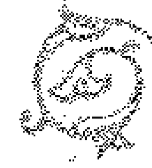
كانت تحمل نفس المضمون .. من قسطنطين ملك اليونان وهاكون ملك النرويج ثم سائر الملوك والأمراء.

أما على المستوى المصرى، فقد كانت المسألة أكبر كثيرا حيث جرت الاحتفالات فى سائر المدن المصرية نختار منها توصيف الاحتفالين اللذين أجريا فى القاهرة والإسكندرية ..

احتفال العاصمة جرى فى مسجد محمد على بالقلعة يوم الجمعة ١٧ مارس الذى عطلت فيه الشعائر الدينية من أواخر سنة ١٩١٤ «فوزعت المحافظة نحو ١٥٠٠ تذكرة على الأمراء والوزراء والعلماء والأعيان وفرشت الأرض التى يمر منها الموكب الملكى من ميدان الناصر صلاح الدين إلى باب المسجد بالرمل الأصفر وزين بالأعلام وفرشت الأرصفة فى مدخل المسجد بالسجاجيد الفاخرة. وأوقفت حكمدارية القاهرة فصائل من البوليس داخل القلعة وفى الطرق الأخرى».

وتستطرد الصحف الصادرة فى اليوم التالى فى وصف الاحتفال فتقول أن الكبراء والعلماء أخذوا يفدون على المسجد بالسيارات والعربات «وقبل الساعة ١٢ بقليل أقبل حضرة صاحب الجلالة ملك مصر فاستقبل جلالته حضرات أصحاب الدولة والمعالى الوزراء الحاليين والسابقين وغيرهم»، وتصف بعد ذلك الاحتفال حتى ركب «جلالته وبمعيته حضرة صاحب المعالى كبير الأمناء» عائدين إلى عابدين.

من الإسكندرية يبعث مكاتب الأهرام برسالة يصف فيها احتفال الثغر والذى بدأ بإطلاق مائة مدفع ومدفع «وقد دعا سعادة محمد حداية باشا محافظ المدينة جمهورا من كبار موظفى الحكومة والعلماء والقسوس والقضاة والأعيان والأدباء والتجار لسماع تلاوة الأمر الكريم الذى أصدره (فؤاد الأول) الجالس على عرش مصر معلنا فيه إلى الملأ أن مصر غدت من هذا اليوم دولة مستقلة ذات سيادة متخذا لنفسه لقب صاحب الجلالة ملك مصر بدلا من صاحب العظمة سلطان مصر».



فى الثانية عشرة ظهرا اكتظت دار المحافظة بالمدعوين من موظفى دوائر الحكومة والأعيان والتجار وكان بين الحاضرين «بعض كبار العلماء وقضاة المحكمة الشرعية وكهنة الكنائس القبطية وبعض محررى الصحف المحلية، فلما انتظم عقد الجلوس وقف حداية باشا وتلا رسالة جلالة ملك مصر إلى شعبه فتلقاها المجتمعون بإصغاء تام».

وتقرر جريدة الأهرام فى تغطيتها لتلك الاحتفالات أن «المدينة كانت هادئة وقد نشرت الرايات فوق الدور الرسمية وأكثر المحال التجارية فى الشوارع المركزية»، مما يعنى افتقارها للشعبية، فلم يكن المصريون مستعدين للاحتفال بإعلان فؤاد ملكا بينما سعد باشا رهن المنفى.

ربما كان أهم ما بقى من هذا الاحتفال القصيدة الطويلة التى وضعها أحمد شوقى ونشرتها الأهرام فى صفحتها الأولى يوم ٣١ مارس وكان مما جاء فيها:



الملكـــة نــــازلـى

باه الملوك بهذا التاج إن له
فى جوهر الشمس لا في الماس منتسبا
وته عليهم بعرش غير ذي لدة
من عهد خوفو على الماء استوى عجبا
لو استطعنا لزدنا فيه قائمة
ولاتخذنا له أم السها عتبا

فبينما احتفظت دواوين شوقى المطبوعة بتلك القصيدة فقد راح ذكر الاحتفالات فى طى النسيان !



شرع «صاحب الجلالة ملك مصر» بعد ذلك فى ترتيب شئون البلاط الأمر الذى تضمنته مجموعة من الأوامر الملكية التى نشرتها الوقائع المصرية، صدر أولها فى ١٣ أبريل سنة ١٩٢٢ بشأن «نظام الوراثة فى بيت محمد على»، وقد تضمن ثلاث عشرة مادة ..

تنظم المادة الأولى طريقة انتقال ولاية الملك «من صاحب العرش إلى أكبر أبنائه ثم إلى أكبر أبناء ذلك الابن الأكبر وهكذا طبقة بعد طبقة، وإذا توفى أكبر الأبناء قبل أن ينتقل إليه الملك كانت الولاية إلى أكبر أبنائه ولو كان للمتوفى إخوة. ويشترط فى كل الأحوال أن يولد الأبناء من زوجة شرعية. فولاية الملك من بعدنا لولدنا المحبوب الأمير فاروق».

فى حالة عدم وجود الابن نصت المادة الثالثة أن يئول العرش إلى «أكبر أبناء الإخوة الآخرين فإن لم يكن لأكبر إخوته الآخرين حسب ترتيب سن الإخوة». غير أن هذه المادة استثنت الخديو السابق عباس حلمى «فلا تثبت له ولاية الملك على أن هذا الاستثناء لا يتعداه إلى أبنائه وذريته».

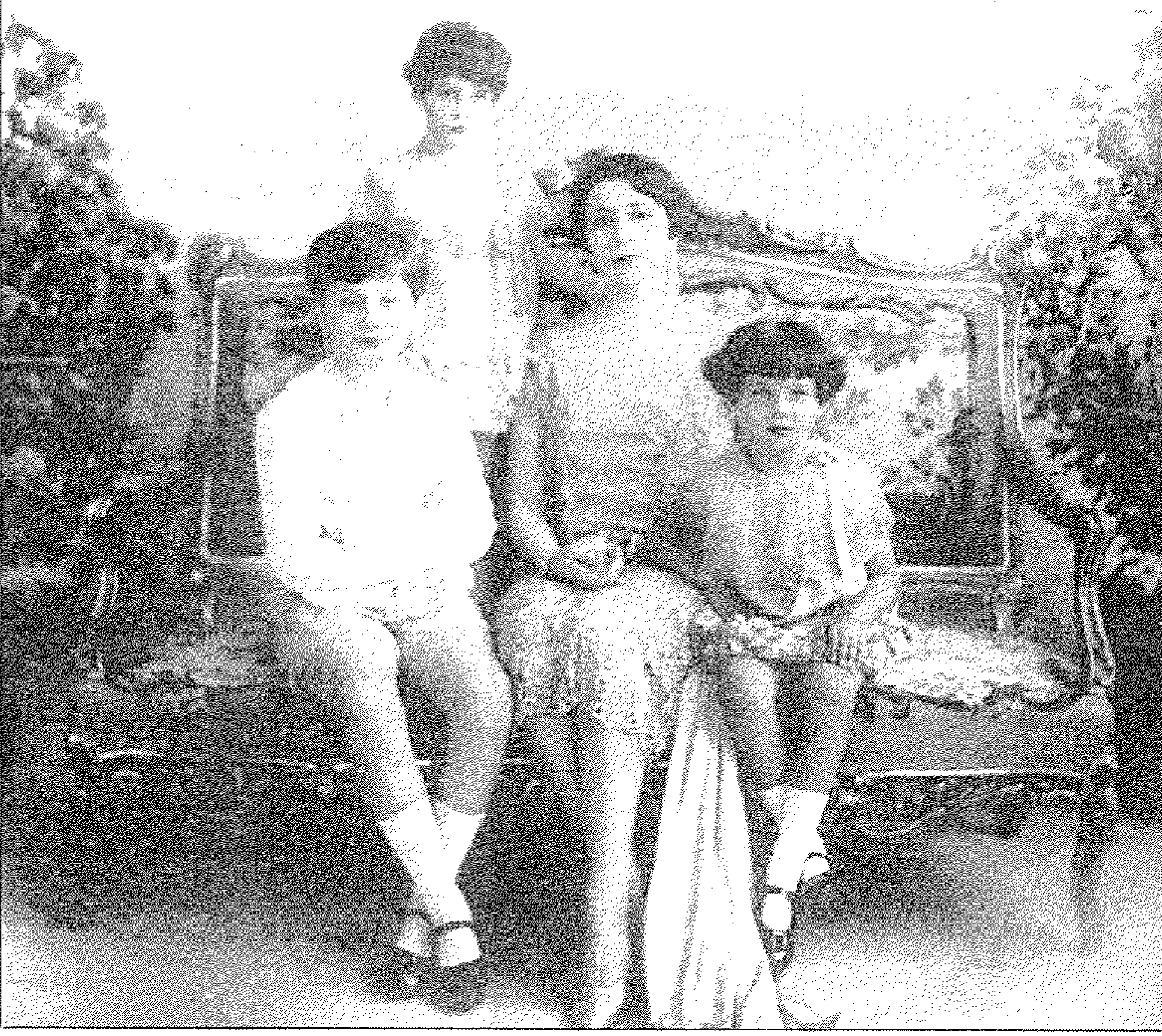
المادتان الخامسة والسابعة تضمنتا بعض المحظورات، فتنص الأولى على أنه «لا حق للنساء أيا كانت طبقتهن فى ولاية الملك»، بينما تذكر الثانية أنه «إذا تزوج أمير بغير إذن الملك أو إذن من كان له الحق فى تولى سلطته يحرم هو وذريته من حقوقهم فى العرش وتنتقل ولاية الملك إلى من يليهم فى الترتيب. كذلك يحرم من العرش من صدر فى حقه حكم بإخراجه من الأسرة المالكة».

ولأن فؤاد الأول أنجب ابنه فاروق (١٩٢٠) بعد أن كان قد جاوز الخمسين (مواليد ١٨٦٩)، ولما كانت حالته الصحية على غير ما يرام، فقد كان من الطبيعى أن يعنى نظام الوراثة بترتيب الأوضاع فى حالة وفاته قبل أن يبلغ ولى العهد سن الرشد التى قررها هذا النظام بثمانى عشرة سنة هلالية، الأمر الذى خصص معه ثلاث مواد لاحتمال أن يرحل قبل أن يبلغ فاروق هذه السن.

نصت إحداها على أن يكون «للملك القاصر هيئة وصاية للعرش تتولى سلطة الملك حتى يبلغ سن الرشد»، بينما قررت أخرى ضرورة تأليف هذه الهيئة من ثلاثة «يختارهم الملك لولى العهد القاصر بوثيقة تحرر من أصلين يودع أحدهما بديوان الملك والآخر برياسة مجلس الوزراء وتحفظ الوثيقة فى ظرف مختوم ولا يفتح الظرف وتعلن الوثيقة إلا بعد وفاته وأمام البرلمان»، ووضع النظام فى حسبانه احتمال عدم وجود هذه الوثيقة فنص على أن «يعين البرلمان هيئة وصاية العرش» فى هذه الحالة.

قبل انقضاء شهرين أصدر الملك فؤاد الأمر


الملك فاروق


الملكة نازلى مع أولادها

الثانى مرسوما آخر وكان خاصا هذه المرة «بنظام الأسرة المالكة». وقد جاء فى مطلع المذكرة التفسيرية الملحقة به أن تلك الأسرة «ركن من أركان الدولة بما بينها وبين الجالس على العرش من أواصر القرابة وبما قد يؤول إليها من حقوق العرش. وهى من جهة أخرى أكبر الأسر وأكرمها والمثال الذى يحتذى فى ضبط النفس وكمال السلوك».

تضمن الأمر الملكى الجديد اثنتين وعشرين مادة بدأها بالقول أن «صاحب العرش رئيس الأسرة المالكة وله بهذه المثابة حق الولاية على أعضائها». ثم دلف من ذلك إلى تحديد من ينطبق عليهم وصف الأمراء.. أولاد الملك وأولادهم من الظهور، إخوة الملك وأخواته، الأشقاء لأب، أولاد ولاة مصر وخديويها وسلطانها وأولادهم من الظهور، من ذكر اسمه فى الكشف المرفق من ذرية محمد على من الظهور، من عدا هؤلاء من ذرية محمد على ممن يمنحهم الملك لقب الأمير أو الأميرة، زوجات الأمراء المتقدم بيانهم وأراملهم حتى يتزوجن.

وميز الأمر بين ألقاب الأمراء من أبناء الملك الذين يتمتعون بلقب «صاحب السمو الملكى»، وأبناء السلطان حسين كامل الذين يتلقبون «بصاحب السمو السلطانى» وبين سائر الأمراء والأميرات الذين يكتفى بتلقيبهم «بصاحب أو صاحبة السمو» فقط.

ثم إن هذا الأمر نظم عملية انتقال لقب الإمارة من صاحبه إلى أكبر أبنائه «وإذا لم يكن للأمير ذرية انتقل اللقب إلى أكبر إخوته ثم إلى أكبر أبنائه وهكذا»، ووضع الشرط التقليدى أن يولد الأمراء والأميرات من «زوجة شرعية وأن يكونوا مسلمين كما يشترط أيضا فى الأمراء أن يكونوا مصريين».



وقد عنى الأمر الخاص «بنظام الأسرة المالكة» عناية خاصة بقضية زواج الأمراء والأميرات لما يمكن أن يترتب عليها من اختلاط الدماء الملكية بدماء آخرين لا يرقون لنفس المستوى فنصت المادة السادسة على أنه «إذا أراد أمير أو أميرة أن يعقد عقد زواجه أو أراد من له الولاية على أمير أو أميرة أن يزوج وليه وجب عليه أن يحصل على إذن الملك بذلك، فإذا أصدر له الإذن أثبته رئيس ديوان الملك فى سجل خاص وأبلغه إياه كتابة».

وتحوط الأمر لحالة زواج الأمير أو الأميرة بغير إذن «فيقرر بأمر ملكى حرمانه من لقب الإمارة، وللملك أن يقرر حرمان ذرية الأمير من تلك الزوجية من ذلك اللقب أو أن يقصر الحرمان على تلك الذرية. كما أن له أن يقصر الأمر على حرمان الزوجة من أن تستمد لقب الإمارة من زوجها»، ولا نظن أن الملك فؤاد حين وقع هذا الأمر كان يتوقع تطبيقه على الأميرة فتحية صغرى بناته بعد أكثر من ربع قرن!

نظمت المادة الثامنة، ولأول مرة فى تاريخ أسرة محمد على، مجلس البلاط الملكى واختصاصاته..

التشكيل: أمير من الأسرة المالكة يعين بأمر ملكى، رئيس مجلس الأعيان (الشيوخ)، وزير الحقانية (العدل)، رئيس ديوان الملك، شيخ الأزهر، رئيس محكمة الاستئناف الأهلية بالقاهرة وأخيرا مفتى الديار المصرية، على أن تعقد الرئاسة للأمير، وأن يصدر أمر ملكى بتعيين «كاتم سر» للمجلس يحتفظ بسجلاته وأوراقه بديوان الملك.

الاختصاصات: النظر فى حالة ما إذا أراد أمير أو أميرة أو زوج أميرة «أن يفارق زوجه .. ويجوز للمجلس بعد سماع أقوال الطالب أن يأمر بحضور الزوجين أمامه ليسمع أقوالهما. فإذا تعذر على المجلس الإصلاح بين الزوجين وصدر الطلاق بعد ذلك من صاحب الحق فيه أثبته المجلس وسلم به وثيقة».

للمجلس أن يعين «وجهة تعليم الأمراء القاصرين القريبين من وراثة العرش بمقتضى أحكام الأمر الخاص بنظام التوارث»، كما أن للملك أن يأمر بعد أخذ رأى المجلس بإخراج أى أمير من الأسرة المالكة «إذا ارتكب أمورا تخل بكرامة الإمارة لعدم جدارته بالانتساب إليها وبحرمانه من لقبه».

بعد أيام قليلة صدر أمر آخر بتلقيب من دون الأمراء من أبناء أسرة محمد على بالنبلاء وأن يسبق لقبهم توصيف «صاحب أو صاحبة المجد»، تبع ذلك أن نشرت الأهرام يوم ٤ يوليو عام ١٩٢٢ قائمة بأسماء الأمراء (٢١) فى طليعتهم الأمير فاروق، والأميرات (٢٩)، والنبلاء (١٥) والنبيلات (١٤)، وقد تمتع جميع هؤلاء بما كفلته لهم تلك الألقاب من مزايا وأبهة لثلاثين عاما أخرى، حتى حرمتهم منها ثورة يوليو عام ١٩٥٢!

عالم شرلوك هولمز

مايكل تشابون

[١]

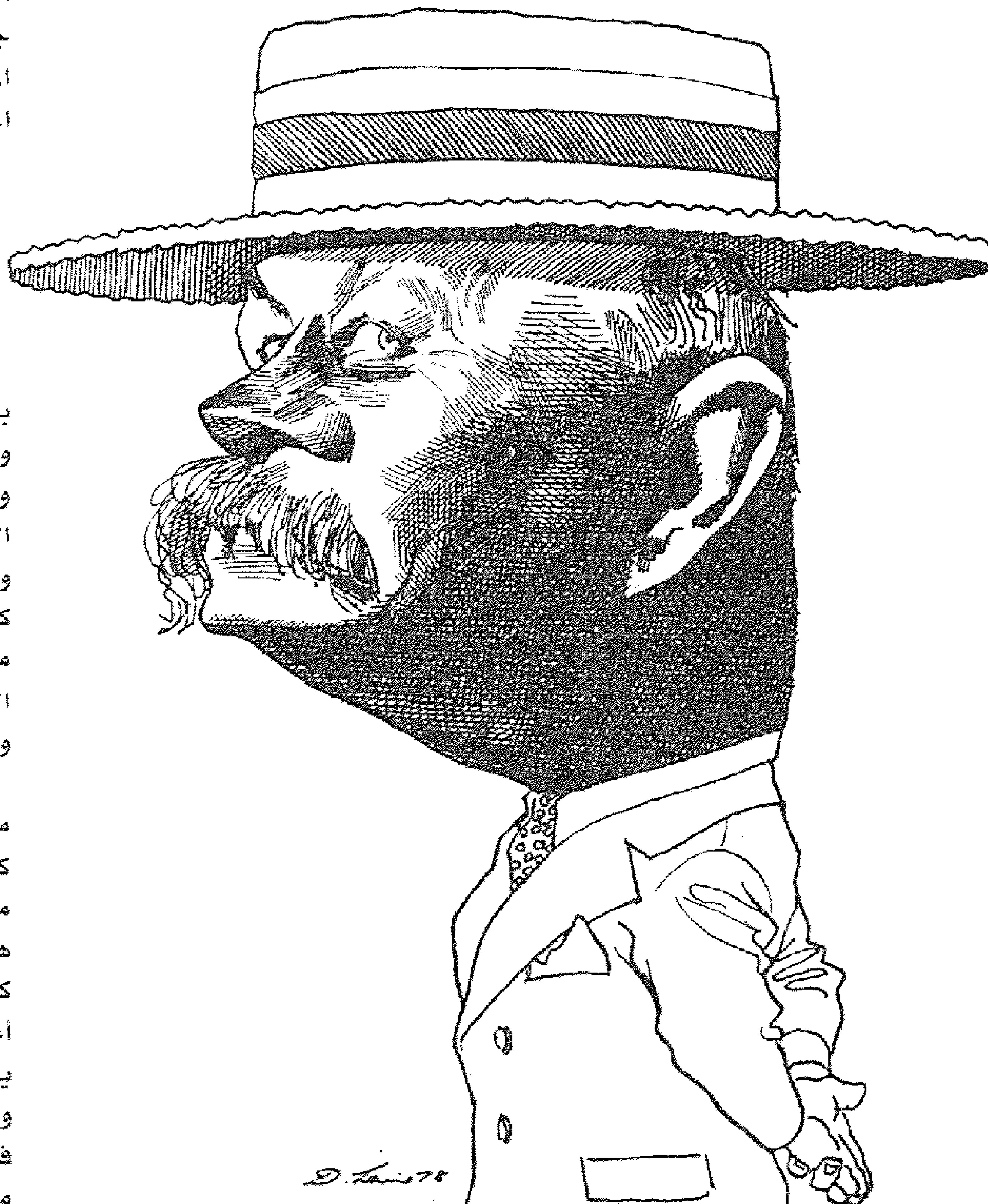
■ بعد مرور مائة وثماني عشرة سنة على ظهور أول مطبوعة لشرلوك هولمز فى عدد عيد الميلاد السنوى لعام ١٨٨٧، ما زال معجبوه ومعارضوه على حد سواء يشعرون بالحاجة لمحاولة تفسير سر جاذبية شرلوك هولمز المستمرة، وكأن قصص ومغامرات دكتور واطسون قد أصبحت نظاما اعتادوا عليه. مثل عمود الإنارة أو البريد الهوائى. ويحتاج فترة طويلة حتى يتم إلغاؤه أو تخطيه. وتفسير هذا النجاح قد يرجع لعدة أسباب منها احتواء تلك القصص على التخطيط الماهر والحبكة المقنعة أو تعطش الطبقة البرجوازية للمغامرات المنظمة، أو الحنين لعصر مضى (العصر الفيكتورى أو عصر النهضة)، أو بسبب الديناميكية المتجانسة التى يقدمها هولمز وواطسون أو أخلاق الجنتلمان - الرجل النبيل - التى يتمتع بها بوضوح سير آرثر كونان أو دويل، أو قد يكون أهم هذه الأسباب هو نوعية الكتابة نفسها وجودتها، الأعلى بكثير مما تحتاج إليه هذه الموضوعات. هذه التفسيرات المقدمة من قبل المؤيدين والنقاد على حد سواء توحى بشكل مباشر أو غير مباشر أنه ربما تكون الخمس وستون قصة والأربع روايات القصيرة التى تمثل رصيد شرلوك هولمز لا تستحق مثل هذا الإعجاب المستمر.

والشك فى قيمة الاستحقاق الأدبى لقصص هولمز موجود منذ البداية حيث تكمن المشكلة أو العلة فى الكاتب نفسه. بالطبع سيكون من الحمق القول بأن كونان دويل مبتكر شخصية شرلوك هولمز حتى أول قصصه عن هولمز «دراسة عن سكارليت» كان ينقصها قلة إيمان الكاتب فى إبداعاته حيث إن غالبية الجزء الثانى من القصة - الذى لا يحتوى على هولمز أو واطسون - كان يدور حول التجول فى بؤس وسط نفايات مرمون فى مدينة يوتا وهو المكان الذى فقد فيه القاتل - الذى قبض عليه هولمز لاحقا - الفتاة التى أحبها.

فى مغامرة هولمز التالية «إشارة الأربعة»، يبدأ الفصل الأول بالكثير من النقد الذاتى على لسان المخبر عن الجهود الأدبية لمرافقيه الأربعة وبالتالى عن الطبيب الشاب الذى يعانى من ضائقة مالية والذى يملك كل الخيوط فى يده. ويقول هولمز لواطسون «لقد ألقيت نظرة سريعة عليها»، مشيراً إلى قصة «دراسة عن سكارليت» ثم تابع:

«أنا لا أستطيع أن أهنئك بصدق على هذه القصة. إن التحقيق هو - أو يجب أن يكون - علم مضبوط ويجب أن يتم التعامل معه بنفس الطريقة الباردة والخالية من العواطف التى يتم التعامل بها مع أى علم، لقد حاولت تلوين القصة بالرومانسية مما نتج عنه نفس التأثير الذى قد يحدث إذا أدخلت قصة حب أو فرار على النظرية الخامسة لإقليدس».

وقد يشعر بعضنا بالطبع أن النظرية الخامسة لإقليدس سوف تتطور فقط إذا ما أضفنا إليها مكونا لطيفا كثير السيولة. وهذا نص مثالى يعبر عن السخرية من الذات بطريقة فكاهية جيدة حيث يقوم كونان دويل بعرض ذكائه الماكر الذى نادراً ما يقوم أحد - حتى أشد المعجبين تحمساً - بإعطائه الفضل عليه.



احتقر مؤلفاته عن هولمز. إلا أنه كان من المعروف أنه قد ندم على كتابة هذه المؤلفات واستخفها حيث قال عنها «لقد أخذت جرعة زائدة من (هولمز) جعلتنى أشعر نحوه مثلما أشعر نحو أحد الأطعمة التى تناولت الكثير منها فى مرة من المرات لدرجة أن مجرد ذكر اسمها يصيبنى بالشعور بالغثيان. فى عام ١٨٩٣، حاول الكاتب أثناء تأليفه قصة «المشكلة الأخيرة» - التى تحكى عن تصرفات رجل يائس - محاولة جادة لجعل هولمز يُقتل (على يد دكتور موريارتى أثناء وجودهم فى شلالات ريتيباتش). ولكن بينما كان كونان دويل مشغولاً بتحضير قصص شرلوك هولمز وبالتخطيط لموته وبإعداد الفخ لإدانة والترسكوت والاستمرار فى كتابة قصص الخيال الشعبى. فى البداية لاحتياجه وبعد ذلك بسبب النجاح الذى حققته، كان كونان أيضاً يقضى وقتاً ممتعاً بشكل ملموس. فيبدو أن إحدى خصائص هذا الرجل - كما يتضح أعلاه - هى أنه يقضى وقتاً ممتعاً على حساب نفسه.

ومثل أكثر الكتاب، كان كونان يكتب من أجل المال. وقد جعله سوء حظه كفنان يكسب أكواماً من المال ويصبح مشهوراً فى العالم بسبب قصص لم يكن هو يعتبرها جديرة بموهبته، فى حين أنه كان يحصل على تقدير أو أجر أقل عن أعمال كانت أهم بالنسبة إليه، ولأنه كان ينفق الكثير من المال على الإحسان والخير وعلى خططه الجامحة وعاداته فى الإنفاق - كما أنه كان موهوباً فى تعاملاته مع

The New Annotated Sherlock Holmes, Volumes 1 and 2
(شرلوك هولمز الجديد.. مجلد ١ و٢)
By: Sir Arthur Conan Doyle, edited by Leslie S. Klinger
Norton, 1,875 pp., $75.00

الأطفال . فقد كانت هذه الأكوام من المال غير كافية لتغطية كل هذه المصاريف. القليل من الكتاب هم من قاموا بالكتابة من أجل المال بنفس التصميم الذي كتب به كونان دويل في كل مرة استسلم فيها لكتابة المزيد عن شرلوك هولمز. إن استمرارية هذا العمل وتكراره على هذا النحو الناجح إنما يُعتبر - من وجهة نظري - شهادة ليس فقط على فن دويل وموهبته في رواية القصص وسحر ما يكتبه، ولكن أيضاً دليل على قوة المال وتأثيره على خيال الكاتب وإن كانت تلك القوة قد ينظر إليها البعض على أنها مهملة أو ينكرها البعض ويسخر منها البعض الآخر.

[٢]

الأسرار المشتركة، والخداع والتنكر، والادعاء، والخزي المدفون والشر المكبوت، والمرأة المجنونة الموجودة في الغرفة العلوية، وحياة لندن السرية، وإخفاء الحرمان والحيرة تحت الواجهة الصخرية للعالم، كل هذه التعبيرات هي كلمات مألوفة وحاضرة في الأدب الشعبي الفيكتوري.

في عام ١٨٨٩، قام جي. أم. ستودارت، المحرر الأمريكي لمجلة ليبينكوت، بدعوة أوسكار وايلد وكاتب آخر على الغداء واقترح أن يكتب كلٌ منهم قصة طويلة لتنشر في مجلته. أحد ضيوفه في هذا اليوم المشهود رحل وهو يحلم بكتابة قصة عن رجل بوهيمي وغير حكيم، عبقري ولكنه مختل العقل يطارد ضباب لندن الأصفر اللون، كما أنه يتعاطى الكوكايين والمورفين ليخفف من عذاب العيش في هذا العالم الكئيب غير المريح. ويقوم هذا البطل بوضع حد لإدمانه عن طريق وضع خطة سرية للكشف عن القشرة التي اعتاد الناس الآخرون إخفاء حياتهم تحتها وعن طريق كشف الأسرار التاريخية المليئة بالعنف والشر. وقد قام ستودارت بنشر رواية كونان دويل الثانية عن هولمز بعنوان «إشارة الأربعة»، أما وايلد فقد كتب «صورة دوريان جراي».



إن العادة الفيكتورية برؤية الأشياء بشكل مضاعف والقدرة على قراءة الإحساس بالعار المخفي عن العيون والمشاعر السرية في الحياة الإنسانية العادية وصلت إلى ذروتها بالقصص البوليسية لسيجموند فرويد واستمرت حتى وصلت إلى وقتنا هذا. وإنه لمن المغري قراءة السيرة الذاتية لكونان دويل كقصة فيكتورية كلاسيكية من هذا النوع، النوع الذي يحمل النجاح المطارد بالفشل المخزي، الوفاء في الحياة الزوجية الذي يخفي في طياته خيانة، والفلسفة الواقعية العلمية التي تخفي سذاجة عميقة.

إن حياة كونان دويل مبتكر شخصية هولمز مبنية - بداية من اسمه - على سلسلة من المرادفات المزدوجة: الأيرلندي والإسكتلندي، الهندي والإنجليزي، الطبيب والروائي، الفاشل المجهول والفارس المشهور، الرياضي والجمالي، رب الأسرة المحب والهائم القاسي، الزوج الجامد المشاعر والقروي العاشق البائس، بطل الحقيقة ومدمن الإخفاء، المدافع عن إصلاح قانون الطلاق والرافض لإعطاء حق التصويت للمرأة، المادح لإجينكورت والحزين المكسور الفؤاد على لاسوم. هذه السلسلة من الصفات المزدوجة اختتمت بزوج نموذجي جعل كويكسوت وسايشز بيتسانسون هما المتنافسان الوحيدان على قلوب القراء وفي سجلات الصداقة الخيالية التي تسجل قصصاً عن نوع نادر من الرجال الذين يجدون في بعضهم البعض - وفقط في بعضهم البعض - مادة وإحساساً وعاطفة رجل واحد كامل.

آرثر كونان دويل كان حفيد رسام كاريكاتير، وابن أخ مصمم الغلاف الأصلي لمجلة بانشي وابن شارلز دويل، المهندس المعماري والرسام الذي مات في مصحة خاصة بسبب شرب الخمر، وبسبب نوع من الجنون الذاتي الذي يجعل الإنسان يرى نفسه ملعوناً بسبب زيادة سلامة العقل. كان جنونه من النوع الذي يجعل الإنسان يتخيل أنه يقوم بقراءة النص العشوائي للعالم الطبيعي مكتشفا رسائل وعلاقات سرية كما أنه يكتشف الشياطين والجان والكائنات الأخرى. لقد أرهق تشارلز دويل ابنه بأن ترك له تركة من الفشل بالإضافة لكنز غني وغير ملموس مثل مجموعة الطقوس التي تركها سير رالف موسجراف لورثته المحيرين، ألا وهو النظر إلى العالم بطريقة غريبة الأطوار وبدون مركز وجعله رغم ذلك عالماً متماسك الأطراف. إن استهتار الأب وإدمانه للخمر وإصابته بمرض الصرع وبالتالي إيداعه في إحدى المصحات كان بالنسبة لكونان دويل بمثابة البديهيات السوداء للوجود في هذا العالم، تلك البديهيات التي لم يُعترف بها أبداً بل وتم إنكارها أساساً في بعض الأحيان.

أما والدة دويل - ماري - والتي كان دائماً يناديها «السيدة»، فيبدو أنها كانت نموذجاً للأمومة الفيكتورية، كانت نحيفة الجسم ولكن ضخمة. كانت أيضاً امرأة أيرلندية تعرف كيف تسعد أولادها وتخيفهم في نفس الوقت عندما تروى لهم قصص الأشباح وأساطير الأبطال بجانب المدفأة في ليالي الشتاء الطويلة. وهي أم لعشرة أطفال (عاش منهم سبعة فقط) كما أنها كانت مثالاً للأم الصالحة المضحية بذاتها رغم كونها كانت على



مثل أكثر الكتاب، كان كونان يكتب من أجل المال. وقد جعله سوء حظه كفنان يكسب أكواماً من المال ويصبح مشهوراً في العالم بسبب قصص لم يكن هو يعتبرها جديرة بموهبته، في حين أنه كان يحصل على تقدير أو أجر أقل عن أعمال كانت أهم بالنسبة إليه



علاقة برجل يصغرها بخمس عشرة سنة كان يؤجر غرفة في منزلها، والدلائل التي تشير إلى وجود علاقة جنسية بينها وبين هذا المستأجر الذي كان يدعى براني والير ويعمل أخصائياً في علم الأمراض هي دلائل ضئيلة ولكن موحية.

وقد انتقل والير إلى منزل عائلة دويل قبل دخول والد كونان دويل المصحة وكذلك قبل ولادة أصغر أطفال ماري وهي فتاة سميت براينى جوليا دويل - وجوليا هو اسم والدة والير. وعليه فإن استنتاج وجود علاقة لا يتطلب تفكيراً حكيماً أو قوة ملاحظة. وعندما قام والير بشراء منزل في ريف يوركاشير، أخذ ماري وبراين دويل للعيش معه. وقد قام أيضاً بدعم آرثر الصغير مادياً كما كان قرار كونان دويل المصيري بالالتحاق بكلية الطب مبنياً بالتأكيد على رغبات المستأجر ذي التأثير القوي بشكل غامض.

إن قراءة السيرة الذاتية لحياة كونان دويل التي كتبها دانيال ستاشوير تؤكد أن براين والبر كان - عملياً - الشخصية البارزة الأكثر أهمية في السنوات المبكرة من حياة كونان دويل، ورغم ذلك فإنه في كل كتاباته المتعلقة بسيرته الذاتية وكل رسائله التي نشرت لاحقاً، لم يكن هناك أي ذكر لبراين والبر ولا حتى مرة واحدة سواء لشكره أو لتصفية حسابه معه.

إلا أن هناك إشارة مبهمة في مذكراته: «لقد تبنت أمي مبدأ المشاركة في منزل كبير وهو ما قد يكون قد سهل عليها بعض الأمور ولكنه كان بمثابة كارثة في أمور أخرى».



والعديد من قصص هولمز تركز على نشاطات المستأجرين الأشرار في بيوت الضيافة والنزل وزوجات الآباء وأزواج الأمهات المتآمرين أو الأشخاص الذين كانوا يحبسون أحباءهم في أماكن بعيدة. إن الشبح التأنيبي للأب المحبوس من أجل مصلحته «المفترضة»، يظهر في الشخصية الرمزية للجندي السابق في «مغامرات الجندي الشاحب» حيث نرى المحارب السابق الذي شارك في حرب البوير مسجون في «بناية منفصلة» عن عقار الأسرة اعتقاداً منهم أنه قد أصيب بمرض الجذام في أفريقيا.

ويمكن أن نرى هذا الشبح أيضاً في الوجه الإنساني البائس للأسير الغامض في رواية «الوجه الأصفر» وفي الشخصية المحطمة في رواية «الرجل الأعوج» حيث تدور حول الجندي السابق الذي يطارد ويقتل الضابط الإنجليزي الذي قبل سنوات في الهند خانه وسلمه لأيدي المعذبين.

إن المحقق فرويد قد يستنتج بأن كونان دويل لم يتعاف كلياً من الإحساس

بالألم والإذلال اللذين شعر بهما أولاً عندما كان يشاهد أمه وهى تخون والده المجنون فى منزله، وبعد ذلك من كونه قد أجبر على الوقوف ساكناً فى الوقت الذى كان الرجل العجوز يُرسل إلى مستشفى مجانين مونتروز الملكية ولم يعد أبداً إلى المنزل.

إن التاريخ الأسرى لكونان دويل وحياته فى البيت قد حدثت فى مدينة عكست بدقة ثنائياتها وازدواجياتها، فمدينة أدنبرة فى القرن التاسع عشر كانت تجسد نبضات فكرة جيكيل وهايد فى العقل الفيكتورى بدرجة أكثر حتى من لندن. فى لندن، كان الشر والخير، العام والخاص متلازمين وكأنهما جاران قريبان بل كانا أيضاً. كما هو الحال مع هنرى جيكيل وادوارد هايد - يشتركان فى جسد واحد.

كانت لندن متمثلة فى فن السوق غير المنظم كما فى رواية «دكان الفضول القديم» أو شخصية كروك فى رواية «المنزل الكئيب» حيث المناظر الطبيعية مغطاة بالضباب والطين، وأثناء فترة طفولة كونان دويل، كانت أدنبرة تتضمن مدينتين متميزتين هما البلدة القديمة والجديدة.

كان وسط أدنبرة القديم المنتمى للقرون الوسطى - «هذا الحى الملعون النتن المتكون من كتلة من الأحجار القوية والكلس والروث» كما وصفه توماس كاريل - كان سيئ السمعة فى أنحاء أوروبا بسبب قذارته وتلوثه. فى بداية نهايات القرن الثامن، كانت المدينة قد حل محلها جزئياً وليس كلياً مدينة مهيبة مبنية بالحجارة الرمادية على الحافة إلى شمال المقاطعة القديمة.

إن هذه الخطوة الناجحة جزئياً لتحسين الذات التى قامت بها تلك المدينة الفخورة بإنجازها الثقافى والتجارى والمتحمسة لمحو ماضيها المظلم نتج عنها مدينة مكافحة عقلانية تشترك فى الحفاظ على أسرارها وتخفى شوارعها ذكرى قلقة عن هاوية الأسكتلنديين القديمة الدامية.

إن هذه المدينة تعكس أيضاً مأزق وإنجاز كونان دويل نفسه، فهو قد قضى طفولته الكئيبة والقلقة بين الفشل والفقر وعدم القدرة على نسيان والده من ناحية ومن الناحية الأخرى شهرة وتألق الجد الفنان الناجح والأعمام الموجودين فى لندن البعيدة، أى أنه تربى بين الإحساس الدائم بالدمار والخزى وبين المستقبل اللامع الذى طالما حلم به (وحققه لاحقاً) بين العالم الأيرلندى - الكاثوليكى الغريب الموجود فى قصص والدته وبين أدب اسكتلندا الفيكتورى البروتستانتى التجريبى.

فى كلية الطب بجامعة أدنبرة وفى قلب المدينة القديمة المخيف، تعلم كونان دويل بشكل علمى أن طريقة والده فى

عالم شرلوك هولمز



رغم أن فشل كونان دويل كطبيب ممارس قد تمت المبالغة فيه، إلا أنه يبدو واضحا أنه كان قليل الحظ فى المهنة التى اختارها والتى لم يكن يستمتع بممارستها أيضا



قراءة العالم بالرسائل يمكن أن تُدمج مع موهبة والدته فى تأليف القصص. فى خريف ١٨٧٦، بدأ بحضور المحاضرات والعمل ككاتب فى المستشفى الملكى الذى يرأسه دكتور جوزيف بيل وهو ممارس عام مبدع متخصص فيما قد يطلق عليه هو اسم أدب التشخيص. ونحن قد نطلق عليه أيضاً لقب قصة نثرية أو علم الكشف.

لقد كان جو بيل بمثابة أسطورة فى كلية الطب. وكانت خدمته المفضلة هى أن يقوم بتشخيص المرضى الموجودين فى غرفة الانتظار بالمستشفى بدون حتى أن يتكلم معهم أو يقوم بالكشف عليهم، وهى خدمة كان يستمتع جداً بالقيام بها تماماً مثل الشخصية التى كان هو الملهم لها فى رواية «انقلاب المسرح، أيها السادة، إن هذا الرجل صياد سمك، سوف تلاحظون إنه رغم أن اليوم هو يوم صيفى حار جداً، فإن المريض يرتدى حذاء طويل الرقبة، وعندما جلس على الكرسى أصبح من السهل رؤية الحذاء بوضوح، لا أحد يرتدى حذاء طويل الرقبة فى هذا الفصل من السنة إلا البحار.. إنه يخفى لفافة من التبغ فى الزاوية البعيدة من فمه وهو يحركها بدهاء شديد يا سادة.

بالإضافة لذلك، ولكى أثبت صحة افتراضاتى، لقد لاحظت العديد من قشر السمك ملتصقة بملابسه ويديه بينما رائحة السمك التى تنبعث منه تعلن عن حضوره بطريقة ملحوظة ومميزة جداً. إن المغزى من هذه التخمينات الملهمة ومن تجميع بعض الحقائق والصفات الشكلية - البعض منها قد يكون غير واضح للعين غير المدربة - ومقارنتها بمخزون داخلى من المعرفة والمعلومات المكتسبة من ملاحظات سابقة - أى أساس العرض الذى يقدمه بيل. هو للفت نظر الطبيب الشاب إلى هذا العدد الكبير من الإشارات والأعراض والاختصارات التى يقدمها المريض. المريض يأتى ويتكلم بإسهاب معطياً كماً كبيراً من المعلومات، فالمريض أو المريضة هو عبارة عن صحن زجاجى رقيق ملئ بالحقائق التى تحتاج فقط إلى الصبر وإلى عين مدربة ثاقبة لتقرأ وتشخص.

إلا أن هذه المهارات الخاصة بقوة الملاحظة والقدرة على التفسير ليست مرتبطة بمهنة الطب بدرجة ارتباطها بالكتاب والمخبرين، ولكى تنجح كمشخص أدبى أو روائى أو مخبر، فأنت تحتاج أن تلم بفن كنت ستتعلمه من والدتك لو كنت آرثر كونان دويل ألا وهو فن الإحساس بالقصة، من أجل «التاريخ» الذى سيتضمن الإشارات والأعراض ومن أجل الطريقة التى سيعاد تركيب القصة بها - بتعبير علاجى - لمصلحة المريض.

رغم أن فشل كونان دويل كطبيب ممارس قد تمت المبالغة فيه، إلا أنه يبدو واضحاً أنه كان قليل الحظ فى المهنة التى اختارها والتى لم يكن يستمتع بممارستها أيضاً. (هناك كاتب واحد على الأقل قال إن كونان دويل قد يكون قد قتل مريضاً عن طريق ارتكاب حماقة شبيهة بحماقات تشارلز بوفارى أو قل بدوافع أكثر شراً، ثم قام بعد ذلك بالزواج من أخت الرجل المتوفى وسيطر على الدخل المادى الذى ورثته عن أخيها. ومثل العديد من الأسكتلنديين فى هذا العصر، سواء كانوا مهندسين أو مشرفين أو مديرين أو أمراء تجارة أو جنود مشاه أو حكماء الإمبراطورية، كان كونان دويل عنده ميل قوى لحب المغامرة، وفى محاولة للهروب من المصير الذى حدده له والير، قام كونان دويل بمحاولتين ناقصتين أو فاشلتين، الأولى أن يصبح طبيباً على ظهر سفينة والثانية اتخاذ قرار طائش لترك الممارسة العامة من أجل دراسة طب العيون فى ألمانيا رغم أنه كان بالكاد يفهم اللغة الألمانية.



لقد وجد كونان دويل نفسه وهو فى أواخر العشرينيات من عمره مربوطاً بسلسلة من الممارسات الطبية الفاشلة أو المضجرة أو الصعبة، وبزوجة شابة ذات صحة ضعيفة وبإعالة طفل هو الأول من خمسة أطفال سينجبهم لاحقاً، كما أنه كان مديناً ومرفوضاً من زبائن شارع هارلى الراقى بالإضافة لأن كرامته منعته من اللجوء إلى أسرته لطلب العون وفى نفس الوقت كان يحن إلى النوع الحقيقى من المغامرات التى أوقدتها فيه قصص والدته. آفاقه بدأت تنخفض ووعوده تذهب هباءً ولا تتحقق. وقد يكون قد بدأ أيضاً برؤية نفسه ضائعاً، لقد رأى أن أعمال جوزيف بيل هى نوع من الملاذ عن طريق سرد القصص فى العيادة فى أدنبرة.

فربما كان من الحتمى أن تتجه أفكاره إلى بيل فى هذا الوقت فقد كان محاصراً فى غرفة استشارته المقفرة، وكما لجأ هولمز إلى حقنة الكوكايين تلك، أخذ كونان قلمه.

أنا أعرف بأننى خاطرت بأن يعتبرنى البعض أقحم بعض العوامل غير المترابطة على هذا الموضوع لأننى تحدثت كثيراً جداً عن الصلة أو العلاقة بين الأطباء والأدب وبين سرد القصة والشفاء. ولذلك سأشير فقط إلى أن أول اثنتى عشرة قصة من قصص هولمز قد جمعت وطبعت فى كتاب بعنوان «مغامرات شرلوك هولمز» وهو الكتاب التى جعل كونان دويل مشهوراً وثرياً وأنقذه من الحياة التى لم يكن يتمنى أن يحياها، لقد جاء هذا الكتاب بإهداء إلى دكتور جوزيف بيل. ■



أم كلثوم

غروب عصر.. وشروق عصر

إلياس سحاب وفيكتور سحاب

٣٠ عامًا على الرحيل.. تغير العالم وتغير العرب.. ظهرت أجيال جديدة وأذواق جديدة ووسائط إعلامية جديدة. شيء واحد لم يتغير تقريبًا هو فن أم كلثوم وغناء أم كلثوم وتذوق فن أم كلثوم.. فهي لم تكن مجرد مطربة عظيمة صاحبة صوت رائع بل رمزًا من رموز الحضارة العربية. اختلف العرب كعادتهم حول كل شيء إلا شيئًا واحدًا «حب أم كلثوم» وتسابقوا في إطلاق الألقاب عليها. فهي كوكب الشرق وسيدة الغناء العربي و«الست» وثومة. خلال حياتها وبعد رحيلها لم تتوقف الإصدارات التي تناولت فن وحياة وعصر أم كلثوم. أحدث هذه الكتب لفت الانتباه بما حكاه عن مشروع زواج أم كلثوم بالملحن محمود الشريف والآخر بفخامة إخراجه ومعلوماته الموسوعية.. «وجهات نظر» تنشر صفحات من الكتابين.



■■ الآن، وبعد مرور أكثر من ربع قرن على رحيل أم كلثوم، وعقد كامل على رحيل محمد عبد الوهاب، يبدو المشهد العام للنهضة الموسيقية والغنائية العربية (في القرن العشرين) شديد الوضوح، في خط سيره العام، وفي تتابع حلقاته التفصيلية. لذلك أصبح بالإمكان القول بثقة ودقة أكثر من أي وقت مضى:(إن أم كلثوم ومعها الثلاثي الموسيقي القصبجي - زكريا أحمد- السنباطي) ومحمد عبد الوهاب (بصفته المزدوجة ملحناً ومطرباً) يشكلان أعلى وأبرز قمتين في تاريخ الموسيقى والغناء العربيين في القرن العشرين، بعد المرحلة التأسيسية - الانتقالية التي دشنها وأطلقها سيد درويش، قبل رحيله المبكر، وبرغم القصر الشديد لعمر تجربته الفنية البالغة الثراء (١٩١٧ - ١٩٢٣). بل إن بالإمكان، استزادة في دقة التعبير، القول بأن أم كلثوم (وملحنيها الأساسيِّين) ومحمد عبد الوهاب، قد شكلا النهر الأساسي للموسيقى والغناء العربيين في القرن العشرين، الذي تفرعت منه كل الألوان الموسيقية والغنائية الأخرى. ويجدر هنا الايضاح أنني إنما أعني المجرى العام لما يمكن أن نسميه «الموسيقى العربية الكلاسيكية المعاصرة»، التي شكلت معالم الذائقة الموسيقية - الغنائية العامة للعرب المعاصرين في كل أقطارهم، بما لا يشمل - بالطبع - تلك الألوان العربية المحلية المحصورة في أقاليم المشرق وأقاليم المغرب، والتي لم تمارس حتى يومنا هذا أثرا هاما مشتركا في الوجدان العربي العام والذائقة العربية العامة للموسيقى والغناء، على ما لهذه الالوان، أو لبعضها على الأقل، من قيمة عظيمة كتراث كلاسيكي، لا بد له في يوم من الأيام من لعب دوره الحضاري العربي العام.

أم كلثوم
السيرة
إلياس سحاب
الأغاني
د. فيكتور سحاب
٣ مجلدات
بيروت: موسيقى الشرق، ٢٠٠٤



والأهم من ذلك، أن ظاهرة النهضة الموسيقية - الغنائية التي نمت وترعرعت في مصر على مدى قرن وربع (١٨٥٠ - ١٩٧٥) وعمت أرجاء الوطن العربي، تكاد تكون تكرارا عصريا للنهضة الأولى التي امتدت في الزمن من صدر الاسلام (ظهور طويس في عهد الخليفة عثمان بن عفان ٦٤٤ - ٦٥٦) إلى نهاية العصر الذهبي في عهد ثامن الخلفاء العباسيين (المعتصم ٨٣٣ - ٨٤٢) أي بين منتصف القرن السابع ومنتصف القرن التاسع (يضاف إلى ذلك امتدادها الأندلسي مع زرياب في الفترة الموازية للعهد الذهبي العباسي)، وامتدت جغرافيا من نقطة الانطلاق الاولى في الحجاز، إلى نقطة الاستقرار والازدهار في دمشق وبغداد، الى نقطة الانتشار الأبعد في الأندلس.

إن الكلام عن اللون الكلثومي أو التيار الكلثومي في الغناء العربي، كمسوغ لحشر تراث أم كلثوم كله في نمط واحد من الإبداع الموسيقي - الغنائي، هو أبعد ما يكون عن الحقيقة، كما سنكتشف عند التوقف بالتحليل التفصيلي أمام الملامح الخاصة لكل واحد من عباقرة التلحين الثلاثة، الذين خصوا أم كلثوم بمعظم نتاجهم.

وهكذا فإن الاعتقاد والمناداة بوحدانية النمط الكلثومي في الموسيقى والغناء يجافي وقائع تاريخ أم كلثوم الحقيقي، إضافة إلى أنه لا يعلي من شأنها



الفنى، بل يفعل العكس تماما، وسنكتشف بعد عرض الوقائع الحقيقية لفن أم كلثوم وتحليلها، أن رصيد أم كلثوم الفنى بما استخرجته من شعرائها وملحنيها وعازفيها، وما أبدعته من أساليب الأداء الغنائى، أكثر غنى وتنوعا مما يعتقد غلاة المتحزبين لوحدانية اللون الكلثومى.

بهذا المعنى يمكن القول بلا أى مبالغة لفظية مجانية إن أم كلثوم، بكل هذه المكونات، تعد مع زميلها محمد عبد الوهاب، من أبرز الامتدادات فى عصرنا الحديث لسلالة المغنين والمغنيات الذين صنعوا تاريخ الغناء والموسيقى فى هذه المنطقة من العالم، منذ قديم الزمان، على النحو الذى حاولنا فى الصفحات القليلة السابقة أن نرسم صورة له بملامح سريعة مركزة. وقد أتاحت لها سلامة البيئة الأولى التى تكونت فيها، وحسن رعاية التيارات الاجتماعية والثقافية الواعية فى المجتمع القاهرى فى المرحلة الانتقالية الحساسة بين الإنشاد الدينى واحتراف الغناء، وقوة شخصيتها وفطنتها وخفة ظلها المصرية الصميمة، كل تلك العوامل سهلت لها دقة لا مثيل لها فى اختيار شعرائها (أحمد رامى وبيرم التونسى) وملحنيها (وأبرزهم القصبجى وزكريا أحمد والسنباطى) وكلهم خصوها بخلاصة عبقرياتهم الشعرية واللحنية، وكلهم ينتمون إلى تلك السلالات التاريخية فى فنون الموسيقى والشعر الغنائى. بل انها شاركت توأمها على عرش الغناء فى القرن العشرين محمد عبد الوهاب شاعره وراعيه أحمد شوقى، فاقتنصت منه قصيدة فى وصفها (والتغزل الفنى بها) حولتها عبقرية رياض السنباطى بعد ذلك إلى واحدة من الروائع التاريخية للقصيدة الغنائية العربية (سلوا كؤوس الطلا). ثم مدت مشاركتها لعبد الوهاب فى شاعرية أحمد شوقى، بتخصصها فى غناء عدد من عيون قصائده الدينية، رفعت بها مع رياض السنباطى قلعة شامخة من القصائد الغنائية الدينية («سلوا قلبى» و«نهج البردة» و«ولد الهدى» و«إلى عرفات الله»)، بل إنها ضمت عبد الوهاب إلى كوكبة ملحنيها الموسميين فى العقد الأخير من حياتها الفنية.



لا شك فى أن عقد العشرينيات، كان العقد الحاسم فى حياة أم كلثوم، ففيه كانت قد حسمت وأنشأت كل أسس حياتها الشخصية والفنية، التى انطلقت منها إلى استكمال ملامح مجدها الفنى وصعودها الاجتماعى:

❖ حسمت أمر موقعها داخل منزلها الأسرى، أولا، وهو الموقع الذى نجحت فى رسمه وفقا لمواهبها وكفاءاتها الاستثنائية، لا وفقا للتقاليد الاجتماعية المحافظة التى تحسم الموقع الأول لمصلحة الكبير فى مواجهة الصغير، ولمصلحة الذكر فى مواجهة الأنثى.

❖ حسمت أمر استقرارها فى القاهرة فى مواجهة إعصارين عاتيين، لم تكن مواجهتهما على أى درجة من السهولة:

أ- إعصار الغناء الترفيهى الهابط، لاسيما للأنثى التى تريد مزاولة الغناء فى ذلك الوقت.

ب- إعصار حملات التشهير وتشويه السمعة التى كانت، لا سيما فى السنوات الأولى، ضغوطا مضاعفة عليها، بما تصيبها به من إحباط، وبما تثيره فى نفس والدها الريفى المحافظ، صاحب القرار الأول فى حياتها الشخصية والفنية فى تلك السنوات المبكرة.

هذا المنعطف التاريخى الذى وصفه كمال النجمى بعبارات تساوت فيها الصراحة القاسية بالدقة والوضوح، اكتمل الحسم فيه بالنسبة للأصوات النسائية بين ١٩٢٨ و١٩٣٠، فبدأ الأمر باستسلام منيرة المهدية (زعيمة مرحلة ما قبل أم كلثوم فى الغناء النسائى) ليس فقط أمام جمال صوت أم كلثوم وقوته، بل أمام الفن الجديد الذى حمله صوت أم كلثوم بألحان أبو العلا محمد من القصائد التقليدية اللحن، الخارجة من رحم التجويد القرآنى والتوشيح الدينى، وألحان محمد القصبجى الحاملة على صوت أم كلثوم كل بذور التجديد فى اللحن والأداء، على قاعدة عربية كلاسيكية وباستيعاب صحى وواضح لفنون الأوبرا الإيطالية. فبدأ هذا الاستسلام بترداد منيرة المهدية أشهر ألحان القصبجى الجديدة لأم كلثوم وأكثرها تطورا (إن حالى فى هواها عجب، وإن كنت أسامح)، ثم انسحبت تدرجا من عالم الغناء. أما نجمة الغناء الثانية فتحية أحمد فلم تعتزل، بدليل أننا بقينا نستمع إليها حتى عقد الأربعينيات فى ألحان منفردة لزكريا أحمد وفريد الأطرش وسواهما، غير أن ظهورها تحول، بعد أن أسلس المستمعون العرب (فى مصر وخارجها) قياد آذانهم لأم كلثوم، من ظهور دائم ومكثف، إلى ظهور متقطع لعقدين من الزمن، ما لبث أن تحول فى النهاية إلى انسحاب كامل، خاصة بعد أن اندفعت أم كلثوم بعد الثلاثينيات فى تفجير طاقات فرسانها الثلاثة محمد القصبجى وزكريا أحمد ورياض السنباطى، فى خط مواز لتفجر الطاقات اللحنية والصوتية للنجم الآخر محمد عبد الوهاب، الأمر الذى أقفل الباب تماما أمام نجوم المرحلة السابقة، وعلى رأسهم فى الرجال المطرب الكبير صالح عبد الحى، لإصراره على التمسك بالأسلوب التقليدى فى الغناء.

وإذا كان انسحاب فتحية أحمد التدريجى، قد خفف كثيرا من الملامح المأسوية لانسحاب تلك الفنانة ذات الحنجرة الممتازة على مكابرة فى استيعاب روح الكلاسيكية الجديدة فى الغناء العربى، فإن الشخصية العنيدة والمكابرة عند منيرة المهدية قد أضفت مسحة مأسوية حقيقية على اعتزالها، خاصة عندما قامت بعد ذلك بمحاولتين يائستين بائستين للعودة عن الاعتزال. كانت المحاولة الأولى فى عقد الثلاثينيات بعد اقتحام كل من عبد الوهاب وأم كلثوم عالم السينما بأفلام غنائية، كانت تزيد من تلميع نجوميتهما وإقبال الجماهير عليهما. فأنتجت منيرة المهدية ومثلت فيلم «الغندورة» الذى سقط سقوطا ذريعا، فى مقابل نجاح جماهيرى تاريخى لأفلام عبد الوهاب وأم كلثوم.

ولعل الازدواجية الريفية - المدنية، هى التى عصمت أم كلثوم، عند وصولها إلى قمة الهرم الاجتماعى فى العاصمة، وانخراطها فى علاقة مميزة مع الملك والأسرة المالكة، من أن تفقد ملامح الشخصية العامة المرتبطة بكل الطبقات الاجتماعية لشعبها، وبالأحاسيس الوطنية والدينية والاجتماعية والعاطفية لهذه الطبقات. وقد كانت لهذا الواقع آثاره الواضحة، لا فى سلوك أم كلثوم الشخصى فقط، بل فى نتاجها الفنى وخياراتها الفنية، خاصة فى مجال الأعمال ذات الطابع الوطنى، أو الدينى، أو ذلك النمط الفريد من بعض قصائدها وأغنياتها التى كانت مزيجا فريدا من العاطفة الوطنية والعاطفة الدينية.

والمؤكد أن ظهور رياض السنباطى فى حياة أم كلثوم، الشخصية والفنية، كان له أكبر الأثر فى حياتها، لأن علاقتها برياض السنباطى لم تثمر فقط التحول الفنى الأساسى فى حياتها، بل طبعت بطابعها كل ما قدمته أم كلثوم من أعمال فنية حتى نهاية حياتها، ومن ذلك تعاونها الفنى مع ملحن عملاق من وزن محمد عبد الوهاب، أو ملحنين شبان مثل بليغ حمدى والموجى والطويل ومكاوى. فكل هؤلاء لم يكونوا يتعاملون مع أم كلثوم وحدها، بل مع الصيغة الفنية الكلثومية - السنباطية التى لازمتها حتى نهاية حياتها.

وهناك وجهات نظر أشد تطرفا فى



تفسير هذه الظاهرة، تقارن بين الخطين المتوازيين في شخصية رياض السنباطي الفنية، فتستنتج من المقارنة ما تعده تنازلا سنباطيا لأم كلثوم، أو مسايرة لها (في عبارة ألطف)، حتى يعتقد بعض النقاد والمحللين، أن ما أنجزه السنباطي من خلال حنجرة أم كلثوم، على عظمته، كان على حساب حريته اللحنية المطلقة، التي أثبتها السنباطي في ألحان غناها بصوته مثل «فجر» و«أشواق» و«ذات يوم يا حبيبي» و«على عودي» وبقية ألحان فيلم حبيب قلبي، و«لحن الوفاء» (لعبد الحليم حافظ)، وأنه كان يعد بألوان أكثر تطورا لو بقي أكثر إنتاجه خارج الإطار الكلثومي. ولعل أكثر النظريات تطرفا في هذا المجال وردت على لسان كمال الطويل، الذي نقل عنه قوله «إن أم كلثوم كانت أجمل عقبة في طريق تطور الموسيقى العربية».

ومهما كان من أمر هذا الاختلاف في وجهات النظر، فلا شك في أن أعمالا عظيمة، وأنماطا عظيمة قد ازدهرت في حديقة التفاهم الكلثومي - السنباطي. لاسيما أن هذه الحديقة ظلت حكرا على فن رياض السنباطي، يختال فيها منفردا حتى بداية عقد الستينيات.

وعلى موجة هذه التجارب الناجحة جدا، فنيا وجماهيريا، زادت جرأة أم كلثوم في مغامرتها التجديدية، فكلفت الموجي والطويل الناشئين، بمشاركة الكبير المخضرم رياض السنباطي بتلحين أغنيات البرنامج الإذاعي الصوفي «رابعة العدوية»، الذي كان يفترض أنه اختصاص رياض السنباطي وحده، رائد اللون الصوفي في الموسيقى العربية المعاصرة. ومرة أخرى، نجحت التجربة، بل إن التحدي قد استفز موهبة الطويل والموجي، فوضعا ألحانا تجاوزت في انتشارها ألحان السنباطي في رابعة العدوية، ربما لطزاجة ألحانها.

غير أن بليغ حمدي، ظل صاحب الحظ الأكبر بين الملحنين الشبان مع أم كلثوم، لأن كمال الطويل، صاحب التجارب الوطنية والدينية الناجحة معها منذ العام ١٩٥٦، لم ينل حظ الدخول في فريق ملحني المونولوجات العاطفية المسرحية الطويلة لأم كلثوم. وحتى الموجي، تأخر ظهور لحنه العاطفي الأول لأم كلثوم (للصبر حدود) حتى مطلع العام ١٩٦٤، وهو الموعد الذي ظهر فيه أيضا أول تعاون لأم كلثوم مع عبد الوهاب. أما بليغ حمدي، فقد فتحت له أم كلثوم أبوابها على مصاريعها، منذ العام ١٩٦٠، في مغامرة حقيقية. لأن رصيده الفني حتى مع عبد الحليم حافظ، لم يكن في ذلك الوقت قد قطع شوطا كبيرا.

وهنالك آراء عديدة في تفسير هذه الحظوة المبكرة التي نالها بليغ حمدي لدى أم كلثوم، أشهرها الرأي القائل بأن محمد فوزي هو الذي رشح بليغ حمدي بقوة وإلحاح لأم كلثوم. غير أن الواضح، أن أم كلثوم كانت منذ منتصف عقد الخمسينيات قد وصلت إلى ذروة سنوات طويلة من الأمجاد الفنية والاجتماعية، ودان لها كل هدف بعيد، وسعى إليها كل منصب في نقابة الموسيقيين أو سواها، وأصبح كبار الملحنين ومشاهيرهم يعلنون صراحة رغبتهم في أن يتوجوا نجاحهم الفني بتقديم لحن لأم كلثوم.

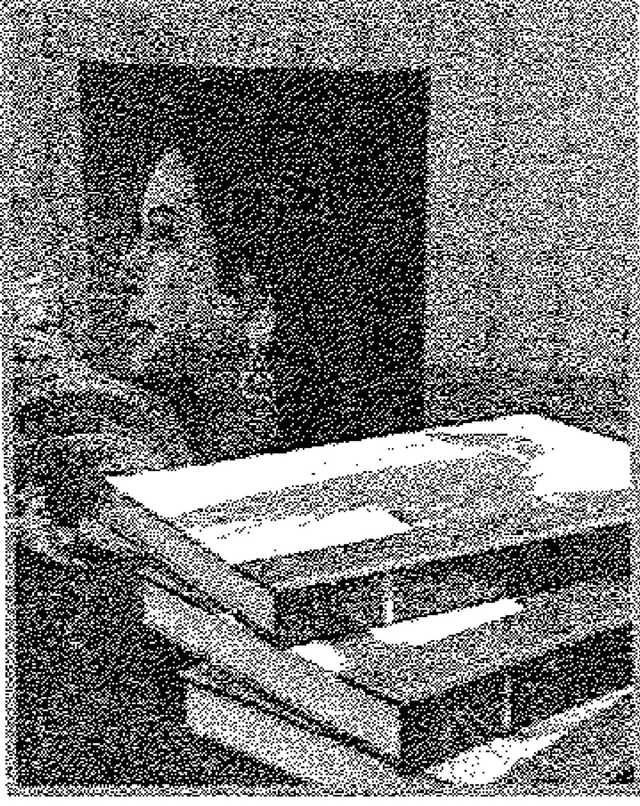


إن نظرة خلفية شاملة على خريطة الثقافة العربية في القرن العشرين، تضع تحت أبصارنا بضعة أسماء من المبدعين في مجالات الأدب والمسرح والسينما والموسيقى والغناء والفنون التشكيلية والفكر، كانت على تماس مباشر، منذ بداية الطريق أو في منتصفه، مع وجدان المواطنين العرب في كل أقطارهم، وفكرهم ومشاعرهم، قفزت من فوق الحدود السياسية التي رسمت في الدوائر الدولية المسيطرة، بعد انفراط عقد الإمبراطورية العثمانية، في مسيرة تسبغ شرعية كاملة على مقولة أن حدود الدول العربية السياسية في القرن العشرين، ليست بالضرورة، بل ليست بأي حال من الأحوال، مطابقة للحدود الثقافية.

وإذا كانت الأسماء التي استطاعت على امتداد القرن العشرين أن تتجاوز الحدود السياسية الضيقة، إلى الحدود الثقافية التي تغطي مساحة الوطن العربي بأسره، هي نادرة في مجال الموسيقى والغناء، فإن اسم أم كلثوم يقف بلا شك في الصف الأول منها. ■



حول الموسوعة



لست موسيقيا محترفا أو كاتبا، لكن لدي شغف بالموسيقى بكل أشكالها وأوطانها. أذكر أني عندما كنت صبيا درست آلة الكمان على الأسس الغربية، وكانت الكتب التي استخدمتها في ممارسة التمارين أو عزف القطع الموسيقية في غاية الدقة والإتقان. كانت هذه الكتب مطبوعة في أوروبا والولايات المتحدة، وقد عكست جودة مضمونها وإخراجها مدى احترام هؤلاء القوم لتراثهم واهتمامهم العميق بالحفاظ عليه.

من هنا بدأت تراودني فكرة إنتاج ما يساهم في الحفاظ على التراث الموسيقي العربي وتقديمه بشكل أفضل يليق بتراثنا الراقي العريق. كانت الأفكار والمواضيع متعددة ومتشعبة، وكان يجب أن نبدأ من مكان ما. لقد جمعتني الأقدار قبل أربع سنوات بالشقيقين السيد رفيق نحاس والمهندس جورج نحاس من لبنان الشقيق، وهما مثلي من هواة الموسيقى، أما قدراتهما في شؤون الموسيقى العربية ومعرفتهما وأحاسيسهما الفنية فهي في مرتبة المحترفين الأصيلين في العالم العربي. بدأنا نحن الثلاثة مع صديق من الكويت هو السيد رائد الحمد، من المهتمين بأمور الموسيقى العربية، نبحث عن الموضوع المناسب الذي يجب أن نبدأ به، وكيفية إخراجه للنور. فكانت الفكرة التالية:

أولا: أن نقوم بإنتاج عملين في آن واحد، العمل الأول عن السيدة أم كلثوم يتضمن كتابين منفصلين.

الأول عن سيرتها الشخصية والفنية والثاني عن أغانيها، على أن يتكرر الأمر نفسه بالنسبة للموسيقار محمد عبد الوهاب، مع مراعاة تغطية أغانيه وألحانه لسواه من المغنين والمغنيات.

ثانيا: أن يكون الإنتاج على أعلى قدر ممكن من الدقة والإتقان في المضمون كما في التصميم والإخراج والطباعة.

وكان أن التقينا ونحن في غمرة البحث والنقاش بالشقيقين الأستاذ إلياس سحاب والدكتور فكتور سحاب اللذين شاركا وساهما بفاعلية في تأكيد وبلورة الفكرة لما لهما من خبرة طويلة في شؤون الموسيقى العربية، ولانشغالهما بالهموم نفسها. اكتملت الحلقة، فقررت السير في إنتاج الفكرة وتحويلها إلى مشروع فعلي، وبادرت بتأسيس شركة مع الصديقين الشقيقين رفيق وجورج نحاس باسم «موسيقى الشرق» لمتابعة هذا المشروع والسير قدما في مشاريع أخرى مشابهة ومكملة يجرى بحثها حاليا.

قد يتساءل القارئ عن اختيار البدء بأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، علما أن هناك فنانين آخرين معاصرين ذوي شأن كبير..

الإجابة باختصار، إن مشروعا متكاملا لإحياء التراث الموسيقي العربي بالأسلوب والمستوى الراقي المطلوب ليس بالشيء اليسير لذلك فقد ارتأينا أن يكون هذا العمل مجرد خطوة في هذا الاتجاه، والباكورة الأولى.

عبد الله عقيل (الناشر)

غلبت أصالح في روحي



هذه أغنية من تلك التى تستحق أن تحتل إحدى المراتب الأولى بين أعظم ما غنت أم كلثوم، بل بين أعظم الغناء العربى على الإطلاق. ولعلها أعظم مونولوج لحنه رياض السنباطى، حتى أن بعض النقاد يعدها توأم رق الحبيب بجدارة. وهى تتألف، إذا استثنينا البيتين الأولين والبيتين الأخيرين، من أربعة «مشاهد» والمقدمة والختام: غلبت أصالح، و: وأبات أصالح.

المقدمة الموسيقية تتألف من جزءين أولهما إيقاع وقور، أما الثانى فهو على إيقاع الفوكس ويتخلله حوار بين القانون والفرقة الموسيقية. ويذيله تقسيم على الكمان يمهد لعودة الجزء الأول من المقدمة الموسيقية. وإذا قلنا إن كل هذا فى غاية الجمال، فلن نكف عن قول هذا فى كل أجزاء هذه الأغنية التحفة. أما المقدمة الغنائية، وهى البيتان الأولان، فتعرض الموضوع الموسيقى باختصار وبلاغة موسيقية جديرة بالسنباطى.

«المشهد الأول»، أربعة أبيات تبدأ من: صعبان علىَّ. مقام البيت الأول النهاوند، أما الثانى فيكاد لا يصبر ليدخل فى مقام الراست، حتى نهاية الأبيات الأربعة، التى تتخللها صرخة وجدانية مؤثرة: غير على البعد حالك.

المشهد الثانى، أربعة أبيات أيضاً، من: وأنا اللى أخلصت، وتسبقها لازمة فيها حوار جميل جداً بين الناى والفرقة على مقام النكريز (فى بعض التسجيلات يتولى القانون العزف المنفرد). البيتان الأولان باللحن ذاته تقريباً، إذ أن كلمة ضنين، فى المرة الثانية تتحول إلى تغريد يستمر فى تسجيل شائع ٢٣ ثانية، وهو من أعظم ما يمكن أن تسمع أذن من غناء.

المشهد الثالث، سبعة أبيات، ومقامه النكريز أيضاً. وفيه بيتان يتشابهان لحناً: وبعدت عنك، و: والقلب منك. وفيه أيضاً بلوغ باللحن إلى أعلى درجاته أيضاً لدى قولها: مجروح. وهى درجة: رضاك، فى المشهد السابق. لكنها هنا تعبر عن صراخ المجروح. ويدخل اللحن مقام البياتى ومزاجه عند قولها: لما الزمان اللى غدر به.

المشهد الرابع، فيه أربعة أبيات، وتسبقه لازمة موسيقية فى مستوى جمال سابقتها، ومقامه النهاوند. ويتحول لحنه إلى الراست عند قولها: واسأل عنك، ويعود إلى النهاوند فى عجز البيت الرابع: وانا اللى طول بُعدى ما همك، ليمهد للعودة إلى المقدمة الغنائية: وأبات أصالح بروحى، بحبك عبقرى فى متانة التأليف الموسيقى.

فى هذه الأغنية الخالدة مواضع عديدة تستنسبها أم كلثوم للتغريد والارتجال، وعلى الأخص لتطوير اللحن غناء على ميزان موسيقى يرافقها فيه عباقرة العازفين: محمد القصبجى بالعود، ومحمد عبده صالح بالقانون، وإبراهيم عفيفى بالرق، وأحمد الحفناوى بالكمان، وعباس فؤاد بالكونترباص، وغيرهم. وفى هذه الأغنية تسجيلات عديدة تختار أم كلثوم أن ترتجل فيها عند غنائها المشهد الرابع: حتى الزمان. وفى هذه التسجيلات دروس حقيقية لأسلوب التغريد والتفريد، وكذلك لأسلوب العزف المصاحب، الذى يخدم الغناء ويسنده، ولا يحاول الاستعراض على حسابه. كل هذه القيم جعلت من: غلبت أصالح، صرحاً موسيقياً شاهقاً فى موسيقى العرب فى القرن العشرين.

غلبت أصالح فى روحى
تأليف: أحمد رامى .. تلحين: رياض السنباطى
النوع: مونولوج
ظهورها: اسطوانة: كايروفون (١٥، ١٣د) حفلة: ١٩٤٦/١/٣
مقامها: نهاوند .. إيقاعها: الوحدة الكبيرة.. زمنها: ٥٤ د

فات الميعاد



تبدأ المقدمة الموسيقية على مقام نهاوند مرسلة، يعزف فيها الجيتار، ثم حين يبدأ الإيقاع يعزف الساكسوفون لحناً شجياً. وحين يتوقف الإيقاع يتحاور الكمان مع الفرقة ولكن على مقام الهزام.

المطلع الغنائى مقامه عراق ويبدأ مرسلاً. ويدخل الإيقاع فى البيت الثانى: تفيد بإيه، بلحن تحول إلى مذهب فى ذيل الأغصان الثلاثة. لحن البيت الأول غنى بالمرارة، ويعبر عن المعنى تعبيراً صادقاً. لكن الانتقال إلى البيت الثانى على مقام البياتى من دون لازمة، يضعف حبكة اللحن. تفيد بإيه مقامه البياتى، وطالت ليالى الألم، مقامه الراست، ويعود: وكفاية بقى إلى البياتى، ليستقر اللحن فى الخاتمة: فات الميعاد، عند العراق.

لازمة الغصن الأول مقامها عجم، ويبدؤها الساكسوفون موقعة، وتتحول الفرقة الموسيقية إلى النهاوند. لكن الغناء مقامه عجم: يا ما كنت أتمنى، ويحيد اللحن إلى الكورد فالبياتى فى البيت الثانى: بس أنا. ويمكث اللحن على البياتى، حتى قولها: ستاير النسيان، على مقام الراست. ويعود البيتان الأخيران: وإن كان على الحب القديم وأساه، إلى البياتى، لدخول المذهب: تفيد بإيه، على هذا المقام.

لازمة الغصن الثانى موقعة على البياتى، وفيها فكرة موسيقية طريفة، إذ يزن بعض الوتريات، ليعزف البعض الآخر اللحن، موقعاً ولكن من دون آلات إيقاع. الغناء مرسل على البياتى: الليل ودقة الساعات. ويتحول اللحن إلى الصبا الموقع: وقسوة التنهيد، لينكفئ إلى العجم: وعايزنا. أما العودة إلى البياتى: وهات لى قلب، فللتمهيد للمذهب: تفيد بإيه.

لازمة الغصن الثالث موقعة ومقامها الراست. وفى وسطها قلب للإيقاع ويتخلله عزف جميل على الكمان. أما البيتان الأولان: من نارى فلحنهما بياتى شورى جميل ومؤثر جداً، ويعبر عن لوعة ومرارة بصدق. لكن لحن البيتين التاليين يتحول إلى البياتى من دون تمهيد، على نحو غير مقنع، على الرغم من جمال الألحان، التى تحتاج إلى منطق فى الترابط، وعند انتهاء البيتين، يدخل المذهب: تفيد بإيه.

هذه الأغنية نموذج على تفوق جمال الألحان عند بليغ، على متانة البنية عنده.

فات الميعاد
تأليف: مرسى جميل عزيز .. تلحين: بليغ حمدى
النوع: طقطوقة
ظهورها: اسطوانة: صوت القاهرة (٥٨، ٢٧د.) حفلة: ١٩٦٧/٢/٢
مقامها: عراق .. إيقاعها: الوحدة الكبيرة .. زمنها: ٩٧د.

الحب الممكن
الزواج المستحيل



طـــــارق الشـــناوى



■■ يعتقد البعض أن «أم كلثوم» هى الحب الكبير والحقيقى فى حياة «محمود الشريف»، وحقيقة الأمر أن «أم كلثوم» هى أشهر قصة حب على خريطة «محمود الشريف» العاطفية، ولكنها ليست أصدقها، وإن كانت هى الخط الفاصل فى حياة «محمود الشريف» و«أم كلثوم».

قال لى «محمود الشريف» فى إحدى الليالى التى جمعتنا أنه لم يحب «أم كلثوم» كامرأة قدر حبه لها كمطربة!

ودليلى على ذلك أن «محمود الشريف» - كما ذكر لى - كان وهو مرتبط بـ «أم كلثوم» عندما يمسك بالعود ليلحن ويجد اللحن مستعصيًا على قريحته يغادر فيللا أم كلثوم متجهًا إلى المنصورة حيث عشيقته «فردوس» لكى تلهمه بالأنغام العصية مثل «أبو العيون السود» أو «على شط بحر الهوى» أو «لما رمتنا العين»!

كانت «فردوس» غانية التقى بها «محمود الشريف» فى فترة انتقاله بين القاهرة والإسكندرية فى نهاية العشرينيات ومطلع الثلاثينيات.. ولح «محمود الشريف» بقعة مضيئة داخل «فردوس» التى قطعت علاقتها بحياة الليل بعد أن تعرفت على الشريف.. والذى أطلق عليه أهل الحارة التى تقطن بها - من كثرة تردده عليها - «مجنون فردوس»!

الأنغام التى لا يستطيع «الشريف» أن يقتنصها فى فيللا «أم كلثوم» المتعددة الطوابق البالغة الثراء تأتى له راضخة عندما يلتقى بـ «فردوس» فى بيتها الذى لا تزيد حجراته على واحدة يمارس فيها الحياة والحب والإلهام.

التقى «محمود الشريف» وجهًا لوجه مع «أم كلثوم» فى فيللتها بالزمالك - عام ١٩٤٦ - كان طلبه الأول هو أن تغنى له - بمفرده - (إن كنت أسامح) فكان هو المستمع الوحيد لصوتها فى تلك الليلة التى لم ينسها أبدًا ولم تنسها أيضًا «أم كلثوم».

ولكن هذا لم يكن اللقاء الأول بين «أم كلثوم» و«محمود الشريف»، فقد التقى بها - لأول مرة - عام ١٩٣٤ فى مكتب الإذاعى «محمد فتحى» وربما لا يعرف الجيل الحالى هذا الإذاعى الكبير الذى رحل عن عالمنا فى منتصف الثمانينيات والذى كان يلقب بـ «كروان الإذاعة» لجمال صوته، وكانت «أم كلثوم» لا ترضى بغيره بديلاً لكى يقدم حفلاتها الغنائية، وذلك قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، حيث أصبح «جلال معوض» هو الذى يتولى هذه المهمة بعد الثورة.

كانت «أم كلثوم» تأنس كثيرًا لآراء «محمد فتحى» ولهذا قدم لها فى مكتبه الملحن الشاب «محمود الشريف»، وقال لها إنه ملحن أغنية (بتسألينى باحبك ليه) فردت عليه «أم كلثوم» قائلة إنها كانت تعتقد أن ملحن الأغنية هو «محمد عبد الوهاب»! والواقع أن أغلب العاملين فى الوسط الفنى كانوا ينسبون لحن (بتسألينى باحبك ليه) إلى «محمد عبد الوهاب» لأنه قد قدمه فى فيلم (تاكسى حنطور) الذى لعب بطولته «عبد المطلب» وكان «عبد المطلب» قد غنى لـ «عبد الوهاب» لحنًا آخر وهو (كان ليه خصامك ويايا) ولأن اسم «عبد الوهاب» أكبر بكثير من «محمود الشريف» فإن لحن «الشريف» عندما نجح نسبوه إلى «محمد عبد الوهاب»!، ولم تكن المقارنة لصالح «عبد الوهاب» على الإطلاق وربما لهذا السبب فإن «عبد الوهاب» منذ ذلك الحين أصبح يتحفظ كثيرًا فى الاشتراك مع آخرين فى تلحين أغانى الأفلام خوفًا من أن يتكرر الأمر معه مثلما حدث مع (بتسألينى باحبك ليه)؟!

كان الأمر بالنسبة لـ «محمود الشريف» لا يزيد على كونه لقاء عابرًا بأعظم صوت غنائى أحبه محمود الشريف.. أما بالنسبة لـ «أم كلثوم» فلقد أخبرت «محمود» أن الحب منذ تلك اللحظة قد عرف طريقه إليها وأن قلبها ردد أول لحن عاطفى له بعد أن ظل طوال هذه السنوات صامتًا عن الغناء فى الحياة!!

انطلق «محمود الشريف» محققًا نجاحات كبيرة ولافتة مع أصوات «ليلى مراد» و«عبد المطلب» و«كارم محمود» و«نجاة على» و«سعاد مكاوى» و«أحلام» و«شهر زاد» و«سعاد محمد»، وردد الناس ألحانه التى كانت تسرى فى وجدانهم.. كانت ألحانه تجمع نبضًا شعبيًا وحسًا فلكلوريًا، وذلك رغم أنها ليست ألحانًا فلكلورية، ولكنها من فرط صدقها وعفويتها تشعرك وكأنها ألحان أخذها «محمود الشريف» من أفواه الناس وقدمها للناس.

ولهذا حرص «محمد فتحى» فى عام ١٩٤٦ على أن يقدم لـ «أم كلثوم» مفاجأة وهى ملحن يدخل قدرًا من العصرية على مشوارها الفنى مع العمالقة الثلاثة «زكريا أحمد» و«محمد القصبجى» و«رياض السنباطى»، وقدم «محمد فتحى» لـ «محمود الشريف» كلمات أغنية (شمس الأصيل) لـ «بيرم التونسى»، وبالفعل لحن «محمود الشريف» الكلمات وأسمعها أولاً لـ «محمد فتحى» الذى طلب منه أن يتكتم هذا المشروع الغنائى حتى يظهر للناس.. واتصل «فتحى» بـ «أم كلثوم» بعد أن اطمأن على اللحن، وكانت هناك جلسة ثلاثية جمعت بين الشريف وفتحى وأم كلثوم.. واستعادت «أم كلثوم» «الشريف» أكثر من مرة، ثم طلبت منه أن يذهب إليها فى الحادية عشرة من صباح اليوم التالى ليسمعها اللحن كاملاً فى فيللتها.. وانتظر «محمد فتحى» نتيجة هذا اللقاء (الثنائى) فلم يتصل به «الشريف» ولم تتصل به «أم كلثوم»، وأيقن «فتحى» أن هناك خلافًا حادًا وقع بينهما وأن «أم كلثوم» لم يعجبها اللحن أو أنها طلبت تعديلات والشريف بطبعه لا يقبل أن يتدخل أحد فى ألحانه وأنه على أية حال قد توقف مشروع اللقاء الفنى.

ولم يشأ «محمد فتحى» أن يتدخل حتى لا يغضب أى طرف.. وبعد أسابيع قرأ فى الجرائد - بالتحديد فى أخبار اليوم - خبر زواج أم كلثوم بتاريخ ٧ ديسمبر ١٩٤٦.



أما «محمود الشريف»، فلقد ذكر لى أن «أم كلثوم» طلبت منه أن يحضر معه دبلتين يكتب على واحدة (لا إله إلا الله) وعلى الثانية (محمد رسول الله) حتى لا يفترقا أبدًا.. ورغم ذلك كان الفراق.

أما عن لقاءات الحبيبين فقد روى لى «محمود الشريف» أن «أم كلثوم» كانت تزوره فى منزله وارتبطت بصداقة مع زوجته وشقيقته، ولم

أنا والعذاب.. وأم كلثوم.. محمود الشريف
طارق الشناوى
القاهرة: دار الخيام، ٢٠٠٤، ١٨٢ صفحة



تعلم لا الزوجة ولا الشقيقة أن ما يربط «الشريف» و«أم كلثوم» شيء آخر أبعد من مجرد علاقة مطربة بملحن.

كانت «أم كلثوم» تحنو كثيراً على «فاطمة» وتداعبها وتشد من أزرها عندما تشعر أنها تعاني آلام المرض، وتصر «فاطمة» على أن تذيقها طعاماً من يديها عندما يشتد عودها وتصبح قادرة على إعداد المائدة.

وانتقل الشريف بعد ذلك إلى منزل أخيه في الرضاعة محمد محمود شعبان «بابا شارو» حيث كانت تمتد الجلسات بين «أم كلثوم» و«الشريف» و«بابا شارو» وأيضاً ملحن وعازف عود مغمور اسمه «عبد الرءوف عيسى» وهو صاحب لحن وحيد حقق قدراً من الشهرة وهو (يا حاسدين الناس) لـ «محمد عبد المطلب».

وفي إحدى الجلسات كتبت «أم كلثوم» كلمات أغنية «شمس الأصيل» بيدها وقدمتها إلى «محمود الشريف»، واحتفظ هو بهذه الوثيقة النادرة.

لم يحاول «الشريف» أن يحتكر صوت «أم كلثوم» بل إنه قال لها أنه يرى أن تعاونها مع «زكريا أحمد» و«القصبجي» و«رياض السنباطي» أمر ضروري وأنه لا يمكن الاستغناء عن ألحانهم.

حلم «محمود الشريف» أنه من خلال صوت «أم كلثوم» يستطيع إحياء المسرح الغنائي الذي وجده «الشريف» ينهار ولا يحاول أحد إنقاذه، فقد انشغل كل من «أم كلثوم» و«عبد الوهاب» بالمنافسة في مجال الأغنية الفردية ولم يعد يشغلهما على الإطلاق أن يقدما للجمهور مسرحاً غنائياً.

قال «الشريف» لـ «أم كلثوم»: أحلم بمسرح «ثومة»، وبدأ في التخطيط لحلمه، واختار موقعاً قريباً من دار الأوبرا القديمة بميدان العتبة.. وكان «الشريف» مولعاً بالرسم فرسم تخطيطاً مبدئياً لهذا المسرح ولاسم «أم كلثوم» الذي يتصدر المسرح.. وبينما كانت تستغرقه أحلامه الفنية كانت «أم كلثوم» غارقة في حالة عاطفية بعيدة عن الفن، فهي تشعر أنها وجدت أخيراً الرجل الذي تبحث عنه.. الرجل القادر على أن يحميها ويدافع عنها ويفرض سلطانه عليها، الذي تستطيع أن تستند إليه، ولهذا فعندما سألها «مصطفى أمين» بذكاء هل ستعتزل الغناء بعد زواجها من «الشريف» قالت له «أم كلثوم»: الأمر له وما يريد! هكذا استسلمت (أم كلثوم)!! الكلمات تشي بين سطورها بهذا الخضوع المطلق للرجل الذي أحبته والذي من الممكن أن تضحي بكل شيء من أجله وبأعز ما تملكه «أم كلثوم» - صوتها - فهي من الممكن أن تهديه لرجل واحد فقط يستمع إليه.. وهو «محمود الشريف».

هذه الكلمة التي قالتها «أم كلثوم» هي التي أثارت الرأي العام ضد «محمود الشريف» فقد أصبح هو الغريم الأول لكل رجل أحب «صوت» أم كلثوم، أما الذين أحبوا (أم كلثوم) فلقد عبر كل منهم عن موقفه الغاضب!

فقد روى لي «الشريف» ما فعله «أحمد رامي» عندما قرأ الخبر في جريدة أخبار اليوم، فلم يشعر بنفسه وهو يخرج من بيته في مصر الجديدة بـ (البيجامة) من هول المفاجأة! واتجه للمحطة واستقل الترام ولم يكن يدري أين سيذهب أو لماذا ركب الترام ولم يدرك أنه يرتدي البيجامة إلا عندما نبهه الكمساري!!

أما «زكريا أحمد» فقد حكى لي «الشريف» أنه ذهب لفيللا «أم كلثوم» لإجراء بروفة عمل معها، وعندما أخبرته مديرة المنزل أن «أم كلثوم» تعتذر لأنها متعبة - وكان «زكريا» يعلم أن «محمود الشريف» مقيم بالفيلا - فانهال بالشتائم على «أم كلثوم» و«الشريف» وغادر الفيللا!!

أما «القصبجي» العاشق الأول لأم كلثوم فإنه لم يكتف مثل «زكريا أحمد» بأن يقف في بهو الفيللا منتظراً ولكنه صعد مباشرة إلى غرفة نوم «أم كلثوم» ومعه مسدس يخفيه خلف ظهره وبدا متحفزاً تجاه «أم كلثوم» و«الشريف»، وتنبهت «أم كلثوم» لذلك فقالت له: مخبي إيه ورا ظهرك يا قصب؟!.. ووقع المسدس من القصبجي ووقع هو أيضاً على الأرض!

وتحولت هذه الواقعة إلى شكوى في النيابة بتهمة الشروع في القتل تقدم بها «الشريف» ضد «القصبجي».. وبدأت النيابة التحقيق.

ولكن «أم كلثوم» تدخلت في اللحظات الأخيرة وأوقفت التحقيق حتى لا يقف «محمد القصبجي» أمام النيابة وتتحول الواقعة إلى قصة تلوكها الألسنة وتتلقفها الصحف.

حتى القصر الملكي لم يرض عن هذه الزيجة وتدخل لمنعها.. وتلقت «أم كلثوم» - التي كان قد أنعم عليها الملك بلقب «صاحبة العصمة» - تهديداً مباشراً من القصر الملكي بإيعاز من «شريف باشا صبري» خال الملك الذي كان عاشقاً لـ «أم كلثوم».

وكان ينبغي أن تتم تغطية هذا الحدث - انفصال «أم كلثوم» و«محمود الشريف» إعلامياً بما يرضي كل الأطراف «أم كلثوم». أما «محمود الشريف» فإنه سوف ينسحب أو يتوارى قليلاً، هذا ما اعتقده «مصطفى أمين» - أقرب أصدقاء «أم كلثوم» من الصحفيين خلال تلك السنوات..

حاولت «أم كلثوم» أن تهون على «الشريف»، وطلبت منه أن يهدئ من ثورته وأن يخفض رأسه للعاصفة حتى تمر بسلام وأن تظل العلاقة قائمة ولكن بلا إعلان.. لكنه لم يرض بأن يقف في تلك المنطقة الرمادية التي يرفضها دائماً لأنها ضد طبيعته الجامحة والجانحة.. ولهذا ترك دبلة الخطوبة - والتي كتب عليها (لا إله إلا الله) - في فيللا «أم كلثوم» ولم يعد إليها..

أما «مصطفى أمين» فلقد كتب مقالاً عنوانه (جنازة حب) كله أكاذيب كما وصفه «محمود الشريف».

وعلق «الشريف» على المقال قائلاً: (إن المقال انحاز لـ «أم كلثوم» على حساب الحقيقة، وانحاز للقصر والملك على حساب كل القيم.. وأم كلثوم تعرف زوجتي وشقيقتي وجاءت إلى منزلي أكثر من مرة، والوسط الفني كله يعرف أنني متزوج!).

بل لقد كتب «الشريف» - بخط يده - يروي أن «أم كلثوم» لمحت الحزن يخيم على «الشريف» يوماً فسألته عن سر حزنه.. فقال لها: فاطمة مريضة.. فقالت له «أم كلثوم»: أنا لهذا أحترمك، وأحبك، بسبب إخلاصك لزوجتك..

وليس أدل من ذلك على أن «أم كلثوم» كانت تعلم أنه متزوج لكن «مصطفى أمين» أراد أن يجعل من هذه العلاقة قصة ميلودرامية تبدو فيها «أم كلثوم» بطلة لا تريد أن تبني سعادتها على تعاسة امرأة مريضة.. وبالطبع فإن نسج القصة بهذا الشكل سوف يزيد من تعاطف الجمهور مع «أم كلثوم» ومن غضبهم على «الشريف» الذي يبدو مخادعاً أخفى زواجه عن الحبيبة البطلة «أم كلثوم»!



والغريب أنه كما قال لي «الشريف» أنه هو الذي مهد للعلاقة بين «أم كلثوم» و«حسن الحفناوي» أستاذ الأمراض الجلدية الذي أصبح زوجاً لـ «أم كلثوم» بعد ذلك، والذي كان صديقاً «للشريف»، فعندما اشتكت «أم كلثوم» من بعض المتاعب قدم لها «الشريف» صديقه «حسن الحفناوي».. وعندما تزوجت «أم كلثوم» بـ «حسن الحفناوي» - عام ١٩٥٣ - كانت تعلم بالطبع أنه متزوج وعنده أولاد!

ولا ينسى «الشريف» وقع خبر الزواج على «فاطمة» التي كظمت غضبها، لكن «الشريف» أخبرها أن هذا الزواج هو أقرب للمشروع الفني وأنها ستظل زوجته وحبيبته التي لم يحب غيرها رغم أن الأطباء كانوا يحذرونه من أن العلاقة الزوجية بينهما ممنوعة حتى لا تتأثر صحتها، ولكن العلاقة بينهما كانت أقوى من العلاقة المادية بين كل زوج وزوجته..

كان أول شيء فعله «محمود الشريف» هو أنه قد ألقى باللحن الذي أعده لـ «أم كلثوم» لأغنية (شمس الأصيل) من شرفة منزله بعد أن مزق شريط البروفة - على العود - التي جمعت بينه وبين «أم كلثوم».. أما اللحن الذي يذاع حالياً فهو من تلحين «رياض السنباطي».

ظل الشريف يضع كل مشاعره في ألحانه.. وعندما يجد لديه لحناً غير مكتمل يهرع إلى «فردوس» - عشيقته - في المنصورة.. وفي لحظة أخرى يجد نفسه يبكي على حبيبته وقديسته - كما كان يطلق عليها - «فاطمة» إذا ما اشتد عليها المرض الذي لم يمنعها أن تنجب له ابنته الوحيدة «إكرام»، لتظل بينهما رابطة لا تنقطع حتى بعد رحيل الحبيبة التي كانت تعلم أن ملاك الموت ينتظرها قبل أن تصل إلى الثلاثين من عمرها!!



سألت «محمود الشريف» بعد رحيل «أم كلثوم»: إذا التقيت بـ «أم كلثوم» في الخلود ما الذي تقوله لها وتتوقع أن تقوله لك؟ قال لي: سوف أقول لها ألم أقل لك أن المسرح الغنائي هو الخلود الفني الحقيقي!.. وتوقع «الشريف» أن تقول له: عندك حق يا «محمود»!!

هذه هي قصة «الشريف» و«ثومة» التي رواها لي «محمود الشريف» والتي سجل بعضها بقلمه، وتناقلت بعض وقائعها قصاصات من الصحف.. والتي قال عنها «محمود الشريف»: لم تكن قصتي مع «أم كلثوم» حكاية الشاطر حسن وست الحسن والجمال ولكنها مأساة ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

إنه الرجل الذي أحبته «أم كلثوم» وكانت على استعداد لأن تضحي بالجميع من أجله كما قالت له.. إن أمراء وأثرياء قدموا لها قلوبهم لكن قلبها لم يخفق إلا لهذا الرجل.. بينما أحبها «محمود الشريف» صوتاً قادراً على أن يقدم ألحانه للناس ويضمن لها الذيوع والانتشار على كل الألسنة.. وتحولت علاقة «أم كلثوم» بـ «محمود الشريف» مع الزمن إلى أغنية أضاف لها الناس، وأضافت لها بعض الأقلام بعض الأنغام النشاز التي لم تكن في اللحن الأصلي الذي صاغه «الشريف» و«أم كلثوم»! ■



تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

إسلاميون وديمقراطيون إشكاليات بناء تيار إسلامى ديمقراطى

تحرير: د. عمرو الشوبكى
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٤، ٣١٧صفحة



هل الإسلام ضد الحداثة؟ هل هناك إعاقات بنيوية داخل الأنساق العقيدية والشعائرية والتشريعية والقيمية الإسلامية تناهض الديمقراطية؟ هل هناك إمكانية لتطوير الجماعات الإسلامية السياسية، وخاصة أنظمتها الفكرية والأيديولوجية وخطاباتها ومنظماتها وكوادرها واستراتيجيتها، بحيث تستطيع صياغة برامج إسلامية وديمقراطية؟

وهل التجارب الإقليمية السياسية فى تطور المنظمات الإسلامية السياسية فى إطار ديمقراطى، كالحالة التركية، يمكن أن تشكل مثالاً سياسياً قابلاً للاحتذاء والاستمداد السياسى وأقلمته داخل بنى سوسيو - سياسية وثقافية أخرى فى إطار الجغرافيا السياسية للإسلام العربى؟، وفى نطاق الحالة المصرية بكل تضاريسها السياسية والثقافية والاجتماعية التاريخية المعقدة؟

وما هى تأثيرات العولمة وأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على تطور الجماعات الإسلامية السياسية؟

أسئلة عديدة، يثيرها هذا الكتاب الذى شارك فيه نبيل عبد الفتاح، ود. جان ماركو وهشام جعفر ود. مصطفى اللباد وهبة رءوف عزت بالإضافة إلى د. عمرو الشوبكى.

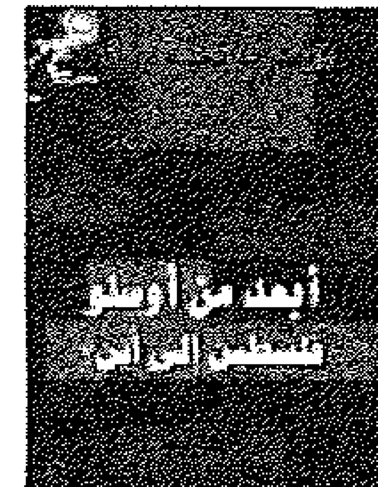
ويناقش الكتاب من أكثر من زاوية التحولات التى شهدها الخطاب الإسلامى، والتحديات الكبيرة التى تقف أمام تحول هذا التيار إلى تيار ديمقراطى يؤمن باحترام الحريات العامة وحقوق الإنسان، وليمثل عنصر قوة فى نهضة الأمة.

وقد جاء القسم الأول ليعالج التحديات الفكرية والسياسية التى تقف أمام تطور التيار الإسلامى، والعوامل التى تكبح انطلاق «خيال الإسلاميين» كما أشارت هبة عزت فى دراستها الجريئة، أو تلك المتعلقة بالتحديات التى تقف أمام بناء مشروع إسلامى ديمقراطى كما كتب هشام جعفر فى دراسته المهمة حول هذا الموضوع. وتضمن القسم الثالث مجموعة من الدراسات حول مجموعة من التجارب والتحولات التى شهدتها الحركات الإسلامية فى مقارنة بين النماذج الثلاثة «الكبار فى الشرق الأوسط: تركيا وإيران ومصر، وقدم د. عمرو الشوبكى دراسة مقارنة بين خبرة الإخوان المسلمين فى مصر، وحزب العدالة والتنمية فى تركيا، وقدم د. جان ماركو دراسة دقيقة عن «الإسلام السياسى وما بعد الإسلام السياسى فى تركيا». وكتب د. مصطفى اللباد دراسة أخرى مهمة عن تحولات النموذج الإيرانى وتطور الخطاب الدينى من الخمينى إلى خاتمى.

أما القسم الثالث فتضمن دراسة لنبيل عبد الفتاح حول «العولمة والديمقراطية والإسلام السياسى» ألقت الضوء على مستقبل التيارات الإسلامية فى ظل بيئة عالمية جديدة، «تعولت» فيها الكثير من القيم التى أثرت على الخطاب الإسلامى.

أبعد من أوسلو.. فلسطين إلى أين؟

نايف حواتمة
القاهرة: مركز المحروسة، ٢٠٠٤، ٣١٢صفحة



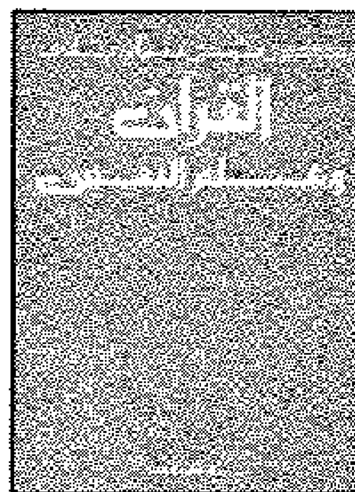
يبحث هذا الكتاب فى ملحمة الصمود الأسطورى للشعب الفلسطينى على مدى ٤٥ شهراً من الانتفاضة، وكيف أدى هذا الصمود إلى انكسار شعارات شارون من «دعوا الجيش ينتصر» و«لا لبيع أرض إسرائيل» إلى «لا يمكن إدامة الاحتلال إلى الأبد» والاستعداد «لتنازلات مؤلمة».. و«لا بد من إقامة دولة فلسطينية» و«حان الوقت لتقسيم أرض هذه البلاد».

يطالب الكتاب بالعمل على إيجاد موقف فلسطينى، وقيادة فلسطينية موحدة، وحكومة اتحاد وطنى تتحد فيها الإيقاعات بين المؤسسات الفلسطينية، لتتمكن هذه المؤسسات من أن تأخذ دورها ومداها عملاً بوثائق فلسطينية كثيرة وفى المقدمة منها وثيقة «إعلان الاستقلال» فى نوفمبر ١٩٨٨، التى قررت بناء نظام سياسى فلسطينى برلمانى ديمقراطى، يقوم على المساواة بين المواطنين بغض النظر عن الجنس والعرق والدين والمذهب، والمساواة بين الرجل والمرأة.. وهى المطالب التى طرحت على الساحة الفلسطينية قبل عدة سنوات من خارطة الطريق الرباعية الدولية، والدعوة الأمريكية لإصلاح السلطة الفلسطينية.

ويؤكد المؤلف أن السياسة الانفرادية والانقسامية فى السلطة الفلسطينية هى «العقدة الرئيسية» فى تصحيح المسار الوطنى - القومى الفلسطينى، وإعادة بناء عناصر وأعمدة القوة الفلسطينية نحو إنجاز مهمات المرحلة، وفتح الطريق نحو مرحلة لاحقة تحت سقف «فلسطين ديمقراطية موحدة».. وهذه هى القضية المطروحة على الأشقاء فى قوى التحرر والتقدم العربية، وقوى الحرية والسلام العالمية.

القرآن وعلم النفس

د. محمد عثمان نجاتى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ٣١٩صفحة



تضمن القرآن الكريم كثيراً من الآيات التى تعرضت لطبيعة تكوين الإنسان، ووصفت أحوال النفس المختلفة، وبينت أسباب انحرافها ومرضها، وطرق تهذيبها وتربيتها وعلاجها.

يؤكد المؤلف أن هذه الآيات بمثابة المعالم التى يسترشد بها الإنسان فى فهم نفسه وخصالها المختلفة، وفى توجيهه إلى الطريق السليم فى تهذيبها وتربيتها، كما أنه من الممكن أن نسترشد بما ورد فى القرآن الكريم من حقائق عن الإنسان، وصفاته وأحواله النفسية فى تكوين صورة صحيحة عن شخصية الإنسان، وعن الدوافع الأساسية التى تحرك سلوكه، وعن العوامل الرئيسية لتوافق شخصيته وتكاملها، ولتحقيق صحته النفسية، مما يكون من شأنه أن يمهد الطريق لقيام «علم النفس» تتفق نتائجه وحقائقه مع الحقائق الصحيحة عن الإنسان التى نستمدها من كلام الله سبحانه وتعالى، خالق الإنسان والأعلم بطبيعته وأسرار تكوينه.

يهتم الكتاب بالتركيز على الجوانب الدينية والروحية والقيم الإنسانية العليا والحب فى أسمى صوره الإنسانية، بعيداً عن النواحى الجنسية التى تغلب على دراسة علماء النفس المحدثين للحب، وأثر العبادات فى سلوك الإنسان، والصراع النفسى بين الدوافع البدنية والدوافع الروحية، وهى مجالات بدأ الاهتمام بها يأخذ حظه بعد طول تجاهل لها من الغالبية من علماء النفس، حتى بدأ عدد قليل منهم يفطن إلى أهمية دراسة النواحى الروحية فى الإنسان دون الاقتصار على دراسة السلوك الإنسانى الذى يمكن ملاحظته وقياسه.

عمارة الفقراء أم عمارة الأغنياء رؤية موضوعية لعمارة حسن فتحى

محمد عبد السلام العامرى
القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٤، ١٤٧ صفحة



يبدأ المؤلف أول سطور كتابه هذا بسؤال يشبه العاصفة: هل من الخطأ إعطاء حسن فتحى مكاناً مركزياً فى تطوير العمارة المعاصرة كما قال أحد المعماريين؟ وهل صحيح أن مفرداته محدودة وأن طرق البناء التى أعاد اكتشافها قد طبقت فى عدد محدود من المشروعات فى الإسكان الريفى؟

يجيب المؤلف أن هناك عيوباً كثيرة ونقاط ضعف لا حصر لها، ورؤية غير واضحة مشوشة فى عمارة حسن فتحى التى أبدعها للفقراء. إذ أن عمارة الطين لا يمكن أن تدخل المدينة، ولن تحل مشاكل المجتمعات الحضرية ذات الكثافة السكانية العالية، حيث الأرض غالية الثمن، والامتداد رأسياً، وهذا ما يتعارض مع التوسع الأفقى لعمارته. كما أنها لا تقاوم الزمن ولا المناخ وتنهار بعد فترة تحت تأثير مياه الأمطار.

وقد استعانت عمارته بالقباب التى ارتبطت بالأضرحة فى وجدان الإنسان المصرى، حتى أن علماء المسلمين دعوا إلى اعتبار القبة أمراً غير مستحب فى عمارة المساجد، كما انحصر فكره المعمارى فى البناء السكنى المفرد، ولم يمتد إلى البناء السكنى المركب.

وهناك مآخذ كثيرة على هذه العمارة وعلى هذه النظرية، إلا أن هذا لا يقلل من محاولة الرجل فى بحثه عن نظرية معمارية محلية تتناسب مع المواد المحلية.

إلا أنه من الثابت أن الرجل قد عرف قدر المثقفين والضغوط فى المجتمع والأثرياء الذين بقيت منازلهم الخاصة تجسيداً بارزاً ومهماً فى فن البناء، وأنه على مدى عمره الطويل ونظريته التى ملأت الدنيا، لم يسكن عمارته فقير واحد.

ويقول المؤلف: لا شك أن مثل هذه التساؤلات حول هذه النظرية المعمارية تؤكد أنه لابد أن يكون خلفها ثراء وغنى ونموذج وقدرة ووظيفة وريادة وعبقرية مقاتلة فى الدفاع عنها فى النفس الأخير.

يلقى الكتاب الضوء على أفكار حسن فتحى خاصة فيما يتعلق بالنظام التعاونى الاشتراكى فى البناء، مؤكداً الجانب الإنسانى فى عمارته، الذى يشدد على أن عشرة أفراد يستطيعون بناء عشرة مساكن، لكن فرداً واحداً لا يستطيع بناء مسكن واحد. كما كان يؤمن بأنه لا مناص للمجتمعات النامية أو الفقيرة من استعمال التكنولوجيا المتوافرة فى البناء والتى تعتمد على المادة المحلية كالطين فى الأرياف والأحجار والطوب الطفلى فى الصحراء، كما تعتمد على المهارات المحلية فى التشييد، وتواجه فى الوقت نفسه كل المتطلبات المعيشية للإنسان وظيفياً ومناخياً بالوسائل الذاتية ودون الاعتماد على التكنولوجيا الغربية.

على شاطئ الفلسفة

عبده مباشر

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥، ٢٤٤ صفحة، ٤٧٥ قرشاً



الفلسفة فى رأى المؤلف ليست رياضة عقلية أو قفزاً فى المجهول، بل طريقاً لاكتساب الحكمة وتدريب العقل والتعمق فى التفكير، وتربية ملكة النقد الدقيق والحكم السليم. ومعرفة الفلسفة أو حتى الاقتراب منها ومن قضاياها تتيح للقارئ الاطلاع على تطور التفكير البشرى، وتفتح الباب لمعرفة أحوال الميتافيزيقا والمنطق، وتنمى لديه ملكة البحث الحر والنقد، وتقوده إلى التفرقة بين الأفكار الفلسفية والدينية والأساطير.

وفى هذا الكتاب، حاول الكاتب تبسيط مفهوم الفلسفة، وتقديم موجز لتاريخها وبحوثها وتطورها بدءاً بالفلسفة اليونانية وصولاً إلى بدايات الفلسفة الحديثة مروراً بالفلسفة الإسلامية.

الإنسان المغترب عند إيريك فروم

د. حسن حماد

القاهرة: مكتبة دار الحكمة، ٢٠٠٥، ٢٧٨صفحة



تعد كلمة الاغتراب من أكثر الكلمات تداولاً فى الكتابات التى تعالج مشكلات المجتمع المعاصر، وقد أصبح من المألوف أن نجد كثيراً من المفكرين المعاصرين يصفون الإنسان المعاصر بأنه إنسان مغترب.

يدور الفصل الأول عن حياة «فروم» وحياته وعصره وأفكاره ومؤلفاته، ويبحث الفصل الثانى فى الجذور اللغوية لفكرة الاغتراب عند فروم، والكشف عن الجذور التاريخية للاغتراب عنده سواء من خلال إشاراته هو شخصياً لأهم الشخصيات التى أثرت فى بلورة أفكاره عن الاغتراب، أو فى التشابه بين مفهوم الاغتراب عنده وبين مفهوم الاغتراب كما ورد لدى الفلاسفة السابقين عليه. كما تعرض هذا الفصل لفكرة الاغتراب فى العهدين القديم والجديد، وفكرة الاغتراب لدى الفلاسفة السابقين والمعاصرين.

وتعرض الفصل الثالث بالمناقشة لمعنى الاغتراب عن الذات عند فروم الذى يرتبط بمفهومى «الذات الزائفة» و«الذات الأصيلة».

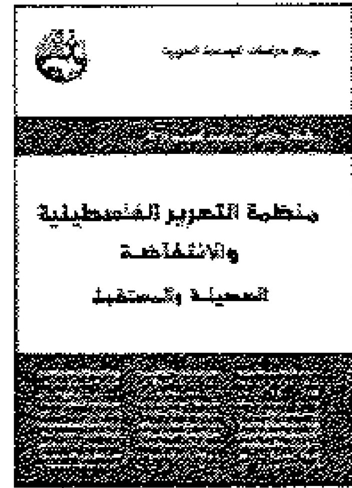
ويبحث الفصل الرابع فى الاغتراب الشامل فى المجتمع المعاصر، سواء فى النظام الاشتراكى أو الرأسمالى: فى علاقات الإنسان بالآخرين وفى مجال العمل وفى الإنتاج والاستهلاك، وفى الموقف الدينى المعاصر، وفى ممارسة الحب المزيف، وفى هذا الفصل يبدو تأثر «فروم» الواضح بكارل ماركس خاصة فى مجال معالجة «اغتراب العمل» و«اغتراب الناتج البشرى» و«اغتراب الاستهلاك». ويلاحظ المؤلف أن فروم يركز على الجانب الإنسانى من نقد ماركس للرأسمالية.

ويدور الفصل الخامس عن «قهر الاغتراب» عند فروم.

ويؤكد المؤلف أنه باستعراض مؤلفات فروم يتضح أنه لم يقدم نظرية متكاملة عن الاغتراب، لأنه لم يجعل من دراسة الظاهرة هدفاً فى ذاته، وإنما استخدمها كوسيلة لكشف بعض السلبيات التى يعانى منها الإنسان المعاصر، ولفهم التطورات الاجتماعية التى حدثت بعد ظهور الرأسمالية.

منظمة التحرير الفلسطينية والانتفاضة: الحصيلة والمستقبل

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ٢٤٣ صفحة، ٧ دولارات



صدر حديثاً عن مركز دراسات الوحدة العربية كتاب «منظمة التحرير الفلسطينية والانتفاضة: الحصيلة والمستقبل» ضمن سلسلة كتب المستقبل العربى(٣٦)، وبمشاركة نخبة واسعة تضم: عبد الإله بلقزيز ومجدى حماد وشفيق الحوت وأسامة حمدان وحسين أبو النمل وصلاح الدين الدباغ وسهيل الناطور وسليمان الرياشى وإبراهيم الدقاق وأنيس صايغ وأسامة عبد الرحمن ومحمد خالد الأزعر وأسعد عبد الرحمن وطلال ناجى ورمضان عبد الله شلح وصلاح صلاح وهشام شرابى ونواف الموسوى وعماد فوزى شعيبى وماهر الطاهر وخير الدين حسيب وسليم الحص وهيثم الكيلانى وعزمى بشارة وناصر قنديل وعماد جاد ومنير شفيق وجورج ناصيف ورفعت النمر.

تكمن أهمية هذا الكتاب فى أنه خلال عام (٢٠٠٤)، تكون قد مرت أربعون سنة منذ تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية، وثلاثون سنة على إعلان «البرنامج المرحلى» لمنظمة التحرير (الذى أسس لفكرة المرحلية ولفكرة قيام سلطة وطنية فى المناطق المحتلة فى حرب ١٩٦٧)، وأربعة أعوام منذ اندلاع انتفاضة الأقصى. وهى مناسبات كبيرة ومفصلية فى تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية، طبعت نضالها خلال مساره الطويل المتعرج. ومن الطبيعى أن يُعاد فتح ملف العمل الوطنى الفلسطينى فى ضوء حصيلة هذه الحقبة من تراكمات النجاح والإخفاق فيه للتأمل فى دروسها، واستيعاب ما يحتاج إلى استيعاب من تلك الدروس. وليس من شك فى أن تناول تجربة منظمة التحرير والانتفاضة يقع فى قلب تلك الحاجة إلى إعادة فتح ذلك الملف.

تحاول مادة هذا الكتاب تقديم مساهمة فى مجال تلك القراءة المطلوبة اليوم لتجربة العمل الوطنى الفلسطينى من مدخلين رئيسيين: منظمة التحرير الفلسطينية وانتفاضة الأقصى. وهى مساهمة شارك فيها باحثون مختصون فى القضية الفلسطينية والصراع العربى - الإسرائيلى، وسياسيون وقادة فى فصائل الثورة ومؤسسات منظمة التحرير. والكتاب يستكمل ما سبق ونشره مركز دراسات الوحدة العربية من كتب ودراسات.

حق تكوين الجمعيات

إعداد وتحليل: عبد الله خليل

القاهرة: ٢٠٠٤، ٥٢٢ صفحة



تشغل قضية حرية تكوين الجمعيات وتمويل العمل الأهلى فى المنطقة العربية حيزاً كبيراً من الاهتمام خاصة فى ظل وجود العديد من القوانين المعوقة لهذه الحرية.

وهذه الدراسة تحاول الوقوف على هذه المعوقات لإيجاد وسيلة عربية لدعم مؤسسات المجتمع المدنى وتقوية قدراتها فى تنمية مواردها المحلية لدعم نشاطها فى المجالات الإنسانية. وتقوم الدراسة على فكرة موجزها هو: «إنشاء مؤسسة غير ربحية تكون مهمتها إدارة وديعة وقفية نقدية، يخصص عائدها لتوفير الدعم والمنح المالية للمؤسسات الاجتماعية والخيرية ونشطاء حقوق الإنسان وسيادة القانون فى المنطقة العربية».

وقد تم اختيار خمس دول عربية تتمتع بهامش نسبى من الحرية لدراسة إمكانية إنشاء صندوق فى أى منها فى ظل الأنظمة القانونية السائدة فيها وهى: مصر - لبنان - المغرب - الأردن - الإمارات العربية المتحدة «دبى».

تتناول الدراسة الوضع التشريعى فى الدول محل الدراسة، الذى يحكم عمل المؤسسات الخيرية الوقفية لتمويل مؤسسات ونشطاء برامج حقوق الإنسان.

من مانهاتن إلى بغداد

د. حسن حنفى

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤، ٤٢٠ صفحة



هذا الكتاب يدحض ذريعة اتخاذ الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ للعدوان على أفغانستان ثم العراق، وتهديد سوريا وإيران والسودان واليمن وتهميش مصر.

يوضح الكتاب أنه بحجة القضاء على أسلحة الدمار الشامل التى بحوزة صدام حسين تم تدمير العراق نفسه من أجل خلق إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل وتحقيق الحلم الصهيونى، ووصول النفوذ

الأمريكى حتى أواسط آسيا لحصار الصين والاتحاد السوفيتى، والقضاء على تجربة النمور الآسيوية فى جنوب شرق آسيا.

يساهم الكتاب فى إعادة بناء الوطن العربى فى مرحلة ما بعد العدوان على فلسطين والعراق، ويبين أسباب العجز العربى، وحصار النظم العربية بين المطرقة والسندان:

مطرقة الخارج والتبعية له، وسندان الداخل فى قهر الشعوب، وهو يمهد أيضًا لإرساء حركة تحرر عربى ثانية تبدأ من المقاومة الوطنية فى العراق وفلسطين.

كما يمد الكتاب جسور القومية العربية إلى دول الجوار، إيران وتركيا، وتدعيم ظهيرى الوطن العربى من أجل نزع فتيل الصراع بين الثورة العربية والثورة الإسلامية فى إيران، وإبعاد تركيا عن الحلف من الكيان الصهيونى من أجل تكوين قطب ثان عربى إسلامى فى مواجهة عالم أحادى القطب.

ويقيم الكتاب أيضًا الجسور بين العرب وأوروبا من خلال حوار الحضارات وتنمية العلاقات الثقافية التاريخية بين ضفتى البحر الأبيض المتوسط من أجل إبعاد أوروبا عن أمريكا وربطها أكثر بالوطن العربى.

والكتاب يمثل جهد المؤلف الكبير فى تشخيص أزمات العالم العربى والإسلامى، محاولاً تقديم بدائل ثورية لمواجهة هذه الأزمات اعتماداً على القوى العربية فى الأساس، بتحالفاتها الخارجية كما قدم أيضًا مفاهيم التعاون الإقليمى والاعتماد المتبادل كبديل عن العولمة.

مياه النيل فى السياسة المصرية

أيمن السيد عبد الوهاب
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٤، ٣٢٩صفحة

اكتسبت قضايا المياه أهمية استثنائية فى السياسات العالمية، وخاصة فى العقود الأخيرة، ولا سيما فى الأقاليم الفرعية والدول التى تعانى من نقص المياه، أو سوء توزيعها.

ومن ثم أصبحت واحدة من مصادر إثارة النزاعات السياسية والعسكرية، التى من الممكن أن تشتعل فى السنوات أو العقود المقبلة وخاصة فى منطقة الشرق الأوسط.

وقد كان النيل ولا يزال أحد أبرز دوائر اهتمامات السياسة الخارجية المصرية، لعدة أسباب منها اعتباره من أهم قضايا الأمن القومى والإقليمى المصرى، وأيضًا باعتباره يشغل حيزًا مهمًا من الإدراك النخبوى والشعبى، وبارتباطه بطبيعة الدولة المركزية فى مصر. كما شكلت مياه النيل أحد أبرز محددات السياسة الخارجية تجاه دول حوض النيل، الذى يخضع لسياسات دول كبرى وإقليمية ومصالح متنافسة، فى ظل إطار قانونى دولى يحكم عملية توزيع الحصص بين وحدات نظام حوض النيل الفرعى.

وتعد هذه الدراسة مدخلاً أساسيًا لتحليل آليات صنع وتنفيذ السياسة المصرية إزاء دول الحوض، فضلاً عن تقييم هذه السياسة بموضوعية.

يوم سقوط بغداد
الحكام العرب فى عيون شعوبهم

د. أيمن منصور ندا
القاهرة: المدينة برس، ٢٠٠٤، ٢٦٦صفحة



تأتى أهمية هذا الكتاب/ الدراسة فى أنه الأول من نوعه - عربيًا - الذى يقيس اتجاهات الرأى العام تجاه حكامه، كما تنبع أهميته من اللحظة التاريخية التى تم فيها جمع البيانات الميدانية لهذه الدراسة وهى يوم التاسع من أبريل ٢٠٠٣، وهو اليوم الذى سقطت فيه بغداد، وهو الأمر الذى يجعل هذه الدراسة «وثيقة تاريخية» ترصد نبض الرأى العام، فى لحظة خاصة جداً، على إيلامها.

وقد كشفت هذه الدراسة عن عدة مؤشرات مهمة، إضافة إلى نتائجها، منها: أن الرأى العام المصرى ليس كامنًا، كما يتهمه البعض، وليس سلبيًا كما يراه البعض، فهو رأى عام واع ومدرك لما يحدث، ويستطيع أن يعبر عن رأيه ويكشف عن اتجاهاته بوضوح وقوة.

ورغم حساسية موضوع الدراسة وما قد يثيره فى نفوس البعض من خوف أو قلق، فقد انخفضت نسبة الرافضين لإجراء الدراسة معهم، وقلت نسبة المتهربين من الإجابة عن بعض أسئلتها.

ومع الشكل الأكاديمى الذى حرص المؤلف عليه فى كتابه، فإنه بالتأكيد سوف يكون مفيداً للباحثين المتخصصين، وأيضًا مهمًا للمثقفين والمفكرين، وبالإضافة إلى ذلك، ممتعًا لكل قارئ جاد يستطيع قراءة ما بين السطور.

شرف ضائع - الموت والحب فى الأردن

نورما خورى
دمشق: دار قدمس، ٢٠٠٤



هذا الكتاب أثار معركتين حاميتين تعدتا الحدود العربية إلى أستراليا..!

كان موضوع المعركة الأولى هو مضمون الرواية التى تدور حول الجرائم ضد النساء التى ترتكب باسم الشرف والعرض، وهى الجرائم التى تحتل مساحات واسعة من الجدل فى العديد من المجتمعات العربية وبخاصة فى الأردن، حيث تنتشر جرائم قتل النساء بدعاوى الحفاظ على العرض فى وقت يوفر القانون «للرجل القاتل» حماية من العقاب الرادع، تشجعه على تكرار جريمته، وتوفر بيئة مواتية لاستمرار هذه الجرائم.

أما المعركة الثانية، فقد اندلعت مع اتهام البعض للمؤلفة بالكذب، حيث شككت صحيفة «سيدنى مورننج هيرالد» الأسترالية بصحة رواية المؤلفة على أساس أنها عاشت خارج الأردن فى الوقت المفترض أن جريمة ضد إحدى النساء قد وقعت فيه، وهو ما يعنى أن جوانب مهمة من الرواية مختلقة أو على الأقل غير دقيقة، فى نفس الوقت كانت «دار قدمس» قد قاربت على الانتهاء من إعداد النسخة العربية من الكتاب للنشر، بعد أن أخذت الإذن من المؤلفة على ترجمة روايتها من الإنجليزية إلى العربية، والتى وافقت فوراً وطلبت التبرع بعائد بيع الكتاب إلى منظمة غير حكومية بالأردن.

وتؤكد مقدمة الناشر العربى للكتاب أنه لاحظ بكل تأكيد الأغلاط التى ارتكبتها المؤلفة فى وصف عمان وجغرافية الأردن، ولم يغب عنه إطلاقًا الحبكة الدرامية التى لا مفر منها فى أى كتابة، إلا أن النقطة الرئيسية لم تكن جغرافية عمان ولا حدود الأردن، إنما الجريمة التى ترتكب باسم الشرف والدين، وعدم تصدى السلطات المعنية لها. وتقول المقدمة أيضًا: «وإذا كنا لم نفاجأ إطلاقًا بالحملة «الغربية» على السيدة نورما التى «أوقعت بهم» وفضحت معاداتهم الغريزية للعرب والإسلام والتى استندت إلى قصة مختلفة ساهموا هم مساهمة مباشرة فى نشرها، فإننا فجعنا حقًا بقيام سيدات جعلن، على ما يدعين، من قضية «جرائم الشرف» وحقوق المرأة فى محور نضالهن اليومى، بالتشهير بالكتاب ومؤلفته، حيث قالت إحداهن إنها «اكتشفت فى الكتاب ٧٠ غلطًا».

وفى ظل هذا اللغط الساخن يطرح البعض تساؤلات مهمة: هل يتغير وضع المرأة العربية فى الأردن وغيرها من البلاد العربية إن لم يتم اكتشاف أى أخطاء فى كتاب السيدة نورما؟ وهل يسقط عن المناضلات العربيات من أجل حقوق المرأة فى الأردن وفى غير الأردن، حق مواصلة نشاطهن إن اكتشف المعادون لهن «٧٠» غلطة فى كتاباتهن؟

الإجابة بالقطع هى: لا.. وهو ما يؤكد على أن الهجوم على المؤلفة يضر بقضية المرأة واحترام إنسانيتها، ويفتح المجال أمام أفكار تشجع على ارتكاب الجرائم ضد النساء وتبيح قتلهن بدعاوى الحفاظ على الشرف!

والثابت أن الانجرار وراء القضايا الثانوية يؤدى إلى إلحاق أضرار جسيمة بقضية المرأة العربية وحقوقها فى المساواة التامة مع الرجل أمام القانون، والمؤسف أن بعض السيدات وقعن فى هذا الفخ. والمؤسف أيضًا أن تركيز منظمات وشخصيات نسائية عربية على بعض أغلاط فى الكتاب، واعتراف المؤلفة الشجاعة بغلطتها على شاشات التليفزيون فى أستراليا، قاد ضمن أمور أخرى إلى تهليل القوى المعادية للمرأة، وكأن التفاصيل تغير من حقيقة تعرفها كل امرأة عربية، أيًا كان دينها أو مذهبها وهى أنها مضطهدة وأن حقوقها منتقصة.

وثمة حقيقة مهمة تسطع وسط كل هذا الجدل، هى أن هذه الرواية وما صاحبها من «إثارة»، قد أشعلت النقاش حول ما يسمى بجرائم الشرف، وضرورة معاقبة المجرمين وقيام الحكومات العربية المعنية بممارسة دورها فى حماية المجتمع من القاصرين عقليًا وأخلاقيًا، والتركيز على تغيير صورة المرأة لدى البعض بأنها «ناقصة عقل ودين» من أجل مواجهة حاسمة ضد أنصار جرائم الشرف وغسل العار.

وقد جاء إصرار دار قدمس على نشر الرواية خاصة بعد اعتراف المؤلفة بأغلاط ارتكبتها، ورغبتها فى تحويل عائد البيع إلى منظمات غير حكومية، ليؤكد على ضرورة لفت الانتباه لمواصلة النضال لمساواة المرأة الكاملة بالرجل قانونيًا أيًا كانت العقبات التى تحول دون ذلك، وانطلاقًا من أجل الهدف الكبير هو تحرير المجتمعات العربية وتساوى المواطنين كلهم أمام القانون.

العلاقات فى زمن الاستهلاك حياة بلا روابط

زيجمونت باومان

ترجمة: د. فاطمة نصر

القاهرة: إصدارات سطور، ٢٠٠٥، ١٦٢صفحة



يعنى هذا الكتاب بالشخصية المركزية فى أزمنتنا الراهنة أى: الرجل والمرأة.. بعلاقاتهما «السائلة».

فهذه الشخصية أصبحت بلا روابط، وتحديداً لا روابط ثابتة متينة تتيح لها الاستقرار، وتعريف الذات وتأكيدها.

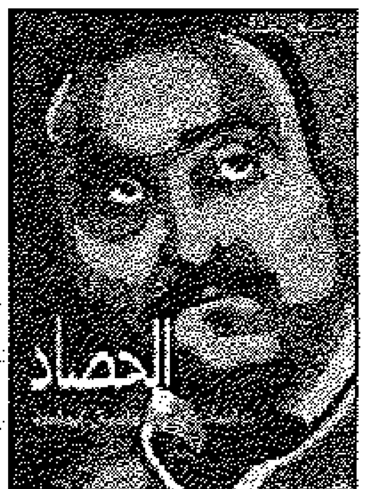
ونظراً لعدم وجود روابط دائمة لهم، يصبح على سكان مجتمعنا الحديث الذى يعانى من السيولة، إقامة أى نوع من الصلات مع أشخاص آخرين، معتمدين على بديهتهم ومهارتهم، دون أن تكون هناك أى ضمانة حقيقية لاستمرار هذه الصلات، كما أنه يبدو أنه لابد أن تظل هذه الروابط غير محكمة، حتى يسهل حلها مرة أخرى سريعاً وبدون بذل أى جهد حينما تتغير الظروف، وهى بالقطع تتغير مرة تلو المرة فى مجتمعنا السائل الحديث.

وهن الروابط الإنسانية المخيف.. والشعور بعدم الأمان الذى يلهمه هذا الوهن.. والرغبات المتصارعة لإحكام الروابط وتركها غير محكمة فى آن.. هى السمات الرئيسية لهذا الكتاب الجديد المهم لعالم الاجتماع باومان الأستاذ لعلم الاجتماع بجامعتى ليدز ووارسو.

الحصـــــاد دراسات نقدية وأعمال إبداعية

بديع بغدادى

دمشق: دار الرائى، ٢٠٠٤، ٤٥٤صفحة



بالرغم من أن الأديب والكاتب بديع بغدادى قد اعتكف الكتابة والنشاط الأدبى منذ حوالى عقد ونيف لأسباب عامة وشخصية، ورغم أن ما قدمه من أعمال وكتابات صحفية ونقدية وإبداعات ما بين قصة قصيرة ومسرح ودراما إذاعية، لا يشكل عدداً كبيراً.. فإن ما قدمه يمتلك قيمة كبيرة من حيث الكيف.

ينتمى المؤلف إلى ذلك الجيل الذى عاصر أهم المراحل فى تاريخنا الحديث المعاصر، بكل ما شهدته هذه المراحل من نهوض قومى وثورى وحداثى، وانكسار وانكفاء وانحسار، فقد شهد أديبنا الاستعمار الفرنسى فى طفولته وأوائل فتوته، كما شهد فى شبابه الاستقلال والنهوض الشعبى والوطنى فى الخمسينيات، ومقاومة العدوان الثلاثى وفرحة الوحدة وآلام انكسار ولوعة الهزيمة وبوارق الأمل بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣.

وعبر هذه الرحلة الطويلة قدم أديبنا مجموعة من المساهمات الأدبية التى تركت بصمتها فى مسيرة الحياة الأدبية فى سوريا، وخاصة فى مجال القصة القصيرة حيث يعتبر بديع بغدادى من الأسماء المؤسسة لهذا الفن الأدبى إلى جانب أسماء مهمة مثل القصاص الراحل سعيد حورانيه والروائى الراحل فارس زرزور والأديب الكبير زكريا تامر.

وهذا الكتاب يجمع نخبة من الأعمال الأدبية التى ساهم بها بغدادى فى الحياة الأدبية والإبداعية السورية، كما يعتبر مرجعاً للمهتمين والدارسين لحقبة مهمة من تاريخ سوريا الأدبى.

صورة العائلة

حمدى الجابرى

القاهرة: مكتبة دار الحكمة، ٢٠٠٥، ٢٨٦صفحة



بين دفتى هذا الكتاب، تنطلق موهبة د. حمدى الجابرى الشعرية فى دفقات وجدانية متتالية فى قصائد قصيرة، تدور حول بعض كوامن النفس البشرية بمختلف تجلياتها، وبنظرتها إلى العالم الذى يحيط بها.

يكشف الديوان فى أولى قصائده سر هذه الدفقات الشعرية التى يحويها الديوان، وهى أن الشاعر سوف يدافع عن وجوده فى شراسة، وسيدافع عن غرفته ويقول كلاماً حزيناً، كالذى تقوله الفراشات إذ تلتقى بإله الحرائق فى غرفة معتمة، والذى تقوله النوارس حين تباغت البحر بقصيدة مارقة بلا قافية.

فى كل قصائد الديوان تبدو وكأنها تنضح بالحياة وبالحيوية، رغم ما بها من مرارة.. سوف يستفيد بها القارئ بكل تأكيد.

فى صحة الوطن

عبد الرحمن يوسف

القاهرة: ٢٠٠٤، ١١٢ صفحة



هذا الديوان هو الديوان السياسى الأول للشاعر، سبقته ثلاثة دواوين أخرى هى «على المكشوف» و«نزف الحروف» و«أمام المرآة». يشتمل هذا الديوان على ثمانى قصائد تتخلل سطورها رؤية الشاعر السياسية - فى قالب فنى - لأوضاع الأمة العربية على مستوى الشعوب والحكام، وتخلص هذه الرؤية إلى أن الخلل الذى نعانى منه يكمن فى القادة.

صاحب نشر القصائد مجموعة رسومات تعبيرية تفصح بالكثير مما قد لا يفصح به الكلام المكتوب. ففى القصيدة الأولى «قانون الدولة» يوجد رسم لحاكم يجلس على كرسيه ويحمله عدد من أفراد شعبه وهم مجبرون على ذلك، وهو معنى تؤازره قصيدة الشاعر التى ترفض الحكم البوليسى، وهو ما تؤكده أيضاً قصيدته الثانية التى ترفض كذلك بقاء الحكام فى السلطة لسنوات طويلة، وعدم تداول السلطة بالطرق السلمية.

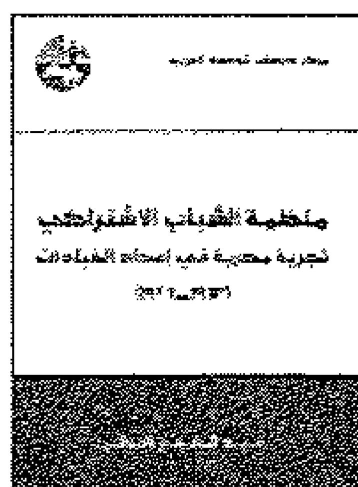
قصائد الشاعر فى مجملها تبحث عن حرية الشعوب العربية من حكامها ومن القوى الأجنبية، وهو فى إحدى قصائده يرفض ديكتاتورية النظام العراقى السابق، إلا أنه فى نفس الوقت يرفض أن يكون خلاص الشعب العراقى على يد قوى غربية استعمارية.

أما فى قصيدة «فى صحة الوطن» التى يحمل الديوان اسمها، فقد كتبها الشاعر فى صياغة شعرية جديدة، فهى تتكون من ٢٠ كأساً، كل كأس عبارة عن مقطوعة شعرية موصولة بما قبلها وما بعدها، وهى كلها من وحى سقوط بغداد.

منظمة الشباب الاشتراكى: تجربة مصرية فى إعداد القيادات (١٩٦٣ - ١٩٧٦)

عبد الغفار شكر

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ٤٥٦ صفحة، ١٢ دولاراً



كان الدافع الأساسى وراء دراسة تجربة منظمة الشباب الاشتراكى فى إعداد القيادات هو أن هذه المنظمة زودت المجتمع المصرى بجيل جديد من القيادات خلال حقبتى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. وقد ساهم هذا الجيل فى بعث الحيوية فى المنظمات الجماهيرية، وتجديد الحياة السياسية، ووفر للبلاد نخبة قيادية جديدة ساهمت فى العمل الوطنى تحت قيادة جمال عبد الناصر، وتصدت لسياسات الردة على ثورة يوليو بعد رحيله، بقدر ما تصدت لسياسات الصلح المنفرد مع إسرائيل. وقد ناضلت من أجل ضمان الاستقلال الوطنى والتطور الديمقراطى للمجتمع المصرى، وكانت أساس حركة جماهيرية مستقلة وتعددية سياسية واعدة على أرض الواقع.

ومع التسليم بأن هذه التجربة لا يمكن تكرارها أو استعادتها لأنها كانت نتاجاً لعصرها ولظروف مصر فى الستينيات من القرن العشرين، إلا أنه يمكن الاستفادة منها وتمثل أهم دروسها، وفى مقدمتها أن المزاوجة بين التكوين الفكرى والتدريب القيادى والإدماج فى حركة المجتمع من خلال النشاط السياسى والجماهيرى هى شرط ضرورى للنجاح فى إعداد القيادات الشابة، وأنه من أهم عوامل النجاح للقيادات الجديدة: توفر الوعى القائم على المعرفة العلمية، وروح المبادرة الناجمة عن القدرة الحركية، والشعبية التى تصنعها علاقة سليمة بالجماهير.

الفكر الاقتصادى فى الخطاب السياسى السورى فى القرن العشرين

د. منير الحمش

بيروت: بيسان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ٥٦٧ صفحة



ارتبطت المسألة الاقتصادية على مر التاريخ بمجموعة من العناصر الثابتة والمتحولة، وهى على أى حال ترتبط بقضايا الإنتاج وإعادة الإنتاج، ووسائل الإنتاج وعلاقته وقواه، كما ترتبط بالاستهلاك وبالعمل وبالأسعار ورأس المال وكذلك بالملكية والاحتكار والثروة والسلطة. والفكر الاقتصادى فى سوريا هو جزء من الفكر السياسى الوطنى والقومى، ومع انشغال الحركات السياسية المختلفة فى سوريا بقضية التحرر والاستعمار وقضية فلسطين منذ بداية القرن العشرين، فإن الاقتصاد لم يكن بعيداً عن توجهات تلك الحركات، التى

كانت بدورها مفتوحة على مختلف التيارات فى الفكر الاقتصادى والقومى والعالمى.

يؤكد الكتاب أن الفكر الاقتصادى السورى اصطدم فى مطلع القرن العشرين بوجود الاستعمار العثمانى، ثم الفرنسى، وهو ما جعل مسألة التحرر السياسى تحتل الحيز الأكبر من تفكير السياسيين والمثقفين، وإن لم تغب عن هذا التفكير المسألة الاقتصادية والاجتماعية. وقد رأى بعض منهم أن النهضة يمكن أن تتحقق وفق النموذج الغربى «الليبرالى أو الاشتراكى» فى حين رأى آخرون أن الإسلام هو دين ودنيا وفى تطبيق الشريعة الإسلامية يكمن الحل المثالى لجميع المشاكل الدنيوية بما فيها القضايا الاقتصادية، بينما رأى فريق ثالث تأجيل المسألة برمتها حتى يتم التحرير وجلاء الاستعمار.

ويشير المؤلف أنه بدلاً من أن يتخذ المفكرون والمثقفون السوريون موقفاً نقدياً من الأفكار الوافدة والتراثية، فقد اتخذ معظمهم الموقف الأسهل، وهو نقل الفكر كما هو، مما أوصلنا إلى حالة من «وثنية الفكر» والاستكانة إلى ما هو متاح. جرى هذا لدى المفكرين الليبراليين الاقتصاديين فى تبنيهم لحرية السوق، كما هو الحال لدى الماركسيين الذين تبنوا التخطيط المركزى كما يطبق فى الاتحاد السوفيتى السابق. أو فى الصين عندما حصل الخلاف السوفيتى - الصينى.

أما الإسلاميون فقد نأوا بأنفسهم عن أى تطوير أو تحديث أو اجتهاد فيما عدا القلة ومنهم د. مصطفى السباعى حيث أسبغ على الاقتصاد الإسلامى صفة الاشتراكية، كما حاول ميشيل عفلق أن يضفى على الاشتراكية طابعاً قومياً وربطها بالتحرر والاستقلال وأسبغ عليها طابع العدالة الاجتماعية.

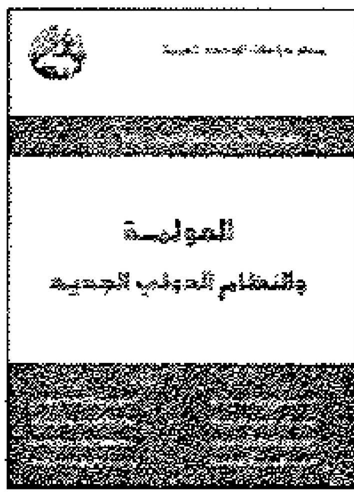
ومع تولى حزب البعث الحكم فى سوريا ابتداء من ١٩٦٣/٣/٨ حاول الخروج من إطار العموميات فى مقولاته الاشتراكية، فاختار النهج الماركسى من خلال شعار «الطريق العربى للاشتراكية»، إلا أن ضعف الوعى بالنظرية الاقتصادية كان سبباً - إلى جانب أسباب أخرى - فى عدم تحقق نجاح فى عملية التحول الاشتراكى فى الستينيات.

وينقسم الكتاب إلى قسمين، يتناول الأول التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى سوريا خلال القرن العشرين، والقسم الثانى تناول تيارات الفكر الاقتصادى فى السياسة السورية مع استبعاد النتاج الفكرى والاقتصادى للباحثين والأكاديميين المستقلين إلا ما ندر، فالكتاب يحدد موضوعه فى تتبع الفكر الاقتصادى فى مواقف وسياسات الحركات والمنظمات والأحزاب السياسية السورية.

العولمة والنظام الدولى الجديد

مجموعة من المؤلفين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ١٨٥ صفحة، ٦ دولارات



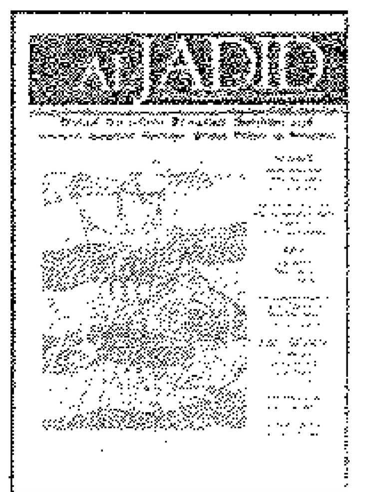
ثلاثة أطوار من التوسعية الرأسمالية تطبع تاريخ النظام الاقتصادى وترسم منعطفاته الكبرى خلال القرون الثلاثة الماضية، وتحتها - وفى تلازم معاً - ثلاثة عناوين وثلاث ظواهر: الاستعمار، والإمبريالية، والعولمة.

فى النظام الدولى الجديد حيث الرأسمالية تعولمت، والتوازنات الدولية التقليدية انهارت، والأوحدية القطبية ترسخت، تتنامى ظواهر وقواعد جديدة فى العلاقة بين المجتمعات والدول: لم تعد السيادة مقدسة ومشمولة بالحماية القانونية الدولية، ولم تعد الدولة الوطنية قادرة على حفظ بقائها سيدة متماسكة فى وجه نتائج العولمة على داخلها الاقتصادى والاجتماعى والسياسى، كما أن مسائل الهوية عادت تطرح نفسها بقوة أمام الهزات الشديدة الناجمة عن فعل العولمة والنظام الدولى الجديد. وفى امتداد ذلك كله تتنامى حركة ممانعة تبدأ بخطاب رفض العولمة لتصل إلى حركة مناهضة اجتماعية وسياسية عالمية.

تستكمل مادة هذا الكتاب مواد كتب أخرى أصدرها مركز دراسات الوحدة العربية حول العولمة مقدمة للقارئ رؤية نقدية عربية لظاهرة باتت مفاعيلها مؤثرة فى نسيج مجتمعاتنا الداخلى.

دوريـــات

الجديد Al Jadid



الجديد: مجلة أمريكية ربع سنوية تصدر فى كاليفورنيا، اهتماماتها فى الأدب، والثقافة، والفن والسياسة. كتابها عرب أو من له اهتمامات بالعالم العربى. فى آخر عدد مقالات عن محطة الجزيرة، انطباعات عن هوية العرب الأمريكان، مقالة عن الراحل حنا بطاطا وكتابه عن الفلاح السورى، حديث مع أمين معلوف، مقالة عن صنع الله إبراهيم وأحمد بو زفير. مقالة عن أشعار ١٥ امرأة عربية فى مهرجان الشعر العربى الفرنسى. مقالة عن زها حديد العراقية الأصل والتى حصلت على أحسن جائزة لهندسى التصميم فى فرنسا.

Aljadid on line:
www.aljadid.com

العـــربى

الكويت: عدد مارس ٢٠٠٥



بعد أن فشلت نظرية التحديث التى تحاكى الغرب كسبيل للتقدم، وكذلك التبعية التى تعلق ذنب التخلف فى أعناقه، صعدت فى الوقت الحالى نظرية جديدة تشير إلى أهمية رأس المال الثقافى كبديل ممكن.

وحول تلك النظرية يدور حديث الشهر فى العدد الصادر من مجلة «العربى» لشهر مارس ٢٠٠٥، إذ يكتب رئيس التحرير الدكتور سليمان إبراهيم العسكرى مؤكدا على أهمية الثقافة، بكل معانيها كقاعدة انطلاق اقتصادى واجتماعى.

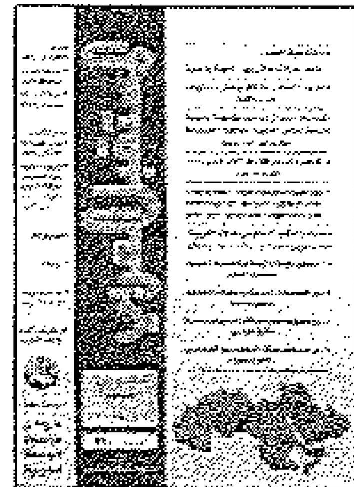
وفيما يكتب د. عبد الله الجسمى عن الدور الشعبى ونهوض الثقافة العربية، فإن أحمد السيد النجار يتناول موضوع السوق العربية الشائك، متسائلا عن امكانية تحول ذلك الحلم إلى حقيقة.

أما أمين هويدى فيكتب عن الخرائط التى تكتب وتتكلم، ويخصص الدكتور أحمد أبوزيد مقاله فى المستقبليات ليستعرض بوادر تراجع الحركة النسوية .

وفى باب وجها لوجه يلتقى أشرف أبو اليزيد مع الفنان حلمى التونى فى حوار عن الفن الشعبى وتجربته الخاصة والمهمة. هذا بالاضافة إلى الأبواب الثابتة والمسابقات، وعروض الكتب.

المستقبل العربى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، العدد ٣١٠



فى العدد افتتاحية بعنوان: «ياسر عرفات.. عاش بين الحياة والموت»، وفيه أيضاً «انتخابات العراق تواجه مقاطعة واسعة، وفترة بوش الثانية تواجه المقاومة» وهو نص لحوار أجرى مع خير الدين حسيب.

ويتضمن العدد دراستين لافتتين هما: «أوروبا تحتفل بالتوقيع على دستورها بينما الوطن العربى مهدد بالخروج من التاريخ» لحسن نافعة، و«ظاهرة أسعار النفط العالمية فى عام ٢٠٠٤» لوليد خدورى.

الآداب

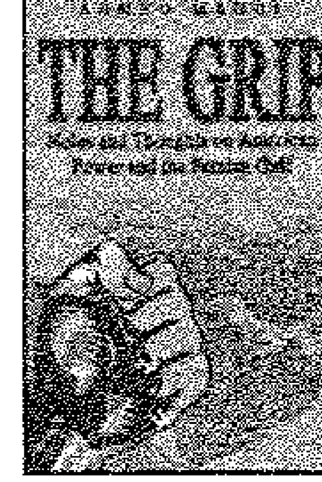
بيروت: العدد ٥٣، ٧ جنيهات



يدور ملف هذا العدد عن «الأمازيجية» من خلال أربعة موضوعات وهى «العروبة بعيون أمازيجية»، والحركة الثقافية الأمازيجية، و«استراتيجية النضال الديمقراطى للحركة الثقافية الأمازيجية بالمغرب»، وندوة بعنوان: «الأمازيجية: هوية ثقافية أم رهان سياسى؟». وبالعدد أيضاً دراسة عن الحركة الشيوعية العربية، وأخرى عن الدكتورة نوال السعداوى.

The Grip.. Notes and Thoughts on American Power and the Persian Gulf
(القبضـــة)

Ahmed Mahdi
Amman: Amon Media Investment, 254PP., 2005



يناقش الكتاب كيف أحكمت الولايات المتحدة قبضتها على منطقة الشرق الأوسط والخليج، وكيف أن هذه القبضة قد بدأت في الانحسار بفعل سياسات الرئيس الأمريكي جورج بوش بالرغم من - أو بسبب - غزوه لكل من أفغانستان والعراق.

يتحدث الكتاب أيضًا عن مدى قدرة العرب على السيطرة على منطقتهم.

ويتضمن الكتاب نحو سبعة عشر فصلاً، يتناول الجزء الأول منها أزمة السويس، وحرب اليمن و١٩٦٧ و١٩٧٣، والثورة الإسلامية في إيران، وظروف مقتل ٢٥٠ جنديًا أمريكيًا في لبنان عام ١٩٨٣، والغزو العراقي للكويت، والإعلان الأمريكي للنظام العالمي الجديد، ونبذة عن التدخل الأمريكي في الصومال والبوسنة وكوسوفو، ونبذة عن العلاقات الأمريكية السعودية، والعلاقات الأمريكية التركية، وآثار العقوبات الاقتصادية على العراق، وعملية ثعلب الصحراء عام ١٩٩٨، والغزو الأمريكي للعراق، ودور المحافظين الجدد في إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن. أما الجزء الثاني من الكتاب فإنه يتحدث عن مظاهر القوة الأمريكية من خلال إلقاء الضوء على القوة العسكرية والاقتصادية والإعلامية والدبلوماسية والتكنولوجية للولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي، وموقف الولايات المتحدة من الوحدة العربية والوحدة الأوروبية، وكيفية صناعة القرار في السياسة الخارجية الأمريكية.. إلخ.

ويشير المؤلف إلى أن تجاهل بوش للأصول والأعراف خلق اعوجاجًا كبيرًا في السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط وجعل المصالح الأمريكية في خطر بفعل اهتمامه بأهداف المحافظين الجدد داخل إدارته وتجاهله للأدوات التي يواجه الإرهاب من خلالها، لقد جعل بوش الابن الولايات المتحدة - حسب المؤلف - في وضع أصعب في مواجهة الإرهاب، كما جعل بعض الشباب المسلم المتطرف أكثر ميلاً للتطرف، فضلاً عن أنه أثار حفيظة القدامى الذين لم يتفقوا مع سياساته.

The Dispersion of Egyptian Jewry.. Culture, Politics and the Formation of a Modern Diaspora
(تشتت الشعب اليهودي المصري.. ثقافة وسياسة وتكون الشتات الحديث)

Jeol Beinin
AUC Press



تكون سكان اليهود في مصر من العبرانيين الناطقين بالعربية واليهود الذين عاشوا في البلاد منذ بداية العصر الإسلامي. لقد لجأ اليهود المطرودون من أسبانيا عام ١٤٩٢ إلى مصر، وتضاعف عددهم في منتصف القرن التاسع عشر بواسطة المهاجرين من اليهود السفارديم. كان هؤلاء اليهود محل ترحيب في أي من أجزاء الإمبراطورية العثمانية ولكن هؤلاء اليهود الأسبان جاءوا إلى مصر سعيا وراء الفرص الاقتصادية إبان عصر إنشاء قناة السويس وازدهار تجارة القطن. ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت هجرة اليهود الاشكنازي هربا من الاضطهاد في أوروبا الشرقية.. شكلت هذه المجموعات المختلفة نسيجا مجتمعيا متجانسا من الكوزموبوليتانية المختلطة، والتي كانت عنصر قوة، وعاملاً تسبب في نهاية هذا المجتمع فيما بعد.

يختبر هذا الكتاب تاريخ المجتمع اليهودي المصري بعد عام ١٩٤٨، مركزا على ثلاثة مجالات رئيسية: حياة غالبية أفراد المجتمع اليهودي، الذين ظلوا في مصر منذ حرب ١٩٤٨ حتى ما بعد حرب السويس ١٩٥٦، تشتت وإعادة تأسيس المجتمعات اليهودية المصرية في الولايات المتحدة وفرنسا وإسرائيل وناقش ذكريات الحياة اليهودية في مصر منذ زيارة الرئيس السادات للقدس عام ١٩٧٧.

يرى المؤلف أن خبرات اليهود المصريين لا يمكن روايتها بشكل كاف سواء من حكايات المصريين أو من اليهود. لذا يستخدم «بينين» تقنيات التحليل الأدبي والسيرة الذاتية ليخوض في مسألة الهوية، والشتات بشكل يثير انتباه المهتمين بمصر والشتات اليهودي، أو تكون الثقافات والهويات.

يعمل جويل بينين كأستاذ لتاريخ الشرق الأوسط في جامعة ستانفورد. آخر كتبه هو «العمال والفلاحون في الشرق الأوسط الحديث»، الصادر عام ٢٠٠١.

Arab Society In Time of The Thousand and One Nights
(المجتمع العربي في زمن ألف ليلة وليلة)

Edward William Lane
Unabridged Dver. 2004, 304pp.
$ 16.59



بعد زيارته لمصر في منتصف القرن التاسع عشر، قام العالم البريطاني إدوارد ويليام لين بترجمة الليالي العربية، ملحقا بنهاية كل فصل ملاحظات تفسيرية مفصلة جعلت من الكتاب موسوعة لحياة وسلوك منطقة الشرق الأوسط. إن الكتاب الحالي، يحتوي فقط على ملاحظات لين كما ظهرت في الطبعة الأصلية لعام ١٨٥٩، حيث تمدنا بصورة آسرة للمجتمع الإسلامي خلال العصور الوسطى، حينما كتبت حكايات ألف ليلة وليلة للمرة الأولى.

إن الحكايات الأصلية تتضمن دروسا للمسلمين كما احتفت بظهور الطبقات التجارية، ووصفت نشوء بغداد كمركز للإمبراطورية الإسلامية. كما تضع فصولا بعينها اعتبارا للدين، والأدب والمهرجانات والتعليم وكذلك العبودية، ودور النساء في المجتمع، والطقوس المرعية بشأن المتوفين. ويعد هذا الكتاب من الكتب الهامة في مكتبات الباحثين والمهتمين بشكل عام بثقافة الشرق الأوسط.

Pyramids.. An Egyptian Road Homecoming
(الأهرامات.. الطريق المصري للعودة إلى الوطن)

Medhat Gazale
AUC Press

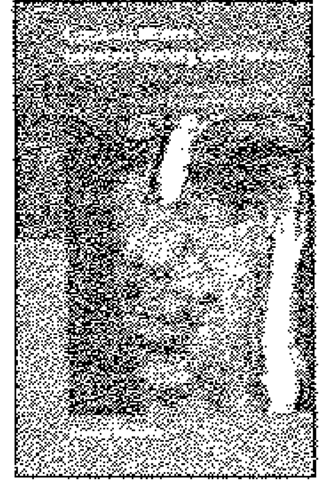


هذه السيرة الذاتية عميقة التفكير والمؤثرة تبدأ في قاهرة عقد الثلاثينيات من القرن العشرين، بدءاً بأيام المؤلف الدراسية في مدرسة الليسيه الفرنسية، وتستمر لترسم صورة غاية في الثراء للوضع الاجتماعي والإثني في مقابل خلفية من الأحداث المهمة: تولي الملك فاروق العرش والحرب العالمية الثانية، وثورة ١٩٥٢، وأزمة السويس عام ١٩٥٦. في توضيح تلك الأوقات ذات الدلالة التاريخية، هناك حس قوي أيضا بالمكان، مثل الثكنات البريطانية، التي أقيمت في يوم من الأيام مكان فندق النيل هيلتون، وأماكن أخرى تغيرت بشكل كلي، مثل ميدان سليمان باشا، والذي احتل مكانه الآن ميدان طلعت حرب. لقد تغير مسار حياة المؤلف لكي يعمل في مجال الأعمال في أمريكا، واليابان وأوروبا، تلك الأعمال التي أخذته بعيدا في دوائر تنفيذية-حيث تعد الدروس التي تعلمها من التصورات عبر الثقافية مفيدة ومسلية معا. أخيرا بعد ثلاثة عقود من الغياب، يعود المؤلف ليجد القاهرة قد تغيرت بشكل مذهل.

في هذا الكتاب يتذكر مدحت غزالي الناس والأحداث، والأماكن بوضوح غير شائع وبروح مرح رقيقة. إن مذكراته ستأسر كل من خطر بباله هذه التساؤلات: ماذا كان حال القاهرة في ذلك الوقت؟ وكيف تغيرت؟

Egyptian Writers Between History and Fiction
(كتاب مصريون بين التاريخ والكتابة الإبداعية.. مقالات حول أعمال نجيب محفوظ، صنع الله إبراهيم وجمال الغيطاني)

Samia Mihrez
AUC Press



تعتمد سامية محرز في دراستها على فكرة أساسية تقول بأن الحدود بين التاريخ والأدب من الصعب تعريفها، وأن هذين الفرعين من المعرفة يمثلان أنواعا متشابهة من الخطاب السردي.

في هذا الكتاب تختبر سامية محرز أعمال ثلاثة من كبار الكتاب المعاصرين المصريين: نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل، وصنع الله إبراهيم وجمال الغيطاني. وفي الكتاب تنقب محرز عن العلاقة بين التاريخ والأدب السردي مبينة أن كليهما يحاول أن يحول «الحقيقة»، و«الحياة» إلى بنى تاريخية من المعاني.

ومن خلال تحليل أعمال هؤلاء الكتاب، فيما يتعلق بالعلاقة بين السلطة وإنتاج الأدب القصصي، تكشف محرز خطابا لا يعلق فقط على تاريخ المكان وإنما أيضا يخلق قصصًا عن التاريخ.

تعمل سامية محرز كأستاذ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

After the Dance.. A Walk Jacmei, through Carnival Haiti

(بعد الرقص.. مشوار خلال الكرنفال فى جاكماى، هايتى)

Edwidge Danticat

Vintage, 160pp, 2004, £ 6.99



هذه رحلة أخاذة وأسرة فيما وراء سطح الكرنفال. حينما كانت طفلة كان ينتاب إيدوج الخوف من الذهاب للكرنفال حيث قد يصاب الناس بالصمم أو يفقدون أصواتهم أو ربما ضربهم أحد المشتهين للدماء بسكين. الآن، وبعد أن تخلصت إيدوج من مخاوفها الطفولية، تخوض فى رحلة لاكتشاف التاريخ البطولى والمأساوى للجزيرة، من المستعمرين الفرنسيين إلى الثوريين من أهل هاييتى إلى الغزاة الأمريكيين والديكتاتوريين الذين نشأوا فى الوطن. تقدم لنا دانتيكات أيضا روايات عن الكثيرين من المؤدين، والفنانين الذين أعادوا خلق الأساطير التى أعادت الحياة للاحتفالات الكرنفالية. حينما يأتى الكرنفال، فإننا نشاهد حيث تنتقل من دور المراقب إلى دور المشترك الفعلى فى المهرجان وفى النهاية تفقد نفسها فى الزحام الغامر من البشر.

ينتمى هذا الكتاب لفن السرد الحكائى الشعرى لكاتبة تعيد اكتشاف وطنها وجزء من ذاتها. إنه أيضا تقدمة للساحل الجنوبى من هايتى وللجمال الحقيقى للكرنفال.

Nasser: His Life and Time

(ناصر: حياته وزمنه)

Anne Alexander

AUC Press



بعد أكثر من ثلاثين عاما على وفاته، يظل جمال عبد الناصر أحد الشخصيات المهمة فى العالم العربى. كان عبد الناصر أحد الضباط الشبان الذين أطاحوا بالحكم الملكى للملك فاروق عام ١٩٥٢. كان فى ذلك الوقت فى السادسة والثلاثين من عمره حينما أصبح الزعيم المصرى الذى حصل على إجماع غير مسبوق من الجماهير العربية. فى عام ١٩٥٦ قام بتأميم قناة السويس غير مكترث من غضب بريطانيا وفرنسا. إن الكثيرين فى العالم العربى لا زالوا مقدرين لتحديه القوى الاستعمارية وحماسه للنهوض بمستوى معيشة المواطنين من خلال تحديث الاقتصاد المصرى، ولكن هناك آخرين لا زالوا أكثر انتقادا لحكمه الأوتوقراطى. إن هذه الدراسة البيوجرافية تعيد اكتشاف حياة عبد الناصر فى سياق زمنه المضطرب.

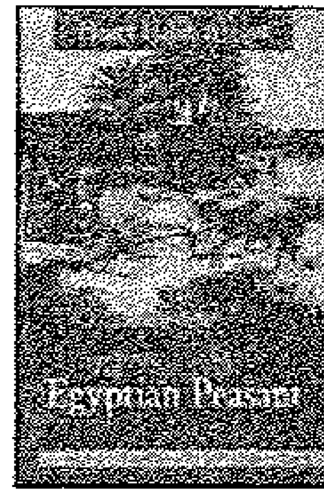
تعمل آن الكسندر كصحفية وباحثة فى العالم الإسلامى. تكتب الكسندر للميدل إيست إنترناشونال وعملت فى إذاعة البى بى سى على مدى السنوات الثلاث الماضية.

The Egyptian Peasant

(الفلاح المصرى)

Henry Habib Ayrout

AUC Press



لقد تغيرت مصر بشكل كبير فى النصف الأخير من القرن العشرين، واتخذ هذا التغيير شكلا أكثر وضوحا فى قرى وادى النيل. لقد جلبت الكهرباء والراديو والتليفزيون العالم الأوسع إلى بيوت الفلاحين. وأدت المدارس الحكومية إلى توسيع الآفاق التعليمية للأطفال كما أصبح متاحا أمام الفلاحين الفرص للعمل فى مناطق أخرى من العالم العربى. لقد أدت المدنية إلى جعل الكثير من الأسر تعيش فى حزام المساكن الموجودة حول المدن الكبرى. ولكن العالم المحافظ والتقليدى للعمل الدائم الذى يسم حياة الفلاحين المصريين، لا يزال على قيد الحياة، وليس هناك وصف أفضل له من الحكى الكلاسيكى لهنرى حبيب، وهو عالم اجتماع مصرى توفى عام ١٩٦٩ وكرس معظم حياته فى خلق شبكة من المدارس المجانية للأطفال الريفيين فى وقت كانت فيه قليلة العدد.

نشر الكتاب للمرة الأولى باللغة الفرنسية عام ١٩٣٨، ثم تم تنقيحه عددا من المرات قبل أن يصدر باللغة الإنجليزية عام ١٩٦٣. ولازال الكتاب بوصفه الشعرى والعاطفى لحياة الفلاحين يمكن تصديقه ولازال له التأثير ذاته.

Spansh Steps.. one man and his Ass: on the Pilgrim Way to Sintiago

(خطوات أسبانية.. السير فى طريق الحج إلى سانتياجو برفقة حمار)

Tim Moore

Jonathan Cape, £ 16.99, 2004, 320 pp



يحكى هذا الكتاب رحلة حج تيم مور برفقة حمار على الطريق القديم الذى يبلغ طوله ٥٠٠ ميل من ميناء سانت جان بيد على الجانب الفرنسى لبيرينيس إلى كاتدرائية سانتياجو دو كومبوستيلا فى أسبانيا، التى تحوى ضريح قديس أسبانيا العظيم. كان برفقته فى هذه الرحلة حمار يدعى شينتو.

فى هذا الكتاب يتأمل مور فى تاريخ الحج ذاته، إلا أن الطريف أن مور نفسه لا يزعج نفسه كثيرا بأى معتقد دينى، ولا يتكلم كلمة أسبانية واحدة، ولا يعرف شيئا عن الحمير. ولكنه قرر السفر متسلحا بكتاب عنوانه كوديكس كاليكستينوس، وهو كتاب إرشادى يعود للقرن الثانى عشر عن الطريق وبنصيحة أحد خبراء فن إدارة الحمير وهو روبرت لويس ستيفنسون.

يكتب مور هذا الكتاب بحس عال من الموهبة والطرافة، ويعد الكتاب انعكاسا للتوازن المثالى بين فن كتابة الرحلة، والحكمة والحكايات النادرة.

Private Papers

(أوراق خاصة)

Margret Forster

Vintage, £ 6.99, 2004, 256pp.



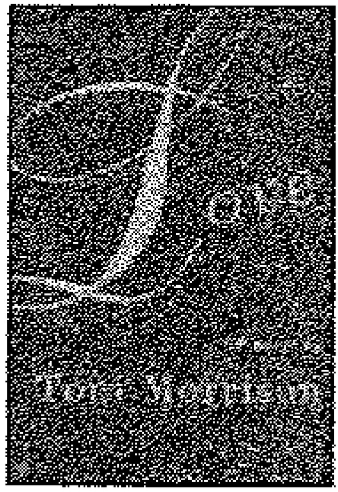
تتسم رواية مارجريت فوستر، «أوراق خاصة» بالروعة والرعب معاً، حيث تتناول صراع الأجيال. بالنسبة لبانلوب بتلر كانت الأسرة تمثل كل شىء، الطموح الوحيد لحياتها كناضجة، إلا أن ثلاثًا من بناتها الأربع لهن أفكار مختلفة، والوحيدة التى تبعت أفكار أمها المثالية هى إملى وبرغم من ذلك لم تنجُ من أفكار أمها الكارثية. تبدأ بينلوب بتلر الأم بتسجيل حكايات الأسرة كما تحدث ولكن تكتشف روز مارى تلك الأوراق الخاصة مما أصابها بالغضب الشديد بسبب تشويه أمها للحقائق وتبدأ هى فى سرد القصة من وجهة نظرها الخاصة، وتتناول الأيام التى تلت الحرب المضطربة حيث ترسم صورة ليس لأسرة واحدة بكل تعقيداتها ولكن أيضا للعالم المتغير الذى شكل حياتها.

Love

(الحـــب)

Tony Morrison

Vintage, £ 6.99, 2004, 208 pp.



ماى وكريستين وهيد وجينويور وفيدا، كلهن نساء يسيطر عليهن «بل كوزى» ويسيطر عليهن وحده، وهو يشبع احتياجهن لصورة الأب والزوج والحبيب والحارس والصديق، والرغبات التى سيطرت على أولئك النساء لفترة طويلة بعد وفاته. فتشكل هذه الرؤية داخل الرواية ثراء شديدا بالشخصيات والأحداث الدرامية والفهم العميق للماضى الذى يظل حياً من خلال رغبات النساء، إن هذه الرواية تعكس الأوجه المختلفة للحب منتقلة من الرغبة إلى الشهوة، لتشكل الرواية دائرة مكتملة عن الحب الأول الغامر الذى يترك أثره علينا جميعا وللأبد.

From the Shadow of Dracula A Life of Bram Stoker

(من ظلال دراكولا.. حياة برام ستوكر)

Paul Murray

Jonathan Cape, £ 18.99, 2004, 320 pp.



كتب موراى وبشكل رائع هذا الكتاب الهام الذى يتخلل إلى ما وراء سطح حياة الكاتب الأيرلندى ستوكر والفن ويختبر العلاقة بين الاثنين.

إن من مدعاة السخرية فى التاريخ الأدبى أن كاتب إحدى أكثر الروايات مبيعا

فى العالم لا نعلم عنه إلا القليل.ان هذا الكتاب يسعى لإعادة التوازن و توضيح صورة جديدة عن برام ستوكر، صانعا نوعا من العلاقة بين الكاتب وإبداعه الشهير.

قام موراى بالبحث فى أوراق ستوكر وملاحظاته أثناء كتابته لدراكولا، والرسائل المتبادلة، تلك التى أضفت ضوءا جديدا على حياة ستوكر.

يكشف الكتاب عن حياة ستوكر النشطة ثقافيا داخل وخارج أيرلندا، حيث كان ستوكر منغمسا فى المشهد الأدبى فى دبلن وكان مرتبطا بحركة الكثير من الشخصيات الأدبية والمسرحية عظيمة الشهرة مثل سارة بيرنهاردت وأوسكار وايلد، ومارك توين. كانت أهم علاقاته، على الرغم من ذلك، تلك التى أقامها مع هنرى إرفنج حيث أدارا معا مسرح ليثيوم فى لندن.

Burning Hunger.. One A Family's Struggle against Apartheid

(جوع قاتل.. كفاح إحدى الأسر ضد التمييز العنصرى)

Lynda Schuster

Jonathan Cape, £18.99, 2004, 430 pp.



فى السادس عشر من يونيو عام ١٩٧٦ قام طلاب سويتو بمظاهرة ضد القانون الجديد الذى يقضى بأن كل التعليم فى المدارس الأفريقية يجب أن يكون باللغة الأفريقية.كان يقودهم شاب ذو شخصية كارزمية يدعى تسيتسى ماشينى، كان أحد الأبناء الثلاثة عشر لجوزيف ونومخيسا ماشينى، المعروفين بتقوى الله وعدم الانخراط فى السياسة.إلا أن ما قام به فى هذا اليوم أدى إلى سلسلة من الأحداث حددت فيما بعد وضع أسرته للأبد وغيرت من نمط حياتهم تماما.

هذا الكتاب يروى حكاية هذه الأسرة المميزة، ساردا قصة السود فى جنوب أفريقيا بشكل مصغر، موردا كل أوجه الصراع من أجل التحرر. قام أكبر أبناء ماشينى، روكس، بتوجيه المقاتلين الذين كانوا يعبرون إلى جنوب أفريقيا من الدول المجاورة. مفو، الأخ الرابع، كان مجندا، ألقى القبض عليه فى النهاية بعد عملياته العسكرية وعذب وحوكم بتهمة الخيانة العظمى.أما تسيتسى فقد انتهى الحال به فى المنفى، وتوفى عام ١٩٩٠، فى العام الذى بدأ الجميع فى العودة إلى بلادهم.

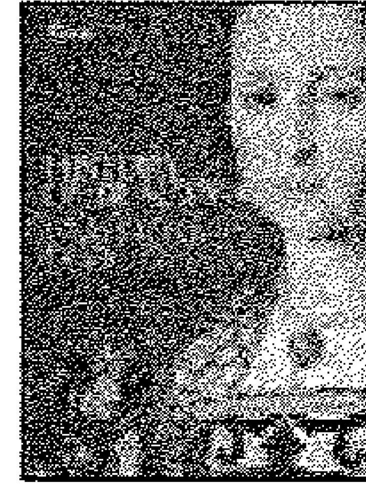
يستمر الكاتب فى سرد قصص كفاح أبناء هذه الأسرة الفريدة، مشيرا إلى أنه إذا كانت أسرة مانديلا بمثابة جنرالات معركة الكفاح لتحرير السود، فإن أسرة ماشينى كانوا بمثابة جنود هذه المعركة.

On Beauty.. A history of a Western Idea

(عن الجمال.. تاريخ فكرة غربية)

Umberto Eco

Secker &Warburg, £ 25.00, 2004, 400pp



«عن الجمال» ليس كتابا يتناول تاريخ الفن ولا تاريخ علم الجمال ولكن الروائى الشهير إمبرتو إيكو يقترب من تاريخى هذين الفرعين المعرفيين لتحديد أفكار عن الجمال، تلك التى نقلت بعض الأحاسيس من العالم الكلاسيكى إلى وقتنا المعاصر.

من حيث الشكل والأسلوب، يتاح هذا الكتاب لمدى واسع من القراء. مستعينا بالتصوير، والنحت والعمارة والفيلم، والتصوير الفوتوغرافى وفن الديكور، والرواية والشعر، يقدم إيكو بانوراما ثرية وذكية لهذا الموضوع الضخم.

فى هذا الكتاب ذى الأسلوب الأخاذ، لا نقرأ فقط عن بوتشيللى ومايكل آنجلو، ولكن أيضا عن موضة الستينيات من القرن العشرين وكيف أنها تدين بالكثير للزى السائد فى مصر القديمة، وكيف أن طريقة تسريح الشعر فى روما القديمة وموضات تصفيف الشعر فى القرن الثامن عشر بينهما الكثير من الملامح المشتركة.

Ghosts

(الأشـــبـاح)

John Fuller

Chatto &Windus £ 8.99, 2004, 64pp



مثل الأشباح التى تقطن الممرات المظلمة، تكشف المجموعة الشعرية لجون فولر عن تلك المساحة الرمادية بين الحياة والموت. بحس عال من الشفافية والتبصر، تتأمل القصائد فى فكرة أنه حينما يصل المرء لسن معينة تبدأ تنتابه وساوس موعد الرحيل عن الحياة. فى قصيدة «أوضاع فى السرير»، يقود البحث المستمر والمسلى للشاعر عن طريقة مريحة للنوم الشاعر إلى أفكار حزينة حينما «نجد/ أنفسنا نهرب من النداء المرهق للجسد». وبالرغم من ذلك، من مشهد الموت هذا، ينمو تصميم للابتهاج باللحظة المعاشة وتقدير «مسألة الحياة» بشكل كامل.

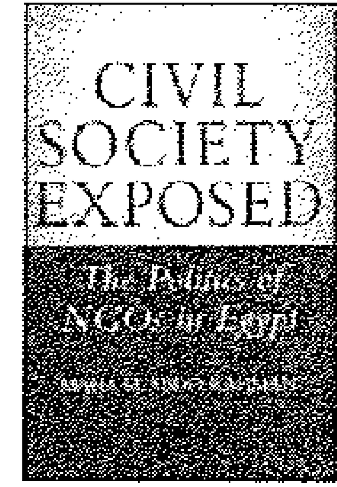
جون فيلر هو شاعر معروف، حيث صدر له أربعة عشر ديوانا، كان آخرها «الآن ولوقت آخر» عام ٢٠٠٢، كما حاز ديوانه «الأحجار والحرائق» على جائزة فوروارد الشعرية عام ١٩٩٦.

Civil Society Exposed.. The Politics of NGOs in Egypt

(سبر أغوار المجتمع المدنى.. السياسات الخاصة بالمؤسسات غير الحكومية فى مصر)

Maha M. Abd Elrahman

AUC Press



يتناول هذا الكتاب بشكل نقدى الجدال الدائر حول مدى علاقة المجتمع المدنى بالبرامج الخاصة بالتغيير السياسى ودور وكلائها المعروفين من المنظمات غير الحكومية فى تعزيز البرامج التقدمية. تحلل مها عبد الرحمن الحالة العملية لمصر فى إطار أوسع مستندة على علم الاقتصاد السياسى والعلاقات بين الدولة والمجتمع من أجل الوصول إلى يقين عما إذا كانت تجربة مؤسسات المجتمع المدنى، والمؤسسات غير الحكومية بشكل خاص تثبت صحة الجدل السائد فى الدوائر الأكاديمية والسياسية بأن المجتمع المدنى هو المصدر الرئيسى للتحولات الاجتماعية والسياسية.

وتتساءل المؤلفة عبر صفحات الكتاب لمصلحة من يخدم ويمثل مشروع المجتمع المدنى والمنظمات غير الحكومية التى تعمل فى هذا الإطار؟ من الذى ينتفع من تقدمه؟ هل هى الجماهير الفقيرة التى لا تتمتع بأية ميزات والتى همشتها سياسات الدولة عبر زمن طويل؟ هل هى الطبقة الوسطى المهنية؟ أم القوى العالمية المسيطرة، التى تسعى المؤسسات الدولية والمتعددة الجنسيات تسعى إلى فرض سيطرتها على النظام العالمى؟

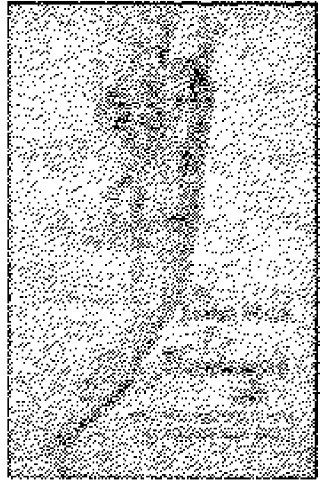
تصل المؤلفة إلى استنتاج يفضى بأن المجتمع المدنى يشكل فى الحقيقة بيئة سياسية تتميز بميولها التسلطية والقمعية. الأكثر من ذلك أن مؤسساته، مثل المنظمات غير الحكومية تندمج عادة بشكل فعال فى إعادة إنتاج علاقات غير متساوية وتعزيز الوضع الراهن الذى لا يتسم بالعدالة أكثر من تقديمها لبدائل لأنظمة السلطة السائدة. تعمل مها عبد الرحمن كأستاذ مساعد فى علم الاجتماع بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

Michelangelo and Reinvention of the Human Body

(مايكل أنجلو وإعادة اكتشاف الجسد الإنسانى)

James Hall

Chatto&Windus, £ 25.00 336pp, 2004



يعد فن مايكل أنجلو من الأعمال الساحرة، ولكنه مثير للارتباك أيضاً. ولكن ما هو مصدر هذه القوة التى لا يمكن مضاهاتها؟ فى هذه الدراسة التحليلية والمفصلة، يكتشف جيمس هال الناقد الفنى، بعضا من تلك الأمور المحيرة: نساءه اللائى يتسمن بالصرامة ونقص ملامحهن الأمومية. اهتمامه بالمقاييس والأحجام الضخمة والطريقة التى أثر بها تصنيفه التشريحى على تعامله مع الجسم الإنسانى، وأخيرا ولعه بوضع الشخصيات البطولية وحيدة فى مقابل خلفية من التزاحم المزعج.

و فى مسار تحليله، يصل هال إلى تقدير أكثر تحديدا للغة الجسد الخاصة بمايكل أنجلو، ويقدم شروحات جديدة للكثير من الأعمال النحتية والتصويرية المعروفة ومنها الصور الأخيرة للمسيح المتوفى.

فى هذا الكتاب يرفض هال الفكرة السائدة عن الفنان السوبرمان الذى تستحوذ عليه قوى عقلية ومادية هائلة، مجسدا الروح المؤثرة فى عصره، ويطيح أيضا بالرأى الذى ساد لفترة طويلة بأن أنجلو هو شخصية فنية رائعة ولكنه غير متوازن وتستحوذ عليه فكرة تصوير الجسد الذكرى العارى. بدلا من ذلك، يعيد هال تعريف أنجلو بأنه الفنان الوحيد الذى وضع الجسد الإنسانى محل الصدارة والمركزية فى أعماله.

قـــــــــراءة ..

لا شـــيء يــدعــــو للتفـــاؤل

هاهم اللبنانيون في بيروت يرفعون أصواتهم. لا ضد إسرائيل أو أمريكا. بل ضد سورية! (والملاحظة للنيوزويك الأمريكية في افتتاحيتها الأخيرة) والحقيقة أن شيئاً لا يختلف عن هذا كثيراً حدث ويحدث. وإن اختلف السياق. في عواصم عربية أخرى. حيث مشاعر الضجر من أوضاع داخلية ضاغطة طغت على مشاعر وطنية كامنة.

مات رفيق الحريري.. ورغم أن قائمة الاغتيالات السياسية في لبنان مزدحمة وطويلة (كمال جنبلاط وبشير الجميل ورينيه معوض ورياض الصلح ورشيد كرامي.. إلخ) وكان اغتيال ابن بلدته «معروف سعد» مقدمة للحرب الأهلية المختلطة الأوراق، إلا أن الأمر بدا هذه المرة. وفي عالم مختلف. مختلفاً. فبعد أن كانت لبنان الصغيرة الوديعة لعقود طويلة ساحة تصفية للحسابات الإقليمية والدولية، وكانت حوادثها «رجع صدى» للتوترات والصراعات على اختلافها، بدت هذه المرة وكأنها «مركز» لما سنسمع أصداءه حتماً في الجوار وما بعد الجوار، كزلزال لا مهرب من توابعه.

مات رفيق الحريري.. وكأي حادث طريق، قد لا نعرف أبداً كيف حدث، إلا أننا نبدأ قطعاً وفوراً في حصر الضحايا وحساب النتائج. وقائمة الضحايا هنا طويلة ومهمة.. ومؤثرة في توازنات دقيقة لمنطقة يُكتب الآن فصل مهم من تاريخها. وإن كان لا شك هناك في أن السوريين (فعلوها أم لم يفعلوها) سيكونون أول الضحايا، فإن «حزب الله» على الأرجح لن يكون آخر القائمة الطويلة.

كأي جريمة، يبقى البحث عن الجاني هو البند الأهم على جدول المحققين. أما المراقبون فينشغلون عادة بالنتائج.. وباليوم التالي. سياسياً. وفي عالم لم يعد ينتظر. لم يعد «من فعلها؟» هو السؤال الأهم (وإن بقيت له أهميته العدلية). وإنما السؤال الأهم: «ماذا بعد..؟».

ليس خروج السوريين من لبنان. بيروته وجنوبه. كما ينادي المجتمعون في «البريستول»، نهاية المطاف. بل هو أوله على الأرجح. بعد أن بادر الجميع «القريب والبعيد» عشية الجريمة، بارتداء «قميص الحريري». لا أحد يجادل أن النظام القائم في دمشق يزعج واشنطن وتل أبيب. واغتيال الحريري فرصة للتخلص من الإزعاج. أو على الأقل إقصائه عن المسرح. وحزب الله الذي يبدو «نغمة نشازاً» في الأوركسترا الشرق أوسطي الجديد، سيصيبه بالقطع كثير من شظايا الانفجار الذي لم يود بحياة الحريري فقط، بل لعله سيودي أيضاً بمستقبل المنظمات الفلسطينية المتمركزة في دمشق، أو على الأقل سيؤثر على فعاليتها.

ليس بعيداً عن هذا مسارعة إسرائيل باتهام حزب الله بالمسؤولية عن عملية الملهى الليلي الأخيرة. والتي بدت نشازاً وخارجة عن السياق. وليس بعيداً عن هذه المطالبة الإسرائيلية. أو فلنقل الشرط الإسرائيلي. القاضي بتفكيك فصائل المقاومة الفلسطينية، قبل المضي قدماً في خطوات «جدية» للتسوية.



لا شيء يدعو للتفاؤل..

لأننا قد لا نعرف أبداً من فجر موكب الحريري ولأننا لانعرف. على وجه اليقين. من يفجر السيارات في العراق؟! بعد أن غامت الرؤى وضاعت المسافة الفاصلة بين المقاومة والترويع. لا شيء يدعو للتفاؤل. لأن الذاهبين إلى مقاعد الحكم في «العراق الجديد» هم أول من مارس التفجير والتفخيخ هناك. فأول سيارة مفخخة كانت باكورة نشاطات «حزب الدعوة» حين فجرها أمام وزارة التخطيط في قلب بغداد عام ١٩٨٠. وأول انتحاري قاد شاحنة ملغومة ليفجرها أمام الإذاعة العراقية (١٩٨٣) أرسله «فيلق بدر. المجلس الأعلى». و«حزب الوفاق/ علاوي» قام بتفجير لأتوبيس مدرسة. و«حزب المؤتمر» فجر سيارة ملغومة أمام فندق ميريديان ليلة عيد الميلاد عام ١٩٩٣.. كأنما هو قدر المواطن العربي.

لا شيء يدعو للتفاؤل.. لماذا؟

لأن رئيس الوزراء المجري (لايهم اسمه) وصف اللاعبين السعوديين بعد مباراة «كرة قدم» بين البلدين بأنهم «إرهابيون عرب»!

ولأن متعصباً مثل الكاتب الأمريكي جوزيف جوف وجد ضالته في عيوبنا التي تبدو مزمنة كي يدافع عن وجود إسرائيل في مقال اختارته النافذة Foreign Policy ليكون موضوع غلافها الأخير.

يتساءل جوف: هل يستطيع أي شخص أن يعلن بضمير صاف أن عناصر العجز في العالم العربي ستختفي مع اختفاء إسرائيل؟ ويجيب في المجلة الأمريكية المهمة إن تقريرين عن التنمية الإنسانية العربية صادرين عن الأمم المتحدة يقولان إن الكوارث العربية صناعة محلية، إذ إن للركود وفقدان الأمل أسباباً أولها نقص الحرية المتمثل في استقرار أتوقراطيات مطلقة وانتخابات مزورة وقضاء مرتهن للسلطة التنفيذية وقيود على المجتمع المدني، وثانيها هو الافتقار إلى المعرفة: ٦٥ مليوناً من البالغين أميون. ونحو ١٠ ملايين طفل لم يلتحقوا بمدارس على الإطلاق.

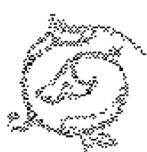
ويحرص الأستاذ الأمريكي في ستانفورد. والذي نشر مقاله قبل اغتيال الحريري. على أن ينكأ جراحاً عربية قديمة مذكراً «بـ ١٤ عاماً من سفك الدماء الطائفي في لبنان. وبأن الحرب العراقية الإيرانية كانت هي الحرب الإقليمية الأطول في القرن العشرين. وبأن النظام السوري ذبح ٢٠ ألفاً من الإخوان المسلمين في حماه عام ١٩٨٢. وأن المعتقلات العربية من المحيط إلى الخليج مزدحمة بالمناوئين». محاولاً أن يخلص إلى أن إسرائيل ليس لها علاقة «سببية» بكل هذا. «فجيش صدام لم يزحف نحو القدس، والجماعة الإسلامية في الجزائر لم تذبح غير مواطنيها».

كلام الأستاذ الأمريكي في الـ FP (وهو مغرض بلا شك) ليس موجهاً إلى القارئ في عالمنا العربي. ولا إلى متخذي القرار في تلك المنطقة التي «لا يقرر فيها غير حاكميها» وإنما. وهذا مهم. هو يحاول أولاً أن يوئد أفكاراً تظهر في الغرب أحياناً حول «مسؤولية أفعال إسرائيل عن العداء لأمريكا في المنطقة» وهي الفكرة التي يتبناها تقريباً كل من أجاب من العرب على السؤال الأمريكي الممل «لماذا تكرهوننا؟!». وهو يحاول ثانياً أن يرد على أفكار لمفكرين مثل البرازيلي خوسيه آرثر جيانوتي الذي أطلق دعوة بعد ١١ سبتمبر تقول «إن التاريخ كان سيختلف كلية لو لم تظهر إسرائيل التي نكأت جرحاً بين الإسلام والغرب. وإننا لن نستطيع التخلص من الإرهاب الإسلامي من دون التخلص من الجرح الذي هو مصدر إحباط الإرهابيين المحتملين».

لا شيء يدعو للتفاؤل..

حين يسمح واقعنا العربي لجوزيف جوف أن يكتب ما كتب. وحين تسمح أنظمتنا العربية للوزير الإسرائيلي اليميني المتطرف ناتان شارانسكي بأن يقنع جورج دبليو بوش «حاكم العالم الأوحد» بأن لا مشكلة في الشرق الأوسط إلا افتقاد مواطنيه للحرية والديموقراطية «الحقيقية» التي يعرفها الإسرائيليون: «حيث لا سلطة مطلقة، وحيث يستطيع البرلمان. فعلياً لا صورياً. سحب الثقة من الحكومة، وحيث يمكن للسلطات القضائية. فعلياً لا صورياً. ملاحقة رأس الدولة، وحيث....»، يصبح لا مجال للتفاؤل.

وحين يعتبر رئيس الولايات المتحدة أن كتاب الوزير الإسرائيلي هو «مانيفستو» ولايته الثانية. معلناً غير مرة ضرورة الحفاظ على التفوق العسكري الإسرائيلي لأنها «الدولة الوحيدة الديموقراطية في المنطقة»! وحين يفعل بعضنا في «الداخل» مايجعله مضطرا لأن يسمح «للخارج» بأن يتدخل متجاوزا سيادة أضعفتها قوانين عولمية، وأنهكتها تجاوزات الاستبداد والفساد، وصفقات التنازل حفاظا على السلطة لا غيرها، يصبح لا مجال للتفاؤل.



لا شيء يدعو للتفاؤل..

وإن كان ما يبدو عكس ذلك، فوسط زحام الحواريين، وضباب حملة البخور، لا مكان لثقافة أن «صديقك من صدقك لا من صدقك» فالحلقات المفرغة ذاتها التي عاشها عالمنا العربي لعقود «دولاً وأمة» هي ذاتها، رغم ما يبدو على السطح من مساحيق يعمد محترفوها الحاذقون أن تكون زاعقة. ورغم دقات الطبول العالية لأعراس الديموقراطية الزائفة. إذ يعرف الريفيون في شرقنا العربي أن دقات الطبول رغم دويها، وأهازيج العرس رغم صخبها، لم تفلح يوماً في أن تخفي حقيقة العروس. هل تذكرون إعلام صدام حسين؟ وهل تذكرون أنه قبل أشهر فقط من سقوط بغداد كان قد انتخب بأغلبية ساحقة رئيساً لكل العراقيين(!)

لا شيء يدعو للتفاؤل! كيف وصلنا إذن إلى هنا؟

باغتني زائري «البحريني» قبل أيام. مذكراً بأن الأمل كان ينبت دوما على ضفاف النيل. قارئا علي بيت حافظ إبراهيم الشهير:

«أنا إن قدر الإله مماتي.. لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدي»

أيمــن الصيــاد

الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

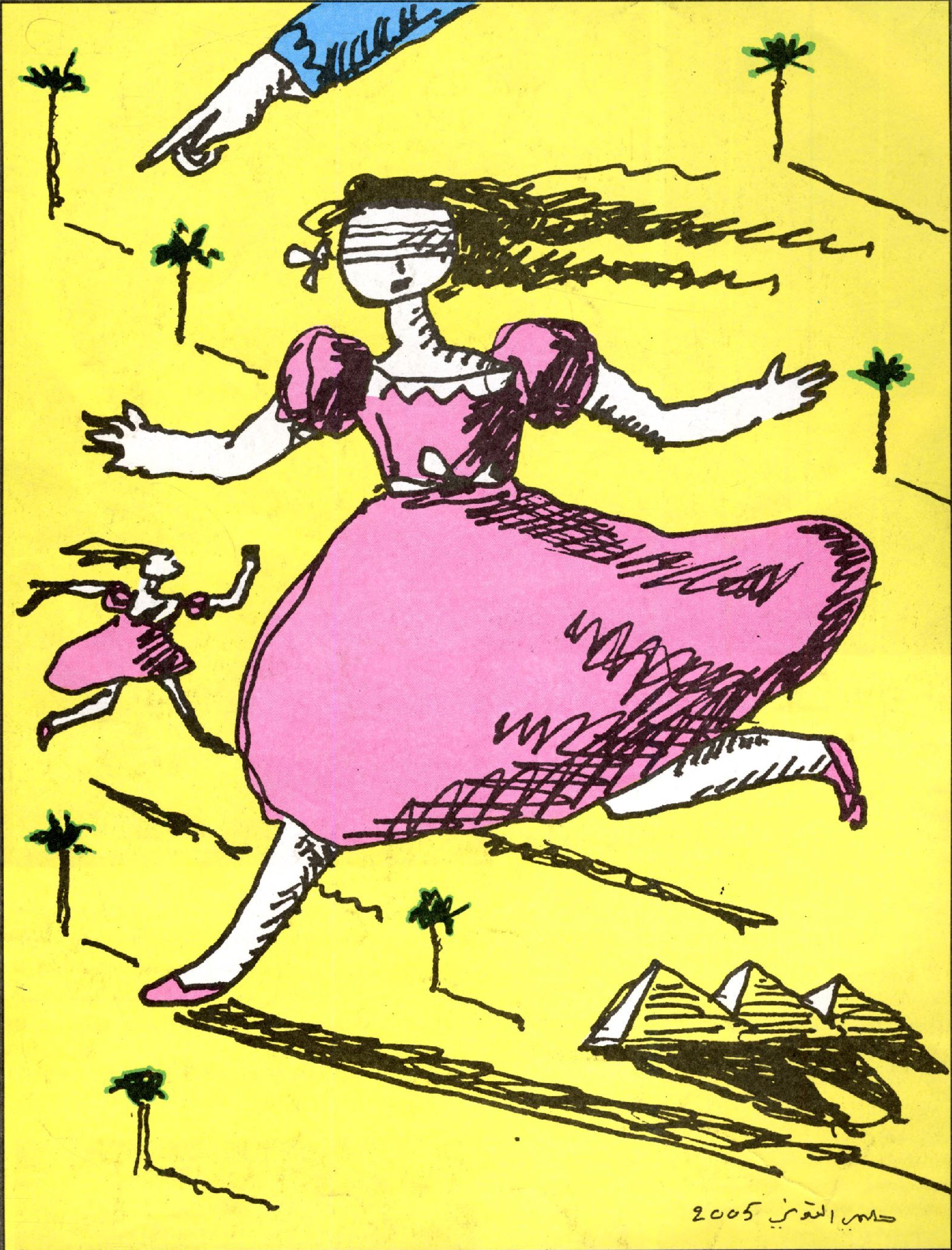
مجلة شهرية . العدد الخامس والسبعون . السنة السابعة . أبريل ٢٠٠٥ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 7 - Issue 75 - April 2005

أرادوه "خاليا من الأسلحة" .. فأصبح "خاليا من العلماء" / عماد خدورى

زيارة أولى .. للوطن / جمانة أبو غزالة ■ كان أبى .. وكان أيضا رئيسا للجمهورية / ليلى حافظ ■ عن الحريرى / غسان توينى

قراءة: العربى التائه .. والحرية الهادية / أيمن الصياد ■ "بنت ناس" .. الكود المصرى لتوظيف البنات فى مصر / غادة برسوم



نون: تطوير جينات المثقف العربى / سلامة أحمد سلامة

تمويل سيارتك

"جديدة أو مستعملة"

حتى ½ مليون جنيه



* أحقية الحصول على القروض ومواصفاتها ترجع الى شروط وسياسات برامج التمويل الخاصة بالبنك العربي

resala-communications.com

- أقل سعر فائدة
- فترة سداد تصل الى ٧ سنوات
- امكانية المنح بدون ضامن وبدون مقدم (وفقاً لمواصفات البرنامج)

اسأل عن البرامج المتنوعة المصممة لتناسب إمكانياتك واحتياجاتك

إتصل الآن على ١٩١٠٠
من أى محمول/هاتف بالقاهرة والمحافظات
يومياً من ٩ صباحاً حتى ٩ مساءاً
(بسعر المكالمة العادية)



البنك العربي

السنــــــة السابعـــة

العــدد الخامس والسبعون

أبــــريـــــل ٢٠٠٥

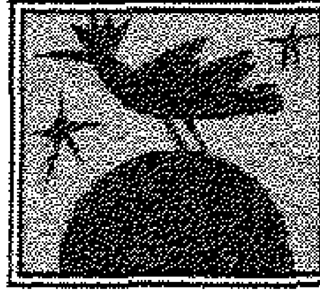
عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج

أحـمـــد الزيــــادى

الكتب وجهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشــركة المصــريــة
للنشـــــر
العــربى والــدولى



رئيس مجلس الإدارة

إبــراهيـــم المعــــلــم

رئيس التحرير

سلامــة أحمــد سلامــة

رئيس التحرير الفنى

حــلمى التــونى

مدير التحرير

أيـمــن الصيــاد

محتــويات العــدد:

كتّـاب العـدد:

- أحمد مستجير .. أستاذ بكلية الزراعة جامعة القاهرة.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- ثروت البحر.. فنان تشكيلى.
- جمانة أبو غزالة.. فلسطينية تقيم فى نيويورك وتعمل فى صناعة الإعلان.
- حازم حسن صبحى.. مدير مركز أبحاث التقدم العلمى ووكيل بمجلس الدفاع الوطنى سابقًا.
- روجر كوهين.. صحفى فى جريدة «هيرالد تريبيون» الأمريكية.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- عبد العليم الأبيض.. الوزير المفوض الإعلامى فى واشنطن سابقًا.
- عماد خدورى.. عالم عراقى مقيم فى كندا.
- غادة برسوم.. باحثة بقسم الاجتماع - جامعة تورنتو.
- غسان توينى.. سياسى وصحفى لبنانى.
- فاروق شوشة.. شاعر وإذاعى.
- ليلى حافظ .. صحفية.
- محمد أبو الغار .. أستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة.
- معتز خورشيد.. نائب رئيس جامعة القاهرة للدراسات العليا والبحوث.
- نتاليا بايلى.. باحثة اقتصادية - لندن.
- يوسف الشريف .. صحفى.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى - سعد الدين شحاته





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٢٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - subseription@weghatnazdr.net

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

نـوح

سلامة أحمد سلامة

تحوير جينات المثقف العربى!

[١]

■■ أمضيت قرابة نصف العام إلا قليلاً أتأرجح بين العجز والاستطاعة، بين الاستسلام للمرض ومغالبته، بين الانكماش على النفس والخروج من قوقعة الضعف والوهن، بين اجترار الآلام والأوهام والتطلع إلى لحظة يتحرر فيها الجسد والعقل من قيود تخضعه لقوى لا يملك من أمرها شيئًا.

وعلى كثرة ما عبرت أفق الوعى من أفكار وما تناوشته من تأملات وخواطر، ظلت تروح وتجىء فى مساحة زمنية بحكم القعود عن الحركة والالتزام بأوامر الطبيب، إلا أنها ظلت عصية على التشكل والنضوج. تتداخل وتتماوج مثل قطعان السحب فى السماء. تظهر وتغيب دون سبب وتعصفها رياح تدفع بها فى كل اتجاه. وبدا لى فى وقت من الأوقات أننى فى سباق بغير نهاية، ولكنه سباق لغير هدف، لمتسابق لا أهمية له، وفى لحظة زمنية لا قيمة لها. وحينئذ خيل إلى أن العودة إلى حياتى الطبيعية، إلى عملى وورقى وقلمى، بعد فترة انقطاع مرهقة لن تكون سهلة، بل بدت وكأنها شبه مستحيلة.

أن يتعافى المرء من علة أشرفت به على الحافة، فقد خلالها قوته ولياقته، وتسرب الضعف إلى أعضائه وعضلاته، فلم يعد يستطيع المشى أو الوقوف أو الجلوس بمفرده دون مساعدة يد حانية ترعاه: أشبه بطفل يتعلم الحركة والمشى لأول مرة، تسانده أمه وتسنده خشية الوقوع.. فتلك تجربة شاقة. يزيد من مشقتها أن العليل فى إبلاله لا يبدأ متدرجًا مثل الطفل ولكنه يحاول أن يستعيد ذاكرته الحركية وما دأب عليه من سكون وحركة، ووقوف وقعود، ومشى وجرى.. وكأنه لم يفقد كل هذه المهارات الحركية التى كان يمارسها فى يسر ومرونة. وتبقى قدرة الإنسان على النطق - أى العقل - بكل ما فيه من ملكات تمكنه من الإدراك الحسى والعقلى والنفسى هى المخزون الذى لا يتبدد بسهولة مهما ضعفت الحواس وتداعى الجسد واشتعل الرأس شيبًا.

[٢]

كنت فى كل مرة تعترينى أسباب الوهن، أفكر فى الاعتزال والتقاعد. واستقر فى وجدانى أن دروب الحياة التى سلكتها لم تفض إلى شىء. ولكن لو أننى تقاعدت حتى بعد أن أستعيد صحتى فما الذى سأفعله؟ هل أهجر عملى فى القراءة والكتابة والتفكير، وأمضى أوقاتى كما يفعل موظفو المعاشات على المقهى، أو تسكعًا فى النادى، أو لقاء وثرثرة مع الصحاب والمعارف؟ أستعيد ذكريات أيام مضت وأناقش أحوال البلاد والعباد، وغلاء الأسعار، وجور الزمان، ومشكلات العالم وحروبه. فإذا ضقت فهناك أحدث الأغانى وآخر الفضائح ومتاعب الأولاد والبنات.. ثم لا تلبث بمرور الوقت أن تخبو جذوة القراءة والاطلاع، والقدرة على التفكير وإعمال العقل فى شئون الحياة، حتى إذا وصلت قدرات العقل إلى مرحلة الضمور والانقطاع، لم يبق غير اللجوء إلى الكتب الدينية التى يقف المرء منها موقف التلقى والإذعان، دون تفكير أو تأمل، ودون مناقشة أو حوار. غاية ما يستطيع المرء خارج هذا الإطار أن يتابع برامج التليفزيون العقيمة، فإذا أراد تنشيط ذهنه فقد يلجأ إلى حل الكلمات المتقاطعة!!

وحيداً ينغلق المرء على نفسه، عاطلاً أو متقاعداً عن العمل، تضمحل قدراته وتزداد عزلته وانفصاله.. ترهبه أشباح الشيخوخة وعللها وأعراضها، فيصبح التقاعد بداية لطريق يتوقع المرء نهايته فى كل لحظة. ونحن نعيش فى مجتمعات تجهل ثقافة الاستمتاع بالحياة حتى آخر مراحل العمر، فأين المفر؟

فى المجتمعات المتقدمة ينتظر الكثيرون مرحلة التقاعد على أحر من الجمر بعد سنوات من العمل الشاق والانضباط القسرى، تأجلت خلالها كثير من متع الحياة والأمنيات الصغيرة والكبيرة. يعتقد الواحد منهم أن التقاعد سيوفر له فائضًا من الوقت يقضيه مع أسرته، أو ينفقه فى الثقافة والفن، أو فى متعة السفر والترحال، أو ممارسة هوايات كالرسم والموسيقى كان يتوق إليها. وتوفر هذه المجتمعات، فضلاً عن نظم التأمينات التى تكفل للمتقاعد معاشًا معقولاً، أنشطة اجتماعية ورحلات جماعية ونوادى أو روابط تملأ أوقات الفراغ.

ولكن تبقى المعضلة بالنسبة للذين أمضوا حياتهم فى صناعة الفكر والثقافة والاشتغال بالعلم، سواء فى القلب أو على الهامش، وهى معضلة إطالة حياة الجسد دون المحافظة على إطالة حياة العقل. وهو ما يجعل من طول العمر عبئًا على صاحبه وعلى المجتمع. فالمرء قد يعيش حياة أطول مع تقدم الطب واقتراب التوصل لعلاج السرطان وأمراض القلب، وخاصة بعد أن أصبحت الهندسة الوراثية وتنشيط الخلايا الجذعية فى متناول اليد. ولكن يظل السؤال قائمًا: ما هو الهدف إذا افتقر الأديب أو المفكر أو العالم إلى النشاط الذهنى، والقدرة على التركيز والاستيعاب المتجدد للتفاصيل المتدفقة على الوعى من كل اتجاه حوله؟ ماذا يجدى إذا بقى الجسد وتلاشى العقل أو اضمحلت قدراته؟

مشكلة التقاعد فى المجتمعات المتقدمة أضحت من المشكلات الاجتماعية العويصة. فكما أن العمل يعتبر من أهم الأشياء التى تنظم حياتنا، إلا أن القعود بلا عمل يعد قطعة من الجحيم. وقد أصبحت الوفاة بعد شهور من التقاعد أمرًا شائعًا حين يعجز المرء عن ملء فراغ حياته. ومع الزيادة المتوقعة فى متوسط العمر، فإن الإنسان برغم كل شىء يفقد تدريجيًا جانبًا كبيرًا من قوته وجلده.. يضعف البصر، وتنخفض كثافة العظام، ويسقط الشعر والأسنان، وتحدث آلاف المتغيرات فى الأعضاء والأنسجة والخلايا. وتبقى فكرة الخلود مع ذلك وهمًا لا دليل عليه. ومهما أجهد العلماء أنفسهم فهناك حدود لعمر الإنسان لا يتخطاها. وهناك أسباب للموت لا يملك العلم منعها، حتى ولو كانت «تسونامى» التى انقضت على الملايين دون سابق إنذار فقضت على الآلاف منهم. وسوف يظل الموت مصدر قلق للإنسان وهاجسًا لا منجاة منه.

[٣]

فى مهن عديدة يتقاعد الرياضيون والراقصون فى الثلاثينيات والأربعينيات، وهى السن التى يحتاج فيها الواحد منهم إلى إعادة التدريب لتغير مجالات نشاطه. ويحتاج العمال والموظفون إلى إعادة التدريب ربما فى الأربعينيات أو الخمسينيات. أما المديرون وكبار المسئولين ففيما بين الخمسينيات والستينيات. ويبقى السياسيون فى مقاعدهم حتى مشارف السبعينيات.. هذا ما يحدث فى الدول الصناعية والديمقراطية المتقدمة. أما عندنا فلا يعرف السياسيون متى يتقاعدون إلا إذا اضطرهم الموت إلى ذلك اضطراراً، أو فى حالة العجز الكلى الذى يصيب العقل والجسم معًا.. وقل لى بربك هل سمعت عن سياسى كبير أو صغير قرر اعتزال الحياة العامة فى العالم العربى، أو تخلى عن موقعه الحزبى أو منصبه القيادى، إلا إذا وقع انقلاب عسكرى أو أقيل مغضوبًا عليه؟!

أما كبار الإعلاميين والأكاديميين وربما الممثلون والفنانون فيبقون إلى ما بعد السبعين مستفيدين من السنوات المبكرة فى ممارسة المهنة، التى تعتمد على التدريب الذهنى والتنشيط العقلى، لتخفف فى المراحل اللاحقة قدرًا من التوتر والاستسلام للبلادة والخمول وزحف الزمن وانهزام الآمال والتوقعات.

المثقف فى الدول المتقدمة قد يترك موقعه أو يغير مهنته، ولكنه لا يتعرض - إلا فى حالات استثنائية - لما يمكن أن يسمى بالمخاطر الذهنية التى تعوقه عن ممارسة نشاطه العقلى بحرية

كاملة فى أى مجال يقع عليه اختياره. فالقدرة المتجددة على التفكير التى تدرب عليها فى سنوات شبابه ونضجه، بما يقتضيه من إجراء أحاديث أو جمع معلومات، أو وضع الخطوط العريضة لكتاب يؤلفه أو بحث علمى يتقصى جوانبه، أو رواية ينسج فصولها، أو عمل فنى يبدعه.. لا تذهب هدراً ولا تتعرض لضغوط وممارسات قمعية تقتل موهبته وتجفف ملكاته وتشوه معارفه.

وعلى العكس من ذلك ما يلاقيه المثقف فى أوطاننا العربية من عنت ومشقة. فالقابض على حريته العقلية والفكرية كالقابض على الجمر.. المثقف العربى أياً كان مجال نشاطه، لابد أن تسلمه الأحوال والظروف المحيطة به إلى حال من الضجر السياسى، والإملاق الفكرى، والإجهاد العقلى، والقرف النفسى، أو إلى حالة من الذهول وعدم الاكتراث، فلا يبقى لديه رغبة فى التفكير أو الصبر على الحوار والجدل، وهى حالة لا تجدى معها إعادة التدريب والتركيز التى تقتضيها عوامل الزمن.

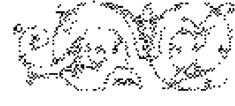
حتى فى مجال العلم والبحث العلمى، يضيق الحصار المادى والمعنوى، فلا يستطيع العالم أو الباحث أن يسهم فى مجالات التقدم والبحث ما لم تتح له فرصة الخروج من الحصار المضروب حوله نتيجة نقص الأموال والإمكانيات والمعامل، وتعقيدات البيروقراطية، وعدم وجود مدارس رائدة للبحث العلمى. ولذلك لم يكن غريباً أن تخرج الجامعات ومراكز البحث علماء ذوى سمعة دولية مرموقة فى مراحل سابقة، وأن تشهد العقود الأخيرة من القرن الماضى هجرة ذوى الطموح من العلماء والباحثين إلى مراكز البحث والجامعات فى الخارج حين ضاقت حولهم الحلقات.. أكثر من ثلاثمائة ألف من العلماء والباحثين والمهنيين المصريين فقط يحتلون مواقع متقدمة فى جامعات أوروبا وأمريكا ومراكز أبحاثها. بينما تغيب عن قائمة أفضل ٥٠٠ جامعة فى العالم أى جامعة مصرية أو عربية، وتغيب المؤسسات المساندة، وتنعدم تماماً تلك العلاقة المركبة بين الصناعة والبحث العلمى، ويكثر الحديث عن فقدان القدرة على إنشاء قاعدة علمية رصينة فى أى بلد من بلادنا العربية.

[٤]

يستيقظ المثقف العربى على واقع يتغير بسرعة شديدة، تضيع فيه الهويات والخصوصيات أو تندمج فيه الثقافات، وتبسط العولمة قوانينها، حيث يتدفق رأس المال عبر الحواجز الجغرافية والقومية. ويبدو العالم متصلاً ومنفصلاً فى آن، مندمجًا ومنشطراً فى وقت واحد. ومازالت المجتمعات العربية عاجزة عن التعايش مع هذه الأوضاع المتغيرة التى تعم العالم، غارقة فى جدل لا ينتهى بين عالمين متخاصمين: عالم تراثى إسلامى وعالم حداثى تقدمى. وفى ظل هذا الجدل الصاخب أخفقت المجتمعات العربية فى فض الاشتباك بين الطرفين، وفى تشكيل رأى عام متجانس فكرياً وثقافياً واجتماعياً. مما أدى إلى نشوء جزر فكرية واجتماعية منعزلة، وشوارع خلفية للفقر والجهل والمرض، وأحياء صفيحية تحت خط الفقر الفكرى والمعرفى، لا تجد لها سلوانًا إلا فى الغيبيات الروحية أو فى الأوهام المصطنعة بفعل مخدرات مادية أو معنوية. وقد استغلت النظم السياسية هذا الانقطاع المعرفى بين العالمين لتحكم قبضتها على المجتمع، مستعينة بسلطان الثقافة والمثقفين من ناحية وبسلطة الدين وعلماء الدين من ناحية أخرى، لتضع الطرفين فى صراع تنافسى للتقرب من السلطة الحاكمة واغتراف المكاسب منها.



هل يمكن استنساخ مثقف عربى حر ليبرالى فى الظروف السياسية الراهنة؟ هل يمكن معالجة الجينات لأجيال من المثقفين ولدت وترعرعت إما فى السجون والمعتقلات، أو فى وزارات الإعلام والثقافة؟



وعلى الرغم مما بذلته النظم الحاكمة فى العالم العربى من جهود للاقتداء بالأشكال الحداثية فى ممارسة السلطة، مثل السماح بقيام أحزاب سياسية، ومنظمات للمجتمع المدنى، ونقابات مهنية، واتحادات عمالية.. إلا أنها نجحت فى تجويفها وتوظيفها لخدمة الفئة الحاكمة. وهى تستخدم نفس الأدوات التى تستخدمها النظم الديمقراطية مثل الانتخابات والاستفتاءات. ولكن لا بأس من التحايل والالتفاف عليها، عن طريق غابة متشابكة من القوانين واللوائح، لتصب فى قالب واحد وتسير فى طريق وحيد بغير منعطفات أو تقاطعات بحجة الحفاظ على السلام الاجتماعى ووحدة الصف. وهكذا فلا مجال للاختلاف فى الرأى أو المناقشة والحوار، والمساءلة والشك.. فالحقيقة واحدة فى كل الأحوال، والقيادة هى وحدها المخولة بإقرارها أو نقضها واستبدالها. وكل محاولة غير ذلك مقضى عليها بالإقصاء ثم الموت.

[٥]

وفى كتابه «يوميات الواحات» للروائى المبدع صنع الله إبراهيم، تطالعنا صور حية واقعية للظروف والملابسات التى شكلت وأنتجت عدداً كبيراً من المثقفين المصريين الذين عاشوا القهر السياسى والموت المعنوى والتعذيب الجسدى والنفسى فى الستينيات، حين كانت مطاردة اليسار الماركسى واليمين الإسلامى هى الشغل الشاغل لنظام الحكم، باعتبارهما مصدر الخطر الأول الذى يهدد الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر. وهو ما تكرر بصورة أو بأخرى فى سائر البلدان العربية. ولم تنجح أساليب القمع والمنع، والاعتقال والسجن إلا فى تعميق الهوة بين المثقف والنظام وإيجاد جو من العداوة وانعدام الثقة، أفرزت فى النهاية ألوانًا من التطرف والتعصب فى ناحية، أو النفاق والانتهازية فى ناحية أخرى.

وبعد ما يربو على أربعين سنة لا يكاد الموقف يختلف كثيراً. ربما زالت بعض مظاهر العنف الوحشى الذى دأبت الأجهزة الأمنية على ممارسته مع المثقفين وغيرهم. وربما عادت للقضاء على بعض مظاهر هيبته واحترامه. وربما تطور الفكر السياسى نحو القبول بقدر من الاختلاف والتنوع. ولكنه اختلاف يبقى داخل إطار النظام السياسى الذى يمثله حزب واحد يحتكر السلطة من نصف قرن، ولا يتعدى حدوده.

ومن هنا ظهرت فى العالم العربى وبدرجات مختلفة، فكرة توظيف المثقفين وإغرائهم بالمكاسب والمناصب، وإغراقهم بالأموال والمنافع، ليتخرج الواحد منهم فى مدرسة النفاق واللعب مع الكبار.. إنهم «مثقفون تحت الطلب» أصابتهم حالة الإعياء الثقافى فلا يخجل الواحد منهم من التباهى بذلك. ولا بأس من أن يكون للواحد منهم وجهان أو وجوه متعددة. فصاحب الوجه الواحد والقلم الواحد والرأى الواحد غريب عن العصر والمجتمع، يجرى وراء سراب للحقيقة والصدق لا وجود له وصاحب الوجوه المتعددة مرشح لكل المناصب والوظائف فى كل العهود.

وإذا كان البعض قد أطلق لقب «فقهاء الاستبداد» على المثقفين الذين زينوا للثورات التى شهدها العالم العربى السند القانونى لتجاوز الدستور والخروج عن الشرعية الدستورية إلى ما سمى بالشرعية الثورية، فنحن الآن بصدد طراز جديد يطلق عليه «ترزية القوانين» يسايرون طبيعة التغيرات التى طرأت على المجتمع، مهمتهم تطويع القوانين والدساتير وتفريغها من مضمونها لخدمة أهداف النظام، وتثقيف أو تزييف الوعى العام، وإن فى ظروف أكثر انفتاحاً وبأساليب أكثر دهاء والتواء وتمسكاً بمنطق «التقية».

[٦]

فى هذه الأجواء، هل يمكن أن يكون ثمة اختلاف بين معالم الحياة الثقافية فى أى بلد عربى ومعالم الحياة السياسية فيها. وهل يمكن أن تقوم نهضة ثقافية دون نهضة سياسية أو العكس؟.. وهل يمكن استنساخ مثقف عربى حر ليبرالى فى ظروف سياسية مترعة بالفساد والغش والجشع واكتناز المنافع الذاتية؟ هل يمكن معالجة الجينات الوراثية لأجيال بأكملها من المثقفين والمفكرين ولدت وترعرعت إما فى السجون والمعتقلات، أو فى مخازن وزارات الإعلام والثقافة، أو تحت حصار معسكرات الأمن المركزى، أو فى أحسن الأحوال فى مستودعات المناطق الحرة ومجالس الإدارات العابرة للقارات والمحيطات؟ أم أن اعتزال المثقف وانعزاله هو السبيل الوحيد للاحتفاظ بسلامة العقل والتوازن النفسى؟

وفى النهاية يبقى السؤال: كيف يستطيع المجتمع العليل أن يستعيد بأبنائه ومثقفيه صحته العقلية حتى ولو استعاد صحته الجسدية؟ ومتى يخرج المثقف العربى من ورشة اليأس التى أكرهت الشاعر الكبير حافظ إبراهيم فى لحظة من لحظات الضيق والضجر على أن يحطم قلمه ويقيل يراعه:

حطمت اليراع فلا تعجبى
وعفت البيان فلا تعتبى
وكم فيك يا مصر من كاتب
أقال اليراع ولم يكتب
فلا تعذلينى لهذا السكوت
فقد ضاق بى منك ما ضاق بى ■

أرادوه "خاليا من الأسلحة"

هروب عالم عراقى


التنقيب عن اليورانيوم شمال العراق ١٩٧٦


الصحاف يقلدنى وساما ١٩٩٦

■■ عامان على «الحرب على العراق»..
مياه كثيرة جرت فى النهر. بعضها عذب.. وبعضها بمرارة العلقم.. ومعظمها بلون الدماء.

وبغض النظر عما انتهت إليه الأمور: حلوها ومرها، وأيًا ما كانت درجة التباين فى وصف ـ ثم فهم ـ ما جرى ويجرى. والمترتب على اختلاف طبيعى فى زاوية النظر، تبقى حقيقة أن حجر الزاوية فى حجة الذين ذهبوا إلى الحرب قبل عامين هى امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل. والقصة الطويلة ـ كثيرة التفاصيل معروفة.

على هامش القصة تبقى هناك حقيقة أن نهضة علمية حقيقية كانت تتراكم فى العراق على مدى عقود. وأن العراق ربما كان فى وقت من الأوقات الأغنى بين الدول العربية بعلمائه وخبرائه. خاصة فى مجال الفيزياء والكيمياء وغيرهما من العلوم الطبيعية.

أين هم علماء العراق الآن؟ بعد عامين من الحرب، وعقد من الحصار، وسنوات من الاستبداد؟

تختلف الإجابات. ولكنها تتفق فى مرارتها: فعشرات منهم باتوا هدفًا لرصاصات اغتيال غامضة لا يعرف أحدٌ أبدًا من وراءها. ومنهم من يقبع فى سجون الاحتلال بتهمة أن «وطنه حاول الاستفادة من علمه..»(!) ومنهم من فر ـ أو كان قد فر ـ هربًا من فوضى الحرب، أو سغب الحصار، أو قهر الاستبداد. ومنهم من ساوموه أو راودوه عن علمه: دولٌ فوق الأرض، أو منظمات تحتها. وعلى الاختلاف بين هؤلاء وهؤلاء، تبقى لكل منهم قصة.

عماد خدورى الحائز على درجة الماجستير بالفيزياء من جامعة ميتشجان فى الولايات المتحدة الأمريكية. والدكتوراة فى «تكنولوجيا المفاعلات النووية» من جامعة برمنجهام فى بريطانيا. رافق برنامج العراق النووى منذ نشأته حتى دماره، وكان على تماس مباشر مع جهازه الفعال طوال ثلاثين عامًا (١٩٦٨ ـ ١٩٩٨) قبل أن يعصف به استشراءُ فساد هو توأمٌ ـ بطبيعة الأمور ـ لاستبداد كان طبيعيًا أن يضع العراقَ كله على طريق مظلم.

من منفاه الاختيارى ـ أو «القسرى» إذا شئنا الدقة ـ خاض خدورى معركةً خاسرةً قبل عامين ليحاول تنبيه العالم ـ بحكم اطلاعه على التفاصيل ـ أن «لا أسلحة للدمار الشامل هناك» فأرسل بمقالات موثقة إلى كبريات الصحف العالمية وقت أن كان بوش يروج لحربه، ولما لم تجد مقالاته طريقها للنشر (فى صحف اعتذرت بعد ذلك عن أنها ذهبت بعيدًا فى تأييدها للحرب) لجأ خدورى إلى الإنترنت: النافذة الواسعة. فعرفه المهتمون من رواد الشبكة العنكبوتية قبل أن ينشر فى كندا قبل أكثر من عام كتابًا ضخمًا بعنوان Iraq's Nuclear Mirage (نشرت ترجمته العربية فى بيروت حديثًا عن الدار العربية للعلوم) يفصل فيه حكاية البرنامج النووى العراقى كيف نشأ، ولأى غرض. وكيف انتهى.. وكيف تداخلت القصة الطويلة مع تعقيدات السياسة وحسابات القوى فى منطقتنا. وكيف أثرت على كثير من فصولها أطماع وأهواء وخيانات.

فى تورنتو/ كندا.. إحدى زوايا الشتات الكبير الذى تفرق فيه من تفرقت بهم السبل من علماء العراق وخبرائه، حطت راحلة عماد خدورى. وهنا يحكى لنا كيف انتهى به الأمر هناك؟

قصة الهروب، والبحث فى بحار الله الواسعة عن مرفأ ـ والتى لعلها تكررت مع غيره وإن اختلفت التفاصيل ـ تظل مثيرة وكارثية. وهنا يحكى لنا عماد خدورى بلغة روائية لافتة بعضًا من مشاهدها: قصة هروب عالم من وطنه إلى (...)

لا توجد تسمية دقيقة. ■

المحرر

■■ أثناء السنوات القلائل التى عقبت حرب ١٩٩١، بدأ أقران نيران (زوجتى) فى كُلية المنصور الجامعة، حيث كانت تُدرّس علم لغات الحاسوب، بالاختفاء تدريجياً من العراق. غادر البعض بطريقة شرعية عبر الأردن والبعض الآخر بالخفية والكتمان. وبما أن السفر الجوى كان ممنوعاً بسبب العقوبات المفروضة على البلاد خلال التسعينيات، انحصرت طرق الهروب عن طريق المُهربين الأكراد فى الشمال عبر تركيا، وكان أحدُ هؤلاء خضر حمزة الذى درّس فى ذات الكلية مع نيران، أو المخاطرة الجسيمة عبر طريبيل، نقطة الحدود إلى الأردن، المُصانة من قبل ضباط الأمن والمُخابرات.

كانت نيران تنقل الىّ أنباء تسرّب زملائها بأسلوبها المُقنع الهادئ. إلا أن ما أثار انتباهنا وحفزّنا على التفكير جدياً هو نبأ اختفاء صديقة نيران المُقربة، سميرة كتّولة وزوجها توفيق مع أطفالهما، على حين غرّة. كان الاثنان من حملة شهادة الدكتوراة، كما سبق أن عملا فى منظمة الطاقة الذريّة العراقية فى الثمانينيات من القرن الماضى. قررنا أن نبحث عن الطريق الذى سلكاه، لعل وعسى أن يُرشدنا إلى مُحاكاته.

تنتقل الأخبار بسرعة فى بغداد حيث يصعُب إخفاؤها، صحيحة كانت أم مجرد ثرثرة وإشاعة، إلاّ فيما ندر من قُصاصات أخبار أجهزة المُخابرات والأمن. دلّتنا الأنباء على أن هناك من يُدعى أبو عبدالله فى مدينة الموصل كان الوسيط والقناة التى تسرّبت من خلالها تلك العائلة إلى الخارج. واستطعت بواسطة ابن عمّى سلام خدورى الذى أوصلنى إلى بعض المُهرّبين الأكراد من التأكد من ذلك النبأ. أضف إلى ذلك أنّ أبا عبدالله كان مسيحياً، وبالتالى أجدر بالوثوق بالنسبة لنا.

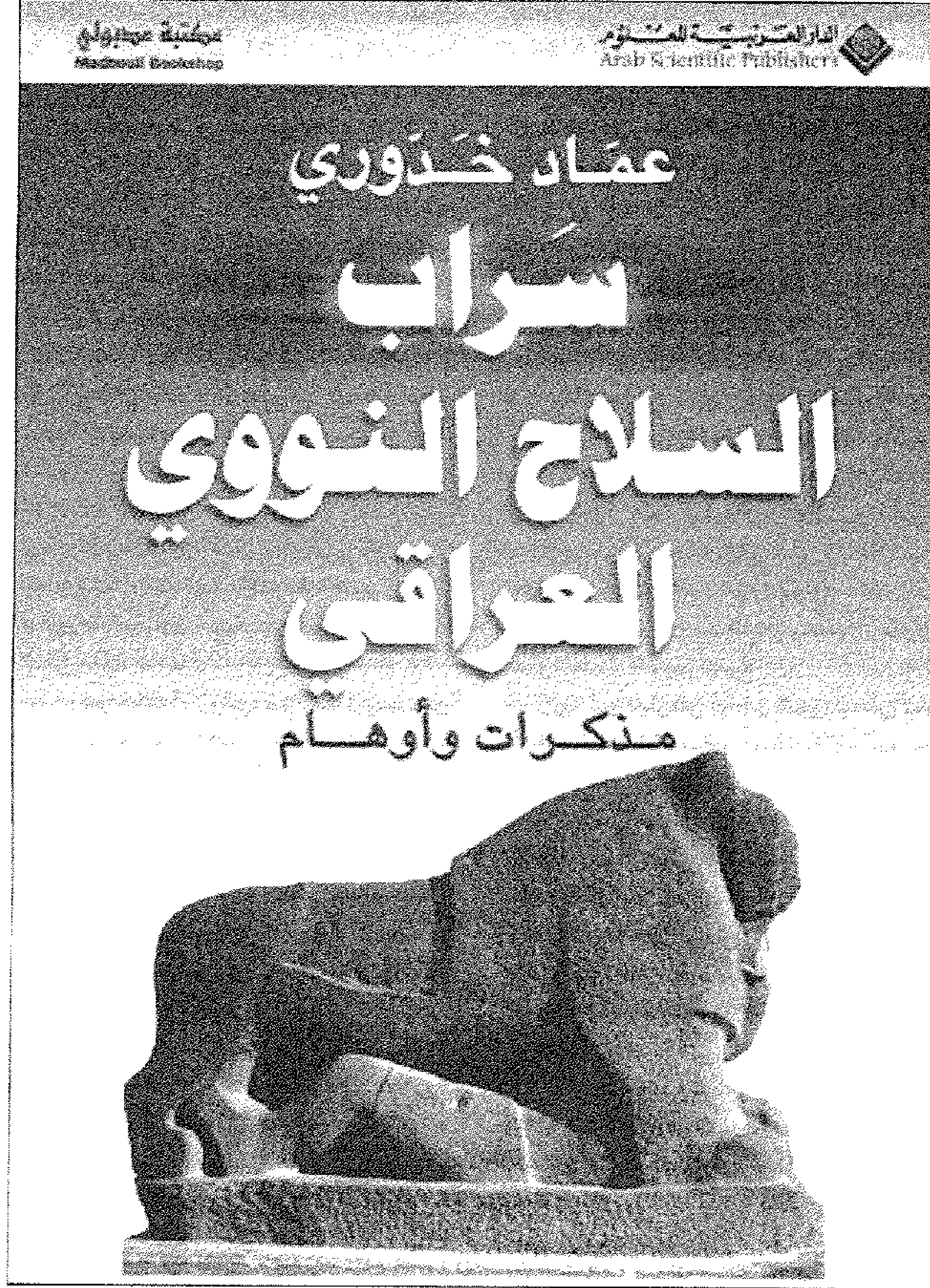
فى نفس الوقت الذى كنت ونيران نُفكّر فيه بطريقة نزوح عائلتنا، كان علينا أن نجدَ الحلّ لبعض المشاكل العويصة. المشكلة الأولى التى واجهتنا هى أن عُمر نيران فى ذلك الحين كان ٤٣ سنة، وكان القانون يمنع أى امرأة دون سن الخامسة والأربعين من مغادرة البلاد إلاّ بصحبة الزوج أو الأب أو الأخ أو العم أو الخال. كان السبب المُعلن لذلك هو الحد من سفر بنات الهوى العراقيات إلى الخارج. أضف إلى ذلك المشكلة الثانية وهى حصول نيران على شهادة الماجستير فى علم الحاسوب مما يُعرقل نيلها تأشيرة خروج بسبب صدور قانون يحظر

"Iraq's Nuclear Mirage: Memoirs and Delusions"
Imad Khadduri
Ontario: Springhead Publishers, 224pp., 2003

وقد صدرت ترجمته العربية تحت عنوان «سراب السلاح النووى العراقى ـ مذكرات وأوهام»، عماد خدورى عن الدار العربية للعلوم ببيروت، ٢٠٠٥.

فأصبح "خاليا من العلماء"

عماد خدوري



منحها للمدرسين الجامعيين الحاملين شهادات الماجستير او الدكتوراة، إلا بموافقة وزير التعليم العالى والبحث العلمى؛ للحد من تسربهم إلى الخارج. والمشكلة الثالثة والأصعب تمثلت بالاسم، إذ حبكت أسماء أفراد عائلتى بملفى الشخصى الموجود فى أجهزة المخابرات والأمن. لذا فإن أى محاولة للحصول على تأشيرة سفر لأى فرد منهم سوف تثير انتباه تلك الأجهزة وتعلن عن الرغبة فى السفر بدون الحصول على الإذن المسبق منهم.

وبالرغم من عدم قناعتنا التامة فى الهروب عن طريق الشمال بسبب ما سمعناه من خطورة عبور الحدود العراقية التركية عبر طرق برية خافية تحت رحمة المهربين، سافرت مع نيران إلى الموصل لمقابلة أبى عبدالله وزوجته، مصففة الشعر ذات الشخصية المسيطرة. حملت معى جوازات سفر أفراد عائلتى فقط، والتى حصلت عليها بعد حرب ١٩٩١ بأسبوع تحسباً لمثل هذه الظروف، إذ كان جواز سفرى فى خزانة مدير أمن هيئة التصنيع العسكرى. انتشرت فى غرفة استقبال أبو عبدالله أدوات العمل التى يستعملها فى مهنته هذه من جهاز تصوير فورى وحبر أبيض (لمحو الحبر) وأصناف من المحايات والأقلام واستمارات طلب تأشيرة الخروج فارغة ومهيأة للتعبئة. وأثناء تناولنا الشاى، تناول هو الجوازات التى معنا وجلس ليملأ طلبات تأشيرات الخروج لنيران والاولاد. أكد لنا أبو عبدالله بأن إصدار تأشيرة الخروج لنيران من مكتب جوازات الموصل ستتغلب على كافة مشكلاتها إذ أنه سيضمن عدم وصول معلومات طلبها لتأشيرة الخروج، ولأولادنا أيضاً، إلى قاعدة معلومات أجهزة المخابرات فى بغداد. وأخذنا بكل ثقة لزيارة مكتب جوازات الموصل، الذى يبعد بضع خطوات عن منزله، حيث لاقى ترحيب العديد من ضباط الأمن الذين اغتبطوا لرؤية دخل إضافى يأتيهم بواسطة أبى عبدالله والذى تمكن أن يحصل بسرعة على كافة الأختام والتواقيع الضرورية على استمارات طلب التأشيرة التى يحملها لأفراد عائلتى. عرض علينا أبو عبدالله وزوجته السيناريو التالى للهروب. باستطاعته تأمين وصول نيران والأولاد إلى بيروت عبر تركيا وسوريا. فى لبنان، علينا التماس مساعدة الجمعيات الخيرية المسيحية، وزودونا بأسماء بعض الكهنة هناك، للحصول على معاملات هجرة إلى إحدى الدول الغربية، وأيضاً عبر جمعيات خيرية مسيحية دولية؛ بعد الذهاب أولاً إلى أى من الدول المجاورة مثل إيطاليا أو اليونان او قبرص. وإذا دفعنا من المبالغ بما فيه الكفاية، يمكننا أن نتقدم، من خلال الجمعيات المسيحية فى لبنان، بطلب للحصول على الجنسية اللبنانية بصفتنا المسيحية. وادعى عبدالله بأن سميرة وتوفيق غادرا بهذه الطريقة إلى قبرص حيث كانا ينتظران المعاملات اللازمة للسفر إلى المملكة المتحدة. توقفت (واسطة) أبو عبدالله ونفوذه عند حدود مكتب جوازات الموصل. اعتذر عن إصدار جواز سفر مزور لى بسبب علاقتى الحساسة مع منظمة الطاقة الذرية العراقية وورود اسمى فى العديد من قواعد معلومات أجهزة الأمن والمخابرات. كان علىَّ أن أجد وسيلة للهروب بنفسى وبدون تدخله. شاركنا مضيفينا طعام الغداء، ولم يتبق علينا سوى دفع مبلغ ألف دولار لكى تختم تأشيرات الخروج على جوازات السفر نفسها. اعتذرنا من أبى عبدالله وزوجته لحاجتنا إلى الرجوع إلى الفندق لقضاء قيلولة الظهر ولتسنح لنا الفرصة فى التفكير ملياً فى عرضهما.



بعد مرور عامين على تلك المحاولة، دعينا أنا ونيران إلى مناسبة وداعية فى بيت شقيقة نيران، ناريمان وزوجها سعد يونو. كان الحفل على شرف صديق لكلينا، خالد رومايا، المهندس الميكانيكى الماهر فى مشروع PC٣، الذى كان فى طريقه للسفر مع عائلته إلى الولايات المتحدة الأمريكية. إستغربت كثيراً الأمر - كيف استطاع خالد أن يحصل على جواز سفره؟ أخذنى خالد جانباً وهمس فى أذنى التفاصيل المثيرة. فى بادئ الأمر، استطاع أن يحصل على كتاب التقاعد بحجة تعرضه لمشاكل صحية كان يعانيها منذ سنين. ثم استطاع أن يكسب ثقة خالد رشيد. مدير جهاز الأمن فى هيئة التصنيع العسكرى والذى يعمل فى الواقع تحت إدارة جهاز المخابرات. فبعد دمج مشروع PC٣ مع هيئة التصنيع فى العام ١٩٩٣، أصبح جميع موظفى المشروع تحت إشراف خالد الأمنى ونقلت ملفاتهم الأمنية الشخصية من منظمة الطاقة إلى هيئة التصنيع. كل ما لزم للحصول على الجواز هو دفع مبلغ ٤٠٠ دولار لقيام خالد رشيد بتسهيل الأمر من خلال استغلال ثغرة إدارية فى تعليمات جهاز المخابرات لأمن هيئة التصنيع العسكرى. وكان لدى مكتب الأمن فى هيئة التصنيع صلاحية عليا على مديرية الأمن العام التى تصدر جوازات السفر. حتى لا يغرق جهاز المخابرات فى خضم معاملات الموافقة على منح جواز السفر للعديد من منتسبى هيئة التصنيع، فقد وضع الجهاز خطوطاً عريضة لخالد رشيد فى هذا المجال حيث طلب منه أن يرفع اليهم فقط تلك الطلبات المستوفية للشروط (بمعنى من أمضوا عامين بعد إحالتهم على التقاعد) لكبار الموظفين، أى بمستوى مدير عام فما فوق للنظر فيها ومنحهم الموافقة. فيما عدا هذه الفئة، فقد ترك لخالد أمر التصرف ببقية الطلبات ومنح الموافقة بعد تأكده من استيفاء الشروط لطالب الجواز أخذاً بعين الاعتبار حساسية طالب الموافقة من المعلومات المتوفرة عنه فى ملفه الأمنى. سهل مبلغ الأربعمائة دولار فى التقليل من حساسية منصب خالد رومايا، الذى لم يكن مديراً عاماً، إلى المستوى الكافى لإصدار الموافقة من قبل خالد رشيد والإيعاز إلى مديرية الأمن العام بمنح خالد الجواز وتأشيرات الخروج له ولأفراد وعائلته.

ودعنا خالد رومايا بعد أن ترك لى رقم هاتف خالد رشيد الخاص، مع نصيحة بأن أذكر اسمه وأنه هو الذى أعطانى الرقم عندما اتصل مع خالد. كنت قد حصلت على كتاب التقاعد فى تلك الفترة وأعمل مع منظمة الصحة العالمية، وأعد الأيام لانقضاء فترة العامين. كان لا يزال أمام أكبر أولادى عامان حتى ينهيا الدراسة الثانوية. احتفظت فى مكان أمين برقم هاتف خالد رشيد.

فى البيت المجاور لمنزل ناريمان، كانت تسكن شقيقة نيران الثانية، نورهان وزوجها عامر سمعان الذى يحمل شهادة الماجستير فى علم الإحصاء ويعمل فى تصميم الصواريخ فى مركز يعود إلى هيئة التصنيع العسكرى. لعامر شقيق أكبر كان قد حصل على الجنسية الأمريكية قبل عدة أعوام، وعمل على اثرها على الحصول على موافقة السلطات الأمريكية على هجرة أخيه عامر الموجود فى بغداد. ووصلت الموافقة فعلاً إلى السفارة الأمريكية فى عمان. لم تنحصر مشكلة عامر فى الحصول على جواز السفر بسبب انتمائه لمركز حساس فى هيئة التصنيع العسكرى وإنما لم يكن عمر نورهان قد تجاوز الأربعين سنة. أضف إلى ذلك، لم يكن لديه من قوة الإرادة ما يكفى، حسب رأيى الشخصى، فى الإقدام على مغامرة الهروب مع بناته الثلاث من الشمال أو عن طريق طريبيل.

بحكم علاقة الجوار مع الجيران، علم عامر ونورهان بأن شخصاً مسيحياً يدعى باسم إيشوع بطرس، والذى سندعوه بعد الآن بلقبه أبو ديار، قد استطاع أن يرحل بعض أفراد الجيران، الذين كانوا ممنوعين من السفر، إلى الأردن وبدون أى متاعب. اتصل عامر ونورهان بأبى ديار. بكل ثقة فى النفس، وهدوء فى القرار، تمكن أبو ديار من الإمساك بالأمور، وبتلابيب عامر، وسلمه جواز سفر فيه صورته ولكن باسم خال نورهان ويخوله مصاحبتها إلى خارج العراق، بحكم كونه خالها. فى ذات الوقت، سلم أبو ديار إلى عامر جوازاً صالحاً يحمل اسمه الحقيقى إلا أنه لا يستطيع استخدامه فى العراق لكنه يصلح للسفر متى ما صار خارج القطر. بالاستعانة بجواز (الخال)، غادرت العائلة العراق وتمكن أبو ديار من ختم جواز عامر الحقيقى عند الخروج من طريبيل ليبرزه عند دخول منطقة الرويشد الحدودية الأردنية. بقى أبو ديار

مع عامر وعائلته حتى انتهاء معاملة هجرتهم ثم عاد إلى بغداد بعد سفرهم. بلغت أجرة مساعدة أبو ديار لعامر ألف دولار.

كانت تلك التجربة برهاناً مقنعاً لى ولنيران.

بعد الاستفسار عبر قنواته الخاصة، أعرب لنا أبو ديار عن إمكانية حصوله على تأشيرات الخروج لجوازات سفر نيران والأولاد الجاهزة بدون لفت أنظار أجهزة الأمن والمخابرات، إلا أن مركزى الحساس فى منظمة الطاقة الذرية ومشروع PC٣ شكّل له صعوبة أكثر بكثير من حالة عامر فى هيئة التصنيع العسكرى، إذ ظهر اسمى بصورة مترابطة فى العديد من قواعد معلومات الأمن والمخابرات، مما أعاق قدرته على إصدار جواز سفر باسمى الأصلى، كما فعل لعامر، بالرغم من سعة دائرة علاقاته الخاصة بهذا الشأن. تأكد له بأن الطريق الوحيد لإصدار جواز رسمى لى هو عن طريق وموافقة دائرة أمن هيئة التصنيع العسكرى. عرض على أبو ديار إصدار جواز سفر باسم مستعار، وبهذه الوسيلة يمكنه إخراجنا جميعاً من العراق سوية عبر طريبيل، ويسر.

لم أكن أميل لذلك الخيار، إذ كنت أصر دائماً على مغادرة العراق بطريقة شرعية، ولم يكن لدى ما أخفيه أو أخجل منه حتى أبدل هويتى وأعانى من تشابكها لاحقاً، خاصة أنى كنت قد أحلت إلى التقاعد وبدأت عداً عكسياً لقضاء فترة العامين المطلوبة قبل التقدم رسمياً للحصول على جواز سفر أصيل، ولا زال أمام أولادى عام أو عامان قبل موعد التحاقهم بالجامعة. وعليه أعلمنا أبو ديار أنه بإمكاننا الانتظار، إذ كنت ونيران فى ذات الوقت نبحث بصمت عن الجهة التى نقصدها ما بعد الهروب. احترم أبو ديار رغبتنا وأبدى استعداده لتقديم أية معونة، رغم أن بوابات طريبيل الحدودية كانت تغلق يومياً شيئاً فشيئاً وبإحكام.



نزولاً عند رغبة نيران وتشجيعها المستمر لتقديم معاملة ما، ملأت أخيراً طلب هجرة إلى كندا على صفحة معلومات واحدة. أرسلت الطلب سراً فى العام ١٩٩٥ إلى القنصل الكندى فى عمان بواسطة صبحى أيوب، الصديق الأردنى المخلص الذى نثق به ونعتمد عليه كثيراً. انتظرنا جواب القنصلية الكندية طيلة ما يقرب من عام، وبالرغم من رسالتى تذكير، إلا أننا لم نتلق أى جواب. لم يكن ذلك مجرد انتظار، بل أعصاباً متوترة وآمالاً هائمة حيث إن صبحى كان يسافر إلى عمان ويعود كل شهرين بخفى حنين.

اعتماداً على صبحى، استطعنا أن نبعث بطلب نيران للهجرة، وعندما رجع من عمان بعد أسبوعين سلمنا طلب الهجرة الكندى الرسمى المكون من أربع صفحات. إن حصول نيران على شهادة الماجستير فى علم الحاسوب التى أصدرت عليها عندما تزوجنا فى العام ١٩٧٦، مهدت لنا درباً غير منظور، ومنحت أسرتنا منعطفاً جديداً فى الحياة.

مع اقتراب نهاية العامين من إحالتى إلى التقاعد واستيفائى لشرط الحصول على جواز السفر، أعد خالد رشيد كتاباً سرياً إلى مديرى جعفر ضياء جعفر يطلب منه البت فيما إذا ما زال بحوزتى معلومات سرية عن برنامج السلاح النووى قد تحول دون إصدار جواز السفر، وأرسله باليد إلى مكتب جعفر لتفادى البريد الرسمى. وبناء على نصيحة من خالد، تابعت سير الإجابة على الكتاب عند كل منعطف ومحطة، مشيراً بكياسة إلى أصدقائى الذين يتعاملون مع الموضوع فى مكتب جعفر بالحفاظ على كتمان مضمونه حتى لا يصل أمره إلى جهاز المخابرات. إذ إنه بالرغم من أن صلاحيات خالد كانت تخوله بمتابعة أمر رفع منع السفر للمنتسبين الذين هم فى مستوى الإدارى، إلا أن كشف أمر الرسالة لعيون جهاز المخابرات قد يعيق جهده فى استغلال الثغرة الإدارية المتاحة له.

أصدر خالد أمر رفع منع السفر ويمنحى الجواز إلى مديرية الأمن العام، وأبلغنى برقم الأمر وتاريخه حتى أتأكد من وجود أحد أعوان أبى ديار لينتشلوا هذا البريد الخاص فور وصوله ويتعاملوا معه بهدوء. فوجئت مديرية الأمن العام بأمر سحب اسمى من قائمة الممنوعين من السفر حيث إن معلوماتهم كانت تشير إلى أهمية دورى فى البرنامج النووى وطلبوا من خالد تأكيد رفعه منع السفر عنى. أجابهم خالد رشيد مباشرة وبلهجة حادة مؤكداً صلاحياته فوق مديرية الأمن العام، فامتثلوا للأمر.

فجأة ظهر أمامنا حائط مسدود لم نتوقعه. لم يستطع أبو ديار إكمال معاملة إصدار جواز السفر لأنى كنت قد حصلت سابقاً على جواز سفر دبلوماسى، ولا يمكن إصدار جواز مدنى إلا بعد إعادة الجواز الدبلوماسى. كنت قد سلمت ذاك الجواز إلى وزارة الخارجية لإعادته إلى دائرة الجوازات فور إحالتى إلى التقاعد وحصولى على براءة الذمة من وظيفتى فى وزارة الخارجية. إلا أن دائرة الجوازات لم تتسلم ذلك الجواز الدبلوماسى.

عدت إلى وزارة الخارجية حيث صرفت عدة أيام عصيبة أراجع فيها الملفات الإدارية لما قبل عامين من الزمن. تبين أن الوزارة كانت قد أصدرت فعلاً كتاباً رسمياً بإعادة الجواز ومرفقة معه الجواز نفسه. إلا أن لا الجواز ولا الكتاب قد وصلا إلى دائرة الجوازات. كانت تلك حيلة مسمومة أخرى قام بها أحد عملاء صلاح الحديثى المزروع فى القسم الإدارى الذى انتشل ذلك الكتاب وما يحويه ليتأكد صلاح الحديثى من عدم قدرتى نهائياً على نيل أى جواز سفر بعد أن يفقد أثر الجواز الدبلوماسى. بعد حصولى على نسخة من الكتاب الرسمى بإعادة الجواز، مشفوعة برزمة من النقود، استطاع أبو ديار اختراق جدار الخبث اللئيم المنيع.

زارنا أبو ديار فى أواخر شهر آب من عام ١٩٩٧ ومعه جواز سفر أصلى لى وعليه تأشيرة الخروج معلقاً: «إنك مدين طيلة حياتك إلى فضل خالد رشيد». عندما عرضت الجواز على خالد رشيد، تناوله من يدى وقبله. اشتريت له سيارة تقديراً لخدماته وقدمها بدوره هدية إلى أخيه. تباهى خالد فى حينها بأنه يستطيع أن ينجز أكثر من ذلك من أجلى، إن لزم الامر، مثل فك قيد سجلات نيران والأولاد. إلا أن تلك المحاولة باءت بالفشل الذريع عندما طرقنا بابه لتنفيذ ذلك لاحقاً.

اقتضت خطة المغادرة على إخراج نيران أولاً إلى عمان لتتمكن من مقابلة الكنديين وتحصل على موافقتهم لهجرة عائلتنا. ساعتئذ، أهرع بالخروج مع بقية العائلة لإكمال معاملة الهجرة والمغادرة فوراً إلى كندا لتجنب إطالة الإقامة فى الأردن خشية بطش عملاء المخابرات المنتشرين هناك. كانت إحدى الوثائق المطلوبة من قبل الكنديين هى شهادة حسن السلوك من الشرطة العراقية تنص على أن نيران لم ترتكب جرماً شائناً.



قال لنا أبو عبدالله إن باستطاعته تأمين وصول نيران والأولاد إلى بيروت عبر تركيا وسوريا. فى لبنان، علينا التماس مساعدة الجمعيات الخيرية المسيحية، للحصول على معاملات هجرة للغرب





ارتكبنا حماقة لا مبرر لها

قدمنا فى ربيع ١٩٩٧ طلباً للحصول على تلك الشهادة رسمياً وبطريقة اعتيادية اعتقاداً منا، وبنية بريئة، أن العملية بسيطة. إلا أنها سببت هلعاً لأبى ديار الذى كنا قد بدأنا نخطو أول خطوات تبادل الثقة معه وباشرنا فى اطلاعه على خططنا لمغادرة العراق وعلى محاولة الحصول على أوراق الهجرة إلى كندا. إلا أننا لم نكن على دراية بما يحيط بنا من شباك ومصائد. فور ما أبلغنا أبو ديار عن أمر تقديمنا الطلب للحصول على شهادة حسن السلوك حتى هب وأسرع إلى دائرة الشرطة ليسحب الطلب الذى قدمناه، لكنه أمسى متأخراً يوماً واحداً إذ كانت المعاملة قد بدأت مسيرتها والتى تبدأ بإعلام أجهزة المخابرات ومديرية الأمن العام تلقائياً بأمر ذلك الطلب الذى يدل على نية صاحبه الهجرة إلى الخارج. لم نكن فى سذاجة براءتنا قد استنتجنا هذا المسار، علماً أن منح تأشيرة خروج لنيران، وبعد الحصول على موافقة سفرها بالرغم من شهادة الماجستير التى تحملها، يعتمد مباشرة على موافقة مديرية الأمن العام. أضف إلى ذلك أن مغادرتها الفعلية عبر الحدود العراقية تعتمد على موافقة جهاز المخابرات.

استدعانا ضباط مديرية الأمن العام لاستجواب نيران وأنا ثلاث مرات خلال شهر واحد. فى كل مرة، كنا نبلغ أبا ديار بموعد الاجتماع هاتفياً فيسرع هو إلى مقرهم فى مركز شرطة منطقة بغداد الجديدة ليمهد الطريق أمامنا من خلال معارفه وعلاقاته فى المركز وبشىء من النقود. كنا نصل إلى المركز أحياناً قبل خروج أبى ديار، ونبقى نحوم حول الموقع حتى نرى سيارته تغادر المكان لندخل بدورنا للاستجواب. أصبحت قضيتنا لدى رجال الأمن بقرة حلوباً تدر لهم بعض المال.

كان الأمر أشد صعوبة عند جهاز المخابرات وريثما يرتب أبو ديار أمره هناك، طلبت مساعدة الصحاف فى هذا الأمر فتجاوب معى ودلنى على صديق له متنفذ فى جهاز المخابرات، اسمه محمد الدورى (أبو عمر)، ليتابع لنا مسار طلب حصول الموافقة على منح شهادة عدم المحكومية، قدر تعلق الجهاز بالأمر. إلا أنه سرعان ما اتضح بأن ملف نيران فى جهاز المخابرات قد استقر، وبدون أى حركة، على مكتب أبو مهند، أحد كبار ضباط الجهاز والذى برز فيما بعد كألد الأعداء فى منعى من مغادرة العراق. استطاع أبو عمر بدماثة خلقه أن يرتب لى عدة مكالمات هاتفية مع أبى مهند ليطلب منى فى كل مرة إعادة شرح سبب ذهاب نيران إلى الأردن (وكان جوابى للحصول على عمل كأستاذة فى إحدى الجامعات هناك) ويعدنى بأن يرسل موافقته فى اليوم التالى أو فى الأسبوع القادم ويتركنى آمل فى هطول المطر صيفاً.

بحصولنا على الموافقة، ونيل أبى ديار

على إذن من مديرية الأمن العام، تمكن أبو ديار من الحصول على تأشيرة خروج لنيران صالحة لفترة شهر واحد تنتهى مدتها فى السابع من أيلول عام ١٩٩٧. لم تستطع نيران الإيفاء بموعد المقابلة الأول مع الكنديين المحدد لها فى تموز ١٩٩٧ بسبب هفوتنا الساذجة لاستصدار شهادة حسن السلوك من دوائر الشرطة بطريقة قانونية اعتيادية وتخبطنا فى تصحيح الأمر. سافر صبحى أيوب إلى عمان لإيصال رسالة إلى الكنديين نلتمس المعذرة عن عدم الإيفاء بموعد المقابلة ونرجوهم انتظار وصولها إلى عمان قبل تحديد موعد مقابلة جديد لها.



زارنا أبو ديار ليلاً، وهو نادراً ما يقوم بذلك، وأبلغنا بأن على نيران أن تجهز للمغادرة خلال يومين. ووعدها بأن ألحق بها مع الأولاد فى غضون أسبوع من سفرها وحالما يكمل أمر تأشيرات الخروج على جوازات سفرهم. كانت تلك الفترة عصيبة وحافلة بالتوقعات لقرب انتهاء صلاحية تأشيرة خروج نيران فى السابع من شهر أيلول. فى صباح يوم السبت، السادس من أيلول. توقفت سيارة أجرة أمام بيتنا مع شروق الشمس حتى لا يلحظها أحد من الجيران. كان أبو ديار فى سيارته الخاصة بصحبة صديقه أبو هديل الذى كان فى طريقه إلى طريبيل ليباشر العمل كرئيس قسم الجوازات فى النقطة الحدودية. غادر أبو هديل ونيران فى سيارة الأجرة بعد وداع ما بين منذر ومبشر. عند وصولهم إلى طريبيل، اعترض أحد ضباط الجوازات على عبور نيران الحدود، رغم كتاب السماح الذى تحمله من مديرية الأمن العام، لعدم تبيان بيانات الحاسوب على الشاشة أمامه لإذن جهاز المخابرات. تدخل أبو هديل وأمره بالاتصال هاتفياً مع مقر مديرية الأمن العام فى بغداد، حيث كان أصدقاء أبو ديار على الجانب الاخر من الهاتف فى الانتظار. أكد له ضابط الأمن فى بغداد أمر وجود موافقة جهاز المخابرات ووعده بإرساله له عند تحديث بيانات الحاسوب اليومية عصر ذلك اليوم، وبالفعل تم ذلك لاحقاً. بعدها رافق أبو هديل نيران حتى الحدود الأردنية.

رغم فرحتنا العارمة، التزمت أنا والأولاد الصمت وبدأنا بتجهيز حقائبنا ريثما ينتهى أبو ديار من متابعة تأشيرات خروج الأولاد. كان عليه أيضاً إصدار جواز سفر جديد لنوفة التى كانت مدرجة فى جواز سفر أمها لأنها كانت فى الخامسة من العمر عندما أصدرت جوازاتهم عام ١٩٩١. عمل أبو ديار وصحبه فى الأمن على تعديل بسيط فى الرسالة التى أرسلها خالد رشيد بحيث أضافوا أسماء أولادى الثلاثة فى نهاية كتاب الموافقة الصادر بشأنى. كانوا على أشد الحذر من عيون ووشاية ضباط جهاز المخابرات المزروعين فى صفوف ضباط مديرية الأمن العام.

حدد أبو ديار يوم الخميس الموافق الحادى عشر من أيلول لمغادرتنا غير المعلنة. خلقت الأعذار للغياب من العمل فى برنامج الأمم المتحدة الإنمائى ومن مكتب الحاسوب مع حسام. عند ظهيرة يوم الأربعاء، وبينما كدنا ننتهى من تحضير حقائبنا، دخل علينا سعد يونو زوج ناريمان شقيقة نيران، وقد ابيض لون وجهه الأسمر. تنحى بى جانباً لينقل إلىّ الخبر التعيس.

فى ساعة متأخرة من ليلة الثلاثاء، وصل رسول شخصى من مكتب المساعد الخاص لصدام حسين، وسكرتيره الموثوق به، عبد الحميد محمود حمود (سأشير إليه من الآن وصاعداً بلقبه المعروف به، عبد حمود، والذى أسر بدون أى مقاومة فى منزل فى تكريت فى حزيران من العام ٢٠٠٣) يحمل أمراً مكتوباً بخط اليد، وممهوراً بتوقيع عبد حمود نفسه، يطلب فيه مصادرة واستلام جوازات كل من يمامة وتمام ونوفة عماد خدورى.

قبض رسول عبد حمود على جوازات السفر الثلاثة وغادر دائرة الأمن العامة. استدعى ضباط الأمن المذهولون أبا ديار على الفور فى منتصف الليل وباشروا بعجالة فى محو أى أثر لمعاملة اصدار جواز نوفة وتأشيرات الخروج كيلا يداهموا فى الصباح التالى بحملة تفتيشية لتقصى كيفية الإصدار والكشف عن تواطؤ أبو ديار وصحبه فى ذلك. سهروا طوال تلك الليلة وأفلحوا فى تطهير كل الآثار قبل فتح أبواب الدائرة فى الثامنة من صباح اليوم التالى. صدم أبو ديار بهذه التطورات واتصل بسعد لإعلامى بالنبأ وتحفظه عن مقابلتى شخصياً لبعض الوقت ريثما يتحرى عن مصدر تسرب خبر السفر والعمل على تهيئة الجوازات.

صعقت بهذا الخبر وحدقت ملياً بأولادى الذين تجمعوا أمامى، ثم أخذت نفساً عميقاً جداً إذ أدركت على الفور عمق الحفرة التى سقطنا فيها. الآن قد بدأت رحلتنا مع الألم والعذاب. كلُّ ماجرى من قبل بدا وكأنه نزهة عابرة.



بعد مرور عدة أيام من الانتظار المشوب بالقلق الشديد، ولما اطمأن أبو ديار أن الوشاية لم تصدر من داخل مديرية الأمن العام نفسها، اتصل ليبلغنى بكل ثقة أن مصدر ما حدث هو إما أحد الجيران الجواسيس أو من خلال أحد زملاء نيران فى الكلية ممن افتقدوا حضورها فى العمل ووصل الخبر بسرعة فائقة إلى عبد حمود. أشد ما أزعج أبو ديار هو درجة حساسية وضعى التى أوجبت هذا المسلسل من الاجراءات غير المسبوقة. حاول مرة ثانية أن يقنعنى أنه ما دامت دروب الهرب مفتوحة أمامه بفضل علاقاته الواسعة حتى ذلك الحين، فإنه يحثنى بالأخذ بنصيحته والسفر بجواز مزور وباسم آخر. أعدت مراجعة تحفظى على مقترحه من جديد وتقييم جدوى تحولى إلى لاجئ باسم مستعار واحتمال أن أضيع فرصة الهجرة إلى كندا بعد أن أحمل اسماً جديداً مخالفاً لاسمى الحقيقى المثبت على العديد من الوثائق والهويات التى حضرتها وترجمتها إلى اللغة الإنكليزية. كررت له رفضى لاقتراحه إلا أننى وعدته بمحاولة استرجاع جوازات أولادى عن طريق أصدقائى واتصالاتى فى المناصب الحكومية العليا. من ناحية أخرى، لم يذكر كتاب عبد حمود جواز سفرى بالذات، والذى كان موجوداً بقرب جوازات أولادى، مما يعنى أن جهد خالد رشيد كان محكماً، طالما ظل أمر الجواز خافياً عن علم جهاز المخابرات حتى ذلك الحين.

وقف الصحاف بثبات إلى جانبى خلال هذه المحنة مقدماً العون والسلوان على الألم والكآبة التى ألمت بى رغم ما قد ينعكس ذلك سلباً عليه شخصياً. لقد ساند قضيتى بشجاعة حتى بعدما تركت العمل معه والتحقت ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائى. ومد نفوذه إلى حيث تصل يداه حتى أنه وصل إلى عبد حمود الذى كان على علاقة جيدة معه. كانا يسهران معا للسمر والشراب فى بعض الليالى. كنت أحياناً أجالس الصحاف فى مكتبه متأخراً فى الليل أدقق فى برامجيات الحاسوب الجديدة التى جلبها معه من السفر ونصبها فى حاسوبه الشخصى فى مكتبه فى الوزارة. عندما يهاتفه عبد حمود للدردشة، كان الصحاف يسايره ويرد عليه محيياً بلقب (دكتور)، حيث حصل عبد حمود على (شهادة دكتوراة شرف) من جامعة البكر العسكرية التى كانت تبذل بمنحها إلى المقربين من صدام مثل عدى، ابن صدام السادى، وعبد حمود لقاء بحوث يقوم الغير بإعدادها. أعطتنى هذه العلاقة الخاصة بين الصحاف وعبد حمود مساحة ضيقة من الأمل باستعادة جوازات الأولاد مما انعكس على موقف أبى ديار الذى بات صبوراً ومتفهماً لرغباتى وموقفى. كما كان موقف رياض القيسى، وكيل وزير الخارجية، بخلقه الرفيع وذكائه المتميز مشرفاً بمساندته لقضيتى، كما انه مد يد العون فى تصويب اتصالاتى مع جهاز المخابرات.

أدت مواقف الصحاف الثابتة ورياض المشرفة إلى جانب قضيتى باستمرار إلى أن يقوم بعض ضباط جهاز المخابرات بتزويدى بفتات دائم من الأمل الضئيل، والتى بانت طبيعتها الحقيقية لاحقاً.

ذات الوقت، عثر أبو ديار على طريقة يقترب فيها من رافع الدحام، رئيس جهاز المخابرات الجديد (قتل فيما بعد بالسم، كما أشيع). كان لأبى ديار صديق حميم على علاقة وثيقة برافع الدحام. كانت أواصر علاقتهما من المتانة لدرجة زيارتهما البعض فى دورهم دون سابق موعد. صادف أن تعرفت ذات مرة على رافع الدحام، وكان حينها سفيراً للعراق فى تركيا، خلال إحدى زياراته إلى مكتب الصحاف. لم يكن غريباً، بحكم علاقتى القريبة من الصحاف، أن أمكث فى مكتبه أعالج مشاكل حاسوبه الشخصى أثناء مقابلته لزائريه فى مكتبه.

على أثر الإلحاح من قبل صديق أبى ديار والصحاف ورياض القيسى على رافع الدحام دفاعاً عن قضيتى، طلب الدحام ملفى الموجود بحوزة جهاز المخابرات للاضطلاع على مفردات مشكلتى. ولما اقتنع بصحة ادعائى، حمل الملف وذهب إلى قصى، ابن صدام المسئول الرئيس عن شئون جهاز المخابرات. راجع قصى الملف وأعلن للدحام انه أيضاً لا يرى سبباً يوجب بقاء جوازات سفر أولادى فى الحجز، لكن طالما أن عبد حمود هو الذى أصدر أمر المصادرة، فإنه لا يملك السلطة لنقض قرار عبد حمود. إلى هذا الحد وصلت قوة عبد حمود فى البلد!

عندما زار الصحاف ورياض القيسى رافع الدحام فى المستشفى إثر إصابته بجلطة قلبية خفيفة، أفشى لهما بموقف قصى من

الموت سجناً.. نهاية عالم عراقى

أعلن ناطق باسم الجيش الأمريكى أنه بدأ تحقيق فى وفاة عالم عراقى يبلغ من العمر ٦٥ سنة، أثناء احتجاز القوات الأمريكية له فى يناير ٢٠٠٤. ولم يوضح ما الذى دفع إلى فتح التحقيق الجديد فى وفاة محمد منعم الأزميرلى، أستاذ الكيمياء، بعدما ظل تسعة شهور سجيناً لدى السلطات الأمريكية. وهل يتوقع توجيه اتهامات جنائية إلى أى أمريكى.

وكانت رواية أوردتها منظمة العفو الدولية، أفادت أن عائلة الأزميرلى طلبت إجراء تشريح «مستقل» للجثة، لأنها لم تصدق النتيجة التى توصلت إليها السلطات الأمريكية، ومفادها أن الوفاة كانت لأسباب طبيعية. وخلص التشريح «المستقل» إلى أن العالم توفى متأثراً برضوض عنيفة فى الرأس.

وأشارت المنظمة إلى أن الأزميرلى نقل إلى سجن أمريكى فى ٢٥ من أبريل ٢٠٠٣، بعد نحو أسبوعين على سقوط بغداد. وأضافت أنه اقتيد مقيداً وعلى رأسه قناع، واحتجز تسعة شهور، ربما فى جزء من مطار بغداد الذى كانت القوات الأمريكية تحتجز فيه شخصيات «عالية القيمة»، وبينها مسئولون بارزون فى نظام صدام حسين.

رويترز - ٢٥ مارس ٢٠٠٥

قضيتي. كنت قد عرفت بهذه الواقعة قبلهما عن طريق صديقي أبي ديار.

كان موعد مقابلة نيران في السفارة الكندية، الذي حُدد في كانون الثاني من عام ١٩٩٨، يقترب منا. اقترح أبو ديار عليّ حلاً جريئاً. بإمكانه أن يحصل لي على جواز مزوّر وباسم مستعار لمغادرة العراق خلسة، ويسافر معي إلى عمّان لأحضر المقابلة مع نيران ثم نعود بعدها إلى بغداد. تستغرق الرحلة كلها بضعة أيام، نُتلف بعدها الجواز المزوّر. تشاورتُ بالأمر مع نيران من خلال البريد الإلكتروني السرّي. اعتماداً على وعد الكنديين لنا، والذي فهمنا منه أنه بإمكانها إجراء المقابلة بمفردها، رأت نيران أنه لا داعي للمجازفة بمثل هذه الرحلة المحفوفة بالخطر. استغرقت مقابلة نيران عشر دقائق فقط حيث بادروها بالسؤال عن عدم وجودي والأولاد معها، وادّعوا بأننا قد أسأنا الفهم لرسالتهم لأنه لا يمكن لطلب الهجرة أن يأخذ مجراه دون وجودنا معها. ثم أنهوا المقابلة بدون تحديد موعد جديد لإجرائها.

قذفت بي صدمة النبأ وعدم تحديد الموعد لمقابلة أخرى في عمق جديد من أعماق اليأس والكآبة.

كان أبو ديار الدواء المهدئ لكآبتي والسلوان الغزير في تحمّلي لمحنتي وسندي في الثبات على صبري.

لما علم أبو ديار بصدّ الكنديين لنيران بسبب عدم حضورنا المقابلة معها، تقدّم باقتراح ذكي بديل يوائم رغبتي في الخروج من العراق باسمي الصريح وبجوازات رسمية. لمَ لا أقبل بعرض خالد رشيد قبل عدة أشهر بإمكانية مساعدته في رفع منع السفر عن نيران والأولاد لإصدار جوازات سفر جديدة للأولاد عوضاً عن تلك القابعة عند عبد حمود؟ فلقد تغلّب خالد على موجة غضب جهاز المخابرات عندما فتحوا تحقيقاً بشأن حصولي على جواز السفر، وأطلعهم على كل الوثائق التي صدرت منه، وحسب تعليماتهم. فلم تكن الغلطة منه إذ هم تركوا ثغرة في تعليماتهم ولم أكن بدرجة مدير عام أو أعلى من ذلك مرتبة للحصول على موافقتهم على إصدار الجواز. نجت رقبة خالد رشيد هذه المرة من السكين، ولكنهم، وحسب سياقات عمل المخابرات الخبيثة، قاموا بزرع مراقب عليه في دائرته، وبدون علمه، حتى يصطادوه إذا ما تجاوز الخطوط الحمراء مرة أخرى.



كلُّ ما طلبه أبو ديار هو قيام خالد رشيد بإعداد كتاب ثانٍ موجهاً من دائرة أمن هيئة التصنيع العسكري إلى مديرية الأمن العام يعطف فيه على كتابه الأول حول رفع منع السفر عني مضيفاً عليه بأن قرار رفع منع السفر يسري على أولادي أيضاً. قبل شهور قلائل، كان أبو ديار قد بادر وأضاف أسماء أولادي (زوراً) على رسالة السماح الأصلية التي أصدرها خالد رشيد بغرض الحصول على تأشيرات الخروج لجوازات يمامة وتمّام وإصدار جواز جديد للصغيرة نوفة.

أعدّ خالد الكتاب المطلوب وأعطاني رقمه وتاريخ إرساله إلى مديرية الأمن العام. قمت على الفور بالاتصال مع أبي ديار لتسليمه هذه المعلومات والذي توجّه بدوره رأساً إلى صُحبه في مديرية الأمن العام ليتأكد من وجودهم في استقبال الكتاب عند وصوله وتحويله إلى مساره الصحيح.

زارني أبو ديار في منتصف تلك الليلة وهو في حالة من الغضب والغليان الشديدين، مع أنه نادراً ما يُفصح عن مثل هذه العواطف. فالرقم والتاريخ اللذان أعطيتهما له كانا على مظروف لكتاب في غاية الحساسيّة والسريّة، ولو ارتبط اسمي بأي شكل من الأشكال مع ذلك الكتاب لواجهت عقوبة الموت حتماً. هدر أبو ديار: «ما الذي حصل بحقّ الله؟».

في الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي كنت في سيارتي أراقب خروج خالد رشيد من داره للذهاب إلى العمل. بعد ساعة من الانتظار المتوتر، واجهت خالد أمام عتبة بيته وأخبرته بما حصل. صُدم خالد بفداحة الأمر وامتقع وجهه. صحبته بسيارتي إلى مقر هيئة التصنيع العسكري، وأصرّ خالد على أن أنتظره في موقف بعيد للسيارات يقع بالقرب من مبنى اتحاد نقابات العمال، بينما قطع هو المسافة إلى مكتبه مشياً على الأقدام. إنتظرت ساعة كاملة في الموقف وأنا أدخّن الغليون وأستنشق دخانه وكأنه يمدّني بسلسبيل الحياة.

رجع خالد بوجه عبوس أرمد من الغيظ. وبادرني قائلاً: «استبدل هؤلاء الأنذال المظروف الذي أعددته لكتابك بمظروف الكتاب السرّي للغاية بعد أن غادرتُ المكتب في السادسة مساء البارحة». وأضاف: «قسماً بحياتي، أعدك بأن أبحث عمّن فعل هذه المكيدة وسأقتله. إنما من هذه اللحظة أنا لا أعرفك وأنت لا تعرفني، مع السلامة».

لم ألتقِ مع خالد رشيد بعد ذلك أبداً. لقد أفلح عميل عبد حمود بمهمته، وبجدارة.

ظل عبد حمود متقدّماً عني وعن أبي ديار بخطوة واحدة في محاولاتنا الخروج من العراق. فحتى لو أفلحنا في الحصول على جوازات سفر الأولاد عبر كتاب خالد رشيد، لوقعنا في مصيدة شيطانية أقامها عبد حمود لإفشال هروب غير المخوّل لهم بالسفر، وليس بالذات لعائلتنا. لقد أنشأ في شهر شباط من عام ١٩٩٨ حاجزاً منيعاً عند معبر الحدود إلى الأردن يمكنه من اصطياد المغامرين بالتسلل عبر طريبيل. كان شرح أبو ديار لتفاصيل المصيدة مدعاة لإحباط أقسى العزائم. فقد نُصب كشكان بمساحة مترين طول في مترين عرض لكل منهما مزوّدان بمكيّف للهواء عند مدخلي طريبيل، كنقطة لوقوف المغادرين من العراق والقادمين من الأردن. تقبع خلف كل كشك سيارة تضمّ اثنين من ضباط عبد حمود يراقبان الكشك اربعاً وعشرين ساعة في اليوم، مع بقاء محرك السيارة، ذات الزجاج المعتم، شغالاً لتزويد الضابطين بالتبريد أوالتدفئة الضرورية، حسب حرارة الطقس. يحتوي كل من الكشكين على حاسوب، مع مشغّله، يضم قاعدة للمعلومات فيها أسماء الأشخاص الممنوعين من السفر، أو الذين في انتظار رجوعهم من السفر، والتي تصدر عن عبد حمود ذاتياً وحصراً. على سائق كل سيارة مغادرة أو داخلة إلى نقطة حدود طريبيل أن يتوقف أمام الكشك وينزل لوحده من سيارته ليقدّم جوازات سفر المسافرين معه إلى مشغّل الحاسوب الذي يقوم بتمهّل بمطابقة أسماء المسافرين مع الأسماء المدرجة في قاعدة المعلومات لديه. يكفي دوران رأس المشغّل ونظرة واحدة منه إلى الضباط الجالسين في السيارة خلفه لتجعل السيارة الواقفة بهدير محركها بأن تقفز إلى الأمام ليلقوا القبض على المسافرين ويسوقوهم رأساً إلى بغداد لينزلوا في ضيافة عبد حمود الشرسة. مُنع مشغّلون الحاسوب وضباط عبد حمود القابعون في سياراتهم من التعامل والاحتكاك بتاتاً مع موظفي مديرية الأمن العام أو ضباط جهاز المخابرات الآخرين في طريبيل، خشية تسرّب الأسماء المدونة في قاعدة المعلومات إليهم. كانت بالفعل مصيدة محكمة وذكيّة من بنات شيطان أفكار عبد حمود، ودليلاً آخر على مرتبة جهازه المخابراتي الخاص به.



وصل رسول شخصي من مكتب المساعد الخاص لصدام حسين، وسكرتيره الموثوق به، عبد الحميد محمود يحمل أمراً مكتوباً بخط اليد، يطلب فيه مصادرة واستلام جوازات كل من يمامة وتمّام ونوفة عماد خدوري





بعد عودته مباشرة من الأردن، قام أبو ديار بزيارتي في منتصف ليلة رجوعه لاحتساء الشراب، مما استنفر تحسّبي ووجسي من الأخبار التي يحملها في مثل هذه الزيارات غير العادية. لقد اتصل أحدهم به أثناء وجوده في عمان وطلب منه أن يعرض عليّ خياراً آخر للهروب ويستفسر مني عمّا اذا كنت موافقاً على عرضهم أم لا. أبلغني أبو ديار الرسالة بلهجة محايدة، ثمّ انتظر حتى أعطيه الجواب. فلقد اتصل أحد عناصر المؤتمر الوطني العراقي المعارض والذي يرأسه أحمد الجلبي بأبي ديار كي يجسّ نبضي ويبلّغني بأنهم على استعداد لانتشالي وأولادي من بغداد وتهريبنا عبر الشمال في ظل حماياتهم. لقد وصل إليهم خبر عمّا أحاول القيام به، بطريقة ما، فتقدموا عارضين خدماتهم.

كان أحمد الجلبي زميلي في الدراسة بدءاً من الابتدائية في مدرسة (مدام عادل)، وتخرجنا معاً من نفس الصف فيها عام ١٩٥٦. كما كنّا معاً في السنة الثانوية الثالثة في كلية بغداد في شهر أيلول من العام ١٩٥٨ عندما دخل والده مع مدير المدرسة إلى الصف صباح أحد الأيام واصطحب معه أحمد وأولاد أخواله، غازي علاوي ومهدي البصّام، خارج المدرسة وأرسلهم إلى المملكة المتحدة لمتابعة دراستهم. تقابلنا من جديد في جامعة شيكاغو خلال الستينيات حيث كان أحمد يدرس لنيل شهادة الدكتوراة في الرياضيات، وكذلك في بيروت عام ١٩٦٦ في نهاية إحدى جولاتي الصيفية، ذات الإبهام السفري المجاني.

قدّم أبو ديار عرض المؤتمر الوطني العراقي بأسلوب دبلوماسي وانتظر جواباً مني. لم أتردد البتة في إعطائه الجواب. بما أن أحمد الجلبي يتعامل مع المخابرات المركزية الأمريكية فلن يكون بوسعي التعامل معهم أبداً. نهض أبو ديار من على كرسيه وقبّلني وقال لي: «هذا عهدي بك وهو نفس شعوري»، وأضاف لو أنك قررت غير ذلك وفكّرت في قبول عرضهم لكان ذلك آخر لقاء بيني وبينه. وطمأنني أبو ديار قائلاً: «سوف نتدبر الأمر سوياً».

من أجل تعزيز الحجّة في مغادرة العراق رسمياً، ناشدت مساعدة حميد جعفر، الشقيق الأصغر لجعفر ضياء جعفر والذي يرأس شركة للنفط في الشارقة، أثناء زيارة قصيرة له لبغداد. التقيت بحميد في منزل أخيه الأكبر يحيى جعفر، الذي كان بحق السند الرصين لي ومازال الصديق الكريم. طلبت من حميد موافقته على إعداد عقد أصلي لي يعرض عليّ العمل في شركته في مجال

الشبكات الحاسوبية لعل وعسى أن يُقنع المعنيين فى جهاز المخابرات وجهاز عبد حمود بصدق نيتى وتمسكى بموقف مغادرتى العراق بصفة رسمية وقانونية. تجاوب حميد مشكوراً مع طلبى وأبدى استعداده لتلبيته. بذل كلّ من ولدى جعفر، صادق وأمين، الوقت الثمين والجهد الوافى لإعداد عقد عمل قانونى ومُصدَّق قانونياً من قبل الجهات الرسمية وسفارة العراق فى لندن بأمل مُساعدتى فى إقناع المعنيين بأمر مُغادرتى. كما جازف آمين يوماً وحمل معه بكل شجاعة، خلال إحدى رحلاته المكوكية إلى بغداد، كافة التقارير والمقالات العلمية التى كتبتُها، عبر منطقة الحدود فى طريبيل المُعرّضة للتفتيش الدقيق وسلّمها إلى نيران أثناء وجودها فى عمّان.

أخيراً وافق خصمى اللدود أبو مُهنّد على مقابلتى وجهاً لوجه بعدما تعرّض لسيل من الضغوط و(الواسطات) من لدن الصحّاف وأبو عمر ورافع الدحّام.

كانت تلك الجلسة من أقسى المقابلات التى أُجبرتُ على تحملها. استطاع أن يُحجمنى إلى أن انهارت دموعى، دون أى تعاطف مع توسلاتى لاستعادة جوازات ابنى وبنتىَ الاثنتين إذ صدّ ضميره المتحجر عنه كلّ إحساس وصدى إنسانى. توسلتُ إليه من منطلق أبوىّ ومسئوليتى العميقة تجاه أولادى فيرد علىّ: «إن من حق الحكومة وحدها أن تقرر متى يجب أن تُغادر». أشرت له كيف إننا تحولنا من علماء إلى قطع أثرية علمية تصلح لعرضها فى المتاحف بسبب ابتعادنا عن مصادر العلم طيلة سنوات الحصار وكبر السن ونفاد همة ومفعولنا العلمى. تمسك بالقول إن من حق الدولة استخدامنا بأى وجه ولآخر قطرة حياة يمكن عصرها منّا. عرضت عليه عقدى للعمل فى الشارقة بدون أى جدوى، فغضّ النظر عنه وكأن لسان حاله يقول: «انقعه واشرب ماءه». كان طلبى، بالنسبة إليه، طريقاً مسدوداً. ثُمّ اصطنعَ استغرابه عندما نوهت له أن بإمكان عبد حمود حسم الموضوع وردّ بسرعة بأن لا علاقة لعبد حمود فى هذا الأمر، وهكذا كشف على إنه يعمل لصالح عبد حمود وإن عبد حمود بات ملاذى الاخير فى الأمر. لم يتمكن أبو ديار أن يتعرّف من رقم لوحة سيارة السكرتير على الشخصية الحقيقية لأبى مهند. لقد كان أكثر من ضابط مخابرات، وظلّ لغزاً مُحيراً لنا، وجزءاً من جهاز عبد حمود الأمنى الخارق. لا أعتقد ان لقاءً ثانياً بيننا سيبشّر له بأى خير. عدت مرة أخيرة إلى الصحّاف آملاً بجدوى علاقته مع عبد حمود.

بمرور الأشهر والتعثّر فى عملية استعادة جوازات سفر الأولاد، بدأت نيران تعانى من وحدة موحشة حادة إلى الدرجة التى اقترحت علىّ أن تعود إلى بغداد.

بعدها بأيام قلائل، طلب منى أبو ديار بالعمل على إعادة تأشيرة الخروج التى حصلت عليها قبل عام، وهى عبارة عن صفحة مرفقة بجواز سفرى، وأن أستعيد رسومها. كان أمراً غريباً فى حينها، ولكنه دون شك ذكياً. شعرت وأنا أُتابع مُعاملة استرجاع مبلغ الأربعمائة الف دينار، والتى هى رسوم تأشيرة الخروج التى سبق ودفعتها، بأن عيوناً عديدة كانت تتابع خطواتى باهتمام، وإن كانت لا تصدق ما أقوم به. استغرقت العملية يومين فى الأروقة الرسمية لخزانة الدولة أمام القشلة (مقر الحكومة فى عهد الانتداب الإنكليزى). وأخيراً أبلغت أبا ديار عن إلغاء تأشيرة الخروج واستعادة رسومها ظهر يوم الخميس.



طلب منى أبو ديار أن أُسلّم جواز سفرى فوراً إلى محل أخيه فى بغداد الجديدة. وفى ذات المساء، ترك لى رسالة يطلب فيها أن أحضر له مبلغ مليون وأربعمائة ألف دينار نقداً. ملأت عدة أكياس من البلاستيك بالدنانير العراقية وسلّمتها له. ما كان منه إلاّ أن أعاد لى جوازى وعليه أربع تأشيرات خروج لى ولأولادى. لقد استطاع أن يُضيف أسماء وصور يمامة وتمّام ونوفة إلى جوازى مع تأشيرات خروج لنا جميعاً مختومة عليه بكامل المبلغ. وجب علينا أن نغادر فى خلال يومين، مما يسمح له بتنبيه أصحابه فى طريبيل عن موعد وصولنا واعدادهم لاستقبالنا. بقى علينا محنة اجتياز كشك عبد حمود اللعين.

فى ليلة الجمعة من آخر أيام شهر تموز عام ١٩٩٨، طلبت من جديد إلى الأولاد أن يعيدوا تجهيز حقائب السفر، التى بقيت مفتوحة على الأرض فى غرف نومهم طيلة الأحد عشر شهراً الماضية، مراراً ما تُفتح ثم تُغلق استعداداً لسفرٍ غير مُتحقق. انصاعوا للأمر دون أن ينبسوا بكلمة عن احتمال فتحها مرة ثانية بعد عدة أيام. كنت قد رتبت الأمر مع ريتا التى كانت تساعدنا فى إدارة شئون المنزل، أنه فى حال قدومها إلى البيت ولم تجد أحداً منا، أن تنتقل لتعيش مع عائلتها فى بيتنا حماية له، بل كنتَ قد جهزت أوراقاً رسمية لها منذ عدة شهور تُثبت بأنى أدفع لها أجراً شهرياً مقابل حراستها للمنزل.

زارنا أبو ديار يحمل (ركيّة) بطيخة كبيرة بينما كنت فى الشارع خارج البيت أتسامر مع الجيران. طلبت سكيناً وشاركت الجيران فى تناولها. كانت الركيّة إشارة السرّ بيننا والتى تعنى بأنه قد استطاع تأمين جميع الترتيبات اللازمة لمغادرتنا، وموعد مغادرتنا هو الساعة الثالثة فجراً.

على أثر تهريب أبو ديار للطبيبين الأرمنيين وكسب ثقة آل بزوعى، قرر أبو ديار بأن تكون نقطة انطلاقنا من بيت فاروق بزوعى، وليس من بيتنا الذى يجزم بأنه تحت المراقبة المستمرة من قبل الجيران.

اضطررت فى تلك الليلة أن أقوم بعدة رحلات، ذهاباً وإياباً من بيتنا لأنقل بالخفية، وبعيداً عن تلصص عيون الجيران، العدد القليل من حقائبنا المعدة للسفر إلى بيت فاروق. عند اقتراب منتصف الليل، ذهبت إلى منزل أبى ديار لاصطحابه. زيادة فى الحرص، لم يسمح لى أبو ديار فى رؤية أسرته أو توديع أم ديار المحبوبة، بل قابلنى فى نهاية الشارع الذى يقطنه بعد أن أبلغ أهل بيته بأنه ذاهب بمفرده إلى الموصل فى سفرة قصيرة لقضاء بعض الأعمال.

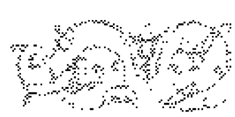


بقى علينا تدبير أمر أخير فى طريقنا إلى بيت فاروق، إذ بشّرنى أبو ديار باتصاله الهاتفى، قبل ساعة من لقائنا، مع رفاقه فى طريبيل والذين أعلموه بأنهم قد أفلحوا أخيراً فى اختراق عُصبة عبد حمود - ولأول مرة - وبطلب المسئول عنهم مبلغ ألف دولار أمريكى نقداً، ودون مساومة، رسماً لمرورنا عبر كُشكهم. توقفنا لشراء علبة سجائر (كنت) لنفرغها من محتوياتها ونحشوها بعشرة أوراق نقدية من فئة المائة دولار، حسب تعليمات آمر عصبة عبد حمود. كانت المجازفة كبيرة لى ولأبى ديار ورفاقه لأنها كانت المرة الأولى التى يتم فيها التعامل مع هذا الشخص القادر ببساطة أن يغدر بنا جميعاً ويقبض أضعاف هذا المبلغ من عبد حمود مكافأة له على الوشاية بنا. من الناحية المقابلة، فى حال كتمانه خبر مغادرتنا، فإنه سيفتح له باب التعاون مع رفاق أبى ديار وكسب ثقتهم ليدرّوا عليه بسيل من الزبائن والرزق الدائم. كان شرطه لمعاونة رفاق أبى ديار هو أن يؤكدوا له بأننى لست ملاحقاً بجرم ولا أنتمى إلى المعارضة، كما أكدوا له بأنى أحمل جواز سفر رسمياً.

نزل أبو ديار عند منزل فاروق حيث كانت تنتظرنا هناك سيارة ذات دفع رباعى مع سائقها الأردنى وقد استقرت فيها حقائبنا. ذهبت لإعادة سيارة ناريمان إلى بيتها الذى لا يبعد كثيراً عن بيت فاروق. كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف صباحاً. وناس حارتهم مجتمعون فى الشارع لانقطاع التيار الكهربائى يتسامرون وينعمون بنسيم الفجر البارد.

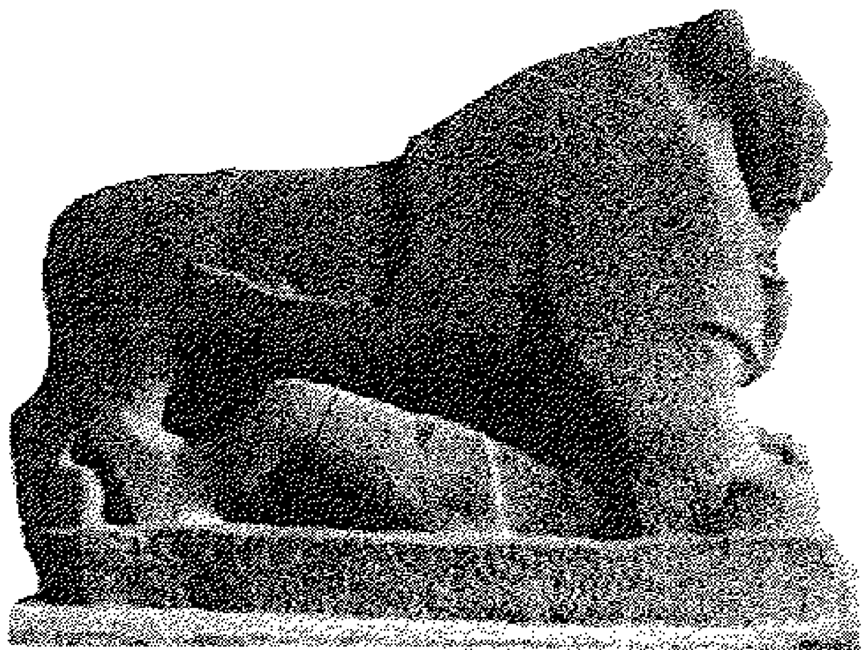
قبل الثامنة بخمس عشرة دقيقة كنّا ننتظر فى السيارة عند محطة الوقود القريبة من الكشك ونحن نراقبه من بعد. فى الثامنة تماماً مشى الضابط إلى الكشك وأخذ مكانه أمام شاشة الحاسوب. تحركت سيارتنا باتجاه الكشك. نزل السائق من السيارة وقدم الجوازات التى بيده إلى الضابط القابع خلف زجاج الكُشك. هبط علىّ فى تلك اللحظة هدوء غريب مُخدر عبر عن ثقتى الكاملة بأبى ديار الذى كان يتابع المشهد بحذر ويراقب الضابط بعينى صقر. تصفّح الضابط الجوازات وضرب على لوحة مفاتيح الحاسوب ثم ابتسم وأعاد الجوازات إلى السائق. تحركت سيارتنا إلى منطقة الأمن فى مبنى الجوازات. أسدل أبو ديار جميع ستائر السيارة وأمرنا بعدم النزول من السيارة البتة. دُهش سائقنا من أمر أبى ديار غير المُعتاد لكنه لم يعترض ولم يعلق على الموضوع.

بعد نصف ساعة من الزمن عاد أبو ديار وبصحبته أبو هديل، ضابط الأمن المسئول عن نقطة طريبيل والذى تمكّن من إخراج نيران منها قبل أحد عشر شهراً، مع اثنين من زملائه اللذين نجحا فى إختراق الطوق الذى ضربه عبد حمود عند الحدود. كان أبو هديل يقضى الشهر الأخير من فترة انتدابه فى تلك النقطة الحدودية، وكان سيصعب على أبى ديار بعد انتهاء مهمة أبى هديل من المرور بسهولة عبر تلك النقطة. ترك أبو ديار علبة السجائر عند ظلّ عبد حمود فى الكشك، وخُتم الجواز بالخروج رسمياً. قام أبو هديل ورفيقاه بتقبيلى من خلال فتحة شبّاك السيارة متمنين لنا التوفيق. ودعتهم بحرارة من موقعى داخل السيارة دون الترجل منها كما تقضى اللياقة وغضضنا الطرف عن مساحة من تقاليدنا الاجتماعية بسبب تعليمات أبى ديار. لن أستطيع أن أنسى فى حياتى دفء قبلاتهم، والتى ربما عكست غبطتهم من تمكنهم من إفلاتى من شبكة عبد حمود. ودلفنا إلى الجانب الأردنى من الحدود.



استغرقت مقابلة «نيران» عشر دقائق فقط حيث بادروها بالسؤال عن عدم وجودى والأولاد معها، وادعوا بأننا قد أسأنا الفهم لرسالتهم لأنه لا يمكن لطلب الهجرة أن يأخذ مجراه دون وجودنا معها





كلب الحراسة حين يغفو!

الإعــلام الأمريكــى بـين حــربين

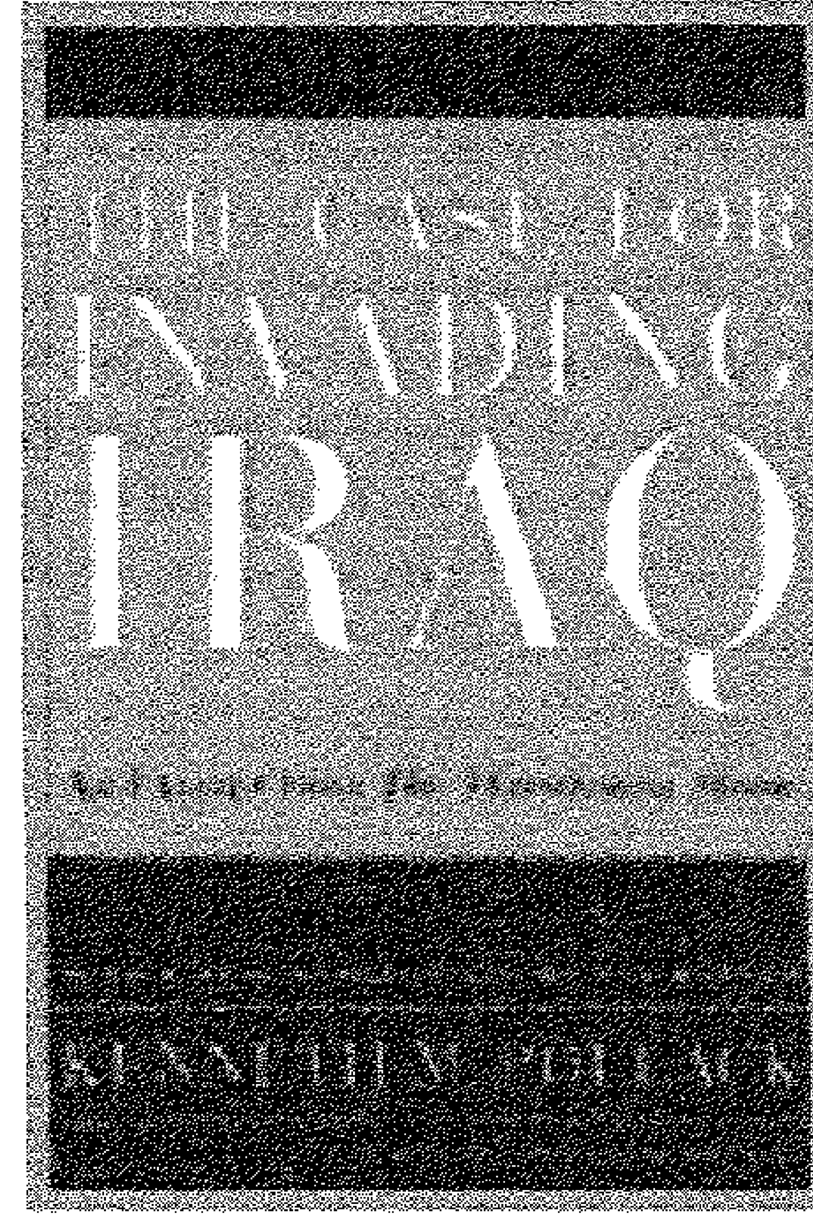
عبد العليم الأبيض

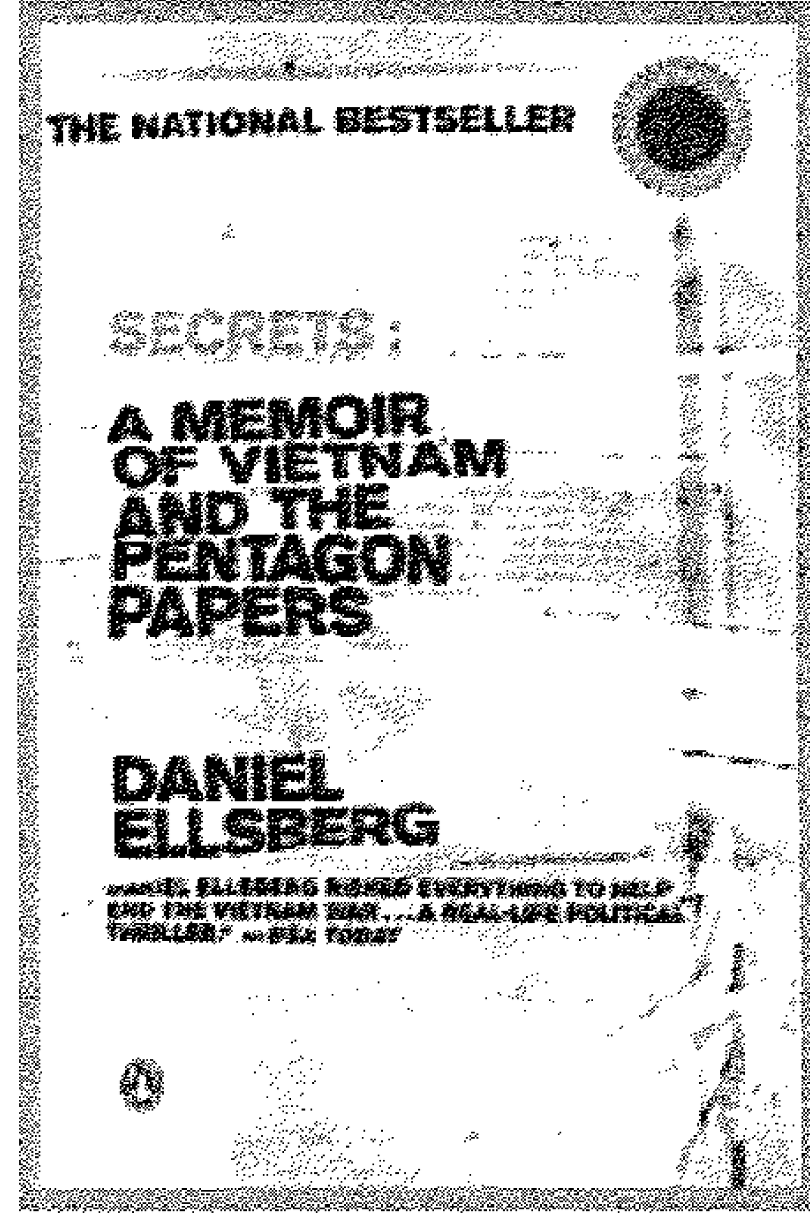
■■ يفخر الإعلام الأمريكى بتفوقه وتنوعه وحريته على وسائل الإعلام فى دول العالم الأخرى. ولكن المراقب للإعلام الأمريكى من نقطة محايدة يرى أن فى ذلك كثيراً من المغالاة. وعندما نتكلم عن الإعلام الأمريكى فنحن نقصد فى الأساس الإعلام الرئيسى، أو ما يسمى بإعلام التيار الأساسى الذى يشمل الصحف والمجلات الكبرى وكذلك شبكات التليفزيون الكبرى. لقد سجل الإعلام الأمريكى صفحات رائعة تشهد له بالقوة والجرأة فى مواجهة الانحراف الحكومى والمؤسسى أو الجور على حقوق المواطنين.

بيد أنه فى نفس الوقت يضم ماضى الإعلام الأمريكى أيضاً صفحات مشينة وتخاذلا وتقاعسا فى أداء دور «كلب الحراسة» الذى يسهر على مصالح الناس فى كشف الانحرافات، وهى صفحات سوف تظل بظلالها القاتمة على مزاعم التفوق والاستقلال.

ليس القصد من هذا المبحث هو تقديم منظور تاريخى لصعود وهبوط الإعلام الأمريكى، بل سوف يكون التركيز على سقطته المدوية فى تغطية أحداث ٩/١١ وما تلاها من غزو لأفغانستان والعراق.

وهى سقطة يحاول الإعلام الأمريكى الإفاقة منها الآن وتعديل المسار فى صراع لم يحسم بعد بين وسائل الإعلام وإدارة الرئيس جورج دبليو بوش وقوى المحافظة الأمريكية التى تدعمه والتى تدعم الحد من حرية الصحافة وتسعى إلى تخويفها وشل حركتها. وهى قوى تجافى مبادئ الديمقراطية التى تتشدق بها. ولكن ينبغى أن ندرك أن هذه المعركة معركة مستمرة، وأن هناك استثناءات مشرفة لبعض الأقلام الشجاعة التى قاومت





وما تزال تقاوم هذا الإرهاب الفكرى الذى تمارسه إدارة بوش والمتشيعين لها. وليس من قبيل الصدفة أن أشد المعادين لحركة وموضوعية الإعلام الأمريكى هم مجموعة من اليهود الأمريكيين من تيار المحافظين الجدد تحتل مراكز بارزة فى هذا التيار فى الإدارة الأمريكية ذاتها وخارجها فى الصحافة ومؤسسات الرأى. وهى مجموعة ترتبط ارتباطاً عضوياً بكتلة الليكود فى إسرائيل.

بين حرب فيتنام وما بعد ٩/١١

لقد كتب الكثير عن سلوك الإعلام الأمريكى المشين بعد أحداث ٩/١١، ولكن من أهم ما كتب فى هذا الشأن هو الكتاب الذى ألفه دانيل إلزبرج بعنوان: «مذكرات فيتنام وأوراق البنتاجون». من هو دانيل الزبرج؟ كان دانيل إلزبرج مستشاراً لروبرت ماكنمارا، وزير الدفاع إبان حرب فيتنام ومحللاً سياسياً فى مؤسسة راند الشهيرة كما عمل أيضاً مستشاراً لهنرى كيسنجر. أقدم الزبرج على عمل قد ينم عن ضمير حى وجسارة أدبية منقطعة النظير عندما سلم صحيفة النيويورك تايمز نسخة مما يسمى «أوراق فيتنام»، وهى مجموعة من الوثائق السرية التى تفضح سير الحرب فى فيتنام. كان هذا العمل علامة فاصلة فى تاريخ حرية الصحافة فى الولايات المتحدة. إذ شرعت كل من صحيفتى النيويورك تايمز والواشنطن بوست، أهم صحيفتين فى الولايات المتحدة، فى نشر الأوراق. وما إن بدأ النشر حتى أقامت إدارة الرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون الدنيا وأقعدتها وهددت المؤلف واستصدرت أمراً قضائياً بوقف النشر. ولكن أيدت المحاكم الأمريكية حق النشر واستمرت الصحيفتان فى نشر الوثائق. وكان ذلك علامة على طريق حرية النشر والتعبير.

لقد سئل دانيل الزبرج عن رأيه فى تغطية الأحداث المؤدية إلى حرب العراق. وكانت إجابته أن سلوك الإعلام الأمريكى لم يكن السلوك الصحيح، بل كان سلوكاً سيئاً وإن كان أفضل قليلاً من سلوك الحكومة الأمريكية التى مارست الكذب والخداع، كما أن الصحافة الأمريكية أخطأت عندما تقبلت دون روية وتمحيص أكاذيب الحكومة حتى وقت متأخر من الحرب (أى حتى نشر وثائق البنتاجون). كما أكد الزبرج أن الإعلام الأمريكى لم يتعلم شيئاً من حرب فيتنام. لقد صورت إدارة بوش أن الحرب على العراق سوف تكون سريعة ورخيصة، وأخطأ الإعلام الأمريكى عندما قبل بمنطق الإدارة. فلماذا مثلاً لم يلاحق الإعلام الأمريكى المسئولين الأمريكيين عن عدد القتلى العراقيين؟ لم يفعل ذلك. ومازالت الإدارة الأمريكية تراوغ فى نشر أعداد القتلى.

إدارة بوش والتضليل الإعلامى

يذكر أن الراحل آى. إف ستون، رئيس التحرير السابق لصحيفة «النيويورك ريفيو أوف بوكس» الأسبوعية حذر الإعلام من تصديق حكومته إذ يقول:

«إذا ما أردت أن تعرف الحكومات، فكل ما يجب أن تعرف يتلخص فى كلمتين: الحكومات تكذب».

الخطأ الذى وقعت فيه الصحافة الرئيسية مثل النيويورك تايمز والواشنطن بوست وتايم ونيويورك.. إلخ هو أنها صدقت الإدارة فى أكاذيبها، أو أنها تغاضت عنها لأسباب كثيرة يطول شرحها، ولعل أهمها هو الخوف من انتقام المسئولين ورد فعل الشعب الأمريكى الغاضب الذى صدق الحكومة. ولكن كل ذلك لا يبرر الموقف الذى وقفه الإعلام الأمريكى من الأكاذيب الفاجرة فى بعض الأحيان. لم يلجأ الإعلام الأمريكى إلى أسلوب التشكيك فى راويات الحكومة، وتخلى عن معايير المهنة فى التنقيب والبحث عن الحقيقة. وترك ذلك لشبكة الإنترنت. وما يسمى بالإعلام البديل، وسوف يأتى ذكره فيما بعد.

ليس هناك أدل من انحطاط المسئولين عن وزارة الدفاع الأمريكية فى احتقارهم لدور الإعلام فى الكشف عن الحقيقة وملاحقة انحرافات المسئولين من الأسلوب الذى تعاملت به مع رجال الإعلام. إذ لجأت وزارة الدفاع إلى إنشاء ما سمى «مكتب التأثير الاستراتيجى» وهو ما أطلقت عليه الصحيفة الأمريكية القديرة «مكتب الإفك الاستراتيجى» (Office of Strategic mendacits). كان الغرض من إنشاء هذا المكتب لدس الأكاذيب وممارسة الدعاية السوداء. وقد وصف ويليام كون وزير الدفاع فى عهد كلينتون هذا الأسلوب بقوله:

١- Secrets: A Memoir of Vietnam and the Pentagon Papers
(أسرار: مذكرات فيتنام وأوراق البنتاجون)
Daniel Ellsberg
Penguin Books, 512pp., $16.00

٢- The Case for Invading Iraq
(حجة غزو العراق)
Kenneth M. Pollack
A Council on Foreign Relations Book



انساق الإعلام الأمريكى كما انساق الكونجرس
وراء مغالطات وتضليلات إدارة بوش فيما يتعلق بالإرهاب
والربط بين صدام حسين وتنظيم القاعدة دون وجود أى دليل على ذلك
مع العلم بأنه لم يكن هناك حب مفقود بين نظام صدام حسين
العلمانى وتنظيم القاعدة السلفى الأصولى



«... نحن نتحدث عن خداع وسائل الإعلام والجمهور العام فى الدول الأجنبية وهذا خطأ..».

لجأ البنتاجون إلى أسلوب جديد فى التضليل والتأثير على وسائل الإعلام أثناء عملية غزو العراق. ابتدع البنتاجون حيلة جديدة لضمان ألا يخرج إلى وسائل الإعلام إلا ما تريده وزارة الدفاع. تمثلت الخدعة فى إلحاق المخبرين والمراسلين الحربيين فى الوحدات المقاتلة. وذلك لضمان عدم خروجهم عن الخط المرسوم، وإذا ما حاول البعض الجسور الحصول على معلومات بغير هذه الطريقة فكان يقبض عليه بواسطة الشرطة العسكرية. ولقد شهد العالم جميعاً الفارق الضخم بين ما يذيعه التليفزيون الأمريكى وبين الأداء الرائع لشبكة الجزيرة والعربية. بينما كان التليفزيون الأمريكى يستعرض ألعابه النارية تحت شعار «الصدمة والترهيب» كانت القناتان العربيتان تركزان على الواقع الأليم للحرب من قتل وتدمير للمدنيين. وربما كان ذلك هو السبب فى تصويب الصواريخ الأمريكية نحو مكتب الجزيرة فى بغداد. وليس هذا الرأى من عندى. لقد تصادف وجودى فى الولايات المتحدة فى هذا الوقت وكنت أشاهد برنامجاً محبباً لدى للتليفزيون الكندى CBC تحت عنوان «السلطة الرابعة» استضاف البرنامج الشهير قلة من الخبراء الإعلاميين وكان الرأى لدى نصفهم أن التصويب كان متعمداً! فضلاً عن ذلك أغلقت الولايات المتحدة موقع الجزيرة على شبكة الإنترنت فى الولايات المتحدة.

تعرض الأسلوب الذى انتهجه البنتاجون فى التعامل مع وسائل الإعلام إلى انتقادات كثيرة. إنصافاً كانت هناك قلة من الصحفيين لم ينطل عليها خداع البنتاجون ومضت تشكك فى الروايات الرسمية منهم الصحفية مورين رود ونيكولاس كريستوف بالنيويورك تايمز وغيرهم بالصحف الأخرى. إذ يرى البنتاجون أن واجب الإعلام هو دعم القوات المحاربة. وهو شعار رفعته وزارة الدفاع وأساءت استخدامه كثيراً ونحن نتذكر جميعاً قيام الغوغاء فى بغداد بأعمال السلب والنهب لآثار حضارة ما بين النهرين التليدة أمام أعين القوات الأمريكية التى وقفت تراقب الموقف بلا مبالاة. وعندما سئل دونالد رامسفيلد عن ذلك كانت إجابته المثيرة للسخرية هى: «إن الحرية غير منظمة».

وتعلق تشارلى ريس بموقع على شبكة الإنترنت يدعى Antiwar.com على الأسلوب الذى اتبعه البنتاجون بقولها:

«إن واجب الإعلام ليس دعم القوات، بل هو كتابة التقارير الصحفية عن سير الحرب كما هى. فإذا كانت القوات تقتل المدنيين وتسمى ذلك «أضراراً مصاحبة»، فهذا شأنها. أما واجب الصحافة فهو تسمية الأشياء بمسمياتها، أى أن القوات تقتل المدنيين». وتتذكر ريس تصريحاً لباتريك مونيهان عضو مجلس الشيوخ الأمريكى الراحل حذر فيه رجال الإعلام من ترك الحكومة. أى حكومة. فى اختيار ألفاظها!

لجأت إدارة بوش إلى الملاحقات القضائية للصحفيين وضربت بالتعديل الأول للدستور الأمريكى عرض الحائط، وهو التعديل الذى يكفل حرية التعبير. إذ يتعرض الصحفى روبرت نوفاك صاحب العمود المسجل للملاحقة القضائية لرفضه الإفصاح عن مصدره فى نشر اسم مندوبة وكالة المخابرات المركزية عقاباً لزوجها السفير السابق جوزيف ويلسون الذى فضح أكاذيب الإدارة بشأن صفقة اليورانيوم المزعومة بين صدام حسين وحكومة النيجر.

شبكات التليفزيون الأمريكى

معظم الاتهامات التى وجهت لشبكات التليفزيون الأمريكية الكبرى لم تجاف الحقيقة. ولدينا شهادة صحفية تليفزيونية مرموقة حققت شهرة عالمية فى تغطيتها للحرب فى أفغانستان، وهى كريستيان أمان بور بشبكة السى. إن. إن. تؤكد أمان بور فى حديث لها مع صحيفة يو إس توداى (٢٠٠٥/٢/٥) أن الشبكة التى تعمل بها امتثلت لترويج الإدارة الأمريكية ثم تقول:

«أعتقد أن الصحافة كانت مكممة.. آسفة لأن أعترف بذلك، وإلى أى حد بعيد تم تخويف شبكة السى. إن. إن من جانب الإدارة وجنود شبكة فوكس. نتج عن ذلك إشاعة جو من الخوف والرقابة الذاتية. على حد ما أعرف. فيما يتعلق بعملنا الصحفى».

وشبكة فوكس هى من الشبكات الموالية لتيار المحافظين الجدد ودأبت على توجيه تهمة الخيانة لكل من ينتقد غزو العراق أو التشكيك فى نوايا الإدارة.

لعل معالجة التليفزيون الأمريكى على نحو عام لموضوع الجندية الأمريكية جيسكا لينش التى وقعت أسيرة أثناء احتلال العراق يكشف لنا مدى السقطة التى سقطها الإعلام الأمريكى فى حقبة ما بعد ٩/١١ وغزو العراق. لقد تجاهل الإعلام الأمريكى تماماً، بما فى ذلك صحف كبيرة مثل الواشنطن بوست والنيوزويك التايمز آداب المهنة وسقطت فى بحر من التهويل والإثارة بل والتلفيق المكشوف دون إعمال العقل. إذ فجأة لم تعد حرب العراق تتعلق بأسلحة الدمار الشامل أو القضاء على القاعدة أو تحرير العراق من الطاغوت، بل أصبحت تتعلق بمغامرات البطولة للمرأة الخارقة جيسكا لينش. وفجأة أصبحت جيسكا لينش موضوعاً تسعى شركات هولى وود لإنتاجه. وانهالت العروض التليفزيونية لإنتاج فيلم تسجيلى فى مغامرة تلك الفتاة الخارقة وإن كانت عن واقع الأمر فتاة مسكينة التحقت بالجيش لكى تستفيد من توفير الفرصة لها لاستكمال تعليمها والحصول على شهادة جامعية!

فى ١٥ مايو ٢٠٠٣ كشفت الإذاعة البريطانية (الـ BBC) الحجاب عن الادعاءات والمزاعم الأمريكية بشأن جيسكا. إذ لم تكن هناك مغامرات ولا يحزنون. وانفجرت البالونة فى وجه نافخيها. وتعلق مجلة كولومبيا جورنالزم ريفيو وهى المجلة المحترمة التى تصدر عن جامعة كولومبيا التى تعنى بالإعلام والصحافة (٢٠٠٥/٢/١) على حادث لينش بقولها:

«إذا تجاوزنا مسائل الدقة، فقد أثارت قضية جيسكا لينش المبالغ فيها مشكلتين اثنتين. فقد ساعدت القضية على التعتيم على سؤال لماذا نحن فى العراق.. وثانياً، فإن تغطية صورة امرأة أمريكية بالزى العسكرى يديم نمطاً من أنماط التغطية المشوهة».

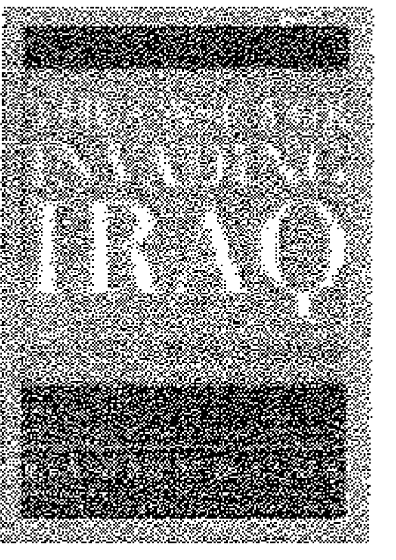
انساق الإعلام الأمريكى كما انساق الكونجرس وراء مغالطات وتضليلات إدارة بوش فيما يتعلق بالإرهاب والربط بين صدام حسين وتنظيم القاعدة دون وجود أى دليل على ذلك مع العلم بأنه لم يكن هناك حب مفقود بين نظام صدام حسين العلمانى وتنظيم القاعدة السلفى الأصولى. ونفس الشىء بالنسبة لأسلحة الدمار الشامل. وكان أحط ما كتب فى هذه الفترة، بل ومازال يكتب حتى الآن، هو ما جاء على لسان الصحفيين الموالين لتيار المحافظين الجدد سواء فى صحافة وشبكات هذا التيار أو خارجه. ولا يتسع المجال هنا للإشارة إلى آلاف المقالات والتعليقات بالشبكات التليفزيونية الكبرى من الموالين لنفس التيار.

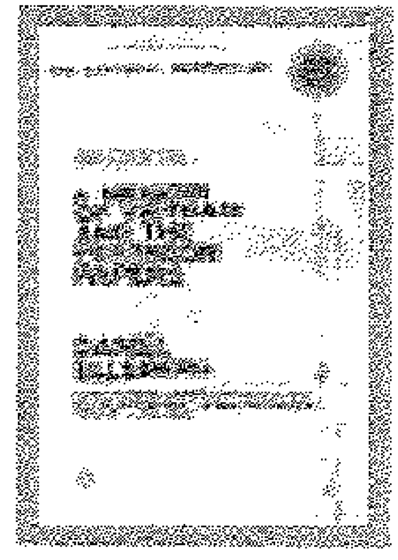
لن نلتفت كثيراً إلى إعلام المحافظين الجدد فهو إعلام مسف فى تعصبه وأكاذيبه يكفى أن تطالع أى عدد من أعداد مجلة «ويكلى ستاندارد» أو صحيفة الواشنطن تايمز. لترى مدى التحيز فضلاً عن ارتباط هذا التيار بالليكود الإسرائيلى.

بعد ٩/١١ لم يكف ويليام سافير وهو من أبرز المؤيدين لهذا التيار ويعمل بالنيويورك تايمز (أحيل إلى المعاش حديثاً) عن التأكيد فى عموده على علاقة تنظيم القاعدة بصدام حسين. وفى عمود بعد عمود يؤكد لنا أن مقابلة تمت بين محمد عطا، الذى ينسب إليه تفجير مبنى التجارة العالمى بنيويورك، ومندوب المخابرات العراقية فى مدينة براج بجمهورية تشيكيا.

وفى كل مرة يؤكد أنه استقى معلوماته من مصادر عليا (من متابعة الكاتب فإن أحد مصادره الرئيسية اريل شارون نفسه). واتضح فيما بعد أن لا علاقة البتة لمحمد عطا بنظام صدام، وأن سافير كان يتحدث عن لقاء وهمى ملفق!

من الأمثلة الفاقعة الأخرى على تلك التقارير الصحفية التى كانت جوديث ميللر (مراسلة النيويورك تايمز فى القاهرة سابقاً) تبعث بها من العراق أثناء الحرب. جميع رسائلها كانت تؤكد وجود أسلحة دمار شامل بالعراق، وأن الخبراء الأمريكيين الذين ينقبون عن هذه الأسلحة قد عثروا على «الرصاصة الفضية» التى تقود إلى امتلاك العراق لهذه الأسلحة. ثم يتضح ما يعرفه القاصى والدانى، أنه لا وجود لأسلحة دمار شامل ولا يحزنون. والأمر ذو الدلالة هنا هو عدم انتباه صحيفة النيويورك تايمز للخطأ بل الأخطاء المتوالية





التى تضمنتها رسائل ميللر الصحفية ولم يؤنبها عندما اتضح الأمر.

ولم تختلف المعالجة التليفزيونية كثيرا عن الأداء السيئ للإعلام الأمريكى. كان البرنامج الذى يديره وولف بليتزر بشبكة السى. إن. إن أثناء الإعداد لغزو العراق، وبعد ذلك رسائله التليفزيونية من الكويت فى مرحلة الحرب تجافى كل الأعراف الصحفية وتشكك كثيراً فى الشعار الذى ترفعه الشبكة: «أكثر الأسماء موثوقية فيما يتعلق بالأخبار» The most trusted name in the news.

قبل غزو العراق كانت تعليقات بليتزر الذى بدأ حياته الصحفية مراسلاً لصحيفة الجيروسالم بوست الليكودية النزعة، أقرب إلى التحريض فكان دائم الإشارة إلى «قواتنا» وليس القوات كما تفعل مثلاً الإذاعة البريطانية لكفالة الحيدة. كما دأب بليتزر (كنت موجوداً فى الولايات المتحدة فى ذلك الوقت وأثناء الحرب) على استضافة كينيث بولوك مؤلف كتاب «العاصفة الوشيكة» The Gathering Storm وهو الكتاب الذى استخدمته الإدارة الأمريكية فى تبرير احتلال العراق. وكان فى كل مرة يدفع بضرورة غزو العراق لكل الأسباب التى استخدمتها الإدارة. اتضح فيما بعد زيف كل الحجج التى ساقها بولوك فى كتابه. وعند اتضاح الزيف اعتذر بولوك بحجة أن الإدارة ضللته! وهو الخبير السابق بمجلس الأمن القومى الأمريكى المسئول عن العراق!

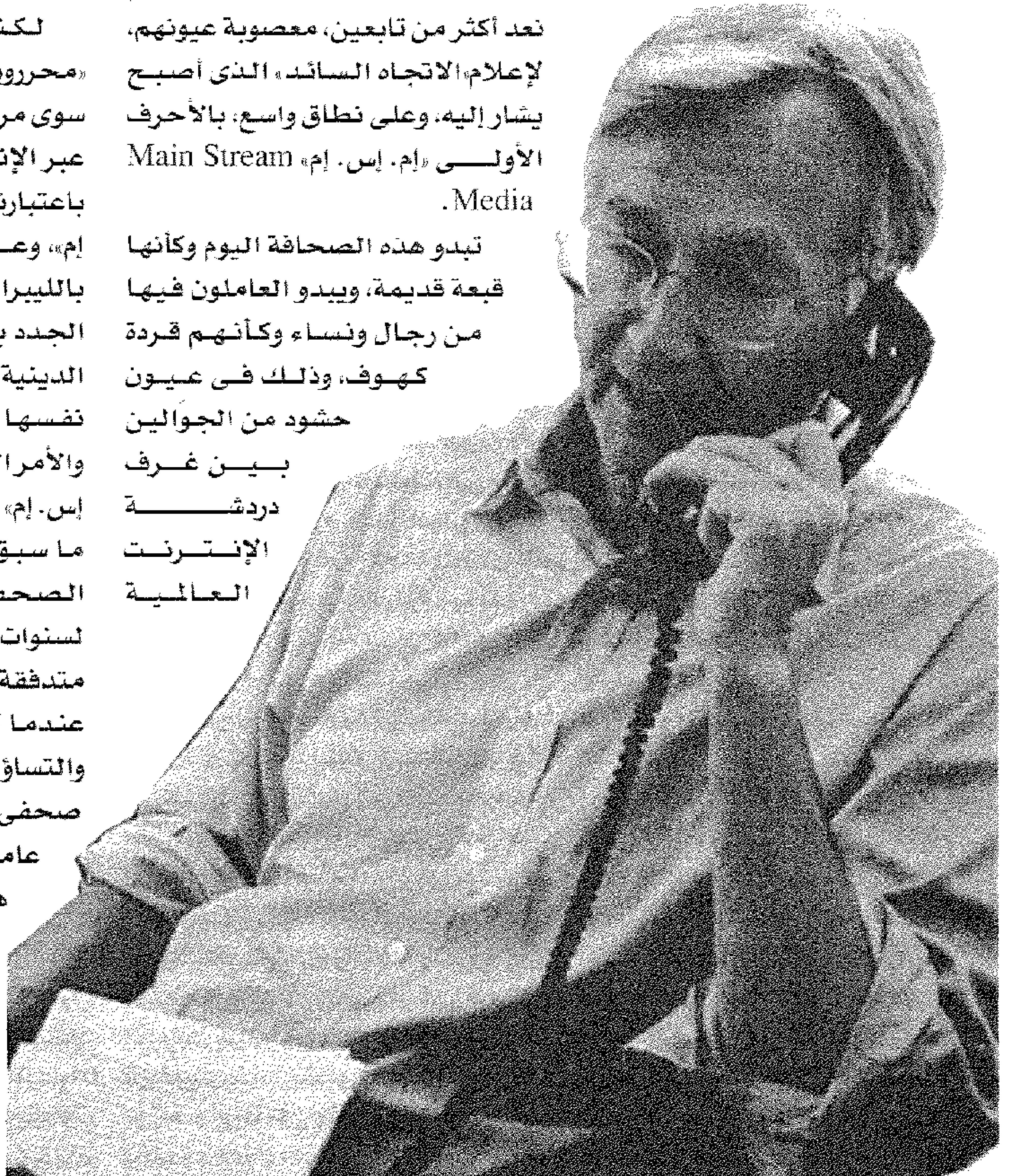
نقاط مضيئة

قد يبدو استخدام تعبيرات مثل انحطاط وسقطات الإعلام الأمريكى فى الفترة التى نتحدث عنها مبالغاً فيه. ولكننا لم نغال واستندنا إلى شهادة بعض رجال الإعلام الأمريكى وكان بعضهم أقسى فى حكمه منا ولم نشأ الإشارة إلى كل هذه الأحكام لعدم اتساع المجال. كما أكدنا فى بداية البحث أن السقوط لم يكن شاملاً. وأن هناك نقاطاً مضيئة كثيرة فى الإعلام الأمريكى لكثير من

هيرش.. المختلف

روجر كوهين

عن:
International Herald Tribune
٢مارس ٢٠٠٥
ترجمة: جمال إسماعيل



كان على الصحفيين من أمثالى: الذين أمضوا السنوات الطوال فى خدمة صحف إخبارية محترمة: التصدى، ومنذ وقت ليس ببعيد، لحقيقة أننا، وفى عيون الكثيرين، لم نعد أكثر من تابعين، معصوبة عيونهم، لإعلام «الاتجاه السائد» الذى أصبح يشار إليه، وعلى نطاق واسع، بالأحرف الأولى «إم. إس. إم» Main Stream Media.

تبدو هذه الصحافة اليوم وكأنها قبعة قديمة، ويبدو العاملون فيها من رجال ونساء وكأنهم قردة كهوف، وذلك فى عيون حشود من الجوالين بين غرف دردشة الإنترنت العالمية ومفجرى الحوارات ومؤرخى الأحداث فى مواقع «قلها كما هى» المعروفين بكتاب الإنترنت والذين أصبحوا الآن من الناشرين الإلكترونيين. ودون وسيط.

لكننا، رغم كل شىء، لدينا «محررون». وماذا بوسع المحرر أن يفعل سوى مراقبة اللغة المنفلتة السارية الآن عبر الإنترنت؟. ولدينا جدول أعمال باعتبارنا من العاملين فى الـ «إم. إس. إم»، وعادة ما يوصف المرء منا بالليبرالية والإلحاد من قبل اللاحقين الجدد بالجناح اليمينى والحركة الدينية فى الولايات المتحدة التى ترى نفسها الحارس الوحيد للحقيقة. والأمر الذى لا شك فيه أن صحافة «إم. إس. إم» تتعرض الآن لهجوم واسع. وكل ما سبق له انعكاسات على صناعة الصحف التى لها الجهد والسبق لسنوات طويلة. لا تزال هذه الصناعة متدفقة إلى الآن، لكننى أصاب بصدمة عندما أتأمل التحول لأن التغيرات والتساؤلات تحدث فى وقت أثبت فيه صحفى واحد، وللمرة الثانية خلال ٣٥ عاماً، وفى قضايا حرب وسلام، أن هناك ثوابت أساسية لا تتغير أبداً.

أشير هنا إلى سيمور هيرش Seymour Hersh الذى يكتب الآن فى مجلة The New Yorker، والذى انفرد فى عام ١٩٦٩ بنشر تفاصيل مذبحة قرية MY LAI، فى جنوب فيتنام (حيث أصيب جنود أمريكيون بحالة هياج شديد أدت إلى قيامهم، فى يوم ١٦ مارس عام ١٩٦٨ بقتل سكان القرية من رجال ونساء وأطفال). والذى انفرد أيضاً، فى العام الماضى وبالتعاون مع محطة تليفزيون «سى. بى. إس»، بنشر تفاصيل إساءة جنود أمريكيين معاملة عراقيين محتجزين فى سجن أبو غريب، غرب بغداد، وتعذيبهم وامتهانهم.

بين هاتين القصتين الخبريتين اللتين فجرهما هيرش عناصر مشتركة تتمثل فى: الضغوط النفسية المتصاعدة ووقعها على شباب الجنود الأمريكيين فى بيئة معادية يصعب فيها تصنيف الأصدقاء والأعداء والخيانة والغدر، فشل فى الانضباط والقيادة داخل القوات المسلحة، إجراءات تحقيق متوانية بطيئة بسبب حماية غريزية لمؤسسة ضخمة وتعتيم دفاعى من قبل بعض قيادات الجيش، ومناخ داخلى لحماسة وطنية تصبغ مثل هذه الحوادث بقوة الاستقطاب.

عن الضغوط النفسية التى قادت إلى مذبحة My Lai يصف Ron Grzesik، من سرية «شارلى» كيف كان يميز ما بين الأعداء من قوات «الفيتكونج» وغيرهم من المواطنين الفيتناميين سكان القرى، ويقول: (كان علينا أولا أن نستوقف الناس،

الصحفيين الملتزمين أشرنا إلى بعضهم. ثم كانت هناك التغطية الصحفية لصحيفة الكريستيان ساينس مونيتور التى لم تغير من نهجها المتزن والإنسانى وكان هناك سيمور هيرش الذى فضح تورط الإدارة فى فضيحة أبو غريب فى مجلة النيويوركر الممتازة. وكان هناك المؤلف والكاتب ذائع الصيت جيمس فالوز الذى حذر فى مقال طويل جداً عن مخاطر الغزو فى مجلة أطلانتيك منثلى.

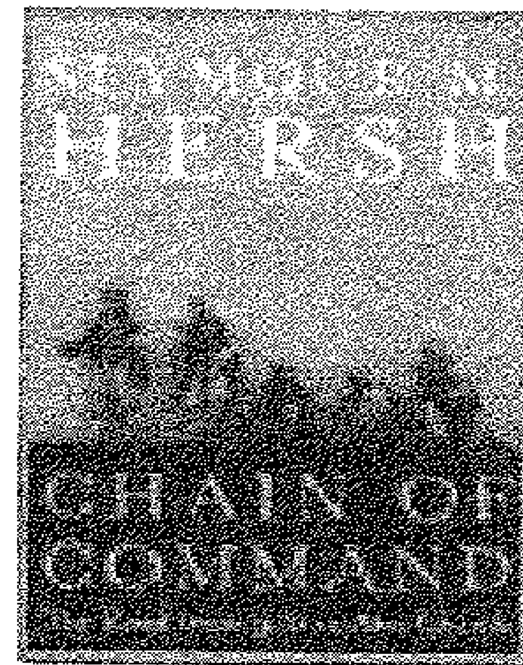
كان هناك أيضًا ما يسمى «بالإعلام البديل» الذى لم ينصع لتخويفات وملاحقات إدارة بوش. وقد ظهرت قيمته أثناء الحرب فى إيجاد مصدر آخر للأخبار غير التلفيقات الحكومية. ويمتد هذا الإعلام أساساً فى شبكة الإنترنت والمواقع الكثيرة للهيئات المناهضة للحرب والهيئات التى تراقب أداء الصحافة وهى كثيرة ومتعددة مثل هيئة «الإنصاف والدقة فى وسائل الإعلام»، ومركز «النزاهة العامة»، و«اتحاد الحريات المدنية» وعشرات وعشرات أخرى من هذه المواقع.

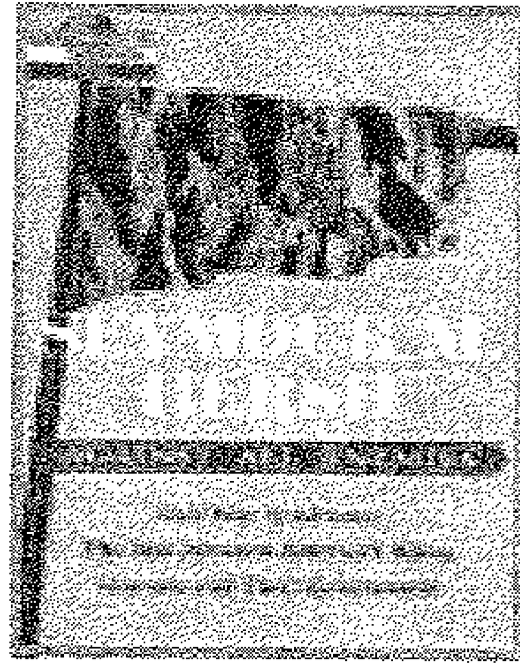
مع أن الإدارة لم تتخل عن سياستها فى التضليل وممارسة الضغوط على وسائل الإعلام، إلا أن الإعلام الرئيسى بدأ يستعيد عافيته وتخلص كثير من الكتاب والمعلقين من الموانع الذاتية التى تكبلهم بل لقد راجعت كل من النيويورك تايمز والواشنطن بوست نفسهما واعترفتا بالأخطاء التى وقعتا فيها واعتذرتا للقراء. ولكننا نعتقد أن الصراع بين وسائل الإعلام والإدارة مستمر وأن المشوار مازال طويلاً. قبل أن يسترد الإعلام الأمريكى كل عافيته ومصداقيته.



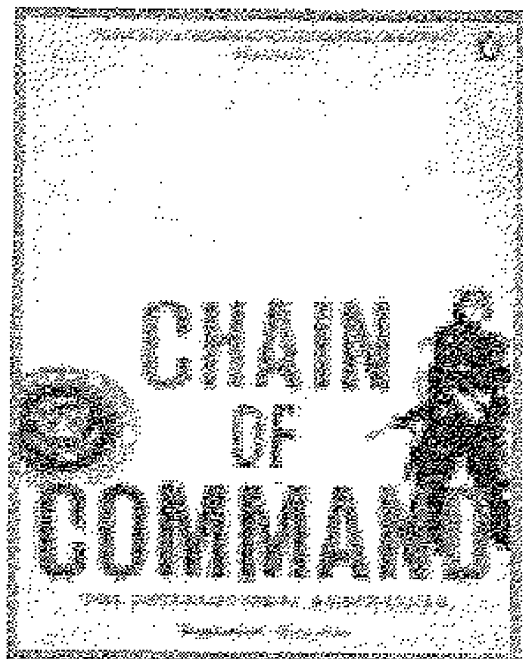
لا يمكن انتحال الأعذار للأداء السيئ لوسائل الإعلام الأمريكية فى تغطيتها لأحداث ٩/١١ وما تلاها. كأن يقال مثلاً أنها فعلت ذلك تحت وطأة ضغوط شعبية شوفينية متعصبة، أو أنها كانت تخشى انصراف المعلنين عنها.

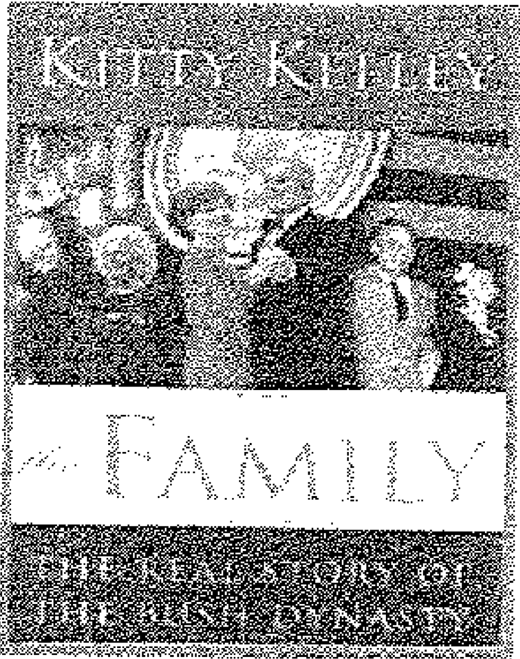
كما أن الإدارة الأمريكية الحالية تؤذى نفسها بنفسها عندما تنفق ملايين الدولارات لتحسين صورتها فى العالم الإسلامى وعندما تتبنى مشاريع طموحة لنشر الديمقراطية فى العالم الإسلامى. فى الوقت الذى تمارس فيها الإرهاب الفكرى ضد معارضيها. إن الولايات المتحدة تخسر كثيراً لتبنيها نهج الحروب النفسية على النحو الذى مازال يتبناه البنتاجون. ثم ماذا تظن الولايات المتحدة عندما تمارس ضغوطها على من لا ترضى عنه من وسائل الإعلام العربية. إن حملتها الحالية على شبكة الجزيرة سوف تسىء كثيراً إلى مركز الولايات المتحدة كداعية للديمقراطية وحرية التعبير. ■

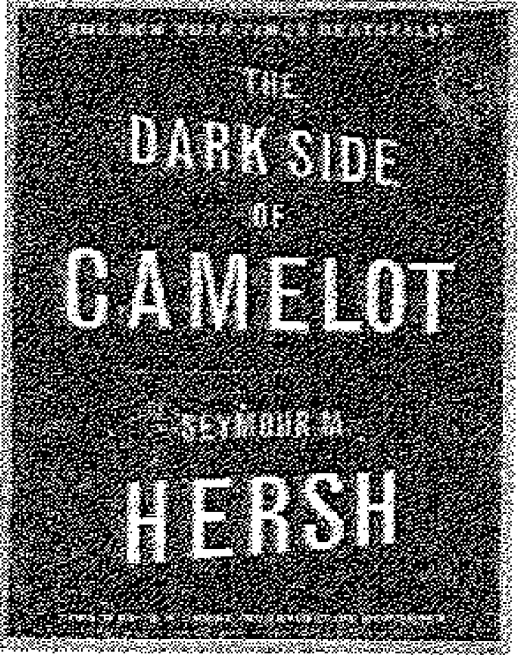




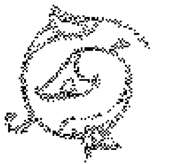








نستجوبهم، ونتركهم يمضون... وكان علينا ثانياً أن نستوقف الناس ونقوم بضرب رجل عجوز من بينهم، ونتركهم يمضون... وكان علينا ثالثاً أن نستوقف الناس ونضرب رجلاً عجوزاً منهم، ثم نطلق النار عليه، وفى النهاية نقوم بمسح القرية بما فيها ومن فيها).



بعد ٣٥ عاماً، وفى رسالة قصيرة إلى عائلته، ويحتفظ بها هيرش، يصف الرقيب أول Ivan Frederik حالة الارتباك النفسى وقد اصبح من المشاركين فى انتهاكات سجن أبو غريب قائلاً: (لقد تساءلت عن بعض الأشياء التى رأيتها.. وكان من بين «هذه الأشياء» ترك السجناء عرايا أو إجبارهم على ارتداء ملابس داخلية نسائية وتقييدهم إلى أبواب زنازينهم.. والإجابة التى تلقيتها كانت أن ذلك هو ما تريده المخابرات العسكرية).

كانت الصحافة المعنية أيضا من القواسم المشتركة بين الواقعتين. لقد فجر هيرش تفاصيل مذبحة MY LAI فى نوفمبر عام ١٩٦٩. أى بعد ٢٠ شهراً من وقوع المذبحة، وفجر تفاصيل انتهاكات سجن أبو غريب فى أبريل عام ٢٠٠٤، أى بعد أكثر من ثلاثة أشهر من تسلم فريق المحققين العسكريين للصور الدالة على الانتهاكات، وأقل من ٦ أشهر على بدء التعذيب.



فى الواقعتين كان الإصرار، والرغبة فى الحصول على التفاصيل الدقيقة الصحيحة، والقدرة على الإنصات، والاستعداد لسماع كافة الأطراف، والشجاعة فى مواجهة أصحاب النفوذ، وراء السبق الصحفى الذى حققه هيرش، وأراد له البعض أن يظل خافياً، ونجحوا فى إخفائه لوقت طويل، واستطاع هيرش بالحاسة الصحفية والعمل الجاد والعقل المتسائل اجتياز الحواجز والوصول إلى الحقيقة.

هناك عنصر آخر يربط ما بين هذه الوقائع ويتمثل فى وجود رجل من رجال القوات المسلحة الأمريكية لديه المثل الأخلاقية التى منعته من الانقياد وراء القطيع ومكنته من مواجهة رؤسائه بشأن ما يعتقد أنه انتهاك للقيم الأمريكية الأساسية.

فى My Lai كان هذا الرجل جندياً فى بداية العشرينيات من عمره، اسمه رونالد ريدينهاور، تصادف أن حلق فوق القرية بعد أيام من وقوع المذبحة، ولاحظ الخراب الكامل الذى حل بها. خراب لا يوجد فيه - وكما أخبر هيرش - ولو طائر واحد يغرد. وقد قام رونالد بتجميع المعلومات عن تفاصيل ما جرى، وكتب - فيما بعد - إلى أعضاء الكونجرس.

فى أبو غريب كان جوزيف داربى من الشرطة العسكرية، هو الرجل الذى عثر على صور عارية لسجناء عراقيين تعرضوا لإهانات جنسية ودفعه الغضب إلى تسليم هذه الصور إلى المحققين فى ١٣ يناير عام ٢٠٠٤.

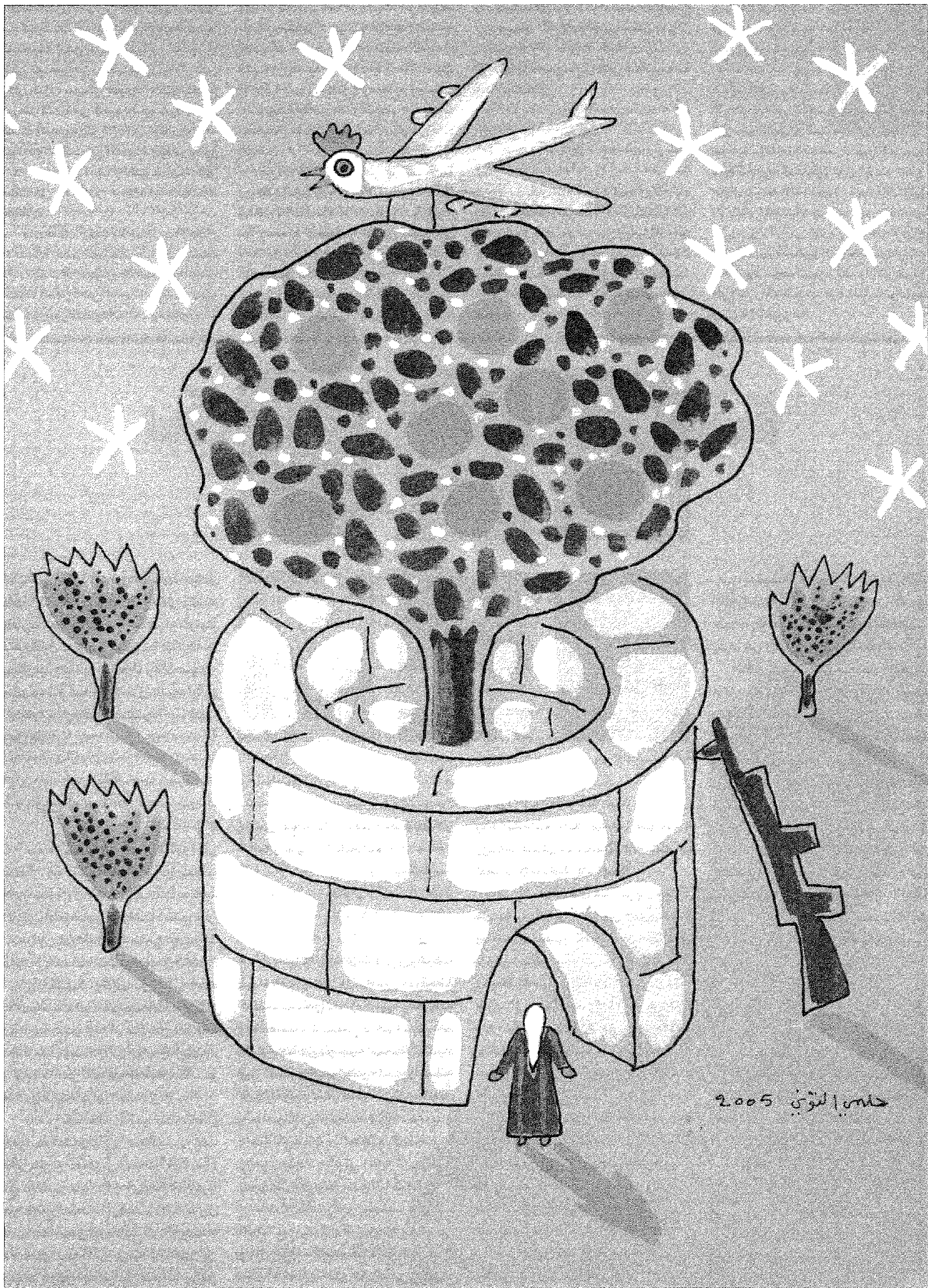
من السهل جداً أن تحلق بعيداً وأنت جالس فوق مقعد مريح. من السهل جداً، وبضغطة زر، إطلاق التعليقات النارية والتوبيخ الأخلاقى. من السهل جداً أن نلحق بالجماهير الغاضبة، سواء فى الشارع أو عبر الإنترنت.

الأقل سهولة، لكل منا، هو أن يعرف ماذا يمكن له أن يفعل إذا ما وجد نفسه داخل نظام قوى انحرف فى عنف إجرامى: أنتوافق معه ونكون فى مأمن، أم نخاطر ونواجه الجريمة؟.

كان ريدينهاور وداربى هما الاستثناء، مثلما كان هيرش استثنائياً فى تشدده الأخلاقى وهو يطبق المقاييس الرفيعة لمهنة الصحافة. لقد اعتمد هيرش فى عمله على طاقم تحرير صارم فى الصياغة. ويقول فى أحدث كتبه Chain Of Command أن «كل حقيقة كانت تخضع للتمحيص والمراجعة من المحررين».



وفى وقت الخطر الذى نعيشه، وفيه أصبحت صحافة «إم. إس. إم» هدفاً للظنون الأخلاقية والتقسيم القاسى، يبدو من الحيوى الآن ألا ننكمش خوفاً، إذ لا تزال قيم هيرش فى التحقيق والشك والاجتهاد، هى التى تجعل من الصحافة رقيباً على السلطة ولبس مجرد أصوات متراكمة صارخة، بغضب نبيل، فى صحراء اليكترونية. ■


حلمي التوني 2005

عملياً، كنت أتصور فلسطين بطريقة رومانسية منذ مولدي. فقد كانت بالنسبة لي مسقط رأس أبي ومدفن أحلامه. وكانت الأرض التي اغتصبتها إسرائيل وتجاهلها سائر العالم.

في مخيلتي كانت فلسطين بالنسبة للعالم الابن الجميل المظلوم لزوجة الأب، وكانت مجموعة من المشاعر المؤلمة التي تستعصي بالمرة على فهمي، وكانت أثيرية وسريعة الزوال ووجودية.

هاهو الوقت يحين كي تصبح حقيقة. فقد قرأت الكثير عن فلسطين، وسمعت عنها مراراً، وما أكثر ما رأيت مما يتصل بها، ولطالما تحدثت عنها، وما أوفر ما كتبت عنها. غير أني لم أعرف عنها الكثير. ولذلك قررت في ربيع عام ٢٠٠٤ الذهاب إلى فلسطين.

لامعقول

أخيراً هبطنا على أرض المطار. ساعتان من الاستجواب، أعقبتها أربع متدينين. وسلط لقائي مع زوجين صاحبي مطعم، هما تولي وبيني، الضوء على أمور كثيرة. كانا يشعراني بالإهانة وظلا غير مدركين أن حقهما في الأرض ادعاء فحسب. وأدهشني المرة تلو الأخرى كثرة ما ألح إليه الزوجان من تنازلات قدماها بعدم ذهابهما إلى العراق أو سوريا أو لبنان... فجميعها أراض وهبها لهما الرب. وكان هذان من الناس شديدي العلمانية؛ فهو يلبس قرطين في كل أذن، ومطعمهما هو المكان الوحيد الذي يقدم لحم الخنزير، وهو وحده الذي يظل مفتوحاً في عطلة السبت (فالمطعم مفتوح ٢٤ ساعة في اليوم و٣٦٥ يوماً في السنة)، وهما يظنان أن اليهودية التقليدية «خدعة دينية».

عبر الزوجان مراراً عن مدى كراهية التقليديين لهما لكونهم كارهين لأنفسهم، وعن مدى كراهية الأمريكان لهم لأنهم أشخاص سيئون، وعن مدى كراهية الفلسطينيين لهما ورغبتهم في أن يموتا ويرحلا. لم أقل أنا ولا هم شيئاً عن التاريخ الطويل من التعايش السلمي لماذا؟... لأن العرب خلف الجدار، وهم من يسرقون».

لا أستطيع أن أقول لكم مقدار ما أصبحت عليه من قدرة على كبح جماح رغبتي في النقاش، وكيف أصبحت ماهرة في أن أكون أمريكية (وبالمناسبة هم يرون الأمريكان سذج وجهلة بعض الشيء)، وكم كانت شدة رغبتي في الخروج من جلدي والتحليق فوقهما، تاركة جسمي هناك ليمثل ذلك الدور.

قال لي بيني «العرب ليسوا مثلنا، وأدمغتهم مختلفة عن دماغي ودماغك». ومن المفارقة أنه كان ينظر إلي مباشرة وهو يقول ذلك. وكانت كلمات الإرهابيين والعرب و«الإسلاميين» تحل الواحدة منها محل الأخرى. لم يكن يعلم أنه ينظر إلى واحدة «منهم» نظر العين. كان مزيج الاحتقار والاشمئزاز والازدراء من القوة بحيث كنت أفهمه أكثر في كل مرة يشير فيها «إليهم». قال الزوج إن «أناساً مثلنا لا يتقاتلون فيما بينهم». ثم عاد وقال: «الحكام العرب حكام مؤمنون، إنهم إسلاميون ولا يعرفون الحلول الوسط. إننا نريد فقط أن نعيش هنا، في تلك القطعة الصغيرة من الأرض التي بقيت لنا». وبينما كنا نطالع الخريطة أشارت تولي إلى سيناء، وأجزاء من سوريا ولبنان وقالت إنها ملك لهم، بموجب ما جاء في الكتاب». «نحن نحارب من أجل أرضنا، وهم يريدون قتلنا فحسب».

في النهاية كنت أعتزم إخبارهم أنني بالفعل عربية وفلسطينية ومسلمة. ولكنني تذكرت حينذاك أن بيني لا يزال يؤدي الخدمة العسكرية مرتين في الشهر، ولم أكن قد أنهيت رحلتي بعد. لن أعود إلى مطعمهما مرة أخرى.



الزيارة الأولى.. للوطن

جُمانة أبو غزالة

جمانة (٣٤ عامًا):
بعيداً عن الوطن.. وُلدت: في الكويت.
ولغير الوطن.. انتسبت أوراقُ هويتها «الرسمية»: لتحمل الجنسيتين الأردنية والكندية.
وإلى الوطن.. كانت رحلتها «الأولى» قبل أسابيع.
وفي الوطن.. حيث وُلد أبوها: في «يافا» قبل عشرة أعوام من النكبة، كتبت يومياتها.
وهنا بعض الحكايا.

أُخَر في وقت لاحق. هبطنا في يوم عطلة السبت، فكان المطار خالياً إلى حد كبير. وها أنا الآن في القدس الغربية، في أحد مقاهي الإنترنت بالمدينة: ما زلت أحاول تحديد أفضل طريقة لدخول القدس الشرقية ومنها إلى الضفة الغربية.

وجودي هنا أمر غير معقول في واقع الأمر. يبدو المكان هادئاً، بل وريفياً. ومما يدل عليه الحال اليوم، لا يمكنك معرفة أن هناك أي نزاع في المنطقة. هناك مجمعات وتوسيعات جديدة وملاعب وطرق. ولكن ما رأيته حتى الآن منطقة يهودية إسرائيلية، مع وجود عدد قليل جداً من العمال الفلسطينيين في أنحاء متفرقة. والناس يبدون سعداء وفي حالة من الاسترخاء والأمان. إن الحال هنا يبدو وكأننا داخل فقاعة، حيث الحماية التامة، والعيش في بلد يتمتع بالاكتفاء الذاتي، تماماً مثل أي بلد آخر.

الماء وفير في القدس الغربية، مثله مثل سائر المواد التموينية والضروريات. سرت بجوار الدكاكين والمراكز التجارية والمعارض وغيرها، وإن كان كل شيء مغلقاً بسبب عطلة السبت. يا لهم من أناس متدينين. دخلت المصعد بطريق الخطأ، وكان يتوقف عند كل طابق كي لا يُبذل أي جهد في الضغط على أية أزرار.

التقيت كذلك بإسرائيليين غير بين اليهود والمسلمين قبل إقامة دولة إسرائيل في عام ١٩٤٨.

بقدر ما كان الأمر مؤلماً، ورغم ما كانت رغبتي في الاختلاف، ظللت أركز على الهدف النهائي. ومع أني كنت أعرف مدى صعوبة إمساك لساني عن الكلام، إلا أنني كنت أريدهما أن يتحدثا بحرية. وكنت أريد أن أعرف ما الذي يؤمنان به حقاً، وكيف يريان الوضع. لقد رغبت في معرفة رؤيتهما.

إنني أعرف رؤيتهما إلى حد ما، للأسف: فهما شأنهما شأن كثيرين غيرهما من البالغين نشأوا وهم يتعلمون في المدرسة والبيت أن العرب والمسلمين والفلسطينيين (وهم جميعاً سواء لديهم) من سلالة مختلفة: فهم قوم يتسمون بالعنف والقتل والأنانية والكراهية. وقالت لي تولي إن هذا بالفعل جزء من المنهج الدراسي. وعلى أية حال، فقد سرق العرب أرضهم، تلك الأرض التي منحهم إياها الرب نفسه: فما هو الخير الذي يرتجى منهما؟

في لحظة من اللحظات، وبينما كنا نناقش الاقتصاد وكيف أنه من المعتاد أن يكون حساب الإسرائيليين في البنوك بالسالب، سألت إن كان ذلك يؤدي إلى حدوث سرقات أو جرائم. رد الزوج، بيني، بالنفي وسألني مبتسماً: «هل تعلمين

القدس.. اختلاط

اللغات والروائح والأديان

... ضحك بائع عاديات في المدينة القديمة حين أخبرته أنه لا مال معنا. ومن المدهش أن تسمع اللهجة والعبارات الاصطلاحية الأمريكية من عجوز أشيب كلامه غير واضح. وتبدو أمريكا هنا في شكل مغالى فيه. ومن اللافت للانتباه أن السكان اليهود الذي قابلتهم يعتقدون أن الولايات المتحدة تصور إسرائيل على أنها «الناس الأشرار...».

الشرق شرق والغرب غرب، ولكنهما يختلطان هنا في القدس. وتضم المدينة القديمة أحياء المسيحيين والمسلمين واليهود والأرمن. والواقع أنه من الصعب أن تحدد أين ينتهي الواحد منها وأين يبدأ الآخر، ولكن فجأة تجد نفسك في مكان يهودي تماماً أو مسيحي بشكل مطلق. ولكل حي

طابعه، وإن كانت معظم المحال تبيع الشيء نفسه. ولكن التردد مختلف، والسرعة متباينة، والجو متفاوت. فالحي اليهودي شديد التقليدية. وبناء على ذلك فهو هادئ إلى حد ما، ولا ترى سوى القليل من الحركة السياحية. ويتكون لديك إحساس واضح أنه داع لوجودك هنا.

يبدو أن الحي الأرمني يضم أكبر تجمع لمحال بيع الحلي والمجوهرات. وهذا هو أحد الأحياء الأقل كثافة من حيث عدد السكان؛ ويبدو هذا أقل إثارة بمجرد أن ترى أن جدران الحي مغطاة بملصقات عليها خرائط وإحصائيات تذكّر الناس بإبادة الأرمن الجماعية.

أما الحيان المسيحي والإسلامي فيقعان في القدس الشرقية، حيث لا يُسمح للفلسطينيين بالدخول إلا في ظل ظروف خاصة، رغم إعلان قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ القدس الشرقية أرضًا فلسطينية. وهذان الحيان يضجان بما تتسم به السوق الشرقية من نشاط؛ فهما صاخبان، وضيقان، وطرقهما ملتوية، وبهما كثافة سكانية عالية. وهناك بلا شك عبء حسي زائد عن الحد، حيث يرفع أصحاب المحال التجارية أصواتهم فوق أصوات بعض، ويسألك الناس إن كنت تريد القيام بجولة سياحية، وهناك الموسيقى (في الحي المسيحي) والقرآن (في غيره). كل هذا يقاطعه من حين لآخر صوت أبواق سيارات الجيب العسكرية الشهيرة.

في الصباح يُثار الأنف برائحة التوابل الغريبة والبن المطحون الطازج، وكذلك القرفة والحبهان... وكأنه يقول اخرج من هذه الحالة بسرعة! ليس هناك شيء غريب بخصوص إفطار الفقراء. ولكن فجأة تهاجم أنفك رائحة البول العفنة، فتسرع الخطى، لتعلم أنك بحاجة إلى حذاء نعله من المطاط كي لا تنزلق أو تزل قدمك أو تسقط كل مترين أو نحو ذلك.

التجاورات التي تراها تكون مشجعة أحيانًا وتبعث على الارتباك في أحيان أخرى؛ فالعرب واليهود يتحدثون معًا بحب ودفء، بل إنك تجد الكوفية واليرمولك (القلنسوة اليهودية) يتساومان. وبعد ذلك ترى رجلاً عجوزًا بذراع واحدة يحاول كسب لقمة العيش من بيع مخلفات جيش الدفاع الإسرائيلي وهو يبتسم. والواقع أنها صدمة للنظام. أما لافتات الطريق في المدينة القديمة فثلاثية اللغة، ولكن معظم اللافتات التي مررت عليها سُوِّدت الكتابة العربية التي عليها أو غُطيت بالورق الملتصق أو المخربشات العبرية، ولا أعرف الرسالة التي تضمنها الورق الملتصق أو المخربشات، إن كانت هناك أية رسالة. وبينما يتحدث أغلبية العرب اللغة العبرية، فقليل من اليهود يتحدثون العربية.

بعد ذلك رأيت لافتة بالعربية والعبرية والإنجليزية عند المدخل المؤدي إلى باحة كنيسة المهد تحظر الأكل والشرب والتدخين والضوضاء والملابس غير اللائقة، بالإضافة إلى أي شيء ليس فيه احترام لقدسية المكان. حين تدخل الباحة ترى على يسار المدخل المؤدي إلى الكنيسة حوالي العشرين من أفراد الجيش المسلحين وتسمعهم وتشمهم. إنهم يدخنون (الجميع يدخنون هنا، باستمرار)، ويشربون الكوكاكولا، ويجرون نوعًا من التدريب تقوده امرأة ذات صوت غليظ عال لابد أنها كانت تروي لهم بعض النكات.

حان وقت الغداء بعد قليل؛ وهو حتى الآن نظام غذائي ثابت من الحمص والفلفل الرومي والكرنب، بالإضافة إلى اللحم أو الدجاج أو الفلافل في واحد من عشرات المقاهي الصغيرة التي تشترك جميعها في قائمة الطعام التي يختار صاحب المحل طهيها وتقديمها، بغض النظر عما تقوله اللافتات.

هذه هي المدينة القديمة: حارة، وضيقة، ورخيصة، وفقيرة، ومختلطة، وتتسم بالفوضى، ومروعة، وبدائية، وتبعث على الحزن، وتثير الرهبة، كما أنها غريبة بالنسبة لكل من لم يولد في أحد هذه الأحياء، بالمعنى الحرفي للكلمة.

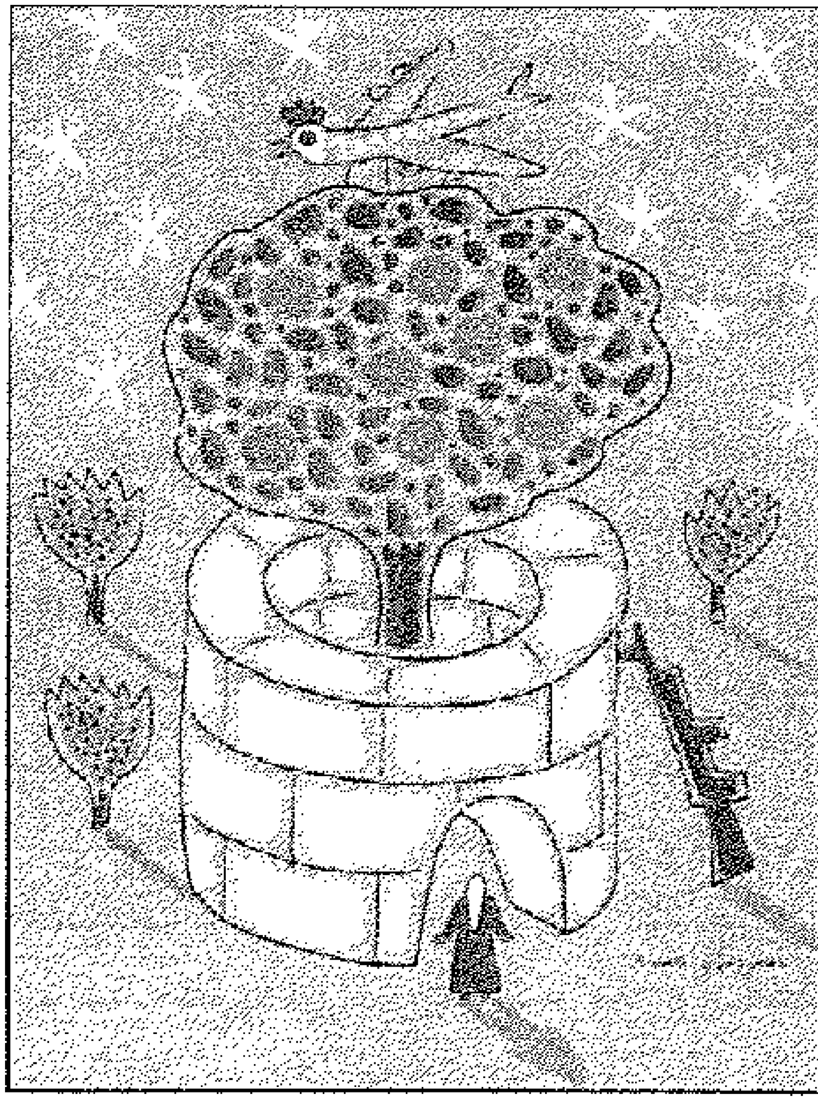


الجـــدار

ذهبنا اليوم إلى أبو ديس، أقرب نقطة في القدس إلى الجدار، بينما بقيت على الجانب الإسرائيلي لتحاشي نقاط التفتيش.

ذهبنا إلى هناك في أتوبيس غير مكيف الهواء، وكنا نتصبب عرقًا حين وصلنا. لم أفهم جيدًا القيام برحلة وأنا أرتدي ملابس المرأة المسلمة المتدينة، حيث غطاء الرأس والأكمام الطويلة والتنورة الطويلة. وأخيرًا وصلنا إلى هناك وتدفق الناس خارجين من الأتوبيس متجهين صوب ما يشبه الطريق المسدود. أما نحن فسرنا في الاتجاه المعاكس.

تجد على امتداد الجدار كتابات، هي في الغالب ضد الجدار ومن أنحاء العالم كافة. كما تجد رسومات معبرة تدل على ما يراه أبناء البلد في الجدار، وفي كيفية وجوده، وفي من أقاموه. وقد رُسمت صور بالطلاء البخاخ على خرسانة الجدار الرمادية بينها نجمة داود وداخلها علامات الدولار. ويسمى رسم آخر البناء بـ«جدار بوشارون»، مما يعكس فكرة أن بوش وشارون وثيقا الصلة ببعضهما بحيث يشتركان في اسم واحد.





بينما كنا نطالع الخريطة أشارت تولي إلى سيناء، وأجزاء من سوريا ولبنان وقالت إنها ملك لهم «بموجب ما جاء في الكتاب». «نحن نحارب من أجل أرضنا، وهم يريدون قتلنا فحسب»



في طريق العودة كي نستقل الأتوبيس، ذهبنا في الاتجاه الذي ذهب إليه الناس الذين كانوا معنا، فأصبحت الأمور واضحة؛ فقد استقلوا الأتوبيس ليصلوا إلى الجدار كي يتسلقوه ويدخلوا الأراضي المحتلة. ولأن الجدار لم يكتمل بناؤه بعد، فهناك القليل من «نقاط الاتصال» بين إسرائيل والأراضي المحتلة.

ليس مهمًا فهم أن هذا ليس «مجرد» جدار يفصل بين المجتمعين؛ فهو ليس سياجًا بين جارين. إنه يخترق المجتمعات الفلسطينية، ويشق بيوتها وعائلاتها إلى نصفين بالمعنى الحرفي للكلمة. ولأن الجدار لا يزال تحت الإنشاء، فهناك بضع نقاط من الانخفاض بحيث يمكن للناس تسلقها؛ وهو ما يفعلونه عند ذهابهم إلى العمل والمدارس والمستشفيات والزيارات العائلية والعودة منها... نساءً ورجالاً وأطفالاً وشيوخًا. وهذا الجدار يفصل الرجال عن أبنائهم، والنساء عن أمهاتهن، والمزارعين عن محاصيلهم، والقرى عن مياهها، والأطفال عن مدارسهم، والحوامل عن أطبائهن.

الجدار أفعى عاصرة تلتف حول الضفة الغربية وكل شيء فيها فتخنقها. إنه يلف نفسه حول المجتمعات الفلسطينية ويعتصر الحياة من الضفة الغربية، بالمعنى الحرفي للكلمة. وهو مميت، وطويل، ومكهرب، ويقتل فلسطينيي الضفة الغربية قتلاً بطيئًا، ومؤلمًا، وبلا رحمة.

التقطنا الصور... قال شخص عند تسلقه الجدار لدخول الأراضي المحتلة: «خذوا كل ما تريدون من صور؛ فكل هذا لا يساوي شيئًا». ولابد أن أعترف أنني شعرت الشعور ذاته كذلك؛ فقد كان الجدار من الكبر، وكان التأييد المضلِّل له باعتباره «حل صراع الشرق الأوسط» من العظم، بحيث ظننت أن أي شيء يمكن أن يفعله أي منا لن يولد القدر الكافي من الغضب. فالكثير من الناس الذين قابلتهم قبل زيارتي إلى هنا (وكذلك في أثنائها) والعديد من المقالات التي قرأتها يقلون في أهميتهم عن ضرورة الجدار لأمن إسرائيل. ويشير قدر كبير مما يقال في وسائل الإعلام إلى أن الجدار هو الوسيلة الوحيدة لمنع الفلسطينيين، وجميعهم من الإرهابيين تجار الحروب، من مهاجمة الإسرائيليين. ولكن هذا الجدار كما أراه سلاح دمار شامل، وليس حماية. فهو وسيلة لعزل الناس عن أحبائهم، وعن أراضيهم، وعن مصادر أرزاقهم.

بعد دقيقة أو نحو ذلك، قال رجل يتسلق الجدار عائدًا إلى إسرائيل: «أرجوك من فضلك أن تأخذي الكثير الكثير من الصور، فحين يكتمل لن يُسمح لك بذلك. التقطي الصور قبل أن يأتي الجيش». وكذلك فعلت.



سـجـن عـوفـر

شاركت اليوم في مظاهرة نسائية برفح. وقفت مع الأمهات والأخوات والبنات والخطيبات والزوجات والجدات على ربوة تشرف على سجن عوفر. هؤلاء النسوة يجتمعن كل أسبوع بلا استثناء مطالبات بالإفراج عن أحبائهن من سجن عوفر، وهو السجن المعروف بوحشية سجانيه والمعاملة غير الآدمية للنزلاء.

عشرات الآلاف من الفلسطينيين محتجزون بلا أية تهمة. الكثير من جيل الصبيان الفلسطينيين التالي في

السجن. وفى الفترة الأخيرة يجد المزيد والمزيد من النساء أنفسهن كذلك خلف القضبان، بينما لم ترتكب أى منهن أية جريمة، ولا تجد إسرائيل نفسها مضطرة لشرح أسباب اعتقالهن. ولا يعرف معظم الناس متى يخرج أبوهم أو ابنهم أو شقيقهم من السجن، إن كان سيخرج منه فى يوم من الأيام.

اجتمعنا فى بيت بالقرب من السجن ننفخ البالونات وننظم أنفسنا، ثم دخل الجد وطردنا فى نوبة من الهستيريا إلى خارج البيت، فهو لا يريد أى شىء يتصل بأية مظاهرة من أجل أى شىء فى أى مكان؛ ويبدو أن آخر مرة شارك فيها حفيده فى إحدى المظاهرات دمروا بيته. وهو لا يريد مشاكل.

كان هناك حوالى الخمسين منا، وكن مسلحات باللافتات أو البالونات أو الأصوات. وقفنا قبالة السجن ونادينا على السجناء بأسمائهم. كنا نريدهم أن يعرفوا أنهم لم يُنسوا.

رن جرس تليفون محمول: إنه شخص من داخل السجن، لقد سمعونا، وصرخنا من جديد بصوت أعلى، وشكرونا على رفعنا لمعنوياتهم، وقالوا لنا إنهم سعداء لأن سَجنَهم لم يذهب هباءً. وأرجو أن يكونوا محقين فى هذا.

مكالمة أخرى، وكانت هذه المرة من أم أحد الجنود اليهود الرافضين للخدمة فى الأراضى المحتلة: كانت تتمنى لو أن جماعتها استطاعت الانضمام إلينا، ولكنها لن تستطيع هذه المرة، غير أنها تريدنا جميعاً أن نعرف أننا نفعل الشىء الصحيح.

تبدأ بعض الإيطاليات الموجودات هنا ضمن «المشروع أمل» الإنشاد، وتبدأ سيارات الجيب فى التقاطر إلى المكان، فنلملم أشياءنا ونلوح مودعين للسجناء، دون أن تبكى واحدة منا.



يافا

يافا جميلة، واسأل عن ذلك أى أحد. إنها شقيقة تل أبيب الأبهى منظراً. فبالرغم مما تتباهى به تل أبيب من حركة ونشاط وتجارة، تتمتع يافا بقدر أكبر من السحر والشخصية والروح. ولابد أن تأتى بنفسك لتراها؛ فالكلمات لا توفيها حقها. وقد رأيت القديم والجديد، والمدينة والقرية، والنظيف والقذر، والمرتفع والمنبسط، والعربى والإسرائيلى؛ جميعه على تلك الرقعة الصغيرة من الأرض... وقارنت بعض المناطق بمدن فى أوروبا. وشعرت بوجود شىء روحانى ما فى بعض الأماكن.

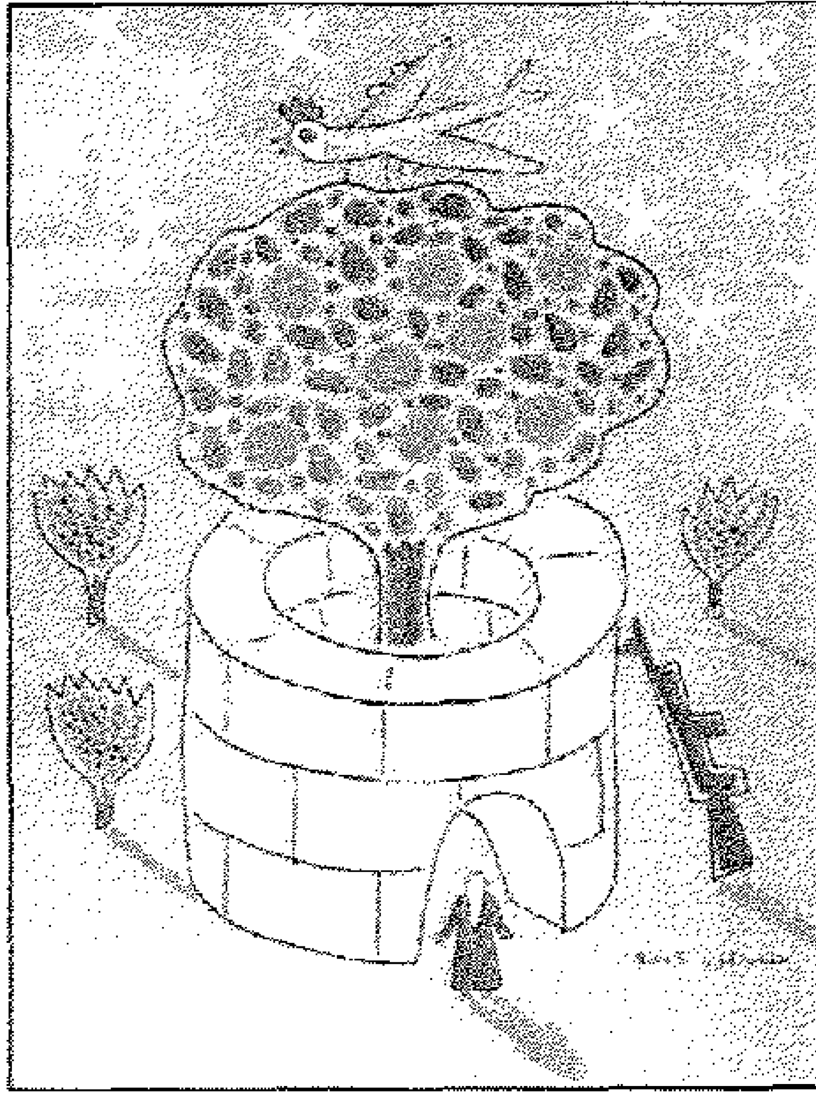
لكن يافا أربكتنى. لم أستطع أن أقرر إن كانت أشبه باليونان أو بجنوب فرنسا أو بأجزاء من سويسرا أو بكروم مارثا أو بالريف الإيطالى.

ذهبنا بالسيارة من القدس عبر تل أبيب على طريق يتراوح عدد حاراته بين ٦ و٨ وتوقفنا فى يافا. وعلى طول الطريق يدهشك مدى اخضرار هذا البلد، ومدى خصوبته وغناه الطبيعى. وإنى متأكدة من أن الطريق نفسه كان بديع المنظر. فأنت ترى التل يتلوه تل، ثم بقعة من الأرض بنية اللون بها كل درجات اللون الأخضر، وترى الانعكاس الفضى المرقش لأشعة الشمس الساطعة على كل مسطح مائى، وترى بيوتاً يزيد عمرها على المائة عام، وهى الآن خاوية تتناثر على التلال. كما ترى على جانبى الطريق دبابات استخدمها الجيش الإسرائيلى فى عام ١٩٤٨ محفوظة ومطلية بدرجة من الأحمر بلون الصدأ. إنك ترى ذلك وتقترب من فهم السبب وراء حرب الناس من أجل هذه الأرض.

تشير ناطحات السحاب إلى اقترابنا من تل أبيب. إنها ولا شك مدينة نشطة. وهى نظيفة وحديثة وسياحية. كما أنها خليط يجمع بين لوس أنجلوس وشاطئ فينيسيا، وسكانها أناس كثيرو الحركة ومهندمون ويتصفون بالجمال. ويوجد هنا المال والسلطة والنفوذ والملاهى الليلية ومطاعم الخمسة نجوم والسيارات المزخرفة التى تصدر منها موسيقى البوب على امتداد الشاطئ الذى يزينه النخيل. وأغلب سكان تل أبيب من الإسرائيليين، وإن كان بعض العرب يعيشون بينهم. وبينما كنا نمضى بالسيارة أمام المبانى الحديثة مررنا بمسجد قديم أسكتته السلطات الإسرائيلية، مع أنه لا يزال يعمل ويؤمه المسلمون يومياً. فأنت لا تسمع الأذان آتياً من ذلك المسجد.

لكننا سوف نسمع الأذان فى يافا. فإذا ظللت تسير على الشاطئ سوف تصل إلى يافا، وفجأة لن تجد نفسك فى مدينة أخرى فحسب، بل فى زمن آخر تماماً، حيث تصبح تضاريس المدينة أكثر تحديداً. إن بإمكانك رؤية الخطوط الخارجية لمسجد وكنيسة بجوار بعضهما، حيث يطل كلاهما على البحر. وقد توقفنا عن السير حين بلغنا يافا ونظرنا للخلف من هناك، فبدت تل أبيب وكأنها غابة من الخرسانة، أقرب شبهاً إلى وسط أية مدينة فى العالم.

فى تل أبيب يستلقى الناس على الشاطئ، وفى يافا ينطلقون منه لاصطياد الأسماك. لم تعد فى مدينة كبيرة، بل أنت فى قرية يعرف الناس فيها بعضهم بعضاً بالاسم. ويبلغ ارتفاع أعلى بناء أربعة طوابق. وفيها يتجمع كبار السن مساءً للشكوى من نسائهم. ويافا هى موطن الإسرائيليين والعرب. حيث إنهم جيران منذ زمن، وهم يشتركون فى الهواء والطعام والمدارس ومنظر يتعدى قدرتى على الوصف، وهم عائلة، وكذلك كانوا دائماً.





هذه هى المدينة القديمة: حارة، وضيقة، ورخيصة، وفقيرة، ومختلطة. وتتسم بالفوضى، ومروعة، وبدائية، وتبعث على الحزن، وتثير الرهبة





هل تأتين كثيراً إلى هنا؟

افترض أنه يحدث دائماً للنساء الإسرائيليات كافة أن يتحرش بهن رجل ذو سلطة، رجل يأمر الناس بما يفعلون، رجل من القوة بحيث يستدعى الاحترام، إن لم يأمر به. رجل تؤكد رجولته البندقية M-16. وأتخيل مقدار ما تناله أولئك النسوة من إطراء حين ينظر إليهن فارسهن الذى يرتدى صديرية مضادة للرصاص نظرات موحية وهو يمر بسيارته الجيب التى هى المظلة الأمنية لكل إسرائيل. وعلى أية حال، فهذا هو الرجل الشجاع، الشريف، المقدام، الحامى: وعلى أية حال، فالرجل المغالى فى التباهى برجولته الذى لا يسمح بحدوث أى شىء لمحبوبته هو موضوع الحكايات الخيالية.

لكن حين حدث ذلك لى، لم أشعر بالإطراء فحسب، بل شعرت كذلك بالخجل، ولم يحدث أننى لم أتأثر بذلك فحسب، بل إنه أثار اشمئزازى. حين غازلنى جندى فى إحدى نقاط التفتيش الإسرائيلية كانت لدى رغبة فى التقيؤ، ليس لأنه جندى إسرائيلى، بل أردت التقيؤ لأنه حين أشار إلىّ بالخروج من الحشد، وأخذ وقته فى تقليب محتويات حقيبة الظهر الخاصة بى وتقليب أشيائى ببندقيته من طراز M-١٦، نظر إلىّ، أنا الضيفة الكندية، وقال بلطف: «انتبهى، فالعرب سيئون، ولكننى أهتم بك، فأنا أقتلهم». ثم ابتسم لى، وتظاهر بإطلاق النار على سائق التاكسى الذى أستقله.

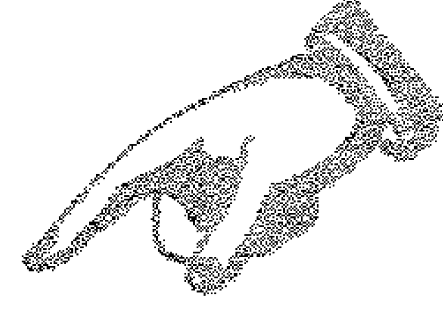
وقفت هناك بينما كان هو يحدق فىّ. وقفت هناك أمثل دور الأجنبية الساذجة. وقفت هناك بينما كان الآخرون ممن كنت معهم، وجميعهم من السكان المحليين باستثناء اثنين منا، يتحدثون فيما بينهم عن كيف كانوا محظوظين لوجودى معهم؛ حيث ألان وجودى الجندى. ثم تحدثوا بعد ٢٠ دقيقة و١٠ تعليقات موحية، عن رغبتهم فى أن يسرع ويحصل على رقم تليفونى لكى ينجوا هم بأرواحهم. وقفت هناك، كذبة حية تتنفس بالنسبة لطرفى الصراع.

شعرت بالخجل، مما جعلنى أقوم بدور البكماء، وأظل أقوم به، وأخفيت فى الأساس هويتى. شعرت بالخجل لدرجة أننى لم أقل للجندى أنه كان لابد أن يقتلنى كذلك، بناء على نظريته. شعرت بالخجل لأن الشخص اللطيف كان من نصيبى وكان الدكتور جيكل من نصيب كل فرد غيرى. شعرت بالخجل لأن الجميع اضطروا للانتظار من أجلى. شعرت بالخجل لأننى لم أؤيدهم. شعرت بالخجل لأننى استخدمت جواز سفرى الأجنبى كى أفعل ما يُحرم منه أبناء البلد أنفسهم داخل بلدهم. شعرت بالخجل لأننى أسفت لكونى كندية، بدلاً من تقديرى لما سمح لى كونى كذلك من عمله، الأمر الذى قد ينطوى على المفارقة.

عدت إلى السيارة الصفراء المتداعية وتساءلت عما سأفعله خلاف ذلك لو حدث شىء كهذا مرة أخرى. أنى أخجل أن أقول أنى قد أفعل الشىء نفسه من جديد.



كتاب الزاوية



عبد الرحمن الكواكبى

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

«أصيب الشرق بفقد رجل عظيم من رجال الإصلاح الإسلامى وعالم عامل من علماء العمران وحكيم من حكماء الاجتماع البشرى ألا وهو السائح الشهير والرحالة الخبير السيد الشيخ عبد الرحمن الكواكبى الحلبى، مؤلف كتاب «طبائع الاستبداد» وصاحب سجل جمعية أم القرى الملقب بالسيد الفراتى. اختطفت المنية منا بغتة هذا الفاضل الكريم والولى الحميم» كان ذلك نعى الشيخ محمد رشيد رضا صاحب المنار لعبد الرحمن الكواكبى عند وفاته فى القاهرة عام ١٩٠٢. وقد ولد الكواكبى عام ١٨٥٥ فى حلب وتعلم فى مدارسها ثم عُين محرراً للجريدة الرسمية فى الثانية والعشرين من عمره وتقلب فى الوظائف العامة وأصدر جريدة «الشهباء» ثم «اعتدال» وانتقل إلى القاهرة ومنها زار بلداناً عديدة. وكانت كتاباته خاصة «طبائع الاستبداد» صرخة فى وجه المستبدين فى زمن ازداد فيه الاستبداد والطغيان حتى شمل مختلف المجالات. وما أشبه الليلة بالبارحة.

«وجهات نظر» تنشر مقتطفات من «طبائع الاستبداد» الذى أعادت دار النفائس فى بيروت إصداره عام ٢٠٠٣ مواكبة للذكرى المئوية لوفاته.

نقطة تفتيش

غادرت القدس فى حوالى الثانية عشرة ظهراً متوقعة القيام برحلة ملتوية عبر الجبال، على افتراض منع الجيش لنا من دخول نابلس عند نقطة التفتيش. الوضع هنا شديد التوتر؛ بل إن الجنود حين لوحوا لنا ببنادقهم من طراز M-١٦ قالوا إن علينا أن نكون شديدى الحذر، لأن تواجد الجيش فى نابلس زاد مؤخراً.

وقف بعضنا عند نقطة التفتيش بينما كان الجنود يتحادثون معنا ويلقون التعليمات على العرب بصوت مرتفع، وعادة ما كانوا يبدأون بعبارة «قف هنا» وكانوا يصوبون البنادق باستمرار. كانت امرأة هَرِمة ترتدى الزى الفلسطينى التقليدى تخطو خطوات بطيئة مُتْعَبة لتصل إلى الصف حيث ستضطر إلى الانتظار ساعة على الأقل فى ذلك الجو الحار الذى أراه خانقاً. كانت تحمل كيساً من البلاستيك وعصا؛ ومع أن كل خلية فى جسمها كانت تشدها لأسفل، فإنك ترى الجهد الذى تبذله فى الإبقاء على رأسها مرفوعاً. لقد قامت بهذه الرحلة ملايين المرات من قبل، وسوف تقوم بها من جديد...

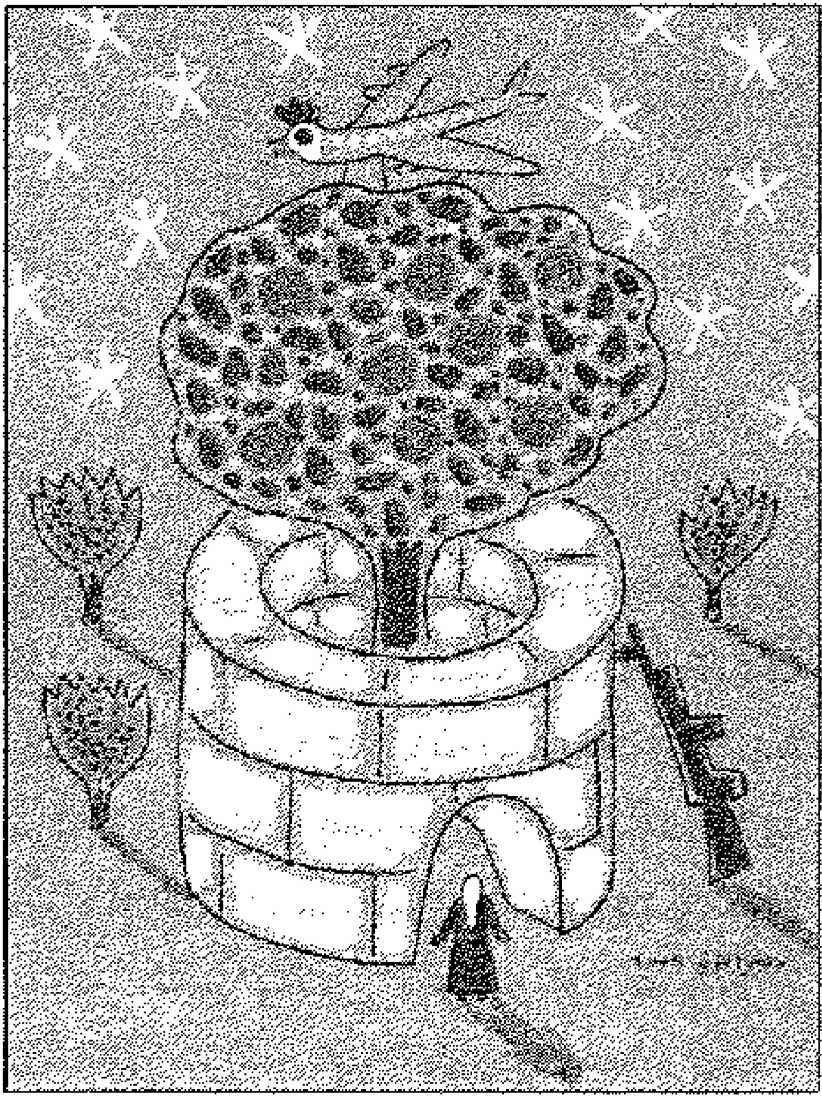
سألنا الجنود عن السبب فى رغبة الأجانب فى الذهاب إلى الضفة الغربية. لماذا نرغب فى رؤية «هؤلاء الناس»، وقلنا لهم إننا معلمون، فقالوا «لماذا يريدون تعلم اللغة الإنجليزية؟» تركونا منتظرين نصف ساعة، كانوا يسألوننا خلالها عن كرة القدم وعن بلد كل منا، وعن الطقس فى أنحاء العالم المختلفة.

ثم انطلقنا؛ بينما كان الناس، الذين لهم عائلات ومصادر رزق يحصلون عليها على الجانب الآخر من نقطة التفتيش؛ لا يزالون منتظرين فى الصف... ومن غير المرجع إلى حد بعيد ألا يدخلوا اليوم.



مدينة ترتدى ثوب الحداد

أقيم مع أسرة فى البلدة القديمة بنابلس؛ على الماء الجارى وبلا أبواب أو نوافذ. لقد أضافوا للتو سقفاً بديلاً لأن الجيش أطار السقف الأصلى فى إحدى غاراته وقتل إحدى بناتهم. وهناك اثنان من أشقائها فى السجن؛ فالجيش يزعم أن أصدقاءهما ضالعون فى أنشطة إرهابية. أتم أحدهما عامه السابع عشر





وقف بعضنا عند نقطة التفتيش بينما كان الجنود يتحادثون معنا ويلقون التعليمات على العرب بصوت مرتفع، وعادة ما كانوا يبدأون بعبارة «قف هنا» وكانوا يصوبون البنادق باستمرار



وهو فى السجن، وكان الآخر على وشك الزواج. وقصة أسرة والدهما لا يصدقها أحد.

بعد الواحدة صباحاً بقليل بدأ القصف واستيقظ كل من فى البيت الذى كنت أنام فيه، كان الظلام يلف المكان، بينما كان الراديو والتلفزيون المشوشان كلاهما مفتوح لسماع الأخبار العاجلة، واستمرت الانفجارات والطلقات ٤ ساعات تقريباً. وفجأة سمعنا أنه هجوم على معسكر للاجئين فى نابلس. أظن أنكم سمعتم عنه فى الأخبار، لأن ضابطاً إسرائيلياً قُتل. ولكن من المرجح أنكم لم تسمعوا بقصة الصبيان السبعة الذين قُتلوا قبل وصولنا مباشرة فى البلدة القديمة ثم دُمر المنزل. سألتنا الأم «٧ أمس و٤ اليوم، وكم غداً؟» لقد ذكَّرتنا بالشقيقين اللذين لم يفصل بين مقتلهما أكثر من أسبوعين، حيث قُتل ثانيهما قبل بضعة أيام.

كان الأمر مرعباً. طلب منا جميعاً غلام فى السادسة من عمره، هو حفيد مضيفتنا الذى كان منكمشاً فوق الأريكة، الجلوس على الأرض. وقال لجدته إنه سعيد لوجود أجانب فى الدار. تنهدت الجدة وقالت له ألا يخاف وقالت لى «بقى واحد هنا ليُقتل».

كان الجيش يطارد شابين. قُتل ٤ فلسطينيين بينهم أستاذ جامعى وابنه. بدت الليلة وكأنه لا آخر لها. كانت أجهزة

التليفون المحمولة جميعها ترن فى وقت واحد، حيث كان الناس يطمئنون على بعضهم. وطلب منا الصبى وليد مرة أخرى أن نجلس على الأرض. قال لنا ذلك لأنه الرجل الوحيد فى البيت، وسوف يحافظ على سلامتنا. كان يرتعش فى درجة حرارة مقدارها ٨٠ فهرنهايت.

ذهبنا إلى المستشفى فى صباح اليوم التالى لتقديم الدعم وتوثيق ما نرى. كان أول ما وجدناه حشداً من الناس يندفع خارجاً من المستشفى إلى الشارع. كان هناك بعض الرجال الغاضبين؛ كانوا بارزين. أما باقى حشد المستشفى فكانت وجوههم يعلوها الحزن والكآبة. لم يكونوا غير مصدقين ولا حتى مصدومين، بل كانوا فى حالة من اليأس.

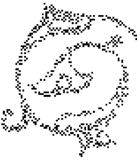
كانت المدينة كلها فى حالة حداد ذلك اليوم. ظل الناس يسألون الدوليين عن عدد من سيلقون حتفهم قبل أن يهتم العالم. كانوا يشكروننا على وجودنا بينهم، وكانوا كذلك يناشدوننا أن نحكى للناس. بدأ موكب الجنازة من عند المستشفى. ويبدو أن السكان جميعاً خرجوا للتظاهر. مشينا ساعتين إلى المدافن؛ حيث أغمى على البعض من شدة الحر. كان من المهم بالنسبة لنا أن نكون هناك لئلا يمنع الجنود عند إحدى نقاط التفتيش الثابتة أو المتحركة العائلات من الذهاب إلى المدافن. كان أحد المتوفين ابن عم امرأة تسكن فى نفس المبنى الذى تقيم فيها الأسرة التى تستضيفنا. هل تعرف أنك فى بعض الأحيان تكتشف أن هناك بكاءً مصطنعاً لاستجداء العطف؟ أقسم أننى شعرت بالعكس هنا؛ فقد كانوا يتصنعون عدم وجود الدمع، وكان هناك جهد مشترك لإبقاء بواباته مغلقة. وقالت لى، مثلها مثل كثيرات غيرها، إن الفلسطينيين ليسوا بحاجة إلى الشفقة علاوة على ما يعانونه؛ فهم يشعرون بما يكفى من الضآلة. وعلى أى الأحوال فإن «هذه ليست المرة الأولى التى يموت فيها أحد من أسرتى ولن تكون الأخيرة».

(باعتبارى «آتية للمرة الأولى»، فقد سُمح لى بدخول البلاد بسهولة نسبية، بينما رُد الكثيرون على أعقابهم، أو جرى ترحيلهم على الفور، أو مُنعوا من دخول البلاد. وما إن يحدث لك ذلك حتى لا يمكنك العودة لمدة ٥ سنوات على الأقل).

بعد الجنازة، عدت أنا وفريزر (إحد رفاق الرحلة) إلى القدس عبر نقطة التفتيش. وقد جعلونا نتنحى جانباً. وبعد بضع دقائق طلبوا منا السير نحو الدبابة. ذهبنا إلى الدبابة وأشار الشخص الذى بداخلها إلى طاولة. وهناك جاء رجل آخر مصوباً بندقيته من طراز M-١٦ طلب منا وضع أغراضنا فوق دواسة مطاطية وأشار ببندقيته إلى الأجزاء التى يريد فتحها. وبعد أن أخرج فريزر كل شىء من حقيبته وأعاده إليها، أشاروا لنا بالعودة مرة أخرى إلى نقطة التفتيش. وبينما كنا ننتظر دورنا، رأيت جندياً يخرج امرأة من بين الحشد ويأمرها بالعودة إلى بيتها؛ فلن يُسمح لها بالدخول. تقدمنا: «لم أنتِ هنا؟ ماذا كنت تفعلين هناك؟ لم ذهبت إلى هناك؟ ماذا تدرسين هناك؟» ثم سأل فريزر: «ما هو بلدك؟» «المملكة المتحدة». «أى مكان فى المملكة المتحدة؟» «لندن». «أى مكان فى لندن؟» «إيلنج». «أى مكان فى إيلنج؟» «ويست إيلنج». وأعطاه فريزر اسم الشارع. «يوماً سعيداً». لقد نجحنا.

عدنا إلى القدس. قتل خلال الاثنتى عشرة ساعة التى مرت منذ مغادرتنا نابلس ثلاثة أشخاص فى مخيم بلاطة للاجئين حيث كان هؤلاء الرجال يقيمون. أتساءل إن كنت قد قابلت أياً منهم، وأدرك فحسب مقدار الفرق الذى تحدثه الشجاعة فى الجسم.

حلم أمريكى آخر.



حاشية

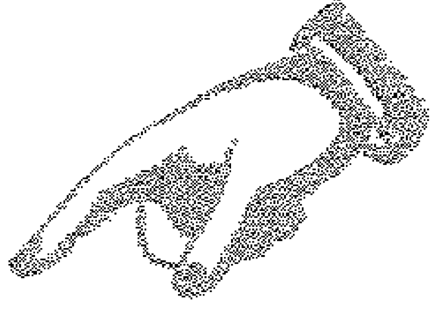
على عكس الاعتقاد الشائع، لا يريد الفلسطينيون الكثير. لقد رحبوا بى فى بيوتهم، وقدموا لى فراشهم، وأطعمونى وجباتهم، وفتحوا لى قلوبهم. ومن المفارقة أننى أنا التى اعتمدت عليهم. ثم يطلبوا منى شيئاً. كل ما أرادوه منى أن أحكى قصتهم للعالم. سأفعل ذلك بالطريقة التى أقدر عليها بقية حياتى.

لكن لا تكتفوا بما أقوله. اذهبوا إلى فلسطين. سيروا فى معسكرات اللاجئين. قفوا بجانب الجدار. اذهبوا إلى مزارع الزيتون. زوروا الأماكن المقدسة. اقضوا بعض الوقت مع أبناء البلد. تحدثوا مع الأطفال. قفوا فى الصف عند نقاط التفتيش. اذهبوا إلى جنين. اذهبوا إلى نابلس. اذهبوا إلى القدس. اذهبوا إلى يافا. اذهبوا إلى الخليل. اذهبوا إلى تل أبيب.

اذهبوا وشاهدوها بأنفسكم، بأعينكم أنتم. عيشوا الحياة فى الضفة الغربية، وفى غزة إن استطعتم. ثم أصدروا أحكامكم. وبعد ذلك احكوا قصصكم للعالم. ■

ترجمة: أحمد محمود

كتاب الزاوية



عبد الرحمن الكواكبى

الاستبداد

الاستبداد هو نار غضب الله فى الدنيا، والجحيم نار غضبه فى الآخرة. وقد خلق الله النار أقوى المطهرات فيطهر بها فى الدنيا دنس من خلقهم أحرارًا وبسط لهم الأرض واسعة وبذل فيها رزقهم، فكفروا بنعمته ورضخوا للاستعباد والتظالم.

الاستبداد أعظم بلاء، يتعجل الله به الانتقام من عباده الخاملين ولا يرفعه عنهم حتى يتوبوا توبة الأنفة. نعم، الاستبداد أعظم بلاء لأنه وباء دائم بالفتن، وجدب مستمر بتعطيل الأعمال، وحريق متواصل بالسلب والغصب، وسيل جارف للعمران، وخوف يقطع القلوب، وظلام يعمى الأبصار، وألم لا يفتر، وصائل لا يرحم، وقصة سوء لا تنتهى. وإذا سأل سائل: لماذا يبتلى الله عباده بالمستبدين؟ فأبلغ جواب مسكت هو: إن الله عادل مطلق لا يظلم أحدًا، فلا يولى المستبد إلا على المستبدين. ولو نظر السائل نظرة الحكيم المدقق لوجد كل فرد من أسراء الاستبداد مستبداً فى نفسه، لو قدر لجعل زوجته وعائلته وعشيرته وقومه والبشر كلهم حتى وربه الذى خلقه تابعين لرأيه وأمره.

فالمستبدون يتولاهم مستبد والأحرار يتولاهم الأحرار، وهذا صريح معنى: (كما تكونوا يولى عليكم).

ما أليق بالأسير فى أرض أن يتحول عنها إلى حيث يملك حريته، فإن الكلب الطليق خير حياة من الأسد المربوط.



رفيق الحريرى..

حرية تنتصر على الاستبداد



غســــــان تــــويـنى



فى ساحة الشهداء بوسط بيروت يرقد اليوم رفيق الحريرى رسولاً لحكم جديد ووطنية يستحدثها بالعمل ولا يهمه رأى الناس فيه!



■ رفيق الحريرى كان عملاقاً من فولاذ ونحاس، فكيف كان يمكن أن نصدق أنه يُغتال كأى إنسان آخر؟

رفيق الحريرى نحت تمثاله من حياته، بأزميل الإرادة الذاتية، ثم سكب فيه حكايات تصميم على النجاح لا رادع له.

فى زمن الاستبداد العربى، سيخلف هذا الحاكم ذاكرة ديمقراطية لم ترسم طبائعها فلسفة ولا عقيدة، بل مجرد ترقية طبقية من منطلقات المجتمع الدنيا إلى قمة سلطة رسمت لنفسها قدراً لا يعترف بمستحيل.

تلك كانت أسرار قيادته الشعبية: من الناس كانت، وباسمهم ومن أجلهم تمارس حكماً يفيض على ضفاف الدستور. والمحرك هو العمل فى مجتمع البذل والعطاء، والبناء بلا حدود.



سحرنى بأول طلب وجهه إلىّ كسفير لبنان يحترق بالاحتلال الإسرائيلى، فى مكالمة هاتفية الساعة الرابعة ذات صباح عام ١٩٨٢، من بيروت إلى نيويورك.

كان يريدنى أن أعجل الأمم المتحدة توصل ثلاث بواخر من الأغذية من قبرص إلى مدينته صيدا. «وين المشكلة»؟ سألته. قال إسرائيل لا تسمح بوصول البواخر إلى صيدا. تريدها أن تفرغ الحمولة فى حيفا، فتنقل هى الأغذية براً إلى مدينة صيدا؟... «أهلى لا يريدون الأكل من يد جيش الاحتلال».

عندما استيقظت نيويورك، بعد خمس ساعات، كان جواب الأمم المتحدة أنها مستعدة أن تسمح للحكومة اللبنانية برفع أعلام الأمم المتحدة على بواخر من قبرص إلى صيدا. أبلغت رفيق الذى لم أكن أعرف من هو بأكثر من الاسم. فهنأنى، ولم أفهم لماذا.

قال: «عال. لدى بواخر وهى محملة فى مرفأ أوروبى. سأسجلها باسم لبنان (ما همنى الحكومة!) وأطلب إليها الإبحار إلى قبرص حيث توجد قاعدة دولية لديها ولا ريب أعلام زرقاء. المطلوب أن تبرق المنظمة إلى القاعدة لتعطى البواخر أعلاماً».

وأقفل الهاتف بدون انتظار جواب. وافترض أننى مثله لا بد أن أجد حجة أو طريقة لتلبية الطلب، وكأننا، نحن الاثنين - هو المواطن البسيط وأنا السفير المنقطع عن حكومته بل وطنه - فى وسعنا أن نختصر كل قوانين الحرب والسلم لنوصل الأغذية إلى «أهله فى صيدا».

وهكذا كان، ولم تعلم حكومة كانت السلطة تذوب فى أيديها بنار العدو. ولا أذكر أنه شكرنى بعد ذلك. ولم أعلم بأن الأغذية وصلت إلى صيدا فى اليوم التالى للمكالمة إلا من سفير أسوجى كانت نيويورك قد أرسلته ليدرس احتياجات الجنوب المحتل، فأبرق تقريراً يشيد فيه بالحكومة التى أمنت التغذية لعاصمة الجنوب.. بحراً! علماً بأن بيروت العاصمة كانت جائعة ومحاصرة.



... وهكذا صار رفيق يفهم الحكم، لما تولى رئاسة الحكومة بعد عشر سنوات.

بيروت مهدمة؟... لا بأس، نبنيها أولاً، ونجد القوانين فيما بعد!

وبدأ يعمر ما دمرته إسرائيل، وما كان قد دمره لحساب إسرائيل لبنانيو الحروب المتواطئون معها، من حيث لا يدرون، لأنهم لم يتفهموا استدراجها إياهم، كلهم، إلى حروب مستحيلة الانتصارات.

ولكن الحريرى كان قد فهم لماذا بيروت تدمرت، ولماذا يجب أن يعيد هو بناءها، لأنهم هم لن يعيدوا بناء ما دمروا.

المهم أن تعود بيروت، و«الوسط التجارى» بالذات، معمرة، حتى تزيل الحدود التى اصطنعتها «حروب الآخرين» بين اللبنانيين الذين كانت توحدهم أرض العاصمة ووسطها. وفى الوسط... «ساحة الشهداء» حيث يرقد اليوم رفيق الحريرى رسولاً لحكم جديد ووطنية يستحدثها بالعمل، ولا يهمه رأى الناس فيه!

يرقد رسولاً، بل شهيداً فى جوار التمثال الذى يؤبد ذكرى الشهداء الذين علق مشانقهم هناك من مائة سنة الطغيان العثمانى الذى خلف الإفساد الإمبريالى لسياستنا وأنظمة الحكم لأجيال وأجيال.



اللبنانيون - ولاسيما شبابهم الثائر - عادوا الآن يختلطون ويتوحدون فى تلك الساحة، ويصلون معاً على ضريح الشهيد الواحد والأربعين، ثم يهزجون ويهتفون...

ويفرح بصورهم بل يفرح معهم وبهم أبناء رفيق الحريرى الذى كان يقول أنه يريد تعمير المدينة كى يفتخر أبناؤه ويفاخروا الآخرين غداً بأن والدهم أعاد بناء ما هدمه أولاد سواه فى حروب جعلهم الغرباء والأعداء وربما الأشقاء يخوضونها عن جهل وعن ضلال يتوسل أرفع المثاليات حيناً، ويتنكر بالتخلف أحياناً.

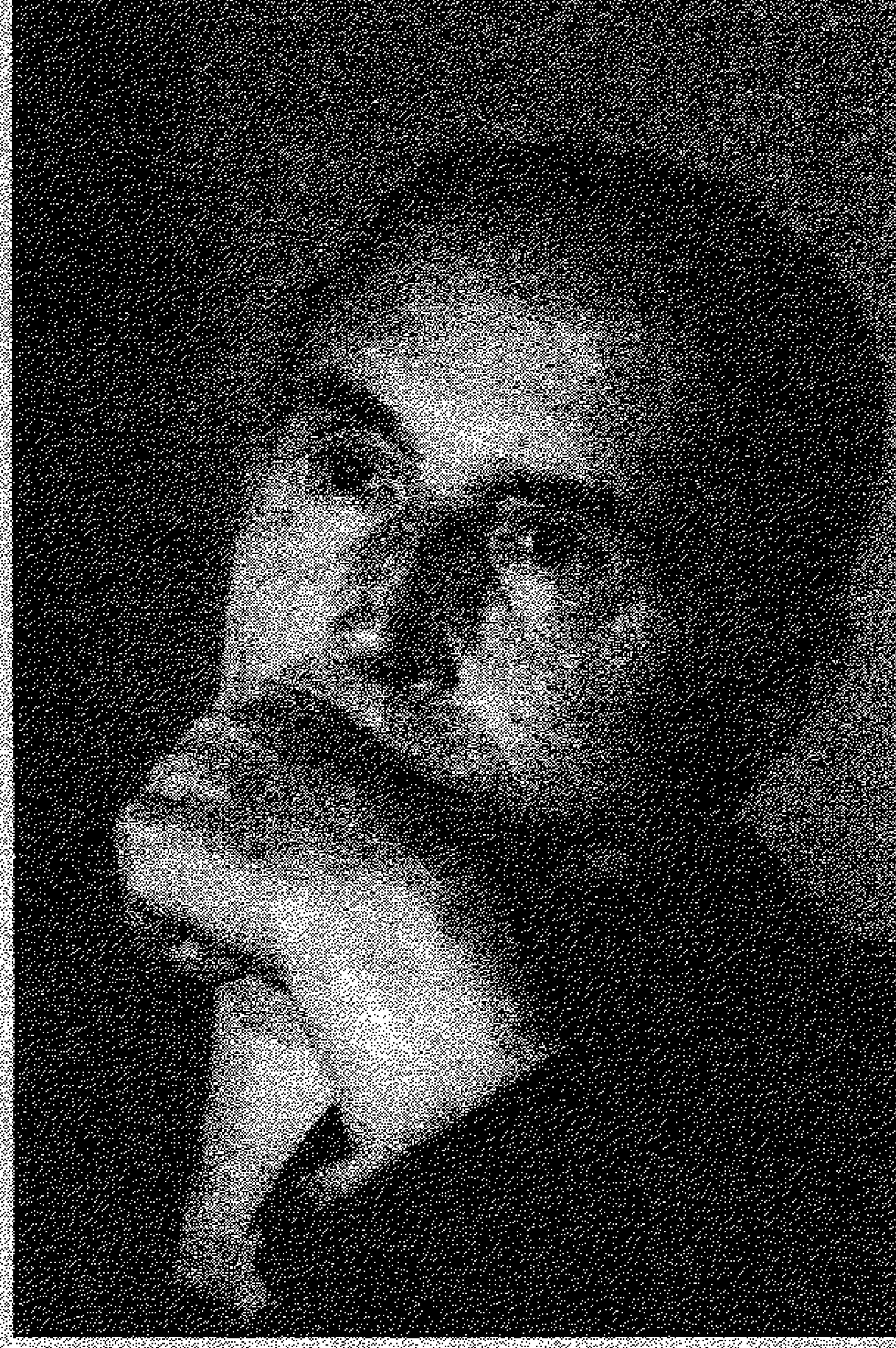
من أجل ذلك، بذل رفيق الحريرى على الشباب وترقيته وتهذيبه ما لم يبذل فى أى مشروع آخر ليقينه الغريزى بأن لبنان الجديد يبدأ بثقافة وطنية وديمقراطية شعبية معممة. وبهذه «الفلسفة العملية» أراد ابن الفلاح الذى لم يدخل جامعة، وكانت بداية ثروته أجرة بخيسة يتقاضاها لقاء نقل صناديق التفاح على كتفه من البستان إلى الدكان... ثم خاض غمار مشاريع العمران «المليونارية» بقوة التصميم على جعل الثروة فى متناوله، فيستحل إنفاقها على المجتمع، بدل أن تستعبده هى ويتعبد لها.



كل النظريات «الثورية» وعقائد الطغاة كانت ستعجز عن تربية هذا الديمقراطى الذى لم يكن قد شاهد مجلس نواب يجتمع ويناقش قبل أن يدخل هو البرلمان اللبنانى رئيساً للحكومة بلغ القمة انطلاقاً من رصيف دكان فى بلدة صيدا المتواضعة.

ومضى يخاطب عواصم العالم يستصرخها لقضايا لبنان، والعرب أجمعين: ليس فى جعبته شهادة ولا كتاب ولا حتى فرمان!

مدرسة ديمقراطية «عظمى» هى شعبية القلب والعقل الذى تسكنه الرؤية، يظللها الإيمان بالحق وبأن الحرية تنتصر حتى على الموت، إن هى تجرأت على كسر استبداد الجهل والخوف. ■



ميتـــــران: الأب



مازارين: الابنة

كـــــان أبــــــى
وكان أيضا رئيسا للجمهورية

ليـــــلى حــــــافـظ



فى كتابها الأخير «فاه مطبق»
مازارين الابنة غير الشرعية لميتران
رئيس جمهورية فرنسا السابق تتحرر من حملها
الثقيـــل وتكشـــــف أســـــرارها
مـــن أجـــل طفلهـــا المســـلم



طوال ١٩ عاما عاشت فتاة صغيرة تدعى مازارين بينجو، طفولة هادئة ومثالية، ولكنها عاشتها فى الخفاء. إلى أن جاء يوم. «كان يوم خميس. دعانى والدى. وقال «استعدى». وفى الخارج تغير كل شىء. على صفحات الجرائد وفى كل مكان، كانت صورتى تتوسط الصفحة الأولى». لأنه منذ ذلك اليوم عرف العالم أن مازارين بينجو هى الابنة غير الشرعية لرئيس الجمهورية الفرنسية فرانسوا ميتران.

تقول مازارين «لم يكن يهمنى اسم العائلة، يكفى اسمى وقسمات وجهى التى تطابق قسماته، والتى تؤكد من أنا». ولكن فى نفس هذا اليوم تمنت مازارين أن تعود للعيش فى الخفاء مرة أخرى. فقد اجتاحها فيضان أكبر من الحزن. «ابنة غير شرعية لرجل سياسة»..«شخصية عامة، والدك أخطأ، لأنه خبأ عنا وجودك، كان رئيس الدولة لفترتين لم تخلُ من الانتقادات، وكنت أنت إحدى أعراضها. وكأننى كنت مرضًا، أعراض الخطيئة، الوشم الذى رسم فرنسا الحزينة بالحديد الساخن».

كان هذا اليوم فى عام ١٩٩٣، لم يكن أمام ميتران إلا عامان فى السلطة وأيضا فى الحياة. خلال هذين العامين عاشت مازارين كابنة لرئيس الجمهورية، ابنة غير شرعية، ولكن الابنة المفضلة لديه. واليوم، وبمناسبة مرور عشر سنوات على وفاة ميتران شعرت مازارين لأول مرة بالرغبة فى أن تعلن على العالم أجمع السر الذى حملته داخلها طوال ١٩ عاما، وتعايشت معه. أرادت أن تكشف عن أسرارها ليس فقط لكى ترفع عن عاتقها حملا أثقل كاهلها الصغير، ولكن أيضا لكى تعيد إلى والديها حقهما فى الحقيقة التى رأتها تزوغ أمام عينيها فى العديد من الكتب والمقالات التى استهدفت علاقتهما السرية.

والأهم من هذا وذاك، كتبت مازارين لكى تحكى لطفلها الذى لم يولد بعد الحقيقة عن جده وجدته، وتكشف كل تلك الثقوب فى الذاكرة التى اضطرت أن تحفظها سرا عن الجميع. أرادت أن تقول لطفلها الحقيقة عن والدته، والجانب الذى اضطرت أن تحافظ على سريته إلى أن قدمها والدها فرانسوا ميتران، رئيس الجمهورية الفرنسية من عام ١٩٨١ إلى ١٩٩٥، إلى المجتمع الفرنسى قبل وفاته بعامين.

لذلك أصدرت كتابها «فاه مطبق» فى الذكرى العاشرة لوفاة ميتران رئيس فرنسا السابق. وفى الكتاب وصفت جسدها بأنه مثل «متحف الأرشيفات الذى أعاقه الصمت». ولكى تحقق حلمها فى أن يكون لها طفل، كان لابد أولا أن «تفرغ بالكلمات كل العقد التى أحاطت بذاكرتها» أى أن تفتح أرشيفها وتفرغ منه كل الذكريات التى ظلت حبيسة فيه لأكثر من عشرين عاماً.

Bouche Cousue
(فـاه مطبـق)
Mazarine Pingeot
Julliard, 228pp., 2005



**أصبح والدها شخصين. « رجل تعرفه جيدا، وفى نفس الوقت لا تعرفه!! »..
رجل « محرم عليها أن تقول أنها تعرفه! ».. وتتساءل هل تعرفه حقا؟ نعم.. فهو يأتى إليها
ويقضى معها أوقاتا سعيدة ثم يضعها فى الفراش لتنام**



الدخول إلى الحياة سرا

كان لابد لمازارين أن تتكلم وأن تفرغ ما لديها من أسرار خاصة بها وبعائلتها، التى لا يعرفها أحد حتى أقرب المقربين من الرئيس الراحل. فذكرياتها عن رئيس الجمهورية «لا يملكها غيرها، ولا يستطيع أحد أن يشاركها إياها».. حتى والدها لا يملكها، فقط هى مازارين، التى تحتفظ بها.

ولدت مازارين فى ديسمبر عام ١٩٧٤ طفلة انتظرها ورحب بها أبوان محبان، «كان أبى يريد ابنة، فقد كان يحب الفتيات»، وأعطاها اسم مازارين مارى. و«فى اللحظة التى قابلنى فيها (فى المستشفى بعد ولادتها) وحمل رأسى فى كفه، أصبح أبا».

ولكن، منذ اليوم الأول، قدم لها والداها ما لا يملكه أى طفل آخر. قدما لها هدية الدخول إلى الحياة سرا فى مستشفى فى مدينة أفينيون بعيدا عن العيون، و«العيش فى سرية تامة». فلم يكن من حقها أن تعلن لعدة سنوات أن والدتها هى أمها، لأن جدة أمها، التى استضافتهما بعد الخروج من المستشفى، لم تعرف أن حفيدتها لديها طفلة غير شرعية واضطرت الأم أن تدعى أنها ترعى الطفلة لأنها لا تملك مالا وتقوم برعاية الأطفال مقابل مبلغ من المال. لذلك عندما تعرفت عليها جدة والدتها، لم تعرف أن فى عروقهما يجرى نفس الدم. وظلت الأم لا تعترف بها أمام الآخرين إلى أن توفيت الجدة الكبيرة..

أما الأب الذى كان فى ذلك الوقت رئيس الحزب الاشتراكى، فكان يأتى فى عطلات آخر الأسبوع والعطلات الطويلة، ولكن لم يكن من الممكن أن يظهر معها فى الأماكن العامة، فكان متواجدا معها داخل المنزل فقط، وإن كان يشيع فيه المرح والحب واللعب.

حتى جاء هذا اليوم الذى تغيرت فيه حياتها. فى يوم ما من عامها السادس بدأت تشاهد التليفزيون وتفهم ما يقولونه. وعرفت أن والدها يظهر على الشاشة الصغيرة مع آخرين منتصرا مزهوا، ولكن والدتها كانت تبكى، لم تكن سعيدة.

منذ ذلك الوقت أصبح والدها شخصين. « رجل تعرفه جيدا، وفى نفس الوقت لا تعرفه!!».. رجل «محرم عليها أن تقول أنها تعرفه!».. وتتساءل هل تعرفه حقا؟ نعم.. فهو يأتى إليها ويقضى معها أوقاتا سعيدة ثم يضعها فى الفراش لتنام، ولكن هناك هذا الآخر الذى تراه فى التليفزيون ساعة انتصار.. كيف تناديه؟ هذا اليوم هو ١٠ مايو عام ١٩٨١، عندما انتخب فرانسوا ميتران رئيسا للجمهورية.

تتحدث مازارين عن أمها. تلك المرأة العاشقة التى قررت أن تعيش فى الظل، وألا تتجاوز الحدود. المرأة التى حافظت على كرامتها ونزاهتها ورفضت التقاط صور لها، «حتى فى الأعياد وحتى فى عيد ميلادها».. «لأن الصور، كذبة خطيرة».. كانت على قناعة أن لا شىء يهمها.. لا الآخرين ولا المجتمع. «كانت على قناعة أنها بطلة لفيلم لن يراه أحد أبدا. وأنها ستظل تحتفظ بسرها دليلا على إخلاصها».

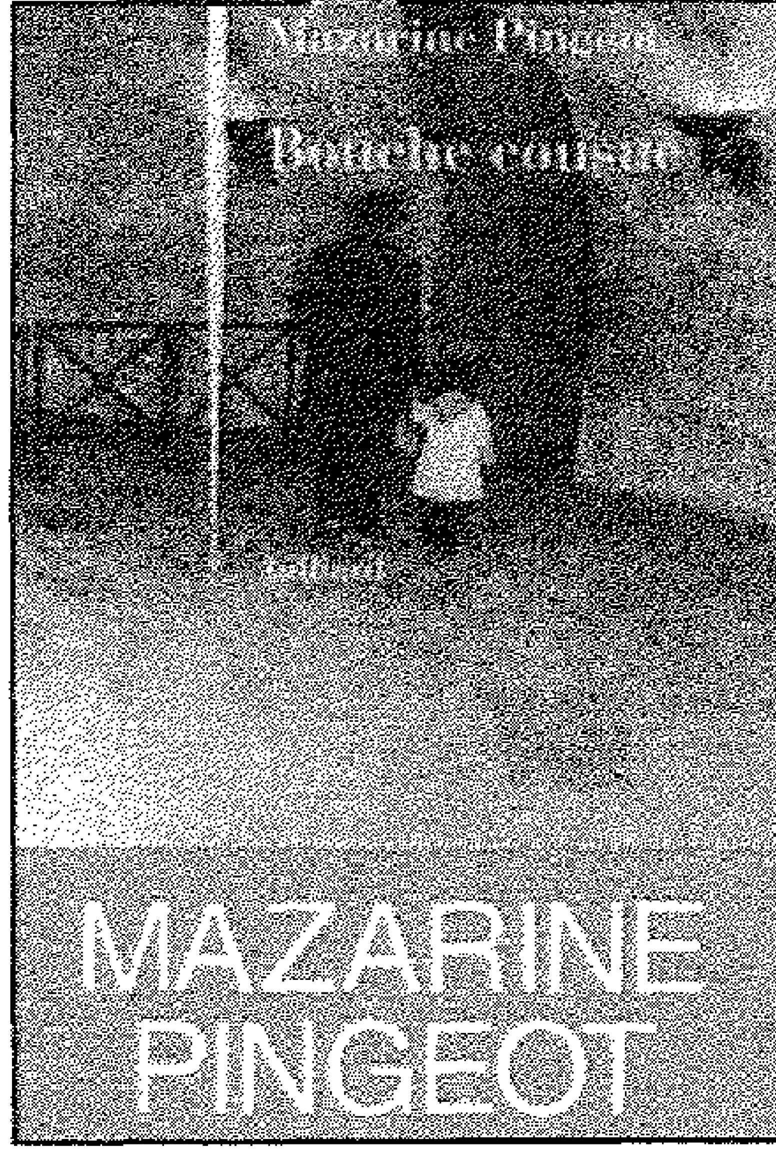
كانت الأم ترى أن بقاءها فى الظل وتنازلها عن هويتها الحقيقية هو الذى يعطيها هويتها، ولكن ظهورها وكسر السر الكبير، سيكون بمثابة نفى لوجودها. هل هناك تناقض؟!

وتقول مازارين: «كنت أنا طفلة هذا التنازل، هذا الاختيار الذى تمسكت به أمها ضد العالم. كنت أنا الطفلة التى خرجت من الشجاعة ومن الحب الذى شعرت به أمى». وتتساءل مازارين: «هل على أن أظل مخلصة لهذه التضحية؟».

فهمت مازارين بدون أن يطلب منها أحد، أن عليها أن تحمى الرجل الذى تحبه بالتزام الصمت، وبأن تظل غير موجودة فى عيون الآخرين، وألا يكون لها اسم، ولا يكون لها أب، حتى أب خيالى، لأن الحقيقى حى يرزق.

أرشيف الذكريات

وتحكى مازارين عن حياتها مع أصدقائها وفى المدرسة. هؤلاء الأصدقاء الذين يجب ألا يعرفوا شيئا عن هويتها أو عن حياتها الخاصة، أو أين قضت العطلة أو من الذى جاء يزورهم؟ وفى المدرسة كان عليها أن تعيش بوجهين! وجه فتاة صغيرة عادية تضحك وتبكى، ووجه حيوان صامت تعلم لغة الحركات والهمس. وتعلمت أن تلقى فى غياهب النسيان كل ما يخرج عن نطاق اللعب، كل ما يعتبر خطرا، مثل ذكريات يوم الأحد وأمسيات المنزل وعطلة عيد الميلاد. لم تستطع أن تعيش طفولة عادية فتدعو زملاءها إلى المنزل ويكون لها معهم أسرار. بل كان عليها أن تحيا فى وحدة. وأن تلغى طفولتها. أن تلقى داخلها كل تلك الأحداث، لتصبح كما قالت «أرشيفا من الذكريات».. كل ذلك من أجل أن تحمى والدها. فقد عرفت من طفولتها أن عليها مسئولية حماية والدها، أكثر الشخصيات شهرة فى فرنسا، بدون أن يطلب منها أحد ذلك. اليوم تريد أن تقول كل شىء. ليس لها، ولكن لطفلها الذى لم يولد بعد.



غلاف الكتاب

ولكن ذاكرتها كانت تخونها أحيانا. فلم تعد تتذكر المناقشات والجدل، كل تلك الأحداث التى يتناقلها الآخرون. بل كانت تتذكر مشاهد من الطفولة وانطباعات عن روائح ونبرات صوت، كانت تتذكر نزهات وضحكات وعطلات صيفية وحياة يومية معتادة مثل كل اليوميات. كل تلك اللحظات التى كونت لدى مازارين فكرتها عن والدها، ودعمت علاقة عميقة بينهما. تلك العلاقة التى كانت الأساس القوى لكل ما سيأتى فيما بعد.

فى عام ١٩٨٨ تداخلت المسائل العامة مع المسائل الخاصة، ورأت مازارين ابنة الرابعة عشرة من عمرها، كيف يحارب اليمين أباها الاشتراكى، فتغضب وتثور فى صمت، تريد أن تدافع عنه أمام هؤلاء الأطفال الذين يرددون كلمات قاسية ضده. ولكنها لا تجرؤ أن تقول لماذا تدافع عنه؟ تسمع وتحتفظ آلامها داخل نفسها. تتحمل وتصمت وتكره هؤلاء الأطفال. ولكنها لا تتكلم، حتى لا تؤذيه، إنها لا تريد أن يصيبه أى أذى. تريد أن يظل نظيفا. أما هى فتتألم وتشعر بالتعب، ولكن خارجيا تظل قوية كما أراد لها والداها، وتضفى على وجهها هذه اللامبالاة التى تحاول من خلالها فصل نفسها عن الواقع الذى ترفضه.. الذى يؤلمها.

وعندما يفوز فى الانتخابات وتذهب إليه فى مقر الاجتماعات الحزبية حيث اتجه لتلقى تهانى مؤيديه، تقبله خلسة، وتتوارى فى الخلف. وتتأمل أبناء السياسيين الذين يحتفلون بفوز آبائهم أيضا، وقد بدت فرحتهم طبيعية وفخرهم بآبائهم لا يحتاج إلى إخفاء. وتقول مازارين «كنت أسير بسرعة بين الجموع الحاشدة، وقد غضضت الطرف وظهر احمرار الإثارة واضح على وجنتى. أردت أن أظهر فخرى، أردت أن أكون شخصاً آخر حتى يرانى الآخرون وحتى يهنئونى، وحتى أستطيع أن أهنئهم بنفسى. كنت أريد أن أكون جزءا من الاحتفالات ومن الانتصارات، أن أكون جزءا من المجموعة. أردت فى تلك اللحظة المعينة أن يعرف الجميع أننى ابنته، هكذا بدون فضائح. وأردت أن ينظروا إلى بنظرات صديقة وأن يحسدونى قليلا. أردت أن أشاركه.. وأشاركهم هذا اليوم».

«استعدى، فصورتك ستكون فى جميع الصحف»

فى هذا اليوم فى عام ١٩٩٣، وعندما بلغت مازارين ١٩ عاما، كسر الصمت، وكشف السر، ودعاها والدها إلى مطعم لو ديفيليك ليقول لها: «استعدى» وفى الخارج تغير العالم، وغمرت صورها الصفحات الأولى من الجرائد والمجلات الفرنسية والأجنبية، وعرف الجميع أن مازارين بينجو هى الابنة غير الشرعية لرئيس الجمهورية الفرنسية فرانسوا ميتران.

فى تلك اللحظة تغيرت بطاقة هويتها وأصبحت: مازارين ابنة غير شرعية لرجل سياسة، ولدت فى الخفاء. أصبحت مازارين عار الجمهورية، صفعة للأخلاقيات. فرنسية مائة فى المائة، فليس فى جيناتها ما يمكن أن يجعلها ضحية. «ورغم ذلك شعرت بكل العقد التى يشعر بها المهاجرون من الجيل الأول». ففى اللحظة التى تحققت لها أمنيتها،



واستطاعت أن تعلن هويتها وتقول إن والدها هو رئيس الجمهورية، كانت هى اللحظة التى تمنت فيها ألا يعرفها أحد وألا يراها أحد. «كان على أن أقوم بجهد كبير حتى ينسانى الناس. وأن أتقدم للاختبارات فى أماكن العمل متخفية حتى لا اتهم بأننى حصلت على المركز بسبب هويتى... كنت أغير اسمى فى أماكن مختلفة حتى لا يتعرف على أحد. فى تلك اللحظة أصبحت غير شرعية فى نظر نفسى».. «يحمر وجهى خجلا عندما ينطق أحدهم اسمى. وأخفض نظرى عندما ادخل مكانا عاما. أشعر أننى أريد أن أعتذر عن وجودى فى الحياة».

ولكن هذا الوضع لم يكن مفروضاً أن يستمر. كان على مازارين أن تدافع عن نفسها وتكافح من أجل حقها فى الوجود وفى الحب وفى أن يكون لديها أطفال. وبعد موت والدها كان عليها أن تصارع الصحف الصفراء التى اعتدت على خصوصياتها، وان تحارب من اجل أن تستطيع زيارة قبر والدها وان تبكيه بدون تطفل وبدون أن يحاول أحد أن يسرق حزنها منها. وان تحمى نفسها من نظرات الآخرين بدون أن تضطر أن تتنازل عن حبها للكتابة والنشر والاشتراك فى برامج تليفزيونية. وآن تستطيع أن تحتسى القهوة فى المقهى بدون أن تسمع كلمات قاسية من أحد.

واليوم، «يزورنى البعض لكى يتحدثوا معى «عنه» ويقولوا لى كم أشبهه، وأنهم يحبوننى (لهذا السبب) أو يكرهوننى (لهذا السبب أيضا). لقد تحولت ما بين ليلة وضحاها من وضع إلى آخر. من وضع الفتاة التى تعيش فى الخفاء إلى الوريثة الطبيعية لوالدى». ولكن الإرث المادى ذهب إلى دانيال زوجته الرسمية.

تقول مازارين: «لقد كان عزيزًا لدى للأسباب الصحيحة التى لا تتعلق إلا برابطة الدم. لقد عانى كثيرا من كراهية البعض له. وعانيت بسبب معاناته. كان بيننا تضامن من نوع غامض، منعنى من فهم تفجر العنف الذى لم يكن له أية صلة بالسياسة».

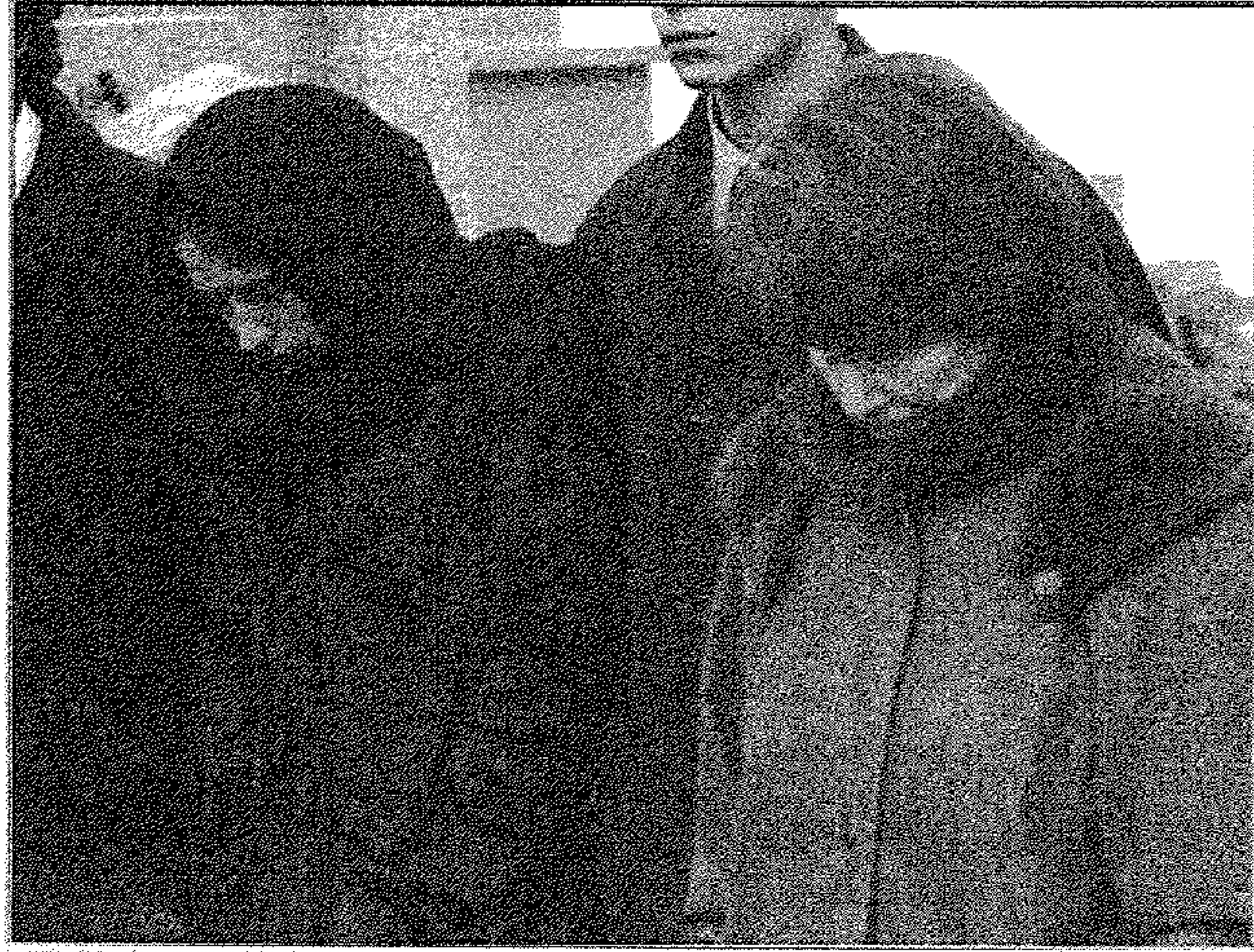
كانا معا فى نفس السفينة. عندما يتألم تتألم، عندما توجه إليه اتهامات، كانت تأخذها على عاتقها. فكان لابد من الانفصال..

وجاء الانفصال بموت ميتران الوالد والرئيس، فتقول مازارين: «إنه من الصعب الانفصال عن الأموات، اكثر من الانفصال عن الأحياء».. «ولم أكن أريد أن أبدأ فى التذكر، على الأقل ليس مباشرة. فإن المرء يتذكر دائما ما مضى».

ولكن الماضى يجب أن تتسامح معه. ولن تستطيع أن تقوم بذلك إلا من خلال طفلها الذى لم يولد بعد. فتحادثه مازارين من خلال الكتاب وتقول له كيف أن والده، «محمد»، يحاول أن يندمج فى المجتمع الفرنسى من خلالها، وأنه سوف يعطيه ليس فقط اسمه ولكن أيضا لغته العربية. وهى سوف تحاول أن تتعلم تلك اللغة حتى يمكنها أن تندمج فى حياتهما. وتتحدث عن والد طفلها، محمد. فتقول: «عندما نذهب والدك وأنا إلى سوبر ماركت، ويكون هو فى مكان وأنا فى مكان آخر، وينادى على ويصيح «مازارين» ينظر إليه الناس، وعندما أنادى «محمد» يعتقد ثلاثة أشخاص آخرون أننى أنادى عليهم. مدربه فى صالة الرياضة يناديه «يا صغيرى» لأنه يتصور أنه إذا ناداه باسمه «محمد» قد يعتقد أنه عنصرى. ووالدتها التى لا تحب أن تلفت إليها الأنظار تقدمهما باسمى: «مو- ما»، مثل متحف نيويورك».

ولكن طفلها سيكون له ذكريات أخرى مع والده، لم تعشها هى مع والدها. وتحادثه قائلة: «ستستطيع أن تنادى والديك «بابا» و«ماما» بدون خوف، وهو شىء لم أتمكن من فعله حتى فى تلك الأيام القليلة التى كنت أناديه فى الطريق وأجرى إليه، فاتحا لى ذراعيه غير آبه بالمارة. ولكن أنت ستستطيع أن تذهب معه إلى السوبر ماركت وتشترى احتياجاتكم معا. أريد أن أسمعك تناديه فى كل مكان، فى الطريق وفى الميادين وعند الخروج من المدرسة، تنادى «ماما» و«بابا» مثل صرخة انتصار.

«سوف تمسك يد والدك فى المترو وفى الحديقة. وسوف أنظر إليكما وأشعر بالدهشة من أن هذين الشخصين يستطيعان أن يكونا معا فى الأماكن العامة». ويتصور محمد اسمك عندما تولد، هل سيكون «عبد القادر ميتران؟ أم فاطيما ميتران؟».. ميتران؟ انه اسم الجد الذى لا تحمله مازارين، ولكن طفلها سيستطيع أن يقول انه من نفس الاسم. لماذا لا تحمل مازارين اسم ميتران؟ لقد أراد لها ميتران ان تحمله، كان ذلك قبل وفاته بفترة قصيرة. ولكنها رفضت. هل جاء الطلب متأخرا؟ هل جاء مبكرا؟ هل كان هذا انتقامها؟!



مع زوجة ميتران (السيدة الأولى) فى جنازته



فى أسوان، كنت أقضى معظم الوقت أتنزه مع أعز أصدقائى، ونسبح معا ونتناقش لساعات. كنت أزور والدىّ فى حجرتهما لدقائق. أقبل والدى، أتحدث بالكاد مع والدتى التى كانت تبدو لى حزينة، وتعبة



عندما يموت الاب

«لقد كنا جميعا نتوقع موت والدى. ولكن من الصعب أن يكون المرء مستعدا حقا لهذا اليوم»..«كنت أراه يوميا فى مرضه، ولكننى لم أتصور أبدا فى أية لحظة انه سيموت». عانى ميتران كثيرا فى مرضه، كان يتألم «وكنت أتألم لألمه» ثم بدأ يفقد الأمل، ويفقد أعصابه.. ثم يبتعد عن العالم. تقول مازارين عن تلك الفترة «كان المرض بالنسبة له إهانة.. لم ينجح أبدا فى تقبله، لانه لاول مرة يواجه ما هو أقوى منه».

أسوان كانت آخر عطلة يقضيها مع مازارين. فتقول عن تلك الفترة: «فى أسوان، كنت أقضى معظم الوقت أتنزه مع اعز أصدقائى، ونسبح معا ونتناقش لساعات. كنت أزور والدىّ فى حجرتهما لدقائق. اقبل والدى، أتحدث بالكاد مع والدتى التى كانت تبدو لى حزينة، وتعبة، لأنها كانت تقوم بدور الممرضة طوال اليوم والليل، كانت قدرية: وأنا لم اكن أتحمل ذلك، لم اكن أتحملهما».. «حول المائدة يجلس والدى معنا بملابس النوم. لم يكن حاضرا ذهنيا معنا، كنا نحاول جميعا أن نضحك. كان يأخذ يدى فى يده، وكنت أتظاهر بأنه مجرد تعب. وأبدو مرحة على غير العادة. كنت ارفض اعترافه بالمرض، وكنت أرفضه بينى وبين نفسى. وإن اشتكى، لم أكن أسمعه. كنت أتمتع بالعطلة...» كانت آخر عطلة

تقضيها مازارين معه، تلك التى قضياها فى أسوان.

لقد كان ميتران محاربا، وكان يرفض الهزيمة أمام المرض فى كل العمليات التى أجراها من قبل، وتعلمت منه مازارين حبه للانتصارات. ولكن بعد أن أنهى فترة رئاسته الثانية، تقبل ميتران فكرة انه قد يكون قد عاش بما فيه الكفاية، أو أن المرض معركة من نوع آخر غير السياسة.

«كنت أبلغ من العمر ٢٢ عاما. ١٩ عاما فى الخفاء، وعامان فى محاولة الهرب من الأضواء. غادر الأليزيه. وبعدها الحياة».. «كانت مغادرته الرئاسة بمثابة خيانة لهويتى.. كأن مصيرنا هو أن نظل مهمشين» فلم تتوقع مازارين ألا تعيش الحياة التى أرادتها. كانت عطلتهما الأخيرة فى أسوان مثل حياتهما، غير عادية. فعندما وصلت إلى أسوان لم تعد تريد مغادرتها. ووجدت فى النيل والصحراء أفضل مكان للهروب، أفضل مكان شعرت فيه بسعادة مطلقة وكأن تلك اللحظات تم اختطافها من مجريات الحياة. وكأنها لمست خط الخلود.

«كان آخر عيد نقضيه معا.. كان الجمال المطلق. بلاد بعيدة وغريبة، حيث الشمس ساطعة. بلاد عرفنا فيها السعادة، حيث الآلهة لا تختبئ، فهى موجودة فى الحجارة وفى العيون... نعم لقد سافرنا مرة أخرى، مرة أخيرة بعيدا عن فرنسا والصحافة والحياة اليومية. ولكننى كنت أعرف إننا حملنا معنا فى الحقائب المرض، والموت الأكيد».

فى أسوان فهمت أن هذا المكان الملئ بالرموز يمثل وداع والدها لأرض الأحياء. «وداع أرادنى أن أشاركه فيه. وكأنه وداع لسنواتنا معا، ٢٢ سنة من الحياة معا ومن الحب ومن التميز.. «وبذهابى معه إلى هناك، اعتبرت أننى قبلت، رغما عنى، هذه الفكرة المستحيلة بأنه سوف يتوقف عن الحياة»... الفلوكة بأشرعتها البيضاء، مياه النيل الطينية، كثبان الرمال فى الصحراء التى تختفى وراء الأفق الأصفر، السماء الزرقاء دائما، والشرفة الخشبية فى الكتراكت، كل هذا علمنى أن الموت يشبه طريق العبور أكثر مما يشبه طرقات المستشفى. وفى تلك الحجرة التى توجد خارج الزمن، بأرضها الخشبية السوداء والتى لها رائحة الشمع، عرفت أنه لن يموت أبدا، بشرط أن أعيش أنا الحياة بكاملها».. عادوا من أسوان، ولم تعد إليها أبدا بعد ذلك.

ولكن أسوان بالنسبة لمازارين لم تكن أبدا نقطة النهاية، بل كانت نقطة البداية، نقطة الانطلاق إلى آفاق قريبة من الطفولة.

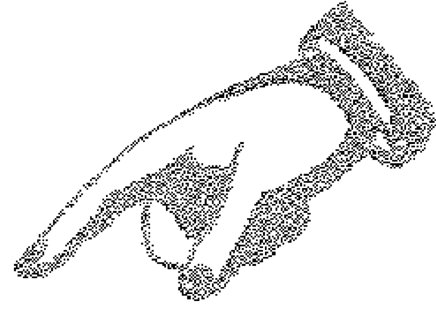
أيام شعرت فيها بالفخر

ومات ميتران. وخلال الأيام التى شعرت فيها بالحزن العميق، كانت عيون الصحف الصفراء تلاحقها فى كل مكان تلتقط لها الصور خلسة. وكانت تغضب ويغضب صديقها الأول، الذى كان أيضا عربيا، يدعى على، الذى اتهموه بأنه السبب فى التقاط الصور لها، وغضب لأنه كما تقول مازارين، وجهت له التهم لأنه عربى «طبعا العربى هو السبب»، وغضب لأنه كما تقول أيضا مازارين «كان يحب والدها حقيقة».

وبعد أيام الألم والغضب ومحاولات التخفى. «بدأت لأول مرة أعيش أيام الفخر». فإذا كان الهجوم والانتقاد الذى تعرض له والدها أثناء توليه السلطة قد آلمها، فإن تفجر مشاعر الناس تجاه والدها أشعرها بالفخر.. بالذات عندما خصصت المدارس دقيقة صمت حدادا عليه، وعندما اجتمع كبار رجال الدولة فى العالم ورجال السياسة فى فرنسا فى كنيسة نوتردام يوم جنازته.. «شعرت بموجة عارمة من الحزن تجتاحنى.. وخلال يوم واحد كان من حقى أن أحزن بدون أن يسألنى أحد لماذا، وبدون أن يهاجمنى أحد، كان من حقى أن أسمع كلمات العزاء وأتلقى لمسات الحنان، وأن أسمع الضحكات العصبية، كان من حقى فى هذا اليوم أن أشعر بالفخر بأبى، وأن أظهر حبى له بدون أن اتهم نفسى». فى هذا اليوم استرجعت مازارين شرعيتها من خلال المعاناة. فى هذا اليوم كانت حرة فى أن تظهر كما هى حقيقة. تقول: «لقد جاء هذا اليوم متأخرا بعض الشيء، وجاء لمرة واحدة.. ولكنى فى هذا اليوم كنت ابنة أبى بالكامل».

لقد جاء الموت لكى يحرر مازارين من الكذب ومن التظاهر ومن الآلام والإهانات. فبعد موت والدها، عاد مرة أخرى إلى الحياة، «احتويته واحتضنته بقوة طويلا.. طويلا.. حتى لا ينتهى الخيال». ■

كتاب الزاوية



المستبد

عبد الرحمن الكواكبى

المستبد فى لحظة جلوسه على عرشه ووضع تاجه الموروث على رأسه يرى نفسه كان إنسانًا فصار إلهًا. ثم يرجع النظر فيرى نفسه فى نفس الأمر أعجز من كل عاجز، وأنه ما نال ما نال إلا بواسطة من حوله من الأعوان. فيرفع نظره إليهم فيسمع لسان حالهم يقول له: ما العرش وما التاج وما الصولجان؟ ما هذه إلا أوهام فى أوهام. هل يجعلك هذا الريش فى رأسك طاووسًا وأنت غراب، أم تظن الأحجار البراقة فى تاجك نجومًا ورأسك سماء، أم تتوهم أن زينة صدرك ومنكبيك أخرجتك عن كونك قطعة طين من هذه الأرض؟ والله ما مكنك فى هذا المقام وسلطك على رقاب الأنام إلا شعوذتنا وسحرنا وامتهاننا لديننا ووجداننا وخيانتنا لوطننا وإخواننا .فانظر أيها الصغير المكبر الحقير الموقر كيف تعيش معنا!

ثم يلتفت إلى جماهير الرعية المتفرجين. منهم الطائشون المهللون المسبحون بحمده. ومنهم المسحورون المبهورون كأنهم أموات من حين؛ ولكن يتجلى فى فكره أن خلال الساكتين بعض أفراد عقلاء أمجاد يخاطبونه بالعيون بأن لنا معاشر الأمة شئونًا عمومية وكّلناك فى قضائها على ما نريد ونبغى .فإن وفيت حق الوكالة حق لك الاحترام وإن مكرت مكرنا وحاقت بك العاقبة.

وعندئذ يرجع المستبد إلى نفسه قائلاً: الأعوان الأعوان، الحملة السدنة (الحُجاب)، أسلمهم القياد وأردفهم بجيش من الأوغاد أحارب بهم هؤلاء العبيد العقلاء. وبغير هذا الحزم لا يدوم لك ملك كيفما أكون.

طموحات وأسئلة: تعافى

نتاليا بايلى

بدأت ثقة المستثمر فى فرص أداء اقتصادى أفضل فى مصر فى الظهور تدريجياً منذ أوائل عام ٢٠٠٣ بعد «تعويم»[1] الجنيه المصرى، كما أدى تبنى بعض الإصلاحات الاقتصادية الأكثر إلحاحاً مؤخراً - لاسيما منذ تعيين حكومة جديدة برئاسة رئيس الوزراء أحمد نظيف فى يوليو من السنة الماضية - إلى الإسهام فى تنامى الشعور الإيجابى.

ورغم أن محاولة تعويم الجنيه عام ٢٠٠٣ قوبلت بحملة من النقد الشديد (بافتراض أن تدخل البنك المركزى لا يزال كبيراً)، فإن خطوات أخرى نحو تحرير السوق جرت مؤخراً. وأدى إنشاء السوق بين البنوك فى الثالث والعشرين فى ديسمبر العام الماضى إلى زيادة فى مدى توافر العملات الأجنبية، مما تسبب فى زيادة قيمة الجنيه أمام الدولار بنسبة ٧٪ ليصل سعر الدولار الأمريكى إلى ٥،٨٥ حالياً، بينما وصل سعره فى منتصف عام ٢٠٠٣ إلى حوالى ٦،٢ جنيه مصرى.

ومن المتوقع أن يستمر الطلب المتزايد على الجنيه المصرى على الأرجح لاسيما من جانب المستثمرين من الخارج. علاوة على ذلك، لابد أن تعمل كل من الصورة الصحية للحسابات الجارية وتحويل جزء على الأقل من المدخرات بالعملة الأجنبية سواء المودعة فى البنوك أو فى البيوت خلال العامين الماضيين على دعم العملة المحلية. وفى الحقيقة، لن نندهش إذا رأينا أن الجنيه أصبح قوياً مقابل الدولار الأمريكى لينخفض سعر صرف الأخير ليصل إلى ٥،٢٥ بحلول منتصف العام. على أية حال، لا تزال القيمة المستقبلية للعملة متأثرة وبشكل قوى بأى قرار يتخذه البنك المركزى المصرى يهدف إلى تراكم احتياطيات النقد الأجنبى (عن طريق التدخل فى العملة) وفى سعر الصرف. مع ملاحظة أن الاحتياطيات توقفت عند ١٥،٢٢ بليون دولار أمريكى فى نهاية عام ٢٠٠٤.

بالإضافة إلى قوة العملة مؤخراً، كان أداء سوق الأسهم المالية مدهشاً أيضاً، حينما قفز مؤشر «هرميس» المالى بنسبة ١١٦٪ بالنسبة للعملة المحلية فى عام ٢٠٠٣. وبعد تباطؤ مؤقت فى قوة الدفع الاقتصادية فى النصف الأول من عام ٢٠٠٤، فإن مؤشر الأسهم عاد ليستأنف قوته بعد تعيين الحكومة الجديدة.

غير أنه من المهم وسط هذه الصورة الوردية التأكيد على وجود بعض المخاطر. فأى صدمات خارجية - لاسيما بالنسبة لتوافر العملات الأجنبية - ما زالت تشكل نقطة ضعف بالنسبة للمشاركين فى السوق. إن التزام البنك المركزى بتوفير سيولة ضخمة من الصرف الأجنبى لم يتعرض لاختبار حقيقى حتى الآن، كما أن أيام الوقوف فى «طوابير» بحثاً عن الدولار لا ترجع إلى الماضى البعيد بحيث يمكن التغاضى عنها. ومن خلال الدليل فقد نما تعرض المستثمر الأجنبى إلى الجنيه المصرى بشكل ملحوظ منذ أواخر ديسمبر، وبالتالى كان يمكن لمخاطر عالمية (على سبيل المثال ارتفاع سعر الدولار مرة أخرى أو تجدد ضعف الأسهم العالمية) أن يكون لها أثر على الأسواق المصرية أكبر مما شعر به الناس فى الماضى القريب.

الحكومة الإصلاحية

عُيِّنَت حكومة جديدة فى يوليو ٢٠٠٤ حيث أدى الانزعاج الشعبى من الحكومة السابقة برئاسة عاطف عبيد بالرئيس حسنى مبارك لتغيير الوزارة. وشرعت الحكومة الجديدة برئاسة أحمد نظيف فى تحقيق هدف محدد وهو إنعاش أداء البلاد الاقتصادى من خلال المضى قُدُماً فى الإصلاحات الاقتصادية والهيكلية والمالية التى طال انتظارها، وتتضمن تلك الإصلاحات ما يلى:

(١) إجراء إصلاح شامل فى الإجراءات الجمركية وتخفيض نسب التعريفة الجمركية (سبتمبر ٢٠٠٤) من ١٤،٦٪ لتصل إلى ٩،١٪ بهدف دعم القدرة التنافسية ونمو الصادرات.

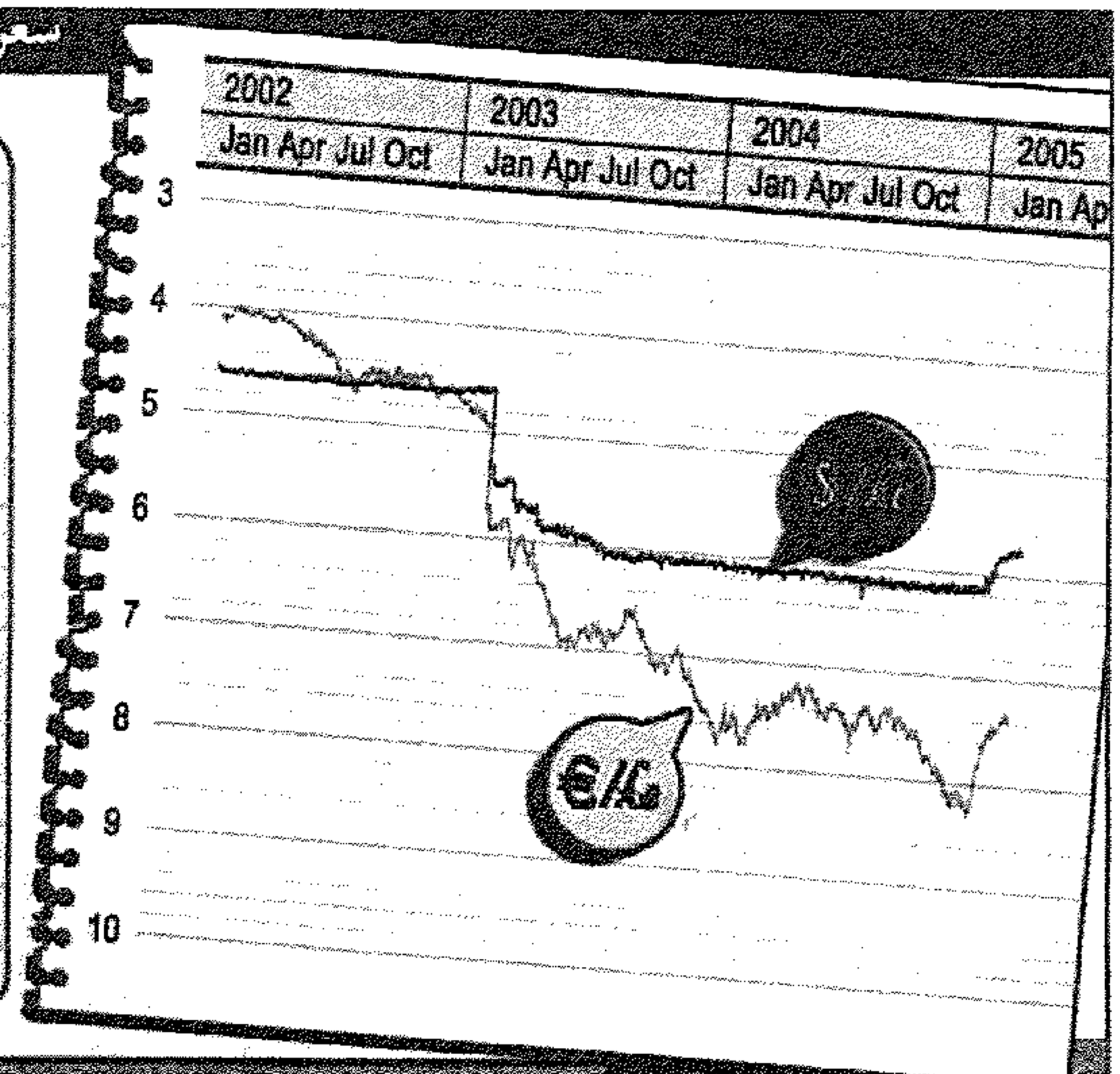
(٢) استصدار قانون ضريبى جديد فى ٣٠ من يونيو ٢٠٠٥ حيث سيعمل هذا القانون على خفض معدل ضريبة الدخل من ٤٠٪ إلى ٢٠٪ إلى جانب خفض الضريبة المتعلقة بالشركات وتوحيدها لتصل إلى ٢٠٪. ويهدف هذا الإجراء أيضاً إلى الإسراع بعجلة النشاط الاقتصادى.

(٣) استئناف عملية الخصخصة بحيث تستهدف عائداتها تغطية الأعباء المالية التى تسببت فيها الإصلاحات الأخرى.

(٤) إعادة هيكلة القطاع المالى بما يقضى على الفرق بين سعر الصرف فى السوق السوداء والسوق الرسمية.

وتحظى هذه الإصلاحات بالدعم الكامل من قِبَل الرئيس مبارك الذى يُرجَّح فوزه بأغلبية كبيرة فى الانتخابات الرئاسية التى ستجرى فى سبتمبر من هذا العام وذلك لفترة رئاسية خامسة. ورغم أن كل الإصلاحات تهدف إلى تعزيز النمو الاقتصادى، فإن من المتوقع أن كثيراً منها سيكون سحباً على الحسابات المالية فى المدى القريب مع ملاحظة أن الرئيس مبارك لم يُرشح نفسه رسمياً لفترة رئاسية خامسة، كما يُنتظَر أن تُعقَد انتخابات مجلس الشعب فى أكتوبر ٢٠٠٥ التى يُحتمل أن تنتهى بفوز سهل للحزب الديمقراطى الوطنى الحاكم. إلا أن هذه النتيجة سيكون لها تأثير محدود - إن وجد - على البرنامج الاقتصادى.

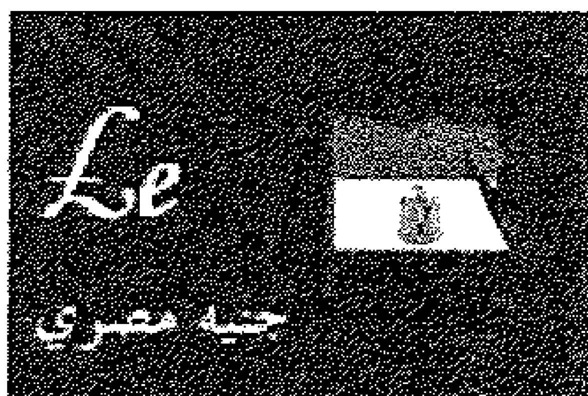
سعر صرف الدولار الأمريكي و اليورو امام الجنيه المصري

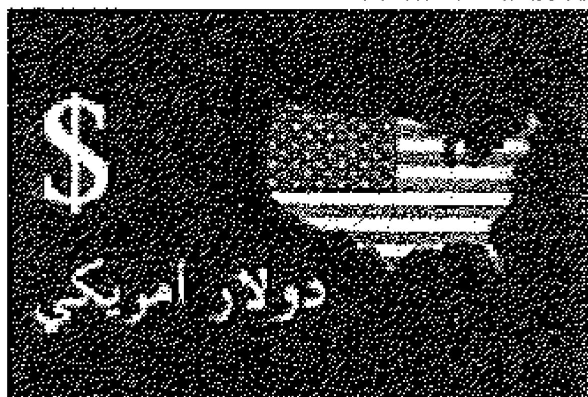


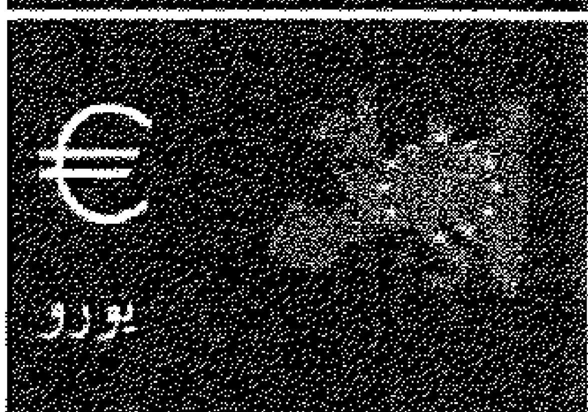
وصل سعر صرف الدولار الأمريكي إلى حوالي 6.2 جنيه مصري في منتصف عام 2003 بعد تعويمه.

بينما وصل سعر صرف اليورو إلى حوالى 8.4 جنيه فى أوائل عام 2005 محققا أعلى معدلاته.

أدى إنشاء السوق بين البنوك في الثالث والعشرين من ديسمبر 2004 إلى زيادة توافر العملات الأجنبية.







- زادت قيمة الجنيه بنسبة 7% ليصل سعر الدولار الأمريكي إلى 5.85 حاليا
- كما وصل سعر صرف اليورو بالنسبة للجنيه المصري إلى 7.6 جنيه
- هناك توقعات بوصول سعر صرف الدولار إلى 5.25 جنيه مصري بحلول منتصف العام

وسط هذه الصورة الوردية للاقتصاد المصرى
فإن أى صدمات خارجية خاصة بشأن توافر العملة الأجنبية تمثل نقطة ضعف أساسية

اتجاهات اقتصادية

سَجَّل نمو إجمالى الناتج المحلى نسبة صحية بلغت ٤.٣ ٪ فى عام ٢٠٠٣/ ٢٠٠٤؛ وهو المعدل الأسرع خلال خمس سنوات. وذلك عقب ثلاث سنوات من الأداء الاقتصادى المتواضع حيث بلغ متوسط النمو ٣,٣ ٪. وجاء التوسع الذى شهده العام الماضى بشكل رئيسى نتيجة للطلب المحلى القوى الذى ارتفع بسبب توفير العملات الأجنبية بشكل متزايد. وساعد هذا العامل الأخير مضافاً إليه انخفاض معدلات الفائدة الحقيقية (بسبب ارتفاع معدل التضخم) على تعزيز الاستهلاك الخاص. من جهة أخرى، أسهمت كل من التوقعات المستمرة بسياحة نشطة، وقناة السويس، وعائدات التصدير فى رفع حصة الاستثمار من الطلب المحلى. ومن ناحية أخرى، أدت الزيادة فى الواردات إلى تدهور نسبى فى الميزان التجارى مما ساهم فى زيادة نمو إجمالى الناتج المحلى، وإن كان بشكل متواضع. نتوقع فى عام ٢٠٠٤/ ٢٠٠٥ أن يستمر إجمالى الناتج المحلى فى الارتفاع بخطى مماثلة (النسبة المتوقعة ٤.٥٪) حيث يُتوقَّع أن تمتد الثقة والتفاؤل الحالى بالتجارة والبيئة الخارجية الإيجابية إلى هذا العام أيضاً. أما هيكل النشاط الاقتصادى فالأرجح أنه سيظل مشابهاً لهيكل السنة الماضية. لكن لاحظ هنا أن معدل البطالة الرسمى لا يزال مرتفعاً حيث بلغ ٩,٩ ٪ مما يؤدى إلى إعاقة النمو.

من الناحية الاسمية، ارتفع معدل التضخم العام الماضى بشكل خطير حيث ارتفع عالياً ليصل من ٣.٢ ٪ فى عام ٢٠٠٣/ ٢٠٠٤ إلى ٨.١ ٪ نتيجة لانخفاض قيمة الجنيه المصرى وتراخى سياسات إدارة الطلب. هذا بالإضافة إلى ارتفاع مؤشر سعر الجملة - وهو معيار أفضل لقياس التضخم مؤقتاً بسبب الاعتماد مرة أخرى على مؤشر سعر المستهلك الذى يسبب صعوبات عند المقارنة. بنسبة بلغت حوالى ١٥ ٪ عاماً بعد عام. ونتج عن ذلك تضييق السياسة النقدية فى أوائل عام ٢٠٠٤ ومن المحتمل أن يستمر ذلك الوضع فى المستقبل المنظور. إننا نرى معدل تضخم يبلغ فى المتوسط ١٠.٥ ٪ فى عام ٢٠٠٤/ ٢٠٠٥ بسبب زيادة الإنفاق الخاص والزيادة المقننة فى الأسعار والتى طُبِّقت فى سبتمبر من العام الماضى. ومن المحتمل ثبات أسعار الفائدة حول معدلاتها الحالية التى تبلغ ٩ ٪ تقريباً بالنسبة للودائع، و١٣ ٪ بالنسبة للقروض.

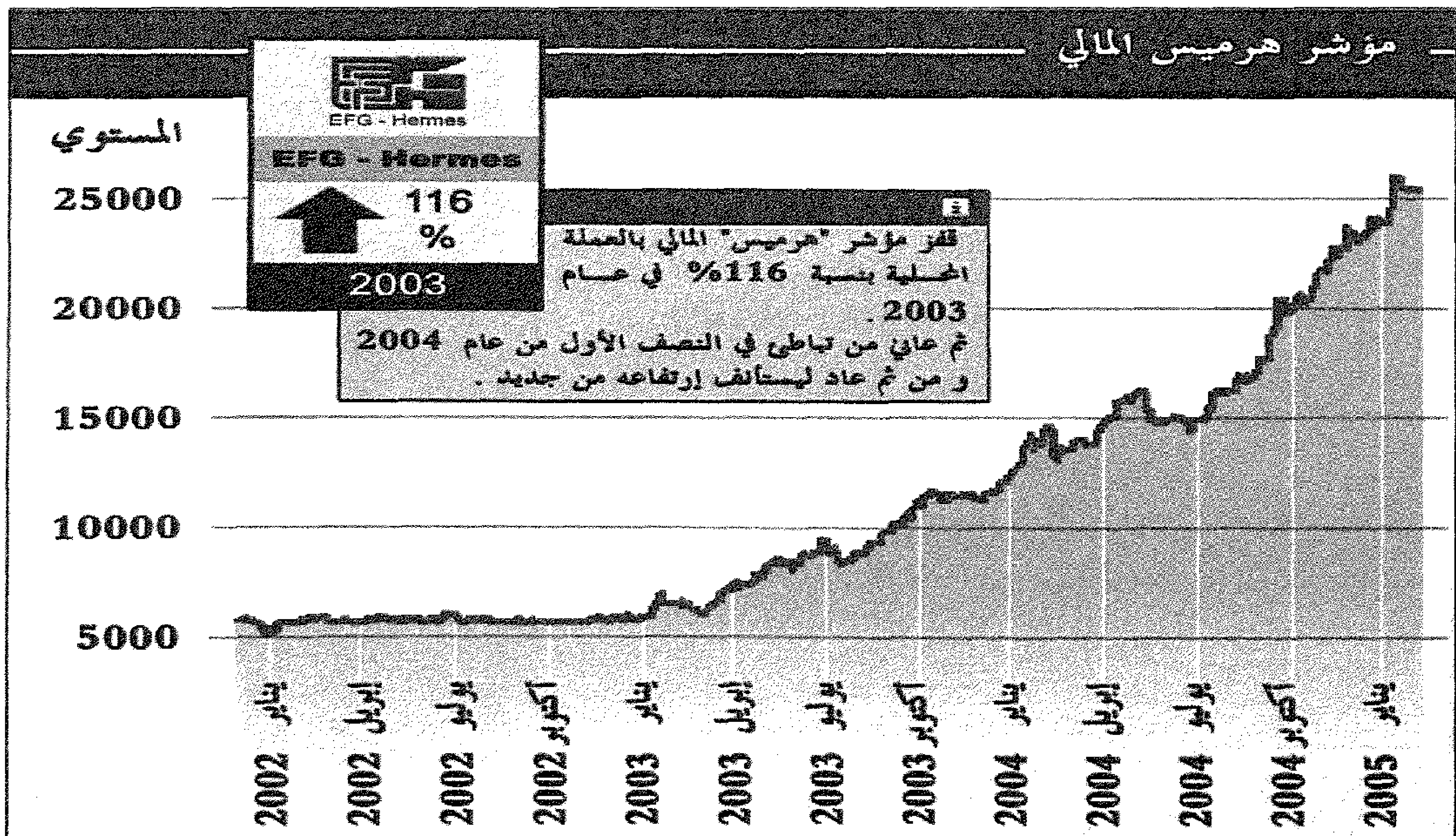
وقد بلغ الحساب الجارى فائضاً وصل إلى ٥,٠ ٪ من إجمالى الناتج المحلى فى عام ٢٠٠٣/ ٢٠٠٤، وهو أعلى مستوى وصل إليه فى أكثر من عقد. ونبع الأداء القوى من بيئة خارجية أكثر تشجيعاً بشكل كبير مما ساعد على دعم إيرادات كبيرة من كلٍ من المدفوعات غير المنظورة وصادرات البضائع. ورغم نمو العجز التجارى ليصل إلى ٧.٥ بليون دولار أمريكى أثناء الفترة سالفة الذكر كنتيجة لزيادة قدرها ٢١٪ فى الواردات، فإن العائدات الكبيرة الخاصة بكلٍ من قناة السويس والسياحة دفعتا فائض المدفوعات غير المنظورة للوصول من ٨.٦ بليون دولار أمريكى فى عام ٢٠٠٢/ ٢٠٠٣ إلى ١١.٣ بليون دولار أمريكى.

كما سجَّل جانب حساب رأس المال فى ميزان المدفوعات تدفقات محدودة، حيث انخفض صافى الاستثمار فى الأسهم إلى ٠.١ بليون دولار أمريكى فقط بافتراض التقدم البطىء فى عملية الخصخصة وزيادة صافى خروج حافظة الأوراق المالية عن تدفقها (٠.١ بليون دولار أمريكى) بسبب العوائد السلبية الحقيقية. على أية حال، بلغت الاحتياطيات حوالى ١٣.٥ بليون دولار أمريكى (أو ٧ شهور من الواردات) فى الوقت الذى عملت فيه البنوك على تدفق الصرف الأجنبى انخفضت سيولة السوق.

وبالنظر للمستقبل، فإن لدينا شكاً فى أن الحساب الجارى سيتدهور بعض الشىء فى عام ٢٠٠٤/ ٢٠٠٥ (النسبة المتوقعة ٣.٨٪) على أساس زيادة الواردات نتيجة للإصلاحات الجمركية التى قامت بها الحكومة الجديدة. ورغم ذلك، تسعى تدفقات حساب رأس المال لأن تكون قوية بالفعل خاصة من مستثمرى حافظة الأوراق المالية. ونتيجة لذلك، يمكن أن يعقب هذا زيادات أخرى فى احتياطى النقد الأجنبى.

وصل معدل العجز المالى للحكومة إلى نسبة كبيرة بلغت ٥,٩ ٪ من إجمالى الناتج المحلى عن العام الماضى، حيث لم تنخفض إلا قليلاً عن نسبة ٦.١ ٪ عن عام ٢٠٠٢/ ٢٠٠٣. والسبب الرئيسى فى هذا الانخفاض الصغير فى الفجوة المالية يتمثل فى أداء العائدات الأقوى والذى بلغ ٢١.٧ ٪ من إجمالى الناتج المحلى (ساهمت إيرادات قناة السويس بأعلى نسبة بين العائدات). بينما ظل الإنفاق من ناحية أخرى مرتفعاً نسبياً حيث بلغ ٢٧.٦ ٪ إجمالى الناتج المحلى. لكن لاحظ أن الفائض فى اعتمادات التأمين الاجتماعى عمل على احتواء معدل العجز الحكومى العام فى نسبة لم تزد عن ٢.٤ ٪ من إجمالى الناتج المحلى. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن من المتوقع تحسن الصورة المالية بدرجة كبيرة نظراً لأن الإصلاح الجمركى والضريبى سيعتمد على الحسابات المالية بمعدل يصل إلى حوالى ٠.٨ ٪ من إجمالى



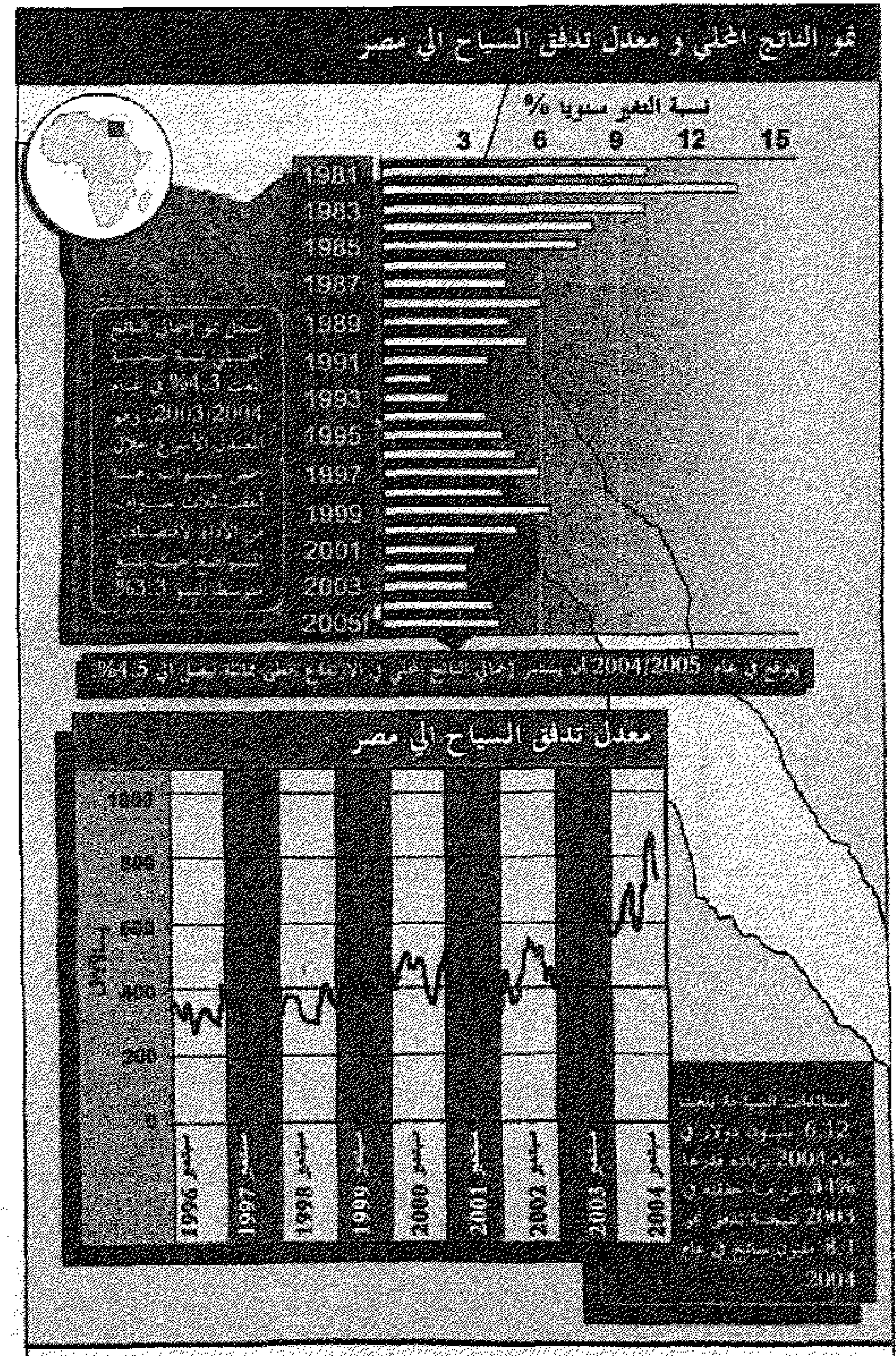


الناتج المحلى فى السنتين الماليتين القادمتين (بشكل تراكمى). توقعنا أن يصل العجز فى الميزانية إلى ٦.٨ ٪ من إجمالى الناتج المحلى فى ٢٠٠٤/٢٠٠٥ ليصل إلى ٧ ٪ إجمالى الناتج المحلى فى ٢٠٠٥/٢٠٠٦.

ونتيجة لتزايد العجز المالى، قفز الدين العام إلى أكثر من ٨٧ ٪ إجمالى الناتج المحلى فى نهاية يونيو عام ٢٠٠٤ (٦٨ ٪ فى ٢٠٠٠/٢٠٠١). ولم يزد سهم الدين الخارجى إلا هامشياً ليصل إلى ٣٩.٢ ٪ من إجمالى الناتج المحلى فى عام ٢٠٠٣/٢٠٠٤ أو ٢٨.٩ بليون دولار أمريكى. كان هذا فى الغالب نتيجة الهبوط فى الدولار الأمريكى بافتراض أن حوالى ٤٥٪ من هذا الدين تمثل فى العملات باستثناء الدولار. وعلى أية حال، فإن التزامات خدمة الدين ليست مقيدة بدرجة كبيرة نظراً لأن سداد الدين يكون فى الغالب على المدى الطويل (بلغ معدل خدمة الدين ١٠.٧ ٪ فى عام ٢٠٠٣/٢٠٠٤).

السياسة المالية لا تزال ضعيفة

انكمش عجز موازنة الحكومة المركزية للمرة الأولى فى ست سنوات ليصل إلى ٥.٩ ٪ فى عام ٢٠٠٣/٢٠٠٤. وكما سبقت الإشارة، ساعدت إيرادات قناة السويس الكبيرة على أساس هبوط سعر صرف حق السحب الخاص أمام الجنيه المصرى بنسبة ٢٨٪ (الرسوم تحسب بوحدات حق السحب الخاص)، على تدعيم أداء العائدات ليرتفع ١٤.١ ٪ فى السنة. ومن جانب آخر، زاد الإنفاق المالى بشكل رئيسى من خلال زيادة ما يسدد من فوائد الديون الناتجة عن الزيادة فى إصدار أذون الخزانة (٢٢ ٪ من الإنفاق الكلى). ورغم ذلك، يظل الهبوط المالى كبيراً مما يتسبب فى استمرار عبء الدين العام بالارتفاع ليصل من ٨٤.٥ ٪ من إجمالى الناتج المحلى فى عام ٢٠٠٢/٢٠٠٣ إلى ٨٧.١ ٪ من إجمالى الناتج المحلى فى ٢٠٠٣/٢٠٠٤. أضف إلى ذلك أنه ومع افتراض وجود برنامج إصلاح هيكلى يجرى تنفيذه بالفعل، فإن الحسابات المالية ستسوء حتماً قبل أن تتحسن بل وربما بلغت أكثر من ٧.٠ ٪ فى السنتين القادمتين. وربما لن يؤدى خفض تكاليف خدمات الديون نظراً لقوة الجنيه والهبوط فى معدلات الفائدة (بسبب علاوة المخاطر) إلى معادلة النسبة الأكبر من الهبوط المالى إلا جزئياً.



تضييق السياسة النقدية

يهدف البنك المركزى إلى توافق أرصدته مع الهدف الرسمى وهو ١٠ ٪ سنوياً من خلال عمليات السوق المفتوحة وتوفير أذون الخزانة. وتعرضت السياسة النقدية للتضييق فى أوائل عام ٢٠٠٤ بهدف احتواء النمو فى التضخم فى أعقاب انخفاض قيمة الجنيه المصرى فى عام ٢٠٠٣، حيث ارتفع معدل سوق ما بين البنوك لشهر واحد من ٧.٦٪ فى بداية عام ٢٠٠٤ إلى ١٢.٤٪ فى أكتوبر من نفس العام كما اتبعت أذون الخزانة لمدة ثلاثة شهور اتجاهاً مماثلاً رغم أن كلاً من معدلات الإيداع والإقراض لم تكد تتغير حتى نهاية صيف ٢٠٠٤. ارتفع المعروض النقدى إلى ١٤ ٪ فى عام ٢٠٠٣/٢٠٠٤، أى حوالى ٤ ٪ أعلى من الهدف الرسمى، كما زاد عن نسبة ٨.٨ ٪ فى عام ١٩٩٩/٢٠٠٠. قفز التضخم أيضاً من نسبة ٣.٢ ٪ فى ٢٠٠٢/٢٠٠٣ إلى ٨.١ ٪ فى العام الماضى وبلغ نمو مؤشر سعر الجملة ٢١.٤ ٪ فى أبريل ٢٠٠٤، وهى النسبة الأعلى منذ بدء السلسلة.

لاحظ هنا أنه تم تعيين محافظ جديد للبنك المركزى فى العام الماضى تقريباً فى نفس الوقت الذى بدأت فيه دورة تضييق السياسة النقدية، كما منح هذا المحافظ قدراً أكبر من الاستقلال. وليس من المتوقع انخفاض معدل التضخم فى عام ٢٠٠٤/٢٠٠٥ حيث يرى أن ثباته عند نسبة ١٠.٥ ٪ التى جاءت وبشكل رئيسى بسبب ضخامة الطلب المحلى وضآلة الحسابات المالية. لهذا السبب ظلت معدلات الفائدة عند نفس مستوى العام الماضى تقريباً. وفى هذه الأثناء يخطط البنك المركزى لاستهداف التضخم فى العامين القادمين ومؤشر جديد لسعر المستهلك (مع استثناء السلع المدعومة)، يجرى إنشاؤه الآن بمساعدة صندوق النقد الدولى.

سياسة صرف أقل تدخلاً

ورغم التزام البنك المركزى علناً بسعر صرف متغير منذ ٢٠٠٣، إلا أنه كان يقوم وبشكل غير رسمى بالسيطرة على سوق الصرف الأجنبى حتى نهاية السنة الماضية، ليبقى سعر صرف الدولار الأمريكى حوالى ٦.٢ مقابل الجنيه المصرى فى معظم شهور السنة. على أية حال، أدى انطلاق سوق الصرف الأجنبى بين البنوك فى ٢٣ من ديسمبر ٢٠٠٤ إلى مزيد من توافر العملات الأجنبية، مما تسبب فى ارتفاع قيمة الجنيه أمام الدولار بنسبة ٧٪ ليصل الدولار إلى ٥.٨١ جنيه، الأمر الذى أدى إلى إزالة الفرق بين سعر السوق السوداء والسوق الرسمية.

إن الجنيه المصرى مدعوم أيضاً من قبل ميزان مدفوعات سليم. فعائدات السياحة الكبيرة (التى بلغت ٦.١٢ بليون دولار أمريكى فى عام ٢٠٠٤، وأعلى من ٣٤٪ مما كان عليه فى عام ٢٠٠٣، وهى نتيجة لتدفق كلى يبلغ ٨.١ مليون سائح فى الفترة سالفة الذكر)، وزيادة إنتاج النفط، وعائدات تصدير الغاز- وإن كان بدرجة أقل (أعلى ٢٤ ٪ فى عام ٢٠٠٣/٢٠٠٤)، وإيرادات قناة السويس الضخمة، وزيادة التحويلات المالية من المصريين العاملين بالخارج كلها من العوامل المهمة التى أسهمت فى دعم الجنيه.

وإلى الآن جاءت تصريحات البنك المركزى موضحة عدم سعيه إلى الوصول إلى عملة أقوى مقابل الدولار حيث يترك لقوى العرض والطلب تحديد «قيمة عادلة» للعملة. فى حال استمرار هذه السياسة الأقل تدخلاً، فإنها قد تؤدى إلى ارتفاع قيمة الجنيه اسمياً وفعلياً على مدار هذا العام. وفى الحقيقة، لن ندهش إذا رأينا انخفاض الدولار الأمريكى أمام الجنيه المصرى ليصل سعره إلى ٥.٢٥ بحلول منتصف العام. وهذا يمثل ارتفاعاً اسمياً آخر يزيد على ١٠ ٪. لاحظ أن التحرك يكون أكبر فى الواقع حيث إن الفرق بين معدل التضخم فى مصر مقارنة بأهم شركائها التجاريين يقترب من نسبة ٨ ٪ حالياً. ورغم ذلك، ومع الأخذ فى الحسبان الهبوط المثير فى سعر الصرف الحقيقى فى غضون العديد من السنوات الماضية (أقل ٤٣.٥ ٪ عن الذروة التى بلغها فى عام ١٩٩٩/٢٠٠٠)، فإن مثل هذا التحرك لن يبالغ فيه وفقاً لوجهة نظرنا.

لكن من المهم أن نلاحظ أن مدى ارتفاع قيمة العملة يمكن أن يعتمد أيضاً على قرار البنك المركزى بالبدء فى التدخل بهدف تراكم المزيد من الاحتياطى، وعند أى مستوى يمكن أن يصل ذلك التدخل إلى جانب تفادى الخسارة بالنسبة للقدرة التنافسية للصادرات. علاوة على ذلك، فإن أى انتكاسة فى ثقة المستثمر الإيجابية الحالية - سواء كانت لأسباب خارجية أو محلية - يمكنها أن تؤثر تأثيراً سلبياً على سعر الصرف. يمكننا أن نلاحظ وبوجه خاص أن أى صدمة قوية تؤثر على السياحة (مثل الهجوم الإرهابى فى الأقصر عام ١٩٩٧) أو الهبوط الشديد فى أسعار النفط العالمية قد يكون لهما آثار ضارة. وأخيراً، يعتمد دعم سياسة سعر الصرف على المدى الطويل على تنفيذ المزيد من الإصلاحات المؤسسية بالإضافة إلى إدارة نقدية أكثر صلابة إلى جانب اتخاذ القرار بالبعد عن منهج التدخل. ■

ترجمة: علاء الدين محمود

مصر للطيران

الجديد

بمناسبة موسم الصيف
تعلن عن الرحلات التالية

اولاً : فى اوروبا

موسكو الخميس و الثلاثاء
فرانكفورت يومياً
أسطنبول يومياً
أثينا يومياً

ثانيا : فى افريقيا

الخرطوم يومياً
طرابلس يومياً
بنى غازى الأربعاء والجمعة و الأحد
الدار البيضاء الثلاثاء والسبت و الخميس

بالأضافة الى رحلاتنا المنتظمة على شبكة الخطوط العالمية
الى المدن الرئيسية فى اسيا و افريقيا و اوروبا و الولايات المتحدة

لمزيد من المعلومات برجاء الاتصال بمركز الخدمة التليفونية ال(Call Center)
من اى تليفون ارضى ٠٩٠٠٧٠٠٠٠ سعر الدقيقة ٥٠ قرشاً
من اى محمول ١٧١٧ سعر الدقيقة جنية واحد



www.egyptair.com.eg

فاروق شوشة

فى وداع شوقى ضيف

■ حين أبدع عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين رائعته «الأيام» سيرة ذاتية لحياة ممتلئة وحافلة، لم يكن يدور بخلده أنه قد أبدع نموذجاً متميزاً لكتابة أدبية مغايرة، انطلق فيها على غير مثال سابق فى الأدب العربى، وأنه بهذا النموذج قد وضع أساساً وتعمد طريقاً يصعب على السائرين فيه من بعده أن يتجنبوه أو يخرجوا عليه.

هذا التأثير الذى قُدر «للأيام» أن تحدثه فى كُتاب السيرة الذاتية بعد ذلك، امتزج عند الدكتور شوقى ضيف - أستاذ الدراسات الأدبية والعلامة اللغوى (فيما بعد رئيس مجمع اللغة العربية ورئيس اتحاد المجامع اللغوية العربية) وهو الذى تتلمذ على الدكتور طه حسين وعايشه عن قرب عقوداً من الزمان فى الجامعة. وفى مجمع اللغة العربية - امتزج عنده بإعجاب شديد وتقدير عميق وعودة غامرة لشخصية أستاذه وأسلوبه فى الكتابة ومنهجه فى الدراسة الأدبية. ومن المؤكد أنه لم يستطع تجنب النهج الذى اصطنعه طه حسين لكتابة «الأيام»، من منطلق الإعجاب والتأثر، فبدأ سيرته الذاتية «معى» التى صدرت طبعتها الأولى فى سلسلة «اقرأ» عن دار المعارف فى عام ١٩٨١، ثم صدرت الطبعة الثانية عام ١٩٨٥، وفى عام ١٩٨٨ استكمل الدكتور شوقى ضيف الجزء الثانى من هذه السيرة. وقد صمم الدكتور شوقى ضيف سيرته بحيث يتسع الجزء الأول منها للنشأة والتكوين والدراسة انتهاء بحصوله على الدكتوراة، أما الجزء الثانى - الأكبر حجماً - فقد أنجزه شوقى ضيف بعد سبع سنوات من صدور الجزء الأول ويبدأ بتعيينه مدرساً بقسم اللغة العربية فى كلية الآداب سنة ١٩٤٢ - بعد حصوله على الدكتوراة - ويتوقف عند عام ١٩٨٧ وهو العام الذى انتخب فيه عضواً عاملاً فى المجمع العلمى المصرى، بعد مرور أحد عشر عاماً على انتخابه عضواً فى مجمع اللغة العربية. ولو قدر للدكتور شوقى ضيف أن ينجز جزءاً ثالثاً من سيرته، فلا بد أنه كان سيتسع لنشاطه وجهوده المجمعية، عضواً فأميناً عاماً فنائباً للرئيس فرئيساً للمجمع.

وعندما اختار شوقى ضيف عنواناً لافتاً لسيرته الذاتية هو «معى» فإنه لم يكن بعيداً عن عنوان الكتاب الذى وضعته السيدة سوزان طه حسين وهو «معك» عن زوجها الراحل، وصدرت ترجمته العربية عن دار المعارف أيضاً. وإذا كان طه حسين قد اختار أن يتحدث عن بطل سيرته بضمير الغائب وأن يطلق عليه «صاحبنا» فإن شوقى ضيف - متابعة لما فعله طه - آثر أن يسمى بطله «الصبى» و«الفتى» ثم «صاحبى» تدرجاً مع مراحل العمر المختلفة ومقتضيات السيرة الذاتية. ولم تكن تسمية «الفتى» بعيدة أيضاً عن تسمية «الفتى» التى سبقت إليها «أيام» طه حسين.

وانفسح المجال أمام صاحب السيرة: شوقى ضيف، ليرسم لقريته «أولاد حمام» - إحدى قرى محافظة دمياط، وفلاحيها، ولواقعها الغارق فى البؤس والفقر والتخلف (باستثناء بعض الأسر القليلة الموسرة فيها) - صورة مغرقة فى الواقعية والشاعرية معاً، أبدعها أسلوبه الأدبى البيانى المتمكن دوماً من استقصاء الوصف، والاحتفال بالتشبيه، والملتفت إلى المتقابلات التى تمليها ضرورات الصياغة، وهو أسلوب يمتح كثيراً من لغة القرآن الكريم وبيانه، تضمينات واقتباسات مضيئة وكاشفة. بحيث يمكن القول إن حديث شوقى ضيف عن قريته، هو فى حقيقته لوحات قلمية بديعة (تذكرنا مرة أخرى بحديث طه حسين فى مستهل الجزء الأول من الأيام عن القرية والسياج وما وراءه من عالم لا يراه ولكنه يتخيله ويخشاه)، وإن هذه اللوحات القلمية تكشف عن طاقة إبداعية كبيرة عند صاحبها، تشربتها كتاباته الدراسية والأكاديمية، ولم يتح لها أن تتنفس فى أجناس أدبية مباشرة: شعراً ونثراً، فكانت الفرصة مواتية - من خلال العديد من صفحات هذه السيرة: خاصة فى جزئها الأول - لانسكاب هذه اللغة الشعرية وتدفقها على الورق وهو يقول: «وما تلبث القرية أن تخلد إلى السكون، ولا ضوء ولا شعاع إلا فى الليالى المقمرة، أما الليالى الأخرى فيلفها ظلام دامس، ولا حركة ولا ما يشبه الحركة، ولا صوت ولا همس، بل صمت مطبق مخيم على كل شىء إلا أن يسمع من حين إلى حين صياح الديكة الذى يرن كالأجراس فى كل الأنحاء. وتغط القرية فى نوم عميق حتى السحر وتباشير الصباح، حين يخترق أذان الفجر حجاب الظلام إلى المساء، والمؤذن يصيح: الله أكبر، فتتجافى جنوب كثيرة عن المضاجع، ويصيح فى الناس: «الصلاة خير من النوم»، فيهبون من مراقدهم ويسرعون فى سيرهم إلى المسجد للصلاة.

وينفلت من أضواء الصباح شعاع إلى كل دار، فيستيقظ جميع من فيها، وكأنما يغسل هذا الشعاع غبار النوم من عيونهم، وتبادر فتاة كل دار، فتحمل على رأسها البلاص خاوياً، وهو جرة كبيرة من الفخار لها عروتان. وتنادى الفتاة بعض رفيقاتها فيسرن معاً وعلى رؤوسهن البلاليص أو تلك الجرار الكبيرة، ويمضين إلى الترعة فيملأن جرارهن، ويضعنها على رؤوسهن فى وضع محكم غاية الإحكام، وكأنما وضعت بميزان لا يحيف ولا يجور أبداً، وهن لذلك لا يمسكن بها، إذ لا تميل يمنة ولا يسرة، فقد أصبح ثباتها على رؤوسهن كأنه جوهر دخل فى تركيبها. وفى أثناء سيرهن يتحدثن ويتضاحكن، حتى تصل كل منهن إلى دارها، فتدفع بجرتها إلى زير مُعد لذلك تجد فيه أسرتها حاجتها للشرب والرى طوال النهار. وهو منظر مألوف فى قرى مصر حتى اليوم، منظر بديع، إذ ترى الفتيات يحملن فى الصباح الباكر هذه الجرار الكبيرة المليئة بالماء، وكل فتاة تختال فى مشيتها، كأنما تريد أن تعلن إلى أبويها وأهلها أنها ستظل دائماً ترعاهم وتحمل إليهم - ما استطاعت - الشراب والغذاء.

وكل ذلك قبيل شروق الشمس، حتى إذا أطلت من الأفق بطلعتها وأضوائها البهية، فتحت لها الزروع صدورها الندية، فعانقتها وطوقتها بقلائدها الذهبية. وحينئذ ترى الفلاحين شيباً وشباناً ماضين إلى الحقول بفئوسهم، ويتبعهم بعض نساء القرية وفتياتها من أسرها المتواضعة ممن يعملن فى الحقول مع الرجال والفتيان جنباً إلى جنب، يبذرن الحب، ويسقين الزرع، ويشتلن - أو يغرسن - شتلات الأرز وغروسه، وينزعن أوراق القطن المصابة من فروعه الخضراء ليصبح معافى من الآفات. حتى إذا تفتح لوزه أو كراته وثماره وتهدلت خُصله البيضاء الناصعة، أخذن يجمعنه ويجنينه. وهن يغنين أهازيجهن الريفية.

وجميعهن لا يعرفن البرقع ولا الحجاب، فهن مثل أخواتهن فى ريف مصر دائماً سافرات، فحجابهن ويرقعهن الحياء المترقرق فى أسارير وجوههن، وهن لا يعرفن الثرثرة ولا النظرات المغرية ولا الإيماءات والغمزات الكاذبة، فالبراءة تتألق على جباههن.

وكما أن للرجال والشباب من أهليهن الجلباب الأزرق لا يخلعونه كذلك لهن الثوب الأسود سواد الطين الذى يعملن فيه لا يزايل أجسادهن. فهو كل ما يملكن وكل حليتهن وزينتهن، لا يعرفن شيئاً وراءه إلا ما يرينه على نساء الموسرين فى القرية، لا يعرفن الثياب الملونة ذات الحمرة القانية أو الزرقة الصافية. ومعاذ الله أن يعرفن الثياب الشفافة والأخرى الحريرية المزركشة، ومعاذ الله أن يعرفن المساحيق البيضاء بياض الياسمين أو الحمراء حمرة الورد والياقوت.

ومع ذلك فكثير من هؤلاء الريفيات البائسات تجرى فى وجوههن نضرة الحياة بأكثر مما تجرى فى وجوه كثيرات من بنات الموسرين فى القرى أو البنات الحضريات، لفارق مهم، هو نفس فارق الأزهار التى تعيش طليقة فى الطبيعة، ناعمة، بمهدها من التربة، وما يحتضنها

معى
شوقى ضيف
دار المعارف - الجزء الأول ١٩٨١ - الجزء الثانى ١٩٨٨

من أشعة الشمس، وبما يتلألأ فيها سحراً من حبات الندى، والأزهار الأخرى التى تعيش حبيسة فى الأصص والظلال داخل البيوت والجدران.

وحقاً كان يحف بحياة الأسر المتواضعة فى الريف بؤس كثير، غير أن من الحق أيضاً أنك كنت دائماً ترى البسمة ترف على عيون الجميع نساءً ورجالاً وفتيات وفتياناً وعلى شفاههم. وكأن الأمل فى حياة أفضل وأبهج وأروع لم يكن يزايلهم أبداً، إذ لا يزال يتسلل إلى نفوسهم تسلل أضواء الفجر أواخر الليل فى الآفاق».



على امتداد سيرته، يستطيع القارئ أن يتابع خيطين رئيسيين نجح المؤلف فى نسجهما باقتدار وتمكن ليضفى على سيرته هدفاً خلقياً وتربوياً من ناحية، وليضمن سيرته أهم الأحداث السياسية والاجتماعية المواكبة لها من ناحية أخرى. حريصاً على إبراز ما يمكن تسميته بقيم القرية التى تربى فى ظلها ونشأ وهو يمارسها، وغياب هذه القيم الآن بدعوى العصرية والمدنية. وهى قيم تتصل فى جوهرها بالعلاقة بين الآباء والأبناء، والاحترام الذى يرقى إلى درجة الطاعة المطلقة والتقديس فيما يتصل بسلوك الصغار إزاء الكبار - خاصة الوالدين - فى الأسرة المصرية الريفية على زمانه. يقول شوقى ضيف:

«وكان الطفل يبدأ يومه دائماً بتحية أبويه، ولم تكن التحية كلاماً، بل كانت تقبيلاً لليدين الكريمتين، يد الأب ويد الأم: واجب يومى كان الطفل يؤديه صباح كل يوم كما يؤديه أطفال القرية من حوله، بل كما يؤديه أطفال الريف المصرى جميعاً. وقد أقلعت الكثرة فى مصر الآن عن هذه العادة، وخاصة الأسر المثقفة ثقافة عصرية، أو التى تدعى لنفسها شيئاً من المدنية كأنها تعد ذلك ضرباً من العبودية أو من الذلة، ولا أدرى من أين جاءها هذا الاعتقاد؟ أغلب الظن أنه جاءها من بعض من رأوا الحياة فى الغرب أو تعلموا فيه ولم يروا هذه العادة هناك، فظنوها عادة سيئة، وهى إنما تكون سيئة أشد السوء إذا وجهت لغير الأب والأم، أما هما فحرى «بالولد أن ينشأ على تقبيل يديهما تحية لهما واحتراماً».

ويعلق شوقى ضيف ☜

فــــى وداع شوقى ضيف



على إقلاع الكثرة فى مصر الآن عن هذه العادة، مؤكداً هدفه الخلقى والتربوى، بقوله: «وربما كان ما يلاحظ الآن على بعض الأبناء من أنهم لا يحترمون آباءهم الاحترام الكافى مرجعه إلى إبطال هذه العادة الطيبة التى كانت تحيل الأب والأم إلى ما يشبه قديسين فى نظر الأبناء، أما وقد أبطلت فلم تعد لهما عند كثيرين منهم هذه القداسة ولا ما كان لهما من الإجلال».

مثال آخر تفيض به صفحات السيرة الذاتية لشوقى ضيف، وهو ما يتصل بعلاقته بأساتذته الكبار، وإجلاله لهم، وما يحمله لهم من مودة وإكبار. يتمثل هذا فى الصفحات التى أفردها لعلاقته بكل من طه حسين وأحمد أمين ومصطفى عبد الرازق وعبد الوهاب عزام وغيرهم.

فى ختام صفحات الجزء الأول من سيرته الذاتية «معى» يورد بعض الأحداث والمواقف عن العلاقة التى ربطت بينه وبين أستاذه طه حسين وهو يقرأ عليه ما أنجزه فى رسالته للدكتوراة عن المذاهب الفنية للشعر العربى على مر العصور. كان طه حسين هو المشرف على الرسالة، وقد جعل له يوماً معيناً فى كل أسبوعين هو يوم الخميس، وساعة معينة هى الساعة التاسعة، وكان يذهب إلى أستاذه فى الموعد المحدد فيجده دائماً فى انتظاره. ثم يقول شوقى ضيف: «وما إن استمع طه حسين إلى الفصل الأول من فصول الرسالة حتى أخذ يثنى على الشاب وعلى رسالته فى اجتماعات قسم اللغة العربية. وكلما مضى الشاب فى قراءة فصول رسالته على أستاذه ازداد ثناؤه، وهو ثناء كان يجعل الشاب يزداد تجويداً ودأباً فى رسالته، باذلاً لها كل ما يستطيع من جهد ومشقة حتى يرضى أستاذه، وحتى يكون مستحقاً لثنائه.

وإن الشاب ليذكر دائماً هذا الثناء الكريم، وكيف كان يدفعه دفعاً إلى مضاعفة جهده، حتى لينجز رسالته - منذ تسجيلها فى نحو عام ونصف. وطه حسين بذلك كان أستاذاً مشرفاً على رسالة الشاب بالمعنى الدقيق لإشراف الأساتذة بحيث يستخرج من تلميذه كل ما عنده من طاقة ومقدرة».

ولا يفوت شوقى ضيف أن يضمن السطور الأخيرة من هذا الختام - وهو يتحدث عن مناقشة رسالته مناقشة علنية، وكيف غص المدرج رقم ٧٨ بكلية الآداب بحشد كبير من الطلاب والجمهور، وكانت لجنة المناقشين تتكون من خمسة أساتذة منهم الأستاذ العميد - لا يفوته أن يضمنها لفتة خلقية وتربوية تكشف عن عميق محبته وإجلاله لأبيه وهو يقول: «وفى أثناء تلخيص الشاب لرسالته حانت منه التفاتة، فوجد أباه الشيخ واقفاً مع عشرات من الطلاب مكدسين فى مدخل المدرج، ولم يكن أنبأ أباه بيوم امتحانه، غير أن أباه قرأ خبراً عنه فى الصحف صباحاً، فسافر إلى القاهرة تواً، واتجه إلى الجامعة فسمع ابنه - وهو لا يزال على أبواب الجامعة الخارجية - يلقى تلخيص بحثه. وما أعجب الآباء، إنهم يمنحون أبناءهم الحياة والوجود، ويمنحونهم أنفس ما يملكون: يمنحونهم القلوب والأفئدة وكل ما تشتمل عليه الأفئدة والقلوب من الحب الخالص لا يبتغون عليه جزاء ولا شكوراً. ومهما صنع الأبناء لآبائهم، ومهما قدموا لهم من العون ومن الرفق والود وصفو الحياة فلن يستطيعوا أن يوفوهم حقوقهم، لا حقوق رعايتهم وتربيتهم فحسب، بل أيضاً حقوق البر والرحمة والحنان والعطف والشفقة».



هكذا يختتم الدكتور شوقى ضيف الجزء الأول من سيرته الذاتية بالتفاتة إلى أبيه الشيخ، وتأكيد لمعانى البر والرحمة والحنان فيه، تماماً كما اختتم أستاذه طه حسين الجزء الأول من سيرته الذاتية بدعوة لابنته الصغيرة أن تلتفت معه إلى الملاك الذى يحنو على سريرها ويرعاها، ويسهر من أجلها، وهو ملاك لا يرعى ابنته فقط وإنما يرعاه هو أيضاً، ويأخذ بيده فى رحلة الحياة ويعوضه فقدان البصر. هذا الملاك هو زوجته وأم ابنته. هذه السطور الأخيرة لدى كل من الكاتبين الكبيرين هى الطلقة العاطفية التى تختزن شحنة هائلة من الوفاء والتقدير، وتنشرها على وجوه القراء. كان شوقى يتجه إلى أبيه ومعلمه وصاحب الفضل الأول عليه، وكان طه حسين يتجه إلى زوجته رفيقة العمر وصاحبة الفضل الأول عليه وهو يقول مخاطباً ابنته: «فإن سألتنى كيف انتهى إلى حيث هو الآن، وكيف أصبح شكله مقبولاً لا تقتحمه العين ولا تزدريه، وكيف استطاع أن يهيئ لك ولأخيك ما أنتما فيه من حياة راضية، وكيف استطاع أن يثير فى نفوس كثير من الناس ما يثير من حسد وحقد وضغينة وأن يثير فى نفوس ناس آخرين ما يثير من رضا عنه وإكرام له وتشجيع إن سألت كيف انتقل من تلك الحال إلى هذه الحال فلست أستطيع أن أجيبك وإنما هناك شخص آخر هو الذى يستطيع هذا الجواب. فسليه ينبئك.

أتعرفينه؟ انظرى إليه. هو هذا الملك القائم الذى يحنو على سريرك إذا أمسيت لتستقبلى الليل فى هدوء ونوم لذيذ، ويحنو على سريرك إذا أصبحت لتستقبلى النهار فى سرور وابتهاج. ألست مدينة لهذا الملك بما أنت فيه من هدوء الليل وبهجة النهار. لقد حنا يا ابنتى هذا الملك على أبيك، فبدله من البؤس نعيماً، ومن اليأس أملاً ومن الفقر غنى ومن الشقاء سعادة وصفواً.

ليس دين أبيك لهذا الملك بأقل من دينك، فلتتعاونا يا ابنتى على أداء هذا الدين، وما أنتما ببالغين من ذلك بعض ما تريدان!

بالإضافة إلى هذا الخيط الخلقى والتربوى - الذى يشد وقائع السيرة الذاتية لشوقى ضيف وأحداثها، ويضفى عليها من طبيعة المؤلف الأبوية والأستاذية ما يجعله دائم الإشارة إلى التغيرات التى طرأت على المجتمع المصرى على مدى العقود التى تنتظرها السيرة، والتنبيه إلى ما كان يتحلى به الآباء والأجداد فى مقابل عدم اكتراث الأبناء والأحفاد - بالإضافة إلى هذا الخيط، كان حرص شوقى ضيف على تسجيل الأحداث السياسية والاجتماعية التى واكبت حياته، وتأثيراتها وانعكاساتها على هذه الحياة سلباً وإيجاباً. وهى أحداث تكشف عن نمو الوعى السياسى والوطنى، وعن تطور المجتمع واتساع دائرة التعليم، وعن دخول الفتاة إلى الجامعة، وزمالتها الجامعية لشوقى ضيف، وعما كان يحدث للأساتذة الذين كانت مواقفهم السياسية واضحة ومعلنة، ومشاركتهم فى الحياة السياسية والحركة الوطنية عميقة الأثر موفورة النشاط وما تعرض له بعض هؤلاء الأساتذة من صنوف العسف والاضطهاد والإبعاد عن الجامعة، والمثال البارز على ذلك كله ما حدث لأستاذه طه حسين عندما رفض التعاون مع حكومة «صدقى» مؤثراً هو ورفاقه من الأحرار الدستوريين مواجهة هذه الحكومة ومقاومتها من خلال ائتلاف وضعوا له ميثاقاً سموه «عهد الله والوطن». فكانت النتيجة عزل طه حسين من منصبه ونقله إلى ديوان وزارة المعارف، لكنه آثر تقديم الاستقالة، وغضب لطفى السيد مدير الجامعة بسبب هذا العدوان على استقلال الجامعة وقدم إلى الحكومة استقالته بدوره.



هذا الارتباط الحميم بين السيرة والوطن - بكل ما يموج فيه من أحداث ويصطرع فيه من تيارات ومواقف - يبرز بصورة أكثر وضوحاً وإلحاحاً فى الجزء الثانى من السيرة الذاتية الذى أنجزه شوقى ضيف بعد سبعة أعوام من صدور الجزء الأول. ولعله كتبه استجابة لمن كانوا يلحون عليه لاستكماله، ليتناول حياته العلمية والعملية بدءاً من حصوله على الدكتوراة وتعيينه مدرساً بقسم اللغة العربية فى كلية الآداب عام ١٩٤٢، حتى وقت كتابة هذا الجزء والانتهاء منه عام ١٩٨٧. وقد آثر أن يضع عنواناً ثانياً لهذا الجزء هو «ذكريات ومشاهدات»، وهو عنوان يتسع للكثير من فصول الأحداث السياسية وتقلباتها المستمرة، متضمنة انتهاء الحرب العالمية الثانية ووضع ميثاق الجامعة العربية وحرب فلسطين التى انتهت بالنكبة، ورحلة المؤلف وأسرته إلى قبرص، واندلاع ثورة يوليو، وحصوله على جائزة الدولة فى الأدب - مناصفة - عام ١٩٥٥، وتأميم شركة قناة السويس العالمية، وسفره مع وفد من اتحاد كتاب مصر لزيارة رومانيا وروسيا، واضطرارهم فى طريق العودة إلى النزول فى بيروت لإغلاق المطارات



عندما اختار شوقى ضيف عنوانًا لافتًا لسيرته الذاتية هو «معى» فإنه لم يكن بعيداً عن عنوان الكتاب الذى وضعته السيدة سوزان طه حسين وهو «معك» عن زوجها الراحل، وصدرت ترجمته العربية عن دار المعارف أيضًا



والموانى المصرية بسبب العدوان الثلاثى على مصر، ومشاركته فى احتفال المجلس الأعلى للآداب والعلوم والفنون بذكرى حافظ إبراهيم، وقيام الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨، واختيار المجمع العلمى العراقى له عضواً مراسلاً، ومشاركته فى مهرجان الشعر الثانى بدمشق الذى أقامه المجلس الأعلى عام ١٩٦٠. وينتهز شوقى ضيف الفرصة ليعلن موقفه من الشعر الجديد أو الشعر الحر فى مناسبة التقائه - من خلال هذا المهرجان: «بمجموعة كبيرة من شعراء الشباب المصريين والسوريين الذين ينظمون هذا الشعر الحر الجديد، وحاورهم طويلاً فيما سقط فى شعرهم من أنغام القصيدة العربية وخاصة القافية، وفى إلغائهم فكرة الشطر والبيت وإحلالهم مكانهما فكرة السطر، فالمنظومة منه سطور متوالية، ولا يعتد فيها بشىء من موسيقى الشعر العربى سوى التفعيلة. وأقنع صاحبى كثيرين من ناظميه أن يتلافوا ما سقط من أنغامه بالعودة إلى القافية المنوعة المعروفة فى الموشحات والشعر الدورى، واستجاب منهم كثيرون - فيما بعد - إلى فكرته مستوحين صور القافية المنوعة الموروثة، إذ لا يتصور العرب شعراً بدونها، وكأنها تلتصق بأفئدتهم التصاقاً».

ولا يفوت المؤلف أن يسجل أن ذلك العام - ١٩٦٠ - شهد نشر المجلد الأول من سلسلته عن تاريخ الأدب العربى، وهو المجلد الخاص بالعصر الجاهلى. وهى السلسلة التى سوف تنتظم التأريخ للأدب العربى حتى العصر الحديث، والتى سوف تصبح الدرة المتألقة فى عقد مؤلفات شوقى ضيف: الأدبية واللغوية والإسلامية والبلاغية. ثم تتسع صفحات الجزء الثانى من السيرة لطبيعة عنوانه «ذكريات ومشاهدات» فيتحدث عن دعوته إلى جامعة بيروت العربية أستاذاً زائراً لمدة أسبوعين فى تاريخ البلاغة العربية، وعن إعارته إلى جامعة عمّان بالأردن للمشاركة فى تأسيسها وليحاضر طلاب قسم اللغة العربية بها فى بعض مواده، ثم وفاة والده الشيخ، وأدائه لفريضة الحج، ثم دعوة جامعة بغداد له أستاذاً زائراً لمدة أسبوعين، ثم أدائه للعمرة، واستعانة جامعة الكويت به فى عام ١٩٧٠ للمعاونة فى إرساء النظام الجامعى بها، ثم زيارته للندن عام ١٩٧٢، ثم وفاة والدته، وقيام حرب أكتوبر، ثم زيارته مدينتى مدريد وباريس، ثم ترشيحه عضواً فى مجمع اللغة العربية وانتخابه عام ١٩٧٦، وعضويته الشرفية فى مجمع اللغة العربية الأردنى، ومنحه جائزة الدولة التقديرية للآداب عام ١٩٧٩ (عرفاناً بما قدم للعربية من أعمال تتصل بأدبها فى مختلف عصوره وأقاليمه، وبالدراسات اللغوية والبحوث اللغوية والنقدية) فحصوله على جائزة فيصل العالمية للأدب العربى عام ١٩٨٣، ثم قيامه برحلة مع بعض الأساتذة والطلبة إلى إسبانيا، ثم قضائه بعد ذلك فترة من الصيف فى ألمانيا وسويسرا، فتكريمه فى مؤتمر أعلام دمياط الذى أقامته كلية التربية بدمياط باسم جامعة المنصورة فى عام ١٩٨٥، ومشاركته لعدد من الأساتذة والطلبة فى رحلة إلى اسطنبول، وتعيينه فى العام التالى أستاذاً متفرغاً بآداب القاهرة، ويختتم هذه الذكريات والمشاهدات بانتخابه عام ١٩٨٧ عضواً عاملاً فى المجمع العلمى المصرى أقدم الهيئات العلمية بمصر منذ تأسيسه فى أواخر القرن الثامن عشر.



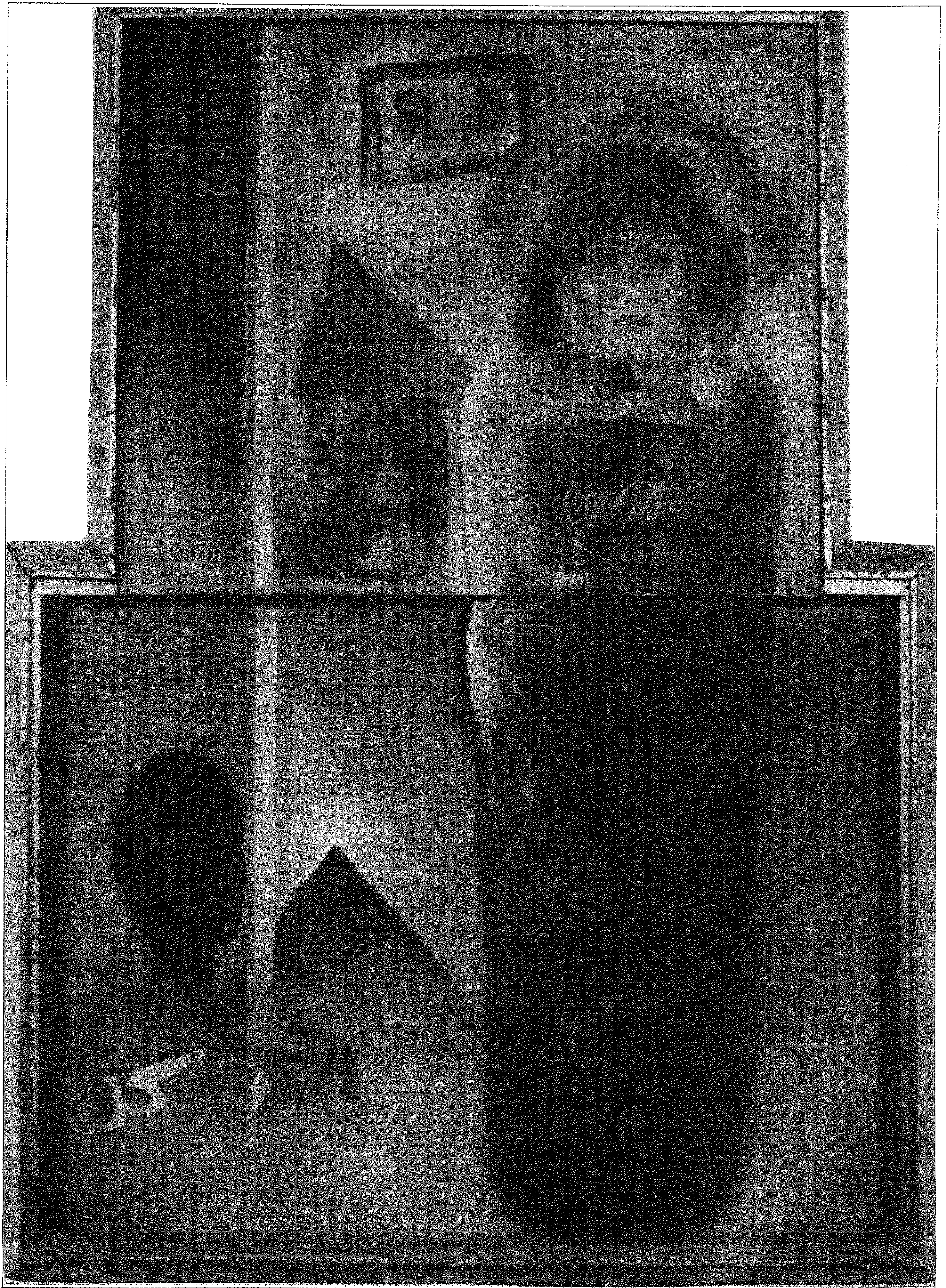
بالرغم من الحشد الضخم من الذكريات والمشاهدات، وامتلاء الجزء الأول من السيرة بالأحداث والمواقف السياسية، إلا أن شوقى ضيف نفسه لم يعمل بالسياسة قط، ولم يجرب مرة واحدة أن يكون حزبياً أو كاتباً سياسياً أو مشاركاً فى معركة سياسية. ويبدو - بشكل أكيد - أنه حدد لنفسه دوره ومكانه من البداية، مؤثراً العزلة فى صومعته العلمية والأكاديمية، مكتفياً بالمراقبة والتأمل والتحليل، عازفاً عما قد تتسبب فيه السياسة من إعلاء للجاه والسلطان، واقتناص للمناصب العليا والقيادية. فهو لم يسع - طوال حياته الجامعية - إلى ما هو أبعد من رئاسته لقسم اللغة العربية فى كلية الآداب، وبقدر ما كان هذا الأمر منجاة له وعاصماً من الوقوع فى أحابيل السياسة وعواصفها الهوج، وبعداً عن صراع المناصب العليا، إلا أنه تسبب فى حرمانه من الخبرات الإدارية اللازمة لإدارة الهيئات والمؤسسات. وهو الأمر الذى ظهر إبان سنوات رئاسته لمجمع اللغة العربية، حين اكتشف المجمعيون أنه يدار بعقلية أستاذ جامعى وأكاديمى بارز، وفكر عالم كبير متميز بأكثر من كونه يدار طبقاً لفلسفة إدارية عصرية ناجحة، تُحكم ربط الأجزاء بعضها ببعض، فى إطار تصور كُلى لطبيعة العمل فى المجمع، وتحديد المسئوليات، وتحقيق لامركزية التصرف، فى إطار مركزية الفكر والتوجه والخطة.



لكن هذه المتابعة الراصدة للتاريخ السياسى والاجتماعى والثقافى المصرى على امتداد - أكثر من ستين عاماً - تشهد على عمق الحس الوطنى لدى شوقى ضيف، فالرجل يكشف عن محبة غامرة لوطنه ومواطنيه، وعن حرص بالغ على أن يرى هذا الوطن دائماً فى المستوى الذى يعتقد أنه لائق به مكانة ومنزلة. وهو الأمر الذى لا نرى له مثيلاً فى السير الذاتية لدى العديد من الأساتذة والكتّاب، فكثير منهم كان مشغولاً بذاته عمن حوله وما حوله، وكثير منهم كان حريصاً على أن يوضح دوره هو وإنجازه هو بغض النظر عن أن هذا الدور وهذا الإنجاز هما جزء من سياق أكبر وأشمل، وهو موقف يكشف عن التواضع الأصيل فى شخصية شوقى ضيف. وهو تواضع حقيقى وغير زائف، ذلك أن التواضع الزائف والمصطنع هو فى حقيقة الوجه الآخر للغرور، وأن صاحبه يقصد به - عادة - استدراج الآخرين وحثهم على المبالغة فى مدحه والإشادة به. أما شوقى ضيف فهو يرى نفسه طيلة الوقت - على امتداد سيرته - غير مستحق لمدح أو ثناء، ويرى نفسه - وهو الكبير القدر والقيمة - صغيراً بالنسبة لأساتذته ومعلميه من جيل الرواد الكبار: طه حسين وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام وأمين الخولى ومصطفى عبد الرازق وغيرهم، بالرغم من أن تلاميذه ومريديه يرون أن إنجازه فى مجال الدراسة الأدبية والتأريخ الأدبى يفوق إنجاز كثير من أساتذته، مضافاً إليه إنجازه فى المجال اللغوى والبلاغى والإسلامى. مثل هذه الشخصية تكشف لنا - نحن قراءه وعارفى فضله - عن كنز من القيم النبيلة، والخلق الكريم، والأستاذية الحقيقية البعيدة عن زهو الادعاء وجَلَبة المكابرة.

ولو أن شوقى ضيف كان قد خطط لسيرته أن تكون على نهج غير الذى سلكه فى الجزءين اللذين أصدرهما بعنوان «معى»، لكان اندماجهما والتحامهما فى المضمون الذى قصد إليه أكثر اكتمالاً وغنى، ولكان الجزء الثانى أبعد من الطابع السردى والتسجيلى، على عكس الجزء الأول الذى يتوهج بحس الكتابة الأدبية، وروعة اللغة البيانية، وجمال العرض والتصوير والتحليل، وهو ما يجعل منه عملاً إبداعياً بكل معنى الكلمة، وسيرة ذاتية متفردة بغناها واحتشادها، جديرة بمكانتها بين السير الذاتية الكبرى لطه حسين وسلامة موسى وأحمد أمين وشكرى عياد ولويس عوض وغيرهم وصولاً إلى السير البديعة لمحمود الربيعى ومحمد عفيفى مطر وغيرهما من المبدعين.

وحسبه أنه قدم لقارئه عملاً كاشفاً، لا غنى عنه لفهم شخصية شوقى فى مكوناتها الأولى، وفى التربية الروحية والوجدانية التى أتيحت له، وفى روح العناد والإصرار اللذين كان يحلق بهما دائماً ويتجاوز، وفى تفسير القدرة الهائلة على إنجاز ما أنجزه فى مجالات شتى، لا تكاد تخلو سنة واحدة - من عمره الحافل بالعطاء - من درة جديدة يضيفها إلى العقد الفريد الذى تركه مكتملاً عند رحيله، لا نكاد نفتقد فيه حبة واحدة غائبة، أو حبة واحدة موضوعة فى غير مكانها اللائق وحتميتها العلمية، شوقى ضيف بهذا المعنى، ومن خلال الإضاءة التى تضيفها سيرته الذاتية «معى»: مشروع ضخم أدرك تحققه واكتماله، ورحل عنا صاحبه بعد أن سكب من روحه زيتاً يضىء ما بقيت سطوره، وعطراً يتضوع ما هبت علينا نسمات فكره الهادئ الواثق، وجهده الموسوعى الشامل. ■


Coca-Cola

فنان ينظر إلى نفسه فى المرآة

تعودنا، وتعودت الصحافة، على تقديم الفنانين وأعمالهم من خلال كتابة «نقدية» يكتبها ناقد، قد يسعى إلى تقييم أعمال الفنان، أو - فى حالة تواضع وإنسانية الناقد - أن يشرح ويُيسّر ويقدّم أعمال الفنان إلى القراء.. ونحن هنا نحاول تقديم شكل آخر من الاقتراب والتعامل مع الفنانين وأعمالهم، هنا ينظر الفنان إلى عالمه.. إلى نفسه فى المرآة.. ينظر إلى أفكاره وهواجسه ورؤاه وشواغله.. وأيضا إلى جماليات أعماله كما يراها هو.. أو كما يتصورها هو. وعلى القارئ أن يتأمل ويقارن بين ما يفكر فيه الفنان، وما يقوله.. وبين تجلّى وتجسّد هذه الأفكار فى أعماله.. فأنت.. فى هذه الحالة.. أيها القارئ.. أنت الناقد وأنت الحكم.

حلمى التونى

عن الجمال والنظام

ثروت البحر

تتغير مقاييس الجمال بتغير البشر والأزمنة والأمكنة. وتظل هناك ثوابت لهذه المقاييس تكون قاسمًا مشتركًا مع كل تلك المتغيرات. وهى إجادة الصياغة، وقوة التعبير، والتفرد، ويمكن أن تكون أكثر رقيًا حين تصبح نبل المحتوى، وتناغم التكوين ونقاء الأسلوب أو رقى الخط واللون، ويبقى فى العمل شىء آخر خفى كالروح. فأنت تستطيع أن تفرق بين صورة الحى، وصورة الميت لنفس الشخص، لأن الروح تسكن فى الملامح، ملامح الشخص، وكذلك تغيب حين تفارقها فى الصورة. وهذه الروح لا تتحقق فى العمل الفنى إلا بخروج طاقة من الفنان إلى عمله وهى طاقة الحب أو إرادة الحياة، يستوى فى هذا كل المبدعين من موسيقيين؛ وشعراء، وكتاب. ولقد أغدقنا نحن على الطبيعة من أوصاف وجماليات يستريح إليها الشعراء والموسيقيون كغطاء لعملهم. إلا أن كل هذه الأوصاف والمعانى هى نتاج بشرى. فالطبيعة لا تعرف الرحمة بالمنظور البشرى والإنسانى فهى فى عالم الكائنات الحية آكل ومأكول. إن البشر هم الذين اخترعوا المعانى والمبادئ مثل: الشرف، والبطولة.. إلخ. فلا يوجد شىء ملموس اسمه الشرف بل يوجد فقط الإنسان الشريف. هو الحامل لهذا المعنى. نحن لا نعرف كثيراً عما يدور فى المملكة الحيوانية أو النباتية بدقة. لكن هناك مؤشرات عديدة ثابتة عن الجمال بالمفهوم البشرى. وهو علاقة الجمال بالنظام. فالفارق بين الحديقة والغابة هو النظام. والفارق بين الصحة والمرض هو النظام، وكذلك الفارق بين النصر والهزيمة. إن حركة الكون كله تقوم على النظام. وإذا كانت العلاقة بين الجمال والنظام بهذه القوة فما الذى يجعل الجمهور ينصرف عن الفنون التشكيلية فى مصر؟ ما لم يكن أحدهما بعيداً عن النظام أو كلاهما معًا. فالمجتمعات العشوائية لا يمكن أن تفرز إلا عشوائيات مثلها فى المسكن والملبس والمأكل والتعليم والتفكير بل والروح أيضاً، إن النظام هو الذى يغرس فى الأجناس البشرية قوة مضادة للعشوائية تلك التى تحولهم إلى ضحايا لا أمل فى نجاتهم من مصير عشوائى لهم كحالهم التعس. ونحن لا نتحدث عن الطفرات لأن ذلك يأتى فى بند المقاومة؛ وبند طفرات الفطرة السوية التى تولد من بطن المحن لتصوب مساراً خفياً. وهذا نراه جلياً فى أوقات الخطر القومى الذى تشعر به الجماهير بالفطرة مثل جميع الكائنات، ورغم أن الحياة البرية آكل ومأكول. إلا أنها ليست ميسرة للآكل طول الوقت إلا برضاء المأكول وتقاعسه عن المقاومة. والمقاومة فى المجتمعات مثل ركائز المبانى. تسقط بسقوطها، وتبقى وتنمو بثباتها وقوتها. فهى مثل أجهزة المناعة فى الجسم، وهى فى المجتمع، التعليم، والقضاء. فهما ركيزتان أساسيتان إن تأثرا يتأثر نظام المجتمع كله ويبقى الشك فى استمراره وارداً. وحين يتحدث السياسيون عن الشعب فدائماً يقولون (حس الجماهير الصادق ووعى الفطرة) وحين يتحدث الفنانون فهم يعزون انصراف الجمهور لعدم الوعى التشكيلى. وهنا نود أن نوضح أمراً آخر بالنسبة لحالنا فى مصر. فالفن التشكيلى بشكله الراهن هو شىء مستورد. فالفنان محمود مختار هو أول نحات مصرى معاصر منذ العصر الفرعونى، فأين كنا خلال الألفى عام الأخيرة حتى مائة عام خلت. حين أنشئت مدرسة الفنون الجميلة عام ١٩٠٨م بمدرسين أجانب، ولدراسة الفن الغربى من عصر النهضة حتى العصور الحديثة. وهذا فن خرج من واقع وثقافة غيرنا. والمفروض أننا نرسم على شاكلتنا، ونحب على شاكلتنا، وحين بدأنا فى النقل والاقتداء بعالم بعيد عنا فى همومه وصراعاته وطبيعته، وتحدياته. لم يلق ذلك قبولاً وانسجاماً لدى العامة، وتم قبوله فى أوساط معينة كقيمة مكملة ومصاحبة لحياة مقلدة للغرب. وبغض النظر عن صواب الشرق أو اختلاف الصواب لدى الغرب فنحن بصدد قضية. وهى أن الفنون لا تستورد. فهى تولد وتنمو مثل نباتات الأرض، فكما أن النخلة، والجمل يناسبان الصحراء وظيفة وشكلاً وأداءً وإنتاجاً. فهما بحالتهما فى اتساق مع المكان والزمان والوجود نفسه. وهناك رؤية شرقية فلسفية للوجود كما قال: عمر الخيام (إن تؤخذ القطرة من بحرها ففى مداه منتهى أمرها) والمسألة ليست الاختلاف بين رؤية برجماتية للوجود وبين رؤية الشرق له. المشكلة أننا كشرقيين لا نفهم أيضاً حكمة الشرق. فمنذ غربت عنه شمس الإبداع



عمل جديد بالنسبة لزمنه ١٩٧٣ كانت الساحة مهيأة لمعركة تحرير وكان هناك بالداخل جيل يوازى زملاءهم على خط القتال، كل يقوم بدوره وهو عمل غير مسبوق شبه ابتكار وحرية مطلقة لكن الدافع كان غامضا فنحن لا نضع العناصر بناء على ترتيب عقلى بل أكون مثل همزة وصل فارقة فى تحولات يموج بها المجتمع وقد حدث أن الكوكاكولا أصبحت شيئا يحتل مساحة فى حياتنا وما صاحب ذلك من تحول فى المجتمع وتنقسم اللوحة إلى جزءين: جزء سفلى خام وجزء علوى هو مزيج من الكولاج ورموز فيها تسارع وغربة.. وكلمة «مصر لم كل»... ترديد خطى لكلمة كوكاكولا فى الأعلى ووجه المومياء ذو ملامح مختلطة وكمن يرتدى غطاء رأس كرواد الفضاء.

وسار مقلداً تابعاً، وليس مبدعاً. لم يفهم نفسه ولا قيمة ما لديه، وحال السوق أو الشارع العشوائى يؤكد هذا بالبرهان. ما بين أسماء إسلامية فى الحواف الفقيرة من المدينة وأسماء إفرنجية فى وسط المدينة الغنى. وما بين تكفير من يجتهد، وإباحة ما لا يباح، وحين يتحرر الدين من التعصب تتحرر الثقافة. وبين التشبه بالغرب فى الإعلان والأزياء وأنماط الغذاء، وبين ظاهرة أسلمة الأسماء، والأشكال تأكيداً على مقولة ابن خلدون (يميل المغلوب إلى التشبه بالغالب)، فالبعض يريد قبل أن يحصل على القوة أن يملك مظهر القوة ولو تقليداً فى الفن أو فى غيره، ومصر مغلوبة مرتين، مرة بحصار الغرب وهذا حقه الطبيعى كمنتصر، ومرة أخرى بنقود الشرق، وهذا قدرنا كفقراء لم نحسن إدارة أمورنا. وتركنا كل شىء لحركة الطبيعة التى لا تعرف الرحمة. فقط تبقى القيمة. وهى المقاومة. فماذا لدينا منها؟!

وجدت أن هذا مدخل موجز للغاية ومناسب للحديث عن الفن، فإذا تحدثنا عن الفن اليوم فى مصر فمن الطبيعى أن نتحدث عن فن المقاومة.. مقاومة من؟؟ مقاومة مكان؟ ومقاومة هذا المكان ضد زمان لا يسير فى نفس الاتجاه؟ ولا فى صالحه؟ وإن كان هذا المكان لديه ما يصلح فسيقاوم وإن لم يكن لديه ما يصلح. فهو يرحب ولا يقاوم وهذه طبيعة الأشياء دون عنتريات مسبقة وحين أقول نحن نرسم على شاكلتنا فلا أقصد معنى الفطرة الرفيع الذى تخلينا عنه طواعية بل على شاكلة ما وصلنا إليه من تهتك ثقافى واجتماعى. ومازالت لدى القناعة فى أن قيمة الشىء فى مقاومته.. مقاومة الظلم ومقاومة القبح. والفوضى، والموت، والتعصب. إن الجسم لا يمرض إلا إذا ضعفت مقاومته وضعفت إرادته، ويقوى بالنظام، وطاقة الحب. بدءاً من حب الحياة حتى حب الآخر. من أجل وعى أكثر رقياً ورحابة وحرية. وهذه هى قواعد المملكة البشرية التى صنعت البشر فصنعوا الفنون. أما حب البقاء فمازال هو الحاكم للمملكة الحيوانية. وهى لا تنتج فناً. ربما يكسب البعض من ميزانها المختل إلى حين. لكنها حين تخرج عن النص البشرى فإنها على المدى تدمر نفسها بخروجها عن الطابع الإنسانى المشترك بين البشر الأسوياء أجمعين. وتعطى الآخر فرصة وذريعة لأكلها كما فى عالم الحيوان. لأن الحب، والتعليم والعدالة، والثقافة، والديمقراطية مثل أوراق التوت الإنسانية متى سقطت عن كائن فقد خرج عن النص البشرى وأحل ذبحه كما حدث لدول عديدة وحضارات على مر التاريخ لم تتمكن من التلاؤم مع مصادر قوتها وبذلك لم تتواجد فى المكان المناسب فى الوقت المناسب، فالأمر ليس قبول ثبات فنى على أساس قانون تغير مفترض بل العكس من تقبل تغيرات معينة تقوم على الثبات الضرورى الواضح الذى يعكس الجمال والنبل والجلال. ■

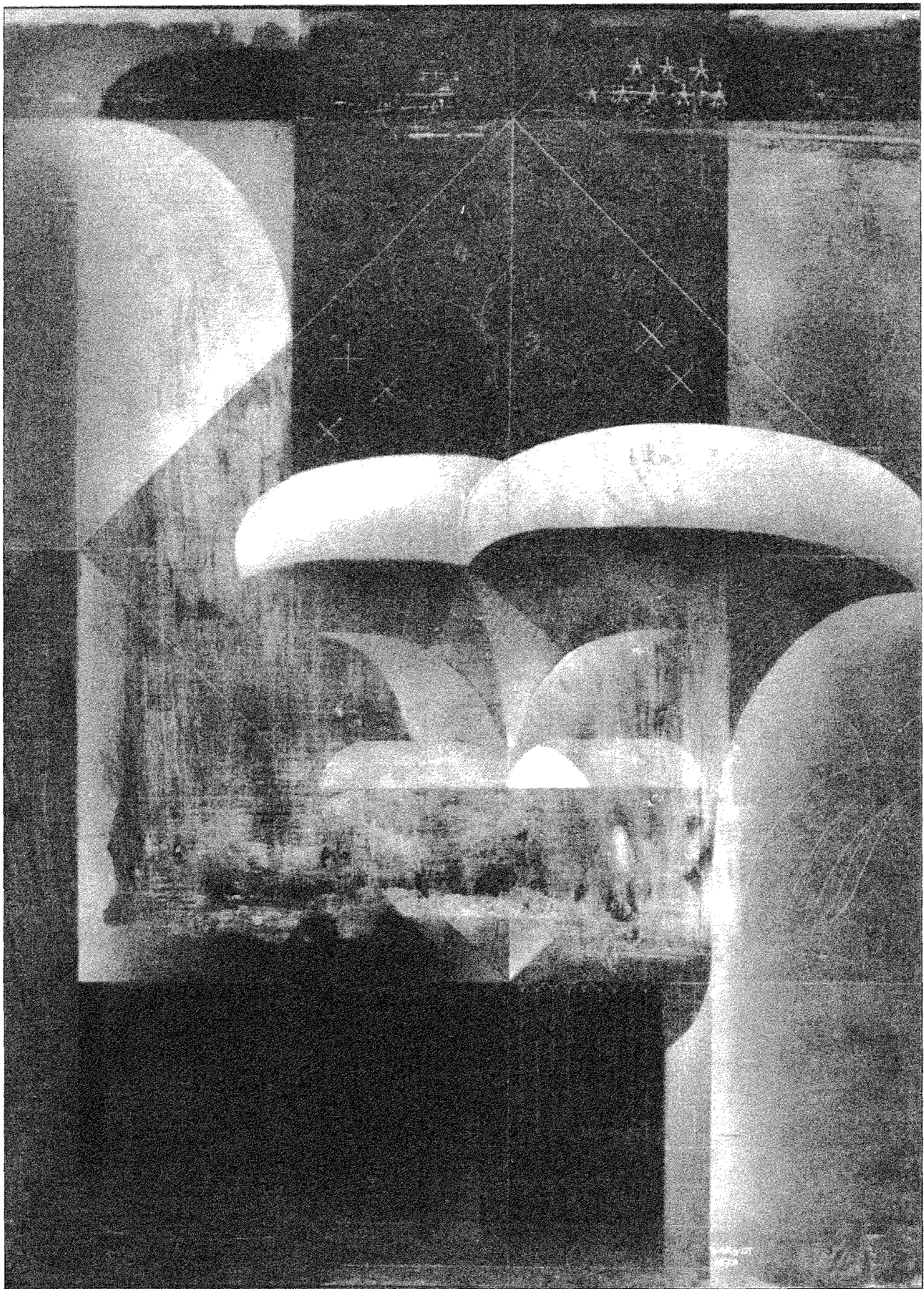


اللوحة.. زيت على قماش ١٠٠ × ١٠٠ سم ١٩٨٠

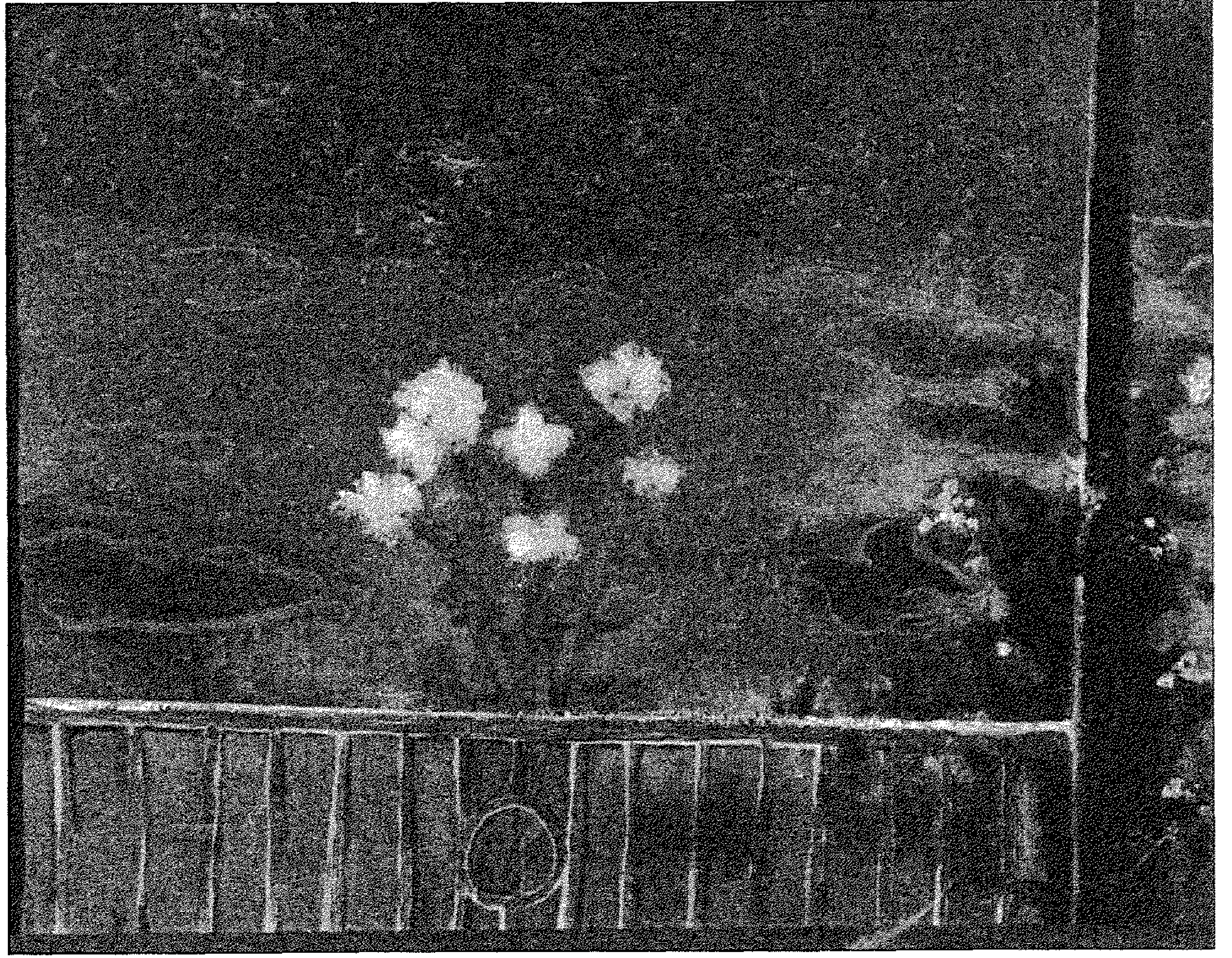
سألت نفسى ماذا لدينا من عناصر أولية لم نعطها قدرا من العناية يناسبها. لدينا الصحراء والنخيل، والخط العربى، فعملت سنوات عديدة على النخيل وعلاقته بالعمارة والعقود والمقرنصات، وأيضا الخط العربى، وهناك اتصال عميق فى الشكل بين كل ذلك. هذا العمل هو علاقة بين النخيل وعمارة العقود العربية، ونحن أمام كثبان رملية مثل كائن حى ممتد أمام واحة من النخيل دون تفاصيل سوى تداخل العقود مع بعضها وعلاقة ذلك باستقامة أعمدة النخيل، بينما تشتبك ألوان المشهد بين الأحمر والأزرق وضديهما دلالة الساخن والبارد وتداعياتهما بين الشهيق والزفير فى أرضية خشنة متشابكة وهو تكوين يجمع بين الموضوع والرمزية وبين التقنية المستحدثة، وتلخيصا لجمال المنظر، إنها حالة تجمع بين الجمال والنظام فى استلهام مبتكر من الطبيعة ببساطة ودون تقليد أو محاكاة.

تكوين من معبد فيلة ١٢٢ × ١٥٥ سم. زيت على خشب ١٩٧٨م

عمل يخضع للحبكة الهندسية واللونية مستخدما وسيطا هو التاج اللوتسى والنخيلى معا لأحد أعمدة فيلة، فى المنتصف تأثير الحائط الذى كانت تقدم عليه القرابين، وتحرق، وهذا تأثير حريق عشوائى يختلف عن الإيقاع الهندسى المتوازن فى بناء العمل ككل، وهو أيضا إيقاع جميل ومكان المذبح والحريق مثلث أحمر يرمز لهذه الذكريات، وله وظيفة فنية وهى نفحة حيوية ودفء فى برودة الأخضر والأسود والأبيض، وهذا المثلث يقع خارج مسقط رأسى لربع الهرم مع رموز فلكية عديدة هنا وهناك، كل ذلك يخضع لمحاولة البحث فيما لدينا، لأننا المفروض الأجدر بالاستفادة منه ما لم يكن هذا واجبنا الأساسى، وهناك علاقة حنونة بين وطأة الرأسى القوية، والتوهج الضوئى للأفقى العذب مثل تفتح النور كأزهار اللوتس البيضاء مع غموض الأخضر الداكن، وثقل العمود الرأسى.

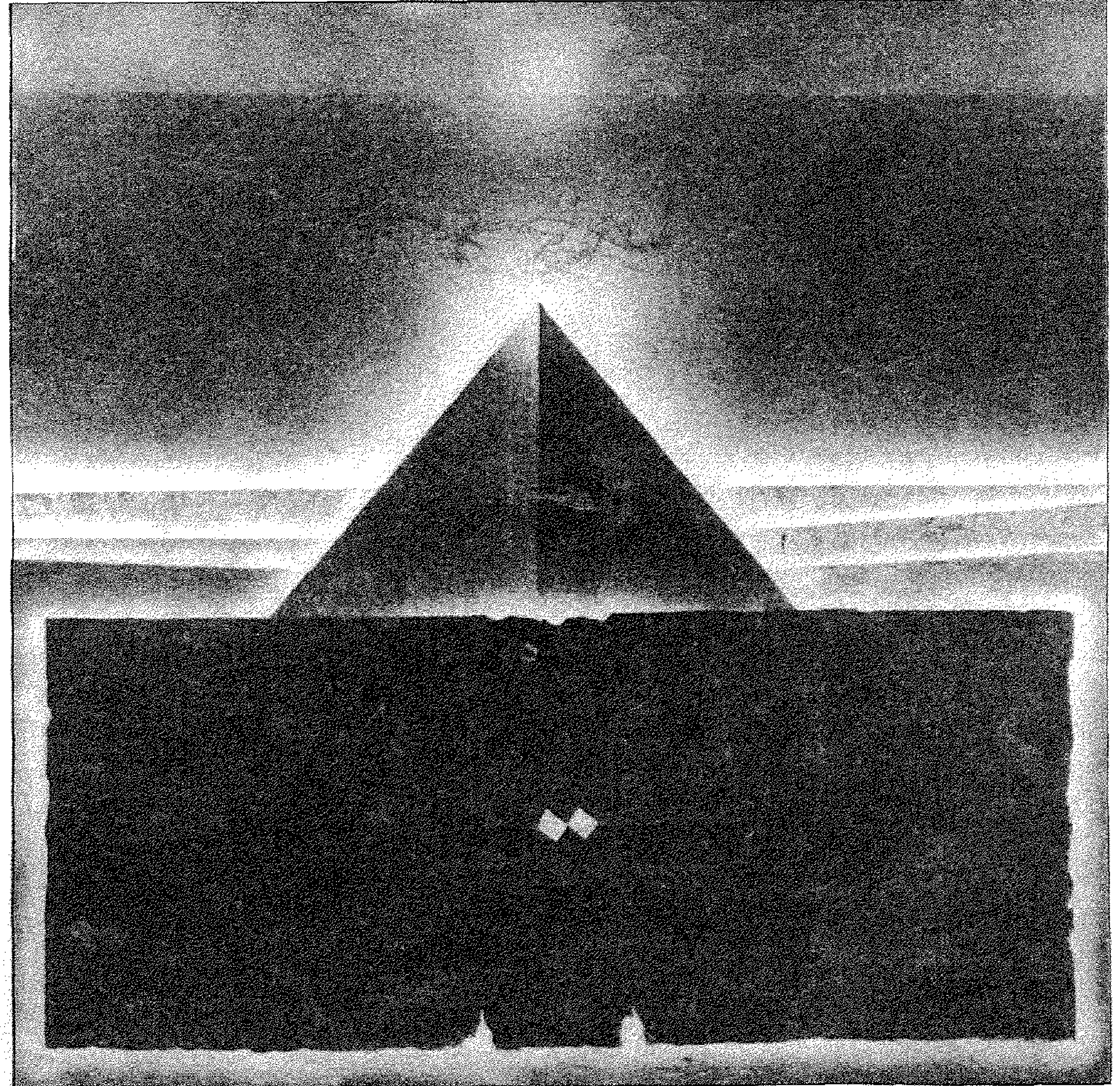


فنان فى المرآة



زيت على خشب ٣٠ × ٤٠ سم

منظر بسيط اسمه رائحة القرنفل، وهى رائحة متميزة بها جمال وغرابة وجاءت اللوحة كرسالة عاطفية تجتمع فيها العناصر والألوان فى ألفة شديدة مع غرابة فى اللون أعلى اللوحة مثل رائحة القرنفل، وهو مزيج غريب من الألوان. أضيفت بتكنيك خاص على أرضية من اللون الذهبى.

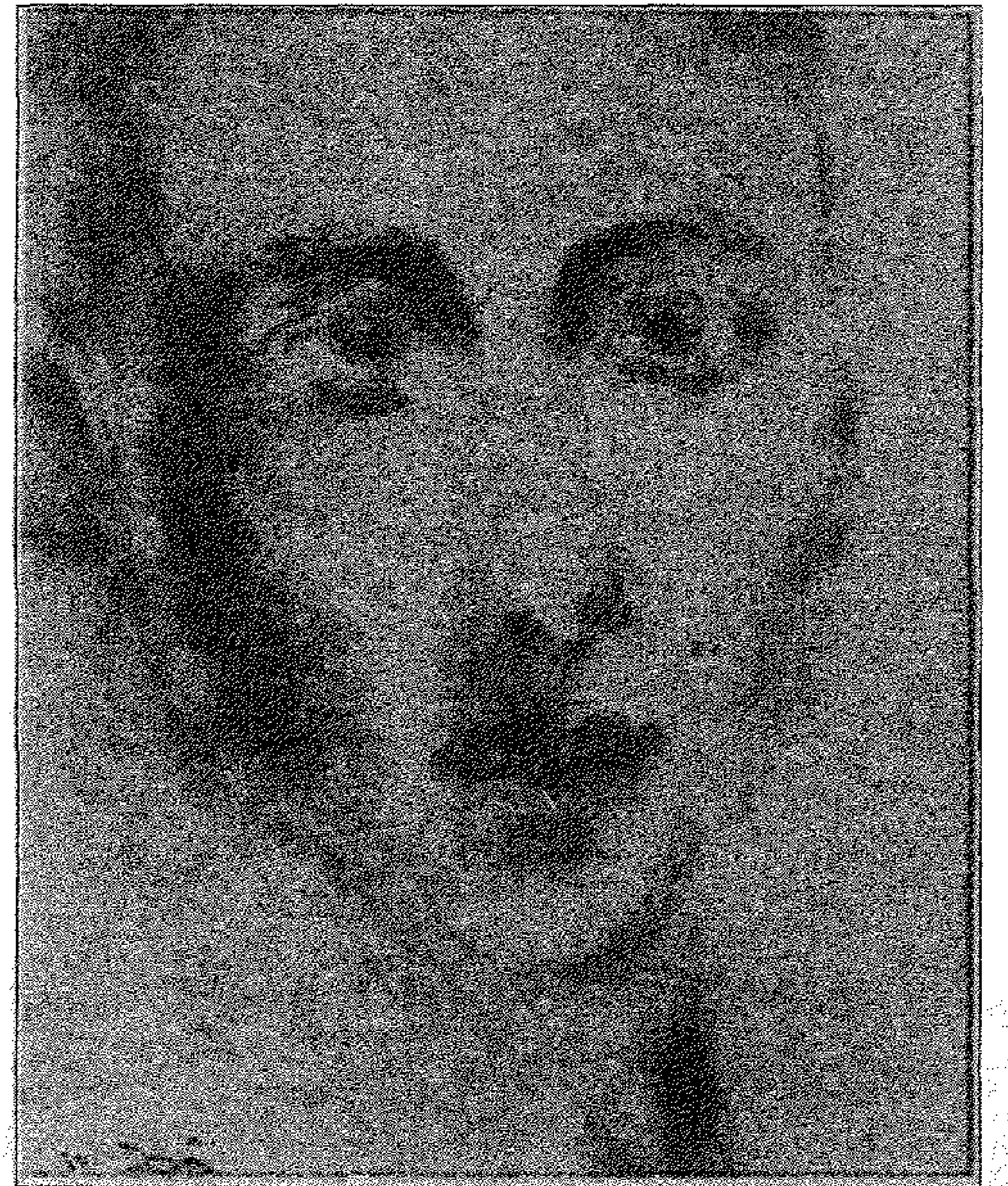


زيت على خشب ١٥٥سم × ١٥٥ سم

عمل بنائى يجمع بين حروف عربية متوجة بشكل الهرم وبأعلاه هالة مضيئة فالهرم موجود فى مكان ناطق بالعربية، وما زالت لديه أسراره التى تستعصى علينا، وفى الجزء السفلى أحرف عربية كالطوطم أو التعويذة فى غموض يحاكى غموض الهرم بينما اتصلت الدرجات اللونية بذبذبات حتى أعلى الهرم فى شكل إضاءة من السماء لكوكب مجهول، ليس بقمر وليس بشمس، إنه تكوين رمزى يوحى بوجود النور فيه نابعا من العمل وليس ساقطا عليه من مصدر.

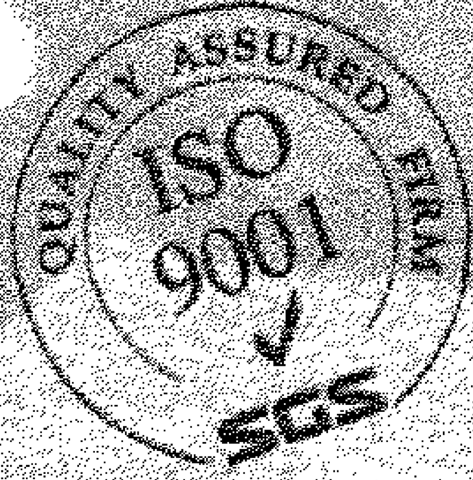
(منظر) أكريليك على قماش.. ٢٠٠ × ١٨٠ سم.

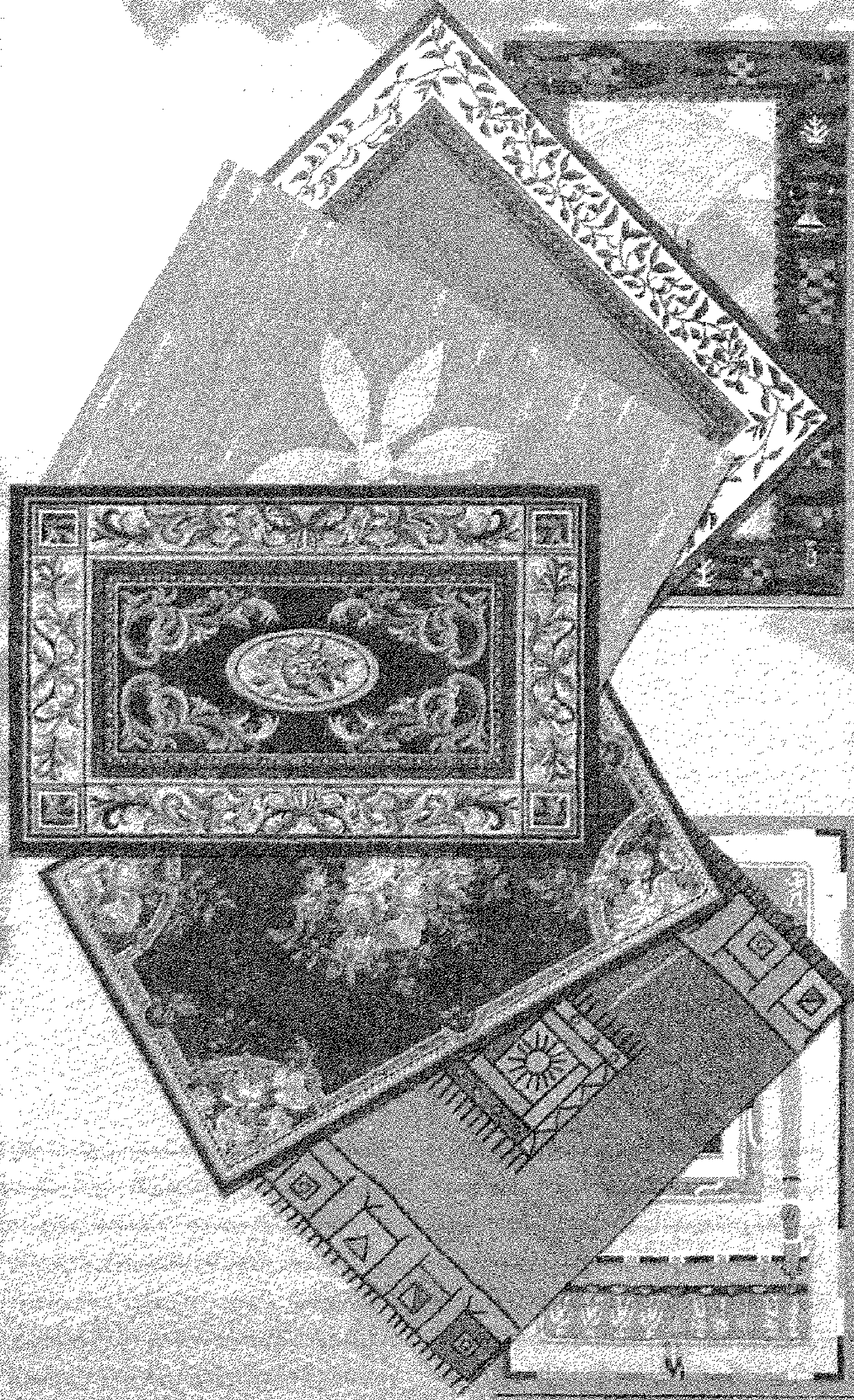
من واقع ثقافتنا خرج هذا المنظر، فهنالك الماء أساس كل شيء حي... وهنالك نباتات تتصل عبر الصحراء بالكواكب التي تدور حول الأرض وحول الشمس وحول نفسها وهي مثل مولوية جلال الدين الرومي، حين يدورون حول أنفسهم ممتثلين ومنتظمين مع حركة الكون. في العمل استدعاء لرموز عديدة من خلال الشكل، أولا الجميل. ثم التناغم الروحي بين الأفقي في الصحراء والرأسي في اتصال الكائنات بالسماء فهما يتشابهان السداه واللحمة في نسيج خفي. هذا العمل لا بد من تنفيذه على مساحة كبيرة نسبيا، ليست أقل مما هي عليه حيث رحابة الموضوع تأنس إلى مساحة تناسبها. هنالك أقمار، وأهلة عديدة في مساحات اللوحة ففي الفضاء، وفي التجريد لا يوجد الفوق والتحت بل تتصل الأشياء في وجد. درجات اللون شفافة باستثناء الأسود، فليس له درجات حيث يوحي بعالم لا نعرفه كثيرا، وهو مع ومضات الإضاءة فيه يشير إلى حضورنا المؤقت الذي يدور أيضا حول نفسه في الظلام. هذه القراءة لهذا العمل لم تكن موجودة في حالة التنفيذ له. ما كان موجودا هو حالة الوجد فقط، التي نظمت عملية التنفيذ للعمل على هذا النحو، وكنت قد انتهيت من قراءة فصل في علم الحروف في الفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي، هذا العمل ينتمي إلينا قلبا وقالبا، وليس له مرجعية من خارج المكان.



وجه ١٨ × ٢٤سم
زيت على ورق ١٩٦٧م

رسم هذا الوجه بعد النكسة، وهو لأخي «أسامة البحر» كان عائدا من الجبهة وكنا غير مصدقين للهزيمة، كان الحزن يملؤنا لكنا لم نكن منكسرين، ويمكن القول أن الحزن حمل لنا إفاقة في الوجه، وشفافية في اللون والتعبير.


QUALITY ASSURED FIRM
ISO
9001
SGS



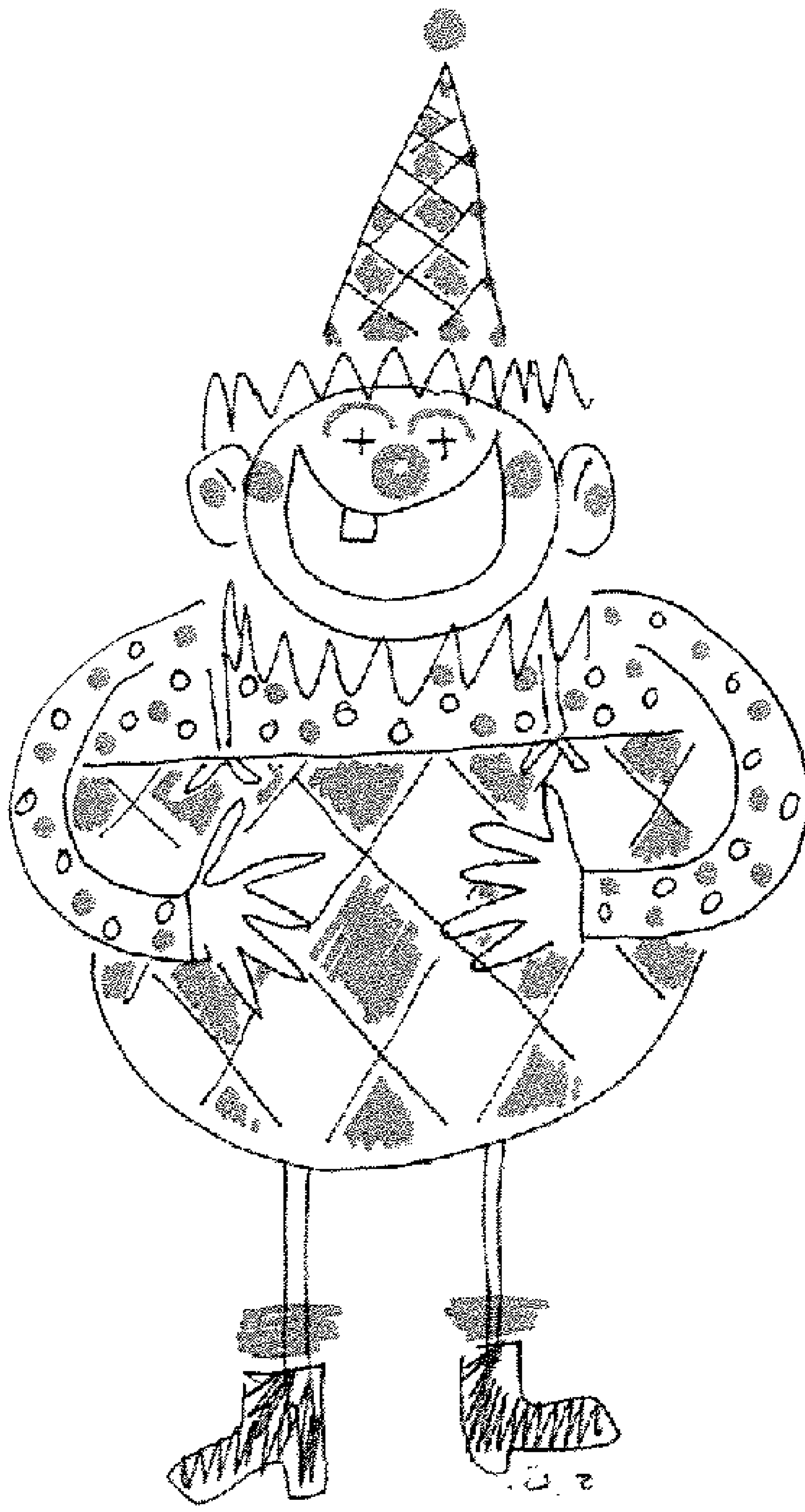
علم اسمه الضحك

■ أمن الممكن حقاً أن تتخيل عالمنا هذا وقد خلا من الضحكة والبسمة؟ أن تتخيل عالماً لا تشهد فيه على وجوه الناس سوى علامات الحزن والقلق والخوف؟ عالماً لا تسمع فيه غير آهات تتردد؟ أيمكنك أن تعيش في عالم كهذا؟ إننا في داخلنا الأعمق نحب الضحكة والبسمة. الضحك جميل. ونحن نحب من يجعلنا نضحك. كلنا يسعى إلى عالم كوجه حبيبة الشاعر أبي القاسم الشابي:

كالسماء الضحوك كالليلة القـ
ـمراء، كالورد، كابتسام الوليد

نولد جميعاً ولدينا القدرة على الضحك. إنه لغة عالمية لا نحتاج أن نتعلمها. كل الناس تضحك. كل الشعوب. الضحك جزء من السلوك البشري في كل مكان بالعالم. يضحك الفرد منا في المتوسط ١٧ مرة كل يوم. إننا نضحك أكثر مما نأكل أو نغني أو نحب. كلنا يفهم لغة الضحك دون تدريب. الضحك هو أقصر المسافات بين اثنين. إذا رأيت شخصاً يضحك، شاركته الضحك، حتى دون أن تعرف السبب. ترد عليه بضحكة. لا يهم من أي جنسية هو، ولا أي لغة يتحدث. الضحك كالبكاء. تمارسه حتى وأنت رضيع عمرك ثلاثة أشهر ونصف أو أربعة، إذ تبتسم لأمك عندما تراها وتحس بالحنان يغمرك. الطفل يضحك قبل أن يتعلم الكلام. نشأ الضحك بلا شك قبل الكلام. وبسمة الطفل لأمه لا تأتي فقط محاكاة لبسمتها. الرضيع الذي يولد أعمى أو أصم أو أبكم يمكنه أن يبتسم. البسمة جزء من العتاد البشري يورث. الضحك سلوك مبرمج، برمجته جيناتنا.

الحياة في جوهرها المكنون ضحكة. هي نصيبنا من الحياة. تكمن هناك في ربتة على كتف غريب، في وجه طفلة تلعب، في عيني طفل يحبك، في انبلاج فجر، في صوت يمامة، في موسيقى تسبح، في رائحة ياسمينة، في أصداء عطر حبيبتك تنشقه قبل أن تراها. في زهرة تتمايل على غصن، في عنقود عنب يتدلى من تعريشة، في حقل قمح ترقص سنابله، في نسيم رقيق يداعب موجة، في قوس قزح، في مطر ينهمر وينشر الخير، بل وحتى في تأوه عاشق.



أحمد مستجير

لماذا نضحك؟

يقول الفيلسوف الأمريكي جون موريل J. Morreall إن الضحكة البشرية الأولى ربما تكون قد صدرت تعبيراً عن الارتياح لزوال خطر ما. يسمع الآخرون الضحكة فيحسون بالأمان ويطمئنون، ويضحكون. يستطيعون بعد ذلك أن يسترخوا. عندما يضحك الفرد تسترخي عضلات جسمه كلها بالفعل. (والحق أن الضحك إذا تمكن منك فقد تضطر إلى أن تقبض بيدك على شيء ما حتى لا تسقط على الأرض!). إن الاسترخاء يبطئ من استجابة «اضرب أو اهرب». بالضحك ستثق في من حولك. إنه إشارة ثقة في رفاقك، وإعلان عن زوال تهديد.

يرى البعض الآخر أن ضحك الإنسان قد تطور كوسيلة لتشكيل العلاقات بين الناس وتوطيدها. كانت البسمة أولاً، ننقل بها إلى الآخر الرغبة في التواصل. ومع الزمن أصبح من السهل تزييف البسمات، وتطلب الأمر إشارة أكثر تعقيداً. فكان الضحك. الضحك يتطلب من الجهاز العصبي أكثر، ويحتاج إلى طاقة أكثر، وبذا سيصعب تزييفه. حل الضحك إذن محل الابتسام كدلالة أمينة على الرغبة في الانخراط في صفوف الجماعة.

لابد أن الضحك قد نشأ لتغيير سلوك الآخرين، شأنه في ذلك شأن غيره من ضروب السلوك البشري. ففي وقت الخطر، قد يخدم الضحك كإيماءة للتهدئة والاسترخاء، كوسيلة لتنحية الغضب بعيداً. إذا اشترك معك في الضحك الشخص الذي يهددك، تلاشى خطر المواجهة. إذا تغير الحديث من الجاد إلى غير الجاد، اختفى التهديد.

لكن هناك فريقاً آخر من العلماء لا يرى في الضحك وسيلة لبناء العلاقات بين الناس، وإنما يرون فيه دليلاً على فعل عدواني في المقام الأول. الضحك يعني لديهم أنك قد كسبت جولة. ضحكك يعني أنك قد انتصرت. كما يقول تشارلس جرونر C.Gruner. هو يرى أن الضحك في الأصل صيحة النصر والسخرية يطلقها المحارب إذا هزم عدوه. الوليد في رأيه يبتسم لا ليرضي والدته، وإنما لأنه قد حصل أو سيحصل منها على ما يريده!

إذا ضحك رئيس العمل، ضحك جميع مرءوسيه. دراسات عديدة تؤكد أن ذوي السلطة. رؤساء العمل أو كبار رجال القبائل. يستخدمون الفكاهة أكثر من مرءوسيهم، ليصبح التحكم في ضحك الجماعة طريقاً لممارسة السلطة. الناس يضحكون أكثر إذا جاءت النكتة من رئيسهم. فإذا ما تزحلق رئيسهم على قشرة موز وسقط ثم وقف سريعاً، وجدوا في ذلك أمراً مضحكاً للغاية. للغاية. هم بشكل ما قد «انتصروا»!!

ما الضحك؟

كنت تجلس مع صديقة لك، وفجأة وجدت أن وجهها قد بدأ يتشنج. عضلات الوجه، والشفتان على وجه الخصوص، تتمدد. في عينيها ظهرت تعبيرات غريبة. أجهزتها الصوتية تصدر تتابعاً من أصوات زفير متواترة. لكن أحداً ممن حولكما لم يعر الأمر اهتماماً، رغم أنها قد أصبحت على حافة الاختناق، وتحاول جاهدة أن تقتنص شهيقاً مفاجئاً. كتفاها تهتزان بعنف وجسدها كله يلتوي ويرتج. ماذا ستفعل؟ هل تستدعي لها الطبيب؟ لا لزوم لذلك. لقد حدث لك أنت هذا كثيراً. ربما كان السبب في كل ما حدث لها جملة قلتها أنت. إن ما حدث يسمى «الضحك»!

قد يبدو هذا الوصف وكأنه وصف لمرض عصبي، ولكن التحليل الفسيولوجي «لأعراض» الضحك يكشف عن تشابه يلفت النظر، بينه وبين النوبات العصبية، بل حتى بينه وبين بعض صور الصرع.

الضحك يعدي

في عام ١٩٦٢ حدثت في تنجانيقا واقعة غريبة للغاية. بدأت الحكاية، في

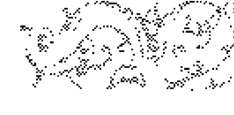
قرية كاشاشا الصغيرة المعزولة على الشاطئ الغربي لبحيرة فكتوريا، كنوبة ضحك اجتاحت مجموعة صغيرة من البنات بمدرسة داخلية، أعمارهن تتراوح ما بين ١٢ و١٨ سنة، ثم انتشرت بسرعة في صورة وباء! لا نعرف التفاصيل، لكن الضحك انتقل من فرد إلى فرد ليصيب في نهاية المطاف بعض المجتمعات المجاورة. عمَّ الوباء، حتى لقد تطلب الأمر اغلاق المدارس لمدة ستة أشهر.

كانت طبيعة الوباء هي ظهور نوبات عَرَضية من الضحك تجتاح الجماعات بالمنطقة على فترات غير منتظمة. كانت الدولة قد استقلت حديثاً عن انجلترا، وشعرت الطالبات والناس جميعاً بضغوط نفسية خوفاً من المستقبل. يرجع بعض العلماء أن هذا هو السبب في انتشار «الوباء».

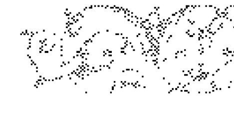
هذا الوباء يُعْتَبَر مثالاً دراماتيكياً للطبيعة المُعدِية للضحك. وهذا أمر نعرفه جميعاً في حياتنا اليومية. إننا نجد النكتة أظرف إذا كان مَن يُلقيها يضحك. ولقد وجد الباحثون بالفعل، كما سنرى، أن من يُلقي النكتة يضحك بالفعل أكثر مما يضحك مستمعوه.

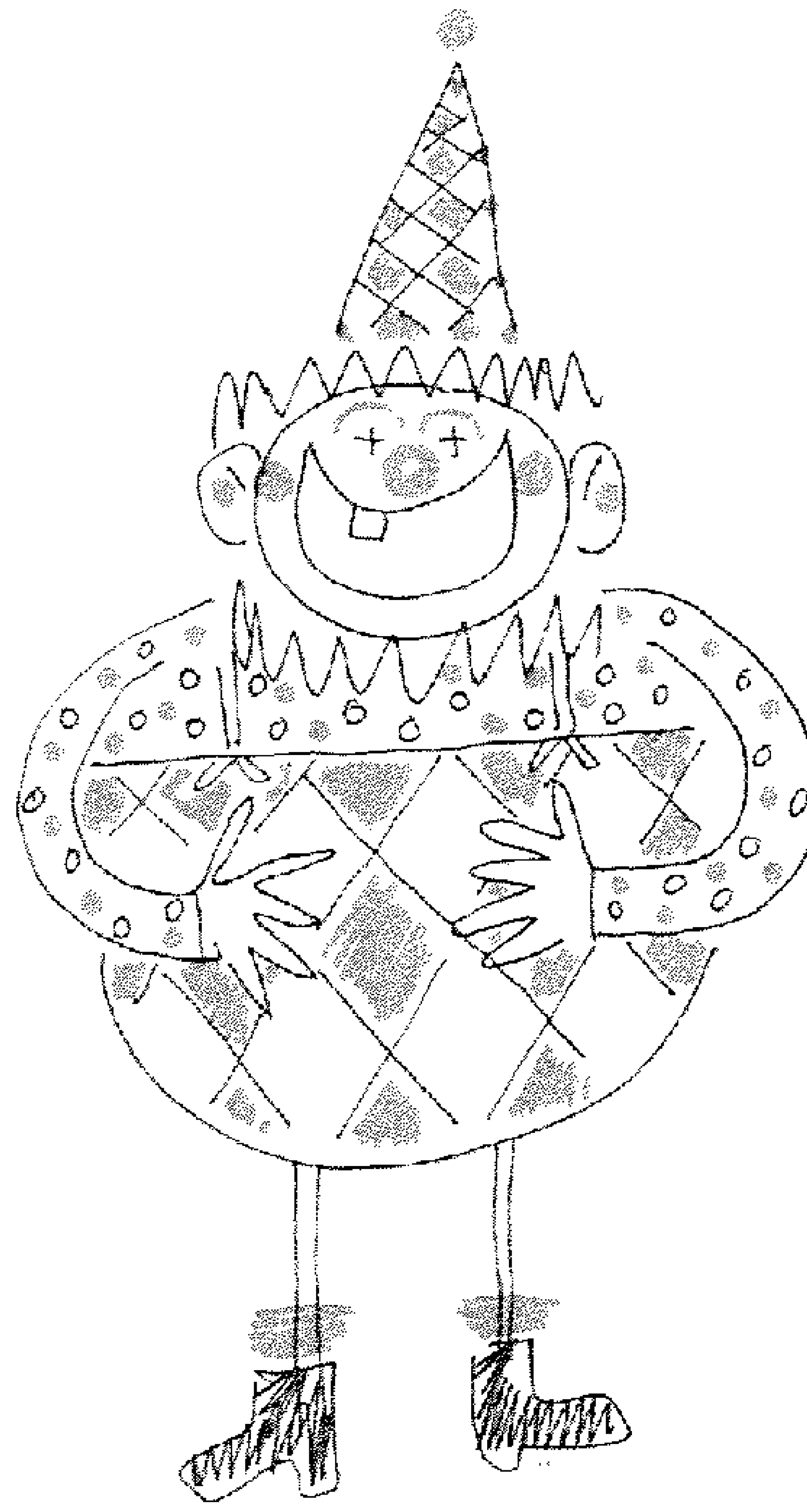
الضحك يُعدى. نعم. إنه يقع تحت أقل تَحَكُّم واعٍ، هو تلقائي، ولا يخضع تقريباً لرقابة. الضحك المُعدي صفة مؤكدة يتميز بها جنس الإنسان، هذا الحيوان الثديي الاجتماعي. إنه ينفض عنه رداء الثقافة الخادع، ويتحدى النظرية التي تقول إننا نتحكم تماماً في سلوكنا.

وحقيقة أن الضحك يُعدى، تُثير احتمال أن يكون لنا نحن البشر مكْشَاف سَمْعِي للضحك، دارة عصبية في المخ تستجيب فقط للضحك (التثاؤب المُعدى يتضمن عملية مثيلة في المجال البصري). إذا ما قُدِح زناد هذا المكْشاف نَشَط مُوَلِّد الضحك: دارة عصبية تتسبب في أن ننخرط في الضحك.



هناك فريق آخر من العلماء لا يرى في الضحك وسيلة لبناء العلاقات بين الناس، وإنما يرون فيه دليلاً على فعل عدواني في المقام الأول. الضحك يعني لديهم أنك قد كسبت جولة





الضحك جزء من طبيعتنا البشرية

الواضح أن الضحك جزء من حياتنا نشط فعَّال. هو جزء من السلوك الوطيد لجنس البشر. هو بعض من «الطبيعة البشرية»، هو من أكثر الأشياء شيوعاً في حياتنا. «إذا فقدنا القدرة على الضحك، فقدنا كل شيء». أدرك أهميته من قديم الزمان علماء وفلاسفة: أرسطو، كانط، داروين، بيرجسون، فرويد. لكننا لا نزال نجهل عنه الكثير على الرغم من تفهمنا لأهميته، ومن تأكدنا من أنه مفيد لنا. «هناك ثلاثة أشياء حقيقية: الله، وحماقة البشر، والضحك. الأول والثاني أبعد من إدراكنا. علينا إذن أن نفعل ما نستطيعه مع الثالث». كذا قال جون كينيدي. ما هي الخصائص الفيزيقية للضحك؟ ما هي القواعد التي تَحكُم التعبير عنه؟ هل هناك نظير له لدى الأنواع الحيوانية الأخرى؟ علماء الإيثولوجيا ethology (علم سلوك الحيوان) يعتبرون ضروب السلوك الحيواني صفات تكيفية. سلوك «الضحك» في الحيوانات الأخرى له عندهم أساس وراثي وفسيولوجي. فهل الأمر كذلك لدينا نحن البشر؟ لكن، هل تضحك الحيوانات؟

هل تضحك الحيوانات؟

لا يَتَفَرَّدُ الإنسان بالضحك. نحن لا نحتكر الضحك. الضحك شائع بين معظم الحيوانات. حتى جُرَذ المعمل يضحك، وليس لديه الكثير مما يُضحك! لاحظ أحد العلماء أن الجُرذان تبدو خائفة قلقة إذا كانت منفردة في مكان مفتوح، فإذا عادت إلى القفص مع غيرها من الجُرذان بَدَت بالفعل سعيدة، بدَت وهي تَلْعَب مع أقرانها وكأنها تَضْحَك! لاحظ العالم أن صغار الجرذان تُصْدِر أثناء اللعب تعبيرات صوتية

الــدغـدغـــة

يحدث الضحك عندما يلتقي اثنان أو أكثر في لقاء غير رسمي، أو عندما يُدَغْدِغ (يُزَغْزِغ) آخر قدمك. أنت لا تستطيع أن تُدَغْدِغ نفسك وتضحك، لكنك تضحك إذا دَغْدَغك آخر. جرِّب! هذه حقيقة دَوَّخَت علماء الأعصاب عقوداً طويلة. إن دراسة الدغدغة ستوضح الطريقة التي يتمكن بها المخ من أن يُصَفِّي الإحساسات الكثيرة التي تلتقطها

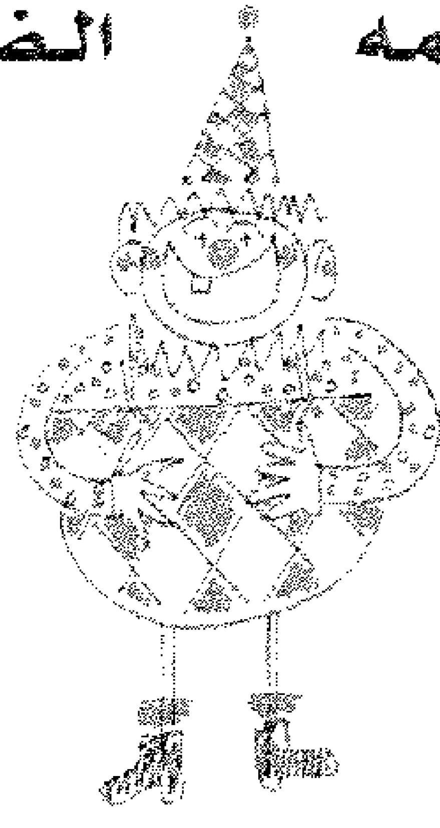


قصيرة من طبقة صوت أعلى من أن نسمعها نحن بآذاننا. في تجربة أُجريت عام ٢٠٠٠ اتضح أنها تستجيب للدغدغة (للزَّغْزَغة) (في البطن والضلوع) بعضة مُزاح أو بسَقْسَقة فوق سَمْعنا. وكانت الأفراد التي تصدر أعلى سَقْسَقة هي الأكثر حرصاً على أن تُدَغْدَغ. أما النتيجة الأكثر إثارة فكانت أن تزاوج الأفراد التي تُحب الدغدغة قد أنتج بعد أربعة أجيال من التربية نسلاً يُسقْسِق ضعف عدد مرات سقسقة أجداده!

فإذا نظرنا إلى الرئيسات primates الأقرب إلينا فسنتأكد أن الضحك ليس أمراً يخصنا وحدنا. وليس في هذا ما يُستَغرَب. ألسنا نوعاً اجتماعياً كغيرنا من الرئيسات الاجتماعية؟ لماذا يكون الضحك حكراً علينا؟ داروين (سنة ١٨٧٢) أشار في كتابه «التعبير عن العواطف في الإنسان والحيوان» إلى أن الكثير من أنواع القِرَدة يُصدر عند السرور أصواتاً متكررة تشبه في وضوح ضحكنا». والواقع أن القِرَدة العليا كالشمبانزي تقوم بما يُشبه ضحكنا إذ تُصدر الصوت اللاهث «ها آه»، صوتاً يشبه صوت منشار ينشر خشباً!. وهي تفتح الفم واسعاً، وتكشف عن أسنانها، وتسحب زوايا الشفاه، عندما تلعب مع بعضها أو مع إنسان، أو عندما تُدَغْدَغ. لكن الشمبانزي لا يستطيع أكثر من صوت واحد في كل نَفَس، وهو صوت يختلف عن «ها. ها» في ضحكنا نحن.

بل ولقد نجد الضحك حتى بين الثدييات الأدنى من الرئيسات. الكلاب عندما تلعب تُصدر أصواتاً غريبة عند الزفير تختلف عن الأصوات التي تُصدرها عندما تخاف أو عندما تهاجمك.

على أن الواجب أن نتوخى الحرص عند تفسيرنا للُهاث الحيوانات لَمَّا تلعب. من الجميل أن نتصور أن هذا يناظر الضحك، لكن الأمر قد يكون شيئاً آخر له وظيفة أخرى.





هناك ثلاثة أشياء حقيقية:
الله، وحماقة البشر، والضحك.
الأول والثانى أبعد من إدراكنا. علينا إذن أن نفعل
ما نستطيعه مع الثالث.
كذا قال جون كيندى



حواسنا. شحذ مخنا بطريقة تجعلنا نتجاهل التافه والمألوف لنلتفت إلى الهام. إذا كنت تمشى حافياً فستتجاهل ما تتوقعه من ضغط على باطن قدمك. أنت تتوقعه ومن ثم لا تنتبه إليه وتتجاهله، حتى أن يعثر إصبع قدمك فى حجر، فتنتبه. يصل المخ من الأحاسيس والأصوات والشعور الكثير والكثير مما لا يستطيع استيعابه كاملاً، وسيكون عليه أن يفرز ما يهم وأن يتغاضى عن المألوف والمتوقع. يسمع عصف الريح يدوى حتى يألفه فينساه، ولكنه ينتبه إذا جاء مع صوت الريح بكاء طفل يطلب العون. يمشى فى الغابة والجو حوله يعبق بالروائح، لكنه يلتقط ويميز رائحة ثمرة نضجت فوق غصن شجرة.

الدغدغة إذا أجريت فى الموقع الصحيح من الجسم تختزلك إلى «هلام». مخك يتوقع ذلك إذا حركت يدك وأرسلتها تداعب قدمك مثلاً. إذا دغدغ الشخص نفسه فإن جهازاً للإحساس موجوداً بالمخيخ فى مؤخرة الرأس يعطل البهجة والضحك (المخيخ هو الجزء من المخ المسئول عن مراقبة الحركة)، إذ يرسل إشارة تثبط المنطقة من المخ التى تحس بالدغدغة (منطقة اسمها القشرة الجسدية الحسية).

الضحكة ليست كلمة تقال

عكف روبرت بروفاين R.R. Provine وثلاثة من طلبته على دراسة السلوك اليومى للبشر إذ يضحكون. تجولوا فى أماكن تجمع الناس وأخذوا يتنصتون عليهم وهم يضحكون: فى المتاجر، فى فصول الدراسة، فى الشوارع والطرقات، فى المكاتب، فى الحفلات. جمعوا مادة وفيرة من البيانات لدراسة الضحك كتعبير اجتماعى: ١٢٠٠ حالة ضحك وقعت طبيعياً. إذا سمعوا ضحكاً رصدوا جنس المتحدث (من يتحدث قبل بداية الضحك)، ورصدوا من يستمع، وما إذا كان المتحدث يضحك أو من يستمع إليه، وماذا قال المتحدث قبل الضحك.

كان الهدف الأول هو وصف التركيب الصوتى للضحك فى البشر. اتضح أن هذا أمر بالغ الصعوبة، إذ يختفى الضحك ما أن تحاول ملاحظته، لاسيما فى المعمل. من بين الطرق التى جربت: أن يطلب من الناس أن يضحكوا. هذا الطلب ذاته كثيراً ما يستجيب له الناس بالانفجار فى الضحك. لكن نحو النصف منهم كانوا يقولون إنهم لا يستطيعون أن يضحكوا «بالأمر». الواقع أن تحكمنا المتعمد فى الضحك يقل بالفعل كثيراً عن تحكمنا فى الكلام. يمكنك بسهولة أن تقول «ها...ها...ها»، لكن يصعب أن تطلق الضحكة الحقيقية بالأمر. إن الضحكة ليست «كلمة» تقال. إن هذا يقترح أننا لا نستطيع عامدين أن ننشط آليات الضحك بالمخ. إن المزاج، والوجود فى وسط لمة، والنغمة العاطفية، تسم الوضع الاجتماعى لمعظم الضحكات.

أخذت تسجيلات الضحك إلى معمل الصوت لتحلل بالمطياف الرسام spectrograph، وهذه آلة تترجم الصوت إلى رسوم تكشف ما يحدث من تغير فى تردد الصوت وحدته.

أوضح طيف الصوت البصمة المميزة للضحك. الضحك سلسلة من نغمات قصيرة، طول كل منها نحو ٧٥ مللى ثانية، تتكرر على فترات منتظمة يفصل بينها ٢١٠ مللى ثانية. تستخدم نغمات أية ضحكة نمطياً أصوات حروف لينة محددة متشابهة، فقد تكون الضحكة (ها. ها. ها) أو (هو. هو. هو) أو (هئ. هئ. هئ..)، ولكنها أبداً لا تكون (ها. هو. ها. هو). هناك صعوبات حقيقية فى إصدار مثل هذه الضحكة. حاول أن تجربها وستحس بأنها غير طبيعية. فإذا مزجت النغمات، فسيكون المزج فى النغمة الأولى أو الأخيرة. يمكنك مثلاً أن تضحك (تشا. ها. ها) أو (ها. ها. هو).

ثمة تركيب ايقاعى (هارمونى) واضح للانفجار ضحكاً. يتألف كل ايقاع من تكرر لتردد رئيسى منخفض. يظهر التركيب الهارمونى على مطياف الصوت فى صورة حزم متتابعة من خطوط أفقية قصيرة، تكون منها الحزمة الأدنى هى التردد الأساسى. فإذا عرفنا أن للنساء طبقة صوت عالية، فلن نستغرب أن يكون لضحك النساء تردداً أساسياً أعلى من ضحك الرجال (٥٠٢ هيرتز مقابل ٢٧٦ هيرتز). وأياً كان نوع الضحكة، مسترسلة مرتفعة تهز البطن، أو محبوسة عالية الطبقة، فإن كل ضحك البشر تنويع على هذه الصورة الأساسية. هذا التركيب الإيقاعى هو الذى يجعلنا ندرك أن ما نسمعه ضحك رغم الفروق فيه بين الأفراد، فلكل فرد منا بصمة لضحكه تميزه!

إن محدودية جهازنا الصوتى هى السبب فى التركيب المقولب للضحكة. من الصعب أن تضحك فى نغمات طويلة جداً، مثل (هاااااه. هاااااه. هاااااه) أو فى نغمات قصيرة جداً (أقل من ٧٥ مللى ثانية). وبنفس الشكل لن تجد نغمات طبيعية تفصلها فترات بينية أطول كثيراً من الطبيعى. حاول أن تضحك ضحكة تتخللها بين النغمات فترات زمنية طويلة (ها ..... ها ..... ها) وستجد صعوبة بالغة. للضحك طرق محدودة.

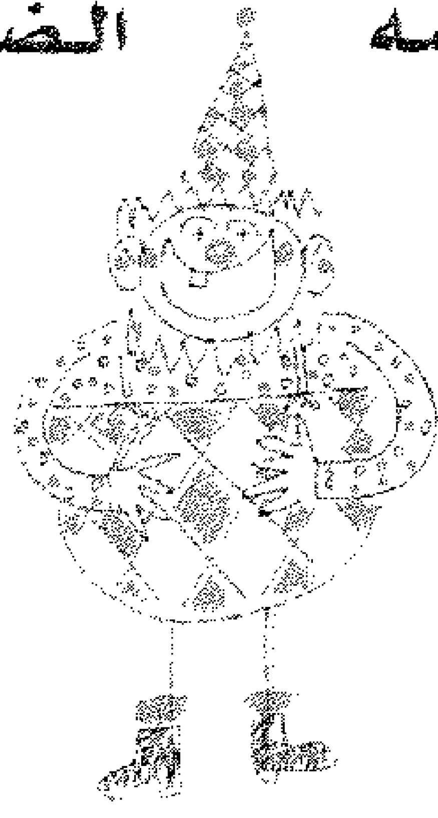
وبساطة تركيب الضحكة تقترح أيضاً إمكانية أن نعكسها. إذا أخذنا مقطعاً قصيراً من الضحك (ها. ها. ها) مسجلاً على شريط، ثم استمعنا إليه معكوساً، فسيعطى تقريباً نفس الصوت (ها. ها. ها). والحق أن طيف صوت الضحكة متشابه سواء رصدناه من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين. لنغمة الضحكة درجة عالية من السيمترية الزمنية. على أن هناك ناحية من الضحكة ليست سيمترية. تلك هى ارتفاعها. يتميز الضحك بالتخافت decressendo، أى تكون فيه النغمة الأخيرة فى تتابع النغمات، عادة، أقل اتساعاً.

السلوك الاجتماعى واللغوى للضحك

لكل ما يفعله البشر وظيفة، والضحك ليس استثناء. للضحك بالتأكيد دلالة اجتماعية، فهو ليس تعبيراً فردياً عن العواطف. أنت تضحك فى صحبة الآخرين ثلاثين ضعف ضحكك وأنت منفرد (إذا لم يكن حولك تلفزيون أو راديو أو مطبوعات). إذا كنت وحدك منفرداً، فالأغلب أن تبتسم أو تكلم نفسك، لا أن تضحك. مهما كانت درجة سعادتنا فإن الضحكة فى الأصل هى إشارة نرسلها للآخرين، وتكاد تختفى إذا لم يكن ثمة من يسمع. حتى الغاز الضحاك (أكسيد النيتروز) يفقد الكثير من قدرته على الإضحاك إذا كنت منفرداً. مع الآخرين أنت تضحك عندما تستريح إليهم ويستريحون إليك، عندما تحس بأنك تقترب منهم وبأنك لا تريد أن تنعزل بعيداً عنهم، عندما تحس بأنك واحد منهم. وعندما تضحك فإنك تحب أن تتكلم أكثر، وأن تنظر فى عين من تحدثه أكثر، وأن تفعل ما من شأنه أن يزيد ما يربطك به. الضحك إشارة إلى ثقتك فى من حولك. الضحك طقس من طقوس استرضاء الآخرين.

اتضح أن الضحك معظمه لا يأتى استجابة لمحاولات هدفها الإضحاك، كإلقاء النكت أو القصص الهزلية. جاءت نسبة الضحك الناتج عن مثل هذه المحاولات أقل من ٢٠٪ من مجموع الضحكات. ظهر أن معظم الضحك يأتى عن ملاحظات عادية، مثل «انظر، ها قد جاء فلان» أو «هل أنت متأكد؟» أو «سعيد أنا جدا بلقائك». لم يكن ما يسبب عاصفة من الضحك بالضرورة نكاتاً زاعقة وأشياء مضحكة أو بلهاء، وإنما شيئاً مثل: «لا يلزم أن تأكل معنا، يكفى أن تدفع فاتورة الطعام!». الأمر الذى يقترح أن المنبه الحاسم للضحك ليس هو النكتة، وإنما الشخص الآخر: هناك من يقول الشئ المضحك، وهناك من يقول الشئ مضحكاً!

من بين الملامح الأساسية للضحك موقعه من الحديث. الضحك لا يتناثر عشوائياً فى الحديث. يندر أن يقطع المتحدث أو المستمع تركيب الجملة بالضحك. فى عينة الـ ١٢٠٠ ضحكة التى رصدها بروفاين وطلبته، لم يجدوا إلا ٨ مقاطعات كهذه، وكانت جميعاً من المتحدث. أنت تقول: «إلى أين تمضى؟.... ها. ها»، ولكنك لا تقول: «إلى أين... ها. ها... تمضى؟». إنما نضحك عند التوقف بعد نهاية الجملة، الأمر الذى يقترح



عمليةَ قد تكون أعصابية تَحْكُمُ موقعَ الضحك في الحديث، عمليةَ يكون فيها للكلام الأَوْلَوِيَّةُ في السبيل الوحيد الذي نملكه لإصدار الصوت. الحديث يكسب. يكبح الضحكَ. هذه العلاقةُ المتينةُ بين الكلام والضحك تشبه التَّرْقِيمَ في الكتابة، وتسمى «ظاهرة الترقيم» punctuation effect. أنت تَكْتُبُ أولاً، ثم تُرَقِّمُ.

اتضح أيضاً أن المتحدثَ يضحك أكثر من مستمعيه بنسبة تبلغ في المتوسط نحو ٤٦٪، الأمر الذي يعني أهميةَ الاَّ تقتصر الدراساتُ عن الضحك على سلوكِ المستمعين وحدهم.

النساءِ يَضْحَكْنَ أكثر

جنسُ المسئولِ عن الضحك يلعبُ دوراً كبيراً في تحديد قَدْرِ ضحك المتحدث. وأيا كان جنسُ المتحدث أو المستمع فإن المرأةَ تضحك أكثر من الرجل، وتبتسم أكثر مما تضحك. ثمة تنوعٌ كبير في أصوات الضحك، فقد يُعَبَّر عنه بشكلٍ مسموعٍ: قهقهة أو ضحكة خافتة، وقد يكون الضحكُ صامتاً، كالهمهمة. لكن انفجاراتِ الضحك المسموعةَ تتكرر من النساء أكثر مما تتكرر من الرجال. المتحدثاتُ من النساء يَضْحَكْنَ ١٢٧٪ أكثر مِمَّن يستمعُ إليهن من الرجال. فإذا كان المتحدثُ رجلاً فإنه لا يضحكُ أكثرَ من مستمعاته إلاَّ بمقدار ٧٪ فقط. ثم إن جمهورَ المستمعين. رجالاً ونساءً. يضحك أكثر إذا كان المتحدثُ رجلاً لا امرأة.

هل يَدْخُلُ الضحكُ عاملاً في التلاقي والتوافق بين الجنسَيْن؟ بَحَثَ بروفاين عن الإجابة بدراسةِ الإعلانات الشخصيةِ بالجرائد. فحص ٣٧٤٥ إعلاناً شخصياً ظهرت يوم ٢٨ أبريل ١٩٩٦ في ثماني جرائد. اتضح أن النساء يؤكِّدن على «الضحك» في إعلاناتهن بقدرٍ يزيد ٦٢٪ عن تأكيد الرجالِ عليه. إنهن يتذوقن الفكاهةَ أكثر من الرجال، وحِسّ الفُكَاهَة لديهن أقوى. الرجلُ، في كل الثقافات «يؤدي الفكاهة «ويُحَرِّضُ» على الضحك، والمرأةُ تستمتع بالفكاهة أكثر. النساءُ يبحثْن عَمَّن يُضحكهن من الرجال، والرجالُ يتلهفون كي يقدموا لهن الفكاهةَ! إنَّ وجودَ الكوميديانات أمرٌ ليس سهلاً. نغمةُ الضحك بين رجلٍ وامرأةٍ تشير إلى مدى اهتمام كلٍّ منهما بالآخر. لكن ضحكَ المرأةِ لا الرجل هو الدليلُ الحاسمُ على العلاقةِ الصحية بينهما. ثمة اختلافاتٌ مؤكَّدة في الضحك بين الثقافات. لكن الضحكَ الصاخبَ والتعبيرات والحركات المُبَالَغ فيها عند الضحك تُعْتَبَر في معظم الثقافات أموراً «غير أُنْثَوِيَّة»، بينما نجدها أكثرَ شيوعاً في الرجال.

على أنه من الضروري هنا أن نقول إن طريقةَ الضحك «مرنةٌ»، وتتحول في اللاَّوَعْي مع الظروف الاجتماعية. فعلى سبيل المثال تقل قهقهةُ الأنثى، والذكر، مع الارتقاء على السلم الوظيفي. هل رأيت عمرك مديراً أو وزيراً يقهقه مع موظفيه؟

يمكننا أن نَصلَ إلى تبصراتٍ في الوظيفة الاجتماعية للضحك بدراسته في جماعات تختلف في المكانة الاجتماعية والجنس. إن استجابةَ المستمعين بالضحك توضح أثرَ الرسالة فيهم: الضحك «المؤدب» قد يكون محاولةً مفتعلةً من المستمعين تعلن اتفاقهم مع المتحدث، وهي عكس الاستجابة بـ «ها» ساخطة. ولقد يُلَطِّف المتحدثُ ملاحظةً له عدوانيةً بضحكة، أو قد يقدم ملاحظتَه باستخدام هجينٍ ما بين الضحك والكلام.

> **للضحك بالتأكيد دلالةٌ اجتماعية، فهو ليس تعبيراً فَرْدِيًا عن العواطف. أنت تضحك في صحبة الآخرين ثلاثين ضعف ضحكك وأنت منفرد**

الضحكُ المُعَلَّبُ

اكتشف التلفزيونُ قوةَ الضحك في استثارةِ الضحك: الضحكُ في حد ذاته. دون ما نكتةٍ أو تعليق. يمكن أن يستثير الضحكَ. الضحكُ كما ذكرنا يُعدِي. على فَصْلٍ يضم ١٢٨ طالباً قام بروفاين باستخدام «صندوقِ ضحك» لدراسةِ هذا الضحك المُعْدِي. الصندوق عبارةٌ عن جهازِ تسجيلٍ ذي بطارية يُصْدِرُ عند تشغيله دَفْقَةً من الضحك تستمر ١٨ ثانية. شُغِّل هذا الضحكُ المُعَلَّبُ عشر مرات، بَيْنَ كلِّ مَرَّةٍ والتاليةِ لها دقيقةٌ واحدةٌ. في المرة الأُولى استجاب نصفُ الطلبة بالضحك ونحو ٩٠٪ منهم بالابتسام. لكن الأثرَ أخذ يتضاءل مع كُلِّ تكرار، حتى وَصَلَ عَدَدُ مَنْ يضحك في المرة العاشرة إلى ٣ فقط. رأى الطلبةُ عندئذ أن ما يسمعونه من الضحك قد أصبح أمراً بغيضاً. النكتةُ إذا سمعتَها كثيراً تصبح «بائخة»!

ما الذي في النكتة يُضْحِكُنَا؟

الفكاهةُ تقدح زنادَ الضحك. وهناك نظرياتٌ تفسر ما يضحكنا في النكتة. تقول نظريةُ «التناقض» إن الفكاهةَ تكون عندما نَسْتَبْدِلُ بالمنطق وبالمألوف أشياء أخرى لا تتوافق مع بعضها. يقول توماس فيتش Veatch.T إن النكتةَ تصبح ظريفةً عندما نتوقع شيئاً ويحدث غيره. تبدأ النكتةُ، فتتوقع ما تتوقعه بالمنطق وبالعاطفة وبخبرتك السابقة وبإعمال ذهنك، وإذا بكل هذا يتحول فجأةً إلى عواطف وفكرٍ آخر. هذا التناقض هو ما يسبب الضحك. أنت تسمع صديقك يقول: «مَنْ يضحكُ أخيراً....» فتتوقع من خبرتك السابقة أن بقيةَ الجملة ستكون «.... يضحك كثيراً»، ولكنك تفاجأ به يقول «... إنسانٌ بطيء التفكير!»، فتضحك كثيراً!

ثمة نظريةٌ أخرى، هي نظرية الاستعلاء، تقول إننا نضحك على النكتة إذا رَكَّزَتْ على أخطاءِ شخصٍ آخر، أو غبائه أو محنته. هنا نشعر بأننا أفضلُ منه، فنضحك.

وهناك أيضاً نظرية تقول إننا نضحك إذا وَجَدْنَا ما يُفَرِّجُ عن تَوَتُّرٍ يجتاحنا.

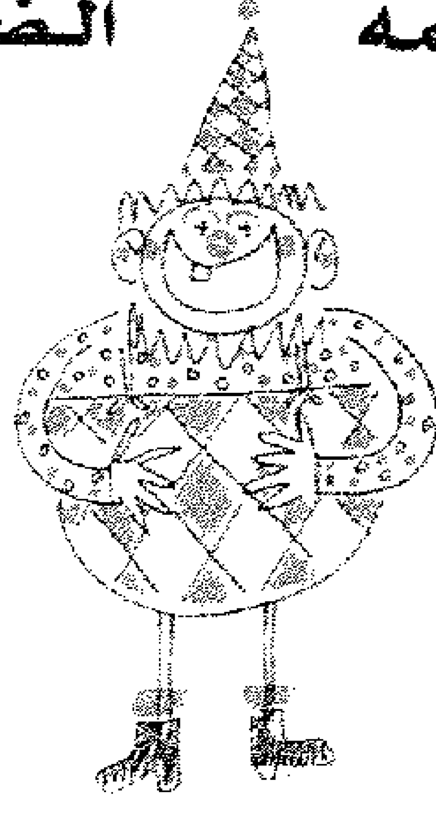
دارةُ الضحك في المخ

في صباحِ أحد أيام الشتاء عام ١٩٣١، وفي إحدى جبّانات لندن، كانَ ويلي أندرسون يحني رأسَهُ في خشوعٍ وهو يرقُبُ نعشَ أُمِّه يهبطُ إلى القبر. وفجأةً، ولدهشةِ الجميع ورعبهم، إذا به يضحكُ. حاولَ في البداية أن يكتمَ الضحك، فأخفى فمَه بيده، لكنه لم يستطعْ. ارتفع صوتُ ضحكه، فتَرَكَ المكانَ على عجل. وبعد بضع ساعات كان لا يزالُ عاجزاً عن التحكم في الضحك، فأخذتْه عائلتُه إلى المُستشفى. فحصَ الطبيبُ عَيْنَيْه، فلم يجد ثمةَ ما هو خطأ، لكنه رأى ضرورةَ أنْ يبقى ويلي تحتَ المراقبةِ في المُستشفى. وبعد يومين ماتَ الرَّجُلُ. فُحِصت جُثَّتُه بعد الوفاة، واتضح أن ورماً في شريانٍ بقاعِ المخ قد انفجر، ليضغطَ على غدةِ الهيبوثالامَسْ وأنسجةٍ أخرى قريبة منها. أثمة عضو للفكاهة؟ أثمة دارة للضحك؟

كان أحدُ الباحثين بجامعة كاليفورنيا يدرس مُخَّ فتاةٍ تبلغ من العمر ١٦ عاماً مصابةٍ بالصرع، فلاحظ شيئاً غريباً: كلَّما لَطَّأَ بصدمة كهربائيةِ الفصَّ الأيمنَ الجبهيَّ من المخ، في منطقةٍ منه بالذات، لا تتعدى مساحتها بوصةً مربعةً، بدأتْ الفتاةُ في الضحك. فإذا سألَهَا عن السبب في ضحكها، عزَتِ السببَ إلى أيّ شيءٍ تجدُه حولَها: «زُملاؤك دمهم خفيف وهم يقفون حولي هكذا» أو «صورةُ هذا الحصانِ على الحائط تثيرُ الضحك». التيارُ الكهربائيُّ الضعيفُ يجعلها تبتسم، ومع زيادةِ قوة التيار تزداد الفتاةُ مرحاً، حتى أن تنفجر في ضحكٍ هستيريٍ مُعْدٍ. فلما أنْ نَبَّهَ مناطقَ أخرى من المخ بالكهرباء، لم تظهر نتائج مماثلة. أثمة عضو للضحك؟ قال الباحث إنه قد وقع على إحدى المناطق بشبكةٍ معقدةٍ للغاية: كانت منطقةً قريبةً جداً من مناطق لها علاقة بوظيفة الكلام، ومنطقتا الكلام والضحك قريبتان جداً من بعضهما بعضاً.

هنالك تقنياتٌ حديثةٌ متقدمةٌ لتصوير المخ وهو يعمل، وقد ساعدتْ هذه كثيراً في معرفة مناطق المخ المرتبطة بالعواطف المختلفة، الطبيعي منها وغير الطبيعي. لدارةِ الضحك مكوناتٌ عاطفيةٌ وحركيةٌ ومعرفيةٌ، ولكلِّ مُكَوِّنٍ جزءٌ في مكانٍ ما من المخ يتحكم فيه. إن حِسَّ الفكاهةِ الحقيقي يتضمن أكثرَ من مجرد قابلية البطن وباطن القدم أو الإبطِ للدغدغة. النكاتُ منها النوعُ اللفظي





(التلاعب بالألفاظ)، ومنها الدلالي (المختص بمعنى الألفاظ)، ومنها غير اللفظي (كالكارتون). يعتمد كل نوع من النكات على سلسلة من القدرات الذهنية، كل منها يقع في منطقة مختلفة من المخ، ويبدو أنها تحفز بعضها بعضاً. أجريت القياسات على المخ أثناء استجابة الأفراد لمادة فكاهية. هنا شوهد نشاط الموجات المخية وهي تنتشر إلى الفص الجبهي من منطقة الفص القذالي. وهذه منطقة بمؤخر المخ تعالج الإشارات البصرية. يبدو أن للفص الجبهي دوراً في إدراك أن الشيء ظريف. الجانب الأيسر من هذا الفص الجبهي يحلل كلمات النكتة وبنيتها، بينما يقوم الجانب الأيمن بالتحليلات العقلانية اللازمة لتفهم النكتة وتقديرها، لينتشر النشاط إلى المناطق الحركية من المخ التي تتحكم في الوظيفة الجسدية للضحك. يمكننا أن نعرف هذه المسالك المعقدة بدراسة الأمراض العصبية والإصابات: أورام المخ، أو السكتة الدماغية، أو مرض باركنسون، التي يتميز حاملوها بما يسمى «الوجه المتحجر»، لأنهم لا يستطيعون الضحك.



المرأة تستمتع بالفكاهة أكثر.
النساء يبحثن عمن يضحكهن من الرجال،
والرجال يتلهفون كي يقدموا لهن الفكاهة!
إن وجود الكوميديانات
أمر ليس سهلاً



الضحك خير دواء

إن فوائد الضحك أكثر من أن نتجاهلها. هناك من يعتقد أن السبب في أن يبني الإغريق مستشفيات قرب المسارح هو الاستفادة من الخصائص العلاجية للضحك. يمكنك أن تغير حياتك إلى الأفضل إذ تعلمت أن تضحك أكثر، وألا تأخذ الحياة بكل هذه الجدية. «لأنك أبداً لن تخرج منها حياً». كما يقولون. إن الحس الفكاهي يمكن أن يضيف لمسة إنسانية إلى حياتك وعملك. إننا لا نضحك لأننا سعداء، إنما نسعد لأننا نضحك. الضحك يغير إحساسك بذاتك، بكيانك، بعائلتك، بأصدقائك، بالعالم كله. إن تذوق الفكاهة يتضمن القدرة على اكتشافها حتى في المواقف الحرجة والمتوترة، بل وفي المواقف التراجيدية، كما يتضمن القدرة على اكتشاف الظرفاء. من يستطيع أن يكشف النواحي المضحكة في المواقف الصعبة عادة ما يكون أقل عرضة للاكتئاب والغضب والتوتر. الضحك، مثل البكاء، يقلل الاحباط ويسمح بتفريغ العواطف المكبوتة. ثبت علمياً أن الضحك يعمل كصمام أمان إذ يقلل من هرمونات الإجهاد. عندما نضحك تزداد مناعة الجسم بزيادة إفراز بروتين جاما إنترفيرون (لمقاومة الأمراض) وخلايا ت cells T وخلايا ب cells B (خلايا الدفاع ضد الأمراض)، كما يرتفع الأكسجين في الدم، وتتحسن الدورة الدموية، ويزداد تركيز جلوبيولين المناعة أ في اللعاب (ويعمل ضد عدوى الجهاز التنفسي)، وتزداد الإندورفينات (قاتلات الألم التي يفرزها المخ)، وتتعزز القدرة على تخزين المعلومات في المخ. الضحك إذن يخفف من ضغوط الحياة ويخفض ضغط الدم، ويعزز مناعة الجسم، ويسكن الألم، ويقلل القلق، (أنت لا تستطيع بالفعل أن تضحك وأنت خائف) ويريح المخ، كما أنه يشجع التواصل مع الآخرين، ويلهم الإبداع، ويدعم المعنويات. عندما تضحك في مواجهة مشكلة، فإنك تضعها في منظور جديد، فترى النواحي السخيفة والتافهة فيها. الفكاهة تسمح لك أيضاً بأن تعبر عنها بشكل غير مباشر. شعورك الذي كان من الخطر أن تعبر عنه تعبيراً مباشراً، يمكن للفكاهة أن تنقذك منه. من هنا كثيراً ما تكون الفكاهة سلاحاً للمغلوبين والأقليات.

ثم إن الضحك يقلل من خطر الإصابة بنوبات القلب:

قد يكون للضحك «من القلب» مردوده الطيب على القلب. في مارس ٢٠٠٥ أعلنت جماعة من الباحثين من جامعة ميريلاند ولأول مرة أنهم قد وجدوا أن الضحك يتسبب بالفعل في تمدد البطانة الداخلية للأوعية الدموية، الأمر الذي يزيد من تدفق الدم، وهذا أمر طيب لصحة القلب. «أنا أعتقد أنه من المعقول جداً لنا جميعاً أن نفضفض عن أنفسنا، وأن نضحك كل يوم ١٥ - ٢٠ دقيقة». كان الدكتور ميشيل ميلر Miller.M، رئيس هذه المجموعة البحثية، قد لاحظ قبلاً أن مرضى القلب على وجه العموم يستجيبون لوقائع الحياة اليومية بقدر من البشاشة يقل عنه عند الأصحاء، كما لاحظ آخرون أن احتمال إصابة أصحاب النظرة المتفائلة بمرض القلب أقل من غيرهم.

قدر الباحثون تدفق الدم في الشريان العضدي لمائة وستين حالة واتضح أن التدفق قد ازداد في ٩٥٪ منهم أثناء مشاهدتهم فيلماً فكاهياً، وأن ٧٥٪ ممن شاهدوا فيلماً حربياً قد انخفض لديهم هذا التدفق. بلغ متوسط الزيادة في تدفق الدم أثناء الضحك ٢٢٪، وبلغت نسبة الانخفاض ٣٥٪ في حالة الإجهاد الذهني. استمر الأثر ٣٠-٤٥ دقيقة عقب مشاهدة الفيلم.

لا يزال السبب في هذا غامضاً، لكن ميلر يقول: «تحمل البطانة الداخلية للأوعية الدموية مستقبلات للإندورفين، وربما كان الضحك يتسبب في زيادة إفراز الإندورفين الذي ينشط المستقبلات، ليتسبب في تفاعلات تؤدي إلى اتساع الأوعية. ربما يتسبب الإجهاد الذهني من ناحية أخرى، في إفراز هرمونات الإجهاد مثل الكورتيزول cortisol الذي يقلل بدوره من إفراز أكسيد النيتريك من خلايا البطانة. والذي قد يؤدي إلى انقباض الوعاء. على أية حال فإن رسالة طبيب القلب لزملائه الأطباء واضحة: «إن علينا أن نقضي وقتاً أطول في الحديث مع المرضى عن الكرب والنواحي السيكولوجية للمرض، وهذا جزء لا يقدره الأطباء حق قدره عادة».

ربو المرح

على أننا يجب أن نذكر أن هناك حالات لا يكون فيها «الضحك خير دواء» ذلك أن الضحك قد يقدح زناد أزمات الربو في الأطفال بأكثر مما ينجم عن الضخان smog أو الرياضة. في بحث ظهر عام ٢٠٠٢ حللت فيه حالات كل من وصل قسم الطوارئ من الأطفال، خلال ستة أشهر، بإحدى مستشفيات نيوساوث ويلز، اتضح أن الثلث منهم كانوا يعانون من «ربو المرح» هذا. ظهر أن هذا الربو يشيع بين الأطفال الكبار، وبين من تتكشف فيهم أعراض الربو أثناء الليل أو في الصباح الباكر. لم يعرف بالضبط السبب في هذا، لكن يبدو أن الأمر يرجع إلى التنبيه الفيزيقي لمستقبلات بالمسالك الهوائية.

الضحك والشيخوخة

عندما نتقدم في السن، فإننا نلحظ أن مخاخنا لم تعد تعمل مثلما كانت أيام الصبا. وظائف المخ تتغير بالفعل مع الهرم. المخ بالتأكيد ينكمش مع العمر. إنه لا يفقد حقاً مليون خلية كل يوم كما كانوا يقولون، لكن الخلايا ذاتها تغدو أصغر. وخلايا مخ الرجل تنكمش أكثر مما تنكمش خلايا مخ المرأة، سوى أن خلايا الرجل تكون من البداية أكبر (بمقدار ١٥٪). وعلى عمر ٤٥ يصبح لمخ الرجل نفس حجم مخ المرأة. ليصبح مخ المرأة بعد ذلك أكبر. ويبدو أن الفصوص الجبهية من المخ هي أول ما يتعرض للتدهور مع تقدم العمر في كلا الجنسين.

على أن الكبار يمكنهم بالتأكيد أن يمتعوا أنفسهم بالضحك وأن يقدروه. فنحن لا نتوقف عن الضحك لأننا نهرم، إننا نهرم لأننا نتوقف عن الضحك. سوى أن القدرة على تفهم الصور المعقدة من الفكاهة تقل مع العمر. تزداد الحكمة مع العمر، نعم، الكبار يصبحون أفضل وأسرع في تفهم الصورة العامة الكبرى، مقارنة بأقرانهم الأصغر سناً، لكن القدرات المعرفية اللازمة لتفهم الفكاهة تتضمن الاستدلال التجريدي والمرونة الذهنية والذاكرة النشطة، وهذه على الأغلب ترتبط بالفصوص الجبهية من المخ التي تتدهور مع السن.



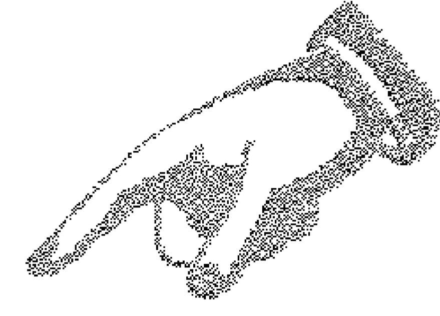
اثنان من أكلة لحوم البشر جلسا يتسامران بعد وجبة شهية من اللحم المشوي. قال الضيف منهما لمضيفه:

- الشكر كل الشكر لزوجتك، لقد قدمت لنا وجبة لحم رائعة!

تنهد المضيف ثم قال:

- آه... آه... سأفتقدها كثيراً ■

كتـــاب الــزاويــة



أســيرالاســتبداد

عبد الرحمن الكواكبى

من أين لأسير الاستبداد أن يكون صاحب ناموس وهو كالحيوان المملوك العنان، يُقاد حيث يُراد، ويعيش كالريش يهب حيث يهب الريح، لا نظام ولا إرادة، وما هى الإرادة؟ هى أم الأخلاق، هى ما قيل فيها تعظيماً لشأنها: لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الإرادة! هى تلك الصفة التى تفصل الحيوان عن النبات فى تعريفه بأنه متحرك بالإرادة. فالأسير إذن دون الحيوان لأنه يتحرك بإرادة غيره لا بإرادة نفسه، ولهذا قال الفقهاء: لا نية للرقيق فى كثير من أحواله، إنما هو تابع لنية مولاه. وقد يُعذر الأسير على فساد أخلاقه، لأن فاقد الخيار غير مؤاخذ عقلاً وشرعاً.

أسير الاستبداد لا نظام فى حياته، فلا نظام فى أخلاقه، قد يصبح غنياً فيضحى شجاعاً كريماً، وقد يمسى فقيراً فيبيت جبانًا خسيساً، وهكذا كل شئونه تشبه الفوضى لا ترتيب فيها، فهو يتبعها بلا وجهة. أليس الأسير قد يبغى فيُزجر أو لا يزجر، ويُبغى عليه فيُنصر أو لا يُنصر، ويحسن فيُكافأ أو يُرهق، ويسىء كثيراً فيُعفى وقليلاً فيشنق؛ ويجوع يوماً فيضوى، ويخصب يوماً فيتخم؛ يريد أشياء فيمنع، ويأبى شيئًا فيرغم؛ وهكذا يعيش كما تقتضيه الصدف أن يعيش.

أقل ما يؤثره الاستبداد فى أخلاق الناس، أنه يرغم حتى الأخيار منهم على إلفة الرياء والنفاق، ولبئس السيئتان، وأنه يعين الأشرار على إجراء غى نفوسهم آمنين من كل تبعة ولو أدبية، فلا اعتراض ولا انتقاد ولا افتضاح.

التعليم



وتمويله

في دراسة صدرت في يناير الماضي عن أفضل ٥٠٠ جامعة في العالم، لم يرد اسم أي جامعة مصرية أو عربية بينما وردت أسماء ٧ جامعات إسرائيلية لتحتل إسرائيل المركز التاسع في مستوى التعليم الجامعي. هناك أسباب كثيرة لهذه الفجوة العلمية بين العرب والعالم إلا أن أحد أهم الأسباب هو التمويل، فبدون توافر موارد مالية معتبرة لا يمكن الحصول على خدمة تعليمية جيدة.. المشكلة التي يختلف حولها الخبراء هي من يمول التعليم الجامعي؟ الدولة أم القطاع الخاص أم الطالب نفسه؟ وهل بإمكان الطالب المصري بمستويات الدخل المعروفة أن يدفع عمليًا نفقات تعليمه الجامعي الفعلية؟ وفي أي دول العالم يتحمل الطالب تلك النفقات خاصة في الكليات العملية؟ ثم ما هي النتائج المترتبة على دخول القطاع الخاص مجال التعليم الجامعي وتقلص دور الدولة؟ «وجهات نظر» تعرض وجهتي نظر حول بعض جوانب هذه القضية.

المحـــرر

سياسات وتجارب دولية

معتـــــــز خورشـــــيد



في جامعة القاهرة تقوم مكاتب رعاية الشباب بالكليات ببحوث اجتماعية عن الطلاب محدودي الدخل بهدف إعفائهم من جزء من المصروفات الدراسية



تعرضت في مقال سابق. نشر بمجلة «وجهات نظر» عدد سبتمبر ٢٠٠٤ . إلى خصائص نظم التعليم العالي واتجاهاته في عصر العلم والمعرفة إبان الألفية الثالثة. ولسوف نبدأ فيما يلي بتقييم التجارب العالمية في مجال تنويع النظم والبرامج الأكاديمية بهدف تحقيق الأهداف الإنمائية ثم نتطرق بعدها لنناقش بشكل مفصل وسائل تنويع مصادر تمويل مؤسسات التعليم العامة.

الجـــزء الأول:

تنويع النظم التعليمية

تفيد مؤشرات التعليم العالي. للدول التي نجحت في تحقيق أهدافها التعليمية. إلى وجود مجموعة متكاملة ومتباينة من المؤسسات التعليمية تغطي عدداً من الأهداف والمهام مثل البرامج المهنية قصيرة الأجل، ومراكز التعليم المفتوح، والتعليم من بعد، ذلك بالإضافة إلى المؤسسات التعليمية الخاصة. ولعل التجربة الآسيوية تمثل إحدى التجارب المهمة في مجال تطوير التعليم العالي. فرغم أن الإنفاق الحكومي على التعليم - كنسبة من الناتج القومي الإجمالي - يعتبر الأقل مقارنة بباقي دول العالم، إلا أن هذه الدول قد نجحت في تبني السياسات الملائمة في مجال تنويع الخدمات التعليمية، بما يسمح باستيعاب الطلب الاجتماعي المتزايد على خدمات التعليم وتحقيق متطلبات أسواق العمل في هذا المجال. وهذه النتيجة تؤكد. بما لا يدع مجالاً للشك. أن تطوير برامج التعليم العالي لا تعتمد فقط على حجم الإنفاق العام على التعليم، بل أيضًا على تبني سياسات تعليمية ملائمة.

ويمكن تصنيف نظم التعليم العالي بالدول النامية - بوجه عام - إلى ثلاث فئات على النحو التالي:

❖النظم المعتمدة على الجامعات الحكومية «public university-based systems».

❖النظم الحكومية المتنوعة التي تشتمل . إلى جانب الجامعات الحكومية . على عدد من المؤسسات الحكومية غير الجامعية «differentiated public systems».

❖النظم المشتركة التي تعتمد على كل من القطاعين العام والخاص في تقديم الخدمات التعليمية «differentiated public plus private».

وتوضح مؤشرات البنك الدولي التعليمية حقيقة مهمة تتلخص في أن «مستويات التنوع في مؤسسات التعليم العالي وبرامجه تتجه إلى التزايد مع ارتفاع معدلات النمو الاقتصادي والرفاهية الاجتماعية للمواطنين».

وكما ذكرنا سابقًا، فإن دول قارة آسيا تعتبر الأفضل من حيث تنويع نظم التعليم العالي، فقد توجهت تايلاند - على سبيل المثال - إلى إنشاء جامعتين مفتوحتين ترتبط كل منهما بعدد من الجامعات الإقليمية لاستكمال الجهود التعليمية التي تقوم بها الجامعات الحكومية الأربع الرئيسية بمدينة بانكوك. ومن ناحية أخرى، فقد أقامت الصين شبكة متكاملة من الجامعات الإقليمية وتبنت - في نفس الوقت - منهجيات تعليمية تعتمد على النقل التليفزيوني والتعليم من بعد.

وتبين مؤشرات المجلس الأعلى للجامعات بمصر، توجه الحكومة - من خلال وزارة التعليم العالي - إلى تشجيع إنشاء أشكال مغايرة لمؤسسات التعليم العالي، إلى جانب الجامعات الحكومية الاثنتى عشرة. إذ سمح القانون رقم ١٠١ لسنة ١٩٩٢ بإنشاء جامعات خاصة وفق ضوابط محددة يعتمدها مجلس قومي للجامعات الخاصة. كما صدر القانون رقم ٤٩ لعام ١٩٦٢ لينظم عملية إنشاء معاهد متخصصة في مجالات التعليم الصناعي والتكنولوجيا والطاقة والحاسبات. كذلك أظهرت السنوات الأخيرة زيادة في أعداد المعاهد العليا الخاصة والتي تنظم من خلال القانون ٥٢ لسنة ١٩٧٠. كما تشير مؤشرات التعليم المصرية إلى تنامي التوجه إلى إنشاء فروع لجامعات أجنبية. على نمط الجامعة الأمريكية بالقاهرة - مثل الجامعة الفرنسية والجامعة الألمانية، ومثل الجامعات البريطانية والكندية (تحت الإنشاء).

بيد أن هذا التوجه نحو تنويع مصادر تمويل الجامعات وتباين أشكالها . برغم أهميته . لا يتضمن سياسة واضحة للتوسع في إنشاء





يتعين على الحكومة المصرية أن تدعم الأنماط التعليمية الحديثة مثل التعليم الإلكترونى، والتعليم من بعد، ومراكز التعليم المفتوح

مؤسسات تعليم عال غير جامعية تقدم أنماطًا ومناهج مغايرة لما يتم بالجامعات الحكومية، وبما يخدم أغراض سوق العمل فى عصر التنامى المعرفى. ومن هنا فإنه يتعين على الحكومة المصرية أن تدعم الأنماط التعليمية الحديثة مثل التعليم الإلكترونى، والتعليم من بعد، ومراكز التعليم المفتوح بغية التغلب على الزيادة العددية فى الطلب على التعليم العالى من ناحية، وتحقيق التوجه العالمى نحو التعليم المستمر (أو التعلم مدى الحياة)، من ناحية أخرى، وعلى الرغم من وجود ١٦ معهداً متخصصاً فى الدراسات العليا - فى رحاب الجامعات الحكومية المصرية - إلا أن الأمر يتطلب وضع استراتيجية أكثر تكاملاً لدعم نظم الدراسات العليا وارتباطها بتطوير البحث العلمى والتوجه نحو الابتكار والتحديث.

أولاً: المؤسسات غير الجامعية

تفيد المؤشرات الدولية للتعليم العالى - خلال حقبة التسعينيات من القرن الماضى وبداية الألفية الثالثة - أن معدلات التسجيل فى النظم غير الجامعية تنمو بمعدلات أعلى من معدلات التسجيل فى الجامعات التقليدية. حيث ظهرت أنواع متعددة للمؤسسات غير الجامعية مثل المعاهد الفنية والتكنولوجية العالية، والمعاهد المهنية المتوسطة (عامين دراسيين)، وكليات التعليم الأهلى (المنشأة من هيئات المجتمع المدنى)، بالإضافة إلى المؤسسات التى تقدم خدمات التعليم من بعد، وبرامج تعليم الكبار.

المزايا والإنجازات:

وتتميز هذه النوعية من مراكز التعليم غير الجامعى بانخفاض تكلفة إعداد البرامج الدراسية قصيرة الأجل، وانخفاض معدلات تسرب الطلاب (مقارنة بالجامعات التقليدية)، بالإضافة إلى تراجع نصيب الطالب من حجم الإنفاق الكلى على خدمات التعليم. ففى تونس على سبيل المثال، قامت الحكومة بإنشاء شبكة إقليمية من المعاهد التكنولوجية التى تمنح دبلوماً فنياً متوسطاً لمدة عامين دراسيين، مما ساهم فى انخفاض تكلفة التعليم العالى السنوية بنحو (١٢٪) فى المتوسط.

وتفيد نتائج تقييم الأداء على مستوى خريجى التعليم ما بعد الثانوى أن مؤسسات التعليم غير الجامعى تقدم فرصاً تدريبية على درجة عالية من المرونة بما يتواءم مع متطلبات أسواق العمل. وهو أمر ضرورى لمجابهة التقلبات الاقتصادية على المستوى العالمى والتغيرات الهيكلية فى سوق العمل فى ظل الثورة التكنولوجية والمعرفية التى يشهدها القرن الحالى.

وفى مجال التعليم الهندسى يمكن التفرقة بين نوعين من الخريجين: «خريج كليات الهندسة»، و«خريج المعاهد الفنية التطبيقية». ففى حين ينغمس النوع الأول من الخريجين فى الدراسات التحليلية والعلمية، يركز النوع الثانى فى دراسته على النواحى التطبيقية لعملية إنتاج السلع والخدمات واختبار جودة أدائها. وعلى مستوى الدول النامية، فإن دولة المكسيك نجحت فى إنشاء شبكة ممتدة عبر البلاد تتضمن معاهد تكنولوجية ذات توجه تطبيقى. وأخيراً فإن هذه المعاهد غير الجامعية نجحت فى اجتذاب شريحة من الطلاب الأقل فرصاً، مثلما هو الحال فى المعاهد الفنية بدولتى الهند وبنجلاديش التى ركزت على تحقيق المتطلبات التعليمية والثقافية للإناث على مستوى المدن الصغيرة والمناطق الريفية.

العيوب والمخاطر:

يجب الأخذ بمبدأ الحذر عند التوسع فى إنشاء مؤسسات غير جامعية للتحوط من المخاطر التالية:

١ - قد يعتقد الطلاب وأولياء الأمور أن هذه النوعية من المعاهد تأتى فى المرتبة الثانية بعد الجامعات التقليدية - من حيث جودة العملية التعليمية وتوافر فرص العمل. وبالتالى فإن عامل المخاطرة المرتبط بعدم اقتناع الطلاب للالتحاق بها يظل قائماً، ومن ثم تغدو هذه المعاهد مؤسسات تعليمية، تقوم فى الأساس على استيعاب الطلاب غير القادرين على الالتحاق بالجامعات الحكومية أو الخاصة. وهكذا فإنها لا تعدو أن تكون مراكز أكاديمية تتكدس داخلها الشريحة المتبقية من خريجى الثانوية العامة، ممن لا يجدون مكاناً بالجامعات. ففى جمهورية مصر العربية - التى لديها أحد أكبر النظم التعليمية على مستوى العالم النامى - حددت الحكومة معايير القبول بنظم التعليم العالى، وحددت بناء على ذلك مستوى استيعاب الطلب الاجتماعى المتزايد على التعليم العالى، من خلال جعل القبول بالجامعات الحكومية الرئيسة (وفق معدل الدرجات التى يحصل عليها الطالب فى الثانوية العامة) كما أنشأت معاهد فنية عليا (لمدة عامين دراسيين) لقبول الطلاب غير المؤهلين للقبول بالجامعات (وهم يمثلون الشريحة المتبقية من خريجى المرحلة الثانوية). وقد توسعت هذه المعاهد العليا خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين بحيث أصبحت تستوعب نسبة تصل إلى (٤٠٪) من الخريجين. ونظراً للقصور فى الموارد المالية والبشرية والمادية اللازمة لتحقيق مستوى جودة التعليم الفنى المطلوب، فقد انخفض مستوى الخريجين بتلك المعاهد وتراجعت الفرص المتاحة أمامهم للحصول على وظائف مناسبة. يضاف إلى ما سبق أن العديد من هؤلاء الخريجين فضل التوجه إلى الأعمال الإدارية أو استكمال دراسته فى إحدى الكليات الحكومية بعد انتهاء الدراسة بتلك المعاهد. وتجدر الإشارة فى هذا المجال إلى أن الحكومة المصرية - ممثلة فى وزارة التعليم العالى - قد تنبهت لهذه الظاهرة وخصصت أحد مشاريع تطوير منظومة التعليم العالى (الخطة الخمسية الأولى ٢٠٠٢ - ٢٠٠٧) لتحديث المعاهد الفنية العليا وتطويرها وتعظيم مساهمتها فى تحقيق متطلبات سوق العمل بالألفية الثالثة.

٢ - هناك مخاطرة أخرى تترتب على ابتعاد المؤسسات غير الجامعية عن الأهداف التى أنشئت من أجلها «academic drift»، مما يؤدى بها إلى أن تتحول تدريجياً إلى جامعات أو مؤسسات تعليم عال تقليدية. فتفقد بالتالى هدفها الرئيسى وهو تنويع برامج التعليم العالى. ففى مصر - على سبيل المثال - تمثل جامعة حلوان أحد الأمثلة الواضحة فى هذا المجال، حيث تكونت الجامعة من خلال تجميع عدد من المعاهد العليا الفنية والمتخصصة، ثم جرى استكمالها بعدد من الكليات الجديدة لتصبح أقرب إلى الجامعات الحكومية القائمة منها إلى الجامعة التكنولوجية.

ثانياً: التعليم المفتوح

تمثل تقنية التعليم الإلكترونى من بعد، واحدة من الأدوات التى تسمح بالتغلب على مشكلة تزايد أعداد طلاب مرحلة التعليم العالى ونقص الإمكانات المادية والبشرية بالجامعات. كما تقدم برامج التعليم المفتوح وسيلة فعالة على درجة عالية من المرونة لاستكمال الدراسة بالنسبة للطلاب غير القادرين على الانتظام بالدراسة وسداد الرسوم الدراسية. حيث يمكن لخريج المرحلة المتوسطة (الثانوية العامة) أن يعمل ويستكمل دراسته فى نفس الوقت. كما تسمح هذه النوعية من مراكز التعليم المفتوح بإعداد برامج تعليم الكبار أو التعليم المستمر، الذى أصبح ضرورة فى عصر العلم والمعرفة.

ومن هناك فإنه يمكن الاعتماد على هذه التقنيات التعليمية الحديثة لمقابلة الزيادة فى الطلب على خدمات التعليم العالى من خلال السماح لبعض شرائح الخريجين غير القادرين على الاستمرار بالتعليم المنتظم باستكمال دراستهم فى مقابل تكلفة مقبولة. وتشير المؤشرات التعليمية أن نسبة (٤١٪) من المسجلين ببرامج التعليم المفتوح والتعليم من بعد بالهند من النساء، فى حين أن معدل مشاركة النساء فى التعليم المنتظم

بالجامعات لا يتعدى (٣٢٪) فقط من خريجي المرحلة الثانوية.

ثالثًا: المؤسسات الخاصة

تمثل مؤسسات التعليم الخاصة - في الألفية الثالثة - أحد العناصر المهمة في منظومة التعليم العالي بالدول النامية، حيث يمكن الارتكاز على تلك الوحدات الخاصة لمجابهة الطلب المتزايد على خدمات التعليم العالي ومواجهة التغيرات في أسواق العمل. وتسمح المؤسسات الخاصة بزيادة فرص التعليم المتاحة بدون تكلفة إضافية ترهق الميزانية العامة للحكومة، أو بتكلفة عامة محدودة تتمثل في الدعم الحكومي أو الحوافز المالية التي توفرها الدولة للمؤسسات التي تحقق أهداف التنمية المستدامة. وبطبيعة الحال، فإن هذه المؤسسات التعليمية الخاصة تكون متحررة من القيود الإدارية والمالية الحاكمة لعمل الجامعات الحكومية مما يزيد من درجة مرونتها وكفاءتها للتأقلم مع التطورات السريعة لمجتمع المعرفة والتطوير التكنولوجي.

ومن هنا فإنه يمكن النظر إلى إنشاء جامعات ومؤسسات تعليمية خاصة كوسيلة لتحقيق الآتي:

- استكمال جهود الجامعات الحكومية لمواجهة تكلفة التوسع في إعداد المسجلين في نظم التعليم العالي.
- تحقيق مستويات أعلى من التنوع في برامج التدريب والتأهيل المهني.
- التوسع في المشاركة المجتمعية في أنشطة التعليم العالي ومجالاته.

وتشير نتائج تقييم برامج التعليم العالي في العديد من دول العالم إلى زيادة معدلات القيد بالمؤسسات التعليمية الخاصة. حيث تصل نسبة المقيدين بالقطاع الخاص إلى (٨٦٪) في الفلبين، (٧٥٪) في كوريا، ونحو (٦٠٪) في كل من بنجلاديش، والبرازيل، وكولومبيا، وإندونيسيا. وتوضح المؤشرات السابقة أن هذه الدول قد نجحت في توسيع نطاق نظمها التعليمية العليا ومجالاتها دون إضافة أية أعباء إلى ميزانية الدولة.

وبرغم تنامي التوجه نحو مشاركة القطاع الخاص في جهود تطوير التعليم العالي واستكمال متطلبات أسواق العمل من المهن التخصصية التي تتطلب مستوى مهاريًا متقدمًا، فإنه يتعين على سلطات التعليم العالي بالدولة النامية أن تضع المعايير والأسس للتأكد من كفاءة العملية التعليمية والتدريبية وجودتها بالقطاع الخاص. وتظهر أهمية هذا التوجه في ظل سعي بعض مؤسسات القطاع الخاص لتحقيق الربح على حساب الجودة. وهنا يتعين التفرقة بين الجامعات الخاصة غير الهادفة إلى الربح (أو الجامعات الأهلية) والجامعات والمعاهد التي تسعى إلى تعظيم العائد المادي. حيث تكون المؤسسات التعليمية غير الهادفة إلى الربح - في غالب الأحيان - صغيرة الحجم، وتهتم باختيار أفضل العناصر الطلابية، وذات تكلفة مرتفعة.

كما دلت نتائج الدراسات الحصرية على مستوى العالم أن خريجي المؤسسات الخاصة غير الهادفة إلى الربح (أو الجامعات الأهلية) يحصلون على وظائف أفضل من زملائهم خريجي الجامعات الهادفة إلى تعظيم العائد المادي، وهو ما يعني جودة أفضل للأداء بتلك المؤسسات، على الأقل من وجهة نظر أصحاب العمل. ولعل هذه النتيجة تؤكد ضرورة النظر إلى خدمات التعليم العالي والبحث العلمي بوصفها منتجًا لا يخضع لقواعد الربحية وآلياتها السائدة في أسواق السلع التقليدية.

أي أن الأمر يتطلب بالضرورة صياغة أطر قانونية وسياسات لإدارة عملية نمو المؤسسات الخاصة في مجال التعليم العالي. وهو ما ظهر بشكل واضح في العديد من الدول النامية. ويمكن تلخيص السياسات المستخدمة لدعم وحدات التعليم العالي الخاصة في الآتي:

- إنشاء نظم ملائمة للاعتماد وآليات محددة لتوكيد الجودة.
- توفير الدعم المطلوب لتطوير المقررات الدراسية والإدارة المؤسسية والشئون الأكاديمية.
- تقليل التحكم في رسوم الالتحاق والتسجيل بالقطاع الخاص، والتوجه في بعض الأحيان إلى توفير الدعم المالي للتطوير الأكاديمي والتحسين الكيفي لمؤسسات التعليم الخاص.



قد يعتقد الطلاب وأولياء الأمور أن هذه النوعية من المعاهد تأتي في المرتبة الثانية بعد الجامعات التقليدية

الجزء الثاني:

تنويع برامج تمويل التعليم العالي

في ظل تنامي المؤسسات التعليمية الخاصة والأهلية والتوجه العالمي للارتقاء بمعدلات الأداء الجامعي وتوكيد جودته، يتعين على الجامعات الحكومية أن تتوجه إلى إعادة هيكلة أنشطتها وتنويع مصادر تمويل برامجها التعليمية من خلال زيادة مساهمة القطاعين الخاص والأهلي في تكلفة العملية الأكاديمية بها وإيجاد مصادر غير تقليدية للتمويل، مع التوجه - في نفس الوقت - إلى وضع نظم لعدد الطلاب غير القادرين أو الأقل دخلاً. حيث إن القصور في معالجة نقص الموارد المالية بالجامعات الحكومية من الممكن أن يؤدي إلى عدم تحقق هدفي التنوع في النظم والبرامج التعليمية وعدالة فرص الالتحاق بالتعليم العالي، حتى مع وجود أعداد متزايدة من مؤسسات التعليم الخاصة. ويمكن تحقيق هذا الهدف بالتركيز على الآليات التالية:

- وضع الأنظمة التمويلية التي تسمح بمشاركة الطلاب في جزء من الرسوم الدراسية.
- الاستفادة من خريجي الجامعات القادرين على المساهمة في تكلفة التعليم.
- إلغاء معظم أنواع الدعم المادي للأنشطة غير التعليمية (أو التي لا ترتبط مباشرة بالعملية التعليمية)، مثل تغذية الطلاب أو الإقامة بالمدن الجامعية.
- التوجه إلى إنشاء وحدات ذات طابع خاص - في شكل مراكز دراسية وبحثية تطبيقية - تسمح بتوفير دخول إضافية للجامعات لتمويل أنشطتها المتعددة.

مشاركة الطلاب في تكلفة التعليم

cost sharing:

يمكن الارتقاء بالقدرة التمويلية لمؤسسات التعليم العالي الحكومية من خلال زيادة مشاركة الطلاب أنفسهم في تمويل الأنشطة الأكاديمية بتلك المؤسسات. ويعتبر هذا توجهًا مشروعًا لو أخذنا في الاعتبار أن الطلاب يتوقعون أن يحصلوا على عائد مالي مرتفع - بعد حصولهم على عمل - كثمرة لما تعلموه خلال مرحلة التعليم العالي، مع ملاحظة أن عددًا غير قليل من هؤلاء الطلاب يأتي - في غالب الأحيان - من عائلات قادرة على المشاركة في تكلفة تعليم أبنائهم في الجامعات الحكومية.

وتفيد المؤشرات التعليمية إلى تنامي هذا التوجه الرامي إلى تطبيق المشاركة في التكلفة من قبل الطلاب. إن تبين إحصاءات التعليم العالي أن حجم مشاركة الطلاب كنسبة من جملة التكلفة الجارية للعملية التعليمية يقدر بنحو (٢٢٪) في فيتنام، و(٣٦٪) في شيلي، و(٤٠٪) في الأردن، وما يقارب (٤٦٪) في كوريا الجنوبية. كذلك اتخذت السلطات الصينية قرارًا بتحميل الطلاب ما يمثل (٩٪) من جملة الإنفاق الجاري على الخدمات التعليمية، كما ضاعفت الرسوم الدراسية على الطلاب ذوي الدرجات المتدنية، وألغت كل صور الدعم المادي والعيني المخصص لهم. ومن ناحية أخرى، قامت كل من بوتسوانا وغانا بإلغاء الدعم الموجه للوجبات الطلابية وخصخصت عملية التغذية بالجامعات مما ساهم في تحقيق تخفيض في الإنفاق الحكومي بشكل عام.

التمويل من خريجي الجامعات والشركات الخاصة:

funding from alumni and private companies:

تمثل المنح والهبات والقروض الميسرة السداد التي توفرها جمعيات الخريجين والشركات العامة والخاصة أحد المصادر المهمة لتنويع القاعدة التمويلية بالجامعات الحكومية. وتأخذ هذه النوعية من التمويل أشكالاً مختلفة مثل: (أ) دعم عملية إنشاء أبنية تعليمية وتجهيز

معامل بحثية، (ب) إنشاء منصب أستاذ كرسي يمول عن طريق إحدى الشركات الإنتاجية، (ج) المساهمة في شراء الأجهزة والمعدات العلمية،(د) توفير منح عينية في شكل كتب ودوريات علمية ونشرات إحصائية، (هـ) كفالة الطلاب محدودي الدخل عن طريق دعم تكلفة الرسوم الدراسية ومصروفات الإقامة بالمدن الجامعية والوجبات الغذائية والملابس، (و) اختيار الشركات لعدد من الطلاب ودعمهم خلال مرحلة الدراسة تمهيداً لعملهم بها، وأخيراً (ز) قيام الشركات المالية والبنوك بتوفير قروض بأسعار فائدة منخفضة وشروط سداد ميسرة لدعم العملية الأكاديمية والبحثية بالجامعات.

ويمكن أن تساهم السلطات الحكومية في تشجيع هذا التوجه من خلال تبني نظم مالية تسمح بمنح إعفاءات ضريبية للشركات والمؤسسات الخاصة التي تدعم المؤسسات التعليمية والبحثية، ففي شيلي - على سبيل المثال - تمنح الدولة إعفاءات ضريبية تصل إلى نحو (٥٠٪) من قيمة الضريبة على الدعم المالي الذي تقدمه الشركات الخاصة للجامعات ومؤسسات التعليم غير الجامعي، وتطبق مثل هذه الإعفاءات في الهند ومصر والعديد من دول العالم، وبرغم هذه الإعفاءات فإن حجم الدعم المالي - الذي توفره الشركات والمؤسسات الخاصة للجامعات - لا يتعدى نحو (٠.٠٦٪) من الإنفاق الجاري على التعليم العالي في المتوسط.

ويعتبر إنشاء صناديق خاصة، تتضمن ودائع يستخدم عائدها في تمويل الأنشطة التعليمية والبحثية بالجامعات، أحد التوجهات الناجحة في مجال تنويع مصادر تمويل برامج التعليم العالي. هذا وتمثل منحة «نيبون» التي توفرها مؤسسات تمويل يابانية لصالح قسم اللغة اليابانية بكلية الآداب بجامعة القاهرة أحد الأمثلة في هذا المجال، حيث تخصص مؤسسات التمويل اليابانية وديعة مالية يستخدم عائدها لتمويل المنح الدراسية لطلاب الجامعة والبحوث العلمية في مجال اللغة اليابانية وباقي الأنشطة الأكاديمية بكلية الآداب. وتمثل هذه الأداة التمويلية وسيلة لدعم الأقسام العلمية الحديثة.

وحدات توليد الدخل
income generating units:

يعتمد التوجه الاستراتيجي الثالث لتعبئة الموارد التمويلية من القطاع الخاص على إنشاء وحدات ذات طابع خاص بالجامعات الحكومية كمصادر لتوليد دخل ذاتي من خلال برامج التدريب المهني قصيرة الأجل والبحوث التعاقدية مع الشركات والمؤسسات الصناعية والخدمات الاستشارية. ومن المفروض أن تتمتع هذه الوحدات باستقلالية اتخاذ القرار، والتحرر من قيود الموازنة العامة للدولة، وحرية الحركة فيما يخص البحوث التعاقدية والاستشارات الفنية. ففي مصر - على سبيل المثال - سمحت اللائحة التنفيذية المعدلة لقانون تنظيم الجامعات بإنشاء مراكز للدراسات والاستشارات - في شكل وحدات ذات طابع خاص - تتميز بالاستقلالية المالية والمرونة الإدارية المطلوبة لتقديم خدمات مجتمعية. هذا وقد تم إنشاء منصبي وكيل كلية ونائب رئيس جامعة لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة بهدف متابعة نشاط هذه الوحدات على مستوى الجامعة. وقد تزايد عدد هذه الوحدات بالجامعات الحكومية في الآونة الأخيرة مما ساهم في توفير موارد إضافية استخدمت بشكل أساسي في الإنفاق على تكلفة الخدمات المقدمة من ناحية، وتوفير التمويل اللازم لتطوير البنية الأساسية للجامعة والمشاركة في تكلفة الأنشطة التعليمية والبحثية، من ناحية أخرى. ويمكن لحكومات الدول النامية أن تشجع هذا التوجه بأساليب متنوعة، أهمها تقليل التعقيدات الإدارية والمالية وإطلاق حرية هذه الوحدات في التفاعل مع آليات السوق. كذلك تتجه بعض الحكومات إلى زيادة التمويل من الموازنة العامة بنسبة تتحدد بحجم الإيرادات المتولدة بالوحدات ذات الطابع الخاص. وغني عن الذكر أن العديد من الجامعات بالولايات المتحدة الأمريكية تشترط على الأساتذة أن يستكملوا دخلهم من الجامعة من خلال نجاحهم في التعاقد على بحوث تطبيقية وخدمات استشارية.



الاستفـــادة من خريجـي الجامعات القـــادريـن عـلى المساهمـة فـي تكلفــة التعليـــم



نخلص مما سبق أن مؤسسات التعليم العالي بالدول النامية يمكن أن ترتقي بإمكاناتها التمويلية وتضمن التوازن المالي لأنشطتها الأكاديمية من خلال تعبئة موارد إضافية من خلال المؤسسات غير الحكومية. وقد أفادت الدراسات المقارنة، أنه يصعب حتى على الدول - التي تخصص نسبة عالية من إنفاقها العام للتعليم العالي - أن تتفادى التقلبات قصيرة الأجل من الموارد التمويلية، مما يؤدي إلى تراجع قدرتها على إدارة أنشطتها التعليمية بكفاءة. ومن هنا فإن توجه الجامعات الحكومية إلى إلغاء الدعم على الأنشطة غير التعليمية، وزيادة الرسوم الدراسية، وتعظيم الفائدة من المنح والهبات والقروض الميسرة من القطاع العائلي والخاص، وإنشاء وحدات قادرة على توليد الدخل الذاتي، سيسمح لها ببناء قاعدة تمويلية أكثر تنوعاً وأكثر ثباتاً. ويمكن للجامعات الحكومية - في هذا الصدد - أن تضع هدفاً كمياً يتمثل في السعي إلى تحقيق نسبة تغطي نحو (٣٠٪) من إجمالي الإنفاق الجاري من خلال التمويل من مصادر غير حكومية، وهي نسبة ممكنة التحقيق على مستوى الدول النامية، أخذاً في الاعتبار أن بعض الدول مثل الأردن، وشيلي، وكوريا قد تخطت هذه النسبة بالفعل. يضاف إلى ما سبق، أن تعبئة موارد مالية إضافية من القطاع الخاص تجعل مؤسسات التعليم الحكومية أكثر استجابة لمؤشرات الطلب على خدمات التعليم العالي. كما أن مشاركة الطلاب - في سداد الرسوم الدراسية - يجعلهم أكثر جدية في اختيار برامجهم الدراسية والعمل الدءوب من أجل تقليل فترة دراستهم.

الدعم المالي للطلاب محدودي الدخل

تمثل برامج الدعم الحكومي للطلاب المتميزين محدودي الدخل سياسة مكملة لمشاركة الطلاب القادرين في تكلفة الخدمات الدراسية. حيث يساهم هذا التزاوج بين السياستين - بالإضافة إلى التمويل الحكومي - في الوصول إلى مستوى أعلى من تغطية تكلفة برامج التعليم العالي، وتحقيق أهداف الارتقاء بجودة العملية التعليمية والبحثية، مع الحفاظ - في نفس الوقت - على المساواة في حقوق الالتحاق بنظم التعليم العالي أمام كل الشرائح السكانية.

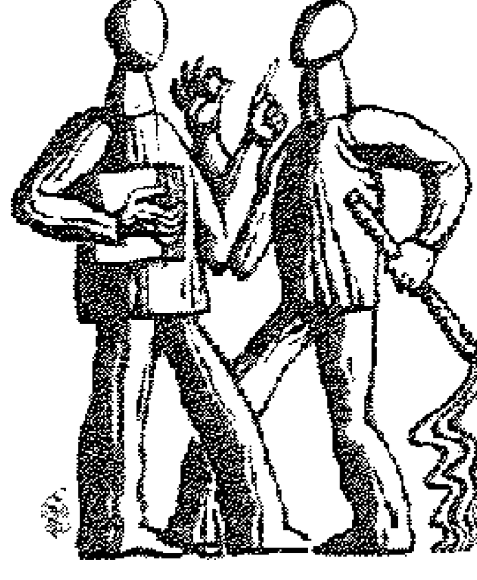
تأسيساً على ما سبق، اتجهت بعض الدول النامية إلى تطبيق نوعية من القروض الدراسية ذات أقساط السداد الثابتة (fixed repayment loan schemes) تغطي المصروفات التعليمية أو تكلفة الإعاشة للطالب بحيث يقوم بسداد أقساطها على فترات مستقبلية من الدخل الذي سيحققه بعد تخرجه. غير أن تجربة تطبيق القروض الدراسية في نحو خمسين دولة صناعية ونامية كانت مخيبة للآمال. ويعود ذلك في الأساس إلى الصعوبات الناجمة عن تضخم مستوى الدعم على أسعار الفائدة المطبقة، وزيادة معدل القروض المعدومة (أي التي لا يتم سداد أقساطها أو جزء منها)، ذلك بالإضافة إلى ارتفاع تكلفة إدارة هذه القروض.

ونظراً للنجاح المحدود للقروض الدراسية ذات المعدلات الثابتة لسداد الأقساط، اتجه عدد متزايد من الدول إلى تطبيق نوعية من القروض يتم حساب معدلات سداد أقساطها كنسبة من الدخل السنوي الذي يحققه الخريج (income-contingent-loans). وتتميز هذه النوعية من القروض بسهولة إدارتها نظراً لأنها تتشابه - إلى حد كبير - مع نظم إدارة الضرائب على الدخل وبرامج التأمينات الاجتماعية. وفي كل الأحوال، فإن هذه القروض حققت التوازن المطلوب بين معدلات تغطية أصل القرض من ناحية، ومرونة عملية إدارتها من ناحية أخرى. وتفيد بعض تجارب التطبيق أن السويد - على سبيل المثال - قد خفضت أقساط سداد القروض الطلابية إلى نحو (٤٪) من دخل الخريج وذلك

لتقليل فرص التعثر فى سداد القروض.

وبرغم سعى الحكومات الوطنية إلى توفير القروض الميسرة للطلاب المميزين وغير القادرين ماليًا لاستخدامها فى سداد المصروفات الدراسية، فإن هناك العديد من الطلاب الذين يصعب عليهم أيضًا توفير تكلفة إعاشتهم خلال فترة الدراسة. وبهدف ضمان تساوى حقوق الالتحاق لمعظم الشرائح الطلابية، تتجه بعض الحكومات إلى دعم الطلاب المتميزين علميًا لاستكمال دراستهم الجامعية. فعندما اتخذت دولة الفليبين قرارًا برفع الرسوم الدراسية، قامت - فى نفس الوقت - بإنشاء صندوق لدعم الطلاب الذين ينتمون إلى عائلات ذات دخل منخفض من خلال منح وإعانات. وفى جامعة القاهرة تقوم مكاتب رعاية الشباب بالكليات فى القيام ببحوث اجتماعية عن الطلاب محدودى الدخل بهدف إعفائهم من جزء من المصروفات الدراسية. كما تقدم الجامعات الشيلية أيضًا منحًا أو هبات مالية للطلاب غير القادرين. ويمثل نظام التكافل الاجتماعى الذى تتبناه كلية التجارة بجامعة القاهرة أحد الأنظمة الواعدة لدعم الطلاب. إذ أنشأت الكلية صندوقًا للتكافل الاجتماعى يمول من خلال منح مالية يقدمها القطاع الخاص بوجه عام، وكذا رجال الأعمال من خريجى الكلية على وجه الخصوص. ولضمان تحقيق الفائدة المرجوة من الصندوق، فإن أمواله تستخدم فى الدعم العينى للطلاب من خلال سداد تكلفة الغذاء بالجامعة أو توفير ملابس بالاتفاق مع بعض الشركات الإنتاجية أو سداد قيمة الكتب الدراسية. هذا وقد قامت الكلية بإعداد قاعدة معلومات متكاملة عن الطلاب تتضمن مؤشرات دالة على الحالة الاجتماعية لعائلاتهم من حيث القدرة على سداد الالتزامات المالية لدراسة أبنائهم.

وأخيرًا تمثل برامج الدراسة والعمل بعض الوقت للطلاب (student work-study program) إحدى الطرق البديلة للمساعدة المالية، حيث يمكن للطالب غير القادر أن يكلف ببعض الأعمال الجزئية واستخدام عائدها لسداد التزاماته المالية خلال الدراسة. وبالطبع فإن تطبيق هذا البرنامج يكون أكثر نجاحًا على مستوى الدراسات العليا حيث يكون الطالب قد أنهى دراسته



تفيد المؤشرات التعليمية إلى تنامى هذا التوجه الرامى إلى تطبيق المشاركة فى التكلفة من قبل الطلاب



الأساسية الجامعية واكتسب الخبرات اللازمة للقيام ببعض الأعمال الأكاديمية والإدارية بالجامعة أو خارجها.

ويتميز هذا التوجه بأنه يحفز المنافسة بين مؤسسات التعليم العالى للارتقاء بالأداء الأكاديمى من ناحية، ويعطى للسلطات الحكومية مؤشرات مفيدة عن سوق التعليم العالى والطلب على الخدمات الدراسية، من ناحية أخرى.

كفاءة تخصيص الموارد المالية

بما أن الميزانية العامة للحكومة مازالت تمثل أهم مصادر تمويل نظم التعليم العالى بالدول النامية، وفى ظل التراجع المتوقع مستقبلاً لدور الدولة فى دعم التعليم العالى والبحث العلمى، يصبح تحقيق التخصيص أو الاستخدام الأمثل للموارد المالية أمرًا ضروريًا.

وتأسيسًا على ذلك، فإنه يتعين على الحكومات الوطنية أن تضع نظمًا متكاملة تتضمن الضوابط والمعايير التى تسمح بالتخصيص الأمثل لجوانب الإنفاق على التعليم وتحقيق أفضل استخدام للموارد المالية الحكومية المحدودة.

ويمكن تصنيف الأساليب المتبعة بالجامعات لإعداد موازناتها المالية على النحو التالى:

١ - الميزانيات التفاوضية (negotiated budgets): وهى الميزانيات التى تتحدد من خلال التفاوض بين إدارة الجامعة والسلطات الحكومية المختصة (مثل وزارة المالية ووزارة التخطيط).

٢ - الميزانيات المعتمدة على مدخلات العملية التعليمية (input-based budgeting): وهى الميزانيات التى تتحدد أبوابها بصيغة محاسبية تعتمد على معدلات الالتحاق بالمؤسسة التعليمية ونصيب الطالب من الإنفاق الجارى والرأسمالى للوصول إلى النسب المالية لتوزيع الموارد.

٣ - الميزانيات المعتمدة على مخرجات العملية التعليمية (output-based budgeting): وهى تمثل نوعية من الميزانيات التى تعتمد فى تخصيص الموارد المالية العامة للمؤسسات التعليمية وفق معيار إعداد الخريجين ومستوى كفاءتهم العلمية.

٤ - الميزانيات المعتمدة على كفاءة العملية التعليمية (quality-based budgeting) وهى الميزانيات التى تعتمد على ربط تخصيص الموارد المالية الحكومية بمستويات أداء المؤسسات التعليمية.

وتفيد مؤشرات التعليم العالى على المستوى الدولى أن الميزانية التفاوضية تمثل أكثر الوسائل شيوعًا لتوزيع الموارد المالية العامة على المؤسسات التعليمية. وفى غالب الأحيان تتحدد مخصصات أبواب الميزانية - وفق هذا الأسلوب - بناءً على حجم التمويل خلال السنة السابقة والتوجهات الاقتصادية والمالية للحكومة فيما يخص تخصيص الموارد. وبالطبع، فإن هذا الأسلوب فى تقدير الميزانية يعجز عن توفير الحوافز اللازمة لتحقيق كفاءة الأداء المالى من ناحية، ويؤدى إلى صعوبة مواءمة الموارد المالية المتاحة للتقلبات فى المناخ التعليمى، من ناحية أخرى.

ومن المؤكد أنه يصعب على الحكومات - فى ظل غياب معايير موضوعية للتقييم ومعلومات كافية عن أداء المؤسسات التعليمية الوطنية - أن تحقق التوزيع الأمثل للموارد المالية العامة على الجامعات.

ومن هنا يغيب عن متخذ القرار السياسى معايير أخرى مهمة مثل كفاءة أداء المؤسسات التعليمية وضمان جودة برامجها الأكاديمية عند توزيع الموارد المالية العامة.

وبناءً على ما سبق، فإن توجه معظم الحكومات - عند حدوث تخفيض عام فى الإنفاق الحكومى - أن تجرى تخفيضات متساوية على معظم بنود ميزانية التعليم، دون القيام بدراسة للبرامج الدراسية والنظم الأكاديمية التى يمكن تخفيضها دون التأثير - بشكل كبير - فى معدلات أداء نظام التعليم العالى.

وللتغلب على عيوب النظام المعتمد على مدخلات العملية التعليمية، اتبعت بعض الدول أسلوبًا تمويليًا يعتمد على قدرة المؤسسات التعليمية على إعداد خريجين على مستوى مقبول من الكفاءة. ففى دول مثل أستراليا والدانمارك وهولندا، ساهم الأسلوب المعتمد على مخرجات العملية التعليمية فى تقليل تسرب الطلاب ومعدلات رسوبهم بالإضافة إلى تحسين كفاءة نظم التعليم العالى الحكومية واستخدام موارد المالية العامة. وتكمن أهم عيوب هذا الأسلوب فى تركيزه على كم الخريجين أكثر من جودة مستوى البرامج التى تقدمها مؤسسات التدريب والتعليم. أما الأسلوب الحديث للتمويل - الذى بدأت فى استخدامه بعض الدول - فيتجه إلى تخصيص نسبة أعلى من الدعم المالى الحكومى إلى المؤسسات التعليمية الأكثر جودة فى الأداء وقدرة على تنظيم العملية التدريسية والبحثية.

وعلى وجه العموم فإن الصيغ المستخدمة لتمويل ميزانيات المؤسسات التعليمية، يجب أن تتسم بالشفافية والمرونة وتأخذ فى اعتبارها التكلفة المعيارية لمختلف المستويات التعليمية والبرامج الأكاديمية. وبالإضافة إلى ذلك، يجب أن تشجع الصيغة التمويلية الجودة الداخلية للمؤسسات من خلال حجم التمويل بالفترة الزمنية اللازمة للحصول على درجة جامعية، على سبيل المثال، وأخيرًا يجب أن تعكس الصيغة المستخدمة فى إعداد الميزانية التعليمية التوجه إلى تقليل الإنفاق على الأنشطة غير التعليمية والتركيز على التدريب والبحث العلمى. ■



جامعات للربح = تعليم بالخسارة



محمـــــد أبـو الـغـــار

■■ خلال الحقبة الأخيرة حدث تحول جذرى فى تفكير وفلسفة الدولة المصرية تجاه دور القطاع الخاص وحجمه فى ملكية وسائل الإنتاج ودوره فى التنمية بشكل عام. ويرجع هذا التحول التدريجى فى فكر الدولة والذى تم خلال ثلاثة عقود إلى تغير جذرى فى فكر الحكام الذين نالوا تعليماً مختلفاً عمن سبقوهم وتشكل وجدانهم بثقافة مختلفة ولكن العامل الحاسم فى هذا التحول هو انتصار المعسكر الرأسمالى بقيادة الولايات المتحدة وهزيمة الماركسية وتفكك المعسكر الاشتراكى وصاحب ذلك ضغوط خارجيه على مصر جمعت بين الترغيب والمساعدة من ناحية والضغط السياسى والاقتصادى من ناحية أخرى. وقد طالت ما يسمى بالخصخصة عدة قطاعات إنتاجية مختلفة ولكن خصخصة التعليم الجامعى بدأ الكلام عنه مؤخراً بصوت هامس ارتفع تدريجياً وسبقت له المبررات المختلفة حتى أصبح هو قرار الدولة التى تحاول أن تجد الوقت والطريقة المناسبة لتنفيذه، وتؤجله قليلاً خوفاً من رد فعل شعبى غاضب وهادر قد يهدد كيان الدولة المصرية التى فقدت شعبيتها ومكانتها فى قلوب الجماهير.



من المعروف تاريخياً أنه كانت هناك نسبة هامة من التعليم ما قبل الجامعى تابعة بشكل كامل أو جزئى للقطاع الخاص ويدفع فيها التلاميذ مصروفات مقابل التعليم ومن المعروف أن هذه النسبة قد تقلصت بعد عدوان ١٩٥٦ حين أممت المدارس الفرنسية والإنجليزية وأصبح التعليم ما قبل الجامعى تشرف عليه الحكومة المصرية بالكامل وأصبح من المستحيل أن يدخل الطفل المصرى مدرسة فى بلده ولا يتعلم فيها اللغة العربية وكذلك تاريخ مصر والمنطقة العربية، ولكن حتى بعد أن وضعت الحكومة المدارس الأجنبية والخاصة تحت إشرافها، استمر فيها التعليم بالمصروفات ولكن كان معظمها مصاريف معقولة فى متناول يد الطبقة الوسطى التى تعلم الكثير من أبنائها فى هذه المدارس. وتبقت مدارس أجنبية تعد على أصابع اليد الواحدة لأبناء الأجانب ومنعت الدولة أولاد المصريين من دخول هذه المدارس بالقانون.

ومنذ منتصف السبعينيات حدث توسع هائل فى المدارس الخاصة التابعة لجهات أجنبية أو هيئات مصرية أو أفراد. وفتحت أبواب المدارس الأجنبية التى لا



تدرس اللغة العربية ولا تاريخ مصر على مصرعيها أمام أولاد وبنات الأغنياء المصريين الذين دفعوا مبالغ طائلة من عدة آلاف من الدولارات، وفى النهاية لا يستطيع معظم هؤلاء التلاميذ حتى كتابة أسمائهم بالعربية، بالإضافة إلى الجهل المطبق بتاريخ وجغرافية مصر. وتعاظمت مصاريف هذه المدارس والتى أصبحت بعيدة من متناول الطبقة الوسطى وصاحب ذلك انهيار فى التعليم الحكومى المجانى وبالرغم من أن التعليم الخاص أصبح يسيطر على جزء هام من التعليم العام إلا أن صمام الأمان كان دائماً موجوداً فى وجود امتحانات الابتدائية والاعدادية والثانوية العامة التى أعطت فرص متكافئة للجميع. إلا أن الباب أصبح مفتوحا لنسبة محدودة من خريجى المدارس التى لا تعلم العربية لدخول الجامعة المصرية، وفيما عدا ذلك كان دخول الجامعة يتم بمنافسة حرة بين الجميع، صحيح أن طلبة المدارس الخاصة والمميزة كانت فرصتهم فى الحصول على درجات عالية أكبر بكثير من تلاميذ المدارس الحكومية وخاصة فى الأقاليم والأحياء العشوائية حيث ينحدر مستوى التعليم بشدة ولكن نتائج الثانوية العامة كانت توضح أن هناك أعداداً من المتفوقين من كل أنحاء البلاد حتى النائية منها.

التعليم العالى الخاص فى مصر

الجامعة الأمريكية التى أنشئت فى عام ١٩٢٠ هى أقدم مؤسسة فى مصر للتعليم الجامعى الخاص غير الخاضع لإشراف الدولة ولكنها كانت معزولة تماماً عن المجتمع المصرى الحقيقى وأعداد طلبتها كانت محدودة جداً فمثلاً فى عام ١٩٤٥ كان كل الطلبة الذين التحقوا بالجامعة الأمريكية ١٣٤ طالباً معظمهم من الأجانب أو المصريين ذوى الأصول الأجنبية.

وكانت هناك أيضاً بعض المعاهد العليا الخاصة ومدة الدراسة بها كانت قصيرة فى مدد أقصاها سنتين لتعليم بعض التخصصات مثل الفندقة والسكرتارية وغيرها ولم تكن هذه المعاهد مرتفعة المستوى ولا كانت مصاريف التعليم فيها مرتفعة وكان يدخلها أبناء الشريحة السفلى من الطبقة الوسطى أو الطبقات الفقيرة الذين لم تتح لهم فرص التعليم العالى بسبب ضعف درجاتهم.

وقد حدثت طفرة هائلة فى مرحلة تالية فى التعليم العالى الخاص بإنشاء

عدد من الجامعات الخاصة المملوكة لأفراد وكذلك عدد كبير من المعاهد العليا الخاصة أيضا.

وفى السنوات الأخيرة لأسباب تتعلق بتغير فلسفة الدولة عموماً من ناحية ولأسباب ضعف الاقتصاد المصرى المتناهى وقلة الأموال المتاحة للأنفاق على التعليم من ناحية أخرى بدأ التفكير جدياً فى خصخصة التعليم الجامعى الحكومى، وكعادة الحكومة لم تكن عندها خطة واضحة لتنفيذ الخصخصة ولا تم طرح الموضوع على الجامعيين المهتمين بالأمر لمناقشته وانما تم عرضه على مجموعة من الأساتذة القياديين الموالين للحكومة المعروف عنهم مسبقاً تأييد الحكومة بصفة مستمرة بدون تفكير وذلك ليوافقوا على تنفيذ ما سبق أن تم تقريره وللأسف يتبارى بعضهم فى تأييد أفكار خصخصة التعليم حرصاً على مستقبلهم السياسى فى الترقى الجامعى والترقى السياسى خارج الجامعة بدون دراسة حقيقية لخطورة هذا الموضوع.

عندما نتكلم عن التعليم العالى دعنا أولاً نقسم الأمر إلى جامعات ومعاهد عليا مصرية حكومية وأخرى خاصة.

أما عن الجامعات المصرية الحكومية فقد ارتفع عددها من ثلاث جامعات عند قيام الثورة إلى أربعة جامعات بإنضمام جامعة أسيوط لها لعدة سنوات ثم افتتحت جامعات جديدة غطت معظم الوجة البحرى بالأضافة إلى فروع الفيوم وبنى سويف وجامعة المنيا وجنوب الوادى من الجامعات الجديدة فى الصعيد.

وفى النصف الثانى من الخمسينيات وحقبة الستينيات أنشأت الدولة معاهد تعليمية عليا مجانية فى معظم المحافظات وغلبت عليها فلسفة إنشاء معاهد هندسية أو تكنولوجية غطت فروعا أخرى من المعرفة وكانت هذه المعاهد وعاء كبيراً لاستيعاب أعداد هائلة من الطلبة الذين أتموا الدراسة الثانوية بنجاح. وبالرغم من أن فلسفة إنشاء هذه المعاهد العليا كانت صائبة وكان الغرض تخريج مهندسين وفنيين فى مختلف الفروع قادرين على استيعاب وتطبيق التكنولوجيا والتطور وكان المقصود أن يكون فيها التعليم فى معظمة تطبيقياً وعملياً إلا أن هذه الفكرة وئدت وحولت المعاهد إلى كليات وأنشأت جامعة حلوان لتضم معظم هذه المعاهد تحت لوائها، وكان هذا خطأ حكومياً اتخذ بدون دراسة فقضى على نوعية هامة من التعليم خطط لها بدراسة كبيرة وتم التنفيذ ولكن كالعادة أهدرت الفكرة ببساطة.

وهناك طرق مختلفة متاحة أمام الحكومة لخصخصة التعليم الجامعى:

١- إعادة نظام دفع مصاريف دراسية كاملة مقابل خدمة التعليم الجامعى لجميع الطلبة ويعنى ذلك إلغاء المجانية بالكامل.

٢- دفع مصاريف دراسية للطلبة كلهم مع إعفاء المتفوقين.

٣- تخصيص نسبة من الطلبة الذين يدخلون الجامعة بالمصاريف وهو ما تسميه الحكومة بالتعليم الموازى مع استمرار التعليم المجانى لبقية الطلاب.

٤- إنشاء جامعات حكومية جديدة بالمصاريف لجميع طلبتها وترك الجامعات الحكومية كما هى بالمجان.

٥- تشجيع القطاع الخاص على التوسع فى إنشاء الجامعات الخاصة وتقليص الجامعات الحكومية المجانية.

قبل أن نبدأ الحديث عن فلسفة التعليم بالمصاريف والتى يتحدث عنها الجميع من رجال الدولة وأصحاب المناصب العليا الذين يديرون الجامعات الحكومية فى مصر يجب أن نعرف أن ما يقال فى كل مكان الآن من أن التعليم بالمجان قد ولى عهده فى العالم وأن الدنيا كلها يتم التعليم فيها بالمصاريف هو كلام غير صحيح وغير دقيق وحقيقة الأمر أن التعليم الجامعى المجانى هو سمة هذا العصر فى معظم دول أوروبا الغربية بدءاً من الدول الاسكندنافية شمالاً مروراً بألمانيا ودول البنيلوكس (هولانده وبلجيكا ولكسمبرج) ثم فرنسا وغيرها، كل هذه الدول تعطى فرصة التعليم الجامعى بالمجان لأبنائها وبالإضافة إلى ذلك تعطى هذه الدول جميعاً قروضاً لأبنائها حتى يصرفوا على معيشتهم خلال فترة الدراسة وذلك بالإضافة إلى ما يكسبونه من العمل فى الأجازة الصيفية. وبالطبع أوروبا الشرقية والتى كانت شيوعية حتى عهد قريب مازال التعليم فيها بالمجان.

أما عن الولايات المتحدة مثلنا الأعلى فى التعليم وفى كل شىء فى الحياة الآن والتى يريدون أن نقتدى بها فصحيح أن الدراسة الجامعية بها تكلف مبالغ طائلة ولكن لا يوجد أمريكى واحد يريد التعلم فى الجامعة ويتميز بالجدية والتفوق لا يجد مكاناً عن طريق منحة أو مساعدة أو العمل فى الصيف وحتى أثناء الدراسة، فظروف المجتمع الأمريكى المفتوح تسمح بطرق مختلفة للطالب الفقير المجتهد أن يدخل الجامعة ويتخرج منها بل إن أمريكا تفخر دائماً بأن الفرصة موجودة للجميع والطريق ممهد لمن يثابر ويثبت كفاءته. ويذكر الجميع أن الرئيس الأمريكى السابق كلينتون الذى كان يأتى من أصول اجتماعية متواضعة للغاية وظروف عائلية صعبة ومع ذلك لأنه كفء ومثابر استطاع دخول الجامعة وتخرج منها بدون مشاكل بالرغم من أنه لم يكن يملك دفع مصاريف الجامعة.

إذاً فحكاية أنه لا يوجد تعليم مجانى فى العالم الآن مقولة تنقصها الدقة وعلى من يقولونها أن يتذكروا أن معظمهم لم يكن عندهم فرصة حقيقية فى التعليم العالى والوصول لمنصبه لو لم يكن التعليم العالى المجانى متاحاً لهم ولنتذكر ما كتبه دكتور رءوف عباس استاذ التاريخ حديثاً فى سيرته الذاتية عن فقره الشديد وعن عجزه عن دفع ثمانية عشر جنيهاً هى مصاريف كلية الآداب وحتى عدم قدرته على دفع مبلغ ثلاثة جنيهات بعد أن تم إعطاؤه المجانية له وإعفاؤه من المصاريف، ولو كان التعليم بالمصاريف لما كانت هناك فرصة لرءوف عباس وغيره من الكثيرين من الذين يتشدقون بإلغاء المجانية الآن.

نأتى الآن إلى مناقشة الطرق المختلفة المتاحة للحكومة لخصخصة التعليم والتى ذكرناها مسبقاً ومدى إمكانية تطبيقها فى الواقع العملى.

أولاً:

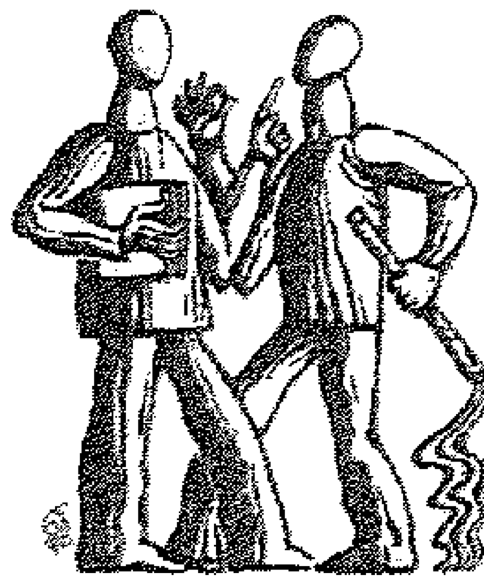
التعليم بالمصروفات وإلغاء المجانية

هو حل مستحيل تطبيقه من هذه الدولة المصرية الضعيفة المترهلة التى لا تستطيع أن تطلب من واضع أسئلة الثانوية العامة أن تكون أسئلته متدرجة فى الصعوبة، ليحتوى على السهل والوسط والصعب والأكثر صعوبة للتفرقة بين الطلاب وإعطاء فرصة لظهور المتفوقين بوضوح، وإذا وضع سؤال واحد صعب تعتذر الدولة عن ذلك ويصرح وزير التعليم فى الصحف والتليفزيون بأن هذا السؤال الصعب سوف تحذف درجاته، هذه الدولة التى ترفع أعداد الملتحقين بالجامعات كل عام حتى تستوعب الجامعات معظم الحاصلين على الثانوية العامة ضاربة عرض الحائط بإمكانيات الكليات المختلفة وبرأى الأساتذة والنقابات التى تخشى من تردى مستوى مزاولى المهنة بسبب عدم وجود فرصة لتدريبهم. هذه الدوله لم ولن ولا يمكن أن تقوم بإلغاء مجانية التعليم الجامعى خوفاً على مستقبلها ولذا فهذا الحل غير وارد ولا يمكن للدولة تطبيقه.

ثانياً:

الجامعة بمصاريف باستثناء المتفوقين

من المسلم به أن أى مصاريف تحددها الجامعة للقبول بها سوف تتناسب مع مستوى متوسط الدخل فى مصر فإذا طلبت الجامعة عدة آلاف من الجنيهات لدخول كلية التجارة أو الزراعة مثلاً فلن يتقدم أحد





منذ منتصف السبعينيات فتحت أبواب المدارس الأجنبية التى لا تدرس اللغة العربية ولا تاريخ مصر على مصراعيها أمام أولاد وبنات الأغنياء المصريين، وفى النهاية لا يستطيع معظم هؤلاء التلاميذ حتى كتابة أسمائهم بالعربية



وإذا خفضت المصاريف إلى بضع مئات من الجنيهات فى هذه الكليات فسوف يُحرم عدد كبير من الطلبة الذين لا يملكون هذه المئات من الالتحاق بالجامعة وفى نفس الوقت لن يكون العائد المادى من المصروفات القليلة مجزيا نسبيا حتى يضيف شيئاً ذا قيمة إلى إيرادات الجامعة. يبقى بعض كليات ما يسمى بالقمة مثل كلية الطب التى قد يتسابق الأغنياء على دفع مصروفات عالية لإدخال أبنائهم بها ولكن حيث إن المتفوقين سوف يعفون من المصاريف فمعنى ذلك أن جميع الطلبة سوف لا يدفعون شيئاً لأن أقل مجموع لدخول الطب يزيد عن تسعين بالمائة وقد يصل إلى أكثر من ذلك ويعنى أن كليات الطب والهندسة والصيدلة سوف تستمر مجانية ولن تحقق أية إيرادات للجامعة لأن الجميع متفوقون وبالتالى لن يفيد الدولة هذا الاقتراح فى شىء لأنه سوف ينتهى بجمع بضعة آلاف من الجنيهات من الكليات التى لا يقبل عليها الطلاب.

ثالثاً:

التعليم الموازى

هذا هو أحد الحلول التوفيقية التى وصلت إليها أفكار الإدارة الجامعية وهى أقوى وأهم الحلول من وجهة نظر الدولة وملخص الحل أن تستمر الجامعة كما هى بالتعليم المجانى والدخول عن طريق مكتب التنسيق حيث هناك تكافؤ للفرص بين المتقدمين على أن تخصص نسبة من الطلبة قيل أنها قد تكون عشرين بالمائة كبداية تدخل الجامعة بالمصروفات، أما طريقة اختيار هؤلاء الطلبة فلم يتم الاتفاق عليها. وهذا الحل فى تقديرى هو حل مأسوى للأسباب التالية:

أولاً: هل سوف يقبل الطلبة الأغنياء على هذا النوع من التعليم والإجابة نعم ولكن فقط فى كليات القمة أما باقى الكليات فلن يدفع أحد مصاريف ضخمة لدخول هذه الكليات وهذا يعنى أن أعداد الطلبة الذين سوف يدخلون بالمصاريف عن طريق التعليم الموازى سوف يكونون عدة مئات فى كليات القمة ولن تكون مساندتهم المادية إلا جزءاً ضئيلاً من ميزانية الجامعة.

ثانياً: ماهى طريقة اختيار هؤلاء الطلبة الدافعين للمصاريف: هل هى لمن يدفع أكثر أم هى أيضاً حسب المجموع للذين يريدون أن يدفعوا أم هى باختيارات شخصية وهو ما يعنى الوساطة ويصبح دخول كلية الطب مثل كلية الشرطة معتمداً على الوساطة والاتصالات الشخصية.

ثالثاً: هل سيجلس من يدفع بجوار من لا يدفع فى نفس المدرج ويتعلم على يد نفس الأستاذ أم سوف تخصص قاعات لمن يدفعون ويخصص لهم أساتذة بعينهم وهل سيتقاضى الأساتذة أجوراً إضافية عند التدريس للدافعين وهل سوف يحدث تكالب على التدريس لمن يدفعون وفى النهاية - هل سوف يدخل جميع الطلبة نفس الامتحان أم سوف يمتحن كل فريق على حدة.

هل يعلم السادة الحكام أن الاحتقان فى المجتمع الجامعى أصبح لا يطاق بسبب الفوارق الشاسعة بين الطبقات والفروق بين طالب يدخل الكلية راكباً سيارة ثمنها نصف مليون جنيه وطالب آخر لا يجد ثمن تذكرة الميكروباص أصبحت من الأمور العادية فى الجامعة وهل سوف نشعل الفتيل بأيدينا حين يشعر الطالب داخل نفس الكلية أن زميلاً له مميز عنه لأنه يدفع فيحدث الانفجار. ألا نفكر ولو للحظة فى السلام الاجتماعى فى هذا الوطن. لقد قرأنا أن التعليم الموازى قد تقرر بدؤه من هذا العام الدراسى ثم أجل الأمر فجأة فلا إقراره تمت دراسته ولا الغاؤه درس فهل لنا أن نفكر قليلاً قبل أن نقدم على كارثة محققة.

رابعاً: إنشاء جامعات حكومية جديدة على أن تكون جامعة خاصة بالمصاريف. هل عند الحكومة المصرية استثمارات إنشاء جامعة بالمصاريف، إن الخبراء الجامعيين يعلمون جيداً حجم الاستثمارات المطلوبة فى مثل هذا المشروع ولو تم حساب تكلفة المشروع وإضافته فى حساب المصاريف المطلوبة من الطالب سوف يكون مبلغاً فلكياً لا يستطيع إلا أقل القليل من المصريين دفع هذا المبلغ وهذه الفئة قادرة على إرسال أولادها إلى الخارج للتعليم وهذا يعنى أن أى جامعة حكومية خاصة لابد أن تكون مدعومة على الأقل بتكلفة الإنشاءات اللازمة.

أما إذا قررت الحكومة إنشاء جامعة حكومية خاصة قليلة التكاليف ومعدومة الإمكانيات على شاكلة الجامعات الخاصة الحالية فلماذا ننشئها أصلاً ولنترك التلاميذ يدخلون الجامعات الخاصة الحالية المحدودة الإمكانيات.

خامساً: هو تشجيع القطاع الخاص والدول الأجنبية على التوسع فى إنشاء الجامعات الخاصة.

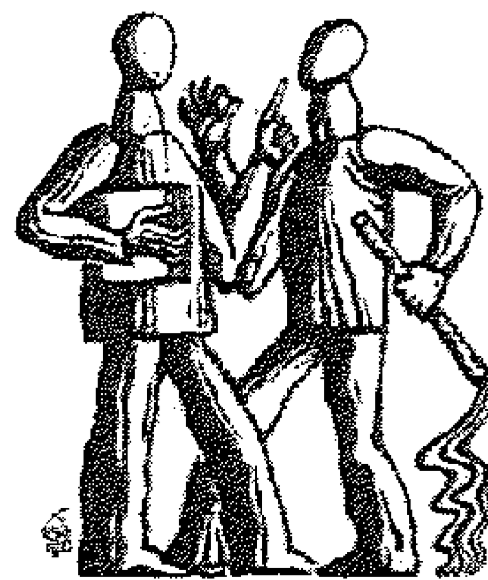
بالرغم من أن الجامعة المصرية التى أنشئت فى أوائل القرن العشرين كانت جامعة خاصة إلا أنها كانت فى حقيقة الأمر كلية للآداب فقط وحين أنشئت الجامعة المصرية الحكومية (فؤاد الأول - القاهرة) كانت أيضاً جامعة بالمصروفات ولكن كان الإعفاء من جزء من المصروفات أو كلها مفتوحاً على مصراعيه لغير القادرين. وبعد قيام الثورة ولمدة أكثر من نصف قرن أصبح التعليم الجامعى مجانياً فى جميع مراحل التعليم العالى بأنواعه المختلفة.

هناك فارق جوهرى بين الجامعات الخاصة التى أنشأها القطاع الخاص المصرى وبين الجامعات الخاصة فى كل العالم فالجامعة الخاصة فى الولايات المتحدة هى جامعة أنشئت بأموال عدد من كبار الرأسماليين الأمريكيين الذين تبرعوا بأموال ضخمة لإنشاء الجامعة وهذه الجامعة الخاصة تتلقى التبرعات والهبات غير المشروطة من الأغنياء وتتقاضى أيضاً مصروفات من الطلبة وفى النهاية حين تحقق الجامعة فائضاً (وهو لا يسمى ربحاً) فإنما يستثمر هذا الفائض فى تحسين المستوى العلمى للجامعة بإنشاء أقسام جديدة وشراء تجهيزات مستحدثة وتوظيف أساتذة مرموقين أى أن الأمر فى نهايته ليس فيه أرباح توزع على أحد وإنشاء الجامعة لم يكن مشروعاً استثمارياً وإنما هو مشروع حضارى لخدمة المجتمع. أما هنا فى مصر فإنشاء الجامعة الخاصة هو مشروع استثمارى الغرض منه تحقيق الربح. والفارق كبير بين الجامعة التى تريد تحقيق ربح للمستثمرين فهى تريد دائماً قبول أعداد أكبر من الطلبة وتوفر فى التكاليف بقدر الإمكان فى كل شىء كأى مشروع تجارى وقد تتنازل عن المستوى العلمى فى سبيل إغراء الطلبة بالالتحاق بالجامعة وقد تتبسط فى الامتحانات لتشجيع الآخرين على دخول الجامعة. وأعرف شخصياً من زملاء يمتحنون طلبة الجامعات الحكومية والخاصة ويقولون بأن الفارق فى المستوى رهيب ولن يكون لطلبة الجامعة الخاصة فرصة النجاح فى جامعة حكومية. فمما لا شك فيه هذه الجامعات تريد أن تجذب الطلبة ولكنها قد تتنازل بسهولة عن مستوى معين لأن الطالب يدفع المصاريف وهى تريد هذه الأموال.

الجامعات الخاصة الأجنبية

الجامعة الخاصة لا يجب أن تكون مجالاً للربح وإنما هى خاصة لأن الطالب يدفع مصاريف مقابل التعليم وهذا الشرط يتطبق على الجامعة الأمريكية والألمانية والفرنسية التى لا تربح أموالا وإنما تربح من وراء تعليم الطلبة الدعاية للدولة صاحبة الجامعة وتخرج شباباً متعلماً يدين بالولاء والانتماء لهذه الدولة.

والجامعة الأكبر والأقدم وهى الجامعة الأمريكية ازدهرت بعد بدء سياسة الانفتاح وتغير الموقف تماماً





كعادة الحكومة لم تكن عندها خطة واضحة لتنفيذ الخصخصة ولا تم طرح الموضوع على الجامعيين المهتمين وإنما تم عرضه على مجموعة من الأساتذة الموالين للحكومة المعروف عنهم مسبقاً تأييد الحكومة



وأقبلت أعداد كبيرة من المصريين على الالتحاق بها بسبب انخفاض المجموع المطلوب مقارنة بالجامعة المصرية. وبسبب تطور التعليم فى الجامعة الأمريكية بما يناسب حاجة العمل فى مصر وأصبح خريج الجامعة الأمريكية مدرباً للعمل فى البنوك والشركات التى أنشئت بعد الانفتاح والسبب الآخر هو وجود طبقة من الأثرياء المصريين الذين يعتقدون أن التعليم الجامعى لأولادهم يجب أن يتم فى الخارج أو على الأقل بعيداً عن زحام المصريين ولكننا يجب أن نعلم أن هذه الجامعات الخاصة بما فيها الأمريكية لا تؤهل لشهادة الدكتوراة وهى ليست مكاناً لتخريج الباحثين والعلماء والأكاديميين وإنما هى مكان لتعليم شباب مطلوب للعمل فى المؤسسات والشركات الأجنبية أما الخريج المميز المتفوق فإذا أراد تعليماً أعلى فعليه السفر للخارج للدراسة فى جامعة أجنبية للحصول على الدكتوراة، فكما هو معروف فإن التخرج من الجامعة فى النظام الأمريكى بعد ٤ سنوات من إنهاء الدراسة الثانوية لا يعنى أنك أنهيت الدراسة الجامعية وإنما هى إنهاء ما يسمى بالكوليج وبعد ذلك إذا قررت دراسة الطب أو الهندسة أو الحقوق أو الصيدلة أو الزراعة فعليك الالتحاق بهذه الكلية لتدرس عدداً آخر من السنوات قبل التخرج، ولكن معظم الطلبة بعد الحصول على درجة جامعية من الكوليج يلتحقون بسوق العمل ويتدربون على أعمال مختلفة. يعنى ذلك أن الدرجة الجامعية الأولى وبعض درجات الماجستير البسيطة من الجامعة الأمريكية لا تصلح أن تكون البناء الأساسى للتعليم الجامعى فى مصر.

ماذا تفعل الدولة للحفاظ على حقوق الشعب فى التعليم؟

١- ترشيد الإنفاق فى الدولة مما يوفر أموالا تصرف على التعليم الجامعة فهو مستقبل مصر.

٢- تشجيع البحث العلمى فى الجامعة حتى يستطيع أن يشارك فى زيادة الدخل الجامعى عن طريق بيع منتجة البحثى أو دراسته للمصانع والمتاجر والمشروعات الكبرى.

٣- التعليم المفتوح والتعليم عن بعد: وهى طرق تحقق إيرادات ودخل للجامعات وموجودة فى الجامعات الأوروبية والأمريكية، ولكن يجب أن تنفذ كما تقتضى الأصول المهنية لأن هذه الطرق تحتم وجود كتب خاصة وشرائط مسجلة وشرائط فيديو ومعلومات ترسل من الأستاذ للطلبة بطرق مختلفة من ضمنها الإنترنت، ويقتضى هذا النظام أولا تدريب أعضاء هيئة التدريس على تحضير هذه المادة العلمية التى تختلف عن المادة العلمية التى تدرس للطلبة المنتظمين. وبالطبع يمكن بسهولة أن يقوم أعضاء هيئة التدريس بهذه المهمة بالطرق السليمة، وبهذه الطريقة لا يضاف عبء جديد على الأماكن المزدحمة فى الكليات ولا يؤثر على تعليم الطلبة المنتظمين. ولكن ما حدث عند تطبيق التعليم المفتوح والتعليم عن بعد بسبب عدم الدراسة وسوء التنظيم فى إدارة الجامعة، بعد أن طبقت الجامعة نظام التعليم عن بعد. احتج الطلبة الذين اشتركوا فيه وطالبوا بالحضور مقابل المبالغ التى دفعوها للجامعة، فتحول التعليم المفتوح إلى نظام تم تسميته بالانتساب الموجه وتضاعف عدد الطلاب المنتظمين بعضهم يدفعون ولكنهم حاصلون على مجموع أقل. وهو تحايل قامت به إدارة الجامعة لإرضاء هؤلاء الطلبة الذين يدفعون مصروفات ولا يتم تعليمهم عن بعد كما اتفق عليه، وإنما عن قرب فى نفس أماكن الطلبة المنتظمين مما أدى إلى ازدحام كبير وفوضى جامعية بسبب نظام تلفيقى يسمح بدخول الطلبة إلى التعليم المنتظم دون الحصول على المجموع المطلوب تحت مسمى اخترعته إدارة الجامعة وهو الانتساب الموجه. ويجب إلغاء هذا النظام وتحويلة مرة أخرى إلى التعليم المفتوح أو التعليم عن بعد مع تدريب أعضاء هيئة التدريس على تجهيز المواد العلمية المساعدة اللازمة لهذا النظام. وسوف تحقق الجامعة نفس الإيراد وتقلل الازدحام وتحقق العدالة فى الدخول للجامعة بالمجموع. والفوضى التى نتجت عن تغيير التعليم المفتوح لما تمت تسميته بالانتساب الموجه سوف تتكرر إذا طبق نظام التعليم الموازى.

٤- إنشاء دراسات لتعليم اللغات وبرامج الكمبيوتر وغيرها من متطلبات العصر فى الفترة المسائية، وهو ما تطبقه الجامعة الأمريكية بنجاح ويمكن أن يزيد إيرادات الجامعة المصرية.

٥- تشجيع إنشاء جامعات خاصة تابعة لجامعات أجنبية ذات سمعة عالية ويمكن أن تشمل جميع الكليات بما فيها كليات القمة لأن صمام الأمان هو ضمان تخريج دفعات على المستوى المطلوب لعدم وجود حافز الربح.

٦ إذا اضطرت الدولة إلى الموافقة على إنشاء جامعات خاصة تؤسس كمشروع استثمارى غرضه الأول هو الربح، فعلى الأقل يجب أن تشترط عدم الموافقة على جامعات بها كليات طب وهندسة وصيدلة وطب أسنان للأسباب التالية:

أ. هذه المهن مسئولة مباشرة عن صحة المواطن أو الأسس الهندسية للمشروعات القومية ويجب أن تتأكد الدولة من مستوى خريجى هذه الكليات حتى لا يكون الربح عاملاً فى قبول أو تخرج طالب دون المستوى.

ب. هذه المهن بها فائض من خريجى الجامعات الحكومية والتى يلزمها التدريب وليس زيادة الأعداد.

ج. هذه الكليات هى التى تهم الجامعة الخاصة لأنها تحقق أعلى ربحية لها وهذه الكليات مستعدة للتنازل عن المستوى المطلوب طبقاً لقوانين السوق وليس حسب القواعد الجامعية.



من المستحيل أن ترفع الدولة يدها عن تمويل التعليم الجامعى مع السيطرة عليه فعدم دعم التعليم لابد أن يستلزمه ترك الحرية للجامعات لاختيار الأساتذة الأكفاء والاستغناء عن البيروقراطيين من الحكوميين وأيضاً يجب ترك الحرية للطلاب لتكوين اتحاداتها بالانتخاب الحر كجزء من هذا التفكير. ولا يمكن أن تتبع نظام التعليم الأمريكى فى ظل نظام سياسى واجتماعى ذى سلطة مركزية شديدة تتحكم فى كل شىء فأول مبادىء التعليم الجامعى الأمريكى الخاص هو الحرية الكاملة لكل جامعة بما فيها أساتذتها وطلابها. ولن يستطيع النظام المصرى تحجيم النشاط السياسى والثقافى للأساتذة والطلاب كما يحدث الآن فى نظام يتحكم فيه القطاع الخاص والطالب الذى يدفع مصروفات مقابل تعليمه، وهذا ما لا يمكن أن يسمح به النظام الحالى فى مصر.

من هذه الدراسة البسيطة يتضح أن هناك حاجة فى زيادة عدد الطلبة الذين يرغبون فى الالتحاق بالجامعة ونعلم أيضاً أن الموارد محدودة بسبب الظروف الاقتصادية الصعبة ولكن محاولة حل هذه الإشكالية بإلغاء التعليم الجامعى المجانى لن يزيد الإيرادات كما نتخيل أو نتوقع للأسباب التى ذكرتها ولن يحل إلغاء المجانية هذه الإشكالية وإذا كانت الدولة غير قادرة فعلا على إتاحة التعليم الجامعى لمن يريد وإذا وجد أن ذلك مستحيل فلتقلل من أعداد طلاب الجامعات على أن تكون الأولوية للمتفوقين حسب مجموع الثانوية العامة وليس حسب ما يملكه آباء هؤلاء الطلبة من أموال. ويترك القطاع الخاص للأغنياء الذين لا يؤهلهم مستواهم العلمى لدخول الجامعة الحكومية على أن لا تحتوى الجامعات الخاصة على كليات جامعية مما يسمى بكليات القمة إلا فى جامعات أجنبية لا يكون الهدف منها الربح للمساهمين مثل الجامعات الأمريكية والألمانية والفرنسية والبريطانية وأية جامعة مصرية لا يكون هدفها الربح. ■





ما يقال فى كل مكان من أن التعليم بالمجان ولى عهده وأن الدنيا كلها يتم التعليم فيها بالمصاريف هو كلام غير صحيح وحقيقة الأمر أن التعليم الجامعى المجانى هو سمة هذا العصر



«ولاد ناس»..!

سوق العمالة فى مصر



غادة برسوم

تناقش هذه الدراسة - وهى جزء من رسالة ماجستير قدمت فى الجامعة الأمريكية قسم الأنثروبولوجيا ونشرت حديثا - أزمة عمالة الخريجات فى الأعمال الإدارية فى مصر. وتبين الدراسة أن سوق العمل للخريجات تعطى الأولوية لمن يتقن اللغات الأجنبية ويتحلين بسلوكيات الصفوة - من وصفهن أصحاب الأعمال وشركات التوظيف بأنهن «أولاد ناس» أو بالأحرى «بنات ناس». تناقش هذه الدراسة هذا التركيب الثقافى المسمى بـ «بنات الناس» ودوره المعقد فى استبعاد فئة ليست بقليلة من الخريجات اللاتى لا يملكن مواصفاته. حيث تضع هذه المفاضلة الخريجات اللاتى لا يمتلكن هذه المواصفات فى موقف خاسر لأنها تستبعدهن من الوظائف المميزة فى مجال العمل الإدارى. وتفيد الدراسات الإحصائية أن الوظائف الإدارية أحد أهم أربعة مجالات لعمل المرأة فى مصر وهى الأعمال الإدارية، البيع، العمل بأجر فى المنازل والتدريس. وبسبب ندرة فرص العمل فى القطاع الخاص وقلة التعيين فى القطاع العام فإن عدد الخريجين قد فاق الطلب مما خلق بيئة تنافسية تحصل فيها الخريجات اللاتى يملكن هذه الصفات على الوظائف المتميزة بينما يتم استبعاد الأخريات.

ومن هنا تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على هذا الاستبعاد وتوضيح كيفية تعامل الخريجات مع الاختيارات المتاحة لهن باختيار أفضل ما يناسبهن من فرص العمل المتاحة. كما تبين أيضا مسئولية نظام التعليم عن هذا الاستبعاد بسبب الفجوة المعرفية بين كل من التعليم العام والخاص وبالأخص فى ربط فرص تعلم اللغات الأجنبية بالتعليم الخاص والذى يرتبط بدوره بالمستوى الاقتصادى لأسرة الخريجة.

وفى ظل عدم القدرة على إيجاد وظيفة مناسبة فى شركة كبيرة يبقى للخريجة التى لا تمتلك مواصفات «بنت الناس» إما أن تقنع بوظيفة متواضعة أو أن «تحترم نفسها وتقعد فى المنزل»، كما تقول إحدى الخريجات، حيث إنه عادة ما تنطوى هذه الوظيفة على مرتب ضئيل وساعات عمل طويلة ناهيك عن الخوف من التحرش الجنسى نظراً لأن غالبية هذه الوظائف تكون فى قطاع الأعمال الصغيرة أو المتناهية الصغر والتى توظف عدداً قليلاً من الموظفين.

أما أمل الخريجات اللاتى شملتهن الدراسة واللاتى يتم استبعادهن فهو العمل فى القطاع الحكومى أو العام وهو حلم صعب المنال نظراً لتخلى الحكومة عن سياسة الستينيات فى تشغيل الخريجين.

تتبع الدراسة المنهج البحثى الكيفى المعتاد فى الأنثروبولوجى حيث تعتمد على مقابلات مطولة مع بعض الخريجات إلى جانب بعض أصحاب الأعمال ومكاتب التوظيف ومدرسين ومسئولين عن التوظيف فى الجهات الحكومية. كما تحتوى على بيانات عن سوق العمل والتعليم فى مصر من الجهات المختصة لتضع الدراسة فى إطار المناخ الاقتصادى والاجتماعى العام.

■■ حينما سألت شركات التوظيف وبعض أصحاب الأعمال عن مواصفات الموظفة المثالية كانت هذه بعض الآراء:

«أهم حاجة إنجليزى كويس وكومبيوتر كويس ومظهر رائع والأهم من كده تكون بنت ناس». «تكون خريجة الجامعة الأمريكية وبتتكلم إنجليزى كويس». «حسنة المظهر، تعرف ازاى تتكلم، لبسها كويس، و مش مهم إيه شهادتها».

The Employment Crisis of Female Graduates in Egypt:
An Ethnographic Account
(أزمة عمالة الخريجات فى مصر.. دراسة أثنوجرافية)
Edited by: Ghada F. Barsoum
Cairo - AUC Press, 120pp., 2002

ترجمة: إنجى غنام

وفيما يلى سأقوم بتحليل هذه المعايير التى تمثل القواعد الأساسية لعمليات الاستبعاد للخريجات الأقل حظا. كما أن هذه المعايير بها تحيز طبقى حيث إنها تركز على رأس المال الثقافى والرمزى للطبقات الأكثر تمييزا (كما يناقش ذلك المفكر الفرنسى بيير بوردو فى دراسته للمجتمع الفرنسى ١٩٨٤).

إنجليزى كويس

الصفة الأولى للمرشحة هى إتقان اللغة الإنجليزية بشكل جيد. لاحظ Altbach (١٩٨٧) أن اللغة الأجنبية lingua franca فى دول العالم الثالث فيما بعد الاستعمار، وهى الإنجليزية فى حالة مصر، هى لغة المعرفة والقوة. كذلك تؤكد Haeri (١٩٩٧) نفس الفكرة مستندة على عملها الميدانى فى مصر. وتركز Haeri على مشكلة فرق القوة بين مختلف أنواع رأس المال اللغوى فى مصر مشيرة إلى دور المؤسسات التعليمية فى تثبيت قيمة أعلى للقدرة على التحدث باللغات الأجنبية فى مصر. فاللغات الأجنبية، متضمنة الإنجليزية، هى رأس مال نادر بين جموع الخريجين. فهى رأس مال يصعب الحصول عليه بالنسبة إلى أغلبية الخريجين الذين تخرجوا من مدارس «عادية»، وهو الاسم الذى يعطى - بشكل مبرر - إلى المدارس التى لا تُدرس فيها اللغات الأجنبية بتركيز. وتضم هذه المدارس أكثر من ٩٧ ٪ من طلاب المدرسة الابتدائية كما تشير إحصاءات وزارة التربية والتعليم (١٩٩٨ MoE). هذه الطبيعة المزدوجة لنظام التعليم فى مصر تزيد من ندرة و بالتالى رفع قيمة رأس مال القدرة على التحدث بالإنجليزية أو بأى لغات أجنبية.

علاوة على ذلك، فى عالم العمل، فإن شركات القطاع الخاص - التى تعتبر المصدر الرئيسى للتوظيف بعد شبه التعليق الكامل للتوظيف الحكومى - يجب أن تجاهد لكى تتنافس فى عصر اقتصاد العولمة. والإنجليزية، اللغة العالمية للمال، هى بالتأكيد ضرورية. وكما أوضحت مقابلاتى مع وكلاء التوظيف وأرباب الأعمال، فإن الثقافة المشتركة للكثير من الشركات الكبرى فى مصر هى فى الغالب إنجليزية. المذكرات والمراسلات الداخلية فى المكاتب - حتى فى بعض الشركات المصرية تماما بدون شريك أجنبى- تكون باللغة الإنجليزية. حتى المحادثات غير الرسمية بين بعض الزملاء فى هذه الشركات تكون بالإنجليزية، مع وجود



بعض الكلمات العربية، أو العكس بالعكس.

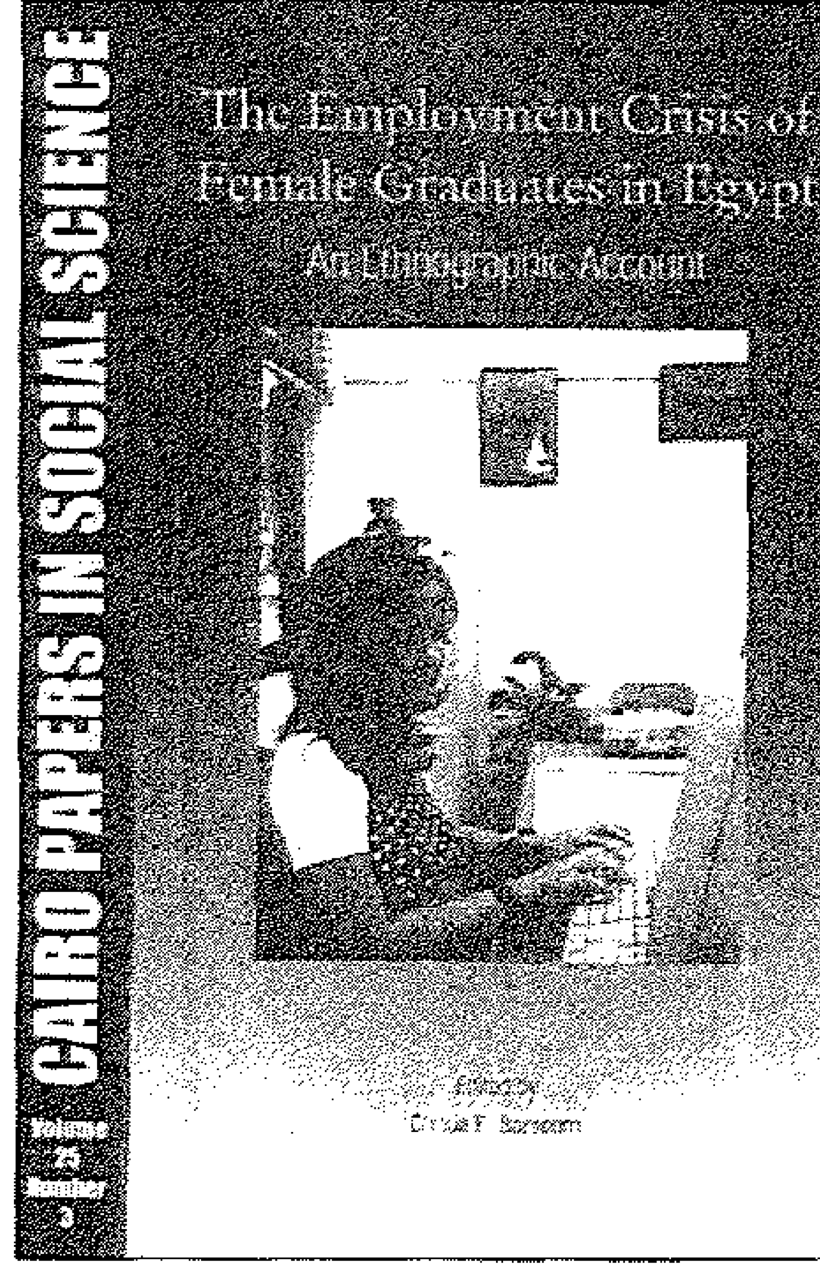
إتقان اللغة الإنجليزية هو رأس مال ثقافي متاح فقط لأولئك الذين ينتمون للطبقات المتميزة لذا فهو مؤشر مباشر عن الخلفية الاجتماعية. لذا تعلق إحدى موظفات شركة توظيف بأن:

الإنجليزي ضروري، حتى إذا لم تكن الوظيفة تتطلبه، فهو دليل على أن المرشح «راقي» (فبراير ١٩٩٩).

كما تشير المقابلات أنه ليس فقط المهم القدرة على فهم الإنجليزية والتواصل بها. فإن مستوى البراعة في استخدام اللغة الإنجليزية عند المرشح يتم تقييمها بطرق مختلفة. إحدى وكيلات التوظيف حدثتني عن مرشحة تم إرسالها إلى شركة نفط (معروف عنها ارتفاع مرتباتها) قبل أن تقوم هي شخصيا بإجراء مقابلة معها. وهذه المرشحة تم رفضها من الشركة. تضيف الوكيلة أنها عندما قابلت مديرة الوكالة المرشحة بنفسها، «أيقنت المشكلة». المشكلة كانت في طريقة نطق الباحثة عن الوظيفة لبعض الأصوات الإنجليزية والتي عكست قدراتها اللغوية المحدودة. كانت المشكلة في نطقها كلمة «that» بشكل مشابه لكلمة «zat» تشمل مشاكل النطق أيضا التشويش في نطق حرفي الـ «b» و«p» ولهذا السبب، رأت شركة النفط أن المرشحة ليست كفؤا. فالمستوى المطلوب من اللغة الإنجليزية أن تكون خالية من اللكنة المعربة. فليست الطلاقة هي ما يُهم فقط، إنما هي طلاقة باللهجة «الصحيحة». فاللهجة «الصحيحة» تفرق بين الـ «b» والـ «p» وتفرق بوضوح بين صوت الـ «s» والـ «z» والـ «th» بطرق نطقها المختلفة.

أن تكون المرشحة للوظيفة قادرة على النطق بلهجة «صحيحة» هي في الواقع سلعة نادرة في مصر. فالمدارس «العادية» لا تدرب طلابها على ذلك. وفي حالات كثيرة، فإن المدرسين أنفسهم قد يواجهون مشاكل في التفريق بين الأصوات اللغوية السابقة الذكر كما قال لي أحد المدرسين. فامتلاك اللهجة «الصحيحة» متوقف على ارتياد المدارس الخاصة التي تضع أهمية كبيرة ليس فقط على النحو والمعجم ولكن أيضا على طريقة نطق تلاميذها. والمدرسة التي تعين مدرسا لغته الأم هي الإنجليزية ستكون بالتأكيد أفضل. وفي هذه الحالة، فإن مصاريف الدراسة سوف تعكس ضرورة تغطية راتب مدرس مغترب.

إن مهارات الكتابة بالإنجليزية، بالإضافة إلى النطق، هي أيضا مهمة فالتركيبة الصحيحة للجمل والقدرات





تعتقد حنان
بأن رب عمل يجب أن
يعينها، ثم
يقدم لها الفرصة للحصول
على تدريب
الحاسوب، وربما أيضا أن
يقوم بتمويل
هذا التدريب. ولكن في
سوق عمالة
به فائض من الخريجين
مثل حنان،
هذه ليست طريقة توظيف
سهلة المنال





النحوية أشياء أساسية. تعلق على ذلك إحدى موظفات شركة توظيف قائلة:

«عندما يكون رب العمل لا يتكلم الإنجليزية، فهو يحتاج إلى سكرتيرة لتصحيح اللغة الإنجليزية في الرسائل المكتوبة. وإذا كان يجيد الإنجليزية، فهو لا يريد تضييع وقته في تصحيح ما تكتبه هي. وفي الحالتين، فإن إتقان اللغة الإنجليزية مطلوب في السكرتيرة».

من الصعب إخفاء عدم القدرة على التحدث باللغة الإنجليزية أو ادعاء العكس بالنسبة للمتقدمة للوظيفة. فمقابلة العمل تجرى في معظم الأحيان باللغة الإنجليزية. وحتى السيرة الذاتية، التي عادة ما يتم إرسالها قبل تحديد موعد المقابلة، يجب أن تكون باللغة الإنجليزية. وبالطبع السيرة الذاتية يجب أن تكون خالية من الأخطاء اللغوية أو النحوية. ولقد سمح لي برؤية العديد من السير الذاتية في إحدى شركات التوظيف وفي أثناء تصفحي لها كانت موظفة الشركة تشير إلى الأخطاء اللغوية أو النحوية الموجودة في أي سيرة ذاتية تقابلها.

لا تزال هناك فرصة أن تجد شركة التوظيف وظيفة لسكرتيرة لا تتكلم الإنجليزية، ولكن المرشحة للوظيفة يجب أن تكون:

«حركة وتعمل بقوة الـ monkey work. مش معنى كده أن موضوع الإنجليزي انتهى. لازم برضه تعرف ولو شوية إنجليزي».

فعدم امتلاك المرشحة للغة الإنجليزية «السليمة» قد يتم تحمله في هذه المرحلة، ولكن المرشحة مازال متوقعا منها أن تكون قادرة على فهم وقراءة المراسلات المكتوبة باللغة الإنجليزية. وبالرغم من ذلك، سيكون عليها أن تعوض انخفاض مستوى إتقانها للغة عن طريق القيام بـ «monkey work» كما قالت محدثتي باللغة الإنجليزية مشيرة إلى الأعمال الروتينية الشاقة. و الراتب سوف يعكس بالتأكيد هذا النقص أيضا. دلال، خريجة ذات مستوى ضعيف جدا في الإنجليزية تقول: «إذا كنت لا تعرف الإنجليزية، فكأنما لا تعرف القراءة والكتابة». وهي تشير هنا للقدرة على القراءة والكتابة باللغة العربية. إن الإلمام باللغة الإنجليزية - بالنسبة لثقافة أي شركة كبيرة - له قيمة كقيمة الإلمام بأساسيات القراءة والكتابة.

ولذا فإن قيمة القدرة على التحدث بالإنجليزية تتجاوز استعمالها العملي. اللغات الأجنبية هي مثال جيد يوضح كيف أن رأس المال الثقافي أو اللغوي يمكن أن يتبادلا برأس المال الاقتصادي كما يقول المفكر الفرنسي بيير بورديو.

فاللغة الإنجليزية تمثل جواز سفر إلى عالم الوظائف المريحة. وأولئك الذين لا يمتلكون رأس المال هذا يتم استبعادهم من هذا العالم.

كمبيوتر كويس

باستثناء خريجي المعاهد المتخصصة في علوم الحاسبات فإن المؤسسات التعليمية العليا في مصر لا تؤهل الخريجين والخريجات على العمل بالكمبيوتر. لذا، فإن أغلب هؤلاء الخريجين يجهلون التعامل مع الكومبيوتر إلا في حالة ما إذا وفرت العائلة تدريبا على الكمبيوتر وهو وضع لا يتأتى لكل الخريجين خاصة من يأتون من عائلات محدودة الدخل. كذلك بعض الجامعات الخاصة المرتفعة التكاليف توفر لطلابها التدريب على الكمبيوتر.

ولكن مهارات الكمبيوتر التي تحتاجها وظيفة السكرتارية لا تتطلب الحصول على درجة متخصصة في علم الحاسبات. فإن دورتين تدريبيتين قصيرتين (لمدة ثلاثة أشهر) قد تكفيان. ولكن هذه الدورات كما علمت من المقابلات مع بعض الخريجات القادمات من عائلات محدودة الدخل ليست متيسرة للجميع. فبالإضافة إلى تكلفتها النسبية، فإن العديد ممن قابلتهن لا يعرفن أي دورات يحتجن لتعلم علوم الحاسوب. حنان، وكانت متعطلة وتبحث عن العمل وقت المقابلة، أخذت دروس كمبيوتر. ولأنها لا تعرف أي مواد يجب أن تدرس، فلقد بدأت بـ DOS والمقدمة إلى Windows. و لدراسة هاتين المادتين، دفعت ١٨٠ جنيها. وبما أن راتب والدها هو ٣٥٠ جنيها بالشهر، فإن المبلغ الذي دفعته هو بمثابة ثروة. ورغم ذلك، فإنه لكي تكون مؤهلة للعمل كسكرتيرة، يجب أن تكون على معرفة ببرنامج معالجة الكلمات وربما أيضا برنامج إدارة قاعدة البيانات أو برامج الجدولة. هذه المعلومة لم تكن متوافرة لحنان. فقد ذهبت إلى مركز تدريب الكمبيوتر قائلة «أريد تعلم الكمبيوتر». والمركز لا يمكن أن يلام على إعطائها فصولا تمهيدية، ففي النهاية هذا هو ما طلبته.

حنان لم تأخذ أي دورات حاسوب أخرى، و هي تؤكد، مثلها مثل العديد من الخريجات، أنها حتى إذا أخذت دورات أخرى، فستنسى ما ستتعلمه إذا لم تجد وظيفة لكي تمارس ما تتعلمه. لذا، أوقفت حنان عملية التدريب واكتفت بهاتين الدورتين التدريبيتين. فالموقف المثالي، كما تقول، هو أن تجد وظيفة، تعرف

متطلباتها فيما يخص الحاسوب، وبعد ذلك تأخذ الدورات المطلوبة. ولكن، هذا ليس ممكنا لأنها لن يتم تعيينها مالم تكن تمتلك متطلبات العمل فيما يخص مهارات الكمبيوتر. إنها معضلة دائرية.

تعتقد حنان بأنّ ربّ عمل يجب أن يعينها، ثم يقدم لها الفرصة للحصول على تدريب الحاسوب، وربما أيضا أن يقوم بتمويل هذا التدريب. ولكن في سوق عمالة بها فائض من الخريجين مثل حنان، هذه ليست طريقة توظيف سهلة المنال. بالإضافة إلى ذلك، فإن أصحاب الأعمال يريدون شخصا مستعداً للبدء بالعمل من اليوم الأول.

وعلى أية حال، فإن مهارات الحاسوب ليست كافية وحدها. ليلى، تخرجت من معهد علوم الحاسبات بعد دراسة أربع سنوات؛ وليس لديها أي مشكلة في استخدام برنامج معالجة الكلمات وبرنامج الجدولة. رغم ذلك، فإن كونها تعيش في منطقة فقيرة مثل المرج وكونها ابنة موظف بسيط في القطاع العام ولأنها غير قادرة على التحدث بالإنجليزية، كل هذا لم يسمح لها بأكثر من وظيفة في مكتب صغير في مدينة نصر بمرتب ٢٠٠ جنيه بالشهر. و قد اضطرت أن تترك عملها هذا بعد سنتين لأنها لم تستطع أن تتحمل كمية العمل و ساعات العمل الطويلة والمرتب المنخفض جدا الذى يتضاءل بشكل أكبر بسبب نفقات المواصلات.

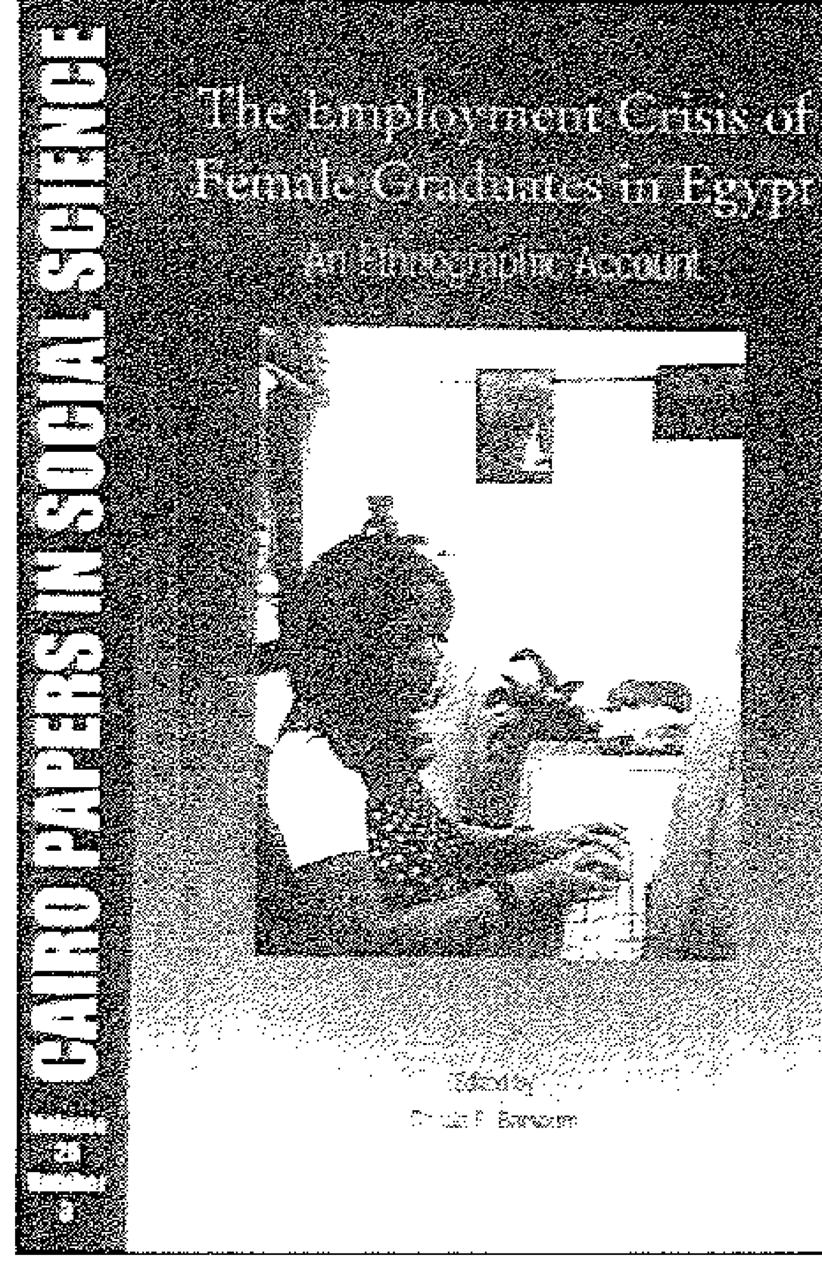
على الرغم من أن الكفاءة في استخدام الحاسوب هي شكل من أشكال رأس المال فإنه أقل أهمية من إتقان اللغات الأجنبية. أحد أسباب ذلك هو أن تعلم الحاسوب لا يتطلب التدريب في عمر مبكر. لذا، فتعلمه ليس متوقفا على أن ينتمى الشخص إلى خلفية اجتماعية محددة. فهذه المهارة يمكن أن تحصل عليها عن طريق أخذ عدد من الدورات أو عن طريق التخرج من معهد كمبيوتر، الذى لا يتطلب الالتحاق به الحصول على مجموع كبير في الثانوية العامة. في الحقيقة، لو كانت حنان أكثر صبرا، كان يمكن أن تحصل على رأس المال هذا بدورتين تدريبيتين أخريين. كون تعلم الحاسوب سهل الحصول بالنسبة لعدد كبير من الناس جعله ليس نادرا كاللغات. لذا، لم يكن الحاسوب رأس مال كافيا ليجعل ليلى تستطيع الحصول على وظيفة في شركة بمرتب كبير. فإنه ليس من النادر للشركات التى تدفع مرتبات كبيرة بشكل ما أن تعين سكرتيرات يملكن القليل - أو لا يملكن أساسا - مهارات كومبيوتر. فكرة حنان في إيجاد ربّ عمل يعينها وبعد ذلك يدربها، هي في الحقيقة ليست نادرة الحدوث في مجال الوظائف كما يؤكد وكلاء التوظيف. ولكن وظيفة الأحلام التى تريدها حنان متاحة فقط للخريجات اللاتى تنطبق عليهن المعايير الأخرى الأكثر أهمية من حيث القدرات اللغوية والمظهر كما يوضح الجزء القادم.

مـظـهـر رائــــع

إن مظهر الإنسان وجسمه يعكسان رسائل صامتة عن أسلوب حياته وعن العادات التى اكتسبها من عائلته فالميول التى يتلقنها الشخص وأصبحت راسخة في شخصيته منذ الطفولة تنعكس على المظهر (Bourdieu, 1993) ولهذا، فكما أنه من الصعب جداً أن يستطيع شخص ما إخفاء عيوب لغوية، فإن المظهر يستطيع أن يعكس رسائل صامتة حول خلفية مرشح ما من الصعب التهرب منها.

ومعيار المظهر يشتمل على امتلاك طالبة الوظيفة أسلوب التأنق «الصحيح» وطريقة الماكياج «الصحيحة». وكلاء التوظيف يقولون أنهم يجب أن يقوموا بإجراء «كشف هيئة»، وهو مجاز استعير من الجيش حيث يقوم أطباء الجيش بالكشف الطبى على المنضمين الجدد ليحددوا إذا كانوا لائقين. وكشف الهيئة يبدأ بنوعية ما ترتديه المرشحة. وأسلوب اللبس «الصحيح» هو أسلوب الصفوة. فهيئة المرشحة يجب أن تظهر أنها تنتمى لخلفية اجتماعية جيدة فكما يقول وكلاء التوظيف وأصحاب الأعمال. السكرتيرة هي «صورة» الشركة وهذه الصورة يجب أن تكون ذات مستوى راق.

وقد تستطيع المرشحة الحصول على ملابس غالية الثمن عن طريق ادخار أو اقتراض المال، ولكنها لا تستطيع خداع أصحاب الأعمال ووكلاء التوظيف الذين ينتمون عادة إلى الطبقات الاجتماعية المتوسطة العليا أو العليا. فيما يخص خلفيتها الاجتماعية إذا كانت من خلفية متواضعة. لذا فهم يشيرون إلى هؤلاء المرشحات اللاتى يأتين مرتديات «أحذية سوداء وحقائب بيضاء» ويضعن «طلاء أظافر ممحوا أو غير متناسق»، ويلبسن جوارب مقطوعة أو سائبة و تكون شعورهن «مصبوغة باللون الأصفر ولكن مهملة لينمو اللون الأسود الأصلى في الجذور، مما يتناقض مع لون الأطراف المصبوغة أصفر سابقا. وكل هذه الأشياء هي دقيقة للغاية وقد تمر دون أن تلاحظ من قبل شخص غير قادم من نفس الخلفية الاجتماعية. وقد ذكروا أيضا ارتداء الملابس بشكل مبالغ فيه كمشكلة أساسية في بعض الخريجات من





أن تكون المرشحة للوظيفة قادرة على النطق بلهجة «صحيحة» هي في الواقع سلعة نادرة في مصـــر. فالمدارس «العادية» لا تدرب طلابها على ذلك. وفي حالات كثيرة، فإن المدرسين أنفسهم قد يواجهون مشاكل في التفريق بيـــــن الأصـــوات اللغوية





الطبقات الفقيرة وهذا يشمل اختيار ألوان قوية مثل الأحمر والأصفر بالإضافة إلى وضع مساحيق التجميل بشكل مبالغ فيه. وملاحظة هذه الأشياء هو أمر في غاية الدقة. ولكنها أشياء تشير إلى امتلاك الموظفة الذوق والأسلوب الصحيحين ومعرفة ماذا يجب أن يرتدى في موقف معين.

ومطلب المظهر المناسب لا يشمل أسلوب اللبس والماكياج فقط. فالمرشحة السمينة تعكس رسالة أنها «مبهدلة» وأثناء حضورى مناقشة بين الموظفين في إحدى شركات التوظيف حول إرسال إحدى المرشحات إلى إحدى الشركات سمعت الآتى:

الموظفة الأولى: لماذا لا نرسل لهم (اسم الشركة) هالة؟

الموظفة الثانية: آه ديه كويسه - لأ لأ دى تخينة قوى.

ففي النهاية، السكرتيرة هي صورة الشركة. والصورة يجب أن تمتلك مظهراً رائعاً. السكرتيرة يجب أن تكون «حلوة وتفتح النفس». وهذا التعبير يستخدم بكثرة في مصر للإشارة إلى أى شيء ذى صورة جذابة والمجاز هنا ليس بالضرورة جنسياً رغم أنه يمكن أن يحمل دلالة جنسية. وهذا التعليق جاء على لسان عميل واصفا ما يريده في الموظفة المطلوبة.

وفي مقابلة التعبير «تفتح النفس»، فإن المرشحات من الطبقات الفقيرة متهمات بأنهن «ما بيستحموش» ويعانين من رائحة العرق. سوء رائحة الجسم هي شكوى تتكرر كثيراً.

دلال خريجة معهد سنتين تعيش في شقة في مبنى من مساكن الإيواء، وفي هذه الشقة، يوجد حمام صغير ليس به ماء ساخن يستخدمه أفراد العائلة السبعة. إن جو مصر الحار يستلزم الاستحمام بانتظام واستخدام مزيل العرق لمحاربة رائحة العرق، ومثل هذه المعلومات لم تتعلمها دلال في المدرسة التى درست بها، وعليه فهى تشترى الملابس التى تستطيع دفع ثمنها وكذلك تضع المساحيق التى تستطيع تحمل ثمنها ورغم ذلك فشلت في ملاحظة هذه المشكلة.

ويشمل معيار المظهر «الرائع» ما تضيفه إحدى صاحبات شركات التوظيف:

«عندما أعين يجب أن تكون المرشحة تمتلك: إنجليزى كويس، شكلها كويس من عيلة كويسة، واحدة شكلها زى الأجانب والأحسن تكون نص خواجاية» (فبراير ١٩٩٩).

والأجانب هنا لا تشمل من هم من أصل آسيوى أو

أفريقى. فهى تعنى بالتحديد أن يبدو الشخص مثل الأوروبيين أو الأمريكان (جنس قوقازى). و«النص خواجاية» تكون مثالية إذا:

أ - كان عندها لكنة انجليزية غير معربة.

ب - يتحقق فيها معيار «المظهر الرائع» عن طريق امتلاك بشرة فاتحة.

ج - وتعطى الانطباع أن المكان الذى تعمل فيه هو شركة كبيرة قادرة على دفع مرتب عال إلى أجنبى فعلى عكس ما يحدث فى دول الشمال حيث يتقاضى الأجانب خاصة هؤلاء الذين لا يمتلكون تصاريح عمل أقل الأجور فإن الأجانب القادمين من الشمال يتقاضون أجورا عالية لمجرد أنهم أجانب.

ترجع Hammamsy 1975 المكانة العالية لكل ما هو غربى إلى سنوات الحكم العثمانى والإنجليزى لمصر عندما كان هؤلاء الذين يمتلكون المظهر الخارجى «الأبيض» يمثلون الصفوة الأرستقراطية. ويضيف Farsoun 1988 أن هناك تبادلاً فى معانى التحديث (modernization) وتقليد الغرب westernization فى أذهان العرب وأن الذوق الغربى «يهيمن» على أسلوب حياة المستهلك العربى. وليس من الصعب إيجاد الصلة بين تفضيل هؤلاء الذين يتشبهون الأجانب وملاحظة فارسون عن أسلوب حياة العرب. ان اختيار هؤلاء الذين شكلهم أجنبى يؤكد الهيمنة التى ذكرها فارسون.

إن معيار المظهر الرائع يشمل الجمال الظاهرى، القبول، والحسن، وأسلوب اللبس. فالمظهر هو مكون أساسى من كونها «بنت ناس».

بـــنــت نـــاس

يرجع تعبير «ولاد الناس» إلى العصر المملوكى كما تشير إلى ذلك Staffa 1977 وكذلك Hammamsy 1975 . كان المماليك عبيداً لهم بشرة فاتحة اللون تتميز عن سائر الشعب المصرى اشتراهم الأيوبيون فى القرن الثالث عشر وقد حكموا مصر فى الفترة من ١٢٦٠ إلى ١٥١٧. وحتى بعد هزيمتهم من قبل الأتراك بقى المماليك طبقة متميزة عن سائر الشعب المصرى. لقب أولادهم بـ «ولاد الناس». و«أولاد الناس» لهم بشرة فاتحة مثل آبائهم ويتميزون بوضع اجتماعى يفصلهم عن سائر الشعب المصرى. وبذلك يمثل المكون الثقافى «ولاد الناس» أو «بنت ناس» كما تصف شركة التوظيف الموظفة المثالية أعلاه، تركيبة من الصفات بعضها له علاقة بالمظهر الخارجى والبعض الآخر له علاقة بالوضع الاجتماعى والحالة المادية. تبقى صفات «أولاد الناس» نوعًا من رأس المال الرمزى كما يعرفه الكاتب الفرنسى بيير بورديو على أنه رأس مال متنكر تكمن قوته فى عدم الإفصاح عن أهميته. (Bourdieu 1997). وحين سألت عن كيفية تمييز «بنت الناس» عن غيرها تباينت الإجابات لتوضح مدى تعقيد هذا المكون الثقافى فهو يعنى أشياء مختلفة تتباين حسب كل فرد. أشارت إحدى صاحبات شركات التوظيف إلى «تعليم كويس.. مدارس خاصة مش مدارس حكومة» كما أشارت إلى أنها - أى بنت الناس - «تعرف تتصرف» وعندها «right attitude» كما أضافت باللغة الإنجليزية. وهنا شمل هذا المكون الثقافى التعليم، المستوى الاجتماعى للأسرة وكذلك القدرات الخاصة بالتصرف فى مكان العمل.

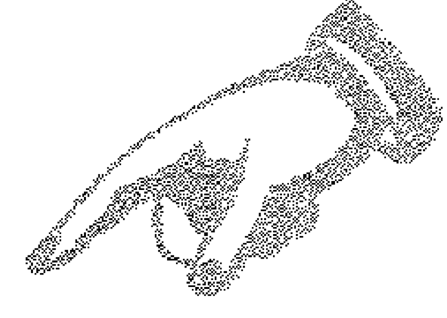
بنت الناس أيضا «عينها مليانة ما تبصش» بمعنى أنها لا تنتمى إلى عائلة فقيرة أو قد مرت بالحرمان ولذلك لا «تحسد» ما قد تراه فى مكان العمل مع زملائها أو مرءوسيها. وهنا يضاف إلى هذا المكون المعقد ظل ثقيل من مكون ثقافى معقد آخر يتعلق بالحسد والعين الشريرة.

وأشارت أخرى أن «بنت الناس» عندها «finesse» الكلمة الفرنسية لراقى مضيفة أنها «أشياء لايمكن تعلمها فى المدرسة» ولكن تأتى من «الأصل» وهنا إشارة واضحة إلى الوضع الاجتماعى للأهل وأنهم ليسوا «محدثى نعمة». كل هذه صفات يتوقف عليها اختيار موظفة فى المجال الإدارى.

وتزيد هذه السيدة إلى تركيبة «بنت الناس» أو «أولاد الناس» جانباً أخلاقياً مضيفة أن بنات الناس يعرفن «الحرام من الحلال» كما يضيف أحد أصحاب الأعمال «أنا بأحب أشغل ولاد الناس لأنهم مش هيخونونى ويدوا أسرارى للمنافسين».

وحين تساءلت عن فرص العمل للخريجات والخريجين من غير «ولاد الناس» وهم من قمت بمقابلة بعض منهن من الباحثات عن عمل فى مجلات تقدم خدمات التوظيف مجانا أو قابلتهن كموظفات مؤقتات بعقود فى أحد الأجهزة الحكومية أثناء عمل البحث - بعضهن كما عرفت من المقابلات - قد تكبد وكبد أهله الكثير حتى يحصلن على شهاداتهن، حين تساءلت عن فرص العمل المتاحة لهن كانت الإجابة من أحد أصحاب الشركات «يروحوا يشتغلوا فى محل فراخ»!!! ■

كتـــاب الـزاويـــة



عمى الاستبداد

عبد الرحمن الكواكبى

الأمر الغريب، أن كل الأمم المنحطة من جميع الأديان تحصر بلية انحطاطها السياسى فى تهاونها بأمور دينها، ولا ترجو تحسين حالتها الاجتماعية إلا بالتمسك بعروة الدين تمسكًا مكينًا، ويريدون بالدين العبادة؛ ولنعم الاعتقاد لو كان يفيد شيئًا، لكنه لا يفيد أبدًا لأنه قول لا يمكن أن يكون وراءه. وذلك أن الدين بذر جيد لا شبهة فيه، فإذا صادف مغرسًا طيبًا نبت ونما، وإن صادف أرضًا قاحلة مات وفات، أو أرضًا مفراقًا هاف ولم يثمر. وما هى أرض الدين؟ أرض الدين هى تلك الأمة التى أعمى الاستبداد بصرها وبصيرتها وأفسد أخلاقها ودينها، حتى صارت لا تعرف للدين معنى غير العبادة والنسك اللذين زيادتهما عن حدهما المشروع أضر على الأمة من نقصهما كما هو مشاهد فى المتنسكين.

وقد علّمنا هذا الدهر الطويل مع الأسف، أن أكثر الناس لا يحفلون بالدين إلا إذا وافق أغراضهم، أو لهواً ورياءً؛ وعلمنا أن الناس عبيد منافعهم وعبيد الزمان؛ وأن العقل لا يفيد العزم عندهم، إنما العزم عندهم يتولد من الضرورة أو يحصل بالسائق المجبر، ولا يستحى الناس من أن يلزموا أنفسهم باليمين أو النذر، بناء عليه، ما أجدر بالأمم المنحطة أن تلتمس دواءها من طريق إحياء العلم وإحياء الهمة مع الاستعانة بالدين والاستفادة منه بمثل: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ لا أن يتكلوا على أن الصلاة تمنع الناس عنهما بطبعها.

محمد عودة

الفقير الهندى

يوسف الشريف



إذا كان هناك مرجعية مؤتمنة على فكر جمال عبد الناصر وتراثه، فلا شك فى أنه محمد عودة



متعة ما بعدها متعة أن تجلس إلى المفكر والكاتب الكبير محمد عودة، وهى متعة لها مذاق مختلف عن المتع الحسية الزائلة، متعة الولوج إلى حصاده الزاخر بألوان الثقافة والفن والسياسة والتاريخ والذكريات العذبة عبر الحوار والمؤانسة والدعابة!

ولشدة ما يدهش الوافد الجديد لتواضعه الجم وبساطته الآسرة، إلا أنه من الأفضل التعرف على طرف من عاداته ومزاجه الخاص قبل التقائه. فقد تجده للوهلة الأولى متجهما أو مبادرا بالهجوم، وربما عازفا عن الحديث، و له فى كل ذلك شأن يغنيه لا يدرك كنهه فى حينه، لكننا أصدقاءه وتلاميذه وحوارييه، ندركه، فقد يكون همٌ من هموم الوطن يؤرقه وقتئذ. فاصبر عليه وتمهل حتى يطرحه عليك وتشاركه فى تفسيره والبحث له عن مخرج. وربما لأنه دلف إلى هذا المجلس بطريق الصدفة أو الخطأ. فاكتشف أن الجهل أو الجدل العقيم الأعلى صوتا، والأكثر افتراء على الحقيقة وانتهاكا لثوابت الوطن والأمة، لكن حين تكون الأجواء مواتية والحضور متجانسا والحقيقة غاية الحوار والجد طابعه، عندئذ يتألق عودة على سجيته ويبدع!

عرفت عودة أوائل الخمسينيات فى دار الأوبرا القديمة صباح يوم جمعة، إذ كانت وقتئذ تنظم حفلا أسبوعيا للطلبة والشباب الراغبين فى سماع وتذوق الموسيقى الكلاسيك التى يعزفها أوركسترا القاهرة السيمفونى بقيادة المايسترو عبدالحليم على، وكانت تذكرة الحفل لا تزيد على خمسة قروش، تتضاعف إلى ٢٥ قرشا فى حفل المساء (السواريه)!

فى الاستراحة خرجت أنا وشقيقتى الأديبة الراحلة عايدة الشريف إلى ردهة دار الأوبرا، وهناك رأيت عودة لأول مرة، وكان فى عنفوان شبابه وكامل أناقته، واسترعى نظرى بياض بشرته وجاكتته البليزر الكحلى وكرافتته «البيبيون» والبيريه الأزرق فوق رأسه حتى خلته خواجة متمصرا. كان مستغرقا آنذاك فى الحديث مع صديقى محمود ذهنى وزميلى فيما بعد بمجلة روز اليوسف، والحوار بينهما كان سجالا حول أداء الأوركسترا وافتقاره إلى عازفين على المستوى العالمى.

انتهى الحفل فى الثانية عشرة ظهرا، وأخذت أنا وشقيقتى طريقنا كالعادة إلى ندوة نجيب محفوظ، وكانت على بعد خطوات فى صالون ناء يقع على يمين الطابق الثانى من كازينو أوبرا الذى شهد أمجاد الفنانة بديعة مصابنى إبان الحرب العالمية الثانية، فلما هربت من الضرائب إلى مسقط رأسها لبنان وافتتحت لنفسها مزرعة للدجاج فى شتورة، آلت ملكية الكازينو لتلميذتها الفنانة صفية حلمى التى رحبت باستضافة الندوة من باب الشهرة، و.. هناك وجدنا عودة قد سبقنا إليها، وأذكر أنه شارك يومها بالمناقشة حول واقعة استوقفته فى سجل النضال الوطنى تعرض لها نجيب محفوظ فى روايته الثلاثية. وبعدها تكررت لقاءات الجمعة التى جمعتنا به حتى أصبحنا نحلق تلقائيا فى سربه!

وبينما شدنى الشاعر كامل الشناوى وغيره من الظرفاء وصعاليك ذلك الزمان إلى عوالمهم، ظلت عايدة مشدودة إلى عوالم عودة وأجواء الأدب والفن، لكن علاقتى مع عودة ظلت حميمة ومتصلة، إذ كان يتردد على منزلنا للحوار مع والدى العالم الأزهرى المستنير، وكلما اشتاق إلى طعام والدتى الدمياطى المسبك، بينما فرضت أحداث الثورة الجزائرية لقاءنا اليومى مع قيادتها وأعضاء حكومتها المؤقتة بالقاهرة. ومع توالى الأيام كان عودة يشدنا دوما إلى بيوت ومقاهى ومنتديات اللاجئين السياسيين العرب والأفارقة، وإلى المسارح والسينمات والندوات الثقافية والسياسية.. وهكذا على مدى أربعين عاما تجسدت أمامى شخصيته وتبلورت معالمها وخياراتها واكتشفت كم هو مختلف نوعيا عن كل الظرفاء والصعاليك النبلاء الذين عرفتهم فى ذلك الزمان سواء فى ثقافته الموسوعية، ودأبه على القراءة والتحصيل، ونهمه إلى الجديد من المعارف، أو إيمانه المتفائل بمصر التى لا تضيع أبدا رغم الكوارث والزلازل والانكسارات، ورضائه وقناعته بحظوته الشخصية المتواضعة من مغانم الحياة، إذ دائما يقول: يكفى أننا تعلمنا ما وسعنا، وخضنا التجارب والمحن التى عجمت عودنا، واستمتعنا بالحب والفنون والآداب، وسافرنا إلى بلاد الله وعرفنا شعوب العالم، وكتبنا ما نشاء ولم نفرط فيما نعتقد أنه الخير والصواب والجمال. وربما من هنا شبهه البعض من أصدقائه بالفقير الهندى فى علاقته الصوفية بالحياة والناس واحتماله للمكاره، وزادت مصداقية هذا التشبيه إثر عودته من الهند، بعد سنوات من العمل مذيعا ومترجما فى إذاعة دلهى التى تبث برامجها باللغة العربية.. وخلالها عشق الشعب الهندى وصادق زعماته ومبدعيه واغترف من تراثه وتابع ولا يزال شئونه وشجونه، وله فى ذلك كتابات وكتب مهمة!

جهينة والخبر اليقين

محمد عودة من مواليد عام ١٩٢٠، ومسقط رأسه قرية «جهينة» مركز فاقوس محافظة الشرقية. ويشهد تاريخ العرب لجهينة أنها كانت أكثر قبائل الجزيرة العربية حكمة ومعرفة بالخبر اليقين. كان والده واحدا من تجار القطن الذين أفلسوا إبان احتدام الأزمة الاقتصادية العالمية فى الثلاثينيات، لكنه لم يستسلم للكارثة، وقرر تعويض ما فاته من العلم. وفى حى الحسين حيث رحل مع أسرته إلى القاهرة، خرج مع ابنه محمد عودة فى أول صباح إلى محل الحلوجى لتناول الإفطار، وكان وجبة من الفول المدمس. وحكى له أن صاحب المحل كان يعد صباح كل يوم طبقا من الفول المدمس المنزوع القشر، ويحمله بنفسه إلى سعد زغلول باشا. فلما اقتربا من مدرسة خليل أغا الابتدائية ليبدأ أول عهده بالدراسة فى القاهرة، روى له والده أن منشئ المدرسة كان كبير الأغوات للوالدة باشا فى عهد الخديو إسماعيل وورث عنه حب العلم ورعايته للمتعلمين النابغين، ومن عجب أن يتفوق عودة فى دراسته الابتدائية، ويقع عليه الاختيار لإلقاء قصيدة ترحيب بزيارة الملك فؤاد للمدرسة، وسر جلالته سرورا بالغا لإلقائه، وأهداه طاقم أدوات مكتب من الجلد الفاخر، وعاد به فرحا إلى المنزل، لكن والده لم يشاركه فرحته ولعن سلسفيل جدود الملك، إذ كان والده وفديا! ومن يومها تولد لديه شعور معاد غامض للملك والملكية!

وبينما كان عودة يتوجه كل صباح إلى مدرسة خليل أغا الابتدائية ثم المدرسة السعيدية الثانوية فيما بعد، كان والده يتوجه للدراسة بالأزهر، وعندما يأتى المساء يجلسان متقابلين لاستذكار الدروس على مكتب واحد، فكان من الطبيعى أن تنشأ بينهما ألفة الصداقة والمكاشفة، والده يناديه باسمه مسبوقا بكلمة الأستاذ، وكان هو ينادى والده «الشيخ عبد الفتاح»!

منذ ذلك الزمان البعيد أدرك عودة الدرس: المال وكل عرض الدنيا وزينتها وحتى حياة الإنسان، عرضة للزوال لسبب أو لآخر، أما الدوام فلله وحده والبقاء للعلم الذى يستحيل انتزاعه من صاحبه، ومن هنا ظل العلم مصدر ثرائه، يزيد مع الأيام ولا ينقص، وحلقة اتصاله بالناس، ومحل قبوله

صفحات من كتاب:
صعاليك الزمن الجميل
يوسف الشريف
دار الشروق ٢٠٠٤



من عدمه للعابرين فى حياته، إذ يقدر إدراكهم المعرفى وزادهم من الثقافة، يظل العابر عابرا مع ألف سلامة أو مقيما على الرحب والسعة، فلا وقت للجهالة ولا جدوى من صحبة الجهلاء.

فى كلية الحقوق اكتشف محمد عودة أن ما يدرسه من فروع القانون، لا علاقة له بأوضاع المجتمع خارج أسوار الجامعة، وبينما كانت الحركة الطلابية تموج آنذاك وتضطرم بكل التيارات والمذاهب والأيديولوجيات، كان البحث عن الذات وخلاص مصر وتحررها يستبد بأبناء جيله، حتى بلغ التناقض ذروته الهزلية ذات يوم، حينما أشيع أن طالبا فى دفعته اسمه موريس دوس سوف ينال رتبة الباشوية، ولم تلبث الشائعة أن أصبحت خبرا منشورا فى الصحف.

والحكاية أن الملك فاروق الأول والأخير تبنى مشروعا للتقرب إلى الشعب باسم «مشروع الحفاء» يستهدف توفير حذاء لكل مواطن، وكانت الغالبية العظمى من الشعب لا تملك ذلك الترف وتسير بأقدام حافية. وتشجيعا للمساهمة فى المشروع، قرر جلالته الإنعام برتبة الباشوية لمن يتبرع بمبلغ خمسة آلاف جنيه فأكثر، وتبرع ذلك الطالب الثرى بالمبلغ وأصبحت الرتبة من نصيبه!

ثم يواصل محمد عودة ذكرياته عن مرحلة التكوين:

انهمكت فى قراءة الكتب التى كنت اقترضتها منه.. وأهملت كتب القانون.. وأصبحت أكثر حماسة فى البحث عن «الذات».

ولا ينكر عودة شأن أى مثقف عصرى تأثره بالنظرة الماركسية فى تحليلها العلمى لأوضاع المجتمع وما يعتمل فى أحشائه من صراعات طبقية، وحدبها على العدل والمساواة. وهو قد نهل من تراث الاشتراكية المصفاة عبر صديقه الدكتور مصطفى مشرفة الشقيق الأصغر لعالم الذرة النابغة الدكتور على مشرفة الذى اعترف أينشتاين بإضافته المهمة لنظرية «النسبية». وكان الدكتور مصطفى مشرفة عندما صحبنى عودة إليه بمنزله فى المعادى قد أقعده مرض شلل الأطفال، ورغم ذلك ظل محاورا واسع الثقافة فى شتى المعارف بلا تعصب وفى خفة ظل تثير من حوله الضحكات والحبور.

وكان صاحب دار للنشر وله العديد من المؤلفات السياسية والأدبية القيمة معظمها باللغة الإنجليزية، أبرزها كتاب «مقدمة فى تاريخ الشعب المصرى» الذى صدر عن إحدى دور النشر الكبرى فى بريطانيا إبان عمله أستاذا للأدب الإنجليزى فى إحدى جامعاتها، ورواية «قنطرة الذى كفر» وقد شاركه عودة فى تأليفها بالعامية، وتؤرخ لما جرى فى مصر ولمصر منذ ثورة سنة ١٩١٩، إذ كان الدكتور مشرفة يرى أنه لم يُعتد على





منذ مطلع أربعينيات القرن الماضى، ولا يـزال محمـد عـودة سـائحا سـواحا على قدميه فى دروب القاهرة، يجوب شوارعها وحواريها ومعالمها التاريخية، ولا يمل التردد على مقاهيها ومنتدياتها ومسارحها ومكتباتها



تاريخ شعب مثلما حدث للمصريين، وأن كل المؤرخين مصريين وأجانب يكتبونه على أنه تاريخ الملوك والحكام منذ الملك مينا مؤسس الأسرة الأولى حتى محمد على، وأنه قد آن الأوان لأن يكتب تاريخ الشعب بكل طبقاته وفئاته.. الفلاحين والعمال والموظفين والمفكرين والمهندسين، كل الذين صنعوا التاريخ بالفعل ليزهو به الحكام ويتفاخروا.

لقد تعلم محمد عودة من لينين وعبر الدكتور مصطفى مشرفة أن الاشتراكية ليست نظرية جامدة، بل متطورة بحسب ظروف كل شعب فى العالم، وما يناسب روسيا من التطبيق الاشتراكى قد يحتاج إلى الملاءمة والتطويع حتى ينسجم مع أوضاع ومعتقدات غيرها من المجتمعات. والمشكلة فى مصر أن التنظيمات الماركسية على حد تقدير عودة كانت وليدة وهيمنة فئة من اليهود، بداية من جوزيف روزنتال وهو جواهرجى سكندرى فى أعقاب اندلاع ثورة سنة ١٩١٩، حتى هنرى كوريل الأرستقراطى القاهرى فى الأربعينيات. ولذلك كانت هذه التنظيمات من الدرجة الثالثة، لأنها ظلت أسيرة للنصوص الجامدة والتجارب الغربية البعيدة عن الواقع المصرى. وغير مؤهلة بالتالى لخلق صيغ مستقلة تستوعب قيم ومبادئ المجتمع المصرى، بينما كان حال الحزب الشيوعى الإيطالى - على سبيل المثال - مختلفا، فلم يجاف العامل الدينى على سبيل المثال.. وإلا لما كان للبابا أن يصلى بنفسه على زعيم الحزب عند وفاته ويقيم قداسا لتأبينه!

روز اليوسف وسياسة الباب المفتوح

منذ مطلع أربعينيات القرن الماضى، ولا يزال محمد عودة سائحا سواحا على قدميه فى دروب القاهرة، يجوب شوارعها وحواريها ومعالمها التاريخية، ولا يمل التردد على مقاهيها ومنتدياتها ومسارحها ومكتباتها، وهو شغوف بمخالطة طبقاتها الاجتماعية المختلفة، وهى سياحة متأنية وفاحصة، يرصد من خلالها مدى التغيير الذى يطرأ على العمارة والأسواق والزحام والعلاقات الاجتماعية بين الناس وأفكارهم واهتماماتهم وإلى أى مدى تفاؤلهم وإحباطهم ورضاهم أو سخطهم، لكأنه عمر بن الخطاب الذى كان يجوس الديار ويتقصى حال الرعية وأحوالها، وله فى ذلك قول مأثور «لو تعثرت بغلة فى العراق لسئلت.. لماذا لم أسو لها الطريق؟»! وبينما كانت جولات عمر الميدانية مصدر استتباب العدل والأمن والنظام وقبول المسلمين وأهل الكتاب ورضاهم، تظل جولات عودة الدورية مصدر إدراكه المعرفى للواقع مجردا من التهوين أو التهويل، ومرآة صادقة لكتاباته الصحفية وحواراته مع أصدقائه وتلاميذه، ومن هنا تميز بواقعيته وتجدده عن معظم أقرانه من الكتاب والمفكرين الذين يصدرون أحكامهم عبر النظريات والفلسفات أو عبر ما يصل إليهم عن هذا الواقع فى الكتب والصحف ووسائل الإعلام والكلام المرسل فحسب!

فإذا أضفنا دأبه على البحث والقراءة المنهجية لعصور التاريخ وتجارب الأمم والشعوب، نستطيع عن معايشة واقتناع أن ننسب إلى عودة ميزة سياسية وفكرية أخرى فريدة، تكمن فى قدراته المدهشة على التنبؤ بمستقبليات الأحداث وهى فى طور الاختمار أو الاشتباك، وفقا لميكانيزم علمى يعتمد على تحليل المعطيات وتفاعلها الديناميكى مع الظروف والأجواء وتباين المواقف والاقتناعات إيجابا أم سلبا!

فى القاهرة تفتحت مخبوءات شخصية محمد عودة وتحددت ملامحها. فهو قد عاش فيها من قبل سنوات دراسته الابتدائية والثانوية والجامعية. لكنه بعد أن خاض تجربة العمل فى المحاماة فى مسقط رأسه بمحافظة الشرقية وقرر فراقها والاستقرار فى القاهرة، كان عليه خوض غمار تجربة البحث عن عمل جديد، لكنه وقع فى حيرة اختيار المهنة التى تناسبه. ولم يكن لديه من الصلات والمعارف فى أوساط أصحاب النفوذ حتى يطلب منهم العون والمساعدة، فاضطر للعمل فى مكتب محام كبير إلى حين عودة الدكتور مصطفى مشرفة من الخارج لاستكمال مشروع إعادة كتابة تاريخ مصر. حتى اكتشف أن مؤهلاته واهتماماته ترنو إلى الكتابة فى الصحف والمجلات، وكان حال الصحافة عهدئذ تفضى فى الغالب إلى الإغلاق وتشريد العاملين فيها، إما لتعثر أصحابها ماليا، وإما لقرارات أو أحكام المصادرة تباعا لأسباب سياسية أو إلغاء رخصة الإصدار إلى غير رجعة. ولم تكن القاهرة قد عرفت بعد المؤسسات الصحفية الكبيرة التى تملك رصيدا ماليا ضخما، ومطابع خاصة بها، ولديها كتاب منتظمون، وطاقم من المحررين والفنيين، اللهم سوى دار الأهرام ودار أخبار اليوم ودار الهلال. حتى روز اليوسف ذات التاريخ الوطنى والإبداعى العريق كانت مستكنة آنذاك فى مبنى صغير متهالك، وكانت صاحبتها السيدة فاطمة روز اليوسف تدير شئونها كست بيت مدبرة، ومعظم كتاب المجلة وهم من الأسماء اللامعة يتكسبون معاشهم من مصادر أخرى، بينما أكثر المحررين من الهواة والبراعم الصحفية الواعدة ويتقاضون مقابل ما ينشر لهم مكافآت متواضعة أو لمجرد الشهرة!

فى البداية جرب محمد عودة حظه فى عدد من الصحف والمجلات التى يصدرها هواة ومغامرون من عشاق الصحافة وذوى الميول الفكرية والسياسية والإبداعية التى تتبنى الأفكار الحرة الشجاعة وكل جديد وشاب يمثل طفرة فى الخلق والابتكار، وبينها مجلة صغيرة كانت ذائعة الصيت آنذاك وهى «مسامرات الجيب»، وأفرغ فيها مخزونه من المعارف والرؤى، وانكب على ترجمة الكتب الإنجليزية والفرنسية الحديثة،

وانتقاءاته من المواد السياسية والأدبية والفنية المنشورة فى الصحف الأجنبية. فلما أدرك «مسامرات الجيب» الإغلاق انتقل إلى صحيفة «الجمهور المصرى» الأسبوعية، وكان رئيس التحرير أبو الخير نجيب صحفياً مقاتلا، ووجد عودة نفسه وسط جيل من الصحفيين الوطنيين والمشاغبين والمغامرين، نجحوا أيما نجاح فى بلورة نهج وأسلوب غير مسبوق فى النقد والتحريض وإثارة المعارك السياسية والاجتماعية والثقافية، فيما تميزت الصحيفة عن غيرها فى الأخبار الكاشفة لما وراء الستار من أسرار، إضافة إلى التحقيقات والخبطات الصحفية المثيرة.

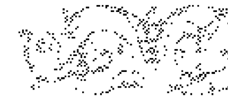
وكان عودة قد صنع لنفسه فى مشواره القصير اسما صحفيًا معروفا، ومن ثم وجد طريقه سالكا إلى نيودلهى، وعمل مذيعا ومترجما فى الإذاعة الهندية التى كانت تبث برامجها بالعربية، لكنه اضطر للعودة إلى مصر بعد عامين إثر اندلاع ثورة ٢٣ من يوليو، ووجد نفسه صحفيا فى صحيفة «الشعب» تحت رئاسة عضو مجلس الثورة الصاغ «صلاح سالم»، انتقل بعدها إلى دار الهلال، وفى مجلة المصور والاثنين والدنيا، تحول من كاتب ميدانى يستقى مادته عبر المعايشة المباشرة للواقع، ورغم أنه مارس عمله فى جدية وحماسة، وبخاصة أنه كان يشعر دائما بارتباطه الوثيق بالناس ونبضهم ومشكلاتهم وطموحاتهم، إلا أنه ضاق ذرعا بالنظام الحديدى الذى يفرضه أصحاب دار الهلال من آل زيدان لضبط إيقاع العمل و.. هذا جيد، إنما لأنه اكتشف أن هذا الانضباط يسرى أيضا على علاقات العمل، كما أن النقد والمعارضة لهما سقف منخفض ومحافظ لا يجب تجاوزه.

ولا يتذكر عودة لماذا وكيف ساقته قدماه تلقائيًا من دار الهلال إلى مبنى روز اليوسف المجاورة بشارع عبد الحميد سعيد، وصعد إلى الدور الأول يفتش عن أصدقائه من المحررين.. وفجأة خرج الفنان عبد الغنى من غرفته، وكان سكرتيرا للتحرير آنذاك، ليجد عودة أمامه وجها لوجه، وصافحه بحرارة ورحب به، وكان قد قرأ له وعرفه عن بعد، وسحبه من يده إلى غرفته وطلب له كوبا من الشاى، ثم وضع أمامه رزمة من ورق «الدشت»، وقال: اكتب لنا شيئا يا أستاذ عودة تود أن تراه على صفحات روز اليوسف. و.. تركه وغادر إلى صالة التحرير.. ولم تمض أيام حتى بادرت فاطمة اليوسف إلى تعيينه وأصبح من كتاب المجلة اللامعين!

«أرملة جمال عبد الناصر»

إذا كان هناك مرجعية مؤتمنة على فكر جمال عبد الناصر وتراثه، فلا شك فى أنه محمد عودة. سمعته يوما يقول: إن كل الثورات الكبرى التى عرفها التاريخ الإنسانى، لم تكن مبرأة من الأخطاء ولا الخطايا، وكان ذلك ما آلت إليه ثورة يوليو، حين قدر لها الصدام مع الطبقة الاجتماعية الحاكمة من الرأسماليين والإقطاعيين وعملاء الاستعمار ومخلفات العهد البائد من الزعامات والأحزاب، فكانت القوانين والإجراءات الاستثنائية ضرورة حتمية لتأمين الثورة، حتى تتفرغ لمهام التغيير وبناء المجتمع الجديد.





إن «عودة» ظل - ولايزال - مبهورا شديد الإعجاب بالتجربة الهندية، وبثالوث زعامتها (غاندى. نهرو. أنديرا غاندى) لكأنه واحد من كوادر أو كتاب حزب المؤتمر



وهو قد نذر حياته وفكره وقلمه انحيازا لنهج وسياسات وتفسير مواقف عبد الناصر، وإشاعة الوعى بمصداقية مشروعه الوطنى والقومى، ورد الصاع صاعين لكل من يتطاول على الناصرية بالافتراء والتشويه، إلا أن عودة لا يفسد للود قضية مع الذين يختلفون مع الناصرية بشرط الالتزام بالموضوعية، وأن يكون البحث عن الحقيقة غاية الحوار وليس مضيعة للجهد والوقت فى الجدل العقيم والسفسطة الفارغة. وأعتقد أن عودة الآن بات على اقتناع بضرورة مبادرة الناصريين قبل غيرهم إلى مراجعة التجربة الناصرية والبناء على إيجابياتها حتى تواكب المستجدات والمتغيرات الوطنية والقومية والعالمية منذ عام ١٩٧٠، مما يستدعى إعادة صياغة المشروع الناصرى وتقديمه للأجيال الجديدة فى زمان الردة والتبعية والقطرية وتنامى ظاهرة العولمة!

وهكذا بقدر زاد المحاور من الثقافة وموقفه الملتزم بقضايا الوطن وثوابت الأمة بقدر سعى عودة إليه والحفاوة به وصداقته. وبهذا المعيار - العلم والموقف والمبادئ - عرف عودة من البشر عدد شعر رأسه، كما فارق منهم عدد ما تساقط منه على مر السنين. فهو على سبيل المثال طالما أشاد بموهبة ونبوغ ووطنية صديقه الأديب الكبير توفيق الحكيم قولا وكتابة، وكان جليسه ومحاوره فى لقاء الصباح بمقهى «جروبى» بميدان سليمان باشا لأكثر من ثلاثين عاما. ولم لا، وكلاهما ينشد فى جمال عبد الناصر الأمل فى البعث والتغيير، وهو كان البطل التاريخى الموعود الذى جسدته نبوءة الحكيم فى روايته الرائعة «عودة الروح»، التى كتبها إبان عهود الاستعمار والملكية والإقطاع، وربما من هنا نال الحكيم فى عهد جمال عبد الناصر من الحظوة والتكريم ما لم ينله غيره من الأدباء والفنانين. فلما رحل عبد الناصر، وراح السادات يقتفى أثره بأستيكة على حد سخرية رجل الشارع المصرى والعربى، وسار الحكيم فى زفة دعاة الردة وألف كتابه «عودة الوعى». عندئذ تحشد عودة بكل آلياته الفكرية وقدراته الفذة على الحوار، وانبرى للحكيم يصب جام غضبه وفجيعته فى صديقه، واستهل كتابه «الوعى المفقود» بقصة الموسيقى الشاب الذى قال للمايسترو الكبير توسكانينى: «بالنسبة لتوسكانينى الفنان أحنى رأسى، أما بالنسبة لتوسكانينى الإنسان.. فقد أخلع نعلى وأنهال به عليه»، ثم راح يجرد الحكيم من أى مصداقية سياسية، فقط لأنه تنكر فجأة للمبادئ التى استكنت فى ضميره وإبداعاته وحققت شهرته وانتشاره، ووصفه قائلا: «لم يكن هناك ابتذال للكاتب والكتابة أكثر رخصا من هذا، لكن «كان توفيق الحكيم على حقيقته مجردا من كل المسوح». وقال: «ليس هذا الكتاب ردا على توفيق الحكيم، ولكنه دفاع عن الشرف السياسى والثقافى لمصر». وشرع يفند كل ما ذهب إليه الحكيم من برجه العاجى متنقلا من فكرة التعادلية إلى انتشائه بلقب «عدو المرأة» إلى انتسابه لدار أخبار اليوم ثم الأهرام التى اختارها منبرا للإشادة بثورة يوليو وزعيمها، بنفس درجة تبنيه المفاجئ للهجوم الكاسح فى كتابه على التجربة الناصرية!

والحقيقة أننى كنت شاهدا عن قرب على تلك المعركة السياسية والأدبية المدوية. فكم رأيت عودة وسط مريدى جلسات الحكيم الخاصة التى يعقدها كل يوم جمعة، وهو رجل ودود يجعلك تحبه من أول لقاء. وعلى عهدنا به ظل يدافع عن الناصرية وعن الاشتراكية والقومية بضراوة، ولذلك عندما نمى إلى علم عودة أن الحكيم وضع كتابا تحت الطبع يندد فيه بعبد الناصر وما كان يؤمن به أو دعا إليه.. لم يصدق، واعتقد أنها مزحة أو مجرد وشاية، فكيف يصدق الخبر وهو الذى تبرع منذ أيام بخمسين جنيها رغم بخله الشديد لتخليد ذكرى عبد الناصر والإسهام فى صنع تمثال له. كذلك عندما عرف الحكيم بأن عودة أعد كتابه «الوعى المفقود» ردًا على ردته، عرض عليه أن ينشره على حسابه لعله يرضيه ويستبقى صداقته ويكفر عن خطيئة، لكن عودة رفض. وأذكر أن عودة تأثر كثيرا وظل حزينا فترة طويلة لرحيل الحكيم وقال: كنت أحبه!

وهكذا بنفس المعيار وعلى نفس المنوال هاجم عودة أو خاصم بدرجات متفاوتة بعض أصدقائه ممن كانوا محسوبين على المرحلة الناصرية، ثم تورطوا فى مرحلة الردة الساداتية وباتوا من دعاة الانفتاح السداح مداح والتطبيع مع إسرائيل أو التبعية لأمريكا، سواء عن قصد أو سذاجة أو خطأ فى التحليل أو رهان على المجهول وقبض الريح!

مواجهة مع بو مدين

ولا يكتمل حديثنا عن محمد عودة قبل أن نتوقف عند محطات مهمة فى سيرة حياته. ففى أوج انشغال ثورة يوليو بالقضايا القومية ودعمها لحركات التحرر فى العالم الثالث، كان هو أيضا فى قمة تألقه وعطائه سواء بالكتابة عن هذا الدور أو بمعايشة أحداثها وتوثيق الصلة بأبطالها، فكان







يسكن عودة فى شقة صغيرة لا تتعدى غرفتين فى عمارة الأوقاف بالدقى، حيث تربطه علاقات إنسانية رائعة بالناس الذين هم فوق السطح، وهم سلالة البوابين والخدم



يصحبنا إلى المقاهى والمنتديات والصالونات وكافتيريات الفنادق الكبرى والمتواضعة التى تجتذب القيادات واللاجئين السياسيين العرب فى القاهرة، أو زيارة بيوت الدبلوماسيين والزعامات الشعبية لحركات التحرر وعدم الانحياز ممن تبوءوا فيما بعد سدة الحكم والسلطة فى أوطانهم، بينما ظل عودة المرجعية التى يلجأ إليها المراسلون الأجانب المتخصصون فى الشئون العربية!

ولأول مرة أسمع عبر عودة الكثير من التفاصيل المهمة والأسرار الخاصة أوج اشتعال ثورة الجزائر، وكيف أن الثورة سفكت من دماء أبنائها ما يكاد يعادل ضحاياهم من الجيش الفرنسى المحتل. وقال لأن المعركة مصيرية لا تحتمل الخطأ أو التردد، لذلك كان نصيب المنحرفين فى صفوفها البتر، وكان عودة دائما يلفت نظر زملائه من الكتاب والصحفيين إلى التخلى عن منطق الإعجاب والإشادة والانحياز بجناح ما أو زعيم سياسى بعينه فى الثورة الجزائرية، وقال إن هذا الأسلوب يثير حفيظة غيرهم من الأجنحة والزعامات ويعتقدون أن الصحافة المصرية تعبر عن موقف جمال عبد الناصر. وقد تسببت تلك الانتقائية المعيبة فى مشكلات حادة بين ثوار الجزائر بل وفى كوارث شتى إلى حد الاحتكام للسلاح!

أذكر فى عام ١٩٦٠ أن عودة كان مدعواً لمؤتمر فى الجزائر، فلما التقى الرئيس هوارى بومدين رجال الإعلام العرب، إذا به يبادره على مرأى ومسمع من الصحفيين وأجهزة الإعلام بالسؤال عن مصير صديقه أحمد بن بيلا، وكان آنذاك رهن الاعتقال. وتكهرب الجو، حتى وجد من يهمس فى أذنه ويدعوه إلى خارج الاجتماع، ثم اختفى من المؤتمر فى اليوم الثانى، وفوجئ بتقرير أمنى حول ما جرى يسبق عودته إلى القاهرة، فيما نفى لنا الأخضر الإبراهيمى سفير الجزائر آنذاك أن تكون لحكومته يد فيما حدث، وعزى الأمر إلى استشعار السفارة المصرية بالجزائر الحرج، بزعم أن عودة تجاوز أو أخطأ بدعوى تدخله فى شئون الجزائر الداخلية، رغم أنه كصحفى صاحب حق فى أن يسأل ما يشاء، كما أن من واجب الصداقة والشهامة أن يطمئن على مصير صديقه بن بيلا!

وعلاقة عودة بالسياسيين والنخب الثقافية الأفريقية حقبتى الخمسينيات والستينيات، لم تكن مقصورة على حرصه على أن يظل سباقا لمعرفة شواغل حركات التحرر الإفريقية وتطوراتها ومتناقضاتها فحسب، بل وكان مشاركا فى المؤتمرات والندوات التى تعقدها الجمعية الأفريقية حول شئون وشجون أفريقيا، وقد امتد هذا الدور إلى زوجات وعائلات المناضلين الأفارقة لشد أزرهم والاطمئنان على أحوالهم، أذكر منهم زوجة الزعيم الأفريقى «فيلكس مومى» وأولاد المناضل الراحل «باتريس لومومبا» وأولاد «نكروما».

من سخريات الشاعر كامل الشناوى عن عودة قوله: «عودة يذهب إلى الجيزة عن طريق طنطا». وكان يعنى القلق الذى يساور عودة دائما حول قضايا وطنه وأمته إلى أى مدى وجدوى شفافية المعالجة الوطنية والقومية لهذه القضايا، مما يجعله دائما فى حركة تنقل ما بين مصر وغيرها من الدول العربية والأجنبية بحثا عن الحقيقة والخلاص!

وفى الهند رحبت صحيفة «شنكر» ذائعة الصيت بزيارة عودة لدلهى عام ١٩٦٥ وقالت: «أخيرا يصلنا عبق مصر وقبس من روحها وشرارة من عقلها الأستاذ الدكتور محمد عودة صديق الشعب الهندى». ولا نعتقد أن هناك ما يضارع عودة بين كتابنا فى فهمه للشخصية الهندية وإدراكا لتراثها الحضارى، ومتابعة لقضاياها، وعندما سألناه كيف عاش بعيدا عن معشوقته مصر فترة عمله مذيعا فى الإذاعة الهندية.. وقال: اجتزت هذه الفترة كمدمن الدخان عندما يقلع عنه.. كنت «خرمان مصر» ولم أكن أستطيع البقاء فى الهند لولا أننى أحببتها لأنها كمصر وارثة لحضارات عريقة وظروفهما السياسية والاجتماعية متشابهة، ويجمع بين الثورة الهندية وثورة سنة ١٩١٩ المصرية وشائج تاريخية ونضالية مشتركة!

فى كتابه «رحلة فى قلب نهرو» عقد عودة مقارنة بين الثورة الصينية والثورة الهندية، وأرجع نجاح الأولى إلى التحام الوطنية بالماركسية، لأن الكونفوشيوسية تعاليم أخلاقية أو دين بغير إله، بينما تنكبت الثانية الطريق عندما ارتطمت الوطنية الهندية بالماركسية، لأن البوذية أو البراهمية دين بإله، ومن ثم كان الصدام بينها والفلسفة الماركسية، ولذلك لم يتم الالتحام. وبينما نجحت الصين - على حد تقديره - فى القضاء على الأفيون والذباب والدعارة والمجاعات.. ووفرت الطعام لكل فم، لم تتمكن الهند حتى الآن فى ظل ديمقراطية «ويستمنستر» الليبرالية من القضاء على الفقر أو المرض!

والحقيقة أن عودة ظل ولايزال مبهورا شديد الاعجاب بالتجربة الهندية، وبثالوث زعامتها (غاندى - نهرو - أنديرا غاندى) لكأنه واحد من كوادر أو كتاب حزب المؤتمر حتى إن الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل وشى من باب الدعابة بعشقه الصوفى لأنديرا غاندى. وأذكر ذات يوم أننى وجدت الأستاذ محمد عودة حزينا مهموما، ولم أثقل عليه بالسؤال حتى لحق بمجلسنا عدد من الأصدقاء، وعندئذ بادر من تلقاء نفسه إلى الحديث عن واقعة ظلت تؤرقه منذ سماعه بها وقراءته عنها، وكانت حول كتاب صدر أخيرا بالإنجليزية بعنوان «حياة أنديرا غاندى»، وسرعان ما تلقفته مجلة «تايمز أند أوف إنديا» الهندية بنشر بعض من فصوله، وقامت الدنيا ولم تقعد، حيث خرجت جموع الهنود فى مظاهرات احتجاج عارمة، وقاموا بإحراق جميع نسخ المجلة وطالبوا الحكومة بمنع دخول الكتاب وتداوله فى الهند، إذ كان يجسد أسلوب المخابرات الأمريكية فى «اغتيال شخصية»، وسمعة خصومها، حتى لا يتحولوا إلى رموز وقدوة فى البذل والعطاء والنضال من أجل تحرر الأوطان لدى الأجيال الجديدة. وكانت التهمة التى حاولت الكاتبة الأمريكية إلصاقها بأنديرا غاندى فى كتابها أنها زير رجال على غرار التهمة المشبوهة التى لحقت بنهرو باعتباره زير نساء!

وقال عودة: إنهم يريدون تصوير عائلة نهرو على أنها منحلة، وهذه الحملة تأتى فى الوقت الذى يحكم فيه الهند اليمين الهندوسى الأصولى المتحالف مع اليمين الرأسمالى الذى يسير بالهند فى طريق التبعية للغرب، المعادى لاشتراكية نهرو. أنديرا كان شعارها «أريد القضاء على الفقر وهم يريدون القضاء علىّ، وإذا مت فسوف أموت واقفة». وتشويه عائلة نهرو يأتى بعد فضيحة مدوية فى الهند وقعت منذ عدة أشهر، فقد حدث أن سبعة من الصحفيين العاملين فى التليفزيون الهندى تنكروا فى هيئة وسطاء لعقد صفقات كبيرة مع رجال من قادة الحزب وقادة الجيش وصوروهم بكاميرات خفية وسجلوا أصواتهم وهم يتفقون معهم على صفقات وعمولات ورشاوى كبيرة وأذاعوا ذلك كله على مساحة فى الإنترنت، فحدث زلزال كبير فى الهند بسبب هذه الفضيحة المدوية واستقال وزير الدفاع وفضح رئيس الحزب الحاكم الهندوسى الذى كان شعاره طهارة اليد، وشاهده الناس وهو يقدم الرشاوى ويعرض العمولات فكانت ضربة قاصمة من نوعها طيرت طهارة الأصوليين الهندوس وهزت مركزهم ليس فى الهند فقط ولكن أيضا فى العالم كله.

فهل هى مجرد مصادفة أن يصدر اليوم كتاب يحتوى على فضائح مخجلة بحق عائلة نهرو، أم أن الهدف من هذا الكتاب جاء بقصد وتدبير للتغطية على فضيحة الحزب الحاكم المدوية؟ ولماذا يكرر الكتاب نفس الاتهامات المنحطة التى جاءت فى كتاب «ماتاى» سكرتير نهرو الذى اشتروه فأصدر كتابا مشبوها عنوانه «يومياتى مع نهرو» وكانت يوميات منحطة لتلطيخ شخصيته قال فيها ماتاى إن نهرو كانت له رفيقة وأنه أنجب منها ابنة غير شرعية. بل وكان على علاقة غير شرعية بأنديرا استمرت ١٢ عاما. وقال إنه - أى السكرتير - كان على علاقة بكاملا زوجة نهرو وأشياء من هذا القبيل. وعندما ذهب لنشر كتابه رفض الناشر نشر هذا الفصل، فلماذا تنشر الكاتبة الأمريكية اليوم نفس الكلام فى كتابها والذى لم يتمكن ماتاى من نشره من قبل؟ وما معنى أن تروج شائعات من نوع أن أنديرا كانت على علاقة غير شرعية بمدرب اليوجا الخاص بها وبمدرس فى جامعة طاغور كان يعلمها

الفرنسية، وأن «فيروز غاندى» زوجها خانها مع سيدات كثيرات؟ المعركة فى جوهرها إذن معركة سياسية اجتماعية هدفها تلطيخ سمعة نهرو وعائلته وخلفائه لأنهم رموز وطنية مضيئة تمثل قوى متناقضة مع التحالف الهندوسى الرأسمالى الغربى الحاكم الآن.

النوم فى الفيشاوى

الحقيقة أن السفر مع محمد عودة ينطوى على متعة إنسانية وثقافية، فهو ظريف مطبوع وساخر لماح، ومحاور بارع، وسرعان ما تنفتح مغاليق ذاكرته التاريخية وهو يروى على مسامعنا سيلا من حكاياته المدهشة عبر العصور، أو يفسر لنا واقعة ملتبسة فى تاريخنا المعاصر. ثم هو دءوب على زيارة المتاحف والآثار والمكتبات. ومعه فى لندن أخذنى إلى المتحف البريطانى لمشاهدة قسم المصريات ثلاثة أيام تباعا، ويومين فى مكتبة وزارة الخارجية البريطانية للاطلاع على وثائقها عن فترة الاستعمار البريطانى لمصر، وفى المساء يتراوح غرامه بين مشاهدة المسرحيات الغنائية أو حفلات الموسيقى الكلاسيك!

ومع عودة فى مصر أو الخارج لا تسأله كيف أوتى من الجاذبية حتى يدبر كل هذه الحفلات والدعوات والمآدب. وكنت معه أنا والصديق الصحفى جلال عارف فى موسكو التى قصدناها للاطمئنان على الشاعر الفنان عبد الرحمن الخميسى بعد أن ألم به المرض، وفوجئنا بأن بيوت علية القوم من السياسيين والمبدعين واللامعين السوفييت على أهبة الاستعداد لاستضافة عودة. أذكر من بينهم بريماكوف وبلاييف وأجراكرشيف وتماييف والشاعر حمزة توف والمستعربة لينا. وبينما كنا متجاورين فى مسرح البولشوى وراقصات الباليه يتهادين كالنسائم فى رقة وسمو، مال عودة برأسه وهمس فى أذنى: بقى موش حرام ملائكة البولشوى يدخلون النار.. وصاحبتنا إياها تدخل الجنة؟! وكان يعنى امرأة قبيحة نعرفها تدعى التقوى والصلاح!

ولعودة قول مأثور: «أناضل مع الكادحين وأدافع عن المظلومين، وأستمتع بحياة الرغد ما وسعنى مع الموسرين وأولاد الحظ والحظوة». ولعل الطعام الجيد أفضل اللذائذ التى يهفو إليها، وهو يتناول طعامه بتؤدة كما لو أنه يستحلبه ويجتر مذاقه، ولا يثنى على إفطاره الخفيف سوى وجبة واحدة فى الغداء أو العشاء مهما كان الطعام فاخرا. وكلما كان مدعواً على طعام، غالبا ما يضع المضيف يده على قلبه خشية اصطحابه عددا من المعارف أو الغرباء بما يفوق كمية الطعام، وقد نكتكم احتجاجنا على هذا التصرف خاصة إن كانوا من ثقلاء الظل، ثم نكتشف أن بصلة المحب خروف والبساط أحمدى وأن شخصيته الآسرة تؤدى دورها بنجاح فى عقد الصلات مع هؤلاء الغرباء، لكأننا نعرفهم منذ زمن بعيد!





كتابات عودة لا يختلف ظاهرها عن باطنها.. فهو يحمل ضميرا لا تستطيع أعتى موجات المناصب والاغراءات اختراقه..



ومنذ الخمسينيات وعودة يسكن شقة صغيرة لا تتعدى غرفتين فى عمارة الأوقاف بالدقى، حيث تربطه علاقات إنسانية رائعة بالناس الذين هم فوق السطح، وهم سلالة البوابين والخدم الذين سبق وعملوا فترات من الزمن فى حراسة العمارة وخدمة سكانها، ثم اتخذوا من السطح تباعا سكنا عشوائيا ومجتمعا خاصا مختلفا عن الناس الذين هم فوق والناس الذين هم تحت. ولا يزال عودة يحلم بشقة أخرى أوسع رغم أنه لم ينجب أولادا ولا بنات، لكن لأن أصدقاءه وتلاميذه وحوارييه كثر، وهو يحب أن يراهم جميعا حوله، يسهر معهم ويحاورهم ويأتنس بهم. وكم شهدنا فى سكنه الراهن أسعد أوقات حياتنا ولا نزال، وهذه المتعة الفكرية والإنسانية التى يضفيها على مجالسه شبه اليومية، ودائما نجد حاجتنا من الطعام والشراب رغم موارده المتواضعة، ولأنه يكره الرتابة والملالة والسأم، ويهفو إلى التجديد والتغيير، لذلك هو دائما فى حالة استبدال وإحلال الجديد مكان القديم من أثاث ومفروشات شقته، وكم كانت سعادته عندما ألححنا عليه باقتناء «الدش»، ووجد ضالته فى متابعة أخبار العالم. ومن عجب أن تنتبه الإذاعة والتليفزيون أخيرا لعودة وتدعوه إلى الشاشة والميكروفون بعد أن اكتشفت فيه محدثا بارعا ومحاورا متمكنا لا تنقصه السخرية وخفة الظل وإتقان اللغات الحية كأحد أبنائها. وبينما كان من الطبيعى أن ينال أجرا سخيا على أحاديثه وحواراته تلك، فوجئ بمن يطلب منه يوما مبلغا من المال بدعوى أن طاقم التليفزيون «عاوز يشرب شاى» واضطر إلى أن يدفع لهم المبلغ وهو فى شدة الخجل لهم، رغم ما عاناه من قلب أثاث شقته رأسا على عقب، وكم الوقت الضائع فى التصوير والتسجيل!

واستجابة لإلحاحنا وزحمة المواصلات اقتنى عودة سيارة نصر ١٢٨ عام ١٩٦٨، وراح أحد أقاربه يدربه على قيادتها، لكن عودة تراجع عن استكمال التجربة وباع السيارة وقال: اكتشفت أنها لا تناسب نمط الحياة التى تعودت عليها وأدمنتها. ووجدت أن «من فات قديمه تاه» بمعنى حرمانه من استخدام قدميه فى جولاته القاهرية الممتعة الدءوبة، والجلوس حيث شاء فى المقاهى، ومنها إلى المكتبات والفرجة على الناس وواجهات المحلات، ثم الصعود أيضا على الأقدام إلى القلعة للائتناس بصديقه العبقرى المهندس حسن فتحى أو زيارة مرسم الفنان التشكيلى الكبير حسن سليمان، وربما وحشته استثارة الشيخ سعاد جلال ودعاباته، ومن ثم يشد إلى بيته الرحال دون تعب أو كلل!

وقد عرف لعودة سكن خاص لأول مرة بعد زواجه من تلميذته النجيبة السيدة عائشة، وهى كانت - يرحمها الله - جميلة وفنانة رقيقة، وقد أبدعت فى تنظيم حياته ووفرت له أسباب الاستقرار الاجتماعى. وقد جزع إلى حد توقع النهاية لحياته عندما أصيبت بمرض عضال، وتكبد ما فوق طاقته من الآلام النفسية والمال وحملها للعلاج فى لندن بعد أن أعياها الشفاء فى القاهرة، ومن نعم الله وفضله على عودة عندما داهمه المرض وأجرى العديد من العمليات الجراحية أخيرا، أن حالفه التوفيق والسعادة وتزوج السيدة منى التى أصبحت خير عون ورفيق له، وأضفت على حياته المزيد من البهجة والطمأنينة والمؤانسة!

والشاهد أننى حين تعرفت على محمد عودة لأول مرة، كان من سكان «البانسيونات» التى كانت تملكها عهدئذ سيدات وأرامل من اليونانيات والأرمنيات والإيطاليات، وقد ظل متنقلا يسلمه بانسيون لآخر منذ ولوجه للعمل بالقاهرة فى الأربعينيات، فكان عليه أن يواجه دائما مشكلة ذات شقين.. «الأول» تعثره فى دفع الإيجار.. و«الثانى» يكمن فى تسريب ثروته الوحيدة من الكتب تباعا وإنقاذها من صاحبة البانسيون فى الوقت المناسب، وبعدها لا يهم أن تضع يدها على كامل منقولاته الشخصية إلى حين الوفاء بالإيجار المتأخر!

وكتابات عودة لا يختلف ظاهرها عن باطنها.. فهو يحمل ضميرا لا تستطيع أعتى موجات المناصب والإغراءات اختراقه.. لذلك يعمل له رجل السياسة ألف حساب لرأيه الصريح دوما فى توجهاتهم ومواقفهم أو تراجعاتهم على البعد ومن دون الاقتراب منهم.. وذلك أن شخصيته لها صفات تشبه صفات الضمير، رغم أنها لا تظهر على السطح أحيانا، لكنها تختفى فى أعماقه وتتحرك تلقائيا فى مواجهة كل التصرفات الخاطئة والمعوجة على السطح فى الوقت المناسب!

وعلى قدر معرفتى بعودة وخباياه ومكنوناته النفسية والفكرية، أحسب أن أحلامه الوطنية والقومية ظلت دوما متأججة وترفض أن تخبو أو تتوارى أمام توالى الهزائم والانكسارات ويأس أعداء الأمة وإجهاض ثوابتها تباعا، مع تفاؤله باجتياز الأمة العربية لمحنتها ونهوضها من كبوتها حتما بعد سقوط بغداد. كذلك تواضعت مواصفات المثالية التى كان ينشدها فى أصدقائه وتلاميذه، فأصبحت خليطا من صفات جيدة وأخرى ليست كذلك، خاصة وقد اكتشف أن صراحته فى حسابهم نوع من القسوة التى قد تفضى إلى انفضاضهم من حوله، فآثر القدوة والتوجيه ضمنيا إلى الطريق المستقيم!

ويرفض عودة أن يراه البعض زاهدا أو ناسكا أو راهبا، فلا أكاد أعرف فى حياتى من يطاوله فى حب الحياة والاستمتاع بمباهجها ولذائذها.. يقول: من لا يحب الحياة ويثق بها فمن رابع المستحيل أن يضيف إليها شيئا.■

عندما يتصارع الكبار

حرب الجواسيس بين واشنطن وموسكو

قد يظن البعض أنها رواية من الخيال تصلح أن تكون فيلماً سينمائياً أو قد يرى البعض أن الوقائع بها مبالغ فيها ولا يمكن تصور حدوثها. إلا أن الواقع أن اثنين من كبار العاملين فى أجهزة المخابرات الأمريكية ذات الصيت والسمعة والباع، يعيشان فى رغد ورخاء المجتمع الأمريكى مجتمع دولة القطب الواحد، قاما كل على حدة ودون تنسيق مع الآخر بالتطوع لتقديم خدمات تشمل معلومات فى غاية السرية إلى جهاز المخابرات السوفيتى الذى كان معروفاً باسم KGB ثم أصبح بعد انهيار الاتحاد السوفيتى معروفاً باسم SVR. وكانا يعلمان أن هذه الخدمات ترقى إلى مستوى الخيانة العظمى وقد تصل عقوبتها فى حالة القبض عليهما إلى الإعدام. وكان تطوعهما تطوعاً محضاً ولم يبذل أى ضابط مخابرات سوفيتى أى جهد فى تجنيدهما. (وإن كان هناك ضابط مخابرات سوفيتى على درجة عالية من الخبرة والدراية المهنية قام بإدارتهما وتشغيلهما بكفاءة عالية). وعنصر الخيال فى قصة هذين الرجلين هو أنه من المعروف مهنياً أن ارتقاء أى فرد فى السلم الوظيفى لأى جهاز مخابرات يعتمد أساساً على تأكد الجهاز من ولاء وإخلاص وأمن هذا الفرد. فالأول كان رئيس وحدة مقاومة التجسس بإدارة الاتحاد السوفيتى وشرق أوروبا بوكالة المخابرات المركزية والثانى كان المسئول عن إدارة الاتحاد السوفيتى بمكتب التحقيقات الفيدرالية.. وبالرغم من ذلك فقد قاما بمحض إرادتهما بالاتصال بالسفارة السوفيتية فى واشنطن القريبة من أماكن عملهما وأماكن سكنهما عارضين خدماتهما مقابل المال.

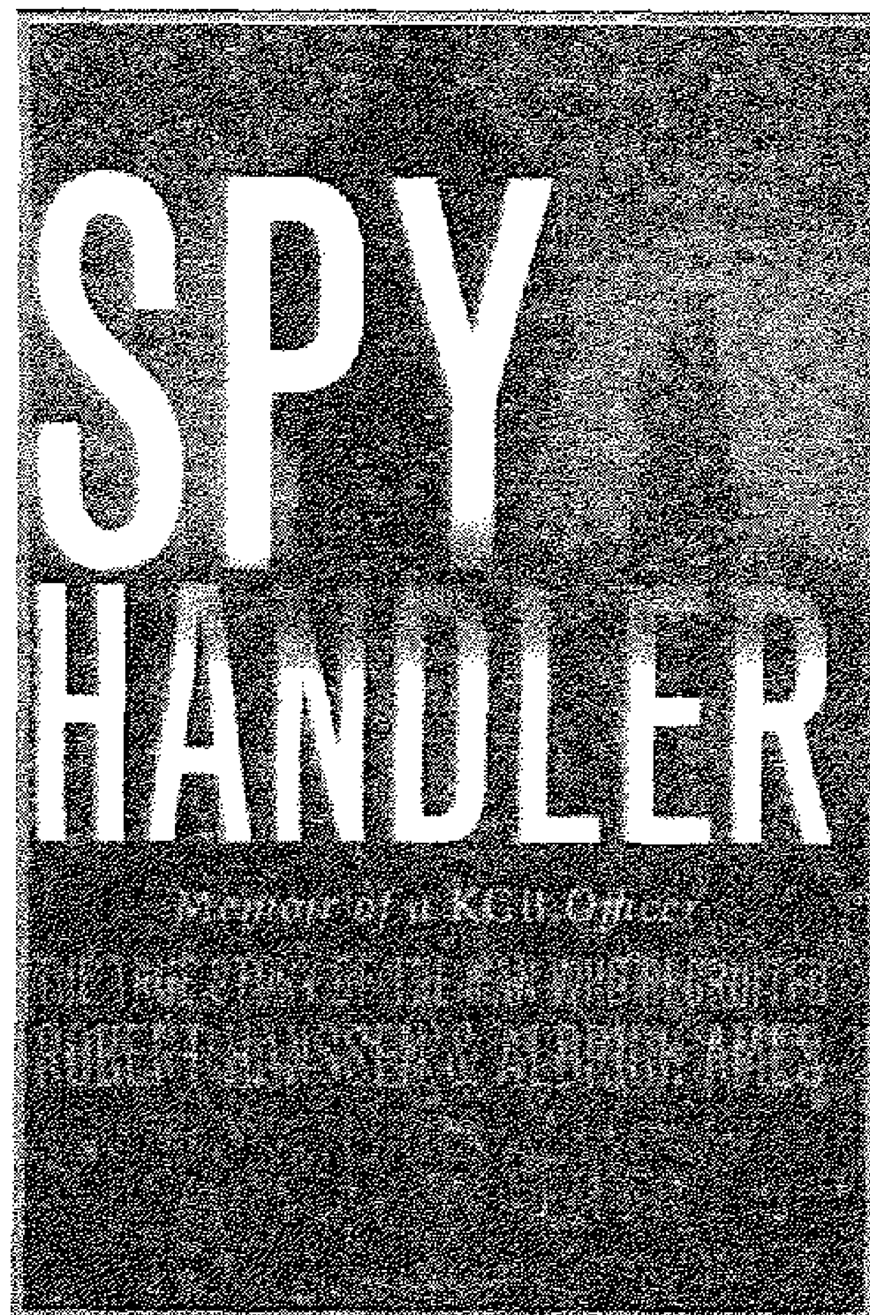
الأول هو الدريش أيمز Aldrich H. Ames وكان يعمل فى وكالة المخابرات المركزية CIA والثانى هو روبرت فيليب هانسن Robert Philip Hanssen وكان يعمل فى مكتب التحقيقات الفيدرالى FBI. وهذان الجهازان هما أكثر أجهزة المخابرات الأمريكية لمعاناً وسمعة وسط مجتمع المخابرات الأمريكية الذى يشمل ما يزيد على عشرة أجهزة.



فى ١٦ أبريل ١٩٨٥ تقدم الدريش أيمز إلى مبنى السفارة السوفيتية فى الشارع رقم ١٦ بالعاصمة الأمريكية واشنطن: بعد أن أقنع رئاسته أنه ينوى مقابلة دبلوماسى سوفيتى يسعى إلى تجنيده، وطلب مقابلة مسئول المخابرات السوفيتية بالسفارة وعرض عليه تقديم خدماته مقابل المال.

وتعد قصة أيمز أكبر قصة اختراق حدثت فى تاريخ وكالة المخابرات الأمريكية

Spy Handler
Memoir of a KGB Officer
مذكرات ضابط بالمخابرات الروسية
مدير الجواسيس
Victor Cherkashin, with Gregory Feifer
Basic Books, 2005



حازم حسن صبحى

وقد استمر تعامله مع السوفييت حتى قبض عليه فى ١٩٩٤/١/٢١ أى حوالى عشر سنوات وبلغ إجمالى ما حصل عليه من أموال حوالى ٢.٥ مليون دولار فى مقابل تقديم وثائق ومعلومات سرية للغاية للسوفييت ترتب عليها إعدام عدد من عملاء CIA داخل الاتحاد السوفيتى وإفشال العديد من عملياتها.

ويرجع استمرار هذه القصة لعشر سنوات إلى الإهمال والتراخى الأمنى اللذين كانا سائدين فى CIA وبالرغم من أن سلوكيات أيمز كانت ترشحه إلى التقاعد بسبب إفراطه فى شرب الكحوليات وتراخيه الأمنى، فقد تكرر أكثر من مرة تركه لوثائق سرية فى أماكن عامة واسترجاعها بعد قيام مواطنين عاديين بالإبلاغ عنها إلا أن هيئة المعلومات directorate of operation التى كان يعمل بها تغاضت عن هذه السلبيات ولم تتخذ مواقف حاسمة.

وقد عمل أيمز فى CIA منذ ١٩٢٦ وتزوج من امرأة كولومبية كان قد جندها للعمل مع الوكالة وقد ساعدته فيما بعد فى أثناء اتصاله بالسوفييت. وفى ١٩٨٣ عين رئيس فرع مقاومة التجسس بإدارة الاتحاد السوفيتى وشرق أوروبا بهيئة العمليات. وتم القبض عليهما عندما علمت CIA من خلال أحد عملائها داخل روسيا اسمه الكودى Avenger باتصالات أيمز وتحركاته.

أما روبرت هانسن فقد ظل يعمل فى خدمة السوفييت لأكثر من عشرين عاماً أى أكثر من ضعف الفترة التى عملها أيمز معهم. فى ١٩٨٠ أرسل هانسن رسالة مكتوبة موقعة باسم كودى هو حرف B إلى كبير مسئولى المخابرات السوفيتية فى السفارة بواشنطن (وهو نفس الرجل الذى تولى إدارة اتصال أيمز) عارضاً عليه استعداده للتعامل بإمدادهم بوثائق غاية فى السرية مقابل الحصول على أموال. ولم يتردد السوفييت فى قبول ضربة الحظ هذه واستمر التعامل بينهما، حصل فيه الروس على عشرات الألوف من الوثائق والمستندات السرية والخطط والنوايا الأمريكية. وقد بدأ التعامل أثناء ذروة الحرب الباردة بين موسكو وواشنطن واستمر حتى بعد سقوط حائط برلين وانتهاء الحرب الباردة والإعلان عن الوفاق بين الدولتين.

فحروب المخابرات لا تعرف مراحل الصداقة ومراحل العداوة فهى حروب مستمرة تحدث بين الأعداء وتحدث بين الأصدقاء بل إنها قد تشتد فى ضراوتها فى أوقات السلم عن أوقات الحرب.

كان هانسن أكثر حرصاً وأمناً فى تعاملاته مع السوفييت من أيمز فكان يستخدم أسماء كودية وكان يرفض تماماً مقابلة السوفييت وجهاً لوجه وظل التعامل بينهم من خلال النقاط الميتة deaddrop وهى عبارة عن عدد من النقاط المتفق عليها فى حدائق ومنتزهات ولاية فيرجينيا القريبة من العاصمة واشنطن وكل نقطة لها اسم متفق عليه أيضاً وهناك نظام للإشارات يعبر عن وجود رسالة بالنقطة أو يعبر عن

تمام تفريغ النقطة وهذه الإشارات عبارة عن أشرطة لاصقة توضع فى وضع أفقى للتعبير عن معنى وفى وضع رأسى للتعبير عن معنى آخر. كما اتفقا على أسلوب لتحديد توقيتات وأزمنة شحن وتفريغ النقاط فإذا ذكر هانسن تاريخًا وتوقيتًا يتم طرح رقم ٦ منه لمعرفة التاريخ والتوقيت الفعلى وإذا ذكر السوفييت تاريخًا وتوقيتًا يتم إضافة رقم ٦ عليه.

وكان الأمن المحكم لاتصالات هانسن هو سر استمرارها لأكثر من عشرين عامًا وبلغ إجمالى ما تقاضاه من السوفييت حوالى ١.٦ مليون دولار أى أن تكلفة الجاسوسيين الإجمالية بلغت أربعة ملايين دولار. ويرجع انخفاض أجر هانسن عن أيمز إلى أن اتصالات هانسن كانت بها فترات توقف مطولة.

وقد قبض على هانسن فى فبراير ٢٠٠١ وبنفس الكيفية التى سقط به أيمز عندما استطاعت CIA من خلال عميل لها داخل المخابرات الروسية الحصول على إحدى الحقائب البلاستيكية التى كان هانسن يستخدمها فى وضع رسائله وتم فحص بصمات الأصابع على الحقيبة فتبين أن إحداها تخص روبرت هانسن.

وبعد القبض على هانسن والقيام بتفتيش منزله وجد فى مذكراته الشخصية مجموعة كتابات وانطباعات كتبها بنفسه ورد فيها الآتى «إن الولايات المتحدة الأمريكية يمكن تشبيهها بطفل متخلف عقليًا قوى البنية وخطير ولكنه غير ناضج ومن السهل توجيهه، ولكن لا تنخدع بالمظهر فهو أيضًا يستطيع بسرعة أن يتحول إلى عبقرى إذا اقتنع بهدف ما».

شكلت قصة هذين الجاسوسين فترة صراع بين أجهزة مخابرات واشنطن وموسكو إلا أنها كانت ضربة موجعة لمجتمع المخابرات الأمريكى بسبب فداحة الاختراق الذى سببه تطوع هانسن وأيمز لخدمة مخابرات موسكو. وقد شهد هذا الصراع عدة جولات كان أولها تعرف موسكو على موظفيها الذين يعملون بسفارتها فى واشنطن وتم تجنيدهم بواسطة المخابرات الأمريكية فقامت باستدعائهم إلى موسكو ومحاكمتهم وإعدام اثنين منهما، هما موترونين Motronin ومارتينوف Martynov بعد محاكمة سريعة.

وفى جولة أخرى استطاعت واشنطن من خلال عملاء لها داخل موسكو التعرف على تجسس أيمز وهانسن فتم القبض عليهما ومحاكمتهما والحكم عليهما بالسجن مدى الحياة وقد تم تخفيف حكم الإعدام بسبب تعاونهما مع سلطات التحقيق فى كشف التعاملات التى أجرياها مع موسكو.

وإذا بحثنا عن العناصر المشتركة بين العمليتين نجد أن مسرح التعامل فيها كان مدينة واشنطن وكانت السفارة السوفيتية هى مركز الثقل وكان أسلوب الاتصالات وتبادل الرسائل هو النقاط الميتة والذى تم بمقتضاه تبادل أعداد ضخمة من الوثائق مقابل مبالغ مالية كبيرة وبالرغم من اعتراض الكثيرين على هذا الأسلوب بسبب ضعفه الأمنى إلا أنه كان ناجحًا جدًا فى عمليتى أيمز وهانسن ولعل حدائق ومتنزهات فيرجينيا ذات المسارات الطويلة والمتعرجة وذات الأشجار الكثيفة كانت عاملاً مساعدًا فى نجاح هذا الأسلوب.

إلا أن أهم عنصر مشترك هو أن العمليتين بدأتا بالتطوع المحض فيما يسمى مهنيًا بالعملاء القادمين walk-in agents وهذا فى حد ذاته يستدعى دراسة خاصة للمجتمع الأمريكى الذى لم تشفع له مستويات الرخاء العالية والقدرة المادية الكبيرة والتى لا مثيل لها من تمرد هذين الشخصين وتحول ولائهما بمقدار ١٨٠ درجة. بل إن الالتزام الدينى أيضًا كان موجودًا بدرجة لدى هانسن. فإذا كان أيمز مفرطًا فى شرب الكحول وأسرته مقصورة عليه وعلى زوجته فإن هانسن كان رجلاً أمريكيًا محافظًا متزوجًا وأبًا لستة أبناء ومسيحى كاثوليكى شديد التحفظ ينتمى لجماعة كاثوليكية تسمى Opus Dei ولها تعاليم متشددة تصل فى بعض الأحيان إلى درجة ارتداء الأسلاك الشائكة لإسالة الدماء باعتبار أن الإحساس بالألم هو نوع من القدسية.

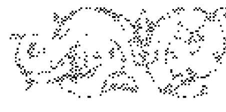
إن هذا الإطار الاجتماعى المحافظ دينيًا والمستقر ماديًا وأسريًا لم يكن كافيًا لمنع هانسن من التطوع للتجسس.

أما العنصر المشترك الأخير فهو البطل المجهول وراء هاتين العمليتين وهو مسئول المخابرات السوفيتية فى سفارة واشنطن الذى أدار بكفاءة اتصالات هانسن وأيمز وحقق منهما مكاسب عظيمة لجهاز مخابراته وظل اسمه مجهولاً عن الإعلام حتى تم القبض عليهما وقد أدلى بحديث لمجلة نيوزويك فى يناير ٢٠٠٥ كما ألف كتابًا نشر حديثًا باسم مدير الجواسيس Handler إنه فيكتور شيركاشين Victor Sherkashin.



تولى فيكتور شيركاشين رئاسة مكتب المخابرات السوفيتية فى السفارة بواشنطن وساقته الأقدار لكى يكون المسئول عن إدارة الاتصالات مع أخطر جاسوسين فى تاريخ مجتمع المخابرات وكان عليه أن يحافظ على أمن وسلامة الاتصالات دون حدوث خلط بينهما ودون تعريض أى من العناصر المشتركة إلى القبض بواسطة السلطات الأمريكية. واستطاع شيركاشين المحنك أن يستحوذ على كميات هائلة من الوثائق والمستندات والخطط السرية وهو يدير العمليتين وسط عاصمة الدولة المخترقة.

وكان لديه بعد نظر احترافى، ففى إحدى المناسبات ذهب إلى حفل استقبال رسمى يعلم أن الدريش أيمز سيكون موجودًا به وتعمد أن يقابله وجهًا لوجه ويتبادلا حديثًا عامًا مقتضبًا ثم تركه. وعندما سئل بواسطة الصحافة بعد تقاعده وبعد كشف عملية أيمز.. ألم يكن ما فعلته يعتبر خطأ مهنيًا قد يعرض أمن الاتصالات مع أيمز إلى الكشف أجاب.. على العكس فأنا أعلم أن وكالة المخابرات المركزية تجرى بشكل دورى عمليات كشف الكذب على العاملين بها للتأكد من سلامتهم الأمنية وأعلم أن من بين الأسئلة الدائمة فى هذه الاختبارات سؤالاً يقول: هل قابلت فى الفترة الأخيرة أحد رجال المخابرات السوفيتية وأجريت معه اتصالاً؟ وحتى لا يتعرض أيمز لأى انفعالات أثناء اختباره عندما يسأل هذا السؤال تعمدت أن أقابله بشكل طبيعى لا يثير الشكوك لأضمن له النجاح فى عبور السؤال.



حروب المخابرات لا تعرف مراحل الصداقة ومراحل العداوة فهى حروب مستمرة تحدث بين الأعداء وتحدث بين الأصدقاء بل إنها قد تشتد فى ضراوتها فى أوقات السلم عن أوقات الحرب



وفى مناسبة أخرى عندما علم شركاشين بالقبض على العميلين السوفيتيين موترونين ومارتينوف واتخاذ قرار بإعدامهما اعترض على ذلك وطلب بدلاً من الإعدام الاستفادة بهما كعملاء ثلاثيين triple agents مما سيعود بفائدة كبيرة على موسكو.

فالعميل الثلاثى يستطيع كشف نوايا جهاز المخابرات الذى يعمل ضده لأنه سيأخذ تعليماته منه ويعطيها للجهاز الذى يعمل معه وستكون هذه التعليمات معبرة عن نوايا وخطط الجهاز الذى يعمل ضده.

لقد كان شركاشين ضابط العمليات case officer وقد أدلى بحديث صحفى إلى جريدة السنداى تايمز فى ٩٨/٢/٨ وكان قد تم القبض على أيمز فى حين أن هانسن كان لايزال يعمل واقتصر حديثه على أيمز دون أى إشارة إلى وجود عملاء آخرين.

وفى ٢٠٠٥/١/١٠ أدلى بحديث آخر إلى مجلة النيوزويك أعطى فيه للصحافة الغربية تفسيرًا لعملية التجسس التطوعى لهانسن وأيمز ومن قبلهما جون ووكر ورونالد بيلتون وجميعهم من العاملين فى أجهزة المخابرات الأمريكية ويفترض فيهم أعلى درجات الأمن والولاء.

فقال..

«إن التصوير المستمر والمتكرر فى الإعلام الأمريكى وبصفة خاصة أفلام هوليوود السينمائية الذى يظهر الفرد الأمريكى أقوى وأذكى وأغنى ويملك تركيبات عجيبة من العضلات ويستطيع إطلاق النيران فى كل الاتجاهات أثرت على النفسية الأمريكية وجعلتها تصاب بالغرور والصلف ومن ثم تفقد الرؤية الصحيحة. وهذا التأثير امتد إلى المؤسسات الأمريكية ومنها أجهزة المخابرات فجعلها تعطى صلاحيات أكبر للأفراد وتتراخى فى المتابعة الدقيقة لمستوياتهم الأمنية ولم تدرك هذه المؤسسات أن الفرد الأمريكى هو إنسان عادى جدًا وفى أحيان كثيرة يكون أقل من العادى بسبب حياة الترف الزائدة التى يعيش فيها.

إن هذا الوضع جعل البعض يتمرد على الغرور والصلف مثلما حدث مع هانسن أو يسعى للكسب المادى أولاً وقبل كل شىء مثلما حدث مع أيمز وفى الحالتين نحن أمام حالة ضعف فى الإيمان وضعف فى الولاء ناتجة من صميم الحياة الأمريكية وهذا هو مربط الفرس».

ولقد حاولت الصحافة الأمريكية أن تقصر التفسير لظاهرتى هانسن وأيمز على مجرد الجشع المادى فقط إلا أن شركاسين أورد هذا التفسير الذى يعبر عن خلل اجتماعى كبير داخل الولايات المتحدة الأمريكية.

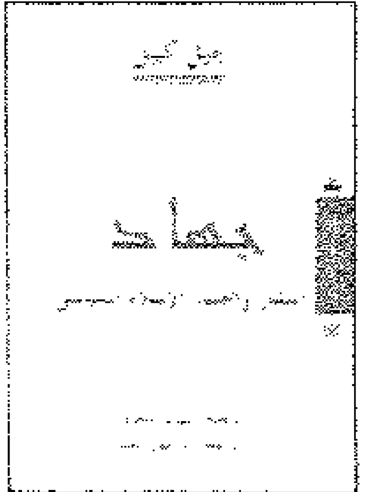
لقد كشف الصراع بين موسكو وواشنطن الكثير من العيوب فيهما، فمن الإهمال والتراخى فى إدارة الأمن الذى أسفر عن قصتى هانسن وأيمز إلى السرعة فى التصرف بدون دهاء فى إعدام موترونين ومارتينوف ثم التناقض الصارخ بين صورة السوبر مان الأمريكى وضعف الولاء لدى هانسن وأيمز وغيرهما.

حقًا عندما يتصارع الكبار تسقط الأقنعة. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

جهاد ـ انتشار وانحسار الإسلام السياسى

جيل كيبل
ترجمة: نبيل سعد
مراجعة: د. أنور مغيث
القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٥، ٥٥٢صفحة



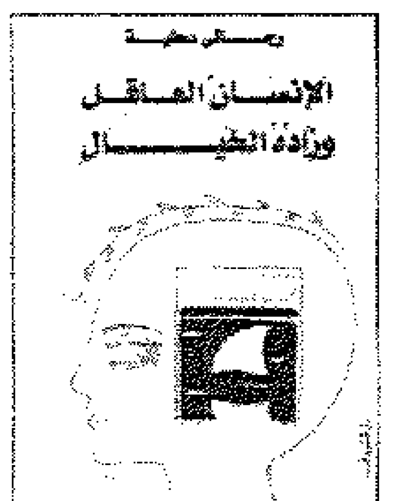
هذا الكتاب هو أول دراسة شاملة لحركة الإسلام السياسى التى انطلقت فى سبعينيات القرن الماضى حتى أيامنا هذه. تتيح هذه الدراسة التى تبنت منظوراً سياسياً واجتماعياً، كيف تفتت الإسلام السياسى بعد صعود جامح بلغ ذروته مع الثورة الإيرانية والجهاد فى أفغانستان إلى اتجاهات متعارضة: انتهى بعضه إلى حلول وسط ديمقراطية، فى حين انساق البعض الآخر إلى العنف والهروب إلى الأمام عبر الإرهاب الدولى.

وهذه الطبعة من الكتاب ـ المزيدة والمنقحة ـ ترافق القارئ حتى الأيام التى أعقبت عمليات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، والانتفاضة الفلسطينية الثانية، وكذلك إلى الأيام التى أعقبت النجاحات الانتخابية للإسلاميين المعتدلين فى تركيا، والسجالات التى تدور بين المسلمين فى أوروبا الغربية.

وقد تمت ترجمة هذا الكتاب إلى إحدى عشرة لغة وظهرت طبعته الأولى عام ٢٠٠٠. وهو الآن يعد مرجعاً أساسياً لحركة الإسلام السياسى فى كافة أرجاء العالم.

الإنسان العاقل وزاده الخيال

رجائى عطية
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ١٨١صفحة



الإنسان كائن عاقل.. بوصلته عقله وزاده الخيال.. فالخيال هو الذى يميز الإنسان عن سائر الكائنات، والخيال هو زاد ومدد العقل الذى يحلق به الإنسان فى المكان والزمان.. ينقله فى المكان بغير سفر، ويستحضر به أزمة مرت، ويتصور به الغيب ويستشرف من خلاله المستقبل، دون أن يفارق اللحظة التى يعيشها.

يؤكد المؤلف أن فى خيال الآدمى ـ مع عقله ـ سر قدرته على الفكر والإبداع، فالخيال ـ من وجهة نظره ـ قطعة من وعى الإنسان لا تفارقه إلى أن يرحل عن الدنيا.

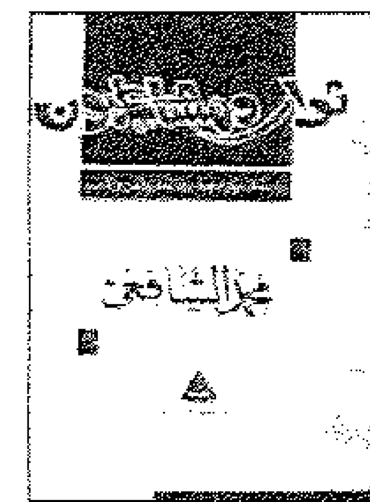
ومن الحماقة أن يستهين أى آدمى عاقل بوجود الخيال ودوره الأساسى فى حياة كل منا، فأوقات الآدميين ليست إلا ميادين اصطلاحية لخيالهم بالنسبة لحياتهم، يقيسون بها حركات الزمان فى المكان كما تصوروها.

وفضائل الإنسان العظيمة كلها نبت لخيال الآدمى.. ولولا الخيال ما عرف البشر هذه الفضائل، ولولاه أيضاً ما كان هناك رجال ونساء أفذاذ ركبوا الصعب وكرسوا العمر وثابروا وقاوموا وصبروا، وما عرف تاريخ البشر قيمة ومكانة وجدوى وكرامة الإخلاص والصدق والاستقامة والشجاعة والمثابرة والبطولة والوفاء والتضحية والإيمان، فالآدمى مركب بالغ الدقة والإحكام والإتقان.

وهذا الكتاب يحشد العديد من القضايا والمواقف التى يعيشها كل إنسان، يرصدها المؤلف ببراعة وبعمق شديدين تؤهل القارئ لكى يفهم حياته بشكل أكثر وعياً ليعيشها بسعادة أكثر.

ثوار ومشاغبون

محمد الشافعى
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤، ١٦١صفحة، ٥٢٥ قرشاً



الثائر الحقيقى من وجهة نظر المؤلف لابد أن يكون مسكوناً بالإبداع، لكى يمتلك القدرة على البناء.. كما أن المبدع الحقيقى لابد أن يكون مسكوناً بالثورة لكى يمتلك القدرة على الإضافة.

وفى هذا الكتاب، يلقى المؤلف الضوء على بعض رواد الثورة والشغب فى الفكر والفن والأدب، موضحاً عظمة هؤلاء الرواد الذين كانت حياتهم سلسلة طويلة من الدروس والعبر، التى تجعل منهم «النموذج الأبهى» للقدوة الجميلة التى أصبحنا نفتقدها الآن بشدة.

وكما يقول المؤلف فإنه توقف فى كتابه هذا عند أصحاب الإبداعات الفارقة والعطاءات الخالدة التى أثرت بشكل كبير فى تاريخ الأمة. ومن هذه الشخصيات: رفاعة رافع الطهطاوى شيخ مشايخ المعارف المصرية الذى تحول إلى جسر للتنوير من خلال نقله لمعارف وثقافة الغرب إلى العرب الذين كانوا ـ آنذاك ـ يعيشون حقبة حالكة من تاريخهم. كما كان سلامة موسى الجامعة التى تعلم فيها عشرات المبدعين فى مناخ يؤكد على حرية التعبير ورحابة العقل.

أما عبد الرحمن الشرقاوى فكان مبدعاً موسوعياً ظل طوال عمره ينادى بفكرة العدالة. ويأتى يوسف السباعى فى طليعة الأدباء الذين شغلتهم فكرة العمل العام حيث كان المحرك الرئيسى لكل الكيانات الثقافية التى مازالت تؤدى دورها حتى الآن.

وهكذا يتناول الكتاب سيرة حياة ١١ نجماً لامعاً فى سماء الفكر والثقافة والفن فى مصر، ليلقى الضوء على أهم ما قدموه طوال تاريخهم.

الحديث النبوى وعلم النفس

د. محمد عثمان نجاتى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ٣٦٠صفحة



يعتبر هذا الكتاب تكملة للكتاب السابق للمؤلف «القرآن وعلم النفس» وهما يقدمان وجهة نظر المؤلف عن التصور الإسلامى الصحيح عن الإنسان، ودراسته لما ورد فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف من مفاهيم نفسية وحقائق تتعلق بالحياة النفسية للإنسان.

وفى هذا الكتاب يعرض المؤلف ما ورد فى الحديث النبوى متعلقاً بالنواحى المختلفة من سلوك الإنسان، مثل دوافع السلوك، والانفعالات، والإدراك الحسى، والتفكير، والنمو، والشخصية، والصحة النفسية، والعلاج النفسى، وحاول المؤلف على قدر الإمكان المقارنة بين ما جاء فى الحديث متعلقاً بهذه الموضوعات وما يذهب إليه علم النفس.

ويأتى هذان الكتابان كمحصلة لاهتمام المؤلف منذ فترة طويلة بدراسة المفاهيم النفسية فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، بهدف الوصول إلى فهم دقيق للتصور الإسلامى للإنسان، ومعرفة وجهة نظر الإسلام فى العوامل الرئيسية للشخصية السوية والصحة النفسية وأسباب الانحراف والشذوذ والمرض النفسى، والطرق السليمة لتعديل السلوك والعلاج النفسى، وأسباب سعادة الإنسان، وأسباب شقائه، ومنهج الحياة الأمثل للإنسان لكى يعيش عيشة آمنة مطمئنة سعيدة.

ويقول المؤلف إن علم النفس الذى يدرس الآن فى الجامعات العربية والإسلامية إنما هو مستمد من الغرب وهو يعتمد فى نتائج البحوث التى أجريت، فى الأغلب، على دراسة مجتمعات غربية غير إسلامية لها تصورها الخاص عن الإنسان، ولها فلسفتها الخاصة فى الحياة، ولها ثقافتها ومعاييرها وقيمها الخاصة، وهو ما يمكن ملاحظته فى نظرية سيجموند فرويد عن دور الجنس فى التحليل النفسى أو فى تمجيد الثقافة الأمريكية المعاصرة للإنجاز فى العمل وأهمية التنافس والتفوق كمعيارين للنجاح.

ومن هنا، فإن أهمية هذا الكتاب تتضح فى اعتماد المؤلف على الثقافة الخاصة التى تميز المجتمعات العربية والإسلامية وسعيه لتقديم مدرسة جديدة يمكن أن تسمى بالمدرسة الإسلامية فى علم النفس.

سينما العالم الثالث والغرب

روى آرمز
ترجمة: أبية الحمزاوى
القاهرة: مكتبة الإسكندرية، مركز الفنون، ٢٠٠٤، ٢٤٨صفحة



يركز هذا الكتاب على تأثير العوامل الاقتصادية ـ الاجتماعية فى تطور ما يمكن تسميته بـ «سينما لا غربية» فى العديد من دول العالم الثالث، فى نفس الوقت الذى كان فيه رواد صناعة السينما خارج أوروبا واليابان وأمريكا الشمالية يعملون ضمن شروط يسيطر فيها الفيلم الأجنبى على الشاشات المحلية، وحيث يسخر التوزيع المحلى لترويج منتجات مستوردة، تعطى للسينما وظيفة تجارية ترفيهية يمكن أن تكون غريبة عن التقاليد المحلية.

يعتمد الكتاب فى دراسته لسينما العالم الثالث على نظرية المركز والمحيط بين الدول العظمى والبلدان التابعة، حيث كانت محاولات إقامة صناعة سينمائية فى دول العالم الثالث محاولة من رأس المال

فى هذه الدول لتأكيد وجوده. وحصوله على حصة متزايدة فى السوق المحلى. كما كان الغرب يجهل تماماً أن إنتاجاً سينمائياً يزدهر فى أجزاء عديدة من العالم اللاغربى فى أواخر العشرينيات من القرن الماضى، حيث كانت الهند مثلاً تنتج أفلاماً أكثر من بريطانيا العظمى.

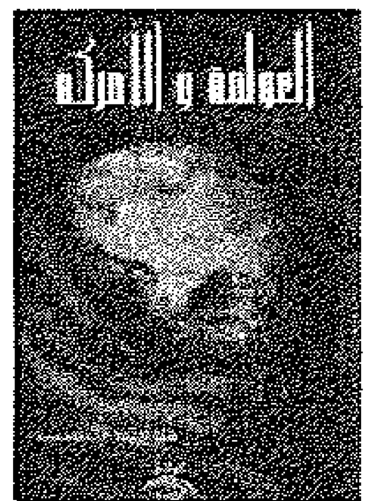
ويستعرض الكتاب ضمن أحد فصوله السينما فى مصر، مشيراً إلى الدور الذى لعبته القوى الأوروبية بعد عام ١٨٤٠ فى إجهاض تجربة محمد على ومحاولته بناء مصر كقوة رأسمالية مستقلة ذاتياً، وتطور الإنتاج السينمائى الخاص فى مصر، وتدخل الدولة فى صناعة السينما خلال المرحلة الناصرية، مستعرضاً بعض الأمثلة من الأفلام المصرية وكيف عبرت عن أوضاع اقتصادية شهدتها مصر طوال القرن الماضى.

■

العولمة والأمركة

موفق النقيب

سوريا: دار الرائى، ٢٠٠٤، ٣٤٤ صفحة



تكتسب «العولمة» أهمية لم يسبق لأى موضوع آخر أن اكتسبته فى تاريخ البشرية، فالعولمة اشتملت كمفهوم كافة جوانب الحياة البشرية اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وفكرياً وثقافياً وحضارة وسلوكيات، وتبنى على أساسها استراتيجيات عمل وآليات تحرك وأنماط تفكير وسلوك.

وفى ذات الوقت، عملت الولايات المتحدة الأمريكية ومازالت، على لى عنق العولمة كى تدخل كما يقول المؤلف فى عنق زجاجة الرؤية الأمريكية بكافة جوانبها، والتى تتحكم فيها الرغبة الأمريكية الإمبراطورية بفرض سيطرة عالية تقدم من خلالها الحلول المناسبة لمصالحها الاستراتيجية.

وعلى جانب آخر، أخذت القوى العالمية التى تنضوى تحت تحالفات أو منظمات دولية تسعى لإخفاء صورة إيجابية على مسائل العولمة وللاتجاه نحو صفات إنسانية وحضارية تسمح بتكريس ما يسمى بحوار الحضارات، والاستفادة من الجوانب الإيجابية فى الحضارات لصياغة حالة عولمية منفتحة تخدم مصالح البشرية، وتستفيد من أخطاء الماضى، وتؤسس بحالة متقدمة فى مسيرة التطور البشرى مع الحفاظ على الخصائص والهويات المتميزة لكل مجتمع أو لكل تجمع دولى أو إقليمى.

وقد شكلت هذه المعادلة بطرفيها المتضادين: طرف الرؤية الأمريكية، وطرف العولمة العالمية الأخرى، حالة من الصراع العالمى الذى أخذ يسود العالم فى مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة وسقوط القطب السوفيتى وكتلته الاشتراكية.

وقد أخذ هذا الصراع أشكالاً مختلفة، تراوح بين الصراع النظرى والتقنى من خلال منظمة التجارة العالمية والمنظمات الدولية الأخرى، والصراع المكشوف فى ساحات إقليمية كما يجعل فى أفغانستان والعراق وفلسطين والبلقان.

وهذا الكتاب يرصد أبعاد هذا الصراع والتجاذب والتنافر فى طروحات العولمة، وانعكاسات الصراع الدولى على العالم العربى والخطاب الإسلامى ومخططات أمريكا فى المنطقة العربية، والصراع العربى الإسرائيلى.

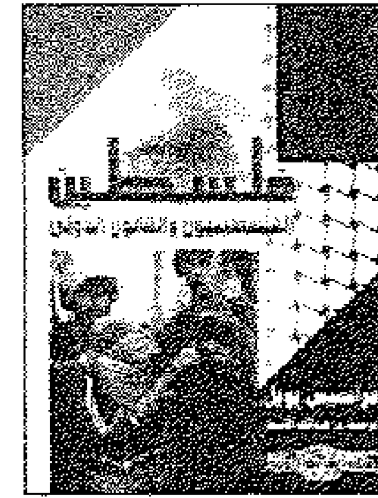
■

فلسطين ـ الفلسطينيون والقانون الدولى

فرانسيس بويل

ترجمة: د. عبد الله الأشعل

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤.، ٢٨٥ صفحة



هذا الكتاب من الكتب النادرة، فهو بقلم أستاذ أمريكى متخصص فى القانون الدولى يجمع بين الدقة العلمية والإنصاف الظاهر لحقوق الشعب الفلسطينى. لذلك فهو يعد باللغة الإنجليزية مرجعاً مهماً للمتحدثين بها، كما تعد ترجمته العربية مرجعاً مفيداً لقراء العربية يفوق المصادر العربية المتاحة فى دقته وتفصيله.

ويقدم الكتاب معلومات أساسية حول مبادئ حقوق الإنسان الدولية القانونية التى تنطبق على الصراع الفلسطينى ـ الإسرائيلى، وملاءمتها للتوصل إلى أى تسوية شاملة للسلام فى الشرق الأوسط بين إسرائيل وفلسطين، وكذلك بين إسرائيل والدول العربية المجاورة.

يتناول الكتاب رؤية المؤلف للأكاذيب التى تستند إليها السياسة الخارجية الأمريكية فى العديد من مناطق العالم وعلى رأسها الشرق الأوسط، ويقول المؤلف أن اللوبى المؤيد لإسرائيل فى الولايات المتحدة والمنتفعين منه فى الكونجرس الأمريكى حاولوا بشكل مستمر ممارسة الضغط على الرؤساء الأمريكيين المتعاقبين لكى يعترفوا بالقدس عاصمة لإسرائيل، حتى لو أدى هذا إلى إشعال الرأى العام فى العالم الإسلامى كله الذى يشكل سدس سكان العالم.

ويتتبع الكتاب مراحل الكفاح الفلسطينى منذ انتداب عصبة الأمم على فلسطين مروراً بالانتفاضة وأوسلو وانتفاضة الأقصى والجدار العازل وسياسات واشنطن المعادية للحقوق الفلسطينية المشروعة والمقررة قانونياً، كما يحوى الكتاب قائمة ببليوجرافية لأعمال الإبادة التى مارستها إسرائيل على الفلسطينيين خلال انتفاضة الأقصى.

■

تحطيم الأسطورة ـ تخطى الإسلام للعنف

بروس ب. لورنس

تعريب: عساف علم الدين

مراجعة: د. رضوان السيد

السعودية: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٤، ٣٢١ صفحة



يحاول هذا الكتاب أن يقدم فهماً مختلفاً عما هو شائع فى الغرب عن الإسلام والمسلمين. فكما يقول المؤلف إن الإسلام يحفل بالرؤى التعددية للواقع كما أن المسلمين متسامحون على نحو كبير. ويتساءل: إذا كان الوضع هكذا، فلماذا ينظر إلى المسلمين وإلى الإسلام كدين غريب فى أفضل الحالات أو دين عنيف فى أسوئها؟ يجيب المؤلف أن السبب الرئيسى لهذه النظرة السلبية للإسلام، وأن الإسلام ينبع من شرق أوسط عربى معاد للآخر، فى نفس الوقت الذى لا يزال معظم الصحفيين وكثيرون من صناع القرارات السياسية فى الغرب يتجاهلون أى رؤية موضوعية للإسلام ويرددون نفس مقولات الملوك الأوروبيين الذين شنوا حروبهم الصليبية على العرب قبل نحو ألف عام.

يوضح المؤلف أنه بعد مرحلة الحرب الباردة، بدأ الغرب يردد وجود الخطر الإسلامى الأخضر، بعد انهيار الخطر الشيوعى الأحمر. كما أن العدو الإسلامى هو بكل تأكيد عبارة عن محارب أجنبى تم استحضار صورته من الماضى، أو إرهابى محتمل يراقب أمريكا المعاصرة. كان أن النساء المسلمات دوماً يتعرضن لقمع أزواجهن المستبدين، دون الإشارة بأى حال من الأحوال للمشاركة الفعالة للنساء المسلمات فى مجتمعاتهن وباختصار فإن: الرجال المسلمين يكرهون الغرب ويسيئون معاملة نسائهم.

وهذه الصورة تعتمد على جعل الإسلام ديناً للذكر المتخلف والعنيف، وتسويق هذه الصورة بشكل نمطى على كل المسلمين فى كافة أرجاء العالم.

وقد نجح الكتاب فى تفنيد هذه التصورات غير الحقيقية للإسلام والمسلمين، محاولاً تقديم صورة غربية موضوعية عن الإسلام وأنه ليس دين عنف كما تحاول الدعايات الغربية الرخيصة تصويره، مستشهداً بالعديد من المفكرين الإسلاميين المعاصرين.

■

القتل السياسى ـ حرب أرئيل شارون ضد الفلسطينيين

باروخ كيمير لينغ

ترجمة: عمار أحمد حامد

سوريا: دار الرائى، ٢٠٠٤، ٢٠٠ صفحة



القتل السياسى هو عملية متعددة المستويات، ليس بالضرورة أن تعتمد على تعاليم وأوامر عسكرية، ولكنها تستهدف فى الأساس إنهاء الوجود الفلسطينى ككيان اقتصادى وسياسى واجتماعى شرعى. وقد تستوجب هذه العملية قيام شارون بعملية تطهير عرقى من الأرض المعروفة باسم أرض إسرائيل بشكل كامل أو جزئى، إلا أن هذه الخطوة ستؤدى إلى تعفن النسيج الداخلى للمجتمع الإسرائيلى، كما تهدم الأساس الأخلاقى للدولة اليهودية فى الشرق الأوسط. ومن هذا المنطلق ستكون النتيجة بمثابة قتل سياسى مزدوج للكيان الفلسطينى، والكيان اليهودى فى آن.

وتبدو جذور الأزمة ـ كما يرى المؤلف ـ أن النظام الثقافى والسياسى الإسرائيلى غير قادر على ممارسة تطهير عرقى على نطاق واسع، فى نفس الوقت غير قادر على طرح تسوية حقيقية مقبولة عند معظم الفلسطينيين.

ويؤكد المؤلف أنه بما أن السياسة الحالية والقيود الأخلاقية لن تسمح بالتطهير العرقى فى الوقت الحالى، إلا أن هناك عدة عوامل ستجعل من هذا الأمر واقعاً فى زمن ما من المستقبل. فالشعب الإسرائيلى اليوم ـ على عكس ما كان عليه فى الماضى غير البعيد ـ يعتبر أن نقل السكان الفلسطينيين ـ التعبير اللطيف للتطهير العرقى ـ هو الموضوع الشرعى للنقاش، خاصة أن الأيديولوجيا المنتشرة وسط اليمين الإسرائيلى والفصائل الدينية هو تنظيف أرض إسرائيل من العرب، لتؤسس إسرائيل سابقة فى العالم كله فى مجال التطهير العرقى.

ورغم تأكيد الكتاب على التفوق العسكرى والاقتصادى والتكنولوجى الإسرائيلى، إلا أن هذا الكيان الإسرائيلى

ولد فى الخطيئة وعلى أنقاض ثقافة أخرى تعانى من التطهير السياسى والعرقى، ورغم ذلك لم تنجح الدولة الجديدة فى إبادة الثقافة الأصلية المنافسة كما فعلت المجتمعات الاستيطانية المهاجرة الأخرى.

وإزاء هذا الوضع غير المسبوق فى تاريخ الصراعات البشرية، يؤكد المؤلف أن طرفى النزاع فهما أخيراً أنهما فى وضع اللا انتصار، وأنه لا الجيش ولا الاستراتيجية السياسية، أو كلاهما معاً ـ ستؤديان إلى زوال الخصم، وأنه إذا استمر الصراع والكره فسيؤدى هذا إلى حالة من الإنهاك طويل الأمد، التى سينجم عنها دمار وزوال المجتمع الإسرائيلى، إذا ما تصاعد الصراع ووصل إلى حرب إقليمية سواء استخدمت الأسلحة غير التقليدية أم لم تستخدم. كما أن عدم التوصل إلى تسوية بين الإسرائيليين والفلسطينيين سيؤدى بالدولة اليهودية المعاصرة إلى أن تصبح مجرد «هامش» فى تاريخ العالم.

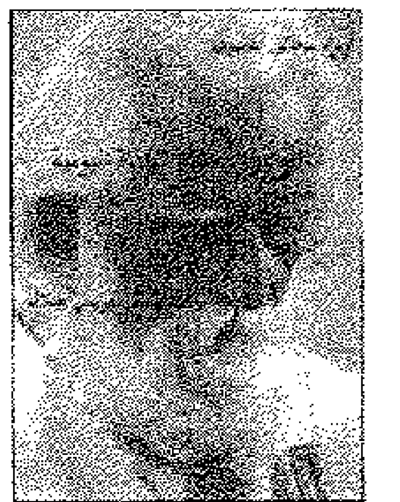
■

القواعد الذهبية للحياة اليومية

أومرام ميخائيل إيفانهوف

ترجمة: موريس جلال

سوريا: دار الراتى، ٢٠٠٤، ٣٤٤ صفحة



لنفرض أنك مضيت متنزهاً فى غابة، وتهت فيها بعد أن ضللت الطريق، فسلكت درباً أفضى بك إلى منطقة مستنقعات موبوءة بالذباب والبعوض والأفاعى، وأصبحت مهدداً ومحاصراً.. فما الذى يمكنك أن تفعله؟!

الحل الوحيد الذى يقدمه هذا الكتاب هو أن تهرب وتعود أدراجك فترتد إلى الخلف بقصد استعادة طريقك.

وعلى الصعيد النفسى، إذا داهمتك الأفكار والمشاعر السلبية، فمن الأفضل أن تتجنب المجابهة، لأنك إذا لبثت طويلاً فى الظلام، فلن تقهر الظلام، بل هو الذى سيقهرك، وإن بقيت طويلاً فى الحقد، فإنه سوف يهلكك، وإذ بقيت فى الخوف والمتع السيئة، فإنها ستتغلب عليك، وعليك أن تستبسل وتناضل بقصد تعزيز قواك على الصعيد الجسدى، أما على الصعيد النفسى فمن الأفضل ألا تجابه القوى المعادية بل ينبغى عليك أن تقول: كيف أنقذ نفسى منها؟

هذه هى حكمة الكتاب الأساسية التى وضعها المعلم والفيلسوف أومرام إيفانهوف ١٩٠٠ ـ ١٩٨٦ الفرنسى ذو الأصل البلغارى.

والمؤلف يراهن على ضرورة التوفيق بين الحياة المادية والروحية، مع ضرورة أن يكرس كل إنسان حياته لأجل هدف سام يسعى لتحقيقه، وبهذه الوسائل يستطيع الإنسان أن يعيش حياة هادئة هانئة رغم المشاكل والصعوبات والأزمات التى تواجهه.

■

الرسوم المتنوعة

جورج البهجورى

القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٥، ١٦٨ صفحة



فى هذا الكتاب يحكى الفنان جورج البهجورى حكايته مع الكاريكاتير بالقلم وبالريشة معاً.

فى صفحاته الأولى، يحكى البهجورى كيف عشق الرسم منذ طفولته، وكيف كان يعبر عن مشاعره بالرسم، فقد كان يرسم المدرس بالطباشير على السبورة، كما كان يرسم كبار أفراد عائلته بشكل ساخر وكان يخفى عنهم رسوماته خوفاً من عقابهم، وكانت مشكلة منع أسرته له من الكلام فى حضرة الكبار، دافعاً له للرسم، خاصة بعد أن أصبح ـ كما يقول ـ مريضاً بالخجل ولعثمة الكلام. وعندما دخل أخوه الأكبر الجامعة الأمريكية بمنحة لتفوقه بعد أن عجز الوالد عن تعليمه، أخذه من يده إلى أستاذ كبير للرسم فى كلية الفنون الجميلة رحب به وأعطاه أول درس فى الرسم بقلم الفحم، وكان هذا الأستاذ هو الفنان كمال أمين. وفى الكلية التقى البهجورى بالعديد من الأساتذة: أحمد صبرى، وبيكار، وحمودة، وكامل مصطفى، والبنانى، والجزار، والسجينى، وعرفه بيكار على صاروخان.

وفى هذه الصفحات يروى البهجورى العديد من المواقف التى مر بها فى حياته وأشهر رسوماته، وعلاقاته بفنانى الكاريكاتير، وكيف التحق بروزاليوسف، وكيف تشكل وعيه السياسى هناك، وكيف تعرف على صلاح جاهين الذى بدأ الرسم فى روزاليوسف وعلاقاته بحجازى وبهجت واللباد، وأيضاً العديد من الكتاب مثل أحمد بهاء الدين وإحسان عبد القدوس وعبد الرحمن الشرقاوى وفتحى غانم وغيرهم.

أما الجزء الثانى من الكتاب فقد خصصه البهجورى لعشرات الرسوم الكاريكاتيرية التى تتراوح بين رؤاه السياسية والاجتماعية والفنية، التى تثير البسمة وتدفع العقل للتفكير وطرح التساؤلات فى آن.

■

آفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن

نعوم تشومسكى

ترجمة: حمزة بن قبلان المزينى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ٤٣٢ صفحة



فى فصول هذا الكتاب السبعة، قدم تشومسكى أفكاراً جديدة للدراسات الفلسفية التى تعرضت لقضايا اللغة والذهن. وهو ينطلق من أن «أكثر معرفتنا باللغة فطرية إلى حد يفوق ما كان متوقعاً من قبل»، ويؤكد أيضاً على «أن خصائص اللغة الجوهرية كلها موجودة فى الدماغ منذ البداية، وهو ما يعنى أن الطفل ليس بحاجة إلى أن يتعلم من العدم خصائص اللغة التى يتعرض لها».

يتناول الفصل الأول أفكار تشومسكى فى الوقت الراهن عن طبيعة الملكة اللغوية، موضحاً أن «وراثة» هذه الملكة يمكن أن تكون هدفاً بعيداً للبحث العلمى، ويبين هذا الفصل نزعة تشومسكى التى صارت مألوفة الآن حيث يضرب أمثلة بسيطة ليرتب عليها نتائج عميقة، فعلى سبيل المثال إذا احتوت مكتبة على نسختين من رواية الحرب والسلام لتولستوى واستعار كل واحدة منهما شخص مختلف. فهل أخذ الشخصان الكتاب نفسه أم أخذا كتابين مختلفين؟ وكلتا الإجابتين ملائمة تبعاً لما إذا كنا ننظر إلى الكتاب بوصفه وحدة مادية أو وحدة مجردة.

ويوجه الفصل الثانى «تفسير استخدام اللغة» نقداً لوجهات نظر الفلاسفة الذين يرون أن اللغة شأن خارجى خاصة الفيلسوف الأمريكى المعاصر هيلارى بتنام، ويقدم تشومسكى سلسلة طويلة من الأمثلة الجديدة للبرهنة على وجهة النظر التى مفادها أن أكثر معالجات اللغة نجاحاً هى التى تصاغ فى ضوء الحواسب الآلية التى تجرى تجاربها على التمثيلات الذهنية الداخلية.

ويضرب تشومسكى أمثلة على صحة وجهة نظر القائلين بأن اللغة موضوع داخلى، مثل «يصبغ جون البيت بنياً» وبالقطع فإن السطح الخارجى للبيت هو الذى يصبغ له سطحه الداخلى، ومع ذلك فلا يمكن أن يكون معنى البيت مقصوراً على سطحه الخارج.

ويفعل الفصل الثالث هذه الأفكار بشكل أوسع، ويتناول فيه المؤلف تفنيد أفكار الفيلسوفين الأمريكيين المعاصرين ويلارد كوين ومايكل دومسيت فى عدد من القضايا مثل عدم وثوقية الترجمة.

أما الفصل الرابع فيؤكد على أنه ينبغى أن تخضع اللغة لنماذج وشروط إضافية على تلك التى تراعى فى العلوم الطبيعية عموماً. ويبدأ تشومسكى بملاحظة أن مصطلح «ذهن» يحدد ببساطة بعض مظاهر العالم المعينة التى تود أن تخضعها للبحث العلمى، ثم يتناول عرضا دقيقا للأفكار ـ من حيث صلتها بدراسة اللغة بشكل خاص ـ بدءاً من ديكارت إلى وقتنا الحاضر.

ويتناول الفصل الخامس عدداً من القضايا السابقة لكن مع التركيز مباشرة بصورة أكثر على اللغة ومعرفة اللغة فيرى تشومسكى أن اللسانيات تنتمى إلى العلوم الطبيعية.

ويبحث الفصل السادس فى بعض القضايا نفسها لكن باستخدام أمثلة أخرى وبمناقشة مطولة للاختلافات بين البحث العلمى الطبيعى وما يسمى غالباً «بالعلم الشعبى» وهو العلم الذى يهتم بالكيفية التى يؤول بها الناس ثبات الموضوع وطبيعة الحركة ومسبباته.

ويطرح الفصل السابع مناقشة أوسع لقضايا اللغة والذهن منها ما يقال عن أن هناك ما يسوغ الاعتقاد بأن لدى البشر «عضواً» مخصوصاً مقصوراً على استخدام اللغة وتأويلها ويسميه تشومسكى «الملكة اللغوية» والتى يقول إنها مشتركة بين أفراد النوع، وتتخذ حالات تتنوع بطرق محدودة تبعاً لتنوع التجربة. وتسهم هذه الحالات بتفاعلها مع أنظمة أخرى ـ معرفية وإحساسية حركية ـ فى تحديد صوت التعبيرات اللغوية ومعناها.

يطرح الكتاب أيضاً بقلم المترجم سيرة حياة مختصرة لنعوم تشومسكى منذ مولده عام ١٩٢٨ لأبوين روسيين هاجرا لأمريكا عام ١٩١٣ هرباً من تجنيد أبيه فى الجيش القيصرى رغماً عنه، وانكباب تشومسكى على القراءة منذ صباه وقراءته لنصف دائرة معارف تتكون من عدد من المجلدات الضخمة وهو فى السابعة من عمره، بالإضافة إلى اهتمامه المبكر باللغة العبرية، ودراسته فى أمريكا وتأثره بالأفكار اليسارية التى كان يعتنقها عدد من المفكرين اليهود النازحين من روسيا وأوروبا الشرقية.

■

■

ناس وسياسة واقتصاد

رسوم: نبيل تاج
القاهرة: كتاب الأهرام الاقتصادي، ٢٠٠٤، ١١٢ صفحة، ٣٦ جنيهًا



هذا الكتاب غير عادي من ناحيتين:

الناحية الأولى هي أنه ربما يكون من أوائل الكتب التي تحكي بالرسوم مسيرة الحياة الاقتصادية في مصر خلال سنوات طويلة مليئة بالحركة، والصعود والهبوط، والمشاكل والأزمات، والانفراجات والإصلاحات، ومن ثم فهو تسجيل كامل بالرسم تصل تلك الظواهر.

أما الناحية الثانية، فتتعلق بريشة الفنان الكبير تاج الذي رسم بيده وفكره هذه الظواهر، فجاءت الرسوم خير تعبير عنها، بل ربما - وبغير تجاوز - كان الرسم - أحيانًا - أكثر تعبيرًا وقوة عن الموضوع ذاته. هذه الرسوم ترتقي إلى مستوى العالمية - وليس في هذا أي قدر من المبالغة، فالصحف العالمية نقلت رسوماته في بعض القضايا، وكثير من الاقتصاديين استأذنوا الفنان الكبير في استخدام أحد رسوماته البارزة كأغلفة لبعض كتبهم.

وتاج ليس مجرد فنان، ولكنه كتلة من الإحساس الفني الناضج الرقيق، مع فكر عميق متكامل في شتى الموضوعات، وله إلمام واسع بالقضايا الاقتصادية والسياسية، وهذا سر ابداع رسوماته على أغلفة مجلة الاقتصادي. فالرسم عنده قضية وموضوع ورأي وإضافة جديدة، رغم تشابه الموضوعات والظواهر الاقتصادية وتكرارها.

أنا والعولمة - عالم بديل ممكن

سوسان جورج
ترجمة: محمد مستجير مصطفى
القاهرة: إصدارات سطور، ٢٠٠٥، ٢٤٠صفحة



تبدو رنة كلمة العولمة وكأنها تعني نظامًا اقتصاديًا يدمج جميع البلدان، وجميع الطبقات، وجميع الشعوب، في كل واحد منسجم، لكنها في الواقع تعني العكس تمامًا: شروطًا سياسية غير متساوية للغاية لاندماج البلدان ذات مستويات التطور المختلفة في الاقتصاد العالمي، واستبعادًا لم يسبق له مثيل في كل من الشمال والجنوب من العملية الاقتصادية، وبالتالي من المجتمع. فملايين الناس يكتشفون فجأة أنهم أصبحوا زائدين عن الحاجة، وغير ضروريين في كل من الإنتاج والاستهلاك. وفي حين اعتاد التقدميون مهاجمة الاستغلال، إلا أنه قد أصبح ميزة الآن أن يستغلك أحد فأنت على الأقل لازال لديك عمل ودور.

وفي ظل هذا النظام، فقد زادت أرقام مبيعات بعض الشركات عن إجمالي الناتج القومي لمعظم الدول، وعلى سبيل المثال فإن شركة الكيسنون موبيل أكبر من باكستان وجنرال موتورز أكبر من الجزائر. وفورد وديملار أكبر من نيجيريا أو المغرب وهكذا..

ويؤكد الكتاب أن الشركات العملاقة والمؤسسات المالية الكبرى أمامها الآن مساحة واسعة لوضع القواعد التي تحكم الجميع، وخاصة لأنها كثيرًا ما تسيطر على وسائل الإعلام، وهي تسعى إلى قدرة أكبر لتبني السياسات الوطنية والدولية لتتواءم مع احتياجاتها. فالعولمة في حقيقتها هي آخر مراحل الرأسمالية العالمية والإطار السياسي التي يساعدها على الازدهار. والكلمة لها مدلولات أيديولوجية لأنها تنقل الأفكار التي تخدم على خير وجه مصالح المستفيدين من الترتيبات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية القائمة. وهم حين يستخدمون الكلمة يريدون منك أن تعتقد أن العولمة كلية ومفيدة للجميع. إلا أن هذا هراء، لكنه هراء فعال، يساعد أحيانًا في تحاشي الغضب والتمرد الشعبيين.

ومن حسن الحظ أن كلا من الغضب والتمرد في تصاعد.

والكتاب أساسًا همه الرئيسي هو فضح العولمة التي تريدها الشركات الكبرى في الغرب، ويتوجه إلى الكثيرين في شتى بقاع العالم الذي يأملون ويؤمنون بأن التغيير ممكن، وأن العالم لابد أن يكون أكثر عدالة.

خريف الثورة - صعود وهبوط العالم العربي

أحمد المسلماني
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٥، ٣٠٠صفحة



يؤكد المؤلف في مقدمته لكتابه أن مجمل الثورات العربية لم تحقق شيئًا،

الرئيس الشهيد رفيق الحريري: الحلم، الحقيقة، الخسارة

مجموعة مؤلفين
ترجمة وإعداد: رامي الريس
لبنان: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٥، ٤٨٠ صفحة، ٨ دولارات



هذا الكتاب ليس دراسة سياسية تبحث وتغوص في أعماق «ظاهرة» رفيق الحريري، بأبعادها اللبنانية والعربية والدولية، ولا يمكن تصنيفه سلفًا في قائمة الكتب العديدة المنتظر ظهورها تباعًا لقراءة الأسباب الكامنة وراء اغتياله في تمام الساعة الواحدة إلا خمس دقائق يوم الاثنين ١٤ فبراير الماضي في بيروت.

فهذا الكتاب يجمع بين دفتيه بعض ما كتبه مواطنون تعبيرًا عن عواطفهم إزاء فاجعة اغتيال الحريري، فسطروا مشاعرهم الصادقة على صفحات الصحف والمجلات والدوريات ومواقع الإنترنت.. فهي كتابات، ببساطة شديدة، تعبر عن آراء الناس، نظرتهم، همومهم، خوفهم، قلقهم، حزنهم.. ولكنها بالقدر ذاته تحكي عن أملهم، شوقهم، أحلامهم، عنادهم.

ولم يكن الهدف من إصدار هذا الكتاب رصد التحليلات السياسية والأمنية والقضائية، بقدر ما هو محاولة لإبراز صورة رفيق الحريري الزعيم اللبناني العربي من وجهة نظر المواطن العادي الذي لم يتعرف عليه إلا بواسطة الإعلام أو المؤتمرات الصحفية، أو الإنجازات التي طبعها باسمه في مختلف المناطق اللبنانية.

وكما يقول الكتاب في مقدمته فإن الحريري أنجز في عقدين ونصف «١٩٨٠ - ٢٠٠٥» في المجالين الشخصي والعام، ما يعجز غيره عن إنجازه في أجيال، ومع ذلك كانت هناك أحلام كبيرة يتمنى الشهيد تحقيقها منها أمله في استقامة مجال الحياة السياسية اللبنانية، وفي مجال تطبيق اتفاق الطائف، وفي مجال تسريع الإصلاح والاندماج في الاقتصاديين العربي والعالمي ودخول السوق العالمية بقوة.

والواقع أن هناك قصورًا شديدًا في هذه المجالات كلها، ولا يعود ذلك إلى صعوبات الظروف فقط، بل إلى غياب الإرادة السياسية والانضباط السياسي.. ومن هنا فإن للكلمات التي قيلت في الرئيس الحريري دلالات كبرى، من حيث إنها تعني الأمل وتعني الالتزام، وتعني الثقة بشخص الفقيد ونهجه الوطني والقومي.

وقد كان الحريري في حياته السياسية صاحب مشروع يتعلق ببناء الدولة، وبالنهوض السياسي والاقتصادي والاجتماعي وبالتقدم، لكنه كان قبل ذلك كله وبعده حريصًا على البعدين الوطني والقومي في مسيرة حياته السياسية وفي مشروعه، وقد أراد الذين اغتالوه النيل من هذين البعدين والقضاء على فكرة وإمكانية الجمع بينهما.

لكن التوحد حول شهادته، ومن حوله أسرته وتياره ونهجه، كل ذلك فوت الهدف على الأعداء والمتآمرين.

وكما يقول السياسي اللبناني فؤاد السنيورة، إنه إذا كان من الصحيح أن الكثير مما تمناه الحريري وعمل من أجله قد تحقق، إلا أنه تبقى الكثير مما كان يخطط لفعله ويحلم بتحقيقه، ويعود السبب في ذلك لعاملين: الأول يتمثل في الإعاقات والإشكالات المقصودة التي واجهت الحكومات التي ترأسها على مدى السنوات الماضية ولاسيما الحكومتين اللتين ترأسهما خلال السنوات الأخيرة.

والثاني، يعود إلى ذلك الكم الكبير من الآمال العراض والبرامج التي كان يحملها ويطورها في فكره لكي تتلاءم مع رؤاه للبنان ودوره في المنطقة العربية في القرن الواحد والعشرين.. وفي هذا المجال كان يحلو للرئيس الحريري قول الشاعر: «إذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام».

والكتاب في مجمله، وإن كان يعتبر مرثية للحريري، إلا أنه في الأساس يعبر عن روح هذا الشهيد البطل الذي واجه الخراب ودمار الحرب في لبنان، بسلاح الأمل والمثابرة والتفاؤل والعمل الجاد من أجل صنع لبنان جديد يسوده السلام والبناء، لا الحرب والدمار.. وفي حياة الحريري استطاع أن يصنع المعجزات، وكانت أيضًا لحظة استشهاده صيحة تحذير من هدم كل ما بناه الحريري مع سواعد كل طوائف وأبناء الشعب اللبناني.

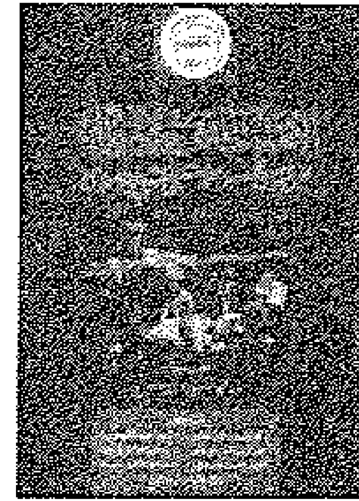
وأن الميزة الأعظم التى ابتلع العرب من أجلها كل شىء وهى ميزة الاستقلال وقيم النظام الجمهورى، سرعان ما تآكلت بعد نصف قرن فقط، لتبقى مآسى عصر الثورة وترحل فضيلتها الوحيدة فى هدوء. فهذه الثورات أنهت احتلال الخارج وأبقت احتلال الداخل، أى أنها بدلت المستعمرين الأجانب، وقامت بصياغة «استعمار وطن» جديد احتل فيه الثوريون السلطة ليبدأ إحساس عام بالنشوة والانطلاق، ثم أتت النوازل تباعاً .. كارثة وراء أخرى.

وفى هذا الكتاب يغوص المؤلف فى عصر الثورات العربية فى سنوات الصعود، ثم يتابعها عن كثب فى سنوات الانكسار، وهو يحاول أن يجيب على سؤال محورى وهو: ماذا جرى للثورة فى العالم العربى؟

والكتاب كما يقول د. عبد الوهاب المسيرى فى تعليقه عليه يجيب على هذا السؤال بشكل سرد ممتع للأحداث، حتى واع للتفاصيل بطريقة تعطيها دلالة عميقة، وهو ما انقذ الكتاب من السقوط فى الرؤية الأيديولوجية الاختزالية التى تلوى عنق المعلومات وتنتقى منها ما يمكن حشره داخل نمط مسبق.

الانتخابات التشريعية فى إيران مجلس الشورى السابع ومستقبل المشروع الإصلاحى

المحرر: د. محمد السعيد إدريس
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٥، ٤٠٧صفحات

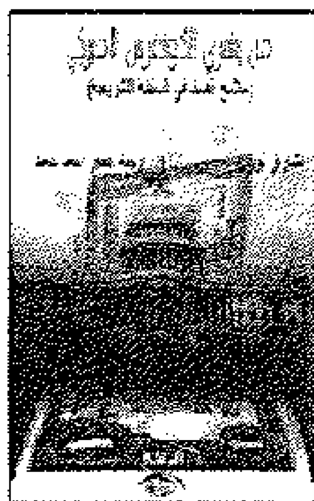


وراء الهياكل السياسية الإيرانية الموجودة حاليًا، تاريخ ثقافى وسياسى كبير يتسم بالثراء والتركيب والمحمولات الرمزية والثقافة الدينية والحداثية، ومن ثم تبدو الصفوة الدينية المحافظة والإصلاحية أيضًا، حاملة تناقضات عديدة بسبب انعكاس بعض هذا التاريخ على إدراكها السياسى لمستقبل التركيبة الداخلية للنظام السياسى الإيرانى، فى ظل تحولات نوعية فى النظام الدولى، وفى سياقاته الإقليمية العديدة، خاصة فى ظل انهيار النظام والدولة فى العراق، وضغوط الولايات المتحدة - عبر احتلالها للعراق مع القوات البريطانية والتحالف الدولى - على بعض توجهات السياسة الإيرانيـــة الخارجيـــة، وفى المجال النووى.

يستعرض الكتاب عبر بحوث المشاركين فيه وهم د. محمد السعيد عبد المؤمن، ود. نيفين عبد المنعم، وأحمد السيد النجار، ود. باكينام الشرقاوى، وأحمد منيسى، ود. مدحت أحمد حماد، ومحمد عباس ناجى، تشكيل مجلس الشورى السابع فى إيران، والمشروع الإصلاحى بقيادة الرئيس محمد خاتمى الذى أوشك على نهاية ولايته، والصراع الداخلى مع المحافظين، كما يتناول السياقات الدستورية والقانونية وبيئة العملية الانتخابية، والقوى السياسية المشاركة فيها، والبرامج الحزبية والسياسية، وقضايا المعركة السياسية داخل إيران وتفاعلاتها ونتائجها، فضلاً عن دور المرأة، وتقديم رؤية مستقبلية للمشروع الإصلاحى فى إيران.

من يشترى الكونجرس الأمريكى «ملامح الفساد فى السلطة التشريعية»

تشارلز لويس
ترجمة: عمار أحمد حامد
دمشق: دار الرائى، ٢٠٠٤، ١٦٧صفحة

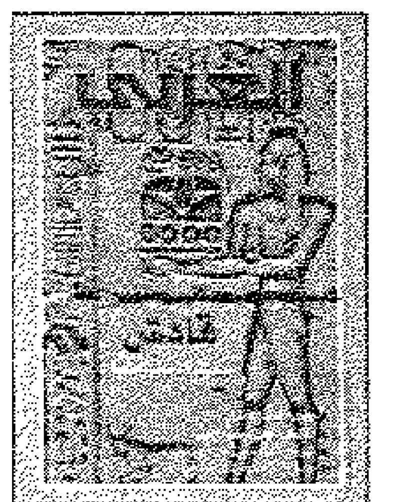


يلقى هذا الكتاب الضوء على الفساد المستشرى فى السلطة التشريعية فى الولايات المتحدة الأمريكية، بالتفصيل وبالوثائق. وهو ما جعل هذا الكتاب يكتسب أهمية خاصة، نظراً لأنه يأتى فى الوقت الذى تحاول فيه الولايات المتحدة طرح نفسها كقوة إمبراطورية تحمل لواء الديمقراطية وتنادى بإصلاح الأنظمة السياسية والاقتصادية والإدارية فى العالم الثالث.

دوريات

العـــربى

الكويت: العدد ٥٥٧، أبريل ٢٠٠٥



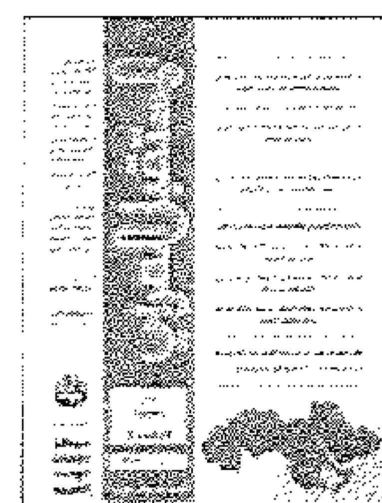
يحفل هذا العدد بموضوعات متنوعة ومتميزة، منها موضوع عن «قادش مدينة الحرب والسلام». ويلقى الضوء على بعض فصول التاريخ الفرعونى. وبالعدد أيضاً موضوع عن مدينة براغ ومشاهد من زمن الحرية.

ويلقى العدد الضوء أيضاً على الكتابة النسائية فى المغرب، وأيضاً عن العرب وكيف انتبهوا لأدب الأطفال، بالإضافة إلى دراسة عن د. أحمد زكى.

وفى باب مستقبليات، توجد ثلاث دراسات، الأولى عن حوار الحضارات .. لماذا وكيف ومع من؟ والثانية بعنوان «الهندسة الخليجية اسمها التقارب العربى، والثالثة «نحو غد أكثر شيخوخة».

المستقبل العربى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، مارس ٢٠٠٥



تتصدر هذا العدد مقابلة بعنوان «الانتخابات العراقية ومشاهد المستقبل» يتناول فيها خير الدين حسيب، المدير العام لمركز دراسات الوحدة العربية ما لم يتناوله فى المقابلات السابقة حول الشأن العراقى.

وينشر هذا العدد أيضاً شهادة انتونى كوردسمان أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكى مترجمة وهى بعنوان «نحو استراتيجية أمريكية فعالة فى العراق».

كما تنشر خلاصة تقرير مترجمة أيضاً بعنوان «رسم خريطة المستقبل العالمى» من إعداد مجلس المخابرات القومى الأمريكى.

وفى العدد ملف بعنوان «الاستبداد والتغلب فى نظم الحكم العربية المعاصرة» وتقرير شامل بنشاط مركز دراسات الوحدة العربية خلال عام ٢٠٠٤، والمتوقع خلال عام ٢٠٠٥.

كما تنشر المجلة تقريرا عن «الوقفيات الخيرية فى الوطن العربى وتعزيز الثقافة والمعرفة العربية: مؤسسة القطان الفلسطينية نموذجاً» أعده إلياس نصر الله.

القـــافـلة

السعودية: شركة آرامكو، ٢٠٠٥

بين نواح اقتصادية وثقافية وتاريخية تثير موضوعات هذا العدد أكثر من قضية، منها موضوع بعنوان «البورصة» لغة الإشارات المتكافئة بين الماضى والحاضر، وثالث عن مدينة مكة التى نعرفها والتى لا نعرفها أيضاً.

كما يضـــم العدد أيضاً موضوعات شيقة عن عالم الوجبات السريعة، وعن الملح، والمتاعب الصحية للسفر بالجو وغيرها.

الثقافة العالمية

الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، العدد ١٢٩



يزخر العدد ١٢٩ (مارس . أبريل) من مجلة الثقافة العالمية باثنى عشر موضوعاً متميزاً.

يأتى مقال «الموسيقى فى رأسك» ليبحث فى الانفعال الإنسانى الناشئ عن الموسيقى وارتباط ذلك بالذاكرة والأعصاب.

ويحتضن هذا العدد أيضاً مجموعة قيمة من المقالات الطبية والعلمية أبرزها: «الكمال فى قفص الاتهام»، «نظريات كل شىء»، «الكوفيين: سيد منشطات العصر» و«القصة البوليسية للحمض النووى»، حيث يقدم كل مقال آخر ما توصل له العلم لخدمة الحياة البشرية.

الطب والقانون في مصر في القرن التاسع عشر

الجسد والحداثة: الطب والقانون في مصر الحديثة

خـالد فهــمي

ترجمة: شريف يونس

القاهرة: سلسلة مصر النهضة ـ مركز تاريخ مصر المعاصر بهيئة دار الكتب والوثائق القومية عدد (٥٨) ٢٠٠٤



منذ سنوات قليلة قدم خالد فهمي نفسه للقارئ العربي بكتابه المهم «كل رجال الباشا» الذي ترجمه شريف يونس باقتدار عام ٢٠٠٤ والذي كان أطروحته للدكتوراة من جامعة أكسفورد، فأثار به نقاشًا علميًا في الأوساط الأكاديمية والثقافية، حتى لقد تحمس البعض لأطروحاته ووصفها بأنها تمثل تحديًا للنمط الوطني السائد في الكتابة التاريخية ومسلماتها، فضلاً عما تميزت به هذه الأطروحات من إثارة للمشكلات المنهجية من خلال مقدمات وفرضيات نظرية تفتح النقاش وتجدد الوعي بالمعرفة التاريخية.. فقد قدم لنا خالد فهمي مناقشة لمفهوم السلطة عند ميشيل فوكو، ذلك المفهوم الذي أصبح يحتل مكانة واضحة في مختلف العلوم الاجتماعية خلال السنوات الأخيرة، وهو ما عالجه مؤلفنا في صدر دراسته عن الجيش المصري في عهد محمد علي في ضوء فلسفة السلطة التي كانت «تخضع أفراد» هذه المؤسسة العسكرية لتحقيق انتصارات السادة، وفي ظني أن خالد فهمي أراد بذلك أن يوضح ضرورة التعامل بصورة أو بأخرى، مع مثل هذه المفاهيم والفرضيات النظرية عند معالجة قضايا تاريخنا القومي.

ولعل ما سبق قاده إلى أن ينظر إلى الخطاب القومي للتاريخ المصري في نظرة نقدية، باعتباره خطابًا يركز على تاريخ الحكام والقادة العظام بدرجة غاب معها تاريخ الأفراد العاديين، رجالاً ونساء، في الريف والحضر، ومن هنا قدم دراسته لـ «كل رجال الباشا» أي لجنود وأنفار جيش محمد علي باشا، فقدم تاريخًا اجتماعيًا ينصب عليهم وليس على القادة، مؤملاً أن يكون ذلك إسهامًا في رسم صورة أكبر عن التاريخ الاجتماعي لمصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ذلك التاريخ الذي يحتاج، من وجهة نظره، إلى دراسات أوسع وأكبر، تركز على تاريخ «المصريين العاديين» أو على تاريخ الأفراد والناس، أو ما يسميه البعض «التاريخ من أسفل» البناء الاجتماعي.

ومن الأطروحات التي لقيت عناية خاصة في كتابات مؤلفنا قضية الحداثة ونقدها، فهو إذ يشير إلى عدد من الكتابات التي يرى أنها شككت في النظرة التي تمنح محمد علي موقعًا متميزًا في تاريخ مصر الحديثة، بعد وضع متردٍ عند قدومه إليها، وإن كنا لا نعتقد أن هذا هو هدفنا الأساسي، وإنما جعلت تدحض الأفكار السائدة عن ركود مصر وتخلفها أثناء الحكم العثماني (وهو على الأخص كتابات بيتر جران عام ١٩٧٩، وكينيث كونو عام ١٩٩٢ ثم نيللي حنا عام ١٩٩٨) فإن خالد فهمي يرى أن هذه الكتابات انطلقت في نقدها للنظرة التقليدية لمصر في العصر العثماني من زاوية نقد مفهوم المركزية الأوروبية التي بنيت عليها الكثير من النظريات التقليدية للتحديث، وأنها في نقدها لهذه المركزية لم تنقد المبادئ النظرية التي قامت عليها هذه الحداثة، وإنما «تخيلت» هوية محلية مصرية مركزية تقوم على نفس أسس المفهوم الغربي للحداثة.. إلخ.

ومن هنا يرى خالد فهمي ضرورة طرح نظرة مغايرة ـ تثير جدلاً ـ لتلك النظرة المألوفة في الكتابات المدرسية والأكاديمية، بل في الروايات والأغاني الوطنية «التي تبدو فيها مصر شخصية واضحة المعالم متجانسة الصفات صاحبة إرادة وتمثل داعيًا يعمل في التاريخ ويتجلى فيه» فهو يراها مجرد ولاية عثمانية يندرج تاريخها في النصف الأول من القرن التاسع عشر في سياق التاريخ العثماني العام.. وأيًا كانت أوجه الاختلاف أو الاتفاق في رؤيته لمفهوم الحداثة والقومية، عند الكتابة عن تحديث مصر، فإن من المهم ضرورة ألا ننساق وراء المفاهيم الغربية دون نقد أو تمحيص.



وفي كتابه الجديد «دراسات عن تاريخ الطب والقانون في مصر الحديثة» يواصل خالد فهمي تدعيم وتأكيد أطروحاته عن الحداثة وعن تحديث مصر في القرن التاسع عشر، مؤلفًا من فصول ودراسات كتبها عن تطور الطب بمعناه الحديث، أو تحديث الطب، وعن تطور النظام القانوني الجديد، غير المستوحى من الشريعة الإسلامية، مؤلفًا منها جميعًا رؤيته للتاريخ الاجتماعي للطب والقانون.. وقد تبدو هذه الفصول، للوهلة الأولى وكأنها تتناول موضوعين منفصلين، حتى بحكم تناولها لثنائية المعرفة والسلطة، غير أن القراءة الواعية والمتعمقة تثبت الترابط العضوي والمنهجي للجانبين معًا، فضلاً عن ارتباطهما بمفهوم التحديث والحداثة والجسد، وارتباط المعرفة الطبية والمعرفة القانونية بآليات وممارسات السلطة الحديثة.

وكعادته، لا يحفل مؤلفنا بتاريخ الحكام أو الصفوة، وإنما بتاريخ الناس العاديين، فيرى أن المدخل الذي يعالج به موضوعه ليس هو المدخل «المألوف» الذي يصفه بأنه «تقليدي» ذلك الذي يعني بكتابات النخبة أو الصفوة المشتغلة بالطب أو القانون، وبكتابات الصيادلة والحكماء، وطبيعة الأمراض وطرائق علاجها، أو حتى ذلك الذي يعني بدراسة كتابات الفقهاء والمحامين، ممن عنوا بتطوير النظام القانوني في مصر في القرن التاسع عشر، وإنما جاء مدخله الجديد دراسة موقف عامة المصريين، أو الأهالي، ممن تأثرت أجسادهم بالتغيرات المستحدثة، وكانت مادة لها، مبررًا ذلك بأن هذا المدخل يتناول «المسكوت عنه» في كتابات المؤرخين المعاصرين للفترة أو اللاحقين لها.

وقد اقتضى ذلك من خالد فهمي أن يقيم كتابات هؤلاء وأولئك ممن أرخوا لتطورات الطب والقانون في مصر الحديثة «بطريقة تقليدية» ـ حسب قوله وإن كنا نراها على جانب كبير من الأهمية ـ مثل أندرسن وسفران وفرحات زيادة ولطيفة سالم.. وغيرهم، ممن رأى أن كتاباتهم ربطت بين تطورات مصر وبين ما حدث في أوروبا، وأنها لم تنتبه بما يكفي للسياق العثماني الذي جرت فيه هذه الإصلاحات خاصة في الجانب القانوني، فضلاً عن إغفالها لدراسة مدى استجابة عامة المصريين لهذه الإصلاحات وتركيزها على دور الدولة ممثلة في الحاكم، لا في المؤسسة، ومع ذلك يرى مؤلفنا أن من أهم مميزات هذه الكتابات الإيمان بتقدم تاريخ القانون المصري في القرن التاسع عشر نحو غاية محددة تتمثل في الانتصار للعقلانية، وإحلال العدل والإنصاف محل الظلم والاستبداد.

لقد أراد خالد فهمي أن يقدم في هذا الكتاب زوايا جديدة «لتاريخ مختلف» للقرن التاسع عشر، أو لما يسمى بعصر النهضة الأول، من خلال مادة وثائقية مستقاة من ممارسات الحياة اليومية لعامة الناس ورؤيتهم لما يجري حولهم، وليست مستقاة من المصادر المألوفة عن هذا العصر، والتي تعتمد على كتابات مفكري النهضة، والتي قدمت رؤيتهم ومحاولاتهم للنهوض بالمجتمع المصري.

وإذ يعالج مؤلفنا العلاقة المعقدة بين الشريعة والإجراءات والتحقيقات الجنائية التي أدخلت حديثًا، والتي لا تستند في مرجعيتها إلى الفقه الإسلامي، فإنه يدرس موقف الفقهاء ورجال الدين من التقنيات الجديدة المتعلقة بالتشريح وغيره، عند التحقيق في حالات الاشتباه الجنائي وقضايا القتل والاغتصاب وهتك العرض وإسقاط الحوامل، محاولاً توضيح موقف الشريعة من ذلك.. وهو إذا يتحدث عن القانون الجنائي في مصر في القرن التاسع عشر، ويقدم وصفًا للإدارة الصحية خلاله، فإنه يخرج بنتيجة مؤداها أن إدخال الأساليب الحديثة في الإثباتات الجنائية لم يجاف الشريعة، وإنما كان يستهدف إعلاءها، وليس استبدالها بنظام علماني من جراء التأثر بالغرب.

وبنفس النظرة يتناول خالد فهمي دراسة موضوع مدرسة القابلات في مصر عام ١٨٣٢، فلم ينظر إليها باعتبارها مثلاً من أمثلة المؤسسات التي وضع أساسها حاكم «مستنير» لتحديث مصر في مجال التعليم الطبي وتحسين وضع المرأة المصرية، وإنما رأى أن ينظر إليها باعتبارها موضعًا للصراع دارت فيه معارك بين «الحداثة» و«العلم».

ومن القضايا المهمة التي أثارها هذا الكتاب قضية العقاب الجسدي وأشكاله في النظام القانوني المصري، حيث تتبع المؤلف هذه القضية في تطورها الذي أفضى إلى ظهور معنى جديد للحقيقة، وتقنيات جديدة للعقاب، ورابطة جديدة بين القانون والعدالة، ومن ثم تصور جديد للعدالة نفسها، فدرس مسألة التعذيب لإثبات الدليل، والدور المهم للطب الشرعي، الذي وفر للسلطات وسائل آمنة وموثوق بها لإقامة الإثبات القانوني، بدلاً من الاعتراف المنتزع بالتعذيب. وفي اعتقادنا أن هذا الكتاب الجاد والجيد عن تاريخ الطب والقانون في مصر في القرن التاسع عشر، لمؤرخ ناقد راسخ القدم، يمتلك رؤى وأطروحات جديدة، قد نتفق معه أو نختلف معه بشأنها، ومن ثم يجب، قبل ذلك أن نهتم وأن نحفل بها، شأن الأعمال الجادة التي تثير النقاش والجدل العلمي الخصب والبناء، الذي يستهدف إذكاء المعرفة العلمية بتاريخ مصر ونهضتها.

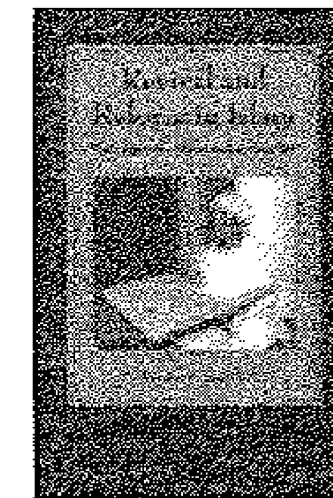
أحمد زكريا الشلق

Traveling Through Egypt
(السفر عبر مصر)
Deborah Manley and Sahar Abdel-Hakim
AUC Press



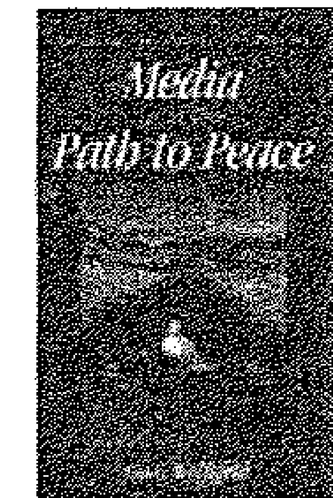
يشمل الكتاب مقالات عن السياحة فى مصر لعدد كبير من الأقلام من بينها مقالات لعبد اللطيف بغدادى، جيوفانى بلزونى، ليونارد كوترل، ابن بطوطة أحمد حسنين، بيير لوتيمارك توين جون جاردنر ولكنسون وآخرين.

Revival and Reform in Islam The Legacy of Mohammed al Shawkani
(التجديد والإصلاح فى الإسلام)
Bernard Haykel
New York University, 2003, 248pp., £50.00



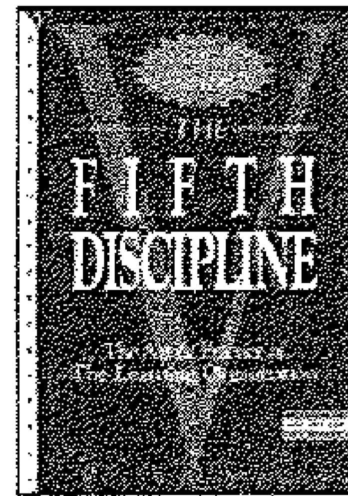
يلقى هذا الكتاب الضوء على تاريخ التحول من الشيعية التقليدية إلى الإصلاح السنى فى اليمن فى فترة ما قبل التحديث.

Media and the Path to Peace
(وسائل الإعلام والطريق إلى السلام)
Gadi Wolfsfeld
Hebrew University of Jerusalem, 2004, 284pp., £45.00



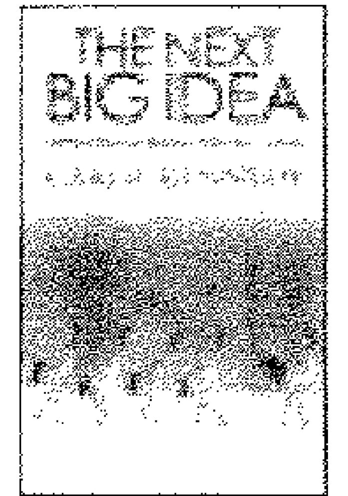
يختبر هذا الكتاب الدور الذى تلعبه وسائل الإعلام الإخبارية فى عملية السلام. يجادل جادى ولفسفيلد بأن الصحافة غالبا ما تلعب دورا هداما، إلا أن هذا الدور يختلف حسب الزمن والظروف السياسية.يسعى هذا الكتاب لشرح تلك الاختلافات من خلال اختبار حالات ثلاث كبرى:عملية السلام فى أوسلو بين إسرائيل والفلسطينيين، عملية السلام بين إسرائيل والأردن، وأخيرا العملية التى تحيط باتفاقية جود فرايداى فى أيرلندا الشمالية.

The Fifth Discipline
(المبدأ الخامس)
Peter M. Senge
Random House, 2004, 430pp., £16.99



يحدد خبير الإدارة بيتر سينج المبادئ الخمسة للأعمال التى تساعد معا على بناء الشركات. إن تلك الشركات ستكون ناجحة فى العقد القادم بسبب قدرتها على التعلم، واستيعاب أفكار ونظريات وممارسات جديدة فى مختلف المستويات الوظيفية واستخدامها فى الميزات التنافسية.

The Next Big Idea
(فكرة مستقبلية لامعة)
Carol Kennedy
Random House, 2004, 208pp., £10.00



كيف يمكن للأعمال أن تدير استراتيجيتها وخطة نموها فى عصر الاقتصاد الرقمى؟ كيف يمكن الاحتفاظ بالموظفين الذين هم على درجة جيدة من المهارة فى البيئة الجديدة التى تتميز بزيادة الأجور وحزم الاختيارات المهنية؟ هل ستبرز نظرية مسيطرة للإدارة لاستيعاب ثورة الانترنت؟

يقوم هذا الكتاب على البحث والمقابلات الشخصية مع شخصيات رائدة فى عالم الأعمال بالإضافة إلى أكاديميين من الولايات المتحدة وبريطانيا. إن هذا الكتاب يتطلع إلى نظرة استشرافية إلى مسألة كيف ستعمل الأعمال فى عالم الاقتصاد الجديد.

The End of Globalization
(نهاية العولمة)
Alan Rugman
Random House,.2004, 288pp., £15.99.



يعد البروفيسور آلان رجمان واحدا من الأكاديميين الرائدين فى مجال الأعمال والاستراتيجية العالمية. يجادل رجمان فى هذا الكتاب أننا نشاهد حاليا نهاية عصر العولمة ويصل إلى مرحلة جديدة من البحث والتحليل لكى يجادل بأن العولمة لم تحدث فى الواقع أبدا.

مستخدما تحليلا مستقى من الشركات العالمية الرائدة، ينظر البروفيسور رجمان بشكل تفصيلى فى التعقيدات الناجمة عن نهاية العولمة، متضمنا مناقشة عميقة لاستراتيجية المؤسسات التجارية، الهياكل المؤسسية، والمناهج التحليلية.

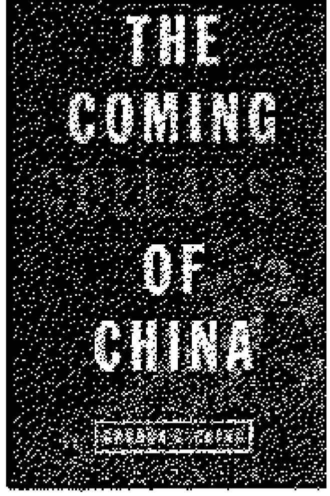
The Empty Raincoat
(معطف المطر الفارغ)
Charles Handy
Random House, 2004, 288pp., £8.99



نحن الآن فى عالم مساهمى رؤوس الأموال، ولكن الكل يعانى من خطر مستقبلى محدق.

فى هذا الكتاب يصل تشارلز هاندى إلى فلسفة فيما وراء آليات عالم الأعمال، فيما وراء الاختيارات المادية، لكى يحاول أن يؤسس بيئة بديلة حيث يمكن لأخلاقيات العمل أن تحتوى على حس طبيعى بالاستمرار والاتصالات وحس بالتوجه السليم. بحس من الدفء، واليقظة، يسعى هاندى لأن يقلب التناقض إلى تقدم حقيقى.

The Coming Collapse of China
(الانهيار القادم للصين)
Gordon G Chang
Random House, 2004, 384 pp., £ 7.99

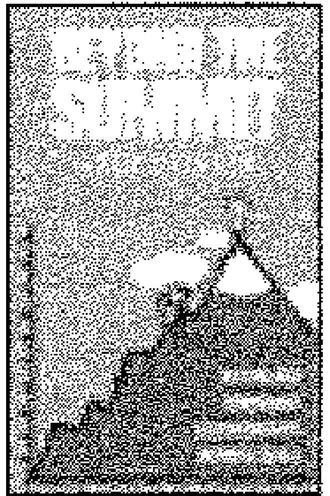


تشمل الطبعة المنقحة من هذا الكتاب القضايا المتعلقة بانضمام الصين إلى منظمة التجارة الدولية كما يشمل الكتاب مقدمة جديدة.

يعد هذا الكتاب من أفضل ما كتب عن مستقبل الصين، حيث روعة أسلوب الكاتب ومعرفته الجيدة بالصين تجعله مرجعا لكل المهتمين بالتاريخ المعاصر لذلك البلد.

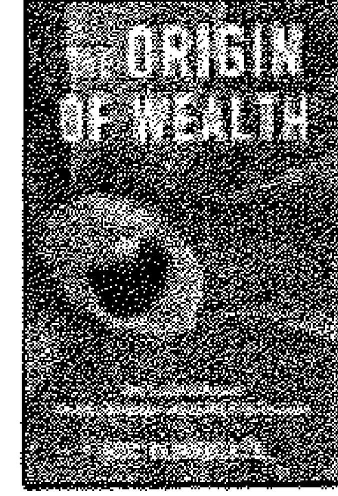
إن العالم يرى مستقبلا رائعا للصين. على الرغم من ذلك، فهناك تحت سطح هذه الحداثة، أمورا أخرى. يتنبأ تشانج بالانهيار الداخلى الوشيك للاقتصاد وحكومة الصين الشعبية، مما سيعود بنتائجه الوخيمة على بقية دول العالم.

Beyond the Summit.. Setting and Surpassing Extraordinary Business Goals
(ما وراء القمة.. وضع وتجاوز أهداف الأعمال الاستثنائية)
Todd Skinner
Random House, 2004, 256pp., £16.99



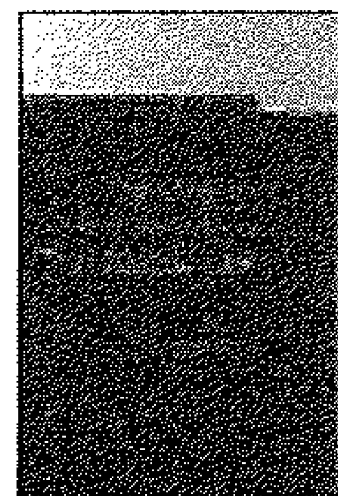
يعد الكاتب تود سكينر واحدا من أكثر متسلقى الجبال فى العالم. إن تسلقه الأسطورى الأول لارتفاع يبلغ ٢٠,٥٠٠ قدم يظل أكثر أشكال الصعود صعوبة من الناحية التقنية فى جبال الهيمالايا. إن الدروس التى استفادها خلال تاريخ عمله يمكن تطبيقها بشكل مساو فى عالم الأعمال. أمضى سكينر العشر سنوات الأخيرة فى تعليم شركات مثل أبل وفيرجن كيف يمكنهم استخدام تجربتهم لكى يصبحوا أكثر نجاحا. يشمل الكتاب خمسين درسا، نسجت معا فى قصة مغامرات آسرة.

The Origin of Wealth
(أصل الثروة)
Eric Beinhocker
Random House, 400pp., £ 24.99



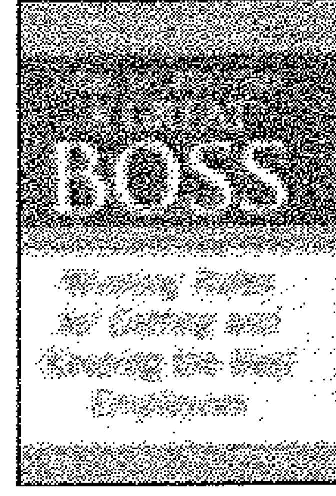
كيف يمكن للعلم والاقتصاد أن يسيرا في خط واحد.
من الواضح الآن أن قوى العولمة، والترقيم، وتحرير المؤسسات من التنظيم، تقود إلى ثورة في الاقتصاد العالمي. ما ليس معروفا بدرجة كبيرة هو حدوث ثورة فيما يتعلق بطريقة تفكيرنا عن الاقتصاد. في الجامعات، ومراكز البحث وفي الشركات عبر العالم، حيث الباحثون يستحثون مجالات متنوعة مثل علوم الفكر المعرفي نظريات النشوء ودراسة النظم المعقدة وذلك من أجل إعادة التفكير بشكل جذري في معتقداتنا الأساسية حول الاقتصاد وعلومه. يبين هذا الكتاب كيف يمكن للتحول الأساسي في علم الاقتصاد بوصفه مجالا فكريا أن يؤثر على عالم الأعمال.

The Origins and Evolution of Islamic Law
(أصول تطور القانون الإسلامي)
Wael B. Hallaq
McGill University, Montréal, 2004, 280pp., £40.00.



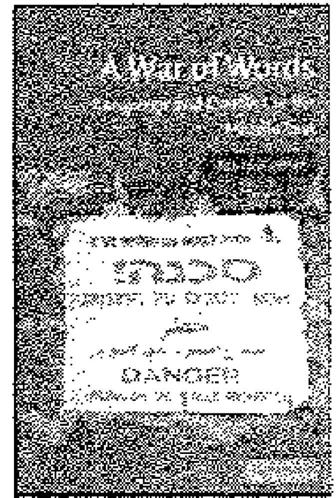
من خلال دراسة فترة تمتد لأكثر من ثلاثة قرون، يقدم كتاب أصول تطور القانون الإسلامي، سردا هاما عن كيفية تطوير الإسلام لقانونه الخاص، في الوقت الذي استفاد فيه من مصادر الثقافة القانونية في الدول الشرقية القديمة المجاورة. يكشف الكتاب عن التأثير المتبادل بين القانون والسياسة، ويشرح كيف أن القضاة والصفوة الحاكمة قاموا بعملية نفعية متبادلة جعلت، على نحو متناقض، من تطبيق القانون الإسلامي أمرا مستقلا عن الدولة.
يعد هذا الكتاب مرجعا هاما لدارسي الإسلام والمؤرخين القانونيين أيضا.

How to Become a Great Boss
(كيف يمكن أن تصبح مديرا عظيما؟)
Jeffery Fox
Random House, 2004, 196pp., £8.99



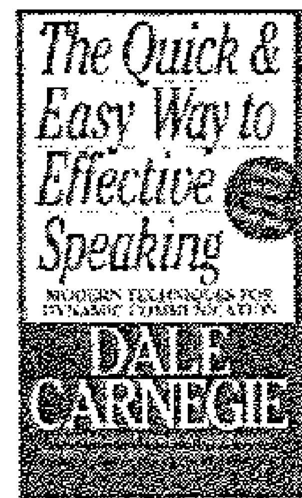
يقدم هذا الكتاب نصائح عن كيفية الحصول على أفضل النتائج فيما يتعلق بقوة العمل. يساعد هذا الكتاب المدراء في كيفية اختيار فريق العمل المناسب لتحقيق أفضل النتائج العملية.

War of Words
Language and Conflict in the Middle East
(حرب الكلمات)
Yasir Suleiman
University of Edinburgh, 2004, 288pp., £45.00.



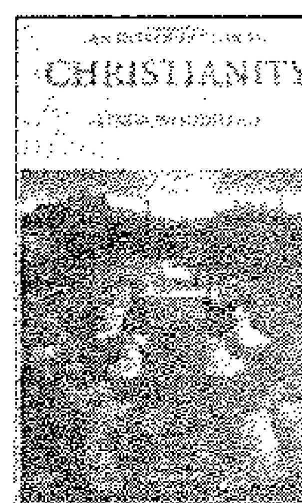
يختبر هذا الكتاب العلاقة ما بين الهوية القومية واللغة، الطريقة التي يمكن أن يتم التلاعب باللغة للإشارة إلى الاختلافات السياسية والثقافية التاريخية.
و بوصفها لغة لها تراث مسجل بعيد القدم، وبوصفها لغة يتحدث بها أغلبية الشعوب التي تقطن منطقة الشرق الأوسط، ولكن بلكنات مختلفة، فإن اللغة العربية تعد بشكل خاص آلية ملائمة لمثل هذا التحقيق.
إنها أيضا أداة متخلخلة للكشف عن أوجه الصراع في الشرق الأوسط.
إن كتاب ياسر سليمان يعد عملا جيداً حول الوضع اللغوي في منطقة الشرق الأوسط، جذوره الثقافية والاجتماعية - السياسية وعلاقة كل ذلك بدراسة الصراع في المنطقة.

The Quick and Easy Way to Effective Speaking
(الطريق السريع والسهل للأحاديث المؤثرة)
Dale Carnegie
Random House, 2004, 288pp, £8.99



إن الخطباء يصنعون ولا يولدون. هكذا يعتقد ديل كارنيجي، الخبير الرائد في مجال مهارات الأعمال الخاصة.
على الرغم من ذلك، فإن الرضا الشخصي والاجتماعي والنجاح في مجال الأعمال يعتمد بشكل كبير على قدرة الشخص على الاتصال بشكل واضح.
إن التحدث مع العامة هي مهارة هامة يمكن لأي شخص أن يكتسبها وأن يقوم بتطويرها.

An Introduction to Christianity
(مقدمة للمسيحية)
Linda Woodhead
University of Lancaster, 2004, 447pp., £45.00



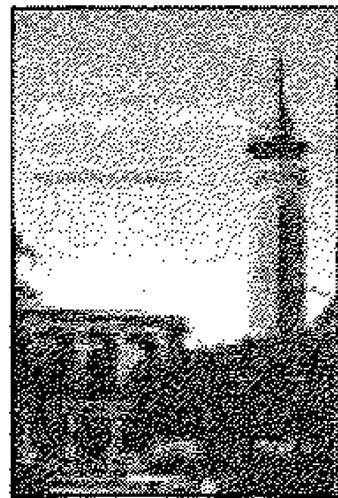
يتناول هذا الكتاب الشخصيات الأساسية الهامة، والأحداث والأفكار المرتبطة عبر ألفي عام من التاريخ المسيحي ويضعها في سياقها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.
إن هذا الكتاب يعالج مسألة الدين في بعديها المادي والروحاني ويكشف عن تفاعلاتها مع المحيط الأوسع مثل المال والسياسة والقوة والنوع والأسرة، بالإضافة إلى الثقافات والمجتمعات غير المسيحية
. ويلقي الضوء بشكل خاص على الطرق التي استوعبت بها المسيحية وجسدت السلطة.
إن هذا الكتاب يعد مرجعا لدارسي الأديان ولجمهور القراء العام أيضا.

A History of Modern Palestine: One Land, Two Peoples
(تاريخ فلسطين المعاصرة)
Ian Pappe
University of Haifa, 2004, 356pp., £45.00



يكتب إيان بابي عن قصة فلسطين، أرض يسكنها شعبان. يبدأ الكاتب بالمرحلة العثمانية ويتابع تاريخ فلسطين إلى يومنا هذا. يشمل هذا الكتاب الأحداث والصراع في هذا البلد كخلفية يشرح من خلالها بناء القوميتين الصهيونية والفلسطينية.

History of Modern Tunisia
(تاريخ تونس المعاصرة)
Kenneth Perkins
University of South Carolina



يتابع الكاتب تاريخ تونس من منتصف القرن التاسع عشر إلى الوقت الحالي. يختبر الكاتب بشكل أساسي سنوات الاحتلال الفرنسي من عام ١٨٨١ و حتى عام ١٩٥٦، حينما حقق التونسيون الاستقلال. ثم يتحول الكاتب ليصف العملية التالية من بناء الدولة.

The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited
(نشوء مشكلة اللاجئين الفلسطينيين)
Benny Morris
Ben Gurion University, 2004, 664pp., £70.00



في طبعة منقحة من كتاب موريس السابق، الذي قام بالكشف عن الحقائق التي كمنت وراء الهجرة الجماعية للفلسطينيين عام ١٩٤٨، هناك مواد جديدة تتعلق بالمعارك، أعمال الطرد والتعسف التي أدت إلى انفصال المجتمعات الفلسطينية.

قـــــــراءة ..

«العربى التائه».. والحرية الهادية

■ ■ قبل أسابيع تنادى العرب - أو بالأحرى نودوا ربما مجبَرين - إلى قمتهم السنوية التى يتصادف - وهى للمفارقة التاريخية مصادفة سنوية - أن تتزامن مع مناسبة هى الأكثر التباساً فى الضمير العربى فى تاريخنا الحديث: الحرب على العراق. والتى أدت فى نهاية المطاف ليس فقط إلى سقوط عاصمة العرب الشرقية، وإنما إلى زلزال بلغ من عنفه أن غباره - رغم مرور عامين - مازال كثيفاً يغطى الأفق، ويحجب المسافات المفترضة بين كثير من المفاهيم التى ظلت مستقرة لعقود. مضيعاً معالم طرق كانت بداياتها قد تاهت أصلاً من تحت أقدام العرب الذين لم يدركوا مبكراً أنهم يدلفون إلى ألفية ثالثة لها بحكم تطور التاريخ قوانين جديدة: غالبة وحاكمة.

قبل أعوام أربعة كاملة، ومع بداية قرن جديد، ولم تكن النيران قد لونت الأفقَ العراقى بعد، رغم سنوات الحصار ومناوشات الصواريخ والطائرات، كتب أستاذنا «هيكل» سلسلةً فى هذه المطبوعة - بدأها بحديث عن مؤتمر القمة العربى فى عمان (مارس ٢٠٠٠) كان عنوانُه «نهايات طرق». وخرجت السلسلة بعدها فى كتاب رأى الأستاذ فى مقدمته بأن الظاهر «ولسوء الحظ أن الطرق تبدو عند نهاياتها.. وكأنها وصلت إلى تيه لا يظهر عليه أفق» مستطرداً «أنه مع بداية هذا القرن الجديد الحادى والعشرين فإنه يبدو أن العربى أصبح هو التائه، وهو صدى بالمقلوب لتعبير شاع قبل ذلك قروناً عن اليهودى التائه». موضحاً - بقلق ظاهر - أنه «فى قرن سبق، فإن ذلك اليهودى التائه وجد لنفسه مكاناً حط فيه رحاله، وحصن موقعه. وفى الوقت نفسه فإن العربى اختلطت عليه الأمور، وبدا وكأنه ضيعَ عالمه وفيه تراثه ومستقبله، ثم إنه ارتحل بحاضره تائهاً بين الحقيقة والوهم، وبينَ الرؤية والسراب، وبين الحلم والعجز».

وهكذا - يقول الأستاذ هيكل - بدأ القرن الحادى والعشرون.. «واليهودى الذى كان تائهاً بات متحصناً فى المشروع الصهيونى على أرض فلسطين، فى حين أن العربى الذى كان راسخاً فى الطبيعة والتاريخ، أصبح هو الشارد فى التيه: قد يعرف من أين؟ - لكنه لا يعرف إلى أين؟!».



مرت أعوام أربعة، وهاهم العرب الذين كانوا قد ذهبوا إلى عمان ٢٠٠١ يذهبون إلى الجزائر، وقد وصلت نسبة الغياب حرجاً أو تقاعساً أو احتجاجاً.. أو حتى قرفاً إلى ٥٠٪ (غاب ١٣ من القادة).

مرت أعوام أربعة، عصفت فيها الرياح العاتية بأوضاع بدت أبدية. ومرت فى الأنهر كثير من المياه والدماء.. والأفكار. وبات واضحاً أن بعضاً من الأعاصير إنما استهدف «البناء العربى» ذاته، والذى رأى راسمو الخرائط الجديدة، أن لا مكان له فى نظام إقليمى جديد. وفى أجواء ما بعد الأعاصير تلك المثقلة بالغموض والمرتبكة بالقلق، ذهب العرب (بعضهم) إلى الجزائر.. فماذا جرى؟

فى حين انشغل العرب - مختلفين - باختيار من يتولى منهم تسويق مبادرتهم القديمة «العادلة» (بيروت ٢٠٠٢) والتى تقاعسوا لأعوام ثلاثة - ضعفاً أو افتقاراً للإرادة - عن دفعها إلى الواجهة، انشغل الإسرائيليون «بالعمل على الأرض» والبناء الفعلى لـ ٣٥٠٠ وحدة سكنية جديدة توسيعاً لمستعمرات ضواحى القدس.

وتاركين لجماعة الجزائر «الأملَ الكاذب» فى تنفيذ تفاهمات شرم الشيخ، بات واضحاً - على الأرض - أن الأمر ليس أبداً كما هلل له البعض وقتها - لحسابات داخلية، فلا انسحاب إلا من أريحا. أما فى غيرها فلم يتعد الأمر إعادة لانتشار القوات، تواكب مع تأكيد واضح لشارون على تصميمه على الاحتفاظ بالمستعمرات الكبرى فى الضفة الغربية.. والاستمرار فى توسيعها «مهما كانت التحفظات الدولية» فى إشارة لخطاب الضمانات الذى منحه بوش لشارون فى أبريل الماضى (عشية قمة تونس) وسكت عنه العرب، ولا عزاء لمسكنات التفاهمات فى شرم الشيخ، ولا لخارطة طريق موعودة.

والحال هكذا، كان طبيعياً ألا تتطلع الجماهير العربية المحبطة إلى شاشات التليفزيون المفتوحة على الجزائر، إلا عندما يصعد القذافى إلى المنصة ليقذف فى وجه الجميع قفازه، وألفاظه.. وأفكاره الصادمة.



هل صورة الواقع العربى - كما بدت فى الجزائر - بهذه الكآبة؟

ربما لا يكون هذا صحيحاً على إطلاقه. فهناك دائماً بارقة أمل. والحاصل أننا لا نستطيع أن نقرأ أوراق القمة إلا إذا وضعناها على نفس الطاولة مع رد الفعل الإسرائيلى - وربما الأمريكى أيضاً - عليها.

سيلفان شالوم سارع معلقاً غير متردد فى أن يصف الجامعة العربية بأنها «كيانٌ مهترئ.. لم يستوعب المتغيرات على الأرض.. ومازال يتحدث لغة الماضى».

ماذا يقصد وزير الخارجية الإسرائيلى بلغة الماضى.. وما هى المتغيرات التى يتحدث عنها؟

لا يخفى على أحد أن القمة أجهضت محاولة «مفاجئة» للالتفاف حول مبدأ «الأرض مقابل السلام» بدعوى أن مزيداً من التطبيع مع إسرائيل من شأنه أن يحثها على المضى فى خطة سلام يبدو أن خطواتها تداعب الآمال أكثر مما ترسم آثاراً على الأرض.

شيمون بيريز لم يخرج فى تعليقه عما قاله شالوم عندما اعتبر أن المجتمعين فى الجزائر «لم يأتوا بجديد» لأنهم مازالوا يحاولون تسويق مبادرتهم القديمة التى أعلنوها فى بيروت قبل ثلاث سنوات.

جديد القمة إذن - ونشكرها عليه - هو عدم خروجها بجديد، كان الآخرون ينتظرونه منها أو يدفعونها إليه.



بحسابات الجغرافيا: بعيدة هى فعلاً المسافة بين بيروت (٢٠٠٢) فى شرق العالم العربى والجزائر (٢٠٠٥) فى غربه. ولكن بحساب التاريخ، وإذا وضعنا فى الاعتبار ما جرى هنا خلال السنوات الثلاث، تصبح فعلاً تلك المسافة بعيدة جداً، من صرخات العراقيين تحت أضواء «الصدمة والترويع» فى بغداد.. إلى صيحات المتظاهرين تحت أنوار الشموع فى بيروت طلباً «للحقيقة».

وفى حين لا يرى البعض إلا موطئ قدمه معتبراً أن الحركة البادية فى المنطقة تحركها أحداث محلية: وفاة عرفات واغتيال الحريرى وإصرار السيستانى - لا الأمريكان - على إجراء الانتخابات العراقية فى موعدها، يرى آخرون «الظل الأمريكى» فى خلفية الصورة دائماً. إن لم يكن بالتخطيط والتدبير لأحداث بدت عفوية، فبالضرورة بالاستفادة منها ودفع تيارها نحو مجرى معد سلفاً.

كأنما هو قدر «العربى التائه» بعد أن وضعته حرب الخليج الثانية بين «مطرقة المحتل وسندان الطاغية». فها هو اليوم قبل أن يتمالك نفسه ويتعافى فكرياً، يوضع أمام اختيار آخر صعب: افتئاتٌ على «مواطنته» فى الداخل أو مقايضةٌ على «وطنيته» من الخارج.

كأنما هما شقا رحى. وكأنما مكتوبٌ عليه - إذ يبحث عن حريته - أن يختار بين مستبد مضيع لها أو متكسب بائع لها.. أو أن ينتظرَ «فى نهاية النفق» من يأتى له بها مقايضاً.

ونخشى أنه فى الغابات الكثيفة لنظام عالمى جديد، وفى غياب واضح لسياسات كما لسياسيين بحجم الآمال والتحديات، يتوهُ العرب - أو بالأحرى نظامُهم الإقليمى - بين «جماهيرية» القذافى المتجاوزة، وحنكة الذين آثروا الاختفاء بالغياب، وبين سياسات المراهنة والصفقات، محافظةً على الأنظمة لا على غيرها.. فى حين يعلم مرتادو الغابات من صيادين ورحالة أن لا مراهنة - هناك - تضمن الحفاظ على الأمن، ولا صفقةَ تنفع مع الثعالب أو الضباع أو الأسود.



يميل الصحفيون عادة إلى إنهاء تقاريرهم السنوية حول القمة بالسؤال التقليدى حول ما إذا كانت تلك هى آخر القمم؟ والإجابة شديدة البساطة. فرغم ما يبدو أنه استجداءٌ سنوى للأمين العام «لحق الجامعة على العرب»، ورغم أنه قد لا يكون فى «الأنظمة العربية» ما يغرى بالدفاع عنها، إلا أن دروس التاريخ تقول إن فى «النظام العربى» ما يستوجب التمسك به. وفى أجواء ما يبدو «سايكس بيكو» جديدة.. يصبح الواجب «فرض عين».

نشكر للعائدين من الجزائر «ذهابَهم». ونعلم أن هذا - على الأقل - أضعف الإيمان. ولكننا نعلم أيضاً أن «البوصلة» هى أول ما يبحث عنه التائهون فى صحراء غابت معالمُها، أو غابة تكاثفت أغصانُها لتحجب الشمسَ ومعالمَ الطريق. ويعرف الفيزيائيون، فضلاً عن المجربين، أن البوصلة لا تدلُ على طريق أو اتجاهات صحيحة، إلا إذا توافر لحركتها شرطٌ واحدٌ فقط:.. الحرية. ■

أيمـــن الصيـــاد

لأننا أصل الاتصالات فى مصر

لن تجد أرخص منا
فى دقيقة الدولي

٩٠
قرشاً فقط







اتكلم دولى من ١١ مساءاً إلى٧ صباحاً
بسعر مخفض للدقيقة:

كندا و أمريكا ٩٠ قرش (تليفون ثابت ومحمول)

أوروبا ٩٠ قرش (تليفون ثابت فقط)

فقط اتصل بـ ١٠١ + كود الدولة+الرقم المطلوب

لمزيد من المعلومات اتصل بـ ١١١

*هذه الخدمة متاحة لمشتركى الدولي



الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية - العدد السادس والسبعون - السنة السابعة - مايو ٢٠٠٥ - الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 7 - Issue 76 - May 2005

عولمة الأديان .. تجديد البابوية وإمامة المرأة / سلامة أحمد سلامة

■ لبنان بين مشهدين / فؤاد مطر ■ محمد مندور .. لمحات من حياة / رجاء النقاش ■ الساحر .. باولو كويلهو / بهاء طاهر ■ لا ضوء فى نهاية النفق / أيمن الصياد



فنون هندية

ثروت عكاشه


أكثر من
٢٠٠٠ مصري
بيخدموك من القلب

السنة السابعة
العدد السادس والسبعون
مايو ٢٠٠٥

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

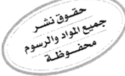
الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد



محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أيمن الصياد .. صحفى.
- بهاء طاهر.. روائى مصرى.
- ثروت عكاشه.. كاتب موسوعى.
- جلاوكو أورتولانو.. روائي برازيلي، كما يعمل أيضا محررا مساعدا بمجلة الأدب المعاصر.
- جوان أرياس.. صحفية إسبانية.
- حسن أبشر الطيب.. ناقد أدبى سودانى.
- رجاء النقاش.. ناقد أدبى.
- روبرت كوتريل.. مراسل مجلة الإيكونوميست فى وسط أوروبا.
- ستيفن زونس.. أستاذ العلوم السياسية فى جامعة سان فرانسيسكو
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- شوقى ضيف.. رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- عُبادة كُحيلة.. أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة
- عبد العظيم أنيس.. أستاذ الإحصاء الرياضى المتفرغ بجامعة عين شمس
- عماد البشرى.. مستشار مساعد بمجلس الدولة المصرى.
- غسان الإمام.. صحفى سورى مقيم فى باريس.
- فؤاد مطر.. صحفى لبنانى.

رسوم العدد للفنان
محمد حجى





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazdr.net

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالا ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

نـــور

ســــلامة أحمـــد ســــلامة

عولمة الأديان: تجديد البابوية وإمامة المرأة

■■ بدا العالم قبل أحداث سبتمبر ٢٠٠١ واضح القسمات والتقسيمات.. الدين فى ناحية والسياسة فى ناحية أخرى لا يختلطان، وإن حافظ كل منهما على موقعه ونفوذه.. الكنيسة والزعامات الدينية فى الغرب تُذعن لمبدأ صارم استقر منذ قرون يؤكد فصل الدين عن الدولة، والدولة بأحزابها وقواها السياسية والفكرية تؤكد علمانيتها وتعمل على إقصاء الكنيسة تماماً عن اللعبة السياسية والحزبية، حتى وإن حرص السياسيون على الحصول على دعم الكنيسة من وراء ستار، والمشاركة أحيانًا فى المناسبات الدينية كسبًا للشعبية بين بعض الطبقات فى مواسم الانتخابات.

فى مقابل ذلك لم تنقطع العلاقة بين الدين والسياسة فى العالم العربى والإسلامى، بل تحورت وتطورت من الدعوة إلى الخلافة فى عهد الدولة العثمانية، إلى الأصولية الإسلامية بمراحلها المختلفة: السلفية والإخوانية والشيعية. وانتهاء بالتيارات الراديكالية والجهادية والتكفيرية، التى جمعت تحت سقف واحد درجات من العنف والمواجهة مع النظم السياسية ثم مع الولايات المتحدة الأمريكية والعالم، دون أن تكون قادرة على الإجابة عن أسئلة العصر وتحدياته، حتى وصلت ذروتها فى البلادنية وتنظيم القاعدة.

وفى كل هذه التحولات المرحلية، أبقت النظم الحاكمة فى العالم العربى على علاقات ملتبسة مع القوى الدينية. سواء تلك التى عبرت عن نفسها فى صورة المؤسسات الدينية التقليدية، أو فى التيارات الأصولية. وفى كل الأحوال لم يعرف العالم العربى نظامًا علمانيًا على النمط الغربى، ولا حتى على النمط التركى. وكان هذا الالتباس سببًا فى حالة التخلف التى رانت على المنطقة العربية، فأقعدتها عن اللحاق بالنهضة والإمساك بروح العصر.

ثم جاءت ظاهرة العولمة التى بسطت سيادتها على العالم كله بتجلياتها السياسية التى تتمثل فى الحريات المدنية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وبتجلياتها الاقتصادية التى تمثلت فى حرية السوق والتجارة وانتقال رءوس الأموال، وبتجلياتها الثقافية والمعرفية التى أسقطت ثورة الاتصالات الحواجز أمامها فانفتحت آفاق الثقافة والفكر والفن على اتساع العالم.



لا يوجد شك الآن فى أن العولمة كظاهرة تدفعها قوى كثيرة وتتحرك بديناميكية ذاتية، قد بسطت سلطانها أيضًا على الوعى الدينى وعلى الحركات الدينية فى الغرب وفى أرجاء العالم. فالسياسات الأمريكية الراهنة التى يقودها الرئيس بوش تلتزم بقدر كبير من تعاليم الفكر المسيحى القائم على المذهب الكالفنى البروتستانتى أو بعض فروعه، وتستند إلى تأييد تحالف بين اليمين المسيحى والصهيونية، عبرت عن نفسها فى كثير من المواقف، والتزم بها الرئيس بوش فى خطبه وتصريحاته التى اتسمت بنزعة تبشيرية مسيحانية لا تخفى على أحد.

وأخيراً جاءت جنازة البابا يوحنا بولس الثانى، التى شهدت حضور أكثر من مائة زعيم ورئيس من أنحاء العالم، وما لا يقل عن مليونى شخص تدفقوا من أنحاء أوروبا وأمريكا لتشييعه لمثواه الأخير.. لتعكس صورة تشى بمعانى العولمة الدينية، وما يكنه الغرب من تقدير واحترام للدور التجديدى الذى لعبته الكنيسة على يد البابا الراحل فى مقاومة النازية والشيوعية. كما لعبت من حيث أراد العلمانيون أو لم يريدوا دوراً فى هزيمة الشمولية الماركسية، واستعادة أوروبا الشرقية إلى صفوف الغرب، ومعها روسيا أكبر دولة نظّرت للإلحاد والعلمانية. ومن هنا يدرك سياسيون علمانيون. من أمثال شيراك وبلير وشرودر - أهمية النفوذ الروحى والأدبى للكنيسة فى عالم السياسة.

وقبل أن يقع الاختيار على البابا الجديد، كان الجدل الدائر وراء الكواليس فى الفاتيكان وخارجه، حول ضرورة اختيار خلف له يملك من العلم والاستنارة ومواكبة روح العصر ومنجزاته الفكرية والعلمية، ما يمكنه من الإبقاء على حرية «الاختيار» فى شئون الدين، وفى العلاقات الجنسية، وفى قضايا الإنجاب والإجهاض والإيدز. وأن يتخذ موقفًا معتدلاً إزاء الأديان الأخرى، وعلى وجه التحديد إزاء الإسلام الذى اتسعت هوة التوتر بينه وبين الغرب. وعندما وقع الاختيار على البابا الجديد، الساعد الأيمن للبابا السابق، بدا واضحًا أن بنيديكت السادس عشر سوف يواصل نفس السياسات وإن عرف عنه تشدده العقائدى والتزامه بمبادئ العقيدة.

وربما كان من أصعب التحديات التى ستواجه الكنيسة فى ظل التيارات الكاسحة للعولمة كما تواجه غيرها من الأديان والمذاهب بما فى ذلك الإسلام، تلك المشاكل الوجودية والحياتية التى تتعلق بالتقدم العلمى الذى أنجزته أبحاث الهندسة الوراثية والاستنساخ والنانو - تكنولوجى، وفى مدى قدرة الأديان على مواجهة تيار «الردة الصامتة» التى صرفت نسبة كبيرة من أتباع الديانات عن ممارسة شعائرها من ناحية فاعتبرت الدين سلعة استهلاكية يمكن المفاضلة بينها، أو ولدت تيارات للتطرف الدينى والتعصب أثارت موجات عاتية من الفتن الطائفية ذات البعد السياسى من ناحية أخرى، لا تقتصر على دول العالم الثالث بل تمتد إلى الغرب على اتساعه.

ففى الدول الأوروبية ـ هولندا وبلجيكا وفرنسا وألمانيا على سبيل المثال - التى تتظاهر بانتهاج مبدأ الفصل الصريح بين الكنيسة والدولة، شهدت السنوات الأخيرة صدامات دامية بين الأغلبية الساحقة من مواطنيها المسيحيين، من الكاثوليك والبروتستانت، مع الأقليات المهاجرة من آسيا وأفريقيا من المسلمين.. ولم تكن هذه الصدامات نتيجة أسباب اجتماعية واقتصادية أو منافسة على أماكن العمل بقدر ما لعب فيها عنصر اختلاف الدين والثقافة والعادات دورًا رئيسيًا. فقد ضاق صدر هذه المجتمعات بما تدعيه من القبول بالتنوع الثقافى والعرقى. ولم تنجح الأقليات فى التكيف والاندماج الذى لم تعد ترضى به المجتمعات الأوروبية بديلاً عن الذوبان الكامل والتخلى عن ثقافتها ولغتها وطريقة حياتها، إرضاء للمجتمعات التى قبلتهم للعيش بين ظهرانيها.



وإذا كانت الكنيسة قد أقصيت فى الغرب عن مقاربة السياسة بأى شكل، إلا أنها مازالت تمارس نفوذها الفكرى والأخلاقى فى مواجهة التيارات العلمانية المناهضة. فقبل أيام من وفاة البابا يوحنا بولس الثانى ثارت فى الفاتيكان وفى الدوائر الكاثوليكية ضجة كبرى حول رواية «شفرة دافنشى». وطالب متحدث باسم الفاتيكان جميع المسيحيين فى العالم بالامتناع عن شراء الرواية وقراءتها، بعد أن وزعت ٢٥ مليون نسخة وترجمت إلى ٤٤ لغة وجرى التعاقد لإخراجها فيلمًا سينمائيًا.. وذلك بعكس السلطة التى مازالت ممنوحة للأزهر والمراجع الدينية فى بلاد عربية أخرى بمنع الطبع والمصادرة لما يمكن أن يعد كتبًا خارجة عن الدين.

وقصة هذا الكتاب «شفرة دافنشى» الذى أزعج الكنيسة الكاثوليكية وأثار قلقها تقوم على مقولة يمكن أن تهدم مبادئ الكنيسة من أساسها. وهى أن السيد المسيح تزوج مريم المجدلية وأنجب منها أطفالاً. ولكن رجال الكنيسة تعمدوا تلطيخ سيرتها وتشويه سمعتها كواحدة من حواريى المسيح

وخلصائه. واعتبروها مجرد غانية ترمز إلى الخطيئة. وتذهب الرواية إلى أن الكنيسة كانت بحاجة إلى إقناع العالم بأن النبى الفانى يسوع المسيح كان كائنًا إلهيًا، وذلك للحفاظ على قدسية يسوع الإله من ناحية، وذكورية الكنيسة التى ترفض دخول المرأة سلك القساوسة فى الهيراركية الكنسية من ناحية أخرى. ولهذا عمد الإمبراطور الرومانى قسطنطين كما يحكى الكتاب إلى جمع الأناجيل التى تضمنت وصفًا للمظاهر الإنسانية الفانية من حياة المسيح وحرقها.. إلا أن الرسام العالمى ليوناردو دافنشى. هكذا تقول القصة. سجل هذه الحقيقة فى لوحته الشهيرة «العشاء الأخير» للفت الأنظار إلى أن يسوع والمجدلية كانا زوجين، وأن الكنيسة هى التى أضفت صفة الألوهية الكاذبة عليه، واستغلها رجال الدين على مر القرون لتوسيع نفوذهم.

ليس من الضرورى أن تعبر هذه الرواية عن أية حقائق عقائدية تتعلق بالفكر المسيحى، ولكنها تدل على أن المعارك مازالت تدور فى الغرب بقوة بين الوعى الدينى المسيحى والوعى العلمانى الذى خيل إليه أنه كسب معركة فصل الدين عن الدولة فصلاً نهائيًا بغير رجعة. وهو ما يشهد على أن التيارات الدينية تأتى فى صورة موجات متعاقبة، وأن الغرب يشهد فى الوقت الحاضر إعادة إحياء لشكل من أشكال الوعى الدينى الحداثى، ليس بالضرورة فى صوره القديمة التقليدية، ولكن فى صورة أكثر حداثة.. إنه وعى من نوع آخر، لا هو دينى صرف ولا هو علمانى صرف، بل يقوم - طبقًا لما تؤكده الدراسات الاجتماعية الحديثة - على منظومة من الرموز والدلالات التى تشبع الحاجات الدينية للإنسان.



فإذا انتقلنا إلى ظاهرة الصراع الثقافى الراهنة فى العالم الإسلامى، فإنها تبدو امتدادًا طبيعيًا لموجات العولمة الكاسحة التى تسعى إلى المزج بين الوعى الدينى والوعى العلمانى، أو بين الأصولية الدينية والأصولية العلمانية.

وفى هذا السياق يمكن اعتبار الجدل الذى دار مؤخرًا حول «إمامة المرأة» فى الصلاة جانبًا من مشكلة عامة تدور حول مدى مواءمة التشريعات الإسلامية لمقتضيات الظروف الثقافية والمعيشية المعاصرة فى الغرب، والذى تنتقل منظومات القيم وموجات الحداثة منه إلى التجمعات والجاليات الإسلامية التى أقامت واستقرت فيه



الوعى الدينى الحداثى لا يأتى فى صوره التقليدية القديمة، بل فى صور أكثر حداثة.. فلا هو وعى دينى صرف ولا هو وعى علمانى صرف، بل يقوم على منظومة من الرموز والدلالات تشبع الحاجة الدينية للإنسان



لأجيال متعاقبة. ومن ثم إلى المجتمعات الإسلامية والعربية فى الشرق، ربما بسرعة أقل.. ولكنها تصل وتؤثر على كل حال.

وعندما قامت الدكتورة أمينة ودود أستاذ الدراسات الإسلامية فى إحدى الجامعات الأمريكية بإمامة مصلين من الرجال والنساء فى صلاة الجمعة بمدينة نيويورك قبل عدة أسابيع، لقيت دعوتها قبولاً من البعض ومعارضة وإنكارًا شديدين من البعض الآخر.

وموقف الذين عارضوا هذا الاتجاه واعتبروه بدعة وخروجًا على الدين ولا أساس له فى فكر الفقهاء والأئمة السابقين معروف، ويستند إلى حجة تكاد تكون واحدة.. وهى أن جسم المرأة عورة، وأن من المحتمل أن يكون وراء إقدام هذه السيدة ذات الأصول الأسيوية على هذه الخطوة دوافع سياسية تستهدف التأثير على الخطاب الدينى للمسلمين. وهى حجة تلقى تأييدًا واسعًا على مستوى المتخصصين وغير المتخصصين.

أما الذين وافقوا على إمامة المرأة، أو على الأقل لم يجدوا فيها خروجًا صارخًا على الدين، فقد أقاموا حجتهم على أساس أن الفكر الدينى هو نتاج ثقافى لاجتهادات بشرية تنبثق كلها من دين واحد، طبقًا لثقافة وتاريخ وبيئة مجتمعية متغيرة بتغير العصور والأزمان. فالإسلام واحد ولكن الثقافات متغيرة. وإذا كانت الشريعة قد أباحت للمرأة من حيث المبدأ أن تكون إمامًا (على عكس الكاثوليكية التى لا تجيز للمرأة أن تكون قسيسًا تؤم الصلاة) فإن الخلاف يكون حول الشروط والظروف التى تباح فيها إمامة المرأة. فإذا وجدت المرأة فى ظروف معينة كانت فيها الأكثر علمًا وفقهًا - هكذا تمضى الحجة - فلن يكون من المعقول تقديم الرجل الجاهل على المرأة العالمة لمجرد أنوثتها!

ولسنا هنا فى مجال ترجيح رأى على آخر، ولكننا - فقط - نستدل من ذلك على مدى اتساع الفجوة داخل المجتمعات المسلمة فى الغرب، والتى تتعرض لمؤثرات ثقافية واجتماعية وسياسية بفعل العولمة وانتشار تيارات الحداثة السائدة فى مجتمعات أوروبا وأمريكا. وهى تيارات تسعى إلى التوفيق بين الوعى العلمانى الذى تفرضه مجتمعات صناعية متقدمة والوعى الدينى الذى يلبى الحاجة إلى إشباع المشاعر الدينية ولا يصطدم بمقتضيات التقدم فى القرن الحادى والعشرين. ومثل هذه الفجوة لو تركت لحالها فقد تؤدى إلى انفصام بين مسلمى أوروبا وأمريكا من ناحية وباقى مسلمى العالم من ناحية أخرى.



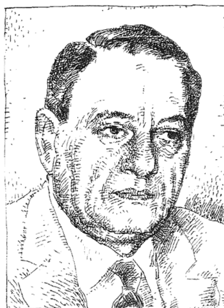
وقد تكرر هذا الخلاف فى قضية أخرى.. حين دعا المفكر الإسلامى الشاب طارق رمضان إلى تجميد تطبيق الحدود الشرعية. ويقصد بها الحدود الجسدية مثل عقوبات الرجم والإعدام وقطع اليد، على أساس أن التعامل مع المجتمعات الغربية التى تعيش فيها تجمعات إسلامية كبيرة العدد، أصبح يستدعى إعادة النظر فى شروط تطبيق هذه العقوبات. كما أنها من ناحية الواقع الفعلى لا تطبق فى معظم المجتمعات العربية والإسلامية لأسباب عديدة. فضلاً عن أن الشريعة تخضع لمتغيرات العصر، وتقتضى شروطًا لا تتوافر فى المجتمعات الحديثة لتطبيق هذه الحدود.

قد يرى البعض فى مثل هذه الدعاوى ضربًا من الضغوط التى تمارس دوليًا لفرض نوع من الإصلاح الدينى فى المجتمعات العربية والإسلامية، حيث طالب الغرب صراحة بتغيير المناهج التربوية، وتشديد الرقابة على الجهات الدينية، وإغلاق المدارس التى يديرها أصوليون، كما حدث فى أفغانستان وباكستان واليمن والسعودية، إلا أن كثيرًا من المثقفين والمفكرين يرى أن الشعوب العربية والإسلامية لابد أن تمر بمرحلة تنويرية مثلما تعرضت له الشعوب الأوروبية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ونحن نلاحظ بالفعل أن التطور الذى شهدته بعض المجتمعات الإسلامية الآسيوية الأكثر احتكاكًا بالثقافات الأخرى مثل إندونيسيا وماليزيا وتركيا، يعرضون نموذجًا أكثر مرونة وتسامحًا فى ممارسة الإسلام، يركزون فيه على التنمية والديمقراطية. ويسعون فى الوقت نفسه إلى هضم مكتسبات الحداثة العلمية والفلسفية وتفكيك ما يعد نوعًا من الجوامد التراثية التى حالت دون التقدم.. ولا يجفلون من محاولة الاندماج سياسيًا واقتصاديًا ومعرفيًا فى التكتلات والأطر التى تحقق فى الغرب وتحددت خطوطها.



مجمل القول أن المجتمعات العربية والإسلامية لن يكون بوسعها أن تتجاهل المؤثرات الثقافية والفكرية والتكنولوجية التى تحملها تيارات العولمة. لترشيد العلاقة بين الدين والدولة أو بين الوعى الدينى والوعى العلمانى من جانب. كما لن يكون بوسعها نفى هويتها الدينية وإنكار الوعى الذى غرسته الثقافة الإسلامية من جانب آخر. وسوف تظل هذه المجتمعات مطالبة بل مسوقة بحكم الظروف الراهنة إلى العمل على تغيير الرؤية الصراعية مع العالم والتى نبتت وتعمقت مع أحداث سبتمبر ٢٠٠١. وهو ما يتطلب عملاً جادًا لتحديث الفكر الإسلامى وتوسيع المدى الثقافى والاجتهادى لاستيعاب جماعات إسلامية أخرى تعيش فى ظل ثقافات متعددة ومتنوعة. إذ تحتاج هذه التجمعات الإسلامية فى أوروبا وأمريكا إلى أفق أوسع وأعلى من ثقافة أحادية مسيطرة. وليس معنى القبول بمنطق العولمة والتعامل مع تيارات الحداثة الغربية التى تفرض نفسها بقوة على المجتمعات العربية أو بالرغم عنها.. أن تتخلى هذه المجتمعات عن هويتها وثقافتها. فالحداثة ليست نفيًا للذات أو إعدامًا لها. ولكنها السعى الدائب إلى استيعاب المتغيرات فينا وفى غيرنا، لكى تأتى من داخلنا ومن ثقافتنا وهويتنا، دون أن نضطر إلى استيرادها أو الإذعان لها من الخارج. والأوروبيون على اختلاف ألوانهم ومناهلهم لا ينفون ذاتهم ولا يعدمون ماضيهم، بل يعيشون فيه بأقدامهم ورؤوسهم مشرئبة إلى معطيات الحاضر ورؤى المستقبل! ■



نبيـــه بـــرى



بشـير الجميـــل



كمـال جنبــلاط



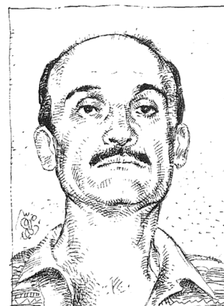
حسـن نصـر الله



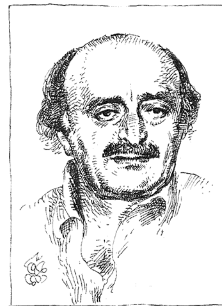
رفيــق الحــريرى



موســى الصـــــدر



ســـمير جعجـــع



وليـــد جنبــــلاط



ميشـــال عـــون

لبنان بين مشهدين ١٩٧٥ - ٢٠٠٥



فؤاد مطر

الحرب الأهلية اللبنانية.. ثلاثون عامًا مضت على شرارتها الأولى، التى لم تنطفئ إلا بعد خمسة عشر عامًا كاملة من الدمار والخراب. وهاهى رائحة البارود ذاتها. لا أحد يعلم. يقينًا. إن كانت تحملها رياح سوداء تبدو داكنة فى الأفق «العربى». أو تنبعث من تحت ركام الذكريات و«الحسابات القديمة». بعد أن حرك اغتيال الحريرى الهواجس.. و«الشهية». وبعد أن وجدت السيارات المفخخة ذات التاريخ البيروتى الطويل طريقها مرة أخرى إلى المدينة الغاوية الجميلة. وبعدما بدا أن البعض. فى ثقافة تدمن التشبث بالماضى. يحاول إعادة عجلة التاريخ إلى الوراء. غافلاً عن حقيقة أن الزمان غير الزمان وأن السياق مختلف.

«وجهات نظر» طلبت من الكاتب اللبنانى فؤاد مطر صاحب العمل الموسوعى الضخم فى تأريخ الحرب اللبنانية، أن يطل من فوق حطام السيارات وباقات الزهور فى ساحة الشهداء على «الحرب التى كانت.. والهواجس التى بانت».

المحرر

١ - يوميات البارود.. والسياسة

ما أشبه اليوم اللبنانى ببعض بارحته، وفى الحالتين هنالك شرارتان. واحدة أشعلت حرباً تعددت توصيفاتها من القول إنها أهلية إلى القول إنها مذهبية إلى القول إنها حرب أطراف عربية ودولية على أرض أشبه بمناطق آبار النفط فى الصحارى الخليجية. أما الشرارة الثانية فإن ما يمكن أن تشعله ما زال فى علم الغيب، أو فلنقل إنه فى علم الذين أعطوا الأمر لاستحداث الشرارة، وإن كان من الجائز الافتراض بأن الشرارة الثانية ستهز كيانات سياسية، ونكاد نقول تزلزلها.

ذلك هو عنوان المشهد للحالة الأولى التى لم تعد خفايا دهاليزها لغزاً كما هو لغز الحالة الثانية التى اقتحم العالم من خلال مجلس الأمن أسوارها غير عابئ بالاعتراضات والتحفظات والاعتبارات الوطنية والسيادية. أما تفاصيل وحقائق وتداعيات الحالتين فإنهما بالقدر المناسب من التوضيح والتنشيط للذاكرة، إضافة إلى استحضار ما يمكن استحضاره من وقائع وحيثيات، فإنها على النحو الآتى:

حدثت الشرارة الأولى يوم الأحد ١٣ أبريل عام ١٩٧٥ عندما اعترضت سيارتان صغيرتان فى محلة مسيحية مائة فى المائة اسمها «عين الرمانة» سيارة «أوتوبيس» تقل عدداً من الفلسطينيين عائدين من مسيرة نظمتها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (القيادة العامة) التى يتزعمها أحمد جبريل بالمشاركة مع أطراف ثورية فلسطينية أخرى. وقد أدى الحادث المفتعل بطبيعة الحال إلى قتل وجرح جميع من كانوا فى «الأوتوبيس» وعددهم ٢٦ .

كان أمراً يثير الدهشة أن «الأوتوبيس» لم يسلك طريقاً آخر لكى يعيد الفلسطينيين إلى المخيم الذى يعيشون فيه والواقع وسط زنار من المسيحيين والمسمى «تل الزعتر». وكان لافتاً للانتباه أنه لمجرد وقوع



حافظ الأسد



ياسر عرفات



لبنان بين مشهدين ١٩٧٥ - ٢٠٠٥

الذي فعله «اللوبي العرفاتي» كان في بعض جوانبه بمثل ما حدث بعد ثلاثين سنة من جانب المعارضة اللبنانية التي اشتدّ ساعدها نتيجة اغتيال رفيق الحريري



الحادث سارعت المقاومة الفلسطينية إلى اتهام «حزب الكتائب» المسيحي مائة في المائة بتدبير الحادث استناداً إلى أن هذا الحزب كان بدأ حملة تعبئة نفسية ضد الوجود الفلسطيني، وأن الابن الثاني (بشير) لرئيس الحزب الشيخ بيار الجميل (والشيخ هنا لقب وجاهة يحمله مسلمون ومسيحيون في بعض الدول العربية وليس كما هو المعروف بأنه صفة لرجل الدين) هو من يتولى هذه التعبئة مع تحضيرات عسكرية للمواجهة المخطط لها.

وبدل أن يكون رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات عامل تهدئة، فإنه وظّف الحادثة لبسط زعامته على الجمع الفلسطيني الهائل المتراكم في لبنان داخل المخيمات أو في عمارات متنوعة المستوى، فضلاً عن أن هواجسه من أن يقفز أحمد جبريل الذي هو ذراع فلسطينية للحكم السوري إلى موقع الصدارة بدل أن يبقى مجرد جرم يدور في الفلك الفلسطيني العرفاتي، كانت تشغل باله. ونلاحظ أن عرفات الذي كان في استطاعته التوفيق قدر الإمكان ومن خلال الكلام الطيب الذي يتقن صياغة مفرداته كما لا يتقنها أحد بهذه المهارة، دعا «اللوبي اللبناني» الذي كان نجح في استقطابه ويضم ما أصطلح على تسميته «الأحزاب والقوى الوطنية والتقدمية» إلى تسجيل موقف حازم لا يقلّ حزماً عن الموقف الذي اتخذه في الاجتماع الطارئ للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية متمثلاً في برقية إلى الملوك والرؤساء العرب كانت كلماتها مثل الحطب اليابس الذي يزيد النار اشتعالاً، وجاء فيها «إن المجزرة التي نفّذتها عصابات حزب الكتائب المسلحة ضد أبناء شعبنا الأبرياء العزّل هي مؤامرة مكشوفة لخلق فتنة وضرب الأخوّة الفلسطينية - اللبنانية، وإنني أناشد القادة العرب التدخل العاجل الفعّال لإحباط هذه المؤامرة ودعوة السلطات المسئولة في لبنان الشقيق للضرب على أيدي عصابات الكتائب الآثمة...». وما أراده عرفات تلميحاً أكمله «اللوبي» المشار إليه والذي يتزعمه الزعيم الدرزي كمال جنبلاط والد وليد جنبلاط الذي يؤدي في مرحلة الصراع الدائر والناشئ عن الشرارة الثانية خلال النصف الأول من العام ٢٠٠٥ دوراً شبيهاً في بعض مفاصله بدور والده على مدى سنتين، من الحرب التي بدأت في النصف الثاني من العام ١٩٧٥ واستمرت ست عشرة سنة تخللتها بعض التهدئة. والذي فعله «اللوبي العرفاتي» كان في بعض جوانبه بمثل ما حدث بعد ثلاثين سنة من جانب المعارضة اللبنانية التي اشتدّ ساعدها نتيجة اغتيال رفيق الحريري. فقد طالب «اللوبي» بـ «معاقبة رؤوس مخططي المجزرة والفتنة الطائفية واقتحام المناطق التي تحتلها ميليشيا الكتائب وتطهيرها واعتقال المجرمين جميعهم وحل حزب الكتائب وطرد وزيري الكتائب من الحكم ومقاطعة هذا الحزب وطنياً وسياسياً وقطع كل حوار معه والمشاركة في كل مظاهر النقمة الشعبية على مدبري المجزرة ومن يقف وراءهم...». أما المعارضة اللبنانية فنلاحظ أنها تطالب بإقالة رؤساء أجهزة الأمن والمخابرات وكان بعضها طالب حتى باستقالة رئيس الجمهورية. وفي الحالتين الأولى قبل ثلاثين سنة والثانية التي نعيشها الآن ومنذ يوم الاثنين ١٤ فبراير ٢٠٠٥ كان التعقيد هو الجامع المشترك وكانت اللعبة السياسية متفوقة على المنطق الذي يؤدي إلى الحلول وكان الثأر السياسي هو المتأجج كالنيران في الصدور.

نبقى في التداعيات الناشئة عن حادثة «الأوتوبيس» ونشير في هذا الصدد إلى أن الأمور سارت على النحو الآتي:

أبدى الرئيس أنور السادات قلقه مما حدث مناشداً الأطراف بضبط النفس، وشجّع الأمين العام للجامعة العربية محمود رياض على التوجه إلى بيروت وبذل ما يمكن بذله من المساعي للتهدئة. وجاء الأمين العام إلى العاصمة اللبنانية ليجد أن التهدئة على شيء من الاستحالة حيث إن حرب المتفجرات والصواريخ (هكذا دفعة واحدة) بدأت تتسع، وأن رئيس الجمهورية سليمان فرنجية راقد في المستشفى حيث أجرى عملية جراحية تشبه في بعض ظروفها تلك العملية التي استجلبوا من أجلها إلى لندن آية الله السيستاني، وبذلك أخذ ميزان صراع القوى الشيعية النجفية الكربلائية يشهد اختلالاً نوعياً لمصلحة استراتيجية الاحتلال الأمريكي - البريطاني للعراق. أما رئيس الحكومة زمنذاك رشيد الصلح فإنه بدا على أهبة الرحيل مكرهاً حيث إن نصف أعضاء الحكومة استقالوا وأن بيار الجميل رئيس الحزب المطلوب رأسه من جانب عرفات وحلفائه اللبنانيين يرفض مقولة إن إسرائيل هي التي تحاول إشعال الفتنة ويطالب الصلح بالرحيل، فيرد عليه هذا الأخير وفي مجلس النواب بتحميله في معرض الحديث عن الامتيازات الطائفية مسئولية «مجزرة الأوتوبيس». ومع أن رئيس البرلمان كامل الأسعد حذف من محضر الجلسة اتهامات الصلح للكتائب إلاّ أن بيار الجميل بدا شغوفاً بإشعال البيت ناراً وذلك من خلال استنكاره «انحدار رئيس الحكومة إلى هذا الدرك من اللاأخلاقية الوطنية والسياسية واستغلال المجلس النيابي لخلق فتنة». وبالمقارنة مع كلام يسمعه اللبنانيون في هذه الأيام، وبعد ثلاثين سنة لم تمحُ من ذاكرات معظمهم فواجع تلك الأيام، لا نجد الفرق شاسعاً.. بل إن ما يقال في هذه الأيام خلال المساجلات بين أهل السياسة أشد فظاظة مما كان يقال وكأنما هذه هي الصفات التي لا بدّ لمن يعمل في الحقل السياسي العام من التحلي بها.

وصلت الحال برئيس الحكومة رشيد الصلح إلى ضرورة الرحيل ليبدأ البحث عن رئيس حكومة جديد. وفيما بورصة الأسماء تسجل ارتفاعاً لمصلحة رشيد كرامي (الشقيق الأكبر لعمر كرامي الذي لم يكن سعيه للترؤس مشكوراً أو مقبولاً عقب اغتيال رفيق الحريري) وخصوصاً بعد اعتذار القطب الإسلامي الآخر عبد الله اليافي عن تشكيل حكومة، فإن رئيس الجمهورية سليمان فرنجية فاجأ الجميع - لبنانيين وفلسطينيين - بتكليف العميد الأول المتقاعد نور الدين الرفاعي تشكيل حكومة عسكرية وهو ما كان يتمنى رئيس الجمهورية الحالي إميل لحود لو استطاع إلى ذلك سبيلاً الإقدام عليه هذه الأيام وقبل اختيار نجيب ميقاتي الذي هو إلى حد ما من النسيج نفسه لرفيق الحريري.

جاء التكليف ليشكّل صدمة للكثيرين، مسلمين ومسيحيين، واعتبره أقطاب السياسة من المسلمين السنّة استهانة بهم، ومن أجل ذلك شهدت المرجعية السنّية متمثلة بـ «دار الفتوى» أضخم تجمع إسلامي لمواجهة الحكومة العسكرية.



هنا دخل الحكم السوري على خط الصراع علناً حيث إن الرئيس حافظ الأسد أوفد إلى صديقه وحليفه الرئيس سليمان فرنجية مسئولاً مدنياً هو عبد الحليم خدام وآخر عسكرياً هو اللواء ناجي جميل. وخلال اجتماع انضم إليه كمال جنبلاط اتصل خدام بعرفات فنصحه هذا الأخير بعدم النزول إلى بيروت. وبعد ٦٥ ساعة عاشتها الحكومة العسكرية وتكاثرت خلالها الضغوط والمطالب باستقالتها ارتأى رئيس هذه الحكومة أن يستقيل وحتى من دون أن يتم

في الحالتين الأولى قبل ثلاثين سنة والثانية التي نعيشها الآن ومنذ يوم الاثنين ١٤ فبراير ٢٠٠٥ كان التعقيد هو الجامع المشترك وكانت اللعبة السياسية متفوقة على المنطق



التقاط الصورة التذكارية للحكومة التي شكّلها في غفلة عن المشاورات التقليدية. ولمجرد الاستقالة بدأ القطب السني رشيد كرامي السعي لتشكيل حكومة على وقع تزايد المطالبة بعزل «حزب الكتائب» داخلياً والضغط على الدول العربية لكي تفعل الشيء نفسه وهو ما أخذت به الجزائر وليبيا، وعلى وقع نداء من الرئيس السادات يدعو فيه إلى حل القضايا العالقة بين رئيس الجمهورية سليمان فرنجية ورئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات الذي بات واحداً من رموز الأزمة التي تعصف بلبنان. وإلى ذلك، بدأت التدخلات العربية تتزايد ومنها التدخل الليبي في شخص الرائد عبد السلام جلود واتساع رقعة التعاطي السوري مع الخلافات التي تزداد تعقيداً، وكل ذلك بينما رقعة القصف والخطف والسحل تتسع ويشمل الخطف ضابطاً أمريكياً مرموقاً كان جاء إلى بيروت من باكستان في طريقه إلى أنقرة.

لم تنفع تطمينات رشيد كرامي وتخريجاته ومنها قوله «إن جميع اللبنانيين، مسيحيين ومسلمين، باتوا متساوين في الحرمان» في إطفاء النيران التي كانت تزداد اشتعالاً، وكيف سيتم هذا الإطفاء ما دام كمال جنبلاط عرّاب «الأحزاب الوطنية والتقدمية» أي الجبهة التي باتت متبلورة وتضم معظم الزعامات الإسلامية واليسار على أنواعه والمنظمات والفصائل الفلسطينية يقول كما فعل بعد ثلاثين سنة ابنه وليد الوارث الزعامة «إنه لا عودة إلى الاستقرار إلاّ بتبديل النظام وتعديل الدستور...»، وما دامت مصر السادات لا تفعل سوى معاتبة سورية وعرفات وسوى القول للاثنين: «ارفعوا أيديكم عن لبنان». وعلى رغم انتشار الحرائق وإلى درجة أن سكان المناطق الجبلية بدأوا يرون ليلاً العاصمة بيروت كما لو أنها تحترق من أولها إلى آخرها، إلاّ أن الحوار بين الأطراف المتصارعة لا يبدأ ويسمع اللبنانيون والأشقاء العرب تصريحات حافلة بمفردات في غاية الغرابة من بينها قول كرامي عن القطب الماروني كميل شمعون الذي سبق أن ترأس الجمهورية «إن ما ينطبق على كميل شمعون هو أن حاميها حراميها...». ثم دخلت المساجلات في شأن دستورية بعض الخطوات والإجراءات المطلوب اتخاذها على أمل تحقيق التهدئة تحمل في طيات عباراتها مفردات من النوع المستغرب إياه. وفيما رموز الطوائف المسيحية والإسلامية تنشط بأمل إحلال التهدئة وتطويق حالات العنف والحرائق التي استشرت، كان المبعوث الرئاسي الفرنسي كوف دو مورفيل يقول «إن المحنة تضع مصير لبنان على بساط البحث وإننا لنتساءل: هل يبقى لبنان»، وذلك لأن شبح التقسيم بدأ يقترب ومن دون أن تنفع في تبديده محاولات التوفيق بين الأطراف أحياناً وحالات من المواقف بغرض الضغط أحياناً من نوع موقف الزعيم الروحي الشيعي السيد موسى الصدر الذي ما لبث أن اختفى خلال زيارة رسمية إلى ليبيا مع اثنين من رفاقه وما زال مصيره إلى الآن في علم الغيب.

وإذا كانت المرحلة الأولى التي نشأت عن شرارة حادثة «الأوتوبيس» مروعة ولم تنفع في احتواء تداعياتها بعض الصيغ التوفيقية، فإن المرحلة التي تلتها بدءاً من أواخر نوفمبر ١٩٧٥ وانتهاء بالأسبوعين الأولين من فبراير ١٩٧٦ كانت ذروة التعقيدات السياسية بعدما بدأت مراجع سياسية ودينية عربية ودولية تتعاطى بجدية مع الوضع. فهذا البابا يوحنا بولس السادس يقول يوم الأحد ٣٠ نوفمبر ١٩٧٥ مخاطباً بطريرك الطائفة المارونية في لبنان مار أنطونيوس خريش خلال قداس ماروني في الفاتيكان «إننا نتوسل إليكم باسم الإنجيل أن تضعوا كل ما لكم من ثقل في لبنان لأجل تسهيل إحلال السلام والمصالحة ونستحلف مرة جديدة أيضاً جميع المسئولين أن ينتهزوا الفرصة القائمة من أجل العمل على تطوير لبنان برفضهم الانجراف في تيار العنف من أين أتى وبوضعهم حداً للاقتتال الأخوي...». وهذا الرئيس السوري حافظ الأسد يقول لأحد زواره اللبنانيين: «لا تكونوا متشائمين. وإذا كانت إسرائيل تريد أن «تتراذل» على أي جبهة، فإن سورية مستعدة وحدها ومن دون أن فتح أي جبهة عربية أخرى لمجابهتها وسيرون ما لا يُرى...». ومثل هذه المفردة أي «التراذل» لم نلحظ حاكماً عربياً استعملها عدا الرئيس اللبناني الجنرال إميل لحود بعد ثلاثين سنة على استعمال الرئيس حافظ الأسد لها. وهو (أي لحود) قالها في معرض تحليل لم يحالفه التوفيق للعملية الترويعية التي أودت بحياة رفيق الحريري حيث وصفها بأنها فعل «رذالة» الأمر الذي قوبل بالاستهجان على المستوى العام. وهذا التوصيف لا يختلف من حيث التبسيط للحرب اللبنانية التي كانت رقعتها تزداد اتساعاً عن التشخيص الذي سمعه اللبنانيون والعرب من رئيس جمهورية لبنان سليمان فرنجية الذي قال «إن أغراض اليسار هي قلب ما في لبنان من أنظمة وطرائق عيش وإن أغراض الصهيونية هي محو الدول المحيطة بإسرائيل وأمل ألاّ نكون نحن وإخواننا العرب مطية لليسار والصهيونية...» وهو كلام جاء الرد عليه من مرجعين مهمين: المرجع الأول إسلامي سُنّي في شخص رئيس حكومة سابق وزعيم «ثورة ١٩٥٨» التي رعتها مصر عبد الناصر وأمدتها بالمؤازرة السياسية والمعنوية وبالسلاح عن طريق سورية التي قام الحكم الأسدي فيها بعد سبع عشرة سنة بدور مماثل للحرب التي اندلعت يوم ١٣ أبريل ١٩٧٥. والمرجع الذي نعنيه هو صائب سلام الذي قال رداً على تشخيص صديقه وحليفه السابق فرنجية «إنه سكت دهراً ونطق كفراً وأنه لا أمل في عودة الاستقرار والأمن ما دام فرنجية ووزير داخليته (رئيس الجمهورية السابق) رئيسي عصابة». أما المرجع الثاني فهو رئيس «الأحزاب الوطنية والتقدمية» كمال جنبلاط الذي قال «إن فرنجية رئيس عصابة مقاتل انحاز للانعزاليين ففقد صفة الحكم والتحكم...».



باتت الحرب الكلامية شبيهة بحرب الصواريخ، وباتت بعض المفردات من هذا الطرف أو ذاك من الفريق المعارض ضد رئيس البلاد والذين اصطفوا حوله بقوة القذائف. وزاد من حدة الموقف أن الانقسام المذهبي بدا واضحاً وأن جبهة الحكم مسيحية بالكامل ولا أثر لعناصر إسلامية فاعلة معها مقابل جبهة «الثورة على الحكم» التي نقطة الضعف فيها أنها يسارية عموماً الأمر الذي أضعف شأن العنصر الإسلامي فيها.

في هذه الأثناء لم يكن واضحاً ما إذا كان الحكم السوري يريد التهدئة أم لا. ولم يكن جلياً ما إذا كانت هذه الاجتماعات في دمشق أو في بيروت يعقدها كبار المسئولين مع كل أطياف الحرب اللبنانية المشتعلة هي للتسوية أم لتحضير المسرح أمام دور سوري متقدم يمسك بكل الخيوط وبذلك يتحول أطراف الصراع إلى عرائس تحركها يد واحدة من وراء الستار أو بالأحرى من وراء ظهر العرب والعالم. ثم بدأ الصراع الخفي يأخذ أبعاداً جديدة بعدما قررت أطراف عربية أن يكون لها دورها، أو فلنقل حصتها في الكعكة اللبنانية وهو ما فعله العراق الصدامي وليبيا القذافية والأردن الهاشمي. وفي فترة زمنية قصيرة بات لبنان ساحة احتراب لها بعض ملامح الحرب الإمامية - الجمهورية في اليمن والقليل من ملامح جولات الكر والفر في العراق الذي جاءه العم سام لتحريره من «بعثه المستبد» فإذا به يستعمره «ديمقراطياً» وينتزع من كل أطيافه التي بينها وبين الحكم الصدامي فرصة التغيير الذاتي مسجلاً عليهم نقطة أنه هو الذي حررهم من الحكم البعثي وأنه لو لم يفعل ذلك لكانوا لن يستطيعوا إحداث أي تغيير. ولذا فعليهم أن يتقبلوا لوحة الحكم بالموزاييك المرسوم في «البنتاجون» و«وكالة المخابرات المركزية» لهذا الحكم مناصب وأشخاصاً وانقلاباً على الواقع المألوف. وهكذا فإنه مثلما أن وقوع لبنان في القبضة السورية بحجة وقف الحرب وعدم التقسيم حولت لبنان إلى ضاحية سورية وجعلت أكثرية أهل السياسة والحزبية خاضعين للإرادة السورية طوال ربع قرن إلى أن تبدل الأمر بعد الانتفاضة الناشئة عن تداعيات اغتيال رفيق الحريري، فإن وقوع العراق في القبضة الأمريكية المغلفة بـ «سيلوفان» بريطاني تقوده إلى حال مماثلة. وما نراه أمامنا في المشهد العراقي يؤكد ذلك سواء من حيث مفاجآت التعيين في المناصب أو في السلوك الحكومي العام والذي قد يؤسس إلى أن أمريكا ستبقى في العراق بعدد سنوات بقاء سورية في لبنان أو ربما أكثر... إلاّ إذا ندم الشيعة على انبهارهم بالعم سام فساروا في ركابه ما دام أسقط لهم غريمهم صدام حسين، مع أنهم استلهاماً للرؤى الخمينية فالخامنئية يرون أن العم سام «شيطان أكبر» يبقى شراً بالمستضعفين. ومثل هذا الموقف تحاشى «حزب الله» في لبنان الأخذ به بالروحية التي اتخذها بعض أقطاب شيعة العراق فكان الحزب بذلك بعيد النظر إلى حد ما.

عندما انقسم الجيش وتبعثر

فجأة حدث ما لم يكن في الحسبان. ففي خضم المشاحنات والتلاسن بين أقطاب أهل السياسة كشف الحكم السوري عن نواياه،



لبنان بين مشهدين ١٩٧٥ - ٢٠٠٥

بالمقارنة مع كلام يسمعه اللبنانيون فى هذه الأيام، وبعد ثلاثين سنة لم تمح من ذاكرات معظمهم فواجع تلك الأيام، لا نجد الفرق شاسعاً

واختار عبد الحليم خدام كوزير خارجية يمسك بالملف اللبنانى من الناحية السياسية الكويت لكى يطلق منها تصريحاً يعترض فيه على محاولات تعريب الأزمة بهدف إيجاد حل من شأنه إبعاد التدخل الدولى. ومما قاله خدام وهو فى زيارة إلى الكويت «إن محاولات تعريب الأزمة اللبنانية تعنى كثرة الطباخين وتعنى تشتيت المساعى وإننا لن نسمح بتقسيم لبنان، وأى مباشرة للتقسيم ستعنى تدخلنا الفورى لأن لبنان كان جزءاً من سورية ولسوف نعيده لدى أى محاولة فعلية للتقسيم...». وفيما ارتأى الأقطاب المسلمون ومعهم زعيم «الأحزاب الوطنية والتقدمية» وكذلك الجانب الفلسطينى عدم التوقف أمام هذا الكلام، فإن القطب المسيحى المارونى كميل شمعون، الذى كان فى الأربعينيات والخمسينيات وخلال ترؤسه الجمهورية عروبياً وبات بعد اندلاع الأزمة متزمتاً لبنانياً، رد على خدام بتصريح كانت له تفسيراته وأصداؤه المتعددة. ومما قاله بصيغة التهكم: «إن معالى الوزير خدام درس التاريخ والجغرافيا فى جامعة سعسع فى الشام ولو كان دارساً أكثر من ذلك فعلاً لعرف مَنْ الذى احتل الشام فى الزمان.. وقلعة فخر الدين ما زالت قائمة حتى الآن فى تدمر...». كذلك انبرى وزير خارجية إسرائيل شيمون بيريز فى الوقت نفسه ليحذر سورية من التدخل فى لبنان. أما الموقف المريب فكان موقف الإدارة الأمريكية التى قالت إنها «ضد تدخل أى دولة فى لبنان بما فى ذلك سورية وإسرائيل...». والقول إنه موقف مريب لأن الدور السورى فى لبنان كان طوال ربع قرن تحت بند الرضى الأمريكى أو من أجل الدقة كان بند «اللامانع» على نحو ما حدث مع الرئيس صدام حسين عندما أوحت له السفيرة الأمريكية أبريل غلاسبى بـ«اللامانع» إزاء مغامرته الكويتية التى كلفت العراق استقلاله وسيادته وكلفت الشعب العراقى هناءه وثروته وكلفت الأمة من المحيط إلى الخليج قلقاً لا مثيل له. وفى ضوء ما يحدث الآن للحكم السورى فإن الغرض العاجل من «اللامانع» لصدام حسين هو من النسيج نفسه للغرض الآجل من «اللامانع» للأسد الأب والذى وجد الأسد الابن (الرئيس بشار) بعد ثلاث سنوات على رحيل والده وتسلمه هذا الإرث الثقيل أنه قد يسدده إسقاطاً للحكم البعثى والحقبة الأسدية عموماً أو فى الحد الأدنى تحجيم هذا الحكم بعد ترويضه ما فيه الكفاية وقطع أواصره الإيرانية وإحكام الإقفال على خاصرته اللبنانية مقدمة لإدخاله فى حظيرة النظام العالمى الجديد مثل النعجة التى ترتعد فرائصها من الذئب إذ عوى.

ونحن عندما نرى أن السلوك السورى فى لبنان كان ترجمة لما أفصح عنه عبد الحليم خدام فى تصريحه الكويتى، فإننا نستند فى ذلك إلى وقائع تراكمت وتفاعلت واقعة فوق واقعة طوال عقدين من الزمن ولم يكن الحكم السورى بعيد النظر فى شأنها. وهو لو كان كذلك لما كانت الانتفاضة اللبنانية وضمن الشعار المعدل لذلك الذى سبق أن رفعه الرئيس جمال عبد الناصر فى الستينيات أى «ارفع عَلَمك يا أخى» بدل «ارفع رأسك يا أخى».

وما يلفت الانتباه أن الهجمة من جانب بيريز الصهيونى وشمعون المسيحى المارونى على خدام أحرجت بعض الأقطاب المسلمين الذين رأوا أنه لا بد من الرد... وإن كانوا ضمناً ومنهم صائب سلام يرون أن كلام خدام فجّ بعض الشىء وأنه كان من الأفضل ألا يقال ما دامت مفردات هذا الكلام تزيد الموقف اشتعالاً. ومما قاله سلام نكاية بخصمه التاريخى شمعون الذى، أى سلام، قاد «ثورة ١٩٥٨» ضد حكمه وليس حباً بخدام «إن شمعون فاوض إخواننا السوريين على إقامة كيان كونفدرالى بين لبنان وسورية.. ولولا الوزير خدام لما كان كميل شمعون اليوم فى وزارة الداخلية». ولأن كلام سلام كان مثل قذيفة من العيار الثقيل فإن الخصم اللدود كميل شمعون ردّ على الكلام بأغلظ منه قائلاً: «كنت ولا أزال أقول إن السيد صائب سلام مصاب بمرض عضال.. هذا المرض العقلى الذى يصيب الإنسان عندما يفقد أعصابه وينهار معنوياً.. أما وزارة الداخلية فلستُ مديناً بها لأحد ومستعد للتخلى عنها دون تردد فى أى وقت...».



وبالإضافة إلى المفاجأة الخدامية التى لم تكن فى الحسبان، وربما كانت متعمدة، ولأن النار ازدادت اشتعالاً وفى كل المناطق وعلى ألسنة كل رموز العمل السياسى والحزبى، بدأ الكلام حول دخول القوات السورية الأراضى اللبنانية مجهزة بالسلاح الثقيل والمعدات والمصفحات، وقالت إسرائيل إنها ستتخذ إجراءات دفاعية فى حال تأكد دخول القوات السورية. ونشط رجال الدين فى محاولة لمحاصرة التطورات الخطيرة، ودعا الأمين العام للجامعة العربية إلى قمة عربية، ودخل الحكم السورى بثقله السياسى لتحقيق تسوية ووصلت الحال بالرمز الأكبر لدعاة الديمقراطية كمال جنبلاط إلى الإدلاء بتصريح قال فيه «يلزمنا حكم دكتاتورى ليخلصنا من الأوساخ التى علقت بالكثير منا، كما يجب فرض التعليم الدينى غير الطائفى على الطلاب»، يقابله تصريح للقطب الديمقراطى الأهم فى الصف المسيحى المارونى ريمون إده الذى قال «إن لبنان وقع تحت الانتداب السورى». ولأن جنبلاط كان حتى هذه اللحظة حليف الحكم السورى فإنه تصدى، مدافعاً عن دخول القوات السورية، لصديقه ريمون إده الذى بقى ثابتاً على موقف واحد حتى وفاته فى ملاذه الباريسى، قائلاً «إن العميد إده يتسرع فى أحكامه ونحن لا نعتبر أى عنصر عربى منظم جيش احتلال.. الفوضى هى الاحتلال». وتشاء الظروف أن جنبلاط الابن (وليد) رأى فى معركة المواجهة السياسية مع الحكم السورى وبالذات بعد اغتيال رفيق الحريرى ما رآه ريمون إده وأكثر.

لكن تبقى المفاجأة الأهم وبعدما كان رشيد كرامى أخفق فى الصمود كرئيس للحكومة هى انقسام الجيش اللبنانى وتبعثره كشظايا قنبلة انفجرت وأصابت القريبين منه. ولقد بدأ الحديث حول انقسام داخل المؤسسة العسكرية عندما أدلى جنبلاط بتصريح قال فيه «إننا فى حاجة إلى جيش لبنان أكثر مما يتصوره ضباطه وجنوده» ردت عليه قيادة الجيش بنفى حدوث أى انقسام أو تفكك فى البنية العسكرية. ثم ترددت وسط تحركات سياسية نوعية أعقبها سفر رئيس الجمهورية سليمان فرنجية إلى دمشق لعقد لقاء مع الرئيس حافظ الأسد انتهى إلى إعلان ما سُمى بـ«الوثيقة الدستورية»، معلومات حول توارى ضابط برتبة ملازم أول اسمه أحمد الخطيب وإلقاء القبض عليه من قبل أجهزة الأمن السورية بعد اتهامه بالمشاركة فى إطلاق النار على موكب عبد الحليم خدام الذى كان أنجز مهمة سياسية نوعية فى لبنان وعاد إلى دمشق لترتيب لقاء القمة بين الرئيسين اللبنانى والسورى. ولمجرد أن انتهت أعمال القمة بإعلان «الوثيقة الدستورية» التى تلاها فرنجية بنفسه من محطة التلفزيون اللبنانية ولم يكن منشرح الصدر وهو يتلوها حتى بدأت «حرب الثكنات» وبدأ الضابط أحمد الخطيب الذى أشرنا إليه يشارك بصفة «قائد جيش لبنان العربى» فى الاجتماعات التى تعقدها «الأحزاب والقوى الوطنية والتقدمية» برئاسة كمال جنبلاط، الأمر الذى يعنى أن الرجل، أى جنبلاط، ومعه حليفه الفلسطينى ياسر عرفات لم يكونا بعيدين عن حدوث الانقسام فى الجيش

مما قاله خدام يوما «إن محاولات تعريب الأزمة اللبنانية تعني كثرة الطباخين وإننا لن نسمح بتقسيم لبنان. وأي مباشرة للتقسيم ستعني تدخلنا الفوري



اللبناني الذي سيصبح انقسامه مؤشراً إلى أن الأمن اللبناني بات معقوداً لسورية.

نحن الآن في الأيام الأولى من فبراير ١٩٧٦ وليس في الأفق ما يوحي بأن في الإمكان محاصرة العنف الذي بدأ، إذا جاز التشبيه، يأخذ شكل التنين الذي تقول الأسطورة إنه يقذف اللهب من فمه. وعلى رغم ذلك وما يحدث على مدار الساعة من عمليات قتل وتفجير وخطف وقصف استمرت التلاسنات بين أطراف أهل السياسة والأحزاب، وساد شعور بين الناس يرى أنه لن يكون في قدرة الوطن أن يبقى. وتعزز هذا الشعور بعدما انقسم اللاعبون والمتلاعبون، أو تحديداً المتلاعبون الذين يظنون أنفسهم لاعبين حول «الوثيقة الدستورية» التي اعتبرها رئيس الجمهورية سليمان فرنجية ما دامت حظيت بتأييد حليفه الرئيس حافظ الأسد حلاً يرضي الجميع وما دامت هذه الوثيقة تنص على بنود تخفف من وطأة الهيمنة المسيحية على القرار وتعطي رئيس الحكومة السني وضعاً أفضل وبحيث يتم انتخابه من النواب شأنه في ذلك شأن رئيس الجمهورية بدل أن يجري تعيينه من قبل هذا الأخير. وإلى ذلك أنها تنص على تعزيز اللامركزية وإزالة الطائفية في المناصب وتعزيز القدرات الدفاعية للجيش بحيث يتبدد القول الشائع عن لبنان بأن قوته في ضعفه، إضافة إلى بنود إصلاحية كثيرة تتناغم مع مطالب المسلمين عموماً وجبهة الأحزاب التي يقودها كمال جنبلاط ويرعاها ياسر عرفات وبعض الدول العربية بالسر أحياناً وبالعلن أحياناً أخرى.

ولكن اعتقاد رئيس الجمهورية لم يكن على نحو ما يحب. فقد بدأت المطالبة من جانب كمال جنبلاط وحلفائه باستقالة الرئيس، تماماً على نحو المطالبة بعد ثلاثين سنة من قبل جنبلاط الابن باستقالة الرئيس إميل لحود... وكأنما هذا المطلب وديعة أو إرث تركه الأب لكي يأخذ به الابن. وهذه المطالبة واستمرار العنف على الوتيرة ذاتها ومقتل ضابط مرموق برتبة عقيد على حاجز جعلت حالات الانقسام داخل المؤسسة العسكرية تتأكد. وبعدما بادر العميد أول عزيز الأحدب إلى القيام بحركة انقلابية كانت الأولى من نوعها في تاريخ لبنان وضمت ضباطاً مسلمين ومسيحيين ولقيت ترحيباً نسبياً، رد ضباط مسيحيون بإصدار بيانات أشبه بالبلاغات الانقلابية إنما من دون إعلان الانقلاب. وفي هذه الأثناء بدأ الضابط أحمد الخطيب يوسع دائرة استقطاب الضباط المسلمين وبات ما يسمى بـ «جيش لبنان العربي» واقعاً ملموساً، كما أن ضباط هذا «الجيش» بدأوا المشاركة في اجتماعات الأطراف السياسية الإسلامية الفلسطينية والناصرية الهوى. وهنا بات الأمل بالتهدئة مستبعداً تماماً. ثم أطلق رئيس الجمهورية نفسه وفي شخص ابنه طوني والد سليمان الحفيد النجم السياسي الساطع في الوضع الراهن، العنان لأنصاره لكي يثبتوا وجودهم في الساحة، كما أنه سمح بطريقة ما بإفراغ باخرة تنقل كميات من الأسلحة في منطقة تخص هؤلاء الأنصار. وكان زواره يسمعونه يقول: إذا كان عندهم جيشهم (أي «جيش لبنان العربي») فأنا عندي جيشي. وإلى ذلك إنه بات كثير الانفعال بعدما لاحظ أن شخصيات مسيحية مرموقة، من بينها الشاعر سعيد عقل، تؤيد الانقلاب الذي قام به الأحدب ومن دون أن تعرف بأن وراء هذا الانقلاب صلاح خلف (أبو أياد) الرجل الثاني في حركة «فتح» زمنذاك.

وعلى رغم «حرب الإذاعات» و«حرب التلفزيونات» و«حرب الثكنات» لم يؤكد طرف قوته وقدرته على الحسم. وفي هذه الأثناء بادر عدد من أعضاء البرلمان إلى توقيع عريضة تطالب رئيس الجمهورية (سليمان فرنجية) بالاستقالة، لأنه بموقفه المعاند تسبب بانقسام الجيش. وعندما توجه وفد من هؤلاء إلى القصر الرئاسي لتسليم العريضة وقالوا للرئيس إن من الأفضل له وللبنان الذي يزداد تمزقاً أن يحذو حذو أول رئيس جمهورية للبنان المستقل الشيخ بشارة الخوري، فإنه رد عليهم بالقول: ما هي الأخطاء التي ارتكبتها وتوجب استقالتي في الوقت الذي ارتكب الأخطاء غيري ثم جئتم تحملونني المسئولية؟ إن رشيد كرامي هو الذي مزق الجيش وجعله يتفسخ. وإذا كنت سمحت للمسيحيين بأن يحصلوا على بعض السلاح مقابل بحر السلاح الذي يصب عند كل الفئات ومئات شاحنات الأسلحة والذخيرة، هل هذه جريمة؟ وإذا كانوا يذكرونني بالشيخ بشارة فهو استقال في السنة التاسعة لولايته وليس في السنة السادسة (المدة الرئاسية التي ينص عليها الدستور). وأنا سأكمل السنة السادسة ولن أسمح لهم أن يدوسوا الدستور بسبب أهواء ركبت بعض الرؤوس.



ما الذي جعل رئيس الجمهورية يقول ذلك؟ هل هو اطمئنانه إلى «جيشه» المسمى «قوات المردة»، أي الذين يتسمون بالبأس والشدة؟ أم أنه الرهان على أن انقسام الجيش سيحسم في نهاية الأمر لمصلحة بقائه إلى حين انتهاء ولايته الدستورية؟

قد تكون هذه المعطيات هي الدافع، إلا أن كلمة سر سمعها الرئيس فرنجية خلال اتصال بحليفه وصديقه الرئيس حافظ الأسد هي التي جعلته لا يتجاوب مع المطلب البرلماني باستقالته وجعلته يردد بعد ذلك الاتصال أمام الذين يلتقي بهم: «إذا أرادوا إخراجي فلن يكون ذلك إلا جثة...». واللافت للانتباه أن الرد على هذا الكلام جاءه من صاحب المحاولة الانقلابية غير المسبوقة الضابط عزيز الأحدب الذي قال: «إن الشرعية التي يتحدث عنها الرئيس فرنجية لم يعد لها وجود وأنه ما دام في الحكم فإن البلاد ستسير نحو أحط الدرجات...». وتزامن هذا القول مع نداء مؤثر وجهه حميد فرنجية شقيق الرئيس (ووالد سمير فرنجية النجم الساطع في المعارضة المسيحية للرئيس لحود) يطالب فيه شقيقه بالاستقالة حرصاً على ما تبقى من أمل بإصلاح الحال. كما أن ذلك تزامن مع كلام للبابا بولس السادس جاء فيه «إن الناس في لبنان وخصوصاً في بيروت تباد جماعات جماعات وأنهم هناك ينسفون جذور الحياة الاجتماعية والتعاون الممكن بين مختلف الفئات اللبنانية...».

وبعدما لم يعد هنالك مجال أمام أي تهدئة وقيام الرائد حسين عواد أحد ضباط «جيش لبنان العربي» والمشهود له (أي للرائد حسين) بدقة التصويب بإطلاق ثمانين قذيفة على القصر الجمهوري يوم ٢٥ مارس ١٩٧٦ غادر الرئيس فرنجية القصر إلى «القصر البديل» في منطقة مسيحية مائة في المائة وقريبة من بيروت. وفيما وصف المعارض الماروني الشهير ريمون إده المغادرة بأنها هروب عملاً بالمثل الشعبي «الهريبة تلتين المراجل» فإن الرئيس فرنجية قال إنه لم يغادر «هرباً أو خوفاً وإنما لإسماع صوت لبنان للعالم...».

بعد هذه التطورات بدأ الرئيس حافظ الأسد مجادلة مع كمال جنبلاط الذي يصر (كما ابنه بعد ثلاثين سنة مع لحود) على استقالة فرنجية بينما الأسد يرى أن يتم انتخاب بديل للرئيس ومن دون الاستقالة حفظاً على ماء الوجه... وبذلك يبقى فرنجية إلى حين انتهاء الولاية الدستورية.

وهذه المجادلة التي يقال إنها استغرقت تسع ساعات من يوم السبت ٢٧ مارس ١٩٧٦ كانت السبب في أزمة ثقة حادة بين الحكم السوري وكمال جنبلاط (تكررت بحيثيات مماثلة إلى حد ما بعد ثلاثين سنة بين الحكم الذي ورثه الابن بشار وجنبلاط الابن (وليد) الذي ورث زعامة والده وكان محورها إصرار الرئيس بشار على التمديد للرئيس لحود ورفض جنبلاط الابن لهذا الخيار). وفي ضوء الأزمة المشار إليها جرى اغتيال كمال جنبلاط لاحقاً وسكت الابن عن ذلك ربع قرن إلى أن بدأ يقول بصيغة التلميح إن أطرافاً سورية وراء اغتيال والده. يحفزه على ذلك حادثة اغتيال الرئيس رفيق الحريري ومحاولة اغتيال مروان حماده عضو البرلمان والساعد الأيمن لوليد جنبلاط والمنسق بينه وبين الحريري، والإكثار من الإيحاءات بأن أطرافاً سورية هي أيضاً وراء ما حدث لحماده ثم للحريري.

في ضوء هذه التطورات طرح الرئيس أنور السادات بعد لقاء في باريس مع الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان مبادرة كانت نقطة الضعف فيها أن السادات قال «إن سورية لم تتمكن من إيجاد حل للأزمة اللبنانية فحسب بل إنها زودت الطرفين بالأسلحة كذلك.. والمأساة الحالية هي نتيجة هذه السياسة...». وهذا الكلام سببه أن السادات كان صاغ مع مستشاري الرئاسة وبالتنسيق مع محمود رياض مبادرة كانت تقضي بإيفاد نائبه حسني مبارك إلى بيروت. ولكن فرنجية وبإيعاز من الأسد لم يرحب بعدما لاحظ في حيثيات المبادرة عبارة لم يتحملها وهي «إن هنالك لحظات يجد رئيس الدولة الذي يتولى أكبر المسئوليات نفسه في موقف يملي عليه ضرورة أن يبتلع كبرياءه...». وواضح من هذه العبارة أن السادات يميل إلى فكرة أن يستقيل الرئيس اللبناني. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يريد للمبادرة السورية التي كانت «الوثيقة





لبنان بين مشهدين ١٩٧٥ - ٢٠٠٥

> وصلت الحال بالرمز الأكبر لدعاة الديمقراطية كمال جنبلاط إلى القول «يلزمنا حكم دكتاتوري ليخلّصنا من الأوساخ التي علقت بالكثير منا»

الدستورية» وعلى نحو ما سبق أن أشرنا إليه الإطار العام لها، أن تنجح. وهو صراع طبيعي بين حليفين افترقا بعدما قرر السادات أن يخطو حثيثاً في اتجاه التسوية السياسية مع إسرائيل. وتدليلاً على هذا الصراع أن صحيفة «البعث» التي تنطق بإسم الحزب الحاكم في سورية كتبت في شأن المسعى الساداتي تقول «إن شرط نجاح المبادرة المصرية هو أن يبدأ النظام في القاهرة مراجعة دوره الأساسي الذي ما أحداث لبنان إلاّ بعض مضاعفاته...».

رئيس لبناني... بتعيين سوري

وسط هذا التوتر المتصاعد بدأت طائرات هليكوبتر تابعة للأسطول السادس في البحر المتوسط الاستعداد لنقل الرعايا الأمريكان من بيروت وكان وزير الخارجية الأمريكية الدكتور هنري كيسينجر يختار للقيام بمهمة في لبنان دين براون سفير الولايات المتحدة لدى الأردن أيام أحداث سبتمبر ١٩٧٠ عندما فجّر الفلسطينيون طائرات الركاب الأمريكية وتفجّرت الأزمة بينهم وبين الملك حسين لتنتهي إلى قمة «الهيلتون» الشهيرة في القاهرة والتي من جرّائها قضى الرئيس جمال عبد الناصر نحبه يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠. وتدليلاً على التباهي الثوري لدى عرفات، الذي بدا في الأزمة اللبنانية قوة ومرجعية بالغتي الأهمية يطرق الزعماء اللبنانيون بابه طالبين منه الرضى أو المساندة، فإنه قال يومها «مرحباً بالأسطول السادس الذي قيل إنه سيصل خلال أربع وعشرين ساعة. مرحباً به هنا في لبنان ليغرق كما غرق في فيتنام...». وفي هذه الأثناء كان عرفات قد زوّد الحشود الجنبلاطية والتقدمية واليسارية والإسلامية بضباط سبق أن تم تدريبهم في الاتحاد السوفياتي من أجل فلسطين، فإذا بهم يخوضون مغامرة في وطن يستضيف بني قومهم ويؤازر قضيتهم. وهؤلاء الضباط استعملوا في الاتصالات اللاسلكية اللغة الروسية ومع ذلك فإن ما قاموا به كان ضد قضيتهم. أما زعيمهم ياسر عرفات فإنه أخفق في إغراق الأسطول السادس في بحر بيروت، وبعد بضعة أشهر أحكمت خلالها سورية القبضة على لبنان كان عرفات من جملة بضعة ألوف من الفلسطينيين جرى ترحيلهم بحراً لتواصل سورية الأسدية بعد ذلك ممارسة الدور وحدها وليتم انتخاب رئيس جديد للجمهورية في أسلوب لا مثيل له في تاريخ الانتخابات في العالم وليشكل هذا الانتخاب الخطوة الأولى على طريق حقبة جديدة من التعامل السوري مع لبنان اتسمت بالتعيين وعلى كل المستويات وهو ما تسبّب في احتقانات تراكمت في النفوس لتتفجر دفعة واحدة لمجرد أن قضى رفيق الحريري في العملية الترويعية يوم «عيد الحب» ١٤ فبراير ٢٠٠٥ ولتشكل هذه العملية نقطة تحوّل تاريخية بالنسبة إلى البلدين اللذين أرادهما الأسد الأب وطنين لشعب واحد لكن الأمر انتهى مع الأسد الابن (بشار) إلى أنهما شعبان ولكل منهما وطنه المستقل وعَلَمه.. وهو، بالنسبة إلى اللبنانيين، العَلَم الذي ارتفع كما لم يرتفع من قبل وبدا هذا العَلَم وكما لو أنه كان منسياً إلى أن بات رمزاً لانتفاضة هي الأولى من نوعها في لبنان.. والأرجح أنها برسم التصدير، إنما ليس مثل تصدير الثورة الخمينية التي وجد عمقها اللبناني متمثلاً بـ «حزب الله» نفسه يطلب من أنصاره ومحازبيه رفع هذا العَلَم وهم الذين كانوا يكتفون برفع عَلَم الحزب وصور آية الله الخميني.. ثم خامنئي.

بعد جولات من القتال بين الميليشيات التي تكاثرت والتي بات من المستحيل وضع حد لها ما دام الجيش انقسم «جيوشاً» وسمح ما يسمى بـ «جيش لبنان العربي» لنفسه بقصف مقر رئاسة الجمهورية بالصواريخ الأمر الذي أدى إلى انتقال الرئيس إلى مقر آخر في سابقة لا مثيل لها... بعد هذه الجولات وما تسببت به من مئات الضحايا ومن تدمير ونهب وخطف، استطاعت الشرعية اللبنانية متمثلة بالبرلمان إحداث الخطوة المهمة. فقد اجتمع أعضاء البرلمان في غير مقرهم يوم السبت ١٠ أبريل ووسط إجراءات أمنية تولتها قوات تابعة للحركة الانقلابية التي قادها العميد الأول في الجيش عزيز الأحدب. وكانت الجلسة من النوع المثير ذلك أنه تمّ على عجل وضع مقاعد للنواب التسعين الذين حضروا من أصل ٩٨ هم عدد أعضاء البرلمان، وغاب عن الجلسة ثمانية من بينهم طوني فرنجية نجل رئيس الجمهورية وهو أمر طبيعي لأن الجلسة هدفها اختصار ولاية والده. كذلك غاب ريمون إده الخصم العنيد لفرنجية ليس لأنه ضد ما ترمي إليه الجلسة وإنما تمسكاً منه بالأصول الدستورية، ذلك أن التعديل الذي أقرته الجلسة يستوجب الإجماع. وما دام هنالك متغيبون فليس هنالك إجماع.

انتهت الجلسة بتعديل مادة في الدستور هي المادة ٧٣ وبحيث بات في الإمكان قبل موعد انتهاء ولاية رئيس الجمهورية بمدة شهر على الأقل وستة أشهر على الأكثر أن يلتئم مجلس النواب بناء على دعوة رئيسه لانتخاب الرئيس الجديد. وقبل التعديل كانت المدة هي «شهراً على الأقل وشهرين على الأكثر».

في ضوء ذلك بات ممكناً انتخاب رئيس جديد مع بقاء الرئيس الحالي (أي سليمان فرنجية) وهو ما أراده أصلاً الرئيس حافظ الأسد. ويوم السبت ٨ مايو ١٩٧٦ وفي ظل أجواء متفجرة أمنياً وسياسياً تولت «منظمة الصاعقة» في شخص رئيسها زهير محسن وهي الذراع الفلسطينية للحكم السوري في لبنان إحضار نواب البرلمان اللبناني واحداً واحداً إلى القاعة نفسها التي كان تمّ فيها اجتماع تعديل المادة ٧٣ من الدستور. وكان سبق هذا الإجراء أن الرئيس حافظ الأسد قال بصريح العبارة يوم ١٢ أبريل، أي بعد يومين من اطمئنانه إلى أن التعديل قد تمّ على نحو ما يريد وبات كمال جنبلاط وحلفاؤه وبقية المعارضين لفرنجية من الأقطاب المسلمين والمسيحيين في مأزق، كلاماً أساسياً أبرز ما فيه العبارة الآتية: «إننا مستعدون لأن نتحرك إلى لبنان لنقف ضد كل معقّد (يقصد كمال جنبلاط) وضد كل ظالم بغض النظر عن ادعاءاته الدينية...». وهذا الكلام جاء رداً على كلام قاله قبل ذلك كمال جنبلاط واستفزت إحدى عباراته الرئيس السوري. وهذه العبارة هي: «لقد دخل لواء سوري مدرع الأراضي اللبنانية. بناء على طلب من دخل ولماذا دخل ما دامت الأزمة بدأت تتجه نحو الحل؟».

بعد اطمئنان زهير محسن (الذي اغتيل في مدينة «كان» الفرنسية بعد ذلك حيث كان في مهمة أو في رحلة استجمام من متاعب الحرب في لبنان) إلى أن النصاب الذي يجيز انتخاب رئيس الجمهورية قد تمّ، أرسل «قواته» إلى فندق «كارلتون» حيث يقيم الياس سركيس لإبلاغ الرجل الذي كان حاكماً للمصرف المركزي أن عليه التواجد حيث هو وعليه أن يكون مستعداً لتلقي نبأ سار. وخلال ساعتين انتهت أغرب عملية انتخاب في تاريخ الرئاسات وفاز سركيس بالمنصب بـ ٦٦ صوتاً ووُجدت ثلاث أوراق بيضاء. وهكذا تضيع على ريمون إده الذي هنالك ما يشبه الإجماع اللبناني عليه فرصة الترؤس. ثم يتبين أن المبعوث الأمريكي دين براون الذي عيّنه كيسينجر كان ينشط لإبعاد كأس الرئاسة عن فم الشخص الذي يستحقها. وكان لافتاً في هذا الصدد تصريح لكمال جنبلاط جاء فيه «إذا كان السوريون لا يريدون ريمون إده رئيساً للجمهورية فليس من الضروري أن يدخلوا ويحتلوا لأننا عندئذ نصبح أكثر إصراراً على تأييده...».

كلمة سر سمعها الرئيس فرنجية خلال اتصال بحليفه وصديقه الرئيس حافظ الأسد هى التى جعلته لا يتجاوب مع المطلب البرلمانى باستقالته وجعلته يردد بعد ذلك الاتصال أمام الذين يلتقى بهم: «إذا أرادوا إخراجى فلن يكون ذلك إلاً جثة»



كذلك كانت هنالك أربعة مواقف لافتة. ثلاثة لمصلحة التدخل السورى فى لبنان صدرت عن العقيد معمر القذافى الذى قال رداً على دعوة أطلقها الرئيس أنور السادات فى شأن دخول قوات عربية متعددة إلى لبنان بدل دخول قوات سورية فقط «إن دعوة السادات مدعاة للسخرية والسخف»، وعن كيسينجر الذى قال «إن سورية اتبعت خطاً معتدلاً ومفيداً فى لبنان وأن الولايات المتحدة تعاونت معها فى الجهود السياسية...»، وعن الرئيس الأمريكى (زمنذاك) جيرالد فورد الذى أشاد بـ «الموقف المسؤول لكل من سورية وإسرائيل...». وهذه التصريحات وبالذات كلام كل من فورد وكيسينجر تأكيد بأن الدخول العسكرى السورى إلى لبنان كان بغطاء أميركى مثل الإيحاء الذى كان لصدّام حسين كى يجتاح الكويت. ويبقى الموقف الرابع الذى هو للرئيس صدّام وجاء متمثلاً فى قوله: «إننا ضد التدخل السورى فى لبنان ولا نعتقد أنه تدخل نزيه، وأن الواجب القومى يستدعى إيجاد صيغة عربية لإنقاذ لبنان من محنته...»! هل كان التدخل الصدّامى فى الكويت نزيهاً؟!

رأى اللبنانيون فى انتخاب رئيس جديد للجمهورية يتسلّم الرئاسة بعد انتهاء ولاية الرئيس سليمان فرنجية بارقة أمل فى التهدئة مع أن الأمور بين انتخاب سركيس وانتهاء ولاية فرنجية سارت فى اتجاه بالغ الضراوة. لكن سنوات سركيس الرئاسية كانت سنوات العذاب له والتعذيب للبنانيين. وكانت سنة الاغتيالات على مستوى القمم حيث جرى يوم ١٦ مارس ١٩٧٦ اغتيال كمال جنبلاط زعيم «الحركة الوطنية اللبنانية» على مقربة من حاجز عسكرى ونشأت عن ذلك اضطرابات ذهب ضحيتها فى مناطق درزية ١٧٧ شخصاً تمت تصفيتهم. وبدا اغتيال جنبلاط بمثل اغتيال رفيق الحريرى يوم الاثنين ١٤ فبراير ٢٠٠٥ وبغرض إلغاء الشخص الذى يستطيع توحيد الصف حول قضية بالغة التعقيد. بعد واقعة كمال جنبلاط حدثت مواجهة بين ضباط لبنانيين وضباط سوريين وبعد أقل من سنتين أمضاهما الياس سركيس رئيساً يقاسى كل أنواع العذاب النفسى اجتازت قوات إسرائيلية الحدود، واغتيل طونى فرنجية نجل الرئيس الذى كان إستسلم للعزلة بعيداً عن الناس وجرت محاولة لاغتيال السفيرين السعودى والكويتى، واختفى الزعيم الروحى، السياسى للشيعة موسى الصدر يوم ٣٠ أغسطس ١٩٧٨ خلال زيارة إلى ليبيا مع اثنين من مساعديه. وتشعّب الانتشار العسكرى السورى فى معظم المناطق اللبنانية. ورداً على ذلك اجتاحت المدرعات الإسرائيلية بقيادة أرييل شارون الأراضى اللبنانية وصولاً إلى العاصمة بيروت، الأمر الذى انتهى بترحيل ياسر عرفات ومجموعات من المقاتلين. وكان لافتاً أن الزعيم الفلسطينى لم ينتقل إلى ميناء اللاذقية وإنما اتجه غرباً نحو اليونان ليؤكد أن الصديق اليونانى أكثر رحمة من الأخ السورى، علماً بأن عرفات كان فى خضم الأزمة اللبنانية يحاول ضرب الطموح السورى فى وضع اليد على لبنان الذى بدا لبضع سنوات أنه «دولة عرفاتية».

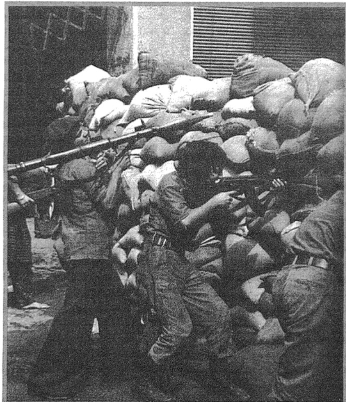
كانت مشكلة الياس سركيس أنه كمن يتم إنزاله بالمظلة. فلا القرار قراره. ولا ثقة الناس به متكاملة ما دام تم تعيينه بغير الإرادة اللبنانية. وبعدما حاول التصرف بما يؤكد استقلاليته عن القرار السورى ما دام بات رئيساً للبلاد، فإن محاولته قوبلت بالتحفظ من جانب الذى وضعه فى المنصب الرئاسى، أى حافظ الأسد. وبلغ التحفظ الذروة عندما فوجئ هذا الأخير بسركيس يزور يوم ١٨ سبتمبر ١٩٧٦ الرئيس السادات فى الإسماعيلية ويلقى من الرئيس المصرى وبحضور أربعة من المساعدين بينهم حسنى مبارك (الرئيس الحالى) اهتماماً ملحوظاً مع أنها المرة الأولى التى يلتقى فيها السادات بسركيس. وبدا هذا الاهتمام شبيهاً باهتمام الرئيس الراحل عبد الناصر بالرئيس اللبنانى (الراحل) شارل حلو عندما جاء إلى القاهرة ليشارك فى القمة العربية التى تم عقدها عام ١٩٦٤ مع أنه كان ما زال رئيساً منتخباً. ولقد خشى الرئيس حافظ الأسد من أن يخطف الرئيس السادات الدور منه وينجح فى استضافة مؤتمر حوار فى القاهرة يشارك فيه السياسيون اللبنانيون ويتوصل إلى صيغة تفاهم. وعندما لاحظ السادات عدم حماسة سركيس للفكرة فإنه صرف النظر عنها وتحدث عن الرئيس السورى بصيغة ودودة ربما حرصاً على سركيس من غضبة الأسد وربما لعدم قطع الأواصر نهائياً مع سورية. لكن على رغم ذلك استمر الأسد على حذره من سركيس خصوصاً بعدما لم يراع هذا الأخير الخصوصية التى تتطلبها سورية للعلاقة مع لبنان، وأنه لو كان يراعيها لكان جاء إلى دمشق ومنها سافر إلى القاهرة على نحو ما سبق أن فعله عندما توجّه يوم ١٧ أكتوبر إلى الرياض عن طريق دمشق للمشاركة فى القمة المصغرة التى عقدت هناك بعدما نقلته من بيروت إلى دمشق طائرة هليكوبتر سورية. وفى تلك القمة حدثت مصالحة بين السادات والأسد بتمنيات ومساع من السعودية، وهذا حقّق للوجود العسكرى السورى بداية شرعية عربية شاملة.



استمرت أحوال الرئيس الياس سركيس فى مد وجزر انعكست على وضعه الصحى وبات ينتظر اللحظة التى يترك فيها الرئاسة. فالأهوال كثيرة. والضغوط السورية أكثر. والتصفيات لا تتوقف ومن أبرزها ما فعله زعيم الميليشيات المسيحية بشير الجميّل الذى ارتأى اجتياح مراكز عسكرية تابعة للركن المسيحى المارونى كميل شمعون متسبباً بمقتل وجرح المئات. وكان واضحاً أن هذه العملية وغيرها كثير كانت تمهيداً لانتقال «الشيخ بشير» على نحو مناداة مريديه وأصدقائه له من الزعيم الأقوى فى «مجتمع الميليشيات» إلى ترؤس لبنان بعد الياس سركيس وضمن صفقة تنوعت أطرافها العربية والدولية بغرض الضغط على سورية التى كانت تمددت فى لبنان أكثر مما يجب وتتحمل المعادلة الإقليمية. ويوم ٢٣ أغسطس ١٩٨٢ جرى انتخاب بشير الجميّل فى الكلية الحربية وفاز بأصوات ٥٧ نائباً من أصل ٦٢ حضروا الجلسة. وكان لافتاً أن النواب المسلمين قاطعوا الجلسة عدا قلة غامرت ودفع أصحابها الثمن حيث أن قذائف حارقة تم إطلاقها على منازل ومكاتب عدد من هؤلاء. وفيما قوبل هذا الانتخاب بالاستهجان كون بشير الجميّل هو ثانى رئيس عربى يتعامل مع إسرائيل بعد الرئيس السادات، فإن مناحيم بيغن رئيس وزراء إسرائيل كان فى غاية الابتهاج وبعث ببرقية تهنئة إلى الشيخ بشير بدأها بعبارة «صديقى العزيز». أما الرئيس السلف الياس سركيس الذى قاربت ولايته على الانتهاء فقال لبعض زواره: «مَن كان يصدق. بشير الجميّل رئيس للجمهورية وياسر عرفات يغادر بيروت. الله أكبر. إنها المعجزة. لقد نجا لبنان...».

ومقاطعة أكثرية النواب المسلمين لجلسة الانتخاب كان لها ما يبررها على أساس أنه من الأفضل تأجيل الانتخاب والتمديد للرئيس سركيس وذلك على أساس أنه لا يجوز أن يتم انتخاب رئيس جديد فيما هنالك مائة ألف جندى إسرائيلى فى لبنان. وفى هذا الصدد كان لوليد جنبلاط تصريح شهير جاء فيه «إن بشير الجميّل هو مرشح الدبابات الإسرائيلية والتسلط والتقسيم ومرشح إلغاء الهوية العربية والإسلامية عن لبنان».





السلاح كان الأعلى صوتا فى لبنان طيلة سنوات الحرب الأهلية



لبنان بين مشهدين
١٩٧٥ - ٢٠٠٥

السادات كان قد صاغ مع مستشاري الرئاسة مبادرة تقضي بإيفاد نائبه حسني مبارك إلى بيروت. ولكن فرنجية وبإيعاز من الأسد لم يرحب

لم تصمد رئاسة بشير الجميّل على رغم زيارة قام بها إلى السعودية ولقاءات عربية في السر حدثت وعمل من أجل إنجاحها الرئيس الياس سركيس. ويوم ١٤ سبتمبر ١٩٨٢ تمت تصفية بشير الجميل في عملية تفجير ضخمة لمقر قيادته كزعيم ميليشيا، بعدما كان ترأس اجتماعاً موسعاً لقادة الميليشيات المسيحية وأنجز كتابة الخطاب الذي سيلقيه أمام البرلمان. وقد تعاملت إسرائيل مع الحادثة بطريقة استفزازية لكنها طبيعية كون الرئيس الشاب الذي لم يتسن له ممارسة المنصب الرئاسي من أصدقاء إسرائيل. فقد حلقت طائرتان إسرائيليتان فوق الجنازة أثناء التشييع. كما أن أرييل شارون وزير الدفاع يرافقه الرئيس الجديد لـ «الموساد» حضرا لتقديم العزاء. وقيل إن أرييل شارون ردد بالعبرية أمام أفراد العائلة وهو يعزيهم: «هذه المرة فقدناه حقاً». وكان يشير بذلك إلى ثلاث محاولات اغتيال سابقة نجا منها الشيخ بشير من بينها واحدة جرت يوم ٢٣ فبراير ١٩٨٠ بواسطة سيارة مفخخة وقضت في العملية ابنته (مايا) وثلاثة من مرافقيه.

ولم يقتصر رد الفعل الإسرائيلي على إبداء «اللياقات». فبعد يومين حدثت في مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين في قلب العاصمة بيروت «أم المجازر» تولى قيادة تنفيذها أرييل شارون نفسه بمساعدة عناصر قيادية من الميليشيات المسيحية وذهب ضحية هذه المجزرة مئات الفلسطينيين. وساد اعتقاد بأن المجزرة حدثت كي لا يحدث تفاهم بين الرئيس الخَلَف أمين الجميّل شقيق بشير، والذي تمّ ما يشبه التوافق المسيحي - الإسلامي عليه ولذا تم انتخابه يوم ٢١ سبتمبر ١٩٨٢ كمرشح إجماع وجاء الانتخاب بأغلبية ٧٧ صوتاً من أصل ٨٠. وكان مثيراً للدهشة أن صور الرئيس أمين الجميل ارتفعت في شوارع إسلامية ومسيحية من بينها بعض شوارع مخيمي صبرا وشاتيلا... وعلى الطريقة نفسها التي اعتمدها الرئيس أنور السادات عندما قال يوم انتخابه أمام مجلس الأمة المصري خلفاً لعبد الناصر «لقد جئتكم على طريق جمال عبد الناصر» ثم انحنى أمام تمثال للرئيس في المجلس، فإن الشيخ أمين قال لأعضاء مجلس الأمن الكتائبي (الذي ينتمي إليه الاثنان بشير وأمين) لمجرد أن يتم انتخابه «إنني مؤتمن على رسالة بشير الجميّل وسأدافع عنها مهما كلفني ذلك من تضحيات...».

مع تسلّم أمين الجميّل الرئاسة وبما يشبه الإجماع على انتخابه سادت أجواء من الانفراج تزامنت مع وصول القوات المتعددة الجنسية وحلولها محل القوات الإسرائيلية التي أخلت مواقعها في المنطقة الغربية من بيروت باستثناء المطار والمرفأ. واكتمل وصول القوات المتعددة الجنسية بوصول القوات الأمريكية إلى شاطئ محلة الأوزاعي قرب المطار. ونشط الرئيس أمين الجميّل دولياً وعربياً وطرح من على منبر الأمم المتحدة على هامش زيارة رسمية قام بها في أكتوبر للولايات المتحدة أتبعها بزيارة لفرنسا والفاتيكان شعاراً جذاباً هو «أعطونا السلام وخذوا منا ما يُدهش العالم». كما أنه برعاية من الملك الحسن الثاني عقد اجتماعاً مع صلاح خلف (أبو أياد) الرجل الثاني في «حركة فتح» كان الهدف منه احتواء مرارة مجزرة مخيمي صبرا وشاتيلا التي نفذها أرييل شارون بمساندة أشخاص لبنانيين يدينون بالولاء لبشير الجميّل من بينهم إيلي حبيقة الذي فرضه الحكم السوري وزيراً بعد ذلك وعلى رفيق الحريري نفسه. وبعدما أبرم الرئيس أمين الجميّل اتفاقاً مع إسرائيل بدأت المفاوضات من أجله يوم ٢٦ ديسمبر ١٩٨٢ وانتهت بإعلان الاتفاق يوم ١٧ مايو ١٩٨٣، انتكست الأوضاع لأن الحكم السوري اعتبر أن الاتفاق تم على حسابه فعمل على إلغائه من خلال الجيوب السياسية والمخابراتية السورية المنتشرة في لبنان وكذلك من خلال شخصيات لبنانية وفلسطينية تدور في الفلك السوري. ولقد تم الإلغاء في فترة تزايدت فيها عمليات احتجاز الرهائن الأجانب وأتاح المجال أمام تكليف القطب السياسي السنّي المرموق رشيد كرامي تشكيل حكومة جديدة نجح الرجل في أن تحظى بالقبول السوري من جهة، وتحقق تهدئة نوعية من جهة أخرى، وتمتص الآثار النفسية الناجمة عن أن لبنان أبرم اتفاقاً مع إسرائيل لم يأت لمصلحته في أي حال. ولكن هذه الحكومة التي تشكلت في مارس ١٩٨٤ لم تستطع حل التعقيدات التي لا حصر لها. وبعدما لقي رئيسها مصرعه في عملية تفجير طائرة الهليكوبتر التي كان يستقلها وعلى الطريقة نفسها التي تم فيها تفجير الطائرة التي كانت تقل الرئيس العراقي الأسبق (الراحل) عبد السلام عارف وكذلك الطريقة التي تم فيها تفجير الطائرة التي كانت تقل الرئيس الباكستاني الأسبق (الراحل) ضياء الحق، فإن الوضع ازداد تدهوراً وبدأت تحدث مواجهات غير متوقعة وفي المناطق المسيحية والإسلامية مثل مواجهة سمير جعجع مع إيلي حبيقة حيث يريد الثاني بتأييد من سورية تصفية الأول، ومواجهة «حركة أمل» التي يتزعمها نبيه بري (رئيس البرلمان لاحقاً) بعد اختفاء الإمام موسى الصدر في ليبيا مع الفصائل الفلسطينية.. وهي مواجهة وصلت وبدعم من سورية حظي به نبيه بري إلى درجة فرض حصار على المخيمات الفلسطينية تسبب في التجويع والتعطيش وحدوث حالات مرضية مأساوية.

وكان مثيراً للدهشة أن الرئيس أمين الجميّل الذي أبرم مع إسرائيل ما سمّي (اتفاق ١٧ أيار) حرص على أن يزور دمشق فجأة وللمرة الأخيرة يوم ٢١ سبتمبر ١٩٨٨ وذلك بغرض ترتيب عملية الخلافة. وفوجئ هناك بأن أبريل غلاسبي التي عملت في السفارة الأمريكية في بيروت وشغلت في وزارة الخارجية منصب المدير لدائرة مختصة بشئون لبنان وسورية والأردن والشئون الفلسطينية عملت سلفاً مع الحكم السوري على أن يكون النائب مخايل الضاهر (ماروني من المنطقة الشمالية من لبنان) هو من سيخلف الجميّل. وهنا نلاحظ أن الجميّل عمل على خطة استهدفت بعثرة اتفاق غلاسبي مع الحكم السوري وساعده على ذلك أن الدكتور سليم الحص الذي شكّل حكومة بعد اغتيال رشيد كرامي استقال وأحدثت استقالته ثغرة دستورية ملأها الجميّل بإسناد رئاسة الحكومة إلى الجنرال ميشال عون الذي وجدها فرصة لكي يستأثر بالزعامة المسيحية، فبدأ مواجهة مع القطب المسيحي الماروني الأقوى سمير جعجع تسببت في سقوط مئات القتلى والجرحى في صفوف سكان المناطق المسيحية وكان هذا التصرف من جانب الإثنين موضع ارتياح الحكم السوري. ونلفت الانتباه هنا إلى أن غلاسبي هي نفسها التي ورطت نظام الرئيس صدام حسين في موضوع احتلال الكويت وأنها في الموضوع اللبناني لم تكن تتقاطع مع التوجه السوري، عن حسن نية كان ذلك أو بغرض توريط نظام الرئيس حافظ الأسد لكي يغرق أكثر وأكثر في المتاعب اللبنانية وبحيث يدفع الثمن لاحقاً وهذا ما حدث له.



حاول الجنرال ميشال عون أن يؤكد للدول العربية في مؤتمر عقدته في تونس مشروعية ترؤسه للحكومة بعدما استقال الدكتور سليم الحص. ثم تبين من الناحية الدستورية أن هنالك حكومتين في لبنان. حكومة برئاسة الجنرال الماروني ميشال عون مكلّفة من جانب الرئيس أمين الجميّل وحكومة برئاسة القطب السنّي سليم الحص رفض رئيسها (أي الحص) اعتبارها مستقيلة على رغم أنه قدم استقالتها وهو لغز من جملة الألغاز في اللعبة السياسية اللبنانية. أما لماذا هي

مستقيلة وفى الوقت نفسه غير مستقيلة وبالتالى فهى شرعية فلأنه لم يصدر مرسوم بقبول الاستقالة. وكان مثيراً للدهشة أن رئيسى حكومة لبنان توجها إلى تونس للمشاركة فى مؤتمر وزراء الخارجية العرب خلال ديسمبر ١٩٨٨، واحتار الوزراء مع مَن سيتعاملون عدا وزير خارجية العراق طارق عزيز المؤيد لـ «حكومة ميشال عون» ووزير خارجية سورية عبد الحليم خدام المؤيد لـ «حكومة سليم الحص».

كذلك أخفق ميشال عون فى الحصول على القبول الأمريكى به رغم سعى أمين الجميّل من أجل ذلك، بدليل أن جون ماكارثى الذى عيّنته الإدارة الأمريكية سفيراً لدى لبنان لم يقدم أوراق اعتماده إلى ميشال عون على أساس أن أوراق الاعتماد تُقدم لرئيس الجمهورية.

ومع أن مؤتمر تونس أثمر مبادرة هدفها تسوية الوضع فى لبنان وتشكلت لجنة سداسية لهذا الغرض إلا أن عدم مؤازرة الحكم السورى لها جعلها تتعثر ويرتئى الملوك والرؤساء العرب الذين عقدوا فى مايو ١٩٨٩ قمة فى الدار البيضاء إعادة النظر فى تشكيل اللجنة بحيث باتت ثلاثية تضم قادة السعودية والمغرب والجزائر الملك فهد بن عبد العزيز والملك الحسن الثانى والرئيس الشاذلى بن جديد، وأسند هؤلاء إلى وزراء الخارجية وضع صيغة الحل. وبعدما نجح الدبلوماسى الجزائرى الأخضر الإبراهيمى فى استنباط صيغة حل يحقق انسحاباً سورياً مشرّفاً من لبنان فإن الحكم السورى لجأ إلى تكتيك وعمليات جعل اللجنة تقرر تجميد مهمتها وتزامَن ذلك مع إشارات ومؤشرات تعكس انطباعاً بأن إدارة الرئيس جورج بوش (الأب) اختارت أن تتفهم الموقف السورى ولو كان ذلك ضد قناعاتها وقررت ممالأة الرئيس حافظ الأسد من خلال نفض اليد وأيادى آخرين يجارونها من ظاهرة الجنرال ميشال عون، وهذا سببه أن هذه الإدارة كانت فى صدد التحضير للمواجهة مع العراق وأنها تريد مساندة سورية لها فى هذه المواجهة.. وهو ما تبيّن بعد ذلك. وعندما شعر الجنرال عون بذلك بدأ يقول عن السياسة الأمريكية كلاماً مماثلاً لما كان يقوله عن السياسة السورية تجاه لبنان. ولكن لأنه لا ثوابت ولا مبادئ راسخة لأصحاب الطموحات السياسية فإن السياسة الأمريكية فى عهد بوش الأب التى انتقدها الجنرال عون باتت فى نظره مثالية فى عهد بوش الابن ما دام الفاعلون فى صياغة توجهات هذه السياسة احتضنوه وحققوا له بعدما حدثت الفاجعة الحريرية بثلاثة أشهر مبتغاه فى العودة إلى لبنان من منفاه الفرنسى متطلعاً إلى أن يكون هو الرئيس الذى سيحل محل الرئيس لحود أو إنه من سيترأس عام ٢٠٠٨ بعد أن تنتهى فترة التمديد ثلاث سنوات التى أرادها مستعجلاً الرئيس بشار الأسد لصديقه الجنرال لحود.. وهو قرار كان مثل عود كبريت جرى إشعاله قرب حقل نفط ونشأ عن ذلك اندلاع حرائق أمكن بعض الشيء إطفاء ما تيسر من لهيبها باستصدار قرار مجلس الأمن الدولى ١٥٥٩ ثم القرار التالى ١٥٩٥ وذلك بإلحاح أمريكى - فرنسى أوضحت التطورات أن الموضوع اللبنانى وبالذات اغتيال الصديق الاستثنائى للإدارة البوشية والرئاسة الشيراكية رفيق الحريرى كان هو السبب فى زوال حالة الجفاء بين الدولتين الكبريين.

وما دامت الإدارة البوشية اختارت ممالأة الحكم السورى لـ «الدواعى العراقية» فإنه بات على الأطراف العربية المتفهمة للتوجه الأمريكى بالنسبة إلى المنطقة مثل السعودية والمغرب.. والجزائر إلى حد ما إنهاء مرحلة «اللجنة الثلاثية». وهنا بدأت المرحلة الأهم فى تاريخ الأزمة اللبنانية. وصدرت الصحف السعودية يوم الثلاثاء ١٩ سبتمبر ١٩٨٩ وعلى صفحاتها ما أسمته «النص الرسمى الكامل لوثيقة الوفاق الوطنى اللبنانى». وحدث ذلك بعدما كان وزير الخارجية السعودية الأمير سعود الفيصل تلا يوم السبت ١٦ سبتمبر بياناً حدد فيه يوم السبت أول أكتوبر موعداً لبدء اجتماعات أعضاء البرلمان اللبنانى والذى كان تم إنجاز ترتيبات مكان الانعقاد فى مدينة الطائف فى السعودية.

وبهذا المؤتمر التاريخى أُطفئت الشرارة التى أشعلت لبنان على مدى ست عشرة سنة باستعادة الشرعية مكانتها محل ظاهرة الميليشيات التى كانت تشعل فى كل يوم شرارات حارقة وتتسبب فى إزهاق أرواح وتدمير الوطن.

وتشاء الأقدار أن ظاهرة رفيق الحريرى كانت نتاج هذا المؤتمر، وأن الشرارة الحارقة التالية حدثت بسبب اغتيال الرجل فى عملية ترويعية أفرزت وضعاً كانت اللبنة الأساسية له وُضعت من خلال حادثة الأوتوبيس يوم ١٣ أبريل ١٩٧٥ واستمر هذا الوضع يتفاعل حتى يوم ١٤ فبراير ٢٠٠٥. وبعد ثلاثة عقود من هذا الوضع غير المسبوق فى العالم العربى اهتزت المعادلة العربية والإقليمية والدولية. وتلك مرحلة توجب على المتابع وقفة تأمل طويلة وعميقة فيها. ■

الجزء الثانى. والأخير - فى العدد القادم

كتاب الزاوية



زكى نجيب محمود

مجتمع جديد أو الكارثة

المفكر والفيلسوف الراحل زكى نجيب محمود أمضى حياته نصيراً للعمل والعقل والتقدم، داعياً إلى نهضة مصرية وعربية قائمة على الفردية العاقلة المسئولة والحرية والحوار والإيمان بالمستقبل والاستعداد له. وحارب اللاعقلانية واللا علمية والجهل محذراً من استشراء الإيمان بالخرافات والسحر والشعوذة. وقد أصدر الراحل الكبير مؤلفات وترجمات كثيرة تمثل منظومة فكرية قائمة على المنهج العلمى والتفكير العقلانى. ومن أهم مؤلفاته «مجتمع جديد أو الكارثة» الصادر عن «دار الشروق» والذى يعالج فيه علل المجتمع العربى. وتنشر «وجهات نظر» مقتطفات من الكتاب. (الطبعة الخامسة، ١٩٩٣).

نقطة البدء

إنه إذا قيل لنا: أين نقطة البدء التى منها بدأت نهضتنا الحديثة كلها؟ لكان الجواب الصحيح هو: كانت البداية لحظات دعا فيها الدعاة إلى صحوة «العقل» فى وجه الموجة العاتية التى غمرتنا بطوفانها من خرافات. وما الخرافة؟ هى قبل كل شىء، ربط المسببات بغير أسبابها، فإذا مرض المريض - مثلاً - نسبنا المرض إلى أرواح شريرة حلت ببدنه، ولم نقل إنها جراثيم هى التى حلت بالبدن؛ فى الحالة الأولى نحاول أن نطرد من البدن ما ليس له وجود. فنكون أتعس حالاً من دون كيخوته وهو يحارب طواحين الهواء، وأما فى الحالة الثانية فنحاول أن نقضى على جراثيم المرض بما يفتك بها ويمحوها.

■ دخل البابا يوحنا بولس الأول غرفة نومه فى الساعة ٩.٣٠ من مساء الأربعاء ٢٨ سبتمبر ١٩٧٨ . ولم يشاهد بعد ذلك حياً. فقد أعلنت وفاته بأزمة قلبية فى صبيحة اليوم التالى. أثارت الوفاة الشبهة، فلم يكن قد مضى على انتخابه سوى ٣٣ يوماً، ولم يكن يعانى من مرض خطير، ولم يكن يتناول سوى دواء ضد انخفاض الضغط.

سرعان ما سرت شائعات بأن البابا مات مسموماً، لأنه كان يعتزم إجراء تحقيق حول الفساد المالى فى الفاتيكان، ولأنه كان يريد المضى قدماً فى تنفيذ القرارات الليبرالية للمجمع الفاتيكانى الثانى الذى انعقد فى عام ١٩٦٥، وفى مقدمتها قبول تنظيم الأسرة ووضع ضوابط لتحديد النسل.

فى عام ١٩٨٤، صدر كتاب بالإنجليزية بعنوان «بسم الرب»، يؤكد فيه مؤلفه الكاتب البريطانى ديفيد يالوب نظرية «المؤامرة». وقال إنه توصل إلى ذلك بعد تحقيقات مكثفة استغرقت ثلاث سنوات، متهماً ليتشيو جيلى. وكان جيلى هذا رئيس العصبة الماسونية الإيطالية المشبوهة بعلاقتها الغامضة بالفاتيكان، وبرجال المصارف المتعاملين مع مصرفه.

يمضى يالوب قائلاً إن هناك شركاء لجيلى فى «المؤامرة»، هم الأسقف مارشينكوس) رئيس مصرف الفاتيكان، والكاردينال جون كودى، والكاردينال جان فيو، ثم هناك رجل المصارف روبرتو كالفى. وكان رجال الدين الثلاثة على رأس قائمة متهمة بالفساد أعدها البابا، واعتزم التحقيق معهم ونقلهم من مناصبهم. وكان الكاردينال فيو على علم بهذه القائمة من البابا نفسه.

يورد يالوب تفاصيل مذهلة عن الساعات التى تلت الوفاة. فقد حضر الكاردينال فيو إلى غرفة البابا، وجمع أدويته، وانتزع رزمة الأوراق التى كانت فى يده، وأخذ معها نظارته وخُفَّيه. وضاعت بعد الزيارة وصية البابا الشخصية. وبعد تشخيص سطحى، أمر الكاردينال فيو بتطبيب الجثمان وإعداده للدفن بسرعة. ومن شأن التطبيب الحيلولة دون إجراء تشريح كامل لتحديد أسباب الوفاة. وينسب يالوب إلى القسين اللذين قاما بعملية التطبيب أن الجثمان كان حاراً، الأمر الذى يدل على أن البابا مات باكراً، وليس فى الساعة الحادية عشرة ليلاً، كما أعلن رسمياً.

يسهب يالوب فى تقديم تفاصيل عن الأسماء المشبوهة. نكتشف مثلاً أن اثنين منهم أمريكيان: الأسقف المريب مارشينكوس، والكاردينال جون كودى، وهو رجل دين ارتبط بفضائح كثيرة. وينتهى المؤلف إلى الاعتقاد بأن البابا مات بسم «ديجيتاليس» الذى كان جيلى يوصى أعضاء عصبته الفاشية بحمله دائماً.

ثم نكتشف أن «البنكير» كالفى كان محور العمليات المالية والمصرفية المشبوهة مع صديقه مارشينكوس، عبر شبكة من المصارف الإيطالية ومصارف جزر البحر الكاريبى، وأدت كلها إلى تبديد عشرات ملايين الدولارات من أموال الفاتيكان. كالفى هذا ما لبث أن وجد مشنوقاً ومعلقاً تحت جسر فى لندن، أما مارشينكوس فقد بات أسير الفاتيكان، لأن خروجه سيعرضه للقبض عليه فوراً، والتحقيق معه ومحاكمته أمام القضاء الإيطالى.

صدرت كتب كثيرة بالإيطالية والإنجليزية وغيرهما تؤكد أو تنفى واقعة «المؤامرة». للأمانة مع الرواية، فقد اخترت أحد أهم الكتب النافية. وهو كتاب «لص فى الليل» للبريطانى جون كورنويل الصادر عام ١٩٨٩ . يؤكد كورنويل بأسلوب يحاكى الأسلوب البوليسى والمخابراتى لجون لوكاريه أن البابا يوحنا بولس الأول مات ميتة طبيعية بجلطة رئوية، وليس بالسم، إنما كانت الوفاة نتيجة إهماله الشخصى، ثم إهمال سكرتاريته وكرادلة الفاتيكان المحافظين المعادين له. لقد شكا فى أيامه الأخيرة من آلام حادة فى صدره، فقوبل باللامبالاة، فلم يتم نقله إلى المستشفى، أو استدعاء طبيب لفحصه.

كورنويل يقول إن هذا البابا مات نتيجة «انعدام التعاطف معه والحب له» فى غمرة صراعات البلاط الفاتيكانى التى كان محورها الأسقف الأمريكى مارشينكوس. ويضيف أن الكرادلة كانوا ينظرون إليه كبابا «خفيف» وليس على قدر المهمة. الغريب أنه هو - كما يقول المؤلف - كان يشاركهم فى هذه النظرة، وكان يتمنى موته، نتيجة المضايقات المستمرة له، ولا سيما من قساوسة ورجال منظمة «أوبوس ديى» الغامضة ذات

البـــابـــا



اللغــــز!

غســـــان الإمــــام

لم يحظ جالس على مقعد البابوية فى الفاتيكان بمثل ما حظى به البابا الراحل يوحنا بولس (الثانى) سواء فى حياته التى شهدت لحظات «مفصلية» فى التاريخ الحديث، لا أحد يعلم يقيناً إلى أى مدى اقتربت إصابعه منها، أو بعد وفاته التى شهدت احتشاداً إعلامياً غير مسبوق.

عن البابا الذى لم تخل لحظة اعتلائه الكرسى قبل ٢٧ عاماً من إثارة، كما حدث بالضبط مع محاولة اغتياله، وكثير من زياراته و«اعتذاراته» التى أعلنها ـ أو التى طولب بها، صدرت كتب كثيرة. كانت مثله مثيرة للجدل. ربما كان أهمها الإشارات الواردة فى كتاب الصحفى الأمريكى الأشهر بوب وودوارد عن خفايا الـ CIA والذى صدر قبل سنوات.

هنا قراءة فى بعض هذه الكتب.

النفوذ الواسع فى الفاتيكان. فهى أيضاً لم ترغب فى بابا متحرر.

هل هناك علاقة بين الرحيل المفاجئ والغامض لبابا ليبرالى «خفيف الوزن»، والإتيان المفاجئ أيضاً ببابا بولندى محافظ «ثقيل الوزن». وإذا كانت هناك علاقة، فمن رتبها وقام بالمهمة؟

ليس هناك ما يوحى ويؤكد أن للبابا البولندى يوحنا بولس الثانى علاقة من قريب أو بعيد بالميتة الغامضة لسلفه. الواقع إنى أجد انقطاعاً وتعتيماً تامين فى الإعلام والمعلومات عن الملابسات والمداولات التى أدت إلى إيصال كاردينال بولندى إلى البابوية. وحتى الكتاب الذى سوف أقدمه لاحقاً، ويفضح علاقته بالدبلوماسية والمخابرات الأمريكية، لا يشير إلى ما إذا كان هناك دور مخابراتى أمريكى فى ترحيل البابا الإيطالى، من خلال الاستعانة مثلاً برجلى الدين الأمريكيين مارشينكوس وكودى، أو فيو.

كل ما عثرت عليه هو مقالة فى «هيرالد تريبيون» الأمريكية نشرها جيمس نيتشلر السفير الأمريكى فى روما الذى عاصر التغيير فى الفاتيكان.

يقول السفير إن وفداً أمريكياً ضخماً برئاسة زيبغنيو برزيجنسكى رئيس مجلس الأمن الوطنى فى عهد الرئيس جيمى كارتر (٧٧ ـ ١٩٨٣) توجه إلى روما للمشاركة فى الاحتفال بتدشين عهد البابا البولندى. ويصف الزيارة بأنها «غيرت مجرى الحرب الباردة». فقد كانت من تفكير وتدبير «العصبة البولندية» المحيطة بكارتر، وفى مقدمتها برزيجنسكى نفسه. وضم الوفد أيضاً توماس أونيل رئيس مجلس النواب، وهو كاثوليكى كبرزيجنسكى، ونواباً وشيوخاً من الكاثوليك من أصل بولندى.

يمضى السفير الأمريكى الأسبق فى القول إن مشروع استخدام البابا البولندى فى الحرب الباردة كان له فعل السحر فى نفس كارتر وهكذا، تم تدشين العلاقة مع الفاتيكان من خلال اتفاق سرى بين برزيجنسكى والكاردينال أغوستينو كازارولى وزير خارجية البابا. وأنشئ على الأثر خط ساخن بين واشنطن والبابا. وتبادلت رسائل متعددة بينه وبين كارتر حول مختلف الشئون الدولية، مع تركيز بشكل خاص على «الاضطرابات» فى العالم الشيوعى.

برزيجنسكى مازال حياً، لكنه يرفض إطلاقاً الحديث عن فترة «التعتيم» المذكورة، وما إذا كان له دور فى إيصال البابا البولندى. كما يرفض الحديث عن شهرة «السيف الدينى» الإسلامى والمسيحى فى وجه الشيوعية «الكافرة».

لقد تنبأ هذا المفكر السياسى بتدخل أمريكى فى المنطقة العربية منذ عشر سنوات. وهو يقول الآن إن هذا التدخل سيتوسع. ثم يضع المنطقة داخل شكل هندسى يمتد من الأدرياتيكى إلى آسيا الوسطى وحدود الصين، ومن أوكرانيا إلى المحيط الهندى والخليج العربى، ويعتبرها منطقة عنف واضطراب.

أصل الآن إلى الكتاب الذى أشرت إليه «قداسته: يوحنا بولس الثانى والتاريخ الخفى لعصرنا»، الذى صدر فى عام ١٩٩٦ وطبع عدة طبعات بعد ذلك. وفيه يكشف المؤلفان الأمريكى كارل بيرنشتاين والإيطالى ماركو بوليتى عن «الحلف المقدس» الذى قام بين أمريكا ريجان وفاتيكان يوحنا بولس الثانى، ضد الماركسية والعالم الشيوعى خلال الحرب الباردة.

أود أن أذكر هنا أن بيرنشتاين هو المؤلف الحقيقى للكتاب. وأشير إلى أنه صحافى محقق ذو اتصالات واسعة بالطبقة السياسية الحاكمة فى الولايات المتحدة وأجهزتها المخابراتية. إنه بيرنشتاين الذى شارك زميله بوب وود ورد فى نشر الكتاب الذى فضح استخدام الرئيس ريتشارد نيكسون للمخابرات المركزية فى «التجسس» على الحزب الديمقراطى، وأدت الفضيحة إلى سقوط نيكسون فى عام ١٩٧٤.

يقدم بيرنشتاين البابا يوحنا بولس الثانى «لاعباً محنكاً» فى اللعبة السياسية الدولية، مشكلاً «حلفاً مقدساً» مع الرئيس ريجان لإلحاق الهزيمة بالشيوعية. ثم يعدد لقاءات البابا المنتظمة مع مسئولين كبار ودبلوماسيين ورجال مخابرات أمريكيين. وينوه هنا بـ «صلواته» التى أداها مع وليم كايسى مدير المخابرات المركزية آنذاك.

يضيف بيرنشتاين أن البابا كان يتلقى بانتظام معلومات مخابراتية سرية وصوراً بالأقمار الصناعية وتقارير عن تحركات عسكرية فى بولندا. المؤلف لا يقول ماذا فعل البابا بكل هذا الركام المخابراتى، إنما أعتقد أنه كان مطلوباً منه تقديم إيضاحات عنها، نظراً لمعلوماته عن بولندا التى تفوق معلومات المخابرات المركزية، حسب قول روبرت جيتس نائب كايسى وخليفته. أما الغرض من إطلاع البابا على صور التحركات العسكرية، فهو جلب معلومات من قساوسة الكنيسة البولندية، لا سيما أن بولندا كانت مقراً لحلف وارسو، وتعسكر فيها قوات روسية ضخمة. والمخابرات المركزية تريد أن تعرف ما إذا كانت هذه التحركات مجرد مناورات، أم لشن هجوم مفاجئ على أوروبا الغربية.

يمضى بيرنشتاين فى الرواية الخبرية من دون تعليق عليها، فيقول: «لا مجال للشك فى أن البابا منح مدير المخابرات المركزية وليم كايسى بركته»، و«المدهش أيضاً أن مدير المخابرات والحبر الأعظم دخلا فى علاقة حميمة وروحية».

وكان من شأن ذلك انتشار «شائعات» عن قيام الفاتيكان بأنشطة تجسسية لحساب الأمريكان. ثم يصل إلى القول إن الفاتيكان ساهم فى إيصال معدات إلكترونية. وربما تجسسية. أيضاً لحركة التضامن (سوليداريتى).

مع ذلك، يبقى بيرنشتاين حذراً، فهو يستدرك قائلاً: «لقد اتبعا. الجانبان ـ أهدافهما الأحادية على سكتين محاذيتين: إبقاء كل منهما للآخر على علم. وأيضاً الأخذ بعين الاعتبار الحساسيات، بحثاً عن أرضية مشتركة أخلاقية وسياسية، متورطين بانتظام بالاطلاع على إمكانيتهما المخابراتية الضخمة، لكنهما لم يقوما بنشاطات سرية مشتركة».

أثار الكتاب عاصفة من التعليقات المتراوحة بين الدفاع عن «نظافة» البابا، وبين التأكيد على دوره التجسسى. مدير المخابرات جيتس يقول إنه كان يعد معلومات للبابا عن بولندا والاتحاد السوفيتى. وكان رجال المخابرات المركزية ينقلونها إليه شخصياً. لكن جيتس ينفى أنه كان يطلب معلومات من البابا.

عميل ريجان والبابا

فى كتابه «كايسى» يقول المؤلف جوزيف بيرسيز: إن وليم كايسى درس فى مدرسة جيزويتية، ثم درس فى جامعة أمريكا الكاثوليكية فى واشنطن، وحمل شهادة فى القانون من جامعة القديس يوحنا (١٩٣٧). ثم انضم إلى المخابرات الأمريكية العاملة فى أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية. كان كايسى عاشقاً للعمليات السرية. لم يكن ناجحاً فى العمل السياسى، إنما أدار حملة ريجان الانتخابية، فكافأه بتعيينه مديراً للمخابرات المركزية، فلعب دوراً كبيراً فى الاتصال ببابا الفاتيكان، فى التنسيق معه لمحاربة الشيوعية فى أمريكا اللاتينية. كما كان له دور كبير فى فضيحة تزويد إيران بالأسلحة خلال الحرب العراقية.

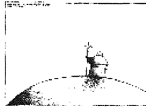
أعود إلى عام ١٩٨٧، فقد أصدر بوب وود ورد آنذاك كتاباً مهماً بعنوان (عالم الـ سى. آى. إيه



«الذنب الوحيد فى الجاسوسية أن يلقى القبض عليك متلبساً بجرمك»

ريتشارد هيلمز





البابا اللغز!

السرى) وضمنه أحاديث ومقابلات مع كايسى حتى وفاة الأخير فى العام ذاته بسرطان الدماغ ويشير كايسى فيها إلى تمويل الكنيسة الكاثوليكية فى نيكاراجوا ضد نظام الساندينستا الماركسى. ولا شك أنه كان هناك تنسيق كبير بين البابا البولندى وأمريكا فى العمل ضد حركات القساوسة اليساريين والليبراليين الذين تأثروا بالاشتراكية، وحاولوا فك «الحلف المقدس» بين الكنيسة والأنظمة الدكتاتورية هناك. وبين القساوسة الذين حرمهم البابا أربعة كانوا وزراء فى حكومة الساندينستا.

بالمناسبة، أحيل المهتمين بمتابعة نشاط المخابرات المركزية فى العالم العربى إلى كتاب وود ورد. فقد أدلى كايسى بمعلومات مثيرة عن «عملاء» الـ سى. آى. إيه»، وبينهم ملوك ورؤساء كجعفر نميرى. وبين الزعماء بشير الجميل الرئيس اللبنانى الأسبق الذى تم انتخابه خلال الاحتلال الإسرائيلى (١٩٨٢). ويقول كايسى إنه تم «توظيفه» خلال إقامته فى واشنطن فى أوائل السبعينيات للتدرب على المحاماة. ويضيف أن الجميل ظل يقبض مرتبه إلى آخر يوم فى حياته. ثم يتحدث كايسى عن علاقة المخابرات المركزية بالرئيس السادات وبالطبقة السياسية المصرية آنذاك.

هل كانت المخابرات السوفيتية وراء محاولة اغتيال البابا يوحنا بولس الثانى فى عام ١٩٨١؟

لا شك أن المخابرات السوفيتية كانت تملك معلومات عن نشاطات البابا «المخابراتية والتجسسية» فى بولندا وغيرها، غير أن علاقتها بمحاولة اغتيال البابا ظلت مجال أخذ ورد إلى الآن، وذلك بسبب دهاء وتناقضات المتهم محمد على أغجه الذى قام بالعملية.

ملابسات الاغتيال تشكل قصة مثيرة من القصص الغامضة خلال الحرب الباردة. أغجه شاب من ملاطية فى الشرق التركى الفقير، يصحو فى بواكير شبابه على الاستقطاب الدموى بين اليمين واليسار المتطرفين. كان لابد من انتماء، فاختار منظمة «الذئاب الرمادية» التابعة لحزب العمل التركى اليمينى المتطرف. بدأ أغجه حياته السياسية باغتيال عبدى عبجى (١٩٧٩) رئيس تحرير صحيفة (مليت) الداعية إلى التسامح. اعتقل. حكم عليه بالإعدام. هرب من السجن، ليرسل رسالة إلى الصحيفة ذاتها يهدد باغتيال البابا (قائد الصليبيين) الذى كان يعتزم زيارة تركيا.

لم يكذب أغجه خبراً. فقد أقدم فى عام ١٩٨١ على إطلاق الرصاص على البابا خلال قداس فى ساحة القديس بطرس. استقرت رصاصتان فى بطن البابا وكتفه. اعتقل أغجه، راح يدلى فى التحقيق بإفادات متناقضة دوخت المحققين الإيطاليين المحترفين، فتارة يدعى أنه تصرف وحده، لأنه «المسيح المنتظر»، وتارة يقول إنه عميل لمافيا التهريب التركية، وتارة يقول إن المخابرات البلغارية هى التى دفعته. حكم على أغجه بالسجن المؤبد، لكن المتهمين البلغار والأتراك تم الإفراج عنهم (١٩٨٦) لعدم كفاية الأدلة.

هنا تتشابك المعلومات والتأويلات. معلومات تقول إن أغجه عميل «مبرمج» للمخابرات السوفيتية منذ بواكير شبابه، وتم تدريبه فى معسكرات الفلسطينيين فى سوريا ولبنان. ودعم هذا المنطق ضابط مخابرات سوفيتى هارب إلى أمريكا. قال النقيب فكتور شيموف أن كولونيلا سوفيتيا يدعى سولوفييف أبلغه خلال زيارته لبولندا (١٩٧٩) أنه تلقى برقية من يورى أندربوف مدير الـ (كى. جى. بى) يقول فيها: «احصلوا على المعلومات الممكنة عن كيفية الاقتراب من البابا جسدياً». وفسرت البرقية على أنها أمر بالاغتيال. ثم وبخ أندربوف الذى حل محل بريجينيف القادة البولنديين وقيادات المخابرات متسائلاً: كيف تسمحون بانتخاب مواطن من بلد اشتراكى بابا لروما؟

لقد ضاعت الحقيقة، لأن أغجه ربما كان عميلاً مزدوجاً، وكاذباً كبيراً. وفى صراعات الحرب الباردة، حاولت المخابرات الأمريكية والإيطالية الضغط عليه لاتهام الروس بالجريمة، فيما اندفع الروس للدفاع عن البلغار. أما المافيا التركية فربما كانت عميلة للبلغار، فى حين كانت تتبادل «المنافع» مع «الذئاب الرمادية».

الطريف أن لا أحد يدرى ماذا دار بين البابا وأغجه عندما زار الأول الأخير فى سجنه. خرجت الصحافة الإيطالية تقول ساخرة إن أغجه ربما حاول إقناع البابا «الصليبى» بأنه هو فعلاً «المسيح المنتظر».



كارول فوجتيلا شاب من الريف البولندى أفاق وعيه السياسى فى مراهقته وبواكير شبابه على وطن محاصر. كانت بولندا الكاثوليكية فى الفترة بين الحربين العالميتين الأخيرتين (١٩١٩ ـ ١٩٣٩) محاطة بدولتين كبيرتين: ألمانيا النازية (اللوثرية) وروسيا السوفيتية (الأرثوذكسية). وكغيره من شباب جيله، رأى فوجتيلا فى الدين (الكثلكة) بديلاً وتعويضاً عن عجز الوطن عن مواجهة مطامع هذين الجبارين.

تخلى فوجتيلا عن حياة المدينة ولذائذ شبابه من رياضة وفن ونساء، ودخل السلك الكهنوتى، ربما ليتجنب تجنيده فى الحرب، لكن لا يمكن الإنكار أن إيمانه الدينى كان قوياً إلى آخر يوم فى حياته. وكانت الصدمة كبيرة للقس فوجتيلا. انسحبت ألمانيا النازية، لكن الوطن كله بات فى قبضة السوفييت، وبدأ صبغ المجتمع بالصبغة الماركسية. وكان الجهد الشيوعى منصباً على تحييد نفوذ الكنيسة الكاثوليكية فى بلد كاثوليكى شديد الإيمان.

كرجل دين نشيط ومتحمس، كان فوجتيلا تحت رقابة البيروقراطية الحزبية والمخابراتية، غير أن شعبيته المبكرة بين «المؤمنين» حالت دون اعتقاله أو تصفيته، وإن لم تحل دون قمعه. واستفاد فوجتيلا فى السبعينيات من «الوفاق» الذى قام بين أمريكا والاتحاد السوفيتى، فقد تراخت قبضة الرقابة على أسقف كراكو، بحيث راح يتجرأ على القيام بجولات دينية فى بولندا وأوروبا الشرقية، على الرغم من أن معظمها أرثوذكسى الديانة.

لا ضرورة هنا لإعادة التذكير بعلاقة الكنيسة الكاثوليكية بالولايات المتحدة، إنما أقول إن شهرة الأسقف ثم الكاردينال فوجتيلا تجاوزت «الستار الحديدى» إلى الغرب، وكانت فى مقدمة العوامل التى أدت إلى وصوله إلى كرسى البابوية فى روما (١٩٧٨)، إثر الموت المفاجئ للبابا يوحنا بولس الأول، غير أن حرصه على سلامته داخل الفاتيكان دفعه إلى الإتيان بـ «سكرتارية» من قساوسة بولنديين شكلوا مكتبه الإدارى إلى آخر يوم فى حياته.

ماذا يفعل بابا بولندى فى كنيسة بدأ تحررها المتسارع منذ المجتمع الفاتيكانى الثانى يزرع الأمل لدى ٩٥٥ مليون كاثوليكى، الأمل فى تكييف العقيدة وفق حاجات الحياة اليومية المعاصرة؟

دهشة «المؤمنين» بوصول بابا من العالم الشيوعى، ما لبثت أن انقلبت إلى خيبة، ولا سيما فى أوساط مثقفى اللاهوت. لقد استفاد البابا الجديد من الشكوك التى بدأت تراود مفكرى أوروبا مؤمنين وغير مؤمنين بالماركسية، لإعلان عدائه السافر للماركسية. رفض البابا جدلية صراع الطبقات. دعا إلى جدلية روحية معتبراً الشيوعية «ثورة ضد الرب» وعنفاً ضد كبرياء الفرد المستلهمة من الإيمان بالله.

الواقع أن التطبيق الماركسى السوفيتى للماركسية أدى إلى بيروقراطية مترهلة فى الحزب والدولة، راحت معالم التراخى والانكسار النظرى تظهر واضحة، فى سنى خرف بريجنيف، الأمر الذى دعم موقف وفكر البابا البولندى المعادى للشيوعية، ووظفت آلة الدعاية الغربية المتفوقة الموقف البابوى، لإقناع العالم بأن الشيوعية قضية خاسرة، وانهيارها بات مسألة وقت فحسب. وركزت الكنيسة على الإيحاء للشعوب السلافية بأن الماركسية مسؤولة عن إقصائهم عن قيم الثقافة الأوروبية الغربية.

كان البابا يوحنا بولس الثانى فى الواقع النظرى والميدانى بابا الحرب الباردة. هو أيضاً استفاد من الحملة الماركسية لخنق وتطويق الفكر الكاثوليكى الدينى وغير الدينى، فى حملة أكثر صرامة وسرية. الدكتوراة فى الفلسفة لم تنفع دون عدائه لفلسفة الشك كأداة للوصول إلى اليقين. جرى تطهير الكنائس والمدارس والجامعات الكاثوليكية من المفكرين والمدرسين الليبراليين. فلا حوار ولا التقاء مع «المرتدين». لا قبول بتقدم العلم والفكر والعقل على الأخلاق والفضائل الكاثوليكية الاجتماعية والعائلية. نعم، للحرية لكن فى يدها وعلى عقلها قيد دينى، لأن «العقلانية المادية» أدت إلى

انحلال وتفكك المجتمع المسيحي، ولا سيما في الغرب الأوروبي.

هل كان لدى البابا الراحل مشروع ديني وسياسي؟

لم يكن هناك مشروع رسمي معلن، لكن تمت بلورته من خلال الإعلام والمنشورات الفاتيكانية وتصريحات كرادلتها المحافظين. البابا يريد أوروبا من الأطلنطي إلى الأورال «قلعة مسيحية»، من خلال وحدة دينية تضم الكنائس كلها، وفي مقدمتها الكنيسة الأرثوذكسية. يوحنا بولس الثاني هو، إذن، بابا الصحوة الكاثوليكية، البابا المبشر بقلعة موحدة وجامعة للأمة والدين والثقافة، بحيث يصبح الإيمان خبزًا يوميًا «للمؤمنين». إنه بابا عصرنة الكاثوليكية، من دون تمريرها عبر العلمانية المادية «المجردة من الروح».

من هنا، ومن خلال هذا الإيمان الديني الصارم، اصطدم البابا بعد نهاية الحرب الباردة، بقيم «الرأسمالية المتوحشة» التي بشرت بها تاتشر وريجان وفلاسفة السوق من ملتون فريدمان إلى فون هايك. ومن هنا، كان رفض البابا العلني والناقد لـ «مدينة الخطيئة» التي أقامها جيل بيل كلينتون. وهكذا، فهو ضد العولمة و«الأنانية المادية» التي تحول دون نقل التقنية والسلع إلى جمهوره الأكبر والأفقر في العالم الثالث. هو أيضا يلوم الدولة الصناعية التي تدمر البيئة ومعها الفضائل المسيحية، وتوسع الهوة بين الذين يملكون والذين لا يملكون، وتنقل المجتمع كله إلى عالم مادي، عالم بلا روح.

هذه الملائكية المتطهرة المضادة لـ «الأنانية المرفهة» عند الأغنياء، لم تحل دون ممارسة نقد عقلاني قوي وأحيانًا جارح إلى مسلمات البابا الدينية، ولأسلوبه الصارم في إخماد حرية النقد والفكر في كنيسته وجامعته ومدارسه. فهذه الأفكار والمواقف التي حملها معه من بلد «متخلف» نسبيًا إلى روما الفاتيكانية كانت بمثابة عودة ذكية إلى كنيسة القرون الوسطى، حيث الدين هو المرجع اليومي والحياتي والسياسي.

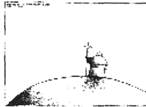
رأى مثقفو اللاهوت والمفكرون الليبراليون في البابا مثقفًا لكنه مثقل برؤى متناقضة بين حملته على الماركسية ورفضه للرأسمالية. إنه بابا ذكي ويحاول فرض منطقه الذاتي ومفاهيمه الجامدة في الرؤى الليبرالية والاشتراكية الأوروبية والأمريكية، يبدو البابا يوحنا بولس الثاني مجردًا من إهاب المظهر «السبور» و«المودرن» الذي ظهر فيه. فهو بابا الطقوس والقداديس والتماثيل والقديسين الذين طوبهم بالعشرات. إنه يجسد عندهم كنيسة القرون الوسطى المراتبية التي قاومت حتى نهاية القرن التاسع عشر عصر التنوير، وتحالفت مع «النظام القديم» ضد الماركسية والاشتراكية والصحافة الحرة، الكنيسة



«من يملك برلين يملك ألمانيا، ومن يملك ألمانيا يملك أوروبا»

لينين





البابا اللغز!

التي رفضت العلمانية وكفرتها، لمحاولتها الفصل بين الدين والدولة، بين التعليم والتلقين.

البابا الراحل الذي طرد مفكري اللاهوت من كنيسته كما طرد المسيح «الفريسيين» من الهيكل، هو البابا المعصوم و«المقدس» و«ممثل الله على الأرض». لم يتخل البابا عن حكمه المطلق في ذروة حملته على الدكتاتورية في العالمين الرأسمالي والماركسي، و«الحاكمية لله» في كنيسة اعتبرها امتدادًا للكنيسة الأولى. وهو في حكمه لم يبتعد كثيرًا عن مبدأ «الحق الإلهي المقدس» فلكي «تكون إمبراطورًا يجب أن تكون مقدسًا».

الواقع أن الكنيسة الكاثوليكية مرت بمراحل زمنية ثلاث: «المرحلة التطهيرية» التي تم فيها سحق «البدع» ورفض الكنائس الأخرى. المرحلة الثانية (١٦٠٠ - ١٧٠٠) هي مرحلة الكنيسة الكاثوليكية الغربية: وحدة أوروبا، والقبول التدريجي بفصل الديني عن الزمني، والتسليم بسلطة الأباطرة والملوك والنبلاء، على أن تكون «شرعية» المباركة المقدسة من كنيسة البابا. ثم المرحلة الأخيرة التي حاولت فيها الكنيسة التكيف مع عصر التنوير، والتسليم الذي لا مفر منه بمفاهيم الثورات البورجوازية والعلمانية التي أشاعت قيم التعددية في المجتمعات والأفكار، بحيث بات مستحيلاً على أي بابا أن يعود فيخضع السياسي للديني، والعقل المطلق لـ «المقدس».

التناقضات في موقف البابا الراحل من القضايا الاجتماعية تفسر جموده الفكري وعجزه عن تلمس آثار سياسته الرافضة للتكيف مع الحياة المعاصرة.

كان ضد الإجهاض بحجة أنه قتل للحياة. كان ضد تنظيم الأسرة وتحديد النسل، بحيث تجاوز إنتاج الأولاد في عالم الفقراء إنتاج السلع الضرورية لحمايتهم من الجوع والمجاعة.

كان البابا ضد ثورة الفراش، ضد كازانوفا ودون جوان وكلينتون ومونيكا. رفض الهندسة الوراثية، والتلقيح الصناعي والاستنساخ، فهو عند الجيل الذي رأى الحياة في الستينيات ضد «الثورة الجنسية»، ضد موانع الحمل. بما فيها الحبوب التي اخترعها عالم كاثوليكي، وتذرع بالطهارة العذرية، بدلاً من الواقي الذكري. نعم، مازال الإجهاض يقتل نصف مليون امرأة كل سنة، لكن «المؤمنين» من أزواج وعشاق الذين لم يستعملوا الواقي تسببوا في موت ملايين النساء والرجال، وجردوا أفريقيا من شبابها الذي هو أملها في المستقبل.

كيف تمكن البابا الراحل من التغطية على كل هذه التناقضات النظرية والاجتماعية في فلسفته الدينية، وموقفه الغامض والمرتبك من العصرنة والديمقراطية والحرية؟

الأصولية المسيحية التي بشر بها البابا حاكت الأصولية الإسلامية في استغلالها «ثورة» الإعلام الجماعي، من دون استخدام عنفها ودمويتها. استغلت الكنيسة إلى أبعد استغلال «البابا الإلكتروني»: بابا وسيم وجذاب، يقضي أسعد أوقاته في قداديس الهواء الطلق، ويجمع فيها ملايين «المؤمنين» المؤقتين، بحيث نافس وتفوق على جاكسون ومادونا وملوك الروك والراك والبوب. إنه البابا الساحر الذي يتكلم سبع لغات، البابا الخطيب الذي يهز بإيمانه العميق جماهير البسطاء في دعوته إلى التعلق الغيبي بالعناية المقدسة التي أنقذته من الاغتيال هو وشريكه ريجان، وساعدتهما في التغلب على «إمبراطورية الشر» الكافرة.

حتى في الأمراض التي تكاثرت على البابا، بعد محاولة اغتياله، استغلتها الكنيسة في محاولة استعادة «المؤمنين الضالين» إلى أحضان «المدينة الفاضلة». كان البابا المعروض في قفصه الزجاجي الواقي من الرصاص ملهمًا ومحمسًا لعفوية الفقراء المؤمنين والمحرومين. وكان في مظهره المرضي جاذبًا لهم إلى عروضه القداسية. لقد هتفوا وصفقوا له. أحبوه واحترموه، لكنهم تفرقوا بمجرد أن غاب عنهم. فتحريمه الطلاق، ورفضه سيامة المرأة قسيسة وكاهنة، و«ممنوعاته» الجنسية أبعدت المؤمنين عن كنيسة تقية، لكنها غير مسايرة للعصر.

أحسب أن أصولية البابا الراحل في إيمانها، وفكرها المبسط، وفي رفضها العصر، قريبة الشبه بالأصولية الإسلامية المتشددة، الرافضة لعالم تكرهه وتحاربه، لأنها غير قادرة على التكيف مع انفتاحه ومجاراته في تطوير علمه وتقنيته وأفكاره المتسامحة.

الفرق الوحيد في أن البابا رفض العنف، ناضل وجاهد بالكلمة والصلاة من أجل عالم حائر، ثم غادره تاركًا إياه ظالمًا ومظلومًا، غنيًا وفقيرًا، كما وجده.

كان حكم البابا يوحنا بولس الثاني الطويل (٢٦ سنة) فرصة لتدخل الكنيسة الكاثوليكية في علاقة جدلية مع الأديان الأخرى والدول والشعوب. وقد اتسمت هذه العلاقة بكثير من الحيوية والحرارة والفهم المتبادل. وتجاوزت خلالها الكنيسة كثيرًا من المواقف التاريخية والدينية التي عرقلت تنمية علاقات صحية وإيجابية بين الأديان.

في المبادرة إلى الاقتراب من الأديان، تحولت الكنيسة من التكفير إلى الحوار، لكن من دون اعتراف تام بهذه الأديان. تم البحث عن نقاط الالتقاء ومواراة فواصل الخلاف، من غير التخلي عن الاعتقاد بأن الكثلكة هي «الدين المقدس الكامل»، فيما الأديان الأخرى ناقصة أو غير معترف بها.

في الرؤية الكاثوليكية التاريخية، كان المسلمون «كفارًا»، ولذلك جرى غزوهم، مع التطور الكبير في الفكر اللاهوتي، بات من الممكن الدخول في حوار مع الهيئات والمرجعيات الدينية الإسلامية، من غير الاعتراف بالإسلام دينًا، في حين أن الإسلام يعترف بالمسيحية واليهودية كدينين سماويين،

وإن كان يعتقد أنهما تعرضا إلى بعض التحريف.

فى الفقه الكهنوتى، فمن خلال السيد المسيح فقط يمكن للإنسان الخلاص، لكن ليس على الكثلكة أن تحرم غير المسيحيين من الخلاص. بل ذهبت بعض منشورات وبيانات فقهية إلى القول إن الله تكلم بلسان المسيح والأنبياء والرسل. وربما تكلم أيضاً بلسان محمد والقرآن.

هذا الحوار لم يمنع الكنيسة الكاثوليكية من الدخول فى منافسة ميدانية حادة مع البروتستانتية فى أمريكا اللاتينية. ومع الإسلام فى أفريقيا. غير أن اهتمام البابا الراحل انصب على محاولة مصالحة الكنيسة الأرثوذكسية. وصولاً إلى الوحدة المسيحية. بعد الانشقاق الكبير فى القرن الحادى عشر بين الكنيستين. إثر خلاف عميق حول طبيعة المسيح وعصمة البابا وقداسته اللتين لا يؤمن بهما الأرثوذكس.

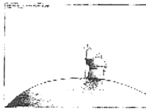
لم يتمكن البابا من تحقيق تقدم كبير فى هذا المجال، بسبب الفتور لدى الكنيسة الأرثوذكسية، على الرغم من الاعتذار الحار لها عما سببه الكاثوليك للأرثوذكس من «عذاب» طوال الألفية الميلادية الأخيرة. وكان جواب الجمهور الأرثوذكسى دائماً هو التنديد العلنى بـ «البابا المهرطق».

كان البابا الراحل كثير الاعتذار. اعتذر عن التعذيب والحرق. اعتذر عن الإكراه على تغيير الدين. اعتذر عن محاكم التفتيش. هذه الاعتذارات لم تكن عن الكنيسة، فقد ظلت «معصومة ومقدسة» لديه، وإنما عن رجالها. لم أعثر على اعتذار عن رفض العلم واضطهاد العلماء فى القرون الوسيطة. كذلك لم يعتذر البابا للعرب والمسلمين عن الحروب الصليبية التى ساهم البابوات فى شنها، وحشد «المؤمنين» فى أتونها. لم يعتذر صراحة عن الحروب الدينية التى أشعلتها الكنيسة ضد الكنائس «المنشقة» من لوثرية وبروتستانتية التى استمرت عشرات السنين. قُتل كاثوليك أيضًا فى هذه الحروب بسيوف الكاثوليك. لم يكن هناك من وقت للتفريق بينهم وبين أعدائهم. كان القساوسة الكاثوليك يعتذرون، تاركين للسماء أن تفرز «المؤمنين» عن «الكفار».

لكن اليهود بالذات كانوا المستفيد الأكبر من الاعتذارات البابوية الحديثة. فقد خصهم البابا الراحل بعد الأرثوذكسية بالاعتذار وطلب الغفران. يعترف اليهود بأن ما فعله البابا من أجلهم أكثر مما فعله كل البابوات على مدى ألفى سنة. فى كتابه «عبور عتبة الأمل» يخص «اليهودية» بباب منفرد، معتبراً إياها «أقرب الأديان إلينا»، مشيداً بـ «الجذور اليهودية» للمسيحية، مباهياً بالصداقات الشخصية الحميمة التى ربطته بكثير من اليهود، منوهاً بالحوارات المستمرة مع المرجعيات الدينية اليهودية.

«المنتصرون الأوائل (فى الحرب ضد العراق) هم أولئك اللذين يريدون صدام الحضارات والثقافات والأديان»

جاك شيراك



البابا اللغز!

لا شك أن الكنيسة الفاتيكانية فعلت ذلك نتيجة للنفوذ الكبير لليهود فى العالم الغربى على السياسة والمال والإعلام، ونتيجة للضغط الذى مارسوه عليها. مع ذلك لم تسلم الكنيسة من كراهية اليهود للكاثوليك. فهذا الإعلام هو الذى يركز على الفضائح الجنسية التى يرتكبها القساوسة «المحرومون من الزواج» فى الكنائس والأديرة، وبصورة خاصة فى الولايات المتحدة، حيث التحق كثير من الرهبان بـ «الثورة الجنسية». كان البابا كلما قدم تنازلاً، كذهابه إلى أبعد مما ذهب إليه المجمع الفاتيكانى من تبرئة اليهود من «دم المسيح»، كان اليهود يطالبونه بتنازلات أكثر وأكثر.

استغل البابا الراحل اتفاق أوسلو ليعترف اعترافاً كاملاً بإسرائيل (١٩٩٣)، وليتبادل التمثيل الدبلوماسى معها (١٩٤٤)، لكن سفارته بقيت فى يافا. وبات القانون الإسرائيلى يسرى على أملاك الكنيسة فى الأراضى المحتلة. الاعتراف الجرىء بإسرائيل لم يمنع من المطالبة بـ «الحقوق المشروعة» للفلسطينيين فى وطن ودولة، وإدانة عذابهم والصلاة من أجلهم، فى مقابل العيش بسلام مع دولة إسرائيلية وراء «حدود آمنة». غير أن البابا لم يفكر يوماً بدعم الكلمة والصلاة بإرسال فريق من كرادلته وأساقفته للسير، مثلاً، فى مسيرة الآلام على خطى السيد المسيح، للتأكيد على حرية العبادة فى الدولة اليهودية.

فى أضعف الإيمان ظلت الكلمة هى الأداة. أيد البابا عملية السلام، على أساس قرارات الأمم المتحدة. طالب بوضع دولى للقدس، ووقف استيطان المنطقة الشرقية (العربية) فيها، واعتبره «احتلالاً غير قانونى». بل رفض اعتبار القدس عاصمة أبدية لإسرائيل.

فى زيارته لإسرائيل والأراضى المحتلة، حظى البابا بضيافة إسرائيلية رسمية كرئيس دولة. هذا لم يمنع ألسنة الحاخامات الطويلة والشارع اليهودى الذى تربى على الكراهية من تعيير «قداسته» بأنه «صنم معبود»، واتهام كنيسته بأنها لم تعمل كثيراً لإنقاذ اليهود من «المحرقة» النازية خلال الحرب العالمية الثانية.

فى المقابل. فقد لقى البابا احتفالاً رسمياً وترحيباً شعبياً، لدى الدول العربية التى زارها، على الرغم من أنه رفض الاعتذار فى دمشق عن الحروب الصليبية، وأصر على إقامة صلاة «مشتركة» مسيحية إسلامية فى المسجد الأموى، ثم قداس كبير أمام ضريح يوحنا المعمدان (يحيى)، متجاهلاً ضريح صلاح الدين الأيوبى الملاصق للمسجد. لم يكن له ما أراد، فقد أحبطت المؤسسة الدينية السورية مشروع القداس والصلاة المشتركة. واكتفى البابا بملامسة ضريح يحيى، وبتمتمة صلاة قصيرة قبل الانصراف.

فى المقارنة بين موقف البابا الراحل مع العرب والمسلمين ومواقف بابوات سابقين فى القرنين الماضيين، يبدو يوحنا بولس الثانى إيجابياً، وإن لم يكن متجاوباً تماماً. لابد من التذكير بالراحة التى أبداها البابا بندكتوس الخامس عشر لاجتياح القوات البريطانية فلسطين. قال البابا عشية انعقاد مؤتمر فرساى: «ثم من منا لا يتذكر ما بذله أسلافنا (الصليبيون) من جهود فى سبيل استعادة هذه الأماكن المقدسة من أيدى غير المسيحيين؟».

أما البابا بيوس العاشر فقد سأله تيودور هيرتزل مؤسس الحركة الصهيونية: «هل نستطيع الاعتماد على الفاتيكان فى وطن قومى؟» رد البابا بجفاء: «لم يعترف اليهود بنا، لذلك لا نستطيع الاعتراف بالشعب اليهودى». ثم أردف مخففاً من وطأة الجواب: «إذا جئتم إلى فلسطين واستقر شعبكم هناك، فإننا مستعدون بكنائسنا وقساوستنا لمساعدتكم جميعاً».

لعل هذه المواقف الماضية واللاحقة للكنيسة الكاثوليكية تغنى عن كل تعليق.



هل لعبت الدبلوماسية الأمريكية وأدواتها الخفية والظاهرة «دوراً» ما فى دفع الكاردينال الألمانى جوزيف راتزينجر إلى السدة البابوية، كما فعلت، على الأغلب، فى «تصعيد» البابا الراحل؟

ما من أحد يستطيع أن ينفى أو يجزم الآن، بانتظار «الدخان الأسود» الذى قد ينطلق فجأة ليس من مداخن الفاتيكان هذه المرة، وإنما من «المداخن» الصحفية وقنوات الدبلوماسية السرية. غير أنى أقول إن من خلال التحقيقات الصحفية التى نشرت قبل تحول الكاردينال راتزينجر إلى البابا بنديكت السادس عشر، يمكن للمراقب السياسى أن يلاحظ الرغبة الأمريكية المتلهفة لانتخاب بابا من العالم الثالث، لتكون مواقفه من الإسلام والأصولية الإسلامية «الإرهابية» أكثر تحدياً ومجابهة، مما كان عليه موقف البابا الراحل.

على أية حال. لا أعتقد أن تُقى وتقية إدارة بوش غير مرحبتين فى بيتها وسرها بالبابا الجديد. لماذا؟ لأن انتخاب بابا ألمانى محافظ من شأنه تشجيع إدارة بوش ومرجعيتها المسيحية المحافظة على العيش فى أمل تحول «أوروبا القديمة» على حد تعبير الوزير رامسفيلد، إلى «قلعة مسيحية» كان البابا الراحل يحلم بها. تماماً كما يجرى إحياء الذاكرة الدينية للأمريكيين، فى «هوجة» لا عقلانية، لم يعرفها أى مجتمع غربى فى عصر الحداثة العلمانية.

وهكذا، فمعركة إدارة بوش وأمريكا الآن مع أوروبا «العلمانية»، مع أوروبا «القديمة»، مع أوروبا شيراك وشرويدر، أوروبا «اللا مسيحية» التى ترفض مسايرة السياسة الأمريكية الاستفزازية المبطنة بالقبضة الإيمانية للمحافظة المسيحية. اليهودية الجديدة، وتقاوم من خلال الموقف الأوروبى السلبى من حرب بوش «المقدسة» فى العراق، الدور الأمريكى المهيمن على العالم، بلا رديف أو شريك.

لقد أطل من الشرفة الفاتيكانية صقر دينى شديد المحافظة والتمسك بـ «العقيدة المتطهرة»، وكان أميناً عليها خلال عهد صديقه الراحل، بل زايد عليه فى رفض الاتجاهات التعددية داخل الكنيسة، ولاحق معه الأساقفة والقساوسة والمفكرون اللاهوتيون المتحررون الراغبون فى كنيسة متكيفة مع حاجات «المؤمنين» فى هذا العصر.

الكنيسة تعيش، إذن، حالة انتقال من

البابا جون واين إلى البابا فرانكشتاين ذى الوجه العظمى والعينين الغائرتين الموشحتين بهالتين من السواد الشاحب الغامض. نعم، إنه يحاول التخفيف من وقع «الصدمة» على المؤمنين بالتأكيد على تواضعه وتسامحه. لكن فكره معروف. فقد سبق أن قال ناعيًا: «لقد انتقلنا من ثقافة مسيحية إلى ثقافة علمانية». وهو فى تعصبه، يرفض فكرة أن الأديان الأخرى يمكن أن تقود إلى «الخلاص». وموقفه الاجتماعى والدينى رديف لموقف البابا السابق. فهو مثله ضد الإجهاض، و«قسوسة» الراهبات والنساء اللواتى يتجاهلن «الفروق البيولوجية» بينهن وبين الذكور.

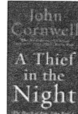
بدأ البابا الجديد حياته المراهقة فى منظمة «شباب هتلر»، ثم جند فى الجيش الألمانى المحارب، فوقع فى أسر الأمريكان. وخرج من معسكر أمريكا إلى صومعة الرهبنة الكاثوليكية، وتدرج فى الرتب، إلى أن استعاره البابا البولندى من الكنيسة الألمانية، ليتولى فى الفاتيكان مسئولية المحافظة على «العقيدة».

فى رأى مفكرى اللاهوت، فالبابا الجديد سيكون عقبة كأداء فى طريق «التغيير الضرورى» الذى كان منشودًا بعد غياب بابا محافظ. إنها كنيسة كرادلتها من ملكوت الأغنياء وجمهورها من عالم الفقراء. يقول الأسقف الأفريقى دزموند توتو أن البابا بنديكت «لم يكن مرشحى، وآمل أن يغدو أكثر انفتاحًا». اليهود دافعوا عنه وغفروا له ماضيه «النازى»، لأنه لم يكن قد بلغ سن الرشد والوعى ولأنه شجع كثيرا البابا الراحل على الاعتراف بإسرائيل. أما الكاتب المتخصص جون كورنويل فقد قال إن راتزينجر هو إشارة إلى الليبراليين بأن يرحلوا أو «يقفوا فى الصف»، فهو «قاضى التفتيش» ضد الليبراليين، ومعركته فى أوروبا التى يحلم بها كأوروبا القرن التاسع عشر، عندما أدان البابوات الديمقراطية والحرية الدينية.

هذا البابا هو آخر هدية نفيسة لـ «المؤمنين» من البابا الراحل. أيقونة محافظة وأكثر انطواءً وسرية من سلفه. لم تحدث خيانة، فقد وضع الكرادلة المحافظون الذين «صعدهم» البابا يوحنا بولس الثانى، بابا على شاكلتهم. لكن هل ينجح بابا مؤقت (عمره ٧٨ سنة) حقًا فى إلهاب عواطف الأجيال الأوروبية الجديدة، ويتجه بها نحو «أوروبا القلعة المسيحية»؟ لقد أخفق البابا الراحل فى تحقيق مشروعه الأصولى خلال ل ٢٦ سنة من حكمه، على الرغم من شعبيته وسحره الجماهيرى. إذا نجح البابا «المقدس» فى صنع «المعجزة»، فستكون عودة أوروبا المسيحية إلى حضن أمريكا الأصولية ساعة فرح حقيقية فى كنيسة البيت الأبيض.

وقفت فى باريس على عتبة الكنائس والكاتدرائيات التى أقامت قداديس الصلاة من أجل شفاء البابا المحتضر يوحنا بولس الثانى، ثم للصلاة لراحة نفسه. وها هى تقيم قداديس «الفرح» بالبابا «المقدس الجديد». أتطلع إلى «المؤمنين» الخاشعين الداخلين والخارجين. فلا أرى شبابًا فى سن العشرين، ولا حتى فى الثلاثين. رأيت فقط عجزة «العمر الثالث» (Trosieme Age) يجرون أقدامهم متعثرين ليلحقوا، ربما بعد أسبوع، أشهر، أو سنوات قليلة، بالبابا الذى رحل، تاركين الكنيسة الأوروبية خارج فسحة الأمل. ■









1 - Veil: The Secret Wars of the CIA, 1981 - 1987
(الحجاب: الحروب السرية لوكالة المخابرات المركزية «١٩٨١ - ١٩٨٧»)
Bob Woodward
Simon & Schuster, 544pp., 2005
(طبعة جديدة)

2 - His Holiness: John Paul 11 and the Hidden History of our Time
(قداسته.. يوحنا بولس الثانى والتاريخ الخفى لعصرنا)
Carl Bernstein, Marco Politi
Thorndike Pr; Largeprint edition, 1997

3 - A Thief in the Night: Death of pope John Paul 1
(لص فى الليل.. موت البابا يوحنا بولس الأول)
John Cornwell
Penguin Books Ltd, 416pp., 1990

4 - Crossing the Threshold of Hope
(عبور عتبة الأمل)
Pope John Paul 11
Alfred A Knoph, 244pp., 1994

5 - In God's Name: An Investigation into the Murder of Pope John paul 1
(باسم الرب.. تحقيق فى مقتل البابا يوحنا بولس الأول)
David Yallop
Bantam Dell Pub Group, 339pp., 1984

كتاب الزاوية



زكى نجيب محمود

الثـــورة الفكـــرية

انظر إلى الثورة الفكرية التى ثارت بها أوروبا على قديمها لتحل محله جديدًا يناسب حياتها الجديدة، وكان ذلك فى العصر الذى يطلق عليه عصر النهضة، فماذا صنعت أوروبا حينئذ؟ إنها تناولت البناء العقلى الذى كان سائدًا قبل ذلك، تناولته من أساسه، فاستحدثت لنفسها منطقًا جديدًا، أهم معالمه أن تكون الخبرة المباشرة (عقلية كانت أو حسية) هى نقطة الابتداء، ولا تكون نقطة الابتداء أقوالاً حملتها إليهم موجات الزمن.

لقد كانت لنا بعض المحاولات فى تغيير النمط الفكرى القديم، ليكون لنا بالنمط الجديد حياة جديدة، ومن أمثلة هذه المحاولات ما حاوله طه حسين فى أن يدرس الأدب القديم نفسه غير متأثر بأحكام القدماء، وما حاوله العقاد وكثيرون آخرون من شعرائنا فى أن يصدروا عن خبراتهم الفردية الخاصة والمباشرة.

شىء ما فى مناخنا الفكرى يردنا عن إحداث هذه الثورة، فمازالت الكلمة المسموعة هى لغير الراغبين فى ثورة فكرية كالتى نصورها، ولا حرج عليهم أن يعلنوا عن رأيهم فى صراحة وعلانية، وأما الراغبون فى مثل هذه الثورة الفكرية، فعليهم أن يراوغوا فى التعبير عما يريدون، اجتنابًا منهم لوجع الدماغ، تاركين لقرائهم أن ينزعوا المعانى من بين السطور.

ســـــتـيـفـن زونـــــــس

عـــامـــان علـى الغــــزو...

■■ فى سلسلة من المقالات التى كتبتها فى الفترة ما بين يونيو ٢٠٠٢ وفبراير ٢٠٠٣، تنبأت بأنه إذا غزت الولايات المتحدة العراق، فإنه من غير المحتمل أن تجد برامج أسلحة الدمار الشامل التى زعمت إدارة بوش وزعماء الكونجرس من الحزبين أن العراق يمتلكها فى إطار جهودهم لتبرير السيطرة الأمريكية على دول الخليج الغنية بالنفط. وتنبأت أيضا بأنه لا توجد أية علاقة بين النظام العراقى وتنظيم القاعدة وأن غزو الولايات المتحدة للعراق سيشجع الإرهاب بدلا من إعاقته. وفى النهاية، تنبأت أننا سنجد أنفسنا فعليا معزولين فى المجتمع الدولى وسنواجه بحرب تمرد دموية بدون نهاية فى الأفق.

فى هذين العامين منذ انطلقت إدارة بوش وغزت العراق، أحسست ببعض الارتياح لكونى كنت فى الطريق الصحيح.

لا العمل العسكرى الأمريكى ولا الانتخابات العراقية التى أجريت فى ٣٠ يناير قد حققت أى شىء لتهدئة التمرد بل يبدو أنه يزيد من التوترات الاثنية.

منذ الغزو الأمريكى، قتل عشرات الآلاف من العراقيين، معظمهم من المدنيين. وتضاعفت حدة سوء التغذية بين الأطفال، كما تضاعف معدل وفيات الأطفال لأكثر من ثلاث مرات. أكثر من مليون لاجئ هجروا البلد لتفادى تفجيرات السيارات، والاغتيالات والاختطاف والقوانين العرفية، وعوائق الطرق المميتة وطلقات المدافع والطائرات الأمريكية. طوابير التزود بالوقود من الممكن أن تستمر لأيام. وهناك نقص عام فى الغذاء والعلاج، وارتفعت أسعار الغذاء والحاجات الأخرى بشكل رهيب، وأكثر من نصف السكان عاطلون عن العمل. باختصار، فإن عدد السكان الذين يعانون ويموتون منذ الغزو الأمريكى أكثر من الذين عانوا وماتوا فى العامين السابقين للغزو. وما دامت هذه هى الحالة، فإن التمرد سوف يستمر.

على الرغم من الجهود الكبيرة الناجحة من جانب إدارة بوش لإخفاء حجم ونطاق التعذيب الأمريكى للمسجونين العراقيين، فإنه يبدو الآن أن ما تم كشفه من التعذيب والإيذاء البدنى فى أبو غريب كان فقط قمة جبل الجليد. من المفترض إن الغالبية الساحقة من المحتجزين ليسوا إرهابيين أو من المشاركين فى حرب العصابات، لكنهم ببساطة من الشباب العراقيين الذين قبض عليهم فى هجمات كبيرة لقوات الاحتلال الأمريكى، ونتيجة لذلك فقد تزايد الغضب الشعبى فى الولايات المتحدة بشكل كبير.

تعذيب المسجونين، واستخدام الأسلحة الثقيلة ضد المدن المزدحمة، وإطلاق النار على السيارات المملوءة بالمدنيين فى حواجز التفتيش، والأحداث المرتبطة ضد الأبرياء فعلت القليل لكسب عقول وقلوب للشعب العراقى. الدليل بدا أكثر وضوحا فى أن الولايات المتحدة تخلق متمردين بشكل أسرع وأكثر مما تستطيع قتلهم.

من المسلم به أن الروابط العائلية والقبلية بين العراقيين تتجاوز الاختلافات الطائفية، وأن المخاوف من نشوب حرب أهلية بين السنة العرب والشيعة العرب هو أمر يجرى تضخيمه كوسيلة لتبرير استمرار الاحتلال الأمريكى. ومع ذلك، فليس هناك شك فى أن الغزو والاحتلال الأمريكى قد جعل الانقسامات الاثنية تبدو أسوأ. فعلى سبيل المثال، فإن الولايات المتحدة صرفت من الخدمة أعداداً كبيرة من أفراد الطبقات المهنية والإدارية المدنيين الذين عملوا فى الدولة العراقية القديمة وأعادت تأسيس حكومة مؤقتة ارتكزت على اصطفافات دينية واثنية، حيث التحيزات الطائفية والاثنية والقبلية، وأيضا محاباة الأقارب، قد أعاقت جهود إعادة بناء وزارات الحكومة. بالإضافة إلى أن القوات الأمريكية استخدمت المقاتلين الأكراد فى معاركها ضد المتمردين العرب، مزودة بذلك التوترات بين الأكراد والعرب.

تكاليف الحرب فى الداخل

بالإضافة إلى أكثر من ١٥٠٠ قتيل أمريكى هناك عدد قياسى من الجنود الذين جاءوا إلى الولايات المتحدة معاقين، ومصابين بالعمى وبإصابات أخرى خطيرة، وبصدمات عصبية منتشرة من قتال فى هذه الحروب التى تأخذ ضريبتها من جنودنا أيضا.

وتوضح استطلاعات الرأى الآن أن ٥٩٪ من الأمريكيين يعتقدون إن القوات الأمريكية يجب أن تنسحب من العراق خلال عام.

بالرغم من هذا، فإن مجلس النواب الأمريكى صوت فى منتصف مارس بأغلبية ساحقة (٣٨٨ ضد ٤٣) لصالح دعم إضافى قدره ٨١ بليون دولار، أغلبه دعم إضافى للحرب فى العراق. وجاء هذا بعد أن تكشف أن المديرين الأمريكيين لم يستطيعوا تقديم كشف حساب عن ٩ بلايين دولار تم إنفاقها فى العراق. وقد أعلن مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية أن ٢٧٪ فقط من ميزانية الإعمار ذهبت لمساعدة العراقيين، وأن الباقى ذهب إلى الحماية والتبديد والاحتيال والأرباح.

انتخابات ٣٠ يناير

بالرغم من المشاكل العديدة والقصور الذى شاب الانتخابات العراقية فى ٣٠ يناير الماضى، فإنها كانت تجربة لافتة للنظر لرغبة الشعب العراقى فى تقرير مصيره وإقامة حكومة مسئولة. فقد خرج اثنان من المكونات الدينية والاثنية الثلاثة الرئيسية للمجتمع العراقى للتأكيد على حقهما فى تقرير المصير بعد عقود من الحكم الديكتاتورى وما تلاه من احتلال أمريكى.

الانتخابات العراقية شهدها بعض المراقبين الدوليين، وشابتها ممارسات شاذة واسعة الانتشار، وتمت مقاطعتها فى عدد من المدن الرئيسية، وجرت تحت حكم قوة احتلال أجنبية هى التى فرضت القوانين الانتخابية واختارت مفوضية الانتخابات التى أشرفت عليها. كما قال الرئيس بوش مؤخرا بما له صلة بلبنان «لا يمكن أن تكون هناك انتخابات حرة ونزيهة فى ظل وجود قوات احتلال أجنبى».

ومع ذلك، وبالرغم من عدم وجود إجماع دولى تقريبا على معيار محدد لشرعية الانتخابات، فإنها كانت بالتأكيد أفضل من عدم الوجود التام للانتخابات الديمقراطية فى عهد صدام حسين، وإنها فرصة للمشاركة فى العملية التى كانت موضع ترحيب معظم العراقيين.

وهكذا، يمكن النظر إلى الانتخابات العراقية بأنها خطوة مهمة إلى الأمام.

ولكن، بالرغم من ذلك، هل كان هذا الغزو المشئوم أساسا عملاً شرعياً؟

فى الواقع، حقيقة إن العراق أجرى انتخابات مباشرة لجمعيته الوطنية - التى ستتحمل مسئولية كتابة الدستور الجديد للبلد - قد جاءت بالرغم من، وعلى عكس رغبة الرئيس بوش.

فيجب علينا أن نتذكر أن إدارة بوش خلال السنة الأولى من الاحتلال الأمريكى للعراق رفضت بشكل قوى عقد الانتخابات المباشرة بشكل مبدئى. ودعمت الولايات المتحدة تنصيب أحمد الجلبى أو بعض العملاء العراقيين المنفيين كحكام للعراق. عندما أصبح واضحا أن ذلك سيكون غير مقبول، فإن المسئولين الأمريكيين حاولوا الحفاظ على ممثل الرئيس فى العراق، بول بريمر بسلطات غير محدودة. عندما أصبح من الواضح أن العراقيين والمجتمع الدولى لن يحتملوا هذا الاختيار أيضا، فإن إدارة بوش دفعت فى اتجاه نظام المؤتمرات الوطنية (نظام الكوكس الأمريكى)(*) حيث يقوم المعينون من قبل الأمريكان المعينين باختيار الحكومة الجديدة وكتابة الدستور. عندما تمت مواجهة ذلك فى يناير ٢٠٠٤ بواسطة مئات الآلاف

بترتيب مع:
Foreign Policy in Focus

ترجمة: جمال عمر

لا العمل العسكرى الأمريكى ولا الانتخابات العراقية التى أجريت فى ٣٠ يناير قد حققت أى شىء لتهدئة التمرد بل يبدو أنه يزيد من التوترات الاثنية



من المحتجين فى الشوارع وطالبوا بإجراء انتخاب شعبى،عند ذلك الحد وافق الرئيس بوش وأعطى أوامره مكرها بالسماح بانتخابات مباشرة.

وبدلا من إقامة الانتخابات فى مايو ٢٠٠٤ كما طالب السيستانى والقادة العراقيون الآخرون، فإن المسئولين الأمريكيين أجلوا الانتخابات حتى يناير ٢٠٠٥. ونتيجة لهذا التأخير، فإن الوضع الأمنى استمر فى التدهور مع الوقت حتى جاءت الانتخابات.

إن الأقلية السنية العربية الكبيرة والهامة كانت إما غير قادرة أو معارضة للمشاركة فى الانتخابات. وفى معظم الأجزاء التى تقع تحت هيمنة السنة، كانت هناك أخطار مادية فى الذهاب إلى الانتخابات من خلال تهديدات المتمردين. بالإضافة إلى أن معظم الأحزاب السنية كانت غاضبة ونادت بمقاطعة الانتخابات بسبب الأعداد الضخمة من المدنيين الذين قتلوا فى الفترة الأخيرة فى الهجمات التى شنتها قوات الاحتلال على المتمردين.

الأحزاب المعارضة للوجود العسكرى الأمريكى هى التى حققت الأغلبية الساحقة فى انتخابات يناير. وقد أشارت استطلاعات الرأى إلى أن هناك أغلبية واضحة بين العراقيين تدعو لخروج القوات الأمريكية نتيجة القوة الدافعة التى وفرتها الانتخابات.

قائمة المرشحين التابعين لواشنطن بقيادة رئيس الوزراء المؤقت (السابق) إياد علاوى جاءت فى المرتبة الثالثة الهزيلة، على الرغم من المزايا الكثيرة التى حصلت عليها فى التمويل والتنظيم.

الجزء المركزى فى المشهد السياسى هو التحالف العراقى الموحد الذى فاز بأكثر من نصف مقاعد الجمعية الوطنية الجديدة، والذى نادى بجدول زمنى لانسحاب القوات الأجنبية من العراق.

السنة والشيعة متفقون فى رغبتهم بخروج القوات الأمريكية،والاختلافات بينهم تكتيكية. فمعظم السنة يعتقدون أن أى انتخابات فى ظل احتلال عسكرى أجنبى غير شرعية وأن انسحاب القوات الأمريكية يجب أن يتم من خلال المقاومة العسكرية. فى المقابل،معظم الشيعة مصممون على أن السبيل الأفضل لخروج الأمريكان هو من خلال الانتخابات، التى ستشكل حكومة عراقية شرعية تستطيع عندئذ التفاوض حول انسحاب مرحلى.

حكومة جديدة بالثقة

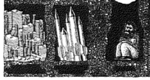
ما إن تتشكل الحكومة الجديدة،فسيكون هناك ضغط كبير من العراقيين عليها لخروج القوات الأمريكية من العراق. ولكى تثبت الحكومة للأعداد الكبيرة من العراقيين الذين أيدوا المتمردين إنها ليست دمية للمحتل الأجنبى. وفى نفس الوقت، ونتيجة للتمرد المتزايد بسبب تأجيل الولايات

العـــــراق إلى أين؟!









المتحدة للانتخابات، فإنه ربما يكون من الصعب عليها بقاء الانتفاضة المسلحة المستمرة فى مناطق السنة. وتبدو النتيجة، فى أن الحكومة ستكون مضطرة للسماح بالقوات الأمريكية بالبقاء.

الحكومة الجديدة ليست مواجهة فقط بالمتمردين - الذين يقودهم أساسا تحالف من بعض مؤيدى النظام القديم، والقوميين العرب العلمانيين، والسنة الإسلاميين - ولكنها ستكون مواجهة أيضا بموجة من الجرائم الشنيعة، ونقص الكهرباء والوقود، وتصاعد التوترات الاثنية، والتدمير الواسع للبنية الأساسية المدنية بسبب القنابل الأمريكية. قد يكون ما نشرته نيويورك تايمز فى ١٧ مارس هو أفضل وصف للتحديات التى تواجه العراقيين،فقد وصفت كيف أن عددا كبيرا من العراقيين كانوا غير قادرين على مشاهدة جلسة الافتتاح التاريخية للجمعية الوطنية الجديدة لأنه لا توجد كهرباء أو أن تليفزيوناتهم قد سرقت.

فى الواقع،هناك أسئلة جادة باقية عما إذا كانت الولايات المتحدة ستسمح للشعب العراقى أن يمارس بشكل كامل حقه فى تقرير المصير.

البرنامج المقدم من التحالف العراقى الموحد يطالب الدولة بأن تكفل وظيفة لكل إنسان قادر على العمل، ودعم البناء الداخلى، وإلغاء الديون والتعويضات، واستخدام الثروة النفطية للبلد فى تحقيق التنمية الاقتصادية. هذا هو التحدى المباشر للسياسات الاقتصادية النيوليبرالية المفروضة بواسطة هيئات الاحتلال الأمريكية، مثل القرار الذى يقضى بخصخصة كثير من الأصول الحكومية للبلد، والسماح للاستثمار الأجنبى غير المقيد وبتحويل الأرباح. ومع ذلك، فإن معظم هذه السياسات كانت قد فرضت فى ظل إدارة بول بريمر، والتى يتعذر تقريبا على الحكومة الجديدة أن تنقلب عليها.

بالإضافة إلى ذلك، فإن مواطنى الولايات المتحدة مستمرون فى الاستمتاع بالحقوق المتميزة الخارجة عن نطاق التشريع الوطنى العراقى،فلن يمكن محاكمتهم على أى جريمة فى العراق، ولاشك انه أمر خطير، وإن القوات الأمريكية الذى يبلغ تعدادها حوالى ١٥٠ ألف جندى تستطيع التحرك ومهاجمة أى مكان فى البلد بدون موافقة الحكومة،كما أن الأمريكان يسيطرون على مواقع مهيمنة عمليا فى كل وزارة عراقية ولهم تحكم كبير على ميزانياتها.

الموظفون الأمريكيون باقون حتى ٢٠٠٩ يتحملون مهام لجان المراقبة التى تشرف على السياسة المالية، والإعلام والمجالات الهامة الأخرى. وأيضا،كما يهيمنون أيضا على النظام القضائى،الذى يمتلك السلطة للانقلاب على أى قانون يمرر بواسطة الحكومة الجديدة المنتخبة.

هناك بعض المسائل القليلة التى تتعلق بمعظم الهيئات السياسية القوية فى العراق - بمعايير الموارد والتنظيم والقوة العسكرية - هى أن الولايات المتحدة من المرجح أن تبقيها هكذا تحت هيمنتها فى المدى غير محدد.

إن القادة العراقيين الجدد الذين انتخبوا فى عملية ديمقراطية وبدعم قطاعات كبيرة من الشعب العراقى. هم بعكس اتهامات بعض المعارضين، ليسوا دمى للولايات المتحدة. ومع ذلك، فإنه إذا لم تكن إدارة بوش مستعدة للسماح للحكومة المنتخبة ديمقراطيا بممارسة سيادتها الحقيقية وبإثبات شرعيتها، فإن هذا لن يعطى العراق المدمر أى فرصة للسلام والاستقرار.

التعامل مع المتمردين:

منذ أن حلت الولايات المتحدة الجيش العراقى وقوات الأمن بعد الغزو، فإن الساحة امتلأت بمقدار لا حصر له من الميليشيات. قدرتها الأمم المتحدة بما يقرب من ٤٣ جماعة متمردة مختلفة، تتراوح بين الموالين للنظام السابق، والمتطرفين الإسلاميين، والقوميين المستقلين، والإرهابيين الأجانب، وآخرين. المعدل العالى للجرحى المدنيين - المتعذر تجنبه فى الصراع المشتعل بالأسلحة الحديثة - كانت حصيلته انضمام عدد كبير من المتطوعين لصالح عصابات المتمردين، وليس مدهشا هذا فى مناطق القبائل السنية العربية الكبيرة،التى يبقى الثأر فيها هو التقليد الاجتماعى القوى. عدد المقاتلين المسلحين ومؤيديهم النشطاء ربما الآن يقتربون من ٢٠٠ ألف مقاتل. الولايات المتحدة دمرت فى نوفمبر الماضى ما يقرب من ثلثى مدينة الفلوجة،فى وقت واحد منازل ٣٠٠ ألف إنسان، لم تكن فقط جريمة حرب فقط، وإنما كارثة استراتيجية، وسعت من انتشار عمليات المتمردين فى المدن المجاورة،حيث إنهم الآن يسيطرون على كل أو جزء من المدن والقرى. معظم الطرق الرئيسية من وإلى بغداد متعذر المرور فيها.

وبانسحاب أربعة من أعضاء تحالف الراغبين (القوات العسكرية من هولندا وبولندا وأوكرانيا وإيطاليا) فإن الولايات المتحدة وبريطانيا وجدتا نفسيهما معزولتين بشكل واسع. قلة من القوات الأجنبية الرمزية فى التحالف لم تشترك فى أى قتال، قيدت أنشطتها فى البناء والمساعدات الطبية، والمساعدات الأخرى. معظم القوات الهامة خارج الجيوش الأمريكية والبريطانية هم من المرتزقة، التى تشمل آلافًا من الجنود الأمريكان والبريطانيين المحترفين، وأيضا من جنوب إفريقيا والصرب ومن نيبال.

تكتيك المتمردين هو تنفير أعداد متزايدة من العراقيين وإبعادهم عن الأمريكيين. لذلك فمن الصعب أن تهاجمهم القوات الأمريكية،المحتجزة فى محمياتهم الثقيلة وقواعدهم المحصنة، المتمردين زادوا هجماتهم على الأهداف المدنية غير المحصنة. فى نفس الوقت، فإن وزير الصحة العراقى قدر أن القوات الأمريكية قتلت تقريبا من المواطنين العراقيين ثلاثة أضعاف ما قتلهم المتمردون.

فى الوقت الحاضر، فإن أفراد الجيش العراقى الذى دربته الولايات المتحدة لديهم استعداد لترك الخدمة بأعداد كبيرة عندما تصدر إليه الأوامر بمحاربة العراقيين الآخرين. وفيما يتعلق بالشعب العراقى، فإن الجيش العراقى طور سمعة حسنة حتى مع كونه قاسيًا وباعثًا للسعادة أكثر من الأمريكان، مع المشكلة الإضافية لانتشار الفساد فى كل المستويات.

ما هو التالى فى العراق ؟

من المسلم به أن الهوية القومية والإسلامية قوية لدى معظم أبناء الشعب العراقى وأن الاستياء العام منتشر من الولايات المتحدة، ومن الصعب أن نتخيل أن حكومة تمثيلية حقيقية سوف تؤيد وتدعم الأهداف العسكرية والاقتصادية الأمريكية فى الشرق الأوسط. فى حين لا تعترف بها علانية. لذا يصبح من الواضح بشكل كبير أن العراق إما ستكون لديه حكومة ديمقراطية أو حكومة عميلة لأمريكا. إنه لا يستطيع أن يمتلك الاثنتين.

على الرغم من أنه لم يسع إلى قمة الحكم، فمن المتوقع أن يكون رجل الدين الشيعى السيد عبد العزيز الحكيم رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية هو الشخصية البارزة فى الفترة المقبلة. وقد تعاون بشكل وثيق مع الزعماء الإسلاميين فى إيران خلال عشرين عاما فى منفاه فى إيران. وتجاهلته قوات الاحتلال الأمريكى عندما اختارت القادة المؤقتين للعراق بعد الغزو واحتلال البلد فى مارس ٢٠٠٣. بينما ليس من المرجح أن يحاول إقامة حكم دينى مباشر،فهناك مسألة صغيرة هى أن الحكيم وتابعيه يتصورون أن الدولة يجب أن ترتكز على خط التفسير المتشدد للقانون الإسلامى.

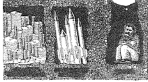
شركاؤهم فى الائتلاف الحاكم هم الأكراد، وبينما هم تقليديا حلفاء لأمريكا فإنهم ليسوا إسلاميين متشددين كتحالف الشيعة، ويقودهم جلال طالبانى، ومسعود برزانى.

وبالرغم من ادعاءات إدارة بوش أن الديمقراطية العراقية ستكون صديقة للمصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط



عـــدد الســــكان الـــذين يعـــانون ويمـــوتون منـــذ الغـــزو الأمريكى أكثر من الذين عانوا وماتوا فى العامين السابقين للغزو. وما دامت هذه هى الحالة، فإن التمـــرد ســـوف يســـتمر





وستكون جيدة لإسرائيل. هناك أسباب جيدة للتفكير فى الاتجاه المعاكس. على سبيل المثال، المجلس الأعلى للثورة الإسلامية، الكتلة الأكبر فى التحالف العراقى الموحد، علاقتها وثيقة جدا بحزب الله اللبنانى ومسيراتهم تشمل أناشيد بالموت لإسرائيل.

فى الحقيقة، إدارة بوش حاليا تضع حياة الأمريكيين على الحافة للدفاع عن حكومة مضادة للأمريكان وللإسرائيليين بشكل أساسى.

فى غضون ذلك، دعوات العراقيين بانسحاب القوات الأمريكية تتزايد،وفقا لمجلة النيوزويك فى ٣١ يناير ٢٠٠٥، فإن استطلاعات الرأى أشارت إلى أن الغالبية من الشعب العراقى تريد رحيل القوات الأمريكية.

بالرغم من ذلك، أعلن الرئيس بوش فى خطاب حالة الاتحاد أن القوات الأمريكية ستبقى فى العراق حتى يصبح «البلد الذى يتمثل فيه كل الشعب العراقى بشكل ديمقراطى، فى سلام مع جيرانه، وقادر على الدفاع عن نفسه» الأمر الذى يعتقد حتى المراقبين المتفائلين بأنه سيأخذ سنوات. والنتيجة،أن الولايات المتحدة ربما تحاول البقاء فى العراق لوقت غير محدد بالحصول على حق امتياز بالبقاء من الحكومة العراقية الجديدة. من المسلم به أن القرار الأمريكى بتأخير الانتخابات قد خلق وضعا جعل الحكومة الجديدة تعتمد على بقاء الولايات المتحدة، وهذا يترك لإدارة بوش قدرًا من النفوذ.

هناك بعض المؤشرات التى توضح أن الصفقة ربما تكون فى الوضع العملى حيث تسمح واشنطن للحكومة العراقية بفرض التفسير المحافظ للقانون الإسلامى، فإن الحكومة ستوافق على بعض السياسات الاقتصادية النيوليبرالية المفضلة لواشنطن.

فى نفس الوقت، فإنه من المشكوك فيه أن ملايين الشيعة الذين انتخبوا الحكومة لسياستها الاقتصادية ذات النزعة اليسارية ومعارضتها لوضع الاحتلال ستسمح لمثل هذه الترتيبات لتحدث فى الواقع العملى. ومن المسلم به مصاعب القوات الأمريكية هى مع التمرد بين الأقلية السنية، فإن تمرير الصفقة مع نشوب تمرد كبير بين الأغلبية الشيعية سيكون مستحيلاً تماما. إن الشعب العراقى أيضا يمتلك نفوذا وقوة كبيرة.

كنتيجة، هناك عدة أسباب للاعتقاد بأن إدارة بوش بشكل واسع أقرت بعجزها عن تحقيق الخطط الكبيرة التى وضعها المحافظون الجدد أساسا لعراق ما بعد صدام وأنها تريد تخفيض خسارتها وأن تخرج فى أقرب وقت ممكن. إذا كان هذا، فإنه سيعنى أن السبب الأساسى هو أن الإدارة تصر على أن القوات الأمريكية تبقى لبعض الوقت حتى لا يكون خروجها يعنى انتصارا للتمرد الذى سيكون له أسوأ الآثار على مصالح الولايات المتحدة فى المنطقة وأن الآثار السياسية لهذه الهزيمة ستكون شنيعة.

وفى الجهة المقابلة، فإنه من المظاهر الأكثر طموحا فى الأجندة الاقتصادية تظهر فى التالى: على سبيل المثال،كشفت هيئة الإذاعة البريطانية أن الولايات المتحدة قد خططت لبيع كميات كبيرة من النفط العراقى للشركات الأمريكية. ومع ذلك، فإن شركات النفط الأمريكية - قلقة من نموذج الفساد الروسى فى مثل هذه الخطط من الخصخصة، وتخشى التراجع العراقى الذى سوف يزيد الحروب بين الشركات النفطية - وبدلا من ذلك، فإن الشركات ستقترح بأفضلية الشركات المملوكة للدولة التى سيتم التعامل معها بنجاح فى ظل معايير صديقة.

خيارات أمريكا

من المسلم به أن الاختيار سيكون بين قبول الوضع الراهن والدعوة للانسحاب الأمريكى الفورى، هذان الاختياران يجب ألا يكونا هما الاختياران الوحيدان مع ذلك.

المشكلة الكبرى فى حالة الانسحاب الفورى هى أن المتمردين المسلحين بين الأقلية السنية أقوياء بشكل كاف والجيش العراقى الجديد ضعيف بشكل كاف، وأن الحكومة العراقية الجديدة ستجد نفسها فى خطر بدون القوات الأمريكية. فقط حوالى ٥٠٠٠ جندى عراقى مدرب ظهروا من الـ ١٢٠ ألف رجل مسلح حسب مخطط إدارة بوش. فقط حوالى ثلث الـ ١٣٥ ألف جندى شرطة مستعدين لأداء الواجب.

بينما الأيديولوجيا السياسية للتمرد المسلح مختلفة،بعض من عناصرها القوية - التى من المرجح أن تهيمن وتستولى على السلطة - فاشيون تماما. فى حال أن سيطر المتشددون من السنة أو العناصر المؤيدة لصدام، فمن المرجح أن يتم حشد وتعبئة الميليشيات الشيعية ومن ثم سيكون هناك حرب أهلية بشعة، تكتمل بمذابح وعمليات تطهير عرقى على مستوى كبير. فى هذه الفوضى،فإن الأكراد يستطيعون الانفصال عن الدولة العراقية الفاشلة بإعلان الاستقلال، الأمر الذى قد يستدعى التدخل التركى وعودة الحرب التركية الكردية.

كان يتعين على الولايات المتحدة أن تجرى الانتخابات المباشرة مبكرا،عندما كان التمرد مازال صغيرا جدا وضعيفا، وكانت الحكومة العراقية الجديدة ستكون على الأرجح اكثر اتساعا وتنوعا وتستطيع أن تنتصر: وكان من الممكن للقوات الأمريكية أن تعود كلها إلى بلدها الآن. لسوء الحظ،الجهود المتهورة لإدارة بوش فى محاولتها للتحكم فى الاتجاه السياسى والاقتصادى للعراق بواسطة تأخير حق تقرير المصير القومى، أغلقت نافذة الفرص.

هل هناك أى بدائل غير الحفاظ على الفاجعة الراهنة للحملة الأمريكية العسكرية المضادة للتمرد والدفاع عن الانسحاب الأمريكى المتهور من العراق ؟

بينما ليس هناك أبسط من شعار الانسحاب الآن، فربما يكون الاختيار الأفضل لحركات مناهضة الحرب أن تدافع عن الخطوات التالية:

- الإنهاء الفورى لكل العمليات العسكرية الأمريكية والانسحاب من مراكز تواجد السكان.
- إلغاء قوانين بريمر التى فرضت فى ظل الاحتلال ومنها المتعلقة بخصخصة الأصول العامة العراقية.
- يجب إرسال كل أموال إعادة الإعمار من خلال الأمم المتحدة وان يتم مراقبتها بشكل جيد.
- يجب أن يتوقف بناء التسهيلات العسكرية الأمريكية وأن يتم إلغاء التخطيط لبناء لقواعد عسكرية دائمة.
- تفعيل برامج تدريب القوات العراقية المسلحة بشكل سريع،مع الانتباه الخاص باحترام حقوق الإنسان المعترف بها دوليا.
- حزمة المساعدة الأمريكية الكريمة،بدون شروط مفروضة،يجب أن تقدم للعراق لإعادة بناء ما هدمته الولايات المتحدة الأمريكية.

لا مشكلة فيما ستصبح عليه البدائل، إنه من الضرورى أن تختبر وأن يعاد تدقيق السياسة الأمريكية فى العراق. المسئولون الأمريكيون المنتخبون الذين استمروا فى دعم وتأييد السياسة الحالية يجب محاسبتهم. يجب أن يكون واضحا فى هذه النقطة أن إدارة بوش ومؤيديها فى الكونجرس صنعوا قرارا كارثيا بعد آخر ولم يستطيعوا أن يكونوا موضع ثقة فى عمل أى شىء آخر أفضل فى المستقبل. كنتيجة لذلك، ومع أن الرسالة لم تكن واضحة بما فيه الكفاية وكانت صغيرة خلال السنتين الماضيتين عندما كنا نستطيع ببساطة أن نقول «لا تغزوا العراق» فإننا فى أمس الحاجة للأصوات المعارضة والعاقلة أكثر من أى وقت مضى. ■

لم تكن إدارة بوش مستعدة للسماح للحكومة المنتخبة ديمقراطيا بممارسة سيادتها الحقيقية وبإثبات شرعيتها، فإن هذا سوف لن يعطى العراق المدمر أى فرصة للسلام والاستقرار

هوامش:

(*) نظام الكوكس الأمريكى يقوم على الانتخاب غير المباشر عبر مراحل عدة. والناخب لا يختار المرشح بشكل مباشر، وإنما يختار مندوبين يقومون فيما بعد باختيار المرشح. ومن هنا فإن المشاركين أى الناخبين فى كوكس العراق،كان سيتم اختيارهم من جانب لجنة، واللجنة يعينها مجلس الحكم العراقى، الذى هو أصلا معين من قبل سلطة الاحتلال.

بوتين .. القيصر

روبرت كوتريل

[١]

أدر إصبعك حول حدود روسيا وستبدأ فى إدراك ما لابد أن يبدو عليه العالم كمكان يبعث على القلق حين يشاهد من الكرملين. فأوكرانيا، المفترض أنها أقرب جارات روسيا اللصيقات وأحبهن إليها، قد وجهت ضربة إلى أنف أختها الأكبر بانتخابها رئيساً يدعمه الغرب هو فيكتور يوشتشنكو. ويحكم ثلاثًا من جارات روسيا، أو جاراتها القريبات، الأخريات، وهى روسيا البيضاء وتركمانستان وكوريا الشمالية، حكام دكتاتوريون فهمهم للواقع موضع شك. ويسيطر حكام مستبدون مزعزعون على بقية آسيا الوسطى. أما جورجيا ومولدوفا فيشل حركتهما نظامان انفصاليان غير شرعيين يحظيان بالرعاية الروسية. وتتأرجح أرمينيا وأذربيجان على حافة الحرب المتجددة. بينما الحوار مع اليابان رهينة عقود من الجدل حول أربع جزر لا قيمة لها متنازع عليها. وتتعرض دول البلطيق لحملة كراهية تشنها الحكومة الروسية ضدها. وتعيش العلاقات مع سائر الاتحاد الأوروبى أكثر حالاتها فتوراً منذ الحرب الباردة. ويعد بزوغ نجم الصين وخططها المتخيلة تجاه الشرق الأقصى الروسى القلق طويل المدى الذى يجعل جنوب روسيا تتجافى عن المضاجع. وهذا كله يجعل روسيا تجد العزاء فى منغوليا.

يحتاج الأمر إلى كثير من الوقت والجهد كى تتراكم مجموعة من المشكلات على هذا القدر من التأثير. وربما لم يكن عام من الأعوام منذ ١٩٤٥ طيبًا طيبةً واضحة بالنسبة للسياسة الخارجية الروسية، غير أن العام الماضى كان حتمًا من بين أسوأ الأعوام منذ انهيار الاتحاد السوفيتى. فقد انتهى بانتخابات أوكرانيا التى جعلت الغضب والقلق يترددان فى أنحاء المؤسسة السياسية الروسية. وكان الغضب موجهًا فى المقام الأول إلى الولايات المتحدة التى وجه إليها اللوم الذى له ما يبرره لتدبيرها هزيمة المرشح الذى تدعمه روسيا فيكتور يانوكوفتش، وإن كانت القوة الحقيقية وراء التغيير هى ما عم أوكرانيا من سخط واستياء عند المحاولات الأولى للتلاعب فى التصويت لمصلحة يانوكوفتش، مقرونًا بما انعقد عليه دعم الجماهير للمتحدى المسموم يوشتشنكو. أما القلق فكان من نصيب النظام الروسى. ذلك أنه إذا كان بإمكان «القوة الشعبية» تغيير مسار السياسة فى أوكرانيا، ذلك البلد قريب الشبه بروسيا فى كثير من النواحى، فهل بإمكانها كذلك فعل الشىء نفسه فى روسيا؟ هذا غير محتمل، حتى من وجهة نظر الليبراليين الروس: فالجماهير فى روسيا أكثر سلبية والنظام أشد بأسًا. ولكنها كانت رغم ذلك سابقة مروعة.

أكدت الأحداث فى أوكرانيا مخاوف روسيا بشأن التوسع الأخير لحلف الناتو والاتحاد الأوروبى فى أوروبا الوسطى. ويظن نظام بوتين أن الدول الشيوعية السابقة فى تلك المنطقة سوف تعمل ضده، مستفيدةً فى ذلك من التأثير الجديد داخل المؤسسات الأوروبية ومؤسسات حلف الأطلنطى لإخراج المزيد من الدول. وخاصة روسيا البيضاء وجورجيا ومولدوفا وأوكرانيا. من مجال النفوذ الروسى إلى مجال النفوذ الأوروبى. ويشير يانوس بوجايسكى فى كتابه الرائع الجديد الذى يستعرض فيه السياسة الخارجية الروسية فى المنطقة «الحرب الباردة» Cold War إلى أن العلاقات مع أوروبا الوسطى والشرقية أسوأ مما يمكن أن تكون عليه لأن الروس ليس لديهم إلا «معلومات تافهة عن جيرانهم الغربيين تعزز الأنماط العدائية المقولبة بشأن الأوروبيين الشرقيين الكارهين لروسيا». ولكننا إذا تعاملنا مع عبارة «الكارهين لروسيا» بمعناها الحرفى وهو «الخائفون من روسيا»، لوجدنا أن كراهية روسيا إحساس يشعر به الناس على نطاق واسع فى أوروبا ما بعد الشيوعية، وخاصة فى دول البلطيق. وهو يشكل سياستها بطبيعة الحال.

> **يخاف أبناء أوروبا الوسطى من روسيا لأن لها تاريخًا طويلاً من دعم الحكومات السيئة باعتبارها حكومات حليفة وعميلة، بينما تقضى على الحكومات الصالحة**



يخاف أبناء أوروبا الوسطى من روسيا لأن لها تاريخًا طويلاً من دعم الحكومات السيئة باعتبارها حكومات حليفة وعميلة، بينما تقضى على الحكومات الصالحة. وسوف يختار أبناء أوروبا الوسطى دائمًا الحد من النفوذ الروسى، باعتبارهم جيران روسيا الأقربين والضحايا السابقين لسياستها الخارجية. وكان إدخال أوكرانيا الاتحاد الأوروبى هدفًا بعيد المدى من أهداف الحكومة البولندية. وحين اتجهت أزمة الانتخابات صوب الحل فى كييف، كان الرئيس البولندى ألكسندر كوانيفسكى والرئيس اللتوانى فالداس أدامكوس هما اللذان تدخلا فى الأمر باعتبارهما وسيطين، وليس البريطانيين أو الفرنسيين أو الألمان باعتبارهم أصحاب السلطة العليا فى الدبلوماسية الغربية.

بينما تشكو روسيا من التدخلات الخارجية فى أوكرانيا وأماكن أخرى فيما تسميه الآن «الفراغ ما بعد السوفيتى»، فقد أثبتت إثباتًا تامًا قدرتها على إفساد الأمور هناك بنفسها. ذلك أنها سعت إلى استعداء رئيس جورجيا الجديد ميخائيل ساكاشفيلى بتشجيعها إقليمين انفصاليين فى جورجيا يخضعان لسيطرة روسيا، هما أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية، على تكثيف كفاحهما ضد حكومة ساكاشفيلى. كما أنها أثارت نفور حكومة مولدوفا الشيوعية التى كانت موالية لروسيا حتى وقت قريب، ولكنها لجأت إلى الغرب بعد أن ضاقت ذرعًا بتأييد روسيا المستمر للانفصاليين فى الجزء الشرقى من مولدوفا. كما أن المخططات الروسية لإقامة اتحاد سياسى مع روسيا البيضاء آخذة فى الانحلال. وقد تأجلت خطة تتخذ بمقتضاها روسيا البيضاء الروبل الروسى عملة قومية لها، وربما يجرى التخلى عنها.

إذا كان الهدف الرئيسى للسياسة الخارجية الروسية، كما زعم مسئول روسى مؤخرًا، هو على الدوام ضمان وجود «حزام من حسن الجوار يحيط بالحدود (الروسية) كافة»، فمما لا شك فيه إذن أن خطأ كبيرًا ما قد وقع عند تطبيق تلك السياسة. ولا يمكن كذلك القول بأن السياسة الداخلية كانت تسير سيرًا حسنًا إلى حد كبير. فهناك اعتراف الآن بأن الهدف الاقتصادى الذى أعلنه الرئيس بوتين فى ولايته الأولى، وهو مضاعفة حجم الناتج القومى الإجمالى بحلول عام ٢٠١٠، لا يمكن بلوغه بحال من الأحوال. كما أن نزع ملكية شركة يوكوس للنفط، التى كان يسيطر عليها فيما مضى ميخائيل خودوركوفسكى «أحد أفراد احتكار القلة»، ولكن الدولة الروسية تعقبتها واستولت عليها بدعوى متأخرات الضرائب، قد ألقى بظلال كثيفة على البيئة التجارية. وأدت مسألة يوكوس إلى انخفاض الأسعار فى البورصة وشجع المزيد من رأس المال على الهرب، وأثار تكهنات بفقدان بوتين السيطرة على زمرة رجال الـ«كى جى بى» الذين أتى بهم ليشغلوا المناصب العليا فى الكرملين.

كانت لدى بوتين رغبة واضحة فى القضاء على خودوركوفسكى، ليثبت أن الدولة قادرة على إذلال حتى أغنى رجل فى روسيا. وبما أن خودوركوفسكى محبوس منذ أكتوبر ٢٠٠٣، وتجرى محاكمته بتهمتى الغش والتهرب الضريبى اللتين يمكن أن تصل عقوبتهما إلى السجن فترة تتراوح بين عشر سنوات وخمس عشرة سنة، فقد تحقق هذا الهدف بالكامل. إلا أن بوتين كان قد قال كذلك إنه يرغب فى رؤية إفلاس يوكوس أو انهيارها. وبذلك



1- Cold Peace: Russia's New Imperialism

(السلام البارد .. روسيا الإمبريالية الجديدة)

Janusz Bugajski
Center for Strategic and International Studies, 302 pp., $49.95

2 - Inside Putin's Russia: Can There be Reform Without Democracy?

(داخل روسيا بوتين)

Andrew Jack
Oxford University Press, 362 pp., $30.00

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: أحمد محمود



يصعب تفسير النتيجة على أنها أى شىء سوى هذا. ومن الواضح أن الاستيلاء على شركة نفط قيمتها ٤٠ مليار دولار كان احتمالاً أصعب من أن يقاومه مرءوسوه. ويثير نجاح عملية السرقة تساؤلاً مفاده أن أياً من الشركات الروسية الأخرى، التى ارتكبت جميعها خطايا أثناء التهرب من الضرائب فى الماضى، وجرى تخصيص الكثير منها، مثل يوكوس، من خلال صفقات «القروض مقابل الأسهم» سيئة السمعة فى منتصف التسعينيات، سوف يأتى دورها.

فيما يتعلق بالإصلاحات السياسية، لم يعد هناك من يدعى أن روسيا فى سبيلها لأن تكون ديمقراطية على النمط الأوروبى؛ ولا حتى وزراء بوتين. ويسمى أندرو جاك فى الصفحات الأخيرة من كتابه «داخل روسيا بوتين» Inside Putin's Russia ديمقراطية روسيا الجوفاء «صورة ممسوخة» من النظام السياسى. فكما كان عليه الحال فى العصور السوفيتية، نجد أن حزباً واحداً هو الذى بيده السلطة، إلا أنه الآن يمثل الديمقراطية. وأحد الفروق المهمة هو أن بوتين، على عكس أسلافه السوفييت، قد أقر الشعب بحق توليه السلطة. ويقول جاك إن النتيجة مع ذلك هى أن الأحزاب بلا أفكار، والمناقشات تُدار فى غياب أهم المشاركين، والإعلام بلا نقد... وليس هناك إطار دستورى، ولا ثقافة سياسية أكثر اتساعاً للمساعدة فى تعزيز تنوع الآراء من أجل المستقبل.

يسمى الكثير من الروس النظام «ديمقراطية موجهة». وكان إيجور جيدار أول رئيس وزراء لروسيا بعد الحقبة السوفيتية قد اقترح تسمية أفضل وهى «الديمقراطية المغلقة». وهو يقول إنها تصف نظاماً المعارضةُ فيه مشروعة من حيث المبدأ، وليس هناك قمع جماعى، والانتخابات تُجرى، ولكن «النتائج دائماً محتومة ومقررة سلفاً».



عندما نتأمل هذه القائمة من تخفيض النفقات السياسية والإخفاق السياسى، يستحيل ألا نتساءل عما إذا كان بوتين لا يزال على ما يفترض الغرب عموماً أنه عليه من أمان وقوة أم لا. فإذا كان قد «فقد» أوكرانيا فعلاً، وهى قراءة جديرة بالتصديق بناءً على نتيجة الانتخابات الرئاسية الأخيرة هناك، أفلا يكون ذلك نقضاً للسياسة الروسية التى سيكون حتى على الرئيس أن يدفع ثمنها؟ وإذا كان بالإمكان تحدى بوتين بشأن يوكوس، فهل من الممكن تحديه فيما يتعلق بالأمور الأخرى؟ وإذا كانت روسيا لم تجن أية فوائد محددة من السياسات الموالية لأمريكا والتنازلات التى أعلنها بوتين فى العامين التاليين للحادى عشر من سبتمبر، وهو الأمر الذى يسهل الاقتناع به، فهل بإمكانه الخروج سالماً من تلك المغامرة كذلك؟ إن علينا الانتباه إلى كلمات أندريه إلاريونوف الذى خدم بوتين طويلاً، ولكنه كان مستشاراً اقتصادياً شديد الاستقلال تدنت مكانته فى ٣١ ديسمبر بعد نشره انتقادات لمسألة يوكوس، وبعد إدلائه بحديث صريح لمحطة الإذاعة الروسية «إخو موسكوفى» فى ٣٠ ديسمبر حذر فيه من تزايد القوى المعادية للديمقراطية داخل الكرملين. كما قال إن بعض الاتجاهات فى حياتنا السياسية والعامة لا يمكن أن تترك أى شخص فى حالة من اللامبالاة، ولا حتى الاقتصاديين. وترتبط هذه الاتجاهات بما يجرى حالياً من تدمير، وقد أقول، بتر، لمجموعة كاملة من المؤسسات المدنية المسئولة عن تقديم رد فعل الرأى العام... وهذه هى أجهزة الإعلام الجماهيرية، والمؤسسات الديمقراطية المسئولة عن توجيه الرسائل، بما فى ذلك رسائل الاستياء، والأزمات، والكوارث إلى الجماهير والسلطات. وعواقب بتر هذه المؤسسات مفجعة بالنسبة للبلاد وللشعب بصفة عامة.... ولو لم تكن هناك أساليب قانونية تقليدية عادية لحل هذه الأزمات، فحينئذ لن يتبقى هناك شىء أقل من الثورة.

آخر مرة سمعت فيها ضجة كهذه تخرج من الكرملين كانت فى عام ١٩٩٦ حين واجه الليبراليون الذين يعملون مع الرئيس بوريس يلتسين فصيلاً متشدداً بقيادة ألكسندر كورجاكوف رئيس جهاز أمن الكرملين. وكان فريق كورجاكوف يرغب فى تأجيل مباشرة العمل فى انتخابات الرئاسة أو إلغائها، مما يقضى على الديمقراطية الروسية. وقد فصلهم يلتسين ورقّى الليبراليون برئاسة أناتولى تشوباياس. وأشك كثيراً جداً فى إمكانية إقدام بوتين على اختيار مماثل الآن. فالعسكريون فى حكومته أشد قوة، وهو واحد منهم. وأخشى أن تكون قد فاتت اللحظة التى يمكن فيها لإلاريونوف وغيره من الليبراليين الباقين فى الحكومة أن يأملوا فى أن يكون لهم تأثير كبير على السياسة. والرأى العام هو الملاذ الأخير والميئوس منه فى روسيا. وإليه فقط يحتكم المطلعون على بواطن الأمور حين تُعوزهم الحجة فى السر. وعلاوة على ذلك، يُشَبِّه إلاريونوف نفسه بالشهداء. وفى اليوم التالى لمقابلته الإذاعية زار محاكمة خودوركوفسكى رئيس يوكوس السابق الصورية.



بــــوتين.. القيصـــــر

[٢]

يحلل بوجايسكى فى كتاب «السلام البارد» Cold Peace السياسة الروسية تجاه الكتلة السوفيتية السابقة وتجاه الدول الشيوعية السابقة فى أوروبا الوسطى والبلقان بتصميم لا يدع مجالاً للمصادفة أو الغموض. وما كان لظهوره أن يكون أفضل فى توقيته مما هو عليه بالفعل، حيث يأتى فى أعقاب تغيير النظام الحاكم فى أوكرانيا، ذلك البلد المهم لأى «مجال نفوذ» روسى؛ إن كان لهذا المجال وجود بحال من الأحوال. فأوكرانيا كما يقول بوجايسكى «أكثر البلاد أهمية من الناحية الإستراتيجية التى انبثقت عن الاتحاد السوفيتى (بالإضافة إلى روسيا)». ويتتبع الروس تاريخ بلادهم حتى أمراء كييف فى القرنين العاشر والحادى عشر. فبعد الغزو المغولى فيما بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر، فحسب، أعيد تشكيل الدولة لتصبح موسكو هى حاضرتها.

لا يزال اقتصادا روسيا وأوكرانيا متشابكين فى الوقت الراهن تشابكهما فى الحقبة الشيوعية. فنصف تجارة أوكرانيا الخارجية تتجه إلى روسيا، وربما كان لها ثلثا استثماراتها الصناعية. وتحمل خطوط الأنابيب العابرة لأوكرانيا النفط والغاز الروسيين إلى الأسواق الخارجية. والروسية هى اللغة الشائعة، خاصة فى شرقى أوكرانيا، والمذهب الأرثوذكسى المسيحى هو الديانة الأساسية فى أوكرانيا، كما هو الحال فى روسيا. ويقول بوجايسكى إن عدداً قليلاً من الساسة الروس كان على استعداد لقبول استقلال أوكرانيا الدائم.... ويُنظر إلى وضع أوكرانيا كدولة على أنه انحراف مؤقت.

وتؤكد النظرة الروسية الخاصة بأوكرانيا مقولة بوجايسكى إن روسيا تعانى من «عبء تاريخى ثقيل». وهو يقول إنها «فازت بإمبراطورية قبل أن تصبح دولة وأمة مترابطة»، وبذلك ظهرت باعتبارها دولة لا معنى طبيعى لحدودها. ويرى بوجايسكى أن لهذا علاقة كبيرة بتفسير «المطالبات الروسية المستمرة بهوية وأراضى العديد من الجيران» التى ميزت سياستها الخارجية منذ ذلك الوقت. كما يقول إنه حبذا لو أمكن لروسيا رؤية الدمار الذى ألحقته سياسات وجرائم حقبتها السوفيتية بالدول فى المنطقة، والتركيز على التكفير عن تلك الخطايا.

بدلاً من ذلك استمرت روسيا فى التلويح بمطامحها الإقليمية وكأنها أطراف موهومة. وكدليل سريع على آمال روسيا المبكرة الخاصة بأوروبا ما بعد الشيوعية، يقتبس بوجايسكى كلمة ألقاها فى عام ١٩٩٣ إيجور روديونوف الذى كان وقتها رئيساً لأكاديمية الأركان العامة فى موسكو ووزيراً للدفاع فيما بعد فى عهد بوريس يلتسين. وقد عدد روديونوف «المصالح الحيوية» لروسيا كما يلى:

حياد دول شرق أوروبا أو علاقاتها الودية مع روسيا، وحرية روسيا فى الوصول إلى موانئ البلطيق، واستبعاد القوات العسكرية لـ«الدولة الثالثة» من دول البلطيق وعدم عضوية دول البلطيق فى التكتلات العسكرية الموجهة إلى روسيا، ومنع الدول التى تشكل كومنولث الدول المستقلة (أى الدول المستقلة عن الاتحاد السوفيتى السابق) من أن تصبح جزءاً من منطقة عازلة تهدف إلى فصل روسيا عن الغرب أو الشرق؛ مع إبقاء دول كومنولث الدول المستقلة تحت النفوذ الحصرى لروسيا.

فى النهاية، أثبتت روسيا أنها أضعف من أن تدافع عن أى من هذه «المصالح الحيوية» المفترضة حين تحداها الغرب أو الدول المعنية بشكل مباشر. وأوكرانيا وحدها المثال الأقرب والأكثر إيلاماً. وقد انضمت ما يسميها روديونوف دول «شرق أوروبا»، ومن بينها دول البلطيق، إلى حلف الناتو والاتحاد الأوروبى. وتتفاوت دول كومنولث الدول المستقلة فى درجات خضوعها لروسيا، ولكن ليس من بينها (باستثناء روسيا البيضاء) ما تخضع حصرياً لروسيا. كما أن النفوذ الروسى فيها جميعاً يزداد ضعفاً. وبالنسبة لاستخدام دول كومنولث الدول المستقلة كـ«منطقة عازلة غربية»، فإن روسيا وحدها هى التى حاولت القيام بذلك لمقاومة النفوذ الغربى فى روسيا البيضاء ومولدوفا بتشجيعها دكتاتورية ألكسندر لوكاشنكا فى الدولة الأولى وتمرد عبر الدنيستر فى الثانية.



هناك شك فيما إذا كان بإمكان روسيا أن تأمل بجد فى استعادة أى من الأرض التى فقدتها خلال الخمسة عشر عاماً الماضية فى المستقبل القريب. وما يراه بوجايسكى هو أنها تحاول استعادتها رغم ذلك، وتخلق أثناء محاولاتها الكثير من التعقيدات التى تضر بالدول السوفيتية

السابقة؛ وذلك على سبيل المثال برفضها سحب القواعد العسكرية، وبقطعها إمدادات الطاقة، وبإثارتها الفضائح السياسية، وبتدخلها في الانتخابات. وتضيف روسيا «مصالح حيوية» أخرى إلى قائمتها. فقد ادعت روسيا في عهد پوتين حق التدخل عسكريًا في دول كومنولث الدول المستقلة إذا ارتأت أن أبناء العرقية الروسية أو الناطقين بالروسية في خطر هناك، كما ادعت حق حماية خطوط أنابيب الحقبة السوفيتية التي تحمل صادرات النفط والغاز، حتى حين تكون هذه الخطوط خارج الحدود الروسية.

رغم عدم وجود النفط والغاز في قائمة روديونوف المختصرة، فقد يهيمنان على أي بحث في الوقت الراهن لمصالح روسيا الحيوية ومواردها الإستراتيجية. وهما يَلُوحان بشكل كبير فيما يقوله بوجايسكي. وربما تتعامل شركة النفط الاحتكارية الروسية جازيروم في ربع موارد العالم من الغاز وتوفر حوالي كل الغاز المستخدم في دول كومنولث الدول المستقلة وفي أوروبا الوسطى. وتقدمت شركات الطاقة الروسية بعطاءات لمعامل تكرير وخطوط وقود وشركات توزيع النفط والغاز في دول كومنولث الدول المستقلة والبلقان ووسط أوروبا، حين عُرضت تلك المرافق للخصخصة. وتمتلك جازبروم حاليًا حصصًا في الكثير من شركات الغاز الوطنية في المنطقة. وتعد لوك أويل كبرى شركات النفط الروسية (بعد القضاء على يوكوس) واحدة من كبرى مصافي النفط في جنوب شرقي أوروبا.

يمكن تفسير عمليات التملك هذه بسهولة على أسس تجارية. فإذا كان بإمكان شركات النفط الغربية الامتداد إلى روسيا، فلم لا تمتد شركات النفط والغاز الروسية إلى الغرب؟ ولكن بوجايسكي يرى أن «مثل هذه التفسيرات تتجاهل العلاقات الوثيقة بين الحكومة والأعمال التجارية الكبيرة «في روسيا». وهو يقول إن الحقيقة هي أن الكرملين يشجع الشركات الروسية على امتلاك «الأصول الإستراتيجية... في الدول التي تسعى روسيا لأن يكون لها فيها نفوذ سياسي». والنتيجة هي «تسييس الاقتصاد»، أو ببساطة أكثر، «الابتزاز السياسي»، حيث تستحوذ روسيا على أصول مهمة لأداء الاقتصادات المضيفة لوظيفتها.

حتى بداية مسألة يوكوس، كان من السهل القول بأن بوجايسكي ليس على علم بالاتجاهات التجارية الروسية؛ ذلك أن شركات الطاقة الروسية كانت آخذة في أن تصبح أكثر غربية في أساليب إدارتها وكان انشغالها بالتزاماتها تجاه البورصة أكبر من انشغالها بالتزاماتها تجاه الكرملين. إلا أن معاملة يوكوس وخودورفسكي غيرت هذا كله وجعلت الاستثمارات الروسية موضوعًا أشد حساسية بكثير في أنحاء أوروبا الوسطى. ومن الواضح أن الكرملين عازم على السيطرة على صناعة الطاقة الروسية بشكل أوثق ويقدر أكبر من التوسع، وسوف يضع مصالحه السياسة قبل مصالحه التجارية. وإذا كان هناك من سبيل لاستيراد النفط والغاز الروسيين دون استيراد شركات النفط والغاز الروسية كذلك، فحينئذ سيكون معظم جيران روسيا ومعظم الدول الأوروبية الأخرى أسعد حالاً بكثير.

هناك أوقات تبدو فيها قائمة شكاوى بوجايسكي من السياسة الروسية قاسية إلى حد ما. ولكنها باستمرار موثقة توثيقًا جيدًا، وهي تصحح الرأي الأكثر شيوعًا القائل بأن روسيا كانت على نحو ما ضحية لا حول لها ولا قوة في الأحداث الدولية منذ عام ١٩٩١. وقد قال عالم السياسة البلغاري أوجنيان منتشيف لبوجايسكي:



حتى إذا لم تكن روسيا في وضع يسمح لها بالتأثير الحاسم على عوامل القوة الأساسية الخاصة بالحياة الدولية، فلن يعني هذا أن موسكو لا حول لها ولا قوة فيما يتعلق بممارسة الضغط على الشركاء الأصغر حجمًا والأضعف قوة.

ومع ذلك فالتحليل المتواصل مثل تحليل بوجايسكي يثير تساؤلاً عما إذا كان هناك ما يمكن أن تقوم به روسيا لجعل نفسها شريكًا يحظى بقدر أكبر من الترحيب في الشئون الدولية. ويسلم بوجايسكي بإمكانية ذلك من حيث المبدأ، ولكنه يشدد القيود. فهو يقول إذا كانت روسيا بها ديمقراطية ليبرالية مزدهرة، ومجتمع مدني ينبض بالحياة، واقتصاد رأسمالي إنتاجي، وسياسة سلمية حقيقية في الشيشان، فحينئذ (قد يكون من المحتمل أن) يحظى نفوذها بالترحيب في أوروبا الشرقية، بغض النظر عن الخبرات التاريخية.

لكن روسيا تتحرك في عكس اتجاه كل هذه الأمور وليس نحوها. ويرجع الفضل إلى بوجايسكي في تتبع الآثار المترتبة على هذا الانسياق وصولاً إلى نتائجها المنطقية. وإذا كنا نظن أن روسيا مصدر تهديد باستمرار، فهل يجب علينا حينئذ أن نتمنى لها حظًا سعيدًا على أي حال من الأحوال؟ وهل يكون المتفائلون مضلَّلين حين يقولون إن روسيا الأكثر ازدهارًا ستكون دولة أكثر رضًى وقناعة، وبالتالي جارة أقل إثارة للقلق، حتى ولو لم تكن دولة أكثر ديمقراطية؟ يرى بوجايسكي أن هؤلاء قد يكونون مخطئين إلى حد كبير:

لا تعني روسيا الأكثر ازدهارًا وجود حكومة أكثر تعاونًا. فإذا عززت روسيا اقتصادها بسرعة بدون أن تمر بتحول ديمقراطي عميق، فمن الممكن أن تكون أشد عدوانية وأكثر نزوعًا إلى التوسع. وقد يكون مفضلاً أن تكون هناك روسيا ضعيفة اقتصادية أو مرتبكة داخليًا، مادام لا يعجل هذا بانقسام عنيف أو زعزعة استقرار الدول المجاورة.

إلا أنه بالإضافة إلى إثارة غضب المتشددين الروس عند رؤيتهم هذه الفقرة، فهي سوف تجعلهم كذلك راضين بشكل يدعو للاستغراب. فهذا هو على وجه الدقة ما كانوا يعتقدون دومًا أن الغرب يقوله ويظنه بشأنهم في السر. وهاهم قادرون في النهاية على الإشارة إلى شخص ما له أهميته يقول ذلك في العلن.

[٣]

غالبًا ما ينقسم خبراء الشئون الروسية الغربيون إلى مجموعتين. أولاً: هناك هؤلاء الذين يرون روسيا من الداخل دون سابق تفكير، وعادة ما يعود اهتمامهم إلى دراستهم أو إقامتهم هناك. ويميل هؤلاء إلى النظر إلى الشعب الروسي على أنه ضحية للحكومات السيئة المتعاقبة، وإلى القول بإمكان تطور روسيا على النمط الغربي إذا توفر لها الوقت والظروف المواتية. ثانيًا: هناك هؤلاء الذين يرون روسيا من الخارج، وغالبًا ما تكون لهم صلات قرابة بأوروبا الوسطى والشرقية. ويميل هؤلاء إلى النظر إلى روسيا على أنها تشكل تهديدًا بصورة جوهرية ودائمة بموجب ميلها إلى الإمبريالية والنزعة الاستبدادية المنتشرة بين الحكام والمحكومين على السواء.

آمل ألا يجد يانوس بوجايسكي بأسًا في ترشيحي له حاملاً لراية هذه المدرسة الفكرية الثانية، وآمل ألا يكون لدى أندرو چاك مانع في وضعي له في موضع أقرب إلى المدرسة الأولى. فكتاب چاك «داخل روسيا پوتين: هل يمكن أن يكون هناك إصلاح بدون ديمقراطية؟» Inside Putin's Russia: Can There Be Reform Without Democracy?، كما يشير عنوانه، محاولة لرؤية روسيا من الداخل ولفهمها بالشروط التي ترتضيها. وچاك ليس متعاطفًا مع النظام الحاكم، ولكنه مفتون بالبلد. وباعتباره رئيسًا لمكتب صحيفة «فاينانشال تايمز» في موسكو حتى أواخر العام الماضي (وكنت سلفه في هذه الوظيفة) فقد استطاع الاعتماد على قدرة جيدة نسبيًا للوصول إلى الطبقات الحاكمة في موسكو، حيث أضاف إلى ذلك قدرًا كبيرًا جدًا من الرحلات إلى أقاليم روسيا المختلفة، وحب استطلاع لا يشبع، واهتمام فطري مرهف بالتفاصيل. ولكننا لا نحصل في النهاية على إجابة عن السؤال الذي طرحه چاك في عنوانه، وإن تعلمنا أثناء ذلك الكثير جدًا من الأشياء عن روسيا پوتين.

كما يشير چاك، فغالبًا ما تكون الأمور في روسيا لا هي بالسيئة ولا هي بالحسنة كما تبدو عند أول وهلة. فالأرقام الرسمية المنخفضة الخاصة بالأجور والمدخرات تسخر منها القدرة الشرائية الواضحة في المدن الروسية، وليس موسكو وحدها، حيث يفسح التبذير الذي يتسم بالبهرجة الطريق شيئًا فشيئًا أمام النزعة الاستهلاكية المعقدة. وكما يوضح چاك، فإن الدخول المعلنة غالبًا ما تكون أقل من الواقع بغية التهرب من الضرائب. وكثير من الروس لديهم وظائف ثانية أو امتيازات سخية وتكاليف معيشة أساسية منخفضة؛ كالطاقة والتدفئة. وقد استطاع الروس خصخصة شققهم مقابل لا شيء بعد فترة الشيوعية، حيث حرروا أنفسهم من الإيجار أو أقساط القرض العقاري. وبما أن أسعار العقارات في وسط موسكو الآن تتراوح بين ٢٠٠٠ دولار و١٠ آلاف دولار للياردة المربعة، فقد بات الكثير من أبناء موسكو أثرياء على الورق بأي معيار من المعايير. وحين فتحت شركة «إيكيا» السويدية الكبيرة للأثاث أول معرض لها في موسكو منذ خمس سنوات، كان طابور السيارات المصطفة لدخول موقف السيارات من الطول بحيث خلق زحامًا في الطريق المؤدي إليه من مطار إلى شيريميتيفو إلى وسط المدينة.

إن كتاب چاك صورة لموسكو، وليس لپوتين، غير أنه يغوص في أعماق پوتين بما يكفي لبيان أن الحياة المبكرة، إلى الحد الذي يمكن توثيقه، لا تتسم بقدر كبير من التحدي. وهو يجري مقابلة مع أوليج كالوچين الجنرال السابق في الـ«كي جي بي» الذي يعيش حاليًا في الولايات المتحدة، وكان يعمل في الـ«كي جي بي» لينينجراد في



> **فيما يتعلق بالإصلاحات السياسية، لم يعد هناك من يدعي أن روسيا في سبيلها لأن تكون ديمقراطية على النمط الأوروبي؛ ولا حتى وزراء پوتين**



كتاب الزاوية



زكى نجيب محمود

تاريخ المستقبل

لقد بات فى وسعنا اليوم - إلى حد كبير - أن نكتب للمستقبل «تاريخًا» كما نكتب تاريخ الماضى، برغم أن الماضى قد تم حدوثه وعرفت تفصيلاته، وأن المستقبل مايزال غائبًا، فكما نعرف كم كان سكان مصر سنة ١٩٠٠، يمكننا أن نحدد كم سيكونون سنة ٢٠٠٠، وكما نعرف كيف كان التعليم وكم كانت نسبته، وكيف كانت الزراعة، وكيف كانت الصناعة؟ وكانت جوانب الحياة الأخرى، يمكننا أن نحدد - بدرجة كبيرة من الدقة - كيف ينتظر لهذه وهذه وتلك أن تكون، ولولا ذلك لما جاز لنا أن نتحدث عن «التخطيط» لسنة قادمة، أو لخمس سنوات، أو لعشر، أو كيفما تكون الخطة ومداها.

وكلما ازدادت القدرة على حساب المستقبل ورؤيته قبل وقوعه، على أسس علمية صحيحة فى رصد الوقائع وفى استدلال النتائج، نقصت الأوهام والمخاوف، فقد سألنى سائل فى سياق حديث بيننا: أمتشائم أنت أم متفائل بالنسبة إلى المستقبل؟ فسألته بدورى: فى أى جانب من جوانب الحياة تريد؟ قال: أردت المستقبل بصفة عامة، فقلت له: إن التعميم هنا يفقد القول معناه، لأن التشاؤم والتفاؤل إنما يكونان فى المواقع التى لم نحسب لها حسابها.

والتشاؤم والتفاؤل كلاهما ينتجان عن جهل الإنسان بمجرى الأحداث فى حاضرها أو فى مستقبلها، ولو علم الإنسان بتلك الأحداث كيف تجرى وماذا يتولد عنها، لما تفاءل ولا تشاءم، إذ كل ما يطلب منه عندئذ هو أن ينظر إلى الأمور الواقعة - أو التى سوف تقع - ليراها كما هى فى حقيقتها، فيبنى على علمه بهذا الواقع المرئى خطة سيره.

الثمانينيات. ويقول كالوجين إن بوتين عرض أن يكون مخبر الـ«كى جى بى» وهو مازال يدرس فى جامعة موسكو، وبدأ عمله فى الـ«كى جى بى» بالإدارة الخامسة، التى كانت تضطهد المنشقين. وهاهو بوتين يتاجر الآن بماضيه المتألق المفترض باعتباره جاسوسًا يعمل فى الخارج، بينما لم يُنقل قط بشكل رسمى إلى جهاز الاستخبارات الخارجية التابع للـ«كيه جى بى»، وإنما نُقل إليه نقلًا مؤقتًا، كما يقول كالوجين، حيث تولى منصبًا صغيرًا هناك.



يزيد التحفظ والنزوع إلى الشك الذى يسرى فى كتاب جاك من رصيد المؤلف، حيث تأخذ الأدلة على مصداقية بوتين كديمقراطى فى التلاشى. ويتعرف جاك بأن بوتين قد فعل أشياء طيبة لروسيا أبرزها وقف الانسياق نحو الفوضى الذى كان موجودًا فى السنوات الأخيرة من عهد يلتسين. ولكن حين يصل الأمر إلى مدح الرئيس مدحا مباشرًا، يفضل جاك أن يكون الكلام على لسان غيره. فهو على سبيل المثال يقتبس ما قاله مذيع التليفزيون ليونيد پارفيونوف الذى يؤكد أن أى شخص أمين يرى أن روسيا فى عام ٢٠٠٣ أكثر حرية عما كانت عليه فى ٢٠٠١. فالشباب أكثر سعادة وأكثر انفتاحًا على العالم. وهم يرون الديمقراطية على أنها وسام. وإذا حاولت السلطات انتزاع حريتهم، بتقييد الإنترنت على سبيل المثال، فإنهم يحتجون على ذلك.

تكشف هذه المقابلة التى أفترض أنها أُجريت فى عام ٢٠٠٣ على وجه الخصوص عن أسباب ما كان ليتنبأ بها جاك أو پارفيونوف، ففى منتصف ٢٠٠٤ فُصل پارفيونوف من برنامجه التليفزيونى بعد الشكوى من أن السلطات منعته من إذاعة مقابلة أجراها رئيس شيشانى سابق كان قد اغتيل، وهو زليمخان ياندرباييف. ولو أُجريت تلك المقابلة مع پارفيونوف الآن وسُئل عن الحرية فى روسيا، أو على الأقل عن حرية التعبير عن الرأى، فلا شك فى أن رده كان سيصبح مختلفًا.

ومع ذلك، فإن جاك محق فى اعترافه بمنجزات بوتين فى ولايته الأولى، من عام ٢٠٠٠ حتى إعادة انتخابه فى مارس ٢٠٠٤. فقد جعل بوتين الاقتصاد الروسى مستقرًا، وأتى لروسيا بقدر من الاحترام فى الشئون العالمية، واستعاد النظام الأساسى فى الخدمة العامة، كما حدث فى الأجور والمعاشات التى باتت تدفع بطريقة يعوَّل عليها أكثر مما كان عليه الحال فى عهد يلتسين. وضمنت هذا الأمور لبوتين شعبية حقيقية بين الروس العاديين الذين يعتقدون أنه يهتم بالبلد.

فى المقابل، كانت بداية ولاية بوتين الثانية تتسم بالفوضى، وقد هيمن عليها إخفاقان هما مسألة يوكوس والانتخابات التى جرت فى أوكرانيا. ولكن رغم تضاعف مشاكل روسيا الاقتصادية وانتكاساتها الدبلوماسية، فمن الصعب تخيل احتمال الإطاحة ببوتين من الكرملين قبل الأوان بواسطة انقلاب. فإن له شعبية كبيرة فى البلاد، وسوف يكون الضرر الذى سيلحق بعلاقات روسيا الخارجية كبيرًا جدًا. ولكن الخطر الذى يتعرض له بوتين هو بالأحرى إضعاف الفشل لسلطته وتشجيعه المؤامرات على تحديه أو تجاهله بين عملاء الـ«كى جى بى» وضباط الجيش السابقين الذى يشغلون الآن أكثر من نصف المناصب الكبرى فى الحكومة الفدرالية. وسوف يدير هؤلاء أعمالهم الخاصة، وسوف تكون لديهم دوافعهم إلى جر روسيا أكثر وأكثر إلى ظرف الدولة البوليسية، بينما يحولون دون المزيد من المغامرات فى اتجاه إضفاء الصبغة الغربية على البلاد. وسوف ينساق بوتين مع هذا التيار، لأنه هو نفسه يكاد يوافق عليه. ذلك أن محاولاته فى التحول إلى الليبرالية كان يحركها حب الاستطلاع أكثر منه الاقتناع من حيث المبدأ.

لو ترك بوتين بطانة ما بعد الـ«كى جى بى» تقوده فى اتجاه الفاشستية المحتشمة، فلا يلومن إلا نفسه. فقد أضاع فرصة السير بروسيا فى اتجاه مختلف تمامًا فى ولايته الأولى، حين كان يتمتع بشعبية ضخمة وشعور ودى فى الداخل، ووجود اقتصاد منتعش، وثقة أوروبا الغربية، وفرصة فى أعقاب الحادى عشر من سبتمبر لجعل روسيا الحليف الأمريكى العلنى الأول. وما كان بالإمكان أن تصبح هناك أسس أفضل من تلك للاتجاه بروسيا بشكل حاسم نحو الغرب. ولكن بدلًا من ذلك، وبعد اللهو بذلك الخيار، هاهو بوتين يترك روسيا تنجرف نحو النموذج الصينى بما فيه من حكم الحزب الواحد، ولكن يبدو أن ذلك دون أن يكون لها أى من قوة الصين الاقتصادية التى تعوض عنه. وفى المقابل، ومع سير روسيا فى هذا الاتجاه حاليًا، فمن المحتمل أن تزداد صداقة الدول الغربية لبوتين. ليس لأن هذا أمر طيب، بل لأن الاتجاهات الحالية تشير إلى أن من سيخلفه سيكون أسوأ منه. ■

عندما تنتهك الديمقراطية

بريطانيا نموذجاً

شائعة هى ظاهرة امتصاص الديمقراطية - التى هى مفهوم سياسى - لمنظومة حقوق الإنسان - التى هى مفهوم اجتماعى أشمل -، وغالباً ما تنزل لفظة «الديمقراطية» موارد أوضاع تتعلق بحقوق الإنسان إجمالاً. فالديمقراطية - من دون عرض للتفصيل التاريخى لظهور هذا المفهوم وأطر تطوره - هى بالأساس مفهوم سياسى: يضبط هيئة علاقات الحكم المنتظمة تكوينات الجماعة السياسية القائمة، ويحكم انعكاس مفردات هذا التهيؤ على علاقات القوى الفاعلة بالساحة السياسية.

الأمر الذى غدت معه الديمقراطية ركيزة من ركائز الدولة الحديثة، المتكونة على أصول التطور الحضارى الرأسمالى، فى أوروبا والولايات المتحدة، خلال القرن الثامن عشر وما تلاه.

حال كون جوهر مفهوم حقوق الإنسان يتجاوز فى إجماله ضيق التجربة السياسية للدولة المعاصرة ببعدها الحضارى الرأسمالى. فحقوق الإنسان شأن جمعى خالص، يخص كل أشكال العلاقات داخل كل جماعة، مما يترتب عليه تداعيه عند كل اجتماع بشرى، أياً ما يكون شكل هذا الاجتماع، ومستوى ارتقائه الحضارى، وأياً ما تكون عليه طبيعة العلاقات القائمة داخل هذا التجمع البشرى.

لذا فمن الطبيعى أن يتداعى مفهوم حقوق الإنسان على مستويات أخرى غير سياسية، كالصحة والتعليم مثلاً، بل ويتجلى فى كل ما يخص سلامة تشكل الشأن الذاتى الفردى المتعلق بدواعى الأمن والعمل والتكوين الأسرى، هذا بالطبع إلى جانب تداعيه الجلل على المستوى السياسى، فيما يعرف اصطلاحاً بالديمقراطية.

لذا فإن مطالعة أى تقرير يتعلق بحقوق الإنسان صادر عن أى من منظمات حقوق الإنسان المقدرة - تمييزاً لها عن غيرها من تلك التى تنشط فى إطار أوضاع السياسة الدولية لخدمة أغراض تباين غرض حقوق الإنسان -، يجد أن الديمقراطية محض مفرد من مفردات حقوق الإنسان، إلى جانبه تستقيم باقى مفرداته.

فمثلاً المجلس القومى للحريات المدنية «LIBERTY» فى عديد من إصداراته - ومنها ما هو تعليق على تقارير حقوق الإنسان الصادرة عن الحكومات الإنجليزية - نجده يصنف الديمقراطية باعتبارها أحد عناصر حقوق الإنسان - شاملة حقوق التعبير ومشتقاتها -، إلى جانبها تستقيم مفردات كالعدالة الجنائية والتمييز العنصرى والشأن الخاص بالسياسات الحكومية تجاه أيرلندا الشمالية، فضلاً عن حقوق بعض فئات المجتمع التى تحتاج إلى معاملة خاصة كحقوق المرأة وحقوق المعاقين بل والحقوق الصحية فى وضعها الأشمل - باعتبار أن المرض بدوره وضع خاص يحتاج إلى نظر مخصوص -، إضافة إلى حقوق المهاجرين - سواء أكانوا شرعيين أم غير شرعيين أم طالبى لجوء سياسى - وحقوق العمل والتنقل من أجل العمل. وفى تقارير مؤخرة أضيف إلى كل ما تقدم حقوق المثليين الجنسيين.



بيد أن المشكل الذى يصادف شأن حقوق الإنسان هو تغول المفرد السياسى على غيره من المفردات الأخرى، فكثيراً ما يلاحظ حتى فى خصوص الناشطين فى مجال حقوق الإنسان استغراقهم فى الشأن السياسى على حساب باقى أوجه حقوق الإنسان الأخرى، بل إن المفرد السياسى يكاد يكون المعيار الأوحد لتقييم الوضع الحقوقى داخل معظم الدول.

غير أن هذا المشكل تستفحل جسامته عندما تقوم الدولة - وبتعبير أصوب التكوينات السياسية القائمة بالمجتمع - بتقليص شأن باقى مفردات حقوق الإنسان لصالح المفرد السياسى، أو بإعادة صياغة باقى تلك المفردات لتتدثر بالثوب السياسى، وفى الحالين يكون ذاك خدمة لمصالح سياسية جزئية لبعض من القائمين على الشأن السياسى داخل المجتمع.

فمثلاً يتم تهميش أهمية الأمن الجنائى للفرد لصالح الأمن السياسى للدولة، أو أن تتعاظم أهمية الأمن السياسى إلى حد الانتهاك الكامل لأحد الأسس الأيديولوجية للدولة ذاتها، أو أن يتم إسباغ أردية سياسية على أوضاع أخرى كالأوضاع الصحية: فترتبط الحقوق الصحية بالإستراتيجيات السياسية للتنافس الحزبى.

ويتم التهوين من فداحة كل ذلك: بدعوى أن حقوق الإنسان هى بخير حال، مادام النظام الديمقراطى القائم على تداول السلطة يعمل باطراد وانتظام.

لعل ما يدعونا إلى التعرض لذاك الموضوع، عبثية وضع حقوق الإنسان فى العالم أجمع، عبثية لم تعد مقصورة - كما كان الحال إلى الأمس القريب - على دولنا فحسب، بل صارت ظاهرة عالمية، تطال الدول العريقة مطاولتها دولنا. فها هى واحدة من أعرق دول العالم، إنجلترا العظمى، يصيب وضع حقوق الإنسان بها حال من التردى يتوقع معه - بحال استمراره - أن يستحيل سجل حقوق الإنسان بها شأن حاله بدولنا.

فتلك الدولة التى تطورت نظمها الاجتماعية تطوراً وئيداً، من دون أن تشهد ما شهدته غيرها من الدول الأخرى من تغيرات راديكالية، يتصور أن تكون منظومتها الحقوقية من أصلب المنظومات الحقوقية فى العالم، باعتبار حقوق الإنسان أحد النظم الركينة التى يتأصل عليها بنيان تلك الدولة.

مما لا تثريب عليه إن قدرنا - على حدّ زعم الثقافة الإنجليزية - أنها الدولة التى بدأت فى صياغة هيكلها الخاص بحقوق الإنسان منذ القرن الثالث عشر.

ففى عام ١٢١٥ أعلن عن وثيقة حقوقية قررت اتفاقا بين الملك والنبلاء حول بعض من قواعد الحكم عرفت بـ magna carta ، ثم تعاقب عبر التجربة التاريخية للمجتمع الإنجليزى عدد من المواثيق الحقوقية التى يستند إليها جميعها فى إثبات عراقة وضع حقوق الإنسان فى تلك الدولة.

بل ويتفاخر علماء الإنسانيات الإنجليز بأن التجربة الإنجليزية، بهذه المواثيق، تكون قد أثرت الحضارة الإنسانية بواحدة من أفضل القيم الإنسانية على الإطلاق، ألا وهى منظومة حقوق الإنسان، عبر إشعاع التجربة الإنجليزية على تجارب أمم أخرى أدى إلى تبنيها بدورها لتلك المنظومة، وتحديداً الثورتين الأمريكية والفرنسية.

والحقيقة فإننا على الرغم من تحفظنا علمياً على كل ما تقدم، مما ليس مقام عرضه، إلا أننا سوف نعتمد هذا المقال جميعه بداعى الاقتناع المؤقت لنقوم بتقييم الوضع الحالى من خلال تلك الأفكار.

فما هو إذاً الحاصل فى المملكة المتحدة وما هو تأثيره على منظومة حقوق الإنسان؟

تعيش إنجلترا/ الدولة تحت تأثير هوس الإرهاب، الذى يبدو لى أنه سابق على أحداث سبتمبر ٢٠٠١، وإن كانت تلك الأخيرة قد أججته إلى الحد الذى يمكن تلمسه ليس فى تصرفات الحكومة الإنجليزية فحسب، بل فى أطر التفكير الاستراتيجى المشكل للسياسات المستقبلة أيضاً، يظهر ذلك بوضوح فى البرامج الانتخابية للأحزاب المتنافسة بانتخابات مجلس النواب المقرر لها مايو القادم.

آية ذلك أنه فى عام ٢٠٠٠ - أى قبل أحداث ٩/١١ - أصدر البرلمان الإنجليزى



من دواعى الغرابة أن هذه التدابير الأمنية تصدر عن حكومة حزب العمال، ذلك الحزب الذى يفترض نظرياً أن ليبراليته تنحو به صوب مزيد من التكريس لقيم حقوق الإنسان، لا الانتقاص منها على هذا النحو



حقـــــوق الإنســـــان!!

عمـــــاد البـــشـــرى

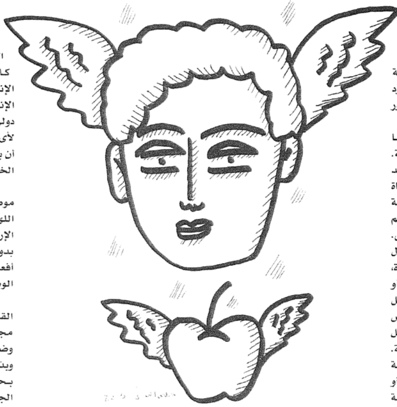
قانوناً للإرهاب Terrorism Act ٢٠٠٠، معتمداً تعريفاً له غاية فى الغرابة، فقد اعتبر الإرهاب: كل إتيان (أو تهديد) بأى من الأفعال الآتية:

(١) فعل التأثير على الحكومة (وسوف يتضح لاحقاً ما هو المقصود بالحكومة هنا) أو ترهيب الجمهور public أو قطاع منهم.

(٢) الأفعال التى يُبتغى من ورائها أهداف سياسية أو دينية أو أيديولوجية.

(٣) أفعال استخدام العنف ضد الأفراد أو تدمير الممتلكات أو تهديد حياة الأفراد أو تسبيب أخطار تتعلق بالصحة أو سلامة الجمهور أو التعرض للنظم الإلكترونية بأى صورة من صور التحرش.

على أن مفهوم الفعل يشمل الأفعال التى تتم خارج إقليم المملكة المتحدة، وتلك التى توجه إلى أى من الأفراد أو الممتلكات المذكورة أياً ما يكون محل وجودها. كما أن المقصود بالجمهور ليس جمهور المملكة المتحدة فحسب بل جماهير أى دولة أخرى خلاف المملكة. إضافة إلى أن المعنى بالحكومة: حكومة المملكة المتحدة أو أى من أجهزتها أو حكومة أى دولة أخرى خلاف المملكة المتحدة.



وجه غرابة هذا القانون أنه ليس فضفاضاً فحسب، وإنما باتساع نطاقات التجريم التى ينطوى عليها يمتص قانون العقوبات ذاته، الذى يفترض أنه جزء منه، فما الذى يبقى من قانون العقوبات خلاف تجريم أفعال العدوان على الأفراد أو الممتلكات أو الدولة.

وعليه فوفق هذا الفهم يصير الفرد إرهابياً، وليس مجرماً فحسب، إذا ما ارتكب فعل عدوان على أى من تلك الأهداف الثلاثة المذكورة، أياً ما تكون طبيعة هذا الفعل أو كنهه أو جسامته (وسوف يبين لاحقاً من له سلطة التقدير فى هذا الخصوص، كما سوف تبين أهمية التفرقة بين كون اعتبار الجانى إرهابياً أو محض مجرم).

بيد أن الأفدح أنه لا يقصر دوائر تجريمه على النطاق الإقليمى أو الموضوعى للمملكة المتحدة، بل يتسع بتعريف الإرهاب ليشمل أياً من تلك الأفعال التى قد يأتيها أى فرد غير إنجليزى، تجاه أى فرد أو ممتلكات غير إنجليزية، وإن لم يكونوا موجودين فى المملكة المتحدة، أو أى من تلك الأفعال التى تتم فى مواجهة حكومة أى دولة أخرى.

وبذلك قد يكون إنسان غير إنجليزى - أتى أياً من تلك الأفعال فى بلده الذى هو ليس المملكة المتحدة، وضد أهداف أو أفراد غير إنجليزية - إرهابياً فى فهم النظام القانونى الإنجليزى، حال كونه قد لا يعتبر كذلك وفق فهم النظام القانونى لدولته.

أى أن النظام القانونى الإنجليزى لم يكتف باختزال قانون العقوبات فى مفهوم الإرهاب فحسب، بل اشرأب بعنقه ليتدخل فى شئون التقدير الجنائى لمشرعى الدول الأخرى، سابغاً على أفعال لا صلة لها البتة بالشأن الإنجليزى تقييمه القانونى للتجريم العقابى، وبمعنى آخر شاء المشرع الإنجليزى أن يختزل قوانين عقوبات الدول الأخرى فى قانونه الخاص بالإرهاب.

والطريف أن الأمر لم يقتصر على ذلك، إذ فى أعقاب أحداث ٩/١١ أصدر البرلمان الإنجليزى قانوناً للإرهاب الدولى The 2001 Act - ينطبق على غير الإنجليز بموجب واقعة الميلاد - مقرراً حق وزير الداخلية فى تقدير أن إنساناً ما يعد إرهابياً دولياً، إذا اعتقد أن وجوده على إقليم المملكة المتحدة يعرض الأمن الوطنى للمجازفة.



ويكون الإنسان - الأجنبى بموجب الانطباق الموضوعى لهذا القانون - إرهابياً دولياً إذا كان معنياً بارتكاب أو التحضير أو التحريض على أفعال تعد إرهاباً دولياً، كما يعد إرهابياً دولياً كل من ينتمى لجماعة إرهابية دولية. وحالئذ يحق لوزير الداخلية - إذا ما قدر ما تقدم - أن يقوم بترحيل الإنسان المقدر أنه إرهابى إلى خارج المملكة المتحدة، أياً ما يكون النظام القانونى الذى على أساسه يقيم هذا الإنسان فى إنجلترا العظمى. كما يحق لوزير الداخلية اعتقال هذا الإنسان، بقرار مجرد منه.

وبذلك محض تصور تعريض الأمن القومى الإنجليزى للمجازفة، كاف فى فهم النظام القانونى الإنجليزى - العريق فى احترامه لحقوق الإنسان - لتحويل إنسان إلى إرهابى دولى، يجوز اعتقاله بقرار إدارى مجرد، لأى فترة من الزمن مهما استطالت، ودون أن يكون للقضاء أى دور فى هذا الخصوص.

وهذا فى إطار غياب أى تقدير موضوعى لمفهوم الفعل الإرهابى الدولى، اللهم إلا إذا ارتد فى التقدير إلى قانون الإرهاب الصادر عام ٢٠٠٠، الذى هو بدوره من الاتساع بحيث يطوى غالب أفعال التجريم العقابى تحت طائلة الوصف بالإرهاب، نحو ما تقدم.

وهكذا يبين كيف آل حال النظام القانونى العقابى لأعرق دول العالم فى مجال حقوق الإنسان، وما صار إليه وضع حق الإنسان فى الأمن الذاتى. وبذلك تنمحى كل النظريات المتعلقة بحق الإنسان المتهم فى المحاكمة الجنائية، وببراءته الأصلية حتى ثبوت الاتهام.

وكذلك حتى بعد تقرير إدانته، دوام حقه قائماً فى المعاملة الكريمة بحسبه إنساناً. - أقول - كل هذا ينمحى أمام التقدير المطلق لرجل الإدارة بأن إنساناً ما يعتبر إرهابياً دولياً، دون أن نعرف ما هى معايير تقدير الفعل الذى يعتبر إرهاباً دولياً، وكذلك دون تقدير لإنسانية من يقدر أنه إرهابى دولى، إذ بفرض أنه كذلك، ألا يعتبر فى كل الأحوال إنساناً يستأهل المعاملة الإنسانية، وفق المقدر منها، مما يتعين معه تمتعه بالحقوق كافة التى يتمتع بها كل إنسان.

ومن دواعى الغرابة أن هذه التدابير الأمنية تصدر عن حكومة حزب العمال، ذاك الحزب الذى يفترض نظرياً أن ليبراليته تنحو به صوب مزيد من التكريس لقيم حقوق الإنسان، لا الانتقاص منها على هذا النحو.

وما يزيده غرابة أن حكومة هذا الحزب منتخبة من قبل الجماهير التى يتصور أن تكون أوضاع حقوق الإنسان بالنسبة إليها، على القمة من دواعى اهتمامها، فكيف



لحزب أن يتنكر لأحد أهم ركائزه الفكرية - ألا وهى الليبرالية؟ وكيف تصمت الجماهير أمام ذاك، وهى التى أتت به إلى سدة الحكم؟ بل ومن المتوقع فى أغلب الأحوال أن تعيد انتخابه لولاية ثالثة فى مايو القادم!

بالطبع ليس من اليسير الإجابة على مثل تلك التساؤلات، كما أتصور أن كل ما يمكن قوله فى مقام الجواب، لن يفى مثل ذاك الموضوع حقه، فالعوامل متعددة؛ منه ما هو تاريخى يتعلق بتضاؤل دور الاشتراكية كمتحد أيديولوجى للرأسمالية، وانعكاس هذا على أوضاع الأحزاب الأوروبية التى طالما جسدت نموذج الاشتراكية الديمقراطية، كحزب العمال الإنجليزى.

ومنه ما هو اقتصادى يتمثل فى الأريحية الاقتصادية النسبية المتحققة فى مجتمع - كذاك الإنجليزى - تمكن من توفير حدود دنيا مقبولة من الخدمات الأساسية، مما يتقلص معه الاهتمام الفردى بالجدل الأيديولوجى حول مشكل كحقوق الإنسان.

ويتكامل مع ما تقدم عامل نفسى غاية فى الأهمية، يتمثل فى الارتخاء الجمعى الذى يسببه طول عهد الأريحية الاقتصادية، فى ظل أطر ثقافية (نظم تربية ومناهج تعليم وأنماط حياة) تعمد إلى تكوين العقل الجمعى على أصول الفكر البرجماتى الرأسمالى - وليس حتى الفكر الفردى الحر بمعناه الأيديولوجى - ، حيث المال القيمة النسبية الوحيدة التى تقاس عليها أوضاع المجتمع أشمل، ومن ثم فما دام المال موجوداً - وإن فى حدوده الدنيا المقبولة -، فلا يتصور أن تمثل أى قيمة أخرى أى تحد جدى للأنظمة القائمة.

خاصة أن مثل تلك القوانين والتدابير لم تمس بعد قطاعات الشعب، وإنما هى فى حال استنفار فى مواجهة غير الإنجليز الأصلاء، وتحديداً فى مواجهة المسلمين، ومن بعدهم المهاجرين الآسيويين أو مسلمى شرق أوروبا، وهؤلاء لا يمثلون أى وزن سياسى فى التصويت الانتخابى، إما لضآلة شأنهم السياسى أو لأنهم مازالوا ليس لهم حق فى الانتخاب.

والمثير للاشمئزاز أن بين الأحزاب الأساسية مزايدة حول أوضاع المهاجرين، لا فى صالح توكيد حقوق هذه الفئات الضعيفة بالمجتمع وإنما فى اتجاه إثارة الرأى العام عليهم، وتهيئة مناخ عام رافض لهم، يبرر تمرير مثل تلك التدابير الأمنية - كالقانون المذكور -، بدعوى أنها قوانين لن تستهدف المواطن العادى وإنما تلك الفئات الضارة بالمجتمع فحسب، حماية لأمن المجتمع الكلى من الإرهاب، ولما يمثله وجود هؤلاء فى المجتمع الإنجليزى من تهديد أمنى له.

حال أنه من المعروف بداهة أن أى قانون يصدر بصيغ الإطلاق والعموم قابل للتطبيق على الكافة، دون تمييز بين هؤلاء وأولئك، وهو ما انفكت المنظمات الناشطة فى مجال حقوق الإنسان لافتة الأنظار إليه، بحسبان أن إصدار مثل تلك القوانين، وإن لن يطبق على المواطنين الأصلاء فى حينه، فلا يوجد ما يحول دون هذا التطبيق.

وهو ما أيده قضاء صادر فى ديسمبر الماضى من مجلس اللوردات، انتهى إلى عدم صحة قرارات وزير الداخلية باعتقال عدد من الإسلاميين العرب فى أعقاب أحداث ٩/١١ مستنداً إلى قانون ٢٠٠١ المشار إليه آنفاً، بدعوى تهديدهم للأمن، وهى القرارات التى ترتب عليها اعتقال هؤلاء لمدد تربو على الثلاث سنوات دون تقديمهم للمحاكمة، بل دون أن تقدم السلطات المختصة أية أسباب لتعليل ذاك الاعتقال.

وقد شاد مجلس اللوردات قضاءه التاريخى؛ على سند من أن تلك قرارات تفتقر إلى السند المسوغ، فالأوراق والأدلة المقدمة تجرى خلواً من أى ما يفيد هذا الاعتقاد.

على أن هذا الحكم وإن لم يتعرض صراحة لقانون ٢٠٠١ المذكور - إذ تأتى عباراته جميعها خلواً من وصم هذا القانون بأى من أوصاف عدم الدستورية - ، وذلك لأسباب فنية تتصل بطبيعة الدستور الإنجليزى، وبطريقة تطبيق مبدأ الفصل بين السلطات، حيث لا يسمح للسلطة القضائية بمساس أعمال السلطة التشريعية، إلا أنه أشار فى متنه صراحة إلى مناقضة هذا القانون للقانون الأوروبى لحقوق الإنسان، كونه مايز دون سند مسوغ بين الأجانب الذين ينطبق عليهم هذا القانون والمواطنين الإنجليز ممن لا يشملهم انطباقه.

والحقيقة أن من يقرأ هذا الحكم - الذى يربو على المائة صفحة والممتع فى دقته وحرفيته العاليتين - يمكنه تلمس نقد قاتل لهذا القانون دون أية إشارة صريحة إليه، الأمر الذى غدا معه سقوط هذا القانون أمراً مسلماً به حتى من قبل الحكومة ذاتها، التى قامت بإعداد مشروع قانون آخر بديل لذاك المقتول بحكم محكمة اللوردات، على ما سوف نذكره لاحقاً.

والحق أن متابعة التفاصيل اليومية للمزايدة الانتخابية الجارية الآن - أقول مزايدة لا معركة لأنها فى حقيقة الأمر لا تعدو أن تكون تنويعات على برنامج انتخابى واحد - هو أمر شيق جداً، فثمة حزبان أساسيان يتباريان للاستحواذ على أكثر الأصوات - حزب العمال وحزب المحافظين - كلاهما لديه ذات الأولويات، وكلاهما لديه ذات المقاربة لذات المشكل، فقط بعض الاختلاف فى التفاصيل والجزئيات الفرعية، مصحوب بتضخيم إعلامى حول أهميته.

وثمة حزب آخر لا يقوى على المنافسة الشعبية وإن كان الأكثر مصداقية فى التقدير الموضوعى الكلى، ألا وهو الحزب الليبرالى الديمقراطى.

فمثلاً إذا نظرنا إلى برنامج حزب العمال المعلن نجده يتكون من ستة عناصر:

١) الأسرة: وعد بتحسين وضعها المعيشى عن طريق تخفيض معدلات التضخم وتقليل أقساط شراء العقارات ورفع لمعدلات الأجور.

٢) الطفل: وعد بتحسين مستويات قدراته عن طريق المدارس العصرية والانضباط التام، مع ضمان أماكن للتدريب.

٣) الأبناء: وعد بأوضاع افضل لهم عن طريق تحسين أنظمة رعاية الأطفال (أجازة رعاية الطفل وإتاحتها للآباء كما للأمهات) ورعاية أفضل لأطفال ما دون الخامسة وتقدير نظم رعاية لما بعد الفترة الدراسية لأطفال ما بعد الخامسة.

٤) رعاية صحية: تتمثل فى الجملة فى توفير أنظمة تتجاوز العيوب القائمة فلا تزيد فترة الانتظار لإجراء العملية على ثمانية عشر أسبوعاً مع إتاحة فرص لاختيار مكان العلاج وزمنه.

٥) أمن اجتماعى: بتوفير فرق أمن محلى واتخاذ إجراءات صارمة فى مواجهة التهريب والجريمة وتجارة المخدرات.

٦) أمن للدولة: يقصد به إجراءات لحماية أمن الدولة ذاتها ويتمثل فى إصدار بطاقات شخصية تشبه الرقم القومى لدينا (هل يصدق أن ليس فى بريطانيا العظمى بطاقات شخصية)، ورقابة دقيقة للوظائف والأعمال للحيلولة دون قيام طالبى اللجوء السياسى بالعمل دون إذن مخصوص، وتقعيد نظم لمعالجة الهجرة غير الشرعية.

حال نجد برنامج حزب المحافظين المنافس يقرر الآتى:

١) تقليل فى الضرائب.

٢) نظم مدرسية أكثر انضباطا.

٣) مستشفيات أكثر نظاماً ونظافة.

٤) مزيد من البوليس (ويعنى به مزيداً من الأمن)

٥) رقابة الهجرة غير الشرعية.

الأمر الذى يبين منه مقدار التقارب فى الأولويات بين البرنامجين بل وبين



ثمة حزبان أساسيان يتباريان للاستحواذ على أكثر الأصوات - حزب العمال وحزب المحافظين - كلاهما لديه ذات الأولويات، وكلاهما لديه ذات المقاربة لذات المشكل، فقط بعض الاختلاف فى التفاصيل





المعالجات المقترحة بكل منهما. والحقيقة أن هذا ليس مقال عرض للحال الانتخابي، وإنما هو معرض لتناول وضع حقوق الإنسان، لذلك آثرنا العرض السريع للبرامج الانتخابية لهذين الحزبين، كخلفية لمنطلقات كل منهما الأمنية الماسة في جوهرها موضوع حقوق الإنسان، وتحديداً في مجالات الصحة، والهجرة، والتدبير الأمني أو مقاومة الإرهاب كما يحلو تسميته الآن.

في مجال الصحة:

البين لكل من يعايش الحياة اليومية البريطانية، أن ثمة تدنياً في مستوى الخدمات الأساسية المقدمة للمواطن في هذا المجال تحديداً، وإن كانا مازالا في وضع أفضل من أوضاع مماثلة في كثيراً دول العالم الأخرى.

ولعل الشاهد على ذلك، أن الحزب الحاكم ذاته، القائم على الحكم منذ سنة ١٩٩٧، يصوغ برنامجه الانتخابي على وعود بتحسين مستويات الخدمات المقدمة في هذا المجال.

الأمر الذي يدعم الشعور الذي ينتاب المشاهد، بأن ثمة تدنياً حقيقياً في مستويات تلك الخدمة، خاصة أن برنامج حزب العمال في هذا الشأن، لا يتأسس على أفكار مركبة تخص هذا المجال الخدمي، تعطي شعوراً بالثقة بأن ثمة إنجازاً قد تم في عهده، وأن القادم سوف يكون بناء على ما تم، وإنما - على العكس- يحمل معنى تصحيحياً لأوضاع تردت.

والحق فإن هذا استنتاج تمتلئ الجرائد اليومية بما يؤكده، فهل يتصور - وبالطبع أنا أتحدث عن أحد دول العالم المتقدم الكبرى وليس عن إحدى الدول النامية - أن يكون هناك على قائمة الانتظار لإجراء جراحات ما يقرب من ٧٥٠٠٠ مريض - وحسب قول السلطات هم فقط ٦٦٠٠٠ مريض - وهذا الانتظار يجاوز فعلاً السنة. لهذا السبب ولغيره تتزايد ظاهرة التأمين الصحي الخاص، وهي ظاهرة جديدة نسبياً على المجتمع الإنجليزي. الأمر الذي يصير قلقاً على وضع حقوق الإنسان المتعلق بالصحة، في الوقت الذي تصرف الحكومة فيه جُل اهتمامها إلى شئون أخرى، لا أهمية لها مقارنة بالوضع الصحي، كتحريم صيد الذئاب، الذي أثار استقطاباً في المجتمع الإنجليزي دون مقتضى، حيث تم تمرير قانون يحرم صيد الذئاب وبعض أنواع الحيوانات الأخرى، بدعوى أنها هواية غير إنسانية، . الأمر الذي كان من المتصور معه تحريم مشتقات الصيد، كتحريم الاتجار في الفراء، كأثر منطقي لمنطق متعاطف مع الحيوان، إلا أنه لم يحدث، من يؤكد محض عبثية القانون وقيامه على أهداف حزبية خاصة تتصل بجدلية مصارعة الديوك بين الحزبين الكبيرين - . بل والأفدح أن هذا القانون به من الثغرات ما يمكن عن طريقها الاستمرار في صيد الذئاب شريطة الالتزام بالنموذج المقرر.

المهم أن الحكومة قامت بتمرير هذا القانون، وهو بالمناسبة يتضمن نصوصاً عقابية تطال من يتلبس مرتكباً جريمة الصيد، ما يعني أن من يقوم بالصيد يصير مجرماً، ويحرر له ملفاً إجرامياً. مما يفيد أن تلك الحكومة الليبرالية ما تفتأ أن تزيد بشكل دوري إطار التجريم العقابي، وهو الأمر الذي ينتقل بنا إلى مجالي الهجرة والأمن.

في مجال الهجرة :

نجد مثلاً حزب المحافظين يعلن أن الهجرة برمتها تمثل عبئاً على المجتمع الإنجليزي، الذي لم يعد قادراً على استيعاب تلك الأعداد من المهاجرين، مقترحاً أن يتم تنظيمها على النحو الذي لا يسمح معه لأحد بالهجرة إلى المملكة المتحدة إلا إذا كان المجتمع في احتياج لتخصصه الوظيفي. هذا الإعلان يبدو في ظاهره عادلاً، فثمة مجتمع يريد أن يحافظ على أوضاعه، وهو في رأيي: حق مشروع.

بيد أن المشكل يكمن فيما وراء هذا المظهر الخادع، إذ يندرج ضمن ذلك: حق للدولة في إعادة دراسة حالات الهجرة التي تمت بالفعل وجدوى استمرار وجود كل حالة في المملكة المتحدة، كما يندرج حق لها في منع الحاصلين على الهجرة من التوحد مع أسرهم فلا يسمح لهم باستجلاب أسرهم.

وإضافة إلى ذلك فإن ثمة فكرة تتصل بالأخذ بنظام الحصص، حيث تخصص لكل دولة حصة «كوتة» يتعين التزامها، فلا يقبل مهاجرين من أية دولة إلا في حدود الحصة المقررة لمواطنيها.

وإلى جانب كل ذلك ثمة إعلان صادر عن هذا الحزب بالمطالبة بالانسحاب من معاهدة الأمم المتحدة لشئون اللاجئين، وبعض مواد القانون الأوروبي لحقوق الإنسان. والطريف في هذا الخصوص أنه ما أن أعلن زعيم حزب المحافظين ذاك - مايكل هوارد - . إلا والإعلام قد تسربت إليه أنباء تتعلق بجد هذا الزعيم، تفيد أنه مهاجر غير شرعي قام بتزوير أوراق الهجرة ليحصل على الإقامة، الأمر الذي اضطر هو معه إلى تأكيده مع إعلان تنصله مما فعله جده، بل ونقده له.

على أن كل هذا لا أهمية كبرى له، لأنه كما يقولون من قبيل الاستهلاك الإعلامي في محاولة من الحزب للمنافسة، حال تتضاءل فرصه في النجاح، كما أنه غير مصحوب بمخططات جاهزة للتدابير المراد اتخاذها.

بيد أن مكمن دلالته في موقف هذا الحزب من حقوق الإنسان إجمالاً، لا المتعلقة بالهجرة فحسب. فكيف يعقل أن مهاجراً منذ زمن أقام حياته في إنجلترا إقامة مستقرة ومنتظمة، أن تتم إعادة تقييم لحاله، بحيث يحتمل أن يتم ترحيله هو وذويه بناء على هذا التقييم، إذا ثبت مثلاً أنه لا يؤدي للمجتمع الإنجليزي خدمات جليلة.

ثم كيف لحزب عريق كحزب المحافظين أن يقترح الانسحاب من إحدى أو بعض المعاهدات الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان، أنا أتعجب من تلك الجرأة، ولا أستطيع تخيل الحال إذا ما اقترحت إحدى حكومات دولنا اقتراحاً مشابهاً.

أما على مستوى حزب العمال فالأمر جد شديد البأس، لأن هذا الحزب ما فتئ أن قام بالفعل بتنفيذ مخططاته وتدابيره الأمنية التي تفصح عن وضع شديد الضراوة، وهو ما يتعين معه اتخاذ إعلانه عن أية برامج أو استراتيجيات على هذا المستوى مأخذ الجد. ففي خصوص شئون الهجرة واللجوء السياسي، فقد أعلن عن مخطط من ثلاثة محاور:الأول يتصل بوجوب تغيير استراتيجيات التعامل مع المهاجرين للعمل فلا يسمح لهم بالبقاء في المملكة المتحدة لفترات طويلة، كما سوف يجرى العمل بنظام النقاط حيث تتم ترجمة مؤهلات كل إنسان إلى نقاط، ولا يسمح لأحد بالدخول للعمل إلا إذا تحققت فيه النقاط المطلوبة. مع تردد أنباء غير مؤكدة - وإن لم تنف أيضاً - عن احتمال تقليص إمكانات اللاجئين في استجلاب ذويهم، مع التأكيد على أن هذا إن تم فلا يسري على الأزواج أو الأبناء.

والثاني يتعلق بتعديلات في طرق تقدير أهلية قبول طالبي اللجوء السياسي، مع وضع نظم عقابية تتمثل في الاعتقال بالنسبة لمن يفشل في الحصول على اللجوء السياسي المطلوب، والقول في هذا الخصوص مبرر بأنه موجه لعصابات تهريب العمال من شرق أوروبا. وأما الثالث فيتصل بمراجعة شاملة لنظم مراقبة المهاجرين جميعهم.

الأمر الذي يقدر معه جوهر التشابه بين برنامجي الحزبين، المتساندين في اتجاه يتناقض والموقف المعلن من حقوق الإنسان، بل إن ثمة تناقضاً بين تلك السياسات والقانون الأوروبي لحقوق الإنسان، لا تنفك منظمات حقوق الإنسان مشيرة إليه تارة، محذرة منه تارة أخرى.

هذا القانون يقرر سلطات أخرى لجهة الإدارة، كتقييد حق المواطن في التنقل، وتقييد إقامته في منزله وحرمانه من الخروج والزيارات (نموذج أوروبي للتوقيف الإداري)، ومن حق الاتصال الهاتفي أو استخدام الإنترنت



حال كون الحزب الليبرالي الديمقراطي في حال معارضة شبه تامة لتلك الإعلانات جميعها، بتقدير أنها تؤدي في الجملة إلى خلط بين نماذج هجرة متباينة في مراكزها وظروفها، مما يؤدي بالضرورة إلى تكوين رأي عام معاد للمهاجرين بعامة، متهماً كل من الحزبين بافتعال سجال انتخابي الغرض منه المصالح الانتخابية، مشيراً إلى أن مشكل الهجرة هو ظاهرة عالمية لا يمكن علاجها إلا على نحو إقليمي أوروبي.

التدبير الأمني:

المشكل متفاقم والمقدمات غير مبشرة، فحزب المحافظين صامت في خصوص هذه المسألة، ويتردد أنه في انتظار تسويات سياسية يجريها مع حزب العمال في هذا الخصوص. جوهر الموضوع يكمن فيما لحزب العمال من رؤية واضحة في خصوص الموقف من الأمن الداخلي، فيما يعرف بمكافحة الإرهاب، وهو موقف مسبق أنف وذكرناه فيما أصدرته حكومته من القوانين المذكورة. بيد أن الرؤية يبدو أنها أكثر اكتمالاً مما نظن، إذ بتأثير من قضاء مجلس اللوردات المذكور الذي أسقط قانون الإرهاب الدولي، ومحاجة بالانتخابات القادمة التي هي فرصة ذهبية لقوى الإرهاب العابثة لتهديد الأمن القومي الإنجليزي - إشارة إلى الانتخابات الإسبانية - فقد أعلن حزب العمال الحاكم، الاحتياج القومي إلى مزيد من النظم القانونية التي تمكن من توفير قدر أكبر من الكفاية الأمنية.

فإذا به في الأيام القليلة الماضية، يحاول تمرير قانون يسمح للحكومة بالاعتقال العام لأي مواطن وليس للمهاجرين فقط - حلاً لمشكل العوار الدستوري الذي أشار إليه حكم محكمة اللوردات - ، دون تقييد بوجوب العرض على القضاء سواء لاستصدار أمر بالاعتقال أم لتمديد مدده، بل ودون أية ملزومية بإخطار المعتقل بأسباب اعتقاله، وهو ما يتناقض صراحة مع أحد المبادئ الدستورية الإنجليزية التي تحظر، في غير أحوال اللاجئين، الاعتقال بقرار تنفيذي منفرد، أي الاعتقال من دون قرار قضائي مسبق، وبدوره يتناقض مع مبادئ القانون الدولي الإنساني - التي يدعي الغرب ذاته عالميتها - التي تقرر حق كل مقبوض عليه في معرفة وجه الاتهام الموجه إليه.

يضاف إلى ذلك أن هذا القانون يقرر سلطات أخرى لجهة الإدارة، كتقييد حق المواطن في التنقل، وتقييد إقامته في منزله وحرمانه من الخروج مع حرمانه من الزيارات (نموذج أوروبي للتوقيف الإداري)، والحرمان من حق الاتصال الهاتفي أو استخدام الإنترنت. والغريب أن كل هذا يراد له أن يتم بموجب هذا القانون، الذي بدوره يحرم القضاء من أي سلطان تقديري في هذا الخصوص.

وفي هذا فقد نقل عن وزير الداخلية السيد تشارلز كلارك قولاً يفيد أنه لن يسمح للقضاء بالتدخل فيما يتخذه من تدابير أمنية وإلا يكون بذلك قد فرط في مسئولياته عن الأمن القومي.

وقد عرض مشروع هذا القانون على مجلس النواب الذي أجازه على الرغم من معارضة حزبي المحافظين والليبراليين الديمقراطيين، ليُحول إلى مجلس اللوردات، ذاك المجلس - غير المنتخب - الذي يتكون من أغلبية تنتمي إما إلى المحافظين بحكم كونهم لوردات وإما إلى المستقلين من غير الحزبيين - كالقضاة المتقاعدين والمحامين من اللوردات وبعض اللوردات ممن ينتمون إلى الحزب الليبرالي الديمقراطي - ، الذي رفض هذا المشروع وأعاده ثانية إلى مجلس النواب.

وهنا اتضحت الرؤى إذ ثبت أن ثمة موقفين غير متطابقين يمثلان معارضة لهذا القانون. الموقف الأول ويمثله غالب المستقلين من أعضاء المجلسين، وهو رفض القانون لمخالفته لمبادئ حقوق الإنسان، ويمكن أن يضاف إلى هؤلاء من أنصار هذا الرأي أعضاء الحزب الليبرالي الديمقراطي، على قلتهم.

والموقف الآخر يمثله أنصار حزب المحافظين، بزعامة السيد مايكل هوارد - وزير الداخلية السابق في عهد البارونة مارجريت تاتشر رئيسة الوزراء السابقة - وهو موقف اقتضته الدواعي الانتخابية لا دواعي حقوق الإنسان، إذ تمسك هذا الحزب بوجوب تضمين القانون نصاً يفيد سقوطه بحلول شهر نوفمبر القادم، سقوطاً جبرياً حكماً غير متوقف على إرادة أحد.



على أن موقف حزب العمال زاد تصلباً فقام بطرح ذات القانون مرة أخرى على مجلس النواب بحاله السابق دون أية تعديلات من تلك التي أشار إليها مجلس اللوردات، فأجازه مجلس النواب وأرسله إلى مجلس الآخر، الذي رفضه مرة ثانية متمسكاً بما طالب به من تعديلات.

وهنا جاء المأزق الدستوري، ذاك أنه إذا ما أصر مجلس النواب على رأيه ثالثة وبدوره رفضه مجلس اللوردات ثالثة، فلا يكون أمام مجلس النواب - حال إصرار الحكومة على إصدار القانون - إلا أن يصدره على ضمانته وبضمان الحكومة، الأمر الذي يجعله عرضة لمناقضات قضائية فضلاً عن الإحراج السياسي الذي يتعرض له الحزب الحاكم جراء ذلك، فيما لم يحدث منذ ٩٩ عاماً.

الأمر الذي استبعد معه المراقبون إقدام الحكومة على صدر مثل هذا القانون، مرجحين تعجيلها بإجراء الانتخابات فوراً، تلك التي تطوى من ضمن ما تطويه استفتاء حول هذا القانون. على أن رئيس الوزراء ارتأى وجوب حل هذا المأزق وعدم المخاطرة بإجراء انتخابات سابقة لأوانها، فقدم تعديلاً في مشروع القانون يفيد إعادة تقييم القانون ثانية في يوليو ٢٠٠٦، بناء على تقرير جهة رقابية محايدة تعين خصيصاً لمراقبة هذا القانون. الأمر الذي لاقى هوى الجميع وتمت الموافقة عليه من قبل المجلسين. حتى الآن والمراقبون لا يعرفون على وجه الدقة ماذا يطوى هذا القانون، الأمر الذي استبان بعد تمام الموافقة عليه من المجلسين، ويمكن اختصاراً تعيينه في النقاط الآتية:

١) حق وزير الداخلية في تقدير خطورة أي مقيم على أرض بريطانيا - مواطن أم أجنبي - وإصدار قرار بالاعتقال، مع وجوب عرض الأمر على القضاء خلال أسبوع، مع حق وزير الداخلية في إخفاء سبب الاعتقال عن الجميع حتى المعتقلين أنفسهم.

٢) جواز الحجز الإداري في المنازل مع منع الزيارة إلا من خلال إجراءات تتم عن طريق وزارة الداخلية.

٣) منع المحجوزين إدارياً من مغادرة منازلهم خلال أوقات الليل، اما أثناء النهار فيجب اتخاذ موافقة مبتدأة من وزارة الداخلية.

٤) جواز قيام المعتقلين إدارياً باستخدام الهواتف السلكية مع حرمانهم من الهواتف الخلوية.

٥) ربط جميع هؤلاء إلكترونياً بوزارة الداخلية عن طريق أجهزة تشبه الساعات تشد على معاصمهم لا يخلعونها نهائياً، سواء ليلاً أم نهاراً، أياً ما يكون السبب. وهكذا تم تقويض حكم محكمة اللوردات، سياسياً، واختزاله في عنصر المساواة بين المواطنين والأجانب من حيث جواز الاعتقال، نزولاً على المثل العربي «المساواة في الظلم عدل»، دون أدنى تقدير لبقية حيثيات ذاك الحكم العظيم في تأصيله لمبادئ حقوق الإنسان وأوضاعها التطبيقية. وحصل التواطؤ سياسياً بين أفراد اللعبة السياسية على مذبح حقوق الإنسان، الذي دشن أول إنجازاته في قرارات وزير الداخلية بالاعتقال الإداري لأولئك العرب العشرة المتهمين بالإرهاب، الذين كان قد صدر في حقهم حكم محكمة اللوردات، والذين أبى وزير الداخلية الإفراج عنهم حتى



تم تقويض حكم محكمة اللوردات، سياسياً، واختزاله في عنصر المساواة بين المواطنين والأجانب من حيث جواز الاعتقال، دون أدنى تقدير لبقية حيثيات ذاك الحكم العظيم في تأصيله لمبادئ حقوق الإنسان



يصدر هذا القانون. وفى إطار من كل هذا لا يبدو أن المواطن فى حال اكتراث بما يحصل، فالتقديرات جميعها فى صالح نجاح حزب العمال، ونسب المشاركة فى هذه الانتخابات لا يتصور أن تزيد على ٤٠٪ (حول هذه النسبة دارت المشاركة فى الجولات الانتخابية طوال العقدين المنصرمين)، وإن كان ثمة تقدير أكثر تشاؤماً يستبعد بلوغ المشاركة الانتخابية فى هذه الجولة تلك النسبة. وعلى حد قول أحد القضاة: إننا بهذا لا نكون بصدد انتهاك لإحدى قيمنا التى يتأصل عليها نظامنا فحسب، وإنما نكون بصدد ارتكاب جريمة خيانة تاريخية قبل الأجيال السابقة علينا التى ناضلت من أجل نيل تلك الحقوق.

والذى يتبادر لدى هنا ومن الناحية القانونية الفنية، أن نظم الطوارئ - المعروفة بالمشروعية الاستثنائية - والمعمول بها فى بلادنا، تغدو أكثر قرباً لحقوق الإنسان، مما تفيده القراءة المجردة للوضع القانونى فى إنجلترا.

ذلك أن نظمنا على الأقل تعترف بأنها استثنائية، أما تلك الإنجليزية فيه تتعلق بأطر المشروعية العادية، خاصة إذا ما قدرنا أن النظام القانونى الإنجليزى هو نظام يتسم بالاستقرار الشديد فى أوضاعه، مما يفيد أنه ليس بالسهل تعديل أى من القوانين التى تدخل حيز التنفيذ، ومن ثم فإن هذه القوانين إن كتبت لها الحياة، فإنها سوف تصير جزءاً ركيناً من البنية القانونية لهذا النظام.

خلاف وضع نظم الطوارئ فى بلادنا التى مهما طال عليها أمد البقاء، فهى بالنهاية نظم استثنائية. بالطبع أعرف أن ثمة اختلافاً شاسعاً مازال بين نظمنا ونظم العالم المتقدم، كالنظام الإنجليزى مثلاً، وبالطبع أعرف أن كل محاولة للمقارنة بين أسوأ أحوال نظم العالم المتقدم لا تقارن بأحوالنا الفضلى، إلا أن هذه الحقائق القائمة الآن فى العالم المتقدم لا تعطى أية مقدمات مبشرة.

والأمر على هذا النحو يثير التساؤل حول مستقبل حقوق الإنسان فى العالم، ويعود بنا إلى ما بدأنا به، ألا وهو امتصاص العنصر السياسى لباقى عناصر منظومة حقوق الإنسان، فحقوق الإنسان قد جرى - أو يجرى - اختزالها فى المفهوم السياسى للديمقراطية، بمعنى أنه صار كافياً للدلالة على وجود وضع مرض لحقوق الإنسان، وجود شكل ما لتداول السلطة بين أشباه سياسية تسمى أحزاباً، تدور جميعها فى فلك السياسة العالمية، المرسومة بدورها من قبل مراكز صنع القرار الأمريكى، بغض النظر فيما بعد عن أية أوضاع أخرى تمس شأن الإنسان أو احتياجاته الإنسانية.

وبذلك تكون البشرى لكل الأنظمة . وتحديداً الشرائح العليا من المجتمع القابضة على مقدراته . : فمن يتمكن من توفير هذه العناصر، يصير نصيراً لحقوق الإنسان، وسوف يمنح سجلاً مشرفاً فى مجال حقوق الإنسان، ويحصل على كل الدعم السياسى الدولى، ولا يستبعد أن يمنح شخص مجسد هذه التجربة الرائعة، جائزة دولية على ذلك. ولا يهم بعد، قدر الأمن الجنائى الذى ينعم به المواطنون، ولا يهم مقدار ما هو موفر لهم من خدمات تتعلق بالصحة أو التعليم مثلاً، وبالقطع فإن مستويات الكفاية الاقتصادية على المستوى الجمعى لأفراد الشعب بدورها تكون غير ذات أهمية، الكل متقلص متضائل الشأن مقارنة بالتجربة الديمقراطية الرائدة وبنعيم حقوق الإنسان الذى يرتع فيه شعب هذه الدولة، الذى يقع شأنه السياسى ومستقبله الحضارى رهيناً بدورات اللعبة السياسية الخاصة بتداول السلطة على النموذج الغربى، بين أشباه سياسية تتنافس على رضاء مراكز صنع القرار الدولى، عليها، بما يمنحه لها من شرف الاعتماد، وتقديم الدعم الدولى الذى يمكنها من اعتلاء سدة الحكم، ولو مؤقتاً حتى إشعار ديمقراطى آخر، بضرورة التغيير.

شعار يفيد ضرورة تدوير آلة الديمقراطية مرة أخرى، لتغيير الشكل القائم وتفريغ شكل آخر جديد، يخول إليه القيام بدور التبعية المنوط بالأشباه السياسية الممنوحة وحدها شرف الأداء السياسى فى ظل منظومة الديموقراطية.

وأجل التهانى لنظم العالم الثالث الأمنية التى تمكنت من إقناع العالم المتقدم نصير حقوق الإنسان، بأولوية العنصر الأمنى على كل عناصر حقوق الإنسان الأخرى، وتعساً لكل من يحمل أفكاراً حالمة بالكرامة الإنسانية والعدالة والمساواة. ■

محمد مندور.. لمحات

رجاء النقاش

كلما حل شهر مايو ومعه آخر أنسام الربيع وأوائل لهيب الصيف، تذكرت الناقد العربى الكبير محمد مندور الذى مات فى مثل هذا الشهر من عام ١٩٦٥ عن ثمانية وخمسين عاماً، حيث إنه من مواليد ١٩٠٧، والحقيقة أن مندور يمثل فى تاريخنا الثقافى شخصية لا يمكن لمن عرفها معرفة شخصية أو عرفها عن طريق القراءة أن ينساها، أو ينسى ما كان فى هذه الشخصية من سحر هادئ عجيب. فقد كان مندور رجلاً شديد الذكاء، ولكنه لم يكن يتعالى بذكائه على الآخرين، لأنه كان شديد التواضع، وكان واسع الثقافة، ولكن ذهنه كان شديد الوضوح قادراً على تبسيط أى فكرة معقدة، بحيث يستطيع أى إنسان أن يفهم هذه الفكرة مهما كانت عميقة أو صعبة.

وعندما أتذكر مندور - وكثيراً ما أتذكره - فإننى أستحضر فى وجدانى وذهنى نموذجاً رائعاً للتسامح والبساطة وسلاسة التفكير والتعبير، فى الكتابة والحديث، مع معاملة طيبة حسنة راقية مهذبة لسائر الذين كانوا يتصلون به، كباراً أو صغاراً، متفقين معه أو مختلفين.

وأذكر أننى قرأت للدكتور مندور كثيراً قبل أن ألتقى به، وأحببت، بل طربت وأحسست بالنشوة من فكرته التى نادى بها ودعا إليها وهى «الهمس» فى الأدب بدلاً من الخطابة والاعتماد على الألفاظ الزاعقة الرنانة المليئة بالضجيج.

وفكرة «الهمس» هذه فكرة أساسية ونبيلة، وقد لقيت هذه الفكرة تجاوباً كبيراً من جانب الأدباء والرأى العام، وقد طرحها مندور فى أوائل الأربعينيات من القرن الماضى على صفحات مجلة «الثقافة» التى كان يصدرها أحمد أمين فى القاهرة عن طريق «لجنة التأليف والترجمة والنشر»، وقد ظلت مجلة «الثقافة» هذه تصدر أسبوعياً من سنة ١٩٣٨ وحتى ١٩٥٣، حيث توقفت عن الصدور مع زميلتها «الرسالة» التى سبقت «الثقافة» بخمس سنوات، حيث إنها قد صدرت سنة ١٩٣٣ .

يكفى أن نقرأ هنا تعريف مندور لمعنى «الهمس» أو «الأدب المهموس» حتى نشعر أن هذه الدعوة لم تكن مجرد دعوة أدبية، بل هى - فى الوقت نفسه - دعوة إنسانية صادقة قريبة جداً إلى العقل والقلب.

وكان مندور واعياً أشد الوعى بهذا المعنى حيث كان يقول إننا نريد «أدباً مهموساً أليفاً إنسانياً»، ثم يقول «إن الهمس فى الشعر ليس معناه الضعف، فالشاعر القوى هو الذى يهمس فتحس صوته خارجاً من أعماق نفسه فى نغمات حارة، ولكن الهمس غير الخطابة التى تغلب على شعرنا فتفسده، إذ تبعد به عن النفس. عن الصدق.

عن الدنو من القلب. الهمس ليس معناه الارتجال، فيبتغى الطبع فى غير جهد ولا إحكام صناعة، وإنما هو إحساس بتأثير عناصر اللغة واستخدام



مندور يقول عن معاناته فى سنواته الأخيرة: لقد تحملت كثيراً من الإهانات الماسة بكرامتى حتى أتمكن من أداء واجبى



تلك العناصر فى تحريك النفوس وشفائها مما تجد، وهذا فى الغالب لا يكون من الشاعر عن وعى بما يفعل، وإنما هو غريزته المستنيرة ما تزال به حتى يقع على ما يريد.

الهمس ليس معناه قصر الأدب أو الشعر على المشاعر الشخصية، فالأديب الإنسانى يحدثك عن أى شىء يهمس به، فيثير فؤادك، ولو كان موضوع حديثه ملابسات لا تمت إليك بسبب».

هذا هو «الهمس» كما يشرحه مندور، فدعوته إلى «الهمس» هى دعوة أدبية، وهى دعوة حضارية إنسانية فى الوقت نفسه.

كنت أقرأ هذا الكلام فى بداية حياتى الأدبية فيسعدنى ويفتح عقلى وقلبى على معان إنسانية كبيرة، وهكذا تعلقت بكتابات مندور وتابعته متابعة دقيقة، وبلغ من حبى له أننى كنت أجمع بخط يدى بعض مقالاته التى لم ينشرها فى كتب، وكنت أشترك مع أخى «وحيد» رحمه الله فى نقل هذه المقالات المبعثرة، وأصبح لدينا من هذه المقالات كشكول كبير، وقد قدمت هذا «الكشكول» إلى مندور، وذلك بعد أن جئت إلى القاهرة من قريتى «منية سمنود» بمحافظة المنصورة، أو الدقهلية، لألتحق بجامعة القاهرة. وقد تعرفت على مندور بعد وصولى إلى القاهرة بعام أو أكثر قليلاً.

ثم تشاء الأقدار أن يموت مندور سنة ١٩٦٥، وكنت أيامها رئيساً لتحرير «كتاب الهلال» الشهرى، فسألت زوجته الشاعرة ملك عبد العزيز عن «الكشكول» الذى يجمع مقالات مندور المبعثرة، والذى كنت قدمته إليه منذ أكثر من عشر سنوات قبل رحيله، وسلمتنى زوجة مندور هذا «الكشكول» فنشرته على الفور فى «كتاب الهلال» تحت عنوان «كتابات لم تنشر»، وهذا الكتاب هو من أفضل كتب مندور وأكثرها عمقاً وتنوعاً وإضاءة رائعة لما ينبغى أن يكون عليه مستقبلنا الثقافى والسياسى والاجتماعى.

وقد سعدت بنشر هذا الكتاب واعتبرت ذلك تحية مخلصة منى لهذا الناقد الرائد الكبير.



وعندما تعرفت على مندور بصورة شخصية لأول مرة حوالى سنة ١٩٥٢، وأنا فى الثامنة عشرة من عمرى، وكنت طالباً فى الجامعة، توثقت الصلة بينه وبينى، فى حدود ما يمكن أن يقوم من صلة بين أستاذ كبير وتلميذ صغير من المحبين له والمعجبين به والعارفين بقدره وفضله، وكان مندور قد تعرض قبل ذلك بقليل لمرض خطير أدى إلى ضعف عينيه، فلم يعد قادراً على الكتابة، وأصبح يملى مقالاته ودراساته المختلفة على بعض تلاميذه، وكنت واحداً منهم، والحقيقة أننى كنت أشعر بالسعادة والزهو وأنا أقوم بهذه المهمة، لأننى كنت أشعر أننى أتعلم كثيراً وأنا أكتب ما يمليه هذا الأستاذ الكبير وأسجله على الورق، وكنت أتعلم من أسلوبه الواضح وتعبيره الدقيق وقدرته العالية على تبسيط أعقد الأمور وأكثرها صعوبة. كما كنت أسعد كثيراً بذلك المنطق القوى الذى يملأ مقالاته، ويستند إليه مندور دائماً فى حججه ومناقشاته، ومن شرح وجهات نظره وتفسير آرائه المختلفة.

وكنت أرى ذلك ثمرة للزواج بين ثقافته القانونية وثقافته الأدبية، فقد نال مندور شهادتين جامعيتين هما «ليسانس الآداب» و«ليسانس الحقوق» معاً، وهذا جانب من جوانب نبوغه المبكر منذ أن كان طالباً فى الجامعة فى عشرينيات القرن الماضى، فقد جمع بين الدراستين ونجح فيهما بتفوق لفت الأنظار إليه.

أما المرض الذى تعرض له مندور وأضعف عينيه فلعله يكون هو نفسه المرض الذى قضى عليه فى آخر الأمر سنة ١٩٦٥، وذلك بالرغم من أن بنيان مندور العضوى كان قوياً ومتيناً، فهو بنيان فلاح تتدفق فى عروقه الصحة والعافية. ولكن هذا المرض الذى فاجأه سنة ١٩٥١ وكان فى حوالى الرابعة والأربعين من عمره، ظل يعمل فى جسده حتى أدى إلى وفاته وهو فى الثامنة والخمسين.

ويحكى مندور قصة هذا المرض فى حديث ممتع له مع الناقد الكبير الراحل «فؤاد دوارة»، وقد نشر «دوارة» هذا الحديث مع أحاديث أخرى فى كتاب له عنوانه «عشرة أدباء يتحدثون».

وقد كان مندور عندما فاجأه المرض عضواً فى مجلس النواب الوفدى، وقد

من حيـــاة رائـــد كبيـــر

خرجت جريدة «أخبار اليوم» التى كانت تعارض الوفد فى شراسة بعنوان كبير على صفحتها هو: «محمد مندور يصاب بالعمى»، وقد رفع مندور قضية ضد «أخبار اليوم» واتهمها بأنها «أضرت بسمعته وأساءت إليه فى عمله بالمحاماة»، وبعد سنوات طويلة كسب مندور هذه القضية، وأظن أن المحكمة قد حكمت له بتعويض قدره خمسة آلاف جنيه، وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت.

يقول مندور فى وصف قصة مرضه:

«.. لم يكد يمضى عام ١٩٥٠ على عضويتى فى مجلس النواب، وعملى المتواصل داخله كرئيس للجنة التعليم، وعضو فى اللجنة المالية، ومقرر لميزانية وزارة المعارف، حتى فوجئت بمرض داهم تبينته من الضعف الذى أحسسته فى إحدى عينىّ، وبعد أن عرضت نفسى على أكبر أطباء العيون فى القاهرة نصحنى الدكتور عبد الحميد عطية بعمل أشعة على الغدة النخامية بأسفل المخ. وصورت هذه الغدة بالأشعة، فتبين أن بها ورماً طارئاً أحدث ضغطاً على عصب الإبصار فى العين اليسرى فأصابه بالضمور، وبعد مشاورات بين الأطباء قرروا سفرى إلى لندن لفتح الجمجمة وإزالة هذا الورم حتى لا أفقد بصرى كله.



وفى لندن مكثت فى المستشفى بضعة أيام للتحضير للعملية، وذات صباح وضع الطبيب حقنة فى شريان ذراعى غبت على أثرها عن الوعى، فلما أفقت سألت الممرضة عن موعد العملية، فإذا بها تخبرنى أن العملية قد أجريت بالفعل، وأنى قد مكثت غائباً عن الوعى أسبوعاً كاملاً، التأم خلاله عظم جمجمتى بل وجلد رأسى أيضاً، وتحسست رأسى فلم أجد فيه غير هذه الفجوة الصغيرة التى لا تزال موجودة إلى اليوم من أثر نشر الجمجمة، وتم نقلى بعد أسبوع إلى قسم الأشعة بمستشفى الجامعة، حيث عولجت بالأشعة العميقة شهراً كاملاً.



تلك هى قصة المرض كما يرويها الدكتور مندور، وقد كان هذا المرض نفسه موضوعًا لتعليق «طبى» كتبه أديب طبيب هو الدكتور يوسف إدريس يقول فيه: «لقد كشف المرحوم الدكتور مندور عن حقيقة مرضه وعن العملية التى أجراها له الجراح الإنجليزى «هارفى جاكسون» واستأصل بها تقريبًا «الغدة النخامية» الكائنة أسفل فصى المخ الأماميين حفاظًا على نظره، وهى عملية خطيرة للغاية، ولكن الأخطر منها أن استئصال الغدة النخامية يعنى أن تتوقف جميع غدد الجسم المعروفة علميًا باسم «الغدد الأندوكرينية» عن الإفراز، فالغدة النخامية هى «المايسترو» الذى على وقع عصاه فقط تعمل تلك الغدد الأخرى، وإلا توقفت، وكان معنى هذا أن أستاذنا الدكتور مندور ظل سنوات طويلة يحيا وهو يتناول خلاصات هذه الغدد جميعاً، وهى كثيرة ومتشعبة ومتعارضة، ورغم هذا فإنها لا تستطيع أن تقوم بدور الغدد الطبيعية، وهذا هو السر فى حركته البطيئة التى كنا كثيراً ما نستغرب لها ونندهش منها».



وهكذا عاش مندور حوالى خمسة عشر عامًا من حياته تحت ضغط المرض الذى كان يعانى منه والذى أضعف عينيه وأبطأ قدرته على الحركة، ومع ذلك فإنه لم يهدأ يومًا واحداً فى حياته، وحتى اللحظة الأخيرة، فقد كان واسع النشاط، يقوم بالتدريس فى المعاهد العلمية، مثل المعهد العالى للفنون المسرحية، ومعهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، وكان يكتب فى الصحف بانتظام، ويشارك فى الندوات والمؤتمرات الأدبية دون كلل أو ملل، وكان آخر مقال له قد كتبه قبل موته بأيام قليلة، ونشرته مجلة روزاليوسف بعد موته، وسمعت من بعض أهله أنه عندما اشتد عليه المرض فى أيامه الأخيرة كان يتجول فى منزله وهو ينشد بيت أبى القاسم الشابى فى قصيدته «نشيد الجبار»، حيث يقول:

سأعيش رغم الداء والأعداء
كالنسر فوق القمة الشماء

وكان البعض ممن لم يفهموا شخصية مندور على حقيقتها يسخرون من نشاط مندور الواسع ومن حرصه على المشاركة فى كل جوانب الحياة الثقافية، وظن هؤلاء الناقدون لمندور أنه إنما يسعى إلى تحقيق مكاسب مادية لنفسه. وقد كان مندور يعانى فى سنواته الأخيرة بعض العسر المادى الذى لا يتناسب مع مقام هذا المفكر ومع ما قدمه لبلاده فى مصر والعالم العربى، ولم يكن عليه من لوم أو تأنيب إذا ضاعف نشاطه، حتى بعد أن تقدم به العمر ونال منه المرض، من أجل أن يسد بعض احتياجاته المادية، فقد كان مندور يعتمد على جهده وحده، وكان يضغط على نفسه وصحته فى سبيل تحقيق هذا الهدف الشريف وهو توفير موارد مادية تحفظ عليه كرامته.

على أن مندور لم يكن يهدف من وراء نشاطه الواسع إلى مجرد توفير بعض الموارد المادية بل كان يهدف إلى إعطاء خبرته كلها لعصره وجيله، وكانت طبيعته الإنسانية المنفتحة على الحياة تأبى عليه أن يعتزل أو يغلق على نفسه الأبواب، أو يتعالى على الآخرين ويترفع عليهم بثقافته الواسعة وقدراته ومواهبه الفكرية الكبيرة، وقد عبر مندور نفسه عن بعض أهدافه وبعض ما أصابه فى عبارة مؤثرة قال فيها:

«لقد تحملت كثيراً من الإهانات الماسة بكرامتى حتى لا أتخلى عن المنبر الصحفى اليومى وأظل أؤدى واجبى فى الميدان الذى كرست له حياتى».

ولا شك أن كلمات مندور هذه هى كلمات مؤلمة جداً، والحقيقة أن ضباط ثورة يوليو الوطنية وعلى رأسهم الزعيم الراحل جمال عبد الناصر لم يحسنوا أبداً معاملة مفكر فى حجم محمد مندور ولم يحسنوا تقدير قيمته الحقيقية فعاش سنواته الأخيرة يكدح ويعانى كثيراً من المتاعب التى كان ينبغى رفعها عنه وتحريره منها، خاصة أنه كان من كبار المفكرين الذين مهدوا للثورة ثم ناصروا مبادئها الأساسية بعد ذلك.

كانت الثقافة عند مندور مرتبطة بالحياة والواقع، ولم يكن أبداً يقبل فكرة الثقافة التى تعيش وراء الأبواب المغلقة، وبين أكوام الأوراق والكتب التى تحجب ضوء الشمس والهواء النقى عن العقل والنفس، وكان إيمانه بعمق الصلة بين الثقافة والحياة مصاحباً له منذ شبابه الأول، فعندما ذهب إلى بعثته فى باريس قام بتجربة مثيرة يرويها فى حديثه مع الأستاذ فؤاد دوارة فيقول: «بعد أن فرغت من دراسة اللغة اليونانية القديمة وآدابها سنة ١٩٣٦ أحسست برغبة عارمة فى زيارة بلاد اليونان للبحث عن الأماكن التى ورد ذكرها فيما قرأت من التراث اليونانى القديم، وكان لى زميل فرنسى فى الدراسة اسمه «جاك تريليه» فاتفقنا على أن نقوم معًا برحلة إلى بلاد اليونان وجزرها المنتشرة فى بحر «إيجه» و«صقلية» باعتبارها جزءاً من بلاد الإغريق القديمة، وسافرنا بالفعل، رغم اعتراض مدير البعثة المصرية على سفرى، لأنه كان يظن أن الأمر مجرد نزوة سياحية، مع أن هذه الرحلة هى التى ثبتت فى ذهنى جميع ما عرفته من التراث اليونانى القديم الذى يعتبر من أضخم المعجزات البشرية.



ففى ضواحى أثينا رحت أبحث مع صديقى عن «أكاديمية» أفلاطون التى كان تلاميذه يتلقون فيها المعرفة والفلسفة على يديه، ثم «ليسيه» أرسطو ومماشيها «جمع ممشى» التى كان أرسطو يسير فيها وحوله تلاميذه ليناقش معهم أعوص مسائل الفلسفة والمنطق والأخلاق والسياسة وكافة فروع المعرفة، وبالرغم من أننى لم أعثر إلا على بعض الأحجار المتناثرة فى مكان «الأكاديمية» ومكان «الليسيه» إلا أن قراءاتى السابقة حركت خيالى، فتصورت «الأكاديمية» و«الليسيه» قائمتين ووسط كل منهما فيلسوفها الجليل، أفلاطون أو أرسطو. وعند ضاحية «كولونا» المجاورة لأثينا رحت أبحث عن الغابة التى لجأ إليها «أوديب» «فى الأسطورة اليونانية الشهيرة» بعد أن هزمه القدر ففقأ عينيه وهام على وجهه فى الأرض حتى انتهى به المسير إلى تلك الغابة.



وبالرغم من أننى لم أجد هناك إلا شجرة زيتون واحدة، فإنى أحسست كأنى أجوب خلال غابة كثيفة من أشجار الزيتون هى الغابة التى لجأ إليها أوديب. وفى بحر «إيجه» أخذنا ننتقل فى زوارق صغيرة من جزيرة إلى أخرى، وأذكر أننا عندما رسونا على





عاش مندور حوالى خمسة عشر عاماً من حياته تحت ضغط المرض الذى كان يعانى منه والذى أضعف عينيه وأبطأ قدرته على الحركة، ومع ذلك فإنه لم يهدأ يوماً واحداً فى حياته، وحتى اللحظة الأخيرة





شاطئ جزيرة «تيلوس» البالغة الصغر، لم نجد أحداً فوق أرضها غير حارس الآثار، وأرض الجزيرة كلها مغطاة ببقايا المعابد القديمة، وفى وحدة هذه الجزيرة، وبين أنقاضها، تشربنا الروح اليونانية كلها، وهى روح تمتاز بالصفاء وهدوء القلب وحرارة الفكر وانفعاله، لأن اليونانى القديم كان يحس بعقله ويدرك بقلبه، ففى عقله حرارة العاطفة وفى قلبه ضوء العقل».

ثم يتحدث مندور عما جرى له بعد هذه الرحلة اليونانية فيقول:

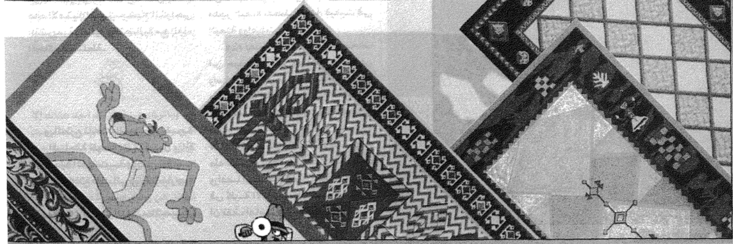
«عدت من هذه الرحلة التى تفوق أهميتها قراءة ألف كتاب، لأفاجأ بمدير البعثة المصرية وقد أوقف مرتبى لأننى خالفت رأيه وسافرت إلى اليونان بدون موافقته، وعلمت أيضاً أنه كتب إلى الجامعة يطلب فصلى من البعثة، ولحسن الحظ كنت قد وفقت إلى ما لفت نحوى نظر الحكومة القائمة وقتذاك ولفت نظر مدير الجامعة أحمد لطفى السيد، فقد كتبت عدة مقالات نشرتها فى الصحف الفرنسية أنبه فيها الفرنسيين إلى أن معارضة حكومتهم لإلغاء الامتيازات الأجنبية فى مصر سيجعلهم يخسرون وضعهم وحب أهل مصر لهم، وقد رد على مقالاتى وكيل وزارة الخارجية الفرنسية، وكان يرأس الوفد الفرنسى فى مؤتمر مدينة «مونترو» فى سويسرا، وقمت بالتعقيب على ما كتبه وكيل الوزارة الفرنسية، واستمر الأمر بيننا سجالاً حتى ثاب الفرنسيون إلى رشدهم وسلموا بما لم يكن منه بد، وهو الموافقة على إلغاء الامتيازات الأجنبية المفروضة على مصر، وقد تم ذلك بالفعل فى معاهدة «مونترو» الدولية فى ١٥ فبراير ١٩٣٧، حيث تقرر إلغاء هذه الامتيازات من جميع النواحى التشريعية والمالية والقضائية مع إلغاء المحاكم المختلطة.

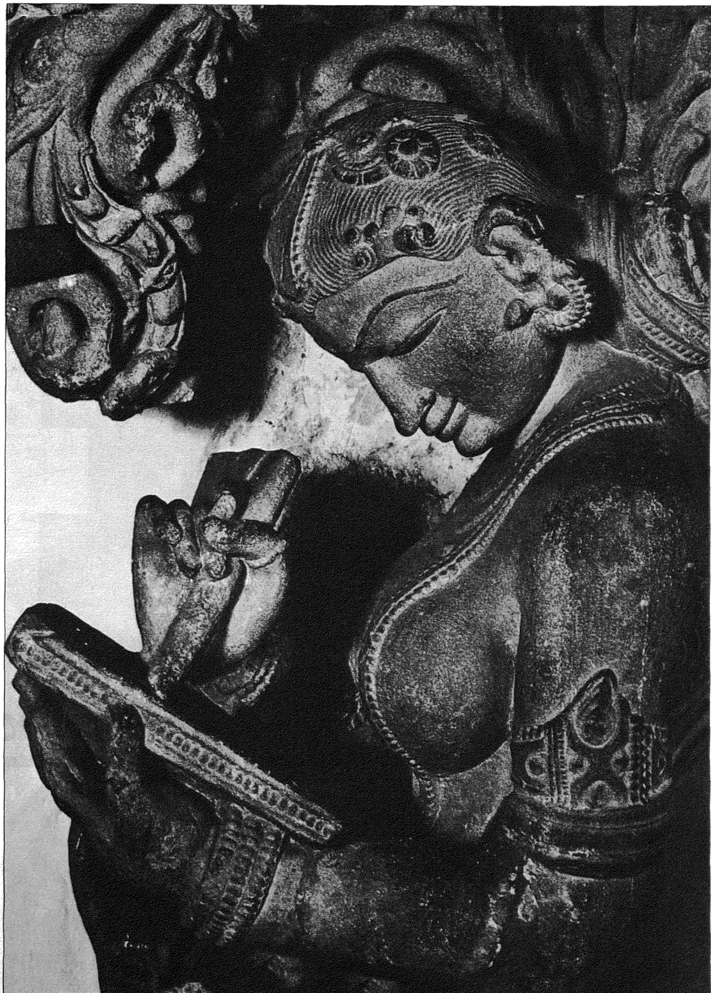


وبالطبع تابعت السفارة المصرية هذه المساجلة المهمة بين وكيل وزارة الخارجية الفرنسية وبينى، وقامت السفارة بإبلاغ ذلك إلى وزارة الخارجية فى القاهرة.

وحدث أن مر الوفد المصرى للمفاوضات بباريس عائداً من لندن بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦، وكان يضم رئيس الوزراء آنذاك مصطفى النحاس كما كان يضم مكرم عبيد وزير المالية وعلى الشمسى، فذهبت إلى الفندق الذى نزلوا به، وقابلت على الشمسى وشرحت له المأزق المالى الذى وجدت نفسى فيه دون مرتب، فدهش الرجل، وقادنى إلى مكرم عبيد وأخبره بما حدث، وأبدى استهجانه لتصرف مدير البعثة، فما كان من مكرم عبيد إلى أن أخرج ورقة بيضاء من جيبه وكتب عليها أمراً بصرف مرتبى فوراً، وبذلك انحلت الأزمة بصفة مؤقتة، وإن كنت مع ذلك مازلت مهدداً بالفصل من البعثة فيما لو استجاب مدير الجامعة لطلب مدير البعثة، ولكننى لحسن الحظ كنت قد نجحت فى كسب ثقة مدير الجامعة، لأن الدكتور طه حسين حين جاء إلى باريس فى الإجازة الصيفية التى تلت أول سنة لى فى فرنسا، وكنت قد نجحت فيما يشبه المعجزة فى ليسانس الأدب الفرنسى التحريرى بعد عام واحد، طلب منى أن أحقق أمنية قديمة لمدير الجامعة أحمد لطفى السيد، وهى أن يترجم أحد المصريين الذين درسوا الأدب الفرنسى وأتقنوا لغته قصيدة عويصة للشاعر «ألفريد دى فينى» «١٧٩٧ ــ ١٨٦٣» وهى قصيدة «بيت الراعى» التى تجمع بين عمق التفكير الفلسفى وشطحات الروح الرومانسية المجنحة، فترجمتها، وأهديت الترجمة إلى أحمد لطفى السيد، فأعجب بها وأرسلها إلى مجلة «الرسالة» فنشرتها فى أعدادها الثلاثة الأولى «١٥ يناير - أول فبراير - ١٥ فبراير ١٩٣٣»، ومن المؤكد أن هذه الحادثة الصغيرة كان لها أثرها فى عدم استجابة مدير الجامعة لطلب مدير البعثة بفصلى منها، فبقيت فى البعثة وواصلت دراساتى».

هذه بعض الصفحات واللمحات من حياة رائد كبير هو محمد مندور، واسمه الكامل محمد عبد الحميد مندور، وقد عاد مندور من باريس سنة ١٩٣٩ بعد أن قضى فى بعثته حوالى تسع سنوات، وعندما عاد واجهته متاعب كثيرة كان أهمها أنه وجد أستاذه طه حسين غاضباً منه أشد الغضب ورافضاً أن يسمح له بأن يصبح مدرساً فى كلية الآداب، وتلك قصة تستحق أن نقف أمامها فى حديث آخر. ■





معماريون.. ونحاتون.. وكهنة

فنون هندية



ثروت عكاشه

■■ نبعت العمارة الهندية شأنها شأن النحت الهندى من صميم المعتقدات الدينية الهندية وإن وفدت عليها تأثيرات اجنبية على مر التاريخ. وبينما لم تلجأ العقيدة الڤيدية فى طقوسها وشعائرها إلى تشييد المعابد أو نحت التماثيل، كانت لغيرها من العقائد المبكرة صوامعها ومعابدها المشيدة من الخشب ومصوراتها ومنحوتاتها. ولم تسجل الوثائق التاريخية أية إشارة إلى التماثيل والمصورات والمعابد إلا اعتباراً من القرن الرابع ق. م، كما لم يتوصل الأركيولوچيون إلى الكشف عن نماذج للنحت والتصوير تعود إلى ما قبل القرن الأول الميلادى إلا فيما ندر.

وبينما تقوم العبادة الڤيدية على طقوس قربانية حيث يستقبل الهيكل (المذبح) قرابين الزهور، تقوم العبادة الهندوكية أساسًا على تقديم المتعبِّد اضحيته من مأكل وبخور. واعتاد القوم بناء الهيكل تحت شجرة مقدسة أطلقوا عليه اسم «كَايْتِيه»، وهو الموقع الأهم ويأتى بعده بيت الإله «دڤالْيَه» الذى عادة ما يكون صومعة (مصلى) بسيطة مسقوفة تضم هيكلا صغيراً ورمزاً للمعبود أو تمثاله.

> فتاة تخط رسالة
> غرام
> «خاجوراو»
> أسرة تشانَّدله
> القرن ١١

الستُوبَه

ولا يسعنا قبل البدء فى تناول السِّمات الجوهرية للإنشاءات الهندية الطموحة وفق توقيتها الزمنى إلا التريث أمام مبنى «الستوبه» التى ربما تفوق تماثيل بوذا نفسه فى التعبير عن العقيدة البوذية. والستوبة رمزٌ ومبنى جنائزي فى الوقت نفسه، مُستقًى من فكرة الجثوة أو رجمة التراب فوق قبور العظماء. ولم تكن هذه العادة مقصورة بطبيعة الحال على الهند وحدها، فمُوَاراة رفات الموتى بكومة من الحجارة أو التراب هو تصرّف إنسانى تلقائى إكباراً للموتى وإجلالاً لهم.

وكانت الستوبة الهندية البدائية مجرد جثوة فوق مثوى قد يرتفع وسطها عمود أسطوانى. ولم تشتمل أقدم نماذج الستوبة على أية زخارف أو معالم تزيّنها وما إن تطورت من مجرد موقع دفن متواضع إلى اكمة رامزة حتى بات من الضروري أن تحتفظ فى جوفها بأثر باقٍ أو رفات قديس أو ما شابه ذلك داخل غرفة مُصمتة تتوسط المبنى، بحيث لا تكون ثمة صلة بين داخل الستوبة وخارجها. ومع مرور الأيام أضيفت عناصر ضرورية إلى الستوبة الكلاسيكية مثل «الهارميكه» وهى شرفة صغيرة فوق قمة الستوبة، وطبقات الأقراص متفاوتة الأحجام المصطفَة بعضها فوق بعض فى شكل مخروطى «تشاتْره» وكأنها مجموعة من المظلاّت تُحيط بالصاري المركزى البارز من منتصف الشرفة. ويطوّق الستوبة من الخارج سياج «ڤيديكَه» يتخلّله مدخل مزخرف مهيب «تُورنه» أو عدّة مداخل.

وتُخصَّص المساحة الواقعة بين الستوبة والسيّاج لطواف الحجّاج حول المقام، ومن هنا أُطلق عليها اسم «مجاز (أو ممر) الطواف»، وشيئا فشيئا أضيفت عناصر أخرى إلى الستوبة بقى منها ما بقى وزال ما زال.

وعلى مدى تاريخها الممتد لم يظفر السطح الخارجى للستوبة بأية زخارف فنية باستثناء الأسوِجة التى تطوّقها والمداخل (البوابات) المؤدية إليها، وقد ظهرت أولى المنحوتات التشكيلية الهندية فوق أسوجة شرفات ستوبة بهارُت الواقعة شمالى إقليم مادهيا پراديش، وتتّخذ هذه الستوبة شكلا نصف كروى سوف يتكرر فى ستوبة سانشى وغيرها بإقليم قندهار. وقد أرجع العلماء تشييد سياج ستوبة بهارُت إلى عهد أسرة سُونْجَه، وإن كان مبنى الستوبة نفسه قد شُيِّد أول ما شُيِّد فى عهد أسرة مورْيَه.

الكايْتِيَه

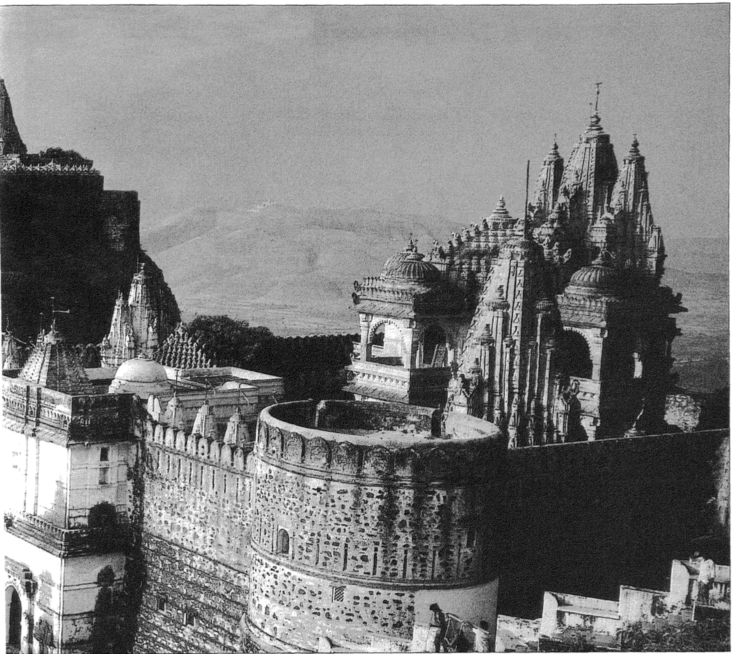
وتأتى قاعة الـ «كايْتِيَه» بعد الستوبة فى قائمة العمارة الهندية الدينية. وجرت العادة بأن يُطلق اسم «الكايْتِيَه» على أى بَراحٍ مُسوَّج، أو مقام مقدّس أو أى مزار يقصده الحجّاج البوذيون. وقد لا تتجاوز مساحة الكايْتِيَه بقعة من الأرض تحيطُ بموقع ذى طبيعة مقدسة قد يكون شجرة أو صخرة أو حتى كوخا خشبيا متواضعا.

وما إن غدت الستوبة مركزَ جَذْب للحجيج حتى أصبح لا مناص أمام الكهنة والرهبان ورجال الدين القائمين على الستوبة أو المتردّدين عليها من التعجيل ببناء أماكن للعبادة فى المنطقة المحيطة بالستوبة أطلق عليها اسم «الكايْتِيَه» وإذا هى تتحوّل آخر الأمر إلى صومعة أو مصلّى للعقيدة البوذية.

العمارة الهندية

وقد بدأ تشييد العمارة الهندية المبكرة بالخشب، ثم ما لبث البناءون منذ عهد أشوكه أن حاكوا هذا النموذج المبكر مع استخدام قوالب الطوب والحجر، وتشكّلت الأنماط المختلفة للأسقف كروية الشكل، والقبوات الأسطوانية، والشبابيك الجمالونية، والأعمدة الملتصقة بالجدران والطُّنُف على غرار «النماذج الأصلية» الخشبية. وكان طبيعيا. لا سيما فى المراحل المبكرة. أن يكون جانبٌ من العمارة الهندية محفوراً فى الصخر، بمعنى أن تُحفر الصومعة فى جوف الكتلة الصخرية أو بإزالة سطحها الخارجى لتغدو معبدا قائما بذاته. ولا تزال نماذج من هذه المعابد قائمة إلى اليوم. ويمكن مشاهدة نماذج النوع الأول. أعنى المعابد الكهفية. فى المعابد البوذية المبكرة بأچانتَه وبهاج وناسِك وكارلى، وفى المعابد الهندوكية بكهوف جزيرة إليفانْتَه الواقعة أمام مدينة بومباي. أما نماذج النوع الثانى فنجدها فى مامِلپُورَم جنوب مدينة مَدْراس وكذا فى إللُّوَره حيث تبارى البوذيون والچيينيّون والهندوكيون فى حفر المعابد الكبرى فى جوف الجبال الصخرية. ولعل أروع هذه المعابد هو المعبد الهندوكى فى كايلاشَه (اسم فردوس الإله شيفه بجبال الهمالايا) حيث غاص البنّاءون حوالى ثلاثين متراً داخل الصخر لتشكيل المعبد، ثم التفتوا إلى الجدران ليحوّلوها إلى أعمدة سامقة وتماثيل آسرة ومنحوتات بارزة، كما زوّدوا ثلاثة من جوانب المعبد المحفور بالخلوات والمصلّيات. ومن المعروف أن العقد لم يستخدم قط كعنصر معمارى فى مجال العمارة الهندية قبل دخول المغول إلى الهند، وإن استُخدمت التَّقبية. وهى نوع من التسقيف بعقود

صفحات من كتاب للمؤلف يصدر قريبا عن دار الشروق بعنوان «الفن الهندى»



^ منظر عام لمجموعات المعابد فوق قمتى جبل ساترو ونجايه بإقليم جوجرات الغربى

حجرية متراصّة بين حائطين متوازيين. فى العمارة المحفورة فى الكتل الصخرية.

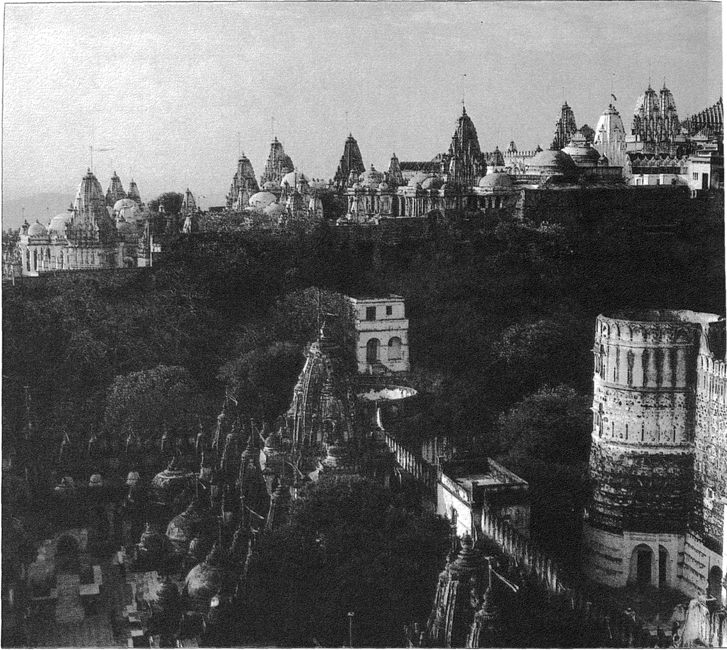
وهناك أنماط معمارية خاصة استخدمتها العقيدتان البوذية ، والجيينيّة أشهرها «الستوبة» وهى كما سبق القول تطوير لرُبَى الدفن الهندية القديمة. ما لبثت أن اكتست بالحجر تحيط بها الأسوجة المزوّدة بالمنحوتات الزخرفية. وأهم عناصر الستوبة هى القبّة، وغرفة صغيرة على مستوى الأرض فى منتصف الستوبة لحفظ الذخائر المقدّسة يُحرّم دخولها بعد الفراغ من تشييدها.

وطابق أو طابقان ترتكز عليهما القبة. كما تزود الستوبة أحيانا بدرج أو أكثر يؤدى إلى مجاز طواف الحجّاج، وشرفة صغيرة فوق القمة ينهض من مركزها عمود يحمل مظلة رمزية أو أكثر، وقد يحيط بالقبة سياج. وتعد الستوبة فى العقيدتين البوذية والجيينية رمزا معبداً عن موت بوذا المعلم الأكبر أو عن موت ماهافيره مؤسس العقيدة الجيينية.

ونشأت قبة الستوبة فى المراحل المبكرة نصف كروية، ثم ما لبثت أن نالها التطوير لتأخذ أشكالا مستدقة بلغت قمة الجمال، لا سيما فى بورما حيث زادت الستوبة ارتفاعا واتساعا وزخرفة.

كذلك ابتكر المعماريون البوذيون فى الهند «معبد الشجرة المقدس» «كايتيه» غير المسقوف على نحو ما أسلفت، والذى يشتمل على قاعة مربعة أو دائرية محاطة بالأعمدة الجدارية الملتصقة، وشرفة داخلية يعلوها قبو أسطوانى مفتوح عند منتصفه يحيط بشجرة مقدسة هى شجر «بو» (أو تين المعابد أو الأثأب) التى جلس إليها بوذا وتعد رمز استنارته. ويذهب المتخصصون إلى أن هذا الطراز من الستوبة هو طراز جد قديم احتل مكانه إلى جوار عقيدة عبادة الياكشى وجنيات الشجر والمياه الغابرة.

وقبل ذلك بوقت طويل كان ثمة نشاط معمارى من نوع آخر يشق طريقه وئيداً - كما قدمت - عندما بدأ الكهنة يتخذون «الكهوف» - طبيعية كانت أو محفورة بأيديهم - أماكن للعبادة. وتطور الأمر فإذا الكهنة يقدمون على محاكاة المبانى الدينية المستقلة بذاتها مثل الستوبة والكايتيه فى جوف الكهوف مستخدمين الحجر الطبيعى والخشب. وبمرور الزمن تحولت بعض قاعات «الكايتيه» داخل الكهوف إلى منشآت صرحية تضم العديد من عناصر المعبد مثل الصحن والمجاز المستعرض والأعمدة المستقلة القائمة بذاتها. وتزامن ذلك مع نشأة «الفيهاره» الهندية التى كانت فى الأصل مجرد «قلاية» متواضعة لراهب أو صومعة لناسك أو أحيانًا مقراً للمعبود، وعادة ما تكون فجوة طبيعية فى سفح الجبل، إلى أن اتّجه الكهنة إلى حفر كهوفهم الصغيرة فى جوف الصخر. وانتهى بهم الأمر إلى تشييد الأديرة والقلالى (جمع قلاّية) المطلة على صحن متسع فى بطن الجبل يجمع شمل المجتمعات الرهبانية الغفيرة. وقد زودت معظم مداخل المبانى الهندية المبكرة بـ «حشوة عقد» تشغلها



منحوتات أو زخارف، ويعلوها عقد مدبب أو جمالونى مسنم.

والأعمدة الهندية نوعان وفقًا لاستخداماتها، فهى إما مفردة مستقلة يحمل كل منها رمز إله المعبد المنتصبة فيه مندمجة فى التصميم الإنشائى ذاته، أو قد تتشكل فى الطرز والأنماط المنتشرة التى تتميز من بينها الأعمدة مثمنة الأضلاع، وجميع هذه الأعمدة منحوت فى الصخر.

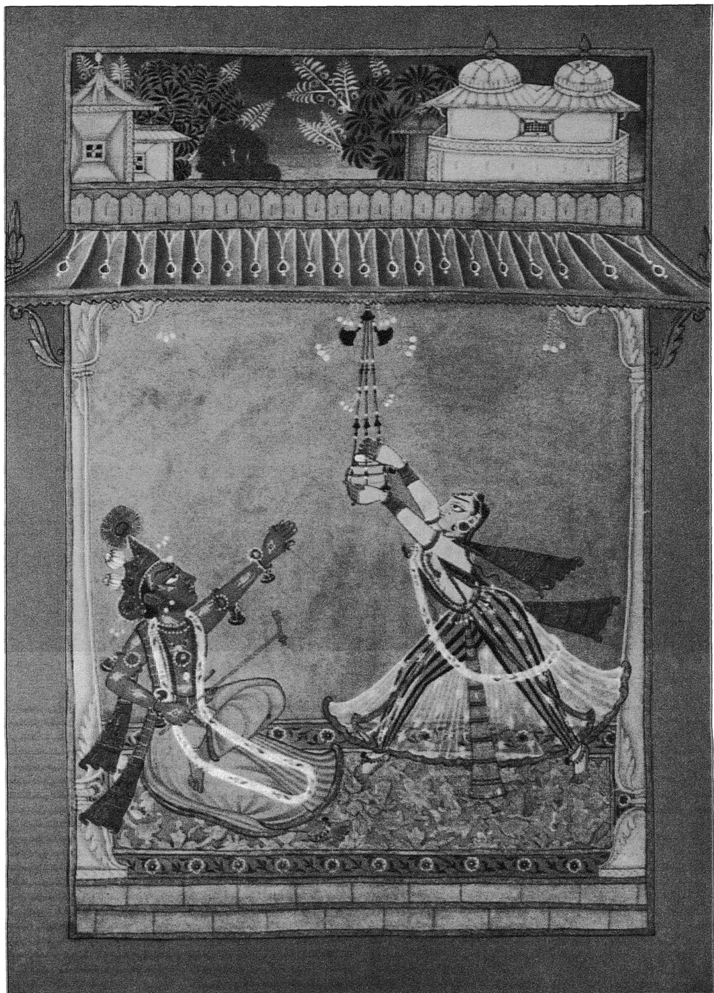
وتختلف تيجان هذه الأعمدة بعضها عن بعض، فبينما تشكلت تيجان الأعمدة منذ العصور المبكرة من عناصر ثلاثة: العنصر الأدنى على هيئة زهرة لوتس مقلوبة فى شكل ناقوس، يعلوها أربعة أسود متظاهرة أو ثيران، ومن فوقها وسادة ذات شكل شبه متحرف تزين أركانها لفافات حلزونية على غرار اللفافات الأشورية لا الإغريقية، تشكلت تيجان العصور الوسطى فى شمال الهند على هيئة وسادة مضلعة، أو على شكل زهرية مترعة بالنباتات المتطامنة التى تشكل رقشًا أو توريقا متشابكا اصطلح الأوربيون على تسميته فن «الأرابيسك».

وتدل النقوش البارزة الموجودة فى بهارت وماتوره وأمارفتى، وكذا أساسات بقايا المبانى والمعابد والأديرة، على تقدم فن «النحت والعمارة المركب» حجمًا وروعة وجلالا فى عهود أسرات سونجه والكوشان وآندره (١٨٥ ق.م إلى ٣٢٠م).

أما أجمل لوحات النقوش البارزة خلال هذه المرحلة المبكرة فهى تلك الموجودة بالقصر الملكى فى بهارت وصومعة جاجايابيته ومعابد الأشجار المقدسة «كايتيه». كما تتألق بين مصاطب الستوبه فى ذلك العهد تلك الموجودة فى بهارت وأمارفتى وسانشى، فضلا عن بقايا وأطلال مصاطب الستوبه المزودة بالمنحوتات الزخرفية الثرية ذات الطراز البوذى المتأغرق بما فى ذلك أسوجتها ومداخلها. وثمة مبنى مشهور ما فتئ الحجّاج الصينيون يشيدون به إعجابا هو ستوبه «كانيشكه» أبرز ملوك أسرة كوشان بالقرب من مدينة بيشاور، حيث تتشكل من خمسة طوابق تعلو إلى خمسة وأربعين مترا، على حين ارتفعت علوة المبنى الخشبية مائة وعشرين مترا، كما يرتفع سارى الستوبه الحديدى الذى يحمل ٢٥ مظلة من البرونز فوق المبنى ستة وعشرين مترا!!

وفى عهد أسرة جوپته (٣٢٠-٦٠٠م) علا شأن عمارة المبانى والصوامع البوذية والهندوكية سواء كانت مشيدة بالحجر أو بقوالب الطوب. وأشهر نماذج هذه المعابد هى تلك المكونة من «خلوة» (قدس أقداس) مربعة هى مركز هيكل المعبد كله ومأوى الإله أو تمثاله الرامز إليه، تحيط بها جدران خالية من أية زخارف، ويعلوها سقف مسطح، ويتصدرها «مدخل» مسقوف، مثلما هو الحال فى سانشى، حيث تتجلى فى معبدها الصغير سلامة النسب والاستخدام الحاذق للزخارف فى بواكير عهد أسرة جوپته، وتقع أهم هذه المعابد فى إللوره وبهاج وأجانته. وكما تعد كهوف أجانته متحفا خالدا لأعظم التصاوير البوذية شأنا، تعد كذلك نموذجًا فذًا لذلك الفن الهندى المبتكر والمركب من فنى النحت والعمارة، حيث تنهض سقوفها المزخرفة بالرسوم والمنحوتات الرائعة فوق أعمدة أعلاها مستدير وأدناها مربع، وتغمر سيقانها أخاديد طويلة محفورة.

وخلال عهد أسرة جوپته شيدت أيضا جامعة نالانده الرهبانية البوذية التى استمدت اسمها من نالانده أحد ملوك المنطقة الواقعة جنوبى شرق إقليم پاتنه، وكان فى حياته السابقة «بوديثاتفه» وهب حياته لفعل الخير. ويعزى رخاء هذه الجامعة الدينية إلى سخاء هارشافاردانه أحد ملوك أسرة جوپته الذى كرس جهوده لخدمة رهبان هذا الدير. ومن الإنصاف الإشارة أيضا إلى جهود أسرة پالا البوذية فى العناية بجامعة نالانده، فضلا عن تشييدها لبرج سيرپور



«رادهـه» تناول كريشنه مخيض اللبن البارد بناء على طلبه
مدرسة باشوهلي ١٦٩٠

فنون هندية



حسناء مغولية

الذى يعتبر أبدع نماذج المبانى المشيدة بالطوب فى كافة أنحاء الهند.

وقبل الاسترسال فى وصف عمارة المراحل المتعاقبة وطرزها ومنحوتاتها ينبغى الإشارة إلى أن الهند قد ابتكرت خلال عهد أسرة جوپته أو ربما قبله قواعد وتعاليم تقنية على جانب كبير من الدقة والكمال فى مجال العمارة يضمها سفر «شلپا شاستره» المرجعى الخالد. وما زالت هذه التعاليم مستخدمة لا فى الهند وحدها بل وفى جاوه وكمبوديا وغيرهما.

وأقدم ما حفظه الزمن من العمارة الهندية هى أطلال مدن موهنچودارو وهاراپه التى تعود إلى ما قبل حقبة موريه فى منتصف الألفية الثالثة ق.م، حيث شيدت المبانى من الطين المحروق والجص والملاط، وشملت معابد ذوات أسقف مغطاة بعقود حجرية متراصة، ومنازل وحوانيت مزودة بأجهزة الصرف الصحى. وأقدم الصوامع المحفورة فى الصخر هى تلك الموجودة فى تلال بارابار، وهى مبان مصقولة بعناية منذ عهد الإمبراطور أشوكه. أما أطلال عاصمة أشوكه فى پاتالى پوتره (پاتنه الحالية) فذات طابع خاص مميز إذ تشى بالتأثيرات الفارسية المعاصرة لها. وقد كشفت الحفائر الحديثة عن أجزاء من سور المدينة الخشبى الضخم، وعن أرضيات خشبية يتجاوز طولها مائة وستة أمتار، وعن عدد من المصاطب الخشبية كانت معدة كى يشيد فوقها مبنى ضخم، وعن بقايا قاعة معمدة تشتمل على ثمانين عمودا حجريا مصقولا، وعن تاج عمود ضخم، وعن أحجار تشكل جزءاً من عقد. ويعتقد الأركيولوچيون أن تصميم هذا القصر هو صورة طبق الأصل من القصور الفارسية «الأخمينية» فى پرسيپوليس وإكتبانا وسوسه.

وكان للعمارة الهندية أثر بعيد على فن العمارة فى ماليزيا وإندونسيا وبورما وتايلاند وغيرها من دول الشرق الأسيوى، لاسيما خلال المراحل المبكرة قبيل حضارة الـ «خمير»، فأخذت الكثير عن طراز عهد أسرة جوپته وعهد أسرة پالاڤه.



وقد يكون من الأنسب تناول العمارة الهندية بعد حقبة جوپته من خلال متابعة طرز ثلاثة هى: طراز «ناجاره» الشمالى أو الطراز الهندو-آرى، والطراز «الدراڤيدى» فى جنوب الهند، مرورا بطراز «ڤيساره»، وهى العمارة المدنية الراجپوتية.

ويلفتنا فى طراز ناجاره اختفاء تاج العمود ذى الحيوانات المتظاهرة بعد انتهاء حقبة جوپته لتحل محله وسادة مربعة أو زهرية مترعة بالنباتات وزهور اللوتس المتدلية من حافتها على الأركان الأربعة، كما تسترعينا التيجان الكروية للأعمدة فى صوامع الإله شيڤه بمعبد جزيرة إليفانته ونلحظ فى مدينة بادامى مدى ذوبان طراز ناجاره الشمالى فى الطراز الدراڤيدى الجنوبى، كما تشهد أبدع العمائر المعبرة عن هذا التزاوج المثمر الدال على ما بلغته العقائد الهندوكية من مكانة سامقة تراجعت معها البوذية لتحتل مكانة ثانوية، مثال ذلك مجموعة معابد بوڤانشواره بأوريسه فى شرقى الهند ومن أقدم هذه المعابد معبد شيخاره موكتسواره (القرن العاشر) الذى يتميز بعقد مدخله الأنيق المعزول عن مبنى المعبد، وبسقيفة المدخل ذات السطح الهرمى، وبالحرم المقدس يعلوه البرج المستدق، وكذا معبد لنجاراچه.

وقد شيد الچيينيون والهندوكيون فى خاچوراو قرابة خمسة وثمانين معبدا متقاربة بعضها من بعض، مما يشى بمدى التسامح الدينى الذى كان سائدا وقتذاك، مثل معبد دولاديو الچيينى بخاچوراو ومعبد راناكپور الچيينى.

ونستطيع متابعة تطور فن العمارة الهندية من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر فى أوريسه مروراً بمعبد سوريه إله الشمس فى كوناراك ومعبد چاچاناته فى پورى الذى شيده الملك أنانته ڤاراماكو داچانجه ديڤه أشهر ملوك أسرة جانجه الشرقية ويعد أعظم إنجازاته.

وفى عام ٩٧٣ ظهر طراز معمارى جديد فى إقليم الدكن ما لبث ازدهر خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر هو طراز «ڤيساره» بمنطقة جوچرات، تميز بملامح خاصة تنحصر فى الارتفاع الخفيض للمبانى، والاتساع، والتخطيط النجمى «للخلوة»، وتجميع ثلاث صوامع (مصليات) حول القاعة المركزية، والأبراج الهرمية المنخفضة، والنوافذ المزينة بالخروم الدقيقة المتقنة، وبصفة عامة المبالغة فى الزخارف، ويلفت نظر زائر هذه المنطقة ما طرأ من تطور على عمارة المعبد البوذى المستدير نحو عمارة الأبراج التى شاعت خلال العصور الوسطى الهندية، فإذا قاعة الاجتماعات المعمدة تنتقل إلى خارج المبنى لتشكل مدخلا يستند سقفه إلى الأعمدة، على حين يرتفع تسقيف المبنى على شكل برج مستدق أو مخروطى تكسو سطحه شبكة من المعالجة النحتية سواء كانت زخرفية أو تشخيصية، ويتضاءل حجمه كلما ارتفع طابقا فوق طابق. وكانت هذه الظاهرة المعمارية الجديدة، وهى تشييد «أبراج المجد» (كيرتيس تامپه) قد شاعت على يد المعمارى سدراچ، وأعظم هذه الأبراج شأنا هى تلك المشيدة فى حصن تشيتور (١٤٤٠ - ١٤٤٨) تخليدا لذكرى إنشاء معبد كومبهاس سوامى. وتفوق هذه الأبراج شهرة المعابد الچيينية بجبل آبو فى راچپوتانه (١٠٣٢ و١٢٨٢) التى تتكون أبراجها من صوامع مقببة تعلو قاعات معمدة مشيدة جميعا من الرخام الأبيض، وأهم ملامحها السقوف المقببة ذات الرخام المشغول بالحفر المفرَغ العميق التي أطلق عليها اسم «الدنتيللا أو المخرَمات المجمَدة»، كما تتدلَى من مركز السقف المقبَب دلاَية (مدلاة).

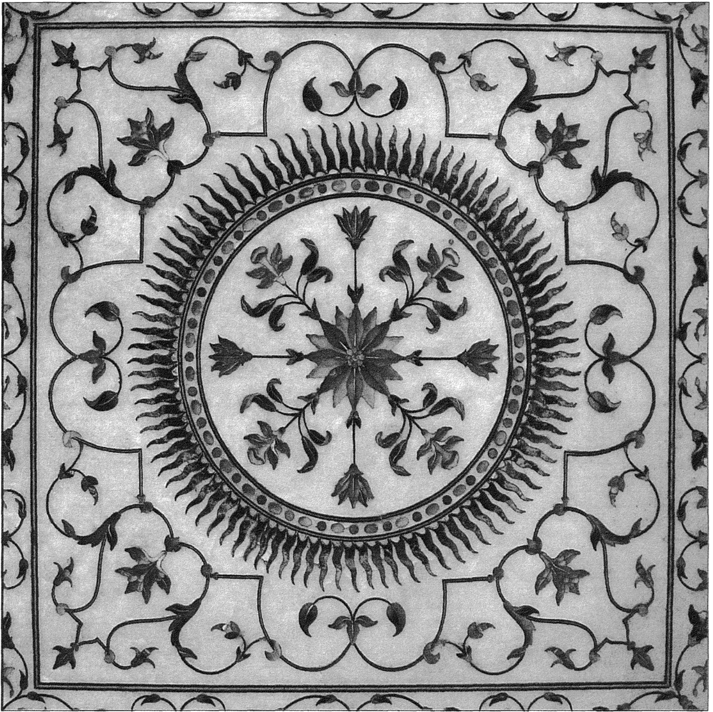
وعلى هذا النهج كانت الحال فى مجموعة المعابد الچيينيَة التي تتوَج قمَتيِ جبل «ساترونچايَه» بإقليم جوچرات التي تُعد أحد أقدس المواقع التي يتردد عليها الحجاج بالهند. ويحمل الكثير من معابد هذا الموقع أسماء التجار المياسير الذين شيَدوها، وتتجمَع كل مجموعة من هذه المعابد فى إطار ساحة مُسَيَجة محصَنة. ولَما كانت العقيدة الچيينيَة عقيدة حب وتراحم تحرَم القضاء على أى كائن حيَ. كما سبق القول. فقد رأينا المؤمنين بها عندما يجوزون الطرق يقشَونها ليُزيلوا ما على الأرض أمام خُطاهم فلا يدوسون كائنا حيَا يموت ظلماَ حشرة كانت أو سواها. وعلى مَن يصعد هذا الجبل أن يطأ متدرَجاَ ثلاثة آلاف وخمسمائة درجة، أمَا كبار السنَ والمرضى فيُحمَلون على محفَات. فإذا ما حلَ الغروب خلَف الجميع مدينة المعابد، بما فى ذلك الكهنة الذين يعودون إليها فى فجر اليوم التالى.

ومن أشهر المواقع المعمارية أيضا مدن المعابد الچيينية فى جيرنار وساترونڤايَه ودِلْواره براچستان بين القرن الثالث عشر والتاسع عشر. وجرت العادة بألا تُستخدم مدن المعابد تلك المشيَدة فوق قمم الجبال للسكنى قط وإنما كمزارات للحجاج فحسب.



والثابت أن أزهى عصور عمارة الجنوب الدراڤيدي هي حقبة القرنين السادس عشر والسابع عشر، لا سيما بعد أن نجح الإمبراطور أكبر المغولي فى التوفيق بين الهندوس والمسلمين حتى غدا جنوب الهند غاصًا بأجمل المعابد الدراڤيدية.

وفي جنوب الهند قضى ماهنُدره ڤارمان الأول ملك پالاڤه (٦٠٠ - ٦٢٥) بالاقتصار عند تشييد المعابد على استخدام قوالب الطوب والأخشاب المقوَاة بالجص والمعادن، فليس ثمة وجود لمعابد محفورة فى الصخر أو مشيَدة بالحجر إلا تلك التي تعود إلى القرن السابع، ومن



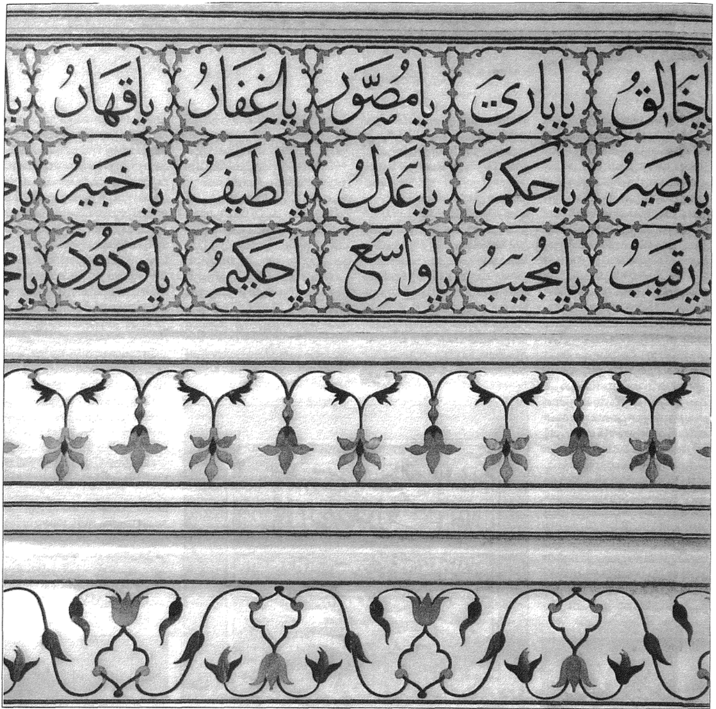
زخارف نباتية من الأحجار شبه الكريمة مرصعة فى الرخام فوق الضريح الخاوى لشاه جهان

العسير تحديد طرازها المعماري على وجه الدقة نتيجة ما لحق بالطرز من تطور متواصل. غير أن الأمر اللافت للنظر هو التباين الملحوظ بين «طراز ناجاره الشمالى» وبين «الطراز الجنوبى» الذى التزم فى تشكيل الأسطح الخارجية لأبراجه بزخارف أفقية مكررة تثير الملل أحيانا. ويزدان كل طابق منها بصف من المصاطب أو النوافذ الناتئة، كما تخلو جدران هذه الأبراج من النقوش وإن حفلت بالأعمدة الملتصقة النحيلة المضلعة التى نالها التطور التدريجى هى أيضا مع مرور الزمن. وكانت فى بادئ الأمر تُدعم بتماثيل لأسود تعلوها وسائد مسطحة لحمل الدعائم المشكّلة من اللفائف الزخرفية أو زهور اللوتس. ويتشكل السقف من قبة مربعة أو مستديرة أو مضلعة تستند إلى وسادة، ويُحاط المعبد عادة بسور عال أو عدة أسوار لكل منها أربعة مداخل. وفى بعض المواقع. كما هى الحال فى مادوره. تتحول الساحة بأجمعها إلى مدينة معابد مقدسة تعج بكل أنشطة الحياة.

ويتجلى طراز «پاللاڤه الدراڤيدى المبكر» فى صوامع أسرة تشالوكيه فى بادامى ومعابد ماملپورم وماهاباليپورم. وأقدم هذه المعابد هى المعابد الكهفية فى أوندا ڤاله، والپاجودات السبع، والمعابد الكهفية خلال القرن السابع والثامن، ثم معابد ما ملپورم. وفى عهد أسرة تشوله (٨٤٦ . ١١٧٣) ارتفع البرج المركزى للمعبد ارتفاعا كبيرا حتى بلغ ٥٨ مترا، وذلك بمضاعفة الطوابق ذات الأطناف (الكرانيش) وتكرارها، مثلما هو الحال فى معبد ڤيماناس بمدينة تانچور التى اتخذتها أسرة تشوله عاصمة تمارس منها سلطانها. وثمة نماذج بديعة لهذا الطراز شيدته أسرة تشوله فى «پولونا روه» بجزيرة سيلان (سرى لانكا).

وتميز طراز أسرة پانديه (١٢٥١ . ١٣١٠) بما طرأ على المداخل (البوابات) الكبرى من تطوير، وذلك بإنشاء طابق سفلى من الحجر تكسوه طبقة من قوالب الطوب تغشيها تماثيل جصية ملونة.

وحفلت هذه المراحل الأخيرة للطراز



كتابات منقوشة تحمل أسماء الله الحسنى وزخارف نباتية فوق تابوت ممتاز محل المودع بسرداب تحت سطح مبنى تاج محل

الدرافيدى الجنوبى بإنشاء القاعات الكبرى المعمّدة «ماندابه»، حيث تشكّلت الأعمدة المحفورة فى الصخر فى مجموعات من الأعمدة النحيلة، أو زُوّدت بدعامات فى حجم الأعمدة منحوتة بإتقان تصوّر فرسانا فوق صهوات الخيل المتظاهرة يطاردون الفهود، أو راقصات أو أربابا أو تماثيل لمنشئى هذه المعابد أو لحيوانات مقدّسة. كما رُصعت الأسقف بنقوش بديعة على نحو ما نشهد فى مدخل «ماندابه نادى» المسقوف بمعبد براديشواره فى تانچافور من عهد أسرة تشوله. ويتيه هذا المعبد بارتفاع أبراجه التى تعلو كل المبانى المجاورة أو البعيدة على السواء حتى لو كانت قصراً ملكيا، كاشفاً موقعه لكل عين حتى ليغدو كأنه بيت للإله أو منارةً للتقوى والإيمان.

ومن المصادفات الغريبة أن يكون أشهر نماذج الطراز الدرافيدى فى فن المعمار هو أحد نماذجه اللاحقة، وأعنى به معبد ميناكشى فى مادُوراىْ . وبالرغم من الإبهار الذى يخطف به لبَّ المُشاهد، فإنه لا يرقى إلى مستوى التصميمات الدرافيدية الرصينة المبكّرة. وما دوراىْ هى العاصمة القديمة لأسرة بانديه، وقد حظيت بتخطيط متميز غير مسبوق حيث تصبّ كل شوارعها فى معبد ميناكشى، كما كانت مركزاً هاماً تعقد فيه المؤتمرات التى تتناول الشأن الإنسانى فى الأدب التاميلى. وجاء فى الأساطير أن الإله شيفه قد تجلّى بهذا المعبد فى هيئة «الجمال السماوى» بوصفه العريس المتأنّق المُقْبل على حفل زفافه. وثمة نقش بارز له بصالة المعبد الفضّية وهو يرقص فى وضعة مخالفة لوضعته الراقصة بالصالة الذهبية، حيث يرفع قدمه اليمنى بدلا من اليسرى. وتعود أبراج المدخل الشامخة المهيبة «الجُوبُوره» التى تستقبل زائرى معبد ميناكشى إلى حقبة متأخرة من عهد أسرة ناياك خلال القرن السابع عشر. ويضم هذا المعبد - شديد التعقيد والذى شُيّد على مراحل - أفنية أربعة، فغدا أشبه بالمتاهة التى تتعاقب فيها مختلف المبانى الواحد تلو الآخر، كالأسوار ومخازن الغلال والمستودعات وقاعات القربان والمقاصير والجواسق والمطابخ، كما تتألق أمام الحرم المقدّس المركزى «البحيرة المقدّسة» مستطيلة الشكل التى يُطلق عليها اسم «بركة زهور السوسن الذهبية»، وقد أحاط بها من كافة الجوانب رواق مُعمّد، يليها فناء مكشوف يضم قاعة الأعمدة الألف. وتضم مدينة مادوراى فيما تضم قصر الملك «تريمولاناياك» الفاره الشهير الذى يشتمل على العديد من الأفنية والقاعات الضخمة وشرفة معمدة تحمل سقفاً عاليا زينت قبابه وعقوده بشبكة من الصيغ الزخرفية الجصّية، ويعتبر هذا المبنى نموذجا للتزاوج الرصين بين العمارتين الهندية والإسلامية. ■

الساحر...

■■ تجربتى مع هذه الرواية غريبة إلى حد ما، جاء وقت لم أكن أفتح فيه صحيفة سويسرية إلا وأقرأ تقريظًا حماسيًا لها أو حوارًا مع مؤلفها، وعرفت من الصحف أنها ترجمت بعد صدورها بوقت قليل إلى خمس وأربعين لغة، وأن مؤلفها برازيلى اسمه باولو كويلهو «أو لعله كيلخو، فأنا لا أعرف النطق الصحيح للغة البرتغالية الأصلية ولا لاشتقاقها البرازيلى» ثم إن الرواية حصدت بعد ذلك جوائز أدبية.

ولم يكن كل ذلك إغراء كافيًا لقراءة الرواية، بل ربما كان العكس هو الصحيح، فصناعة الجوائز الأدبية فى العالم أمر يشكو منه القراء المخدوعون قبل الأدباء المحبطين الذين تخاصمهم تلك الجوائز، غير أن عبارة استوقفتنى فى مقال قال كاتبه: هذه رواية لا تقارن إلا بكتاب «النبى» لجبران أو برواية «الأمير الصغير» لسانت إكزيبورى، قلت لنفسى بمثل هذه الصحبة فليهنأ أى كاتب فأنا مثل ملايين غيرى، مفتون بكليهما ولكن أتراه حقًا جديرًا بها؟

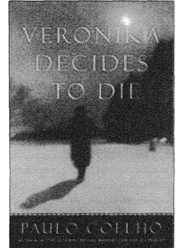
عندما قرأت الصفحات الأولى بل والفصول الأولى من الرواية قلت لغيرى هذه المرة هاأنا أتعرض للخديعة من جديد، وأقع فى شباك الدعاية والتهويل. وجدت بالفعل البساطة المتناهية التى تميز كتابى جبران وسانت إكزيبورى، ولكنى لم أجد ما عندهما من عمق وشعر، أو هكذا خيل إلى، فاتنى رغم العمر والتجريب أن الكاتب يستدرجنى بهون ورفق لكى أدخل عالمه، ثم إنى حين دخلت لم يعد لى من سحره وأسره فكاك. وبالتالى فإن هذه السطور وما بعدها هى نوع من الاعتذار لمن أسأت لهذه الرواية أمامهم، ومن التحذير - لنفسى قبل أى إنسان آخر - من ادعاء الفطنة ومن الغفلة عن كنز حين تقع عليه.

وكلمة «الكنز» هى المدخل الصحيح لرواية «السيميائى» فهى باختصار شديد رحلة أخرى من رحلات الكنوز التى قرأناها فى الروايات وشاهدناها على الشاشة، مع شىء من الاختلاف! فالبحث عن الكنز هذه المرة ليس مغامرة إثارة، نتابع فيها الأحداث المشوقة، بحيث نتطلع فى لهفة إلى ما تحمله لنا الصفحة التالية من مفاجآت، هذه المرة نحن بالفعل فى رحلة بحث عن كنز حقيقى قيل إنه مخبوء فى الصحراء بالقرب من أهرام الجيزة ذاتها، ولكن الرحلة التى تقود الشاب الباحث عن الكنز من الأندلس عبر الصحراء هى رحلة فى داخل النفس أولاً قبل أن تكون فى دروب الصحراء، نحن باختصار أمام رواية فلسفية مثل «حى بن يقظان» لابن طفيل أو «الأمير الصغير»، ومثلهما هى أيضًا مبذولة للجميع للكبار وللصغار على السواء، لكل أن يستمتع بها فى ذاتها، ولكل أن يستشف من طبقات المعنى فيها ما يستطيع.

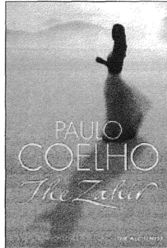
الباحث راع إسبانى بسيط يتجول بأغنامه فى ريف الأندلس، اسمه سانتياجو ولكنك باستثناء الصفحة الأولى والصفحة الأخيرة من الرواية لن تعرفه عبر صفحاتها إلا بصفته أى «الشاب». ولكن هذا الراعى مختلف عن غيره فهو قد اختار مهنة الرعى لكى يرى العالم وترك المدرسة والدراسة وهجر بلدته الصغيرة وسط دموع أمه وإشفاق أبيه، لم يكن يملك مالاً وكان الرعى وسيلته الوحيدة لكى يكتشف عوالم جديدة ولكى يتعلم أشياء لم تتحها له الدراسة، أول ما تعلمه أن هناك لغة تتجاوز الكلام، تلك اللغة ربطت بينه وبين غنمه حتى نشأ بينه وبينها عبر الصمت حب وحوار، تعتمد هى عليه مثلما يعتمد عليها، يسأل نفسه هل تعرف هى لحظة يقظته فتهب من رقادها أم هو الذى يهجره النعاس لحظة استيقاظها؟ هل تعرف مثله علامات الطريق وتسترشد بالنجوم؟ وأية قدرة داخل تلك الحيوانات تجعلها تميز بين

مقدمة الكاتب لترجمة كتاب
L'Alchimiste
(الكيميائى)
Paulo Coelho
Anne Carriere, Paris, 1994

ساحر الصحراء
باولو كويلهو
ترجمة: بهاء طاهر
دار الهلال: يوليو ١٩٩٦







الدخيل الكبير فتنفر منه وتنفره وبين الطفل الصغير الذى يحب أن يلعب معها ويمسد فراءها فتتركه يلهو دون أن تزعجه؟

بدا الراعى راضياً عن حياته وعما يعلمه له التجوال والرعى، ثم إنه يحب القراءة ويصحب معه باستمرار قصة يقرؤها ويبدلها حين يفرغ منها بكتاب جديد، وحين نلتقى به فى البداية نعرف أن هذه القصص كانت وسيلة لاجتذاب الفتاة التى استهوته فى المدينة والتى اعتقد أنها فتاة حياته، كانت ابنة التاجر الذى يجز له فراء غنمه وأدهشها أن تجد راعياً فقيراً يقرأ الكتب ويحكى القصص.



بدا أن كل شىء الآن قد استقر من جديد فهو يربح من عمله ما يكفيه، وهناك فتاة تنتظره وتتعلق به كما يتعلق بها، وبوسع الشاب الآن أن يتزوج وأن يكون أسرة أندلسية صغيرة مثل كل رفاقه.

ولكن حلماً يأتى فيتغير كل شىء، هاهو ذا يقضى مع غنمه ليلة فى كنيسة مهجورة مهدمة، نمت فيها شجرة جميز ضخمة مكان الهيكل، وبينما هو راقد تحت الشجرة إذا بطفل يأتيه فى المنام ينبئه أن هناك كنزاً مخبوءاً له ويقوده من يده حتى أهرام مصر، كانت تلك هى المرة الثانية التى يطارده فيها هذا الحلم.

مفسرة الأحلام الغجرية التى ذهب يستعين بها على تعبير الرؤيا تشترط أن تحصل على العشر من الكنز قبل أن تبوح له بالسر، وإذ تحصل منه على القسم الذى لن يحنث به تنبئه أن عليه أن يذهب حتى أهرام مصر لأنه سيجد هناك كنزه! وحين ترى العرافة على وجهه علامات الغضب والإحباط لأنها قد فسرت الماء بالماء تبادره بقولها أرأيت؟ قلت لك منذ البدء إن حلمك عصى على التعبير، الأشياء البسيطة هى أغرب الأشياء، والحكماء وحدهم هم الذين يرونها.

هانحن أولاء إذن منذ مدخل الرواية نلتقى بمواقف وعبارات سيكون لها ما وراءها فى تلك الرواية الجميلة: اللغة التى تتجاوز الكلام وتربط الإنسان بغيره من الكائنات، التعلم من رؤية العالم.. البساطة التى ترادف الحكمة.. والسعى إلى تحقيق الحلم «الذى يساوى فهم الذات وتحقيق الذات» وتلك محاور سوف تتداخل فيما يلى من الرواية وستتطور حتى تبلغ ذروتها الكاشفة فإذا بك بالفعل تشعر أنك ترى الأشياء فى نور جديد وترى نفسك فى قلب الأشياء مجلوا بهذا النور الكاشف «أليس ذلك بالفعل هو شأن كل أدب جدير بصفته؟».

ولن يسمح المجال بأن نتتبع بالتفصيل عملية التطور تلك، ولا هو بالأمر المطلوب فمن المعلوم أن أى تلخيص لعمل أدبى هو إفساد له لأن كل جزئية وكل كلمة يضعها الكاتب الحصيف لهما دورهما فى السياق الكامل للعمل، ولذا فسيكون من الأجدى أن نتوقف عند بعض القضايا التى يطرحها هذا العمل وأن نستمع كلما أمكن إلى صوت المؤلف الخاص فى عبارات مستمدة من روايته.

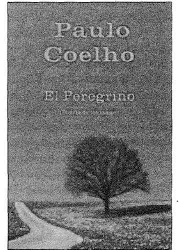


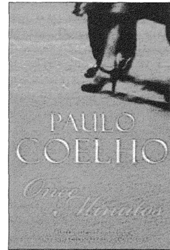
وأولى تلك المسائل التى أحب أن نشترك معاً فى تأملها هى استخدام الكاتب لعنصر الغرائبية «الفانتازيا» فى عمله، فهذه حكاية «أو إن شئت حدوتة» للخيال أن يجمح فيها كما يشاء، وأنت لا تعرف فى أى وقت تدور أحداثها، يمكنك أن تجازف فتقول إن تلك الأحداث تقع فى نهاية القرن الماضى أو فى مطلع هذا القرن، إذ لا يوجد ذكر فى الرواية لسيارة أو لطائرة أو لإمكان استخدام أى من هاتين الوسيلتين فى الانتقال، والأماكن أيضاً غير واقعية تماماً، فالفيوم فى هذه الرواية واحة كبيرة تضم خمسين ألف نخلة، يسكن أهلها الخيام وهى معزولة عن العالم لا سبيل على الوصول إليها إلا بقوافل الجمال، ويمكن للقبائل الصحراوية المتناحرة أن تحاصرها وتغزوها.

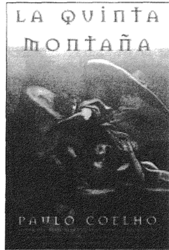
العالم إذن فى هذه الرواية عالم يصنعه خيال الكاتب لا الواقع الجغرافى ولا التاريخى، ومع ذلك - وكما لعلنا قد لاحظنا من العرض السريع لمدخل الرواية - فإن تسلسل الوقائع لا ينبو عن الواقع الذى رسم لنا المؤلف حدوده، وحين تصادفنا الغرائب فى الرواية وهى تحدث أكثر من مرة - فهى ليست من نوع غرائب جارسيا ماركيز التى تصنع عالماً موازياً لعالم الواقع يريد به ماركيز أن يخاطب وعياً يعلو على المنطق المألوف كيما يغير - بالضبط - هذا المنطق المألوف الراكد، الغرائب فى الرواية البرازيلية ترد باعتبارها معجزات أو خوارق، هكذا يراها أبطالها ويدهشون لها مثلما ندهش نحن القراء، وبهذا يتم إحكام الإيهام الروائى، والمعجزات فى نهاية المطاف أمر وارد.

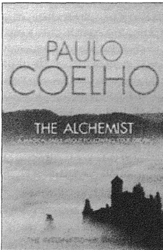
ومهما يكن الحال فإن للعناصر الغرائبية - هنا وهناك - مبرراً فنياً بالغ الوقع والتأثير، ويحسن أن يتدبر بعض كتابنا الجدد - وبعض نقادنا - مغزاه الحقيقى، حتى لا يزيد بفعل التقليد انتشار تلك الأعمال القصصية التى تنقض فيها على القراء الغرائب كالصواعق، على غير فهم ولا مأرب كما كان يقول حافظ إبراهيم.

ولنأخذ مثالاً على روايتنا لتوظيف ذلك العنصر من حيث توقفنا بالضبط. يخرج بطلنا الشاب غاضباً من عند العرافة التى ابتزت منه وعداً بمكافأة سخية لكى تكرر على سمعه ما أخبرنا هو به، يجلس فى حديقة ويحاول أن يقرأ فى كتاب، ولكن فكره يشرد بعيداً، يؤنب نفسه لأن حلماً بسراب بعيد يصرفه عما يملك بالفعل، عن الفتاة التى تنتظره فى

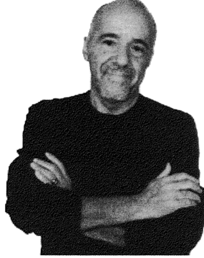








پـاولـو كـويلـهـو



المدينة وعن عمله الذى يحبه والمراعى التى يألفها وقطيعه الذى يبادله حبًا بحب، ويبدو لنا أن عزمه سيستقر على البقاء عندما يأتى عجوز يحاول أن يستدرجه للحديث، ولكن الشاب المشغول بأفكاره يصده ويعزف عنه، غير أن العجوز يفرض عليه أن ينتبه إليه حين يحدثه عن كنز ينتظره، هل هو عراف آخر؟.. لا.. هو ملك لمدينة بعيدة اسمها «سالم» كما يقول، يضحك الشاب ساخرًا منه، ولكن حين ينحنى العجوز ليخط بعصا صغيرة شيئًا على الأرض يخطف بصر الشاب تحت معطف العجوز المهلهل درع من الذهب الخالص تتلألأ فيه الأحجار الكريمة! ولكن ما يخطه على الأرض هو الأكثر غرابة فالعجوز يكتب سطورًا من حياة الراعى لا يعرفها غيره، هنا يصغى إليه فيحدثه الملك «الملاك»؟ عن أسطورة الذات أو الأسطورة الذاتية، لا يعرف الشاب ما هى تلك الأسطورة فيشرحها له، يقول إن كلاً منا يعرف فى شرخ شبابه ما هى أسطورته الذاتية التى ينبغى أن يحققها ولكن قوى غامضة تحاول أن تصرفك عن تحقيق تلك الأسطورة، تضع أمامك كل أنواع العقبات، ومع أنك عندما تريد شيئًا بحق فإن رغبتك الحقيقية تصبح جزءًا من روح العالم الذى أنت جزء منه، وروح العالم تتغذى من سعادة البشر، إلا أنها تتغذى أيضًا من الشقاء والحسد والغيرة حين ينكص الإنسان عن إنجاز أسطورته، ذلك أن تحقيق الذات هو الالتزام الوحيد للإنسان على الأرض، حين يسعى إليه يندرج هو أيضًا فى تلك الروح الشاملة ويتآمر العالم كله لكى يحقق له رغبته مادام قد أوتى الشجاعة لقهر القوى الغامضة التى تريد أن تشل قدرته على الفعل، فليذهب الشاب إذن إلى مصر! هكذا ينصحه ملك سالم، وهو يزوده بنصح آخر: أن يتخذ قراراته بنفسه حين يسعى إلى تحقيق أسطورته على أن يلقى بالاً إلى الإشارات والتنبيهات، ذلك أن الله قد خط فى العالم الطريق الذى يتعين أن يسلكه كل منا، وما علينا إلا أن ننتبه إلى ما فى الطريق من علامات.



هاهو ذا الملك العجوز قد أنهى تردد الراعى، ولكن من يكون ذلك الملك الذى لا يفتأ يكرر أن كل الأشياء هى شىء واحد؟ أليس هو على وجه التحديد وعى ذلك الراعى الصغير الذى خرج صبيًا لكى يرى العالم، وصنع أسطورته الخاصة منذ آثر المرعى المفتوح على المدرسة المغلقة؟ قد يكون ملك سالم الغرائبى تجسيدًا لذلك الوعى المنفتح على العالم وقد أخرجه الشاب من باطن ذاته لكى يحاوره، ولكنه على كل حال ملك روائى جميل.

وأجمل منه بكثير السيميائى أو الخيميائى الذى يعطى الرواية عنوانها «وفى هذه المرة فإن كلا النطقين مقبول إذ وجدتها فى أحد المعاجم العربية بالسين وفى معجم آخر بالخاء!» ونحن نعرف ما السيمياء، ذلك العلم القديم المشكوك فيه الذى ورثت الكيمياء فكرته الأساسية أى تحويل العناصر بعضها إلى بعض، أما السيمياء التى عرفتها العصور الوسطى فكانت تسعى إلى تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب خالص وإلى البحث عن إكسير الحياة الذى يهب الخلود.

لن يلتقى الراعى بهذا السيميائى الأسطورى إلا فى جزء متأخر من الرواية وهو سيميائى مصرى من واحة الفيوم.

قبل ذلك كان لابد للشاب أن يعبر المضيق من الأندلس إلى أفريقيا وأن يتعرض لمحن كثيرة وأن يفقد ماله ويقرر العودة إلى وطنه قبل أن يلتقى بمغربى بائع أوان بلورية «كريستال» يتعلم منه الكثير ويعلمه الكثير، وحين يجمع قدرًا كافيًا من المال يقرر العودة إلى الأندلس ليشترى قطيعًا جديدًا من الغنم ويستأنف حياته التى قطعها حلم وعرافة غجرية وملك عجوز، ولكنه يجد نفسه مسوقًا فى اللحظة الأخيرة لكى ينضم إلى قافلة جمال ستشق الصحراء من الغرب إلى الفيوم، ويتذكر أثمن ما علمه إياه صديقه المغربى، تلك الكلمة العربية التى لا تقبل الترجمة إلى لغة أخرى: مكتوب.

لا يستطيع إنسان أن يهرب من المكتوب، ومادام قد كتب له أن يحقق أسطورته الخاصة فلا مهرب له من أن يمضى حتى النهاية.

ويبدو للشاب أن رحلته قد انتهت إلى غايتها عندما يصل إلى واحة الفيوم مع القافلة، ثم يظل محاصرًا هناك بسبب حروب قبلية فى الصحراء، هناك يعثر على أثمن كنز كان يبحث عنه وهو الحب الحقيقى حين يلتقى بفاطمة الصحراوية الجميلة التى تبادله الحب، يحكى لها سره وقصته منذ البداية ويقرر أن يبقى فى الواحة ما بقى له من العمر ليعيش فرحة الحب التى لا تعدلها أى ثروة ولكن فاطمة ترفض، تقول له لقد علمتنى أن الإنسان يجب أن يقاسى لكى يحقق حلمه، فاذهب وابحث عن الكنز، تلال الرمال تغيرها الريح ولكن الصحراء تظل هى الصحراء، إن كنت أنا حقًا جزءًا من أسطورتك فسترجع لتجدنى هنا ذات يوم.



وذلك أيضًا ما يقوله له السيميائى العجوز الذى تخشاه الواحة ويلقبه بالساحر، يلتقى به فى مشهد عاصف ويحثه على أن يكمل رحلته حتى الأهرام. يسأله لماذا يسمونك السيميائى؟ لأنى كذلك بالفعل، ولماذا إذن فشل كل الآخرين؟ لأنهم يبحثون عن الذهب فحسب، يبحثون عن كنز أسطورتهم الخاصة دون أن يعيشوا تلك الأسطورة.

لكى تصل إلى السر لابد أن تنفذ إلى روح العالم، لا يلزمك حتى أن تشق الصحراء لكى تفهم، يكفى أن تتأمل ذرة واحدة من الرمل ففيها كل بدائع الخلق.

وما السبيل إلى ذلك؟.. استمع إلى قلبك فهو يدرك كل شىء لأنه قبس من روح العالم.

ولكن قلبى يخشى الألم.

قل له إن خشية الألم أمض من الألم نفسه، وإنه ما من قلب قد تألم وهو يسعى إلى تحقيق حلمه، توغل فى العالم تلج إلى روحه وتكتشف الكنز الذى خبأته تلك الروح لكل منا.

هذه هى السيمياء: كل ما فى الكون يتطور والذهب هو أرقى المعادن لكنه بدلاً من أن يصحب رمز التطور أصبح رمزًا للجشع، عرفت فى حياتى سيميائيين انعزلوا عن الدنيا فى معاملهم وحاولوا أن يطوروا أنفسهم ليصبحوا مثل الذهب، وهؤلاء هم الذين اكتشفوا بالفعل حجر الفلاسفة، لأنهم فهموا أنه عندما يرتقى الكائن فإن كل ما حوله يتطور، الحياة تريد أن تصهرك لكى تصبح أنت أيضًا مثل الذهب، ولهذا فهى تختبرك بالمحن قبل أن تعطيك كنزك الموعود لك.

ذلك هو درس السيميائى وهى أيضًا نبوءة، فما أشق المحن التى يخوضها الشاب لكى يجد كنزه، ولكن البوتقة التى تصهره هى نفسها التى تجلو روحه لكى تلتقى بروح العالم.

السيميائى حدوتة بسيطة كما قلت، لا تصنع سحرها الأحداث ولا حتى الأفكار فهى لن تعلم الجديد لدارس الفلسفة أو الباحث عن الحكمة، تمامًا كما أن السيمياء لن تعلم شيئًا لمن يبحث عن الذهب، ولكن من يدخل عالمها سيجد أن الرحلة نفسها هى المنتهى.

ولم تنته بعد حكايتى مع هذه الرواية الجميلة، فقبل أن أفرغ منها دلتنى صديقة أديبة أكن لعلمها كل الاحترام على عرض قدمه الأديب الأرجنتينى بورخيس لإحدى ليالى ألف ليلة وهى التى استلهمها كاتبنا البرازيلى بالقطع فى روايته، وحين قرأت تلك الحكاية التى لا تتجاوز صفحة ازددت تقديرًا لهذا السيميائى الروائى.

ثم إنى لم أنته أيضًا!

فأنا لا أستطيع أن أمنع نفسى فى الختام من الإشارة. بكل تواضع. إلى أنى قبل نشر السيميائى بثلاث سنوات، نشرت قصة عنوانها «أنا الملك جئت» لم تترجم إلى أى لغة، وهى أيضًا رحلة بحث عن الذات فى الصحراء، فكيف اتفق أن توجد ـ دون معرفة ولا لقاء ـ مواقف متطابقة فى العملين، وفى بعض الأحيان نفس العبارات؟

سؤال أطرحه على «روح العالم»! ■

ظاهرة برازيلية

جلاوكو أورتولانو

■■ عندما سمعت للمرة الأولى بنبأ انضمام «باولو كويلهو Paulo Coelho» كأحدث عضو بـ «الأكاديمية البرازيلية للآداب Academia Brasileira de Letras» ذات المكانة الرفيعة، اتصلت به على الفور، أولا لأهنئه على هذا الإنجاز الرائع، وثانيا لأطلب منه إجراء مقابلة قصيرة لمجلة «الأدب العالمي المعاصر World Literature Today»، وكان من الكرم بحيث وافق على الفور. وقد شعرت على وجه الخصوص بسعادة بالغة عندما علمت بانضمامه لعضوية الأكاديمية، كان مبعث سعادتي في الأساس أنني تعرضت شخصيا لنقد قاس من قبل نقاد شديدي التحفظ بسبب إدراجي لروايته «الكيميائي The Alchemist» ضمن قائمة حديثة لأفضل عشر روايات برازيلية في السنوات العشرين الأخيرة (مجلة الأدب العالمي المعاصر، عدد صيف-خريف ٢٠٠١ صفحة ٨٩-٩١). وسوف تتناول بعض إجابات «كويلهو»، والتي وردت في المقابلة التالية وقمت بترجمتها من البرتغالية، ذلك التحيز من وجهة نظره الشخصية.

ليس «باولو كويلهو» المولود عام ١٩٤٧ في «ريو دي جانيرو» مجرد أحد أكثر الكتاب مبيعا للكتب في العالم حاليا، ولكنه أيضا من أكثرهم تأثيرا، ليس في رأيي أنا فحسب، بل أيضا في رأي العديد من لجان التحكيم في ألمانيا وإيطاليا وبولندا وفرنسا وأسبانيا وأيرلندا والبرازيل ويوغوسلافيا، والذين كرموه بأكثر من اثنتي عشرة جائزة دولية خلال السنوات الماضية. لماذا اعترض إذا بعض النقاد على انتخابه لعضوية الأكاديمية أو اختيار أعماله كبعض أفضل نماذج الأدب البرازيلي المعاصر؟ أعتقد أن بعض أولئك النقاد استخفوا بالبساطة السردية لـ «كويلهو»، وهي أسلوب قوي برع فيه تماما على مر السنين. فرواية «الكيميائي» على سبيل المثال، تستخدم لغة كلغة الأساطير، نال المؤلف بسببها إعجابا دوليا. ونادرا مايستخدم «كويلهو» المجاز المركب أو الاستعارات اللغوية أو العبارات الاصطلاحية. وتتسم كل أعماله بالبساطة، وكما كتبت في مقالي السابق، فإن أسلوبه لايسلب فقط خيال قرائه بل وقلوبهم أيضا. وهو أيضا صاحب رسالة بسيطة جدا وصالحة لكل العصور: تكمن السعادة في اكتشاف أنفسنا. وببساطة، فإن «باولو كويلهو» كاتب يبحث عن نفسه، وتلك خصلة توجز حقيقته الأدبية.



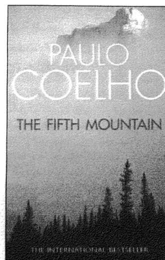
لقد أضحت تلك الظاهرة البرازيلية - كما يسمى - منسجمة تماما، ليس فقط في رحلة بحثه الخاصة، وإنما أيضا في كونه أصبح أحد أهم كتاب العصر، وربما كان ذلك مبعث دهشة لوالدته، حيث كانت تنهاه دائما عن امتهان حرفة ذات عائد مالي ضعيف جدا عادة في بلدان مثل البرازيل. ويبدو أنه كلما كتب أكثر كلما حاز استحسان كبار النقاد أمثال «أمبرتو إيكو Umberto Eco»، وكذلك أعداد متزايدة من القراء حول العالم. ووفقا للمعلومات المنشورة على موقعه على الإنترنت (www.paulocoelho.com.br/eng)، فقد بيعت له حتى اليوم حوالي ٤٣ مليون نسخة من أعماله في ١٥٠ دولة في ست وخمسين لغة مختلفة. ويجعل ذلك من «كويلهو» ثاني أشهر المؤلفين المعاصرين، وذلك طبقا لاستفتاء أجرته مجلة «اقرأ Lire» الفرنسية عام ١٩٩٩. وتبلغ مجموعة أعماله حاليًا خمسة عشر كتابا ترجمت معظمها دار نشر «هاربر كولينز Harper Collins» - إلى اللغة الإنجليزية:

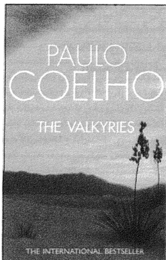
إن نضوج «باولو كويلهو» ككاتب يؤكده انضمامه كأحدث عضو إلى «الأكاديمية البرازيلية للآداب»، رغم كل الجدل المحيط بترشيحه. ومنذ بدايتها، عرفت الأكاديمية البالغة من العمر ١٠٤ أعوام، والتي أنشأها «ماشادو دي أسيس Machado de Assis» (١٨٣٩-١٩٠٨)، وهو مؤلف اعتبره الكثيرون أعظم كتاب عصره في النصف الغربي من الكرة الأرضية، عرفت بدقتها الشديدة في اختيار أعضائها الجدد. وكان على «كويلهو» أن يمر بجولتين من التصويت قبل حصوله على أغلبية الأصوات وإعلان عضويته في الأكاديمية، والذي كان - على الأرجح - مفاجأة للعديد من النقاد البرازيليين. وعلى أية حال، فرغم كل ما يقوله أولئك النقاد، فقد أصبح «كويلهو» اليوم أهم ممثل للأدب البرازيلي الرفيع، حتى على الرغم من أن الغالبية العظمى من أعماله لم تكتب في البرازيل. ولكن ذلك لا يقلل من «برازيلية» أعماله، بل يجعلها أكثر «عالمية». إن «كويلهو» يكتب بالبرتغالية، وهي لغته الأم، وبحس مواطن حقيقي معاصر من «ريو دي جانيرو».

فيما يلي نص مقابلة قصيرة جرت مع «كويلهو» في نهاية شهر يوليو من عام ٢٠٠٢، وكان الحوار الأصلي باللغة البرتغالية.

جلاوكو أورتولانو: في إحدى المناسبات، ذكر «أوي كنزابورو Oe Kenzaburo» (أديب ياباني حصل عام ١٩٩٤ على جائزة نوبل، ١٩٣٥-)، أن «باولو كويلهو» قد اكتشف سر الكيمياء الأدبية. إني على ثقة من أن الكثير من شباب الكتاب يتوقون لمعرفة المزيد عن ذلك. فهل تمانع مشاركتنا تلك الأسرار؟

باولو كويلهو: إن متوسط عدد النسخ في الطبعة الواحدة لأي رواية في الولايات المتحدة أو فرنسا هو حوالي ثلاثة آلاف نسخة، وهو نفس العدد في البرازيل. وليست هناك أية معادلة سرية. فالمؤلف الذي يحاول التعبير عن نفسه وليس في ذهنه سوى تسويق الكتاب قد يخرج من ذلك بكتاب ناجح، ولكن من المرجح جدا ألا يكرر نفس النجاح ثانية، مما سيجعله غير قادر على كسب عيشه من الكتابة. وفي حالتي الشخصية، فقد فعلت الشيء الوحيد الذي يجدر عمله، ألا وهو أن أستغل كتاباتي لأعرف نفسي بصورة أفضل. وما دمت بقيت على ولائي لنفسي، دون الاهتمام بالبحث عن معادلات، فسيبقى قرائي أوفياء كذلك. وقد ابتعد الأدب أكثر وأكثر عن النقد لأن الأخير أصبح رجعيا بدلا من أن يكون تقليديا أكثر. ونتيجة لذلك، فقد عجز النقد الأدبي عن تسويق نفسه كما أنه عاجز





بترتيب مع مجلة:
World Literature Today

ترجمة: عادل فتحي

عن عرقلة مبيعات الكتب. ومن جهة أخرى، فإن القارئ لديه إحساس عال بالحقيقة، ويشترى الكتاب الذى يعكس حالته الذهنية أو الأمر الواقع. وعلى ذلك، فقد ظهر نوعان من البشر: نوع يريد أن يعيش الماضى فى الحاضر، مثل العديد من الأكاديميين الذين مازالوا مقيدين إلى سلسلة من التقاليد القديمة، ونوع يعيش فعلا فى الحاضر، وهم القراء.

أوتولانو: أثناء السنوات الأولى لتكوين شخصيتك، من هم المؤلفين البرازيليين أو الأجانب الذين كان لهم تأثير على كتاباتك بعد ذلك؟

كويلهو: «جورج لويس بورجيس Jorge Luis Borges» (أديب أرجنتينى، ١٨٩٩-١٩٨٦) و«جورج أرمادو Jorge Armado» (أديب برازيلى، ١٩١٢-٢٠٠١) و«هنرى ميلر Henry Miller» (أديب أمريكى، ١٨٩١-١٩٨٠) و«ويليام بليك William Blake» (أديب إنجليزى، ١٧٥٧-١٨٢٧).

أوتولانو: نادرا ما تقع أحداث قصصك فى البرازيل، مما يجعل بعض النقاد يستبعدون كتاباتك من لائحة الأدب البرازيلى. فما هو رأيك فى هذا الموقف؟ هل ترى فى نفسك كاتبا برازيليا؟

كويلهو: مما يثير الاهتمام أن أعمالى موجودة فى المدارس فى جميع أنحاء البرازيل، وأى كتاب يتناول الأدب البرازيلى بعد عام ١٩٩٠ سوف يشير بالتأكيد إلى أحد أعمالى. إن الكتابة عن البرازيل شىء ورؤية العالم من خلال عيون برازيلية شىء مختلف تماما، وهذا موجود فى كل سطر أكتبه. إن أحدا على الإطلاق لم يظن أن «هيمنجواى Hemingway» (أديب أمريكى، ١٨٩٩-١٩٦١) كاتب أسبانى، أو أن «هنرى ميلر Henry Miller» (أديب أمريكى، ١٨٩١-١٩٨٠) كان فرنسيا، حتى رغم أن كلا منهما كتب عن بلاد أخرى غير الولايات المتحدة.

أوتولانو: انضممت مؤخرا كأحدث عضو إلى «الأكاديمية البرازيلية للآداب» المعروفة بمكانتها الرفيعة، بالرغم من اعتراضات معينة من قبل بعض الأعضاء الأكثر تحفظا. فما هو فى رأيك العامل الحاسم الذى جعلهم يغيرون من موقفهم؟

كويلهو: إن أية معارضة ليست فقط طبيعية وإنما أيضا ضرورية، فهى جزء من العملية الإبداعية. إن مجلس «الأكاديمية البرازيلية للآداب» يتكون من أربعين عضوا، وقد حصلت على أغلبية الأصوات (٢٣ صوتًا) على الرغم من أن المرشح الآخر كانت لديه مؤهلات أدبية ممتازة. إن «الأكاديمية البرازيلية» ليست بحاجة إلى السوق ولا ترضخ لأى شىء. ولذلك فإن السبب فى قبول عضويتى هو حقيقة راسخة: لقد تغيرت ثوابت معايير قبول العضوية. وحيث أن «الأكاديمية» تضم اليوم أعضاء لديهم حس بالقضايا المعاصرة (وليس بالماضى كما تزعم الأسطورة)، فقد جعل ذلك من قبول عضويتى أمرا ممكنا. لقد تغير المشهد الثقافى، وأدرك الناس أهمية تحييد الآراء المسبقة ومحاولة تقييم الأدب كمرآة للحاضر وليس كشىء يقبع فى بعض مفاهيم الماضى.

أوتولانو: لا يبدو أن أعمالك تعتنق أى مذهب سياسى أو فكرى. فهل يجدر بنا أن نفترض أنه ليس لديك حقا انتماء لأى جماعة معينة، أم أننى عاجز عن قراءة ما بين السطور؟

كويلهو: إن أعمالى ملتزمة تماما بتوجه سياسى جديد، وهو بحث الإنسان عن هويته الحقيقية. إن أعمالى لا تتناول التصنيفات العتيقة البالية لليمين واليسار. فهناك ثورة تندلع ببطء، ولا يبدو أن الصحافة قد أحست بها حتى الآن. ولو اضطررت لإيجاز الفكرة كلها فى عبارة واحدة فقط، لقلت أن المنهج السياسى الجديد لهذا العصر هو أن «نموت بحيوية».

بمعنى آخر، أن ندرك ونشارك فيما حولنا إلى أنيحين الموت، وذلك شىء لايحدث كثيرا. إن الناس يموتون حقا يوم أن يتخلوا عن أحلامهم. وبعد ذلك، يغادر المرء فى رحلة، كما فعل «عوليس Ulysses»، متقبلا التحديات ومدركا أن على الإنسان أحيانا أن يقاتل وحيدا، وأنه، مع ذلك، ينوب عن الجنس البشرى بأكمله.

أوتولانو: فيما يطلق عليه فورة أدب أمريكا اللاتينية، والتى جاءت بمؤلفين عظام مثل «ماريو فارجاس ليوسا Mario Vargas liosa» (أديب من بيرو، ١٩٣٦-) و«جابرييل جارسيا ماركيز Gabriel Garcia Marquez» (أديب كولومبى، ١٩٢٨-) و«خوليو كورتازار Julio Cortazar» (أديب أرجنتينى، ١٩١٤-١٩٨٤) وغيرهم، تعرض الكثير من الكتاب للاتهام بأنهم ضحوا بالجودة الأدبية فى سبيل الانتشار بين عدد أكبر من القراء. فهل ترى أن هذا السلوك له ما يبرره فى عصر ثورة الاتصالات الذى نعيشه؟

كويلهو: أرى أن من ينتقد هؤلاء الكتاب لا يعرف الكثير عن الأدب. فإن أيًا منهم لم يرضخ للضغوط التجارية. إنهم أناس أسوياء يؤدون عملهم بإخلاص شديد.

أوتولانو: الآن بعد أن أصبحت أوسع انتشارا من المؤلف الكولومبى «جابرييل جارسيا ماركيز»، بل أشهر مؤلف من أمريكا اللاتينية على مر العصور، فهل يمكننا أن نفترض أن ساعة ازدهار الأدب البرازيلى قد حانت فى النهاية؟

كويلهو: كتبى تباع فى أنحاء العالم منذ سبع سنوات. إن قضيتى لا تتعلق بالازدهار الأدبى على المستوى القومى، أساسا لأن المؤلفين البرازيليين متنوعون للغاية ويعكسون حقائق مختلفة جدا. إن الازدهار الشهير لأدب أمريكا اللاتينية هو من اختراع النقاد. وهذا التعبير لم يخرج عن حدود أمريكا اللاتينية. وبالنسبة للمؤلفين الذين حققوا شهرة، وهم «بورجيس» و«جارسيا ماركيز» و«فارجاس ليوسا»، فكانوا مختلفين تماما فى الفكر وفى أساليب الكتابة. لا يمكن للمرء أن يعمم أو أن يخلق بدعة جديدة عن طريق استخدام الأدب كأداة محفزة: لقد حقق هؤلاء المؤلفون الشهرة لأنهم كتبوا أدبا رفيعا وليس لأنهم جميعا من نفس القارة.

أوتولانو: ينسب الكثيرون الفضل فى نجاح أعمالك - جزئيا على الأقل - إلى الزمن الذى نعيش فيه. ومنذ الإعلان رسميا عن سقوط كل المذاهب، يبدو أن هناك حاجة للعودة إلى زمن كان أكثر اهتماما بالظروف البشرية. ويبدو أن أعمالك - على بساطتها - تلبى تلك الحاجة. ما هو رد فعلك على تلك المقولة؟

كويلهو: سقوط المذاهب لم يعلن رسميا. ما حدث هو انهيار نظام كامل من الأفكار البالية. إن الإنسان بحاجة دائما إلى القدوة، لأن ذلك من الطبيعة البشرية. إن البشر فى نظرى مثل البراكين، يحدث تراكم بالداخل دون ظهور أى شىء على السطح. يسأل الإنسان نفسه: هل ستكون حياتى هكذا دائما؟ وفى لحظة معينة تبدأ الثورة. فإن كان هذا الإنسان حكيما، فسوف يسمح للحمم فى داخله أن تتدفق للخارج وتغير المشهد من حوله، وإذا كان غير ذلك، فسوف يحاول أن يكتم الانفجار. وبدءا من تلك اللحظة، سيبذل كل طاقته لمحاولة إبقاء البركان تحت السيطرة. لقد كنت واقعيا بما فيه الكفاية لأدرك أنه من الضرورى فى لحظات معينة من حياتى أن أتحمل الألم الناتج عن الانفجار حتى أتمكن من الاستمتاع بالمشهد من حولى. إن هناك آراء كثيرة حول السبب فى السعى الدائم للبشرية للبحث عن القيم. ذات مرة، أرسل لى أحد الأصدقاء قصة عن رجل تعود أن يحكى لحفيدته عن نوعين من الحيوانات يقطنان داخل روحه: كلب



أعمالى ملتزمة تماما بتوجه سياسى جديد، وهو بحث الإنسان عن هويته الحقيقية. إن أعمالى لا تتناول التصنيفات العتيقة البالية لليمين واليسار. فهناك ثورة تندلع ببطء، ولا يبدو أن الصحافة قد أحست بها حتى الآن





يحميه، وذئب يسعى لالتهام أي شيء يجده. تسأله الحفيدة أي الحيوانين أقوى. فيجيبها الجد بأن أقواهما هو الذي يتلقى تغذية أفضل حسب الظروف المحيطة. إن العقيدة المحورية للجنس البشري منذ بدء الخلق كانت: إحترم جارك.

أوتولانو: لقد حظيت بتقدير كبير في العديد من الدول مثل فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسرائيل والبرازيل. ما أهمية هذا التقدير بالنسبة لك؟ هل تشعر أن لديك مسئولية اجتماعية أكبر مما كان لديك عندما بدأت مهنة الكتابة؟

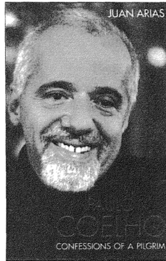
كويلهو: شخصيتي موجودة في كل كتاب من كتبي. فهي تمثل جوانب مختلفة متعددة من حياتي، وكل جانب له معاناته ونشواته. وتلك الكتب لا تمثل عالما أعتبره مثاليا، بل العالم الذي عشته. ولذلك فإني مسئول عن كل سطر أكتبه. ومن جهة أخرى فإن الوجود دائما في حالة تغير مستمر، وعلى أن أبقى منتبها لتلك التغيرات حتى أكون دائما جديرا بما أكتب. تلك هي مسئوليتي: أن أكون أمينا مع نفسي. والآن بعد أن بلغت حدا من الشهرة يصعب أن يبلغه كاتب، أدرك أن بإمكاني استغلال شهرتي لأكافح في سبيل ما أؤمن به. ولذلك قررت إقامة «معهد باولو كويلهو Paulo Coelho Institute»، والذي يقوم برعاية الأطفال وكبار السن بمنحة سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دولار. كما وافقت أيضا على الانضمام إلى عدة مؤسسات أؤمن بأهدافها. وأنا مستشار خاص لبرنامج اليونسكو للتقارب الروحي والحوار الفكري، وعضو في مؤسسة «شواب Schwab Foundation» التي وضعت هيكلا جديدا للعاملين في المجال الاجتماعي، أي الناس المسئولين ليس فقط عن الإنتاج، وإنما أيضا عن كيفية تحقيق هذا الإنتاج.

أوتولانو: أنا أعلم جيدا - ككاتب - أن كل عمل هو بمثابة طفل لنا، وأننا عادة لا نفضل أن نتحدث علنا عن أطفالنا المفضلين. ولكن لو استطعت أن أطلب منك عمل استثناء هنا وأن تتحدث عن بعض أعمالك المفضلة، فما هي الأعمال التي ستختارها؟

كويلهو: الإجابة هنا موجودة في السؤال نفسه: نحن نحب أطفالنا بالتساوي. قد يحتاج بعضهم للرعاية أكثر من الآخرين، ولكن سيكون من الظلم أن نحاول تصنيف هذا العمل أو ذلك. لا يتوجب علينا أن نحكم على الحب، بل أن نعيشه. ■

خـــارج عــن النظـــام!

جــــوان أريـــــاس



■■ كان «كويلهو» المولود في ٢٤ أغسطس ١٩٤٧ في ريودي جانيرو، دائما خارجا على النظام، باحثا عن كل جديد، وأدى به ذلك إلى تجربة كل شيء مر به، حسنا كان أم سيئا. وفي أثناء فوران عام ١٩٦٨، حين كان رجال حرب العصابات و جماعات الـ «هيبيز Hippies» يسيطرون على الساحة، وقع «كويلهو» في حب «ماركس Marx» (فيلسوف سياسي ألماني ومؤلف كتاب «رأس المال»، ١٨١٨-١٨٨٣) و«إنجلز Engels» (اشتراكي ألماني، ١٨٢٠-١٨٩٥) و«تشي جيفارا Che Guevara» (ثائر أرجنتيني، ١٩٢٨-١٩٦٧). وقد شارك في الانتخابات والتظاهرات. كما ساهم في كل الحركات التقدمية وكان جزءا من جيل «السلام والحب».

وفي ذلك الوقت بدأ «كويليو» يمر بأزمة الإيمان، وانطلق يبحث عن خبرات روحانية جديدة، فلجأ إلى المخدرات وعقاقير الهلوسة والطوائف الدينية والسحر، مرتحلا في كل أرجاء أمريكا اللاتينية على خطى «كارلوس كاستانيدا Carlos Castaneda» (عالم أجناس بشرية ولد عام ١٩٢٥ في بيرو أو البرازيل حسب الروايات المختلفة وتوفي عام ١٩٩٨).

وفي النهاية، انصاع «كويلهو» لرغبة والده والتحق بكلية القانون في جامعة «ريو دي جانيرو». ولكنه سرعان ما هجر الدراسة للعمل في المسرح، حلمه الجديد. وبالنقود التي جمعها من مهنة التمثيل، وبعد هروبه من مستشفى للأمراض العقلية، رحل «كويلهو» إلى الولايات المتحدة، حيث ساعده رفاقه من «الهيبيز Hippies» عندما نفدت نقوده.

كانت عاطفته لا تزال متجهة للكتابة، فبدأ يخوض في الصحافة وأنشأ مجلة فصلية اسمها «٢٠٠١». لم تستمر لأكثر من عددين، ولكنها كانت ذات أهمية قصوى لـ «كويلهو»، حيث أدى نشر إحدى المقالات بها إلى التقائه بالمنتج الموسيقي «راؤول سيكساس Raul Seixas» الذي تعاون معه في النهاية كمؤلف لكلمات الأغاني. تلك كانت أولى لحظات المجد بالنسبة لـ «كويليو». كان المغني يعمل في العديد من البلاد، وبدأ المال يتدفق بكثرة على «كويلهو» من عائد كلمات الأغاني لدرجة أنه اشترى خمس شقق سكنية. كما أنه كتب أيضا في صحيفة «الكرة الأرضية El Globo»، إلى أن نشر كتابه الأول عام ١٩٧٤ عن المسرح والتعليم.

تلك أيضا كانت السنوات التي شهدت أقسى تجاربه مع السحر الأسود عبر كتابات وأفكار «أليستر كراولي Aleister Crowly» (ساحر إنجليزي شهير، ١٨٧٥-١٩٤٧)، والتي كانت من أصعب التجارب التي مر بها في حياته، وتحدث عنها بعمق في كتبه. وعندما تمكن «كويلهو» من تحرير نفسه من أغلال السحر الأسود التي كانت تشده إلى شفا الهاوية، كان عليه أن يمر بتجارب قاسية أخرى في حياته: فقد تم اختطافه وتعذيبه على يد إحدى الميليشيات أثناء الحكم العسكري الديكتاتوري في البرازيل والذي استمر من ١٩٦٤ إلى ١٩٨٥. وبما يشبه المعجزة، تمكن «كويليو» من النجاة بحياته من الاحتجاز والتعذيب. وقرر عندئذ وضع حد لجنون المخدرات والسحر الأسود وبدأ بالفعل حياة طبيعية، حيث عمل في العديد من شركات التسجيلات.

ولكن الولع بالكتابة تحرك داخله ثانية عام ١٩٧٦، فانتقل إلى إنجلترا كمراسل لعدد من المجلات البرازيلية وقرر أن يكتب قصة حياته، واستغرق منه الأمر عاما كاملا. ومع ذلك، فعند عودته للبرازيل، ترك المخطوط خلفه عرضا في إحدى حانات لندن، ولم تنشر سيرته الذاتية.

بعد ثلاث زيجات فاشلة، تزوج «كويلهو» في عام ١٩٨١ من الرسامة «كريستينا أويتيسيكا Cristina Oiticica»، التي كان مقدرا لها أن تشاركه أعظم نجاحات حياته ككاتب عالمي شهير. وهما لا يزالان زوجين سعيدين. ولكن حنين «كويليو» إلى الترحال للبحث عن رسالة حياته لم يضعف. وبالنقود التي كسبها ذهبا في جولة حول العالم لمدة ستة أشهر، إلى أن مر في أحد معسكرات الاعتقال الألمانية بتجربة روحانية عميقة وحادة غيرت مجرى حياته مرة أخرى حيث آب إلى المعتقدات الكاثوليكية التي آمن بها والداه. وفي ذلك الوقت، ومع معلمه الروحي، ذهب «كويلهو» في رحلة على الأقدام استغرقت ٥٥يوما لقطع سبعمائة كيلومتر من الطريق القديم إلى «سنتياجو دي كومبوستيلا Santiago de Compostela» مقتفيا خطى حجيج القرون الوسطى.

وقادته تجربة الحج إلى «سنتياجو» إلى نشر أول نصوصه الأدبية: «مذكرات مشعوذ Diary of a Magus» (أعيد تسميته بعد ذلك بـ «الحج The Pilgrimage»). بعد ذلك جاءت كتبه الأخرى، بداية من «الكيميائي The Alchemist» وحتى روايته الحديثة «فيرونيكا تقرر أن تموت Veronika Decides to Die»، مما جعله واحدا من أكثر عشرة مؤلفين مبيعا للكتب في العالم، وأيضا مؤلف مثير للجدل والعواطف المتطرفة، ولكنه مع ذلك دائم الابتسام والثقة بالنفس، في سعيه لإحياء حاسة تذوق الغموض والسحر لدى الرجال والنساء في بداية الألفية الثالثة، متغلبا على الرتابة والعجز في كنف مجتمع آلي ممل.

يقول «كويلهو» دائما أن لديه من النقود ما يكفي لثلاث حيوات أخرى. وهو يكسب الكثير، حتى أنه خصص أربعمائة ألف دولار سنويا من حقوق التأليف خاصته لمؤسسة تحمل اسمه وتديرها زوجته «كريستينا». وتستخدم تلك النقود لرعاية الأطفال اللقطاء الذين يعيشون في أسوأ الأحياء القذرة في «ريو»، وللعناية بكبار السن من الفقراء والمعوزين، ولتشجيع ترجمة الأدب البرازيلي إلى اللغات، وللبحث عن الأصول العريقة للبرازيل التي يعشقها بشدة ويعتبرها أكثر البلاد سحرا في العالم لأنها - حسب قوله - لا تفرق بين ما هو مقدس وما هو وثني، ولا يخجل أحد هناك من الإيمان بالروح. ■

حقيبـــــة الفـــــن

حســـــن أبشـــــر الطـــــيب


محمـــد أحمـــد ســـرور


عبدالكــريم كــرومة

■■ لا يذكر الصبى لذلك الشهر اسماً، ولكنه على يقين أنه كان وقتئذ ابن الثامنة، مقبلاً على الحياة، به كل الميل للمرح والطرب، والكثير من الرغبة فى التمثيل، وإعادة التشكيل لما يراه من مواقف وأحداث. ولقد لمس منه أترابه هذه الرغبة فى التمثيل فقد كانوا يطلبون منه، ويلحون فى الرجاء أن يسعدهم بترديد بعض الأغانى الرائجة، ولا يهمهم فى ذلك الكلمات أو معانيها وإنما كيف يقلد الصبى ذلك الفنان فى حركته وفى سكونه وفى حشده لكل قدراته الصوتية للتعبير عما يختلج فى نفسه من ألحان وأشجان.

يذكر الصبى الكثير من الأحداث التى ارتسمت فى ذاكرته منذ الطفولة الباكرة، بل إنه يذكر بعضها بوضوح كامل، وبكل تفاصيلها بأكثر مما عاشه من مواقف قبل عامين أو ثلاثة وقد تجاوز الآن السبعين بقليل. غير أن الحدث الأكبر الذى نقش فى ذاكرة الصبى بكل تفاصيله هو ذلك العرس الباذخ الذى أحدث دوياً هائلاً ومبهجاً ليس فى أحياء الركابية، وود أرو، وود البنا وحدها، بل فى مدينة أم درمان كلها. ذلك العُرس الذى امتدت أفراحه لأربعين يوماً بالتمام والكمال، تعطرت فيها المدينة، وأسفرت عن وجهها البهىّ الجميل، غنت ورقصت مع أساطين الغناء سرور وكرومة وإبراهيم عبد الجليل. ذلك كان عُرس حسن العُمدة كرم الله، الذى يشهد له الخاصة والعامة بأنه أبرع سائق ترام فى العاصمة كلها. وقد كانت له علاقات حميمة مع عدد كبير من الناس، يودونه لظرفه وحسن معاملته، وله صداقات بشكل خاص مع نجوم الغناء الرصين وقتها، فانتهزوا جميعاً مناسبة عُرسه، وابتدعوا له عُرساً لم تشهد أم درمان قبله أو بعده ما يماثله أو يقرب منه طولاً وعمقاً وعظمة ونشوة وتعبيراً عن البهجة والسعادة الغامرة. أربعون يوماً كاملة ظل فيها سرور وكرومة وإبراهيم عبد الجليل يعطرون المدينة وينثرون فيها الفرح بأغانيهم الخالدة فى الصباح وفى المساء.. فتأمل ! وظل الصبى طوال مدة هذا العُرس، فى مركز دائرة هذا الكرنفال الجميل. يطرب لما يسمع من غناء عذب، ويختزن فى ذاكرته كل هذه الألحان بموسيقاها الموحية وكلماتها المتفردة، ويرتسم كل ذلك فى عقله الباطن. ولعلنا لا نبعد عن الحقيقة كثيراً أو قليلاً إذا قلنا أن الأيام الأربعين لعُرس حسن العمدة كانت البذرة الأولى فى تشكيل ذاكرة ورؤية وهوى ذلك الصبى لأغانى حقيبة الفن، وهو مبتدع البرنامج المتفرد الذى أحدث ثورة فى تاريخ الغناء الحديث فى السودان. كبر الصبى، وصار من الرواد الأوائل للإذاعة السودانية، وظل مستصحباً معه تلك الألحان وتلك الأشجان المعتقة التى حفرت فى ذاكرته من أيام ذلك العُرس الذى كان منظومة من الأعراس فى عُرس واحد.. فتأمل!

ذلك الصبى، الذى تجاوز الآن السبعين بقليل مد الله تعالى فى أيامه، هو (أب أحمد) الأستاذ صلاح أحمد محمد صالح، الذى استطاع أن يضع بصماته فى كل المواقع المهنية التى تسنمها بجدارة واقتدار، ووضع فى كل منها قدراً من إبداعاته، وأعطى كلاً منها من ذات نفسه الكثير. لقد أبدع وأجاد فى كل المواقع التى تمثل منظومة من حياته العملية المهنية. كان صحفياً بارزاً، ومذيعاً متميزاً صاحب إبداعات أصيلة وإشراقات برامجية موحية، إلى جانب صوته المعبر الذى يصفه صديقه الروائى المبدع الطيب صالح (وصوت صلاح أحمد، كأنك مزجت أصوات نات كنغ كول ولوى أرمسترونغ وجلال معوض). فتأمل كيف يكون التمازج العضوى بين هذه الأصوات الرائقة الوسيمة !

والأستاذ صلاح أحمد أيضاً من منظومة النجوم فى سماء الدبلوماسية السودانية، فقد كان له فضل بناء وتطوير

علاقات دبلوماسية نافعة مع كل البلدان التى مثل فيها السودان، وظلت علاقاته الحميمة مع رموزها متصلة إلى يومنا هذا. وهو من قلة من السفراء، الذى ترقوا إلى موقع وكيل وزارة الخارجية، ووصل إلى السن القانونية للتقاعد. ما وجدت النظم السياسية المتعاقبة سبباً لإحالته للتقاعد، ولربما كان مرد ذلك إتقانه حرفة الدبلوماسية داخلياً وخارجياً.. فتأمل!

والأستاذ صلاح أحمد إلى ذلك شاعر غنائى، صاحب أثر إيجابى فعال فى إثراء الغناء السودانى الحديث بقصائد أثرت الوجدان وحظيت بالاحتفاء لدى شريحة كبيرة من المستمعين على اختلاف أعمارهم، ومنها: أهواك، ومات الهوى، ويا مسافر وناسى هواك، ويا ليالى الغرام، وداعاً يا غرامى، ونابك إيه فى هواه، إن تريدى ياليالى تسعدينا، وغيرها. وقد تغنى بها كبار الفنانين: أحمد المصطفى، وعثمان حسين، وسيد خليفة وغيرهم.



المحطة الثانية التى كانت ذات أثر كبير فى تشكيل رؤية وغرام الأستاذ صلاح أحمد بأغانى الحقيبة تتمثل فيما عايشه من محبة خاله السيد الطاهر أحمد حمدنا الله وإعجابه أشد ما يكون الإعجاب بأغانى الرواد الأوائل من الفنانين وفى طليعتهم: الحاج سرور، وكرومة، والأمين برهان، وإبراهيم عبد الجليل، وعلى الشايقى، وعلى أبو الجود، وعبد الله الماحى، وعوض وإبراهيم شمبات. وكان الخال ييمم شطر أرض الكنانة سنوياً ترويحاً للنفس وحرصاً على اقتناء الأسطوانات الجديدة التى سجل فيها هؤلاء الفنانون الكبار أغانيهم بإشراف شركة بيضافون المصرية. وتكونت لدى الخال الطاهر حمدنا الله نتيجة مقتنياته من الأسطوانات مكتبة كبيرة، كان بها حفياً وعليها حريصاً أشد ما يكون الحرص، وحفظها إمعاناً فى التحقق من سلامتها فى حقيبة كبيرة لا يقربها أحد، تأميناً لها من الضياع. ولعل صورة هذه الحقيبة ظلت مختزنة فى ذاكرة الأستاذ صلاح أحمد فرآها بعين خياله عندما ابتدع اسم برنامج: «من حقيبة الفن».

يضاف إلى ذلك أن من آيات إعجاب الطاهر حمدنا الله بأغانى الرواد الأوائل أنه كان شديد الحرص على الاحتفاظ بالنص الكامل لهذه الأغنيات. وقد كانت نصوص معظم هذه الأغانى تنشر وقتئذ استجابة لطلب القراء فى مجلة هنا أم درمان التى عرفت لاحقاً بـ «مجلة الإذاعة والتلفزيون والمسرح». ظل هذا الكنز من المجلات مرجعاً أساسياً لأغنيات ما عرف لاحقاً بحقيبة الفن. ولولاه لصعب أو استحال فى بعض الحالات التوصل للنص الكامل لبعض الأغنيات الخالدة. جوهر الموضوع أن الأسطوانات والمكتبة التى حفظت نصوص الأغنيات قد كانت منهلاً ثرياً وموحياً للأستاذ صلاح أحمد، وإليها يعود بعض الفضل فى تشكيل رؤيته العبقرية فى إعادة إنتاج هذه الأغانى فى منظومة حقيبة الفن.

أما المحطة الثالثة ذات الأثر فى تشكيل منظور الأستاذ صلاح أحمد لأغانى الرواد الأوائل فقد كان نتاج سكنه فى دار تحظى بموقع فيما يمكن تسميته بشارع الفن. إن دار أسرته فى حى الركابية على مقربة من دار الحاج سرور وكان فيصل سرور صديقه، وعلى قرب أيضاً من دار كرومة، وهو فى ذات الوقت غير بعيد من ود البنا مقر الشاعر الفنان عبد الله البنا. ولم تكن دار الفنان الشاعر ورائد المسرح خالد أبو الروس ببعيدة من داره. لكل هذا فقد عاش فى بيئة الفن، والغناء الحديث بشكل خاص لحمتها وسداها. ومن جانب آخر فقد كانت كل هذه الأغنيات الشجية الرصينة تذاع من «الفونغرافات» المنتشرة فى مقاهى سوق أم درمان وهو على مرمى حجر من داره. لكل هذه الظواهر مجتمعة فقد أضحى صلاح أحمد مشبعاً بهذه الأنغام، وبهذه الكلمات الرصينة، وبهذا الأداء المتفرد للرواد الأوائل من أساطين الغناء السودانى. وكان من الطبيعى أن يضيف ذلك إلى تأصيل وتعميق تشكيل رؤيته ومنظوره لأغنيات الحقيبة.

وغنى عن القول أن لأسرته أثرها البين فى تشكيل وجدانه وفكره وميوله، فهو ابن المعلم والشاعر والسياسى الحصيف والوطنى الغيور الأستاذ أحمد محمد صالح، الذى كان يلقب بالإنجليزى الأسود لتمكنه من إجادة اللغة الإنجليزية. وكان فى ذات الوقت من أكثر شعراء العربية جزالة ورصانة، إضافة إلى تمتعه بالصدق الفنى



إبراهيم عبدالجليل



على محمد شمو



صلاح أحمد صالح

والإبانة فى التعبير عن فكره ومشاعره. فى هذه البيئة المترعة بالثقافة، الحفية بالشعر، نشأ صلاح ولابد أنه حظى بالتشجيع من والده لنظم الشعر والاستنارة بدواوين الشعراء التى تحفل بها مكتبة الوالد. كما أن صلاح فى أغلب الظن، وهو ظن أقرب إلى اليقين، كان يسترق السمع لأحاديث رجال السياسة والأدب، والشعر خاصة، الذين يزورون والده، ويلجأون إليه كمستودع حكمة وشاعر متميز ليعرضوا عليه البعض من أفكارهم وقصائدهم. كان صلاح يستمع إلى كل ذلك فتتعمق فى ذات نفسه، وفى عقله الباطن كل هذه الرؤى، والأفكار، والمشاعر، والألحان فيزداد بها ولعاً، وعليها حرصاً. وتكونت نتيجة لكل ذلك رؤيته العبقرية فى ابتداع حقيبة الفن.

لقد ولدت فكرة «حقيبة الفن» فى فكر صلاح أحمد، وخرجت من العقل الباطن إلى طور الرؤية الإبداعية المتكاملة فى لندن. تلك معلومة قد تدهش الكثير من القراء، وهى حقيقة لا جدال. قد كان صلاح حينئذ مذيعاً بالإذاعة البريطانية يعمل مع نخبة من المذيعين العرب للتعريف بصورة مباشرة وغير مباشرة بالحضارة العربية وتراثها الثقافى الثرى فى العديد من مجالات الآداب والفنون. وقد برزت وقتئذ فكرة برنامج للتعريف بتاريخ الغناء فى البلاد العربية، وكان من الطبيعى أن يعهد بتقديم البرنامج عن تاريخ الأغنية السودانية للأستاذ صلاح أحمد.

يقول صلاح: بدأت الكتابة بالعودة إلى عهد الطنابرة والدوبيت والترانيم المرتجلة حتى عهد الأغنية الحديثة. وكانت طبيعة البرنامج تستوجب تقديم نماذج غنائية، استعنت عليها بما كنت أملكه من أسطوانات سودانية وما توافر لدى بفضل ما قدمه السودانيون المقيمون فى بريطانيا وقتها.

ويحدثنى صلاح قائلاً: إن ما توافر له من أغنيات وقتها لم يكن فى نظره كافياً، حيث إنه كان يرى أن قصيدة «عزة فى هواك» للشاعر الرائع خليل فرح هى القمة التى لا يمكن تجاوزها فى تاريخ الأغنية السودانية الحديثة. إنها أغنية خالدة فى فكر ووجدان كل سودانى. ولهذا رأيت أهمية تقديمها فى البرنامج لضمان نجاحه، غير أننى لم أعثر على تسجيل لها

بالرغم من مساعي الجادة. واضطررت إلى تأجيل تقديم البرنامج حرصاً بأن تكون «عزة» في صدر مختاراته. وفجأة خطر لي أن أحاول تقديم الأغنية، بتوزيع موسيقي جديد، وبمجهود محلي في لندن. وعرضت الفكرة على الأستاذ نعيم البصري رئيس وحدة الموسيقى في القسم العربي بالإذاعة البريطانية آنذاك، الذي تحمس لها وأبدى رغبة بالمشاركة بضرب الطبل. ورحب الأستاذ المبعوث وقتها خليفة خوجلي بالغناء وهو يمتلك صوتاً فارهاً أقرب الأصوات إلى صوت الأستاذ عبد العزيز داود، وعزف على آلة الكمان الأستاذ الماحي إسماعيل الذي كان مبعوثاً للتأهيل في علوم الموسيقى، واستعنا بمواطن أرمني يجيد العزف على البيانو وتدوين النوته الموسيقية. بفضل من الله تعالى وتوفيقه كتب لجوقتنا الموسيقية تلك النجاح، فكانت أغنية «عزة في هواك» دُرة ذلك البرنامج، وواسطة عقده ومنظومته من الأغاني السودانية الخالدة.

حدثت هذه التجربة الأولى في عام ١٩٥٣، وظلت الفكرة حية ومتجددة في ذهن ومشاعر الأستاذ صلاح أحمد. وقد كان من نتاج عدم حصوله على تسجيل لأغنية «عزة في هواك» أن انتابه الخوف من ضياع التراث الغنائي السوداني نتيجة لعدم توثيقه وحفظه. من هنا برزت إلى موقع الصدارة فكرته العبقرية في تقديم برنامج من الإذاعة السودانية تكون رسالته الأساسية حفظ التراث الغنائي السوداني وتوثيقه، بل إعادة إنتاجه بمصاحبة الآلات الموسيقية الحديثة التي أصبحت سمة ملازمة لكل الأغنيات الجديدة بعد افتتاح الإذاعة السودانية.

عند عودته للإذاعة السودانية في عام ١٩٥٤ شرع الأستاذ صلاح أحمد لوضع رؤيته في إعادة إنتاج أغنيات الرواد الأوائل للأغنية الحديثة موضع التنفيذ. واجهته صعوبات تمثلت في عدم العثور على النصوص الغنائية المكتملة، فاستعان على ذلك بمكتبة خاله الطاهر حمدنا الله، التي عرفها منذ أيام صباه، ومكنه الخال من الاستعانة بما كان يدخر من مجلة «هنا أم درمان» التي عرفت لاحقاً بـ «مجلة الإذاعة والتلفزيون والمسرح»، ومن مقتنياته من الأسطوانات التي كان بها حفياً. هذا المصادر كانت منهلاً لبرنامج حقيبة الفن.











وبدأ صلاح اختيار بعض النصوص الغنائية وتوزيعها على بعض المطربين المحدثين. وتبادر إلى ذهنه تسمية برنامجه «من حقيبة الفن». ترى هل جال بخاطره وقتئذ حقيبة خاله التي كان يحتفظ فيها بمقتنياته من أسطوانات الرواد الأوائل للأغنية السودانية الحديثة. ربما. وربما كان ذلك لأثر حقيبة قسم الأخبار بالإذاعة وما تحدثه من صوت عند فتحها وإغلاقها.

يقول صلاح: كانت هناك حقيبة حديدية سوداء في قسم الأخبار في الإذاعة، وكان مقره آنذاك في الخرطوم، بينما كانت الاستديوهات في أم درمان. وتذكرت أن الحقيبة تحدث صوتاً عندما أفتحها، ولم تكن لنا معرفة آنذاك بالمؤثرات الصوتية. من هنا برزت فكرة ابتداء البرنامج بصوت فتح الحقيبة، وبصوت إغلاقها عند نهاية البرنامج.

بدأ صلاح برنامجه عظيم الأثر «من حقيبة الفن» لمدة ساعة كاملة حياً وعلى الهواء مباشرة في يوم السبت ١٨ نوفمبر ١٩٥٤. وابتدر الحديث بقوله: (اليوم أنفض الغبار عن تراث الأغنية السودانية الأصيلة.) وقد راق هذا التعبير لست البنات، الفتاة اللجناء بحيهم، فظلت تنقل خبر البرنامج الجديد من دار لأخرى مرددة القول: (بارك الله في صلاح النفض الغبار). قد وفق صلاح في استهلاله البرنامج بهذه الكلمات الموحية. ووفقت ست البنات بدعواتها الصادقة لمباركة ما قام به صلاح من إنتاج برنامج إذاعي عظيم الأثر.



قدم صلاح في حلقته الأولى من حقيبة الفن أربع أغنيات بأصوات فنانين محدثين وبمصاحبة الآلات الموسيقية الحديثة:

- «عزة في هواك» غناء الأستاذ عبد العزيز محمد داود.
- «أنا ما معيون» غناء الأستاذ أحمد المصطفى.
- «الزمان زمانك» غناء الأستاذ عثمان حسين.
- «متى مزاري» غناء الأستاذ سيد خليفة.

وجد برنامج «من حقيبة الفن» ترحيباً هائلاً من شريحة كبيرة من المستمعين تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والسبعين، وانهالت الرسائل بالمئات لاسيما من الجيل الذي عاش شبابه إبان تصدر تلك الأغنيات الرصينة للمحافل، فقد أعادتهم إلى أيام الشباب وذكرياته العذبة.

في شهر نوفمبر الماضي، وعلى وجه التحديد في ١٨/١١/٢٠٠٤م كان العيد الذهبي لبرنامج حقيبة الفن. خمسون عاماً على ميلاد هذا البرنامج الرائع الذي عطر حياتنا بهذا الغناء الأصيل، الثري بالكلمات المترعة بالجمال، الغني بالألحان الشجية، والأداء الصادق المعبر.

من الطبيعي أن يتحقق لبرنامج حقيبة الفن كل هذا النجاح وكل هذا الأثر العميق في تشكيل الوجدان السوداني. وما تأتى له ذلك إلا بتوافر أربع عبقريات تفاعلت تفاعلاً حياً مع بعضها البعض ليكون نتاجها هذا البرنامج الرائع. وتتمثل هذه العبقريات الأربع في:

- عبقرية مبتكر الفكرة الأستاذ صلاح أحمد محمد صالح الذي اختزن الفكرة منذ أيام الصبا في عقله الباطن، ورعاها، وابتدع رؤية إعادة إنتاج أغاني الرواد الأوائل بأصوات المطربين المحدثين وبتوزيع موسيقي يقوم على استخدام الآلات الموسيقية الحديثة. وأمعن في إتقان دوره بالتثبت من نصوص الأغاني الكاملة والصحيحة، واختيار من اختار من المطربين الذين يتسق صوت كل منهم مع الأغاني التي حظي بتقديمها.
- والعبقرية الثانية تتجسد في النجوم المضيئة، المشرئبة إلى السمو والسماء، شعراء الحقيبة ومن نسج لاحقاً شعراً بديعاً على منوالهم. لقد غذوا الوجدان الوطني برصانة الكلمة، وسمو المعاني، وجزالة اللغة. وأحيوا في النفوس نشوة الطرب بما انتظم في قصائدهم من أوزان وموسيقى هامسة وجهيرة في آن.

وظلت قصائدهم الحسان دائماً صادقة ومعبرة عن رؤاهم ومشاعرهم، وثقافتهم وبيئتهم التي تغنوا بمفاتنها ومحاسنها كأجمل وأعظم ما يكون الغناء.

تحية تقدير وإعزاز لشعراء الحقيبة: خليل فرح، وإبراهيم العبادي، ومحمد الرضي (ود الرضي)، وصالح عبد السيد

(أبو صلاح)، وعمر البنا، وسيد عبد العزيز، وأحمد محمد حسين (العمرابى)، ومحمد عبد المطلب (حدباى)، ومصطفى الحاج بطران، وأحمد عبد الرحيم حامد (العمرابى)، وعلى المساح، وعبيد عبد الرحمن، ومحمد على عبد الله (الأمى)، ومحمد بشير عتيق، وعبد الرحمن الريح، ومصطفى التنى.

● أما العبقرية الثالثة فتتمثل فى أساطين الطرب، الذين أبدعوا فى الأداء وأتقنوا أساليب إثارة كوامن النشوة والفرح. ويأتى فى طليعتهم عميد الفن السودانى الحاج محمد أحمد سرور، وعبد الكريم عبد الله مختار الشهير بـ «كرومة»، وإبراهيم عبد الجليل عصفور السودان، والثنائى عوض وإبراهيم شمبات، وبشير الرباطابى، وأولاد الموردة، وأبو عثمان جقود، ومن ترسم خطاهم. وحفظ لأغانى الحقيبة روعتها من المطربين المحدثين أمثال: عبد العزيز محمد داود، أحمد المصطفى، عثمان حسين، سيد خليفة، عبد الكريم الكابلى، عبيد الطيب، بادى محمد الطيب، عوض الكريم عبد الله، أحفاد البنا، صلاح بن البادية، حمد الريح وغيرهم.

● وللعبقرية الرابعة دور لا يمكن أن ينساه المؤرخ المنصف لحقيبة الفن. تلك الأدوار والإضافات الثرية والموحية لسلسلة موصولة من المبدعين الذين تعاقبوا على تقديم برنامج حقيبة الفن. وأخص بالذكر منهم الأساتذة: على محمد شمو، والمبارك إبراهيم، ومبارك المغربى.

لكل هذه العبقريات مجتمعة ازدانت ساحة الغناء السودانى الحديث بأغانى الحقيبة، وتعمقت جذورها فى الوجدان الوطنى، وطرب لها أهل السودان على اختلاف أعمارهم، وظلت دائماً نبعاً ثراً ومتجدداً ينهل منه أهل الفن والغناء.

وتظل الحقيقة الذهبية ماثلة فلم يكن الأثر الإيجابى الفعال لحقيبة الفن مقصوراً على الأغنية السودانية، فقد كانت تداعيات فكرتها القائمة على إعادة إنتاج الفن الرصين وتوثيقه، ذات أثر على فنون أخرى ومنها ما عشنا من إحياء وإعادة إنتاج فى برامج إذاعية مبتكرة للمدائح النبوية وللأغنية الشعبية. جوهر الموضوع أن فكرة صلاح أحمد العبقرية فى إعادة إنتاج الأغنية الحديثة كانت ولا تزال مركز الدائرة لنهضة متميزة فى العديد من ألوان الفن السودانى.



يمثل هذا النموذج الرفيع الذى ابتكره صلاح أحمد فى برنامجه حقيبة الفن يكون للثقافة معناها فى إحياء التراث وفى استلهام التراث. وإحياء التراث واستلهامه كما يقول الدكتور فهمى جدعان، المتمثل فى الوثائق والنصوص والمبدعات الفنية، أدبية أو علمية، من شأنه أن يوضح ويجلى صورتنا التاريخية ويساعدنا على تجسيدها فى حياتنا الراهنة. ذلك يكون بـ «تثقف» هذا التراث وتنميم وجودنا به. أى بتحويله إلى جوهر ثقافتنا وبنيتها الصميمية. بهذا ينتقل التراث إلى حالة «التثقف» العام. وبهذا يكون من المؤكد بلورة «تراث حى» يمكن إدماجه فى منظومة الحاضر وإخراجه من «حلقات الصفوة» إلى «ثقافة» معيشة، والانتقال إلى المرحلة الأهم، مرحلة التثقف التراثى العام.

وتظل «عزة فى هواك» درة حقيبة الفن، وواسطة عقدها النضيد. تزداد على مر الأيام طلاوة حتى أصبحت بمثابة الحداء الوطنى الخالد. تجئ هذه القصيدة المتفردة فى خمسة عشر بيتاً، ملتزمة بلزوم ما لا يلزم - ما عدا المقطعين الثانى والثالث - وهو يعد آية مطلوبة ومألوفة فى الشعر الغنائى وقتئذ. مترعة بجزالة اللفظ، وصحو الكلمات، وتناغم جرس المفردات التى تبعث فى النفوس نشوة الطرب.



أنشأ الشاعر خليل فرح (١٨٩٩ - ١٩٣٢) هذه القصيدة الوطنية الخالدة بمصر أخريات العشرينيات من القرن الماضى، وكان آنذاك نزيل مستشفى المواساة بالإسكندرية. والقصيدة رمزية وطنية، رمز إلى الوطن بكلمة «عزة» وأشار إلى بعض معالم العاصمة المثلثة كأنموذج ومركز القلب للوطن، واستثار وطنية كل أبناء جيله، داعياً للثبات كالجبال، واليقظة والجد فى محاربة الاستعمار، وتغنى فى ذات الوقت بمراتع



وجد برنامج «من حقيبة الفن» ترحيباً هائلاً من شريحة كبيرة من المستمعين تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والسبعين. وانهالت الرسائل بالمئات



إذا نظر عشاق الفن الغنائى السودانى فى اختيار سبع قصائد تماثل المعلقات السبع العربية. فلا جدال أن قصيدة «عزة فى هواك» ستكون إحدى هذه القصائد



وملاعب الشباب ومواطن الجمال. إنك لتشعر وكأنه يتلمس الكلمات، ويختار لك منها من بستان يملكه ما يعبر فى صدق عن مشاعره الوطنية، ليشجيك ويغنيك، ويزيدك زهواً بوطنك، ويعمق فى نفسك إرتخاص كل غال للذود عن حياض هذا الوطن الجميل. والشعر لا تحمله السطور، بل ما وراء آفاق السطور من مشاعر ومبادئ وأنغام يتردد ويزداد بريقها عبر الأجيال. هذه القصيدة الرائعة وحدة متكاملة، يكمل البعض منها البعض الآخر، وليس من اليسر الاستشهاد ببعضها حيث إن ذلك لا يغنى عن الأبيات الأخرى. تأمل هذه المعزة لعزة، وهذا الكبرياء الأصيل، وهذا الشوق الجارف للعودة، وهذه الاستثارة الحميمة للذود عن حياض الوطن:

عزة فى هواك نحن الجبال
للبخوص صفاك نحن النبال
عزة ما بنوم الليل محال
بحسب النجوم فوق الرحال
عزة ما سليت وطن الجمال
ولا ابتغيت بديل غير الكمال
عزة فى الفؤاد سحرك حلال
ونار هواك شفا وتيهك دلال.

ويخيل إلىّ إذا نظر عشاق الفن الغنائى السودانى الحديث فى اختيار سبع قصائد تماثل المعلقات السبع العربية التى ظلت الأجيال العربية تحفظها بشرح الزوزنى، فلا جدال أن قصيدة «عزة فى هواك» ستكون إحدى هذه القصائد، بل أكاد أجزم أنها ستكون أولى هذه المعلقات، فهى إضافة إلى طلاوة جرسها أعظم أغنية وطنية فى تاريخ السودان الحديث.. فتأمل !



ولعله من الأهمية بمكان، أن ننظر فى إطار نظرتنا لميلاد برنامج حقيبة الفن - الذى أعاد إنتاج أغنيات الرواد الأوائل - فى المراحل السابقة لميلاد الأغنية الحديثة.

إن القارئ المتأمل للمصادر التاريخية ولإفادات الرواة يلمس أن هناك ما يقرب من الإجماع على أن ميلاد الأغنية السودانية قد كان مع مستهل القرن العشرين. غير أن ذلك لا يعنى أنه لم يكن هناك ثمة غناء قبل مطلع القرن العشرين. كانت



هناك بعض ألوان الغناء والتطريب مثل أغنيات «الدلوكة» في الأعراس خاصة، والحداء في البادية، و«الدوبيت» وهو أكثر هذه الألوان شيوعاً حيث وجد حظاً من الرعاية والعناية من مجموعة مستنيرة من الشعراء، وتشير بعض المصادر أنهم كانوا نحو خمسة عشر شاعراً غنائياً من أبرزهم: إبراهيم العبادي، ويوسف حسب الله الملقب بسلطان العاشقين، وصالح عبد السيد الملقب بأبي صلاح، وخليل فرح، وأبو عثمان جقود، ومحمد عثمان بدري.

كانوا يغنون «الدوبيت». ذلك عهد المطرب والطنابرة، «والطمبور» في هذا السياق لا يعني آلة موسيقية، بل يعني أداء صوتياً منغماً تقوم به الجوقة التي تقف خلف المغني. وأغنيات الطنبور عبارة عن مقاطع قصيرة يؤديها المطرب الأول ثم تتبعه الجوقة من الطنابرة، ومن نماذج ذلك:

يا جميل أقرب
أكشف الشلاخ
خلني أطرب
بي هواك هضرب
ومن جفاك ألذ
قرصة العقرب

ولقد أحدث قدوم محمد ود الفكي من كبوشية إلى أم درمان نقلة نوعية بينة في تاريخ الغناء السوداني الحديث. كان قدومه الثاني قبيل عام ١٩١٥ حيث أنه قد زار العاصمة نحو العام ١٩٠٠. وفد ود الفكي، كما يقول الأستاذ السر قدور الفنان والراوية لتاريخ الغناء السوداني:

جاء محمد ود الفكي إلى أم درمان من منطقة غنية بالنغم، وفي قلبها مدينة كبوشية التي يجوز أن نطلق عليها عاصمة الغناء إذا جاز التعبير، فهي مدينة عريقة في فنون الغناء والطرب. وإلى جانب فنون الغناء فإن المنطقة غنية بالمدائح النبوية، والإنشاد، وفنون الدوبيت قولاً وتطريباً.

كما أن الشيخ محمد ود الفكي بحكم نشأته الدينية (علماً بأن والده الفكي بابكر كان فقيهاً متمكناً ذائع الصيت، وقد ساءه انصراف ابنه للغناء) على دراية بفنون التجويد وضبط الأصوات ومخارج الحروف. قد استفاد ود الفكي من هذه الحصيلة من ناحية، ومن ناحية أخرى أفاده عدم الانتماء إلى إحدى المجموعات القبلية في العاصمة أن يصبح مطرباً عاماً، وهو بالتالي أول











مطرب سوداني يخرج من إطار الانتماء القبلي إلى رحابة الانتماء القومي. وقد اعتمد ود الفكي في بداية مشواره الفني على ما حمله معه من فنون النغم وجاء به من منطقته كبوشية، ثم سرعان ما سعى إلى التجديد متعاوناً مع شباب العاصمة الذين يعبرون عن روح عصر جديد، ومن هؤلاء يوسف حسب الله ومحمد عثمان بدري وإبراهيم العبادي.

ويثبت الأستاذ السر قدور أن ود الفكي أصبح بعد فترة مطرب المدينة الأول، وطور أسلوبه في الغناء، واتخذ لنفسه أسلوباً وسطاً بين ألحان الغناء الشعبي وألحان المدائح النبوية. وقد تأثر في هذا الأسلوب الجديد بالبيئة النغمية المتنوعة في أم درمان. وبدأ الشعراء الشباب يؤلفون له الرميات الجديدة. وكان أكثرهم إبداعاً في هذا اللون الشاعر محمد ود الرضي الذي طور أسلوب الرميات فجعل كل مجموعة منها تمثل وحدة فنية (عضوية) بعد أن كان المطرب يقدمها متناثرة وأحياناً متنافرة. ومن أشهر رميات ود الرضي «طابق البوخة»:

طابق البوخة
قام ندا يهتف
نام من الدوخة
إيده عاقباهو
الجدلة مملوخة
لي معالق الجوف
موسة مجلوخة

وتمثل الرميات الإيقاعية التي استخدم فيها ود الفكي إيقاع العصاية أو النقر بالعصاية المرحلة الثانية في تطور فنه الغنائي. وقد شارك في هذه التطور شعراء كان لهم القدر الأكبر في ميلاد الأغنية السودانية، يأتي في طليعتهم العبادي وأبو صلاح وعمر البنا، ولا تزال قصائدهم الغنائية هي الدرر الغوالي في التراث الثري لحقيبة الفن.

بلغ ود الفكي من الشهرة أوجاً عظيماً، وتأثر بأسلوبه العديد من المطربين يأتي في صدارتهم الحاج محمد أحمد سرور الذي يعد بحق المؤسس للأغنية القومية الحديثة. قد تتلمذ سرور على ود الفكي وسار على نهجه، ووجد كل المساندة والتشجيع من الشاعر إبراهيم العبادي. والعبادي من قبل ومن بعد فنان شامل: شاعر غنائي، وكاتب مجموعة من المسرحيات أشهرها

مسرحية الملك نمر التي ألفها عام ١٩٢٧، وصاحب ديوان أستاذ الأغاني الذي قدم فيه نماذج لأسلوب كتابة الأغنية الحديثة، وأول من بادر بالدعوة في عام ١٩٢٣ لاتحاد يضم الشعراء وكل المطربين والمهتمين بتطوير الفن الغنائي.

أما النقلة النوعية الكبرى في تاريخ الأغنية السودانية فقد حدثت محض صدفة موفقة. قصد «الطنابرة» أن يفرضوا سطوتهم على الفنان سرور، ويعكروا بهاء تلك الليلة المفرحة، فجاءت الأقدار بعكس ما أرادوا فكانت تلك الليلة معلماً بارزاً لأفول مجد «الطنابرة». يحدثنا الأستاذ حسن نجيلة، في كتابه الممتع «ملامح من المجتمع السوداني» - الجزء الثاني - الصفحة (٦٠) عن هذا الحدث الكبير الذي غير مجرى الأغنية السودانية، وأحدث فيها تطوراً نوعياً ومميزاً بقوله: كان ذلك عام ١٩٢٠ في زواج التاجر المعروف بشير الشيخ في أم درمان، فقد تجمع الشباب من الجنسين لإحياء حفلة رقص كالمتعارف آنذاك. وجاء سرور وفي رفقته صديقه الفنان الأمين برهان. استعد سرور ليبدأ (رمياته) ويتبعه «الطنابرة» الذين تآمروا في تلك الليلة على سرور وقرروا ألا يطمبروا معه لأنه اختلف معهم في الطريق الذي يؤدي به رمياته خلال الطمبور.

كان سرور ينزع للتجديد بطبعه، وهم يريدونه أن يلتزم بالمتعارف آنذاك. الفتيات جالسات على الحصير (السباتة) في انتظار ابتداء الغناء والطنبور، وأصدقاء العريس يملأون الدار، والفنان سرور حائر ماذا يفعل وقد أصر الطنابرة ألا يسايروه مكايدة منهم!

وهنا طلب المجتمعون من سرور أن يغني لهم دون طنبور. وغنى سرور وسانده الأمين برهان. وكانت مفاجأة سارة عندما قامت فتاة جريئة، ونفضت الثوب، وأخذت ترقص في رشاقة على نغمات سرور وبرهان دون طنبور.



وكان هذا أول حدث من نوعه، وتتالت الفتيات يرقصن في تلك الليلة الساهرة، على نغمات سرور وبرهان وقد أبدعن أيما إبداع. وكانت الأغنية التي رقصت عليها أول بنت من كلمات العبادي مطلعها:

وقفت شىء عجيب فى الدارة
وأسفرت اللثام عن الدارة
تتختل دلال وقدارة
وسهم الحاظها ما بداره
جات تتمايل العرجونة
نديان خدها الطريانا
زى الزهرة فى إبانا

فى تلك الليلة ولد عهد جديد لفن الغناء السودانى فقد غبر الطنبور فى العاصمة الوطنية نهائياً. وظل سرور طوال أيام ذلك العرس يغنى مع زميله برهان والفتيات يرقصن على ألحانه، والمعجبون بهذا اللون الجديد يتزايدون، ومن ثم صار هذا هو طابع ليالى الأفراح.

بمحض الصدفة وأحداث ذلك العُرس الجميل كما حدثنا عنها الأستاذ حسن نجيلة كان مولد الأغنية السودانية الحديثة بفضل إبداع مؤسسها الحاج محمد أحمد سرور.

تخلصت من إسار الطنبور واشرأبت إلى ألوان جديدة من الألحان والموسيقى. ويعود الفضل فى ذات الوقت للشاعر إبراهيم العبادى، الذى ابتدع بقدراته الشاعرية الخلاقة الشكل الحديث للقصيدة الغنائية التى كانت تنحصر فى القوالب الرباعية المعروفة بالدوبيت.

وكلمة «دوبيت» فارسية الأصل معناها البيتان، ونموذجها الأقرب فى اللغة الفارسية رباعيات الخيام. والعبادى من قبل ومن بعد قد آزر سرور منذ كان يافعاً، وتعهده بالرعاية، وشجعه على اللون الجديد للأغنية السودانية حتى تسنى له تأسيس هذه المدرسة، وعقدت له إمارة الغناء الحديث بحق وجدارة.



وعندما افتتحت الإذاعة السودانية فى العام ١٩٤٠ كان من الطبيعى أن أولى الأغنيات التى بثت منها هى فرائد عميد الفن الحاج محمد أحمد سرور.

وقد كان الرجل شديد الاعتزاز بفنه ولقبه، وبالشهرة التى بناها بجهده ونزوعه للتجويد والإتقان، وبدوره الرائد فى بناء الأغنية السودانية الحديثة.

وشهدت الفترة التى أعقبت هذه الثورة الكبرى فى تكوين وموسيقى الأغنية السودانية، أعنى الفترة من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٤٠ ازدهار الأغانى وفقاً لهذا اللون الجديد، وتم تسجيل مئات الأسطوانات فى القاهرة للرواد الأوائل من المطربين: الحاج محمد أحمد سرور، وعبد الله الماحى، والأمين برهان، وعبد الكريم كرومة، وإبراهيم عبد الجليل، والفاضل أحمد، ومن الأصوات النسائية أم الحسن الشايقية، ومهلة العبادية، وفاطمة خميس.

ولقد ذاع صيت الأسطوانات باقتناء معظم المقاهى فى العاصمة والمدن السودانية «للفونغراف» الذى كان له أثره فى نشر هذا الغناء العذب الشجى.

كما كان لزيارات الفنانين للمدن السودانية الكبرى دورها فى ترقية الذوق الغنائى، ونشر هذا الفن الغنائى الجميل والمتجدد، الذى انتقل بالمواطن من الغناء القبلى إلى الغناء القومى.



عندما بدأ بث الإذاعة السودانية بثها مطلع الأربعينيات كانت الساحة الفنية السودانية مترعة بالألحان والأنغام نتيجة مصاحبة العود والكمان لأغنيات كبار المطربين. قدمت الإذاعة حينئذ سلسلة من النجوم التى أضاءت ساحة الفن الغنائى، يأتى فى صدارتهم الأساتذة: إسماعيل عبد المعين، إبراهيم الكاشف، وأحمد المصطفى، وحسن عطية. وللفنان إبراهيم الكاشف السبق فى تجديد أساليب التلحين واستخدام الفرقة الموسيقية بديلاً عن الكورس، وما كان ذلك نتيجة دراسة سابقة بل لما تمتع به من فطرة شفيفة وذكاء فنى واجتماعى، ولكل ذلك فقد كان جديراً بلقب «أبو الفن».

فى قمة هذا الجبل الأشم من تراث الغناء السودانى وقف الأستاذ صلاح أحمد محمد صالح، ليحفر بأناة فى ذاكرة الوطن مستكشفاً روعة هذا الغناء الجميل، موثقاً له، ومبتدعاً لإعادة إنتاجه على نحو يجعله متسقاً مع ما جد من ألحان وآلات موسيقية وألوان جديدة من الأداء. كانت بذلك حقيبة الفن ولا تزال فتحاً جديداً فى عالم الأغنية السودانية. ومن حسن حظ الرواد الأوائل وحسن حظنا فى آن، أن تواصل تقديم هذا البرنامج الرائع لخمسين عاماً، تعاقبت على تقديمه سلسلة موصولة من المبدعين حرصوا على مساراته، وأضافوا إليه من إبداعاتهم. ■

كتاب الزاوية

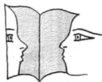


زكى نجيب محمود

المجتمع الجديد

ما هى الأسس الأولية التى يقترح للمجتمع الجديد أن يقوم عليها؟ أولها المساواة، مساواة على المستوى القومى ومساواة على مستوى العالم بأسره، فلكل إنسان على وجه الأرض - من حيث هو إنسان وكفى - حق نابع من فطرته البشرية نفسها فى أن يشبع حاجاته الطبيعية الأساسية من تغذية وإسكان ورعاية صحية وتعليم، لأنه بغير أن تجد هذه الحاجات الأساسية ما يشبعها إلى الحد المعقول، فإنه يتعذر على الإنسان أن يشارك فى الحياة الحضارية مشاركة مقرونة بالكرامة الواجبة. وليست المشاركة فى الحياة المتحضرة الكريمة مما يجوز أن يغنى فيه إنسان عن إنسان، لأنه «فرض عين» كما نقول فى الفقه، أى أنه فرض مفروض على كل إنسان باعتباره إنسانًا.

والمجتمع الجديد المقترح ليس مجتمعًا استهلاكيًا على الصورة التى نراها اليوم فى البلاد المتقدمة والغنية، بل هو مجتمع إنتاج، والإنتاج فيه تحدده الحاجات الطبيعية الضرورية لكل إنسان، لا الربح الذى يجىء أو لا يجىء، فلا ينبغى للاستهلاك أن يكون غاية فى ذاته، كما هو الحال الآن، إذ ننتج من السلع ما لا تقتضيه الحاجة، ننتجه لا لشىء إلا ليلهو به أصحاب الثراء، فى الوقت الذى نترك فيه ملايين الناس يعوزهم سد حاجاتهم الضرورية. لكننا إذ نقول أن الإنتاج محدد بالحاجات الضرورية لا يفوتنا أن نشير إلى أن تلك الحاجات نفسها تختلف باختلاف العصور واختلاف الثقافات والحضارات، فلابد من مسايرة التغيرات الطارئة بحكم العصر وثقافته وحضارته، فما لم يكن حاجة ضرورية فى ظل ثقافة ماضية، قد يصبح الآن ضرورة لا غنى عنها، والأمثلة على ذلك كثيرة.



عندما ينظر الكاتب إلى نفسه

شــــوقـــى ضيـــــف

■■ لعل أقدم صورة للترجمة الشخصية تلك الكلمات التى كان ينقشها القدماء على شواهد قبورهم، فيعرفون بأنفسهم، وقد يذكرون بعض أعمالهم. واشتهر المصريون فى عصور الفراعنة بكثرة ما نقشوا على قبورهم وأهراماتهم وفى معابدهم وهياكلهم من تواريخهم وأفعالهم. وكانت تسرى هذه الروح فى الأمم القديمة من حولهم. وقد سجل يوليوس قيصر فى كتابه «التعليقات» حروبه فى الغال والحرب الأهلية بينه وبين بومبى. وعرض عرضاً بارعاً الدسائس والمؤامرات التى كان ينسج خيوطها من حوله من الأصدقاء والأعداء على السواء.

وأُثر على ملوك الفرس وصايا لأبنائهم توضح سياستهم، نقلها عنهم العرب فيما نقلوه من تواريخهم وأخبارهم. وفى كتاب «تجارب الأمم» لمسكويه أن كسرى أنو شروان ألف كتاباً فى سيرته وسياسته، واكتفى مسكويه فى التعريف به ببعض صفحات من هذا الكتاب تصور حروبه وانتصاراته على الروم والترك والديلم، كما تصور سياسته الداخلية ونشره للعدل فى رعيته وتخفيفه لمغارم الضرائب عنها، حتى تقوى على عمارة الأرض واستخراج ثمارها.

ومع مر التاريخ نشأ المؤرخون، ونشأت طبقات من المفكرين والفلاسفة، أودعت كتاباتها كثيراً من حياتها وأحوالها وتجاربها، وكان من أهم ما قرأ له العرب فصولاً طويلة فى ذلك جالينوس الفيلسوف والطبيب اليونانى المشهور، فإنه ضمن كتبه الكثيرة التى نقلوها نبذاً ونوادر متفرقة عن حياته، وخاصة فى مؤلفيه: «مراتب قراءة كتبه» و«فينكس كتبه» أو فهرسها الخاص. وفيهما صور نشأته وحياته العلمية تصويراً دقيقاً. ومن قوله فى المؤلف الأول: «إن أبى لم يزل يؤدبنى بما كان يحسنه من علم الهندسة والحساب والرياضيات التى يؤدب بها الأحداث، حتى انتهيت من السن إلى خمس عشرة سنة، ثم إنه أسلمنى إلى تعليم المنطق، وقصد بى حينئذ إلى تعليم الفلسفة وحدها، فرأى رؤيا دعته إلى تعليمى الطب.. وقد أتت علىّ من السنين سبع عشرة سنة». ويعرض علينا فى فهرست كتبه مؤلفاته وتاريخ تأليفها ويشرح ما فيها من الآراء، ويذكر بعض الحوادث التى مرت به، بحيث يمكن أن يقال إن هذا المؤلَّف والمؤلَّف السابق له ترجمة ذاتية أو شخصية لجالينوس.

وليست ترجمة جالينوس ولا ترجمة كسرى أنو شروان كل ما قرأه العرب من تراجم شخصية أجنبية فإنهم قرءوا فى كتاب «كليلة ودمنة» الذى ترجمه ابن المقفع عن الفارسية ترجمة لبرزويه رأس أطباء فارس الذى نقل للفرس هذا الكتاب عن أصوله الهندية. وتبدأ الترجمة على هذا النحو:

«أبى كان من المقاتلة، وكانت أمى من عظماء بيوت الزمازمة «المجوس» وكان منشئى فى نعمة كاملة، وكنت أكرم ولد أبوى عليهما، وكانا بى أشد احتفاظاً من دون إخوتى، حتى إذا بلغت سبع سنين أسلمانى إلى المؤدب، فلما حذقت فى الكتابة شكرت أبوى، ونظرت فى العلم، فكانت أول ما ابتدأت به وحرصت عليه علم الطب، لأنى كنت عرفت فضله. وكلما سددت منه علماً ازددت فيه حرصاً وله اتباعاً. فلما همت نفسى بمداواة المرضى وعزمت على ذلك أمرتها «شاورتها» ثم خيرتها بين الأمور الأربعة التى يطلبها الناس وفيها يرغبون ولها يسعون، فقلت: أى هذه الخلال أبتغى فى علمى وأيها أحرى بى فأدرك حاجتى؟ المال أم الذكر أم اللذات أم الآخرة؟ وكنت وجدت فى كتب الطب أن أفضل الأطباء من واظب على طبه، لا يبتغى إلا الآخرة، فرأيت أن أطلب الاشتغال بالطب ابتغاء الآخرة، لئلا أكون كالتاجر الذى باع ياقوتة ثمينة بخرزة لا تساوى شيئاً».

ثم يمضى برزويه فيقص علينا فى حديث مسهب سيرته فى مداواة المرضى وكيف كان يزجر نفسه عن النظر إلى من هم دونه فى العلم وفوقه فى الجاه والمال، وكيف كان يقبل على تقديم الخير للناس ابتغاء الدار الآخرة غير مؤثر للذة ولا منخدع بمنفعة ولا بصلة لقريب أو صديق. ثم يحدثنا أنه شك فى دين آبائه وأجداده، فالتمس ديناً جديداً ودعاه ذلك إلى أن يبحث فى الأديان، وطال بحثه وتفكيره وتردده. وأخيراً انتهى إلى مجموعة من الفضائل توافق كل الديانات، كما انتهى إلى النسك والزهد فى الدنيا ومتاعها وشهواتها وكل ما بها من زخارف الحياة. وهى ترجمة بديعة، وإن كان يظن أنها استخدمت فى الأصل الفارسى للدعوة إلى مذهب «مانى» الذى عُرف عندهم والذى كان يدعو إلى رفض الشهوات واطراح اللذات، مما ليس هنا تفصيله. على كل حال قرأ العرب هذه الترجمة لبرزويه، وكان لها أثرها فى تصورهم للترجمة الشخصية، وإن لم يبلغ هذا الأثر مبلغ ترجمة جالينوس لنفسه كما سنرى فى الفصول التالية.



وإذا كان العرب فى العصر العباسى عرفوا بعض ما كان عند الأجانب من هذه الترجمة فإنهم فى العصر الحديث عرفوا أيضاً كثيراً مما كتبه الغربيون فى هذا الباب، ولسنا نستطيع أن نحصى هنا أعمال الغربيين، فهى كثيرة ومتنوعة، ولكل أمة تراجمها الممتازة، بحيث يؤلف هذا الفن عند القوم، كل فى محيطه وبيئته، سلسلة متلاحقة من الآثار. ومن أروع التراجم عندهم «الاعترافات» لجان جاك روسو، وهو يقول فى فاتحتها: إنه سيعرض نفسه على حقيقتها ولن يموه فيها، ولن يخفى سيئة أو يزيف حسنة، إنما سيذكر الحق مجرداً، ولن ينقص منه شيئاً. ومضى فعرض حياته عرضاً دقيقاً. ولمعاصره «جيته» ترجمة شخصية سماها «الشعر والحقيقة» عرضها بأسلوبه الرائع.

وكثرت هذه الترجمة فى القرن التاسع عشر: وممن ترجموا لأنفسهم فيه ستندال، وتتميز ترجمته بنظرات تحليلية فى الطبائع الإنسانية فى نفسه وفيمن حوله، وكان من رأيه أن الأديب ثمرة كل الظروف التى تحيط به، وبهذا الرأى تأثر فى كتابته عن نفسه، وحاول أن يرد عواطفه وكل ما يتصل به إلى محيطه. ولتولستوى ترجمة معروفة سماها «طفولة وفتوة وشباب» عرض فيها حياته عرضاً دقيقاً، والفلاسفة الغربيون الذين ترجموا لأنفسهم كثيرون وهم يكشفون لنا فى تراجمهم عن حياتهم العقلية وتطورها، بحيث لا يستغنى عنها دارس لفلسفتهم.

ولن نستطيع أن نذكر هنا كل من ترجموا لأنفسهم فى الغرب، إنما حسبنا أن نشير إلى أن هذا الفن الأدبى له تراث كبير عند القوم، وأن هذا التراث اطلع عليه أدباؤنا المحدثون، وأنهم أفادوا منه فى صنعهم لتراجمهم التى نقرؤها لهم، وخاصة حين نجدهم يعرضون لأطراف حياتهم فى صراحة، وحين يخوضون فى المؤثرات التى أثيرت فيهم. ومن المحقق أن فن التراجم الغربية ارتقى عند القوم، حتى أصبحت الترجمة شيئاً طريفاً يُقرأ، بما وضعوا فيها من اعترافاتهم، وضمنوها من سيئاتهم وحسناتهم. وليس ذلك فحسب، فهم يكتبون على ضوء الفكر الحديث وآرائه النفسية فى الفرد والجماعة، وبذلك يتيحون لنا دراسة

صفحات من كتاب:
الترجمة الشخصية
شوقى ضيف
دار المعارف ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٠

ممتعة لأشخاصهم في العوالم التي ينتسبون إليها، ونقصد عوالم الفلسفة والأدب والعلم. وقد يتخذ بعضهم ستارًا من القصة، ولكن مع ذلك تعرف الحقيقة، فإذا القصة حين تغير الأسماء تصبح علمًا عليه وعلى أهله وأصدقائه والأشخاص الذين عرفهم، على نحو ما هو معروف عن قصة «راعي ويكفيلد» لجولد سمث، ولم تشتهر قصته في هذا الباب كما اشتهرت قصة «ديفد كبر فيلد» لديكنز فإنه قص فيها حياته الأولى، وليس «مستر مكوبر» تلك الشخصية البديعة في القصة إلا أبوه بكل ما يميزه من سمات. ويمكن أن نقول بصفة عامة إن كثيرًا من مواقف القصص، بل إن كثيرًا من أبطالها يصورون كاتبها في ظروف معينة، فالكاتب كثيرًا ما يستمد من واقع نفسه وتجربته الذاتية، ولا يضعف ذلك من عمله، بل قد يرفع منه أحيانًا، لأنه يجعل التجربة التي نقرؤها في القصة تجربة صادقة معبرة عن واقع حقيقي.

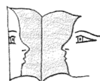
ولعل من الطريف أن أدباءنا المعاصرين قلدوا الغربيين في العملين أو الوجهتين جميعًا، فهم تارة يكتبون تراجم شخصية كاملة، يرسمون فيها حياتهم رسمًا دقيقًا، لا ينسون فيه البيئة والوسط والظروف الخارجية، وتارة أخرى يقصون على طريقة القوم قصصًا يصور حياتهم، إن لم يكن تصويرًا كاملاً، فهو تصوير لبعض تجاربها. ومن أمتع ما كتب في هذا اللون قصة «إبراهيم الكاتب» لإبراهيم عبد القادر المازني. حقًا إنه لا يصح أن نعتمد كل الاعتماد على ما جاء في هذه القصة من حوادث لمعرفة حياة المازني، ولكنها في جملتها تعد تصويرًا لوقائعه وتجاربه الشخصية.

وكتابة القصص على هذا النحو المستمد من حياة الكاتب لا تعد ترجمة ذاتية له بالمعنى الدقيق، لأنه يضيف إلى تجاربه تجارب أخرى من محيطه، ولكنها على كل حال تعد تعبيرًا عن نفسه، وإن لم يكن تعبيرًا دقيقًا على نحو ما نجد في الترجمة الشخصية التي تنحصر في تجارب الكاتب، ولا يضاف إليها أي تجربة من الخارج، ولا أي حادثة، من شأنها أن تضع ستارًا أو لثامًا بيننا وبين حقائقه.

نهج المحدثون نهج قدمائنا في الترجمة لأنفسهم، وقد اطلع من أتقن منهم اللغات الأجنبية على ما لدى الغرب من ترجمات شخصية. فكان القديم العربي والجديد الغربي باعثًا لهم على الترجمة لأنفسهم، ولعل أهم من ترجموا لأنفسهم في القرن الماضي علي مبارك، فقد كتب في مؤلفه «الخطط التوفيقية» سيرة حياته، واستخرجها منه الدكتور محمد دري الحكيم ونشرها مفردة. وهي سيرة طويلة تقع في نحو ستين صحيفة، ألم فيها إلمامًا دقيقًا بنشأته وتعلمه في مصر وفرنسا، كما ألم بوظائفه وتقلباته في الحكومة وخارجها، وما قام به من أعمال وإصلاحات في التعليم وغيره. وقد كتبها سنة ١٨٨٩ للميلاد أي قبيل وفاته بقليل، فهي سيرة كاملة.

ويعرفنا في أولها بقريته «برنبال الجديدة» التي تقع في الشمال الشرقي للدلتا على البحر الصغير بالقرب من المنصورة، وكان بها أربع حارات ومسجد وكتاب ومعملان لتفريخ الدجاج وأربعة أنوال يدوية للنسيج ودكان لعطار وآخر لصباغ، وضريحان لوليين وبعض صناع كنجار للسواقي ونوتي للمراكب. وفي هذه القرية ولد علي مبارك سنة ١٢٣٩هـ/ ١٨٢٣م للشيخ مبارك خطيب المسجد وإمامه ومأذون البلدة الذي يعقد الزواج بها، ويفتي الناس في شئونهم الدينية.

ولما صلب عوده بعض الصلابة أرسله أبوه إلى كتاب القرية، وكان المقرئ فيه شيخًا ضريرًا قاسيًا يضرب الصغار ويعنف بهم، مما كره «علي مبارك» في التعلم وحفظ القرآن. وحدث أن رميت على أبيه وأسرته أرض، عجزوا عن دفع ضرائبها للحاكم، فبيعت بهائمهم، وسيموا العذاب على نحو ما هو مشهور عن الأسرة العلوية وحكمها لمصر في القرن الماضي. وتشتتت أسرة علي مبارك في البلاد، ونزل أبوه بعرب في الشرقية يسمون «السماعنة» فاتخذوه شيخًا لهم وكفوه مئونته. ولما استقرت به النوى أرسل ابنه إلى كتاب يعلم فيه شيخ يسمى أبا الخضر، ولم تمض مدة طويلة بعلي حتى نفر من هذا الكتاب كما نفر من كتاب بلدته السابق، فماذا يصنع أبوه؟ لقد رأى أن يلحقه بكاتب ممن يكتبون للناس في شئونهم اليومية، ولم يعجب ذلك عليًا. فطوف في





الكاتب كثيرًا ما يستمد من واقع نفسه وتجربته الذاتية، ولا يضعف ذلك من عمله، بل قد يرفع منه أحيانًا، لأنه يجعل التجربة التي نقرؤها في القصة تجربة صادقة معبرة عن واقع حقيقي



البلاد القريبة، ولقي كثيرًا من صنوف المشقة، ومازال على ذلك حتى اشتغل كاتبًا صغيرًا بين يدي «عنبر أفندي» مأمور زراعة القطن بأبي كبير. وعجب علي حين رآه أسود حبشيًا، وعرف عنه أنه تعلم بمدرسة «قصر العيني» فطمحت نفسه أن يلتحق بها، وأن يصبح مثله من الحكام. وعرف فيما عرف أن هناك مفتشًا للحكومة يمر بمكاتب القرى، يختار منها الطلاب النابهين، فيلحقهم بالمدرسة المذكورة. فترك عمله، والتحق بكتاب، ومر المفتش بهذا الكتاب، فأعجب به، واختاره فيمن يختارهم للمدرسة، وكانت سنه إذ ذاك اثنتي عشرة سنة. ودخل المدرسة، فلم ترقه، إذ لم تكن بها عناية بمأكل ولا ملبس، وكانت بها روح عسكرية شديدة، وكاد أن يرجع لولا أن أنعم الله عليه، فنقل إلى مدرسة الهندسة بأبي زعبل سنة ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م. يقول:

«وكان أثقل الفنون علي وأصعبها فن الهندسة والحساب والنحو. فكنت أراها كالطلاسم، وأرى كلام المعلمين فيها ككلام السحرة. وبقيت كذلك مدة إلى أن جمع المرحوم إبراهيم بك رأفت متأخري التلامذة في آخر السنة الثالثة من انتقالنا إلى مدرسة أبي زعبل، وجعلهم فرقة مستقلة، فكنت أنا منهم، بل آخرهم. وجعل نفسه هو المعلم لهذه الفرقة. ففي أول درس ألقاه علينا أفصح عن الغرض المقصود من الهندسة بمعنى واضح وألفاظ وجيزة.. فانفتح من حسن بيانه قفل قلبي ووعيت ما يقول، وكانت طريقته هي باب الفتوح علي. ولم أقم من أول درس إلا على فائدة. وهكذا جميع دروسه بخلاف غيره من المعلمين، فلم تكن لهم هذه الطريقة، وكان التزامهم لحالة واحدة هو المانع من الفهم. فختمت عليه في أول سنة جميع الهندسة والحساب وصرت أول فرقتي.. وكان رأفت بك يضرب بي المثل ويجعل نجابتي على يديه برهانًا على سوء تعليم المعلمين، وأن سوء التعليم هو السبب في تأخر التلامذة. وفي تلك السنة، وهي سنة ١٢٥٥هـ/ فرزوا منا تلامذة لمدرسة المهندسخانة ببولاق. فاختاروني فيمن اختاروه، فأقمت بها خمس سنين. وأخذت جميع دروسها، وكنت فيها دائمًا أول فرقتي».

وفي سنة ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م أرسل بعث علمي إلى فرنسا، فكان بين مبعوثيه، وأقام بها خمس سنوات تعلم فيها الفرنسية وأتقنها كما تعلم الهندسة الحربية والمدنية، وعاد في عهد عباس الأول، وكانت مصر تجتاز دورًا من أدوار محنتها فقد أغلق المدارس، وخفض ميزانية التعليم إلى خمسة آلاف جنيه في العام، والتحق علي مبارك بمدرسة في «طرة» ولم يكن فيها إلا جماعة قليلة متقدمة في السن. وفي تلك المدة تزوج بكريمة أحد معلميه في مدرسة أبي زعبل، ثم حدثته نفسه بزيارة أهله وكانوا قد عادوا إلى «برنبال». يقول واصفًا للمفاجأة والزيارة:

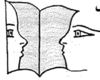
«فوجدت أبي قد سافر إلى مصر لزيارتي، ولم أجد في المنزل إلا والدتي وبعض اخوتي، وكان دخولي عليهم ليلاً. فطرقت الباب، فقيل من أنت؟ فقلت ابنكم علي مبارك. وكانت مدة مفارقتي لأمي أربع عشرة سنة لم ترني فيها ولا سمعت صوتي. فقامت مدهوشة إلى ما وراء الباب، وجعلت تنظر وتحد النظر وكنت بقيافة العسكرية الفرنساوية لابسًا سيفًا وكسوة تشريف. وكررت السؤال حتى علمت صدقي، ففتحت الباب وعانقتني ووقعت مغشيًا عليها ثم أفاقت. وجعلت تبكي وتضحك وتزغرد، وجاء أهل البيت والأقارب والجيران، وامتلأ المنزل ناسًا، وبقينا كذلك إلى الصباح، والناس بين ذاهب وآيب. ثم رأيت والدتي في حيرة فيما تصنعه لي من الإكرام، وتريد عمل وليمة وهي فارغة اليد، ورأيتها تبكي، وأقمت عندهم يومين، ثم استأذنتهم ووعدتهم بالعود».



وألمت بعلي مبارك أيام بؤس ونعيم، وكان ذلك حال الموظفين المتصلين بالأسرة العلوية، وخاصة كبارهم، فيومًا يرضون عنهم ويومًا يغضبون. ولما تولى سعيد غضب عليه وألحقه بالفرقة الحربية التي سافرت لتؤازر الدولة العثمانية في حروبها مع الروس. وفي هذه الرحلة تعلم التركية وعاد إلى مصر، فكان يوظف حينًا ويطرد فيشتغل بالتجارة والهندسة الحرة حينًا آخر. وذهب عهد سعيد وجاء عهد إسماعيل فقام فيه بإصلاحات هندسية كثيرة، وأسند إليه ديوان التعليم، فنهض به خير نهوض، وهو أكبر مصلح للتعليم عرفته مصر في القرن الماضي، ولم يعن فقط بالتعليم العالي، بل عني به في جميع مراحله، يقول:

«وكانت كثرة أشغالي لا تشغلني عن الالتفات إلى ما يتعلق بأحوال التلامذة والمعلمين، فكنت كل يوم أدخل عندهم بكرة وعشيًا عند غدوي من البيت ورواحي. وأعملت فكري فيما يحصل به نشر المعارف وحسن التربية. وكانت المكاتب الأهلية في المدن والأرياف جارية على العادة القديمة ليس فيها إلا تعليم القرآن الشريف، وأقل من القليل من يتممه منهم ويجيد حفظه ويجوده ويحسن قراءته مع رداءة الخط في عامة المكاتب المذكورة، فاستحسنت إجراءها على نسق المدارس المنتظمة، فحررت لائحة بتنظيمها.. ورتب مفتشون لرعاية العمل بموجبه، وأنشأت مدارس مركزية في بعض مدن القطر كأسيوط والمنيا وبني سويف وبنها، وانتخب لكل منها المعلمون والضباط، وعين لها سائر الخدمة، ورتبت بها أدوات التعليم، ورغب الناس في تعليم أولادهم بها وكثرت فيها الأطفال. وأنشأت في القاهرة والإسكندرية بعض مكاتب على هذا الأسلوب مثل مكتبي «القربية» أحدهما للبنات والآخر للأطفال الذكور ومكتب الجمالية ومكتب باب الشعرية ومكتب البنات بالسيوفية».

وبذلك تحول التعليم في مصر من دوائره الحربية الخاصة التي أرادها محمد علي إلى دوائر



الثقافة الشعبية، وهى صفحة بيضاء ومأثرة جليلة لعلى مبارك، إذ نقل التعليم نقلة واسعة، ولم يقصره على الذكور كما كان من قبل، فكان ذلك نواة نهضتها العلمية. وقد فكر فى تعليم اللغة العربية، وكان تعليمها عقيماً على الطريقة الأزهرية، ولقى هو نفسه فى هذه الطريقة غير قليل من العنت، كما حدثنا آنفاً، إذ كان يرى النحو كأنه طلاسم، ولم يفتح عليه فيه، من أجل ذلك كله أنشأ مدرسة «دار العلوم» لتنهض بالدراسة الأدبية واللغوية على نمط جديد. وألحق بالمدارس مطبعة لطبع ما يلزم من الكتب لها، وأنشأ مجلة سميت «روضة المدارس المصرية»، وأقام قاعة للمحاضرات العامة. وكانت المحاضرات تلقى فيها يومياً ما عدا أيام الجمع، وإليه يرجع فضل إنشاء دار الكتب المصرية فقد جمع الكتب المتفرقة بالمساجد فى مكان واحد، وضم إليها كثيراً من الكتب الأجنبية، ونظم الاطلاع فيها والاستعارة منها. وبجانب ذلك كان يؤلف ويشجع على التأليف، للتلاميذ وغير التلاميذ.



والحق أن هذه الترجمة غنية بمعارف كثيرة، وهى معارف نطلع من خلالها على وجوه حياتنا التعليمية فى القرن الماضى، فقد تصادف أن كان على مبارك أهم من نهضوا بتلك الحياة حينئذ، وسجل كل ما صنعه فيها، بحيث تعد هذه الترجمة وثيقة خطيرة للتعليم فى عهد إسماعيل. وكان يتولى أحياناً ديوان الأوقاف أو ديوان الأشغال أو نظارتهما، فيدخل كثيراً من ضروب الإصلاح. ونراه يعرض للديون التى أثقل بها إسماعيل كاهل مصر كما يعرض لثورة عرابى. وقد عاد إلى الوزارة فى عصر الاحتلال، ولكنه لا يعرض علينا شيئاً من أعماله، فقد شل المحتلون يده، حتى ليقول: «وها أنا الآن قائم بهذا الأمر على حسب المصالح بقدر الإمكان.. وآخذ فى تأدية ما فرض علىَّ قياماً بحق وطنى».

وإذا كان يؤخذ على هذه السيرة شىء فهو نكوص صاحبها عن الاشتراك فى الثورة العرابية، وهى ثورة وطنية كان من واجبه أن يخوض غمارها، وليكن ما يكون، ولكنه كان يؤثر الدعة. فغادر القاهرة إلى «برنبال» مهتماً بإصلاح أراض له هناك وزراعتها، ثم عاد فعمل مع المحتلين، وكان خيراً له أن يعتزل العمل ويظل بعيداً عن السياسة وأوزارها فى ذلك الوقت التعس الذى كان يرزح فيه الوطن تحت كابوس الاحتلال. وقد توفى سنة ١٨٩٣م.

ونمضى فى القرن العشرين فنجد كثيرين يترجمون لأنفسهم لا فى مصر وحدها، بل فى بلدان العالم العربى المختلفة، ومن أشهر من كتبوا حياتهم «محمد كرد على» أديب سوريا وعالمها الذى توفى منذ سنوات قريبة، فقد ترجم لنفسه فى نهاية الجزء السادس من كتابه «خطط الشام». ونراه يقول إنه كردى الأصل. نزح جده من السليمانية إلى دمشق فى التجارة، وفيها صادر بعض حكام الترك الظالمين أملاكه، وعاش مجرداً من ثروته، يقول:

«وخلَّف والدى يتيماً فقيراً، فاشتغل لأول أمره فى صناعة الخياطة ثم فى التجارة، فأثرى مرات، وخسر مرات، وابتاع فى آخر أمره مزرعة صغيرة فى الغوطة تمززتها أنا واخوتى منذ كنا صغاراً وإلى الآن. ولدت فى دمشق أواخر صفر سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م من أم شركسية، ولما بلغت السادسة من العمر أخذت بتلقى القراءة والكتابة ومبادئ العلوم الإسلامية والحساب والطبيعيات فى مدرسة كافل سيباى الأميرية، ونلت شهادتها من الدرجة الأولى. ثم دخلت المكتب الرشدى العسكرى فدرست مبادئ التركية، وكانت دروس الفرنسية ناقصة، فأتانى والدى بمعلم إلى الدار أخذت عنه نحو هذه اللغة وصرفها على الأصول مدة ثلاث سنين، وبرعت بالترجمة من الفرنسية إلى العربية وبالعكس. ولما أحرزت شهادة مدرسة الرشدية.. عينت مدة ست سنين موظفاً فى قلم الأمور الأجنبية، فأخذت فى خلالها أتقن آداب التركية.. وقد اختلفت حولين كاملين إلى المدرسة اللعازاريين للاضطلاع بأداب اللغة الفرنسية.. وقد اقتطعت مع ذلك جانباً من الوقت لدرس الآداب العربية والعلوم الإسلامية، وتلقيت اللغة الفارسية حتى حذقتها ثم أنسيتها».

ويقول إنه كان أكبر من وجهه نحو الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى وإشراب روحه محبة العرب وآثارهم وإقدامه على النشر والتأليف أستاذه الشيخ طاهر الجزائرى، وقد انبعثت فيه رغبة شديدة إلى مطالعة كتب الفلاسفة وعلماء الاجتماع وأصول الشعب ومدنياتهم. فقرأ كثيراً من كتب الفرنسيين وعكف على قراءة مجلاتهم المختلفة. ولم يلبث أن أصبح صحفياً، إذ حرر جريدة (الشام) الأسبوعية ثلاث سنين وراسل مجلة المقتطف بمصر، وأخذ اسمه يلمع ويشتهر. وزار القاهرة سنة ١٩٠١ ودُعى إلى التحرير فى مجلة الرائد المصرى، فلبى الدعوة، واختلف إلى دروس الشيخ محمد عبده ومجالسه. ثم عاد إلى دمشق وكانت عين الحكام الترك عليه، فكانوا يفتشون داره مراراً. ودعاه ذلك إلى الهجرة الثانية إلى مصر ليصدر فيها مجلته المقتبس واشترك معها فى تحرير جريدة الظاهر اليومية وجريدة المؤيد التى كان يحررها الشيخ على يوسف. وتعرف فى أثناء ذلك على كثير من رجالات مصر البارزين. حتى إذا حدث الانقلاب العثمانى سنة ١٩٠٨ شعر كما شعر غيره من العرب بأن الحكم التركى ستخف وطأة ظلمه، وأن ساستهم سيعرفون ما للشعوب من حقوق. فرجع إلى دمشق وأصدر جريدة المقتبس يومية سياسية. ويعترف بأنه لم يكن يرى الانفصال عن الدولة العثمانية، إنما كان يريد الإصلاح ما استطاع، ومع ذلك تولاه حكام الترك بالنقمة والسخط الشديد. فغادر الشام إلى فرنسا، وتعرف فيها على بعض فلاسفتها وكتابها. وكتب فى وصف هذه السياحة طائفة من المقالات وجمعها باسم «غرائب الغرب». ورجع إلى دمشق، فلقى نفس السخط من حكام الترك، فهاجر إلى مصر سنة ١٩١٢ ولقى كثيراً من المشقة فى طريقه إليها، وسرعان ما عاد إلى مسقط رأسه. على أنه لم يلبث فى السنة التالية أن رحل إلى إيطاليا وفرنسا وأواسط أوروبا باحثاً عن المخطوطات العربية النفيسة فى مكاتب الغرب، وعاد ليجد اضطهاد العثمانيين له قد تفاقم، فقد أغلقوا صحيفته «المقتبس» ووضعوه تحت رقابة شديدة. ثم عادوا بعد إعلان الحرب الأولى فى هذا القرن، فعفوا عنه، ودفعوه إلى العمل معهم والدعاية لهم فى أثناء الحرب، فصدع لمشيئتهم، وأعاد صحيفة «المقتبس» وحرر لهم صحيفة أخرى تسمى «الشرق». وبينما كان فى الآستانة أواخر هذه الحرب سقطت دمشق فى أيدى الحلفاء، فعاد إليها وتولى رياسة ديوان المعارف، وأنشأ المجمع العلمى العربى الذى لا يزال قائماً إلى اليوم. وعزل ثم أعاده الاحتلال الفرنسى إلى وظيفته سنة ١٩٢٠، وزار أوروبا وطوف فى كثير من بلدانها. ويقف هنا ليرد عن نفسه ما أشيع عنه من مديح الانتداب الفرنسى، وقد آثر أن يترك الوظيفة. ويخلص لرياسة المجمع العلمى العربى وتأسيسه. ولكن لا نصل إلى سنة ١٩٢٨ حتى نراه يتولى وزارة المعارف ويمثل دولته فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد فى مدينة أكسفورد بإنجلترا، ويقول إنه أنشأ كلية للآداب وأخرى للإلهيات، فتمت للجامعة السورية أربع شعب، هاتان الشعبتان وشعبة للطب وأخرى للحقوق.

ومن طريف ما تتضمنه هذه الترجمة اعتراف صاحبها بممالأته للحكام من العثمانيين والفرنسيين، وفى ذلك يقول عن صحيفته:

«كان مذهب المقتبس السياسى معاونة الحكومة بالمعقول وانتقادها عند الاقتضاء وتحبيذها إذا أتت ما تحبذ عليه. ينزع أبداً إلى إنارة الأفكار وتقوية روح القومية العربية، وسياسته وطنية ليس فيها شىء من روح الكراهية للأجانب».

وطبيعى أن يقول ذلك وهو قد اشتغل فعلاً فى الدعاية للعثمانيين فى أثناء الحرب الأولى، ثم كان ممن آزروا الانتداب الفرنسى فى حكم سوريا الشقيقة. على أن هذه صراحة تحمد له، ومن نمطها يقول:

«خلقت عصبى المزاج دمويه، مغرماً بالموسيقى العربية، محباً للطرب والأنس والدعابة، عاشقاً للطبيعة والسياحة.. وقد ولعت بالتجدد، ومن عادتى أن أقف بمعالجته عند حد لا أتعداه إلى هدم أصل من الأصول المقدسة، وأدور من الإصلاح التدريجى العلمى فى دائرة لا تتعدى الثورة فى الأفكار».

وقد شكا كثيراً من الصحف التى كانت تتحامل عليه والصحفيين الذين كانوا يسلبونه، وسمى أهم مؤلفاته، وهى: رسائل البلغاء، وغرائب الغرب. وغابر الأندلس وحاضرها، وتاريخ الحضارة، والقديم والحديث، ورواية المجرم البرىء، وقصة الفضيلة والرذيلة. وآخر مؤلفاته: خطط الشام يقول «وهو كتاب فى مدنية الشام وتاريخه، صرفت فى تأليفه ثلاثين عاماً، وطالعت لأجله زهاء ألف ومائتى مجلد باللغات الثلاث: العربية والتركية والفرنسية، وأنفقت فى سبيل تأليفه نحو ألف وخمسمائة جنيه. ويدخل فى ستة مجلدات». ويذكر طائفة من كتبه لم تطبع، ويشير إلى مقالاته الكثيرة فى المجلات والصحف وخاصة مجلة المجمع العلمى العربى. وقد توفى سنة ١٩٥٤م.

إذا كان يؤخذ على هذه السيرة شىء فهو نكوص صاحبها (على مبارك) عن الاشتراك فى الثورة العرابية، وهى ثورة وطنية كان من واجبه أن يخوض غمارها، وليكن ما يكون



شهادة للتاريخ

عبد العظيم أنيس

■■ التقيت بها بالصدفة على مائدة العشاء عند بعض الأصدقاء فى الأسبوع الماضى، ولم تكن تعرف عنى غير أننى أستاذ بالجامعة، ولم أكن أعرف عنها غير أنها إنجليزية مهتمة بقضايا التعليم وأنها ليست بعيدة عن نشاط المجلس البريطانى الثقافى فى القاهرة.

ولأن مكانى على المائدة جاء مجاوراً لمكانها. ولأن أدب الحوار يقتضى نوعاً من الحديث والحوار، فقد سألتها إن كانت مقيمة بمصر منذ مدة طويلة؟.. قالت: أربع سنوات. قلت: وهل تروق لك الحياة بمصر؟ قالت: نعم باستثناء المتاعب المعروفة، المواصلات، الضوضاء، المجارى.. إلخ لكنى أحب هذا الشعب الكريم المضياف والصبور أيضاً.

ومضى الحديث على هذا النحو التقليدى حتى فاجأتنى بسؤال أطار النعاس من عيونى والملل من نفسى.

قالت: قل لى بالله كيف تسمح أنظمتكم التعليمية بدخول الحاصلين على الثانوية البريطانية «المستوى العادى» الجامعات المصرية مع أن هذه الشهادة فى بلادنا لا تؤهل الحاصل عليها إلا للخروج من المدرسة الثانوية إلى العمل، وأن الطالب فى بريطانيا عليه أن يمضى عامين فى الدراسة قبل أن تقبله الجامعة وكيف تقبل جامعاتكم طلبة لم يدرسوا لغتكم القومية، اللغة العربية، فى السنتين الثانية والثالثة الثانوية. إن الوضع الذى أراه هنا هو أن أعداداً هائلة متزايدة كل عام من الطلبة المصريين بعد نجاحهم فى امتحان السنة الأولى الثانوية فى مدارسهم المصرية يتقدمون لامتحان المجلس البريطانى فى الشهادة الثانوية البريطانية، وهى لا تتضمن بالطبع امتحاناً فى اللغة العربية، ويحصلون عليها خلال عام وبعدها يدخلون

ذكريات من حياتى
عبدالعظيم أنيس
دار الهلال - ٣٢٢ صفحة - ٢٠٠٢



جامعاتكم، فكأنهم بذلك قد وفروا عامًا كاملاً من دراستهم ووفروا مشقة دراسة اللغة العربية سنتين كاملتين، وجامعاتكم تقبلهم على ذلك! هل يمكن أن تفسر لى هذا اللغز؟ وكيف يتسق كل هذا مع مبدأ تكافؤ الفرص الذى تتحدثون عنه كثيرًا؟!

قلت: هذا سؤال جدير بأن توجهيه إلى وزير التعليم فى مصر، وأمين المجلس الأعلى للجامعات، ورؤساء الجامعات المصرية، الذين قبلوا على أنفسهم هذا الوضع المهين لشهادة الثانوية المصرية، والذين رضوا على طيب خاطر بسياسة القفز من فوق القواعد الديمقراطية لدخول الجامعة مجاملة لبعض الفئات القادرة فى مصر وصاحبة الصوت العالى. ولقد فات عليك أن تذكرى أن طالب الثانوية البريطانية المصرى قد وفر على نفسه أيضًا مشقة دراسة الرياضيات فى المناهج المصرية لمدة عامين، لأنك، كما لا شك تعرفين أن مناهج الرياضيات فى الثانوية البريطانية أدنى كثيرًا من مناهج مصر.

قالت: نعم أعلم ذلك، وهذا أمر طبيعى لأن شهادتنا هذه لا تؤهل أحدًا لدخول الجامعة، ولو حاول أحد طلابكم من الحاصلين على الثانوية البريطانية، التقدم إلى جامعة بريطانية لرفض طلبه طبعًا. وبالمناسبة لم أفهم أيضًا، كيف قبلت السيدة جيهان السادات أصلاً كطالبة فى قسم اللغة العربية، فى كلية الآداب، مع أنها لم تؤد امتحانها فى مناهج اللغة العربية للمرحلة الثانوية؟ ألم تتقدم إلى جامعة القاهرة بشهادة الثانوية البريطانية؟

قلت - وأنا أزداد خجلاً: هذا سؤال جدير أن يوجه لرئيس قسم اللغة العربية فى كلية الآداب ولعميد كلية الآداب ورئيس جامعة القاهرة آنذاك؟

وسألتها عن عدد الطلاب المصريين المتقدمين هذا العام للثانوية البريطانية، فقالت على الفور: لدى المجلس البريطانى موعدان للجلوس إلى هذا الامتحان.. يناير ويونيو، والعدد المتقدم من الطلاب المصريين فى كل موعد يزيد على الألفين! فكم يكون العدد بعد عدة سنوات؟

ولأن العشاء انتهى بسرعة فقد حمدت الله على انصرافنا دون أن أضطر إلى إجابة السيدة الإنجليزية على هذه الأسئلة المحرجة. لكنى فكرت وأنا عائد إلى منزلى أن هذه قضية جديرة أن تفتح على صفحات الصحف مرات ومرات، وأنه، رغم أنه قد سبق لى أن أثرت الموضوع على صفحات «الأهالى» منذ عدة شهور، فإنه من الضرورة إلقاء أضواء جديدة على الظروف التى ظهرت فيها هذه «الموضة» الجديدة التى يقبل عليها بأعداد متزايدة أبناء القادرين والأثرياء لدخول الجامعة من الباب الخلفى!

إننى أعتقد أن هذا الباب الخلفى قد فتح على مصراعيه فى عام ١٩٧٤ عندما كان ابن رئيس الجمهورية السابق طالبًا فى الثانوية العامة. كنت آنذاك وثيق الصلة بوزارة التربية والتعليم، فقد كنت رئيسًا للجنة القومية لتعليم الرياضيات فى التعليم العام، وكنت مستشارًا للوزارة ومشرفًا على تدريب المدرسين فى الرياضيات المعاصرة، وكنت أزور المدارس الثانوية التى طبقت المناهج الجديدة، وأناقش نظار المدارس فى توزيع جدول الرياضيات على المدرسين وفى اختيار المدرسين أنفسهم للتدريس فى الفصول المختلفة، وأحضر كثيرًا من الحصص بنفسى.

ومن بين هذه المدارس التى كنت أزورها آنذاك مدرسة بورسعيد بالزمالك، حيث كان جمال السادات، وكان معروفًا بالمدرسة أنه يستحيل عليه أن ينجح فى امتحان الثانوية العامة المصرية (القسم العلمى)، فما بالك بالحصول على مجموع يدخله كلية مثل كلية الهندسة!

فى هذا الوقت، بدأت صحف الحكومة فجأة تتحدث عن صعوبة مناهج الثانوية العامة، وإلى هنا فإن الأمر طبيعى إلى حد ما. لكن الأغرب من ذلك أن الموضوع دخل مجلس الوزراء.. نعم أخذ مجلس الوزراء يناقش صعوبة مناهج الثانوية العامة، وكان د. عبد القادر حاتم يرأس المجلس، وقرر تشكيل لجنة وزارية لبحث الموضوع! إن الشكوى من مناهج التعليم العام أمر طبيعى والأراء بين التربويين تتفاوت حول هذا الموضوع، لكن الطبيعى أن يدور الجدل حول هذا فى أروقة الوزارة المختصة.. وزارة التعليم. أما أن يجد مجلس الوزراء الوقت لمناقشة مناهج الثانوية العامة بالذات وفى عام ١٩٧٤ بالذات عندما كان جمال السادات طالبًا بالثانوية العامة. فلابد أنه كان مصادفة سعيدة!



وقد شكلت اللجنة الوزارية لبحث هذا الموضوع من المرحوم د. حسن الشريف وزير التأمينات، ود. محمود عبد الحافظ وزير الإسكان، والدكتور كامل ليلة وزير التعليم السابق، والمرحوم الأستاذ على عبد الرازق وزير التربية والتعليم. واستدعيت أنا لحضور اجتماعات اللجنة مع أساتذة آخرين من الجامعات ومن رجال الوزارة فى مكتب وزير التأمينات. يشهد على هذه الواقعة كثيرون من رجال الجامعات منهم: د. صبحى عبد الحكيم رئيس مجلس الشورى الأسبق والذى كان يمثل مادة الجغرافيا، والدكتور محمد أنيس والذى كان يمثل مادة التاريخ، والدكتور محمد النادى الذى كان يمثل مادة الطبيعة. ولقد قلت للصديق المرحوم د. حسن الشريف ساخرًا فى التليفون: «إن العلاقة بين التأمينات ومناهج الثانوية العامة لابد وثيقة، وإلا ما عقدتم الاجتماع فى وزارة التأمينات».

ولقد كان واضحًا أن الأستاذ على عبد الرازق لم يكن راضيًا عن هذا العمل، ولذلك لم يحضر الاجتماع وحضر الدكتور كامل ليلة الاجتماع قرب نهايته، ودارت المناقشة أساسًا بين المستشارين وبين وزيرى التأمينات والإسكان. وكان واضحًا منذ أول الاجتماع، أن مادة الرياضيات هى المستهدفة بالاختصار الشديد، ولذا دارت مناقشات حادة بينى وبين وزير الإسكان طالت لأكثر من ساعة، وصممت على موقفى برفضى طلب وزير الإسكان بإلغاء كتاب التفاضل والتكامل من مناهج الثانوية العامة، والتفت دكتور محمود عبد الحافظ إلى المرحوم دكتور حسن الشريف وقال بالإنجليزية بصوت مسموع «لا فائدة.. لا يوجد طريق للتفاهم».

وأرسل لى أستاذ جامعى تحت منضدة الاجتماع، ورقة سلمها لى دكتور صبحى عبد الحكيم. الذى كان يجلس بجوارى، يقول فيها «كفى.. إنك لن تقنع هؤلاء الناس بشىء أبدًا».

وانفض الاجتماع وأنا على موقفى ورجال الوزارة من أساتذة الرياضيات متضامنون معى فى هذا الموقف مقتنعون بالأسباب التى أبديتها فى رفض طلبات وزير الإسكان.

كان هذا فيما أذكر فى يناير سنة ١٩٧٤، وبعدها نسيت الموضوع، وانشغلت بأعمال كثيرة منها وضع امتحان الثانوية العامة لدور يونيو سنة ١٩٧٤ فى الرياضيات، ومنها الإعداد لسفرى إلى بريطانيا لمدة ستة أشهر. من مايو إلى أكتوبر - كأستاذ زائر فى إحدى جامعات بريطانيا.. حتى كان يوم جمعة خلال شهر مارس سنة ١٩٧٤ خرجت فيه مع أسرتى لقضاء النهار فى «برج المنوفية» وتناول الغداء هناك.

وعندما عدنا بعد الظهر أخبرنا الجيران أن سيارة من رئاسة الجمهورية جاءت تسأل عنى مرتين، وأن رجلاً بالسيارة ترك لدى الجيران ورقة لتسليمها لى، وعندما فتحت الورقة وجدت أنها من مكتب الرئيس ومكتوب عليها بالحبر «رجاء الاتصال بأرقام



اكتشف أبناء القادرين وتلاميذ المدارس الخاصة ما اكتشفه ابن السادات عام ١٩٧٤، وهو أن هناك بابًا خلفيًا لدخول الجامعات المصرية حتى لو كنت لا تعرف أى شىء عن لغتك القومية، كما لا تعرف شيئًا فى الرياضيات، وهذا الباب الخلفى يدعى «الثانوية الإنجليزية»



التليفونات.....، ثم توقيع غير واضح.

وأدرت قرص التليفون بأحد هذه الأرقام وقلت: «أنا فلان... ماذا تريدون مني؟ وعرفت أن الذي يرد على التليفون هو رجل قال عن نفسه أنه العقيد رءوف، وأنه يريد أن يعرف متى يرسلون سيارة من الرئاسة لحضوري إلى منزل الرئيس لأن جمال لديه أسئلة في الرياضيات يريد أن يسألني فيها؟

وامتلأت نفسي بالغضب وقلت لمحدثي وأنا أحاول أن أضبط أعصابي، إنك لا شك لا تعلم أن أستاذ الجامعة يحال إلى مجلس تأديب إذا أعطى دروسًا خاصة».

قال في برود: «لا أعرف».

وقلت: «أنا واثق من ذلك.. وواثق أيضًا أنك لا تعرف أنني واضع امتحان الثانوية العامة!

قال في برود أيضًا: «لا.. لا أعرف، وأعطيته اسم أحد المدرسين الأوائل بالمدارس الثانوية ليتصلوا به حتى يجيب على أسئلة جمال السادات في الرياضيات، ووضعت السماعة.

لكني بقيت في ثورة غضب طوال الليل، وحاولت المرحومة زوجتي أن تهدئ من غضبي، وفي الصباح ذهبت إلى وزير التعليم.. المرحوم الأستاذ علي عبد الرازق لأخبره بما حدث ولأعرف منه إن كان على علم بهذه المهزلة أم لا.

لقد كنت ومازلت أكن لهذا الرجل محبة، لسابق معرفتي به، ولم أكن أتصور أن يكون له صلة بهذا الموضوع. ولقد أثنى الرجل على موقفي، لكني وجدته يحاول أن يقنعني بالذهاب مرة واحدة إلى منزل السادات لتقييم «الولد» كما قال: فأمه منزعجة بسبب حالته وهي تخشى عليه من الرسوب في الامتحان ولا تعرف ماذا تصنع!

وفهمت من الوزير أنها كثيرة الاتصال به في هذا الموضوع، وأنه يشعر بحرج شديد.

قلت له:

«لماذا لا ترسل أحد مفتشي الوزارة أو مدرسيها الأوائل لتقييم الولد، إن كانت المسألة مجرد تقييم. إنني أريد أن أعرف من الذي أعطاهم اسمي بالذات».

قال الوزير:

«إن اسمك موجود على الكتب، والكل يعرف أنك تزور المدارس كثيرًا لمتابعة مشروع الرياضيات المعاصرة الذي بدأ مع اليونسكو.

وصممت على رفض طلب الوزير وقد حاول أن يستخدم معي حججًا أخرى، فقد قال:

«إن السادات خارج من حرب أكتوبر، وليس لديه وقت للإشراف على الولد».

وضحكت، وقلت:

«هل تريد أن تقنعني أن السادات لو لم يكن خارجًا من حرب أكتوبر لساعد ابنه في الرياضيات؟ إنني بصراحة لا أتوقع من وزير التعليم أن يطلب مني هذا الطلب».

وانصرفت من مكتب الوزير حزينًا وتملكني الشعور بأن ما حدث بالأمس ليس إلا المحاولة الثانية، بعد فشل المحاولة الأولى في اختصار المناهج بشدة على يد اللجنة الوزارية، وكان أشد ما أحزنني هو الشعور بأن مصر تدار كعزبة.. وعلى الخولي والتملي والأنفار أن يكونوا في خدمات السيد صاحب العزبة، وأن الحديث عن سيادة القانون هو عبث في عبث.

ولم يمض على هذه الواقعة أكثر من شهر حتى حدث تعديل وزاري! وخرج المرحوم علي عبد الرازق من وزارة التربية والتعليم، وعين دكتور مصطفى كمال حلمي مكانه في أبريل سنة ١٩٧٤، وذهبت إليه مهنئًا كصديق قديم. لكنني حكيت له القصة بأكملها وسألته إن كان يعرفها فقال إن هذه أول مرة يسمع بها، قلت على الفور:

«على أي حال لقد رويت تلك القصة حتى لا يحاولون معك».

كان هذا في أبريل سنة ١٩٧٤ ولم يبق على امتحان الثانوية العامة المصرية غير شهرين. وقد عرفت بعد ذلك أن شخصًا ما تقدم لهم بالحل العبقري.. وهو إخراج ابن السادات من امتحان الثانوية العامة المصري، وإدخاله امتحان الثانوية الإنجليزية في يونيو، حيث لا يوجد امتحان في اللغة العربية، وحيث امتحان الرياضيات هو امتحان الضرب والقسمة!

أما من هو الشخص لم أعرف.. ومنذ ذلك الحين اكتشف أبناء القادرين وتلاميذ المدارس الخاصة ما اكتشفه ابن السادات عام ١٩٧٤، وهو أن هناك بابًا خلفيًا لدخول الجامعات المصرية حتى ولو كنت لا تعرف أي شيء عن لغتك القومية، كما لا تعرف شيئًا في الرياضيات، وهذا الباب الخلفي يدعى «الثانوية الإنجليزية».

فمتى يتحرك وزير التعليم لتصحيح هذه الأوضاع المشينة. ■

رءوف عباس
في سيرته الذاتية



عُبادة كُحيلة

■ مادامت الأنا حاضرة، فلدى الإنسان أي إنسان - ميل فطري لأن يتحدث عن نفسه، وليس الكاتب بنجوة من هذا الميل الذي يصل به إلى أن يتقنع وراء شخصياته، وهو ما نلمسه بوضوح في «ثلاثية محفوظ» (بين القصرين وقصر الشوق والسكرية)، ونلمسه كذلك في «ثلاثية الحكيم» (عودة الروح وعصفور من الشرق ويوميات نائب في الأرياف)، كما نلمسه عند العقاد في «سارة»، والمازني في «إبراهيم الكاتب».

على أن الكاتب في أحيان أخرى يفارق قناعه ليتعرى أمام قارئه فيما يعرف بالسيرة الذاتية، ومع أنها فن قديم في تراثنا الإنساني. إلا أن الأمثلة عليه قليلة قبل عصرنا هذا الحديث، بين هذه الأمثلة «اعترافات القديس أوغسطين» التي تشابهها من وجوه عدة اعترافات الإمام الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال».



وتذهب الكثرة الغالبة من الباحثين إلى أن أول سيرة ذاتية في عصرنا الحديث هي سيرة جان جاك روسو، وقد حفلت بجرأة، ربما كانت غريبة في زمانها، وقد عاصرت هذه السيرة سيرة الدكتور جونسون لبوزويل، وتعد أول سيرة غيرية في الآداب الغربية.

مشيناها خطى
سيرة ذاتية
رءوف عباس
دار الهلال - ٣٣٦ صفحة - ٢٠٠٤

في تراثنا العربي لدينا نموذجان هامان للسيرة الذاتية: هما سيرة ابن خلدون التي سجلها في كتابه «التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا»، وهي أشبه بتقرير عن حياته، وتفسير وفي أحيان تبرير لتحولاته، ويعيبها أن ملكة الوصف عنده خابية وأحاسيسه فاترة، كما أنه مولع بالاستطرادات التي تعتور السياق، وكان أجمل به أن يختصر فيها، بخلاف ما كانت عليه الحال في السيرة الأخرى، سيرة الشاعر والفارس العربي أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» فهي أشبه برواية متعددة الأحداث والأجواء والمناظر، صاغها بأسلوب بسيط يقترب في أحيان من اللغة المحكية، ويبتعد عن الزخارف اللفظية.

إذا نحن انتقلنا إلى عصرنا الحديث، نجد أن فن السيرة الذاتية قد تخلف في نشأته عن قرينه في الغرب، فهذا الأخير سبقنا إلى نهضة، جعلت كتاب هذه السيرة من الأفراد المتميزين، بعد أن كانوا من الحكام والمتنفذين.

تعود الإرهاصات الأولى للسيرة الذاتية في شرقنا العربي إلى أحمد فارس الشدياق في كتابه «الساق على الساق»، لكن البداية الحقيقية لها كانت مع طه حسين في «الأيام»، وبعده تتابعت السير الذاتية عند أحمد أمين في «حياتي» وتوفيق الحكيم في «زهرة العمر» و«سجن العمر» وزكي نجيب محمود في «قصة نفس» و«قصة عقل»، ثم تبلغ السيرة الذاتية قامة عالية عند لويس عوض في «أوراق العمر»، فكان أكثر صدقية وأوفر صراحة، تطرق إلى ما كان مسكوتًا عنه؛ مثل علاقاته الجنسية وعلاقاته بأسرته وأشقائه.

قبل أشهر صدر كتاب في السيرة الذاتية لكاتب متميز



إصدارات: فى السيرة الذاتية

رءوف عبـــاس

ومؤرخ مرموق هو رءوف عباس حامد: عنوانه: «مشيناها خطى»، وقد أثار هذا الكتاب لدى صدوره ضجة داخل وطنه وخارج وطنه، ونفدت أعداده فأعيد طبعه غير مرة.

إذا نحن طالعنا «مشيناها خطى» نجد الكاتب قد التزم فيه بالشرط الأول للسيرة الذاتية، فقد كتبها بعد أن بدأ مرحلة الشيخوخة (٦٥ عاما)، صحيح أن نيتشه كتب سيرته فى مرحلة عمرية مبكرة نسبيًا، وعلى نهجه سار طه حسين فى «الأيام» إلا أن الدارج فى هذا الفن أن يكتب المرء عن نفسه، وقد بلغت تجربته الحياتية مرحلة نضجها، عركته وعركها، وشرع فى تأمل مجرياتها بنظرة فاحصة إليها، كابد فيها ما كابد، وعاند فيها ما عاند.

من هذه الشرائط أن يكون الكاتب ذا تميز فى منحى من المناحى، أضاف إليه وترك بصمة واضحة عليه.. وهو ما يتحقق فى شخص رءوف عباس، وقد كتبت عنه ذات يوم أصفه بأنه «بقية باقية من جيل البنائين العظام الذين تعتز بها جامعاتهم اعتزازهم بهذه الجامعات. فقد خلف فى علم التاريخ مدرسة ترددت أصداؤها فى وطنه، وجاوزته إلى وطنه العربى الكبير. واجتمع فيه إلى كونه عالمًا كونه إنسانًا مضى به قطار العمر شامخًا مترفعًا عن الدنايا، لم تعرف عنه زلة فى صبوته، ولا هفوة فى سنوات كهولته، وهو فى تعامله مع عالمنا هذا الردىء، كان العهد به وما يزال شجاعًا، يقول قولة حق ومقالة صدق، لا يقيم وزنًا لمال ولا جاه، ومناط المرء عنده عطاؤه.. عطاؤه فحسب».

حدد الكاتب الهدف من كتابه فى إهدائه «إلى الشباب.. عساهم يجدون فيه ما يفيد.. وإلى الذين يسممون أمامهم الآبار.. لعلهم يتعظون» كما حدد منهجه فى أنه «إذ يروى حكايته، لا يتقيد إلا بما رآه وسمعه وعاشه، وكان شاهد عيان عليه، دون مبالغة فى الوصف، أو تزيين أو تزييف، التزامًا منه بأمانة الكلمة، مهما كانت دلالتها ومهما كان وقعها».

إذا نحن تعقبنا الكاتب نجده قد التزم على مدار كتابه بهذه القاعدة الذهبية، فهو لا يخجل من الحديث عن فقره الذى كان رفيقه الأثير، منذ مولده فى العام ١٩٣٩، ابنًا أكبر لعامل بسيط فقير، بعث به إلى القاهرة ـ وهو بعد طفل صغير ـ ليعيش مع جدته الفقيرة بدورها، فى عزبة هرميس، وهى عزبة لا تصلها الكهرباء ولا الماء، قد حذف من قاموسه مصطلح العشاء، وأضاف إليه فى مرحلة تالية مصطلح الإفطار، ويعترف بأن جدته حرمته من تذوق طعم اللحم، فقد احتكرته لنفسها، وحين اختلس ذات يوم قطعة منه، لعنته وأمه لأنه «مفجوع» مثلها.

لا يقف الفقر عند هذا الحد، بل إنه أوعز لأبيه، بأن يلحقه بالكتاب، علَّه يصبح عالمًا أزهريًا، إذ ليس فى إمكانه أن ينفق عليه فى مدرسة. ويشاء القدر أن يتدخل فى هيئة شخص كريم حل هذه المشكلة، وصار «صاحبنا» تلميذًا فى مدرسة حنيفة السلحدار، لكنها عاودته مرة ثانية، حين فكر فى الالتحاق بالجامعة، لولا شخص آخر كريم، أقرضه قرضًا حسنًا، وسيدة كريمة أعطته مبلغًا كانت قد ادخرته، ليعينها على تصاريف الزمن.. وفى المقابل كان على «صاحبنا» أن يسير إلى كليته فى كل يوم خمسة كيلو مترات فى الذهاب ومثلها فى الإياب.



وإذا كان المرمى الأول للسيرة الذاتية هو أن يحدد لنا الكاتب ملامح شخصيته، نجده إنسانًا بسيطًا يجلس وهو «الأفندى» خريج الجامعة مع العمال فى مطعمهم، وليس مع الموظفين، يشاركهم همومهم، ويدافع عن حقوقهم، غير مكترث بعسف يناله من الإدارة، وفيًا لأساتذته يعترف بفضلهم، حتى من أساء منهم الظن به «وسيظل هذا موقفه إلى أن يلقاهم جميعًا فى رحاب الله، عندما تفرغ كأس الأجل» معتدًا بنفسه، ينفر عرقه الصعيدى، عند أول إساءة، وكذا كانت حاله مع عميده، حين إعارته للخارج، فيلوح له باستقالته، عقلانيًا منذ نعومة أظفاره، يمزق حجابًا، وضعوه له بعد حادثة أفضت إلى عاهة مستديمة، سوف تصحبه إلى قبره، يصر على أن يفهم القرآن الكريم لا أن يستظهره فحسب، معطاء لا ينتظر ثوابًا لعطائه، فيبادر إبان مقامه فى اليابان، ودون تكليف من أحد إلى المساهمة فى تأسيس قسم للغة اليابانية بجامعته، ويمهد السبيل لابتعاث زملاء له إلى هناك، ولدى عوده إلى وطنه يعيد بناء قسم التاريخ، وقد صار قاعًا صفصفًا، ليعين فيه معيدون ومدرسون (كاتب هذه السطور أحدهم)، شجاعًا يعرض عن كتابة بحث لابنة الرئيس الراحل، وأوراقه لدى لجنة الترقيات، دون أن يتعظ مما جرى لزميله حسن حنفى، مغامرًا، لكنها المغامرة المحسوبة، فيضحى من أجل استكمال دراسته بوظيفة مستقرة، مقابل منحة مؤقتة، عنيدًا يصر على التعيين فى جامعة غير جامعته، مادام هذا حقه، متسامحًا مع إخوانه الأقباط، باعتبارهم جزءًا من نسيج هذا الوطن شأنهم شأن المسلمين، متصديًا للدفاع عن حقوقهم، غير آبه بما قد يترتب على ذلك من تبعات، وطنيًا يشارك قبل أن ينبت عذاره فى مظاهرات الأربعينيات ومطالع الخمسينيات، رغمًا عن تأنيب جدته لانصياعه إلى «العيال البطالين» ويتطوع مرتين (١٩٥٦ و ١٩٦٧) للذود عن الوطن ضد أعداء الوطن.

ومع انحياز الكاتب إلى «نظام يوليو» لانحيازه إلى الفقراء، وما طرحه من مشروع نهضوى، كانت له إنجازاته التى لا ينكرها غير جاحد، فإنه لم يكن من دراويشه، يتوجه إليه بسهام النقد، ولكن من داخله، فيعيب عليه افتقاره إلى الديمقراطية، وحكمه بأساليب أمنية، عانى هو نفسه منها، وعليه فلم ينضم إلى أى من تنظيماته السياسية التى غلب عليها النفاق والانتهازية، وآثر أن يكون من الأغلبية الصامتة.

لكن الكاتب لا ينظر إلى نفسه بعد هذا العمر على أنه مبرأ مما يصيب البشر من أوجه القصور فيقول: «ولا يعنى ذلك أن صاحبنا كان دائمًا حكيمًا خاليًا من العيوب والأخطاء، فلا يوجد قديسون بين البشر، فجميعهم خطاءون، وكثيرًا ما يتأمل صاحبنا هذه المواقف التى مرت به ويعيد تقييمها، فيأخذ على نفسه أنه بالغ فى سوء الظن بمواقف أطراف بعينها، ولكن ليس كل الظن إثمًا على أى حال، حسبه أنه لم يتخذ موقفًا، يومًا ما، بدافع شخصى محض، وكثيرًا ما يكتشف أنه وضع ثقته فى غير أهلها، وظن أن كل ما يلمع ذهب».

كاتب السيرة لا يقف عند وصف صورته، إنما يصف أيضًا صور من عاصروه، لأنه فى علاقاته بهؤلاء يتكشف الصراع الذى يعطى السيرة الذاتية حيويتها، فهو ضرورة لها، مثلما هو ضرورة للرواية، فهناك أخيار وأشرار ودرجات بين هذا وذاك وبكل ألوان الطيف، وإذا نحن تعقبنا الكاتب فى سيرته نجده مولعًا برسم صور للشخصيات التى صادفها عبر رحلة حياته، خصوصًا من شغل منها مواقع فى هيئة التدريس بالجامعتين اللتين درس فى إحداهما ومارس عمله فى الأخرى.

بين هذه الشخصيات ذلك الموظف بدرجة أستاذ الذى صعد فى مناصب جامعته ليصل إلى أعلاها، ليس بما توافر لديه من علم، فلم يكن لديه سوى اليسير، وإنما بما توافر لديه من صفات ذميمة ودس ونميمة، وشبكة علاقات مع من هم على شاكلته، تجمعهم المصلحة ولا يجمعهم الواجب. فكان يقف ضد تعيين المعيدين فى قسمه، والمرة الوحيدة

كتاب الهلال
د. رءوف عباس
مشيناها خطى
سيرة ذاتية

مع انحياز الكاتب إلى «نظام يوليو» فإنه لم يكن من دراويشه، يتوجه إليه بسهام النقد، ولكن من داخله، فيعيب عليه افتقاره إلى الديمقراطية

إصدارات: فى السيرة الذاتية

رءوف عبـــــــــاس

التى وقف فيها مع تعيين أحدهم كانت دون وجه حق ولمصلحة ارتآها، وحين كانت تتاح له فرصة الإشراف على طلاب فى مرحلة الدراسات العليا كان يتلذذ بإذلالهم ويتعمد تأخيرهم فى الحصول على درجاتهم، بخلاف ما كانت عليه حاله مع طلاب عرب وغير عرب، وهو يقف حجر عثرة ضد تطوير الدراسة فى قسمه، حتى يضمن توزيع كتبه ومذكراته، وعهد عنه تعصبه ضد الأقباط، ووقوفه دائماً فى معسكر الفساد، واستغلاله منصبه فى لجنة الترقيات، دون صعود عناصر جادة وشريفة (وكاتب هذا المقال أحدهم أو بالأحرى أحد ضحاياه).

لم يستخدم الكاتب الأسلوب التقريرى المباشر فى تصويره لهذه الشخصيات إنما هو يحكى قصصاً له شهود عليها بأسلوب فيه من المتعة ما فيه من المرارة، بحيث يستطيع أن يوصل فكره إلى قارئه على نحو سلس وشائق، وقد يلجأ أحياناً إلى التصوير الكاريكاتيرى، فعندما توجه فى زيارة إلى جدته، بعد أن تركها ليعيش مع أبويه، ولاحظت عليه ما أصابه من زيادة فى وزنه قالت إن هذا سوف يؤدى إلى «تخن مخه وخيبته فى الدراسة بإذن واحد أحد»، وعندما يصف أحد زملائه من الذين طالتهم تهمة الفساد يقول إنه «برىء من شبهة القدوة»، ويستعيد ذكرياته عندما كان صبياً فيحكى عن «عربجى» الحنطور الذى يشرب من «قرعة» البوظة ويسقى حصانه معه، ويجيد فى وصف شخصية أستاذه إبراهيم نصحى «بك» وهو التركى الذى يترفع عن أبناء الفلاحين، وينظر إليهم بازدراء، وينعى على الجامعة أنها «برطشت».



على أن الكاتب فى عرضه تلك الصور يستدرك فيقول إنه «فى تقديمه لما مر به من تجارب، يحرص على ذكر تلك التى يقوم عليها شهود معاصرون (أمد الله فى أعمارهم)، حتى لا يظن أحد أن بعضها أملته الأوهام وأحلام اليقظة وتصفية الحسابات، فكلها وقائع ثابتة، أكتفى بالإشارة إلى مناصب أصحابها أحياناً، وذكر بعضهم بالاسم أحياناً أخرى، لا بقصد التشهير بهذا أو ذاك، ولكن بغرض دق ناقوس الخطر لمن خدعتهم المظاهر، فأخفت عنهم الجوهر».

ولأن سيرة الكاتب لا تنفصل عن سيرة عصره، فإن من واجبه أن يكون شاهد عيان على هذا العصر، وهو ما التزم به فى هذا الكتاب بحيث إننا نستمد منه بعضاً مما كانت عليه صورة مصر خلال الخمسين السنة الأخيرة من القرن العشرين. وقد كان فى هذه الشهادة منفعلاً بمشاكل وطنه وهموم وطنه، كما كان طرفاً فى بعض هذه المشاكل والهموم، مشاركاً فيها أو منفعلاً بها أو مراقباً جيداً لها.

أنظر إليه وهو يرسم صورة لعزبة هرميس التى عاش فيها صبياً خلال الأربعينيات ومطالع الخمسينيات، وسكانها وكيف كانوا يعيشون حياتهم مسلمين ومسيحيين، لا يشعرون بأنهم مسلمون ومسيحيون قدر ما يشعرون بأنهم فقراء ومصريون.

يقول: «وكان سكان العزبة موزعين توزيعاً متساوياً بين الإسلام والمسيحية فى بعض البيوت، بينما كان المسلمون أقلية فى البعض الآخر من تلك البيوت، ولعل تجمع الأقباط المنياويين الفقراء فى هذا المكان يعود إلى قربه من كنيسة مارى جرجس التى تقع فى نهاية شارع الجيوشى. وكان فناء الكنيسة مرتعاً لأطفال العزبة من المسلمين والأقباط. فيذكر صاحبنا تلك الأيام التى شارك فيها أترابه اللعب فى فناء الكنيسة، وتناول معهم لقمة القربان من يد «أبونا» القمص، ويذكر «عمته» أم جرجس، جارة جدته التى كانت تناديها «يا أمى»، وكانت تخاطب والد صاحبنا عند زيارته لأمه «يا أخويا»، وظل صاحبنا حتى بلغ الثامنة من عمره، يعتقد أن «عمته» أم جرجس شقيقة لوالده وابنة لجدته، وخاصة أن أبا جرجس كان ينادى الجدة «يا حماتى»، وعندما كان يحدث سوء تفاهم بين أبوى جرجس، كانت الجدة تعنف الزوج، فيسترضيها ويقبل رأسها.

«لذلك كانت عزبة هرميس «مصر الصغرى» عاش سكانها معاً وكأنهم أسرة واحدة، يأكلون معاً من طبق واحد، فرغم فقرهم الشديد، كانوا يتبادلون أطباق الطعام والحلوى، ولم تكن أيام صيام الأقباط العديدة عائقاً أمام استمرار هذه العادة، بل كان الجميع مسلمين وأقباطاً صائمين معظم العام بالمفهوم القبطى للصيام، لا تعرف «طباليهم» اللحوم إلا فى المواسم والأعياد. وكانت النسوة المسلمات والقبطيات يتبادلن إرضاع أطفال بعضهن البعض، بل ورعاية أطفال بعضهن البعض، إذا اضطرت إحدى الأمهات إلى السفر إلى قريتها فجأة لأمر طارئ، والجميع لا يفوته واجب عيادة المرضى، وتقديم التحية فى الأفراح، والتعازى فى الأتراح».

الأهم من ذلك كله تطرق صاحبنا إلى المسكوت عنه.. بصريح العبارة السلطة، حتى فى عهدها الناصرى الذى يتحمس له، ويعتبر نفسه واحداً من المستفيدين منه، فيتحدث عن المباحث التى طاردته فى الشركة التى عمل بها عقيب تخرجه من الجامعة، وطاردته وهو معيد جعل أطروحته لدرجة الماجستير عن تاريخ الطبقة العاملة المصرية، وكاد يكون واحداً من ضحاياها لولا أستاذه أحمد عزت عبد الكريم.



يصل الكاتب بنا إلى ذروة التوتر الدرامى، إذا شئنا أن نستعير شيئاً من مصطلحات الأدب فى الفصل الذى عقده عن الجامعة بعنوان «تحت القبة وهم» وإن كان قد تناولها على نحو أو آخر فى فصول سابقة، ويتضح لنا أن الجامعة كانت بالنسبة له حلماً وردياً، عندما كان طالباً فى جامعة عين شمس، فكان بها أساتذة يتعاملون مع طلابهم على أنهم أبناؤهم، يعلمونهم ثم هم يعلمونهم كيف يتعلمون.. لكن هذا الحلم تبدد لدى التحاقه بجامعة القاهرة معيداً، ثم عضواً بهيئة التدريس، فالأساتذة غير الأساتذة ولم يكن العلم فى جملة أولوياتهم، وكانوا فى جلساتهم الخاصة لا حديث لهم إلا فى النميمة، ومادام لكل شىء سبب فالسبب يكمن أولاً وقبل كل شىء فى تدخل السلطة فى شئون الجامعة، وجامعة القاهرة على نحو خاص باعتبارها الجامعة الأم، خصوصاً أنها لوحت لأساتذتها بمناصب الوزارة، فهرع الكثيرون منهم إليها وجعلوا أنفسهم فى خدمتها وخدمة أمنها، الذى صار مديره فى الجامعة يفوق فى سلطاته سلطات رئيس الجامعة، ويأتى لنا بمهازل عن انتخابات الاتحادات الطلابية، ومهازل أخرى عن انتخابات الاتحاد الاشتراكى فى كليته، وكيف تحول بعض من كبار الأساتذة إلى عملاء للمباحث وكتبة تقارير. ثم هو يأتى بصور عما أفرزه هذا المناخ الفاسد، منها أنه أتاح الفرصة لزوج الرئيس السابق وبناتها لأن يلتحقن بالجامعة دون وجه حق، فتحصل هذه الزوج على أعلى الدرجات وتعين معيدة، بل تحصل على درجة الماجستير (وبعدها الدكتوراة) فى وقت قياسى، وقد أحاطت بها جوقة من الأساتذة المنافقين الذين كوفئوا على «خدماتهم الوطنية» بأعلى المناصب، كما يأتى بصور أخرى عن جهلاء وفاسدين وصلوا إلى مناصب الجامعة العليا، لدرجة أن أحدهم كان يجهل من هو



أنظر إليه وهو يرسم صورة لعزبة هرميس التى عاش فيها صبياً، وسكانها وكيف كانوا يعيشون حياتهم، لا يشعرون بأنهم مسلمون ومسيحيون قدر ما يشعرون بأنهم فقراء ومصريون



كتاب الزاوية



زكي نجيب محمود

المشاركة في الفعل

دنيا العمل في الأمة هي ترجمانها فقل لي ماذا يسودها من مشاعر في صدور العاملين أقل لك ما حقيقة تلك الأمة في مرحلتها الراهنة، إنك إذا فحصت دنيا العمل وما يدور في أرجائها كنت كمن يتطلع إلى صميم آلامه من ثقب المفتاح، أو كمن يسترق السمع من وراء الجدران، وأسوأ الحالات هي أن يفقد العامل اهتمامه بالعمل لشعوره بأن قيمته لم تعد تزيد عن ترس في آلة، وأما أفضل الحالات فهي أن يشعر العامل وكأنه يعمل لنفسه.

كان من أصدق الملاحظات التي أثبتها ابن تيمية قوله أن أهم ما يشد أفراد الأمة بعضهم إلى بعض في أمة واحدة متماسكة هي المشاركة في الفعل، فقد يشترك الأفراد في لغة واحدة، بل قد يشتركون في عقيدة واحدة، ويجمعهم تاريخ واحد، ولكنهم يتبعثرون في «الفعل» بحيث لا يستهدفون جميعًا هدفًا واحدًا، وبهذا يفقدون أهم مقومات الأمة، ولقد أصاب ابن تيمية كل الصواب في ذلك، فوحدانية الهدف وما يتبعها من وحدانية القيم بين أبناء الشعب الواحد هي أقوى ما يجعلهم شعبًا واحدًا، وبهذا يفقدون أهم مقومات الأمة.

ولقد سألت نفسي: هل كانت هذه حالة العمال وهم يبنون الأهرامات في مصر القديمة؟ أو وهم يبنون سور الصين العظيم؟ هل كانت هذه هي حالتهم وهم يقيمون أروع المساجد وأعظم الكاتدرائيات؟ هل هذه هي حالتهم في معظم البلاد التي يسمونها بالبلاد النامية حيث يشتد الوعي الوطني بأهداف العمل القومية؟

إنه إذا كان الجواب عن هذه الأسئلة هو بالنفي، بقي أن نسأل: ما الذي حضر هنا فامتنع الشقاء بالعمل، وغاب هناك فشاع الشقاء به؟ إنه الإيمان بقيم وأهداف.

إصدارات: في السيرة الذاتية

رءوف عبـــــاس

أحمد لطفي السيد أول رئيس مصري لجامعته وأستاذ لأجيال متعاقبة من المصريين، وأخيرًا وليس آخرًا تعديل شروط الإعارة، لخدمة أغراض شخصية لا علاقة لها بالعلم.

يتحدث الكاتب بعد ذلك عن آليات الفساد التي تتمثل في دعم الكتاب الجامعي والصناديق الخاصة ولجان الممتحنين ولجان الترقي التي حرمت الجامعة من عالم جليل ذي سمعة عالمية، هو أيمن فؤاد سيد، بعد أن تحكم في مصيره من لا يصلحون لأن يتتلمذوا على يديه.

لكن الكاتب مع حزنه الشديد على ما آل إليه حال الجامعة. إلا أنه، وهو العالم الذي يؤرخ لأزمنة سابقة على زمانه بمنهج علمي صارم ورؤية نقدية موثقة، يعلم جيدًا أن الجامعة مؤسسة لا تنفصل عن المجتمع الذي تنتمي إليه، وهو مجتمع يمر بخلل بنيوي خطير، فيقول وهو ممرور «هذا غيض من فيض، عايشه صاحبنا تحت قبة الجامعة التي ظنها يومًا مثالاً للنزاهة والنقاء خلت من الآفات التي يعانيها المجتمع. كان يظن أن الجامعة «بيت الحكمة»، العقل المفكر الذي يرسم للأمة خطاها، فاكتشف أنه كان واهمًا، وتبين له أن الجامعة خلية من خلايا المجتمع، تتأثر بما يصيب بقية الخلايا من عطب ومن أمراض، وأدرك أن الجامعة مرآة تنعكس على صفحتها صورة المجتمع بما فيه من تناقضات، وما يعانيه من علل وأوجاع».

يبقى بعد ذلك أن نتساءل.. لماذا كانت الصور التي تتتابع عبر صفحات الكتاب في معظمها صور قاتمة كابية وحزينة، مع أن الواقع لا يخلو من صور أخرى وضيئة؟.. لا نجد لذلك من تعليل إلا أن الكاتب تملكته - كما قال شللي - «شهوة إصلاح العالم».. هذه الشهوة التي جعلته يلتفت إلى هذه الصور الحزينة ويعرض عما سواها، ويحضرنا في هذا الشأن تلك السطور من «حياتي في الشعر» حين يقول صلاح عبد الصبور «يصفني نقادي بأنني حزين، ويدينني بعضهم بحزني، طالبًا إبعادي عن مدينة المستقبل السعيدة، بدعوى أنني أفسد أحلامها وأمانيها، بما أبدوه من بذور الشك في قدرتها على تجاوز واقعها المزدهر (في رأيه) إلى مستقبل أزهر. وقد ينسى هذا الكاتب أن الفنانين والفئران هم أكثر الكائنات استشعارًا للخطر، ولكن الفئران حين تستشعر الخطر تعدو لتلقي بنفسها في البحر، هربًا من السفينة الغارقة. أما الفنانون فإنهم يظلون يقرعون الأجراس ويصرخون بملء الفم، حتى ينقذوا السفينة أو يغرقوا معها».



لنا في النهاية عتاب على الكاتب ورجاء.. عتاب لأنه لا يسترسل كثيرًا في ذكرياته عن حياته العائلية، ومنها حياته العاطفية، وربما اعتذر عن هذه بشغله وأسرته بطلب القوت، ثم شغله هو بطلب العلم، وربما كان السبب زواجه في سن مبكرة من زميلة له، اطمأن إليها، وكانت عند حسن ظنه في الحال والاستقبال، وخير معين في رحلة الحياة، لكننا نحسب أن ليس له عذر حين لا يتحدث باستفاضة عن علاقاته بأبيه وأمه وأشقائه وأصدقائه ورفاق الصبا، لأن هذه العلاقات وما يترتب عليها، تشكل عنصرًا أساسيًا في بناء شخصيته، وفي تفسير مواقف عديدة وحادثات عرضت له.

كذلك فمن اللازم لمؤرخ مرموق ترك بصماته واضحة على علم التاريخ، وهي بصمات غير منكورة، أن يسهب في الحديث عن موارد ثقافته، فمعروف عن رءوف عباس ثقافة موسوعية، أعانته في فهمه للتاريخ وإحاطته بتفصيلاته وبواعثها.. هذه الثقافة لا تتأتى إلا بمطالعات في مجالات شتى؛ لكنه يكتفي بذكر ولعه بمشاهدة الأفلام السينمائية في صباه ومطالعة «البعكوكة» و«سندباد»، ثم قراءة بعض الكتب للرافعي (المؤرخ) وبعض الكتب لطه حسين وسلامة موسى وجرجي زيدان (لا حديث عن العقاد) ولا يذكر لنا ما عدا ذلك وأظنه كثيرًا.

أما عن الرجاء فهو أن يتحفنا الكاتب بكتاب آخر عن الشخصيات التي عرفها، وعرض للمحات من حياتها.. وهكذا فعل غيره من سابقيه، وبينهم العقاد وطه حسين وهيكل والبشري وفتحي رضوان وغيرهم، فيصير شاهدًا على رجال عصره، مثلما كان شاهدًا على عصره. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الإسلام فى عيون غربية.. بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء

د. محمد عمارة
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ٣٨٣صفحة



يؤكد المؤلف أنه لا توجد مشكلة بين الإسلام والإنسان الغربى أو العلم الغربى، وإنما المشكلة مع مؤسسات الهيمنة الغربية - السياسية والكنسية والإعلامية. ويقدم المؤلف فى كتابه شهادات غربية تفترى على الإسلام، كما يقدم أيضًا شهادات غربية لعشرات من أعلام الثقافة الغربية تنصف الإسلام.

فى النوع الأول من الشهادات، يستعرض الكتاب افتراء الحرب الصليبية الجديدة عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، واتخاذ الإسلام عدوًا عقب سقوط الشيوعية سنة ١٩٩٠، والتحريض على الإسلام فى ثمانينيات القرن العشرين، ويعود الكتاب إلى الماضى البعيد مؤكدًا وجود تيارات غربية عادت الإسلام منذ فجر ظهوره.

وفى النوع الثانى من الشهادات التى تنصف الإسلام يستعرض المؤلف أكثر من ثلاثين شهادة غربية لعلماء الاستشراق والثقافة الغربية يؤكدون فيها التأثيرات الحضارية الهائلة للإسلام على العقل والفكر الغربى والنهضة الأوروبية، والإضافات الإسلامية فى علوم الحساب والمثلثات والجبر والفلك والنظرة النقدية الإسلامية للموروث العلمى القديم، وسماحة الإسلام، وتميز الفقه الإسلامى على القوانين الوضعية وغيرها الكثير.

الآخر.. الحوار.. المواطنة

سمير مرقص
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥، ٢٠٣ صفحات



يضم هذا الكتاب عددًا من الدراسات والمقالات التى كتبت بين عامى ٢٠٠١ و٢٠٠٤ والتى تعالج موضوع الحوار بين «الذات» و«الآخر» مصريًا وعالميًا.

ويؤكد المؤلف أن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فى التاريخ المصرى ظلت صامدة أمام كثير من التحديات والتوترات على مر القرون، بل إنها تقدم تجربة تاريخية متميزة تعايش فيها «دينان» وشعب واحد. وكان الطرفان يدركان أن حياتهما معًا فى وطن واحد هى خيار استراتيجى منذ دخول الإسلام إلى مصر.

ويتناول الكتاب ما حدث فى السبعينيات من القرن الماضى، وكيف كان لسياسة الانفتاح الاقتصادى دور كبير فى تعميق الاغتراب الثقافى والاجتماعى والتهميش السياسى للقطاعات الشعبية الواسعة، وهو ما جعل المشكلة الطائفية تبرز على السطح.

يتناول القسم الثانى من الكتاب رؤية الكاتب حول حوار الحضارات، بالإضافة إلى حوار مع جورج كيرى رئيس أساقفة كانتربرى المتقاعد. أما القسم الثالث فيتناول حوارين أجريا مع المؤلف ويطرح فيهما وجهة نظره حول الكثير من القضايا مثل تجديد الخطاب الدينى، ودفع الأقباط فى الحياة السياسية، ووجهة نظره فى الإخوان المسلمين والأزهر والمسيحية الصهيونية، والأصولية الدينية فى أمريكا، وتفجيرات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، والإصلاح السياسى وغيرها.

آلام الحلاج ـ شهيد التصوف الإسلامى

لويس ماسينيون
ترجمة: الحسينى مصطفى حلاج



عاش الحلاج فى فترة ازدهار الإسلام الكبرى إبان الخلافة العباسية، حيث تربع المجتمع العربى فى بغداد على مصب ثقافتين: الآرامية واليونانية. وقد أصبحت هذه المدينة حاضرة العالم الثقافية فى القرن العاشر الميلادى، وكان للفكر العربى آنذاك أساتذته الأفذاذ مثل النظام وابن الراوندى إلى الباقلانى فى علم الكلام، ومن الجاحظ إلى التوحيدى وابن سينا فى الفلسفة، ومن أبى النواس وابن الرومى إلى المتنبى والمعرى فى الشعر، والخليل بن جنى فى اللغة، وكان الرازى من الأطباء، والبطانى من الرياضيين..

وكان الحلاج بين هؤلاء وواحدًا من أوائل علماء الكلام المتصوفة، وكان أكثر عمقًا من الأنطاكى والمحاسبى، وأكثر صلابة وحزمًا من الغزالى.. وقد أدرك الحلاج القيمة التى لا تقدر بثمن لنهج يعرض أسلوب حياة تتماثل فيه الأفعال الخارجية مع النيات الباطنية. لم يعتمد نهجه على فهم قواعد اللغة العربية وحسب، بل على استخدام المنطق كما صنفه ونسقه اليونانيون. واستطاع أن يلجأ إليه كأنه زهد عقلى فيعريه من الصور الحسية والصيغ المبتدعة.

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام، الأول يتضمن مراحل حياة الحلاج وانعكاساتها الاجتماعية بدءًا من محاولاته الأولى فى الزهد الفردى، ثم الروايات الرسمية لقضيته وصولاً إلى استشهاده.

ويتضمن القسم الثانى عرضًا منهجيًا لمذهبه ضمن إطار علم الكلام فى زمانه، ومعالم أزمة الذات الهائلة التى أوصلته إلى قضيته ومقتله.

أما القسم الثالث فيبحث وفقًا للترتيب الزمنى لمؤلفات كتبت عنه بالعربية والفارسية والتركية والماليزية والهندية والسريانية والعبرانية، بالإضافة إلى اللغات الأوروبية المختلفة.

الدولة المصرية والرؤية العصرية من فقه المراجعة إلى فكر المستقبل

د. مصطفى الفقى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ٣٢٧صفحة



كان ظهور العولمة والتقدم المذهل فى تكنولوجيا المعلومات والسرعة الهائلة فى وسائل الاتصال، وراء وجود ذلك المواطن الذى قد لا يتمسك بالثوابت، ولكن يمضى وراء مجتمع إنسانى واسع سقطت فيه الحواجز وتلاشت منه الحدود؛ خصوصًا أنه مع انهيار مبدأ السيادة المطلقة للدولة، فإن المشاعر الوطنية يمكن أن تكون قد اهتزت لدى بعض الأجيال الجديدة، بحكم الانبهار بنمط الحياة فى مجتمعات أخرى أكثر تقدمًا. كما أن التداخل بين السلطة والثروة قد أدى إلى حالة من الميوعة الوطنية والأخلاقية أيضًا.. هذا ما يكشف عنه د. الفقى فى مقدمته لكتابه الذى جاء ليواجه هذه السلبيات، من خلال اكتشاف مواطن القوة والجمال فى تاريخنا البعيد والقريب، وصولاً إلى طرح رؤية لصياغة مستقبل أفضل، لمصر وللعالم العربى كله.

ينطلق الكتاب من فقه المراجعة من خلال استعراض قضايا مختلفة فى مجالات التعليم والإدارة والثقافة والتكنولوجيا والدفاع العربى المشترك وغيرها الكثير إلى فقه المواجهة الذى يحاول تغيير الواقع الراهن بالاستفادة من العناصر الإيجابية الموجودة فيه.

يتجاوز الكتاب قضايا العمل الوطنى، إلى الصعيد القومى، حيث يلقى الضوء على إحياء الفكر القومى العربى، وتوازنات الشرق الأوسط الجديدة، وعروبة العراق، والعلاقات مع أمريكا ومع أوروبا، ومستقبل السلام والأمن فى المنطقة. كما يتناول الكتاب أيضًا إمكانية طرح مبادرة إسلامية شاملة تسعى إلى مصالحة تاريخية وحقيقية مع الغرب فى إطار مشروع إصلاح دينى واجتماعى وثقافى يقف ندًا للطرح الأمريكى.

النسيج واللباس فى الاقتصاد العالمى

كيتى ج. ديكرسون
ترجمة: نور الدين شيخ عبيد
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٤، ١٠٣٨ صفحة، ٢٨ دولارًا أو ما يعادلها



يتناول هذا الكتاب إنتاج اللباس والنسيج وتسويقهما من منظور عالمى. وهو يعتبر أحد المراجع الأكثر دقة وشمولاً والأكثر اعتمادًا من قبل الطلاب والباحثين المهتمين بقطاع اللباس والنسيج والموضة، فى علاقته بالاقتصاد وبالعلوم السياسية، إضافة إلى التسويق. وقد أصبحت لهذا الكتاب هذه المكانة بفضل خبرة مؤلفته الواسعة مع موظفى منظمات التجارة الدولية ولدرايتها بالعلاقات الدولية فى الموضوع. وإذا كان مما لا شك فيه أن العولمة هى بصدد تغيير طرق إدارة الأعمال بصورة جذرية، فإن هذا الكتاب يساعد على فهم التحولات الجارية، وعلى التعامل معها.

ويتناول هذا الكتاب تأثير الوضع العالمى السريع التغير فى هذا القطاع، ويبحث فى العولمة من حيث آثارها فى

صناعة النسيج والعاملين المتأثرين بهذه التغيرات.

وتتضمن الطبعة العربية إضافة إلى تقديم صورة محدثة عن التغيرات الجيوسياسية لمحة موجزة عن صناعات النسيج واللباس فى معظم مناطق العالم، وكذلك بحثًا عن الدور الخاص للنسيج فى التنمية الاقتصادية للدول.

■

سيكولوجية المقامر- التشخيص والتنبؤ والعلاج

د. أكرم زيدان

الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٥، ٢٠٨ صفحات

يحاول المؤلف من خلال الكتاب أن يتناول سلوك المقامرة، ليس بوصفه جريمة تتطلب العقاب، وإنما باعتباره مرضًا يستوجب العلاج.

ويتحدث الكتاب بالتفصيل عن النظريات النفسية للمقامر، مع إشارة سريعة إلى بعض النظريات الاجتماعية والاقتصادية والبيولوجية، وكذلك النماذج الطبية التى تتناول ظاهرة المقامرة.

وإذا كان اهتمام الباحثين فى الغرب قد انصب حول نظريات المقامرة فقط، فإن الكتاب الحالى يركز على نظريات المقامرة ومشكلات المقامر واضطراباته الشخصية، من خلال مناقشة العديد من القضايا السيكولوجية التى تؤثر فى المقامرة وتتأثر بها أيضًا، مثل الغرائز الجزئية بأبعادها الأربعة (السادية - المازوخية - النظارية - الاستعراضية)، وسلوك المخاطرة واشتهاء المثير واضطرابات الشخصية المتمثلة فى الاكتئاب والهوس الخفيف والقلق والسيكوباتية والانتحار.

الفصل الأول من الكتاب يقدم نظرة تاريخية للمقامرة فى الحضارات المختلفة وصولاً إلى العصر الحديث وظهور عدد من المنظمات العالمية التى تدرس سلوك المقامرة. بينما يتناول الفصل الثانى مفاهيم المقامرة وأنواعها.

ومن خلال الفصل الثالث، وقد جاء بعنوان «المنهج»، يدعو الكاتب لتبنى المنهجين الإكلينيكى والتجريبى للتعرف على الديناميات النفسية للمقامر المرضى.

الفصل الرابع يتناول نظريات المقامرة، والفصل الخامس يتناول أسبابها.

بينما يأتى الفصل السادس من الكتاب ليشرح وببعض التفصيل سلوك المخاطرة لدى المقامرين، يليه الفصل السابع، حيث يطرح المؤلف موضوع الغرائز الجزئية لدى المقامر، ويتبعه الفصل الثامن بعنوان «اضطرابات الشخصية لدى المقامر المرضى».

الفصل التاسع من الكتاب يحاول الإجابة على سؤال ما إذا كانت المقامرة إدمانًا.

والفصل العاشر يقدم أساليب العلاج النفسى للإدمان، ثم يأتى الفصل الحادى عشر والأخير ليقدم عرضًا لدراسات الحالة مع بعض المقامرين.

لا يكتفى الكتاب بالرصد فقط، بل يهتم بالتفسير والتحليل والنظر بعمق إلى الديناميات النفسية للمقامر.

وفى أحيان كثيرة ينظر هذا الكتاب ويعيد النظر فى قضايا سيكولوجية كثيرة ومتنوعة من أجل التشخيص والتنبؤ بشقيه: التصنيفى والدينامى، حيث يتسنى رسم اللوحة الإكلينيكية للمقامر المرضى، التى تمكننا من الوصول إلى أنسب الطرق العلاجية.

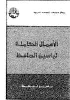
ويرى المؤلف أن أنسبها هى طريقة العلاج النفسى الجماعى، مما جعله يتناولها بشىء من التفصيل.

■

الأعمال الكاملة لياسين الحافظ

إعداد: عبد الإله بلقزيز

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ١٢٧٥ صفحة، ٢٨ دولارًا



استهدف مركز دراسات الوحدة العربية من نشر أعمال ياسين الحافظ فى مجلد واحد إتاحة المصادر الفكرية الأصلية لتكون فى متناول المهتمين بتجديد الفكر القومى العربى والثقافة القومية العربية.

وتضم هذه الأعمال الكاملة بالإضافة إلى كتبه الخمسة الشهيرة عددًا من كتابات ياسين الحافظ التى لم تنشر من قبل، ومقدمة لهذه الأعمال أعدها عبد الإله بلقزيز.

إن ما يجعل فكر ياسين الحافظ فكرًا تمس إليه حاجة الزمن العربى الراهن بتحدياته وسلبياته، وأيضًا إيجابياته ما ظهر منها وما بطن، هو تجاوزه الحاضر الذى عاش فيه عمر وعيه من الخمسينيات إلى أواخر سبعينيات القرن الماضى بقدرة غير عادية على توقع الآتى من التحولات والظواهر.. فثمة استثنائية فكرية كامنة فى مؤلفاته كمفكر قومى قادرة على أن تعيد لهذا الفكر وهجه فى عقول أجيال لم تلازمه الحياة زمنيًا، حيث تجد فيه التنظير العقلانى للوحدة العربية ضد التراجع، وخارج إطار الاستغلال الاقتصادى والسياسى والثقافى: أى خارج

جذور التسلط وآفاق الحرية

د. حسن حنفى

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥، ٣٣٢ صفحة



يعتبر هذا الكتاب أن الاستبداد هو قضية العرب الأولى، وأن مواجهة التسلط على المستوى الفكرى والثقافى تسبق بالضرورة الحرية السياسية.

ويؤكد المؤلف أن أحد أسباب أزمة الحرية الحالية هو أننا وضعنا العربة قبل الحصان منذ الثورات العربية الأخيرة فى النصف الثانى من القرن العشرين. فرغم أن هذه الثورات حققت مكتسبات اجتماعية، إلا أنها خسرت فضائل العصر الليبرالى.

أما الآن، وكما يقول المؤلف، فيبدو أننا خسرنا الجولتين: حرية الفرد وديمقراطية الحكم فى النصف الأول من القرن العشرين، والعدالة الاجتماعية والإنجازات القومية فى النصف الثانى منه.. وتبرز المقاومة من جديد عود على بدء ضد التسلط الداخلى والاحتلال الخارجى.

تتجلى مظاهر التسلط كما يوضح الكتاب فى الزعيم الأوحد وتحريم العيب فى الذات الملكية، وألقاب التعظيم، والغطاء الاجتماعى، والمحرمات الثقافية، وحكم الأحياء مدى الحياة وغياب تداول السلطة. فى نفس الوقت الذى يتم فيه تأصيل جذور التسلط فى الموروث الثقافى، والنقل عن القدماء والمحدثين لتسويغ الواقع والدفاع عن ثقافة السلطة وفقهاء السلطان والموظفين الأيديولوجيين فى جهاز الدول.. مع استبعاد الآراء البديلة.

فى الفصل الأول من الكتاب، يشدد المؤلف على أن المدخل الثقافى هو الذى سيشعل فتيل الصحوة الثانية فى العالم العربى، فأول ما يحتاج العرب إليه لإعادة بناء ثقافتهم هو التحول من التصور الرأسى للعالم إلا التصور الأفقى من أجل نزع جذور التسلط فى الثقافة الوطنية، لأننا ورثنا تصورًا رأسيًا للعالم يتصور العلاقة بين الطرفين هو علاقة الأعلى - الأكثر رتبة وقيمة وشرفًا - بالأدنى، وبالتالى فإن على الأدنى طاعة الأعلى بدون تفكير. وفى نفس الوقت فإن التصور الأفقى هو البديل الوحيد للنهضة، لأنه يلبى حاجة العصر إلى المساواة بين الحاكم والمحكوم، وتذويب الفوارق بين الأغنياء والفقراء، وتقريب المسافة بين الإمام والمأمومين. «فالناس سواسية كأسنان المشط».

ويبحث الفصل الثانى عن مظاهر التسلط التى تتبدى فى غياب العدالة، وحكم الحزب الواحد، واستمرار الزعيم الواحد، وألقاب التعظيم فى الموروث الثقافى، وغياب المرأة التام بالنهار وحضورها الكاسح بالليل، وتصدير الخوف.. وغيرها.

أما الفصل الثالث، فيدور حول مسئولية الثقافة من خلال العديد من المحاور، ملقيا الضوء على ثلاثة أنواع من المثقفين، وهم مثقف السلطة، وشهيد السلطة، وأخيرًا المثقف الوطنى.

أما الفصل الرابع فيطرح فى بدايته سؤالاً مهما وهو: لماذا تأخرت قضية الحرية؟ ويجيب بأنه تم تأجيلها مرتين، الأولى فى مرحلة مقاومة الاستعمار، فقد أجل المواطن العربى قضيته مع النظام فى الداخل حتى يجند نفسه لمقاومة الاستعمار فى الخارج، والثانية بعد الاستقلال حيث اهتم قادة التحرر الوطنى بالإنجازات السريعة والعاجلة والتى فشلت بعد عقدين أو ثلاثة.

وعن الدولة الوطنية يطرح الفصل الخامس عدة أسئلة مهمة منها: هل تعود الملكيات للحكم؟ وهل انتهت الطبقة الوسطى؟.. إلخ. ويؤكد المؤلف أنه فى غياب مصر عن محيطها العربى، يتم استقطاب الخليج نحو إيران، والسودان إلى شمال عربى وجنوب أفريقى، وابتلاع الشام وقسمته بين تركيا وإسرائيل وتفتيت العراق، وجذب المغرب العربى كله إلى أوروبا، وهو وضع ظهر إلى حيز الوجود بسبب تكبيل مصر بمعاهدة السلام مع الكيان الصهيونى.

ويدور الفصل السادس عن الإصلاح والنهضة، ويشير فيه المؤلف إلى أنه كلما تأزم الحاضر تم الرجوع إلى الماضى. فنحن ننظر إلى عصر النهضة العربية بداية بميلاد الطهطاوى ١٨٠١ حتى هزيمة ١٩٦٧ بوصفه حلمًا جميلاً استيقظنا بعده على واقع تسوده المحافظة الدينية والخواء الفكرى، والاستقطاب بين خطابيه، السلفى والعلمانى يصل إلى حد الاقتتال العلنى كما هو الحال فى الجزائر، أو الصراع السياسى كما هو الحال فى مصر وتونس، وطالما استمر الحنين إلى الماضى فإنه لن يتم التعرف على الحاضر وطبيعته ومكنوناته، وتغيب رؤية المستقبل واحتمالاته، ولا تبقى إلا الانفجارات العشوائية هنا وهناك، كما يفعل البركان الهادى فى الظاهر الفائر فى الباطن.

التبعية والهيمنة. يضاف إلى ذلك ما أرساه ياسين الحافظ عندما شق طريقاً جديداً أمام الفكر الديمقراطى العلمانى الاشتراكى العربى، فأسس نهجاً التقط بمضمونه مفردات الواقع العربى وتطوراته، وعكسها فى وعى كان الأقرب إلى حركة هذا الواقع فى بعديها الراهن والمستقبلى.

تربية العنصرية فى المناهج الإسرائيلية

د. صفا محمود عبد العال
مراجعة وتقديم: د. حامد عمار
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٥، ٢٣٠ صفحة



يؤكد الكتاب أنه من المهمات الرئيسية لنظام التعليم فى إسرائيل، السعى إلى زراعة بذور الخوف من الآخرين فى عقول النشء، وترسيخ عناصر الكراهية والحقد فى وجدانهم، ويعد ذلك من الآليات التربوية المهمة التى تشكل بنية التوظيف الاجتماعى للمؤسسات الاستيطانية فى إسرائيل بشكل عام، والتى يتضح فعلها بصورة ظاهرة وقوية فى ضوء المتغيرات الأخيرة منذ اندلاع انتفاضة الأقصى، وما تلاها من أحداث وتطورات. والشاهد أن ما تهدف إليه الحركة الصهيونية فى مجال التعليم، هو خلق وتنمية روح العداء للعرب وتشويه صورتهم لدى الجيل الإسرائيلى الحالى والأجيال التالية.. وبالطبع فإن المناهج الدراسية هى الوسيلة المثالية التى تساعد المؤسسات الصهيونية فى تحقيق ما تبتغيه.

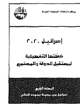
فالأساليب الصهيونية تقوم على تأكيد التربية الأيديولوجية من خلال المشاريع المخططة «الأنشطة التربوية» التى ينفذها الأطفال فى المدرسة الابتدائية بأرض إسرائيل اللا حدودية، بالإضافة إلى تعميق الكراهية فى نفوس التلاميذ.

استندت المؤلفة فى مادة كتابها على ١٦ كتاباً من مناهج الدراسات الاجتماعية فى إسرائيل، فى مادتى التاريخ والجغرافيا المقررة من بداية الصف الثالث حتى الصف السادس الابتدائى، وهى كلها باللغة العبرية.

ويقول د. حامد عمار فى مقدمة الكتاب أن من مقاصد التعليم الإسرائيلى أن يتغذى تلاميذه منذ بداية المرحلة الابتدائية على المفاهيم والمبادئ والتنظيمات اليهودية التى انطلقت منها وتأسست عليها دولة إسرائيل قبل عام ١٩٤٨، واستمرت حتى اليوم. ومن بين تلك المقاصد التى تلبست وتلونت بمقولات دينية توراتية الادعاء بأن فلسطين كانت منذ أقدم العصور أرض إسرائيل، وأن أورشليم كانت عاصمتها. ويؤكد د. عمار أن موضوعات هذه المناهج الدراسية تكاد أن تكون مرآة لبشاعة العنصرية الصهيونية نحو الحقوق العربية، وانتهاك المقدسات الإسلامية والمسيحية فى القدس.

«إسرائيل ٢٠٢٠» خطتها التفصيلية لمستقبل الدول والمجتمع.. المجلد الرابع: «إسرائيل فى محيط يسوده السلام»

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ٢٦٣ صفحة، ٨ دولارات



هذا الكتاب هو المجلد الرابع من خطة لاستشراف مستقبل إسرائيل لربع قرن أعدها ٢٥٠ خبيراً إسرائيلياً من مختلف المؤسسات الرسمية والأكاديمية فى داخل إسرائيل، ومن بين الجاليات اليهودية فى العالم.

و«إسرائيل فى محيط يسوده السلام» عنوان هذا المجلد. هو بمثابة وثيقة تعبر عن الفرضية الأساس وراء هذا المشروع، وهى أن السلام هو شرط أساسى للتخطيط الوطنى المستقبلى، وعامل يغير بيئة التخطيط الحالية، لذا، فإن الكثير من أهداف المخطط الرئيس يشتق منه، فيما تكمن فيه أيضاً وسائل تحقيق تلك الأهداف.

تتكون هذه الوثيقة من أربعة أجزاء تعكس التفكير البنيوى فى موضوع السلام على امتداد عملية خلق الخطة التفصيلية لإسرائيل ٢٠٢٠. ويحدد الجزء الأول الإطار السياسى للنقاش فى سيناريو السلام، فيما يلخص الجزء الثانى الخطوات العملية التى تمت فى ضوء الإطار السياسى المتفق عليه. أما الجزء الثالث فيحلل احتمالات التعاون الاقتصادى فى الشرق الأوسط فى حال تحقيق السلام، فيما يقترح رئيس طاقم المخططين فى الجزء الرابع موضوعاً شاملاً لانعكاسات السلام على سياسة التخطيط الحالى فى إسرائيل.

الكتاب يتضمن النماذج والخرائط والجداول الموضحة والمفسرة لهذه الوثيقة الأساس.

رائدات فى ظروف غير مواتية المرشدات الصحيات وسياسات التنمية فى اليمن

مارينا دى ريخت
ترجمة: محمد عبد الحميد عبد الرحمن
مراجعة: سعد صلاح خلاص
دار مهاجرون: ٢٠٠٥، ٢٧٤صفحة



هذا الكتاب هو نتاج ستة أعوام من الحياة والعمل فى خضم مشروع تنموى مبنى على البحث الميدانى للمؤلفة فى اليمن.

يتناول الكتاب حياة نساء يمنيات عاملات فى مجال الرعاية الصحية الأولية، ويمزج بنجاح بين النهج الأكاديمى والكتابة المفعمة بالحيوية عن قصص الحياة الشخصية لنساء عملن مع الكاتبة طوال سنوات المشروع.

يبحث الكتاب فى الفرص التى أتاحها العمل المأجور للمرأة فى المجتمع اليمنى التقليدى لتغيير حياتهن مقابل أشكال السيطرة الاجتماعية الجديدة التى نجمت عن الدخول فى سوق العمل، كما يمزج بين الأجندات المتباينة للحكومة الوطنية ومنظمات التنمية الأجنبية والطموحات الشخصية للنساء العاملات.

النساء فى هذا الكتاب هن صديقات مارينا دى ريخت الهولندية الجنسية، وهن أيضاً موضوع بحثها فى نفس الوقت. وقد وفر لها هذا الموقع المزدوج نظرة متميزة تجمع فيها أدوات ومناهج البحث الأنثروبولوجى مع الخبرة الشخصية اليومية.

ومن خلال هذا الكتاب، نجحت الباحثة فى سبر المعرفة الجوانية العميقة للمجتمع اليمنى الذى قضت فيه كما تؤكد سنوات ممتعة من عمرها.

فؤاد الأول المعلوم والمجهول

د. يونان لبيب رزق
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ٢١٤صفحة



يعتبر الملك فؤاد الأول من الشخصيات التاريخية التى اختلف حولها المؤرخون كثيراً، وكان لخلافهم هذا أسبابه.. فمن ناحية، عرف عن الملك مهادنته للإنجليز واصطدامه بالحركة الوطنية وجمعه كل سلطات الحكم فى يده.. ومن ناحية أخرى عرف عن عهده أنه عهد الإصلاحات المتعددة على كافة الأصعدة: فى السياسة، والدبلوماسية، والاقتصاد، والتعليم، والبحث العلمى، والفنون المختلفة. وما بين هاتين الحقيقتين، ضاعت حقيقة الملك، وبات البحث عنها مطلباً ضرورياً لكل مهتم بالتاريخ المصرى الحديث.

يبحث الكتاب فى قسمه الأول «١٨٦٨-١٩١٧» سنوات تكوين الملك فؤاد وخروجه من مصر مع أبيه الخديو إسماعيل ثم عودته واعتلائه العرش، أما القسم الثانى فيتناول فؤاد كسلطان لمصر، وعلاقته بثورة ١٩١٩، ويتناول القسم الدور المؤسسى، سواء فى الشأن الاقتصادى وبناء بنك مصر ومصر للطيران وبنك التسليف الزراعى، وفى الشأن الثقافى، كإنشاء الجامعة الأميرية ومجمع اللغة العربية والإذاعة الحكومية وغيرها.

مدرسة فرانكفورت ـ نشأتها ومغزاها.. وجهة نظر ماركسية

فيل سليتر
ترجمة: خليل كلفت
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤، ٢٧٠ صفحة



تستخدم عبارة «مدرسة فرانكفورت» على نطاق واسع، لكن بطريقة فضفاضة أحياناً، لتدل فى آن واحد على مجموعة من المفكرين وعلى نظرية اجتماعية بعينها. تركز هذه الدراسة التى جعلت موضوعها سنوات تشكل مدرسة فرانكفورت وهى أكثر فتراتها راديكالية طوال الثلاثينيات من القرن المنصرم، على الإسهامات الأكثر أصالة التى قدمتها هذه المدرسة فى إعداد نظرية نقدية للمجتمع، من جانب الفيلسوفين ماكس هوكهايمر، وهربرت ماركيوز، وعالم النفس إيريك فروم، وعالم الجمال ثيودورف أدورنو.

يتتبع مؤلف الكتاب الحدود النهائية للعلاقة المعلنة لمدرسة فرانكفورت بالنقد الماركسى للاقتصاد السياسى لألمانيا فى فترة انحدارها نحو الفاشية ويدرس كذلك إنتاج أشخاص مثل كارل كورس، وفيلهلم رايش وبرتولت برشت، الأمر الذى يلقى قدراً هائلاً من الضوء النقدى على مدرسة فرانكفورت.

أطفال حاصرتهم الحرب

عالم عربي جديد بالأطفال
دراسة حول واقع الطفولة في الدول العربية
يونيسف ـ دار الشروق



يتأثر ٢٥ مليون طفل بالحروب والنزاعات المسلحة في المنطقة العربية، حسب تقديرات «التحالف ضد الجنود الأطفال في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا».

إن محاصرة أوضاع النزاعات المسلّحة للأطفال لها أثرها المدمر عليهم. فالأطفال يُقتلون أو يُعوقون، ويفقدون أبويهم وإخوتهم، ويُفصلون عمن يقدّمون لهم الرعاية الأولية، ويتعرضون لصدمات عاطفية ونفسية، ويفقدون فرصة الحصول على الحقوق الرئيسية الأولية في المأوى، والغذاء، والتعليم. بل إن بعضهم يصابون أو يقتلون بالألغام الأرضية أو القنابل التي لم تنفجر بعد فترةٍ طويلة من انتهاء النزاع. كذلك قد يرغم الأطفال على الخدمة في القوات الحكومية أو المتمردة، ويصبحون معرضين للتهريب والاستغلال الجنسي، ومن ثم يواجهون صعوبات بالغة في إعادة اندماجهم في المجتمع.

تؤدي الحروب والنزاعات المسلحة إلى إعاقة الحصول على الخدمات الأساسية التي تضمن حقوق الحياة والصحة. ففي العراق، أدت حرب عام ٢٠٠٣ إلى إحداث انتكاسة خطيرة للجهود السابقة لمعالجة أثر الحرب والعقوبات ولإعادة إعمار البنية التحتية الأساسية، والمدارس، والخدمات الصحية. وحتى قبل الحرب، كان ٢٥٪ من الأطفال دون الخامسة كانوا يعانون من سوء التغذية المزمن وكان واحد من بين كل ثمانية من هؤلاء الأطفال يموت قبل بلوغ سن الخامسة من عمره. ويمتد تراكم الحرمان عبر عشرين سنة وثلاث حروب، وهو ما أدى إلى حدوث تدهور خطير في مخزون العراق من رأس المال البشري والمادي.

وجاء في تقرير عام ٢٠٠١ لليونيسف عن حقوق الأطفال في العراق ما يلي: «كثيراً ما يُشار إلى المياه وخدمات المرافق الصحية باعتبارها خط الدفاع الأول ضد المرض. وفي حالة العراق، يشكل التدهور في نوعية المياه أحد الأسباب الرئيسية لزيادة أمراض الطفولة. ولا يقل مستوى ونوعية خدمات المرافق الصحية سوءاً عن ذلك... فقد تدهورت البنية الأساسية في قطاع الصحة تدهوراً شديداً. ومع نهاية التسعينيات، كانت الميزانية السنوية للصحة ٥٪ من الميزانية الأصلية التي كانت ٤٥٠ مليون دولار أمريكي عام ١٩٩٠» (العراق/اليونيسف، ٢٠٠١: ٢٧ - ٢٨).

ويتعيّن أن ينتبه المجتمع الدولي إلى حقيقة أن نظام فرض العقوبات يتسبّب في كوارث إنسانية تصيب أول ما تصيب الأطفال. الأمر الذي يفرض على مشرعي العقوبات الدولية دراسة عواقب تطبيق العقوبات على الأطفال ووضع الإجراءات لمواجهة هذه العواقب وتجنيب الأطفال المعاناة بسببها.

ومنذ بدء الانتفاضة في سبتمبر ٢٠٠٠ حتى بداية عام ٢٠٠٥ يُقدر عدد الأطفال القتلى الفلسطينيين بـ ٦٨٨ أغلبهم من اليافعين، كما أصيب ما يزيد على ١٢٠٠٠.. وتشير احصاءات السلطة الفلسطينية في بداية عام ٢٠٠٥ لوفاة ٢٤٤ امرأة بسبب الأعمال العسكرية الاسرائيلية منذ بدء الانتفاضة، ولحدوث ٦٥ حالة ولادة عند الحواجز، توفى فيها ٣٨ طفلا. ويقدر عدد الأطفال الذين تم احتجازهم في السجون الاسرائيلية بحوالي ٣٠٠٠ طفل منذ عام ٢٠٠٠.

وتتفاعل عدة عوامل لتضاعف تأثير سنوات الاحتلال التي قاربت على الأربعين على أجيال متتابعة من الأطفال الذين يشكلون أكثر من نصف سكان الأرض الفلسطينية المحتلة: فمن استخدام الرصاص في مواجهة المظاهرات، إلى الهجوم على المناطق المدنية، بما في ذلك حالات لقصف المدارس وقتل الأطفال بداخلها، إلى الاغلاق والحصار بما يعطل الوصول للخدمات الصحية والتعليمية والاجتماعية، وارتفاع نسبة الفقر، وتزايد ظواهر عمل الأطفال وتسولهم وارتفاع عدد أطفال الشوارع.

وقد ألقت الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية والبنك الدولي وغيرهما الضوء على تزايد سوء التغذية والمرض بين الأطفال الفلسطينيين. وفي شهر أكتوبر عام ٢٠٠٣ أعلن جان زيجلر مقرر الأمم المتحدة الخاص للحقّ في الغذاء أن الأرض الفلسطينية المحتلة «على وشك الوقوع في كارثة إنسانية، وهو ما يرجع بصورةٍ كبيرة إلى الإجراءات الأمنية الصارمة التي تفرضها قوات الإحتلال الإسرائيلية».

وقد وجد جان زيجلر أن ٢٢٪ من الأطفال الفلسطينيين دون سن الخامسة يعانون من سوء التغذية - أكثر ثلاث مرات من نسبتهم عام ٢٠٠٠، وأن ٩٪ يعانون من سوء التغذية الحاد، بينما يعاني ١٦٪ من فقر الدم (الأنيميا) الحاد، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى الإعاقة الدائمة للنمو الجسمي والعقلي. ويعيش الآن ٦٠٪ من الأسر الفلسطينية في فقرٍ شديد معتمدين على المعونة الغذائية الدولية.

كذلك يعاني الأطفال، الذين يعيشون حالة من النزاع المستمر، من محنة نفسية. وفي حالة الأطفال الفلسطينيين، أظهرت الدراسات أن زيادة العنف داخل المدارس والمنازل، وانخفاض مستوى النشاط الاجتماعي، حيث يعيش الأطفال في حظر تجوال دائم، مما يؤدي إلى تنامي الشعور بفقدان الأمل في المستقبل.

وفي إقليم دارفور، في غرب السودان، تأثر حوالي ٢.٦ مليون شخص من آثار النزاعات بينهم ١.٨ مليون نازح داخليا و٢٠٠الف عبروا الحدود إلى تشاد. ومن هؤلاء ١.٤ مليون طفل دون سن الثامنة عشرة و٦٠٠ ألف طفل تحت سن الخامسة.

وقد شهدت النزاعات في المنطقة كذلك زيادة مجموعات اللاجئين. وطبقاً لما تشير إليه دراسة حديثة، يوجد في مصر وحدها مجموعات لاجئين من ٣٥ جنسية (هاريل - بوند، بدون تاريخ). ويشمل اللاجئون في العالم العربي أشخاصاً من دولٍ وأراضٍ خارج حدود المنطقة واجهوا، أو ما زالوا يواجهون نزاعات، مثل إثيوبيا وإريتريا وأفغانستان وإيران وكردستان والأرض الفلسطينية المحتلة ووسط وغرب إفريقيا. وبالنسبة للاَجئين الفلسطينيين، فقد كانت مشكلتهم، وما زالت، دون حل لأكثر من خمسين سنة.

وغالباً ما يعيش اللاجنون وأطفالهم في حالةٍ من الإهمال القانوني، حيث ينضمون إلى الفقراء من سكان المناطق الحضرية في الحصول على الحدّ الأدنى من الخدمات. وفي حالة النزاعات الممتدة، مثل تلك التي يعاني منها الأطفال الفلسطينيون والعراقيون والصوماليون والسودانيون، نشأت أجيال بكاملها وقد توقف نموهم. ويُقدّر عدد اللاجئين في اليمن بحوالي ستين ألف لاجيء بينهم أكثر من ٢٢ ألف طفل معظمهم مشردون بسبب الحروب والنزاعات والكوارث الطبيعية في بلدانهم.

ومنذ بداية الألفية الجديدة اكتسبت الحاجة إلى توفير حماية خاصة للأطفال في أوضاع النزاعات المسلحة اهتماماً متزايداً. فقد أصدر مجلس الأمن الدولي القرار رقم ١٣٧٩ لسنة ٢٠٠١ بشأن الأطفال في النزاعات المسلحة، وفي عام ٢٠٠٢ بدأ العمل بالبروتوكول الاختياري لاتفاقية حقوق الطفل بشأن إقحام الأطفال في النزاعات المسلحة.

إن هناك بعض الدروس الإيجابية التي يمكن تعلّمها حتى في أسوأ الظروف، وربما كان أوضح مثال على ذلك ما حدث في مدينة الخليل في الأرض الفلسطينية المحتلة. ففي شهر أكتوبر عام ٢٠٠٠، اجتمع المعلمون والجمعيات الأهلية معاً للمشاركة في «مشروع التعليم العلاجي عن بعد». وقد بدأ المشروع بدعم مبادرات التعليم المنزلي لطلاب المراحل الابتدائية والثانوية الذين لم يتمكنوا من الذهاب إلى المدرسة أثناء فرض حظر التجول طوال اليوم. وقد نُظمت معسكرات صيفية للتعليم العلاجي والتعلم التفاعلي باستخدام مدرسين مدربين. وكان البرنامج يضم في المجموع ٥٠٠ مدرس و١٢ ألف طالب من كل الصفوف.

ومع أن الوضع في الأرض الفلسطينية المحتلة قد ساء بدرجةٍ كبيرةٍ منذ ذلك الوقت، إلا أنه تجدر ملاحظة بعض إنجازات البرنامج:

- تمكين الإدارة التعليمية المحلية.
- نجاح معظم الطلبة في الوصول إلى الحد الأدنى من الكفاءة المناسبة لأعمارهم على أقل تقدير.
- التطور المهني للمدرسين وصولاً إلى أشكال التعليم الأكثر تفاعلاً والمتمركزة حول المتعلم.
- زيادة مشاركة أولياء الأمور في حصول الأطفال على حقهم في التعليم.
- تعزيز فكرة قدرة الطلاب على التعلم بمفردهم.
- حققت الأنشطة قدرا من الحياة الطبيعية، وهو ما كان مطلوباً بشدة، مع تأثيرها الإيجابي على الحياة النفسية والاجتماعية للأفراد.

وفي «ملتقى الشباب حول قضايا القرن الجديد» في شهر نوفمبر عام ٢٠٠٠ عبر الشباب عن أهمية إعادة توجيه الطاقة عندما يشبّ الطفل في زمن الحرب. وقال الشباب: «إن إعادة توجيه طاقة الشباب التي يستنفدها النزاع إلى تعلم أكثر إنتاجية وإلى أنشطة اجتماعية هو الأساس. ودورنا هو رفع الوعي بأهمية أن نصبح أفراداً أكثر تعلماً واطلاعاً في المجتمع وخاصةً في أوقات النزاعات».

سياسات دول الاتحاد الأوروبي في المنطقة العربية بعد الحرب الباردة

د. علي الحاج
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ٤٢٧ صفحة، ١٤ دولارًا



يطرح هذا الكتاب مسألة أن العالم قد شهد زيادة في النفوذ الأمريكي على النظام الدولي وعلى شئون المنطقة العربية منذ مطلع التسعينيات من القرن العشرين، وذلك بسبب التحولات التي نتجت عن انتهاء الحرب الباردة.

غير أنه قد يشهد أيضًا تطورًا في الدور السياسي لقوى دولية صاعدة مثل الاتحاد الأوروبي واليابان والصين.

ويشير الكتاب إلى أن دول الاتحاد الأوروبي تعتبر من أوفر القوى الدولية الصاعدة حظًا في تبوء المركز الدولي المنافس للولايات المتحدة، وبخاصة تجاه المنطقة العربية التي تشكل المجال الاستراتيجي لمصالحها الحيوية.

وهنا يطرح التساؤل: هل يشهد القرن الحادي والعشرون ولادة إمبراطورية أوروبية على أنقاض النظام العالمي المنحدر، بعدما شهدت بداية القرن العشرين اختفاء الإمبراطوريات في أوروبا كالعثمانية والقيصرية والبروسية وغيرها.. إمبراطورية ولايات أوروبية تتمكن من خلق فضائها المتوسطي في المنطقة العربية بشكل أكثر استقلالية عن السياسة الأمريكية؟

ويركز الكتاب على أن الأوضاع الجديدة التي تتجه بالاتحاد الأوروبي نحو صعود دوره السياسي والاقتصادي ستنعكس على السياسة الأوروبية تجاه المنطقة العربية، الأمر الذي يؤدي إلى توافر مساحة لا بأس بها أمام بلدان هذه المنطقة لاستغلال التنافس الدولي، والإفادة من التحالفات لخدمة قضاياها.. غير أن هذه الإفادة مرتبطة بمدى التقدم الذي تحققه هذه البلدان في إطار تفعيل العمل العربي المشترك.

مستقبل الديمقراطية في مصر

د. ثناء فؤاد عبد الله
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ٣٦٠ صفحة، ١٠ دولارات



يشكل هذا الكتاب دراسة ذات أهمية قصوى في جهود إصدارات مشروع دراسات الديمقراطية في البلدان العربية.

تأتي أهمية هذه الدراسة نظرًا إلى ما لمصر من دور رائد وثقل تاريخي في الواقع الثقافي والسياسي العربي، إلى جانب أهمية هذه الدراسة في القيام بدورها في استشراف مستقبل الديمقراطية في مصر وسبل الانتقال السلمي إليها كنموذج تقتدي به الدول العربية.

فالمرحلة الحالية تشهد في مصر بعثًا للفكرة الديمقراطية، وإعادة طرحها على المجتمع، ومواجهة الملفات الصعبة التي تفرضها. وفي هذا الإطار، تتطلب إشكالية الديمقراطية التوصل إلى نقطة توازن تجمع بين دولة قوية ومجتمع مدني قوي، أي الجمع بين التعددية السياسية والحريات والحقوق الأساسية وتطور المجتمع الغني بمؤسساته السياسية والثقافية، وذلك دون إضعاف دور الدولة الذي يحتل مكانة مركزية في مشروع النهضة.

الديمقراطية إذًا ليست أمرًا صعب المنال في الواقع العربي، وإنما هي ممكنة شريطة الابتعاد عن ذهنية تحقير الذات، وفي مصر حقق المشروع الديمقراطي إنجازات لا رجوع عنها.

فهناك برلمان منتخب، وصحافة تتمتع بهامش ملحوظ من الحرية، وهناك حكم القانون والقضاء المستقل، كما يتسع نطاق الحقوق والحريات المدنية والسياسية ليشمل المرأة والرجل معًا. فهل سيأتي التحول الديمقراطي الحقيقي في مصر «تحت الضغوط»؟

هل يأتي نتيجة «تفاعلات سياسية» من أعلى، أم من القاعدة الجماهيرية؟

دوريات

العـــربي

الكويت: وزارة الإعلام، مايو ٢٠٠٥



يدور ملف هذا العدد وهو بعنوان: «فلسطين.. أصوات من خلف الحصار» حول عرض تجربة ثلاث شاعرات من غزة، يحملن جمر الكلمات في مواجهة العنف الضاري الصهيوني، بالإضافة إلى حوار مع شيخ المؤرخين العرب نقولا زيادة يتحدث فيه عن تاريخ استلاب فلسطين، كما يحتوي الملف أيضًا على عرض لكتاب الناشطة الإسرائيلية إيلة شوحاط التي تمثل صوتًا معتدلاً بين صرخات التعصب اليهودي. ويناقش رئيس التحرير د. سليمان العسكري في مقاله قضية يثيرها الملف، من خلال طرحه لإحدى الوسائل التي يطرحها العرب للتعامل -مع قضاياهم ومنها القضية الفلسطينية وهي «الوسطية» ذلك التعبير الذي يظهر في الأدبيات العربية كمرادف للاعتدال والاتزان، ويتساءل إذا كانت الوسطية تعني ذلك حقًا؟. يقدم العدد أيضًا رحلة إلى العالم الخفي لتايلاند وقراءة في تاريخ سيدتين فريدتين من نوعهما وهي السورية جوليا دومنا، والسويسرية إيزابيل إبراهاردت، وغيرها من المواضيع الشيقة.

شئون عربية

القاهرة: الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، العدد ١٢١



يناقش هذا العدد تحديات وتداعيات الانتخابات العراقية والفلسطينية، بانعكاس الأول على علاقات القوى بالمنطقة، والثانية التي أجريت على خلفية غياب الرئيس ياسر عرفات. وبالعدد أيضًا أربع دراسات حول الدور الأوروبي في المنطقة.

الفنـــون

الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ٥٢



احتفلت الجريدة بالكاتب المسرحي الكبير آرثر ميللر من خلال دراسة مطولة عن حياته وأعماله وأحلامه، وتأثيرات هذه الأعمال على المسرح العربي.

ففي مجال السينما أطلت المجلة على نوع سينمائي غير مطروق وهو السينما الأفريقية السوداء في بوركينا فاسو والسودان، بالإضافة لإطلالة على عالم «سينما الدهشة والإيهام» التي تهتم بها هوليوود منذ فترة طويلة.

ويلقي العدد الضوء على الفنانة التشكيلية الأردنية الأميرة وجدان علي والفنان الكويتي المصور رضا سالم.

أما الصفحة الأخيرة فتتزين بلوحة عادل مقديش وقصيدة على الدميني.

المستقبل العربي

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، العدد ٣١٤

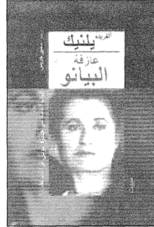


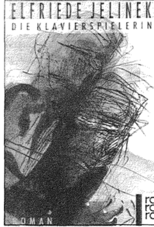
في هذا العدد مقابلة فكرية بعنوان «في مسألة المشروع الفكري لمحمد جابر الأنصاري». ويحتوي هذا العدد على دراسات متنوعة وهي: «حول المرجعية في التيار القومي العربي» لزياد حافظ، و«المشاركة السياسية عند الإسلاميين الإصلاحيين المغاربة» لرشيد مقتدر، و«المدنية» ضد «البربرية»: مقابلة مع نعوم تشومسكي» أجراها جنيد علام. وفي باب «آراء ومناقشات» يتطرق عصام نعمة إسماعيل إلى موضوع مطروح على الساحة اللبنانية اليوم بمقالة عنوانها «ضوابط الديمقراطية اللبنانية». وفي العدد مراجعة نقدية لكتاب «اقتصاديات الاحتيال البريء: حقيقة لزماننا» لجون كينيث غالبرايت.

عـــازفة البيـــانو

للكاتبة النمساوية إلفريده يلنيك

الحائزة على جائزة نوبل فى الآداب ٢٠٠٤





عازفة البيانو
إلفريده يلنيك
ترجمة: سمير جريس
القاهرة - دار ميريت ٢٠٠٥
تستند هذه الترجمة على الطبعة الألمانية الثامنة والعشرين الصادرة عن دار «روفولت» فى هامبورج عام ٢٠٠٤

Die Klavierspielerin.
Elfriede Jelinek:
Rowohlt Tascenbuch Verlag,
28. Auflage
April 2004. Rowohlt Verlag Gmbh

ولدت إلفريده يلنيك فى العشرين من أكتوبر عام ١٩٤٦ فى مقاطعة شتايرمارك النمساوية. نشأت فى فيينا حيث درست المسرح وتاريخ الفن والموسيقى. من أشهر أعمالها الروائية «عازفة البيانو» (١٩٨٣)، و«لذة» (١٩٨٩) و«طمع» (٢٠٠٠). ومن مسرحياتها: «نورا» (١٩٧٩) و«مسرح بورج» (١٩٨٥) و«مسرحية رياضية» (١٩٩٨).

وقد حصلت يلنيك على عدد من الجوائز الأدبية، من أهمها جائزة جيورج بوشنر عام ١٩٩٨ (وهى أرفع الجوائز الأدبية فى المنطقة الناطقة بالألمانية). ثم توجت أعمالها بجائزة نوبل عام ٢٠٠٤ .

ليست الكاتبة النمساوية إلفريده يلنيك مجهولة فى بلدها بالطبع، وإن كانت أقل شهرة من بيتر هاندكه، أو الراحل توماس برنهارد. أما خارج حدود البلاد الناطقة بالألمانية فشهرتها أقل بكثير من زميليها، وكذلك ترجمات مؤلفاتها، و«عازفة البيانو» هى أول ما ينقل من أعمالها إلى اللغة العربية. ولعل أدب المنطقة الألمانية لم يعرف كاتبا أثار الجدل وتضاربت بشأنه الآراء مثل الفريده يلنيك، ليس هناك كاتب ألمانى اللغة انهال عليه النقاد فى العقدين الأخيرين طعنًا وتجريحًا مثل يلنيك. وليس هناك أديب كرم بهذا العدد الضخم من الجوائز مثلها أيضًا! أكثر من عشرين جائزة حصلت عليها يلنيك، توجت قبل شهور بأهم جائزة أدبية فى العالم. قبلها بأربعة أعوام نالت يلنيك أرفع الأوسمة الأدبية فى المنطقة الألمانية، وهى جائزة جيورج بوشنر، كما حصلت على العديد من الجوائز تكريمًا لأعمالها المسرحية. ولابد أن نذكر أيضًا أن أعمال يلنيك المسرحية هى الأكثر تمثيلاً على خشبات المسارح الألمانية فى العقد الأخير. هى عند البعض «عملاقة اللغة الألمانية»، والكاتبة التى حققت فى أعمالها «انسيابية موسيقية للأصوات والأصوات المضادة التى تكشف بعذوبة لغوية فريدة عبثية القوالب الاجتماعية الجاهزة وقوتها المسيطرة»، كما تقول لجنة نوبل فى حيثيات منحها الجائزة، ومن ناحية أخرى فهى الكاتبة التى يواجه أدبها اتهامات بالبرونوغرافية والسطحية والمحلية، هذا عدا اتهامها بكره الوطن وإهانته وتلطيخ سمعته، وهى الاتهامات التى وجهت قبلاً لمواطنها توماس برنهارد (١٩٣١ - ١٩٨٩). وبالفعل تلتقى يلنيك مع توماس برنهارد فى توجيه النقد الحاد إلى النمساويين الذين لم يقوموا حسب رأيها بمحاسبة كافية للذات بعد حقبة النازية، وأراحوا ضمائرهم سريعًا بإلقاء الذنب كله على الألمان. لم تن يلنيك تنكأ جرح الماضى النازى لدى شعبها، ولذلك لم يكن غريبًا أن تلقى مسرحياتها التى تتعرض لتلك الموضوعات هجومًا عنيفًا فى النمسا، وأن تمثل أولاً على خشبات المسارح الألمانية قبل أن تنتقل إلى فيينا، مثل كتبها التى تطبع وتوزع فى ألمانيا. كانت إلفريده يلنيك هى أيضًا الأعلى صوتًا فى محاربة صعود نجم التيار اليمينى المتطرف فى النمسا بزعامة يورج هايدر، ولهذا فرض مرتين الحظر على تقديم أعمالها على خشبات النمسا، احتجاجًا على انتخاب هايدر وحزبه الذى شن حملة شعواء على الكاتبة، استخدم فيها كل الأسلحة لتكميم فمها.

إلفريده يلنيك هى إذن كاتبة قلقة ومقلقة، مشاغبة وغير مريحة، لن ترتكن أبدًا إلى ما أنجزته لتنعم بثماره، وهى أديبة غزيرة الإنتاج، كتبت عددًا كبيرًا من الأعمال الأدبية فى الشعر والرواية والمسرح، بالإضافة إلى الكتابة للإذاعة والسينما والترجمة الأدبية، وهناك قطبان رئيسيان تدور فى فلكهما معظم أعمال يلنيك، وهما قمع المرأة جنسيًا فى مجتمع ذكورى، والماضى النازى لبلدها الذى يتناساه مواطنوها. وغلبة هذين الموضوعين على أعمالها جعلها تواجه اتهامًا بأنها تجتر موضوعاتها. على أنه يصعب حصر كاتبة مثل يلنيك فى شعار واحد يجمع قسرًا كل أعمالها فى جملة بسيطة يرددها الناس لاحقًا على نحو ببغائى، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء قراءة أعمالها (الصعبة). والمشكلة أن كثيرين يتحدثون عن أعمال يلنيك، بل ويقيمونها، دون أن يكونوا قرأوها بعناية حتى النهاية. هذا ما يتضح بشكل لافت للنظر فى عملها الأشهر «لذة» الصادر عام ١٩٨٩ . فور صدور هذه الرواية أضحت «لذة» هى الشغل الشاغل للصفحات الثقافية فى المنطقة الألمانية. وما لبثت الرواية «المضادة للبورنو» أن احتلت رأس قائمة المبيعات فى غضون أسابيع.

وإذا كانت «لذة» هى أشهر أعمال يلنيك، فهناك شبه إجماع من النقاد الألمان على أن رواية «عازفة البيانو» هى أفضل أعمالها وأنضجها، وإن كانت الرواية لم تحظ بالشهرة على المستوى العالمى إلا بعد أن أخرجها للسينما عام ٢٠٠١ ميشائيل هانيكه فى فيلم مثلت فيه «عازفة البيانو» الممثلة الفرنسية القديرة إيزابيل أوبير. لكن الفيلم - كمعظم الأفلام المأخوذة عن أعمال أدبية - يلتقط جانبًا واحدًا من الرواية ويهمل ما عداه، لقد سلط الفيلم الضوء على انحراف العازفة جنسيًا، وفشلها فى إقامة علاقة حب سوية مع أحد تلاميذها، لكنه أهمل العلاقة المرضية بين الابنة والأم المسيطرة الاستحواذية، وهى فى رأيى الموضوع الأساسى للرواية.

فى «عازفة البيانو» تتجلى كافة سمات أدب يلنيك: الأسلوب الساخر الموسيقى المفعم بالصور، المتلاعب بأكليشيهات اللغة والفاضح لخوائها، أما الموضوع فهو من موضوعاتها الملحاحة: التربية التقليدية القامعة للمرأة، وقمع المرأة - الفنانة التى تحيا للفن وحده - لجسدها وعواطفها. وابتذال الحب وتحويله إلى تجارة مربحة أو إلى قيمة استهلاكية. فى الرواية أشياء عديدة تتلاقى مع سيرة يلنيك الذاتية، لكن الرواية ليست بالطبع سيرة ذاتية. مثل اريكا كوهوت بطلة «عازفة البيانو» كانت إلفريده يلنيك طفلة نموذجية، ربتها أمها المسيطرة على أن تكون الأفضل بين أقرانها، ومثل العازفة اريكا حبست إلفريده منذ نعومة أظافرها فى المعاهد الموسيقية حتى تتقن عزف آلة البيانو؛ أيضًا والد إلفريده، مثل والد إريكا، انتهى به المصير فى مصحة الأمراض العقلية.

فى «عازفة البيانو» نجحت إلفريده يلنيك فى تناول موضوع أزلى: علاقة الابنة بأمها، ومحاولة الخلاص من سيطرة الأم، ومحاولة الأم الاستحواذ على الابنة. وهى هنا تتحدث عن خبرة شخصية طبعت حياتها: لقد ظلت يلنيك تعيش مع أمها فى فيينا حتى بعد زواج الكاتبة عام ١٩٧٤ من مهندس يقيم فى ميونيخ. ظلت الكاتبة تتنقل بين فيينا وميونيخ طوال عقود، وفى السنوات الأخيرة منعت والدة يلنيك زوج الابنة من دخول شقتها فى فيينا، متهمة إياه بسرقة أشياء نفيسة (وكانت تعنى ولا شك سرقة ابنتها!). وبعد وفاة الأم عام ٢٠٠٠ تنفست الكاتبة أخيرًا الصعداء، كما تؤكد فى معظم أحاديثها الصحفية.

تحطم إلفريده يلنيك فى هذه الرواية «أساطير» عديدة، معتمدة أسلوبًا ساخرًا يصل إلى التهكم فى كثير من الأحيان.. من لا يلتفت إلى السخرية فى هذه الرواية لن يفهمها، ولن يجدها سوى سلسلة من المبالغات. عبر المبالغة تحطم يلنيك أسطورة الأم الحنون الرءوم، وأسطورة الفنان المبدع الملهم، وأساطير كثيرة تدور فى فلك العلاقة بين الجنسين؛ فالمرأة لدى يلنيك تخوض صراعًا وحشيًا مع الرجال، تخرج منه خاسرة دائمًا لأنها تلعب دورًا سلبيًا مازوشيًا، ولأنها ربيت على الخضوع والخنوع والطاعة.

وأخيرًا أود الإشارة إلى خصوصية لغة يلنيك واستعصائها على الترجمة فى كثير من الأحيان، لا سيما رواياتها، حتى أن الكاتبة عبرت عن دهشتها لترجمة أعمالها إلى اللغات الأخرى، فاللغة بطل رئيسى فى أعمال يلنيك. هذا ما نلمسه فى بعض المقاطع من «عازفة البيانو» التى تستخدم يلنيك فيها التلاعب اللغوى القائم على المفارقة اللفظية، وتستشهد بعبارات مشهورة أو أمثال شعبية لتسخر من مضمونها.

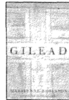
سمير جريس

Gilea

(جليـــــــاد)

Marilynne Robinson

Farrar, Straus and Giroux, 2004, 256PP, 23.00$



الصفح، الحب، الغيرة، الإخلاص، الخوف والكثير من المعاني الأخرى، تعرضت له الكاتبة مريلان روبنسون Marilynne Robinson في روايتها الأخيرة جلياد، التي حازت على جائزة Pulitzer Prize مؤخرا . أحداث الرواية تدور في ولاية أيوا الأمريكية خلال الحرب الأهلية في نهاية الخمسينيات من القرن قبل الماضي، وهي عبارة عن خطاب يكتبه جون أميس ـ الواعظ، ذو الستة وسبعين ربيعا ـ إلى وحيده الذي لم يكمل عامه السابع بعد، كتقييم ذاتي ونظرة ـ محاسبية ـ على حياته، فبعد تدهور حل بصحته، أراد أن يسجل شيئا لابنه فلم يجد سوى أن يسرد حياته ويسجل نفسه من نظرة تأملية .

الكاتبة نجحت في تحويل هذا الخطاب من مجرد قصة رجل واحد إلى ملحمة عظيمة تتعرض لمملكة التأمل والتفكير والعلاقات بين الآباء والأبناء من خلال حكايات أميس عن أبيه وسرده لإطار علاقتهما ومدى الحب والاحترام المتبادل بينهما، وعدم قدرتهم ـ أحيانا ـ على مد جسور التواصل بين بعض معتقداتهما الراسخة.

الرواية على لسان أبطالها ـ ومعظمهم من الواعظين ـ تقدم نظرة أوضح لقضية «الإيمان والشك، وكيف يؤثر «الإيمان والشك» في حياتنا اليومية، من خلال ملامستها للنعم الإلهية ومعاني الرحمة والإعجاز.

■

No god but God : The Origins, Evolution, and Future of Islam

(لا إله إلا الله: أصول وتطور ومستقبل الإسلام)

Reza Aslan

Random House, 2005, 336PP, 25.95$



بعين على الإيمان وعين على التاريخ كتب رضا أصلان ـ أحد مسلمي الجيل الثاني الأمريكيين ـ كتابه «لا إله إلا الله»، الذي تناول التاريخ الإسلامي، كما كرس جزءا كبيرا منه ليتحدث عن منزلة الإسلام ومكانته في العالم المعاصر.

يأخذنا أصلان في رحلة مع التاريخ، بدءا بحياة محمد «صلى الله عليه وسلم» ما قبل الرسالة، مرورا ببداية فترة الرسالة وما واجهته من تحديات وصعاب ثم ينتقل إلى حقبة الخلفاء الراشدين الأربعة، ثم يبدأ باستعراض تطور الإسلام وتطور قوانينه، متعرضا لمفهوم الجهاد الحقيقي.

الشيعية والصوفية أيضا حظيتا بفصلين من عشرة فصول احتوى عليها الكتاب، فقد تكلم الكاتب عن نشأتهما وملامحهما وموقعهما الحالي في العالم الإسلامي .

يتحدث الكاتب في الفصل الأخير من كتابه عن الإصلاح الديني، فهو يصف تجربة بناء دولة إسلامية في المجتمع الإسلامي بعد تحرره من الاستعمار الغربي، مما يؤكد أن الإصلاح يجري من أجل الحقوق الإنسانية كالتعددية والديمقراطية .

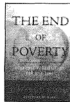
■

The End of Poverty: Economic Possibilities for Our Time

(نهاية الفقر: إمكانيات اقتصادية للوقت الراهن)

Jeffrey Sachs

Penguin Press HC, 2005, 416PP, 27.95$



مؤلف هذا الكتاب جيفري ساشس الذي اعتبرته نيويورك تايمز أحد أهم رجال الاقتصاد في العالم وهو مستشار للعديد من المؤسسات العالمية، بينها الأمم المتحدة ـ ومن خلال خبرة خمسة وعشرين عاما يرسم لنا صورة للاقتصاد العالمي كافة موضحا خطوات الوصول إلى الرخاء الاقتصادي للجميع.

فالكاتب ـ الذي تسنى له زيارة أكثر من مائة دولة يسكنها ٩٠٪ من إجمالي التعداد السكاني العالمي ـ يمضي في كتابه موفرا مجموعة متكاملة من الحلول الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للدول الفقيرة والنامية لكي ترتقي سلم التنمية، اهتم الكاتب بفكرة رئيسية «عندما تتوفر متطلبات البنية التحتية ـ من طرق ومصادر طاقة وموانئ ـ إلى جانب رأس المال البشري ـ صحة وتعليماً ـ فإن السوق حينها تصبح محركًا رئيسيًا للتنمية».

الكاتب لا يحمل الدول الفقيرة شيئا من مسئولية أزمة الفقر الراهنة، وإنما يحمل الدول المانحة مسئولية تفشي الفقر في العالم لتقاعسها عن تقديم المساعدات الحقيقية للدول الفقيرة، كما يحمل المؤسسات أيضا المسئولية، كالبنك الدولي الذي اعتاد وضع وصفات دائما، قلما حققت نتائج ايجابية.

الكتاب علامة بارزة في سبيل تلمس الطرق التي قد تفضي للخروج من الفقر الذي يقبع به الملايين من المواطنين في دول العالم الفقير.

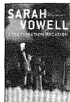
■

Assassination Vacation

(رحلة الاغتيالات)

Sarah Voweil

Simon & Schuster, 2005, 272PP, 21.00$



في رحلة عجيبة لاعقلانية مع الموت وحوادث الاغتيال، تأخذنا سارة فويل لاستكشاف اغتيال ثلاثة من الرؤساء الأمريكيين (لينكلون، جارفيلد، ماكينلي)، فمن بوفلو إلى الاسكا ومن متحف إلى قبر، تنتقل بنا فويل في رحلة مثيرة مليئة بالفكاهة والنقد اللاذع وأيضا أمانة وصدق فويل الجديرين بالملاحظة .

ترسم فويل في كتابها روابط متكررة بين أحداث الماضي وأحداث حالية، مشيرة إلى التشابه بين مبادرة ماكينلي بالحرب ضد كوبا والفلبين وحرب العراق الحالية.

كتاب فويل هو محاولة جديدة ومختلفة للخوض في التاريخ الأمريكي بطريقة ساخرة .

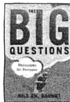
■

The Big Questions :
Philosophy for Everyone

(الأسئلة الكبرى: فلسفة للجميع)

Nils Ch Rauhut

Longman, 2005, 304PP, 19.95$



أخيرا، كتاب يوضح للقارئ كيف إن التفكير اليومي الذي يمارسه الجميع يقود مباشرة إلى مجموعة من الأسئلة والألغاز، حاول الفلاسفة فك خيوطها لقرون من الزمن، يتعرض الكاتب إلى أسئلة متكررة يطرحها الإنسان دائما على نفسه عن أشياء مثل «الإرادة الحرة، الهوية الشخصية، مشاكل التواصل بين العقل والجسم، الأخلاق، والتوحيد»، لذا فهو يقترح على القراء تكوين ورسم «صورة كبيرة» للعالم، موضحا كيفية تحويل أفكارهم الفلسفية إلى براهين صحيحة تجاوب على الأسئلة المطروحة.

من خلال ١٠٠ تمرين مختلف يساعد الكاتب القراء على فهم أفكارهم بوضوح، والانهماك في مناقشات فلسفية عميقة، كما يشجعهم على التفكير مليا في معتقداتهم وأفكارهم القديمة، الكاتب جمع الكثير من الأمثلة الحية من الفلسفة الكلاسيكية وصولا إلى أمثلة من الفلسفة الحديثة ليجعل كتابه متماشيا مع المشكلات الفلسفية المعاصرة.

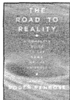
■

The Road to Reality:
A Complete Guide to the Laws of the Universe

(الطريق إلى الحقيقة: دليل كامل لقوانين الكون)

Roger Penrose

Knopf, 2005, 1136PP, 40.00$



«لو أن البيرت اينشتاين كان حيا، لحرص على اقتناء هذا الكتاب، وأيضا إسحاق نيوتن» هذا ما قيل عن الكتاب، وهو يستحق هذا ربما لأنه أكثر كتب الرياضيات تفسيرا لقوانين الكون في العالم، وبالرغم من صعوبة فهم الكتاب نظرا لتعمقه الشديد وتخصصه البالغ، إلا أن أولئك الذين يبحثون يرغبون في استثمار وقتهم وفكرهم ويبحثون في مجال فهم القوانين الكونية سيجدونه مثيرا.

الكتاب يأتي في أكثر من ألف صفحة، بدأها الكاتب بتوضيح أن هدفه من الكتاب ليس إلا البحث عن القواعد الأساسية التي تحكم سلوك الكون، الكتاب أيضا يوضح مدى العلاقة المتعة بين علم الرياضيات وحياتنا الواقعية.

يبدأ الكاتب بالحديث عن هندسة «فيثاغورس»، منتقلا منها إلى الهندسة الإغريقية بشكل عام، ثم يقودنا عبر المبادئ الأساسية التي يقوم عليها علم الرياضيات، ليصل إلى أساسيات حساب التفاضل والتكامل، والنسبية، والفيزياء الكمية.

الكتاب يأتى مدعما بالرسومات البيانية التى تساعد قراءتها على فهم أكثر للمواضيع المتناولة فى الكتاب.

■

South Park Conservatives : The Revolt Against Liberal Media Bias

(محافظو ساوث بارك: التمرد ضد ليبرالية وسائل الإعلام)

Brian C. Anderson

Regnery Publishing, Inc., 2005, 256 24.95$



لأكثر من ثلاثين عاما، سيطر الليبراليون على وسائل الإعلام الأمريكية، ولكن الكاتب والصحفى السياسى «براين أندرسون» يؤكد فى هذا الكتاب، أن هذه الهيمنة فى طريقها للأفول.

فالكاتب - من خلال كتابه - يعبر عن وجهة نظر التيار المحافظ الذى يرى خطورة شديدة فى انحياز وسائل الإعلام للتيار الليبرالى، وهو يتعرض للعديد من مواقف وسائل الإعلام، التى أوضحت تحيزا واضحا، منها موقفها إزاء صراع «بوش - كيرى» الأخير الذى أظهر استهزاء واضحا بالأخلاق الصحفية، وكيف انقلب اتهام الليبراليين الدائم للمحافظين بالتعصب والكراهية، على التيار اليسارى.

أفرد الكاتب أيضا عدة فصول للحديث عن كبرى المؤسسات الإعلامية الأمريكية مثل «فوكس نيوز» و«سى بى إس»، كما خصص فى نهاية كتابه فصلا كاملا عن أصول كتابة التقارير الصحفية التى يرى أن فى عدم صدقها ودقتها عواقب وخيمة، لاسيما على الساحة السياسية.

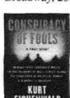
■

Conspiracy of Fools : A True Story

(مؤامرة الحمقى: قصة حقيقية)

Kurt Eichenwald

Broadway, 2005, 768PP, 26.00$



بدون سابق إنذار، فى الشهور الأخيرة من عام ٢٠٠١ انهارت شركة «انرون» الأمريكية فى فضيحة مدوية، أدت إلى حدوث زلزال فى الأوساط الاقتصادية الأمريكية، مراسل جريدة النيو يورك تايمز «كورت اشينولد» فى كتابه يتناول الأكاذيب والجرائم والشخصيات ووسائل الخداع التى أدت إلى انهيار «انرون» مؤثرة على الصعيدين السياسى والاقتصادى.

فمن خلال الكتاب يأخذنا الكاتب - بطريقة روائية - إلى ما وراء الأبواب المغلقة فى البيت الأبيض وإلى مكاتب مجلس إدارة الشركة، منتقلا من حدث لآخر، رابطا بين كل المشاهد التى أدت إلى هذه الفضيحة، مستعرضا اندفاع الشركة وانتقالها من صفقة إلى أخرى متجاهلة كل إشارات التحذير الداخلية والخارجية من المحاسبين والمحللين فى عكس واضح لتعجرف وغطرسة وإهمال شنيع - غير مبرر - من قبل إداريى الشركة .

■

AHundred and One Days: Baghdad Journal

(مائة يوم ويوم: يوميات بغدادية)

Asne Seierstad

ترجمه إلى الإنجليزية:

Ingrid Christopher Sen

Basic Books, 2005, 321PP, 22.95$



من يناير حتى ابريل ٢٠٠٣، ولمائة يوم ويوم، عملت الصحفية النرويجية آسنى سيرستاد كمراسلة فى بغداد لصالح شبكات إعلامية مختلفة (اسكندنافية وألمانية، وهولندية). من خلال مقالاتها وتغطيتها التلفزيونية الحية نقلت أحداث حرب العراق قبل وأثناء وبعد الهجوم الذى شنته القوات الأمريكية والبريطانية.

ولكن سيرستاد كانت تبحث عن قصة تختلف عن الغزو العسكرى، فمن لحظة وصولها بغداد كانت تعقد العزم على فهم الأسرار الحديثة لحضارة قديمة، ولاكتشاف كيف يعيش الشعب العراقى حقا.

فى كتابها تقدم لنا حياة يومية تحت التهديد الدائم من الحكومة العراقية ثم من القنابل الأمريكية، منتقلة من حياة الصمت الذى يصم الآذان فى عهد صدام إلى الانفجارات التى دمرت مصادر الطاقة والمياه بسبب القوات الأمريكية والبريطانية، تتعرض الكاتبة لحياة الناس لتستعرض، ماذا يحدث لهم عندما ينفجر سد ما؟، ماذا يقولون عندما أتت لهم فرصة الإفصاح عما بداخلهم؟، وماذا يفتقدون حقا بعد أن تغيرت حياتهم فى عشية وضحاها ؟.

■

True Believer

(المؤمن الحقيقى)

Nicholas Sparks

Warner Books, 2005, 336PP, 24.95$



نيكولاس سباركس، مؤلف دفتر اليوميات (The Notebook) يقدم روايته الجديدة «المؤمن الحقيقى» برسالة تذكيرية بأن الحب يستطيع هزيمة كل شىء.

الرواية تدور أحداثها حول شاب «جيرمى مارش» نيويوركى ناجح، يحاول حل لغز أشباح تظهر حول مقابر احدى قرى ولاية نورث كارولينا، وفى أثناء محاولاته لكشف غموض اللغز، يلتقى جيرمى بليكسى دارنيل، امرأة جرحت من قبل وتخشى الوقوع فى الحب ثانية، شخصيتان مختلفان تماما فى معتقداتهما، ولكن دوما هناك شعور بوجود فرصة لجعل الأمور بينهما تسير على نحو طيب.

ليكسى تؤمن بالاشباح - كشأن العديد من أهل قريتها - مما يزيد مهمة جيرمى صعوبة، فإنكاره لوجود الأشباح سيباعد بينهما.

القصة مشوقة حتى النهاية، وذات أسلوب جيد، وتوظيف ممتاز لشخصياتها، وربما تكون أحد أفضل ما كتب مؤلفها.

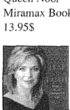
■

Leap of Faith : Memoirs of an Unexpected Life

(قفزة إيمان: مذكرات لحياة غير متوقعة)

Queen Noor

Miramax Books, 2005, 496PP, 13.95$



إعادة إصدار لكتاب صدر عام ٢٠٠٣، مذكرات الملكة نور، آخر زوجات ملك الأردن الراحل، الملكة نور الأمريكية المولد والنشأة، ولدت «ليزا حلبى» - الاسم الحقيقى للملكة نور - لأسرة أمريكية ثرية من أصل عربى مسيحى، كانت «ليزا» تعمل بالتخطيط العمرانى حتى أجاز لها عمل أبيها - الذى كان يرتبط بعلاقات عمل بالملك - لقاء بالملك حسين فى ١٩٧٦، وبعد عامين أسلمت ليزا وتزوجت من الملك حسين، الذى أسماها الملكة نور.

يأتى كتاب الملكة نور فى قسمين، فهى تتكلم فى القسم الأول من الكتاب عن نشأتها وظروف وملابسات لقائها بالملك ومن ثم الزواج منه، وتحكى عن العقبات التى واجهتها كعروس ساذجة، وحياتها الجديدة، وما قابلته من مواقف عديدة فى بداية احتكاكها بالقصر.

القسم الثانى من الكتاب يتناول مذكرات الملكة عن منطقة الشرق الأوسط وأحداثه السياسية، فهى تتناول دور زوجها - الملك حسين - فى قضية السلام، كما تروى تفاصيل العديد من الاجتماعات التى ضمت الملك حسين والعديد من الزعماء وصانعى القرار فى العالم، ثم تنهى الملكة نور مذكراتها بالحديث عن وفاة الملك حسين عام ١٩٩٩ .

■

And One More Thing Before You Go...

(شىء آخر قبل أن تذهب)

Maria Shriver

Free Press, 2005, 64PP, 13.95$



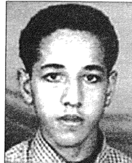
التخرج من المدرسة الثانوية هو خطوة كبيرة لكل فتاة، فهى تترك طفولتها خلفها لتبدأ مرحلة جديدة من الحياة، كما تتمرد أيضا عن دائرة حماية أمها المفعمة بالحب والإرشاد، ولعل احد أهم الهدايا التى يمكن أن تقدمها الأم لابنتها فى هذه النقطة المحورية هو النصيحة، فى كتابها شىء آخر قبل أن تذهب، ماريا شريفير - مراسلة الأخبار، والسيدة الأولى لولاية كاليفورنيا، والأم لطفلتين - تقدم دليلا مخلصا للفتيات قبل ذهابهن إلى الجامعة.

ماريا بصفتها فتاة جامعة منذ عهد ليس بالبعيد، وأيضا ابنة لأم لا تزال تعيش وفق نصائحها، وأم لابنتين تأمل لهما حياة سعيدة، تخاطب الفتيات عن كيف يصلون إلى الاكتفاء العاطفى، كيف لا يتجاهلون حقائق الحياة، معطية اياهم عشر نصائح بطريقة قصصية خالية من الحدة لتوضح لهم ما هو فعلا المهم فى الحياة.

■

قــــــــــراءة ..

لا ضـــوء فى نهــــاية النفـــق..



■■ لماذا؟.. «لأنه لا ضوء فى نهاية النفق».

هكذا كتب شاب مصرى صغير (١٩ سنة) معلقاً فى أحد منتديات النقاش على الإنترنت على حادثة الأزهر التى فجر فيها طالب الهندسة (١٨ سنة) نفسه فى الشارع المزدحم بالسائحين والباعة المتجولين.

حسن بشندى بطل العملية الذى قذف الانفجار ببعض أشلائه إلى الطابق الثالث، قذف بقفازه - ميتاً - فى وجوهنا جميعاً. لعل منا من يستفيق.

ينتمى حسن (الطالب الجامعى) إلى الطبقة الاجتماعية ذاتها التى كان ينتمى إليها غيره من طلبة الجامعة قبل أربعين أو حتى ثلاثين عاماً. ولكن أيامها كان التعليم أداة فعالة للحراك الاجتماعى. (بعض من أساتذة كليته كان ينتمى يوماً إلى الطبقة الاجتماعية ذاتها) يومها كان الأمل موجوداً فى كل أفق. وكان «الحلم بغد أكثر إشراقاً» كفيلاً بأن يحنو، وأن يربت على الكتف.. وأن يمسح العرق عن الجباه. يومها كان الاعتقاد راسخاً «ومطمئناً» بأن «من جدّ وجد». وكان ضوء الأمل يشرق دائماً فى نهاية نفق الصبر مهما كان وعراً.

لم أجد - للأسف - شيئاً من هذا الاعتقاد - المطمئن لصاحبه والحامى للآخرين - فى نقاشات شباب هذا الجيل الذى حرصت على محاورته لأيام على الإنترنت بعد الحادثة المؤلمة.

أحدهم ذكرنى بما جاء على لسان والدة طالب الهندسة بأنه لم يكن يمتلك غير قميصين (الأهرام ٤/١٣) وبأنه عندما تقدم للحصول على إعانة يتم منحها للطلبة غير القادرين، رفضت إدارة الكلية طلبه لأن اللوائح تنص على عدم منح إعانة لأى طالب سبق له الحصول عليها فى فصل دراسى سابق. وبعضهم سخر من تصريح عميد الكلية «المعين كغيره من قبل الأمن» والذى سارع بغسل يديه معلناً أن «الكلية؛ إدارة وأساتذة وطلبة يتبرؤون من حسن بشندى..!». وكفى الله المؤمنين القتال.

على منتديات النقاش الشبابية الإنترنتية تلك، وإلى جانب التأكيد «المتواصل» على الظلم الذى يتعرض له العرب والمسلمون، كان هناك حديث عن البطالة التى صارت «قدراً» بعد أن ضاقت فرص العمل لتصبح حكراً على «الوارثين» أو على أولئك الذين «اشتروا» بأموالهم فرص تعليم متميز. وكان هناك تذكير بعبد الحميد شتا: ذلك الشاب المكافح المتفوق الذى رفضوا تعيينه ملحقاً تجارياً رغم حصوله على المركز الأول بين كل من تقدموا للوظيفة، لا لسبب إلا لأن والده مزارع بسيط. (يومها لم يجد أمامه غير الانتحار) وكان هناك حديث عن «مجانية التعليم» والتى تحولت ككل شؤون حياتنا إلى لافتة وشعار أجوف بعد أن كانت قد فقدت فعلياً معناها ودورها المطلوب فى بناء الأمة والمجتمع. (بعد أيام فقط من حادثة الأزهر صدر قرار بإنشاء تسع جامعات خاصة جديدة). وكان هناك كلام كثير عن الفساد.. والإفساد.. وتآكل الطبقة الوسطى.. وشيوع «ثقافة البلطجة» يحترفها المجرمون، ويضطر إليها - فى غياب آليات القانون - أصحاب الحقوق.. وتمارسها الدولة أو أجهزتها الأمنية كروتين يومى.

باختصار كانت الصورة قاتمة. وهى بحكم الواقع، والشريحة السنية لرواد غرف الدردشة، تلقى بظلالها «القلقة» حتماً على الأيام القادمة.

هل يدرك الآخرون خلف أسوار الـ Compounds العالية خطورة ذلك كله؟ وهل يذكر المطمئنون للحلول الأمنية أحداث الأمن المركزى؟ أم تنتهى «قضية حسن بشندى» بتقديم عدد من شركائه للمحاكمة؟!



«لا ضوء فى نهاية النفق»

جرس «الإنذار» الذى يسمعه واضحاً كل من يقترب من هذه «الأغلبية المهمشة» ردده - وإن اختلف السياق - «تقرير التنمية الإنسانية العربية - ٢٠٠٤» الذى صدر عشية حادثة الأزهر، محذراً من «الخراب الآتى» حسب تعبير التقرير الذى يؤكد أن «استمرار الأوضاع الراهنة، من عجز تنموى يلازمه قهر فى الداخل واستباحة من



الخارج، يمكن أن تفضى إلى تعميق الصراع المجتمعى فى البلدان العربية، وفى غياب آليات سلمية، ولكن أيضاً فعالة، لمكافحة المظالم التى يتمخض عنها الواقع العربى الراهن، قد يلجأ بعضهم لأشكال من الاحتجاج العنيف تتزايد معه فرص الاقتتال الداخلى. وقد يفضى ذلك إلى تداول قادم للسلطة يتأتى عن العنف المسلح، بما ينطوى عليه من خسارة إنسانية لا تقبل مهما صغرت، ولا تحمد عقباها بالضرورة، خاصة فيما يتصل بطبيعة التنظيم السياسى الذى قد يتولد عنه».

ويتحدث التقرير الذى يتناول الشأن العربى بعامة عما يراه تلازماً عضوياً بين «الفساد ومناخ القمع» موضحاً أن الفساد الاقتصادى نتيجة طبيعية للفساد السياسى. وأن الفساد يأخذ فى بعض البلدان شكل «الفساد البنيوى»؛ حيث يعتبر الاستغلال الشخصى للمنصب والتصرف فى المال العام أمراً طبيعياً فى العرف السائد. ويشير التقرير إلى أنه إذا كانت معالجة الفساد تحتاج إلى إجراءات تشمل، فيما تشمل، إصلاح الأوضاع الاقتصادية وتفعيل القانون وآليات المحاسبة، وضمان الشفافية فى الحكم، فإن الفساد البنيوى لا علاج له إلا بإصلاح جذرى للبنية السياسية.

ويعتبر التقرير الذى - لأسباب مفهومة - لم يلق الحفاوة اللازمة من وسائل الإعلام العربية، أن الدولة العربية الحديثة تجسد إلى حد كبير التجلى السياسى لظاهرة «الثقب الأسود» الفلكية، حيث تشكل السلطة التنفيذية «ثقباً أسود» يحول المجال الاجتماعى المحيط به إلى ساحة لا يتحرك فيها شىء ولا يفلت من إسارها شىء.

نجد هذه المركزية المتزايدة - يضيف التقرير - فى الجهاز التنفيذى مضمنة فى النصوص الدستورية للدول المعنية، التى تمنح رأس الدولة صلاحيات واسعة، باعتباره الرئيس الأعلى للجهاز التنفيذى ولمجلس الوزراء، وللقوات المسلحة، وللقضاء والخدمة العامة.

إضافة إلى الصلاحيات المطلقة المركزة فى يد الجهاز التنفيذى، فإن هناك آليات إضافية تتيح للحاكم مزيداً من تركيز السلطات فى يده. وعلى سبيل المثال، فإن ما يسمى بالأحزاب الحاكمة (إن وجدت) ما هى فى الواقع إلا مؤسسات تابعة للجهاز التنفيذى. حيث يتم تعيين المسؤولين الحزبيين (أو المرشحين فى حال الانتخابات) من قبل الرئيس الذى يعتبر فى الوقت نفسه رئيس الحزب. وهذا يعنى عملياً أن البرلمان يصبح جهازاً بيروقراطياً يعينه الجهاز التنفيذى ولا يمثل الشعب بحق.

إضافة إلى ذلك، فإن الجهاز التنفيذى الذى يعطى صلاحيات واسعة ومطلقة لذراعه الأمنية. ويحرص فى الوقت ذاته على أن تبقى المخصصات المالية للقضاء فى يد السلطة التنفيذية، لا يتورع عن أن يستخدم القضاء العادى والاستثنائى لإقصاء وتحجيم الخصوم والمنافسين وحتى بعض الأتباع المتمردين. ويقترن هذا بما يسمى «الفساد المسكوت عنه»، حيث يسمح للأنصار المقربين باستغلال مناصبهم للإثراء غير المشروع، فى حين يظل «تطبيق القانون» عليهم سلاحاً مشهراً لضمان استمرار ولائهم الكامل.



«لا ضوء فى نهاية النفق».. ولا أمل باد فى الأفق. هذا ما رآه حسن بشندى ذو الثمانية عشر ربيعاً، فاختار أن يبحث متفجراً عن ضوئه الخاص، وحلمه الوحيد الذى رآه «ممكناً».

«لا ضوء فى نهاية النفق..»

كم حسن بشندى ينتظرنا إذن فى الأيام القادمة؟

أرجوكم زوروا منتديات الحوار الشبابية على الإنترنت. وراجعوا «تقرير التنمية».. وأوراق القضية! ■

أيمـــن الصيـــاد

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر
مجلة شهرية. العدد السابع والسبعون. السنة السابعة. يونية ٢٠٠٥. الثمن عشرة جنيهات
Weghat Nazar - Volume 7 - Issue 77 - June 2005

كلام فى ما يجرى



محمد حسنين هيكل

المستقبل - الآن

محاضرة الجامعة الأمريكية - ٢٠٠٢

القضاء فى مفترق الطرق

طارق البشرى

«النذير العريان» فى مسألة حقوق الإنسان

سليم العوا

"تربية المقهورين!"

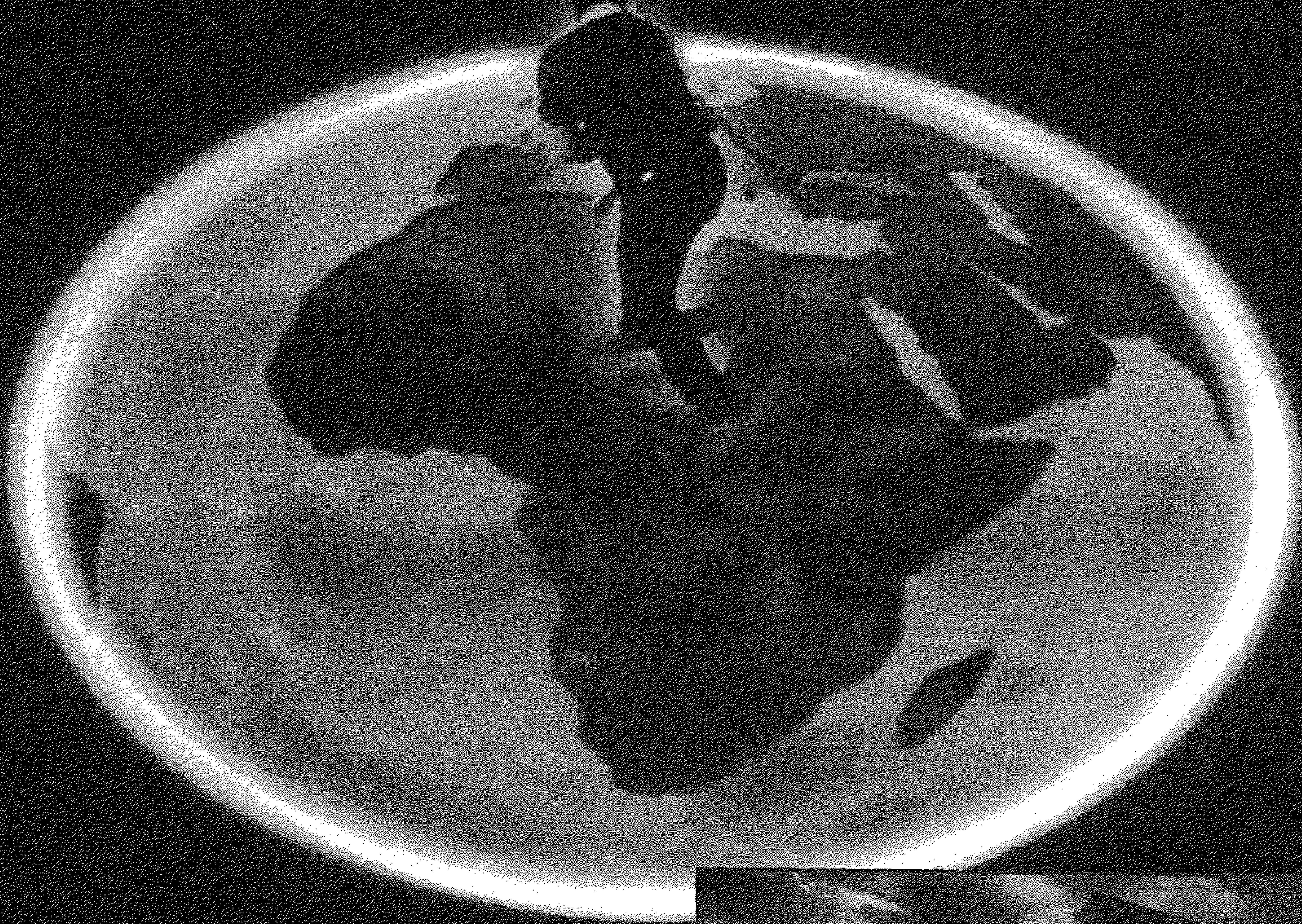
رضوى عاشور

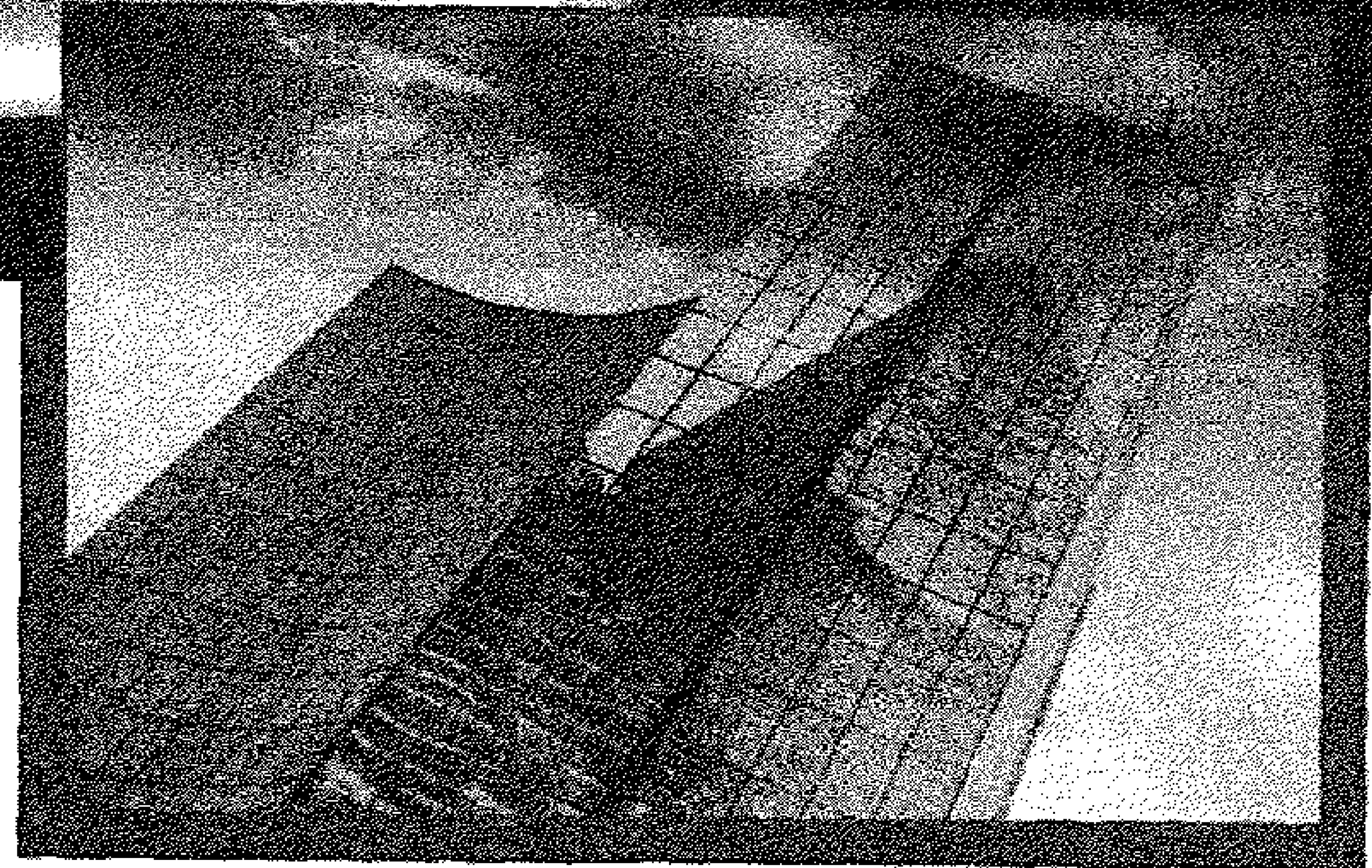
ماذا جرى للإصلاح؟

سلامة أحمد سلامة

مصر - الآن

أيمن الصياد





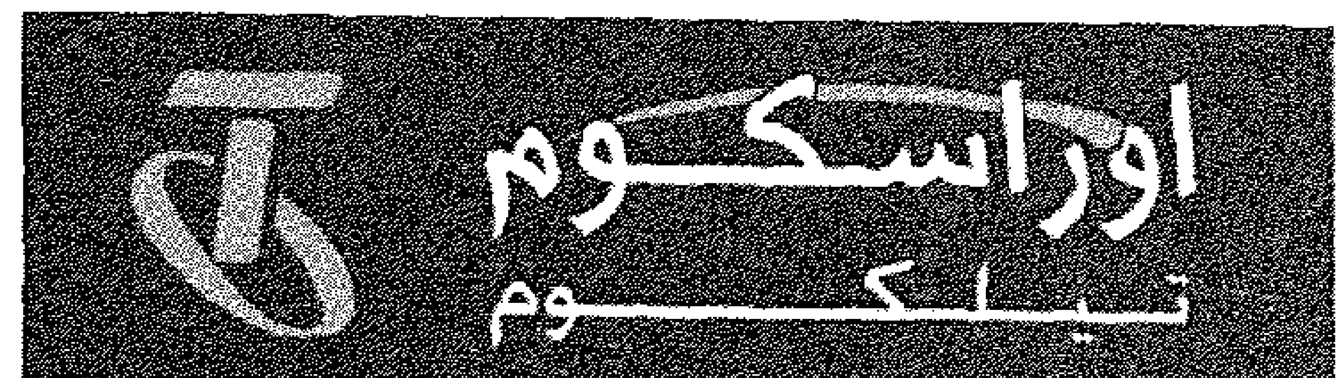
فقد اخترنا أن نبقى دائماً على

إتـصــــال

مـا دامـت هنـاك حيـاة ...

تعتبر اوراسكوم تيلكوم أكبر مشغِل لشبكات المحمول فى الشرق الأوسط وإفريقيا والتى تعمل بنظام (جى. إس. إم.)، وبفضل خبراتها فى إدارة شبكات المحمول والمعلومات أصبحت تقدم خدماتها فى البلدان الآتية: مصر، الجزائر، تونس، باكستان، العراق وعدة بلاد إفريقية أهمها: كونغو برازافيل، الكونغو الديمقراطية وزيمبابوى.

والآن فى بنجلادش



The Communication Community of the Middle East

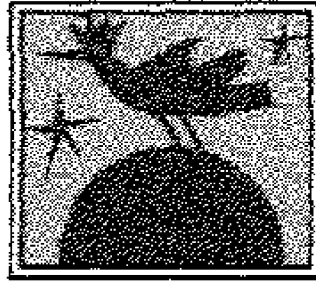
www.orascomtelecom.com

ADVISION

السنة السابعة
العدد السابع والسبعون
يونية ٢٠٠٥

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إلياس سحاب.. ناقد موسيقى.
- أيمن الصياد.. صحفى.
- بنجامين شفارتس.. كاتب بمجلة أتلانتيك الأمريكية.
- رضوى عاشور.. روائية، أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة عين شمس.
- روبرت كابلان.. كاتب أمريكى.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى.
- طارق البشرى.. كاتب ومؤرخ.
- فؤاد مطر.. صحفى لبنانى.
- لودو دى فيته.. كاتب بلجيكى.
- ماكس رودينبيك.. كاتب متخصص فى شئون الشرق الأوسط بمجلة الإيكونوميست.
- محمد حسنين هيكل.. صحفى.
- محمد السطوحى.. صحفى مصرى مقيم فى واشنطن.
- محمد سليم العوا.. محام.
- محمد يوسف عدس.. باحث فى التاريخ والشئون السياسية مقيم فى إنجلترا.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى. سعد الدين شحاته

لوحة الغلاف للفنانة عفت ناجى. زيت على خشب ١٩٥٥ - تفصيل





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazdr.net

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $ 5.

سلامة أحمد سلامة

ماذا جرى للإصلاح فى العالم العربى؟

■■ فى عصر أصبح فيه من حق الفرد فى كل مكان فى العالم أن يمارس حريته السياسية والاجتماعية، وأن تشارك الشعوب فى حكم نفسها واختيار حكامها. لم يعد بالإمكان أن تقوم سيادة حقيقية بدون ديمقراطية، ولم يعد من المتصور أن تكون هناك ديمقراطية بغير انتخاب حر مباشر.. تتعدد فيه الأحزاب والتوجهات، وتتكافأ فيه الفرص، وتتوافر الضمانات ضد تزوير إرادة الناخب أو التحكم فى تشكيلها.

وفى العالم العربى الآن جدل دائر لا يكاد ينقطع، يمتد من الخليج إلى المحيط ويمر عبر العواصم العربية حول مدى الحرية التى تفضى إلى الديمقراطية، والديمقراطية التى تحمى وتضمن ممارسة الحرية، وهل تظل الديمقراطية كنظام للحكم وفلسفة للإدارة الرشيدة بالنسبة لهذه الشعوب هدفاً صعباً بعيد المنال، لن تجنى ثماره إلا بعد سنوات طويلة قادمة، وعبر حلقات متداخلة معقدة تتسم بالحلول الجزئية المبتسرة، والخطوات الانتقائية المراوغة؟ أم تبرز من خلال المخاض العسير - فى المنظور القريب - رؤية شاملة لديمقراطية متكاملة. يسهل تطبيقها لتحقيق الإصلاح المنشود: ابتداءً بالحريات وحقوق الإنسان، إلى إصلاح المؤسسات والتشريعات التى تضمن تداول السلطة وعدم احتكارها أو توريثها.. والتعامل مع الشعوب من منطق المشاركة بين الأنداد، وليس من منطق الوصاية أو الإقصاء لقوى سياسية أو جماعات فرعية؟!

الانتخاب بحد ذاته هو محاولة للتأثير على إرادة الناخب، إما بإرادته واختياره عن طريق الحوار والإقناع والنقاش والتوصل إلى فهم مشترك للمشكلات الحاضرة وطرح الرؤى والبرامج لحلها. أو عن طريق التزوير وشراء الأصوات والتلاعب ببطاقات الانتخاب وصناديق الاقتراع، ووضع الناخب أمام خيار واحد لا خيار غيره، وإغرائه بوعود بعيدة عن التحقق. وفى كلتا الحالين تظل وسائل الإعلام والإعلان والدعاية للبرامج السياسية، ونشر الشائعات والنيل من الخصم هى الوسائل المستخدمة فى كل الديمقراطيات، مع تفاوت فى درجة الاحتياطات القانونية التى تكفل عدم إساءة استخدام هذه الأدوات، ودرجة وعى الناخب ونضجه السياسى ودرجة تعليمه وقدرته على الفرز والتمييز.

كما أن الانتخاب يفترض - بداية - حرية تكوين الأحزاب السياسية، وتمكينها من ممارسة نشاطها، وطرح برامجها عن طريق الاتصال بالجماهير، وضمان حرية التظاهر والاجتماع والتعبير الحر دون قيود. ووضع العملية الانتخابية تحت إشراف هيئة مستقلة، ومنع الأجهزة الأمنية من التدخل إلا فى حدود وظيفتها الأصلية وهى الحفاظ على الأمن. وبرغم ذلك كله. فليس الانتخاب وحده هو الذى يصنع الديمقراطية إذا لم تتحلَّ النخب السياسية بروحها وتعمل على تطبيقها.



هذه البديهيات التى استقرت فى النظم الديمقراطية على اختلاف فى تفاصيلها، مازالت غائبة - جزئياً أو كلياً - عن معظم النظم السياسية العربية، ومازالت محل جدل واختلاف ومزايدات ومناقصات. وهو ما يجعل السؤال عن مبررات غياب الحرية السياسية عن العرب مشروعاً، ومصدراً لكثير من التكهنات.. الأمر الذى أفرد له تقرير التنمية الإنسانية الثالث صفحات وصفحات بحثاً عن إجابة مقنعة. استبعدت دعوى «الاستبداد» كسمة لصيقة بالحضارة الشرقية والعقلية العربية الإسلامية. وانتهت إلى أن تضافر البنى الاجتماعية والموروث السياسى والثقافى عملت على تغييب الحركات السياسية المنظمة والقادرة على توليد قوة دفع ديمقراطية، مما أدى إلى إخفاق عملية التحول الديمقراطى.

غير أن هذا لا ينفى من جانب آخر وجود قوى معارضة تعمل على إفشال التطور الديمقراطى.. تأتى من مصادر متعددة داخل المجتمعات العربية الإسلامية نفسها، وتتحالف فيما بينها رغم اختلاف منطلقاتها ومبادئها. ويعتقد البعض أن أشدها عداوة للديمقراطية بمفهومها الحديث هى تيارات السلفية المتشددة، إلى جانب قوى سياسية استمرأت وتمترست فى السلطة. فهى تأبى التخلى عن نفوذها وتحصنه بالفساد والإفساد. وهو ما يثير شكوك الكثيرين فى الغرب من أن الديمقراطية لن تنجح على المدى الطويل، وإذا نجحت فبثمن باهظ نظراً لما ترتبه من أعباء ومسئوليات على النخب الحاكمة والمثقفة التى تتصدى للعمل العام.

فما الذى جرى ويجرى إذن للإصلاح السياسى والديمقراطى فى العالم العربى، سواء كان قد تم بإيعاز وضغوط خارجية، أو نتيجة ارتفاع سقف التوقعات والمطالبات الداخلية؟

الأمثلة كثيرة ومتعددة.. تدل على أن خريف الأنظمة السياسية السلطوية لن تغيب شمسه عن الشرق فى القريب، وقد يمتد سنوات وسنوات، وأن قوى الإصلاح سوف تجد نفسها فى مواجهة مراوغات ومماطلات كثيرة. ولن يكون الأمر بالسهولة أو بالسرعة التى تحقق بها التحول الديمقراطى فى دول الثورات الحمراء والزرقاء والبرتقالية فى جورجيا وأوكرانيا وقيرغزيا، وقبل ذلك فى دول أوروبا الشرقية، التى نجحت فيها الديمقراطية فى ظرف تاريخى استثنائى اقترن بانهيار النظام السوفيتى وانفجار انتفاضة شعبية، تولد من رحمها نظام تعددى ما لبث أن اكتمل بنيانه فى زمن قصير.

عندنا تأتى اللحظات الحاسمة ثم تفلت دون ندم ودون أن يمسك بها أحد!!



ففى مصر على سبيل المثال، حلت اللحظة الحاسمة لإرادة التغيير بعد انتظار طال ما يقرب من ربع قرن، فى أعقاب الخطوات التى اتخذها الرئيس السادات للخروج من الشرعية الثورية إلى ما يشبه الشرعية الدستورية.. حين فتح طاقة ضيقة لتشكيل المنابر ثم الأحزاب، ربما بطريقة مصطنعة لا تعبر عن القوى السياسية الحقيقية. وألغى بعض القيود على حرية الصحافة. ثم أعقبتها فى عهد الرئيس مبارك بعض التطبيقات العملية التى فتحت الباب تدريجياً وبحذر شديد على مزيد من الحريات أمام الصحافة والأحزاب، ولكن تحت سيف قانون الطوارئ ومحاكم أمن الدولة والمحاكم العسكرية، بحيث لم يطرأ تغير جوهرى على الوضع العام للنظام الذى ظل يحتفظ بسماته الرياسية الفريدة، التى تعطى الرئيس سلطات تجعل النظام أقرب للملكية دستورية منه إلى الجمهورية البرلمانية.

ولكن أسباباً كثيرة لا نعرف غير الجزء الظاهر منها، انحصرت فى المناخ العام الذى جعل من نشر الديمقراطية رسالة دولية ملحة فى أعقاب أحداث سبتمبر ٢٠٠١ من ناحية؛ وتصاعد الضغوط من جانب القوى السياسية فى الداخل لتعديل الدستور وإلغاء الطوارئ وإطلاق حرية الصحافة وإنشاء الأحزاب وتنقية قوانين الانتخاب من النقائص التى جعلت منها أداة لتغول الحزب الحاكم من ناحية أخرى.. هى التى حركت الحياة السياسية الراكدة نحو الاستجابة لمطالب الإصلاح. ولكن يبدو أنها تحركت فقط بالقدر الذى لا يحرك المياه نحو الجريان، ولا يعيد تشكيل الخريطة السياسية إلا فى أضيق الحدود.

ومن هنا نشأت فجأة فكرة تعديل المادة ٧٦ من الدستور لكى تقدم آلية جديدة تسمح بتعدد المرشحين لمنصب رئيس الجمهورية واختياره بالانتخاب الحر المباشر بدلاً من الاستفتاء الذى سارت عليه الحكومات السابقة منذ عهد الثورة.. مادة واحدة فقط، دون التطرق إلى سائر المواد التى تضمنها الدستور متعلقة بسلطات منصب الرئيس ومدة ولايته وعلاقته بالسلطات الأخرى، ولا بالمواد التى أبطلتها الظروف والمتغيرات السياسية والاقتصادية.

وقد وقع هذا التطور فى أثناء مرحلة اتسمت بالتهدئة الداخلية عن طريق حوار جرى بين الحزب الوطنى الحاكم وأحزاب المعارضة، بهدف امتصاص حالة الإحباط والسخط التى أخذت تتراكم، وتظهر لها أعراض تهدد بفقدان الحزب الحاكم لأغلبيته فى الانتخابات القادمة، لو أجريت بالمعايير الدولية المتعارف عليها وتحت إشراف حقيقى للقضاء.. وهو أمر كان لابد أن يحدث تحت أضواء دولية مسلطة، ما برحت تلح فى ضرورة الإصلاح السياسى كشرط للشراكة مع الاتحاد الأوروبى ومع الولايات المتحدة الأمريكية.

وفى ظل حالة من الكساد السياسى والخوف من التغيير، تحولت المادة ٧٦ إلى ما يشبه قميص عثمان. الكل يدعيها لنفسه بين التوسيع والتضييق دون نظرة إصلاحية شاملة.. أطراف المعارضة تريد أن توسع شروط الترشيح لمنصب الرياسة بما يسمح لها بشعبية تقربها من السلطة وتجعلها نداً للحزب الحاكم. والحزب الحاكم يريد أن يقتصد فى الشروط بما يسمح باستمرارية الأوضاع الرياسية الراهنة لفترة حكم أخرى قادمة، ولا تصبح المزاحمة على المنصب باباً لدخول قوى سياسية أخرى، تثبت وجودها وشرعيتها على الساحة الآن أو فى المستقبل.

ولم يؤد حوار الأحزاب إلى التغيير المطلوب. وكان طبيعياً أن تنتصر القوى الداعية إلى استمرار الوضع الراهن، عن طريق تعديل المادة ٧٦ بوضع قيود مانعة استهدفت إبقاء الحال على ما هو عليه.. على وعد بأن تهيئ رياح التغيير فى المستقبل فرصة لدخول المنافسة على أسس متكافئة، أو على ظن غير محقق بأن التعديل لن يقتصر على المادة ٧٦ بل سيقود حتماً إلى إعادة صياغته برمته أو وضع دستور جديد فى المستقبل.

وهكذا انتصر نهج التدرجية - إلى



الأمثلة كثيرة على أن خريف الأنظمة السياسية السلطوية فى العالم العربى لن تغيب شمسه فى القريب. وقد يمتد سنوات وسنوات قبل أن نشهد بداية التغيير



حين - وغلبت العقلية الأمنية المحافظة. مع أن الفرصة كانت سانحة لكى يقود الرئيس مبارك تحولاً جذرياً منذ توليه السلطة، من خلال إدخال تعديلات إصلاحية على مدى الأربع والعشرين سنة الأخيرة لا تقتصر على مادة واحدة. معتمداً على شعبيته واحترام الغالبية الغالبة من الشعب المصرى لإنجازاته، ولفترة الهدوء التى أعقبت حرب ٧٣. وهو ما لا يزال البعض من المتفائلين يراهن عليه بعد أن يعاد انتخابه لولاية قادمة.

لا تحملنا القراءة الموضوعية للواقع العربى الراهن على قدر من التفاؤل بقرب حدوث تحول ديمقراطى فى دول عربية أخرى، بل تظل المراوغات الإصلاحية قدراً مقدوراً على معظمها.

وقد حاولت قراءات غربية أن تجد فى المنطقة العربية، فى العراق وفلسطين على وجه التحديد، بشائر تحول ديمقراطى واعد. حيث شاركت نسبة لا بأس بها من العراقيين رغم الأوضاع الأمنية المتفجرة فى الانتخابات، ورغم وجود جيش للاحتلال فى الحالتين، ومع ذلك جرت الانتخابات بدرجة عالية من النزاهة فى البلدين. إلا أنها فى فلسطين عانت من ظروف الاحتلال بدرجة أكبر، بسبب إصرار الإسرائيليين على إفساد جو التهدئة ومحاولات إيقاع الفرقة بين فتح وحماس. كما أن استمرار عمليات الاغتيال المنظم للكوادر الفلسطينية النشطة، والمخاوف المبررة من التلاعب الدولى - أمريكياً وأوروبياً - بمستقبل القضية الفلسطينية، يضفى حالة من الحيرة وعدم اليقين على المستقبل.

أما فى العراق فإن استفحال الطائفية، سواء فى تشكيلات المجلس الوطنى أو فى تشكيل الوزارة الذى استغرق ثلاثة أشهر من المساومات، سوف يلقى بظلاله على وضع الدستور الدائم الذى ينبغى أن ينتهى منه المجلس فى أغسطس القادم. ولا يمكن تجاهل التدخلات الأمريكية من ناحية، وتدخلات المرجعيات الشيعية من ناحية أخرى وتأثيراتها على الاستقرار حالياً وفى المستقبل، وهو ما تثبته أحداث العنف والتفجيرات الدموية كل يوم.

وفى لبنان تبدو الصورة أكثر ضبابية وغموضاً وقابلية للانفجار فى أية لحظة، بعد اغتيال الحريرى وإزاحة الوجود السورى العسكرى. وقد بدا فى لحظة من اللحظات أن الشعب اللبنانى يوشك أن يمسك بزمام ديمقراطية جديدة بعد زوال الضغوط السورية، وعودة المنفيين من أمثال الجنرال عون، ومحاولات تصفية الأحقاد القديمة الناجمة عن الحرب الأهلية. ولكن شبح الحساسيات الطائفية ما لبث أن عاد من جديد، مقترناً بتدخلات أمريكية وفرنسية، تستهدف فى ظاهرها مساعدة اللبنانيين، وفى باطنها إعداد الوضع اللبنانى لمواجهة مؤجلة مع حزب الله بغية تصفية وجوده العسكرى وفصم عراه - على أقل تقدير - مع سوريا وإيران. وقد انعكس ذلك بوضوح فى الجدل الدائر حول قانون الانتخاب، وشكوى الطائفة المارونية من تجاهل حقوقها والمطالبة بإقالة الرئيس لحود. وتحول المشهد اللبنانى نتيجة لذلك إلى بحر أعظم من الرمال المتحركة، تتغير فيه خريطة التحالفات السياسية مع كل إشراقة شمس.



وفى منطقة الخليج تبدو فسيفساء الديمقراطية الوليدة شديدة التلون.. فحين اتخذت السعودية أولى خطواتها بإجراء انتخابات محلية، وهو ما اعتبر تطوراً غير مسبوق فى مجتمع شديد المحافظة، أثار الفوز الساحق للتيار الإسلامى تساؤلات عديدة حول المدى الزمنى الطويل الذى سوف يحتاج إليه المجتمع السعودى للتخلص من سيطرة القوى السلفية المتشددة، والخروج إلى مشارف العالم الجديد.

وشهدت البحرين - التى ما يفتأ المسئولون الأمريكيون يضربون بها المثل كواحة مبشرة بالديمقراطية - اعتصامات حاشدة من المعارضة الشيعية تطالب بتداول السلطة وإدخال إصلاحات دستورية لضمان إجراء انتخابات حرة، وإعطاء مجلس النواب المنتخب سلطات دستورية تفوق المجلس الثانى الذى يتشكل من أعضاء معينين.

وفى تونس، التى احتفت أمريكا بها فأقامت «منتدى المستقبل» للإصلاح الديمقراطى فى العالم العربى مع بداية هذا العام، ذهبت دعاوى الديمقراطية هباء لا يرددها غير رجع الصدى، حين أجريت انتخابات بلدية فاز فيها حزب التجمع الدستورى الديمقراطى الحاكم بزعامة الرئيس على زين العابدين بنسبة ٩٤٪ من المقاعد، ويعد هذا دليلاً آخر على ما جرى ويجرى لحالة الإصلاح فى تونس.

أما الدراما السودانية، فلم تقف عند حد دارفور ومذابحها، بل عمدت حكومة البشير وسط أزمتها الخانقة إلى وضع دستور انتقالى بالمشاركة مع الحركة الشعبية لجارانج، استبعدت قوى المعارضة الوطنية والأحزاب الأخرى من المشاركة فى وضعه، بل وأنذرت بأنها ستحرم هذه الأحزاب من حقوقها السياسية إذا رفضت الدستور الانتقالى. وكان الهدف الصريح من وراء ذلك هو إعادة انتخاب البشير لولاية جديدة خمس سنوات أخرى!!



وهكذا نرى أن من بين أنماط التحول الديمقراطى التى يشهدها العالم من حولنا، مازال البون شاسعاً بين أى دولة عربية وبين بلوغ الغاية المرتقبة طبقاً للمعايير المعترف بها. فلم تحدث حتى الآن عملية انتقال حقيقية من نظم الحكم السلطوية التى هيمنت على السياسة إلى حكومات ديمقراطية ذات شرعية مجتمعية. وفى كثير من الأحيان يحدث التقدم خطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء، بحيث بات يصعب التعويل على دور إيجابى للنخب السياسية الحاكمة التى غرقت فى السلطة والفساد عقوداً طويلة.

فهل تكون حركة الشارع السياسى ممثلة فى حركة تلقائية مثل «كفاية» فى مصر؟ أو فى الجماهير اللبنانية التى اندفعت تلقائياً من كل الحوارى ومن جميع التوجهات تطالب بالتغيير فى أعقاب اغتيال الحريرى؟ أو فى منظمات المجتمع المدنى التى تحاول ملء الفراغ.. هى البديل؟ هذا هو سؤال المستقبل!

محمد حسنين هيكل



«المستقبل - الآن»

محاضرة الجامعة الأمريكية بالقاهرة . أكتوبر ٢٠٠٢



■ حضرات السيدات والسادة

إننى سعيد إذ أجد نفسى الليلة وسط هذه الصحبة الكريمة المهتمة بالشأن العام، والحريصة على متابعة الحوار فيه.

وسعيد أيضا أننى أتكلم فى هذه القاعة التى سمعت على مدار تاريخها صوت الحوار مفتوحا دون قيد.

وسعيد أخيرا أن ذلك يجرى فى رحاب هذه الجامعة التى قامت ومازالت تقوم بدور تعليمى وتنويرى أضاف إلى العقل العربى ومازال يضيف.

وحديثى الليلة حول موضوع حسبته لازما. وغرضى منه إلقاء نظرة فاحصة ومتأملة على أحوال مصر قبل نهاية هذه السنة بالذات - فتلك كما قيل وتكرر بإلحاح طوال شهورها. ذكرى مرور نصف قرن على ثورة سنة ١٩٥٢ - وقيمة أى مناسبة من هذا المستوى أنها تذكير بما جرى بالأمس، وتفكير فيما يجرى اليوم، واستشراف لشكل غد مأمول ومرتجى.

وربما تفضل البعض ولاحظ أننى على شدة ما اقتربت من ثورة يوليو ومن قائدها - تباعدت عامدا عن مناسبة الذكرى ولم أشارك بفعل أو بقول فى احتفالاتها - لسببين:

أولهما ذاتى - والثانى موضوعى.

- السبب الذاتى - أن ذلك الاحتفال بالطريقة التى جرى بها كان هوائيا - صاخبا - ومسرحيا.

وفيما بدا لى فقد كان الاحتفال الذى امتد عاما بأكمله (كما قيل) - مناسبات لا أظن أن أيا منها ترك علامة، أو استنهض همة، أو رسم خطا يومئ إلى أفق أو يدل على طريق.

- والسبب الموضوعى - أن الاحتفال جرى محاولة للتوفيق والتزويق، خلطت السياق وتعسفت مع المراحل، حتى بلغت حدا شديد الوطأة - ليس على التاريخ فحسب، وإنما على العقل وعلى الوعى، وبالتالى على المستقبل، وعلى الضرورات التى تستدعى النظر إليه ودراسته والاستعداد لرحلته.

ولقد كان يمكن لمناسبة الذكرى أن تضع أمام الشعب والأمة خريطة تكشف وترشد، لكنها لسوء الحظ وضعت أمامه ألبوم صور لا منطق فيه ولا معنى.

كانت الصور لأربعة رجال رُتبت مواقعهم متصلة ببعضها، متتالية واحدة بعد الأخرى. وفى وضع الصور إيحاء بأن الجميع عائلة متماسكة، وعصر ممتد، وسياق متسق، وبالتالى فهم فى الهوية رؤية واحدة، وفى المرجعية سند واحد، ثم إنهم فى النتيجة شرعية متصلة، وظنى أن ذلك غير صحيح.

ولست هنا فى مجال إصدار حكم أختار به أو أنحاز. مع أن ذلك إنسانى! - وإنما مطلبى الآن مجرد الملاحظة، والتحديد، والتمييز، لأنه فى القواعد الأساسية للحساب لا يُجمع غير المتشابه!

وحقيقة الأمر - بدون مقارنة أو مفاضلة أو تقييم - أننا أمام أربع صور حول كل واحدة منها إطار يحدد ويفصل، والألبوم من أوله لآخره ناطق بأن تلك الخمسين سنة لم تكن عمرا تدفق طبيعيا مرحلة بعد مرحلة، وإنما هى بكل الشواهد - عصور متعددة - اختلفت - وتناقضت. وفى بعض الأحيان تصادمت.

وترتبت على هذه الأحوال نتائج: أبرزها، تباين رؤى للهوية وتباين نظر إلى المرجعية، وبالتالى تباين أسس فى الشرعية. وقد تكون تلك طبيعة ظروف تبدلت - أو طبيعة نفوس تغيرت فى وطن خرج (طبق مقولة عالم الاجتماع الأشهر «ماكس فيبر») من مرحلة الإطار الأبوى التقليدى للشرعية - إلى شرعية مرحلة الانتقال وفيها دور الرجل الواحد سواء كان ذلك الرجل زعيما شعبيا، أو خلفا له من أقرانه، أو من جهاز الدولة المسئول عن تسيير الأمور - (وذلك تقدير «فرانسيس فوكوياما» وهو عالم اجتماع آخر معاصر)، مع العلم (وتلك مرة أخرى عودة إلى «ماكس فيبر») - أن كلا من المرحلتين التقليدية الأبوية، ومرحلة الرجل الواحد وما بعدها تمهد للنموذج الأرقى من الشرعية وهو الشرعية الدستورية القانونية.

وقد كان ذلك هو الهدف الذى كافح الشعب المصرى - وغيره من شعوب الأمة العربية - لبلوغه - ومازالوا - مؤمنين أنه حق الوطن وكرامته ودرس التاريخ وعبرته. وكان هناك شكل لهذا النموذج من الشرعية قبل الثورة - لكن نتائج التجربة تكشف أنه ظل استعارة للمظهر دون الجوهر لأن الشرعية الدستورية والقانونية تتأتى وتترسخ نتيجة تطور اقتصادى وسياسى وثقافى يتجلى معه نوع من النمو المجتمعى يعطى للشعوب والأمم فرصة للحوار تتكافأ فيه المواقع، ومن ثم تتوازن المصالح وتتوافق الأهداف.

وللإنصاف فإنه فى بلدان مستعمرة أو محتلة، وهو ما كان عليه الحال فى كل البلدان العربية إلى بداية الخمسينيات من القرن العشرين، فإن الكلام عن الشرعية الدستورية القانونية يجىء حلما متخطيا للواقع، لأن الاستعمار والاحتلال الأجنبى كلاهما مانع من

المطلوب ليس نقلة من رجل إلى رجل. وإنما من عصر إلى عصر. أى من شرعية مرحلة الانتقال إلى الشرعية الدائمة. وبالتالى: من الفرد إلى الدستور.. ومن الصورة إلى القانون



نص المحاضرة
التى ألقيت فى افتتاح الموسم الثقافى
للجامعة الأمريكية بالقاهرة
١٤من أكتوبر ٢٠٠٢

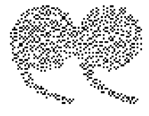
رغم أن الأستاذ هيكل ـ التزامًا بقرار اتخذه ـ يبتعد عن التعليق المباشر ـ كتابة ـ على أحداث جارية. إلا أننا ـ دون تعسف أو مبالغة ـ نرى فى بعضِ ما قاله قبل سنوات اقترابًا ـ وربما تنبيهًا مبكرًا ـ لمخاطر أزمة عندما طرقت أخيرا أبوابنا، بدت لبعضنا «مفاجئةً» وما كان لها أن تكون كذلك.

قبل أعوام ثلاثة كاملة أو كادت (١٤ أكتوبر ٢٠٠٢)، وفى افتتاح الموسم الثقافى للجامعة الأمريكية بالقاهرة، ألقى هيكل محاضرةً تحدث فيها عن ضرورة أن نرتب أوراقنا «الآن» لمستقبل، وإن كان نظريًا ـ بحكم الطبيعة ـ فى رحم الغيب، إلا أن وقع أقدامه الثقيلة يمكن أن يكون مسموعا لمن يريد أن ينصت .. فيسمع.

المحاضرة التى أجملت مضمونها فى عنوانها «المستقبل ـ الآن» كان لها وقتها ردودُ فعل متعددة. و«متعدية» فى بعضها لخطوطٍ كان تجاوزُها يشير مبكرا إلى أن مصر ستواجه ما تواجهه الآن.

....

نستأذنُ قارئنا.. ونستأذن أستاذنا فى أن نعيدَ قراءة المحاضرة.



وجهات نظر

الشرعية. والممكن الوحيد فى مثل تلك الظروف هو ملء الفراغ بنوع من نصوص القانون تفرضه القوة الغالبة. وحكم الحياة فى مواجهته ظهور نوع من مشروعية المقاومة يعبر عن إصرار يتحدى الواقع المفروض ويجاهد للانتصار عليه.

ومن قبل الثورة ـ وبعدها ـ وحتى الآن، فليس من باب التجاوز أن يقال أن ما عاشه العالم العربى ظل محصورا فى نوعين ـ أو إطارين من الشرعية ينتظران ثالثهما طبق مقولة «ماكس فيبر»:

ـ عرف العالم العربى تجربة الشرعية الأبوية التقليدية ـ قبلية أو عائلية ـ وهى مازالت حاكمة حتى الآن فى بعض أوطان الأمة، تسمى نفسها ملكيات أو سلطنات أو مشيخات أو أوصافا من هذا القبيل.

ـ وعرف العالم العربى تجربة شرعية الانتقال يبرز فيها دور الرجل الواحد زعيما شعبيا، أو خلفا له نادته الظروف من أقرانه أو من غيرهم.

ـ وفى التجربة المصرية ـ وربما فى غيرها ـ فإن تكرار دور الرجل الواحد أربع مرات لا يعنى وجود وحدة فى النسب ـ أو اتصال للسياق ـ أو مصدر مستمر لذات الشرعية!

[١]

كان اللواء «محمد نجيب» أول هؤلاء الرجال الأربعة ـ فى التجربة المصرية ـ وكان يمثل شرعية التغيير من الملكية إلى الجمهورية، ومواصفاته أنه الرجل الذى لقى إجماع ضباط الجيش فى انتخابات ناديهم (آخر ديسمبر ١٩٥١)، وكانت تمهد له طلعة تقابل الناس بقسمات رجل ناضج، متهلل بابتسامة تحمل رسالة طمأنينة تبشر بأن التغيير الذى هبت رياحه فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ـ آمن ومعقول.

وفى ظروف ذلك التغيير فإن الرجل قام بدوره كاملا، على أن المشكلة التى واجهته فى النهاية أن اعتبارات التغيير وملابساته كانت مختلفة عن دواعى التغيير وأحكامه. وفيما بين هذا الاختلاف ـ بين قدوم التغيير، وبين ضغط مطالبه ـ وقع مأزق الصورة الأولى، وكذلك رُفعت من مكانها دون فرصة لها تحدد هوية ـ أو تؤكد مرجعية ـ أو تؤسس شرعية.

[٢]

وكان «جمال عبد الناصر» هو الرجل الذى يمثل دواعى التغيير ومطالبه، ومعه يصح القول بأن الشرعية الثورية ليوليو بدأت.

وأرجح التقدير أن الشرعية الثورية ليوليو لم تكن نظرية معروفة أو خطة متكاملة ولعلها كانت أقرب إلى تعبير متجدد عن المشروع الوطنى القومى الذى ينادى مصر فى عصور نهضتها ـ وقد ناداها أكثر من مرة عبر القرون وحتى قبل أن تتحدد بوضوح تلك المعالم السياسية المتفق عليها لكيان وطنى أو رابطة قومية ـ أو شرعية حقوق أساسية يحكمها دستور وقانون وغير ذلك من القيم التى طرحتها وعمقتها الثورات الكبرى فى التاريخ الإنسانى.

وفى تعبيرها المتجدد ـ وفى زمانها ـ فإن الشرعية الثورية ليوليو حاولت التوصيف والتحديد. وهنا فإنها أمام قضية الهوية عرضت نفسها ـ كما هى طبيعة أى حياة إنسانية ـ فى عدد من الملامح متعددة ومنسجمة فى نفس الوقت:

● ملمح هوية مصرى ـ يتصور وطنا يحقق استقلاله، ويخطط لتنمية شاملة توفر أرضية لتقدم يواكب العصر، ولعدل اجتماعى تتكافأ فيه الفرص بقدر ما يتسع نطاق العمل الوطنى.

● وملمح هوية قومى ـ يتصور انتماءه إلى أمة تفاعلت فى محيطها عوامل الجغرافيا المتصلة، والتاريخ المتواصل، ومعهما عوامل الثقافة المستندة إلى لغة واحدة ـ إلى جانب تأثير التشريع المعتمد لأكثر من أربعة عشر قرنا على مصدر رئيسى تمثله سلطة خلافة متماسكة ـ أو مبعثرة ـ فى شظايا تسمى نفسها دولا أو إمارات أو حتى خديويات!

● وملمح هوية إنسانى مستقل مفتوح لتعاون حر تتسع دوائره عربية ـ إسلامية ـ آسيوية ـ وأفريقية. وهذا التعاون حريص فى كافة الأحوال أن يكون استقلاله موصولا بميثاق الأمم المتحدة ومبادئه.

وهنا كانت مرجعية يوليو استطرادا منطقيا لهذه الملامح المتعددة والمنسجمة لهويتها:

● فهذه المرجعية على التراب الوطنى كفاحا لبلوغ الاستقلال ينهى بقايا الاحتلال العسكرى والسيطرة الامبراطورية ويصفى مواقع الاستغلال الأجنبى اقتصادية ومالية.

● وهذه المرجعية فى العمل الداخلى خططا للتنمية (أساسها التصنيع والتعليم) ـ وجهدا فى تحقيق العدل الاجتماعى (يقوم فى الزراعة على إعادة توزيع الأرض وتدعيم الملكية بالتعاون. وفى الصناعة على الملكية العامة كما كان الحال فى معظم بلدان العالم المتقدم، بالذات فى أوربا ـ بعد الحرب العالمية الثانية) ـ ويتزامل مع التنمية الشاملة طموح إلى المشاركة السياسية يبحث عن وسائل تمكن منها.

● وهذه المرجعية فى المجال القومى دعوة إلى وحدة الهدف ووحدة العمل ووحدة الأمن، باعتقاد أن حق الأمة أكبر من سلطة أى نظام يحكم فى وطن من أوطانها.

● وهذه المرجعية فى المجال الخارجى يدا ممدودة إلى العالم القريب والبعيد (من تأسيس حركة التحرر الآسيوى الأفريقى فى باندونج والقاهرة، إلى تأسيس تجمع الدول غير المنحازة فى بلجراد ودلهى والقاهرة، إلى تأسيس منظمة الوحدة الأفريقية من الدار البيضاء وأديس أبابا إلى القاهرة)، وذلك طريق طويل ومضن فى طلب السلام مع العدل، يصاحبه استعداد فى أى وقت لحمل السلاح ورد العدوان.

ومن هذه الملامح ـ تشكلت هوية يوليو ـ وتحددت مرجعيتها ـ وتأسست شرعيتها.

لكن شرعية يوليو واجهت مأزقها الأكبر سنة ١٩٦٧ ـ لأن ما وقع فى يونية من تلك السنة ـ ومع الاعتراف بضلوع قوى خارجية كبرى فى تدبيره وتنفيذه ـ أدى إلى شرخ خطير، بحكم أن أى نظام لا يستطيع حماية ترابه الوطنى، مهدد فى مبرر وجوده، وانكشاف شرعيته.

وكان يمكن لشرخ سنة ١٩٦٧ أن يتحول إلى كسر، لولا أن جماهير الشعب المصرى



وجماهير الأمة العربية خرجت يومى ٩ و ١٠ يونية تفرض إرادة المقاومة فرضا، وتصر على مواصلة القتال. على أن ذلك الخروج لم يكن شفاءً، وإنما كان معالجة موقوتة. تمنح لحساب مهمة محددة، هى مهمة إزالة آثار العدوان، وبعدها يكون لكل حادث حديث. كما يقال!

وكانت الأمة فيما تصرفت به أصيلة وحكيمة.

وعلى نحو صادق مع النفس فإنه لا يصح لأحد نسيان أن شرعية يوليو أصيبت يوم ٥ يونية ١٩٦٧ - ثم إن هذه الشرعية جرى تجبير شرخها للتمكين من مهمة مؤقتة، ولمدة محددة.

وكان «جمال عبد الناصر» نفسه أول من فهم الحقيقة واستوعب معناها وتصرف وفق إملائها - سواء حين أعلن قراره بالتنحى مساء ٩ يونية، أو حين عاد عنه ظهر ١٠ يونية تحت ضغوط شعبية مصرية وعربية وعالمية. وأظن أننى الطرف الذى يستطيع أن يؤدى القسم ويتكلم بيقين. فقد كنت شاهدا وحيدا حاضرا عاش مع «جمال عبد الناصر» داخل غرفة مكتبه طول نهار ٩ يونية - وكل صباح ١٠ يونية. ورأى بنفسه وتابع - وأكثر من ذلك. كانت لديه فرصة - وشرف - أن يساعد فى صياغة ثلاث وثائق رئيسية عبرت عن الحقيقة ودرسها. وهذه الوثائق الثلاث هى: خطاب التنحى مساء ٩ يونية - والرسالة إلى مجلس الأمة بالعودة عنه ظهر ١٠ يونية ١٩٦٧ - وفيما بعد تعزيزا وتوثيقا للحقيقة ودرسها: بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨.

وفى هذه الوثائق الثلاث ونصوصها مشهورة، تحدث «جمال عبد الناصر» عما جرى بأمانة وتحمل مسئوليته بشرف - وقَبِلَ مقتضياتها مقتنعا.

وفى خطابه إلى مجلس الأمة ظهر ١٠ يونية ١٩٦٧، فإن «جمال عبد الناصر» قال بالحرف: «إننى مقتنع بالأسباب التى بنيت عليها قرارى (بالتنحى عن السلطة)، وفى نفس الوقت فإن صوت الجماهير بالنسبة لى أمر لا يُرد، ولذلك فقد استقر رأيى على أن أظل فى موقعى حتى تنتهى الفترة التى نتمكن فيها جميعا من إزالة آثار العدوان، على أن يعود الأمر بعد هذه الفترة إلى الشعب».

كان ذلك ما قاله، وأعرف بيقين أنه كان صادقا فيه، بل أزعم أننى أعرف كيف كان ترتيبه لما بعد إزالة آثار العدوان. وباختصار - على الأقل فى هذه المناسبة - فقد كان مصمما على أنه - بعد تحقيق هذا الهدف (ومعه استكمال بناء السد العالى رغم ضغوط حرب الاستنزاف) - لابد أن تقوم فى مصر شرعية من نوع مختلف، وكان حسابه أن الشعب بموقفه فى تحمل المسئولية والقبول بتبعات استمرار المقاومة، أثبت أن طاقته تجاوزت شرعية الثورة، وشرعية قيادتها معا. ومع أنه اعتبر ذلك فى جزء منه نجاحا يُحسب لها - فإنه فى نفس اللحظة أدرك أن دوره قارب نهايته، وأن عليه بعد إزالة آثار العدوان أن ينسحب من الصورة، تاركا الأمة والتاريخ معا لحركة التقدم الطبيعى - وتاركا سجله الكامل لأجيال قادمة تحقق فيه وتدقق وتوازن وتحكم على تجربته فى مجملها - مبدأ وتنفيذا، فكرا وفعلا . آفاقا وعصرا.

[٣]

وعندما جاء «أنور السادات» على طريق «عبد الناصر» (كما قال بنفسه) - فإنه ظل يواصل العمل داخل تلك الشرعية المؤقتة المرهونة بمهمة محددة هى إزالة آثار العدوان، وقد تحمل «أنور السادات» مسئوليته فى ظروف بالغة الصعوبة والحرج. وكانت شرعية يوليو - ما بقى من أصلها أو ما أُضيف إليها مؤقتا - قاعدته ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ حين أصدر قرار الحرب، وعندما تحقق ذلك العبور للجسور، وتمكنت الجيوش العربية لمصر وسوريا - يدعمها تحالف عربى ودولى واسع - من إحراز ذلك النجاح المشهود بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر، فإن شرعية يوليو - ما بقى من الأصل وما أُضيف إليه - أدت مهمتها، بشهادة ما رآه وزير خارجية الولايات المتحدة «هنرى كيسنجر» وقدره وسجلته على لسانه محاضر محادثاته السرية مع قادة إسرائيل (وهذه المحاضر منشورة بنصوصها ضمن وثائق زمنها) - وفيها قوله لقادة إسرائيل وبينهم «جولدا مائير» و«موشى ديان» و«ييجال آللون» «أن العرب أحرزوا نصرا استراتيجيا يعطيهم حق أن يطلبوا وأن يحصلوا على انسحاب القوات الإسرائيلية بالكامل من كل الأرض العربية المحتلة بعد ٤ يونية سنة ١٩٦٧، كما أنه ليس أمام إسرائيل غير ترتيب نفسها على هذه الحقيقة والانصياع لحكمها».

والشاهد أنه من طبيعة الأشياء والبشر أن كل رجل لا يكفيه أن يكون تكملة لصفحة، وإنما طموحه الإنسانى أن يبدأ من رأس صفحة، فإذا كان معه إنجاز على مستوى أكتوبر ١٩٧٣، إذن فإن الرئيس السادات كانت لديه بالفعل إمكانية - وأهلية - فتح صفحة من أولها - على شرعية جديدة.

وقد مضى الرئيس السادات يؤسس لهذه الشرعية الجديدة، برؤية مختلفة للهوية، ومصدر مغاير للمرجعية.

- كانت الهوية فى رؤيته مصرية.

- وكانت المرجعية فى تقديره توجها إلى نوع من الرأسمالية عُرف باسم الانفتاح.

- وجاءت بعد ذلك - وهو منطق الأشياء - نقلة فى الساحة السياسية الداخلية من تنظيم واحد لما سُمى تحالف قوى الشعب العامل - إلى إنشاء ثلاثة منابر مختلفة سُميت يمينا ويسارا ووسطا.

- وفى نفس الوقت كانت مرجعية السياسة الخارجية للشرعية الجديدة - ما رآه الرئيس «السادات» - صحبة مع المتقدمين عن طريق علاقة خاصة بالولايات المتحدة الأمريكية - تتبعها إمكانية صلح مع إسرائيل، يبدأ منفردا إذا اقتضى الأمر، ويلحق به الآخرون حين يريدون - أو حين يقدرون!

وهنا كان مأزق شرعية أكتوبر، لأن ما وصلت إليه فى رؤية الهوية وفى سند المرجعية لم يكن متسقا مع الواقع فى «شرعية أكتوبر» - وأوله أن الرئيس السادات توصل إلى قرار الحرب بعد أكثر من ثلاث سنوات فى رئاسته - وعندما يئس من إقناع الولايات المتحدة الأمريكية بالمساعدة على بلوغ حل عادل لأزمة الشرق الأوسط - ولم يحقق مطلبه رغم كل ما حاول بسبب الانحياز الأمريكى لإسرائيل - وحين وصل الرجل إلى لحظة الحسم فإنه تحمل مسئولية الحرب، وكذلك جاء قراره الشجاع بقبول المخاطرة.

ثم حدث أن الرئيس «السادات» - وعند توقف إطلاق النار - اعتبر أن ٩٩٪ من أوراق حل أزمة الشرق الأوسط فى يد الولايات المتحدة الأمريكية وبدا ذلك للوهلة الأولى مفاجئا - فإذا أُضيف إليه أن حرب أكتوبر كانت عملا مشتركا مع سوريا، وتحالفا عربيا أوسع، ثم إنها كانت بالكامل سلاحا سوفيتيا - فقد وقع تناقض بين النتائج والمقدمات!

وزاد على ذلك فى شأن المرجعية تناقض آخر، مؤداه أن القطاع العام المصرى (وهو قاعدة التنمية التى قام بها الشعب المصرى فى ذلك الوقت) - كان الركيزة الاقتصادية التى تحملت تكاليف وأعباء إنجاز أكتوبر - لكنه عندما جاءت شرعية أكتوبر تعيد حساب مرجعيتها، فإن الذين مشوا بشجاعة على جسور العبور فى أكتوبر لم يكونوا هم الذين نالوا جوائز النصر.

ثم كان أن شرعية أكتوبر أصابها - بدورها - شرخٍ خطير يومى ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧، فيما عُرف «بمظاهرات الطعام» - ذلك أنه حين يعجز أى نظام عن إقناع شعبه بوسائل السياسة - وهو صاحب المبادرة فيها، وبوسائل الإعلام - وهى رهن إشارته، وبوسائل البوليس - وهى تصدع بأمره، ثم يضطر لاستدعاء القوات المسلحة فى مواجهة جماهير تطالب بحقها فى الخبز بعد تضحياتها بالدم - فإن شرعية هذا النظام تصاب بضربة شديدة. والراجح أن الرئيس «السادات» - رغم أنه أطلق على المظاهرات وصف «انتفاضة حرامية» - كان يملك من الذكاء ما جعله يستشعر الحقيقة فى ضميره وإن أنكرها على لسانه، وقد فكر بكل جهده فى ترميم شرعية عهده، وتوصل إلى أنه يستطيع بوعد السلام أن يستعيد حلم الرخاء، وكان ذلك فى الغالب دافعه إلى مبادرته الشهيرة بزيارة القدس بعد ثمانية شهور من نفس سنة ١٩٧٧ - وأمله أن هذا الاختراق الصاروخى كفيل بأن يكسر آخر حاجز بينه وبين أمريكا المتقدمة، بما يضعه فى حساباتها وسياساتها على قدم المساواة مع إسرائيل.



مصر الآن - وليس غدا - فى حاجة إلى رؤية للهوية أمينة.
وإلى سند فى المرجعية أصيل - وإلى شرعية تؤسس لزمن، يستحيل قبوله
امتداد متكررا لشرعية الرجل الواحد، أو لدعاوى حزب يعتبر نفسه ديموقراطيا

ومن سوء الحظ أن الذين لم يتركوا للرئيس «السادات» غير خيار الحرب، تركوه وحيدا - فى خيار السلام، وكذلك استحكم المأزق.

ومن المفارقات المحزنة أن ذكرى تأسيس شرعية أكتوبر، أصبحت سنة ١٩٨١ يومها الأخير.

ومع ذلك فإن أحداث ذلك الخريف الغاضب من زمن «أنور السادات» بما فيها تلك النهاية الحزينة لحياته ولشرعية أكتوبر - لا يصح أن تكون وحدها حساب تاريخه، فقصة كل رجل كتاب كامل وليست فصلا واحدا من كتاب، حتى وإن كان ذلك الفصل ذروة المأساة.

الصورة الرابعة

كانت الصورة الرابعة لرجل آخر شاء تقديم نفسه بطريقة لا تلحقه بما قبله، وعندما سئل كان حرصه على التذكير باسمه - كاملا - ثلاثيا (محمد حسنى مبارك)، لكى ينبه مبكرا إلى أنه ليس خلفا لسلف من يوليو أو من أكتوبر. وكان ذلك الحرص من جانبه - تأكيدا مضافا لمنطق أن مرحلة الانتقال تنسب شرعية الرجل الواحد إلى قيمة منجزاته. والحاصل أن تلك الصورة الرابعة فى مرحلة الرجل الواحد بدأت واستمرت وعدا وعهدا بالتقدم نحو الشرعية الدستورية والقانونية.

وربما أن التطورات والمتغيرات فى الوطن وفى العالم وفى الإقليم عوقت وعطلت، وتسببت فى تأخير يمكن فهم بعض دواعيه:

❖ بين الدواعى أن الصورة الرابعة انتقلت إلى موقع الصدارة من خلال عاصفة تاروَدم تسبب فيها صدام بين النظام وبين عناصر تعصب دينى مقاتل يتصور على أحسن الفروض أن من حقه أن يسوق الناس إلى الفردوس بتصويب السلاح إلى صدورهم أو ظهورهم!

❖ بين الدواعى أن ذلك الانتقال جرى فى أجواء دولية ملبدة بضباب آخر معارك الحرب الباردة - وهى المعركة التى وصفها الرئيس الأمريكى «رونالد ريجان» بالمعركة ضد «امبراطورية الشر» (كان الشر أيامها سوفيتيا والآن أصبح الشر عربيا أو إسلاميا!).

❖ بين الدواعى أيضا أن الإقليم راح يشهد أحوال وأهوال حروب أهلية فى لبنان، والسودان، واليمن، والجزائر - إلى جانب حربين شاملتين فى منطقة الخليج العربى بدأتا باقتتال داخلى بين الأطراف المباشرين ثم حلت النهاية طوق حصار على الجميع فرضته قوى كبرى.

وهكذا فإن كثيرين من ذوى الرشد ساورهم ظن أن الصورة الرابعة تلزمها فسحة وقت:

❖ من ناحية لأنه فى أوقات الاضطراب يكون البطء أسلم من الاندفاع، ويكون احتمال ضياع فرصة - أكثر أمانا من تحمل مخاطرة.

❖ ومن ناحية ثانية لأنه تبدى لكثيرين أن الصورة الرابعة فى حاجة إلى وقت تظهر فيه توجهاتها، لأن خلفية تلك الصورة كانت من الأصل بعيدة عن ألوان السياسة - وتلك فى ظروفها حكم قانون.

وهكذا بدا «الانتظار» أدعى للسلامة - لكن ما حدث بعد ذلك هو أن «الانتظار» تحول من سد فجوة إلى طبيعة سياسة. كل شىء فيها مؤجل وأى تغيير عليها لا داعى له - فإذا اشتدت المطالبات وزادت الضغوط فإن المسموح به يجىء حلا وسطا يكرس الانتظار أكثر مما يسمح بالانطلاق.

ومثل ذلك وقع حتى فى القضايا الكبرى.

- بمعنى أن الهوية بدت فى عديد من الأحيان ملتبسة - فلا هى وطنية تلزم حدودها، ولا هى قومية تحمل مسئوليتها.

- ثم إن المرجعية ترددت فى خياراتها الاجتماعية - فلا هى مرجعية التنمية الشاملة ولا هى مرجعية المبادرة الفردية، (وللإنصاف فقد كانت هناك محاولة للخروج من هذه الحيرة بجهد واضح فى مشروعات البنية الأساسية على انتظار أن يجىء فصل الخطاب، وأخيرا جاء الترياق بالوصفة الجاهزة لصندوق النقد الدولى.)

- ونفس الشىء تكرر حيال مرجعية السياسة الخارجية - بمعنى أن ٩٩٪ من أوراق الحل فى أزمة الشرق الأوسط ومستقبله بقيت فى يد الولايات المتحدة - لكن ذلك صاحبه شعور بالحرج من واقع تزايد انحياز الولايات المتحدة لإسرائيل.

وفى موقف الانتظار الذى طال - تداخلت الثوابت والمتغيرات. ونسى البعض أن الثوابت هى التى ترسى قواعد الاستراتيجية العليا للدولة، وأن المتغيرات ترسم السياسات الآنية لها. وإذا أصبحت الثوابت متغيرات وأصبحت المتغيرات ثوابت - فقد غامت الرؤى وغابت المصالح الحيوية للأمة. ومع مثل هذا الخلط فى المعايير يصبح السلام - وليس الأمن - مطلبا استراتيجيا، وتصبح مائدة المفاوضات - وليس نتائجها - غاية فى حد ذاتها!

على أن هذا التداخل والخلط زاد مقداره بسبب طوارئ تزاحمت وأحاطت بالشأن المصرى.

❖ الطارئ الأول: أنه نتيجة اعتبارات مختلفة، أن إدارة الموارد الاستراتيجية المصرية فى المنطقة تناقص تأثيرها على نحو يستدعى القلق، فمصر تبدو طالبة أكثر منها مطلوبة - قاصدة أكثر منها مقصودة، وذلك لا يريح. وهنا فإن تغطية نقص الفعل بزيادة الكلام لا يحل مشكلة - لأن الأدوار لا تقاس بما يدعيه طرف عن نفسه وإنما تقاس بما يعترف به الآخرون!

❖ والطارئ الثانى: أن هناك قضية قديمة جديدة - ممزوجة بمياه النيل - عادت تفرض نفسها بإلحاح متجدد ينضاف إلى قيمتها الأصلية، وتلك هى علاقة مصر بالسودان، وهذه قضية تعرضت لأساليب متعددة فى التعامل معها، وبصرف النظر عن التفاصيل، فإن التطورات فى السودان تستدعى نظرا أكثر تركيزا وأوسع فهما.

❖ والطارئ الثالث: أن هناك صمتا يبدو ثقيلا - إزاء خطر زادت وطأته ملاصقا للحدود الوطنية، ينادى بأنه ليس فى مقدور مصر - بالتزامها القومى أو بدونه - أن تقبل على جوارها تفوقا فى المجالات: العسكرية والعلمية والتكنولوجية - تختل به موازين القوة على هذا النحو، فذلك وضع لم تعرفه مصر من قبل على طول تاريخها، وإذا كانت تحتاج إلى درس فيه (رغم أن جوارها إسرائيل حادث مستجد) فعليها مراجعة تجارب التاريخ مما كان فى أوربا (بين فرنسا وألمانيا) - وفى آسيا (بين الصين واليابان) - وقريبا منها فى البحر الأبيض (بين تركيا واليونان) - ثم تقرر - دون عصبية لا تقفز فوق الواقع ولا تخضع له - أن فجوة القوة على حدودها يستحيل قبولها أمرا مسلما به - وأن تلك الاستحالة - وليس غيرها - هى تحدى القرن الجديد.

❖ والطارئ الرابع: أن إسرائيل بما تقوم به فى المنطقة وعلى نطاقها المباشر أو الأوسع، لم تعد بعيدة عن ذلك الحلم الذى تصوره مؤسس دولتها «دافيد بن جوريون»، وهو حلم يسعى إلى حصر مصر وراء حدودها - مع إطلاق يد إسرائيل فى مشرق العالم العربى - ومن سوء الحظ أن مشاهد هذا الحلم المجنون تتوالى على خط الحدود المصرية ذاته - واصلة إلى قطاع غزة - نافذة إلى قرية رفح المقسومة إلى نصفين بين مصر وفلسطين - ثم لا يستدعى ذلك وقفة لازمة - بالضمير على الأقل.

❖ والطارئ الخامس: أنه جرى عدوان متوحش على حرمة المال العام، وفاحش على أمانة النظام المصرفى، وهذا العدوان المزدوج أهدر الحقوق واستباح القيم، وألحق أشد الضرر بالاقتصاد الوطنى ثم فضلا عن تأثيره على الضامن الأخلاقى والقانونى لهذا الاقتصاد الوطنى ولغيره من شئون المجتمع.

❖ والطارئ السادس: أن هناك بينات تشير إلى أن الدور الثقافى المصرى يتراجع، وذلك مثير للشجن، فقد كان لمصر دائما - حتى بغير العنصر السياسى وأدائه - إسهام ثقافى خلاق وملهم لم تشحب أنواره، ومن الحق أن أضيف أن مكتبة الإسكندرية الجديدة تستطيع أن تكون شعاعا فى سماء رمادية عندما تقدر طاقة الفنار على اختراق كتلة المعمار.

❖ والطارئ السابع: أن ذلك تزامن فى التوقيت مع قضية خلافة تنتظر الحسم، لأن رئاسة الجمهورية الحالية قاربت مدتها الدستورية بعد أربع فترات تناسخت - بدأت فى ١٤ أكتوبر ١٩٨١ وتتصل بإذن الله إلى ١٤ أكتوبر ٢٠٠٥ - ولم يعد ممكنا لهذه الفترات بحكم الطبيعة أن تزيد. ☞



من قبل الثورة - وبعدها - وحتى الآن،
فليس من باب التجاوز أن يقال أن ما عاشه العالم العربى
ظل محصورا فى نوعين أو إطارين من الشرعية ينتظران ثالثهما

ومعنى ذلك أن الغد أحد احتمالين: إما صورة خامسة تتكرر بها الصور على نحو ما، أو أنه ـ إذا صدق الوعد والعهد ـ باب مفتوح لتطور صحى تستقيم به الأمور وتستقر الحقوق.

وكل تلك طوارئ جادة لا تُعالج بلصق الصور، ولا بصخب الاحتفالات.

وفى محصلة ذلك ومغزاه أن مصر الآن ـ وليس غدا ـ فى حاجة إلى رؤية للهوية أمينة ـ وإلى سند فى المرجعية أصيل ـ وإلى شرعية تؤسس لزمن، يستحيل قبوله امتدادا متكررا لشرعية الرجل الواحد، أو لدعاوى حزب يعتبر نفسه ديمقراطيا

بدليل تزاحم الأجنحة داخله، وبشاهد تجمعات تظهر على هامشه ـ تحاول إثبات وجودها ـ دون وسيلة لإبراز ذلك إلا نشر صحف يومية أو أسبوعية!

ومن المحقق أن الوقت حان ـ وزيادة ـ للانتقال إلى الدرجة الأعلى فى مراحل الشرعية ـ أى الشرعية الدستورية والقانونية. لأن مصر بكل ما حققت، تجاوزت ـ وينبغى لها أن تتجاوز ـ مرحلة الشرعية الأبوية التقليدية (وفق مقولة فيبر)، ثم إنها اجتازت كذلك شرعية مرحلة الانتقال وفيها دور الرجل الواحد، وقد جمعت فى تلك المرحلة ألبوم صور يكفيه ما فيه، ولا يحتاج ـ يقينا ـ إلى خامسة، خصوصا إذا لم يكن لهذه الخامسة ما يستدعيها من مطالب ثورة ـ أو حتمية حرب ـ أو مفاجأة اغتيال.

وفى تلخيص مختصر فإن ما جئت لأقوله اليوم ـ ينحصر فى نقطتين:

❖ نقطة تتعلق بما كان ـ مؤداها أن تلك الخمسين سنة لم تكن هوية واحدة أو مرجعية واحدة ـ أو شرعية واحدة، وإنما كانت عددا من التجارب أعطت كلا منها ما عندها بقدر ما استطاعت فى حدود تفسيرها للتاريخ وللعصر، وقد يمكن القول بأن تلك التجارب علّمت وأضافت، وتلك قيمة التجربة.

❖ ونقطة ثانية تتعلق بما هو كائن، ملخصها أن الغد لا يقدر ولا يملك أن ينتظر صورة خامسة تزيد على ألبوم الصور السابقة، لأن تحديات زمان جديد لا تحتمل استراتيجية الانتظار وسياسة التأجيل.

والآن فإن المشاركة فى حوار ـ والتوصل جماعة إلى قرار ـ هو القضية الأعظم التى تستحق أن نقصد إليها ونلتقى حولها فى السنوات الثلاث من فترة الرئاسة الحالية، مُسلمين أنها قضية لا يحق لأحد ـ حكما أو حزبا ـ أن يدعى فيها بوصاية أو باحتكار!

وربما أن الوقت قد حان للاتفاق على عدد من الشواهد لم يعد ممكنا ولا جائزا إنكارها:

أولها: أن مجرد التواجد فى الحكم ليس كافيا فى حد ذاته لإضفاء الشرعية على أى تنظيم أو نظام.

ثانيا: أن القعود الحذر طول الوقت يتحول إلى حالة من الجمود، تهدد مطلب التجدد سواء فى الأفكار أو فى السياسات أو فى حركة تتابع الأجيال ـ دون إقرار بأن الاستقرار يتحقق بالتواصل مع الزمن وليس بتجبيس كل شيء على حاله وكل رجل فى وظيفته!

ثالثا: أن مرجعيات مصر فى الداخل والخارج غير واضحة، وعلى الأقل فإنها ليست مسنودة بقواعد مرئية يمكن قياسها وحسابها ـ ومن ثم التعامل معها بأمان.

رابعا: أن هنالك تناقضا فى الأداء الرسمى بين زهو الكلمة وتواضع الفعل، وهذا التناقض أنتج فجوة مصداقية أوصلت إلى إحباط شبه عام.

وخامسا: أن أوضاع الإقليم وأوضاع العالم تواجه مصر بما لم يعد فى مقدورها تأجيله أو تحويل النظر عنه أو الادعاء فى شأنه سواء أمام النفس أو أمام جماهير تجد نفسها باحثة فى فضاء الآخرين لتعويض فراغ تحسه حولها.

وكل تلك أسباب تستوجب حوارا جادا ـ واسعا ـ عميقا ـ صافيا ـ شفافا خلال السنوات الثلاث الباقية من مدة الرئاسة الحالية، حتى يستطيع الوطن أن يرسم خريطة متجددة لحياته ـ فى إطار موضعه وموقعه ـ متناسبة مع أزمنة متغيرة تحركها أشواق للرُقى غير محدودة.

وتتداعى فى هذا السياق ملاحظة جاء موضعها، وذلك أن همسا شاع أخيرا حول اقتراح بتوريث السلطة فى مصر.

ومن الحق والإنصاف أن يُسجل بأمانة ـ واعترافا بالفضل ـ أن المعنيين بهذا الموضوع مباشرة ـ أبدوا فيه رأيا قاطعا ومسئولا.

فقد عرض رئيس الجمهورية فى كلمات لا تحتمل التأويل، ونبرة حزم لا يظهر عليها تردد ـ نقطتين:

. الأولى: أن مصر بلد يختلف عن غيره من البلدان، فلا هو وطن طائفة أو قبيلة أو عشيرة أو عائلة تلح عليها فكرة توريث السلطة لسبب أو لآخر.

ـ والثانية: أن النظام الجمهورى بطبيعته وفلسفته لا يعرف «توريث السلطة» أيا كانت الحجج.

زاد على ذلك أن الوريث الذى تردد اسمه فى حديث الخلافة أبدى هو الآخر فى هذه المسألة رأيا واضحا وبينا، قائلا بأجلى عبارة أنه لم يفكر ولا يفكر فى أى منصب تنفيذى.

وذلك كلام يليق بالثلاثة: النظام ـ والرئيس ـ والابن ـ (والوطن بالطبع قبل الثلاثة).

وبالرغم مما سلف فإنه فى مناسبة انعقاد المؤتمر الأخير للحزب الحاكم، عاد اللغط مرة أخرى حول ذات الموضوع.

ومع أننى أعرف أن معظم اللغط السياسى فى مصر منفلت، فإنه ـ قد يكون مناسبا ومن باب التَحَوُّط ـ أن يستعيد الكل ما قاله الأب ـ صريحا، وما نفاه الابن ـ قاطعا.

وأُضيف للحق أن كل ما أسمعه عن الابن المعنى بالأمر يثنى عليه ويشهد له ـ إلا أن المحاذير فى مثل هذا الموضوع ظاهرة، وفيها ما يعكس على المستقبل ظلالا ـ لا هى تنفعه ولا هو يحتاجها.

والحقيقة أن التاريخ لا يتواصل ولا يتقدم بالتلكؤ أو التزيد، وإنما يتقدم التاريخ ويتجدد بمقدار ما تستطيع الأمم والشعوب أن تحدد من رؤاها وطموحاتها، وبمقدار ما توظف من مواردها ووسائلها، وبمقدار ما تحشد من فكرها وإرادتها، وبمقدار ما تستوعب من حقائق وأدوات عصرها، وبمقدار ما يتوافر لها على طول الطريق من استنارة وعزم فى إدارة شئون حياتها موصولة بزمانها وعالمها.

وهنا تزيد الحاجة إلى المشاركة فى الحوار والقرار.

وإذا كان لأحد أن يعرض فى هذا الأمر اجتهادا، فلعلى أتجاسر وأقترح أن يكون المنطلق ـ مشروع تصور مستقبلى تطرحه رئاسة الدولة، ويكون من حوله مدار الحوار ومجاله ـ حتى يتوصل إلى هدفه فى فسحة وقت تكفيه:

ـ مشروعا يقدم تصورا لشكل وخطوط وإجراءات الانتقال المقبل بأكبر قدر ممكن من التحديد والتفصيل حتى لا يفاجأ أحد بأن المواقيت حلت على حين غفلة، وأن الضرورات حينئذ تبيح المحظورات!

ـ مشروعا يطرح أسسا وأهدافا وضمانات يتم على أساسها الانتقال ـ (آخذا فى اعتباره أن المطلوب ليس نقلة من رجل إلى رجل وإنما من عصر إلى عصر ـ أى من شرعية مرحلة الانتقال إلى الشرعية الدائمة وبالتالى: من الفرد إلى الدستور ومن الصورة إلى القانون).

ـ مشروعا يستبعد الإحالة إلى الدستور القائم بمقولة أن بنوده فيها ما يتكفل بالمطلوب، لأن نصوص ذلك الدستور فيها من الثغرات أكثر مما فيها من الضمانات.

ـ مشروعا يرسم الطريق ويختار المعلوم، ولا يترك للارتجال ثغرة ينفذ منها المجهول فى زمن لا يتحمل العثرات، ولا ينتظر المصادفات ولا يقبل مناورة تؤخر جواب كل سؤال إلى الدقيقة الأخيرة من الساعة الأخيرة، ثم تضيع الفرص ومعها حق الاختيار.

ـ وبالزيادة على ذلك، مشروعا يعطى للأمة مثالا حيا يقدمه وطن من أوطانها تَعَوَّدَ طول عمره أن يكون مهد البدايات، وراسم الخرائط، وكاشف الطرق.

بقى أخيرا نداء ورجاء:

ـ من فضلكم تذكروا أن الأحلام تختنق داخل الغرف المغلقة كما أن مطلب الديمقراطية لا يدير حواراته ولا يصدر قراراته همسا لا يسمعه الناس!

ـ من فضلكم لا تبخلوا على القلوب والعقول بفرصة يتفتح فيها الأمل يجدد عزما ويولد طاقة فعل.

ـ من فضلكم لا يعرقل أحد أو يعطل بما يكلف غاليا وعزيزا.

ـ من فضلكم لا لزوم لكى يتنازل طلب الحوار إلى جدل مراوغ ـ مستهتر أو مستكبر.

ـ من فضلكم دعوا المستقبل يتحرك بحرية، ودعوا المستقبل يمر بأمان، ودعوا المستقبل يبدأ الآن قبل أن يفوت الأوان.

شكرا لكم ـ وسلمتم على الدوام. ▩



الغد لا يقدر ـ ولا يملك أن ينتظر صورة خامسة تزيد على ألبوم الصور السابقة لأن تحديات زمن جديد لا تحتمل استراتيجية الانتظار وسياسة التأجيل

استقلال واجب
القضاء.. فى

طارق البشرى

[١]

عندما تجلس على منصة قضاء، ويقف أمامك الخصوم بمنازعاتهم يتجادلون ويتخاصمون، وكل يرد على الآخر حجته، تعرف أنهم لم يتفقوا على شيء قط إلا أنهم يطمئنون إليك، وأنهم يثقون فى أنك بالاقتناع وحده، ستحكم لأحدهما بما يدعيه على الآخر. وإذا أمكن لك أن تستطرد فى التأمل، فستعرف أنهم لولا ثقتهم فى حيدتك واستقامتك، ولولا ثقتهم فى قدرتك على أن تحكم بما تقتنع بأنه الحق والصواب، لما أتوا إليك.

والسؤال الآن هو: ما الذى يحدث إذا لم يأتوا إليك، والحال أن لكل منهم حقاً يدعيه لنفسه أو أنه يشكو من ظلم يطلب رفعه عنه، وهو فى حال ضرورة أو احتياج لاقتضاء حق يدعيه أو لرفع ظلم يعانى منه، وأنه يتكبد فى سعيه إليك جهداً ومالاً وقلقاً وانتظاراً. الذى سيحدث هو أنه سيسعى لاقتضاء حقه بيديه، أى أنه سيلجأ للعنف إن عاجلاً أو آجلاً.

من هنا يظهر أن القضاء المستقيم والمقتدر هو أساس لا يمكن الاستغناء عنه ولا بديل عنه، لكى تحل الخصومات داخل الجماعة الحضارية بالوسائل السلمية المشروعة، لأنه به وحده تتحول الخصومات من وسائل استخدام العنف لحماية الحقوق أو لاقتضائها إلى وسائل استخدام الحجج والأسانيد الحقوقية التى تعتمد على أحكام وقواعد معروفة سلفاً. وإذا انحسرت هاتان الصفتان عن القضاء وعم العلم بانحسارهما، فليس معنى ذلك أن ظلماً سيشيع ولا أن حقاً سيهضم، وإنما معناه أن أساساً من أسس تحضر الجماعة قد انهار.

إن الأمن الاجتماعى يحتاج إلى نظام قضائى مستقيم ومقتدر، وهذا النظام ليس مطلوباً فقط لكفالة الحقوق ورد المظالم، إنما هو مطلوب للأخطر وهو كفالة انتظام الجماعة فى شئونها وحفظ القدر الكافى لتماسكها واطراد سيرها، والأمر هنا أمر سمعة واطمئنان وثقة، بالمعانى الجماعية لهذه الكلمات، ويبقى لدى أفراد الجماعة الاستعداد للتحاكم ما بقيت هذا المعانى مستقرة حسب الغالب من الحالات.

وإن تنظيماً مؤسسياً أو مسلكاً سياسياً يعمل على أن يفرغ العمل القضائى من المحتوى الخاص بهذه المعانى مستغلاً أشكالها وهياكلها الخارجية ومستصحباً صواب ما اتصف به فى الماضى، إن تنظيماً ومسلكاً يعمل على ذلك، قد ينتفع فى المدى القصير بهذا الصنيع، ولكنه يكون قد هد من أسس البنية التحتية للجماعة الحضارية، ويكون قد هدم من أسس نظام الحكم ذاته، إنه يكون مثل التاجر الذى أساء استغلال الاسم التجارى بوضعه على «بضاعة» فاسدة، ولا شك أن من يبيع أثاث بيته، سيعيش شهوراً فى رغد، ولكنه لن يجد بعد ذلك حصيراً يجلس عليه، إلا أن يكون رسم نفسه أنه لن يعيش فى بيته إلا شهوراً، ثم من بعده يكون الطوفان. وهنا يتعين على الجماعة أن تنهض لتدافع عن مقوماتها.

[٢]

من أجل ذلك يثور موضوع الإصلاح القضائى، جنباً إلى جنب موضوع الإصلاح الديمقراطى، بل لعله يشغل مكاناً فى القلب من هذا الإصلاح الأخير. وإذا تأملنا فى تاريخنا فترات نهوض القضاة للدفاع عن النظام القضائى، نلحظ أنهم نهضوا فى الغالب للدفاع عن أسس الوظيفة القضائية، وذلك فى فترات كانت النظم السياسية فى ضائقة وانسدت عليها المنافذ فلم تجد إلا البنية الأساسية لبناء الدولة تقتلع من أعمدتها ما تضرب به الآخرين، حدث ذلك فى ١٩٥١ - ١٩٥٢ وفى ١٩٦٨ - ١٩٦٩، وهو يحدث الآن على مدى السنوات الأخيرة.

والشاهد أن نظم الحكم عندما تكون قوية فيما تقدمه للناس من سياسات ناجحة ونافعة، وفيما تستند إليه من مسوغات شرعية سياسية وثقافية، وفيما تشيعه لدى الناس من روح الأمل والرجاء المبنى على إرهاصات مقنعة، عندما تكون كذلك تتعامل بثقة واطمئنان وبقدر من الشجاعة، أما عندما تفقد هذه القوة، وبخاصة عندما تفقدها فى كل المجالات السابقة، إنما تكون على درجة عظيمة من الاحتياج لأن تستر سياساتها وممارساتها وأفعالها وراء آخرين، والقرار السياسى يبحث عن وجوه التخفى وراء قرارات قضائية أو رؤى فنية فى أى مجال اقتصادى أو غيره. وهى تبحث عن المؤسسات المشتهرة بالحياد والاستقلال وتعمل على أن تتسرب من خلالها وهكذا. وهذا بالدقة ما حدث ويحدث فى الفترات التى أشرت إليها آنفاً، وهو ما يدفع رجال القضاء أن ينهضوا للتمسك باستقلالهم وبثوابت تقاليدهم، كلما أدركوا أنهم يراد بهم أن يستغل ظاهر حيادهم الوظيفى لتحقيق أهداف سياسية أو اجتماعية منحازة لصالح القابضين على الحكم.

ولكى نفهم الأمر جيداً بشأن القضاء أو بشأن أية مؤسسة ذات أثر فى الحياة الاجتماعية، فإننا نتراوح بين الصورة النموذجية المثالية التى ترسم نظرياً لهذه المؤسسة حسب المأمول من أدائها، وبين الصور الواقعية التى تتراءى فى الممارسة الفعلية النثرية، والتى تتفاوت فيها درجات الصواب والخطأ ويتداخل فيها الصحيح مع الناقص. ونحن عندما نتكلم عن مؤسسات تعمل فى الواقع المعيش، علينا أن نضع النموذج المثالى بوصفه غاية تستهدف، وأن نضع بجواره ما ندركه من أحوال الحياة المعيشة.

وبمراعاة النظر الواقعى ومع تفادى عدم السقوط فى النظرة المثالية المجردة وعدم الحكم على حال نسبى بمعايير مطلقة، فإنه يظل أن الهيئة القضائية مصمم بناؤها المؤسسى بما لا يؤدى إلى واحدية فكرية ولا واحدية فى اتخاذ القرار، لأن المحاكم وحدات وحدات، تتشكل آحاداً أو أثلاثاً أو أخماساً، أو أكثر من ذلك، وكل وحدة منها ذات اتصال مباشر بالقانون الذى تطبقه وذات استقلالية فى فهمها للقانون وتفسيرها لنصوصه واستخلاص الأحكام منها.. وهى ذات اتصال مباشر أيضاً بالوقائع التى تعرض عليها وتحقيقها واستخلاص الدلالات الواقعية منها، وذات استقلال أيضاً فى هذا النظر. وأقصد بالاتصال المباشر وبالاستقلال أن فعل الجهة القضائية صاحبة التصرف والقرار هو فعل منسوب إليها وحدها، لا يأتيها من خارجها.

هناك طبعاً التسلسل الهرمى فى الوظائف، ولكنه لا يعتبر خضوعاً رئاسياً ملزماً، وهناك أيضاً الأثر المعنوى الكبير للمحاكم الأعلى على المحاكم الأدنى، واحتمالات إلغاء الأحكام الأدنى، وهناك ضغوط معنوية، وتأثيرات، ولكن كل ذلك لا ينفى وجود التعددية فى المحاكم بكثرة كثيرة، وما يعنيه ذلك من أن القبضة المركزية لا يمكن أن تتواجد بمثل ما توجد فى المؤسسات ذات البناء الهرمى والتى تقوم بأصل تكوينها النموذجى على مبدأ الخضوع الرئاسى وتنفيذ الأدنى لقرارات الأعلى.

والحاصل أيضاً أن نظام القضاء لا يقيم المحاكم على أساس أن ثمة مبادرة وحركة تلقائية تنبعث من هذه المحاكم، بمثل ما نجد لدى الهيئات الإدارية والتنفيذية، إن هذه الهيئات الإدارية هى نظم مؤسسية تنفيذية تقوم لتحقيق أهداف معينة وتبدأ بإعداد خطط التحرك وتشرع بتلقائيتها الداخلية فى بعث الحركة التى تسهم فى تحقيق ما وجدت من أجله، سواء كانت هيئات ذات

إن تنظيماً أو مسلكاً سياسياً يعمل على أن يفرغ العمل القضائى من محتواه قد ينتفع فى المدى القصير بهذا الصنيع.

ومخاطر مؤكدة

مفترق الطرق

أهداف اجتماعية أو اقتصادية أو خدمية أو أمنية. أما القضاء فهو لا يتحرك إلا إذا تقدم إليه مدع بدعواه، هو كالطبيب لا يقترب منك إلا إذا طلبته وتنتهى وظيفته لديك فور أن تنهيها أنت. وهذا الوضع يزيد إمكانات الاستقلال لدى كل وحدة قضائية، ويزيد به تراخى تأثير المحاكم الأعلى على المحاكم الأدنى، لأنه فى أصل وظيفته لا يمكن أن تصدر إليه أوامر من أعلى مهما كان فى أدنى درجات السلم القضائى.

[٣]

إذا نظرنا إلى هيئات السلطة التنفيذية فى مصر، نلحظ أنها فى قمتها الإدارية تتكون من وزارات، والوزارات يمكن تصنيفها على أساس أن ثمة ما يسمى بالوزارات السيادية التى تعبر عن جوهر سلطة الدولة مثل الجيش والشرطة والمالية والخارجية. وثمة وزارة خدمية مثل التعليم والصحة وغيرها، وثمة وزارات اقتصادية مثل الصناعة والتجارة والزراعة والنقل وغيرها.. ولكن ثمة نوعاً رابعاً لا تمارس به الدولة سيادتها التقليدية ولا يشرف ولا يدير خدمات ولا اقتصاداً، وإنما هو ما وجد إلا لتمارس به مؤسسة الدولة المركزية سيطرتها وسلطانها على الهيئات التى كان يتعين أن تقوم على استقلال نسبى عن الدولة وأن تكون ذات إدارة ذاتية تصدر عنها ومن داخلها ولا تخضع خضوعاً رئاسياً مباشراً لسلطة الدولة. وهى وزارات تمد بها الدولة المركزية سلطانها وسيطرتها على هيئات ومؤسسات يتعين أن تكون مستقلة عنها.

ومن هذه الوزارات، وزارة العدل، التى عهد إليها أن تكون هى همزة الوصل بين السلطة التنفيذية وسلطة القضاء كما سيجىء إن شاء الله.. ومنها أيضاً وزارة التعليم العالى التى تشكل مؤسسة الإشراف المركزى على الجامعات المصرية، والجامعات يفترض أن تكون هيئات علمية وبحثية ودراسية مستقلة فى إدارتها الذاتية عن التشكيل المركزى لإدارة السلطة التنفيذية، ذلك أن الإدارة للعملية العلمية والبحثية التى تقوم بها الجامعات مع التدريس للطلبة، هذه الإدارة يفترض أن يتهيأ لها قدر من الاستقلال يمكن لها أن تنفصل عن التوجهات السياسية اليومية للدولة، لأن الفكر والبحث - مهما وجب ارتباطه بالواقع والاحتياجات العملية إلا أنه بوصفه فكراً وبحثاً - إنما يتعامل مع الأسس والجذور واعتبارات الواقع بعيدة المدى، ولا ينبغى أن يخضع لأحوال السياسة الجارية قصيرة المدى وما تجنح إليه من ذرائعية. وهذا ما يفرق بين الجامعات وبين المدارس العليا، ومع ذلك فإن الإدارة المركزية للدولة أخضعت الجامعات لسيطرتها التنظيمية ولإدارتها المباشرة من خلال وزارة التعليم العالى، فصارت جامعاتنا بذلك مدارس عليا.



وثمة وزارة الأوقاف، وهى نشأت أولاً لإدارة الأوقاف التى يكون ناظرها وفق شرط الواقفين هو ولى الأمر، ثم بعد ذلك صدر من القوانين ما يجعلها ناظرة على كل الأوقاف الخيرية القديمة واللاحقة، ومكنتها القوانين من أن تتصرف فى أعيان الأوقاف وتستبدل بها غيرها، وأن تغير وتعدل من مصارف الوقف الخيرى دون التزام بما نصت عليه حجج الواقفين. وصار ذلك نوعاً من «تأميم» الأوقاف وإخضاعها لسلطة الدولة المركزية بعد أن كانت من هيئات التمويل الأهلية. ثم أضيف إلى ذلك أن صدر من القوانين والنظم ما مكن الوزارة من سلطة ضم المساجد الأهلية التى ينشئها الأفراد والمواطنون، سلطة ضمها إلى الوزارة لكى تكون هى من يديرها ويعين الخطباء والأئمة فيها، وسيطرت بذلك على هذا النشاط الأهلى الدينى.

وثمة وزارة الشئون الاجتماعية، وهى من يشرف على كل الجمعيات الأهلية التى تنشأ بموجب قانون الجمعيات والمؤسسات الخيرية، ولها من السلطات فى التسجيل ومتابعة أنشطة الجمعيات وقراراتها وحلها ودمجها ما يؤول به الإشراف إلى حد السيطرة بموجب سلطة وصائية رسم القانون أساليبها. ومثل ذلك الإشراف الوزارى على الجمعيات التعاونية، وتتوزع الوصاية الوزارية عليها حسب نوع نشاطها. فالجمعيات الزراعية تشرف عليها وزارة الزراعة، والجمعيات الإنتاجية تخضع لإشراف وزارة الصناعة، والجمعيات الاستهلاكية تخضع لوزارة التموين والتجارة الداخلية، وجمعيات الإسكان تخضع لوزارة الإسكان والجمعيات التعليمية تخضع لوزارة التربية والتعليم.

وثمة وزارة العمل، وكانت جزءاً من وزارة الشئون الاجتماعية ثم استقلت بوزارة خاصة، وهى من يشرف على كل الأنشطة العمالية والمؤسسات العمالية والنقابات العمالية، بدءاً من تحديد النطاق النوعى لكل نقابة عمالية عامة إلى التغلغل فى شئون الاتحادات النقابية العمالية إلى ملاحظة اللجان النقابية.

ويبقى بعد ذلك من كافة الأنشطة المؤسسية الدستورية والأهلية، مجلسا الشعب والشورى اللذان يمثلان السلطة التشريعية، وهذان ينبغى أن يكونا بالانتخاب وأن يكونا مستقلين، لما لهما من مظهر أن السلطة التنفيذية تخضع لهما ولما يصدرانه من قوانين تلزمها، كما أن لهما وجهاً من وجوه الرقابة التى يفرضانها دستورياً عليها. ومن هنا نلحظ أن السلطة التنفيذية تنشئ حزبها الذى تخوض به الانتخابات التى تشرف عليها وتسيرها السلطة التنفيذية بأدواتها الأمنية والاقتصادية والإعلامية القابضة، ومن ثم تنشأ المؤسستان التشريعيتان عن طريق حزب الحكومة بما يضمن سيطرتها عليها.

وقد قصدت أن أوضح الصورة العامة وآليات العمل المؤسسى وما تلتقى به الخيوط كلها القابضة على أعنة السلطة فى الدولة والمسيطرة على قراراتها. وذلك ليبدو الوضع بالنسبة للمؤسسة القضائية فى هذا الإطار العام.

[٤]

نخطئ إذا قلنا أن وزارة العدل، لم يكن لها تداخل مع القضاء المصرى قبل العقود الثلاثة الأخيرة، أو قبل العقود الخمسة الأخيرة. لقد كان لوزارة العدل وجه إشراف على القضاء وتداخل فى إدارته منذ تقرر النظام الوزارى الحديث فى مصر من سنة ١٨٧٨ ومنذ نشأت «المحاكم الأهلية» بنظامها الحاضر فى ١٨٨٣. ولكن مصر لم تكن تتمتع بنظام دستورى يفرق بين سلطات التنفيذ والتشريع والقضاء إلا بعد ثورة ١٩١٩ مع دستور ١٩٢٣. وفى ظل هذا الدستور بقيت السيادة التشريعية لمصر ناقصة بسبب الامتيازات الأجنبية حتى عقدت اتفاقية منترو فى ١٩٣٧، وبقيت السيادة القضائية ناقصة بسبب وجود المحاكم المختلطة حتى ١٩٤٩.

ومع ذلك كانت لائحة ترتيب المحاكم الأهلية فى سنة ١٨٨٣ تقرر عدم قابلية مستشار محكمة الاستئناف للعزل (دون القضاة جميعاً) ثم فى سنة ١٨٨٤ أوقف العمل بهذا الحكم حتى ١٩٠٤، فعاد مطبقاً من جديد. ثم صدر دستور ١٩٢٣ مقرراً الأصل العام من حيث عدم قابلية القضاة للعزل حسب الترتيب التشريعى الذى يصدر ومقرراً استقلال القضاة وأن لا سلطان عليهم فى قضائهم لغير القانون، وأنه ليس لأية سلطة حكومية التدخل فى القضايا (المواد من ١٢٤ إلى ١٢٧). وما إن ألغيت الامتيازات الأجنبية فى سنة ١٩٣٧ حتى أثير موضوع إصدار قانون استقلال القضاء فى شهر يوليو ١٩٣٨ وذلك عند نظر البرلمان لميزانية السنة التالية. وصدر القانون بعد ذلك فى ١٩٤٣. كما أن مجلس القضاء الأعلى بدأ تشكله من سنة ١٩٣٨.



ومن المفارقات، أن سلطة

ولكنه يكون قد هدم من أسس البنية التحتية للجماعة الحضارية، ويكون قد هدم من أسس نظام الحكم ذاته.

وزارة العدل على القضاء وإدارته حتى قبل دستور ١٩٢٣، فى عهد الخديوين، كانت أوهن مما صارت إليه فى العقود الأخيرة من القرن العشرين. وذلك لأن هيئات المجتمع الأهلى فى الزمان القديم كانت أقوى نسبياً مما آلت إليه فى هذه الفترة المعيشة الآن، ولأن السلطة التنفيذية كانت فى الماضى الأبعد أخف مما صارت إليه من بعد. ويكفى أن نعرف أنه خلال خمس وسبعين سنة عين لوزارة الحقانية أو العدل ستون وزيراً من (١٨٧٨ - ١٩٥٣)، وأنه خلال ثلاثين سنة من هذه المدة وعلى طول مدة دستور ١٩٢٣ عين ثمانية وثلاثون وزيراً بمتوسط أقل من سنة واحدة لكل وزير. ولم تزد مدة أى منهم عن سنتين. وإن كثرة التداول تمنع شخصنة الوظائف وتعوق نمو ملكات الاستبداد. وأنه فى ربع القرن الأخير حتى اليوم تولاها وزيران فقط، فى فترة حكم سياسى تشخصنت فيها أغلب الوظائف القيادية واندمجت فيها الوظيفة فى شخص شاغلها.

ولا أظن أن هيمنة فعلية على القضاء المصرى من قبل السلطة التنفيذية ممثلة فى وزارة العدل قد بلغت القدر الذى بلغته فى العقدين الأخيرين، وفى ظل العمل بقانون السلطة القضائية الذى صدر برقم ٤٦ لسنة ١٩٧٢ ولا يزال معمولاً به. ذلك أن وزارة العدل سلكت فى هذه الفترة فى إدارة القضاء المصرى مسالك فعلية تعتمد على الاختيارات الشخصية، وعلى تأليف قلوب من يجدى معهم هذا الصنيع، وبالوسائل المؤثرة ذات الفاعلية بالنسبة لمن يكون مهيأ لذلك، ومن المداخل ذات الأثر بالنسبة لكل صاحب مدخل. وكل ذلك يراعى فيه المواقع الوظيفية القضائية ذات الأهمية الخاصة بحكم ما يكون مناطاً بها من صلاحيات فى الاختصاص الوظيفى تجعل لهذا الموقع أهمية خاصة فى نظر قضايا معينة أو استخدام سلطات ولائية ذات اعتبار مؤثر فى أنشطة نقابية أو انتخابية أو أمنية وجنائية أو غير ذلك.

إن الخيارات التى تمارس فى هذا الشأن إنما يمارسها وزير العدل بما خوله القانون الحالى من سلطات واسعة فى إدارة العملية القضائية، وهذه السلطات هى ما يتمثل فيها تسلط السلطة التنفيذية على القضاء.

لقد صارت السلطة التنفيذية ذات سيطرة منفردة على مقدرات كل شىء، وصارت قيادتها الفردية المتفردة ذات إرادة مطلقة، وصارت وزارة العدل من الارتباط اللصيق بقيادة الدولة السياسية ذات الوجود الدائم المسيطر، وصار لدى الوزارة من القدرات الإدارية والمالية وأنماط الخبرات فى السيطرة وتأليف القلوب، صار كل ذلك مما يشكل خطراً حالاً على أعمال القضاء، وصار أكثر من ذلك مما يشكل خطراً على مستويات التقاليد والأعراف والمستويات العلمية والفنية الرصينة التى كان بلغها القضاء بتراكم الجهود لأكثر من قرن من الزمان.

[٥]

إن دستور ١٩٧١ نص على أن «السلطة القضائية مستقلة»، وعلى أن «القضاة مستقلون لا سلطان عليهم فى قضائهم لغير القانون، ولا يجوز لأية سلطة التدخل فى القضايا أو فى شئون العدالة»، كما نص على أن «القضاة غير قابلين للعزل»، وهى نصوص تماثل وتزيد على ما كان نص عليه دستور ١٩٢٣، بالنسبة لاستقلال القضاء وحصانة القضاة فى عملهم القضائى. ولكن قانون السلطة القضائية الذى صدر فى ١٩٧٢ لم يتوخ الطاعة لأحكام الدستور فيما رسمه لقنوات العمل وتوزيع السلطات داخل الهيئة القضائية. أكاد أقول أنه لم يلتزم بالنزاهة فى هذا الشأن، لأنه أقام من وزير العدل، وهو من السلطة التنفيذية، مديراً للقضاء فى الكثير من جوانب هذا العمل، ولا يجادل أحد فيما أظن أن إدارة العمل هى جزء من «التدخل فى شئونه»، ولا أن وزارة العدل هى فرع من السلطة التنفيذية.

ونحن إذا قرأنا قانون السلطة القضائية بتسلسل مواده، نجد أن المادة ٥ تجعل تشكيل المكتب الفنى لمحكمة النقض بقرار من وزير العدل (بعد موافقة مجلس القضاء وترشيح رئيس النقض) بمعنى أن له سهما فى اختيار هيئة المكتب فلا يكفى موافقة مجلس القضاء، والمادة ٦ تجعل قرار وزير العدل هو من يحدد مكان انعقاد دائرة لمحكمة الاستئناف فى غير مقرها الأصلى (بعد طلب رئيس المحكمة أو أخذ رأى الجمعية العامة)، والمادة ٩ تجعل وزير العدل هو من يندب رئيس كل محكمة من المحاكم الابتدائية من بين مستشارى محكمة الاستئناف (بعد أخذ رأى مجلس القضاء الأعلى) ولمدة سنة تجدد، وهذا من أخطر السلطات التى تتيح لوزير العدل الهيمنة على المحاكم الابتدائية كلها، فهو من يختار لها رئيسها ولا تشاركه فى ذلك الجمعية العامة للمحكمة التى ينتمى إليها المستشار المختار، ورأى مجلس القضاء الأعلى استشارى فقط يمكن مخالفته، والندب لمدة سنة قابلة للتجديد برغبة الوزير، مما يشكل ضغطاً مستمراً على شاغل الوظيفة.

والمادة ١٢ تجعل قرارات تخصص القضاة بيد وزير العدل بعد موافقة مجلس القضاء، والمادة ١٣ تجعل وزير العدل هو من ينشئ المحاكم الجزئية بعد موافقة الجمعية العامة للمحكمة الابتدائية. والمادة ٢٤ تجعل وزير العدل هو من يشكل النيابة العامة لمحكمة النقض بعد موافقة مجلس القضاء الأعلى. والمادة ٢٦ تنص صراحة بالنسبة للنيابة العامة «رجال النيابة تابعون لرؤسائهم بترتيب درجاتهم ثم لوزير العدل» فهى تجعل وزير العدل متبوعاً بنص القانون من كل أعضاء النيابة العامة.



وبالنسبة للجمعيات العامة للمحاكم فهى حسب حكم المادة ٣٢ تنعقد كل منها بدعوة من رئيسها أو ثلث أعضائها «أو بناء على طلب النيابة العامة» التابعة لوزير العدل، وجمعيات المحاكم الابتدائية تبلغ قراراتها للوزير وله أن يعترض عليها ويعيدها إلى الجمعية التى أصدرتها فيما «لا يرى الموافقة عليه من قراراتها لإعادة النظر فيها»، وله أن يعرض الأمر بعد ذلك على مجلس القضاء الأعلى (المادة ٣٦).

والمادة ٤٤ تنص على أن رئيس الجمهورية هو من يعين رئيس محكمة النقض «بعد أخذ رأى مجلس القضاء الأعلى»، ولا قيد على رئيس الجمهورية فى ذلك إلا أن يكون من يختاره رئيساً هو من بين نواب محكمة النقض وهم عشرات من المستشارين. ورأى المجلس الأعلى للقضاء بالنسبة له رأى استشارى لا يلزمه.

وهو حكم عجيب لأن تعيين من دون رئيس النقض سواء كانوا نواب رئيس النقض أو رؤساء محاكم الاستئناف يشترط فى القرار الجمهورى الصادر بتعيين أى منهم أن يكون «بعد موافقة مجلس القضاء الأعلى» أى أن المجلس يشارك رئيس الجمهورية فى الاختيار. ومن جهة أخرى فإن الأصل والأوفق أن تكون الجمعية العامة لمستشارى أى محكمة هى من يختار رئيس المحكمة ونواب الرئيس وليس مجلس القضاء الأعلى الذى يتشكل من سبعة رؤساء من القضاء كله.

ونلحظ أن المواد ٤٥، ٧٨، ٧٩، ١٢١ تقضى بأن إدارة التفتيش القضائى للمحاكم وإدارة التفتيش القضائى للنيابة العامة يتشكل كل منها فى وزارة العدل بحسبانهما من أجهزة الوزارة، ومن المعروف أن إدارات التفتيش هى من يتابع أعمال القضاء ورجال النيابة وهى من يضع التقارير عنهم وغير ذلك، مما له شأنه وأثره البعيد بالنسبة لرجال القضاء والنيابة.. وهو ما يعطى وزارة العدل نفوذاً هائلاً على أعضاء السلطة القضائية. ولوزير العدل أن يندب من مستشارى الاستئناف إلى وظيفة مستشار بالنقض ومن محكمة استئناف إلى محكمة استئناف أخرى ومن محاكم الاستئناف إلى النيابة العامة، وكذلك قضاة المحاكم الابتدائية.

ووزير العدل هو من يصدر قرارات تنظيم العمل القضائى فى أثناء الإجازات، وهو من يصدر لائحة تنظيم التفتيش القضائى، وهو من ينظم الخدمات الصحية والاجتماعية للقضاة، وله دوره فى إجراءات تأديب القضاة، والمادة ٩٣ تنص «لوزير العدل حق الإشراف على جميع المحاكم والقضاة» وله حق الإشراف والرقابة على أعضاء النيابة العامة (المادة ١٢٥).

[٦]

هذه هى مجمل السلطات التى يملكها وزير العدل الشاغل للمنصب السياسى الحزبى والذى يمثل السلطة التنفيذية، هذه هى مجمل سلطاته على السلطة القضائية فى القسم الأعم الأغلب منها التى أوجب الدستور أن تكون

من يبيع أثاث بيته، سيعيش شهوراً فى رغد، ولكنه لن يجد بعد ذلك حصيراً يجلس عليه،

سلطة مستقلة، وهذه هى سلطاته على القضاة الذين أوجب الدستور ألا يكون ثمة سلطان عليهم لغير القانون وألا يجوز التدخل من أية سلطة فى شئون العدالة التى يمارسونها. وهذا هو ما يضع أمام القارئ غير المتخصص فى القانون ولا فى شئون القضاء، يضع أمامه الصورة التى استوجبت من القضاة قومتهم التى نراها الآن.

ومطالب رجال القضاء فى هذا الشأن هى أن يخلى بين السلطة التنفيذية وبين شئون القضاء، وأن جمعياتهم العمومية هى صاحبة الشأن فى اختيار الرؤساء الذين يصدر بتعيينهم من بعد قرار من رئيس الدولة، وأن تكون إدارة شئونهم والتفتيش وغيره تابعة لمجلس القضاء الأعلى، وهى جميعاً مطالب ليست جديدة إنما درست وأعدت مشروعات قوانين بها، تعديلاً لقانون السلطة القضائية، ووضعت لها الشروح والمذكرات الإيضاحية على مدى السنوات العشرين الماضية، ومن ذلك ما أثاره مؤتمر العدالة فى سنة ١٩٨٦ وما تثيره دائماً مجلة القضاء والدوريات التى تصدر عن نادى القضاة طوال هذه المدة.

والحاصل أن ما زاد الأمر أهمية الآن، أنه بعد أن حكمت المحكمة الدستورية فى يوليو ٢٠٠٠ بوجوب الإشراف الكامل لأعضاء الهيئات القضائية على العمليات الانتخابية وإلا تكون باطلة بموجب حكم الدستور وتكون القوانين المخالفة لحكم الإشراف الكامل قوانين باطلة أيضاً. بعد ذلك جرت انتخابات ٢٠٠٠ لمجلس الشعب، دون أن يتمكن القضاء من إسباغ ولايته الكاملة على العملية الانتخابية، وظهر بها ما ظهر من عوار، وكشف هذا العوار كثرة الطعون الانتخابية التى قدمت إلى محكمة النقض وإلى محكمة القضاء الإدارى أثناء عملية الانتخاب وبعدها، وما أسفرت عنه أحكام النقض فى هذا الشأن. وقد أقبل موسم انتخابات جديد فى نهاية ٢٠٠٥، يلتقى فيه انتخاب رئيس الجمهورية مع انتخابات مجلس الشعب. ومن ثم نهض رجال القضاء، بدافع من حرصهم على تأدية واجبهم الدستورى فى الإشراف الحقيقى على الانتخابات، إلى المطالبة بالضمانات والإجراءات التى تمكنهم من القيام بهذا الواجب، تعديلاً لقانون مباشرة الحقوق السياسية وما رسم من إجراءات وتعديلاً لقانون السلطة القضائية.

وفى نهاية هذا الحديث أود أن أوضح أربعة أمور يمكن أن نعتبرها هوامش على هذا الحديث:

أولاً: إن قانون مجلس الدولة المعمول به الآن كان صدر برقم ٤٧ لسنة ١٩٧٢. ومجلس الدولة بنص دستور ١٩٧١ يعتبر هيئة قضائية مستقلة طبقاً للمادة ١٧٢، ويختص بنوع من المنازعات هى المنازعات الإدارية والدعاوى التأديبية، ونص قانون المجلس فى مادته الأولى على أنه هيئة قضائية مستقلة، ولم يرد به أى حكم يجعل لوزارة العدل دوراً فى الإدارة أو الإشراف عليه. والسلطات الإدارية الخاصة بالمحاكم وبالدوائر القضائية وبالنقل والندب وغير ذلك موزعة على أجهزة رئاسية فى المجلس، سواء رئيس مجلس الدولة أو المجلس الخاص للشئون الإدارية الذى يتشكل من أقدم سبعة أعضاء بالمجلس، أو الجمعيات العمومية للمستشارين ولأعضاء المجلس. وما أكثر الجمعيات العمومية بالمجلس، ثمة جمعية عمومية لمستشارى المحكمة الإدارية العليا وثمة جمعية عمومية لمحكمة القضاء الإدارى، وثمة جمعية عمومية للمحاكم الإدارية، وجمعية عمومية للمحاكم التأديبية وجمعية عمومية لقسمى الفتوى والتشريع.

ثم هناك الجمعية العمومية لمجلس الدولة والتى تتشكل من جميع المستشارين بالمجلس بالأقسام المختلفة، وهذه الجمعية العامة أو «الجمعية الأعم» هى من يرشح رئيس المجلس ونواب رئيس المجلس ووكلاء المجلس ويعينون جميعاً بقرار من رئيس الجمهورية، وترتد أقدمياتهم إلى تاريخ ترشيح الجمعية العمومية، كما أنها الجمعية التى جرى العمل على أن تدعى للاجتماع للنظر فى الشئون العامة التى تهم المجلس، وهى الجمعية التى تصدر اللائحة الداخلية المنظمة لعمل المجلس.

وكل جمعيات المجلس تجتمع بطلب من رئيسها أو بناء على طلب خمسة فقط من أعضائها بالنسبة للجمعية العامة للمستشارين، أو بناء على طلب ثلاثة فقط من أعضائها بالنسبة للجمعيات الأخرى. وكل ذلك دون أن يكون له أى علاقة بوزارة العدل. إلا أن مجلس الدولة يمثل بالعضوين الأقدم منه فى المجلس الأعلى للهيئات القضائية الذى يرأسه نظرياً رئيس الجمهورية وينوب عنه دائماً وزير العدل.

ومن ذلك يبين أن لدينا فعلاً نموذجاً لتنظيم قضائى منفصل تماماً عن إدارة وزارة العدل، وما أحرى أن يكون ذلك شأن التنظيم القضائى الأم «الذى يشمل تسعة أعشار الهيئة القضائية». ومجلس الدولة لا يمكن أن يكون مستقلاً وحده دون التنظيم القضائى الشامل.

ثانياً: من بين ما يطالب به القضاة فى تعديل قانون السلطة القضائية هو أن يتضمن القانون أحكاماً تتعلق بنادى القضاة، ليكون النادى من بين الهيئات التى ينظمها هذا القانون، بحسبانه الهيئة التى تجمع جميع رجال القضاء والنيابة العامة، وباعتبار أن النادى من الناحية التاريخية والممارسة الواقعية هو من تتشخص فيه روح انتماء القضاة إلى جماعتهم القضائية، وهو ما كان دائماً منذ أربعينيات القرن العشرين يشكل الحارس الفعلى لاستقلال القضاة ولحمايتهم من أية غوائل تهب على القضاء من خارجه. والحقيقة أن نادى القضاة كان دائماً يقوم بهذا الواجب فى حراسة العمل القضائى وفى الوقت نفسه لا يتدخل فى إدارة شئون المحاكم مما تختص به هيئات إدارة هذا الشأن وجمعياته العمومية للقضاة ومجلس القضاء الأعلى.



وأتصور أن ثمة أنشطة لوزارة العدل ذات فوائد جمة للقضاء والقضاة، وأنه إن تضمن القانون نصوصاً عن النادى وصار من هيئات السلطة القضائية بنص القانون صراحة، فيمكن أن يكون لهيئة النادى دور كبير بشأن هذه الأنشطة مثل مراكز الدراسات القضائية وهيئات الخدمات الاجتماعية والصحية بطريق الاشتراك فى التمثيل أو غير ذلك. وخاصة أن من يشرف على هذه الأنشطة فى وزارة العدل هم من كبار رجال القضاء وعلمائه ومنهم من كان من أبرز شخصيات نادى القضاة، وأن تداخل الخبرات والشخصيات هنا وثيق وحميم حسبما أعرف من خبرتى الخاصة فى هذا الشأن.

ثالثاً: إن نص المادة ٨٨ من الدستور هو ما يوجب أن يكون الإشراف على الانتخابات من أعضاء الهيئات القضائية. والهيئات القضائية المسماة بذلك فى الدستور ذاته هى «المحاكم» التى تكون السلطة القضائية طبقاً للمادة ١٦٥، ومجلس الدولة حسبما ورد بالمادة ١٧٢، والمحكمة الدستورية حسبما ورد بالمادة ١٧٤ من الدستور أيضاً. وعلى هذا الأساس كانت اتجهت أحكام لمحكمة النقض فى الطعون الانتخابية لمجلس الشعب إلى أن الفهم الدستورى يوجب ألا يشارك فى هـذا الإشراف من لم يكن عضواً بواحدة من هذه الهيئات الثلاث.

إلا أن وزارة العدل عرضت على المحكمة الدستورية طلب تفسير تشريعى لماهية الهيئات القضائية وهل تقتصر على الهيئات الثلاث المذكورة آنفاً أم تشمل أيضاً محامى هيئة قضايا الدولة وأعضاء هيئة النيابة الإدارية، فانتهت المحكمة الدستورية فى ٧ مارس ٢٠٠٤ إلى ترجيح التفسير الموسع والذى يضم هاتين الهيئتين بموجب عضويتهما بالمجلس الأعلى للهيئات القضائية طبقاً للقانون الذى حدد هذه العضوية. إذ كان القانون شكل المجلس من هذه الهيئات جميعها فضلاً عن وزير العدل ورئاسة رئيس الدولة للمجلس. واستفادت المحكمة الدستورية المعنى المقصود من نص الدستور بما ورد فى القانون من أحكام. وهذا هو ما عليه العمل فى الدوائر الحكومية الآن.

رابعاً: يقال ممن يهاجمون حركة القضاة أنهم لا يريدون أن يشرفوا على الانتخابات، رغم أنه واجب دستورى عليهم ألا يتخلوا عنه. وأظن أن هذه الصياغة معكوسة وتتضمن مغالطة. لأن مطالب القضاة أن تهيأ لهم إمكانات الإشراف الصحيح والنزيه والحقيقى. ومن ثم فهم بهذه المطالب أكثر حرصاً على أداء واجبهم الذى يريدونه أميناً وصادقاً. والسؤال هو: هل يستقيم وصف من يؤدى عمله بشرف أنه ممتنع عنه، ووصف من لا يريد توفير إمكانات الإشراف الحقيقى بأنه هو من يطيع الدستور. الخلاف ليس على أصل العمل ولكنه خلاف على نزاهته. ■

إلا أن يكون رسم لنفسه أنه لن يعيش فى بيته إلا شهوراً، ثم من بعده يكون الطوفان.

"النـــــذير العــــريان".. فـى

محمـــــد ســــــليم العــــــوّا

[١]

■ تقول العرب لكل منذر بحق إنه «النذير العريان»! ذلك أن الرجل في البادية كان إذا أراد إنذار قومه تجرد من ثيابه وأشار بها، ليبدو شأنه عن بعد، فيستعد قومه لما يخوفهم منه. وأصل المثل، فيما يزعمون، أن عوف بن عامر اليشكري ضرب بسيفه رجلاً من خثعم (قبيلة مشهورة) في معركة من معارك العرب قبل الإسلام، فقطع يده وضرب امرأته فقطع يدها فأسرع الرجل إلى قومه فأنذرهم، فضرب به المثل في صدق الخبر.

وفي بعض روايات الحديث النبوي أن رجلاً لقي جيشاً يريد الإغارة على قومه، فسلبوه وأسروه، فانفلت إلى قومه فأقبل عليهم عارياً ليس عليه ثياب ينذرهم قرب العدو منهم، فصدقوه! وفي كتب الأمثال، وشروح الحديث، قصص أخرى ينسب المثل إليها؛ فقد ذكره النبي ﷺ في حديث متفق عليه. وفي المعاجم أن الإنذار أكثر ما يستعمل في التخويف!!

وهذا هو الذي فعله، بالرأي العام المصري، التقرير السنوي الأول للمجلس القومي لحقوق الإنسان الذي صدر في منتصف شهر أبريل الماضي ليعرض حالة حقوق الإنسان في مصر من فبراير ٢٠٠٤ إلى فبراير ٢٠٠٥. وأعني بما فعله التقرير: أنه حمل رسالة تخويف واضحة من المستوى الذي تدنى إليه التعامل الحكومي مع حقوق الإنسان في مختلف المجالات.

[٢]

والمجلس القومي لحقوق الإنسان أنشئ بالقانون رقم ٩٣ لسنة ٢٠٠٣؛ وصدر بتشكيله قرار رئيس مجلس الشورى رقم (١) لسنة ٢٠٠٤. وهو يضم خمسة وعشرين عضواً سوى الرئيس ونائبه. ومن هؤلاء الأعضاء ست سيدات، وأربعة من أعضائه من الأقباط (منهم سيدتان)، وفي أعضائه صحفيون، ورجال قضاء سابقون، وأساتذة جامعيون، ونشطاء في مجال الدفاع عن حقوق الإنسان، وأعضاء في مجلس الشعب وفي مجلس الشورى، فهو يضم عينة ممثلة لقطاعات عديدة من المعنيين بحقوق الإنسان، بعضهم لا يمكن حسابهم على الحكومة، أو حزبها الوطني، أو ضمن الموالين لتوجهاتها أو توجهات الحزب. أما الرئيس ونائبه فهما الأستاذ الدكتور بطرس بطرس غالي، والأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد على التوالي، وكل منهما غني عن التعريف به: شهرة ونشاطاً ومناصبَ حاليةً وسابقةً.

وللمجلس مهام وأهداف واختصاصات حددها قانونه من بينها «إصدار تقارير عن أوضاع وتطور جهود مصر في مجال حقوق الإنسان على المستويين الحكومي والأهلي». وهو مكلف وفقاً للمادة (١٣) من القانون رقم ٩٤ لسنة ٢٠٠٣ بأن «يضع تقريراً سنوياً عن جهوده ونشاطه يضمنه ما يراه من اقتراحات في نطاق اختصاصه، ويرفع هذا التقرير إلى رئيس الجمهورية وإلى كل من رئيس مجلس الشعب ورئيس مجلس الشورى».

وإعمالاً لهذا النص صدر التقرير الأول الذي نحاول قراءته في هذه الصفحات.

[٣]

يقع التقرير في ٣٤٩ صفحة، وهو مقسم إلى ستة فصول آخرها خاص بالتوصيات التي استغرقت عشرين صفحة. والفصول الثلاثة الأولى موزعة على بيان مساهمات مصر في إقرار الشرعية الدولية والإقليمية لمبادئ حقوق الإنسان (الفصل الأول)؛ ورسم الإطار الوطني/الإقليمي/الدولي لإنشاء المجلس (الفصل الثاني)؛ وإنشاء المجلس القومي لحقوق الإنسان (الفصل الثالث).

ومما خلت منه هذه الفصول، وكان يجب أن تتضمنه، نص قانون إنشاء المجلس رقم ٩٣ لسنة ٢٠٠٣، ونص قرار رئيس مجلس الشورى بأول تشكيل له، وهو القرار رقم (١) لسنة ٢٠٠٤، ونص النظام الأساسي للمجلس.

فالوقوف على هذه الوثائق القانونية الثلاث يلقي ضوءاً مهماً على المجلس بوجه عام، ويمكّن من الحكم على مدى نجاحه في أداء مهمته التي ناطها به قانونه في السنة الأولى من عمره المديد، بإذن الله. ويتيح للقارئ الوقوف على التوجهات التي حكمت عمل المجلس وجعلت تقريره الأول يأتي على الصورة التي هو عليها.

وقد خصص التقرير فصله الرابع لأنشطة المجلس، وهو أطول فصول التقرير وأهمها من حيث الوقوف على الوضع الحقيقي لمدى احترام الممارسة الفعلية لحقوق الإنسان.

والفصل الخامس أفرده التقرير لأوضاع حقوق الإنسان في مصر خلال عام ٢٠٠٤.

وهذان الفصلان يمثلان صلب التقرير وعموده الفقري، وما فيهما من معلومات هو الذي يعني المشتغلين بحقوق الإنسان في مستوياتها كافة: الأكاديمية والعملية والحقوقية والأمنية وغيرها. ولذلك استحقا أن نصرف إليهما العناية التي تستحقها الموضوعات والحقائق التي يقدمانها إلى القارئ، ومن قبله إلى رئيس الجمهورية ورئيسي مجلسي الشعب والشورى. والوقوف على المعلومات الخطيرة، الواقعية، الواردة في هذين الفصلين يجعلنا نطالب بتعديل نص المادة (١٣) من القانون رقم ٩٤ لسنة ٢٠٠٣ بحيث يتضمن وجوب تقديم التقرير السنوي للمجلس إلى النائب العام، واعتباره إبلاغاً عما يتضمنه من وقائع تشكل جرائم جنائية، وبحيث يوجب هذا الإبلاغ الأمر بالتحقيق في هذه الوقائع فور تلقي النائب العام للتقرير. وبغير ذلك يبقى الجهد الكبير المبذول في التقرير جهد «جمع معلومات» يؤدي إلى مزيد من التخويف للعامة، من الاهتمام بالشأن العام عندما يطالعون ما يثبته التقرير من أنواع الإهانة وصنوف العذاب التي تلحق من يبدي مثل ذلك الاهتمام. وأعتقد، مخلصاً، أن المجلس يطمح إلى دور أكثر جدية وإيجابية من دور «المخوِّف العام» الذي قد يلعبه تقريره الأول لو بقيت الجرائم المذكورة فيه بلا تحقيق، وظل مرتكبوها طلقاء بلا محاكمة.

[٤]

لا يسع المطالع للفصل الرابع من التقرير إلا أن يبدي إعجابه بتنوع النشاطات التي مارسها المجلس القومي لحقوق الإنسان، وبالأسبقيات التي وضعها المجلس بنفسه لنشاطه. فقد حدد المجلس أولوياته في سبع نقاط أولها: العمل على إنهاء حالة الطوارئ والتشريعات التي تخالف أو تتعارض مع مبادئ حقوق الإنسان. وآخرها: السعي إلى توطيد العلاقات وتبادل الخبرات مع المؤسسات الوطنية المماثلة، والمنظمات الدولية المعنية، وآليات التعاون مع لجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة، وتنسيق الدعم المادي والفني على المستوى الدولي، ودراسة تحفظات مصر على المواثيق الدولية، والنظر في انتهاك حقوق المصريين في الخارج والعناية ببحث قضايا فلسطين والعراق، والأوضاع الإنسانية في إقليم دارفور بالسودان، وقضايا معاداة السامية، وازدراء الأديان.

ودون الوقوف عند ترتيب هذه الأولويات، التي لابد أن يختلف الرأي حول أيها يجب أن يتقدم سواه، فإن من اللافت للنظر أنها اشتملت على إعطاء أسبقية لتصفية أوضاع المحتجزين في إطار قانون الطوارئ، والقضاء على كل أشكال التعذيب والمعاملة القاسية والمهينة والحاطة بالكرامة، وإلغاء العقوبات السالبة للحرية في قضايا النشر والرأي، ومشكلات فصل العمال، ومشكلات عدم تكافؤ الفرص وانعدام الشفافية في الوصول إلى الوظائف العامة بسبب انتشار الوساطة والمحسوبية...

وهذه كلها مشكلات حقيقية لو استطاعت نشاطات المجلس، أو توصياته إلى الجهات القادرة على اتخاذ القرار، أن تحلها أو تخفف من آثارها الثقيلة على كاهل المواطنين، لتغير المناخ العام في البلاد تغيراً حقيقياً نحو حالٍ أفضل مما يعيشه الناس اليوم، ولساهم ذلك في تحقيق الإصلاح الذي أوشك أن يصبح كالعنقاء: يُسمع بها ولا تُرى!

ومن أهم ما درسه المجلس، وإن لم يقل لنا التقرير إلام انتهت تلك الدراسة، موضوع الضوابط الإجرائية والموضوعية لنظام الحبس الاحتياطي، ونظام المنع من السفر.

لقد تحول الأول إلى نظام هادم لقاعدة «الأصل في الإنسان البراءة»، وأصبح تطبيقه في كثير من الحالات مجافياً للأساسيات المتفق عليها دولياً في مجال السياسة الجنائية. وتحول الثاني إلى قيد



المجلس القومي لحقوق الإنسان يطمح إلى دور أكثر جدية وإيجابية من دور «المخوِّف العام» الذي قد يلعبه تقريره الأول لو بقيت الجرائم المذكورة فيه بلا تحقيق، وظل مرتكبوها طلقاء بلا محاكمة



مســـــألة حقـــــوق الإنـــــان!

أهم ما درسه المجلس الضوابط الاجرائية والموضوعية لنظام الحبس الاحتياطى، ونظام المنع من السفر

غير محدود على الحق الدستورى فى التنقل والسفر ولاسيما إذا لاحظنا أن الأحكام الصادرة من القضاء الإدارى بإلغاء قرارات المنع من السفر كثيراً ما لا تجد اليد القادرة على تنفيذها، وأن هناك منعاً تمارسه جهة الإدارة (وزارة الداخلية) ومنعاً يصدر به قرار من النيابة العامة، وهذا قد يستمر لسنوات عدة ثم يصدر حكم بالبراءة يتبين منه أن المنع كان أصلاً على أساس واهٍ من ظنون وتوهمات، أو كان على غير أساس على الإطلاق. وقل مثل ذلك وأكثر فى الحبس الاحتياطى الذى لا يقف أثره عند المحبوس (المتهم) بل يمتد إلى عائلته وأولاده وعمله إن كان موظفاً أو مهنته إن كان ذا مهنة حرة... فضلاً عن سمعته وما تتعرض له كرامته فى أثنائه من مهانة وإزراء.

وتعرض المجلس القومى لحقوق الإنسان لهاتين القضيتين الشائكتين شجاعة تحسب له، وتحمد، ولكن الذى يتطلع الناس إليه هو قرارات وقوانين تذهب بالأوضاع الجائرة القائمة وتحل محلها نظماً عادلة.

[٥]

وتضمن الفصل الرابع أيضاً دراسة للشكاوى التى تلقتها اللجنة التى أنشأها المجلس القومى لحقوق الإنسان لهذا الغرض بهدف أن تكون. على حد تعبير التقرير. «مرصداً لحقوق الإنسان فى مصر».

أنشئت لجنة الشكاوى فى ٢٠٠٤/٢/١٨، وتلقت فى المدة من ٢٠٠٤/٤/٢٥ إلى ٢٠٠٤/١٢/٣١ أربعة آلاف وثمانمائة وخمسين شكوى وصل منها بالبريد نسبة ٥٤.٣٪ وبالفاكس نسبة ٦.٨٪ وبالبرقيات نسبة ١.٧٪ وبالحضور شخصياً إلى مقر المجلس نسبة ٣٧.٢٪. وأورد التقرير أن أسباب ارتفاع نسبة الشكاوى البريدية: تعذر حضور بعض أصحاب الشكاوى للمجلس بسبب احتجازهم فى السجن، أو بسبب التخوف من حدوث تداعيات ومخاطر على حياة أصحاب الشكاوى وأمنهم إذا حضروا بأنفسهم، مثل اعتقالهم أو احتجازهم أو التنكيل بهم من قبل الأجهزة والموظفين العموميين المشكو فى حقهم؛ أو بسبب بعد مقار إقامتهم عن القاهرة وارتفاع تكلفة الانتقال والسفر. ولاحظ التقرير أن البريد على الرغم من أهميته فإن وصول الرسائل داخل القاهرة يستغرق من ٥ إلى ٨ أيام!

أما الشكاوى التى أرسلت إلى عنوان آخر، مثل مجلس الشورى والمنظمة العربية لحقوق الإنسان والمنظمة المصرية لحقوق الإنسان فقد استغرق وصولها إلى المجلس مدة إضافية أخرى تراوحت من ١٠ إلى ١٥ يوماً. ولا يمارى أحد فى أهمية الزمن بالنسبة لمن يشعر بانتهاك حقوقه الإنسانية أو العدوان عليها أو إهدارها، وما ذكره التقرير عن طول الزمن الذى يستغرقه وصول الشكاوى البريدية إلى المجلس عائق حقيقى يحول دون الوقوف على انتهاك الحقوق والعدوان عليها فى وقت مناسب. وهو يقتضى تنبيهاً جاداً من الوزير المسئول عن المواصلات والاتصالات إلى الشركة القائمة على أمر الخدمة البريدية، لأن حق الإنسان فى المعلومات حق أصيل معترف به عالمياً، وتخلفنا فى نطاقه نقيصة لا يسوغها شىء ولا سبب لها إلا الكسل فى العمل والإهمال فى أدائه.

وقد أشار التقرير إلى ارتفاع تكلفة استخدام الفاكس وأن هذا أدى إلى عدم إرسال صور المستندات والوثائق المؤكدة لجدية الشكوى مما كان يؤدى إلى تأجيل إحالتها للجهات المعنية إلى أن ترد تلك المستندات إلى المجلس بوسيلة أخرى غير الفاكس.

وارتفاع تكلفة السفر، وتكلفة استخدام الفاكس عوائق قد تحول دون وصول الشكوى إلى المجلس فتضيف إلى عبء الإحساس بالظلم عبء الإحساس بعدم القدرة على الشكوى منه!

ويشكو التقرير من الحرج الذى وقع فيه المجلس أمام بعض المسئولين فى الجهات الأمنية وجهات الإدارة المحلية عندما أحال إليهم شكاوى تبين أن لانتهاك الحقوق فيها أسباباً لم يذكرها الشاكون.

والواقع أن هذا الشعور بالحرج يعبر عن رقة بالغة. لا تلائم العمل فى مجال حقوق الإنسان والدفاع عنها. من جانب المسئولين فى المجلس. فالأصل أن تعامل جميع الشكاوى بجدية بالغة، وإذا اعتاد الناس أن شكاواهم الصادقة يستجاب لها برفع الظلم عنهم، وأن الشكاوى الباطلة لا يلتفت إليها. فسوف تقل تدريجياً الشكاوى الباطلة ويترسخ لدى الجهات الأمنية وجهات الإدارة المحلية أكبر قدر ممكن من مفاهيم احترام حقوق الإنسان نتيجة الجدية التى يتعامل بها المجلس مع الشكاوى بأنواعها كافة.

ومن الغريب أن الشكاوى التى رأى التقرير أنها لا تدخل فى اختصاص المجلس، وفقاً للفلسفة والضوابط التى يضعها لنفسه فى مجال عمله، احتلت المرتبة الأولى فى نسبة الشكاوى التى وصلت إليه فقد بلغ عددها (١٦٤٦) شكوى ونسبتها المئوية ٣٥٪ من إجمالى الشكاوى الواردة إلى المجلس. ولعل هذه الملاحظة تقتضى من المجلس أن يعيد النظر فى فلسفة عمله وضوابطها لكى يتسع نطاقها بحيث يقدم للأفراد ما يشعرون أنهم أحوج إلى الحماية فى نطاقه بدلاً من احتماء المجلس وراء قواعد اختصاص صنعها لنفسه بنفسه!

[٦]

فإذا أردنا أن نعرض أمثلة لأنواع انتهاك حقوق الإنسان التى أوردها التقرير فإن الاعتقال مثلاً كان محلاً لـ (٤٢٥) شكوى ادعى أصحابها تعرضهم أو تعرض ذويهم لانتهاك حقهم فى الحرية والأمان الشخصى واعتقالهم بالمخالفة للضوابط «الشحيحة» التى تضمنها قانون الطوارئ «كلمة شحيحة والأقواس حولها من صنع التقرير!». ويشكو كثير من هؤلاء المعتقلين من انتهاك أجهزة الأمن والسجون حقهم فى الإفراج عنه بعد صدور أحكام قضائية عديدة ببطلان أوامر الاعتقال. ويقول التقرير إن الاعتقال على نوعين أحدهما الاعتقال السياسى بموجب قانون الطوارئ، وقد تظلم منه إلى المجلس (٣٨٢) شخصاً؛ والثانى هو الاعتقال الجنائى الذى يتعرض له أشخاص أدينوا فى بعض القضايا، وأمضوا مدة عقوبتهم إلا أن وزارة الداخلية أصدرت قرارات متتالية باعتقالهم؛ ومن هذا النوع اعتقال المتهمين بارتكاب بعض الجرائم لفترات طويلة دون إحالتهم للمحاكمة، وقد بلغ عدد الشاكين من الاعتقال الجنائى (٤٣) شخصاً.

والحديث عن الاعتقال يقود إلى الإشارة إلى تقرير بالغ الأهمية أصدرته المنظمة المصرية لحقوق الإنسان سنة ١٩٩٦ وعنونته بعنوان «سجناء بلا محاكمة. تقرير حول ظاهرة الاعتقال المتكرر فى مصر»، وبلغ عدد المذكورين فى هذا التقرير الذين اعتقلوا بشكل متكرر من ١٩٩١/١/١ إلى ١٩٩٤/١٢/٣١ (٧٨٩١) شخصاً، وأشارت معلومات المنظمة المصرية إلى أن عدد المعتقلين داخل السجون المصرية فى أواخر يوليو ١٩٩٤ كان لا يقل عن (١٦٧٠٨) معتقلين(١). ومن أسف أن المجلس القومى لحقوق الإنسان لم يتعرض لهذا التقرير من قريب أو بعيد، ولم يدرجه ضمن مصادره ومراجعه. صحيح أن تقرير المنظمة المصرية لحقوق الإنسان يتعلق بمدة سابقة على إنشاء المجلس القومى لحقوق الإنسان، لكنه مؤشر بالغ الصدقية على أن الاعتقال بمقتضى قانون الطوارئ سلوك مستمر من قبل الأجهزة الأمنية يعكس بغير شك موقفاً سياسياً يعبر عنه هذا السلوك الأمنى. وهذا التصور يؤكد أن حل مشكلة حقوق الإنسان فى مصر لا يجوز التعويل فيه على وزارة الداخلية ومكتب النائب العام وجهات الحكم المحلى. وإنما يجب أن يتوجه بالخطاب الإصلاحى فى شأنه إلى الدولة نفسها وإلى السلطات السياسية جميعها، لكى يكون ثمة قرار سياسى معلن وحقيقى لإنهاء انتهاك حقوق الإنسان بالاعتقال وبغيره من صور المعاملة المسيئة التى أوردها تقرير المنظمة المصرية «سجناء بلا محاكمة»، والتى أوردها تقرير المجلس القومى لحقوق الإنسان نفسه.

ويشكو التقرير من غياب أى إحصائيات أو بيان رسمى بشأن عدد المعتقلين وفترات اعتقالهم وتوزيعهم على السجون المصرية، ومع ذلك فإنه يقدر عدد المعتقلين بما يتراوح بين عشرين ألفاً وخمسة وعشرين ألف معتقل بحسب تقارير منظمات حقوق الإنسان المصرية والعالمية. ويقرر المجلس القومى لحقوق الإنسان أن الأجهزة الأمنية تتوسع فى استخدام وسيلة الاعتقال السياسى بشكل كبير ومكثف كأسهل السبل. من وجهة نظرها. لحفظ الأمن والاستقرار.

والتجارب العالمية والمحلية تثبت خطأ هذا التصور الذى ينقله التقرير عن الأجهزة الأمنية.

من الغريب أن الشكاوى التى رأى التقرير أنها لا تدخل فى اختصاص المجلس، احتلت المرتبة الأولى فى نسبة الشكاوى التى وصلت إليه

وتؤكد أن حفظ الأمن والاستقرار بمعناهما الحقيقي آخر وسائله هو الاعتقال والسجن وما يرتكب في أثنائهما من جرائم، ويأتي على قائمة وسائله بسط الحريات وتوسيع نطاق العلم بوجوب احترام حقوق الإنسان والعمل على التحقق من هذا الاحترام.

ويذكر التقرير أن (٤٠٢) من الشكاوى التي وصلت المجلس يتضمن ادعاء بالاعتقال دون أمر كتابي، وباحتجاز المعتقلين، لمدد تصل إلى شهر، في أماكن احتجاز غير قانونية، تشمل مباني ومقار مباحث أمن الدولة وأقسام ومراكز الشرطة ومعسكرات قوات الأمن التابعة لوزارة الداخلية، دون أن يسمح لأهالي المعتقلين بزيارتهم، مع تعرضهم للتعذيب والضرب في هذه الأماكن.

ولو صحت هذه الشكاوى فإن المسئولين عما يشكو المعتقلون منه يكونون قد انتهكوا الدستور والقانون وقانون الطوارئ نفسه، ولا تبرأ ذمة رؤسائهم والمسئولين عن أعمالهم إلا بإحالتهم إلى التحقيق حتى إذا ثبت في حق أحد منهم ما ذكرته الشكاوى أحيل إلى محاكمة جنائية علنية عادلة أمام محكمة جنائية عادية توقع عليه العقوبة الرادعة بموجب قانون العقوبات. إن عقاب واحد فقط ممن يرتكبون جرائم التعذيب، أو يمارسون الاعتقال بالمخالفة للقانون كفيل بردع الكافة عن ممارسة هذه الجرائم في حق المواطنين، إذا لم يكن لآخر الزمان فعلى الأقل لمدى طويل جداً تستقر فيه مسألة احترام حقوق الإنسان في مصر.

ومع الاعتقال المتكرر يشير التقرير إلى وقوع جرائم احتجاز خارج إطار القانون، وحالات اختفاء قسري، وحالات تعذيب جسدي ونفسي من بينها السب بألفاظ مقذعة، وتقييد اليدين إلى الرجلين عكسياً، والتعليق من الأيدي والأرجل في السقف أو الأبواب، وتسليط تيارات الماء البارد، والإجبار على الوقوف في الهواء لساعات طويلة في الشتاء دون ملابس، والصفع والصعق بالكهرباء... بل ادعت إحدى الشكاوى أن ضابطا كان يتجول في قسم الشرطة حاملاً سوطاً (كرباجاً) يضرب به من لا يعجبه!

وأشار التقرير إلى خمس شكاوى قال أصحابها إنهم دخلوا إلى قسم الشرطة مبلغين أو مستعلمين فتعرضوا للاحتجاز والتعذيب الذي وصل، في ادعاء أحد مقدمي الشكاوى، إلى وضع الحذاء في فمه!!

ومن عجيب ما أورده التقرير أن النائب العام أصدر كتاباً دورياً برقم ١١ لسنة ١٩٩٩ يحظر فيه على أعضاء النيابة العامة التفتيش الدوري أو المفاجئ على أماكن الاحتجاز في أقسام الشرطة وما ماثلها إلا عند تلقي عضو النيابة شكوى بوجود محبوسين بشكل غير قانوني وبعد استئذان المحامي العام.

وهذا الكتاب الدوري يعطي أماكن الحجز في أقسام الشرطة حصانة فوق الحصانة التي تتمتع بها السجون العامة والمركزية. ذلك أن المادة (٤٢) من قانون الإجراءات الجنائية تنص على أنه «لكل من أعضاء النيابة العامة ورؤساء ووكلاء المحاكم الابتدائية والاستئنافية زيارة السجون العامة والمركزية الموجودة في دوائر اختصاصهم، والتأكد من عدم وجود محبوس بصفة غير قانونية ولهم أن يطلعوا على دفاتر السجون وعلى أوامر القبض والحبس وأن يأخذوا صوراً منها وأن يتصلوا بأي محبوس ويسمعوا منه أي شكوى يريد أن يبديها وعلى مدير وموظفي السجون أن يقدموا لهم كل مساعدة لحصولهم على المعلومات التي يطلبونها». فإذا كانت السجون العامة والمركزية خاضعة لسلطة أعضاء النيابة، ولهم الحق في تفتيشها دورياً أو مفاجأة ولهم الحق في مقابلة المسجونين والاستماع إلى شكاواهم... إلخ النص، فكيف تكون أماكن الحجز التي يودع فيها المعتقلون أو المتحفظ عليهم أو المسلوبة حريتهم محصنة من هذا الحق في التفتيش المخول لرجال النيابة، ومقيدة بتلقي عضو النيابة شكوى بوجود محبوسين بشكل غير قانوني، ثم هو لا يستطيع أن يبادر إلى تحقيق هذه الشكوى إلا بعد استئذان المحامي العام، وهو إجراء قد يطول فتضيع في المدة بين طلب الإذن والحصول عليه معالم الجريمة المشكو منها، ويختفي المحبوس بشكل غير قانوني من المكان الذي كان فيه، ويصبح التفتيش عبثاً لا مبرر له أو عبئاً على كاهل النيابة لا مقابل له. إن الأقرب إلى المنطق القانوني وإلى حماية حقوق الإنسان التي يجب أن



إن عقاب واحد فقط ممن يرتكبون جرائم التعذيب، أو يمارسون الاعتقال بالمخالفة للقانون، كفيل بردع الكافة عن ممارسة هذه الجرائم في حق المواطنين



توليها النيابة في بلادنا أعظم عناية أن يلغى هذا الكتاب الدوري فوراً وأن تعاد إلى أعضاء النيابة سلطتهم. بل واجبهم. في تفتيش أماكن الحجز والاعتقال كافة في أي وقت شاءوا. والذين مارسوا هذه السلطة، يوم لم يكن النائب العام، ولا المحامي العام، يقيد سلطة أعضاء النيابة ويلزمهم باستئذانه في الصغير والكبير من أمور عملهم الداخلة قانوناً في اختصاصهم، رأوا عجباً، ومنعوا استمرار جرائم بشعة، وحوكم بسبب سلوكهم الإيجابي رجال شرطة أدت محاكمتهم إلى استقامة أمور الأماكن التي ضبطت فيها مخالفتهم عقوداً متوالية. فلما أصبح الأمر على ما هو عليه الآن عاد الحال إلى أسوأ مما كان، على نحو ما يثبته التقرير السنوي للمجلس القومي لحقوق الإنسان.

إن هذا التقرير يقول، بصراحة تحمد له، إن ما ذكره عن التعذيب والاعتقال يتناقض مع الدستور والقانون ويخالف بوجه عام المادة الثالثة من قانون هيئة الشرطة رقم ١٠٩ لسنة ١٩٧١ التي تنص على أن «هيئة الشرطة تختص بكفالة الطمأنينة والأمن للمواطنين في كافة المجالات». ويورد التقرير بعد هذه العبارة، مباشرة، الإشارة إلى التعذيب حتى الموت، وإلى التعذيب بالصعق بالكهرباء، وإلى التعذيب بالتعليق من اليدين والرجلين، على الرغم من تواتر صكوك المنظومة الدولية لحقوق الإنسان. كما يقول التقرير. ونصوص الدستور والقانون المصري على احترام الكرامة الإنسانية للسجناء. وبقدر ما يورد التقرير من نصوص قانونية حافلة بوجوب معاملة المسجونين بالاحترام الواجب لحفظ كرامتهم الشخصية وقيمتهم الإنسانية فإنه يورد، بغير تعليق، ولكن بأمانة تحسب له، الشكاوى السالفة الإشارة إلى بعضها عن التعذيب وأنواعه، وعن انتهاك حقوق السجناء في توفير الرعاية الصحية داخل المؤسسات العقابية، وعن عدم سماح إدارات سجون طرة وأبو زعبل والمرج والغربانيات بدخول الأدوية الخاصة بالمسجونين عن طريق ذويهم على الرغم من عدم وجودها في مستشفى السجن. ويعاني المسجونون، بحسب التقرير، من رداءة الغذاء المقدم للسجناء وعدم مطابقته للمواصفات الصحية، الأمر الذي حمل عدداً من المسجونين في سجن أبو زعبل إلى إعلان الإضراب عن الطعام لمدة أسبوع.

ويورد التقرير شكاوى تتعلق بانتهاك الحق في التعليم بالمخالفة لنصوص المواد من (٢٨) حتى (٣١) من قانون السجون رقم ٣٦٩ لسنة ١٩٥٦، ومن الإعاقة من أداء الامتحانات، ومن عدم سداد مصلحة السجون للمصروفات الدراسية للسجناء على الرغم من استيفائهم لجميع الطلبات الخاصة بذلك.

وأشار التقرير إلى شكاوى تتصل بانتهاك حرية الرأي والتعبير، وحق المشاركة في الاقتراع وإدارة الشئون العامة، كما في شأن منع طلاب الجامعات من الترشيح والانتخاب، واعتقال بعضهم بسبب نيتهم أو رغبتهم التقدم للانتخابات الطلابية في كلياتهم، حتى زرعت هذه الانتهاكات في نفوس الطلاب. كما عبر أصحاب الشكاوى. الإحساس بعدم جدوى الانتخابات، وأفقدتهم الثقة في الاحتكام إلى التصويت للتعبير عن آرائهم.

ولهذا المسلك أثر لا ينكر في تأكيد مزاعم الفئات التي تنادي بأنه لا قيمة للدعوة إلى الديمقراطية، ولا أثر لمحاولات الإصلاح التي ترمي إلى إشراك الشعب في إدارة شئون وطنه. فالذي ينشأ على أن هذه المشاركة محرمة أو مجرمة لا يمكن إقناعه، بعد فوات شبابه، بجدواها أو إمكانها.

ومن عجائب الشكاوى التي أوردها التقرير خمس وثلاثون شكوى يدعي أصحابها انتهاك الموظفين العموميين بوزارتي الداخلية والإعلام لحق الشاكين. وهم من المسلمين. في إقامة الشعائر الدينية وأداء الواجبات التعبدية! وثلاث شكاوى تتضرر مقدماتها اللاتي عملن مذيعات في التلفزيون بالإسكندرية لمدة تتراوح بين عشر وخمس عشرة سنة، من منعهن من ممارسة عملهن كمقدمات برامج أو مذيعات لهن حق الظهور على شاشة التلفزيون بسبب ارتدائهن حجاباً يستر الشعر ويكشف الوجه! وشكوى واحدة يقول مقدمها إنه منع من استكمال بناء مسجد وتشطيبه، أو إسناد هذه الأعمال إلى غيره، على الرغم من استيفائه للموافقات والتراخيص اللازمة كاملة قبل الشروع في البناء!

ووجه العجب في هذه الشكاوى أنها تناقض الدستور الذي ينص على أن «الإسلام دين الدولة، واللغة العربية لغتها الرسمية، ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع».

ويورد التقرير أيضاً شكاوى لأفراد ورجال دين مسيحيين عددها سبع شكاوى قدمت أربع منها بشكل جماعي وثلاث بشكل فردي تدور كلها حول عدم السماح بإحلال وتجديد كنائس أو بممارسة الشعائر الدينية في مقر فرع جمعية دينية مملوك للطائفة المسيحية التي ينتمون إليها. وهذا المنع من تجديد الكنائس وإحلالها ومن ممارسة الشعائر الدينية يخالف المادة (٤٦) من الدستور التي تلزم الدولة بكفالة حرية العقيدة وحرية ممارسة الشعائر الدينية، وهو إلزام يتوجه إلى حماية الأقباط، وغير المسلمين كافة من المصريين، أكثر مما يتوجه إلى حماية المسلمين. فالأولون لا يستطيعون إقامة شعائر عقيدتهم إلا في الكنائس وما يماثلها من دور العبادة أما المسلمون فقد جعلت لهم الأرض مسجداً وطهوراً يصلون حيث يشاءون وحيث يستطيعون. ولا يجوز أن يمنع الأقباط أو غيرهم من إقامة دور عبادتهم بقدر ما تحتاجه أعدادهم في أماكن إقامتهم وإلا أخل هذا المنع بالنص الدستوري الصريح

الملزم للدولة بكفالة حرية ممارسة الشعائر الدينية.

والأصل أن النيابة العامة خصم شريف للمتهم، وأنها نائبة المجتمع فى تطبيق القانون إلى الحد الذى أجاز فيه قانون المرافعات المدنية والتجارية للنائب العام أن يطعن بطريق النقض لمصلحة القانون (أى بسبب وقوع الحكم فى مخالفة للقانون أو خطأ فى تطبيقه أو تأويله) دون أن يتقيد هذا الطعن بالمواعيد المقررة للطعن بالنقض بالنسبة إلى الكافة «المادتان (٢٥٠) و(٢٥٢) من قانون المرافعات المدنية والتجارية». والقاعدة أنه لا يفيد من الطعن إلا من رفعه ولا يحتج به إلا على من رفع عليه، لكن يستثنى من هذه القاعدة الطعون التى ترفع من النيابة العامة «المادة (٢١٨) من قانون المرافعات المدنية والتجارية». وهذه الأحكام وأمثالها مقررة تفريعاً على قاعدة تمثيل النيابة العامة للمجتمع، وحمايتها لحقوق أفراده، ورعايتها لما يوجبه القانون لهم أو عليهم. لذلك احتفى التقرير الصادر عن المجلس القومى لحقوق الإنسان بحالات الشكوى من تعسف النائب العام فى استخدام السلطة الممنوحة له فى إدراج الأفراد على قوائم الممنوعين من السفر إلى خارج البلاد. وهو التعسف الذى بلغ حد الامتناع عن إصدار قرار بإلغاء المنع من السفر بعد أكثر من عامين من الحكم ببراءة أحد المواطنين، وكان المنع يشمل المواطن المتهم وجميع أفراد أسرته الذين لم يتهموا بشىء(!) وتكرر ذلك مع مواطن آخر اتهم فى جناية ضرب أفضى إلى موت، ثم حكم ببراءته، وقضت محكمة القضاء الإدارى ثم المحكمة الإدارية العليا بإلغاء قرار منعه من السفر، ولكن النائب العام لم ينفذ هذه الأحكام القضائية النهائية الحائزة لقوة الأمر المقضى، الواجبة النفاذ بمجرد صدورها بمقتضى قانون مجلس الدولة رقم ٤٧ لسنة ١٩٧٢ والاعتراض هنا ليس على قانون جائر، ولا على سلطة تنفيذية تطغى على المواطنين، ولا يحتاج إلى تدخل تشريعى أو قضائى ولكنه ينصب على تقاعس النائب العام عن تنفيذ القانون وهو أحد الأمناء على تطبيقه القيمين - بحكم وظائفهم - على احترامه. وليس أمام المضرورين من هذه التصرفات من النائب العام إلا أن يطالبوا بالتعويض عما أصابهم من أضرار نتيجة تصرفه، أو بالأصح قعوده عن التصرف، على أن يضمنوا دعاواهم طلب إلزامه بالتعويض من ماله الخاص ليمتنع - من بعد - ويمتنع كل نائب عام آتٍ عن تكرار هذه المواقف المخالفة للقانون المهدرة لحقوق الإنسان.

[٧]

اعتنى التقرير ببيان الكيفية التى تعاملت بها الجهات المختلفة فى الدولة مع الشكاوى التى أبلغها إليها المجلس. ولعل أهم ما فى هذا البيان أن المجلس لم يتلق إلا (٢١٤) رداً على (١٠٤٥) مخاطبة وجهها إلى مختلف الجهات الحكومية والرسمية(!) وأن عدداً كبيراً من الجهات والهيئات الحكومية عزفت تماماً عن الرد على مخاطبات المجلس إليها بشأن انتهاكها لحقوق الإنسان(!) ولئلا نقع فى التشهير بأحد فإننا نحيل القارئ إلى صفحتى ٢٣١ و٢٣٢ من التقرير ليقف بنفسه على أسماء هذه الجهات والهيئات.

وبعض الجهات ردت على جميع مكاتبات المجلس إليها، وبعضها ردت على نسبة ضئيلة منها وصلت فى بعض الحالات إلى ٠,٧٥٪. وليرجع القارئ فى هذا الشأن إلى صفحتى ٢٣٣ و٢٣٤ من التقرير ليتعرف على الجهات والمسئولين الذين يأخذون حقوق الإنسان مأخذ الجد، وعلى الآخرين الذين يعتبرونها ترفاً لا يستحق إنفاق الوقت فيه أو إيلاء الرعاية له.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من ندرة الردود بالنسبة إلى المخاطبات بل إن المجلس لم يتلق أى رد أصلاً على مخاطباته الخاصة بالمنع من السفر وحرية التنقل، لا من وزارة الداخلية ولا من النائب العام، ولم يتلق أى رد من وزارة الداخلية بشأن مخاطباته عن إثبات ومنح الجنسية المصرية، وتلقى خمسة ردود فقط على شكاوى انتهاك حرية العقيدة وممارسة الشعائر الدينية فى الوقت الذى وجه فيه ٢٧ مخاطبة عن هذين الأمرين لوزارة الداخلية وبعض محافظات الصعيد.

وتلقى المجلس رداً واحداً من جامعة القاهرة بشأن شكاوى عدد من الطلاب الذين حرموا - فيما يقولون - من ممارسة حقهم فى الترشيح والانتخاب فى الاتحادات الطلابية. ولم تَردّ جامعات حلوان والإسكندرية والأزهر والزقازيق على مخاطبة للمجلس بشأن الانتخابات الطلابية، كما لم يرد اتحاد عمال مصر على مخاطبة للمجلس بشأن انتخابات النقابات العمالية. وردت وزارة العدل على شكويين من أصل ٧٥ شكوى متعلقة بالحق فى التقاضى والعدالة الناجزة!!

وموقف هذه الهيئات والجهات والوزارات يدل على حاجة أساسية ماسة إلى توسيع نطاق الوعى بمسألة حقوق الإنسان، وتأصيل الفهم الثقافى له. وهو فهم يبدأ منذ النشأة الأولى فى تعامل المدرسة مع الطفل. وأجرؤ على القول إنه يبدأ أيضاً فى تعامل البيت والأسرة مع الطفل. وبغير هذه الثقافة وإشاعتها فى المجتمع سيبقى المجلس القومى لحقوق الإنسان فى وادٍ والممارسة الفعلية المتعلقة بهذه الحقوق، احتراماً أو انتهاكاً، فى وادٍ آخر، وهو وضع تستمر معه السمعة السيئة التى تروجها الدوائر المعادية للبلاد عن أوضاع حقوق الإنسان فى مصر، وهو ترويج سوف يجد فيما تضمنه التقرير من وقائع الوفاة بشبهة التعذيب، أو الوفاة فى أثناء الاحتجاز بواسطة الشرطة، زاداً لا ينفد وقصصاً لا يمل تكراره (بلغت عشر وقائع فى السنة التى يتحدث عنها التقرير. وأورد تقرير المنظمة العربية لحقوق الإنسان الذى يغطى عام ٢٠٠٤ فقط ١٥ حالة وفاة بشبهة التعذيب أو نقص الرعاية لم يفتح فى أى منها تحقيق قضائى).

ولذلك توجه مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان بمذكرة إلى رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الشعب فى ١٧/٤/٢٠٠٥ تضمنت الإبلاغ عن انتهاكات حقوق الإنسان التى أشار تقرير المجلس القومى لحقوق الإنسان إلى وقوعها ومنها: انتزاع اعترافات من أصوليين إسلاميين اختطفوا من دول وأرسلوا إلى مصر لانتزاع الاعترافات منهم تحت التعذيب وشيوع أساليب التعذيب المفضى إلى موت، واعتقال أسر بكاملها، والانتهاك الصارخ للشرعية القانونية بالاعتقال المتواصل لسنوات، تجاوزت أحياناً عشر سنوات، دون سند من القانون، والاحتجاز فى أماكن غير قانونية ولا تخضع لرقابة القضاء أو النيابة العامة. وتوسع ظاهرة الاختفاء القسرى، وضعف قدرة النيابة العامة على حماية الضحايا من التعذيب أو تكراره (أو تهاونها فى ذلك أو تواطئها!)، وفرض الوصاية الحكومية على الانتخابات الطلابية والعمالية. وحرمان جيل كامل من المهنيين من ممارسة حقهم فى الديمقراطية النقابية لمدة زادت على ١١ عاماً، وعدم احترام أحكام القضاء وتنفيذها بالمخالفة للمادة (٧٢) من الدستور.



لا يجوز أن يمنع الأقباط أو غيرهم من إقامة دور عبادتهم بقدر ما تحتاجه أعدادهم فى أماكن إقامتهم وإلا أخل هذا المنع بالنص الدستورى الصريح الملزم للدولة بكفالة حرية ممارسة الشعائر الدينيـــة

[٨]

إن ما أورده مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان من قلق بسبب الانتهاكات التى رصدها تقرير المجلس القومى لحقوق الإنسان، وإبلاغه رئيس الجمهورية بها، هو قلق مشروع واستعمال للحق الدستورى فى الإبلاغ يذكر لمركز القاهرة ويشكر. أما انتقاده لما أورده التقرير من دفاع الحكومة عن نفسها - ومن تعاون جهات حكومية مع المجلس تعاوناً استحق شكره فى مقدمة التقرير، واتهام المجلس بأنه لا شخصية له وبأنه غير قادر على حماية استقلاله، وبأنه صار كرة تتقاذفها الحكومة والرأى العام، وبأن وجهه تحول إلى مسخ مشوه يصعب التعرف على ملامحه وأن هذا الأمر ينطبق على التقرير سواء بسواء فهو ظلم للتقرير وللمجلس كان ينبغى لمركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ألا يقع فيه.

إن الاتفاق مع مركز القاهرة فى أن بعض القضايا عولجت باختصار شديد مثل استقلال القضاء وحرية مؤسسات المجتمع المدنى والنقابات وأجهزة الإعلام والأحزاب السياسية والشأن القبطى (وخاصة بعدما أثارته وقائع وفاء قسطنطين ومارى عبد الله ومثيلاتهما من شحن عاطفى لأهل الدينين، مبرر فى أحد جانبيه على الأقل!) لا يؤدى بالضرورة إلى موافقته على انتقاداته الأخرى التى نراها غير مبررة.

والقارئ البصير بشئون حقوق الإنسان يتفق قطعاً مع الملحوظة السادسة من ملاحظات مركز القاهرة الخاصة بخطأ المجلس فى عدم منح مهلة للحكومة للرد على التقرير قبل نشره، قد كان هذا واجباً وفقاً للعرف المتبع فى منظمات حقوق الإنسان كافة، وكان واجباً بوجه خاص فى ضوء ما أخبرنى به، شخصياً، الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد من أن وزارة الداخلية - بوجه خاص - ظُلِمَتْ قليلاً فى هذا التقرير عندما لم تتسع مدته الزمنية لذكر إصلاحات كثيرة أدخلتها على السجون ومراكز الاحتجاز والاعتقال بعد فبراير ٢٠٠٥ . ولو أن التقرير عُرِضَ على الحكومة لأوردت هذه الإصلاحات، ولكان من حق المجلس أن يشير إلى إجرائها بعد المدة الزمنية التى يتناولها التقرير.

[٩]

إن أصعب خطوات الإنسان على الأرض هى خطواته الأولى. لا تزيد عنها صعوبة إلا خطواته الأخيرة بعد بلوغه أرذل العمر. والمصريون كافة يتمنون أن يشتد عود المجلس القومى لحقوق الإنسان، وأن يحسن أداؤه، وأن يطول عمره، شريطة أن يبقى فى شباب دائم لا يلحقه كبر ولا هرم!!

والحمد لله رب العالمين. ■

تربية

بوابات مغلقة.. وفساد أكاديمى.. وتدخلات أمنية

رضوى عاشور

لحديث الجامعة شجون (بالمعنيين، معنى الهموم والأحزان، ومعنى اشتباك الفروع وتعقدها وتشعبها)، فهو حديث له وطأة، يزداد ثقلا إن كانت المحدثة ارتبطت بالجامعة وأمضت فيها دارسة ومدرسة أكثر من ثلثى سنوات عمرها، ثم إنه حديث يتشعب بنا إلى سكك شتى تتعلق بالجامعة بشكل مباشر وتتعلق بالتعليم فى المدارس، وأوضاع البحث العلمى فى بلادنا، والقمع وغياب الحريات الديمقراطية، والفساد وارتباك سلم القيم فى واقعنا، وهو باختصار واقع خرب تتجسد عناصر أزمته فى كافة مناحى الحياة اليومية لكافة الأفراد، رجالا ونساء، ناشئين ومكتهلين، دارسين تتعثر أقدامهم على أول درج المعارف وباحثين مستتبين فيما أنجزوه من علوم ودراسات.

ولعل أفدح مظاهر هذه الأزمة وأكثرها حدة وخطورة هو تدهور التعليم المدرسى إلى حد غير مسبوق، يغلب عنده التلقين والدروس الخصوصية وشاغل التدريب على حل الامتحانات الرغبة فى التعليم والتعلم. يتخرج الأولاد من المدارس ولم يطلعهم أحد على مسرات البحث ومباهج المعرفة، ولا علمهم أحد أن المحاججة والنقاش والاستقلال بالرأى محاسن تستحق التشجيع والثناء: نتاج التعليم المدرسى، فى الغالب الأعم، افتقاد تام للقدرة على التفكير المركب، أو التعامل مع ما هو إشكالى، فضلا عن ارتباك أخلاقى مشوب بالخوف، يقبل بالسلطة المطلقة للمعلم والكتاب المقرر، واستعداد للقبول بمسلماتهما و الخضوع فى الظاهر على الأقل، لما يمليانه. إنه تعليم أشبه بمذبح آلى يقطع رؤوس الصغار (لا أعتذر عن الصورة القاسية بل أبقى عليها لأن الواقع شديد القسوة).

وماذا عن الجامعة؟ قد يفيدنا هنا أن نبدأ بالباب المفضى إليها، أول القصيدة...: حيز مغلق بأسوار وبوابات من قضبان الحديد، تمتاز على بوابة المدرسة بكثرة البوابين و«جمهرة» من رجال الأمن تعززهم سيارات مصفحة كبيرة فى وضع استعداد دائم (على سبيل المثال، تحتل هذه السيارات التى قد يقل عددها إلى ثلاث أو يزيد إلى سبع تبعا للظروف، شارع الخليفة المأمون بين مبانى الحرم القديم لجامعة عين شمس والمبانى الجديدة لكليتى الألسن والتجارة، تحتلها على مدار العام). وسوف يتاح لى من موقعى كعاملة فى الجامعة أن أشهد «وثائق حية»، منها مثلا جندى من جنود الأمن المركزى خارج السور يدخل ماسورة البندقية من بين القضبان ويصوب على الحرم، ومنها مصفحة متوسطة الحجم تقترب من الطلاب المحتشدين عند البوابة لترهبهم وتدفعهم إلى التراجع (المشهدان وثيقتان تخصان تاريخ جامعة القاهرة). أما الوثيقة الثالثة ولها نسخ متعددة، إذ يتكرر المشهد عبر السنوات فى أكثر من جامعة، مشهد الطلاب المحتشدين خلف البوابات المغلقة يهزونها هزا ويدفعونها دفعا وهم يهتفون، ومشهد صفوف جنود الأمن المركزى بخوذاتهم وهراواتهم وبنادقهم وهم يطوقون البوابات والأسوار.

لا يحتاج الأمر تدريبا خاصا فى السيميولوجيا (أى علم العلامات) لقراءة معنى هذه المفردات، فدلالاتها واضحة: الجامعة حيز مغلق محكوم ومحاصر، ولكن الحصار لا يقتصر على البوابة وقضبان الحديد والبندقية المشرعة عبر السور بل يمتد إلى تفاصيل بلا حصر.

الكتاب الجامعى وكوارث أخرى

يصل الطلاب الجدد إلى الجامعة ليكتشفوا أنها مدرسة كبيرة تعتمد التلقين منهجا، بل وتعتمد الكتاب الجامعى وهو مصطلح يبدو لى مثيرا للسخرية، أفهم أن تكون هناك مصادر أو مراجع أساس لطلاب الطب أو الصيدلة مثلا، أو نصوص أدبية بعينها يدرسها طلاب الآداب مثلا، ولكن فكرة الكتاب الجامعى تحمل مفارقة فادحة فى دلالتها، فمن المفترض أن تكون قبلة الدارسين فى الجامعة هى المكتبة، يقرأون فى الموضوع وحوله، لمن يتفق مع أساتذتهم أو يختلف معهم.. إلخ. أما الكتاب الجامعى المقرر فى الكثير من الأقسام والكليات بجامعاتنا القديمة والحديثة فهو كتاب مؤلف خصيصا لاستذكار ما ورد فيه بغرض الامتحان. ومن مواصفاته أنه كتاب رث فى مظهره، ومخبره فى الغالب الأعم، لا يختلف عن مظهره. ولا تضمن له رثاثته إلا الحياة لشهور معدودة، هى الفصل الدراسى الذى فُصّل من أجله، وهو لا يصمد للمنافسة فى سوق الكتاب المفتوحة. يعرف الجميع، من قام بتأليفه ومن أُلّف من أجلهم أنه كتاب قضاء حاجة، حتى ليجرؤ مؤلفه على شطب فصول منه فى نهاية الفصل الدراسى بدعوى التيسير على الطلاب. إنه الكتاب. الشىء، فهو يشيئ المعرفة بتحويلها إلى أداة لخدمة الإجابة فى ساعتى الامتحان.

ولا تقتصر الخسارة على إهدار وقت الطلاب ومالهم وإفساد ذائقتهم بل تتعداه إلى جريمة قَوْلَبة البشر، بمعنى صبهم فى قالب واحد يستلب منهم تفردهم وحريتهم وطاقتهم الإبداعية وقدرتهم على إعمال النظر والتفكر باستقلال وروح نقدية. يفسد مشروع الباحث فيهم، فيفسدهم كطلاب ويفسدهم كمواطنين، وفى الحالتين يقتل «فكرة» الجامعة ومعناها ومنطق وجودها.

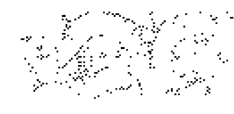
ورغم أننى لست من هواة التحسر على الماضى وندب ما فات وانقضى إلا أننى وأنا أتحدث عن الكتاب الجامعى تحديدا، أشعر بمرارة شديدة مصدرها وعيى بحقيقة أننا أمة ميزت ثقافتها الكتاب، هامت به وتفننت فيه وأبدعت فى أشكال وضعه وتصنيفه وتدوينه وتزيين صفحاته وأغلفته حتى جعلت منه متعة للعقل والعين والروح. خسارة أخرى فادحة أن يقطع هذا الكتاب الرث على شباب الدارسين علاقتهم بموروثهم الثمين، فإذا قيل كتاب طفت فى ذاكرتهم هذه الكتب الغريبة المنتحلة أحيانا، والمليئة بالأخطاء المطبعية أحيانا أخرى والهزيلة فى فحواها غالبا، فلا عجب أن الطلاب بعد قضاء حاجتهم يتركونها ملقاة بالقرب من لجنة الامتحان، ذلك إن لم يمزقوها مستمتعين بالتشفى.

ويزيد الأمر تعقيدا الدروس الخصوصية التى بدا قبل عقد أو عقدين أنها مرض متفش فى تخصص أو تخصصين، ليتضح الآن أنه تفشى فى أغلب التخصصات وفى كل الجامعات كما فى المدارس، بل والعهدة على الراوى أن بعض الطلاب الجدد فى كليات الطب يحجزون فى كورسات الدروس الخصوصية قبل بدء الدراسة، والأنكى أن بعض مراكز هذه الدروس الخصوصية يكون بالقرب من الجامعة لا يحتاج من الدارسة أو الدارس سوى قطع الشارع!

البوابة المغلقة، والكتاب الجامعى، والدرس الخصوصى، والأستاذ الذى يملى على طلابه فكرته التى لا شريك لها، والعميد المعين، عناصر منظومة كاملة تجسدها قضبان الحديد. والمنطق الحاكم لتلك المنظومة فى تقديرى، هو الخوف: خوف النظام القائم والثقافة السائدة وشرائح واسعة مرتبطة بهما، من الطاقة البشرية وحرية إعمال العقل وحرية الفعل والممارسة، خوف تحركه القناعة بأن كافة هذه الطاقات ليست إلا تهديدا لا بد من مواجهته. ومن هنا فإن حضور الأمن فى الجامعة وتدخلاته فى شئونها ووجود سيارات الشرطة بالقرب منها ليست سوى علامة يتجاوز فحواها المعنى المباشر لضبط «الأمن» بالمعنى الحرفى للكلمة، بل علامة دالة على منطق أشمل يرى فى التلجيم والتحجيم والكبح سبيلا أوحد لضمان «الأمن». فإطلاق الحريات، تبعا لهذا المنطق، وإعمال العقل والخيال والبحث، وتنمية القدرة على النقد والنقض، والوجود المستقل كلها عناصر تمرد وقلقلة. ولا عجب والوضع كذلك ألا تتمكن أى جامعة مصرية أو عربية أن تحفظ لنفسها موقع قدم فى قائمة الجامعات الخمسمائة الأفضل فى العالم، إذ لا يستقيم إنجاز علمى ولا تعليم جيد مع هذا المنطق. وهنا ندخل فى دائرة جهنمية حيث يتوالد التخلف وعناصر الأزمة والعجز عن الخروج منها، وكلما زادت الأزمة زاد تململ المحابيس وكلما زاد تململ المحابيس زادت القبضة إحكاما وهو ما يفسر تدهور التعليم فى الجامعة عاما بعد عام.

كثيرا ما يشكو الأساتذة من تدهور مستوى الطلاب، وفقر معارفهم، وتعثر قدراتهم اللغوية، وصعوبة تعاملهم مع أى فكرة مركبة. ولكن أذكر مرة أخرى أن الطلاب يصلون الجامعة بعد مرورهم بالمذبح الآلى، وأن النظام فى الجامعة نفسها يكمل مهمة هذا المذبح: مهما اجتهد أستاذ عالم وحسن النوايا، هنا أو هناك، فى كسر القاعدة. ولما كان المجتمع مأزوما بإعلامه، وكافة مؤسساته الأخرى يصبح الوضع كارثيا لا أقل، وتصبح نجاة طالب متميز أو باحثة شابة من قبيل المعجزات التى يشاء الله فى رحمته الواسعة أن يهون بها علينا بين حين وآخر، فيكون تميز الباحث بالرغم من النظام السائد فى الجامعة، لا نتيجة لهذا النظام.

يتخرج الأولاد من المدارس ولم يطلعهم أحد على مسرّات البحث ومباهج المعرفة، ولا علّمهم أحد أن المحاججة والنقاش والاستقلال بالرأى، محاسن تستحق التشجيع والثناء... إنه تعليم أشبه بمذبح آلى يقطع رؤوس الصغار



بين البحث العلمى والانتحال

لم يرد ذكر جامعة عربية فى قائمة الجامعات الخمسمائة الأفضل فى العالم، ولو أن حصراً مشابهاً جرى عن إسهامنا فى مختلف مجالات الأبحاث لكانت الصورة أكثر قتامة، بكثير. والمفارقة أن أساتذة الجامعات فى بلادنا لا ينتقلون من درجة علمية إلى الدرجة الأعلى (من مدرس. وهو الحاصل على الدكتوراة. إلى أستاذ مساعد، ومن أستاذ مساعد إلى أستاذ) إلا بتقديم أبحاث للترقية، كما أن أغلب الكلّيات لها حوليّات تنشر فيها جديد أكاديمييها، ولا تستطيع أغلب هذه الحوليّات أن تصمد أمام المجلات المتخصصة الجادة التى تصدر فى الخارج، لا لخلوها من بحث مهم من حين لآخر بل لأنها تنشر لاعتبارات مختلفة، الغث مع السمين، وعادة ما يغلب الغث على السمين. أما قضية الانتحال فهى قضية تستحق التوقف لا لأن السرقة العلمية بدعة فى بلادنا فهى واردة وقائمة فى مختلف البلدان، بل لأن ثبوت التهمة فى جامعاتنا قد لا يترتب عليه شىء. هناك واقعة ثبوت تهمة الانتحال على عميد من عمداء كلية الآداب قبل عدة سنوات. بعد الفضيحة، ترك الأستاذ العمادة، وعيّن رئيساً للقسم (أى أصبح بالتعبير القديم يشغل الكرسى الأول فى تخصصه!).

وهناك واقعة أخرى هى سرقة الدكتور «سين» لأحد عشر بحثا. (والواقعة مثبتة بالأصول التى نقل عنها). بعدها تمت ترقيته إدارياً إلى أستاذ ثم تعيينه لاحقا رئيساً للقسم واسمه الآن على لائحة المحكّمين الذين يمكن أن يقيّموا الإنتاج العلمى لمدرس أو أستاذ مساعد! ثم واقعة ثالثة، العام الماضى تخص الدكتورة «صاد» التى نقلت بحثا كاملا بحذافيره من على الشبكة



المقهـــــــــورين!!

الإلكترونية. وأرسلت اللجنة العلمية خطابا لعميد كليتها ورئيس جامعتها وأمين المجلس الأعلى للجامعات وما زالت اللجنة بعد عام تنتظر رداً على ما أرسلته من خطابات. لم تُرقّ الدكتورة، صحيح لأن ذلك قرار اللجنة العلمية إلا أن أي إجراء لم يؤخذ ضدها فما زالت السيدة «الفاضلة» تقوم بدورها في التربية والتعليم، تضع امتحانات وتقوم بتصحيحها! وعند عرض تقرير اللجنة العلمية (كما تقتضي اللوائح) على مجلس كليتها، لم يشر العميد إلى انتحالها بحثا. واكتفى بالقول إنها لن ترقّى! معتبراً -على ما يبدو- التواطؤ والتستّر على جريمة بهذا الحجم نوعا من الودّ الإنساني والتراحم بين أبناء المهنة الواحدة!!

لم أذكر سوى قليل من كثير، وأكتفي بهذه الوقائع الثلاث التي شاهدتها بأم عيني وكنت، بمعنى من المعاني، طرفاً مباشراً فيها (في الواقعة الأولى بحكم عملي في الكلية التي أدين عميدها بالانتحال، وفي الواقعة الثانية من موقعي كعضو من بين أعضاء لجنة تحكيم البحوث المسروقة، وفي الواقعة الثالثة بحكم كوني المقرِّرة المنتخَبة للجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين في أقسام اللغة الإنجليزية وآدابها في الجامعات المصرية).

أما الأمر الثاني الذي يبدو مفزعا فهو التمويل الأجنبي للمشاريع البحثية، وقد لا يكون الاعتراض مانعاً شاملاً من حيث المبدأ على هذا الأمر، ولكن الاعتراض كل الاعتراض على سياسات عشوائية غالباً، كليلة البصر، لا ترى أبعد من المنحة المالية وتقصر عن رؤية دلالاتها وانعكاساتها على استقلال الجامعة وكرامتها بل وأمن البلاد. هذا حديث آخر شجونه أكثر، لا مجال للخوض فيها الآن. فقط من باب الإشارة السريعة: ما الذي نقوله في مشروع من عشرات المشاريع التي تقسّم البحوث التي تسعى إلى طلب التمويل إلى بحوث صغيرة ومتوسطة وكبيرة، لكل فئة منها هيئة تفحص خطط البحث المقدمة، الهيئة المكلّفة بفحص خطط المشاريع الصغيرة من الأكاديميين المصريين، الهيئة المكلّفة بفحص المشاريع المتوسطة تتشكل من مصريين وأجانب، والأجانب أكثر عددا، أما المشاريع الكبيرة فتحكمها وتتحكم فيها هيئة خالصة من الأجانب. وإن كان هناك من يقول أنها في النهاية أموالهم ولهم أن ينفقوها بما يرون، فهناك من يجيب وهل فقدت الإدارة عقلها لجعل خريطة المشاريع البحثية مشاعا على الملأ، تتحكم جهة أجنبية مانحة فيها؟ ثم ألا يستحق منا التوقف هذا التركيز الشديد على كليات التربية (كليّات إعداد المعلّمين)! هذه مجرد رؤوس مواضيع تستحق التوقف مطولا بما لا تسمح به المساحة المتاحة في هذا المقال السريع.

ثم الأمر الثالث الذي يعرفه أي من العاملين بالجامعات هو هذا النشاط اللافت في السنوات الأخيرة للإنشاءات، تبليط الأرضيات وتغيير المواسير وطلاء الجدران، يحدث ذلك سنويا أحيانا، وتصرف أموال طائلة في عمليات التجديد تلك. وقد يبدو الأمر إيجابيا فمن يكره أن يكون مكان عمله نظيفا وجميلا وجديدا، ولكن المعامل والمكتبات والأجهزة تعاني من تدهور يفوق الخيال، ويصعب العملية التعليمية وقد ينفيها. وهنا تتسق الجامعة مع توجه عام في الدولة ككل حيث الواجهة هي الأساس، واجهة الديمقراطية أهم من الديمقراطية، وواجهة النهضة أهم من النهضة، وواجهة الثقافة أهم من الثقافة، وواجهة التنمية أهم من فعل التنمية ذاته، وهنا أيضا واجهة الجامعة أهم من منجزها التعليمي والتربوي والبحثي. واقعة: في كلمته في العيد الخمسين لإنشاء إحدى كليات الآداب انشغل العميد (أي خليفة طه حسين ومهدي علام في عمادة كلية للدراسات الإنسانية) بسرد إنجازه في أعمال السباكة والنجارة والطلاء!

باختصار، بين نظام تعليمي يقتل الطاقات البحثية في مهدها، وأولويات مختلّة أو فاسدة، ومصالح تتواطأ بحماية السارق أو بالتلاعب بمصالح الوطن، يجد الأكاديميون المهمومون بأدائهم التعليمي والتربوي والبحثي أنفسهم في وضع القابض على جمرة من نار، أو على طريقة بلال يهتف بما يؤمن به والحجر الملتهب على صدره.

غياب نقابة لأساتذة الجامعات

من مهام النقابة أي نقابة الارتقاء بالمهنة والدفاع عن مصالح العاملين فيها. ونعرف أن للعمال نقاباتهم، عمال الغزل والنسيج، عمال الحديد والصلب، عمال هذه الصنعة أو تلك، وللمعلمين في المدارس نقابة، وللمهن التمثيلية نقابة، وللأطباء والصيادلة والمهندسين والمحامين والصحفيين...إلخ. نقاباتهم التي تمثّلهم وتعبّر عنهم، بما يرضيهم أو لا يرضيهم. ولكن أساتذة الجامعات على ما يبدو، لم يشبّوا عن الطوق بما يسمح أن تكون لهم نقابتهم. حاولنا على مدى عقود وكانت المحاولة دائما تصطدم بعراقيل متعددة حتى ليبدو أن النقابة تنظيم إرهابي يهدد الأمن العام. ولذلك لم يجد الأساتذة سوى نواديهم المتواضعة لكي يرفعوا صوتهم كلما جدّ داعٍ لذلك. ربما تمكنّا لو كانت لنا نقابة، من أن نسعى من خلالها إلى الارتقاء بمستوى مهنتنا ومواجهة التدهور المستمر في أوضاع الجامعة، ربما استطعنا رفع الصوت الجماعي المؤثر ضد إلغاء انتخابات العمادة دون استشارة أحد منا، أو تقسيم العام الدراسي إلى فصلين وتنفيذ ذلك رغم اعتراض مجالس أقسام وكليات عديدة عندما نوقش مشروع القرار. (فُرض نظام الفصلين الدراسيين قسرا على برامج تعليمية مصممة لتدريسها في عام من تسعة أشهر. والقرار على ما يبدو حل أمني للنشاط الطلابي السياسي الذي كان موسمه تاريخياً في ديسمبر ويناير من كل عام، وهما الآن شهرا امتحانات الفصل الدراسي الأول!) ربما كانت هذه النقابة تعلن إضرابا لكافة الأساتذة احتجاجا على قتل الشرطة لطالب بجامعة الإسكندرية أثناء مشاركته في مظاهرة، ربما أتاحت لنا النقابة شكلا من أشكال الرد الجماعي المسئول على قيام ضابط شاب في الثالثة والعشرين من عمره بالاعتداء بالضرب على أستاذ في الخمسين من عمره في جامعة عين شمس وتمزيق ثيابه (وهو ما حدث مؤخراً داخل الحرم، فلم تفعل إدارة الجامعة سوى محاولة «التهدئة»، وعندما لم تهدأ الأمور انقلبت الآية والموازين ولوّحت الإدارة للأستاذ بتقديمه لمجلس تأديب!) هذه أيضا واقعة تخصني بشكل مباشر، فالمضروب زميل لي يعمل في نفس القسم الذي أعمل به، والضارب من حراس كلية الآداب جامعة عين شمس، أي الكلية التي عملت فيها لأكثر من خمسة وثلاثين عاما. ولكن «النقابة لا»، و«لا للنقابة» هو موقف الإدارة المبدئي، ربما تحديدا لأن التجاوزات التي تستدعي رفع الصوت صارت كثيرة وستزداد!!

الجامعات الخاصة والجامعات الأجنبية

شهد العقدان الأخيران تكاثر إنشاء جامعات خاصة، بعضها يقبل أساسا من لا تتيح له معدّلات نجاحه في الثانوية العامة الدراسة في جامعات الدولة، وبعضها الآخر أجنبي وهي كلها على ما بينها من اختلافات تقوم على فكرة التعليم بوصفه سلعة.

وتعاني الجامعات المصرية الخاصة من نفس مشاكل جامعات الدولة، وهي كما قلت في حديث سابق لي: «مجرد مشروعات استثمارية وجدت أرضية خصبة في العرض والطلب وارتفاع المعدلات المطلوبة في الجامعات المجانية» وهي جامعات: «غير قادرة ولا نية لديها للتورّط في مشروع ثقافي كبير كذلك الذي يعنيه تأسيس جامعة، ولا فيما تتطلبه الجامعة أي جامعة، من شروط، بل نجدها محكومة بنفس شروط واقعنا المأزوم، وبنوعية الأثرياء الذين يمولونها، إنها في تقديري: مشروع فاشل لا يحل مشكلة التعليم في الجامعات العامة بل بكل بساطة يعقّدها». (من حديث لي في جامعة القاهرة في يوم ٩ مارس، عيد استقلال الجامعة).

أما الجامعات الأجنبية (الجامعة الأمريكية والجامعة الفرنسية والألمانية، ومؤخراً الإنجليزية وجامعة الأهرام الكندية في طور الإنشاء) فلأنها نتاج لمجتمعات رأسمالية متقدمة فهي تعتني بالسلعة لتدخل بها في سوق المنافسة.



ورغم أن جامعاتنا «المجانية» تسير مهرولة باتجاه تسليع التعليم (ليس فقط بإنشاء أقسام مميزة بمصروفات، في داخل الكليات «المجانية»: تجارة إنجليزي، حقوق فرنسي، سياسة واقتصاد إنجليزي وفرنسي... إلخ ولكن أيضاً بمنطق تجاري فج غالبا، يتبدى في تفاصيل كثيرة) إلا أنها لا تصمد في المنافسة، تستقطب الجامعات الأجنبية أبناء وبنات الصفوة فيتجه الميسورون من الأهالي من منطلق «انجُ برأسك» إلى الجامعات الأجنبية، مما يحقق لهم الإفلات الجزئي من كارثة التعليم في جامعات الدولة، ويضمن إعادة إنتاج التمايز الاجتماعي. يحصل أولاد الأثرياء على تعليم أفضل، فيكونون أكفأ وأكثر جدارة في الحصول على الوظائف الأهم. (وهو الأمر الذي يبدأ في المرحلة السابقة حيث الشهادات الأجنبية البريطانية والأمريكية والألمانية). ومع هذه الجامعات يترسخ مجدداً الوعي الكولونيالي القديم بأن السلعة الأجنبية هي الأفضل.

الإصـــــــلاح

وماذا عن الإصلاح؟ أتبع السؤال بسؤال ثان: هل يمكن إصلاح الجامعة دون إصلاح التعليم في المدارس؟ وهل يمكن إصلاح التعليم عموما في المدارس والجامعات في واقع تجاري فج مأزوم يشيئ البشر ويقيدهم ويهدر طاقاتهم؟ لا إصلاح للجامعة دون إصلاح جذري شامل كامل للنظام التعليمي في المدارس. ولا إصلاح في التعليم دون إعادة النظر في واقع الأزمة التي نعيش تفاصيلها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. لا إصلاح دون إسقاط المنطق المتحكم في التعليم ككل أي إسقاط مفهوم التعليم كطريق قسري ذي اتجاه واحد على حد قول باولو فريري مؤلف كتاب تربية المقهورين؛ لا يستقيم للبشر أن يزدهروا ويطلقوا العنان لطاقاتهم البنّاءة دون حرية ودون مشاركة، لا نفع في منطق التلقين، ولا نفع في منطق الإملاء والتقييد. ولا بد من أن تكون القيادات الجامعية بالانتخاب، وأن يكون للطلاب تمثيل في مجالس أقسامهم وكلياتهم وجامعاتهم. لا بد أن ترفع الإدارة يدها القابضة، عن النشاط الطلابي، وعن اتحادات الطلاب، بحيث تقدم هذه الاتحادات تمثيلا أصيلا للقواعد الطلابية، ثم إننا نحن الأساتذة نحتاج نقابة تعبر من خلالها عن مطالبنا وأحلامنا فيما يخص الارتقاء بالمهنة وبأدائنا ومصالحنا المادية والمعنوية.

لقد قطعت الجامعة المصرية شوطا منذ إنشائها كمشروع أهلي بتبرعات الأهالي وقروشهم القليلة الكثيرة، وعمّدت مكانتها بدماء طلابها في ثورة ١٩١٩، وانتفاضة نوفمبر ١٩٣٥، وأحداث كوبري عباس في ١٩٤٦، وشهدائها في حرب القنال عام ١٩٥١، وعند غزو العراق الأول في مطلع عام ١٩٩١، وقدمت آلاف المعتقلين (من الطلاب والأساتذة) من شتى الاتجاهات دفاعاً عن قضايا الأمة ومنها قضية الحريات والديمقراطية. ثم واقعة أخيرة أذكرها في ختام هذا الحديث: لقاء تم قبل ما يقرب من عشرين عاما بين خمسة أساتذة ورئيس جامعة عين شمس. كنا ذهبنا إليه للاعتراض على قرار بمنع عدد من القيادات الطلابية دخول الجامعة. قال أستاذ التاريخ الحديث بيننا (وهذه واقعة أنقلها بدقة) إنكم تعاقبون الطلاب الغيورين على تاريخ البلاد ومستقبلها، ثم تأتي المرحلة التالية لتمجدوا فعلهم وتشيدوا به وتدرجوه في سجل الكفاح الوطني. ولم يقل رئيس الجامعة آنذاك سوى: ولكننا نحمي الطلاب منهم، ثم إن هناك طالبات استأمننا أهلهن عليهن، وقد يصيبهن أذى جراء تلك القلاقل! لا أريد أن أستدرج في حكي الوقائع فهناك العشرات منها محفورة في ذاكرتي وذاكرة غيري من الأساتذة والطلاب. ولما كنت أعتقد أن لا شيء يضيع، فإن حكاية الجامعة وتفاصيل ما جرى ويجري فيها ستُحكى اليوم وغدا وبعد غد، وإن كانت الآن جزءاً من التاريخ المهمّش والمسكوت عنه فلن يبقى الحال دوماً على ما هو عليه.

وخـــــتـــامـــاً

عند مدخل جامعة القاهرة (الجامعة الأم) نصب تذكاري من الجرانيت في شكل شعلة، إنه نصب عبد الحكم الجراحي ورفاقه الذين استشهدوا في انتفاضة الجامعة في نوفمبر ١٩٣٥. وكثيرا ما يشهد هذا النصب الآن معارك غريبة، إذ يعتليه الطلاب المتظاهرون ويرفعون عليه شعاراتهم، فتقصفهم قوات الأمن بالغاز المسيل للدموع بغية تفريقهم. لماذا أشير لهذا النصب الآن في ختام الحديث. أردت تسجيل حضوره لأنني أراه الآن أمام عيني، وأردت للقارئ أن يراه فيقرأه كيفما شاء.

بدأت بمعنيين لكلمة شجن، وأنهي بمعنيين آخرين للكلمة ذاتها: فالشجن هو أيضا هوى النفس، وهو مجازاً، يحيل لرابطة الرحم والقرابة، وحديثي أنا ابنة الجامعة التي عملت فيها وارتبطت بها في شبابي وكهولتي، أردت أن يكون حديثي ذا شجون بهذين المعنيين أيضا. ▪

كـتـــاب الــزاويـــة



عبد الرزاق السنهوري

من خلال أوراقه الشخصية

يعد المرحوم الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا أحد أهم المجددين القانونيين والفقهيين في مصر والعالم العربي خلال القرن الماضي، فقد كان قانونيًا بارعًا وفقهيًا مجتهدًا ومشرعًا فذًا وقاضيًا لامعًا وأستاذًا جامعيًا وقبل كل شيء صاحب عقل علمي إذا عالج موضوعًا حقق ودقق واستقرى واستقصى ورتب وبوب ثم ذكر الرأي مشفوعًا بدليله.

ولد في ١١ أغسطس ١٨٩٥ في الإسكندرية ودخل مدرسة الحقوق ١٩١٣ وعين فور تخرجه وكيلاً للنائب العام في المنصورة ١٩١٧ ثم نقل إلى أسيوط لانضمامه إلى الحركة الوفدية عقب قيام ثورة ١٩١٩ وفي ١٩٢٠ عين مدرسًا بمدرسة القضاء الشرعي ثم سافر إلى فرنسا حيث حصل على الدكتوراة في العلوم القانونية ١٩٢٥ ثم الدكتوراة في العلوم الاقتصادية وترقى في سلك التعليم الجامعي وانتدب لتأسيس كلية الحقوق في بغداد ١٩٣٥ - ١٩٣٦ وتولى عمادة كلية الحقوق جامعة القاهرة، وكذلك كان رئيسًا لمجلس الدولة وساهم في وضع القوانين المدنية في عديد من الدول العربية.

وقد ترك السنهوري مذكراته الشخصية التي سجل فيها ما جال بخاطره من خواطر وآراء ومخططات. وكتب على غلاف الكراسة التي سجل فيها هذه الخواطر أنها «مذكراتي الشخصية». وقد أعدتها للنشر ابنته الدكتورة نادية وزوجها الدكتور توفيق الشادي وأعادت «دار الشروق» نشرها في بداية ٢٠٠٥ وتقدم «وجهات نظر» مقتطفات من هذه المذكرات.

"٣"

مـاذا بَعـد؟!

فـــــؤاد مـطـــــر

■ في الأول من أكتوبر ١٩٨٩ بدأ النواب اللبنانيون اجتماعاتهم في قصر المؤتمرات في الطائف بالسعودية تحت عنوان عريض هو: «إعداد ومناقشة وثيقة الوفاق الوطني»، وسط حيوية وديناميكية واضحتين لإخراج البلاد والعباد من جحيم الحرب والخراب والدمار والموت العشوائي.

وألقيت في حفل الافتتاح كلمات للأمير سعود الفيصل نيابة عن الملك فهد بن عبد العزيز وأخرى للملك الحسن الثاني والرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد، شددت على «وجوب تحقيق الخلاص للبنان وإحياء مؤسساته الشرعية، وإبعاد الخلافات العقيمة، وإنجاز وثيقة للوفاق تكون جزءاً من الضمير اللبناني الوطني...»، وفق ما ورد في كلمة الملك فهد.

وفي ذلك الإطار صبَّت كلمة رئيس مجلس النواب حسين الحسيني، وبيان وزعه رئيس الحكومة الأسبق صائب سلام وأحد زعماء الطائفة السُّنِّية على الإعلاميين. كما دارت اللقاءات والمشاورات وراء كواليس المؤتمر بعيداً عن المشاكسات وشارك فيها مباشرة مسئولون سعوديون من خلال رجل الأعمال اللبناني رفيق الحريري. وحرصت السعودية على تأمين تجاوب ماروني خاص ومسيحي عام ومسبق مع مقررات المؤتمر قبل الإعلان عنها بعد ثلاثة أسابيع من الاجتماعات.

وأجريت اتصالات مع جهات أخرى خاصة بالنسبة للاعتراضات على بعض النقاط وأبرزها ما يتعلق بعدد النواب، فهل يكون ١٠٨ أو ١٢٨ نائباً كما يصر رئيس حركة «أمل» نبيه بري الذي طلب من نواب الحركة المشاركين في الطائف الانسحاب في حال اعتماد العدد ١٠٨.

جرت معالجة كافة التعقيدات وتوافَقَ النواب على الصيغة النهائية لـ «وثيقة الوفاق الوطني» التي جاءت أشبه ما يكون بنص مكتوب لـ «ميثاق عام ١٩٤٣» الذي هو عام الاستقلال والذي بقي معمولاً به حتى ذلك الوقت رغم أنه غير مكتوب. وتم تبليغ القيادات اللبنانية بمضمون الوثيقة، وتولَّى النائب جورج سعادة إبلاغ البطريرك الماروني نصرالله بطرس صفير والعماد ميشال عون الذي اعترض عليها، وقال: «هكذا وثائق وطنية مصيرية لا تتم مناقشتها بالفاكس».

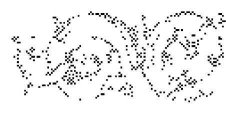
ويوم الثلاثاء ٢٤ أكتوبر استقبل الملك فهد النواب في القصر الملكي في جدة وهو بادي الانشراح والارتياح وشدد على تهنئة جميع اللبنانيين دون استثناء. أما رئيس البرلمان حسين الحسيني فإنه سجَّل الشكر للمملكة على جهودها ودعمها الدائم للبنان. ثم ألقى الأمير سعود بيان «اللجنة الثلاثية»، وأبرز ما قاله: «وثيقة الوفاق إطار عادل يحقق السيادة والاستقلال والوحدة والمساواة... ثمة تفاهم كامل بين اللجنة وسورية تنهي بموجبه القوات السورية مهامها الأمنية في لبنان في مدة أقصاها سنتان». وأشار إلى أنه طُلب من رئاسة مجلس النواب اللبناني الانعقاد في تاريخ أقصاه نوفمبر ١٩٨٩ لانتخاب رئيس المجلس ونائبه وأعضاء المكتب والمصادقة على «وثيقة الوفاق الوطني» وانتخاب رئيس للجمهورية، وجرى تكليف الدبلوماسي الجزائري الأخضر الإبراهيمي بالإشراف فوراً على تطبيق ذلك.

لم يتمكن رئيس الجمهورية المنتخَب النائب رينيه معوض من المشاركة في وضع النهاية السياسية للعماد ميشال عون وتنفيذها بعد أن اغتيل عقب فترة قصيرة من انتخابه. فتولى الرئيس الخلف المنتخَب الياس الهراوي ذلك بالتعاون العسكري مع القوات السورية وبمباركة أمريكية. وفي ضوء ذلك شنت قوات لبنانية وسورية هجوماً على القصر الجمهوري في بعبدا وكان بداخله عون وعضوا «حكومته» الضابطان إدغار معلوف وعصام أبو جمرة الذين جرى تأمين انتقالهم إلى مبنى السفارة الفرنسية في منطقة مارتقلا في الحازمية إحدى ضواحي العاصمة بيروت.

ردَّت الحكومة اللبنانية على اللجوء إلى السفارة بإعلانها أنها لن تسمح للعماد عون بمغادرة لبنان، وأنها ستحاكمه بتهمة التمرد واختلاس الأموال العامة، الأمر الذي اعتبره الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران يمس الشرف الفرنسي. ودفع هذا بمجلس النواب يوم ٢٦ أغسطس - ١٩٩١ إلى تبني مشروع قانون العفو العام عن جميع الجرائم السياسية التي ارتُكبت في لبنان خلال سنوات الحرب الست عشرة، بحيث بات في استطاعة عون ورفيقيه مغادرة السفارة. وأعقب ذلك في اليوم التالي (٢٧ أغسطس) إصدار الحكومة لقرار يقضي بمنح عون عفواً خاصاً على أن يغادر البلاد خلال الـ ٤٨ ساعة التي تلي توقيع الرئيس الهراوي على هذا المرسوم والعيش في المنفى دون القيام بأي نشاط سياسي في لبنان أو خارجه لمدة خمس سنوات. لكن شيئاً من هذا القبيل لم يتم احترامه لاحقاً، بل حصل نقيضه، فبعد إخراج عون ورفيقيه معلوف وأبو جمرة من مبنى السفارة الفرنسية تم ترحيلهم إلى فرنسا بطرق تضاربت المعلومات حولها، وكان أبرزها أنه جرى نقلهم فجراً وفي سيارات مصفحة، ووسط خدَع أمنية، إلى ميناء ضبية شمالي بيروت، وأبحروا من هناك عبر زورق مطاطي من نوع «زودياك» إلى غواصة فرنسية كانت بانتظارهم في عرض البحر وتوجهت بهم إلى الإسكندرية ومنها على الفور في طائرة فرنسية خاصة إلى قاعدة «إيستر» بالقرب من مرسيليا جنوب فرنسا.

ورغم أن اتفاق الترحيل كان ينص بوضوح على عدم تعاطي عون بالشئون السياسية لخمس سنوات، إلاَّ أن شيئاً من هذا القبيل لم يحصل منذ اللحظة الأولى لوصوله إلى «فيللته» في منفاه الفرنسي والتي تحولت إلى ما يشبه «قصر بعبدا مصغر»... أي «قصر جمهوري».

من المستحيل تحديد أي مسئولية أو دور للجنرال ميشال عون في اغتيال الرئيس رينيه معوض، وهو أول رئيس للجمهورية الثانية يتم انتخابه بعد التوصل إلى «اتفاق الطائف» لمجرد أن «وكالة الأنباء السورية» بثت صيغة نبأ الاغتيال بالقول: «إن يد الغدر والخيانة امتدت إلى الرئيس الشهيد رينيه معوض عندما كان موكبه يمر في بيروت الغربية، وأن هذه الجريمة النكراء بحق لبنان والشرعية اللبنانية جاءت بعد سلسلة من التهديدات التي أطلقها الضابط المتمرد على الشرعية الجنرال ميشال عون والتي توعَّد فيها بإحراق لبنان، وتدمير بيروت، وقتل الشخصيات والنواب والقيادات التي ساهمت في عملية الوفاق الوطني». وكانت الوكالة المذكورة اتهمت عون أيضاً بأنه وراء عملية اغتيال مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد. **كما لا** يمكن التوصل إلى مثل ذلك التحديد



رغم أن اتفاق الترحيل كان ينص بوضوح على عدم تعاطي عون بالشئون السياسية لخمس سنوات. إلاّ أن شيئاً من هذا القبيل لم يحصل منذ اللحظة الأولى لوصوله إلى «فيللته» في منفاه الفرنسي والتي تحولت إلى ما يشبه «قصر بعبدا مصغر»... أي «قصر جمهوري»



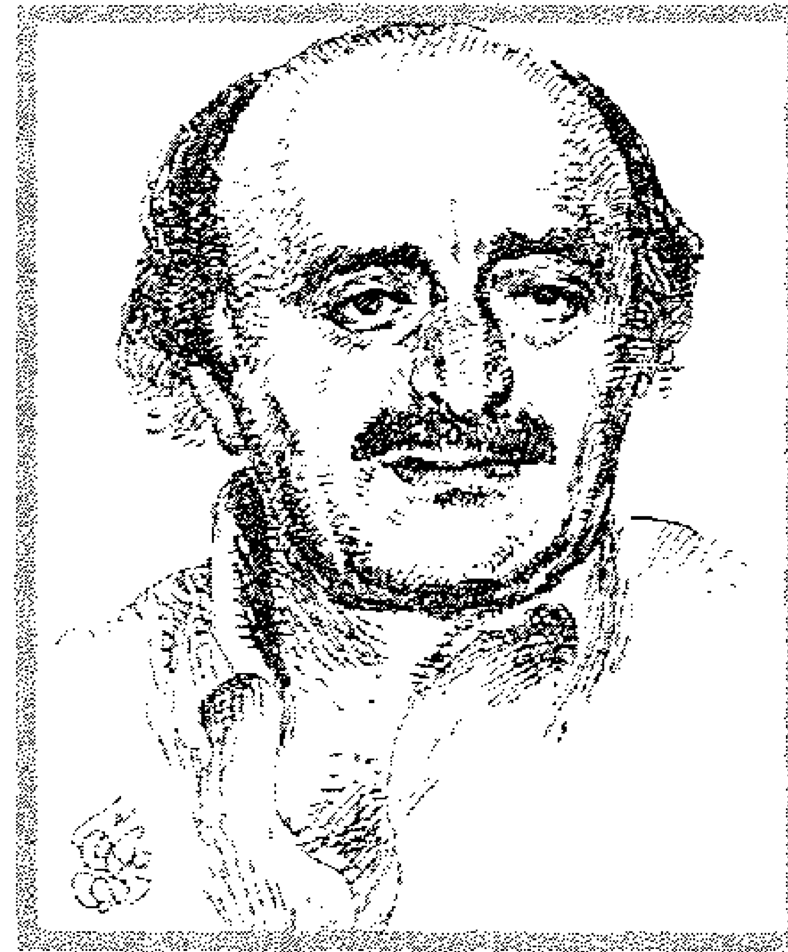
لمجرد التشابه في طريقة تنفيذ الجريمتين، وتقارب رقعتيهما الجغرافية. فاغتيال الرئيس معوض حصل بعدما شارك يوم ٢٢ نوفمبر ١٩٨٩ في مراسم احتفال أقيم في القصر الحكومي في بيروت الغربية لمناسبة ذكرى استقلال لبنان، حيث انفجرت خلال توجه موكبه إلى منزله عربة ملغومة بـ ٢٥٠ كيلوجراماً من المتفجرات لمجرد وصوله إلى قربها على بعد بضعة أمتار من منزل رئيس الحكومة الدكتور سليم الحص، فقضى معوض وتشوه وتناثرت أجزاء جسده. كذلك قضى حوالي ٢٣ شخصاً بين حراس ومرافقين.. تماماً على نحو ما حدث لرفيق الحريري بعد ست عشرة سنة.

أما الشيخ حسن خالد فقد اغتيل حوالي ظهر يوم ١٦ مايو ١٩٨٩ بتفجير سيارة مفخخة بحوالي ١٥٠ كيلوجراماً من المتفجرات لحظة مرور سيارته بالقرب منها عند كورنيش محطة التلفزيون في منطقة تسمى «عائشة بكار» على بعد حوالي مائة متر من دار الإفتاء الذي كان قد تركه قبل لحظات، وحوالي مائة متر كذلك من منزل الرئيس الحص أيضاً. وانتُشلت جثة المفتي هيكلاً عظمياً متفحماً، وقُتل إلى جانبه حوالي عشرين شخصاً وأصيب عشرات بجروح.

تاريخ من الاغتيالات

يفتح اغتيال الرئيس رينيه معوض والشيخ حسن خالد واحداً من أبشع الملفات السوداء خلال الحرب اللبنانية، وحتى ما قبلها وما بعدها وصولاً إلى اغتيال الرئيس رفيق الحريري. وأبرز من شملتهم:

محافظ الشمال فايز العماد في طرابلس (١٩٧٥/١١/٢٠)، ليندا شقيقة كمال جنبلاط في منزلها في جادة سامي الصلح (١٩٧٦/٥/٢٧)، علي حسن سلامة «أبو حسن» المسئول عن جهاز أمن «حركة فتح» مع أربعة من مرافقيه في رأس بيروت، النائب السابق بشير كيروز في الحازمية (١٩٨٢/٣/١٦)، الشيخ أحمد عساف «رئيس اتحاد الجمعيات والمؤسسات الإسلامية في لبنان» في محلة الظريف (١٩٨٢/٤/٢٤)، رئيس القضاء المذهبي الدرزي الشيخ حليم تقي



وليد جنبلاط



حسن نصر الله



ميشيل عون

الدين في منزله في محلة الظريف، إمام بلدة جبشيت الشيخ راغب حرب قرب منزله (١٩٨٤/٤/١٦)، رئيس الجامعة الأمريكية في بيروت الدكتور مالكوم كير (١٩٨٤/٤/١٨)، قائد اللواء الخامس في الجيش اللبناني العميد الركن خليل كنعان في منزله في الفياضية (١٩٨٦/٩/٢٩)، رئيس المجلس الشرعي الأعلى الشيخ صبحي الصالح في محلة ساقية الجنزير (١٩٨٦/١٠/٧)، الدكتور الياس الزايك في محلة الأشرفية (١٩٩٠/٢/١٩)، رئيس «حزب الوطنيين الأحرار» داني كميل شمعون وزوجته أنغريد وطفلاه طارق (سبعة أعوام) وجوليان (خمسة أعوام) في منزلهم في منطقة بعبدا (١٩٩٠/١٠/٢١)، رئيس «جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية» الشيخ نزار الحلبي أمام منزله في محلة الطريق الجديدة (٢٠٠٥/٨/٣١)، اختفاء الناشط في «القوات اللبنانية» المهندس رمزي عيراني (٢٠٠٢/٥/٧) ثم العثور على جثته في صندوق سيارته في شارع الحمراء، النائب والوزير السابق الياس حبيقة مع مرافقيه في الحازمية (٢٠٠٢/١٢/١٤)، غالب عوالي المسئول في «المقاومة الإسلامية» يوم ٢٠٠٤/٧/١٩ أمام منزله في الضاحية الجنوبية لبيروت والتي هي إحدى القلاع الحصينة لـ «حزب الله». وكان اغتيل أحد قادة المقاومة البارزين الأمين العام لـ «حزب الله» عباس الموسوي وزوجته وطفله خلال مرور موكبه في بلدة تفاحتا في الجنوب في ١٦ فبراير ١٩٩٢. وبعد اغتياله أصبح السيد حسن نصرالله هو الأمين العام للحزب.

وثمة محطة بشعة جداً في ذلك الملف ومميزة وتتمثل باغتيال القضاة الأربعة حسن عثمان، عماد شهاب، وليد هرموش، وعصام أبو ضاهر تحت قوس المحكمة أثناء إحدى الجلسات في مدينة صيدا على يد مسلحين ما زالوا مجهولين، كما هي الحال حتى العام ٢٠٠٥ بالنسبة لمرتكبي الاغتيالات الأخرى.

اغتيال دبلوماسيين:

وشملت عمليات الاغتيال العديد من الدبلوماسيين أيضاً منهم: سفير اليمن المتجول أحمد محمد الشامي في محلة تلة الخياط (١٩٧٥/٥/٢٢). وبعد حوالي شهر اغتيل وزير خارجية اليمن السابق محمد أحمد النعمان في محلة الظريف. ثم السكرتير الأول في السفارة التركية في بيروت أوكتار سيريت في حي الحمراء (ليل ١٩٧٦/٢/١٦)، والسفير الأمريكي في لبنان فرنسيس ميلوي وسائقه زهير المغربي مع المستشار الاقتصادي في السفارة روبرت وارينغ بعد خطفهم (١٩٧٦/٦/١٦) حيث عثر على جثثهم في اليوم التالي، والملحق في سفارة العراق في بيروت محمد علي خضير عباس مع مرافقه في محلة الروشة (١٩٨١/٥/٢٧)، وبعد أقل من أسبوع اغتيل المستشار السياسي للثورة الإيرانية لشئون الشرق الأوسط محمد صالح الحسيني في حي الرملة البيضاء، والسفير الفرنسي في لبنان لوي دو لامار في حي البربير (١٩٨١/٩/٤)، والوزير المفوض في سفارة الجزائر لدى لبنان رابح خرواع بعد خطفه من منزله في حي بئر حسن (١٩٨٢/١٢/١٢). وبعد ثلاثة أشهر اغتيل الدبلوماسي الفرنسي غي كافالو وزوجته كارولين في منزلهما في محلة ساقية الجنزير، ثم قنصل النمسا في لبنان غيرهارد لوشنبارو في مرآب مبنى يقطنه في العاصمة اللبنانية (١٩٨٤/٤/١٥)، والدبلوماسي الروسي أركادي كاناكوف بعد خطفه في بيروت (١٩٨٥/٩/٣٠)، ثم السكرتير الأول في السفارة الأردنية نائب عمران المعايطة في محلة الروشة في ٢٩/ ١٩٩٤/١٢.

... وإعلاميين وصحافيين:

تعرض الإعلاميون عامة وعلى الأخص رجال الصحافة إلى أبشع أنواع التعذيب والقتل، ومن الذين اغتيلوا: نائب رئيس تحرير مجلة «فلسطين الثورة» عادل عبد المجيد وصفي (١٩٧٩/٦/٢٠)، مراسل مجلة «شتيرن» الألمانية كارل روبير نيغر في حي المنارة خلال العام المذكور نفسه، خطف الصحافي اللبناني سليم اللوزي والعثور على جثته في أحراج محلة عرمون القريبة من بيروت (١٩٨٠/٣/٤)، نقيب الصحافة رياض طه في محلة الروشة (١٩٨٠/٧/٢٣)، الصحافي في جريدة «اللواء» يحيى الحزوري في محلة الشياح (١٩٨٠/٨/٢٩) وهو عضو في «حزب البعث العربي الاشتراكي»، سمير



«لبنان بين مشهدين»

ماذا بعد؟!

عاصم الشيخ رئيس تحرير «الفهرست» وزوجته وولداهما فى منزلهم فى محلة رأس بيروت (٩/٧/١٩٨٥)، واغتيال الصحافى حسن فخر بقذيفة صاروخية أطلقت على سيارته على طريق بين ضاحية بشامون - وبلدة دير قوبل.

الهراوى يعقد معاهدة مع سورية

سارع النواب إلى انتخاب الرئيس الياس الهراوى خلفاً للشهيد الرئيس معوض تجنباً لوقوع البلاد فى فراغ دستورى، وصوناً لاستمرار مسيرة اتفاق الطائف فى جلسة عقدوها يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٨٩ فى فندق «بارك أوتيل» فى بلدة شتورا القريبة من الحدود مع سورية، وشارك فيها ٥٢ نائباً أعطى ٤٧ منهم أصواتهم للهراوى بينما وُجدت أربع أوراق بيضاء وورقة ملغاة.

وجرى الانتخاب فى الوقت الذى كانت طائرة تقل نعش الرئيس معوض و٦ من مرافقيه من مطار بيروت إلى مطار القليعات العسكرى، أى إلى المكان الذى سبق للنواب أن انتخبوه فيه رئيساً. وهكذا بات لبنان فى يوم واحد يتقبل التهانى بانتخاب الهراوى والتعازى باغتيال معوض.

شدد الهراوى فور انتخابه على التزامه بالخيار الديمقراطى، وقيام الدولة الواحدة وإنهاء الدويلات الطائفية، وحل قضية المهجّرين، وتنفيذ القرار ٤٢٥ الذى يقضى بانسحاب القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان، وبسط سلطة الدولة، ونزع أية بندقية غير لبنانية، والالتزام بالقضايا القومية، وبناء علاقات أخوية، سواء أمنية أو سياسية أو اقتصادية مع سورية. وسرعان ما ترجم هذه النقطة الأخيرة عندما زار مع رئيسى مجلس النواب حسين الحسينى والحكومة عمر كرامى دمشق يوم ٢٢ مايو ١٩٩١، ووقّع والرئيس السورى حافظ الأسد على «معاهدة الأخوة والتعاون والتنسيق» التى تعرضت لانتقادات عديدة أبرزها تسرع الهراوى فى توقيعها على خلفية «أن سورية فى غاية القوة بالمقارنة مع لبنان الذى هو فى غاية الضعف، ما يمكن الافتراض معه أن ذلك حرم الجانب اللبنانى من فوائد لصالحه.

وترك انطباعاً لدى غالبية جيل الشباب اللبنانى أن سورية تسعى لوضع يدها كلياً على لبنان. وصدرت أبرز الانتقادات تلك عن البطريرك المارونى مار نصرالله بطرس صفير الذى رأى أن المعاهدة «مفروضة من طرف واحد»، وأنها «تشكل مساساً بميثاق ١٩٤٣ الوطنى الذى توافق اللبنانيون على القول فيه: لا للشرق ولا للغرب».

وسط تلك الأجواء سارعت قيادتا البلدين إلى التحوط أمنياً لكل الاحتمالات السلبية راهناً ومستقبلاً. وتم التوصل إلى اتفاق أمنى مشترك نُشرت فى صحف لبنانية يوم ٧ سبتمبر ١٩٩١ تفاصيل حوله، وينص على تشكيل لجنة تسمى «لجنة شئون الدفاع» تختص «بدراسة الوسائل للحفاظ على أمن الدولتين واقتراح الخطط المشتركة للوقوف فى وجه أى عدوان أو تهديد لأمنهما القومى ومواجهة أى اضطرابات تخل بالأمن الداخلى لأى من الدولتين»... إضافة إلى ترتيبات وإجراءات تعزز الأمن المشترك، وتحميه.

بدأ العمل تدريجياً لتنفيذ الخطوات التى نص عليها «اتفاق الطائف»، وكانت الخطوة التالية تعيين مجلس الوزراء ٤٠ نائباً يوم ٧ يونيو ١٩٩١ ليرتفع عدد أعضاء المجلس من ٩٩ إلى ١٠٨ نواب ومناصفة بين المسلمين والمسيحيين كما نص على ذلك الاتفاق.

جاء التعيين غريباً عن الممارسة الديمقراطية اللبنانية، لكنه تنفيذ لمقررات «الطائف» حيث عينت حكومة الرئيس عمر كرامى النواب التالية أسماؤهم من بين ٣٤٨ كانوا قد تقدموا من وزارة الداخلية بترشيح أنفسهم:

إيلى حبيقة، أنطوان جوزف شادر، محمد الجارودى، عادل صقر، محمود أبو حمدان، أيمن شقير، نسيب سليم لحود، منير الحاج، شاهى برسوميان، وليد جنبلاط، مروان حمادة، فؤاد السعد، جان عبيد، ميشال المر، طلال إرسلان، فارس بويز، جورج كساب، نبيه برى، محمد بيضون، عبد الله الأمين، أنور الخليل، روى الهراوى، محمد الميس، إيلى الفرزلى، عبد الرحيم مراد، فيصل الداوود، على حمد جعفر، محسن دلول، عمر كرامى، عمر مسيكة، على عيد، حمد الصمد، وجيه البعرينى، عبد الرحمن عبد الرحمن، نائلة معوض، سليمان طونى فرنجية، إسطفان بطرس الدويهى، أليكس سابا، سليم سعادة، روجيه ديب.

وعقب ذلك قدّم كرامى استقالة حكومته، وجرى تكليف رشيد الصلح أحد رموز العمل السياسى البيروتى السُّنى بتشكيل الحكومة الجديدة.


حافظ الأسد

تمت تلك الخطوات مع الانطلاق للتحضير لإجراء الانتخابات النيابية الأولى بعد «الطائف» وسط موقفين أمريكى وسورى لافتين: الأول عبّر عنه وزير الخارجية الأمريكى جيمس بيكر بعد زيارة قام بها إلى منزل الرئيس الهراوى فى مدينة زحلة آتياً من دمشق يوم ٢٣ يوليو ١٩٩٢، وشدد فيه على النقاط الأساسية التالية: «ندعم اتفاق الطائف نصاً وروحاً، ونود أن نراه وقد طُبق، وندعم ذلك بقوة (...)، إن الحكومة السورية تريد إعادة نشر قواتها فى أسرع وقت ممكن وإنى أستخدم هنا عباراتها (...)، نؤيد بشكل كبير استقلال لبنان وسيادته (...)، إن أى انتخابات تجرى يجب أن تكون حرة، وخالية من الإكراه والتخويف».

وتَرافق ذلك مع الموقف السورى الذى أعلنه نائب رئيس الجمهورية السورية عبد الحليم خدام فى حديث نشرته يوم ١٦ يوليو ١٩٩٢ صحيفة «لوريان - لوجور» التى تصدر بالفرنسية فى بيروت، ومما قال فيه عن إجراء الانتخابات: «إنها عملية حكيمة وواعية ومستمرون فى دعم إجرائها فى مدة وجيزة... ولن يكون لسورية أى موقف يتعلق بالانتخابات، كما لن نتورط فى أى حال فى عمليتها...».

الانتخابات النيابية الأولى فى الجمهورية الثانية

شكلت انطلاقة الانتخابات النيابية الأولى فى الجمهورية الثانية عام ١٩٩٢ رغم الدعوات المسيحية المكثفة والمتزايدة لإلغائها أو تأجيلها، وطَرح اقتراح يقضى بلجوء مجلس الوزراء إلى تعيين النواب كما سبق أن فعل عندما عيّن ٤٠ نائباً (وفق ما ذكرناه)، محطة مركزية أكدت الالتزام الوطنى بالتمسك باتفاق الطائف وتنفيذه وفق نصوصه. وسجلت الانتخابات فى مجملها دلالات عدة بعضها كان مفاجئاً، والآخر يدخل فى إطار المسلّمات الانتخابية اللبنانية ومنها على سبيل المثال لا الحصر: الفوز المميز الذى حققه «حزب الله» خاصة فى منطقة البقاع، وتمكّن إسلاميين من الفوز فى بيروت والجبل. من الدلالات أيضاً: (أ) التهديدات من قبل بعض المسيحيين باللجوء إلى التطرف بما يبدو أنه رد على المفاجأتين الأوليين. (ب) تثبيت زعامة الرئيس سليم الحص النيابية لبيروت. (ج) الفوز المطلق الذى حققه وليد جنبلاط ولائحته فى معقل زعامته السياسية فى الشوف. (د) سقوط الرئيس السابق لمجلس النواب كامل الأسعد فى الجنوب بفارق كبير لمصلحة خصمه رئيس حركة «أمل» نبيه برى. (هـ) إجراء الانتخابات بصورة عادية فى معقل الموارنة الداعين إلى المقاطعة بقوة فى منطقة كسروان.

تمت المرحلة الأولى من الانتخابات فى موعدها يوم ٢٣ أغسطس ١٩٩٢ فى كل من منطقتى البقاع والشمال وسجلت نتائجها ثلاث مفاجآت: (الأولى) هى أنها جرت فى أجواء سلمية باستثناء حوادث بسيطة، (الثانية) هى فوز لائحة «حزب الله» فى منطقة بعلبك - الهرمل - بأكثرية المقاعد، أما (الثالثة) فكانت سقوط المرشح روى الهراوى نجل رئيس الجمهورية الياس الهراوى فى زحلة، وإعلان رئيس المجلس النيابى حسين الحسينى استقالته بعد سقوط كامل مرشحى لائحته باستثنائه فقط فى مواجهة لائحة «حزب الله».

ردّ البطريرك المارونى مار نصرالله



تمت الانتخابات النيابية الأولى في الجمهورية الثانية بعد التوقيع على الطائف، بانتخاب مجلس مؤلف من ١٢٨ نائباً، رغم كل التحديات والتهديدات والضغوط



بطرس صفير على ذلك بالتحدث بلغة تجنح بعض الشيء نحو التشدد والاستعداد لممارسة التطرف. ثم جرت الانتخابات في مرحلتها الثانية في محافظتي بيروت وجبل لبنان، وقد خاضها الرئيس سليم الحص بلائحة غير مكتملة، وثبت بعد ذلك أنه كان بعيد النظر في هذه الخطوة إذ لم يطرح سوى ١١ من أصل ١٩ مرشحاً يفترض أن تتضمنهم اللائحة. وبهذا ترك مجالاً للإسلاميين كي يفوزوا مطمئنين ويأخذوا أصواتاً من اللائحة المنافسة التي شكلها الرئيس رشيد الصلح وكانت أيضاً غير مكتملة. وقد فاز ثلاثة منهم هم: محمد برجاوي، زهير العبيدي، وعدنان طرابلسي بأصوات كثيرة. كما أنه آثر عدم إشراك مرشحين موارنة في لائحته، وذلك على أساس أنه ما دام الموارنة عموماً ضد الانتخابات فليبتعد هو (الحص) عن عملية الصراع هذه، ويكتفي بالتركيز على المرشحين المسلمين وعلى المقعدين الأرثوذكسيين - وقد حصل على أحدهما -، والمقعد المخصص للروم الكاثوليك، وقد حصل عليه بشخص المحامي جوزف مغيزل، والمقعد الدرزي الذي فاز به المحامي عصام نعمان.

وكان لافتاً أن ١٧ مرشحاً في محافظة جبل لبنان فازوا بالتزكية نتيجة المقاطعة المسيحية للانتخابات. لذا جدد البطريرك صفير القول: «إن هذه الانتخابات صورية، وأن مجلس النواب الذي يجري انتخابه سيكون غير قانوني، ولن يستمر، وأن قرار الحكومة اللبنانية ليس قراراً لبنانياً وليس حراً».

بعد ذلك بدت المرحلة الثالثة من الانتخابات في الجنوب هي الأكثر أهمية بعدما قرر كامل الأسعد القطب الشيعي القوي في ما قبل الحرب خوض المعركة في كل المنطقة على خلفية اختبار الولاء الجنوبي له، وهو الذي كان معروفاً بولاءاته للعائلات التقليدية لآل الأسعد مثلاً لا حصراً.

على هذا الرهان جرت انتخابات الجنوب حامية الوطيس فعلاً يوم ١٦ سبتمبر ١٩٩٢ وكان الأسعد يعلق الآمال على أصوات قرى أبناء الشريط الحدودي. لكن إسرائيل لم تسمح لهؤلاء بالمشاركة في الانتخابات فأضرت بلائحة الأسعد الذي حملت النتائج فارقاً كبيراً في الأصوات بينه وبين بري لصالح الأخير.

وبعد انتخابات الجنوب بخمسة أيام بحث الرئيس الهراوي ما حملته المراحل الأولى من الانتخابات مع الرئيس حافظ الأسد في القمة التي جمعتهما في مدينة اللاذقية السورية يوم ١٢ سبتمبر ١٩٩٢، وإن كان الحديث الذي دار بينهما قد تركز أكثر على ما يخفف من وطأة ضغط المعارضة المارونية على الرئيس اللبناني، بما يسهل إجراء الانتخابات التالية في معقل الموارنة وبطريركهم صفير أي: منطقة كسروان وهي منطقة ساحلية - جبلية.

لكن شيئاً من ذلك لم يتحقق، وقد أعلن رسمياً بعد القمة أن البحث بإعادة تمركز القوات السورية مؤجل، إنما سورية مستمرة في دعم مسيرة الوفاق في لبنان، فيما سيعقد المجلس الأعلى المشترك اجتماعاً بعد تشكيل الحكومة اللبنانية الجديدة لمتابعة تنفيذ المقررات التي اتخذت في جلسته السابقة.


ياسر عرفات

مهما يكن فإن الانتخابات جرت في منطقة كسروان المارونية يوم ١١ أكتوبر ١٩٩٢ رغم شراسة الدعوات إلى مقاطعتها بصورة عامة من قبل قيادات الموارنة الروحية والسياسية، وإن كان الإقبال على الاقتراع ظل خفيفاً جداً ولم تتعد نسبته العشرين بالمائة من مجموع المقترعين البالغ عددهم ٧٩٤٣١ ناخباً. وقد فاز بنتيجة فرز الأصوات المرشحون: فارس بويز، منصور البون، الياس الخازن، رشيد الخازن، وكميل زيادة. وبذلك تمت الانتخابات النيابية الأولى في الجمهورية الثانية بعد التوقيع على الطائف، بانتخاب مجلس مؤلف من ١٢٨ نائباً، رغم كل التحديات والتهديدات والضغوط، إلى أن كان يوم ١٥ أكتوبر ١٩٩٢ حيث ودع الهراوي حكومة رشيد الصلح المستقيلة بعد أن أتمت مهمتها بإجراء الانتخابات «في جو من الحرية والحياد التامين» حسب الرئيس المستقيل.

بري للرئاسة الثانية والحريري للحكومة

بعد ذلك انتخب النائب نبيه بري رئيساً لمجلس النواب في أجواء شبه معروفة مسبقاً، فيما جرى تكليف النائب رفيق الحريري تشكيل الحكومة الأولى في «جمهورية الطائف»، وجاء ذلك عقب قمة بين الرئيسين حافظ الأسد والياس الهراوي في سورية، استدعى خلالها الرئيس بري لزيارة دمشق تمهيداً لانتخابه في جلسة نيابية عقدت في ٢٠ أكتوبر ١٩٩٢ بأكثرية ١٠٥ أصوات مقابل ١٤ صوتاً نالها منافسه النائب محمد يوسف بيضون، ووجدت خمس أوراق بيضاء وسادسة ألغيت.

وحدد بري مهمات المجلس الجديد بحل قضية المهجرين، وإصدار التشريعات لتحديث الدولة واستكمال تحرير الأراضي اللبنانية من الاحتلال الإسرائيلي والعمل على تنفيذ قرار مجلس الأمن الرقم ٤٢٥، ومراقبة حسن تنفيذ المعاهدة اللبنانية - السورية. ولفت في جلسة الانتخاب تلك أنه حتى منصب نائب رئيس المجلس كان للنائب إيلي الفرزلي المقرب من الحكم السوري، ولم تكن هنالك فرصة متاحة أمام المرشح غير المقرب وهو مروان أبو فاضل الذي نال صوتاً واحداً مقابل ٩٩ صوتاً نالها الفرزلي ووجدت ٢٤ ورقة بيضاء وورقة ملغاة.

ويوم ٢٢ أكتوبر ١٩٩٢ انتهت التكهنات في من يشكل الحكومة الجديدة حيث إن رئيس الجمهورية الياس الهراوي، وفي ضوء استشاراته النيابية طوال يومين وانتهت بلقاء تقليدي تقييمي مع رئيس مجلس النواب نبيه بري، كلف رفيق الحريري رسمياً بتشكيل حكومة جديدة.

ويوم ٣١ أكتوبر من العام المذكور وبعد زيارة تشاور قام بها إلى دمشق مع كبار القادة السوريين، عاد الحريري إلى بيروت ليعلن تشكيل حكومته الأولى على النحو الآتي:

- عن الطائفة السنية (٦ وزراء) هم: رفيق الحريري لرئاسة الوزراء والمال، بهيج طبارة للعدل والإصلاح الإداري، حسن عز الدين للتعليم المهني والتقني، محمد غزيري للبريد والمواصلات السلكية واللاسلكية، عمر مسقاوي للنقل، وفؤاد السنيورة وزير دولة (جرى تكليفه لاحقاً بالمالية).
- عن الطائفة المارونية (٦ وزراء): فارس بويز للخارجية، ميشال إدة للثقافة والتعليم العالي، مخايل الضاهر للتربية والفنون، الياس حبيقة للشئون الاجتماعية، سليمان طوني فرنجية للشئون البلدية والقروية، جورج أفرام للموارد المائية والكهربائية.
- عن الطائفة الشيعية (٦ وزراء): محسن دلول للدفاع، رضا وحيد لشئون المغتربين، عبد الله الأمين للعمل، علي عسيران وزير دولة، محمود أبو حمدان للإسكان والتعاونيات، محمد بسام مرتضى للأشغال العامة والنقل.
- عن الطائفة الأرثوذكسية (٤ وزراء): ميشال المر نائباً لرئيس الوزراء، بشارة مرهج للداخلية، عادل قرطاس للزراعة، سمير مقبل للبيئة.
- عن الطائفة الدرزية (٣ وزراء): وليد جنبلاط لشئون المهجرين، مروان حمادة للصحة والشئون الاجتماعية، أنور الخليل وزير دولة.
- عن الطائفة الكاثوليكية (٣ وزراء): أسعد رزق للصناعة والنفط، ميشال سماحة للإعلام، نقولا فتوش للسياحة.
- عن الأرمن (وزيران): شارهي برسوميان وزير دولة، هاغوب دمرجيان للاقتصاد والتجارة.

أثار الإعلان عن التشكيلة الحكومية حفيظة رئيس البرلمان نبيه بري على أساس أن رئيس الحكومة رفيق الحريري لم يطلعه مسبقاً على أسماء الوزراء وفق ما اصطلح على اعتباره تقليداً سياسياً لا أكثر. وأدى هذا إلى تأخير التقاط الصور التذكارية حتى بادر رئيس الحكومة إلى زيارة مجاملة ورفع عتب لبري، استمرت خمس ساعات. وأهمية هذه المحطة أنها كرست أكثر فأكثر الأعراف التقليدية التي سادت لعقود في الحياة السياسية اللبنانية، وهذا ما كان مؤشراً وذا



«لبنـــان بـيـن مشـــهـديـن»

ومـــاذا بعـــد؟!

بصمات معظمها سلبي في بناء دولة المؤسسات المأمول بها لاحقاً.

ثم قفزت إلى الواجهة عقبة أساسية ثانية عرقلت بدورها بناء هذه الدولة وهي طلب الحكومة حصولها على «الصلاحيات الاستثنائية» من مجلس النواب، لكن رئيسه نبيه بري رفض ذلك حتى من حيث المبدأ انطلاقاً من أن المجلس لا يمكن أن يعرقل أو يؤخر أي مشروع حكومي يهدف إلى إعادة إعمار لبنان والنهوض به. وعلى هذا الأساس جرى طي صفحة طلب الصلاحيات لاحقاً.

ثم نالت الحكومة ثقة المجلس النيابي بأغلبية ١٠٤ أصوات من أصل ١٢٨، فيما حجبها نواب «حزب الله» وعددهم ١١، ونائب بيروت نجاح واكيم، كما امتنع ثلاثة نواب عن التصويت. ولوحظ أن البيان الوزاري الذي نالت على أساسه الثقة جاء ذا منحى اقتصادي أساسي واضح، وبعيداً عن تناول النقاط القابلة للتفجر، من هنا لوحظ خلوه من موضوع المفاوضات العربية - الإسرائيلية التي كانت تتواصل في واشنطن ويشارك فيها لبنان وعدم تطرقه لموضوع الطائفية السياسية. كذلك قانون الانتخابات النيابية. وشدد على مسائل اجتماعية ومعيشية حيوية أبرزها مكافحة الغلاء، ومحاربة الاحتكار، وتثبيت الاستقرار النقدي والعام، وجباية الضرائب، ومعالجة البطالة المتفاقمة، وتعزيز الجيش، والصلة مع المغتربين اللبنانيين المنتشرين في كافة أنحاء العالم، وصون العلاقات الأخوية اللبنانية - السورية بعيداً عن الأهواء والمصالح والتدخلات الخارجية، وبناء دولة المؤسسات. وعقدت الحكومة أول اجتماعاتها في ١٣ نوفمبر ١٩٩٢ وأقدمت على خطوة مميزة برفع الحصانة عن الموظفين واسترداد مشاريع القوانين المحالة سابقاً إلى مجلس النواب.

... وأخيراً انسحبت القوات السورية

من المهم أن نضع خطوطاً عريضة تحت تلك النقاط الأساسية من البيان الوزاري للحكومة الأولى لـ «جمهورية الطائف»، وغيرها الكثير، لأنها ظلت محور البيانات الوزارية للحكومات اللاحقة بما فيها الحكومة الأخيرة (عند كتابة هذه السطور عن «لبنان بين مشهدين على مدى ثلاثين سنة» يوم الخميس ٢٠٠٥/٥/٥) أي التي يرأسها نجيب ميقاتي. ومهمتها الأساسية الإشراف على إجراء الانتخابات النيابية المقررة بين أواخر مايو وأوائل يونيو ٢٠٠٥، باعتبار أن النقاط المشار اليها وغيرها مما ورد في اتفاق الطائف بقي حتى هذه المواعيد، أي بعد أكثر من ١٦ سنة من التوصل إليه، مجرد حبر على ورق ووعود لم تتعد أضغاث الأحلام نتيجة عوامل عدة أبرزها صراعات أركان الحكم التي كانت في غالبيتها مجرد صراعات وشد حبال بين «الدويتا» (أي بين رئيس الجمهورية ورئيس مجلس النواب أو رئيس مجلس الوزراء)، و«الترويكا» (أي أنها متشابكة فيما بين الرؤساء الثلاثة). وقد بصمت هذه وفي معظم الفترات، العلاقات بين الرؤساء في عهدي الرئيسين السابق للجمهورية الياس الهراوي الذي جرى التمديد لعهده دون ضجة تذكر، والرئيس إميل لحود الذي أدى تمديد ولايته لثلاث سنوات إلى «ثورة سياسية» ناقمة بلغت تصعيداً وتأثيراً لم تشهده الساحة من قبل نتيجة اغتيال الرئيس رفيق الحريري ونضوج ظروف إقليمية ودولية «غير مريحة» لسورية، ولاستمرار بقاء قواتها في لبنان، الأمر الذي دفع مجلس الأمن إلى إصدار قراره رقم ١٥٥٩ يوم الثاني من سبتمبر ٢٠٠٤، وطلب فيه مباشرة من سورية سحب قواتها من لبنان بشكل واضح وحاسم، بما يعني ذلك أنه ستترتب على عدم التنفيذ مفاعيل دولية قد تصل في حال عدم تنفيذ القرار إلى فرض عقوبات مباشرة عليها.

لكن القيادة السورية، وعلى لسان رئيسها الدكتور بشار الأسد سارعت إلى التأكيد على التزامها بالقرار الدولي، وبالشرعية الدولية، وباشرت بسحب قواتها تدريجياً من لبنان إلى أن أعلنت أن آخر جندي من وحداتها العسكرية وأجهزة مخابراتها قد انسحب يوم الاثنين ٢٥ أبريل ٢٠٠٥، وبالتالي فإنها انجزت الانسحاب الشامل والمطلوب لقواتها من كافة الأراضي اللبنانية، داعية مؤسسات الشرعية الدولية إلى التأكد الميداني من ذلك.

وهكذا، تحققت بعد ١٦ سنة إحدى أبرز نقاط اتفاق الطائف الذي تنص الفقرة المتعلقة بالدور والوجود العسكريين السوريين في لبنان على الآتي: «... من واقع العلاقات الأخوية التي تربط سورية بلبنان، تقوم القوات السورية مشكورة بمساعدة قوات الشرعية اللبنانية لبسط سلطة الدولة اللبنانية في فترة زمنية محددة أقصاها سنتان تبدأ بعد التصديق على وثيقة الوفاق الوطني (الطائف)، وانتخاب رئيس الجمهورية وتشكيل حكومة الوفاق الوطني، وإقرار الإصلاحات السياسية بصورة دستورية. وفي نهاية هذه الفترة تقرر الحكومتان، الحكومة السورية وحكومة الوفاق الوطني اللبنانية، إعادة تمركز القوات السورية في منطقة البقاع الغربي في ضهر البيدر حتى خط حمانا - المديرج - عين داره، وإذا دعت الضرورة في نقاط أخرى يتم تحديدها بواسطة لجنة عسكرية لبنانية - سورية مشتركة. كما يتم اتفاق بين الحكومتين يجري بموجبه تحديد حجم ومدة تواجد القوات السورية في المناطق المذكورة أعلاه وتحديد علاقة هذه القوات مع سلطات الدولة اللبنانية في أماكن تواجدها. واللجنة الثلاثية العربية العليا مستعدة لمساعدة الدولتين في الوصول إلى هذا الاتفاق إذا رغبتا في ذلك».



سمير جعجع

تعرض ذلك النص لموجات متضاربة من التأويل والتفسير والاجتهاد الإيجابي حيناً والسلبي أحياناً على خلفية سياسية مزدوجة بين من يطالب بوجوب التزام سورية بسحب قواتها، ومن يؤكد أن الخطوات التي حددها «الطائف» لهذا الانسحاب لم تكتمل بعد. وتمحور الخلاف والأخذ والرد حول التعبير الوارد في النص لجهة الفترة المحددة للانسحاب السوري وذلك في مدة «أقصاها سنتان»، إذ جرى النقاش حول الشروط التي تحدد بدء هاتين السنتين، ففيما يرى البعض أنها لم تتأمن، يعتبر آخرون أن شروط بدئها الأربعة قد حصلت في المحطات الآتية:

١. مصادقة مجلس النواب على وثيقة الطائف في نوفمبر ١٩٨٩.

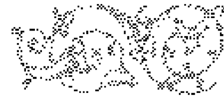
٢. انتخاب النائب رينيه معوض رئيساً للجمهورية في اليوم نفسه بـ ٥٢ صوتاً، وقد أقسم اليمين الدستوري في الحال.

٣. تشكيل الحكومة الجديدة برئاسة الدكتور سليم الحص يوم ٢٥ نوفمبر من الشهر ذاته.

٤. تصويت مجلس النواب على إقرار الإصلاحات السياسية بصورة دستورية (دستور الجمهورية اللبنانية الجديد يوم ٢١ فبراير ١٩٩٠).

ورأى فريق من اللبنانيين أنه لو كانت لدى سورية نية «صافية وصادقة»، ورغبة في تنفيذ «الطائف»، لكانت شكلت تلك المراحل الأربع ما يكفي «لعدم تضييعها للوقت والمماطلة» في تحديد بدء السنتين، وبالتالي عند انتهائهما، بحيث يكون قد تحقق فعلاً ما ورد في ذلك الاتفاق لجهة «بسط سلطة الدولة اللبنانية في فترة محددة أقصاها سنتان» وفق النص الذي أشرنا إليه.

لكن رغم ذلك الوضوح، والمطلوب المحدد الذي لم يحصل، فإن ذلك الفريق يأخذ على سورية أيضاً اللجوء دائماً إلى مبررات غير منطقية، وفي أفضل الأحوال غير كافية لعدم سحب قواتها، ومن ذلك قول السوريين مثلاً: «باقون في لبنان لأن قرار الانسحاب ليس بيدنا وحدنا، بل هو وبشقه الأكبر مرتبط بإرادة الشرعية اللبنانية. المؤسسات الدستورية المدنية والعسكرية ما زالت غير قادرة لوحدها على ضبط الأمن وحفظه. ليتفق اللبنانيون في ما بينهم أولاً، وليقدموا لنا الأدلة والضمانات على وفاقهم وتضامنهم فننسحب في الحال. القمة العربية (أيام الرئيس الراحل الياس سركيس) هي التي أدخلت قوات الردع العربية (معظمها سوري في حينه قبل أن تصبح سورية بالكامل)، ولا يجوز أن تخرج هذه القوات من لبنان إلا بطلب



كانت «جريمة العصر» بامتياز حيث تم تفجير الحريرى ضمن تدبير افترض فاعلوه أنه سيمر من دون مفاجآت صاعقة تصيب النظامين. لكن ١٤ فبراير ٢٠٠٥ كان اليوم الفاصل بين تاريخين: تاريخ الوجود السورى بصيغة الهيمنة على لبنان وتاريخ بدء اضمحلال هذا الوجود



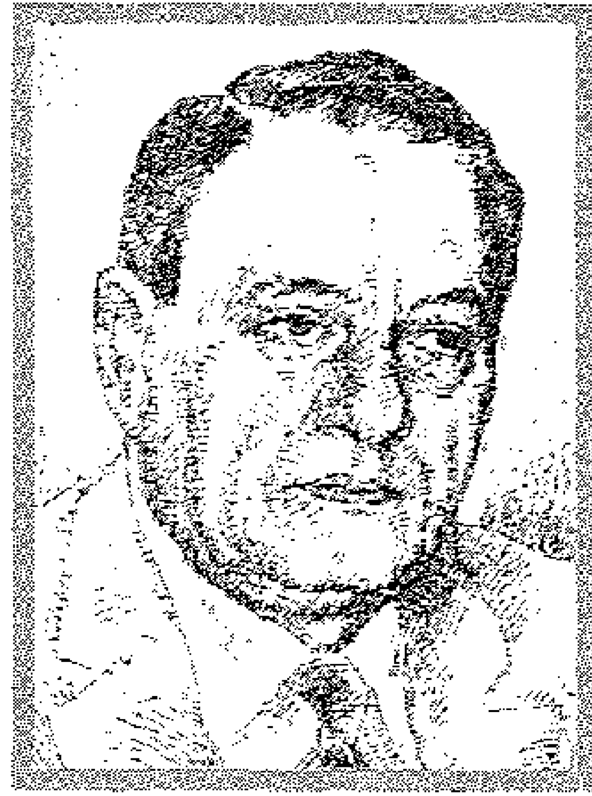
من قمة عربية. تغادر لبنان بعد انسحاب كل الجيوش الأجنبية منه...».

الجدير ذكره أن القمة العربية فى فاس عام ١٩٨٢ ربطت الانسحاب السورى بانسحاب إسرائيل أولاً من كافة الأراضى اللبنانية. وهذا ما عاد وأكده الرئيس حافظ الأسد «للجنة الثلاثية العربية» بعد مؤتمر القمة فى الدار البيضاء عام ١٩٨٩ وإبان مؤتمر الطائف.

وكان مجلس الأمن قد أصدر يوم ١٧ سبتمبر ١٩٨٢ (أى إبان الاجتياح الإسرائيلى) القرار الرقم ٥٢٠ ودعا فيه إلى «احترام سيادة لبنان وسلامة أراضيه ووحدته واستقلاله السياسى فى ظل السلطة الوحيدة والحصرية للحكومة اللبنانية من خلال الجيش اللبنانى فى سائر أنحاء لبنان» (...)، وقد «أخذ المجلس علماً بتصميم لبنان على ضمان انسحاب جميع القوات غير اللبنانية من لبنان».

وجرى الحديث عن ربط الانسحاب بـ «تمرحل» جديد لتنفيذه، على مرحلتين على الأقل، وضمن روحية (الطائف) نفسه، بما يحقق إعادة انتشار القوات السورية فى البقاع بعد سنتين على المصادقة على الدستور الجديد، كمرحلة أولى، على أن يتم الانسحاب الكامل فى المرحلة التالية وفق جدول زمنى تتوافق عليه الحكومتان اللبنانية والسورية. لكن التطورات الإقليمية الدقيقة قلبت المعادلات والاحتمالات، ففيما كان العالم مصراً على انسحاب السوريين، ها هى الإدارة الأمريكية تجدد تفويض بقاء القوات السورية فى لبنان، لا انسحابها، عشية حرب الخليج الثانية ١٩٩٠. وفى العام ٢٠٠٢ أعلن كل من الرئيس الفرنسى جاك شيراك (فى المجلس النيابى اللبنانى)، (ودنيس روس فى حديث صحفى لمجلة «الوطن العربى») أن الانسحاب السورى سيبقى مرتبطاً بتحقيق السلام العربى - الإسرائيلى. ثم جاءت أحداث وظروف على المستوى الإقليمى عادت وقلبت ذلك الانقلاب على قاعدة أن لبنان «معقل الديمقراطية»، ويجب دعمه ومساندته والحفاظ عليه كما تقول وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس بحيث ذهبت الشرعية الدولية على أساس ذلك إلى إصدار القرار الرقم ١٥٥٩ الذى يدعو كل القوات الأجنبية المتبقية إلى الانسحاب من كامل الأراضى اللبنانية. فالمعادلة الدولية التى أدخلت القوات السورية إلى لبنان عام ١٩٧٦ برضى أمريكى، هى نفسها التى أخرجتها منه فى العام ٢٠٠٥ بضغط أمريكى. وفى الحالتين يبقى اللاعب الأقوى، ولعله الأوحد والمستفيد الأكبر، هو المصلحة الدولية ومنافعها وحاجاتها ومخططاتها التى تصل غالباً إلى حد التآمر، وليس بالتأكيد المصلحة اللبنانية التى تبقى رهينة لعبة الكبار وأسيرتها وأداتها الطيعة.

لكن رغم الانسحاب العسكرى السورى، فإن لبنان حكماً وقادة وشعباً وكافة قواه حريص على إقامة علاقات مميزة وصادقة وأخوية مع سورية على المستويات كافة. فالجميع مقتنعون بأن ذلك من مصلحة لبنان أولاً، بقدر ما هو لصالح سورية أيضاً. ولا يمكن الاستناد لتبنى عكس ذلك إلى بعض الانفعالات الشوفينية التى رافقت الانسحاب بالاعتداء، مثلاً، على عمال سوريين فى لبنان. فذلك ليس أكثر من أحقاد وغباء شخصيين عابرين، خاصة أن لبنان سيبنى علاقاته مع سورية وفق ما حدده اتفاق الطائف الذى نص فى هذا الإطار على الآتى:



نبيه برى

«إن لبنان الذى هو عربى الانتماء والهوية، تربطه علاقات أخوية صادقة بجميع الدول العربية، وتقوم بينه وبين سورية علاقات مميزة تستمد قوتها من جذور القربى والتاريخ والمصالح الأخوية المشتركة، وهو مفهوم يرتكز عليه التنسيق والتعاون بين البلدين، وسوف تجسده اتفاقات بينهما، فى شتى المجالات بما يحقق مصلحة البلدين الشقيقين فى إطار سيادة واستقلال كل منهما. استناداً إلى ذلك، ولأن تثبيت قواعد الأمن يوفر المناخ المطلوب لتنمية هذه الروابط المتميزة، فإنه يقتضى عدم جعل لبنان مصدر تهديد لأمن سورية وسورية لأمن لبنان فى أى حال من الأحوال. وعليه فإن لبنان لا يسمح بأن يكون ممراً أو مستقراً لأى قوة أو دولة أو تنظيم يستهدف المساس بأمنه أو أمن سورية، وإن سورية الحريصة على أمن لبنان واستقلاله ووحدته ووفاق أبنائه لا تسمح بأى عمل يهدد أمنه واستقلاله وسيادته».

متى تتحقق البنود الأساسية الأخرى؟

إذا كانت مسألة الانسحاب السورى قد انتهت ولو متأخرة لسنوات طويلة. وإذ لعبت الأوضاع المحلية والإقليمية والدولية. وخاصة التهديدات والاعتداءات الإسرائيلية على لبنان، دوراً فى فرض التأخير فى مراحل عدة بعد (الطائف)، إلا أن ثمة بنوداً إصلاحية حيوية جداً فى هذا الاتفاق لم يتحقق منها شىء حتى الآن، رغم أنها ذات صفة محض داخلية، ولا علاقة لها بالخارج، بل بالقيادات المحلية الرسمية والسياسية والروحية معاً، أى «بأهل البلد» وحدهم.

ونتوقف عند أبرز تلك البنود وما أشار إليه بصددها ذلك الاتفاق، مع ضرورة التنبه تلقائياً إلى أهميتها المطلقة ومحوريتها، بحيث لا يمكن الحديث عن حدوث أية إصلاحات حقيقية وجذرية فى عهد «الجمهورية الثانية» المبنية على (الطائف):

● أولاً: لماذا لم يتم إلغاء الطائفية السياسية؟ فإلغاء هذه الطائفية بحسب ذلك الاتفاق:

«هدف وطنى أساسى يقتضى العمل على تحقيقه وفق خطة مرحلية، وعلى مجلس النواب المنتخب على أساس المناصفة بين المسلمين والمسيحيين اتخاذ الإجراءات الملائمة لتحقيق هذا الهدف وتشكيل هيئة وطنية برئاسة رئيس الجمهورية، تضم بالإضافة إلى رئيس مجلس النواب ورئيس مجلس الوزراء شخصيات سياسية وفكرية واجتماعية. مهمة الهيئة دراسة واقتراح الطرق الكفيلة بإلغاء الطائفية وتقديمها إلى مجلس النواب والوزراء ومتابعة تنفيذ الخطة المرحلية.

ويتم فى المرحلة الانتقالية ما يلى:

١. إلغاء قاعدة التمثيل الطائفى واعتماد الكفاءة والاختصاص فى الوظائف العامة والقضاء والمؤسسات العسكرية والأمنية والمؤسسات العامة والمختلطة والمصالح المستقلة وفقاً لمقتضيات الوفاق الوطنى باستثناء وظائف الفئة الأولى فيها وفى ما يعادل الفئة الأولى فيها وتكون هذه الوظائف مناصفة بين المسيحيين والمسلمين دون تخصيص أية وظيفة لأية طائفة.

٢. إلغاء ذكر الطائفة والمذهب فى بطاقة الهوية».

(ثانياً: لماذا لم تتحقق اللامركزية الإدارية على قاعدة أن الدولة اللبنانية واحدة موحدة ذات سلطة مركزية قوية، وذلك بتوسيع صلاحيات المحافظين والقائمقامين وتمثيل جميع إدارات الدولة فى المناطق الإدارية، وإعادة النظر فى التقسيم الإدارى بما يؤمن الانصهار الوطنى، واعتماد اللامركزية الإدارية الموسعة على مستوى الوحدات الإدارية الصغرى (أى القضاء وما دون) عن طريق انتخاب مجلس لكل قضاء يرأسه القائمقام. كذلك اعتماد خطة إنمائية موحدة شاملة للبلاد قادرة على تطوير المناطق اللبنانية وتنميتها اقتصادياً واجتماعياً، وتعزيز موارد البلديات... وما إلى ذلك.

● ثالثاً: لماذا لم يوضع حتى الآن قانون نهائى للانتخابات النيابية، يقوم على أساس المحافظة، وإعادة النظر فى التقسيم الإدارى وفق ما نص عليه (الطائف)؟

● رابعاً: ووفق هذا الاتفاق أيضاً لماذا لم يجر العمل على إعادة تنظيم جميع وسائل الإعلام فى ظل القانون، وفى إطار الحرية المسئولة بما يخدم التوجهات الوفاقية...؟

● خامساً: لماذا ما زال الجرح السياسى والوطنى والإنسانى المتمثل بعدم عودة مهجرى الحرب مفتوحاً ونازفاً حتى الآن، رغم أن (الطائف) دعا إلى:

«حل مشكلة المهجرين اللبنانيين جذرياً، وإقرار حق كل مهجر لبنانى منذ العام ١٩٧٥



ماذا بعد؟!

بالعودة إلى المكان الذى هُجِّر منه ووضع التشريعات التى تكفل هذا الحق، وتأمين الوسائل الكفيلة بإعادة التعمير؟».



تلك هى المحطات العاصفة والدموية التى سبقت اللحظة الخطيرة المتمثلة بأن الرئيس بشّار الأسد، اجتهاداً منه أو تقديراً للموقف من العائلة أو افتراضاً من مؤسسة الحكم بأجنحتها كطائفة وكحزب وكمصالح، ارتأى أن يتم التمديد ثلاث سنوات لرئيس الجمهورية فى لبنان إميل لحود وهو ما يشكل مخالفة دستورية. لكن الذى حدث هو القفز فوق هذه المخالفة وتحضير المسرح السياسى أمام التمديد وبذلك بات الموقف على أهبة التفجر خصوصاً بعدما اختلت المعادلة وقرر الرئيس الممدد له أن لا تعاون مع الشريك اللدود رفيق الحريرى كرئيس للحكومة. ولقد فعل ذلك مستنداً إلى أنه حاز على التمديد وأن الحكم السورى معه فضلاً عن قراءته التسرعية بأن الحريرى لا يمكن أن يواجه هذا الحكم بدليل أنه وافق ولو مضطراً على التمديد بعدما كان أعلن أنه ضده. ومنذ اللحظة الخطيرة المشار إليها بات هنالك فرز واضح للمواقف وجاءت الضغوط البوشية - الشيراكية ومن خلال الكونغرس ومجلس الأمن صاحب القرار ١٥٥٩ تضع الرئيس السورى بشّار الأسد وحليفه الرئيس اللبنانى إميل لحود أمام خيارين أحلاهما مر: إما تحدى المجتمع الدولى خصوصاً بعدما بات هذا المجتمع على درجة من التوحد فى الموقف إزاء رفض الأمر الواقع السورى فى لبنان وهذا يؤدى إلى عقوبات من شأنها شل القدرات السياسية والاقتصادية للبلدين وإحكام العزلة التى كانت بدأت على سورية. وإما القبول بواقع الحال والإقدام على إعادة نظر جذرية فى أمور كثيرة داخل النظام السورى والتركيبة اللبنانية وهذا يعنى انتكاسة لصلابة النظامين وإفساح المجال أمام اختراقات سريعة من جانب القوى المعارضة التى كانت بدأت تشق طريقها بحيوية.

وغالب الاعتقاد أن فكرة استحداث المفاجأة الصاعقة التى تقلب الطاولة وتخلط الأوراق أعجب خلطة وبحيث يعيد المجتمع الدولى النظر فى موقفه غير الودى تجاه السلوك السورى فى لبنان، ربما خطرت فى بال مراكز قوى داخل الأجهزة المعلومة - المجهولة ورأت أن تصفية أهم شخصية لبنانية، أى رفيق الحريرى، هى الحل. وبصرف النظر عما إذا كان أصحاب هذا المخطط الشرير شاوروا فى الأمر أو إنهم أقدموا مطمئنين إلى أن أُولى الأمر فى القمة لن يعترضوا وسيُغطون لهم فعلَهم هذا، فإن الجريمة ارتُكبت وكانت «جريمة العصر» بامتياز حيث تم تفجير الحريرى ضمن تدبير افترض فاعلوه أنه سيمر من دون مفاجآت صاعقة تصيب النظامين.

لكن يوم ١٤ فبراير ٢٠٠٥ والذى صودف أنه كان يوم «عيد الحب» أو بالتسمية الدولية المتعارف عليها Valentine day كان اليوم الفاصل بين تاريخين: تاريخ الوجود السورى بصيغة الهيمنة على لبنان واحتكار القرار بدءاً بالرئاسات الثلاث (الجمهورية والبرلمان والحكومة) مروراً بالمؤسسات الاقتصادية والأمنية والبلدية والحزبية والدينية والجامعية عدا استثناءات.. وصولاً إلى مفاصل صغيرة لكنها دقيقة على الصعيد المعيشى والاجتماعى وتاريخ بدء اضمحلال هذا الوجود.



رفيق الحريرى

لمجرد أن سمع اللبنانيون بجريمة اغتيال الحريرى حدثت صحوة فى نفس كل منهم واعتبروا من دون تريث أن كارثة ستصيب لبنان وذلك على أساس أن هذه الجريمة جاءت بعد محاولة اغتيال تعرّض لها النائب فى البرلمان مروان حمادة والذى هو صلة الوصل بين الحريرى كزعيم أقوى فى الطائفة السُنية ووليد جنبلاط كزعيم أقوى فى الطائفة الدرزية، وجاءت بعدما كان الاثنان شكّلا حلفاً بالغ الأهمية ضد رئيس الجمهورية إميل لحود الممدد له من الحكم السورى.

ولحظة بعد لحظة كانت الصحوة تتزايد ثم باتت انتفاضة شعارها العلَم اللبنانى ومطلبها يراوح بين استقالة رئيس الجمهورية وإقالة رؤساء الأجهزة الأمنية ومعهم رئيس السلطة القضائية ووزير العدل فضلاً عن المطلب الدائم وهو انسحاب القوات السورية والمخابرات التى يترأسها الضابط السورى رستم غزالة. وخلال شهر تحوّل ضريح الحريرى إلى مقام أشبه بمقامات أولياء الله الصالحين يزوره اللبنانيون مسلمين ومسيحيين ويضعون الورد ويقرأون الفاتحة على روحه أو يرسم من هو مسيحى الصليب على صدره ترحماً عليه. كما بات الضريح مقصد كل الشخصيات العربية والدولية الذين يأتون للتعزية متعاملين مع الحدث على أنه أصاب شخصاً من أركان «النادى العربى - الدولى» الذى يرسم معالم سياسات الربع الأول من القرن الواحد والعشرين.

فى الوقت نفسه أوفدت الأمم المتحدة شخصية أيرلندية بغرض الاستكشاف وإعداد تقرير ثم شكلت لجنة تحقيق دولية وبذلك لم يعد أمام رؤساء الأجهزة الأمنية اللبنانية سوى الاستقالة أو وضع أنفسهم بتصرف المسئولين المختصين. أما بالنسبة إلى الحكم السورى الذى يواصل التبرؤ من أى علاقة له بالجريمة فإنه لم يتخذ إجراءات مماثلة فى حق بعض الرموز الأمنية.. ربما لأنه فى حال فعل ذلك سيؤكد أن لهؤلاء علاقة باغتيال الحريرى. لكن الانسحابات كانت بدأت وكان يتم تصوير القطع العسكرية العائدة إلى الأراضى السورية. واكتمل الانسحاب يوم الثلاثاء ٢٦ أبريل ٢٠٠٥ وقبل الموعد المحدد فى قرار مجلس الأمن إثباتاً لحسن النية وللتجاوب مع المجتمع الدولى والعربى على أمل تخفيف حدة طوق العزلة الذى اتسع وبحيث أن سورية التى كانت محور اللقاءات والتحركات باتت الإطلالات عليها نادرة عدا زيارة قام بها رئيس تركيا مخالفاً الرغبة الأمريكية وزيارة لمدة ساعتين وفى المطار وبعدما كانت تشكلت حكومة لبنانية متوازنة برئاسة نجيب ميقاتى، قام بها ولى العهد السعودى الأمير عبد الله بن عبد العزيز لإبلاغ رغبة أمريكية - فرنسية مشتركة وخلاصتها أن لبنان خط أحمر وأن استقرار سورية من استقراره وأن الحكومة الجديدة برئاسة رجل الأعمال ميقاتى هى موضع القبول. أما العتب السعودى على الحكم السورى لما حدث للحريرى وذلك من منطلق أن حياة هذا الأخير مسئولية سورية ما دامت هذه الأخيرة موجودة فى لبنان سياسياً وعسكرياً، فإنه ينحسر مع مرور الزمن وفى ضوء الحقائق والظروف الإقليمية.

بعد اكتمال الانسحاب السورى لم يعد أمام المعارضة اللبنانية بشتى أطيافها حجة إلاّ إذا استمر هذا الإصرار فى صفوف البعض على أن هنالك مسئولية سورية فيما حدث للحريرى. ومثل هذا الأمر لن يلقى الحسم إلاّ فى ضوء النتيجة التى تتوصل إليها لجنة التحقيق الدولية.. وهذه لا تأخذ بالافتراضات أو البناء على سوابق وإنما على نتائج موضوعية. والسوابق بمعنى أن هنالك حالات اغتيال حدثت خلال السنوات الماضية وارتبط ارتكابها بأشخاص مرتبطين بالأجهزة السورية. ومن هذه الحالات اغتيال الزعيم الدرزى كمال جنبلاط ومفتى الطائفة السُنية الشيخ حسن خالد ورئيس الجمهورية المنتَخَب بشير الجميل والرئيس الأول للجمهورية بموجب اتفاق الطائف رينيه معوض.. وآخرين. وما هو محتمل حدوثه أن تتسع تحقيقات اللجنة الدولية فلا ينحصر كشف الحقيقة بالفاجعة الحريرية وإنما يتسع النطاق وبحيث يتم التوصل إلى خيوط تكشف حقيقة وظروف تلك الاغتيالات السابقة فتُدان المرحلة السورية فى حال ثبُت التورط أو تُبرأ المرحلة من هذا الوزر وبذلك تهدأ النفوس.



ولقد لاحت انقسامات فى صفوف المعارضين بعد عودة الجنرال ميشال عون الذى أمضى فى المنفى الفرنسى أربع عشرة سنة مع عدد من مناصريه والضباط الذين شكَّل بهم حكومة فى الفترة قبل اتفاق الطائف بعدما أسند • إليه رئيس الجمهورية المنتهية ولايته أمين الجميل هذه المهمة بصفة كونه



تبقى مسألة الفراغ فى الزعامة السُنية مقلقة لأن حجم رفيق الحريرى كان كبيراً ليس فقط على الصعيد المحلى وإنما على الصعيدين العربى والدولى. وليس واضحاً ما إذا كان توريث الابن الثانى سعد الدين العمل السياسى سيؤسس للزعامة المشار إليها



قائداً للجيش وعملاً بالتقليد المتبع وهو أنه عندما تنتهى ولاية رئيس الجمهورية ولا يكون الرئيس الخلف قد انتُخب فإن الرئيس السَلَف (وهو هنا أمين الجميل) يوكل إلى قائد الجيش تشكيل حكومة. وهذا ما حدث وكان خلافاً للرغبة السورية، ومن أجل ذلك فإنه لمجرد أن استقر الجنرال عون فى القصر الجمهورى بدأ يتصرف وكما لو أنه رئيس لبنان. ثم كان انتخاب الياس الهراوى رئيساً لكن الرجل لا يستطيع مزاولة مهامه فى القصر الرئاسى المشغول من قِبل عون الذى يصر على اعتبار نفسه رئيساً شرعياً للحكومة. وانتهى الأمر باقتحام القوات السورية القصر بطلب من رئيس الجمهورية (أى الهراوى) فلجأ عون إلى مقر السفير الفرنسى القريب من القصر وانتقل من الإقامة المؤقتة فى مبنى قدّمه الحريرى دون مقابل لرئاسة الجمهورية التى لا مقر لها. وبعدما طالت إقامة الجنرال عون أكثر مما تقتضيه الضيافة فإن صفقة تمت وجرى بموجبها ترحيل عون ورفاقه ليلاً إلى فرنسا عن طريق البحر والجو بشرط عدم ممارسة النشاط السياسى فى فرنسا والإدلاء بالتصريحات والأحاديث. وارتضى الجنرال المنفى ذلك لكن سرعان ما بدأ يخرج على التفاهم إنما على طريقة خروج ممثل المسرح عن النص المكتوب. وخلال سنوات المنفى بات الجنرال عون يقود تياراً عريضاً داخل لبنان وفى بعض دول العالم. كما أنه نسّق مع أعضاء فى «الكونغرس» وأمكنه التوصل معهم إلى التضييق على الحالة السورية - اللبنانية من خلال «قانون محاسبة سورية» الذى هو بداية التوجه الأمريكى نحو فك عرى العلاقة القديمة مع الحكم السورى أيام الأسد الأب ثم مع الأسد الابن. وبعدما اكتمل الانسحاب السورى من لبنان عاد الجنرال عون يوم السبت ٧ مايو مشبهاً هذه العودة بعودة الجنرال ديغول وعلى الطريقة التى أعيد بها آية الله الخمينى إلى طهران. فهذا الأخير أوصلته طائرة فرنسية بعد استضافة فى ضاحية «نوفل لوشاتو» قاد فيها الخمينى ثورة إسقاط نظام الشاه محمد رضا بهلوى. أما الجنرال عون فأعيد بطائرة نقل لبنانية وكان لافتاً أن طائرات حربية فرنسية رافقت طائرته من المطار فى باريس إلى مطار بيروت. كذلك كان لافتاً أنه حتى بعدما حطت طائرة العودة يتمسك بالاعتقاد أن اغتيال الحريرى ليس هو العامل الوحيد لانسحاب سورية وإنما له، أى للجنرال، الدور المهم فى هذا الشأن. وفى العاصمة اللبنانية تناسى المسيحيون أياماً صعبة من القصف لبعض أحيائهم فى العاصمة أمر بها الجنرال عون والتفوا حوله على أساس أنه بات لهم نصف زعامة فى انتظار خروج النصف الأخير أى سمير جعجع من سجنه فى وزارة الدفاع، وهى زعامة تتساوى من حيث التوازن مع الزعامة الشيعية التى يتقاسمها «حزب الله» فى شخص أمينه العام السيد حسن نصر الله و«حركة أمل» فى شخص رئيسها نبيه برى الذى يترأس البرلمان اللبنانى. كما أن هذه الزعامة التى تولاها بالنيابة لبعض الوقت رئيس الطائفة المسيحية المارونية البطريرك نصر الله صفير كانت ستتساوى مع الزعامة السُنية لو أن حادثة اغتيال رفيق الحريرى لم تتم. وبعد الاغتيال بات هنالك فراغ ملموس فى هذه الزعامة يشبه الفراغ الذى كان عليه المسيحيون طوال سنوات ما بعد اتفاق الطائف وذلك نتيجة أن رئيس الجمهورية المارونى من الياس الهراوى إلى إميل لحود كان قلباً وقالباً مع الإرادة السورية، ولأن الوضع وضعف أهل السياسة فى لبنان أمام المناصب جعل بعضهم يدور فى الفلك السورى والبعض الآخر شكلاً مع لبنان السيد وضمناً مع سورية التى تهيمن. وبعد الانسحاب السورى عسكرياً وسياسياً بدأت مفردات الخطاب عند هؤلاء تتبدل قليلاً فى اتجاه لبنانيتهم، لكن هذا التبدل لم يلق المصداقية المأمولة فيهم من جانب الرأى العام. وهذه الأمور كلها ستُحسم فى ضوء نتائج الانتخابات البرلمانية التى فى حال جرت بإشراف مراقبين دوليين ستضع كل طرف فى حجمه الحقيقى، وسيتبين عندئذ ما إذا كان البرلمان الجديد سيُبقى على إميل لحود رئيساً أم ينتخب آخر. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أقطاب العمل السياسى المارونى عموماً بمن فيهم عون ليسوا مع استقالة لحود التى يطالب بها الزعيم الدرزى وليد جنبلاط وبعض حلفائه من أركان المعارضة. كذلك سيتبين بالفعل حجم الجنرال عون الذى يتطلع إلى أن يكون هو الرئيس المقبل للجمهورية ومن هنا حرصه على عدم الأخذ بمطلب استقالة رئيس الجمهورية وقوله إنه لم يعد معارضاً بعد الانسحاب السورى وإنما هو إصلاحى. وكيف سيوافق على استقالة الرئيس إذا كانت أزمته فى الأصل حدثت لأنهم أصروا على استقالته ورد برفض الاستقالة. وجرى الذى جرى.



بشير الجميل

لكن تبقى مسألة الفراغ فى الزعامة السُنية مقلقة لأن حجم رفيق الحريرى كان كبيراً ليس فقط على الصعيد المحلى وإنما على الصعيدين العربى والدولى. وليس واضحاً ما إذا كان توريث الابن الثانى سعد الدين العمل السياسى سيؤسس للزعامة المشار إليها مع الأخذ فى الاعتبار أن رصيد والده ضخم وأن مراكز قوى عربية ودولية تسانده وباشرت المساندة على الفور استكمالاً لما كان بينها وبين والده. وهذه المراكز هى الإدارة البوشية والرئيس جاك شيراك والقيادة السعودية والرئيس حسنى مبارك ومعظم دول الخليج. وعندما تكون للشخص مثل هذه المساندة ولا يؤكد جدارته فى ممارسة الدور السياسى القيادى فإن العلة تكون فى شخصه.



يبقى القول استكمالاً للمشهد الثانى من أحوال لبنان الذى كان مغلوباً على أمره طوال ثلاثين سنة من الفواجع آخرها، المؤمل أن تكون أخيرتها، الفاجعة الحريرية، إن لبنان الجديد يمكن أن يستقر فى حال قرر أهل السياسة أن الوطن أولاً وقبل الذات وأن الولاء للوطن هو مقياس النقاء الوطنى وأنه يكفى المتاجرة بالأوطان. أما الحكم السورى فإن الفرصة التى أضاعها الرئيس بشار عندما لم يقرر مباشرة بعد رحيل والده وتسلمه الحكم الانسحاب من لبنان معتبراً أنه لا يواصل من حيث انتهى والده وإنما يبدأ من جديد وبما من شأن أن يكون حركة تصحيح للنظام المتخن بالنزاعات والأحقاد والمظالم، يمكن تعويضها بفرصة بناء علاقة جديدة مع لبنان تبدأ بالتعامل المؤسساتى معه على خلفية الإقرار به حراً سيداً مستقلاً وتبادل التمثيل الدبلوماسى معه واحترام «وثيقة الوفاق الوطنى» التى تم إنجازها فى الطائف لتكون بنودها حلاً وليس موضع التفسير من جانب كل طرف على نحو ما يريد وبمثل ما حدث لقرار مجلس الأمن الذى تكاثر التفسير له بين «أراض» و«الأراضى» فضاعت فرص كثيرة وبقى القرار الكارادونى الملغوم من دون تنفيذ كامل من جانب إسرائيل وبرضى أمريكا وبريطانيا للسنة الثامنة والثلاثين على التوالى. كما أن تعويض الرئيس بشار للفرصة يكون بترميم البيت السورى القابل للتصدعات وترويض الحزب الحاكم على الموضوعية والتأمل فى المتغيرات الدولية وبحيث يتم تعديل اسم الحزب على نحو ما فعل رجب طيب أردوغان فى تركيا فبات التوجه الإسلامى الأردوغانى موضع قبول عكس التوجه الأربكانى الذى بالغ فى العناد فلم يصمد. والى ذلك أن التعويض يمكن أن يتم بفتح النوافذ فى حال كان فتح الأبواب أمام التغيير فى الاتجاه الديمقراطى صعباً بعض الشىء. وإلاّ فإن الهجمة الدولية ستفتح هذه الأبواب بالأسلوب المبغوض. وبإلغاء ما فى الخاطر من أن لبنان جزء من سورية كما الحال التى كانت فى الخاطر الصدامى بالنسبة إلى الكويت، أو على نحو ما سبق أن اختصر الأسد الأب الحال بعبارة «شعب واحد فى بلدين». وبين الفرصتين ضاعت فرص أخرى كثيرة. وسالت دماء كثيرة. وأما الأحقاد فإنها بثقل الجبال على الصدور ولن يخفف من وطأتها سوى إبداء حسن النية ومد اليد للمصافحة... وليس للتطاول على الآخرين.■

لبنـــــــان جـــــــديد

كيــف؟

ماكـــس رودينـــبيـــك

[١]

■■ يصغر لبنان - في المساحة - ولاية Connecticut الأمريكية، ويزيد - بالكاد - عنها، من حيث الكثافة السكانية. وعائد اقتصاده، الذي يعاني إلى الآن من خسائر الحرب الأهلية (١٩٧٥ - ١٩٩٠)، يكاد يقترب من العائد السنوي (لسلسلة مطاعم McDonalds). فما هو «الخاص جداً» بشأن هذا البلد؟ الإجابة المباشرة هي أن «الدولة» التي اقتطعتها الإمبراطورية الفرنسية من سوريا الكبرى، وجدت نفسها - فجأة - نقطة الارتكاز الحساسة التي يستند إليها مصير توازنات إقليمية أكثر اتساعاً.

مقدمة تحمل ادعاء قد تشوبه المبالغة، لكن الأسابيع الخمس الماضية شهدت رفع الستار في بيروت عن رواية مفعمة بالآلام. حالة درامية اعترت قوى التقت في جب ويبدو، بأسلوب محدد وقوي، أنها تمثل مجموعة متنافسة. من الساردين، تجسد، وإلى حد بعيد، رؤية العرب لماضيهم الحديث الذي سرعان ما يصبح المصير البين. تتشابه هذه القوى، في أكثر من وجه، وتلك القوى التي تصامدت، ولا تزال، داخل كل مجتمع عربي فيما وصفه بعض المؤرخين بأنه صراع بين عرب «عالميون» cosmopolitan، في المدن الساحلية، وعرب يسكنون باطن الأوطان داخل المناطق الخلفية في الظهير الجغرافي. الآن، والآن فقط، وعبر موجات عربية تبث المشاهد من شوارع بيروت، ربما تمرق، بشكل خاطف، فرصة تحول جذري في هذا الصراع.

في جانب، يقف ما يمكن تسميتهم بـ «القوميون العرب» ذلك الصوت الحاد الذي سيطر على المشهد نصف القرن الماضي، وارتفع لأول مرة - في غضب - ضد الاستعمار الأوروبي، وفيما بعد ضد انتهاك إسرائيل لأراضي الظهير الجغرافي العربي، لكنه تنامى - بازدياد - داخل منعطف بلاغي لميلشيا الإسلام السياسي. هؤلاء «القوميون» تدفقوا بقوة، في الثامن من مارس «الماضي»، إلى مركز المدينة استجابة لدعوة من حسن نصر الله، البالغ من العمر ٤١ عاماً، زعيم حزب الله، الحزب الشيعي الميلشياوي - السياسي الذي أصبح قوة وطنية مقاومة للاحتلال الإسرائيلي الطويل لجنوب

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: جمال إسماعيل

لبنان. ربما أكثر من نصف مليون لبناني، فقراء الشيعة من أحياء جنوب بيروت الفقيرة، فلسطينيون من معسكرات اللاجئين البائسة المتناثرة في لبنان، شباب وكهول، محجبات وسافرات، هتفوا لنصر الله وهو يدين الأشرار، وهم عادة الأمريكيون والصهاينة وأتباعهم. هتفوا بالموت لإسرائيل على إيقاع إدانة أمريكا باعتبارها «أم الإرهاب». كان أول أكبر تجمع جماهيري في تاريخ لبنان المضطرب. وكان عرضاً مفعماً بالتوهج يدعم المقاومة لكل نفوذ غير عربي، غير إسلامي. وفي السياسة المحلية فسر هذا التجمع باعتباره تأييدا للبعث السوري، آخر حصن للعروبة وسط تدفق بحر السيطرة الأمريكية. وفسر أيضاً كمساندة للقوى المتنافسة داخل نظام لبنان ما بعد الحرب الأهلية، التي تحظى بالدعم السوري، بما في ذلك من أحزاب سياسية، وأجهزة أمنية، وميليشيات حزب الله، الصغير ولكن المؤثر، الذي نجح في إنهاء احتلال إسرائيل للجنوب، وينظر إليه باعتباره القادر الوحيد على صد أي غزو إسرائيلي مستقبلي. ويرى «الموالاة» هؤلاء

الذين يساندون العلاقة مع سوريا، أن هذا هو «النظام» الذي ضمن عودة السلام إلى لبنان، وعودة لبنان إلى مكانه الطبيعي كجزء لا يتجزأ من الوطن العربي الإسلامي، أو «الأمة».

أيضاً، وبعد أقل من أسبوع، تجمع ما قدر بمليون لبناني، في حشد جماهيري تفوق على الحشد الأول، وضم أغلبية من الشباب ومن الطبقة المتوسطة، معظمها من المسيحيين، مع ممثلين للطوائف الدينية المعترف بها في البلاد (١٧ طائفة). تجمع هذا الحشد في ميدان الشهيد. الساحة الخالية التي يعاد إعمارها في قلب بيروت التاريخي. هناك التقى ربع عدد سكان لبنان. ورغم تنوع الأحزاب السياسية الحاضرة، قال اللبنانيون أن تلاقي المشاعر وتوحدها كان واضحاً وحاداً بين الذين اعتادوا من قبل قتل بعضهم البعض.

من بين المشاعر: ذات الدلالة، الشعور بإعادة اكتشاف الكبرياء، الكامن في أن يكون اللبناني لبنانياً. وأكثر من ذلك اكتشاف بهجة امتلاك القدرة على إظهار هذا الشعور. شعور آخر تجلى في أمل



من مظاهرات حزب الله (AFP)

عميق بأن المستقبل يعد بانفكاك من أعباء محددة: من هواجس الانقسامات بين الجماعات الدينية، من يأس وإحباط جماهير هذه الجماعات وانتقاداتها اللاذعة، ومن التورط، غير المرحب به، في صراع عربي إسرائيلي أكثر اتساعاً - ربما كان هذا الأمل الذي يراود العديد من اللبنانيين، هو، بعبارات أخرى، أمل اللحاق بالأمم المسالمة المتمتعة بالعلمانية، مجتمعات منفتحة، ديمقراطية، ويسودها القانون. وقد يكون الشعور الذي وحد ما بين هذا الحشد الكبير، هو شعور الغضب المتراكم ضد القوى التي يراها العديد من اللبنانيين مسئولة عن الانفجار الذي وقع يوم «عيد الحب» Valentines Day، وقتل رفيق الحريري رئيس الوزراء السابق الحالم المثير للجدل، رجل الأعمال الذي تابع نهوض البلاد من حطام الحرب الأهلية. وجه هذا الغضب، بتلقائية، باتجاه سوريا، الدولة الجارة الأكثر تخلفاً و«الشرير النموذجي» الذي تتماسك في مواجهته تجمعات هي من أجزاء لبنان المحطم. لكن القوات السورية، قبل كل شيء، دخلت لبنان، منذ عام ١٩٧٦ بدعوة من رئيس لبنان آنذاك، وبهدف الفصل بين اللبنانيين المتحاربين، ونجحت في ذلك بعد سلسلة من الأحداث الدموية شملت معظم فئات لبنان، بما في ذلك حلفاء لاحقين، مثل حزب الله.

لكن هذا الغضب مؤسس أيضاً على تاريخ من التدخلات السورية اللاحقة. وقبل ١٥ عاماً، وبعد إحلال السلام، استنفد المحتلون حالات الترهيب. أصبح الحضور السوري صعب التجاوز، وجدت نقاط التفتيش وجنودها القليلة رواتبهم، وجماعات الجيش ومرتدي الملابس المدنية من السوريين، صور الخروج على القانون وقطع الطرق وفرض الإتاوات لحساب قيادات سورية، أو عملاء، تورطوا في العديد من عمليات الاغتيال المتباعدة التي هزت ساسة لبنان، ولم يوجه الاتهام إلى أحد.

وبين اللبنانيين توجد حالة حساسية تثير قلقاً فيما يتعلق بسوريا. فالبلدان متجاوران بشكل غير عادي. تجمع بينهما لغة واحدة ويشتركان في الثقافة وتنوع الديانات. والمسافة ما بين بيروت ودمشق، في سيارة، تصل بالكاد إلى ساعتين. وساعد هروب رأس المال، والعمالة، لبنان في الحفاظ على اقتصاد أكثر فاعلية. إضافة إلى ذلك، جسد الموروث التاريخي التجاري مشاهد صورتين جوهريتين مختلفتين: بيروت حرة محررة من القيود تبدو مثل هونج كونج، ودمشق الشهباء المحافظة وكأنها

«لبنان جديد» كيف؟

بكين. وينظر اللبنانيون الرأسماليون «العالميون» العارفون بالتقاليد الديمقراطية، إلى السوريين ويشعرون بالإهانة لأن أولاد العم يحكمونهم. ومهما كان الحكم مستوراً، تظل الإهانة قائمة، وتقع المسئولية، والنقمة، بالتساوى، على عاتق من يصفهم العديد من اللبنانيين بـ «المتعاونين» من بينهم، والطبقة السياسية المتطفلة. شعور واحد، بعينه، يجمع ما بين كل اللبنانيين، هو الإحساس بأنهم أمة من الموهوبين خاب أملها. وهذا حق يتجسد فى أحوال حوالى ١٠ ملايين مهاجر، من أصل لبنانى، ينتشرون من المكسيك إلى غرب أفريقيا على أستراليا، يشكلون أحد أكبر الجاليات العالمية اتساعاً ونجاحاً وتنفذاً. وفى الخليج العربى الثرى، يسيطر اللبنانيون على مهن الدعاية والإعلان والترفيه والبنوك. ويبقى لبنان نفسه مجتمعاً ترتفع فيه نسبة التعليم والازدهار بشكل يثير الدهشة، ومستوى دخل فردى يعد ضعف دخل الفرد فى الأردن، وثلاثة أضعاف دخل الفرد فى سوريا، ويعادل ما لدى بنوكه من أرصدة، ثلاثة أضعاف إجمالى ناتجه القومى.

ورغم كل ما له من تميز يدعو إلى التفاؤل، ظل لبنان فى وضع حرج، ونمو جد ضئيل، وديون عامة متضخمة، وذلك بسبب بسيط هو أن سياسييه أمضوا الوقت فى محاكاة النهب بدلاً من البحث فى كيفية إيجاد اقتصاد قادر على النمو. وهناك من يرى، فى الوقت نفسه، أن الوصاية السورية نسفت - تدريجياً - المؤسسات الرئيسية، مثل المؤسسة القضائية، التى تشكل دعماً أساسياً لقاعدة اقتصاد الخدمات فى لبنان.

انتكست سياسة لبنان، فى السنوات الأخيرة، بدخولها فى عملية شد حبل قبيحة هددت بتدمير رؤية إعادة إحياء البلاد التى تبناها رفيق الحريرى كرئيس للوزراء انتخب، ثم أعيد انتخابه، لكى يحقق هذه الرؤية.



آمن الملياردير، وزعيم الإعمار والتشييد، بقوة فى إمكانية أن يزدهر لبنان إذا ما استعاد الثقة وتوفرت له بنية تحتية ملائمة. وخلال التسعينيات، وبطرق صرف غير مقيدة، حول بيروت من شرنقة حطام إلى مدينة أضحت، فى أجزاء منها، نموذجاً مضيئاً للعاصمة العصرية، وبقيت، فى أجزاء أخرى، منطقة يكثر بها سكان الأكواخ ومحلات الحلوى. كلفه ذلك ٣٥ بليون دولار أضيفت إلى ديون الدولة التى تسدد من العائد المتوقع من الخصخصة وتشجيع الاستثمارات الأجنبية، وخاصة العربية، فى لبنان.

تعثرت هذه المقامرة المخاطرة بفعل مقاومة متزايدة من حلفاء سوريا فى بيروت، بقيادة الرئيس إميل لحود. استند اعتراضهم - جزئياً - إلى مخاوف من أن الحريرى، ذو الطلعة البهية الذى أسس لثروته المقدرة بأربعة بلايين دولار أمريكى فى السعودية، ثم انفق الكثير من هذه الثروة فى كسب الأصدقاء عبر العمل الخيرى، والرعاية الكريمة، اتجه، أبعد من ذلك، إلى إثراء المفضلين لديه ومنحهم المزيد من السلطة. رأى المعترضون أيضاً، أن إصلاحات الحريرى تهدد شبكة الرعاية والامتيازات الاحتكارية التى تساند زعامات سياسية لبنانية مغايرة، وتوثق، فى حالات كثيرة، علاقاتها مع النظام السورى.

ومع تزايد الجمود، وصل الصراع ما بين الرئيس ورئيس الوزراء إلى نقطة انكسار. تواردت - فى البداية - أنباء أن سوريا، وفى تجاهل واضح للحريرى، تدفع بحلفائها داخل المجلس النيابى «البرلمان» اللبنانى، من أجل تعديل للدستور يسمح بتمديد ولاية لحود. وبوضوح حذر الرئيس السورى، بشار الأسد، الحريرى من مغبة معارضة التمديد. بعدها مباشرة، أبدى مجلس الأمن، التابع للأمم المتحدة، اهتماماً مفاجئاً بلبنان، وتم التصويت داخله على قرار يطالب بانسحاب سورى فورى، وانتخابات صحيحة، ونزع سلاح الميليشيات. قرأ معارضو الحريرى القرار .وربما عن حق. وكأنه صدر بإيحاء مباشر من رئيس الوزراء نفسه المعروف بعلاقة صداقة وثيقة مع الرئيس الفرنسى جاك شيراك. فرنسا، مع الولايات المتحدة، تقدمتا بمشروع هذا القرار الذى تبناه مجلس الأمن. وبعد أقل من أسبوع، ضغط حلفاء سوريا باتجاه التعديل الدستورى الذى يضمن ٣ سنوات أخرى للحود فى الرئاسة. وقد صوت الحريرى لصالح التعديل، ربما لاعتقاده فى إمكانية استمراره فى لعب دور الوسيط، لكنه سرعان ما قدم استقالته.

الأمر لم يتوقف عند حد تدخلات لحود وسوريا فى شئون رئاسة الحريرى. ففى الأول من أكتوبر «الماضى» كادت سيارة مفخخة أن تنجح فى تحقيق هدفها: اغتيال مروان حمادى الاقتصادى المحترم المنحدر من عشيرة درزية كبيرة والصديق المقرب لرئيس الوزراء، أحد أربعة وزراء استقالوا بسبب التعديل الدستورى. كان التحذير واضحاً. وعقب استقالة الحريرى، جاءت الحكومة المشكلة موالية لسوريا تمام الموالاة.

بدا الموقف وكأنه نهاية اللعبة، وأن سوريا تتحدى العالم وتمارس - أخيراً - سيطرة كاملة على لبنان. وخلص العديد من المحللين إلى أن نظام دمشق، المعزول بعد الغزو الأمريكى للعراق، والمهددة قواته بقوة العسكرية الإسرائيلية، والذى يقترب اقتصاده الهش من هاوية، قد قرر اتخاذ موقف متشدد بشأن لبنان. كان المتوقع بعد ذلك هو قيام الرئيس لحود، بمساندة من رؤساء أجهزته الأمنية ووزرائه، بترتيب الأوضاع داخل برلمان كثير الشكوى، حتى تأتى انتخابات شهر مايو التشريعية ببرلمان يكتسحه أنصار سوريا. بعدها يمكن إبعاد الحريرى إلى بيداء السياسة.

[٢]

لا يتردد اللبنانيون فى الاعتراف بحقيقة مفادها أن الترتيبات الدستورية للبلاد كانت - دائماً - منقوصة. ورغم ذلك، يعد احتفاظ لبنان، عبر عقود من المناورات الميكافيللية، والفساد والعنف، ولو بمظهر خارجى للعملية الديمقراطية، يعد إحدى العجائب اللبنانية. ومنذ استقلاله فى عام ١٩٤٣، إلى نهاية الحرب الأهلية فى عام ١٩٩٠، ضمن اتفاق غير مكتوب، سيطرة مسيحية برلمانية تتراوح ما بين ٤٠ إلى ٦٠ مقعداً، إضافة إلى السلطة الرئاسية وسيطرة على المؤسسة القضائية والمواقع الاقتصادية العليا، ورئاسة القوات المسلحة الرئيسية.

وجرى العرف على أن يكون رئيس الوزراء «الضعيف» من السنة، ورئيس البرلمان من الشيعة، وتوزيع بقية المناصب العليا والمقاعد البرلمانية، بين الأقليات الأصغر مثل الدروز، اليونانيين الأرثوذكس، الأرمن، والطائفة العلوية. ومع اقتراب الحرب الأهلية من نهايتها، تم التوصل فى مدينة الطائف السعودية الساحلية، إلى اتفاق جديد أقرّه هناك آخر برلمان لبنانى منتخب. لم يغير اتفاق الطائف مبادئ توزيع السلطات بين الطوائف الدينية. لكنه «هذب» الحصة المسيحية تلبية للتغيرات الديموجرافية ورتقاً للتقسيمات الحادة بين الأقليات والقطاع المسيحى العريض الذى اشتدت قبضته خلال المراحل الأخيرة للحرب. دعمت البنود الرئيسية فى اتفاق الطائف دور رئيس الوزراء السنى، ووسعت سلطات المجلس النيابى، ووزعت المقاعد بالتساوى بين المسيحيين والمسلمين. كان الاتفاق حلاً مؤقتاً لم يحقق طموحات معظم اللبنانيين، الذين رغبوا وقتها، ويرغبون الآن، فى وضع نهاية للمقايضات بين مختلف العقائد. لكن الاتفاق كان يعكس، وإلى حد ما، حقائق سياسية(*).

جاء رفيق الحريرى، المسلم السنى غير الملوث بآثام الحرب الأهلية، والماهر فى صناعة التوافقات المربحة. وسرعان ما سيطر على مشهد ما بعد الطائف. واظب على مغازلة دمشق. وبماله، وما له من علاقات عامة ذكية، وشبكة من الأصدقاء المتنفذين، توفرت له درجة من الحصانة إزاء الضغط السورى.

وفى وقت مبكر من الشتاء «الماضى»، عندما بدا واضحاً أن مجموعة من الموالين لسوريا تناور لتعديل قواعد الانتخابات لاستبعاد معارضيها من اقتراع شهر مايو، وجد رئيس الوزراء المستقيل نفسه مدفوعاً باتجاه تحالف وثيق مع مجموعة من أكثر خصوم سوريا وضوحاً. فى المركز من هذه المجموعة بدأ بزوغ تحالف وحد بين من كانوا - مرة - ألد أعداء فى حرب أهلية، مثل وليد جنبلاط، زعيم الدروز، وقيادات أحزاب مسيحية مارونية، جنباً إلى جنب مع أحرار مستقلين





فى الثامن من مارس «الماضى» تدفق إلى مركز المدينة «بيروت» أكثر من نصف مليون لبنانى، استجابة لدعوة من حسن نصر الله، زعيم حزب الله.. كان أول أكبر تجمع جماهيرى فى تاريخ لبنان المضطرب



"لبنان جديد" كيف؟

وقيادات أعمال طفح بها الكيل من الانسياق وراء الطريقة السورية المتسلطة.

المقربون من الحريري يقولون إنه كان على وشك أن يلقى بكل ثقله المالى والسياسى وراء هذا التحالف المعارض، الأمر الذى كان من شأنه، ولأول مرة، خلق تحالف قوى قادر على اختراق خطوط الطائفية وتحدى القبضة السورية. واعتقد الحريرى نفسه أنه رسم الخطوط بوضوح شديد، والتجهيز الجيد للانتخابات، قد يمكنه، وحلفائه، من انتزاع أغلبية برلمانية معقولة. لكن قنبلة مهولة فجرت، فى الرابع عشر من فبراير «الماضى» موكب الحريرى وحولته إلى شظايا قتلت رئيس الوزراء السابق و١٨ آخرين.

وبما أننا فى الشرق الأوسط، فقد تناثرت الشائعات مثلما تناثرت الشظايا. البعض ألقى باللوم على إسرائيل: رغم صعوبة الإجابة على سؤال: لماذا ينشغل الموساد، المعروف بامتيازه فى الاغتيالات، بقتل سياسى لبنانى خارج السلطة والحكم؟ آخرون قالوا إن الـ CIA «المخابرات المركزية الأمريكية»، وبتجنيد أداة مارونية متعصبة، ربما تكون استهدفت الحريرى، لسبب خفى هو توريط سوريا وإحداث خلخلة تجبر دمشق على الانسحاب.

وأيا كان من زرع القنبلة، فإن ما جرى على وجه الدقة هو أن معظم اللبنانيين، إضافة إلى عائلة الحريرى وأصدقائه، انتهوا إلى أن دائرة الاتهام لا تحيط إلا بسوريا سواء كانت الجريمة ارتكبت بأمر مباشر من الرئيس السورى المستنفر، أو بأمر بعض أدوات مؤسسات تخضع لقيادته المتقلقلة، أو بفعل أجهزة الأمن المدعومة سوريا. الحقيقة أن ما وقع قد وقع فى ظل الاحتلال السورى، وفى مناخ من الإرهاب أوجدته سوريا نفسها، والحادث تم بطريقة سورية الأصل. فعل دموى، بعد عقد من الهدوء النسبى، حطم رجلا احتضن، رغم كل ما عليه، آمال الازدهار والسلام وموجات المد الدافعة إلى التغيير، والتى وحدت معظم اللبنانيين بشكل لم يحدث من قبل، ونالت كثيرا من هيبة سوريا ونفوذها.

فى دفاعهم أشار المسئولون السوريون إلى ردود الفعل الناجمة عن الاغتيال، والناقمة على دمشق، «فى لحظات حرجة تصاعد فيها التوتر بين سوريا والولايات المتحدة حول العراق»، وقالوا إن طبيعة ردود الأفعال ذاتها تنفى التهمة. ببساطة - عن دمشق. ولم يكن الدفاع شيئا. والحقيقة أن سوريا عوقبت عبر انسحاب متسارع لقواتها، وأجهزتها الأمنية، من معظم لبنان.

لكن سلوك بعض «لوردات» الحرب الأهلية اللبنانية عادة ما كان يفسر بنزوع إلى التخريب الذاتى الأعمى، إشارة إلى أسطورة العقرب الذى أراد عبور النهر ولم يستطع إقناع أحد بحمله والعبور به. لكنه تمكن فى النهاية من إقناع ضفدعة بعد أن أكد لها استحالة أن يقدم على لدغها فى منتصف الطريق لأن فى ذلك هلاكهما معا. لكن العقرب خانته غريزته، فى منتصف الطريق، ولدغ الضفدعة التى راحت تنوح وتسأله السبب. وببساطة رد العقرب قائلا: لأننى عقرب. وبعبارات أخرى: يعتقد العديد من اللبنانيين أن غرائز عالم الإجرام المنظم ربما تكون دفعت بزعمائه إلى ارتكاب خطأ فادح بهذا المستوى. كان رفيق الحريرى صاحب نفوذ قوى وعلى درجة عالية من الاستقلالية، والأسوأ من ذلك بالنسبة لسوريا، هو أنه هدد بالخيانة. وبحسابات الزعيم الجماهيرى التلقائى، ربما بدا هدفا جديرا بالإزالة، وزرع الخوف فى قلوب آخرين من الأعداء. شخصية سورية، معارضة ومنفية، رأت فيما حدث كان مشهدا لا يناسب «العراب» مايكل كورليونى فى رواية The God Father «الأب الروحى»، لكنه يناسب عقلية شقيقه «فريدو» المعتلة.

أيما كان الحال، تدفع سوريا، وحلفاؤها، الآن ثمنا مرتفعا لموت رفيق الحريرى. حاول الحلفاء، بشدة، الإبقاء على السلطة. وبعد أول احتشاد جماهيرى ندد بالانفجار، شعرت الحكومة بأن عليها أن تستقيل: لكن الرئيس لحود سرعان ما عين عمر كرامى، رئيس الوزراء المستقيل الموالى لسوريا، لتشكيل حكومة جديدة. لم يستجب لحود - أيضا - لمطالب رئيسية للمعارضة مثل السماح بإجراء تحقيق دولى فى مقتل الحريرى، وعزل رؤساء الأجهزة الأمنية اللبنانية. ولاحقا، أوضحت تفجيرات ليلية فى مناطق مسيحية أن معارضة السيطرة السورية محفوفة بالمخاطر.



مظاهرات مؤيد لجعجع (Reuters)



لكن الوقت ربما يكون متأخرا. إن حاجزا من الخوف قاد اللبنانيين لسنوات، وراء قضايا سوريا القومية مثل علاقات الجوار والأخوة، صيانة جبهة موحدة ضد إسرائيل، ونبل وحتمية المقاومة ممثلة فى ميليشيات حزب الله. هذا الخوف لم يعد قائما، إلى حد بعيد. وفى الداخل تتعرض سوريا، وحلفاؤها، لانتقادات مستمرة سواء فى الصحافة اللبنانية، أو فى شوارع بيروت. الشعارات التى يحملها المحتجون تثير الدهشة، وأكثر من ذلك أن الخطر الحكومى لم يقف أمام موجات الاحتجاج. لم تتراجع المعارضة عن مطالبها. بعض قياداتها أصروا على المطالبة بتقاعد الرئيس لحود نفسه، وليس رؤساء الأجهزة الأمنية فحسب. فى أثناء ذلك، تضخمت صفوف المعارضة بانضمام العديد من السياسيين البارزين إليها، بما فى ذلك وزراء من حكومة كرامى المستقيلة. وربما الأكثر سوءا لسوريا هو أن مقتل شخصية سنية قيادية قد أضعف، وربما إلى الأبد، غالبية الطبقة المتوسطة السنية التى كانت، ولعقود مضت، قاعدة مساندة لسوريا. ويقف الموالون لسوريا الآن فى مواجهة جدار حقيقى صلب يضم معظم المسيحيين، الدروز، أغلبية سنية معقولة، إضافة إلى عدد جيد من قيادات الشيعة.

وبالنسبة لمظاهرة حزب الله الضخمة، والتى جسدت اتساع الثقل الديموجرافى للشيعة المهمشين تاريخيا، ينظر العديد إليها ليس باعتبارها «عضلات» مؤيدة لسوريا، أو استعراض لحفظ بعض ماء وجه الرئيس السورى. ورغم كل قدراته البلاغية فإن زعيم حزب الله لم يطالب ببقاء القوات السورية. وأظهر رغبة فى أن يكون على صلة بالمعارضة بدعوتها إلى حوار، وطالب بتحقيقات كاملة فى مقتل الحريرى. وبأمر من نصر الله: لم ترتفع رايات وشعارات حزب الله، بل ارتفعت، فى الحشد، رايات لبنان الوطنية.

ورغم تضارب الشعارات، تبقى حقيقة أن «الموالين» و«المعارضة» ليسا متباعدين فيما يتعلق بالمواقف من القضايا المحلة.

رحيل سوريا ينظر إليه، الآن، باعتباره قدر وانقضى. ومع الذكريات المريرة، عن الحرب الأهلية، تبدو هناك رغبة عامة لتجنب العنف أو التهديد به. وكانت الطبيعة الهادئة المسالمة للمظاهرات الجماهيرية، إلى الآن، لافتة للنظر فى أى بلد، ناهيك عن بلد له مثل ما للبنان من تاريخ فى العنف. وتبدو الأحزاب الرئيسية مدركة أن حربها الحقيقية لا تكون فى الشوارع ولكن عند صناديق الاقتراع.

هنا، بالطبع، بعض اختلالات خطيرة وأكثرها وضوحا يتمثل فى أن حلفاء سوريا، وحتى بعد رحيل القوات السورية، يحتفظون باحتكار فعلى للسلاح. يظل الجيش والشرطة فى الوقت الحاضر، تحت إمرة «الموالاة»، لكن الأمر المشكوك فيه أن «الموالى» بغض النظر عن حيثيته ورتبته، يمكن أن يطلق النار على مواطنيه. لقد استثنى حزب الله، بعد اتفاق الطائف، من الحظر العام الذى فرض على الميليشيات المسلحة، نظرا لاشتباكه فى معارك مع إسرائيل، وما لديه من قوات فدائية عالية التدريب. لكن حزب الله هو أيضا حزب شيعى - سياسى، ولديه ١٢ مقعدا فى البرلمان ولا يمكن له أن يغامر بمصداقيته وقاعدته السياسية وهيبته التى اكتسبها من مقاومته الوطنية ضد إسرائيل، بالانزلاق إلى نزاعات داخلية تشوه سمعته الوطنية.

قيادات حزب الله، مثلها فى ذلك مثل كل اللاعبين اللبنانيين، تتمتع برؤية واقعية تجعلها تسعى، عبر مؤسسات دستورية، إلى الحصول على تصيب عادل من «الكعكة». ورغم التزام حزب الله بالمبادئ الإسلامية، إلا أن قياداته تدرك استحالة فرضها على أمة متنوعة الاختلافات الدينية. وقد تحول موقفها إزاء العراق من الإدانة الحادة للغزو الأمريكى إلى القبول على مضض بأن شيعة العراق ربما استفادوا من الغزو.

«لبنان جديد» كيف؟

ويمكن أن تكون لها تحولات أخرى، فى السياق نفسه. لكن حزب الله لم يتراجع عن توجهاته إزاء شيعة لبنان أنفسهم وكونهم أقلية محاصرة ومضطهدة. بعض عناصر الحزب تلتزم بشدة بضرورة الإبقاء على المقاومة. لكن، بالوقت والإقناع، لا يوجد ما يمنع اتجاه حزب الله إلى التحول إلى حزب مدنى طبيعى قادر على أن تكون له المزيد من السلطة وخدمة أنصاره بطرق سلمية.

ومن خلال شبكة رعاية اجتماعية فاعلة، يُنظر إلى حزب الله، وعلى نطاق واسع، باعتباره الحزب المناصر لسوريا، والذى يحظى بقاعدة شعبية قوية. الحزب الآخر، الشيعى، الذى كان جماهيرياً منافساً، هو حزب أمل. وقد أصيب بانتكاسات خلال السنوات الماضية وأصبح آلة رعاية لقيادته نبيل برى، رئيس المجلس النيابى. وإلى جانب الرئيس لحود، تشكل الجماعات المسيحية فى «معسكر الموالاة» لسوريا، مزيجاً متعدد الألوان من سياسيين من عشيرة فرنجية، المارونية الإقطاعية القوية فى شمال لبنان، والتى تعمقت صلاتها التقليدية مع دمشق خلال الحرب الأهلية، عندما اغتالت ميليشيا العائلة المارونية المنافسة، أب وأم وشقيقات سليمان، الزعيم الحالى للعشيرة، إضافة على زعماء بعض الطوائف وبعض الأحزاب اليسارية الخابية.

بعبارات أخرى، وبفاصل عن سيطرتها الاسمية على سلاح الدولة، والتهديد بالعنف التخريبى الذى يحمل مخاطر تنحية المزيد من اللبنانيين العاديين، يعانى قطاع الموالين من ضعف. لكن المعارضة ليست أقوى بكثير. لقد أثبتت - إلى الآن، أن فى مقدورها قيادة حشود ضخمة ومتحمسة. وبما تتمتع به من تأييد إعلامى لبنانى؛ إضافة إلى دعم أجهزتها الإعلامية الخاصة، كسبت المعارضة تأييد الرأى العام. لكن اغتيال الحريرى تركها دون زعامة فى منزلة حسن نصر الله. ومثل هذه المواجهات القيادية، مشوبة، فى حالات كثيرة، بما لها من ماض فى الحرب الأهلية، بما فى ذلك وليد جنبلاط، زعيم الدروز المراوغ الشرس، وزعماء الجناح اليمينى للطائفة المارونية، والجنرال ميشيل عون، الرئيس السابق للجيش، والذى ربط مصيره بصدام حسين العراق، وحاول - برعونة - أن يقود معارضة أخيرة ضد سوريا فى الفصل النهائى للحرب الأهلية. ومن يومها عاش فى المنفى الباريسى. الإرادة الصلبة للمعارضة أدهشت، إلى الآن، اللبنانيين أنفسهم قبل غيرهم. البعض يتوقع لها أن تستمر، رغم فشلها فى الإعراب عن أكثر من المطالبة بمحاكمة فورية لقتلة الحريرى، وانسحاب سورى.

وبدون استشهاد الحريرى ربما ما كان فى استطاعتها العثور على قضية تتوحد خلفها. انقساماتها التحتية متشعبة، والكثير من المسيحيين يعتقد - على سبيل المثال - أن نزع سلاح حزب الله، الذى دعا إليه قرار مجلس الأمن، يعد أمراً حيوياً، والبعض الآخر، وليس الشيعة فقط، لا يزال فى عداء مع إسرائيل ولا يثق بالأمريكيين، ويشعر بارتياح، وفخر، إزاء المقاومة التى يقودها حزب الله.

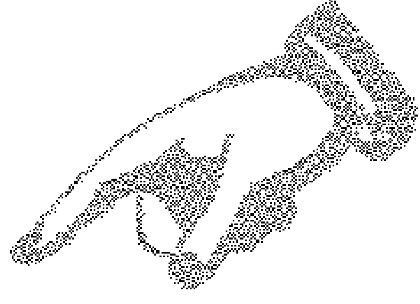
يوجد عنصر آخر، جديد تماماً، يصب فى صالح المعارضة، ويتمثل فى الشعور القوى، غير الملموس بعد، بأن هناك حالة تغير تاريخى تتفاعل الآن. لقد وجد لبنان، مع نهاية الحرب العالمية الأولى، نتيجة توافق الطموح المارونى مع أهداف مستعمر فرنسى مخادع. نجح المشروع اقتصادياً، لكنه لم يشكل دولة - أمة. لم يستطع اللبنانيون تسوية قضية لب وجوهر الهوية، أو الإحساس المشترك بالانتماء. نزعت المسيحية المسيطرة إلى الغرب، أكثر من اللازم؛ الأمر الذى قاد إلى فقدان السيطرة ثم الميل، أكثر من اللازم أيضاً، باتجاه الشرق.

هذه التوازنات تشهد الآن تحولاً باتجاه المركز. وتكشف الحشود المتماوجة فى شوارع بيروت، ولو بشكل خاطف، عن شعور مشترك بالكبرياء ورؤية عامة واضحة. ومن المؤكد أن أنصار الطائفية يقفون فى حالة ترصد ومراقبة لكن الفرصة حانت، وهى فرصة يسعى معظم اللبنانيين إلى اقتناصها، لبناء أمة حقيقية طال انتظارها. ■

هامش:

(*) لم يجرؤ لبنان على إجراء إحصاء سكانى منذ عام ١٩٣٢ عندما كان المسيحيون أغلبية ظاهرة. وهذه من بين الأسباب التى دفعت فرنسا الكاثوليكية إلى إقامة لبنان. كانت الأغلبية فى مدينة بيروت، وقتها، سنية، ويونانية أرثوذكسية، مع دروز وماروتيين فى الجبال، وتركزت الشيعة المهمشة فى قرى الجنوب والشرق. وفى فترات لاحقة ارتفعت نسبة الهجرة بين المسيحيين، وانخفض معدل المواليد، وتسارعت وتيرة انتقال موجات اللاجئين خلال الحرب الأهلية إلى بيروت التى تحولت إلى لوحة مرتبكة الألوان. وتقسم تخمينات حالية سكان لبنان البالغ تعدادهم ٤,٥ مليون نسمة، إلى ٣٥ - ٤٠ فى المائة من المسلمين الشيعة، ١٥ - ٢٠ فى المائة من المسلمين السنة، ٢٥ بالمائة مارون، ١٠٪ طوائف مسيحية أخرى، و١٠٪ دروز وطوائف إسلامية أخرى. هناك أيضاً ما بين ٢٠٠ إلى ٣٥٠ ألف لاجئ فلسطينى، وربما نصف مليون عامل أجنبى، معظمهم من السوريين.

كتاب الزاوية



أوراق السنهورى

مدرسة القضاء الشرعى

كان ذلك فى سنة ١٩٢٠ . وكنت قبل ذلك وكيلاً بالنيابة العامة، فتركت وظيفتى هذه إلى وظيفة بمدرسة القضاء الشرعى لتدريس القانون، فقد كنت شغوفًا بالفقه القانونى، ولم يكن لى إليه إلا هذا السبيل. وأشهد أنه كان سبيلاً رحبًا كريم الوفادة، وقد استقبلنى منذ بدايتى فيه، الأستاذ عاطف بركات، ناظر المدرسة، استقبالاً ينطوى على كثير من العطف والود، ثم عرفت فى المدرسة كثيرًا من أساتذتها، وأولهم أحمد أمين.

كانت مصر فى أوائل سنة ١٩٢١، وفدية خالصة، وكان توفيق نسيم رئيسًا للوزارة ينفذ سياسة القصر. فعزل عاطف بركات ناظر مدرسة القضاء الشرعى من منصبه إذ حسبه، وحسب معه مدرسة القضاء الشرعى بؤرة تعشش فيها الوطنية، هذه الوطنية التى لم يتلوث توفيق نسيم بأوساخها فيما روى عنه. فقامت مدرسة القضاء الشرعى، أساتذة وطلبة، يحتجون على هذا التعسف. ثم زادت المسألة تعقيداً بعد أن انقسمت البلد إلى فريقين: أغلبية مع سعد وأقلية مع عدلى، وذلك بعد سقوط وزارة توفيق نسيم. فتعذر إرجاع عاطف بركات إلى مدرسة القضاء الشرعى، إذ كان عدلى على رأس الوزارة، وكان عاطف فى الأغلبية التى مع سعد، فقمعت حركة مدرسة القضاء الشرعى فى قسوة عنيفة. وتناول القمع الطلبة والأساتذة جميعًا. وما لبثت حركة القمع أن آتت ثمارها. فهدأ الطلبة، وتفرق الأساتذة وانعزل كل فى عمله وعين الحكومة ساهرة على الجميع.

صلاح الدين «هوليووديا»

محمـــــــــد الســـطوحي

■■ لم أصدق عيني وأنا أشاهد ذلك المشهد الرائع لصلاح الدين الأيوبى الذى أدى دوره ببراعة الممثل السورى غسان مسعود فى الفيلم التاريخى الهام «مملكة الجنة». كان صلاح الدين قد حقق النصر فى معركة حطين وتمكن من دخول القدس بعد إخراج الصليبيين منها، حيث كان يسير فى أحد القصور بينما تناثرت أشياء كثيرة من أماكنها تعبيرا عن عنف المعارك التى كانت قد انتهت لتوها. لكن شيئا ما ملقى على الأرض استوقف صلاح الدين، وهو الصليب. فإذا بالقائد العظيم المنتصر يرجع إليه

ويحمله من على الأرض ثم يضعه على قاعدته فى مكانه اللائق به فوق إحدى الموائد.

ربما يمثل ذلك المشهد أهم المعانى التى ركز عليها الفيلم وخرج بها مشاهدوه، وهو الدعوة للتسامح والسلام، والتأكيد على إمكانية التعايش بين كل الطوائف والأديان، إذا ساد الاعتدال فى مواجهة أصوات المتطرفين الساعين للمزيد من سفك الدماء والذين يؤكد الفيلم على وجودهم لدى كلا الجانبين.

أما لماذا لم أصدق عينى فالأمر لا يعود لشكى فى مصداقية المشهد. فصلاح الدين شهد له الأعداء قبل الأصدقاء بنبل الأخلاق والكرم والتسامح. إلا أن الإقرار بذلك والتأكيد عليه فى أحد أفلام هوليوود كان هو المفاجأة السارة التى لم نكن نتوقعها إذا أخذنا فى الاعتبار تاريخ صناعة السينما الأمريكية فى تشويه صورة العرب والمسلمين فى أغلب أعمالها مع استثناءات قليلة، وهو الأمر الهام الذى سأعود إليه فيما بعد.

وقد زاد من دهشتى ودهشة الكثيرين أن هذا الفيلم جاء فى وقت حرج تزايدت فيه الدعاوى العنصرية من قبل الكثيرين ضد العرب والمسلمين خاصة بعد هجمات الحادى عشر من سبتمبر. وكان مجرد إقدام هوليوود والمخرج البريطانى (سير) ريدلى سكوت على تناول هذا الموضوع الشائك، يثير الكثير من التوجس والخوف من دخول هذه المنطقة الحساسة للصراع الدامى بين المسلمين العرب من جهة والمسيحيين الأوروبيين

فيلم:
Kingdom of Heaven
مملكة الجنة
Directed and Produced by Ridley Scott
Distributor 20th Century Fox (2005)



خطـــايا إمبراطـــورية الجحيـــم

من جهة أخرى، بما قد يلقى بالمزيد من الزيت على نار الصراع الحضارى بين الغرب والمسلمين الذى يتنبأ به البعض من أمثال صامويل هانتينجتون. إلا أن سكوت المعروف ببراعته الشديدة فى إخراج مشاهد الحروب والقتال كما أثبت ذلك فى فيلمه الشهير Gladiator أو المصارع، تمكن من صياغة المعارك التى حفل بها فيلمه الجديد «مملكة الجنة» فى إطار يدعو للسلام والتعايش وينبذ الحروب، وهذه هى الفكرة الفلسفية التى لم يعلن عنها المخرج بشكل صريح لكنها كانت تمثل المعنى الكامن غير المباشر فى أغلب مشاهده، وهو أمر يحسب للفيلم.

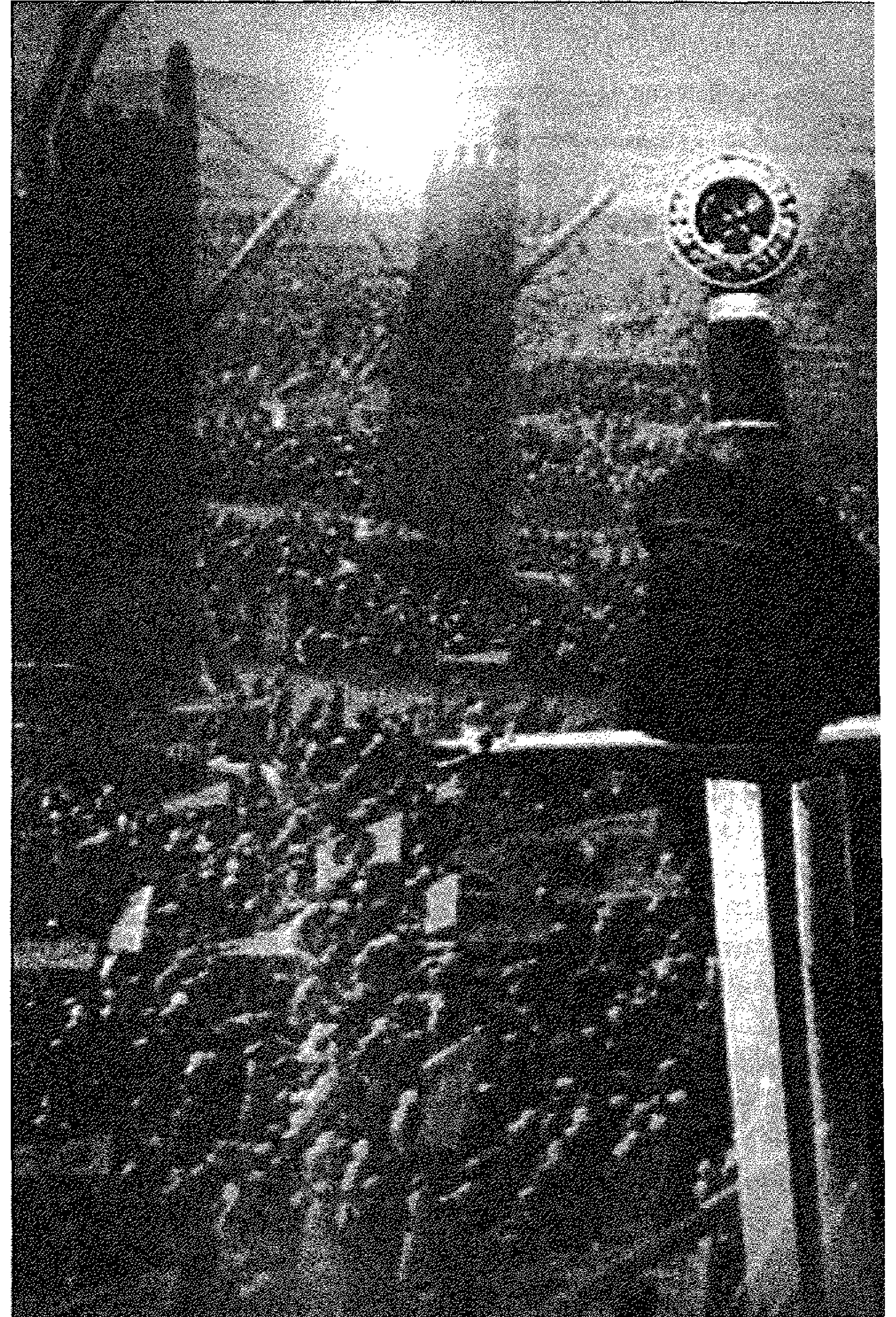
ولكن قبل أن نتطرق للعديد من القضايا الهامة التى يثيرها الفيلم دعونا نتوقف قليلا أمام محاوره الرئيسية، والتى تتناول الصراع بين العرب والصليبيين فى القرن الثانى عشر الميلادى، من خلال قصة الفرنسى (باليان) الذى تحول من مهنته الأصلية كحداد بعد أن قتل قسيسا فى فرنسا، فتبع والده الفارس الذى لم يكن يعرفه من قبل إلى القدس بحثا عن التوبة والغفران. ومع موت والده يرث باليان عنه موقعه القيادى الهام الذى يضعه وسط الصراع والدسائس المحيطة بملك القدس الصليبى حيث يسعى المتطرفون لجره إلى حرب مع المسلمين بقيادة صلاح الدين. وبموت الملك تخلو الساحة للمتطرفين الذين هاجموا قوافل المسلمين وقتلوا أخت صلاح الدين، ثم رسله إليهم مما أدى إلى وقوع الحرب التى أرادوها وانتصرت جيوش المسلمين فى حطين . فآل أمر الدفاع عن القدس للقائد الشاب باليان، الذى يبدى براعة كبيرة فى الدفاع عن المدينة إلى أن استسلم حفاظا على حياة من بقى فيها.

هنا قد يتوقف كثير من النقاد ليتساءلوا: كيف تسنى لهذا الحداد أن يتعلم بمثل هذه السرعة فنون القتال والفروسية والقيادة؟ ومن أين جاءت له هذه الخطط المحكمة للدفاع عن القدس فى مواجهة جيوش ضخمة ضخمة لا قبل له بها مستخدما أساليب عسكرية مبتكرة ليس من المنطقى أن تتوافر لشخص حديث العهد بالفروسية والحروب، إلا إذا كان المخرج يريد أن يقول لنا إنها مسألة جينية وراثية وهو أمر مستغرب. البعض فسر ذلك بأن اختصار ساعة من الفيلم ليصبح ١٣٨ دقيقة فقط هو الذى أدى إلى التقصير فى توضيح مرحلة التحول فى حياة باليان وخبرته، إلا أن ذلك لا يبرر من وجهة نظرى هذا الخلل، الذى زاد منه اختيار الممثل أورلاندو بلوم بملامحه الوسيمة لأداء هذا الدور. وقد حاول المخرج استخدام بعض الأساليب الفنية فى الجزء الثانى من الفيلم بتلطيخ وجهه ولحيته بما يزيد من الاقتناع به فى ثوبه الفروسى، كما اجتهد الممثل بشكل واضح لإقناعنا بصورته الجديدة، إلا أن اختيار ممثل آخر ربما كان يجعله أكثر إقناعا.

يقابل ذلك اختيار غسان مسعود لأداء دور صلاح الدين، وهو ما كان موفقا تماما. فرغم المساحة الصغيرة نسبيا لشخصية القائد المسلم مقارنة بشخصية باليان، إلا أن غسان مسعود نجح فى تقديمها بشكل صادق ومقنع دون مبالغة رغم صعوبتها. فهى مزيج من الفارس المحارب، ورجل السلام الذى يجسد التسامح ولا يرغب فى العنف وسفك الدماء.



غير أن ذلك يجرنا إلى جانب سلبى آخر فى هذا الفيلم خاصة عند مشاهدته بعيون عربية أو إسلامية. فالفيلم كان مركزا بشكل مبالغ فيه على جانب الصليبيين وصراعاتهم الداخلية ما بين المعتدلين والمتطرفين ثم صراعهم مع المسلمين،



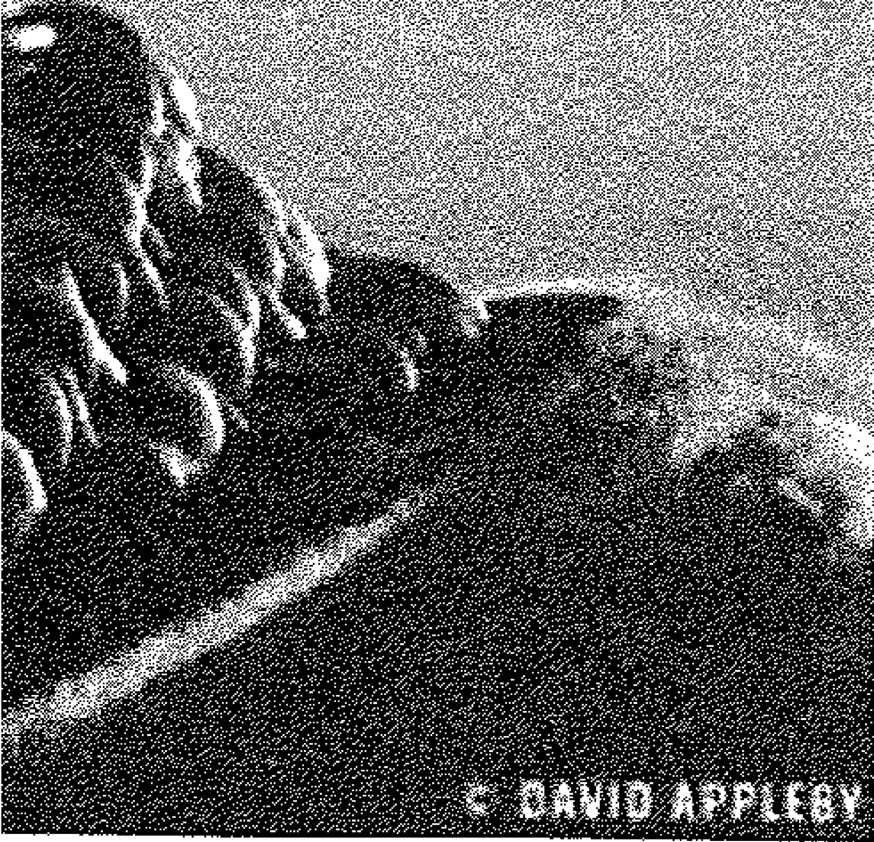


«صلاح الدين هوليوود يا»



كان مجرد إقدام هوليوود على تناول هذا الموضوع الشائك، يثير الكثير من التوجس والخوف من دخول هذه المنطقة الحساسة للصراع الدامى بين المسلمين العرب من جهة والمسيحيين الأوروبيين من جهة أخرى







واكتفى بلمحات بسيطة فى توضيح تلك الأمور لدى الجانب العربى الذى تعرفنا على شخصياته بشكل سريع ومبتسر لا يوضح أبعادها أو يفسر تصرفاتها.

وحتى عندما حقق المسلمون انتصارهم العظيم فى حطين، فإن الفيلم تخطى ذلك وغمطهم حقهم عندما أظهر الأمر وكأن الصليبيين هم الذين هزموا أنفسهم بخروجهم من القدس وسيرهم لمسافة طويلة بدون زاد أو ماء مما أصابهم بالإجهاد الشديد وأدى إلى سقوط الكثيرين منهم فى الطريق، ثم جاء المشهد التالى لساحة المعركة وقد امتلأت بجثثهم. وعندما انتقلت المعركة إلى القدس، تفنن المخرج فى إظهار براعة باليان فى الدفاع عنها بوسائله المحدودة، بينما كان المسلمون يندفعون إلى حتفهم على أسوار المدينة دون أن يبدو وراءهم عقل مفكر، إلى أن تمكنوا من تدمير جزء من السور اقتحموا منه المدينة.

كذلك فإن باليان الحداد عندما ذهب إلى القدس دخل إحدى القرى العربية ليشرح للحاضرين أن ما ينقصها هو وجود مصدر للماء، ثم يشرف عليهم فى حفر بئر واستخراج المياه منها. وهى ربما أيضا إحدى مكرمات السيد باليان الحداد والفارس والقائد ومهندس الرى.

غير أن تلك المآخذ رغم أهميتها لا ينبغى أن تقلل من ترحيبنا بالفيلم. فريدلى سكوت فى نهاية الأمر ليس يوسف شاهين الذى قدم فيلم «الناصر صلاح الدين» بصورة رائعة ولكن بمنظور عربى خالص، كما أن سكوت قدم العديد من الصور السلبية لقادة وقساوسة الصليبيين التى أثارت غضب الكثيرين من العناصر المسيحية المحافظة حتى إن إحدى الصحف الأمريكية نقلت عن الخبير البريطانى جوناثان سميث بجامعة كمبريدج قوله إن الفيلم يمثل رواية أسامة بن لادن للتاريخ. فهو يوضح أن المتطرفين المسيحيين هم الذين سعوا للحرب ضد صلاح الدين وهو ما أدى فى نهاية الأمر إلى انهيار مملكتهم فى القدس، كما أن المسيحيين هم الجانب المخطئ والمعتدى فى الحروب الصليبية منذ بدايتها كما يقول المخرج.

إلا أن البروفيسور توماس مادن بجامعة سانت لويس ومؤلف كتاب «التاريخ المختصر للحروب الصليبية أو Concise History of the Crusades A» ينفى ما يقوله الفيلم ومخرجه، مشيرا إلى أن المسلمين قبل بدء الحروب الصليبية فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادي كانوا قد استولوا على ثلثى الأراضى التى كانت خاضعة للمسيحيين بما فى ذلك سوريا وتركيا، وبالتالى فالمسيحيون كانوا يشنون حربا دفاعية تماما كما كان يقول الصليبيون فى ذلك الوقت. غير أن المخرج البريطانى ريدلى سكوت يرد على ذلك فى حوار مع صحيفة واشنطن تايمز الأمريكية بأن منطق مادن يشبه القول بأن الهنود الحمر لهم الحق فى استرجاع الولايات المتحدة، أو أن استراليا تتبع سكانها الأصليين من الأروميين. ثم أضاف ساخرا: ربما يكون ذلك صحيحا .. اذهب إذن وحاول استرجاعها.

إلا أن الرسالة الهامة للفيلم التى لا تخفى على المشاهد، هى أن هذه الحروب لم تكن فى حقيقتها لأسباب دينية، بل لدوافع سياسية يجب عدم إقحام الدين فيها. وهو أمر ربما أراد إسقاطه على الصراع القائم حاليا حول القدس بين الإسرائيليين والفلسطينيين ومن ورائهم العرب والمسلمين. وفى اعتقادى أن كثيرا من الجماعات اليهودية لن يستهويها أيضا هذا الفيلم. فالصراع فى ذلك الحين كان يدور بين العرب والمسلمين من ناحية، والصليبيين المسيحيين القادمين من أوربا من ناحية أخرى، بينما لم يكن لليهود دور أو وجود فى ذلك الصراع، وهو أمر لا يروق لمن يحاول فرض القدس كعاصمة تاريخية وأبدية له.



والفيلم بهذه المواصفات ربما ينطبق عليه ما ذكرته اللجنة العربية الأمريكية لمكافحة التمييز من أنه «متوازن» وهو تعبير يبدو سياسيا أكثر منه فنيا، كما أنه فيلم روائى وليس تسجيليا، وبالتالى لا يمكن محاسبته على مدى دقته فى نقل الأحداث التاريخية كما هى. إلا أن هذا التوازن يبدو قائما فى طريقة العرض ورسم الشخصيات على الجانبين وتوضيح وجود العناصر المعتدلة والمتطرفة بينهما دون اقتصارها على جانب دون آخر. لذلك فإن مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية قال إن الفيلم «يقدم عرضا متوازنا لصراع تاريخى مؤلم، كما امتنع الفيلم عن تقديم الصور النمطية المعتادة وغير الإنسانية للمسلمين».

ولاشك أن المنظمات العربية والإسلامية الأمريكية تنفست الصعداء بعد ظهور الفيلم. فبالإضافة إلى حساسية موضوعه المتفجر، وفى هذا التوقيت الحرج، كانت هناك مؤشرات أخرى تزيد من التوجس لديها. فالفيلم من إنتاج مؤسسة فوكس التى قدمت الكثير من الأفلام والمسلسلات التلفزيونية المسيئة للعرب، كان آخرها مسلسل (٢٤) الذى يعرض حاليا على قناة فوكس التليفزيونية، حول شبكة من الإرهابيين المسلمين التى تنخرط فى المجتمع الأمريكى بشكل عادى لا يثير الشبهات حولها، لكنها تخطط لتنفيذ هجمات إرهابية مستخدمة الأسلحة النووية ضد الولايات المتحدة. والمسلسل بهذا الشكل يثير الشكوك حول أى عربى أو مسلم مهما كان يبدو مظهره معتدلا أو بعيدا عن العنف. فخلف الوجه المعتدل

قد يكمن الإرهابى الذى يحاول تدمير كل شىء، بل إن أحد المشاركين فى المؤامرة حاول قتل ابنه وزوجته حتى لا يكونا مصدر شبهة له بما قد يضر بخطط العملية الإرهابية.

وقد زاد من تخوف الكثيرين من فيلم «مملكة الجنة» أن اتصالات أجريت قبل تصويره مع الخبير العربى الأمريكى المعروف جاك شاهين، الذى عرض التعاون مع الجهة المنتجة لتفادى أى أخطاء تسئ للعرب والمسلمين، إلا أن الاتصالات توقفت فجأة من جانب المنتجين بما ضاعف من الهواجس بشأن ما يتم التدبير له، حتى إن الدكتور خالد أبو الفضل أستاذ القانون بجامعة كاليفورنيا تحدث متشائما لصحيفة نيويورك تايمز قبل ظهور الفيلم بأشهر، مؤكدا وجود صور نمطية للمسلم بأنه غبى ومتخلف ورجعى وغير قادر على التفكير فى الأمور المعقدة، بما يخالف حقائق التاريخ. لذلك فإن المنظمات العربية والإسلامية سارعت للترحيب بالفيلم بعد أن نظم لها مخرجه عرضا خاصا لمشاهدته قبل نزوله لدور العرض الأمريكية. فمع التحفظ على بعض ما جاء فيه كما أوضحنا، إلا أنه لا يمثل شيئا مقارنة بما كانوا يتحسبون له ويتوجسون منه. كما أن الفيلم أعطى وجها إنسانيا للعرب أو بعض شخصياتهم وهو ما كنا نفتقده فى الكثير من أفلام هوليوود، وهذه هى القضية الأساسية التى يجب أن نلتفت إليها. صحيح أن «مملكة الجنة» مر بسلام، لكنه لا يمكنه أن يمحو تاريخا طويلا ومتصلا من أفلام هوليوود المسيئة للعرب والمسلمين. وقد رصد جاك شاهين ذلك الأسلوب المهين فى تعامل هوليوود مع العرب فى كتابه الهام «Reel Bad Arabs, How Hollywood vilifies a people» أو «التصوير السيئ للعرب، كيف تشوه هوليوود شعبا». وقد أصبح هذا الكتاب مرجعا هاما، رصد فيه المؤلف المئات من الأفلام التى أنتجتها عاصمة السينما العالمية وتعرض فيها صورا بشعة للعرب القتلة والإرهابيين الذين يلقون مصيرهم المستحق فى النهاية بالموت جماعات، دون أن يكون لهم مشاعر أو أى بعد إنسانى.

وقد ظهر هذا الكتاب قبل انتاج فيلم «Rules of engagement» أو «قواعد الاشتباك» الذى انحدر إلى مستوى غير مسبوق حتى بمعايير هوليوود، فى تصوير العرب والمسلمين فى اليمن، حيث عرضهم كمجموعة من الغوغاء الإرهابيين الذين يستحقون القتل جماعات وأفرادا بما فى ذلك النساء والأطفال والشيوخ.

وقد سبق أن سألت جاك لافانتى أحد رموز صناعة السينما الأمريكية عن هذا الأمر، وعن تفسيره لتعمد هوليوود الإساءة للعرب بهذا الشكل، فقال إن هوليوود لها تاريخ طويل فى ذلك، كما أنها أساءت فى السابق للعديد من الجماعات العرقية والدينية. وهذا صحيح إلى حد بعيد، إلا أننى أعتقد أن تصوير العرب فاق فى تدنيه الصور السلبية لكل الجماعات الأخرى، ربما لا يقاربه فى ذلك سوى تصوير الهنود الحمر فى أفلام الكاوبوى الأمريكية القديمة. وقد اعترفت هوليوود أخيرا بتجنيها عليهم، وظهرت أفلام تقدمهم بشكل أكثر إنسانية مثل الفيلم الشهير الرقص مع الذئاب من إخراج وتمثيل كيفين كوستنر. إلا أن هوليوود على ما يبدو ليست فى حالة توبة عن الإساءة للعرب، بل إنها تفعل ذلك بنشوة لافتة للنظر. صحيح أن الأمر لم يكن كذلك فى «مملكة الجنة» الذى عرضنا له فى هذا المقال، إلا أنه الاستثناء الذى يؤكد القاعدة ولا ينفيها.



غير أن ما فعلته هوليوود فى الماضى شىء، وما يمكن أن تفعله فى المستقبل شىء آخر تماما. فبعد هجمات الحادى عشر من سبتمبر صار الأمر أكثر حساسية وأشد ارتباطا بعقل ووجدان المشاهد الأمريكى، وأى تصوير درامى سلبى للعرب والمسلمين سيتم ولاشك إسقاطه على تلك الأحداث الرهيبة فى واشنطن ونيويورك. وقد امتنعت هوليوود وشبكات التليفزيون الأمريكية حتى الآن عن استخدام تلك الأحداث دراميا وهذا يحسب لها، باستثناء بعض الأعمال القليلة مثل مسلسل (٢٤) الذى سبقت الإشارة إليه. إلا أن التخوف هو أن يكون ذلك المسلسل مجرد بداية، أو هبة ريح تنذر بقدوم العاصفة. فربما كانت هوليوود حتى الآن تتحسب وتتحسس خطاها فى استخدام هجمات سبتمبر حتى لا تبدو الشركات المنتجة كمن يتاجر فى مصائب الناس، إلا أن ذلك التحسب سيخف تدريجيا وستجد لديها جرأة أكبر فى معالجة هذا الموضوع دراميا أو استخدامه بشكل أو بآخر، يشجعها على ذلك عناصر من أمثال دانيال بايبس الذى كتب مقالا يشيد فيه بشجاعة شبكة فوكس بتقديم مسلسل (٢٤) ويحرض بقية الشبكات السينمائية والتليفزيونية على الاقتداء بها.

ونحن لا يمكننا بالطبع الحجر على «مبدعى هوليوود» أو غيرهم فى تناول أى موضوع يشاءون وبالزاوية التى تتراءى لهم. غير أن تاريخهم الطويل الذى أشرنا له يجعلنا نتوجس من طبيعة وأسلوب هذا التناول بما قد يسىء لكل العرب والمسلمين كجماعات عرقية ودينية، بالتركيز المقصود على الإرهابيين منهم، دون توضيح الوجه الآخر لهم الرافض للعنف والإرهاب.

هذا حدث فى السابق بشكل فاضح وقبل هجمات

"صلاح الدين هوليووديا"



لى سكوت ليس يوسف شاهين الذى قدم «الناصر صلاح الدين» بصورة رائعة ولكن بمنظور عربى

سبتمبر، وسوف يتكرر فى المستقبل بصورة ستكون على الأغلب أكثر سلبا وإساءة للعرب والمسلمين، فماذا يمكن عمله إذن؟

* فى اعتقادى أن الحل الأساسى لهذه المشكلة لن يكون سوى بمشاركة العرب أنفسهم سواء داخل الولايات المتحدة أو خارجها فى الإنتاج السينمائى العالمى كمنتجين وممثلين وكتابا ومخرجين، فهم وحدهم الأقدر والأكثر حرصا على تقديم الوجه الآخر الإيجابى أو الإنسانى لهم. وقد نجح الهنود فى ذلك خلال السنوات الأخيرة بشكل ملحوظ، حيث أنتجت أفلام عديدة تقدمهم بصورة مرحة وإنسانية، وقد جاء ذلك انعكاسا للوجود الهندى المتزايد فى هوليوود وفى كثير من عواصم السينما فى العالم، هذا بالطبع بالإضافة للسينما الهندية ذات الانتشار والشهرة العالمية.

إلا أن هذا الحل سيترك أثره ويحقق المطلوب منه فقط على المدى الطويل وبشكل تدريجى، ويستدعى المزيد من الاهتمام من جانب العرب الأمريكيين بالدخول فى هذه الصناعة الحيوية والمشاركة فيها بدور أكبر، وهذا لن يكون أمرا سهلا. كما أن على رأس المال العربى أن يجد سبيله نحو المشاركة فى إنتاج أفلام عالمية بلغات مختلفة خاصة الإنجليزية، مع الحرص على تطوير السينما العربية وتفعيل مشاركتها بالأفلام الجيدة فى الكثير من المهرجانات الدولية، ومحاولة إقناع شركات التوزيع العالمية بتولى توزيعها وعرضها فى دور السينما الأمريكية والأوروبية.



إن كثيرا من الأفلام العربية التى تشارك فى مهرجانات أمريكية تكاد تكون مقصورة على مهرجانات للأفلام العربية، ورغم أهمية ذلك إلا أنها تظل محدودة فى تأثيرها لأنها تصل غالبا إلى العرب الأمريكيين، أو غيرهم من الأمريكيين ذوى الاهتمام بالثقافة العربية، وهؤلاء لا يمثلون سوى دائرة محدودة لا تحتاج فى الأغلب للمزيد من الإقناع، بعكس الدائرة الأوسع لجمهور السينما الأمريكية والعالمية الذى لا يعرف شيئا عن العرب وثقافتهم، وهو مايستدعى العمل الجاد للوصول إلى هذا الجمهور بأفلام جيدة تثير اهتمامه. وهنا علينا أن نقر أيضا بأننا نفتقد الآن لهذه النوعية من الأفلام، فما يتم إنتاجه حاليا فى السينما العربية والمصرية منها على وجه الخصوص، لا يكاد يثير اهتمام أحد حتى على المستوى المحلى، ولا أقول العالمى.

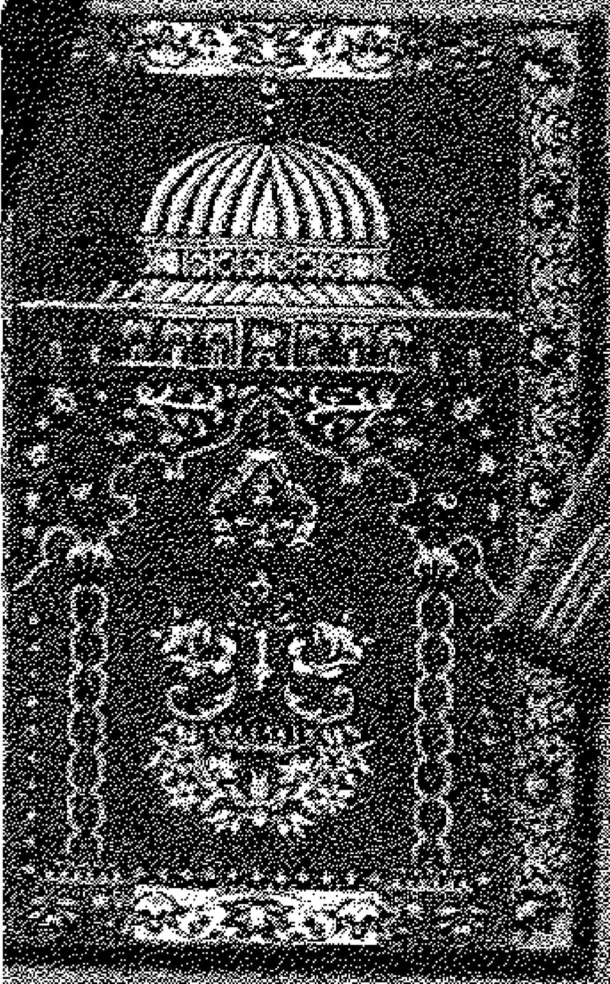
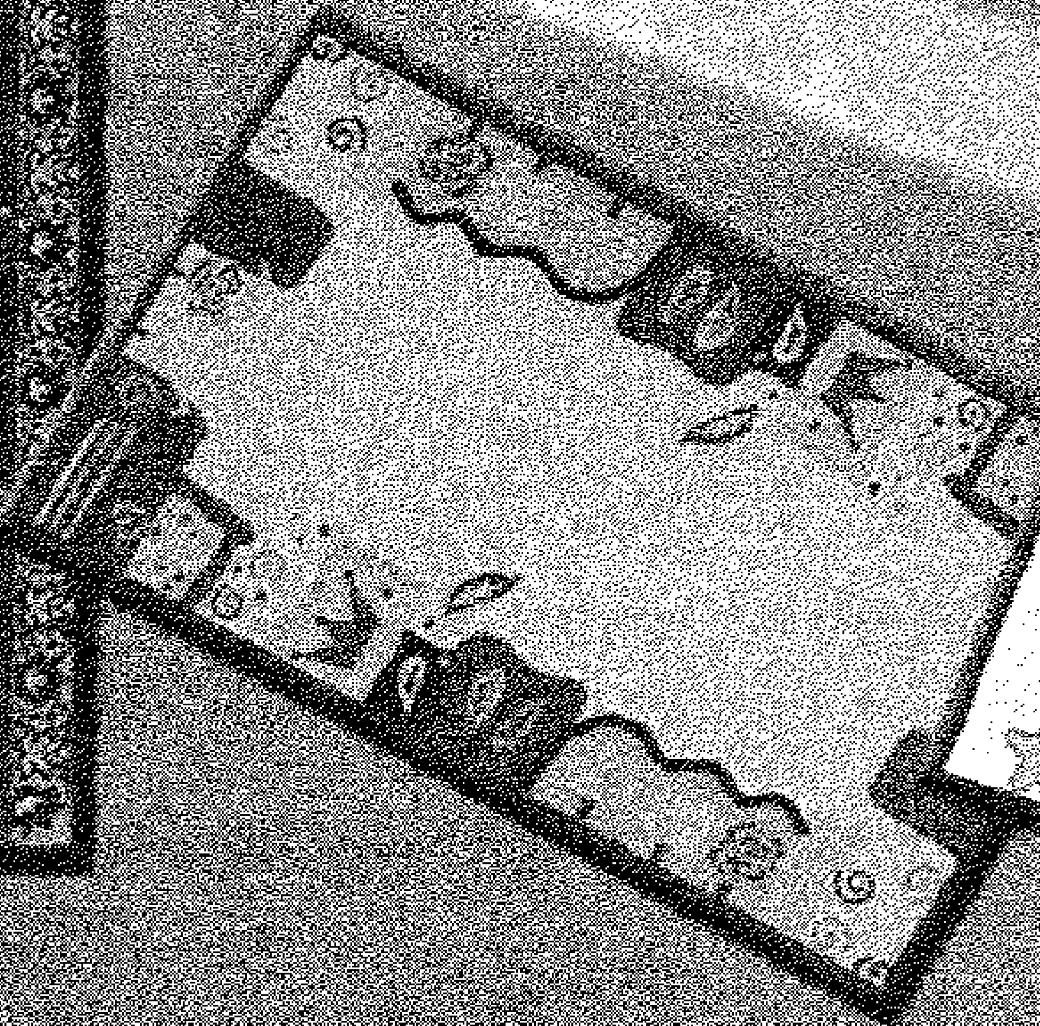
لكن ما دمنا غير قادرين على تقديم صورة إيجابية عن أنفسنا على الأقل فى الوقت الحالى، فلا يبقى أمامنا إذن إلا محاولة مواجهة أى صور سلبية غير صحيحة يقدمها لنا الآخرون، سواء فى وسائل الإعلام أو السينما العالمية والأمريكية منها بوجه خاص. وقد بذلت محاولات من هذا النوع فى السابق من قبل المنظمات العربية والإسلامية فى الولايات المتحدة، حيث كانت تكثف جهودها وتنديدها وتنظم بعض المظاهرات المحدودة، مع ظهور أفلام مثل «قواعد الاشتباك» الذى سبقت الإشارة إليه أو فيلم «الحصار» الذى صور وضع كل العرب والمسلمين فى معسكرات اعتقال فى نيويورك بعد قيام عناصر من المسلمين بعملية إرهابية، وقد عرض هذا الفيلم قبل أحداث سبتمبر، وعلينا أن نتصور تأثير هذه النوعية من الأفلام لو عرضت الآن. الأمر المؤكد أن قدرة المنظمات العربية والإسلامية محدودة فى مواجهة مثل هذه الصور السلبية النمطية. فهى لا تملك المال الكافى أو العناصر البشرية التى تمكنها من أداء هذه المهمة بالشكل المطلوب. لذلك فإن أقصى ما تمكنت من الوصول إليه مثلا مع شبكة فوكس بخصوص مسلسل (٢٤) هو وضع عبارة صغيرة على لسان بطل المسلسل تذاع منفصلة عنه بأن أغلبية المسلمين يرفضون الإرهاب، وهى كما نرى نتيجة باهتة. فهى لا تذاع كثيرا، كما أنها لا تغير شيئا من التأثير الضار لمسلسل يذاع لمدة ساعة أسبوعيا منذ عدة أشهر، بينما لا توجد فيه أى نماذج جيدة للمسلمين الذين يمكنهم المشاركة مثلا فى مكافحة الإرهاب أو القيام بعمل آخر نافع غير التآمر على البلاد التى يعيشون فيها.

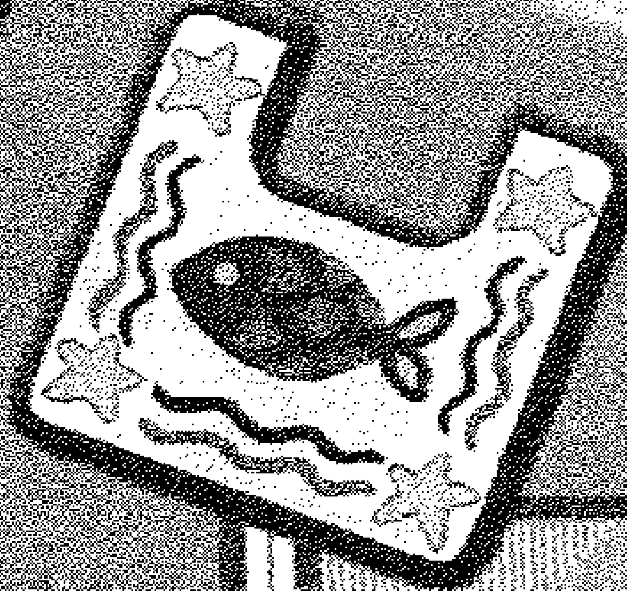


هنا أقول إن تأثير هذه الأفلام ليس مقصوراً على العرب والمسلمين داخل الولايات المتحدة، بل يمتد إليهم فى كل بقاع الأرض، وهو ما يحتم أن يكون لتلك الشعوب وحكوماتها ومنظماتها المدنية ووسائلها الإعلامية دور فى مواجهة هذه الأعمال وتأثيراتها السلبية. وأذكر هنا ما حدث عند عرض مسلسل «فارس بلا جواد» للفنان محمد صبحى. فقد أثيرت ضجة كبرى فى عواصم العالم وقامت المنظمات اليهودية بتنظيم مظاهرات أمام السفارة المصرية بواشنطن احتجاجا على إشارة المسلسل لكتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» رغم أن المسلسل كان ضعيفا جدا من الناحية الفنية وربما ما كان سيلتفت إليه أحد لولا هذه الضجة التى أثيرت حوله. ونحن هنا لا نلوم المنظمات اليهودية على ماقامت به بصرف النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا معها، فقد فعلت ما رأته مناسبا للدفاع عن مصالحها ومواجهة أى تشويه لصورة اليهود. والمطلوب هو ردود فعل مشابهة من الجانب العربى على أى تشويه لصورتهم خاصة فى هوليوود. وإذا كانت الجامعة العربية تعانى من عجز وعقبات تحول دون أداء دورها السياسى كما ينبغى، فإن هذه القضية جديرة بجهود أكبر للجامعة فى أمر سيكون محل إجماع من كل العرب وحكوماتهم، لأن أى تشويه يصيبهم جميعا. وقد أبدى أمين عام الجامعة السيد عمرو موسى اهتماما مؤخرا بالدبلوماسية الثقافية ودعم بقوة إنشاء متحف للعرب الأمريكيين فى مدينة ديربورن، ويمكنه أن يكرس إدارة فى الجامعة تكون مهمتها متابعة مايصدر من أعمال فنية وثقافية عن العرب والمسلمين بالتنسيق مع المنظمات العربية الموجودة فى الولايات المتحدة، على أن يتم تكثيف الحوار مع الشركات السينمائية المنتجة فى هوليوود بشكل وقائى قبل أن تقع الواقعة ويظهر الفيلم الجديد. ولا شك أن الجامعة ستملك ورقة قوية لا تملكها المنظمات العربية، وهى السوق العربية الهائلة للأفلام التى تنتجها هذه الشركات بما قد يجعلها تستجيب ولو جزئيا لمخاوف الجانب العربى حرصا على مكاسبها المادية من السوق العربية. فليس من المعقول أن تنتج أى شركة فيلما يشوه صورة العرب بشكل متعمد ثم تتوقع الحصول على مكاسب بمليارات الدولارات ببيع إنتاجها الفنى للعرب سواء كان ذلك أفلاما أو مسلسلات أو أغنيات أو أى منتجات أخرى.

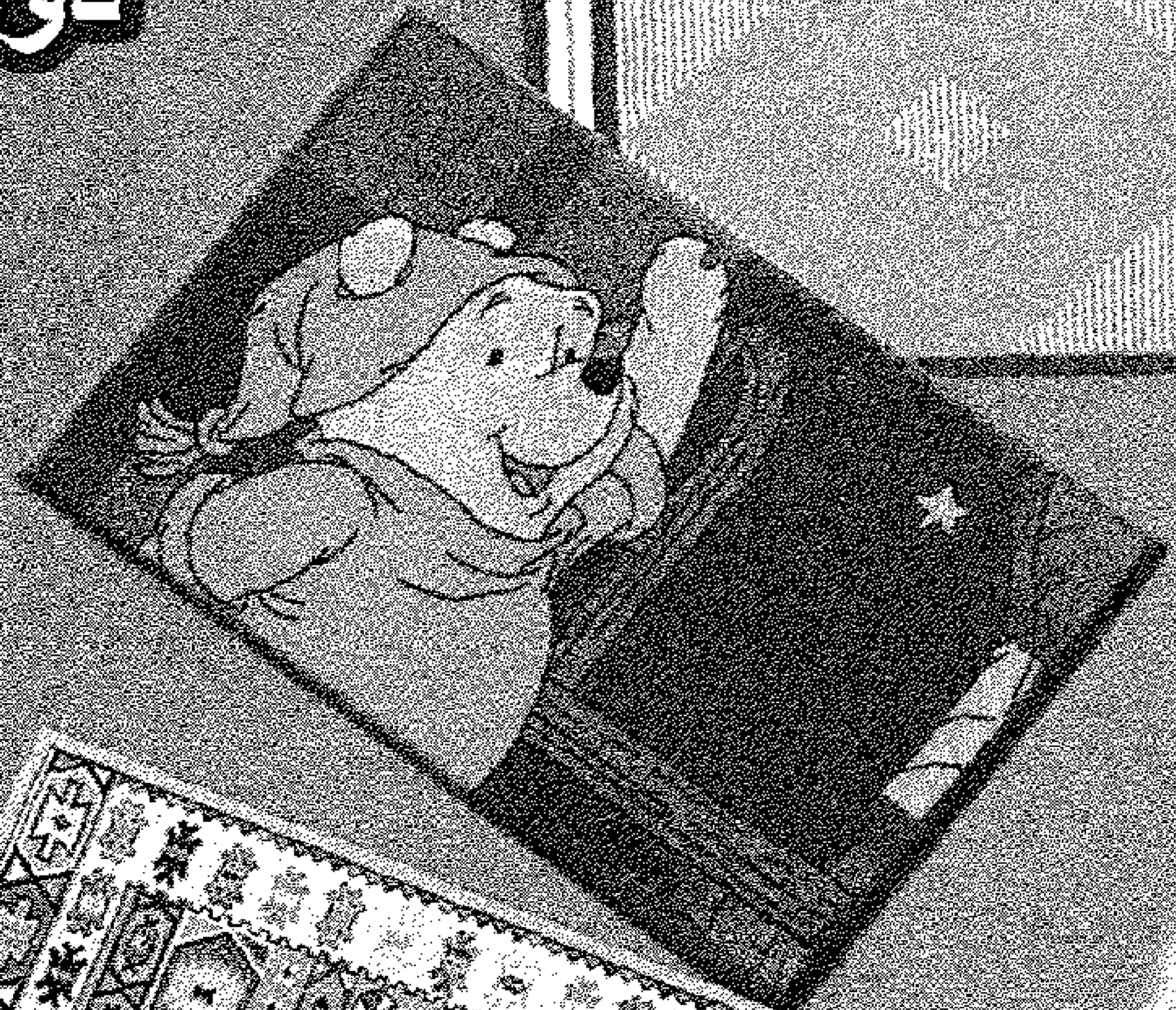
الأمر الآخر الضرورى هو تكثيف الاتصالات مع المسئولين وقادة الرأى الأمريكيين لرفع أصواتهم فى مواجهة هذه النوعية من الأعمال. فإدارة الرئيس بوش تحرص جدا هذه الأيام على تعقب مايوصف بحديث إثارة الكراهية والتحريض ضد الولايات المتحدة فى وسائل الإعلام العربية، ومن واجبها أيضا أن تتصدى لمثل هذا الحديث فى عقر دارها عندما يصدر ضد العرب. صحيح أنها لا تملك سلطة مباشرة تملى بها قراراتها على مؤسسات السينما والإعلام الأمريكية، لكنها يمكنها أن تساعد بقوة فى قيادة الرأى العام الأمريكى لرفض هذه الحملات وعدم الاستجابة لها. لقد قام الرئيس بوش بدور هام بعد هجمات سبتمبر فى التأكيد على أن الإسلام دين سلام وأن الإرهابيين لا يعبرون عن الأغلبية العظمى من المسلمين الرافضين للعنف والإرهاب. إلا أن هذا الدور تراجع مؤخرا وأصبح من الضرورى حث الرئيس الأمريكى على مواصلة تلك الجهود بل وزيادتها. فإذا كان حديث الكراهية طريقا ذا اتجاهين، فليس من المنطق أن تسير جهود مكافحته فى اتجاه واحد. ■

سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال

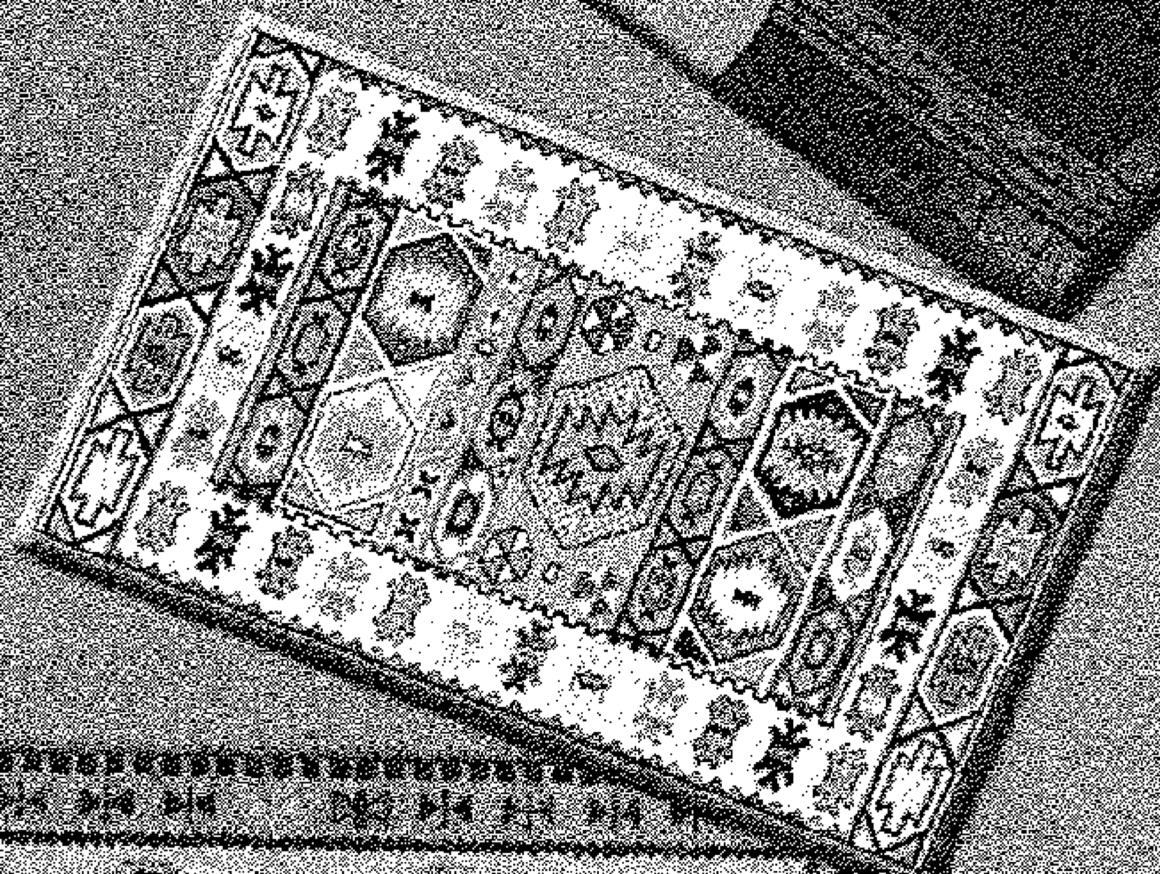
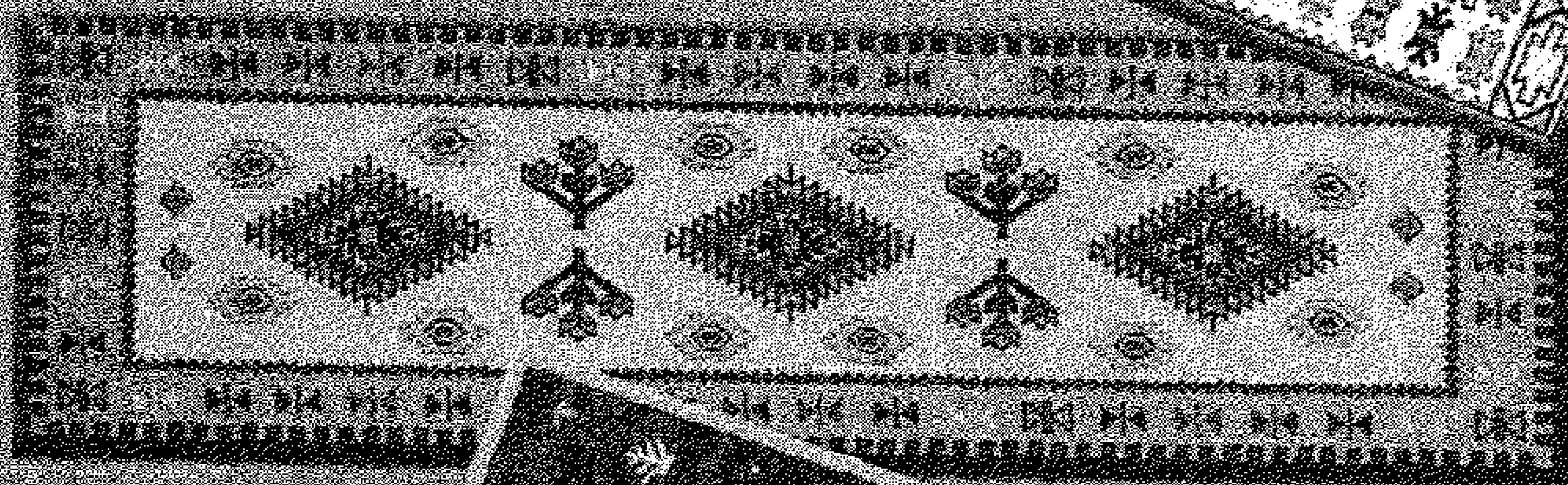



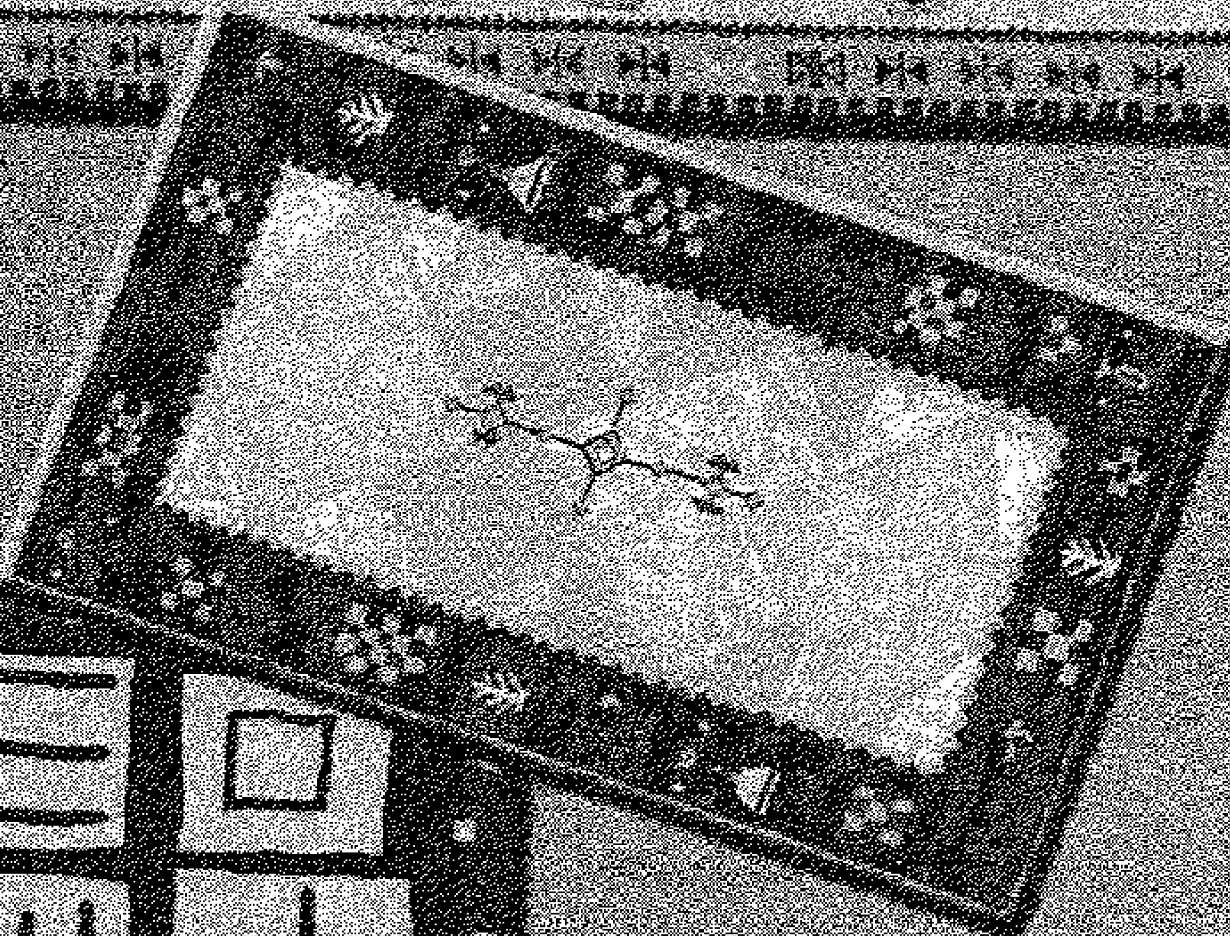
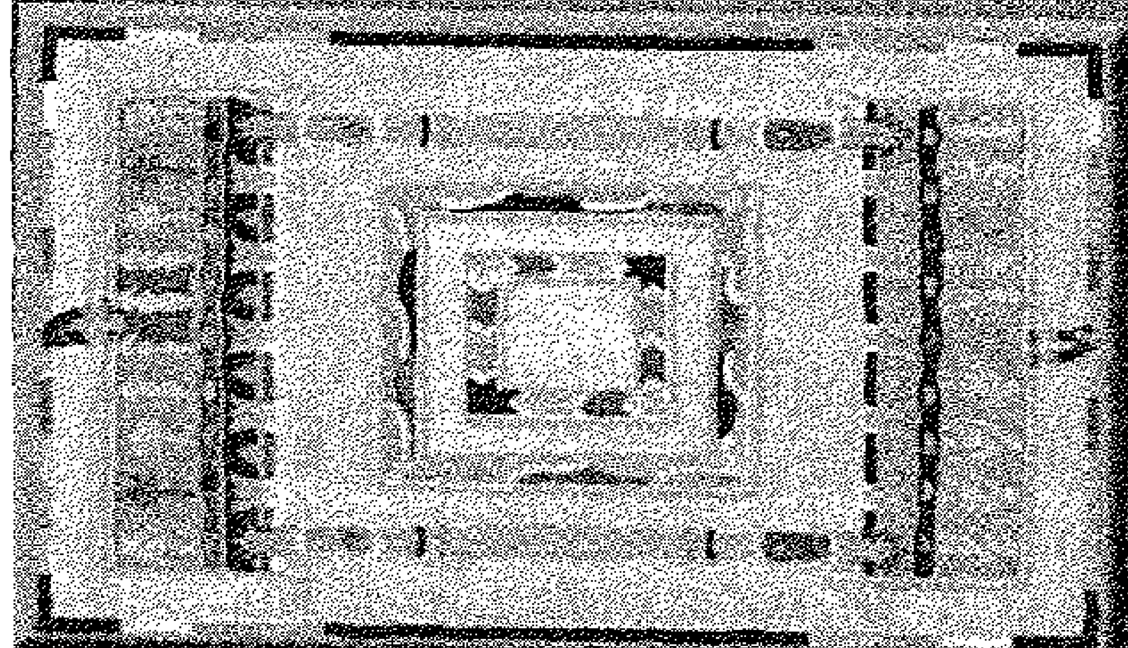
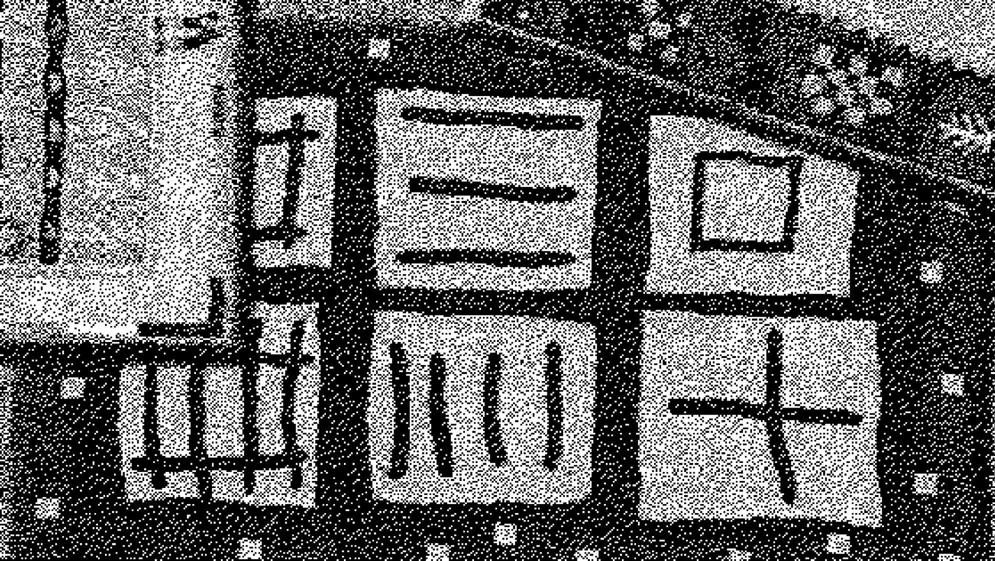
دواسات حمام



متواجد في مراكز بيع بواقى ال

قطع موكيت



هكذا ستحارب أمريكا الصين

روبرت كابلان

سوف تنفق الصين المزيد والمزيد من المال على جيشها فى العقود المقبلة. وقد يكون هدفنا الواقعى الوحيد هو تشجيعها على الاستثمارات ذات الطابع الدفاعى وليس الهجومى

لا تشكل أية قوات بحرية أو جوية لدولة ما تهديداً للولايات المتحدة فى الوقت الراهن. فليس هناك من ينافسنا سوى القوات البرية، سواء أكانت قوات تقليدية أو أعمال تمرد يقوم بها أفراد حرب العصابات. غير أن هذا سوف يتغير عما قريب. فهاهى البحرية الصينية تتأهب للانطلاق إلى المحيط الهادى؛ وحين تنطلق لن يمضى وقت طويل حتى تواجه القوات البحرية والجوية الأمريكية التى لا ترغب فى التزحزح عن الجرف الساحلى لبر آسيا الرئيسى. وليس من الصعب تخيل النتيجة، وهى إعادة للحرب الباردة التى امتدت عقوداً، غير أن مركز الجاذبية لن يكون فى قلب أوروبا، بل بين الجزر المرجانية التى كانت المرة الأخيرة التى تظهر فيها ضمن الأخبار أثناء الحرب العالمية الثانية. وسوف تلعب الصين فى العقود المقبلة لعبة كر وفر معنا فى المحيط الهادى، حيث لن تستغل فرصة ساحلها الشاسع فحسب، بل كذلك قاعدتها التى فى المؤخرة. الممتدة إلى وسط آسيا. حيث يمكنها فى النهاية إطلاق الصواريخ بدقة على السفن المتحركة فى المحيط الهادى.

فى أية مواجهة بحرية ستكون للصين ميزة واضحة على الولايات المتحدة، حتى وإن تخلفت عنها من ناحية التقدم العسكرى التكنولوجى. فجيشها تلميذ شديد التوق إلى المنافسة، ويتعلم بسرعة. كما أن لديه كميات متزايدة من القوة «اللينة» التى تكشف عن موهبة مميزة فى التكيف. وبينما يملأ الإرهابيون الذين لا دولة لهم الفراغات الأمنية، يملأ الصينيون الفراغات الاقتصادية. وفى أنحاء المعمورة، وفى أماكن متفاوتة مثل الدول الجزر المضطربة بالمحيط الهادى فى أوشيانيا ومنطقة قناة بنما والدول الأفريقية النائية، يصبح الصينيون أصحاب نفوذ غير مباشر، عن طريق إقامة مجتمعات تجارية ومواقع دبلوماسية متقدمة من خلال التفاوض على اتفاقيات تشييد وتجارة. وتشكل الصين التهديد التقليدى الرئيسى للسيادة الليبرالية الأمريكية كونها تنبض بالطاقة الاستهلاكية والعسكرية وتفخر بفلاحيها المتعلمين بصورة ساحقة لا مثيل لها فى التاريخ.

فكيف ينبغى للولايات المتحدة الاستعداد للرد على التحديات التى تواجهها فى المحيط الهادى؟ كى نفهم ديناميات هذه الحرب الباردة الثانية. التى سوف تربط الولايات المتحدة والصين خلال مستقبل قد يمتد أجيالاً عديدة. من الضرورى فهم أشياء معينة عن الحرب الباردة الأولى، وعن المأزق الحالى فى حلف الأطلنطى، تلك المؤسسة التى أنشئت بغرض خوض ذلك الصراع. وهذه قصة تتعلق بالإستراتيجية والتكتيكات العسكرية مع بعض الانحرافات والمنعطفات المضادة للحدس.

أول ما يجب فهمه هو أن نظام التحالف الخاص بالنصف الأخير من القرن العشرين قد مات. فالحرب كما كان يمارسها حلف الناتو قد أصبحت بطيئة جداً فى عصر يتطلب توجيه ضربات قاتلة وسريعة. وأثناء القتال فى كوسوفو فى عام ١٩٩٩ (حملة جوية محدودة ضد عدو غير مؤثر فى الوقت الذى كان يسود فيه الوفاق بين الولايات المتحدة وأوروبا؛ وهى بعبارة أخرى الحملة التى كان ينبغى أن يكون من السهل مواصلتها حتى النهاية) ظهرت تصدعات ضخمة فى تحالف الناتو الذى كان يضم وقتها تسعة عشر عضواً. وجاءت نهاية المنظمة من الناحية العملية مع غزو الولايات المتحدة لأفغانستان الذى باتت الجيوش الأوروبية فى أعقابه لا تقوم بما يزيد على أعمال الدورية والانتقال إلى المناطق التى قام الجنود الأمريكيون وأفراد مشاة البحرية بتهدئتها بالفعل، بالرغم من الحديث عن ائتلاف واسع القاعدة؛ وتلك مهمة أجدر بها الأمم المتحدة. وما حلف الناتو الآن إلا وسيلة لتوسيع مهام التدريب الثنائى بين الولايات المتحدة والدول والجمهوريات الشيوعية سابقاً؛ فمشاة البحرية موجودون فى بلغاريا ورومانيا، والأسطول فى ألبانيا، والجيش فى بولندا وجمهورية التشيك، وقوات العمليات الخاصة فى جورجيا، والقائمة تطول. وقد بات جزء كبير من حلف الأطلنطى مزرعة للجيش الأمريكى.

الشىء الثانى الذى لابد من فهمه هو أن البديل الوظيفى للناتو فى المحيط الهادى موجود ويباشر عمله بالفعل. إنه قيادة المحيط الهادى الأمريكية المعروفة باسم «پاكوم» PACOM. و پاكوم بناء كبير ولكنه يتسم بالرشاقة وخفة الحركة، حيث لا تعوقه البيروقراطية الدبلوماسية ويفهم قادته ما لا يفهمه الكثيرون فى وسائل الإعلام والمجتمع السياسى: وهو أن مركز جاذبية الاهتمام الإستراتيجى الأمريكى هو بالفعل المحيط الهادى وليس الشرق الأوسط.

بترتيب مع مجلة: The Atlantic الأمريكية

ترجمة: أحمد محمود

وسرعان ما تصبح باكوم اسماً مألوفاً مثلما هو حال «سنتكوم» CENTCOM (القيادة المركزية الأمريكية) فى حقبة صراع الشرق الأوسط الحالية، وهى الحقبة التى سوف تأخذ فى الانحسار فيما يتعلق بالجيش الأمريكى فى الولاية الثانية لإدارة بوش.

الشىء الثالث الذى لابد من فهمه هو أن من المفارقة أن حيوية الناتو نفسها، أى التحالف الأطلنطى، يمكن إحياؤه بحرب باردة فى المحيط الهادى. والواقع أن ظهور الناتو من جديد على أنه أداة خوض الحرب التى لا يمكن الاستغناء عنها ينبغى أن يكون هدف أمريكا الدائم. فسوف تبدو الولايات المتحدة فى وقفتها أمام الصين للأوروبيين والناتو، الذين سوف تحتاج إلى مساعدتهما كثقل موازن، على أنها القوة التى تقوم بأعمال الداورية فى بحار أبعد من المتوسط وشمال الأطلنطى. وهذا هو السبب فى تأكيد قائد الناتو الحالى الجنرال جيمس ل. جونز على أن مستقبل الناتو يكمن فى الحرب البرمائية التى تتخذ شكل الحملات.



اسمحوا لى أن أصف التنظيم العسكرى فى المحيط الهادى، وهو المنطقة التى تنقلتُ فيها كثيراً فى السنوات الثلاث الماضية. وكانت باكوم باستمرار أكبر قيادات المناطق الأمريكية وأكثرها مهابة وأشدها إثارة للانتباه. (وتعود جذور باكوم إلى جيش المحيط الهادى الأمريكى فى حرب الفيليبين فى الفترة من ١٨٩٩ إلى ١٩٠٢.) وهى تسيطر على مساحات تمتد من شرق أفريقيا إلى ما وراء خط التاريخ الدولى وتشمل حافة المحيط الهادى بالكامل، بما فى ذلك نصف سطح الأرض وما يزيد على نصف اقتصادها. وتعمل أكبر ستة جيوش فى العالم، اثنان منها (جيشا أمريكا والصين)، هما الأسرع تحديثاً داخل مجال سيطرة باكوم. وبالإضافة إلى سفن باكوم وغواصاتها الكثيرة، فإن لها قوات أكثر تخصيصاً من سنتكوم. ومع أن قيادات المناطق التابعة للجيش لا تمتلك قوات اليوم بالطريقة التى كان عليها الحال فيما مضى، فإن لهذه الإحصاءات أهميتها لأنها توضح أن الولايات المتحدة اختارت أن تضع جُل قواتها فى المحيط الهادى، وليس فى الشرق الأوسط. وتخوض سنتكوم حروباً مع قوات استعيرت بشكل أساسى من باكوم.

فى السنوات الأخيرة، وبهدوء، كوَّن الجيش الأمريكى تحالفات متنوعة من خلال التفاوض على اتفاقيات أمنية مع الدول التى لا تربطها ببعضها الكثير من تلك الترتيبات، وذلك فى مقر قيادة باكوم فى هونولولو. وهذا هو المكان الذى تُعقد فيه حالياً الاجتماعات المهمة بحق، وليس فى ديتشلى أو دافوس. ومن يحضرون تلك الاجتماعات، وهم غالباً ما يسافرون على نفقة باكوم، ضباط جيش من أماكن مثل فيتنام وسنغافورة وتايلاند وكمبوديا والفيليبين.

كان أوتو فون بسمارك أبو الرايخ الثانى فى القارة الأوروبية سيقدر هذا النظام الباسيفيكى الناشئ. وفى عام ٢٠٠٢ قال المعلق الألمانى يوزيف يوفه فى مقال على قدر كبير من التبصر وحدة الملاحظة فى National Interest قال فيه إنه فيما يخص التحالفات السياسية، باتت الولايات المتحدة تشبه بروسيا فى عهد بسمارك. فقد كتب أن بريطانيا وروسيا والنمسا كانت بحاجة إلى بروسيا أكثر من حاجتها إلى بعضها البعض، مما جعلها «برامق» فى «عجلة» برلين. وكشف غزو أفغانستان عن عالم يمكن فيه لأمريكا تشكيل تحالفات مختلفة لأزمات شتى. وقال إن القوى العالمية الأخرى بحاجة إلى الولايات المتحدة أكثر من حاجتها إلى بعضها البعض.

مما يؤسف له أن الولايات المتحدة لم تستثمر ترتيبات القوى الجديدة هذه على الفور، وذلك لافتقار الرئيس جورج دابليو بوش إلى ضبط النفس الذى لدى بسمارك الذى كان يدرك أن ذلك النظام يمكن أن يدوم فقط مادام لم يطغ عليه طرف من الأطراف. وهذا بالطبع ما فعلته إدارة بوش على وجه الدقة عند حشد القوات لغزو العراق، مما جعل فرنسا وألمانيا وروسيا والصين، إلى جانب قوى أقل شأناً مثل تركيا والمكسيك وشيلى، تتحد ضدنا.

إلا أن الترتيب البسماركى مازال يحقق نجاحاً فى المحيط الهادى، حيث ساعد على ذلك براجماتية ضباط جيشنا المتمركزين فى هاواى التى تبعد خمس مناطق زمنية عن الصوبة الأيديولوجية فى واشنطن العاصمة. والواقع أن باكوم تمثل نسخة أكثر نقاءً إلى حد بعيد للبنية الفوقية الإمبريالية الخاصة ببسمارك من أى شىء أوجدته إدارة بوش قبل غزوها العراق. وكما يقول هنرى كيسنجر فى كتابه Diplomacy الصادر فى عام ١٩٩٤، فقد أقام بسمارك تحالفات فى كل الاتجاهات من نقطة الانعزال الواضح بدون قيود الأيديولوجيا. وقد حقق السلام والازدهار لوسط أوروبا بالاعتراف بأنه غالباً ما يمكن تجنب الحروب عند معايرة علاقات القوة المعايرة الصحيحة.

المقاربة البراجماتية المشابهة هى وحدها التى سوف تسمح لنا باحتواء الظهور الحتمى من جديد للصين باعتبارها قوة عظمى. أما البديل لذلك فسوف يكون تحويل أرض القرن الحادى والعشرين إلى ساحة قتال. فحينما تظهر القوى العظمى أو تعاود الظهور على الساحة (ألمانيا واليابان فى العقود الأولى من القرن العشرين كمثالين قريبين) فإنها غالباً ما تكون حاسمة على نحو خاص؛ وبذلك تدفع بالشئون الدولية إلى حالة من الاضطراب العنيف. ولن تكون الصين استثناءً لذلك. فاليوم ينفق الصينيون الأموال على صنع الغواصات التى تعمل بالديزل وتلك التى تعمل بالطاقة النووية؛ وهذه إشارة واضحة إلى أنهم لا يعتزمون حماية جروفهم الساحلية فحسب، بل يرغبون كذلك فى توسيع منطقة نفوذهم لمسافة بعيدة داخل المحيط الهادى وما وراءه.

هذا أمر مشروع كل المشروعية. قد لا يكون حكام الصين ديمقراطيين ولكنهم يسعون لتحقيق أسلوب المعيشة رقم واحد فى العالم لشعبهم البالغ عدده ١.٣ مليار نسمة؛ وهو الأمر الذى يتطلب منهم حماية الممرات البحرية لنقل موارد الطاقة من الشرق الأوسط وغيره. ومن الطبيعى ألا يثقوا فى الولايات المتحدة والهند كى تحققا ذلك لهم. وفى ظل المخاطر، ومع وجود ما يعلمنا إياه التاريخ عن الصراعات التى تنشأ حين تسعى القوى العظمى كافة إلى تحقيق المصالح المشروعة، فإن النتيجة المحتملة هى الصراع العسكرى الفاصل للقرن الحادى والعشرين؛ فإن لم تنشب حرب كبيرة مع الصين، فسوف تكون هناك سلسلة من التباعدات والتحفظات على نمط الحرب الباردة التى تمتد سنين وعقوداً. وغالباً ما سوف يحدث ذلك فى مجال مسئولية باكوم.



كى يؤدى ضباط الجيش عملهم بشكل جيد لابد لهم من مقاربة القوة بأكبر قدر ممكن من الحرص والآلية والنفعية، مع تقييم موازين القوى الإقليمية وإعادة تقييمها وترك جانب القيم الخاص بالمعادلة السياسية للقيادة المدنية. يجعل هذا ضباط الجيش، من بين كل المهنيين الحكوميين، أقل احتمالاً لأن تضللهم نشوة النزعة الدولية الليبرالية والنزعة التدخلية المحافظة الجديدة.

يبين تاريخ الحرب العالمية الثانية أهمية هذه المقاربة. ففى الثلاثينيات كان الجيش الأمريكى الذى يشعر بالقلق من قوة ألمانيا واليابان المتنامية محقاً فى ضغطه من أجل حشد القوات. ولكن بحلول عام ١٩٤٠ وعام ١٩٤١ كان الجيش (فيما لا يختلف عن الأركان العامة الألمانية قبل ذلك ببضع سنوات) يحذر بتبصر من أخطار الحرب على جبهتين. ولابد أنه كان يفكر بحلول أواخر صيف ١٩٤٤ بشكل أقل فى هزيمة ألمانيا وبشكل أكبر فى احتواء الاتحاد السوفيتى. واليوم نجد أن ضباط القوات الجوية والبحرية قلقون من إعلان تايوان استقلالها، لأن مثل هذه الخطوة قد تقود الولايات المتحدة إلى خوض حرب مع الصين ربما لا تكون فى غير مصلحتنا القومية. وإندونيسيا مثال آخر. فمهما كانت انتهاكات حقوق الإنسان فى الجيش الإندونيسى فإن باكوم تفترض، ومعها الحق، أن سياسة عدم الارتباط سوف تفتح الباب للتعاون العسكرى الصينى الإندونيسى فى منطقة تمثل مستقبل الإرهاب العالمى. (كانت استجابة الجيش الأمريكى لموجة تسونامى التى ضربت آسيا جهداً إنسانياً بطبيعة الحال. غير أنه كان لابد لإستراتيجيات باكوم من الاعتراف بأن الاستجابة السريعة سوف تكسب الدعم السياسى لحقوق إقامة القواعد العسكرية التى سوف تشكل جزءاً من إستراتيجية الردع الخاصة بنا فى مواجهة الصين.) أو لنتأمل كوريا، حيث يعتبر بعض الضباط المتمركزين فى المحيط الهادى كوريا الموحدة أمراً مسلماً به، وهَمّ هؤلاء الأساسى هو ما إذا كانت الصين سوف «تحيِّد» ذلك البلد أم أنه سيكون مضموناً داخل منطقة النفوذ الأمريكية اليابانية.

إن انغماس باكوم فى ديناميات القوى الآسيوية يعطيها أهمية دبلوماسية غير عادية، وبالتالى يجعل لها نفوذاً فى واشنطن. ولن تكون باكوم على وجه التقريب مقيدة مثل سنتكوم من قِبل السياسة الداخلية فى واشنطن. فأعمالنا فى المحيط الهادى لن يسيطر عليها معادل اللوبى الإسرائيلى. وسوف يكون اهتمام الإنجيليين البروتستانت بشأن حافة الباسيفيكى أقل من اهتمامهم بالأرض المقدسة. وبسبب النتائج الاقتصادية الكبيرة لإساءة الحكم على توازن القوى فى شرق آسيا، من المرجح أن

تتجه المصالح التجارية والعسكرية الأمريكية الواحدة تلو الأخرى صوب سياسة ردع الصين التى تتسم عادة بالتحفظ، وذلك بدون استفزازها بلا داع، وهو ما يزيد بالتالى من سلطة پاكوم. بعبارة أخرى، يأتى موقفنا تجاه الصين والمحيط الهادى مع الاستقرار المدمج فيه؛ ويؤكد هذا بدوره فكرة الحرب الباردة الجديدة التى يمكن أن تدوم لفترة زمنية طويلة جداً. بل إن تعقد الكثير من العلاقات السياسية والعسكرية التى تديرها پاكوم سوف يمنح القيادة نفوذاً أكبر مما تتمتع به سنتكوم؛ التى قال لى عدد من الخبراء العسكريين باستخفاف إنها تتعامل مع حفنة من «جيوش الشرق الأوسط من الدرجة الثالثة» فحسب.

سوف يجبر التحول النسبى لمركز الاهتمام من الشرق الأوسط إلى المحيط الهادى فى السنوات المقبلة. بالرغم من الخطاب المثالى. الرئيس الأمريكى القادم، بغض النظر عن حزبه، على تبنى سياسة خارجية أشبه بسياسات الرؤساء الجمهوريين المعتدلين مثل جورج إتش بوش وجيرالد فورد وريتشارد نيكسون. وسوف تصبح إدارة المخاطر أيديولوجيا حاكمة. وحتى إذا تحول العراق إلى قصة نجاح ديمقراطية، فمن المؤكد أنه سيكون نجاحاً انتُزع من بين فكى الفشل لن يكون فى المؤسسة العسكرية أو الدبلوماسية من هو على استعداد لتكراره؛ وخاصة فى آسيا حيث ستكون التداعيات الاقتصادية لأية مغامرة عسكرية غير مرتبة على قدر كبير من الضخامة. ويقول مايكل فيكرز الضابط السابق فى القوات الخاصة الأمريكية الذى وضع إستراتيجية الأسلحة للمقاومة الأفغانية فى الثمانينيات بصفته ضابطاً بوكالة الاستخبارات المركزية ويعمل حالياً بمركز التقديرات الإستراتيجية والموازنية بواشنطن: «الدخول فى حرب مع الصين سهل. فهناك سيناريوهات كثيرة وليس تايوان فحسب؛ خاصة وأن الصين تقوم الآن ببناء قدرات من الغواصات والصواريخ فى أنحاء المحيط الهادى. ولكن المعضلة هى كيف تنهى الحرب مع الصين».

كما هو حال الدول التى شاركت فى الحرب العالمية الأولى، وعلى عكس الدول المارقة التى كان الكل يركز عليها، قد يكون لدى الولايات المتحدة والصين فى القرن الحادى والعشرين القدرة على مواصلة القتال حتى وإن خسر أحدهما معركة كبيرة أو تبادلاً لإطلاق الصواريخ. فإن ذلك ستترتب عليه آثار بعيدة المدى. ويقول فيكرز: «قد يعنى إنهاء الحرب مع الصين إحداث شكل ما من أشكال تغيير النظام؛ لأننا لا نريد أن نترك فى المكان نظاماً مجروحاً وغاضباً». وقال لى محلل آخر من داخل البنتاجون: «سوف يجبرنا إنهاء الحرب مع الصين على تقليص قدرتهم العسكرية إلى حد كبير، مما يهدد مصادر الطاقة الخاصة بهم وقبضة الحزب الشيوعى على السلطة. ولن يكون العالم هو العالم بعد الحرب. إنه طريق من الخطورة السير فيه إلى حد كبير».

الطريق الأفضل هو أن تردع پاكوم الصين بالطريقة البسماركية، من محور العجلة الجغرافى. جزر هاواى. الخاص بالعزل النسبى، حيث تمتد البرامج إلى كبار الحلفاء مثل اليابان وكوريا الجنوبية وتايلاند وسنغافورة وأستراليا ونيوزيلندا والهند. وسوف تشكل تلك الدول بدورها محاور ثانوية تساعدنا فى إدارة أرخبيلات ميلانيزيا وميكرونيزيا وبولينيزيا وأماكن أخرى، وكذلك المحيط الهندى. وسيكون الهدف من هذا الترتيب هو إعاقة الصين ببراعة بحيث يُجذب فرس النهر الصاعد إلى تحالف پاكوم دون حدوث حريق مدمر؛ وهى الطريقة التى استطاع بها الناتو تحييد الاتحاد السوفيتى فى النهاية.

مهما كان ما نقوله أو نفعله، سوف تنفق الصين المزيد والمزيد من المال على جيشها فى العقود المقبلة. وقد يكون هدفنا الواقعى الوحيد هو تشجيعها على الاستثمارات ذات الطابع الدفاعى وليس الهجومى. وسوف تتطلب جهودنا حرصاً خاصاً لأن الصين على خلاف الاتحاد السوفيتى القديم (وروسيا الحالية فيما يخص هذا الأمر) تتباهى بالقوة اللينة تباهيها بالقوة الصلبة. ويحب رجال الأعمال فكرة الصين. فأنت لست مضطراً لأن ترجوهم الاستثمار هناك، كما تفعل فى أفريقيا وفى أماكن كثيرة أخرى. فالمزيج الصينى من النزعة الاستبدادية التقليدية واقتصاد السوق له جاذبية ثقافية عريضة فى أنحاء آسيا وأماكن أخرى من العالم. ولأن الصين تحسن الرفاهة المادية لمئات الملايين من مواطنيها فلن يكون لمحنة منشقيها نفس إغراء السوق الذى كان لمحنة المنشقين السوفييت مثل زخاروف وشارانسكى. فللديمقراطية جاذبيتها فى الأماكن التى يكون فها الطغيان جلياً، وبغيضاً، وغير ناجح، بالطبع كما فى أوكرانيا وزمبابوى. ولكن العالم ملئ بالمناطق الرمادية. كالأردن وماليزيا مثلاً. حيث ضمنت عناصر الطغيان الاستقرار والنمو.



لنتأمل سنغافورة. لقد جعلها مزيجها من الديمقراطية والنزعة الاستبدادية غير محبوبة من المثاليين فى واشنطن، ولكن فيما يتعلق بسنغافورة، فإن هذا البلد يُعد رغم صغر حجمه واحداً من أكثر البلاد شعبية وعوناً فى المحيط الهادى. وليس هناك مثيل لتولى الكفاءات المناصب القيادية فى الجيش بغض النظر عن الخلفية العرقية، ورعايتها لرفاهة ضباطها ومجنديها على السواء، ومدرسة حرب الغابات فى بروناى. وباستثناء اليابان، الواقعة بعيداً عنها فى الشمال، توفر سنغافورة القاعدة غير الأمريكية الوحيدة فى المحيط الهادى حيث يمكن خدمة ناقلاتنا النووية. وكانت مساعدتها فى مطاردة الإرهابيين الإسلاميين فى الأرخبيل الإندونيسى مساوية للمساعدة التى يقدمها فى أماكن أخرى حلفاؤنا الغربيون الذين يعتمد عليهم، وربما أكثر. وقد قال لى أحد باحثى المستقبليات العسكريين فى واشنطن: «أهل سنغافورة، إنهم رائعون فى كل شيء».

طبقاً لما قاله جنرال بالبحرية الأمريكية فى المحيط الهادى، فلابد أن يكون هدف پاكوم هو «تعددية الأطراف العسكرية». ولا يعنى هذا مسألة تدريبنا فى المستقبل مع «أهل سنغافورة» فى بروناى، أو اختبارات الطيران مع القوات الجوية الهندية؛ أو إجراء تدريبات سنوية كبيرة فى تايلاند، أو الاستفادة من منشأة التدريب التى سوف تُفتح عما قريب فى شمال أستراليا بموافقة من شركائنا الحلفاء. فالأمر يعنى كذلك إقامة الاتصال الناجح فيما بين الجيوش الآسيوية الصديقة على مستوى الفصيلة، عن طريق نقل القوات الأمريكية من انتشار تدريبى إلى آخر.

سوف يكون ذلك تحسيناً يزيد على ما لدى الناتو الذى تعوق لياقته القتالية إضافة جيوش الكتلة الشرقية السابقة التى دون المستوى إليه. كما تؤيد السياسة كذلك الاتجاه نحو المحيط الهادى؛ فالتوترات الحالية بين الولايات المتحدة وأوروبا تعرقل التكامل العسكرى، بينما يرغب حلفاؤنا فى المحيط الهادى، وخاصة اليابان وأستراليا، فى المزيد من الارتباط العسكرى مع الولايات المتحدة لمواجهة ظهور الأسطول الصينى. وسوف يكون ذلك فى مصلحتنا. فرغم صغر حجم الجيش اليابانى، فهو يتمتع بقدرات فائقة فى القوات الخاصة وحرب الغواصات التى تعمل بالديزل. كما أن الأسلوب الحدودى الجرئ الخاص بالأستراليين يجعلهم أقرب إلى الأمريكيين منهم إلى البريطانيين.

ورغم ذلك سوف يقيد التفوقُ التقنىُ للقوات الأمريكية تعدديةَ الأطراف العسكريةَ فى المحيط الهادى؛ إذ سيكون من الصعب القيام بمهام تدريب ثنائية مع الجيوش الآسيوية التى لا تقوم بالاستثمارات نفسها التى نقوم نحن بها فى معدات التكنولوجيا فائقة الكفاءة. فالدرس العسكرى التقليدى هو أن التفوق التقنى لا يمنح باستمرار المزايا التى يتوقعها المرء. ذلك أنك بقطعك شوطاً كبيراً فى التقدم عسكرياً على من هم سواك فى العالم تخلق نوعاً خاصاً من الوحدة والوحشة لا يقدر أفضل الدبلوماسيين على التخفيف منه، لأن الدبلوماسية ذاتها لا قيمة لها ما لم تكن ضاربة بجذورها فى التقديرات الواقعية الخاصة بالقوة النسبية.

فى هذه اللحظة قد تبدو التحديات التى تمثلها الصين الصاعدة طفيفة، بل حتى لا وجود لها. فالسفن الحربية

قد يكون لدى الولايات المتحدة والصين فى القرن الحادى والعشرين القدرة على مواصلة القتال حتى وإن خسر أحدهما معركة كبيرة أو تبادلاً لإطلاق الصواريخ





التابعة للبحرية الأمريكية يبلغ إجمالي «إزاحة الحمولة الكاملة» الخاصة بها ٢.٨٦ مليون طن، في حين أن سائر سفن العالم الحربية مجتمعة تصل إلى ٣.٠٤ مليون طن فحسب. وتصل إزاحة الحمولة الكاملة لسفن الصين الحربية ٢٦٣.٦٤ طنًا فقط. وتنشر الولايات المتحدة أربعًا وعشرين من حاملات الطائرات في العالم البالغ عددها أربعًا وثلاثين؛ في حين لا تنشر الصين أية حاملة طائرات (وهذا سبب رئيسي في عدم تمكنهم من القيام بجهود إنقاذ بعد تسونامي). وتتوالى الإحصاءات. ولكن روبرت ورك كبير المحللين في مركز التقديرات الإستراتيجية والموازنية يشير إلى أنه في بداية الحرب البيلوبونيزية التي دامت سبعًا وعشرين سنة كانت أثينا متفوقة إلى حد بعيد على إسبرطة التي لم يكن لديها أسطول؛ ولكن إسبرطة هي التي انتصرت في نهاية الأمر.

ألزمت الصين نفسها بإنفاق عسكري كبير، ولكن أسطولها وقواتها الجوية لن تمكنها من أن تكون ندًا لأسطولنا وقواتنا الجوية لعدة عقود. ولذلك فلن يؤدوا لنا خدمة الدخول في معارك بحرية وجوية تقليدية كتلك التي خيضت في المحيط الهادي إبان الحرب العالمية الثانية. وكانت معركة بحر الفيليبين في أواخر يونيو من عام ١٩٤٤، ومعركة خليج ليت ومضيق سوريجاو في أكتوبر من عام ١٩٤٤، آخر أكبر المعارك في التاريخ الأمريكي ومن الأرجح أن تظلا كذلك. وبدلاً من ذلك، سوف يقاربنا الصينيون مقاربة لا متماثلة كما يفعل الإرهابيون. وفي العراق يرينا المتمردون أردأ أنواع اللاتماثل بواسطة السيارات المفخخة. ولكن الصين تأهبت لكي ترينا أفضل ما في الأمر. وهذا هو الخطر.

هناك الكثير من الطرق التي يمكن بها للصينيين الاستفادة من جيشهم الأقل تطورًا لتحقيق نوع من التكافؤ السياسي الإستراتيجي معنا. وطبقًا لما قاله قائد غواصات سابق وخبير إستراتيجي بحري تحدثت معه: فإن الصينيين يتأملون كل تفاصيل معاركنا الأخيرة في البلقان والخليج الفارسي، وهم يفهمون كل الفهم مقدار اعتماد قوتنا العسكرية على البروز البحري؛ أي قدرة مجموعة حاملة الطائرات المقاتلة على الاقتراب من العراق، على سبيل المثال، وإطلاق الصواريخ على هدف يقع في عمق البلاد. وللتكيف مع ذلك، يضع الصينيون منظومات الألياف البصرية الخاصة بهم تحت الأرض، وقدراتهم الدفاعية المتحركة في أعماق غرب الصين، بعيدًا عن مدى صواريخ الأسطول؛ وهم يضعون طوال الوقت إستراتيجية هجومية تقوم على الصواريخ المصممة بحيث تكون قادرة على ضرب ذلك الرمز الأسمى للثروة والقوة الأمريكيتين، وهو حاملة الطائرات. وسيكون أثر صاروخ واحد من الصواريخ الصينية يصيب حاملة طائرات أمريكية، حتى وإن لم يغرقها، أثرًا مفجعًا من الناحيتين السياسية والنفسية يشبه ما أحدثه هجوم القاعدة على برجي مركز التجارة العالمي. وتركز الصين على الصواريخ والغواصات كطريقة لإذلالنا في مواجهات محددة. ولذلك فلا بد أن يشغل برنامجهم الخاص بالصواريخ طويلة المدى واضعي السياسة الأمريكيين بشدة.

يمكن للصينيين في وجود برنامج صواريخ متقدم أن يطلقوا مئات الصواريخ على تايوان قبل أن نتمكن من الوصول إلى الجزيرة للدفاع عنها. وهذه القدرة، مقرونة بالأسطول الجديد من الغواصات (الذي سرعان ما يصبح قوة تحت الماء تفوق قوتنا من حيث الحجم وليس الكيف)، قد تكفي إلى حد كبير لأن تجبر الصين الدول الأخرى على حرمان السفن الأمريكية من الوصول إلى موانيها. ومعظم غواصات الصين السبعين الحالية ذات تصميمات روسية تعمل بالديزل وقد تجاوزت فترة الشباب؛ غير أنه يمكن استخدام تلك الغواصات لإنشاء حقول ألغام متحركة في جنوب الصين وشرقها والبحر الأصفر، حيث كما قال مندوب «وول ستريت جورنال» ديفيد لاج سوف تجعل «الأعماق غير المستوية، ومستويات الضوضاء الخلفية المرتفعة، والتيارات القوية، والطبقات الحرارية المتغيرة» تحديد مواقع الغواصات أمراً في غاية الصعوبة. يضاف إلى ذلك السبع عشرة غواصة الجديدة التي لا يمكن لأجهزة الرادار اكتشافها والثلاث غواصات النووية التي سوف ينشرها الأسطول الصيني بحلول نهاية العقد، ويمكن تخيل احتمال توجيه الصين ضربة تحدث ارتباكًا لنا أو لأحد حلفائنا الآسيويين. وحينذاك يكون هناك مجال كامل من القمع الغامض؛ على سبيل المثال، سلسلة من الهجمات غير معروفة المصدر على شبكة الإنترنت ضد شبكات القوى الكهربية التايوانية التي يُقصد بها إضعاف الروح المعنوية للشعب تدريجيًا. وليس هذا بالخيال العلمي: فقد استثمر الصينيون مبالغ ضخمة في تدريب الحرب الإلكترونية والتكنولوجيا الخاصة بها. ولا يعني كون الصينيين أنفسهم غير ديمقراطيين أنهم ليسوا خبراء في توجيه نفسية الناخبين الديمقراطيين.



الأمر الذي يمكننا توقعه من الصين في المستقبل القريب هو استعراضات محدودة للقوة: مثل نجاحها في إجبار طائرة الاستطلاع EP-3E التابعة للأسطول الأمريكي على الهبوط في ربيع ٢٠٠١. وقد تمثل تلك التكتيكات اتجاهًا في حرب القرن الحادي والعشرين يعد أفضل من أي شيء يحدث الآن في العراق؛ ولن يعوز الصين شيءُ من الفرص في هذا المضمار. ففي أحد تدريباتنا البحرية التي تُجرى في منطقة حافة المحيط الهادي كل عامين يمكن أن تدس الصين غواصة تحت إحدى مجموعات حاملات الطائرات القتالية ثم تجعلها تصعد إلى سطح الماء. ويمكن أن ينشروا هدفًا متحركًا في البحر ثم يضربونه بصاروخ من غواصة أو من قاعدة أرضية، حيث يستعرضون قدرتهم على تهديد ليس حاملات الطائرات فحسب، بل كذلك المدمرات والفرقاطات والطرادات. (ولنفكر في الآثار السياسية للهجوم الإرهابي على السفينة الأمريكية Cole، وهي مدمرة تحمل صواريخ موجهة، قبالة ساحل اليمن في عام ٢٠٠٠؛ ولنفكر في المستقبل الذي يكون فيه ضرب مثل هذه السفن أسهل.) وقد يرتطمون كذلك بسفينة من سفننا أثناء أحد تدريبات «حرية الملاحة» التي نقوم بها حاليًا قبالة الساحل الآسيوي. ربما يبدو الارتطام بإحدى السفن أمراً غير مهم، ولكن لنتذكر أنه في عصر وسائل الإعلام الكونية يمكن أن يكون لمثل هذا العمل نتائجه الإستراتيجية المهمة. ولأن وسائل الإعلام العالمية غالبًا ما تنحاز إلى المفسد وليس إلى القوة العظمى السائدة، فإن لدى الصينيين ميزة سياسية مدمجة.

ماذا ينبغي أن يكون ردنا على تلك التطورات؟ لابد أن نتصرف بطريقة غير تقليدية. فأسطولنا الحالي قوة «مياه زرقاء» في المقام الأول، وهو مسئول عن الإدارة الخاصة بوقت السلم لمساحات شاسعة من المحيطات؛ وهو ليس بالعمل الصغير؛ بل هو عمل يجعل جزءًا كبيرًا من تجارة العالم الحرة ممكنًا. وما كان لظاهرة العولمة أن تحدث لولا السفن الأمريكية والبحارة الأمريكيين. ولكن ما تتزايد حاجتنا إليه في الأساس هو ثلاثة أساطيل منفصلة: أسطول منوط به الحفاظ على قدرتنا على استخدام البحر كمنصة لقصف البر (لعمليات الإسناد كتلك التي جرت في العراق وأفغانستان)، وأسطول منوط به القيام بقتال العمليات الخاصة الساحلية (ضد الجماعات الإرهابية المتمركزة داخل إندونيسيا وماليزيا وجنوب الفيليبين وما حولها على سبيل المثال)، وأسطول منوط به تعزيز قدراتنا التي لا يمكن للرادار كشفها (للقيام بأعمال الداورية قبالة البر الرئيسي الصيني وفي مضيق تايوان، بالإضافة إلى مناطق أخرى). وسيكون لهذه الأساطيل الثلاثة كلها دور في إزاغة بصر الصين، بشكل مباشر أو غير مباشر، في ظل وجود تلك المجموعة من الجمهوريات الجزر المختلفة وظيفيًا في المحيط الهادي التي تقوى علاقاتها مع بكين.

توفر حاملات طائراتنا ما نحتاجه بالفعل للأسطول الأول، ولابد لنا من تكوين الأسطولين الآخرين. وسوف يتطلب أسطول العمليات الخاصة الكثير من السفن الصغيرة، ومن بينها سفن القتال الساحلي التي تقوم بصنعها شركتا جنرال داينامكس ولوكهيد مارتن. ولأن طول سفينة

إن الصينيين يتأملون كل تفاصيل معاركنا الأخيرة في البلقان والخليج، وهم يفهمون مقدار اعتماد قوتنا العسكرية على البروز البحري؛ أي قدرة مجموعة حاملة الطائرات المقاتلة على الاقتراب من العراق



القتال الساحلى هو ٤٠٠ قدم على وجه التقريب، فهى لا تتطلب سوى طاقم صغير العدد، ويمكنها أن تعمل فى المياه شديدة الضحالة، وتتحرك بسرعة كبيرة (تصل إلى أربعين عقدة). وسيكون الجزء المهم الآخر من الأسطول الساحلى هو قوارب العمليات الخاصة مارك فى. ولأن قارب مارك فى طوله ثمانون قدماً فقط، فيمكنه التحرك بسرعة تصل إلى خمسين عقدة ومداه ٦٠٠ ميل بحرى. ويمكنه بغاطس لا يزيد على خمس بوصات توصيل فصيلة من «عجول البحر» مباشرة إلى أحد الشواطئ؛ وبما أن ثمن القارب الواحد ٥ ملايين دولار، فإن البنتاجون يمكنه شراء العشرات منها بثمن طائرة مقاتلة واحدة من طراز A/F-٢٢.

سوف يتطلب تكوين النمط الثالث من الأساطيل إجراء تغييرات حقيقية. وبما أن الإعلام بات أكثر تطفلاً، فلابد لنا من الحصول على المزيد من القطع التى لا يرصدها الرادار، كى يمكننا على سبيل المثال إرسال كوماندوز إلى الشاطئ من إحدى الغواصات لخطف الإرهابيين أو قتلهم، أو ترك عملاء خاصين لتنفيذ مهام فى منطقة لا تسيطر عليها حكومة من الحكومات. ولكن للغواصات مساوئها بطبيعة الحال؛ فهى توفر منصات قصف أقل مما توفره حاملات الطائرات، كما أنها أكثر كلفة. ورغم ذلك فهى موجة المستقبل إلى حد كبير، لأن حماية حاملات الطائرات من الهجمات الصاروخية قد تصبح على نحو بطىء عملاً متناقص الغلة بالنسبة لنا.

سوف تقدم أفضل خدمة لأسطولنا الذى لا يمكن للرادار رصده بإضافة غواصات تعمل بالديزل من ذلك النوع الموجود بالفعل لدى أستراليا واليابان وكوريا الجنوبية وألمانيا والسويد فى الماء أو يجرى تصنيعه؛ وهو الذى سيكون لدى الصين كذلك عما قريب. ولكن بسبب مسئولياتنا الكونية الخاصة بالحفاظ على النظام والأمن التى سوف تجعلنا نمضى فى صنع الغواصات التى تعمل بالطاقة النووية، فمن غير المرجح أن نتحول إلى الغواصات التى تعمل بالديزل. ولكننا سوف نُعدِّل ما هو لدينا بالفعل. وهانحن نعيد أربع غواصات ترايدنت تحمل أسلحة تقليدية ونجعلها قادرة على إسناد نشر فرق «عجول البحر»، وربما فى النهاية طائرات التجسس طويلة المدى التى تعمل بلا طيار. ويمكن للغواصات ترايدنت أن تعمل كسفن أم كبيرة للسفن الأصغر التى يجرى نشرها بالقرب من المناطق الساحلية.

لن يغير أى من هذا ضرورة حصولنا على حقوق إقامة قواعد فى المحيط الهادى بطبيعة الحال. فكلما زادت قدرتنا على الوصول إلى القواعد التى لدينا كانت المرونة التى نتمتع بها أكبر؛ وذلك لإسناد الطائرات التى تعمل بلا طيارين، وللسماح بالتزود بالوقود فى الجو. وربما كان الأمر الأكثر أهمية هو إجبار الجيش الصينى على التركيز على مجموعة كبيرة من المشاكل بدلاً من أن تكون المشاكل التى تقابله قليلة العدد. إذ لا يجب أن تقدم لخصمك عدداً قليلاً من المشاكل ليقوم بحلها (كالعثور على ناقلة طائرات وضربها على سبيل المثال)؛ لأنك لو فعلت ذلك فسوف يحلها.



تمثل قاعدة أندرسن الجوية على الطرف الشمالى من جوام مستقبل الإستراتيجية الأمريكية فى المحيط الهادى. فهى أقوى منصة فى أى مكان فى العالم لإبراز القوة العسكرية الأمريكية. وحين هبطتُ هناك مؤخراً فى طائرة عسكرية شاهدتُ صفوفاً طويلة من القاذفات B-٥٢، وجلوبماستر C-١٧، وهورنت A/F-١٨، وطائرات الاستطلاع هوكى E-٢، وغيرها من الطائرات. ويمكن لممر قاعدة أندرسن البالغ طوله ١٠ آلاف قدم التعامل مع أى من طائرات ترسانة القوات الجوية، ويتسع لمكوك الفضاء فى حال الهبوط الاضطرارى. وامتداد الممرات والمدرجات من الاتساع بحيث إننى حين وصلت لم ألحظ وجود سرب من حاملة الطائرات الأمريكية «كيتى هوك» كان يقوم بتدريب حى على القصف لم يكن بمقدوره القيام به من الميناء الذى يؤويها فى اليابان. ورأيت شاحنة تحمل الصواريخ على أحد الممرات. ولا توجد قاعدة جوية أخرى فى المحيط الهادى تخزن هذا القدر من الأسلحة الذى تخزنه أندرسن، وهو حوالى ١٠٠ ألف قنبلة وصاروخ فى وقت واحد. كما تخزن قاعدة أندرسن ٦٦ مليون جالون من وقود الطائرات، مما يجعلها أكبر محطة للتزود بالوقود تابعة للقوات الجوية الأمريكية فى العالم.

وتعد جوام، وهى كذلك موطن فرقة غواصات وقاعدة بحرية متسعة، قاعدة مهمة بسبب موقعها. إذ يمكن للقوات الجوية المساوية لفرقة بحرية أو برية تغطية كل منطقة مسئولية پاكوم تقريباً من الجزيرة. ويستغرق قطع المسافة من الساحل الغربى للولايات المتحدة إلى كوريا الشمالية ثلاث عشرة ساعة، بينما لا يزيد الوقت اللازم للذهاب إليها من جوام عن أربع ساعات.

قال لى الميجور جنرال دينيس لارسن قائد القوات الجوية هناك فى وقت زيارتى: «هذه ليست مثل أوكيناوا. فهذه أرض أمريكية فى وسط المحيط الهادى. إن جوام أرض أمريكية». يمكن للولايات المتحدة أن تفعل ما تريده هنا، وهى تقوم باستثمارات ضخمة دون خوف من الطرد. والواقع أن ما أدهشنى هو مقدار المساحات التى يمكن التوسع فيها ناحية الجنوب والغرب من الحدود الحالية. ويجرى تخصيص مئات الملايين من الدولارات لميزانيات الإنشاءات. ومن المحتمل أن تصبح هذه الجزيرة القريبة من الصين محور عجلة كوكبة جديدة من القواعد فى أنحاء العالم سوف تنقل مركز القوة الأمريكية من أوروبا إلى آسيا. وفى حال وقوع صراع مع تايوان، وإذا كانت لدينا مجموعة قتالية تضم حاملة طائرات فى جوام، فسوف نجبر الصينيين إما على مهاجمتها وهى راسية. وبذلك يشنون هجوماً على أرض أمريكية ذات سيادة، وعلى الفور يصبحون معتدين فى نظر العالم. أو تدعها تبحر، وفى هذه الحالة سوف تصل المجموعة القتالية التى تضم حاملة الطائرات إلى قبالة ساحل تايوان بعد يومين فقط.

كانت للبحرية إبان الحرب الباردة بنية تحتية محددة خاصة بتهديد محدد؛ وهو الحرب مع الاتحاد السوفيتى. أما الآن فالتحديد متعدد وغير محدد؛ إذ لابد أن نكون مستعدين فى أى وقت لخوض حرب تقليدية ضد كوريا الشمالية أو معركة مضادة للتمرد ضد دولة جزيرة مارقة تدعمها الصين، على سبيل المثال. ويتطلب هذا وجوداً بحرياً أخف حركةً على الجزيرة، وهو ما يعنى بدوره نقل مسئولية الخدمات إلى المجتمع المدنى فى جوام كى تركز القوات البحرية على الأمور العسكرية. وقد التقيت بنقيب بالبحرية شب فى أنحاء حافة المحيط الهادى، حيث حكى لى عن خطط البحرية الخاصة بتوسيع الواجهة المائية، وبناء المزيد من أماكن الإعاشة للعزاب، وتقوية شبكة الطاقة الكهربية بوضعها تحت الأرض. كما قال: «وجود مساحات كثيرة لدينا فى الوقت الراهن لا معنى له. فالمسألة هى كيف سنتعامل مع المطلب المفاجئ التى تفرضه الحرب الشاملة؟».

قد تكون هناك مشكلة مع هذا كله. فإننا بجعل جوام هاواى غربى المحيط الهادى نيسر الحياة على الصينيين، لأننا نعطيهم بذلك مشكلة واحدة يحلونها؛ وهى كيفية تهديد جوام أو إرهابها. وسوف تكون طريقة مواجهتهم ليس بالتركيز وإنما بالتشتيت. فكيف والحال كذلك سنمنع جوام من أن تصبح أكبر مما يجب؟

يمكن أن يجرى ذلك بعدة طرق. فقد نحشد پالاو، وهو أرخبيل يضم ٢٠ ألف نسمة يقع بين منداناو بالفيليبين ودول ميكرونيزيا الفدرالية، مساعداته المالية مشروطة باتفاقية دفاع معنا. وسوف نحافظ على قواعدنا فى آسيا الوسطى فى حالة جيدة؛ وهى القواعد الموجودة فى كارشى خان آباد بأوزبكستان، وماناس بقرغيزستان، التى أنشئت ووسعت من أجل غزو أفغانستان. وسوف نقيم ما تُعرف بالمواقع الأمنية التعاونية.

يمكن أن يكون الموقع الأمنى التعاونى ركناً بعيداً عن الأنظار فى مطار مدنى بالبلد المضيف، أو ممراً ترابياً بمكان ما يتوفر فيه الوقود والمساعدة الميكانيكية، أو مطاراً عسكرياً فى بلد صديق لا تربطنا به اتفاقية رسمية لإقامة القواعد، وإنما اتفاق غير رسمى مع مقاولين من القطاع الخاص يعملون كوسطاء. ولأن مفهوم الموقع الأمنى التعاونى يقوم على العلاقات المراوغة،



الأمر الذى يمكننا توقعه من الصين فى المستقبل القريب هو استعراضات محدودة للقوة؛ مثل نجاحها فى إجبار طائرة الاستطلاع EP-3E التابعة للأسطول الأمريكى على الهبوط فى ربيع ٢٠٠١



فلابد من توافق قدرة البنتاجون على خوض الحرب ودبلوماسية الخارجية الأمريكية على هذا الأمر؛ أو ينبغى ذلك. والمشكلة الخاصة بالقواعد الكبيرة فى تركيا مثلاً. كما عرفنا عشية غزو العراق .أنها رمز دخيل ومرعب للنفوذ الأمريكى، والسلطة الوحيدة التى تتبقى للدولة المضيفة هى أن تحرمنا من استخدام تلك القواعد. ولذلك فإننا نريد فى المستقبل قواعد غير مزعجة تفيد البلد المضيف أكثر مما تفيدنا. فسوف يعزز السماح لنا باستخدام تلك القواعد من نفوذ ذلك البلد ولن يخزيه.

زرت عدداً من المواقع الأمنية التعاونية فى شرق أفريقيا وآسيا. وهذه هى الطريقة التى تعمل بها. إذ توفر الولايات المتحدة المساعدات لتحديث منشآت الصيانة، وتساعد بالتالى البلد المضيف على إبراز قوته الجوية والبحرية بشكل أفضل فى المنطقة. وفى الوقت نفسه نقوم بتدريبات دورية مع جيش البلد المضيف تكون تلك القاعدة هى مركزها. كما أننا نقدم مساعدات إنسانية للمنطقة المحيطة. وتكون لمشروعات الشئون المدنية هذه دعاية إيجابية لجيشنا فى الإعلام المحلى؛ وقد سبق ذلك بكثير الاستجابة الخاصة بتسونامى التى كانت المرة الأولى التى يولى فيها الكثيرون فى الإعلام العالمى اهتماماً للعمل الإنسانى الذى قام به الجيش الأمريكى فى أنحاء العالم، وطوال الوقت. وكانت النتيجة سباقاً دبلوماسياً إيجابياً للحصول على موافقة الدولة المضيفة على استخدام القواعد حين نحتاجها.

فى كثير من الأحيان يقوم بالدور الرئيسى فى إدارة الموقع الأمنى التعاونى أحد المقاولين المحليين. وفى آسيا على سبيل المثال، عادة ما يكون المقاول الخاص ضابط صف أمريكياً متقاعداً، من البحرية أو القوات الجوية، مقيماً مثلاً فى تايلاند أو الفيليبين ويتحدث لغتها بطلاقة، وربما كان متزوجاً من إحدى مواطنات هذا البلد. وهو الذى يقوم بتأجير المنشآت التى فى القاعدة من جيش الدولة المضيفة، وبعد ذلك يتقاضى رسوماً من طيارى القوات الجوية الأمريكية الذين يعبرون القاعدة. وبذلك فهو من الناحية الرسمية يقوم بعمل خاص به يعجب الدولة المضيفة، حيث يمكنها حينئذ الادعاء بأنها لا تعمل فى الواقع مع الجيش الأمريكى. وبطبيعة الحال لا يصدق أحد هذا، بما فى ذلك الإعلام المحلى. غير أن كون العلاقة بالقوات المسلحة الأمريكية تتخذ شكلاً غير مباشر بدلاً من أن تكون مباشرة يخفف التوتر. كما أن المقاول الخاص يحول دون وقوع الحوادث المؤسفة بإبعاده الطيارين الزائرين عن المشاكل؛ حيث يوجههم إلى الفنادق والبارات المناسبة، وينصحهم بالطريقة التى يتصرفون بها. (لولا دان چينيريت المقاول الخاص لسنوات طويلة بمحطة أوتاپاو البحرية فى تايلاند، ما كان لتلك القاعدة أن تعزز توفير إغاثة تسونامى بالطريقة التى جرت بها.)

حين اصطحبنى هؤلاء المقاولون بجولة فى المطارات العسكرية الأجنبية، رأيت كم يمكن أن يكون ما تحتاجه القوات الجوية على الأرض قليلاً كى تهبط الطائرات وتقلع. ومنذ الحادى عشر من سبتمبر على نحو خاص تقوم القوات الجوية بتكوين عقلية حملية متقشفة لتعديل أسلوب حياتها الذى كان من قبل مريحاً للغاية مقارنةً بأسلوب حياة سائر فروع القوات المسلحة. وغالباً ما يستغرق إجراء الخدمة للطائرة على الأرض أقل مما تحتاجه سفينة كبيرة، وقد بدأت القوات الجوية تدرك مفهوم ما هو واضح ومُهلك، ومفهوم العلاقات الخفية غير الرسمية. ولكى ينجح الأسطول فى المحيط الهادى وغيره، سوف يتوجب عليه تكوين نظرة مشابهة؛ أى التفكير بشكل أقل فى زيارات الموانئ الواضحة ومزيد من التفكير فى الانسلال دخولاً وخروجاً فى جُنْح الليل.

لن يكون الجزء الأول من القرن الحادى والعشرين مستقراً كالنصف الثانى من القرن العشرين، لأن العالم لن يكون ثنائى الأقطاب تقريباً كما كان أثناء الحرب الباردة. ولن تهيمن الحرب بين بكين وواشنطن عبر المحيط الهادى على السياسة العالمية كافة، ولكنها ستكون الأكثر أهمية بالنسبة للعديد من الصراعات الإقليمية. ومع ذلك فستكون البؤرة المنظمة للوضع الدفاعى الأمريكى فى الخارج. وإذا كنا أذكياء، ينبغى أن يعيدنا هذا إلى الاتفاق مع أوروبا. فبغض النظر عن نجاح تكيفنا العسكرى مع صعود الصين، فإنه من الواضح أن هيمنتنا فى المحيط الهادى لن تدوم. وقد قال مارك هلبرين الخبير فى الشئون الآسيوية أنه بينما نسعى لتحقيق أهدافنا الخاصة بواسطة التحول الديمقراطى فى الشرق الأوسط، حيث تتزايد صداقتنا فقط لتلك الدول التى تشبه أنظمتها الداخلية أنظمتنا، تتأهب الصين لحصد فوائد جمة من وراء سعيها لتحقيق مصالحها بطرق لا أخلاقية؛ أى ما كانت تفعله الولايات المتحدة إبان الحرب الباردة. ومن المؤكد أن الصينيين يأملون على سبيل المثال فى أن يزداد موقفنا الفاتر من الدكتاتور الأوزبكى القاسى إسلام كريموف فتوراً، إذ سوف يفتح ذلك الباب أمام إمكانية عقد المزيد من صفقات خطوط الأنابيب وغيرها من الصفقات معه، وربما يقنعه ذلك بحرماننا من استخدام القاعدة الجوية التى فى كارشى خان أباد. وإذا كان هناك أمل فى الإطاحة بكريموف من خلال انتفاضة كتلك التى جرت فى قرغيزستان، فلابد لنا من توفير الاستقرار للنظام الجديد وإلا خاطرنا بضياع قطاعات من البلاد لمصلحة النفوذ الصينى.

لابد أن ندرك كذلك أنه فى السنوات والعقود المقبلة سوف تنكمش المسافة الأخلاقية بين أوروبا والصين انكماشاً كبيراً، وخاصة إذا ازداد تقييد النزعة الاستبدادية وأصبح الاتحاد الأوروبى الذى يزداد اتساعاً دولة ضخمة وقوية أقل ديمقراطية يديرها الموظفون المقيمون فى بروكسل بالأسلوب النظامى المستبد. كما تسير روسيا بلا شك فى اتجاه غير ديمقراطى؛ إذ رد الرئيس الروسى فلاديمير پوتين على دعمنا للديمقراطية فى أوكرانيا بالموافقة على إجراء تدريبات جوية وبحرية مشتركة «ضخمة» مع الصينيين تحدد موعدها فى النصف الثانى من العام الحالى. وسوف تجرى هذه التدريبات الروسية الصينية غير المسبوقة على الأراضى الصينية.



لهذا السبب تصبح فكرة عدم مشاركتنا فى اللعبة «اللاميالية» الخاصة بسياسة القوة ضرباً من الوهم؛ وكذلك الحال بالنسبة لفكرة قدرتنا على طرح سياسة خارجية تعتمد على المُثُل الويلسونية فحسب. ذلك أنه سوف يتحتم علينا باستمرار تأليب أجزاء مختلفة من العالم ضد الصين، تماماً مثلما ألب ريتشارد نيكسون بطريقة أقل صحة من الناحية الأخلاقية دولاً ضد الاتحاد السوفيتى. وربما أدى هذا كذلك إلى تحالف جديد تماماً للناتو الذى يمكن أن يصبح أرمادا كونية تجوب البحار السبعة. فالواقع أن الهولنديين والنرويجيين والألمان والأسبان يستثمرون مبالغ كبيرة فى صنع السفن السريعة حاملة الصواريخ وفى إقامة أرصفة منصات الهبوط من أجل الهجمات الشاطئية، ويبنى البريطانيون والفرنسيون حاملات طائرات جديدة. وبما أن سعى أوروبا لتحاشى الصراع وقصر الجيوسياسة على مجموعة من المفاوضات والنزاعات التنظيمية، فقد يناسبها التأكيد على القوة البحرية إلى حد كبير. والقوة البحرية من الناحية الفعلية أقل تهديداً من القوة البرية. فهى تسمح بقدر كبير من التعاون دون أن تترك أثراً كبيراً على الشاطئ. ولنتأمل الجهد الذى بُذل عند حدوث تسونامى حيث كان مشاة البحرية والبحارة يعودون أثناءه إلى حاملتهم ومدمراتهم كل ليلة: فالجيوش تغزو، أما الأساطيل فتقوم بزيارة للموانئ. وكانت القوة البحرية على الدوام وسيلة أكثر فائدة للسياسة الواقعية من القوة البرية. ذلك أنها تسمح بوجود عسكرى كبير فى مناطق نائية من الناحية الجغرافية عن الدول نفسها؛ ولكن بدون أثر عدائى صريح. ولأن السفن تستغرق وقتاً طويلاً فى الوصول إلى مكان ما، ولكونها أقل تهديداً من القوات الموجودة على الأرض، فإن القوات البحرية تسمح للدبلوماسيين بممارسة الضغط أثناء الأزمات بطريقة

فى العقود المقبلة سوف تنكمش المسافة الأخلاقية بين أوروبا والصين، وخاصة إذا ازدادت النزعة الاستبدادية وأصبح الاتحاد الأوروبى دولة أقل ديمقراطية يديرها الموظفون المقيمون فى بروكسل

مسئولة ويمكن نقضها. ولنأخذ أزمة الصواريخ الكوبية فى عام ١٩٦٢، حيث كتب الخبير البريطانى هـ.ب. ويلموت: «كان استخدام الأمريكان للقوة البحرية الخيار الأقل خطورة الذى فرض نفسه، وأتاح البطء الذى تكشفت به الأحداث وقتًا للطرفين للتفكير فى رد الفعل العقلانى على الموقف شديد الخطورة وتنفيذه».

كانت الغواصات استثناءً لهذه القاعدة، غير أن قدرتها على العمل تحت السطح، بالمعنيين الحرفى والمجازى للكلمة، بعيداً تماماً عن شاشات الرادار الإعلامية، تسمح للحكومة بأن تكون جريئة عسكريًا فى مجال التجسس على نحو خاص، دون إيذاء مشاعر مواطنيها. وحياد السويد ترف حصلت عليه بشق الأنفس ويقوم على القوة البحرية التى ربما كان الكثير من مواطنيها المثاليين لا يدركونها بالمرة. ويتزايد اعتماد اليابان الباسيفيكية، تلك الدولة التجارية إلى أقصى حد، على قوة غواصاتها الناشئة.

فالقوة البحرية تحمى التجارة التى تنظمها المعاهدات؛ وليس من قبيل المصادفة أن أبا القانون الدولى هوجو جروتيوس كان هولنديًا عاش فى القرن السابع عشر فى زمن ذروة القوة البحرية الهولندية فى أنحاء العالم. وبسبب العولمة، سوف يشهد القرن الحادى والعشرون حركة بحرية غير مسبوقة، مما يتطلب تنظيماً غير مسبوق من جانب الدبلوماسيين وضباط البحرية على السواء. وبينما يمتد النفوذ الاقتصادى للاتحاد الأوروبى إلى أنحاء المعمورة، قد تجد أوروبا أن عليها الخروج إلى البحر لحماية مصالحها، كما كان حال الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر والصين فى الوقت الراهن.

المقصود بالسفن وغيرها من المعدات البحرية التى تبينها أوروبا الآن أن توضع ضمن الشبكات القتالية الأمريكية. وقد يصبح للدول الأوروبية التى نفكر فيها فى الوقت الراهن على أنها قوات أطلنطية وظائف بحرية كونية. فعلى سبيل المثال، تساعد وحدات الغواصات السويدية فى تدريب الأمريكيين فى المحيط الهادى على كيفية مطاردة الغواصات التى تعمل بالديزل. وربما كان البحر أفضل فرص الناتو وأوروبا لتحقيق مستقبل عسكرى حقيقى. ومع ذلك فالتحالف ضعيف حرفيًا ورمزيًا. ولكى يستعيد الناتو أهميته السياسية، لابد له أن يصبح تحالفًا عسكريًا لا يشك أحد فى استعداده للقتال والقتل فى أى وقت وبلا إمهال. فقد كانت تلك هى شهرته إبان الحرب الباردة؛ وكان الاتحاد السوفيتى يحسب حسابه إلى حد أنه لم يختبره قط. وبطبيعة الحال ساعد انتشار الناتو شرقًا على استقرار الأوضاع فى دول حلف وارسو السابق، غير أن قبول جيوش دون المستوى فى صفوف التحالف كان إشكالية، رغم الضرورة السياسية لذلك. وكلما اتسع الناتو شرقًا ازدادت إدارته صعوبة باعتباره قوة مقاتلة، وكان الشك فى ادعائه أنه سوف يحارب دفاعًا عن أية دولة من أعضائه أكبر. وليس ضم جيوش دون المستوى بكثير، مثل جيش أوكرانيا وجورجيا، قريبًا جداً فى مصلحة الناتو بحال من الأحوال. إذ لا يمكننا الإعلان عن توسيع الناتو للتحالف الدفاعى بسبب التحول الديمقراطى فى مكان ما دعمًا للديمقراطية. بل أحرى بنا أن نعمل بالطريقة التى نعمل بها حاليًا فى جورجيا، حيث أرسلنا مشاة البحرية لتدريب القوات المسلحة الجورجية. وهذا هو السبب فى أنه عند إدخال دولة مثل جورجيا فى الناتو سوف يكون لعضويتها أهميتها العسكرية وكذلك السياسية. ويمكننا فقط إنقاذ الناتو فقط بجعلها قوة خفيفة الحركة مستعدة للنزول على شواطئ غرب أفريقيا على سبيل المثال خلال بضعة أيام أو بضع ساعات.

ولابد لنا من إنقاذ الناتو. فالناتو هو ما يجب أن نتولى قيادته؛ ذلك أنه على

إدارة صعود الصين

بنجامين شفارتس

■ حين تولى الرئيس بوش السلطة فى عام ٢٠٠١ لم تكن قضية الأمن القومى بالنسبة لإدارته. وبالنسبة لمعظم محللى السياسة الخارجية، جمهوريين كانوا أو ديمقراطيين، هى الإرهاب أو العراق، وإنما الصين. وكانت القضية على نحو خاص هى أن الصين سوف تظهر فى النهاية باعتبارها «منافسًا ندًا» للولايات المتحدة فى شرق آسيا، كما سماها محللو البنتاجون؛ أى كقوة عظمى ذات عضلات اقتصادية وعسكرية تتحدى وضع أمريكا المتفوق فى المنطقة المؤكد أن تصبح المحور الاقتصادى للقرن الجديد.

إن مسألة متى تحين «فى النهاية» هذه موضع جدل شديد بين المعتدلين والمتشددين. فالمعتدلون لديهم حجة أفضل. ويرى المتشددون، الذين يشغل بعضهم مناصب ذات نفوذ فى الإدارة الحالية، دولة مهيمنة فى الأفق. ولكن الصين دولة ذات عقلية دفاعية، وعُرضة لاضطرابات داخلية وتعانى من مشكلات بيئية ومطالب من الموارد الطبيعية شديدة الضخامة. صحيح أنها حدثت على مدى السنوات العديدة الماضية قواتها المسلحة بشكل انتقائى ومثير للإعجاب، إلا أنه ما زال الفساد المتفشى يوهنها، ومازالت متخلفة تنظيميًا وتكنولوجيًا ليس عن القوات المسلحة الأمريكية فحسب، بل كذلك اليابانية والكورية الجنوبية. ويشير المتشددون، ومعهم الحق فيما يقولون، إلى قيام طموحات بكين بدور أكثر فاعلية فى شرقى المحيط الهادى. غير أنهم يبالغون حين يدعون أنه سرعان ما تصبح الصين قادرة على قطع الطرق البحرية وترهيب ماليزيا وسنغافورة والفيليبين، بل وأستراليا واليابان؛ لأن المشاكل التى يمثلها إبراز القوة الجوية والبحرية بعيدًا عن المياه القومية أكثر تعقيدًا إلى حد بعيد من تلك المشاكل التى فى لعبة المجازفة. وسوف تُضطر الصين أثناء سعيها للسيطرة على شرق آسيا إلى إجراء تغيير أساسى فى عقيدة القوات المسلحة وتدريبها وهيكلها (التى كانت تركز عادة على هزيمة الإرهابيين المحليين)، ناهيك عن الحصول على حاملات الطائرات؛ وليس هذا فى حد ذاته بالأمر الهين. وينبه المتشددون إلى أن الصين اشترت من روسيا مؤخرًا طائرات مقاتلة من الطراز الأول؛ ولكن الطيارين الأمريكيين المقاتلين أكثر تطورًا بناء على الخبرة والتكتيكات والتدريب الأفضل (تتدرب القوات الجوية الصينية على الطيران فوق المياه المفتوحة منذ سبع سنوات فقط، ولا يمكن لطياريها أن يقضوا أكثر من نصف ما يقضيه الطيارون الأمريكيون من وقت فى التدريب). ولننس محاربة الولايات المتحدة أو اليابان؛ فسوف يخسر الأسطول الصينى فى الوقت الراهن أية معركة فى المياه الإقليمية لسنغافورة أو ماليزيا. ومن المؤكد أن الصواريخ متوسطة المدى التى حصلت عليها الصين حديثًا، بل وغواصاتها التى تعمل بالديزل، تعقد جوانب التخطيط البحرى الأمريكى فى شرقى المحيط الهادى. إلا أن الولايات المتحدة تتفوق بميزة تنافسية على الصين فى قيادتها وسيطرتها واتصالاتها وحواسبها وقدراتها الاستخباراتية. وهى حتى الآن العناصر الأكثر أهمية فى الفاعلية العسكرية الحديثة، كما أنها لا تزال الأصعب فى تطويرها. حتى أن التفوق الإستراتيجى الأمريكى فى شرق آسيا سوف يتزايد، ولن ينقص، فى السنوات المقبلة.



ولكن هذه النقاط تقلل من أهمية المقولات التحذيرية. فبناء على الدينامية الاقتصادية للصين، فمن المحتمل. خلال خمس وعشرين سنة أو أكثر. أن تصبح فاعلاً قويًا و متقدمًا من الناحية العسكرية فى شرق آسيا وشرقى المحيط الهادى. وبذلك سيقل نفوذ أمريكا الساحق فى المنطقة. ولكن الولايات المتحدة لديها الكثير من الوقت كى تفكر فى الآثار المترتبة على صعود الصين قبل أن يكتمل. فلابد أن نبحث موقفنا من العالم، والطريقة التى نعرّف بها التهديدات التى تواجه أمننا القومى. بعبارة أخرى، فإنه لكى نفهم عواقب طموحات الصين المتنامية (ببطء)، لابد لنا من فهم طموحاتنا.

لابد لنا أولاً من الاعتراف بأن سرعة



العكس من الاتحاد الأوروبي الذي ستظهر قوته الدفاعية حتما، إن هي أصبحت حقيقة بالفعل، كقوة إقليمية منافسة قد تنحاز إلى الصين لعمل توازن ضدنا. ولأكن أكثر وضوحا بشأن شيء غالبا ما لا يرغب واضعو السياسات والخبراء أن يكونوا واضحين بشأنه. فلا يمكن أن ينجح الناتو والقوة الدفاعية الأوروبية المستقلة معا. بل إن أحدهما فقط هو الذي سيكتب له النجاح؛ وينبغي أن نرغب في أن يكون النجاح من نصيب الأول، لكي تكون أوروبا أصلا عسكريا لنا، وليس عبئا علينا، ونحن نواجه الصين.

التحدي العسكري الصيني واقع فعلي بالنسبة لضباط وجنود البحرية الأمريكية. وقد أمضيت مؤخرا أربعة أسابيع على متن المدمرة «بنفولد» الحاملة للصواريخ الموجهة التي تجوب المحيط الهادي من إندونيسيا إلى سنغافورة والفيليبين وجوام ثم هاواي.

أثناء زيارتي أنجزت بنفولد مهمة إغاثة تسونامي (التي شملت جلب المواد الغذائية إلى الشاطئ وإعادة رسم خريطة لحدود الساحل) وبعد ذلك استأنفت التدريبات العسكرية التي تدار من مركز المعلومات القتالية للسفينة، وهو عبارة عن مكان مظلم تتكدس فيه أجهزة الكمبيوتر. وفي هذا المكان كان ضابط العمل التكتيكي يقود الرد على ما كانت هجمات خادعة مفترضة من الصين أو كوريا الشمالية.

بينما كنت أراقب العمل في مركز المعلومات القتالية علمت أنه بالرغم من قيادة الحرب البحرية بسماعة الرأس ولوحة مفاتيح الكمبيوتر، فإن مستوى التوتر في كل جزئية كان على نفس الدرجة من الحدة التي يكون عليه الحال في قتال المدن الحاسم. ويمكن أن يؤدي القرار الخاطئ إلى ضربة صاروخية مفجعة لا يمكن أن تصمد أمامها أية درجة من الصلابة الفيزيقية أو الشجاعة.

الحرب البحرية حرب تتطلب انتباها شديدا وتفكيرا مركزا؛ فالخطر هناك وراء الأفق، وأنت لا ترى شيئا. وكل شيء يتحول إلى رياضيات. ذلك أن الهدف هو الخداع أكثر منه العدوان؛ حيث إنك تجعل الطرف الآخر يبدأ بالضرب كي تتحقق لك ميزة سياسية عليه، ومع ذلك لا تكون مضطرا لاستيعاب الضرر الناجم عن الهجوم.



بقدر ما كان عليه أفراد طاقم بنفولد من حماس في مساعدة ضحايا تسونامي، فإنهم ما إن غادروا المياه الإندونيسية حتى كانوا على نفس القدر من الحماس بشأن شحذ مهاراتهم الحربية فوق السطح وتحت السطح. بل إنني لم ألحظ أي شعور، خاصة بين كبار ضباط الصف (الجنود الحديديون بالبحرية الذين يمثلون الحقيقة العارية)، بأنهم قد يجرون في غرب المحيط الهادي مثلما جرت تجربة مشاة البحرية في العراق. لقد كان التهديد الرئيسي في الخليج الفارسي حتى الآن هجمات غير متماثلة، مثل تفجير السفينة كول. ولكن المحيط الهادي يقدم كل أنواع التهديدات من الجماعات الإرهابية شديدة العدوانية في الأرخبيلات الإسلامية في جنوب شرق آسيا إلى ألعاب القط والفأر مع الغواصات الصينية في المياه الواقعة إلى الشمال. وسوف يجبر الاستعداد لكل التهديدات المحتملة التي يمكن أن يقدمها المحيط الهادي الأسطول على أن يصبح أكثر رشاقة وسوف يجعله أكثر قدرة على التعامل مع الطوارئ غير التقليدية مثل موجات تسونامي حين تنشأ.

مرحبا بالعقود التالية. وقد قال لي أحد كبار الضباط، مشيرا إلى الخليج الفارسي ثم إلى المحيط الهادي: «لابد أن يمضي الأسطول وقتا أقل في تلك البِركة الطينية ووقتا أكثر في البِركة.» ■

تحديث جيش الصين وطبيعة تحيزاتها الجيوسياسية ترتبط ارتباطا شديدا بعدم توازن القوى الذي أعقب انتهاء الحرب الباردة في مصلحة واشنطن. ولم يحدث من قبل في التاريخ أن احتفظت دولة ما بوضع متفوق كذلك الذي تتمتع به الولايات المتحدة منذ انهيار الاتحاد السوفيتي. وبطبيعة الحال تعتقد كل من الإدارات الديمقراطية والجمهورية أن الدول الأخرى تنظر إلينا على أننا «دولة مهيمنة محبة للخير». ولكن الواقع هو أنه لابد أن يكون اهتمام الدول باستمرار بقدرات القوة المهيمنة أكبر من اهتمامها بنواياها المعلنة. فالصين وروسيا كانا يريان تدخل الولايات المتحدة في كوسوفو على أنه سابقة خطيرة ترسخ حق واشنطن المؤكد في التدخل في الشئون الداخلية للدول الأخرى. ورغم تباعدهما الذي طال أمده، فقد كونا تحالفا وليدا يهدف بجلاء إلى خلق العالم «متعدد الأقطاب» من جديد. وبالطبع تعاظم شك العالم في الهيمنة الأمريكية مع غزو العراق إلى حد كبير، وقد وسعت الصين وروسيا تعاونهما العسكري ويقومان بتدريبات عسكرية مشتركة. وبالمثل دفعت الحروب في كل من كوسوفو والعراق مخططي الجيش الصيني إلى التركيز على الرد على هيمنة التكنولوجيا الفائقة الأمريكية في أرض المعركة. ولابد للولايات المتحدة من اتباع أية سياسة خارجية تراها مناسبة؛ ولكن عليها الاعتراف بأن الأعمال التي تفهمها هي على أنها غير أنانية سيراها الآخرون على الأرجح بصورة مختلفة كل الاختلاف. فقد يخدم الدور التدخلي الكوني عددا من المصالح الأمريكية، ولكن التاريخ أظهر مرارا أن تدخل إحدى القوى المهيمنة يسرع صعود القوى العظمى الأخرى ويضمن احترازها من تلك القوة المهيمنة، إن لم يكن معاداتها.

لابد لنا كذلك من بحث الطريقة التي تعرف بها واشنطن «تهديد الصين». ويتفق المتشددون والمعتدلون، الجمهوريون منهم والديمقراطيون، على أن أمريكا تهيمن من الناحية الإستراتيجية على شرق آسيا وشرقي المحيط الهادي؛ وهي المنطقة التي تعد الفناء الخلفي للصين. بل إنهم يتفقون على ضرورة احتفاظ أمريكا بهيمنتها هناك. ولذلك يعرف المخططون العسكريون الأمريكيون جهود بكين لمعالجة موقفها الضعيف في مواجهة التفوق الساحق، الذي يعترفون بتمتع الولايات المتحدة به حتى حافة البر الآسيوي الرئيسي، بأنها تهديد. وربما يكشف هذا عن أمور تتعلق بطموحاتنا أكثر من تلك المتعلقة بطموحات الصين. ولنتخيل لو أن الوضع كان معكوسا، وكانت القوات البحرية والجوية الصينية هي المهيمنة، وكان هناك احتمال لأن تهدد الوجود على الجرف القاري لأمريكا الشمالية. ألن تكون لدينا الرغبة في معادلة التفوق؟ ويمتد المجال المباشر للنفوذ الأمريكي من المنطقة القطبية الكندية إلى تييرا ديل فويجو، ومن جرينلاند إلى جوام. ومن المؤكد أنه يمكننا التغاضي عن تمتع القوى العظمى الأخرى بمناطق نفوذ في أجزاء أخرى من العالم. ومن المؤكد أن مجال الصين يشمل تايوان التي لا تبعد سوى بضع مئات من الأميال عن ساحلها.

بصورة أعم، لابد لنا من بحث الآثار الإستراتيجية التي تثار عند ظهور القوى الإقليمية والعظمى. والمفهوم هو أن الأمريكيين سعداء بالهيمنة الكونية الأمريكية. إلا أنها قراءة خاطئة للتاريخ أن نشير إلى صعود قوى عظمى جديدة على أنه سوف يخلق بالضرورة صراعا. ولابد من الاعتراف بأنه لم يكن من الممكن تحقيق المصالح الألمانية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين دون الإضرار بمصالح الآخرين، لأن قوى عظمى كثيرة تزاحمت على قارة صغيرة. غير أنه صحيح كذلك أن الولايات المتحدة في الفترة نفسها صعدت لتصبح قوة عظمى في منطقة بعيدة عن القوى العظمى الأخرى. وقبلت بريطانيا القوة البحرية المهيمنة في نصف الكرة الغربي بحكمة صعود نجم الولايات المتحدة في هذا الجزء من العالم، والأهم هو اعترافها بأنه يمكن لأمريكا التعاون مع السعي للحفاظ على الاستقرار الدولي بدلا من تحديه. ولذلك حولت لندن الصراع المحتمل إلى شراكة إستراتيجية خدمتها خدمة كبيرة على امتداد قرن من الزمان.

قد يكون ظهور الصين كقوة عظمى أمرا حتميا، ولكن ذلك سيمر بعملية طويلة ينبغي أن نسعى لإدارتها مع بكين. وبدلا من إعاقة صعود الصين وغيرها من القوى المستقلة، كالاتحاد الأوروبي واليابان، ينبغي على واشنطن الاعتراف بالفوائد المهمة التي يمكن أن تنتج عن ذلك. فسوف يكون هناك المزيد من المناورات للحصول على مزية في السياسة الكونية. ولكن احتواء القوى الأخرى، وإعطاءها حصة في استقرار النظام العالمي، وجعلها تشارك في مسئولية الحفاظ عليه، يمكن أن يقلل إلى حد كبير التزامات أمريكا التي تطوق العالم وما يصاحب ذلك من شك دولي تجاه الولايات المتحدة. والبديل على المدى الطويل هو خلق أعداء في حين أنه ليس هناك ما يدعو إلى ذلك. ■

عندما تناولت هذا الكتاب من فوق أحد رفوف المكتبة ونظرت فيه نظرة فاحصة ثم قررت أن أقتنى نسخة منه - لم يتبين لى من أول لحظة أنه الكتاب الذى على أساسه وضع ذلك الفيلم التسجيلى الذى أثار ضجة إعلامية كبيرة.. وحصل على جوائز عالمية كثيرة من بينها جائزة مهرجان «كان» السينمائى لعام ٢٠٠٤م.. وأقصد به فيلم «فهرنهايت ٩/١١».

والشركة المعنية هنا هى الشركة المساهمة.. وهى مؤسسة اقتصادية ضخمة ذات تركيبة خاصة، تحكمها مجموعة من القواعد ولها قانون خاص يحدد وجودها وصلاحياتها وأوجه نشاطها.. ولها هدف محدد هو السعى بكل وسيلة لتحقيق أقصى قدر من الربح لحملة الأسهم فيها.. فأين هى المشكلة إذن؟

يجيب المؤلف بأن هذا النوع من الشركات (بلا استثناء).. وبحكم تصميمه وقانونه الخاصين قد أثبت تاريخياً وفى مجال الممارسة العملية أنه خطر على المجتمعات وعلى البيئة.. وأنه قد تسبب - ولا يزال - فى كوارث كثيرة وخطيرة على حياة البشر بل على حياة الكوكب الأرضى برمته.

وهذا ما دفع «جويل باكان» مؤلف الكتاب إلى اعتبار الشركة المساهمة كائناً شاذاً يتميز بسلوك مرضى بالغ الخطورة.. وليس هذا كلام ناشط يسارى ولا متحمس من أنصار البيئة، بل كلام أستاذ القانون بجامعة «بريتش كولومبيا» ومفكر عالمى مشهور.

لقد أثار سلوك الشركة الخطر كثيراً من الإشكاليات والتساؤلات.. وهذا الكتاب محاولة جادة وجريئة للإجابة على هذه التساؤلات:

- كيف أصبحت الشركة بهذه القوة الغاشمة؟
- ما طبيعة هذه الشخصية بالباثولوجية؟
- وكيف تؤثر بنفوذها وقوتها الطاغية على البيئة والمجتمعات؟
- وأخيراً: ماذا ينبغى عمله لكبح جماح هذا الكائن الشرس ومواجهة مخاطره؟

ولأن المؤلف يوجه كتابه هذا إلى الجماهير العريضة وليس للمتخصصين وحدهم فقد تجنب استخدام المصطلحات الأكاديمية المستغلقة.. دون تضحية بالدقة التى يتطلبها البحث العلمى. ولكى يوضح مجاله الموضوعى يقول: إننى معنى بشركات الأعمال التجارية والصناعية (الأنجلو أمريكية) مستبعداً الشركات الصغيرة المحدودة.. والشركات التى لا تقوم على الربح.. وكذا التى يملكها فرد واحد ملكية شخصية سواء كانت صغيرة أو كبيرة. أما لماذا يركز على الشركات الأنجلو أمريكية؟ فجوابه: إنها أكبر الشركات العالمية وأكثرها قوة وهى

The Corporation:
The Pathological Pursuit of Profit and Power

الشـــركة

Joel Bakan
London - constable - 2004

الشركات في سباقها الوحشي إلى الربح والسلطة

محمد يوسف عدس



تحولت الشركات المساهمة التى استطاعت الحكومة الإنجليزية إلغاءها سنة ١٧٢٠ - إلى كائن شرس يسيطر على الحكومات والمجتمعات



التى جاءت العولمة لتنشر آثارها المدمرة فيما وراء حدودها القومية.

النشأة والتطور:

يرجع ظهور الشركات المساهمة لأول مرة فى بريطانيا إلى القرن السادس عشر الميلادى وهى غير الشركات التى سادت قبلها، وكانت تقوم على أكتاف عدد قليل من الناس جمعهم معاً الولاء الشخصى والثقة المتبادلة، فوضعوا أموالهم فى صندوق واحد لإنشاء شركات يملكونها ويديرونها بأنفسهم.

أما الشركة المساهمة فهى نمط آخر: الملكية فيها منفصلة عن الإدارة.. بمعنى أن هناك مجموعة من المديرين يقومون بإدارة الشركة بينما مجموعة أخرى من حملة الأسهم هم الذين يملكونها.. وهذه التركيبة العجيبة بطبيعتها معرضة للفساد ولتفريخ الجرائم كما يعتقد كثير من المفكرين والباحثين. ويضرب على هذا مثالاً بواحدة من أقدم الشركات الإنجليزية للنقل البحرى التى أنشئت عام ١٧١٠م وجعلت نشاطها فى أمريكا الجنوبية.. كانت تعمل فى تجارة الرقيق ولكنها زعمت لحملة الأسهم أنها تورد الجبنة الشستر والشمع والمخلل وغير ذلك من السلع الإنجليزية الرخيصة، وتعود محملة بمكاسب هائلة من الذهب والفضة.. وباختصار شديد: انهارت الشركة بسبب الفساد والكساد والطاعون، وتبخرت أموال المساهمين فى غمضة عين فتفجرت ثورة عنيفة فى «وست منستر» حى الإدارات الحكومية والبرلمان.. وقتل أحد حملة الأسهم مدير الشركة مما اضطر الملك للعودة مسرعاً إلى لندن من رحلة كان يقوم بها، حيث عقد البرلمان الذى استدعى رؤساء الشركة وحاكمهم، وأصدر فى النهاية قانوناً يجرم إنشاء شركة مساهمة.. منذ هذا التاريخ وعلى مدى ثلاثمائة عام تالية ظلت الشركات تحشد قوى كبيرة رفعتها فوق سلطة الحكومات.

وهكذا تحولت الشركات المساهمة التى استطاعت الحكومة الإنجليزية إلغاءها بجرة قلم سنة ١٧٢٠ - إلى كائن خرافى بالغ الشراسة يسيطر على الحكومات والمجتمعات. فكيف تمكنت الشركات من قوتها الهائلة التى أصبحت تمتلكها الآن؟

يقول المؤلف: أصحاب رءوس الأموال تحت غواية الدعاية بحصد أرباح بلا حدود كان يدفعهم إلى المال نهم غير محدود.. ولكن عائقاً قانونياً كان يحد من قدرة الشركات على اجتذاب مزيد من حملة الأسهم.. ذلك لأن القانون القديم للشركات اعتبر حملة الأسهم مسئولين عن أخطاء إدارة الشركات وديونها، فإذا صدر حكم بتسديد هذه الديون وقع العزم على حملة الأسهم، لا بسبب فقدانهم لقيمة الأسهم فقط وإنما قد يخرجون من كل ما يملكون من مال وعقارات أخرى حتى يتم تسديد الديون. فماذا فعلت الشركات؟ ظلت تضغط على الحكومات لاستصدار قانون (المسئولية المحدودة) الذى بمقتضاه يصبح حملة الأسهم غير مسئولين عن أخطاء الشركة وديونها إلا فى حدود ما يملكون فيها من أسهم.

منذ هذه اللحظة من عام ١٨٩٨م بدأت تتدفق على الشركات الأمريكية أموال طائلة.. كما تدفق عليها حملة الأسهم من كل مكان.. وشهدت السنوات الست التالية عصر الشركات المساهمة العملاقة التى تقلص عددها خلال عمليات اندماج كبرى من ١٨٠٠ شركة إلى ١٥٧ شركة فقط. وخلال القرن العشرين تضاعف عدد حملة الأسهم من عشرات الألوف إلى مئات الألوف من الأفراد.

وهنا تبرز مشكلة أخرى: وهى أن هذا العدد الهائل من البشر ليس لهم أى تأثير على القرارات التى تصدرها إدارة الشركة باسمهم.. لماذا؟

يقول المؤلف: لأنهم أفراد مبعثرون فى مواقع متباعدة لا رابطة بينهم أصبحوا شخصيات مجهولة.. تبددت قوتهم وأصبح من المستحيل عليهم أن يتصرفوا تصرفاً جمعياً. هذا الوضع كان من شأنه أن يطلق يد رجال الإدارة فى اتخاذ القرارات والسيطرة على هذه الشركات سيطرة مطلقة. ومن ثم برزت مشكلة قانونية وهى: من المسئول عن سلوك الشركة خصوصاً أنه قد أصبح من الصعب الإشارة إلى شخص بعينه باعتباره مسئولاً عن الشركة لأن القرارات تتخذ بشكل لا يمكن تحديد شخص بعينه مسئولاً عن هذه القرارات.. فما المخرج من هذا المأزق؟ لقد قرر المشرعون أن الشركة المساهمة «شخصية اعتبارية» ومن ثم فهى مسئولة عن نفسها أمام القانون والمحاكم. يعنى أصبحت الشركة المساهمة كما قال أحد أساتذة القانون سنة ١٩١١: كائناً حراً مستقلاً أمام القانون.

ويعلق المؤلف قائلاً: أى كائن بشع غريب هذا الذى لا قلب له ولا عاطفة ولا قدرة على التعبير عن المشاعر الإنسانية ولا الإحساس بمشاعر الآخرين. فلما أدرك الناس هذه الحقيقة تزايدت عندهم مشاعر الخوف والكراهية، واتضح للشركات أنها بحاجة ماسة إلى أن تصطنع وجهاً إنسانياً تستعيد به محبة الناس ومن ثم اتجهت الحملات الإعلانية لشخصنة الشركة فى أعين الجماهير.. وعكست الشركات صورتها فى الإعلام باعتبارها كائنات خيرة صاحبة (مسئولية اجتماعية).

ولكن ككل دعاية أمريكية: تمضى الصورة الإعلامية فى طريق وتسلك المؤسسة صاحبة الصورة فى طريق آخر متناقض مع هذه الصورة الوردية. وظل أثر الشركات فى استغلال البشر والإضرار بالمجتمع والبيئة محسوساً متفاقماً حتى عام ١٩٣٤م عندما جاء الرئيس «فرانكلين روزفلت» بسلسلة من القوانين والإجراءات عرفت باسم (العهد الجديد) New Deal ليضع حداً لهذا الغول المفترس.

والعهد الجديد عبارة عن مجموعة من الإصلاحات والإجراءات التنظيمية المتكاملة استهدفت التغلب على الكساد الاقتصادى الذى عم فى تلك الفترة.. وإعادة الحياة الصحية للاقتصاد المريض نتيجة للحريات المفرطة والصلاحيات غير المحدودة التى كانت

تمارسها المؤسسات الاقتصادية على نطاق واسع.

وظل تأثير العهد الجديد ملموساً حتى انحسرت موجته تماماً سنة ١٩٨٠ فى عهد الصديقين: رونالد ريجان الأمريكى ومسز تاتشر البريطانية، وبدأت الحكومات الغربية تحذو حذوهما بإطلاق حرية الشركات التى ألزمت الحكومات بالتخلى عن دورها فى توجيه الاقتصاد الوطنى.. وعدم اللجوء إلى تنظيم الشركات بل فرضت على الحكومات التوسع فى خصخصة القطاع العام، وتخفيض سقف الإنفاق الحكومى، وتقليل التضخم المالى، وبحلول التسعينيات من القرن العشرين تربعت حرية السوق على عرش الاقتصاد، وأصبحت الليبرالية الجديدة هى إنجيل الاقتصاد العالمى.. وقد دعم سطوة الشركات العملاقة ما حدث من تقدم هائل فى تكنولوجيا المواصلات والاتصالات، وأصبحت أكبر خطر يهدد الحكومات، خصوصاً بعد ظهور الشركات متعددة الجنسيات أو عابرة القارات. كما يسمونها . فلم يعد لها مكان ثابت يمكن تعيينه أو التصويب عليه. لقد أفلت الجنّى ذو القوة الخارقة من القمقم وحلق فى سماء العولمة، وأصبح الكوكب الأرضى كله مجالاً لنشاطه ينزل فى أى مكان منه حيث يشاء وينطلق منه منتقلاً إلى بلد آخر متى شاء بلا حدود ولا قيود.

المسئولية الاجتماعية على المحك:

تزعم الشركات العملاقة أنها قادرة على تنظيم نفسها بنفسها وليست فى حاجة إلى حكومات تنظمها، وتفاخر بمبادراتها الاجتماعية والبيئية وأن لديها أقساماً وخبراء لتنفيذ ومراقبة برامجها فى المسئولية الاجتماعية وانطلقت حملات دعائية كبرى فى التليفزيونات تهلل وتبارك لظهور فجر عصر جديد أصبح فيه للشركات دور فاعل فى رعاية المجتمع والحفاظ على بيئة نقية وصحية.. فهل لهذا الضجيج من حقيقة؟ وهل يمكن أن يكون لهذا الكلام مصداقية؟

يقول المؤلف: من الناحية القانونية.. يجرم القانون أى سلوك يناقض تعظيم أرباح حملة الأسهم.. وليس للمديرين أى حق أو سلطة قانونية لاستهداف أى أعمال خيرية.. ولم يجد رجال الإدارة مخرجاً من هذا المأزق إلا بالاعتراف بالحقيقة وهى أنهم بممارسة المسئولية الاجتماعية إنما يسعون بعملهم لتعظيم أرباح الشركة بما يكسبون من دعاية وما يحصلون عليه من تخفيضات ضريبية نظير هذه الأعمال الخيرية.

بذلك تبقى الشركة محتفظة بجوهرها.. كائناً جشعاً أنانياً فهى شخصية سيكوباتية من طراز مروع.. ويشرح لنا المؤلف هذه الحقيقة فى عشرات الأمثلة نكتفى بالإشارة إلى بعضها.

من هذه الأمثلة شركة فايزر Fayzer التى ترسل دواء مجانيا لبعض دول أفريقيا لعلاج



مرض التراكوما الذى يتسبب فى حالات كثيرة من فقد البصر.. ولكن كما يؤكد المؤلف: لا تخسر الشركة بهذه التبرعات شيئًا وإنما تكسب أضعاف ما تنفق من ناحيتى الدعاية والضرائب كما أشرنا.. فإذا نظرنا إلى الحقيقة من زاوية أخرى لرأينا الوجه القبيح لشركات الأدوية العالمية فهذه الشركات تملك أموالاً طائلة ولديها مراكز أبحاث متقدمة ونخبة من العلماء، وتستطيع لو أرادت أن تطور أدوية جديدة لبعض الأمراض القاتلة التى تحصد ملايين البشر كل عام فى بلاد العالم الثالث، مثل أمراض السل والملاريا والإيدز.. ولكنها لا تفعل، والسبب كما يقول المؤلف هو أن تكاليف استخدام أدوية جديدة تفوق العائد منها، حيث إن ٨٠٪ من سكان العالم الذين يعيشون فى هذه البلاد الفقيرة يمثلون ٢٠٪ من سوق الدواء العالمى يخص أفريقيا كلها ١,٣٪، بينما نجد أن ٢٠٪ من سكان العالم الغنى يعيشون فى أوروبا وأمريكا الشمالية واليابان ولكنهم يمثلون ٨٠٪ من سوق الدواء، ولذلك تطور الشركات لهذه البلاد أدوية لعلاج أمراض الترف مثل الصلع والعقم والعنة. بل إن تطوير أدوية جديدة لعلاج الاضطرابات النفسية لحيواناتهم المنزلية لها أولوية فوق أدوية العالم الفقير.

الشخصية السيكوباتية:

يقول المؤلف: إن الدعاية الواسعة للشركات العملاقة لتحسين صورتها والكلام عن (المسئولية الاجتماعية) كلام فى الهواء لا يغير الطبيعة الجوهرية لهذه الشركات فى سباقها المحموم لتكديس الثروة وعدم المبالاة بحياة البشر ومعاناتهم. وفى هذا تتجلى الشخصية الحقيقية للشركة فهى كائن سيكوباتى مريض يتسم بكل الخصائص المميزة للشخصية السيكوباتية كما يعرفها علماء النفس.

ويوضح لنا «روبرت هير» أستاذ علم النفس ذو الشهرة العالمية هذه الحقيقة عندما يستعرض قائمة سمات الشخصية السيكوباتية فى تطبيقها على سلوك الشركة فيقول: تتمحور الشركة حول مصالحها الأنانية فقط.. تماماً كما يفعل الشخص السيكوباتى. وسنجد تماثلاً مذهلاً فى جميع السمات السيكوباتية كلما تعمقنا فى دراسة سلوك الشركة: الإفراط فى تقدير قيمة الذات (نحن الأفضل.. نحن رقم ١)، عدم القدرة على التقمص العاطفى، أو الشعور بمشاعر الآخرين وآلامهم، اتجاهات مدمرة ضد اجتماعية، عدم القدرة على الشعور بالندم.. حتى عندما تعبر عن أسفها فإن عبارات الندم تخلو تماماً من بطانتها الوجدانية فهى مجرد كلمات جوفاء لا تعبر عن ندم جوانى حقيقى، محاولة الشركة أن تنتمى إلى الجماهير إنما تسلك سلوك السيكوباتى فى محاولة انتمائه إلى الآخرين بطريقة سطحية، فهى تستخدم الكلمات المحببة كنوع من المهارة اللغوية التى يجيدها السيكوباتى (النصاب) عادة.. إنها تستخدم نفس القناع لتخفى حقيقتها الجوانية.

سباق الربح والسلطة





تتمحور الشركة حول مصالحها الأنانية فقط.. تماماً كما يفعل الشخص السيكوباتى. وسنجد تماثلاً بينهما فى جميع السمات السيكوباتية



إنرون كنموذج للشخصية السيكوباتية

كانت شركة «إنرون» - لعهد قريب - من أكبر شركات الطاقة فى الولايات المتحدة.. ظل يضرب بها المثل فى احتضانها للمسئولية الاجتماعية.. ودأبت كل عام على تضمين تقاريرها السنوية برامج المسئولية الاجتماعية التى أنجزتها، وتعهدت بالعمل الجاد على خفض تسرب الغازات الضارة بالبيئة.. وتدعيم الاتفاقات الدولية لوقف تدهور المناخ الكونى، كما تعهدت أن تضع فى صلب عملياتها الصناعية قضايا حقوق الإنسان والبيئة والصحة والسلامة والشفافية.. واعتذرت عن تسرب ٢٩ ألف برميل نفط من سفنها على سواحل أمريكا اللاتينية، ووعدت ألا يتكرر هذا الخطأ بعد ذلك أبداً.. وعددت المساعدات السخية التى قدمتها لمجتمعات المدن التى تعمل بها.. وأنها خصصت اعتمادات مالية كبيرة لمنظمات أدبية وللمتاحف والمعاهد التعليمية وجماعات المحافظة على البيئة.. ولأغراض خيرية أخرى حول العالم.

وتكرر فى تقاريرها القول المأثور: إن قيادة المؤسسة ينبغى أن تضع المثل الأعلى فى خدمة المجتمع! كلام وردى جميل ولكن لا صدى له فى الواقع العملى، فهذه القيادة المثالية هى نفسها التى أفسدت الشركة وتلاعبت بأسهمها فى البورصة ونشرت تقارير مالية زيفتها شركة محاسبات أخرى فاسدة.. فأقبل الناس على شراء الأسهم بأسعار عالية بينما إدارة الشركة على علم تام بأن أسهم الشركة لم تعد تساوى شيئاً، نهبت قيادات الشركة ملايين الدولارات وتركتها تنهار على رؤوس حملة الأسهم.

تبرز لنا قصة انهيار شركة إنرون حقيقتين كبيرتين.. أولاهما أن الهوة واسعة بين الصورة الخيرة التى ترسمها الشركات لنفسها بحذق وبين واقعها الإجرامى. والحقيقة الثانية تتمثل فى هوس الشركات بحصد الأرباح وولعها بمخالفة القواعد والقوانين.. والتلاعب بالناس.. وهذه كلها خصائص متجذرة فى ثقافة الشركات الكبرى بلا استثناء.. ولكن الفرق فى حالة إنرون أنها أخذت هذه الخصائص إلى مدى أبعد من قدرتها على الاحتمال والصمود فانتهت بتدمير نفسها.

ربح الشركات لها ومغارمها على الآخرين:

الشركة باعتبارها كائناً سيكوباتياً لا يمكنها أن تسلك سلوكاً أخلاقياً أو تكف عن إيذاء الآخرين فى سبيل تحقيق مصالحها الأنانية.. فما دامت الشركة تحقق مزيداً من الأرباح لا يهمها ماذا يخسر الآخرون بسبب نشاطها أو إنتاجها، وقد أصبح لهذا الاتجاه مصطلح متداول فى إدارة الشركات Externalization والمعنى العملى لهذا المصطلح يجعل من حق الشركة أن تذهب فى خفض تكاليف الإنتاج إلى المدى الذى يمكن أن يعود بالضرر على الآخرين، فهذه ليس مشكلة الشركة وإنما - فى نظرها - هى مشكلة الآخرين.

يوضح المؤلف هذه الحقيقة بمثال بسيط فيقول: الشخص الذى يتحمل اتساخ ملابسه بسبب (الهباب) الذى ينفثه مصنع قريب من بيته أو مكان عمله.. ويتحمل نفقات إضافية لغسيل وكى هذه الملابس المتسخة، بينما يحصل صاحب المصنع أرباحاً إضافية وفرها من عدم اتخاذ إجراءات الوقاية اللازمة: مثل بناء مداخن عالية أو تركيب (فلاتر) لمنع العوادم بدلاً من نفثها فى الهواء.. أو نقل المصنع إلى مكان ناء بعيداً عن المناطق السكنية.

والحقيقة أن تأثير هذا الاتجاه فى تحميل الآخرين وزر الشركات له أبعاد مأساوية فى حياة البشر، وهو يكشف عن خطر هذه المخلوقات المفترسة التى لا تعبأ بشىء فى سبيل تحقيق مزيد من الأرباح وتقليص التكاليف.

من أمثلة المآسى المترتبة على تقليص تكاليف الإنتاج ما ساقه المؤلف فى إطار قضية السيدة باتريشيا أندرسون ضد شركة سيارات جنرال موتورز التى سمحت بوضع خزان وقود السيارة فى موضع معرض للانفجار لأى تصادم خفيف مع سيارة أخرى، وقد تسبب انفجار السيارة بالفعل فى حروق مؤلمة غطت ٦٠٪ من جسمها وأجسام أربعة من بناتها كن معها فى السيارة، واضطر الأطباء لقطع ذراع إحدى بناتها لإنقاذ حياتها.

وتبين من تقرير الخبراء وتحقيقات المحكمة الحقائق الآتية:

١ - أن وضع خزان الوقود بالسيارة قريباً أكثر مما ينبغى من الصدام الخلفى للسيارة هو السبب الرئيسى لانفجارها.

٢ - أن جميع السيارات من هذا الطراز بها نفس هذا العيب.

٣ - أن مصمم السيارة - باستجوابه - قرر أنه خير إدارة الشركة بين تصميم أكثر أماناً بتكلفة أعلى قليلاً، وبين تصميم أقل تكلفة ولكنه أقل أماناً فاختارت الأقل تكلفة رغم أن الفرق لم يزد على ستة دولارات فقط.

٤ - أن الشركة - بوعى كامل - قامت بتحليل التكلفة والعائد وقدرت قيمة التعويضات المحتملة للضحايا، ثم اتخذت قرارها بناء على هذا التحليل.

وبناء عليه حكمت المحكمة على الشركة بدفع تعويضات للسيدة باتريشيا وبناتها بلغت أكثر من مليون دولار.. وضمنت قرارها غياب الوازع الأخلاقى فى عملية الإنتاج وعدم مراعاة قدسية حياة البشر. وهنا كان اعتراض الغرفة التجارية على الحكم لأنه يضرب فى الصميم مبدأ (تحليل التكاليف والعوائد) الذى يعتبره رجال الأعمال القاعدة الأساسية للشركات. لم يكن اعتراض رجال الأعمال على قيمة التعويضات ولكن على تأسيس حكم على الوازع الأخلاقى!!

جرائم التكلفة الصناعية في العالم الثالث:

مغامرة مثيرة قام بها باحث اسمه تشارلز كيرنهام كرس حياته للكشف عن المخالفات القانونية والإنسانية للشركات عابرة القارات فى العالم الثالث.. وشمل بحثه عدداً من البلاد الآسيوية وأمريكا اللاتينية.. وكان عليه أن يحتال لكى يصل إلى مواقع هذه الشركات ويدخلها فإدارة الشركات متفقة مع السلطات المحلية ترفض الإدلاء بأسماء مصانعها أو عناوينها لأى باحث متطفل.. ولكنه وقع على كنز ثمين وهو يبحث فى أكوام المخلفات الصناعية بجمهورية الدومينيكان حيث عثر على دفاتر وسجلات بصندوق مغلق تحتوى على تفاصيل دقيقة لحسابات تكاليف مصنع للقمصان الرجالى.. وتبين له أن خياطة القميص مقسمة إلى ٢٢ عملية صغيرة تستغرق كلها ٦ دقائق للقميص وهو ما يساوى (٨ سنتات أجرة للعامل) بينما يباع هذا القميص نفسه فى الولايات المتحدة بمبلغ ٢٣ دولاراً.

أما حياة العمال من الأطفال والبنات الصغيرات فنموذج حى للبؤس والتعاسة، فقد شاهد كيرنهام كيف تعمل البنات الصغيرات تحت رقابة حراس غلاظ، وكيف يتعرضن للإهانة والضرب على أبسط هفوة يرتكبنها.. ويخضعن بصفة دورية لاختبارات حمل قسرية، فمن وجدت حاملاً تطرد على الفور من المصنع.. أما العمل فهو روتينى ممل متكرر، ويتم تحت أنوار مبهرة مدمرة للأعصاب.. وتستغرق دورية العمل اليومية من ١٢ إلى ١٤ ساعة.. أماكن العمل مرتفعة الحرارة ولا توجد تهوية أو تكييف.. وبها دورات مياه قليلة العدد.. ومياه الشرب شحيحة تصرف بحساب دقيق لتقليل الحاجة إلى ترك العمل والذهاب إلى دورة المياه.

يقول كيرنهام: عادة ما تعمل الفتاة حتى تبلغ الخامسة والعشرين فتطرد من العمل، لأنها تكون قد استهلكت تماماً، ولم تعد تصلح للاستخدام. ومن ثم تجلب الشركة محصولاً جديداً من الفتيات.. وتحصد من عملهن مليارات الدولارات بينما لا يزيد أجر الواحدة منهن على ثلاثين سنتاً فى الساعة. عمالة شبه مجانية تستغل الشركات عابرات القارات فيها ملايين الأطفال الذين يدفعهم الجوع والفقر للعمل فى أتعس بيئة للعمل، وقبول أجور لا تسمن ولا تغنى من جوع.. إنها ظروف عمل مهينة. على حد قول المؤلف ـ يقصد بها انتزاع آدمية الإنسان منه.. وهى جزء لا يتجزأ من منظومة الشركة: طاحونة تجرف كل شيء لتحطيمه.. ففى قلب كل شركة آلية رهيبة تعمل على تعظيم أرباحها وترغم الآخرين على دفع مغارمها من حياتهم وكرامتهم.

شاهد من أهلها:

لقد استيقظت ضمائر بعض رجال الأعمال بعد أن ثبت لهم مدى خطورة الشركات على حياة الناس والبيئة.. أجرى المؤلف مع بعضهم لقاءات تحدثوا فيها عن لحظة يقظتهم.. يقول أحدهم وهو روبرت مونكس: «كانت أول مرة أشعر بأن فى الشركات شيئاً خاطئاً عندما كنت مسافراً فى رحلة عمل واستيقظت فى جوف الليل على التهاب حاد فى أنفى وعينى ورأيت من النافذة كميات هائلة من رغاوى بيضاء تطفو على سطح النهر الذى يمر من أمام الفندق، وعلمت فى الصباح أن مصنعاً للورق قد اعتاد أن يلقى بهذه النفايات الكيماوية الكريهة الرائحة فى مياه النهر كل ليلة.. منذ هذه اللحظة أدركت أن الشركة بتركيبتها الاستغلالية خطر محقق على المجتمع.. إننا ونحن نتكالب على الربح نخلق كائناً مرعباً سوف يدمرنا جميعاً».

وقصة رجل أعمال آخر ومدير إحدى الشركات الكبرى لم يكن يدرك شيئاً عن تأثير عوادم المصانع فى تلويث البيئة والقضاء على الحياة فيها.. حتى تبينت له الحقيقة من خلال قراءاته التى اضطرته بعض الظروف الطارئة للقيام بها.. يقول: كان هذا الكشف بمثابة حربة انغرست فى صدرى.. ومرت بى لحظات شعور أليم بالذنب تغيرت فيها عقيدتى بل مجرى حياتى كله.. كان «راى أندرسون» يعتقد مثل غيره من رجال الأعمال أن الأرض لا نهاية لما فى باطنها من مواد خام.. وأنها مستودع لا نهاية لقاعه فى استيعاب السموم والنفايات التى نقذفها بها كل لحظة.. ولكنه بدأ يفيق إلى خطورة إلقاء مغارم الشركات على أكتاف الآخرين.

جنرال إليكتريك:

جميع الشركات الكبرى لها سجل حافل فى هذا المجال وقد أورد المؤلف عشرات الأمثلة، تطرقنا إلى بعضها، وهذا مثل آخر لشركة جنرال إليكتريك التى بلغت مخالفاتها القانونية أبعاداً كارثية.. فبين سنة ١٩٩٠ وسنة ٢٠٠٠م ارتكبت هذه الشركة ٤٣ مخالفة كبرى.. وصدرت ضدها أحكام محاكم لا حصر لها.. تضمنت هذه المخالفات: تلويثاً رهيباً للتربة والمياه والأنهار والهواء فى مواقع عديدة وبأسلوب نمطى متكرر.. وكذلك دفن نفايات كيماوية سامة.. والتسبب فى سقوط طائرات نتيجة أخطاء صناعية جسيمة فى أجزاء وقطع غيار قامت بإنتاجها.. وكذب فى الإعلان عن ماكينات بها عيوب خطيرة تعلم مسبقاً بوجودها. إلى غير ذلك من مخالفات قانونية وقد بلغت الغرامات المالية فى بعض القضايا إلى ١٤٧ مليون دولار.. ومع ذلك ظلت الشركة (العالمية المشهورة) تكرر نفس المخالفات بعناد وإصرار غريبين.

إن مدير أى شركة ـ فيما يقول روبرت مونكس يسأل نفسه كم تكلفنى إطاعة القانون وكم تكلفنى مخالفته؟ فإذا رجحت كفة المخالفة على كفة الطاعة اتخذ قراره بالمخالفة ولا يبالى.. إن المجرمين الحقيقيين يتسترون وراء (الشخصية الاعتبارية) التى منحها القانون للشركات فخلق بذلك مسخاً يفوق خطره خطر دراكولا.

سباق الربح والسلطة





فى قلب كل شركة آلية رهيبة تعمل على تعظيم أرباحها وترغم الآخرين على دفع مغارمها من حياتهم وكرامتهم



مؤامرة لقلب نظام الحكم في البيت الأبيض:

هذه واقعة موثقة فى سجلات تحقيقات الكونجرس الأمريكى، وألفت عنها كتب لعل من أهمها كتاب «جولز آرتشر» بعنوان: المؤامرة على البيت الأبيض صدر سنة ١٩٧٣. ولكن القصة ترجع إلى سنة ١٩٣٣ عندما انتخب فرانكلين روزفلت رئيساً للإدارة الأمريكية وكانت الولايات المتحدة تمر بكساد اقتصادى مروع، ورأى روزفلت أنه لا مخرج من هذا الكساد إلا بشل اليد الخفية التى تلعب فى السوق.. وكان يقصد يد الشركات والبنوك الكبرى، ومن ثم جاء بما سمى بـ (العهد الجديد) مما ألمحنا إليه سابقاً.. وهو مجموعة من القوانين والإجراءات التنظيمية وهيئات الرقابة، كلها تؤدى مهمة متكاملة تستهدف تقوية سيطرة الحكومة على البنوك والشركات وتمنح بعض الحقوق العادلة للعمال.. ووصف روزفلت منظومته هذه بأنها منظومة تستهدف منفعة جمهور واسع من المواطنين، بدلاً من المنظومة السابقة التى لم تكن معنية إلا بامتيازات طبقة خاصة من الناس.. دأبت على ترديد فكرة أن آليات السوق وحدها كافية للخروج من الأزمات الاقتصادية وإعادة التوازن الاقتصادى.

لقد حقق العهد الجديد أهدافه وتبين كثير من رجال الأعمال أنه كان ضرورياً لحماية الرأسمالية من نفسها.. إلا أن فئة أخرى من رجال الأعمال وأصحاب البنوك أعماهم الغضب واعتقدوا أن خطة روزفلت من شأنها القضاء على الرأسمالية الأمريكية، ومن ثم تجمعوا وبدءوا يفكرون فى مؤامرة ضد روزفلت للإطاحة به، وإقامة دكتاتورية فاشية بدلاً من النظام الديمقراطى.

فى ٢٤ أغسطس ١٩٣٤ تقدم «جيرالد ماجاير» وهو محارب متقاعد إلى الجنرال المتقاعد «سميدلى دارلنجتون بتلر» ليفاتحه فى أمر الانقلاب.. وكان سميدلى بطل حرب مشهوراً فى البحرية الأمريكية نال كثيراً من النياشين وأنواط الشرف.. وكان موضع احترام من الجميع. أفضى إليه «ماجاير» برسالة شفوية من مجموعة من كبار رجال الأعمال يناشدونه بناء جيش من المحاربين القدامى والاستيلاء على البيت الأبيض، وإعلان نفسه حاكماً على البلاد وزعيماً فاشياً على غرار هتلر وموسلينى.. وأنه سوف يلقى من المجموعة دعماً بلا حدود.

وتساءل الجنرال فى ذهول: ولم دكتاتورية فاشية؟.. وجاءته الإجابة مفصلة على مراحل خلال جلسات عدة حيث تبين له إعجاب هؤلاء المتآمرين بإنجازات الفاشية فى ألمانيا وإيطاليا، وما حققته من ازدهار رأسمالى، فقد استطاع هتلر وموسلينى تخفيض الدين العام فى بلديهما.. واستطاعا كبح جماح التضخم المالى.



وتخفيض أجور العمال وإخضاع النقابات والاتحادات العمالية.. وأحكما سيطرتهما على هذا كله بكفاءة عالية. أما روزفلت الديمقراطي - في نظرهم - فهو خائن لطبقته.. ويحاول بعهده الجديد تدمير الرأسمالية.

كذلك تبين للجنرال بتلر أن شركات أمريكية كبرى كانت ضالعة مع هتلر في بناء قوته العسكرية مثل شركة «جنرال موتورز» التي تحولت إلى الصناعات العسكرية سنة ١٩٣٧ وكانت منتجاتها تحقق له التفوق في كثير من الجبهات الأوروبية. ومثل شركة «آي بي إم» التي ساعدت هتلر بحاسباتها ذات البطاقات المثقبة، وكان خبراؤها الأمريكيون يساعدون في تدريب الألمان وفي تركيب هذه الآلات حتى في معسكرات الإبادة الجماعية لليهود، وكانوا يعلمون الكثير عن الهولوكوست (انظر كتاب «إدوين بلاك: آي بي إم والهولوكوست»). وكان هتلر يغدق الأموال على هذه الشركات الأمريكية.

إنه إذن مبدأ الربح حيثما وجد هو ما تتكالب عليه الشركات، ولا يهمها الإطاحة بالمبادئ الأخلاقية والإنسانية، فهي لا تسأل عن ذلك، إنما تسأل فقط هل هذا النظام السياسي يساعد أو يعوق سعيها في تحقيق أهدافها الأنانية؟ ولم تنسحب هذه الشركات - عندما انسحبت - لدوافع وطنية أو أخلاقية وإنما تجنباً لمخاطر الحرب عندما اشتد أوارها.

لم يكن غريباً إذن أن تنشأ في عقول أمثال هؤلاء الرجال الجشعين فكرة التآمر لقلب نظام ديمقراطي وإقامة نظام فاشي في عهد روزفلت.

في أحد لقاءات «ماجاير» مع «بتلر» أخرج من حقيبة معه كومة من الأوراق المالية فئة الألف دولار، ونشرها على سرير الجنرال في الفندق لتمويل المشروع، فأمره بتلر أن يعيد النقود إلى مكانها لأنه ليس في حاجة إلى مال في تلك المرحلة.. ولكنه طلب منه قائمة بأسماء الرجال المعنيين بمشروع الانقلاب فزوده بأسمائهم.

وكشف «ماجاير» للجنرال بتلر عن خطة المتآمرين: فهم يتوقعون بعد إنشاء الجيش المنشود أن يطلب الجنرال من روزفلت تنصيبه نائباً للرئيس، فإذا قبل يبدأ الجنرال ممارسة سلطات الرئيس، ويبقى روزفلت مجرد رمز للرئاسة الاسمية. أما إذا رفض التعاون فعلى الجنرال أن يتدخل بجيشه، ويطرد روزفلت من البيت الأبيض ويستولي على السلطة كما فعل موسليني في ملك إيطاليا. وقدم «ماجاير» ثلاثة ملايين دولار دفعة أولى للبدء في المشروع، ووضع تحت تصرفه في البنك ثلاثمائة مليون دولار أخرى لمتابعة المشروع.

كان المتآمرون يعتقدون باختيارهم للجنرال بتلر لتنفيذ خطة الانقلاب أنهم قد وقعوا على صيد سمين لما كان له من شهرة وجماهيرية، ولم يتبينوا أنهم وقعوا على الرجل الخطأ إلا بعد فوات الأوان.. فقد تقدم بتلر إلى الكونجرس وأفشى أسرار المؤامرة بكل تفاصيلها وشخصياتها أمام لجنة التحقيقات.

من أهم ما قاله بتلر في شهادته: «إن هؤلاء المتآمرين يمثلون كل ما أكره وأحتكر في بلادي.. فقد تعلمت من دروس الحروب التي خضتها أن هناك حرباً في وطني علي أن أخوضها أولاً وهي محاربة هؤلاء المنافقين.. بعد أن عرفت أن كل هذه الحروب كان وراءها جشع هؤلاء الناس.. وأن جنودي لم يكونوا يحاربون في سبيل مبادئ عليا كما كنا نتصور، وإنما من أجل الشركات الجشعة التي لا تشبع من نهب ثروات الشعوب».

استراتيجية جديدة

للإضعاف لا الإجهاز:

تعلمت الشركات درساً مهماً من فشل مؤامرة الانقلاب على روزفلت وبدأت تستخدم تكتيكاً حديثاً أكثر نعومة وأعمق إثراء بهدف إلغاء القوانين والإجراءات التنظيمية التي تقيد حرية الشركات، وتمييع سلطات أجهزة الرقابة الحكومية على سلوكها.. يعني باختصار: إضعاف الحكومة بدلاً من الإجهاز عليها.

في هذا السياق يحكي لنا المؤلف قصة شركة إنرون في هذا المجال، وكيف كانت تتلاعب بإمدادات الكهرباء في ولاية كاليفورنيا.. وعمليات الإظلام المتعمد للإضاءة في كل الولاية ومحاولة قهر الجماهير والتلاعب بأسعار الكهرباء. حدث كل هذا بينما آلتها الإعلامية تضخ أكاذيب عن كثرة الإجراءات التنظيمية التي تعوق عمل الشركة ورغبتها في الإصلاح. وكانت الاستجابة الفورية من الإدارة الأمريكية متسقة مع هذا الاتجاه حيث أعلن جورج دبليو بوش بإنجليزيته الركيكة: «إذا كانت هناك إجراءات بيئية منعت كاليفورنيا من الحصول على ١٠٠٪ كهرباء.. فنحن في حاجة إلى التخفيف من هذه الإجراءات». وكان هذا بمثابة رد لجميل الشركة التي أسهمت بملايين الدولارات في حملة انتخابات الرئاسة لصالح بوش، وقام رجل آخر في الكونجرس يردد نغمة الشكر بصوت أعلى فيقول موضحاً للهدف: «إن الذين يؤيدون إجراءات التطرف البيئي ويدفعون بالدولة للتدخل أكثر مما ينبغي، ويعوقون حرية السوق هم الذين يدفعون بنا نحو الكارثة».

لا يجب أن ننسى أن هذا الموقف الأمريكي لم يقتصر أثره على الولايات المتحدة فقط وإنما امتد إلى البيئة الكونية، فقد رفض بوش الأصغر التوقيع على اتفاقية دولية لحماية البيئة بتقليل انبعاث الغازات المسببة لتدمير الغلاف الجوي، بزعمه أن هذا التقييد سيعود بالضرر على الصناعات الأمريكية.. وليذهب العالم إلى الجحيم!

الشركات الكبرى لديها عقيدة أن القواعد والإجراءات التنظيمية التي تضعها الحكومات تقلل من أرباحها.. ولذلك فإن وضع استراتيجيات للقضاء على هذه القواعد والإجراءات بكل الوسائل أمر مشروع. وخلال العقد السابع من القرن العشرين برز بوضوح شديد أن من أكفأ الوسائل التي استخدمتها

سباق الربح والسلطة





شركات أمريكية كبرى كانت ضالعة مع هتلر في بناء قوته العسكرية مثل شركة «جنرال موتورز» التي تحولت إلى الصناعات العسكرية سنة ١٩٣٧



الشركات (التبرعات) المالية السخية للحملات الانتخابية بهدف التأثير على العملية السياسية بترجيح كفة مرشح على مرشح آخر. ويعلق المؤلف على ذلك بقوله: «في المحصلة النهائية.. سواء عن طريق التبرعات أو الرشاوى الصريحة أو عن طريق جماعات الضغط السياسي أو حملات العلاقات العامة.. فإن الشركات تسعى للتأثير على العملية الديمقراطية لنفس الأسباب التي استهدفها المتآمرون على روزفلت في الثلاثينيات «فأولئك حاولوا تدمير النظام الديمقراطي بانقلاب عسكري وهؤلاء يفسدون النظام بالرشوة..».

وقد نظن أن الأموال التي تنفقها الشركات في هذا المجال خسائر عليها ولكن يؤكد لنا وليام نيسكانين أن الشركات لا تخسر شيئاً لأنها تحسب هذا الإنفاق الهائل جزءاً من تكاليف الإنتاج.. فهو استثمار لخلق بيئة سياسية أنسب لمضاعفة أرباحها ومساعدتها على الاستمرار والازدهار».

يرى رجال الأعمال أن لهم دوراً مشروعاً كشركاء مع السلطة في حكم المجتمع.. وأنه ليس للحكومة دور مشروع في السيطرة على الشركات.. وأن واجب الحكومة أن تترك الشركات تنظم نفسها بنفسها فهي مسئولة اجتماعياً.

الخصخصة والعولمة:

ساد الاعتقاد في القرن العشرين أن الديمقراطية تتطلب حكومات منتخبة تحمي الحقوق الاجتماعية للمواطنين وتوفر لهم احتياجاتهم الأساسية، فالمصالح العامة أعز وأقدس من أن تخضع لشركات مستغلة غير مسئولة ولا هم لها إلا الاستربح من هذه المصالح فيما يوضح المؤلف: المؤسسات الصحية ومرافق المياه.. وخدمات التنمية الإنسانية كالمدارس والجامعات والمعاهد الثقافية.. والأمن العام كالشرطة والمحاكم والاطفائيات.. والمناطق الطبيعية كالمحميات الطبيعية للنبات والحيوان.. والحدائق العامة.. كل هذه المرافق والخدمات الحيوية اللازمة لحياة الإنسان ونموه وضعتها القوانين في منأى عن قبضة الشركات أن تعبث بها.

ولكن للأسف الشديد أصبحت كل هذه المرافق والخدمات الآن عرضة لزحف الشركات في حربها الإعلامية لتحطيم الحواجز القانونية التي تحيط بهذه المنطقة المحرمة.. وصكت لهذه الحرب شعارين جديدين هما الخصخصة والعولمة. وبدأت الحكومات تتهاوى أمام زحف «دراكولا»، هذا المسخ الذي خلقته بيديها.. فلم يعد هناك شيء في المجال العام محرماً أو مقدساً، بل أصبح كل شيء إما في حالة خصخصة أو في طريقه إلى الخصخصة. العالم إذن يتجه نحو مجتمع جديد يصفه لنا أحد دعاة الخصخصة هو «ملتون فريدمان» بقوله: «في هذا المجتمع لن يبقى في حوزة الحكومة أكثر من ١٠ إلى ٢٠٪ من الدخل

القومى للإنفاق على وظائفها الأساسية كالنظام القضائى والقوات المسلحة والتخفيف من حالات الفقر الحادة..» بل إن «وليام نيكانين» يقلص صلاحيات الحكومة ووظائفها بحيث لا يبقى لها سوى القوات العسكرية».. إن مروجى الخصخصة يرون أن كل بوصة مربعة على هذا الكوكب الأرضى ينبغى أن تكون تحت سيطرة القطاع الخاص.

انتهاك عالم الأطفال

وتدمير صحتهم:

ابتدعت الشركات فى إعلاناتها استراتيجية جديدة للحصول على نقود الآباء عن طريق التلاعب بعقول الأطفال.. لا فيما يتعلق بالسلع الخاصة بالأطفال فحسب بل فى السلع المنتجة للكبار أيضاً.. فى هذه الاستراتيجية الجديدة تستخدم الشركات أحدث وسائل العلم والتكنولوجيا، وتسخر طائفة من علماء النفس لبحث أكفأ الأساليب الإعلانية فى التأثير على الطفل.. فإذا تعلقت حاجته بمنتج معين يلح فى طلبه من أبويه فلا يفلتان من إلحاحه حتى يتحقق له طلبه.

وقد وجدت الدراسات أن إلحاح الأطفال له قوة سحرية فى التأثير على الأبوين.. وهم مادة سهلة للتلاعب فلديهم قابلية عالية للاستهواء.. ويتقبلون الرسائل الإعلامية كأنها حقائق.. كما أنهم فى نظر الشركات المستغلة هم زبائن المستقبل تحت التدريب. وللدكتورة «سوزان لين» أستاذة الطب النفسى بجامعة هارفارد دراسة مهمة فى هذا المجال، فقد تبين لها أن الطفل الأمريكى يشاهد - فى المتوسط - ثلاثين ألف إعلان تجارى فى السنة.. وهى إعلانات آسرة تتسلط على الطفل وتحاصر خياله.. وفى هذا المناخ يقذف الإعلان إليه بأنواع من المأكولات المشبعة بالدهون والسكريات الضارة بصحة الأطفال حتى أصبح من المستحيل على الآباء ضبط غذاء أطفالهم...

وتتفق مع هذه النتائج دراسات أخرى لطبيب أطفال أسترالى هو «فيرتى نيونهام» مع فريق من الباحثين وجدوا أن التدفق الإعلانى الرهيب على الأطفال يؤثر سلباً على صحتهم واختياراتهم فى وقت مبكر من حياتهم ويضعهم فى دائرة الخطر الصحى.. وتؤكد دراسات أخرى منشورة فى مجلات طبية عالمية ظهور زيادة هائلة من مرضى السمنة والسكرى عند الأطفال وهما مرضان خطيران يلازمان الطفل بعد ذلك طوال حياته.

وفى دراسة أخرى أثبت الباحثون أن خطر إعلانات الأطفال لا يقتصر على صحته البدنية فقط، وإنما يمتد إلى قدراتهم العقلية والتخيلية.. خصوصاً ما يتعلق منها بلعب الأطفال الجاهزة التى تثير إعجاب الأطفال وتذهل عقولهم الصغيرة وتسيطر عليهم، بينما يحتاج الطفل - فيما يرى الخبراء - إلى ألعاب من نوع آخر يقومون هم بتفكيكها وتركيبها وفق أشكال يتخيلونها هم.. وهذا يعطيهم الشعور بالسيادة على الأشياء، ويساعدهم على الإبداع.

ثورة كوتشابامبا هى الحل:

فى بحثه عن حلول لمواجهة الخطر لا يرى المؤلف أى أمل فى الحكومات أن تنهض لمقاومة طغيان الشركات، ولا أن تتراجع الشركات عن غيها من تلقاء نفسها، ولم يبق إلا الشعوب والناس العاديون أن ينظموا أنفسهم فى حركات شعبية لمواجهة الخطر بأنفسهم.. وقد بدأت بالفعل مجموعات كبيرة تتحرك فى قلب أوروبا وأمريكا ضد الخصخصة والعولمة وضد تلوث البيئة وضد استغلال الفقراء فى العالم الثالث. يقول المؤلف: هذا ما ينبغى أن نعمل على تقويته بالوعى والكتابة والإعلام والمظاهرات.. واقتراح الحلول البديلة الضغط على الحكومات بكل وسيلة ممكنة، والمجال فى هذا واسع فسيح.. ويضرب لنا مثلاً بواقعة ذات دلالة على إمكانية نجاح الحركات الشعبية.. حدثت فى منطقة بوسط بوليفيا تسمى «كوتشابامبا».

بطل هذه الواقعة هو «أوسكار أوليفيرا» أحد قادة العمال.. تزعم تمرداً شعبياً ضد خصخصة مرفق مياه الشرب، الذى اضطرت إليه الحكومة تحت ضغوط البنك الدولى، واشترته شركة «بكتل» الأمريكية التى سيطرت على كل مصادر المياه البديلة وكان الأهالى يعتمدون عليها، وذلك استناداً إلى قوانين جديدة أجبرت الحكومة على إصدارها وتنفيذها بقوة الشرطة. فلما أصبحت الشركة هى المصدر الوحيد لمياه الشرب رفعت أسعار المياه ثلاث مرات عما كانت عليه من قبل، وهنا تفجرت ثورة شعبية أحسن أوسكار أوليفيرا تنظيمها وقيادتها وجذبت كل يوم مزيداً من الثوار من كل فئات المجتمع وحدثت مصادمات عنيفة استخدمت فيها الشرطة والجيش الرصاص الحى فقتلت ستة من الناس وفقد بعض الشباب أطرافهم وأصبح بعضهم مشلولين بإصابات فى العمود الفقرى ولكن عشرات الألوف من الثوار أجبروا الشركة على الفرار من المنطقة وتسلم الثوار المرفق لإعادة تنظيمه وإدارته..

يقول المؤلف: لا مناص من مجابهة قوة الشركات الزاحفة بقوى الشعب المنظمة.. لإحياء قيم مناهضة لقيم هذه الشركات.. إنها تحاول قصر هويتنا على كوننا أنانيين وفرديين ولدينا رغبات استهلاكية مستحكمة، ولكننا نرفض أن تكون هذه كل هويتنا فنحن أيضاً نشعر بروابط إنسانية عميقة والتزامات أخلاقية نحو بعضنا البعض، ونشترك فى مصير واحد وآمال فى عالم أفضل.. وكلنا يشعر أن هناك أشياء عزيزة علينا ومهمة لا يمكن أن تكون موضع استغلال من أحد.. إننا بناة حضارة ولسنا مجرد منتجين ومستهلكين كما تصورنا الشركات المستغلة. ■

كتاب الزاوية



أوراق السنهورى

تمثيلية البخيل

ليون ٢٣ يناير ١٩٢٢

حضرت بالأمس تمثيل رواية «البخيل» لموليير وذلك تذكاراً لمرور ثلاثمائة عام على ميلاد شاعر كوميدى من أكبر شعراء فرنسا إذا لم يكن من أكبر شعراء العالم.

قام فى وسط الجمع «عمدة المدينة» وألقى محاضرة شائقة فى تاريخ حياة الرجل بعبارة طلية فيها كثير من الفكاهة المستعذبة.

أعجبنى كثيراً تمثيل الرواية وكنت قد شهدت تمثيلها فى مصر بالعربية، وبرغم اختلاف اللغة فقد استطعت أن أحكم أن التمثيل فى فرنسا أرقى بكثير منه فى مصر.

وأعجبنى أكثر من ذلك أن تقام للرجال العظماء حفلات تذكر الأمة بهم من وقت لآخر، ليشعر الفرنسى بأنه من أمة لها تاريخ محشود بعظماء الرجال.

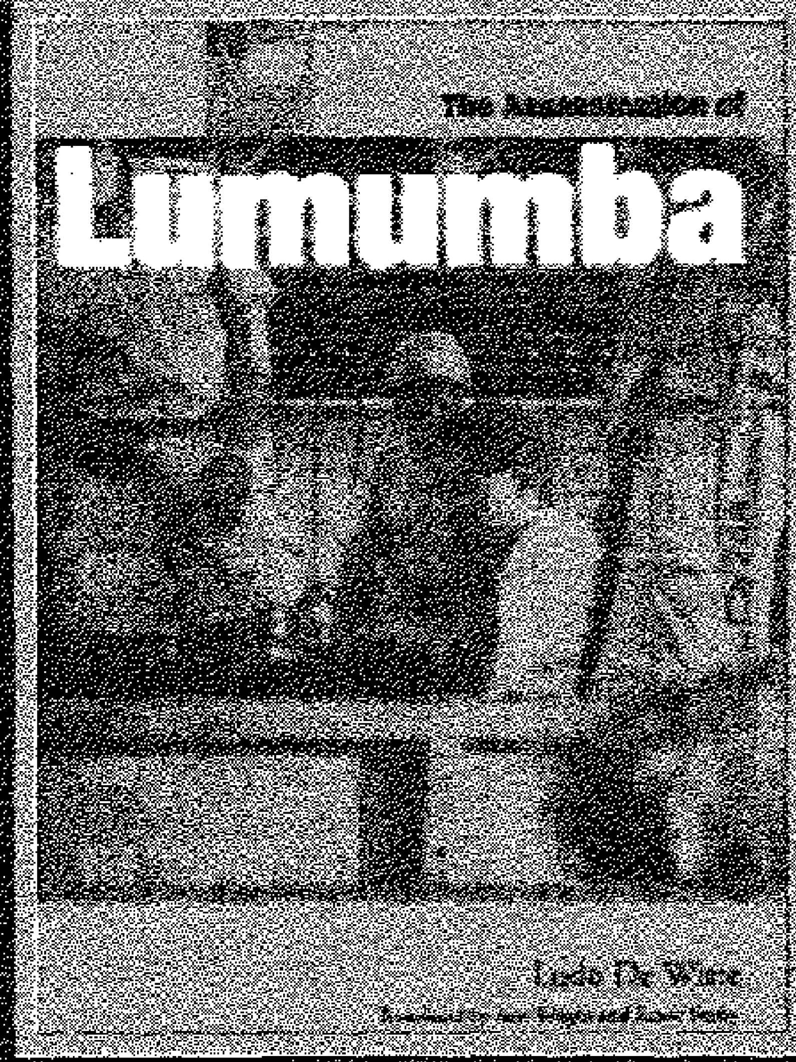
الممثلة سارة برنار

شهدت أمس الأول للمرة الأولى سارة برنار. وهى الآن تبلغ السبعين من العمر، وقد كانت تمثل دوراً يتلاءم مع حالها من المرض وتقدم السن. كانت تمثل دور شاب هزيل مريض لا يكاد ينهض من فراشه وقد أضناه الحب. ولم يجد سلوى فى غير تدخين الأفيون. إن سارة برنار بالرغم من تقدمها فى السن لاتزال يرى فيها من يعشق التمثيل أثراً من آثار المرأة التى ملأت شهرتها العالم. إنها لا تدهش السامعين فى أول أمرها، ولكنها تتدرج بهم حتى يمتزجوا فى نفسها فيصبحوا لا يشعرون إلا بشعورها ولا يرون إلا بعينيها، كل هذا دون تكلف ولا تعمل.

لومومبا يجب أن يختفى .. إن لومومبا الحى، حتى فى السجن، يمثل خطراً كبيراً. إنه يحظى بثقة الجماهير

اليوم الأخير فى حياة لومومبا

لـــــــــودو دى فِتـــــــــه



لا تزال صورة الزعيم الكونغولى باتريس لومومبا (١٩٢٥ ـ ١٩٦١) رمزًا للإلهام السياسى رغم رحيله منذ أكثر من ٤٤ عامًا. فقد ظل لومومبا رمزًا للنضال السياسى ضد الاستعمار فى أفريقيا والعالم الثالث وكان قائدًا لحركة قومية ناضلت للحصول على حقوق الكونغو ورئيسًا منتخبًا للوزراء، إلا أن الاستعمار البلجيكى والمنتفعين المحليين منه تآمروا عليه ليلقى حتفه فى جريمة بشعة. وتنشر «وجهات نظر» فصلاً من كتاب عن أسرار اغتيال لومومبا، يروى اليوم الأخير فى حياة المناضل الأفريقى الراحل.

The Assassination of Lumumba
اغتيال لومومبا
Ludo De witte
Verso - 226pp - 2003

تصدر الترجمة قريبا عن دار قدس للنشر والتوزيع
ترجمة: رزق الله بطرس

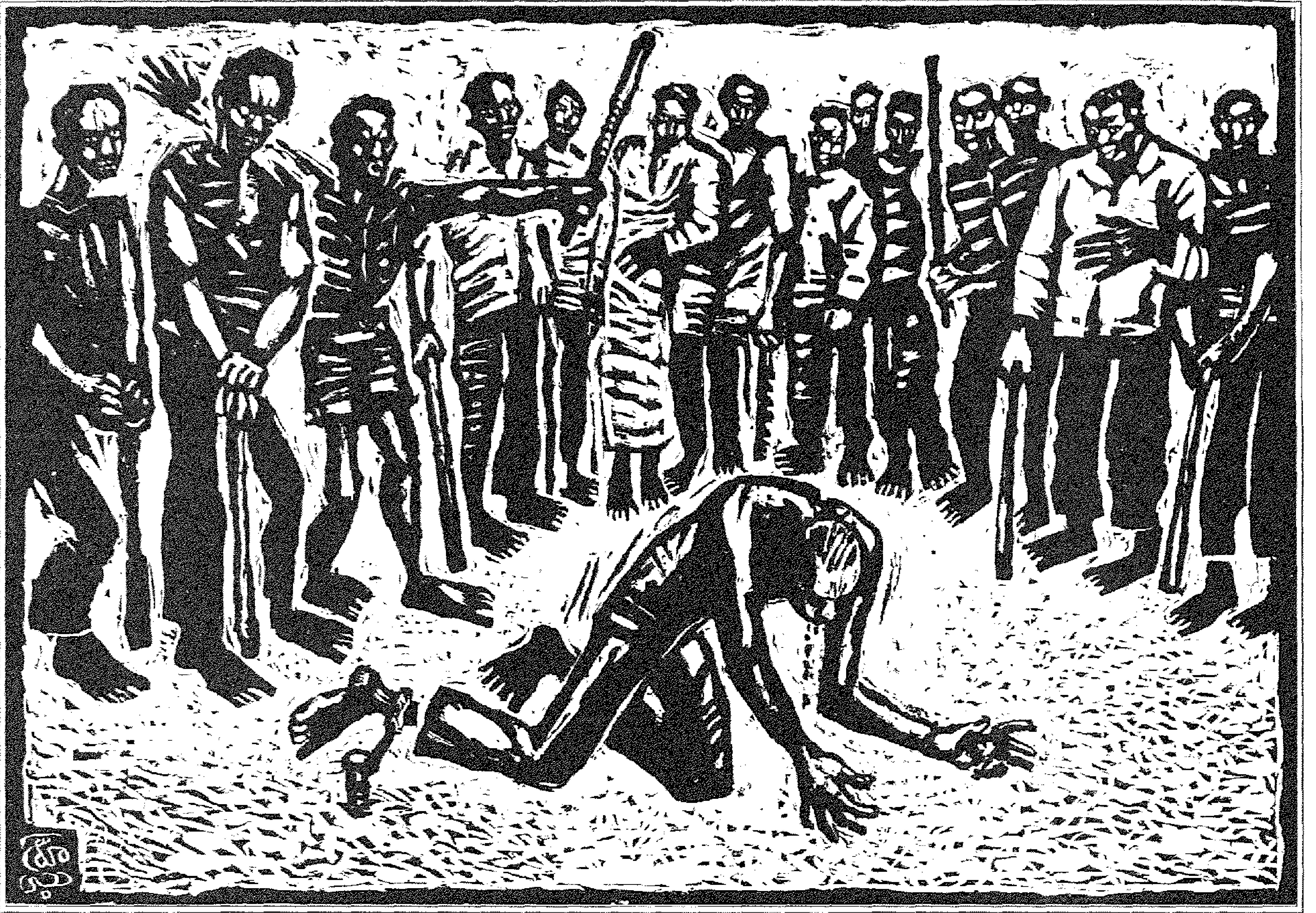
كانت حاشية ننداكا (Nendaka) تتألف من ثلاثة جنود مختارين بعناية: بالوبا من كاساى الذى كانت كراهيته لرئيس الوزراء السابق تضمن تنفيذ الأوامر بصرامة، وقائدهم، اللفتننت زوزو (Zuzu) كان «وحشاً متعطشاً للدم»، طبقًا لما قال برَسِين: كانوا ينوون قطع مسافة الخمسين ومائة كيلومتر من العاصمة إلى ثيسفيل قبل الفجر. وقائد المعسكر الكولونيل ببِزُ كان قد أصر على أن يأتى ننداكا بأسرع وقت. وبسبب التمرد الحديث جداً كان يريد مغادرة لومومبا قبل أن يستيقظ الجنود لأنه كان يخشى من حدوث شجار جديد أو أسوأ من ذلك. وصل ننداكا إلى مدخل معسكر هاردى نحو الساعة الرابعة صباحاً.

وبحسب أقوال برَسِين، كان لديهم سجينان: موريس مبِل وجوزف أُكيت يرافقان لومومبا فى رحلته الأخيرة إلى موته. كان موريس مبُل، (٣٠ سنة)، وزير الرياضة والشباب فى حكومة لومومبا، وكذلك رئيس أركان الجيش الكونغولى فترة قصيرة. وجوزف أُكيت (٥٠ سنة) كان نائب رئيس مجلس الشيوخ قبل إغلاقه. لقد وقع كلاهما فى أيدى جنود موبوتو فى أثناء محاولة لومومبا الهرب إلى ستانليفيل، واعتقال أُكيت جرى قرب كِكوِت. مبُل اقترف غلطة بمخاطبة تجمع من مؤيديه عند بحيرة لِيبُلد الثانى قبل مغادرة ستانليفيل فجرى اعتقاله عند موشِى. وجرى الاحتفاظ بهما فى لوزومو قرب لِيبُلدفيل، وذهب ننداكا لإحضارهما قبل أن يتابع إلى ثيسفِيل. لكن فى إحدى المراحل ذكر لومومبا زميله السجين أُكيت فى رسالة. لو كان برَسِين محقًا فى قوله إن ننداكا جلب معه أُكيت، لكان أُكيت قد نقل من سجن ثيسفِيل. كان مبُل وأُكيت قائدى جيش الحركة القومية الكونغولية، وكان نظام لِيبُلدفيل يعدهما الرئيسين الاسميين المكنين للمحاولة الوطنية لحشد الدعم.

ذهب ننداكا وحاشيته مباشرة لمقابلة الكولونيل بِبزُ، ومن الممكن أن الأول استلم رسالة من كاسا فوبو يأمره فيها بتسليم لومومبا، وبِبزُ طلب منه أن يحضر هذه الوثيقة. وبعد ذلك توجه بِبزُ وننداكا وجنود الجيش الوطنى الكونغولى إلى زنزانة لومومبا. وحالما رأى لومومبا ننداكا، لابد من أنه فهم أن الأمر قد تحول نحو الأسوأ. لقد أصبح رفيقه فى السنة الماضية ألد أعدائه. كان ننداكا، مثل رئيس أمن موبوتو، مسئولاً عن التعذيب والقتل فى مخيم السجناء الذى أُسس حديثًا فى بينزا الواقعة على التلة خارج كنشاسا: حيث كانت ثكنات المغاوير. وكان أيضًا العقل المدبر وراء الإرهاب فى مناطق العاصمة الأكثر فقراً. فى بداية ديسمبر، قبل نقله إلى ثيسفِيل، كان ننداكا قد ضرب لومومبا بشدة. وكزادى قال لاحقًا: علم لومومبا مباشرةً أن الأمور كانت سيئة. وبحسب أقوال اللفتننت الثانى شونبرودت: لم يكن لومومبا يريد أن «يذهب معه»، فقد كان وجلاً.

فى نحو الساعة الخامسة، قبل الفجر بقليل، غادر لومومبا المخيم فى موكب. كان بِبزُ قد زود ننداكا بمزيد من الرجال





وبثلاث سيارات لأنه كان يعلم أن الجنود الكونغوليين كانوا على اتصال مع القبعات الزرق المغاربة المتمركزين فى ثيسفيل: كان المغاربة يشكلون ثلث فرقة مغاوير جيش الكونغو الوطنى فى مخيم سُنكولو الذى كان فى ثيسفيل نفسها، بخلاف معسكر هاردى، الذى كان خارج المدينة. منذ التمرد الأخير فى هاردى ازدادت المراقبة على الحامية المغربية، وبِبُز لم يكن يجازف قط ومنع دخول المغاربة إلى المخيم فى الأيام القليلة السابقة.

استيقظ شونبرودت عند الساعة السادسة، وفى أثناء جولته الصباحية الباكرة فى المخيم لاحظ أن مدخله كان مفتوحاً على مصراعيه. كان المدخل قد أبقى مغلقاً منذ وصول لومومبا، لذلك خمن فوراً أن لومومبا، وكان يعلم أنه يجب التخلص منه، لا بدّ أنه قد غادر. وبعد قليل أرسل بِبُز الرسالة اللاسلكية التالية إلى ليبُلدفيل: لقد جرى إرسال الرزمة. وهنا يتوقف دور بِبُز فى تصفية لومومبا، لكن مهمة مذهلة كانت فى انتظاره فى جيش موبوتو. وبعد ذلك بفترة طويلة، صرح صحفى فى شهادة إلى تحقيق أجرته الأمم المتحدة فى اغتيال لومومبا ومبُل وأُكيت أنه قد استخدم استراتيجية لإغراء لومومبا إلى الخروج من معسكر هاردى. أخبروه أنه قد حدث انقلاب فى ليبُلدفيل، وأن كاسا فوبو وموبوتو وبمبك أصبحوا فى السجن، وأن الجميع ينتظرونه بصبر نافد فى العاصمة كى يشكل حكومة بأسرع ما يمكن. لكن شهادتنا تدل أن نَنداكا نفسه ذهب لإحضار لومومبا.

لم يكن يخطر على بال لومومبا أى أوهام بخصوص نيات ساعد موبوتو الأيمن عندما استدار الموكب نحو اليسار نحو ماتاداى والمحيط، بدلاً من اليمين والعاصمة. سار الموكب نحو ساعة ونصف على الأقل ليقطع مسافة ٦٠ كيلومتراً إلى لوكالا على طريق مرصوفة جزئياً فيها منحدرات وانعطافات خطيرة تتلوى بين التلال. عند نحو الساعة السابعة وصل الموكب إلى سهل كيمبالا زولولى، قرب لوكالا، وهناك بعد ساعة هبطت طائرة دارغون ريِد على المهبط العشبى الصغير. كانت لوكالا مركزاً لقيادة شركة الأسمنت الكونغولية (Congolese Cement Company, CICO). الربان لم يتبع الإجراءات المعتادة: لم يخبر الشركة بوصوله، ولم يحلق فوق القرية، والعادة جرت أن ترسل الشركة شخصاً ما لتحية الركاب عند وصولهم أو لإنزال الحمولة.

لم تستطع الهيئة العامة الأوربية فى شركة الأسمنت الكونغولية أن ترى ما كان يحدث. كان معمل الأسمنت على بعد ١.٥ كيلومتر من المهبط، وكان الأوربيون يسكنون فى فناء مسور محاط بسياج يرتفع ٣ أمتار. بعد العمل كانوا يذهبون إلى منازلهم ويبقون هناك حتى صباح اليوم التالى، لكن فى هذا الصباح تحديداً توجه عدة موظفين كونغوليين إلى مهبط الطائرة ليروا ماذا يحدث. وعندما عادوا إلى العمل، سردوا (الأحداث) إلى موريس رينو المدير المالى. وبعد أن هبطت طائرة دارغون ريِد، جر الجنود أشخاصاً أفريقيين يرتدون ملابس مدنية من إحدى السيارات المتوقفة هناك، ودفعوهم على متن الطائرة. تعرف الموظفون على واحد منهم، باتريس لومومبا، وكان وجهه مغطى بالدم. وفى صباح اليوم نفسه قام أندره مِز وهو واحد من قادة حزب أباكو (Abako) حزب الرئيس كاسا فوبو، بزيارة رينو، ومن المؤكد من دون شك أنه عبر عما كان يشعر به القادة فى ليبُلدفيل: ضوء فى نهاية النفق أخيراً.. لومومبا انتهى!.

أخذ فرنسوا بومون ربان طائرة دارغون ريِد الفرنسى سبعة أشخاص على متن طائرته: نَنداكا وثلاثة جنود من الجيش الوطنى الكونغولى وثلاثة أسرى آخرين دُفعوا بشدة إلى داخل الطائرة. أمر بومون الجنود أن ينزعوا الحراب من بنادقهم لأنه كان يخشى أن يلحقوا الضرر بالطائرة التى أقلعت فى نحو الساعة الثامنة وهبطت فى نحو الساعة التاسعة فى مانادو، على بعد نحو ٢٤٠ كيلومتراً من لوكالا. وفى اليوم التالى، أخبر بومون رئيسه، رمن لينار، وكذلك طياراً ومالكاً مشاركاً لشركة إير بروس بما حدث فى الليل. بينما كانت الطائرة تقلع بدأ الجنود بمعاملة السجناء بقسوة، لكن الطيار طلب منهم التوقف حالاً لأنه خشى من وقوع حادثة: (طائرة دارغون ريِد طائرة صغيرة خفيفة ويختل توازنها بسهولة. يبلغ وزنها أقل من «٢.٥» طن ولا تستطيع أن تحمل أكثر من ثمانية أشخاص.

كانت طائرة الدى سى ٤ مع طاقمها واثنان من المسافرين وعلى متنها ينتظرون فى مواندا، على شاطئ الأطلسى، منذ الساعة السابعة صباحاً. نزل نَنداكا من طائرة دارغون ريِد وتبعه مرافقوه السجناء من جديد، وفى أثناء ذلك تحدث نَنداكا إلى المسافرين فى الطائرة: المفوضين كزادى وكليوفاس موكمبا. ثم كشف المقصد النهائى للسجناء الثلاثة: إليزابتفيل حيث يجب أن يؤخذوا فوراً. وبعد ملء مستودعات وقود الطائرة، أقلعت فى نحو الساعة العاشرة. استدار الطيار فوق المحيط ليأخذ طريقاً أقصر إلى عاصمة النحاس، من طريق كوريدور أنغولا فى الجنوب الشرقى، مقصراً المسافة إلى نحو ١٨٠٠كم. كان على متن الطائرة كزادى، والسجناء الثلاثة وأربعة من أفراد الطاقم: الطيار البلجيكى، وبيت فَن در ميرش، والضابط الأول الأسترالى جالك دكسن وعامل اللاسلكى البلجيكى جان لوى دروغمان والمهندس الفرنسى روبير فاو.

وبعد نصف ساعة، أقلعت طائرة دي سي ٣ من مطار ندجيلي إلى بكونغا وليس على متنها مسافرون: فقط الطاقم ويتألف من الطيار الأسترالي بب وطسن وعامل اللاسلكي البلجيكي غي غوبليت والمهندس الفرنسي واسمه باتشنكو. قبل الإقلاع أخبر واطسن أفراد طاقمه: سنرى إذا كانت هناك قوات للأمم المتحدة في بكونغا . سنرى إن كان بالإمكان أخذ لومومبا إلى بكونغا من دون أن تحررد قوات الأمم المتحدة. ربان طائرة الدي سي ٤ لم يخبر ندجيلي أن مقصده إليزابتفيل، حتى بعد إقلاع الدي سي ٣. عندئذ أرسل مطار ندجيلي رسالة بنظام مورس البرقي إلى الدي سي ٣ التي قد كانت تجاوزت الآن ككوت، يقول إن مهمتها قد ألغيت، وأمر الربان بالعودة إلى ليبلدفيل. وجرى اتصال باللاسلكي مع الدي سي ٤ في رحلة العودة. أخبر عامل اللاسلكي جان لوى دروغمان نظيره غي غوبليه على متن الدي سي ٣: نعلم أنك عائد إلى ليبلدفيل: نحن ذاهبون مباشرة إلى إليزابتفيل: «في أثناء الرحلة لم يحاول ربان طائرة الدي سي ٤ بيت فن درميرش، أن يتصل بإليزابتفيل أو ليبلدفيل لأن رسائل المورس يمكن التقاطها في جميع أنحاء الكونغو. بعد مغادرة الدي سي ٤ مواندا عاد فكتر ننداكا الذي تخلص أخيراً من سجينه المحير إلى ليبلدفيل في طائرة دارغون ربد.

في صباح ذلك اليوم، بينما كانت الدي سي ٤ في طريقها إلى كتنغا، أرسل السفير ديريه برقية من برازافيل إلى وزير الخارجية بيير وغني، يقول إنه كان يجرى نقل لومومبا إلى بكونغا طبقاً لما جرى الاتفاق عليه في ندجيلي:

كان نقل لومومبا إلى بكونغا قد تقرر بموافقة كلنجي، وسينفذ ذلك صباح اليوم كما يلي: مغادرة تيسفيل إلى مواندا على إير بروس: ومن بواندا إلى بكونغا على متن دي سي ٤. لقد جرى اختيار مواندا لعدم وجود قبعات زرق فيها. كزادي سيرافق لومومبا إلى بكونغا. نؤكد أن يعامل لومومبا معاملة لائقة، لكن من الممكن أن يجرى منعه من مغادرة معسكر هاردي. كل هذه العمليات تجرى من دون معرفة الأمم المتحدة ومع جميع الاحتياطات المعتادة.

هل كان هذا خطأ مقصوداً لتضليل الأمم المتحدة وتعطيل أي تدخل ممكن تقوم به القبعات الزرق؟، أم أن ديريه نفسه لم يكن يعلم أكثر من ذلك؟، أو أن اتصالات كركار أو لهاي كذبت عليه؟، أم أن كركار لم يكن يعلم أيضاً؟.

في مساء يوم ١٧ يناير قام ضابط من الأمم المتحدة بزيارة إمنويل كيني، السكرتير الأول للرئيس الكونغولي، ويظهر أن الخطة لإخفاء سر مغادرة لومومبا عن الأمم المتحدة قد نجحت. كان الضابط يريد أن يعلم المزيد عن مصير لومومبا، ولاسيما عن مقصد طائرة الدي سي ٤. حاول رادار الأمم المتحدة أن يتتبع مسير الطائرة لكنه أخفق. وكيني سأل الرئيس كاسا فوبو، لكنه بقي صامتاً صمت القبور، كما كان معروفاً عنه.



كانت الطائرة التي تقل لومومبا ومبل وأكيت كبيرة ذات أربعة محركات وتتسع لخمسين مسافراً، وكان كل شيء قد أعد لرحلة طويلة حيث كان على متنها اثنتان وأربعون وجبة طعام. وقد صرح جميع أفراد الطاقم بعد ذلك بأنه قد أسيئت معاملة السجناء خلال الرحلة التي دامت عدة ساعات. لومومبا ومبل وأكيت كانوا يجلسون أحدهم إلى جوار الآخر، يضعون أحزمة الأمان ومربوطين بحبال، وعيونهم وآذانهم وأفواههم كانت مغلقة بأشرطة لاصقة. كان الواحد تلو الآخر يجبر على الركوع في ممر الطائرة حيث كان الجنود يركلونهم أو يضربونهم بأعقاب بنادقهم، وحتى عندما كان لومومبا جالساً في مقعده لم يتركوه لحظة واحدة. كان أحد الجنود متكئاً على جانب الطائرة يركله تكراراً في معدته. كانت فترة استراحة السجناء الوحيدة هي أنه عندما يتعب الجنود أنفسهم كانوا يستريحون أيضاً ويتناقلون زجاجة الويسكي فيما بينهم. وفي النهاية أصبح التعذيب يضايق الطاقم، وحاول فن در ميرش أن يهدئ الجنود موضحاً لهم أن حركاتهم المفاجئة كانت تهدد سلامة الطائرة. سأل الربان كزادي إن كان ينوي أن يقتل السجناء على متن الطائرة، فأجاب مفوض دفاع موبوتو بأنهم سيصلون كتنغا أحياء. ومضى كزادي القوي نوعاً ما، بقبعته الخاكي، يدخن غليونه، ويراقب سلوك جنوده بصمت.

اقتلعوا لحية لومومبا وعدة خصلات من شعره وأجبروه على ابتلاعها، ويبدو أن هذا المنظر جعل أحد الجنود يشعر بالمرض. وقد مرض عامل اللاسلكي جان لوى دروغمان فعلاً من مشاهد العنف التي سببت له الأذى، كما يقول غوبليت، وطاردته الأحداث طوال حياته. حاول الطاقم مراراً منع الجنود، لكنهم أخيراً حبسوا أنفسهم في ممر القيادة ولم يخرجوا منها إلا بعد هبوطهم في إليزابتفيل. في مقابلة مع صحيفة (دربن سندي تربين/ Durban Sunday Tribune) بعد النقل بفترة قصيرة، قال الطيار الآخر الأسترالي جاك دكسن إنه حاول عبثاً إبعاد الجنود عن لومومبا، كما يظهر أنه أخبر المفوضين غير المهتمين: «قولوا: علينا أن نهبط بلومومبا حياً».

وفي عام ١٩٦٦م اعترف كزادي لجان فان ليرد (Jean Van Lierde) بأن السجناء قد عوملوا بوحشية في أثناء الرحلة: «صحيح، لكن كما تعرف جنود الجيش الوطني الكونغولي وحوش. لم نستطع منعهم من ضرب السجناء. ليس لدينا أي سلطة عليهم. وحتى في هذه اللحظات، احتفظ لومومبا بروحه القتالية. في إحدى المراحل، بينما كان معذبوه في استراحة قصيرة، تعرف على صوت جوناس موكمبا، فبدأ يتحدث إليه. وادعى موكمبا فيما بعد أن لومومبا كان على وشك إقناعه بعدم تسليمه إلى تشومبي.

صور جاك دكسن بعض العذاب الذي أنزله الجنود في أثناء رحلة الطيران والتقط اللحظة التي خرج فيها السجناء من الطائرة في لوانو في وقت لاحق من ذلك اليوم. وبحسب أقوال الربان بب وطسن، ضاع الفيلم الذي ظهره دكسن في جنوب إفريقية: في الواقع عندما حاول واطسن استعادته أخبروه ببساطة أنه كان (أسود) كاملاً. ربما حذر أحدهم السلطات في كتنغا جنوب أفريقية، لذلك أصبحوا حذرين جداً بعد المقابلة التي أجراها دكسن مع صحيفة (دربن سندي تربين) عن تلك الرحلة الحافلة. هل لا يزال الفيلم محفوظاً في خزائن إدارة استخبارات جنوب أفريقية؟. على أي حال، كان السجناء في حالة سيئة جداً عند وصولهم والصحفي كرستين سوري كتب: إنها لحقيقة أن هؤلاء المساكين في حالة يرثى لها. لقد انتزعت خصلات من لحية لومومبا وشعره. وجهه متورم، ويحمل علامة جروح من نظارته التي حطمها معذبوه على وجهه.

مع ذلك، من غير الصحيح أن زوزو ورجاله عذبوا لومومبا ومبل وأكيت حتى الموت بينما كانت الطائرة تهبط. هذه الحجة قدمها أناس أمثال تشومبي الذين كانوا يريدون أن يتفادوا المسئولية عن الأحداث التي وقعت في كتنغا. صرح الربان فن در ميرش لاحقاً بأن السجناء قد أهينوا بقسوة في أثناء الرحلة، ولكنهم لم يكونوا يحتضرون عند الوصول. وقد أكد بب وطسن هذا القول، وهو ربان الدي سي ٣، الذي كان على علاقة طيبة مع طاقم الدي سي ٤.

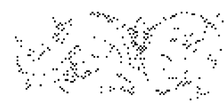
في نحو الساعة الرابعة صباحاً بالتوقيت المحلي كانت الطائرة تقترب من عاصمة كتنغا، وفي برج المراقبة في لوانو، مطار إليزابتفيل، كان في نوبة الحراسة رجل اسمه لامبول. عندما طلب فن در ميرش الإذن بالهبوط، أخبر لامبول فوراً مسئول المطار غي ددكن الذي كان مكتبه تحت مكان لامبول بطابق، الذي بدوره طلب مشورة جيرار ليند يكنز المسئول عن اتصالات المطار. طائرة من ليبلدفيل، غير معلن عنها في كتنغا؟. طلب لامبول مزيداً من المعلومات من الربان الذي أعطاه رقم تعريف الطائرة والغاية من الرحلة والمقصد، واسمه، ثم أعلن: معنا بعض الرزم الثمينة على متن الطائرة!!. ليند يكنز وددكن أدرك ماذا كان يجرى فوراً: حسناً علينا الآن أن نخبر إدارة الاستخبارات، علينا أن نخبر وزير الداخلية، علينا أن نخبر الرئيس.

مقر إقامة الرئيس تشومبي كان يقع في المكاتب السابقة لمجلس كتنغا الخاص (Katanga Special Committee). رد فرنسوا توماس الوزير الإقليمي لكتنغا في الفترة الاستعمارية على الهاتف، ثم أخبر برتلو، سكرتير تشومبي الخاص، الذي كان يتحدث إلى هيبر في ذلك الحين وأخبر ددكن رئيس أركان الجندرمة أيضاً براد (Parrad) الذي أوصل المعلومات إلى مونغ.

من أجل اتخاذ إجراءات السلامة



لومومبا ومبُل وأُكيتُ كانوا يجلسون أحدهم إلى جوار الآخر، يضعون أحزمة الأمان ومربوطين بحبال، وعيونهم وآذانهم وأفواههم كانت مغلقة بأشرطة لاصقة. كان الواحد تلو الآخر يجبر على الركوع في ممر الطائرة حيث كان الجنود يركلونهم أو يضربونهم بأعقاب بنادقهم



اللازمة في المنطقة المخصصة لطيران كَتَنْغَا العسكري (Avikat)، أمر الميجور براد ددكن أن يبقى طائرة الدي سي ٤ في الجو مدة أطول قليلاً، وفوراً سد رئيس المطار المدرج بالبراميل وسيارات الإطفاء. وبعد استشارة مونغ، هاتف براد إلى معسكر ماسار وبعد ذلك أمر اللفتننت جولين غات أن يذهب إلى لوانو مع زمرة من الشرطة العسكرية. كان ضابط الاستخبارات في الجندرمة، جو فردكت، قد عين لمتابعة الأحداث في المطار بأم عينيه. وبعد أن أدرك ما (الرزم) قفز إلى سيارته الجيب وانطلق وحده إلى لوانو. وحتى قبل أن يستطيع غات تجميع رجاله، استدعي إلى وزارة الداخلية. وعندما وصل في نحو الساعة الرابعة بعد الظهر وجد مونغ وعدة أشخاص آخرين من عظيمي الشأن من النظام مجتمعين هناك.

وضع فكتُر تنيه اللفتننت غات في صورة الوضع وأعطاه الأوامر بأن يتولى أمر السجناء. وإجراء مؤقتاً تقرر أخذ السجناء إلى بيت برُوز (Brouwez)، وهو منزل خال من السكان غير بعيد عن المطار ويبعد نحو ٨ كم عن مركز إليزابتفيل. ذهب فرشير مفوض الشرطة، الذي كان ينسق العملية كلها بحسب قول غات، ليرى برُوز فوراً، وهو مقيم أبيض، كي يصادر البيت، ثم ذهب إلى البيت وانتظر. كان على مفوض الشرطة جورج سغرز أن يحضر مفرزة إلى لوانو لتعزيز قوة جنود غات الذي أسرع نفسه إلى معسكر ماسار ليجمع قواته. كانت فرقة الشرطة العسكرية من الجندرمة تتألف من فرقتين من الشرطة العسكرية والحرس الجمهوري؛ والميجور نوربرت ميوك كان آمر الفرقة رسمياً، وكان أيضاً آمراً لمعسكر ماسار. لكن بحسب برُسّين، كان الكابتن غات الآمر الفعلي. كان ميوك يجري كل المحادثات مع الجنود، لكن غات كان المسئول عن الأمور الأخرى؛ (كان هذا هو النظام داخل الجندرمة؛ وفي المراتب التابعة، كان الأفريقيون مسئولين رسمياً، لكن بحسب اللفتننت غرَندليه، كان الضباط البلجيكيون «يتحكمون بحزم بكل روتينياً»)، وفي التطبيق كانت الفرقة الأولى من الشرطة العسكرية تحت إمرة اللفتننت ميشيل واللفتننت غرَندليه؛ وكانت الفرقة الثانية تحت إمرة اللفتننت غات، واللفتننت بليستن واللفتننت الثاني ليفا.

في معسكر ماسار طلب غات الضباط الأوربيين الكبار والصغار الموجودين جميعهم، إضافة إلى مفرزتين كانتا دائماً في الخدمة للمهمات العاجلة. نقلت ثلاث سيارات جيب وشاحنتان وآلية مدرعة الرجال الخمسين، واللفتننت غات أكد فيما بعد أنه أخذ بعض الضباط للتعزيز، لأنه كان يخشى أن مقابلة لومومبا قد تحيي المشاعر القومية عند قواته. «لدى قدر كبير من أبناء بالوبا من كَتَنْغَا الشمالية في وحدتي الآن» كان العدد الكبير من القوات يمثل إجراء أمان آخر: لم يكن يعلم كم كان عدد جنود الأمم المتحدة في المطار، ولا يعلم إن كانوا سيتدخلون. وإضافة إلى ذلك، كان يخشى أنه إذا علم أبناء كَتَنْغَا ذوو الميول الوطنية بوصول لومومبا فإنهم سوف يأتون «جملةً» إلى السهول كما حدث سابقاً عندما جرى الإعلان عن زيارة سيندوي (قائد بالوبكات).

كان المطار محتشداً ذلك اليوم لأن طائرة سابينا من بركسل كانت على وشك الهبوط، وكان هناك نشاط على المهبط العسكري، تلاه اهتمام كبير من الرصيف. وعند الساعة الرابعة بعد الظهر تقريباً، انتشرت قوة كاملة من الأمن: شرطة غات العسكرية، وشرطة سغرز وآلية اللفتننت غراندليه مع مدرعة من طراز غرهاوند الخاصة بالسرجنت سَن. أزيلت كل العوائق عن المهبط أعطى الإذن للربان فَن در ميرش بالهبوط. وعندما لامست الطائرة الأرض عند الساعة لم يكن في خزاناتها من الوقود ما يكفي إلا لطيران عشر دقائق. وهكذا انتهت ساعات السجناء الستة من الرعب، ولم يتبق لديهم سوى سبع ساعات أخرى على قيد الحياة.



كانت تلك المرة الثانية التي يؤخذ فيها لومومبا إلى كَتَنْغَا كي يسجن. عندما حكم عليه بعد الاضطراب الذي حدث في نهاية أكتوبر ١٩٥٩م في ستانليفيل، نقلته السلطات الاستعمارية إلى سجن جادوتفيل في كَتَنْغَا؛ عندما كان نقله وسجنه عندئذ يمثلان ردة فعل نظام مشرف على الموت. وجب عليه بعد ذلك بزمن غير طويل أن يطلق سراح سجينه ويرسله إلى بروكسل، ليشارك في مباحثات الطاولة المستديرة التي اقترف فيها النظام الاستعماري انتحاراً ذاتياً على الطريقة اليابانية. لم يكن نقله في عام ١٩٦١م أقل رمزية، مع أنه هذه المرة كان عملاً بائساً قام به نظام ليبُلدفيل المتداعي والذي كان يأمل به ضمان بقائه. ويمكن كذلك النظر إلى العلاقة بين عمليتي النقل من زاوية أخرى: كان مفوض الشرطة جورج سغرز قد اعتقل لومومبا في عام ١٩٥٩م، وبعد محاكمته أخذه مفوض الشرطة فرانس فرشير إلى كَتَنْغَا. كان سغرز وشرطته مشتركين في عملية الهبوط بلومومبا في لوانو يوم ١٧/ ١/ ١٩٦١م، ذهب فرشير إلى البيت الذي كان السجناء سيقضون فيه بعض الساعات الرهيبة الأخرى.

أراد الميجور فيبر، مستشار تشومبي العسكري، أن يؤكد مسئولية ليبُلدفيل في المجرى الدرامي للأحداث وأن يثبت أن السجناء كانوا على وشك الموت عندما وصلوا، وتشومبي كان غالباً ما يكرر هذا القول بعد ذلك. كان القائد الانفصالي المعروف بخداعه، منمقاً في إثبات وجهة نظره حيث ادعى أن كزادي أعطى مثالاً في ضرب السجناء بقبضتي يديه ويريد أن يرى الجميع من دون استثناء الشعر الذي جرى انتزاعه من لحية لومومبا وشاربه. على كل حال كان واضحاً أن السجناء قد عوملوا بوحشية في أثناء الرحلة. رأى الكثير من الشهود الدم على وجه لومومبا ولاحظوا أنه قد جرى انتزاع خصلات من شعره وجزء من لحيته. كان بنطاله ممزقاً وقميصه الأبيض مهلهلاً وملطخاً بالدم. وعندما وصلوا الأرض أطاح بهم الجنود والمشاهدون. الميجور سمال أفاد بعد ذلك أنه: «حدثت بعض الحركة بين الجمهور؛ لكن لم يحدث صراخ» . . حدث كل ذلك بسرعة؛ جرى ضرب الرجال الثلاثة بأعقاب البنادق. وبحسب برُسّين، الذي يؤيد تفسيرات غات التي تحاول التخفيف من أهمية الأحداث «لم يكن هناك أي ضرب، سوى بعض الخشونة التي لم تكن أمراً غريباً يصدر عن الجنود. سواء كونغوليين كانوا أم من كَتَنْغَا».

وبحسب فَنْدفاله، «اختفى السجناء الثلاثة عن الأبصار بين مجموعة من الأوروبيين والكتنغيين الذين كانوا يومئون ويصرخون. حدث صراخ وتلويح بالأسلحة وتهديد بالبنادق».

كان برج القيادة يقع على بعد عدة عشرات من الأمتار أمام مبنى المطار و٢٥٥ متراً من موقف الطيران العسكري. وعند أسفله كانت غرفة حراسة الأمم المتحدة، تشغلها منذ منتصف آب ١٩٦١م كتيبة سويدية. كان هناك ستة جنود في ذلك اليوم، تحت قيادة ليندغرن، الذي شاهد المنظر، طبعاً من دون منظار، وكتب في التقرير:

ركلوهم - الجنود - وضربوهم بأعقاب بنادقهم ورموهم في سيارة الجيب، ثم قفز أربعة من الجندرمة إلى داخل السيارة وجلسوا. عندئذ صرخ واحد من السجناء الثلاثة. وبعدها قادت سيارة الجيب الموكب وانطلقت من المدرج نحو الطرف البعيد من المطار حيث كانت هناك فتحة في السياج.

لم تمض سوى خمس أو عشر دقائق منذ أن فتح باب الطائرة. لكن تقرير ليندغرن، وهو الشهادة الوحيدة الصادرة من شخص غريب، يؤكد التصريحات البلجيكية-الكتنغية عن عدة وقائع مهمة يمكن إثباتها بشأن إخلاء لومومبا ومبُل وأُكيت.

أولاً: أساء جنود كَتَنْغَا معاملة السجناء على مرأى من ضباطهم البلجيكيين، وقد شارك واحد على الأقل من البلجيكيين في الضرب. ثانياً: اشتراك الضباط البلجيكيين فيما حدث في لوانو يجعلهم، إلى حد ما، شركاء فيما حدث للسجناء بعد ذلك. ولا يمكن تفسير موقف الضباط في أثناء عملية الضرب العنيف علناً في لوانو إلا بالموافقة على مزيد من الوحشية بعد ذلك. وبعد أن أبعد السجناء، قال الوزير كيبوي لفَنْدفاله، وهما لا يزالان على أرض المطار: «إنه لأمر جيد أنك هنا». لكن لم يعط أحد من الضباط البلجيكيين الأوامر بوقف العنف لاحقاً. والبرهان على أنهم كانوا يعلمون أنه سيستمر، موجود في المحادثة التي جرت بين برُسّين وغات، الذي كان بحسب أقوال برُسّين «المسئول عن تنسيق العملية». وبرُسّين لم



يوجه أي سؤال محرج إلا مرة واحدة وكان جواب الضابط صريحاً: «هل أسيئت معاملتهم في المطار؟» «في المطار؟ لا. لم يكن هناك الوقت الكافي».

بعد ذلك بوقت قصير كتب الصحفي بيير دفستر (Pierre Davister)، الذي غطى انفصال كَتَنْغَا، مقالته عن وصول لومومبا إلى كَتَنْغَا في صحيفة (بُرْكُوا با؟). كانت الكلمات تنساق بسهولة له، وكالمعتاد أيضاً كان مستعداً لحماية نظام كَتَنْغَا. في رأيه تقع مسئولية الشروع بالنقل على الرئيس كاسا فوبو وموبوتو، ولا أحد غيرهما. كان باستطاعة كل من كان حاضراً عند هبوط طائرة السجناء أن يرى «أنهم أصيبوا بالأذى على نحو واضح» في أثناء الرحلة. ولو كان لنا أن نصدق دَفستر فإنه حتى على أرض كَتَنْغَا كان مصير القادة الوطنيين الثلاثة بأيدي لِيُلْدفيل:

انهال جنود موبوتو بوابل من الضربات على لومومبا بأعقاب بنادقهم. كان الأمر يخص أناساً ذوي نفوذ، وكان الناس، في هذه الحالة موظفو المطار، متأثرين كثيراً. طُرح السجناء، فعلاً، في سيارة الجيب، وكان جنود الجيش الوطني الكونغولي أنفسهم يدوسون بأقدامهم على لومومبا الذي كان مستلقياً في أرض السيارة. ليثبتوا بذلك من جديد أنه لا شيء أكثر من مجرد سجين. تجدر معاملته بقسوة وضربه تكراراً.

كان الصحفي يأمل أن النقل سيجلب مكاسب سياسية لكَتَنْغَا التي أثبتت بقبولها لومومبا أنها اضطلعت بعمليات معادية له.

في منـــزل بـروز

في الفصل الماطر، تشرق الشمس في نحو الساعة الخامسة صباحاً وتغيب نحو الرابعة بعد الظهر، لذلك كان الوقت لا يزال نهاراً عندما وصل الموكب في نحو الساعة الخامسة إلى منزل بروز، الذي يبعد ٣.٥ كم عن المطار على طول الطريق القديم من لوانو إلى اليزابتفيل عبر أرض معشوشبة ذات أشجار قليلة دائمة الخضرة، إلى جانب مدرسة لتربية (EtrierL) لركوب الخيل. ومزرعة لُبُندوار (Le pondoir) حيث كان يسكن لوسيان بروز (Lucien Brouwez) وهو صاحب مزرعة لتربية الدواجن مع عائلته. كانوا على وشك الانتقال إلى منزل جديد، بأثاث قليل على بعد عدة مئات من الأمتار، وتقرر أن يقيم السجناء هنا. الشرطة كانت قد أغلقت جميع المنافذ، ولم يستطع أحد رؤية الموكب، ما عدا ربما الناس الذين يسكنون الأكواخ القليلة من الطين والقش في منتصف الطريق بين المطار والبيت. كانت القوات المسلحة تعرف المنطقة جيداً، حراس الرئيس الخيالة كانوا يستعملون المنطقة للتدريب، وغالباً ما كانت وحدات من الحرس تزور فيرلان (Verlaines) الذي كان يدير مدرسة لتربيته.

بعد عملية تفتيش المنزل، التقى غات بفرشير واتفقا على تنظيم الحرس، لأنه كما قال غات: «لم أستطع أن أسحب احتياطيِّ، الذين كانت لديهم مهمات أخرى يقومون بها، مثل حفظ القانون والنظام في المناطق المجاورة». في هذا الوقت كان هناك، إضافة إلى السجناء، ستة أو سبعة من أفراد شرطة كَتَنْغَا العسكرية وستة بلجيكيين (غات، فرشير، غرنَدله، سون، تينيه، وهوغني) داخل المنزل أو حوله. وبعد ذلك بوقت قصير، وصل سابوي ومومبا والمفوض سغرز ومعهم اثنان أو ثلاثة من رجال الشرطة، ولحقهم الملازم متشل والملازم الثاني ليفا مع مفرزة من الشرطة العسكرية. كانت مهمة حراسة المنزل من اختصاص الجنود، بينما كان الشرطة يقومون بمراقبة الطرق المجاورة. جلس غرنَدله على الشرفة، وكانت عربته المدرعة تقف أمام المنزل، ومدفعها مصوب نحو المدينة.

دخل ليفا، الذي نظم أمر الدفاع عن المنزل إلى غرفة المعيشة حيث كان السجناء جالسين على الأرض الإسمنتية، وأيديهم مربوطة خلف ظهورهم. لاحظ ليفا أن الحبل الذي يربط مُبَلْ وأُكيتُ معاً «كان يحضر في لحمهما. فككت رباط السجينين، لكن أحدهما شتمني قائلاً: «أيها الأبيض القذر». فلطمته في وجهه». مفتش الشرطة رفايل مومبا (الذي أصبح بعد ذلك محامياً في محكمة الاستئناف في بركسل) قال إن لومومبا كان «قد ضُرب ضرباً مبرحاً»، وإنه كان «يرتدي ثوباً أبيض ممزقاً» ما يدل على أنه أسيئت معاملته داخل المنزل. قال الملازم غات إنه لايستطيع أن يؤكد ذلك لأنه ذهب ليفحص المحيط حالما دخل إلى هذا السجن المؤقت، ولم يدخل إلى غرفة المعيشة إلا بعد انتهاء مهمته «وهناك كانت تجرى حراسة السجناء من قادة مفرزتي ورجال آخرين». لكن الكولونيل فَنْدفاله لم يراوغ: بل يعترف أن السجناء عُذّبوا مرة ثانية بعد وصولهم إلى منزل بروز مباشرة.

حبس غات الرجال الثلاثة في الحمام ووضع المفتاح في جيبه، وبعد ذلك أعطى أسباباً متناقضة لما فعل بالقول إنه أراد أن يمنع الجنود من ضرب السجناء، وإنه أراد أن يمنع لومومبا من محاولة إقناع الجنود بإطلاق سراحه. ونظراً إلى العدد الكبير من الضباط البلجيكيين الحاضرين، فإن السبب الثاني يبدو بلا أساس، والسبب الأول ليس أفضل. وعلى ضوء ما حدث يجب إسقاطه لأنه هاجس إنساني في غير محله بعد حدوث الواقعة. وتفسير هوغني، نائب السكرتير الخاص لوزير الدفاع، أكثر إقناعاً. يجب تجنب أي محاولة لتحرير السجناء من الخارج بأي ثمن «كنا - نحن - نخشى وصول الغانيين وكذلك الحشود . . قد يأتي الشعب».

ذهب سغرز ليرى لومومبا في الحمام. هذا المفوض أدى دوراً في قمع مظاهرات معادية للاستعمار في ستانليفيل عام ١٩٥٩م، وفي اعتقال لومومبا في ذلك الوقت، وأخبر برسين بالقول: «عرفني وعرفته، وطبعاً لم أحببه قط». بقي عدة دقائق فقط مع لومومبا من دون حتى التحدث إليه، وكان ينتظر من رئيس الوزراء السابق أن يأخذ بزمام المبادرة، لكن عبثاً . . «لم يتذمر . . ولم يقل لي شيئاً». قال لومومبا لأحد الجنود: «أشعر بالعطش». ذهب الجندي وعاد بدلو مملوء بالماء إلى نصفه ورماه في وجهه، قائلاً: «خذ، اشرب!». سغرز قال: «اهتاج الجنود، أما أنا فلم أجد أن هذا الأمر سار حقاً»، بقيت معهم عن قصد لأن حضوري خفف من وحشيتهم قليلاً»، وقال أيضاً إنه في فترة قصيرة خرج فيها ليتحدث مع سابوي «ضُرب لومومبا ضرباً شديداً: لم أرَ الضربات توجه إليه لكن كان يبدو أنه عومل معاملة سيئة». وعندما زار غرنَدله السجناء في الحمام كان لومومبا جالساً على الأرض ويداه مربوطتان خلف ظهره. لقد أثر فيه موقف السجين الذي ضرب ضرباً مبرحاً، أذكر أن عزة نفسه هزت مشاعري». علم فَنْدفاله لاحقاً أن رأس لومومبا في إحدى اللحظات قد ارتطم بقوة بحوض الحمام لدى تلقيه لطمة قوية للغاية. عندما ذهب هويغ لرؤية السجناء «كان لومومبا يئن وهو خائر القوى، وقد انطوى على نفسه». وعندما أخبره كيبوي أنه على وشك الموت، يظهر أن لومومبا قال: «عند هذه المرحلة الأمر غير مهم»، و«ليست هناك مشكلة».

لم يكن لدى بَرتلو، سكرتير تشومبي الخاص، أدنى شك في أن تشومبي ووزراءه ذهبوا لرؤية السجناء مرة على الأقل وأن «كل واحد منهم ضرب لومومبا مرة أو عدة مرات». ومن ناحيته ذكر ضابط الصف روجِفر أنه في أثناء الزيارة التي قام بها تشومبي ووزراؤه نحو الساعة التاسعة مساء أُخذ السجناء إلى غرفة المعيشة حيث بدأ الجنود والوزراء جميعاً كذلك «يضربونه»، واستمر الجنود يضربونهم بعد أن غادر أكثر الوزراء، ولم يبقَ سوى تشومبي ومونغُ وسابوي وكيمبا للتشاور مع الملازم غات.

لم يكن وزراء كَتَنْغَا الوحيدين الذين أساؤوا معاملة السجناء، بل لقد قام الحراس بفعل ذلك أيضاً: والكولونيل فَنْدفاله واضح جداً بهذا الخصوص، وملاحظاته مهمة. فهو يعترف أن من قاموا بالتعذيب كانوا بلجيكيين أو رجالاً تحت إمرة ضباط بلجيكيين، لكن من الواضح أن سلامة لومومبا الجسدية لم تكن أولوية لدى الحراس أيضاً. ذكر الملازم غرنَدله بعد ذلك أن متشل أعطاه أمراً في منزل بروز: «إذا وصلت قوات سويدية أو مغربية من الأمم المتحدة، فإنه مطلوب منه أن يطلق النار عليهم لدى رؤيتهم . . وإذا حدثت كارثة، فإن قتل لومومبا أفضل من ترك الأمم المتحدة تحرره». ويقول في مكان آخر إن الملازم متشل أمره بأن «ينهي لومومبا» إذا حاول الهرب.

يلخص مؤلفا (من قتل باتريس لومومبا؟) الأحداث بما يلي: «هناك شيء واحد مؤكد: لم تكن حكومة كَتَنْغَا مستعدة، لذلك كانت ملزمة أن تستجيب



اقتلعوا لحية لومومبا وعدة خصلات من شعره وأجبروه على ابتلاعها، ويبدو أن هذا المنظر جعل أحد الجنود يشعر بالمرض. وقد مرض عامل اللاسلكى جان لوى دروغمان فعلاً من مشاهد العنف التى سببت له الأذى



بسرعة وأن ترتجل من دون اللجوء إلى مستشاريها السياسيين البلجيكيين. من المؤسف أن الأمور أخذت منحى مختلفاً». وهنا يتبع برسين وكسترغا خط الكولونيل فندفاله الذى كتب فى عام ١٩٧٥م، لكى يقلل من قيمة دوره:



فى المساء، تشاور تشومبى وكيمبا وكيبوى وسملنج من دون أى من مستشاريهم الأوربيين، وانضم إليهم مونغ بعد ذلك. قرروا التخلص منه . . ماذا كانت دوافعهم؟ . . الانتقام، الكراهية القبلية، أو الحاجة إلى محو كل آثار العنف الذى لحق به.؟ إنهم لم يقدروا العواقب السياسية لسلوكهم الجماعى.

لكن الأحداث انكشفت على نحو مختلف تماماً. بعد الساعة الخامسة كان فندفاله وسمال فى مقر قيادة الجندرمة حيث قابلا الضابطين الكبيرين فيبر وبراد، وبعد قليل فردكت الذى أخبرهم أن مونغ قال له فى المطار، عن مصير السجناء: «سينتهى الأمر هذه الليلة». فرضية برسين تشير عدة مرات إلى المناقشات بين الرسميين البلجيكيين بشأن ساعات لومومبا الأخيرة، وليس فى ذلك ما يدهش. نادراً ما كان برسين، الذى كان حاضراً فى واحد من هذه الاجتماعات، يطرق هذا الموضوع بشهاداته، لكنه يعترف بأنهم عندما اجتمعوا فى مقر قيادة الجيش، قال فندفاله إنه كان مقتنعاً «بأن قتل لومومبا كان مسألة ساعات فقط»، وفردكت كان متشائماً بالقدر نفسه. لكن برسين يكتب أن الضباط الآخرين كانوا يأملون أن يغير تشومبى رأيه فى القتل؛ ألم يتفق مع مستشاريه البلجيكيين الذين كانوا، بالاجماع، يعدون أن نقل السجناء السياسيين غير مناسب؟. وعند تلك النقطة، كما يقول برسين، كانوا لا يزالون غير عارفين أن تشومبى قد وافق من حيث المبدأ على النقل من دون معرفتهم. وأيا كانت الحقيقة، لم يجر اتخاذ أى مبادرة فى مقر قيادة الجيش لإنقاذ أرواح لومومبا ومبل وأكيت. بعد الاجتماع، ذهب فندفاله وفيبر وسمال لرؤية البرفسور كلمنس الذى كان يسكن فى الطابق الثالث من مبنى إمكا (Immokat) فى مركز المدينة. كان الحاضرون فى هذا الاجتماع الطارئ البرفسور كلمنس نفسه والضباط فندفاله وفيبر وسمال والمساعدين البلجيكيين فى المجلس الاستشارى: غروسجان وبرسين. وافتتح فيبر الاجتماع بهذه الكلمات: «كنا نريده . . وأمسكنا به . . ونحن الآن فى حالة مزرية». برسين وصف المزاج العام بالمتشائم: «لم يكن لدى أحد أى أوهام فيما ما سيكون مصير السجناء». ومع حضور برسين هناك، فإنه لا يقول شيئاً عما تقرر فى الاجتماع، لكنه يذكر فقط أنه لم يجر القيام بشىء لإنقاذ السجناء. يتخلص برسين وكسترغا من تورطهما على النحو التالى: «ما الذى يمكن فعله سوى انتظار نتائج المناقشات التى كانت ستجريها حكومة كتنغا فى مقر إقامة الرئيس؟». وبحسب أقوال هذين المؤلفين، ذهب ذوو الرتب العالية البلجيكيون، بمن فيهم الكولونيل فندفاله، الجرىء، كالعادة إلى بيوتهم ببساطة، بينما تظم تابعوهم أمر الاغتيال بناء على أوامر من حكومة كتنغا.

وبحسب أقوال برسين وكسترغا، لم يكن لدى ذوى الرتب العالية البلجيكيين السلطة الكافية للتدخل بسرعة ونجاح، ومع ذلك كان بإمكانهم أن يروا بأنفسهم أن اللفتننت غات قد تولى المسئولية عن السجناء وغادر المطار معهم. وسنذكر بعد ذلك أن برسين يصف فندفاله بأنه «رئيس الجندرمة الخفى». من الواضح لو أن الكولونيل أمر اللفتننت غات والضباط البلجيكيين الآخرين بإنقاذ حياة لومومبا، لكانت الأحداث قد أخذت منحى مختلفاً.

لم يكن السبب الفعلى لهذه السلبية البلجيكية أو الرضوخ أو الموافقة الضمنية على تطور المأساة عملياً بل سياسى: كان فندفاله وفيبر يعلمان أن سلامة لومومبا الجسدية لم تكن أولوية لدى بركسل التى حققت هدفها الرئيس بنقل لومومبا: منع عودة لومومبا السياسية وإنقاذ نظام ليبلدفيل.

بعد نقل لومومبا، أصبح من الواضح أن الاحتفاظ به مدة أطول سيكون مضراً لنظام كتنغا. ذكرت نشرة أخبار تاريخها ٢٣ يناير أن الأمم المتحدة كانت قلقة بشأن موجة من العواطف الوطنية. فى لوينا كانت القبعات الزرق المغربية توزع الأسلحة على الثوار الوطنيين، وفى لوبودى (Lubudi) طلبت القبعات الزرق من جنود كتنغا أن ينفصلوا عن تشومبى، وأعلن ضباطهم علناً دعمهم «للومومبا وللبالوبكات». وفى جدتفيل (Jadotville)، اندلع إطلاق الرصاص بين الجندرمة والقبعات الزرق المغربية الذين وضعوا بعض الوطنيين تحت حمايتهم.

يشرح مفوض الشرطة فرانس فرشير بصراحة فى تقريره السرى أن قتل لومومبا كان الحل الوحيد:

هذا القتل يجب أن يحدث، مادام أنه ليس هناك جريمة واحدة من الجرائم التى اقترفها لومومبا، من دون دليل، ولاسيما من دون أى أساس قانونى يمكن أن تخدم ذريعة لإدانة قانونية. لومومبا يجب أن يختفى . . إن لومومبا الحى، حتى فى السجن، يمثل خطراً كبيراً. إنه يحظى بثقة الجماهير، إلا فى كتنغا العليا (Upper Katanga) وكانت ستستمر له أكثرية فعلية فى البرلمان.

فى مساء يوم ١٧ يناير، بعد بعض التفكير، قرر فندفاله وشركاه ألا يرجئوا قتل لومومبا، وبذلك يكونون قد أعطوا الضوء الأخضر لموته، آملين بذلك أن تهدأ العاصفة سريعاً. وعلى المدى المتوسط، قد يكون موت القائد الوطنى مفيداً. وقد اعترف فيبر بدقة لبرسين فى ١٩٨٧م، بحسب أقواله، كان الاغتيال أمراً «توصل أبناء بانتوس إليه بأنفسهم». لكن فيبر «أدرك أنه، برأى المستشارين الأوروبيين، كان لومومبا مركز الفوضى التى حدثت بعد الاستقلال فى الكونغو حيث إن «تحييده» سيكون مفيداً فى المستقبل».

حدت برقية دسبرمن لندن التى تضع مصير لومومبا فى أيدى تشومبى من الحرية السياسية لحركة قوى الضغط البلجيكية-الكتنغية. وبينما أدى تابعو فندفاله وكلمنس دوراً حاسماً فى نقل السجناء إلى منزل بروز وفى الاغتيال وتلفيق محاولة الهرب، وأخيراً التخلص من الجثث، كانا - فندفاله وكلمنس - يحاولان أن يحددا العواقب السياسية. عبر بيير آدم (Pierre Adam)، وهو قس فى القسم العسكرى، بوضوح عن الهواجس البلجيكية عندما أرسل مساء يوم ١٧ يناير الرسالة الهاتفية التالية إلى الميجور فيبر فى مقر الجندرمة: «الشىء الأهم أنه ليس هناك أى دم على أيدينا». كان هذا القسيس يعلم إلى ما سيؤدى الاعتقال. والقسيس الجندى هذا كان ينظر إلى الجهة الأخرى وينتظر حتى ينتهى كل شىء. آمين!. لم يتدخل الضباط البلجيكيون الكبار لإنقاذ السجناء الثلاثة.



لم يكن مويس تشومبى، رئيس دولة النحاس، فى المطار عندما هبطت طائرة الدى سى ٤ «برزمها» الثمينة. كان الميجور براد قد حاول أن يتصل به إلى مقر إقامته، لكنه لم ينجح فى ذلك، لأن الرئيس كان فى سينما بلس يشاهد فيلماً. وأخيراً اتصل به سكرتيره الخاص جاك برتلو هاتفياً وأعلمه بوصول لومومبا. هرع تشومبى إلى مكتبه حيث وصل الساعة الخامسة بعد الظهر، وكان معه عدة وزراء أيضاً. يصف برسين الأعمال هناك فى ذلك اليوم بـ «اجتماع لوزارة كتنغا» دام «عدة ساعات» كان موضوع الحديث «القضية الشائكة: ماذا يفعلون بالسجناء»؟.

كان ما سماه برسين اجتماعاً وزارياً فى الواقع تردداً مشوشاً لأصحاب المقامات الرفيعة من كتنغا الذين كانوا يحاولون أن يقرروا متى سيقتل لومومبا. ومن الذى سيقتله. لم يكن أى بديل لهذا مقبولاً. كان إطلاق سراح لومومبا غير وارد، ودسبرمن لندن كان حازماً: لومومبا يجب أن يذهب إلى كتنغا. لكن لا يمكن الاحتفاظ به فى السجن إلى أجل غير مسمى لأن ذلك يزيد من الضغط الدولى على النظام، والأمم المتحدة قد تجبر على التصرف. وفى أسوأ حالات السيناريو، قد تنشق وقد يصبح على الأمم المتحدة أن ترفع يد الحماية عن إليزابتفيل. وإضافة إلى ذلك، لم يكن للسجن كبير معنى. إن بقاء لومومبا فى السجن ورقة مساومة لإنجاز الحل السياسى لأزمة الكونغو قد يعنى إعطاءه دوراً فى الكونغو الجديدة، وهذا بدقة هو السبب فى استثنائه من قبل كتنغا ودافعى رواتبها البلجيكيين الذين كانوا يبذلون جهدهم لمحو كل آثار الوطنية الكونغولية.





لم يكن قتل لومومبا بعد محاكمة صورية يعد بديلاً صالحاً أيضاً. كيف سيكون رد فعل المجتمع الدولى إذا أصدرت «محكمة» الحكومة على لومومبا حكماً بالموت؟ وفق اقتراح قدمه الكولونيل فَندِفاله فى إحدى المراحل؟.

عندما بدأ «الاجتماع الوزارى» كان أكثر شخصيات النظام أهمية، الوزيران مونُغ وكيبوى وكذلك كيتنغى، فى طريقهم إلى منزل برُوز. وكان كزادى وموكمبا وزوزو فى مقر إقامة تشومبى. فى وقت لاحق مساء، ذهب وفد ليِبُلدفيل لتناول طعام العشاء مع كليوفاس موكيبا وهو أحد وزراء كَتَنْغا. اجتماع وزارة غريب: بعض أعلى الوزراء غائبين؛ وأفراد من نظام لم تكن إليزابتفيل تثق بهم كانوا حاضرين؛ كان الكحول يراق بوفرة، وكان الوزراء والرئيس يجيئون ويذهبون . . ليتناولوا العشاء أو ليذهبوا لإساءة معاملة السجناء. عند الساعة السادسة قام تشومبى نفسه يرافقه مونُغ وكيبوى بزيارة قصيرة للسجناء. فعل وزراء كَتَنْغا الشىء نفسه، وفى الوقت نفسه، كان بعض الناس يجيئون ويذهبون إلى مقر تشومبى يتحدثون . . ويسكرون.

كانت السكرتيرة البلجيكية لتشومبى، سيرفيه، فى مقر الإقامة، وفى وقت لاحق ذكرت أن كلاً من تشومبى وكيبوى وكيمبا شرب زجاجة وسكى فى ذاك المساء. وقال برِير الساقى البلجيكى إنهم ظلوا يشربون طوال الليل وإن الصراخ والأصوات كانت تتعالى مع انقضاء الساعات. ولاحظ أيضاً أن تشومبى ووزراءه عادوا فى وقت متأخر من الليل بعد أن كانت الجريمة قد اقترفت. أخبر فيبر أنهم كانوا «مخمورين بالكامل» كما كان السكرتير الخاص برتِلو صريحاً: «الوزراء يشربون وبعضهم ثملون».

غادر الجميع مقر الإقامة بالتدريج: كزادى ومونُغ ذهبا إلى مطعم، واللفتننت زوزو إلى فندق (غراند هوتيل ليبُلد ٢/ Grand Hotel Leopold II) الواقع فى مركز المدينة. وعندما عاد تشومبى ومونُغ وكيبوى وكيمبا وكيتنغى وفرِشير إلى منزل برُوز كان القرار بقتل السجناء قد جرى اتخاذه. ليس هناك أى عنصر مادى فى كل الشهادات التى جمعها برسّين يثبت الزعم الذى دافع عنه برسّين فى تحريه «من قتل باتريس لومومبا» أن تشومبى كان فى وضع حرج. وفى الساعات القليلة القادمة، كان عليه أن يتخذ قرارات حاسمة ويبذل جهداً كبيراً فى محاولة لتهدئة من يكرهون لومومبا. ليس هناك أى دليل أنه جرت أى دراسة جدية لأى بديل وكان على تشومبى أخيراً أن يستسلم «للصقرين» كيبوى ومونُغ، اللذين كانا يريدان إطلاق الرصاص على السجناء مباشرة. يحاول برَسّين أن يشرح هذه المحاولة ليجعل تشومبى «الحمامة» ملمحاً إلى الفرق التقليدى بين قبائل بايبكى «وهم الفاتحون الذين كانوا يعيشون من الغنائم ومن سيطرة الشرطة المحكمة (كان مونغمن مويبكى) و«الفلورنتين» Florentinc قبائل بالوندا (تشومبى من مولوندا). لكن الوحيدين الذين يدعون أن تشومبى اقترح إبقاء لومومبا فى السجن، وتعليق «محاكمته» (باستثناء تشومبى نفسه) كانوا بول براد، وماري ابنة تشومبى، وماريو سباندرى والبروفيسور كلمنس. لمح الثلاثة الأخيرون من بين هؤلاء إلى التصريحات التى جاءت على لسان تشومبى نفسه. وبقية وصفه مشابهة على نحو عجيب لرواية تشومبى عن نهاية لومومبا.

لم تخدم تصريحات تشومبى إلا غرضاً واحداً: إلقاء مسئولية الجريمة على الآخرين. كل شىء يشير إلى أن تأكيدات مونُغ وموِمبا كانت صحيحة: وافق الجميع على البطش بالسجناء فى تلك الأمسية تحديداً.



أشار عدة أشخاص من المتورطين إلى أن القرار النهائى لاغتيال السجناء فى المساء نفسه جرى اتخاذه فى لحظة نشوة: كان الوقت متأخراً فى المساء والخمرة بدأت تلعب بالرؤوس. قال برتِلو إنه كانت هناك «إراقة خمر كثيرة فى مقر إقامة تشومبى للاحتفال بوصول لومومبا»، والأكثر من ذلك: «لم يكن الوزراء قد اتخذوا القرار بقتل لومومبا، لكنهم ارتكبوا خطيئة، لكونهم مخمورين، فى زيارته. ليس هناك من شك فى أن الحل فى التصفية السريعة أصبح لا بد منه عندما انقضى الليل، ولا يستطيع أى شخص أن يثبت أن أيا منهم كان ضده. ومهما كانت الحقيقة، جرى اتخاذ القرار فى مرحلة ما، وجرى الاتفاق على أن فرشير يجب أن يرتب أمر القتل. ولإعطاء الجريمة مظهراً شبيهاً بالشرعية، يعلن برَسّين وكسترغا أن «حكومة كَتَنْغا: حكمت على لومومبا، ومبُل وأكيتُ بالموت».

فى كتاب «من قتل باتريس لومومبا» جرى وصف زيارة الوزراء الأخيرة للومومبا على النحو التالى: «قبل الساعة التاسعة بزمن قصير، قطع وصول سيارات كبيرة محشوة بالناس الهدوء الحائر الذى كان يسود منزل برُوز»، ولكنه لم يصل إلى السجناء الذين كانوا يعانون سوء العذاب. لم يعطهم وصول تشومبى وموموتغو وكيبوى وكيمبا وسمَلَنج وكيتنغى وفرِشير أى هدوء أو استراحة. جنديان جلبا السجناء إلى غرفة الجلوس حيث كان الوزراء ينتظرون، وكان كل منهم أكثر سكراً من الآخر. جلس البلجيكيون غات وسون وليفا وروجفُر وفرشير هناك فى أوقات متفرقة، وبحسب أقوال الأخير بدأ الكتنغيون فوراً يضربون السجناء. قال برتِلو: إن كل وزراء كَتَنْغا ضربوا لومومبا، وأضاف: إن سمَلَنج «يتباهى بذلك فى اليوم التالى». سكرتيرة الرئيس الخاصة لاحظت فى اليوم التالى أن بذلة تشومبى كانت «ملطخة بالدم»، كما أن الساقى فى مقر الإقامة أخبر برتِلو أنه عندما عاد الرئيس فى وقت متأخر من الليل كان مغطى بالدم».

وفى نحو الساعة التاسعة عاد بعض الوزراء إلى مقر إقامة الرئيس، وتركوا تشومبى ومونُغ وكيمبا وكيبوى وكينغى وسابوى وغات وروجفُر وفرشير فى منزل برُوز. وبينما كان تشومبى ومونُغ وغات يتجاذبان أطراف الحديث، بدأ الحراس يضربون السجناء من جديد. وبحسب أقوال روجفُر، قال مونُغ لغات: «تعلم أنك ستقوم بتنفيذ كل المهمات التى ستطلب إليك القيام بها بخصوص الأشخاص المعنيين»، وأضاف الشاهد أن مونُغ قال Anakufa باللغة السواحلية (ومعناها يجب أن يموت)، التى رد عليها تشومبى بالقول: «لا، لا، لا». كان القرار قد اتخذ، فى ذلك الوقت، كما سيتضح لاحقاً، وكانت الاستعدادات تجرى للتنفيذ.

وبرَسّين نفسه يعترف بأن هذا الحوار كان مختلقاً من دون شك، لكنه «يكشف الحالة العقلية فى ذلك الوقت». إن ما تبينه هذه الحكاية هو الزعم الرئيس الذى دافع عنه كل المتعاونين السابقين مع كَتَنْغا الانفصالية. إن الكتنغيين كانوا يؤيدون التشدد و«الصقور» (مونُغ) هيمنوا على «الحمائم» (تشومبى)؛ وكان البلجيكيون أدواتهم. فى الواقع، كان مفوض الشرطة فرنس فرِشير يدير العمليات فى أثناء ساعة لومومبا ومبُل وأُكيتُ الأخيرة. وما إن وصل فرِشير إلى بروز حتى أخبر غات أنه يجب إبعاد السجناء وأنهم (باستعمال عبارة برَسّين نفسها) قد «حكمت حكومة كَتَنْغا عليهم بالموت». وبناء على طلب فرِشير نظم اللفتننت غات مرافقة من جنود مخلصين. وبحلول ذلك الوقت كان مكان القتل والشرطة المختارون لتنفيذ المهمة قد تقرروا. أُخذ الشرطة إلى مكان القتل لتحضير مقبرة السجناء؛ غات وفرِشير أفادا لاحقاً بأن القبور كانت قد حفرت عندما وصل الموكب.

لذلك جرى اتخاذ القرار لتنفيذ الجريمة قبل زيارة تشومبى وزملائه الأخيرة إلى منزل بروز، ربما فى مقر إقامة الأول، بعد الساعة الثامنة مساء ولكن ليس بعد الساعة التاسعة. يقول فرِشير إنه ذهب ليرى السجناء نحو الساعة السابعة مساء، ثم تناول العشاء فى البيت حيث اتصل به تشومبى هاتفياً يطلب إليه أن يأتى فوراً إلى مقر إقامته. وصل فرِشير إلى هناك بين الساعة الثامنة والثامنة وثلاثين دقيقة مساء، قبل إعطاء الشرطة الضوء الأخضر للقيام بإجراءات التنفيذ. هذا الوقائع مهمة، وتجعل من المستحيل تبرئة أى شخص بأن الاغتيال كان غلطة قام بها بضعة كتنغيين مخمورين. وفى مرحلة ما، تغير الميزان لمصلحة التصفية الفورية، وعندما اتخذ القرار كان هناك اثنان من الأوروبيين حاضرين فى مقر إقامة تشومبى: سكرتيرته سيرفيه وفرانس فرِشير الذى سيؤدى دوراً رئيساً فى الفصل الأخير من الدراما فى الساعات التى ستلى. وفى الخلفية كان هناك بلجيكيون آخرون: غير ثملين، عديمو العاطفة، متحفظون، لكنهم كانوا يديرون أمر التصفية بكفاءة.



اليوم الأخير فى حياة لومومبا

فى نحو الساعة العاشرة ليلاً، دُفع السجناء داخل سيارة فى موكب مؤلف من أربع سيارات أمريكية وسيارتى جيب. فى السيارات الثلاث الأولى كان الرئيس تشومبى والوزراء كيتنغى، مونغ وكيبوى والمفوض سابوى، وربما الوزير كيمبا، إضافة إلى السائقين. كان الملفتننت غات فى السيارة الرابعة، يقودها المفوض فرشير، إضافة إلى السجناء المقيدين بالسلاسل فى الخلف. فى سيارة الجيب الأولى التى كان فيها جهاز لاسلكى من الموجة القصيرة، كان السائق ومتشل، وسون وميوك. فى السيارة الثانية كان السائق وساكيلا وخمسة من الشرطة العسكرية. غادرت السيارة منزل برُوز وانعطفت نحو اليمين تجاه مفرق الطرق القريب، وبعد عدة مئات من الأمتار أخذ الموكب مساراً ضيقاً إلى اليسار يؤدى إلى الطريق الذى يصل لوانو باليزابتفيل، ثم انحرف يساراً ثانية إلى الطريق الإسفلتية نحو جدتفيل. عبر الموكب الأرض المعشوشبة وقرى كيمب ولوكونى وهى مركز مناجم، وتومبوى ومحطة تشيلاتيمبو. انطلقت السيارات الأمريكية بأقصى سرعة، ووجدت سيارات الجيب صعوبة فى اللحاق بها، وبعد تشيلا تيمبو بستة كيلو مترات وصلوا إلى مفترق طرق. تبع الموكب درباً إلى اليمين تؤدى إلى موادينغوشا المشهورة بشلالات (كُرنيه/ Cornet) ومحطة إميل فرانكوى الكهرمائية، وهى منطقة مستنقعية وموطن لأسراب كثيرة من الطيور. وعلى بعد ثلاثمئة متر وصل الموكب إلى فسحة فى الأراضى المشجرة. كانت الساعة العاشرة وخمسة وأربعين دقيقة ليلاً: استغرقت مسافة الخمسين كيلو متراً أقل من ٤٥ دقيقة.



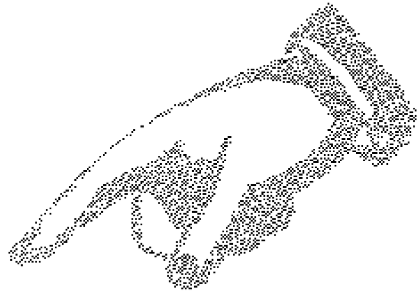
بعد ذلك بوقت قصير أُخرج السجناء من السيارة. كانوا حفاة ولا يرتدون سوى بناطيلهم وستراتهم. أزال فرشير القيود. كان يسير خلف لومومبا الذى سأله: «ستقتلوننا، أليس كذلك؟»، وكان رد فرشير ببساطة: «نعم». كانت هذه الكلمات الوحيدة التى جرى تبادلها مع السجناء منذ غادروا منزل برُوز. وبحسب فرشير تقبل لومومبا بجراءة إعلان موته الوشيك.

وقف السجناء على الممر يحيط بهم الجنود ورجال الشرطة. قال فرشير: كانوا لا يزالون واقفين، أى إنهم قد تحملوا آثار الضرب فى الساعات السابقة. أخبرهم فرشير أن الرصاص سيطلق عليهم. وبحسب غات «جرى إعطاؤهم الوقت للاستعداد، ليقولوا صلواتهم». قال فرشير إن لومومبا رفض العرض. وفى تلك الأثناء استعدت فرقة إطلاق النار الأولى المكونة من جنديين وشرطيين. كان الشرطيان يحملان بندقيتين رشاشين من نوع (Vigneron)، وكان الجنديان يحملان بندقيتين من نوع (FAL)، ويبدو أن أحداً ترنم بلحن محلى. أخذ فرشير جوزف أُكيت إلى شجرة، وبحسب الأول، قال الثانى: «أريد أن تعتنوا بزوجتى وأولادى فى ليبُلدفيل». لكن أحدهم أجاب: «نحن فى كَتَنْغا ولسنا فى ليو». اتكأ أُكيت على الشجرة ووجهه نحو فرقة القتل المستعدة على بعد ٤ أمتار. انهمر وابل قصير من الرصاص، سقط على إثره نائب رئيس مجلس الشيوخ السابق ميتاً. ورمى جثمانه فى القبر فوراً. وبعد «الصغير» جاء دور «الكبير» كما قال فرشير لاحقاً. أسند المفوض مويس مبُل إلى الشجرة، وكانت جولة جديدة من الرصاص من فرقة أخرى للقتل أوقعته أرضاً. وأخيراً واجهت زمرة قتل ثالثة لومومبا. قال فرشير، الذى أخذه إلى الشجرة لاحقاً، إن لومومبا كان يرتجف عندما اقتيد إلى طريق القبر لكنه كان «صامتاً، مذهولاً تماماً، وعيناه زائغتان ولم يُبد أى مقاومة. وابل هائل من الرصاص.. جسد رئيس الوزراء السابق أصبح كالغربال لكثرة ثقوب الرصاص. بعد التنفيذ، التقطنا نحو نصف كيلو غرام من الرصاصات الفارغة. وعندما زار برُسين المنطقة بعد سبع وعشرين سنة. كانت الشجرة الكبيرة لا تزال مثقّبة بالرصاص.

كان لومومبا يعلم علم اليقين أنه قد كُتب عليه الموت قتلاً. قبل عدة أشهر كان قد قال: «إذا مت غداً فسيكون السبب أن أبيض قد سلّح أسود». فى اليوم الذى مات فيه، لم يكن لومومبا قد بلغ السادسة والثلاثين من العمر، بعمر روبسبير (Robespierre) نفسه، ذلك المدافع الآخر عن دولة أمة حديثة عندما مات هو الآخر.



كتاب الزاوية



أوراق السنهورى

نهضة الشرق الإسلامى

ليون ١٩٢٣

يطلب الشرق من الغرب أن يتحمل قسطه من المسئولية فى مدنية العالم وفى تقدم العلوم البشرية. وهو طلب عادل لا يستطيع الغرب أن ينكره على الشرق، وهو واجب على الشرق قام به فى الماضى وحالت دونه فترة خمول يستيقظ الآن منها ليواصل مجهوده. ويقول الشرق للغرب إن من مصلحتك أن أستيقظ أنا من نومى. فما جلب الحروب والرزايا على الغرب إلا نوم الشرق وصلاحيته لأنه يكون محلاً للتنازع بين أمم الغرب. فإذا نهض الشرق انعدمت أسباب أغلب الحروب التى تقوم فى أوروبا. إذن فمن مصلحة الغرب أن يقوم الشرق، والأمم الغربية الرشيدة لا ينقصها لتدرك هذه الحقيقة إلا أن تراجع التاريخ ولا ينقاد لآراء الحكومات والمستعمرين والماليين والتجار. ثم يقول الشرق لأبنائه إن نهضتى هى نهضة دين وتقوم على سائر الأديان فإنى مقر الأديان الثلاثة، وكلها من عند الله، وهى نهضة لجميع الأمم الشرقية على اختلاف أديانها، وكل أمة تقوم بشأنها، مع عقد محالفات بين الأمم الشرقية من شأنها أن تقوى الروابط العلمية والاقتصادية والسياسية. فهل قدر الله للأمة المصرية أن تعطى مثالاً صالحًا للأمم الشرقية فى ذلك؟

وليس قيام الشرق معناه شن الحرب ضد الغرب، وليس فى نهضة الشرق ما يتناقض مع الاستفادة من علوم الغرب ومدنيته، بل لا يزال الشرق حتى الآن فى حاجة إلى ذلك والشرق يستعين فى قيامه بما استفاده من مدنية الغرب كما استعان هذا فى نهضته من قبل بمدنية الشرق.



عاشق الموشحات



إلياس سحاب

دراسة التجربة الفنية التى خاضها الفنان فؤاد عبد المجيد المستكاوى على امتداد النصف الثانى من القرن العشرين، مركزًا على تلحين ما يزيد على المائة موشح ذات الأشكال التقليدية الصارمة، والمضمون الصارخ فى حداثته، يمكن أن يشكل مدخلاً إلى عدد متشعب من القضايا النظرية التى تشغل بال النقاد والمثقفين والفنانين المنشغلين بهموم التدهور الثقافى العام الذى نعيشه مع نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادى والعشرين، وهو التدهور الذى يبدو أشد ما يكون صراحة فى مجال الموسيقى والغناء. غير أن أبرز ما يلفت الاهتمام فى هذه القضايا المتشعبة عند دراسة تجربة الموشحات العصرية للفنان فؤاد عبد المجيد المستكاوى، قضيتان نظريتان بالغتا الأهمية:

١ ـ إمكانية ظهور وبروز تجربة فنية بالغة الغنى والعمق والجدية، فى مرحلة من مراحل الانحطاط الثقافى والفنى العام.

٢ ـ الإمكانية الدائمة للانطلاق من أشد الأشكال الفنية كلاسيكية، لطرح أشد المضامين الفنية حداثة.

بالنسبة للمسألة الأولى، فإننا إذا اتفقنا على أن مسيرة النهضة الموسيقية والغنائية العربية المعاصرة والمتعددة المراحل قد انطلقت وبقيت محتفظة بزخم تاريخى غريب فيما بين ١٨٧٥ و١٩٧٥، فإن ظهور ثمار تجربة المستكاوى فى الموشحات العصرية قد بدأ فى عام ١٩٨٠، أى عندما كانت النهضة المعاصرة للموسيقى العربية قد بدأت مرحلة الانحسار.

ولكن قبل الوقوع فى المبالغات وفى البحث عن الظهيرة فى الساعة الثانية بعد الظهر (كما يقول الفرنسيون)، فإننا نذكر بأن فؤاد عبد المجيد المستكاوى ولد فى عشرينيات القرن العشرين (١٤/٥/١٩٢٦)، وتشرب أصول الموسيقى العربية الكلاسيكية بمختلف ألوانها التقليدية والحديثة فى حضن مرحلة النصف الأول من القرن العشرين، كما أن ملكة تلحين الموشحات الكلاسيكية الشكل الحديثة المضمون قد بدأت تظهر لديه منذ مطلع الخمسينيات، ولم ينقطع منذ ذلك الحين عن نظم وتلحين تلك الموشحات، بإصرار ومثابرة من خارج سياق الأنماط السائدة فى ساحة الموسيقى والغناء العربيين، حتى فى أواخر مرحلة النهضة فى الربع الثالث من القرن العشرين (١٩٥٠ ـ ١٩٧٥)، إلى أن حانت لحظة الظهور العلنى لذلك النتاج المتراكم لفؤاد عبد المجيد المستكاوى من الموشحات العصرية على يد فرقة رضا والموسيقار عبد الحليم نويرة، فى اللحظات الأولى من بداية عام ١٩٨٠، على شاشة القناة الأولى للتليفزيون المصرى.



وتلك قصة تستحق التسجيل بتفاصيلها الأساسية لأنها جاءت لتنهى عند المستكاوى نصف قرن من هواية الموسيقى فى الظل وخارج إطار النتاج الموسيقى المتداول، وهو هواية كان من الممكن أن يعيش المستكاوى فى ظلها حتى نهاية العمر، لولا الظروف التى تدخلت فى وقت متأخر لتدفعه من ظل الهواية إلى أضواء الاحتراف العلنى، الذى ظل المستكاوى عاجزًا عن التمرس بتقاليده وقواعده، حتى وهو فى ذروة شهرته، كما سنرى.

انخرط فؤاد عبد المجيد المستكاوى منذ عقد الأربعينيات فى دراسة أشكال الموسيقى العربية الكلاسيكية على يد أحد أساتذتها المخضرمين، الموسيقار صفر على، زميل محمد عبد الوهاب فى دراسة قواعد الموسيقى العربية فى نادى الموسيقى الشرقى (مع فارق السن الكبير فيما بينهما) وأحد أبناء الأسر المصرية ذات الأصول التركية، مما جعله ينتمى إلى مجموعة المحافظين المتشددين فى مواجهة النهضة الموسيقية العارمة التى انطلقت بعد ظهور ورحيل سيد درويش. هذه الخلفية التى انطلق منها صفر على (أستاذ المستكاوى) جعلته واحدًا من رعيل الخبراء فى كل الأشكال التقليدية للموسيقى العربية والتركية بأشكالها الآلية والغنائية. ويبدو أن المستكاوى الذى زامل الموسيقار كمال الطويل فى الدراسة على صفر على، قد اتصل أيضًا من وقت مبكر بذلك الرعيل من حفظة تراث القرن التاسع عشر خاصة فى مجال الموشحات والأدوار، من أمثال درويش الحريرى وإبراهيم شفيق وفؤاد محفوظ وسواهم، (وهو رعيل كانت تعج به الأوساط الموسيقية فى القاهرة وحلب والقدس، حتى منتصف القرن العشرين) مما كان له أثر واضح فى تعلق المستكاوى بفن الموشحات بشكل خاص.

غير أن كل هذه الخلفية الدراسية بقيت بالنسبة لنشأة فؤاد عبد المجيد المستكاوى فى مجال الهواية المحضة، فقد انصرف إلى جانب تلك الهواية، لدراسته الجامعية فى مجال الهندسة الزراعية (كيمياء زراعية) التى ظلت مهنته التى يحترفها ويمارسها ويتعيش منها، حتى آخر أيامه (نلاحظ أن الموسيقار محمد الموجى هو أيضًا خريج كلية الزراعة).

ولكن ذلك لم يمنع هواية الموسيقى لدى المستكاوى من النمو والازدهار فى مجال إبداع الموشحات طيلة عقود ثلاثة بين أول الخمسينيات وآخر السبعينيات. لم يكن المستكاوى يكتفى فيها بتلحين الموشحات، بل كان ينظمها شعرا، بأشكال متعددة تكشف عن تعمقه بفن الموشحات بصيغه الأندلسية القديمة، إضافة إلى تعمقه بألحان أرباب الموشحات المعاصرين وعلى رأسهم كامل الخلعى الذى نظم ولحن مئات الموشحات المخضرمة بين القرنين التاسع عشر والعشرين، وإن كان المتداول منها فى التسجيلات المعروفة لا يتجاوز العشرين موشحًا، للأسف الشديد.

ولم يكن المستكاوى يكتفى بتلحين ما ينظم من موشحات، ولكنه كان يغرف من خزانة الموشحات الأندلسية التراثية ويلحن ما يروق له منها ويستهويه، بل إن هواية الموشحات سيطرت عليه إلى درجة أنه كان يتفنن أحيانًا باختيار أشعار موشحات معروفة، إما من التراث القديم، أو من موشحات معروفة لسيد درويش مثلاً، فيعيد تلحينها بمزاجه الخاص. ومن أشهر تلك الموشحات التى أعاد المستكاوى تلحينها، موشح سيد درويش الشهير «منيتى عز اصطبارى»، إضافة إلى الموشح التراثى المعروف «يا ليل الصب متى غده»، اللذين أعاد تلحينهما بصيغتين مختلفتين من مقامين موسيقيين مختلفين.

ظل المستكاوى يمارس هذه الهواية التى سيطرت عليه سيطرة كاملة، ثلاثة عقود كاملة فى

لم يكن فؤاد عبد المجيد يكتفى بتلحين ما ينظم من موشحات، ولكنه كان يغرف من خزانة الموشحات الأندلسية التراثية ويلحن ما يروق له منها، بل إن هواية الموشحات سيطرت عليه إلى درجة أنه كان يتفنن أحيانًا باختيار أشعار موشحات معروفة







ما أن استمع نويرة إلى الموشح الأول، حتى انطلق يطلب الاستماع من عبد المجيد إلى المزيد، فطالت الجلسة بأكثر مما كان مقرراً لها. وكانت الحصيلة أن اختار نويرة ثمانية موشحات لتوزيعها أوركسترالياً



سرية شبه تامة، بمصاحبة رفيق عمره عازف العود المبدع (الذى بقى هو الآخر يعيش فى ظلال الهواية) محمد مدكور، المشهور بين أصدقائه باسم حمادة مدكور، وهو ذو خيال موسيقى وتقنية فى العزف نابعين من المدرسة الوهابية بشكل واضح.

ويبدو أن شقيق الفنان فؤاد عبد المجيد المستكاوى، وهو من النشطاء السياسيين يساريى الميول، قد أحس بأن شقيقه الفنان يبالغ فى الاختفاء فى ظلال الحياة الفنية، فقرر أن يتخذ هو المبادرة المطلوبة، نيابة عن شقيقه، وقادته صداقاته الخاصة إلى على رضا، مدير فرقة رضا الشهيرة للفنون الشعبية، ذات يوم من عام ١٩٧٩.

ويبدو أن على رضا قد ذهب على مضض، ومن باب المجاملة وحدها، إلى الموعد المضروب للاستماع إلى ذلك اللحن والمغنى الهاوى الذى يلحن ويغنى الموشحات، فقد كان فن الموشح فى ذلك الزمن قد انقرض بحيث لا يتم تداوله إلا من خلال النماذج التراثية التى توقف الملحنون والمغنون عن النسج على منوالها منذ عقود طويلة.

غير أن على رضا سرعان ما أصيب بالانبهار من النماذج التى استمع إليها، فقرر فوراً نقل هذا الانبهار إلى الموسيقار عبد الحليم نويرة، الذى كان فى ذلك الوقت يأخذ على عاتقه مهمة حضارية رائدة، بإحياء كل أنماط الموسيقى العربية الكلاسيكية من خلال فرقة الموسيقى العربية (التى أصبحت اليوم تحمل اسمه فى إطار دار الأوبرا المصرية).

وقد قدر لى أن أستمع إلى شرح تفصيلى مباشر من صاحب العلاقة (الفنان المستكاوى)، عن اللقاء الأول الذى تم بينه وبين عبد الحليم نويرة، وكان سبباً فى خروج تجربته الثرية فى مجال الموشحات العصرية من الظل إلى النور. فأكد لى أن عبد الحليم نويرة جاء وهو غير مصدق أن هناك من يقوم فى أواخر القرن العشرين، بتلحين موشحات ذات قيمة موسيقية، لذلك ظل يميع الجلسة بأحاديث جانبية، ما أن ينتهى من حديث جانبى حتى يواصله بآخر، حتى كادت الجلسة تنتهى من غير التطرق إلى موضوعها الأصلى: الاستماع إلى الموشحات الجديدة. غير أن إصرار المضيف على رضا حال دون تلك النهاية السخيفة للجلسة، وما أن استمع نويرة إلى الموشح الأول، حتى انطلق يطلب الاستماع إلى المزيد، فطالت الجلسة بأكثر مما كان مقرراً لها. وكانت الحصيلة أن اختار نويرة ثمانية موشحات لتوزيعها أوركسترالياً بما يناسب تحويلها إلى لوحات راقصة تؤديها فرقة رضا.

تلك كانت الحلقة الأولى فى عالم الشهرة والاحتراف، لحقتها حلقات أخرى فى خطين متوازيين:

- خط إنتاج الأشرطة التجارية، التى سنتطرق إليها بالتفصيل فى القسم الثانى من هذه الدراسة، للاطلاع على الأشكال المختلفة التى ظهرت بها موشحات المستكاوى فى حلتها الموسيقية المتداولة.

- خط الأداء الحى على المسرح. ولا نبالغ هنا إذا قلنا أن موسيقياً واحداً قد افتتن بموشحات المستكاوى، وثابر على تقديمها بشكل متواصل فى حفلات مسرحية حية، هو قائد الأوركسترا سليم سحاب، الذى بدأ يقدم موشحات المستكاوى قبل اتصاله الشخصى به، وقبل سنوات طويلة من انتقاله الدائم إلى القاهرة، من خلال فرقة بيروت للموسيقى العربية، ثم من خلال فرقة أم كلثوم التى قادها سنتين متواصلتين فى أكاديمية الفنون بالقاهرة، فى بداية رحلته المصرية، والفرقة القومية العربية للموسيقى التى أسسها ومازال يقودها فى إطار دار الأوبرا بالقاهرة.

غير أن هذا النشاط الذى توزع بين الأشرطة التجارية والحفلات الحية، لم ينجح فى نهاية الأمر فى دفع المستكاوى (الذى توفى فى أول تموز/ يوليو ١٩٩٤، وبقيت على اتصال شخصى وفنى دائم به فى سنوات عمره الخمس عشرة الأخيرة) إلى دخول كامل لدنيا الاحتراف الموسيقى، وذلك لأسباب ذاتية، تعود إلى طباعه الانطوائية الأقرب إلى التصوف، الذى لم يكن المستكاوى بعيداً عن أجوائه، وأسباب أخرى موضوعية وعامة، أهمها أن أعمال المستكاوى لم تحظ بالإجماع على الإعجاب بها، بل إن بعض الأوساط الموسيقية الأكاديمية فى القاهرة ظلت على عدم اعترافها بتجربة المستكاوى على أنها حلقة حديثة متطورة فى الموشح، لأنها بقيت متمسكة بحرفية القواعد القديمة، التى كانت تجربة المستكاوى كثيراً ما تخرج عنها، سواء فى الإيقاعات التقليدية للموشح، أو فى المقامات الأكثر شيوعاً فى الموشحات التقليدية (من هؤلاء الرافضين للاعتراف بتجربة المستكاوى فى الموشحات المؤرخ الموسيقى الراحل محمود كامل، صاحب البرنامج الإذاعى الشهير «ألحان زمان»). علماً بأن موسيقياً فى وزن محمد عبد الوهاب، قد اهتم كثيراً بمتابعة تجربة المستكاوى عن بعد وحتى عن قرب، إذ أن من الثابت أن جلسة فنية مطولة قد جمعت الاثنين فى منزل الإذاعى الراحل جلال معوض، بطلب شخصى من محمد عبد الوهاب، الذى ظل يستعيد ما يعجبه من ألحان المستكاوى، حتى وصل إلى حالة من الوجد الموسيقى (كما روى لى الفنان حمادة مدكور الذى كان عازف العود فى تلك الجلسة) فغادر عبد الوهاب السهرة منفرداً وهو فى حالة شرود فنى واضح.

الخصائص الموسيقية لموشحات المستكاوى

من المؤكد أن الغوص فى أعماق الخصائص الموسيقية لموشحات المستكاوى يمر بخطين متوازيين:

١ - خط دراسة التسجيلات الرسمية لعدد محدود من تلك الموشحات، وهى حسب علمى (وحسب مكتبتى الموسيقية) تتلخص فى أربعة أشرطة، هى التالية، وفقاً لتاريخ ظهورها:

أ - شريط موشحات المستكاوى لفرقة رضا، توزيع وقيادة عبد الحليم نويرة، ويتضمن هذا الشريط ثمانية موشحات: يا غريب الدار، لحظ رنا، لى ليال طوال (غناء المستكاوى)، عجباً لغزال، يا من نشا، قف يا هوى (غناء عمر فتحى)، لاه تياه، آه لقلبى والقمر (غناء المجموعة).

ب - شريط «دعانى»، توزيع مصطفى ناجى، ويتضمن سبعة موشحات، كلها من غناء فؤاد عبد المجيد المستكاوى: حيرنى الهوى، لوجهك السنى، هل درى من يشكو حبى، دعانى، يا ليل الصب (لحن خاص للمستكاوى)، ساقى بنت الحان، أمن الفراق جنون فى مخيلتى.

جـ - شريط عفاف راضى، وقام بتوزيع الموسيقى فيه وتنفيذها عمر خيرت. وقد تضمن هذا الشريط ستة موشحات (إضافة إلى إعادة موشح يا ليل الصب من شريط مصطفى ناجى): أبأفكارى، كم فى الغربة، حبى منيتى، فتن الذى، يا شادى أسمعنا، يا منيتى يا مهجتى.

د - شريط منوعات بصوت المستكاوى، توزيع كل من سامى يحيى وهانى الشبراويشى، تضمن أربع أغنيات عادية، وأربعة موشحات: الأنى أحبك، يا ذا الجمال البديع، أشرق يا طلعة البدر، يا ذا الجمال الساحر.

٢ - خط دراسة الرصيد المتبقى من موشحات المستكاوى التى لم تنفذ بعد، والموجودة تسجيلاتها بصوت المستكاوى نفسه، يرافقه فى العزف على العود توأمه الفنى وحافظ كل ألحانه الفنان الهاوى محمد مدكور.

ووجه الخلاف الكبير بين هذين الخطين، اللذين تعمدنا التمييز بينهما لأسباب موضوعية (كما سنرى) وليس فقط لأسباب شكلية، هو أن شخصية الموزع الموسيقى، خاصة فى الأشرطة الثلاثة الأولى، طغت إلى حد ما على الشخصية الأساسية للملحن. وربما يكمن تفسير ذلك، فى رأيى، بأن المستكاوى، برغم موهبته التلحينية البارزة، بقى يصنف نفسه، حتى آخر أيامه، فى خانة الهواة، فإذا أضفنا إلى ذلك صفات الحياء والانطواء التى كانت تطبع شخصية المستكاوى، أمكننا أن نستنتج بأن لقاءه مع الفنانين الثلاثة الذين تولوا توزيع موشحاته لطبعها على أشرطة، كان يدفعه إلى منح الموزعين حرية العمل الكاملة، دون تدخل منه ودون توجيهات فنية مسبقة تجعله مسئولاً عن دقة ترجمة أفكاره الموسيقية عند توزيعها، خاصة أن الموزعين الثلاثة كانوا من الشخصيات الموسيقية المحترفة المرموقة والمشهورة. ولعل سبباً آخر دفع المستكاوى لهذا الموقف السلبى هو إحساسه بأن الآفاق الأوركسترالية التى كان يضع ألحان موشحاته فى إطارها الواسع، كانت أبعد من متناول قدراته العلمية فى الكتابة للأوركسترا، فيترك هذه المهمة بتفويض كامل لمن كان يتولاها.





فؤاد عبدالمجيد أكثر الوشاحين العرب المعاصرين التزامًا صارمًا بالشكل التقليدى للموشح وعدم الخروج عنه



لكن النتيجة العملية لهذا الموقف خرجت بنتيجة فنية فيها الكثير من الالتباس والبلبلة، ذلك أن التوزيع فى حالة الأشرطة الثلاثة الأولى، جاء أقرب إلى الترجمة الفنية لشخصية الموزع، من الشخصية الفنية للملحن، على عكس ما كان يحصل عمليًا فى التعامل بين شخصية موسيقية أخرى كبيرة (محمد عبد الوهاب) وكل الموزعين الموسيقيين المرموقين الذين تعامل معهم طوال حياته الفنية المديدة، فكان يوازن بين الإفادة الكاملة من علمهم وذوقهم الموسيقى، دون السماح لأى منهم، مهما كان حجمه العلمى بالخروج عن إطار الشخصية الفنية والخيال الفنى لعبد الوهاب الملحن.

وهكذا، فقد جاء الشريط الذى وزعه نويرة، بإيجابيات كثيرة أضيفت إلى ألحان المستكاوى، أهمها ذلك التوازن الرائع بين لغة الأوركسترا الكبيرة (التى كان نويرة سيدًا من سادتها) ولغة الإيقاعات العربية الغنية، التى تعتبر أساسًا فى روح الموشحات وفلسفتها اللحنية، ولكن نويرة ذهب أبعد مما يجب فى إضافة لوازم مطولة لبعض الموشحات، تجاوزت - برأيى - شخصيتها اللحنية الأساسية، حتى خرجت أحيانًا من تلك الشخصية.

أما شريط مصطفى ناجى، فقد أحسن هو الآخر وضع الأوركسترا الكبيرة فى خدمة المادة اللحنية لموشحات المستكاوى، ولكنه بالغ فى صياغة اللوازم الموسيقية التى لم تلائم طبيعة الألحان الأصلية إلا فى مواقع قليلة، كما أنه أهمل إهمالاً كاملاً روح الإيقاعات العربية الملازمة تمامًا لروح الموشحات، فكان ذلك العيب الأكبر فى هذا الشريط، الذى قلل كثيرًا من جماليات استخدام الأوركسترا الكبيرة، التى تجلت فى معالجة ناجى لألحان المستكاوى.

الشريط الثالث لعمر خيرت جاء تعبيرًا عن طلاق كامل بين شخصية عمر خيرت التى تجلت (كعادته دائمًا) فى نظافة التنفيذ الأوركسترالى، وشخصية المستكاوى الفنية، فجاء توزيع خيرت خارجًا بالكامل عن إطار اللغة اللحنية واللغة الإيقاعية لموشحات المستكاوى، فتاه صوت عفاف راضى فى هذا التناقض بين الطبيعة العربية للحن، والطبيعة المتغربة للتوزيع، بما لا يناسب أبدًا الجماليات اللحنية والإيقاعية العربية لموشحات المستكاوى، مع كل حداثتها.

أما الشريط الرابع، فيكاد يكون ترجمة موسيقية متواضعة لجلسة غناء منزلية، بحيث لم يحمل أى إضافة أوركسترالية تذكر للمادة اللحنية للمستكاوى.

فإذا عدنا بعد ذلك إلى الرصيد العام لموشحات فؤاد عبد المجيد المستكاوى، فإننا نلاحظ أن ما نفذ منها بالأوركسترا والغناء، فى الأشرطة الأربعة المذكورة، يبلغ تعداده الخمسة والعشرين موشحًا. أما ما أملكه فى مكتبتى من تسجيلات بصوت المستكاوى وعود حمادة مدكور، فى عدد من الجلسات المنزلية المطولة فى القاهرة (وهى حتمًا أقل من مجموع موشحاته)، فيشير إلى أن ما نفذ على أشرطة تجارية قد لا يتجاوز ربع ما وضع المستكاوى من موشحات.

كذلك، تجدر الإشارة إلى أن قائد الأوركسترا سليم سحاب، كان فى كل معالجاته الموسيقية لموشحات المستكاوى على المسرح، لا يلتزم بخط توزيعى واحد، ولكنه يلتزم فى كل موشح (كعادته عند المعالجة التوزيعية لأى لحن عربى) بالشخصية الموسيقية للحن، فيقدم بعض الموشحات بعزف أقرب إلى التخت الموسيقى العربى التقليدى (مثل موشح يا راعى الظبا) لأن المادة اللحنية لا تتطلب سوى ذلك، بينما يذهب فى استخدام الأوركسترا الكبيرة إلى آخر مدى، عندما تفرض المادة اللحنية ذلك (مثل موشح لحظ رنا)، ولكن بالتزام تام باللحن، بما لا يغير صورته الأصلية، بل يحافظ عليها، مع حرص واضح ودائم على عنصر الإيقاع العربى، الذى يعتبر عصبًا حيويًا فى المادة اللحنية للموشح.

فإذا عدنا من كل هذه الحصيلة العملية، إلى محاولة استكشاف الخصائص الموسيقية لموشحات فؤاد عبد المجيد المستكاوى، اعتمادًا على كل هذه التسجيلات، وعلى ما بين أيدينا من تسجيلات منزلية تعتبر المادة الخام الأصلية لموشحات المستكاوى، فإن بإمكاننا الخروج بالملاحظات الأساسية التالية:

كذلك، تجدر الإشارة إلى أن قائد الأوركسترا سليم سحاب، كان فى كل معالجاته الموسيقية لموشحات المستكاوى على المسرح، لا يلتزم بخط توزيعى واحد، ولكنه يلتزم فى كل موشح (كعادته عند المعالجة التوزيعية لأى لحن عربى) بالشخصية الموسيقية للحن، فيقدم بعض الموشحات بعزف أقرب إلى التخت الموسيقى العربى التقليدى (مثل موشح يا راعى الظبا) لأن المادة اللحنية لا تتطلب سوى ذلك، بينما يذهب فى استخدام الأوركسترا الكبيرة إلى آخر مدى، عندما تفرض المادة اللحنية ذلك (مثل موشح لحظ رنا)، ولكن بالتزام تام باللحن، بما لا يغير صورته الأصلية، بل يحافظ عليها، مع حرص واضح ودائم على عنصر الإيقاع العربى، الذى يعتبر عصبًا حيويًا فى المادة اللحنية للموشح.



فإذا عدنا من كل هذه الحصيلة العملية، إلى محاولة استكشاف الخصائص الموسيقية لموشحات فؤاد عبد المجيد المستكاوى، اعتمادًا على كل هذه التسجيلات، وعلى ما بين أيدينا من تسجيلات منزلية تعتبر المادة الخام الأصلية لموشحات المستكاوى، فإن بإمكاننا الخروج بالملاحظات الأساسية التالية:

١ - مع أن بين ملحنى الموشحات فى مصر فى القرن العشرين فيما قبل جيل المستكاوى، أسماء الملحنين من رعيل الكلاسيكيين الكبار مثل كامل الخلعى وداود حسنى وسيد درويش حتى أحمد صدقى، فإن المستكاوى يتميز بحرص بالغ على التمسك بالشكل الأكثر كلاسيكية للموشح المعتمد على الصيغة التالية: أ - أ - ب - أ. وربما يعود الأمر فى ذلك إلى احترام شديد من المستكاوى للشكل التقليدى للموشح، وعدم المغامرة بالخروج عنه، كما فعل كبار الكلاسيكيين الذين سبقوه، ربما لأن جرأتهم كانت نابعة من كون الموشح شكلاً حيًا أليفًا كثير التداول فى أيامهم، على عكس حالة الموشح عندما اقترب منه المستكاوى. ولعل هذه الميزة قد تجاوزت عند المستكاوى، حدود العنصر الشكلى، فقد ساعده هذا الالتزام الصارم بأكثر أشكال الموشح تقليدية، فى تطوير أفكاره الموسيقية الحديثة بأوسع ما يمكن من الآفاق، عكس ما يوحى به الالتزام الصارم بالشكل التقليدى. وقد يكون المستكاوى أكثر الوشاحين العرب المعاصرين التزامًا صارمًا بالشكل التقليدى للموشح وعدم الخروج عنه.

٢ - فإذا انتقلنا من الشكل إلى المادة اللحنية فى موشحات المستكاوى، فإن هذه المادة تتميز فى الغالب الأعم بحداثة لافتة للنظر، سواء فى المقامات المستخدمة، أو فى تتالى التركيبات الموسيقية داخل الجمل اللحنية، وهى تتاليات نابعة كلها من مدرسة القرن العشرين فى الموسيقى العربية، وخاصة خط محمد عبد الوهاب، حتى أننى كنت أداعب المستكاوى فى جلساتنا الخاصة، فأقول له أن إدمانى على الاستماع لموشحاته يجعلنى أحس كلما استمعت لموشح جديد منه، أن هذه موشحات من ألحان محمد عبد الوهاب، أو أتخيل أن عبد الوهاب (الذى تعمد عدم الخوض فى تلحين الموشحات) لو أراد العودة عن قراره هذا، وأقدم على تلحين الموشحات، لجاءت موشحاته على طريقة المستكاوى. وكان المستكاوى يقابل ملاحظتى هذه، كلما استمع إليها، بالرضا العميق، ويعتبرها إطراء كبيرًا.

والحقيقة أن محمد عبد الوهاب، الذى استمع بإمعان لتجربة المستكاوى، لم يخف فى لحنين من ألحانه الكبيرة لوردة تأثره الواضح بأجواء موشحات المستكاوى، خاصة فى مقطع «آه يا قلبى آه»، المقطع الثالث من لحنه الكبير لوردة «أنده عليك»، ومقطع «ذكرياتى يا ذكرياتى»، المقطع الأول من لحنه الأخير لوردة «بعمرى كله حبيتك»، وكانت تلك ظاهرة وهابية معروفة، يتأثر بمجايليه وبتلاميذه، كما تأثر بكل ما استمع إليه من موسيقى الأجيال السابقة له، فى الموسيقى العربية والأوروبية.

أما فى المقامات الموسيقية، فإن المقامات الغالبة فى موشحات المستكاوى، هى النهوند والعجم والكورد والنكريز والنوى أثر، وكلها من المقامات الغالبة عند موسيقيى القرن العشرين العرب. غير أننى لا أوافق الذين كانوا يرون فى ذلك عجزًا أو ضعفًا فى عروبة المخيلة الموسيقية



فؤاد عبد المجيد عاشق الموشحات



للمستكاوى، فقد كان أستاذاً فى تلوين تلك المقامات الحديثة الاستخدام، بكل المقامات العربية التقليدية مثل الصبا والهزام والبياتى والراست، باقتدار لا يقدر عليه ضعيف أو عاجز. إضافة إلى أن خزانة المستكاوى من الموشحات لا تخلو أبداً من موشحات رائعة الجمال، من المقامات العربية التقليدية. وإن كانت تلك هى النسبة الأقل فى موشحات المستكاوى.

٣ - بالنسبة للإيقاعات، فقد سمح المستكاوى لنفسه، بعد الالتزام الصارم بالشكل التقليدى للموشح، أن يتحرر من صرامة الالتزام بالإيقاعات التقليدية، خاصة تلك الطويلة والمعقدة، فسمح لنفسه، تأثراً بالإيقاعات الفنية المتعددة التى ألف عليها كبار مجددى الموسيقى العربية فى القرن العشرين (تماماً كما فعل فى النسيج المقامى) بالتنويع الشديد فى استخدام الإيقاعات، فتراه فى بعض موشحاته ملتزماً تمام الالتزام بالإيقاعات التقليدية الطويلة للموشحات التراثية، ولكنه يخرج أحياناً إلى رحاب الإيقاعات الأقل استخداماً فى التراث القديم، والأكثر شيوعاً فى القرن العشرين، مقترحاً بذلك صيغة جديدة للموشح الجديد، الذى ينطلق من الأصول ولكنه لا يتردد فى اقتحام آفاق جديدة، تماماً كما فعل كبار مجددى الموسيقى العربية فى القرن العشرين، فى الأشكال الموسيقية الأخرى، كالقصيدة والمونولوج والطقطوقة.



٤ - لعل الحصيلة الأهم من كل ما سلف فيما تركه لنا فؤاد عبد المجيد المستكاوى من موشحات (وهى حصيلة لا تخفى على آذان كل مستمع متعمق لهذه الموشحات) هى المادة اللحنية التى يمكن وصفها بلا أى مبالغة بأنها فاحشة الثراء، فى عصر كدنا نعتقد فيه أن الينابيع اللحنية المتدفقة للموسيقى العربية قد جفت أو كادت. وهى مادة لحنية تكتسب مزيداً من الجمال، من أن ملحنها، بالإضافة إلى استناده إلى مخزونه الكبير من الموسيقى العربية التقليدية، قد اتجه نحو آفاق الأوركسترا الكبيرة، ومع أن المستكاوى لم يكن يوزع موشحاته بنفسه، فإن من يستمع إلى المادة اللحنية لموشحاته، سرعان ما يكتشف أنها جمل لحنية صيغت بخيال أوركسترالى. فهو فى ذلك، شأنه شأن محمد القصبجى ومحمد عبد الوهاب وسيد درويش من قبلهما فى ألحانه المسرحية، يلحن للأوركسترا قبل الصوت البشرى.

إن هذه الجولة السريعة فى رصيد موشحات فؤاد عبد المجيد المستكاوى، ما خرج منه للنور، وما بقى دفين التسجيلات المنزلية، تقودنا إلى مجموعة من الملاحظات:

١ - إن ما نفذ من موشحات المستكاوى لا يتجاوز فى اعتقادى ربع رصيده من الموشحات المرشحة كلها برأيى للموسيقى العربية، ولكنه يرى أن نهضة توازى ذلك العصر مؤجلة لنصف قرن ربما. إن موشحات المستكاوى متدفقة بمجموعها من ينابيع العصر الذهبى للموسيقى العربية المعاصرة، وإن تأخر ظهورها حتى ثمانينيات القرن العشرين.

٢ - الاقتراب من موشحات المستكاوى، ما عرف منها وما لم يعرف بعد، يتطلب ممن يتولى المعالجة الموسيقية أن يكون كامل الإلمام، أولاً وقبل أى شىء، بروح الموسيقى العربية التقليدية، وأن يضع علوم الأوركسترا الغربية الكبيرة فى خدمة المادة اللحنية الخالصة العروبة لهذه الموشحات، ولا يندفع إلى المعادلة المعاكسة، فيضع هذه المادة اللحنية الشديدة الغنى فى خدمة القوالب التوزيعية الغربية، خاصة عندما تكون هذه القوالب غير مناسبة لشخصية اللحن.

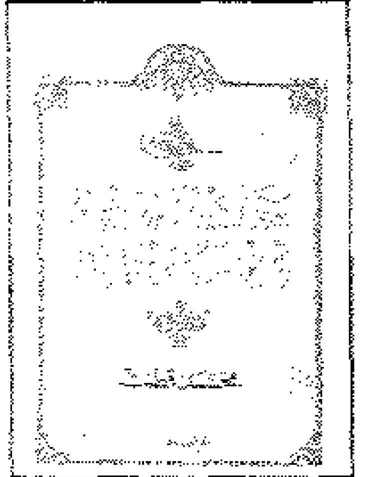
أما الذين يصرون على اعتبار تجربة المستكاوى خارج الإطار التاريخى لفن الموشحات العربية. فإنى أتساءل أمامهم: كيف يمكن لملحن يريد استئناف العمل على شكل الموشح فى النصف الثانى من القرن العشرين، أن يصم أذنيه عن كل الآفاق الموسيقية الهائلة التى ارتادها رواد الموسيقى العربية فى النصف الأول من القرن العشرين؟

يمكننا تلخيص ما فعله فؤاد عبد المجيد المستكاوى أنه هضم التراث التقليدى للموشحات، وهضم معه تراث النهضة الموسيقية العربية فى النصف الأول من القرن العشرين، وخرج من حصيلة التراثين العظيمين بصيغة جديدة فى الموشح العربى.

إنها تجربة مليئة بالمتعة للمستمع العربى، مليئة بالدروس للأجيال الجديدة من الموسيقيين العرب. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

مفاهيم ينبغي أن تصحح
محمـد قطـب
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ٣٨٠ صفحة



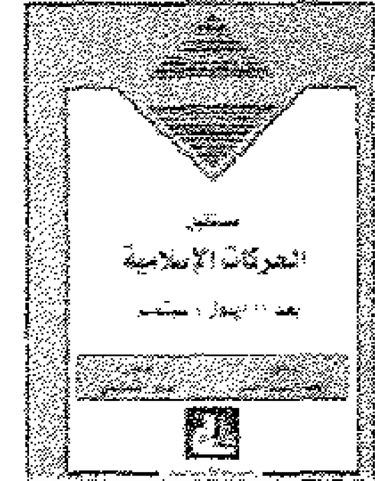
يعيش العالم الإسلامي مرحلة من أسوأ مراحله التاريخية، إن لم تكن أسوأ ما مر به في تاريخه كله. فلم تكن الأزمات الماضية تصيب المسلمين كلهم في وقت واحد في كل بقاع الأرض كما هو الحال في هذه المرة، ولم يكن الذل والهوان والضياع يشمل الأمة الإسلامية كلها كما شملها هذه المرة. ويؤكد المؤلف أن المؤامرات تحاك اليوم ضد الإسلام والمسلمين على نطاق القوة الدولية كلها مجتمعة، ولا شيء في هذا الوضع يحدث اعتباطاً، إنما يجري كل شيء في حياة البشر حسب سنة الله التي لا تتخلف ولا تحابي أحداً من الخلق. ومن سنة الله أنه لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ومن سنته أنه لا يحابي أحداً لكونه من «ذرية» قوم صالحين.

ولقد أنعم الله على الأمة الإسلامية بالتمكين والاستخلاف والتأمين، وفتح عليهم بركات من السماء والأرض، ثم تغير الحال من الاستخلاف والتمكين والتأمين إلى الذل والضعف والهوان والتشريد والتنكيل والتقتيل حين صاروا إلى الصورة التي أنذرهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذرهم منها: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: انتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل».

ويتساءل المؤلف: فما الذي تغير؟ وكيف حدث التغيير؟

يؤكد أنه قد حدثت انحرافات كثيرة في حياة المسلمين في مسيرتهم الطويلة خلال التاريخ، وكل انحراف في حياتهم عن المنهج الرباني كانت له ولا شك عاقبته البطيئة أو السريعة حسب نوع الانحراف، ودرجة تفشيه وموقف الأمة منه بحكامها وعلمائها وعامتها، حتى إذا وصل إلى حده الأقصى كانت عاقبته ما نراه اليوم من ضعف ومذلة وخوف بدلاً من الاستخلاف والتمكين والتأمين. وفي هذا الكتاب يرصد المؤلف الانحراف في سلوكيات المسلمين، والانحراف في «المفاهيم» وهو الانحراف الأخطر، ويواجه هذا الخطر بالمفاهيم الصحيحة، وتصحيح منهج التلقي لدى المسلمين.

مستقبل الحركات الإسلامية بعد ١١ أيلول «سبتمبر»
د. رفعت السيد أحمد
د. عمرو الشوبكي
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٥، ٣٨٢ صفحة



كان لأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ أثر كبير على المجتمع الدولي والعالمين العربي والإسلامي، وخاصة حركات الإسلام السياسي بكل أطيافها، السلمي منها والعنيف، الحركي والدعوي، المقاوم وغير المقاوم.

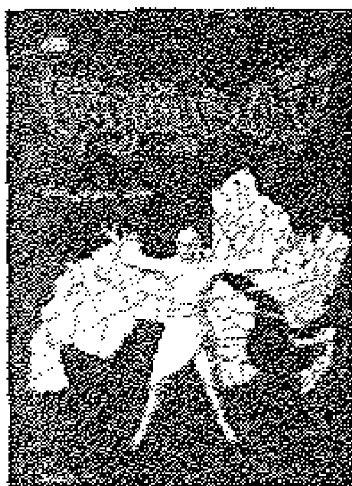
وفي هذا الكتاب يعالج مؤلفاه من وجهتي نظر مختلفتين، مواضيع متعددة تتعلق بالمنطلقات الفكرية لحركات الإسلام السياسي، والأحداث المرتبطة بها، ونماذج من تحولاتها ومواقفها، ثم مستقبلها. ويأتي هذا الكتاب في ظل تنام كبير للعداء ضد الولايات المتحدة التي تدعم إسرائيل بلا حدود، وبمباركة منها تنفذ مخططاً إجرامياً يهدف إلى إبادة جماعية للشعب الفلسطيني وانتزاع أرضه.

وقد جاء الكتاب في قسمين، الأول كتبه د. رفعت سيد أحمد في ثلاثة فصول، عرض الفصل الأول لواقع الحركات الإسلامية الفاعلة مشيراً إلى طبيعتها وأهدافها، ومبيناً لأبرز ملامحها، كما صور المناخ الذي برزت فيه خلال المستجدات الأخيرة التي يشهدها العالم. كما أشار في المقابل إلى عقيدة الرئيس بوش الابن التي تتصارع مع تلك الحركات. وتحدث في الفصل الثاني عن أبرز الأحداث المرتبطة بالحركات الإسلامية بدءاً بما حصل في تفجيرات سبتمبر وما تلاها من قرارات وأحداث وعمليات عسكرية أمريكية ضد هذه الحركات. وتوقف في الفصل الثالث عند نماذج من واقع الحركات الإسلامية في تحولاتها وعملياتها وردود الأفعال الناتجة، واتبع هذا القسم بملاحق وثائقية.

وجاء القسم الثاني الذي كتبه د. عمرو الشوبكي في ثلاثة فصول أيضاً، فتوقف في أولها عند كيفية قراءته للظاهرة الإسلامية قبل أحداث سبتمبر، وفي الفصل الثاني تحدث عن صعوبة اختزال مشهد الحركات الإسلامية في شبكة القاعدة وحدها، مستعرضاً أعمال وفكر تلك الجماعات وتوقف عند نجاحاتها، وتنبأ في الفصل الأخير بمستقبل تلك الحركات من خلال التصور الأمريكي ومن خلال الواقع العالمي.

وتتضمن نهاية الكتاب تعقيبين على البحثين كل من المؤلفين على الآخر، إضافة إلى الفهارس التفصيلية.

بـدة عيشوش
خالد عمر بن ققة
أبو ظبي: مؤسسة الإمارات للإعلام، ٢٠٠٥، ٢٣٠ صفحة



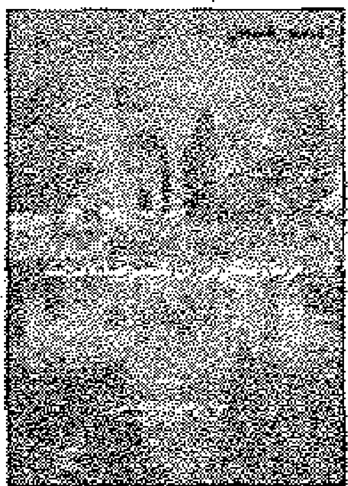
«بدة عيشوش».. رواية تتجاوز البوح الحذر إلى الإسقاط على الواقع العربي على مدى أربعة عقود.

ينتقل كاتب الرواية الجزائري من الالتزام بحدود وطنه الجزائر وهمومه كما هي الحال في روايته الأولى «الحب والتتار» حين كشف عن الوجه الآخر للإرهاب - مجتمعاً وثقافة وأمناً - إلى الهم القومي، من خلال طرح ثنائية القومية والإسلام، اقتراباً وابتعاداً، تعاوناً وصراعاً، من حيث الخروج والملجأ والانتماء.. يتم هذا كله عبر تناول العلاقات العربية المصرية على أصعدة القيادة والبطولة الحقيقية أو المزيفة خلال أزمنة الحرب والسلام بأسلوب أدبي يمزج بين الخيال والواقع.

تدور أحداث هذه الرواية في كل من الجزائر والقاهرة ودمشق وبغداد والدوحة، تتحرك في فضائها إحدى عشرة جنسية عربية مقبلة على حسب المعربين أو مدبرة.. بدايتها الانقلاب على الرئيس «أحمد بن بلة» ونهايتها سقوط «بغداد» امتداد هذه العقود الأربعة كان البطل في هذه الرواية يواجه قدره المحتوم منطلقاً من وحيه بدة عيشوش.. الرجل القروي الذي يدعي معرفة أسرار السياسة ويجمع حوله عدداً من الصبية الذين يتأثرون بكلامه وأفكاره، وهو يقول لهم في عبارة أقرب إلى الأمر العسكري: احذروا المصريين!

الرواية تصول وتجول في مناطق لم ترتدها رواية عربية أخرى تكشف الوعي الزائف لدى الكثيرين حول علاقة المصريين وبقية العرب، وتقدم صياغة جديدة لعلاقات عربية - عربية تقوم على الشفافية والمصير المشترك ووضع مستقبل أفضل لكل العرب.

ما بعد الجهاد - أمريكا والنضال من أجل الديمقراطية الإسلامية
د. نوح فلدمان
ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ
مصر: دار المريخ للنشر، ٢٠٠٤، ٤٣٢ صفحة



يفترض مؤلف هذا الكتاب أن الديمقراطية الإسلامية تتسم فعلاً بالحيوية والقابلية للتطبيق على أرض الواقع، ويعتقد أن الغرب - خاصة الولايات المتحدة الأمريكية - يجب أن يعمل على تشجيع الديمقراطية الإسلامية لا قمعها.

يقال غالباً إن تشجيع الديمقراطية في المجتمعات الإسلامية سوف يؤدي إلى إبعاد حلفاء أمريكا من الحكام الأوتوقراطيين، كما أن هذا التشجيع قد يؤدي إلى وصول الأصوليين للحكم وهو ما يشكل تهديداً للأمن القومي الأمريكي.. إلا أن فلدمان يحذر من أنه على المدى الطويل سيكمن التهديد الأكبر في استمرار دعم أمريكا لنظم الحكم التي فقدت مصداقيتها لدى المواطنين في الدول الإسلامية.

ويؤكد الكتاب أن الولايات المتحدة بوقوفها إلى جانب نظم الحكم التي تقمع مواطنيها سوف تخسر الكثير وأن الأفضل لها أن تقف بجانب الديمقراطيين المسلمين، وأن تربطهم بالمبادئ الديمقراطية التي تقول الولايات المتحدة إنها تدعمها، فتقلل بذلك من العداء لأمريكا وترسي قواعد متينة للسلام في الشرق الأوسط.

والكتاب في مجمله يعتبر استعراضاً لكثير من الحركات الإسلامية التي ترفض العنف الديني. وفي الوقت الذي أصبحت فيه المواجهة مع الإسلام هي القضية الشاغلة للسياسة الخارجية الأمريكية، يقدم نوح فلدمان خريطة لصياغة عمل ديمقراطي في منطقة أصبح فيها العمل ضرورة ملحة على نوح خاصة لنزع فتيل العنف وإرساء السلام في أرجائها.

والمؤلف وإن لم يتخذ موقفاً متطرفاً من الإسلام، إلا أنه ظل وفياً للتوجه الأمريكي السياسي العام نحو المنطقة، الذي يتفق عليه الجمهوريون والديمقراطيون على حد سواء.

الفصائل الفلسطينية من النشأة إلى حوارات الهدنة

المحرر : صبحي عسيلة
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٥ ، ٢٥٤ صفحة



شكل الصراع العربي - الإسرائيلي أحد أبرز نزاعات المنطقة، وتداخلت على ميادينه العسكرية والسياسية والقانونية والدبلوماسية والدينية فواعل عديدة تزيده تعقيداً على تركيب، على نحو بات يعرفه كل الذين اقتربوا بالمتابعة والرصد والتحليل لوقائع نزاعاته المركزية أو المتفرعة منها. صراعات ممتدة من ميادين القتال إلى قاعات للتفاوض في ظل عمليات التسوية.

وفي هذا الكتاب يقوم مؤلفوه وهم د. عماد جاد ومحمد فايز فرحات وسعيد عكاشة وعبيد ياسين وإبراهيم غالي ومحمد جمعة دراسة موثقة للفصائل الفلسطينية الرئيسية الخمس وهي: فتح وحماس والجهاد والجبهة الديمقراطية، ثم مناقشة الدور المصري في ترتيب البيت الفلسطيني. وهذه الدراسة تكتسب أهمية قصوى للوقوف على الأسباب والعوامل وراء غياب وفاق وطني بين الطيف السياسي الفلسطيني إزاء عملية التسوية، خاصة أن السياسة الشارونية أدت إلى رفض قطاعات واسعة من الشعب الفلسطيني لوقف العمليات العسكرية داخل إسرائيل وفي المستوطنات التي تعتبرها إسرائيل جزءاً من استراتيجيتها الدفاعية.

الفاتيكان والإسلام

د. زينب عبد العزيز
القاهرة - دمشق: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٥ ، ١٦٠ صفحة



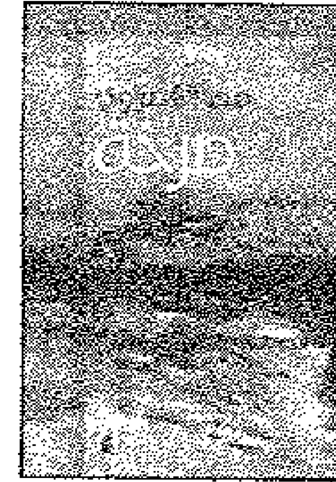
في مواجهة الحملة الشرسة التي يتعرض لها المسلمون الآن، تنقل مؤلفة هذا الكتاب المعركة إلى الغرب، وتكشف مدى تعصبه، ومراوغاته، ومناوراته التي تستهدف القضاء على الإسلام، رغم رفع شعارات تدعو إلى الحوار والتعاون الإنساني.

الكتاب يشكك تماماً في نوايا الغرب، ويرفض كل مقولاته عن الحوار والتسامح. وترى المؤلفة أن الموقف الديني للغرب أصبح ملاحقاً للموقف السياسي، بل ومحركاً له بصورة لا سابقة لها. كما أنه إذا كانت أولى خطوات الاستعمار ارتبطت بآليات المبشرين والمستشرقين مع المعدات العسكرية، فإنه الآن انضم إلى الاستعمار الجديد فرق من المثقفين والمفكرين الغربيين.

والكتاب لا يراهن على الحلول الوسط تجاه نوايا الغرب التي يرى أنها لا تزال تحاول الهيمنة على المنطقة واقتلاعها من جذورها الإسلامية.

صرخة

مها القصراوي
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥ ، ٨٠ صفحة



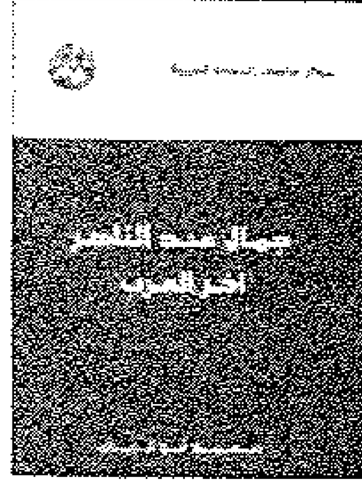
هذه «صرخة» مها القصراوي في عالم الصمت المريب، عالم عنفه صمت، وصخبه صمت، وتواطؤه صمت، والحركة المؤارة فيه صمت، في هذا العالم يتواطأ الزمن مع العتمة على قتل الحياة، فلا نرى إلا ناساً يعيشون المنافي، فبطل القصة يولد في المنفى، حيث يعيش تجربة اليتم منذ أن رحل والده في شرخ الشباب وتركه يعاني الخيبات القاسية. ولقد استثمرت مها معارفها النقدية في بناء رواية تستجيب للتحولات السردية المختلفة مخلصة لرؤيتها التي ترفض أن تستحيل الرواية إلى لعبة شكلية.

إن خيباته لم تذهب سدى، فقد رشحه سجنه في مقتبل الحياة، وعذابه الذي وسم الفكر والروح والوجدان، ورؤيته المنصهرة بالتجربة للحياة، لأن يدق جدران الخزان، ولا يكون رجلاً في الشمس. لقد حطم الساعة التي لا تفتأ دقات رتيبة، تلك التي جوهرها سيل من الزمن الوجودي الذي لا يحدد ولا يميز، واستبدل بها ساعة أمه التي تشير إلى زمن داخلي تاريخي يوجهه إلى رؤية الحقيقة الساطعة، حيث يتحقق الفعل في زمن الفعل.

«صرخة» مها القصراوي صرخة مسكونة بهم وطن وهم أمة. صرخة تشف على اليأس في زمن التخاذل، والعهر، والانكفاء واستبدال الهم الفردي بهم الجماعة الغائبة، بعد تكالب الهزائم

آخر العرب

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥



لا نتجاوز الحقيقة إذا اعتبرنا أنه بعد انقضاء ٣٥ عاماً على رحيل الزعيم العربي جمال عبد الناصر، فإن كل ما يتعلق به - سياساته، علاقاته المصرية والعربية والعالمية، مواقفه وقراراته.. حتى شخصيته - لا يزال يثير الجدال، وفي كثير من الأحيان ما يكون جدالاً حاداً. ذلك أن أنصار عبد الناصر يؤيدونه بكل قوامهم ومشاعرهم.. وخصومه ينتقدونه بالدرجة نفسها من الحدة. ومن هم وسط بين هذا وذاك حالات قليلة، إن لم نقل نادرة.

والكتاب الذي نضعه بين يدي القارئ العربي - لمؤلف عربي يكتب باللغة الإنجليزية - من شأنه أن يثير جدالاً من هذا القبيل.. على الرغم من أنه - أو ربما لأنه - يحتوي على هذين العنصرين في آن معاً. فالكاتب - الأستاذ سعيد أبو الريش - لا يخفي حبه العميق لعبد الناصر.. وهو مع ذلك يذهب في نقده له ولسياساته وقراراته والتطورات التي طرأت على شخصيته بفعل الأحداث والمعارك إلى آماد بعيدة.

بطبيعة الحال، فإنه ليس القصد من هذه المقدمة مراجعة هذا الكتاب أو تقييمه، إنما تقديمه إلى القارئ العربي. وفي هذه الخطوة فإنه ينطبق عليه - مثلما ينطبق على كل كتاب يأخذ المركز على عاتقه مهمة نشره - إشارة: إن «الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية». إنما لعل الأمر في حالة كتاب سعيد أبو الريش: جمال عبد الناصر: آخر العرب يستوجب تأكيد هذه الإشارة. فالكتاب حافل بمعلومات كثيرة واستنتاجات أكثر، بعضها جديد لم يسبق أن عالجته السير السابقة العربية والأجنبية عن حياة عبد الناصر، قد لا تتفق مع ما يراه أنصاره ومريدوه، أو قد تتصادم مع قناعات خصومه وناقديه. وتبقى مسئوليتها على عاتق الكاتب. مع ذلك، فالأمر المؤكد - الذي تدعمه قراءة موضوعية متأنية للكتاب - أن المؤلف بذل جهداً كبيراً في المجالين اللذين صنعا مادة الكتاب.

يتعلق هذا بأمور كانت طوال السنوات الخمس والثلاثين الماضية منذ رحيل عبد الناصر موضع تساؤلات. منها: موقف عبد الناصر من قضية السلام مع إسرائيل، دوافعه من وراء قرار سحب القوات الدولية قبيل حرب عام ١٩٦٧، الحقيقة وراء تنحيه في ٩ حزيران/ يونيو ١٩٦٧، مسألة انتحار المشير عامر الرجل الثاني في الحكم وقائد القوات المسلحة والصديق الأقرب لعبد الناصر بعد هزيمة ١٩٦٧، موقفه من الولايات المتحدة من البداية وإلى النهاية.. وغيرها.

وفي اعتقادنا أن الاختلاف حول إجابة هذه التساؤلات لا يقلل من أهمية الطرح العام في هذا الكتاب لما عناه جمال عبد الناصر إنساناً وزعيماً قومياً وسياسياً من طراز نادر.

ولعل أهم ما يتناوله هذا الكتاب - من خلال متابعته لسنوات، بل أيام عبد الناصر - هو قضية الوحدة العربية كما عاشها وتفاعل معها في انتصاراته وإحباطاته وهزائمه.

وأخيراً، فإن هذا الكتاب عن عبد الناصر هو في الوقت نفسه كتاب عن الحقبة منذ ظهوره على مسرح الحياة القومية، عن الوطن العربي من سنوات ما قبل عبد الناصر، وحتى الآن. لقد وضع عبد الناصر في السياق الوطني والقومي والإقليمي والدولي. ربما كما لم يفعل أي كتاب آخر عنه. ليس فقط لأنه يمتلئ بتفصيلات كثيرة ومعلومات غزيرة.. إنما لأنه كتب بعواطف حارة قوية وتدفق يمتزج فيه العقل والوجدان ويؤثر في كلا الاتجاهين. يتحيز لعبد الناصر، ويصدق أيضاً وهو يلقي عليه اللوم غير مكتف كغيره بتوجيه الاتهام. وربما - لهذا - تفوقه على سير عبد الناصر الأخرى العديدة. وربما لأن المؤلف انتظر لنحو ٣٢ عاماً ليكتب هذه السيرة. فاستوعب ما جرى طوال سنوات غياب عبد الناصر وتأثيرات هذا الغياب، كما استوعب ما كتب عنه وما لا يزال يرويه بعض صحبه الذين بقوا على قيد الحياة، وما يشهد به أولئك الذين صادقوه فعرفوه عن قرب. وهو - المؤلف - مع ذلك لم يأخذ أي قول أو شهادة أو سيرة مأخذ التسليم، مع أو ضد.

إن هذا الكتاب يفتح أبواباً كثيرة لمناقشات مهمة في الديمقراطية والإصلاح والعدالة الاجتماعية والمجتمع المدني والقومية العربية والوحدة.. وكلها قضايا اللحظة الراهنة في الوطن العربي، مع أنه لم يغادر الاهتمام بعبد الناصر في صفحة واحدة من البداية إلى الخاتمة.

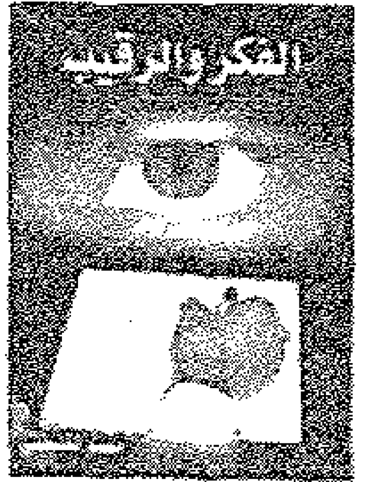
والخيبات، ولكن صرختها أخيراً ليست «صرخة فى واد»، ويأسها ليس اليأس من الجماد، بل هو يأس يشير إلى نور يسطع فى الظلام.

■

الفكر والرقيب

محمد القشعمى

٢٠٠٥ ، ١٦٣ صفحة



اتفق معظم المؤرخين على أن الرقابة على الإنتاج الفكرى ارتبطت بالطباعة، واختراع يوحنا جوتنبرج الطباعة بالحروف المعدنية عام ١٤٣٦ . وقد أصبحت الرقابة على الكتب والصحف فى القرن السادس عشر شاغلاً مهماً يشغل بال الكنيسة والدولة. وكان أى جدال حول نفوذ الملوك يشكل جريمة تعرف باسم «التحريض على إثارة الفتن» أو عدم احترام المقدسات، وكانت العقوبة تؤدى إلى فقدان صفة المواطنة أو السجن أو القتل من جانب جنود الملك.

وفى هذا الكتاب يبحث المؤلف عن جذور الرقابة ومعانيها وتطور مجالاتها فى مواجهة حق الإنسان الأصيل فى التعبير وإبداء الرأي. ويشير الكتاب إلى الرقابة فى المملكة العربية السعودية، ويوضح بأن نظام المطبوعات الأخير قد نص صراحة على عدم فرض رقابة على الصحف إلا فى الحالات الاستثنائية، إلا أننا نجد أن الواقع العملى والممارسات الفعلية بعيدة عن هذه المبادئ، فمازالت الرقابة موجودة، ومازال تسلسل هروب الكتاب والأدباء السعوديين إلى الخارج لطبع إنتاجهم مستمرة وذلك نتيجة للعبارة الظالمة التى احتواها نظام المطبوعات مثل «الإضرار بالمصلحة العليا للدولة» أو «خدش الآداب العامة».

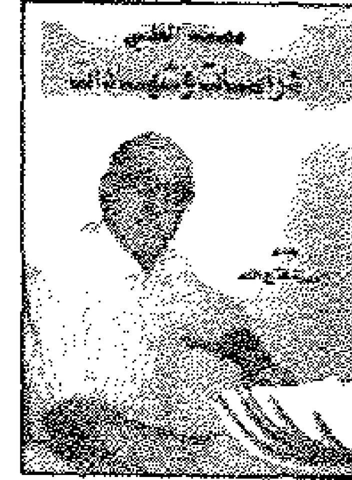
يستعرض الكتاب أيضاً نوادر الرقابة على الصحافة، ويوضح بعض تجارب الكتاب مع الرقابة، والكتاب الخائفون، وسبل الهروب من الرقيب وغيرها من المواضيع الشيقة، ويطرح الكتاب فى نهايته مفهوم الرقابة فى عصر الفضائيات والإنترنت وهى التى اشعلت ثورة فى أساليب الرقابة، وهو ما يستوجب ضرورة البدء فى مرحلة جديدة من التحصين الذاتى للأفراد خاصة الشباب من أجل أن يقوم كل واحد منهم بدور الرقيب الذى يقف أمام المضامين الشاذة والأطروحات الغريبة التى لا تتفق مع عاداتنا وقيمنا، فالآن لم تعد الرقابة قادرة على وقف ما تبثه الفضائيات أو الشبكة العنكبوتية من أفكار ومعلومات.

■

محمد العلى ـ دراسة وشهادات (الجزء الثانى)

إعداد: عزيزة فتح الله

القاهرة: دار المريخ للنشر ٢٠٠٥، ٢٥٢ صفحة



يعتبر محمد عبد الله العلى من أبرز كتاب وشعراء الحداثة فى السعودية، استطاع خلال سنوات تكوينه الأولى أن يلم إلماماً علمياً واسعاً بالتراث العربى، والى جانب ذلك كان واسع الإطلاع على الفكر العالمى المعاصر، وعلى الفكر والإبداع العربى الراهن خلال فترة دراسته وعمله فى العراق التى أتم بها تعليمه الجامعى. قدم فى الستينيات نتاجاً شعرياً تقليدى الشكل تقدمى الموضوع، فى السبعينيات والثمانينيات قدم شعراً حداثياً فى شكله وموضوعه، ونثراً حداثياً فى رؤاه، وتطلعاته ومعالجاته. لم تستفد حركة الشعر الحداثى فى السعودية كثيراً من شعر العلى بشكل مباشر، كما استفاد الفكر الحداثى، فالعلى لم يترك إلا ٣٠ قصيدة فقط طوال تاريخه من الشعر الذى بدأ يكتبه منذ عام ١٩٥٠ ولم يجمعها فى ديوان واحد حتى الآن. وكان خطابه الشعرى على الصعيد الاجتماعى والسياسى يركز بالدرجة الأولى على وضع الوجه العربى فى مواجهة المرآة دائماً، فى زمن كانت مشكلة العربى فيه أنه لا يملك مرآة يرى فيها وجهه بوضوح.

كانت كل الظروف مهيأة عندما كان يدرس بالنجف أن يصبح رجل دين، فإذا به من أوائل النافرين في السعودية إلى الحداثة سواء فى شعره أو فى كتاباته النقدية التى ساهم من خلالها فى دفع الحركة الثقافية فى السعودية خطوات إلى الأمام. يؤكد الكتاب أن المحرك الأساسى لفكر العلى هو الخطاب الواقعى المعنى بحركة المجتمع، وهو ما يتبدى فى الوضع الجدلى الذى يربط الأفكار التى يطرحها بسيرورتها فى محيطها الاجتماعى، وفى انتقاله من عالم الخطاب الدينى/ المذهبى، إلى عالم الخطاب الثقافى/ التنويرى، دون أن يكون ذلك مجرد تغيير فى المواقع والأدوار من طقوس البكائيات السينية إلى تعميد النص الحداثى، ولكنه كان انتقالاً لسبر هذين العالمين لا عن طريق فحص بناهما ولكن سبر مرتكزاتهما الماثلة فى المفاهيم التى بشأنها، والتى أصبحت شغل العلى الشاغل.

والكتاب ينقسم إلى قسمين الأول يدور حول ٥ دراسات وبحوث حول دور العلى، والثانى عدد من الشهادات كتبها مثقفون اقتربوا منه ومن عطائه الفكرى والتنويرى.

■

كيف تغير المرأة السياسة؟ ولماذا يقاوم الرجل؟

فيليب باتاى وفرانسواز جاسبار

ترجمة: سوزان خليل

القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٥، ٢٤٠صفحة



منذ عدة سنوات، والجدل يحتدم حول قضية التكافؤ بين الرجل والمرأة فى مجال السياسة. وعلى مدى عقود طويلة ظل الرجال يسنون القوانين باسم الشعب، إلا أن المرأة لم تتمتع أبداً بنفس حقوق الرجل.

وتبدو أهمية هذا الكتاب فى أنه يعرض موضوع المرأة والسياسة، بصراحة لا تعرف المواربة، من خلال بحث عرض نتائج بحث مبتكر استهدف المرشحات للحزب الاشتراكى فى فرنسا خلال الانتخابات التشريعية التى أجريت عام ١٩٩٧، بعد قرار ترشيح نسبة لا تقل عن ٣٠٪ من المرشحات لخوض هذه الانتخابات، وكيف كان رد فعل المسئولين، وكذلك العسكريين، وهل كان هناك عدد كاف من المرشحات؟ ومن هن؟!

وقد كشف البحث عن أن عدد النساء المشتغلات بالسياسة أقل كثيراً مما يدعى البعض، وأن الناخبين ينظرون بعين التقدير إلى التغيير الذى تحدثه المرأة فى الحياة السياسية، إلا انه يكشف النقاب أيضاً عن أن الطريق لايزال طويلاً قبل أن يسلم الرجل حقاً بمسألة التكافؤ والمساواة الحقيقية مع المرأة.

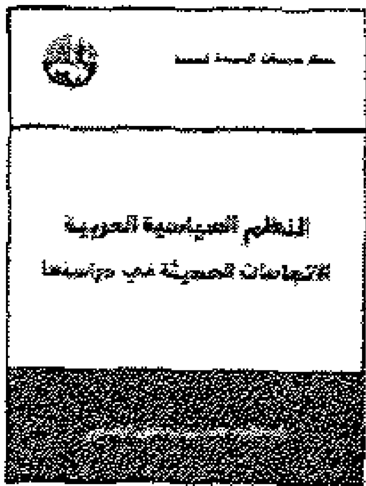
يؤكد الكتاب أن القانون الفرنسى ظل حتى نهاية القرن العشرين يميز بين الرجل والمرأة، وأن المرأة تعرضت للإقصاء السياسى بل استبعدت من المواطنة بسبب الجنس الذى تنتسب إليه، لأن القانون المدنى قد أسس لهيمنتها واستبعادها. ويراهن الكتاب على أن وضع القضية تحت دائرة الضوء وإخضاعها للنقاش سوف يفتح أبواب المستقبل أمام المساواة المطلوبة بين الجنسين.

■

النظم السياسية العربية: الاتجاهات الحديثة فى دراستها

د. حسين توفيق إبراهيم

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥ ، ٤٢٣ صفحة، ١٣ دولاراً



حتم التطور فى دراسة النظم السياسية العربية تبلور اتجاهات حديثة حول عدد من المفاهيم هي: التعددية السياسية والتحول الديمقراطى، والمجتمع المدنى وعلاقته بالدولة، والاقتصاد السياسى الجديد، والعلاقة بين الإسلام والسياسة، والسياسات العامة، والنظام الدولى والتحولات العالمية.

من هذه المنطلقات الستة يناقش هذا الكتاب قضية الدولة القطرية (الوطنية)، ومظاهر أزمتها البنائية المتفاوتة الدرجات فى البلدان العربية، وانعكاسات هذه الأزمة على التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى فيها، راصداً اتجاه التعددية السياسية وعملية التحول الديمقراطى وخصائص حالة المجتمع المدنى، والعلاقة بين الإسلام والديمقراطية واستراتيجيات الحركات الإسلامية فى التعامل مع النظم الحاكمة.

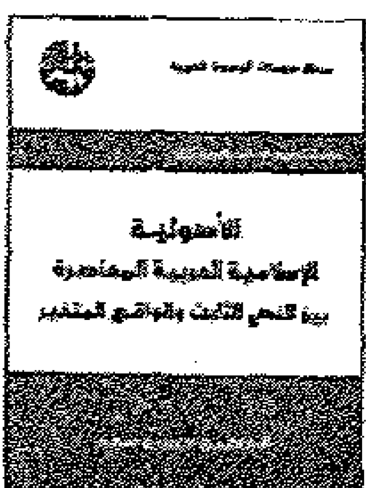
يرسم الكتاب أيضاً ملامح السياسات العامة فى الدول العربية محللاً أسباب ضعف فاعلية هذه السياسات، راصداً أنماط التحولات العالمية وتأثيراتها المستقبلية، طارحاً فى الخاتمة عدداً من القضايا والتساؤلات تشكل أجندة بحثية فى دراسة النظم السياسية العربية خلال المستقبل المنظور، ومتطلبات التعامل مع هذه الأجندة بهدف إثراء جهود البحث والدراسة فى حقل الحياة السياسية العربية.

■

الأصولية الإسلامية العربية المعاصرة بين النص الثابت والواقع المتغير

د. حسين سعد

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥ ، ٥٢٧ صفحة، ١٦ دولاراً



تنبع أهمية دراسة الأصولية العربية المعاصرة من كونها تشكل اليوم ظاهرة فى

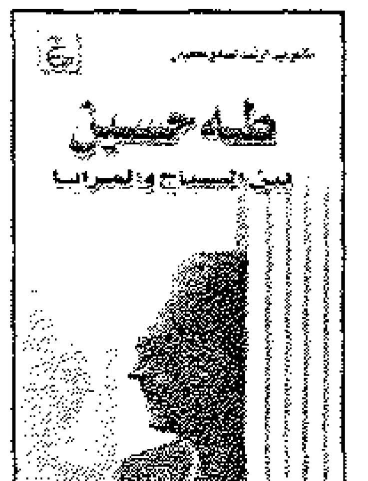
واقع حياة المسلمين العامة تقدم نفسها كطرف يمثل مشروعية العمل بموازاة التيارات الفكرية والسياسية السائدة، نظراً إلى الموقع الفكري والسياسي والنضالي الذي تحتله الحركات الأصولية، والذي جعلها محط أنظار الدارسين في وقتنا الحاضر.

يعالج هذا الكتاب مسألة من المسائل الشائكة والمثيرة في هذا العصر. شائكة لأنها تقارب الأصول التي ارتكزت إليها الأصولية العربية المعاصرة في استخراج حلول لما هو راهن من القضايا. ومثيرة لأن ملامسة الأصول قد تؤدي إلى قراءة جديدة لها. ويتقصى الكتاب الأطروحات والنظريات التي قدمها الأصوليون المسلمون العرب المعاصرون الثلاثة: حسن البنا وسيد قطب ومحمد باقر الصدر إزاء مسائل إعادة بناء المجتمع الإسلامي، وإقامة العدالة الاجتماعية فيه، والدولة الإسلامية ونظام الحكم العادل فيها، والمسائل المتفرعة عنها كالزكاة والضرائب والشورى وسلطة الأمة والحاكمية وولاية الفقيه وما إليها من مسائل متفرعة تدور حولها أبحاث ودراسات ونقاشات غنية غنى مصادر الإسلام الأولى.

طه حسين بين السياج والمرايا

د. عبد الرشيد الصادق محمودي

القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٥، ٢٠٣صفحة



هذا الكتاب يجمع المقالات التي كتبها المؤلف عبر ثلاثين عاماً عن عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين. وقد حرص المؤلف على ألا يشذبها وأن يعيد نشرها في الكتاب كما كتبها من قبل بدون تغيير لتحمل تطور أفكاره عن كتابات طه حسين.

يرى المؤلف أن المشهد الافتتاحي من كتاب الأيام في جزئه الأول، الذي يصور الطفل العزيز الذي يقف مهموماً إزاء سياج من القصب يسد عليه الطريق إلى العالم الفسيح، هو مشهد مشحون بالدلالة ويرمز إلى حياة طه حسين بكاملها.

يتناول الكتاب في بابه الأول رؤية المؤلف لرحلة طه حسين الفكرية بين «الأيام» و«أديب» مستعرضاً موقف طه حسين من المنهج الديكارتي بين القائلين بتبنيه هذا المنهج والمنكرين لذلك.

ويبحث الباب الثاني قضية الشعر الجاهلي، مؤكداً أن طه حسين بريء من الاتهام الموجه إليه بأنه سطا على المستشرق الإنجليزي مرجو ليوث كما ورد في دراسته الشهيرة عن نشأة الشعر الجاهلي. ويؤكد المؤلف أن المستشرقين لم يبتدعوا البحث في صحة الشعر الجاهلي، بل إن من الممكن أن يقال أن جهودهم انصبت إلى حد كبير على جمع الآراء والشواهد التي وردت في مؤلفات الكتاب العرب القدامى ودراستها دراسة منظمة.

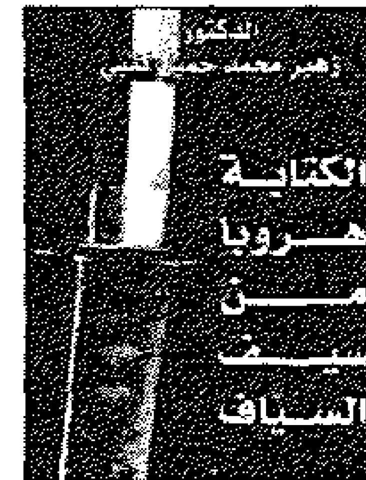
ويشتمل الباب الثالث على مقال مثير عن علاقة طه حسين بديكارت، وقوله بأن ديكارت كان مسلماً متصوفاً ليسخر من خصومه الذين ناصبوه العداء. كما يشتمل على مقال آخر عن الأدب في مسيرة طه حسين الفكرية. وعن نظريته الأدبية وتحديده للمنهج الذي ينبغي أن يتبع في دراسته.

كما يتناول أيضاً نبذة عن كتاب للمؤلف بعنوان «من الشاطئ الآخر» ترجم فيه الكتابات الفرنسية لطه حسين، بالإضافة إلى تعليم طه حسين من الأزهر إلى السوربون، وقضية العلم والدين في أدب طه حسين، والكتابات المجهولة له، ويطالب المؤلف بنشر أعماله في طبعة كاملة.

الكتابة هروبًا من سيف السياف

د. زهير محمد جميل كتبي

السعودية: ٢٠٠٥ ، ١٨٣صفحة



يحوى هذا الكتاب بعض دراسات ومقالات المؤلف التي كتبها من قبل وخضعت للحذف والتشويه والرفض والإلغاء وربما أيضاً - كما يقول - الفرم في فرامة الورق.

يتضمن الكتاب مقالاً عن المؤامرات التي تستهدف تقسيم المملكة العربية السعودية إلى دول صغرى، ويصفها أنها فكرة من فخار، مؤكداً أن هذا الموضوع أصبح بنداً ثابتاً على كل أجندة غربية ترغيباً وترهيباً منذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ويقول المؤلف إنه أرسل هذا المقال لمعظم الصحف السعودية إلا أنها رفضت نشره لأسباب يعرف هو بعضها ويجهل الأخرى.

ويطرح المؤلف أسئلة صعبة على المثقف في السعودية، ويتهمه بأنه أصبح يتعالى على هموم ونبض الشارع السعودي، وأنه لا يهتم بقضايا رجل الشارع في السعودية، كما يقول إن العديد من الأغنياء في السعودية لا يقومون بدورهم في عمليات التنوير كما ينبغي، ويتهمهم بأنهم لا يبالون بالهم السياسي والاجتماعي في بلادهم.

زيارة إلى الأرض المقدسة

يندريخ هافليك

ترجمة: برهان القلق

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٤ ، ١١٩ صفحة، ٣٠ جنيهًا



يتناول هذا الكتاب تصوير شريط المأساة الفلسطينية بموضوعية وحياد تامين، من خلال قيام صحفي تشيكي بزيارة للأراضي المقدسة، يلتقط صوراً حية لحياة الفلسطينيين اليومية، يعرضها للعالم، ويحاول تشكيل الوعي العالمي حول الاحتلال، وبشاعته، بواقعية منطقية بعيداً عن العاطفة والشعارات والاستهلاك السياسي.

يكشف المؤلف انتهاك الديمقراطية وحقوق الإنسان الذي يتعرض له العرب في إسرائيل، المسلمون والمسيحيون والدروز، وبشكل يومي، في دولة مهاجرين تدعي الديمقراطية ولا تجمعها لغة ولا ثقافة ولا تاريخ، وسط صحراء التسلط العربي الخالية من الحرية. ويبني محاولة إسرائيل إعادة كتابة التاريخ لحسابها بتزييف أسماء نزلاء قيود المسلمين وسرقتها، وهدم القرى المسيحية، وإدخال عناصر يهودية اعتباطاً على الآثار الإسلامية وغيرها، التي تثبت على مر العصور عدم احتكار أي شعب أو عقيدة دينية واحدة لأرض فلسطين.

يصف الكتاب أيضاً المشاهد اليومية المؤلمة لعرب الأراضي المحتلة بالقوة، وولادة أطفالهم المحكوم عليهم بالموت سلفاً، ولمدن تشرب الماء مرة واحدة أسبوعياً، ولطرق الضفة الغربية المقسومة إلى جزر يصعب التنقل بينها، تكريساً للاحتلال، ومنعاً لتوسيع الدور العربية، أو قيام أي كيان فلسطيني.

ويصور الكتاب وعي الإنسان الفلسطيني المتوارث عبر الأجيال منذ نكبة ١٩٤٨، وحقيقة نضال الشعب الفلسطيني وصاحب الحق المشروع تجاه ترسانة السلاح الإسرائيلية الهائلة، ويبين أن النزاع في فلسطين ليس نزاعاً بين طرفين على قدم المساواة مثلما تحاول الدعاية الغربية السائدة تصويره.

وبالكتاب أيضاً عدد من الرسوم التي رسمها المؤلف بنفسه عن معاناة الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال الإسرائيلي.

أبو عمار - ثائر أسطوري أم عميل لإسرائيل؟!

فريد الفالوجي

دمشق - القاهرة: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٥ ، ٢٣٦ صفحة



عاش ياسر عرفات مناضلاً كأسطورة من خيال، وتفرد بثورية امتدت أربعة عقود، طارده خلالها الموت أينما حل، وفشلت جميع محاولات اغتياله.

ولكنه عندما مات أخذ أسراره معه، فلا دليل على مقتله مسموماً، ولا أوراق تميط اللثام عن ثروته الحقيقية.. ويطرح سؤال نفسه وسط هذا الغموض: كيف تحول ياسر عرفات إلى أسطورة؟

هذا الكتاب يدخل في مناطق مظلمة تحيط بشخصية أبو عمار، يحاول أن يجيب عن الكثير من الأسئلة الصعبة التي رافقته طيلة حياته السياسية والنضالية، ليس أهمها: هل مات مسموماً بالفعل، أم أنه مات بسبب أمراض الشيخوخة ونواتج المعاناة والحوادث التي عاشها وألمت به؟!.. ويطرح الكتاب أيضاً أسئلة ساخنة مثل: لمن كانت قبلات عرفات الأخيرة أثناء خروجه من رام الله؟ ومن هو الكاتب الذي اتهم عرفات علناً بأنه جاسوس للموساد تم زرعه لنسف القضية الفلسطينية في سيناريو أحكم إعداده؟ ولماذا وقف عرفات مع صدام حينما اجتاح الكويت؟ وكيف قاده اليأس إلى أوسلو ليدخل بعدها الأرض المحتلة كما خطط له الإسرائيليون؟

ويبقى - رغم كل هذه الأسئلة - أن عرفات مات وكانت جنازته أطول جنازة لرئيس، جنازة استغرقت ٤٢ ساعة، ومرت عبر أربع مدن وثلاث قارات، وسبع رحلات طيران.. ثم دفن أخيراً قبالة سجنه الإجباري في قبر أسمنتي متنقل!

أشجار على حافة الصحراء

خالد منصور

القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠٠٤ ، ١٢١ صفحة



حول الأحلام المجهضة، وقصص الحب الفاشلة.. تبدو انكسارات أبطال هذه

المجموعة القصصية، وكأنها ملاحم لزعماء من التاريخ، رغم أنهم مجرد ناس عاديين نراهم فى الشوارع والمقاهى.

ففى قصة «عادل وليلى» التى تبدأ بها المجموعة، يروى عادل لنفسه ولنا كيف انتهت قصة حبه مع ليلى التى تزوجت من شخص آخر، بعد أن ضاقت بهما الأوضاع فى وطنهما عن تحقيق أحلامهما فى الحياة وفى العمل.

وفى قصة «المقهى» يدور حوار بين صديقين: مدرس وصحفى يدخنان الحشيش خلسة بعد أن يضعاه فوق نار النرجيلة وهما ينتظران صديقهما الذى لا يحضر، يحكى كل منهما للآخر عن مكنونات نفسه، كيف ضاع النحو فى المدارس، وكيف ضاعت حبيبة الصحفى وتزوجت من زميل له، وهما يتجرعان أكواب الشاى ممزوجاً بمرارة حياتهما التى تمر أمامهما دون أن يحاولا تغييرها.

المجموعة فى مجملها تحاكم عصراً بأكمله، ترصد هزائمه وإحباطاته ومرارته، ولكنها تراهن فى النهاية على وعى أبطال قصصه المختلفة.. فهذا «الوعى» يبدو ناضجاً رافضاً لهذه الهزائم، قادراً على تغيير الواقع للأفضل وكشف القبح الذى يسود حياتنا.

قــلــوب صغيــرة

أنيس منصور

القاهرة: دار الشروق، الطبعة التاسعة، ٢٠٠٥ . ١٩٠صفحة



فى هذا الكتاب خلاصة لأفكار أنيس منصور عن الحب والزواج والعلاقة بين الرجل والمرأة وعن آرائه فى الحياة وناسها.

ورغم مرور سنوات طويلة على صدور أول طبعة للكتاب، فإن المؤلف يقول «تغيرت الدنيا فى يدى وفى عينى، لكنى لازلت متمسكاً بالكثير من آرائى التى تنبهت إليها فى سن مبكرة، ولما مضت السنوات أضافت إلى آرائى الكثير من اللحم والشحم والقدرة على الاستمرار».

يحوى الكتاب مقالات فى موضوعات مختلفة بعضها قاتم وبعضها مشرق وكلها مأخوذة من الحياة التى يراها أنيس منصور، سواء فى مواقف عاشها بنفسه أو من تجارب سمع بها أو قرأ عنها.

يبدأ الكتاب بمقال عن بنات الليل يستعرض فيه المؤلف عدداً من النماذج لهذه الفئة من النساء اللاتى يضحكن ويرقصن فى حين أنهن شقيات تعسات جداً. كما يكشف مقال آخر متاعب ليلة الزفاف موضحاً أن قسيمة الزواج ليس معناها التصريح للزوج بأن يفعل كل شىء فى أى وقت على النحو الذى يشاء، فالزوجة من حقها أن تقول لا، وأن يكون لها رأى وأن يقام لإحساسها وخوفها وخجلها وزن كبير. ومقال ثالث يتناول الملل فى الحياة الزوجية، ويؤكد المؤلف أنك لابد أن تقتل الملل بالتغيير والتبديل.. وإلا قتلك. وهناك مقال آخر عن الغيرة وآخر عن الزواج عند المرأة الأوروبية وعند المرأة المصرية.

وتدور بعض مقالات الكتاب عن حاجة الإنسان إلى الراحة، وعن ضرورة الاختلاط بين الرجل والمرأة، وعن العديد من الموضوعات المتنوعة التى ترسم وجهة نظر أنيس منصور للحياة وكيف تفهمها بصورة أعمق لكى نعيشها بطريقة أكثر سعادة، أو بمعنى أصح: أقل شقاءً!

ويأتى هذا الكتاب ضمن ثلاثة كتب أخرى هى «لحظات مسروقة» و«الخبز والقبلات» و«طلع البدر علينا» أعادت دار الشروق طباعتها لتكون متاحة أمام القارئ بعد أن نفدت طبعاتها السابقة من المكتبات، والكتب الأربعة مع تنوع موضوعاتها، إلا أنها تقدم مجتمعة صورة بانورامية عن آراء أنيس منصور وتجاربه وأفكاره ذات الطابع الفلسفى بكل ما تثيره من مساحات للاتفاق أو الاختلاف معها وحولها.

دوريــات

العــــربى

الكويت: وزارة الإعلام، عدد يونيو



بمناسبة ذكرى رحيله المئوية، احتفل هذا العدد بالإمام المصلح محمد عبده «١٨٤٩ - ١٩٠٥» من خلال أربعة محاور وهى محمد عبده والصحوة الإسلامية المجهضة للدكتور محمد جابر الأنصارى، وعن دوره كإمام للتجديد فى الرأى والفتوى للدكتور على جمعة، ومفهوم التنوير فى فكر الإمام، للدكتور محمود إسماعيل، والرسائل المتبادلة بين محمد عبده وتولستوى، لسامح كريم.

وفى باب «فكر» تناول د. سليمان العسكرى قضية الإصلاح ومن أين نبدأ، وكتب د. رمضان بسطاويسى محمد عن بزوغ علم المستقبل، كما تناول د. سعد بوفلاقة موضوع الغرب الإسلامى وحوار الثقافات.

وفى باب «كتاب فى جريدة» قدم مجذوب عيدروس مختارات من الشعر السودانى وتأثره بالحضارات القديمة، ويلقى الضوء أيضاً على تطوره منذ بداية الحكم التركى المصرى وحتى الآن.

كما تقدم المجلة العدد الأول من ملحقها العلمى، تناول موضوعات شيقة منها: «تسونامى.. لم يقتل حيواناً» و«هل انقلبت قطبية الأرض» و«النجوم تموت وتنبعث» و«القبض على الأشباح الكترونياً».

راكــــوتى

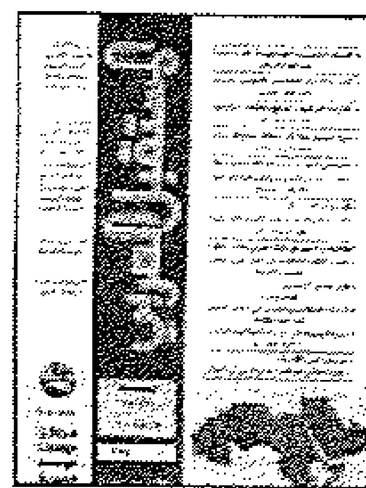
الإسكندرية: جمعية مارمينا العجايبى للدراسات القبطية، مايو ٢٠٠٥



تدور افتتاحية هذا العدد حول الاحتفال بمئوية اكتشاف مدينة بومينا بمريوط من خلال البعثة التى قادها العالم الألمانى كارل كاوفمان، والتى أسفرت عن أعظم الكشوف الأثرية فى مصر فى القرن العشرين. وبالعدد أيضاً دراسة عن الأقباط فى العصر الفاطمى، ودراسة أخرى عن قوارير القديس مينا، بالإضافة إلى استعراض لعدد من كتب المكتبة القبطية، ومقال بالإنجليزية عن القديس مينا والأكروبول المسيحى القديم.

المستقبل العربى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، مايو ٢٠٠٥

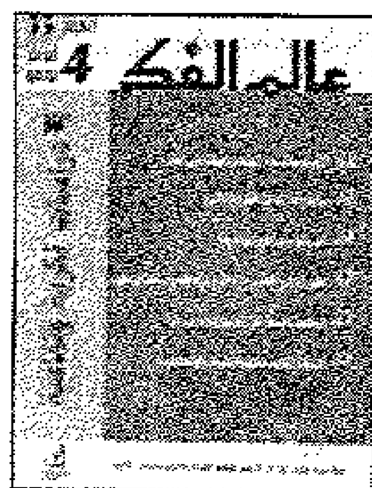


يحتوى العدد على خمس دراسات لافتة هى: «آفاق التنمية العربية المستدامة» لسليم الحص، و«تقييم نقدى للمؤتمر القومى العربى خلال الخمس عشرة سنة الماضية» لخير الدين حسيب، و«المقاومة العراقية: الواقع والمشاهد المستقبلية» لنصير محمد، و«الدولة الخليجية: سلطة أكثر من مطلقة - مجتمع أقل من عاجز» لمحمد عبيد غباش، و«نزاع الصحراء الغربية: خطة بيكر الثانية والسلام الموعود» لأحمد بودراع.

وفى العدد ملف حول «العقلانية والتنوير فى الفكر العربى المعاصر» يتضمن دراسات بعنوان: «المصادر الفكرية للعقلانية فى الفكر العربى المعاصر» لرضوان السيد، و«فى معنى التنوير» لفيصل دراج، و«تيارات العقلانية والتنوير فى الفكر العربى» لكمال عبد اللطيف، و«نظرة تقويمية فى حصيلة العقلانية والتنوير» لطارق البشرى.

عــالم الفكــر

الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، العدد ٣٣



يقدم هذا العدد طائفة من الدراسات الثقافية والفكرية المتنوعة، تتطرق إلى مواضيع مختلفة فى الفلسفة، والمنطق، والأنثروبولوجيا، والتاريخ، منها دراسة نقدية بعنوان: «الأيديولوجيا المستعادة: النهضة فى الخطاب العربى المعاصر» وأخرى بعنوان: «من الخارج أم من الداخل».

Down Came the Rain : My Journey Through Postpartum Depression

(نزول المطر: رحلتي مع كآبة ما بعد الولادة)

Brooke Shields

Hyperion, 240PP., $23.95, 2005



كأي أم، استقبلت بروك شيلدز - الممثلة الأمريكية - خبر حملها بسعادة بالغة، ورحبت بقدوم ابنتها الأولى إلى الحياة، ولكن شيئا غير متوقع أعقب وضعها لابنتها:كانت كآبة شديدة.

بروك شيلدز، الممثلة الأمريكية تتناول في مذكراتها صراحة مرورها بتجربة الكآبة التي أصابتها بعد وضعها لابنتها، تتحدث فيها عن تجربتها والمحن التي مرت بها وأيضا انتصاراتها قبل، وأثناء، وبعد الولادة.

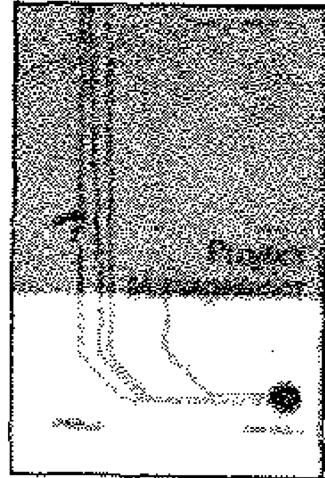
من المؤكد أن «بروك شيلدز» قد لمست بكتابها مشاعر ملايين النساء اللواتي يعانين من كآبة ما بعد الولادة، فقد تعرضت في كتابها (نزول المطر) إلى ما حدث في تجربتها الشخصية، بدءا من كفاحها من أجل الحمل، مرورا بالآمال العالية التي كانت عندها - وعند الآخرين لها - كأم جديدة، ودور الزوج، والأصدقاء، والعائلة في دعمها ومساعدتها، وصولا إلى كيفية الخروج من تلك الحالة بمرور الوقت.

The Art of Project Management (Professional)

(فن إدارة المشاريع «للمحترفين»)

Scott Berkun

O'Reilly, 502PP., $39.95, 2005



دليل ذكي، وبارع، وخال من المفردات التخصصية مما يجعله سهل الفهم وموجها إلى جميع شرائح العاملين في المناصب الإدارية.

الكتاب مفيد جدا لكل من يشترك في عملية الإدارة أم لا، فهو من خلال لغته السهلة يقدم دليلا شاملا لفن إدارة المشروعات.

الكتاب يزودك بالمعرفة والحافز، كما يعرفك على الصعوبات والمخاطر التي تواجه عملية إدارة المشاريع، كما يتعرض لعلم السلوك التنظيمي، موضحا أثره في إدارة المشاريع.

مواضيع مثل «كيفية اتخاذ القرارات الجيدة، والمواصفات والمتطلبات لنجاح المشروع، والقيادة والثقة» أفردت لها مساحة واسعة من الكتاب.

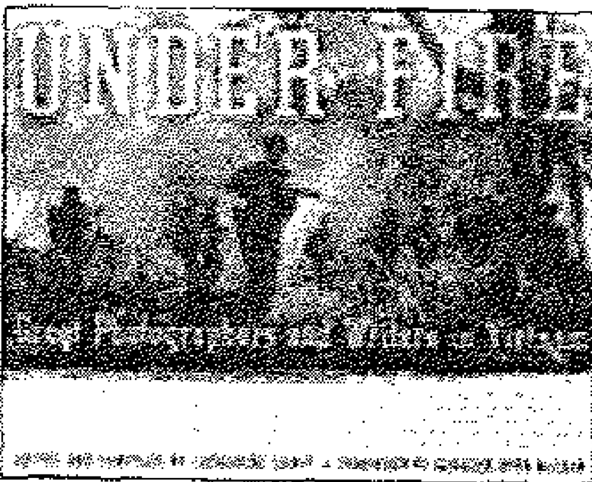
Under Fire : Great Photographers and Writers in Vietnam

(عرضة للنيران: المصورون والكتاب العظماء في فيتنام)

John Mccain (Foreword)

Catherine Leroy

Random House, 192PP., $35.00, 2005



بالتزامن مع الذكرى الثلاثين لسقوط سيجون - المدينة الفيتنامية الجنوبية - في الثلاثين من ابريل عام ١٩٧٥، والتي كان سقوطها هو النهاية الفعلية لحرب فيتنام، يأتي (عرضة للنيران) ليقدم لنا وجها آخر من الحرب، وأبطالا آخرين حاربوا بآلات التصوير والقلم في وسط معارك شرسة، لينقلوا للعالم كله حقيقة ما يحدث بتلك الحرب.

كريستيان لوري، فرنسية الجنسية، ذهبت إلى فيتنام لتغطية أحداث الحرب عام ١٩٦٦ بينما كان عمرها ٢١ عاما فقط، وفي أقل من عامين استطاعت أن تكون من اشهر المصورين في العالم، بسبب تحقيقاتها الجريئة، جرحت في فترة لاحقة في المنطقة منزوعة السلاح بينما كانت بصحبة وحدة بحرية أمريكية، كما أسرت من قبل الجيش الفيتنامي الشمالي في أثناء معارك «هجوم تيت»، وأطلق سراحها لاحقا.

في كتاب (عرضة للنيران)، جمعت «كريستيان لوري» أعمالها وأعمال مجموعة أخرى من كبار المصورين الفوتوغرافيين - بينهم لاري بوروز، هنري هويت، ودون مكولين - وقرنتها بمقالات العديد من الكتاب المميزين، من بينهم ديفيد هالبيرستام، فيليب كابوتو، نيل شيهان، وتيم أو برين.

الصور المجمعة في الكتاب تعطي صورة كاملة للحرب، فنحن نرى الحرب من عيون طرفي القتال، ونراها من عيون المواطنين الفيتناميين، التي أصبحت الحرب لهم صورة دائمة ومتكررة ومفزعة.

المقالات التي ترافق الصور جاءت لتحكي عما تجسده تلك الصور من معان ومشاعر، وتحكي عن مخاطر وتحديات واجهها الصحفيون والمصورون في وسط المعارك الشرسة، كما تحكي عن صور استطاعت - أحيانا - أن تغير مجرى الحرب، عندما نقلت للرأي العام الأمريكي الممارسات اللاإنسانية البشعة التي تحدث في فيتنام، مما أثار الرأي العام ضد الحرب.

Understanding Jihad

(فهم الجهاد)

David Cook

University of California Press, 288PP., $19.95, 2005



ديفيد كوك أستاذ مساعد الدراسات الدينية بجامعة رايس الأمريكية، يحاول شرح المفهوم الحقيقي للجهاد في الإسلام، فهو يرى أن الإعلام الغربي يشوه معنى الجهاد بما يدعيه عنه.

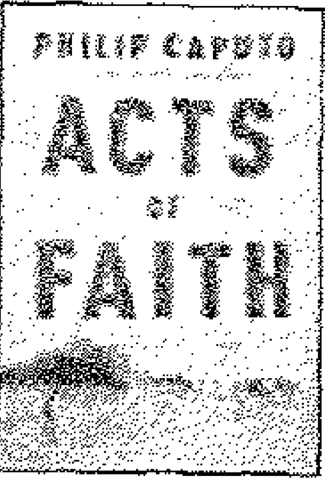
من منظور تاريخي، وبالاستعانة بنصوص مترجمة من القرآن الكريم، وأحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم)، يلقي كوك الضوء على جهاد النفس والروح، ويعتبره من أهم ما يميز الدين الإسلامي، ينظر بعناية إلى حياة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وإلى الفتوحات الإسلامية العظيمة التي كانت في الفترة من ٦٣٤ إلى ٧٣٢ ميلادية، كما يتعرض إلى أحداث الحادي عشر من سبتمبر، موضحا كيف فهم منفذوها معنى الجهاد.

Acts of Faith

(أفعال الإيمان)

Philip Caputo

Knopf, 688PP., $26.95, 2005



القليل فقط من الناس يعطون المساعدات بدون انتظار مقابل سواء كانت عينية - كالدعاية او الشكر والثناء - أو مادية - كتخفيض على الضرائب -، في أفريقيا الفرصة سانحة لكل من يريد الربح من وراء ما يعطيه.

الكاتب، والروائي، والمراسل الصحفي «فيليب كابوتو» يتعرض في هذه الرواية إلى أعمال الإغاثة في جنوب السودان، التي تقوم بها المنظمات الدولية انطلاقا من كينيا، والأهداف الخفية من ورائها.

ويوضح الكاتب من خلال شخصيات القصة مدى بشاعة الحرب الأهلية في السودان، وكيف تحولت أعمال الإغاثة المؤقتة إلى معسكرات دائمة بسبب الحرب، وهو يتعرض أيضا إلى الفساد الحكومي والأخلاقي وكيف أن الطائرات التي تساعد في نقل المساعدات، هي نفسها التي تقوم بتهريب الأسلحة.

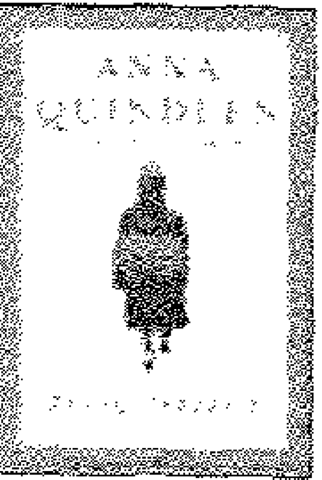
أفرد الكاتب مساحة واسعة جدا من روايته الكبيرة الحجم - ما يقرب من ٧٠٠ صفحة - للتحدث عن أبطال قصته موضحا خلفيات حياتهم مما يعطي طابعا إنسانيا ضخما للرواية.

Being Perfect

(كيف تصل للوضع المثالي)

Anna Quindlen

Random House, 64PP., $12.95, 2005



هل أحسست يوما انك غير ناجح، بينما كل من حولك يؤكدون نجاحك؟

هل تشعر انك انغمست في تحقيق توقعات الآخرين لك، ولا تجد ما تريده لنفسك؟

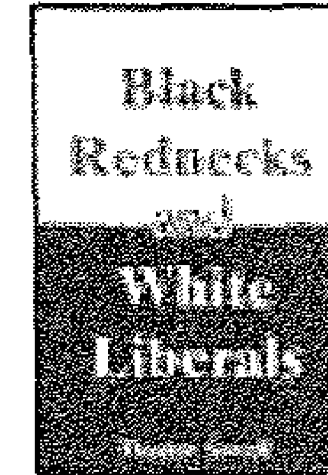
الكاتبة «انا كويندلين» تناقش هذه المسألة في كتابها (كيف تصل إلى الوضع المثالي)، فهي تحذر من الانزلاق وراء نصائح الأصدقاء والعائلة، وتجاهل ما تريده أنت شخصيا، فكويندلين ترى أن النجاح الحقيقي ليس أن تظهر بمظهر جيد أمام العالم، بينما لا تحس هذا النجاح بداخلك.

تحذر أيضا كويندلين من الانزلاق وراء مفهوم «الكمال السهل» الذي يسعى إليه الشباب هذه الأيام، فخطوات الوصول إلى النجاح هي المتعة الحقيقية فيه، فالسجاد اليدوي يخطف العين أكثر من سجاد المصانع - المثالي - بسبب ما يميزه من شوائب واختلافات.

الكتاب أيضا مدعم بصور مرحة لتبين مفاهيم مختلفة للنجاح.

كويندلين تقدم لك النصيحة الصحيحة تماما، المثالية، العميقة المعنى، التي قد تغير حياتك إلى الأبد.

Black Rednecks And White Liberals
(المتخلفون السود والتحرريون الأمريكيون)
Thomas Sowell
Encounter Books, 355PP., $25.95, 2005



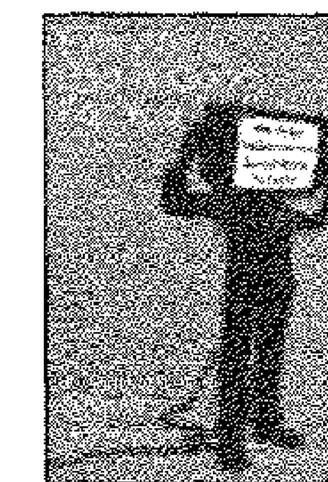
فى سلسلة من المقالات الطويلة يتعرض الكاتب إلى مفهوم العنصرية والفرضيات الخاطئة تجاه أقليات مختلفة منتشرة فى العالم. فهو يتحدى كل هذه الفرضيات الخاطئة والممارسات العنصرية تجاه الأقليات السوداء، والألمان، والعبودية، واليهود. والعديد من الأقليات الأخرى.

(متخلفون سود وتحرريون بيض) لا يهاجم الممارسات العنصرية الحالية فقط وإنما يغوص فى التاريخ متعرضا لمرجعيات هذه الممارسات.

فى مقالته التى عنونت باسم «التاريخ الحقيقى للعبودية» يقدم الكاتب نظرته فى التطور التاريخى لثقافة الغيتو Ghetto التى ترى الآن وكأنها ثقافة تخص السود وحدهم. وفى مقالة أخرى تعرض لليهود متعرضا لأسباب الكره لهم.

التاريخ الألمانى بشكل عام، والعصر النازى خاصة كانت له حصة لا بأس بها من الكتاب. فقد تعرض الكاتب له فى فصل خاص.

Everything Bad Is Good for You: How today's popular culture is actually making us smarter
(كل شىء سيئ مفيد لك، كيف أن الثقافة الشعبية اليوم تجعلنا أذكى فى الحقيقة)
Steven Johnson
Riverhead Hardcover, 256PP., $23.95, 2005



بالطبع أنت قلق بشأن كل هذا الوقت الذى يمضيه أطفالك فى ألعاب الفيديو، لا تقلق فهم يستفيدون، ليس فقط لأنهم يكتسبون مهارة حل المشاكل، بل - من المحتمل - أن أداءهم أفضل منك فى اختبارات الذكاء عندما كنت فى مثل عمرهم.

ينصحك «جونسون» أيضا بترك أطفالك يشاهدون التلفاز لمدة أكبر، فهذا يساعد على تحفيز المخ بدلا من تسكينه، وإن كان أيضا يرى ضرورة التشجيع على القراءة. فلا شىء يغنى عنها.

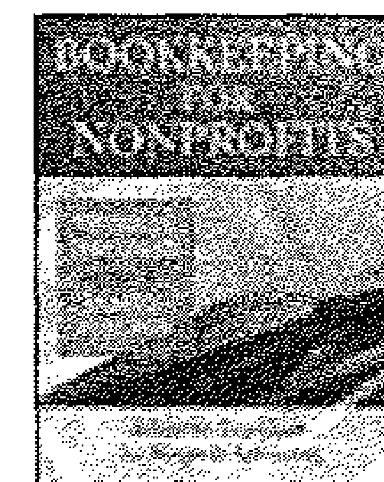
جونسون يحاول إقناعك بأن الثقافة الشعبية الحالية ليست سيئة، بل إنها أذكى من الثقافات السابقة. ويحاول إرشاد كل أب إلى كيفية التعامل مع أبنائه فى ظل الثقافة الحالية، وكيف يجعل من كل شىء سيئ شيئا مفيدا.

Guys Write for Guys Read
(فتيان يكتبون لفتيان يقرءون)
Jon Scieszka
Viking Juvenile, 288PP., $10.99, 2005



مجموعة من القصص القصيرة والمقالات لكبار الكتاب اللامعين، يكتبون حول شبابهم وذكرياتهم عن هذه الفترة من عمرهم، مقالاتهم وقصصهم تدور حول القراءة وأهميتها وكيف شكلت شخصيتهم، أهمية العائلة بشكل عام والآباء بشكل خاص فى حياتهم، ذكرياتهم حول المدرسة الثانوية والجامعة، كيف أصبحوا رجالا حقيقيين والمفهوم الحقيقى للرجولة.

Bookkeeping for Nonprofits : A Step-by-Step Guide to Nonprofit Accounting
(المحاسبة للجهات غير الهادفة للربح، خطوة بخطوة)
Murray Dropkin, James Halpin
Jossey-Bass, 272PP., $30.00, 2005



يعد هذا الكتاب أحدث ما صدر عالميا بهذا الشأن، الكتاب دليل كامل إلى محاسبة المؤسسات غير الهادفة للربح، فهو يقدم نصيحة عملية لحفظ كامل ودقيق للدفاتر والسجلات بطريقة سهلة الفهم إلى حد كبير.

الكتاب يوضح كيفية مسك الدفاتر، وإصدار تصاريح الضرائب، والميزانيات، ومحاسبة التكاليف، بالإضافة إلى انه مصدر شامل لكيفية تتبع الأرصدة اليومية والتدفقات النقدية، وتوضيح المفاهيم العامة المتعلقة بالتسجيل اليومى للعمليات المحاسبية.

وهو كتاب لا غنى عنه لكل العاملين فى مجال المحاسبة للمنشئات غير الهادفة للربح، خاصة أن كاتبيه من أكبر الأسماء فى عالم المحاسبة للمنشئات غير الهادفة للربح.

My Brother's Road : An American's Fateful Journey to Armenia
(طريق أخى: رحلة قدرية لمواطن أمريكى إلى أرمينيا)
Markar Melkonian
I.B.Tauris, 344PP., $29.95, 2005



عرف بعدة أسماء مختلفة منها «أبو سيندى»، «تيموثى شين ماكروميك»، «سارو»، و«القائد إفو». مونت ميلكونين أعتبر فى أوروبا إرهابى عالمى، بينما يعتبر فى وطنه - أرمينيا - كبطل وطنى، فقد قاد ٤٠٠٠ رجل إلى النصر فى أذربيجان، «ماركر ميلكونين» - أخيه - أمضى سبع سنوات فى محاولة لمعرفة سر أخيه.

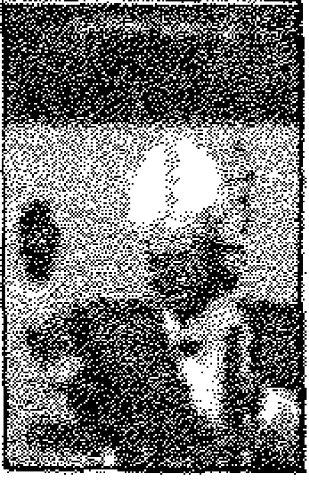
فى رحلة بدأت من مدينة أجداده بتركيا منتقلا إلى ساحة ملطخة بالدماء فى طهران، إلى الجبال الكردية، شوارع بيروت، منتهية بالمرتفعات الجبلية بكاراباغ.

جسدت معاناة مونت بشاعة وحماقة تلك الفترة التى صاحبت نهاية الحرب الباردة، وتفكك الاتحاد السوفيتى.

فى النهاية، من كان هذا الرجل حقا؟ بطل أم إرهابى؟.

طريق أخى ليس مجرد قصة رحلة طويلة وحياة قصيرة، إنما هو محاولة لفهم ماذا يحدث عندما يقرر شخص ما أن الأعمال العنيفة يعلو صوتها عن الكلمات.

The Loving Heart (Private Prayers of Pope John Paul II)
(القلب المحب: «صلوات خاصة للبابا يوحنا بولس الثانى»)
Pope John Paul II
Atria, 192PP., $22.00, 2005

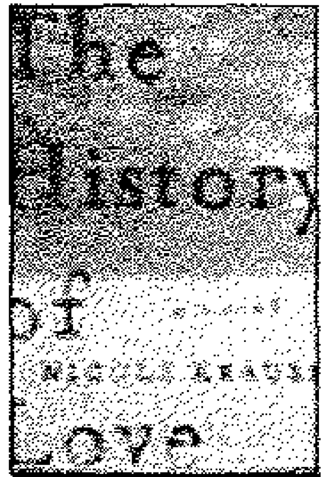


القلب المحب هو مجموعة من الصلوات والتصريحات العامة للبابا يوحنا بولس الثانى. الكتاب صدر بعد وفاة البابا بأيام قليلة، تظهر من خلال الصلوات عمق شفقته والتعاطف الذى يعتريه تجاه المرضى والعاجزين.

يدرك أيضا البابا أن الكنيسة أمامها فرصة عظيمة للتعلم من آلام أولئك الذين يعانون. وهذا الإدراك كان قد عزز عندما كان البابا نفسه قريبا من الموت بعد محاولة اغتيال فاشلة له عام ١٩٨١ .

يقول البابا أن «الكنيسة مجتمع حيث يجد أولئك الذين يعانون ترحيبا خاصا»، فالمسيحية تعتبر أن الألم ليس ذا فائدة، فهو يخفى العديد من المعانى والقيم خلفه. وهذا الكتاب يبحث وينقب عن طبيعة تلك المعانى.

The History of Love: A novel
(تاريخ الحب: رواية)
Nicole Krauss
W. W. Norton & Company, 252PP., $23.95, 2005



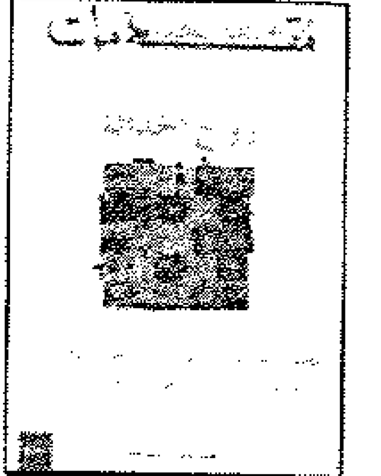
تدور أحداث الرواية حول العجوز «ليو جورسكاى» البولندى الأصل الذى غادر وطنه «بولندا» إبان الحرب العالمية الثانية هربا من النازيين، كل ما كان يشغل عقل ليو هو حبيبته السابقة التى فرقتها عنه الحرب، وابنه الذى لا يعلم بوجوده، وروايته المفقودة.

ليو حاول فقط البقاء على قيد الحياة، لا يعرف أن روايته لا تزال موجودة بل ونشرت منذ فترة باسم آخر فى تشيلى.

فتاة صغيرة تدعى «ألما»، سميت على اسم إحدى شخصيات الكتاب، تفقد أباها، تجد نفسها مع أم منعزلة إلى حد كبير، تأخذ على عاتقها البحث عن أخيها المفقود (الذى يعتقد انه المسيح المنتظر).

بمناسبة «صالون مجلات الفكر المعاصر» الذى انعقد فى المكتبة الوطنية بالجزائر، أتيح «لوجهات نظر» الاقتراب من دوريات فكرية مغاربية مختلفة وهنا بعض منها.

مقدمات: المجلة المغاربية للكتاب
Prologues : revue maghrébine du livre
الدار البيضاء، جمعية مقدمات، العدد ٣١



دورية فصلية منتظمة، تصدر عن جمعية «مقدمات» بالدار البيضاء، يصدر هذا العدد منها بدعم من وزارة الثقافة المغربية، «مقدمات» تحتوى على مواد منشورة باللغتين العربية والفرنسية.

هذا العدد جاء بعنوان «روح الحداثة: مثقفون مغاربيون يسائلون المصادر الفلسفية للحداثة؛ من سبينوزا إلى هابيماس مرورا بكانط وفكر التنوير»، والحداثة هى قضية باتت تشغل بال الكثير من المفكرين العرب فى الآونة الأخيرة، خصصت المجلة - كعادتها - كل مقالات القسمين العربى والفرنسى من المجلة للحديث عن مفهوم الحداثة، ليس من منظور الماهية، ولا لتحليل سماتها الأساسية، من تعدد، وحركية، وتنوع، وإنما من موقع مواجهة وتساؤل، فالملف يتعرض إلى معنى إطلاق لفظ معاصر أو حداثى على احدهم وعلى أى أساس كانت تلك التسمية؟، أيضا يتساءل الملف عن المجالات والمعطيات المؤسسة لتجربة الحداثة، وعن أسباب منح الحداثة صفة الكونية، فنجد فى القسم العربى مثلا مقالات مثل (ما التنوير؟) الذى يسرد ترجمة نصية لإجابة الفيلسوف «كانط» على هذا السؤال (برلين ١٧٨٤)، ومقال آخر بعنوان (هيدغر والحداثة) وفيه يحاول كاتبه «فتحى المسكينى»، الأستاذ بجامعة تونس، أن يغير من الاعتقاد السائد بأن التأسيس الفلسفى للحداثة قد نما على الفلسفة الكانطية. وعن الحداثة وعلاقتها بالأديان، يأتى مقال (الضمير الإسلامى فى مواجهة مقتضيات الحداثة) لأستاذ الفكر الإسلامى بجامعة سوسة «المنصف بن عبد الجليل».

القسم الفرنسى احتوى على خمسة مقالات أخرى فى نقاش مفهوم الحداثة وارتباطها بأشياء أخرى مثل الاستشراق.

بالإضافة إلى ملف العدد تقدم لنا مجلة «مقدمات» فى قسم «قراءات» قراءة نقدية لأحدث الإصدارات، ومناقشات فكرية واجتماعية وسياسية تتخذ الكتاب منطلقا لها.

أيضا يوجد بالمجلة ملحق ببليوغرافى يضم بيانات عن أهم الأبحاث والكتابات التى تهتم بموضوع ملف العدد.

نقــد
مجلة الدراسات والنقد الاجتماعى
الجزائر، العدد ١٩ - ٢٠

مجلة محلية (دورية فصلية)، توزع بالمغرب العربى، مزدوجة اللغة (عربى - فرنسى)، المجلة من القطع الصغير، وذات عدد صفحات كبير، مما يعطى إيحاء بكونها كتابا.



العدد جاء بعنوان «السياسة فى ميزان الفكر النقدى - Penser le politique».

فى الجزء العربى من المجلة، يحدثنا «محمد حشماوى» عن السياسة فى الجزائر والمغرب وفى بلدان الجنوب، فهو يتكلم عن التعارض الحدى بين الدولة والمجتمع، فى عرض لأنظمة الحكم وعلاقات السلطة فى المجتمع.

محمد حشماوى له أيضا مقال آخر بعنوان «التمثيل السياسى فى الجزائر.. بين علاقات الزبونية والنهب ١٩٩٧-٢٠٠٢»، يتحدث فيه عن الانتخابات التشريعية ٥ يونيو ١٩٩٧، وآثارها على الصعيد الجزائرى، والاعتبارات القبلية، كما يتحدث عن النائب الجزائرى، الذى أطلق عليه وصف (وكيل للوساطة الزبونية).

فى مقال آخر لعبد السلام المغراوى، المدير المشارك لبحوث ودراسات العالم الإسلامى فى برنامج البحوث والدراسات بمعهد الولايات المتحدة للسلام، جاء بعنوان «دمقرطة الفساد فى المغرب: إصلاحات سياسية فى ثقافة سلطة ثابتة»، يتكلم فيه عن الإصلاحات السياسية فى المغرب، والعملية الانتخابية، والتعددية، والتحرير الاقتصادى والفساد فى الأوساط السياسية المغربية.

جاء الجزء الفرنسى فى ثلاثة أقسام، الأول للحديث عن دول المغرب العربى، جاء فيه ثلاثة ملفات عن (الجزائر - المغرب - تونس)، فى ملف الجزائر نشرت النسخة الفرنسية من مقال «التمثيل السياسى فى الجزائر»، كما عرضت مقالات أخر تتحدث عن العرقية وعن التاريخ السياسى الجزائرى.

الملف المغربى تحدث عن الإصلاح، وعن الفساد، والتأثيرات السياسية على الاقتصاد المغربى.أما الملف التونسى فيتحدث عن الأوضاع السياسية والاقتصادية بتونس.

فى قسمه الثانى الذى خصص للدول خارج المغرب العربى، كانت هناك ثلاثة ملفات عن (لبنان - افغانستان - الهند)، شهد الملف اللبنانى مقالا عن اقتصاد الميليشيات فى لبنان، وتأثيره على الاقتصاد المحلى، وكان ملف أفغانستان عن إعادة البناء للدولة، بينما كان ملف الهند عن العولمة والتحركات السياسية الهندية تجاهها.

القسم الثالث، كان للمتنوعات ونشر به مقالا عن الحالة الروسية بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وتداعياتها على الساحة الروسية، كما شهد مقالا آخر عن النظام الرمزى لإدارة التعددية.

الاختلاف
الجزائر، رابطة كتاب الاختلاف، العدد ٣

دورية ثقافية (غير منتظمة)، تصدر عن رابطة كتاب الاختلاف.



فى هذا العدد يوجد ملفان، الملف الأول هو القسم الثانى من ملف قد سبق مناقشته فى العدد السابق من المجلة، وهو « إشكالية الهوية.. رؤى متعددة- القسم الثانى»، يتعرض كتّاب هذا الملف فى قسمه الثانى إلى العلاقة مابين الهوية والعولمة فى مقالتين عنونتا بـ «الهوية بين الاختلاف والعولمة»، و«العولمة والهوية.. حوار الكونية والأنا»، كما يحتوى الملف على مقالة أخرى عن «الكتابة.. تدمير الهوية»، وعلى حوار مع المفكر اللبنانى على حرب.

أما ملف العدد الرئيسى فهو عن «أحلام مستغانمى» الروائية الجزائرية، الحائزة على جائزة نجيب محفوظ، وصاحبة الرواية الشهيرة «ذاكرة الجسد» التى ترجمت إلى الفرنسية والإيطالية.

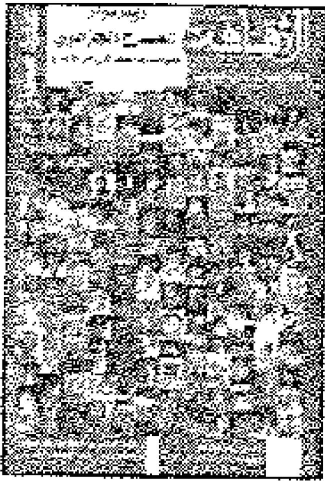
ولها عدة روايات أخرى منها «فوضى الحواس» و«عابر سرير». الملف يحتوى على حوارا مع «أحلام مستغانمى»، وسيرة ذاتية لها، ثم بعض الآراء النقدية فى رواياتها.

المجلة تهتم بالأعمال الأدبية، وتفرد مساحات واسعة من صفحاتها، لنشر القصص القصيرة والشعر ومقتطفات الرواية والنقد.

المجلة بها أبواب ثابتة، مثل «كتب صدرت حديثا»، و«قطوف..»، و«مشاهد» الذى يهتم بالسينما، و«نوافذ».

يوزع مع المجلة هدية وهى عبارة عن احد كتب منشورات الاختلاف وهو «العازف الأعمى وقصص أخرى.. مختارات من الأدب الألمانى».

الثقــافــة
الجزائر، المكتبة الوطنية الجزائرية، وزارة الثقافة، العدد ٦ - ٧ (عدد ممتاز).



فى عددها الخاص، تقدم لنا مجلة الثقافة (الدورية الثقافية)، عددا كاملا عن المسرح الجزائرى، فى تقييم ونقد وعرض للمسرح الجزائرى وعروضه والعاملين فيه.

فى حديث عن جذور المسرح الجزائرى ونشأته وتطوره وقراءة فى أصوله يقدم لنا هذا العدد ملامح التجربة المسرحية فى الجزائر، مع الاهتمام بمسارح الهواة والأطفال.

أيضا يصاحب الملف عدة حوارات مع العديد من رموز المسرح الجزائرى الذين ساهموا بأعمالهم فى خلق صورة وهوية له، تناقش أيضا المجلة التطورات التى شهدها المسرح الجزائرى خلال جميع مراحله، بدءا من مرحلة النشأة فى أوائل الستينيات، حتى الفترة الراهنة (المسرح الجديد).

أفردت أيضا المجلة مساحة للنصوص المسرحية، حيث قدمت نصين مسرحيين عربيين وآخرين مترجمين.

فى باب ريبرتوار - بقعة ضوء - قامت المجلة بعرض موجز مدعم بالصور لجميع العروض المسرحية (١٨٨٠ عرضا) التى شهدها المسرح الجزائرى منذ مرحلة النشأة عام ١٩٦٣ حتى اليوم.

وجهات نظر - رسائل

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

«عولمة الأديان»

الأستاذ رئيس التحرير:

مع اعتراف كامل بأنكم تحملون مشعل التنوير لأجيال كثيرة من واقع متابعة ما تكتبونه.

قرأت لكم فى عدد مايو ٢٠٠٥ موضوع عولمة الأديان.. وحقيقة لا أخفى عليكم أنكم وضعتمونى فى حيرة وقلق على مستقبل هذه الأمة التى تتلقى ما يكتبه النخبة من الأدباء والكتاب على أنه مقدس لأنه صادر عن عقليات مستنيرة لها باع طويل فى تنوير شباب هذه الأمة حريصون كل الحرص على ثوابت دينهم وثوابت ثقافتهم وحضارتهم الممتدة على الأقل عبر ١٤ قرنًا من الزمان منذ البعثة المحمدية.

مبعث انزعاجى يا سيدى أنكم أنهيتم مقالكم المشار إليه نهاية درامية مفتوحة على غرار المسلسلات التليفزيونية فقد عرضتم لموضوعين معًا: موضوع إمامة المرأة للرجال فى الصلاة وقضية مطالبة أحد الشباب المصرى تعطيل الحدود فى بعض منها على النحو الوارد بمقالكم.

لقد عرضتم وجهات النظر المختلفة من مؤيد ومعارض لإمامة المرأة فى مسألة ليست محل اجتهاد بالمرة وكأنكم تريدون أن تقولوا لنا وللعالم كله أن الثوابت فى الدين الإسلامى قابلة لمسايرة الحداثة وإلا أصبح المسلمون جامدين (...) صحيح أنك لم تصرح بذلك وتدعو إليه لكن للقارئ أن يقلق.. هل الحداثة والعولمة لهما شأن بالأديان يا سيدى خاصة فى دولة بها الأزهر الشريف وبها علماء رصان يستطيعون الإجابة عما أثرته فى مقالك وهم أدرى بلا شك منى ومنك.

العولمة والحداثة يا سيدى هى فى العلم التجريبى والحضارة المادية فقط، حيث لا وطن ولا دين ولا عرق لهذه الأمور فقد قال الرسول الكريم اطلبوا العلم ولو فى الصين، أما الثقافة يا سيدى المبنية على قيم وأخلاق مرجعيتها الدين، فليس هناك محل بالمرة لأعمال الحداثة والعولمة فى شىء منها.

حزنت أشد الحزن لما قرأته فى مقالك ودعوتك للعالم العربى إلى أن يفيق من غفوته ويساير مسلمى العالم فى آسيا أو غيرها فى أمور كهذه أقل ما يوصف بشأنها أنها عملية إجهاض لتعاليم الدين الإسلامى الحنيف وتشويه لدعوته.

سيدى الفاضل فرق كبير بين عدم تطبيق الحدود وبين أن نطالب بإيقافها كما لو كانت قانونًا وضعيًا.. وكما لو كان بإمكاننا مشاركة المشرع الأعلى فى مثل هذه الأمور وهو الله العلى القدير.

ثم لتسمح لى سيدى هل ضاقت الأرض بما رحبت فى أى قرية أو مكان أو عزبة أن يكون هناك رجل مسلم لتصبح الصلاة خلفه كإمام يحفظ الفاتحة وسورة قصيرة لتصح صلاة الجماعة خلفه.

حتى تقول سيادتكم بجواز إقامة المرأة المتعلمة إمامًا إذا لم يوجد فى المكان رجل فى علمها الدينى.

بالله عليك.. أرجو مراجعة مقالك وأن تخلو إلى كتب الفقه البسيطة وأنا لا أشك فى علمك ومكانتك.. شيخ الأزهر، د. طنطاوى وغيره من العلماء قالوا رأيهم فى هذين الموضوعين. وأعتقد أن هذا كان يكفى.. لست عالم دين لكنى إن جاز مثقف بعض الشىء وعمرى مثلك تقريبًا ٦٧ سنة وصلت لوظيفة محترمة فى الدولة.. مؤهل علميًا جامعيًا.. ومع ذلك حزنت لما قرأت.

محاسب/ إبراهيم رماح

مستشار بالمعاش

نون

إشكالية الدينى والمدنى ليست جديدة، لكن مع العولمة كما أشار سلامة أحمد سلامة أصبح الاحتكاك بين جمود الفكر الدينى والتطور المدنى الدائم لا مفر منه فى عالمنا العربى. قد لا توافقونى الرأى، ولكنى أعتقد أن العلاقة بين الدينى والمدنى فى طبيعتها تكاملية وليست إقصائية. مشكلة العالم العربى هى جمود الفكر، سواء كان دينيًا أو مدنيًا، ولكن لأن كل ما هو دينى أقرب بطبيعة الحال للثوابت منه للمتغيرات، ومع وقوفنا فى موقف المتلقى للفكر المدنى الغربى من دون أن نضيف إليه، أصبح الجمود الدينى للأسف نوعًا من أنواع المقاومة اللا إرادية من أجل الحفاظ على الهوية.

أما عن أسباب الجمود فهى سياسية فى الأساس، فبعد بضعة قرون من الاستبداد العلمانى، بدأ الحراك الفكرى فى العالم العربى مع الحملة الفرنسية التى كانت كالصدمة الكهربائية التى أعادت الحياة لقلب توقف عن النبض، فكانت النتيجة اختيار المصريين لمحمد على، وانفتاحًا أكثر على أوروبا عن طريق البعثات، وصولاً إلى مجددى الفكر الدينى من أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى والذين لم ينفصلوا عن مفكرى ذلك العصر وسياسييه أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول وأحمد لطفى السيد وقاسم أمين وطلعت حرب. ما نعيشه الآن أشبه بأواخر أيام العثمانيين، ولكن الصدمة الكهربائية هذه المرة قد تكون مميتة، على الرغم من أنها ١١٠ فولت فقط.

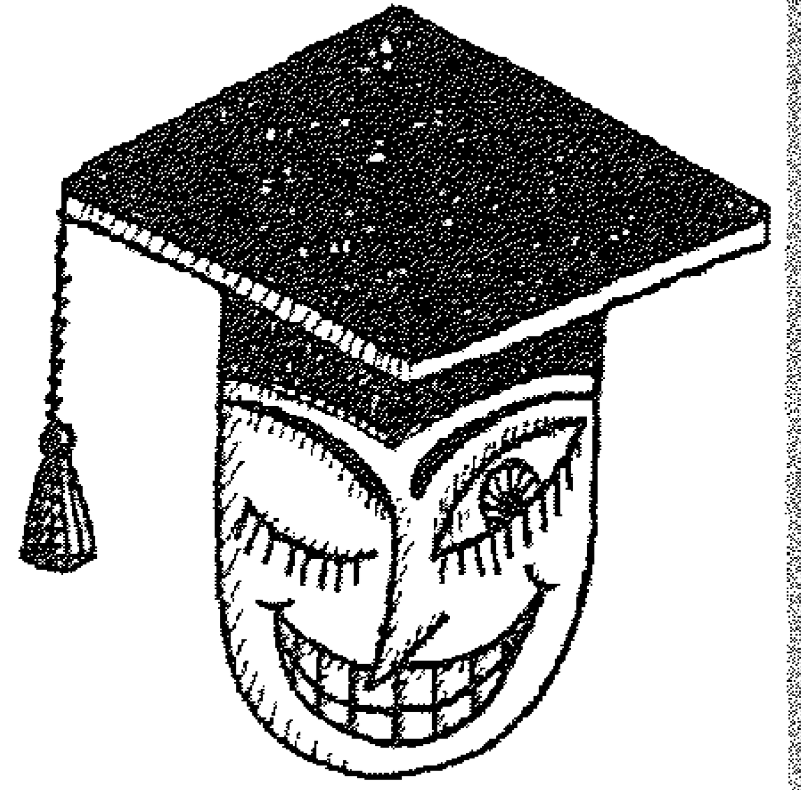
اتفق مع صاحب المقال فى بعض النقاط.

حيث إن ثورة الاتصالات خلقت عالمًا متصلاً ومؤثرًا فى بعضه البعض من الشرق إلى الغرب والعكس فى وقت صغير جدًا لا يسمح للأطراف المتأثرة نفسها التآلف مع التغيير بنفس السرعة. هناك فرق بين الدين وتفسير الدين. الدين نفسه هو مجموعة قواعد وأصول. والتفسير سيستمر فى التغيير مع تغير الزمان والمكان. علينا ألا نعتبر التغيير تنازلا أو تراجعا أو تقدما وتطورا. بل سنة كونية حاكمة ومسيطرة.. بل أعتبرها سنة فرضها الله على الكون كما فرض علينا أن نكون بشرًا مثلاً ولسنا أشجارًا أو مخلوقات أخرى. هناك محاولات جادة للتغيير وتجديد تفسير الدين. وهناك محاولات شكلية أو صناعية. وهناك محاولات ملفقة أو مدفوعة. فى النهاية هناك مشاكل أكبر وهى أن سوق الأفكار يكاد لا يحتمل مثل كل هذه التعددية فى مجتمع تعود على أحادية التفكير ولازال.

من التعليقات على الإنترنت

http://banyadam.blogspot. com/2005/05/blog-post_06.html

«تحت القبة وهم»



ما قرأناه بمجلتكم الموقرة فى عدد يناير الماضى تحت عنوان: «تحت القبة وهم» للدكتور رءوف عباس يدعو إلى الحزن والأسى ولا نملك معه إلا أن نقول «على التعليم الجامعى السلام»، فرغم كل أنواع الفساد التى ذكرها مؤلف الكتاب إلا أن هناك ظاهرتين يشيب لهما الولدان وتقشعر لهما الأبدان وهما (أ) علاقة الأمن بمجريات التعليم الجامعى. (ب) «لجان الممتحنين». أما عن الأولى فيكفينا أن نردد ما قيل بالحرف الواحد «فقد كانت لأجهزة الأمن الكلمة العليا فى الترشيح للمناصب الإدارية الجامعية عامة ومنصب العميد خاصة نظراً لأهمية منصب العميد فى تحديد أسلوب التعامل مع الطلاب و«طبخ انتخابات اتحاد الطلبة على مستوى الكلية التى كانت قضية أمن بالدرجة الأولى، أما عن الثانية «وأخذاً فى الاعتبار مناخ الفساد السائد فى الجامعة يبدو أن «هذه البدعة» وضعت لخدمة أبناء بعض أهل الحظوة الذين تعثروا فى بعض المواد.

ونحن بوصفنا مواطناً عادياً قد نقبل تدخل الأمن فى ترشيحات العمد والمشايخ ولكن العمداء شىء آخر.

وقد نقبل لجان الرأفة فى امتحانات النقل بالمرحلة الإعدادية، أما أن يكون ذلك فى الجامعة.

ونقترح أن يتم عرض هذا الكتاب على اللجان المتخصصة فى مجلسى الشعب والشورى ليناقش الأمر على الهواء مباشرة وليقتنع المواطن العادى بالمستوى المتدنى الذى وصل إليه خريج الجامعة بدءاً من الإملاء.

إن هذا الخريج لا يعرف وضع الهمزة على النبرة حتى مستوى تخصصه.

وعزاؤنا الوحيد قول الله تعالى «ليس لها من دون الله كاشفة» صدق الله العظيم.

بدوى أبو شنب
محام - الأقصر



«مثقفو السلطة»

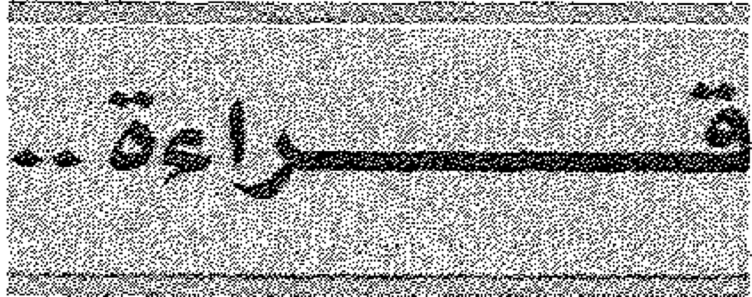


سعدت جداً بمقال الدكتور حلمى القاعود (عدد ديسمبر الماضى) الذى يعرض فيه فصول كتاب «بين كتبة وكتاب.. الحقل الأدبى فى مصر» من تأليف: ريشار جاكمون المقيم فى مصر واشتدت سعادتى لسعة صدر المجلة والقائمين على تحريرها أن سمحت للكاتب د. حلمى القاعود أن يعرض وجهة نظره ويظهر ما يبطنه ويقول ما فى مكنون نفسه من أول اختيار المقال المثير «مثقفو السلطة فى مصر» إلى معارضة المؤلف فى كثير مما كتب وتصحيح المفاهيم التى عممها المؤلف فى مؤلفه على تيار عريض فى المجتمع تتباين رؤاه وأفكاره وهو التيار الإسلامى، فصحح الكاتب عبارات ومفاهيم اعتبرها مغلوطة ودخيلة مثل عبارة الإسلام السياسى ووصف الإسلام بالإرهاب وأدب الإسلام السياسى، وصال الكاتب وجال فى قضايا كثيرة تناولها مؤلف الكتاب لا يتسع المجال لسردها الآن وإنما الذى نريد أن نذكره هو أن كاتبنا هذا الدكتور القاعود فكره وأيديولوجيته تمثل التيار الإسلامى المعتدل وهو أيضاً أديب وروائى ودائماً ينتقد الكتاب الذين يدورون فى فلك السلطة ويمتلكون مساحات واسعة فى الصحف القومية وتنشر لهم المؤسسات الثقافية المملوكة للدولة أعمالهم الأدبية والفكرية ولا تسمح هذه المؤسسات بنشر أعماله الإبداعية، فكان دائماً يكتب ويقول عن نفسه إنه غير مهضوم فى معدة القوم لأنه معارض منذ أن كان يكتب فى مجلة الاعتصام القاهرية والمجتمع الكويتية إلى حيث يكتب بصفة مستمرة اليوم فى جريدة آفاق عربية التى تمثل التيار الإسلامى المعتدل.

تحياتى للدكتور القاعود على جرأته فى عرض الكتاب كما أقدم تحياتى للمفكر جاكمون الذى لولا مؤلفه ما تمتعنا وعرفنا الكثير من الحقائق عن الكتاب بصفة عامة فى مصر وشكراً أولاً وأخيراً لسعة صدر المجلة التى فيما يبدو كسرت التابوت الذى كانت تسير عليه.

صابر محمد عبد الواحد
مدرس بمدرسة أبو القاسم
أخميم - سوهاج

«لا شىء يدعو للتفاؤل»



مقال الأستاذ أيمن الصياد فى عدد مارس الماضى رغم مرارته مقال رائع انتقل فيه من تداعيات ما يجرى فى لبنان إلى مقال الكاتب الأمريكى «جوزيف جوف» الذى أسقط ورقة التوت الجافة من فوق الجسم العربى المشوه وفضح أنظمته الكاريكاتورية التى تتآكل وتسقط فوق ملايين النمل التى تلهث ليل نهار مثقلة الجفون فى زهق..

ثم انتقل نحو المركز الحقيقى والهدف الأساسى لطلقات وحراب العولمة الداهمة وهو ضفاف النيل الخالد.

وما يسمع ويدور فى نواحى مصر المحروسة هذه الأيام من دقات طبول زاعقة، لأعراس ديمقراطية زائفة. كشفت عجز المجتمع بقسوة والنوم الجماعى فى العسل المر.

كما كشفت عن نسيان استعمال حق إنسانى قديم واضح بات غريباً مجهولاً مرعباً..

وأخشى أن ينتهى به الحال مرفوضاً.. وتهتف الجماهير فليحيا صمت الحملان.. فليس فى الإمكان أفضل مما كان..

مع الأسف الشديد.. لا شىء يدعو فعلاً للتفاؤل.

د. سمير عنتر
استشارى حميات
الطالبية - الهرم

قـــــــراءة ..

مصـــــــــر . الآن

■■ مصر . الآن:
توترات.. واحتقانات.. وارتباكات.. وبيانات تبرير وتفسير «شبه يومية» ورياح خماسينية تبدو في أفق صيف ملتهب.

في مصر - الآن: آملون.. ومتوقعون.. ومحاولون.. ومتربصون.. وغافلون.. ومن لا يجيدون - للأسف - قراءة «نشرة الأحوال الجوية».

مصر - الآن: صفوف من «الخوذات السود».. وشوارع لا تخلو من شاحنات الجنود.. وحوار سياسي «منفلت».. وصائدون في الماء العكر.. ومزايدون يحاولون بلافتاتهم وإطلالاتهم التليفزيونية تثبيت أقدام لهم «تيبست» في مساحة يظنونها باقية.. وبائعون «جدد» يسوقون بضاعة قديمة في علب جديدة. ويذكروننا بباعة الأدوية في سوق قريتنا القديم.



في مصر - الآن: محاولة لشق صف القضاة. وهو أمر لو تم لكانت «الدولة» ومفهومها ذاته الذي يستند بالتعريف إلى «النظام» ومن ثم إلى «مهابة القانون وأصحابه» أول الضحايا.

في مصر الآن: كل احتمالات الغد مفتوحة: أكثرها تفاؤلاً.. وأبغضها تشاؤماً. وهذا وضع أقل ما يوصف به أنه لا يبعث بالطمأنينة في النفوس.

لماذا انتظرنا كل هذا الوقت.. لنصبح الآن «هنا»؟!

ولماذا انتظرنا اللحظة التي يصح فيها القول بأن «ليس هناك وقت لتقديم مرشح معارض جاد.. وأن الأمر سيظل أقرب إلى الاستفتاء..»؟! وحتى نضطر - بعد كل هذا الانتظار إلى مناقشة أهم قوانين المشاركة السياسية في الأيام «الأخيرة» لـ آخر» دورة للبرلمان.

لماذا قعدنا في انتظار «المفاجأة».. وكل المفاجآت «مربكة» بحكم التعريف.

لماذا أصبحنا هنا؟!

كأننا لم نكن نعرف (قبل سنوات. وبحكم الدستور على الأقل) أن تلك اللحظة قادمة(!). وكأننا لم نقرأ يوماً أجندة أمريكية معلنة. وكأننا لم ندرك أبداً استحقاقات عصر جديد. ورغم أننا أمة علمتها الجغرافيا عبر آلاف السنين أن تستبق الفيضان بتدعيم الجسور، بدا أننا انشغلنا بالبحث عن «القرابين». وبدلاً من أن نتعلم من دروس الأولين «ومما جرى للأقربين» غابت عنا حكمة كانت تقتضي - بتعريفها البسيط - استعداداً مبكراً وجهداً «مخلصاً» لتوحيد الصفوف.



في مصر الآن - رغم العام الخامس من القرن الحادي والعشرين - عقلية أمنية لم تدرك بعد أن الكاميرات في كل مكان (بل ومدمجة في كل هاتف محمول). وأن الأطباق قد باتت فوق كل سطح. وأن «الحل الأمني» - وهو معروف ومرفوض في كل الأحوال - لم يعد ملائماً لزمن السماوات المفتوحة. وأن قصة الصحفية التي سحلها الجنود في ميدان سعد زغلول نشرتها عشرات الصحف وملايين المواقع على الإنترنت (واسألوا Google) كما أن صورة عمامة أزهرية تداس بأقدام العسكر في طنطا كفيلة بإثارة ما كان من الحكمة قطعاً تجنبه.

ها قد عدنا إلى نقطة البداية: لا فرق بين الدولة «التي هي للجميع» والحزب «الذي هو - بحكم التعريف - لبعضهم». الجنود المختفون في ملابس «مدنية» والمسلحون بهراوات «رسمية» يندسون وسط الجموع لتأديب المعارضين (أو من تسول له نفسه الأمارة بالسوء ذلك). وتفضح المشهد وتفضحنا معه شاشات الفضائيات وبيانات المنظمات الحقوقية في العالم كله. لماذا نضع صورتنا وسمعتنا في هذا المكان. في وقت نخشى فيه ضغوطاً محتملة من الخارج، ونصبح فيه في أمس الحاجة إلى من يشهد معنا لا ضدنا.

كأن لا جديد هناك، عدنا إلى نقطة البداية.

ما بدا باباً موارباً لشيء من الضوء والنسيم، مازال هناك من يحاول إغلاقه حماية - من العدوى - للذين «لم ينضجوا بعد..». وعلى شاشات التليفزيون المصري (الذي سيكون عادلاً في الانتخابات القادمة!) تبارى المتبارون «دون سقف» فكان أن سمعنا من يصف «اندفاع الجماهير إلى الشوارع لتعانق بعضها بعضاً مهنئة بعيد الفخار الوطني».

عدنا إذن إلى ما ألفناه ومللناه.. وإلى المربع رقم واحد.

هل يدرك الحكماء خطر أن يتعمق إحساس «لا فائدة..» في النفوس ونحن على أبواب عصر «مشاركة» ديمقراطية مطلوبة؟ هل تدركون خطر انفضاض «أغلبية» المواطنين عن صناديق اقتراع «ربما» يصبح لها استحقاقاتها.

في مصر - الآن.. من لا يرى عواصف قادمة، وقلاقل قائمة. مطمئناً لتمنياته. أو ربما مصدقاً لما على مكتبه من تقارير.

هل هناك من يدرك بحق - ولا يحاول أن يتجاهل - أن في كواليس الإدارة الأمريكية من يرى أن «التغيير المصري - لا العراقي - هو القادر على إطلاق التغيير في العالم العربي»؟ وهل هناك من قرأ بعناية الربط الأمريكي المستمر «والمستقر» بين أمن الدولة العظمى والتغيير «الحتمي» في المنطقة. وهل هناك من يعرف أن المروجين لتلك النظرية التي ولدت من تحت أنقاض برجي نيويورك قد ذكرت أدبياتهم غير مرة بمصرية محمد عطا وأيمن الظواهري. قد لا نتفق تماماً مع الطرح الأمريكي. ونعلم - قطعاً - أن كثيراً من الغرض وشيئاً من سوء النوايا يكمن في المداد الذي كتبت به هذه التقارير، أو بعضها على الأقل. ولا ننسى أبداً أن جورج بوش قال بصراحة أنه ينظر إلى مسألة الديمقراطية في المنطقة بمنظار شارانسكي (الإسرائيلي) صاحب الكتاب الذي يحرص الرئيس على الاحتفاظ به بجوار سريره. ولكننا - ورغم كل ذلك - نعرف أن الحكمة تقتضي «قراءة واعية». خاصة أن الذين خطوا الصفحات وفروا علينا عناء قراءة ما بين السطور.

لم نجد في مصر - للأسف - من يحاول رؤية ما يلوح في الأفق فيبادر إلى «سد باب الذرائع». فوجدنا خارج مصر - للأسف - من يضغط، فيجد تجاوباً - وإن مرحلياً - ممن ضاقت بهم السبل حتى بدا لهم أن ليس أمامهم غير «الرمضاء أو النار».

الآن: يقف جورج دبليو بوش (لا غيره) يعطينا دروساً في الديمقراطية.. يطرب البعض، ويغضب البعض. وفي وسط القاهرة ترفع مظاهرات «التأييد» لافتاتها «بالإنجليزية»(!) والدلالة لا تخطئها عين. ويصبح واضحاً - بكل الأسف - أنه في أجواء يحكمها «إحباط ضاغط» ومناورات «ميكيافيلية» يفقد مفهوم «الاستقلال الوطني» أرضاً كل يوم.

هل كان من الحتمي أن نصل إلى هنا؟!

في مصر - الآن: من لا يدرك أن «المركب واحدة». وأن لا مصلحة لهذا الطرف أو ذاك في ثقبها هنا أو هناك. وأن الكرسي - وفي مصر كراس كثيرة - لن يطفو أبداً بصاحبه يوم الطوفان.

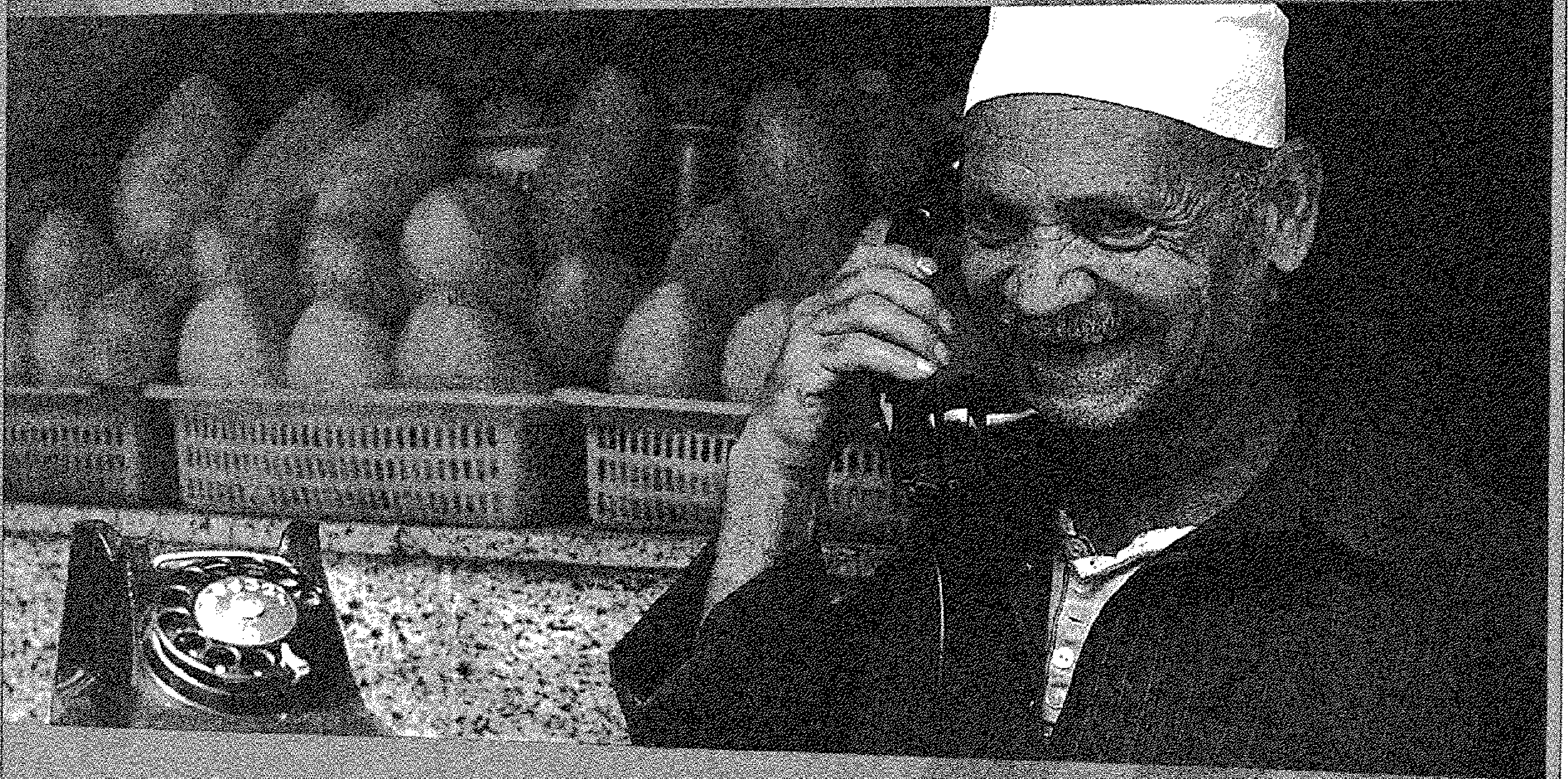


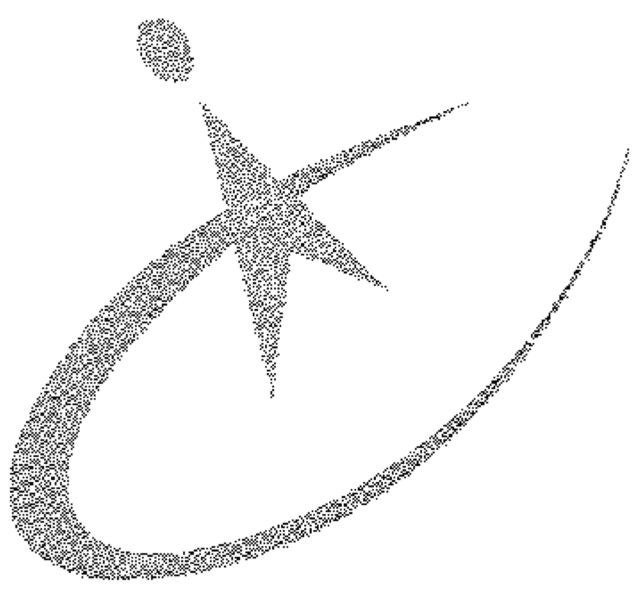
أيها السادة.. هل تعلمون. حقاً - أين نحن الآن؟

كان صادماً - أو على الأقل مباغتاً - أن شاباً صغيراً استوقفني معلقاً على «حالة الاستفتاء» متسائلاً: «لماذا لا يستفتوننا إن كنا نرغب في أن نصبح ولاية أمريكية؟» صدمني السؤال.. وصدمتني الإجابة التي قد لا تطاوعني نفسي أن أكررها. فقط أتساءل: لماذا وصلنا إلى هنا؟!

أيمـــن الصيــــاد

أقل سعر للدقيقة فى مصر





الان احصل على أرخص مكالمة محافظـات
من التليفون الثـابت مع المصـرية
للاتصـالات مع امكانية اختيـار
خدمة المبـاشر للاتصال بالمحافظـات
فقط بدون المحمول.

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 7 - Issue 78 - July 2005

مجلة شهرية. العدد الثامن والسبعون. السنة السابعة. يوليو ٢٠٠٥. الثمن عشرة جنيهات

الإصلاح
سؤال عمره مائة عام

الإسكندرية
عندما كانت أوروبية

- ثقافة الموالاة
- بين جمر ورماد
- صناعة الرئيس
- حرية الصراخ



السنة السابعة
العدد الثامن والسبعون
يولية ٢٠٠٥

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أيمن الصياد .. صحفى.
- ايموس ايلون.. كاتب.. من أحدث مؤلفاته يهود ألمانيا قبل هتلر.
- بشير موسى نافع.. أستاذ مساعد بجامعة لندن ـ فلسطينى.
- رجاء النقاش.. ناقد أدبى.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- عبد الرءوف الريدى.. سفير مصر الأسبق فى واشنطن.
- عزة عزت.. مدرس الصحافة بجامعة القاهرة.
- علاء الدين وحيد.. كاتب.
- فاروق عبدالقادر.. كاتب.
- محمد عمارة.. كاتب ومفكر إسلامى.
- محمد المهدى.. مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.
- مصطفى لبيب عبد الغنى.. أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة.
- نادر فرجانى.. مدير مركز المشكاة والمؤلف الرئيسى، لتقرير «التنمية الإنسانية العربية»

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى ـ أحمد اللباد





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى. ص. ب: ٣٣ البانوراما. مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦. subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية. السعودية ١٥ ريالاً. الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير. اليمن ٣٠٠ ريال. فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

نون

سلامة أحمد سلامة

التراث الحضارى وثقافة الموالاة

[١]

■■ عندما يتأمل المرء درجة التطور الحضارى الذى حققته شعوب أخرى ذات ميراث حضارى قديم مثل الهند أو الصين، وكيف نجحت فى استعادة وعيها والنهوض من مراحل التخلف إلى طريق التقدم بمقاييس العصر، فلا بد أن تصيبه الدهشة مما آلت إليه أحوال شعوب عربية امتدت جذورها فى التاريخ ربما بأبعد من شعوب الهند والصين. ولابد أن تثور لديه أسئلة محيرة: كيف ولماذا بقيت شعوب ذات منجزات حضارية قديمة مثل مصر وسوريا والعراق واليمن عصية على التطور، عاجزة عن الإمساك بمفاتيح العصر؟ بينما حققت شعوب الهند والصين، على ضخامة أعدادها وكثافة سكانها وثقل أعبائها، قفزات هائلة.. يمكن القول إنها استطاعت أن تجتاز حاجز التخلف وتشق طريقها صاعدة، سواء على مستوى التقدم العلمى والتكنولوجى، أو على المستوى الاقتصادى.. بل أيضًا على مستوى المكانة الاستراتيجية فى موازين القوة والمنعة والدفاع عن النفس؟!

ثم تنظر إلى ما جرى من تحولات ديمقراطية فى شرق أوروبا وفى أمريكا اللاتينية التى كانت إلى عهد قريب مضرب المثل فى الفقر والتخلف وغياب الحريات، فلا تجد سببًا مقنعًا لتخلف الأمة العربية. فلا هى شبت عن الطوق اقتصاديًا وتكنولوجيًا كما فى الصين والهند، ولا هى أفلتت من إسار الاستبداد وبطش الأنظمة الشمولية كما فى شرق أوروبا وأمريكا اللاتينية ودول آسيوية مثل اليابان وكوريا الجنوبية وماليزيا.

[٢]

لا يقتصر الأمر على أن الأمة العربية هى من أقدم الأمم حضارة، ولكنها - وللغرابة - من أكبر الأمم فى عصرنا الحديث التى لم تحصل على حقها فى الحياة الحرة، وبناء الدولة الديمقراطية، وحصول أبنائها على فرص متساوية فى ظل مبدأ المواطنة وعدم الاستئثار بالثروة والسلطة!

أعلى نسب البطالة والفقر والأمية، مع انهيار نظم التعليم الجامعى وما قبله وما بعده، والنزوع إلى الطائفية والفئوية والعشائرية، وإهدار حقوق المرأة، واتساع الهوة بين الطبقات فى الثروة كما فى الحقوق والواجبات، وعدم احترام حقوق الإنسان، وتغلغل الفساد فى الأجهزة والمؤسسات.. كلها قواسم مشتركة وأمراض شائعة بين دول المنطقة التى لا تكف عن التفاخر بتاريخها وأفضالها ومآثرها على البشرية.

أما السلطة والحكم والقيادة فى الأمة العربية، فقد اقترنت بتاريخ حافل بالظلم والاستبداد، والصراع على الحكم حتى بين أبناء الأسرة الواحدة والعشيرة الواحدة. وامتلأت أدبياتها بقصص التآمر والاقتتال وسفك الدماء باسم الدين، أو بغريزة التملك والسلطان، على نحو ما كان يحدث فى أوروبا قبل قرون، أكثر مما عرفت من التحالفات ضد عدو مشترك، أو تبادل للمنافع والتعاون الاقتصادى والسياسى.

وعلى كثرة ما شهدت الأمة العربية على مر تاريخها من حركات إصلاحية وثورات على الظلم والفساد، وانقلابات ضد الطغاة.. فلم تفلح هذه الانفجارات والتقلبات فى إصلاح أوضاع الشعوب والانتقال بها من مرحلة إلى مرحلة، والنهوض بها من عثراتها. بل تزايدت أساليب القمع واستحكمت، وأتقنت النظم وبرعت فى إغلاق الأبواب وبناء السجون والمعتقلات، وفرضت أحكام الطوارئ والقوانين الاستثنائية وانتهاك قدسية العدالة. ثم تحصنت وراء ادعاءات الحفاظ على الهوية والخصوصية، والدفاع عن الكرامة الوطنية والمصالح العليا.

وقد أضحت هذه الحالة جزءًا من واقع حاضر نشهده ونعايشه. وساعدت وسائل الإعلام وانهيار الحواجز على إسقاط ستار السرية الذى كان الحكام يختفون وراءه.. وتسربت إلى الصحف والفضائيات صور الفظائع والانتهاكات وأساليب التعذيب الوحشية التى تمارس فى السجون والمعتقلات وأماكن الاحتجاز.. إلى الدرجة التى جعلت من بعض العواصم العربية ملاذًا آمنًا لأجهزة التحقيق الأجنبية، حيث يجرى شحن المتهمين والمشتبه فيهم إليها لإجبارهم على الاعتراف. وهى أوضاع فريدة من نوعها وغير مسبوقة فى التاريخ.. أن تقام معسكرات اعتقال وتعذيب فى بلد لحساب بلد أجنبى آخر، قد يصنف فى خانة الأعداء والخصوم!

[٣]

هناك افتراضات عديدة، تحاول تفسير أسباب هذا المنحدر التاريخى. أولها وأقربها إلى الذاكرة، خضوع المنطقة العربية للسيطرة الاستعمارية قرونًا طويلة. منذ كانت جزءًا من الإمبراطورية العثمانية إلى أن جرى تقسيمها والتنازع عليها بين الاستعمار الفرنسى والاستعمار البريطانى. وعلى الرغم مما حملته قوى الاستعمار معها من عناصر التنوير، وما حاولت فرضه من ثقافتها وطرائق تفكيرها العلمى، إلا أن درجة استيعاب المجتمعات العربية لعناصر الحضارة الغربية ظلت مقصورة على شرائح محدودة من الطبقات العليا. ولم تلبث أن اصطدمت بقاعدة صلبة من الأفكار الدينية المحافظة التى زرعها الإرث المملوكى فى عصور الانحطاط والتخلف. فلم تشتعل شرارة التحديث، التى عادة ما تقع عند احتكاك الحضارات والثقافات فى لحظة تاريخية معينة.

ولعل هذا يقودنا إلى السبب الثانى، وهو فشل محاولات التجديد فى الفكر الدينى على امتداد القرنين الأخيرين، والمقاومة الشديدة التى أجهضت محاولات الأفغانى ومحمد عبده وغيرهما من دعاة التجديد. وأصبحنا ونحن فى القرن الواحد والعشرين نتحسر على أيام النهضة الفكرية والدينية التى قادها الإمام منذ مائة عام فى الفقه والتشريع والفلسفة. وانتصرت الأصولية السلفية فى نهاية الأمر انتصارًا ساحقًا بفضل تحالفها مع النظم الحاكمة من ناحية، وانكسار حركة النهضة من ناحية أخرى.

وجاء ظهور النفط فى المنطقة العربية مع ازدهار الثورة الصناعية فى الغرب، ليوقظ أطماع الرأسمالية الغربية فى ضرورة إبقاء نفوذها الاستعمارى ولو بأشكال وأنماط جديدة، تستهدف استمرار الشروط الكفيلة بالحفاظ على مصالح الغرب فى تدفق البترول وتأمين آباره وطرق نقله ومعامل تكريره، وبالتالى حماية القوى الإقليمية الحاكمة وكسب ثقتها واقتسام الثروة معها.

وكان طبيعيًا أن يؤدى ذلك إلى نشوء دول ريعية تعتمد فى مداخيلها على الثروة النفطية التى تقوم شركات غربية بإنتاجها وتسويقها، الأمر الذى أدى إلى إيقاف نمو الشعوب العربية فكريًا وسياسيًا، وأسقطها فى بئر الاعتماد على ثروة تتدفق من باطن الأرض لا يد لها فيها. فلم تنشأ طبقات عاملة ولا مجتمعات صناعية ولا مراكز علمية، بل ظلت على حالها من البداوة المذهولة عن نفسها بثراء مهول لم تتعب فى الحصول عليه. وانعكس ذلك على تنشئة مواطن عربى ضعيف الشخصية فاقد للقدرة على المبادرة والتكيف مع متغيرات

العصر والاعتماد على النفس ومواجهة المصاعب.

ولا حاجة إلى القول بأن إقامة الدولة اليهودية فى قلب المنطقة العربية، وما نجم عنها من صراعات وحروب، أضافت عاملاً آخر إلى سلسلة عوامل الانحدار والسقوط الشامل. وتزامن انتعاش الدولة اليهودية وتوسعها مع اعتماد الغرب الصناعى على النفط العربى بعد اكتشافه بكميات هائلة. وبدا واضحًا أن مساندة الغرب لإسرائيل وتمكينها لبلوغ درجة من التفوق العسكرى والاقتصادى على جميع الدول العربية، مسألة وظيفية لا علاقة لها باضطهاد النازية لليهود ولا بإقامة وطن قومى لهم.



الأمة العربية هى من أقدم الأمم حضارة ولكنها ـ للغرابة ـ من أكبر الأمم فى عصرنا الحديث التى لم تحصل على حقها فى الحياة الحرة، وبناء الدولة الديمقراطية، وحصول أبنائها على فرص متساوية فى ظل مبدأ المواطنة



[٤]

هذه العوامل مجتمعة وغيرها مما يضيق المقام عن ذكره، أسهمت بغير شك فى تشويه بنية الإنسان العربى ومؤسسات الحكم العربى، التى ساعدت بدورها فى توليد نخب عربية عاجزة، لا تعتمد على شعوبها ولا يأخذها فى الحسبان، ولا تؤمن بمفهوم المواطنة كمرجعية لشرعيتها، بل تعتمد على مساندة قوى خارجية وتركيبات عشائرية. وحتى فى الحالات التى تصدى الجيش فيها للقيام بدور نهضوى إصلاحى، لم تلبث أن غلبت النزعة العسكرية فى الاستئثار بالسلطة والاستمتاع بمنافعها.

وفى معظم الحالات، لم تتحول الدول العربية بعد مرحلة الاستقلال إلى وطن للجميع أو إلى دولة ـ أمة تعطى فرصًا متكافئة فى ظل بناء ديمقراطى، بل تحولت إلى «نظام» يستمد شرعيته إما من مرجعية دينية وراثية، أو مرجعية ثورية أيديولوجية، أو مرجعية قبلية عشائرية. وفى كل الأحوال ظل بناء الوطن والمواطن على أسس حديثة ديمقراطية مسألة مؤجلة، وظلت الأولوية للحفاظ على الاستقرار و«النظام». ولهذا بقيت الإصلاحات التى تقوم بها الأنظمة العربية الحاكمة شكلية فى مجملها. تعتمد فى صياغتها وأهدافها على رؤية من الخارج، أو على منح ومعونات مالية وفنية تأتى من دول أخرى ذات مصالح، وفى أحيان كثيرة تكون فى شكل صفقات أو مقايضات للتنازل عن مواقف معينة فى مواجهة الهيمنة الأمريكية والنفوذ الغربى، أو فى مقاومة التوسع الصهيونى وإضفاء الشرعية عليه.

وبالمقارنة مع النهضة التى تحققت فى الصين أو الهند على سبيل المثال، فسوف تكتشف أن هذه الشعوب اعتمدت على نفسها بالدرجة الأولى. واستغنت عن أى مساعدات خارجية ارتبطت بشروط أو قيود. واستغلت كل فرصة لبناء قوتها الذاتية اقتصاديًا وتكنولوجيًا، واستفادت من طاقاتها البشرية الهائلة دون أن تتنازل قيد أنملة عن استقلالها ومصالحها. وعلى الرغم من اختلاف الفلسفة السياسية فى كل من البلدين، فلم يكن «النظام» وشخص الحاكم الذى يجسده هو المرجعية الأساسية للشرعية. بل قامت فى الهند على توافق ديمقراطى برلمانى، وفى الصين على براجماتية أيديولوجية شعبوية. فما إن اجتاحت العولمة أرجاء العالم، حتى وجدنا شعوبهما على أهبة الاستعداد لمواجهة التحديات والوقوف فى وجه الهيمنة السياسية والعسكرية.

[٥]

«النظام» فى العالم العربى ثابت لا يتغير. ربما تتغير الشخوص بالموت أو بالاغتيال، ولكن يبقى «النظام» برموزه وآلياته وأفكاره، مغلقًا على نفسه، مشغولاً بالحفاظ على استمراره، يمارس سيطرته على المجتمع، ويقاوم التغيير إلا فى أضيق الحدود. وبهذا المنطق بقى نظام الثورة فى مصر فى جوهره كما هو طوال نصف قرن حتى بعد أن انتهت الثورة. وفى سوريا بقى نفس النظام الخالد الذى لا يتغير لدرجة أنه عندما تم الاستغناء عن عبد الحليم خدام فى المؤتمر العاشر لحزب البعث اعتبر ذلك تطورًا مثيرًا. وفى تونس وفى الجزائر وفى ليبيا والسودان واليمن.. تتوالى التنويعات والتقسيمات على نغمة واحدة. وما يحدث حاليًا فى العراق ليس إلا استثناء يؤكد القاعدة.

ومن هنا سادت فى المجتمعات العربية ثقافة «الموالاة». وهى كلمة تعبر عن ذهنية تتناقض تمامًا مع منطق التقدم القائم على الاستكشاف والاستبصار والجدل والحوار بحثًا عن الحقيقة.. وعدم التسليم لأى من كان بالحق فى امتلاكها واحتكارها. فالنظام ـ أى نظام ـ ليس صنمًا يعبد ـ وليس معصومًا من الخطأ، وليس ممتنعًا على التغيير والتبديل. وحين يعتقد بعض المثقفين أن «النظام» هو المجتمع وهو الأمة وهو الشعب، بمعنى أن بقاء الشعب وارتقاءه وازدهاره رهن ببقاء «النظام» وشخوصه وأفكاره، فذلك هو صميم الانحدار إلى هوة التخلف. إذ تصبح قضية الاستمرارية هى أم القضايا، وبالتالى فإن قضية الخلافة أو التوريث تصبح هى الجنين الكامن فى بطن «النظام» ينتظر الجميع ولادته أو إجهاضه.. وفى هذا تنفق المجتمعات العربية طاقات هائلة تستهلك الإمكانات ويسقط من أجلها كثير من الضحايا.

ويستتبع ذلك بالضرورة أن تكون ثقافة الحفاظ على أمن المجتمع واستقراره، وبعبارة أخرى «أمن النظام واستمراره» هى قمة الولاء والإخلاص والوطنية بديلاً عن المواطنة. فكل خروج على النص يعتبر هرطقة، وكل تمرد على الفكر السائد يعتبر خيانة، وكل معارضة سياسية تعتبر تهديدًا لأمن الجماعة وسلامتها.

ولهذا السبب لا تكاد دولة عربية واحدة تعرف معنى المعارضة ووظيفتها فى النظام السياسى. وكل أحزاب المعارضة فى المجتمعات العربية إما أن تكون مصنوعة، أو مقموعة، أو ممنوعة. ومن ثم فهى ليست مؤهلة للحكم حتى لو أزيحت من طريقها العقبات والموانع. وغالبًا ما يصبح التعامل مع الشعوب تعاملاً أمنيًا فى كل شىء. فالتعليم الجامعى قضية أمن قومى. واشتغال الأحزاب والجماعات بالسياسة أمن قومى.. والحركات الشبابية، ومباريات كرة القدم، ووسائل الإعلام والعروض المسرحية ونشر الكتب واستخدام الإنترنت والكمبيوتر.. كلها أمور لابد أن يقول فيها الأمن كلمته التى لا مرد لها.

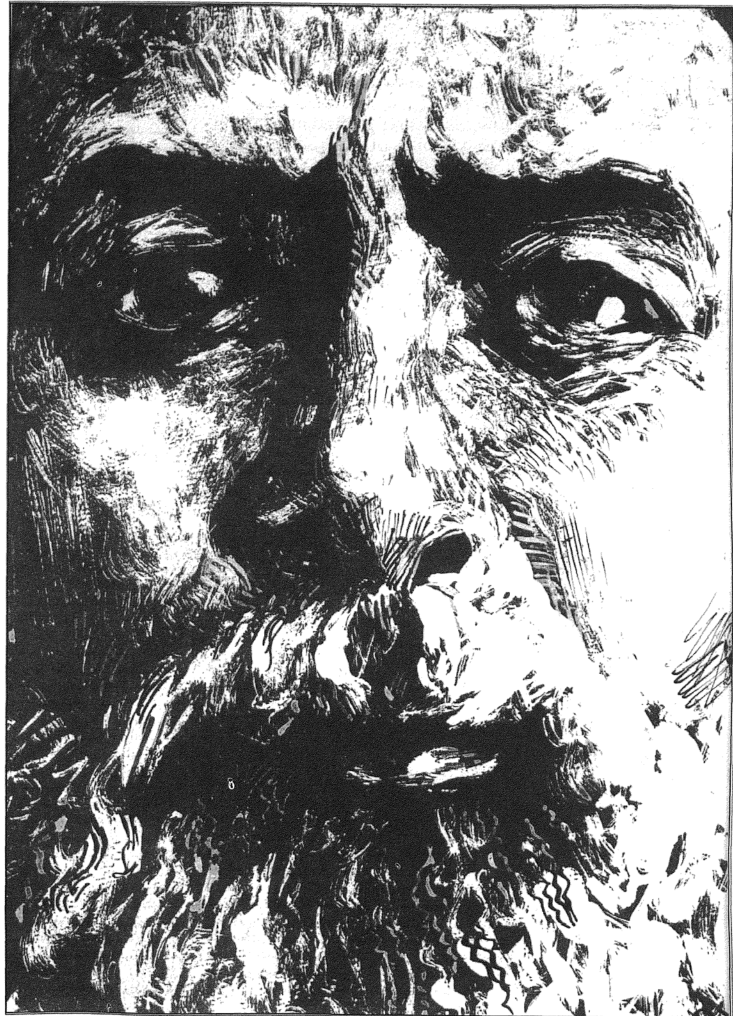
[٦]

تشهد المجتمعات العربية هذه الأيام صحوة فى سبيل الحرية والديمقراطية تبدو متأخرة بمعيار التطور العالمى، تأتى من قواعد شعبية قبل أن تأتى من النظم الحاكمة. ربما يعتقد البعض أنها مجرد «هوجة» أو زوبعة لا تلبث أن تخمد جذوتها، زعمًا بأن ثقافة الموالاة والخضوع للحاكم وعدم معارضته تمثل إرثًا قديمًا متغلغلاً فى صميم الحضارات القديمة لهذه الشعوب، سواء باسم «الفرعونية» أو جريًا على مبدأ «السمع والطاعة» لأولى الأمر!!

ولكننا نعتقد أن ما تشهده المجتمعات العربية حاليًا سواء بتأثير عوامل خارجية أو تراكمات داخلية، يؤكد أن ثقافة الموالاة وما يتولد عنها من ثقافات فرعية فى طريقها إلى الهزيمة. وأن عناصر التغيير تتلاقى الآن فى مرحلة زمنية فاصلة أنضجتها أوضاع دولية وإقليمية.. ومن أتون المعاناة ومشاعر الإحباط والحصار الذى يحيط بالأمة العربية فقد تنطلق شرارة التغيير. ولعل أكثر التجليات نصوعًا هو ما يجرى على الساحتين اللبنانية والمصرية. وهى بدايات لتطورات لم تنته بعد، تأتى استجابة لبذور اختمرت واستكنت فى التربة الوطنية خلال العقود الأخيرة.. فما السبيل إلى تعميقها والبناء عليها؟

ثمة دلائل قوية على أن تغير المناخ السياسى واللغة الإعلامية وبروز واقع سياسى جديد، يمكن أن يقدم الإجابة على كثير من الأسئلة التى طرحت فى هذا السياق، وهل بلغت الشعوب العربية مرحلة النضج لتصبح قادرة على خيارات الحرية والديمقراطية، واستيعابها فى بنية المجتمع، ومن ثم فى نظام الحكم، أم يقدر لها أن تواجه محنة الخروج من الزمن ومن التاريخ؟ ■

رسم للفنان محمد حجى





مائة عام على وفاة محمد عبده.. ومازال الإمام حاضرًا بقوة من خلال مشروعه النهضوى لتجديد دين الإسلام كى تتجدد به دنيا المسلمين.. ومازال سؤال الإصلاح يراوح مكانه دون أن يتمكن العالم الإسلامى من حسم أمره وإصلاح ذاته.. «وجهات نظر» تحتفى بمئوية الإمام من خلال مقالات للدكتور محمد عمارة عن مشروع الإمام الحضارى للإصلاح بالإسلام والدكتور بشير موسى نافع عن الإحياء الإسلامى والدكتور مصطفى لبيب عبدالغنى عن فتاوى الإمام.



محمد عبده

مشـــــروع حضـــــارى للإصـــــلاح بالإســـــلام

مـــحـــمـــد عـــمـــارة

حول بدايات القرن الرابع عشر الهجرى، تألقت الدعوة الإصلاحية للإمام محمد عبده فى واقع حضارى تميز بسيادة الجمود والتقليد فى دوائر طلاب العلم الدينى وهو غلو يحجب الدين والإصلاح الإسلامى عن الواقع والحياة يخلق الفراغ الدينى الحق فى هذا الواقع، ويبعد المنهاج الإصلاحى الإسلامى عن أن يكون هو سبيل الأمة للنهضة والتقدم.

كما تميز هذا الواقع الحضارى بزحف النموذج الغربى فى التقدم والتحديث على الشرق الإسلامى، ذلك النموذج الذى وفد إلى بلادنا فى ركاب الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة لعالم الإسلام.. وهو نموذج قد تميز بالغلو الشديد، وذلك عندما انحاز إلى عالم الشهادة رافضًا عالم الغيب.. وإلى الدنيا فى مواجهة الدين.. وإلى الفردية فى مقابلة الجماعة.. وإلى الأرض فى رفضه لحكمة السماء وشريعتها.. وإلى المادية والوضعية فى مقابلة الروح.. وإلى القوة فى مواجهة العدل.. وإلى الصراع بدلاً من التدافع.. وإلى العقل فى مقابلة النقل والوجدان.. فملأ هذا النموذج الغربى الفضاء الفلسفى والثقافى والسياسى بحشد غفير من «الثنائيات المتناقضة»، التى عبرت وتعبر عن غلو التفريط، المقابل لغلو الإفراط الذى مثله الجمود والتقليد السائدان بين طلاب علوم الدين فى شرقنا الإسلامى، بذلك التاريخ.

ولمجافاة كلا الموقفين. جمود طلاب علوم الدين.. وجحود طلاب العلوم الغربية.. لمنهاج الوسطية الإسلامية فى الإصلاح والنهوض، كان حرص الإمام محمد عبده على تمييز منهاجه فى الإصلاح بسمة الوسطية الإسلامية الجامعة.. فكتب عن تميز موقفه ومنهجه ودعوته بهذه الوسطية عن أهل الجمود والتقليد للموروث، وأهل الجمود والتقليد للوافد الغربى.. فقال:

«ولقد خالفت فى الدعوة إليه.. (أى إلى منهجه فى الإصلاح) رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو فى ناحيتهم».

ثم تحدث عن أن هذه الوسطية.. التى انحاز إليها.. وتميز بها منهاجه الإصلاحى. ليست خيارًا ذاتيًا، وإنما هى منهاج الإسلام، الذى تميز به عن الغلو الذى أصاب أهل الشرائع الأخرى.. «فلقد ظهر الإسلام، لا روحيًا مجردًا، ولا جسديًا جامدًا، بل إنسانيًا وسطًا بين ذلك، آخذًا من كلتا القبيلتين بنصيب، فتوافر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره، ولذلك سمى نفسه: دين الفطرة. وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدوه المدرسة الأولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية».

فالوسطية هى السمة المميزة للإسلام، وهى السبب الذى جعل الإسلام دين الفطرة البشرية السوية.. فكان لذلك سلم الارتقاء على درب المدنية، بشهادة الخصوم قبل الأصدقاء!

ولقد أفاض الأستاذ الإمام فى الحديث عن هذه الوسطية الإسلامية، الجامعة - فى الإصلاح - بين الدين والدنيا.. وذلك فى تفسيره قول الله - سبحانه وتعالى - (وكذلك جعلناكم أمة وسطًا) - البقرة: ١٤٣ مشيرًا إلى دلالات مجىء الحديث عن الوسطية الإسلامية فى سياق حديث القرآن عن الهداية الإلهية للإنسان (والله يهدى من يشاء).. فقال:

«أى على هذا النحو من الهداية جعلناكم أمة وسطًا».

ثم عرض لمعنى هذه الوسطية الإسلامية فى تراث السلف.. ثم أضاف رؤيته التى جعلتها منهاجًا فى النظر والإصلاح.. فقال:

«لقد قالوا: الوسط هو العدل والخيار، وذلك لأن الزيادة على المطلوب فى الأمر إفراط، والنقص عنه تفريط وتقصير، وكل من الإفراط والتفريط ميل عن الجادة القويمة، فهو شر ومذموم، فالخيار هو الوسط بين طرفى الأمر، أى المتوسط بينهما.

ولكن، يقال: لم اختير لفظ الوسط على لفظ الخيار، مع أن هذا هو المقصود؟ والأول إنما يدل عليه بالالتزام؟

والجواب من وجهين:

أحدهما: أن وجه الاختيار هو التمهيد للتعليل الآتى، فإن الشاهد على الشىء لابد أن يكون عارفًا به، ومن كان فى أحد الطرفين فلا يعرف حقيقة حال الطرف الآخر ولا حال الوسط أيضًا.

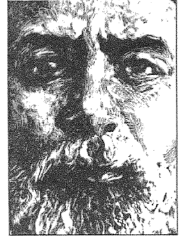
وثانيهما: أن فى لفظ الوسط إشعارا بالسببية، فكأنه دليل على نفسه، أى أن المسلمين خيار وعدول لأنهم وسط، ليسوا من أرباب الغلو فى الدين المفرطين، ولا من أرباب التعطيل المفرطين، فهم كذلك فى العقائد والأخلاق والأعمال».

ثم مضى الأستاذ الإمام إلى الحديث عن أن هذه الوسطية الإسلامية إنما جاءت ثورة على شيوع الغلو - غلو الإفراط والتفريط - الذى ساد الشرائع والأنساق الفكرية التى سبقت ظهور الإسلام:

«ذلك أن الناس كانوا قبل ظهور الإسلام على قسمين:

قسم تقضى عليه تقاليده المادية المحضة، فلا هم له إلا الحظوظ الجسدية، كاليهود والمشركين، وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة، وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسمانية كالنصارى والصابئين وطوائف من وثنيى الهند أصحاب الرياضات.

وأما الأمة الإسلامية فقد جمع الله لها فى دينها بين الحقين، حق الروح وحق الجسد، فهى روحانية جسمانية. وإن شئت قلت: إنه أعطاها جميع حقوق الإنسانية، فإن الإنسان جسم وروح، حيوان ومَلك، فكأنه قال: جعلناكم أمة وسطا، تعرفون الحقين وتبلغون الكمالين (لتكونوا شهداء) بالحق (على الناس) الجسمانيين بما فرطوا فى جنب الدين، والروحانيين إذ فرطوا وكانوا من الغالين، تشهدون على المفرطين بالتعطيل، القائلين (إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) بأنهم أخلدوا إلى البهيمية، وقضوا على استعدادهم بالحرمان من المزايا الروحانية وتشهدون على المفرطين بالغلو فى الدين القائلين إن هذا الوجود حبس للأرواح وعقوبة لها، فعلينا أن نتخلص منه بالتخلى عن جميع اللذات الجسمانية وتعذيب الجسد وهضم حقوق النفس، وحرمانها من جميع ما أعده الله لها فى هذه



الــوســطــيــة هــي منهاج الإسلام فــي صــيــاغــة الإنــســان المسلم.. وهي سـبـيـل إسـلامـيـة الإصـــلاح فـــي المجـتـمـعـات.. وهي شـرط خـيـريـة الأمـة الإسلامية.. وهي ـ لـذلـك ـ «صـراط الهـدايـة المستقيم». كـمـا قـال الأستاذ الإمام

الحياة. تشهدون عليهم بأنهم خرجوا عن جادة الاعتدال، وجنوا على أرواحهم بجناياتهم على أجسادهم وقواهم الحيوانية، تشهدون على هؤلاء، وتسبقون الأمم كلها باعتدالكم وتوسطكم في الأمور كلها، ذلك بأن ما هديتم إليه هو الكمال الإنساني الذي ليس بعده كمال، لأن صاحبه يعطي كل ذي حق حقه، يؤدي حقوق ربه، وحقوق نفسه، وحقوق جسمه، وحقوق ذوي القربى، وحقوق سائر الناس.

(ويكون الرسول عليكم شهيداً) أي أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو المثال الأكمل لمرتبة الوسط. وإنما تكون هذه الأمة وسطاً باتباعها له في سيرته وشريعته، وهو القاضي على الناس فيمن اتبع سنته ومن ابتدع لنفسه تقاليد أخرى أو حذا حذو المبتدعين.

فكما تشهد هذه الأمة على الناس بسيرتها وارتقائها الجسدي والروحي بأنهم قد ضلوا عن القصد، يشهد لها الرسول بما وافقت فيه سنته وما كان لها من الأسوة الحسنة فيه، بأنها استقامت على صراط الهداية المستقيم، فكأنه قال: إنما يتحقق لكم وصف الوسط إذا حافظتم على العمل بهدي الرسول واستقمتم على سنته، وأما إذا انحرفتم عن هذه الجادة فالرسول بنفسه ودينه وسيرته حجة عليكم بأنكم لستم من أمته التي وصفها الله في كتابه بهذه الآية، وبقوله: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) ـ آل عمران: ١١٠، بل تخرجون بالابتداع من الوسط، وتكونون في أحد الطرفين».

فالوسطية هي منهاج الإسلام في صياغة الإنسان المسلم.. وهي سبيل إسلامية الإصلاح في المجتمعات.. وهي الطور المتقدم الذي انتقلت الإنسانية إليه بشريعة الإسلام.. وهي شرط خيرية الأمة الإسلامية.. وهي ـ لذلك ـ «صراط الهداية المستقيم». كما قال الأستاذ الإمام.

وفي معرض مقارنة الإمام محمد عبده بين وسطية الإسلام وبين الغلو النصراني في الرهبانية والحرمان من حقوق الجسد وزينة الدنيا، وجعل الدين بديلاً ونقيضاً للحياة الدنيا.. تحدث عن أولية الحياة الدنيا ـ في الإسلام على الدين، وعن تأليف الوسطية الإسلامية وجمعها بين الحياة وبين الدين.. فقال:

«الحياة في الإسلام مقدمة على الدين. أوامر الحنيفية السمحة إن كانت تختطف العبد إلى ربه، وتملأ قلبه من رهبه، وتفعم أمله من رغبه، فهي مع ذلك لا تأخذه عن كسبه، ولا تحرمه من التمتع به، ولا توجب عليه تقشف الزهادة، ولا تجشمه في ترك الملذات ما فوق العادة.

صاحب هذا الدين ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يقل: «بع ما تملك واتبعني». ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله: «الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس».

والقاعدة قد عمت: «صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان» فترى الدين قد راعى في أحكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح.

أباح الإسلام لأهله التجمل بأنواع الزينة، والتوسع في التمتع بالمشتهيات، على شريطة القصد والاعتدال، وحسن النية، والوقوف عند الحدود الشرعية، والمحافظة على الرجولية. جاء في الكتاب العزيز: (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون. قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) ـ الأعراف ٣١، ٣٣.

ووضع قانوناً للإنفاق وحفظ المال في قوله: (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً. ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) ـ الإسراء: ٢٧، ٢٨.

وخشي على المؤمن أن يغلو في طلب الآخرة فيهلك دنياه وينسى نفسه منها، فذكرنا ـ بما قصه علينا ـ أن الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا في الدنيا، إذ قال: (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين) ـ القصص: ٧٧.

فنرى أن الإسلام لم يبخس الحواس حقها، كما أنه هيأ الروح لبلوغ كمالها. فهو الذي جمع للإنسان أجزاء حقيقية، واعتبره حيواناً ناطقاً، لا جسمانياً صرفاً، ولا ملكوتياً بحتاً، وجعله من أهل الدنيا كما هو من أهل الآخرة، واستبقاه من أهل هذا العالم الجسداني كما دعاه إلى أن يطلب مقامه الروحاني. أليس يكون بذلك وبما بينه في قوله: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) ـ البقرة: ٢٩.. قد أطلق القيد عن قواه، ليصل من رفه الحياة إلى منتهاه؟

والنفوس مطبوعة على التنافس، قد عزز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيراً أو تجده لذيذاً أو تظنه نافعاً، وليس في الغريزة الإنسانية أن يقف بها الطلب عند حد محدود، أو ينتهي بها السعي إلى غاية لا مطالع للرغبة وراءها، بل خصها الله بالمكنة من الرقي في أطوار الكمال في جميع وجوهه إلى ما شاء الله أن ترقى بدون حد معروف».

هكذا تحدث الإمام محمد عبده عن الوسطية الإسلامية الجامعة.. التي هي خصيصة من خصائص الإسلام.. وقسمة ثابتة من قسمات المنهاج الإسلامي في الإصلاح ـ إصلاح النفس.. وإصلاح الاجتماع الإنساني ـ كما تحدث عن انحيازه إلى هذه الوسطية الإسلامية، وتميز منهاجه الإصلاحي بهذه الوسطية عن أهل الغلو ـ غلو الإفراط عند طلاب علوم الدين في عصره.. وغلو التفريط عند طلاب النموذج الغربي الوافد في ركاب الاستعمار.

ولقد امتلأت صفحات آثاره الفكرية بالتطبيقات ـ النظرية والعملية ـ لمنهاج الوسطية الإسلامية على ميادين المشروع الإصلاحي.. المشروع النهضوي للإصلاح بالإسلام.. والذي اتخذ فيه الأستاذ الإمام من تجديد الدين سبيلاً لتجديد دنيا المسلمين.

في نظرية المعرفة

وفي مواجهة الاستقطابات الحادة ـ في نظرية المعرفة ـ عند تيارات الغلو الديني واللاديني.. حيث وقف أهل المادية والوضعية ـ في سبل المعرفة ـ عند العقل والحواس فقط.. ووقف أهل الجمود والتقليد للموروث عند ظواهر النصوص وحدها.. ووقف غلاة الصوفية ـ الباطنية ـ عند خطرات القلوب دون سواها.

في مواجهة هذا الغلو الذي سقط فيه كل هؤلاء، تفردت الوسطية الإسلامية الجامعة بالتأليف بين ما سماه الإمام محمد عبده «الهدايات الأربع» ـ هدايات: العقل.. والنقل.. والتجربة.. والوجدان، التي تزاملت وتكاملت في تحصيل المعرفة الإسلامية ـ الشرعية والمدنية ـ فأثمرت الثقافة والمعرفة الإسلامية المتوازنة.. فبالجمع والتأليف بين هذه الهدايات تكون الثقافة والمعرفة الوسطية، التي يوقظ فيها العقل القلب.. ويرطب فيها القلب حسابات العقول المجردة.. وتكتشف فيها التجارب والحواس آيات الله المبثوثة في الأنفس والآفاق ـ كتاب الله المنظور ـ ويضيف فيها النقل ـ بنبأ السماء العظيم ـ ما لا تستطيع العقول والحواس ـ وهي نسبية الإدراك ـ الاستقلال بمعرفته من نبأ الغيب وعوالم الإلهيات.

ولقد أفاض الإمام محمد عبده في الحديث عن هذه النظرية ـ نظرية الهدايات الأربع ـ المثلة للوسطية الإسلامية الجامعة في نظرية المعرفة.. وذلك عندما وقف في تفسيره لسورة الفاتحة ـ أمام قول الحق ـ سبحانه وتعالى: (اهدنا الصراط المستقيم) ـ الفاتحة: ٦، فقال: (الهداية ـ في اللغة ـ الدلالة بلطف على ما يوصل للمطلوب.. ولقد منح الله الإنسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته:

أولاها: هداية الوجدان الطبيعي والإلهام الفطري، وتكون للأطفال منذ ولادتهم.

والثانية: هداية الحواس والمشاعر، وهي متممة للهداية الأولى في الحياة الحيوانية، ويشارك الإنسان فيهما الحيوان الأعجم، بل هو فيهما أكمل من الإنسان، فإن حواس الحيوان وإلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل، بخلاف الإنسان، فإن ذلك يكمل فيه بالتدريج في زمن غير قصير.

والثالثة: هداية العقل، خُلق الإنسان ليعيش مجتمعاً، ولم يعط من الإلهام والوجدان ما يكفي مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية، كما أعطى النحل والنمل.. فحباه الله هداية هي أعلى من هداية الحس والإلهام وهي العقل الذي يصحح غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه، وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيراً، ويرى العود المستقيم في الماء معوجاً، والصفراوي يذوق الحلو مراً، والعقل هو الذي يحكم بفساد هذا الإدراك.

والهداية الرابعة: الدين، يغلط العقل في إدراكه كما تغلط الحواس، وقد يهمل الإنسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته الشخصية والنوعية، ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال، فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته حتى توردة موارد الهلكة.. فاحتاج الناس إلى هداية ترشدهم في ظلمات أهوائهم، إذا هي غلبت على عقولهم، وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها، ويكفوا عما وراءها.

ثم إن مما أودع في غرائز الإنسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان، ينسب إليها كل ما لا يعرف له سبباً، لأنها هي الواهبة كل موجود ما به قوام وجوده، وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة. فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايات الثلاث على تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة الذى خلقه وسواه ووهبه هذه الهدايات وغيرها مما فيه سعادته في تلك الحياة الثانية؟

كلا! إنه في أشد الحاجة إلى هذه الهداية الرابعة - الدين - وقد منحه الله إياها.

ولكن.. بقي معنا هداية أخرى، وهي المعبر عنها بقوله تعالى: (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده). الأنعام: ٩٠، فليس المراد من هذه الهداية ما سبق ذكره، فالهداية في الآيات السابقة بمعنى الدلالة، وهي بمنزلة إيقاف الإنسان على رأس الطريقين - المهلك والمنجي - مع بيان ما يؤدي إليه كل منهما، وهي ما تفضل الله به على جميع أفراد البشر. أما هذه الهداية، فهي أخص من الدلالة، وهي لم تكن ممنوحة لكل أحد كالحواس والعقل وشرع الدين ولما كان الإنسان عرضة للخطأ والضلال في فهم الدين وفي استعمال الحواس والعقل - على ما قدمنا - كان محتاجاً إلى المعونة الخاصة، فأمرنا الله بطلبها منه في قوله (اهدنا الصراط المستقيم) فمعنى (اهدنا الصراط المستقيم): دلنا دلالة تصحبها معونة غيبية من لدنك، تحفظنا بها من الضلال والخطأ.

وما كان هذا أول دعاء علمنا الله إياه، إلا لأن حاجتنا إليه أشد من حاجتنا إلى كل شيء سواه. هكذا صاغ الفيلسوف الحكيم الإمام محمد عبده لمذهب الوسطية الإسلامية في نظرية المعرفة هذا البناء الفلسفي المحكم، الذى ميز رؤية الإسلام في هذه القضية المحورية عن كل النظريات والآراء التي سادت في دوائر الغلو الديني واللاديني على مر تاريخ المعرفة الإنسانية.

ثم عاد الأستاذ الإمام ليتحدث عن ذات القضية.. في تفسيره قول الحق - سبحانه وتعالى - (الله ولي الذى آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) - البقرة: ٢٥٧، فقال - بعد رفض ما سماه «تفسير العوام الذين لا يفهمون أساليب اللغة العالية»، أو تفسير الأعاجم، الذين هم أجدر بعدم الفهم «والذين استدلوا بهذه الآية على الجبر والجبرية» - قال الأستاذ الإمام:

«إن المؤمن لا ولي له ولا سلطان لأحد عليه إلا الله تعالى، ومتى كان كذلك فإنه يهتدي إلى استعمال الهدايات التي وهبها الله له على وجهها، وهي: الحواس، والعقل، والدين. فهؤلاء المؤمنون كلما عرضت لهم شبهة لاح لهم بسلطان الولاية الإلهية على قلوبهم شعاع من نور الحق يطرد ظلمتها، فيخرجون منها بسهولة (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) - الأعراف: ٢٠١، هو لأن الحواس في رياض الأكوان وإدراكها ما فيها من بديع الصنيع والإتقان يعطيهم نوراً، ونظر العقل في فنون المعقولات يعطيهم نوراً، وما جاء به الدين من الآيات البينات يتم لهم نورهم».



وعلى حين سقط الغلو اللاديني بالغرب والمتغربين في التناقض المزعوم بين «العلم» و«الدين».. فإن هذه الوسطية الإسلامية الجامعة في نظرية المعرفة قد جمعت وزاملت وكاملت بين العلم والدين.. فالعلم ثمرة للحواس والعقل.. والدين هداية، إن علت - أحياناً - على الحواس والعقل فإنها لا تناقض ثمرات أي منهما.. ولذلك، انتهى الإمام محمد عبده إلى أن هذه الوسطية الإسلامية في نظرية المعرفة، هي التي تعصم العقل المسلم من هذه «الثنائية المتناقضة» التي سقطت فيها الحضارة الغربية - ثنائية التناقض المزعوم بين العلم والدين.. فقال:

«لقد وعد الله بأن يتم نوره، وبأن يظهره على الدين كله، فسار في سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواماً، ثم انحرف به أهله عن سبيله، وساروا به إلى ما يرون وترى. ولن ينقضي العالم حتى يتم ذلك الوعد، ويأخذ الدين بيد العلم، ويتعاونا معاً على تقويم العقل والوجدان، فيدرك العقل مبلغ قوته ويعرف حدود سلطته، فيتصرف فيما آتاه الله تصرف الراشدين، ويكشف ما مكنه فيه من أسرار العالمين، حتى إذا غشيته سبحات الجلال وقف خاشعاً، وقفل راجعاً، وأخذ أخذ الراسخين في العلم، الذين قال فيهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - فيما يروى عنه: «هم الذين أغناهم عن اقتحام السدود المضروبة دون الغيب، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً».

هنالك يلتقي «العقل» مع الوجدان الصادق «القلب»، ولم يكن الوجدان ليدابر العقل في سيره داخل حدود مملكته متى كان الوجدان سليماً، وكان ما استضاء به من نبراس الدين صحيحاً - إياك أن تعتقد ما يعتقده بعض السذج من أن فرقاً بين العقل والوجدان «القلب» في الوجهة بمقتضى الفطرة والغريزة، فإنما يقع التخالف بينهما عرضاً عند عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس، وقد أجمع العقلاء على أن المشاهدة بالحس الباطني «الوجدان أو القلب» من مبادئ البرهان العقلي، كوجدانك أنك موجود، ووجدانك لسرورك وحزنك وغضبك ولذتك وألمك، ونحو ذلك.

منحنا العقل للنظر في الغايات والأسباب والمسببات، والفرق بين البسائط والمركبات، ومنحنا الوجدان لإدراك ما يحدث في النفس والذات من لذائذ وآلام، وهلع واطمئنان، وشماس (امتناع وإباء) وإذعان، ونحو ذلك مما يذوقه الإنسان، ولا يحصيه البيان، فهما عينان للنفس تنظر بهما، عين تقع على القريب، وأخرى تمتد إلى البعيد. وهي «النفس» في حاجة إلى كل منهما، ولا تنتفع بإحداهما حتى يتم لها الانتفاع بالأخرى، فالعلم الصحيح يقوم الوجدان، والوجدان السليم من أشد أعوان العلم، والدين الكامل علم وذوق، وعقل وقلب، برهان وإذعان، فكر ووجدان. فإذا اقتصر دين على أحد الأمرين فقد سقطت إحدى قائمتيه، وهيهات أن يقوم على الأخرى. ولن يتحالف العقل والوجدان حتى يكون الإنسان الواحد إنسانين والوجود الفرد وجودين.

قد يدرك عقلك الضرر في عمل ولكنك تعمله طوعاً لوجدانك، وربما أيقنت المنفعة في أمر وأعرضت عنه إجابة لدافع من سريرتك، فتقول: إن هذا يدل على تحالف العقل والوجدان، ولكني أقول: إن هذه حجة من لا يعرف نفسه ولا غيره، عليك أن ترجع إلى نفسك فتتحقق من أحد الأمرين، إما أن يقينك ليس بيقين، وأنه صورة عرضت عليك من قول غيرك، فأنت تظنها علماً وما هي به، وإما أن وجدانك وهم تمكن فيك، وعادة رسخت في مكان القوة منك، وليس بالوجدان الصحيح، وإنما هو عادة ورثتها عمن حولك وظننتها شعوراً منبعه الغريزة، وما هي منه في شيء.

لابد أن ينتهي أمر العلم إلى تآخي العلم والدين على سنة القرآن والذكر الحكيم. ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذى صح معناه: (تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في ذات الله)، وعند ذلك يكون الله قد أتم نوره ولو كره الكافرون، وتبعهم الجامدون القانطون، وليس بينك وبين ما أعدك به إلا الزمان الذى لابد منه في تنبيه الغافل، وتعليم الجاهل، وتوضيح المنهج، وتقويم الأعوج، وهو ما تقتضيه السنة الإلهية في التدريج (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً) - الأحزاب: ٦٢، (إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً) - المعارج: ٦، ٧، (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) - محمد: ٧ وهو خير الناصرين.

هكذا قدم الأستاذ الإمام مقالاً في فلسفة الوسطية الإسلامية الجامعة للهدايات الأربع، في نظرية المعرفة الإسلامية، نفى فيه وجود أي تناقض حقيقي بين العلم والدين.. أو بين العقل والوجدان.. «القلب» - فهذه الهدايات جميعها عيون للنفس الإنسانية، تتزامل وتتكامل في تحصيل المعرفة المتوازنة والمتكاملة، المحققة لطمأنينة الإنسان.

وبذلك تبلورت قسمة من قسمات المشروع الحضاري للأمة - قسمة نظرية المعرفة الإسلامية، التي تميزت - بالوسطية الإسلامية الجامعة - عن نظائرها من نظريات المعرفة عند أهل الغلو - سواء فهم أهل الغلو الديني - المفرطين - أو أهل الغلو اللاديني - المفرطين - فالوسطية جمعت هذه النظرية - في مصادر المعرفة - بين الواقع - واقع عالم الشهادة، وكتاب الله المنظور، وسننه المبثوثة في الأنفس والآفاق - وبين عالم الغيب، ونبأ السماء العظيم الذى جاء به الوحي في كتاب الله المسطور.. كما جمعت هذه النظرية في المعرفة - بين الهدايات الأربع: العقل.. والنقل.. والتجربة.. والوجدان.. رافضة غلو الإفراط والتفريط في هذا الميدان الهام من ميادين الإصلاح.

مقام العقل.. وحدوده

ولم يقف حديث الإمام محمد عبده عن العقل عند هذا الذى قدمه في «نظرية المعرفة الإسلامية»، عندما وضعه ضمن «الهدايات الأربع» التي هي سبيل الإنسان إلى المعارف والعلوم.. وإلى الصراط المستقيم.. وإنما - فوق ذلك - كان العقل ميداناً لمعركة كبرى وخصبة خاضها الأستاذ الإمام ضد طرفي الغلو: «غلو السلفية الحرفية»، التي تنكرت لهداية العقل، عندما اكتفت بالوقوف عند حرفية النصوص وظواهرها، غافلة عن تعقل المقاصد الشرعية من وراء هذه النصوص.. وغلو «المادية الوضعية الغربية»، التي ألهت العقل، وتجاوزت بإدراكاته حدود «النسبية» - ككل ملكات الإنسان - إلى حيث ادعت «الإطلاق» لمدركاته، رافعة شعار «التنوير الوضعي الغربي»، القائل: «لا سلطان على العقل إلا للعقل وحده»! وهو الشعار الذى يعني الرفض لأن يكون الوحي والنقل، وكذلك القلب والوجدان من مصادر الهداية والمعرفة بالنسبة للإنسان أي الرفض للوسطية الإسلامية الجامعة.

خاض الإمام محمد عبده معركة «العقلانية الإسلامية»، هذه من منطلق الوسطية الإسلامية الجامعة، ضد طرفي الغلو في التعامل مع العقل.. فكتب منتقداً الغلو «السلفي» للوهابية - رغم عده إياها من حركات الإصلاح - وذلك لتكفيرها جمهور المسلمين.. ولتشددها غير المبرر ضد الآثار الإسلامية - ومنها قبة قبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التي همت بهدمها! وأيضاً - وهذا هو الأهم في موضوعنا - لتنكبها طريق العقلانية الإسلامية، ومجافاتها سبيل النظر العقلي، مكتفية بالوقوف عند حرفية النصوص وظواهرها.

ولقد كتب الأستاذ الإمام في نقد هذه «السلفية الوهابية» يقول:

«لقد قام الوهابية للإصلاح، ومذهبهم حسن، لولا الغلو والإفراط:

- أي حاجة إلى قولهم بهدم قبة النبي - صلى الله عليه وسلم -؟!

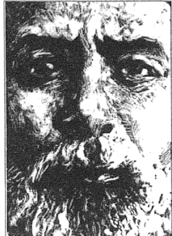
- والقول بكفر جميع المسلمين؟!

- والعمل على إخضاعهم بالسيف، أو إبادتهم؟!

نعم، لا بأس بالمبالغة في القول والخطابة لأجل التأثير بالترغيب أو الترهيب والتنفير، ولكن، ما كل ما يقال يكتب ويبنى عليه عمل.

ثم انتقد مجافاة هذه «السلفية الحرفية» لمنهاج النظر العقلي والعقلانية الإسلامية، هذه المجافاة التي جعلتهم أضيق صدراً بالعقل والعقلانية من المقلدين الذين يعادون الإصلاح.. فقال:

«وهذه الفئة أضيق عطناً - أفقاً - وأحرج صدراً من المقلدين. وهي، وإن أنكرت كثيراً من البدع، ونحت



انتهى الإمام محمد عبده إلى أن هذه الوسطية الإسلامية فى نظرية المعرفة، هى التى تعصم العقل المسلم من هذه «الثنائية المتناقضة» التى سقطت فيها الحضارة العربية ـ ثنائية التناقض المزعوم بين العلم والدين

عن الدين كثيراً مما أضيف إليه وليس منه، فإنها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد، والتقيد به، بدون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين، وإليها كانت الدعوة، ولأجلها مُنحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء ولا للمدنية أحباء».

انتقد الإمام محمد عبده هذه «السلفية ـ الإصلاحية»، لجافاتها منهاج النظر العقلى والعقلانية الإسلامية ـ وهو السلفى العقلانى، الذى أعلن أن هدفه من وراء دعوته السلفية العقلانية، هو «تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتبار الدين من ضمن موازين العقل البشرى».. فميز بين سلفيته العقلانية، الداعية إلى «تحرير الفكر من قيد التقليد» وبين «السلفية الوهابية» التى جافت العقل والعقلانية، فغدت ـ فى هذا الميدان ـ أضيق أفقاً من المقلدين! وقادها هذا الجفاء للعقل إلى حيث تنكبت طريق العلم والمدنية!

كذلك انتقد الإمام محمد عبده «الغلو المادى الوضعى»، الذى ذهب أصحابه على درب «تأليه العقل» إلى حد إنكار أن يكون النقل والوحى مصدراً من مصادر المعرفة.. حتى لقد ذهب نفر منهم إلى تفسير المعجزات والخوارق ـ وكل ما لا يستقل العقل والحس بإدراك كنهه ـ تفسيراً مادياً!



وللصلة الوثيقة بين مقام العقل فى الإسلام.. وبين تقرير الإسلام الارتباط بين الأسباب والمسببات.. كتب الأستاذ الإمام.. عن:

ـ السببية: «إن القول بنفى الرابطة بين الأسباب والمسببات جدير بأهل دين (يقصد النصرانية) ـ ورد فى كتابه «الإنجيل»: أن الإيمان وحده كاف فى أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل تحول عن مكانك، فيتحول الجبل!.. يليق بأهل دين تُعد الصلاة وحدها، إذا أخلص المصلى فيها، كافية فى إقداره على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العالم العنصرى!.. وليس هذا الدين هو الإسلام.

دين الإسلام هو الذى جاء فى كتابه: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم) ـ التوبة: ١٠٥ ـ (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) ـ الأنفال: ٦٠ ـ (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً) ـ الأحزاب: ٦٢ وأمثالها.

وليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب فى السببية والمسببية إلا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله!.



كما كتب الأستاذ الإمام:

ـ عن السنة الكونية الحاكمة لسير العالم والاجتماع:

«إن لله فى الأمم والأكوان سنناً لا تتبدل.. وهى التى تُسمى شرائع، أو نواميس، أو قوانين.. ونظام المجتمعات البشرية وما يحدث فيها، هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة فى المجتمع أن ينظر فى أصول هذا النظام حتى يرد إليه أعماله، ويبنى عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر إلا الشقاء، وإن ارتفع فى الصالحين نسبه، أو اتصل بالمقربين سببه، فمهما بحث الناظر وفكر، وكشف وقرر أتى لنا بأحكام تلك السنة، فهو يجرى على طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه.

(قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ـ آل عمران: ١٣٧، إن إرشاد الله إيانا إلى أن له فى خلقه سنناً، يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علماً من العلوم المدونة، لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة ـ فى مجموعها ـ أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله فى خلقه، كما فعلوا فى غير هذا العلم من العلوم والفنون التى أرشد إليها القرآن بالإجمال، وبينها العلماء بالتفصيل عملاً بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه.

والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه فى مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسير فى الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها.

وبهذا الأصل، الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مُهدت بين يدى العقل كل سبيل، وأزيلت من سبيله جميع العقبات، واتسع له المجال إلى غير حد».

ثم خلص الأستاذ الإمام ـ فى حديثه عن العقلانية الإسلامية ـ إلى تقرير الحقيقة التى خالف فيها الإسلام أهل «الغلو العقلانى».. وذلك عندما وضع للعقل حدودا لا يتعداها ـ وهى حدود عالم الشهادة ـ وقرر حاجته إلى الوحى فى معرفة نبأ الغيب والسماء.. وكثير من مقادير الأحكام فى العبادات..

ولذلك، كتب الأستاذ الإمام، فقال:

ـ عن حدود العقل الإنسانى:

«إن العقل البشرى وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة، اللهم إلا فى قليل ممن لم يعرفهم الزمن، فإن كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار إليهم الدهر بأصابع الأجيال!.

وقد يكون من الأعمال مالا يمكن درك حسنه، ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قبحه، وهذا النوع لا حسن له إلا الأمر ولا قبح إلا النهى.

إن مجرد البيان العقلى لا يدفع نزاعاً، ولا يرد طمأنينة، وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل يزعم أنه أرفع من واضعها، فيذهب بالناس مذهب شهواته، فتذهب حرمتها، وينهدم بناؤها، ويُفقد ما قصد بوضعها.

وإذا قدرنا العقل البشرى قدره، وجدنا غاية ما ينتهى إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض الكائنات التى تقع تحت الإدراك الإنسانى.. أما الوصول إلى كنه حقيقة فمما لا تبلغه قوته.

ومن أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده.. لهذا كان العقل محتاجاً إلى مُعين يستعين به فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة.

فالعقل هو ينبوع اليقين فى الإيمان بالله، وعلمه، وقدرته، والتصديق بالرسالة.. أما النقل فهو الينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب، كأحوال الآخرة، والعبادات.

والذى علينا اعتقاده: أن الدين الإسلامى دين توحيد فى العقائد، لا دين تفريق فى القواعد، والعقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه.

هكذا تكلم الإمام محمد عبده.. وكتب «مقالاً فى العقلانية الإسلامية»، من موقع الوسطية الإسلامية الجامعة.. ومن موقع الرفض والنقد للغلو ـ مطلق الغلو ـ غلو التفريط الذى انحازت إليه «السلفية الوهابية».. التى جافت العقل، وكأنها خلطت بينه وبين «الهوى»!.. وغلو الإفراط، الذى انحازت إليه المادية الغربية، التى ألّهت العقل، فجعلت سلطانه فوق كل سلطان.. حتى سلطان العلم الإلهى، الكلى والمطلق والمحيط.

فإذا علمنا أن الإمام محمد عبده كان كثير النقد للمعتزلة فى كثير من مقولاتهم «العقلانية».. ومنها موقفهم من «التحسين.. والتقبيح».. أدركنا ما فى مقالته العقلانية من إبداع وتجديد.

عن الدين والدولة

عندما صدر كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ على عبد الرازق (١٣٠٥ ـ ١٣٨٦هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٦٦م) سنة ١٩٢٥ ـ فزعم ـ لأول مرة فى تاريخ الإسلام.. والفكر الإسلامى ـ أن الإسلام «دين لا دولة ورسالة لا حكم».. وجاء فيه ـ تحت هذا العنوان: أن نبى الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ «ما كان إلا رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة مُلك ولا حكومة.. ولم يقم بتأسيس مملكة، بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها، ما كان إلا رسولاً كإخوانه الخالين من الرسل، وما كان ملكاً ولا مؤسس دولة، ولا داعياً إلى مُلك.. وظواهر القرآن المجيد تؤيد القول بأن النبى لم يكن له شأن فى المُلك السياسى، وآياته متضافرة على أن عمله السماوى لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان.. وليس عليه أن يأخذ الناس بما جاءهم به، ولا أن يحملهم عليه.. كانت ولاية محمد على المؤمنين ولاية الرسالة غير مشوبة بشىء من الحكم، هيهات هيهات، لم يكن ثمة حكومة، ولا دولة، ولا شىء من نزعات السياسة ولا أغراض الملوك والأمراء».

عندما صدر هذا الكتاب، وفيه هذه الدعوى غير المسبوقة، حتى من قبل المستشرقين ـ دعوى علمنة الإسلام، وجعله نصرانية يدع ما لقيصر لقيصر، ويقف ـ فقط ـ عند ما لله ـ بالمفهوم الكنسى ـ «وقع زلزال فكرى كبير وخطير فى عالم الفكر الإسلامى، على امتداد عالم الإسلام، وفى دوائر الاستشراق» ودارت معركة فكرية لعلها من أكبر وأخصب معارك الفكر التى شهدها العالم الإسلامى فى العصر الحديث.

ويومئذ - وضمن هذه المعركة الفكرية - جرت محاولة من العلمانيين - المدافعين عن دعوى هذا الكتاب - لعلمنة فكر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - في علاقة الدين بالدولة - كي يشهد لعلي عبد الرازق وكتابه (الإسلام وأصول الحكم).

ولقد خلط أصحاب هذه المحاولة - التي تبنتها جريدة «السياسة» يومئذ - بين رفض الأستاذ الإمام للسلطة الدينية الكهنوتية، كما عرفتها الكنيسة الأوروبية في عصورها الوسطى - وبين موقفه من علاقة الدين الإسلامي بالدولة، وكون دولة الإسلام هي مدنية وإسلامية في ذات الوقت، مدنية تصنع الأمة نظمها ومؤسساتها، وهي مصدر السلطات فيها، وإسلامية، لأن الإسلام وشريعته وفقه معاملاته هو المرجعية الحاكمة لسلطات الأمة والدولة في هذا النسق الفكري والسياسي المتميز.. فهي دولة مدنية، قامت وتقوم لتنفيذ الشريعة وإقامة حدود الله.

حدثت هذه المحاولة لعلمنة فكر الإمام محمد عبده في علاقة الدين بالدولة.. وذلك حتى يشهد - ولو زوراً وقسراً - للكتاب الذي يدعو إلى علمنة الإسلام!

وفي هذه المحاولة ركزت صحيفة «السياسة» على اقتباس نصوص الأستاذ الإمام، التي تؤكد على مدنية «الدولة».. «فالحاكم فيها مدني من جميع الوجوه».. وعلى رفض الإسلام للسلطة الدينية «فليس في الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه».. وعلى ترك الشريعة الإسلامية تفاصيل النظم والمؤسسات والقوانين في الدولة للشورى والاجتهاد.. وعلى رفض الإسلام للحروب الدينية التي تكره الناس على الاعتقاد الديني.. إلخ.. إلخ.

لكن هذه المحاولة لعلمنة محمد عبده، وقسره على أن يشهد لعلمنة الإسلام قد باءت بالفشل الذريع.. ذلك أن موقف الأستاذ الإمام من هذه القضية - علاقة الدين بالدولة - كان موقفاً حاسماً.. وشديد الوضوح.

- فمدنية سلطة الخليفة - السلطة التنفيذية في النظام الإسلامي - لا تعني إنكار وجوب الخلافة الإسلامية - وهو ما قاله كتاب علي عبد الرازق.

- وما يرفضه محمد عبده من خلط «الخلافة الإسلامية» بـ «الثيوقراطية» الأوروبية الكاثوليكية، هو ذات ما وقع فيه علي عبد الرازق، عندما ادعى أن عامة المسلمين، علماء وعامة، يرون أن الخليفة إنما يستمد سلطانه من الله، وأنه ينفرد بالولاية المطلقة على الأمة في شئون الدين والدنيا.

- والإمام محمد عبده يحدد أن الحكومة الإسلامية يجب أن تكون شورية، ملتزمة بالشريعة الحقة.. وهذا يعني أن الإسلام قد جدد لأمته إطاراً محدداً لحكومة معينة يجب أن تلتزم هذا الإطار.. وهذا هو الذي رفضه علي عبد الرازق، عندما أطلق سراح الاختيار لأي حكومة من الحكومات، حتى ولو كانت بلشفية!

- وحديث الأستاذ الإمام عن تسامح الخلافة الإسلامية والخلفاء المسلمين مع العلم والعلماء والفلسفة والفلاسفة، مناقض للصورة التي قدمها علي عبد الرازق لهذه الخلافة ولهؤلاء الخلفاء، في هذا الميدان، فلقد ادعى أن نظام الخلافة قد قهر وقبر ملكات المسلمين فلم يبدعوا في العلوم السياسية أي إبداع!

- ثم.. إننا إذا شئنا أن نقتبس من فكر الأستاذ الإمام «مقالاً» ضافياً عن رأيه في علاقة الإسلام بالدولة.. وكيف أنه دين ودولة.. فإننا سنجد أنفسنا أمام صفحات مليئة بالأفكار الشديدة الحسم والوضوح.

- فوسطية الإسلام جامعة بين الدنيا والآخرة، وليس هو الدين الذي يترك هذا العالم - الدنيا - ليقيم مملكته خارج هذا العالم! بل إنه هو الدين الذي يقدم الدنيا على الآخرة، حتى ليرى الإمام محمد عبده أن علوم المدنية ومخترعات الحضارة والصناعات التي تتطلبها دنيا الناس، إنما هي دين وتكاليف شرعية!.. فيقول في تفسير آية البقرة (٢٢٥): «إن القرآن قد قدم الدنيا على الآخرة - (في الدنيا والآخرة) - لأنها مقدمة في الوجود بالفعل، وكل ما أمرنا الله تعالى به وهدانا إليه فهو من ديننا، ولذلك قال علماؤنا: إن جميع الفنون والصناعات التي يحتاج إليها الناس في معاشهم هي من الفروض الدينية».

- وإذا كانت الفلسفات السياسية والاجتماعية، والأيديولوجيات الفكرية والعقدية، لابد لكل منها من «دولة.. وسلطة»، تقيمها وتطبقها وتطورها.. فإن الإسلام - وهو الذي جاء «بشريعة» مع «الدين»، والذي مثل ويمثل منهاجاً شاملاً للبناء والتأسيس والتقدم والنهوض والإصلاح، والذي جمعت تكاليفه بين «الفردي» و«الجماعي والاجتماعي».. والذي مثل - بعبارة الإمام محمد عبده - «كمالاً للشخص، وألفة في البيت، ونظاماً للملك».. هذا الإسلام.. بسبب من أنه المنهاج الشامل للإصلاح، والنموذج المتكامل والمتميز للنهوض والتقدم.. لابد أن تكون له «دولة» تقيمه.. وتحرسه.. وتلتزم بمنهاجه.

إن «الحل الليبرالي» لابد له من «دولة ليبرالية» تقيمه وتطوره.. وكذلك «الحل الشمولي» أو «القومي».. إلخ.

ولقد كان الإمام محمد عبده شديد الحسم والوضوح في أن الإسلام هو «سبيل الإصلاح»، وهو الحل لمشكلات كل العصور في كل المجتمعات.. وفي مواجهة التيارات الفكرية الغربية والمتغربة، التي بشرت بالنموذج الغربي العلماني سبيلاً للنهضة، وقف الإمام محمد عبده مدافعاً عن الحل الإسلامي، الذي هو الطريق الطبيعي لتقدم مجتمعات الإسلام..



- وبعد هذا الحسم والوضوح - من قبل الأستاذ الإمام - لجمع الإسلام بين الدنيا والآخرة.. وبين الدين والدولة.. لأنه منهاج شامل للحياة: كمال للشخص.. وألفة في البيت.. ونظام للملك.. وسياج لنظام الجماعة.. وسلطة تقيم الحدود التي وضعها الله.. بعد هذا الحسم والوضوح لهذه القضايا - في علاقة الإسلام بالدولة - دفع الإمام محمد عبده عن «دولة الإسلام» هذه شبهة «السلطة الدينية.. الحبرية.. الكهنوتية» التي سقطت فيها الدولة الكنسية بأوروبا العصور الوسطى.. فليس في الإسلام كهانة أصلاً.. ولا وساطة دينية - فضلاً عن سلطة دينية - تقف بين الإنسان وخالقه.. وعلماء الإسلام - من المفتي.. إلى القاضي.. إلى شيخ الإسلام.. ليسوا كهنة، ولا أصحاب سلطان على عقائد الناس.. وإنما سلطاتهم - كسلطات الدولة - مدنية يحددها القانون الإسلامي.. فالدولة - في الإسلام - مدنية، تقيمها الأمة، وتطور مؤسساتها المدنية، و«المدنية» هنا ليس اللادينية - كما هو حال مضمون هذا المصطلح في القاموس الغربي.. وإنما المدنية هنا معناها نفي القدسية والكهانة عن «الدولة»، مع بقاء مرجعيتها «إسلامية.. شرعية»، لأن الإسلام - بعبارة محمد عبده - «دين وشرع.. وضع حدوداً، ورسم حقوقاً» ودولته هي الملتزمة بالمرجعية الإسلامية - بالشرع والحدود والحقوق - فهي دولة مدنية وإسلامية في ذات الوقت، وليست كهنوتية.. ولا علمانية.. إنها «تميز» بين الدين والدولة.. دونما «فصل» أو «اتحاد».

وفي رفض الإسلام «للسلطة الدينية - الكهنوتية»، وبراءة دولته منها، يقول الإمام محمد عبده: «إن الإسلام لم يعرف تلك السلطة الدينية، التي عرفتها أوروبا.. فليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير، والتنفير عن الشر.. وهي سلطة خولها الله لكل المسلمين، أدناهم وأعلاهم.. والأمة هي التي تولي الحاكم.. وهي صاحبة الحق في السيطرة عليه، وهي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه، ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة، عند المسلمين، بما يسميه الإفرنج «ثيوكرتيك»، أي سلطان إلهي.. فليس للخليفة - بل ولا للقاضي، أو المفتي، أو شيخ الإسلام - أدنى سلطة على العقائد وتحرير الأحكام، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية، قدرها الشرع الإسلامي.. فليس في الإسلام سلطة دينية بوجه من الوجوه.. بل إن قلب السلطة الدينية، والإتيان عليها من الأساس، هو أصل من أجل أصول الإسلام».



هكذا جمعت الوسطية الإسلامية - في فكر الأستاذ الإمام - بين الدين والدولة.. وبين الدنيا والآخرة.. وبين سلطة الأمة ومرجعية الشريعة الإسلامية.. في نموذج متميز كل التميز عن جميع النماذج السياسية التي عرفتها الحضارات الأخرى في علاقة الدين بالدولة.

فالدولة عندنا «إسلامية - مدنية».. إسلامية المرجعية.. ومدنية النظم والمؤسسات.. بينما تراوحت النظم الأخرى بين «الدولة الدينية»، التي جعلت الدولة ديناً، وحكماً بالحق الإلهي والتفويض السماوي، لا علاقة له بسلطة الأمة.. وبين «الدولة العلمانية»، التي جاءت رد فعل للدولة الدينية، ففصلت الدين عن الدولة - في النموذج الليبرالي - وفصلته عن الحياة - في النموذج الماركسي - عندما عزلت السماء عن الأرض!



تلك لمحات عن بعض المعالم في المشروع الحضاري للإمام محمد عبده.. الذي كانت الوسطية فيه منهاجاً للإصلاح بالإسلام.

وصدق الله العظيم إذ يقول: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) البقرة: ١٤٣.

ورحم الله الإمام محمد عبده، الذي قال: «إن الإسلام دين وشرع.. كمال للشخص.. وألفة في البيت.. ونظام للملك.. وضع حدوداً، ورسم حقوقاً.. ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة - (دولة.. وسلطة) - لإقامة الحدود وتنفيذ الأحكام.. وبهذا تميز الإسلام وامتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه، فكان المدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية.. وإن سبيل الدين لمريد الإصلاح في المسلمين سبيل لا مندوحة عنها».

ورحم الله جمال الدين الأفغاني - أستاذ محمد عبده - الذي قال:

«إننا، معشر المسلمين، إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا، فلا خير لنا فيه، ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق، وإن ما نراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة فينا (من حيث الرقي والأخذ بأسباب التمدن) هو عين التقهقر والانحطاط، لأننا في تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوروبية، وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب، والاستكانة لهم، والرضا بسلطانهم علينا، وبذلك تتحول صبغة الإسلام، التي من شأنها رفع راية السلطة والغلب، إلى صبغة خمول وضيعة واستئناس لحكم الأجنبي.

إن الدين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سر سعادتها، وعليه مدارها.. وهو السبب المفرد لسعادة الإنسان.

ولقد بدأ الخلل والهبوط - (في تاريخنا) - من طرح أصول الدين، ونبذها ظهرياً.. والعلاج إنما يكون برجوع الأمة إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته.

ومن طلب إصلاح الأمة بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططاً.. ولن يزيدها إلا نحساً، ولن يكسبها إلا تعساً!

وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ يقول: فيما رواه الطبراني:

«يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الضالين وانتحال المبطلين» وإذ يقول - فيما رواه أبو داود:

«يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها».. ولقد كان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مشروعاً نهضوياً، لتجديد دين الإسلام، كي تتجدد به دنيا المسلمين.. عليه رحمة الله. ■



الإحيــاء الإسلامى

تــاريـخ ومـيــراث



بشـــير موســى نافـــع

[١]

■■ يعتبر الشيخ محمد عبده أحد أبرز الذين تأثروا بالمصلح المشرقى الإسلامى الكبير جمال الدين الأفغانى. وإن كانت علاقة الأفغانى المبكرة بدوائر الحكم والسياسة قد أنبأت بنمط حياته الحافلة والمضطربة الآتية، فلم يكن فى مطلع حياة عبده ما ينبىء بالكثير عن مستقبله. هذا ابن الريف المصرى المحافظ، حيث التصوف الإسلامى هو سيد الموقف، وابن التعليم الأزهرى، حيث التقاليد الإسلامية الموروثة لا تتزعزع. ولكن الزمن كان هو القرن التاسع عشر، بعواصفه وتياراته المتصارعة وصدماته المتتابعة.

حفلت رحلة محمد عبده بثراء فكرى جعلت منه خلال سنوات داعية المشروع الإصلاحى الأكثر تأثيراً فى مصر ومحيطها العربى والإسلامى.

وربما يجدر قبل التطرق إلى الملامح الرئيسة للمشروع الإصلاحى الإسلامى الحديث الذى مثل عبده أبرز أصواته، يجدر تلمس جذوره التاريخية والسياق الموضوعى الذى أطلقه.

[٢]

إن المتغيرات التى شهدها الفكر الإسلامى منذ القرن التاسع عشر، والربع الأخير منه على وجه الخصوص، متغيرات أساسية؛ فقد طالت هذه المتغيرات تقريبا كل أوجه الجدل الفكرى الإسلامى، مست طبيعة العديد من قضاياه، بينما أبرزت قضايا جديدة تماما. وعلى عدد من المستويات، تبدو ساحة الفكر الإسلامى فى القرن العشرين انعكاسا للتحولات الفكرية فى نهاية القرن التاسع عشر. فقضايا مثل الهوية، المرأة، الدولة، التراث والتجديد، النص والعقل، والإسلام والغرب، التى سيطرت على مشهد الفكر الإسلامى فى القرن العشرين، تعود بجذورها إلى النقاش والجدل حول الإصلاح والنهضة الذى انفجر كما لم ينفجر من قبل فى القاهرة، دمشق، اسطمبول، طهران، ودلهى، فى نهايات القرن التاسع عشر. ويمكن، ربما، وضع المتغيرات الفكرية الإسلامية فى نهاية القرن التاسع عشر ضمن ثلاثة أقسام: الأول، ويتعلق برؤية المسلمين للنصوص المؤسسة، القرآن والحديث، ودورهما فى معالجة التحديات التى واجهت العالم الإسلامى، وعلاقتهما بالموروث الإسلامى الوسيط. ويتعلق الثانى بفهم وتقويم التوجهات الإسلامية الفكرية السائدة وصلتها بالحياة المعاشة للمسلمين. أما الثالث، فيتعلق بتحديد التحديات الخارجية، التحديات الغربية، طبيعة تلك التحديات، والبحث عن مساقات فكرية إسلامية جديدة لاستيعابها.

قدم ألبرت حورانى، إضافة لآخرين، فى كتابه الذى أصبح الآن عملاً كلاسيكياً «الفكر الإسلامى فى العصر الليبرالى: ١٧٩٨ - ١٩٣٨»، المشروع الإصلاحى من زاوية الأزمة التى عاشتها أوساط الدولة الإسلامية وأوساط النخبة فى مواجهة الصعود المبهر للغرب وتقدمه العسكرى. وقد بدا الإصلاحيون الإسلاميون، من وجهة النظر هذه، بما فى ذلك عبده، رشيد رضا والسيد أحمد خان، باعتبارهم تياراً وسطيا سلبياً لا جذور إسلامية له بين أولئك الذين رفضوا أى تفاعل مع الأفكار الغربية الحديثة، وأولئك الذين دعوا لاعتناق غير متحفظ لأنظمة الفكر والسياسة والاجتماع الغربية. إن المشكلة مع هذه المقاربة للمدرسة الإصلاحية الإسلامية (السلفية الحديثة كما تسمى أحيانا) هى فى الفرضية المضمرة التى تستند إليها، أى فى قصر تعريف التوجهات الإصلاحية الفكرية الإسلامية على المواجهة مع التحدى الغربى للعالم الإسلامى وإغفالها الحراك الفكرى الإسلامى الكبير فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. ولذا، فإن البدء بمحاولة النظر فى الجذور الداخلية للحركة الإصلاحية الإسلامية قد يساعد فى تقديم تقدير أكثر توازنا للمشروع الإصلاحى، لتوجهاته الرئيسة ولأثره بعيد المدى على الأنماط الفكرية الإسلامية الحديثة.

يمكن اعتبار أحمد بن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨) آخر محاولة إصلاحية إسلامية كبرى فى العصر الإسلامى الوسيط. ويرى ابن تيمية، المتكلم المثير للجدل، والفقيه والمحدث، اليوم فى دوائر إسلامية معينة باعتباره المؤسس الحقيقى للمدرسة السلفية. وقد شكل ابن تيمية بالفعل تحدياً هائلاً للتصوف وللمدرسة الأشعرية، للطوائف الباطنية، كما للتوجهات المذهبية السنية المتعصبة. ولكن ما يبدو مركزياً فى مشروع ابن تيمية الإصلاحى، هو الإصرار على إعلاء دور النص الإسلامى المؤسس، القرآن والحديث، وما بعدهما إجماع الصحابة والتابعين. بكلمة أخرى، فإن بحث ابن تيمية عن سبل إعادة بناء الوحدة الفكرية، ونقده للمؤثرات الخارجية على الثقافة الإسلامية (كالمنطق والفلسفة اليونانية)، أدى به إلى السعى إلى إحياء التصورات المبكرة للإسلام، التصورات التى لم ينتبها التلوث بعد. إن هذا لا يعنى أن ابن تيمية اختار طريق إعادة بناء تبسيطية للدين، ذلك أن لا البيئة الثقافية التى عاش فيها ونشط كانت

بسيطة ولا خصومه الذين واجهوه كانوا فريسة سهلة.

رأى ابن تيمية فى العقيدة الأشعرية، التى هيمنت على أوساط العلماء السنة، والمبادئ الاعتزالية، التى سادت فى أوساط الشيعة وبعض السنة، تهديداً لحيوية وتوازن البناء العقدى الإسلامى. بالنسبة لابن تيمية، فإن الأشاعرة، لاسيما المتأخرين منهم كفخر الدين الرازى، أدخلوا المفاهيم الفلسفية الإغريقية إلى قلب الإسلام بمحاولتهم تأويل آيات صفات الله؛ وبإنكارهم السببية، كانوا ينقضون الأسس العقلانية للدين ومسئولية الإنسان تجاه أعماله. المعتزلة، فى المقابل، يقوضون أسس التوحيد، ركن الإسلام الأكبر، بنفيهم أى تصور مباشر لصفات الله، وبجعلهم العقل المحدد الوحيد للفعل الإنسانى. لهذا، سعى ابن تيمية إلى توكيد صفات الله كما جاءت فى النص القرآنى، مشيراً فى الوقت نفسه إلى الفرادة والتميز المطلق لهذه الصفات؛ وهو بذلك يختار طريقاً وسطاً بين مبدأ «الكسب» اللاعقلانى فى صيغته الأشعرية المتأخرة، وبين التوجه العقلانى المفرط عند المعتزلة. إن هذا هو ما يجعل محاولة ابن تيمية تعبيراً صريحاً عن التوجه الإسلامى للتوفيق بين قدرة الله الشاملة والمطلقة، ومسئولية الإنسان المؤسسة على ملكاته العقلية. ما يتبع ذلك بالنسبة لابن تيمية، هو التوكيد على أن الدليل العقلى والشرعى لا يصطدمان بالضرورة. ولا يقل أهمية فى مشروع ابن تيمية الفكرى هجومه المستمر على التصوف الشعبى وإفراطه وانحرافه عن معايير الإسلام، ومعارضته كذلك لمبدأ «وحدة الوجود» كما صاغه ودعا إليه ابن عربى وتلاميذه، التصور الذى اعتبره ابن تيمية نقضاً لتعالى الله وسموه ووحدانيته. ولكن هذا الموقف لم يؤد بالضرورة إلى قطيعة ابن تيمية الكاملة مع التصوف، بل السعى إلى بناء نظام روحى وأخلاقى إسلامى على أساس من القرآن والسنة.

بيد أن المعارضة التى واجهها ابن تيمية كانت بحجم الاتساع والشمول الذى تميز به مشروعه، ضامة فى جنباتها علماء كباراً من المؤسسة السنية آنذاك، وشخصيات بالغة النفوذ من صفوف المتصوفة فى كل أنحاء السلطنة المملوكية. لقد حاول تلاميذ ابن تيمية وأتباعه، مثل ابن قيم الجوزية (١٢٩٢ - ١٣٥٠) وابن كثير (١٣٠٠ - ١٣٧٣)، مواصلة دعوة أستاذهم، بشىء من التعديل أحياناً، ولكن الصعود المثير للطرق الصوفية فى القرن الرابع عشر الميلادى، والتحالف المتنامى بين مؤسسة العلماء والتصوف، أضعفا أثر المدرسة السلفية. ومنذ القرن الرابع عشر، ولعدة قرون قادمة، سيطر على المشهد الثقافى الإسلامى التحالف الضمنى بين مؤسسة العلماء بتوجهاتها المذهبية التقليدية، المدرسة العقدية الأشعرية، والتصوف. وقد نجح التصوف، متسلحاً بفكرة الولاية ذات الأثر البالغ على عموم المسلمين، ومبدأ وحدة الوجود، والفعالية الاجتماعية الهائلة للطريقة الصوفية، نجح فى إحكام قبضته على الثقافة الإسلامية. وليس من المستغرب أن جاء آخر الردود الرئيسة على أفكار ابن تيمية فى الفترة الإسلامية الوسيطة من الفقيه الشافعى الكبير والمتكلم الأشعرى والمدافع عن مبدأ وحدة الوجود، أحمد ابن حجر الهيتمى (١٥٠٤ - ١٥٦٧). وقد كان من أهم عوامل صعود التصوف وهيمنته الدعم الذى قدمته الدول الإسلامية المختلفة، بما فى ذلك الدولة العثمانية و الدولة المغولية فى الهند، للطرق الصوفية. والذى كان الدافع الأهم له أن الحكام المسلمين وجدوا فى النزوع الأخروى للتصوف وفى التوجهات السلبية للمدرسة الأشعرية، كما فى الطابع المحافظ لمؤسسة العلماء التقليدية، شريكاً مناسباً.



وليس حتى القرن السابع عشر الميلادى أن بدأت ردود فعل ملموسة على الأنماط الفكرية التقليدية المسيطرة فى التبلور. عبرت ردود الفعل تلك عن أصوات علمائية ذات اهتمام وخلفيات فكرية متعددة: بعضها جاء من قلب التصوف، بعضها كان لمتكلمين؛ وأخرى لعلماء حديث، ولدت فى أنحاء مختلفة من العالم الإسلامى وفى سياقات اجتماعية وسياسية غير متشابهة بالضرورة. إن السمة الرئيسة لردود الأفعال تلك هى انعدام وجود أى علاقة بينها وبين التيارات الفكرية الغربية الحديثة، كونها أساساً تعبيرات عن مبدأ الإصلاح الإسلامى عميق الجذور الذى استمر لقرون طوال فى التأثير على العلماء المسلمين ذوى الإحساس المتميز بالواجب.

أحد هؤلاء كان الملا على القارى الهروى (ت ١٦٠٦) الذى هاجر من هرات واستقر فى مكة المكرمة. وبالرغم من خلفيته المذهبية الحنفية والصوفية، فقد شن الهروى هجوماً حاداً على التصوف الشعبى وإفراط الطرق الصوفية وممارساتها المخالفة للشرع مثل الرقص والسماع، كما كتب رسالة فى تفنيد مبدأ «وحدة الوجود». وفى الدولة المغولية بالهند، برز أحمد سرهندى (١٥٦٤-١٦٢٤) الذى تأثر بالتيارات الإصلاحية للطريقة النقشبندية، كما مثل رد فعل واضحاً على خضوع علماء الهند لمحاولات الإمبراطور أكبر بناء تصور دينى هجين بين الإسلام والمعتقدات الهندية الأخرى. وقد كانت حياة سرهندى الفكرية والعملية تجسيداً لنزوعه الإصلاحى المناهض لانحراف السلطة السياسية، من ناحية، وللأسس الفكرية التى قام عليها تحالف العلماء التقليديين مع التصوف، من ناحية أخرى. دافع سرهندى عن التصوف الملتزم بقيم الشريعة باعتباره الإطار الحامى للقيم الاجتماعية الأخلاقية، واستنكر الممارسات الصوفية الخارجة عن الشرع مثل الرقص والسماع، وسعى إلى إعادة بناء التجربة الروحية الصوفية على أساس من «وحدة الشهود» بدلاً من مبدأ «وحدة الوجود»، الذى رأى فيه سرهندى شركاً واضحاً. وقد نما تأثير سرهندى (الذى اعتبره أتباعه مجدد الألف الثانى فى تاريخ الإسلام) ليصل إلى مناطق أخرى من بلاد الإسلام، وليؤثر على رؤية العديد من العلماء المتصوفة، داخل وخارج الطريقة النقشبندية.

ومع نهاية القرن السابع عشر، برز إبراهيم بن حسن الكورانى (١٦١٦ - ١٦٨٩)، العالم الشافعى المتصوف الذى انحدر من أصول كردية واستقر فى المدينة المنورة. تأثر الكورانى بابن تيمية، وحاول إيجاد تصور تصالحى بين الأشعرية والسلفية. وقد عالج الكورانى فى أعماله وكتاباته العديدة ليس فقط المسألة التى طالما دار حولها الخلاف بين المتكلمين المسلمين والمتعلقة بصفات الله، ولكن أيضاً مبدأ الكسب، الذى يمثل أكثر الموضوعات العقدية الأشعرية إشكالاً، خاصة فيما يتعلق بمسئولية الإنسان عن أعماله. أعاد الكورانى التوكيد من جديد على آخر أعمال الأشعرى، «كتاب الإبانة فى أصول الديانة»، الذى عبر فيه المتكلم الإسلامى الكبير عن التزامه بالمبادئ العقدية السلفية كما طرحها أحمد بن حنبل، وتخلى فيه عن الكثير من قناعاته العقدية التى حملتها كتبه المبكرة. ومن المعروف أن المدرسة الأشعرية قد تجاهلت فيما بعد «كتاب الإبانة». لقد عبر الكورانى، الذى كان متصوفاً كبيراً بلا شك، عن التزامه بمبدأ «وحدة الوجود»، ولكنه حاول تفسيره من خلال الحدود الصارمة للشريعة. وترك الكورانى، الذى كان كاتباً غزير الإنتاج، أثراً عميقاً على قطاع واسع من الطلاب والأتباع الذين انتموا إلى جهات مختلفة من بلاد الإسلام، من المغرب إلى مصر، ومن بلاد الشام والهند إلى جنوبى شرق آسيا. وقد تحولت دوائر علم الحديث وعلم الكلام فى المدينة، حيث ألقت أفكار الكورانى جذورها، إلى حاضنة ومفرخ ساهمت فى تكوين اثنين من أهم المصلحين المسلمين فى القرن الثامن عشر.

الأول هو شاه ولى الله الدهلوى (١٧٠٣-١٧٦٢) الذى كان عليه أن يواجه أزمة المجتمع الإسلامى الهندى الكبرى المتمثلة فى انهيار وتشرذم إمبراطورية المغول. ولذا، فقد اجتهد الدهلوى طوال مسيرته الفكرية ليجد نقطة التوازن بين ضرورات الإصلاح الدينى وضرورات إعادة بناء وحدة الجماعة المسلمة فى الهند. عبر محاولة إحياء القيم العليا للدين، أكد الدهلوى دائماً على أن غايات النظام الاجتماعى لابد أن تحدد دائماً ضمن إطار من القيم الأخلاقية التى يؤدى تجاهلها إلى فشل المجتمع فى تحقيق أهدافه. على المستوى الفكرى، كان الدهلوى نتاجاً لالتقاء تيارات ضمت النزوع النقشبندى الإصلاحى، حركة إحياء علم الحديث بجذورها المدينية، وأفكار ابن تيمية، التى أهلته معاً لتقديم إجابات مركبة على أسئلة وضع بالغ التعقيد. لم يخش الدهلوى من مواجهة النزعات المذهبية الانقسامية، مؤكداً على الجوهر المشترك للإسلام ومعزياً الخلافات الإسلامية إلى الاختلاف فى مناهج المؤسسين الكبار للمذاهب الإسلامية وفى الفرضيات المنطقية التى أقيمت عليها تلك المناهج. وكان أحد أهم مبادرات الدهلوى قيامه بكتابة تفسير للقرآن باللغة الفارسية، لغة الثقافة للهند المغولية. ويستبطن اهتمام الدهلوى بالقرآن، إلى جانب توكيده على موقع الحديث كمصدر للشريعة، سعى الدهلوى الحثيث إلى تخطى الموروث الإسلامى الوسيط وإعادة بناء المعرفة الإسلامية على أساس من القرآن والحديث.

أما ثانى أبرز مصلحى القرن الثامن عشر فقد كان محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٩٢)، الذى تأثر هو الآخر بحركة إحياء الحديث فى المدينة، كما تأثر بميراث ابن تيمية. لقد نشأ ابن عبد الوهاب فى منطقة نجد شمالى شرق الجزيرة العربية، التى كانت أقل مدنية وتعقيداً وعزلة من البيئة التى نشأ فيها معاصره ولى الله الدهلوى. وبالرغم من أثره الفكرى الهام، فإن أطروحات ابن عبد الوهاب افتقدت التنوع والتركيب الذى تميزت به أفكار الدهلوى؛ كما أنها بالتأكيد كانت أكثر إثارة للجدل. تحرك ابن عبد الوهاب، كما أغلب المصلحين الآخرين، بدوافع نقدية للأنماط المعرفية والاجتماعية المهيمنة فى عصره؛ ولكن تعاليمه استندت على أحكام عقدية قاطعة على المجتمع، حيث يتم تصور الواقع المنكر من خلال التفسيرات القاطعة للنص. جادل ابن عبد الوهاب بأن التفسير لا يتعلق فقط بالإيمان بوحدانية الله باعتباره الخالق ومبدع الكون (توحيد الربوبية)، بل أيضا بالإيمان بالله باعتباره الحاكم المطلق (توحيد الألوهية). يستتبع ذلك أن أى تصور للعالم



حفلت رحلة محمد عبده بثراء فكري جعلت منه خلال سنوات داعية المشروع الإصلاحي الأكثر تأثيراً في مصر ومحيطها العربي والإسلامي



يساوي بين الله حاكماً، وأي قوة أو كائن آخر، هو في حقيقته شرك بالله. وبانطلاقه من هذه الفرضيات، شن ابن عبد الوهاب هجوماً عقدياً لا يساوم على التصوف وعلى التقاليد الدينية الشعبوية الرائجة، مقدماً بذلك المسوغ الديني للحركة السعودية - الوهابية ولحربها الطويلة ضد قطاعات عديدة من سكان الجزيرة العربية وجوارها، كما ضد السلطات العثمانية. ولكن استعادة ابن عبد الوهاب الجادة لعقيدة التوحيد - بقوتها التحريرية النافذة - من تحت الركام الثقيل للتقاليد الإسلامية الوسيطة، حمل جاذبية وإشعاع الدعوة الوهابية إلى ما وراء ردود الفعل الصوفية والتقليدية وما وراء التصدي العثماني السياسي والعسكري للحركة.

ترددت خلال العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر والنصف الأول للقرن التاسع عشر أصداء دعوات التجديد والإصلاح في مختلف أنحاء العالم الإسلامي. محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٧٩٢) في القاهرة، عبد العزيز الدهلوي (١٧٤٦- ١٨٢٤) في الهند، محمد بن علي السنوسي (١٧٨٧- ١٨٥٩) في ليبيا الداخلية، أبو الثناء الألوسي (١٨٠٢- ١٨٥٤) في بغداد، محمد بن علي الشوكاني (١٧٦٠- ١٨٣٤) في اليمن، وعثمان بن فوديو (١٧٥٤-١٨١٧) في غرب أفريقيا، كلهم ساهموا في إثراء الساحة الفكرية الإسلامية بالعديد من الأفكار والأطروحات الجديدة، ودفعوا بحيوية جديدة إلى المجتمعات الإسلامية التي كانت توشك أن تواجه تحدياً مختلفاً تماماً عن كل ما واجهته من قبل، متمثلاً بالإمبريالية الأوروبية. ولكن الاختلافات في الخلفيات التعليمية لهؤلاء المصلحين، والخصائص المختلفة للبيئات التي نشطوا فيها، ساهمت معاً في إحداث تباينات بين أولوياتهم الفكرية.



اهتم الزبيدي، مثلاً، بإصلاح التصوف من خلال إحياء الحديث، ليس فقط إحياء علوم الرواية ولكن أيضاً التعامل مع الحديث كمتن ونص مؤسس للدين. من ناحية أخرى، دفع عبد العزيز الدهلوي بتعاليم والده إلى نهايتها المنطقية عندما قدم التأييد والمسوغ الشرعي لطلائع المجاهدين المسلمين الهنود الذين قاموا لدفع التعديات الهندوسية - السيخية على المسلمين، ثم ضد الاحتلال البريطاني. أما السنوسي وابن فوديو فقد عمل كلاهما، وليس بالضرورة بطرق مشابهة، على إقامة إطار مرجعي يرتكز إلى القرآن والسنة لمجتمعات كانت في طريقها إلى التبلور خارج نطاق البيئات والمراكز الحضرية، بيئات كانت لم تزل مثقلة بتقاليد محلية قديمة لم تكن تتفق دائماً مع القيم الإسلامية العليا. الشوكاني، الذي كان قاضياً زيدياً يمنياً، والألوسي، الذي كان مفتياً عثمانياً رسمياً لمدينة بغداد، عملا على المواءمة بين معتقداتهما السلفية - التيمية والفضاء الفكري والسياسي المحيط بهما والمعادي لهذه المعتقدات. في مجمله كان الجهد الذي قدمه مصلحو القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر قد مهد الطريق لاتفاق واسع النطاق بين هذا الجيل من المصلحين المسلمين على أولوية النص المؤسس، وعلى الحاجة الضرورية لتجديد النسيج الأخلاقي للمجتمع، وعلى إطلاق حركة الاجتهاد.

داخل الدوائر الشيعية، كان ثمة ديناميكية فكرية أخرى آخذة في التبلور، ليست بأي حال من الأحوال أقل أهمية من نظيرتها السنية في مساهمتها في تشكيل ملامح الفكر الإسلامي الشيعي الحديث، تمثلت في انتصار المدرسة الأصولية. يعود الانقسام داخل دوائر العلماء الشيعة بين أصوليين و إخباريين في جذوره إلى الحقبة الصفوية وانتشار التشيع داخل إيران، ومن ثم تصاعد نفوذ مؤسسة العلماء الشيعة. في مطلع القرن الثامن عشر، حيث رافق انحدار الدولة الصفوية مرحلة زمنية ممتدة من الفوضى الاجتماعية - السياسية والصراع الداخلي، سيطرت التيارات المحافظة ممثلة بالمدرسة الإخبارية على الحوزات الشيعية وحلقات العلماء. يعتقد الإخباريون أن ميدان التحقيق الإسلامي العلمي محدد بالقرآن والأخبار المرورثة، وتعني الأخبار هنا الأحاديث المنسوبة إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) والأئمة معاً. وقد رفض الإخباريون بالتالي مبدأ الاجتهاد. في نهاية القرن الثامن عشر، تعرضت المدرسة الإخبارية لتحد فكري كبير من عالم أصولي ذي باع طويل هو أقا محمد باقر بهبهاني (١٧٠٦ـ ١٨٩٠)، الذي قدم إلى كربلاء من مدينة أصفهان الإيرانية. أحيا بهبهاني المنهج الأصولي النقدي للأخبار، وعزز من موقع الاجتهاد، سواء على مستوى علم الأصول أو على مستوى الفقه. خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، استمر صعود المدرسة الأصولية عبر نجاحها في هزيمة تحديات التصوف الشيعي (كالطريقة النعمة- اللهية) والفرقة الشيخية (أحد فروع المدرسة الإخبارية، التي اكتسبت أبعاداً صوفية، وتعتبر البيئة التي نشأت فيها البابية والبهائية). ولا شك أن انتصار المدرسة الأصولية ستكون له آثار درامية على مستقبل التشيع الإسلامي، لأنه قدم المسوغات الشرعية لتعاظم دور العلماء في الاجتماع والسياسة.

[٣]

فيما عدا الوعي الأولي وغير الواضح تماماً الذي تكون لدى عبد العزيز الدهلوي بالاختراق البريطاني المتسع للهند في مطلع القرن التاسع عشر، فإن التحدي الأوروبي - الإمبريالي لم يحتل موقعاً بارزاً في الأنظمة الفكرية التي صاغها مصلحو نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. لذلك، عكست أفكار تلك الطبقة من المصلحين حواراً بين واقع أنكر المصلحون جوانب عديدة منه، وماض حمل موروثاً هائلاً حاول الإصلاحيون استعادة بعضه بينما سعوا إلى نقض بعضه الآخر. ولم يلعب الغرب باعتباره تحدياً خارجياً أي دور يذكر في بنية هذه الأفكار. ولكن ما إن مرت عقود قليلة فقط، حتى تحول التفوق الغربي إلى مصدر اهتمام وقلق كبيرين لمصلحي نهايات القرن التاسع عشر، علماءً كانوا أو رجال دولة أو رحالة أو مراقبين لطرائق عمل الإدارات الاستعمارية. هذه الاستجابة الإسلامية المتأخرة للتحديات التي فرضتها مواجهة التفوق الغربي عكست حقيقة أن التماس الإسلامي الأول مع القوة الصاعدة لأوروبا الحديثة جاء في ساحة الحرب لا في ميادين القانون و التعليم والإدارة. ولم يكن غريباً بالتالي أن تكون أولى محاولات الإصلاح الإسلامي قد بدأت على يد رجال الدولة، مثل سليم الثالث ومحمد علي والسلاطين القاجار، وأنها اقتصرت على إعادة البناء العسكري. ولكن سرعان ما أصبح واضحاً أن التحديات الغربية كانت أكثر عمقاً وشمولاً، وأنه حتى إعادة البناء العسكري لم تكن ممكنة بدون إعادة بناء سياسي واجتماعي واقتصادي واسع النطاق. خلال الحقبة بين منتصف القرن التاسع عشر ونهاية الحرب العالمية الأولى، تعرضت معظم بلاد الإسلام لعملية إعادة البناء أو التحديث هذه، العملية التي وصلت في بعض الأحيان إلى ما يشبه إعادة صياغة كاملة للمجتمعات الإسلامية في صورة أوروبية حديثة.

بالرغم من أن أهداف ونتائج برامج التحديث في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانت متشابهة في معظم أنحاء العالم الإسلامي، إلا أن أدوات وديناميات هذه البرامج اختلفت من منطقة إلى أخرى. في مصر، تونس، المغرب، إيران، والدولة العثمانية، لعبت الدولة الدور الرئيس في حركة التحديث؛ بينما كانت الإدارات الاستعمارية هي المسئولة عن برامج التغيير في الجزائر وأندونيسيا والهند، التي كانت جميعها ضحايا مبكرة للإمبريالية الأوروبية. وقد استأنفت الإدارات الاستعمارية دورها ذلك في مصر وشمال وغرب أفريقيا بعد أن وقعت هذه البلاد تحت السيطرة الأجنبية. وليس

هناك من شك فى أن المشروع التحديثى العثمانى كان أكثر مشاريع التحديث شمولاً، إذ أنه تواصل من ١٨٤٠ حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وانهيار الدولة، بدون أى انقطاع يذكر؛ بينما أدت المقاومة الداخلية، أو افتقاد التصميم، أو غياب الرؤية الواضحة، إلى ان تكون حركة التحديث بسيطة ومقطعة الأوصال فى أنحاء أخرى من العالم الإسلامى.

أحد أهم أهداف المشروع التحديثى، كما مثلته التجربتان العثمانية والقاجارية، كان توكيد وبسط سيطرة الدولة على الأرض والمجتمع. استدعى ذلك الهدف احتكار الدولة لأدوات العنف، ممثلة فى الجيش الحديث، أجهزة الشرطة والأمن. كما استدعى بناء إدارة هرمية غير مشخصنة، حيث تتعدد مستويات المسئولية وتتصل، وفرض الحكم المركزى على المناطق التى تدار محلياً أو من خلال ما يشبه الحكم الذاتى. ومن أجل إحكام سيطرة الدولة وديمومة هذه السيطرة، وبهدف تعظيم الموارد، شقت الطرق الجديدة ومدت خطوط سكك الحديد، وأنشئت شبكات الاتصال التلغرافى، كما أطلقت مخططات الإصلاح الزراعى التى غيرت أنماط توزيع وملكية الأرض المستقرة منذ قرون. وقصد بإدخال النظام التعليمى الحديث وإقرار المناهج الدراسية المركزية أن تنتج المعاهد التعليمية الحديثة النمط المطلوب من موظفى الدولة، إضافة إلى خلق أمة ومجتمع جديدين توحدهما رؤية واحدة ونمط تفكير واحد. وقد طبق نفس المنطق فى الحقل القانونى، حيث استبدل النظام القديم القائم على القاضى والمحكمة الشرعية بمحاكم حديثة؛ وبعد محاولة قصيرة العمر لتقنين الشريعة الإسلامية، استوردت الأنظمة القانونية الأوروبية المدنية كما هى تقريباً. وسواء فى المناطق الواقعة تحت السيطرة الأجنبية أو فى البلاد التى لم تزل تحت حكم إسلامى، وضعت الدولة يدها، وعلى نطاق واسع، على الأوقاف، إما لأن الدولة رأت فيها قاعدة ومصدر دعم للقوى التقليدية المناهضة للمشروع التحديثى، أو لسعى الدولة إلى الحصول على مصادر ثروة إضافية لتمويل حركة التحديث. وإلى جانب الاختراق الاقتصادى الأوروبى الواسع للأسواق الإسلامية والتهميش المتزايد لاقتصاديات بلدان العالم الإسلامى، فإن حقبة التحديث تركت آثاراً عميقة على التكوين الاجتماعى، على علاقة الدولة بالمجتمع، وعلى منظومة القيم الثقافية والاجتماعية.

ما أن أخذ العصر الجديد فى إنتاج رجالاته ولغته حتى أخذت طبقة العلماء، التى حافظت على لحمة المجتمع لقرون طوال، فى الانحدار إلى مواقع هامشية، وبدأ النظام الأخلاقى التقليدى فى الانهيار. المجتمع، كما قال إدموند بيرك، «يرتبط برابطة أخلاقية أبدية تجمع من ماتوا، ومن لازالوا على قيد الحياة، ومن سيولدون». وقد بدا فى مطلع القرن العشرين أن هذه الرابطة فى طريقها للانكسار فى معظم أجزاء العالم الإسلامى. إن محاولات إقرار مبادئ التمثيل السياسى والنظام الدستورى، التى شهدتها مصر والإمبراطورية العثمانية وإيران، والتى استهدفت تأسيس إحساس بالمواطنة، تزامنت مع التوجه لتوكيد سلطة الدولة وتعزيز قوتها. بتقويض ما أسماه ستانفورد شو «الاستقلال المحلى» الذى وفرته أنظمة التنظيم الاجتماعى التقليدى، بإدخال أنظمة نمطية شمولية إلى حقلى التعليم والعدل، وباحتكار حق التشريع، تجلت قوة الدولة وسيطرتها كما لم تتجل من قبل طوال التجربة التاريخية الإسلامية. واختل بذلك التوازن الإسلامى التاريخى بين المحكوم والحاكم لصالح الأخير.



إن الأغلبية العظمى من العلماء الإصلاحيين، مثل عبده ورضا والقاسمى والجزائرى، انحدرت من أصول ريفية أو عائلات حضرية صغيرة ومتوسطة وليس من العائلات العلمائية الكبرى أو أعيان المدن



لقد استبطن الخطاب النسبى والمتنوع والحر للمجتمع التقليدى إيماناً عميقاً بمحدودية الإنسان، والطبيعة غير اليقينية لإنجازاته. إن التباين والاختلاف بين آراء الفقهاء والقضاة والمفتين كان انعكاساً لفهم عميق لموقع الإنسان فى العالم. ولكن خطاب الحداثة، على العكس من ذلك، هو خطاب مشبع بإحساس فج باليقين. بعد تقديمه صورة للدقة والنظام واليقين الذى شاب التحضيرات العسكرية البريطانية لغزو مصر فى ١٨٨٢، كتب تيموثى ميتشل قائلا «إن التزايد الحثيث فى مدى وسرعة ويقين وسائل الاتصال، مضافاً إلى التزايد فى مدى وسرعة ويقين وسائل الدمار، أصبح معادلاً لـ، وساهم فى، ازدياد مدى وسرعة ويقين ما يمكن وصفه بحقيقة وسلطة القوة السياسية الحديثة». إن إيمان الإنسان المتزايد بصوابه وقدرته على نشر العنف، عنف المشروع الإمبريالى وعنف الدولة الحديثة، وصل إلى مستويات غير مسبوقة فى التاريخ.

بيد أن مسافة متسعة أخذت تفصل الحاكم عن المحكوم، وإحساس بالاغتراب أخذ يثقل العلاقة بين الناس والقوانين الجديدة، والمدرسة والثقافة الجديدتين، وهو ما ولد مقاومة اجتماعية قوية. خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، شهدت الموصل، جدة، حلب، ونابلس، انتفاضات شعبية متتالية، كما عاشت دمشق أحداثاً طائفية دامية فى ١٨٦٠، دللت جميعاً على عمق الألم والغضب الذى انتاب جموع المسلمين جراء فقدان سبل المعاش والأمن الاجتماعى. وحتى فى مصر، تعددت مظاهر المقاومة لبرامج محمد على التحديثية. أما فى البلدان الإسلامية الواقعة تحت الحكم الأجنبى، مثل الجزائر والهند، فقد كانت المقاومة وردود الفعل أكثر عنفاً وأطول زمناً. هذا التعقيد والاضطراب الذى ميز حقبة التحديث، ساهم مساهمة رئيسة فى تشكيل الفكر الإسلامى الإصلاحى فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. وبينما دعت أصوات إسلامية إلى اعتناق شامل وسريع للأفكار وأنماط المؤسسات الغربية، دعا آخرون إلى التمسك بالماضى، رافضين أى مستوى من مستويات التغيير. بين هذين المعسكرين، سعى العلماء والمهنيون ورجال الدولة من المدرسة الإصلاحية إلى اختطاط طريق ثالث، حيث يمكن التوفيق بين الأوضاع الجديدة وأسس الهوية الإسلامية للمجتمع.

كان محمد عبده (١٨٤٩- ١٩٠٥) ومحمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥) فى القاهرة، محمود شكرى الألوسى (١٨٥٧- ١٩٢٤) فى بغداد، طاهر الجزائرى(١٨٥٢- ١٩٢٠) وجمال الدين القاسمى (١٨٦٦- ١٩١٤) فى دمشق، البشير صفر (ت١٩٣٧)، عبد العزيز الثعالبى (١٨٧٥- ١٩٤٤) ومحمد الطاهر بن عاشور (١٨٧٩- ١٩٧٣) فى تونس، عبد الحميد بن باديس (١٨٩٩- ١٩٤٠)، الطيب العقبى (١٨٨٨- ١٩٦٢)، ومحمد البشير الإبراهيمى (١٨٨٩- ١٩٦٥) من قيادة جمعية العلماء فى الجزائر، العثمانيون الشبان فى اسطمبول، الجمعية المحمدية فى أندونيسيا، محمد حسين نائينى (١٨٦٠- ١٩٣٦) فى إيران، سيد أحمد خان (١٨١٧- ١٨٩٨)، صديق حسن خان (ت١٨٨٨)، شبلى نعمانى (١٨٥٧- ١٩١٤)، وندوة العلماء فى الهند، جميعهم مهتمون، بدرجات متفاوتة، بالحفاظ على أسس الهوية الإسلامية لمجتمعاتهم فى مواجهة تيارات التحديث العاصفة، وبتحرير الموروث الدينى من أغلال التقليد والخرافة، معتمدين على الميراث الإصلاحى لأجيال المصلحين التى سبقتهم مباشرة.

[٤]

فى ظل الآثار بعيدة المدى لمشروعى التحديث العثمانى والمصرى وهزيمة حركة التمرد الهندى وسياسات البطش الفرنسية والهولندية فى شمالى أفريقيا وجنوبى شرق آسيا، كان الهم الرئيس للإصلاحيين المسلمين هو إحياء أسس الاعتقاد والمحافظة على دور الإيمان فى حقبة التحول واسع النطاق. ولكن الظرف التاريخى غير المسبوق الذى وجد الإصلاحيون فيه أنفسهم كان له قوانينه الخاصة. ومن أجل تحقيق أهدافها، نشطت حركة الإصلاح فى مجالين رئيسين: احتواء التحدى الغربى عن طريق إنشاء تركيبى بين القيم والأنظمة الحديثة وما تصوره الإصلاحيون القيم والأنظمة الإسلامية الخالدة؛ وتحدى مصداقية، بل وحتى إسلامية، الأنماط التقليدية السائدة عن طريق تحدى ادعاء صلاحيتها الدائمة وتجليها فى الواقع المعاش فى آن واحد.

ما ساهم فى تطور الموقف النقدى الإصلاحى لم يكن فقط ميراث محاولات الإحياء الإسلامى فى القرن الثامن عشر، ولكن أيضاً الخلفية الاجتماعية لرجال حركة الإصلاح أنفسهم. إن الأغلبية العظمى من العلماء الإصلاحيين، مثل عبده ورضا والقاسمى والجزائرى، انحدرت من أصول ريفية أو عائلات حضرية صغيرة ومتوسطة وليس من العائلات العلمائية الكبرى أو أعيان المدن. كان هذا يعنى فى شكل ما أن رجال الحركة الإصلاحية لم تثقلهم المصالح الاجتماعية الخاصة ولا السعى إلى المحافظة على الوضع الراهن. على أن المشروع الإصلاحى هو ابتداء مشروع إسلامى، ولكى يرى كذلك فقد كان من الضرورى أن تكون أدواته ولغته إسلامية وأن يعبر عن نفسه بخطاب إسلامى. ولهذا، فقد استند الفكر الإصلاحى إلى مبادئ أربعة أساسية: التوحيد؛ العودة إلى القرآن والسنة باعتبارها المصدر الأول للإسلام؛ إعادة التوكيد على دور العقل؛ والدعوة إلى إحياء الاجتهاد. ولكن الإصلاحيين على الأغلب رأوا



بقبول عبده للفكرة القائلة بأن أوروبا الحديثة كانت وليدة حركة الإصلاح الدينى، فقد أكد على أن التقدم الغربى قد أطلقه اعتناق أوروبا لمبدأى حرية الإرادة واستقلال العقل

النص الإسلامى المؤسس، وفهموا العقل، وسعوا لإحياء الاجتهاد، من خلال منظور حداثى؛ فالحداثة، كيفما تم تصورها، كانت المؤثر المستبطن الأقوى فى مشروع إعادة الإنشاء والإحياء الإسلامى.

شكل التوحيد، جوهر الاعتقاد الإسلامى، السلاح الأكثر مضاء الذى حاول المشروع الفكرى الإصلاحى من خلاله كسر هيمنة المدرسة الأشعرية والتصور الإسلامى التقليدى، ومظاهر الإفراط الصوفى، على السواء. كما كان التوحيد أداة مواجهة الأفكار المادية الجديدة. بالنسبة للمدرسة الإصلاحية، فإن صفات الله لا يمكن أن تتشابه مع أى عنصر مادى أو بشرى، وهى صفات خاصة بالله وحده يعجز الإنسان عن إدراك كنهها. إن علم الله وقوته وإرادته شاملة ومطلقة وغير قابلة للتصور الإنسانى لكنه العلم والقوة والإرادة. وكان على الإصلاحيين المسلمين أن يواجهوا تحديات من نوع آخر تمثلت فى أصوات إسلامية متمردة أخذت تحاول تقويض دور الدين فى المجتمع بدعوتها إلى أن يرتكز نهج التقدم وإعادة البناء الإسلامى على مبادئ الفلسفات الغربية الحديثة وتصورها للإنسان والطبيعة والمجتمع. ولهذا، فقد أصبح ضروريا للإصلاحيين إعادة تأسيس مبدأ التوحيد وقيمه فى مواجهة المبادئ المادية بحشد واسع للأدلة المستمدة من الجدل القرآنى، من الفلسفة والمنطق، كما من الاكتشافات العلمية الحديثة. جادل الإصلاحيون بأنه من بين دفتى التوحيد يمكن لتجديد حضارى حقيقى أن ينطلق، واضعين بذلك اللبنات الأولى للنهج الاعتذارى الإسلامى الحديث. وكان عبده بالطبع، أكثر من أى من معاصريه، الذى نجح فى تقديم موضوعة متماسكة نسبياً لأهم قضايا النظام الفكرى الإصلاحى: المركب الإسلامى- الحداثى. رأى عبده فى التوحيد تحريراً من اللاعقلانية والأساطير، ومصدراً لتأهيل الإنسان بقوة حرية الإرادة واستقلال العقل. وبقبول عبده للفكرة القائلة بأن أوروبا الحديثة كانت وليدة حركة الإصلاح الدينى، فقد أكد على أن التقدم الغربى قد أطلقه اعتناق أوروبا لمبدأى حرية الإرادة واستقلال العقل.

احتل الاعتقاد بمسئولية الإنسان عن أعماله واختياراته موقعاً مركزياً فى المنظومة الفكرية الإصلاحية، حيث طرح الإصلاحيون أكبر تحدياتهم للتقاليد الأشعرية والصوفية منذ عصر ابن تيمية. بتوكيد التزامهم بالمدرسة الفكرية السلفية، ورفضهم الدليل الفلسفى اليونانى والمقاربة الباطنية - التأويلية للنص، قدم الإصلاحيون تصوراً لمبدأ التوحيد يقوم على أساس من الفهم المباشر للنص الإسلامى المؤسس، القرآن والحديث. من وجهة نظر الإصلاحيين، إن قوة الله و إرادته المطلقة لا تعنى حرمان الإنسان من حرية الإرادة أو وقوعه أسيراً للقدر. إن مناط مسئولية الإنسان عن أعماله هو العقل، الذى يضع الإنسان فى مرتبة خاصة به بين كل مخلوقات الله. لا يعنى هذا ان الفكر الإصلاحى ذهب إلى حد تأسيس استقلال العقل عن الشرع؛ فالعقل فى التصور الإصلاحى ليس فى تناقض مع الوحى. ينبع عدم التوائم بين الاثنين من المقاربة العقلانية غير الصائبة، ومن الفهم غير الصحيح للحقيقة الشرعية. ولكن فى النهاية، على أية حال، ظلت هذه المعالجة لمشكلة العقل والشرع، كما كانت عند ابن تيمية، غير قابلة لحل فاصل وقاطع، على الأقل من وجهة نظر غير المؤمنين.



بيد أن اعتناق الإصلاحيين للعقل، واستعادتهم للجدل الإسلامى الكلاسيكى حول دوره، اختلف فى درجاته إلى حد كبير. فبينما عبر صديق حسن خان وأهل الحديث فى الهند ومحمود شكرى الألوسى فى العراق عن رؤى سلفية، زاوجت أفكار محمد عبده وأطروحاته بين الموقف الاعتزالى والموقف السلفى/ التيمى. رضا، من جهة أخرى، أظهر ميولاً اعتزالية فى المراحل المبكرة من حياته الفكرية؛ ولكن فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، وإذ تعززت علاقاته بالدوائر السعودية - الوهابية، أصبحت قناعاته السلفية أكثر وضوحاً. ما وحد بين التيارات والمجموعات الإصلاحية المتعددة، كان الاتفاق فى معارضة المعتقدات الفكرية الأشعرية - الصوفية، والعمل على تحدى هيمنتها على مستوى الطبقات المتعلمة ومستوى المجتمع ككل. وحده محمد إقبال (١٨٧٧-١٩٣٨) بين إصلاحيى بدايات القرن العشرين من تأثر تأثراً لا يخفى بالميراث الصوفى - الفلسفى الإشراقى وحاول أن يطرح رؤية للحداثة من خلاله.

خلف التوكيد على الأولوية المطلقة للقرآن والسنة، وخلف التحدى البارز لأطروحات المدرسة الأشعرية، كان هناك هدف آخر رئيس على جدول اهتمامات الإصلاحيين: تجاوز الميراث الإسلامى الوسيط، ليس فقط فى حقل الكلام بل أيضا فيما يتعلق بالفقه. لقد شرع الإصلاحيون، بشجبهم للفصام بين الخطاب التقليدى والواقع المتغير، وباعتناقهم لفكرة التقدم، فى رسم خط فاصل بين النص وبين التراث الفقهى المتراكم عبر القرون. وإذ أكد الإصلاحيون على ثبات النص فقد رأوا فى الميراث الفقهى حصيلة للجهد الإنسانى، مما يجعله بالضرورة مادة نسبية قابلة للتغير والتعديل. وقد جادل الإصلاحيون بأن الالتزام الأعمى بآراء تكونت قبل مئات من السنين يناقض روح الإيمان الإسلامى وجوهره على السواء، ودعوا بالتالى لإطلاق الاجتهاد على كل مستوى ممكن من الشريعة باعتباره الطريق الوحيد للتجديد وإعادة البناء الذاتى. ولم تطرح الدعوة إلى الاجتهاد باعتبارها طارئاً جديداً، بل كمبدأ أساسى من مبادئ النهج الإسلامى، وباعتبارها مبرر النهضة الإسلامية فى عصورها الأولى وطريق الأئمة والمجددين الكبار من الشافعى وأبى حنيفة ومالك إلى ولى الله الدهلوى. من وجهة النظر الإصلاحية، إن كانت الشريعة هى الناظم المنزل لشئون الحياة، فليس ثمة من قيود لابد أن تفرض على العمل الاجتهادى ضمن إطار الشريعة المرجعى. يؤسس على ذلك أن الاجتهاد ليس مرغوباً ومحبذاً فحسب بل ضرورة حيوية للمسلمين فى كل زمان ومكان، يعاد من خلاله تحديد موقع الأمة فى العالم.

فى القلب من دعوة الإصلاحيين إلى الاجتهاد تقف موضوعة تعليل الحكم الإلهى، التى كانت منذ زمن طويل محل جدل واسع بين علماء أصول الفقه. اعتقد الإصلاحيون، كما المدرسة السلفية بشكل عام، إن العقل الإنسانى قادر على اكتناه الحكمة الإلهية خلف النص المقدس. يستتبع هذا بالطبع رفض مبدأ الكسب الأشعرى، والاعتقاد بدلاً من ذلك بإمكانية التفسير العقلى للظواهر الطبيعية. وإن كانت الأحكام الإلهية معقولة فإن الظواهر الطبيعية، التى هى كذلك مظاهر لكلمة الله، تستند إلى نظام سببى. وبذلك أصبحت الدعوة الإصلاحية للاجتهاد، التى تأثرت أيضاً بنظرية مقاصد الشريعة كما طرحها الفقيه الأندلسى أبو اسحق الشاطبى (ت١٣٨٨/٧٩٠)، أصبحت ميداناً إسلامياً حديثاً للاحتفال بالعقل. على أن الإصلاحيين كانوا واعين بموضوعية الحكم الشرعى (بأصوله الإلهية)، وبالمخاطر التى تصاحب انفلات عملية إخضاع النص للواقع الطارئ والمتغير. هنا أيضا وجد المشروع الإصلاحى المخرج فى مبدأ المصالح المرسلة الأصولى المالكى، الذى وظفه رشيد رضا فى دعوته لإعادة النظر فى قوانين المعاملات الإسلامية، كما استعان به واضعو «مجلة الأحكام الشرعية» العثمانية لتطوير تشريع مدنى عثمانى مقنن بالرغم من خلفيتهم الحنفية.

بيد أن الفكر الإصلاحى لم يكن تجلياً

لاهتمامات فقهية وكلامية فحسب، بمعنى أنه لم يكن جهداً نظرياً مثالياً، ولكنه أصلاً مشروع متجذر في سياق سياسي - اجتماعي خاص ومحدد. وربما يمكن القول إن التجربة التاريخية الإسلامية لم تشهد منذ الفترتين الأموية والعباسية الأولى اتصالاً بين الفكر الإسلامي والإشكاليات الاجتماعية - السياسية كما شهدت في تعبيرات المشروع الإصلاحي. إن كل موضوعة إصلاحية رئيسة كانت تحمل دلالات سياسية - اجتماعية. رفض الإصلاحيين للجبرية (أو عقيدة القدر، كما سماها عبده) لم يكن مجرد تصد للروح الأشعرية المسيطرة، ولكن بالضرورة شجباً للاستبداد السياسي وتصور حتميته. في البداية، كان هدف المعارضة الإصلاحية الثيو- سياسية هو الحكم الأوتوقراطي للسلطان عبد الحميد الثاني أو خديوي مصر أو سلطان المغرب، ولكن هذا الهدف سرعان ما اتسع ليطال السلطات الإمبريالية بعد أن تقدم طلاب المدرسة الإصلاحية لقيادة الحركة الوطنية في الريف المغربي، في فلسطين، وفي إندونيسيا والهند. وبشكل مشابه، ارتبط التنكر لدور العقل، في التصور الإصلاحي للأشياء، بالانحطاط وبسعي القوى السياسية والدينية المهيمنة إلى المحافظة على الوضع القائم. وقد استبطن التوكيد على الدور الأولي والأساسي للقرآن والسنة ليس فقط رغبة الإصلاحيين في تخطي الميراث التقليدي الإسلامي الوسيط، بل أيضاً مواجهة الانقسامات المذهبية والطائفية والشبكة الاجتماعية من المصالح المرتبطة بهذه الانقسامات. فوق ذلك كله، انصب اهتمام إصلاحيي القرن التاسع عشر وبداية العشرين بالنتائج الاجتماعية - السياسية لعملية التحديث والتحدي الغربي الهائل للعالم الإسلامي. وهنا بالذات أظهر الفكر الإصلاحي بعضاً من تناقضاته الداخلية.

إن الفكر الإصلاحي هو من حيث نشأته نتاج موقف متأزم، نتاج أزمة جعلها الإحساس المتفاقم بالانحطاط وعدم القدرة على رد الغزو الغربي أثقل وطأة. لقد أخطأت الأجيال الأولى من الإصلاحيين عندما تجاهلت حركة الأساطيل والجيوش الغربية المستعمرة، وظنت أن قوة الغرب الحديث هي حصيلة مباشرة وبسيطة للإصلاح الديني والعلم والعقلانية. على أن من التبسيط الفادح تفسير التوجه الإحيائي عند الإصلاحيين بأنه مجرد غطاء لتسويغ الاعتناق غير المشروط للحداثة الغربية والخضوع لها. أولاً: لأن الإصلاحيين حاولوا دائماً التمييز بين القيم الإنسانية ومؤسسات الصالح العام في الغرب الحديث من جهة، والمشروع الاستعماري من جهة أخرى. وثانياً: لأن الإسلام شكل الإطار المرجعي للمدرسة الإصلاحية. وثالثاً: لأن المعارضة الإصلاحية للاختراق الغربي المتزايد للمجتمعات الإسلامية كانت معارضة أصيلة. وسرعان ما انتقلت هذه المعارضة لدى الجيل الثالث من طلاب الحركة الإصلاحية، مثل عبد الكريم الخطابي، عزالدين القسام، والحاج أمين الحسيني، إلى نضال مسلح. ولكن قطاعاً آخر من تلاميذ الإصلاحيين، مثل لطفي السيد وقاسم أمين، أصبحوا أكثر استعداداً لتبني القيم والمفاهيم الغربية، بل ومهادنة الإدارات الاستعمارية. وبذلك انفرط عقد مشروع التوفيق بين الإسلام والغرب.

بمواجهتهم لما اعتبروه انحرافاً عن جوهر الإسلام، نشر الإصلاحيون قيم الإسلام العليا. وباستخدامهم الكثيف لأدوات الصحافة الحديثة، جعلوا اللغة الإسلامية أكثر اقتراباً من لغة الناس وحياتهم اليومية. وقد ساهم الفكر الإصلاحي في استيعاب المسلمين للكثير من جوانب الحداثة الغربية بدون تأثير سلبي كبير على معتقداتهم الدينية. ولعل استنتاج إرنست غلنر المثير أن الإسلام، دون الديانات الكبرى الأخرى، قد استطاع هضم الحداثة واحتواءها، هو استنتاج يتعلق أساساً بالمساهمة الإصلاحية الهائلة في الفكر الإسلامي الحديث. ولكن إنجاز الإصلاحيين غير المقصود، ربما، تمثل في وضع بذور موضوعة القرن العشرين الإسلامية الكبرى: إن الإسلام يحتوي الإجابة على كل أسئلة العصر، بما في ذلك اعتناق الحداثة ذاتها. وقد أصبحت هذه الموضوعة فيما بعد حجر الأساس في أيديولوجيا الحركات الإسلامية السياسية. على أن الإصلاحيين كانوا في أغلبهم شخصيات قلقة، أخذهم بحثهم عن الخلاص من الأزمة التي يواجهها العالم الإسلامي الحديث من موقع وموقف إلى آخر ومن رحلة إلى أخرى. خلفاؤهم من الإسلاميين كانوا أكثر يقيناً وتصميماً. وهذا، ربما، ما يستدعي تذكر عبده وتأمل أعماله وكتاباته بعد مائة عام على وفاته.

(*) ارتكز هذا المقال في أجزاء منه على البحث الذي نشره الكاتب باللغة الإنجليزية:
Basheer M Nafi, "The Rise of Islamic Reformist Thought and Its Challenge to Traditional Islam," in S. Taji-Farouki and B. M. Nafi, Islamic Thought in the Twentieth Century (London: Tauris, 2004).
للاطلاع على مصادر البحث يرجى العودة إلى النص الإنجليزي.

الســـــيرة

■ ولد عبده لأسرة مصرية ريفية في ١٨٤٩، وعاش طفولته في محلة نصر من قرى مديرية البحيرة في منطقة الدلتا الزراعية. ولأن والده توفي وهو طفل صغير فقد انتقل إلى رعاية خاله، الذي كان ذا ميول صوفية كمعظم أبناء القرية من المتدينين. وكان الخال هو من لاحظ ذكاء الفتى الصغير وشجعه على انتهاج طريق العلماء والعلوم الإسلامية. تلقى عبده تعليمه الأولى في كتاب القرية، ثم انتقل وهو في الثالثة عشرة من عمره إلى المعهد الأزهري بمدينة طنطا. لم يرق التعليم التقليدي في المعهد للفتى الموهوب، فتركه بعد عام ونصف من الدراسة فقط. ولكن خاله أقنعه بالعودة، حيث سيقضي عاماً آخر في طنطا قبل أن ينتقل في ١٨٦٦ إلى القاهرة وإلى الأزهر، قلعة التعليم الإسلامي آنذاك.

في ١٨٧٢، قابل عبده الأفغاني لأول مرة وانبهر به؛ وبتشجيع من الأفغاني اتجه عبده إلى العمل في الصحافة حتى قبل إتمام تعليمه الأزهري. في ١٨٧٩، عين عبده مدرساً في دار العلوم التي كان قد أسسها على مبارك كمركز جديد للتعليم العالي بعد رفض علماء الأزهر الاستجابة لمطالب الدولة بتحديث وتطوير التعليم في الجامع. ولكن أولى حكومات الخديوي توفيق، التي طردت الأفغاني من مصر، قامت أيضاً بإبعاد عبده إلى قريته. في العام التالي، استدعته حكومة توفيق الثانية، ليبرالية التوجه، وعينته رئيساً لتحرير «الوقائع المصرية»، المجلة الرسمية للبلاد، التي أسسها ورأس تحريرها في السابق المصلح المصري الشهير الشيخ رفاعة الطهطاوي.

شارك عبده في أحداث الثورة العرابية في ١٨٨٢، مما تسبب في نفيه إلى بيروت بعد هزيمة الثورة ووقوع البلاد تحت الاحتلال البريطاني. وفي بيروت، تعرف على الإصلاحيين السوريين من العلماء الشبان مثل جمال الدين القاسمي. وبعد عامين من الإقامة في بيروت، توجه عبده إلى باريس حيث التحق بالأفغاني وشاركه تحرير وإصدار «العروة الوثقى». وعندما بدأت المجلة في التعثر، ذهب عبده إلى تونس في زيارته الأولى القصيرة لها محاولاً جلب التبرعات لمواصلة نشر المجلة. ولكنه ما لبث أن غادر باريس، عائداً إلى بيروت. منذ ذلك الحين، وإذ أصبح الأفغاني أكثر راديكالية وعداء للغرب، كان عبده يفقد الثقة في الأساليب السياسية المباشرة ويصب اهتمامه على قضايا الإصلاح الفكري والتعليمي.

نجح عبده في ١٨٨٩ في العودة إلى مصر بعد اتصالات أجراها مع المندوب السامي البريطاني، الآمر الناهي في شئون مصر، اللورد كرومر. وقد عين عبده عند وصوله القاهرة قاضياً، ثم رفع إلى قاض في الاستئناف؛ وفي ١٨٩٩ أصبح مفتياً لمصر. كان هذا الصعود المطرد مؤشراً واضحاً على علاقته الودية مع كرومر والمسئولين البريطانيين؛ ويبدو أن عبده حسم أولوياته باتجاه التعاون مع البريطانيين من أجل تحقيق أهداف الإصلاح الداخلي ومحاربة استبداد الخديوي عباس في مصر واستبداد السلطان عبد الحميد في اسطمبول. ولكن الأمور تبدو اليوم أعقد من ذلك، فقد وجدت في أرشيف السلطان عبد الحميد رسائل كان عبده حتى السنوات الأخيرة من حياته تبادلها مع السلطان. إن كانت معارضة عبده للخديوي عباس في القاهرة قد أدت إلى قطيعة بين الرجلين، فإن عبده كان لا يزال يأمل في التأثير على السلطان والنهوض بالسلطنة.

في شتاء ١٨٩٧، وصل إلى القاهرة من طرابلس- الشام عالم شاب كان إعجابه بعبده أحد الأسباب التي دفعته إلى الهجرة لمصر، هو السيد محمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥). وكان أول عمل قام به رضا في القاهرة هو زيارة عبده وإعلان ولائه له. وكان لاطلاعه على مقالات عبده والأفغاني في «العروة الوثقى» أثر كبير في تنمية توجهاته الإصلاحية، وقراره الهجرة إلى القاهرة. بمباركة من عبده، أصدر رضا في العام التالي لوصوله القاهرة مجلة «المنار»، متخذاً من مقرها في شارع الإنشاء مكتباً ومطبعة ومنزلاً. وحتى وفاة رضا بعد سبعة وثلاثين عاماً من صدورها، أصبحت «المنار» صوت عبده وتلاميذه، وداعية المشروع الإصلاحي الأكثر تأثيراً في العالم الإسلامي، يقرأها العلماء وأهل الرأي والنشطون الإسلاميون من فاس إلى سنغافورة. خلال السنوات القادمة، أصبح عبده النقطة المرجعية لتيارات الإصلاح التي انطلقت في كل أنحاء العالم الإسلامي. ■

فتـــــاوى الإمـــــام

ســؤال واجب؟!



مصطفى لبيب عبد الغنى

■■ اجتمعت همَّة صفوة من الأعلام فى عصرنا على التعريف بدعوة الإمام محمد عبده من أمثال رشيد رضا والأحمدى الظواهرى ومصطفى عبد الرازق وشكيب أرسلان ومحمد كرد على، وأحمد لطفى السيد ومحمود شلتوت وعباس محمود العقاد، وسار على دربهم أعلام من الجيل التالى فى الطليعة منهم أستاذنا عثمان أمين، وعكف محمد عمارة على نشر أعمال الإمام الكاملة، ودراستها. وقد برزت جهود صادقة لباحثين كُثر، عرب وأجانب، عرفوا للإمام فضله وقدْره، حتى أنه قد يخالج البعض ظنٌ بأنه لم يَعُدْ هناك، فى الكشف عن جوانب فكر الإمام، زيادةٌ لمستزيد.

ومنذ خمسة وأربعين طوَّف بنا عثمان أمين فى رحاب فلسفة الإمام «رائد الفكر المصرى»، فقد كان يفسح له بين الفلاسفة المعاصرين مكانًا عليًا. وكان درسُه حينذاك دعوةً لنا إلى معرفة الذات والعودِ إلى الجذور.

ومع اقترابنا الدءوب من عطاء الإمام كانت تتسع أمامنا الرؤية لكوامن فكره الثرى، فإذا بالإمام حاضر لا يغيب، وإذا

فتاوى الإمام محمد عبده
اعداد الدكتور على جمعة
القاهرة: الجمعية الخيرية الإسلامية - ٢٠٠٥

بقناعتنا تزداد بالحاجة إلى استلهام تراثه المضيء.

ولقد راودنا، منذ عام تقريبا، أملٌ عزيز فى إصدار طبعة محققة من فتاوى الإمام الهامة، وهى التى انتظم عقدها عبر سنين، ولم تكن هذه الفتاوى قد طبعت بعد، وكنا نرى فى طباعتها مناسبة طيبة للاحتفال بذكراه فى مئوية الرحيل.

ولم يكن يخالجنا ريب فى أن فى استماعنا لصوت مفتى العصر الورع، إمام المجتهدين، خادم الوطن ومحب الإنسانية، عبقرى الإصلاح والتعليم، تصويبًا لنظرتنا إلى الإصلاح، فى وقت كثر حوله الصياح، وازدحمت فيه الساحة، ببضاعة المحترفين. ولسنا نغالى إنْ قلنا إنْ دعوة الإمام، التى جاءت لازمة لزمانها كل اللزوم هى لزماننا المتردى ألزم.

ولكم أسعدنا أن تُبادر الجمعية الخيرية الإسلامية بمصر فتُلبى رغبة المحبين بإصدار طبعتها لـ «فتاوى الإمام محمد عبده» - التى أعدها فضيلة الدكتور على جمعه مفتى جمهورية مصر العربية وقدم لها المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى رئيس مجلس إدارة الجمعية. ونحن نحمد للجمعية الخيرية الإسلامية أن سَهلت للراغبين الحصول على نسخة مجانية، وكنا بحمد الله ممن نالتهم هذه البركة.

وجاء تقديم فضيلة المفتى، فى خمس صفحات، فأشار فيه إلى بعض كتابات طائفة من أعلام الإفتاء فى تراثنا الإسلامى، ثم عقَّب على ذلك، بقوله: «ومحاولة منا لنشر التراث الإسلامى والسير على درب هذه الكتب النافعة، نُخرج هذا الكتاب «محمد عبده الإمام - فتاواه.. سيرته.. مسيرته»، ونسأله سبحانه أن ينفع به كما نفع بصاحب تلك الفتاوى. وختم فضيلة المفتى تقديمه بسرد سريع لسيرة الإمام محمد عبده العلمية والعملية وببيان مقتضب لما كُتب عن الإمام اقتصر فيه على بعض ما طبع بالعربية فى مصر وسقط من البيان مثلا ذكر كتاب الشيخ مصطفى عبد الرازق عن أستاذه، ثم اختتم فضيلة المفتى تقديمه بقوله: وفيما يلى نستعرض نموذجًا من فتاوى محمد عبده فى الأبواب الفقهية المختلفة حيث تم تقسيم تلك الأبواب إلى: العبادات - المعاملات - المواريث - الزواج - الطلاق - الأيمان والقضاء». وجاء هذا التصنيف فى مائتين وسبع وأربعين صفحة من القطع المتوسط. وفى صفحة الخاتمة (رقم ٢٥٧ من الكتاب) يجيء قول فضيلة المفتى: «من خلال ما مر من الفتاوى الكثيرة التى قاربت المائتين يتجلَّى بكل وضوح منهج الإمام العظيم فى فتاواه التى ساهمت فى وقتها فى الفصل بين الناس وتساهم الآن فى نشر العلم وتحقيق المسائل العلمية»!

لقد تضمن الكتاب مائة وواحدة وتسعين فتوى مع أن المدون منها فى سجلات دار الإفتاء وحدها تسعمائة وأربع وأربعون! استغرقت السجل الثانى بأكمله وصفحاته مائة وثمان وتسعون صفحة كما استغرقت مائة وتسعا وخمسين صفحة من صفحات السجل الثالث، واشتملت الصفحة على ثلاثين سطرًا ومتوسط كلمات السطر ثلاثون كلمة - فيما أشار إليه محمد عمارة (الأعمال الكاملة، مجلد، ص٤٨٦).

إن طبعة الفتاوى على هذا النحو المبتسر الذى خلا مِن بعض أخطر الفتاوى لتثير فى النفس شجونا وتدفعنا إلى طرح تساؤلات مهمة عن فتاوى الإمام: ماهيتها وحدودها ومظانها. ولعله يحسن بنا قبل الاقتراب من محاولة الإجابة على هذه التساؤلات أن نذكر بعض ملاحظات أولية، هى:

أولا: إن حصر «فتاوى» الإمام فى مظانها العديدة مسئولية قومية، علمية وأخلاقية، بالنظر إلى كونها تُمثّل - فى تقديرنا - جانبا عزيزا من الفكر المصرى الحديث فى فترة حرجة من تاريخه، بعد تجاوزه لفترة المخاض، مع الطهطاوى ومدرسته، وجهاده لاستعادة هويته، فى عصر الأفغانى ومحمد عبده (عصر الإعداد للثورة العرابية ومحنة ما يزيد على عقدين من زمن الاحتلال البريطانى لمصر). وليست فتاوى الإمام مجرد إجابات على أسئلة يسيرة أربكت بعض العوام فى وقتها لكنها تمثل بالفعل اقتحاما جسورًا لأخطر وأهم قضايا العصر الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهى تنطوى على برنامج عملى مستنير للنهضة والانطلاق من قيود التخلف المضروبة بإحكام على واقعنا.

وإننا لنهيب بالمسئولين عندنا بذل العناية الواجبة بمجموع تراث الإمام ودراسته دراسة تحليلية واعية فكثير منه لم يُنشر وأكثر ما كُتب عنه بغير العربية لم يترجم.

ثانيا: إن استرجاع المؤرخ لوقائع الماضى بموضوعية ونزاهة، بعيدا عن مختلف وجوه التحليل والدراسة، لا يصح معه اجتزاء وثائق الفترة المعنية، وواجب المؤرخ بذل أقصى الجهد لاستيعاب الوثائق بتمامها وجودة تمثلها فى ذاتها حتى يأتى حكمه التاريخى - من بعد - مجانبا للهوى، وغير صادر عن غفلة أو تجاهل لما هو ضرورى، مما لزم عنه أن أصبح نشر الوثائق عملا علميًا مستقلا بذاته وفق قواعد وأصول.

ونحن فى الحقيقة، لا نزال نعانى من أعراض هذا القصور المنهجى، على أرفع مستويات نشرنا لوثائق الماضى حينما نُسقط عمدا ما نراه غير جدير بالإثبات والنظر، لاعتبارات قد تكون سياسية أو اجتماعية أو دينية، أو قد تكون جامعة لذلك كله معا، فنخلط حينئذ بين ما هو كائن وبين ما ينبغى أن يكون، ونوحد، على مستوى الوعى أو اللاوعى، بين الواقع وبين المثال، ومن ثَمّ تتداخل وتتشابك فى تجربتنا المعرفية أنساقٌ هى بطبيعتها متمايزة تماماً.

ثالثا: إن مفهوم الوثيقة التاريخية الكاشفة عن فترة معيَّنة لا يقتصر على الآثار المادية أو الكتابات الضيقة التى أعدت بقصد الشهادة والإثبات فى مناسبة ما، بل إن مفهوم الوثيقة يتسع ليشمل أيضاً الأعمال الأدبية والفنية والمساجلات والمقالات الصحفية والأحاديث العامة والخاصة والسِّير الذاتية المعبِّرة عن حياة أصحابها وعما هو ظاهر ودفين فى سلوكهم ومقاصدهم، وسواء جاء التعبير عن ذلك كله فى ثقافة أصحابها أم جاء ضمن إطار ثقافى آخر انعقدت بينه وبين ثقافة أصحاب الوثيقة صلة ما من الصلات.

ولعل إمامنا محمد عبده مثلٌ حىٌ على ذلك؛ فقد كان كثير الأسفار منفتحا على الآخر متعدد الثقافات محاورًا لذويه ولكبار مفكرى العالم وساسته كذلك ممن كان لهم رأى إيجابى أو سلبى فى المصريين خصوصًا أو فى المسلمين عموما. وكان الإمام أمةً فى رجل تكاملت فى دعوته جوانب الإصلاح: فهو عالم الدين والفيلسوف المعلِّم والمربى للأمة والصحافى القدير والسياسى الحصيف والقاضى العادل والمؤسس للعمل الخيرى التطوعى والمفتى الناصح فى شخصية جامعة لا انفصام بين أدوارها فانبهر به الآخرون وإنْ ظلَّ بعضنا ينظر إليه حتى الآن فى استنكار وريبة!

مظان الفتاوى

لفتاوى الإمام مصادر عديدة لعلَّ من أهمها:
- مضبطة دار الإفتاء المصرية فى الفترة من ١٠ يونيو سنة ١٨٩٩ وحتى ١١ يوليو سنة ١٩٠٥.
- «تاريخ الأستاذ الإمام» الذى نشره محمد رشيد رضا.
- سجلات «وزارة العدل المصرية» فى الفترة من سنة ١٨٨٩ إلى سنة ١٨٩٢، وسجلات «مجلس شورى القوانين» من سنة ١٨٩٩ .
- القَدر الذى فسَّره الإمام من أجزاء القرآن الكريم (وهو منشور ضمن المجلدين الرابع والخامس من الأعمال الكاملة).
- مقالاته الصحفية ومحاضراته ومناظراته وأحاديثه فى المنتديات العامة والخاصة ومراسلاته المتبادلة مع أصدقائه ومعاصريه من العرب وكبار المفكرين فى العالم من أمثال «هربرت سبنسر» و «تولستوى».
- الدراسات العربية والأجنبية التى عرضت لمختلف جوانب فكر الإمام، والفتاوى من بينها، وعلى الخصوص ما كتبه «و.س. بلنت» و«ادوارد براون» و«تشارلز آدمز» و«جرينوفيل» و«جولتسيهر» و«ماكس هورتن» و«جب» ممن نظروا إليه بما هو مفكر أممى يجسد روح الثقافة العالمية المعبرة عن أصل الفطرة وعن عموم الطبيعة الإنسانية.

إن الفتوى، بطبيعتها، جواب مباشر عما يُشكل من الأحكام التى تُرشد السائل إلى «ما يجب عليه فعله طبقا لأحكام الشريعة». وهى تصدر من المفتى عن وعى بمشكلات الواقع، وعن التزام بالنُصح للكافة. والفتوى، وإن لم يكن لها قوة الإلزام التى يتسم بها القانون عادة، قد تُصبح - عند ارتقاء الوعى الدينى وشيوع الثقافة الصحيحة - مكونا أساسيا من مكونات الرأى العام، الذى هو عند الإمام مصدر القانون وأساسه، على نحو ما عبر عن ذلك عندما كتب يقول فى جريدة «الوقائع المصرية» - عدد ديسمبر سنة ١٨٨١: «إن القانون الصادر عن الرأى العام هو الحقيقى باسم القانون».

فما هى الأسس العامة لمنهج الإفتاء عند الإمام؟

يكشف منهج الإمام عن استقلال فى الرأى وبعد عن التقليد ومقاومة لأى سلطة مقيدة للعقل. وهو فى استشرافه لروح النص، يوائم بين تعاليم الإسلام ومطالب الحياة العصرية.

نعم، لا يتردد الإمام فى التصريح بأن النظر العقلى هو وسيلة الإيمان الصحيح، وأنه قد اتفق أهل الملة الإسلامية إلا قليلا ممن لا يُنظر إليه، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أُخذ بما يدل عليه العقل، وبقى فى النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر إلى الله فى علمه، والطريق الثانية تأويل النقل، مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل» (الأعمال





إن طبيعة الفتاوى على هذا النحو المبتسر الذى خلا من بعض أخطر الفتاوى لتثير فى النفس شجونا وتدفعنا إلى طرح تساؤلات مهمة عن فتاوى الإمام: ماهيتها وحدودها ومظانها



الكاملة، جـ٣، ص ٣٠١). وهو، منذ شبابه المبكر، وكان لا يزال مجاورا بالأزهر، يثق بقيمة الفكر ثقة لا تهتز: فالفكر عنده أبقى وأرسخ على الزمن من أشد صور الواقع رسوخا. وظل الإمام مؤمنا بأن الإنسان كونٌ عقلى سلطان وجوده العقل، فإن صح السلطان ونفذ حكمه صح ذلك الكون وتم أمره» («الإسلام والمسلمون» بتحقيق طاهر الطناحى، ص ١٦٧، كتاب الهلال، ديسمبر١٩٦٣).

أساس الإفتاء - عند الإمام - هو «الاجتهاد»؛ فالإسلام قد «صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء، وما توارثه عنهم الأبناء، وسَجّل الحمق والسفاهة، على الآخذين بأقوال السابقين، ونبَّه على أن السبق فى الزمان، ليس آية من آيات العرفان، ولا مسميًا لعقول على عقول، ولا لأذهان على أذهان، وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيَّان، بل للاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمَن تقدمه من أسلافه وآبائه، وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم، وطغيان الشر الذى وصل إليهم بما اقترفه سلفهم: «قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذِّبين» (سورة الأنعام: ١١)، وإن أبواب الفضل لم تغلق دون طالب، ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب، عابَ أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عندما اختطته سير أسلافهم. وبهذا تَم للإنسان أمران عظيمان طالما حرم منهما، وهما استقلال الإرادة، واستقلال الرأى والفكر، وبهما كملت إنسانيته (الأعمال الكاملة، جـ٣، ص ٤٥٥).

وعلى هذا فإنَ من جعل كلام الإمام المجتهد دينا يُتعبد به فإنه ينافى دين الإسلام نفسه، ويدخل فاعلوه فيما حَذّر الله عنه من فعل أهل الكتاب بإتّباع رؤسائهم فيما يوجبون عليهم، ويحلون لهم ويحرمون عليهم، فى قوله: «واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله» («الإسلام والمسلمون» ص ٢١١).

مراعاة المصالح أو فقهُ الضرورة:

يتساءل الإمام: من المؤكد أن «الناس تحدث لهم باختلاف الزمان أمور ووقائع لم يُنَص عليها فى هذه الكتب، فهل نوقف سير العالم لأجل كتبهم؟ هذا لا يُستطاع، ولذلك اضطر العوام والحكام إلى ترك الأحكام الشرعية، ولجأوا إلى غيرها» (المصدر السابق، ص٢١٥). ويُحمل الإمام المتقاعسين من فقهاء المسلمين تبعة ذلك: «فهم المسئولون عند الله تعالى عن هذا، وعن كل ما عليه الناس من مخالفة للشريعة لأنه كان يجب عليهم أن يعرفوا حالة العصر والزمان، ويطبقوا عليها الأحكام بصورة يمكن للناس اتباعها - أى كأحكام الضرورات - لا إنهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها ويجعلونها كل شىء ويتركون لأجلها كل شىء.

يقرأون الأصول ولا يخطر ببال أحدهم أن يرجع فرعا من هذه الكتب إلى أصله أو يبحث عن دليله... بل لم يخجلوا أن يقولوا نحن مقلدون لا يلزمنا النظر فى الكتاب والسنّة، دانوا لكتب المتقدمين على تعارضها وتناقضها الذى تشتّت به شمل الأمة ويكتفون بقولهم «وكل من رسول الله ملتمس...» و«كان ينبغى أن يكون للفقهاء جمعيات يتذاكرون فيها ويتفقون على الراجح الذى ينبغى أن يكون عليه العمل، وإذا كان بعض المسائل رُجِح لأسباب خاصة بمكان أو زمان ينبغى لهم التنبيه على ذلك، وأن هذا الحكم ليس عاما وإنما سببه كذا، لا أنهم يجعلون كل ما قيل عن فقيه واجبَ الاتباع فى كل زمان ومكان» (المصدر السابق، ص ٢١٦).

وتأسيسا على هذا لم يكن نقد آراء الآخرين وتمحيصها، خطيئة أو تطاولا فيما يراه الكثيرون وإنما كان عند الإمام واجبا مقدسًا؛ فالانتقاد نفثة من الروح الإلهى فى صدور البشر، تَظهر فى مناطقهم سوقا للناقص إلى الكمال، وتنبيها يدفع الكامل من موقعه إلى طلب الغاية مما يليق به... وعلى ذلك قام النظام الإنسانى، فلَولا الانتقاد ما شَبّ عالم عن نشأته ولا امتد مُلْك عن منبته، أتُرى لو أغفل العلماء نقد الآراء، وأهملوا البحث فى وجوه المزاعم أكانت تتسع دائرة العلم، وتتجلى الحقائق للفهم، ويُعلم المحق من المبطل؟» (المصدر السابق، ص ١٦٧-١٧١).

لـمـن الـفـتـوى؟

ولا يتردّد الإمام، فى ردّه على فرح أنطون، فيُبيِّن - وهو مفتى الديار المصرية - أن الإفتاء سلطة مدنية لا سلطة دينية، وذلك لأن الإسلام لم يجعل للخليفة أو للقاضى أو للمفتى أو لشيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهى سلطة مدنيّة قررها الشرع الإسلامى، ولا يُسوّغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربّه أو ينازعه فى طريق نظره» (الأعمال الكاملة، جـ٣ ص ٣٠٩). والإمام يستلهم، فى ذلك، روح التنزيل المجيد فى تقرير حق الإنسان المطلق فى الاعتقاد حيث يقول المولى عزّ وجل مخاطبا نبيَّه الكريم: «فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر» (سورة الغاشية: الآيتان ٢١-٢٢) و«قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفر» (سورة الكهف: الآية ٢٩).

ويتصل بهذا ما صَرَح به الإمام، فى جرأة لا تعرف المداهنة، وذلك فى شهر يوليو ١٩٠٤ وهو فى ضيافة الشيخ عبد المؤمن موسى، عمدة قرية «بهادة» بجهة «فم البحر»، وبحضور الشيخ على الببلاوى، شيخ الأزهر آنذاك والشيخ أبى الفضل الجيزاوى والشيخ سليمان العبد والشيخ محمد الدماصى المتصوف عندما أجاب الإمام على سؤال مضيفه، وبعد أن احتدم الجدال بين الإمام وبين الشيخ الدماصى المتصوف، فقال: «قال الله تعالى: ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ (سورة العنكبوت، الآية ٢٩). وفى الحديث «مَن عَمِل بما عَلِم ورّثه الله علم ما لم يَعْلَم»، وتستغنى عن المرشد إذا لم تجده لقلته فى هذا الزمن، وإذا وجدت من تراه سابقا لك فى العلم وحُسن الخُلق وأردت أن تسترشد به فانظره وراء هذا شرطًا واحدا، وهو أن لا يكون دين هذا الرجل دكّانه، أى أن لا يقبل منك جزاء على الإرشاد، فإذا رأيته لا يمد يده للأخذ فامدد إليه يدك وعاهده على الاسترشاد بعلمه، وعرفانه، وإذا كان يمد يده للأخذ منك فلا تمدد يدك إلى يده إلا بالسكين فإنه لص اتخذ الدين حرفة، واكتف بالعمل بما تَعلم والله يهديك ويُسدِّدك» (الأعمال الكاملة، جـ٣، ص ٥٤٨).

مـفـتـى الـعـصـر:

أصبح الإمام، وقد تقلّد هذا المنصب الرفيع(فى يوليو ١٨٩٩)، مفتيا يفزع إلى فتواه عموم السائلين؛ فقد كان يستشيره العامة، كما كان يستشيره أعلام شيوخ المسلمين من مصر وخارجها على اختلاف مذاهبهم الفقهية، وقد عرف عنه التقريب بين المذاهب وحرصه على جمع المسلمين على كلمة سواء، وكان كذلك مفتيا لأقباط مصر ولمختلف الجاليات المسيحية الأوربية ولحاخامات اليهود لا فى مصر وحدها بل وفى فلسطين، الأمر الذى سَجّلته وثائق دار الإفتاء حيث نقرأ، مثلا، ردوده على أسئلة: الخواجه «كيورك أبكاؤشى» و«ميخائيل قسطندى بشارة» و«مسيحة أفندى سعد مسيحة» والخواجا «حبيب جاماتى» و«مرقص فهمى» وعلى أسئلة

وكيل بطريكخانة الروم بمصر والخواجا «جبرائيل يوسف دبانة»، وعلى حاخام «عكا» وغيرهم. ذلك لا نستغرب أن تُنقش على قبره هذه العبارة من بعد: «مات مفتى الناس طرًا».

نماذج من أبرز فتاوى الإمام:

- فتوى يرد فيها حُكم محكمة الاستئناف الأهلية بمصر فى ٧ يونيو ١٨٩٩ والقاضى بإعدام المتهم محمد حميد فى جريمة قتل عبد الوارث السيد، عمداً مع سبق الإصرار والترصد، والذى أحيل إلى المفتى لأخذ الرأى.

فى هذه الفتوى الأولى، بعد أسبوع من توليه منصبه، تتمثل روح الدقة، وتحرى الإنصاف وتقدير قيمة الحياة، فلم يُسلم المفتى بما جاء فى حكم المحكمة دون تمحيص وإنما نظر فيه نظر العادل الخبير وانتهى إلى الفتوى على النحو التالى:

«اطلعت على قضية تهمة محمد على حميد.. فوجدنا عليه كثيرا من القرائن التى تدل على ارتكابه جريمة القتل، لكنها مع كثرتها لا تكفى فى الحكم عليه بعقوبة الإعدام، لأن اليقين لا يبلغ بها إلى الحد الذى يُسَوِّغ الحكم بعقوبة لا يمكن تدارك الخطأ فيها لو ظهر بعد ذلك بسبب ما من الأسباب، خصوصا ودلائل سبق الإصرار غير متوفرة، لجواز أن يكون خاطر الجناية ورد بذهن القاتل عند امتناع المقتول عن إعطائه النقود التى طلبها منه، ولا يسهل القطع بأنه كان عازما على قتله عند الامتناع».

(الفتوى رقم (١) بالسجل الثانى من سجلات دار الإفتاء).

فتوى تعدد الزوجات:

وفيها يقول الإمام: «أما جواز إبطال هذه العادة.. فلا ريب فيه. أما أولا، فلأن شرط التعدد هو التحقق من العدل، وهذا الشرط مفقود حتما، فإن وُجد فى واحد فى المليون فلا يصح أن يتخذ قاعدة، ومتى غَلب الفساد على النفوس، وصار من المرجح ألا يعدل الرجال فى زوجاتهم جاز للحاكم أن يمنع التعدد أو للعالم أن يمنع التعدد مطلقا مراعاة للأغلب، وثانيا: قد غلب سوء معاملة الرجال لزوجاتهم عند التعدد، وحرمانهم من حقوقهن فى النفقة والراحة، ولهذا يجوز للحاكم والقائم على الشرع أن يمنع التعدد دفعا للفساد الغالب. وثالثا: قد ظهر أن منشأ الفساد والعداوة بين الأولاد هو اختلاف أمهاتهم، فإن كل واحد يتربى منهم على بغض الآخر وكراهيته، فلا يبلغ الأولاد أشدهم إلا وقد صار كل واحد منهم من أشد الأعداء للآخر. ويستمر النزاع بينهم إلى أن يخربوا بيوتهم بأيديهم وأيدى الظالمين، ولهذا يجوز للحاكم أو لصاحب الدين أن يمنع تعدد الزوجات والجوارى صيانة للبيوت عن الفساد .

نعم، ليس من العدل أن يُمنع رجل لم تأت زوجته منه بأولاد أن يتزوج بأخرى ليأتى منها بذرية، فإن الغرض من الزواج التناسل، فإذا كانت الزوجة عاقرا فليس من الحق أن يُمنع زوجها من أن يضم إليها أخرى. وبالجملة: فيجوز الحجر على الأزواج عموما أن يتزوجوا غير واحدة إلا لضرورة تثبت لدى القاضى، ولا مانع من ذلك فى الدين البتة، وإنما الذى يمنع ذلك هو العادة فقط» (مجلة المنار- الجزء الأول من المجلد الثامن والعشرين).

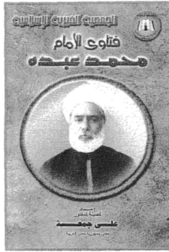
فتوى استقلال المرأة الاقتصادى:

رداً على سؤال السيدة نفيسة حمدى، كريمة المرحوم إسماعيل باشا حمدى فى أنها تملك مائة سهم من السهام الأساسية بـ «قومبانية»: قنال السويس، وأن تلك السهام محفوظة بمركز إدارة «القومبانية» بإيصال تحت يدها، وأنها أرادت سحبها، ونازعتها «القومبانية» بأن الزوجة لا يجوز لها أن تتصرف فى أملاكها إلا بعد إذن زوجها، بالنظر لما جاء بالقانون الفرنساوى، وحيث إنها مسلمة وزوجها مسلم، ولا سلطة للقانون الفرنساوى عليهما، لأنهما ليسا حماية، فهل الشريعة الإسلامية تقتضى جواز سحب هذه الأسهم لها بنفسها، بدون توسط الزوجة أم لا ؟

وجواب الإمام هو: إن الذى يقتضيه الحكم الشرعى فيما ذُكر بالسؤال، أنه حيث كانت تلك السهام خاصة بالسيدة نفيسة حمدى المذكورة، ومملوكة لها، كان لها أخذها واستلامها بنفسها ولا يتوقف ذلك على إذن زوجها المذكور. (الفتوى رقم ٣٨ فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء بتاريخ ٤ صفر سنة ١٣٢١هـ).

فتوى تتعلق بفض المنازعات بين العمال وأصحاب العمل وبالإضراب: نشرها «فرح أنطون فى مجلة «الجامعة» سنة ١٩٠٤ وجاء فيها قول الإمام:

«إذا تعطلت الصناعات وجب على القائم بأمر الأمة أن يتخذ السبيل إلى إقامتها بما يرفع الضرورة والحرج بين الناس. كذلك إذا تحكم باعة الأقوات ورفعوا أثمانها إلى حد فاحش وجب على الحاكم فى كثير من المذاهب الإسلامية



أن يضع حدا للأثمان التى تُباع بها: وهكذا يدخل الحاكم فى شئون الخاصة وأعمالهم إذا خشى الضرر العام فى شيء من تصرفاتهم.

فإذا تعصب العمال فى بلد، وأضربوا عن الاشتغال فى عمل تكون ثمرته من ضروريات المعيشة فيه وكان ترك العمل يُفضى إلى شمول الضرر، كان للحاكم أن يدخل فى الأمر وينظر بما خُوِّل له من رعاية المصالح العامة فإذا وَجد الحق فى جانب العمال وأن ما يكلفون به من قبل أرباب الأموال مما لا يستطاع عادة، ألزم أرباب الأموال بالرفق، سواء كان بالزيادة فى الأجرة أو النقص فى مدة العمل أو بهما جميعا، وإذا رأى الحق فى جانب أرباب الأموال وكان النزق من العمال قضى عليهم بالعمل، كما يقضى على المغالين فى ثمن الأقوات بالبيع بالثمن اللائق متى ظهر فحش عملهم وظلمهم للعامة».

فتوى إباحة الاشتغال بالفنون:

بعد عودة الإمام من زيارة لإيطاليا سنة ١٩٠٢ ورؤيته لبعض متاحفها كتب يقول، فيما يتعلق بحكم الشريعة الإسلامية فى عمل الصور والتماثيل:

إذا كان القصد منها تصوير هيئات البشر فى انفعالاتهم النفسية أو أوضاعهم الجسمانية هل هذا حرام؟ أو جائز؟ أو مكروه؟ أو مندوب؟ أو واجب؟ ورد الإمام هو:

« أقول لك: إن الراسم قد رسم، والفائدة محققه لانزاع فيها، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محى من الأذهان. وإذا أوردت حديث: «إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون» أو ما فى معناه مما ورد فى الصحيح، فالذى يغلب على ظنى أن الحديث جاء فى أيام الوثنية، وكانت الصور تتخذ فى ذلك العهد لسببين: الأول اللهو والثانى التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين، والأول مما يبغضه الدين والثانى مما جاء الإسلام لمحوه، والمصور، فى الحالين شاغل عن الله أو ممهد للإشراك به. فإذا زال هذان العارضان، وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى المصنوعات، وقد صُنع ذلك فى حواشى المصاحف، وأوائل السور ولم يمنعه أحد من العلماء، مع أن الفائدة فى نقش المصاحف موضع النزاع.

ويضيف الإمام مجيبا من يحتج بالنصوص، من عبيد الحروف: «أما إذا أردت أن ترتكب بعض السيئات فى محل فيه صور طمعا فى أن الملكين الكاتبين أو كاتب السيئات على الأقل لا يدخل محلاً فيه صور كما ورد، فإياك أن تظن أن ذلك ينجيك من إحصاء ما تفعل، فإن الله رقيب عليك، وناظر إليك حتى فى البيت الذى فيه صور، ولا أظن أن الملك يتأخر عن مرافقتك إذا تعمدت دخول البيت لأن فيه صورا!! ولا يمكنك أن تجيب المفتى بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة، فإنى أظن أنه يقول لك إن لسانك أيضا مظنة الكذب، فهل يجب ربطه مع أنه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب؟

وبالجملة، إنه يغلب على ظنى أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين، لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل، على أن المسلمين لا يتساءلون إلا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها ».

(مجلة المنار: المجلد السابع).



وبعد، فهذه قطوف من أزاهير الإمام بنفحاتها الزكية ضمن كثرة من الفتاوى استجابت لحاجات العصر فجاءت رحمة للمستضعفين ودلالة للحائرين وتنبيها للغافلين واستثارة لهمم المتقاعسين، مما لا نطالعه فى الطبعة التى بين أيدينا.

ولا نملك، فى النهاية، إلا أن نردد ما قاله شيخنا مصطفى عبد الرازق عن أستاذه الإمام:

فيكَ الرجاءُ لأمّةٍ لعبت بما
يلهى الصغار وجدّت الأيامُ

رحم الله المفتى الزاهد الذى لم تحركه رغبة أو رهبة ولم يختل عنده ميزانُ التقويم الصحيح فكان فى زمانه سلطانا للسلطان. والله المستعان. ■

بين الجمر والرماد...

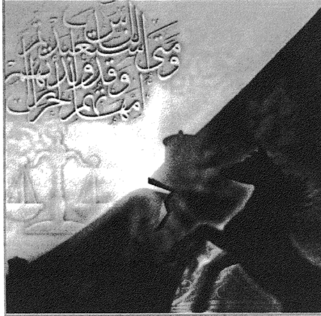
نادر فرجاني

■■ بعد تأخير دام ستة شهور بسبب ضغوط مارستها بعض الحكومات العربية بالإضافة إلى الإدارة الأمريكية الحالية، وبعد معركة شرسة فى أكثر من ميدان، صدر تقرير «التنمية الإنسانية العربية» الثالث، وموضوعه النقص فى الحرية والحكم الصالح فى البلدان العربية، فى شهر أبريل الماضى.

ومن الجدير بالذكر أن هذا التقرير المشكل صدر برعاية مؤسسية أوسع من سابقيه، تضم منظمتين عربيتين (الصندوق العربى للإنماء الاقتصادى والاجتماعى وبرنامج الخليج العربى لدعم منظمات الأمم المتحدة الإنمائية) بالإضافة إلى المكتب الإقليمى للدول العربية فى برنامج الأمم المتحدة الإنمائى، وإن سعت جميع المؤسسات الراعية إلى التنصل من كامل مضمون التقرير فى تصديرها له. وهو أمر يحسب لفريق التقرير، وللمنظمات الراعية كليهما، إذ يعزز من استقلالية محتوى التقرير، حتى عن المؤسسات الراعية له.

وقد صدر التقرير بدون «أى تنازل فى المبدأ أو الموقف». مما يعد انتصارا للحرية، ولمحبى الحرية فى الوطن العربى، ودون مغالاة، فى العالم أجمع حيث امتدت معركة محاولة حجب التقرير إلى خارج المنطقة العربية.

ويبدأ هذا المقال بعرض خاطف لجوانب أساسية من الأساس الفكرى للتقرير واستخلاصاته، واستشرافه لأبعاد المستقبل العربى، تمهيدا لمناقشة بعض القضايا الإشكالية الحالّة فى مسيرة الحرية فى الوطن العربى.



تمهيد: عن الجمر والرماد

الرسالة الأساسية لهذا المقال هى أن التوق للحرية فى الوطن العربى متقد كالجمر تحت رماد كثيف أهاله على أشواق الشعب العربى للحرية، عقود و قرون من الاستبداد والقهر. فإن دام عصر الانحطاط قرونا سبعة، فلعل العقود الخمسة الأخيرة تمثل تصاعدا فيما أسميه الاستبداد الجهول الظلوم المفتقد للكفاءة، إلا فى قهر الناس وإشاعة الجور فى الأوطان.

ومع ذلك يبقى جمر الشوق للحرية متقدا تحت رماد القهر، ينتظر الظروف المواتية ليشتعل قاضيا على بنى الاستبداد بمصير الشعب العربى فى الداخل واستباحته من الخارج، ومطهرا الوطن تمهيدا للتحول نحو تمام الحرية.

هناك، ولا شك، إشكاليات تعقد من إمكان بدء مسيرة النضال من أجل الحرية، ووصولها إلى بر الأمان الذى يتمتع فيه العرب جميعا بالحرية تامة. ولا خلاف فى أن النضال من أجل الحرية لن يكون نزهة بلا تضحيات أو تكاليف ربما قد تقاعست عنها النخب العربية المثقفة خاصة حتى الآن.

ويمكن اعتبار تقرير «التنمية الإنسانية العربية» الثالث، مساهمة فى استنهاض الهمم المطلوب، خاصة بين النخب المثقفة ما يستدعى لمحات خاطفة لمضمونه الجوهرى.

تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٤

- برنامج الأمم المتحدة الإنمائى

الصندوق العربى للإنماء الاقتصادى والاجتماعى

برنامج الخليج العربى لدعم منظمات الأمم المتحدة الإنمائية

إذا أضفنا إلى الاحتلال الأجنبى المباشر تسابق دول عربية إلى استضافة الوجود العسكرى الأجنبى، بل والسماح باستخدام أراضيها المضيفة للقواعد العسكرية الأجنبية لغزو العراق واحتلاله، والتمكين لأشكال أخرى من النفوذ الأجنبى السافر والمبطن

قيمة الحرية، بين العرب والغرب

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»

عمر بن الخطاب

فى إشارة رمزية بارزة، تتصدر مقولة الفاروق عمر بن الخطاب (القرن السادس الميلادى) غلاف التقرير، بجميع اللغات، تأكيدا على أن الحرية قيمة راسخة فى التراث العربى وساكنة للوجدان العربى منذ قرون عديدة.

والمغزى المفهومى لهذه المقولة، فائقة البلاغة، فذ من أكثر من جانب. فلعل هذه المقولة من أولى صياغات الربط بين الحرية والميلاد، أى ضمان الحرية للكائن البشرى لمجرد كونه إنسانا، وبمجرد ولادته. وهو المبدأ الناظم لمنظومة حقوق الإنسان التى تعد من أرقى الإنجازات القيمية للبشرية بعد مسيرة طويلة وعثرات شديدة على الطريق.

وتعلو القيمة الثقافية والإنسانية للمقولة مع اتضاح سياق صدورها، الذى انطوى على إصدار الخليفة عقابا قاسيا على ابن واليه فى مصر (وهو من علية القوم

الحرية في الوطن العربي!

في النظام العربي حينذاك «ابن الأكرمين») على الرغم من أن غريمه في النزاع كان، على غير دين الخليفة، قبطيا مصريا. مما يضيف إلى القيمة الإنسانية للمقولة بعدين آخرين. بعد عام يرسى المبدأ الناظم الثاني لمنظومة حقوق الإنسان، أي المساواة بين البشر جميعا بصرف النظر عن أي معيار للتفرقة. والبعد الخاص هو المساواة بين الحاكم والمحكوم تحديدا في القيمة الإنسانية، وهو مبدأ صار مفتقدا في كثرة من نظم الحكم في العالم، وفي جميع نظم الحكم العربية.

وعليه، فإنه ليس من حق أحد، في نظري، أن يحتج على العرب بغياب قيمة الحرية من ثقافتهم. على العكس، يمكن للعرب، في تقديري، أن يحتجوا على من يتباهون على العرب برغبتهم في تصدير الحرية والديمقراطية إلى ديارنا، ولو بالغزو المسلح، بأن الثقافة العربية قد أعلت من شأن الحرية قبل أن تنتظم بعض أقوام منهم في كيانات مجتمعية متمدينة.

والأكثر أهمية ربما هو أن بعضا من أشد الصارخين باحتياج المنطقة العربية للحرية والديمقراطية، وعلى رأسهم الإدارة الأمريكية الحالية وتابعتها حكومة المملكة المتحدة تحت قيادة حزب العمال، قد فقدوا هم أنفسهم أي مقوم أو مصداقية للتبشير بالحرية والديمقراطية، بل أضفوا على الديمقراطية كما يمارسونها، صبغة بشعة تنفي عنها سمة الحكم الصالح كما يفهمها تقرير «التنمية الإنسانية العربية». إذ تتعايش في نظامي الحكم هذين انتهاكات قوية لجوهر الحرية الفردية في الفكر الليبرالي، أي الحريات المدنية والسياسية، خاصة بالنسبة للعرب والمسلمين، مع ترتيبات «ديمقراطية» في الأصل، بما ينفي عنها في نظرنا سمة صلاح الحكم. في الولايات المتحدة وصل الأمر، تحت الإدارة الحالية، حد إهدار «قائمة الحقوق» وهي عماد الدستور الأمريكي، واستبدت السلطة التنفيذية، وبالتحديد الرئيس- تحت حجة مكافحة «الإرهاب» الذي تعرفه افتئاتا على الحق المشروع في مقاومة الاحتلال الأجنبي والأنظمة العنصرية- بالسلطتين القضائية والتشريعية في سمات حكم كنا نتصورها مقتصرة على ما يسمى «جمهوريات الموز». وتحذو المملكة المتحدة، تحت قيادة «توني بلير» حذو الولايات المتحدة على مسافة غير بعيدة. وليس من المغالاة في نظري، والحال كذلك، القول بأن الدول العربية قد نجحت في تصدير هذا النسق من الحكم المختل إلى قائدي تحالف غزو العراق واحتلاله بذريعة تحرير الشعب العراقي، ستارا لمطامع استعمارية لا تخفى على أريب.

والأهم هو أننا في الوطن العربي لا نرى في هذا النسق «الديمقراطي» الذي يتعايش مع انتهاكات جسيمة للحرية نموذجا يحتذى ويتبنى. بل نجد فيه تأكيدا على الحاجة لأن يجد العرب طريقهم الخاص للحرية والحكم الصالح عبر إبداع القوى الحية في المجتمعات العربية قاطبة، دونما قهر أو إجبار من خارج الوطن العربي، ولكن أيضا دون انغلاق أو انكفاء على الذات يورث الجمود والانقطاع عن مسيرة البشرية.

هذه الدعوة الوافدة من الإدارة الأمريكية الحالية، أي التبشير بحاجة المنطقة العربية لتعميق الحرية ولإقامة الحكم الصالح، إذا مقولة حق، من حيث إن الحاجة للحرية والحكم الصالح في البلدان العربية هي جد عظيمة، ونحن العرب أول من يجب عليهم أن يدعوها، بل يتعين عليهم أن يناضلوا من أجلها. ولكن مقولة الحق هذه، عندما تأتي من أمثال «بوش» و «بلير»، يراد بها باطل أكيد، هو بالتحديد المصالح الاستعمارية للإدارة الأمريكية الحالية التي تشكل عماد مشروع ثلة المحافظين الجدد، الصهيونية المتشددة، المهيمنة على الإدارة الأمريكية الحالية.

تطورات التنمية الإنسانية عربياً

استقرت منهجية تقرير «التنمية الإنسانية العربية» ابتداء من الإصدار الثاني على أن ينقسم التقرير إلى قسمين رئيسيين، يتناول الأول مجمل مسيرة التنمية الإنسانية في الوطن العربي بينما يقدم الثاني معالجة متعمقة لواحد من نواقص التنمية الإنسانية في البلدان العربية وتصورا استراتيجيا للتغلب عليه.

يشدد التقرير على أن أزمة التنمية الإنسانية في البلدان العربية لم تشهد انفراجا يعتد به- بل يمكن رصد انتكاسات في مضمار الحرية، خاصة على بعد التحرر الوطني.

ويؤكد التقرير على أن الاحتلال الأجنبي اغتيالٌ لأصل من أصول الحرية، أي الحق في التحرر الوطني وتقرير المصير. وأن الاحتلال الأجنبي لأراض عربية مازال يفت في عضد الأمة، بل استشرى (أضيف العراق إلى فلسطين في مطلع القرن الحادي والعشرين كفاتحة للمخطط الاستعماري الأمريكي في المنطقة، وفي العالم عبرها).

وإذا أضفنا إلى الاحتلال الأجنبي المباشر تسابق دول عربية إلى استضافة الوجود العسكري الأجنبي، بل والسماح باستخدام أراضيها المضيفة للقواعد العسكرية الأجنبية لغزو العراق واحتلاله، والتمكين لأشكال أخرى من النفوذ الأجنبي السافر والمبطن، انتهاء بمهادنة أو مصادقة دولة إسرائيل- العنصرية، والعدوانية والتوسعية- المحتلة للأراضي الفلسطينية لأطول من نصف قرن، وما فتئت ترتكب الفظائع والجرائم ضد الإنسانية تلو الأخرى في الأراضي العربية المحتلة.

وبالنسبة لموضوع الساعة، أي الإصلاح، يخلص التقرير إلى أن الإصلاح الجزئي والتجميلي لم يعد يكفي، بل ربما لم يعد ممكنا من الأساس نتيجة لتعقد أزمة التنمية الإنسانية وتشابك جوانبها.

ومن ثم، فإن الإصلاح الشامل، ومحوره الأساسي الإصلاح السياسي، لم يعد يحتمل التأجيل أو التباطؤ. وإن أقر التقرير بوجود إصلاحات جنينية ومتناثرة في بلدان عربية لكنها لا ترقى لمتطلبات مجتمع الحرية والحكم الصالح. ويخشى أن تبقى إصلاحات تجميلية وهامشية تعطل الإصلاح العميق في الجذور.

مفهوم الحرية

ينتظم مفهوم الحرية في التقرير على ثلاثة مستويات متضافرة: الفرد/ المجتمع/ الوطن.

يطلب المفهوم، على مستوى الفرد، الاحترام التام للحريات المدنية والسياسية، ولكن أيضاً القضاء على جميع أشكال الحط من الكرامة البشرية (مثل الجهل والفقر والمرض، والخوف عامة).

وهنا يزاوج المفهوم المتبنى بين الحرية الفردية من جانب- وفي القلب منها الحريات المدنية والسياسية- وهي عماد الحرية في الفكر الليبرالي، مع التغاضي عن تطرف الليبرالية الجديدة، التي تطلق حرية رأس المال، دونما ضوابط اجتماعية، والذي ينتج آثاما اجتماعية خطيرة- وبين العدل الاجتماعي، وهو القيمة العليا في التراث العربي الإسلامي، من جانب ثان. في هذا التزاوج بداية لمفهوم للحرية يعبر عن خصوصية عربية سامية وغير منقطعة عن أفضل المنجزات القيمية للبشرية جمعاء، ويمكن أن تشكل، من ثم، أساسا رصينا لبناء نسق عربي من الحرية والحكم الصالح يتجذر في النسيج الثقافي العربي وفي العالم المعاصر على حد سواء، مما يضمن له النجاح والدوام.

وعلى مستوى المجتمع ينص المفهوم على صيانة حريات وحقوق الجماعات والثقافات الفرعية (عزوفا عن استخدام مصطلح الأقليات المحمل بإرث تمييزي بغيض).

وعلى مستوى الوطن بكامله، يرتب المفهوم مكانة متميزة لضمان التحرر الوطني وتقرير المصير.

أي انتهاك على أي من هذه المستويات الثلاثة إذن يشكل انتقاصا غير مقبول من الحرية.

وبذلك يغطي مفهوم التقرير للحرية جميع مجالات منظومة حقوق الإنسان (ممثلة في القانون الدولي لحقوق الإنسان)

ويرى التقرير أن حماية الحرية وتعزيزها يتطلب قيام نسق من الحكم الصالح يتميزبالسمات الثلاث الرئيسية التالية:

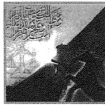
١ ـ يحمي الحرية، فانتقاص الحرية، على أي من مستوياتها الثلاثة، يعني عدم صلاح الحكم حتى لو قامت مؤسسات «ديمقراطية»- وهذه نقيصة تعاني منها للأسف نظم الحكم العربية بالإضافة إلى دول غربية كانت تعد في الماضي مثالا للحرية في العالم كله.

٢ ـ تمثيل الشعب بكامله، من خلال مؤسسات تتسم بالشفافية والإفصاح والمساءلة أمام الناس كافة.

٣ ـ في ظل قانون حام للحرية ومنصف، يطبَق على الجميع على حد سواء، ويقوم عليه قضاء نزيه ومستقل قطعا.

نسق الحكم الصالح هذا، بالإضافة إلى حماية الحرية بمفهومها الشامل، يضمن حقوق المواطنة غير منقوصة لجميع المواطنين دون أي تفرقة. ويضمن، على وجه الخصوص، التداول السلمي للسلطة السياسية.







الإصلاح الجزئي والتجميلي لم يعد يكفي، بل ربما لم يعد ممكنا من الأساس نتيجة لتعقد أزمة التنمية الإنسانية وتشابك جوانبها. ومن ثم، فإن الإصلاح الشامل، لم يعد يحتمل التأجيل



تشخيص حال الحرية والحكم في البلدان العربية في الوقت الراهن:

يخلص التقرير إلى أن هناك انتقاصاً جسيماً من الحرية في الوطن العربي، بسبب مزيج من القصور التنموي، والاستبداد في الداخل والاستباحة من الخارج، يظهر، في الأساس، على صورة معمار قانوني وسياسي خانق للحرية.

وينتهي التقرير إلى أن لا الثقافة العربية، ولا الدين- خاصة الإسلام- تشكل عقبات رئيسية لإقامة مجتمع الحرية والحكم الصالح في الوطن العربي.

البنية القانونية:

بعض الدساتير العربية، أو ما يقوم مقامها من وثائق قانونية عليا، تنتهك الحرية عياناً جهاراً بتضمنها نصوصا مقيدة للحريات والحقوق الأساسية، بينما البعض الآخر يقر الحقوق والحريات ولكن يحيل إلى القانون العادي ليقنن تقييدها.

وتتباهى الدول العربية بالتصديق على الاتفاقات الدولية لحقوق الإنسان ولكنها تتنصل من آليات حمايتها.

وهكذا تنتهي البنية القانونية والإجرائية القائمة في البلدان العربية، على وجه الخصوص، إلى إهدار حقوق التعبير والتنظيم (حريات التجمع وإنشاء المنظمات في المجتمعين المدني والسياسي)، وحرمان المواطن من قاضيه الطبيعي المنصف،عبر تفشي الإحالة إلى القضاء الاستثنائي والانتقاص من استقلال القضاء عموما.

ويستشري في البلدان العربية الانتهاك الأفدح للحقوق والحريات العامة من خلال الإفراط في إعلان حالة الطوارئ التي تعطل ضمانات الحرية.

بينما بيت الداء في المعمار السياسي في البلدان العربية هو اختزال الدولة في الجهاز التنفيذي، بالتركيز على أجهزة الأمن. وفي كثير حالات تختزل الدولة في الفرد رأس الحكم الذي يتمتع بصلاحيات مطلقة، تفسد مطلقا، ما أسماه التقرير دولة الثقب الأسود، التي لا يفلت من إسارها شيء من محيطها المجتمعي. ويجري الاحتفاظ بالسلطة عبر تزاوج آليات القمع- الفساد- التهميش الاستراتيجي لقوى المجتمع المدني (بالمعنى الواسع).

يتعرف التقرير كذلك على شريحتين مقيدتين للحرية في السياق المجتمعي للبلدان العربية:

الأولى سلسلة خنق الحرية الفردية وتتشكل من حلقات: التنشئة في ظل العصبية، والتعليم المفتقد لقدرات النقد والإبداع، والعمل النمطي الجامد تراتبيا، وإحباط تعاطي السياسة في ظل القهر في الداخل وتنميط العولمة الوافد من الخارج.

وعلى صعيد آخر، ساهمت القوى المهيمنة عالمياً في العالم وحيد القطب الراهن، خاصة الإدارة الأمريكية الحالية، في انتهاك الحرية في الوطن العربي، خاصة على الصعيد الوطني- وأبرز معالمه احتلال فلسطين والعراق وتصاعد الوجود العسكري، والنفوذ الأجنبي- وعبر دعمها لأصدقائها الحكام المستبدين في المنطقة بسبب ثلاثية: الاستعمار- النفط- إسرائيل.

وعلى وجه التحديد، قللت الإدارة الأمريكية الحالية من كفاءة منظمة الأمم المتحدة في الحفاظ على الأمن والسلام في العالم، خاصة في المنطقة العربية.

بدائل المستقبل والقوى التي يمكن أن تحمله:

يلخص التقرير حال الأمة العربية الراهن على صورة ترقب ومخاض عسير، بين نظامين أوشك واحد أن يُقضى بينما الثاني لم يولد بعد، ينفتح على بدائل متعددة، بحيث يشكل مفترق طرق حاسماً في تاريخ الأمة.

ويطرح التقرير حدين أقصى للمستقبل العربي، أولهما كارثي بلا منازع والثاني سبيل للخلاص ينتهي بالعرب إلى التمتع بالحرية والحكم الصالح بعد نضال يؤهلهم لولوج هذه الحالة الأرقى من الوجود البشري.

ينبني بديل الخراب الآتي على أن استمرار الاتجاهات الراهنة (من عجز تنموي وقهر في ظل الاستبداد في الداخل والاستباحة من الخارج) سيفضي إلى مظالم تتراكم بدون وجود آليات سليمة وفعالة لمجابهتها، مما يمثل دعوة للاحتجاج العنيف يمكن أن يؤدي إلى الاقتتال الداخلي بما يؤدي إلى خسائر مادية وإنسانية لا تقبل مهما صغرت. هذا، في الواقع، أسوأ مصير يمكن أن يحل بالأمة، ومن ثم يتعين على جميع العرب المخلصين العمل على تفادي وقوعه.

بينما يقوم البديل المفضل، الازدهار الإنساني، على عملية تفاوض سلمية تستهدف إعادة توزيع القوة وبناء نسق حكم مؤسسي صالح تبدأ بمشهد مفتتح تُحترم فيه الحريات المفتاح للرأي والتعبير والتنظيم، وأهمها الأخيرة، مجتمعة، مما يؤدي إلى قيام مجتمع مدني حيوي وفعال وصالح يشكل طليعة عملية التفاوض السلمي.

مع ملاحظة أن المستقبل سيقع في موقع ما بين هذين الحدين الأقصى.

ولكن المستقبل الذي ستخيره الأمة العربية في السنين القادمة سيتوقف في المقام الأول، على أفعال القوى الحية في المجتمعات العربية منذ الآن. ودعوة تقرير «التنمية الإنسانية العربية» هي ألا تتوانى القوى المجتمعية العربية المناصرة للحرية عن دورها التاريخي في قيادة مسيرة الأمة صوب مجتمع الحرية والحكم الصالح من خلال مسيرة تقارب بديل «الازدهار الإنساني».

والاستنهاض موجه، على الخصوص، لفئة المثقفين التي لم ترق حتى الآن لمكانة «انتليجنسيا» تحريرية، في تأرجحها بين السلطة والشعب، وتفضيل كثير منها للقطب الأول وقوعا بين فكي الترهيب والترغيب، بحيث تقاعست عن امتشاق دورها التحرري كضمير للأمة وطليعة لنضالها من أجل الحرية.

وستزداد فرص مسيرة الحرية والحكم الصالح بإقامة تحالفات قوية بين جميع القوى الوطنية المناهضة للاستبداد في مواجهة طاغوت الاستبداد وخدامه زبانية القهر.

إشكالية الطبقة الوسطى

احتلت «الطبقة الوسطى»، أيا كان تعريفها، في كتابات كثيرة موقعا محوريا في حمل حركات النهضة. وأضفى بعض من هذه الكتابات حالة من الرومانسية الزائدة على دور الفئة الوسطى، نجم عنها، مع ضمور الفئة الوسطى في المجتمعات العربية بسبب سياسات إعادة هيكلة المجتمعات الغربية على النسق الرأسمالي الطليق، زيادة في جرعة التشاؤم من أن ينجلي المشهد العربي الراهن عن مسيرة حثيثة تجاه الحرية والحكم الصالح.

وغاب عن هذه النظرة المغالية في الرومانسية أن الفئة الوسطى، حالها كحال فئة المثقفين الذين ينتمون في الأغلب إليها، تتأرجح في موقع قلق بين الانتماء إلى الشعب والنضال من أجل الحرية، وما يحمل من مغارم من ناحية، وبين التخديم على القوة (السلطة والثروة) وتدويم الراهن، وما يجلبه من مغانم آنية، من ناحية أخرى.

وعندي أن مسيرة الحرية في الوطن العربي لا يجب أن توكل إلى شريحة اجتماعية معينة دون غيرها. على العكس، أرى أن كل شريحة اجتماعية تضم عناصر فاعلة، خاصة في شريحة الشباب، وأخرى خاملة، في منظور الحس الوطني والرغبة في النضال من أجل الحرية، والقدرة على تجشم مشاقه وتحمل تكاليفه.

ومن ثم فإن الإمكان التحرري الأكبر يسكن في نظري تحالفا ينشأ رأسيا في منظور التقسيم الاجتماعي، بين العناصر الفاعلة في الشرائح الاجتماعية كافة. ويمكن أن يقوم الاستخدام الكفء تقانات المعلومات والاتصال الحديثة بدور الرابط عبر التقسيمات الرأسية للبنية الاجتماعية في أشكال من التنظيم الشبكي غير القاصر على الأشكال الهرمية التراتبية التقليدية. وفي حركة «كفاية»، مثلا في مصر مثال في تقديري على هذا التحالف عبر الطبقي، خاصة بين الشباب، واستغلال تقانات المعلومات والاتصال كليهما.

هل يريد العرب الحرية؟

العزوف عن اجتراح السياسة أمر منطقي في ظل الإفقار المتعاظم- مما يشغل عامة الناس بالحصول على متطلبات الحياة التي تتزايد من ناحية ويتعذر الوفاء بها على مستوى لائق من ناحية أخرى-، ووحشية القهر الذي تمارسه أنظمة الاستبداد.

ولكن يبقى تحت الرماد جمر متقد يغذي نيرانه الكامنة تراكم المظالم الناجمة عن ثلاثية «القصور والقهر والاستباحة» دون أن تجد قنوات سلمية وفعالة للتغلب عليها.

المشكلة أن الناظر غير المدقق يخطئ

مســـــيرة الحـــــريـــــة فـــى الوطـــــن العـــــربـــى لا يـــجـــب أن تـــوكـــل إلـــى شـــريـــحـــة اجتماعيـــــة معينـــــة دون غيـــــرهـــــا

الجمر ولا يرى إلا الرماد. ويتعمد من ينتمى موضوعيا إلى بنى الاستبداد الراهنة أن يصرف النظر عن الجمر متوقفا عند رقيقة الرماد، إما رياء للطغم الحاكمة أو حفاظا على مصالح مستمدة من نفاقهم.

ولكن من يخطئ وجود الجمر تحت الرماد، يقع فى خطأ غشى البصيرة. ومن لا يريد أن يرى إلا الرماد، يدفع ثمنا باهظا فى حكم التاريخ على انعدام بصيرته.

والواقع يكذب كليهما. فإن لم يكن إلا الرماد فلم تلجأ طواغيت القهر إلى ملء السجون وإلى انتهاك آدمية البشر بأشكال من التعذيب يندى لها جبين الإنسانية. وكثير من أنظمة الحكم العربية قد تخطت حاجز الدم، بإزهاق أرواح بريئة لم يكن لها من ذنب إلا التعبير، وفى أحيان سلميا، عن الغضب المكبوت الناجم عن مظالم الحكم الاستبدادى، بعد أن يئست تماما من إمكان وجود حلول سلمية فعالة تتطلب إصلاحا تحجم عنه أنظمة الحكم الاستبدادى. و«من قتل نفسا بغير حق كمن قتل الناس جميعا».

وتخطت بعض أنظمة الاستبداد كذاك حاجز الحياء والإنسانية من خلال تشجيع بعض من أحط أدواتهم على المساس بأعراض مواطنات أثناء ممارستهم لحقهم الدستورى فى التعبير السلمى.

والعلامة الأوضح على فقدان بصيرة من لا يرى الجمر هى فى تصاعد أشكال الاحتجاج على مظالم الحكم الاستبدادى ومنتهكى الحرية على الرغم من بشاعة القهر والتنكيل، فى عموم الوطن العربى من مقاومة الاحتلال فى فلسطين والعراق، ومظاهرات «الأرز» فى لبنان، والاعتراض على التطبيع مع إسرائيل فى تونس وموريتانيا، وانتفاضات القضاة والمحامين وأساتذة الجامعات والإخوان و«كفاية» فى مصر، ناهيك عن أشكال الاحتجاج العنيف حتى فى بلدان الوفرة النفطية مثل السعودية والكويت وغيرها.

وليس فى هذا كله إلا تأكيد جازم على أن الجمر الراقد تحت الرماد يستفيد من أى هبة ريح محملة بالأكسيجين، أو أى ثغرة فى متاريس الاستبداد، ليضطرم نارا يؤمل أن تطهر أرض الوطن من القهر.

هل ستسمح أنظمة الحكم الراهنة ببدء مسيرة التحول نحو الحرية؟

قطعا لن تسمح أنظمة الحكم الراهنة طواعية، بإفساح الساحة المجتمعية وإتاحة الشرط الابتدائى لبدء مسيرة الإصلاح السياسى العميق، من خلال قيام مجتمع مدنى قوى وفعال يقود مسيرة الإصلاح، ونقصد الاحترام البات للحريات المفتاح للرأى والتعبير والتنظيم، خاصة الأخيرة.

والسبب واضح وبسيط فالخسارة الحتمية فى نصيب الثلل المتنفذة فى هيكل القوة المختل الراهن من القوة (بوجهيها السلطة السياسية والثروة) نتيجة لإعادة توزيع القوة لمصلحة الشعب عامة وإقامة نسق حكم مؤسسى صالح- وهما محورا الأساس لأى إصلاح عميق يتوخى التحول نحو مجتمع الحرية والحكم الصالح. هذه الخسارة من الجسامة بمكان بحيث ستسعى الثلل المتنفذة حاليا إلى تفاديها إن أمكن أو تأجيلها إلى أبعد مدى زمنى ممكن. وليست هذه الخسارة إلا تعبيرا عن الظلم الفادح الذى يوقعه هيكل القوة الراهن على الشعب عامة، بحرمانه من نصيبه العادل من القوة، والغبن الأكيد المضمر فى استئثار القلة المتنفذة بالنصيب الأكبر من القوة فى المجتمع على قلة عددها وضعف مساهمتها فى إنتاج مقومات القوة فى المجتمع.

والخشية أن عمد الحكم الاستبدادى الراهن ستسعى إلى تشديد قبضة القهر بحجة الأمن والاستقرار تعلة وغطاء لمحاولتهم الاستمرار فى الاستئثار بالقوة ظنا منهم أنها ستدوم ما اشتدوا فى قهر الناس والمقاومة المتصاعدة، ناسين أو متناسين الحكمة العربية القديمة « لو دامت لغيرك ما وصلت إليك» وجاهلين بدروس التاريخ القديم والمعاصر. وهذا شأن الطواغيت دائما يمنون النفس بإحكامهم القبضة، حتى تميد الأرض من تحت أقدامهم بلا راد لها.

والخوف، كل الخوف، أن هذا التوجه المكابر يعنى، فى تحليل تقرير «التنمية الإنسانية العربية»، إقحام البلدان العربية فى دوامة العنف المدمر التى يطلقها بديل «الخراب الآتى».

مأساة هذه الثلل المهيمنة فى أنظمة الحكم الاستبدادية الراهنة أنه محكوم عليها لا مناص. ومأساة الأوطان أن تظل هذه الثلل سادرة فى غيها، قابضة على نصيبها الظالم من القوة ولو انتهى الأمر بخراب مقيم.

يبقى احتمال، لكنه يبدو على ضوء خبرة التاريخ ضئيلا، أن بقية من وطنية أو إنسانية ربما ستجعل الثلل المتنفذة حاليا تفيق إلى هول الخراب الذى ستجره المكابرة لا محالة، وتيسر بدء مسيرة الإصلاح.

فقدر الطغاة كان دوما التشبث بالعروش إلى أن يقضوا عليها وإن أدى ذلك إلى القضاء على الأخضر واليابس. وهنا تكمن مأساة الأوطان الواقعة تحت حكم الطواغيت، وتتبلور المهمة الوطنية الأولى للنخب الوطنية فى منع هذا البديل الكارثى بالسبل السلمية كافة.

فتفادى المآسى التى يمكن أن تحل بالوطن وفق هذا البديل الكارثى يقع على عاتق النخب الوطنية المخلصة والمناصرة للحرية، وستفلح فيه أكيدا إن نجحت فى إقامة التحالفات المناهضة للاستبداد التى أسلفنا الإشارة لها. عندها يمكن لتحالف الحرية هذا أن يدير مرحلة نضال افتتاحية تمهد لبدء مسيرة الإصلاح فى العمق، مبدعة أثناءه تقاليدها النضالية الخاصة.

والمضمون الأساسى لهذا المشهد المفتتح هو التصعيد المطرد، بجميع الوسائل السلمية، لوتائر العصيان السياسى والمدنى، وصولا إلى العصيان المدنى الشامل، كوسائل للضغط على نسق الحكم الراهن حتى لا يجد سبيلا إلا التسليم بعدم مقاومة حركة الإصلاح. ويندرج تحت هذا المشهد على وجه الخصوص المطالبة، المثابرة والمتصاعدة، بانسحاب شخصيات معينة تعد من عمد نسق الحكم الاستبدادى، من الساحة العامة. ويمكن أن يزيد احتمال ذلك الانسحاب بعقد محاكمات شعبية لعمد نظم الحكم الحالية المتورطين فى التنكيل بالشعب والفساد.

مـــخـــتـــتـــم

«يا ليتنى بذرت كل حب أفكارى فى الأرض الخصب لأفكار الناس، خيراً من تضييع هذا الحب النافع المعطاء فى التربة المالح العقيم للسلطات العاجزة. إذ لم ينبت قط ما بذرت فى هذه التربة الفاسدة واندثر ... إن هيكل الحكم المطلق يوشك أن ينهار، فناضل قدر جهدك لتدمير أسسه، وليس نزع عناصر مفردة له والتخلص منها».

جمال الدين الأفغانى، قبيل وفاته.

قد يبدو من الصفحات السابقة أن دون ديار مجتمع الحرية والحكم الصالح فى البلدان العربية، أهوال. وهذا صحيح، لا مراء.

ولكن علينا أن نتذكر أن منتهى هذه المسيرة العسير مقصد من النبل بحيث يستحق العناء فعلا.

وقد أشرنا فى الصفحات السابقة إلى أهمية دور الطليعة المجتمعية، وواجباتها.

إن تجاوز الواقع العربى المر، يتطلب أن يكون المثقفون، على وجه الخصوص، حراباً تهتك أستار العفن الكثيفة التى تغلف الوجود العربى فى الحقبة الراهنة، توقاً إلى بديل إنسانى أرقى للشعب العربى. وهذا دور طليعة المثقفين. فالحراب دائما اختراق وتجاوز.

ولسوف تتعرض هذه الطليعة لا محالة لمعاناة ومخاطر، ولكن يكفيها مغنماً أن تعيش ثراء الوجود الإنسانى إلى منتهاه، وهو لا يكون إلا فى الحياة مع الخطر متزاوجة مع خدمة الوطن، وأن تسهم فى تخليق مشروع عربى للنهضة يخلص الأمة من ربقة الاستباحة والمهانة. ولكن لكى يتحقق هذا، لابد من أن تمد هذه الطليعة جذوراً قوية إلى الدوائر الأوسع من المثقفين والشعب العربى، تستقى منها غذاء وحماية، وتفرز لها رحيقاً فكرياً يكون للأزمة الحالة ترياقاً.

إن تصور الحرية المقدم فيما سبق ليس إلا رؤية جميلة. الواقع الكريه يحض عليها، ولكنه أيضاً يعيق تحققها.

ومعضل الحرية فى الوطن العربى فى الوقت الراهن هو عدم توافر البنى السياسية القادرة على أن تحمل نطفة الخلاص، وأن تنميها، وتنمو بها، على درب التنمية.

ولهذا سيبقى التمتع بالحرية فى الوطن العربى مجرد رؤية حتى تقوم قوى سياسية تتبنى مشروعاً تاريخياً للنهضة وتستطيع أن تقدم متطلباته، ومن أهمها إطلاق طاقات البشر فى أرجاء الوطن قاطبة عبر تكريس الحرية كما نفهمها.

فالنضال من أجل الحرية ينطوى على كفاح ضد النخب المهيمنة فى الداخل وضد المراكز المسيطرة فى النظام العالمى، لا يمكن أن يوفر له المنعة إلا القوة المعنوية الهائلة التى تنتج من التحام الشعب بنخبة سياسية مناضلة من أجل الحرية والتنمية الإنسانية. ■

■■ على أهمية هذا الكتاب فى المشهد العربى الراهن، ورغم صدوره أول هذا العام، فلم أقع على عرض له أو مناقشة فى صحافتنا المصرية على الأقل (ربما كان الاستثناء ما كتبه الأستاذ فهمى هويدى، أهرام ٢٠٠٥/١/١٨). وجه الأهمية أن صاحب الكتاب: الأستاذ بلال الحسن، الصحفى والباحث الفلسطينى (ولد فى ١٩٣٩، تخرج فى كلية الآداب، جامعة دمشق، وعمل بالصحافة فى «المحرر» و«الحرية» و«البلاغ» و«السفير»، وأنشأ فى باريس مجلة «اليوم السابع» ورأس تحريرها من ١٩٨٤ حتى توقفت فى ١٩٩١. من كتبه المنشورة: «السلام الأجوف» عن اتفاق أوسلو، و«الخداع الإسرائيلى» عن مفاوضات كامب ديفيد الثانية) عمد إلى جمع مقالات عدد من الكتاب فى صحيفة «الحياة» اللندنية، نشرت خلال السنوات الخمس الأخيرة، تدور كلها حول الصراع العربى. الإسرائيلى، وأخضعها للون من «القراءة النقدية». ويقول فى تقديم كتابه إنه تجنب مناقشة كثير من الأفكار التى يختلف معها حول قضايا مثل التراث والعفيف الأخضر (تونسيان) وأخيراً أمين المهدى (مصرى). وقد نجد أنفسنا فى النهاية. كما وجد بلال نفسه. أمام «منظومة فكرية متكاملة تسعى إلى قبول الهيمنة الأمريكية، وإلى قبول إسرائيل باعتبارها أداة أساسية فى عملية الهيمنة..».



ولعل كنعان مكية أن يكون أكثر هؤلاء الكتاب إيغالاً فى السياسة العملية، وتفيد المعلومات المتوفرة عنه أنه عراقى شيعى ابن مهندس معمارى معروف، وقد درس. بدوره. الهندسة المعمارية فى «معهد ماساتشوسيتس»، وعمل فى مكتب أبيه، غادرت العائلة بغداد عقب استيلاء البعثيين على السلطة فى ١٩٦٨، حصل على الجنسية البريطانية ثم توجه للإقامة فى الولايات المتحدة. فى عام ١٩٩٠ نشر كتابه «جمهورية الخوف». حلَّل فيه طبيعة النظام العراقى وما يحمله من خوف على مستوى الفرد والجماعة، يروى باحث عراقى (طارق الدليمى) أنه بعد حرب الخليج الثانية فى أوائل ١٩٩١، وقيام الانتفاضة الشعبية ثم القضاء عليها ظهر مقال بقلم سمير الخليل يدور حول مسألة تغيير النظام فى العراق، وتناول فى جانب منه التكوين الإثنى والمذهبى فيه، وقضية العروبة وضرورة التخلص منها، وجاء بفكرة عجيبة فحواها أن العروبة فى العراق شأن سُنى، أما الشيعة فهم أقل انجذاباً للقضية القومية. وتلاقت هذه الأفكار مع دراسات وتحليلات منشورة فى بعض الدوريات السياسية والإستراتيجية، مهدت لقيام التنظيم الذى عُرف فيما بعد باسم «التجمع الوطنى العراقى»، ويتابع الدليمى خطوات تكوين هذا التجمع والاجتماعات المتتالية التى عقدت فى ٩١ و٩٢ (يلفت النظر هنا وجود سعد الدين إبراهيم فى الاجتماع الأول الذى عقد بإحدى ضواحى العاصمة النمساوية فيينا)، وكان لأعضاء هذا التنظيم اتصالاتهم بأركان الإدارة الأمريكية، وتمخضت عمل المبادئ الديموقراطية، المؤلف من حوالى ثلاثين عراقياً يجتمعون ضمن إطار «مشروع مستقبل العراق» التابع للخارجية الأمريكية. وبلغت هذه الأنشطة أوجها فى ٢٠٠٢/١٠/٣ حين انعقدت فى «معهد أميركان إنتربرايز» American Enterprise Institute ندوة تبحث مستقبل العراق بعد حرب أمريكية جديدة ضده.. «وكان للبحث الذى ألقاه مكية فى الندوة تأثير خاص، ولقى تقبلاً من الإدارة الأمريكية. وخلاصة البحث: غزو أمريكى للعراق، وإقامة نظام فيدرالى فيه، وبناء عراق «عراقى» غير عربى، وبلغ من إعجاب الإدارة الأمريكية بموقف مكية أن الرئيس جورج بوش الابن استقبله يوم ٢٠٠٣/١/١٢ فى البيت الأبيض.. (..) وبعد إنجاز الاحتلال الأمريكى للعراق قام كنعان مكية بزيارة علنية لإسرائيل (زارها سراً قبل ذلك ثلاث مرات حسب قوله) واحتفت به جامعة تل أبيب ومنحته شهادة الدكتوراه الفخرية، وأجرى أثناء الزيارة مقابلة مع صحيفة «يديعوت أحرونوت» أعرب فيها عن

وجوه من «ثقافة

والحداثة والعولمة والسلام مع إسرائيل.. «لأننى أعتبر الخلاف حول هذه القضايا أمراً طبيعياً (...) لقد اخترت أن أناقش نوعاً خاصاً من الأفكار، يبدو فى ظاهره ثورياً وراديكالياً وحداثياً، ولكنه، فى العمق، مغرق فى الرجعية وفى الدعوة لتدمير الذات. فكر يجاهد لكى يصوغ نظرية تبرر الانحناء أمام كل مستعمر، وتعتبر خطيئة المستعمر نابعة من ذاتنا نحن، نحن الذين يجب أن نتبدل كى تصبح نظرتنا إلى المستعمر نظرة إيجابية..». والكُتاب الخمسة الذين اختار مناقشة أفكارهم هم، حسب ترتيب فصول الكتاب، كنعان مكية (عراقى)، حازم صاغية (لبنانى)، صالح بشير وكان يستخدم اسماً للكتابة هو سمير الخليل، بهذا الاسم أيضاً نشر كتابيه الثانى «القسوة والصمت» والثالث «النُصب». أما كتابه الرابع، وهو رواية تدور حول بناء قبة الصخرة وقد صدر فى ٢٠٠١، فحمل اسمه الحقيقى «وشاع قبل ذلك بسنوات أنه مؤلف الكتب الثلاثة الأولى..». الدراسات والأبحاث عن وضع خطة لإسقاط النظام العراقى وإقامة نظام جديد.

وانهمك كنعان مكية فى أنشطة متعددة، تتوتر كلها نحو هذا الهدف طوال السنوات التالية: باحثاً وبروفيسوراً وعضواً فى منظمات عديدة لعل أهمها أنه كان أحد أعضاء «فريق أمنيته فى امتداد أمد احتلال أمريكا للعراق..».

ولم تكن ندوة «أميركان إنتربرايز» مجرد ندوة بحثية، كانت فى الحقيقة ندوتين: ندوة عسكرية تليها ندوة سياسية. تحدث فى الأولى ضباط عراقيون ومحللون عسكريون أمريكيون، وكان ضرورياً صياغة الكلمات العسكرية الخشنة والفظة بلغة سياسية، وحسب اللغة البحثية السائدة. وهذا ما فعله كنعان مكية فى الندوة الثانية حين دعا إلى قيام «عراق غير عربى»، أى عراق ينعزل عن محيطه العربى، عراق لا يكون له دور فى الصراع العربى. الإسرائيلى.. «وهذه مجموعة الأفكار التى تم الأخذ بها لتكون الهدف الإستراتيجى للاحتلال الأمريكى للعراق، والتى برع بول بريمر فى تنفيذها بعد إنجاز الاحتلال فى ٢٠٠٣/٤/٩».

خابت آمال كنعان مكية. صحيح إن الأمريكيين استمعوا بشغف إلى آرائه، واستندوا إليها، فكانت أفضل تغطية سياسية ممكنة: إنهم يشنون الحرب بناءً

ثقافة الاستسلام. قراءة نقدية فى كتابات: كنعان مكية. حازم صاغية. صالح بشير. العفيف الأخضر. أمين المهدى
بلال الحسن
بيروت: رياض الريس، يناير ٢٠٠٥



السلطة الأمريكية لم تسلم السلطة إلى أحمد الجلبى (القائد السياسى) ولم تسلمها إلى كنعان مكية (المنظِّر)، فأصيب بخيبة أمل. علَّق كاتب عراقى على خيبة الأمل هذه فقال: «لن ننخدع بمن كان مخدوعاً..»، أما نحن فنقول المثل المعروف فى عاميتنا: «آخر خدمة الغز...»!





فة الاستسلام »

على رغبة العراقيين واستجابة لطلب عراقي، ولكن مع اقتراب موعد بدء العمليات أخذت بعض خطط الإدارة الأمريكية تظهر للعلن، وفوجئ مكية بأن الأمريكيين ينوون استلام السلطة في العراق مباشرة، وبواسطة حكومة عسكرية يعينونها» وفهم أنه وزملاءه لن يكونوا رجال السلطة الجديدة كما توهم وتوهموا، فبادر إلى كتابة مقال بالإنجليزية (فقط) شن فيه حملة عنيفة ضد قرارات الإدارة دون أن يتخلى عن إعجابه الشديد بها وبقيمها، طالباً الدعم من الأمريكيين، ومن الرئيس الأمريكي بالذات..».

بقيت نقطة الخلاف كما هي: أن السلطة الأمريكية لم تسلم السلطة إلى أحمد الجلبي (القائد السياسي) ولم تسلمها إلى كنعان مكية (المنظِّر)، فأصيب بخيبة أمل وأخلد للصمت وعكف على تبويب «الأرشيف العراقي».

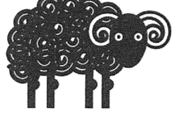
علّق كاتب عراقي على خيبة الأمل هذه فقال: «لن ننخدع بمن كان مخدوعاً..»، أما نحن فنقول المثل المعروف في عاميتنا: «آخر خدمة الغز...»!.

ولعل الفصل الخاص بالكاتب حازم صاغية أن يكون أهم فصول الكتاب، فبعد مناقشة مقالين كتبهما حازم بالاشتراك مع صالح بشير: أحدهما في ١٩٩٧ والثاني في ٢٠٠٠، ويرى أنهما ينطلقان من أفكار كنعان مكية، ويصلان بها إلى نهاياتها «فتضيف بعض المستلزمات الفكرية الجديدة، وتناقش بعض المواضيع السياسية المباشرة، وتكون الخلاصة تبني مفاهيم إسرائيل حول التسوية والتي تنطلق من مفهوم الأمن لإسرائيل، والتنظير لضرورة التطبيع مع إسرائيل قبل الوصول إلى تسوية، كي نطمئنها ونهدئ من روعها الأمني..». بعد مناقشة هذين المقالين يفرغ بلال الحسن لمناقشة أفكار صاغية باهتمام واضح، وهو لا يخفي مبررات هذا الاهتمام.

من البداية يقدم بلال الحسن حازم صاغية بهذه الكلمات: «حازم صاغية شخص متميز وصوت متميز، نشأ في كنف عائلة مهاجرة إلى أفريقيا، وجاء إلى بلده لبنان من هناك، ورغم هجرته فإنه تمكن من اللغة العربية تمكناً ملحوظاً، يحظى بصفات شخصية إيجابية، فهو نظيف وصادق وذكي وودود وقلق، وقد لعب القلق دور المحرك في بناء ثقافته.. لكن لديه نزعة تهتم بالأفكار أكثر مما تهتم بالواقع والوقائع، هذا الاهتمام بالأفكار بعيداً عن الواقع، جعله دائم التنقل بينها..»، ويتابع بلال هذا التنقل: من التأثر بالحزب «السوري القومي الاجتماعي» الذي غادره بسرعة إلى تبني الفكر الماركسي خارج نطاق الأحزاب الشيوعية، ويقول بلال إنه عرفه شخصياً في تلك المرحلة (١٩٧٤)، وكان له - لبلال - دور في اجتذابه لعالم الصحافة، الذي دخله كاتباً لا صحفياً، ولا يزال. وتابع بلال تحوله الفكري عند نجاح ثورة الخميني، فتبنى «الخمينية» بحماسة كبيرة، وكتب دراسة طويلة عنها نشرها في كتاب مستقل (بعنوان «ثقافات الخمينية، ١٩٩٥»)، شيئاً فشيئاً بدأت هذه الحماسة تضعف، ولم يعد يرى أن الخمينية تصلح منهجاً للعمل في الساحة العربية، وبدأ يركز على أن العمل القومي هو الأساس، وبدأت «مرحلة قومية في تفكيره وكتاباته.. لفت نظري فيها تصنيف مبتسر لأهم زعماء الحركة الوطنية العربية الحديثة بأنهم إما جواسيس لبريطانيا أو جواسيس لفرنسا..». في التسعينيات بدأت علاقة حازم صاغية مع الفكر الليبرالي، ويرى بلال أن المشكلة ليست في الليبرالية لكنها في الشطط في استخدام منهجها. هذه المرحلة في مسيرة حازم صاغية الفكرية شهدت كتابه «وداع العروبة» (صدرت طبعته الأولى في ١٩٩٩)، ثم شهدت دراسته عن «أم كلثوم». يصفها بلال - أي الدراسة - بأنها «حاقدة»، ويرى أنها تفيد في فهم «حالة» حازم صاغية بأكثر مما تفيد في فهم حالة أم كلثوم!، وقد اتسمت كتاباته «بحدة تدميرية مستفزة، وربما يكون هو ساعياً وراء هذا الاستفزاز ومرتاحاً له.. ويبدو ميله الواضح إلى تدمير الرموز العربية..»، وأخيراً يسجل بلال لصاغية أنه - في كل هذه التحولات -

كان «صادقًا مع نفسه»، فأعلن قطيعة فكرية مع ماضيه كله، ومارس نقدًا علنيًا لقطيعته تلك..».

(أفتح قوسًا لأشير إلى أن هذا العرض يكتمل بإضافة صغيرة عن كتاب حازم صاغية الأخير: «بعث العراق: سلطة صدام قيامًا وحطامًا..» ٢٠٠٣ . عكف حازم على دراسة العراق في مرحلة تمتد من أوائل الخمسينيات حتى سقوط نظام صدام، وفي تقديمه يقول: «إن أي عمل عن العراق لا يستطيع، مطلقًا، أن «يغطى» العراق باختلافاته، كما بتحولاته، ولا أن يتسلل إلى الأمكنة التي حجبتها أسوار صدام وغموض نظامه.. والحال إن الفصول اللاحقة لا تحمل هذا الزعم، زعم التغطية الشاملة، بقدر ما تهدف إلى كتابة قصة العراق البعثي: وهي شيقة مثلما هي مأساوية، لكنها، مثل كل قصة، يخونها الإلمام ببعض التفاصيل لمصلحة التعويل المبالغ فيه على تفاصيل أخرى، وعلى العموم تبقى الوجهة العامة للسرد، كائنة ما كانت التفاصيل المختارة، المحك الأول لقيامها والحكم عليها..»، وهكذا تمضي فصول السرد، من الأول بعنوان «التأسيس السوري» إلى السابع عشر بعنوان «ختام بلا مسك».)



وكان العامان ٢٠٠٠ و٢٠٠١ مسرحًا مناسبًا لحازم صاغية كي يقدم عرضه المنفرد المتواصل (٨ مقالات في الشهر في المتوسط) عن موضوع واحد هو الموضوع الفلسطيني، فقد شهد هذان العامان مفاوضات كامب ديفيد الثانية (باراك . عرفات) واندلاع الانتفاضة الفلسطينية وصعود اليمين الإسرائيلي إلى السلطة في إسرائيل، وسوف يكتب حازم عن هذا كله، وسيكرر أفكاره بإصرار وإلحاح.

مقالات حازم صاغية حين يتعلق الموضوع بالنضال، وبالصراع العربي . الإسرائيلي، وبمواجهة إسرائيل، وبالانتفاضة الفلسطينية، تنضح بنزعة تميل إلى التشهير والشماتة والقسوة اللغوية

ويوجز بلال الحسن رؤيته النقدية لكتابات حازم صاغية على النحو التالي:

«أولاً: من ناحية الأسلوب: فمقالات حازم صاغية حين يتعلق الموضوع بالنضال، وبالصراع العربي. الإسرائيلي، وبمواجهة إسرائيل، وبالانتفاضة الفلسطينية، تنضح بنزعة تميل إلى التشهير والشماتة والقسوة اللغوية، وهي نزعة تؤدي إلى تحويل النقد عن هدفه، فبدلاً من أن يكون نقدًا، ولو قاسيًا، هدفه الإصلاح والتطوير والتحسين، يصبح نقدًا مغشوشًا هدفه التدمير والإيذاء والاستخفاف بتضحيات المناضلين.

ثانيًا: من ناحية المضمون: فانتقادات حازم صاغية تنصب على الفلسطينيين والعرب، وتعفى من ذلك إسرائيل، وإذا حدث وانتقد إسرائيل في موقف ما، فإنما ليتكئ على هذا النقد ليصب جام غضبه على النضال الموجه ضد إسرائيل، وحين يمضي في هذا المنهج نحو هدفه النهائي، نجد أن هذا الهدف يتلخص في قبول كل ما تريده إسرائيل أو تعرضه في المفاوضات، وآنئذ يتحول كل رفض، وتتحول كل معارضة إلى موقف مدان ينغز فيه حازم صاغية بسهام تُدمي.

ثالثًا: من ناحية الهدف والغاية: فما يعرضه حازم صاغية على القارئ في النهاية، إلى جانب الإشادة بإسرائيل والإعجاب بها، هو ضرورة الخروج من الذات، وقبول المفاهيم الغربية المعروضة، والأمريكي منها بخاصة، ليس في إطار الثقافة فحسب، وإنما في إطار المواقف السياسية المرافقة لها أيضًا (العولمة والحداثة حتى بمفهومها الاستعماري)..» (ص ٧٠-٧١).

هذه الأحكام الموجزة يدلل عليها بلال الحسن في المناقشة التفصيلية التي تعقبها من خلال هذه الموضوعات: هدم فكرة الثورة. الترويج للاستعمار. الدولة . الأمة (هدم فكرة الوحدة العربية). تشويه المفاهيم (الأرض. القضية). تشويه المفاهيم (التطبيع. الاستشهاد). الترويج للتراجع السياسي (اقتراحات باراك في كامب ديفيد). الترويج للتراجع السياسي (القدس). تحليل الانتفاضة (دعوة لليأس). التهليل «لشارون الجديد». وأخيرًا تهميش القضية الفلسطينية (مضمون التطبيع الثقافي).



ولنقف، لحظة، عند هذا العنوان الأخير: نشأ الإدراك العربي العام بأن دولة إسرائيل تشكل خطرًا إستراتيجيًا على المنطقة كلها منذ تأسست في ١٩٤٨، ولم يكن الفلسطينيون منبع هذا الإدراك، بل العرب جميعًا، وكانت الهجرة اليهودية إلى فلسطين تحمل معها النذر بالتوسع، وهو ما تحقق في ١٩٦٧. ولفترة طويلة ظلت إسرائيل تقوم بدور «وظيفي» لصالح الولايات المتحدة الأمريكية، فهي قاعدتها العسكرية الأكبر في المنطقة، وهي التي ستتولى مهمة إشغالها ومنع أية تغييرات لا تتفق والمصالح الأمريكية. حاربت كل مشروعات الوحدة أو التقارب وعملت على تطويق المنطقة كلها بتحالفات تتغير أطرافها، وشاركت في شن الحروب إرضاءً للنزعات الاستعمارية (١٩٥٦)، ووضعت خطة للسيطرة على المياه في الأرض العربية، مما دفع إلى حرب ١٩٦٧.

كل هذه العوامل قد بلورت الإدراك العربي (دولاً وشعوبًا) بالخطر الإستراتيجي الكامن في دولة إسرائيل، ومن ثم اعتبر العرب قضية فلسطين مركزية في نضالهم من أجل الاستقلال والتحرر. تلك الحقائق البدهية النابعة عن تاريخ المنطقة تصطدم برغبات الداعين إلى «التطبيع الثقافي» الذي يريد تغيير الأسس والمفاهيم العربية، وتقديم تصور مختلف لتاريخ الصراع العربي . الإسرائيلي. وحسب هذا التطبيع يجب النظر إلى وجود إسرائيل لا باعتباره «أمرًا واقعًا» بل باعتباره «حقًا في الوجود». بعبارة ثانية: إسرائيل لها حق الوجود في المنطقة العربية كمثل حق السوريين واللبنانيين والعراقيين، من حيث إن وجودها هو من نتائج الحرب العالمية الأولى، كما أن وجود سوريا ولبنان والعراق (كدول) هو من نتائج هذه الحرب كذلك. نقطة ثانية: لأن وجود إسرائيل هو من نتائج «المحرقة النازية» أثناء الحرب العالمية الثانية، والتي هي «مأساة إنسانية كبرى»، ومن ثم فعلى العرب أن يتعاطفوا معها.. «ليس من أجل استفظاعها وإدانتها والبحث في وسائل عدم تكرارها فقط، بل من أجل فهم الأسباب والمبررات الأخلاقية لقيام دولة إسرائيل، حماية لهم من اللاسامية الألمانية والأوروبية..» (عن مقال لحازم صاغية وصالح بشير بعنوان «عولمة المحرقة أو كسر الاحتكار اليهودي لها»).

ويفترض هذا التطبيع الثقافي أيضًا، تقديم وجهة نظر «واقعية» إلى المنطقة «تنطلق من مفهوم «الدولة. الأمة»، حيث تعبِّر الدول والأقليات والطوائف عن تعددية يجب الحرص عليها، وإسرائيل جزء من هذه التعددية، وإلا.. فإن المنطقة ستندفع نحو الحروب، ونحو الاستبداد. ومن مطالب هذا النهج أيضًا أن يكف الفلسطينيون وأن يكف العرب، عن اعتبار القضية الفلسطينية قضية مركزية، ذلك أن. بالنص. «الانحسار في قضية واحدة هو من سمات الاستبداد..». عن علاقة قضية فلسطين بقيم يعتبرها مبتذلة يكتب: «في لبنان مثلاً يشكل الشهداء والشهادة العمود الفقري لنظام القيم المعمول به»، ويعلِّق بلال: «وكأن تحرير لبنان من الاحتلال الإسرائيلي يمكن أن يتم دون شهداء، وإذا وجدوا فمن الأفضل نسيانهم، والتركيز على قيم مثل تعلم الكومبيوتر، مع أن «الشهداء» أثبتوا أنهم كانوا خبراء في الكومبيوتر، وعن نظام القيم «الفاسد» في سوريا يقول: «في سوريا تنعقد البطولة لرجالات القضية الواحدة كعدنان المالكي وجول جمال..»، ولا أدري ما الذي يزعج حازم صاغية في استذكار أبطال الشعب السوري في مقاومة إسرائيل.. (..) ثم يوسِّع حازم صاغية نطاق استهزائه بقيم القضية الفلسطينية شاملاً بذلك أبطال التاريخ الإسلامي، فيقول: «حين يُستحضر من التاريخ الإسلامي خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي، يستحضرون من داخل هذا التأويل وفي سياقه..»، إذ من الأفضل، حسب منهجه، القول بأن صلاح الدين الأيوبي لم يحرر القدس.

إن دعوة حازم صاغية إلى تغيير سلم القيم هذا، هو جوهر الترجمة المطلوبة لشعار التطبيع الثقافي الذي يبشرون به، والمدخل هو عدم التركيز على قضية مركزية عربية». (ص ١٢٥-١٢٩).

يلي حازم صاغية في الأهمية التونسي العفيف الأخضر. من البداية يقدم بلال الحسن لوحة لتحولاته: «لقد قضى حياته ماركسيًا من نوع خاص، يؤمن بالماركسية ويرفض اللينينية، يؤمن بالاشتراكية ويرفض تجربة الاتحاد السوفيتي، وأنفق ردحًا طويلاً من عمره يعاشر الأقليات السياسية.. تحمس

لتروتسكى وباكونين وروزا لوكسمبورج.. كان محرضًا رئيسيًا على الدعوة إلى حلول الثورة الفلسطينية مكان النظام الأردنى.. ثم تخلى عن هذه التجربة يائسًا، عاش بعد ذلك فترة طويلة فى حالة كمون، غازل الرئيس الجزائرى السابق أحمد بن بللا وهو فى منفاه فى فرنسا، وتقمص دعوته الإسلامية فى المجلة التى كان يصدرها، ورافقه فى رحلة العودة إلى الجزائر.. وحين اكتشف أن الجماهير الجزائرية لم تخرج لترحب بعودة بن بللا المخلص، فضل التخلى عن التجربة كلها والعودة إلى باريس.. ثم اختار أن يغازل النظام التونسى. وهو الذى قضى حياته معارضًا له.. فجأة عاد الأخضر إلى دائرة الضوء (٩٨-١٩٩٩): ليبراليًا متحمسًا لكل ما هو عولمة أمريكية.. ووجد فى التحليل النفسى ملجأه الأيديولوجى الجديد، بدلاً من الماركسية، وهو يعتبر أن التحليل النفسى يصلح، بشكل خاص، لفهم المجتمعات المتأخرة، وشعوب الشرق (العرب والمسلمون) هم هذه الشعوب المتأخرة، ليس تأخرًا اقتصاديًا، بل تأخرًا ثقافيًا وفكريًا بالطبع..».

يلخص العفيف الأخضر فرضيته الأساسية: «فرضيتى هى أن المقاربة النفسية لسيكولوجيا الجماهير وزعمائها مفيدة، خصوصًا فى المجتمعات المتأخرة التى ما زالت مسرحًا للصراعات الإثنية والحروب الدينية..» ويعتبر أن غريزة الموت هى المحرك لشعوب بأكملها: «أبسط تعبير عن غريزة الموت هو الانتحار، أما أفظعها فهو نحر الأبرياء أفرادًا وجماعات كما يفعل الإرهابيون، وشعوبًا وأممًا كما يفعل القادة بقراراتهم الجنونية.. (هؤلاء القادة عنده هم هتلر .رغم أنه ليس وليد الشعوب المتأخرة، بل وليد «الحداثة» الغربية، ووليد نظام ديموقراطى أيضًا، ثم عبد الناصر وصدام حسين)، ويبلغ العفيف الأخضر فى تطبيقه لمسلمته هذه مدى من الهزل الخالص. إنه يكتب: «فى اليوم الأخير من القرن العشرين تمرد أصحاب السيارات فى مصر على قرار وجوب وضع حزام الأمان.. بماذا نفسر ذلك إن لم يكن بالرغبة فى الاستشهاد على قارعة الطريق؟..» قل ما شئت عن رغبة آلاف قائدى السيارات فى الانتحار الجماعى، لكنه لون من العماء الفكرى وبؤس الالتزام بمنهج لا يقر صحته سوى صاحبه!.

ويوسع العفيف من تطبيقاته، لتشمل التاريخ العربى الحديث كله، فى أوج انتفاضة الأقصى، فى ديسمبر ٢٠٠٠، نشر مقالاً بعنوان فرعى «بورتريه سوسيولوجى لفتيان الانتفاضة..» بدأ بحملة نابليون على مصر حين «تحول العربى فى عين نفسه من فاتح إلى مفتوح، وترتب على ذلك انهيار ثقته بنفسه، لذلك بات مهووسًا بمنقذ، بإنسان أعلى، ببطل..» ثم يعدد الحركات والثورات التى أيدها «العربى» و«المثقف» فى سبيل التماس العلاج، وكيف انهارت كلها، وعاد إليه مرضه أشد وأقوى:

* انتصار الجزائر على فرنسا ضمَّد الجرح النرجسى، لكن هزيمة ١٩٦٧ أعادت فتح الجرح.. فعاد المثقف إلى استصغار ذاته منذ ذاك. وأصبحت حاجته إلى البطل الفردى والجماعى هاذية..

* تم العثور على البطل فى الثورة الفلسطينية، لكن هزيمة أيلول الأسود (الأردن، ١٩٧٠)، ثم اجتياح إسرائيل للبنان (١٩٨٢) صبا، مجددًا، الملح على الجرح.

* فى ١٩٧٩ تعرَّف المثقف، خصوصًا الإسلامى، على نفسه فى الخمينى الذى هزم الشيطان الأكبر.. «والإسلامى الذى أسقط على الخمينى تخييلاته التى عجز عن تحقيقها بنفسه..» انضم إلى المثقف القومى، ليبايعا معًا، صدام حسين بطلاً منقذًا، لكن هزيمته الصاعقة فى ١٩٩١ «جعلتهما فى حالة يُتم وحداد..».

* وجدا (الإسلامى والقومى) منقذهما فى الانتفاضة (١٩٨٧-١٩٩٣)، لكن اتفاق أوسلو وضع حدًا للأوهام الخلاصية.

* فى الفترة الجدباء من كل بطولة (١٩٩٣-٢٠٠٠) انسحب الجيش الإسرائيلى مهزومًا من جنوب لبنان، فغدا «حزب الله» هو المهدى المنتظر، واندفعت الانتفاضة (٢٠٠٠) «التى تشربها وعى المثقفين الإسلامى والقومى كميلاد لحزب الله وجرعته السحرية على أرض فلسطين، فتماهى الجميع معها ....الخ». (الصفحات من ١٤٥ إلى ١٥٥).

هذا ملخص التصور الذى يقدمه العفيف الأخضر للنضال العربى الحديث: إنه مرض نفسى، حتم مقدر لا سبيل إلى دفعه، يلاحقنا عبر القرون، ويسكننا دائمًا، نحمله داخلنا، فلا خلاص. لكن السؤال يطرح نفسه: لماذا يجد العفيف تأييد العرب لثوراتهم وانتفاضاتهم ضد العدو الإسرائيلى مرضًا نفسيًا؟ ولماذا يتجاوز الحقائق الموضوعية (مثالان لهذا التجاوز: حين يقرر أن «المثقف الإسلامى انضم إلى القومى، وبايعا معًا صدام حسين»، فهذا لم يحدث أبدًا على أرض الواقع، ثم حين يقرر أن الانتفاضة الفلسطينية.. «ميلاد لحزب الله وجرعته السحرية على أرض فلسطين»، رغم كل وجوه الاختلاف الموضوعى بين التجربتين، بشهادة الواقع، وشهادة أطراف التجربتين ذاتيهما).

ويتابع بلال الحسن مناقشة أفكار العفيف الأخضر تحت هذه العناوين: تشويه تاريخ فلسطين. اللاجئون: التحريض ضد حق العودة. الوطن والحذاء. السلام والمفاوضات: دعوة للتماهى مع الجلاد. الانتفاضة: مرحلة باراك. الانتفاضة: مرحلة شارون. ثم هجاء الثوار. ولنقف، لحظة، عند هذا العنوان الأخير: ينتقد العفيف وقوف الشعب الفلسطينى فى وجه إسرائيل، يدعو إلى نبذ فكرة الثورة وضرورة التماهى مع العدو الإسرائيلى والأمريكى، يبرر هذه الدعوة بتوازن القوى، لكنه يحولها لنظرية سياسية ثابتة، وكالمألوف عنده يلوى وقائع التاريخ والواقع من أجل إثبات صحتها. يكتب (فى مقالة بعنوان «لماذا ينتظرنا، فلسطينيين وعربًا، مستقبل أكثر بؤسًا؟»): «الأمير عبد القادر الجزائرى كان مسئولاً عن هزيمة شعب أمام الاحتلال الفرنسى، عندما فضل بفتوى من مفتى فاس. الخيار الانتحارى، أى الجهاد حتى آخر راشد، رافضًا عرض اقتسام الجزائر مع المحتلين.. (..) وبدوره اختار عرابى المقاومة اليائسة على مفاوضة المحتلين البريطانيين للحد من الخسائر..» ثم يصل إلى دعواه الأخيرة والتى من أجلها ساق هذين المثالين من التاريخ: «ومزق عرفات مقترحات كلينتون، ممتطيًا الانتفاضة الانتحارية، ليقود شعبه إلى الطريق المسدود..».

تعليقًا على هذه «الجردة التاريخية» يكتب بلال: «فما دامت فرنسا قد احتلت كل أرض الجزائر فلماذا لا تقبل نصف الأرض فى الجبال العالية والصحراء القاحلة ونترك لهم الساحل وسهوله وموانئه ومدنه فقط؟ أية حماقة تلك التى دعت الأمير عبد القادر كى يرفض هذا العرض المغرى؟..(..) وإذا كان الأمير مدانًا فى نظر العفيف الأخضر لأنه لم يقبل التنازل عن نصف وطنه، فإن إدانته لأحمد عرابى تتم دون وجود مساومة استعمارية على نصف أرض الوطن..(..) قامت بريطانيا بحملتها الاستعمارية لاحتلال مصر، فقاد جيش بلاده ضد عملية الاحتلال، وقد نجح فى بعض المواجهات لكنه خسر الحرب فى النهاية.. (..) يختصر العفيف الأخضر هذا التاريخ كله بجملة واحدة تقول: «اختار المقاومة اليائسة على مفاوضة المحتلين للحد من الخسائر..» كان مطلوبًا، إذن، من أحمد عرابى، وهو العسكرى، ووزير الدفاع، والثائر على تفشى النفوذ الأجنبى، أن يقبل، رسميًا وبإرادته، الاحتلال البريطانى لمصر، وأن يوقع مع القوات الغازية صك القبول المصرى بالاستعمار والترحيب به وإعطائه الشرعية الكاملة، وهذا ما لم يفعله عرابى، فاستحق لعنات العفيف الأخضر!..».

أما إدانته لعرفات فتمتد إلى ما هو أشمل وأعمق من مجرد رفض مقترحات كلينتون، تمتد إلى إدانة فكرة الثورة المسلحة الفلسطينية، بدءًا من الثورة الفلسطينية ضد الاحتلال البريطانى فى ١٩٣٦، وانتهاء بمواجهة الفلسطينيين الشجاعة للهجمات الإسرائيلية على بيروت فى ١٩٨٢. إنه





انتقادات حازم صاغية تنصب على الفلسطينيين والعرب، وتعفى من ذلك إسرائيل، وإذا حدث وانتقد إسرائيل فى موقف ما، فإنما ليتكئ على هذا النقد ليصب جام غضبه على النضال الموجه ضد إسرائيل

كتاب الزاوية



محمد عبده
العروة الوثقى

الإمام الراحل محمد عبده ترك تراثًا عظيمًا مازال العالم الإسلامى ينهل منه، بل إنه تطرق إلى قضايا وطرح أفكارًا يجد البعض أن إثارتها فى الوقت الراهن مجازفة كبرى. ومن التراث العظيم للإمام العظيم جريدة «العروة الوثقى» التى أنشأها السيد جمال الدين الأفغانى فى باريس لتعبر عن جمعية «العروة الوثقى». واستدعى الأفغانى تلميذه محمد عبده من منفاه فى بيروت ليرأس تحريرها.

وقد صدر العدد الأول من الجريدة فى الخامس من جمادى الأولى سنة ١٣٠١هـ الموافق ١٢ مارس ١٨٨٤ . وعلى الرغم من نفقاتها الباهظة، فقد كانت الجريدة تهدى إلى ملوك العرب وأمرائهم وقادتهم وترسل إلى كل من يطلبها مجانًا. وقد انتشرت فى الأقطار الإسلامية إلا أن المستعمرين وأعوانهم حاربوها فى مصر وسائر الأقطار الأخرى فلم يصدر منها إلا ثمانية عشر عددًا. وصدر العدد الأخير فى ذى الحجة سنة ١٣٠١هـ الموافق أكتوبر ١٨٨٤م.

وقد تضمنت هذه الأعداد القليلة صورة من جهاد الأفغانى وعبده وتعاونهما فى خدمة الشرق والإسلام والمسلمين ودفاعهما ضد الاستعمار والمستعمرين بالإضافة إلى ما احتوته الجريدة من صفحات عن ذكريات ومعلومات تاريخية جليلة.

وبمناسبة الذكرى المئوية لرحيل الإمام الشيخ محمد عبده تقدم «وجهات نظر» مقتطفات من جريدة «العروة الوثقى»، والتى تضمنها كتاب «الثائر الإسلامى جمال الدين الأفغانى» بقلم الشيخ محمد عبده والصادر عن دار الهلال ١٩٩٩ .

يكتب، متنفجًا ومتباهيًا: «نحن الذين طالما حللنا مخاطر الكفاح المسلح على الشعب الفلسطينى سواء فى فلسطين ١٩٣٦ أو فى الأردن ١٩٧٠ أو فى لبنان ١٩٨٢».

الختام. بلا مسك، على حد تعبير حازم صاغية. هو الكاتب المصرى أمين المهدى. ولأسباب ضرورية يقدم بلال تعريفًا به، جاء فيه: «لم يعرف أمين المهدى ككاتب أو ناشط سياسى.. فى الجامعة لم يكن له نشاط طلابى بارز، وفى النشاط الحزبى كان مجرد عضو عادى فى «حزب التجمع»، وبسؤال العارفين.. أكدوا أنهم لا يعرفون عنه إلا القليل.. قالوا إنه كان يعمل فى صيانة المطابع فى دار «أخبار اليوم».. ويقولون إنه تزوج فى القاهرة سيدة فلسطينية أقنعته بالذهاب معها إلى بيروت أواخر السبعينيات؛ وتعرف عن طريق تلك السيدة إلى صلاح خلف (أبو إياد) مسئول الأمن الموحد فى الثورة الفلسطينية، وعاد بعد فترة مع زوجته إلى القاهرة حيث أنشأ مطبعة ودار نشر، وشاع. دون تأكيد من أحد. أن «أبو إياد» كان ممول تلك الدار، وساءت بعد ذلك علاقته مع زوجته فطلقها، بينما كانت قيادة الثورة الفلسطينية قد انتقلت إلى تونس أواخر العام ١٩٨٢.. ويقولون إنه بعد توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية وبروز موجة «التطبيع» ذهب إلى إسرائيل، وتعاقد مع وزارة المعارف من أجل ترجمة عدد من الكتب إلى العربية، وبالعكس.. ويقولون إنه ذهب إلى الجزائر لفترة، ساعدته أن يكتب عن التجربة الإسلامية فى الجزائر، وأصدر كتابًا فى الموضوع كتب مقدمته الدكتور رفعت السعيد، اليسارى المعروف.. ويقولون إنه حاول فى فترة التسعينيات تأسيس جماعة صداقة مصرية. إسرائيلية ولكن محاولته لم تكلل بالنجاح، ويقولون إنه لم يعرف فى مصر ككاتب، ولم يكتب أو ينشر فى أية جريدة مصرية.

ويقف العارفون فى ذكر معلوماتهم عند هذا الحد، وتمر سنوات دون حدث يذكر إلى أن ظهر فجأة كاتبًا شبه منتظم فى جريدة «الحياة» ومبشرًا بالسلام مع إسرائيل، وكان ذلك أواخر العام ١٩٩٩.. واستمر يكتب فى «الحياة» حتى مطلع العام ٢٠٠١ ثم أخلد للصمت إلى أن ظهر من جديد كاتبًا فى الموقع الإلكترونى لصحيفة «يديعوت أحرونوت» الإسرائيلية بدءًا من ٢٥/ ٢٠٠٢/٨ (مقالان)، ثم نشر له الموقع مقالاً ثالثًا وأخيرًا فى ١١/١١/ ٢٠٠٢..».

فماذا يكتب أمين المهدى؟

أول كل شىء أن يخترع تاريخًا خاصًا للصراع العربى الإسرائيلى، فيطرح أن تيارين كانا موجودين لدى كل جانب من بدء الصراع: تيار الحرب وتيار السلام، وقد انهزم تيار السلام لدى الجانبين، فخلا الميدان لقادة التيار العسكرى ليتصارعا، ويطرح أن هذين التيارين ولدا.. «مع بداية الصراع الشامل فى ١٩٤٨..»، يريد الوصول إلى أن تيار السلام حين يبرز اليوم فهو استمرار لتيار قديم، ويعيد. من ثم. إنتاج المقولة القديمة. الجديدة بأن المتطرفين فى الجانبين هم سبب المشكلة، وأنهما وجهان لعملة واحدة، وأنهما يضيعان شرعية متبادلة يمنحها كل طرف للآخر.

ولكن.. هل بدأ الصراع، حقًا، فى ١٩٤٨؟ يكتب بلال الحسن: «ألم يبدأ هذا الصراع رسميًا عام ١٩١٧ الذى صدر فيه وعد بلفور..؟ ألم يبدأ هذا الصراع، رسميًا، عام ١٩١٩ الذى صدر فيه قرار عصبة الأمم المتحدة بوضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى؟ ونص قرار الانتداب بتنفيذ وعد بلفور على الأرض؟ ألم يبدأ هذا الصراع، رسميًا، عام ١٩٣٦ حين أطلق الفلسطينيون ثورتهم الكبرى ضد بريطانيا، بسبب احتلالها، وبسبب انحيازها إلى جانب الحركة الصهيونية ورعايتها للهجرة اليهودية إلى فلسطين؟..»، لماذا إذن يختار أمين المهدى ١٩٤٨ لبداية الصراع؟ يواصل بلال: «هو العام الذى شهد ولادة دولة إسرائيل، يريد أمين المهدى أن يبدأ النقاش من هنا، ليلغى تاريخ الصراع، ولينزع عن إسرائيل صفتها كجزء من المشروع الاستعمارى الكبير، وليجعل من وجود دولة إسرائيل حقيقة ثابتة نبتت هكذا دون صراع ومقاومة، ويصبح التفكير بعد ذلك بمواجهتها أمرًا عبثيًا، ويكون التفاهم والسلام، دون شروط، هو قاعدة التفكير والعمل، وهنا يبرز موضوع السلام (التطبيع) كنتيجة طبيعية، ويتحول موضوع المواجهة إلى نتيجة غير طبيعية..»، ومن أجل أن يحرر المهدى تاريخه المزيف يقسم الإسرائيليين إلى دعاة سلم ودعاة حرب، ويثبت قوائم لكل طرف، ويناقش بلال هذه القوائم فى ضوء الحقائق الموضوعية الثابتة فى سيرهم وأعمالهم، ويخلص إلى أن «محاولات أمين المهدى لاختراع تاريخ خاص للصراع العربى. الإسرائيلى، يجعل من السلام مقولة أزلية تآمر عليها دعاة الحرب من الجانبين، هى محاولات مضحكة، لا علاقة لها بالتاريخ ولا بالسياسة..».



يقول أمين المهدى إن «الفاشية» العربية هى التى ساعدت الحركة الصهيونية على إقامة دولة إسرائيل، ويتساءل بلال الحسن فى مناقشته: لماذا تخلو «نظرية» أمين المهدى من أى ذكر لدور الاستعمار الأجنبى أو حتى لمجرد وجوده؟ لماذا يغيب دور بريطانيا وفرنسا منذ انتهاء الحرب الأولى وحتى ١٩٤٨؟ لماذا يغيب أى ذكر لدور الولايات المتحدة الأمريكية، وقرار الرئيس الأمريكى

ترومان بدءاً من ١٩٤٦ بدعم الحركة الصهيونية دعماً مطلقاً؟ والجواب، ببساطة، هو أن «إبراز هذه الوقائع ينسف «نظرية» أمين المهدى «التاريخية»، وهو لذلك يتجاهلها عمداً، ثم يختار الوقائع التى تقود إلى دعم موقفه السياسى الراهن، إنها عملية تزوير بدائية..».

كما يحلو لأمين المهدى، ولغيره من الكتاب، وحين يبحثون بضرورة التطبيع مع إسرائيل فقط، سرد سلسلة من الأوصاف للأنظمة العربية القائمة، تتصدرها لفظة «الفاشية». فهل يمكن وصف هذه الأنظمة بالفاشية حقاً؟ يقدم بلال. فى مناقشته. تعريفاً علمياً للفاشية (يستعين فيه، عامداً، بموسوعة أمريكية المصدر والتحليل والعقلية)، ويورد ألوانها المختلفة والسمات الخاصة بكل لون منها، وينتهى إلى أن أمين المهدى يقدم تعريفاً خاصاً به للفاشية يجعل من كل التيارات الفكرية، الدينية أو الوطنية أو القومية أو العرقية، تيارات فاشية. إنه يكتب: «الفاشية فى تصورها العدمى للذات، تهدف إلى الاندماج والتلاشى فى الزعيم أو المخلِّص، أو فى فكرة الخلاص الواحدة: الدينية أو الوطنية أو القومية أو العرقية، أو فكرة خليط من بعض أو كل ذلك..» بهذا التعريف «الخاص» تصبح الحركات الدينية مهما كان نوعها، والحركات الوطنية العاملة للتحرر من الاستعمار (على امتداد آسيا وأفريقيا فى القرن العشرين) والحركات القومية الساعية إلى توحيد بلادها (على امتداد أوروبا القرن التاسع عشر)، كلها حركات فاشية مدانة!.

ويمضى أمين المهدى إلى ما لم يجرؤ واحد من فرسان التطبيع على بلوغه: إلى الغزل الواضح بالحركة الصهيونية وبإسرائيل. «باعتبار أنهما يمثلان الحضارة والحداثة والديموقراطية والنزعة الإنسانية، يقابل عملية الغزل هذه كراهية عميقة للفلسطينيين والعرب، باعتبارهم فلاحين وبدواً وفاشيين..». عن الصهيونية يقول إنها جاءت. من البداية «بنظام ديموقراطى لصناعة النخبة فى كل المجالات، وفى إطار قومى علمانى صرف..» ويقول: «تبلورت الأسس الاجتماعية للاستيطان فى إطار فكر متحرر أوروبى النشأة..»، ويقول: «جاءت الصهيونية إلى بلاد العرب عبارة عن أيديولوجية خلاصية شعبية، وهنا تكمن دوافعها وجوانبها الإنسانية.. وسلكت الصهيونية فى التنفيذ مسلكاً علمانياً عقلانياً مؤسسياً وديموقراطياً..»، ويقول أخيراً: «تنبأت الصهيونية بانتصار الغرب والتطور الرأسمالى، فاختارت موقعها ضد القوميات (!) وضد النازية والفاشية والستالينية، وهكذا راهنت على معسكر المنتصرين وانتصرت معهم..».

على كل هذه الأقوال يعلق بلال: «ومن يكون معجباً بالحركة الصهيونية إلى هذا الحد، ولا يرى هدفها الاستعمارى والإجلائى لشعب آخر، والاستيلاء على أرضه بالقوة، يكون من حقه أن يعجب بدولة إسرائيل، وأن يعادى العرب لأنهم «يعتدون» على هذا الصرح الحضارى الشامخ، وأن يكرس نفسه، بعد ذلك، للركوع والخضوع أمام المخطط الإسرائيلى للهيمنة العسكرية والاقتصادية، وأن يطلق على ذلك اسم «التطبيع»..».

فى مقابل هذا الغزل الواضح بالصهيونية وإسرائيل، ثمة هجائية، واضحة أيضاً، للفلسطينيين والعرب: من تبرير لقدوم الاستعمار واستيلائه على الأرض العربية فى المشرق والمغرب، إلى تبرير قدوم الصهيونية واستيلائها على فلسطين، إلى الاستخفاف بالبنية الاجتماعية للشعب الفلسطينى، وادعاء العلم بتاريخ فلسطين القديم والحديث... إلخ.

على قاعدة مثل هذا الفكر، وانطلاقاً من مثل تلك الجرأة على اختراع تاريخ خاص ومزيف، ينتقل أمين المهدى من الصحافة العربية (صحيفة «الحياة») إلى الموقع الإعلامى الإسرائيلى، فيظهر كاتباً فى موقع صحيفة «يديعوت أحرونوت» الإلكترونى، ومن هذا الموقع يواصل حربه ضد الانتفاضة الفلسطينية والقيادة الفلسطينية، مبرئاً إسرائيل من جريمة تدمير مؤسسات الشعب الفلسطينى، ملقياً بالمسئولية كاملة كلها على الانتفاضة.

ويوجز بلال الحسن حكمه على كل هذا المسعى: «أما الخاتمة لهذا كله فهى تمجيد الاستعمار (..). وهكذا يبدأ التحليل بنقد السياسة الفلسطينية وينتهى بالترويج للاستعمار، والترويج بينهما للاستعمار الإسرائيلى للشعب الفلسطينى. أى انحدار هو هذا؟..».

فى نهاية مقاله الذى سبقت إليه الإشارة يكتب فهمى هويدى: «إن المشكلة . للأسف . ليست فقط فى الترويج لهذه الثقافة البائسة، ولكنها أيضاً فى الأجواء التى هيأت مناخاً مواتياً لإطلاق ذلك القدر من السموم من خلال المنابر الإعلامية العربية، ويتضاعف الأسف إذا أدركنا أن تلك الجرعة من السموم جرى بثها من منبر واحد، فما بالك إذا جمعنا الكتابات المماثلة التى حفلت بها المنابر الأخرى؟..».

والحقيقة أن جهداً أكبر يجب أن يبذل فى هذا الاتجاه، اتجاه فضح كُتاب هذه الثقافة المسمومة: ثقافة الاستسلام، على نحو ما فعل بلال الحسن فى هذا الكتاب■

كتاب الزاوية

العروة الوثقى

الجريدة ومنهجها

سيأتى فى خدمة الشرقيين على ما فى الإمكان من بيان الواجبات التى كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ما هو آت.

ويستتبع ذلك البحث فى أصول الأسباب ومناشئ العلل التى قصرت بهم إلى جانب التفريط والبواعث التى دفعت بهم إلى مهامه حيرة عميت فيها السبل واشتبهت بها المضارب وتاه فيها الخريت (الحاذق) وضل المرشد حتى لا يدرى السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة والمزعجات المدهشة والمدهشات القاتلة.

وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين ولبست عليهم مسالك الرشد وتزيح الوساوس التى أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم وشفاء أدوائهم، وظنوا أن زمان التدارك قد فات وأن العناية بلغت حدها.

وتراعى فى جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة فى أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها والسياسات القويمة التى لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين.

ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين إليها والحاملين عليها، لا تظهر إذا أدلجوا ولا تنجد إذا غوروا، وتذهب مذاهب الرشد، وتصيب بحول الله مواقعه عند من سبق فى أزلى علم الله هدايته، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وترسل إلى الذين نعرف أسماءهم مجاناً بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير والغنى والفقير، ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب إلى إدارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل إقامته على النهج الذى يريده، والله الموفق.



فيكتوريا الأمريكية



فيكتوريا الإنجليزية عندما تولت الحكم عام ١٨٣٧

الإنجليزية تدعى الفضيلة والأمريكية تستعرض الفضيحة

فيكتوريا

محمد المهدى

جمعهما عصر واحد .. القرن التاسع عشر. وطموح واحد ... رغبة محمومة للسطوة والسيطرة على مقدرات زمانهما. إحداهما ورثت السلطان، وإمبراطورية أسطورية، فلم تكتف، تسربلت بمسوح الزهد المخادع لإحكام يديها على القريب سعياً لإحاطة الكرة بأذرع الاستعمار باسم الملكية البريطانية.

والأخرى لم ترث إلا الفقر، وقدرة النصب على القريب لتصل إلى البعيد، فالأبعد. القريب الزواج من الثروة، والبعيد اللعب على كل الحبال لامتلاك رأس المال، والأبعد سلطان عظيم باسم رئاسة الجمهورية الأمريكية.

ونبدأ القصة مع الأسبق منهما فى الطموح ... الملكة فيكتوريا.

فيكتوريا الإنجليزية

نشر فى السبعينيات من القرن الماضى كتاب يتحدث عن علاقة الملكة فكتوريا(Victoria) بخادمها جون براون(John Brown)، ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى تثار فيها هذه القصة، ولكنهم هذه المرة أكدوا أنه كان يدخل غرفة أرملة وندسور. كما كانت تسمى - ليلاً ولا يخرج إلا بعد ساعات طويلة.

فيكتوريا هى القرن التاسع عشر، ولا نبالغ إذا قلنا أنها القرن التاسع عشر ليس لإنجلترا فقط، ولكن للعالم الاستعمارى بكامله، حصلت إنجلترا فى عهدها على لقب الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس، وحصلت هى لطول عمرها وسطوتها وتوزع أحفادها على عدة عروش، على لقب (أم أوروبا). فيكتوريا كانت تمثل بالفعل الفكر الإنجليزى خلال هذا القرن الذى دوخ العالم الثالث، وأثار غيرة المنافسين فى أوروبا وانتهى بالحرب العالمية الأولى، كانت تمثل التحفظ الإنجليزى والتستر الإنجليزى مع ما فى داخله من عنصرية ورغبة فى السطو بواجهة متأنقة وباطن متعفن جعل برنارد شو أو أحد الشهود من أهلهم يسخر من جزيرة جون بول والتفاحة التى أفسدت عربة التفاح بكاملها.

فيكتوريا هى إحاطة العالم بحزام استعمارى (٣٣ مليون كيلو متر)، والسيطرة على ربع سكانه (٤٥٠ مليونا) آنذاك. فيكتوريا هى سيطرة الإنجليز على الهند ثم على سنغافورة عام ١٨٤٩، وسيطرتهم على الصين بفرض حربى الأفيون من عام ١٨٣٩ إلى عام ١٨٤٢، وسيطرتهم على هونج كونج، وربط كل من كندا واستراليا بنظام إنجليزى خاص، ودخولهم القتال مع البوير (الهولنديين) فى جنوب أفريقيا، وإقامة النظام العنصرى هناك، وتصفية الصراع مع الروس بتقسيم مناطق النفوذ على حساب أفغانستان وإيران والتبت، وتعبيد الطريق الاستعمارى بالسيطرة على جبل طارق وقبرص واحتلال مصر عام ١٨٨٢، والوصول إلى باب المندب أو مخرج البحر الأحمر، والوصول إلى الصومال والخليج العربى، والسيطرة على أفريقيا ساحل الذهب ونيجيريا وكينيا وأوغندا، ومحاولة (سيسل رودس) الوصول من الكاب جنوباً إلى القاهرة شمالاً.

مرحلة البير:

عاشت فيكتوريا إلى سن الحادية والثمانين، حكمت منها خمسة وستين عاماً (١٨٣٧ / ١٩٠١)، نصبت ملكة فى سن السادسة عشرة والتصق اسمها بثلاثة رجال، الأول قبل زواجها كان رئيس وزرائها لورد ملبورن (أحرار) المستهتر فى سلوكه الشخصى والجذاب للملكة الصغيرة، وانقطعت صلتهما بعد زواجها. والثانى زوجها الأمير ألبير (ALBERT) الذى كان يصغرها بثلاثة أشهر، وأصبحت قصة حبهما حديث أوروبا بل وسخريتها ولكنه مات عام ١٨٦١. ثم خادمها الاسكتلندى الشرس جون براون الذى اختصته بصفحات عديدة من مذكراتها ومات ١٨٨٣، وبقيت (أم أوروبا) كما يلقبها الأحباب، أو السيدة ملبورن، ثم السيدة ألبير، ثم السيدة براون كما يلقبها الكارهون أو العارفون بالخفايا الفيكتورية.

كانت عصبية المزاج ذات اهتمامات





محدودة وبالتالى كانت تعرف طريقها بسهولة دون تقليب للأمور أو دفعها فى ممرات فكرية متعددة. وقبل الزواج من ألبير ابن خالها كانت تستند فى تسيير أمور دولتها على رئيس وزرائها ملبورن، ولكنها ما لبثت أن اندفعت بطاقة الشباب وحرارة المزاج نحو ألبير الشاب الوسيم، وقررت الزواج منه وتركت ملبورن يقول (لقد انتهى الأمر).

ويعلق صحفى جرىء فى زمانها هو شارل جريفيل بأن الملكة أخذت تتعلق بألبير مع مرور الأعوام حتى تعدت الحدود، وتحول التعلق إلى نوع من الخضوع فكانت لا تطيق البعد عنه لمدة يوم واحد، وحينما ذهب للصيد فى ألمانيا لمدة أربعة أيام وحده كانت تشكو بأن غيابه بالنسبة لها مصيبة كبيرة. ويتهكم جريفيل «أربعة أيام ... رغم أن جلالتها كانت لا تتورع عن إبعاد بعض وصيفاتها عن أزواجهن وعن عائلاتهن لشهور طويلة». اشترت فيكتوريا مقاطعة أسبورن فى جزيرة ويت لتنفرد بألبير، وكانا يعلنان فى أحيان كثيرة انعزالهما فى (بالمورال) القصر الملكى الاسكتلندى فى منطقة (هاى لاند) بعيداً عن المعارك السياسية الداخلية والخارجية.

فى قصر وندسور كان ألبير يعمل بشكل دائم فى مكتبه حتى ظهر عليه الكبر أكثر منها بكثير. ترهل وتساقط شعر رأسه، بينما احتفظت هى بقوتها وحيويتها. كان يعمل لوضع الخطط فى مختلف الفروع حتى يوفر على الملكة والحبيبة الوقت لاتخاذ القرارات فى مشاكلها. يبدأ يومه فى السادسة صباحاً، وأثناء تناوله الإفطار يقرأ (التايمز) ويسرح بين الحين والآخر، وينزعج إذا حاول أحد مقاطعته، ولكنه مع فيكتوريا كان صبوراً، كان يقبل تصرفاتها السطحية مع إبداء الإعجاب بصورة مصطنعة، أو عصبيتها وضحكاتها المتوترة أو عنادها أو حزنها الذى تغرق فيه حينما يموت شخص عزيز عليها، ثم تنصرف عنه فجأة. وفسر البعض موقف ألبير أنه خوف من صاحبة الجلالة، ويهمنا أن نفسر موقف صاحبة الجلالة منه. كان ألبير يمثل النموذج الذى يرضى شخصية فيكتوريا ... متسلطة وجدت من يقوم بالجهد ويقدم الحلول ويحتفظ لها بالهيبة والسلطان. وتصورت فى لحظة اندفاعها العاطفى أنهما سيبلغان الشيخوخة معاً، ولكنها نسيت من فرط ذاتيتها أنها تستهلكه وتعجل بشيخوخته وموته.

فى أول ديسمبر عام ١٨٦١ وجدته يرتعش بصورة غير طبيعية، استدعت الطبيب جيمس كلارك وكان لا يقل عنها ذاتية فرفض أن يشاركه فى الكشف أحد، وشخص المرض على أنه نزلة برد شديدة، ولكن الحالة ازدادت سوءاً فاستدعى الطبيب وليم جيز الذى قرر أنه مصاب بالتيفوئيد.

استراحت فيكتوريا لتشخيص الدكتور كلارك فظلت تصر بعنادها رغم تدهور صحته على أنه سيشفى قريباً، أما ألبير فكان يشعر بدنو أجله وقال لها «أنا غير متعلق بالحياة، إذا كنت مصاباً بمرض خطير فإننى أتعجل الرحيل». وأحاطت بعض الظروف النفسية به فشاركت فى هد كيانه، ولكنها لم تنقص من عزيمة فيكتوريا، ولا من وزنها بعد أن بدأت تميل للبدانة. تلقى ألبير خبر وفاة (بدرو) ابن عمه ملك البرتغال بمرض التيفوئيد، كما بلغه أن ابنه الأمير (دى جال) البالغ من العمر تسعة عشر عاماً على علاقة بامرأة، وكان حريصاً على سمعة العائلة المالكة، إلى جانب رفضه التام لأية علاقة جنسية خارج الزواج. وحينما ساءت حالته الصحية لم تبك فيكتوريا بل كانت تنفرد فى غرفة لمواجهة حالة اليأس التى تنتابها. ولم تبك حتى حينما بلغها نبأ وفاته.

أقبلت عليه وقبلته فى جبينه، ثم جثت على ركبتيها تناديه فى حنان إلى أن ساعدوها على الخروج من الغرفة، حينذاك ضربت كفيها على جبينها ضربة خفيفة مرددة (عقلى... عقلى).

مرحلة براون :

غيرت فيكتوريا مكان إقامتها بعد وفاة ألبير، تركت

وندسور فى أوسبورن، وحينما كانت إجراءات جنازة ألبير تعد، كانت الملكة قد قررت ارتداء ملابس الحداد طوال حياتها.

لا شك أن وفاة ألبير أثرت على الملكة بشكل واضح فبدت أكبر من الأربعين التى بلغتها، لكنها بدأت تعيش حاضرها. كان ألبير يقول عنها أنها تعيش فى تقاليد الماضى العريق بقدر ما تعيش فى طموحات المستقبل الزاهر. أخضعت نفسها والمحيطين بها لنوع من الحداد الدائم، وفسر البعض تصرفها بأنه نوع من الأنانية، ولكنه كان فى الحقيقة أكثر من بعد نظر.

لم يكن من حق أحد من البلاط أن ينسى ألبير، ظل الرجال يلبسون الحداد إلى نهاية ١٨٦٢، أما السيدات المصاحبات للملكة فلم يصرح لهن بارتداء الألوان الرمادية أو الكحلية إلا بعد عام ١٨٦٤. وظلت الوصيفات القريبات الصلة بالملكة يلبسن الحداد مثلها، بينما ظل الخدم يلبسون الأسود لمدة ثمانية أعوام. أصدرت الملكة أوامرها بأن تظل أجنحة وندرسور التى كان يشغلها زوجها كما كانت. قامت بختم الأبواب والأشياء الخاصة التى كان يستعملها، أو الأوراق التى كان يعدها، أو أعدها ومنعت الاقتراب من ملابسه. بل يحكى البعض أن خادم ألبير الخاص ظل يعد يوميا إناء الماء الساخن فى حمام الأمير كالعادة، ويعد ملابس نومه على السرير، وقالوا أن الملكة كانت قبل أن توقع على الأوراق الهامة تنظر إلى مكان جلوس زوجها وتسأل فى هدوء إن كان يوافق عليها. وظلت تحتفظ بالكوب الذى شرب منه آخر جرعة دواء لمدة أربعين عاماً، أى بقية عمرها. كما كانت تقوم يومياً بنثر الزهور على سريره وتحمل بعضها إلى كاتدرائية سان جورج.

عاشت فيكتوريا فى حداد لمدة أربعين عاماً. فى بادئ الأمر قلت صلتها بأسرتها ولم تكن تقابل إلا الوزراء للضرورة. وحينما كانت تذهب أو تغادر وندسور كان يتم إخلاء المحطة من أفراد الشعب، وبمرور الوقت وبإصرارها على هذه الطقوس القاتمة بدأ الناس، وبدأت الصحافة تثير الأقاويل. بدأت التساؤلات هل هذه المظاهر صادقة؟ وكيف تتحمل الملكة هذا اللون من النظام القاتم؟ وما هى إذن حقيقة علاقتها بخادمها الإسكتلندى جون براون.

جون براون كان أحد أتباع زوجها ألبير، وبعد وفاته توثقت صلة براون بالملكة. كان اسكتلندياً خشن المظهر والطباع، ورغم تحفظ الملكة الأوتوقراطية، بل وصرامتها التى لا تقبل أى نقد، إلا أنها كانت تقبل من براون اللوم بل التقريع فى سرور. كان يسمح لنفسه بمجادلتها فى نوع ملابسها وطريقة لبسها وبالطريقة التى تروقه. بل كان يناديها يا (امرأة). وكان طبيعياً بعد ذلك أن يتجرأ على حاشيتها والمقربين منها وبطريقة فجة، ويسمح لنفسه بثقة فى مجادلة الوزراء، ويضرب على أكتافهم كنوع من المداعبة أو السخرية.

ومن أشهر وزراء فيكتوريا (جلادستون) و(دزرائيلى). الأول كان يكره براون ويلقبه فى استخفاف بديك فى ثوب طاووس، أما دزرائيلى فكان من الدهاء والاطلاع على دخيلة الأمور بحيث كان يحسن الإصغاء لتفاهات براون. أما فيكتوريا فكانت تقول عن براون «إنه تابع، وخادم أقدام، وغلام، بل وخادم غرفة أيضاً» ولكن هذا القول كان لا يمنع وربما قصد به ألا يمنع من أن ينام براون فى الغرفة المجاورة لغرفتها فى وندسور،حيث كانت لا تستريح إلا فى حضوره بصورة تثير الدهشة والسخرية والريبة.

كانت فيكتوريا بالتأكيد مشدودة إلى براون، وفسر البعض هذه العلاقة بأنها لا تعدو أن تكون علاقة خادم مفضل بسيدته، وفسر آخرون هذه العلاقة بأن تهاون الملوك أو الملكات مع خدمهم شىء لا ينقص من سلطاتهم لأن الخدم أنفسهم جزء من هذا السلطان، بينما لا يجد أقرب الناس إليهم نفس المعاملة لأن ذلك يقبل التفسير بوقوعهم تحت سيطرة الآخرين. ولكن يعود فريق ثالث فيؤكد أن تصرف فيكتوريا مع براون فيه تجاوز كبير لم يمنح لغيره من الأتباع أو الخدم، وبالتالى تعرضت الملكة لموجة من النقد ارتفعت إلى درجة توجيه الاتهام أو الهجوم على فيكتوريا وبراون الذى تمتع على حد قولهم بمكانة تقرب من الشرعية.

وحينما مات براون ١٨٨٣ أقامت له الملكة نصباً تذكارياً، وكانت تحتفظ له بعدد من التماثيل الصغيرة. وفى يوم الأحد كانت حريصة على أن تضع على مائدتها ملاحتين فضيتين على شكل أصداف بحرية، كان براون قد أهداهما للملكة، وبعد أن كتبت الملكة جزءين من تاريخ حياتها صممت على إصدار الجزء الثالث عن براون. وأبدى عميد وندسور «دافيدسون» قلقه لذلك، وخشيت الملكة أن يقدم استقالته، وانتهى الأمر بأن عدلت عن رأيها، وأعلنت عن إصدار الجزء الثالث، ولكنه لا يخلو من صفحات عديدة تتحدث عن براون، فى الوقت الذى عين فيه دافيدسون رئيس أساقفة كانتربرى.

هذه القصة ذاعت وأصبحت السيدة التى كانت تنسب إلى ملبورن ثم إلى ألبير تسمى السيدة براون... وكانت قمة الإهانة للملكة فى القرن التاسع عشر.

القمة الاستعمارية :

شعور الاستياء كان ينتشر فى انجلترا من تصرف الملكة، وأعلن شارل برادلى وهو راديكالى ملحد فى خطبه إدانة العائلة المالكة، وافتتحت الكثير من النوادى الجمهورية فى أنحاء انجلترا وأصدر جورج أوتو تريفيلان كتيباً بعنوان «ماذا تفعل هناك ؟» أى الملكة - يكشف فيه فضائحها وخاصة بخلها وحبها لجمع المال، وأعلن آخر أن العائلة الملكية تكلف الدولة مليون جنيه فى العام، وأن هذا الإنفاق الهائل لا يعتبر نوعاً من التبذير فقط، ولكنه مساوئ قبيحة.

ظلت فيكتوريا رغم الهجوم عنيفة المزاج، أكولة، محافظة على الشكليات، تقبل فى شراهة على أنواع البودنج والفطائر المحشوة بالكريمة، والحلويات والبسكويت. كانت مائدتها لها طقوس خاصة وفخامة خاصة. الأطباق من الذهب، أو السيفر، والخدم الهنود يقفون



الأسرة الفيكتورية فى مطلع الملكية.

دائماً وراءها فى سكون، واسكتلندى جبلى يتولى تقديم النبيذ. يلبسون ملابس مذهبة وقرمزية فى الشتاء، وبيضاء فى الصيف، وأيديهم معقودة على أحزمتهم، وذقونهم تبدو عجيبة من شدة سوادها مع ملابسهم الناصعة البياض صيفاً.

أما العاملون فى القصر فكانت تختارهم من الشبان أو الشابات غير المتزوجين، وتلزم الوصيفات بأن يستقبلن الزوار من الرجال فى قاعة الاستقبال فقط. كما منعت الرجال من التدخين فى أى مكان ترتاده، ومن يعمل فى مكتبها عليه ألا يقدم إليها أوراقاً تناولها وهو يدخن، ولم تستثن من هذه القواعد سوى براون.

ورغم وحدتها أيام الشيخوخة إلا أنها كانت لا تسمح لأحد من عائلتها بمشاركتها المائدة إلا فى العشاء.

جعلت هذه القواعد الصارمة الجميع يعتبرون زيارة قصر وندسور شرفاً عظيماً لرؤية أم أوروبا، أو أرملة وندرسور بملابسها السوداء الغالية الثمن، ولكن دون ذوق. غطاء رأسها مرصع بقطع من النجوم الماسية بدون تنسيق، والأنواط التى تزين خصل شعرها، والصور الصغيرة التى تتحلى بها تمثل العديد من أفراد أسرة كبيرة ترمز لها هذه السيدة الصغيرة البدينة رمز الإمبراطورية الواسعة والتى كان دزرائيلى يشعر أنه حقق ذاته وأهدافه من خلالها.

كان طبيعياً أن تردد فيكتوريا آراء رجعية تناسب سطوتها الاستعمارية. كانت تقول أن التعليم - وتقصد التعليم المتحرر. أفسد الطبقات العليا كما أنه حال دون تخريج الخدم الجيدين، والشغالين الذى يعرفون مهامهم من الطبقات الفقيرة. وكانت تقول أنه يجب جلد هؤلاء الدعاة الذين ينادون بإعطاء حق التصويت للمرأة!! كانت تمثل الرجعية فى قمة توازنها مع نفسها ويكفى أنها كانت على قمة أكبر إمبراطورية استعمارية عرفها العالم.

ويقولون أن فيكتوريا قد ارتدت شكلاً حزام العفة بعد موت زوجها ألبير، وأنها فى ذلك كانت تمثل نموذج الحزام الحضارى المصطنع الذى أحاطت به إنجلترا العالم.

وكما أن الحزام الاستعمارى الذى ادعى الإنجليز أنهم يعمرون به العالم قد انكشف وانحل عن وسط العالم بثورات التحرر فى القرن العشرين، فكذلك كشف لنا التاريخ أن حزام فيكتوريا لم يعمر بالعفة حول وسطها إلا شكلاً وحفاظاً فقط على التناسق بين حزامها الخاص وحزامها الاستعمارى.

فيكتوريا الأمريكية

فيكتوريا وود هول (VICTORIA,WOODHULL)... كانوا يسمونها فى أمريكا «الفضيحة»، ظهرت أواخر القرن التاسع عشر، لعلها أوحت لبرنارد شو بالصورة الواقعية لفتاته بائعة الزهور «إليزا» فى مسرحية بجماليون. فقد كتبها عام ١٩١٢، وعرفناها بعد «فلمنة» المسرحية باسم «سيدتى الجميلة»... ولعلها أيضاً تعيد صورة تيودورا زوجة الإمبراطور جستنيان. كانت تيودورا ممثلة وداعرة ثم صارت زوجة إمبراطور وحامية للفضيلة. وعلها أيضاً تلبست روح كليوباترا كما صورها خيال العديد من الشعراء والأدباء، طموحة عند شكسبير، و تلعب بالدلال عند برنارد شو، أو بطلة قومية عند شوقى. فيكتوريا دار فى خيالها كل ما يصلها بملكات الزمان الغابر والحاضر، من كليوباترا إلى ملكة زمانها وزمان أوروبا بكاملها، وزمان الاستعمار الإنجليزى، الملكة فيكتوريا، ولنترك إصدار الحكم عليها حتى الانتهاء من رواية قصتها.

فى ٦ يونيو عام ١٨٧٢ كانت قاعة «كوبرا» الواسعة فى نيويورك تموج بآلاف من البشر.. رجال تتخللهم بشكل غير مألوف العديد من النساء، ويرفع الجميع الرايات، وتصدر الحناجر كلمة واحدة «وود هول ... وود هول» تحددت الهتافات منادية «انتخبوا فيكتوريا وود هول» ساد الصمت فى القاعة فقد أشرف عند مدخل القاعة زعيم هندى بصدر عار ورياش منفوشة يصحبه رجلان بثياب رسمية إلى مقعد يتصدر وسط الصف الأول. هز الزعيم رأسه وفضل الجلوس على الأرض... ليس غريباً فقد كانت صاحبة الدعوى تنادى بالمساواة بين الرجل والمرأة، وبالمساواة بين الأبيض، والهندى، والأسود.

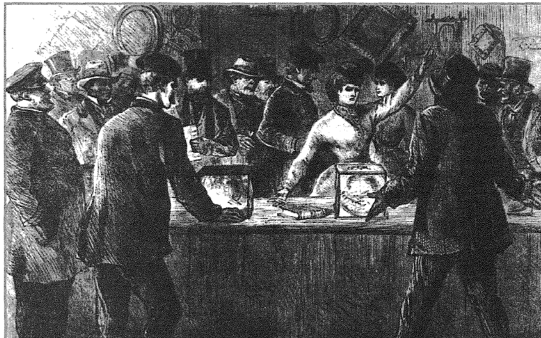
رفع الستار ببطء وساد الصمت، ظهرت امرأة فى الرابعة والثلاثين من العمر، تقف فى شموخ، ترتدى سترة طويلة من المخمل الأسود وربطة عنق قرمزية وبنطلوناً من الستان مشدوداً إلى الساق، يغطى نهايته عند القدم غطاء أبيض كزى الفرسان. زالت صدمة اللقاء الأولى وعادت الهتافات، أشارت المرأة بيدها فى وقار فهدأت الضجة، أعلنت فيكتوريا «اليوم أعلن رسمياً ترشيحى لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية».

وقفت القاعة احتراماً، وربما اندهشت لجرأة هذه المرأة. بلد قام على عضلات ومغامرات الرجال، مسدسات وبنادق المتهورين، كان طبيعياً أن يقتصر فيه حق التصويت على الرجل فما بالك بالترشيح للرئاسة. ظلت أمريكا فى دهشة لمدة عامين من عام ١٨٧٠ إلى ١٨٧٢ موعد الانتخابات الجديدة لرئاسة الولايات المتحدة.

قصة فيكتوريا مع التاريخ الأمريكى يتجاهلها عادة الأمريكيون برغم ما بها من مغامرة يحركها طموح على الطريقة الأمريكية. طموح مخلوط بدعوة اشتراكية، أو دعوة لتحرير النساء، تغلفها رغبات متهورة وأحياناً داعرة، فى وسط ضباب من عالم روحانيات الدجل تخفى دوافع من النصب والغش ورغبة جامحة للإثراء بعد مرحلة من الجوع والتشرد والمطاردة. ولعل هذا الخلط فى قصة فيكتوريا هو الداعى لتجاهل التاريخ الأمريكى، أو على الأقل حركة التحرير النسائية الأمريكية لقصة طويلة هزت أمريكا بكاملها ووصلت أوروبا طوال ربع قرن كامل.

الأصول الأسرية :

اسم أسرة فيكتوريا «كلافلان» (CLAFLIN) والدها «بوويك»، ولد فى



فيكتوريا الفضيحة والانتخابات الأمريكية.

«ماساشوستس» عام ١٧٩٦. طويل رفيع أعور. بدأ كفاحه من الخامسة بسيناريو خاص يعتبر مقدمة طبيعية لحياة الأسرة والابنة فيكتوريا. اشتغل مقامراً محترفاً، وغشاشاً فى اللعب، سائساً أو مروض خيول، مزور عملات، نصاباً تخلص بأعجوبة من السجن وحبل المشنقة. التقى بخادمة اسمها «روكسانا» من أصل ألمانى يهودى، وصلت جماعتها إلى أمريكا عام ١٧٠٠ واعتنقت المسيحية، وخالطت الدماء الهندية. تزوجها وأنجبت روكسانا ثمانية أطفال.

سكنت أسرة بويك فى قرية بولاية أوهايو. ذات صباح صرخت الأم فى خبل معلنة أنها تلبست روح العذراء ثم أعلنت بعد ذلك أنها العذراء بنفسها والدة المسيح. تأتيها رعدة تقرأ بها الغيب، وتنسى الماضى، وعندما تفيق تعود إلى واقعها البائس. ولدت ابنتها فيكتوريا فى عام ١٨٣٨ وبعد أن وعت الدنيا، شاركت إخوتها وأخواتها التقاط الرزق من الطرقات بالشحاذة أو النصب أو السرقة. وعندما وصلت فيكتوريا إلى سن السادسة أصابتها الحمى الغيبية التى أصابت أمها. أختها «تونيس» أصابتها أيضاً الحمى وصارت العائلة عائلة الغيب والنصب.

فى اليوم الثانى لتأمين الأب على بيته احترق البيت، هرب الأب. جمعت الأم أولادها وأقامت عند عمها لحين. هناك بدت مواهب الصغيرة فى الظهور، قراءة الغيب وإرشاد الناس إلى أماكن أشيائهم الضائعة، أو حيواناتهم الضالة. جمع «بويك» عائلته فى منزل وعلق على بابه «تونيس تكشف لك المستقبل بدولار واحد». كبرت الفتاتان، اصطحبهما الوالد إلى المسارح للعرض. الصغيرة لقراءة الغيب، والكبيرة تدير مائدة القمار، والزبون يختار بينهما. تزوجت الأخت الكبيرة لفكتوريا من حاكم تكساس، أنجبت طفلة. صار لها بيت جميل ولكنها كبقية قبيلة كلا فلان كانت لا تطيق الحياة الهادئة. هربت ولحقت بأسرتها البائسة. أخت أخرى أعجب بها صيدلى وطلب منها الزواج، اشترطت الأم أن تقيم القبيلة بكاملها مع الابنة، قبل الرجل فخربوا بيته. فى يوم زفافه حضر صديقه الطبيب «كاننج وود هول» (CANNING,WOODHULL) الحفل وأعجب بالأخت الصغيرة فيكتوريا. كانت فى الخامسة عشرة، ناضجة، جميلة. طلب يدها فقبلت. كان طبيباً ثرياً ناجحاً قال أن أسرته فى نيويورك تمتلك بيتاً كبيراً وثروة. تزوج الصيدلى والطبيب الأختين وأقاما مع القبيلة فى منزل كبير.

تحول البيت إلى جحيم بفضل



أطماع الأب، وصرخات الأم. طلق الصيدلى زوجته، وطلب الطبيب «وود هول» من فيكتوريا زوجته أن يتركا بيت أسرتها ليقيما فى بيت أسرته ... بيت الأسرة لم يكن فى نيويورك بل كان فى «روشيستر». قبلت فيكتوريا ... يكفى أنها سترى عالماً جديداً. بيت كبير، منسق، نظيف، أنيق كل ما فيه ثمين، الحوائط والأثاث والأرضية والبشر. والد زوجها كان قاضياً يتمتع بسلطان واسع. عرفت فى البيت الكبير أصحاب النفوذ، وكيف يديرون أمورهم وأمور الآخرين. عرفت وسائل الخداع البرجوازية. فى ثوب أنيق، وعبارة براقة، وثقافة واسعة. أدركت أيضاً أن المرأة فى المجتمع الناعم هى نفس المرأة فى المجتمع المنحط، فى الأول دمية بلا حقوق كجزء من الأناقة والوجاهة يستكمل بها أصحاب الملايين عقد الصفقات، وفى الثانى دمية أيضاً بلا صوت، أو أداة للنصب أو النهب فى يد أصحاب الحانات ونوادى القمار والدعارة.

انبهرت وخضعت فى بادئ الأمر لأوامر البرجوازية. تعلمت بعض أصول اللعبة، أرادت أن تتعلم أكثر، ولكن كان يغلبها الأصل فى بعض الأحيان كالفتاة «إليزا» فى مسرحية برنارد شو. فى جلسة أنيقة تخيم عليها أحلام أصحاب الراحة والنعيم قال أحدهم .. إن ما يشوقه هو رؤية هذا العالم وقد تحول سكانه إلى ملائكة كالعالم الآخر. هنا انفجرت فيكتوريا قائلة ... فكرة خائبة، فى العالم الآخر لن نكون مجتمعين حتى نمارس الجنس. تكهربت الجلسة، أصابها الصمت، وانتهت باللباقة البرجوازية المعتادة. ابتسم آل «وود هول» وحولوا الابتسامة إلى ضحكة هينة معتذرة لجانب، ومحتقرة لآخر ...

أدركت فيكتوريا أن تعلم اللعبة ليس سهلاً، ضاقت وبدأت تتمرد، أقاموا لها احتفالاً بعيد ميلادها، زينوا المكان، حضر الجمع المرسوم بعناية وانتظروا عروس الحفل. هلت عليهم من أعلى السلم ترتدى سترة قصيرة من المخمل الأخضر وثوباً من قماش «التفتاه» الأسود ينتهى عند الركبة، وبنطلونا منقوشا ومشدودا من أسفل وحذاء أسود .. ملابس بوهيمية كانت ترتديها نساء حركة تحرير المرأة فى أمريكا، صاعقة نزلت على آل «وود هول».

فى عام ١٨٤٨ كانت المرأة التى تجرؤ على ارتداء هذا الزى وتحمل شعار حركة تحرير المرأة تطارد فى الطريق من الرجال وكأنها عاهرة. وتسمع من السباب ألواناً على ألسنة النساء المتدينات ... انتهت الأزمة الثانية أيضاً بأدب برجوازى، صاحت إحدى الحاضرات .. يالها من فكرة ساحرة، ابتكار رائع.

الثروة والنصب:

أرادت فيكتوريا الهرب. ألحت على زوجها بالهجرة إلى كاليفورنيا حيث يبحث المقامرون هناك عن الذهب. رغم حملها إلا أنها هددت بترك البيت. قبل الزوج وبدأت الرحلة الشاقة لمدة ثلاثة أشهر إلى «سان فرنسيسكو» وضعت طفلها ووصلت إلى مدينة رعاة البقر ومعارك الطرقات، والطلقات الطائشة، والعصابات، وقطاع الطرق، وصالونات القمار والشرب والدعارة والاعتداء على الصغير والكبير. مارس الزوج مهنته كطبيب، طبيب مهذب وسط قوم يعتبرون الأدب ضعفاً ... فشل وانصرف إلى الشراب.

بدأت فيكتوريا تبحث عن عمل. عملت خادمة فى منزل ممثلة، ومن صحبتها وصلت إلى المسرح. ولما كانت تفوق سيدتها فى الجمال والخفة والابتذال فقد طالبها الرجال بعروض عامة، ثم عروض خاصة. فى سن العشرين أنجبت طفلا ولانصرافها عن البيت سقط ابنها من الشرفة، أصيب بالبله .... صارت علاقتها بزوجها شكلية، تفرغت للمعجبين، وتفرغ هو للإدمان على الشرب.

فى ذات مساء عاودتها الرعدة الإلهامية، تصورت أن أختها «تونيس» تناديها. تركت كل شىء الزوج، والأولاد، والمعجبين، ورحلت متوجهة إلى نيويورك. فى محطة مدينة «أنديانا بولس» نزلت إلى الرصيف لتخفف من ملل الطريق. وجدت صبياً يحمل لافتة كتب عليها «اطلب مشورة الخبير هيرن كلا فلان لعلاج الأمراض المزمنة أو السرطانية بخمسة دولارات فى فندق سنترال، تعرف أيضاً على مستقبلك عند تونيس الشهيرة». هرولت فيكتوريا إلى فندق سنترال واجتمع شمل القبيلة من جديد.

بدأوا تنظيماً جديداً، تونيس كانت النجمة، خصصوا لها غرفتين فى الفندق، واحدة للكشف عن المستقبل، والأخرى لاصطحاب الزبائن أصحاب المزاج الخاص. ويؤكد كثير من الزبائن والشهود بعد ذلك أن فيكتوريا شاركت أيضاً فى العملية بطريقة متحفظة وباختيار خاص. لم يحقق هذا العمل طموحات فيكتوريا فاقترح عليها والدها أن تنظم مؤتمرات وتلقى الخطب بما لديها من خبرة فى الحياة وخبرة فى مواجهة الجماهير كممثلة وراقصة. إلقاء الخطب كان آنذاك وسيلة هامة من وسائل الإعلام تستطيع أن ترضى به هوايتها، وتستطيع من جانب آخر أن تجر رجل الزبائن إلى فندقهم بطريقة متحضرة. اقتنعت فيكتوريا واختارت موضوعاً موفقاً تناقشه فى خطبها .. الدفاع عن حقوق المرأة.

قضية حقوق المرأة فى أمريكا كانت محتدة، بدأت عام ١٨٢٤ بإضراب عاملات النسيج. وفى عام ١٨٣٦ تكونت جمعيات نسائية عمالية، وفى عام ١٨٥٢ تكونت «الجمعية النسائية لمجتمع التسامح»، بدأت فيكتوريا تدرس ما يدور حول حقوق المرأة ونقلت نشاط الأسرة بكاملها إلى «إلينوى». أظهرت براعة فى استقطاب الجماهير حول دعوتها ... نشطت أيضاً حركة أسرتها كل فى دائرته، وجمعوا ثروة لا بأس بها، ولحق زوج فيكتوريا مع ابنته وابنه بالقبيلة، وقبل أن يعيش معهم على الهامش.

بدأت المشاكل عندما توفى أحد مرضى شقيقها مدعى الطب. أرسلت لجنة تحقيق وفضحت الأمر. تحركت الأسرة بسرعة وعند المساء جمعوا حملهم ورحلوا عن المدينة متجهين إلى «سنسناتى» فى ولاية «أوهايو» .. هناك استأنفوا النشاط وأصرت فيكتوريا على أن يقتصر فقط على قدرات أختها «تونيس» المؤكدة مع مشاركة متواضعة من جانبها، دون تعريض أنفسهم لخطر قتل الآخرين بقدرات شقيقها المشكوك فى أمره.

أصرت فيكتوريا فى هذه المرحلة على الطلاق، لم يكن أمام الزوج إلا القبول على أن يقبلوه فى صحبتهم دون إزعاج لأحد. قبلوا واستمرت القافلة فى نشاطها الثلاثى، رؤية الغيب، راحة الزبائن، مؤتمرات فيكتوريا حول تحرير المرأة...

تركيبة عجيبة ... فى نهاية مؤتمر من هذه المؤتمرات ألح رجل فى الأربعين من عمره اسمه الكلونيل «بلود» (BLOOD) على التعرف عليها عن قرب. وكان لقاء وحوار وإعجاب متبادل. لقاء جاد يناقش قضايا القهر وكيفية تحقيق العدالة. يناقش الاشتراكية والدعوات

التى تموج بها أوروبا لإعطاء المرأة حقوقها الانتخابية.

«بلود» كان متزوجاً وله أولاد. وزع وقته بين نهار فيكتوريا، وليل لأسرته وأخيراً استقر بنهاره وليله عند فيكتوريا. وقرروا قرارهم الخاص، القيام بجولة فى أنحاء مدن الولايات يدعون إلى دعوتهم ..رفع الظلم والاضطهاد، تطبيق العدالة والحرية والاشتراكية. قاموا بجولتهم فى عربة صنعها أفراد القبيلة بأنفسهم. تألق نجم فيكتوريا فيما تلقيه من خطب وتثير به حماس الجماهير... الرجال قبل النساء ... تغيرت صورتها فى نظر الناس، عرفت فيكتوريا حاملة لواء حقوق المرأة وحقوق الإنسان، بعد أن كانت فى صحف شيكاغو تلقب بفكتوريا «الفضيحة» هى وأختها تونيس. أخيراً طلق بلود زوجته وتزوج فيكتوريا، صار الحبيب والزوج ورفيق الكفاح، ورفض الزوج الجديد أن تصحب القافلة أو جماعة كلا فلان الزوج السابق لفكتوريا، الزوج الذى ظلت تحمل اسمه «وود هول» .. وضاع المسكين فى زحمة الحياة.

فى نيويورك استأنفت النشاط مع أسرتها. استطاعت الأخت «تونيس» صاحبة القدرات الخاصة على كشف الغيب، أو شفاء الروح والجسد، أن تكسب أكثر رجال أمريكا ثراء، اسمه «فاندربلت»(VANDERBUILT). عجوز فى الخامسة والسبعين، شفى على يديها من صداع نصفى مزمن. أراد أن تصحبه بصفة دائمة وتشرف على علاجه. واكتشف من الصحبة قدراتها هى وأختها فيكتوريا على تحريك سوق التجارة والمال والبورصة. بدأ حياة جديدة، تحولت فيكتوريا وأختها بمعونة مليونير أمريكا الأول إلى عالم الربح بالملايين. كونتا معه شركة مشتركة ثم انفصلتا بنشاط خاص. تحدثت الصحف عن نشاطهما، وصارت الأسرة المشردة تتمتع أخيراً بعز لم تكن تحلم به.

الطموح الأكبر والسقوط :

فى وسط النشاط التجارى لم تنس فيكتوريا القضية التى كسبت بها الشهرة، قضية الحرية والعدالة وحقوق المرأة... ولنفوذها الحالى فتحت لها الصحف أبوابها. وأصبحت تكتب افتتاحيات «نيويورك تربيون» جرى قلمها وأصبح لها قراء، أراد أحد فلاسفة ذلك الزمان أو دعاة الحرية ويسمى «استفان بيرك اندراوس» أن يتعرف عليها لتشاركه فى دعوته. كان فى السبعين من العمر، يتقن ٣٩ لغة، ويدعو إلى إلغاء الملكية الخاصة، وتكوين مجتمع اشتراكى، حكومة مثالية، عالمية لا يحتكر فيها إحدى أدوات الإنتاج ... مجتمع يتخلص من الجريمة والحرب للوصول إلى الشكل الإنسانى المثالى الذى لا يفرق بين جنس وآخر، أو لون وآخر، أو رجل وامرأة. وجدت فيكتوريا فى دعوته تجسيداً أو تنظيراً منسقاً لدعوتها، استعانت بآرائه ووجدت منه التأييد لحملتها الداعية إلى إباحة العلاقة الجنسية تحقيقاً فى رأيه لمجتمع منطقى.

ارتفع توزيع «نيويورك تربيون» لمتابعة ما تكتبه فيكتوريا بجرأة، صارت تناقش مشاكل عملية وقضايا حيوية خاصة ما يتعلق منها بالنساء. أصبحت فى نظر المرأة الأمريكية مثالاً، أو على الأقل أملاً لتحقيق حصولها على حقوقها. وفى ٢ أبريل عام ١٨٧٠ كتبت فى افتتاحية جريدة «نيويورك هيرالد» تقول أن تحقيق الآمال بصورة عملية لا يتأتى إلا بترشيح نفسها لرئاسة الولايات المتحدة ... دخلت فى صراع عنيف استعداداً لمعركة الرئاسة التى ستحل بعد عامين. ارتفع عدد المستمعين لخطبها من ألف، إلى ثلاثة، إلى ستة آلاف. ارتفعت حرارة العداوة لدعوتها، أثاروا ماضيها وماضى أختها وممارسة الدعارة. التقطت فيكتوريا الكرة فى خبث وذكاء وأثارت قضية استغلال الرجل للمرأة فى تجارة الجنس. كشفت كثير مما تعرف، هددوها بالقتل وتخريب الجريدة. أقامت لنفسها جريدة خاصة باسم «وود هول آند كلافلانس وكلى» (WOODHULL& CLAFLIN"S,WEEKLY) وجعلتها منبرها. لقبوها بالسيدة الشيطانة أو ملكة الداعرات ... أرادت أن توسع دائرة نشاطاتها فاتفقت مع فيلسوفها «أندراوس» على ضرورة تحويل دعوتهما إلى العالمية.

قامت فيكتوريا بجولة فى عدة مدن ودعت إلى ضرورة ترابط طبقة العمال، بل نشرت فى جريدتها بيان «ماركس» الشهير. تخوف منها «ماركس» نفسه فى أوروبا وتبرأ من دعوتها واعتبرها تحريفاً واستغلالاً لدعوته.

ردت عليه فيكتوريا مستنكرة تتهمه بأنه برجوازى صغير متعفن، رجل مثل كل الرجال يغار من كونها امرأة تبشر بحرية العلاقة بين الرجل والمرأة.

حانت اللحظة الحاسمة، فى ربيع عام ١٨٧٢ دخلت فيكتوريا قاعة «اتحاد كوبر» فى نيويورك وأعلنت وسط الهتاف «اليوم أعلن رسمياً ترشيحى لرئاسة الولايات المتحدة».

تراوحت ردود الفعل بين جمهور صامت وجمهور مهلل ... وسط الدهشة أعلنت برنامجها ... دستور جديد، تعديل الميثاق الوطنى، إعطاء حق الاقتراع



للجميع على اختلاف الجنسيات والأقليات والمرأة، إلغاء الجمارك، استقرار العملة، تأمين العمل للجميع، تأمين المعاش للجميع، إصلاح السجون، إلغاء عقوبة الإعدام، النضال ضد وسائل الإرهاب أو ما يثير الصراع الدولى أو الحروب، الاتجاه إلى تكوين حكومة عالمية تجمع شعوب الأرض جميعاً.

لم تمنع معركة فيكتوريا الجادة من ممارسة حياتها الخاصة بطريقتها، تقدم لها شاب صحفى يستجوبها. شاب وسيم وقعت فى غرامه، فاستأذنت من «زوجها الشهم» فى تطبيق مبادئ حرية العلاقة.. وأذن لها!...

وحينما بدأت المعركة الانتخابية بدأ معها النحس، تخلى عنها المليونير «فندربلت» اضطرت إلى الاستدانة وإلى ترك منزلها، وإلى رهن ممتلكاتها. ظلت تتمتع بسحر استقطاب الجماهير كخطيبة وكاتبة من خلال جريدتها، لكن النحس ارتفعت درجته فقد طاردها شاب من جماعة الشباب المسيحى، يتهمها بممارسة الدعارة. قدمت للمحاكمة وقدمت ضدها عدة أدلة أدت إلى القبض عليها وإيداعها هى وأختها وزوجها السجن.

دارت المعركة الانتخابية وهى فى السجن وحصلت على ٥ بالمائة من مجموع الأصوات، وحصل منافسها جرانت «جنرال سابق تولى رئاسة أمريكا مرتين من عام ١٨٦٨ إلى ١٨٧٦» على ٣٥ بالمائة. علقت قائلة بأن حصولها على ٥ بالمائة فى بلد ناخبوه من الرجال فقط شىء لم يكن يأمله أحد.

خرجت من السجن مهدودة، أرادت أن تواصل حملتها ولكنها ضعفت فأخذت سفينة ورحلت إلى إنجلترا. أثناء الرحلة طاردتها رغباتها الخاصة، فطلبت الطلاق من زوجها وطلقها. وفى إنجلترا استقبلت بترحاب وتهليل لموجة العداوة بين الإنجليز والنظام الأمريكى آنذاك، ولحماس النساء الإنجليزيات لدعوتها التحررية. أعجب بها أحد رجال البنوك الإنجليز «جون مارتن» (JOHN.MARTEN) فتزوجته وصارت من نساء الطبقة الراقية واسعة الثراء، وتزوجت أختها «تونيس» رفيقتها فى الفضائح من ثرى آخر واستقرا فى إنجلترا. ولم يرد الزوج الإنجليزى المتيم بفكتوريا أن يحرمها من الانتقام من مجتمعها الأمريكى بعد عشرين عاماً فذهب معها عام ١٨٩٢ إلى أمريكا وتقدمت من جديد لمعركة الرئاسة الأمريكية، وأنفقت من مال زوجها الكثير ولكنها لم تحصل فى النهاية على صوت واحد. وفى عام ١٨٩٧ مات زوجها وترك لها ثروة هائلة، أما هى فقد عمرت إلى سن «٩٩» وماتت فى ١٩٢٧.

وماذا يبقى ؟

لـ (برنارد شو) مسرحية ذات دلالة عميقة بعيدة. مسرحية «عربة التفاح» كتبها عام ١٩٢٩ يصور فيها الوضع العالمى عام ١٩٦٢.

المسرحية تستعير فى مغزى أسماء رومانية قديمة وتتحدث عن ضيق الهيئة الوزارية الإنجليزية بتدخل الملك فى الشئون السياسية. تنذره وتنتظر الرد بعد الظهر. يفاجئهم الملك بقلب عربة تفاحهم فقد قرر التنازل عن العرش لابنه، وبالتالى سيصبح مواطناً من حقه الترشيح، وتكوين حزب يعرف ويثق بأنه سيكون قوياً فى دائرته (وندسور) وبالتالى سينتهى الأمر بأن يصبح ابنه ملكاً، ويصبح هو رئيساً للوزراء. أى أنه سيحكم وابنه سيملك.

يأتى الحدث التالى مفاجأة صاعقة. لقد طلب سفير الولايات المتحدة الأمريكية من الملك أن تتحد الولايات المتحدة مع إنجلترا لإعادة الإمبراطورية (الرومانية) العظيمة. تقسيم المصالح. سيصبح الملك إمبراطوراً، وتصبح السيطرة للأمريكان. يبلغ الملك مجلس وزرائه بذلك ... لقد قلب السفير الأمريكى عربة تفاح الجميع.

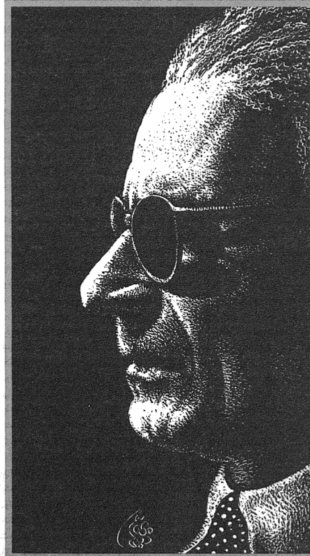
ونعود لقصة فيكتوريا الملكية، وفيكتوريا الجمهورية وصلتهما بالمسرحية. فإلى جوار حديث المسرحية المبكر عن التقارب والتطابق بين إنجلترا والولايات المتحدة رغم الفوارق البادية بين الملكية والجمهورية، وبالتالى اتفاق المنهج الفيكتورى الإنجليزى والفيكتورى الأمريكى، هناك خطة الطموح الموحد الساعية للسطوة والسيطرة على العالم تحت العلم الأمريكى.

هل استلهم (شو) مسرحيته من فيكتوريا المدعية بالفضيلة وفيكتوريا المستعرضة بالفضيحة ؟ ■

عندما يغضب طه حسين

رجـــاء الـنـقـــاش

كان طه حسين، يحلم بأن يكون للأدب العربى نهضة كبرى تنقله من حدوده القديمة وتنطلق به إلى آفاق عصرية جديدة متفتحة



ظهرت الجامعة المصرية إلى الوجود سنة ١٩٠٨، وكان تأسيسها قائما على جهود شعبية، أما تمويلها فكان مستمداً من تبرعات قدمها عدد من الأمراء والأميرات من أسرة محمد على، كما شارك فى تقديمها عدد من أثرياء مصر ولم يتردد كثيرون من المواطنين العاديين فى تقديم مساهمات أخرى مختلفة. وقد بقيت الجامعة المصرية جامعة أهلية حتى سنة ١٩٢٥، حيث تحولت إلى جامعة حكومية رسمية، وقد حملت هذه الجامعة اسم «الجامعة المصرية»، ثم «جامعة فؤاد الأول»، وأخيراً أصبح اسمها «جامعة القاهرة» وهو الاسم الذى تحمله الآن.

وعندما أصبحت جامعة القاهرة جامعة رسمية، كان من أهم كلياتها وأكثرها نشاطًا وبريقًا كليتان أساسيتان هما: الآداب والحقوق. وكان نجم كلية الآداب الساطع هو الدكتور طه حسين الذى كان فى ذلك الوقت فى السادسة والثلاثين من عمره، فهو من مواليد ١٨٨٩، وكان قد عاد من أوروبا بعد أن نال درجة الدكتوراة من السوربون فى دراسة له عن «ابن خلدون» وهى الدراسة التى ترجمها إلى العربية الأستاذ محمد عبد الله عنان. وكان طه حسين يريد لكلية الآداب أن تكون مثل كليات جامعة «السوربون» المضيئة المتلألئة، والمعروفة بحسن سمعتها العلمية والفكرية فى العالم كله، ولذلك فقد أراد طه حسين لكلية الآداب أن تحتضن أنبغ الشباب من طلاب مصر، فكان يسعى بنفسه لاكتشاف هؤلاء الشباب وإقناعهم بأن يدخلوا كليته العزيزة عليه والحبيبة إلى قلبه، وهى كلية الآداب، وكان اهتمام طه حسين منصرفًا فى البداية إلى قسم «اللغة العربية» على وجه الخصوص، فقد كان يريد أن يجعل من هذا القسم أداة لتحرير الأدب العربى من حالة الجمود التى كان يعانى منها، وكان يسعى إلى إدخال المناهج الأوروبية الحديثة إلى ميدان الدراسات الأدبية العربية، وبذلك يمكن للأدب العربى أن يخرج من إطار المناهج التقليدية. وقد لجأ طه حسين إلى اختيار بعض الأساتذة المتميزين وإقناعهم بالعمل فى كلية الآداب، فهو الذى اختار أحمد أمين الذى كان قاضياً شرعياً، وأقنعه بأن يصبح أستاذاً بكلية الآداب، فخلع الشيخ أحمد أمين العمامة ولبس الطربوش، وأصبح من أهم أساتذة كلية الآداب فى تاريخها منذ نشأتها إلى الآن.

على أن طه حسين كان يمد بصيرته إلى أبعد من ذلك، فأخذ يسعى إلى أن يضم إلى كليته عدداً من الطلبة المتميزين، أملاً فى أن يصبح هؤلاء بعد سنوات قليلة جيلاً جديداً مؤثراً على ساحة البحث والدراسة والتفكير فى الأدب العربى وفى الثقافة العربية بصورة عامة. وكان طه حسين، وهو فى عز نضجه وقوته آنذاك، يحلم بأن يكون للأدب العربى نهضة كبرى تنقله من حدوده القديمة وتنطلق به إلى آفاق عصرية جديدة متفتحة.

وكان فى مقدمة التلاميذ الذين وقع عليهم اختيار طه حسين ليكونوا طلاباً فى كلية الآداب تلميذه «محمد عبد الحميد مندور» (١٩٠٧ - ١٩٦٥) الذى أصبح فيما بعد مشهوراً باسم محمد مندور. وكان مندور فى البداية راغباً فى دراسة القانون بكلية الحقوق، فمستقبل هذه الكلية من الناحية العملية كان واضحاً ومضموناً، حيث كان أهل القانون يحتلون منذ بداية القرن الماضى مكانة عالية لا تدانيها مكانة أخرى، وكانت وظيفة «وكيل النيابة» أو «وكيل النائب العام» من أكثر الوظائف احتراماً ومهابة فى مجتمع مصر، فى الريف والمدن على السواء، وكان هناك وظيفة أخرى قريبة منها هى وظيفة «معاون إدارة»، وكانت أيضاً من الوظائف المحترمة والتى لها مهابة كبيرة، والوظيفتان معاً لا يستطيع أن يشغل أى واحدة منها إلا من كان متخرجاً من كلية الحقوق. أما بالنسبة للحياة العامة فقد كان نجوم المجتمع من الوزراء والسفراء وأعضاء المجالس النيابية والصحفيين والمحامين وسائر كبار موظفى الدولة هم فى معظمهم من خريجى الحقوق ومنهم: أحمد لطفى السيد ومحمد حسين هيكل مؤلف «حياة محمد» ورواية «زينب» وغيرهما من الأعمال التاريخية والأدبية المهمة، ومن خريجى الحقوق أيضاً: أحمد شوقى وتوفيق الحكيم ويحيى حقى. ولذلك فقد كان مندور بعد أن انتهى من دراسته الثانوية يحلم فى ذلك الوقت، فى أوائل العشرينيات

لويس عوض يقول في مذكراته: لولا مندور كنت دخلت باريس حماراً وخرجت منها حماراً



من القرن الماضي، أن يكون نجماً من نجوم القانون والحياة العامة، ولم يكن شيء من ذلك ليتحقق له إلا عن طريق «كلية الحقوق»، ففي تلك الأيام كانت كلية الحقوق هي كلية المجد والبريق والمستقبل اللامع المضمون.

على أن طه حسين كان يرى في محمد مندور الطالب الصغير المتفوق الذي لم يكن قد وصل بعد إلى العشرين من عمره موهبة أدبية وعقلية فيها ذكاء ونبوغ وفضول كبير إلى المعرفة، و«استخسر» طه حسين أن يضيع هذا التلميذ المتفوق من أجل عيون الدراسة القانونية والوجاهة الاجتماعية. ولذلك بذل طه حسين جهداً كبيراً في إقناع مندور بأن يكون طالباً في كلية الآداب، قسم اللغة العربية، ولم يمانع طه حسين في أن يبقى مندور طالباً في كلية الحقوق أيضاً، مادام مصمماً على دراسة القانون، وكانت الجامعة لا تمانع في أن يجمع الطالب بين كليتين في وقت واحد مادام قادراً على ذلك. وقد وافق مندور على ما طلبه طه حسين، ودرس في الكليتين معاً، وكان ترتيبه الأول عند التخرج في كلية الآداب، كما كان ترتيبه الخامس على كلية الحقوق، مما يدل على صحة تقديرات طه حسين، لأن تفوق مندور في «الآداب» كان سابقاً ومتقدماً على تفوقه في القانون.

وفي سنة ١٩٣٠ اختير مندور عضواً في بعثة كلية الآداب إلى فرنسا. ويروي مندور ما حدث بعد ذلك في حديثه الممتع مع الناقد المعروف فؤاد دواره والمنشور في كتاب «عشرة أدباء يتحدثون»... يقول مندور:

«في الكشف الطبي سقطت في النظر، وكادت هذه النتيجة تلغي بعثتي إلى باريس، لولا أن تدخل أستاذي طه حسين، فذهب بنفسه لمقابلة محمد حلمي عيسى وزير المعارف آنذاك، وقرأ على الوزير فقرات من بحث كنت كتبته عن الشاعر الأموي «ذي الرمة»، وأعجب الوزير بالبحث، فقال له الدكتور طه حسين إن صاحب هذا البحث هو الذي أسقطوه في الكشف الطبي وكأنه سوف يعمل خفيراً. وكتب حلمي عيسى مذكرة قدمها إلى مجلس الوزراء الذي وافق على إعفائي من الكشف الطبي، وبدأت أتهيأ للسفر».

ثم يواصل مندور ذكرياته في حديثه عن بعثته فيقول:

«أذكر أن أبي أعطاني ثلاثة جنيهات ذهبية لأستعين بها وقت الحاجة، وقد أنفقتها في إحدى ساعات «الزنقة» وما كان أكثرها في باريس».

ثم يقول مندور:

«كان الهدف من بعثتي في باريس الحصول على ليسانس من «السوربون» في الآداب واللغات اليونانية القديمة واللاتينية والفرنسية وفقهها المقارن، مع حضور محاضرات المستشرقين وتحضير دكتوراة في الأدب العربي مع أحد هؤلاء المستشرقين، وقد نفذت الجزء الأول في تسع سنوات من عام ١٩٣٠ إلى عام ١٩٣٩، ولكني لم أقدم الدكتوراة، لأن الجو السياسي كان قد اكفهر في أوروبا عقب فشل رئيس الوزراء البريطاني تشمبرلين في مفاوضاته المشهورة مع الزعيم الألماني هتلر، وكان هناك إحساس عام بأن الحرب قائمة لا محالة، فضلت العودة إلى مصر دون أن أكتب رسالة الدكتوراة، وإن كنت قد حصلت من السوربون بالإضافة إلى الليسانس، على دبلوم في القانون والاقتصاد السياسي والتشريع المالي، بعد دراسة مفيدة جداً لمذاهب الاقتصاد وفلسفته وللنظم الضريبية والتشريع المالي، كان لهما أكبر الأثر في تكويني الثقافي، كما كنت أحضر محاضرات الفلسفة والتاريخ والاجتماع وعلم النفس بالإضافة إلى البرامج الأخرى المقررة».



تلك هي رواية مندور عن بعثته ودراسته في باريس. ومن هذه الرواية الشخصية نفسها نستطيع أن نخرج بعدة نتائج وملاحظات، منها أن «مندور» أقام مدة طويلة في باريس بلغت تسع سنوات، بينما الشائع في عصر مندور وبعد عصره ألا تزيد مدة البعثة عن أربع سنوات أو خمس، ومن ذلك أيضاً أن «مندور» قد توسع توسعاً شديداً غير مألوف في دراساته بجامعة «السوربون»، فدرس اللغات القديمة ومنها اللاتينية واليونانية، ودرس الآداب القديمة والحديثة، كما درس بعض علوم القانون والاقتصاد والاجتماع والفلسفة، وأهم الملاحظات على ما رواه مندور عن بعثته أن مندور قد عاد إلى مصر بعد تسع سنوات قضاها في باريس دون أن ينال درجة الدكتوراة. وهذه ملاحظة سلبية، ومهما قال مندور في تبريرها فإنه يلام عليها دون شك. ومندور يذكرنا هنا بما حدث لتوفيق الحكيم الذي ذهب هو أيضاً إلى باريس سنة ١٩٢٥ ليحصل على الدكتوراة في الحقوق، ولكنه عاد من باريس بعد حوالي ثلاث سنوات دون أن يحصل على أي شهادة قانونية، لأنه غرق في الحياة الفنية والثقافية الباريسية، ولم يكن يميل أصلاً إلى دراسة القانون، وقد عبر عن ذلك بصراحة في رسالة بعث بها إلى زميل له في كلية الحقوق هو محمود كامل الذي أصبح فيما بعد كاتباً معروفاً، وفي هذه الرسالة يقول توفيق الحكيم «سافرت إلى باريس لدراسة دكتوراة الحقوق بتخصص في الجنائي، ويعلم الله وجميع إخواني أن نفسي لا تميل إلى ذلك، وأني لست الرجل الذي يتذوق المعلومات القانونية الجافة، بل على النقيض إنني أسكن إلى الخيال، وأطمئن إلى جماله وتصوراته».

هذا ما كتبه توفيق الحكيم في رسالته من باريس، والنص الكامل للرسالة منشور في كتاب «يوميات محام» للأستاذ محمود كامل، صفحة ١١٠.

مندور يشبه توفيق الحكيم في أنهما معاً ذهبا إلى باريس للحصول على الدكتوراة، وعادا إلى مصر بدون هذه الدكتوراة. ولكن هناك فرقاً مهماً بين مندور وتوفيق الحكيم، فقد ذهب مندور إلى باريس في بعثة رسمية على نفقة الدولة، أما توفيق الحكيم فقد ذهب إلى باريس على نفقته الخاصة، ولم يكن للدولة علاقة مادية أو معنوية به، كما أن مندور قضى في باريس تسع سنوات، من ١٩٣٠ إلى ١٩٣٩، أما توفيق الحكيم فقد قضى في باريس حوالي ثلاث سنوات فقط.

لا شك أن عودة مندور من باريس بعد تسع سنوات دون أن يحصل على الدكتوراة قد أغضب أستاذه طه حسين أشد الغضب، وانتهى الأمر بأن انقلب الأستاذ من موقف الرعاية والتشجيع لتلميذه إلى موقف آخر يريد فيه الأستاذ أن يعاقب تلميذه معاقبة عنيفة قاسية. لقد قام طه حسين بتسهيل أمور البعثة إلى باريس لتلميذه مندور، وسعى بنفسه إلى التغلب على المشاكل التي وقفت في طريق هذه البعثة، وكان ينتظر بعد ذلك من تلميذه أن يعود إلى مصر وقد حصل على الدكتوراة ببحث مهم ومحترم كان المفروض أن يقدمه إلى جامعة السوربون، أما أن يقضي مندور تسع سنوات في باريس دون أن يحصل على الدكتوراة فقد كان ذلك من الأمور غير المقبولة من جانب طه حسين.

ولا تفسير لما حدث لمندور، وهو المعروف بالجدية والاجتهاد والاستقامة والنبوغ المبكر، سوى أنه قد غرق في حياة باريس الثقافية والأدبية والفكرية، وأصيب بما يمكن أن نسميه باسم «شهوة المعرفة»، فأراد أن يتعلم أشياء كثيرة متنوعة، ولم يستطع أن يكبح جماح عقله الذي يريد أن يعرف كل شيء، وأن يتعلم كل صغيرة وكبيرة، وبذلك عجز عن «التركيز»، وهو أمر ضروري ومطلوب في مجال العلم، وإلا ضاع الوقت المتاح للدارس والباحث، واتسعت أمامه مسارح العلوم المختلفة، وأفلتت الأمور من بين يديه.

ويبدو أن هذا هو ما حدث بالضبط لمندور، ويساعدنا على القول بذلك ما كتبه الدكتور لويس عوض في كتاب جميل ومعروف له هو «مذكرات طالب بعثة»، وقد كتب الدكتور لويس هذا الكتاب بالعامية المصرية، تطبيقاً لنظريته القديمة الخاطئة التي كان يدعو إليها في فترة من فترات حياته الأدبية، وهي نظرية الدعوة إلى الكتابة بالعامية التي هي لغة الحديث اليومي، تمهيداً لاستخدام العامية بصورة نهائية كلغة للكتابة بدلاً من الفصحى. ولم تنجح دعوة لويس عوض ولا الدعوات المشابهة لها، ولم يعد لويس عوض نفسه إلى الكتابة بالعامية بعد كتابه «مذكرات طالب بعثة». والذي يهمنا هنا من هذا الكتاب هو ما كتبه لويس عوض عن زيارته الأولى لباريس، حيث تعرف لأول مرة على محمد مندور، وعن طريق مندور تعرف على خفايا باريس الثقافية والفنية في وقت قصير،

ويقول لويس عوض تعليقًا على ما استفاده من مندور أنه قد وفر عليه قراءة كتابين أو ثلاثة كتب على الأقل عن باريس، ثم يقول لويس عوض بالنص:

«الحق يقال، أنه من غير مندور كنت دخلت فرنسا حمارًا وخرجت منها حمارًا».

هذه العبارة الطريفة التى يقولها لويس عوض عن لقائه مع مندور فى باريس حوالى سنة ١٩٣٧ تدل دلالة قاطعة على أن مندور كان قد درس الكثير، وتعلم أفضل ما يمكن أن يتعلمه طالب نهم عاشق للمعرفة عن باريس والثقافة الفرنسية، وكانت معلوماته واسعة ودقيقة وممتعة، وقد ذهل لويس عوض من شخصية مندور وغزارة علمه وحدة ذكائه عندما التقى به لأول مرة، وعبر لويس عوض عن فتنته بمندور تعبيرًا صريحًا خفيف الظل كما رأينا فى العبارة السابقة التى سجل فيها فضل مندور عليه.

ولكن، هل يمكن لشىء من هذا كله أن يغفر لمندور عند طه حسين؟ كلا بالطبع. فطه حسين يريد من تلميذه النابغ أن يحصل على شهادة «الدكتوراة» حتى يكون مؤهلاً للتدريس فى الجامعة، ولكن مندور لم يحصل على الدكتوراة، فحل عليه غضب شديد من طه حسين.

ونعود إلى رواية مندور لما حدث له بعد عودته باريس حيث قال فى حديثه مع الأديب الناقد فؤاد دواره فى كتابه «عشرة أدباء يتحدثون»:

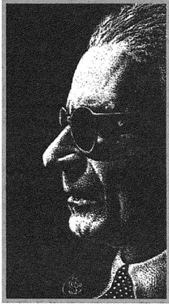
«عدت إلى مصر من باريس فى يوليو سنة ١٩٣٩، وكان المرحوم أحمد أمين قد أصبح عميدًا لكلية الآداب، ولم أكن قد حصلت على الدكتوراة فى الأدب العربى، فرفض الدكتور طه حسين الذى كان مسئولاً عن قسم اللغة العربية أن أقوم بالتدريس فى هذا القسم. ورفض قسم اللغات القديمة أن أقوم بالتدريس فيه لأننى تعلمت هذه اللغات على أساس المنهج الفرنسى، ورئيس القسم إنجليزى ويقوم بتدريس اللغات القديمة على أساس المنهج الإنجليزى. أما رئيس قسم اللغة الفرنسية فقال إن لديه من الأساتذة الفرنسيين ما يكفيه وزيادة. وهكذا وجدتنى بعد العودة من باريس ضائعًا ضياع الأيتام على موائد اللئام، ولم يجد أحمد أمين، عميد الكلية، أمامه سوى أربع ساعات خالية طلب منى أن أدرس فيها الترجمة من الإنجليزية إلى العربية، بالرغم من أننى عائد من فرنسا لا من إنجلترا. وفى السنة الدراسية التالية «١٩٤٠ - ١٩٤١» تمكن أحمد أمين من أن يحصل لى على بضع ساعات فى الترجمة من الفرنسية إلى العربية بقسم اللغة الفرنسية، ثم افتتحت كلية الآداب المعهد العالى للصحافة فقمت فيه بتدريس الترجمة من الفرنسية إلى العربية وتدريس اللغة الفرنسية وآدابها، حتى إذا كان عام ١٩٤٢، وتقرر إنشاء جامعة الإسكندرية اتخذ مديرها وقتذاك الدكتور طه حسين قرارًا بتعيينى بها أنا وزملائى العائدين من فرنسا دون دكتوراة!!

ويواصل مندور حديثه عن معاناته بعد عودته من بعثته الفرنسية دون أن يحصل على الدكتوراة فيقول:

«كان أستاذى أحمد أمين فى تلك الفترة يلح علىَّ فى أن أجتهد فى كتابة رسالة الدكتوراة، وأن أفرغ منها بأسرع ما أستطيع لتصحيح وضعى فى الجامعة، وكان مدفوعًا فى ذلك بعدالة القاضى ونزاهة العالم وعطف الأستاذ المحب لتلميذه، واقترح أن يكون موضوع رسالتى هو «تيارات النقد العربى فى القرن الرابع الهجرى» فوافقت على الفور، وقام أحمد أمين بإجراءات التسجيل والإشراف على هذا البحث، وتفرغت أنا للعمل الجاد، فانتهيت من كتابة الرسالة فى مدة تسعة أشهر، وهى نفسها كتابى الكبير الذى أعيد طبعه عدة مرات، وأصبح مرجعًا جامعيًا من المراجع الأساسية لدارسى الأدب العربى، خاصة فى جامعاتنا العربية كلها، ويكاد يكون المرجع الوحيد فى هذا الحقل البكر، والاسم الذى يحمله هذا الكتاب هو: النقد المنهجى عند العرب».



ويواصل مندور حديثه فيقول: «ويظهر أن تحضيرى الدكتوراة بإشراف أحمد أمين قد أثار سخط أستاذى الدكتور طه حسين، فأعلن أكثر من مرة أنه لن يعترف بهذه الدكتوراة، ورفض أن يشترك فى اللجنة التى تناقش الرسالة، غير أنى وجدت فى رعاية أحمد أمين لى بعض ما عوضنى عن إعراض الدكتور طه حسين عنى، فقد طلب منى أحمد أمين لتفريج أزمتى المالية أن أترجم إلى العربية كتاب «دفاع عن الأدب» لجورج ديهامل الذى نشرته «لجنة التأليف والترجمة والنشر» التى كان يرأسها أحمد أمين نفسه، كما ضمنى إلى عضوية هذه اللجنة، وترجمت لها كتابًا آخر هو «من الحكيم القديم إلى المواطن الحديث» وهو كتاب بالغ النفع والعمق، ألفه أربعة من أساتذة السوربون، وتحدث كل واحد منهم عن المثل الأعلى الذى ساد العالم المتحضر فى فترة من فترات التاريخ. وكلفنى أستاذى أحمد أمين بترجمة كتاب ثالث بناء على اقتراح من مستشار الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، وكان وقتها هو الأستاذ ساطع الحصرى،





لماذا غضب طه حسين على مندور وحاربه وأرغمه على الاستقالة من الجامعة؟



فقمت فعلاً بترجمة الكتاب وهو «تاريخ إعلان حقوق الإنسان» للفيلسوف الفرنسى «ألبير بايبه»، وفى الوقت نفسه كان أحمد أمين طيب الله ثراه قد فتح أمامى باب الكتابة فى مجلة «الثقافة» التى كانت تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر، وكان أحمد أمين يرأس تحريرها، فبذلت أقصى جهد ممكن استجابة لهذا العطف الأبوى الكريم، وكتبت سلسلتين من المقالات، الأولى بعنوان «نماذج بشرية»، والأخرى بعنوان «فى الميزان الجديد»، وبالرغم من أن مكافأة هذه المقالات كانت زهيدة لا تتجاوز جنيهًا ونصف جنيه للمقال، فإنها أسهمت فى حل الكثير من مشاكلى المالية، كما أنها ساهمت أكبر المساهمة فى بناء اسمى العام عند جمهرة القراء، ولفتت إلى اسمى الأنظار بشكل واضح، كان له أكبر الأثر فى مستقبلى بعد ذلك، ويبدو أن كل ذلك قد زاد من سخط أستاذى طه حسين ضدى، فبعد أن حصلت على الدكتوراة سنة ١٩٤٣ بمرتبة الشرف الممتازة، تقدمت إلى الدكتور طه حسين بوصفه مديرًا لجامعة الإسكندرية التى أعمل بها طالبًا ترقيتى إلى وظيفة مدرس «أ» من الدرجة الرابعة، فإذا به يرفض طلبى ويحتد فى رفضه بصورة دفعتنى إلى التفكير الجدى فى الاستقالة من الجامعة، رغم أنى كنت قد ارتحت إلى التدريس فى كلية الآداب بالإسكندرية، والتى عهدت إلى بتدريس الأدب العربى والنقد القديم والحديث، بل وتدريس علم «العروض» أيضًا، وهو العلم الخاص بأوزان الشعر العربى».

«حدثت هذه الأزمة بينى وبين جامعة الإسكندرية عام ١٩٤٤ فى منتصف السنة الدراسية، ولم أكن قد أكملت فى عملى بالجامعة عامين بعد، فبدأت أبحث لنفسى عن عمل آخر قبل أن يحتدم الصدام بينى وبين جامعة الإسكندرية وعلى رأسها أستاذى طه حسين، ولم ألبث أن قدمت استقالتى بالفعل».

تلك هى القصة التى يرويها مندور عن خلافاته مع طه حسين، وقد حرصت على أن أنقل تفاصيلها على لسان مندور نفسه، ومن الملاحظ أن مندور فى روايته لما حدث له لم يقل كلمة سوء واحدة ضد أستاذه طه حسين، مما يدل على أن مندور كان يحترم طه حسين ويعرف قدره

ويحرص على ألا يقول عنه شيئًا جارحًا، رغم ما ناله على يدى طه حسين من أذى صريح واضح.

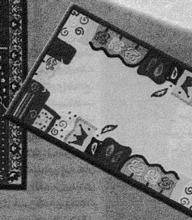
والحقيقة أن مندور كان صاحب شخصية تتميز بالموضوعية والتعفف والتفكير المنطقى الواضح الدقيق البعيد عن الانفعالات السريعة، ويمكننا أن نقول عن مندور إنه كان مثالاً للمثقف المتحضر العصرى الذى يرفض الدخول فى خصومات شخصية، وكل ما كتبه مندور فى النقد الأدبى والفكر السياسى يثبت ذلك ويؤكده.

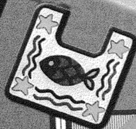
ونعود إلى موقف طه حسين الذى تخلى عن تلميذه بعد أن كان قد تبناه ودافع عنه وأرسله فى بعثة إلى باريس سنة ١٩٣٠، وتحت تأثير غضب طه حسين على تلميذه، فإن مندور قد آثر الاستقالة من الجامعة ليعمل بالصحافة والحياة السياسية العامة، وقد حقق مندور فى هذه المرحلة الجديدة من حياته نجاحًا كبيرًا واسعًا عوضه عن خسارته لعمله الذى كان يحبه ويرتاح إليه فى الجامعة. ويبقى أمامنا غضب طه حسين الذى يحتاج إلى بعض التفسير. وأول هذا الغضب كان مصدره عدم حصول مندور على الدكتوراة من باريس بعد أن قضى فى بعثته الفرنسية تسع سنوات متواصلة. وهذا خطأ لا شك فيه من جانب مندور، ومهما كانت التبريرات التى قدمها مندور لهذا الخطأ قوية، فإن الخطأ يظل قائمًا ويلام عليه مندور لومًا صريحًا. وهذا الخطأ من جانب مندور هو أمر لا يمكن أن يتقبله طه حسين، ولعله قد تصور أن مندور كان يقضى وقته فى باريس فريسة للعبث واللهو واللعب وإضاعة الوقت، وأنه انصرف عن عناء البحث والدراسة إلى الاستمتاع بليالى باريس وإغراءاتها الكثيرة.

وعندما عاد مندور إلى مصر، أخذ طه حسين يعاقبه، بل ويطارده فى عمله الجامعى، فى القاهرة مرة وفى الإسكندرية معًا، ويبدو أن طه حسين كان قد اقتنع اقتناعًا كاملاً بأن مندور لم يكن جادًا فى ميدان العلم، فصرف النظر عن معاونة تلميذه وتشجيعه، واستسلم طه حسين لفكرة ثابتة عنده دون أن يراجعها أو يخفف منها، فقد خذله تلميذه النابغ وخيب ما كان يعقده عليه من آمال، ولا شك أن طه حسين كان لديه ما يبرر له غضبه من النتائج الظاهرة، ولم يستطع مندور أن يدفع أستاذه إلى إعادة النظر فى موقفه، ومن الواضح أن تحول مندور إلى الاعتماد على أستاذ آخر هو أحمد أمين قد أشعل مزيداً من الغضب فى نفس طه حسين، وقد سجل مندور هذه الملاحظة فى حديثه عما جرى له، ولا شك أن غضب طه حسين على مندور بهذه الصورة المستمرة والعنيدة، يكشف عن الجانب الحاد العنيف من شخصية طه حسين العظيمة، وهذا الجانب يمكن أن يكون مصدر نقد واعتراض حتى عند أنصار طه حسين والمحبين له والعارفين بفضله، فقد كانت حربه ضد مندور مبالغًا فيها، وكان جديرًا بطه حسين أن يخفف منها، أو على الأقل أن يترك مندور «فى حاله»، بحيث يستطيع التماس العون من أساتذة آخرين بعد أن فقد عون طه حسين.

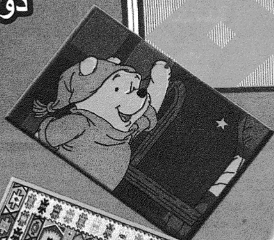
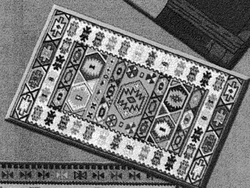
لم يكن مندور قادرًا على تحمل غضب طه حسين أو تحمل العقاب المستمر الذى يتعرض له على يد أستاذه، فاستقال من الجامعة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وأثبت «مندور» خارج الجامعة أنه صاحب كفاءة عالية، وأنه كان قد تعلم فى باريس علماً واسعاً لا يمكن أن يحصل عليه إلا الأشداء وأصحاب العزم والإرادة القوية من الباحثين وطلاب المعرفة. وقد أصبح مندور قوة فكرية وأدبية وسياسية عميقة التأثير على الرأى العام فى الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضى وحتى وفاته سنة ١٩٦٥ وهو فى الثامنة والخمسين، حيث إنه من مواليد ١٩٠٧. وإذا كانت الجامعة قد خسرت باستقالة مندور أستاذًا نابغًا، فقد تحول هذا الأستاذ إلى جامعة شعبية كبرى، عن طريق المقالات والدراسات والمحاضرات الحرة والكتب الكثيرة التى أصدرها فى حياته القصيرة الخصبة والمليئة بالأحداث العنيفة. على أن مندور لم ينقطع نهائيًا عن التدريس، فقد أتيح له أن يقوم بالتدريس فى «معهد الفنون المسرحية» وفى «معهد الدراسات العربية» التابع للجامعة العربية، وقد تخرج على يد مندور كثيرون من التلاميذ، كما استطاع من خلال عمله كأستاذ أن يقدم العديد من الدراسات الأدبية المهمة، وخاصة عن الأدب العربى، شعرًا وقصة ومسرحًا، فى القرن العشرين. ■

سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال

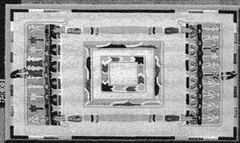
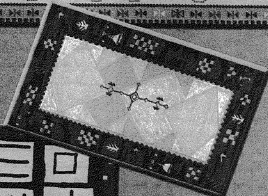
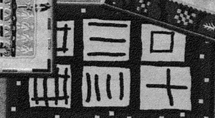
دواسات حمام

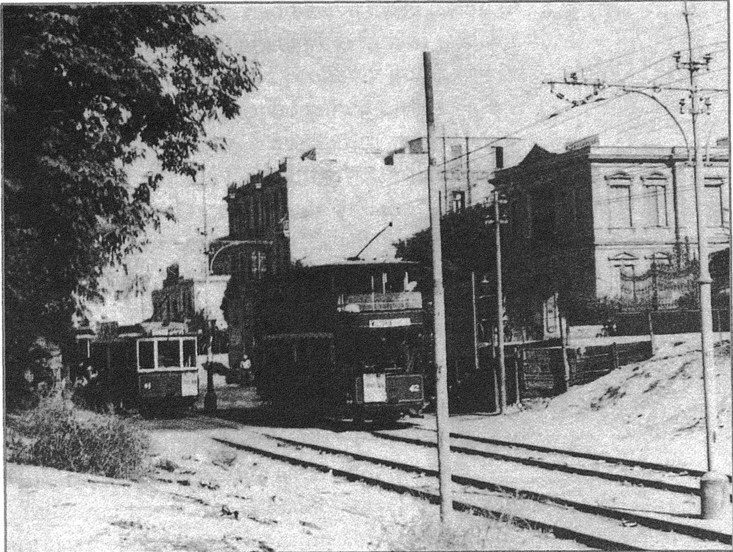



متواجد في مراكز بيع بواقي



قطع موكيت



تـــرام الــرمـــل ١٩٢٠

عندما كانت الإسكندرية

■■ الإسكندرية مدينة متوسطية يسكنها خمسة ملايين نسمة، كثير منهم يتكدسون فى أحياء فقيرة. واستمرت الإسكندرية فى جذب الانتباه نتيجة لما كانت عليه فى

Alexandria: City of Memory
(الإسكندرية مدينة الذكرى)
Michael Haag
Yale University Press, 368PP., $35.00

بترتيب مع:
New York Review of Books

ترجمة: إيمان عبدالعزيز

السابق أكثر مما تجذبه لما هى عليه الآن. ولا يوجد بالمدينة معالم سياحية تقليدية على الرغم من أن هناك مبنى جديداً طموحاً تشترك فى رعايته اليونسكو يحاول إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة. وقد أسس الإسكندر الأكبر هذه المدينة عام ٣٣١ قبل الميلاد، وكان يحتاج إلى عاصمة جديدة لإمبراطوريته العالمية، ورأى الإسكندر هوميروس فى منامه، كما يدعى بلوتارك، وقاده إلى موقع المدينة وهو برزخ ضيق يقل عرضه عن ميل بين البحر وبحيرة مريوط. ولقد بنيت الإسكندرية فوق طمى أثيوبيا الذى دفعه النيل. وبتعبير هوميروس:

تضطجع المدينة حيث تصخب الأمواج بصوت مرتفع

إنهم يسمونها منارة على الشاطئ المصرى

فى كتابه الجديد يمزج ميشيل هاج بين الذكرى والسيرة الذاتية والسياسة والدراسات الثقافية فى عمل نثرى واضح لا تذوب فيه. وهو يتتبع أثر قنسطنطين كفافى Constantine Cavafiy وى. م فورستر Forster ولورانس داريل Lowrence Durrell، وذلك من أجل إعادة بناء تلك المدينة التى كانت ذات يوم مدينة مفتوحة متعددة الثقافات غادرها معظم الأجانب فى عهد ناصر. ولقد دعى بعضهم بعد ذلك إلى العودة تحت حكم السادات لكن لم يأتِ إلا القليل منهم.

وفى كل الأحوال كان الإفلاس قد لحق بالصورة التى رسمها الأدب للإسكندرية كما يمكن أن نرى فى اثنين من أفضل روايات نجيب محفوظ: «الرجل الذى فقد ظله» و«ميرامار».

فى عام ١٩٢٢ كانت الإسكندرية مدينة يسكنها حوالى أربعمائة ألف، وتعتبر إلى حد كبير مدينة أوروبية مثل نابولى ومرسيليا. ولقد كان ميناؤها العظيم عملياً ميناءً بريطانياً يديره إنجليز يرتدون الطرابيش. وقد قام فورستر فى نفس العام الذى وضع فيه اللمسات النهائية لكتاب (A passage to India) بنشر دليل مثير للمشاعر وفريد فى نوعه للآثار القديمة غير المرئية فى الإسكندرية. والآن لم يبق أى أثر لها، بل إن المرء لا



ايف كوهين على الشاطئ

يستطيع أن يعرف بيقين أين كانت. فربما تكون قد غرقت فى البحر أو تكون قد طمرت تحت خطوط الترام التى تصدر صريرًا أو القصور المنهارة التى هجرت طويلاً واكتست بالعشب الذى بقى منذ زيارات فورستر.

وزاد من كربه أن المسلتين البطلميتين اللتين بقيتا واحدة مقلوبة والأخرى معتدلة تم نقلهما إلى نيويورك ولندن على التوالى حيث لازالتا تعرفان بمسلتى كليوباترا. وعندما كان فورستر يعيش فى الإسكندرية كان من أسباب ابتهاجه صداقته لقنسطنطين كفافى، الشاعر اليونانى العظيم الذى نقل، كما يقول فورستر «بشكل مؤثر حضارة مدينته المختارة». ولقد أضاف فورستر فى الدليل الذى وضعه ترجمة مبكرة لقصيدة كفافى التى تلازمه «تخلى الله عن أنطونيو» التى تشير إلى النذير الذى أعلن عن سقوط مارك أنطونيو:

عند منتصف الليل
عندما تُسمع الجوقة الخفية فجأة
تمر مع موسيقى خلابة
....
أنصت إلى الجوقة الغامضة
وادع إلى حفلة وداعها
وداع الإسكندرية
إنك تخسر

لقد كان كفافى شاعر الهزيمة والإخفاق

لازال الدليل. الذى يحمل عنوانًا كاملاً هو «الإسكندرية: تاريخ ودليل». يبهج الزوار كما يبهج المسافرين بالخيال الذين يفتنهم نثره الذى أعيد نشره عدة مرات. وعندما يأخذنا فى جولة خلال الشوارع المكتظة بالحوانيت المتهالكة التى تبيع الأحذية رديئة الصنع والملابس الرخيصة، فإنه بذلك يستحضر مدينة الأشباح الضخمة بشوارعها الرخامية القديمة التى تصطف الأعمدة الرخامية على جانبيها.

لقد كتب فورستر يقول «من هذه البقعة التى لا ملامح لها - محطة الترام الأخيرة المترية - يبرز فجأة هيكل ضخم، القيساريوم.

ويحذر فورستر هؤلاء الذين يتفحصون المتحف الإغريقى الرومانى الخلاب الملىء بالتماثيل النصفية والعملات وأشكال التراكوتا والمومياوات والتماثيل الصغيرة الرائعة، بأنهم سوف يكتشفون أنهم لم يتركوا إلا مع ذكرى مبهمة للسخرة.. ولا ينبغى (للزائر) أن يزور المجموعة حتى يتعلم أو يتخيل شيئًا عن المدينة القديمة.. عندئذ قد يجد أن مسحة من الماضى قد استعادت الحياة.

ربما كانت الرأس الرخامية الرائعة التى يقال إنها كليوباترا إحدى تلك المسحات، إن الذقن والشفاه محفورة فى انحناءات واضحة تدل على القوة، والجبهة تبرز للأمام وتشكك فى الفكرة التقليدية عن جمال كليوباترا الرائع.

ايمـــــوس ايـــــلون

"أوروبية" ... مدينة الذكرى

يبدأ متحف فورستر غير المرئى وينتهى باستدعاء الماضى، قيصر وأنطونيو وكليوباترا، والسيرابيوم، والمعبد الوثنى البطلمى، والموزية (إحدى إلهات تسع شقيقات يحمين الغناء والشعر والفنون والعلوم، ومجمع فكرى عظيم يمكن مضاهاته بجامعة. ويشمل المتحف أيضًا القيصريون والذى بدأت كليوباترا فى بنائه تكريمًا لأنطونيو وأكمله أوكتافيوس تكريمًا لنفسه، وقبر الإسكندر (يقال أن جثمانه وضع مثل جثمان لينين فى تابوت زجاجى)، وكذلك المنارة الشهيرة إحدى عجائب الدنيا السبع فى العالم القديم - وبالطبع المكتبة العظيمة بوثائقها التى بلغت أربعمائة ألف والتى تحفظ التراث المعرفى والأدبى للإغريق، والتى اجتذبت أعظم الشعراء والمفكرين فى العصر الهللينستى إلى البيئة الكوزموبوليتانية للإسكندرية، ومن بين هؤلاء إغريق ورومان وفينيقيون ومصريون ويهود متخذين للسمات الهللينية (أى متشبهين).

يقول هاج «ليس ثمة شىء مادى هناك تقريبًا، فلو بقى الجانب الأعظم من المدينة موجودًا لقلت ملازمته لك».

«لقد تُرك الخيال للحلم، والحلم يصبح بالنسبة للبعض شيئًا ملموسًا ومحسوسًا وواقعيًا. وعلى العكس من روما أو أثينا بآثارهما الباقية فإن الإسكندرية حميمية تمامًا، إنها تبقى خبرة مستمدة من الكتب حتى هذا اليوم».

لقد كانت الإسكندرية هى نيويورك العالم القديم. كانت أول مدينة عالمية كما يقول سترابو Strabo، فاحشة الثراء، وأعظم سوق تجارى فى العالم المأهول. وهى محدودة بالماء مثل مانهاتن، وشوارعها ممتدة كخطوط مستقيمة لا انحراف فيها تتقاطع فى زوايا قائمة مع طرق واسعة. كما أنها مثل نيويورك نقطة التقاء أعراق ولغات وثقافات وأديان مختلفة. وهى مثل نيويورك مدينة بها أكثر كثافة سكانية لليهود فى العالم. لقد بدأ الشتات اليهودى فى الإسكندرية قبل تدمير القدس بزمن طويل. ولمدة تزيد على ثلاثة قرون، كانت الإسكندرية أكثر المدن ثقافة على وجه الأرض. وقد اعتاد هيلاس Hellas بعقله البارد صياغة الأساطير المصرية. وبالنسبة للآخرين يمكن أن يقال إن القدس قد أصبحت منصهرة مع أثينا كما لم تفعل فى أى مكان آخر. هنا قام سبعون من الحكماء اليهود بترجمة العهد القديم إلى اليونانية بأمر أحد الملوك البطالمة، وكانوا يقومون بالترجمة فى نفس الوقت كلٌ معتزل فى صومعته، وقيل إن كل الترجمات السبعين تطابقت بإعجاز وأنها بالتالى موحاة من الله.

لقد عاش هنا الفيلسوف اليهودى فيلو الذى فهمت فلسفته بدقة، وكان يكتب بلغة إغريقية بالغة الثراء عن فلسفة أسفار موسى الخمسة. وتصور قصيدة لكفافى بعنوان «عن العبرانيين عام ٥٠ ميلادية» واحد من هؤلاء اليهود المتخذين للسمة الهللينية:

مصور وشاعر، عداء ورام للقرص
عادل مثل أنديميون، لانثيس ابن أنطونيو
من أسرة عزيزة على المعبد اليهودى
ولكنه لم يبق على أى من هذه الصفات
لقد وجد فيه مبدأ اللذة
وفنون الكسندر
عابداً مجتهداً



تعتبر المدن المفتوحة أصل المجتمعات المنفتحة. ومع ذلك لم تكن الإسكندرية دائمًا مكانًا للتسامح. فكثيرًا ما كان الإغريق واليهود يهاجم بعضهم البعض بقسوة. لقد استشهد المؤرخ اليهودى جوزيفوس فلافيوس Josephus Flavuis بالإمبراطور كلاوديوس Claudius الذى حث يهود الإسكندرية على ألا يكونوا بهذه القسوة فى إدانتهم للآلهة الأخرى، رغم أنه كان من نواح أخرى مواليًا لليهود. كما ترأس فيلو فى كبره وفدًا يهوديًا إلى روما يناشد كاليجولا بلا جدوى أن يضع حدًا للهجمات الإغريقية ولم يطلب الإمبراطور سوى معرفة السبب فى أنهم لا يعبدونه كإله.

تفوق الإسكندرانيون أيضًا فى الإنجازات التقنية والعلمية. فقد اخترع أرشميدس رفاص الماء الذى ظل يسحب الماء من النيل.. كما بين إقليدس أن المعرفة، ليست الجغرافية فقط بل كثير من المعارف الأخرى يمكن اشتقاقها بالأساليب العقلية.

كما أن هايبسيكلى Hy psicles قسم دائرة البروج إلى ٣٦٠ درجة. وسبق أرستاركوس Aristarchus كوبر نيقوس بحوالى ١٨٠٠ عام. كما قام إراتوس ثينيس Eratos Thenes بحساب قطر الأرض.

كانت المدينة القديمة مليئة بالقصور الفخمة والمسارح وصالات الألعاب الرياضية. أما الطريق الرئيسى الممتد من الشرق إلى الغرب، فكان يقطع المدينة من بوابة الشمس إلى بوابة القمر، وكان مغطى بالرخام الأبيض الذى يحتمل أن يكون قد تم استيراده من كرارة بإيطاليا. ولقد قال الفاتح العربى عمرو بن العاص سنة ٦٢٤ أنه عندما دخل المدينة كان يحجب عينيه بسبب كل هذا الرخام. ولقد تدهورت الإسكندرية تحت الحكم العربى ولم يجد نابليون هناك إلا قرية صيد صغيرة. أما المدينة الحديثة فقد ظهرت للوجود فى القرن التاسع عشر تحت حكم محمد على، وهو مغامر من أصل ألبانى أصبح خديوى مصر المستقل عمليًا عن السلطان العثمانى فى اسطنبول. ولقد دعا المقاولين الأجانب للاستقرار فى المدينة وقدم لهم أراضى لمنازلهم ومتنزهاتهم وأماكن العبادة والمدارس. وقد استجاب لدعوته كما يخبرنا هاج كل من الإغريق والإيطاليين والفرنسيين والإنجليز وعدد قليل من الأمريكيين وكثير من اليهود الشرقيين من شمال أفريقيا والشرق الأوسط. وقد وصل ثاكرى Thackeruy سنة ١٨٤٤ مستعدًا للاستسلام لغموض الشرق إلا أنه وجد مدينته أكثر شبهًا بـ «بورتثموث».

كتب هاج يقول إن قليلاً من المتوطنين الجدد أصبحوا تدريجيًا أناسًا بالغى الثراء باعتبارهم بارونات قطن ورجال بنوك وسماسرة بورصة ورجال صناعة. وبعضهم رفعه نابليون الثالث أو إمبراطور النمسا والمجر إلى طبقة النبلاء، وقد قام مهندسوهم ومعماريوهم بتصميم وبناء الطرق الرئيسية. ومدوا قلب المدينة بطول خط حديث ذى متنزهات جميلة (كلها تقريبًا اختفت بعد ذلك). ومنطقة قلب المدينة التجارى التى أصبحت فى الوقت الحالى مهدمة ومتهالكة. وكان ثمة طريق ساحلى طوله عشرة أميال يمتد من حصن قايتباى (جزيرة فاروس السابقة) إلى أبى قير حيث قام نيلسون بتدمير الأسطول الفرنسى فى معركة النيل. وكان شارع روسيتى Rosette يمتد عبر المدينة بمحاذاة حدود طريق كانوبى. ومن الممكن رؤيته فى صورة جوية من عام ١٩٢٢، وهى واحدة من الصور النادرة والرائعة التى اشتمل كتاب هاج على نسخة منها. لقد كان شارع روسيتى هو الطريق العام الرئيسى فى الإسكندرية، ولقد أعيد تسميته باسم شارع فؤاد بعد ذلك، ثم فى النهاية فى ظل حكم ناصر سمى باسم شارع الحرية.

كانت الجماعة الأجنبية فيما بين عامى ١٨٥٠ و١٩٥٠ تضم عددًا كبيرًا من المشهورين غريبى الأطوار. من هذه الشخصيات الأمريكية البدينة أدا بورشجر فنك، ابنة أحد ملوك الحبوب فى الغرب الأوسط الأمريكى، وهى مغنية أوبرا مدربة غيرت اسمها الأول إلى عايدة وكانت تسير عبر المدينة فى عربة كبيرة مفتوحة وهى تغنى ألحان فاجنريه. شخصية أخرى هى جورج نيلكن والدبرج وهو رومانى يحمل اسمًا سويديًا وكان يتولى منصب ضابط فى الجيش الأرجنتينى كما أنه مواطن أمريكى وقام بإصدار صحيفة فرنسية، وبرغم أنه يهودى فقد كان ذا مكانة رفيعة فى الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية. وكانت المجموعات العرقية الأجنبية تميل إلى تدعيم الحركات القومية اليمينية المتطرفة فى بلادها الأم. وهكذا ففى العشرينيات من القرن العشرين ساند اليونانيون فى الإسكندرية الفثريوس فينيزيلوس Eleftherios Venizelos ومجلته المسماة فكرة، وأيدوا استعادة الإمبراطورية البيزنطية عن طريق تغلغل الحدود اليونانية داخل الأناضول التركية. ولقد قدم أحد بارونات القطن اليونانيون لبلده القديمة سفينة حربية كاملة التجهيز من أجل هذا الغرض. وبواسطة المساعدات المالية من الإسكندرية أقدمت اليونان على غزو تركيا عام ١٩٢٠ فى حملة عسكرية مشئومة أسفرت عن ترحيل مليون يونانى من الأناضول وترحيل عدد مماثل من الأتراك من اليونان.

من ناحية أخرى، كان الإيطاليون فى الإسكندرية يدعمون الفاشيين فى إيطاليا، وقد أثنوا على ضم أثيوبيا، وكانوا يلبسون أولادهم وبناتهم القمصان السوداء. وكان رودولف هيس Rudolf Hess الذى أصبح فيما بعد نائب الفوهرر فى ألمانيا النازية قد ولد فى الإسكندرية ونشأ فيها. ولقد كتب إلى أمه فى الإسكندرية من سجنه فى برلين بعد الحرب يقول «ياله من جنة تلك الموجودة فى حديقتنا على حافة الصحراء». وعلى الرغم من أن القليل من يهود الإسكندرية كانوا صهاينة إلا أن الآلاف انتهى بهم الأمر إلى الترحيب بالزعيم الصهيونى حاييم وايزمان الذى أقام فى القصر الفخم للبارون فيلكس دى ميناس عندما مر بمصر فى طريقه من فلسطين وإليها.

ولقد قام فيلكس ابن ميناس بتمويل عمليات تهريب



كانت الإسكندرية هى نيويورك العالم القديم.
كانت فاحشة الثراء، وأعظم سوق تجارى فى العالم، كما أنها مثل نيويورك نقطة التقاء أعراق ولغات وثقافات وأديان مختلفة.

قنســــطنطين كفــافى

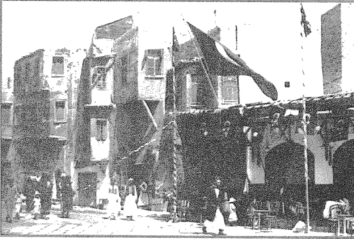


كمسارى الترام .. صــديق فورسـتر





فنـدق سـيسيل . ميـدان سـعد زغلول



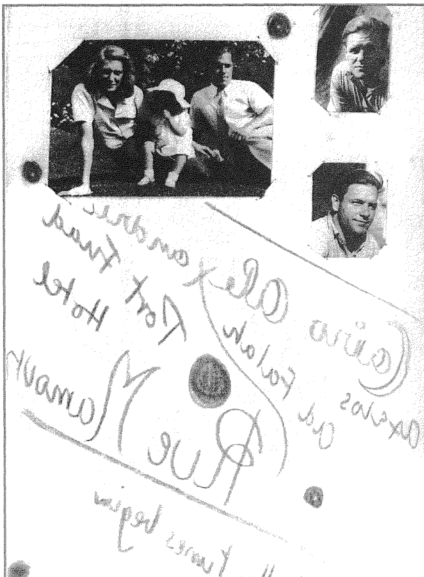
حــى شـعبى



كان رودولف هيس نائب هتلر قد ولد فى الإسكندرية ونشأ فيها.

ولقد كتب إلى أمه فى الإسكندرية من سجنه فى برلين يقول «يالها من جنة تلك الموجودة فى حديقتنا على حافة الصحراء»

تحية من لورنس داريل



برج العرب





العطارين



وسط المدينة (المنشية)



تفوق الإسكندرانيون أيضاً فى الإنجازات التقنية والعلمية. فقد اخترع أرشيميدس رفاص الماء الذى ظل يسحب الماء من النيل.. كما بين إقليدس أن المعرفة، يمكن اشتقاقها بالأساليب العقلية

المهاجرين اليهود غير الشرعيين إلى فلسطين.

بالطبع كانت هناك أعداد كبيرة من المهاجرين الأوروبيين من الشرائح العليا والدنيا من الطبقة المتوسطة، من الصاغة وصانعي الساعات والخياطين والحلاقين والبنائين (إيطاليين غالبًا) والنجارين والنادلين وأصحاب المتاجر والميكانيكيين والجزارين والخبازين والعجانين والسقاة وحراس أكثر بيوت الدعارة غرابة في البلاد المتوسطية. وعند نهاية القرن التاسع عشر كانت الإسكندرية تترنح، الإسكندرية التي كان يبدو أنها تجسد الأحلام الأشد جموحًا لأصحاب الفانتازيا الجنسية الفيكتورية، جنة عدن المخنثة حيث تتاح مختلف أشكال الملذات الجنسية كما يقول لورنس دوريل Lawrence Durrell ومع ذلك كان هناك حوالي ٣٠٠٠٠ يوناني و٢٠٠٠٠ إيطالي و٢٥٠٠٠ يهودي يشكلون أقل من ربع السكان، أما المسلمون فكانوا حوالي نصف مليون. وكثير من الأجانب كانوا قانونيًا لا يحملون الجنسية. وفي أوقات أكثر تساهلاً قبل الحرب العالمية الأولى لم يكن هذا غالبًا يشكل عائقًا.

في حين أنه كان بإمكان الجماعات المختلفة أن تزدري العرب فقد كانت تلك الجماعات متسامحة تجاه بعضها البعض، ربما مع استثناء واحد هو البريطانيون الحاكمون، طبقًا لما يقوله رونالد ستورس Ronald Stores الحاكم العسكري للقدس ذو المستقبل المرموق. لقد كتب يقول إن زوجات الموظفين البريطانيين في مصر كان عليهم أن يشحذوا أنفسهم بالعزم والتصميم قبل أن يضحوا بساعة واحدة أو ساعتين بعد الظهر في زيارة قصيرة للسيدات الوطنيات اللاتي كن بشكل عام أعرق محتدًا وأشد تهذيبًا وأرفع ثقافة وأرقى هندامًا وأبهى طلعة منهن.

كان أعضاء الجماعات الأجنبية المولودون في مصر من يونانيين وإيطاليين وروس ورومانيين يتلقون تعليمهم في الخارج إن كان ذلك في مقدورهم. وكثير منهم كان يتحدث أربع أو خمس لغات بطلاقة. وقليل منهم كان يتكلم العربية إلى الدرجة التي يهتم فيها بالسياسة المحلية. كانت مصر تمر بمخاض النزعة القومية المتيقظة - وكان هؤلاء يؤيدون اثنين من السياسيين: سعد زغلول والنحاس باشا، اللذين قدما رؤية لمصر كبلد علماني متعدد الثقافات. وكان المصور السكندري البارز محمد ناجي الذي درس في إيطاليا نصيرًا غيورًا لسعد زغلول كما يخبرنا هاج. لقد تأثر عمله الرئيسي «مدرسة الإسكندرية» المستوحى من لوحة رفاييل الجصية في الفاتيكان، بشخصيات مثل الإسكندر وسانت كاترين وأرشيميدس والفيلسوف العربي ابن رشد في قرطبة وطه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) المعروف بأنه أبو الأدب المصري الحديث. وتحيط بهم شخصية قسطنطين كفافي وعدد آخر من الإسكندرانيين ذوي الميراث الأجنبي.

لقد شارك الإسكندرانيون من أصل أجنبي. وكثير منهم من الجيل الثالث أو الرابع من الوطنيين - في هذه الرؤية الكوزموبوليتانية للمدينة، وهي الرؤية التي فصلها ووضع حدودها لأول مرة إيفارستو بريكيا Evaresto Bereccia، وهو شخص إيطالي المولد أسس المتحف الإغريقي الروماني وعمل كمدير له لفترة طويلة، ولقد تحدث عن Alexandrea de Aegyptum. لقد كانت الإسكندرية عالمًا في ذاته.

استمرت الهجرة من أوروبا والعراق وسوريا وفلسطين حتى الحرب العالمية الثانية. واستمرت كذلك حتى خلال الحرب العالمية الثانية، ولكنها توقفت بشكل محزن بعد الهجوم الإنجليزي الفرنسي الإسرائيلي المشترك على عبد الناصر عام ١٩٥٦. وبعد حرب السويس رحل جميع المتوطنين الأجانب تقريبًا.

أولى المؤلف قليلاً من الاهتمام للأغلبية الضخمة من الإسكندرانيين غير الأوروبيين أو للمتوطنين الأوروبيين الأقل ثراء. ولم يكن كتابه منصفًا ولا ثريًا في خواطره الأدبية لذلك فربما كان يشبه الوصف القصصي للطبقة العليا في نيويورك في تسعينيات القرن التاسع عشر. إنه يخبرنا عن الطبقات العليا للمتوطنين الأجانب أكثر مما نريد أن نعرف، حفلات المسرح، حفلات الشاي، حملات الصيد في المستنقعات المجاورة والصحراء الغربية. وهو يتكلم أيضًا عن الملك الصغير فاروق سيئ الطالع الذي لازال ضعيفًا، والذي كان هو نفسه ألبانيًا يتنكر في زي مصري. وهؤلاء يخدمون المؤلف ميشيل هاج جيدًا كخلفية لشهوده الرئيسيين، وهم الكتاب الثلاثة في المدينة: قسطنطين كفافي، ى. م فورستر، ولورنس دوريل. ولقد كتب هؤلاء عن شخصيات من الإغريق القدماء والإنجليز والأمريكان والأيرلنديين واليهود.

توجد بالفعل أعمال شاملة إلى حد ما حول الجماعات الأجنبية في الإسكندرية، بما في ذلك كثير من المذكرات الشخصية الحديثة. ومن بين أكثرها حداثة يعتبر كتاب أندريه أكيمان (Andre Aciman out of Egypt) أحد أفضل هذه الأعمال. وهو من قصص البطولات العائلية، غني بالألوان، ولاذع، وودود، مرح وساخر، كما أنه يعامل أبناء البلد الأصليين كأكثر من مجرد طهاة وخادمات. ولقد اكتشف هاج مصادر جديدة هامة تشمل أوراقًا غير منشورة لـ«جاسبر ييتش برينتون Jasper Yeates Brinton، وهو قانوني أمريكي مخادع من فلادلفيا، عمل لعدة سنوات كقاض ورئيس المحكمة المختلطة في الإسكندرية، وهي المحكمة التي أعطت في ظل قانون الامتيازات الأجنبية العثماني الأجانب إعفاءً من المثول أمام المحاكم الوطنية. وكان الأجانب وذرياتهم الوطنيون يمثلون أمام القضاء الخاص بالمحاكم المختلطة الذي يعمل فيه أوروبيون وقليل من السادة الشرقيين المتفرنجين (اسمها WOGS بلهجة مكتب المستعمرات).

بعد الحرب العالمية الأولى أصبح البريطانيون تدريجيًا يشعرون بعدم الارتياح تجاه المحاكم المختلطة وأعلنوا في مؤتمر فرساي للسلام بأن هذه المحاكم يتعذر تبريرها أخلاقيًا. (كان السبب غير المعلن وراء ذلك هو الخوف من أن المواطنين الأجانب المشتبكين في دعاوى قضائية وطنية مصرية سوف يتم حمايتهم من خلال خوض قضاة أجانب في صراع وطني). ومن المفارقات أنه في سنوات انحسار الحكم البريطاني كان القوميون غير راغبين في انتهاء المحاكم المختلطة. وربما كانوا خائفين من أن إلغاء المحاكم المختلطة لن يفعل سوى زيادة سلطة بريطانيا ونفوذها على النظام القانوني.

كان كفافي هو الوحيد من بين شهود هاج الأوروبيين الثلاثة الذي يعتبر من مواليد الإسكندرية. ولقد عاش هناك حتى موته بسرطان في الحلق عن سبعين عامًا. إن كآبة ورتابة حياته في شقة صغيرة في الدور الأعلى من بيت دعارة «جعلت أشد النقاد الجدد تزمتًا سعيدًا» كما كتب جوزيف برودسكي Joseph Brodsky. لقد كان كفافي شاعر المدينة الحديثة العظيم كما كان كاليماشوس Callimachus شاعر المدينة القديمة العظيم. وكما يقول كاتب سيرته الذاتية روبرت ليدل Robert Liddell لم يكن كفافي يتكلم العربية وكان يتكلم اليونانية بلكنة إنجليزية.

ولم يكن لديه اهتمام كبير بمصر القديمة قبل البطالمة وكان يقول: «أنا لا أفهم تلك الأشياء الضخمة الساكنة». ولقد أخبر الشاعر اليوناني سيفيرس Seferis بأنه ليس إغريقيًا بل إنه هلليني، فعانقه سيفيرس مسرورًا على هذه الملاحظة. وكفافي هو مؤلف الأبيات الشعرية التي يتم اقتباسها كثيرًا:

تخبر نفسك: سوف أرحل
إلى أرض أخرى وبحر آخر
إلى مدينة أحب من هذه بكثير
استطعت أن تكون دائمًا
أو آملت أن تكون
....
لا أرض جديدة يا صاحبي
ولا بحر جديد
فالمدينة ستتبعك
وفي نفس الشوارع سوف تهيم
بلا نهاية

كان هذا هو الحال بالنسبة لفورستر ودوريل. لقد تبعتهم المدينة لسنوات، بعد أن رحلوا بوقت طويل، وظلوا خاضعين لنفوذها الطاغي. لقد وصل ى. م فورستر عام ١٩١٥ كمتطوع في الصليب الأحمر، وكان قد حصل على الشهرة بالفعل من رواياته (Araom with a View) و(Hawards end) و Where Angels (Fear to Tread). ولقد التحق بالصليب الأحمر ليتجنب التجنيد الإلزامي. وكان فورستر مثل الكثير من أصدقائه في مجموعة «بلومزبري» يعارض الحرب العالمية الأولى بحماس. لقد كان يخاف بحق من أن الحرب هي إنذار بانهيار حضارة. وكان فورستر قد انتهى لتوه من رواية (Maurice) التي لم يتمكن من نشرها كما يقول هو «حتى موتي أو نهاية إنجلترا»، وذلك بسبب معالجتها الجريئة لحب مثلي.



كانت وظيفة فورستر في الإسكندرية هي القراءة

على الرغم من أن القليل من يهود الإسكندرية كانوا صهاينة إلا أن الآلاف انتهى بهم الأمر إلى الترحيب بالزعيم الصهيوني حاييم وايزمان الذي أقام في قصر فخم عندما مر بمصر في طريقه من فلسطين وإليها

للجنود الجرحى وكتابة خطاباتهم. وقد وجد ثلاثة زملاء سابقين فى الكلية الملكية، جامعة كامبريدج: روبين (الذى أصبح سير روبين فيما بعد) وفيرنس رئيس الصحافة العسكرية والرقابة البريدية، وجورج فالاسو بولوس أحد أوائل الذين ترجموا أعمال كفافى إلى الإنجليزية، وجورج أنطونيوس الفلسطينى الذى قام فيما بعد بتأليف كتاب (The Arab Awakening) وهؤلاء كانوا أصدقاء لكفافى وغالبًا ما كانوا يلتقون فى منزله للحديث عن الشعر وعن ماضى الإسكندرية. وكما قال جاستون زنانيرى فيما بعد، وهو أحد رجال الأدب الشباب، فإن الحديث كان يدور عن «الإسكندرية ليس من جديد بل استمرارًا لما كان فى الماضى».

أى شخص من هؤلاء الثلاثة يمكن أن يكون قد اصطحب فورستر فى زيارة لكفافى فى شقته فى ١٠ شارع لبسوس. ويعرف شارع لبسوس أيضًا بشارع كلايسوس. فى المواجهة توجد مستشفى. بالقرب من الزاوية ثمة كنيسة يونانية أرثوذكسية. «أين يمكن أن أعيش على نحو أفضل؟» يقول كفافى «فى الطابق الأسفل يقدم بيت الدعارة اللحم. وهناك الكنيسة التى تغفر الخطايا. وهنا توجد المستشفى حيث نموت». من المحتمل أن يكون فورستر قد قابل كفافى لأول مرة فى الشارع، ربما فى شارع مسالا المؤدى إلى قاعة البلياردو المفضلة لدى كفافى، وهو اللقاء الذى وصفه فورستر فى كتاب آخر عن المدينة: (Novelists A Sketchbook of Alexandria Through the Ages).

يقول فورستر «الخبرة المبهجة لبعض الذين يسمعون اسمهم ينطق به بلهجة قاطعة ومع ذلك تأملية - لهجة لا يبدو أنها تتوقع ردًا يظهر التقدير اللائق لحقيقة الشخصية الفردية. لقد استداروا ورأوا سيدًا يونانيًا يرتدى قبعة من القش يقف بدون حركة على الإطلاق عند زاوية متجاهلة للبشر».

أدخل فورستر شعر كفافى إلى الغرب حيث أثار إعجاب ت. س إليوت وآخرين. وعندما كان يشعر بالوحدة كان يبحث فى الشوارع عن شباب صغير. وفى الجانب الأيسر من شارع سورس المجاور كانت المومسات الإناث يعرضن أنفسهن كل ليلة، أما الجانب الأيمن من الشارع فكان محجوزًا للداعرين من الذكور. وكان كفافى يتبادل بحرية شعره المثلى مع أصدقائه. ولم يكن هذا يسبب له أية مشكلة فى الإسكندرية، أما فى أثينا فكان لا يزال يسبب مشاكل. لقد تم الاعتراف بكفافى كشاعر عظيم فى لندن قبل أثينا حيث تم إلغاء محاضرة حول شعره كان سيلقيها أحد أصدقائه وذلك بسبب سمعته السيئة.

بعد أن قابل فورستر كفافى بوقت قصير اكتشف الجنس لأول مرة فى حياته، وكان عمره وقتها سبعة وثلاثين عامًا. لقد وقع بعمق وبيأس فى حب محصل تذاكر ترام شاب. وظل يشعر لعدة شهور أن اللحظة قادمة، وعندما جاءت لم تكن لا ساحرة ولا جديرة بالازدراء كما يقول هاج. لقد غير اللقاء حياته للأبد.

ومات المحصل الشاب بعد رحيل فورستر عن الإسكندرية عام ١٩١٩ بعدة سنوات فقط، وظل فورستر يرثيه طوال حياته. فى مراجعة لكتاب (Pharos and Pharillon) فى ملحق التايمز الأدبى، كتب جون مديلتون John Middleton يقول «لقد وجد السيد فورستر فى الإسكندرية وطنًا روحيًا».

بعد ذلك بواحد وثلاثين عامًا وجد لورانس داريل، وهو شاعر مغمور وصديق حميم لهنرى ميللر، نفسه فى عزلة فى مصر أثناء الحرب العالمية الثانية. كان كفافى قد توفى عندئذ. وكان داريل يحيا فى كورفو corfu وفى أثينا لعدة أعوام وتم إجلاؤه من اليونان فى اللحظة الأخيرة بواسطة سفينة حربية بريطانية. وباستخدام دليل فورستر طاف دوريل بالإسكندرية من أقصاها إلى أدناها (دليل فورستر هو عمل فنى صغير، فهو يحتوى على جزء من أفضل قطع النثر لفورستر بالإضافة إلى براعة فى اللمسة الفنية مثل تلك التى لا يستطيع إلا روائى ذو موهبة عظيمة أن يتمكن منها)، كما تعرف دوريل على أصدقاء كفافى القدامى. وكان يقوم بإدارة مكتب المعلومات البريطانى. لم تكن هذه الوظيفة تتطلب براعة فائقة أو تستغرق الوقت كله. لقد تركت له كثيرًا من الوقت للاستمتاع بالحياة مع أصدقائه - وكان العديد منهم من أصدقاء كفافى - والمجموعة الأوروبية الأنيقة، وبارونات القطن ورجال البنوك.

وكان يذهب مع هؤلاء فى رحلات صيد، وهى الخبرة التى وصفها مؤخرًا فى رباعية الإسكندرية (The Alexandria Quartet).

كان داريل يعتبر أن نساء الإسكندرية هن أجمل نساء العالم (سوف يتزوج اثنتين منهن فيما بعد)، وكان يهذى فى حديثه عنهن بطريقته المستخفة غير المحتشمة. «إن جمال أولئك النساء يكمن فى انخفاض مستوى ذكائهن. إن الأمر يبدو كما لو كانت تمارس الحب مع «كريم شانتيه». وفى خطاب إلى هنرى ميللر يقول ليس هناك من هو أجمل ولا أكثر خواء من الفتاة الإسكندرانية. إن خواءهن نفسه عناق. تخيل إنك تمارس الحب مع فراغ».

عند نهاية الحرب غادر المدينة إلى جزيرة دوديكانيز وقبرص فى صحبة ايف كوهين وهى امرأة يهودية إسكندرانية شابة عصابية جدًا، إنها شخصية جوستين فى كتابه الأعلى مبيعًا «رباعيات الإسكندرية»، وليست على الإطلاق شخصًا ذا مستوى ذكاء منخفض. ولقد أصبحت زوجته الثانية ثم رحلت عنه مثل زوجته الأولى. وقد خصص داريل الجزء الأول من الرباعيات لها: إلى ايف، تلك الذكريات عن المدينة التى ولدت بها. وكانت زوجته الثالثة كلود من أصل يهودى إسكندرانى أيضًا، وقد ماتت بعد زواجهما بسنوات قليلة.

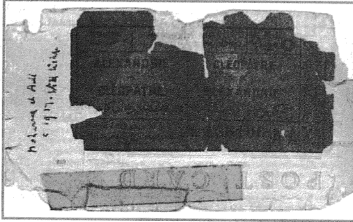
لقد بقى سحر الإسكندرية الشيطانى فى عقل داريل لسنوات. إننى أتذكر بضع أمسيات طويلة معه فى قبرص سنة ١٩٥٥ عندما تحدث عن أشياء قليلة أخرى. فى عام ١٩٥٤ أصبح موظف طباعة فى الحكومة الاستعمارية البريطانية فى نيقوسيا. لقد كان لديه مع ذلك قليل من الأوهام عن قدرة بريطانيا على أن تواصل تقدمها إلى الجزيرة. ومما يمكن تفهمه أنه استقال من الوظيفة عام ١٩٥٦. كان كتابه (Bitter Lomons) حول تجربته فى قبرص، ملهما للقوى المتصارعة والمتنقلة فى الجزيرة، كما أن الكتاب كتب بأناقة بأسلوبه الشعرى الثرى.

مع نشر كتاب جوستين Justine أصبح دوريل بين عشية وضحاها واحدًا من الروائيين الذين يحظون بالثناء على نطاق واسع فى أوروبا وأمريكا، وهى سمة تعززت مع نشر المجلدات الثلاثة الباقية من «رباعية الإسكندرية، وبالتزار Balthazar، وزيتون الجبل Mount Olive وسليا Clea. لقد تعاملت تلك الروايات مع نفس الأحداث التى تعاملت معها «جوستين» ولكن من وجهة نظر أخرى. كان التركيز طوال هذه الروايات على الحياة الرفيعة فى الإسكندرية الحديثة. والفكرة الرئيسية هى وهم الحب العصرى، والشخصيات غريبة كما كانت عندما كان دوريل يعيش فى الإسكندرية.

ومع أن ت. س إليوت رحب ذات مرة بداريل بوصفه الكاتب الإنجليزى الجديد الذى منحه الأمل بالنسبة لمستقبل الرواية النثرية، إلا أن أعماله استمرت أطول قليلاً من أعمال فورستر وكفافى، لقد استرسل نثر داريل المنمق والمبالغ فيه فى المحاكاة الساخرة، ولقد طال النقاش حول مقدار ما أمكنه أن يلتقطه من الحياة الإسكندرانية وهل فاته الكثير.

لقد قال أحد أصدقاء كفافى ذات مرة، فى الإسكندرية ثمة شىء من الماضى يعود فى كل لحظة؛ ولكنها لحظة من مدينة مفقودة. ■

تذكرة ترام

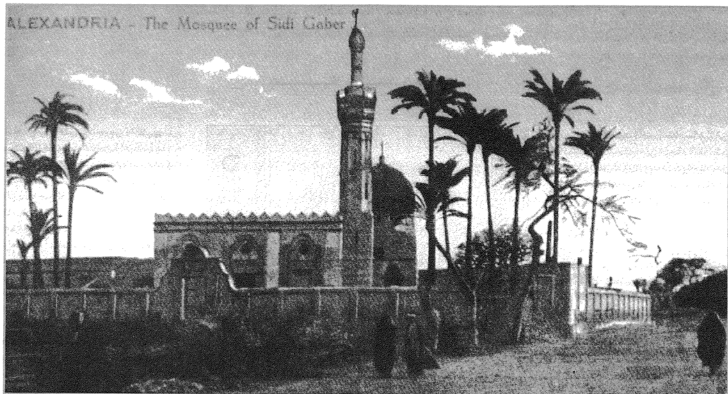


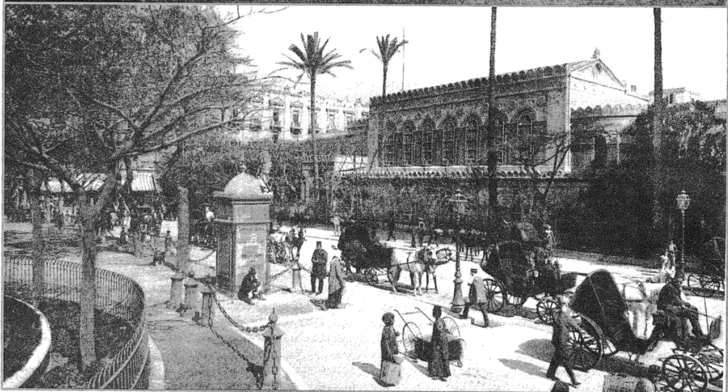


لقد تم الاعتراف بكفافى

كشاعر عظيم فى لندن قبل أثينا حيث تم إلغاء محاضرة حول شعره كان سيلقيها أحد أصدقائه وذلك بسبب سمعته السيئة

جامع سيدى جابر





كنيسة سان مايكل



مع نشر كتاب جوستين أصبح دوريل

بين عشية وضحاها واحداً من الروائيين الذين يحظون بالثناء على نطاق واسع فى أوروبا وأمريكا

صحراء إبراهيم الكونى



علاء الدين وحيد

■■ ضحالة المبدع العربى - أغلبهم - يبعثها الكثير من الضعف، أهمه جهله بمحليته .. نتاج عدم تعايشه وتعاطفه مع قريته أو مدينته. فإذا هو صفر اليدين من أرضها وسمائها وجوهر ناسها، ليتجه فى أحسن الأحوال إلى عوالم أخرى لها همومها وأحلامها وأمانيها، المختلفة كثيراً أو قليلاً عن موطنه. مما يضفى على عمله فتوراً وجموداً لا حيلة للفن إزاءهما. وقلة نادرة تستثنى من هذه اللعنة الإرادية من بينهم إبراهيم الكونى، كما تعكس مجموعته القصصية «شجرة الرتم» التى يتناول فيها أرضه الصحراوية، بكل ما فيها من بشر وحيوان ونبات وطبيعة تتغير بشكل حاد تبعاً لفصول السنة. فإذا بنا مع عالم خاص مرتبط بالإنسان فى قضاياه ومشاكله وأفراحه وأتراحه ومعتقداته وتقاليده. والفنان العربى اليقظ خاصة فى العصر الحديث يضع غالباً فى المرأة لا الرجل، الشخصية التى تمثل القيم العليا المتصلة بالمعرفة والحرية واليقظة، فى نواحى قوتها وضعفها على السواء. وكذلك يفعل الكونى وهو يتناول «غزالة» فى «الطائر المقدس» .. طفلة بحساب السنين فى العاشرة من العمر، ومع ذلك تملك من المعرفة الحياتية ما لا يعرفه ربما الكبار. إن الصحراء بانفساحها وقسوتها وصعوبة الحياة فيها، تُعلم أبناءها سريعاً، كما تنضج الصغار مبكراً وتُطلعهم بشكل أقوى على طبائع الأشياء. وكذلك كانت راعيتنا الصغيرة، التى تقل عن صاحبها ميلود عاماً. أطلعته على أمرين هامين .. الأول مفعول أوراق وأزهار شجرة الرتم المخدر الساحر، الذى يشعر متناوله بالحيوية والنشوة والانتعاش والخفة التى تحلق فى الفضاء .. والثانى .. الجنس. وبينما معلومات غزالة مستقاة من الواقع، جاءت معرفة ميلود فى كل الأشياء من أمه .. فأمه هى التى تعرف وتقول وتؤكد، وهو سميع مطيع .. وهذا سر جهله. يصور قاصنا باقتدار انزلاق الصغير بتشجيع صاحبته ودفعها، إلى عالمى مخدر الرتم وجسد الأنثى .. اللذين كان يجهلهما تماماً. وعندما تذوقهما وهو لا يدرى حقيقتهما أو أسمى فعلهما، وقع فى حبائلهما .. ظلا «يقطفان أوراق الرتم، يرقصان، ويغنيان ويضحكان، ويمارسان الحلم والغيبوبة والخيال».

واستمرا يزاولانها إلى أن اكتشف أمره، ويضربه أبوه ضرباً مُبرحاً وهو يصرح برغبته فى الزواج منها. ويحال بينه وبينها وقد تمكن منه الحب. ويبعده أبوه عند عمه. ويحاول الانتحار ويُنقذ. ويهرب فى طلب فتاته عبر الصحراء، معرضاً نفسه لأخطار الأفاعى والذئاب والبرد ولكنه يُخاطر، ويصل بعد لأىٍ ليجد «المضارب مهجورة. رحل أهلها ورحلت غزالة. ولم يبق خلفهم سوى الرماد القديم يتناثر هنا وهناك». (ص ٧١)

وعالم الصحراء الذى يعرضه قاصنا بثنائية الوهم والحقيقة، لا يتضمن تنفس الحاضر فحسب، بل يشمل كذلك نبض الماضى بهمومه العامة والخاصة أيضاً. وفى هذا الإطار تصور «الشهيد يريد أن يتكلم» دنياها التى يلتحم فيها الفزع من ليل الصحراء المليء بالسحر والأسرار والحيوانات المفترسة، ببطولة قديمة وضع صاحبها روحه فداء لكرامة بلده، بعد أن أطلق الرصاص على القائد العسكرى الإيطالى الذى أهان وطنه ودينه. حدثت فى نفس الموقع بالأمس البعيد. وصوت الشهيد المتقطع يحاول أن يخرج آخر كلماته قبل إعدامه شنقاً وإحراق خطيئته بالنار. والقصة تفسر ما استقر فى الوجدان الشعبى، من شجاعة المواطن الليبى الذى لا تزال روحه حزينة لما لحق به وبخطيبته من ظلم، يجعلها تطفىء النار وتهجس بالكلمات الموءودة التى لم تخرجها شفتاه.

وهناك أيضاً قصتان أخريان تعالجان الجانب الوطنى: «واحة كبيرة تضج بالغناء» فى أعقاب إعدام عمر المختار. والأخرى «الطريق إلى الأوراس» عن مشاركة الإنسان الليبى فى تعضيد الثوار الجزائريين.



ومع اتجاه إبراهيم الكونى الواقعى فى رصد الشخوص والأشياء والقضايا وانغماسه فى التعايش معها، مجسمة الواقع بشكل بارعٍ. فهو لا يكتفى بما بلغ بل يطلب مزيداً من الاستيعاب، ويجد فى الرمز ما يستكمل به رؤيته الفنية التى تتيح له أن يعبر عن أبعاد أخرى، لا تستكمل فى الضوء الكاشف والمستوى الصريح، لأنها تمد الحياة المعيشة بطاقات دفينة تبرز المكامن البعيدة، ورمز فناننا يستقى غالباً من مفاهيم الحس الشعبى ومناطق الفطرة فى العقل العربى والأساطير المتداولة والمتنقلة من الماضى إلى الحاضر، تمارس تأثيرها لتظهر فى الإبداع الحديث. وكذلك يفعل فى «الحلقات النحاسية». فى القصة التى تحمل نفس العنوان - مختلفة الأحجام والتى تتحول بمجرد وضعها فى الجيب إلى ذهبية.

والذهب فى الصحراء وتحوله إلى ومن عنصر آخر، أحد محاور مجموعتنا، عولج أكثر من مرة. وإذا كانت القصة الفائتة تناولت التحول إلى الذهب، فإن «الجدى الأسود» صورت تحوله إلى رماد. وارتباط ذلك فى المفهوم الشعبى بفقدان الشرط الملازم للإبقاء على تكوينه، وهو ذبح الجدى الأسود. إن الصحراء لكونها بعيدة عن العمران والتقدم والحضارة تعيش بهياكلها فى ظلال الماضى السحيق، الذى لم يتغير إلا قليلاً تاركاً العقل فريسة للأفكار السائدة قبل التوحيد ومعرفة الله والإيمان بدين سماوى. والتى تعربد فيها القوى غير المنظورة للحيوان، عندما لم



شجرة الرتم
إبراهيم الكونى
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة
. ٢٠٠٤ - ٢٣٢ ص



إبراهيم الكونى يصل فى تجسيده للصحراء، أن يجعلها كما يذهب المفهوم الشعبى عادة .. كائناً حياً إنسانياً، يفكر ويحس ويتخذ الموقف أيضاً. يقول فى إحدى قصص المجموعة: «أنت لا تعرف كم قلبها كبير هذه الصحراء. إنها تمنحك دائماً أكثر مما تعدك، وإذا خنتها فباستطاعتها أن تطاردك حيث كنت، لتقتص منك!»



يكن إلا جنسه يجابه الوجود الإنسانى. وهو اعتقاد يصل فى خطره إلى أنه لا يشكل الفكر فحسب، بل يسيطر على الفعل الخارج عن إرادة البشر. وهى المنطقة المسيطرة على طبائع الأشياء ذاتها، فتتمكن كما تصور القصة من تحويل الذهب إلى تراب.

ومن الطريف أن القصة تقدم تفسيراً آخر، يدخل أيضاً فى باب الغيبيات المضادة المتمسحة بالدين. فهذا التحول فى طبيعة الذهب، سببه إثم صاحبه كما يذهب الشيخ غوما، فالبدع تستطيع أن تلوى عنق الأشياء وتغير حقيقتها، لا تيسر المعرفة بالعلم الحقيقى بل توقفنا على جهل مختلق. كأن التزييف هو إحدى الوسائل لإرضاء تديننا الأجوف. إن الشوائب التى فرضتها الأطماع الشخصية لمرتزقة «رجال» الدين خدمة للطغاة ولأنفسهم، للتسلط على أقدار المسلمين وإبعادهم عن جوهر العقيدة .. أفسدت على الجماهير حياتها وفكرها ورؤيتها وعلاجها الصحيح لعللها. فإذا الصواب مختلط بالخطأ يتساوى فى ذلك العامى والمثقف. ونذكر فى هذا الصدد يحيى حقى و«قنديل أم هاشم» .. فالتعليل «الدينى» للحدث كما صوره الكونى أرجعه إلى الشيخ:

- إذا كان الذهب حقيقياً عند فتح القلة وتحول فيما بعد إلى رماد فإن أحدكما آثم!

«فاجأنى ذلك، خجلت من نفسى، دسست رأسى فى حجرى، أنا القادم من أوروبا وأمريكا ولكنى سمعت مأمون يقول بتحد:

- من منا ليس آثماً يا شيخ غوما .. من؟!

«ساد صمت طويل، طويل هذه المرة أكثر من أى وقت مضى حتى سمعت صوت الشيخ غوما يعترف:

- معك حق.» (ص ١٤٢)

إن الصحراء محكومة فى قسمها الأكبر بطفولة الإنسانية التى تتداعى لها السذاجة والحكم الظاهر والاطمئنان إلى أوهى الأسباب التى تريح البال والخاطر خاصة فى الأمور الكبيرة. والأوهام بعض القوانين الأساسية التى تسيطر على الحياة فى الصحراء، وتفرض مفاهيمها على أبنائها، ليس فيما يتصل بالماديات فحسب كما فى العمل السابق، بل فيما يتصل بالمعنويات أيضاً كما تقدم «العقرب».

باقتناع كامل أخت الأم عندما أنجبت طفلها الأول بينه وبين عقرب صغيرة لهدف معلوم .. ألا يمسه بسوء. «بعد شهور من ميلاده عثرت الأم على عقرب صغيرة فى خريج التمر. جاءت بعلبة طماطم فارغة وملأتها بالحليب من ثديها حتى منتصفها. تناولت العقرب بعود حطب وألقت بها حية فى العلبة. تركتها تعوم فى الحليب حتى صباح اليوم التالى. أخذت العلبة وخرجت .. ألقت بها فى الخلاء، دلقت الحليب وخرجت العقرب. مازالت تتحرك!

«فى باب البيت جلس الزوج القرفصاء يجهز شاى الصباح. قال بنبرة غاضبة:

- ما كان يجب أن تفعلى ذلك. النفس أمارة بالسوء والعدوان. ربما ارتكب حماقة، فأين سيختبئ من العقارب بعدها؟!» (ص ١٥١)

ليست الزوجة وحدها إذن التى تؤمن بالخرافة .. بل رجلها أيضاً!

وعندما وعى الطفل الحياة، حذرته أمه: «العقرب أختك فى الرضاعة لن تلدغك أبداً. وبالمقابل إياك أن تقتل عقرباً فى حياتك. اعلم أنه إذا حدث وقتلت عقرباً فإن أول لدغة عقرب ستكون قاتلة. إياك!» (ص ١٥١ ـ ١٥٢)

وتمضى القصة فى توكيد تحصين الصغير إلى أن يكبر، كأن المؤاخاة التعويذة أثمرت بالفعل، فلم يمسه سوء أبداً منها! ومع أن العقارب منبثة فى الجوار وخارج البيت وداخله، إلا أنها لم تضره. وأكثر من ذلك فهو يلاعبها .. «يتركها - أحياناً - تتجول فوق ذراعه وبين يديه وعبر جسمه كله دون أن تلدغه». (ص ١٥٢)

ويحدث وهو فى الخامسة عشرة من عمره، أن هاجمت عقرباً شقيقه الأصغر وحاول أن يبعدها، فكررت سعيها ولدغته. فلم يتمالك نفسه وقتلها، متجاهلاً فى غضبه كل تحذيرات أمه. ويمضى بعض الوقت ويشفى شقيقه بعد أن أسعف، ويتعرض هو للدغة عقرب. ولا ينفع الطب فى برئه ويموت.

فهل تقف القصة فى صف الجهالة والإيمان بالخزعبلات، أم هى الحبكة الفنية؟!

وفى قصة أخرى أيضاً الأكثر اكتمالاً وبلورة لما استهدف صاحبها وهى «رأس الثعبان»، يتم المزج الدقيق بين تنفس الواقع ونبض الأسطورة المتغلغل فى الأعماق، والمشكل لمفاهيم نابعة من الروح المحلية يستروحها الأمى والمثقف، يأتى بنتائجه الباهرة بقلم الكاتب المتمكن. حيث يختلط الوهم والإيهام والحقيقة. يساعد على ذلك طبيعة الصحراء .. «ذلك العراء الوحشى، الخفى، الذى يضج بالأرواح والأسرار والمجهول» (ص ١٢٥). لا تهدهد الغرائز وتنساق فى أحلام اليقظة المثبطة للأمل والدافعة إلى الاستسلام، بل منغمة الدفقة الإيجابية المستجمعة للإرادة الموقظة للقوى، للقضاء على الضعف والخوف والتسليم للأخطار. كما صور الكونى فى الكفاح ضد الثعبان الأسطورى المهاجم .. «الثعبان الخرافى الذى قدرت لحظتها أن طوله يزيد على خمسة أمتار وعرضه على ربع المتر. ثعبان لم تسمع به الصحراء الكبرى كلها» (ص ١١٩). والمعركة الشرسة الطويلة بينه وبين رجلين أشداء كاد يفتك بهما بعد أن التف حولهما ونجاحهما فى النهاية فى قتله. والإصرار على فصل الرأس عن جسده .. إيماناً أنه «إذا لم تقطع رأس الثعبان طاردك وقتلك حيثما كنت» (ص ١٢٠). واختلاف موقف كل منهما فى ذلك، فى نقاش موجز شديد الإيحاء بالمعانى.



تحتشد مجموعتنا بكل ما يمت إلى دنيا الصحراء بصلة .. حتى طيورها. ويرتبط بعضها بمفاهيم القوم البدائية، التى يفرضها الخوف والمجهول والخطر وامتلاك قوى سحرية غير منظورة، يمكن أن تساعد فى تحقيق الأحلام المجهضة، والمستحيلة للضعاف وقليلى الحيلة والمسحوقين فى حكم الظالمين المستبدين. ويتوقف قاصنا عند أنواع الطيور غير التقليدية مثل الطائر الأبيض، الذى يعتقد البعض وفقاً للتقاليد بقدسيته. وهو طائر «أبيض ناصع، ضخم مقارناً بطيور الصحراء، ذو منقار طويل أقنى». (ص ٦٠). «لقد حدثتنى أمى عنه كثيراً فى قصصها. إنه يظهر مرة واحدة فى العمر للإنسان، ويهاجر دائماً وحيداً» (ص ٦١). ويغضب ميلود أن غزالة رمت بحجر فى اتجاه الطائر. وطائر آخر برجل واحدة يتجسد فى عمل آخر .. «طائر خرافى غريب. رأسه فى حجم رأس القط .. وجسمه أكبر من المعزة بقليل .. بمنقار كبير معقوف. يحدق بعينين كبيرتين جريئتين متحديتين كأنهما عينا إنسان» (ص ٩٩، ١٠٠). ويفسره القوم بأنه ليس طائراً حقيقياً وإنما هو من أهل العالم السفلى!» (ص ١٠٠).



وللصحراء فكرها الخاص الذى يخفى على الكثيرين فى خارجها وداخلها أيضاً، لا يجيد فهمه ويحسن التعامل معه إلا القليلون المتصلون بغموض جوهرها الأسطورى. فإذا أتقن مخاطبتها سهل إدراك فحواها وتم التعارف على عالمها ولغتها. ومن خلال زاوية الواقع الخيال تظهر كائناتها الخرافية، مثل «أفعى واو الناموس». فى القصة التى تحمل نفس الاسم. وهى «أفعى غريبة .. ذيلها فى الأرض، ورأسها فى السماء، ذات قرنين فى غاية الغرابة، أكبر من قرنى المعزة بالتأكيد. ولكنها تكتسب ملامح إنسانية أحياناً .. وهذا أغرب ما فى الأمر». «تشاهد كل سبع سنوات مرة واحدة، ولابد أن يشاهدها شخص واحد فقط لا أكثر من حسن الحظ! ولكن باختصار ينهار كل من يراها ونادراً ما يبوح بسرها» (ص ١٦٩، ١٦٩ ـ ١٧٠). وهكذا مات الصحفى الإنجليزى المشهور بلدغتها، وقد جاء موطننا لعمل تحقيقه الصحفى.

إن إبراهيم الكونى يصل فى تجسيده للصحراء، أن يجعلها كما يذهب المفهوم الشعبى عادة .. كائناً حياً إنسانياً، يفكر ويحس ويتخذ الموقف أيضاً. يقول فى إحدى قصص المجموعة: «أنت لا تعرف كم قلبها كبير هذه الصحراء. إنها تمنحك دائماً أكثر مما تعدك، وإذا خنتها فباستطاعتها أن تطاردك حيث كنت، لتقتص منك!» (ص ١٧٧). ويكتب فى أخرى: «أن مقارنة كنوز الصحراء بالملايين الأرضية يجرح كبرياء الصحراء فتلجأ إلى



الانتقام. تحول الذهب إلى رماد .. تخفى القصور .. تمسخ الماس إلى زجاج. تقتل بالعطش» (١٦٠).

ولأن الفن اليقظ ليس افتعالاً ولا أدب مناسبات ولا مسايرة للتيار العام .. سياسياً أو اجتماعياً أو ثقافياً، وإنما هو روح نقدية فى الأساس، يلتمس القيم العليا وإصلاح المعوج واليقظة بشكل خاص، مبتعداً عن التعتيم واللعب على الحبال وخزعبلات أو الهتاف للنظريات السياسية، فهو ما يجده المتلقى فى مجموعتنا وصاحبها يستهدف فى المقام الأول ما ينضح به واقع العالم العربى والإسلامى من تخلف .. يثقل النفس ويقيد الخطو وينفى الأمل. يظهر فى أبشع صوره على مستوى الحاكم والمحكوم فى مختلف مجالات الحياة، وفى نبض الرجل العادى والمثقف على السواء.

يرتبط التخلف عادة بالاستبداد الذى يمتص عافية وخيرات البلاد فى ظلام القهر والظلم والقيد، لأن التقدم يستدعى الحرية والعدل والمساواة. وسيطرة الطغاة تجعل مواد القانون حبراً على ورق، مجرد خرقة بالية لا تصلح لنفع حقيقى للجماهير. وإنما هى تظهر لتجمل وجه النظام الحاكم، ليخدع بها البلهاء من ناحية، والعالم الخارجى - والذى يعرف أكثر من غيره حقيقة الأوضاع المتردية فى الأمم المتخلفة - من جهة أخرى. وبذلك يصبح القانون لعبة المخادعين يمكرون بها على الجماهير. والظاهرة الأولى فى الدول المتخلفة بصمة «كله تمام» فى الظاهر، أى يتسق مائة فى المائة مع العدل والحق والإنصاف، ليس حسب القانون الوضعى فحسب بل يتفق أيضاً مع القانون السماوى، أى لا زيادة لمستزيد فى حرية الشعب وحقوقه وكرامته. بينما الباطن أو الواقع على العكس من هذا كله على طول الخط. والتناقض البشع بين الوجهين يفضح المدى البعيد الذى يذهب إليه الطغيان فى إفساد حياة الناس إلى درجة لا تطاق، ليستمرئ الانحراف نهبه وسلبه وتضييقه أكثر على مقدرات الجماهير.

والشرطة فى البلد المتخلف سواء أكان ملكياً أم جمهورياً أم بين بين، هى اليد الطولى للعسف، رغم أنف ما ترفع من شعارات براقة: فى خدمة الشعب .. فى خدمة القانون. وتصور واقعة «الغزلان» تطبيق قانون عدم صيد الغزلان بعد أن تقلص عددها فى الصحراء بشكل كبير، لجشع الصيادين المتزايد فى القضاء عليها. ويختار رئيس مركز البوليس فى الواحة المنوط به الإشراف على تطبيق القانون، صياداً سابقاً له إلمام واسع بعالم الصحراء ويعمل فى تشييد الطرق، للقيام بالقبض على المخالفين ومصادرة أسلحتهم. يساعده العريف ميمون بمثابة سائق للسيارة وزودها بالسلاح اللازم. ويشدد الضابط على مرزوق فى أن يحكم سيطرته على الخارجين على القانون حفاظاً على الثروة الغزالية.

ويجد العرض قبولاً حسناً من الصياد السابق، لا لأن مرتبه ارتفع عشرة جنيهات فحسب، بل لأنه إنسانياً ضد إبادة الغزلان. ويتقد مرزوق حماساً، وما يكاد يبدأ عمله حتى يبوخ هذا الإحساس بفعل فاعل خارجى، هو رفيقه الجندى السائق .. الذى ما يكاد يرى أول غزالة حتى يطلب من الآخر أن يصوب إليها. ويدهش مرزوق ويقع بينهما هذا الحوار:

- ولكن .. لقد وعدنا رئيس المركز.

- يالك من أبله .. أرجو ألا تكون قد صدقت ما قاله لك رئيس المركز. سوف تجده غداً أمامك وفى مؤخرة سيارته عشرة رءوس من الغزلان. ماذا ستفعل وقتها؟ هل ستصادر منه السيارة والبندقية والغزلان كما قال لك؟ (ص ٣٧)

- نعم. يجب أن أفعل. من حقى أن أفعل.

- سوف يطردك فوراً ويأتى بغيرك فى اليوم التالى. لقد فعل ذلك أكثر من مرة. (ص ٣٧)

شعر الرجل بغبائه وسذاجته. وفهم كيف تتدهور الأمور فى بلده وتنتقل من سيئ إلى أسوأ، والانحراف يأخذ فى الاطراد ويزداد وحشية، ويعم الجميع ليصبح القاعدة التى لا يحيد عنها نظام القهر والعاملون فى آلته. كيف صدق أن موظفاً رسمياً وضابطاً كبيراً يمكن أن يكون أميناً ويعرف ربه.

والتناول الصادق غير المصطنع الذى يسير فى مجراه ويستنطق الأعماق، يتابع ما ينفث الانحراف ربيب الطغيان من إفساد لأراض جديدة ونفوس نقية ظمأى إلى الحرية محاصرة بقيم الاستغلال التى تستنكرها. ومع ذلك فهى لا تلبث مع ازدياد الضغوط عليها، أن تقع فريسة للأنياب التى تنغرز فى لحمها الحى. فإذا بها تجد نفسها مدفوعة بلا إرادة إلى الوقوع فى الفخاخ المحيطة بها من فوق ومن تحت ومن جميع الجهات، تنصبها قوى الشرور للإيقاع بالأبرياء لتجعلهم من جيوشها. وهكذا سقط صاحبنا وسقطت إنسانيته أيضاً. وهو المعنى الخطير الذى وسم به قاصنا ضحايا القسر.

وبراعة الكونى تفرض الإحاطة بالمعالجة، التى تتيح عرض وجهتى النظر المتقابلتين المختلفتين للرؤية، فى سبيل بلورة الحقيقة. وحتى لا يكون اتهام الشرطى للضابط مشكوكاً فيه ومقصوراً على الأمس وحده .. فإن الأحداث لا تلبث أن تؤكد بالفعل أن سلوك رئيس المخفر المشين يمتد إلى اللحظة أيضاً، عندما يأتى الضابط ويشاطر الرجلين الطعام من لحم الغزلان .. كأن مخالفة القانون وعدم احترامه هو ما تم الاتفاق عليه.

وقصة أخرى هى «الحمى» تناقش ضمناً العلاقة بين رجل الشرطة والمواطن، تعرض جانباً آخر لنظام القهر الذى تمتهن فيه كرامة الإنسان، وتلصق بالفرد كل الموبقات. وهو ليس بريئاً حتى تثبت إدانته كما يذهب القانون، بل مداناً منذ البداية وقبل أن تحقق النيابة. حدث هذا عندما اتهم شنانى بالاعتداء على أخت الخرنوق التى حملت سفاحاً. ومع أن المسكين لم يمسها أبداً، لأنها راودته عن نفسه قبلاً ورفضها، إلى أن وضع فى الحجز القذر أياماً، حتى يقيض الله من يدفع له الكفالة وهو الشيخ غوما، ويخرج إلى أن تظهر نتيجة التحليل.. ويشيعه الضابط بسخرية تلحق أيضاً بمن كفله - رأى الشرطة التقليدى فى عالم الدين الحق فى دولة العسف. «إنه شيخ مخرف وغامض مثلك. إن الطيور على أشكالها تقع» (ص ٨٤).

ويعقب بريئنا: «سبحان الله ما أغرب هؤلاء الناس. أنت غامض وغريب الأطوار ما دمت لا تدبر المكائد ولا تحترف صناعة الفتن، ولا تتقول ولا تنقل الكلام ولا تعادى أحداً. وإذا فعلت كل ذلك، إذا فعلت ما يفعلون ومارست رذائل الخلق فأنت عادى ومستقيم، لن يتهموك بالغموض أو غرابة الأطوار ولن يلسعوا ظهرك بالسخرية .. سبحان الله، كل شىء مقلوب رأساً على عقب فى هذه الدنيا». (ص ٨٤).



ويصدم، بين مكذب ومصدق. ومع إدراكه الواقع المهترئ الذى يعيشه الشعب فى الحكم الاستبدادى وعربدة فساد المسئولين الكبار والصغار، فلم يخطر بباله أن يكون «حاميها حراميها» عينى عينك. بهذه الجراءة والإسفاف. وبقية أمل فى عدم تحطيم الصورة ورفض الانسياق مع انهيارات الواقع المر، يتشبث مرزوق بالمبدأ. ويجيب صاحبه معقباً على تساؤله المعلق فى موقفه إزاء خروج الضابط على القانون لو حدث .. وهو يدرك فى قرارة نفسه حماسه غير الواقعى وضعف جانبه:



بالرغم من أن الإتقان قاعدة إسلامية وعلامة من علامات التقدم فى كل زمان ومكان، إلا أن العرب والمسلمين. فى عصور تدهورهم فى الماضى والحاضر. دون خلق الله أجمعين يهملون شأنه ولا يعبئون به، كأنهم يعلنون عن جهلهم وقلة حيلتهم وعدم تمكنهم ليكونوا مثالاً للتخلف .. يستوى فى ذلك الصغير والكبير والعامى والمثقف. وقد لا يعرف الكثيرون أن عدم الإتقان أثر من آثار الاستبداد، الذى يشيع التواكل والضعف والجهل، لتكون له الغلبة على الجماهير المتهافتة. لأن الحرية والديمقراطية والعدل، تفرض كل القيم المثلى ومنها الإتقان. وتصور قصة «الكراسى» بصمة النظر القصير والإقبال المجهض والعمل الناقص فى تشكيل الأشياء فى المجتمعات المتخلفة فى مجال النشاط الثقافى.

والأحداث ذات الدلالة تؤكد فى كل خطوة، نزوع الشخصيات المتخلفة - لا واحدة فحسب - مع الهالات المصطنعة التى يحيطون أنفسهم بها، إلى ما ليس لهم به علم حقيقى يمكنها من الوقوف بثبات على الأرض والتوفيق فى مهمتهم.

قد لا يعرف الكثيرون
أن عدم الإتقان أثر من آثار
الاستبداد، الذى يشيع التواكل والضعف
والجهل، لتكون له الغلبة
على الجماهير المتهافتة



وإنما هم يمضون مع قلة زادهم الذى يظنونه كثيراً فى مسيرتهم المخفقة. وعندما يصلون إلى نقطة النهاية، لا يدهشون للفشل المنتظر، بل يلقون عبئه على الأقدار التى تدخلت لإفشال جهدهم العظيم.

عندما أرسل العالم الكبير الأستاذ الدراهيبى برقية لنادى الزهراء الثقافى، موافقاً على دعوتهم له بإلقاء محاضرة.. عم الفرح مجلس الإدارة لهذا النصر المبين الذى حازه ناديهم لمدينتهم ويثير غيرة النادى الآخر. وفى التو قسموا بينهم العمل أو «الأدوار».. من يقوم بالحجز فى الفندق، ومن يتولى إجراءات الاستقبال وترتيب الضيافة وتوزيع الدعوات، ومن يقوم بالدعاية ونشر الخبر فى وسائل الإعلام ولقاء صحفى موسع مع الضيف الكبير.. أى تغطية كاملة للحدث الثقافى الهام، ويقوم كل عضو بما وكل إليه ويستقبل الزائر المشهور فى المطار بحفاوة من رئيس النادى وسكرتيره وأمين صندوقه وعضوه الفخرى. ويرتاح الرجل لبرنامج الزيارة.

ولأن الإنسان المتخلف يدرك فى قرارة ذاته مدى عجزه، فهو يعمد بشتى الوسائل إلى إخفائه .. بالاستهتار والاستخفاف والحمق أيضاً، ظناً أنها تطمس معالم تأخره. ولكنها لا تفعل أبداً، بل تفضحها أكثر. ولذلك فإن ما يتم عادة فى بلادنا هو مجرد شكليات .. سد خانة، تهتم بالمظاهر ولا تعبأ بالمعنى.

وقبيل موعد المحاضرة يذهب العالم المشهور إلى النادى، فلا يعجب وهو لا يجد أحداً فى انتظاره من مجلس الإدارة أو الجمهور .. كأن جريان الأمور بهذا الشكل فى العالم المتخلف من طبائع الأشياء. ولا يلبث بعد قليل أن يجىء رئيس النادى ويعتذر عن تأخره لظروف خارجة عن إرادته، وهو التبرير الفج الذى يساق من ناسنا عادة فى مثل هذا الموقف. ويقبله الآخر بصدر رحب، ويجده ـ لتكراره مئات المرات فى حياته .. أمراً بسيطاً لا يستحق الاعتذار، وإن نظر إلى ساعته حريصاً أن يبدأ كلمته فى موعدها. ولكن الآخر يفزع والقاعة لا تزال على حالها، ويذهب الرئيس إلى البواب متسائلاً: «أين الجماعة؟ أين المدعوون؟ القاعة فارغة». (ص ٢٤)

ويعرف منه أن سكرتير النادى تلفن له بقدومه الوشيك، ويحضر الأخير بالفعل يحمل الجواب القاصم: اليوم مباراة كرة القدم. لقد نسى مجلس الإدارة الموقر كله وفى مقدمتهم رئيسه ذلك! فكل يفكر ثم يقرر بالأسلوب المتخلف الذى لا ينظر أبداً إلى أبعد من قدمه، كجزيرة منعزلة بعيداً عما حوله. وجاء الاختيار الخاطئ غير المدروس الذى تمليه روح الاستهتار لموعد المحاضرة، بلا أى اعتبار للظروف المحيطة التى يمكن أن تعوق الحضور وسماع العالم الكبير.

ووقعا فى حيص بيص، والمحاضر يرفض الانتظار أو تأجيل الموعد إلى الغد. ومن الطريف أن الأستاذ الدراهيبى نفسه هو الذى خلصهما من حيرتهما الشديدة، إذ أخذ يلقى كلمته فى الموعد المضروب للقاعة الخالية والكراسى الشاغرة.

منتهى السخرية والبراعة والامتهان للمتخلفين!



وبالرغم من المعالم الكثيرة للصحراء الليبية. لا الأسترالية مثلاً. معنى ومبنى التى صورها الكونى فى مجموعته، إلا أنه أغفل عمداً جانباً هاماً من تكوينها، وهو صلة الخالق بالمخلوق. ففناننا كرجل عقلانى لا يؤمن بها. ويرتاح أكثر إلى الخرافة والأسطورة التى احتشدت بها «شجرة الرتم». وما شخصية الشيخ غوما فى قصصه إلا من قبيل تكملة عدد، التى تظهر غالباً إذا جاءت ملامح الشيخ متحررة «مودرن»، تليق باستخفاف القاص وهو يجعل التجديف بالله فى المنظور الإسلامى، شيئاً هيناً لا خطر منه ولا فيه. بعكس ما استشعر من وقع فى هذا الخطأ ساعة غضبه. فهو عند غوما من الصلات الخاصة بين المرء وربه! محصلة نظرة لقاصنا لدين التوحيد تفرق بين الدنيا والآخرة!

ومع لافتات الترحيب بالآخر التى يرفعها الكتاب العلمانيون العرب ظاهرياً، إلا أن إبداعهم يأتى بالضد عندما يتناولون إياه! ويفقدون الموضوعية فى معالجته. يفعل ذلك قاصنا الليبى، كما تفعله أديبتنا المصرية نوال السعداوى، وهى تتناول فى عملها الأخير «الرواية». سلسلة «روايات الهلال» عدد أكتوبر ٢٠٠٤ . المتدينين رجالاً ونساءً، فتلصق بهم كل موبقة على عكس شخوصها الأخرى!

لقد استوعبت «شجرة الرتم» بشكل قوى الأشواق الروحية لصاحبها فى الغربة تجاه أرضه وهو فى وارسو، نفس ما استشعره قبله بحوالى مائة سنة محمد حسين هيكل أثناء وجوده فى باريس، ودفعه لكتابة روايته «زينب». بينما تلون نفس الإحساس عند عبده جبير فى روايته «مواعيد الذهاب إلى آخر الزمان» نوفمبر ٢٠٠٤ ـ واستدعى عالم بلده والكويت معاً. ■

كتاب الزاوية



العروة الوثقى

سياسة إنجلترا فى الشرق

هلع على ما فى البيت فهرع لإغلاق الباب. فانخلع المصراع وانقض الجدار من ورائه.

هذا شأن دولة بريطانيا فى الهند، وقناة السويس، قصارى بغيتها أن تكون فى أمن على هذا الباب، وكان سهلاً عليها أن تخلص النية، فى مسالمة أرباب الولاية عليه، فيقونه بأرواحهم وأموالهم، ثم هى تفوز بفوائده إلى الأبد.

إلا أن جيشان الأوهام، وموشحات الأحلام، دفعتها لمباشرة حمايته بنفسها، فإذا الأمر أصعب من أن ينال، وأساس البيت أوهى من أن يدوم.

أرادت دولة إنجلترا بعد تبوئها أرض مصر، أن تدخلها تحت حمايتها، وأن تبدل العساكر الوطنية بإنجليزية، وأن تقيم فى السودان سلطنة مستقلة، وحاولت فى ذلك إرضاء المصريين بأنه من الضروريات لتنظيم أحوالهم، وإقرار الراحة بينهم، وتسكين روع العثمانيين بحفظ الحق وتخفيف الوزر.

وكان لكل أن يستبشر بهذه الخدمة الجليلة إن تمت، لولا ما لدولة إنجلترا من تقسيم الممالك التيمورية فى الهند، وإقامتها لكل قسم حامية من قبلها، وكان هذا أكبر الأسباب وأصغرها لاستيلائها على الأقطار الهندية، وأنا لنأسف على التفاوت بين الزمانين، والتباين بين المكانين، فلا الإحسان الإنجليزى يمكن تتميمه، ولا العثمانيون والمصريون يستبشرون بنواله.. وخطر الأمرين غير يسير!

صنـاعـة الرئيـس

عـــزة عـــزت



توجد كثير من الانتقادات للقائمين على رسم صور الرؤساء حول التقصير فى عمل مونتاج لبعض العبارات التى يجب ألا تنشر على الملأ حتى لو كان الرئيس قد قالها



إذا كانت الصور المنطبعة عن الرؤساء فى العالم العربى (لا التى يتم ترويجها لهم) قريبة الشبه من شخوصهم؛ فذلك لأنها صور غير مصنوعة بحرفية بقدر كونها لشخصية صاحب الصورة وتصرفاته حيال المواقف، وقراراته فى الأزمات بكل ألوانها، وهى صور يُثمِّنها انعكاساً ويرسم ملامحها وسماتها كل منا وفقاً لقناعاته السياسية ومصالحه الخاصة، وقد يساهم بعض المحيطين بالرؤساء فى رسمها، أو قد ترسمها أحياناً الظروف التاريخية التى وجدوا فيها.. لكن الأمر جد مختلف فى الغرب، حيث صورة الرؤساء هناك تقوم عليها جهات متخصصة فى رسم الصورة؛ كنشاط من أنشطة العلاقات العامة والدعاية السياسية، وهو أسلوب متعارف عليه هناك (وقد يصبح مألوفاً هنا قريباً)، يُطلق على ممارسوه اسم صانعى النجوم، أو خبراء الصورة الذهنية، إذ أصبحت صناعة الرؤساء فى الغرب مهنة متقدمة لها أصولها وقواعدها، وبرامجها، ومخططوها، ولها محترفوها وهواتها أو عشاقها أيضاً، وهم من يقومون بصناعة صور المرشحين للرئاسة، ثم يستمرون فى رسم صور الرؤساء أنفسهم طوال فترة حكمهم.

وغالباً ما يُخطط ويحدد صُنّاع الصورة للرؤساء الغربيين كل خطوة، وكل لفتة أو إيماءة يقوم بها الرئيس، أو حتى المقربون منه، خاصة أفراد أسرته، وتحديداً زوجته ؛ لما للمرأة من دور هام فى هذه الصناعة، وبالطبع هناك بون شاسع بين ما شاع فى الغرب، وبين الأساليب السائدة لصناعة الصورة الذهنية للرؤساء العرب التى تتحدد ملامحها بأساليب تقليدية، وأحياناً تتحدد عفواً وبتلقائية أو بمصادفات تاريخية - نصراً كانت أو هزيمة - وإن كان هناك من تنبه مؤخراً لضرورة وجود فريق عمل حول الرؤساء العرب يقومون بنفس المهمة.. ولكن يفترض أن يقوموا بهذه المهمة وفقاً لمقاييس وقيم وقواعد مختلفة تماماً، وكى تتضح الفروق بين الشرق والغرب سنأتى على استعراض لما يتبع فى رسم صورة الرئيس.. أى رئيس فى أمريكا وأوروبا بدولها ذات التقاليد السياسية العتيدة؛ وفقاً لتخطيط واستراتيجية محكمة.

ذلك أن أساليب ترويج صور الرؤساء الغربيين . خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية. قد بدأت تدفع إلى سدة الحكم بأشخاص، نتأثر جميعنا بما يمارسون من سياسات، إذ تنعكس بالضرورة على حياتنا بالمشاريع والمبادرات التى يطرحونها، والقرارات التى يتخذونها.

والواضح أنه لعقود طويلة كانت صور الرؤساء ترسمها الصحف فقط كأول وسيط إعلامى، وتحاول تثبيت سماتها لدى جماهير القراء، من خلال الكلمة المكتوبة، سواء أكانت مادة إخبارية، أو تعليقات وآراء.. أو من خلال الصور الفوتوغرافية، من حيث الحجم، والشكل، وزاوية التصوير، وما يصاحب الصورة من تعليق، قبل أن تصبح للصورة الذهنية صناعة كاملة فى عصر السماوات المفتوحة، وشبكة المعلومات العالمية المسماة بالإنترنت، وباستغلال حقيقى لكل الوسائل والوسائط المطبوعة، والمسموعة، والمرئية مجتمعة فى هذه الصناعة، وأيضاً باستغلال لشتى العلوم الحديثة المتعلقة بدراسات الصورة، وهى: علم النفس الاجتماعى، وعلوم الاتصال، وعلم السياسة، وفنون العلاقات العامة؛ كى يحدث التأثير المرجو.

ويهتم صُنّاع صورة الرؤساء فى الغرب وواضعو برامج تشكيلها أو تحسينها كثيراً بقياس اتجاهات الرأى العالم المتقلبة، أو المتذبذبة قبل أن يضعوا برامجهم وخططهم؛ حتى يستطيعوا أن يحققوا الهدف مما يرسلون من رسائل إلى الجمهور المستهدف.. ويحرصون على أن يكون هذا القياس دورياً ومستمراً؟! ليتم على أساسه تعديل البرامج؛ وفقاً لمتطلبات كل موقف، وكل ظرف سياسى أو مفاجئ، كما يهتمون بمتابعة الصورة المقدمة فى وسائل الإعلام، ورصد ما فيها من أخطاء؛ كى يحاولوا تصحيحها أولاً بأول؛ من خلال برامج آنية، وتقوم هناك مؤسسات كبرى على هذه المهمة، بما يتوافق وقيم هذه المجتمعات الغربية، وما يمكن أن يلقى قبولا من هذه الشعوب؛ مستخدمين شتى الوسائل، خاصة قبل الانتخابات الرئاسية وذلك فى شكل حملات مكثفة، تستمر طوال فترة حكم أى رئيس تمهيداً لفترة رئاسته الثانية؛ معتمدين على ما تسفر عنه استطلاعات الرأى العام المستمرة؛ لإزالة أية محاولة لتشويه الصورة، خاصة أن هناك مؤسسات رصد واستطلاع رأى مضادة، أو معارضة تتصيد الهفوات والأخطاء، وتكشف عن الخفى منها، وتقوم بتضخيم الأمور فى محاولة لإسقاط الرؤساء، وقد تنجح فى ذلك أو تفشل، المهم أن بها متخصصين يعكفون على هذه المهمة، ويحدث ذلك على وجه الخصوص فى أمريكا، التى أسقط فيها نيكسون كمثال بسبب فضيحة ووتر جيت، فى حين لم تفلح فضيحة مونيكا لوينيسكى كمثال آخر فى الإطاحة بالرئيس بيل كلينتون.

وتجدر الإشارة إلى أن استطلاعات الرأى يمكن أيضاً التلاعب فى نتائجها؛ لخلق صورة أكثر شعبية، أو التهوين من شعبية أى شخص مرشح للرئاسة.. لكن مدى تأثير ذلك التلاعب يُعد محدوداً فى مجتمعات تتمتع بقدر كبير من الشفافية، وبقدر غير محدود من الحرية الإعلامية، وفى ظل قدر أكبر من المنافسة الطاحنة بين مراكز قياس الرأى العام، التى يمكن لكل منها أن تهدم أو تشكك فى نتائج المراكز المثيلة المنافسة لها.

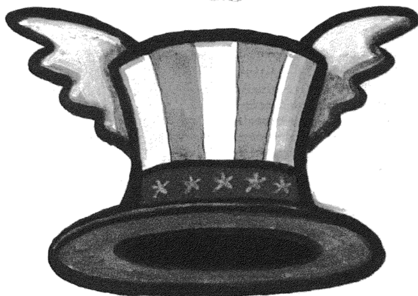
وغير خفى أن تمرير الأخبار والإحصاءات الموحية، والنتائج المبدئية لقياس الرأى العام، تعتبر توجيهاً للرأى العام الشعبى إلى وجهة معينة، أكثر منها عملية قياس مجرد عن الهوى.

ولا يمكن الادعاء بأن كل صور الزعماء فى الغرب رسمها خبراء الصورة الذهنية، ومؤسسات العلاقات العامة؛ لأن هناك بعض الزعماء الغربيين قد رَسمت صورتهم الظروف السياسية، أو المعارك العسكرية الحاسمة التى خاضوها.. وليس بالضرورة أن تكون هذه الصورة حقيقية، ففى الحروب . أو نتيجة لها . تكون سمات «البطولة، والقيادة والزعامة» من نصيب المنتصر فى الحرب، مثلما حدث بعد الحرب العالمية الثانية؛ بالنسبة لجوزيف بروز تيتو فى يوغسلافيا، وأيزنهاور فى أمريكا، وشارل ديجول فى فرنسا، وونستون تشرشل فى بريطانيا، فهؤلاء لم ترسم صورهم مؤسسات دعائية،

صورة الرئيس
عزة عزت
القاهرة . مركز الحضارة العربية . ٢٠٠٥

لا يمكن الادعاء بأن كل صور الزعماء فى الغرب رسمها خبراء الصورة الذهنية، ومؤسسات العلاقات العامة؛ لأن هناك بعض الزعماء الغربيين قد رَسمت صورتهم الظروف السياسية، أو المعارك العسكرية الحاسمة التى خاضوها







فى حين تكون سمة «الدكتاتور» من نصيب المهزوم، كما كان الأمر بالنسبة لهتلر الذى صنعت له الدعاية النازية ووزير دعايته جوبلز صورة مهيبة كقائد ينتظره النصر، ثم هُزم فلحقت به كل السمات الذميمة، وكذلك الحال بالنسبة لموسولينى الزعيم الإيطالى الفاشستى.

أما ستالين فيعد من أبرز الأمثلة على خطورة تأثير أجهزة الإعلام.. الأمر الذى يجعلنا نتساءل: إلى أى حد يمكن أن تكون الصور الكاذبة أكثر إقناعاً، وأطول تأثيراً من الصورة الحقيقية؟! ما لم يأت حدث جلل كالانتصارات العظيمة، أو الهزائم الساحقة؛ لتقلب الصورة بشكل تام.. حينما يُظهر التاريخ بعض الحقائق الخفية، ويقول كلمته النزيهة، التى قد تنصف صاحب الصورة المشوهة، أو تظهر ما كان خافياً من ملابسات من شأنها أن تعيد إلى الصور بوجه عام، جانباً من السمات الحقيقية، التى كان مسكوتاً عنها.

ولعل فهم الناس.كل الناس.لأساليب رسم الصور الذهنية للرؤساء والمرشحين للرئاسة الأمريكية، أمر أراه غاية فى الأهمية؛ لأن تمرير أية شخصية لتجلس على سدة الحكم فى بلد ما أصبح فى غاية الأهمية والتأثير على كل شعوب الدنيا، وبعد أن أصبح رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بالذات رئيساً أو عمدة للعالم كله، وبعد أن ساد الأسلوب الأمريكى فى رسم صور الرؤساء، وبدأ يُتبع فى تمرير بعض الشخوص المَرضى عنهم بالطريقة الأمريكانى؛ ليحكموا ويتحكموا فى الشعوب العربية، ويتم تمرير صورتهم وفقاً للقيم الغربية ويتسلل قد يشعر به بعض الصفوة المثقفة، ويدركونه بوعى.. دون أن يستطيعوا التصدى له، فى حين لا يفطن له العامة غالباً.

وهنا لابد من القول بأن علم صياغة الصور الذهنية كعلم جديد نسبياً (ظهر فى مطلع الخمسينيات من القرن الماضى) قد تناولته كتابات كثيرة فى الولايات المتحدة الأمريكية بالذات، وتعرضت لأساليب الاستحواذ على الجماهير عن طريق صياغة الشخصية القادرة على النفاذ إلى القلوب.. لكن علم الصورة الذى تكرس فى أمريكا ليس اختراعاً أمريكياً محضاً.. بل إن أمريكا هى التى وضعت قواعده كعلم، يجمع بين عدد من العلوم السياسية والاتصالية والنفسية، إذ يحدثنا التاريخ بأن «نابليون أنشأ لنفسه مكتب إعلام، يختص بكل ما يتعلق بالجانب الإعلامى فى سياسته، وقد أسماه مكتب الرأى العام.. رغم أن مهمته لم تكن استطلاع اتجاهات الرأى العام لدى الشعب الفرنسى، وإنما كيفية التأثير على الشعب باستخدام الوسائل



الإعلامية، كما أن الداهية الإيطالى ماكيافلى من قبله بقرون كانت له إسهاماته الخاصة فى هذا الشأن » لكن تسويق الرؤساء بأسلوب علمى ومدروس قد أصبح يشبه فن الإعلان التجارى، كما وصفته جريدة نيويورك وورلد تلجرام الأمريكية عام ١٩٥٠ قائلة: «إن السياسيين بدءوا يطبقون جميع الوسائل والأساليب المستخدمة فى الإعلان عن السلع الاستهلاكية، من السيارات إلى صابون الحمام».

كما أوضح عالم الاجتماع المعروف ديفيد وايزمان فى كتابه المُعنون «الجماعة الوحيدة»: إن الأمريكيين فى ولعهم بالسلع الاستهلاكية قد أصبحوا مستهلكين للسياسة أيضاً، وأنه مثلما يكون لطريقة تغليف الهدايا أثر بالغ فى إقبال المستهلك على شرائها، فنفس الحال بالنسبة للسياسة، حيث البريق الشخصى لرجل السياسة قد أصبح من أهم عوامل الإقبال عليه من الناخبين».

وتقوم مكاتب متخصصة فى الولايات المتحدة الأمريكية تتقاضى مبالغ خيالية وأرقاماً فلكية، بالترويج أو تحسين صورة أى شىء، وأياً من كان، بدءاً بالسلع التجارية، ومروراً بنجوم السينما فى هوليوود، وانتهاء برؤساء أمريكا أنفسهم.. كما يتدرب الشباب فى هذه المكاتب على كيفية تسويق أنفسهم، أو صورهم بحثاً عن عمل، فأمريكا بحق هى بلد العلاقات العامة ومؤسستها كعلم أكاديمى، وكفن عملى وتطبيقى.

ولعل البعض منا فقط يعلمون أن كاتب خطب أى رئيس أمريكى يحتل درجة فى الكادر الوظيفى، لابد أن يتوفر فيه الإلمام بأسرار الكتابة السياسية، وهؤلاء الكتاب هم فى الأغلب الأعم من الصحفيين، الذين يتم نقلهم من بلاط صاحبة الجلالة، إلى البلاط الرئاسى فى البيت الأبيض، أو ما يُسمى بهيئة مكتب الرئيس، وذلك بعد أن يكونوا قد أدوا دورهم ضمن مستشارى حملته الانتخابية، وهم يتناوبون على كتابة خطب الرئيس، التى يلقيها فى المحافل والمناسبات العامة، وصياغة الأفكار السياسية التى يتبناها.

وذلك لا يحدث فى أمريكا وحدها.. بل فى إنجلترا أيضاً، إذ أن تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا اختار عدداً ممن يسمونهم «أطباء التجميل»، أو «Spin doctors» وهم بالطبع ليسوا أطباء.. ولكن كالأطباء يُجملون صورة رئيس الوزراء والوزراء؛ ليجعلوها أفضل، أو أكثر قبولا لدى الناس، كما يُجملون مشاريع رئيس الوزراء عند الشعب، ويقترحون عليه أن يفعل كذا، ولا يفعل كذا؛ وكى تكون الصورة واضحة لديهم فهم يحضرون جلسات البرلمان، واللجان الحزبية.. حتى أن الكثيرين قد ضاقوا بهم.. لا بل إن تونى بلير قد عين للملكة طبيب تجميل يقول لها: كيف تظهر.. كيف تبتسم.. كيف تضحك.. كيف تقترب أكثر من الشعب.. إن تونى بلير بعد مقتل ديانا هو الذى أطال عمر الأسرة المالكة، فقد جعل للأسرة المالكة مظهراً إنسانياً، متجاوباً مع مشاعر الناس، والأكثر من ذلك أنهم قد نجحوا فى صياغة الملكة وأولادها فعلا.

المرأة فى الصورة

استعرضت بعض المراجع المهتمة بصناعة صور الرؤساء، مقارنة بين تصرفات الرؤساء الأمريكيين بالذات، مُركزة على دور المرأة الزوجة فى صناعة صورة زوجها الرئيس؛ وذلك لبيان أهمية هذا الدور فى كل ناحية من نواحى الحياة العامة، الاجتماعية والسياسية، وكان من أبرز ما قيل فى هذا الصدد، ما تناول دورها كمستشار سياسى للرئيس، وهو الدور الذى اضطلعت به زوجة الرئيس جيمى كارتر بالذات، إذ أشار مرجع أمريكى إلى أن إدارة كارتر أحدثت تغييراً جديراً بالملاحظة، فى العلاقة بين رؤساء الولايات المتحدة وقريناتهم فى مجال السياسة، ففى الماضى كانت السيدة الأولى لا تتدخل صراحة إلا فى قليل جداً من القضايا السياسية، مثلما كانت بتى فورد، التى كان لديها بالكاد مشروع اجتماعى خيرى، وكذلك فعلت كل من إليانور روزفلت، أو ليدى بيرد جونسون.. أو حتى جاكلين كنيدى، أما ما دون ذلك فقليل جداً وبعد نادراً، فقرينات الرؤساء عملياً لم يكن لهن دور سياسى مؤثر.. بل إن دورهن أو وجودهن الحقيقى لم يكن له تأثير أو وقع سياسى، إذ كان دورهن يدعم أو يساند الرئيس بشكل باهت.. دون الانخراط فى السياسة، فقد كنّ مجرد زينة أو زخرف.. دون أن يكون دورهن بأية حال قادراً أو مؤهلا ليكون دوراً فعالا، إذ كان نمط السيدة الأولى أن تكون سيدة مبتسمة، مثل بات نيكسون، أو نانسى ريجان، أو تستطيع تسيير البيت الأبيض والحفاظ عليه، كما فعلت السيدة وودرو ويلسن؛ كى يتفرغ زوجها لاستعادة حماسه واتقاده.. وحتى السيدات الأول السابقات لم يكن لهن دور سياسى فى الرئاسة، وذلك ما لم يحدث فى حالة روزالين كارتر التى كانت حقاً مستشاراً سياسياً لزوجها.

ويعد هذا الرأى رصداً لتطور دور المرأة، أو السيدة الأولى فى أمريكا فى منتصف القرن الماضى، فماذا عنه الآن ؟ وكيف تطور اعتباراً من الدور الذى بدأته روزالين كارتر؟ إلى أن وصل إلى ما هو عليه الآن فى كل من أمريكا وأوروبا، وفى الغرب بوجه عام، حيث أصبح دور المرأة فى رسم صورة الرئيس . أو حتى المرشح







للرئاسة. دوراً أساسياً وفاعلا بشكل معلن في كل وسائل الإعلام.

ولنأتي على ذكر نموذج آخر من النماذج الغربية، تضيف فيها زوجات الرؤساء إلى صورة أزواجهن، وهي سيدة فرنسا الأولى زوجة الرئيس شيراك، إبان انتخابات الرئاسة الفرنسية الأخيرة، والتي تناولتها الصحف العالمية، وتناقلتها الصحف العربية أيضاً تحت عنوان: «برناديت شيراك واستراتيجية الصمت الفصيح»، وكان هناك إجماع من المراقبين على أن انتصار الرئيس هو انتصار صنعته بيديها السيدة زوجته مدام برناديت شيراك، ذلك أن العواصف التي هبت على الرئيس مست السيدة زوجته، وابنته كلود، ومست الأسرة كلها، وكادت تطيح بها.. لولا رباطة جأش برناديت شيراك، وهدوء أعصابها، والتزامها بالصمت.

ويذكرنا هذا «الصمت الفصيح» لسيدة فرنسا الأولى.. مع الفارق.. برباطة الجأش التي ظهرت بها سيدة أمريكا الأولى، زوجة الرئيس الأمريكي السابق بل كلينتون، إبان انكشاف أو افتضاح علاقة مونيكا ليونسكي بزوجها!! ويالها من صورة لرئيس دولة عظمى!! رغم أن رباطة جأش هذه الزوجة لم تكن موضع إعجاب.. بل كانت موضع تعجب العالم أجمع! أكثر من تعجبهم من صورة الرئيس نفسه بعد افتضاح أمره، وراح العالم يتساءل: هل هو اتزان زائد من زوجة الرئيس؟! أم مصالح متبادلة؟! أو خيانات متبادلة على طريقة تشارلز وديانا!! ووصل الأمر إلى حد السخرية من موقفها الغريب.. من قبل جمهور النساء على الأقل.. في كل أنحاء العالم.

هذا ويبرز دور المرأة في أمريكا أكثر في معركة الفوز بالرئاسة، وفي استمرارية الرئيس في الحكم، أو في فوزه بفترة رئاسة ثانية، وكمثال لذلك هيلاري كلينتون التي كانت السلاح السري لزوجها، في معركته من أجل البقاء في البيت الأبيض، بعد فضيحة مونيكا، إذ أشار تحليل لوكالة الأنباء الفرنسية من واشنطن أنه: «يحتمل أن تكون هيلاري السلاح السري في استراتيجية إثارة المشاعر، التي اختارها الرئيس الأمريكي كلينتون، المهدد بتقرير المدعي العام المستقل كينيث ستار»؛ إذ لزمت هيلاري التي أهينت علانية.. الصمت في بادئ الأمر، عندما اعترف كلينتون على شاشة التليفزيون بإقامة علاقة غير لائقة مع المتدربة السابقة في البيت الأبيض، وإمعاناً في التمويه صدر بيان يؤكد أن السيدة الأولى في أمريكا تحب زوجها، وتتمسك بزواجها.. ولكن دون أن يذكر البيان أي شيء عن خيانته الزوجية.

كما يلاحظ إدراك زوجات الرؤساء الغربيين للدور المرسوم لهن بدقة؛ إذ يدركن بحاسة خفية أهمية ما تعكسه كاميرات التصوير الصحفي أو التليفزيوني، ويتصرفن أمام العدسات بإدراك ووعي، ففي الحملات الانتخابية أو أثناء الخطب السياسية، أو حتى في المؤتمرات الصحفية التي يحضرنها، لا ترفع زوجة الرئيس أو المرشح للرئاسة عينها عنه، وتوليه اهتماماً ملحوظاً؛ لأنها تعرف مسبقاً أنها معرضة في كل لحظة أن تسلط عدسات الكاميرات على وجهها؛ لتعكس مدى تأييدها لزوجها؛ لذا لابد أن تبدي اهتماماً بالغاً بكل حرف ينطق به.. ناهيك عن الحميمية والالتصاق أثناء التقاط الصور التذكارية، أو التي يحيي فيها المرشح ناخبيه، بالإضافة إلى رفع الكف بالتحية للجماهير، أو بعلامة النصر، أو التأييد برفع الإبهام إلى أعلى، والقبض بحرارة على كف الرئيس، بما يعكس التماسك الأسري.. رغم أن أمريكا بالذات من أكثر الدول معاناة من التفكك الأسري.. لكنها برامج صناعة الصورة التي يجب أن تنفذ بكل دقة، ويقوم فيها كل بدوره المرسوم له، وغالباً ما يكون أهم هذه الأدوار هو دور الزوجة، ولكن بالطبع كما تحسن الزوجة من صورة زوجها وتضيف إليها، نجدها أحياناً تسحب منها أيضاً.

وإذا كانت نظرة الغرب لوجود المرأة كزوجة داخل إطار صورة الرئيس يعد أمراً ضرورياً، فلابد من الإشارة إلى أن وجودها كعشيقة أو خليلة أمر آخر، تتناوله الكثير من الأقلام في كتابات صحفية عابرة، بأسلوب رافض؛ لذا لابد من الإتيان على ذكر دور المرأة الأخرى في رسم هذه الصورة، وكيف يمكنها أيضاً أن تهز صورة الرئيس، وتقلل من شعبيته، أو تؤدي إلى اختلاف الرأي حوله، وتفاوت النظرة إليه بين مؤيد ومعارض.

إذ تؤثر المرأة الأخرى بالسلب في صورة الرؤساء.. حتى في الغرب الأمريكي المتحرر من كل القيود الأخلاقية الشرقية.. أو حتى من التقاليد الأوروبية التي مازالت بقايا منها تحكم الأسر الحاكمة، ومجتمع الصفوة فيها بدرجات متفاوتة، فالأمر نسبي، وحكاية ظهور ابنة غير شرعية للرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران تشهد على ذلك، ففي فرنسا ومنذ عهد لويس الرابع عشر يسمح للملوك والرؤساء والساسة بكثير من العلاقات النسائية خارج الإطار الرسمي.. دون أن يسئ ذلك أو يؤثر بحدة في وضعهم الرئاسي.

هذا ولعل أبرز مثال على مساوئ ظهور المرأة الأخرى في حياة الشخصيات العامة، سواء أكانوا رؤساء أو حتى مرشحين للرئاسة في نظم برلمانية. يملك فيها الحاكم دون أن يحكم. مثلما الحال في بريطانيا، نجد أنه حتى بعد سنوات من موت أميرة القلوب ديانا، كثف الأمير تشارلز جهوده لتحسين صورة عشيقته السابقة. وزوجته الحالية. كاميلا باركر بولز، «التي يكرهها الشعب الإنجليزي»؛ ولذا استعان ولي عهد بريطانيا بطاقم جديد من المستشارين وعلى رأسهم مارك بولاند»؛ وذلك لتحقيق صورة طيبة له ولها.

هفوات الرؤساء

ولنأت إلى ملمح آخر من ملامح صورة الرئيس التي يرسمها هو بنفسه لنفسه.. إما عفوا، أو عمداً، وتسئ إلى صورته، وتنشر الكثير من الانتقادات في الغرب موجهة للقائمين على رسم صور الرؤساء حول التقصير في عمل مونتاج لبعض العبارات التي يجب ألا تنشر على الملأ.. حتى لو كان الرئيس قد قالها عفوا

في لقاء حضره عدد محدود؛ لأنها في النهاية عبارات يمكن تحميلها مضامين مختلفة ومتعددة قد يساء فهمها، ويمكن أن تضيف ملمحاً غير مرغوب إلى صورته.

ويذكرنا هذا بالهفوة التي جاءت على لسان الرئيس الأمريكي بوش الابن، في وصفه لحملته لمكافحة الإرهاب، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، بأنها «حملة صليبية»، وما تركته هذه العبارة، أو هذا الوصف من أثر سيئ لدى المسلمين في العالم كله، وانتباه فريق العلاقات العامة المسئول عن صورته في العالم، إلى فداحة هذا الخطأ، الذي اعتبر مجرد زلة لسان لا يمكن تمريرها.. دون أن يعتذر عنها الرئيس شخصياً، الأمر الذي جعله يصحح هذا الخطأ، ويعتذر للمسلمين في العالم، وينفي عن نفسه تهمة العنصرية، أو معاداة دين بعينه، وصياغة خطبة عصماء ألقاها في المركز الإسلامي.. أغلب الظن أن من صاغها بهذا الإحكام، هم خبراء الصورة المحيطون بالرئيس الأمريكي.

ولذلك فإن خبراء الصورة يصرون عادة على الإشراف على جميع التفاصيل الخاصة بالصورة الجماهيرية للمرشح للرئاسة أو حتى الرئيس، ويحتفظون بحقهم في الاعتراض على كل لفظ وكل حركة يرون أنها قد تؤثر على صورته لدى الجماهير، وكلنا يعرف أثر خطب الرؤساء في تشكيل صورهم من حيث البلاغة في الصياغة، أو حسن الإلقاء والقدرة على التأثير.

وهناك مجموعة من القيم التي تنبني عليها الصورة وهي تنبثق وتستمد مما تعتنقه الجماهير الشعبية من أفكار ومعتقدات، وما يحبون أن يروه في رئيسهم، أو فيمن يتوقع أن ينصب رئيساً عليهم باختيارهم الحر.. وفي مقدمة هذه القيم:

الشباب:

يحبون في الغرب أن تكون لرئيسهم إطلالة تليفزيونية ذات قبول، وأن يبدو شاباً وقوياً.. حتى لو كان ذلك مخالفاً للواقع، ويريدونه متمتعاً بحيوية وتألق.. حتى لو كانت هذه الحيوية مصنوعة بالمكياج والرتوش، وصبغة الشعر، والممارسة الدائمة للرياضة المحققة للياقة البدنية المطلوبة؛ كي يظل العجوز رافعاً رأسه شامخاً كأي شاب يافع، فهو كما يرون رمز للدولة، وقوته ومظهره الشاب دليل على أن هذه الدولة قوية وفتية، ولذلك رصد أحد المواقع على شبكة الإنترنت





أن كل رؤساء أمريكا يرتدون النظارات الطبية.. لكنهم لا يحبون أن يراهم أحد فى مكان عام وهم يضعونها على أعينهم؛ لما تمنحه لهم من سنوات عمر أكبر.

والشباب ليس قيمة مطلقة فى حد ذاتها.. لكن «الجماهير العريضة تختار من هو أقرب للشباب فى النهاية؛ حرصاً على تجدد الأفكار ورغبة فى التغيير، وأملا فى استمرار الحياة بصورة أفضل، ويسيطر على الحياة الغربية عموماً عُرف غير مكتوب يقول: إن رجال الأمس لا يستطيعون حكم الغد؛ ولهذا يُغيِّر الناخب رأيه أحيانا لمجرد التغيير».

وتريد الشعوب فى الغرب من تكريس انتخاب الشباب أن يكون للرئيس شخصية «مودرن»، أو عصرية وحديثة.. ليس من حيث المظهر فحسب، بمعنى أن يرتدى أحدث الأزياء، أو أن يكون كما يقول الشباب فى تعبيراتهم المستحدثة: «إستايل أو Stylish» أو يمارس الرياضة بانتظام.. ولكن بمعنى أنه يُحسن التعامل مع المخترعات الحديثة، ويعيش عصره بكل تفاصيله.

الصدق:

لعل الصدق من أهم محددات الصورة، ومن أبرز سماتها على المستوى النفسى فى الغرب، فهم يرون أن من أهم الصفات التى يجب أن تبنى عليها صورة الرئيس أن يكون صادقاً، فقد يقبل منه ما لا نقبله نحن فى العالم العربى. مثلاً من انفلات أخلاقى، كما حدث بالنسبة للرئيس كلينتون، فقد قبلوا بالفعل أن يستمر على كرسى الرئاسة.. رغم اعترافه بممارسة الرذيلة.. ولكنهم لم يقبلوا أن يكون كاذباً، أو أن يحلف كذباً، فيما أسموه آنذاك «الحنث باليمين».

والأمر فى الغرب يتطلب من الرئيس ليس الصدق وحسب.. ولكن الصدق بكل معانيه من شفافية، وعدم تدليس أو إخفاء جوانب من الحقيقة، أو الحنث باليمين، أو الكذب تحت القسم.. أى بمعنى تحقيق الشفافية المطلقة، والبعد عن الكذب بكل ألوانه المعروفة، وبكل أطياف ألوانه المستحدثة.

ولا يُتوخى الصدق فقط فى المسائل الشخصية التى تشين الرؤساء.. ولكن يمتد ليشمل كل ما يمكن أن يُسىء إلى السمعة السياسية لهم ولأحزابهم، وكنموذج لذلك ما حدث من الجمهوريين يوم فتحوا النار على كلينتون ونائبه آل جور، وطالبوا بالتحقيق فى تمويل حملتهم الانتخابية الثانية عام ١٩٩٦م، بطريقة مخالفة للقانون، الأمر الذى فتح الباب على مصراعيه لمناقشة واسعة، تناولت نظام تمويل الحملات الانتخابية برمته، وبالتالى دخل الرأى العام الأمريكى كله طرفاً فى المناقشة؛ بإجراء استطلاعات رأى أسفرت عن تأييد الأمريكيين بنسبة ٨٠٪ لإصلاح نظام تمويل الانتخابات.

وعلى نفس المنوال نجد أن عدم الوفاء بالوعد أو الحنث بالوعد. كنوع من أنواع الكذب والمراوغة أو الخداع. أمر غير مقبول من الساسة والرؤساء فى بريطانيا أيضاً، ويستوجب الاعتراض على ممارسته، كما حدث إبان التحالف الأنجلو/ أمريكى لضرب العراق حينما استقالت وزيرة التنمية البريطانية كلير شورت من منصبها بسبب ما وصفته بحنث رئيس الوزراء تونى بلير لوعوده السابقة لها بشأن اعتزامه إعطاء دور أكبر للأمم المتحدة فى إدارة شئون العراق بعد انتهاء الحرب، وأعلنت صراحة أنها لا تستطيع الاستمرار فى حكومة بلير لهذا السبب.

وتكمن خطورة الكذب فى أنه كان أساساً لاتخاذ قرار خطير، هو الدخول فى حرب، الأمر الذى اضطر كلا من بوش وبلير إلى التغطية على الكذبة الكبرى المتعلقة بامتلاك العراق لأسلحة دمار شامل بسلسلة من الأكاذيب الأخرى، مما دعا أصواتاً كثيرة فى الكونجرس الأمريكى، ما بين جمهوريين وديمقراطيين إلى مطالبة بوش بقول الحقيقة، والاعتراف بالخطأ فى شن الحرب على العراق، وبأنه فشل فى خطوات كثيرة تتعلق بهذه الحرب، والأهم فى نظرهم أنه «فشل فى المحافظة أمام العالم على القيم الأخلاقية والإنسانية التى أرساها الآباء المؤسسون للولايات المتحدة».

وإذا عدنا بالزمان قليلا فسنجد أن الشعب الأمريكى لا يحتمل طويلا الرئيس الكذاب، وتأكيداً لذلك نعود بالذاكرة إلى ما كان من مآل الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون بسبب الكذب، إذ أعلن فى أمريكا آنذاك أنه لا شىء يبيع كالصراحة، بعد أن تم القبض على خمسة أشخاص كشفوا أوراق نيكسون، وأجبر مساعد الرئيس على الاستقالة بسبب الكذب، وكتبت الصحف صراحة أن الرئيس نيكسون كان كاذباً لعيناً، وأشير فى الحديث عن حياته أنه كان أيضاً طفلاً كذاباً منذ طفولته.

الرأفة والعطف:

تعد الرأفة أو الرفق بالحيوان والعطف عليه أحد أهم الملامح، التى يحرص المخططون لصناعة صورة الرؤساء على تأكيدها: كقيمة أو سمة أساسية فى شخصيتهم، إذ أنها من القيم الغربية الراسخة لديهم؛ ذلك أن اقتناء الحيوانات الأليفة له آثاره السياسية؛ لذلك حرص عدد من الرؤساء الأمريكيين على اقتناء حيوان أليف فى البيت الأبيض (كلاب أو قطط على وجه الخصوص)؛ سعياً وراء زيادة شعبيتهم، وجمع قدر أكبر من التأييد الشعبى لسياساتهم.

وبالإضافة إلى الرأفة والرفق بالحيوان، يأتى التبسط والحنو على الأطفال فى نفس المنزلة؛ إذ أن ذلك الحنو والتعاطف يمنح صاحب الصورة شعبية لدى الجماهير، ويُعد ملمحاً أو سمة لابد من توافرها فى الصورة المرغوبة للرؤساء فى الغرب، ولعل ذلك ما جعل ولى عهد بريطانيا الأمير تشارلز. فى إطار سعيه الدائم؛ لتغيير صورته أمام الجماهير البريطانية، واكتساب التعاطف الشعبى. يقوم بجولات مع ابنيه الأميرين «وليام» و«هارى» إلى أماكن جماهيرية كملاعب الكرة، والحفلات الترفيهية؛ ليثبت للجميع أنه قريب من ولديه، وتُنشر صور صحفية له وهو يضحك مع أبنائه كأى أب حنون.

التديُّن:

لم يكن التديُّن.. أو حتى التظاهر بالتدين يُعد من السمات الأساسية، التى لابد من توافرها فى الرؤساء المحدثين فى الغرب. وتحديدا فى أمريكا. لا بل ولم يكن خبراء الصورة يركزون على تأكيد هذه السمة فى برامجهم، كما أنهم لا يروِّجون لسمات ترتبط بقيم مثل: الصدق، والرأفة أو الرحمة من منطلق دينى.. بل كان حرصهم على تأكيدها من منطلق أنها سمات إنسانية محببة، يمكن أن تحقق الصورة الذهنية المرغوبة لأى مرشح بغض النظر عن كونه متديِّنا من عدمه، فالدين فى الغرب ظل لعقود أشبه بالموروثات الشعبية الفلكلورية، وأماكن العبادة هناك أشبه بالمزارات السياحية، وما كان إعلاؤهم لقيمتى الصدق والرحمة إلا كمثُل وقيم اجتماعية مطلقة.

أما هم فلم يعُد التديُّن - منذ فصلوا بين الدين والدولة. معياراً لاعتبار شخص ما إنساناً جيداً أو سيئاً، مواطناً صالحاً أو طالحاً، وبالتالى لم يكن التديُّن مسوِّغاً لاختيار مرشح، أو تفضيله على سواه من المرشحين للرئاسة فى الدول الغربية حتى فترة وجيزة مضت.

وقد كان معنى التديُّن لديهم مقصوراً على كون الإنسان يؤمن بوجود الله من عدمه! ولا يعنى أية مواظبة على ممارسة طقوس العبادة، أو الإيمان بكل ما تأتى به الكتب السماوية، وما يدعو له الأنبياء، ونستطيع القول بأن التديُّن قد بدأ اعتباره قيمة أساسية، يُحسب لها ألف حساب فى الانتخابات الرئاسية فى أمريكا بالذات، خاصة مع تنامى المد الدينى بوجه عام فى كل العالم، وبين أصحاب شتى الديانات.

ولعل استخدام الدين وادعاء التدين يعد أمراً بالغ التعقيد فى المجتمعات الغربية عامة والمجتمع الأمريكى على وجه الخصوص؛ نظرا لأن هذه المجتمعات قد عاشت لعقود تمارس الكثير من الحريات التى أبعدتها كثيراً عن تعاليم أى دين سماوى، وتفصل بين الدين والدولة، وتبيح العلاقات الجنسية خارج نطاق الزواج، كما تبيح الإجهاض، والمقامرة والربا والخمر.. بل والشذوذ





الجنسى، وشتى الحريات التى تدرج مطالبات بشأنها ضمن أولويات الناخبين فى أمريكا، ومن غير المعقول أن تنقلب فجأة إلى التخلى عن كل هذه الحريات، وأن تمنح أصواتها الانتخابية لرؤساء يرفضون هذا كله ويعودون بها إلى عصور خلت، أو يقربونها من المجتمعات الإسلامية التى يرون أنها مجتمعات خرافية بشكل أو بآخر.

وقد أصبح الأمريكيون يعملون ألف حساب لأصوات الناخبين المتدينين ويجارونهم، ويرسمون صور الرؤساء لتتفق ورغبات هؤلاء المتدينين الجدد!! الأمر الذى جعلنى أرصد التدين كقيمة بدأت ترسخ فى برامج صناعة الرؤساء.

الوسائل والأساليب

خلصت معظم الدراسات التى قام بها الأمريكيون؛ لدراسة أفضل الوسائل الإعلامية التى تخدم فى صنع صورة الرؤساء، إلى أن أخبار المساء فى التليفزيون (Evening news) من أهم هذه الوسائل، وأكثرها تأثيراً على الناخبين.. رغم اعترافهم بما للصحافة من دور فريد لا يستطيع التليفزيون أن يحققه.. ألا وهو زيادة حصيلة المعلومات، والحاجة إلى وسيلة التليفزيون.. ليس السبب الأول للإسراف فيها الاعتماد عليها لتقديم الشخصية؛ لأنه قبل عصر التليفزيون أيضاً كانت السمات الشخصية للمرشح هى الأوراق الرابحة للسياسى، عندما كان المرشحون يصافحون باليد، ويقبلون الأطفال، ويقدمون السجائر؛ فالغرض كان إقناع المصوتين أو الناخبين أن المرشحين أقوياء، وعطوفون، وكرماء، والتركيز على الجوانب الإنسانية يعتمد على حقيقة أن معظم الناس ميالون، أو نزّاعون لتقدير كون المرشح مقبولاً وجذاباً بوجه عام، والحقيقة أنه من خلال التليفزيون يستطيع معظم الناس أن يشعروا بود ويقتربوا من المرشح للرئاسة، ويراقبوه عن كثب».

وتقدم مثل هذه الدراسات العلمية الدقيقة تحليلاً كمياً، يمكن الاستفادة منه فى الحملات اللاحقة؛ كى يتحقق النجاح المأمول للمرشح المرتقب، حيث إن للظهور المنفرد مدلولاً معيناً، وللظهور فى حشد كبير من الناس مدلولاً أكبر، يقتضى من منسقى الحملة الانتخابية التركيز عليه أو الإكثار منه؛ لما يُعطيه من ملامح شعبية، يُفترض ترسيخها فى أذهان جمهور الناخبين؛ كى يتحقق الانطباع المطلوب، والموحى بمدى شعبية المرشح للرئاسة.

هذا بالإضافة إلى أهمية التوقيت الذى يُعرض فيه هذا الظهور للمرشح، وهو أمر مخطط له بدقة وحرص، قياساً بأهم أوقات العرض، أو بذروة المشاهدة لدى جمهور التليفزيون، وكنموذج لذلك مراعاة تخصيص وقت معين لنشاطات الحملة الانتخابية، تعرض فيه مظاهر الاحتشاد حول الرئيس وجولاته بالسيارة، واستعراض نتائج الاستفتاءات أو الاقتراع، وعرض الاستراتيجيات، والجهد الضخم الذى يبذله رجال المرشح فى حملة الدعاية له، وهناك وقت معين يتم فيه تقديم مفاتيح شخصية المرشح ومؤهلاته القيادية، ووقت يُخصص لشرح مواقف المرشح من مفاتيح القضايا الانتخابية، فلا شىء يُترك للصدفة والمقادير، كما نفعل نحن فى عالمنا العربى حينما نخطط لأى شىء، فتفاجئنا الظروف بما يجعل نتائج تخطيطنا تأتى بعكس المأمول منها تماماً، وتنقلب الآية على رأس المرشح والمخططين، وربما الناخبين أيضاً.. هذا إذا كان هناك ثمة تخطيط علمى لرسم صور الرؤساء أو المرشحين من الأساس!!

وفى العادة ينجح المرشح، الذى يتفق ترتيب أولويات القضايا الملحة لديه، مع ترتيبها لدى جماهير الناخبين، والذى ينجح فى عرض سياسته حيالها بشكل يرضيهم، ويتفق مع مدى إلحاحها لديهم، واتفاقها مع مصالحهم وأولوياتهم، ويتم فى العادة قياس المتوسط بين كل هذه القضايا.. ولا يُعتد بالطبع بكثرة عدد المطروح من القضايا أو قلته؛ لأن الناخب الأمريكى الواعى يُفرِّق بذكاء بين ما يمكن تحقيقه، وما يدخل فى إطار الوعود الانتخابية، التى يقدمها المرشحون للجماهير، كدعاية انتخابية لن تتحقق.. لا بل ولن يسعى المرشح لتحقيقها من الأساس؛ ربما لأنها تتعارض مع مصالح جماعات الضغط، أو أصحاب المصالح الاقتصادية الضخمة، أو لأن تحقيقها يدخل فى دروب المستحيلات، التى يجب أن لا ينزلق المرشح للوعد بها؛ طالما أن تحقيقها ليس فى إمكانه، وبالطبع تقاس شعبية الرئيس أو المرشح للرئاسة بمدى تعاطيه مع بعض القضايا، التى تمثل أهمية قصوى لدى المواطن الأمريكى، وتنحصر فى: البطالة، والاقتصاد، والسياسة الخارجية.

ويحيط خبراء صناعة الصورة فى أمريكا المرشحين، بعدد من المؤثرات السمعية، والبصرية (Video & Audio)؛ لتكون مصاحبة لأحاديثهم التليفزيونية والإذاعية، وقد يتصور البعض أنها خلفيات غير مقصودة.. لكنها فى حقيقة الأمر جزء من ملامح الحملة يُعتنى بها كجزء من إخراج المشهد، فلكل مشهد فى الحملة الدعائية، مُخرجوه ومهندسو ديكوراته، ومهندسو صوته، وعمال الإكسسوار، والإضاءة... إلخ، وكل هذه الأمور مُتعمدة ومقصودة، ومدروسة بعناية بوصفها عنصراً مساعداً فى إنجاح المشهد، وجعله مؤثراً فى الجماهير.. ولكن بما يُوحى بالتلقائية، ودون مباشرة.

وغالباً ما يعمد مصممو الحملة الانتخابية إلى الاستشهاد ببعض الآراء لصالح المرشح للرئاسة، ويتخيرون أن يحدث ذلك فى الأماكن المزدحمة، وأثناء عبور الشوارع المكتظة، ويتعمدون أن يتخيروا من يدلون بآرائهم فى جو من المرح والتلقائية باختلاف متعمد أيضاً فى الأعمار والمهن، ويركزون على ذلك بشدة، ويبرزون أهم ما جاء فى حديث هذه العينة العمدية من البشر وكأنها اختيرت عشوائياً.

كذلك تناولت بعض الدراسات الأمريكية الحديث عن الصورة الفوتوغرافية، ودور اللقطات فى صنع الصورة الذهنية للمرشح من حيث زوايا التصوير، والإضاءة، والحركة، والملامح، واللفتات، وحجم الصورة، والتفاف الجماهير حول المرشح، واستعلائه، وحركة يده، والتحامه بالجماهير، أو وجوده وسطهم، وتوقيعاته لهم، وإنصاته إليهم؛ ذلك أن صورة رجل الشارع مع المرشح.. إذا ما كانت صوراً نادرة تعكس بساطة المرشح، ومدى قربه من الناس، وتظهر بساطة ملابسه تخدم كثيراً فى تحقيق الصورة الذهنية المرغوبة له.

وتُظهر هذه الصور أيضاً دور المرأة فى هذه الحملات، خاصة زوجة المرشح كواجهة مكملة ومهمة فى أمريكا. كما سبق القول. إلى جانب التركيز على الوجوه الجميلة، والظهور مع النجمات، والربط بين المرشح والرموز، سواء تمثلت فى أعلام الدولة أو آثارها.. كذلك ظهوره فى الصور مع مستشاريه، أو القائمين بالحملة، وإظهار مدى إرهاقهم، وتفانيهم من أجله.

كما تُظهر هذه الصور تعاطف الجمهور مع المرشح؛ متمثلا فيما يُطلقون من صفارات أو هتافات، أو ارتداء ملابس تحمل اسمه أو شارته أو صورته، على أن تعكس الصور مرح الناخبين، الذى يؤكد ثقتهم فى مرشحهم، كما يتم رصد حركات الأيدى أثناء المناظرات كشريط سينمائى فوتوغرافى؛ يوضح انفعالات المرشح وحماسه، وحماس مؤيديه أيضاً.

أما عن الدعاية التى يتم توزيعها ضمن الحملة كالقبعات والكابات والقمصان والبالون الذى يحمل اسم المرشح، فكلها يُحوِّل الحملة إلى مهرجان تجارى، ويؤدى دوره أيضاً فى لفت النظر المطلوب إلى ما يمارسه المؤيدون المشاركون فى الحملة.

ويدخل فى إطار ما تعكسه الصور الفوتوغرافية من مظاهر لفت الانتباه: عمل تماثيل للمرشح فى المصايف، وتركيز الصور على مد الأيدى إلى المرشح، واندفاع الجماهير نحوه شخصياً أو نحو سيارته، ومحاولاته لتهدئتهم، ومحاولات الشرطة لتحجيم تدافع الناخبين.. ناهيك عن استخدام الأطفال فى الحملة، وصورهم وهم منبهرون به؛ ينظرون إليه مشدوهين.. وحتى الرضع وأمهاتهم الذين يشاركون فى الحملات، وتصوير تعاون رجال الأمن وحملهم للأطفال وسط تزاحم الناخبين، كما تركز الصور الفوتوغرافية على إظهار أنه حتى المسنين يشاركون فى الحملات، وتبدو صورهم مؤثرة جداً وسط الزحام، بالإضافة إلى محاولات إثارة التعاطف الإنسانى مع المرشح؛ بالتركيز على جرح فى يده مثلا أثناء الحملة..





وتصوير المرشح وهو يهبط من طائرة وكأنه قادم من السماء، وصور الفرق الموسيقية العسكرية، وكأنها تزف المرشح.. فى شكل كرنفالى!!

ذلك عن الوسائل التى تؤثر فى تشكيل الصورة أما عن الأساليب التى تتبع؛ لتشكيلها أو التأثير فيها، فهى كثيرة أيضاً، نذكر منها: المراوغة، والتبرير، والتهرب، والإسقاط... إلخ؛ ومنها أيضاً الأسلوب اللغوى، الذى يعتمد على علم الكلام السياسى، والتلاعب بالكلمات، وأبرز مثال على اللعب بالكلمات، وقول نصف الحقيقة، والنجاح فى التهرب من الاتهامات، وتبرير الأخطاء ما كان يمارسه بيل كلينتون وفريقه.

ولا يجب أن نتصور أن خبراء الصورة يعتمدون فقط على القيم المظهرية الخارجية.. لكنهم أيضاً يدرسون الجوانب المتعلقة بعلاقة الرئيس بالناس بطبقاتهم المختلفة، والمتعلقة بسياسته الاقتصادية، وأثرها على الشعب، ولا يكتفى خبراء الصورة بفترة الانتخابات فقط، أو بالتركيز على برامج معينة؛ لتشكيل الصورة وتحسينها فى بداية حكم أى رئيس وحسب.. ولكن يظلون يتابعون تقييم الحملات والاستشارات التى ينالها الرئيس طوال فترة حكمه؛ كمؤشر على مدى حرصه على مصالح الأمة الأمريكية، وبالتالى الاحتفاظ بصورته كراع لها، وحريص على مصالح الشعب الذى انتخبه.

أما عن التوقيت فله أهميته القصوى، إذ يبدأ التفكير فى الحملة الانتخابية، وأساليب رسم صورة الرؤساء مبكراً جداً، فهم يرون أن من يبدأ باكراً يصل بالتأكيد، فى حين ينشغل من يبدأ لاحقاً بطرح صورته بالرد على ما يرد فى حملات سابقة، فتصبح الحملة صدى وليست صوتاً.

ولا يقتصر الأمر على أمريكا بالذات فى استخدام وسائل وأساليب منوعة ومبتكرة؛ لتشكيل صورة المرشحين للرئاسة.. ولكن لكل دولة غربية أساليبها، التى تتفق وثقافتها وتراثها، والتى تختلف عن غيرها من الدول، وهذا الأمر بالذات مرعى جداً فى معظم الدول المتقدمة التى تتبنى مثل هذه البرامج المبنية على أسس علمية، وعلى أساس ما تسفر عنه الخبرات والتجارب السابقة، فى حين بدأنا نلجأ فى العالم العربي إلى أمركة حملاتنا الدعائية.. دون تدبر لخطورة الاختلاف القيمى بين المجتمعات، فما ينجح هناك ليس بالضرورة أن ينجح أو حتى يُقبل هنا.

وقبل أن نختم الحديث عن ألاعيب وفنون صُنّاع الصورة الذهنية فى الغرب، لابد من القول بأن تمكنهم من عملهم ووضعهم لبرامج غالباً ما تنجح فى التأثير فى الناخبين.. لا يتم بالخداع والتضليل، ولا حتى بإتقان استخدام أساليب ووسائل العلاقات العامة المعروفة فقط.. ولكن لاعتمادهم على عدد من العلوم المتصلة بالنفس البشرية وبالاجتماع الإنسانى، ومعرفتهم بعادات وتقاليد المجتمعات التى يتوجهون لها ببرامجهم، وإدراكهم لرغبات الناخبين، ومتابعة تطور هذه الرغبات، ومعرفتهم بالأهواء وتبدلها من حقبة لأخرى، وتفهم العوامل المؤثرة فى ذلك، بالإضافة إلى اعتمادهم على كل جديد ومفيد فى البحوث العلمية والأنثروبولوجية، وآخر المستجدات التى يمكن أن تفيدهم، فى تصميم برامجهم لتشكيل الصورة أو تحسينها.

ففى مجال العلاقات العامة كعلم وفن له أصوله وقواعده التى ابتدعتها، واتقنتها، وصدرتها أمريكا للعالم كله، تبدو كل الأمور مرتبة ومنسقة، فالعلاقات العامة ليست للترفيه والتسلية، وإنما للقيام بعمل جاد محسوب، ومدروس جيداً.

ويؤكد ناعوم تشومسكى: أنه فى خضم نظام دعائى ناجح ومخطط، يمكن تصنيع الإجماع وتوجيه الجماهير نحو وجهة محددة، وطمس الحقائق والأحداث المراد إخفاؤها، والتغطية عليها، بحيث يردد القطيع الشعارات، والدعايات التى تم تلقينها له!

وما يعنينا هنا من كل ما سبق هو التأكيد على خطورة أساليب ووسائل صناعة صورة الرؤساء، والتنبه إلى فنونها وألاعيبها، وأكاذيبها، وما توهم به الجمهور ليختار رئيسه بأسلوب القطيع المساق.

والخلاصة أن ألاعيب صُنّاع الصورة الذهنية لا نهاية لها، وكلما كُشفت لعبة، استبدلوها بأخرى إلى أن تنكشف، وحقيقة الأمر أن هناك عوامل كثيرة تتحكم فى عملية اختيار الرئيس غير مميزاته الشخصية.. بل إن عمليات الترغيب والترهيب، وجماعات الضغط، وحسابات القوى، واللوبى الصهيونى، والتأثيرات الاقتصادية، والشركات العملاقة، وأصحاب رؤوس الأموال الضخمة ... إلي غير ذلك من عوامل كلها لها تأثيرها، ويعمل لها ألف حساب فى تشكيل الصورة الذهنية ورسم ملامحها بكل دقة، بحيث تؤثر على الناخبين نصف المثقفين، ومعدومى الثقافة؛ ليتجمع للمرشح للرئاسة كم هائل من الأصوات المؤيدة.. غير المدركة للحقيقة. ■

باندونج

فى

مشوار العمر مع الدبلوماسية المصرية

عبد الرءوف الريدى

■■ فيما بين عام ١٩٥٤، العام الذى تخرجت فيه من كلية الحقوق جامعة القاهرة، وعام ١٩٥٥ العام الذى التحقت فيه بوزارة الخارجية، وقعت أحداث أربعة تفاعل كل منها مع الآخر كما تفاعلت مع أحداث أخرى فى ذات العامين لتصنع نسيج الدبلوماسية المصرية لعام ١٩٥٥ الذى اعتبره عام البداية فى حقبة دبلوماسية ثورة ١٩٥٢، أو بعبارة أدق حقبة عبد الناصر.

كان أول هذه الأحداث عملا إرهابيا، وكان ثانيها عملا عسكريا، وكان ثالثها حدثا دوليا كبيرا، وكان رابعها عملا دبلوماسيا اختراقيا Breakthrough.

أول هذه الأحداث الأربعة هى سلسلة العمليات الإرهابية التى قامت بها مجموعة العملاء الذين أوفدتهم إسرائيل إلى مصر عام ١٩٥٤ لنسف المنشآت الأمريكية والبريطانية فى القاهرة والإسكندرية من أجل تسميم الأجواء بين مصر والغرب أو بين مصر والولايات المتحدة تحديدا والتى عرفت بعد ذلك بفضيحة لافون أو عملية سوزانا، وكان ثانيها هو العدوان الإسرائيلى على الجيش المصرى فى غزة فى فبراير ١٩٥٥ والذى راح ضحيته عدد كبير من الضباط والجنود المصريين وكان بمثابة تحدٍ كبير لقيادة الزعيم المصرى الجديد، جمال عبد الناصر، وكان الحدث الثالث هو مؤتمر التضامن الأفريقى الآسيوى الذى انعقد فى باندونج باندونيسيا والذى كان أول حضور دولى لعبد الناصر وسط قادة آسيا وأفريقيا فى أول تجمع دولى كبير لقادة هذه الدول، وكان الحدث الرابع هو صفقة الأسلحة التى عقدتها مصر مع إحدى دول الكتلة الاشتراكية (تشيكوسلوفاكيا) ومثلت آنذاك اختراقا للدبلوماسية المصرية لنجاحها فى الحصول على السلاح رغم حظر تصدير السلاح الذى كان مفروضا عليها.

هذه الأحداث الأربعة ظلت تلقى بظلالها وتفرز تداعياتها وتحكم حركة الدبلوماسية المصرية لسنوات طويلة فيما بعد.

طوفت بذهنى هذه الأحداث فى الأسابيع أو بالأحرى فى الأيام حديثا وخصوصا عندما دخلت قصر الرئاسة فى مصر الجديدة يوم ٥ مايو ٢٠٠٥ للاحتفال بمرور مائة عام على إنشاء ضاحية مصر الجديدة... وكان مكان الاحتفال هو مقر الرئاسة الذى كان من قبل هو فندق هليوبوليس درّة هذه الضاحية الجديدة التى قامت فى الصحراء الملاصقة لقاهرة المعز. تتابعت أو قل تدفقت الذكريات... فهنا منذ خمسة وأربعين عاما عملت لأول مرة فى مكتب المستشار السياسى للرئيس عبد الناصر، المرحوم محمود رياض... وكانت أولى مهامى المساعدة فى الإعداد لأول مؤتمر لوزراء خارجية دول عدم الانحياز الذى انعقد فى هذا المكان بعد تحويل فندق هليوبوليس لتشغله مكاتب الرئيس عبد الناصر، وحركة عدم الانحياز هى فى الواقع امتداد لحركة التضامن الأفريقى الآسيوى التى أطلقها مؤتمر باندونج الذى تم الاحتفال بمرور خمسة أعوام عليه فى ٢٧ أبريل ٢٠٠٥. من ناحية أخرى، منذ أسابيع قليلة جاءت الأنباء من إسرائيل مؤخرا لتحمل خبر قيام الحكومة الإسرائيلية، وتحديدا رئيس إسرائيل بتكريم الإرهابيين الذين مازالوا على قيد الحياة لقيامهم بأعمال إرهابية فى مصر... وقد صعقنى هذا النبأ... إذ لم أكن أتصور أن يأتى يوم تكرم فيه دولة - حتى لو كانت هذه الدولة هى إسرائيل - أناسا لقيامهم بأعمال إرهابية... كانت كلها أهدافا مدنية... كيف يبلغ الغرور والصلف والشعور بالتعالى بدولة يتصور معها حكامها أنهم قادرون على تحدى مشاعر الآخرين إلى الحد الذى يجعلهم يكرمون الإرهابيين الذين وضعوا مواد متفجرة فى الأماكن التى يؤمها الناس مثل المكتبات العامة ودور السينما والنوادى... ويجرى تكريم هؤلاء الإرهابيين - الأحياء منهم والأموات- وسط صمت مدوٍ لم نسمع فيه كلمة إدانة واحدة من الشرق أو من الغرب بل حتى هنا فى العالم العربى... لم يكن هناك سوى أصوات محدودة هى التى أدانت هذا التكريم، وأسجل هنا أن جريدة «صوت الأمة» كانت هى الوحيدة تقريبا التى أفردت لهذا الموضوع صفحة كاملة استقتها من كتاب الأستاذ عادل حمودة حول هذا الموضوع وعنوانه «عملية سوزانا»

تخرجت من كلية الحقوق عام ١٩٥٤، وخضت امتحان المسابقة فى السلك الدبلوماسى المصرى للملحقين الدبلوماسيين وتم تعيينى فى وزارة الخارجية بعد أيام من انعقاد مؤتمر باندونج، انعقد المؤتمر فى ٢٣ أبريل ١٩٥٥ وعينت فى الخارجية فى ٢٧ أبريل ١٩٥٥، وفى دواوين هذه الوزارة العتيدة التى أصبحت بعد ذلك جزءا من حياتى... استمعت عما دار فى باندونج... هذه المدينة الصغيرة الواقعة فى إحدى جزر اندونيسيا النائية... انعقد المؤتمر تحت عنوان التضامن الأفريقى الآسيوى... وشاركت فيه مجموعة من الشخصيات التى قادت كفاح آسيا وأفريقيا من أجل التحرر الوطنى والاستقلال... كانت أغلب هذه القيادات من آسيا... شواين لاى رئيس وزراء الصين وجواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند ورفيق غاندى فى الكفاح من أجل الاستقلال وسوكارنو رئيس اندونيسيا الذى قاد كفاح اندونيسيا ضد الاستعمار الهولندى... وأونو رئيس وزراء بورما... أما أفريقيا فكان ممثلها الرئيسى هو هذا الشاب المصرى الأسمر ذو الأعوام السبعة والثلاثين الذى قاد الثورة على ضفاف النيل ضد الحكم الملكى وضد الاستعمار البريطانى... وأصبح زعيم مصر...



اجتمع هؤلاء القادة سويا وكان تجمعهم فى حد ذاته بمثابة إعلان عن وجود عالم آخر غير عالم تلك الدول التى خاضت وانتصرت فى الحرب العالمية الثانية... والتى ما أن انتهت عام ١٩٤٥ حتى انقسم المنتصرون على أنفسهم ما بين معسكر شرقى ومعسكر غربى. جاء تجمع باندونج ليعلن أن شعوب أفريقيا وآسيا لا ترغب فى الالتحاق بأى من هذين المعسكرين لأن ما يهمها هو التحرر من ربقة الاستعمار فى نفس الوقت الذى تدعو فيه العالم إلى اتباع سياسة التعايش السلمى والتى صاغ مبادئها الزعيمان الآسيويان الكبيران نهرو وشوان لاى قبل اجتماع باندونج.

لم يكن عبد الناصر عندما ذهب إلى باندونج قد حقق فى مصر زعامته التاريخية التى لم تنعقد له إلا بعد عام من خلال معركة السويس، ولكنه مع ذلك كان قد حقق شعبية كبيرة فى العالم العربى نتيجة لمقاومته لسياسة الأحلاف العسكرية وحلف بغداد على وجه الخصوص الذى لم يكن مقبولا لدى الجماهير العربية. وكانت باندونج محطة هامة فى منحنى صعود نجم عبد الناصر وظهوره كزعيم قادم لمصر وللعالم العربى. عندما ذهب عبد الناصر إلى باندونج كان منشغلا بموضوع الحصول على السلاح لمصر حيث لم يكن قد مضى سوى شهرين على الغارة الإسرائيلية على غزة وما مثلته من تحدٍ لزعامته، إذ لم يكن لدى الجيش فى مصر من السلاح ما يستطيع أن يرد به على هذا الاعتداء أو أن يردع به إسرائيل عن القيام باعتداءات أخرى فى المستقبل، فبدأ عبد الناصر لذلك يبحث عن السلاح، وأرسل المبعوثين إلى العواصم الغربية فى أوروبا كما أرسل على صبرى إلى الولايات المتحدة من أجل الحصول على السلاح لمصر إلا أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح لأن أسواق السلاح فى الغرب كانت موصدة أمام مصر.

كانت الدول الغربية تطبق ما عرف آنذاك بالتصريح الثلاثى الصادر عن الولايات المتحدة وفرنسا وإنجلترا، والذى كان يقضى بحظر تصدير السلاح إلى دول الشرق الأوسط...إلا أن إسرائيل كان لديها السلاح الذى حصلت عليه من قبل من دول الكتلة الشرقية، وبنت به قواتها المسلحة التى حاربت الدول العربية عام ٤٨، كما كانت لها طرقها بعد ذلك فى

كيف يبلغ الغرور والصلف والشعور بالتعالى بدولة يتصور معها حكامها أنهم قادرون على تحدى مشاعر الآخرين إلى الحد الذى يجعلهم يكرمون الإرهابيين الذين وضعوا مواد متفجرة فى الأماكن التى يؤمها الناس مثل المكتبات العامة ودور السينما والنوادى...



الحصول على الأسلحة من الدول الغربية بغض النظر عن التصريح الثلاثى.

فى باندونج استطاع عبد الناصر أن يخترق هذا الحصار عندما تحدث مع شواين لاى رئيس وزراء الصين طالبا إليه أن يسعى لدى الاتحاد السوفيتى لتزويد مصر بالسلاح، حيث لم يكن الاتحاد السوفيتى طرفا فى التصريح الثلاثى... وكانت تلك هى الخطوة الأولى التى تبلورت بعد ذلك فى صفقة الأسلحة التشيكية التى أعلن عنها بعد خمسة شهور... وهى الصفقة التى كانت لها تداعيات سياسية بعيدة الأثر على مصر وعلى الشرق الأوسط بل وعلى السياسة الدولية وتوازناتها بصفة عامة...



كانت العلاقات بين مصر والولايات المتحدة فى عام ١٩٥٤ وبين رجال الثورة منذ قيامهم بحركة ٢٣ يوليو علاقات جيدة وواعدة... وخاصة بعد أن أيدت الولايات المتحدة مصر فى مفاوضات الجلاء وضغطت على بريطانيا أثناء المفاوضات المصرية البريطانية من أجل جلاء القوات البريطانية عن الأراضى المصرية... وكانت الولايات المتحدة تؤمل الكثير من زعماء الثورة وتعتقد أنها من خلالهم سيمكن إيجاد حل للصراع العربى الإسرائيلى وإدخال مصر ضمن منظومة الدفاع عن الشرق الأوسط ذى الأهمية الاستراتيجية للغرب، فجاءت صفقة الأسلحة التشيكية وما أعقبها من اعتراف مصر بجمهورية الصين الشعبية التى كانت تحارب النفوذ الغربى فى شرق آسيا لتوجه ضربة كبيرة لهذه التوقعات، وبدأت الأحداث تتتابع وتتداعى فى مسلسل الصدام بين مصر والغرب، وكان هذا الصدام أساسا مع إنجلترا بسبب دعوتها لإنشاء حلف بغداد ومع فرنسا بسبب دعم مصر لثورة الجزائر التى قامت فى أول نوفمبر ١٩٥٤، ثم جاءت صفقة الأسلحة التشيكية فى عام ١٩٥٥ بعد باندونج لتفتح باب الصراع مع الولايات المتحدة.

فى هذا الوقت أيضا كانت إسرائيل بدورها تسعى لإفساد العلاقات المصرية الأمريكية التاريخية.. ظهر ذلك عندما ثبت أن رئيس وزراء إسرائيل آنذاك دافيد بن جوريون قد كلف وزير دفاعه اسحق لافون بإرسال مجموعات تخريبية إلى مصر لتقوم بعمليات إرهابية فى مصر بما فى ذلك المنشآت الأمريكية والبريطانية بما فى ذلك مكتبة السفارة الأمريكية ودور السينما التى تعرض أفلاما أجنبية وكان الهدف من هذه العمليات هو إفساد أجواء العلاقات بين الغرب وخاصة الولايات المتحدة وبين مصر وإثبات أن النظام الجديد عاجز عن حماية الأجانب. ولقد أكد ذلك هدف إسرائيل الذى اتبعته منذ البداية وهو محاربة أية فرصة للتقارب بين مصر والولايات المتحدة. بل لعل بن جوريون قد هدف من عدوانه على غزة أن يدفع عبد الناصر للبحث عن السلاح من المعسكر الشرقى وبالتالى يزج به فى طريق الصدام مع الولايات المتحدة، وهو ما حدث بالفعل... وتبقى سياسة إفساد العلاقات المصرية الأمريكية هدفا ثابتا للدبلوماسية الإسرائيلية.



فى يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥ وصلت مع الزميل والصديق يوسف شرارة إلى نيويورك لاستلام عملنا كملحقين دبلوماسيين فى بعثة مصر لدى الأمم المتحدة، وكان أول ما سمعناه يوم وصولنا هى أنباء إبرام صفقة الأسلحة التشيكية مع مصر والتى تصادف الإعلان عنها مع يوم وصولنا إلى نيويورك، وفى اليوم التالى ذهبنا إلى مقر البعثة المصرية الذى كان يقع فى فيلا رقم ٩٠٠ شارع بارك آفنيو فى جزيرة مانهاتن، وحضرنا حفل الاستقبال الكبير الذى أقامه وزير خارجية مصر آنذاك الدكتور محمود فوزى احتفالا بنجاح وفد مصر بإدراج قضية الجزائر كبند على جدول أعمال الدورة العاشرة للجمعية العامة للأمم المتحدة... وكان هذا النجاح هو أول بوادر نجاح لروح التضامن الأفريقى الآسيوى. فقد أعقب انعقاد مؤتمر باندونج تكوين المجموعة الأفريقية الآسيوية بالأمم المتحدة وكان أهم بند على جدول أعمال هذه المجموعة هو مساندة قضايا الشعوب الأفريقية والآسيوية، وعلى وجه الخصوص الكفاح ضد الاستعمار والعنصرية، كان من أول ما فعلته هذه المجموعة هو تشكيل لجنة لدعم قضية الجزائر... وعهدت بهذه اللجنة إلى السفير يوثانت مندوب بورما الدائم لدى الأمم المتحدة آنذاك والذى ظل يرأسها حتى نجاح ثورة الجزائر وإعلان استقلالها ودخولها وانضمامها عضوا بالأمم المتحدة عام ١٩٦٣... أما يوثانت نفسه فقد انتخب ليشغل منصب سكرتير عام الأمم المتحدة بعد حادث سقوط طائرة السكرتير العام السابق داج همرشلد عام ١٩٦٠.

كانت صفقة الأسلحة التشيكية بمثابة الحدث الذى جر منطقة الشرق الأوسط بعد ذلك إلى سلسلة من التداعيات التى تركت آثارها على شكل النظام الدولى وتوازن القوى الذى كان سائدا...

تلازمت صفقة الأسلحة التشيكية مع حملة مصر ضد حلف بغداد... ثم جاء اعتراف مصر بعد ذلك بالصين الشعبية وتبادل التمثيل الدبلوماسى بعدها... وكانت الصين آنذاك هى ذلك التنين الأصفر الذى حارب الولايات المتحدة فى كوريا بعد نجاحه فى القضاء على نظام تشان كاى تشيك فى الصين... ثم ساعدت بعد ذلك حركة التحرر الوطنى الفيتنامية التى هزمت فرنسا عام ٥٤ فى معركة ديان بيان فو التاريخية. وبالتالى تصور دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة أن الشيوعية بدأت تزحف بثقلها على منطقة الشرق الأوسط ذات الأهمية الاستراتيجية الحيوية للغرب وكان دالاس يعتبر أن الحياد فى الصراع بين «العالم الحر» وبين معسكر «الستار الحديدى» هو عمل غير مقبول بل عمل غير أخلاقى، فقرر أن يدخل فى مواجهة مع هذا النظام الثورى الذى قام على ضفتى النيل والذى جرؤ على تحدى الغرب وعقد صفقة السلاح مع الكتلة الشرقية والاعتراف بالصين الشيوعية.

كان قرار دالاس هو سحب عرض تمويل مشروع السد العالى فى يونيو ٥٦ وهو المشروع الذى كان عبد الناصر يعلق عليه آمالا كبيرة فى تنمية مصر.. وقد جاء هذا القرار بمثابة صفعة على وجه النظام الثورى الجديد.. مما دفع عبد الناصر للرد بتوجيه ضربة مقابلة تمثلت فى تأميم قناة السويس فى يوليو ٥٦.. وكان هذا التأميم هو الذى أثار ثائرة الإمبراطوريتين الاستعماريتين المتداعيتين فرنسا وإنجلترا صاحبتى أكبر قدر من الأسهم فى شركة قناة السويس .. فكان تحالفهما مع إسرائيل فيما عرف بالعدوان الثلاثى يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ثم فشل هذا العدوان والذى عارضته الولايات المتحدة بفضل الرئيس أيزنهاور والاتحاد السوفيتى حتى أجبرت فرنسا وإنجلترا وإسرائيل على الانسحاب... وكانت تلك من الناحية العملية لحظة انتهاء الحقبة الاستعمارية فى العالم.



كان ظهور المجموعة الأفريقية الآسيوية فى مؤتمر باندونج ودعوتها إلى مبادئ التعايش السلمى وإلى نزع السلاح بين الدول النووية وإلى رفض سياسة الأحلاف والقواعد العسكرية الأجنبية يعنى أن ثمة تيارا ثالثا بدأ فى الصعود على الساحة الدولية، وهو تيار لا ينحاز لأى من الشرق أو الغرب، الأمر الذى لفت انتباه ذلك الزعيم الاشتراكى الذى رفض بدوره فكرة التكتلات وخرج من الكتلة الاشتراكية التى كان الاتحاد السوفيتى يهيمن عليها آنذاك... كان ذلك القائد هو الرئيس اليوغوسلافى جوزيف بروز تيتو... وكان تيتو يبحث عن تجمع دولى يمكن أن يسانده فى وقوفه ضد هيمنة الدول الكبرى وخاصة الاتحاد السوفيتى... وكان طبيعيا أن يعمل على توثيق علاقاته مع قادة التضامن الأفريقى الآسيوى وهو ما فعله، فكانت زيارة تيتو الأولى لمصر ولقاؤه مع عبد الناصر... ولم يكن ممكنا بطبيعة الحال أن تنضم يوغوسلافيا الأوروبية إلى تجمع الدول الأفريقية الآسيوية... ومن هنا بدأ التفكير فى إنشاء تجمع أوسع لا يقتصر على الدول الأفريقية الآسيوية وإن كان

كانت باندونج محطة هامة فى منحنى صعود نجم عبد الناصر. عندما ذهب إلى باندونج كان منشغلا بموضوع الحصول على السلاح لمصر حيث لم يكن قد مضى سوى شهرين على الغارة الإسرائيلية على غزة



كتاب الزاوية



العروة الوثقى

مطامع الإنجليز

إن الإنجليز من ست سنوات جعلوا بعض الضيق فى المالية المصرية ذريعة للانقلاب العظيم الذى حصل فى مصر وألزموا الدولة العثمانية بمجاراتهم فى ذلك الانقلاب، ودافعوا عن الدائنين وزعموا من المحال تقيص شىء من الفوائد وطلبوا من الحكومة المصرية إذ ذاك تقليل عدد حاميتها ليتوفر من النقود ما يصرف لحقوق الدائنين واليوم عطفوا على المصريين «عطفة الأب الرحيم» وبسطوا أيديهم إلى الدول يلتمسون مساعدتها لتخفيف الفائدة مع محو حاميتهم الوطنية. أليست البلاد المصرية كسائر بلاد العالم تحتاج إلى حامية تحفظ حدودها من الخارج وتصون داخلها من الغوائل التى لا تأمن طروقها حكومة من الحكومات. إن فى تلك القسوة الأولى والمرحمة الثانية لسرًا عظيمًا.

للإنجليز فى مصر مطامع من زمن قديم يعدون سلطتهم عليها من ضروريات شوكتهم فى الهند وفى خلدهم أن المصريين لو كانت لهم ثروة مالية وقوة عسكرية عظيمة فإنهم يمانعونهم فيما يريدون ببلادهم، فضيقوا على المالية فى تلك الأوقات وألجأوا الحكومة لتمزيق قوتها العسكرية ليحصل الضعف فى القوتين المالية والجندية فتمهد لهم طريق ما طمحوا إليه. وكان هذا التدبير سببًا فى الانقلاب الذى تبعته هذه الحوادث الهائلة. وبعدما فتح لهم بضعف الحكومة سبيل المداخلة فى مصر طفقوا يسعون بما جبلوا عليه من الهوينا فى المضى إلى مقاصدهم لإيجاد عنوان غير التملك يعنون به إقامة عساكرهم ومأموريهم فى تلك البلاد زمنًا طويلاً، ويكون وضع ذلك العنوان برأى الدول تملصًا من الوعد الذى وعدوها به مع ترقب حوادث السياسة فى أوروبا لعل حادثة منها تساعدهم على إبدال العنوان بما هو المطلوب لهم ورأوا من أحسن الوسائل لدعوة الدولة إليهم عرض المسألة المالية.

فى هافانا - حيث انعقد مؤتمر عدم الانحياز عام ١٩٧٥ - جرى ما يشبه محاكمة مصر. ولقد استشعر الرئيس السادات هذه الأجواء فلم يذهب لحضور المؤتمر وترك مهمة تمثيل مصر للدكتور بطرس غالى



يتبنى أفكار التعايش السلمى التى قامت عليها مبادئ باندونج. كان قادة هذا التجمع الجديد هم عبد الناصر من أفريقيا ونهرو من آسيا وتيتو من أوروبا... وكان أول وصف أطلق على هؤلاء القادة الثلاثة هو أنهم قادة «الحياد الإيجابى». جرت لقاءات القادة الثلاثة أول ما جرت فى هذه الجزيرة الجميلة الراقدة فى البحر الأدرياتيكى فى ولاية كرواتيا إحدى ولايات الاتحاد اليوغوسلافى آنذاك وهى جزيرة بريونى التى اقترن اسمها بهذه اللقاءات وسرعان ما تطورت لقاءات القادة الثلاثة إلى صياغة متطورة لفكرة الحياد الإيجابى... لتكتسب اسما جديدا هو حركة عدم الانحياز...

بعد عودتى من نيويورك فى يناير ١٩٦٠ طلبت إلى وزارة الخارجية أن أذهب إلى قصر الرئاسة بمصر الجديدة وأقدم نفسى للعمل مع المرحوم محمود رياض الذى اختاره الرئيس عبد الناصر آنذاك ليكون مستشارا سياسيا له وكان محمود رياض من قبل سفيرا لمصر فى سوريا وفى عهده تمت الوحدة المصرية السورية وألغى بطبيعة الحال منصب سفير مصر فى سوريا ومنصب سفير سوريا فى مصر...

كان مكتب المستشار السياسى للرئيس عبد الناصر فى قصر الرئاسة فى مصر الجديدة (هليوبوليس بالاس سابقا) وكان إلى جانب محمود رياض كل المكاتب السياسية المعاونة للرئيس عبد الناصر، ولعل أهمها كان مكتب الشئون الأفريقية الذى كان يرأسه آنذاك الصديق العزيز محمد فايق الرئيس الحالى للمنظمة العربية لحقوق الإنسان. كان هناك أيضا مكتب لأوروبا برئاسة السفير مصطفى مختار، وآخر لآسيا برئاسة السفير حمدى أبو زيد، ولشئون فلسطين برئاسة د. حسن صبرى الخولى، وللشئون العربية برئاسة محمد المصرى ثم محمود عبد الناصر. كان التحاقى بمكتب مستشار الرئيس للشئون السياسية فى أوائل عام ١٩٦١.

كلف الرئيس عبد الناصر محمود رياض أن يعد لعقد أول مؤتمر لوزراء خارجية الدول غير المنحازة... وعقد هذا الاجتماع بالقاهرة فى قاعة جميلة على الطراز الإسلامى فى ربيع ١٩٦١ بمقر الرئاسة. أما مؤتمر القمة على مستوى الرؤساء والملوك فقد انعقد بعد ذلك بشهور فى بلجراد عاصمة يوغوسلافيا... وكانت هى أول مرة أرى فيها عبد الناصر عن قرب فى هذا المؤتمر ولم يكن هناك أعضاء آخرون من وزارة الخارجية باستثناء مكتب وزير الخارجية د. محمود فوزى. كان هذا اللقاء لقاء تاريخياً بحق... حضرته كل هذه القيادات التى قادت كفاح بلادها من أجل الاستقلال... عبد الناصر، نهرو، تيتو، سوكارنو (أندونيسيا)، سيكو تورى (غينيا) موديبو كيتا (مالى)... وغيرهم.

انعقد اجتماع قمة عدم الانحياز الأول وسط أجواء أزمة كبيرة كانت تهدد بانفجار الموقف بين المعسكرين.. المعسكر الشرقى بقيادة خروشوف الاتحاد السوفيتى والمعسكر الغربى بقيادة الرئيس الأمريكى الجديد الشاب جون كندى. وكان ذلك عندما قررت ألمانيا الشرقية إقامة حائط يفصل بين برلين الشرقية وبين برلين الغربية، نظر مؤتمر عدم الانحياز فى هذه الأزمة، وقرر إيفاد وفد إلى كل من موسكو وواشنطن من الرؤساء لحثهما على عدم اتخاذ أى إجراء من شأنه أن يزيد من توتر الأوضاع وإلى حل الأزمة بالطرق السلمية، وكان لهذه الخطوة تأثيرها فى تهدئة الموقف واحتواء الأزمة.



أدى ازدهار حركة عدم الانحياز وقوة الدفع التى أكسبتها واتساع دائرتها التى شملت إلى جانب أفريقيا وآسيا كلا من أوروبا وقارة أمريكا اللاتينية.. إلى انطفاء الوهج الذى كان باندونج قد ولده بالنسبة لحركة التضامن الأفريقى الآسيوى. ومع ذلك فقد تقرر عقد مؤتمر ثان بعد مرور عشرة أعوام على باندونج... وكان المقرر أن ينعقد هذا المؤتمر فى الجزائر عام ١٩٦٥... ولم يكن قد مر سوى عامين و ثلاثة أعوام على الانتصار الأسطورى لثورة المليون شهيد فى الجزائر.

إلا أنه مع عام ١٩٦٥ كان الخلاف الكبير قد نشأ بين قطبى الحركة الشيوعية، الاتحاد السوفيتى والصين.. وفى إطار هذا الخلاف قرر الاتحاد السوفيتى أن ينازل الصين فى عقر دارها

فقرر أن يطلب الانضمام إلى مؤتمر التضامن الأفريقى الآسيوى باعتبار أن الاتحاد السوفيتى يضم جمهوريات تقع فى آسيا وهى جمهوريات آسيا الوسطى... إلا أن الصين عارضت بقوة الطلب السوفيتى وانعكس هذا الخلاف الكبير على الدول الأعضاء فى حركة التضامن الأفريقى الآسيوى. وكان موقف مصر موقفا حساسا ودقيقا بسبب الصلة الوثيقة التى كانت تربط بين كلتا الدولتين، الاتحاد السوفيتى والصين.

غادر شواين لاى بكين متوجها إلى هولندا ليركب من هناك الطائرة التى أقلته فيما بعد إلى القاهرة التى كان سيقضى بها يوما أو يومين ليتوجه بعدها إلى الجزائر لحضور المؤتمر.. إلا أنه عندما وصل إلى القاهرة لم يكن الأمر قد حسم بعد فى اجتماع وزراء الخارجية الذى يسبق مؤتمر القمة فى الجزائر بالنسبة للطلب السوفيتى فطلب الرئيس عبد الناصر من رئيس الوزراء الصينى شواين لاى أن يبقى فى القاهرة إلى أن يتم حسم هذا النزاع فى اجتماع وزراء الخارجية الذى سينعقد فى الجزائر تمهيدا لعقد القمة... وقد وافق شواين لاى وبقى فى القاهرة إلا أن إقامته امتدت إلى عشرة أيام لم يستطع أثناءها وزراء الخارجية المقيمون فى الجزائر أن يتوصلوا إلى توافق فى الآراء حول الدعوة السوفيتية وسافر شواين لاى عائدا للصين دون أن يتوجه إلى الجزائر ودون أن ينعقد المؤتمر... وكانت تلك فى الواقع هى النهاية العملية لحركة التضامن الأفريقى الآسيوى.

كان من بين العوامل التى عقّدت بحث الموضوع فى الجزائر هو وقوع انقلاب فى الجزائر ضد الرئيس الجزائرى آنذاك أحمد بن بللا، قبل موعد انعقاد المؤتمر بيوم أو يومين وكان قائد الجيش هوارى بومدين هو الذى قاد هذا الانقلاب وكان عبد العزيز بوتفليقة (الرئيس الحالى للجزائر) ساعده الأيمن.

وصلت إلى الجزائر مع المرحوم محمود رياض حيث استقبلنا وزير الخارجية آنذاك عبد العزيز بوتفليقة (الرئيس الجزائرى الحالى) فى المطار وكان باديا عليه الإرهاق الشديد. وفى المطار أبلغنا أنه لا مجال للمصالحة بين بن بللا وبين النظام الجديد الذى لم يكن مر عليه أكثر من يوم أو يومين على إعلانه فى الجزائر، كما لم تكن هناك أية بادرة على إمكان التوصل إلى اتفاق حول انضمام الاتحاد السوفيتى للمؤتمر.. وبقينا فى الجزائر ليومين أو ثلاثة فى أروقة قصر الصنوبر... إلا أن الاجتماعات التمهيدية لم تنجح فى حسم الموضوع بالنسبة لطلب الاتحاد السوفيتى.

فى الوقت الذى أخذت حركة التضامن الأفريقى الآسيوى تخلى طريقها للحركة الأوسع وهى حركة عدم الانحياز، أخذت الأخيرة تنمو وتكبر بفضل القيادة الثلاثية نهرو وتيتو وعبد الناصر. وظلت الحركة تكتسب فى كل يوم أعضاء جددا من مختلف القارات ثم جاءت وفاة نهرو فى منتصف الستينيات وبعدها جاءت حركة سوهارتو الدموية التى أطاحت بسوكارنو..



كانت كارثة ٦٧ بمثابة النهاية الفعلية لعبد الناصر.. وإن كانت مصر قد بقيت لاعبا رئيسيا فى حركة عدم الانحياز إلى أن قام الرئيس السادات بمبادرته التاريخية فى زيارة القدس فى نوفمبر ٧٧... فكانت هذه الزيارة وما أعقبها من توقيع اتفاقات كامب ديفيد ومعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية تحديا كبيرا للأفكار التى كانت تتبناها حركة الانحياز.. وبدأ الطامعون فى وراثة دور مصر وعلى رأسهم صدام حسين الذى كان قد بدأ رحلة الصعود على رأس حكم البعث فى العراق يقود الحملة لطرد مصر من حركة عدم الانحياز، بعد أن تم تعليق عضوية مصر فى جامعة الدول العربية وفى منظمة المؤتمر الإسلامى. وفى هافانا. حيث انعقد مؤتمر عدم الانحياز عام ١٩٧٥ - جرى ما يشبه محاكمة مصر. ولقد استشعر الرئيس السادات هذه الأجواء فلم يذهب لحضور المؤتمر وترك مهمة تمثيل مصر للدكتور بطرس غالى الذى سجل فى مذكراته أحداث هذه المحاكمة.. والتى لعب فيها كاسترو الدور الرئيسى وقام فيها بمناورة كبرى حال فيها دون صدور قرار بتعليق عضوية مصر.. إذ لعله قد استشعر خطورة أن يصدر فى بلاده قرار بتعليق عضوية مصر التى لعبت أهم الأدوار فى بناء الحركة... لم تمض سوى عشرة أعوام بعد ذلك حتى انهار الاتحاد السوفيتى نفسه فأصبحت حركة عدم الانحياز تواجه مشكلة هوية.. حيث ثار السؤال «عدم الانحياز بين من ومن؟»... وأصبح على الحركة أن تبحث عن هوية جديدة أو رسالة جديدة فى عالم القطب الأوحد. ولعل الحركة ما زالت تحاول ذلك حتى الآن... ولكن تراثها التاريخى الذى بدأ عملا فى باندونج مازال يحمل الكثير مما حققته الحركة فى مجال مقاومة الاستعمار والعنصرية والتحرر الوطنى. ■

كتاب الزاوية



العروة الوثقى

فرق تسد

ولما كان من المحتوم فى آرائهم بقاء عساكرهم فى الديار المصرية فلابد من طلب وسيلة لطرد الجند المصرى حتى تكون الحاجة إلى عساكرهم قائمة، هذه طريقة ربما خفيت على المصريين وغفل عنها كثير من الأوروبيين إلا أنها من الطرق المتعارفة عند الإنجليز، وهى التى سلكوها فى البلاد الهندية ونالوا بسلوكها السلطة المطلقة على تلك الأقطار الواسعة بدون سفك دماء غزيرة ولا مقاومة فتن شديدة. دمر الإنجليز «دخلوا بلا استئذان» على الهنديين فى أراضيهم وانبثوا بينهم فتمكنوا من تفريق كلمة الأمراء وإغراء كل نواب أوراجا بالاستقلال والانفصال عن السلطنة التيمورية، فتمزقت المملكة إلى ممالك صغيرة ثم أغروا كل أمير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه فصارت الأراضى الهندية الواسعة ميادين للقتال، واضطر كل نواب أوراجا إلى المال والجنود ليدافع بها عن حقه أو يتغلب بها على عدوه، فعند ذلك تقدم الإنجليز بسعة الصدر وانبساط النفس ومدوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين وبسطوا لهم إحدى الراحتين ببدر الذهب وقبضوا بالأخرى على سيف الغلب.

بدأوا قبل كل عمل بتنفير أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الأهلية، ورموها بالضعف والجبن والخيانة والاختلال، ثم أخذوا فى تعظيم شأن جيوشهم الإنجليزية وقوادها وما هم عليه من القوة والبسالة والنظام حتى اقتنع كل نواب أوراجا بألا ناصر له على مغالبه إلا بالجنود الإنجليزية.

قبل خمس سنوات، وفى أجواء «الاحتفال المصرى» بفوز الدكتور أحمد زويل بجائزة نوبل فى الكيمياء، وتحت لافتة «على طريق المصريين إلى مزيد من نوبل» تقدم العالم: الأمريكى/ المصرى الأصل بمبادرة لإنشاء جامعة «بحثية» - لا تبغى الربح - للعلوم والتكنولوجيا فى مصر.

وأياً ما كانت الأسباب فالحقائق اليوم على أرض الواقع وبعد خمس سنوات كاملة تقول إن حلم الجامعة «النوبلية» التى لا تبغى الربح انتهى - كما كثير من الأحلام والمشروعات فى مصر - إلى لافتة عريضة، ومانشتات فى الصحف، وكثير من الجامعات التى «لا تبغى إلا الربح». قبل أن يهاجر الحلم - كما هاجر صاحبه من قبل - هذه المرة إلى دولة خليجية «قطر» التى احتضنت الفكرة وترجمت خطوطها العريضة - تحت إشراف مباشر من صاحبها - إلى الواقع.

مشروع المبادرة التى كان قد تقدم بها د. زويل إلى المسئولين المصريين فى يناير ٢٠٠٠، والتى تعد وثيقة فى ذاتها ضمنها الحائز على جائزة نوبل آخر كتبه «عصر العلم» والذى يصدر هذا الشهر فى بيروت عن دار الشروق. وهنا نص المبادرة/ الوثيقة:

مشروع مبادرة

من أجل العلوم والتكنولوجيا فى مصر



أحمـــــــد زويـــــل

مـــوجـــــز

■■ تحت رعاية سيادة الرئيس محمد حسنى مبارك نقترح إنشاء مؤسسة لا تهدف للربح للعلوم والتكنولوجيا لتقوم بتأسيس جامعة العلوم والتكنولوجيا University of Science and Technology (UST) ووادى التكنولوجيا Technology Park (TP) ملحق بها.

ويوفر هذا المشروع وسيلة لبناء قاعدة علمية متقدمة فى عصر العلم والعولمة الذى نعيش فيه، والذى يتطلب تكامل الموارد البشرية، والتكنولوجيا، ورأس المال. ومن المؤكد أن قاعدة علمية قوية سوف تشكل الأساس للتقدم التكنولوجى، وكلاهما يشكلان القوة المحركة من أجل رقى وازدهار الأمة، ومن أجل تحقيق وصيانة السلام فى الشرق الأوسط.

وتمثل جامعة العلوم والتكنولوجيا ووادى التكنولوجيا نواة لمراكز تميز بالأهداف الآتية: ١) تعليم الجيل الناشىء العلوم والتكنولوجيا على المستوى العالمى، ٢) تطوير تكنولوجيات جديدة لخدمة البلاد والمناطق المجاورة، ٣) المشاركة فى الاقتصاد العالمى القائم على التكنولوجيا، محليا وعالميا. ويكون للمعاهد البحثية / التعليمية التأسيسية طابع خاص لتمثل أقصى ما انتهى إليه العلم والبحث العلمى فى القرن الحادى والعشرين، فى مجالات الطب الجينى، والطاقة ومصادر المياه، وتكنولوجيا الفمتو والنانو femto- and nanotechnology، وتكنولوجيا المعلومات وغيرها.

ومن أجل إحراز النجاح فإن هذا المشروع التاريخى يتطلب ضروريات ثلاثا هى: خطط أكاديمية وإدارية جديدة والتى تتضمن تطوير مناهج تعليمية وبحثية لمجموعة منتقاة من الطلاب والباحثين، ثم قانون جديد يسمح لمركز التفوق هذا بتحقيق أهدافه، ثم وقف مالى capital endowment جديد يكرس للمشروع، دون أية منافع شخصية لأحد.

وقد تم وضع التخطيط الأكاديمى والإدارى للمشروع بالتفصيل والموضح فيما يلى بشىء من الإيجاز. وبالنسبة لرأس المال الخاص بالمشروع فإنه سوف يأتى من مصدرين دون أن تتحمل الحكومة الأعباء - رسوم التعليم (tuition) فى مرحلة ما قبل التخرج (كما هو متبع فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة)، وريع الوقف المنظم بصورة خاصة لأجل البحوث العلمية المتقدمة والدراسات المتعلقة بالتكنولوجيا الفائقة والتى تقوم بها جامعة العلوم والتكنولوجيا ووادى التكنولوجيا الملحق بها.

كما تم تخصيص مساحة ٣٠٠ فدان لمشروع جامعة العلوم والتكنولوجيا ووادى التكنولوجيا فى مدينة السادس من أكتوبر (وتم وضع حجر الأساس فى أول يناير سنة ٢٠٠٠). ويمكن أن تبدأ حملة جمع تبرعات لهذا المشروع بعد صدور قانون خاص بذلك. وقد أبدى بعض القادرين، من مصريين وغير مصريين، رغبتهم واستعدادهم للمشاركة فى دعم هذا المشروع، كما قدم علماء بارزون من كل أنحاء العالم مساعدتهم فى هذه المبادرة الجديدة. ورعاية الرئيس مبارك لهذا المشروع عامل أساسى فى إنجاحه، ذلك المشروع الذى سوف يدفع بمصر والعالم العربى إلى نهضة فى العلوم والتكنولوجيا.

عصر العلم
أحمد زويل
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٥

المبادرة من منظور تاريخى

من المعروف تاريخيا أن مصر والعالم العربى قد ساهما فى إنجاز إضافات كبرى أدت إلى رقى وتقدم الفكر الإنسانى والحضارى، فعبر آلاف السنين توصلت مصر، مهد الحضارة والتفكير العلمى، إلى اكتشافات علمية واختراعات فى العلوم والهندسة والطب ومجالات أخرى عديدة، ومنذ نحو ألف عام انتشرت الحضارة العربية الإسلامية وإنجازاتها العلمية فى أوروبا وآسيا، ومما لا شك فيه أن هذا الاتصال كان له دور مهم فى ميلاد النهضة الأوربية، ومع ذلك فإن إضافات مصر والعالم العربى إلى العلوم العالمية فى الوقت الحالى إضافات متواضعة، وقد أفضى ذلك إلى ظاهرة استنزاف العقول، أى انتقال كثير من العلماء البارزين إلى دول الغرب ثم حاجة مصر والدول العربية لاستيراد التكنولوجيا من دول الغرب. ويفسر اقتران ظاهرة استنزاف العقول وغياب قاعدة علمية محلية ذات وضع تكنولوجى قوى لمصر والعالم العربى.. ومن ثم تأثيرهم المحدود فى السوق العالمى. إن العالم العربى مازال غنيا بالموارد البشرية، وبالموارد المالية (كما هو الحال فى كثير من الدول العربية) ومن ثم وجب ألا تكون هناك عوائق أساسية تحول دون بناء قاعدة علمية

قوية، تلك القاعدة العلمية التى تعد أمرا حاسما لمستقبل العالم العربى وبقائه فى الوضع المناسب وفى الوصول إلى السلام فى الشرق الأوسط.

وقد شهد القرن العشرون ثورات فى العلوم والتكنولوجيا أفضت إلى اختراع الليزر والكمبيوتر، والترانزستور، وتكنولوجيا جديدة غيرت مجتمعاتنا تغييرا كبيرا. وقد اتسعت الاكتشافات فى كل المجالات، من العالم البالغ الصغر (عالم الذرات) إلى العالم البالغ الكبر والتعقيد، فنظرية الكم Quantum theory، والنظرية النسبية، والأبعاد الجديدة فى الزمان والمكان (الفمتو والنانو femto and nano)، والثقوب السوداء، وتمدد الكون، ثم حل الشفرة الوراثية... هى أمثلة للاكتشافات التى غيرت الفكر الإنسانى وتعد أساسا للأهداف المنشودة فى الحقول والمجالات الجديدة، وسوف يتوصل العلماء بكل تأكيد لاكتشافات جديدة فى القرن الحادى والعشرين وسوف يكون لها أثر بالغ فى حياة المجتمع فى مجالات شتى من الصحة والمعلوماتية (الانترنت وغيره) والبيئة وغيرها. وتهدف العولمة لتكامل الموارد البشرية ورأس المال والتكنولوجيا، الأمر الذى يجعل من المستحيل على أمة من الأمم أن تؤثر فى الاقتصاد العالمى تأثيرا فعالا من غير قاعدة علمية قوية.

وقد صممت جامعة العلوم والتكنولوجيا ووادى التكنولوجيا الملحق بها كفكرة جديدة لإحداث مشاركة فعالة فى علوم القرن الحادى والعشرين ولتحسين وترقية تكنولوجيات محلية إلى المستوى العالمى. وبأول جائزة نوبل فى العلوم لمصر والعالم العربى ورغبة الحكومات والشعوب للوصول إلى هذا المستوى من الإنجاز، فإن التفوق يصبح هدفا منشودا يمكن إحرازه فى وقت قصير نسبيا، ويحتاج ذلك لرعاية وتعهد للتميز من خلال نظام جديد قادر على توفير الفرص المناسبة للأجيال الحالية والمستقبلية لبناء قاعدة علمية وتكنولوجية على المستوى العالمى، والهدف النهائى هو تحسين وترقية الوسائل لتحسين صحة الإنسان وحمايته واكتساب معارف جديدة، بدءا من الذرات وحتى الفضاء الخارجى، فالقاعدة العلمية هى الأساس لمجالات علمية واسعة، وجامعة العلوم والتكنولوجيا ليست ترفا ورفاهية، ولكنها مطلب حيوى للأمة والمنطقة بأسرها.

أهداف جامعة العلوم والتكنولوجيا وتفردها

إن الفكرة الأساسية التى وراء جامعة العلوم والتكنولوجيا ورفيقها وادى التكنولوجيا هى بوضوح تكوين نظام جديد لباحثين وطلاب والذين يتم انتقاؤهم بعناية بالغة، ولا يزيد عدد الطلاب وأعضاء هيئة التدريس عن خمسة آلاف كحد أقصى، وأن تعد الجامعة بأحدث الوسائل والمختبرات وأكثرها تطورا، وسوف يتمتع حرم الجامعة باكتفاء ذاتى مع بيئة علمية حقيقية لتنشئة ورعاية الأفكار الجديدة وابتداع إضافات علمية جديدة مع التركيز على الأفكار العلمية والتكنولوجية على مستوى الدول المتقدمة (الولايات المتحدة وأوروبا واليابان...الخ) مع الحفاظ على الثقافة المحلية والقيم والأخلاق الفاضلة بنفس الدرجة من الاهتمام والتركيز، وسوف تكون جامعة العلوم والتكنولوجيا متفردة للأسباب التالية:

أولا: سوف تعد الجامعة جيلا جديدا من الطلاب المتميزين ومتعددى الإبداعات وبكفاءات عصرية فى العلوم والتكنولوجيا، فنظام التعليم الحالى أقل اقتدارا وكفاءة من أن يوفر مثل هذا الإعداد الحاسم للطلاب على المستوى التنافسى العالمى.

ثانيا: سوف تضع الجامعة مصر والعالم العربى على الخريطة العالمية فى البحث العلمى والتطور، وتتيح مشاركة فعالة فى العلوم والتكنولوجيا العالمية والتبادل الثقافى مع الثقافات العالمية، والنظام الجامعى الحالى أقل قدرة وكفاءة من أن يقوم بهذا الدور بطريقة فعالة.

ثالثا: سوف يكون للجامعة أثر هائل على المجتمع المحلى والعالمى، وتضع نواة «المجمع العلمى» فى المستقبل وسوف تكون بمثابة مركز تنويرى للتميز وتولد افتخارا خاصا لدى المواطنين، وتساعد الجامعات الأخرى لإحراز التميز من خلال التفاعلات المتبادلة، وتنقل التقدم فى المجالات العلمية والتكنولوجية الجديدة إلى كل قطاعات المجتمع بما فى ذلك القطاع الصناعى والاقتصادى والزراعى، كما تشكل روابط جديدة بين العلماء والأشخاص العاديين، وتدمج القيم العلمية بالقيم الاجتماعية، وسوف تشكل هذه الإضافات أهمية بالغة على المستويين المحلى والعالمى، ذلك أنها سوف تقيم الجسور والحوارات العقلانية فى كل المجالات.

بنية جامعة العلوم والتكنولوجيا

تتألف البنية الأساسية لجامعة العلوم والتكنولوجيا مما يلى:

❖ بالنسبة لبرنامج طلاب الجامعة، يتم التركيز فى هذا البرنامج فى البداية على أساسيات العلوم (الرياضيات، الفيزياء، الكيمياء، الهندسة، علم الاقتصاد.. الخ) على أعلى مستوى، بالإضافة إلى منهج دراسى متكامل يركز على التداخل فى العلوم الحديثة multidisciplinary. وفى حالة الطلاب المبتدئين، طلاب الصف الأول من الجامعة، سوف يدرس الطلاب بعض المقررات فى العلوم الإنسانية واللغويات مع الاهتمام بالجوانب الثقافية والتاريخية والفنية. وبهذا المنهج الدراسى يكون قد تم الإعداد الأولى للطلاب والذين سوف يرشحهم للقبول فى برنامج الجامعة المتقدم والذى يعد الطلاب للتخصص فى المجالات العلمية المختلفة والهندسة والطب والمجالات ذات الصلة.

❖ بالنسبة للدراسات العليا تقوم الجامعة بإنشاء معاهد بحثية على أعلى مستوى، مماثلة فى مكانتها ومضمونها لمعاهد ماكس بلانك فى ألمانيا، وتكرس هذه المعاهد للمجالات العلمية والتكنولوجية الجديدة لضمان الأصالة والإبداع ولتشجيع الأفكار الخلاقة، وهذا يعنى الاتجاه بقوة شطر حقول بحثية جديدة تتيح مجالا لنشاط الرواد والمستكشفين، على أن تكون ذات صلة وثيقة بالمشكلات فى مصر والمنطقة مثل الطاقة والمعلومات وعلوم الطب الجينية وما شابه.

❖ فى البداية يجب ألا يزيد عدد المعاهد البحثية التى تنشأ فى الجامعة على خمسة إلى سبعة معاهد شريطة أن تكون كلها على تخوم القرن الحادى والعشرين وعلومه، مثل الطب الجزيئى، والهندسة الوراثية، والمعلوماتية، وعلوم المواد، والليزرات، ومصادر المياه، والتغيرات العالمية، واستكشاف وارتياد الفضاء وغيرها. ويجب أن تنشىء الجامعة برامج دولية لتشجيع الطلاب وهيئة التدريس للتبادل العلمى والثقافى مع الجامعات والمعاهد المماثلة فى العالم وبنفس المستوى.

نظام ودعم جامعة العلوم والتكنولوجيا

إن جامعة العلوم والتكنولوجيا مؤسسة لا تهدف للربح وتديرها مؤسسة العلوم والتكنولوجيا، ويجب أن تعمل الجامعة والمؤسسة التى تديرها تحت مظلة قانون جديد يوقعه الرئيس مبارك ويصدق عليه من مجلس الشعب، والذى يمنحهما الاستقلال كمؤسسة غير حكومية لا تهدف للربح. ويجب أن تتحرر الإجراءات الخاصة بسير العمل فى جامعة العلوم والتكنولوجيا من المعوقات



إن إضافات مصر والعالم العربى إلى العلوم العالمية فى الوقت الحالى إضافات متواضعة، وقد أفضى ذلك إلى ظاهرة استنزاف العقول، أى انتقال كثير من العلماء البارزين إلى دول الغرب ثم حاجة مصر والدول العربية لاستيراد التكنولوجيا من دول الغرب



كتاب الزاوية



العروة الوثقى

أيها النوام.. هبوا

تسعى حكومة بريطانيا بكل ما فى وسعها لوقف دفع الاستهلاك وتنقيص فائدة الدين المصرى ويعترضها فى ذلك سائر الدول الأوروبية العظيمة.

هل الدولة الإنجليزية أشد الدول رحمة على العالمين عمومًا وعلى المصريين خصوصًا فدعتها الرحمة للقيام على هذا العمل قصدًا لراحة المصريين وتخفيفًا لثقل الدين على الخزينة المصرية وتوصلاً لرفاهية الأهالى وتوسيع دائرة ثروتهم؟ أو أن هذه الدولة لم تبالغ فى الشفقة وهى على حد الاعتدال فى الحكم، ولكن الدول تجاوزت القسط فى القسوة خشونة وغشمرة أو لعداوة خصوصية بينهم وبين المصريين، لهذا لا يريدون تخفيف شىء من أثقالهم. أو أنها اطلعت على أحوال المصريين وكشف حقيقة ما هم عليه، وعلمت عجزهم عن الوفاء مما عليهم وخفيت هذه الحقيقة على سائر الدول فرأت حكومة بريطانيا أن تخبر الدول بما وقفت عليه قيامًا بخدمة الصدق وإنما يعارضها من سواها جهلاً بواقع الأمر.. لا.. لا.

تريد حكومة بريطانيا أن تسود على مصر وتستعبد أهلها وترى أن بقاء الحالة المالية على أصولها السابقة يرجع بالمنفعة على الدائنين من الأمم المختلفة فلا يكون حظ الخزينة الإنجليزية الخاصة من ثروة مصر وافرا. ولهذا بادرت قبل إعلان الحماية أو السيادة أو الاستملاك بالسعى فى تخفيض فائدة الدين لتستأثر فيما بعد بما تزعم التفضل به الآن على المصريين، فهى تسعى لفائدتها الخاصة ليس إلا. هذا قصدها لم يخف على الدول، فقامت بمعارضتها وأصرت حرصًا على مصالحها لا تهدر فداء لحظوظ الإنجليز وقضاء لشهواتهم. يهم الدول جلاء الإنجليز عن مصر عاجلاً أم آجلاً، لهذا تهتم بسد أبواب الحيل عليهم وإقامة العقبات الصعبة فى كل خطوة يخطونها إلى مآربهم.

مشروع مبادرة

البيروقراطية، ولكن مع مسئولية دقيقة ويقظة تجاه أمرين مهمين هما ١) الموارد المالية والمصروفات. ٢) مستوى الجودة والتفوق. ويأتى الدعم المالى الخاص بالجامعة ووادى التكنولوجيا الملحق بها من مصدرين رئيسيين هما: رسوم التعليم والمنح والهبات التى تقدم للجامعة عن المتبرعين ومن الوقف. ويجب أن تغطى رسوم التعليم مصاريف التشغيل فى الجامعة أما إيراد التبرعات والوقف فينفق على البحوث والأنشطة التطويرية فى معاهد البحوث. ويجب تدبير أموال الوقف الخاصة بالجامعة من حصيلة حملة تبرعات لجمع بليون دولار تؤمن بالكامل فى نهاية مرحلة السنوات الخمس الأولى. وسوف يمول هذا أيضا نظام منح لتدعيم البحث العلمى مع التشديد على الأفكار الخلاقة والعمل الجماعى. كما سوف ينشأ برنامج للمنح الدراسية، للطلاب الاستثنائيين.

وفى تقديرى أن العالم سوف يلاحظ أهمية جامعة العلوم والتكنولوجيا عندما تعمل بكامل طاقتها خلال الأعوام الخمسة الأولى من حياتها. وفى الأعوام الخمسة التالية يجب أن تبرز الجامعة كجامعة عالمية متميزة.. وبمرور الوقت، وبعد عقدها الأول، سوف تظهر الحاجة لإضافة معاهد بحثية جديدة ولكن يجب الحفاظ على تفرد الجامعة وتميزها فى المقام الأول.

وادى التكنولوجيا

سوف يشكل وادى التكنولوجيا السطح البينى أو الحد المشترك بين جامعة العلوم والتكنولوجيا والمجتمع، وسوف يزود الشباب المتميز بالفرصة لتطوير تكنولوجيات وصناعات جديدة، وسوف تقدم الجامعة بعض الدعم المالى والمكان المناسب، على أساس تعاقدى، لدفع فرص صناعات جديدة لشباب جديد معد على أحدث الوسائل العلمية، وبهذه الطريقة تكون الاستفادة للطرفين للجامعة وللشباب والدولة.

وعلى نفس القدر من الأهمية سوف يهيئ وادى التكنولوجيا الفرصة لتعاون بحثى يهم القطاعات المختلفة لصناعات متقدمة تكنولوجيا. ويؤدى تفهم وإدراك أهداف جامعة العلوم والتكنولوجيا ووادى التكنولوجيا لتقوية الرابطة بالمجتمع من خلال إبقاء الشباب النابه فى الوطن وتطوير تكنولوجيات جديدة، وعلى المدى البعيد، فإنهما سوف يجلبان مصادر دخل قيمة من خلال الاتفاقيات المشتركة.

البنية الإدارية

سوف تشكل هيئة أمناء متميزة للإشراف على المؤسسة، وتضم الهيئة شخصيات بارزة منهم حاصلون على جائزة نوبل من كل أنحاء العالم، وعلماء عرب ورجال أعمال وصناعة من المنطقة والعالم. وسوف يكون ضمن رعاة المؤسسة رؤساء دول ورؤساء وزارات ووزراء. وقد تفضل الرئيس مبارك بالموافقة على رئاسة مجلس الرعاة. وسوف تعين المؤسسة رئيس الجامعة ورئيس وادى التكنولوجيا، وتصدق على قرارات هيئة المديرين فى كل منهما.

الموقع

لقد خصصت الحكومة المصرية مساحة قدرها ٣٠٠ فدان فى مدينة السادس من أكتوبر لجامعة العلوم والتكنولوجيا، وأقيم احتفال وضع حجر الأساس للجامعة فى أول يناير ٢٠٠٠ تحت رعاية الرئيس مبارك وبحضور رئيس الوزراء ووزراء التعليم العالى والإسكان واستصلاح الأراضى وصاحب هذه المبادرة وغيرهم من أصحاب المقام الرفيع. وقد تم تخصيص مبنى للمؤسسة وبعد فترة قصيرة ألغى التخصيص■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

ظِلُّه على الأرض ـ ألقاب حكام مسلمين فى رقوم مقدسية

أسامة العيسة

سوريا: دار قدمس، ٢٠٠٤، ٢٣٢ صفحة



من أحب القدس ومن كرهها.. من ارتكب المجازر فى المساجد والكنائس.. من أقام فيها ومن مر بها عابرًا.. من هدم مبانيها ومن وضع لبنة فيها.. كل هؤلاء حاولوا نقش أسمائهم على صفحات هذه المدينة المقدسة.

وما بقى من تلك النقوش قليل، ولكنها كانت كافية لتحمل ثقل ألقاب وأوصاف أولئك الفاتحين والمغامرين والعاشقين والخائنين والصادقين والكاذبين.. من بين هذه الألقاب: أطال الله بقاءه، ذو الفضيلتين، منصف الظالمين، أدام اقتداره، سيف الدين والدنيا.. وغيرها الكثير.

يؤكد الكتاب أن هذه الألقاب تتلاقى وتتقاطع وتتناغم لخدمة أهدافها الوظيفية المحددة التى لم تغير فيها ثورة الإسلام شيئًا معتبرًا، فهى تهدف إلى تثبيت الصورة للحاكم خليفة الله فى الأرض، وتقوم بدور السد الأول والرئيسى لتثبيت الاستبداد باسم الدين، الذى يكون مسوغًا للاستبداد السياسى، ونجد تعبيرًا لها فى النوع الثانى من الألقاب التى يمكن تسميتها ألقابًا دنيوية. وتقوم الألقاب هنا بدور وسائل الإعلام فى دول العالم الثالث، حيث يعتمد الحاكم عليها وعلى أجهزة المخابرات ليس فقط لتثبيت صورته النمطية ولكن لسياسته أيضًا.

ولهذا، فحتى الألقاب التى يمكن أن نسميها ألقابًا شعبية والتى يمكن أن يطلقها الناس أو بطانة الحاكم تكون تنويعًا على ألقاب الاستبداد الدينى والسياسى مثل: أبو الفتوحات، أو أبو العزايم!

ومع ذلك يمكن القول إن أصحاب هذه الألقاب ومخترعيها ومانحيها ومقترحيها من مثقفين سلطويين لم ينجحوا فى خداع الجماهير بها، فلم تخضع هذه الجماهير قط، ولم تتوقف عن التمرد المنظم وشبه المنظم والعفوى من خلال ثورات وتمردات وغزوات. فهذه المجتمعات لم تكن راكدة بل فى حركة دائبة فى مواجهة حكام متسلطين.. ولكن تلك قصة أخرى، لم تسجلها مع الأسف الرقوم الأثرية!

اليسار فى الثقافة المصرية

تحرير وتقديم: رمسيس لبيب

القاهرة: مركز البحوث العربية والأفريقية، ٢٠٠٥، ٢٣٤ صفحة



قام اليسار المصرى وبخاصة الفصيل الشيوعى منه بدور فاعل فى النضال الوطنى والديمقراطى طوال أكثر من ثمانين عامًا قاد خلالها الكثير من نضالات الطبقة العاملة المصرية، كما كانت له أيضًا إسهاماته الأصيلة والمتجددة فى تجليات الثقافة المصرية فى الأدب والفن والفكر.

ولم يقتصر دور اليسار على إنجاب مبدعين ومفكرين، بل إنه أثر فى مبدعين ومفكرين لم يكونوا يومًا فى صفوف مناضليه أو قريبين منه قربًا مباشرًا، وكان لليسار منذ بداية الأربعينيات من القرن العشرين مراكز دراسات وأبحاث ودور نشر اختلف إليها الكثيرون من غير أبناء اليسار، كما كان له رغم السرية التى فرضت على صحافته العلنية وشبه العلنية تأثير كبير على حركة الأحداث وفجرت العديد من المعارك الثقافية. كما خلق اليسار تيارًا ثقافيًا مغايرًا ومخالفًا للثقافة السائدة، وحد تيار الثقافة التقدمية الذى ينطلق من الواقع مع انحياز كامل للكادحين، وبمحتوى وطنى وإنسانى بآفاق اشتراكية.

ويضم هذا الكتاب دراسات تحاول أن تبين دور اليسار وإسهاماته فى المجالات الثقافية المختلفة، وقد مالت بعض الدراسات إلى التركيز على إبداع أبناء اليسار الذين كانوا منظمين فى صفوفه أو قريبين منه قربًا حميمًا، ومالت بعضها إلى التعامل مع فضاء اليسار الأرحب، فكشفت عن المدى الذى وصل إليه إشعاع فكر اليسار وأصداؤه. وبعض هذه الدراسات يغلب عليها الطابع الوصفى وذلك بذكر المبدعين وإبداعهم، وبعضها يميل إلى التقييم، إلا أن كل هذه الدراسات لا يمكن ـ فى النهاية ـ إلا أن تكون إيماءات أو إشارات إلى دور اليسار فى الثقافة المصرية، لأنه لا يمكن لكتاب واحد أن يضم بين دفتيه توثيقًا كاملاً لدور اليسار فى الثقافة المصرية.

الخطاب السياسى فى الشعر الفاطمى

عبد الرحمن حجازى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ٢٦١ صفحة



يتناول هذا الكتاب مفهوم الإمامة «الخلافة» فى الإسلام، واختلاف هذا المفهوم من عصر إلى عصر آخر، وأهمية الخطاب السياسى الإسلامى وتنوعه فى ظل تنوع هذا المفهوم، وارتباط الأفكار السياسية بالقيم والعقائد التى تؤمن بها الأفراد أو تنهض على أساسها المجتمعات.

وفى المقابل، بنى الشيعة بصفة عامة والفاطميون بصفة خاصة أدبهم على الاحتجاج لرأيهم، وحافظوا على عقيدتهم، فلا يكاد أحد منهم يعدل عنها أو يزيد عليها، بل إنهم يرددون أصولها وتعاليمها فى أساليب شتى وفنون مختلفة، فأصبح الشعر الفاطمى يمثل خطابًا سياسيًا خاصًا بهم.

يؤكد الكتاب أن الأفكار السياسية والمبادئ العقائدية للفاطميين عند الشاعرين تميم بن المعز والمؤيد فى الدين الشيرازى، فكلاهما يمدح الأئمة، ويتناول المصطلحات الفاطمية وتأويلاتها العقائدية فى شعره بشكل جلى، مما يؤكد التأثر الشديد بتلك المبادئ التى كانت الأساس الذى استند إليه كلاهما فى الخطاب السياسى فى شعره.

كذبات بوش الخمس الكبيرة

تأليف: كريستوفر شير ـ روبرت شير ـ لاكشمى شاوذرى

ترجمة: محمود على عيسى ـ د. سوسن كنعان

دمشق ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٤، ١٩٢ صفحة



يؤكد مؤلفو هذا الكتاب أن السياسة الأمريكية تجاه العراق صيغت من قبل مجموعة من الراديكاليين الذين يسيطرون على مراكز صنع القرار الخارجى لإدارة بوش، والذين استثمروا أحداث ٩/١١ لدفع مشروعهم السياسى قدمًا للأمام. وقد ثبت أن فهمهم لكيفية بناء عراق جديد وإقرار السلام فى العراق والمنطقة كان قاصرًا ومتغطرسًا إلى حد كبير. وكانت النتيجة أن هؤلاء الراديكاليين كلفوا أمريكا الآلاف من الجنود ومئات الملايين من الدولارات.

كما ثبت أيضًا أن أكاذيب بوش ومجلس وزرائه التى أخبرونا بها حول العراق لم تكن مراوغات ذكية فى مناقشة برلمانية أو أخطاء إهمال من سكرتير تحرير ذكى.. فالكذب حول قضايا الدولة والحرب هو سوء استعمال للسلطة يتعذر تبريره ببساطة.

الهم الرئيسى لهذا الكتاب هو التأكيد على أن الكذب كان جوهر الطريقة المعتمدة للرئيس بوش ومستشاريه لتسويق حرب كان عليهم ألا يعتقدوا أن الشعب الأمريكى كان سيؤيدهم لو أنهم أخبروه الحقيقة. ولماذا قد يفقدون ذلك؟ الإجابة ببساطة: إنهم اعتقدوا أن تأسيس نظام حكم مرن فى قلب الدولة العربية الغنية بالنفط سوف يكون ممثلاً لتوسع السلطة الأمريكية، كذلك سيقدم للحزب الجمهورى أسبابًا للفخر السياسى وفرصًا مفيدة لتحقيق مصالحهم.

وإذا كانت الولايات المتحدة قد أخطأت بالتورط فى فيتنام خلال حكم ثلاثة رؤساء، فهى أخطأت أيضًا عندما شنت الحرب على العراق، فالبيت الأبيض ـ كما يقول الكتاب ـ جر الشعب الأمريكى من أنفه ولم يترك له خيارًا فى الطريق إلى بغداد الذى كان مقيدًا بالأكاذيب.

حكايات برلمانية

شريف العبد

القاهرة: دار الكرز للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ٣١٨ صفحة



يرصد هذا الكتاب حكايات برلمانية خلف الكواليس وأمامها، كما يسرد مفارقات ومشاغبات وصدامات ومناورات كان موقعها قاعة مجلس الشعب، كما يتناول الكتاب لوغاريتمات وألغازًا اقترنت ببعض الشخصيات السياسية، ويبحث عن إجابات لأسئلة فرضت نفسها من خلال

الأحداث والحوارات والمواجهات السياسية والحزبية.

ويوجه المؤلف في كتابه الفريد هذا رسائل إلى الوزراء يتعرض فيها لتصريحات متتالية ضلت طريقها إلى أرض الواقع.

والكتاب يجسد صراعات بين أقطاب ووجوه احتلت مقاعدها البرلمانية على مدار فترات طالت وامتدت، ويقدم توصيفاً للأداء النيابي لمجلس الشعب الذي يستعد للرحيل، ليأتي مكانه مجلس جديد ونواب جدد.

ومؤلف الكتاب هو المحرر البرلماني لجريدة الأهرام، بدأ مشواره الصحفي كمحرر في الأهرام الاقتصادي، ثم انتقل للعمل بالصحافة البرلمانية، وتولى رئاسة القسم البرلماني بالأهرام لمدة تسع سنوات حضر خلالها عديداً من المؤتمرات البرلمانية في دول العالم.

■

حروب القرن الحادي والعشرين مخاوف وأفكار جديدة

إينياسيو رامونيه
ترجمة: خليل كلفت
القاهرة: كتاب العالم الثالث، ٢٠٠٥، ١٩٢ صفحة



أصبح شبح الكوارث يلاحق العالم من جديد على جبهتين، الأول عن طريق أزمات جغرافية-سياسية يفجرها الإرهاب والنزعة القومية المتطرفة والأصوليات.. والثاني من خلال التعدي على النظام الأيديولوجي لكوكب الأرض.

يستعرض الكتاب بالتفصيل هذه الكوارث ويحيل سبب تفاقمها إلى العولمة التي تتبعها السياسة الأمريكية، فهذه العولمة هي تعبير عن «النهب الكوكبي» للأرض، والتي تقوم على تدمير البيئة بوسائل متعددة، لتجني الأرباح بلا وازع من ضمير، ويقترن هذا بإجرام مالي يرتبط بأوساط المال والبنوك الكبرى. فعلى سبيل المثال ينتج كوكب الأرض من المواد الغذائية أكثر من ١١٠٪ من الاحتياجات العالمية، في حين يواصل ٣٠ مليون شخص الموت جوعاً كل عام ويعاني أكثر من ٨٠ مليونا من نقص الغذاء.

ويؤكد الكتاب أن المفاهيم السياسية التي كانت مستقرة من قبل قد تغيرت تماماً فلم يعد لـ «الدولة» و«السلطة» و«السيادة» و«الاستقلال» وغيرها نفس الدلالة، وهو ما يلح على ضرورة العمل ضد العولمة الليبرالية.

يستعرض الكتاب الاعتداءات على بيئة الأرض بشكل صارخ في نفس الوقت الذي وصلت فيه التكنولوجيا إلى مستويات لم يتخيلها أحد من قبل. كما يشير الكتاب إلى أزمة الفكر الشيوعي والاشتراكي الديمقراطي في أوروبا وعدم قدرة أحزابهما على مواجهة التحديات التي تواجهها البشرية الآن.

وفي فصل مهم بعنوان: «الشرق الأوسط: حرب المائة عام الجديدة» يؤكد المؤلف أن إسرائيل تعبر عن نوع كلاسيكي من النزعات القومية المنغلقة التي لا تجد أي صعوبة في أن تنكر على الغير نفس الحقوق الأولية التي تطالب بها لنفسها. ويكشف المؤلف المذابح التي ارتكبها الصهاينة بهدف ترويع العرب والفلسطينيين بشكل خاص، ويشير إلى أن الولايات المتحدة بدلاً من أن تلعب دور الوسيط في نزاع الشرق الأوسط، أبدت تحيزاً متواصلاً لصالح إسرائيل.

يتناول الكتاب أيضاً، سبل مناهضة العولمة، وحرب كوسوفو والنظام العالمي الجديد، بالإضافة إلى ملحق خاص للطبعة العربية بعنوان: «الإمبراطورية ضد العراق».

■

في الرواية العربية المعاصرة

فاروق عبد القادر
القاهرة: كتاب الهلال، ٢٨٨ صفحة



بنفحات من عطر نجيب محفوظ، استهل المؤلف كتابه مؤكداً أنه كان محظوظاً لأن «محفوظ» كان ولا يزال موجوداً في عالمه بقوة، قبل أن تبدأ شهرته في السطوع منذ منتصف الخمسينيات من القرن الماضي، حتى أصبح بعد أن تجاوز التسعين من عمره، شامخاً ومتألقاً على قمة خمسين عملاً إبداعياً: خمس وثلاثين رواية، وخمس عشرة مجموعة من القصص القصيرة.

يؤكد الناقد الكبير فاروق عبد القادر، أنه يفضل استخدام كلمة «منظومات» بدلاً من كلمة «مراحل» حينما يتحدث عن تاريخ نجيب محفوظ الإبداعي، لأنه لا توجد هناك انقلابات في أعماله لكن إبداعه يجرى متدفقاً مثل نهر تحدد الشطآن مجراه، قد تتمايز فيه موجة أو موجات، لكنها تبقى متصلة بما سبقها، مفضية لما تلاها، وقد تعترض هذا المجرى عقبات موضوعية فيتوقف زمناً، أو يتخذ مسارب أخرى.

وبهذه الرؤية الإبداعية لأعمال أديبنا الكبير، يؤكد فاروق عبد القادر أنه يستطيع تحديد منظومة تبدأ بروايته الأولى «عبث الأقدار» ١٩٣٩، وتنتهي إلى «بين القصرين» ١٩٥٧، والثانية تبدأ مع «اللص والكلاب» ١٩٦١، وتنتهي إلى «ميرامار» ١٩٦٧، وبين هاتين المنظومتين تقع «أولاد حارتنا» ١٩٥٩ . أما المنظومة الثالثة فتبدأ بروايته «حب تحت المطر» ١٩٧٣، وتنتهي إلى «قشتمر» ١٩٨٩، وبينهما تقع رواية «المرايا» ١٩٧٢ . أما المنظومة الرابعة والأخيرة فتشمل أعمال عقد التسعينيات.

يتناول الكتاب أيضاً رواية «عمارة يعقوبيان» لعلاء الأسواني باعتبارها تعكس وجهاً من وجوه تغير النخب المصرية في ثلاثينيات القرن الماضي في نهايته تقريباً. كما يتناول قصة «كحل حجر» لخالد إسماعيل التي تدور أحداثها في إحدى قرى سوهاج، وغيرها من الأعمال الأدبية التي صدرت في بداية هذا القرن.

وفي فصل تال، يبحث المؤلف عن رؤية جديدة لفهم أدب جمال الغيطاني، ويشير إلى بعض المآخذ في روايته: «حكايات المؤسسة» و«حكايات الخبيئة»، منها تعثر الغيطاني بين المكاشفة والتخفي، وانعكاس ذلك على ضعف العملين.

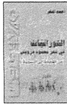
يتناول الكتاب كذلك عملين للأديب الأردني مؤنس الرزاز، وهما «متاهة الإعراب في ناطحات السراب» و«اعترافات كاتم صوت»، ويلقي الضوء على حياته السياسية والأدبية، مشيراً إلى أن أعماله عصية تماماً على أي تلخيص أو اجتراء، ثم هي متمردة على الأشكال التقليدية للرواية.

كما يتناول الكتاب أيضاً أعمال الأديب النوبي حجاج أدول، والأديبة الفلسطينية سحر خليفة.

■

التوراتيات في شعر محمود درويش من المقاومة إلى التسوية

أحمد أشقر
قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ١٢٠ صفحة، ٣ يورو



محمود درويش هو الشاعر الفلسطيني الوحيد، القادر على خلق زحام حوله في أي امسية شعرية يعقدها في أي من العواصم العربية، هناك من يظن ان هذا بسبب كونه (شاعر القضية الفلسطينية)، بينما يرى «أحمد أشقر» كاتب هذا الكتاب أن «محمود درويش بات شاعرا ذاتيا، يتعالى على المتلقي، ذاته، سواء أكان قارئا لدواوينه، أو مزاحما على أبواب امسياته».

تناول محمود درويش العديد من الأبحاث و الدراسات و الكتابات النقدية. و هذا الكتاب هو أحدى تلك الكتابات النقدية التي تبرز موقف محمود درويش السياسي من الصراع الفلسطيني العربي - الإسرائيلي .

تهدف هذه الدراسة إلى تبيان العلاقة بين الموقف السياسي والشعر والرموز اليهمسلامية (اليهودية والمسيحية والإسلامية)، و أسباب استعمالها، و تاريخ توظيفها في شعر محمود درويش عامة ، و في قصيدته القربان خاصة، ودور هذه الرموز في العمل الوطني ، ومدى رقي وعمق اللوحات والصور الفنية فيها، ومدى تأثيرها في معركة الوحدة والتنوير العربية، وكذلك تفكيك العديد من الرموز في شعره، و كذلك تبيان لرؤية درويش السياسية.

■

إطلالة على الفلك في مصر القديمة

د. رشدي عازر غبرس
القاهرة: المعهد القومي للبحوث الفلكية والجيوفيزيقية، ٢٠٠٤، ١١٤صفحة



علم الفلك هو أقدم العلوم منذ فجر الحضارات جميعاً، وفي وادي النيل منذ أكثر من ستة آلاف سنة. كانت العقيدة الدينية في مصر قد نشأت أساساً وبشكل أولي من حصاد ما شاهدوه في السماء، وتكونت آنذاك من خلال الأساطير التي تدور حول أن الآلهة الرئيسية هي أجرام سماوية، بدور علم الفلك التي اعتمدت بشكل أساسي على الملاحظة والرصد.

ومن خلال المشاهدات والأرصاد والأفكار التي استمرت لعدة آلاف من السنين، ظهر نموذج للكون في عام ١٢٥ ق. م في مدرسة الإسكندرية القديمة، وهو نموذج بطليموسي للمجموعة الشمسية الذي استمر إلى ما يقرب من ١٥٠٠ عام حتى ظهور الأفكار الحديثة لنموذج كوبر نيكوس في القرن السادس عشر الميلادي.

ويؤكد الكتاب أن بناء الأهرام هو أحد البراهين والاستدلالات على فراسة المصريين ووقتهم في الملاحظة وأخذ الأرصاد الفلكية. فقد تبين أن الأهرامات الثلاثة تم بناؤها في مواقع بالجيزة على خط عرض ٣٠ درجة شمالاً بدقة هندسية عالية، ونجد أن أوجه كل هرم تقابل الجهات الأصلية الأربع والتي تم تحديدها بكل دقة بواسطة الأرصاد الفلكية.

كما تخيل القدماء المصريون أشكالاً مختلفة مألوفة لمعرفة المجموعات النجمية في السماء لكي تمكنهم من تحديد مواعيد ظهورها، واتخاذها كعلامات لقياس مواقيت الليل. كما وضعوا اللبنات الأولى التي كانت أساس الانطلاقة التي اتخذتها الحضارات التالية في تطوير علم الفلك.

ومن ملاحظتهم الدقيقة والثاقبة أيضًا على مدى أزمنة طويلة لحركة الشمس ما بين الشتاء والصيف، توصلوا إلى وحدة الزمن المقدسة، وهي الفترة التي تنقضي من وقت ميلاد الإله رع (وهو الشمس) وحتى الرجوع إلى مكان ولادته ثانية (بداية فصل الشتاء) والتي تعرف بالسنة الآن.

يؤكد الكتاب أيضًا بالأدلة والبراهين أن اليهود لم يكن لهم أي دور في الحضارة الفرعونية، فقد عاشوا عبيداً في مصر، وأن فترة بناء الأهرامات مثلاً لم يكن اليهود متواجدين في مصر أصلاً.

■

شرح نظم التصنيف بالمكتبات

المستشار الدكتور: عبد الفتاح مراد

القاهرة، ٢٠٠٥ ، ٥٨٠ صفحة



ترجع أهمية هذا الكتاب إلى اهتمامه بالبحث العلمي وكيفية وطرق إعداد بحث علمي وطريقة الكتابة وانتقاء المواضيع واهتمامه أيضًا بتصنيف وتقسيم أقسام الأبحاث وإعداد بحث يفيد القارئ ويعمل على إشباع رغباته الفكرية والبحثية، وهو إصدار شامل متكامل لهذا الموضوع، وهو ليس كتاباً واحداً، بل أحد عشر كتاباً من كتاب تمهيدي ما يعتبر معه مرجعاً لا غنى عنه للمتخصصين والمهتمين بمجال البحث العلمي.

الكتاب التمهيدي: وهو بعنوان: «التصنيفات الشائعة في المكتبات ونشأتها وتطورها» يتضمن خمسة أبواب يقوم المؤلف من خلالها بعرض تعريف التصنيف وماهيته وخواصه وكيفية التصنيف المكتبي وتطوره التاريخي وكيفية ترتيب الكتب موضوعياً وزمانياً. أما بالنسبة للكتاب الأول: فقد تضمن الأصول والرتب العشرة الرئيسية لتصنيف ديوي العشري. وفي الكتاب الثاني: قام المؤلف بعرض الأقيام المائة لتصنيف ديوي العشري وذلك من حيث الحاسبات والإنترنت والفلسفة وعلم النفس والدين والعلوم الاجتماعية واللغة والعلوم والتكنولوجيا والفنون والترفيه والأدب والتاريخ والجغرافيا. ويتناول الكتاب الثالث: الفروع الألف لتصنيف ديوي العشري الطبعة الحادية والعشرين. وفي الكتاب الرابع: قام المؤلف بشرح وعرض تطبيقات تصنيف ديوي العشري في الوطن العربي وتعديلاته والمقترحات المطلوب إدخالها عليه. ويعتبر الكتاب الخامس: من أهم الكتب التي تضمنها المؤلف ويأتي تحت عنوان: المكتبات الوطنية والعامة في العالم.

وفي الكتاب السادس: يقوم المؤلف بشرح النظام القانوني لأمناء مكتبة الإسكندرية. وفي الكتاب السابع: يعرض المؤلف أحد الاتفاقيات المنظمة لقوانين المكتبات وهي اتفاقية الجوانب المتصلة بالتجارة من حقوق الملكية الفكرية. والكتاب الثامن يعرض الترجمة الإنجليزية للنصوص التشريعية لقرار وزير الثقافة رقم ٨٢ لسنة ١٩٩٣ في شأن تنفيذ قانون حماية حق المؤلف.

وفي الكتاب التاسع: يقدم المؤلف تأكيداً لأهمية المكتبات فقد عرض نصوص مواد ميثاق الكتاب والذي اعتمد في بروكسل عام ١٩٧١ وصدر عن اليونسكو في عام ١٩٧٢ بمناسبة العام الدولي للكتاب في نفس السنة. وفي الكتاب العاشر: ونظراً لأهميته فقد عرض في أربعة أبواب حيث قدم المؤلف أهم المواقع العربية والأجنبية على شبكة الإنترنت المتعلقة بالمكتبات والكتابة في كل باب على حدة.

■

دوريات

العـــــربي

الكويت: وزارة الإعلام، يوليو ٢٠٠٥



في أول صفحات هذا العدد يطرح د. سليمان العسكري رئيس التحرير سؤالاً مهما يشغل بال الجماهير العربية الآن وهو: الإصلاح.. من أين نبدأ؟ يؤكد من خلاله أهمية الإصلاح الاجتماعي بجانب الإصلاح السياسي.

ويدور ملف العدد حول الأديب السوداني الطيب صالح، الذي تعتبره المجلة من أجمل الهدايا التي قدمها السودان للثقافة العربية.

وفي باب «مستقبليات»، يؤكد الدكتور أحمد أبو زيد استحالة تحديد المستقبل، خاصة أن العالم الآن يتميز بتفكيك النظريات والاتجاهات الفكرية الكبرى في كثير من مجالات المعرفة.

وفي باب «آداب» يتساءل د. صلاح فضل عن حقيقة وجود نظرية نقد عربية، كما يعرض الباب لعدد من القصائد والقصص القصيرة.

وبالعدد موضوع مثير بعنوان: طيور الإبداع تحط في الشارقة، ومقال لحنا مينه يتساءل فيه عن: أين تعرفت على الفلسفة.. والبحر؟!

أما الملحق العلمي للعدد فيحتوي على العديد من الموضوعات المميزة منها «سر الوعي في مخ ذبابة»، و«عالم عربي يزرع البحر» و«يتقاتل بلا قراصنة» وغيرها.

■

عراجين - أوراق في الثقافة الليبية

القاهرة: دار سما للنشر والتوزيع، العدد الثالث ٢٠٠٥



يقدم هذا العدد ٣ دراسات مهمة الأولى بعنوان: الوعي الفلسفي ومستقبل الفلسفة، والثانية: الشريعة وحقوق الإنسان، والثالثة: جماليات الرواية الليبية.

أما ملف هذا العدد فيدور حول السير الذاتية والمذكرات، ويتناول وثائق أول حزب سياسي في ليبيا وغيرها.

وفي باب «ذاكرة» يتناول دراستين الأولى: «امرأة خارج العزلة»، والثانية: «ليبية في بلاد الإنجليز».

وبالعدد أيضاً نصوص أدبية وخمس قصائد شعرية.

■

أحوال مصرية

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ربيع ٢٠٠٥



يدور ملف هذا العدد حول قضايا التعليم من خلال ٤ محاور هي: مقررات التاريخ المدرسي والهوية الوطنية، وإغراءات وأوهام الحداثة، والأمة والفلسفة والإصلاح، والأنشطة الرياضية والفنية والتحصيل الدراسي. وفي باب قضايا هناك دراسة عن «التراث القبطي في حياة المسلمين»، وأخرى عن «الاقتصاد المصري: تسعة أشهر من عمر الإصلاح».

وبالعدد حوار مع د. رءوف عباس الذي يقول فيه إن مصر مقبلة على مرحلة تحول اجتماعي مشوه. وهناك أيضاً دراسة عن شخصية رسام الكاريكاتير الراحل ألكسندر صاروخان.

■

مختارات إيرانية

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، العدد ٥٩



يعطي هذا العدد أهمية كبرى للانتخابات الرئاسية في إيران والتي جرت نهاية الشهر الماضي، حيث جاءت الافتتاحية للدكتور محمد السعيد إدريس حول «رحيل الخاتمية ومستقبل الجمهورية الإسلامية» كما تناولت العديد من الدراسات ملف الانتخابات من خلال العديد من المحاور.

يضم العدد أيضاً موضوعات مختلفة حول الملف النووي الإيراني وتحديات السياسة الخارجية في الحكومة القادمة، وترشيح رافسنجاني كتعبير عن أزمة التيار الإسلامي، وغيرها.

■

حوار انتهى إلى الإخفاق

مسيحية ضد الإسلام: حوار انتهى إلى الإخفاق
لاودنج هاجمان
دمشق، دار قدمس للنشر والتوزيع ٢٠٠٤، ٢١٣ صفحة

Christentum contra Islam
(المسيحية ضد الإسلام)
Ludwig Hagemann
Birlin, 1983





فى هذا الكتاب يتعرض الكاتب «لاودنج هاجمان» للمحاولات المسيحية لفهم الإسلام والحوار المسيحى الإسلامى الذى بدأ فى القرن الثانى عشر ميلادية ولا يزال مستمرا حتى الآن. جاء فى صفحات الكتاب وصفا له على لسان مؤلفه قائلا (المسيحية فى مواجهة الإسلام. هذا التاريخ لعلاقات بين المسيحيين والمسلمين انتهت إلى الإحباط وباتت تنتمى إلى الماضى وهذا الماضى يجب أن لا يتكرر لكن يجب عدم نسيانه بل يجب إصلاحه وتجديده. لا يجوز لمن يريد أن يتحكم فى المستقبل أن ينسى الماضى فالتحكم فى المستقبل من خلال إزاحة الماضى جانبا أو تمويهه أى من خلال أن نترك التاريخ وراء ظهورنا ليس بالطريق الممكن لبناء مستقبل مشترك وهذا هو موضوعنا).

يبدأ الكاتب فى تقديم للإسلام كدين، متعرضا للعلاقات الإسلامية المسيحية من المنظور الإسلامى، مستطردا إلى مفهوم أهل الذمة فى الإسلام وحقوقهم وواجباتهم، موضحا الحدود الفاصلة التى رسمها الإسلام للتمييز بين المسيحيين واليهود من خلال رسم قسمات دقيقة لهم، منتقلا بعد هذا إلى تقديم الدولة الإسلامية فى ثانى فصول كتابه الذى عنونه «من شمالى إفريقيا إلى أسبانيا، الإسلام فى زحفه».

ينتقل المؤلف بعد هذا إلى التعرض لردود الفعل الأولى على ما أسموه بالاقتحام الإسلامى للغرب، فقد رأى الأوروبيون أن الإسلام يشتد عوده وتقوى شوكته ويزداد اتساعا خاصة بعد سقوط صقلية والأندلس مما أدى إلى بدء محاولات مختلفة لتحدى هذا الزحف الإسلامى المستمر تجاه أوروبا المسيحية، وكانت أول ردود الفعل تلك محاولة إنقاذ آسيا الصغرى من قبضة الترك التى انتهت بالفشل فى موقعة (منازكرد ١٠٧١ ميلادية)، ثم أعقبها بداية الحروب الصليبية بهدف السيطرة على القدس، التى شهدت مدينة كليرمونت الفرنسية انطلاقها بعد خطبة حماسية للبابا أوربان فى السابع والعشرين من نوفمبر عام ١٠٩٥، التى دعا فيها إلى القيام بحملة إلى الشرق والاستيلاء على بيت المقدس من المسلمين.

أدى الظهور الإسلامى القوى فى الحياة المسيحية إلى ظهور محاولات جادة - ولأول مرة - لفهم الإسلام، ولمخاطبة المسلمين، ومحاولة فهمهم وفهم دوافعهم، لذا فإن ريتشارد سوذرن دارس العصور الوسطى البارز قد اعتبر أن القرنين الثانى عشر والثالث عشر هما حقبة التعقل والأمل فى العلاقات المسيحية-الإسلامية، ففيهما ظهرت مدارس الترجمة عن العربية، وزادت رحلات المبشرين إلى كافة أنحاء العالم الإسلامى، كما ترجم القرآن إلى اللاتينية للمرة الأولى.

عللت تجربة ترجمة القرآن، بأن الإسلام، وإن لم يعد يشكل خطرا عسكريا حاضرا وقويا - فقد كان المسلمون مشغولين بالحروب الاستردادية فى الأندلس، التى نجحت لاحقا، والصليبية بالمشرق، التى لم تنجح أبدا - فهو لا يزال خطرا كبيرا من الناحية الدينية والفكرية، وإن كانت هذه التجربة قد عورضت من الكثير الذين رأوا عدم فائدتها، وحذروا مما يمكن أن تحدثه من ضرر فى أذهان السذج، إلا أن هذه التجربة قد تمت، ولكن مع مستوى سيئ من الترجمة. على صعيد آخر، شهدت هذه الفترة ترجمة كتب العلماء المسلمين كابن سينا، وابن رشد، وكان المبشرون العائدون يحكون عن تقدم المسلمين، وكثرتهم، وقوتهم.

ومع استمرار فشل الحملات الصليبية بدأ ظهور انقسام فى الرأى، فكان هناك من يرى ضرورة إرسال المزيد من الحملات لأن الإسلام لا يزال أحد أقوى المخاطر التى تحيط بأوروبا، وعلى النقيض كان هناك من يرى ضرورة الاهتمام بالأوضاع الداخلية، ومحاربة الفساد المنتشر فى الأوساط الدينية والسياسية، لأن هذا الفساد - فى وجهة نظرهم - أدى إلى غضب الله وبالتالى إلى الهزائم المتوالية.

بدأ الأوروبيون يدركون الخطر المغولى على الإسلام، فبدأ التفكير بكسر شوكة الإسلام عن طريق المغول - غير المسيحيين وغير المسلمين أيضا. مما أدى إلى تبادل البعثات بين الأوروبيين والمغول، ولكن المغول هزموا وتراجعوا، ومعهم تراجع الأمل الأوروبى بالقضاء على الإسلام.

فى القرن الرابع عشر، انشغل الأوروبيون بصراعاتهم الداخلية الدينية والسياسية، وفى نفس الوقت كان العثمانيون يزحفون على البلقان، هازمين الصرب ومسيطرين على القسطنطينية. يرى ريتشارد سوذرن أن القرن الرابع عشر هو قرن التراجع والبعد عن الفهم الصحيح للإسلام، إلا أن «هاجمان» يرى عكس ذلك فى كتابه، ففى الفصل الخامس من كتابه ينصرف إلى دراسة عدة محاولات أخرى لفهم الإسلام فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، بدءا من محاولات فرانسيس الأسيزى التبشيرية - الذى ذهب إلى الملك الكامل فى مصر بالمسيحية -، ثم كتابى «توما الأكوينى» (منطق الإيمان) و(الخلاصة ضد الأميين) الذى كان يحاج المسلمين فيهما مستخدما علم الكلام - الذى برع فيه المسلمون - فى أمور مثل ألوهية المسيح، والثالوث، والقضاء والقدر، والإيمان والكفر، والرد على اعتراضات المسلمين فى المسائل العقائدية، وفى إطار تعرض هاجمان لكتابى «توما الأكوينى»، اسرد عدة حقائق بشأن الحقبة التى جرى فيها تأليف كتاب «منطق الإيمان»، كما تحدث عما أحدثه الكتاب من تأثير. شهد أيضا القرن الرابع عشر محاولات مثل (مذكرة عن محمد) التى كتبها «رمند بنيافرت الدمنيكانى»، وهو الذى عاش متنقلا بين المدن الصليبية الساحلية المتبقية، و(ضد شريعة المسلمين) لـ «ركلدس دى مونتى كروتشى».

بحلول القرنين الخامس عشر والسادس عشر ظهرت محاولات أخرى لفهم الإسلام منها مجلد «نيقولاوس الكويسى» الضخم (نظرة فى القرآن)، الذى أراد فيه التدليل على وجوب اتباع المسلمين للمسيحية، متخذا القرآن نفسه حجته. وقد اهتم «نيقولاوس الكويسى» فى كتابه بما ذكر عن المسيح فى القرآن، ولعل فصوله عن المسيح فى القرآن ظلت الأكثر تفصيلا حتى القرن التاسع عشر.

كانت هناك محاولة أخرى لـ «مارتن لوثر» الذى حاول إثبات زيف القرآن، ليس من أجل تبشير المسلمين بالمسيحية، وإنما من أجل محاجاة الأتراك فى الإسلام، فقد كان يرى إنهم أكثر ما يهدد أوروبا، مفسرا هذا بعقاب من الرب بسبب ممارسات البابا والكنيسة الخاطئة والفساد الذى انتشر بالكنيسة، فقد كان يرى إن هذا الفساد هو ما يقوى شوكة الأتراك ونفوذهم، كان لوثر يشبه البابا بالمسيح الدجال، والدولة الإسلامية بدولة آخر الزمان، وكان رافضا أيضا لسياسة الحروب الصليبية.

ينتقل «هاجمان» لاستعراض محاولات فهم الإسلام فى عصر التنوير الذى شهده القرن الثامن عشر، مستشهدا بكتاب (اللاهوت المحمدى) لـ «هدريان رلاند»، ومسرحية (ناتان الحكيم) لكاتبها «غتهلد إفرايم لسنغ»، جاء عرض «هاجمان» لعصر التنوير وما تلاه موجزا، بعكس عرضه للفترة ما بين القرن الثانى عشر والسادس عشر، ففى بضع صفحات يستعرض «هاجمان» القرن التاسع عشر الذى أطلق عليه اسم «قرن التبشير فى ظل الاستعمار»، ثم انتقل المؤلف إلى سرد بسيط عن وضع الإسلام فى أوروبا اليوم، وفى ألمانيا تحديدا، والمشكلات التى يواجهها.

الكتاب جاء عن دار قدمس للنشر فى دمشق، بعنوان «مسيحية ضد الإسلام: حوار انتهى إلى الإخفاق»، ترجمه من الألمانية «محمد جديد»، وراجعه الباحث الدكتور «زياد منى»، كما كتب مقدمة الطبعة العربية الدكتور «رضوان السيد»، الترجمة جاءت ذات مستوى جيد، مذيلة بهوامش وحواشى مفهومة وواضحة.

الدكتور «رضوان السيد» فى نهاية مقدمته للكتاب اختلف مع الباحثين الأوروبيين الذين رأوا إن الإخفاق فى هذا التلاقى فى العصور الوسطى كان سببه، الانقفال المسيحى، ثم الاستعلاء الاستعمارى، فهو يرى أن سبب هذا الإخفاق كان الحروب الصليبية أولا، ثم الانقسامات المسيحية الداخلية، وأخيرا اقتناع الأوروبيين بأن غزو العالم الجديد أجدى لهم من تفهم العالم القديم، والتصرف معه على قدم المساواة؛ وصولاً لاستعماره وإساءة فهمه، مع وجود «البحث التاريخى النقدى».

قال الدكتور «رضوان السيد» أيضا (وأنا أوافق المؤلف على أن موقف مجمع الفاتيكان الثانى بين عامى (١٩٦٢-١٩٦٥م) هو خطوة كبرى إلى الأمام. كما أن مواقف البابا والكنيسة الكاثوليكية فى العقد الأخير من السنين، تؤسس لعلاقات جديدة وجدية بين الديانتين).

Marketing for Architects and Designers
(التسويق للمهندسين المعماريين والمصممين)

Harold Linton, Laura Clary, Steven Rost
W. W. Norton & Company, 144PP., $45.00, 2005



الكتاب عبارة عن مجموعة من الأفكار التسويقية، المتخصصة في تسويق المنتجات المعمارية، التي تساعد إلى حد كبير في عملية الترويج للشركات العاملة في مجال التصميمات الخارجية والداخلية.

الكتاب يقودك عبر العديد من وسائل وطرق الإعلان والعرض، كما أن به قائمة للمراجع التي تستطيع إيجادها بسهولة على شبكة الإنترنت، كما يشير إلى العديد من مواقع الانترنت ذات العلاقة بالخدمات التسويقية أو بخدمات العروض المرئية.

■

Medicine in the Days of the Pharaohs
(الطب عند الفراعنة)

Bruno Halioua, Bernard Ziskind, M. B. DeBevoise (Translator)
Belknap Press, 288 PP., $ 24.95, 2005



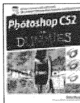
في معبد كوم أمبو، جنوب أسوان، نجد لوحة جدارية تصور الفرعون امنحتب ومعه بعض الأدوات المتطورة، التي يشبه بعضها إلى حد كبير الأدوات الجراحية الحديثة على نحو مدهش. لم تكن هذه الصورة الجدارية الدليل الوحيد على ممارسة الفراعنة للطب، وإنما ظهرت هذه الأدلة في بردياتهم، ونقوشهم الجنائزية، بل وفي أجسام المومياوات المحنطة الموجودة حتى الآن.

الطب الفرعوني - الذي ظهر وتطور قبل ظهور ابقراط (Hippocrates) بخمسة وعشرين قرنا - وصل إلى درجة عالية من التقدم، فقد مارس الفراعنة العديد من فروع الطب بحرفية ومهارة، بل وكانوا يعرفون الكثير مما يعرفه العلم الحديث عن أسباب الأمراض وكيفية الوقاية منها.

■

Photoshop CS2 For Dummies
(الفوتوشوب سي إس تو للمبتدئين)

Peter Bauer
For Dummies, 416PP., $24.99, 2005



الكتاب للمؤلف «بيتر باير» محترف الفوتوشوب والذي له عدة كتب أخرى لتعليم إصدارات فوتوشوب السابقة، أعاد «بيتر» كتابة هذا الكتاب بأكمله، فهو لم يقم بالتعديل على أي من كتبه السابقة لتعليم إصدارات أخرى من الفوتوشوب.

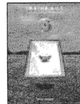
الكتاب يأتي ملونا في طبعة فاخرة، كما يأتي شاملا في موضوعاته، مغطيا لنظامي التشغيل ماكنتوش وويندوز.

في صورة سهلة ومبسطة يشرح الكاتب كيفية التعامل مع أدوات الفوتوشوب، وكيفية استخدام أدوات الرسم والخطوط المختلفة، وأدوات تنظيم الصور، كما يشرح استخدام الأقنعة والتأثيرات الخاصة وتأثيرات الصور المختلفة، وكيفية إنشاء معارض الصور على شبكة الانترنت.

■

Inside Out: A Personal History Of Pink Floyd
(من الداخل للخارج: التاريخ الشخصي لفريق بينك فلويد)

Nick Mason
Chronicle Books, 358PP., $29.95, 2005



«بينك فلويد» Pink Floyed واحدة من أكثر فرق الروك شهرة في العالم أجمع، فبعد ٢٥ عاما ومبيعات تصل إلى ١١٦ مليون اليوم على مستوى العالم، لاتزال قصتهم مبهمة وغير واضحة للجمهور، العضو الوحيد المستمر في الفرقة خلال عمرها المقدر بأربعين عاما، «نيك ميسون» كان شاهدا على كل تاريخهم من وراء طبلته الاسطوانية (drum).

تبدأ الرحلة بتوضيح أصول نشأة الفرقة في أواخر الستينيات في لندن، مستمرة خلال تاريخهم كله مرورا بـفيلمهم الحائط (The Wall)، وعروضهم الأسطورية بكل مكان، الكتاب يحكي قصة كل من ساهم في صنع تاريخ الفرقة وجميع أبطالها مقدما رؤية من داخل الفرقة نفسها، فعلى سبيل المثال، يتحدث الكاتب عن توابع رحيل «سيد باريت» عضو الفريق السابق، وما تبعه من تدهور، كما يتحدث عن النجاح الساحق الذي حققه ألبومهم الجانب المظلم من القمر (The Dark Side of the Moon)، وما تبعه من نزاعات داخل الفرقة.

الكتاب يحتوي على صور نادرة، ورسوم مختلفة للفريق من الأرشيف الشخصي لنيك ميسون.

■

Under and Alone: The True Story of the undercover agent who infiltrated america's most violent outlaw motorcycle gang
(متخفي وحيدا: القصة الحقيقية لعميل سري اخترق أكثر عصابات الدراجات البخارية الأمريكية عنفا)

William Queen
Random House, 288PP., $24.95, 2005



بعد عشرين عاما أمضاها كعميل خاص بقسم الخزانة، ودائرة الكحول والتبغ والأسلحة النارية، وخدمته مع القوات الخاصة بالجيش الأمريكي التي منح عليها النجمة الفضية عام ١٩٧١ كرس كوين حياته لخدمة القانون وزرع كعميل سري وسط احدى عصابات الدراجات البخارية ممثلا لدور «بيلي سانت جون» راكب الدراجات، من عام ١٩٩٨ إلى عام ٢٠٠٠ .

قضى كوين ثمانية وعشرين شهرا كبيلي سانت جون الملتحي، شارب البيرة، راكب الدراجات، حتى أصبحت هويته غير واضحة - حتى لنفسه -، في كتابه يشرح كوين أحاسيسه التي كان يعيشها في حياته كبيلي، راسما صورة درامية لكل ما شاهده، متعرضا لمواقف قاسية عايشها خلال تلك الفترة، وموضحا كل ما عاناه بنفسه حتى يحظى بثقة العصابة.

لم يكن يتصور كوين أبدا انه قد يخترق العصابة إلى أن يصل إلى «عضو كامل» بها، وإذا به يصل إلى مكتب أمانة الصندوق، مما جعله في موقع يسمح له بوضع يده على جميع وثائق إدانتهم. مما عجل بنجاحه والانتهاء من مهمته.

عاش كوين وسط راكبي الدراجات لأكثر من عامين، صادقهم وأحبوه، وفي حين كانوا يموتون دفاعا عن بيلي، ولكنهم بالتأكيد كان من الممكن أن يقتلوا كوين إذا ما كشفوا هويته.

الكتاب وفي صورة سينمائية، يضعك في الشارع، مع أكثر رجال أمريكا خطورة، ويصور لك بشاعة حرب عصابات الدراجات الأمريكية، ومدى خطورتهم.

■

The Darkest Time is Just Before the Dawn
(أكثر الأوقات إظلاما هو ما قبل الفجر مباشرة)

John Smith, Anna Smith, David Smith, Sarah Smith
Word Assn Pub, 198PP., $19.95 2005



رواية من تأليف الإخوة سميث، الرباعي (سارة، ديفيد، أنا، جون)، الذين اعتادوا كتابة القصص القصيرة والروايات، فلكل منهم رصيد حافل من القصص والروايات، ولكنهم يجتمعون أخيرا لكتابة قصة أبيهم وأمهم الحقيقية.

الرواية تدور أحداثها عن «كيتي» و«بوب» الزوجين الصغيرين، اللذين أرسلا إلى أفريقيا عام ١٩٣٢ في إطار مهمة تبشيرية كانت قد بدأت في عام ١٩٢٧، «كيتي وبوب واجها العديد من الصعاب والنكسات العديدة التي واجهتهما في إطار مهمتهما التبشيرية كما يتضح من خلال رسائل كيتي إلى أمها، ولكن على الرغم من هذه الصعاب، بقي الزوجان صادقين في مهمتهما، فكيتي التي كانت تحمل رضيعها وطفلها الأكبر، كان عليها أن تتعايش مع عدم وجود مصدر للمياه إلا النهر، ومع الخيمة الطينية والأكواخ التي كانوا يعيشون بها، بوب كان يتحتم عليه تحمل الجهد البدني الذي يبذله في شق الطرق وبناء الجسور والمباني بدون أي وسائل مساعدة إلا بعض الأدوات البسيطة.

مهمة الزوجين التبشيرية انتهت بحلول عام ١٩٥٨، وكانا قد وضعا طفلين آخرين ليصل عدد أطفالهما إلى أربعة أطفال - هم كاتبو الرواية- كل منهم له تجربته الأفريقية الخالصة التي يرويها بتلك الرواية.

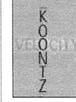
■

Velocity

(السرعة)

Dean Koontz

Bantam, 416PP., $17.82, 2005



قصة رعب للكاتب المتميز «دين كونتز»، القصة تدور حول «بيل» الإنسان الهادئ الذى يعيش حياة عادية جدا وهادئة جدا، يعمل فى أحد بارات مدينته الصغيرة ولكن فى احدى الأمسيات الهادئة تتغير ملامح حياته تماما.

بعد انتهاء وردية عمله، وبينما يهم بالانصراف بسيارته، اذا به يجد ورقة مطوية تحت ماسحة الزجاج الأمامية كان فحواها «إذا لم تأخذ تلك الورقة للشرطة، وتدفعهم للمشاركة، فسأقتل معلمة المدرسة الشقراء، وان أخذتها للشرطة فسأقتل تلك المرأة المسنة ذات النشاط الخيرى، القرار لك وحدك، أمامك أربع ساعات».

ظن «بيل» أنها مزحة سخيفة ووافقه الرأى صديقه الشرطى، الذى نصحه بنسيان هذه الرسالة وطرحها جانبا من تفكيره.

أربع وعشرون ساعة فقط كانت تفصلهم عن العثور على جثة معلمة المدرسة الشقراء وظهور رسالة أخرى لبيل.

و تنقلب حياة بيل فكل يوم ضحية وكل يوم رسالة وكل يوم يخير بين الضحايا، وكل يوم تزداد مسئوليته، فهو وحده من لديه قوة الاختيار، كما تقول الرسالة دوما «القرار لك وحدك».

■

Tutankhamun and the Golden Age of the Pharaohs : Official Companion Book to the Exhibition sponsored by National Geographic

(توت عنخ آمون والعصر الفرعونى الذهبى)

Zahi Hawass

National Geographic, 256PP., $23.10, 2005



زاهى حواس عالم الآثار المصرى وأمين عام المجلس الأعلى المصرى للآثار، صاحب الرصيد الكبير من الاكتشافات الأثرية، وصاحب المجهود المضنى فى المحافظة على الآثار المصرية، يكتب لنا عن توت عنخ أمون بعد الرحلة المكوكية التى قامت بها مومياء الملك الشاب لتفسير أسباب وفاته المبكرة، وتحديد ملامحه الرئيسية.

كان لاكتشاف مقبرة توت عنخ آمون دوى قوى لدى كل من هو مهتم بالآثار المصرية، فقد كانت مقبرة الملك الشاب مليئة بالكنوز التى تفوق كل ما وجد بمقابر أخرى، الكتاب يتعرض لاكتشاف المقبرة وكنوزها، كما انه مدعم بصور لكنوز المقبرة الرائعة، وصور للأدوات التى كان يستعملها أهل مصر كالأوانى الذهبية وغيرها، مما يدل على مدى الازدهار الذى وصلت إليه الحضارة المصرية، ويعطى لمحة عن عظمتها.

يلقى أيضا زاهى حواس الضوء على الأسرة الثامنة عشرة، التى ينتمى إليها الملك الشاب، حيث يستعرض زاهى حواس - بالإضافة إلى كنوز توت عنخ امون - بعضا من آثار أسلافه من نفس الأسرة مثل (امنحوتب الثانى وتوحوتمس الرابع) المحاربين العظام، كما يتعرض إلى العادات والطقوس التى كانت سائدة حينها.

يستعرض أيضا زاهى حواس نتائج البحوث التى تمت على مومياء الملك الشاب التى وصلت باستخدام أحدث التقنيات إلى عدة نماذج قد تمثل صورا للملك الشاب، والتى -و باستخدام تقنيات الطب الشرعى - قد توصلت لاستبعاد شبهة موت الملك مقتولا.

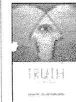
■

Truth: A Guide

(دليل إلى الحقيقة)

Simon Blackburn

Oxford University Press, 238PP, $25.00, 2005



أستاذ الفلسفة بجامعة كامبردج، يغوص فى أعماق الحقيقة، ليعطينا تفسيرا فلسفيا لمفهوم الحقيقة التى يصفها بأنها القضية الأكثر إثارة لكل العصور الفلسفية، بلاكبرن يمضى فى كتابه متعرضا لكلا الجانبين من المفسرين للحقيقة من التقليديين المتمسكين بالمبدأ الواقعى، والمحدثين المتمسكين بالنسبية والمثالية، التقليديين يؤمنون بالمعنى المطلق للحقيقة، فلابد من وجود سبب لكل شىء ولابد من الموضوعية فى تفسير الحقائق، على الجانب الاخر يرى المثاليون بأنه لا حقيقة مطلقة، وإنما هى مجرد تفسيرات.

فعوامل مثل اللغة والثقافة والجنس والعقيدة والعوامل الأيدلوجية المختلفة، حتما تؤثر فى الفهم الصحيح للحقيقة، الكاتب بلاكبرن بدأ كتابه بمحاولات سقراط لمواجهة السفسطائيين.

وانتقل المؤلف إلى فحص عدة معارك فلسفية أخرى كان من أطرافها أفلاطون، وبروتاجوراس، ووليام جيمس، ودفيد هيوم، وهانز جورج غادامير، وجاك دردا، وميتشل فوكولت، وريتشارد رورتى، والعديد من كبار الفلاسفة

بشكل عام يفسر لنا بلاكبرن الرؤية الفلسفية للحقيقة عبر العصور، مؤكدا انه لا مجال لحصر مفهوم الحقيقة، لأنه يرى انه من الصعب أن تفهم دوما بنفس المعنى.

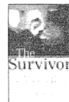
■

The Survivor : Bill Clinton in the White House

(البقاء حيا: بيل كلينتون فى البيت الأبيض)

JOHN F. HARRIS

Random House, 544PP., $29.95, 2005



جون هاريس المراسل السياسى المخضرم لواشنطون بوست، الذى قام بتغطية ٦ أعوام من الفترة الرئاسية لكلينتون من عام ١٩٩٥ إلى ٢٠٠١، يكتب عن الفترتين الرئاسيتين لبيل كلينتون (١٩٩٣-٢٠٠١).

بيل كلينتون كان جزءا من الجيل الجديد الديموقراطى، الذين أرادوا دفع الحزب إلى الوسطية فى الاهتمام بالمتغيرات السياسية.

وصف «هاريس» بيل وهلارى كلينتون بانهم شخصيات أنيقة وطموحة ولكن تنقصهم الفطنة السياسية، التى أدت إلى قراءات خاطئة لمؤشرات الأحداث.

لا شك أن فترة وجود كلينتون فى البيت الأبيض كانت من أكثر الفترات إثارة للجدل فى الولايات المتحدة والعالم كله، فكم من الجدل نشأ فى تلك الفترة ولا يزال رنينه يدوى حتى الآن.

ففى تلك الفترة لم يكن قد مضى الكثير على نهاية الحرب الباردة، ولم تكن ملامحها ونتائجها قد اتضحت تماما بعد، مما دفع كلينتون إلى الحذر فى العلاقات الدولية الخارجية، وأيضا إلى محاولة إشراك قوى دولية أخرى فعالة على الساحة الدولية.

يستكشف هاريس فى كتابه أسلوب كلينتون فى الرئاسة، وكيف كان يبلى بلاءا حسنا فى بعض الأوقات، وكيف كان يفشل فى البعض الآخر، معارضوه من الحزب الجمهورى، والمواجهات التشكيكية من زملائه فى الحزب الديمقراطى التى كانت لا تختلف حدة لهجتهم عن الجمهوريين، محاولاته الإصلاحية الشاملة للرعاية الصحية، واحباطاته فى الحرب على الإرهاب.

كتاب تاريخى سياسى هام يتعرض للعديد من المواضيع الهامة، لشخصيات واحداث مرت فى سنوات حكم كلينتون.

■

The Serendipity Machine : A Voyage of Discovery Through the Unexpected World of Computers

(ماكينة الاكتشاف،رحلة الاكتشاف خلال العالم غير المتوقع للحاسبات)

David Green

Allen & Unwin, 216PP., $16.95, 2005



للحاسبات فى العصر الحديث دور كبير كماكينة للاكتشاف، فهو محفز للاكتشافات الجديدة والمفاجئة.

كما ان له نتائج اجتماعية رهيبة ظهرت وبشدة فى تلك العلاقة بين سرية المعلومات الشخصية والتكنولوجيا الجديدة منذ ظهور الانترنت.

هذا الكتاب يسرد أخطار التكنولوجيا الحديثة للحاسبات على الحياة الاجتماعية، وبخاصة الانترنت.

الحاسبات من السهل استخدامها لنوايا سيئة، فهى تستخدم فى العمليات الإرهابية بكثرة، ولكن أيضا لها الكثير من الفوائد التطبيقية فى بعض المجالات مثل التقنيات البيولوجية، والإدارية، والتجارة الالكترونية، فضلا عن استخدامات الحاسب الأساسية فى التنقيب عن البيانات، وتطبيقات المجتمع التخيلى.

فى النهاية يرى الكاتب ديفيد جرين - أستاذ تكنولوجيا المعلومات بجامعة موناش - إن للحاسب منافعه الكثيرة التى تفوق أضراره وإن كان هذا لا يمنع من محاربة أضراره بقوة وشراسة.

■

אדוני הארץ, המתנחלים ומדינת ישראל 1967-2004
עקיבא אלדר, עדית זרטל
מוציא לאור: דביר תל אביב: 2005

«سـادة الأرض: دولـة اسـرائـيـل والمستوطنين ١٩٦٧ـ ٢٠٠٤»

عكيفا ادار، عديت زرطل

الناشر: دبير، تل ابيب، ٢٠٠٥، ٢٨٧ صفحة



يتعرض هذا الكتاب بالتفصيل للتأثيرات الواسعة للاستيطان اليهودى على الدولة العبرية من الناحية السياسية والأيدلوجية والاجتماعية والثقافية. يتوسع هذا الكتاب فى حصر مظاهر هذا التأثير على جميع مناحى الحياة. يصل الكتاب الى استنتاج مفاده أن الاستيطان «سم» المجتمع الإسرائيلى، وعمل على تآكل المنظومة القيمية التى كان من المفترض أن يواصل هذا المجتمع الاحتكام اليها، ناهيك على دور الاستيطان اليهودى فى المس بالديموقراطية الاسرائيلية بشكل لم يسبق له مثيل. يشير الكتاب الى مفارقة هامة، وهى أنه على الرغم من أن عدد المستوطنين صغير جداً مقارنة مع عدد سكان الدولة، إلا أن تأثيرهم ظل طاغياً على الحياة السياسية. فالمستوطنات كان لها الدور الأبرز فى صعود أحزاب للحكم وسقوط أخرى. وبتأثير الاستيطان كانت أول حادثة اغتيال يتعرض لها رئيس وزراء فى اسرائيل. مؤلفا الكتاب يشيران إلى دور الاستيطان فى تجذر الصدع داخل المجتمع الاسرائيلى وقطاعاته المختلفة، وسيادة أجواء الكراهية بين أولئك الذين يؤيدون الاستيطان والذين يتحفظون عليه أو يعارضونه. الكتاب يلفت نظر القراء الى انه بعيد ما يصفه المؤلفان «الانتصار المدوى» فى حرب الأيام الستة، فقد نظرت الدولة والمجتمع الاسرائيلى، للاستيطان كمهمة «قومية مقدسة»، وذلك بفعل هيجان المد المسيحانى الخلاصى الذى عصف بالمجتمع، فخضعت له الدولة. يتطرق الكتاب الى مظاهر خضوع الدولة ومؤسساتها لهذا المد ومسارعتها للتوافق معه واسترضاء التيار المسيحانى الذى وجد فى «الانتصار» تحقيقاً لكل النبوءات التى زخرت بها الكتب المقدسة. ينوه الكتاب الى أن الدولة عملت على تسخير كل امكانياتها لانطلاق المشروع الاستيطانى، وتعزيزه على كل المستويات. ينوه المؤلفان إلى أنه ابتداء من رئيس محكمة العدل العليا وحتى الجندى البسيط، فإن كل من له علاقة بمؤسسات الدولة تواطأ مع المشروع الاستيطانى وعمل على تعزيزه. يدلل الكتاب على أن الجهاز القضائى الاسرائيلى لعب دوراً فى التستر على ممارسات المستوطنين وجرائمهم ضد الفلسطينيين، وينوه المؤلفان الى أن الجهاز القضائى تغاضى عن خرق المستوطنين للقانون الاسرائيلى حتى اصبح خرق القانون هو القاعدة التى يحتكم اليها المستوطنون فى ظل تشجيع الدولة لهم، وتغاضيها عنهم. فالمستوطن يتعمد قتل طفل فلسطينى، ومع ذلك يجد الجهاز القضائى الإسرائيلى كل المسوغات القانونية لتبرئته واطلاق سراحه، الأمر الذى شجع المستوطنين على استسهال الاعتداء على الفلسطينيين وقتلهم ومصادرة أراضيهم واحراق مزارعهم وتسميم مواشيهم. الكتاب يتطرق للعلاقة الخاصة التى ربطت المستوطنين بقيادة جيش الاحتلال وحرص الجيش على «تدليل» المستوطنين، بشكل شجعهم على التمادى فى اعتداءاتهم على الفلسطينيين. يتطرق الكتاب الى تواطؤ قيادة الجيش مع المستوطنين فى مصادرة أراضى الفلسطينيين. والطريقة المتبعة فى ذلك واضحة وبسيطة، حيث يعلن الجيش عن مصادرة ارض فلسطينية لأغراض أمنية وبعد ذلك يتم تحويل هذه الأراضى لصالح الاستيطان، لإقامة مستوطنات جديدة او لتوسيع تلك القائمة.

■

שקרים על שלום
הפרופ' טניה ריינהרט
בהוצאת ספרי תל אביב: 2005

«أكاذيب عن السلام. حرب باراك وشارون ضد الفلسطينيين».

البرفسورة تانيا راينهارت

إصدار: منشورات «سفرى تل أبيب». تل أبيب، ٢٠٠٥ .



لازالت إسرائيل وآلتها الدعائية تزعم أن انتفاضة الأقصى التى اندلعت فى تشرين من العام ٢٠٠٠ كانت بمثابة الرد الفلسطينى على العروض «السخية» التى قدمتها اسرائيل فى مؤتمر «كامب ديفيد» الذى جمع كلاً من الرئيس الفلسطينى الراحل ياسر عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلى فى ذلك الوقت ايهود براك، وبذلك قبيل اندلاع الانتفاضة. فى كتابها «أكاذيب عن السلام» تدحض البرفسورة تانيا راينهارت هذه المزاعم، لتؤكد أن إسرائيل أعدت خططا للقضاء على السلطة الفلسطينية ولتدمير المجتمع الفلسطينى قبل اندلاع الانتفاضة بوقت طويل. وتؤكد راينهارت أن انتفاضة الأقصى لم تندلع إلا بعد أن أدرك الفلسطينيون أن إسرائيل غير جادة فى التوصل لتسوية سياسية. أهم استنتاج يصل اليه هذا الكتاب القيم هو أنه لم يتم منح أية فرصة لتحويل نضالهم المسلح إلى مقاومة مدنية. بل وتؤكد راينهارت أن اسرائيل احبطت كل توجه للنضال المدنى ضد الاحتلال. يتعرض الكتاب بكثير من التفصيل للدور الرئيسى الذى لعبه باراك وسياسته تجاه الفلسطينيين فى الدفع باتجاه اندلاع انتفاضة الأقصى. وهى تقدم الكثير من الأدلة الموثقة على أن باراك توجه لقمة «كامب ديفيد» بقصد افشالها وتحميل الفلسطينيين المسئولية عن هذا الفشل. وتشير المؤلفة الى العبارة التى يعكف باراك على ترديدها دائما «أنا الذى نجحت فى اماطة اللثام عن الوجه الحقيقى لعرفات». يعدد الكتاب المطالب التعجيزية التى حاول باراك املاءها على عرفات أثناء المؤتمر، والذى لم تدع أمام عرفات أى مفر الا رفضها. وتدلل بكثير من الوثائق على أن باراك لم يقدم أى عرض «سخى» خلال المؤتمر. ينسب الكتاب الى براك قيامه بجعل السيطرة اليهودية على المسجد الأقصى مطلباً مركزياً للدولة العبرية، وهو ما لم يكن معروفاً قبل توليه الحكم، وهو بذلك يتساوى مع اقصى اليمين الإسرائيلى المتطرف. تستهجن الكاتبة عدم الانتباه الى سوابق اعتماد باراك على الخداع كآلية هامة فى التعامل مع العرب. وهى تؤكد أن باراك هو الذى أفشل مفاوضات «شبيردستاون» مع سوريا، والتى سبقت «كامب ديفيد». وتشير راينهارت الى وثيقة هامة تؤكد أن باراك عندما كان رئيساً لشعبة التخطيط فى العام ١٩٨٢ نصح وزير الدفاع فى ذلك الوقت ارئيل شارون باجتياح سوريا ضمن خطة اجتياح لبنان فى ذلك الوقت.

تحمل المؤلفة باراك المسئولية عن انهيار الفروق الايدلوجية بين اليمين واليسار فى اسرائيل، وهو الذى كرس ازمة اليسار فى الدولة العبرية، وهى الأزمة التى جعلت التنافس على قيادة الدولة تنحصر داخل المعسكر الدينى واليمينى فقط، بعد أن أصبحت احزاب اليسار غير ذات صلة. راينهارت تشير الى دور قادة حركات اليسار فى التستر على مظاهر الاحتلال، وزعمهم انه بالتوقيع على اتفاقيات اوسلو لم يعد هذا الاحتلال قائما. الكتاب يتطرق للدور الذى يضطلع به جنرالات الجيش فى رسم سياسات الدولة العبرية، سيما فى مواجهة الشعب الفلسطينى.

■

המאבק המזרחי בישראל 1948-2003
שטרית סמי
מוציא לאור עם עובד תל אביב: 2004

الكتاب: النضال الشرقى فى إسرائيل

سامى شطريت

الناشر: «عام عوفيد»، تل ابيب، ٢٠٠٤، ٣٨٨ صفحة



يتطرق الكتاب للنضال الذى يخوضه اليهود الشرقيون من أصول شرقية ضد سياسة التمييز المتبعة ضدهم من قبل مؤسسات الحكم فى اسرائيل. يحاول المؤلف وهو من اليهود الشرقيين صياغة رواية اليهود الشرقيين لتاريخ الدولة، وهى رواية يتم تغييبها. يتطرق الكتاب للصراع الحضارى بين اليهود الشرقيين من جهة، وقيادة الحركة الصهيونية وبين مؤسسات الدولة العبرية من جهة اخرى، و يتوسع فى الاشارة الى أبعاد وتداعيات ذلك الصراع على كل المستويات. يشير المؤلف الى ان هناك حالة من الجهل داخل اوساط اليهود الغربيين «الاشكناز» ازاء تاريخ ومراحل الصراع بين اليهود الشرقيين والدولة العبرية. حاول الكتاب تحليل ردود فعل اليهود الشرقيين تجاه ما يعتبره سياسة «الاضطهاد الثقافى والاجتماعى والاقتصادى» التى تمارسه الدولة ضدهم منذ هجرتهم لأرض فلسطين. و يتطرق الكتاب بشىء من التفصيل لشبكة العلاقات المعقدة بين الجماعات التى تمثل اليهود الشرقيين وتولت النضال ضد مؤسسات الدولة باسمهم، سواء كانت هذه الجماعات مستقلة أو كانت منضوية تحت لواء الاحزاب التى يقودها الاشكناز. يقارن الكاتب بين نضال اليهود الشرقيين فى اسرائيل والنضال الذى شنه السود فى امريكا ضد الممارسات العنصرية ضدهم. لا يفوت المؤلف أن يقسم النضال الشرقى ضد الدولة الى قسمين. القسم الأول: يتخذ منحى توفيقيا ومتماثلا ومتعاونا مع الهيمنة الاشكنازية على دائرة صنع القرار فى الدولة. الثانى: وهو متطرف، ويقود نضالاً لدفع الشرقيين الى مواقع القرار بالعمل والمواجهة غير القابلة للتوافق.

يتعرض الكتاب الى محاولات المؤسسة الاشكنازية الحاكمة لبلورة هوية اليهود الشرقيين، مقابل سعيهم الى بلورة هوية ثقافية مستقلة. يتطرق الكتاب الى تاريخ نضال اليهود الشرقيين ضد المؤسسة الحاكمة الاشكنازية، وبالذات تمرد «وادي الصليب» في الخمسينيات من القرن الماضي، والشخصيات التي قادته وتأثير هذا التمرد على تعامل الدولة لاحقاً مع قضايا اليهود الشرقيين. وبعد ذلك يتطرق الى الحركات التي انطلقت للمطالبة بحقوق اليهود الشرقيين، وخاصة حركة «الفهود السود»، وحركة «الخيام» وغيرها.

الكتاب يحاول أن يقدم اجابات مختلفة للتحول في توجهات اليهود الشرقيين السياسية. فبعدما كانوا مؤيدين تقليديين لحزب العمل حتى العام ١٩٧٧، أنقلبوا لتأييد الليكود، وهذا التحول هو الذي قادة الليكود للحكم لأول مرة في العام ١٩٧٧. وبعد ذلك يتحدث عن الاحزاب السياسية التي اصبحت تمثل الشرقيين: حركة «تامي» التي اندمجت بالليكود، وحركة «شاس» الدينية الارثوذكسية، التي جميع جمهورها الانتخاب من الشرقيين. يطرح الكتاب العديد من الاسئلة حول توجهات الشرقيين للانصهار في بوتقة الدولة، وتأثير الشعور بالاضطهاد لديهم سياسياً وثقافياً واجتماعياً على الصراع الاسرائيلي الفلسطيني.

■

מחיר היוהרה
כתיבה: שלמה סבירסקי
מוציא לאור מפה תל אביב: 2005

«ثمن الغطرسة»

شلومو سيبريسكي

دار النشر مباه، تل ابيب، عدد الصفحات ١٨٩ ، ٢٠٠٥



■

يتطرق الكتاب الى الثمن الفادح الذي دفعته وتدفعه إسرائيل لقاء مواصلة احتلالها للضفة الغربية وقطاع غزة. يركز المؤلف الدكتور شلومو سيبريسكي على الخسائر الاقتصادية التي لحقت بالاقتصاد الإسرائيلي جراء مواصلة احتلال الضفة والقطاع دون أن يكون لهذا الاحتلال مردود ايجابي على اقتصاديات الدولة. يعتمد الكتاب على عشرات الوثائق التي تحصر بالارقام الخسائر التي لحقت بالدولة جراء مواصلة الاحتلال للضفة والقطاع. ولا يفوت المؤلف الاشارة بتفصيل الى الثمن الذي دفعته كل من الدولة والمجتمع من خلال تراجع قيم الديموقراطية بشكل حاد بسبب الاحتلال. يقسم الكتاب الاحتلال الاسرائيلي للضفة والقطاع الى مرحلتين، المرحلة الأولى: الممتدة من العام سبعة وستين وحتى اندلاع الانتفاضة الأولى في أواخر العام سبعة وثمانين. وهي المرحلة التي اعتقد صناع القرار في الدولة العبرية أنهم نجحوا في ترويض الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع للتعايش مع بقاء الاحتلال والتسليم به كجزء من حياتهم.

المرحلة الثانية: منذ اندلاع الانتفاضة الاولى وحتى الان والتي تبين للحكومات الاسرائيلية فيها أن الدولة العبرية ليس أمامها الا الخسارة جراء مواصلة الاحتلال للاراضي الفلسطينية. يشدد الكتاب على أن اندلاع الانتفاضة الاولى والثانية أثر على الوعي الجمعي للاسرائيليين وأقنع قطاعات واسعة منهم أنه لا يمكن مواصلة الاحتلال على هذا النحو.

■

מערבולת הזהויות
[illegible]
עורכים: יוסי יונה, יהודה גודמן
מכון ון ליר בירושלים، ٢٠٠٤.

«خليط هويات.....عن العلمانية والتدين في اسرائيل: معالجة نقدية»

يوسي يونا، يهودا جوتمان

معهد فالنير للدراسات الاجتماعية، ٢٠٠٤ ، ٢٨٥ صفحة

عادة ما يتم حصر الجدل حول طابع الدولة العبرية المتعلق بالعلاقة بين الدين والدولة، وإبراز الاستقطاب بين المتدينين والعلمانيين على اعتبار أنه أهم عامل يؤثر في هوية الاسرائيلي. هذا الكتاب يأتي لنسف هذه المسلمة. فالكتاب الذي يقع في عشرة فصول يرى وجوب التركيز على مظاهر اخرى للاستقطاب في المجتمع الاسرائيلي على اعتبار أن هذه المظاهر أوجدت خليطاً غير متجانس من الهويات. يقدم الكتاب معطيات بحثية لا تدع مجالا للشك حول تعدد الهويات في المجتمع الاسرائيلي. واستناداً لهذه المعطيات فإنه يتوجب ربط الجدل الجماهيري في اسرائيل حول التدين والعلمانية بعوامل اجتماعية، ثقافية، حضارية، قومية، عرقية، طبقية. الكتاب يستنتج ان حصر الجدل حول صراع الهويات داخل اسرائيل في العلاقة بين التدين والعلمانية، قد ادى الى دفع الكثير من المجموعات السكانية الى هامش المجتمع الاسرائيلي، وهو ما عمق الصدع في هذا المجتمع. ويشير الكتاب الى انه ما لم يتم الاقرار بالخطأ الكامن في التركيز فقط على الاستقطاب بين المتدينيين والعلمانيين، فإن الصدع المجتمعي مرشح للاتساع والتجذر. الكتاب يشير الى أن طبيعة النظام السياسي الاسرائيلي هو الذي سمح بتجاهل مواطن الاستقطاب الاخرى المؤثرة على سلامة المجتمع. الاحزاب الدينية الارثوذكسية منها والصهيونية هي التي حصرت الجدل حول العلاقة بين التدين والعلمانية، من منطلقات مصلحية، مستغلة قدرتها على ابتزاز الأحزاب الكبيرة، حيث يسمح النظام السياسي لها بذلك. الكتاب يتهم النخب العلمانية التي حكمت الدولة منذ تأسيسها وحتى الان بالخضوع لإملاءات الاحزاب الدينية، الأمر الذي ساهم في قمع المجموعات السكانية التي لم يعترف بتبلورها بفعل حصر الجدل العام داخل الدولة حول التدين والعلمانية، الأمر الذي أدى الى تجاهل مشاكلها. احد فصول الكتاب يتناول ازمة الهوية لفلسطينيي العام ٤٨، الذين يحملون الجنسية الاسرائيلية. هذا الفصل الذي اطلق عليه «الحركة الاسلامية في اسرائيل: بين الدين والقومية والحداثة»، يشير الى تجربة قيام الحركة الاسلامية داخل اسرائيل»، كأحد اهم مظاهر حرص فلسطينيي ٤٨ على التغلب على ازمة الهوية التي اوجدها واقع الاحتلال. الكتاب يوصي بالعمل على طرح أسس لجدل اسرائيلي داخلي جديد يقوم على الاعتراف بمواطن الاستقطاب في المجتمع، والتعاطي معها كما هي.

■

כסדום היינו
משה נגבי
מוציא לאור כתר، תל אביב: 2004

«مثل سدوم كنا: الانحدار من دولة القانون الى جمهورية موز»

موشيه هنغبي

الناشر: كيتر، تل ابيب، ٢٧٤ صفحة، ٢٠٠٤



هذا الكتاب يتعرض لمظاهر الفساد التي تعترى الدولة العبرية ومؤسساتها المختلفة ويشير الى التأثير المتصاعد لعصابات العالم السفلي على الحياة السياسية في الدولة العبرية.

ويؤكد الكتاب أن عصابات الاجرام المنظم التي تزرع العنف في شوارع الدولة تتغلغل في مؤسسات الحكم وتهدد ديموقراطية الدولة.

وينوه إلى مظهر آخر من مظاهر الفساد وهي ظاهرة مقاولي الأصوات في الاحزاب الذين يستخدمهم الساسة من اجل تجنيد المؤيدين لهم في الانتخابات التمهيدية التي تجرى في الاحزاب لاختيار مرشحيها للكنيست وللحكومة. ومقابل خدماتهم هذه يحصل مقاولو الاصوات على الكثير من الخدمات من الساسة. فيتم استيعابهم وابناء عائلاتهم في وزارة الدولة ويتم ارساء العطاءات على الشركات التي يملكونها.

يؤكد الكتاب أن لوائح المرشحين للكنيست يتم بيعها جهاراً نهاراً دون أن يشعر أحد بالخجل، أو حتى يعتقد أنه اقترف خطأ. ويشير المؤلف موشيه هنغبي الخبير القانوني والمحاضر في الجامعة العبرية في القدس المحتلة الى المفارقة المتمثلة في أن أعضاء الكنيست الفاسدين الذين يصلون لمقاعد البرلمان بالطرق الملتوية هم ذاتهم الذين يتولون التشريع وسن القوانين التي تسير عليها الدولة. ويقول المؤلف أنه في الوقت الذي يرزح الكثير من الاسرائيليين العاديين البسطاء في السجون على أمور بسيطة وأحياناً بدون جرم، فإن المجرمين الحقيقيين يواصلون اندفاعهم نحو قمة الحكم في الدولة.

يتطرق الكتاب بالتفصيل الى دور الجهاز القضائي في استشراء الفساد والعنف داخل مؤسسات المجتمع. ويضيف أن القضاء العسكري يتساهل مثلاً مع القادة الذين اهدروا باهمالهم حياة الكثير من الجنود، ويستغلون جنسياً المجندات اللاتي يعملن تحت امرتهم، ناهيك عن التنكيل بالفلسطينيين.

وفي الوقت الذي تبدي فيه اسرائيل حساسية ازاء ما تعتبره تحريضاً على اليهود ولاسامية في وسائل الاعلام العربية والفلسطينية، فان هنغبي يؤكد أن مؤسسات القضاء في الدولة العبرية لا تحرك ساكناً لمواجهة التحريض العنصري الذي يقوم به الحاخامات وقادة التنظيمات اليهودية المتطرفة ليس فقط ضد الفلسطينيين، بل ضد خصومهم السياسيين.

يوجه الكتاب نقداً لاذعاً لتستر الاعلام الاسرائيلي على مظاهر الفساد وتطوعه للسكوت عن هذه المظاهر بالذات عندما يتعلق الأمر بالمؤسسة الامنية.

■

وجهات نظر رسائل الكتب

«ترحب «وجهات نظر» بما يصلها من آراء، وما يرد لها من رسائل أو تعقيبات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها»

الإصلاح فى العالم العربى

فى مقال رائع تتبع الأستاذ سلامة أحمد سلامة فى العدد (٧٧) مسار الإصلاح فى عالمنا العربى، وخلص إلى أن عملية الإصلاح فى كثير من الأحيان تسير خطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء، وأنه يصعب التعويل على دور إيجابى للنخب السياسية الحاكمة التى غرقت فى السلطة والفساد عقوداً طويلة. ثم تساءل فى نهاية مقاله عن البديل للولادة المتعسرة للديمقراطية فى العالم العربى.. هل يكون فى حركة الشارع السياسى؟ أو فى الجماهير؟ أو فى منظمات المجتمع المدنى؟

وأستطيع أن أقول: إن من يلقى نظرة على المشهد العربى لا يفوته أن يلاحظ ذلك التشابه الكبير فى الرؤى والأهداف للأنظمة العربية وإن اختلفت الوسائل. وكنا نود أن يكون هذا التشابه لصالح الوطن والمواطن، ولكنه ـ للأسف ـ اتفاق على وأد الأصوات المطالبة بالتغيير، وعزم على تزييف الحقائق، والالتفاف حول المعانى الإنسانية وتفريغها من مضمونها، لتصبح الشعارات «الإصلاحية» التى ترفعها الأنظمة العربية من حين لآخر، استباقاً لكل محاولات التغيير، وإجهاضاً لمشروعات النهضة!

يتمثل المشهد العربى فى سلطة تدعى لنفسها العصمة المطلقة. بالمناسبة لم يعد التيار الدينى المتشدد هو وحده الذى يدعى العصمة.. ومثقفين يبررون لهذه السلطة أطماعها، ويفلسفونها.. ومعارضة تقف حائرة بين الاتهامات بالتخوين والعمالة، وانشغال المواطنين فى دوامة الحياة.. وأحزاب متناحرة، غاية أمرها أن تثبت لنفسها موقعاً فى الملعب السياسى. وجدال مستمر. مفتعل فى كثير من الأحيان ـ حول الهوية الإسلامية والقومية العربية، والأصالة والمعاصرة، والمحافظة والتجديد، والخصوصية الحضارية والتراث الإنسانى المشترك.. وقوى أجنبية. فى مقدمتها أمريكا ـ ترقب المشهد، وتحرك بعض أطرافه، وتنتظر اللحظة المناسبة للدخول مباشرة فى حلبة الصراع.

هذا المشهد يكاد لا تتغير مفرداته من قطر عربى إلى آخر، ولذلك حين تابعت برنامجاً فى إذاعة BBC العربية يتحدث عن التغيير فى سوريا بمناسبة انعقاد المؤتمر القطرى العاشر لحزب البعث، وجدته يصلح للتعبير عن المشهد السياسى فى أى بلد عربى، ولا يحتاج الأمر إلا إلى تغيير الأسماء فقط! نفس الحجج التى يتذرع بها كل نظام فى الدفاع عن تباطئه فى الإصلاح.. نفس الاتهامات الموجهة إلى المعارضة.. نفس التغييب الكامل للحقائق، وتضليل الجماهير، ومحاولة صرف انتباهها عن حقيقة المخاطر المحدقة بها، وقتامة المصير المقبلة عليه..

والذى يستدعى الانتباه، أن هذه الأنظمة العربية تمارس نفس الحيل والألاعيب فى تثبيت سلطانها، وممارسة تسلطها، ولا أدرى هل يتبادلون الخبرات فى ذلك كما الحال فى الشأن الأمنى؟ الجدير بالذكر أن وزراء الداخلية العرب هم الأكثر انتظاماً فى عقد اجتماعاتهم الدورية دون الوزراء الآخرين! ويأتى فى مقدمة هذه الحيل أمران:

١ - إصدار مجموعة من القوانين والتشريعات لتنظيم العمل السياسى، والعمل فى الوقت ذاته على تفريغ هذه القوانين من مضمونها، وبذلك يتحقق للأنظمة العربية «تقنين» ممارساتها التعسفية، و«استباق» الحركات الإصلاحية، وإسقاط حجج المنادين بالإصلاح. خذ مثلاً الرقابة القضائية على انتخابات مجلس الشعب فى مصر، لا شك أنها خطوة مهمة لضمان نزاهة الانتخابات، لكن ما العمل إذا لم يكن للقاضى سلطان خارج الحجرة التى يتم فيها الانتخاب؟ وإذا سمح لبعض المرشحين بعقد لقاءات مع الجمهور وحرم بعض المرشحين من ذلك؟ وما الحل إذا منع الناخبون من الذهاب أصلاً لصندوق الاقتراع؟ النتيجة إذن واحدة وإن زادت القوانين المنظمة للانتخاب، وهذا هو ما تم مع تعديل المادة ٧٦ من الدستور!

٢ - زيادة هامش الحرية للمعارضة، والسماح بارتفاع درجة النقد، ولكن بحيث لا يمثل هذا فى مجمله أى تهديد للنظام الحاكم، ليتم تسويق هذا الهامش. خاصة فى الخارج. باعتباره دليلاً على مدى الحرية المتاحة للنقد والتعبير، مع أن الأمر فى حقيقته لا يعدو كونه استثناء يثبت قاعدة القمع وتكميم الأفواه.

أمام ذلك كله، فإننا مطالبون بالتفكير الجدى فى الخروج من هذا المأزق، وفى تفعيل دور النخبة المثقفة فى عملية التحول الديمقراطى، وذلك بتقليل الفجوة بين التنظير والممارسة، والانشغال بقضايا الأمة، والعودة بها إلى أصولها وتراثها، وبتوعية الجماهير ونشر مفاهيم الحرية والمسئولية والتضحية، وتكوين رأى عام يقف ضد محاولات الهيمنة فى الداخل والخارج، وأيضاً فى كيفية استدعاء الشعوب العربية إلى الملعب السياسى، واشتراكها فى تقرير مصيرها، بعدما غُيِّبت وتاهت فى زحمة المواصلات والسعى وراء لقمة العيش!!

السنوسى محمد السنوسى

ليسانس الدعوة الإسلامية

بسيون - الغربية



إمامة المرأة

الأستاذ المحرر: تابعت بمزيج من الفضول والقلق «مقالكم» عن عولمة الأديان وإمامة المرأة، وما تابعه من تعليقات دفعتنى إلى كتابة هذه المداخلة.

لقد أفردتم المكان لنشر رأى غاضب لقارئ أحزنه وأثار استياءه مجرد أنك ألمحت. ولم تصرح. بما تصوره تأييداً منك لإمامة المرأة، أو محاولة لهز الثوابت.

أغضبنى أن يتواجد تيار بهذه القوة، يحجر على فكر ورأى من يعرض أى قضية، مهما كانت حساسيتها، للنقاش.

وزاد من استيائى أن القارئ لم يتطرق فى خطابه أبداً إلى لب القضية، وهو موضوع إمامة المرأة، وإنما ردد وزاد فى أن الموضوع فقهى، وما على المعترض إلا قراءة ما ورد بكتب الفقه، أو الاستماع إلى فتوى الأزهر، وهو ما يغلق تماماً باب الاجتهاد، ويصم من يعرض رأياً مختلفاً، أو يناقش بالتمرد والعصيان.

ومداخلتى تتعلق بنقطتين فى موضوع إمامة المرأة:

أولاهما تتعلق بالثوابت، وهو تعبير قوى بقدر ما يبعث على الطمأنينة لوجود قواعد وأسس وحدود يحتكم لها البشر ولا تتغير، إلا أنه من ناحية أخرى يدل على الجمود والتيبس، وهو ما يخالف طبيعة الكون والبشر، وحتى الدين.

فمن الثوابت فى الدين مثلاً حد الزنى بالرجم وحد السرقة بقطع اليد. ومن النادر أن يطالب أحد الآن بتطبيق هذه الحدود كما نشأت بحذافيرها، لأسباب هامة منها قسوة الحدود وإحداث عاهة مستديمة يصعب إصلاحها إذا ثبتت براءة المتهم، وتاريخ طويل يحفل بأمثلة تدل على أن تطبيق هذه الحدود الصارمة فى الغالب من نصيب الضعيف، فرجم المرأة يتكرر أكثر من رجم الرجل بالرغم من طبيعة جريمة الزنى التى تستلزم التساوى، وقطع اليد من نصيب السارق الفقير الضعيف، وليس الغنى القوى. لذلك تطورت هذه الحدود لتكون رادعة وليست وسيلة إلى الوصم بالعار إلى آخر العمر.

أما الثانية فتتعلق «بالثوابت» التى تطبق على طائفة دون أخرى، وليست عامة شاملة تطبق على الجميع. هذه الأحكام بطبيعتها تحمل قدراً كبيراً من التمييز يغلف نوعاً من الاضطهاد لفئة ما قد تكون أقلية أو ضعيفة وأمثال ذلك أحكام النساء وأحكام الأقليات وأحكام العبيد. وهذه الأخيرة تحمل قدراً كبيراً من التشابه فى أحكام المرأة. وكلاهما تجب عليه

فروض الطاعة والولاء لسيده، وإلا أصابه عقاب يجوز أن يتشكك فيه السيد وكلاهما جسده مباح لسيده بالأمر، وليس العكس، فكلاهما لا يملك حرية التصرف خارج حدود العلاقة بالسيد فى حدود ورضا الدين والمجتمع. فالسيد يملك حق إقامة علاقة جنسية مع العديد من الجاريات، ولا تملك الجارية نفس الحق، والزوج يملك حق إقامة علاقة جنسية مع العديد من الزوجات، ولا تملك الزوجة نفس الحق.

والاثنان - الحالتان - حالة النساء والعبيد كانوا من الثوابت، ولم يحرم الفقهاء الرق أبداً بل حددوا له القواعد التى تؤكده، لكن العبيد ثاروا .. فقط فى المائتى سنة الأخيرة من تاريخ البشر، وتغيرت الثوابت.

لم ير العبيد سبباً لأن يصنفوا كطائفة أقل، ماداموا يملكون العقل ويؤدون دورهم فى المجتمع، فلم التمييز ضدهم؟ ويقينى أن نفس المنطق ينطبق على المرأة.

مادامت تملك العقل وتؤدى دورها فى المجتمع، فلم التمييز ضدها؟

إمامة المرأة ما هى إلا نوع من أنواع القيادة، والدور الإيجابى فى الحياة الدينية، وهو ما ترفضه الأفكار المتسلطة والمتيبسة، والتى ترى فى قيادات المرأة نوعاً من التهديد لقوة وسلطة وسطوة الرجل فى المجتمع، وقد كان، ومازال صراع القوى هذا هو الأصل فى جميع أنواع التمييز.

كوثر سالم العسيلي
باحثة



النذير العريان

اشتد عجبى واعترانى الذهول وأنا أقرأ مقال الدكتور محمد سليم العوا والمعنون بالنذير العريان مسألة فى حقوق الإنسان عدد يونيو ٢٠٠٥ .

ولقد سمعت من قبل وقرأت كلاماً كثيراً عن تقرير المجلس القومى لحقوق الإنسان الذى صدر مؤخراً ولكن كل الذين تكلموا أو كتبوا لم يركزوا إلا على نقطة واحدة وهى ٢٥ ألف معتقل فى مصر وأهملوا جوانب عديدة فى التقرير. إلا أننى وبكل صدق لم أكن أتخيل أن يأتى أحد ويتجاسر ويكشف لنا ويحلل هذا التقرير الذى عرى أوضاعنا وجعلنا نحس بمدى المأساة الإنسانية التى نعيشها ويجعلنا نتساءل ما هذا الواقع الراهن الذى يغص بالجوانب المظلمة وأبرزها الظلم والاستبداد والقسوة وهو ما انعكس على مجمل أدائنا الاجتماعى فى زوايا مختلفة سياسية واقتصادية وثقافية وأتاح المجال للفساد والخلل والسلبية أن ينخر فى قاع المجتمع.

إن هذا التقرير الصدمة يجعلنا نتساءل لماذا وصلنا إلى ما نحن فيه؟

إن مقال الدكتور العوا شائق ومثير ومحزن فى نفس الوقت وجدير بأن يقرأه كل مسئول فى مصر ليتنبأ فعلاً بأن هذا التقرير الذى صدر من المجلس القومى لحقوق الإنسان بمثابة جرس إنذار ونذير عريان كما سماه الكاتب لينبهنا بما هو آت.

ثم بالله عليكم ما مظهرنا أمام العالم عندما يسمعون ويقرأون أمثال هذه التقارير التى تصدر فى عالمنا العربى وما أكثرها ولكن لا ترى النور بل يحمد ويحسب لأهل الحكم فى مصر أن سمحوا بنشر هذا التقرير ثم بعد ذلك نعيب على جزيرة ميكرونيزيا التى تحتقرنا وتصوت دائماً ضدنا فى الأمم المتحدة وتصوت لصالح إسرائيل.

إن وضعنا الحالى أصبح أشبه بفيلم فريد من نوعه يجمع إلى الكوميديا عناصر الميلودراما وأطرافاً من التراجيديا الإغريقية يصعب على أمهر المخرجين أن يضع مثيلاً لها لو أراد.

وأخيراً شكراً للدكتور العوا وشكراً للقائمين على تحرير المجلة وأردد مع القائل:

بذلت لكم نصحى بمنعرج اللوى
فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغد

صابر محمد عبد الواحد
مدرس بمدرسة أبو القاسم
أخميم - سوهاج

الترجمة المستباحة

تستعد مصر لمؤتمر موسع للترجمة فى إطار احتفالاتها بترجمة الألف كتاب، وهو عُرس كبير تستحق مصر أن تستضيفه، لا سيما أن دورها الرائد التوعوى التعليمى الريادى ليس بخاف على متابع للحركة الثقافية العربية.

وإذا كانت الترجمة إلى العربية هى المحتفى بها، فإن الترجمة من العربية أيضاً يجب أن تكون محل اهتمام كل المسئولين عن الثقافة فى الوطن العربى فى إطار خطة عربية للترجمة، لمنع تكرار ترجمة الكتاب نفسه.

ولعل اللافت للنظر والمستدعى إلى تدخل عاجل هو نص شاذ عرف طريقه إلى قانون ٨٢ لسنة ٢٠٠٢ فى شأن حماية حقوق الملكية الفكرية، حيث أجاز ترجمة ما يكتب بلغة أجنبية إذا ما مضت ثلاث سنوات على النشر دون ترجمته إلى اللغة العربية، وهو نص يخاطب المصرى والأجنبى ممن يكتبون بلغة أجنبية. وقد أثار هذا النص ثائرة المثقفين والناشرين فى مصر وخارجها. وكان الرد الحاضر لدى البعض أن مصر فى حاجة إلى الاستفادة مما يكتب بلغة أجنبية، فكان لزاماً السماح بالترجمة إلى اللغة العربية إذا لم يقم المؤلف بهذه الترجمة بنفسه أو بواسطة غيره بعد مضى ثلاث سنوات كاملة، لا سيما أن القانون المصرى السابق رقم ٣٥٤ لسنة ١٩٥٤ كان يتضمن نفس النص وإن كانت المدة التى نص عليها خمس سنوات وليس ثلاثاً.

ولا يسع رجل القانون إلا أن يستبعد هذا الرأى وينادى بحذف النص حفاظاً على تاريخ مصر الحضارى، لا سيما أن ما كان مقبولاً قبل انضمام مصر إلى اتفاقية برن الدولية، عام ١٩٧٦، لم يعد مقبولاً بعد أن أصبحت مصر عضواً ليس فقط فى اتفاقية برن وإنما أيضاً فى اتفاقية إنشاء منظمة التجارة العالمية وملحقها المعروف بالمختصر الإنجليزى تريبس، وهو ما تم فى يناير عام ١٩٩٥ . فضلاً عن ذلك فإن مصر استفادت طبقاً لهاتين الاتفاقيتين ونص القانون المصرى الحالى نفسه من الحق فى الترجمة والنسخ، بدون قيد زمنى، بترخيص يصدر من وزارة الثقافة، إن أثبت الساعى إلى الترجمة عدم توفيقه فى الوصول إلى المؤلف أو الناشر الأجنبى أو أثبت تعسفهما بطلب مبلغ مغالى فيه، ولا يكون لأيهما سوى الحق فى مقابل عادل جرى العرف على تحديد حده الأقصى بـ ١٥٪ فقط من سعر الغلاف المزمع طرح المصنف بها باللغة العربية.

وهذا النص المحابى لمصر وغيرها من الدول النامية، يضمن استفادتها من أى مصنف جديد، فور صدوره، فتنقله إلى اللغة العربية فى إطار من الشرعية الدولية، ولن يكون عليها سوى أن تسدد نسبة مئوية لا تتجاوز ١٥٪ من سعر الغلاف إلى المؤلف المعنى، على أن تحافظ وزارة الخارجية على تجديد تمسك مصر بهذا النظام الاستثنائى المقرر لصالح العالم النامى. وليس لمثلى ممن هو غيور على سمعة مصر الدولية فى إطار نظام تجارى عالمى جديد لا يتجاهل الشرعية ويجيز اتخاذ إجراءات عقابية - تجارية الطابع - ضد أى دولة تخرج على النظام الدولى، إلا أن يهيب بصانع القرار أن يعجل بإلغاء المادة ١٤٨ من القانون ٨٢ لسنة ٢٠٠٢، لا سيما أنها موجهة إلى كل من يكتب بلغة أجنبية، وهو نص ينطبق على المصريين ممن يؤلفون عادةً باللغة الإنجليزية، فى مجالات الطب والهندسة والزراعة والصيدلة، وممن يحصلون على رسائل للدكتوراه من خارج مصر وداخلها بلغة أجنبية. حتى ليس من الصالح العام أن نجرد هؤلاء جميعاً من الحماية القانونية بالمخالفة للاتفاقيات الدولية، تلبية لدعوة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، فنلبى دعوة الداعين إلى إتاحة الثقافة الأجنبية باللغة العربية، ونتجاهل حقوق المؤلفين على مصنفاتهم.

فلماذا الإبقاء على هذا النص فى قانون وضع أساساً لحماية حقوق الملكية الفكرية وليس لإهدارها؟

د. حسام لطفى
أستاذ القانون المدنى
ووكيل كلية حقوق بنى سويف
لشئون الدراسات العليا والبحوث

حــــريـة الصـــــراخ.. وفقــط!!

■■ قبل ثلاثين عاماً كاملة جرت وقائعُ هذه القصة. في بلد آخر.. وثقافة مختلفة. نرفض سياساته.. نعم. وبعضاً من ثقافته.. نعم. ولكننا ننحني قطعاً لشيء في هذه الثقافة تبرزه هذه القصة: «حرية الصحافة» أو بالأحرى المعنى الحقيقي لحرية الصحافة والذي إن كان يفترض أولا: بحثاً دءوباً عن الحقيقة.. وهذا واجب الصحافيين. (صحافيا الواشنطن بوست أمضيا في تحقيقاتهما عامين كاملين)، فإنه يتطلب ثانياً: «احترام الكلمة»؛ والتي إن كنا نعرف أن استقلال القلم شرطٌ لها، فلابد أن نعترف أن الاستجابة لما فيها من حق يظل شرطاً آخر. وإلا صارت «كالصراخ في البرية»، ليس له من تأثير أو أثر غير رجع أصداء؛ تَصمُّ الآذان، وتملأ الفضاء.. ولكنها لا تحرِّكُ الأرض.

في عام ١٩٦٩ كان ريتشارد نيكسون «الجمهوري» قد وصل إلى الغرفة البيضاوية في البيت الأبيض، بعد أن نجح في استغلال مخاوف الناخبين (من الشيوعية إلى العنصرية) وكان شعار أمن الدولة أو «الأمن القومي» بالتعبير الأمريكي هو التعبير المفضل عند رئيس الدولة العظمى العائدة بخسارتها من فيتنام.

لم يمض وقتٌ طويل، حتى كان الرجل ـ مفتوناً بشعاره ربما ـ قد تورط، أو بالأحرى تورطت إدارته مع حزبه في التستر على عملية تجسس على مقر الحزب الديموقراطي في فندق «ووترجيت»، وهو الأمر الذي انتهى بفضيحة أخذت اسم الفندق. وأدت إلى الإطاحة بالرئيس الذي اضطر للاستقالة في التاسع من أغسطس ١٩٧٤. بعد أن نجح صحافيان في الواشنطن بوست (بوب وودوارد ومايكل برنشتاين) في كشف تفاصيل القصة بعد عامين كاملين من التحري والتحقيق في سراديب السلطة الغامضة الخطرة (وهي قصة تستحق بذاتها أن تروى ليتعلم منها صحافيو المكاتب المكيفة). ويعرف كل من تابع القصة المثيرة أن الصحافيين اعتمدا في تحقيقاتهما على مصدر ـ احتراماً لشرف المهنة ـ لم يفشيا سر اسمه أبداً، رغم كل الضغوط الهائلة التي تعرضا لها. مكتفين بأن يرمزا إليه بما أسموه «Deep Throat»..

لماذا نتذكر هذه القصة الآن؟

لأنه قبل أيام فقط، وبعد ثلاثة عقود كاملة، وبعد أن تجاوز الرجل التسعين من عمره خرج صاحب «الحنجرة العميقة» ليكشف عن نفسه. وليعرف الجميع بأنه أيام «ووترجيت» كان الرجل الثاني في مكتب التحقيقات الفيدرالي «مارك فيلت» وأنه تتلمذ على يد مديره «ادجار هوفر» الذي حافظ على استقلالية المكتب (أمام البيت الأبيض) لأربعة عقود كاملة قبل أن يموت في مكتبه في مايو ١٩٧٢.

وكانت المفارقة ـ بالنسبة لنا لا لهم ـ أنه في الأسبوع ذاته الذي استعادت فيه الصحافة «الحرة» ذكريات استقلالها (حيث رفضت الواشنطن بوست أن تكشف عن مصدرها لمدة ثلاثة عقود كاملة) وتأثيرها (حيث نجح وودوارد وزميله في الإطاحة بالرئيس)، أطاحت قنبلة غادرة بصحفي لبناني جرب أن يمارس حريته «سمير قصير»، وماطلت الحكومة في مصر ـ رغم وعود رسمية ـ في أن تصدر قانوناً يحظر حبس الصحافيين في قضايا النشر. وبدا ـ رغم كل الصخب والمانشتات الزاعقة في الصحافة المصرية ـ أن «لا أحد.. هناك». لأنه ـ ببساطة ـ لا أثر حقيقياً على الأرض. كأنه «كلام.. كلام.. كلام.. ولا شيء غير الكلام» كما يقول شكسبير على لسان هاملت.



من يقرأ الصحف المصرية هذه الأيام ـ حتى القومية شبه الرسمية منها ـ يستوقفه قطعاً ما يبدو «مساحة» شاسعة من الحرية. ولكن من يرفع رأسه بعيداً عن المانشتات المتزاحمة، محاولاً أن ينظر إلى الواقع «الحقيقي» ستذهله «المسافة» بين ما يقرأ وما يرى من أثر على الأرض.

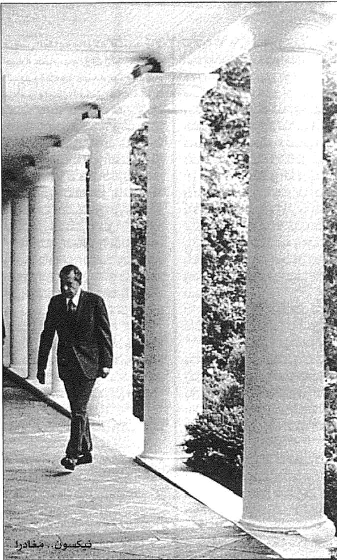
كأن في مصر الآن: ربما بغرض التنفيس «حرية للصراخ.. وفقط».

دلوني من فضلكم على ردود فعل «حقيقية» لما ينشر يومياً في الصحف.! يبدو أن للسلطة في بلدنا «أذنين» كما قال لي سائق التاكسي قبل أيام.

كم مرة ـ عبر سنوات ـ كتب الداعون إلى تعديل الدستور، فوصفت دعوتهم بالبطلان. (دع عنك ما جرى أخيراً تلبية لتوجيهات الرئيس، لا استجابة لدعوات مفكرين أو كتاب أو صحافة)؟

كم مرة تحدثت الصحف مستندةً إلى شهادات وأدلة وتقارير: منها ما هو رسمي (آخرها تقرير المجلس القومي لحقوق الإنسان) عن اعتقالات واحتجاز لمواطنين دون سند من القانون، وحالات مؤكدة للتعذيب، وعدم احترام لأحكام القضاء.. بل وحالات انتقام لذوي نفوذ يسقط ضحيتها حتى رجال أعمال كبار.. إلى آخر قائمة طويلة من تجاوزات وانتهاكات. وبعد.. «محض حبر على ورق». لم نسمع ـ غير ما ندر ـ عن إحالة أي من المسؤولين عن هذه الانتهاكات ـ وكثيرها ثابتٌ بالأدلة ـ إلى التحقيق. كما لم نسمع عن تحقيق على أي مستوى جرى. أو حتى يعتزم إجراؤه في الوقائع التي أشار إليها المجلس ـ الرسمي ـ لحقوق الإنسان.

كم مرة تحدثت الصحافة ـ التي يمنُّ علينا البعضُ بحريتها ـ مستندةً إلى شهادات وإثباتات عما نعرفه جميعاً من وقائع محددة لاستغلال النفوذ، وعما أصبح وكأنه «تقنين» للواسطة والمحسوبية؟ وكم مرة نبه من كتب إلى أن الأمر وصل بالبعض إلى «الانتحار



يأساً» من حصوله على حقه المشروع. محذراً من نتائج «الإحباط المكبوت» على تماسك النسيج الاجتماعي لهذا البلد؟ هل تحرك أحدهم للتحقيق في تلك الوقائع؟ لم نسمع غير أن شاعراً رقيقاً «فاروق جويدة»، غير محسوب بحال على فصائل المعارضة، عوقب على إطلاقه جرسَ الإنذار فمارس معه بعض ذوي السلطة مابدا شيئاً من العسف في استخدامها. فصار الأمر ـ وكأنه يحاسَب على ما كتب. وانتهى به الحال ـ غير مصدق ـ إلى فراش المرض.

كم مرة تحدثت الصحف عن «استقلال القضاء».. فوُضع قانونُه بعيداً على الرف.

هل تذكرون محاضرةَ هيكل الشهيرة في الجامعة الأمريكية «المستقبل.. الآن»، والتي نبهت مبكراً (قبل سنوات ثلاث) لمخاطر ما أصبحنا فيه الآن؟! كأن لا أحد يسمع أو يقرأ. (نص المحاضرة نشرته «وجهات نظر» في العدد الماضي).



على هامش قصتهم.. وقصتنا، يتداعى إلى الذهن سؤال:

هل يتجسس الحزب الحاكم في بلادنا العربية ـ لا أستثني أحداً ـ على معارضيه؟ أو بالأحرى هل يستخدم الحزب الحاكم الجهاز الأمني «للدولة» التي هي بحكم التعريف «دولة كل المواطنين» في مواجهة معارضيه؟

تبدو الأسئلة ـ في واقعنا العربي ـ افتراضية.. وربما ميتافيزيقية. ولكنها لمن يريد أن يعرف معنى الديموقراطية «الحقة»، وجوهر الصحافة «الحرة».. أسئلة ووترجيت. ■

أيمـــن الصيـــاد

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد التاسع والسبعون . السنة السابعة . أغسطس ٢٠٠٥ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 7 - Issue 79 - August 2005

الإرهاب .. الصحافة .. الإصلاح .. الإنسان ؟!



حلمي التوني
2005

السـنـة السـابعـة
العـدد التاسع والسبعون
أغسطس ٢٠٠٥

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد



محتويات العدد:

كتّاب العـدد :

- إبراهيم عمر.. المستشار الثقافى المصرى بصنعاء سابقًا.
- أحمد أشقر.. كاتب وباحث فى مقارنة الأديان.
- أسامة رشدى.. باحث دكتوراه فى الطب بجامعة ماكجيل ـ كندا.
- إليزابيث درو.. صحفية.
- أمينة البندارى.. باحثة دكتوراة بكلية الدراسات الشرقية - جامعة كامبريدج
- أيمن الصياد .. صحفى.
- جون ر. سيرل.. أستاذ الفلسفة فى جامعة كاليفورنيا ـ بيركلى
- خيرى شلبى .. روائى مصرى.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- عبد الوهاب المسيرى.. أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة.
- محمد السعيد إدريس.. رئيس تحرير «مختارات إيرانية» بمركز الأهرام للدراسات السياسية.
- محمود الذوادى.. أستاذ علم الاجتماع ـ جامعة تونس.
- مها القصراوى.. كاتبة سورية.
- نبيل على .. خبير الأبحاث اللغوية العربية والإلكترونية.
- هشام السلامونى.. ناقد أدبى وفنى.
- يوسف القرضاوى.. داعية ومفكر إسلامى.

رسوم العدد للفنانين

محمد حجى ـ سعد الدين شحاته ـ أحمد اللباد





المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٢ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

نــوم

سـلامة أحمـد سـلامة

من صحافة التعبئة إلى التعمية.. والتعرية

■■ تظل حرية الرأى والتعبير والصحافة هى المرآة الحقيقية لمدى ما يتمتع به مجتمع ما بالديمقراطية. فعلى مرآتها تنعكس كافة الحريات الأخرى التى تعد من شروط الحكم الصالح. وفى معظم الدول العربية تغيم هذه المرآة بظلال وبقع كثيرة، تخفى الحقائق وتحرفها بأشكال من تزييف الوعى لم تنج منها دولة عربية واحدة إلا قليلاً. وهو ما انعكس بدرجة أو بأخرى على وسائل الإعلام.

ولا تنفرد الصحافة العربية باختناق مجالات الحرية والإبداع، بل تكون فى معظم الأحيان تعبيراً عن أزمة فى البنية الأساسية التى تحمل فى باطنها بذور وأد الحرية، كواحدة من حلقات متشابكة تبدأ من التنشئة داخل الأسرة وتنتهى بالسياسة فى الداخل والخارج. ولا تلبث أن تتحول إلى حصار داخلى يصبح فيه الإنسان رقيباً على نفسه، كما يصفها التقرير الأخير للتنمية الإنسانية العربية. ويصبح المجتمع كله محصوراً فى رقابة ذاتية، تغذيها نزعات الخوف والرضوخ السلبى، الذى لا تفلت منه فئات المثقفين والمفكرين والصحفيين.

يرتبط هذا الوضع ارتباطاً وثيقاً بوجود نخبة سياسية حزبية متسلطة، أتيح لها فى ظروف معينة: عن طريق انقلاب عسكرى أو حكم وراثى أو قبلى. أن تصل إلى الحكم. ولا يهم بعد ذلك إذا سمحت بإنشاء أحزاب أخرى، إذ يظل «الحزب الحاكم» قابضاً على مفاتيح السلطة من الإعلام والصحافة إلى الجيش والقضاء والأمن والجهاز البيروقراطى للدولة. وهو وضع يفضى بالضرورة إلى اعتبار الصحافة والإعلام ذراعاً للدولة، يترتب عليه إخضاع النشر الصحفى والبث المسموع والمرئى لتشريعات تستهدف تنظيم حرية الرأى والتعبير على نحو يحيطها بسياج من المحظورات والقيود التى تحد من أى نشاط إعلامى، وتوظفه فقط لخدمة النظام.

وحتى فى النظم التى اضطرت إلى القبول بدرجة من درجات التعددية الحزبية، فقد استمرت النظرة السلطوية قادرة على وضع القيود التى تجعل من هذه التعددية استمراراً لسيطرة الحزب الواحد أو الحزب القائد. وأمكن لهذه الأحزاب أن تصدر صحفاً باسمها، ولكن بقيت السلطة من خلال التلاعب بتراخيص قيام الأحزاب، ووضع قيود صارمة على نشاطها، وتضييق فرص الحصول على الإعلانات التى تعتبر بنداً مهماً فى اقتصاديات أى صحيفة، قادرة على الحد من انتشار الصحف. ويخول القانون فى عشر دول عربية حق التعطيل الإدارى للصحيفة دون حكم قضائى إذا صدرت بدون ترخيص، وفى بعضها إلغاء الترخيص دون رقابة قضائية. فضلاً عن أن تشريعات الصحافة العربية فى مجملها تتفق على وضع قيود صارمة على إصدار الصحف وملكيتها. ومعظمها يأخذ بنظام الملكية العامة أو المختلطة. وتشتد قبضة الدولة على الصحافة والإعلام عموماً فى الحالات الاستثنائية وفى ظل الطوارئ.



هذه صورة عامة قد تبدو قاتمة بعض الشيء لأحوال الصحافة والنشر فى العالم العربى، مع بعض اختلافات طفيفة بين دولة وأخرى. وبينما فتحت بعض دول عربية الباب أمام إنشاء قنوات فضائية شبه مستقلة لأغراض محددة، إلا أنها تحتفظ بالقدرة على توجيهها. إذ يغلب أن تكون الدولة أو بعض أفراد الأسر الحاكمة هى الممول الرئيسى لها وصاحبة القرار فى اختيار وتعيين مديريها وتوجيه سياستها. وعلى الرغم من اختفاء وزارة الإعلام فى بعض دول عربية، إلا أنها استبدلت بها هيئات وتشريعات ذات صلاحيات واسعة. ويبدو من المفارقات غير المدهشة أن يكون وزراء الداخلية والإعلام العرب، هم أكثر المسئولين العرب انتظاماً وتنسيقاً وتعاوناً فيما بينهم، دون سائر المجالات الأخرى التى يمكن أن تدعم التضامن العربى فى التعليم والثقافة، أو الاقتصاد أو الدفاع على سبيل المثال.

ولكن هذه الصورة على قتامتها وتخلفها عن مسايرة العصر فى الصحافة وحرية التعبير، تمثل تطوراً وإن كان بطيئاً عن الأوضاع السابقة التى سادت حتى وقت قريب وعلى وجه التحديد طوال العقود الأخيرة من القرن الماضى. وذلك على الرغم من أن الصحافة العربية شهدت فى نشأتها الأولى فى مصر والشام أوائل القرن المنصرم، ألواناً من الحرية والازدهار والتنوع غير مسبوقة، تشابهت فى ملامحها مع الصحافة الأوروبية. وكانت الصحف والمجلات حينذاك هى الحامل والناقل الرئيسى لألوان الفكر والأدب والفن، التى لعبت دوراً بالغ الأهمية فى إيقاظ الوعى الوطنى إبان معارك التحرير والاستقلال من ربقة الاستعمار، وكذلك فى عملية التنوير والتثقيف التى قادها رواد النهضة فى مصر والشام. ولكن وصول نظم ثورية عسكرية إلى الحكم فى مصر وسوريا، وتعرضها لنكسة شديدة اقترنت باحتلال فلسطين وانخراط الدول العربية فى صراع عسكرى مرير مع الصهيونية المؤيدة عالمياً، أحدث ردة سياسية عاتية كانت الصحافة وحرية التعبير أولى ضحاياها. كما توقفت الحرية السياسية والتطور الديمقراطى فى الأمة العربية عند مرحلة من الجمود والتردى لم تفق منها حتى الآن!!



كانت أخطر آفة منيت بها الأمة العربية وهى تخوض الصراع ضد التوسع الصهيونى الاستيطانى، هى الفصل بين الفكر والسياسة. وتولى شئون الحكم فى معظم الدول العربية نخب عسكرية اختلطت لديهم الحدود بين قيادة الجيوش وقيادة الشعوب والتنظيمات السياسية والتوجهات الفكرية والثقافية. وتحولت وسائل الإعلام والتنوير من صحف ومجلات وكتب ومسرح، وقبل ذلك من إذاعة وتليفزيون إلى أدوات لتعبئة الجماهير، وإثارة حماسهم واصطفافهم وراء فكر واحد وزعيم واحد، دفعاً لما يقع أو ينتظر وقوعه من أخطار وما يتطلبه الصراع من تضحيات وقيود. وتزايدت أساليب التشديد والتضييق حين مالت النظم السياسية فى تلك المرحلة إلى الفكر الاشتراكى والمبادئ اليسارية، فى وقت التهبت فيه الحرب الباردة واشتعلت معارك النظريات والأيديولوجيات بين الشرق والغرب، فامتدت عباءة الحكم العسكرى إلى كافة أشكال الفكر والإبداع والتعبير الحر، لتطوعه فى خدمة أهداف محددة، مثل الأمن والسلام الاجتماعى وزيادة الإنتاج وحماية المكاسب الاشتراكية.. إلى آخر المفاهيم التى صكها مثقفون وضعوا مواهبهم فى خدمة السلطة والسلطان. وكانت خيانة المثقفين هى بداية الهزيمة الذاتية التى أفضت بالشعوب العربية إلى ما هى عليه الآن من تداع وضعف.

معظم الأمة العربية عرفت فى هذه الفترة الصحافة التعبوية أو صحافة التعبئة. حيث أممت الصحف المصرية. مثلاً - فى عام ١٩٦٠ وتبعتها معظم الدول العربية. أما الدول التى لم تكن تعرف الصحافة فقد بادرت حكوماتها إلى إنشاء صحافة حكومية. وصدرت فى معظمها قوانين لتنظيم الصحافة ووسائل الإعلام وإخضاعها لرقابة الدولة. ووضعت قوانين ولوائح أدخلت عقوبة الحبس على جرائم النشر ومصادرة الصحف. وكانت تلك هى البداية فى إهدار مبدأ الشفافية، وتزييف الوعى، وحجب الرأى العام عن مراقبة السلطة، وبالتالى الحد من حرية الإبداع والتفكير. وفى هذه الأجواء فقدت الصحافة معنى التعددية واختلاف الرأى واحترام حقوق الإنسان. وكادت تتحول إلى نسخة واحدة، وإن اختلفت العناوين والأسماء.. تفتقر إلى التنافس وتزخر بكل ما يخدم تقديس الفرد والولاء للسلطة والحجر على الفكر والرأى.



لا جدال إذن فى أن هذه الحقبة من صحافة الرأى الواحد والخبر المصنوع الذى لا يلتزم بالحقيقة بل يتجاوزها

فى معظم الأحيان، وهى حقبة طالت واستطالت قرابة نصف قرن فى ظل نظم سلطوية، لم تشهد بوادر انفراج إلا مع التسعينيات من القرن الماضى.. وذلك فى ظل متغيرات حادة شهدها المناخ الدولى.. بنهاية الحرب الباردة وسقوط الستار الحديدى واندحار الشيوعية وانتصار النظم الديمقراطية وهى المرحلة التى اعتبرها فوكوياما «نهاية التاريخ». وقد انعكست هذه المتغيرات على العالم العربى، بدرجة محدودة فى أعقاب حرب أكتوبر. وكان تضاعف ثروات النفط ونفوذ دوله على العالم العربى، وإخفاق المواجهات العسكرية فى الصراع مع إسرائيل، هو الذى أدى إلى زيادة نفوذ الغرب والاعتقاد بأن ٩٩٪ من الأوراق فى يد أمريكا. وترتب على ذلك أن أصبحت الهرولة نحو واشنطن، والانفتاح على الغرب سياسيا واقتصاديا وثقافيا هو السبيل الوحيد للتعلق بوهم استعادة الحقوق المشروعة، وضمان قدر من الاستقرار والحفاظ على استمرار التأييد الأمريكى لبقاء النظم القائمة فى مواجهة التفوق الإسرائيلى والضعف الداخلى.

وكان طبيعيا أن تستمر أوضاع الصحافة ووسائل الإعلام العربية على ما هى عليه.. مع بعض تغييرات شكلية وعمليات تجميل جزئية، لإضفاء أجواء غير حقيقية من الحرية، والانفتاح على مصادر الأخبار العالمية، ومسايرة التطورات التقنية فى وسائل الاتصال والطباعة وتحديث فنون الإخراج التى تشد القارئ وتخدعه وتخاطب غرائزه وميوله.

وقد نجم عن هذه الحقبة نتيجتان: الأولى أن التحسن الذى طرأ على تقنيات الصحافة والنشر، وربما على مهارات الصحفيين والمثقفين وإمكانياتهم المهنية، لم ينعكس بدرجة كافية على المستوى العام للصحافة ولا على حرية الرأى والتعبير وتدفق المعلومات، ولا على أدبيات النشر والإبداع والاحتفال بالسبق الصحفى واحترام عقل القارئ.

والثانية أن غياب الديمقراطية، وجمود الحياة السياسية، وخوفها من الحرية وعجزها عن تطوير نظام ديمقراطى يساير حركة العصر، أسهم فى خلق طبقة من الصحفيين والمثقفين تغلب عليهم السلبية والانتهازية والانجراف وراء إغراءات السلطة والمكاسب المادية على حساب المهنة. وأدت هذه السلبية إلى السقوط فى التبعية والعبودية الصحفية التى لا تحترم مواثيق الشرف ولا أصول المهنة. وهو ما أفضى إلى نوع من الصحافة نطلق عليه «صحافة التعمية» بعد «صحافة التعبئة».

و«التعمية» هنا بمعنى إخفاء الحقائق وتلوينها ونشرها ناقصة



من التعبئة إلى التعمية إلى التعرية، سلكت الصحافة العربية طريقا شاقا حافلا بالعقبات والمنحنيات. وبينما تطورت الصحافة فى الدول الديمقراطية المتقدمة، بقيت الصحافة عندنا، سواء كانت دورا ومبانى فاخرة أو دكاكين وشققا صغيرة، مشكلة مستعصية تحتاج إلى حل جذرى يحررها من الأغلال



مشوهة مبتورة. ليس من أجل اعتبارات قومية أو دفاعية.. ولكن تبريرا لأخطاء النظام، ودفاعا عن الحاكم، ومجاراة لجماعات الضغط والنفوذ من رجال الأعمال والمتنفذين فى السلطة. وبذلك تحولت الصحافة إلى غلالة قاتمة، أو غشاوة كثيفة على عيون الرأى العام. تحجب الحقائق أو تعريها بحسب الظروف والأحوال والأهواء. وهو ما خلق مجتمعات عربية تعيش فى منطقة بين الواقع والخيال، بين اليقظة والأحلام، يسهل خداعها وإيقاعها فى حبائل التطرف والإرهاب، أو فى إسار الإدمان والغيبيات. ويقوم سد منيع بين الفكر والسياسة. رجال السياسة يحتكرون السلطة فى دائرة ضيقة من الأتباع والمنتفعين، ويقاومون أى شكل من أشكال المشاركة أو التداول، ويضطهدون أو يجتذبون أصحاب الفكر ودعاة الحرية والديمقراطية بمختلف أساليب الإغراء والغواية. الأمر الذى أدى إلى انتشار الفئات التى تحتكر الحقيقة باسم الدين أو المذهب أو الطائفة، على نحو عمق التشرذم والعصبية بدرجة مخيفة فى المجتمعات العربية!



فى معظم الدول العربية هناك تناقض عميق بين الإعلام والدولة. وليس غريبا لهذا السبب أن توضع الصحافة العربية فى أدنى درجات التقييم من حيث الحرية والمصداقية بين صحافة العالم. وأن يضرب العالم العربى رقما قياسيا فى عدد الصحفيين المحبوسين، والكتاب الممنوعين، والمثقفين المنفيين. ويصبح من الأمور المألوفة مشهد محاكمات الصحفيين وصدور أحكام قاسية ضدهم مع إغلاق الصحيفة أو سحب ترخيصها من وزارة الإعلام. ويصل التلاعب بحرية الصحافة أقصاه حين يوافق رئيس الجمهورية على إلغاء عقوبة الحبس فى جرائم النشر فى مصر وتعرقل أطراف أخرى داخل النظام صدور القانون. وفى تونس ألغيت العقوبات الجسدية (الحبس) من قانون الصحافة، لتنتقل إلى القانون الجنائى أو قانون مكافحة الإرهاب، الذى يتضمن عقوبات أقسى وأشد بأسا على الصحفيين فى حال الاشتباه بالتعاطف من خلال التغطية الصحفية مع أعمال إرهابية. وتصل ذروة الملاحقة باغتيال الصحفيين كما فى لبنان (سمير قصير). أو بتعذيبهم بطريقة وحشية قبل اغتيالهم كما حدث مع الصحفى الليبى (ضيف غزال). وهى أمور لا تكاد تحدث إلا فى العالم العربى.

وهكذا ما بين سيف المعز وذهبه، أو ما بين السجن والنجومية الزائفة، تجمدت الصحافة والصحفيون فى قوالب يصعب الخروج منها. وأصبحت المواقع الرئاسية لكبار الصحفيين والكتاب رهنا برضا الحاكم أو سخطه، وليس بالكفاءة المهنية والانتشار القائم على ثقة القارئ ومدى ما توفره الصحيفة من رصيد معرفى ومعلوماتى وتنويرى، أو ما تقدمه من رأى حر مستقل يساعد على بناء مجتمع ديمقراطى متوازن.

ولهذا السبب فما إن تسقط القيود، ويرفع الستار، وتخف القبضة، وترفع السلطة يدها بعض الشىء حتى تزول الحواجز، وتنطلق بعض أشكال من «صحف اللحظة الراهنة» إلى مرحلة «التعرية» بعد التعبئة والتعمية. ولكن أى نوع من التعرية؟ تعرية الحقائق مع الالتزام بالصدق والموضوعية لكى تمارس الصحافة دورها فى الرقابة المجتمعية طبقا لضوابط مهنية وأخلاقية؟ أم صحافة الإثارة والمبالغة والخوض فى الأعراض ونشر الأكاذيب؟

بين هذين النقيضين مازالت الصحافة العربية عاجزة عن اختيار طريقها. فهى إما أن تكون مطية للحاكم ناطقة بلسانه، وإما أن يفلت بها الزمام غير عابئة بأصول الصحافة ومبادئها.

ويرجع السبب فى ذلك إلى أن ملكية الدولة للصحافة، أعطاها السلطة فى اختيار رؤساء تحريرها ومجالس إداراتها. بحيث بات من المألوف فى مصر أن تصدر حركة تعيينات رؤساء التحرير ومجالس إداراتها كلما عن للحكومة ذلك، على نحو ما تصدر حركة تعيينات الموظفين فى دواوين الحكومة. وهو ما خلق صحافة بائسة، تعانى من ضعف هياكلها المالية، ونقص كفاءتها المهنية، واكتظاظها بعاملين لا عمل لهم، مع سوء إدارتها الخاضعة لسيطرة أهواء شخصية، بحجة الدفاع عن خط الدولة وسياساتها.

وعلى الجانب الآخر تهرول الصحف الخاصة الصادرة بتراخيص من قبرص أو لندن، أو فى شكل مشروعات تجارية ربحية، وراء الحصول على خطف الكسب السريع من الإعلانات، أو الابتزاز والإثارة، وهو ما بات يسىء إلى سمعة ومكانة عدد قليل من الصحف المستقلة غير المملوكة للدولة، لأنها تواجه تحديا من جانبين: من جانب صحف قومية مدعومة بنفوذ الدولة، أو من جانب صحف خاصة مدعومة بقوة الإثارة ومخاطبة الغرائز.



وفى مصر فقدت الصحافة ريادتها فى الساحة الإعلامية العربية منذ سنوات وأسهمت بذلك فى طرد كثير من الكفاءات والمواهب وانصراف نسبة كبيرة من قرائها، الذين انصرفوا بدورهم إلى الفضائيات التى استولت على الرأى العام فى العالم العربى، فأصبحت هى المصدر الأول للخبر والصورة الحية والرأى والتقارير الواقعية من مكان الحدث، مصحوبا بكل أشكال الفنون الإعلامية المبهرة.

ومن التعبئة إلى التعمية إلى التعرية، سلكت الصحافة العربية - والمصرية خصوصا - طريقا شاقا حافلا بالعقبات والمنحنيات. وبينما تطورت الصحافة فى الدول الديمقراطية المتقدمة، لتصبح صناعة ورسالة، معرفة وثقافة، تربية وتسلية، تصمد أمام إغراء التليفزيون والفيديو والإنترنت، بقيت الصحافة عندنا، سواء كانت دورا ومبانى فاخرة أو دكاكين وشققا صغيرة، مشكلة مستعصية تحتاج إلى حل جذرى يضعها على طريق الحداثة، ويحررها من الأغلال التى شدتها إلى الوراء. وهو ما لن يتحقق بغير انتصار الديمقراطية والحرية سياسيا واقتصاديا، وإعادة النظر فى المنظومة الإعلامية كلها على أسس جديدة تتفق وروح العصر، وتحيل الصحف الحكومية إلى صحف حرة مستقلة. ■



بعيداً عن «الصدمة» الأمريكية - الإسرائيلية من انتخاب محمود أحمدي نجاد رئيساً للجمهورية الإسلامية الإيرانية كانت بعض التعليقات العربية شديدة التجاوز للحقيقة الإيرانية، بين من وصف ما حدث بأنه «تسونامي إيران»، وبين من تعجل بالحديث عن «الفاشية النجادية»

عندما يكون الإصلاح أصولياً

خيارات إيران الصعبة

محمد السعيد إدريس

■ لم تشهد انتخابات إيرانية سابقة كل هذا الاهتمام وكل هذا الانقسام فى توقعات النتائج وفى تقييمها مثلما شهدت انتخابات الرئيس السادس للجمهورية الإسلامية الإيرانية، التى فاجأت الجميع وأجريت فى جولتين (الجمعة ١٧ يونيو والجمعة ٢٤ يونيو ٢٠٠٥) عكس كل الانتخابات السابقة، ثم فاجأت الجميع بهزيمة الرئيس الأسبق على أكبر هاشمى رفسنجانى رئيس مجمع تشخيص مصلحة النظام أمام الشاب المهندس الدكتور محمود أحمدى نجاد رئيس بلدية طهران.

كثيرون اعتبروها انتخابات المفاجآت إذ لم يكن أحد يتوقع هزيمة رفسنجانى فى الجولة الثانية من الانتخابات أمام محمود أحمدى نجاد. فالحسابات الرياضية البسيطة كانت تؤكد أن رفسنجانى هو الفائز فى الجولة الثانية حتماً لأنه سوف يحصل على كل الأصوات التى أوصلته ليكون الفائز رقم (١) فى جولة الانتخابات الأولى التى شهدت تنافساً حاداً بين سبعة مرشحين (ثلاثة مرشحين من الإصلاحيين وثلاثة مرشحين من المحافظين وكان رفسنجانى هو سابعهم يمثل تيار الوسط بين المحافظين والإصلاحيين أو تيار الإنقاذ)، ولأنه سوف يحصل على أصوات كل الناخبين المؤيدين للمرشحين الإصلاحيين الثلاثة الذين فشلوا فى الفوز فى جولة الانتخابات الأولى، فى حين أن منافسه محمود أحمدى نجاد سوف يحصل، فى أحسن التقديرات، على أصوات مؤيديه وأصوات مؤيدى منافسيه من المحافظين الذين فشلوا فى الفوز فى جولة الانتخابات الأولى.

كانت تلك الحسابات شيئاً والواقع أشياء أخرى وبالذات لكل أولئك الذين حاولوا توصيف أو تشخيص عملية انتخاب رئيس الجمهورية الجديد باعتبارها صراعاً بين الحداثة (رفسنجانى) والتقليد (أحمدى نجاد)، وفى أحسن الأحوال اعتبروها صراعاً بين الإصلاحيين والمحافظين متجاهلين أن هذين النوعين من الصراعات لا يعكسان غير حالة قشرة رقيقة من المجتمع الإيرانى الذى يعانى من انقسام أهم بين نخبة من المثقفين ورجال الحكم يتصارعون حول الحداثة والتقليد والإصلاح والمحافظة، وبين أغلبية جماهيرية ليست طرفاً فى هذا الصراع مثلها مثل أغلب الجماهير فى دول العالم الثالث وبالذات فى العالم العربى التى تعانى من انقسام المجتمع إلى أقلية تعيش الغنى وأغلبية تعانى الفقر. وهذه الأغلبية ليست طرفاً فى معادلة الصراع السياسى اليومى بين المثقفين إصلاحيين كانوا أم محافظين، لكنها الطرف الحقيقى الفاعل فى معادلة التغيير الحقيقى عندما يصبح هذا التغيير خياراً وطنياً لا بديل عنه، وهذا ما حدث والذى لم يكن أحد يتوقعه حتى أولئك المشهود لهم بين كبار المثقفين والمراقبين الإيرانيين بدقة الرصد والتحليل للظاهرة السياسية الإيرانية، ناهيك عن المراقبين العرب والأجانب الذين انهالوا على الحدث تمزيقاً وتقطيعاً دون إدراك أنهم يتحدثون عن خيار شعب له الحق فى أن يختار من يشاء من بين أبنائه ليكون حاكماً فى لحظة تاريخية بعينها.

وبعيداً عن «الصدمة» الأمريكية - الإسرائيلية من انتخاب محمود أحمدى نجاد رئيساً للجمهورية الإسلامية الإيرانية كانت بعض التعليقات العربية شديدة التجاوز للحقيقة الإيرانية، بين من وصف ما حدث بأنه «تسونامى إيران»، وبين من تعجل بالحديث عن «الفاشية النجادية» نسبة إلى الرئيس محمود أحمدى نجاد، دون دراية بأنه لم ولن يكون فى إيران شىء اسمه «النجادية» لسبب بسيط وربما يكون مثيراً للسخرية وهو أن كلمة «نجاد» لا تنطق فى الفارسية منفردة وإن كانت تعنى «النسب» أو الانتماء السلالى أو العرقى، وهى لذلك لابد أن تأتى مقرونة باسم علم مثل أحمدى، فـ «أحمدى نجاد» تعنى أحمدى النسب فى اللغة الفارسية، ومن ثم فلن يكون هناك فى إيران شىء اسمه «النجادية» على غرار «الخاتمية» نسبة إلى الرئيس خاتمى أو «الرفسنجانية» نسبة إلى على أكبر هاشمى رفسنجانى، لكن حتماً سوف تكون للرئيس الجديد أحمدى نجاد تجربته الخاصة فى الحكم، وإن كانت التجربة تعبر بالفعل عن تيار التعميريين أو الأصوليين الجدد من بين التيار المحافظ، وهم الذين يسيطرون الآن على مجلس الشورى (البرلمان) السابع. تجاوز أو تجاهل هذه الحقيقة أى علاقة الرئيس أحمدى نجاد بتيار المحافظين الجدد (التعميريون)، وعدم الربط بين انتخابات مجلس الشورى السابع ونتائج تلك الانتخابات وبين انتخابات رئاسة الجمهورية الأخيرة (الرئيس السادس) كان سبباً رئيسياً لخطأ توقع هزيمة رفسنجانى أمام محمود أحمدى نجاد.

فانتخابات رئاسة الجمهورية تعتبر الجولة الثانية لعملية انتخابية شاملة باتت ضرورية لإحداث تغيير جذرى فى العملية السياسية الإيرانية، فى حين كانت الانتخابات التشريعية التى أجريت فى فبراير ومايو من العام الماضى (انتخابات مجلس الشورى السابع) هى الجولة الأولى، ولقد كان السؤال الرئيسى الحاكم لانتخابات رئاسة الجمهورية هو: هل ستكون تلك الانتخابات الرئاسية مكملة فى نتائجها للانتخابات التشريعية ومن ثم يكون قرار التغيير قراراً استراتيجياً فاصلاً فى الحياة السياسية الإيرانية، أم ستأتى بنتائج عكسية تجعل نتائج الانتخابات التشريعية مجرد كبوة لمشروع الإصلاح السياسى الذى خاضه الرئيس محمد خاتمى متزعماً تيار الثانى من خرداد الذى يضم كل ألوان الطيف السياسى الإصلاحى وفى قلبه جبهة المشاركة بزعامة شقيقه رضا خاتمى ومجمع روحانيون مبارز بزعامة صديقه الشيخ مهدى كروبى.

هذا السؤال الرئيسى الخاص بتوصيف العلاقة بين الانتخابات التشريعية (٢٠٠٤) والانتخابات الرئاسية (٢٠٠٥) ليس إلا مقدمة للسؤال المحورى الخاص بمستقبل الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

فنظام الجمهورية الإسلامية الحاكم فى إيران منذ عام ١٩٧٩ سواء بسبب خصوصيته الإسلامية أو بسبب علاقة «العداوة» المتأصلة مع الولايات المتحدة الأمريكية والدولة الصهيونية ينظر إليه أمريكياً على أنه نظام خارج عن السياق. وإذا كان الإمام الخمينى قد أخذ السبق فى وصف الولايات المتحدة الأمريكية بأنها الشيطان الأكبر فإن الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش وضع الجمهورية الإسلامية الإيرانية فى محور الشر بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ مع كل من العراق وكوريا الشمالية.

وبسبب هذا التوصيف الأمريكى وبسبب حالة العداء المستمرة والمتصاعدة بين الولايات المتحدة الأمريكية والجمهورية الإسلامية الإيرانية ظل سؤال: إلى متى سوف تستمر هذه الجمهورية الإسلامية أو ما هو مستقبل نظام الجمهورية الإسلامية هاجساً مستمراً وبالذات فى كل مرة تجرى فيها انتخابات سواء كانت تشريعية أو رئاسية، نظراً لأن هذه الانتخابات تعتبر مؤشراً مهماً لقياس مدى شرعية النظام الحاكم فى طهران، ولعل هذا ما دفع السيد على خامنئى المرشد الأعلى للجمهورية (الولى الفقيه) إلى اعتبار التصويت فى الانتخابات تكليفاً شرعياً.

لقد كانت المراهنة هذه المرة فى الانتخابات الرئاسية مراهنة مزدوجة: مراهنة على شرعية النظام وشعبيته من خلال قياس نسبة التصويت. ومراهنة على الخيار السياسى للإيرانيين: هل مع تيار الإصلاحيين الذين يوجد بينهم من هو حريص على إنهاء الخلافات مع الولايات المتحدة الأمريكية، أم مع تيار المحافظين الأشد عداوة للولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل.

ولقد حسمت انتخابات الرئاسة الرهانين فى اتجاه معاكس لكل تمنيات أعداء الجمهورية الإسلامية. فقد تجاوز معدل التصويت فى جولتى انتخابات الرئاسة نسبة الـ ٦٠٪ وهو ما لم يحدث فى كثير من الديمقراطيات الغربية وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية. واختار الإيرانيون محمود أحمدى نجاد المنتمى إلى تيار الأصوليين المحافظين فى رد حاسم لحقيقة الخيار الإيرانى. فقد حصل أحمدى نجاد على ما يوازى ٦١.٧٪ مقابل ٣٥.٩٪ حصل عليها على أكبر هاشمى رفسنجانى فى انتخابات شارك فيها ٦٠٪ من الناخبين الإيرانيين.

خريطة القوى السياسية

وأسباب فوز أحمدى نجاد

هذه النتيجة جاءت متوافقة مع نتائج الانتخابات التشريعية الإيرانية التى أجريت فى العام الماضى. وهذا معناه تكريس نتائج تلك الانتخابات التشريعية وبالذات فيما يتعلق بخريطة القوى والأحزاب السياسية الإيرانية. تجاهل تلك الخريطة السياسية الجديدة كان سبباً رئيسياً للإخفاق فى توقع نتائج الانتخابات الرئاسية، فدراسة الخريطة الجديدة للأحزاب داخل مجلس الشورى الإسلامى السابع، والتدقيق فى إدارة كل من التيارين المتصارعين: تيار الإصلاحيين وتيار المحافظين للعملية الانتخابية تكشف عن ثلاث حقائق مهمة:

الحقيقة الأولى: أن الصراع العنيف الذى شهدته هذه الانتخابات لم يكن مجرد صراع على السلطة كما صورت بعض الكتابات. لكنه كان صراعاً حقيقياً حول مستقبل إيران وبتحديد أكثر مستقبل الجمهورية الإسلامية بسبب عمق القضايا الخلافية التى أثيرت خلال المعركة الانتخابية، وبسبب تداعيات هذه المعركة على تماسك التيارين الرئيسيين المتصارعين. وظهور استقلالية فى الحركة نابعة من استقلالية فى الرؤى والمفاهيم لبعض الأحزاب المكونة لهذين التيارين.

الحقيقة الثانية: أن نتيجة الانتخابات التى أسفرت عن فوز ساحق للمحافظين لم ترجع فقط إلى عملية الإقصاء التى لجأ إليها مجلس صيانة الدستور، المخول بالإشراف على العمليات الانتخابية، ضد رموز التيار الإصلاحى، ولكن ترجع أيضاً إلى سلبيات مهمة فى صفوف الإصلاحيين وقدرات جديدة فى صفوف المحافظين أكدتها تطورات العملية الانتخابية ونتائجها.

لقد أثبتت إحصائيات استبعاد المرشحين من جانب مجلس صيانة الدستور أن هذا الاستبعاد أو الإقصاء لم يقتصر على الإصلاحيين لكنه شمل أيضاً المحافظين والمستقلين. فإذا كانت نسبة الإصلاحيين





نجح المحافظون فى تحميل الإصلاحيين مسئولية تردى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية رغم أنهم شركاء فى المسئولية، وركزوا على الوسائل التى تقلل من دعم الناخبين للإصلاحيين



المستبعدين هى ٣٤٪، فإن نسبة المحافظين المستبعدين وصلت إلى ٢٩٪، فى حين وصلت نسبة المستبعدين من المستقلين إلى ٣٧٪.

لقد نجح المحافظون فى تحميل الإصلاحيين مسئولية تردى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية رغم أنهم شركاء فى المسئولية، وركزوا على الوسائل التى تقلل من دعم الناخبين للإصلاحيين، وإن كان ذلك قد طغى على اهتمام المحافظين بزيادة شعبيتهم، كما اهتموا بتخفيض معدل المشاركة فى الانتخابات لزيادة فرص حصولهم على الأغلبية البرلمانية وهذا ما حدث بالفعل.

الحقيقة الثالثة والأهم: أن الخريطة السياسية الآن فى أعقاب انتخابات مجلس الشورى الإسلامى السابع هى خريطة جديدة أبرز معالمها هى ظهور تعددية سياسية حقيقية على حساب القطبية الثنائية للقوى السياسية الإيرانية التى فرضت نفسها خلال السنوات العشر الماضية بصفة خاصة وبالذات ابتداءً من عام فوز تيار الثانى من خرداد بانتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٩٩٧ التى فاز فيها الدكتور محمد خاتمى على منافسه المحافظ العتيد على أكبر ناطق نورى، لقد انفرط عقد الإصلاحيين كما انفرط عقد المحافظين إلى أحزاب وقوى سياسية لها رؤاها وبرامجها المميزة، ولم يعد ممكناً الاستمرار فى الحديث عن ذلك الاستقطاب السياسى التقليدى فى المجتمع الإيرانى إلى إصلاحيين ومحافظين. لقد حدث فرز حقيقى ليس فقط بين الإصلاحيين والمحافظين، ولكن الفرز الأهم حدث فى صفوف الإصلاحيين كما حدث فى صفوف المحافظين.

لقد كانت معركة الاستبعاد والإقصاء عن الترشيح لانتخابات مجلس الشورى السابع أحد أهم عوامل إحداث الفرز فى صفوف الإصلاحيين بعد أن انقسموا فيما بينهم إلى مؤيدين للمشاركة فى العملية الانتخابية بعد استبعاد أغلب رموزهم، وبين رافضين لهذه المشاركة بسبب هذا الإبعاد، كما كانت عملية تشكيل الائتلافات الانتخابية فى صفوف المحافظين مدخلاً مهماً للفرز فى صفوف المحافظين إلى محافظين تقليديين تم تنحيتهم عن عضوية أهم ائتلاف انتخابى محافظ وإلى محافظين أصوليين (التعميريون) خاضوا الانتخابات ضمن قائمة «ائتلاف أنصار تعمير إيران الإسلامية» وحققوا من خلاله الأغلبية داخل مجلس الشورى الإسلامى السابع.



لقد انقسم الإصلاحيون فيما بينهم حول قرار المشاركة فى الانتخابات، وكان هذا الانقسام بين مؤيدين ومعارضين يعكس فرزاً حقيقياً فى الموقف من النظام الإسلامى والقضايا الخلافية الأساسية مع تيار المحافظين، وظهر واضحاً أن تيار الثانى من خرداد قد انقسم فعلاً إلى إصلاحيين راديكاليين لهم موقف منحاز من مسألة الحاكمية رافض بشدة لحاكمية ولاية الفقيه ومؤيد بقوة للحاكمية الشعبية، أى أنه مع الانحياز المطلق للجمهورية على حساب الإسلامية، وإلى إصلاحيين معتدلين لهم موقف متوازن ومنحاز للجمهورية وللإسلامية، هؤلاء قادوا دعوة المشاركة فى الانتخابات وتزعم هذه الدعوة مجمع روحانيون مبارز (رجال الدين المناضلين) فى حين رفض الآخرون المشاركة فى الانتخابات وتزعم جبهة الرفض كل من جبهة المشاركة ومنظمة مجاهدى الثورة الإسلامية، وهما معاً من أنصار الانحياز للجمهورية على حساب الإسلامية، لكن كان معهم طرف ثالث رافض كلية لإسلامية النظام هم القوميون العلمانيون، وكان هؤلاء أكثر تشدداً فى رفض المشاركة فى الانتخابات.

وهكذا ظهر واضحاً انقسام الإصلاحيين إلى ثلاثة قوى مميزة فى موقفها من نظام الجمهورية الإسلامية الذى يقوم على دعامتى «الجمهورية» و«الإسلامية»، القوة الأولى هم مجمع روحانيون مبارز الذين انحازوا إلى موقف متوازن بين جمهورية النظام وإسلاميته، يتزعمهم مهدى كروبى رئيس مجلس الشورى الإسلامى السادس، وهم المعبرون عن «التيار الخاتمى» المؤمن بالديمقراطية الدينية. والقوة الثانية منحازة إلى الجمهورية على حساب الإسلامية، هم غير رافضين للإسلامية لكنهم مع فصل الدين عن السياسة وهؤلاء عبر عنهم جبهة المشاركة بزعامة رضا خاتمى ومنظمة مجاهدى الثورة الإسلامية. أما القوة الثالثة فهى رافضة وبوضوح شديد لـ «إسلامية» النظام وهم الذين حذر منهم الرئيس خاتمى، وهم القوميون العلمانيون واليساريون المتطرفون.

لقد انشغل الإصلاحيون بانقساماتهم، كما انشغلوا بإقصائهم، ولم تفلح الجهود التى بذلها الرئيس خاتمى ومهدى كروبى للوصول إلى توافق فى الآراء بين منظمات تيار الثانى من خرداد، الأمر الذى دفع مجمع روحانيون مبارز فى النهاية إلى تزعم تشكيل ائتلاف انتخابى «الائتلاف من أجل إيران» قاطعته جبهة المشاركة، ومنظمات أخرى وشارك فيه إلى جانب مجمع روحانيون مبارز سبعة تنظيمات هى: مجمع قوى خط الإمام، وحزب كوادر البناء، وحزب العمل الإسلامى، وحزب التضامن، ومجمع السيدات الإسلامى، وجمعية المهندسين الإسلامية، وبيت العامل. أما منظمة مجاهدى الثورة الإسلامية فلم تقاطع الانتخابات رسمياً ولم تشارك فى أى ائتلاف انتخابى لكنها فضلت أن يدخل أنصارها الانتخابات كمستقلين معتمدين على قدراتهم الذاتية وانتماءاتهم القبلية والعشائرية والجهوية.

وسط هذا الانقسام فى صفوف الإصلاحيين كان المحافظون يخوضون المعركة الانتخابية بثقة بالغة من خلال «مجلس تنسيق قوى الثورة»، واستفادوا من الظروف التى ألمت بمنافسيهم أقصى استفادة، لأنهم حددوا قائمتهم الانتخابية وفق النموذج الذى دخلوا به انتخابات المحليات، وأخذوا يركزون على الدوائر الانتخابية. لقد كانوا متيقنين من نجاحهم والحصول على عدد من المقاعد يقترب من حد الأغلبية المطلقة لدرجة أن تصريحات خرجت على ألسنة بعضهم تؤكد ذلك وتصر على أن الأمر محسوم من البداية بالاستفادة من تجربة انتخابات المحليات الماضية، لأن المحافظين استطاعوا فى تلك الانتخابات تعبئة الأصوات المؤيدة لهم بشكل تقليدى، فى ظل سكوت أو عزوف وتراجع أصوات الأغلبية التى فقدت حماسها للإصلاحيين، وحققوا بهذه الخطة نجاحاً ملموساً حرصوا على تكراره فى انتخابات مجلس الشورى السابع، وهذا ما حدث بالفعل، فالذين ذهبوا لصناديق الاقتراع كانوا الأكثر انحيازاً للمحافظين، فى حين أن أبرز الذين عزفوا عن المشاركة فى التصويت كانوا الأكثر إحباطاً من سياسات الإصلاحيين. والملفت للانتباه أن الإصلاحيين عزفوا على أنغام المحافظين عندما حولوا رفضهم المشاركة فى الانتخابات (وبالذات جبهة المشاركة) إلى الدعوة لمقاطعتها، فهذه الدعوة بقدر ما أبعدت أنصار الإصلاحيين عن التصويت بقدر ما أعطت أنصار المحافظين الفرصة السانحة لدعم من يؤيدونهم ومنحوهم الأغلبية داخل مجلس الشورى.

وجاءت نتيجة الانتخابات لتؤكد فشل الإصلاحيين أكثر مما أكدت فوز المحافظين، لقد كان نجاح المحافظين هو الوجه الآخر لفشل الإصلاحيين. فقد حصل المحافظون فى هذه الانتخابات على أكثر من ثلثى مقاعد مجلس الشورى السابع، فمن إجمالى ٢٢٩ نائباً فازوا فى الجولة الأولى التى أجريت فى ٢٠ فبراير ٢٠٠٤، فاز المحافظون بـ ١٥٥ مقعداً، وفى جولة الانتخابات التكميلية التى أجريت فى مايو ٢٠٠٤ حصل المحافظون على ٤٠ مقعداً من الـ ٥٧ مقعداً التى جرى التنافس عليها، وبذلك يكون إجمالى عدد مقاعد المحافظين هو ١٩٥ مقعداً بما يحقق لهم الأغلبية داخل المجلس.

وبهذه النتيجة أصبح المجلس يتكون من ثلاثة قوى مميزة هى:

أولاً: المحافظون الأصوليون (التعميريون) الذين يشكلون أغلبية المجلس ليس فقط على حساب خصومهم من الإصلاحيين ولكن أيضاً على حساب منافسيهم من المحافظين التقليديين الذين تم تنحيتهم عن المشاركة فى «ائتلاف التعميريين» الذى خاض الانتخابات. وثانياً: الإصلاحيون المعتدلون الذين خاضوا الانتخابات من خلال «الائتلاف من أجل إيران» الذى قاده مجمع روحانيون مبارز بزعامة مهدى كروبى. وثالثاً: المستقلون الذين انخرطوا تحت لافتة «الائتلاف الإيرانى المستقل لكوادر الخدمة» ويقوده محسن رضائى القائد السابق لجيش حراس الثورة والأمين الحالى لمجمع تشخيص مصلحة النظام، وهو خليط من محافظين وإصلاحيين سابقين، من أبرزهم حجة الإسلام طه هاشمى ممثل الولى الفقيه فى حوزة قم وصاحب امتياز صحيفة «انتخاب».

هذه القوى الثلاث هى التى فرضت نفسها بقوة على الخريطة السياسية وبالذات داخل مجلس الشورى فى حين بقى أغلب الإصلاحيين خارج المجلس وكان من المفترض أن تكون هزيمتهم فى الانتخابات التشريعية والدروس المستفادة من تلك الهزيمة دافعاً للمراجعة والتحليل فى أسباب تلك الهزيمة سواء على مستوى المفهوم النظرى لقضية الإصلاح ومدلولاتها أو على مستوى العلاقة بالقوى الشعبية. وكان من المفترض أيضاً أن تكون الانتخابات الرئاسية فرصة لاسترداد المكانة والاعتبار للمشروع الإصلاحى نفسه، لكن يبدو أن هزيمتهم فى الانتخابات التشريعية كانت تعبيراً عن أزمة بنيوية حقيقية على مستوى الفكر والحركة بدليل عجزهم عن طرح مرشح إصلاحى خليفة للرئيس

خاتمى يكون فى مقدوره الفوز بانتخابات الرئاسة.

لقد ساهم هذا العجز إلى التوجه نحو رئيس الوزراء السابق المهندس مير حسين موسوى لخوض معركة انتخابات الرئاسة باسم الإصلاحيين. كان هذا التوجه إعلاناً صريحاً لعجز مزدوج: عجز المشروع الإصلاحى وعجز التيار الإصلاحى بدليل الركون إلى الرصيد التاريخى لنجاحات سبق أن حققها مير حسين موسوى وسمعة اكتسبها الرجل بأداء شخصى مميز للفوز بانتخابات الرئاسة باسم الإصلاحيين. وبعد اعتذار مير حسين موسوى عن خوض انتخابات الرئاسة لأسباب لم تعرف أغلبها وجد الإصلاحيون أنفسهم فى موقف العاجز عن خوض انتخابات الرئاسة، وجاء الاتجاه نحو اختيار الدكتور مصطفى معين مرشحاً باسم جبهة المشاركة بمثابة محاولة لإثبات وجود ليست له فعالية حقيقية فى المعركة الانتخابية التى باتت نتائجها شبه متوقعة فى غير صالح تيار الإصلاحيين.



أما على أكبر هاشمى رفسنجانى الذى لم يراهن على قوة سياسية بقدر ما راهن على نفسه وتاريخه فإنه، ومنذ البداية، بدا وكأنه مقدم على «مقامرة» تاريخية أكثر منها مغامرة إذا أخذنا فى الاعتبار نتائج تجربة مريرة عاشها رفسنجانى عقب فوزه الهزيل فى الانتخابات التشريعية لمجلس الشورى السادس عام ٢٠٠٠ عندما جاء فى ذيل قائمة الفائزين عن دائرة طهران (رقم ٢٩ من إجمالى ٣٠ نائباً عن طهران). ذلك الفوز الهزيل دفع رفسنجانى إلى الاعتذار والاستقالة من منصبه فى مجلس الشورى السادس وتركيز دوره داخل مجمع تشخيص مصلحة النظام الذى مارس من خلاله دوره الوطنى باعتباره الرجل الثانى فى النظام بعد المرشد الأعلى للجمهورية (الولى الفقيه) السيد على خامنئى بدلاً من أن يكون رئيس الجمهورية السيد محمد خاتمى هو الرجل الثانى.

دخل رفسنجانى انتخابات الرئاسة دون اعتماد على قوة سياسية مميزة داخل النظام السياسى، فقد طرح نفسه باعتباره ممثلاً لتيار الوسط السياسى بين المحافظين والإصلاحيين لكن هذا التيار ليس له كيان تنظيمى - حركى يعبر عنه فى الشارع، لكنه فى الحقيقة كان يعتمد على قوة البازار من ناحية وعلى تمثيله لآمال وطموحات جيل جديد من الشباب تواق إلى الحرية الاجتماعية أكثر من حرصه على الحرية السياسية رافعاً شعار الحداثة فى مواجهة التقليد، وساقه هذا الشعار إلى التعويل أكثر مما يجب على مخاطبة من هم فى الخارج أكثر من اعتماده على من هم فى الداخل من القوى السياسية والاجتماعية، فقد فاجأ رفسنجانى أنصاره قبل منافسيه بمظهره المتحرر نسبياً والقضايا التى أعطاها الأولوية فى حملته الانتخابية، فقد تحدث صراحة عن العلاقة بين الجنسين ودعم مطالب الشباب فى مزيد من الحريات الشخصية والاجتماعية وقال إنه «من أجل تلبية المطالب المشروعة للجيل الجديد يتحتم إيجاد حلول جديدة». ومن مقولاته أيضاً: «لا يمكن لأحد أن يصدق أن يكون لنا الأدب نفسه والسياسات نفسها والسلوك نفسه كما فى بداية الثورة». وفى الوقت نفسه أكد رفسنجانى على أن إيران بحاجة إلى «شكل جديد من التفاعل مع العالم»، وطرح بوضوح قضية العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية وأكد رغبته فى تسوية هذه القضية.

كان رفسنجانى مندفعاً بشكل أثار تخوف كثير من الإيرانيين، فقد تحدث للغرب باندفاع سواء فى حديثه مع مجلة TIME أو شبكة C.N.N ، وفى لقاء مع بعض الطالبات تحدثت طالبة وقالت: «نريد حرية اجتماعية ونريد علاقات مع أمريكا»، فكان رده: «كل هذا سينتهى قريباً» (!!).

رفسنجانى فعل هذا فى وقت شديد الحرج بالنسبة للعلاقات الإيرانية - الأمريكية حيث تشن الولايات المتحدة الأمريكية ما يمكن وصفه بـ «حرب إبادة» ضد المشروع النووى الإيرانى، وتتدخل بعنف فى الشئون الداخلية الإيرانية وتعلن انحيازها صراحة إلى جانب من تسميهم بـ «أحرار إيران»، وتصف انتخاباتهم، قبل أن تحدث، بأنها انتخابات مزورة وزائفة اعتماداً على قيام مجلس صيانة الدستور، المخول بالإشراف على العمليات الانتخابية، بمراجعة كشوف المرشحين واستبعاد كل من لا تنطبق عليه الشروط المحددة للترشيح، ووصفت هذه العملية بأنها إقصاء لكل المعارضين المؤيدين للحرية فى إيران.

لم يقع رفسنجانى فى هذا الخطأ فقط الذى أظهر فيه أولوية للاعتبارات الخارجية، لكنه تجاوز الحدود كثيراً فى التعامل مع الاعتبارات الداخلية. ففى رسالته للشعب الإيرانى التى شرح فيها أسباب قبوله الترشيح للانتخابات الرئاسية وقع فى ثلاثة أخطاء فادحة: الأول، عندما تجاهل الإشارة إلى موضوعات أو مصطلحات رمزية مهمة هى: الإمام الخمينى، ولاية الفقيه، ومرشد الجمهورية السيد على خامنئى، فى حين تعمد الحديث عن أهمية المشاركة الشعبية لدعم النظام السياسى الإسلامى بما يفهم منه أنها مرجعية بديلة لـ «الولى الفقيه». والثانى، عندما تعامل مع رئاسة الجمهورية باعتبارها «إرثاً شخصياً»، فعندما تحدث عن الرئاسة قال: «الآن وقد مرت ثمانى سنوات على إيداعى المسئولية التنفيذية بقلب مطمئن وخاطر هادئ بشأن ما كان قد تم فى مسيرة التنمية والاعتدال حيث أودعت هذه المسئولية إلى من انتخبتموه (فى إشارة إلى الرئيس محمد خاتمى)، لم يكن فى خلدى مطلقاً أن تصير الظروف إلى ما آلت إليه، وأن أصبح فى موضع امتحان». أراد رفسنجانى أن يؤكد أنه جاء رغم أنفه وجاء مضطراً ليجدد عهده برئاسة الجمهورية، ولمزيد من التوضيح ربط قبوله بالترشيح بـ «عدم اتفاق الجميع سواء من اليمين أو من اليسار أو من المستقلين على مرشح واحد». رفسنجانى يطرح هذا الشرط وكأن اتفاق اليمين واليسار والوسط فى المجتمع الإيرانى بكل عنفوانه السياسى أمر بديهى، وعدم حدوث هذا الاتفاق بين الجميع يراه دعوة شعبية له لخوض التجربة. أما الخطأ الثالث، فهو تشبيهه هذه التجربة بـ «تجرع الدواء المُر»، فقد عبر عن صعوبة الموقف بالنسبة له بقوله: «أعتقد أنه يجب أن أتناول الدواء المُر للترشيح»، قال هذا فى حين أن الواقع يفرض أن تكون خدمة الشعب ورعاية شئونه، كما يقول على رضا ملكيان (كيهان ٢٠٠٥/٥/٢) «ليس لها مرارة ولا تسبب أى ألم».

فى ظل هذا المناخ: ضعف الإصلاحيين وعجزهم عن تسمية مرشح قوى وانقسامهم فيما بعد بين ثلاثة مرشحين هم: مصطفى معين ومهدى كروبى ومحسن مهر على زاده، وتهافت رفسنجانى على الرئاسة وعجزه عن تقديم مبررات مقنعة للترشيح بل وتجاوزه لحقوق الجيل الثانى من قادة الجمهورية الإسلامية فى خوض تجربة الرئاسة فيما يمثل اتهاماً للجمهورية الإسلامية بـ «العقم» والعجز عن إفراز القيادات البديلة، وفى ظل غياب القضايا الشعبية الحقيقية عن أجندة المرشحين الإصلاحيين ومرشح الوسط «الافتراضى» هاشمى رفسنجانى فرض الدكتور محمود أحمدى نجاد نفسه كمرشح شعبى قبل أن يكون مرشح الأغلبية داخل البرلمان (مجلس الشورى) والقوة السياسية الفاعلة داخل المجتمع الإيرانى فى هذا الوقت بالذات.

فإذا كان رفسنجانى قد خاطب الخارج ليكسب الداخل فإن أحمدى نجاد فعل العكس استقوى بالداخل لمواجهة تحديات الخارج، وتحدث بلغة صارمة عن العلاقة مع الولايات المتحدة الأمريكية أظهر فيها عزماً على عدم التفريط فى الاستقلال والإرادة الوطنية من خلال تأكيد التمسك بحق إيران فى امتلاك قدرات نووية سلمية، وعندما خاطب الداخل فإنه خاطب الفقراء ووعدهم بأن يعمل من أجلهم وقال: «إن هدفنا الرئيسى اليوم هو إقامة أمة إسلامية نموذجية متقدمة وقوية».

وعقب الإعلان عن فوزه وجه خطاباً مهماً للأمة الإيرانية قال فيه: «بفضل الله العظيم وعنايته سأتمسك بما قلت وبما وعدت به الأمة الإيرانية المجيدة وسيكون الشعار الأساسى هو نشر العدالة ومكافحة الفقر والفساد والتمييز. ومع دعم ومساندة الأمة سأبذل قصارى جهدى فى تحقيق قيمة العدالة». ومما قاله أيضاً ضمن هذا السياق: «أعلن وبكل فخر أننى خادم جموع الأمة الإيرانية، وأن حكومتى ستكون حكومة المحبة والرحمة والخدمة والحفاظ على الكرامة الإنسانية وحماية الحقوق المدنية وكل الأشخاص الذين يفتخرون باللقب المقدس» إيرانيون».

مرشح يقول عقب فوزه أنه فخور بأنه «خادم جموع أمته» تصعب مقارنته بمرشح آخر اعتبر أن قراره بخوض تجربة الانتخابات الرئاسية وتحمله لمثل هذه المسئولية بمثابة «تجرع للدواء المُر» (!!).

محمود أحمدى نجاد تفرد عن كل منافسيه برهاناته السديدة التى انعكست بوضوح شديد على حملته الانتخابية. فقد تشابهت البرامج الدعائية لجميع المرشحين لدرجة بات من الصعب التمييز بين برنامج مرشح من التيار المحافظ وآخر من التيار الإصلاحى فيما عدا مرشح واحد هو محمود أحمدى نجاد رئيس بلدية طهران. فالجميع تحدثوا فى برامجهم عن الحريات السياسية والاجتماعية واهتموا بمطالب النساء والشباب، ونبذ التوتر على صعيد السياسة الخارجية وخاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية، واستخدموا فى حملاتهم الدعائية الألحان الثورية أو الأغانى الشبابية الحديثة، كما استخدموا السيارات لحمل اللافتات، ووظفوا مجموعات من الفتيات والشباب ممن يرتدون الملابس المتحررة حتى





كانت معركة الاستبعاد والإقصاء عن الترشيح لانتخابات مجلس الشورى أحد أهم عوامل إحداث الفرز فى صفوف الإصلاحيين بعد أن انقسموا فيما بينهم إلى مؤيدين للمشاركة بعد استبعاد أغلب رموزهم، وبين رافضين لها





كـــان المحافظـــون يخوضون المعركة الانتخابية بثقة بالغة، واستفادوا من الظروف التى ألمت بمنافسيهم أقصى استفادة، لأنهم حددوا قائمتهم الانتخابية وفق النموذج الذى دخلوا بـه انتخابـــــات المحليـــــات

أن بعض المرشحين من رجال الدين خلعوا عماماتهم أثناء التقاط صور لهم.

كانت أغلب شعارات الحملات الانتخابية للمرشحين سياسية - ثقافية ركزت على مخاطبة النخب المثقفة دون قدرة على مخاطبة الكتلة الانتخابية الهائلة الراكدة العازفة عن المشاركة فى انتخابات تجدها غريبة عنها، لكن محمود أحمدى نجاد استطاع وحده أن يستفز صمت هذه الجماهير ويخرجها من عزلتها لتصوت له لأنه كان مختلفاً عن كل هؤلاء عندما نزل إلى الفقراء ووعدهم بالدفاع عن حقوقهم وحول المعركة الانتخابية إلى معركة داخلية بين الغنى والفقر، ومعركة خارجية بين الاستقلال والعزة القومية لبلاده فى مواجهة الاستكبار الأمريكى، واستطاع بذلك أن يقلب موازين القوى لصالحه مسنوداً بقوة سياسية - اجتماعية استطاعت أن تفرض نفسها فى انتخابات مجلس الشورى السابع (فبراير - مايو ٢٠٠٤) عندما فاز الأصوليون (المحافظون الجدد أو التعميريون) بأغلبية المجلس وفاز هو وزملاؤه بـ ٢٩ مقعداً من بين ٣٠ مقعداً عن دائرة طهران.

مشروع أحمدى نجاد وتحدياته

كشفت معركة انتخابات رئاسة الجمهورية أن المحافظين، وبالذات الأصوليين منهم الذين يسيطرون الآن على مجلس الشورى (البرلمان) فى دورته السابعة، كانوا هم الأجدر على خوض تلك المعركة، وأن أى حديث عن مشروع الحكم الجديد برئاسة محمود أحمدى نجاد لابد أن يأخذ فى اعتباره عاملين رئيسيين:

العامل الموضوعى المتعلق بانعكاسات فوز الأصوليين فى انتخابات الرئاسة ومن قبلها فى مجلس الشورى على خريطة توزيع القوة السياسية فى الجمهورية الإسلامية الإيرانية وبالذات ما يتعلق بدلالات فوز أحمدى نجاد بالنسبة لتوزيع هذه القوة بين التيارات والقوى السياسية الإيرانية من ناحية وبين مؤسسات الحكم من ناحية ثانية.

والعامل الذاتى المتعلق بشخص الرئيس أحمدى نجاد وثقافته ومشروعه الخاص فى الحكم الذى خاض الانتخابات الرئاسية وفقاً له.

١. العامل الموضوعى

بفوز محمود أحمدى نجاد برئاسة الجمهورية يكون التيار الأصولى (المحافظون الجدد أو التعميريون) قد أحكم سيطرته على أهم مؤسسات الحكم المنتخبة وبالذات السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية ويكون قد انتهى بذلك عهد الانقسام الحاد فى السلطة بين مؤسسات منتخبة يسيطر عليها الإصلاحيون ومؤسسات غير منتخبة جماهيرياً وبشكل مباشر (القضاء ومجلس صيانة الدستور ومجمع تشخيص مصلحة النظام والزعيم) يسيطر عليها المحافظون على نحو ما كان خلال السنوات الأربع الأخيرة من حكم الرئيس محمد خاتمى، هذا يعنى العديد من النتائج أهمها وجود درجة عالية من التجانس بين مؤسسات الحكم، ومن ثم وجود درجة عالية من وحدة القرار السياسى، كما يعنى انتهاء عهد التنازع بين شخص الرئيس ومعه مؤسسات الحكم المنتخبة وبين المرشد الأعلى للجمهورية السيد على خامنئى. فقد ظل الرئيس خاتمى طيلة سنوات رئاسته يعانى من جور مؤسسة الزعامة على مؤسسة الرئاسة، لدرجة أنه وفى أحد الاجتماعات العامة اضطر للبكاء أمام الجماهير تعبيراً عن عجزه عن القيام بأداء مهامه وتنفيذ الدستور، كما اضطر إلى تقديم مشروع قانون يقضى بتوسيع سلطات رئيس الجمهورية كى يستطيع القيام بمهامه الدستورية، لكن هذا المشروع رفضه مجلس صيانة الدستور، وظل الرئيس خاتمى عاجزاً طيلة سنوات حكمه عن أن يكون الرجل الثانى فى الدولة بعد الزعيم مباشرة، فقد حل مكانه من الناحية الفعلية على أكبر هاشمى رفسنجانى رئيس مجمع تشخيص مصلحة النظام الذى استطاع أن يوظف مكانته الشخصية والتاريخية فى النظام لصالح هذا الجهاز، وأن يعيد توظيف مكانة هذا الجهاز لصالحه الشخصى بحيث أصبح الرجل الثانى فى الدولة من الناحية الفعلية على حساب رئيس الجمهورية.

المتوقع الآن أن يتمكن الرئيس الجديد محمود أحمدى نجاد من أن يستعيد لمنصب رئيس الجمهورية مكانته بحكم الثقة العالية جداً بينه وبين شخص المرشد الأعلى السيد على خامنئى الذى يعد من أقرب المقربين إليه من ناحية، وبحكم الانعكاسات السلبية لفشل رفسنجانى فى انتخابات رئاسة الجمهورية على شخصه وعلى الجهاز الذى يترأسه.

ففى ظل الثقة العالية من جانب المرشد السيد على خامنئى فى شخص الرئيس أحمدى نجاد وبحكم الرابطة الروحية بينهما، حيث يجد المرشد نفسه فى شخص أحمدى نجاد، ستنشأ حالة جديدة فى الحكم أهم معالمها وجود درجة عالية من التوحد بين الزعيم السيد على خامنئى وسلطات الحكم فى الدولة وبالذات شخص غلام على حداد عادل رئيس مجلس الشورى (صهر خامنئى) وأحمدى نجاد رئيس الجمهورية، فالرجلان من أعمدة تيار الأصوليين الذين لهم الغلبة الآن فى النظام.

هناك نتيجة أخرى لها أهميتها لفوز أحمدى نجاد بالرئاسة على نظام الحكم فى الجمهورية الإسلامية هى تراجع دور رجال الدين فى مؤسسات الحكم. فبعد أن كان رئيس مجلس الشورى ورئيس الجمهورية من رجال الدين وأصحاب العمائم حدث تغيير جذرى فى شخص غلام على حداد عادل وشخص محمود أحمدى نجاد، لكن الملاحظة المهمة هنا هى أن التحول من رجال الدين لم يتم لصالح المدنيين مائة فى المائة بل لصالح العسكريين حيث يلاحظ أن عدداً كبيراً من قادة الحرس الثورى باتوا من أعمدة السلطة المدنية، بما يوحى بـ «عسكرة النظام» كبديل لخضوعه لرجال الدين، وهذا يعنى أن النظام بات فى قبضة قوية محكمة، ولعل فى هذا ما يعتبر متغيراً مهماً بالنسبة للسؤال المحورى الخاص بمستقبل نظام الجمهورية الإسلامية، حيث أضحى النظام فى قبضة قوية، لكن هذه القبضة القوية لن تكون قادرة على تحقيق استقرار حقيقى دون نجاحات اقتصادية واجتماعية وسياسية ودون قدرة على إدارة الصراعات مع القوى الإقليمية والدولية.

بهذا المعنى نستطيع أن نقول أن فوز محمود أحمدى نجاد برئاسة الجمهورية لن يعفى تيار المحافظين الجدد الذين ينتمى إليهم من وضع أسس مشروع إصلاحى جديد أقرب إلى المفاهيم التى يتبنونها.

هذا المشروع سيأخذ فى اعتباره حتماً مجموعة من المحددات الموضوعية أهمها:

أ- أن وجودهم (الأصوليين) كتيار سياسى وكقوة اجتماعية وسياسية مرتبط بكيان الجمهورية الإسلامية، ومن ثم سيكون الحفاظ على هذا الكيان محدد محورى فى التعاطى مع قضية الإصلاحات، وبالتحديد ذلك الإصلاح الذى يؤدى إلى تفعيل أداء النظام من ناحية والحفاظ عليه من ناحية ثانية وبالذات دعامتيه: الجمهورية والإسلامية.

ب - أن المجتمع العالمى يسئ الظن بهم إلى أبعد حد، وأن إيران سوف تكون معرضة لمزيد من الضغوط فى ظل هيمنتهم على السلطة السياسية، لذلك فإنهم مدركون لضرورة تحسين صورة الحكم فى إيران لاستعادة الثقة مع المجتمع العالمى.

جـ - أن المطالب المتزايدة للأجيال الجديدة فى ظل افتقاد النظام القدرة على التكيف مع هذه المطالب وليس مواجهتها تمثل خطراً على مستقبل النظام واستمراره، ولذلك فإنهم سيكونون مدفوعين إلى إكساب النظام القدرة على استيعاب المطالب والتوجهات السياسية والثقافية والاجتماعية لتلك الأجيال الجديدة وإلا زادت فجوة انعدام الثقة بينه وبين القطاعات الأوسع من الشعب.

د - الوعى بأن مشكلتهم الراهنة وهم على رأس السلطة هى نفسها المشكلة التى واجهت الإصلاحيين وهى المواجهة مع مجتمع له طبقاته ومطالبه المتعددة والمتباينة فى كثير من الأحيان، وأن العجز عن الاستجابة لهذه المطالب يزيد من مشاعر الاستياء الشعبية من النظام، ويدفع المجتمع إلى مزيد من التحول نحو الراديكالية فى التعامل مع النظام، كما قد يدفعه إلى ما هو أخطر أى اليأس والانصراف نهائياً عن التعامل مع النظام، أى أنهم، فى حالة الفشل فى التجاوب مع المطالب الشعبية، سيواجهون بخيارين أحلاهما مر، خيار الردود العنيفة والراديكالية من جانب قوى سياسية واجتماعية ضد النظام، وخيار التهميش الاختيارى والانصراف عن المشاركة السياسية، بما يعنى العزل الكامل للنظام عن جماهيره وتعميق فجوة الثقة بين الطرفين.

هـ - أن جماعات المعارضة المقيمة فى الخارج، والتيارات السياسية المتشددة فى الداخل (اتساع نفوذ وقوة التيار الرافض للنظام بتحول جماعات كثيرة من المنتمين إلى جبهة المشاركة إلى مجموعات الليبراليين القوميين الرافضين للديمقراطية الدينية والمطالبين بنظام علمانى بعد الأزمة الانتخابية الأخيرة لمجلس الشورى السابع)، هؤلاء يتحينون الفرص للانقضاض على النظام، وفشل النظام فى الاستجابة للمطالب الشعبية فى الإصلاح سيزيد من مصداقية هذه المعارضة ويؤثر سلبياً على شرعية النظام.

إزاء هذه التحديات سوف يدرك الأصوليون أن الحفاظ على النظام وبقائه يفرض عليهم تقليل الفجوة بين النظام والشعب من ناحية، كما يفرض عليهم من ناحية أخرى تحسين صورة الجمهورية الإسلامية مع المجتمع العالمي ابتداءً من تحسين صورة النظام في الداخل وانتهاج سياسة خارجية تقوم على التعاون أكثر ما تقوم على الصراع.

لذلك فإن المهمة الأساسية أمامهم ستكون إعادة إنتاج «مشروعية النظام»، من خلال إعادة صياغة مشروع جديد للإصلاحات يركز على تحسين الأوضاع المعيشية والتجاوب مع مطالب الحريات والمشاركة السياسية، أي الأخذ بخياري التنمية الاقتصادية والتنمية السياسية معاً دون تفريط في ثوابت النظام، وإعادة صياغة توجه جديد للسياسة الخارجية يقوم على التعاون أكثر ما يقوم على الصراع.

وبناءً على ما تقدم فإن المشروع الإصلاحي للمحافظين سوف يأخذ في اعتباره القيام بمهمتين ضمن مسعى إعادة إنتاج مشروعية النظام من خلال الحفاظ عليه وتطويره، الأولى هي إحداث التطوير اللازم في الأسس العقيدية للنظام من خلال إعادة تقنين قاعدة «ولاية الفقيه» بما يحقق التوازن بين قاعدتي الجمهورية والإسلامية في النظام، والثانية هي طرح مفهوم جديد للإصلاح يمزج بين حتمية التنمية الاقتصادية والاجتماعية وضرورة التنمية السياسية.

(أ) تحديث الأسس العقيدية للنظام

أثارت قضية تقنين أو تحديث القاعدة المحورية لنظام الحكم في الجمهورية الإسلامية جدلاً واسعاً ليس فقط بين الإصلاحيين والمحافظين، ولكن أيضاً في دوائر الإصلاحيين وتوجهاتهم المختلفة، وفي دوائر المحافظين أنفسهم، بين من يرفض نهائياً قاعدة ولاية الفقيه كأساس للحكم في الدولة ويرى أنها تتعارض تعارضاً كلياً مع الديمقراطية، وبين من يريد تحديث هذه الولاية للفقيه، ومن هو متمسك بها ويصل في تطرفه في الدفاع عنها إلى حد القول بـ «الذوبان في الزعامة».

هذا الاتجاه الأخير المتطرف في دفاعه عن «ولاية الفقيه المطلقة» يرى أنها الشكل الوحيد للحكم الإسلامي في عصر غيبة الأئمة المعصومين، وأن على الشعب أن يقبلها كتكليف شرعي. هذا الاتجاه، على مستوى ممارسة السلطة يرى ضرورة التمييز بين شعبية الحكومة وشرعية القرار. فشعبية الحكومة تعني أن تكون الحكومة موضع تأييد من الشعب، لكن شرعية القرار أو أي إجراء تكون منوطة بتأييد وتصديق ولي الأمر، لكن هذا لا ينفي إمكانية اللجوء إلى الشعب في الظروف الاضطرارية. هذا الاتجاه يمكن اعتباره الاتجاه الرسمي للجمهورية الإسلامية.

أما الاتجاه الثاني الذي يطالب بتحديث نظرية ولاية الفقيه، فهو ينطلق من رفض القبول بولاية الفقيه المطلقة، كما أنه يرفض القبول بالديمقراطية بشكل مطلق، ويطالب بالتوازن بين ولاية الفقيه والديمقراطية، والمزج بينهما للوصول إلى نوع من الديمقراطية الدينية عن طريق إجراء تحديث في مفهوم ولاية الفقيه المطلقة، وذلك باتجاه تحديد مدة ولايتها، وأن يقوم الشعب أو نوابه باختيار الولي الفقيه لفترة محددة يدير من خلالها شئون البلاد من خلال القانون الذي يصادق عليه الفقهاء والشعب، وأن يكون الفقيه المنتخب مسئولاً أمام الشعب، بحيث تكون سلطات واختصاصات الولي الفقيه أشبه بسلطات واختصاصات رئيس الجمهورية في الدول التي تأخذ بالنظام الرئاسي، كما هو في النظام الرئاسي الفرنسي أو الأمريكي أو المصري على سبيل المثال. وهذا الاتجاه هو جوهر فكر الرئيس خاتمي ومجمع روحانيون مبارز أصحاب الدعوة إلى الديمقراطية الدينية، التي تريد نزع التعارض بين الديمقراطية والإسلام، وتريد لنظام الجمهورية الإسلامية أن يكون ديمقراطياً دون أن يفرط في إسلاميته، وأن يعيد لركني النظام اعتبارهما دون تجاوز من أحدهما على الآخر: الجمهورية والإسلامية.

أما الاتجاه الرافض كلية لولاية الفقيه، فهو لا يرى أي أساس ديني لولاية الفقيه المطلقة أو المقيدة. فالإسلام، من وجهة نظر أصحاب هذا الاتجاه، لم يحدد نموذجاً خاصاً ثابتاً للإدارة السياسية (للحكم). من هنا فالحكم الإلهي مرفوض ولا يعني إلا حكم الفرد (الأوتوقراطي) القائم على الحق الإلهي للفقهاء بما يتعارض مع الديمقراطية الشعبية. فمطالب المساواة وسيادة الشعب والمشاركة الشعبية وحكم القانون وحقوق الإنسان التي هي جوهر الديمقراطية تتعارض مع الحكم المطلق للفقهاء أو حتى مع الحكم المقيد، والبديل هو الحفاظ على إسلامية المجتمع وتحقيق ديمقراطية نظام الحكم بحيث تكون الحاكمية للشعب وليس للولي الفقيه.

هذا الاتجاه يعبر الآن عن موقف جبهة المشاركة أو بالتحديد الجماعات الراديكالية في يساريتها داخل هذه الجبهة الذين باتوا أقرب إلى موقف الليبراليين القوميين، الذين يطالبون بالديمقراطية العلمانية التي باتت مطلباً للاتحادات الطلابية التي تعارض دعوة خاتمي لـ «الديمقراطية الإسلامية»، لفشلها في الصمود أمام المحافظين، وتؤيدهم قطاعات شعبية كانت منحازة للنظام الإسلامي، وأخذت مواقفها تتحول بسبب إخفاقات هذا النظام، وأغلب هؤلاء من الإصلاحيين الدينيين، لكنهم يعتبرون أن الديمقراطية العلمانية هي التطور الطبيعي الذي يجب أن يحدث في نظام الجمهورية الإسلامية، بكل ما يعنيه ذلك بالطبع من رفض لمبدأ ولاية الفقيه.

ما هو موقف المحافظين من هذه التطورات؟

للوهلة الأولى، يبدو أن مجلس الشورى السابع، بحكم أغلبية المحافظين داخله أكثر ولاءً لولاية الفقيه، بمعنى أنه لن يتعرض، مثلما تعرض مجلس الشورى السادس، لطرح مبدأ ولاية الفقيه للبحث على جدول أعماله، وأن المحافظين سيضعون خطوطاً حمراء أمام مناقشات المجلس لأية لائحة مخالفة للدستور أو تتعارض مع ولاية الفقيه، لكن الواقع سوف يفرض نفسه حتماً. فالقضية كانت ومازالت مثارة على مستويات سياسية متعددة لدرجة أن السيد علي خامنئي نفسه فتح هذا الملف في كلمة ألقاها في مدينة قزوين في نهاية ديسمبر ٢٠٠٣، أي قبيل الانتخابات التشريعية الأخيرة بحوالي شهرين، عندما أكد على ضرورة التزام كل المسئولين في إيران بالقانون بمن فيهم الولي الفقيه، وقال أن «ولاية الفقيه المطلقة» التي ينص عليها الدستور «لا تعني أن يد الولي الفقيه مطلقة العنان»، مؤكداً أن الولي الفقيه «لا يتدخل في عمل السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية إلا في حال وجود خطر في قضية تهم البلاد».

(ب) مفهوم الأصوليين للإصلاح

التزام الأصوليين بمبدأ ولاية الفقيه في صورته المطلقة يقوض أحد الأسس والأركان التي ينهض عليها المشروع الإصلاحي بمفهومه الخاتمي الوسطي المعتدل، ناهيك عن مطالب الديمقراطيين العلمانيين بإنهاء أي علاقة بين الدين والدولة وإلغاء ولاية الفقيه، وهذا بدوره يعني أن الأزمة الوطنية حول المشروع الإصلاحي سوف تتفاقم، لكن المحافظين يعتقدون أنهم سوف يكسبون معركة الإصلاح ولكن من منظور مشروعهم الخاص وفهمهم لمعنى الإصلاح. فهم يضعون ضمن أولويات عملهم مهمة ضبط مفهوم الإصلاح بما يتلاءم مع الحاجات الإيرانية.

فقد أوضح قادة المحافظين أكثر من مرة أنهم لا يؤمنون بأن التعددية السياسية ستؤدي إلى تجاوز التحديات الاقتصادية والاجتماعية التي تواجه إيران. ولذلك فإن أولوية التنمية السياسية لا تحظى بدعم واضح مقارنة بأولوية التنمية الاقتصادية والاجتماعية، فهم على قناعة بأن مكانتهم السياسية سوف ترتبط بقدرتهم على علاج الأزمات الاقتصادية وتحديث الجهاز الإداري وتوفير القدر اللازم من الحريات الاجتماعية.

والتنمية الاقتصادية في فكر المحافظين الأصوليين (التعميريون) الذين لهم الغلبة في مجلس الشورى السابع لا تعني التنمية الاقتصادية على النمط الغربي. فتلك التنمية الاقتصادية الغربية تعني بالنسبة لهم الفساد الاجتماعي وإهدار العدالة الاجتماعية، لذلك فإنهم عازمون على انتهاج سياسات تنموية تختلف عن النظام الرأسمالي، كما تختلف أيضاً عن المنظور الماركسي للتنمية وللعدالة، وإن كانت تتأثر بالاشتراكية فهم لا يقرون بالنظام الاجتماعي الطبقي الذي يتبناه اليسار والدولة، من وجهة نظرهم، كعامل منظم ومحافظ على العلاقات التقليدية بالمجتمع حتى يتم إقرار العدالة من خلال وضع كل شيء في موضعه. هم يريدون من الدولة السيطرة على الثروات الكبرى من خلال تحصيل الضرائب الكبيرة والإشراف على عقد الاتفاقات الاقتصادية لمنع تكون رأسمالية مستقلة عن الدولة، وهم يؤيدون اقتصاد السوق تحت سيطرة الدولة، فالدولة لديهم يجب أن تكون أكبر مستثمر حتى تتحكم بعدالة في رؤوس الأموال.

أما وجهة النظر الاجتماعية للأصوليين (التعميريون) فإنهم جماهيريون أو





رفسنجاني الذي لم يراهن على قوة سياسية بقدر ما راهن على نفسه وتاريخه بدا، وكأنه مقدم على «مقامرة» أكثر منها مغامرة إذا أخذنا في الاعتبار نتائج تجربة مريرة عاشها عقب فوزه الهزيل في الانتخابات التشريعية





أحد نتائج فوز أحمدى نجاد بالرئاسة تمثل فى تراجع دور رجال الدين فى مؤسسات الحكم. وبعد أن كان رئيس مجلس الشورى ورئيس الجمهورية منهم حدث تغيير جذرى فى شخص حداد عادل وشخص أحمدى نجاد



شموليون، فكما أن السوق المستقل لا ينفصل عن الدولة، فإن المجتمع المدنى لا ينفصل عن الدولة أيضاً، وينبغى أن يتبعها. فالمؤسسات المدنية هى ممثلة الدولة فى المجتمع، وهى أفضل جهاز مدنى للتعبئة الجماهيرية.

وفق هذا المنظور فإن موقفهم من الديمقراطية أقرب ما يكون إلى الديمقراطية الجماهيرية «التى يستفاد فيها من المشروعية الملهمة كمصدر أساسى لضمان بقاء الحكم، وتتوثق العلاقة بين الجماهير والقيادة الكارزمية الملهمة من خلال المراسم السياسية والاجتماعية كالمظاهرات والمسيرات الشعبية»، هم إذن مع مشروع إعادة إنتاج الديمقراطية بشكل شمولى.

ولعل هذا ما أقنع تيار المحافظين، وفى مقدمتهم الأصوليين الجدد (التعميريون) بالاقتداء بالنموذج الصينى فى التنمية والدعوة إلى إقامة «الصين الإسلامية» وهو مصطلح يعرفه الإصلاحيون الرافضون له على أنه يعنى ببساطة «تحرير اقتصاد الدولة مع قمع الحريات السياسية والاجتماعية»، لكن المحافظين، تقليديين وأصوليين (تعميريون) نظروا إليه من منظور القدرة على التقدم الاقتصادى مع الحفاظ على خصوصية النظام. فالمحافظون الأصوليون (التعميريون) منجذبون إلى النموذج الصينى كنموذج للإصلاح فى إيران باعتباره ينسجم مع فكرة شعبية الإنتاج ووفرته مع رخص مستلزماته، وعدم ارتباطه بأصولية العقيدة مع انفتاحه على التكنولوجيا الراقية والفكر التقدمى العالمى. فالنموذج الصينى للتنمية يرونه نموذجاً صالحاً لتقليص حالة الاحتقان الموجودة على الساحة السياسية من خلال تحقيق تقدم ملحوظ فى التنمية الاقتصادية وتوسيع هامش الحريات الاجتماعية والثقافية إلى حد ما حتى لا تمتد لتشمل انتقاد النظام السياسى نفسه وحتى لا تتجاوز حدود النخبة المثقفة والناشطين السياسيين.

هذا النموذج تعرض لانتقادات واسعة ليس فقط من جانب الإصلاحيين بكافة فصائلهم لأنه لا يعطى الاعتبار الكافى للتنمية السياسية وللحقوق السياسية المشروعة للمواطنين، لكنه تعرض أيضاً لانتقادات من جانب رموز بارزة فى أوساط المحافظين الإصلاحيين خشية أن يؤدى تطبيق النموذج الصينى إلى تقليص القدرة على محاربة الفساد واستغلال المناصب.

هذه الانتقادات شجعت بعض رموز الأصوليين خاصة غلام على حداد عادل رئيس مجلس الشورى للحديث عن نموذج «اليابان الإسلامية» كنموذج بديل للنموذج الصينى للمزج بين التنمية الاقتصادية والتنمية السياسية، أى استهداف تحقيق التقدم الاقتصادى والاجتماعى مع توفير القدر اللازم من الحريات الديمقراطية والمشاركة السياسية.

وقبل أن يتطور هذا الاتجاه بادر المرشد الأعلى للجمهورية السيد على خامنئى لوضع حد للخلاف المثار فى أوساط المحافظين حول أولوية النموذجين الصينى أم اليابانى. ففى لقائه الأول مع مجلس الشورى السابع انتقد السيد خامنئى هذين النموذجين مبيناً أوجه الخلل فى كل منهما، ومؤكداً رفضه لاستيراد نماذج إصلاح أجنبية، ودعوته للإصلاح على أساس الثقافة الوطنية والمعتقدات الإسلامية، مع الوضع فى الاعتبار ملاحظة تجارب الآخرين والاستفادة منها، سواء فى النواحى الإيجابية فى وسائل التطبيق، أو بتجنب المعوقات التى تواجهها.

إنهاء خامنئى الجدل المثار فى أوساط المحافظين حول الأخذ بأى النموذجين الصينى أم اليابانى كأساس للتجربة الإصلاحية الإيرانية قد لا يضمن وقف هذا الجدل خصوصاً وأن أصوات الإصلاح تتعالى خارج أروقة المجلس، بل إن الأقلية الإصلاحية قد لا تتردد كثيراً عن التدخل القوى فى مهاجمة هذا الغموض فى البرنامج الإصلاحى للمحافظين، وكان متوقعاً أن تؤدى سخونة التفاعلات حول الأجندة الديمقراطية إلى تصدير هذه السخونة إلى أوساط المحافظين التقليديين والجدد (التعميريون). وربما يدرك المحافظون الجدد حقيقة ما يحدث فى إيران وما يجرى على الساحة العالمية وخطورته على برنامجهم فى التنمية الاقتصادية الاجتماعية، وطبقاً لطبيعتهم البراجماتية ربما يبدون مرونة إزاء المطالب الداخلية والضرورات الخارجية.

٢- العامل الذاتى (الشخصى)

هذه المعالم العامة أو المحددات العامة للمشروع الإصلاحى للمحافظين الجدد (الأصوليون أو التعميريون) تكتمل بالسمات والتوجهات الشخصية للرئيس الجديد للجمهورية محمود أحمدى نجاد. هذه السمات أتصور أنها سوف تعمل فى اتجاهين، تحسين الأداء من ناحية وتأصيل المفاهيم الثورية فى التعامل مع القضايا المختلفة. فالرئيس الجديد، بحكم تكوينه الثقافى والعلمى وأصوليته الإسلامية وكونه فدائياً مسكوناً بروح الثورة الإسلامية سلوكاً ومفاهيم سوف يعمل على تعميق المفاهيم وتحسين الأداء ومن ثم تجاوز قدر كبير من الإحباطات التى يمكن أن تواجه مشروع الأصوليين للإصلاح.

فقد ولد الرئيس محمود أحمدى نجاد عام ١٩٥٦ فى عائلة فقيرة فى كارمسار (وتعنى البلاد الحارة) بمحافظة سمنان جنوب غربى طهران، وقد اتجهت عائلته إلى طهران وهو فى سن مبكرة بحثاً عن وضع معيشى أفضل وسكنت حى جنوب طهران أكثر أحياء العاصمة فقراً، لكنه أكمل دراسته بمدارس العاصمة والتحق بكلية الهندسة جامعة العلم والصناعة ودرس فى قسم العمارة وتخرج منها بتفوق مما جعله يلتحق بالدراسات العليا بالجامعة نفسها حتى حصل على الدكتوراه فى الهندسة المعمارية وعين مدرساً بالكلية.

واستطاع أحمدى نجاد وهو طالب بالجامعة أن ينخرط فى المقاومة الإسلامية والثورة ضد نظام الشاه، وكان من أبرز شباب الثورة الإسلامية، وانضم إلى حراس الثورة (الباسدران) وشارك فى الحرب العراقية - الإيرانية وكانت له أعمال بطولية لافتة مكنته من أن يحصل على لقب «فدائى»، وبعدها انخرط فى جمعية فدائيى الثورة. وبعد انتهاء الحرب مع العراق عين مسئولاً إدارياً فى مدينة ماكو شمال غربى إيران، ثم انتقل إلى مسئولية إدارية أخرى فى مدينة أردبيل (شمال غرب) بمحافظة أذربيجان، وبرز بقوة فى صفوف تيار التجديد المحافظ الذى كون ما عرف بـ «المحافظين الجدد» أو «الأصوليين» الذين خاضوا الانتخابات المحلية عام ٢٠٠٣ وحققوا نجاحات مبهرة، وبعدها اختاره مجلس مدينة طهران رئيساً لبلدية العاصمة حيث لفت الأنظار إليه ليس فقط بقدراته الفائقة فى حل مشكلات العاصمة بل لنزوله لمواقع العمل وبملابس عمال البلدية يشاركهم أعمالهم وهمومهم لافتاً الأنظار إلى نوع جديد من الإدارة الثورية للعمل المدنى بعيداً عن تعقيدات البيروقراطية ومفاسدها.

وإذا كان أحمدى نجاد شديد القرب عقلياً ووجدانياً من الرئيس الأسبق على رجائى وأدمن معه حب «الخدمة العامة» و«العمل التطوعى» فإنه يعتبر من مريدى السيد على خامنئى المرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية (الولى الفقيه - الزعيم)، فقبل أن يتسلم السيد على خامنئى منصب المرشد الأعلى فى إيران، عقب وفاة الإمام الخمينى، كان خامنئى (الذى كان آنذاك رئيسا لإيران) يلتقى مساء كل يوم خميس بمكتبه فى القصر الرئاسى بعدد من المثقفين والفنانين.

وبعد أن أصبح خامنئى مرشداً للبلاد استبدل ضيوفه الفنانين والمثقفين فى ليالى الخميس بمجموعة من رجال الدين ومنظرى الإسلام الثوريين. والشخص الوحيد الذى احتفظ بمكانه ضمن «حلقة الخميس» فى شكلها الجديد، كان الشاب أحمدى نجاد، بل إن حضوره أصبح أكثر أهمية منذ تولى خامنئى المقام الأول فى جمهورية إيران. بحيث كان يفتتح جلسات الخميس بموشحات دينية ويختتمها بآيات كريمة من القرآن أو مديح للولى الفقيه. وظلت علاقة الشاب النحيف مع خامنئى علاقة المريد بأستاذه أو التلميذ بالمرشد. والمثير أن أحداً من المقربين من خامنئى لم يأخذ محمود أحمدى نجاد بعين الاعتبار، إلا نجل خامنئى مجتبى، الذى رأى فيه، الرجل الوفى لوالده الذى يمكن الاعتماد عليه فى مواجهة التيارات المعارضة لولاية الفقيه. هكذا اختير أحمدى نجاد ابن الحداد الفقير فى بلدة كارمسار قبل أكثر من عشرة أعوام ليكون حارس ولاية الفقيه الأول.

لكنه إلى جانب هذا الدور المحورى الذى يشاركه فى مسئوليته غلام على حداد عادل رئيس مجلس الشورى فإنه استطاع أن يصوغ رؤيته السياسية المعبرة عن مزيج مثير للاهتمام من كل تلك المشارب الفكرية والخبرات العملية والعلمية، وهى رؤية تجمع بين انتسابه للإسلام وليس فقط بالاسم أحمدى نجاد (أحمدى الانتساب) بل بالوعى والالتزام، وبين ثلاثة روافد أو مرتكزات أخرى هى انتمائه الطبقى الذى لم يبخل عليه بل أصبح داعية لطبقته ولكل فقراء إيران، وتخصصه العلمى الذى فرض عليه منهاجية علمية فى الإدارة، والتزامه الجهادى. فالانتساب للإسلام من منظور طهرانية الفقراء مع منهاجية علمية والتزام جهادى كلها جعلت من محمود أحمدى نجاد كما أسمى نفسه خادماً للأمة الإيرانية وساعياً إلى نهضتها وعزتها.

فإذا كان الإسلام هو الموجه لكل سياساته الداخلية والخارجية ملتزماً بالطهارة والشفافية وبالذات ما يعنيه هو «الطهارة الثورية» التى سوف تنعكس فى محاربة الفساد السياسى والاجتماعى والثقافى والتعليمى، فإنه يتحرك أولاً بروح العالم وثانياً بالتزام المجاهد الذى تتركز عيونه على ملايين الفقراء من أبناء إيران حيث يدرك أن الانتصار لكل هؤلاء الفقراء يستلزم الانتصار لكل إيران

ليس فقط بتوزيع عادل للثروة، ولكن بتنمية هذه الثروة ومحاربة الفساد، من أجل تحقيق الهدف الأسمى الذى يسعى إليه وهو «إقامة أمة إسلامية نموذجية متقدمة وقوية».

هذا الهدف هو جوهر مشروع محمود أحمدى نجاد ويفترض العمل على محورين أساسيين: محور العمل الداخلى أو السياسة الداخلية ومحور العمل الخارجى أو السياسة الخارجية.

أ - السياسة الداخلية

يلتقى محمود أحمدى نجاد مع تياره السياسى (الأصوليون) فى إعطاء الأولوية للاقتصاد ابتداء من قطاع النفط الذى يحظى باهتمام رئيسى ويريد أن «يشرى به موائد الفقراء» على حد قوله، وامتداداً إلى قطاع الاستثمار وقطاعات الإنتاج الأخرى وبالذات فى مجالى الصناعة والزراعة وإصلاح القطاع المصرفى وحل مشكلات الشباب وبالأخص مشكلة البطالة.

وإذا كان أحمدى نجاد أعطى الأولوية للقطاع الاقتصادى بتفرعاته المختلفة وبالذات النفط فإنه يرى أن حل المشكلات الاقتصادية سوف ييسر حل المشكلات الاجتماعية والسياسية، على عكس تصورات الإصلاحيين الذين أسرفوا فى التركيز على قضايا التنمية السياسية فتفاقمت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وأجهزت على كل إنجازات التنمية السياسية.

قد يكون رهان أحمدى نجاد على القطاع الاقتصادى وخاصة القطاع النفطى صحيحاً من الناحية النظرية، لكنه شديد الصعوبة من الناحية العملية ويعتبر التحدى الأهم الذى يواجه تيار الأصوليين ومشروعهم الإصلاحى فى إيران.

فإذا كانت إيران تنتج الآن نحو ٣.٨ مليون برميل نفط يومياً، فإن الخطة الخمسية الإيرانية الحالية (التى بدأ العمل بها فى مارس ٢٠٠٤) تدعو إلى زيادة الطاقة الإنتاجية من المستوى الحالى ٤.٢ مليون برميل يومياً إلى ٥.٤ مليون برميل يومياً عام ٢٠٠٩ وإلى ٧ مليون برميل يومياً عام ٢٠٢٠، وهذا يعنى أنه من أجل تنفيذ هذه الخطة والوصول إلى الهدف المنشود خلال السنوات الخمس المقبلة فإنه يتوجب زيادة الطاقة الإنتاجية بمقدار ٢.٥ مليون برميل يومياً خاصة أن كثيراً من الحقول العملاقة والقوية والمهمة وصلت إلى مرحلة الشيخوخة وهى بحاجة إلى ضخ كميات هائلة من الغاز فى مكانها من أجل وقف هبوط الإنتاج الذى يتراجع لهذا السبب بمقدار ٢٥٠ ألف برميل يومياً.

مشكلات القطاع النفطى هى مجرد مثال على مشكلات قطاعات أخرى فى حاجة إلى مزيد من الاستثمار ومزيد من الإصلاح لزيادة الإنتاج وحل مشكلات التضخم وارتفاع البطالة وزيادة الأسعار، والوفاء بوعود الرئيس أحمدى نجاد للفقراء بالعدالة الاجتماعية التى هى الوجه الآخر للتنمية الاقتصادية.

هذا الارتباط الشرطى بين التنمية الاقتصادية والعدالة الاجتماعية سيضع مشروع الرئيس أحمدى نجاد وتياره السياسى الأصولى فى مأزق مراجعة مفهوم الإصلاح الذى يريدونه أو بالأحرى القادرين على إنجازه. وإذا كان هناك ارتباط شرطى بين التنمية الاقتصادية والعدالة الاجتماعية ومن ثم بمستوى الرضا والإشباع الذى يشعر به المواطنون، فإن هناك ارتباطاً شرطياً بين مستوى الإشباع الاقتصادى والاجتماعى ومستوى الاستقرار السياسى من ناحية ومن ثم مستوى الديمقراطية والحريات والمشاركة السياسية من ناحية أخرى، فعندما يكون العجز مؤكداً على المستويين الاقتصادى والاجتماعى لا يكون هناك من بديل إلا تحقيق الإشباع السياسى بمزيد من الحريات الديمقراطية وتعميق المشاركة السياسية للمواطن، أى العودة مجدداً إلى طرح منهج التنمية السياسية بموازاة التنمية الاقتصادية - الاجتماعية.

ب - السياسة الخارجية

على الرغم من أن مشروع الرئيس أحمدى نجاد يعطى الأولوية للسياسة الداخلية فإنه لا يتجاهل السياسة الخارجية فى وقت ازداد فيه التنازع الإيرانى مع قوى إقليمية وعالمية حول الكثير من الملفات، وفى وقت امتدت فيه معارك الداخل الإيرانى إلى الخارج وبالذات فى ظل أولوية الاعتبارات الإسلامية للرئيس الإيرانى الجديد.

فالانفتاح الذى أحدثه الرئيس محمد خاتمى فى علاقات إيران الخارجية يصعب التراجع عنه، كما أن السياسة الخارجية الإيرانية ستظل قائمة على مرتكزاتها الثلاثة: «العزة والحكمة والمصلحة»، ولكنها ستشهد تطويراً ملحوظاً فى ظل حكم الأصوليين.

فإذا كان الرئيس خاتمى بنى مشروعه على أساس دعوة حوار الحضارات، فإن التطورات الجديدة فى البيئة الإقليمية والدولية وبالذات الطرح الأمريكى لمشروع الشرق الأوسط الكبير أو الموسع الذى يضم إيران ويجعلها مستهدفة لأسباب كثيرة فى مقدمتها رفضها الاعتراف بإسرائيل ودعمها لمنظمات المقاومة وإصرارها على برنامجها النووى، فإن الأرجح أن يطرح الرئيس أحمدى نجاد مشروع «الشرق الأوسط الإسلامى» كبديل إيرانى - إسلامى للمشروع الأمريكى.

طرح هذا المشروع يستلزم أموراً عدة فى مقدمتها التمسك بالمشروع القومى الإيرانى للطاقة النووية الذى يعد الآن رمزاً للعزة والطموح الإيرانى، وتوثيق علاقات إيران مع الدول الإقليمية المجاورة وبالذات الدول العربية، والسعى الدءوب للحيلولة دون فرض عزلة دولية على إيران من خلال الحرص الشديد على الحفاظ على العلاقات مع أوروبا وتطويرها، وتعميق أواصر الروابط مع القوى الآسيوية وبالذات الصين والهند فى محاولة لإفشال أى مسعى أمريكى لمحاصرة إيران إقليمياً.

هذه المعالم الأساسية للسياسة الخارجية الإيرانية دفعت إيران إلى أن ترد بحكمة وتعقل على الاتهامات الأمريكية للرئيس الجديد سواء اتهامه بأنه أحد أبرز المشاركين فى عملية احتجاز رهائن السفارة الأمريكية فى طهران عام ١٩٧٩، أو اتهامه بأنه مشارك فى عملية اغتيال لمعارض إيرانى كردى فى النمسا. فقد كانت ردود الفعل الإيرانية متعقلة وحريصة على تفادى خلق أى فرص أمريكية أو إسرائيلية لافتعال أزمات تعرقل مشروع الرئيس الإيرانى الجديد، أو تنحرف بأولوية اختياراته. ■

كتاب الزاوية



ديوان الطرب

محمد عبد الوهاب

ينتقى الغناء العربى من ديوان الشعر أجمل القصائد التى تسابق نجوم الغناء والطرب على الشدو بها منذ ظهور فن الطرب والموسيقى فى العصر الحديث خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

ولأن هذه القصائد التى شدا بها المطربون أصبحت جزءًا من التراث الموسيقى العربى والمصرى فقد امتدت إليها أيادى الباحثين والمتخصصين للحفاظ عليها وتوثيقها ونشرها فى إطار مشروع الحفاظ على التراث العربى والحضارى ومن بينه الموسيقى.

وفى هذا السياق تم وضع خطة قومية لتوثيق التراث الموسيقى تتضمن بناء قواعد بيانات شاملة لأعمال الموسيقيين المصريين منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى نهاية القرن العشرين. ونتج عن إنشاء قواعد البيانات هذه إصدار سلسلة من الكتب عن أعلام الموسيقى العربية. منها مؤلف من جزءين تضمن تأريخًا شاملاً لمسيرة الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب الفنية وبيانًا بالأعمال الموسيقية والغنائية والسينمائية والمسرحية والإذاعية.

وتنشر «وجهات نظر» بعضًا من القصائد التى تغنى بها عبد الوهاب على أن تنشر فى أعداد قادمة قصائد أخرى تغنى بها كبار مطربينا.

وقد صدر الكتاب الخاص بعبد الوهاب، وهو من جزءين، عن دار الشروق عام ٢٠٠٥ بالتعاون مع مركز توثيق التراث الحضارى والطبيعى بمكتبة الإسكندرية والذى أخذ على عاتقه تنفيذ مشروع الحفاظ على تراث الموسيقى العربية.

بيــــع واشـــــنطن!

إلـــــيزابـــيـــث درو

■ بينما كان التحقيق الجنائي يجرى مع جاك ابراموف عضو إحدى جماعات الضغط فى واشنطن هذا الربيع، فإن المتحدث باسم شركة الاستشارات القانونية التى تمثله أصدر تصريحا قال فيه إن ابراموف «استثنته وسائل الإعلام وحاكمته على أفعال عادية ومألوفة فى واشنطن وصحيحة تماما». ابراموف قال هذا الكلام كثيرا بعد ذلك. المحامى كان شبه يمينى. مثل آخرين كثيرين من أعضاء جماعات الضغط، كان ابراموف منظماً كمنظمات خاصة، غير هادفة للربح، لتنظيم ورعاية الرحلات اللطيفة وأيضا الترفيهية لأعضاء الكونجرس، وتبعا لذلك فقد كان أعضاء جماعات الضغط أمثاله المرتبطون به والمتمتعون بتلك الوسيلة الفريدة للوصول التى يوفرها مثل هذا الوضع، يسعون لمعرفة أعضاء الكونجرس وإقناعهم بالقوانين. يستولون على المقصورات المتميزة فى الأحداث الرياضية، ويدعون أعضاء الكونجرس ومساعديهم لحضورها.

لكن ابراموف يختلف عن أعضاء جماعات الضغط الآخرين فى تفاخره (فهو يمتلك مطعمين فى واشنطن، حيث يستضيفهم)، وفى الأتعاب العالية جدا التى يتقاضاها من العملاء، خاصة من القبائل الهندية فى صفقات الأعمال التى تتم فى الكازينو. فقد وجدت لجنة شئون الهنود فى مجلس الشيوخ التى يرأسها السيناتور جون ماكين، فى العام السابق إن ابراموف وشريكه مايكل سكانلون، المستشار السياسى ومدير الاتصالات السابق لزعيم الأغلبية فى مجلس النواب توم ديلاى، قد تلقوا ٦٦ مليون دولار على الأقل من ست قبائل خلال ثلاث سنوات. كما أن ابراموف أيضا كان يأمر القبائل الهندية بتقديم تبرعات لأعضاء محددين فى الكونجرس ومحافظين بسبب تحالفه معهم. وكان ابراموف مهملاً وغير مبال - على سبيل المثال فى استخدام بطاقته الائتمانية للإنفاق على رحلات ديلاى للعب الجولف ولحضور منافسات الجولف فى سانت أندروز فى اسكتلندا فى عام ٢٠٠٠، والتوقف فى لندن لفترة قصيرة لإنجاز بعض الأعمال شبه الجادة لجعل الرحلة تبدو شرعية. فمن غير القانونى لأعضاء جماعات الضغط أن يدفعوا مقابل سفر أعضاء الهيئة التشريعية، لكن ابراموف قرر أنه دفع مقابل ثلاث من رحلات توم ديلاى الخارجية. اخبرنى الجمهورى البارز وعضو إحدى جماعات الضغط بأن الاختلاف بين ما فعله ابراموف وما يفعله أعضاء جماعات الضغط الآخرون كان ببساطة «مسألة الدرجة والوضوح».

سلوك ابراموف دليل على الفساد غير المسبوق - الشراء والبيع المكثف للنفوذ والتأثير على القوانين والسياسة الفيدرالية - الذى أصبح يستوطن واشنطن فى ظل سيطرة الجمهوريين على الكونجرس والبيت الأبيض. الفساد كان دائما موجودا فى واشنطن، لكن فى السنوات الأخيرة أصبح أكثر تعقيدا، وانتشارا، ووضوحا من ذى قبل. صديقى الذى يعمل عن كثب مع أعضاء جماعات الضغط يقول «ليست هناك قيود الآن، جماعات الأعمال وأعضاء جماعات الضغط أصبحوا مجانين - إنهم فى كل غرفة فى الكابيتول هيل يكتبون القوانين. لايمكنك أن تنتقل فى المبنى بدون دفع المال».

هذا التعليق مبالغ فيه قليلا. لمدة تزيد على عشر سنوات، وخاصة منذ أن تولى بوش السلطة، فإن الجمهوريين الأقوياء ومن بينهم توم ديلاى والسيناتور ريك سانتوروم من بنسلفانيا، ينفذون ما يسمونه بـ «مشروع شارع ك»، فى محاولة لوضع كثير من الجمهوريين والتخلص من الديمقراطيين فى الاتحادات التجارية ومنظمات الضغط الوطنية الكبرى التى تمتلك مكاتب فى شارع ك فى المركز التجارى فى واشنطن (بالرغم من أنهم، بالطبع، يمتلكون مكاتب فى أماكن أخرى).

تطهير الجمهوريين لشارع ك هو الهجوم الأكثر شمولا وقسوة وحقدا وفاعلية على أعضاء جماعات الضغط الديمقراطيين والديمقراطيين الآخرين الذين يمثلون منظمات الأعمال والمنظمات الأخرى من أى شىء آخر رأته واشنطن من قبل. الجمهوريين ببساطة لا يريدون الاعتناء بأصدقائهم ومعاونيهم السابقين بتوفير الوظائف ذات الدخل العالى لهم: هم يريدون أعضاء جماعات الضغط الذين يستفيدون من وضعهم فى هذه الوظائف وممثلى الشركات الأخرى لتنظيم وترتيب الرحلات السخية لأنفسهم وزوجاتهم، ولدعوتهم لمشاهدة الأحداث الرياضية من المقصورات، والأكثر أهمية، لتوفير تدفق ثابت من التبرعات للحملات الانتخابية. المعاونين السابقين أصبحوا جزءاً من شبكات القوة والنفوذ لأصحاب العمل. قادة الجمهوريين أيضا يريدون أن يحصلوا على ناس من نفس الرأى والفكر معهم فى شارع ك ليتمكنوا من تعزيز أهدافهم الأيديولوجية بالمساعدة فى صياغة برامجهم التشريعية، وتمريرها، وعموما نشر أفكارهم. عندما قلت لجروفر نوركويست، الزعيم اليمينى المؤثر والدافع الرئيسى لمشروع شارع ك خارج الكونجرس، إن عدداً كبيراً من الديمقراطيين لم يكونوا أيديولوجيين بشكل بارز وكانوا سعداء بخدمة مصالح الشركات، رد قائلا «نحن لا نريد ناسا غير أيديولوجيين فى شارع ك، نحن نريد نشطاء جمهوريين محافظين فى شارع ك».

مشروع شارع ك أصبح مسألة حاسمة لمساعى الجمهوريين فى السيطرة على كل مراكز القوة فى واشنطن: البيت الأبيض والكونجرس والقضاء. والآن، على الأقل، الجزء المؤثر فى عالم التجارة والشركات، الجزء الذى يولد معظم المال السياسى. إنها طريقة أخرى للجمهوريين فى محاولتهم لفرض برامجهم على البلد. واشنطن بوست نشرت منذ وقت قريب إن عضو الأغلبية فى مجلس النواب روى بلانت، من ميسورى، قد أسس «تحالفا مؤسسيا رسميا» مع رجال جماعات الضغط فى شارع ك. لقد أصبحوا جزءاً مكملاً من العملية التشريعية بالمساعدة على الحصول على مشاريع القوانين المكتوبة وتمريرها - وهم يكافأون على مساعدتهم بالأتعاب المدفوعة من عملائهم. من بين النتائج إن القوانين التى تخدم المصالح الخاصة القوية والكبيرة كلها أكثر صراحة وعلانية - كما سنرى، قانون الطاقة الذى تم تمريره مؤخرا بمجلس النواب هو المثال الأول - ومناخ الخوف هذا هو الجديد. المعلق المحافظ دافيد بروكس قال فى برنامج أخبار الساعة على قناة بى بى اس فى بداية هذا العام «إن التهديد الأكبر للأغلبية الجمهورية هو العلاقات فى شارع ك بين جماعات الضغط المرتبطة بالشركات والفساد الذى يستلزم فى ذلك». لكن إذا أدار الجمهوريون الخطر الموجود بالمبالغة فى سيطرتهم على شارع ك، فان هناك بعض العلامات التى هم قلقون منها.

عندما أعلن الجمهوريون للمرة الأولى عن مشروع شارع ك بعد فوزهم بالأغلبية فى الكونجرس فى انتخابات



تـــوم ديـــلاى

بترتيب مع:
New York review of Books

ترجمة: جمـال عمـر

تطهير الجمهوريين لشارع ك هو الهجوم الأكثر شمولا وقسوة وحقدا وفاعلية على أعضاء جماعات الضغط الديمقراطيين والديمقراطيين الآخرين الذين يمثلون منظمات الأعمال والمنظمات الأخرى



١٩٩٤، حذروا جماعات الضغط والمنشآت القانونية في واشنطن من إنهم إذا أرادوا أن يأخذوا مواعيد مع المشرعين الجمهوريين فإنه من الأفضل لها أن توظف عددا اكبر من الجمهوريين. وقد اعتبر هذا تصرفًا أخرق غير مسبوق، لكن أهدافهم الأكثر عمقا لم تكن قد أدركت بعد. منذ أن سيطر الديمقراطيون على السلطة في كابيتول هيل لوقت طويل، العديد من منشآت شارع ك في ذلك الحين كانت تحتوي على ديمقراطيين أكثر من الجمهوريين أو كانوا متوازنين على قدم المساواة. لكن الديمقراطيين كانوا موظفين بسبب أنهم كانوا مرتبطين جيدا مع الديمقراطيين البارزين في الكابيتول هيل، وليس بسبب مطالبة الكونجرس الديمقراطي بذلك. علاوة على ذلك، فإن هذا يصنع حساسية لمنشآت جماعات الضغط التي تريد الوصول إلى أعضاء الكونجرس لتوظيف الناس بالاتصال المباشر الجيد بحزب الأغلبية - خاصة الأعضاء السابقين أو معاوني القادة الحاليين. لكن التكتيكات الإرهابية للجمهوريين في أواخر التسعينيات كانت جديدة.

ديلاي، وسانتوروم، وشركاؤهما نظموا حملة منظمة، ومرتبطة بشكل وثيق بالجمهوريين في الكابيتول هيل وبواسطة جروفر نوركويست واللجنة القومية الجمهورية، لفرض الضغط على المنشآت ليس فقط لتوظيف الجمهوريين لكن أيضا لطرد الديمقراطيين. مع انتخاب بوش، هذا الضغط أصبح أقوى. عضو جماعات الضغط الجمهوري قال لي، «الاستيلاء على البيت الأبيض، جعل ذلك أكثر إمكانا لديلاي وسانتوروم «لتنفيذ مشروع شارع ك». عدد من أعضاء جماعات الضغط الديمقراطيين طردوا من وظائفهم نتيجة لذلك. اتحادات الأعمال التي وظفت ديمقراطيين في المواقع البارزة أصبحت عرضة للعقاب. تم إبلاغهم أنهم لن يكونوا قادرين على أن يروا الناس الذين يريدون أن يروهم في الكابيتول هيل. أحيانا يكون العقاب أكثر مادية. عضو جماعات الضغط الذي تكلمت معه قال «هناك حالة من الحساسية لعلاقة الموالاة من الشخص الذي وظفته لهذه الوظائف التي لم توجد منذ ٥ أو ٦ سنوات ماضية - أنت توظف ديمقراطياً على حساب نفسك».

في مثال معروف جيدا بين أعضاء جماعات الضغط، مايكل اوكسلي نائب أوهايو الجمهوري، رئيس لجنة الخدمات المالية في مجلس النواب، وضع الضغط على اتحاد شركات الاستثمار، الاتحاد المالي لشركات التمويل المشترك، لطرد كبار أعضاء منظمات الضغط الديمقراطيين، وتوظيف جمهوريين بدلا منهم. ووفقا لرواية واشنطن بوست في ١٥ فبراير ٢٠٠٣، فإن ٦ مصادر، ديمقراطية وجمهورية على حد سواء، قالت إن أعضاء هيئة مساعدي أوكسلي أبلغت الاتحاد إن التحقيق البرلماني الوشيك لشركات التمويل المشترك «ربما يكون سهلاً ومريحًا إذا امتثلت مجموعات التمويل التجاري المشترك لرغباتهم». «لم تهمهم فيما يبدو القواعد الأخلاقية للمجلس التشريعي التي تحظر على أعضاء الكونجرس أو مساعديهم» منح الفوائد على أساس من وضع المتلقي كمؤيد أو مساهم، أو على أساس الانتماء الحزبي». الجمهوريون الآن يقبضون على الوظائف العليا في اتحاد شركات الاستثمار.

في العام الماضي العقاب كان من نصيب الجمعية الأمريكية للأفلام السينمائية (Motion Picture Association of America) التي - بعد عدم نجاح الاقتراح الأول لعضو الكونجرس الجمهوري الذي كان على وشك التقاعد - وظفت لرئاستها دان جليكمان، النائب الديمقراطي السابق من كانساس ووزير الزراعة في إدارة كلينتون. الجمهوريون حذروا الجمعية حتى لا توظف ديمقراطيا لهذه الوظيفة. بعد أن تولى جليكمان، النواب الجمهوريون في مجلس النواب أزالوا حوالي ١.٥ بليون دولار من مشروع قانون معلق للإعفاء الضريبي لصناعة السينما. نوركويست قال لي «لا توجد صناعة أخرى مهتمة بأخذ عمل ناجح قيمته ١.٥ بليون دولار لتوظيف صديق لكلينتون». بعد أن اختير جليكمان، صحيفة الكونجرس (رول كول) أعلنت السنة الماضية، «إن سانتوروم بدأ في مناقشة التداعيات على صناعة السينما». نوركويست قال علانية إن تعيين جليكمان كان «إهانة متعمدة» وقدرة صناعة السينما «على العمل مع مجلس النواب والشيوخ منخفضة بشكل كبير».

جليكمان استجاب للحملة بتوظيف جمهوريين بارزين للوظائف العليا في الشركة، منهم المتحدث السابق باسم مجلس النواب دينيس هاسترت.

منظمة نوركويست، أمريكيون للإصلاح الضريبي، ظلت تراقب منشآت شارع ك وترسل التحذيرات على موقعها الالكتروني للشركات الخارجة على الخط. وفقا لتقرير واشنطن بوست في ٢٠٠٣، إن مسئول اللجنة القومية الجمهورية أخبر مجموعة من أعضاء جماعات الضغط الجمهوريين إن ٣٣ من مجموع الوظائف العليا البالغة ٣٦ وظيفة في شارع ك قد ذهبت للجمهوريين.



بالرغم من فاعليته، «فإن مشروع شارع ك غير كامل بالمرة». وفقا لنوركويست، الذي قال، «هناك سيكون كما هو الوضع عدد من الديمقراطيين يعملون في شارع ك يمثلون الشركات الأمريكية. كذلك هناك عدد من الجمهوريين يعملون في العمل المنظم - وهذا العدد قريب من الصفر». فهو يريد أن يشمل المشروع ليس فقط الوظائف العليا في منشآت شارع ك، لكن كل الوظائف - بما فيها السكرتارية».

يعتقد المسئول البارز عن تنمية الموارد المالية في الحزب الديمقراطي أنه في ٢٠٠١ بعد تسعة عشر عاما من عمله كرئيس للاتحاد التجاري، طرد من عمله لأنه لم يكن جمهوريا. أخبرني عضو ديمقراطي آخر من جماعات الضغط أن أحد عملائه الكبار كان قد وضع تحت ضغط لإسقاطه لأنه كان ديمقراطيا. عضو هيئة مكتب ديلاي اتصل بأحد الأشخاص وقال له إنه كان «في بؤرة تركيز ديلاي»، وحذره أنه إذا حاول العمل مع أي لجنة في الكونجرس، فإنه لن يصل إلى أي مكان بسبب ميوله السياسية.

الأحداث من هذا النوع خلقت مناخا جديدا من الخوف في واشنطن. (بسبب هذا المناخ، هؤلاء الناس بالإضافة إلى عديد آخرين أصروا على الحديث «بدون ذكر أسمائهم»، لحماية أنفسهم من العقاب). عضو جماعات الضغط الديمقراطي الذي وضع أحد عملائه تحت الضغط من قبل الجمهوريين لإسقاطه علق: «إن عالم خطر يوجد في الخارج»، وسيكون من الأفضل لك أن تنتبه لما تقوله. الناس في الحزب الجمهوري، في المكاتب والوكالات، ستقول، «أنا أسمع ما يقوله فمك السيئ سيد X ». أنت تعرف أنك مراقب، وتعرف أن قدرتك على فعل أشياء في السياسة العامة مأخوذة في الاعتبار - (مثل) عقد اجتماعات مع المؤسسات الحكومية». رجل آخر من جماعات الضغط يقول، «إنه يحس بالرعب الآن. الناس خائفة من قول ما تشعر به. إن هذا له أثر مخيف على الحوار». وفقا لرئيس مجموعة السياسة العامة الذي يتعامل كثيرا مع أعضاء جماعات الضغط والشركات، «إنهم لا يجب أن يقولوا هذا»، لكنه وجدهم الآن «مدفوعين بهذا المناخ في هذه المدينة - لتوظيف جمهوريين».

جماعات الأعمال تحت ضغط مكثف لدعم وتأييد سياسات الإدارة - حتى هؤلاء الذين ليست لهم مصالح خاصة معها. المقالات الحالية في Business Week تقول إن منظمات الأعمال، بما فيها المائدة المستديرة للأعمال - اتحاد رؤساء ومديري الشركات الكبرى - بدأت تدعو للاجتماعات مع مايك ميس، المساعد الخاص للرئيس بوش، ومع مسئولي الوزارات المختلفة المهتمة بشئون الأعمال، ومع كارل روف أحد مساعدي بوش البارزين. هم توقعوا تسوية ودية حول القوانين الاقتصادية لكن بدلا من ذلك قيل لهم أن يقفوا وراء خطة الرئيس لخصخصة الضمان الاجتماعي. نتيجة لذلك، هذه المنظمات أنفقت ملايين الدولارات لتشجيع برنامج بوش الجديد، خاصة من خلال الإعلانات. مجموعات الأعمال كانت متحفظة في نقد سياسات الإدارة - حتى تلك التي لا تروق لهم بشدة، مثل العجز



النظام مصمم على أساس أن أعطى أنا المال لك وأنت تعمل لى شيئًا ما في الكونجرس - بدون أن يقول أي منا أي كلمة حول هذا الموضوع

الهائل فى الميزانية. فى الماضى، عندما كانوا يختلفون مع سياسات الإدارة، على سبيل المثال فى مسائل التجارة أو الضرائب، كانوا يهاجمونها بصوت عال. يقول مستشار مجموعات الأعمال «إنهم متخوفون من رد الفعل، من عدم إنجاز جدول أعمالهم».



العلاقات بين هؤلاء الذين يصنعون السياسة وهؤلاء الذين يحاولون التأثير أصبحت بالغة القوة فى الوقت الراهن بسبب استخدام أعضاء جماعات الضغط المتزايد للجماعات غير الهادفة لرعاية الرحلات التى توفر لهم إمكانية الوصول إلى المشرعين، كما حدث مع رحلة توم ديلاى إلى اسكتلندا وانجلترا. فقد رتب جاك ابراموف لرحلات ديلاى وأعضاء آخرين فى الكونجرس ليكون الراعى الرسمى من قبل المركز الوطنى لبحث السياسة العامة، الذى هو عضو فى مجلسه. وفقا للقواعد الأخلاقية للكونجرس فإنه لا يمكن لعضو جماعات الضغط رد تكلفة الرحلات الخاصة لعضو الكونجرس بتعويض الجماعة غير الهادفة للربح التى رتبت الرحلة. لكن لا يوجد شىء هناك يمنعه من إعطاء تبرعات كبيرة للمنظمة أو تشجيع عملائه لفعل ذلك. ابراموف طالب القبائل الهندية التى يمثلها بالتبرع للمجلس الوطنى، الذى دفع مقابل رحلات ديلاى. بسبب الثغرة الكبيرة فى القواعد الأخلاقية، فإنه لا يجب على الجماعات غير الهادفة للربح أن تكشف عن المتبرعين. «إنه تعسف حقيقى» كما قال عضو جماعات الضغط الجمهورى. هذه الرحلات هى أيضا طريقة للتحايل على الحظر المفروض على تقديم هدايا تزيد قيمتها على ٥٠ دولارًا لأعضاء الكونجرس.

ومنذ لم يعد بإمكان أعضاء الكونجرس الاستفادة باستعمال التبرعات الخفية فى ظل القانون المقدم من ماكين- فينجولد لإصلاح تمويل الحملة الانتخابية، فإنهم زادوا من استخدام رحلات نهاية الأسبوع للعب الجولف واصطياد الرحلات لجمع الأموال وتنمية الموارد. السياسيون يقتفون أثر أعضاء جماعات الضغط للعب الجولف أو الصيد معهم. (أعضاء الطبقة الوسطى والفقراء يملكون فرصة ضئيلة جدا للعب الجولف مع أعضاء الكونجرس).

وللعديد من رحلات الكونجرس أهداف جادة، بعض الأعضاء يقصرون سفرهم على الأماكن الخطيرة مثل العراق وأفغانستان. مثل هذه الرحلات من الممكن دفع تكلفتها من اعتمادات لجان الكونجرس - لكن هذه الرحلات أقل سحرا وإبهارا، وأصعب عادة فى التفسير والشرح للناخبين نظرا لأن الشعب هو الذى يدفع لها، وإنها لا تشمل رجال جماعات الضغط.

القواعد للرحلات الممولة بشكل خاص، على سبيل المثال إنها يجب أن تكون «لها علاقة مع مهام رسمية» يمكن تفسيرها إلى حد ما على نحو غير محكم. لارى نوبل، المدير التنفيذى لمركز السياسات المتجاوبة، وهى جماعة مستقلة تدرس علاقة المال بالسياسة وتأثيره على السياسة العامة، يقول «حتى عندما يكونون متعلقين بالقوانين، فإنهم لا يأخذونها بجدية».



وفقا لدراسة عن رحلات أعضاء الكونجرس خلال الخمس سنوات الماضية التى دفع ثمنها بواسطة الهيئات غير الهادفة للربح، فإن معهد أسبن، بنك للتفكير مركزه فى أسبن، فى كولورادو، وواشنطن، قد أنفق على معظم رحلات الكونجرس، لكن أسبن منظمة جادة تدير حلقات دراسية ومؤتمرات فى الولايات المتحدة والخارج، وجماعات الضغط غير مرتبطة بها. الأكثر إثارة هو أن المنظمة غير الهادفة للربح التى تنفق ثانى اعلى قيمة على الرحلات هى: جمعية ريبون، فى الواقع هى ريبون للتمويل التعليمى، فرع من جمعية ريبون، التى أسست فى الستينيات بواسطة الجمهوريين الليبراليين كمنظمة جادة مهتمة بالسياسة العامة. الآن بعد انقراض الجمهوريين الليبراليين عمليا، ريبون أصبحت منظمة للجمهوريين المعتدلين نسبيا.

مثل الجماعات السياسية الأخرى التى هى أيضا جماعة للضغط، «ريبون» أنشأت مجموعة تعليمية منفصلة ظاهريا، تقبل تبرعات المساهمين المخصومة تلقائيا من الضرائب. صندوق ريبون التعليمى يرعى مؤتمرا سنويا كبيرا «مؤتمر عبر الأطلنطى»، يعقد فى أماكن لطيفة مثل روما ولندن وبودابست، الذى يدعى له ما بين ١٥٠ و٢٠٠ مواطن أمريكى. هؤلاء يوصفون بالغموض من قبل أعضاء الكونجرس الذين يشاركون فيها «كلجان استماع»، أو «تقصى حقائق».

رحلات ريبون مشهورة بين أعضاء جماعات الضغط للفرص التى يقدمونها للضغط على أعضاء الكونجرس بشأن قضاياهم. يقول عضو جماعات الضغط الجمهورى إن رحلات صندوق ريبون «أصبحت الرحلة المتقدمة بسبب الرفاهية والوصول». وقد نشرت الواشنطن بوست إن رحلة صندوق ريبون التعليمى إلى لندن فى ٢٠٠٣ حضرها أكثر من ١٠٠ عضو من جماعات الضغط، بمن فيهم ممثلون عن أمريكان إكسبريس، وأمريكا أونلاين / تايم وارنر، وجنرال موتورز. وهؤلاء يدفعون لصندوق ريبون رسم عضوية سنوية قيمته ٩٥٠٠ دولار، وبالإضافة لذلك يمول رحلاتهم فى الخارج لحضور اجتماعات الصندوق.

كل من جمعية ريبون وصندوق ريبون التعليمى يرأسهما أعضاء من جماعات الضغط. النائبة السابقة سوزان مولينارى من ستاتن آيلاند، نيويورك، عضو جماعات الضغط التى تشتمل قائمة عملائها الآن على اكسون، وجمعية السكك الحديدية الأمريكية وفريدى ماك، هى رئيسة الصندوق التعليمى. رئيس الجمعية نفسها هو ريتشارد كيسلر الذى تتضمن قائمة عملائه شركات الأدوية والسجائر. وفقا لجريدة (The Hill) جريدة الكونجرس الأخرى، شركة كيسلر دفعت مقابل رحلة لخمسة من أعضاء الكونجرس إلى أيرلندا فى أغسطس ٢٠٠٣، تضمنت أربعة أيام فى قلعة اشفورد، حيث تشتمل الأراضى الرائعة على ملعب جولف. من أعضاء الكونجرس الذين ذهبوا إلى رحلات صندوق ريبون التعليمى، كلهم تقريبا أخذوا زوجاتهم معهم، وهى الميزة الإضافية التى تساهم فى تهيئة جو الإجازة فى الرحلات. بينما يحظر على أعضاء جماعات الضغط دفع مقابل رحلات أعضاء الكونجرس بشكل مباشر، فإن الاتحادات التجارية والشركات الخاصة مسموح لها أن تفعل ذلك - هذا التمييز الأخلاقى ليس كثيرا، نظرا لأنهم كلهم مرتبطون بجماعات المصالح.

دراسة نشرت حديثا فى دورية الكونجرس (Congressional Quarterly) قالت إن استمارات الاستقصاء التى كتبها أعضاء الكونجرس «كثيرا ما تظهر العلاقة المباشرة بين اهتمامات العضو التشريعية والجماعات التى ترعى رحلاته أو رحلاتها». فعلى سبيل المثال، مايكل اوكسلى، النائب المهتم بتمويل الشركات، أخذ عدة رحلات مضمونة بسندات من قبل شركات مثل إم سى أى. المراقب السياسى الذى درس رحلات الكونجرس بعناية يقول إن الجمهوريين تتم دعوتهم لكى يعملوا على تمرير القوانين المعلقة، بينما يكون الديمقراطيون هناك بشكل كبير «للصيانة» فى حالة وصولهم للسلطة فى المستقبل. الديمقراطيون المعتدلون «المتأرجحون» الذين يمكن أن يؤثروا على نتيجة القانون هم الذين يتلقون الاهتمام الخاص.

مشروع قانون ماكين - فينجولد لإصلاح تمويل الحملة الانتخابية فى ٢٠٠٢ لم يوقف الشركات القوية وأعضاء الكونجرس من شراء وبيع النفوذ. النائب بارنى فرانك، المؤيد الرئيسى لمشروع قانون الإصلاح، يقول «إنه يعمل على نفس الشىء، كما فعل من قبل» لكنه أضاف، لأن القانون الجديد حظر مساهمات التبرعات الخفية الكبيرة من الأفراد، والشركات، والاتحادات العمالية للحملات من اجل الحكم الفيدرالى، وحافظ على الحدود الكلية لمساهمة الشخص فى الانتخابات الفيدرالية. يضاعفها من ٢٠٠٠ دولار إلى ٤٠٠٠ دولار لكل دورة انتخابية. فإن كل شخص يجب أن يعمل بشكل أكثر صعوبة لجمع المال.

حتى الآن، أعضاء الكونجرس نادرا ما استمعوا إلى الشكوى من أنهم لا يستطيعون جمع المال الكافى وفى الحقيقة، طبقا لبيانات جمعها مركز السياسات المتجاوبة، فان كلا من الأحزاب السياسية والمرشحين الفرديين يجمعون أموالا أكثر من أى وقت سابق. أعضاء جماعات الضغط مازالوا قادرين على تسليم كميات كبيرة من الأموال إلى المشرعين «بتجميع» المساهمات الأصغر.

إنهم يساهمون بمعظم الأموال التى يجمعونها للمسئولين الذين يمكن أن يعتمد عليهم لفعل الأفضل - السبب الرئيسى (بالإضافة إلى تقسيم الدوائر الانتخابية) وبسبب وجود منافسة جادة فى ١٠٪ فقط من السباقات الانتخابية للمجلس التشريعى، وبيع حوالى ٥ مقاعد فقط فى كل انتخابات للكونجرس. يتوقع أعضاء الكونجرس تلقى المساهمات من الصناعات المحلية (وعمالها) - كما يقول المركز، صناعة الفحم فى ويست فرجينيا - وأن يدعموا القانون لمساعدتهم حتى النهاية كمسألة فى صلب عمل الناخب. انه من غير القانونى لشركة أن تعوض موظفيها عن مساهماتهم السياسية، لكن عضو جماعات الضغط الجمهورى يقول، إن طالب الوظيفة غالبا ما يقول إنه أو إنها من المتوقع أن يجمع مساهمات، والمرتبات يمكن تكييفها وفقا لذلك.

ومن المستحيل عمليا إثبات أن مساهمة حملة محددة تسببت فى تصويت معين - مثل هذا المقابل غير قانونى. فريد ويرثيمر، من مجموعة الدفاع العامة الديمقراطية ٢١، أخبرنى بأن «النظام مصمم حتى لا ترى من يحصل وما الذى يحصل عليه الشخص مقابل أمواله. انه مصمم لى لإعطاء المال لك وأنت تعمل لى شيئا ما فى الكونجرس - بدون أن يقول أى منا أى كلمة حول هذا الموضوع. لكن إذا قدمت المال، أنا أعرفه والمرشح يعرفه. إنه استثمار، وأسفل الطريق الذى تجمعه عليه. «بينما يشترى الكثير من المال المدخل لعضو الكونجرس أو الأعضاء الرئيسيين فى هيئته، تلك هى نقطة الدخول الوحيدة لعمل حالة واحدة. بينما يضعها جون ماكين، أنت تقدم المال، وتحصل على أذن (تسمعك)». حتى الآن، يستطيع الشخص أحيانا حتى أن يقتفى اثر ما حذر منه لارى نوبل باهتمام «العلاقات» بين المساهمات والنجاحات التشريعية.

وتمرير مشروع قانون الطاقة بمجلس النواب فى أبريل مثال واضح مدهش. صناعة النفط والغاز، هى المساهم الأكبر فى أموال الحملة - ٨٠٪ من هذه الأموال تذهب للجمهوريين - استفادت من عدد من الشروط الجديدة. الدراسة المقدمة من قبل هيئة مساعدى النائب الديمقراطى هنرى واكسمان، من كاليفورنيا، بينت إن ربما معظم الاحتياطى المتعذر تبريره أعطى وثيقة تنازل عن الدعاوى القضائية لمصنعى إم تى بى إى، أو غاز ثالث الميثيل - الأثير البوتيلى، إضافات الجازولين الملوث والذى يشتبه فى انه يسبب مرض السرطان. وفقا لهيئة مساعدى واكسمان، فان هذا التنازل يساوى البلايين لشركات الطاقة، المستفيدون الرئيسيون ستكون شركة اكسون، التى طبقا لمركز السياسات المتجاوبة، قد ساهمت بـ ٩٤٢.٧١٧ دولارًا لمرشحين فى الدورة الانتخابية الأخيرة، وشركة فاليرو للطاقة التى ساهمت بـ ٨٤١.٣٧٥ دولارًا، وشركة ليونديل للكيماويات التى ساهمت بـ ٣٤٢.٧٧٥ دولارًا، وشركة هاليبرتون التى ساهمت بـ ٢٤٣.٩٤٦ دولارًا.

بند آخر أعطى التعويض لشركات البترول التى اشترت عقارات مؤجرة، افتراضيا مغامرة محفوفة بالمخاطر، حيث هناك تأجيل للحفر على المواقع البعيدة من الشاطئ. التعويض يساوى بلايين الدولارات لشركات البترول.



مشروع القانون أيضا أجاز فتح محمية الحياة البرية الوطنية فى القطب الشمالى للتنقيب عن البترول - إنه غزو للمحمية التى حاولت جماعات البيئة لمدة طويلة منعه. (الآن بعد أن أصبح يحتوى على جمهوريين أكثر، مجلس الشيوخ مرر بندا مشابها كجزء من مشروع قانون ميزانيته فى وقت سابق من هذه السنة). الديمقراطيون فى لجنة الطاقة والتجارة بمجلس النواب أغلقوا الباب بفاعلية أمام وضع مسودة مشروع قانون الطاقة. إدوارد ماركى النائب الديمقراطى فى مجلس النواب، عضو اللجنة الفرعية للطاقة، قال لى «إن شركات الطاقة حصلت على كل ما أرادته. ثمانية بلايين دولار تذهب لدعم شركات الطاقة، لكن القول إن إجراءات الصيانة فيها متواضعة سيكون وصف نبيل».

التحليل المقدم من قبل مركز السياسات المتجاوبة يظهر أن مصنعى الأدوية، الذين تلقوا هدية من برنامج روشتة الدواء الجديدة فى مشروع قانون الرعاية الصحية لعام ٢٠٠٣ - الذى يتضمن بندا يحظر على الحكومة الفيدرالية التفاوض مع شركات الأدوية على الأسعار - ساهموا بأكثر من ثلاثة أضعاف ما ساهم به الذين صوتوا لصالح التشريع وكذلك الذين صوتوا ضده. مشروع القانون تم تمريره هذا العام فى مجلسى الشيوخ والنواب لإحكام قواعد رفع الإفلاس التى سعت له المصالح المالية والتأمينية والعقارية لمدة طويلة، وخصوصا شركات بطاقات الائتمان. اخذوا معا، كل هؤلاء ساهموا بـ ٣٠٦ ملايين دولار فى حملات الكونجرس، ٦٠٪ للجمهوريين، خلال عامى ٢٠٠٣ و٢٠٠٤. المصالح الأغنى أيضا أنفقت الكميات الأكبر من المال على جماعات الضغط. طبقا لدراسة أخيرة لمركز السلامة العامة، فان صناع الأدوية والمنتجات الصحية أنفقوا القيمة الأكبر - ٧٥٩ مليون دولار - على جماعات الضغط بين ١٩٩٨ ومنتصف ٢٠٠٤، عندما رفعت التقارير السابقة لجماعات الضغط. بعد ذلك جاءت شركات التأمين. شركات البترول والغاز احتلت المرتبة السابعة على القائمة.



آثار المستوى الجديد والأعلى من الفساد على الطريقة التى تحكم بها البلد عميقة. ليس فقط الانحراف المتزايد للقانون لصالح المصالح الأغنى، لكن الكونجرس نفسه قد تغير. رئيس مجموعة إستراتيجية السياسة العامة، أخبرنى «أن المسألة لا تتعلق بقضية الحكم بعد الآن. الكونجرس الآن هو مؤسسة لعقد الصفقات التجارية. والأعضاء لا يواجهون الأخطار. لذا عندما تظهر قضية أخلاقية عظيمة - مثل الحرب - فلا يمكنهم التعامل معها». النظرية التى تقول إننا لدينا نظام الشخص الواحد - الصوت الواحد، أو حتى انه نظام الديمقراطية النيابية جرى تحديها من قبل حقيقة السلطة ومن الذى يسيطر عليها فى الحقيقة. يقول بارنى فرانك إن «النظام السياسى كان من المفترض أن يتغلب على الميزة المالية للرأسماليين، لكن بما أن المال أصبح أكثر وأكثر نفوذا وتأثيرا، فإنه لا يعمل بهذه الطريقة».

اثنان من الأعضاء الديمقراطيين فى مجلس النواب، رام ايمانويل من ايلينوى، ومارتن ميهان من ماساشوسيتس، قدما قانونا لإحكام القواعد على السفر الممول بشكل خاص، وتعزيز قواعد فتح مظاريف العطاءات المقدمة من جماعات الضغط، وإبطاء حركة الباب الدوار التى بها يأخذ أعضاء الكونجرس السابقون الوظائف مع الاتحادات والهيئات التجارية، وبعد سنة، يمكن أن يؤثروا على زملائهم السابقين. يتكلم بعض الجمهوريين عن وضع قواعد مقيدة أكثر على الرحلات. لكن السجل يوضح أن اللوائح الجديدة يمكن التهرب منها كثيرا.

ربما أعظم رادع للانتهاك الأخلاقى هو أن أعضاء الكونجرس لا يريدون قراءة القصص السلبية عن أنفسهم. عضو جماعات الضغط الجمهورى يقول إن العامل الأكبر فى نمو الفساد كان «التوقع إن كل هذا غير ملحوظ وغير ملزم». وأضاف «إذا ذهب جاك ابراموف إلى السجن، فإن هذا سيكون رسالة كبيرة لمدينته» . منذ أن انكشفت فضيحة الأموال التى دفعها ابراموف لصالح ديلاى، أعضاء الكونجرس كانوا يتدافعون لتعديل تقارير سفرهم، فى بعض الحالات إدراج بعض رحلات سابقة غير مسجلة، أو استكمال بعض التفاصيل المفقودة. الغضب الشعبى يمكن أيضا أن يكون له تأثير معوق: بعد أن غير الجمهوريون القواعد الأخلاقية فى وقت سابق من هذا العام لحماية ديلاى، رد الفعل المعارض فى الصحافة ومن الناخبين كان قويا بالقدر الكافى لجعل القيادة الجمهورية تتراجع.

لكن الشعب لا يمكن أن يغضب من شىء لا يثير انتباهه واهتمامه. فالصحافة تميل إلى الهجوم على الفضائح الكبيرة لكنها تفشل عادة فى تغطية أكثر الشائعات التى تحدث يوميا. بعض السياسيين الذين تحدث معهم يأملون فى أن تؤدى فضيحة ديلاى وابراموف إلى تغيرات حقيقية، تتضمن إقامة الدعاوى القضائية بشكل أكثر وأن تكون مطالب الإفشاء أكثر صرامة. لكن حتى هم يعترفون بأنها، مثل كثير من الفضائح الأخرى، ببساطة قد يتم العصف بها. ■

معاداة السامية ..

نبيل علي



يمثل قانون معاداة السامية مثالا صارخا لاستغلال القوى اللينة ضد الدول العربية والإسلامية، وتشمل القوى اللينة نطاقا واسعا من أسلحة المعلومات: إعلاما وتربية ومعرفة وثقافة



في أكتوبر ٢٠٠٤ صدر القانون الأمريكي لردع معاداة السامية وتعقبها عالميا، وعلى أثره شرعت الولايات المتحدة الأمريكية، من خلال مكتب متخصص تم إنشاؤه في وزارة الخارجية، في رصد ما تسميه العداء للسامية في أنحاء العالم، والذي أصبح يتضمن الآن بمقتضى هذا القانون على سبيل المثال لا الحصر:

❖ مناهضة الصهيونية بما في ذلك حقها التاريخي في أرض فلسطين، ويمكن أن يمتد ذلك ليشمل وصف إسرائيل بأنها دولة مغتصبة لأرض فلسطين في الكتب المدرسية العربية.

❖ التشكيك في صحة ما تزعمه إسرائيل بخصوص عدد الضحايا اليهود في معسكرات الإبادة الجماعية تحت الحكم النازي فيما يعرف بـ «إنكار المحرقة holocaust denial».

❖ تشويه صورة الصهيونية بترديد بعض ما ورد في كتب أو وثائق تعادي الصهيونية أو تتحامل عليها، ومن أشهر أمثلتها كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون»، ولعلنا مازلنا نتذكر عاصفة الاحتجاج الشديد التي أثارتها إسرائيل حول مسلسل «فارس بلا جواد» بالرغم من أنه لم يتعرض لمضمون الكتاب بل اتخذ منه مجرد موضوع لرواية قائمة على المغامرات والمطاردات.

إن هذا القانون الهلامي قد وسع من نطاق الإدانة، وجعل من إسرائيل كيانا لا يمس من قريب أو بعيد، ودعنا نسمع ما قاله في هذا الصدد الكاتب الإسرائيلي هيليل هالكين «لا يتسنى للمرء أن يكون معارضا لإسرائيل أو الصهيونية دون أن يعد معاديا للسامية، فإسرائيل هي دولة اليهود، والصهيونية هي عقيدة الإيمان بأن اليهود يجب أن تكون لهم دولة، وبالتالي فإن تشويه صورة إسرائيل يعد بمثابة تشويه لصورة اليهود ومن ثم معاداة للسامية».

في ضوء هذا التوسع في تفسير المصطلح يعتبر القانون الأمريكي، كما قيل، شيكا على بياض يتيح للسلطات الأمريكية إدانة ومعاقبة كل من تسول له نفسه أن يعادي السامية من وجهة نظر شديدة الانحياز لإسرائيل، ومما يفاقم من خطورة الأمر أن هذا القانون قد أتى في وقت يتسم ببيئة سياسية وأمنية وإعلامية وثقافية ومعلوماتية مضطربة للغاية زاخر بكل أنواع الشراك والتآمر والتحالف وتأجيج الصراعات العسكرية والعرقية والثقافية مما يسهل معه إيقاع الكثيرين تحت طائلة هذا القانون.

وللقانون، بحكم طبيعته وملابساته، مغزاه العالمي والعربي والإسلامي، فعلى الصعيد العالمي يمثل القانون سابقة فريدة وخطيرة لانتهاك أبسط مبادئ الفقه القانوني والشرعية الدولية، وهو يكشف صراحة عن إستراتيجية أمريكية أصبحت لا تجد حرجا في أن تجاهر بتصميمها على إعادة تشكيل العالم على هواها، والتدخل السافر في سيادة الدول. من زاوية أخرى، يمثل هذا القانون ذروة نجاح اللوبي الصهيوني في عولمة مسألة معاداة السامية، فإنكار المحرقة، على سبيل المثال، يعد جريمة في كندا وسبع دول أوروبية.

وها هو رئيس المفوضية الأوروبية يدعو إلى منع تصاعد معاداة السامية في أوروبا، والاحتفال الأخير للأمم المتحدة بذكرى ضحايا المحرقة ربما يكون مقدمة لاستدراج القضية إلى ساحة المنظمات الدولية لاستصدار قرارات ملزمة يعاقب دوليا كل من يخالفها.

ويتضاءل مغزى القانون عالميا أمام مغزاه العربي والإسلامي نظرا لأن العالمين العربي والإسلامي مستهدفان بصورة أساسية من جانب هذا القانون فهو يعني كما خلص البعض:

❖ دخول القضية الفلسطينية في منعطف جديد إذ سيؤثر القانون وعواقبه على الوضع في الأراضي المحتلة ومستقبل التسوية وحق العودة.

❖ تحجيم الخطاب العربي الإسلامي، خاصة الإعلامي، المناهض للممارسات الإسرائيلية داخل فلسطين وخارجها.

❖ توجيه ضربة استباقية للوبي العربي والإسلامي لوأده قبل أن يشتد عوده وتكبيل حركته وتفريغ مضمون خطابه ونسف القواعد التي ينطلق منها، خاصة بعد أن تزايدت قدرته على حشد التأييد واكتساب التعاطف في أوروبا بل داخل الولايات المتحدة نفسها.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما أظهرته استطلاعات الرأي في أوروبا من أن نسبة عالية من الأوروبيين تعتبر إسرائيل هي المصدر الأكثر خطرا في تهديد سلام الشرق الأوسط.

لقد تناول غيرنا الجوانب القانونية والسياسية لقضية معاداة السامية، في حين لم تحظ الجوانب المعلوماتية والمعرفية بما تستحقه من اهتمام، وقناعة الكاتب أن التعامل من منظور الرؤية المعلوماتية مع هذه القضية، مثلها مثل كثير من القضايا المعاصرة، يعد أفضل مداخل تناولها وذلك للأسباب التالية:

❖ يمثل قانون معاداة السامية مثالا صارخا لاستغلال القوى اللينة soft powers ضد الدول العربية والإسلامية، وتشمل القوى اللينة نطاقا واسعا من أسلحة المعلومات: إعلاما وتربية ومعرفة وثقافة.

❖ كما سيتضح في الفقرة التالية فإن معاداة السامية، في جوهرها، هي شأن معلوماتي سواء من حيث نطاق التجريم، أو وسائل تنفيذ القانون أو دعمه: توثيقا وتأسيسا علميا.

❖ توفر الرؤية المعلوماتية نظرة أشمل وأعمق لمسألة معاداة السامية، وتوحي بمنطلقات جديدة لتجديد خطابنا العربي الإسلامي بشأنها، وتبعث الحيوية في سجالنا الثقافي الخامل عبر الإنترنت خاصة إذا ما قورن بأداء الخصم الصهيوني.

❖ وأخيرا وليس آخرا ستكشف الرؤية المعلوماتية بصورة واضحة عن مظاهر تخاذلنا السياسي والثقافي في اتخاذ مواقف صلبة ومتماسكة ومتسقة ضد هذه الهجمة القانونية الشرسة.

تقوم هذه الدراسة على المحاور الرئيسية التالية:

❖ العلاقة بين معاداة السامية وتكنولوجيا المعلومات

❖ معاداة السامية: نموذجا لضراوة القوى اللينة

❖ معاداة السامية، رؤية تاريخية

❖ إستراتيجية إسرائيل في حملة معاداة السامية

❖ الإستراتيجية العربية إزاء معاداة السامية

أولا: العلاقة بين معاداة السامية وتكنولوجيا المعلومات

١:١ النفسي والتشريعي والمعلوماتي

يقوم قانون معاداة السامية على تحويل «النفسي» من أنماط الميول والسلوك إلى «التشريعي» المترجم إلى نصوص ملزمة وإجراءات محددة تضمن تطبيقها، ويمثل «المعلوماتي آلية التحويل» الأساسية بين هذين الطرفين وحلقة الوصل التي تربط بينهما (شكل رقم ١)، حيث يقوم بثلاث مهام رئيسية هي:

❖ المعلوماتي كمنافذ لنشر وبث رسائل معاداة السامية

❖ المعلوماتي كأداة للتواصل بين مناهضي معاداة السامية

❖ المعلوماتي كأداة للدعم التشريعي والتاريخي والعلمي

شكل ١: منظومة معاداة السامية ممثلة بثلاثية النفسي والتشريعي والمعلوماتي

وسنتناول فيما يلي كلا من هذه المهام بإيجاز:

٢:١ المعلوماتي كمنافذ لنشر وبث رسائل معاداة السامية

تمثل قنوات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات (ت.م.ص) المنافذ التي يتم من خلالها نشر وبث الرسائل التي يمكن إدانتها بقانون معاداة للسامية، وتشمل هذه المنافذ وسائل النشر الطباعي من صحف ومجلات وكتب، ووسائل البث من إذاعة وتليفزيون، ووسائط متعددة من أفلام وبرامج وأشرطة تسجيل وأية وسائل أخرى لتوزيع المعلومات، وتأتي الإنترنت لتمثل أهم القنوات المعلوماتية قاطبة نظرا لما تنتجه من وسائل للنشر والبث على ثلاثة المستويات: الجماهيري والفئوي والفردي، أو بلغة أهل الإعلام: البث العريض broad-casting، والبث الضيق narrow-casting والبث المصوب لشخص معين point-casting، وغني عن القول أن قانون معاداة السامية، بحكم طبيعته، سوف يستخدم بكثافة هذه المستويات الثلاثة.

٣:١ المعلوماتي كأداة للتواصل بين مناهضي معاداة السامية

ويشمل ذلك استخدام ت.م.ص من أجل:

❖ حشد التأييد السياسي والإعلامي وتأييد الجمعيات الأهلية والمنظمات الدولية.

❖ رصد حالات الانتهاك وتعقب مصادرها لإحكام الرقابة على سلوك المنظمات والدول والأفراد.

❖ استخدام ت.م.ص للتوعية والتدريب

وتبادل المعلومات والخبرات ما بين المنظمات والمؤسسات المناهضة لمعاداة السامية وكذلك لتنبيه الأفراد والجماعات عن حدوث وقائع ذات صلة بالمسألة، وذلك من خلال رسائل تحثهم على اتخاذ مواقف أو قيام بأفعال إزاءها.

٤:١ المعلوماتى كأداة للدعم التشريعى والتاريخى والعلمى

تقدم ت.م.ص ضروبا عدة من الدعم للأنشطة المتعلقة بمعاداة السامية من أهمها:

❖ نظم الأرشيف الإلكترونى: لتسجيل حالات الانتهاك والإجراءات والدروس المستفادة، وكما هو معروف فقد لعب الأرشيف اليهودى فى الماضى دورا حاسما فى تعقب القادة النازيين المتهمين باضطهاد اليهود، وقد شحذت ت.م.ص بتطورها المذهل أسلحة أرشيف معاداة السامية بدرجة عالية مما يجعله أكثر فاعلية وأسرع تجاوبا. ووفقا لصلاح حافظ(١) لم يأت وفد أمريكى لدولة عربية فى الآونة الأخيرة إلا ويحمل معه ملفا أرشيفيا يتضمن كل ما نشرته وبثته وسائل الإعلام العربية لما يعتبر فى رأيهم معاداة للسامية، ولن يقتصر هذا الأرشيف على تسجيل ما يستجد من وقائع بل سيربط بينها وبين نظائرها على مدى التاريخ القريب والبعيد كربط ما يطلقون عليه حاليا معاداة السامية فى صيغتها الإسلامية بمواقف مشابهة من تاريخ معاداة السامية فى صيغتها المسيحية، وهو ما سنتعرض له بمزيد من التفصيل فى الفقرة ثالثا.

❖ إعادة بناء التاريخ خائليا virtual historical reconstruction: استخدام تكنولوجيا المحاكاة والواقع الخائلى Virtual Reality لإعادة بناء التاريخ خائليا بما يساند مزاعم إسرائيل فى حقها التاريخى فى أرض فلسطين ورؤيتها الخاصة لتاريخ اليهود منذ عصور الفراعنة وحتى تاريخ اليهود بالأندلس والمغرب العربى مرورا بتاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام.

❖ استخدام ت.م.ص فى الإحصاءات وبحوث استطلاعات الرأى: عن كل ما يتعلق بمعاداة السامية وكمثال ذى دلالة خاصة هنا تلك الدراسة التى قامت بها إحدى المنظمات اليهودية بالولايات المتحدة باستخدام الإنترنت لاستشفاف ردود فعل المواطن الأمريكى إزاء ترشيح ليبرمان (اليهودى) كنائب للرئيس فى حملة آل جور. وقد خلصت الدراسة إلى أن معاداة السامية قد خفت حدتها بين الأمريكيين البيض إلا أن رواسبها ما زالت متبقية بدرجات متفاوتة بين فئات الشعب الأمريكى الأخرى.

٥:١ ويب الكراهية

كما أسلفنا، تعد الإنترنت، بلا منازع، أهم الوسائل التكنولوجية فيما يخص معاداة

رؤيـــة معـلـومـاتـيـة



السامية نشرا وبثا وتواصلا ودعما، وهو ما دفعنا هنا إلى تناول دورها بمزيد من التفصيل. لقد أثبتت هذه الشبكة الفريدة قدرتها على أن تكون جسرا للتواصل بين الثقافات والحضارات، فى نفس الوقت الذى يمكن أن تمثل فيه ساحة ساخنة لتأجيج النزاعات الدينية والعرقية وإشعال الفتن بين القبائل والفصائل، وقد أطلق على ذلك مصطلح «ويب الكراهية Web of Hate»، والذى يشمل مواقع الإنترنت الخاصة بالجماعات الداعية والمؤازرة للتوجهات التالية:

- ❖ تفوق الجنس الأبيض white supremacy
- ❖ حليقو الرأس العنصريون racist skinheads
- ❖ النازية الجديدة neo-nazism
- ❖ معاداة السامية anti-semitism
- ❖ إنكار المحرقة holocaust denial
- ❖ الهوية المسيحية christian identity
- ❖ التمييز ضد السود black racism
- ❖ معاداة الشواذ جنسيا anti-gay
- ❖ معاداة المسيحية anti-christian
- ❖ معاداة الإسلام anti-muslim
- ❖ نزعات معاداة العرب anti-arab sentiments

وللوقاية ضد ما تقدمه مواقع بث الكراهية هذه يستخدم ما يعرف بـ«المرشحات filters» التى تمنع وسائل تصفح الإنترنت وآلات البحث فيها من النفاذ إلى محتوى هذه المواقع، ولكن مهما بلغت دقة هذه المرشحات على احتجاز المعلومات الضارة هناك من الوسائل الفنية ما يبطل أو يقلل من مفعولها، والأهم من ذلك أن قوانين حرية التعبير المكفولة بدساتير الشعوب والتكتلات الإقليمية تحد من قدرة الدول على مواجهة ظاهرة انتشار الكراهية عبر الإنترنت، ومصدر الإشكالية هنا يرجع إلى صعوبة رسم الحدود الفاصلة بين حرية التعبير واستخدام الإنترنت لأغراض التهديد والابتزاز والتشهير والتزوير وتقمص الشخصيات وأنواع جرائم الفضاء المعلوماتى



cyberspace الأخرى، وقد شهدت الساحة القضائية الأمريكية فى هذا الخصوص بعض الدعاوى المثيرة التى تجدر الإشارة إليها ومن أبرزها:

❖ صدور الحكم بإزالة المرشحات التى وضعتها مكتبة the London county لحجب محتوى بعض المواقع التى اعتبرتها المكتبة ضارة بروادها.

❖ تجاوز حدود حرية التعبير من قبل جماعة النازية الجديدة التى استغلت الإنترنت لتهديد أعضاء لجنة حقوق الإنسان فى ولاية بنسلفانيا.

❖ قيام طالب بجامعة كاليفورنيا ببعث رسائل بالبريد الإلكترونى يهدد فيها بالقتل ٥٩ طالبا من أصل آسيوى، وهو أول شخص يدان لجريمة كراهية عبر الإنترنت.

فى ضوء ما سبق، تكمن براعة اللوبى الصهيونى لمعاداة السامية فى الالتفاف حول مبدأ «حرية التعبير» الذى يحتل موقعا متميزا فى صلب الدستور الأمريكى ومواثيق الاتحاد الفيدرالى للولايات المتحدة.

ثانيا: معاداة السامية:

نموذجا لضراوة القوى اللينة

٢: ١ نوعان من القوى اللينة

تمثل معاداة السامية مثالا نموذجيا لضراوة القوى اللينة، وقد دأبت إسرائيل على تعزيز تفوقها على صعيد القوى الصلدة hard powers (القوى العسكرية) بترسانة من القوى اللينة تم نشرها من خلال أخطبوط المعلومات المتمثل فى تلك الشبكة الممتدة عبر العالم لتجميع المعلومات وتوزيعها، وهى تعمل جنبا إلى جنب مع شبكة كثيفة من العلاقات الفعالة والتفاعلية تربط الكيان الصهيونى بالجماعات الأهلية والمؤسسات الأكاديمية والمنظمات الدولية.

من وجهة نظر الكاتب، يمكن تقسيم القوى اللينة فى ضوء حديثنا الراهن إلى:

❖ القوى اللينة الباردة

❖ القوى اللينة الساخنة

وسنتناول فيما يلى خصائص كل من هذين النوعين وكيف تستخدمها إسرائيل وتمزج بينهما فى إطار حملتها لمعاداة السامية.

٢: ٢ القوى اللينة الباردة

تشمل القوى اللينة الباردة وسائل الإعلام الجماهيرى والأنظمة التربوية وأسلحة الغزو الثقافى الأخرى من أفلام ودراسات وبحوث ومعارض ومهرجانات ثقافية وما شابه، وتختلف هذه القوى اختلافا جوهريا عن القوى التقليدية الصلدة، فهى تعمل بالجذب لا بالضغط، وبالترغيب لا بالترهيب، وتستخدم لغة اجتذاب العقول والقلوب، من أجل اكتساب الآراء لا كسب الأرض، ومن أجل انتزاع الإرادة الجماعية لا نزع السلاح والملكية، ومن أجل فرض المواقف وزرع الآراء بدلا من فرض الحصار وزراعة الألغام. ونستطرد فى حديث الاختلاف بين القوى اللينة والقوى الصلدة لنشير إلى كيف أصبح توسيع نطاق الإعلام فى مقام نشر القوات، وأصبحت الأجندة فى مقام التكتيك، والهوائيات والفضائيات فى مقام ترسانات الأسلحة ومنصات الصواريخ، من أهم أوجه الاختلاف، إن لم يكن أهمها على الإطلاق، أن القوى اللينة كلما رهفت واستترت وخفتت فيها نبرة القوة وفجاجتها، ازدادت قدرتها وتغلغل مفعولها لينفذ إلى طبقات اللاوعى الفردى والجمعى، حيث يفعل فعلته خفية بصورة لاإرادية أو شبه ذلك، وتستخدم إسرائيل واللوبى الصهيونى القوى اللينة الباردة على نطاق عالمى خاصة فى أوروبا وأمريكا لحشد التأييد لمخططاتها والتغطية على ممارساتها الوحشية ضد الشعب الفلسطينى فى الأراضى المحتلة، ومن بعض وسائلها:

❖ محطات الإذاعة والقنوات التليفزيونية التى تديرها المنظمات اليهودية فى الولايات المتحدة، سواء علنيا أو بصورة مستترة.

❖ العلاقات الحميمة التى أقامتها إسرائيل مع كثير من دور النشر والإنتاج الفنى والسينمائى.

❖ محاولات إسرائيل فى التدخل فى مضمون المناهج الدراسية فى المدارس العربية عامة والمدارس الفلسطينية بشكل خاص.

٢: ٣ القوى اللينة الساخنة

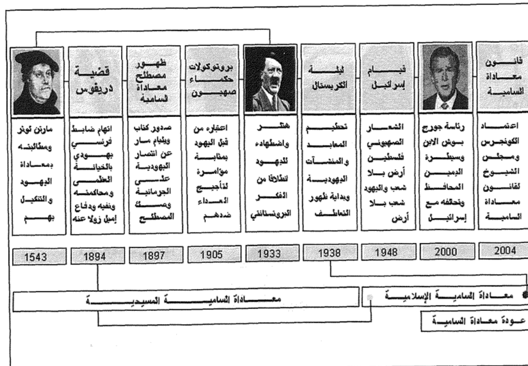
وهى القوى اللينة المرتبطة بالفعل، والمصحوبة بإجراءات مباشرة للردع والعقاب، ومن أبرز أمثلتها وكالات الاستخبارات وتشريعات المنظمات الدولية، ويندرج قانون معاداة السامية الأخير ضمن هذه النوعية.

تشترك القوى الساخنة مع الباردة فى بعض الخصائص، وتختلف معها فى خصائص أخرى تنحو فيها القوى اللينة الساخنة نحو القوى الصلدة حيث يتم تطعيم الأولى ببعض خصائص الثانية من قبيل الترهيب وشن الحملات الموجهة ودك مواقع الخصم على الإنترنت وأشكال حروب الإنترنت الأخرى.

وفى خطاب معاداة السامية يلخص الجدول التالى الفروق الأساسية بين القوى اللينة الباردة والساخنة.

القوى اللينة الساخنة	القوى اللينة الباردة
تعمل على فرض التطويع	تهدف إلى تسلل التطبيع
فرض الاستسلام	التلويح بالسلام
تتعمد المجاهرة	تميل إلى المواربة
فرض سياسة الأمر الواقع	إخفاء النوايا التوسعية
التلويح بالتهديد العسكرى	توارى القوى العسكرية
ترسيخ نزعة الانصياع	المطالبة بالالتزام
توظيف المنظمات الدولية	حشد الجماعات الأهلية
ذات طابع علاجى	ذات طابع وقائى
استخدام إعلام تفاعلى (الإنترنت حاليا)	استخدام إعلام تقليدى سلبى

حتى تترسخ القوى اللينة الساخنة وتكتسب سلطتها وتحكم سطوتها يتم مأسستها من خلال التنظيمات والتشريعات، ويتم كذلك «عقلنتها» بإضفاء قناع علمى عليها، وقد استخدم العلم المزيف وشبه العلم على مدى التاريخ سلاحا لعقلنة القوة من أجل تبرير ممارساتها، وتشديد قبضتها على المناهضين لها، وكان هتلر صريحا وقاطعا فى ضرورة مؤازرة مثل هذا السند العلمى لسياساته، فهو القائل فى «كفاحى»: «سياسة بلا سند من البيولوجى، وبلا غايات بيولوجية، سياسة عمياء إلى أقصى حد»، وقد تعددت مشاهد استخدام العلم لمساندة القوى السياسية والعسكرية والاقتصادية، فكان أن استخدمت نظرية داروين، ومبدأ «البقاء للأصلح»، وعلم النفس المعيارى، وما وضعه من مقاييس الذكاء الكمية: من أجل تبرير سياسات التمييز العنصرى والاضطهاد العرقى والدينى، وما خطاب «نهاية التاريخ» و«صدام الحضارات»، كما خلص البعض، إلا





أمثلة قليلة للفكر المؤدلج القائم على شبه العلم، وقد برع الفكر الصهيونى. كما سنوضح فى الفقرة رابعا. فى توليد خطاب معرفى يؤازر مخططاته الإستراتيجية ويساند مواقفه التكتيكية.

ثالثا: معاداة السامية.

رؤية تاريخية

يحتل التاريخ موقعا محوريا فى منظومة الفكر الصهيونى من أجل إعادة صياغته. أى التاريخ. وسد الفجوة الزمنية التى تفصل بين نشأة اليهود منذ تاريخ الفراعنة وبين شتاتهم واستيطانهم لأرض فلسطين، وإنتاج خطاب تاريخى شبه علمى لسد ثغرات ما عجزت عنه جهود تنقيب الآثار فى أن تأتى بشواهد مادية تعزز مزاعم إسرائيل خاصة فيما يتعلق بحقها التاريخى فى أرض فلسطين، وكان لا بد أن يرتكز المخطط الصهيونى لمعاداة السامية على تأسيس تاريخى لإكساب الظاهرة عمقا تاريخيا ومعرفيا.

يلخص (شكل رقم ٢) تاريخ معاداة السامية كما يرد فى الخطاب الصهيونى عادة والذى تم سرده أدناه فى سلسلة من الأحداث التاريخية البارزة وهى:

شكل ٢: المسار التاريخى لمعاداة السامية: من وجهة النظر اليهودية

❖ نشأة معاداة اليهود على يد مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستانتى (١٥٤٣): من وجهة النظر اليهودية يزخر الإنجيل (العهد الجديد) بمادة ثرية تغذى نزعات معاداة اليهود لدى الفرد المسيحى، وقد اتخذ هذا التوجه العقائدى منعطفا خطيرا على يد مارتن لوثر الذى أظهر فى البداية تعاطفا مع اليهود ولكن سرعان ما تبخر ما قاله عن أن المسيح كان فى الأصل يهوديا، وأن هناك صلة من قرابة العمومة تربط بين اليهود والمسيحيين لينقلب عليهم، يصب اللعنات على هؤلاء القوم الذين «مسمروا» المخلص على الصليب، ويطالب المسيحيين باضطهادهم والتنكيل بهم وتشريدهم ومصادرة ممتلكاتهم وتحريم خاماتهم من الدعوة، محذرا رعاياه من المسيحيين: إما هذا وإما أصبحوا هم أنفسهم مشاركين فى أكاذيب اليهود عن السيد المسيح وأمه السيدة العذراء.

❖ قضية دريفوس الضابط اليهودى فى الجيش الفرنسى (١٨٩٤): الذى اتهم بالخيانة العظمى وتم تجريده علنيا من رتبته ونفيه لجزيرة الشيطان، ثم تثبت براءته بعد محاكمة دامت اثنى عشر عاما، وقد أثار ذلك ضجة واسعة فى أوساط المثقفين الفرنسيين توجت بتلك الرسالة التى أرسلها إميل زولا إلى ملك فرنسا يطالبه فيها برفع المعاناة عن اليهود، وهو ما حدا باناتول فرانس أن يصف زولا بضمير البشرية».

❖ ظهور مصطلح معاداة السامية (١٨٩٧): مع إرهاصات الحداثة المبكرة تنامت نزعات التحرر وأصدر ويلهيلم مار كتابا بعنوان «انتصار اليهودية على الجرمانية»، صك فيه مصطلح معاداة السامية التى قصر تعريفها على الجنس اليهودى دون غيره.

❖ صدور كتاب بروتوكولات حكماء صهيون (١٩٠٥): والذى يعتبره اليهود مؤامرة أحيكت ضدهم لتأجيج حدة العداء بالكشف عن أطماعهم التوسعية ونزعاتهم العنصرية.

❖ ظهور النازية (١٩٣٣): وصدور قوانين نورمبرج (١٩٣٥) الخاصة بمعاملة اليهود، والتى استلهمت فكر مارتن لوثر، وقد واكب ذلك انحياز تام لهتلر من قبل الكنيسة البروتستانتية اتخذ بعدا تنظيميا بانضمام جماعات الشباب البروتستانتى إلى كتاب شباب هتلر، وقد اعتبر دعاة البروتستانتية هتلر أداة المسيحيين للتطهر من وزر تعذيب المسيح.

❖ ليلة الكريستال krystalnacht (1938): والتى شهدت تحطيم المعابد والمنشآت اليهودية ونوافذها الزجاجية وثرياتها الكريستال، والتى كان على أثرها بداية ظهور تعاطف فصائل من الكنيسة المسيحية مع الطائفة اليهودية وإقرارهم بفشل الكنيسة فى نجدة اليهود العزل الضعفاء من التعذيب والاضطهاد.

❖ قيام إسرائيل عام (١٩٤٨): على أساس حق اليهود فى أن يكون لهم وطن فى ظل الشعار الصهيونى: «فلسطين أرض بلا شعب واليهود شعب بلا أرض»، ومن ثم فليذهب ملايين الفلسطينيين إلى الجحيم.

❖ ولاية جورج بوش الابن (٢٠٠٠): والتحالف اللامحدود لليمين المحافظ مع إسرائيل وسيطرته على الإستراتيجية الأمريكية فيما يخص الشرق الأوسط.

❖ صدور قانون معاداة السامية (٢٠٠٤): حيث أجاز الكونجرس الأمريكى قانون المتابعة العالمية وردع معاداة السامية يوم الثامن من أكتوبر ٢٠٠٤، وصدق عليه الرئيس الأمريكى بتاريخ ١٦ أكتوبر ٢٠٠٤.

على أساس الاستعراض التاريخى الموجز يمكن بصورة عامة، ووفقا لوجهة النظر اليهودية، اعتبار المرحلة من مارتن لوثر إلى ليلة الكريستال بمثابة مرحلة المعاداة المسيحية للسامية، والتى يرى الساسة الإسرائيليون أنها عاودت الظهور منذ نهاية عام ٢٠٠٠ وإلى الآن.

تروج إسرائيل حاليا فكرة أن اختفاء معاداة السامية فى صيغتها المسيحية قد تزامن مع ما يطلقون عليه معاداة السامية فى صيغتها الإسلامية والتى بزغت منذ قيام دولة إسرائيل، وقد تراوحت فى رأيهم من حيث درجة عنفها ما بين اضطهاد دريفوس، ويناظره كما يزعمون اضطهاد الأقليات اليهودية فى البلدان العربية، وبطش ليلة الكريستال الذى يدللون عليه بتحطيم المتطرفين الأتراك للمعابد اليهودية فى استنبول.

رابعا: إستراتيجية إسرائيل فى حملة معاداة السامية

تقوم إستراتيجية اللوبى الصهيونى فى عولمة مخططه لمعاداة السامية على عدة ركائز من أبرزها:

❖ طرح قضية معاداة السامية فى سياقات أوسع
❖ التأسيس شبه العلمى لقضية معاداة السامية
❖ ربط «معاداة السامية» بما أطلقوا عليه «الإرهاب الإسلامى»
❖ تحالف يهودى مع المسيحى اليمينى
❖ أقصى استغلال للإنترنت

٤: ١ طرح قضية معاداة السامية فى سياقات أوسع

حتى يضفى على قضية معاداة السامية بعدا إنسانيا وعالميا يطرح المخطط الصهيونى قضية معاداة السامية فى سياقات أوسع وأشمل، من أهمها:

❖ التمييز العنصرى
❖ حقوق الإنسان
❖ الأقليات العرقية
❖ الخلق العالمى
❖ كره الأجانب
❖ الاضطهاد الدينى
❖ العنف الرمزى
❖ الديموقراطية
❖ السلام بين الشعوب

ومن خلال هذا الطرح تمكن اللوبى الصهيونى من أن ينهل قدرا كبيرا من أشكال التأييد

حشد التأييد السياسى
حشد التأييد الإعلامى
حشد تأييد المنظمات الأهلية

حشد التأييد | نشر وبحث | رقابة وتعقب

رصد حالات الانتهاك
تعقب سلوك المنظمات
تعقب سلوك الحكومات

المعلوماتى: أداة للتواصل

منافذ

إذاعة | تليفزيون
صحف | مجلات
كتب | أفلام
إنترنت | ...

النفسى — المعلوماتى — التشريعى

ميول وسلوك — قوانين وإجراءات

النشر والبث

المعلوماتى: أداة للدعم

أرشيف إلكترونى | إعادة بناء التاريخ خائليا | دراسات وإحصاءات



والتعاطف والمساندة الفكرية التى تحظى به هذه القضايا الإنسانية المحورية التى تتمتع بإجماع عالمى، فهى تنطلق من مبادئ إنسانية لا يستطيع المرء إلا أن يقر بصحتها وعدالتها.

٤: ٢ التأسيس شبه العلمى لقضية معاداة السامية

بجانب التأسيس التاريخى، يقوم الخطاب اليهودى بطرح قضية معاداة السامية فى ضروب شتى من خطاب شبه علمى تقوم بتوليده شبكة ممتدة من مراكز الدراسات والبحوث داخل إسرائيل وخارجها وكذلك الأقسام الأكاديمية بالجامعات الأمريكية والأوربية، وذلك بربطه بالخطابات الفكرية السائدة من أمثلة ذلك:

* خطاب التعددية الثقافية multi-culturalism والتفاعل الثقافى inter-culturalism، واتساقا مع هذا التوجه يعرّض هذا الخطاب الكيان الإسرائيلى كنموذج فريد للتنوع الثقافى. حيث تقدم إسرائيل نفسها ثقافيا على أنها بلد صغير المساحة عظيم الشأن فى دنيا الثقافة، ثقافة ممتدة. كما يزعمون. عبر ٤٠٠٠ سنة من اليهودية، و١٠٠٠ سنة من الصهيونية، وخمسين عاما منذ إنشاء إسرائيل. وبينما كانت تسعى، فى بداية نشأتها، إلى انصهار الثقافات المتعددة، الوافدة إليها من مواطن الشتات (ما يقرب من ٧٠ جماعة ثقافية وعرقية)، فى كيان إسرائيل الموحدة، فقد انقلب الوضع حاليا، حيث ترسم إسرائيل صورتها حاليا عبر الإنترنت كموزاييك من التنوع الثقافى، باقة من ثقافات أصيلة تم تجميعها من «البساتين الثقافية» لدول الشتات. ولا يفوتهم. بالطبع. أن يؤكدوا على أن تنوعهم الثقافى وليد الشتات أبعد ما يكون عن التشتت؛ حيث تتناغم روافده وتتفاعل فى سيمفونية الثقافة اليهودية الأم وابنتها الثقافة الصهيونية، ملمحين إلى أن صراعهم مع العرب وراء هذا الوئام الثقافى، بما يتطلبه من حشد لجميع القوى الاجتماعية. من جانب آخر، فإن ما يعطى هذا التنوع الثقافى الإسرائيلى مغزى خاصا بالنسبة لنا هو اشتماله على رافد عربى يمثله العرب سكان إسرائيل، وهو ما يتيح للمنظر الثقافى الإسرائيلى معملا هائلا للتجريب الأنثروبولوجى والاجتماعى المفصل علينا تفصيلا.
* ربط معاداة السامية بالتوجهات الحديثة للعلوم الإنسانية عموما والعلوم الاجتماعية والنفسية بصفة خاصة، ومن المعروف أن هذه العلوم تمر حاليا بنقلة نوعية من حيث المناهج العلمية والمنطلقات الفكرية مما يتيح للمفكرين اليهود استغلال الفرص العديدة التى توفرها هذه الثورة الأبستيمولوجية.
* طرح العديد من البحوث والدراسات فى مجال ما يمكن أن نطلق عليه علم النفس السياسى، والذى تتنامى أهميته مع اقتحام السياسة للمجالات المتعلقة بالعقيدة والتربية الدينية وعقد الكراهية وما شابه.
* محاولة نسف المنطلقات التى يقوم عليها موقف كثير من المفكرين العرب ومن أبرزهم الراحل إدوارد سعيد الذى نجح فى تفكيك خطاب الاستشراق من منظور ما بعد حداثى، وما بعد كولنيالى، ويحاول هذا المسعى إلى اعتبار موقف العرب من معاداة السامية بمثابة امتداد لموقفهم المعادى. فى أغلبه. للاستشراق، وهكذا ظهر إلى الوجود مصطلح «الاستشراق الصهيونى» يرمزون به إلى عداء يضمره العرب لكل فكر يرد إليهم من خارجهم»، وقد صاحب ذلك شن حملة ضارية ضد إدوارد سعيد لقيامه بفضح المزاعم والأكاذيب التى تضمنها كتاب برنارد لويس عن السامية ومعاداة السامية (١٩٨٦).

٤: ٣ ربط «معاداة السامية» بما أطلقوا عليه «الإرهاب الإسلامى»

أعفانا كثيرون من الحديث عن مدى زيف الخطاب الغربى عما يطلقون عليه «الإرهاب الإسلامى» وهو الخطاب الذى ازداد ضراوة بعد «زلزال» الحادى عشر من سبتمبر، وعن مدى التناقض والكيل بمكيالين فى تحويل النضال الوطنى لمقاومة الاحتلال فى فلسطين والعراق وجنوب لبنان والشيشان إلى نوع من الإرهاب، وهكذا وجد اللون الأخضر، رمز السلام والنماء، طريقه هو الآخر إلى قاموس الصراع العالمى، بعد أن أصبح الإسلام هو الخطر الأخضر بديلا عن «الخطر الأحمر»؛ حيث يصوره الإعلام الغربى عائقا أمام مسيرة العولمة، وتهديدا لسلام العالم.

٤: ٤ تحالف يهودى مع المسيحى اليمينى

على مدى عدة عقود أثبت الحوار اليهودى المسيحى فاعليته ونجاحه فى امتصاص كثير من مصادر العداء المسيحى التاريخى ضد اليهود إلى حد انتزاع قرارات من الفاتيكان تعزز هذا التحول المحورى فى الفكر اللاهوتى المسيحى، ويستغل الخطاب اليهودى عقدة الذنب المتمثل فى فشل الكنيسة فى أن تنهض للدفاع عن اليهود المضطهدين الضعفاء على يد النازية الهتلرية، إلى حد مطالبة كل مسيحى أن يعتذر لكل يهودى يلقاه عن هذا «الجرم» الإنسانى، وأن يساند إسرائيل بلا حدود، وأن يشجع على شراء البضائع الإسرائيلية، وقد تجاوز هذا الخطاب حدود الحوار العقائدى وتوجيه السلوك إلى المجال التنظيمى والسياسى المتمثل حاليا فى ذلك التحالف الوطيد بين اليهودى والمسيحى اليمينى والذى جسده ظهور مصطلح «الصهيونية المسيحية»، كشاهد على الاندماج شبه التام بين فكر المحافظين الجدد والفكر الصهيونى.

٤: ٥ أقصى استغلال للإنترنت

برعت إسرائيل فى استغلال الإمكانات العديدة التى توفرها الإنترنت لمساندة الخطاب اليهودى لمعاداة السامية من أجل حشد التأييد، وشكر المؤيدين ومطاردة المناهضين من السياسيين والإعلاميين والقادة الثقافيين، ونكتفى هنا بفقرة استخلصناها من الدليل الإرشادى الذى أصدرته اللجنة اليهودية الأمريكية لدعم إسرائيل ومناهضة معاداة السامية عن كيفية استخدام البريد الإلكترونى بصورة فعالة، وهى تكشف عن مدى دقة التوجيه:

* أيها اليهودى اليقظ، البريد الإلكترونى هو خيارك المفضل.
* لا تضيّع وقتك فى كتابة رسائل منمقة ومقنعة، فالأهم هو أن تواظب على إرسالها، وأن تبعث بأكبر عدد منها.
* ضمّن رسالتك نقطة واحدة توردها فى أول جملة فى رسالتك.
* لا تنس أن تشكر من قاموا بالدعم، وأن تنتقد من اتخذوا مواقف لا توافق عليها.
* تذكر أن اللوبى العربى بات قويا ونشيطا.

خامسا: الإستراتيجية العربية

استنادا على ما سبق سنتناول فى هذه الفقرة ثلاث نقاط رئيسية هى:

* موقف الدول العربية من صراع القوى اللينة
* عن الخطاب العربى الإسلامى عبر الإنترنت
* منطلقات مقترحة

والتالى شرح موجز لكل من هذه النقاط

٥: ١ موقف الدول العربية من صراع القوى اللينة

لن نضيف جديدا بحديثنا عن حالة التفكك الشديد الضاربة أطنابها فى أرجاء وطننا العربى، وما يصاحبها من فتور العزيمة الجماعية، وغياب ثقة المجتمعات العربية فى مؤسساتها الرمزية.

وهناك أمثلة عديدة لهذا التخاذل السياسى، وهو التخاذل الذى أصبح سمة غالبة لأدائنا على الصعيد الدولى:

* عجزنا فى استغلال قرار محكمة العدل الدولية الذى أدان إسرائيل بصورة قاطعة فى إقامة الجدار العنصرى.
* تخاذلنا فى مفاوضات منظمة التجارة العالمية (الجات سابقا).
* عجزنا عن بلورة موقف عربى موحد فى المؤتمرات الدولية للإسكان وحقوق الإنسان وإنصاف الأقليات ومناهضة العنصرية وأخيرا فى القمة العالمية لمجتمع المعلومات الذى عقدت فى جنيف ديسمبر ٢٠٠٣.
* الموقف المتخاذل الذى اتخذته حتى الآن كثير من الحكومات العربية إزاء قانون معاداة السامية إلى حد وصل بأحد المسئولين الكبار فى مصر إلى إيجاد المبررات للكونجرس الأمريكى فيما قام به من إجازة هذا القانون الذى يتنافى مع أبسط مبادئ الشرعية الدولية(٢).

٥: ٢ عن الخطاب العربى الإسلامى عبر الإنترنت

لا شك أننا فى حاجة ماسة إلى خطاب عربى إسلامى جديد لمواجهة ترسانة القوى اللينة المصوبة نحونا من قبل الخصم اليهودى وحلفائه ولا بد أن ينطلق لتجديد هذا الخطاب على مقارنة موضوعية ومتعمقة بين إسرائيل والعرب فى استغلال إمكانيات الشبكة الكوكبية، ونكتفى هنا بتصنيف موجز لنوعيات خطابنا عن الدفاع عن الإسلام عبر الإنترنت على الوجه التالى:

* خطاب الصدام المباشر مع المسيحية: وهو ذو طابع انفعالى فى أغلبه، يقوم على عقد المقارنات السافرة بين نصوص الكتب السماوية، واصطياد بعض الممارسات اللاأخلاقية فى المجتمعات الغربية.
* خطاب التعالى الدينى: وهو لا يقل استفزازا عن سابقه، وتسوده لهجة الفخار والتباهى، والإسلام هو المخرج الوحيد لإنقاذ البشرية، ولا حل لأزمات الحياة المعاصرة بدءا من المشكلات النفسية، وانتهاء بالمشكلات الاقتصادية والبيئية إلا من خلال تطبيق مبادئ الإسلام.
* خطاب التفاؤل: وهو أقل حدة من سابقه ولا يختلف فى منطلقاته الأساسية عنه، سوى أنه موجه أساسا إلى الجماهير المسلمة فى المجتمعات الغربية ليعينهم على الصبر والصمود فـ «العاقبة للمتقين»، والمستقبل مآله إلى حضارة الإسلام.



تروج إسرائيل حاليا فكرة أن اختفاء معاداة السامية فى صيغتها المسيحية قد تزامن مع ما يطلقون عليه معاداة السامية فى صيغتها الإسلامية



❖ خطاب المهادنة: وهو أخفت الخطابات صوتا، وينطلق بشكل خاص من مواقع بلدان أوروبا ذات الجاليات الإسلامية الكبيرة مثل ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، ويتسم بالطابع البراجماتي التوفيقي؛ حيث ينادي بمهادنة المجتمع الغربي إلى حد البحث عن صيغة أوروبية للإسلام توفق بين قيمه وقيم المجتمع الأوروبي.

❖ خطاب الانسلاخ: وهو خطاب يتملق الفكر الغربي في حثه على عدم النظر إلى أمة العرب والمسلمين ككيان واحد مندمج، ويتراوح ذلك بين العلمانية التركية وبين مسلمي جنوب شرق آسيا؛ لتقديم صورة مختلفة لمجتمع إسلامي متقدم تكنولوجيا واقتصاديا.

❖ خطاب الجهاد: وله عدة منابر في مواقع الإنترنت تدعو المسلمين، شبابهم على الأخص، بشكل مكثف وملزم إلى الجهاد والتضحية في سبيل نصرة الإسلام والمسلمين.

❖ الخطاب الإرشادي: وهو موجه أساسا إلى الجاليات الإسلامية في دول المهجر، وهدفه الأساسي التوعية الدينية، وتنشئة أبناء هذه الجاليات على تعاليم الدين الحنيف وأصول العبادة وما شابه.

❖ خطاب الهداية للإسلام: وهو خطاب يعرض روعة القرآن ومظاهر إعجازه، وحكمة السنة وسير السلف من أجل الدعوة الصريحة لحث غير المسلمين على الدخول في الإسلام، ويضطلع به أصحاب النوايا الحسنة من مسلمي المهجر غير المؤهلين لأمور الدعوة، يحاولون إقناع «المهتدين القادمين» بنسف أسس عقيدتهم الأصلية ووضع أيديهم على ما يتصورونه ثغرات في دينهم أو نصوصهم.

❖ خطاب التصارع والتناقض: وهو خطاب «إسلامي-إسلامي» تتبادله القبائل المتصارعة، سواء الإسلامية أو المحسوبة على الإسلام.

٣:٥ منطلقات مقترحة

يحتاج الجهد العربي والإسلامي في تصديه لقانون معاداة السامية إلى منطلقات جديدة نقترح بصددها:

❖ تأكيد أننا ضد جميع أنواع العداء على أساس الجنس أو العرق أو الدين، وعلى هذا الأساس لا بد أن يبنى خطابنا على ثلاثة مستويات متدرجة: المستوى العربي والإسلامي والإنساني عامة، ويفضل الانطلاق من الإنساني نزولا إلى المستوى العربي.

❖ موقف عربي إسلامي واضح وصريح ضد إنكار المحرقة، فمن السفه أن نقحم أنفسنا فيما إذا كان عدد ضحاياها من اليهود ٦ ملايين أو أقل، فموقفنا يجب ألا يتغير حتى لو كانت الضحايا فردا واحدا، يهوديا كان أو غير يهودي.

❖ التخلص من مصطلح رهاب الإسلام islamophobia واستبداله بمصطلح «معاداة الإسلام anti-islam»، حيث المصطلح الأول سلبي، ويختزل النظرة لمعاداة الإسلام إلى ظاهرة نفسية لا موقف يتطلب الفعل ورد الفعل.

❖ عدم معاداة اليهود بل معاداة الفكر الصهيوني وربطه بحق الفلسطينيين في أرضهم.

❖ عدم الوقوع في فخ «نحن العرب أيضا ساميون» فهو يعني ضمنيا تأييدنا للخطاب الصهيوني الحالي لمعاداة السامية.

علاوة على سهولة دحض هذا التوجه استنادا إلى أن مصطلح معاداة السامية في نشأته - كما أوضحنا في الفقرة ثالثا - قد قصد به جنس اليهود دون غيرهم.

❖ ضرورة التخلص من ذلك الخطاب المشحون بالانفعالات المؤسس على الأيدلوجيات الدينية والعرقية وتحويله إلى خطاب معلوماتي معرفي يستطيع أن يخاطب عقلية الآخر العربي.

❖ تحاشي التصادم الديني وتحويله إلى حوار ما بين الأديان inter-faith.

❖ تعزيز لمحتوى الرسالة الثقافية العربية يقوم على تفكيك الخطاب الصهيوني لمعاداة السامية، ويبادر بطرح القضية في سياقات جديدة ووجهات نظر متجددة.

❖ الإيمان بأن فاعلية حوارنا مع الآخر ذات صلة وثيقة بنجاحنا في إقامة حوار فعال داخليا مع جماعات الأقليات داخل المجتمعات العربية، والاحتفاء بالتنوع الثقافي في ربوع وطننا العربي وعالمنا الإسلامي.

❖ زيادة مهارات التواصل عبر الإنترنت وتنمية كوادر قادرة على إتقان «إتيكيت» الحوار الشبكي (أو «النيتيكيت» كما يطلقون عليه أحيانا).

❖ التحالف بين المنظمات العربية الرسمية والأهلية وتبادل خبراتها ومشاركتها في موارد المعلومات وتوزيع المهام والأدوار أسوة بما قام به الاتحاد الأوروبي فيما يعرف ببرنامج «راكسن RAXEN» لمناهضة العنصرية ونزعات كره الأجانب. ■

الهوامش:

(١) ورد ذلك في كلمة ألقاها الأستاذ صلاح حافظ في الفعالية الدولية التشاورية حول مفهوم معاداة السامية بين الإيديولوجيا والسياسة والقانون والتي عقدت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية. مارس ٢٠٠٥.

(٢) نشير هنا إلى كلمة الدكتور مفيد شهاب في «فعاليات دولية تشاورية، حول مفهوم معاداة السامية الذي عقد في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. مارس ٢٠٠٥.

كتاب الزاوية



ديوان الطرب

محمد عبد الوهاب

أعجبت بي

أعجبت بي بين نادي قومها ... ذات حسن فمضت تسأل بي
سرها ما علمت من خلقي ... فأرادت علمها ما حسبي
لا تخالي نسبًا يخفضني ... أنا من يرضيك عند النسب
قومي استولوا على الدهر فتى ... ومشوا فوق رءوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم ... وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبي كسرى على إيوانه ... أين في الناس أب مثلي أبي
قد قبست المجد عن خير أب ... وقبست الدين عن خير نبي
فضممت الفخر من أطرافه ... سؤدد الفرس ودين العرب

مهيار الديلمي

سهرت

سهرت منه الليالي ... ما للغرام ومالي
إن صد عني حبيبي ... فلست عنه بسالي
يطوف بالحب قلبي ... فراشة لا تبالي
آه الحب.. الحب فيه بقائي ... آه الحب الحب فيه زوالي
قلب بغير غرام ... جسم من الروح خالي
أما رأيت حبيبي ... في حسنه كالغزال

حسين أحمد شوقي

■ تهدف هذه الدراسة إلى رسم صورة الآخر، كما تظهر أو لا تظهر عندما يتوجب ذلك فى كتب تدريس العلوم الإنسانية والاجتماعية فى المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية للتيار الحكومى الدينى فى إسرائيل.

وهى تعتمد على إيراد النصوص التى تتحدث عن الآخر، والواردة فى كتب التدريس المذكورة وتحليلها ورسم صورة الآخر، كمحصلة إجمالية. وستستند إلى الكتب التى تتحدث عن موضوع معين، وستغفل الكتب التى تعيد تكرار الموضوع ونفس الصورة. وبما أن الدين والتاريخ والتراث والاجتماعيات يرفد الواحد الآخر، سأعتمد تقسيم قراءة وتحليل الكتب بحسب عدة مواضيع، مثل الآخر فى: كتب الدين والتاريخ والأدب الشعبى. فقد استثنيت الكتب التى تتحدث عن الصراع الحالى، لأنها كتب سياسية وبحاجة إلى باب وأدوات أخرى فى البحث. ولكثرة الكتب، يتجاوز عددها ٢٠٠ كتاب، التى يسمح بتدريسها فى هذه المدارس، اخترت مدرسة واحدة «المدرسة الشاملة المشتركة» فى المستوطنة الزراعية، «سديه إلياهو- حقل إلياهو بالعربية»، القائمة على أراضى غور الأردن فى الأرض المحتلة منذ العام ١٩٤٨. وهى مدرسة مشتركة لخمس مستوطنات محسوبة على التيار الرسمى الدينى. ويفد إليها كل يوم عشرات الطلبة من المستوطنات القريبة. قسم من كتب هذه المدرسة يدرس أيضا فى مدارس علمانية ودينية مختلفة. والهدف من اختيار هذه المدرسة وهذه الطريقة، هو تصوير الآخر، على أرض الواقع، كما يبدو فى الكتب المدرسية المستعملة فى مدارس هذا التيار. والكتب قديمة وحديثة وما تزال تستعمل للتدريس إلى يومنا. وستعمد هذه الدراسة إلى عدم تكرار الأدبيات السابقة وإن تقاطعت معها. لذا اخترت مواضيع محددة جدا لتصوير الآخر، وثم رسم صورة كلية له وتحليلها.

وتتوزع الدراسة على ستة محاور وخاتمة:

١ـ أهداف منهج التعليم الدينى

يهدف التعليم الرسمى الدينى إلى:

١ ـ التربية الدينية الإيمانية ـ «(...) مبنية على رؤية عالم دينية شاملة التى تشمل كل مظاهر الحياة (...) ويعتبر نفسه جهاز تعليم رسمى الذى يرعى خصوصيته الدينية ويدمج التعليم والمسئولية من أجل إقامة الفرائض والإيمان بالله. (...) ويسعى إلى تشكيل السلوك الدينى للتلاميذ حسب الشريعة ويعطيهم الأدوات من أجل التعامل الدينى القيمى. (...) يخاف الله ومؤمن، وينفذ الشريعة فى حياته اليومية».

٢- التربية الاجتماعية ـ (...) يربى على القيم التى بين الإنسان وتجمعه وشعبه وبلاده.

٣- التربية السياسية. (...) تربى على احترام الصلاحيات الدستورية الحكومية، من أجل الحفاظ على قوانين الدولة وعلاقة احترام مع الرموز الوطنية (www.education.gov.il).

بكلمات أخرى: لا حضور للآخر، الكائن الإنسانى بالمرّة. وجهاز التربية والتعليم الذى يتجاهل الآخر وكل ما يخصه، لهو جهاز تعليم مغلق يفضل طرفا على آخر كمقدمة لإقصائه من كافة ميادين الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية... ويجوز طرده كما فعل اليهود مع الفلسطينيين ويخططون لذلك أيضا.

٢ ـ جذور العداء للآخر

عندما يقف العريس اليهودى بين يدى الكاهن من أجل أن يتم عقد قرانه على عروسه ويباركهما، يردد صلاة:

«مبارك أدونى[١] الذى لم يخلقنى جوى/ goy (آخر)

مبارك أدونى الذى لم يخلقنى امرأة

مبارك أدونى الذى لم يخلقنى عبدا».

والزواج هو من أجل تشكيل العائلة والتكاثر- وكما ورد فى كتاب يتحدث عن الأحوال الشخصية للمرحلة الابتدائية: «اليهودية ترى العائلة نواة قوية يجب الحفاظ عليها بشدة» (آيزنبرغ؛ ١٩٩٩). والكتاب يتحدث عن تشكيل العائلة وتكاثر اليهود دون أن يأخذ بعين الاعتبار أهمية الزواج وتشكيل العائلة عند الآخرين.

وتتردد هذه الصلاة فى صلوات أخرى أثناء اليوم. يمكن فهم لماذا يكره الرجل اليهودى المرأة- لأنها مصدر الخطيئة فى العهد القديم (والجديد أيضا). ولماذا يكره العبودية: لأن اليهود كانوا عبيدا فى مصر قبل غزوهم لأرض كنعن- بحسب النص التوراتى. أما لماذا يكره اليهود الغرباء، رغم كونهم غرباء- بحسب العهد القديم- فى كل مكان وزمان، فهذا بحاجة إلى شرح: أعتقد أن مكانة الغريب فى العصور الغابرة (وإلى مدى معين فى حاضرنا) كانت فى أسفل السلم الاجتماعى فى تلك المجتمعات، لأنهم لجأوا لحاجة طلب الغذاء والماء، أو هربوا من عدو نتيجة هزيمة ما، أو طردوا لعدة أسباب. بالطبع ما من أحد يتوق إلى وضع كهذا. لذا نظرت القبائل والشعوب الأصلية إلى الغرباء- اللاجئين بنظرة علوية- دونية. فأسندت إليهم الأعمال الوضيعة فى سوق العمل والتى لا تدر أرباحا كافية لمعيشتهم وتطورهم واستقرارهم. بعض اللاجئين- الغرباء قبلوا ويقبلون هذا الواقع وينتجون منظومة معرفية تعتمد إلى إرث قديم لهم، إما لتثبيته أو تجاوزه بصورة وهمية.- هذا فعلا ما حصل مع اليهود. لذا وبما أن اليهود أبقوا على علاقات معينة فيما بينهم، وامتهنوا مهنا ميزتهم (شاحر؛ ١٩٩٠)؛ الأمر الذى منع السكان الأصليين من الاتصال بهم فى سبيل بناء مجتمع موحد. فقد بنوا الجيتو، بالطبع لم يرض اليهود بواقع اللجوء- الغربة، لأنهم بقوا غرباء وفى أسفل السلم الاجتماعى- السياسى- لذا عملوا على إسقاط واقعهم السيئ على السكان الأصليين وحملوهم مسئولية الواقع. لذا نرى فى كافة مركبات الثقافة اليهودية أن غير اليهودى الآخر يتحمل مسئولية واقع اليهود السيئ، وأنهم أرقى منه خلقا ومعرفة وأنهم مصدر التوحيد، رغم أن العهد القديم ينفى هذا بشدة. بكلمات أخرى: إن صورة الآخر فى الثقافة اليهودية سلبية للغاية. لكن المثير هو تحوّل اليهود الغرباء والوضعاء فعلا إلى «شعب الله المختار». فقد اتخذوا من هذا الخلفية أيديولوجية مقدسة. فى كتاب «شعب يسرءل- شعب الله المختار» والذى يمتد إلى ١٦٠ صفحة، محشو بالاقتباسات من المصادر الدينية المختلفة أقوال تعزز وتدعم هذا الادعاء. أما أكثر الأقوال إثارة هو قول للرابى مهرال من براغ، الذى يقول فيه: «آل يسرءل يدعون: «أبناء» الله، لكى يعبّر عن العلاقة المباشرة والخاصة بين الله سبحانه وتعالى وشعب يسرءل» ويضيف: «(...) إن اختيار الله سبحانه وتعالى شعب يسرءل تنبع من الله ذاته ولذلك أعمال بنى آل يسرءل السيئة لا تبطل هذا الاختيار» (عمونئل؛ ١٩٩٥). أى أن، هذا الاختيار جوهره ثابت ومقدس، ويخص اليهود فقط دون بقية الشعوب والأمم. كل ما تقدّم يتجلى فى ميزة أساسية تميز الديانة اليهودية عن المسيحية والإسلام، ألا وهى أن اليهودية ديانة غير تبشيرية، وتثقل «إلى حد التعجيز، على كل من يريد اعتناقها». ويصل الحد إلى رفض التيارات الأرثوذكسية الأصولية أن يكون أتباع التيارات الإصلاحية يهودا.

أما الأرض التى يقطنها آل يسرءيل، فهى الأخرى تصبح مقدسة لسببين: ذاتية- لخصال فيها- ولأن آل يسرءل يسببون لها هذه القداسة. هذه القداسة ثابتة هى الأخرى ولا تتبدل مهما يحدث ويجرى معهم: «لها قداسة أبدية، لم تتغير ولن تتغير» (آيزنبرغ وآخرون؛ ١٩٩٤). لذا التنازل عنها، أو تقاسمها مع الآخرين يعتبر حراما.

٣ ـ الآخر فى كتب الدين

تعلم كتب الدين العقائد والشرائع والطقوس بطرق مباشرة وغير ومباشرة. وسوف نذكر أمثالا للتأكيد على مدى عداء اليهودية للآخرين: المثل الأول- فى كتب للصف الثالث يتحدث عن آل يسرءل والمصريين. الكتاب يمتد إلى ٢٣٠ صفحة، جميعها تروى القصة فى تسلسل وصور توضيحية. أما صورة المصرى فقد جاء توراتية وسلبية للغاية (دروس فى سفر العدد- قضية العدد/ أرسل؛ ٢٠٠١). وأيضا كتاب «فى الصحراء» للمدرس والتلميذ يتحدثان بهذه الروح المعادية بشكل مطلق للمصريين (فى الصحراء- مرشد للمعلم: ١٩٩٤ فى الصحراء- للطالب: ١٩٩٧).

المثل الثانى- فى باب «الأغيار والمتهودين» من كتاب «أدب الأسئلة والأجوبة للمرحلتين الإعدادية والثانوية»، يناقش مؤلفو الكتاب قضية منع الأغيار من تعلم التوراة. ويقتبسون من الرمبام- موسى بن ميمون (١١٣٥-١٢٠٤)- قوله الشهير: «الجوى الذى يتعامل فى التوراة يجب أن يُمات (يُقتَل)». فقد سألوا المؤلفين ثلاثة أسئلة: الأول-

الآخـــــــر... فى عقـــــول

كتاب «حُبّ الصديق» يناقش قضية حب الأصدقاء بحسب الشريعة اليهودية. فقد حُشِد فى الكتب آراء العديد من الفقهاء اليهود القدماء والمعاصرين، فأجمع جميعهم أن «الصديق» هو فقط من آل يسرءل



ما القصد بأن يجب عليه أن يُمات (يُقتَل)؟ والثانى- هل يجوز لليهودى أن يعلم جوى التوراة؟ والثالث- هل الفتوى سارية على جميع الأغيار والأديان؟».

الأجوبة: يمنع الأغيار من تعلم التوراة إلى أن يتهودوا. ويسمح بتعليم المسيحيين الفرائض، ويمنع ذلك من الإسماعيليين. فالمسيحيون مفضلون على الإسماعيليين فى علاقتهم مع التوراة، لأن المسيحيين يؤمنون بها. يقتبس المؤلفان من الرمبام الذى يؤيد تعليم الأغيار الفرائض وليس شيئا آخر. وإذا حصل أن تعلموا واشتغلوا بالتوراة يجب إماتتهم (قتلهم) (آيزنبرغ ودوموفيتش: ١٩٩٢).

المثل الرابع- كتاب «حُبّ الصديق» يناقش قضية حب الأصدقاء بحسب الشريعة اليهودية. فقد حُشِد فى الكتب آراء العديد من الفقهاء اليهود القدماء والمعاصرين، فأجمع جميعهم أن «الصديق» هو فقط من آل يسرءل. فقد تم إبراز ما قاله الرمبام فى هذا الباب، الذى قال: «فريضة على إنسان أن يحب كل واحد وواحد من آل يسرءل كجسده، لأنه قيل «وأحببت لصديقك مثلك». لذلك أن يتحدث بمدحه، ويحرص على أمواله، مثلما يحرص على مال نفسه واحترام نفسه. والذى يسىء إلى سمعة صاحبه ليس له أجر فى العالم الآخر» (حب الصديق: ١٩٩٤: ١- ٩).

وحب الصديق، كما جاء فى كتاب «المستقيم المليح» هو الذى لا يسىء إلى أخيه اليهودى، لا ماديا ولا معنويا. يبدو أن موقف الرمبام بحاجة إلى توضيح: فهو يقول: «فريضة على إنسان»، أى إنسان؟ هل هو الإنسان اليهودى فقط، أم كل إنسان من جميع الأمم والأديان والملل والنحل؟ يبدو أن الجواب واضح هو الآخر: الرمبام يطلب من كل إنسان من جميع الأمم والأديان والنحل أن يحبوا كل فرد من آل يسرءيل، لأن آل يسرءل «هم شعب الله المختار» بحسب التوراة والفكر اليهودى. وفتوى تعويض صاحب الثور اليهودى وعدم تعويض صاحب الثور غير اليهودى، تساعدنا على الولوج إلى أعماق مقاصده. فقد أفتى موسى بن ميمون: إذا نطح ثور اليهودى ثورا آخر لغير اليهودى، لا يجوز لليهودى أن يعوّضه- أما إذا نطح ثور غير اليهودى ثورا آخر ليهودى، فعلى غير اليهودى أن يعوضه (دروس فى التوراة- العدد (الفصول ١٢- ٣٠- ١٩٩٤).

المثل الخامس- يناقش كتاب «شعب لوحده يسكن- آل يسرءل وجيرانهم فى فترة الهيكل الأول»، مسالة زواج اليهودى مع غير اليهودية (لا يوجد حديث عن زواج اليهودية مع الأغيار)، فإن الكتاب يؤكد على مبدأ عدم زواج غير اليهود مع غير اليهوديات، ويقتبس من التوراة ما يأتى: «وأسلمهم يهوه بين يديك، وضربتهم. فحرِّمهم تحريما. ولا تقطع معهم عهدا ولا ترأف بهم، ولا تصاهرهم، ولا تعطى ابنتك لابنه، ولا تأخذ ابنه لابنتك، لأنه يبعد ابنك عن السير ورائى، فيعبد آلهة أخرى، فيغضب الرب عليكم ويبيدكم سريعا». هذه الآيات وضعت مؤلفى الكتاب فى ورطة، لأن هناك من أنبياء بنى يسرءل مثل: دوِد، وشموءِل وأوريه الحثى، تزوجوا مع نساء أجنبيات. كيف يمكن تفسير وقبول هذا وفى نفس الوقت يتم الالتزام بتعاليم التوراة؟ والجواب واضح: إن الزواج منهن ساعد بنى يسرءل على تحقيق أهدافهم القبلية العليا، وقبلن، بالتالى، إله آل يسرءِل (كوجن وآخرون: ١٩٩٩).

أما المتهوِّدون، فإنهم يمرون فى درب الآلام قبل أن يقبلهم التيار الأرثوذكسى- الأصولى يهودا عاديين. وحال قبولهم ضمن الدين اليهودى يسمح لهم كما يسمح لبقية اليهود من دراسة التوراة والدين اليهودى. هذا لا يمنع المؤسسة الدينية الأرثوذكسية مستقبلا، من أن ترفض تزويجهم حسب الشريعة اليهودية إذا شكّت أن أحد أجداد العروسين كان مولودا بطريقة غير شرعية.

يتضح مما تقدم: على

أطفال إسرائيل

غير اليهودي أن يقوم دائما على خدمة اليهود، سواء بالحفاظ على أمواله وسمعته، وأن الزواج من غير اليهوديات جائز، شريطة يقدمن خدمة لليهود. حتى الحيوانات لم تسلم هي الأخرى من القيام بخدمات مجانية ليهود وحيواناتهم. ونفهم من هذا أن البشر والحيوانات كان «يهوه» قد خلقهم ليس لحكمة من لدنه، بل من أجل خدمة اليهود، ليس إلا!

٤ ـ العداء المقلوب للسامية

يحتل مفهوم «العداء للسامية» حيزا مهما في تاريخ وتراث اليهود، حتى لا نجد موضوعاً يظهر فيه الآخر دون أن نراه مباشرة أو ظلاله. والعداء للسامية بحسب كتاب «من الشتات إلى النهضة- تاريخ شعب إسرائيل في العصور الأخيرة»، والمكون من جزءين ويمتد إلى ٧٠٠ صفحة، ويدرس في المرحلتين الإعدادية والثانوية، هي جوهر الآخرين تجاه اليهود، جاء في الكتاب: «قلائل هنَّ الظواهر في تاريخ البشرية التي لها جذور ممتدة إلى ٢٥٠٠ سنة. العداء للسامية واحدة من هن. أمامنا تطور متسلسل من العداء لليهود واليهودية من اللحظة التي خرج فيها اليهود- أو أخرجوا بالقوة- من بلادهم إلى أيامنا هذه»(شاحر: ١٩٩٠). نفهم من هذا الكلام أن العداء للسامية- لليهود جوهر ثقافة وسلوك الأمم منذ ٢٥٠٠ سنة. إلا أن الكاتب لم يعرفنا على ظواهر بشرية أخرى موغلة في أعماق التاريخ مثل اللاسامية، كي يبقى احتكار العداء لليهود فقط!

ويقسم الكاتب تاريخ وتطور اللاسامية إلى ثلاث فترات:

الأولى- «اللاسامية في العصور القديمة»، إلا أنه عندما يشرح أسبابها لا يبخل في استعمال المصطلحات التي تدل على مدى عدائه للآخرين وثقافتهم، يقول: «منذ بداية ظهور اليهود في عالم الأغيار (التشديد من عندي)، من خلال علاقة جيرة، أو من خلال علاقة احتلال، أو في وضع أقلية جلت عن أرضها، برز اليهود من خلال خصوصيتهم الفريدة. هذه الخصوصية لم يكن لها مثيل في العالم القديم. ليس كمثل أبناء الأمم الأخرى، لقد امتنع اليهود عن المشاركة في العبادة الدينية للشعوب الأخرى، لأن هذه العبادات لم تكن بنظرهم إلا رذيلة شهوانية تستحق الاحتقار والسخرية لأناس فقراء في الوعي. ابتعادهم عن الآخرين ساعدت على قريتهم الاجتماعية، وساعدت على نشوئهم كمجموعة في بيئة معادية». إذا كانت هذه نظرة اليهود للآخرين، هل يتوقع اليهود من الآخرين أن يتسامحوا معهم ويحبوهم؟

الثانية- «اللاسامية في العصور الوسطى»، ويعتبر أن اللاسامية مصدرها المسيحية والكنيسة، ويقول: «مع مرور الزمن كان جماهير المسيحيين، التي لم تعرف القراءة والكتابة، تتعلم أساس الإيمان من أفواه رهبان ورجال دين لم يكونوا مثقفين أكثر منهم (...)». حسنا من الذي أنتج الفكر والفلسفة القروسطوية في أوروبا، إذا لم يكن المسيحيون ولا اليهود فمن!؟».

الثالثة- «اللاسامية المعاصرة»، يعتبر الكاتب «العداء للسامية المعاصرة هو الدورة الجديدة لكراهية اليهود التي عُرفت في تجلياتها الأدبية والاجتماعية منذ فترات خلت».

أما كتاب «مصادر وأبحاث عن الكارثة» للصفوف الإعدادية، يبدأ الكاتب كتابه باقتباس من التوراة: «واذكر ما فعله بك عماليق». يربط فيها حدث لليهود في الفترة النازية بما حدث لهم عند طردهم وخروجهم من مصرَيم واحتلالهم واستيطانهم في أرض كنعَن.

لا شك أن الكاتب يستعمل مصطلحات معادية للآخرين، وإن عبرت



عن شيء، إنما تعبر عن موقف وعداء اليهود للأمم والشعوب التي عاشوا بين ظهرانيتها. ويمكن وصف عقلية وفكر الكتّاب اليهود بعقلية «اللاسامية المقلوبة». أي أنهم ينظرون إلى الآخرين نظرة عداء، ويستعملون نفس «الخطاب المعادي». عدا ذلك، ما يقوله الكاتب عن اللاسامية الجوهرانية في فكر الشعوب والأمم الأخرى ليس علميا البتّة. لا يعقل أن تكون البشرية جميعها معادية لليهود!

٥ ـ الموقف من العرب المسلمين

يعتقد اليهود، كما يعتقد المسلمون أيضا، أن العرب المسلمين وهم أحفاد الإسماعيليين أتوا بدين جديد. ويؤمن المسلمون أن دينهم جاء ليصلح ما أفسده اليهود والنصارى من المعتقدات والشرائع، التي كان «الله قد أنزلها» على أنبياء بني يسرءل وعيسى المسيح، ويقيم دينا جديدا هو ذروة ما أوحاه الله إلى النبي محمد. وبما أن الديانة اليهودية غير تبشيرية

فقد نظرت إلى الإسلام بنظرة مزدوجة: قبولها على مضض وعدم السعي إلى تفكيكها من خلال صراع مباشر جلي حاد، والطعن والشكّ في مصادرها. ويجب القول أن على القراء أن يقرأوا ما أورده هنا بأعين ثاقبة ومتفحصة.

بين أيدينا كتابان وحيدان يدرسان، من جملة ما يدرس في هذه المدارس، مادة الدين الإسلامي، وهما: «رحلة إلى الماضي- من العصور الوسطى إلى العصر الحديث» و«من جيل إلى جيل- دروس في التاريخ» وكلاهما صدرا في العام ٢٠٠١. يعرض الكتابان تاريخ العرب قبل الإسلام، فقط عشية ظهور الإسلام دون الغور في التاريخ القديم. أما صورة المجتمع العربي فهي أنثربولوجية- استشراقية، ويكثر فيهما استعمال: «قبائل رحّل» و«بدو»، و«عبدة أصنام» و«الثأر»... و«الغزوات المتكررة». الكتابان يشيران إلى أن بين العرب يهودا ومسيحيين، إلا أنهم لا يذكرون أن النبي كان جزءا من هذا التراث، وأن الإسلام يعتبر نفسه امتدادا له ولأتباعه. كذلك لا يذكران أن كان من بين العرب الصابئة وهم أتباع يوحنا المعمدان

النبي يحيى. ولا يذكران أيضا أن كان من بينهم الأحناف، وأشهرهم جدّ الرسول محمد. ولا يذكران أية علاقة للإسلام والمسلمين مع تراث وتاريخ النبي وأتباعه، علما أنه الأصل البشري بالنسبة للإسلام والمسلمين. لقد شطب الكتابان أية حضارة فكرية كانت للعرب قبل الإسلام.

يبدأ الكتابان الحديث عن الإسلام بالحديث عن النبي محمد، بالقول أنه من قبيلة قريش وعمل بالرعي والتجارة عند السيدة خديجة، «(...) وبعد عدة سنوات اتخذ مشغلته زوجة» (من جيل إلى جيل- دروس في التاريخ؛ ١٩٨). لا شكّ أن في استعمال الكتاب «اتخذ مشغلته زوجة» له دلالة سلبية في الخطاب الذي يستعمل في الحاضر.

وعندما جاء الملاك جبرائيل إلى النبي محمد في غار حراء وطلب منه أن يقرأ، يقول الكتاب: «محمد ادعى أنه لا يعرف القراءة». والادعاء ليس فيه جزم، علما أن النبي محمد جزم بذلك. ولو كان نيّة مؤلف الكتاب سليمة لاستعمل المصلح الذي يدل على الجزم.

وعن القرآن يورد الكتاب ما يلي: «محمد أعطى المسلمين كتاباً مقدساً باللغة العربية». دون أن يذكر مصدره. والقرآن بحسب نفس المصدر «في القرآن ١١٤ فصلا تحتوي على خطابات محمد ورؤياه».. وفي الكتاب الآخر مكتوب: «حسب التراث الإسلامي محمد طار من مكة إلى يروشليم- أفضل استعمال الأسماء كما وردت في المصدر أ- على ظهر حصان عجيب، اسمه البراق. محمد ربط الفرس إلى أحد حجارة الهيكل في طلعة جبل البيت. ومن هناك صعد إلى السماء وأنزل القرآن» (من جيل إلى جيل- دروس في التاريخ: ٢٠٠١). هذا يناقض ما ورد في الكتاب الذي سبقه، ويجافي الحقيقة. بالطبع ليس هذا ما يقوله القرآن والنبي محمد، لا يؤمن به المسلمين. لو كان الكاتبان منصفين لذكرا الرأي الإسلامي، ثم عقباً على ذلك برأيهما.

أما عن وفاة الرسول وانتخاب أبي بكر خليفة تضيف الكاتبة: «بعد وفاة محمد (٦٣٢) سادت الفوضى وحرب وراثة في شبه الجزيرة العربية؛ وفي النهاية انتخب لوراثته صهر محمد، أبو بكر خليفة. واتخذ لقب خليفة- الذي يبدل رسول الله». بالطبع، لقد أسقطت الكاتبة ما حدث في فترات غابرة من صراعات مختلفة في تاريخ العرب والمسلمين على فترة وفاة الرسول وانتخاب أبي بكر. أعتقد أنها تعرف ولا تريد قول الحقيقة... صحيح كانت بعض الخلافات بين أتباع علي من جهة- وأتباع أبي بكرٍ من جهة أخرى؛ إلا أنها لم تصل إلى حدّ الفوضى والحرب الوراثية. أما انتخاب أبي بكر فليس لأنه صهره، بل لأن المجتمعين في سقيفة بني ساعدة اعتبروه أفضلهم في حينه.

وعن يهود المدينة جاء في الكتابين: «وأيضا غير محمد وجهة نظرة تجاه يهود المدينة وبدأ الحرب ضد قبائل اليهود التي كانت تقطن في المدينة. ولذلك اضطرت قبيلتان إلى مغادرة المدينة، وتركوا فيها كل أملاكهم.(...) ومصير القبيلة الثالثة، بني قريظة، التي خرجت لمحاربة محمد كان مختلفا: قُتل الرجال من أبنائها، أما النسوة والأولاد فبيعوا عبيدا». وفي الكتاب الآخر لا تختلف الصورة التي ذكرناها للتو، فيقول: «في أحد الصدامات قتل اتباع محمد كل رجال أحد القبائل اليهودية، وباعوا نساءهم وأولادهم للعبودية. قام محمد بتوزيع جميع ممتلكات القبائل اليهودية بين أتباعه في يثرب الذي يزيد باطراد» (من جيل إلى جيل- دروس في التاريخ؛ ٢٠٠١:٢٠٠). بالطبع ما ذكر في الكتابين لهو مجاف للحقيقة: سبب الحرب ضد يهود يثرب، هو عدم التزامهم بالاتفاقيات التي عقدوها مع المسلمين. وما عدم ذكر أسباب وحيثيات الحرب على اليهود، ليس فقط

تزويرا للتاريخ، وإنما تشويها لصورة العرب- المسلمين، وتوظيفه فى العداء والصراع الكولونيالى الحالى على الأراضى الفلسطينية والعربية والإسلامية. ولو كان جزء من هذه الأسباب فى صالح اليهود لبَنوا من الجبال والتلال لتعميق الإساءة إلى العرب- المسلمين.

إن ما يعرضه الكتابان ناقص وغير دقيق بالمرة، والهدف منه تشويه صورة العرب المسلمين فى ذهن الأجيال اليهودية. فأية معلومات غير دقيقة ولا يتبناها الآخر عن نفسه تسىء له، وتعرضه للأذى والإساءة من قبل الذين أنتجوا الصورة المشوهة عنه. وما إيرادها إلا تصويرا لفقر واقع العرب الثقافى والروحى. لأن الأمثال الشعبية وكافة المنتجات الثقافية تدل على مدى تطور الأمم والشعوب.

٦ ـ الآخر فى القصص الشعبى

يعتبر الأدب حقلا هاما جدا فى الاطلاع على صورة الآخر. منه نفهم، بقدر قليل من الرقابة وجهة نظر كتّابه والمجتمع الذى نشا فيه. الأدب أداة هامة لتشكيل صورة الأنا الفردية والأنا الجمعية، للفرد والمجموعة والآخر. وأهم قطاعات الأدب فى سبيل فهم صورة الآخر، هو الأدب الشعبى، لأن الرقابة لا تقلّ فقط، بل تنعدم. لأن الوعى الشعبى- الجمعى يكون أكثر صدقا فى التعامل مع خلجات نفسه وتصوير صورته الجمعية، وصورة الآخر أيضا.

بين أيدينا كتاب «رحلة فى المستعمرات الأولى» يحتوى على ٣٣ قصة تمتد على ٢٨٩ صفحة، جميعها قصص شعبية كانت عائلتان مهاجرتين قد قصّتا هذه القصص. أما أحداث القصص فتجرى فى أوائل القرن العشرين فى المنطقة الممتدة من يافا إلى القدس. اخترت أربع منها فقط، لأنها تمثل الآخر من خلال ثلاثة مجموعات إثنية وعرقية مختلفة.

الأولى- وعنوانها «فى أرض يسرعيل»، فيها تتحدث القاصة عن هجرة عائلتها من هنغاريا إلى فلسطين فى الفترة العثمانية... عندما تصل العائلة إلى ميناء يافا. الموظف التركى فى الميناء يرفض إدخال العائلة، لأنها لم تحصل على جميع المستندات الثبوتية التى تؤهلها الدخول إلى فلسطين... فما كان من أحد اليهود المتواجدين هناك، والذى كان حاضرا على الخلاف بين المهاجرين والموظف التركى، إلا أنه توجه إلى الموظف التركى وأخذه جانبا «ودسّ فى جيبه ثلاثة قطع معدنية، عندها سمح لهم فى الدخول. القاصة تعتبر ما دفعه اليهودى إلى التركى «رشوة، إلا أنها غير راضية عنها، إلا أنها تفهمت دوافعها (أريئلى مئير؛ ١٩٩٢).

الثانية- وعنوانها «أربعة رجال يشترون أرضا»، فيها تتحدث القاصة عن عملية شراء أراضى من «السيد قاصر العربى. الرجل بحاجة إلى المال ومستعد أن يبيع حتى لليهود». وقاصر يقطن فى يافا، ويريد بيع أراضيه التى فى ملبّس. أما سبب شراء الأرض فهو: «لأن أرض يسرئيل بحاجة إلى أن يشترى اليهود فيها أراضى. فقط عندما نشترى أراض فى أرض يسرعِل، نشعر أن لنا فيها جزءا وأنها بلادنا».

الثالثة- وعنوانها» أيضا أبى اشترى أراض»، إضافة إلى كون العربى بائع أراضى، فإنه أيضا مخيف. تقول: «خبر (شراء الأراضى) أرعبنى. فى الحال تخيلت كيف نسكن فى مكان منعزل، حوله قرى عربية، لا بيتا يهوديا واحدا. محاطين ببدو رحل وجيران غرباء، من المحتمل أن يفاجئونا وينقضون علينا». وعندما يصر الأب على هدفه بأن يصبح فلاحا. ترد عليه زوجته قائلة: «أنا أقول لك- قالت أمى لأبى- العمل فى الأرض ليس لك. العرب يعملون فى الأرض».

الرابعة- وعنوانها «اليمنى الصغير»، وتقص فيها قصة صبى يمنى يحاول بيع الجبنة فى المستعمرة اليهودية. على مدار عدة أيام رفض أيا من المستوطنين شراء شيئا منه. لنقرأ:

هذا الولد سار فى زقاقنا، ومرّ من بيت إلى بيت وصاح جبنة جبنة! كُتِبَت جبنة كما تلفظ فى العربية بلفظ مختلف. قليلا من العربية، وقليلا من العبرية، شىء غير واضح.

سألت أمى:

- أمى، لماذا يهرب الجميع منه؟

- لأن ما من أحد يعرف هذا الولد، بمثل هذه الأمور يجب الحذر.

- أية أمور؟- لم أتركها وشأنها- ماذا تعرفين عن هذا الولد؟ نظرت أمى إلى باستغراب، وقالت وصل هذا الولد من يورشليم قبل عدة أيام. جاء مع مجموعة مكونة من ٢٠٠ شخص. كل الذين جاءوا غامقى البشرة وضعاف البنية مثله. وهؤلاء يقولون أنهم يهودا وجاءوا إلى أرض يسرعِل، من بلاد اليمن. ولكن فى يورشليم لا يصدقونهم.

وتضيف: «كل الناس تكلموا ضده. وقالوا عنه عربيا، وقالوا عنه متخفيا (...) إلى أن وصل الأمر بأنها أغلقت الباب مرتين فى إحدى الليالى (...)». وعندما تيقنوا أنه يهودى أخذوا بشراء الجبنة منه يوميا. بعدها اعتبر يهوديا مثل بقية سكان المستعمرة.

اليهودية ـ المانوية

إن اليهود كمجموعات مهاجرين على مدى تاريخهم- كما يدعون- تمكنوا من بناء رواية (Narrative) خاصة بهم تميزهم عن الأمم والشعوب التى عاشوا بين ظهرانيتها. فقد أسقطوا على الآخرين جميع الصفات التى ميزتهم كمجموعات مهاجرين فى فترات عديدة من تاريخهم. قد طوّروا وبلوروا هذه الصفات إلى درجة التطرف واللاعقلانية، مثلا: عندما تصبح اللاسامية والعداء لليهود صفة جوهرانية مشتركة لجميع البشرية- باستثنائهم طبعا- تمتد جذورها إلى ٢٥٠٠ سنة خلت. إن تفكير كهذا، معناه رفض نقاش واحتمالية قبول رواية الآخرين عندما يتعلق الأمر باليهود. أى إنهم يحملون البشرية وزر ما حصل ويحصل لهم، كأنه استثناء، لا تشترك أى أمة من أمم البشرية فيه أو فى فصل من فصوله. ومعناه أيضا ابتزاز الآخرين من أصحاب النوايا الطيبة والخبيثة، التى لا تنظر إلى التاريخ نظرة علمية، من أجل دعمهم فى كل ما يتعلق بخلافاتهم مع الآخرين، مع العرب تحديدا.



كما أوضحنا: الآخر هو معادى لليهود منذ الولادة وبالوراثة. ولا ذنب أو مسؤولية تقع على عاتقهم فى صياغة صورته فى مخيلة ووعى الآخرين. وعند الحديث عن سبب عداء الآخرين لهم، يتم استعمال خطاب عنصرى مثلا: عبادات الآخرين ما هى «إلا رذيلة شهوانية تستحق الاحتقار والسخرية لأناس فقراء فى الوعى».

وعندما يتعلق الأمر فى العرب والمسلمين، يستل الكتاب والباحثون اليهود جميع الأدوات الاستشراقية، التى أصبحت منبوذة بين الباحثين والكتاب المتحضرين الذين يبحثون عن جميع السبل للحديث والتواصل مع الآخرين، وأن الحفاظ على خصوصية وهوية الآخرين هى جزء من الهوية الفردية والجمعية للفرد والمجموعات المتحضرة. ولا يزالون يصفون العرب قبل الإسلام من منطلق العداء، دون الإقرار بما أنتجه العرب من معارف شتّى شكلت إرهاصا كى تكون بلادهم مهد الإسلام الأول. وينكرون أن يكون الإسلام دينا إلهيا، علما أن جميع كتاباتهم فى العلوم الإنسانية والاجتماعية غارقة فى الرموز الدينية. هذا ناهيك عن التزوير والمعلومات المغلوطة التى تقدم بها الإسلام ونبيه ومجتمعاته.

أما فيما يخص صورة الآخر فى الأدب الشعبى، والتى تشكل تأسيسا مهما لصورته فى كافة حقول الأدب وعلم الجمال، فهى إما تركى مرتشى، وعربى يبيع أراضيه لليهود ولا يؤتمن له أو يمنيا يحمل صفات أى عربى آخر، لأن لون بشرته شبيهة للون بشرة العرب، حتى يتم التأكد بما يقبل الشكّ من يهوديته. هذا وتغيب صورة العربى الفلاح المزارع الذى يرفض بيع أراضيه للمستعمرين اليهود. أو المناضل إلى درجة الاستشهاد، كى يفشل مشروعهم الاستعمارى.

إن الثقافة التى تنتج صورة الآخر على هذه الشاكلة، لهى ثقافة مغلقة وترفض الاعتراف به ككيان مستقل، أو التعاشر معه على قدم المساواة. وما نراه نحن فى فلسطين من عداء دائم ومتواصل لهو نتاج هذه الثقافة فى بعض جوانبه. يمكن القول أن كتب التدريس تتبنى المانوية- نسبة إلى مانى- منطلقا فى فهم ورسم صورة الآخر- هم رمز الخير- والآخرين رمز الشر إلى يوم الدين.. هذا نتأكد منه إذا أعدنا إلى الأذهان صلاة يرددها اليهودى المتدين: «أبد يا إله يسرعِل كل جوى». فالآخرون ليسوا بشرا كما يقول الراب بار حييم من إحدى المدارس الدينية فى القدس: «توراة يسرعِل تقرر تمييزا بوضوح بين واحد من آل يسرعِل الذى يعرف كـ«إنسان» وبين الغريب» الذى هو ليس بإنسان.

وبعد، وما قمع اليهود- «الإسرائيليين»، وعدائهم لشعبنا الفلسطينى (القتل والتعذيب والسطو على أراضينا وممتلكاتنا يوميا) ولأمتنا العربية، إلا إحدى ترجمات هذه التربية. لذا يتوجب على كافة العاملين فى السياسة من فلسطينيين وعرب أن يدركوا أن اليهود «الإسرائيليين» يعادونهم عداء مانويا، لا تنفع معه كافة التنازلات... قرار التقسيم عام ١٩٤٧... إلى وثيقة جنيف عام ٢٠٠٣؛ وما الحل إلا المواجهة.. ■

كيف يتم اقتسام الكعكة؟

أعمل بمهنة الطب منذ عشرين عاما بالتمام، وأعرف منذ فترة طويلة، الكثير مما أنا بصدد الحديث عنه من ممارسات، وكنت أحاول جهدي أن أنأى بنفسي عنها، مكتفيا بالإنكار بقلبي (أي عدم المشاركة)، حتى حدثت الواقعة التالية، والتي تمس تخصصي مباشرة دون غيره من الفروع الطبية، وبشكل ذي آثار قد تكون كارثية، إذا ثبت، على المدى الطويل، ما تدعيه التقارير الطبية التي بدأت تتوالى. لحظتها، أحسست أن الصمت عن جريمة كهذه، بحد ذاته، هو جريمة. بل هو أسوأ، وإلا فما معنى قول الرسول الكريم: «الساكت عن الحق شيطان أخرس»؟ وإذا كان الله تعالى قد لعن قوما لأنهم «كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون»، ألا يليق بنا نحن «الدكاترة»، ممن اشتق اسمنا اللاتيني من الحكمة والقدرة على تعليم الآخرين (docere) أن ننأى بأنفسنا، وأن نقول «هناك حد» لممارسات البعض، من أطباء أو شركات دواء تجاه مرضانا، وأن نتقي الله، الذي لا إله غيره، فيهم؟



ساهمت شركات صناعة الدواء في تحقيق بعض من أهم الإبداعات البشرية خلال القرن المنصرم، من خلال مكافحة العديد من الأمراض، بل والأوبئة الفتاكة، وما يزال العطاء مستمراً. لكن هذه الشركات، وهنا نقطة الخلاف، قد انزلقت خلال العقدين الماضيين إلى درك، إن لم يتم التعامل معه بالحذر الواجب، فإن فيه - حتما - خسارتنا جميعاً.

كذا، فإن العاملين في حقل الرعاية الصحية، من أطباء وباحثين وصيادلة وفنيين وممرضين ومساعدين، ليسوا ملائكة بل بشر كسائر بني آدم، من لحم ودم. لذا، فإنه يجوز عليهم، كغيرهم، فعل الخير والشر. وللأمانة، فغالبيتهم العظمى ذوو مبادئ. لكن تصرفات قلة غير واعية قد أساءت للكثرة الصالحة، وهذا من طبائع الأمور. وقد جاء هذا المقال/الدراسة من منطلق الحديث الشريف «كلكم على ثغر من ثغور الإسلام، فلا يُؤتينّ من قِبَله» وبدافع الحب للجميع والحرص عليهم، فالكاتب ببساطة واحد منهم. وصَدِّيقك من صَدَقك، لا من صدّقك. أرجو الله أن ينفع بهذه المحاولة، وأن يتقبلها، وقبل ذلك أن يساعدني في إخلاص نيتي له وحده.



سأحاول في هذه الفقرة أن ألخص الواقعة المشار إليها: طرحت اثنتان من شركات الأدوية متعددة الجنسية عقارين لعلاج حالات الإكزيما الوراثية (Atopic Eczema) - والتي تنتشر أساسا في الأطفال، وبنسبة قد تصل إلى ثلاثين بالمائة - أولهما في ديسمبر ٢٠٠٠ (بروتوبيك مرهم) والثاني في ديسمبر ٢٠٠١ (إليديل كريم). وقد وصلت هذه العقاقير إلى أسواقنا منذ فترة ليست بالقصيرة. وقد شكك بعض الأطباء في مدى أمان كل من هذين العقارين منذ اليوم الأول، ولم يستمع لهم أحد. وفي يوم ١٠ مارس ٢٠٠٥، أصدرت إدارة الغذاء والدواء الأمريكية (FDA) - وهي الوحيدة المخولة حق ترخيص ومتابعة كفاءة أي مستحضر طبي في الولايات المتحدة والتي كانت قد منحتهما الترخيص بالبيع بداية - تحذيرا شديد اللهجة بخصوصهما، بناء على الدراسات الموثقة التي تلت استخدامهما في السنوات الماضية، داعية الجميع من أطباء وصيادلة ومرضى إلى الحذر الشديد من احتمال حدوث إصابات سرطانية مع استخدامهما على المدى الطويل (تحديدا سرطان الغدد الليمفاوية). كما ألزمت الشركتين باتخاذ سلسلة من الإجراءات الصارمة لإعلام العاملين في المجال الطبي وتوعية جمهور المستخدمين بتلك المخاطر، حتى يتم البت النهائي بمصير هذين العقارين، وهو ما لن يستغرق أقل من عشرة أعوام (والله وحده أعلم بما يمكن أن تكون الأمور قد تمخضت عنه طوال تلك الفترة). وقد أحدث هذا دويا في وسائل الإعلام الغربية التي أبرزت الموضوع في تقارير مفصلة، بشكل يكفي ويزيد للفت أنظار مستخدمي هذه الأدوية وتحذيرهم، وهذا هو الهدف الرئيسي من توصية FDA، لأن سحب هذه الأدوية أو غيرها من الأسواق تخضع لحسابات معقدة، ليست فقط طبية، كما سيرد لاحقا. المثير في الأمر أن الشركات المنتجة قد تفاعلت (هناك) بحرفية بالغة مع هذا التحذير فور صدوره. في المقابل فإن شيئا من ذلك لم يحدث في بلادنا. فرغم مرور أسابيع عدة على ذلك، فإن وسائل الإعلام لدينا قد صمتت صمت القبور تجاه المسألة. في الوقت ذاته، استمر المنتجون في الدعاية، والأطباء في وصف الدواء!! لذا فقد تساءلت: إذا كانت المجتمعات الغربية تموج هكذا بإمارات سنة «التدافع» الأزلية التي تجعلهم يقفون لبعضهم البعض، فمن لمرضانا الأبرياء؟ وسأترجم، حرفيا، مقدمة التوصية: وللاطلاع على النص الكامل يمكنكم استخدام الوصلة التالية للولوج إلى موقع FDA عبر الإنترنت: http:// www.fda.gov/cder/drug/advisory/ elidel_protopic.htm

توصية للصحة العامة

بشأن كريم إليديل ومرهم بروتوبيك «تصدر FDA توصية للصحة العامة لتخبر مقدمي الخدمات الصحية والمرضى عن خطر محتمل للإصابة بالسرطان جراء استعمال كريم إليديل ومرهم بروتوبيك، وهي منتجات توضع على الجلد. هذا الأمر مبني على معلومات مستقاة من الدراسات على الحيوانات، وعلى تقارير عن حالات إصابة سرطانية في عدد محدود من المرضى، وعلى كيفية عمل هذه العقاقير. ربما يستغرق الأمر عشر سنوات أو أكثر لتقرير ما إذا كان استخدام إليديل أو بروتوبيك مرتبط بالسرطان. في أثناء ذلك، فإن الخطر غير أكيد، وتوصي FDA باستخدام إليديل أو بروتوبيك فقط حسب التعليمات الواردة في النشرة الطبية، للمرضى الذين فشلوا في العلاج بغيره من الوسائل».

تتربع على عرش سوق الدواء في العالم عشر من الشركات الأمريكية والأوروبية، هي غالبا نتاج العديد من عمليات الاندماج التي أدت إلى ابتلاع الكبار للصغار في سوق لا يرحم. وكمثال: قد لا يعلم كثيرون أن شركة جانسن-سيلاج ما هي إلا فرع صغير في إمبراطورية ضخمة تدعى «جونسون آند جونسون»، وهكذا. ومن أراد التفاصيل فليتفضل بزيارة الموقع التالي على الشبكة: www .oligopolywatch.com.

وشركات الدواء ليست جمعيات خيرية، ومديروها ليسوا أطباء ولا حتى صيادلة بل رجال «بيزنس» هدفهم الربح ومبدؤهم «القيمة المضافة» طبقا لآدم سميث (بلغ إجمالي مبيعاتها الدولية ٤٠٠ بليون دولار عام ٢٠٠٢، والرقم المذكور للتو يشمل فقط حجم المبيعات المباشرة أي ما يشتريه المريض بوصفات طبية، ولا يتضمن ما يباع من دواء للمستشفيات



هل تعلم كيف يتم اقتسام «الكعكة»؟
من بين كل مائة قرش ينفقها المريض لشراء علبة دواء، فإن:

- **أقل من ١٥ صرفت على ابتكاره وتطويره،**
- **وأكثر من ٣٥ تذهب للإدارة والتسويق**
- **وحوالي ٢٥ للوسطاء**
- **والباقي لحملة الأسهم!**



أسامة رشدي

The Truth About the Drug Companies: How They Deceive Us and what to do About it
(الحقيقة حول شركات الدواء)
Marcia Angell
Random House, 336PP

ودور الرعاية. فإذا علمت أن صافى أرباح شركات الدواء من مبيعاتها هى الأعلى بين الشركات الصناعية والتجارية قاطبة (تصل أحيانا إلى٢٥٪ من إجمالى المبيعات) أمكنك أن تكون صورة مبسطة عمن نحن بصدد التعامل معه. ولرسم صورة أوضح فى ذهن القارئ: فقد حصد «العشرة الكبار» من شركات الدواء أرباحا صافية فى العام ٢٠٠٢ (عام منتهى الركود الاقتصادى) بلغت ٣٥.٩ بليون مقارنة بـ ٣٣.٧ بليون نصيب ٤٩٠ شركة التالية لها فى قائمة الـ ٥٠٠ الأهم فى كافة القطاعات. والأرقام دائما بالدولار الأمريكى!

ولما كانت أغلب الجزيئات الدوائية الأساسية (Molecules) المستخدمة اليوم فى عالمنا قد اكتشفت منذ عقود (كالكورتيزون، وأغلب المضادات الحيوية،....) ولما كانت الاتفاقيات العالمية تحدد فترة معينة لاحتكار الجزىء المكتشف (Patent)، لا يمكن تجاوزها، ويصبح من حق أى شركة تصنيع الدواء الذى ابتكرته شركة أخرى وبيعه بثمن يقل كثيرا عن السعر الأصلى، وإذا كان فقدان حق الاحتكار يمثل «مشكلة» للبعض «Pfizer» ستفقد خلال السنوات الثلاث المقبلة حق احتكار ثلاثة من مركباتها، تبلغ مبيعاتها السنوية تسعة بلايين دولار أمريكى، بما يناهز حوالى ١٧٪ من مبيعات هذه الشركة؛ بينما خسرت «Astra» ٦ بلايين سنويا بعد انتهاء احتكار «Prilosec») فإنه «الكارثة» بعينها بالنسبة لشركات أخرى، فهل تستطيع أن تتصور أن إحدى الشركات «Scherring Plough» بفقدانها احتكار أحد أدويتها الأكثر مبيعا «Claritine» (يسمون مثل هذه الأدوية التى تتجاوز مبيعاتها البليون كل عام Blockbuster) قد خسرت دجاجتها التى كانت تبيض ذهبا، حيث كان يحقق لها ثلث إجمالى مبيعاتها ؟!

وإذا كانت شركات السيارات - مثلا - تتحايل على موضوع فقدان حق الاحتكار بابتكار «موديل» مختلف كل عام، فإن الأمر ليس بهذه البساطة بالنسبة لجزيئات الأدوية والتى يتطلب ابتكارها سنوات طويلة من الكد. قد تفضى فى أحيان كثيرة إلى نتائج غير مرضية، إن من حيث الكفاءة الضعيفة، أو من حيث السمية التى قد تؤدى إلى أعراض جانبية شديدة الخطورة. وتثار الآن العديد من التساؤلات حول الأدوية التى فى طريقها لترى النور لأول مرة «Pipeline» لكثير من الشركات الكبرى.

إزاء ذلك، هناك طريقان لا ثالث لهما: الأسهل، وهو ما يعرف بأدوية «me-too» أى بالعامية المصرية «وانا كمان»! حيث تتلاعب الشركة بجزىء دواء ناجح له «حصة» ثابتة من «السوق» لتخرج دواء جديدا لا يختلف عن سابقه فى شىء تقريبا، بل قد يكون أسوأ، وكل ميزته أن «نصيبه» مضمون فى «كعكة» جاهزة (!) بفترة احتكار تمتد لسنوات وبسعر خرافى لا يمثل بأى حال حقيقة التكلفة الفعلية التى أنفقت على عملية تطويره «R&D» (مثال فى سؤال: ما هو الفارق الحقيقى بين أدوية خفض الكولسترول «Statins» الستة المتداولة؟).

ما يسهل على الشركات



فساد شركات الدواء!

القيام بهكذا فعل، هو أن FDA تكتفى بمقارنة الدواء المطلوب ترخيصه مع الـ «Placebo» أى أنها تقارنه بـ «الصفر» عوضا عن مقارنته بما انتهى إليه الآخرون (من بين ثمانية وسبعين دواء جديدا رخصتها FDA عام ٢٠٠٢ فإن سبعة فقط صنفت على أنها تحوى مواد فعالة مبتكرة وتمثل إضافة حقيقية لما هو متداول بالفعل)! الطريق الآخر محفوف بالمخاطر: أن تبتكر شيئا جديدا فعلا. المشكلة أنه قد يحوى بعض الآثار الجانبية المدمرة! عندئذ، على الشركة أن تبيع منه ما استطاعت بأسرع ما يمكن، قبل أن يجد ما ليس فى الحسبان. كيف يمكنها ذلك؟ الشيطان فى التفاصيل!

حين تكون الأمور بهذا الشكل، وهى أسوأ، يجب اللجوء لوسائل «احتيالية» من أجل إقناع «الجمهور» بهذا الدواء بدلا من ذلك! يترتب على ماسبق مباشرة ميزانيات خرافية للدعاية و«التسويق» بشتى الوسائل، لأن المنتج يعلم تماما أن سلعته لا تحوى ميزة حقيقية تجاه المنافسين! وإلا، فمن يستطيع أن ينافس من «يخترع» دواء ناجعا لعلاج السرطان؟!

هناك عامل آخر وراء الفساد الذى استشرى فى عالم صناعة الدواء: رغم أن شركات الدواء تستطيع الوصول بسهولة إلى الأسواق مقارنة بشركات السلاح، فإن هذه الحرية محدودة للغاية إذا قورنت بحرية شركات الشوكولاتة (على سبيل المثال) فى الوصول إلى «المستهلك» الذى هو فى حالتنا المريض. فمبيعات أى من شركات الدواء لا تعتمد على قدرتها على بث دعاياتها المباشرة للتأثير على ملايين «المستهلكين» فى سوق تنافسية حرة، كشركات الشوكولاتة، بل على قدرتها على ترتيب أمورها مع من يسمحون لها بالدخول إلى سوق أى دولة، ومن يقومون «بتصريف» الدواء أى الأطباء. لأن المستهلك الذى له حرية الاختيار بين أنواع عدة من الشوكولاتة المطروحة فى الأسواق، لا يستطيع أبدا - ومهما كان منصبه أو تعليمه- أن يقترح على الطبيب أيا من الأدوية ينبغى عليه أن يصفها له! حين نكون بصدد الحديث عن مبيعات بمئات الملايين من الدولارات مرهونة بقرار من فرد (المنوط به منح الترخيص) أو عدد محدود من الأفراد (الأطباء المتخصصون فى مجال هذا الدواء بالتحديد)، يصبح السؤال «متى» وليس «هل» يحدث الفساد؟.

فإذا أضفنا لهذا مصاريف الشركات والتى تشمل مصاريف التسويق الخرافية (كى يبيعوا الهواء فى زجاجات، على حد التعبير العامى، شديد الذكاء) والمصاريف الإدارية البالغة أرقاما فلكية (المدير التنفيذى «CEO» لشركة بريستول - مايرز - سكويب تقاضى فى العام ٢٠٠١ مبلغ ٧٤.٨٩٠.٩١٨ نقدا غير ٧٦.٠٩٥.٦١١ على شكل حصة من أسهم الشركة، بينما كان نظيره فى شركة وايث أقل حظا بكثير فلم يجن سوى ٤٠.٥٢١.٠١١ نقدا و٤٠.٦٢٩.٤٥٩ كأسهم، والمبالغ كلها بالدولار الأمريكى، ومن ثمانية أرقام، وليس بها أى خطأ)، ناهيك عن حقوق المساهمين، أمكنك أن ترسم مخططا للأسباب التى تقف وراء الفساد الذى يسرى فى أوصال تلك الشركات.

ما فتح الباب على مصراعيه لتنفذ منه «طيور الظلام» الدوائية قانونان صدرا إبان حقبة ريجان (١٩٨١-١٩٨٨). سمح أحدهما، ولأول مرة، لمراكز البحث العلمى بالجامعات بالحصول على تمويل مباشر من الشركات الصناعية، ومنها بالطبع شركات الدواء، دون فقدان منح التمويل الفدرالية. كان الهدف من تمرير القانون استنهاض الهمم لتطوير ابتكارات تقنية قادرة على إحداث طفرة فى شتى مجالات الصناعة تجعلها جديرة بمنافسة المنتجات اليابانية التى سحبت البساط بالفعل من تحت أقدام مثيلتها الأمريكية. فى المقابل، «ألزم» القانون الثانى شركات الدواء بأن تدفع مبلغ نصف مليون دولار لـ FDA نظير كل عقار جديد ترغب بتسجيله حتى تستطيع الأخيرة توظيف العمالة المناسبة لفحص الملف فى الوقت المناسب، حلا لما شكت منه الشركات كثيرا من البطء الشديد فى إجراءات التسجيل. فى المرتين، حين دخل المال من الباب، يبدو أن أشياء أخرى خرجت من الباب والشباك معا!

المشكل أن تكاليف الأدوية العلاجية هى الأعلى ضمن فاتورة الخدمات الصحية فى أى مكان. وفى الثمانينيات والتسعينيات ازدادت نسبة مبيعات الدواء من إجمالى الناتج المحلى الأمريكى، بعد طول ثبات لتبلغ حصتها عام ٢٠٠٠ ثلاثة أمثال ما كانت عليه قبل عقدين فقط، مما استفز قطاعات عريضة من أصحاب المصالح فى هذه المجتمعات الحية لوقف هذا الوحش الذى يكاد يلتهم الأخضر واليابس. فبدأوا بفتح ملفات تزكم الأنوف كرشوة الأطباء، التآمر للسيطرة على الأسواق، محاولة تسويق الدواء لغير الغرض المصرح به، الدعاية بشكل غير شرعى للتأثير مباشرة على المرضى، وطبعا التهمة الأهم: إخفاء الأدلة فى مجال الأبحاث العلمية، وصار الموضوع حاضرا أصيلا على جدول أعمال أى مؤتمر طبى عالمى، وانظر إن شئت مناقشات المؤتمر الأخير للجمعية الأوروبية للأمراض الجلدية.



إزاء كل ذلك، فإن هذه الشركات قد خرجت كالدب الجائع للبحث عن فريسة خارج نطاق عملها الرئيسى (الولايات المتحدة) باحثة عن أى زيادة ممكنة لحصتها من أسواق كانت تعدها حتى الأمس القريب هامشية، ومنها منطقتنا. فبدأت بإطلاق حملات مكثفة لزيادة «حصتها» من «أسواقنا» بأى ثمن، فى بلاد تئن أصلا تحت معدلات تنموية تكاد تأتى فى القاع مقارنة ببقية مناطق العالم. هذا، مع غياب الشفافية والمحاسبة لدينا، شكل ضغوطا أوصلت الأمور فى «سوق» الدواء لدينا فى السنوات القليلة الماضية إلى وضع لا يمكن تصديقه، ناهيك عن تقبله.

والتركيز فى الحديث على السوق الأمريكى مبعثه أنه الأكثر إنتاجا واستهلاكا (نصف مبيعات العالم)، وموافقة FDA أمر مبدئى للحصول على الترخيص فى العديد من الدول. ومن الافتئات على الحقيقة القول أن الشركات الأمريكية هى سيئة بحكم «الجنسية». فهذا تبسيط مخل، لأن العولمة قد «نزعت الجنسية» عن هذه الشركات فصارت تعرف بـ «متعددة الجنسيات» أو «عابرة القارات». ومن نافلة القول أن الشركات المحلية لم تكن متفرجا بريئا، بل أدلت بدلوها لتأخذ «حصتها» من «السوق»، ودع عنك كل ما تسمع من أشعار تتغنى بـ «الوطنية». والإحالة إلى مراجع غربية فقط مرده أنه لا توجد (على حد علمى) أى بيانات عربية موثقة فى هذا الباب.

فساد من أعلى الرأس

تقوم الشركة بتقديم منتج جديد لعلاج مشكلة ما إلى الأوساط العلمية الطبية، عبر المؤتمرات والمجلات المعروفة. قبل ذلك تكون، وعن طريق أبحاث ممولة، قد طعنت فى الدواء المنافس الموجود فى السوق منذ سنوات (والذى ربما كان أصلا من ابتكارها هى!). أحيانا، يكون الأمر أكثر تعقيدا، حيث تسعى أولا إلى «خلق» مشكلة طبية، ومن ثم «ابتكار» علاج لها(1). بعد ذلك، تتقدم الشركة بطلب للهيئات المعنية للحصول على الترخيص لطرح الدواء «المعجزة» فى الأسواق. تبدأ بيعه بأسعار فاحشة، مقارنة بسابقه. وحين «يكتشف» بعد مضى بعض الوقت أن الدواء الجديد يسبب كذا وكذا من أعراض جانبية مدمرة - جلطة، سرطان، انتحار... (نعم، أنا أعنى ما أقول)- تقوم الشركة، مشكورة، بالتنبيه على هذا العرض، أو حتى سحب الدواء تماما من الأسواق بشكل طوعى، وتغسل يديها منه، تجنبا لملاحقات قضائية هناك، قد تؤدى إلى إفلاسها، بعد أن أدى الدور المطلوب، وبيعت منه ملايين العبوات ببلايين الدولارات (أحد العقاقير التى ثار الجدل حولها مؤخرا بلغت مبيعاته السنوية ٣,٣ بليون دولار).

وهذا السيناريو يتكرر مع العديد من الأدوية، بيعت بعشرات بلايين الدولارات، خلال الأعوام الماضية.

الآن ستسألنى سؤالين: الأول، كيف تتمكن الشركة من الحصول على الترخيص لدواء له مثل هذه الآثار المدمرة؟ وأين دور الهيئات المسئولة فى الغرب؟ والرد بكلمة: المال. ولكن، بعدما فاحت الروائح فى الآونة الأخيرة، بدأت هذه الهيئات، حفاظا على سمعتها، بالتشدد فى سياستها تجاه ما تتلقاه من



طلبات ترخيص، كما تقوم حاليا بمراجعة ما كانت قد أصدرته من تراخيص سابقة، وتتبع هذه الأدوية عبر ما يعرف بال Post marketing studies، (للعلم هذه الدراسات هى جزء دائم فى عملية مراقبة كفاءة أى دواء، لكن الجديد هو التشدد الواضح فى معايير السلامة مقابل أى اعتبارات أخرى). وسأسرد هنا شرحا لتوثيق هذا الكلام، كى لا يكون الأمر مجرد ادعاءات مرسلة:

الشركات تتلاعب بالدراسات

الدراسات المنشورة فى المجلات الطبية المتخصصة هى إحدى أهم الأدوات للتأثير على قرار الطبيب فى وصف الدواء. والشركات تعى ذلك تماما، وتقوم بالواجب وزيادة. كيف يحدث ذلك؟ للتلاعب مستويات عدة:

«قابلية التكرار» (Reproducibility) هى أحد المقومات الأساسية لنظرية البحث العلمى والمبدأ بسيط: حين نكرر التجربة تحت نفس الظروف فإنه ينبغى أن نتوقع الحصول على نفس النتائج. الواقع ليس كذلك! نشرت مجلة JAMA دراسة أثبتت أن العقاقير المستخدمة فى علاج بعض الأمراض كانت ضارة فى ٣٨٪ من الدراسات التى مولتها جهات محايدة. نفس العقاقير كانت ضارة فقط فى ٥٪ من الدراسات التى مولتها الشركات المنتجة. التفسير تقدمه لنا الدكتورة مارسيا أنجيل، المحررة السابقة لمجلة New England Journal of Medicine ذات السمعة المحترمة فى الأوساط الطبية، والعلمية عموما، على مستوى العالم: «يمكن برمجة أى دراسة بشكل مسبق لتحصل منها على ما تريد سلفا من نتائج، كما يمكنك أن تتحكم بما ستواصل العمل عليه من بيانات حصلت عليها أثناء الدراسة، يمكنك أيضا أن تتحكم بطرق التحليل الإحصائى لهذه البيانات، كذلك يمكنك أن تتلاعب بشرح النتائج». بل هناك ما هو أسوأ، بعض الدراسات التى ترسل للنشر تحجب، ببساطة (!)، البيانات التى تخالف أو حتى لا تدعم الرسالة التى تريد الشركة إيصالها إلى جمهور القراء من أطباء أو غيرهم كالعاملين فى بورصة الأوراق المالية.

إذا لم تكفك هذه الحيل، فهناك المزيد: «مقالات الأشباح» حيث تقوم الشركة بـ «تدبيج» مقال ثم تضع عليه أسماء مشاهير. انتهى. ومن أراد التفصيل، فعليه بالمقال الضافى الذى حققه أنتونى بارنيت فى الأوبزيرفر منذ عامين[2]!

Copyrighted Material

The Truth About the Drug Companies



HOW THEY DECEIVE US AND WHAT TO DO ABOUT IT

MARCIA ANGELL, M.D.



بعض الدراسات التى ترسل للنشر تحجب، ببساطة (!)، البيانات التى تخالف أو حتى لا تدعم الرسالة التى تريد الشركة إيصالها إلى جمهور القراء من أطباء أو غيرهم كالعاملين فى بورصة الأوراق المالية



..والمرضى يدفعون الثمن

كمثال، أثار برنامج Panorama التلفزيونى ذائع الصيت فى بريطانيا، قضية أمان الأدوية، فى حلقة حققت أعلى نسبة مشاهدة فى تاريخه. وقد ناقشت مجلة Lancet الطبية الشهيرة مدى التزام الباحثين بنشر ما يتم التوصل إليه من نتائج بأمانة، حيث ثبت أن مانشر بصدد فاعلية وأمان مضادات الاكتئاب فى حالات الأطفال، مجاف تماما لما تم التوصل إليه حقا. وفى دراسة[3] نشرتها Canadian Medical Association Journal تنقل عن تعميم داخلى أصدرته شركة GSK لباحثيها بعد أن أجروا دراسة على تأثير عقار Seroxat فى الأطفال، ما نصه: «سيكون من غير المقبول تجاريا أن نقول أن الدواء ليس له فاعلية، لأن هذا سيضعف من صورته»! فى هذا الصدد، تقول مجلة Lancet فى افتتاحية لها: «إن احتمال تزايد حالات الانتحار بين الأطفال بسبب تناول دواء، يفترض أنه يحسن الوضع، هو كارثة. وفكرة أن دواء يستخدم بناء على تقارير انتقائية للأبحاث المفضلة، هو أمر لا يمكن تخيله». بعد افتضاح الأمر، تم تعليق استخدام الدواء لمن هم دون الثامنة عشرة، فى بريطانيا (بلد المنشأ). بالمناسبة، بلغ مجموع مبيعات الشركة المذكورة من هذا الدواء ما قيمته خمسة بلايين دولار!!!

فى واقعة أخرى: فى شهر مارس من العام ٢٠٠٠، سحبت FDA عقارا لعلاج مرض السكرى يدعى Rezulin، من الأسواق، بعد الحديث عن ارتباطه بما لايقل عن ٩٠ حالة فشل كبدى و٦٣ حالة وفاة. وقد جاء هذا القرار بعد ثلاث سنوات من ترخيصها له، وسط تهليل صاحب انطلاقته، حين نقلت وسائل الإعلام المتداولة عن خبراء فى مرض السكرى تقديرهم للدواء واصفين إياه أنه: «حل مبتكر تماما». وقد حققت الشركة المصنعة «Warner-Lambert» ارتفاعا قياسيا فى أسعار أسهمها بلغت نسبته ١٤٤٪ آنذاك. سحب العقار بعد تدخل الكونجرس. وقتها، كان قد بيع لمليونى مريض، بإجمالى ١.٦ بليون دولار. قبل نهاية العام ٢٠٠٠ بيعت «Warner-Lambert» لـ «Pfizer».

والتفاصيل ذات دلالة، لدرجة تستحق شيئا من التفصيل. ففى أواخر عام ١٩٩٦ عزلت FDA الدكتور جون جرجيان من رئاسة اللجنة المنوط بها تقييم طلب الترخيص للدواء بعد توصيته بعدم طرحه فى الأسواق لآثاره الخطيرة، وحل مكانه الدكتور روبرت مسبن الذى بارك الدواء وأوصى بطرحه.

بحلول خريف عام ١٩٩٧، كانت FDA قد بدأت تتلقى تقارير عن وفاة مرضى يعالجون بهذا العقار نتيجة لفشل فى الكبد، وهو العرض الجانبى الذى كان الدكتور جرجيان قد حذر منه بدايةً. تم سحب العقار من الأسواق البريطانية فورا. استماتت الشركة فى الدفاع عن منتجها داخل أمريكا، وظهرت أبحاث تؤيدها، واحد منها فى New England Journal of Medicine أشار بشكل طفيف إلى السمية التى يحدثها هذا الدواء فى الكبد، قائلا أنه: «يتقبل من الجسم بشكل طيب، وأن أغلب الآثار الجانبية، تعتبر ناجمة عن الإصابة بالسكرى نفسه». العديد من الأطباء الإكلينيكيين، ممن تربطهم صلات بالشركة المصنعة، استحثوا FDA ألا تسحب ترخيص هذا الدواء. وطبقا لتحقيق صحيفة لوس أنجلس تايمز المدوِى، فإن اثنى عشر عالما على الأقل، من أصل اثنين وعشرين ممن لعبوا دورا رئيسيا فى الدراسة الممولة من قبل الحكومة الاتحادية، قد تلقوا أيضا دعما من الشركة المصنعة. بينما احتفظ أربعة من بين الإثنى عشر عضوا فى لجنة FDA التى صوتت لصالح ترخيص هذا الدواء بصلات مالية مع هذه الشركة.

مثال ثالث: فى سبتمبر من العام ٢٠٠٠ قامت مجلة JAMA (ذات الوزن المعروف عالميا) بنشر دراسة[4] تقارن بين عقار «Celebrex» وغيره من عقاقير مضادات الالتهاب. وكانت الشركة المنتجة قد بدأت هذه الدراسة لتظهر أن منتجها (الأحدث)، يحدث نزيفا بالمعدة (كأثر جانبى) بدرجة تقل عن مثيلاتها من المجموعات الأخرى (الأقدم). الدراسة الضخمة، التى تابعت بيانات أكثر من ٨٠٠٠ مريض لستة أشهر، أظهرت نتائج لا تقبل الجدل: كانت الأعراض الجانبية أقل بين المرضى المستخدمين للعقار «Celebrex». (بالمناسبة: بلغت مبيعات هذه المجموعة فى ذلك الوقت ٣,٣ بليون دولار أمريكى، تضاعفت فيما بعد. وهى تضم أيضا عقارى Vioxx ËBextra، اللذان تم سحبهما من الأسواق مؤخرا لآثارهما الخطيرة، التى قد تكون مميتة)

بعد عام واحد، تسربت أنباء إلى صحيفة واشنطن بوست بأن المرضى قد تمت مراقبتهم بالفعل طوال اثنى عشر شهرا، وقت تقديم الدراسة للنشر فى JAMA، وليس لستة أشهر، كما زعم المقال المنشور. ما حدث هو أنه فى النصف الثانى من الدراسة (التى لم ولن تنشر أبدا بشكل كامل)، عانت مجموعة المرضى ممن استخدموا العقار الجديد من نسب أعلى من الأعراض الجانبية مقارنة بأولئك الذين استخدموا العقاقير التقليدية. ومما زاد الطين بلة، أن هؤلاء الذين استخدموا العقار الجديد بدأت تظهر عليهم أعراض مشاكل خطيرة فى القلب بنسبة أكثر من ثلاثة أمثال أولئك الذين استخدموا الدواء التقليدى. من أجروا الدراسة (وكلهم إما مستشارون لدى الشركة المصنعة (Pfizer)، أو موظفون لديها) دافعوا عن قرارهم بنشر الجزء الأول من الدراسة فقط قائلين أن العديد من المرضى ممن استخدموا الدواء التقليدى توقفوا عن الانتظام فى المراجعات بعد مرور ستة أشهر من بداية الدراسة، مما جعل الحسابات الإحصائية عصية على التحليل!!

فى هذه الأثناء، كان نشر هذا المقال، والافتتاحية المؤيدة له فى JAMA، قد ساهم فى تحقيق مبيعات ضخمة لهذا الدواء. وعلى كلٍ ما حدث لم يعد ممكنا تداركه، فقد آتت الدراسة أكلها فى الترويج للدواء، بأكثر مما تجدى معه أى من تحذيراتنا فى النشرة المرفقة معه»، والكلام على عهدة روبرت تمبل، مدير السياسة الطبية فى FDA.

و إذا كانت الأمور لديهم قد وصلت إلى هذا الحد، فإن الوضع عندنا أسوأ بما لا يقاس.

أولا: دراسات ما بعد التسويق التى ذكرت آنفا، تتم عندهم على النحو التالى: تقوم الشركة المنتجة للدواء الجديد - عبر مندوبيها -

بالاتفاق مع الطبيب على أن يجرب الدواء الجديد على عدد من المرضى، بعد إفهامهم أن هذا الدواء قد طرح فى الأسواق حديثا بعدما صرحت به الهيئات المعنية وبعد استكمال الاختبارات المعملية والإكلينيكية اللازمة. تقوم الشركة عندئذ بإمداد المرضى عبر الطبيب - بكميات من الدواء تكفى للعدد المتفق عليه من المرضى طوال فترة الدراسة، كعينات مجانية. بعد نهاية الدراسة تقوم الشركة بدفع مبلغ زهيد للطبيب (مقارنة بدخله).

ما يحدث لدينا مختلف بعض الشىء! تقوم الشركة المنتجة للدواء الجديد - عبر مندوبها - بالاتفاق مع الطبيب على أن يجرب الدواء الجديد على عدد من المرضى لفترة متفق عليها، بعد إفهامهم أن هذا الدواء قد طرح فى الأسواق حديثا ويتميز عن سابقيه. على المريض أن يقوم بشراء الدواء إلى أن ينصحه الطبيب باستبداله بآخر ذى مزايا أفضل. بعد نهاية الدراسة تقوم الشركة بدفع مبلغ للطبيب لا يعتبر بأى حال زهيدا (مقارنة بدخله). أحيانا تكون المكافأة عينية (رحلات، أجهزة، ....).

كثير من الأطباء يرفضون المشاركة فى هذه الصفقات.

نقطة نظام: نحن بصدد الحديث عن أدوية غالبًا ما تستخدم لسنوات (أو بالأحرى طوال حياة المريض، أطال الله عمره) لعلاج أمراض مزمنة، كارتفاع ضغط الدم، ارتفاع مستوى الكولستيرول بالدم، السكرى، مشاكل الكبد، الإكزيما المزمنة، ....

ثانيا: تتكفل وسائل الإعلام لديهم بفضح أى ممارسات مشينة فور اكتشافها. وفى حالة بعض الأدوية التى لم يتم سحبها رغم الحديث المتكرر عن مخاطرها، فالفضيحة الإعلامية المرافقة تقوم باللازم وزيادة (هناك)، بما يهبط بالمبيعات (هناك) إلى الصفر أو يكاد. وإلا، فأى طبيب يجرؤ على كتابة دواء مشبوه، مهما بلغ حجم الإغراءات من الشركة المصنعة. مرة أخرى، ما يحدث لدينا مختلف بعض الشىء! تستمر المبيعات فى ازدهار، وطوبى للمرضى.

السؤال التالى هو: ما علاقة كل ذلك بالأطباء؟ وهنا تكمن أخطر الحلقات: توظف شركات الدواء جيوشا من الصيادلة والأطباء فى بلادنا (فى أغلب أنحاء الدنيا، يعمل فى هذا المجال أخصائيو تسويق، لا غير) للعمل، فيما يعرف بالمكاتب العلمية، وظيفتهم الرسمية هى «العمل كقنوات اتصال بين الشركة والأطباء الممارسين لتعريفهم بكل جديد عن منتجات الشركة، وأفضل السبل لاستخدامها، والرد على أى استفسار بهذا الخصوص، ونقل ملاحظاتهم وتعليقاتهم عن هذه المنتجات إلى الشركة». إلى هنا ينتهى «الكلام المباح» العلمى الرسمى والعظيم، وينحو بنا الحديث منحى مختلفا تماما، فنحن الآن بصدد «بيزنس» من العيار الثقيل لا أكثر (شركة MSD خسرت فى ليلة واحدة ٢٦ بليون دولار (٢٧٪ من قيمة أسهمها فى البورصة) بعيد الإعلان عن سحب عقار Vioxx لما يحدثه من أضرار، والذى كان يحقق لها ١٠٪ من مبيعاتها السنوية).

الجـــزرة أو الـــعـــصـــا

نحن أمام المشهد التالى:

١. شباب أفنى زهرة العمر فى تحصيل العلم. فبعد أن أتم المرحلة الثانوية بتفوق أهله لدخول إحدى كليات القمة: الطب، الصيدلة،... واصل الليل بالنهار حتى يستطيع التخرج من هذه الكليات بتقدير مشرف. ثم، أما بعد؟! ما الذى ينتظره؟ هناك سوق عمل متخمة مسبقا بمن فيها ناهيك عمن هم خارجها من جيوش العاطلين.

٢. على الجهة الأخرى: شركات تعطى ليس فقط وظيفة، بل راتبًا ممتازًا (إذا قارناه بما هو متاح لو وجدت وظيفة من الأساس)، وغالبا ما تعطى أيضا سيارة، وسفريات إلى أماكن جديدة أثناء العمل، إضافة إلى وعود بمكافأة تسويقية لو تخطيت حدا معينا من المبيعات. الفتنة التى نسأل الله العافية منها، هى ظاهرة الاستمراء «ران على قلوبهم» فنظام هذه الشركات يجعل لك هدفا واحدا: أن تبيع. ولا تسل: كيف. حين تنجح فإنهم سيرقونك، بلا سقف ولا معيار إلا «الكفاءة»، هذا يعنى راتبا أكبر، وأسلوب حياة أفخم (سيارة، منزل، مدارس لأولادك...). كل هذا سيجعلك تستمرئ السحت، لتصير كمدمن الهيروين، تفعل أى شىء لتحصل على بغيتك.

هذه، إذن، هى الجزرة التى لو عثرت على مصباح علاء الدين لما تمنيت عليه - كخريج برىء - أكثر من ذلك. أنت تحتاج إلى رجال كمصعب وعمار ليترددوا فى قبول هذا العرض، سائلين عن «العصا»؟ فما عساها أن تكون؟ الطرد. نعم. ستفقد عملك فى أى لحظة لا تنجح فيها فى تحقيق حد معين من المبيعات، يتزايد كل عام. بالمناسبة، هناك حيلة قذرة يلجأ إليها بعض المدراء المحليين: إذا طلبت منه شركته بالخارج زيادة المبيعات ٤٪ هذا العام فإنه يخبر من دونه أن المستهدف ٦٪، وهكذا وصولا إلى المندوب الذى قد يطلب منه ٢٠٪. حين يستطيع المندوب تحقيق نصف الزيادة (١٠٪) فإنه يعتبر فاشلا ولا مكافأة له، لكن رؤساءه يكونون قد نجحوا فى الحصول على حصص سخية! دائما هناك ميزانية لـ «دعم» للأطباء الذين «تراهم مناسبين» (!). وكل لبيب بالإشارة يفهم. فى كل الأحوال، تصرفاتك على مسئوليتك الشخصية. حين تفوح الرائحة، سيحدثونك عن مدونة سلوك (Code of Conduct).

وهناك طريقتان للتسويق، أفقية ورأسية. الأولى تصلح للأسواق الخام، والثانية للأسواق المشبعة. هب أنك تريد أن تسوق نوعا من الشوكولاتة فى سوق لم يعرف هذا الصنف من قبل، هذا هو التسويق الأفقى، حيث تستطيع بقليل من الدعاية أن تصل إلى بغيتك. أما لو أردت أن توزع نفس المنتج فى سوق متخم (إحدى الدول الخليجية، على سبيل المثال) فينبغى عليك أن «تبتكر» شيئا جديدا (kinder surprise مثلا) يجعل «المستهلك» يختار سلعتك تحديدا. هذا هو التسويق الرأسى. الآن، نعود إلى موضوعنا: شركات الأدوية. تريد الشركة لا أن تحافظ على مبيعاتها السنوية، بل أن تزيدها، فى سوق ليست فقط مشبعة بل تزداد حدة المنافسة فيها عاما بعد آخر، فى الوقت الذى لا تتزايد فيه أعداد المرضى بنفس النسبة. الحل: إما أن تطعن فى الأدوية المنافسة (إن من حيث الكفاءة أو الأمان)، أو أن «تبتكر» دواعى استعمال جديدة لنفس الدواء، أو حتى أن «تخترع» أمراضا لم تكن موجودة من قبل بالمرة، حيث يتم إقناع الطبيب، والذى عليه فيما بعد أن يقنع المريض، بأن هناك مشكلة، وليس لها من حل سحرى سوى هذا الدواء.



المعالجون: الصفقة

تبدأ شركات الدواء بإغراء طلبة الطب والأطباء الجدد بـ «هدايا» رمزية، من أقلام وأكواب تحمل شعار الشركة. يتزايد الأمر تدريجيا إلى عشاء خفيف (ثم ثقيل!). صعودا إلى الـ «هدايا» الأثقل من «رمزية»، والتى تشمل فيما تشمل مختلف الأجهزة الألكترونية، حتى يصل الأمر إلى دعوات بالسفر بالطائرة على الدرجة الأولى والإقامة الكاملة لحضور مؤتمرات «علمية»، فى فنادق الخمس نجوم، التى ربما تكون فى منتجعات داخل البلاد، أو حتى فى الخارج. البعض قد يحصل على سيارة! (يعتمد الأمر على الطبيب الذى تقدم له الـ «عطايا»، فكلما كان اسما مشهورا، بمعنى أنه يتردد عليه مرضى كثر أو يتأثر بآرائه العديد من صغار الأطباء، زاد «الثمن»)! لم يسأل أحد: «هدايا» مقابل ماذا؟ قدم لى مندوب إحدى الشركات دعوة لحضور مؤتمر «علمى» بإحدى حواضر الغرب، وأكد لى أن شركته غير بقية الشركات «فنحن لسنا ممن يعقد صفقة يشترط بموجبها على الطبيب كذا وكذا» فسألته: إذن، لو قبلت وسافرت ثم عدت فلم أكتب الدواء الذى تسوّقونه، هل ستدعوننى ثانية؟ فحدّق فىّ ثم قال: «بصراحة، لا، لأن مديرى سيوبخنى»!

أحيانا (وهذه نسبتها أقل كثيرا)، تكون الأمور أكثر فجاجة، ويكون «اللعب على المكشوف»، فلا حاجة للتستر خلف دواعى استعمال «مبتكرة» أو أمراض «مستحدثة» أو حتى أفضلية من حيث الفاعلية أو حتى أمان الاستخدام والآثار الجانبية، وعندها، يصبح «الدفع نقدا» لكل علبة دواء (!) أى أن يعقد الطبيب صفقة مع الشركة مفادها: «كم تعطوننى نقدا نظير كل علبة أكتبها على وصفة لمريض؟» بعض الأطباء

يطلب من المريض شراء الدواء من صيدلية معينة (حتى تسهل عليه وعلى مندوب الشركة عملية متابعة وعد ما كتبه) والبعض الآخر يقوم بطباعة الوصفات من أصل (يسلم إلى المريض)، وصورة (تسلم إلى مندوب الشركة)، حتى يثبت «صدقه» (!) أمام الشركة.

ولقد أخذت الأمور منحى تصاعديا فى السنوات الأخيرة، حتى أن رئيس تحرير إحدى الدوريات الطبية عنون افتتاحية متسائلا: «هل تلاشت الشراكة الطبية؟ هل تغير دور مندوبى شركات الدواء، أم أننى وحدى فقط أشعر بهذا؟»[5]. ساقتنى الأقدار لأسمع الحوار التالى - حرفيا - مرات عدة: طبيب يخاطب مندوب إحدى الشركات قائلا: «شركة كذا تعطينى كيت وكيت، لأكتب لهم، فماذا ستعطوننى أنتم؟»، فيرد عليه المندوب قائلا: «تأمر ياأفندم. اللى تشوفه حضرتك». وقد استفزنى الأمر ذات مرة، فسألت «أحدهم» مباشرة: ألا تشعر بالحرج؟ فأجابنى على الفور: مم؟ فتلعثمت لبرهة قبل أن أرد عليه، وقد احمر وجهى خجلا، قائلا: من الحرام؟ فقال لى - بجراءة لا يحسد عليها -: لماذا؟ هل ترانى أسرق؟ هذا حقى! هل تدرى كم يكسب هؤلاء اللصوص؟ ثم إننى لم أفعل أكثر من فلان وفلان، هم يأخذون «حقهم» أجهزة كذا وكذا أو تذاكر طيران. بينما أنا أحصل على «حقى» نقدا. انتهى. لا تعليق.

حين يتم تعويد الطالب على تقبل هذه الـ«هدايا» ببساطة منذ بداياته الأولى، وحين يتطلع حوله فيرى «أساتذته» الذين يمثلون له القدوة يمدون أيديهم لتقبل «رشاوى» شركات الأدوية (نعم، هذا هو الوصف اللائق) فبالله عليك، ماذا تتوقع منه حين يكبر قليلا ليبدأ بممارسة الطب؟ هل أترك الإجابة لفطنة القارئ الكريم؟ لا، بل أجد نفسى مضطرا للإخبار بأن معظم الأطباء يعتبرون «عطايا» الشركات هذه «حقا» واجب السداد - لا أدرى عن ماذا؟ هل هم حملة أسهم؟! -. تتساءل الدكتورة أنجيل: «هل لك أن تتصور قاضيا يحكم بين شركتين متخاصمتين، يمتلك هو نفسه إحداهما؟! وهو يدافع عن موقفه قائلا: لا تنزعجوا، فأنا قاض وقد تعلمت كيف أقيّم الأمور بعيدا عن العواطف. ما رأيك فى هذا «المنطق» أو بالأحرى، اللا منطق؟ بالطبع هذه ستكون قمة المهزلة!». الأمر، بحذافيره، ينطبق على الأطباء المعالجين، ومن باب أولى على أساتذة كليات الطب، ممن يتأثر بآرائهم ألوف الطلبة والأطباء الشبان. فكما لا يجوز للقاضى أن تربطه صلات مالية بأى من المتخاصمين لديه، لا يجوز للطبيب أن يرتبط - بأى شكل - بأى من شركات الدواء. أظن الأمر بسيطًا ومبدئيًا لا يحتاج إلى شرح أو تفصيل، إذا خلصت النوايا لله رب العالمين.

بل حتى فى الغرب، كما استشهدت للتو، يعتبر هذا تضاربا فى المصالح (conflict of interests)، وهو أمر غير مقبول قانونا.

وختاما: فبعض المسابقات، كاختبار الزمالة البريطانية مثلا، تنتهى باختيار أفضل عدد محدد سلفا من المتبارين، مما يجعل أخطاء البعض تبرر نجاح آخرين. إلا أن الأمر يوم القيامة ليس كذلك. فالقرآن الكريم ينبئنا بالحوار التالى: «وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد»، فشيوع معصية ما، لا يعطى أيا كان رخصة لارتكابها.

ملحوظة: لا يتسع المقام للحديث عن «سوق» ما بات يعرف بمنتجات العناية بالبشرة أو «Cosmeceuticals» (كدهانات ترطيب الجلد والوقاية من الشمس وإزالة البقع) فهذه تحتاج إلى مجلدات لكشف ما لا يخطر على بال! ■

هوامش

(1) Moynihan, R: The making of a disease: female sexual dysfunction. BMJ 2003; 326: ٤٥-٤٧.

(2) Barnett A: Revealed: how drug firms 'hoodwink' medical journals. Pharmaceutical giants hire ghostwriters to produce articles - then put doctors' names on them. The Observer. December 7, 2003.

(3) Kondro W: Drug company experts advised staff to withhold data about SSRI use in children. CMAJ, 170 (5), 2004;.

(4) Silverstein FE, Faich G, Goldstein JL, Simon LS, Pincus T, Whelton A, Makuch R, Eisen G, Agrawal NM, Stenson WF, Burr AM, Zhao WW, Kent JD, Lefkowith JB, Verburg KM, Geis GS: Gastrointestinal toxicity with celecoxib vs nonsteroidal anti-inflammatory drugs for osteoarthritis and rheumatoid arthritis: the CLASS study: A randomized controlled trial. Celecoxib Long-term Arthritis Safety Study. JAMA. 2000 Sep 13;284 (10):1247-55.

(5) Setness PA: Dissolution of a good partnership? Has the role of medical representative changed or is it just me? Postgrad Med 106 (1): 11-16, 1999.

كتاب الزاوية



ديوان الطرب

محمد عبد الوهاب

خدعوها بقولهم حسناء

خدعوها بقولهم حسناء ... والغوانى يغرهن الثناء
ما تراها تناست اسمى لما ... كثرت فى غرامها الأسماء
إن رأتنى تميل عنى كأن لم ... تك بينى وبينها أشياء
نظرة فابتسامة فسلام ... فكلام فموعد فلقاء
يوم كنا ولا تسل كيف كنا ... نتهادى من الهوى ما نشاء
وعلينا من العفاف رقيب ... تعبت فى مراسه الأهواء
جاذبتنى ثوب العصى وقالت ... أنتم الناس أيها الشعراء
فاتقوا الله فى قلوب العذارى ... فالعذارى قلوبهن هواء

أحمد شوقى

علموه كيف يجفو

علموه كيف يجفو فجفا ... ظالم لاقيت منه ما كفا
مسرف فى هجره ما ينتهى ... أتراهم علموه السرفا
جعلوا ذنبى لديه سهرى ... ليت يدرى إذ درى الذنب عفا
غصن بان كلما عاتبته ... عطفته رقة فانعطفا
وإذا مثلته فى خاطرى ... صفق القلب إليه وهفا
أنا سهران على عهد الهوى ... لم أنم وهو بعهدى ما وفا

أحمد شوقى

"الوعى" ما

جون ر. سيرل

■■ فى الفترة الأخيرة كُتب الكثير عن موضوع الوعى Consciousness، ويعود الفضل إلى إحياء الاهتمام بفروع علمية مختلفة مثل الفلسفة وعلم النفس والعلم المعرفى والبيولوجيا العصبية. ومن بين هذه المجالات المختلفة للبحث أعتقد أن أكثرها احتمالاً لإعطاء نتائج طويلة المدى هو البيولوجيا العصبية Neurobiology، حيث يجرى الآن سباق من أجل حل مشكلة الوعى.

ما هى المشكلة بالضبط وكيف نحسب أن بإمكاننا حلها؟ إن هدفنا العلمى النهائى هو اكتشاف كيف يقوم المخ بإنتاج كل حالات وعينا وأين وكيف توجد وتعمل هذه الحالات فى المخ بالضبط. ولا يمكننى المبالغة فى أهمية هذا المشروع. وإذا أصبح لدينا نظرية كاملة لكيفية وجود هذه الحالات الذاتية من الوعى بدقة وكيفية أدائها كجزء من العالم الحقيقى، فإن ذلك سيكون واحداً من أكثر الإنجازات العلمية إثارة عبر كل العصور. لماذا لا يستطيع باحثو المخ إجابة هذا السؤال؟ إن الأمر يبدو كمشكلة علمية قياسية. وإيجاد أساس سببى للوعى فى المخ لا يبدو مختلفاً عن إيجاد الأساس السببى للمرض أو السمات الموروثة أو أى ظاهرة بيولوجية أخرى. وكانت النتيجة بالتالى أن الأمر صعب لأبعد الحدود.

وأحد أجزاء الصعوبة ينشأ من المشكلات التكنولوجية المحضة لدراسة نظام يتكون من مائة مليون أو أكثر من الخلايا العصبية الموجودة داخل الجمجمة. ولكن هناك أيضاً بعض العوائق المفاهيمية أو الفلسفية. ولقد اعتدت على الاعتقاد أن الفلاسفة يجب أن يمهدوا الأرضية بحيث يمكننا الحصول على صياغة واضحة للمشكلة وبعد ذلك يبتعدون عن الطريق ويدعون متخصصى العلم العصبى لامتلاك الزمام وحل المشكلة. ومازلت أعتقد أن ذلك بالضبط هو ما يجب أن يحدث، ولكن ظهر أن متخصصى العلم العصبى وقعوا فى نفس الأخطاء مثل بقيتنا وأن هذه الأخطاء تقف فى طريق البحث.

وأول شىء يجب أن يكون واضحاً أمامنا هو «ما هو الوعى؟». يقال أحياناً أن الوعى «من الصعب تعريفه». ولكن إذا كنا نتحدث فقط عن تعريف يقوم بتحديد الهدف من أبحاثنا - بدلاً من إعطاء تحليل علمى من النوع الذى يأتى دائماً فى نهاية البحث - فلا يبدو لى أن الوعى من الصعب تعريفه. ويتكون الوعى من حالات من الإدراك awareness أو الإحساس Sentience أو الشعور Feeling.

The quest for consciousness
(البحث عن الوعى)
Christof Koth
Roberts and company, 429pp

بترتيب خاص مع مجلة:
The New York Review of Book

ترجمة: أحمد إسماعيل



مشروع حل مشكلة الوعى يتبع مراحل كانت دائمة فى تاريخ العلم: أولاً تحديد العلاقات بين ظواهر محددة؛ ثانياً: رؤية ما إذا كانت العلاقات سببية؛ ثالثاً: تصور نظرية تخص كيفية عمل العلاقة السببية



وهذه الحالات تبدأ عادة فى الصباح عندما تستيقظ من نوم بلا أحلام وتستمر طوال اليوم حتى تذهب للنوم أو بدلاً من ذلك تصبح «غير واع Unconscious». وطبقاً لهذا التعريف تكون الأحلام هى شكل من الوعى. والوعى بالذات - بمعنى امتلاك وعى ثانوى عن وعيك الخاص مثل القلق (ثانوى) بخصوص الحل (أولى) - ليس مطلوباً كجزء من تعريف الوعى، رغم أنه شائع لدى كل البشر.

وبعض المعالم البارزة للوعى بالتعريف السابق هى: كل حالات الوعى تكون كيفية. وصفية Qualitative بمعنى أن هناك شيئاً تشعر به، شعوراً كيفياً، أن تكون فى هذه الحالة. وحالات الوعى هى أيضاً ذاتية Subjective بمعنى أنها توجد فقط كشىء يمر به كائن بشرى أو حيوانى؛ وفى الحالات غير المرضية فإنها تأتى إلينا غالباً كجزء من مجال وعى موحد. أى أننا لا يكون لدينا فقط حالات الوعى الكيفية بطعم القهوة داخل فمنا، والصراع الخفيف، والمنظر الطبيعى خارج النافذة، وبدلاً من ذلك يكون لدينا كل هذه معاً كجزء من خبرة واعية موحدة. وفوق ذلك دائماً ما تكون حالات الوعى عن شىء ما. إن التفكير فى «بل كلينتون»، ورؤية شجرة خارج النافذة، والشعور بالعطش هى كلها عن شىء ما. وفى الفلسفة تسمى هذه «العنعنة aboutness: القصدية Intentionality» وهى تتضمن أكثر من مجرد القصد بالمعنى التقليدى، الذى أقصد فيه الذهاب إلى السينما، ولكن أيضاً المعتقدات والآمال والرغبات والمخاوف والأحاسيس والانفعالات.. إلخ. وإذا كان لدى حالة واعية من القلق anxity، عندما لا أكون قلقاً بخصوص أى شىء على وجه الخصوص، ولكننى عصبى عامة، فإن حالتى تكون واعية ولكنها غير قصدية.

والحالات الواعية - بهذا التعريف - تكون حقيقية ولا يمكن تصغير حجمها Irreducible؛ ولا يمكنك التخلص منه. ولكن الوعى على أنه ذاتى داخلى وكيفى وموحد وقصدى يكون شيئاً مربكاً للمفهوم المادى العتيق للعالم، وكان هناك الكثير من المحاولات للتخلص منه بإنكار وجوده أو التظاهر بأنه كان شيئاً آخر. وقالت المدرسة السلوكية Behaviorism إن الوعى لم يكن شيئاً أكثر من سلوك يمكن ملاحظته علانية؛ والمدرسة الطبيعية Physicalism قالت أنه لم يكن شيئاً غير حالات فيزيائية للمخ؟ وقالت المدرسة الوظيفية Functionalism أنه كان مجرد ميكانزم سببى يتوسط بين المثيرات المدخلة والسلوك الناتج؛ وقال الذكاء الاصطناعى المركز أنه لم يكن أكثر من عدد من برامج الحاسب التى تصادف أنها تعمل داخل المخ، ولكن يمكن أن يتم تنفيذها فى أى آلة كافية التعقيد. ويجب علينا فقط أن نعرض هذه الآراء بوضوح لكى تكون عدم مصداقيتها واضحة.

وأجيال المستقبل التى ستأخذ باعتبارها الحياة العقلية لنهاية القرن العشرين سوف يتعجبون بالتأكيد كيف يمكن لأشخاص جادين وأذكياء أن يعتقدوا فى هذه الأشياء.

ولقد قمت بنقد كل هذه الآراء بالتفصيل فى موضع آخر، وللغرض من هذا المقال سأقوم بالافتراض. كما فعل مؤلف الكتاب المعروض. إنها كلها قد تم رفضها بصورة شاملة وأن باستطاعتنا الاستمرار فى مشروع تفسير الوعى كظاهرة عصبية بيولوجية حقيقية، تتسبب فيها عمليات بالمخ ويتم تحقيقها داخل المخ.



أفضل كتاب قام بوضعه متخصصو العلم العصبى والذى رأيته فى السنوات القليلة الماضية هو كتاب كريستوف كوتش Christof koth: «البحث عن الوعى The Quest for Consciousness». الميزة الأساسية لهذا الكتاب هى أنه يعطى رؤية واضحة للحالة الراهنة للأبحاث العصبية البيولوجية للوعى. ويقوم بتغطية كم هائل من الخلفيات بدقة وشمول ووضوح. وكوتش هو المؤلف الرسمى ولكن. كما يصر هو. كتابه هو فى الواقع جهد جماعى مع الراحل Francis Crick، صديقه ومعاونه لمدة طويلة. والكتاب فى الواقع ملىء بجمل مثل «فرانسيس وأنا نعتقد» و«فرانسيس وأنا نظن».

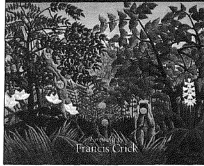
ومشروع حل مشكلة الوعى - كما رآه «كريك وكوتش» - يتبع مراحل كانت دائمة فى تاريخ العلم: أولاً تحديد العلاقات بين ظواهر محددة؛ ثانياً: رؤية ما إذا كانت العلاقات سببية؛ ثالثاً: تصور نظرية تخص كيفية عمل العلاقة السببية. الخطوة الأولى هى اكتشاف العمليات العصبية التى ترتبط بالوعى. وإيجاد هذا التلازم العصبى للوعى NCC هو أكثر المشروعات الفردية انتشاراً فى البحث العصبى البيولوجى المعاصر عن الوعى. والفكرة هى أنه إذا وجدنا عمليات عصبية ترتبط بالوعى، فإننا نستطيع عمل اختبارات لرؤية ما إذا كانت فعلاً تسبب الوعى ويمكننا بعد ذلك وضع نظرية لكيفية قياسها بذلك. ومشروع «كوتش» يعالج الخطوتين الأوليين. إيجاد التلازم العصبى للوعى NCC ورؤية ما إذا كان كافياً - بتحديد شروط أساسية معينة - ليسبب الحالة الواعية الملازمة.

ويؤمن كوتش - كما يقول مراراً وتكراراً - أن أكثر الأماكن احتمالاً لإيجاد متلازم عصبى للوعى هو فى حاسة البصر Vision، وأحد أفضل الأشياء بخصوص هذا الكتاب هو جهده القاسى لتتبع المثير البصرى عبر المخ حتى ينتهى داخل الخلايا العصبية التى يمكن أن يتم ربطها بالخبرة البصرية الواعية.

هذا المدخل للمشكلة هو الأكثر شيوعاً فى المجال ولكنه ليس الوحيد. والافتراض الترتيبى لدى كوتش هو أنه عند أى لحظة فإن مجالنا الواعى يكون

الذى لا نعرفه بعد!

مركباً من سلسلة من المكونات - والتى أسميها مكعبات البناء - مثل خبرة اللون الأحمر، وطعم القهوة، وصوت الريح خارج النافذة. وإذا كان باستطاعتنا إيجاد المتلازم العصبى للوعى لواحد فقط حتى من مكعبات البناء فإنه قد يمكننا من حل رموز المشكلة الكلية للوعى لأنه من المحتمل أن معرفتنا بالميكانزم الذى عن طريقه يقوم المخ بعمل التحول من العمليات العصبية الموضوعية إلى الخبرات الذاتية فى أى نوع واحد من الحالات يمكن أن ينطبق على بقية الحالات. وأنا أعتقد أن كتاب كوتش هو أكثر العروض قدرة لمدخل مكعبات البناء. وهناك مدخل آخر أقل انتشاراً بكثير أطلق عليه مدخل المجال الموحد The unified field approach. وهنا ليس الهدف هو إيجاد المتلازم العصبى للوعى لهذه الخبرة الواعية أو تلك ولكنه اكتشاف كيف يقوم المخ بخلق المجال الموحد الواعى فى المقام الأول.



لنفترض أنك أردت إيجاد المتلازم العصبى للوعى لنوع معين من الخبرة البصرية وبالتالى تفسير كيف يسبب المخ هذه الخبرة البصرية. كيف يمكنك بدء هذا الأمر؟ يعتقد كوتش أن أفضل طريقة هى تتبع المثير البصرى حتى ينتج خبرة بصرية. والرؤية تحدث فى المخ بصورة جيدة بعد أن يسبب المثير أثراً ما على شبكية العين retina وبعد أن تصل الإشارة إلى المنطقة البصرية الأساسية فى القشرة البصرية، والتى تتمركز فى الجزء الخلفى من الجمجمة وتسمى V1. وكما يؤكد كوتش فإننا لا نرى بالعين ولكننا نرى بالمخ. وهناك عدد من التجارب الرائعة يبدو أنها تعد بأن ترينا المسار العصبى للنتائج التى نريدها. والطريقتان المفضلتان لدى كوتش هما التنافس بين العينين binocular rivalry وكبت الوميض Flash Suppression. فى طريقة التنافس بين العينين يتم عرض صورة مختلفة فى كل عين من العينين، ولكن المشارك يرى صورة واحدة فقط. وعلى ذلك إذا تم عرض خطوط أفقية على إحدى العينين وفى نفس الوقت تم عرض خطوط رأسية على العين الأخرى، فإن المشارك دائماً لن يرى شبكة، ولكن إما خطوطاً أفقية أو رأسية. والميكانزم العصبى يعمل طبقاً لمبدأ «الغالب يكسب كل شىء». وفى طريقة كبت الوميض ينظر المشارك بعين واحدة إلى صورة وبعد برهة تسطع صورة مختلفة على العين الأخرى. والمشارك سيرى الصورة الساطعة حديثاً ولكن ليس الصورة القديمة. والصورة الثانية، بسبب حداثتها، تهيمن على الصورة الأولى.

هذه التجارب مهمة لأن هناك مثيرين مختلفين يتم تقديمهما لكلتا العينين، ولكن صورة واحدة فقط تتم رؤيتها. وإذا افترضنا - كما يجب علينا - أن أى تغيير فى الخبرة يتطلب تغيراً مماثلاً فى العمليات العصبية، إذاً، فإن هذه الحالات تبدو اختبارات مثالية، لأن المثيرين الشبكيين ينتجان الآن خبرة واحدة. وإذا استطعنا إيجاد النقطة فى المخ التى يتم فيها الفوز بالمنافسة، والتى فيها ينتج المثيران الماديان المتنافسان خبرة ذاتية واحدة فقط، فإننا سنكون قد وجدنا «المتلازم العصبى للوعى» لهذه الخبرة الواعية.

وأتمنى أن يكون كوتش وزملاؤه الباحثون على حق وأن هذا الاستقصاء سيعطينا العلاقات التى نحتاجها لفك طلاسم مشكلة الوعى. ولكنى متشكك للغاية لأن المشاركين الذين يتم إجراء هذه التجارب عليهم يكونون واعين بالفعل. إنهم يمتلكون بالفعل مجالاً موحداً من القصدية الكيفية الذاتية. وعلى ذلك فإن أكثر ما نستطيع توقعه منطقياً من هذا البحث هو تفسير لكيف يمكننا - داخل مخ واع بالفعل - إحداث هذه الخبرة الإدراكية أو تلك. ولكن ذلك لا يعطينا المتلازم العصبى للوعى بالنسبة للوعى كما هو. والإدراك من النوع الذى يقوم كوتش بفحصه لا يخلق الوعى ولكنه يعدل من مجال واع موجود مسبقاً. وكوتش يسلك مجرى مهماً من البحث، ولكن حتى الآن ليس هناك سبب للافتراض أنه سيقوم بتفسير كيف يقوم المخ بخلق مجال الوعى.

تخيل أنك تستيقظ من نوم بلا أحلام فى حجرة تامة الظلام وبلا صوت على الإطلاق. تخيل أنك صاح تماماً ومتنبه تماماً. يمكنك أن تكون واعياً تماماً، مع الكثير من الخيالات والأفكار ومع ذلك فأنت تتلقى أدنى الحدود الممكنة من المدخلات الإدراكية. وتشعر بضغط جسدك على السرير ووزن الأغطية ولكنها لا تشكل خبرتك الواعية كلها - المجال الواعى كما أطلقت عليه. إنها تمثل أجزاء صغرى منه. تصور الآن أنك تنهض، وتشعل الأنوار، وتأخذ حماماً. هل أنت تقوم بخلق الوعى؟ فى الواقع أنت تقوم بذلك بشكل ما، لأنك لديك الآن خبرات واعية لم تكن لديك من قبل. ولكن من الأفضل التفكير فى هذه الخبرات كتعديلات للمجال الواعى الموجود مسبقاً، لأن المجال كان هناك قبل أن تمتلك هذه الإدراكات. ولابد أن تكون واعياً بالفعل قبل أن تكون لديك الخبرة الإدراكية ومازلنا فى حاجة إلى معرفة كيف وصلت إلى الوعى فى المقام الأول.

وكوتش يعى هذه المشكلة، ولكنى لا أعتقد أنه يتعامل معها بصورة ملائمة. إنه يشير إلى أنه بالإضافة إلى المتلازم العصبى للوعى فإننا نحتاج أيضاً ظروفاً مساعدة معينة، والتى أطلق عليها Ncce. وهذه الظروف سوف تتضمن أشياء مثل تدفق معين للدم ودرجة حرارة معينة. وNcce هى شرط ضرورى لأداء المتلازم العصبى للوعى Ncc، لأنه بدونها لا يستطيع المتلازم إنتاج حالة واعية. وعلى ذلك فإن فكرة المتلازم العصبى للوعى هى «فكرة أدنى مجموعة من الحوادث العصبية التى تكفى معاً للخبرة الواعية، مع إعطاء الشروط المساعدة المناسبة». ولكن المشكلة هى أنه لا يفكر فى احتمال أن وجود المجال الواعى الموحد قد يكون «شرطاً مساعداً» لمكعبات البناء المختلفة التى يقوم بدراستها.

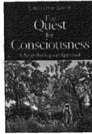
ومدخل مكعبات البناء يبدو غير مقنع لأنه سوف يتنبأ - مثلاً - أنه إذا كان شخص ما غائباً عن الوعى تماماً بطريقة ما، فإننا نستطيع تقديم المتلازم العصبى للوعى لمدرك حسى معين - لنقل مثلاً اللون الأحمر - وعلى ذلك سيكون لدى الشخص وهج مفاجئ من اللون الأحمر وبعد ذلك يسقط عائداً إلى اللاوعى. ومن القليل الذى أعرفه لا يبدو لى أن المخ يعمل بهذه الطريقة. وفى رأيى أننا لن نفهم الوعى حتى نفهم كيف يخلق المخ المجال الواعى ليبدأ به. ونحتاج أن نذكر أنفسنا بحقائق مثل أن المنبه لا يجعلنا فقط نستقبل صوتاً ما، إنه يوقظنا. أى أنه يبدأ عمليات عصبية تسبب مجال واع موحد. ومع ذلك أريد أن أؤكد أن هذه مسألة واقعية لن يتم حلها عن طريق جدال فلسفى ولكن عن طريق المزيد من البحث. وإذا كنت على حق، فإن الأبحاث فى طريقها لأن تكون أكثر صعوبة بكثير عما يفترضه مؤيدو مدخل مكعبات البناء لأنه لن يكون كافياً إيجاد المتلازم العصبى للوعى لخبرة تحدث لدى الشخص الذى يكون واعياً بالفعل بأى طريقة كانت.



إن الميزة الرئيسية لكتاب كوتش هى أنه يقدم تقريراً لآخر الأبحاث فى العلم العصبى. ومن بين هذه النتائج الكثيرة يمكننى أن أذكر هنا عدداً قليلاً فقط يبدو مستحقاً لانتباه خاص.

حاسة البصر Vision المحور العصبى البيولوجى للكتاب هو وصف حاسة البصر. يقوم كوتش بتتبع المثير البصرى منذ الاصطدام بشبكية العين إلى نقاط المخ، خاصة القشرة الصدغية القفوية أو الخلفية inferior Temporal cortex، وهو المكان الذى يأمل أن المتلازم العصبى للوعى يمكن أن يتمركز فيه. وكتابه أكثر تفصيلاً عن عروض الكتب الدراسية القياسية التى اعتدت عليها. وأحد الأفكار المثيرة للجدل التى قدمها هو وفرانسيس كريك هى أن القشرة البصرية الأساسية «لا تسهم مباشرة فى محتوى الوعى البصرى». فأينما نجد المتلازم العصبى للوعى للخبرة البصرية فإنه لن يكون فى V1، ولا تقوم V1 بالتواصل مع الجزء الأمامى من القشرة المخية التى من الواضح أننا نجد المتلازم العصبى للوعى فيها. ومن بين البراهين التى يقدمها كوتش ليوضح أن V1 تسهم فقط بصورة غير مباشرة فى الخبرة البصرية أن V1 يكون غير نشط أثناء الأحلام البصرية.

ويقدم كوتش أيضاً تفسيراً للخداع البصرى



لشلال المياه Waterfall illusion. إذا قمت بالتحديق فى شلال مائى مدة طويلة ونظرت بعد ذلك إلى أحد الجانبين، فإن الأشجار والأرض تبدوان كأنهما تتحركان لأعلى. ما هو التفسير؟ إن الخلايا التى تمثل الاتجاه لأسفل تصبح أضعف بسبب الإثارة الممتدة، ولكن الخلايا التى تمثل الحركة لأعلى لا يصيبها مثل هذا الإجهاد لأنه لم يتم إثارتها. والخداع البصرى للحركة لأعلى ينتج من التفاعل التنافسى لحزمتى الخلايا العصبية مع فوز حزمة الحركة لأعلى على حزمة الحركة لأسفل والتى تكون أضعف فى الوقت الراهن.

وقد قام أيضاً باستكشاف الفكرة التى تقول إن إدراك الحركة قد يحدث عن طريق سلسلة من الخبرات البصرية المنفصلة بدلاً من التدفق المستمر. وطبقاً لهذا الرأى فإننا لا نقوم برؤية حركة شىء ما بالفعل، ولكننا بدلاً من ذلك يكون لدينا سلسلة من الصورة البصرية المنفصلة التى تعطى خداع الحركة، بالضبط كما يعطينا الفيلم خداع الحركة حتى عندما يكون كل ما يظهر على الشاشة هو سلسلة سريعة من الصور الساكنة. أنا لست متأكداً أن هذا له معنى. نحن نفهم كيف يعمل الفيلم السينمائى. الشاشة تحتوى على سلسلة موضوعية من الصور المنفصلة. وهذه الصور تتبدل بسرعة كبيرة بحيث تعطينا خداعاً بصرياً، أى تعطينا خبرة ذاتية من الحركة المستمرة. ولكن كيف؟ من المفترض أن يعمل إدراك الحركة إذا كان كل من تتابع الصور المنفصلة والحركة المستمرة يتم تجريبهما ذاتياً؟ أنا لا أستطيع تحديد تتابع عناصر منفصلة عندما لا توجد الحركة الموضوعية لجسم ما ولا التدفق الواعى المستمر كسلسلة من العناصر المنفصلة؟

الامخاخ المنقسمة Split brains عند معالجة بعض المرضى المصابين بشكل حاد من الصرع يقوم الجراحون بقطع الجسم الجاسى Corpus Callosum، وهو مجموعة من الأنسجة التى تصل بين النصفين الكرويين للمخ. وهذا يشفى من الصرع ولكن المريض بعد ذلك كان يتصرف كما لو كان يمتلك عقلين واعيين، واحد فى كل من النصفين الكرويين. وطبقاً لتفسير كوتش، فإن كلا من فصى المخ يكونان واعيين، ولكنهما يتواصلان بصورة ناقصة فقط. على سبيل المثال فى إحدى التجارب إذا عرضت ملعقة على جزء من النظام البصرى والذى يتصل بنصف المخ الأيمن وليس الأيسر، وقمت بسؤال المريض «ما الذى تراه؟»، يقول المريض ـ الذى تقع قدرة استخدام اللغة عنده فى المخ الأيسر: «لا أرى أى شىء». ولكنه يرفع يده اليسرى ـ التى يتم التحكم بها عن طريق مخه الأيمن ويمسك بالملعقة. إن الأمر كما لو كان يمتلك شخصين واعيين داخل رأسه، واحد منهما فقط يستطيع الكلام. وهذا سبب أن مرضى انقسام المخ قد يبدون طبيعيين. فالمخ الأيسر ـ الذى يقوم بالكلام ـ يقول إنهم يشعرون أنهم بخير.

وطبقاً لـ «كوتش» فإن نصفى المخ يكونان واعيين ويعرض كلاهما تنافساً بين العينين binocular rivalry. وأنا مندهش قليلاً من ثقته أن كلا النصفين واعيان. وقد سألت Micheal Gazzaniga مايكل جازانيجا ـ الباحث الرئيسى فى هذا المجال ـ ذات مرة إذا ما كان يعتقد أن كلا النصفين واعياً وقال إنه لا يستطيع إخبارى بذلك لأنه لا يستطيع التفكير فى طريقة تجريبية لحل المسألة.

الذاكرة Memory. إن غالبيتنا يرتاحون للفكرة التى تقول إننا نحتاج إلى الفصل بين الذاكرة طويلة المدى والذاكرة قصيرة المدى، ولكن داخل كل نوع من الذاكرة نحتاج إلى عدد من الفئات الفرعية. وفى الواقع فإن الذاكرة هى مسمى لعدد كبير من العمليات المختلفة. وداخل الذاكرة طويلة المدى نحتاج إلى تمييز أنواع عديدة مختلفة. هناك ذاكرة إجرائية Procedural للمهارات مثل ركوب دراجة، وهناك ذاكرات تصريحية declarative، والتى تتضمن كلاً من الذاكرات العرضية Episodic مثل تذكر النزهة التى قضيناها أمس والذاكرات الدلالية Semantic مثل تذكر تاريخ «معركة واترلو». ونحتاج فوق ذلك إلى تمييز هذه الذاكرات من الاشتراط الترابطى associative Conditioning والذى فيه يستجيب المخ لمثير ما بطريقة يتم تحديدها عن طريق خبرات سابقة. على سبيل المثال عندما يقوم صديق لى بالاقتراب من باب بيته فإن مخه يجعله يمد يده إلى مفتاحه، كما كان يفعل لسنوات، رغم أن الباب يتم الآن فتحه برقم سرى آلى. ولقد وجد Larry Squire أنه إذا تصاحب سماع نغمة مع نفخة من الهواء داخل العين، وبعد مائة مرة من هذا التزاوج، يقوم المشاركون بتغميض العين عند سماعهم للنغمة (تقريباً مثل كلب بافلوف Pavlov، الذى كان لعابه يسيل عند سماعه للجرس الذى قام ـ بتعويده على ذلك ـ بربطه بالطعام). وهناك أيضاً أشكال غير ترابطية من الذاكرة. على سبيل المثال يستطيع الناس أن تكون لديهم نسخة متكررة من مثير بصرى انتهى، حتى لو لم يكونوا على وعى بالمثير. ويمكن أن يكون لديك صورة تذكرية بصرية لشىء ما لم تره بصورة واعية.

والذاكرة قصيرة المدى هى المصطلح الدال على تخزين المعلومات لمدة قد تصل إلى عشرات الثوانى. وداخل الذاكرة القصيرة المدى نحتاج إلى التمييز بين الذاكرة العاملة working memory مثلاً عندما تقوم ـ بعد البحث عن رقم تليفون فى الدليل ـ بتذكره لفترة تكفى لكى تطلبه، والذاكرة الأيقونية Iconic والتى هى الإحساس الفورى باستمرارية أى خبرة. مثلاً الاتصال بالرقم وانتظار الرد. والذاكرة الأيقونية تبدو أساسية للوعى بطريقة لا يشاركها فيها الذاكرة التصريحية والذاكرة العاملة. (أى أن قدراتك للذاكرة العاملة والذاكرة التصريحية قد تضعف ولكنك قد تظل واعياً).

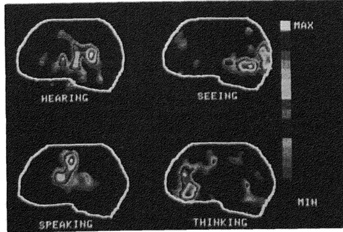


قوى الزومبى Zombie agents. اخترع الفلاسفة فكرة «الزومبى» لوصف شىء يتصرف بالضبط كما لو كان واعياً ولكنه ليس كذلك. ويستخدم كوتش فكرة «قوى الزومبى» لوصف النظم الحسية الحركية Sensory Motor التى تنفذ أنواعاً معينة من السلوك المخصص بأسلوب غير واع. لا إرادى. وطبقاً لـ «كوتش» فإن الكثير من العمليات العقلية التى تجرى داخل شخص واع تكون غير واعية كلية. وهذه لا تتضمن فقط انعكاسات مثل طرفات العين، ولكن أيضاً أشكال أكثر تعقيداً من السلوك مثل حركات العين عند تتبع جسم متحرك والميكانزمات التى تتحكم فى الرأس والرجل ووضع الجسم عندما يسير الناس ويجرون ويركبون الدراجات.. إلخ. وقد استشهد كوتش بعمل A.David Milner ديفيد ملنر وMelving Goodale (ملفين جودال) وطبقاً لهما فإن المخ يستخدم استراتيجيتى معالجة مختلفتين للرؤية. الرؤية التى تستخدم للسلوك تكون غير واعية. والرؤية التى تستخدم للإدراك. مثلاً رؤية زهرية مليئة بالزهور. تكون واعية، وهذه الفروق تتوافق مع مسارين مختلفين فى المخ؟ الممر البطنى يكون واعياً، والممر الظهرى غير واع.

والميكانزمات غير الواقعية يتم توظيفها لتتعامل مع الأشكال المقولبة Stereotypical من السلوك، حيث سيكون من غير الفعال إحضار السلوك إلى الوعى. والوعى ـ على الجانب الآخر ـ يتعامل مع المواقف التى تتطلب استجابة جديدة وغير مقولبة.

الوعى والوقت

إن قوى الزومبى غير الواعية مطلوبة لأنها سريعة، ومعظم العمليات الواعية بطيئة. على سبيل المثال يستغرق الأمر حوالى ربع ثانية لرؤية أى شىء. والمخ يؤدى حيل كثيرة مع الوقت مازلنا لا نفهمها فهماً تاماً. والكثير من هذه الحيل تمت مناقشتها فى كتاب جديد لمتخصص العلم العصبى Benjamin Libet. وفيما يلى بعض الحالات المشهورة: العداء الأوليمبى يبدأ العدو قبل أن يكون باستطاعته سماع طلقة البداية. إن العمليات التى تنتج الصوت الواعى أبطأ من الميكانزمات الزومبية التى تنتج حركة البداية. نفس الاعتبارات تنطبق على لاعب التنس المحترف الذى يجب أن يبدأ



ضربة الرد قبل أن يرى بصورة واعية ضربة الإرسال القادمة، وضارب البيسبول الذى لابد أن يبدأ ضرب الكرة القادمة قبل أن يسجلها مخه بصورة واعية.

وعند الإدراك هناك فترة ضرورية يتم خلالها دمج الإدراكات المختلفة. على سبيل المثال فى إحدى التجارب يتم عرض قرص أحمر صغير لمدة ٥ مللى ثانية يليه قرص أخضر فى نفس الموضع لمدة ٥ مللى ثانية. والمشارك لا يرى ضوءاً أحمر يتحول إلى ضوء أخضر، ولكنه يرى ومضة واحدة صفراء. وهناك خداع مشابه يحدث مع حاسة السمع. إذا تم توصيل نقرة فى الأذن اليسرى، وبعد عدد قليل من المللى ثانية يتم إعطاء نقرة ثانية للأذن اليمنى، فإنك تسمع نغمة واحدة تنشأ فى مكان ما داخل الجمجمة قريباً من الأذن اليسرى. والترتيب الزمنى للمثيرات يتم تحويله فى الإدراك الواعى.

أنا معجب بكتاب كوتش لدرجة هائلة. ولكنى أعتقد أن صياغته الكلية للوعى وكيف يتناسب مع بقية العالم بها عيب. ولحسن الحظ فأنا لا أعتقد أن نقاط الضعف فى الصورة الكلية قاتلة أو حتى مؤذية لعمله العلمى المفصل؟ ولكن إذا كنت على حق فإنها ستحتاج إلى أن يتم تصحيحها فى عرض دقيق لعلاقات الوعى بالمخ. وفيما يلى بعض الصعوبات التى يجب مواجهتها.

إن كوتش يعتقد أننا نمتلك وعياً فقط بالأشياء عند المستوى المتوسط بين العالم الخارجى وعمليات تفكيرنا الداخلية. وعلى ذلك وطبقاً له فنحن لا نقوم أبداً بإدراك أشياء فى العالم الواقعى، ولا حتى أجسامنا نفسها. على سبيل المثال أنت لا ترى أبداً المقعد الذى أمامك، ولكن فقط تمثيلاً عقلياً للمقعد داخل مخك. ونحن لا نفشل فقط فى إدراك العالم الواقعى الخارجى، ولكن حتى العالم الداخلى لأفكارنا ومفاهيمنا يكون مخفياً عنا للأبد. والوعى بالنسبة لكل من كوتش وكريك يوجد عند مستوى وسط بين العالم الداخلى للأفكار والمشاعر والعالم الخارجى للأجسام المادية، وكلاهما لا يمكن الوصول إليه كلية بالنسبة لنا. وفوق ذلك نكون واعين بالأشياء فقط عند المستوى الحسى، حيث نكون واعين بالخبرات الحسية، والصور الحسية، بما فيها الكلام الداخلى. وكوتش يفترض أيضاً «قزم غير واع» Homunculus والذى يجلس فى مقدمة مخنا ويجعل قراراتنا تقوم على معلومات تأتى من المناطق الحسية فى مؤخرة المخ. وإذا كانت هذه الآراء تبدو متطرفة، إليك بعض الفقرات من تلخيصه الخاص. فهو يقول لنا أن نظرية المستوى المتوسط للوعى:

تفترض أن العالم الداخلى من الأفكار والمفاهيم يكون مخفياً دائماً عن الوعى، مثله مثل العالم المادى الخارجى، بما فيه الجسد. أحد تبعيات هذا الفرض هو أن الكثير من مظاهر المعرفة عالية المستوى - مثل اتخاذ القرار والتخطيط والابتكارية تكون خارج نطاق الإدراك، هذه العمليات يتم تنفيذها عن طريق «القزم غير الواعى» الذى يسكن فى مقدمة المخ الأمامى، ويستقبل المعلومات من المناطق الحسية بالخلف، وينقل مخرجاتها إلى النظام الحركى.

وهناك نتيجة أخرى هى أنك لا تكون واعياً بصورة مباشرة بأفكارك. أنك تكون واعياً فقط بالتمثيلات المعادة لها بمصطلحات الصفات الحسية، خاصة الصور البصرية والكلام الداخلى. أنا أعتقد أن كل هذا غير صحيح، ولكن فيما يلى أربعة فقط من اعتراضات كثيرة:

١ - النظرية التى تقول أننا لا نستطيع أبداً إدراك العالم الواقعى ولكن فقط صورنا الداخلية له هى أكثر الآراء تسبباً للكوارث فى القرون الأربعة الأخيرة من نظرية المعرفة epistemology. والبراهين عليها (بالمناسبة كوتش لم يقدم أياً منها) تكون دائماً رديئة وتبعياتها تكون أسوأ. هذه النظرية تجعل من المستحيل امتلاك لغة عامة أو معرفة يمكن إثباتها علانية. كل ما نستطيع التحدث عنه دائماً هو صورنا العقلية الأنانية Solipsistic. وتاريخياً سادت هذه النظرة من ديكارت Descartes إلى بيركيلى Berkeley وبعد ذلك إلى كانط Kant وفى النهاية إلى هيجل Hegel.

٢ - أحياناً ما نكون غير مدركين بصورة واعية لاتخاذنا للقرار وتخطيطنا وابتكاراتنا، ولكن من المناقض للواقع القول «إننا لا نكون أبداً على وعى بها».

٣ - فكرة أن كل وعينا يكون حسياً هى فكرة خاطئة كموضوع خبرة. وعندما أقوم عادة بالتفكير فى المشكلات بالمنطق والفلسفة فلا يكون لدى خبرة حسية مصاحبة. ولماذا يجب أن يكون؟

٤ - فكرة أننى يحكمنى «قزم غير واع» يسكن فى مقدمة مخى وينظر إلى الخلف هى تشبيه استعارى. ما الذى يحدث حرفياً، بدون استخدام هذه الاستعارة؟ إذا كنت تحاول إجابة هذا السؤال، فإنك سترى فى الحال أن هناك مشكلة ما. هل ميكانزم القزم هذا يمتلك حرفياً قصدية أم لا؟ طبقاً لهذا الوصف لا يمكن حرفياً أن يمتلك قصدية لأن الميكانزم الواعى الضرورى للقصدية الواقعية لم يكن محدداً. إذاً فإن الصورة الاستعارية للقزم تتفكك إلى مجموعة من الميكانزمات غير العقلية. ■



نازلى مدكور وألف ليلة وليلة

فنّانَة عَصْريّة تُصَوِّرُ مِحْنَةَ المَرأةِ الشَرقِيِّةِ

منذ عدة قرون كانت عادة السلطان شهريار هى ذبح كل عروس له في الصباح الذى يلي ليلة الزفاف، حتى جاءت شهرزاد، آخر زوجاته وجاءتها فكرة، وهى أن تروى قصة مشوقة ومسلسلة تبدؤها ليلاً وتتوقف قبل اللحظة المنتظرة.

وكان السلطان.. لتشوقه إلى معرفة نهاية القصة، يؤجل الإعدام لليلة التي تليها..

ونجحت فكرة شهرزاد لدرجة أنه بعد ألف ليلة رجع شهريار عن قراره.. وعاش الجميع في سعادة.

شكراً لشهرزاد وشكراً لنجيب محفوظ الذى مُنح في عام ١٩٨٨ جائزة نوبل للأدب.

فلدينا في ألف ليلة وليلة شخصيات وقصص تشبه هؤلاء الذين يعيشون في عصرنا..

فالأحداث تدور في بلاد العرب والفرس والهند والشخصيات متعطشة للدماء كما في عصر هارون الرشيد، هذا الخليفة الذى فتح بغداد لتكون من أعظم بلاد الإسلام.

ففي ألف ليلة وليلة كان الإعدام شائعاً كما كان تهديد ملكة القلوب في رواية (أليس في بلاد العجائب) ولكن الفرق كبير؛ فالكاتب، بمهارة، جعلنا تنظر لأحداث اليوم وجهاً لوجه.. ولم يعد هذا صعباً.. فكما يبدو.. أصبحنا مؤخراً مهتمين اهتماماً شديداً بهذه الأحداث بما فيها الإعدام.

ومنذ البداية يؤكد محفوظ أن هذه القصة هى عن هذا العالم الذى لا وجود له. «هذا العالم الخيالي الذى نسجته شهرزاد في قصصها التي لا تنتهي هو حقيقة في عالمنا المعاصر». «نحن منغمسون تماماً في أحداث اليوم التي تحمل أسماء أشخاص وأماكن عربية حتى أن أسماء ألف ليلة وليلة أصبحت لا تشكل عبئاً كبيراً في نطقها أو طريقة إملائها».

في ظل القصة القديمة، كان من الممكن أن يجد الإنسان نفسه أمام جنى، إما بمسح مصباح كما حدث مع علاء الدين.. أو.. كما حدث مع الصياد.. فقد اصطاد قارورة قديمة وفتح غطاءها.. أما عن عالم نجيب محفوظ (غير المتوقع) فقد تجد اثنين من الجان يظهران لك دون أن تفاجأ بهما ويكملان حديثهما الخاص.. وأيضاً يمكن أن تتحول أنت شخصياً وتصبح برأس جديد مثلا.. فيستحيل التعرف عليك.

ففي ألف ليلة وليلة يوجد فرق.. ففي قصصها تحويرات من عالم مختلف يبحث في عوالم واسعة من المشاعر.



نجيب محفوظ كان أول كاتب عربي يفوز بجائزة نوبل، ولد عام ١٩١١ بالقاهرة.. تلك المدينة التي تمده بخلفيات أغلب كتاباته.

وكان قد تأثر تأثراً كبيراً بالتاريخ المصري القديم، وهذا يتضح في أعماله. بعد تخرجه من جامعة القاهرة عام ١٩٣٤ قرر محفوظ أن يصبح كاتباً محترفاً، بدأ بترجمة كتاب عن مصر القديمة من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية.

ثم بدأ بكتابة بعض المقالات والقصص القصيرة ونشرت أول مجموعة له في عام ١٩٣٨، تزامن مشواره الأدبي مع عمله كموظف لمدة ٣٥ عاماً في وزارة الشئون الإسلامية ثم بعد ذلك كمدير لمؤسسة السينما.



نازلي مدكور وألف ليلة وليلة

زاد إنتاجه الإبداعي بعد إحالته إلى المعاش وكان معظمه من النوع التجريبي نشر محفوظ ٣٠ رواية وأكثر من ٣٥٠ قصة قصيرة وأكثر من ٢٠٠ مقال.. تحولت نصف أعماله الروائية لأفلام سينمائية حظيت بشهرة واسعة في العالم العربي كله.

أدى تنوع شخصيات ثلاثية نجيب محفوظ إلى مقارنته بكتَاب مثل بلزاك، ديكنز، تولستوي وجالزوورثي.. ومن ناحية أخرى فأفكاره قد أثارت عداء بعض الإسلاميين المتطرفين.. حكم على اثنين منهم بالإعدام عام ١٩٩٥ لمحاولتهم قتله بضربه بسكين.

وحسب إدوارد دبليو في (نيويورك ريفيو أوف بوكس)، فتاريخ مصر وموقعها الجغرافي كان له عظيم الأثر في كتابات محفوظ، فهي منذ قديم الأزل وبامتداد النيل عبر آلاف السنين بواديه ورغم تغير حكامها وقوانينها وأديانها لم تفقد أبداً هويتها.

ولم تكن مؤلفات محفوظ قد ظهرت في الغرب، قبل فوزه بجائزة نوبل.. جاكلين أوناسيس كانت من أول الناس التي أحضرت للمجتمع الغربي ترجماته.

قام (دينيز جونسون دافيز) الكندي الأصل بترجمة ألف ليلة وليلة.. تخرج دينيز من جامعتى (أوكسفورد وكامبردج) وهو يعتبر رائد الترجمة الإنجليزية في عصرنا هذا.. وهو يعيش في القاهرة.. مثل محفوظ.

ومثل نازلى مدكور.. التي تتميز أعمالها المركبة بطابع عربي أصيل تجسد شخصيات من ألف ليلة وليلة بألوان زاهية مما يذكرنا بالأبسطة الطائرة في الفولكلور العربي تجمع في أسلوبها الخاص الفلسفة والبساطة وتتميز أعمالها السبعة بأنك حينما تراها لا تستطيع تحويل عينيك عنها.. كأنك مشدود مغناطيسياً.

شاركت فنانتنا في خلال العشرين عاماً الأخيرة في عدة معارض جماعية في مصر وأيضاً في ألمانيا، فرنسا، إيطاليا، لبنان، الكويت، قبرص، اليابان، إنجلترا والولايات المتحدة. أقامت أول معرض خاص لها في



المركز الثقافي الأمريكي بالقاهرة عام ١٩٨٢ ثم واظبت على إقامة معرض كل عام بعد ذلك.

تداولت نماذج أعمالها بين العديد من الأفراد والمتاحف في أوروبا والشرق الأوسط.

نشر كتابها (الإبداع الفني والنساء المصريات) بالعربية عام ١٩٨٩ وبالإنجليزية عام ١٩٩٣.

فكل قطعة من إنتاج نازلى مدكور تحولت إلى معزوفة موسيقية.. احتاجت لتدريب عازفها عدة ساعات ولكل بصمة مجهود عظيم، فبالتالي نجد أن إصدار لوحة واحدة تأخذ المئات من الساعات مما يدخلنا في العديد من الليالي العربية أو الأمريكية.

على الناحية الأخرى لا يمكن أن تتجاهل مصممي الكتب والذين - بدون شك - يتحملون العبء الذى يجعل شكل الكتاب كما يجب أن نتوقع.. مصمم الكتاب (ميشيل ووينفريد بيكسلر) مستعينين بمحمد زكريا.

ولد محمد زكريا في كاليفورنيا وفى الستينيات تحول إلى الإسلام وهو لم يتم العشرين من عمره بعد.. وعلم نفسه العربية وانغمس في الثقافة الإسلامية بزيارة أماكن مثل تركيا والمغرب ونشر كتابين عن الكتابة الإسلامية والخطوط.

والآن بعد أن اكتملت عناصر العمل، فأنت في تمام الاستعداد أن تقلع على بساطنا السحري الجديد.

الناشر

Arabian Nights and Days
(ليالى ألف ليلة)
by Naguib Mahfouz
with 7 original prints by
Nazli Madkour
aftword by Mohamed Salmawy
New York: The limited
Editions Club, 2005

■■ إذا كانت ملامحه الخشنة تخدع بأنه عربى الأصل، صحراوى الطبع، إن لم يكن من البدو الرحل، فإن إنسان عينى محمد مستجاب هو الدليل القاطع على أنه من أصول مصرية شديدة القدم والعتاقة. إنسان العين فى رأى الدارسين من قديم الأزل هو بصمة العين، تماماً كبصمة الإبهام التى من المستحيل أن تتطابق مع أية بصمة لأى شخص آخر، ولهذا فالعين كثيراً ما تكون هى الفيصل بين شخصين إذا تطابقت بينهما الملامح والسمات. وإنسان العين هو العنوان الأصيل لشخصية الإنسان من الداخل، منه نستشعر ما إذا كان هذا الشخص طيب القلب أم خبيث الطوية، عنيداً أو ليناً، إنه المدخل الطبيعى إلى أعماق النفس.

إنسان عين محمد مستجاب يشهد بأنه مصرى النخاع، حتى شكل العينين يتطابق مع العيون المنقوشة على جدران المعابد لا ينقصها إلا الكحل لنقول إنهما عينا تمثال شيخ البلد أو الكاتب المصرى القديم الجالس القرفصاء. الفرق بين عينيه وعينى أجداده القدامى هو ما أضافته الأزمنة والعصور التعيسة إلى عينى مستجاب من ظلال كثيفة هى مزيج من الشجن والحزن ومرارة الخنوع الشعبى المصرى المزمن؛ أزمنة وعصور من القهر والسخرة والهوان تحت نير احتلالات متعاقبة أذلت كبرياء المواطنين وعاملتهم كالدواب واستلبت حضارتهم وخيرات بلادهم وسلطت عليهم أسلحة الجهل والفقر والمرض؛ كل ذلك ورثته نظرات مستجاب التى تمتاح من آبار أعماقه، أو أعماق آباره فيوضاً من المشاعر لا تنتهى، مشاعر الانسحاق والقهر والدونية والسخط والغضب النبيل والثورة الجنونية، تبرق فى عينيه هذه الرعود بسرعة خاطفة فيما هو يحدثك حديث الفكاهة.

يلوح لى أنه من هنا نبعت مصادر السخرية الحادة عند محمد مستجاب وأصبحت ذات مخالب جارحة عند اللزوم قاسية قسوة الأيام السوداء التى عاشها أهالينا الفقراء المعدمون فى القرى المصرية فى الشمال والجنوب على السواء. هنا لعبت الموهبة دورها الأعظم، احتوت كل هذه المشاعر المتضاربة فى نفس محمد مستجاب، وطبختها جيداً وحولتها إلى فن خالص متدفق، يجىء على شكل قصص قصيرة أو طويلة أو روايات قصيرة أو مقالات مباشرة أو حتى فى الدردشة والكلام اليومى بين الأصدقاء. وبهذه المناسبة يطيب لى أن أشير إلى رأى شائع بين محبى مستجاب، يزعم أن مستجاباً قد أحرق موهبته - وهى قصصية حكائية فريدة - فى كتابة المقالات الصحفية التى كتبها لعديد من الصحف السيارة من أجل الإنفاق على عياله. حقيقة الأمر أن موهبة محمد مستجاب كانت قوية، داهمة، متدفقة، كجرف من نهر النيل انفتح ليغرق ما حوله باندفاع عارم؛ كانت موهبته أسرع من قدرة الفنان الحريص على إحكام الشكل والتأمل وإقامة الأبنية الهندسية.. إلخ؛ كانت أفكاره أشبه بالمقذوفات المائية الهاطلة بما تحمله من غرائب المخلوقات والطمى والأعشاب والقواقع واللآلئ والغرقى وبقايا السفن؛ وأفكاره عبارة عن مشاعر متدفقة بغير حساب، بغير تنظيم أحياناً، لكنها تفرض لنفسها سياقات جاذبة ذات منطق فنى تلقائى يصلح أن يكون وثيقة تضاف إلى

صعيدى من



وثيقة النص المحكى نفسه؛ ومشاعره خلطة مصرية سبقت الإشارة إلى مصادرها ومكوناتها؛ فمحمد مستجاب ينتمى إلى غير طبقة، إلى الغالبية العظمى من فقراء مصر الذين هم دون مستوى الانتماء إلى أية طبقة من الطبقات الاجتماعية المعروفة أو حتى إلى أية فئة من الفئات ذات الكيان الاجتماعى المحترم؛ إنهم أهالينا المعدمون الذين كتب عليهم أن تقوم على أجسادهم كافة الأبنية، كافة العروش الكروش الإمبراطوريات. وقد صادف ميراث القهر فى «مستجاب» نفساً حساسة واعية، وعت أول ما وعت حقيقة واقعها المؤلم بأبعاده التاريخية والاجتماعية، لا كما دونته كتب التاريخ الرسمى فى المدارس بل كما رواه الوجدان الشعبى العبقرى فى حواديت ومواويل وسير شعبية وألف ليلة وليلة، كل ما فى الفنون الشعبية - وبخاصة الجنوبية منها - من غرائبية سوريالية قبل استحداث السيرياليزم فى الفنون التشكيلية فى أربعينيات القرن العشرين، انطبعت على وجدانه الغض فى مرحلتى الطفولة والصبا، مروية بمياه جارية فى الواقع اليومى حيث تحدث قصص فى الحياة دامية حمراء، أين منها جميع ما ترويه السير والمواويل من قصص، أحداث حب محرم تطير من أجله الرقاب، وقائع ثأر عنيف لا تنتهى أبداً، مشاهد عنف واستبداد وطغيان، مجتمع يسوده الأقوى ويخضع لمنطق السادة والعبيد، ثم ثورة وليدة تبشر فقراء مصر بعهد جديد، تطيح بالطغاة وتفتح المدارس وتنفخ روح الحياة فى نفوس المقهورين. وكان مستجاب قد شب عن الطوق وانفتح على الكتب المعاصرة والصحف، قرأ الأدب بشغف، اكتشف قدرته على التعبير عن نفسه فى مقتطفات صحفية ذات صبغة

أدبية كان يرسلها إلى الدكتور مصطفى محمود لينشرها ويعلق عليها فى بابه الشهير: اعترفوا لى بمجلة صباح الخير، فكان مصطفى محمود ينشرها بنفس الاسم المستعار الذى انتحله مستجاب باعتباره أحد قراء الباب. وكانت تلك المحاولات الأولية هى المعبر الذى قاده إلى شاطئ القصة القصيرة التى كانت آنذاك تعيش عصرها الزاهر بمعنى الكلمة. وحينما أمسك بالقلم ليكتب قصصه الأولى تفجرت أعماقه عن مكنون كان دفينًا تحت ركام القهر الموروث لا يعرف كيف يتنفس، مكنون من الغضب النبيل والثورة العارمة على جميع الأوضاع والأنظمة والآراء والمعتقدات التى ساهمت بقدر أو آخر فى إلحاق القهر والأذى بأهله منذ بدء الخليقة إلى اليوم؛ طاقة من الرفض المطلق لم تجد بين الأساليب



محمد مستجاب رابع أربعة أصوات خطيرة الشأن جاءت من الصعيد الجوانى لتقدم لقراء الأدب - ربما لأول مرة - الوجه الصعيدى الحق للصعيد، للشخصية الصعيدية، واقع المجتمع الجنوبى على الحقيقة



ديروط

خيرى شلبى

الأدبية الشائعة فى تاريخ اللغة العربية قديمًا وحديثًا أسلوبًا يقدر على احتوائها بحيث يقلم أظافرها ويؤدبها، يلحقها بالأدب المتعارف عليه بين القراء: هى طاقة حوشية غير مستعدة للممايننة أو المماحكة أو التهاون، يعنى لابد أن تقطع عرقًا وتسيل دمًا، عندها حق طبعًا، فجميع أساليب الأدب - المؤدبة - منذ قيام اللغة إلى اليوم لم يفلح فى قول الحقيقة عارية بدون أية زخارف، أية تحفظات، ففى نظرها أن الزخرفة والتجميل والتحفظ كل ذلك زيف يدارى الحقيقة أو على الأقل يسلبها حرارتها فلا تتيح مثل هاتيك الأساليب إلا جثثًا كانت حقيقية قبل أن يتناولها الأسلوب الأدبى، ولا تقدم إلا كائنات مخصية منعدمة الخصوبة بمعنى الإحساس بمعنى الثأر للكرامة والعزة والسؤدد.. طاقة الرفض الحوشية هذه كانت قمينة بأن تجعل مستجابًا يحمل بدلاً من القلم فأسًا يحطم به رءوس الباقين من سلالة الطغاة فى كل موقع من مواقع الحياة، أو يحمل شومة صعيدية يتفاهم بها مع الرءوس الناشفة من أبناء المدينة الرقيعة الخليعة البغى التى لا تؤتمن. ولكن لأن هذه الطاقة الحوشية نابعة من نفس ذات رصيد إنسانى بوزن ما فى أهالينا الفقراء من إنسانية زرعها فيهم اتصالهم الحميم برب السماوات والأرض من قديم الأزل، فقد كان لابد لهذه الطاقة أن تكون مشمولة فى جوهرها بإنسانية النفس الصادرة عنها؛ من حسن الحظ أنها نفس فنانة، تحس بمعنى الجمال، تتذوقه فى الموسيقى والشعر والغناء والأدب والتصوير والتمثيل والحياة، استطاعت أن تسيطر على الطاقة الحوشية ولكن إلى حد ما، هو على أى حال الحد الذى ينقل الدمدمة العاطفية فى النفس إلى إطار فنى مكتوب محكوم بمنطق خاص به وحده وقابل لاستقطاب القراء بجاذبية فائقة، إلا أن الفنان البديع فى مستجاب انتهبته الطاقة الحوشية التى لا يمكن السيطرة عليها بأى حال من الأحوال لصالح عمل فنى بعينه محدود بحدود زمنية ومكانية معينة: اللهم إلا أن تنفلت منها شرائح وقطع عبقرية تولد مكتملة دون أن يتدخل فى هندستها عقل خارج عن الوجدان حتى وإن كان عقل مستجاب نفسه؛ تلك هى قصص مجموعة ديروط الشريف؛ قطع فنية نمت على مهل داخل الرحم ثم ولدت فى عنقود من صور جزئية تتشكل صورة فنية كبيرة تتحدث عن نفسها بنفسها وتفضى بمكنونها من تلقاء تكوينها الذاتى. وكانت الطاقة الحوشية فيه قد استؤنست بعض الشىء خلال أوساط عمالية صرفة اختلط بها فى صور شبابه حينما اشتغل عاملاً فى بناء السد العالى مثل حراجى القط ابن عبد الرحمن الأبنودى. كان بناء السد العالى فى أسوان بوتقة انصهرت فيها بلدان مصر من أقصاها إلى أقصاها، مثل حفر قناة السويس ليس من بلد فى مصر إلا وله حفنة أبناء ضاعوا تحت الرديم، الفرصة كانت ذهبية للفتى الملطوش بجنون الفن بين العمال، جنون فوق جنون يفصل بين الجنوبيين، رقاقة من الضوء تتيح للفتى رؤية الحياة وتصريفها فنيًا، اكتسب من العقلية العمالية روح الحكمة المصرية التى قامت بتعمير الكون، وضعت فجر الضمير على ضفتى الوادى الخصيب، تمازجت فيه روح الجماعة، اقترب حثيثًا من لغة الأساطير باعتبارها نتاج تفكير جماعى أسهم فى تكوين الأسطورة وتنميتها بطرق وأشكال متعددة، بهذه الحصيلة من المكاسب العملية استطاع أن ينزع العنف الحوشى من طاقته الحوشية ويحوله إلى سخرية محضة، إلى سلاح ناجع، إلى مشرط يمر به - مجرد المرور - فوق المناطق الحساسة فى النفس البشرية، ولا بأس أن يضغط به ويشرط أحيانًا فى النفوس المتبلدة لعلها تفيق وتنتبه إلى ما يقول.



عشق مستجاب للكتابة بات عشقًا لفعل الكتابة نفسه، يفوق عشق أبى نواس لخمره، فمثلما يدعو أبو نواس ساقيه إلى أن يقدم له الخمر مصحوبًا بقوله: هذه هى الخمر، لكى تنتشى أذناه باللفظ كما ينتشى دماغه ببنت الكرم؛ كذلك يفعل مستجاب وهو مندمج فى الكتابة، يترك لسجيته اختيار المفردة ثم يفتح قوسين يقول بينهما إن المفردة الفلانية تكون أجمل وهذا إن كان يرضى لذته الكتابية فإنه يشير فى نفس الوقت إلى أنه يتبع سجيته التلقائية لا عقله الاختيارى حتى وإن كانت المفردة الاختيارية أجمل من التى اعتمدها.

محمد مستجاب رابع أربعة أصوات خطيرة الشأن جاءت من الصعيد الجوانى لتقدم لقراء الأدب - ربما لأول مرة - الوجه الصعيدى الحق للصعيد، للشخصية الصعيدية، واقع المجتمع الجنوبى على الحقيقة. كان مجتمع الصعيد غائبًا عن القصة والرواية والشعر على الرغم من إنجاب الصعيد لمواهب شعرية كبيرة جدًا لعل أقربها إلى الذهن محمود حسن إسماعيل، وقدر لنا أن نراه على أيدى عبد الرحمن الأبنودى ويحيى الطاهر عبد الله وأمل دنقل ومحمد مستجاب. برؤية شعرية خالصة قدم لنا الأبنودى مجتمع الصعيد الجوانى ممثلين فى أبناء بلدته أبنود، وما سيرة أحمد سماعين ووجوه على الشط وجوابات حراجى القط إلا قصص وروايات فذة رغم إنها قصائد شعرية بالدرجة الأولى ومن أرفع مستويات الشعر. وكان يحيى الطاهر عبد الله نبتة قصصية فطرية. نبعت من القاع الصعيدى الجوانى السحيق، من خلال طرحها الناضج تذوقنا فن القص الشفاهى العتيق، تذوقنا كذلك طعم حياة لم نكن نعرف عنها من قبل أى شىء، فباستثناء ذلك العمل الأدبى العظيم: (خليها على الله) ليحيى حقى، الذى كتبه عن تجربته فى منفلوط الصعيدية كمعاون إدارة، وكشف فيه عن الجوهر الإنسانى الحقيقى للشخصية الصعيدية فى مستوياتها التحتية لم يتحفنا الأدب بعمل يوازيه فى القيمة الفنية؛ إلى أن جاءت قصص يحيى الطاهر عبد الله المتعددة الأحجام ما بين الأقصوصة والقصة الطويلة، فإذا بها تقدم مستوى فنيًا جديدًا ذا قيمة فنية عالية يضاف إلى منجزات كل من يحيى حقى ويوسف إدريس فى التيار الواقعى، إلا أن واقعية يحيى الطاهر كانت تعبيرية تنزع إلى التشذيب والاختزال والشعرية، والصورة الصوتية الشفاهية التى تطرق المشاعر المتلقية للحدث القصصى فتنبهها إلى محتوياته الشعورية الجارية كالدم فى شرايين لحم الواقع الحى؛ مما أضفى على عالمه طابعًا شبه أسطورى يشع بالعراقة والأصالة سببًا وأن لغته السائلة بقوامها الكثيف المتصل كانت تجمع بين مهابة الفصحى المفخمة وزخم العامية المتجذرة فى طبقات الشعور. يحيى الطاهر عبد الله قاص مع سبق الإصرار والترصد، فى عقله ووجدانه مطبخ فنى لا تخمد ناره لأن يدفع إليه بعناصر الواقع المرئى ليسبك منها أقاصيص صوتية تشنف الآذان، بوتر واحد أو بعدة أوتار للعزف، متجنبا كل ما قد يثير اللبس أو الإبهام حتى تتمكن الأقصوصة من إرسال إشعاعها إلى آمال مرتقبة وواعدة؛ فيما يتوقف القطار الأبنودى فى قصصه الشعرى أو شعره القصصى عند التفاصيل الشديدة الواقعية باعتبارها بطاقة الهوية للبيئة وللناس وللحدث، يجعل منها - بقدرته الشعرية الفذة - أوتارًا مشدودة بينه والمتلقى تسخن وتنشد أكثر كلما دفقت التفاصيل الواقعية عواطفها الحياتية المشبوبة.

عكس هذا تمامًا كان محمد مستجاب، إنه قاص بمحض الصدفة التى لقيت فيها



الموهبة الفطرية متنفساً، قاص غير سابق التجهيز، فموهبة الحكى هى التى لفتت إليه أنظار المقربين منه منذ الصغر، بدورهم لفتوا نظره إلى هذه الموهبة فراح يقرأ ويقرأ، لا ليكون قاصاً مثلما كان يفعل يحيى الطاهر الذى حشد منجزات القصة والرواية العالميتين وتوفر على قراءتها دارساً متفحصاً سائحاً بين أساليب القص والأبنية الفنية وفلسفات الحكى وما إلى ذلك بمعنى أنه التحق بورشة القصة التى قادته إليها موهبته الفطرية وتعلم من أدواتها كيف يخلق أدواته الخاصة لينحت بها عالمه الخاص. ما هكذا مستجاب الذى لم يقصد إلى إقامة ورشة فنية بعينها ليتعلم منها أدوات فن بعينه، اللهم إلا ورشة القراءة العامة فى كل ما يقع تحت يده من كتب تلعب الصدفة دوراً كبيراً فى وصولها إليه، لا منهجية فى القراءة ولا توجيه لها إنما هى قراءة للقراءة من أجل تبديد سحب الجهالة المالئة سماء حياته بين قومه البسطاء الأميين المعدمين تحت عتبة السلم الاجتماعى بأجيال كثيرة.

هذه القراءات الحرة برغم عشوائيتها كانت كأمطار هطلت على أرض شققها الجفاف قروناً طويلة منذ أن امتطى سفلة التاريخ نهر النيل وسخروه لمصالحهم فتفشت العشوائية الطبقية فى المجتمع المصرى على مختلف العصور والعهود، طبقات تمالئ المحتلين وتتودد إليهم، تسلمهم مقود الحياة فتدوس خيولهم فوق أبناء نهر النيل المحكوم عليهم باليتم فى حياة النيل.. مستجاب ينحدر من أصلاب الأقنان، أقنان الأرض العاملين فيها بأقل من لقمتهم، أقنان النهر المطاردين من تماسيحه وفتواته، أقنان دواوين الحكومة حاملى ملفات الجهاز الإدارى كله فوق رءوسهم لقرون طويلة، أقنان الفتوات وضباط الاحتلال ومن بعده ضباط شرطة الاحتلال المصرى لمصر، أقنان أعضاء مجلس الشعب الجهلاء المتاجرين بمصائر البلاد، أقنان الخرافة والإرهاب الدينى وغطرسة الحكومات وبلطجية الأسواق وسماسرة الانفتاح والوكلاء ونواب القروض ولصوص البنوك ووزراء السرطنة ونجوم الخيانة فى عز الظهر عينى عينك.. على ضوء هذه القراءات العشوائية الكثيفة التى تنوعت بين الأدب والتاريخ والفلسفة والشعر والصحافة السيارة وبعض العلوم وكتب التراث.. إلخ، أضافت «المعرفة» إلى محمد مستجاب عمقها الإنسانى فشعر بفداحة ما حاق بأهله القدامى والمحدثين من أبناء الشعب المصرى المطحون، عرف أبعاد الظلم وأضاليل السياسة وبهلوانية المثقفين المتصدين للعمل السياسى، عرف تاريخ القهر من جذوره، أمسك بجذور الخنوع والخضوع وفى أية رقعة من تربة الوجدان تمتد وتتجذر، امتلأ بالغضب، ارتفع الغضب بقامته، اتسع المدى أمام ناظريه وهو يشتغل مع عمال السد العالى، استوعب صدره دفئهم وحنانهم وقدراتهم الخارقة على تفتيت الصخر وتحويل مجرى النهر وتخضير أرض المستقبل، أحب الحياة من أجلهم، وفى صحبتهم اكتشف جماليات التعبير وحرارة الشوق للمستقبل المعمور، لكنه ضاق بإفراطهم فى التواكل؛ أدرك أن كواهلهم تنوء بأحمال من المعتقدات والأفكار الخاطئة والقيم البالية من موروثات حضارة شاخت وتعفنت رفاتها إذ تراكمت فوقها معتقدات وافدة مع الاحتلالات المتعاقبة أثرت بدورها فى السلوك الشعبى وتجذرت فى الوجدان العام، سخط عليهم لهذه الأسباب؛ كان سخطه لا يقل غضباً عن سخطه على ظالميهم ومحتليهم وجلاديهم؛ ناهيك عن العنفوان الذى يمور فى داخله، فكانت الكلمات التى اعتاد أن يخطها على الورق تكاد تكون سيوفاً وخناجر وطلقات رصاص عمياء لا تفرق بين صدر العدو وصدر الحبيب، إلا أن المحتوى الإنسانى العميق الذى جبل عليه تمشى رحيقه فى عروق الكلمات فضمخها بمشاعر السخرية والمرح، هى صحيح سخرية كثيراً ما تكون أحد من شفرة الخنجر إلا أنها فى النهاية سخرية لا تقتل وإن جرحت، فجروحها غير سامة، بل كثيراً ما يكون فيها الترياق.

العمق الإنسانى الذى هو نبع السخرية فى كتابات مستجاب هو الخميرة المتبقية فى وجدان هذا الكاتب المصرى القح من عجينة وجدانية مصرية عريقة تألقت من قبل فى كتاب الموتى المصرى. وهو منبع الحكمة فى آداب العالم أجمع منذ يوم اكتشافه إلى وقتنا هذا - وشكاوى الفلاح الفصيح وأناشيد إخناتون والبكائيات - المعدودات - التى تلونت مع العصور ونطقت بالعامية المصرية، وكذلك الأمثال والمأثورات الشائعة، وحواديت ست الحسن والجمال والشاطر حسن وعقلة الأصبع ونص نصيص، وألعاب الغراب النوحى ولا ينزل ولا يتزلزل والطاقية فى العبية، ونوادر جحا وأبى النواس، والمواويل الحمراء عن قصص الحب الدامية.. إلخ إلخ.



ذلك هو متاع محمد مستجاب الذى أقبل به على الكتابة فى حالة تشبه إلى حد كبير جداً حالة المبدع الطبيب الروسى أنطون تشيكوف الذى بدأ مسيرته الأدبية بكتابة قصص فكاهية للصحف لا يقصد من ورائها إلا هدف التسرية عن القراء وإشاعة لحظة من المرح فى أفق الحياة اليومية تبدد عنهم بعض الكدر. هكذا فعل مستجاب فى أول عهده بالعلاقة مع القلم؛ أبداً لم يكن كغيره من فرسان جيلنا يجهز نفسه فنياً وثقافياً لكتابة القصة القصيرة مثل يحيى الطاهر عبد الله وإبراهيم أصلان ومحمد البساطى وبهاء طاهر ومحمد إبراهيم مبروك ومحمد حافظ رجب وضياء الشرقاوى - الأسماء بغير ترتيب مقصود - وسليمان فياض وأبى المعاطى أبو النجا وسعيد الكفراوى ومحمد المنسى قنديل وغيرهم؛ لم يتسلح لفن القصة ولم يعن بالبحث عن أحدث ما وصلت إليه من تقنيات وإن كان قد قرأ كل القاصين من يحيى حقى ومحمود البدوى إلى يوسف السباعى وإحسان عبد القدوس إلى يوسف إدريس ومصطفى محمود ويوسف الشارونى ومحمود السعدنى وإدوارد الخراط إلى أبناء جيله السابق ذكرهم.. لكن فن القصة القصيرة هو الذى داهمه وفرض نفسه عليه بقوة الحضور؛ كانت خمسينيات وستينيات القرن العشرين هى عصر القصة القصيرة فى مصر، كل الصحف تنشرها بانتظام، ناهيك عن المجلات الأدبية والثقافية العامة، ومجلة خاصة بالقصة، وسلاسل كتب شهرية تصدر عن نادى القصة وعن دور نشر خاصة كدار النديم ودار الفكر ودار المعارف ودار الهلال ودار الكاتب العربى؛ الكتاب الذهبى والكتاب الفضى والكتاب الماسى وروايات الهلال وكتاب اليوم، سلاسل تألقت فيها القصة القصيرة؛ وعامل السد العالى وشركة المقاولين العرب الذى جاء إلى القاهرة مفتوناً بصحافتها الفكاهية وأدبها الساخر عند يحيى حقى ومحمود السعدنى ومحمد عفيفى وأحمد رجب وجليل البندارى وفوميل لبيب وأبى بثينة وحسين شفيق المصرى، وجد أن القصة القصيرة هى الجنس الأدبى الرائج، وكل أبناء جيله يكتبونها، وحقلها - لأول مرة فى التاريخ - يصنع نجوماً لامعين كيوسف إدريس؛ فإذا بالقصة تناديه ليكتبها، وإذا به يكتشف أنها النافذة الملائمة للإطلال على ذلك العالم الحوشى السفلى الذى يكمن فى داخله.. بدأ يستكشف عالمه ذاك على استحياء، ثم تفجر عالمه فى قلبه فاستكشف على ضوء بوارقه معالم شخصيته الفنية الجديدة الطازجة، عالمه الذى عاشه حتى النخاع كان - لمن لم يعشه - أشد خرقاً وغرائبية من الأساطير، ولم يكن ذلك بغريب عليه؛ فوقائع التاريخ المصرى التى قرأها عند المقريزى وابن إياس والجبرتى تكاد تتفوق على الأساطير فى خرق المألوف والمتوقع والمنتظر.

تكونت الملامح الفنية للحكى المستجابى من روح الأسطورة وشدة تشابهها مع وقائع التاريخ المصرى فى العصور الوسطى، ومن حرارة الموال الأحمر، والتهويل المرعب فى الحواديت الشعبية، والتراكم الملحمى فى السير الشعبية، ونبرة الحكمة المسكوكة العبارات عند ابن عروس ومن قبله كتاب الموتى، ومن نبل المأساة الاجتماعية والسياسية كما يشعر بها ويعبر عنها الفلاح الفصيح فى شكاواه التى هى درر أدبية تتحدى الأزمنة وتقوم بالتكريس لمبادئ العدالة من خلال نعيها والترحم عليها. من هذه الشكاوى تعلم مستجاب كيفية التكريس للمعنى النبيل من خلال المغالاة فى مدح الذميم؛ ولأن ذلك علم من علوم البلاغة العربية التى عشقها مستجاب ويسمى بفن تأكيد الضد، يعنى أن تتكلم عن شىء بالمدح أو بالقدح وأنت فى الواقع تقصد

طاقة الرفض الحوشية هذه كانت قمينة بأن تجعل مستجاباً يحمل بدلاً من القلم فأساً يحطم به رءوس الباقين من سلالة الطغاة، أو يحمل شومة صعيدية يتفاهم بها مع الرءوس الناشفة من أبناء المدينة الرقيعة



إلى شىء آخر مضاد له، ولأن هذا الفن قد صادف هوى فى نفس مستجاب لذلك فقد أتقن فن اللعب بالأضواء، ذلك الفن الذى أسسه الجاحظ من خلال استكشافه لمحاسن الأضداد.

على أن الفن الأول فى فنون موهبة مستجاب الحكائية هو فن اللغة، حيث ابتدع لغة متماهية تماماً مع تفاصيل عالمه السفلى، لغة كعالمه تمتلئ بالأضداد، تتسم بكل ما يتسم به عالمه من غرائب، تجمع بين الخشونة الحادة والرقة المفرطة، بين الكياسة والحوشية، بين مرارة الدواء وقشرته السكرية الخادعة، بين الصراحة المفرطة والتستر المفضوح إذ أنه يقطع الجملة أحياناً ليتحفظ بعبارة: لا مؤاخذه، تحفظاً مصطنعاً عن عمد، إنه فى الواقع لا يريد أن يتحفظ فى التعبير إنما هو يتخذ من التحفظ المصطنع هذا أداة لتأكيد التعبير الذى يتحفظ عليه، إنه بهذه العملية التركيبية الأسلوبية العابرة يريد أن يسخر من تحفظاتك أنت، ينتهز الفرصة لإبلاغك بأنه على علم بأنك تطلب التحفظ على مثل هذا التعبير فيطلب عفوك لاضطراره إلى استخدام التعبير برغم تحفظك، ليس تحدياً لك أنت واستصغاراً لشأنك بصفة شخصية وإنما تحدٍ واستهزاء بما ترسخ فى وجدان القوم من معتقدات بالية، استهزاءً بعقلية قوم يجدون لذة فى مصادرة التعبير وفى عدم تسمية الكثير من الأشياء والمواقف بأسمائها الطبيعية الحقيقية. إنه كاتب نفور، أنوف، براوى، عارى الأعصاب كأسلاك الكهرباء العارية، منتزع الهوائيات على الأثير يلتقط جهازه العصبى كل شاردة وواردة فى مجريات الأمور، لو كان الود وده والصحة البدنية والنفسية بيمينه ما ترك نسمة تمر إلا وحللها واستخلص منها السموم قبل أن يتركها تمر إلى البشر، إنه على خصومة دائمة لا ينتهى لها أوار ولا يهدأ لها صوت، مع المجتمع برمته، ناهيك عن مجتمعه الصغير، فى حالة اشتباك دائم ودائمة مع كل صغيرة وكبيرة فى أى شأن من شئون الحياة، مستقر على طول الخط لا سبيل إلى استرداده لإنسانيته وحقه فى الراحة قليلاً إلا بالشراب، وليس للشراب من لذة على الإطلاق إلا فى صحبة الأحباب، ومتى اجتمع بالأحباب أو اجتمع به الأحباب ضوعفت فيه طاقة البذل والعطاء من السخرية الانتقادية الحادة بحماسة منقطعة النظير تحتاج إلى وقود بل إلى مناجم من وقود، إذ هو يحرق ويحترق غضباً على سوء الأوضاع ورخاوة الناس وبلادتهم وركود حياتهم المميت، فى مجالس الصحبة يظهر مستجاب الإنسان البراوى الشرس النفور الأنوف المتغطرس المتغاتت عن عمد يريد به طعن العضلات المتبلدة فى الأجسام المسترخية المستمرئة للراحة والاستقرار تحت ظلال الفساد، كما أن شخصية مستجاب الإنسان، مثل كل الناس وبخاصة نحن الكتاب، مليئة بالعقد النفسية والأمراض الطبقية التى كادت تقتلنا أو تحيلنا إلى مجرمين لولا عقار الفن والأدب الذى أدركنا منذ الصغر فحمانا من ذلك المصير المؤلم؛ وقد أثبتت التجربة أن الموهبة حين تكون كبيرة فى مثل هذا الإنسان فإن عقدها وأمراضها، وإن تحولت إلى طاقة فنية مستنيرة تنتج أدباً وشعراً وموسيقى وتصويراً وتمثيلاً وإخراجاً، تبقى مع ذلك تأثيراتها الأولى فى النفس المبدعة فتكون ردود أفعالها على سلوكها بوجه عام كبيرة بحجم الموهبة نفسها، فهناك عظماء فى جميع المجالات الفنية والأدبية والعلمية لا يطيق المرء معاشرتهم أو حتى الاقتراب منهم لفترة وجيزة، حيث الواحد منهم أشبه بدغل البوص أو الحلفاء أو الغابة أو المتاهة، ولو أننا قابلناه دون معرفة سابقة بماهيته لتصورناه مختل العقل أو متسولاً أو خارجاً على القانون، فإن عرفنا ماهيته بعد ذلك ذهلنا، فلا نكاد نصدق أن مثل هذا المسخ الشائه تصدر عنه مثل هذه الدرر الفنية أو النظريات العلمية التى تعيد تفسير الكون كله فيما قد يعجز هو نفسه عن تفسير ولو جزء صغير من نفسه المعقدة المركبة.

فى الكتابة يظهر مستجاب الفنان الذى وقع أسيراً لفن الحكى القصصى وهو لا يملك من أدوات القص الحديث سوى لغة فحسب، فكل الأبنية القصصية السابقة عليه والمجايلة له مرفوضة من عالمه ذاك الذى يستعصى على كل أساليب الحكى السابقة التجهيز والمرتبطة عادة بأشكال فنية شائعة فى الحبكة القصصية، بل إنه عالم مضاد للتأليف من الأساس، يرفض أى جسم خارجى يندس فيه وإن كان مجرد حبكة فنية من الحبكات الشائعة فى القص العالمى بوجه عام، يرفض كذلك أى لحام صناعى حتى وإن كان بالأوكسجين، فأى لحامات «فنية» تحاول الربط بين جزيئاته فى تكوينات شكلية لتأليف حكاية تقوم على شخصيات وأحداث، سوف تنفك من تلقاء ذاتها، وقد أدرك مستجاب منذ البداية أن أى لحام لتصنيع أشكال قصصية من عالمه لابد أن تكون من نفس النسيج، نفس المعدن، قابلة للدخول فى النسيج العام والاختلاط باللحم الحى. وسواءً كان مستجاب قد درس أساليب الحكى وأشكال القص فى الأدب العالمى أو اعتمد على فطرته فإنه قد نجح فى ابتداع لغة تتضمن الحكى والشكل والمحتوى فى عبارة واحدة، لغة مكتفية بعالمها الغنى ليست فى حاجة لاستيراد شىء من خارجها، لغة تشبه البطاطين والأحرمة الصوفية المصنوعة من صوف غنم نفس القبيلة بأنوال بدائية يديرها أبناء القبيلة، لغة يجرى فى حروفها لبن الغنم ومياه الآبار والقنوات، تستظل بالنخيل والأشجار لتستمد اخضرارها من خضرة أرضها الطيبة، تستقطب الدفء من أنفاس الجميع، تتنفس العراقة من آثار مصر الصعيدية الخالدة وتجرى فى سياقاتها أنفاس نهر النيل أب الحكايات والملاحم الأعظم. قامت لغة مستجاب، المتماهية مع لغة المأثور الشعبى وغرائبية وسوريالية الفنون الشعبية المصرية، بطرح أطرافها على وحدات - وحدات من عالمه، تشكيلات من نفس القبيلة مطروح فوقها غطاء من سرادق اللغة المستجابية، فهى لغة عرضها عرضان كأثواب الصوف، طولها لا ينتهى، قادرة على أن تقص من نفسها رقاعاً تصنع منها سرادقات متعددة ذات أشكال متعددة وأحجام واتساعات وارتفاعات متعددة تتنوع وتتجدد وتتعمق بحسب مستويات القابعين تحتها.

فى مجموعته الأولى (ديروط الشريف) قدم مستجاب القطفة الأولى من عالمه القصصى، بلغته الطازجة الجديدة. وكانت مجموعة لافتة للأنظار حقاً، أسست وكرست لكاتب كبير بحق، يتميز بالعمق الإنسانى وبالنظرة الفلسفية الميالة - فطرياً - إلى حصاد الحكمة فى عبارات مسكوكة صارمة.

عندئذ قدر له أن يعمل موظفاً بالمجمع اللغوى المصرى. مجمع الخالدين - فإذا بهذه الوظيفة تسهم فى تطوير صياغته الأدبية وتعلو بلغته إلى مستويات شاهقة قلما يبلغها كاتب موهوب مثله. فى المجمع كتاب مرموقون مثل الروائى الرومانسى الكبير محمد عبد الحليم عبد الله، وعلماء لغة جهابذة كإبراهيم بيومى مدكور، والمجمع يعقد جلسات دورية أسبوعية لمناقشة أوضاع اللغة وكيفية التعامل مع المصطلحات الجديدة، ويصدر المجتمع مطبوعات كثيرة، منها مجلة خاصة بأبحاث اللغة، ودورية تنشر جلسات المجلس وما طرح فيها من آراء ومقترحات. كان مستجاب يقرأ كل ذلك فى شغف، يتأثر به تأثيراً إيجابياً سرعان ما ارتقى بلغته القصصية. ويلوح لى أن احتكاكه بنشاط المجمع والمجمعيين قد مكنه من ابتداع لغة جديدة تليق بأن يؤرخ بها لآل مستجاب، وآل مستجاب هؤلاء - كما سبق القول - هم رموز مختارة بعناية من الطبقة الكادحة المعدمة تتمثل فيهم أصالة الشعب المصرى. هم فى النهاية ناس بسطاء جداً، واللغة التى يروى بها عنهم لغة تراجيدية مفخمة تليق بالتأريخ للقادة والزعماء ورجالات التاريخ العظماء من علية الأقوام، كتب أول ما كتب بهذا الأسلوب قصته الطويلة بعنوان: (التاريخ السرى لنعمان عبد الحافظ)؛ ثم ازدادت هذه اللغة تألقاً وإشعاعاً وغنى فى الدراما الإنسانية فى قصصه عن آل مستجاب، الثالث والرابع والخامس عشر، كما لو كانوا ملوكاً من الفرنجة، حتى كلب آل مستجاب استحق أن يؤرخ له فى قصة مستقلة.

كانت خمسينيات وستينيات القرن العشرين هى عصر القصة القصيرة فى مصر، كل الصحف تنشرها بانتظام، ناهيك عن المجلات الأدبية والثقافية العامة، ومجلة خاصة بالقصة



ثمة حقيقة لا يمكن تجاهلها ونحن نتحدث عن هذه اللغة المستجابية الطريفة الجزلة المليئة بالأخيلة الحوشية الشرسة. الواقع أنها لغة ليست جديدة تماماً على الأدب العالمى وإن كان مستجاب قد بصمها بالمزاج المصرى الخالص المستمد من فهمه الدقيق لآل مستجاب من أهالينا المصريين فى الصعيد والدلتا على السواء. هذه اللغة تألقت من قبل تألقاً تاريخياً مرموقاً فى رواية (دونكيخوته) أو (دون كيشوت) بالنطق المصرى الشائع، فها هو ذا سرفانتس يحاكى الرومانسى العربى القديم الذى شاع فى الثقافة الأندلسية عن نبلاء وفرسان من قبيل عنترة بن شداد وحمزة البهلوان وغيرهما من الملاحم الشعبية التى قدمت فرساناً ذوى قدرات خارقة للعادة يجندل بها العشرات فى ضربة سيف واحدة ويدين مع ذلك بأخلاق الفروسية النبيلة فلا يقتل المنهزم ولا يغدر بالأمن ويتزوج من جنيات ينجب منهن فرساناً يدركونه عند اللزوم. أراد سرفانتس أن يحاكى هذا الرومانسى العربى والأندلسى القديم ولكن بطريقة ساخرة محضة، يسخر بها من أولئك الفرسان الخياليين، وإمعاناً فى السخرية يستخدم نفس اللغة الملحمية الفخمة المهيبة ليحكى بها عن بطل نصف مجنون يتقمص شخصية فارس وما هو بفارس، يتمنطق بلباسه ودروعه وسيوفه وينزل ليغير الأوضاع المائلة بنفسه، يتصرف تصرفات الفرسان الجبابرة ويأمر وينهى غير عابئ بأن الجميع يهزأ به ويسخر منه مر السخرية، تأخذه الحماسة حتى يصل فى النهاية إلى الدخول فى حرب ضروس مع طواحين الهواء. كان سرفانتس يهدف إلى إثارة المرح من أجل الوصول إلى هدف أكبر، ذلك أن المسافة الهائلة بين لغة الحكى المهيبة الفخيمة وتواضع حال المحكى عنهم تتسع طوال الرواية للمفارقات التى يريد سرفانتس إبرازها لتطهير العقلية الإسبانية وربما الوجدان العالمى من تأثيرات ذلك الرومانسى السلبية لصالح الواقع المادى الملموس الذى ينبغى لهم النظر فيه، إذ من المؤكد أنهم لو تأملوا واقعهم فسوف يعثرون على نماذج من البطولات الواقعية الجديرة بالحفاوة والخلود لعل من بينهم دونكيخوته نفسه، ذلك الرجل الذى رسمه سرفانتس ببراعة نادرة لكى يشخص به نبل الإنسان وكيف أنه لا يقبل التسليم بسوء الأوضاع، لا يرضى العيش فى خنوع واستسلام للأمر الواقع مهما كان هو ضعيفاً والأمر الواقع قوياً نافذ الحضور، ها هو ذا دونكيخوته يفشل بمفرده وبعدم إمكاناته فى تغيير أى شىء من الأوضاع بل يدخل فى حرب هوجاء مع أوهام تمثلها طواحين الهواء، فكان لابد أن يضيع على مذبح مشروعه الوهمى ولكن يبقى منه فى النهاية شىء شديد الأهمية، قيمة عالية اسمها نبل الإنسان الذى يستحق التمجيد حتى وإن فشل فشلاً ذريعاً فى تحقيق أى من النتائج المرجوة. والفضل فى توصيل هذا المعنى الكبير لهذه الملحمة الفكاهية الكبيرة حتى فى منابعها الفكاهية الساخرة يرجع إلى هذه الطريقة الأسلوبية التى عالج بها سرفانتس روايته الخالدة: الحكى بأسلوب مهيب فخيم عن ناس شديدى التواضع وبلا حيثية اجتماعية على الإطلاق.

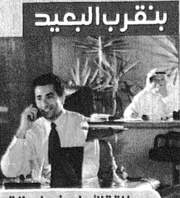
أزعم أن مستجاباً قد استلهم من سرفانتس لغته فى دونكيخوته، ثم نجح فى وضع ملامحه الخاصة بحساسيته المرهفة تجاه اللغة العربية الفنية العظيمة، سيما والثقافة عند الكاتبين تكاد تكون واحدة، ذلك أن المكونات الثقافية والفنية والفلسفية مستمدة من الثقافة العربية الأندلسية التى تربى عليها سرفانتس، مع ملاحظة أن اللغة الإسبانية التى كتب بها عمله الأدبى الفذ مشبعة بالمفردات العربية ذات حمولات ثقافية كثيرة وغنية ومتنوعة. أكاد أزعم أن الخيال يكاد يكون واحداً عند الكاتبين مع الفارق فى درجة الموهبة وحجم الثقافة وغزارة المعرفة والامتلاء بالتجربة لصالح سرفانتس بالطبع. ولو أننا تأملنا كائنات آل مستجاب التى أرخ لها محمد مستجاب فى قصصه البديع لوجدناها صوراً مصرية خالصة من نفس الخامة الدينكوخوتية، إنهم نماذج من نفس العائلة، مزيج من النبل والجلافة، نبل مطموس تحت حوشية زاعقة، حياتهم مبددة فى الخرافة والغيبيات وجهالات القرون الوسطى الجاثمة على صدورهم.

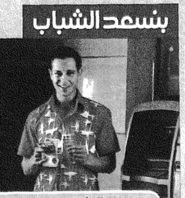
هذه ليست دراسة فى أدب محمد مستجاب..

ليست مقالاً نقدياً..

إنما هى مجرد محاولة متواضعة لفهم كاتب من أهلنا كان ولايزال وسوف يظل طعاماً شهياً دسماً ومفيداً على مائدة الأدب العربى. ■

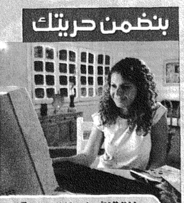
بنحقق طموحاتك

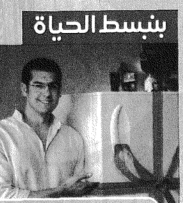












بطاقات البنك الأهلى المصرى

- بالإضافة إلى بطاقات (فيزا، ماستر، داينرز كلوب، **بطاقة الخصم، الأهلى للمرتبات)**
- تسافر، تتسوق، تسدد فواتيرك والتزاماتك.
- حرية التسوق بانترنت كارد.
- سداد بتسهيلات كبيرة.
- الإتصال بخدمة الأهلى فون **٥٧٦٠٧٧٧** على مدار ٢٤ ساعة.

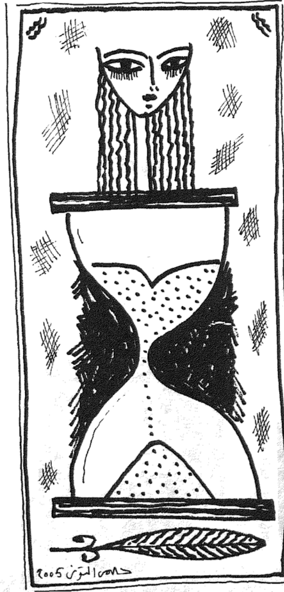


الأقرب إليك

www.nbe.com.eg

الزمن الموت و الشعراء

عبد الوهاب المسيرى



حينما نقول إن هذه القصيدة عن الحب أو عن المدينة أو عن الموت، فنحن فى واقع الأمر لا نطلق حكماً أدبيًا أو جماليًا، أو حتى فكريًا، بل نكون قد قمنا بتصنيف العمل على أساس الموضوع الظاهر وحسب. وهوية العمل الفنى، ومعناه المحدد، وسماته الفريدة لا تفصح عن نفسها من خلال الموضوع الذى يتناوله، وإنما من خلال طريقة المعالجة والبناء الكلى الذى يتبدى فى عشرات التفاصيل، مثل الصور الشعرية، ونبرة المتحدث فى القصيدة، والكلمات المستخدمة والموضوع الكامن الذى يضفى على العمل الوحدة ويربط بين تفاصيله وبين شكله ومضمونه. ولذا فالتصنيف حسب الموضوع الظاهر يختزل الأعمال الأدبية، ويفقدها هويتها وفرادتها وثراءها، بل ويعزلها عن التجربة الإنسانية الحية التى يحاول العمل التعبير عنها.

وتعالج هذه الدراسة مجموعة من القصائد التى تتناول موضوع الموت، وسنكتشف سويًا كيف أن كل شاعر يتناول الموضوع نفسه بطريقة مختلفة، تعبر عن تجربته بكل ثرائها وفرادتها وخصوصيتها، رغم أن الموت هو الموت. ولن نتبع منهجاً واحداً فى قراءتنا لهذه القصائد، بل سنغير منهجنا النقدى حسب ما تتطلبه القصيدة موضع البحث. ولكن فى جميع الأحوال كان تركيزنا على النص الأدبى نفسه، ولذا أتينا بالنصوص الكاملة للقصائد موضوع الدراسة، كما أننا حاولنا دائماً أن نركز على النقطة التى يتقاطع فيها الشكل (الصورة- النبرة- البنية.. إلخ) مع المضمون.



وضع وولتر سكوت الموت فى إطار أخلاقى. أما فى أغنية البيتلز «إليانور رجبى»؛ فقد وضع الموت فى إطار العصر الحديث، عالم «الأرض الخراب»:

آه! انظر إلى كل هؤلاء الذين يشعرون بالعزلة!

إليانور رجبى تلتقط حبات الأرز من أرض الكنيسة بعد حفل زفاف،
تعيش فى حلم،
تنتظر بجوار النافذة، ترتدى الوجه الذى تحتفظ به فى إناء بجوار الباب،
لمن تحتفظ به؟
آه! كل هؤلاء الذين يشعرون بالعزلة..
من أين يأتون؟

الأب ما كنزى يكتب كلمات الموعظة التى لن يسمعها أحد،
لن يقترب أحد،
أنظر إليه وهو يعمل، يَرْتُقُ جوربَه فى الليل حينما لا يكون أحد هناك،
ماذا يهمه؟
آه! كل هؤلاء الذين يشعرون بالعزلة،
من أين يأتون؟!

إليانور رجبى ماتت فى الكنيسة ودفنت مع اسمها،
لم يأتِ أحد.
الأب ماكنزى نظف يده من الطين وهو يبتعد عن المقبرة.
لا، لم يكن الخلاص من نصيب أحد.
آه! كل هؤلاء الذين يشعرون بالعزلة،
من أين يأتون؟!

إن أردنا أن نصنف هذه القصيدة الغنائية القصيرة على أساس الموضوع، لقلنا إنها عن موت إليانور رجبى. ولكننا لو فعلنا ذلك لتركنا معظم تفاصيل القصيدة دون تفسير أو تحليل. ولذا لابد أن نوسع من دائرة العملية التفسيرية حتى نتوجه إلى هذه التفاصيل، وسنجد أن القصيدة ليست عن موت إليانور رجبى، وإنما عن غياب الله وموت الإنسان.

تبدأ القصيدة بحبات الأرز المتبقية من حفل زفاف عقد فى الكنيسة، فاللحظة الاحتفالية لم يبق منها سوى بعض حبات الأرز التى يجب أن تلتقط ليلقى بها فى سلة المهملات. بعد أن تنتهى إليانور من مهمتها تنتظر بجوار النافذة، أى أنها تنضم للملايين الذين يشعرون بالعزلة، ولا يتواصلون. ولنلاحظ أن البنية الأساسية هنا هى شىء جميل واعد لا يثمر شيئاً، تماماً مثل الموعظة التى يكتبها الأب ماكنزى فى المقطع الثانى والتى لن يسمعها أحد، وهو أيضاً ينضم للملايين التى تشعر بالعزلة، إذ يجلس وحيداً «يَرْتُقُ جوربه فى الليل/ حينما لا يكون أحد هناك».

كل هذه التفاصيل تكتسب معناها المحدد من المقطوعة الثالثة حينما تموت إليانور رجبى وتدفن مع اسمها، أى تدفن تماماً ولا يبقى منها حتى الذكرى، ولكن العزلة تضرب على الجميع، فلم يأتِ أحد لجنازتها.

وتنتهى القصيدة بصورة الأب ماكنزى ينظف يديه من الطين بعد أن دفن إليانور بمفرده (تماماً كما التقطت هى بمفردها حبات الأرز من أرض الكنيسة فى بداية القصيدة وكما كتب الأب ماكنزى كلمات الموعظة التى لن يسمعها أحد)، فلم يأتِ أحد لجنازتها، وهكذا تحولت طقوس الحداد إلى عملية فارغة تماماً، فى عالم خالٍ من المعنى. ولذا «لم يكن الخلاص من نصيب أحد».

هل هناك مجال لتجاوز مأساة الموت؟ الإجابة ستكون بلا شك بالنفى. ومع هذا، يمكن القول إن ثمة تجاوزاً من خلال البعد الجمالى، فالسطح والصور والألوان، رغم أنها زائلة عابرة، ورغم أن الضوء ينسحب، إلا أن كل هذه التفاصيل تظل محتفظة بجمالها



وتنتهى القصيدة باللازمة نفسها «آه! كل هؤلاء الذين يشعرون بالعزلة، من أين يأتون؟!».

وموضوع الموت (والزمان) من أهم الموضوعات المتواترة فى شعر «الهايكو» اليابانى، وهى أقصر الأنواع الأدبية، إذ تتكون كل قصيدة من ثلاثة أبيات شعرية قصيرة:

«شيئان يسرقهما القمر
الضوء من سيقان الأشجار،
ويوم من حياتى».

«تطفو البجعة بعيداً،
وقد حملت فى ريشها
ضوءَ النهار».

القصيدتان السابقتان من شعر باشو، أشهر شعراء الهايكو، بل هو واضع أسسه. ويحق للمرء أن يتساءل: هل هما عن الموت ومرور الزمن، أم عن منظر طبيعى جميل يتسم بشىء من الحزن؟!

العناصر الطبيعية موجودة، وبشكل واضح، وسطح القصيدتين ملىء بها (القمر- الأشجار- البجعة- الريش- ضوء النهار). ولكن هذه العناصر لم توضع بشكل زخرفى أو عشوائى، وإنما رتبت بطريقة تولد معنى محدداً. فنلاحظ أن فى كلتا القصيدتين صورةً أساسية، وهى الغياب التدريجى للضوء، فالبجعة تحمله بعيداً والقمر يسرقه، فكأن هناك حركةً من حالة الضياء إلى حالة الظلام (أو على الأقل العتمة)، ومن حالة الحضور إلى حالة الغياب. وإذا كانت القصيدة الأولى توحى بالمعنى: فإن الثانية، رغم قِصَرها، تقررها: فالقمر يسرق الضوء ويوماً من حياته، فالضوء هو الزمان، هو حياته، ومن هنا فحينما يسرق القمر الضوء من سيقان الأشجار، فإنه يخضعها لحكم الزمان والموت.

ولكن.. هل هناك مجال لتجاوز مأساة الموت؟ الإجابة ستكون بلا شك بالنفى. ومع هذا، يمكن القول إن ثمة تجاوزاً من خلال البعد الجمالى، فالسطح والصور والألوان، رغم أنها زائلة عابرة، ورغم أن الضوء ينسحب، إلا أن كل هذه التفاصيل تظل محتفظة بجمالها، ولعلها بذلك تدخل بعض العزاء على قلوبنا، حتى ونحن فى طريق العودة!

والقصيدة التالية للشاعرة الأمريكية أميلى ديكنسون «لأنه لم يكن بوسعى أن أمر على الموت» (اعتمدت إلى حد كبير على ترجمة د. محمد هشام). تتسم القصيدة بأنها ذات مستويين: واحد ظاهر كوميدى خفيف، والآخر ليس مأساوياً وحسب وإنما سوداوى، وهو ليس مجرد تعبير عن مرحلة فى حياتها وإنما هو تعبير عن رؤيتها للموت وعن علاقة الإنسان به:

لأنه لم يكن بوسعى أن أمرَّ على الموت
مر هو على منزلى بعربته،
لم تكن العربة تحمل سوانا
والخلود.
قاد عربته على مَهَل فلم يكن فى عجلة من أمره،
ولفرط أدبه
طرحت جانباً أفراحى
وأتراحى أيضاً.
مررنا على المدرسة حيث يَكدُّ الأطفال
فى الفسحة، فى الحَلَقة،
مررنا على حقول القمح المحدقة،
مررنا على الشمس الغاربة.
ولكن لعلها هى التى مرت علينا .
تساقطت قطرات الندى، مرتجفةً باردة.
من نسيج رقيق كالعنكبوت، ليس إلا،
كان ردائى،
ووشاحى كان من التل، ليس إلا .
ثم توقفنا أمام منزل كان يبدو
وكأنه مجرد نتوء فى الأرض،
سقفه لا يكاد يرى
وطنفه فى الأرض.
منذ ذلك الحين مرت قرون وقرون
ولكنها
تبدو أقصرَ من ذلك اليوم
الذى عرفت فيه للمرة الأولى أن رؤوس الجياد
كانت تتجه صوب الأبدية.

أهم ما فى قصيدة إميلى ديكنسون هو نبرتُها . فهى تتحدث بخفة واضحة عن الموت، فهو فى هذه القصيدة رجل مهذب (جنتلمان) من القرن التاسع عشر، قبل أن ينتشر الحديث عن المساواة بين الذكور والإناث. والذكور فى هذه القصيدة ذكور والإناث إناث، ولكلٍ هُويته المحددة. وتبدأ القصيدة بهذا الرجل المهذب (الموت)، يمر على المتحدثة فى القصيدة بعربته ليأخذها فى رحلة. وفى القرن التاسع عشر كانت رحلة بالعربة تعنى محاولة التقرب من الأنثى، بل كانت نوعاً من أنواع الغزل، فكأنه قد مر عليها ليخطب ودها . وإميلى ديكنسون حين ربطت بين الحب والموت، تتبع نمطاً متكرراً فى الأدب العالمى والشعبى، فكثير من قصص الحب الشهيرة مثل روميو وجوليوت تنتهى بالموت، إذ يبدو أن الحب الخالص المتوتر لا يمكن أن يتحقق إلا فى اللازمان، ومن هنا يكون الموت هو التحقق الوحيد الممكن لهذا النوع من الحب. (ألا نقول نحن فى العربية: «خرَّ صريعَ الهوى»؟!). وإذا كانت كلمة «الموت» تصدمنا فى البيت الأول من القصيدة: فإننا نتلقى صدمة أخرى فى البيت الرابع، فالرحلة الرومانسية لا تضم اثنين وحسب، كما هى الحال دائماً، وإنما هناك طرف ثالث: الخلود.



وهكذا تحدد الشاعرة موضوع قصيدتها من البداية: إنه ليس الموت وحسب، وإنما الخلود أيضاً. ولكنها تحيط كل هذا بقدر كبير من السخرية، فهى تتحدث عن رحلة الموت التى تؤدى إلى الأبدية وكأنها رحلة مع رجل مهذب يحاول أن يخطب ودها، وهى تحتفظ بهذه الازدواجية والإحساس بالمفارقة الساخرة فى نبرة القصيدة كلها. فالمقطوعة الثانية تشير إلى إعجابها الشديد به وبأدبه، حتى إنها تركت من أجله كل شىء، «أفراحها وأتراحها». والمقطوعة التى تليها تضم عناصر تبدو وكأنها غير متجانسة، ولكننا لو دققنا النظر لوجدنا أنها تشير إلى رحلة الحياة. نحن لازلنا فى العربة نمر على الميلاد (الأطفال)، والنمو (الحقول المحدقة)، والموت (الشمس الغاربة). ولكن كل شىء يتوقف فجأة، فالشمس هى التى مرت عليهم، فهم فى واقع الأمر فى حالة سكون. وتبدأ مجموعة من الصور التى قد تبدو وكأنها تشير إلى مظاهر الحياة، ولكنها فى واقع الأمر تشير إلى الموت (فقطرات الندى مرتجفة باردة). وحينما تخبرنا المتحدثة أنها كانت مرتدية ملابس العروس (وشاحا من التل ورداءً رقيقاً)، فإنها تسرع بالقول إنه رقيق مثل خيوط العنكبوت (الذى يذكرنا بالقبور!).

ويتأكد عنصر السكون فى المقطوعتين الأخيرتين (الخامسة والسادسة)، إذ تتوقف العربة أمام منزل هو فى واقع الأمر مقبرتها، ولكنها تحتفظ من خلال نبرتها الساخرة بمسافة بينها وبين هذا الشىء المخيف. ثم نكتشف أن زمن القصيدة الحقيقى هو اللازمان. إن المتحدثة قد دُفنت منذ زمن بعيد. ولأول مرة فى القصيدة تتخلى عن نبرة السخرية حين تصرح (ولا تلمح هذه المرة)، أن اليوم الذى عرفت فيه أنها ستموت («عرفت أن رؤوس الجياد/ كانت تتجه صوب الأبدية») كان أطول من كل القرون التى قضتها فى القبر. وتنتهى القصيدة بهذه النبرة المظلمة التى لا تشوبها أية سخرية أو حيادية.

والسونت التالية لشاعر إنجلترا العظيم وليام شكسبير تؤكد إمكانية تحدى الموت وتجاوزه، وعنوانها «هل أقارنك بيوم من أيام الصيف؟». (والترجمة للشاعر المصرى بدر توفيق):

هل أقارنُك بيوم من أيام الصيف؟
أنت أحب من ذلك وأكثر رقة.
الرياح القاسية تعصف ببراعم مايو العزيزة،
وليس فى الصيف سوى فرصة وجيزة.
تشرق عين السماء أحياناً بحرارة شديدة،
وغالباً ما يصير هذا الوهج الذهبى معتماً،
والروعة بأسرها تتلاشى عنها روعتُها يوماً ما،
بالقدر وبالطبيعة التى قد تتغير دورتها بلا انتظام.
لكن صيفك الخالد لن يذوىَ أبداً
أو يفقد ما لديه من الحُسن الذى تملكه،
ولا الموت يستطيع أن يطويك فى ظلاله
عندما تكبر مع الزمن فى الأسطر الخالدة.
فما دامت للبشر أنفاسٌ تتردد وعيونٌ ترى،
سيبقى هذا الشعر حيًا، ولكِ فيه حياة أخرى.



تبدأ القصيدة بتأكيد الثنائية الأساسية: ثنائية الإنسان والطبيعة، إذ يسأل الشاعر سؤالا خطابيًا: «هل أقارنك بيوم من أيام الصيف؟»، والإجابة بالنسبة له محسومة تماماً، فالحبيبة «أحب من ذلك وأكثر رقة». فنحن هنا فى عالم متمركز تماماً حول الإنسان، عالم عصر النهضة الغربى، حين أعلن الإنسان أن الإله قد يكون موجوداً، ولكنه فى سمائه ترك لنا هذا العالم نديره بأنفسنا وبعقولنا، أى أن الإنسان أصبح مكتفياً بذاته وغدا مرجعية نفسه. وتهميش الإنسان للإله ولَّد درجة عالية من التفاؤل والإحساس بأن الإنسان يتحكم تماماً فى مصيره، وأنه سيد الكون والطبيعة.

تظهر هذه الكبرياء فى وصف الإنسان للطبيعة، فكل شىء فى الطبيعة يتغير ويتحول



ويذوى: الصيف يمر سريعاً، والشمس تشرق تارة بحرارة شديدة، وتارة أخرى تصبح معتمة، ودورتها تتغير بلا انتظام، فلا ثبات فى الطبيعة ولا أمان.

وهذه القصيدة من نوع السونت الشكسبيرى، وهى قصيدة تتكون من أربعة عشر بيتا مقسمة إلى ثلاثة مقاطع ودور أو كوبليه (بالإنجليزية Couplet) وهى مجموعة من الأبيات تربط بينها قافية واحدة. وعادة ما يكرس الشاعر المقطعين الأول والثانى لطرح قضية ما، ولكنه فى المقطع الثالث يطور رؤيته، ويصدر ما يشبه الحكم النهائى فى الدور الأخير. وهذه السونت تنتمى لهذا النمط، ففى بداية المقطع الثالث يعلن رفضه القاطع للطبيعة، وبكبرياء شديدة يعلن الشاعر أنه يمكنه أن يهزم التغير والموت، فطيف الحبيبة الخالد لن يذوى أبداً. فالموت، هذا الذى يحصد الجميع، لن يمكنه أن يطويها فى ظلاله (وهكذا عادت ثنائية النور والظلام مرة أخرى)، وذلك بسبب قصيدة الشاعر. فالشعر هنا يصبح هو واهب الحياة والخلود، أى أنه أصبح بديلاً للإله.

«فما دامت للبشر أنفاس تتردد وعيون ترى سيبقى هذا الشعر حياً، ولك فيه حياة أخرى». فإذا كانت الدورات الطبيعية والكونية تمنح الإنسان الخلود عند ويتمان، فإن الفن هو الذى يقوم بهذه المهمة فى هذه القصيدة.



والقصيدة التالية لصلاح جاهين بعنوان «الموتى» تتعامل مع إشكالية الموت بطريقة مختلفة تماماً عما سبق. فصلاح جاهين لا يرى الموت بوصفه ظاهرة كونية، وإنما بوصفه نقطة يتقاطع فيها الكونى واللازمنى بالتاريخ والوجود الإنسانى، أى أنه يرى ظاهرة الإنسان فى ثنائيتها التاريخية والكونية.

فى صفحة الموتى
بيكلمونى كل يوم الصبح
بصورهم الباهتة
بعيونهم الثابتة
بيسألونى كلهم إمتى
ح تنطبع صورتك كمان
انتا..
هنا زينا فى صفحة الموتى؟
حبايبنا يا غاليين
محناش ح نتأخر
الدور ح ييجى والمصير محتوم
ياللى صورتها بطرحة الزفة
ده حكم من قبل الوجود محكوم
يا اتنين عجايز، حاج ومقدس
صورتين بلاسة والجبين مهموم

إذا كانت كلمة «الموت» تصدمنا فى البيت الأول من قصيدة الشاعرة الأمريكية؛ فإننا نتلقى صدمة أخرى فى البيت الرابع، فالرحلة الرومانسية لا تضم اثنين وحسب، وإنما هناك طرف ثالث: الخلود

يا مغترب
يا صورة طالعة من جواز السفر
يا رسم على وش التابوت مرسوم
فى حفاير الفيوم...
وحفاير الفيوم
جبّانة م الزمن العتيق
مشهورة بالصناديق
وعليها بالألوان صور مخاليق
كاهن. مراكبى. ست بيت. تاجر
بنية حلوة. عسكرى. شاعر...
صور بشر أيامهم انحسرت
مداينهم اندثرت
توابيتهم انكسرت..
ما فضلش منها غير وشوش
بيبصوا نفس البَصة
وبيحكوا نفس القصة
مستغرقين فى الموت بلا غصّة
وفى الخلود رايحين..
زى اللى فى الجرنال
فى صفحة الموتى
قلت الشبه من أين يتأتى؟
قالوا عشان الكل مصريين.
الكل مصريين
الكل نفس الهوية
نعى المطارنه جنب نعى الشيوخ
طالبين سوا الرحمة الإلهية
طالعين سوا أمجاد سماوية
وحدة أبدية
ما تعرف الطايفة المسيحية
م الإسلامية..
تشهد صورهم جنب بعضهم
فى الأعمدة السودة البكائية
بأن دى... هيا ديا.
باحكى عن الموتى وملك الموت
يحصد أمم ويدرى فى الملكوت
يقعوا كندف التلج غير مسموعين
أو كالجبال يقعوا بأرعبها صوت
باحكى عن الموتى فى شتى العصور
وباقول عليهم ألف رحمة ونور
مش باحكى أبداً عن أمل دنقل
لأنه عايش رغم سكنى القبور
وقالوا فى الأمثال.. اللى خلّف ما ماتش
وعن أمل يتقال.. اللى ألّف ما ماتش
وسلام على اللى فى صفحة الموتى
وسلام على اللى فى صفحة الأحياء.

قصيدة صلاح جاهين عن الموتى قصيدة فريدة، وهى بالعامية المصرية.. المغرقة فى مصريتها. وهى تتسم بأنها لا تكترث بالوحدة العضوية، فوحدتها من النوع الفضفاض الذى يستوعب ولا يستبعد. ولا عجب فى هذا.. فهى تؤكد ثنائية الوجود الإنسانى. وموقف الشاعر من الموت هو أيضاً موقف فضفاض، إن صح التعبير، فهو يدرك تماماً الأبعاد المأساوية للموت، ولكنه يعرف أنه جزء لا يتجزأ من إنسانيتنا. تبدأ القصيدة بداية مثيرة، إذ يطالع المتحدث صفحة الوفيات فى إحدى الجرائد اليومية، ويشعر أن أعين الموتى «بصورهم الباهتة/ بعيونهم الثابتة» تنظر إليه متسائلة. متى سيلحق بهم؟ فيجيب الشاعر، وهو فى إجابته يعطينا بعض المفاتيح التى تفهمنا موقفه من الموت: فالموت علينا حق. ثم يلجأ الشاعر إلى حيلة فنية معروفة باسم «الكتالوج»، إذ يأتى بقائمة تضم عدداً كبيراً ممن نشر نعيهم فى صفحة الموتى «كاهن. مراكبى. ست بيت. تاجر/ بنية حلوة. عسكرى. شاعر»، و«اتنين عجايز. حاج ومقدس»، وصورة مغترب، «صورة طالعة من جواز السفر»، «بيبصوا نفس البصة/ وبيحكوا نفس القصة/ مستغرقين فى الموت بلا غصة/ وفى الخلود رايحين». «جميعهم رحلوا عنا، ورغم تنوعهم إلا أن الموت يساوى بينهم جميعاً، يساوى بينهم، ولكنه لا يسويهم ولا يساويهم بعالم الطبيعة، ولا يدخلهم فى دورات كونية تضمن لهم خلوداً زائفاً حيث يتساوى الموت والحياة، بل تظل مأساة الموت قائمة، كما تظل ثنائية الحياة والموت، والزمن واللازمن ثابتةً لا تتزحزح. ويضم الكتالوج فيما يضم وجوها من «حفاير الفيوم/ جبانة م الزمن العتيق/ مشهورة بالصناديق/ وعليها بالألوان صور مخاليق». ووجوه الفيوم نوع من الرسوم ظهر فى الفيوم فى القرنين الثالث والثانى والأول قبل الميلاد حيث كان يرسم وجه الميت على تابوته، ورغم أنها صورة الشخص المدفون فى التابوت إلا أنها تشع حياةً بل وبهجة، ومن هنا رغم أنها صور للموتى، إلا أنها تؤكد الحياة وتنوعها وثراءها.

الموت، كما قال الشاعر فى البداية، «علينا حق» «ده حكم من قبل الوجود محكوم». ولكنه ليس عدماً «فالجميع فى الخلود رايحين». بل إن الشاعر لا ينسى أن الموت وهو يحصد الجميع يؤكد نقطة شبه عميقة «فالكل مصريين». فلحظة الموت هنا ليست لحظة فناء، وإنما لحظة تجمع بينهم جميعاً كبشر وكمصريين.



ثم يسترسل الشاعر فى هذا الموضوع الجديد: «الكل مصريين/ الكل نفس الهوية/ نعى المطارنه جنب نعى الشيوخ/ طالبين سوا الرحمة الإلهية/ طالعين سوا أمجاد سماوية/ وحدة أبدية»، هى امتداد لوحدتهم كبشر وكمصريين، هى ليست امتداداً لاعتقادهم بدورات الطبيعة، وإنما لإيمانهم بإله متجاوز للطبيعة والكون منزه عنهما. ولذا «ما تعرف الطايفة المسيحية/ م الإسلامية». ما يجمعهم هو إيمانهم بمصريتهم وبعقيدتهم السماوية. ولكن حتى فى لحظة إدراك الخلود، وإدراك الهوية التى لا تموت، لا ينسى أن الموت أيضاً نهاية ومأساة، وأنه لايزال يقرأ «الأعمدة السودة البكائية»:

باحكى عن الموتى وملك الموت
يحصد أمم ويدرى فى الملكوت
يقعوا كندف التلج غير مسموعين
أو كالجبال يقعوا بأرعبها صوت.

ألم أقل إنها وحدة ليست عضوية وإنما فضفاضة، ولأنها فضفاضة فإنه بمقدور الشاعر أن يؤكد الشىء وعكسه، يؤكد الخلود والمأساة، ويؤكد قوة الحياة وقوة الموت.

وفى إطار هذه الوحدة ليس هناك ما يمنع أن يتذكر الشاعر صلاح جاهين شاعراً آخر مات فى ريعان الشباب، أمل دنقل، فيرثيه بالطريقة نفسها؛ فأمل دنقل انتقل بجسده، ولكنه لم يمت:

قالوا فى الأمثال... اللى خلّف ما ماتش
وعن أمل يتقال... اللى ألّف ما ماتش

وهى سطور تصلح مرثية لكاتب القصيدة نفسه، والذى يختمها بعبارة تؤكد هذا التقبل الفرح المأساوى لحقيقة الموت، وتردنا فى ذات الوقت إلى واقع الحياة المعيش:

وسلام على اللى فى صفحة الموتى
وسلام على اللى فى صفحة الأحياء.

والقصائد التالية تدور أيضا حول موضوع الموت، وحول حدود الإنسان

الزمنية ولكنها تنجز ذلك من خلال موضوع البطولة. ولنبدأ بقصيدة أحمد عبد المعطى حجازى «مرثية لاعب سيرك»:

فى العالم المملوء أشلاءً
مطالبٌ وحدكَ ألاّ تُخطئَ
لأن جسمك النحيل
لو مرةً أسرع أو أبطأ
هوى، وغطى الأرضَ أشلاءً!
فى أى ليلة ترى يقبع ذلك الخطأ؟
فى هذه الليلة! أو فى غيرها من الليالى
حينَ يَغيضُ فى مصابيح المكان نورُها وتنطفئ
ويسحب الناسُ صياحهم،
على مقدمك المفروش أضواءً!
حين تلوح مثل فارسٍ يجيل الطَّرف فى مدينته
مودعاً. يطلب ودَّ الناس، فى صمتٍ نبيل
ثم تسير نحو أولِ الجبال،
مستقيما مومئا
وهم يدقون على إيقاع خطوك الطبول
ويملأون الملعبَ الواسعَ ضوضاء
ثم يقولون: ابتدىء!
فى أى ليلة ترى يقبع ذلك الخطأ؟
حين يصير الجسم نهبَ الخوف والمغامرة
وتصبح الأقدامُ والأذرعُ أحياءً
تمتد وحدها
وتستعيد من قاع المنون نفسَها
كأنّ حياتٍ تلوّتْ
قططاً توحّشتْ سوداءَ بيضاءَ
تعاركتْ وافترقتْ على محيط الدائرةْ
وأنت تبدى فنّك المرعبَ آلاءً وآلاءَ
تستوقفُ الناسَ أمامَ اللحظة المدمرة
وأنت فى منازل الموت تلجُ عابثاً مجترئاً
وأنت تُفلت الحبالَ للحبالْ
تركتَ ملجأ، وما أدركتَ بعدُ ملجأ
فيَجْمُدُ الرعبُ على الوجوه لذةً، وإشفاقاً، وإصغاءَ
حتى تعود مستقراً هادئاً
ترفع كفيك على رأس الملأ
فى أى ليلة ترى يقبع ذلك الخطأ؟!
ممدداً تحتَكَ فى الظلمة،
يجترّ انتظاره الثقيلْ
كأنه الوحشُ الخرافى الذى ما روّضت كفُّ بشرْ
فهو جميلٌ!
كأنه الطاووسُ
جذابٌ كأفعى
ورشيق كالنمر!
وهو جليل..
كالأسدِ الهادئ ساعة الخَطَرْ
وهو مُختَالٌ، فيبدو نائماً
بينما يُعدُّ نفسه للوثبة المستعرةْ
وهو خفى لا يُرى
لكنه تحتك يعلُكُ الحجرْ
منتظراً سقطتَك المنتظرةْ
فى لحظة تغفل فيها على حساب الخطو
أو تفقد فيها حكمة المبادرةْ
إذ تَعرضُ الذكرى!
تغطى عريَها المفاجئا
وحيدةً معتذرةْ
أو يقفُ الزَّهو على رأسك طيراً،
شارباً ممتلئا!
منتشياً بالصمت، مذهولاً عن الأرجوحة المنحدرةْ
حين تدور الدائرةْ!
تنبض تحتكَ الحبالُ مثلما أنبضَ رامٍ وترَه
تنغرس الصرخةُ فى الليل
كما طوّح لصٌ خنجرَه.
حين تدور الدائرة
يرتبك الضوء على الجسم المهيض المرتطم
على الذراع المتهدّل الكسير والقدمْ
وتبتسم!
كأنما عرفتَ أشياءَ
وصدقتَ النبأ!

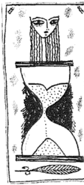
«المأساة لا تكون إلا للملوك، أما الملهاة فهى للعوام والصحف اليومية» هذا ما قاله أحد النقاد الغربيين، وهذا ما يراه أحمد عبد المعطى حجازى فى هذه القصيدة التى تتناول قضية الموت من منظور مختلف تماماً. فبطل قصيدته بطل نيتشوى يضرب خيامه بجوار البركان، ولا يهاب ركوب الصعب، فهو يؤمن بأنه من صنف أرستقراطى يؤمن بأخلاق الأقوياء التى تتجاوز الخير والشر، وتحتقر أخلاق الضعفاء والعوام، (أخلاق التسامح). وقد اختار حجازى لقصيدته لاعب سيرك يسير على السلك معرضاً حياته للخطر، والعوام عند أقدامه يحدقون فيه، يراقبون سكناته وحركاته. ومن الواضح أن المتحدث فى القصيدة معجبٌ بهذا البطل النيتشوى أيما إعجاب، الذى يتحرك دائماً فى علياته وحيداً.



تبدأ القصيدة بتعبير غُنوصى، فالغنوصيون كانوا يتحدثون عن الزمان الردىء، فهم من النورانيين، كانوا جزءاً من الإله (ولنلاحظ صور النور والظلام، وتداخل الصور الضوئية مع الصور الصوتية: «حين يَغيض فى مصابيح المكان نورها وتنطفئ ويسحب الناس صياحَهم»). ولكن هؤلاء النورانيين المتألهين وجدوا أنفسهم فى هذه الأرض وهذا العالم مع عامة البشر (النفسيين أو الجسمانيين) نتيجة خلل كونى، وهو عالم مملوء أخطاء. يقف البطل النورانى، وهو وحده مطالب بألا يخطئ، لأن الخطأ بالنسبة له يعنى تبعثر جسده أشلاء، يعنى الموت.

ولكن الموت هنا فى قصيدة حجازى ليس هو الخطأ فحسب، ولكنه أيضاً نوع من المعرفة الأرستقراطية التى لا يصل إليها إلا الأبطال المأساويون. انظر كيف يدخل لاعب السيرك المسرح: تَطفأ الأنوار، وتصمت الناس، وتفرش فى طريقه الأضواء، يسير وحيداً فى عليائه، كأنه الملك يدخل بلاطه. وإذا كانت الصورة الملكية متضمّنة فى الوصف فى هذه الأبيات الأولية، فإنه يصبح تصريحاً لا تلميحاً حينما يقف لاعب السيرك «مثل فارس يجيل الطَّرف فى مدينته/ مودعاً، يطلب ودَّ الناس، فى صمت نبيل»، بينما يملأ العوام الملعب الواسع ضوضاءً، وتدق الطبول. ثم يذكرنا الشاعر بالجانب المأساوى المظلم: «فى أى ليلة ترى يَقبَع ذلك الخطأ؟»، وهذا البيت سيتكرر فى القصيدة مرة بعد مرة، ليذكرنا أن الموت ظلام ونور، أنه نهاية، ولكنه فى الوقت ذاته تحقّقٌ للذات البطولية.

وتتبدى هذه الثنائية فى الجزء التالى من القصيدة، فهذا الفارس الوحيد الذى يسير دائماً فى عليائه





«ما دامت للبشر أنفاس تتردد وعيون ترى سيبقى هذا الشعر حياً، ولك فيه حياة أخرى». فإذا كانت الدورات الطبيعية والكونية تمنح الإنسان الخلود عند ويتمان، فإن الفن هو الذى يقوم بهذه المهمة فى هذه القصيدة

ووحْدته، ليبدى فنه المرعب، فى «اللحظة المدمرة»، تلك اللحظة بعد أن أفلت حبلاً ولم يصل بعدُ للحبل الآخر، فى هذه اللحظة تتحول الأقدام والأذرع إلى كائنات حية تتصرف من تلقاء نفسها، تحركها غريزة البقاء «فتستعيد من قاع المنون نفسها».

ثم يستخدم الشاعر مجموعتين من صور الحيوانات المتوحشة المتصارعة ليعكس لنا شيئاً ما: هل هى أطراف البطل، أم بعض ما يدور فى عقله، أم هو إدراكه لطبيعة الموت المظلمة؟ وتنتهى هذه الحركة بالبطل، وقد نجح فى مسعاه، فعاد «مستقراً هادئاً». ورفع الفارس، فى وحْدته وعليائه، كفيه على رأس الملأ، ولكن «فى أى ليلة ترى يقبع ذلك الخطأ؟». يعود المتحدث مرة أخرى ويستخدم صور الحيوانات المتوحشة، فالخطأ (الموت/ الشر) يجلس كالوحش الخرافى، ممتداً فى الأرض تحت البطل فى الظلمة، منتظراً سقطته المنتظرة فى لحظة الخطأ، حين يتذكر البطل شيئاً أو حين يغمره الزهو، ينتظره هذا المخاتل، يعلك الحجر ويجترّ الانتظار الثقيل، يعد نفسه للوثبة المستعرة. ولكن هذا الوحش الخرافى «جميل/ كأنه الطاووس/ جذابٌ كأفعى/ ورشيقٌ كالنمر/ وهو جليل/ كالأسد الهادئ ساعة الخطر»، فالموت البطولى المأساوى جميل، قد لا يفهمه العوام، ولكن النورانى يدركه حق الإدراك.

وحين تقع الواقعة، تعلو صرخة البطل (الفارس، الملك)، وتنغرس «فى الليل/ كما طوح لص خنجره». هذه الصورة الأخيرة تعكس ثنائية الموت، فهى صرخة ألم، ألم عميق، تنغرس فى الليل، ولكنها مثل خنجر لص سرق حياة الملك.

وتصل الثنائية إلى ذروتها فى السطور الأخيرة: الضوء يرتبك على جسم البطل «المهيض المرتطم/ على الذراع المتهدل الكسير والقدم». ولكن البطل يبتسم، فقد عرف أشياء وصدّق النبأ. ولكن ماذا عرف؟ وما نوع الحكمة التى توصل إليها؟ لعله الغُنوص الكامل، حينما تلتحم روح الإنسان النورانى مع أصلها الإلهى مرة أخرى، تاركةً وراءها الجسد وعالم العوام الجسمانيين الذين لا يمكنهم أن يصلوا إلى الغنوص الكامل مهما حاولوا، فأقصى ما يمكن أن يطمحوا إليه هو أن يراقبوا البطل الغنوصى، «فيجمد الرعب على الوجوه/ لذةً وإشفاقاً وإصغاءً»، غير مدركين اللحظة المدمرة المتوقعة، لحظة التحقق الكامل!

فى قصيدة صلاح عبد الصبور «موت فلاح»، لا نقابل فرساناً أو أبطالاً، وإنما نقابل فلاحاً



عادياً، ومع هذا يكتشف المتحدث بطولته العادية الخفية:

لم يكن يوماً مثلنا يستعجل الموتا
لأنه كل صباح، كان يصنع الحياةَ في الترابْ
ولم يكن كدأبنا يلغط بالفلسفة الميتة
لأنه لا يجد الوقتا
فلم يَمِلْ للشمس رأسَه الثقيلَ بالعذاب
والصخرةُ السمراءُ ظلت بين مَنْكِبيه ثابتةْ
كانت له عمامةٌ عريضةٌ تعلوه
وقامةٌ مديدةٌ كأنها وَثَنْ
ولحية الملح والفلفل لونها
ووجهه مثل أديم الأرض مجدورْ
لكنه، والموت مقدورْ
قضى ظهيرةَ النهار، والترابُ في يده
والماء يجرى بين أقدامه
وعندما جاء ملاكُ الموت يدعوه
لوّن بالدهشة عيناً وفماً
واستغفر اللهَ
ثم ارتمى...
والفأس والدرة في جانبه تكوّما
وجاء أهله، وأسبلوا جفونَه
وكفّنوا جثمانَه، وقبّلوا جبينَه
وغيّبوه في الترابِ، في منخفض الرمال
وحدّقوا إلى الحقول في سكينةْ
وأرسلوا تنهيدةً قصيرةً... قصيرةْ
ثم مضَوا لرحلة يخوضها بقريتي الصغيرةْ
من أول الدهر، الرجالُ
من أول الزمانْ
حتى الموت في الظهيرة.

ليس في هذه القصيدة أبطال أو فرسان، ولذا لا يوجد مجال للمأساة، فعجلة الحياة تدور كعادتها من أول الدهر، من أول الزمان، حتى زمن القصيدة. ولكن الشاعر يسبغ بالتدريج بعض الصفات البطولية على هذا الفلاح البسيط. نعم هو إنسان بسيط، ولكنه يبدو أنه يحمل حكمة الأجيال، فهو لا يستعجل الموت «مثلنا»، نحن المثقفين الذين نلغط بالفلسفة الميتة، أما هو: فهو كان «يصنع الحياة في التراب»، فكأنه وهو المَرْثِي، يرمز للحياة، بينما نحن الأحياء نصبح رمزاً للموت.

في القسم الأول من القصيدة يعطينا المتحدث وصفاً تفصيلياً لهذا الفلاح، وصفاً يؤكد أنه جزء لا يتجزأ من دورة الحياة، جزء من الأرض التي كان يفلحها، «فوجهه مثل أديم الأرض مجدور»، و«التراب في يده/ والماء يجرى بين أقدامه». وإذا كانت قصيدة «مرثية لاعب سيرك» تتحدث عن الموت باعتباره الوحش المخيف/ الطاووس/ النمر/ الأسد/ الخطأ، فإن «ملاك الموت» يدخل هنا بطريقة عادية مألوفة للفلاح، فتعتريه الدهشة ولكنه يستغفر الله ثم يرتمي على الأرض التي كان يفلحها. وطقوس الموت عادية هي الأخرى، فلا توجد طبول ولا أنوار، إذ يكفن الجثمان ويغيب في التراب، ويرسل الأهل «تنهيدة قصيرة.. قصيرة»، وتعود دورة الحياة كما كانت من أول الدهر «من أول الزمان.. حتى الموت في الظهيرة»، حتى زمن القصيدة!

ولنختتم هذه الدراسة باقتباس من كتاب علي عزت بيجوفيتش الإسلام بين الشرق والغرب، وهو عمل نثري ولكن يمكن وصف بعض مقطوعاته بأنها غنائية، مثل هذه المقطوعة التي سنقتبسها. إلى جانب أنه يلقي ضوءاً على الموقف الإسلامي من الموت.



يصف علي عزت بيجوفيتش لحظة الخلق بأنها «فجائية وفاجعة». ووصفها بأنها فجائية تعني أن الخلق الإلهي أمرٌ غير التطور. فالتطور يعني أن ثمة حلَقاتٍ تُفضي الواحدة فيها إلى الأخرى داخل النظام الطبيعي المادي بشكل منطقي رتيب، وإن حدثت طفرات فإنها هي الأخرى يمكن تفسيرها تفسيراً مادياً. ويرى بيجوفيتش أن نظرية التطور يمكنها أن تفسر بعض جوانب الوجود الإنساني، ولكن هناك جوانبَ كثيرةً من صميم الوجود الإنساني لا يمكن تفسيرها من خلال نظرية التطور مثل الفن: لماذا يرسم الإنسان ويغني؟ ويلاحظ بيجوفيتش أنه في العصر الحجري بدأ الإنسان بدل أن يحسن قدراته على الصيد ليحفظ بقاءه المادي (وهو المفروض أن يفعله حسب نظرية التطور) بدأ فجأةً يرسم وشماً على جسده! ثم بعد ذلك بدأ يعبد أحجاراً أو أشجاراً ويشيد شواهد قبور. ويسمي بيجوفيتش هذا بالدوّار الميتافيزيقي أو باللحظة الفارقة، أي أن الإنسان بدلاً من أن يتطور حسب برنامج مادي طبيعي منطقي، بدأ يتساءل عن معنى الوجود، وعن علاقته بالطبيعة، وعن الموت، وبالتالي لم يعد كائناً طبيعياً مادياً، بل أصبح «إنساناً».

وهذا يؤدي بنا إلى الصفة الثانية.. أن لحظة الخلق فاجعة، وهو ما يحتاج إلى بعض الشرح. وتفسير بيجوفيتش لعبارته هذه ليست شعراً، ولكنه يقترب - كما سبقت الإشارة- من الشعر. كما أنه يوضح (بطريقة شعرية مركبة) الرؤية الإسلامية للموت (وهو في هذا لا يختلف كثيراً عن موقف ووردزورث في السونت الأخيرة التي ناقشناها «لقد ظننت يا شريكي ومرشدي»).

ينطلق علي عزت بيجوفيتش من اللحظة الفارقة، وهي اللحظة التي انسلخ فيها الإنسان عن الطبيعة (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى (آية ١٧٢، سورة الأعراف)، أي حكم عليه بعد اختياره أن يكون إنساناً. وهو كإنسان يسأل أسئلة معرفية نهائية عن مكانته في الكون، وعن معنى وجوده، فهو واعٍ تماماً بكينونته الإنسانية: إمكانياتها (فقد سجدت له الملائكة)، وحدودها (فالوسواس الخناس يوسوس في صدور كل الناس، والموت علينا حق).. أو كما يقول علي عزت بيجوفيتش: «فنحن (كبشر) منغمسون في أوضاع معينة. وقد أستطيع أن أحاول تغيير هذا الوضع، ولكن تبقى هناك أوضاع لا تقبل بطبيعتها التغيير. قد تتخذ هذه الأوضاع أشكالاً مختلفة، وقد تُحجب عنا قوتها الغالبة، ولكن تبقى أمامنا هذه الحقائق: إنني لا مفرَّ ميت، ولابد أن أعاني، وأن أناضل.. إنني ضحية الحظ، إنني أتعثر، دون رغبة مني في مشاعر الذنب. هذه الظروف الأساسية في حياة الإنسان يُطلق عليها «الأوضاع الحدِّيَّة» (وهي الأوضاع التي يوجد فيها الإنسان اضطراراً). من المؤكد أن واجب الإنسان هو أن يبذل جهده لتحسين كل شيء في هذا العالم بما في مقدوره. ومع ذلك فسيظل هناك أطفال يموتون بطريقة مأساوية حتى في أكثر المجتمعات كمالاً! والإنسان على أحسن الفروض قد يستطيع أن يقلل من كم المعاناة في هذا العالم، بما في مقدوره. ومع ذلك سيبقى الظلم والألم مستمرين». العالم ليس «يوتوبيا تكنولوجية»، يمكن فهم كل شيء فيها، والتحكم في كل المخلوقات التي تسير فيها، إذ سيظل هناك المجهول وغير المتوقع.. سيظل هناك دائماً الخير والشر.

«ماذا يفعل الإنسان في مواجهة ذلك؟ هناك إجابتان مختلفتان عن السؤال نفسه، الأولى هي التمرد والانحراف والعدمية. ولكن هناك أيضاً (وهذه هي الإجابة الثانية) التسليم لله، والاعتراف بالقدر، أي الاعتراف بأنحياة على ما هي عليه، والقرار الواعي بالتحمل والصمود والتجمل بالصبر. والتسليم لله هو ضوء يانع يخترق التشاؤم ويتجاوزه.. إنه قوة جديدة، وطمأنينة جديدة. الشعور بالأمن لا يمكن تعويضه بأي شيء آخر. ولا يعني التسليم لله السلبية في موقف الإنسان، كما يظن كثير من الناس خاطئين. إن طاعة الله تستبعد خضوع البشر. إنها صلة جديدة بين الإنسان وبين الله، ومن ثَمَّ بين الإنسان وأخيه الإنسان».

إنها أيضاً حركة يكتسبها الإنسان بمواصلته الإيمان بقدره، ومواصلة الكدح والجهاد وهما (الإيمان والكدح) سمتان إنسانيتان معقولتان، وفيهما يتحقق الاعتدال والصفاء، إذا نحن آمنا بأن النتيجة النهائية ليست بأيدينا، إنما علينا أن نسعى ونعمل، أما الباقي: فبين يدي الله.

«فلكي ندرك حقيقة وضعنا في هذا العالم يعني أن نستسلم لله، وأن نتنفس السلام، وألا يحملنا الوهم على أن نبدد جهودنا في محاولة الإحاطة بكل شيء والتغلب عليه. علينا أن نتقبل المكان والزمان اللذين أحاطا بميلادنا، فالزمان والمكان قدر الله وإرادته. إن التسليم لله هو الطريقة الإنسانية الوحيدة للخروج من ظروف الحياة المأساوية التي لا حل لها ولا معنى! إنه طريق للخروج بدون تمرد ولا قنوط ولا عدمية ولا انتحار». هذا هو الموقف الإنساني الوحيد الممكن، الذي لا يقذف بالإنسان في هوّة الظلمات والتشاؤم والعدمية.

ويخلص علي عزت بيجوفيتش من كل هذا إلى «أن الإسلام لم يأخذ اسمه من قوانينه ولا نظامه ولا محرماته، ولا من جهود النفس والبدن التي يطالب الإنسان بها.. وإنما من شيء يشمل هذا كله ويسمو عليه: من لحظة فارقة تنقدح فيها شرارة وعي باطني.. من قوة النفس في مواجهة محن الزمان.. من التهيؤ لاحتمال كل ما يأتي به الوجود من أحداث.. من حقيقة التسليم لله. إنه استسلام لله.. والاسم: إسلام». ■

أسـطورة إيزيس وأوزيريس... أول

هشــام السـلامونى

■ يحلو للبعض أن يقرأ أسطورة إيزيس وأوزيريس، فى أدبيات مصر الفرعونية، على أنها أثر أدبى فى صدق العشق وفى وفاء المحبين، أو فى إخلاص المرأة المحبة لزوجها، أو أنها محاولة قديمة تفسر أن الشر موجود أزلى كالخير، وأنه ينتصر على الخير ولكن إلى حين، أو يقرأها على أنها أسطورة دينية لا تُعنى إلا بالبعث والحياة بعد الموت، هؤلاء . جميعاً . يغيب عنهم ما كان لأوزيريس من مكانة فى تركيبة الألوهية فى مصر القديمة، سواء وقد كانت مصر القديمة تعبد «رع»، أو وقد عبدت «آمون» بعده، أو عندما انعقد التقديس لـ «آمون رع» فى النهاية، ويغيب عنهم . أيضا . ما لحورس، ابن أوزيريس (فى الأسطورة)، الذى حل محل أبيه فى الدنيا، حين انتقل أوزوريس حَكَما وصاحباً للميزان فى الآخرة، من مكانة لا يمكن تجاهلها فى الأسماء الملكية المدونة فى خراطيش الملوك الفراعين، الذين كانوا . بوضعهم الوظيفى . «أبناء حورس»، ويغيب عنهم المعنى الحقيقى لكون حورس هو «رب العرش»، وهذا أمر شديد الأهمية، عميق الدلالة، فى المسيرة القديمة للثقافة المصرية.

ومما يغيب أيضاً أن الأسطورة بما تمتعت به من حيوية حراكية متطورة طوال عصر الأسرات فيما يزيد على الثلاثة الآلاف من السنين (لم تنفك فيها تتنامى فى الدلالة، أو فى تحديد وتعميق وتأصيل الدلالات) إن لم تكن من أسباب الثورات الاجتماعية الكبرى فى مصر القديمة، فإن التحورات الكبرى، التى طورت هذه الأسطورة، كانت نتاجاً فعلياً للحركات الثورية المؤثرة، والمغيِّرة ثقافياً، فى مسيرة التاريخ المصرى القديم.

ومما يستلفت النظر أننا فى صيرورة هذه الأسطورة، فى الثقافة المصرية القديمة، نجد أنفسنا أمام حقائق تستوجبنا التعمق فى دلالاتها، أولاها: أن كان للأسطورة دور كبير فى الحفاظ على وحدة مصر العليا والسفلى فى بداية عصر الأسرات، وهى الوحدة المحققة للأمن والرقى والرفاهية، والعدالة الاجتماعية (بلا شك).

وثانيتها: أن كان لها دور فى استعادة مصر مسيرتها . المستقلة . بعد انتكاسات التفكك والتحلل والفوضى، والاستحلال الأجنبى لخيرات الدولة المصرية، الذى أعقب الأسرة السادسة.

وثالثتها: أن مصر وهى تنتقل من عبادة «رع» إلى عبادة «آمون»، وحين مزجت فى الدولة الحديثة بين الاثنتين فى عبادتها لـ «آمون رع»، لم تغير وضعية أوزيريس كإله للحياة الأخرى، ولم تتنازل عن كون حورس الابن. فى بقائه الديمومى . إلها مسئولاً عن، وحاكما على، تصرفات العرش فى أبنائها.

ورابعتها: أن كان هناك ارتباط عميق بين معانى الأسطورة ودلالة الإلهة «معات»، التى تمثل التوازن الكونى والحق والحقيقة والعدالة الاجتماعية (المساواة بين البشر: عظيم وصغير / رجل وامرأة)، والتى تحدد أصول الحكم (دور الملك فى تحقيق العدل والأمن والرفاهية للشعب المصرى)، ودور الفرد تجاه نفسه (تحقيق طموحه أخلاقياً)، وتجاه الآخرين (النظام القيمى والأخلاقى والمسئولية الاجتماعية)، أى انتظام الكون بظواهره الطبيعية، وتوازن حياة البشر فيه لصالح بقاء الخير وانتصاره، الانتصار الذى لا يتوقف عن التجدد، مثلما الشر لا تتوقف محاولاته المنتصرة، من أجل أن تصبح له اليد العليا فى حياة الإنسان على الأرض (والأرض فى الثقافة الفرعونية كانت تعنى ما نعرفه نحن عنها، وتعنى مصر).

ثم أن كان لها . خامساً . دورها المستبعَد والمقلوب فى محاولات الحكم الأجنبى للبلاد لتحطيم المنظومة التى تحقق لمصر الوحدة والاستقلال والأمن والعدالة والرفاهية (الهكسوس واليهود كانوا من عبدة ست فى التاريخ الفرعونى القديم، وقد عرف ست فى الثقافة المصرية القديمة بأنه إله الصحراء والغرباء)، وأيضاً كانت لها صورتها المقلوبة لتدمير الدور الثقافى الرائد لمصر فى المنطقة، المحقق لأمنها (ست كان إله الفوضى).

الأسطورة إذن. إذا لم يغب عنا ما لا يجب أن يغيب. كانت اتفاقاً جمعياً سياسياً ثقافياً، يتعلق بكينونة مصر المتحدة، صاحبة الدور، وبفلسفة الحكم فى مصر القديمة.

ومن هنا محاولتنا لإثبات أنها كانت أول عقد أجتماعى بين الحاكم والمحكوم عرفه التاريخ.

فى البدء.. عقبتان كئودان..!!

عقبتان كئودان يصطدم بهما قارئ الأدبيات المصرية القديمة، وربما كانت الثالثة أنه لا يشعر بهذا الاصطدام، الذى يغلق دونه . فى الغالب . الطريق الرئيسية الموصلة لمفاهيم ثقافة مصر القديمة، ويقوده إلى مسارب فرعية، تبتعد به . فى زعمى . عن نور الحقيقة الخلاب، إلى ما يخلب اللب وقد يكون زائفاً.

أولى هاتين العقبتين، هى أن اللغة المصرية القديمة، فى مراحل تطورها عبر أربعة آلاف عام فى عصر الأسرات الذى ضم الدول القديمة والوسطى والحديثة، لم تَفُك أسرارها بعد، بينما



عقد اجتماعي عرفته البشرية

اللغة المصرية القديمة تطورت خلال ٤ آلاف عام تطوراً جعل من كل مرحلة لغزاً في حد ذاتها



يتصور الكثيرون أن اكتشاف حجر رشيد، قد جعلنا نقرأ رموز الخطوط الفرعونية كأصحابها من المصريين القدماء، وفي الحقيقة أن هذا لم يحدث، فمازالت محاولات الترجمة تتبع نظريات مختلفة أكثر من كونها اجتهادات في نظرية واحدة.

ومما يزيد ارتباكنا أمام النصوص المصرية في عصر الأسرات الفرعونية، أن اللغة المصرية القديمة قد تطورت خلال الأربعة الآلاف من السنين، الحافلة بمدوناتها، تطوراً جعل من كل مرحلة لغزاً في حد ذاتها.

هذا فضلاً عن أن كثيراً من المخطوطات المصرية القديمة، التي تم اكتشافها، لم يترجم بعد، وأن عمليات الحفر والتنقيب لم تتوقف، وما تزال تلقى للباحثين العديد والعديد مما يجب ترجمته، ومما قد يغير نظرتنا لما ارتحنا له من تفسيرات بنيت على اجتهادات الباحثين، ومما يحتوى على صعوبات شديدة وتحديات جمة في الطريق إلى إنجاز ترجمات مرضية.

وهل نضيف أن كثيراً من البرديات شديدة الأهمية، التي تم اكتشافها، والتي دُوّنت أصلاً، فيما يقرب من الألف العام من التاريخ المصري القديم، في الفترة التي تبدأ بفتح الإسكندر لمصر الفرعونية، وتنتهي بتحول دواوين مصر إلى اللغة العربية بعد سنوات من الفتح الإسلامي لبلادنا، مكتوب باللغة اليونانية القديمة، وليس باللغة القبطية، التي تركز استعمالها في أدبيات كنيسة الإسكندرية الأرثوذكسية فقط، وأن كانت اللغة القبطية (الكَنَسيّة) نفسها، وجهاً متغير الملامح عن اللغة المصرية الأم، وإلا فليقل لنا من يزعمون بغير هذا لماذا احتجنا «حجر رشيد» لفك طلاسم اللغة المصرية القديمة، ولدينا اللغة القبطية في أدبيات الكنيسة المصرية السكندرية القديمة؟!!.

إن هذا يدل على أن اللغة كوعاء للثقافة المصرية القديمة ومفاهيمها كان قد تغير، إن لم يكن اختفى، في مصر، قبل وصول الإسلام بأكثر من قرنين على أقل تقدير، وأن فقداننا الاهتمام بأقسام اللغات الأوروبية القديمة، الإغريقية واللاتينية، في جامعاتنا، يهدد وصولنا إلى كثير مما تتضمنه، تلك البرديات الممتدة إلى ما بعد الفتح الإسلامي، من كنوز معرفية نجهلها، وتُجهلنا بالكثير، بينما هي الأقرب لمصر القديمة، التي تغير واقعها كثيرا، خاصة أثناء حكم البيزنطيين، ومن ثم تغيرت مفاهيم الحياة فيها، نتيجة تسيد الثقافة الإغريقية، ثم المسيحية اليونانية، على الحكام الأجانب، وبواسطة المسيحيين المصريين أتباع كنيسة الإسكندرية، الذين كانوا بعض المحكومين المصريين المؤثرين ثقافياً، وليسوا جميعهم، كما يحب أن يروج البعض «القبطي» وبعض المثقفين حالياً، في مخالفة كبيرة وصريحة لحقائق التاريخ، لقد كانت المسيحيتان، الحاكمة والمحكومة، بتوجهاتهما المختلفة في مصر ثقافتين عالميتين، مثلهما مثل الإسلام، ولم يكن لهما أن تستقرا في البلاد دون أن تزيحا الكثير من مفاهيم الثقافة المصرية القديمة، لتحلا محلها، وهذه طبيعة الأمور.

في ظني أن كان من الواجب التذكير بتلك العقبة الكئود الأولى قبل أن نقرأ، معاً، الأسطورة التي نتصور أنها أول عقد اجتماعي في التاريخ، ذلك أن كثيرين، ممن يقرءون عن مصر القديمة، يثقون تمام الثقة في الصحة المطلقة لما نعرفه عنها، وهذا، كما أوضحنا، أمر بعيد عن الحقيقة.

العقبة الثانية الكئود هي أننا، نتيجة كسلنا الثقافي، واتكاليتنا المعرفية، نفهم تاريخنا القديم عبر العقلية الغربية، المخالفة لأصولنا الثقافية، وأهمها مفاهيم الثقافة في مصر القديمة (لكون الجهود الفكرية المصرية العصرية في هذا المجال محدودة، وغير مرعية بما تقتضيه أهميتها، وبعضها مُستلب للمفاهيم الغربية، ومن ثم فهي قاصرة فعليا وعمليا).

أكبر من الوفاء والخير والشر والحياة والموت:

الأساطير في حياة التجمعات البشرية هي محاولات لتفسير، مقبول جمعيا، لظواهر غامضة ومحيرة ومهددة، تفسيرا يحقق بعض الراحة في التعامل مع المجهول القاهر، وبعضها اتفاقات جمعية تصل إلى حد العرف ذي السطوة السياسية الاجتماعية، وربما العقيدي (لتحقيق الترابط العضوي في تلك التجمعات بما يؤكد المنعة والأمن بمعانيه المختلفة، ويدعم الحفاظ على مصالح الأفراد، وهذه الاتفاقات الجمعية ترسخ كعقائد، لكن المؤكد أن الأساطير، وهذا ما يقبله العقل، برغم كونها أدبيات جمعية، لم تكن تستهدف الإمتاع الفني، إذ عرفت التجمعات البشرية، وبخاصة مصر القديمة، للإمتاع الفني وسائله وقوالبه الأخرى.

وفي الأسطورة الأوزيريسية نحن أمام محاولة تفسير لسيرورة وصيرورة وهدف الحياة الإنسانية على الأرض، وكيفية تحقيق هذا الهدف، ومحاولة لفض مغاليق المصير البشري، ☞

المتمثل فى الموت، بالبعث وحياة أخروية، مثلما كانت الخضرة تبعث موسمياً فى الأرض . بفعل فاعل . كل عام.

هذا صحيح.

وصحيح . كذلك . أننا فيها أمام محاولة اتفاق جمعى على أن الشر الأكثر حيلة . وربما قوة . ينهزم أمام الخير قليل الحيلة، إذ لا شر يدوم مثلما الخير لا يدوم.

هذا صحيح أيضاً.

وصحيح . ثالث . أننا فى الأسطورة نُستغرق فى قصة عشق وتضحية ومقاومة لا تلين، ترضى المتلقى بأن سعياً لا يخيب، وتمتعه جمالياً، مثلما تشبع وجدانه إنسانياً.

وهذا . الثالث . حقيقى كسابقيه.

لكن الأسطورة . بتدقيق ضرورى فى معانيها، وفى تاريخية نشأتها وتطورها، تبقى أكثر. من الأمور الثلاثة، التى اتفقنا معها . بكثير.

للأسطورة أبعاد أخرى هى الأهم، تلقى بظلالها الفاعلة على أمور عملية اتُفق عليها جمعياً فى مصر القديمة، ولم تتوقف كغيرها عند حافة التفسير التخيلى أو الخرافى.

لقد تغلغلت هذه الأسطورة فى الديانة المصرية القديمة تغلغلا لا يمكن معه فك طلاسم هذه الديانة، فى أى فترة من فترات التاريخ المصرى القديم المكتوب، منذ الألف الرابع قبل الميلاد، بغير قراءة جديدة لهذه الأسطورة.

وتغلغلت . هذه الأسطورة . فى حياة الناس بحيث يمكن اعتبارها صانعةً حقيقيةً لفجر الضمير، إذ من غير الممكن فهم أسرار صناعته إلا بها.

وتغلغلت . أيضا . فى حياة مصر القديمة السياسية، بحيث لا يمكن فهم فلسفة الحكم فى مصر الفراعين إلا بها ومن خلالها.

إنها . إذن . أسطورة دنيا مثلما هى أسطورة دين.

أسطورة فجر الضمير فى الدنيا.

وهى مقياس للحساب الأخروى بعد البعث.

وهى أسطورة تحكم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، أى أنها الاتفاق الجمعى على أول عقد اجتماعى عرفه التاريخ البشرى فى أى مكان على الكرة الأرضية.

ولعل الفكرة الأخيرة هى إنجازها الأكبر، ولعلها خالقة الحضارة المصرية العظيمة.

ولعل هذا الإنجاز الأكبر . أيضاً . هو الذى يعدل صورة قلبها الباحثون الغربيون بسوء طوية لدى البعض، وبحسن نية لدى آخرين، وفسروا على ضوئها الزائف وقائع التاريخ المصرى القديم مستخدمين قاموسهم الثقافى، المستقى بمفاهيمه من قراءتهم لتاريخهم الأوروبى المغاير، بل المخالف، ومن الثقافة الأغريقية المفارقة لثقافات الشرق.

وتعالوا لنرى.

الآن.. ماهى هذه الأسطورة؟:

بعيداً عن «بلوتارخوس» المؤرخ الرومانى، الذى صبغ الأسطورة المصرية بصبغة اللاهوت الإغريقى، واعتماداً على الأصل «المنفى» (التابع لمنف عاصمة الوحدة بين القطرين)، وهو أقدم الصور التى وصلتنا من الأسطورة، والذى أجمع الباحثون على أنه يرجع فى لغته إلى عصر الأسرة الثالثة، ويكون بهذا أقدم من متون الأهرام، اعتماداً على هذا الأصل نحاول فى السطور التالية تلخيص الأسطورة، برغم مناطق ناقصة منها فى مركز هذا الأصل، مع تخليصها من المفاهيم الغربية (قديمها البلوتارخى وحديثها الإمبريالى).

تحكى الأسطورة المنفية عن الإله الأعظم «بتاح»، الذى خلق نفسه، ثم أوجد بلسانه «بكلماته الخالقة بمجرد أن ينطق بها» الإلهَ «آتوم» الذى أوجد . بدوره . الكون/ العالم، والبشر، حين خلق الهواء «شو» والرطوبة «تفنوت»، ففصل بذلك بين «جب» (الأرض) و«نوت» (السماء)، ثم أنجب الأخيران «إيزيس» و«أوزيريس» و«ست» و«نفتيس» (أبناء السماء والأرض معاً، الذين جاء البشر على صورتهم) وهكذا تكون التاسوع العظيم (وكان لـ «هيليوبوليس» نفس التاسوع مستبدلة «رع» بـ «بتاح»)، وقد انتصر هذا التاسوع منذ ذلك الوقت المبكر انتصاراً نهائيا، اختفى معه ثامون هرموبوليس / الثامون الأشمونى، الذى لم يكن يؤله إلا قوى الطبيعة وحدها، ولم يكن يضم أوزيريس وإخوته / الصورة الجامعة للبشرية والألوهية معاً (وهذه الاذدواجية شديدة الأهمية فى فهمنا الجديد . الذى نحاوله . للأسطورة.

وبانتصار التاسوع أصبح أوزيريس رمزاً لكل ماهو خير وعطاء وزراعة ومصرية (وطنية)، وصورة للحاكم المصرى المحقق للعدالة، وصار ست أصلاً لكل شر وقوة باطشة وصحراء وأغراب (احتلال)، وفوضى، وحدث أن غار ست من أوزيرريس، لأن أباه «جب» أقر لأوزيريس حكم (عرش) الأرضين / مصر العليا والسفلى، ولم يعط منهما شيئاً للأخ الشرير، مخلفاً أياه وقد طُرِد . بعيداً عن الوادى . إلى الصحراء (مَعْبَر الأغراب «البدو» الطامعين فى خيرات مصر)، فدبر . ست . مكيدة لقتل أوزيريس بإغراقه فى مائه الجديد (الفيضان)، واستطاع تنفيذ مكيدته، ولم يكتف بالقتل، لكنه قطع جسد أخيه إلى أشلاء وزعها على أرض مصر، والشام (كنعان)، لكى لا تقوم له قائمة بعدها أبداً، لكن إيزيس . بمعاونة من أختها نفتيس، والناس / المصريين . قاومت لتجمع أشلاء أوزيريس، من كل مكان على الأرض المصرية، ومن كنعان، وأعادت تركيب الجثة، ثم وقفت وأختها ترفرفان بأجنحتهما عليها لتعيدا لها نسمة الحياة، بعدها نامت أيزيس مع أوزيريس، وقد عادت له الحياة غير كاملة (وتكامل الحياة هو ما يمكن الفرد من المعيشة على الأرض / أو هو الصورة البشرية)، وحملت منه بحورس (شبيهِه المرتقَب فى صورته الجامعة بين الألوهية والبشرية معاً).

بعد الحمل رحل أوزيريس (بصورته الألوهية وحدها بعد أن فقد صورته البشرية بالموت) إلى العالم الآخر «فى السماء/ أمه» رَحَلَ إله للميزان (أساساً للحساب الأخروى) ينتظر المصريين حين يبعثون بعد الموت ليجازيهم بما فعلوا فى الدنيا (على الأرض / أبيه).

وحين علم ست بولادة إيزيس لحورس . من أوزيريس . بدأ يتعقبها لقتل الوليد، الذى سيكون صورة أرضية كاملة للأب (أوزيريس الذى غدا سماوياً)، لكن أيزيس استطاعت (مرة أخرى بمعاونة من الناس) أن تختفى بابنها (فى الدلتا) حتى يشتد عوده، فيستطيع الانتقام لأبيه، ويتمكن من أخذ مكان ومكانة الأب على الأرض.

وبالفعل، يشتد عود حورس، ويدخل حرباً عواناً مع ست قاتل أبيه، وفى نفس الوقت تعقد محاكمة طويلة، هيئتها القضائية مكونة من الخالق الأعظم «بتاح» (وفى مرحلة تاريخية تالية «رع») والآلهة (من الدرجة الثانية) ليروا لمن يجب أن يكون الحق فى الحكم على الأرض (مصر)، تنتهى بإقرار مجمع الآلهة (الذين انقسموا إلى مدعين ومترافعين / أو رافضين وموافقين) بأن الحكم . على الأرض . لـ «حورس» ابن «أوزيريس» و«إيزيس»، محبوب الآلهة والناس (شعب مصرالذى شارك فعلياً فى تمكينه من التسيد على الأرض، حاكماً فى شئونهم الدنيوية، بعد وصوله الشاق إلى العرش الدنيوى).

وفى الصراع الطويل بين «حورس» (الذى تعاونه «إيزيس» و«نفتيس» والناس) وبين «ست» (الذى لا يتورع عن أية كبيرة من الكبائر)، كان «ست» قد أفقد «حورس» عينيه ليتمكن من قتله، والتسيد على الأرض (حين يعمى الخير عن الرؤية)، لكن حورس (بمعاونة من تحوت إله الحكمة اللازمة لتمكين الخير من الانتصار) يستطيع استرداد عينيه، وحين يستردهما، ويتمكن من الانتصار على ست، يرسل عيناً من عينيه إلى أبيه ليتمكن من حكم الأبدية حكماً عادلاً.

هذه هى الخطوط (الملامح) الجوهرية للأسطورة.

وهى ملامح كما نرى لا تركز على الحياة الأخرى فحسب، ولكن تركز . أيضاً . على الأحقية فى حكم الأرض / مصر.

كانت أسطورة اثنين.. ضمت ثالثاً!!

نحن . فى الأسطورة . أمام جريمة قتل، وعرش دنيوى منتزع من مستحِقه، صاحب الحق فيه (كما تقرر لفظياً الدراما المنفية)، وليس هناك من وسيلة لأن تكتمل الأسطورة دراميا إلا بمعرفة مصير هذا العرش، وهكذا يصبح حورس الذى ضمته الأسطورة . فى وقت على الأغلب يواكب بدايات الوحدة الثانية المنفية (نسبة إلى



منف العاصمة) أو ما نسميه الدولة العتيقة / قبل القديمة . محوراً عضويا للوصول بالدراما إلى غايتها، وفاعلاً رئيسياً يحدد مصير هذا العرش.

الأسطورة . بهذا الشكل كما قررنا . أسطورة العرش الدنيوى.

أسطورة عن الكيفية التى يجب أن تدار بها أمور معيشة المصريين.

أى هى اتفاق جمعى على الكيفية التى يجب أن تُحكم بها مصر وشعبها.

تقول الأسطورة عن «أوزيريس»:

«ورثه «جب» (إله الأرض) فأعطاه «مُلك القطرين»، وأسند إليه قيادة البلاد لسعادتها (لفائدتها)، وسلمه هذه الأرض فى يده، ماءها وهواءها ونباتها وقطعانها، وكل ما يطير، وكل ما يسبح فى الفضاء، وديدانها ووحوشها، وسعدت مصر لذلك، وكان عادلاً. ثبّت أقدام الحقيقة فى مصر (هل رأينا فى أية أدبيات وصفاً أعظم للعدل من وصفه بالحقيقة!)، وحيثما تكون الحرب يظفر بإنهائها، لأنه كملك يلقب بـ «الذى يسوى المعارك الدامية»، واسع الشهرة إذا ما أوقع بأعدائه، وعمل على توسيع رقعة البلاد، وكان (أوزوريس) مرداً لكل إله، وبأوامر صائبة (يرد الآلهة عما يظلم الناس)، مدحته التاسوعة الكبرى، وأحبته التاسوعة الصغرى.

هذا هو العرش الدنيوى / عرش مصر بكل تفاصيله ومسئولياته.

وبهذا العرش تُنسب لأوزيريس كل التغيرات التى تحدث على سطح الأرض المصرية كل عام، ليصبح هو نفسه الدنيا المحيطة بالبشر، ذات النظام الذى يحقق مصالحهم فى أحسن صورة.

فهو . أوزيريس . الماء الجديد (الفيضان) الذى يكسب الحقول الخضرة.

وهو الحقول.

وهو النبت الجديد (الذى يخرج من جسده عندما تعود الحياة للأرض) أى الخضرة.

وهو النيل.

وهو الأرض.

وهو الصورة التى جاء على مثالها الإنسان (ربما كمجاز يعنى كيف يكون الإنسان إنساناً، وربما . وهذا هو الأرجح الصورة التى صوِّر على شاكلتها الإنسان بواسطة الالهة).

وهو الحق والحقيقة (التسمية المصرية الجميلة للعدل)

وهو العلم (علَّم المصريين كيف يزرعون الأرض، وكيف ينشئون البيوت، والصروح المختلفة، وكيف يوزعون ناتج عملهم بالحق بعد تخزينه)

وهو النظام فى مواجهة الفوضى.

وهو الحاكم المثال الذى يُعتَبر كل حكام مصر خلفاء له، من الضرورى أن يتشبهوا به ويشابهوه، (الأمر الذى انتقل لابنه / الصورة الأرضية).

وهو الأمن الذى يلقى الرعب فى قلوب البلدان الأجنبية، ويحدد مصائر كل المعارك الدموية.

وهو الضابط لأفعال الألهة (بحيث لا تجور على البشر، رفاقه فى صورته الأرضية).

إنه باختصار عرش دنيوى مسئول عن الأمن الداخلى (خير / نماء / تقدم / عدالة / رخاء).

والأمن الخارجى (يلقى الرعب فى قلوب البلدان الأجنبية، ويحدد مصائر المعارك الدموية، ويوسع رقعة بلاده).

والأمن فى مواجهة المجهول الميتافيزيقى (ضابط تصرفات وأفعال الألهة بأوامر صائبة، وأهمها اعتدال الفيضان وقت وصوله، بحيث لا يجىء شديد الانخفاض فيجوع الناس، ولا شديد الارتفاع فيغرق ويدمر).

هو . إذن الصورة المثال . لحكم مصر (لفائدتها / لسعادتها).

هذا هو القتيل فى الأسطورة، قتيل القوة الباطشة «ست»، القوة التى لا يردها أو يردعها وازع من ضمير، قوة الاستبداد، والظلم، والاستعباد، والاستغلال، والديكتاتورية، والجهل والفوضى.. و.. و... كل ما هو شر، ومهدد للحياة على الأرض (وفائدتها / سعادتها).

فما الذى جاء بحورس إلى الأسطورة، الذى . من المؤكد . لم يكن فيها منذ البدء؟!.

هذه الأسطورة تشى بالكثير جداً:

فى أقدم صورة وصلت إلينا من الأسطورة، نحن . مباشرة . أمام:

• كونها أسطورة الوحدة المستقرة (الثانية أو الثالثة أو الرابعة) بين شطرى مصر الجنوبى (الأعلى) والشمالى (السفلى)، تلك الوحدة التى أعطت عاصمتها «منف» اسمها للأصل الأسطورى بين يدينا. والوحدة أمر يتعلق بالحياة السياسية أكثر مما يتعلق بالحياة الدينية للمصريين. ويؤكد على أن الحياة الدينية كانت فى خدمة تسيير الحياة لصالح البشر فى مصر، فقد كانت الوحدة بديلاً للاقتتال والفوضى. ووسيلة المصريين إلى التقدم والعدالة والرفاهية والأمن (وكل الشواهد التاريخية تقول لنا . كما قالت للمصريين وقتها . ذلك عن نتائج الوحدة بين الشمال والجنوب). وقد عبرت الأسطورة عن الوحدة بتنصيب جب «الجد» (الأرض) «حور» ابن ابنه البكر أوزيريس، ملكاً على البلاد كلها. وألبسه التاج المزدوج (تاج الوجهين القبلى والشمالى)، أى أانه أعطى «حور» عرش مصر الدنيوى، لأنه الذى يمثل أباه على الأرض، أى يمثل كل ما كان يمثله أبوه فى حياة المصريين.

• كونها أسطورة تتعلق بالحياة السياسية فى مصر القديمة الموحدة، تركز بشكل لا يمكن تجاهله على إجابة السؤال «لمن الأحقية فى حكم مصر سياسيا؟!»، ومن هنا أصبح حورس إله العرش، المسئول عن الكيفية التى يجب أن يحكم بها الفرعون شعب مصر، وهى الكيفية التى تتلخص فى أن يحكم الفرعون البلاد موحدةً، وأن يشيع الخير فى أرجائها، الخير بكل معانيه، التى تتضمن العدالة الاجتماعية والأمن والعلم والرفاهية. وهى . بشروطها هذه . تنفى فى نفس الآن السلطة المطلقة، أو الحق الإلهى للفرعون فى ألا يكون هنالك مرد لما يحكم به.

• كونها أسطورة تتعلق . إلى جوار تعلقها بالعرش . بالأمن الوطنى المصرى (وهو قضية القضايا السياسية)، والأسطورة تقرر أنه يبدأ . الأمن الوطنى المصرى . من الشام فى أقصى الشمال . عند لواء الأسكندرونة الحالى التابع لتركيا الآن!!، حيث تُصوِّر دفن شلو من أشلاء أوزيريس هناك فى بيبيلوس، مثلما تقرر أن تهديداً (شريرا) يجئ عبر الصحراء، فى محاولة لإزاحة سكان الوادى / المصريين، ليحل الطامعون . فى خير واديهم هبة النهر العظيم . محلهم، وقد كان «ست» إلهً للصحراء، وللبداوة، ولهذا عبده الهكسوس الرعاة، وعبده اليهود فى مصر تمسكاً بكونهم رعاة بدويين، تحقد أدبياتهم على الزراع، ولا يقبلون الذوبان فيهم إذا ما عاشوا بينهم.

• كونها أسطورة تتعلق بالتقدم والتنمية والعدالة الاجتماعية والرفاهية، لكون حورس هو البديل الأرضى لما كان يمثله أوزيريس بعد أن غدا سماوياً، وهو بديل مسئول عن تصرفات العرش فى مصر الموحدة، تحقيقاً لما كان يمثله الأب، وهو ما بيناه قبلاً.

• كونها أسطورة تتعلق بعينى «حورس»، عينى التقدم والتنمية والعدالة الاجتماعية والرفاهية، ولهذا تركز على أن ست لا يستطيع الاستيلاء على الحكم / هزيمة حورس، إلا بخلع عينى حورس، وأن الحكمة تقتضى أن يكون حورس مبصراً، ولهذا فإن إله الحكمة «تحوت» هو الذى أعاد العينين لحورس.

• كونها أسطورة لم تغفل الإرادة الشعبية فى تحقيق الخير (التقدم، التنمية، العدالة الاجتماعية، الرفاهية)، الخير الذى يمثله أوزيريس، وهى تحرص على تاكيد المشاركة الشعبية فى تجميع أشلاء أوزيريس، من كل مكان على الأرض المصرية، ليعتز كل مكان بمشاركته (بدوره) فيها، وبالتالى يستمسك بها، بل تعدى الأمر إلى حدود الأمن الوطنى فى الشام، وأيضاً تمثلت المشاركة الشعبية فى توفير الحماية لحورس (البديل) صغيرا، ومعاونته فى هزيمة ست يافعاً، وفى إقراره إلهاً للعرش فى مصر.

• كونها أسطورة تستعاد (بالتجسيد الدرامى) كل عام، فى موعد محدد (يستمر أياماً تنتهى فى اليوم الواحد والعشرين من الشهر الثانى فى فصل الربيع . أحد الفصول الثلاثة فى مصر القديمة . أى فى الواحد والعشرين من شهر أمشير)، وهو الاحتفال السنوى بانتصار «حورس» بكل ما يمثله هذا الانتصار من معان، ويشترك فى تجسيدها الفرعون (بشخصه) والشعب معاً، ولا يكون هذا الأمر إلا لتعميق مفاهيمها، وتثبيتها لدى الناس



والفرعون معاً، كدستور للحياة السياسية، يلتزم به الحاكم ومن يحكمهم.

● كونها أسطورة تنصيب الملك الفرعون فى مصر (دراما التتويج)، أى أن قيام الفرعون بدور حورس هو أساس التنصيب فى مصر القديمة، مثلما رأينا، وأن التنصيب لا يكتمل بالتاج، قبل اكتماله بعين حورس، التى تمثل مسئولية الملك السياسية.

● كونها توزع أبناء حورس على الجهات الأربع فى مصر، وعلى العرش، أى أنها فلسفة عامة للحكم والحكام جميعا، فى أرجاء مصر كلها، بناء على أن الدراما (الأسطورة) المنفية ترى «المركز السامى والمرتبة الرسمية والوظائف الحكومية التى يسير بمقتضاها المجتمع الإنسانى، هى من وضع عقل سام (عقل «بتاح»)، وأنها حسب الانتصار الأوزيريسى / الحورى، تدعم انتصار الخير، الذى هو نظام المجتمع البشرى مثلما هو نظام النشأة الكونية.

● كونها لم تكتف بانتصار قوى على قوى آخر، لكنها كانت. وهذا هو المهم. انتصاراً لقوى يمثل الحق / الحقيقة / التوازن بين نظام العدالة فى نشأة الكون، وفى تصرفات العرش (كما شهد مجمع الآلهة فى محاكمة طويلة أرست دعائم هذا الحق، بحضور التاسوعتين الكبرى والصغرى، وإقرارهما معاً بالأمر)، أى أن الانتصار فيها مؤزر بالحق والحقيقة، والآلهة والناس.

● أن الأسطورة تشى بأن كان هناك هيئة تتكون من شخصيات مصرية. ليسوا هم حكام الأقاليم. تشرف على انتقال السلطة سلمياً فى مصر. وبهذا نرد على سؤال طرحناه فى البدء . حين تفرق الأسطورة بين أعضاء هذه الهيئة وبين حكام الأقاليم، فى العدد والدور المناط بهم، فالأوائل مشرفون مقرون، وحكام الأقاليم مؤيدون ملتزمون، بمعنى أن الوراثة لم تكن هى الكلمة العليا فى تنصيب الفرعون، ولكن الكلمة العليا كانت لممثلين من الشعب، يسميهم سليم حسن وجهاء الوجهين القبلى والشمالى (وهى تسمية مستمدة من الثقافة المصرية الحديثة فى وقته. قبل تدعيم أسس الديمقراطية الليبرالية التى كانت بعد ناشئة فى زمن كتابته للموسوعة.

معنى المعانى فى الأسطورة الأوزيرية:

أظن أن معنى المعانى فى الأسطورة الأوزيرية، يكمن فى مقولة «أوزيريس» (إذ لا معنى لأن أعيش هنا فى الغرب، بينما تمرحون أنتم فى عالمكم).

ولو تذكرنا أنه قالها فى سياق إجبار محكمة الآلهة على إعطاء حكم مصر (العرش الدنيوى) لابنه حورس (صورته الأرضية)، لتفتق لنا معناها عن معنى جديد، هو معنى المعانى.

لقد قتل أوزيريس على يد الشر، ومعنى رحيله، دون أن يترك صورة أرضية له، يعنى إبعاد الخير عن الدنيا، عن المصريين، يعنى أن الآلهة تلهو بمصائر الدنيا، وبهذا ينتفى المعنى من رحيله، حتى ولو كان هذا الرحيل جاعله محاسباً حاكماً على الظالمين فى الأبدية، بعد البعث.

الآخرة ليست بديلاً تعويضياً عن الدنيا.

الخير فى الدنيا هو الأساس.

ولإقرار الخير فى الدنيا، يجب أن يكون الحكم فيها للابن (صورة أبيه الأرضية).

يجب أن تفرض الصورة الأرضية لأوزيريس على العرش الدنيوى (عرش مصر).

من هنا ارتباط الأسطورة بـ «معات».

و«معات» فى الفلسفة المصرية هى التوازن الكونى لصالح الخير، توازن يضبط حركة الطبيعة مع جهد البشر فى جعل حياتهم تتسق مع التوازن الكونى.

معات هى التوازن الكونى لصالح الخير، وأوزيريس هو ضابط أحكام الآلهة لصالح الخير، أو لصالح التوازن، وبرحيله تقوم الصورة الأرضية بإقرار هذا التوازن (المعنى المجازى للانتقام للأب ممن أخلوا بهذا التوازن)، بحيث يكون هذا الإقرار إقراراً إيجابياً يتم بشكل يومى، فيصبح «حورس» الابن الأداة المحققة لـ «معات»، ويصبح سلاحه الماضى هو العرش الدنيوى (عرش مصر / عرش الأرضين / وظيفة الفرعون الحاكم).

كان «أوزيريس» هو الصورة المثال لحكام مصر.

وبرحيله أصبح «حورس» المحقق للصورة المثال.

أصبح «حورس» الضابط لأفعال الملك / الفرعون / الحاكم، على المقياس «معات».

أصبح «حورس» الطارد للثقافة المضادة التى يمثلها ست، ثقافة اللا توازن / الفوضى.

حولت الأسطورة «حورس» من إله للوحدة بين الأرضين فى مصر القديمة (الوحدة المضادة للاقتتال والفوضى) إلى إله لتحقيق الوظيفة المنوطة بالوحدة، سيادة الخير والنماء والعدالة الاجتماعية والأمن بكل صوره / النظام.

ولأن حورس هو رب العرش الدنيوى (عرش الأرض / عرش مصر)، لم يعد الحاكم / الملك / الفرعون مطلق المشيئة، لم يعد المستبد / الديكتاتور / الجالس على العرش الثيوقراطى (بالمفهوم الحديث للثيوقراطية).

بتطور الأسطورة أصبح حورس (المحقق لصورة أبيه الأرضية، ولمعنى «معات»)، الصورة المثلى للملك / الحاكم/ الفرعون، التى يجب ألا يحيد عنها.

ظهر انتصار حورس على ست. بوضوح . فى الألقاب الملكية.

وغدت صورة الصقر فى الكتابة الفرعونية مخصصة للإله حورس «والملك الفرعون معا عند التتويج، أى أن كل منهما صورة للآخر، صورة المثل وصورة الوظيفة.

أصبح الملك يلقب بحورس الذى يسكن القصر «برعو»، مقر الحكم.

وأصبح الملك ينصب كحورس.

واستمرت خرطوشة الملك التى تضم اسمه، تتضمن بنوته لحورس (وهكذا كان الرمزان يتطوران معاً).

وأصبح الملك يستعير التاجين (تاجى الوجهين القبلى والبحرى) من حورس (فإذا لم يتمثل صورته، فقد شرعية الاستعارة، شرعية الحكم، وحقت عليه الثورة، بل كانت تحق عليه الثورة. كما رأينا أيضاً . إذا أعلن تخليه عن بنوته لحورس أى عن الصورة المثال).

وأصبح كلما تطورت صورة حورس فى الأسطورة، تطورت التزامات الملك تجاه المحكومين.

وأضحى على المصرى إذا ما أراد أن يصور الملك منتصراً على أعدائه (الأغراب) أن يصوره كصقر يقف فوق العلامة الهيروغليفية الخاصة بالذهب (وكانت علامة دالة على الإله «ست»)، وكان يعنى بهذا التصوير أن الملك يلقى الرعب فى قلوب البلاد الأجنبية، وأن مصر مستقلة، ويعنى خروج ست من المنظومة السياسية التى تحكم مصر.

وبكل ما سبق عُقد العقد الاجتماعى بين الحاكم والمحكومين فى مصر.

عقد أول عقد اجتماعى فى التاريخ.

وأخـــــــيـــــــراً..

هكذا بنفس المعلومات المتاحة لنا عن ثقافة الحكم فى مصر القديمة، دون أن نعتبر الأساطير عقائد دينية بدائية فقط، ونغفل دورها كاتفاق جمعى يعمق الانتماء والأمن ويمهد للبناء والرفاهة، وبغير أن نعتبر أدبيات عدالة الحكم فى مصر القديمة. قياساً على حضارات أخرى. استثناء يثبت قاعدة الطغيان المركزى ولا ينفيها، وإذا لم نغفل «معات» غائرة القدم فى الثقافة المصرية، وأن الأسطورة الأوزيرية، تبدأ ويشتد فيها الصراع. مادياً وفكرياً. وتنتهى فى محاولة للإجابة على سؤال وحيد، لمن العرش الدنيوى؟، لمن حكم مصر؟، وأن الأسطورة الأوزيرية تنتصر للاستقلال والوحدة ولكل مايمثله أوزيريس من خير لصالح الناس بإراداتهم المنتصرة، وبالتحقيق فى السطوة «الحورية»، على العرش فى مصر، والتحقق منها، وبالتمعن فى الثورات المصرية، فى أسبابها ونتائجها، ودراسة الدراما المنفية، ومتون الأهرام، ودراما التتويج. التى وصلت إلينا . دون آراء مسبقة، مستقاة من ثقافات أخرى، تحجب عنا معانى مختلفة كامنة فى النصوص، وباعترافنا الضمنى بأن اللغة المصرية القديمة لم تهبنا أسرارها بعد، وبأن اللغة المصرية القديمة لغة مجاز، وأن المجاز لا يفهم إلا من خلال الثقافة التى أفرزته، وبأن الأرض المصرية لم تكشف لنا عن كل كنوزها المعرفية بعد،



وهكذا. أيضاً. إذا لم نستبعد أن البنوة للإله لا تعطى حقاً فى الطغيان، وإنما تلزم الحاكم بالصورة. المتفق عليها جمعياً. للإله المثل، أى أنها ليست حقاً إلهياً فى الحكم، بل إلتزاماً تجاه إله يتعارف الحاكم والناس على صورته، وبالتالى فهى التزام أمام الناس، وبإقرارنا بأن الحضارة المصرية لا تشبه غيرها لظروف جغرافية نشأت عن وجود نهر وحيد لا يخالطه المطر، محاط بدروع صحراوية شديدة العمق، وأنها حضارة دولة جامعة، بينما كل الحضارات التى تزامنت معها، كانت حضارات مدن تسيطر على أراض شاسعة، وتتحكم فيها. وباعترافنا أننا رأينا الطغيان دون حضارة فذة كالحضارة الفرعونية، وأن هذا يجعلنا نراجع أنفسنا إذا ما رأينا تأكيد الطغيان فى الحضارة المصرية القديمة، التى لم تتكرر، برغم وجود شروطها جميعاً، نراجع أنفسنا لنتأكد من كونها حضارة دعمت الالتزام بأن يكون الخير للناس جميعاً، بصورة فائقة الروعة للعدالة الاجتماعية، فى زمانها الذى لم يعرف ولم يعترف بضرورة هذه العدالة. هكذا. بكل ما سبق. رسمنا صورة مخالفة لرؤى الغير فى حضارتنا المصرية القديمة، يضيئ فيها. وسط كل ما يضيئ. أول عقد اجتماعى فى التاريخ بين الحاكم والمحكوم، أول عقد اجتماعى بين المحكومين وحاكمهم:

«الناس رعية الملك / هناك من يرعاهم / فقد صنع السماء وفقاً لمشيئتهم / وطارد شيطان المياه (لكى تظهر الأرض)، وخلق نسمة الحياة لتتنفسها أنوفهم / إن من جاءوا من صلبه صورة له / يشرق فى المساء وفقاً لما يشتهون / خلق لهم النبات والحيوان والطير والسمك طعاماً يأكلون / وجعل لهم الحاكمين، وهم فى البيضة، سنداً يسند ظهر العاجز».

الناس إذن هم المهمون، الملوك جعلوا من أجلهم، ولم يجعل الناس من أجل حق إلهى للملوك، ومن يقرر ذلك؟!، يقرره الملك (مارى كارع، من ملوك الدولة الوسطى) فى تعاليمه لابنه الذى سيخلفه.

وفى نص منسوب إلى الملك سنوسرت الأول (الدولة الوسطى) يقول:

«لقد خلقنى (الإله حور آختى) لكى أعمل ما عمله، ولأنفذ ما أمر به من أعمال واجبة التمام، لقد اختارنى راعيا لهذا البلد، لأنه يعرف من سيحافظ على النظام (الماعت)».

وفى نبوءة الكاهن نفرتى، بعد أن قدم صورة للفوضى والاضطراب فى البلاد، نتيجة للثورة الاجتماعية الكبرى قبل قيام الدولة الوسطى، يتشوف مجئ ملك للبلاد، يُظن أنه أمنمحات الأول، الذى أعاد توحيد الدولة، وأسس الأسرة الثانية عشرة، هذا الملك الذى سيكون عصره عصراً يشفى فيه الجميع، و(العدالة «ماعت» ستحل مرة أخرى مكانها، وستطرد الفوضى والشرور).

إذن..

الكون مخلوق للناس (وفقاً لمشيئتهم)، وكما (يشتهون).

و«ماعت» هى النظام الذى يحقق التوازن حين يحق الحق، بين الطبيعة والنشاط البشرى لصالح الإنسانية والخير والعدالة (الهدف الذى خلق الكون من أجله).

وحورس «(صورة أبيه أوزيريس على الأرض)، هو اليد التى تحقق «ماعت».

والملك ملزم بأن يكون صورة لحورس.

الملك يتوج على هذا الشرط، وبعطى الولاء على هذه الصورة.

الملك يقدم «ماعت» قرباناً للآلهة. أى يقدم التزامه بالمعنى وراءها، (وأنه اليد التى تحقق «ماعت»).

هذا هو أول عقد اجتماعى فى التاريخ.

هذا هو العقد الذى ظل يتطور فى الثقافة المصرية القديمة (منذ ما يزيد على خمسة آلاف عام بكثير)، حتى اغتاله الحكم الأجنبى الطويل للبلاد، الذى جاء بثقافة مخالفة، فكان على البشرية أن تنتظر ما يقرب من خمسين قرنا لترى العقد الاجتماعى الثانى (جان جاك رسو ١٧٧٧) فى الثقافة الأوروبية الحديثة، ممهداً للثورة الفرنسية، منذ مالا يزيد على المائتى سنة إلا بقليل!!.

والآن.. هل نعود ونتكلم عن الطغيان المركزى فى مصر القديمة، ونبرر للطغاة ما يفعلون، حين نقر بأن مصر لا يمكن إدارة أمورها، وتحقيق نتائج ملموسة فى تقدمها إلا إذا حكم شعبها بالطغيان والديكتاتورية؟!!!. ■

كتاب الزاوية



ديوان الطرب

محمد عبد الوهاب

أيها الراقدون

أيها الراقدون تحت التراب ... جئت أبكى على هوى الأحباب
كان لى فى الحياة من أرتجيه ... ثم ولى والعمر فجر الشباب
كان أنسى وكان توأم نفسى ... فإذا بى فى وحشة واغتراب
أيها النائمون ... آه لو تسمعون
يا من سعيت إليها ... يقودنى صوت قلبى
يا من جنيت عليها ... هذى جناية حبى
أمل راحل وحب مقيم ... فى الحنايا من ضلوعى
ها هنا ترقدين ... آه لو ترحمين
هذه دموعى تجرى ... مسترحمًا فى دعائى
يا ليت صوتك يسرى ... ويستجيب ندائى
يا نجوم اشهدى ... إنى على الذكرى أمين
يا غيوم أرسلى ... الدمع مع الباكى الحزين

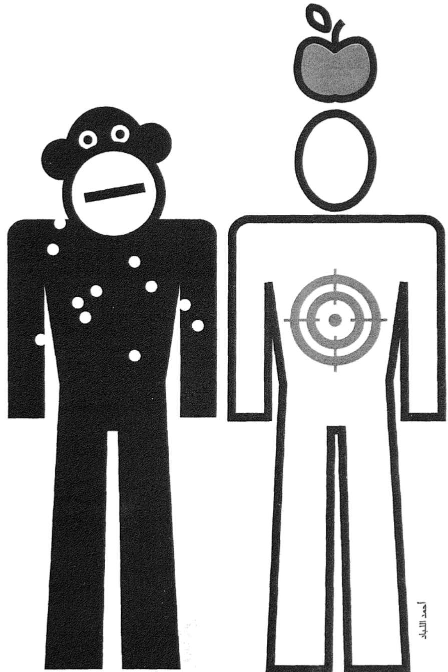
أحمد رامى

الإنسان

ذلك الحيوان الغريب

محمود الذوادى

الثقافة ميزة خاصة بالجنس البشرى. إنها تجاوز للحيوانية عند الإنسان. إنها كل شىء ما عدا البيولوجيا. فهى أهم من العالم المادى للإنسان فى تأثيرها على الإنسان



■■ مؤلف هذا الكتاب جان فرنسوا دورتياى هو رئيس التحرير للمجلة الفرنسية الشهرية Sciences Humaines المهتمة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية. وهو كاتب علمى، كتب الكثير من المقالات حول علم النفسى المعرفى psychologie cognitive واللغة وعلم الاجتماع. كما أنه أشرف على عدد من الكتب حول المخ والفكر، والأسرة والفلسفة المعاصرة. إنه أيضا مؤلف كتاب: Les sciences humaines : Panorama des connaissances. ونشر تحت إشراف Dortier فى نهاية الربع الأخير من سنة ٢٠٠٤ أول معجم فرنسى كبير وشامل حول العلوم الإنسانية.

نقدم هنا فى المقام الأول مراجعة وافية للكثير من الأفكار والمعطيات التى تحفل بها فصول الكتاب العشرة حول تميّز الجنس البشرى عن غيره من الأجناس الحية الأخرى. ثم نطرح، فى المقام الثانى، آراءنا وآراء الآخرين حول بعض ما ورد على لسان صاحب الكتاب، راجين أن يجد القارئ مبتغاه فى الاطلاع، من جهة، على محتوى الكتاب الزاخر بالأفكار والمعطيات حول منزلة الإنسان فى هذا العالم، وفى الإلمام، من جهة ثانية، ببعض القصور وضعف الموضوعية اللذين تشكو منهما أحيانا مقولة الكتاب.

يبدأ المؤلف الفصل الأول من هذا الكتاب بإطلاق عنوان عليه يشير إلى عدم العثور على ما يميّز الإنسان عن غيره ويرى أرسطو وديكارت أن الإنسان يتميّز عن الحيوان باللغة والعقل والروح. بينما يختلف مونتاتى Montaigne وآخرون مع هذه الرؤية رافضين الفرق الجذرى بين الإنسان والحيوان. لكن هذا الموقف يفشل فى تفسير معالم التفكير البشرى التى لا توجد عند عوالم الحيوانات والكائنات الأخرى. (ص ١٤). أما المفكر كسيرار فينظر إلى اللغة والرموز التى يستعملها الإنسان كجوهر للطبيعة البشرية. بينما يدافع الفيلسوف الألمانى هيدجر على أن الخيال/التخيل هو صفة مكينة فى الجنس البشرى (ص ١٤-١٨). وكما هو منتظر، فعلم الأنثروبولوجيا ينظر إلى الإنسان ككائن ثقافى فى المقام الأول (ص ١٩-٢٣)؛ أى أن الثقافة ميزة خاصة بالجنس البشرى، إنها تجاوز للحيوانية عند الإنسان. إنها كل شىء ما عدا البيولوجيا. فهى أهم من العالم المادى للإنسان فى تأثيرها على الإنسان. فالثقافة هى التى تفرق بين مجتمعات متجاورة. إنها أيضا العامل المؤثر الرئيسى فى تشكيل الشخصية القاعدية (Linton).

---

homme cet étrange L'animal...
Aux origines du langage, de la culture et de la pensée
(الإنسان ذلك الحيوان الغريب: فى أصول اللغة والثقافة والفكر)
Jean-François Dortier
Editions Sciences Humaines,
Auxerre Cedex, 2004, 398 p

وتمثل الحتمية الاجتماعية الثقافية عاملا حاسما فى فهم وتفسير السلوكات البشرية. أما دراسات الثقافة عند الحيوانات فتفيد:

١ - أن الثقافة الرمزية غير موجودة عندها.

٢ - وجود ثقافة محدودة فى استعمال بعض الأدوات عند بعض الحيوانات فقط.

ويعتبر بعض الدارسين للإنسان بأن هذا الأخير كائن غير مكتمل l'homme, être inachevé على المستوى البيولوجى مقارنة بالكائنات الأخرى، التى لها غرائز تحدد وتوجه سلوكياتها منذ الصغر المبكر. كما أن النضج البيولوجى لتلك الكائنات يتم فى مدة قصيرة مقارنة بنظيره عند الإنسان. ومن ثم فالكائن البشرى يعتمد كثيرا على عملية التعلم. لكن عمليات التعلم اللغوى وإدراك الألوان وغيرهما فى فترة مبكرة تثبت أنها ليست مجرد نتيجة لتعلم متأخر من عمر الإنسان. إن اكتشافات الدراسات حول الأطفال الصغار تذهب عكس فكرة فقدان الاكتمال l'incomplétude عند الإنسان. إن المخ البشرى، مثلا، عضو معقد ومكتمل منذ الميلاد (انظر الفصل ٣).

وقد فقد تقسيم كارلفن لينى Carlvon Linné (١٧٣٠) للجنس البشرى إلى ستة أصناف مصداقيته فى العصر الحديث. فجاء التعريف الشائع للإنسان العاقل Homo sapiens تبعا لمقاييس أو أربعة: إنه كائن يمشى على رجلين وذو مخ كبير أو أنه بالإضافة إلى ذلك كائن قادر أيضا على صناعة الأدوات واستعمال اللغة.

وتشير اكتشافات ١٩٨٠-١٩٩٠ بوجود أصناف بينية (intermedière) من الجنس البشرى. وهكذا أصبحت المواصفات البيولوجية والثقافية للجنس البشرى غير كافية فى رأى المؤلف (ص ٢٦-٢٨).

ويتحدث المؤلف عما يسمى بفقدان الاكتمال البيولوجى لدى الإنسان: l'homme être inachevé بمعنى أن الإنسان كائن غير مجهز بيولوجيا لنمو أعضاء جسمه نموا سريعا كما هو الأمر عند بقية معظم الكائنات الحية. أى أنه أبطأها جميعا فى النمو والنضج البيولوجيين، ومن ثم فهو أقل استقلالية من الكائنات الأخرى لمدة طويلة لكسب رهان البقاء والنمو النضج لوحده فى مسيرة حياته. وهو للأسف لا يطرح أسبابا لهذه الخاصية الإنسانية، أما بحوثنا فى هذا الميدان، فقد أدت بنا إلى اكتشاف أن منظومة الرموز الثقافية/ الثقافة (اللغة، الفكر، الدين، المعرفة/العلم، القيم والأعراف الثقافية والأساطير...) تقف وراء بطء النمو والنضج البيولوجيين عند الإنسان، من ناحية، والأمد الأطول عموما لحياة أفراد الجنس البشرى، من ناحية أخرى.



أغلب الباحثين الغربيين التطوريين يميلون إلى التقليل من هوة الفرق بين الإنسان والقردة، ومن ثم يفهم الحماس الشديد الذى شجع هؤلاء الباحثين

وخاصة الباحثات لدراسات بعض المعالم السلوكية البشرية لدى الحيوانات والدواب مثل تعلم اللغة واستعمالها وصناعة الأدوات واستعمالها، كما سنرى ذلك فى انتشار المراكز العديدة فى إفريقيا وغيرها لدراسة سمات كثيرة فى سلوكيات القردة. وينطبق هذا الاعتقاد النظرى فى التشابه الكبير بين الإنسان والقردة على صاحب الكتاب رغم أن معطيات البحوث الحديثة تبرز الفروق الحاسمة بين عالم الإنسان وعوالم القردة والحيوانات والدواب الأخرى كما سوف يتجلى فى فصول هذا الكتاب.

ويسير المؤلف فى الفصل الثانى من الكتاب إلى أن البحوث العلمية حول مهارات القردة بدأت مع عالم النفس الأمريكى روبرت يارك فى عام ١٩١٧، فلاحظ هذا الأخير أن العديد من مهارات وسلوكيات القردة توحى وكأنها سلوكيات بشرية مثل وجود تعبير عاطفى عندها إزاء المرضى من القردة. أما عالم النفس الألمانى وولفجامج كوهلر فقد رأى أن القردة نجحت فى حل مشكلة الموز عن طريق



عملية الاستبصار. بينما يميل علماء النفس الأمريكيون إلى القول بأن حل مشكلة الموز يأتى من محاولات الصواب والخطأ التى تقوم بها القردة. وهكذا تعددت مراكز البحوث حول عالم القردة. فكانت سبعة مراكز فى علم النفس التجريبى فى سنة ١٩٥٠.

ولا يمكن الحديث عن عالم القردة دون التعرض لجهود العالمة الشهيرة جاين جودال. وقد تعرفت جودال على الباحث الكبير لوويس ليكى Louis Leakey المهتم بالتنقيب على الأسلاف القدماء للإنسان. وبدأت مغامرتها البحثية فى Gombe فى كينيا فى عام ١٩٦٠ بحيث أصبح ذلك المكان مركزا عالميا للبحوث حول القردة. فاكتشفت جودال أن القردة الذكور يتقاتلون وأن إناث القردة الشابات ينتقلن من مكان إلى مكان دون أن يعتدى عليهن. يبحث الذكور عن الإناث للرجوع بهن إلى محيطهن. يصطاد القردة جماعيا ليقتلوا ويأكلوا الصيد، فهم إذن صيادون وآكلو لحوم.

ومن اللافت للنظر أن النساء سيطرن على ميدان البحوث حول سلوكيات القردة. وتستنتج من تلك البحوث عموما صورة للقرد تفيد أنه الوحشى الطيب الممثل لنموذج الإنسانية البدائية.

ولا يتفق الباحثون على وجود ثقافة Culture للقردة بالمعنى البشرى لهذا المصطلح، لكنهم يفضلون القول بأن للقردة بداية ثقافة protoculture.

وعند التساؤل عن ملكة اللغة عند القردة، فإن البحوث تشير أنه لا مقارنة بين الزاد اللغوى المحدود (٢٠٠-٣٠٠ كلمة) عند القردة ونظيره عند الإنسان. إذ يتعلم الطفل فى سن الثالثة آلاف الكلمات ويدرك المفاهيم المجردة مثل الحياة والشر والأب والأم... كما أنه ليس للقردة استعمال نحوى حقيقى ولا استعمال للماضى والحاضر. لا تعبر القردة أبدا على التعجب والتساؤل ولا هى قادرة على سرد القصص.

إن التحمس الشديد الذى دفع الباحثات والباحثين لدراسة عالم القردة على الخصوص لم يؤد إلى التقليل فى الهوة بين الجنس البشرى وجنس عالم القردة كما كان يسعى هؤلاء إلى إثبات مصداقية النظرية الداروينية التى تنتظر تقاربا كبيرا بين عالمى الإنسان والقردة. لكن جاءت معطيات هذا الفصل لتخيب آمال أصحاب الرؤية الداروينية. فلا مقارنة فى الزاد اللغوى عند الإنسان وعند القردة. فالإنسان متميز فى هذا الميدان بكل المقاييس، والقردة فاقدة للمستوى الذهنى

والعقلى المتقدم الذى يتصف به الجنس البشرى. ومن ثم يصعب جدا الحديث عن ظاهرة الثقافة - بمعناها الإنسانى - عند الأجناس الحيوانية الأخرى. وهكذا أكدت معطيات هذا الفصل وغيره من فصول الكتاب بأن الهوة سحيقة بين الجنس البشرى وغيره من الأجناس الحية الأخرى. فالإنسان هو سيد الكائنات أو خليفة الله فى الأرض.

أما فى الفصل الثالث، فإن صاحب الكتاب يؤكد أن الفرع الجديد لعلم النفس المسمى بعلم النفس التطورى يشير إلى وجود معالم فطرية ثابتة فى كينونة الإنسان وهو ما يطلق عليه علم النفس التطورى مصطلح الطبيعة البشرية، الأمر الذى جعل علماء النفس التطوريين يقللون من دور الثقافة التى أعطتها العلوم الاجتماعية دورا مركزيا منذ أكثر من قرن.

ويعتبر علم النفس التطورى حصيلة لأربعة فروع معرفية حديثة: منظور فطرية اللغة وعلم نفس الطفل والأنثروبولوجيا المعرفية وعلم الاجتماع البيولوجى. فمثل شمسكى، يؤكد العالم الأمريكى ستيفن بنكر على عمق فطرية اللغة فى العقل البشرى. وتفيد الدراسات حول الأطفال فى سن مبكرة بأنهم يملكون مقدرات فطرية ذكائية فى التعامل مع عالمهم الخارجى، أى أن تكوين العقل البشرى لا يعتمد على العقل فقط بل يستند على مؤهلاته الفطرية التى تنظم التجربة الخارجية وتوجهها بوجه من الوجوه.

ينادى علم الأنثروبولوجيا المعرفية بأن العقل البشرى هو بالفطرة مصدر الثقافات، وهذا ما يؤكده وجود الديانات عند كل الشعوب والحضارات. ويذهب علم الاجتماع البيولوجى من جهته إلى القول بأن السلوكيات الاجتماعية هى نتيجة لعوامل بيولوجية. وينظر إلى العالم الأمريكى إدوارد ولسن بأنه أشهر الشخصيات القيادية للرؤية السوسيوبيولوجية. لقد تعرض علم النفس التطورى إلى انتقادات عديدة، فيوجد اليوم اتفاق بين أغلبية العلماء (المنتمين والمعارضين لعلم النفس التطورى) بأن السلوك البشرى ظاهرة معقدة. ومن ثم يعترفون بسهولة بأن كلا من الطبيعة البشرية والثقافة/الرموز الثقافية (وهذا مصطلحنا) تلعبان معا دورا أساسيا فى ميلاد وتشكيل السلوك البشرى فى واقع الحياة اليومية للناس. فنحن هنا أمام رؤية تحرص على النظر إلى السلوك البشرى على أنه حصيلة لتفاعل بين الفطرى والمكتسب عند الإنسان.

رغم هذه المعالم الفطرية البشرية التى يقر بها علم النفس التطورى، فإن صاحب الكتاب لا يشير لا من قريب ولا من بعيد إلى أن الكتب السماوية، مثل القرآن. أكد على ذلك فى آيات عديدة من القرآن تبرز فطرية اللغات عند الجنس البشرى أو تميز هذا الأخير بعقل خاص ذى مواهب وقدرات فريدة فى عوالم الكائنات الحية جميعا. وهذا ما يسمح بوصف مؤلف الكتاب بأنه أسير الرؤية التطورية الضيقة التى لم تعد مقبولة كثيرا اليوم فى عالم يؤمن العلماء فيه أكثر بمبدأ تعقيد الظواهر ومن ثم ينادون بتبنى المنظور المتعدد الرؤى والاختصاصات لكسب رهان علم ذى مصداقية.



يبرز المؤلف فى الفصل الرابع مثال الصياد الذى ينجح فى نهاية المطاف فى اصطياد الضبى السريع. ويعود ذلك، فى نظر المؤلف، إلى أن الصياد (الإنسان) يتمتع بدافع نحو المستقبل، أى النظر إلى البعيد والتخطيط له مثلما جاء على لسان ب.هاينريتش. فسلوك الناس يتأثر كثيرا بالأفكار الموجودة فى أدمغتهم، ومن ثم يمكن وصف الإنسان بأنه آلة/ ماكينة أفكار.

وتعتبر الفكرة بأنها تمثل ذهنى لشىء ما. إنها عالم داخلى، وهى صفة ينفرد بها الإدراك البشرى مقارنة بالذكاء الحيوانى. فالبشر قادرون على استكشاف العالم عبر التفكير وخلق عوالم جديدة من ذلك.

ويتحدث المؤلف عن أربعة أصناف من التمثلات عند الكائنات يبدأ النوع الأول بقدرة الكائن على ملاحظة بعض الانتظامات/ الاطرادات فى محيطه تساعده على التحكم فى سلوكه. يلى ذلك ما يسمى بما قبل التمثل كما يتجلى ذلك فى سلوك القط الذى يقفز على الفأر بعد لحظة يقيس

فيها المسافة الفاصلة بينهما، وذلك خلافا لسلوك القردة الذى تسميه م.جين رود بالتمثل الحركي.

أما النوع الثالث من التمثلات فيظهر فى قدرة الكائن على تصنيف الأشياء والأحداث التى يلحظها ويتذكر وقوعها (ص ١٢٠). وأخيرا يدعى النوع الرابع بما بعد التمثيل la métaprésentation. وهو عبارة عن قدرة الإنسان على القيام بالتمثل للأشياء دون حضورها المباشر والمادى عنده. أى أن تصبح التمثلات موضوعا للتمثلات نفسها عند أفراد الجنس البشرى. وهكذا يتضح أن الفكرة هى صورة داخلية للأشياء، إنها مفهوم مجرد للتفكير. يستعمل المؤلف كلمة فكرة une idée فى كتابه بمعنى مابعد التمثلات أو تمثلات من الصنف الثانى الذى أشرنا إليه.

إن لمقدرة أفراد الجنس البشرى على خلق الأفكار انعكاسات هامة، فهى تسمح بتحقيق العديد من الأنشطة الذهنية/العقلية الجديدة مثل التخيّل أو حلّ المشاكل ذهنيا أو الشعور الشخصى بالأشياء (أنا جائع) أو توقع حدوث الأشياء عبر حاسة استباق الأشياء. فعند بلوغه السنتين يستطيع الطفل خلق تصوّرات ذهنية داخلية تسمح له بخلق عوالم افتراضية إما بواسطة قدرته على حل المشاكل ذهنيا إذ يتمكن الإنسان من اختيار أقصر الطرق فى المدينة للوصول إلى المكان المقصود. وإما عن طريق الشعور الشخصى فيتمكن الإنسان من التفكير فى التمثلات نفسها: أشعر بالبرد أو أنا جوعان... وفى النهاية فموهبة حاسة التوقعات تسمح للناس بالعمل/السلوك لا بسبب عوامل خارجية أو حاجات داخلية، لكن بسبب مشاريعهم الذهنية غير المرتبطة بالزمان والمكان. وهذا ما جعل الفيلسوف الألمانى الكبير مارتن هيدجر يقول بأن موهبة التوقع هى صفة جوهرية للطبيعة البشرية.

وتوجد منظومة الأفكار فى القسم الأمامى للمخ، ويعود هذا الاكتشاف للعالم الروسى. إن ذلك الجزء هو مكان الأنشطة الفكرية العالية الذى يمثل تقريبا ثلث حجم المخ، إنه المسئول عن سلوكيات التوقعات المستقبلية وتخطيط الأنشطة. إن القسم الأمامى للمخ هو المنظم الكبير للفكر الراقى والمعقد. أما قشرة الدماغ ما قبل الأمامية فهى التى تساعد على إعطاء الإنسان المقدرة على التذكر والتخيّل واستعمال اللغة. إن وجود أفكار أو غيابها فى المخ يسمح بالحديث عن صنفين كبيرين للسلوكيات والتمثلات:

١- سلوكيات وأنشطة للكائنات مع حضور منبهات خارجية. ينطبق هذا أيضا على الكائنات غير البشرية.

٢- أما الناس فلهم القدرة على العمل والتفكير على مستوى آخر. فهم قادرون على السلوك كاستجابة لأهداف ومقاصد بعيدة المدى. يستطيع البشر أيضا حل مشاكلهم ذهنيا والتحكم فى عواطفهم، كما أنهم قادرون على الاعتراض على عوامل خارجية لتوجيه أنشطتهم أو أفكارهم فى اتجاه التصوّرات والمشاريع والأفكار التى تحملها عقولهم. وهكذا يتضح أن قوة /سلطة الأفكار على سلوك الناس هى أمر ضخم جدا. إن عالم الأفكار مكّن الإنسان من دخول بعد جديد: القدرة على الابتكار والتخيّل والرجوع إلى الماضى أو استشراف المستقبل. وهكذا فنحن نجرى - منذ كان الإنسان إنسانا - بأفكار فى عقولنا تدفعنا للنجاح فى الامتحان أو الحصول على عمل أو بناء منزل جميل أو تأليف كتاب أو ملاقاة العشيق. فنحن، باختصار، مثل الصياد، أى أن كل واحد منا له ضبى فى عقله.

يبرز المؤلف بكل وضوح تميّز الإنسان عن غيره من الكائنات بموهبة الفكر التى تجعل منه كائنا منفردا حقا عن عوالم الحيوانات والكائنات الحيّة الأخرى. ومع ذلك يصرّ صاحب الكتاب فى عنوان كتابه على تسمية الإنسان حيوانا غريبا بدل «كائنا غريبا». إذ هو الأصح والأكثر موضوعية فى وصف الإنسان، ذلك الكائن الفريد.

وتطرح فصول الكتاب مسألة أصل اللغة عند الجنس البشرى. هناك اختلاف عند الدارسين لظاهرة اللغة البشرية حول تاريخ ظهور هذه الأخيرة. فمن الباحثين من يرجع ظهورها إلى ٩.٥ مليون سنة، بينما ترى أقلية من الدارسين أن اللغة ظهرت قبل ٤٠.٠٠٠ عام فقط. لكن تتبنى أغلبية الباحثين فى ميدان اللغة ما يسمى موقف التدرجية. فاللغة عند هؤلاء قد مرّت بمرحلتين:

١- لغة بدائية نجدها فى مرحلة الإنسان المستوى القامة

٢- لغة معقدة يستعملها الإنسان العاقل

عرفت المرحلة الأولى استعمال لغة الإشارات مثل ما نجده عند الصم والبكم (ص ٢٤٥) ولغة بدائية تتكون من كلمات بدون صيغ نحوية.

أما ظهور اللغة المعقدة فيرجعه الباحثون إلى الحاجة لتلبية وظائف اجتماعية تتمثل خاصة فى المحافظة على العلاقات الاجتماعية. وهناك من يفسر ظهور اللغة المعقدة للتعبير عن العالم الذهنى/العقلى للإنسان ونقل ذلك الإنسان للآخرين أحداث الماضى أو إعلامهم بمشاريعه الشخصية.

إن السؤال الهام والمشروع بهذا الصدد هو: هل هناك من علاقة بين اللغة وصناعة الأدوات ؟ يعتبر البعض أن اللغة هى الأساس الذى مكن الإنسان من التفكير المجرد والخلاّق الذى سمح له بالتخيّل والتصوّر ومن ثم القدرة على صناعة الأدوات (ص ٢٥٤). وهناك فى المقابل فرضية أخرى ترى أن صناعة الأدوات/الذكاء التقنى هى سابقة للغة. لقد سادت هذه الفرضية بين ١٩٤٠ و ١٩٦٠ ولكنها لم تعد قائمة اليوم.

ويتساءل صاحب الكتاب: هل هناك عامل آخر وراء اللغة لتفسير القدرة على صناعة الأدوات عند الجنس البشرى ؟ وهناك اتفاق بين الباحثين اليوم بأن اللغة ظهرت منذ حوالى مليونى سنة مع مجىء الإنسان البدائى الأول. ولكن يبقى فى نهاية المطاف أن ترابط ظهور اللغة وصناعة الأدوات واستعمالها يتفق مع الفرضية القائلة بضرورة وجود تهيؤ /استعداد ذهنى صالح لظهور كل من اللغة والمقدرة على صناعة الأدوات واستعمالها (ص ٢٥٥) وهو ما لم يشرحه المؤلف، أى أن الأمر بقى غامضا: هل اللغة المعقدة، مثلا، هى التى أدّت إلى التهيؤ الذهنى المشار إليه عند الإنسان أم هل أن مصدر ذلك الاستعداد الذهنى ليس اللغة وإنما شىء آخر؟

ففرضية اللغة كأهم عامل فى تميّز الإنسان على بقية الكائنات تبقى هى الأقوى لتفسير انفراد الجنس البشرى بالتفكير وبصناعة الأدوات وبالتخيّل... إذ أن غياب نوع اللغة البشرية عند الكائنات الأخرى حرمها من تلك المواصفات الراقية التى يختص بها الجنس البشرى. أى أن هبة اللغة البشرية هى بيت القصيد وراء ما ينفرد به الإنسان من خصال أهلته وحده ليكون بدون منازع سيد الأجناس الأخرى وخليفة الله فى الأرض.

يناقش الفصل الأخير مسألة ظهور الثقافات فى المجتمعات البشرية، فإذا كان البشر لم يخترعوا (لم يخلقوا) المجتمع، فإنهم أسسوا مجتمعا من نوع خاص ذا أرضية جديدة تتمثل فى الاشتراك فى مخيال وتمثلات بين أفراد المجتمع البشرى (ص ٣٠٧)، أى أن بنى البشر ابتكروا أشكالا اجتماعية جديدة تعتمد على المخيال الجماعى. يرى المؤلف أن دوركايم وداروين ليسا بالمتناقضين بهذا الصدد، بل هما متكاملان.

تذهب العلوم الاجتماعية والإنسانية إلى القول بأن المجتمع هو ابن الثقافة، بينما تتبنى نظرية التطور تصورا آخر يرى أن المجتمعات البشرية هى امتداد للنظام الطبيعى فى الكون. لم يعد هذان النموذجان المتعارضان مقبولين منذ سنوات وأصبح هناك إجماع على أن المجتمع البشرى مكوّن من الطبيعة والثقافة. فكيف وقع ذلك؟

ويرد بأنه ابتداء من القرن العشرين بدأت العلوم الاجتماعية والإنسانية تحاول تفسير ظهور المجتمعات البشرية (ص ٣١٠) تفسيرا علميا. فدوركايم وموس يعتبران أن خلق الرمز يساوى خلق المجتمع. يتبنى جيل من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا هذا المنظور الذى يرى أن الثقافة الرمزية هى أساس نشأة المجتمعات البشرية.

ويرى صاحب الكتاب بأن ظهور الثقافة الرمزية عند الجنس البشرى يمثل الأرضية لنشأة رابطة اجتماعية جديدة. لقد سمحت هذه الأخيرة بتوسيع الدائرة الضيقة للمجتمعات الحيوانية الصغيرة إلى مجتمعات/مجموعات كبيرة مثل العشائر أو القبائل. تتكون الثقافة الرمزية من تمثلات جماعية يعبّر عنها بواسطة اللغة ويعبّر عنها كذلك عبر مخيال (السلطة الحاكمة والمجموعات الصغيرة والأخلاق) الذى يترجم فى شكل أساطير وخرافات وقصص وشعائر رمزية مشحونة لها القدرة على طبع العقول/النفوس بها.

وينهى المؤلف كتابه بخلاصة تؤكد أن الكائن البشرى لا يتشابه مع أى كائن آخر. فيتميّز الإنسان عن بقية الكائنات بسلوكياته على الخصوص. فقد استطاع الكائن البشرى فى المقام الأول صناعة كل أنواع الأشياء، كما أنه أثبت أنه موهوب للعمل الفنى من غناء ورقص ورسم. وتعتبر اللغة أكبر ما يميّز الإنسان عن الحيوانات الأخرى. فاستعمال الكلمات بطريقة ما سمحت للإنسان بنقل رسائل للآخرين وإعطاء الأوامر وإقامة الأحلاف وحكى القصص التاريخية والخيالية من كل الأنواع. ■

مرايا مقعرة

محمد عبده فى عيون الآخرين

أمينـــة البنـــدارى

■■ بمناسبة مرور مائة عام على وفاة محمد عبده تصدرت عدة مقالات العدد السابق من «وجهات نظر»، وتشترك هذه المادة مع غيرها من الدراسات المنشورة فى إصدارات أخرى فى تركيزها على الجانب «الإصلاحى» من رسالة وفكر محمد عبده ودوره كمفتِ الديار المصرية، ربما لما تستدعيه هذه الرسالة من صدى فى عصرنا الحالى، الذى يعج بدعاوى الإصلاح، بينما لم يحظ دوره السياسى بالقدر الكافى من الدراسة فى السنوات الأخيرة.

ويصعب التكهن بأسباب هذا الإغفال النوعى من قبل النخبة الثقافية العربية. هل هو عدم ارتياح لأفكار محمد عبده الإصلاحية التى توائم بين الإيمان والعقل لتعلى قيمة العقل؟ أم هو عدم ارتياح لمزجه بين الأفكار الغربية والإسلامية فى إطار الدعاوى الإصلاحية؟ أم هو عدم ارتياح لدور محمد عبده فى التعامل مع القوى الغربية؟

لم يكن محمد عبده، صاحب الرسالة الفكرية، من المثقفين القابعين فى أبراجهم العاجية، بل كانت له تجارب سياسية فى مراحل مختلفة من حياته. بل إن أعلى منصب اعتلاه محمد عبده منذ عام ١٨٩٩ وحتى وفاته المبكرة فى ١٩٠٥ عن الخامسة والخمسين كان منصب مفتى الديار المصرية وهو منصب سياسى بامتياز. تعامل الشيخ محمد عبده مع أهل الحكم فى مصر فى فترة صاخبة من تاريخها هى فترة الاحتلال البريطانى. وبالرغم من الانتقاد الذى كان يوجه للإمام بأنه لم يؤيد العرابيين التأييد الكافى فإن علاقته بالثورة العرابية وضباطها وتحفظاته على الثورة كطريق للإصلاح ربما تستدعى دراسة أخرى بعد مرور حوالى قرنين من محاولات الإصلاح والتحديث والثورة «من فوق». كذلك لم تحظ علاقة الإمام محمد عبده بالفكر والتراث الغربى وبالسياسيين الغربيين بالقدر الوافى من التحليل والدراسة من قبل الدارسين العرب.

بالطبع هنا ليس مجالا لمثل تلك الدراسة، ولكن قد تلقى قراءات فى كتابات الغربيين الضوء على صورة محمد عبده فى مرآة الغرب، وبالتالى على جزء من دوره فى تاريخ مصر السياسى. تنقسم الكتابات التى سنتناولها هنا إلى قسمين: الأول: السياسيين الذين عاصروه. والثانى: المؤرخين الذين تناولوا أعماله وموقفه فى الفكر العربى الحديث بعد وفاته.

ومن كتابات السياسيين سنتناول كتاب بلنت الشهير: «التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر» (١٨٩٥)، وكتاب اللورد كرومر: «مصر الحديثة» (١٩٠٨). فعلى الرغم من الخلاف البين بين كرومر وبلنت، حيث كان بلنت من أشد المعارضين لسياسة اللورد كرومر، كان الاثنان على علاقة جيدة بعبده، وكتاباهما مبنيان على معرفتهما الشخصية بالإمام وبمصر فى تلك الحقبة. كذلك سنتطرق سريعا لكتاب «كيف دافعنا عن عرابى وأصحابه: قصة عن مصر والمصريين» لبرودلى، المحامى الذى دافع عن العرابيين بعد هزيمتهم فى التل الكبير بتكليف من بلنت. أما فى مجال الدراسات الاستشراقية فيظل كتاب شارلز آدامز «الإسلام والحداثة فى مصر» (١٩٣٣) ودراسة إيلى خدورى (١٩٦٦) من أهم الدراسات الغربية عن محمد عبده.



وولفرد سكاون بلنت صاحب «التاريخ السرى» هو سليل أسرة أرستقراطية إنجليزية، عمل لفترة قصيرة فى السلك الدبلوماسى واحتفظ بعلاقات جيدة مع بعض الدبلوماسيين والسياسيين الإنجليز جعلته على دراية واسعة بكواليس العمل السياسى البريطانى إبان فترة صعود الإمبراطورية. وقد كان بلنت، الشاعر الرومانسى غريب الأطوار، مغرماً بالتجول فى الشرق، فزار الشام ومصر والجزيرة العربية والهند مع زوجته لادى انابيلا بلنت حفيدة الشاعر الكبير لورد بيرون. وكان بلنت من أبرز المروجين فى إنجلترا لفكرة استقلال العرب عن العثمانيين ولأفكار المصريين الدستوريين.

يذكر بلنت أنه تعرف على محمد عبده فى ٢٨ يناير ١٨٨١ ويصفه بأنه من أفضل وأحكم الرجال ويؤكد أن هذا الوصف جاء بناء على معرفة طويلة عبر فترات وظروف مختلفة. فقد نشأت بين الرجلين صداقة دامت سنوات ونما خلالها إعجاب بلنت بالشيخ حتى أنه يصدر كتابه بصورة لمحمد عبده فى مجلس العموم البريطانى.



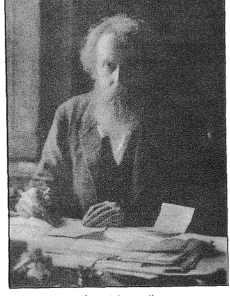
وفى سياق الحديث عن الثورة العرابية يشير بلنت إلى أن محمد عبده اختلف مع فكر وأسلوب الضباط العسكريين، بل ربما لم يكن عبده، وفقا لبلنت، كثير الإعجاب أو التقدير لشخص عرابى نفسه. إلا أنه مع الهجوم البريطانى على مصر لم يسع عبده إلا أن يقف فى صف العرابيين من أجل تكوين جبهة لمواجهة التدخل الأجنبى. ويذكر بلنت فى معرض محاولته للوساطة بين النواب المصريين والإدارة الإنجليزية فى أعقاب الأزمة السابقة للاحتلال أن محمد عبده استضاف لقاء بلنت والنواب فى منزله ونصح بالتروى والتصالح كعادته، بل يقول بلنت أن عبده كان يسانده فى محاولته لإقناع النواب المتشددين بالتنازل عن بعض مطالبهم المتعلقة بلائحة مجلس النواب والإشراف على الميزانية. أما بلنت نفسه، فهو يجاهر باقتناعه بعدالة مطالب النواب، لكنه شرح لهم وجهة نظر الإدارة البريطانية فى محاولة لتفادى أزمة كبيرة أدت فيما بعد إلى الاحتلال الفعلى لمصر.

يبدو بلنت فى روايته المدافع البريطانى الوحيد عن حق المصريين فى التحرر، وتبين روايته أيضاً دور المصالح الشخصية لرجال الأعمال الإنجليز أصحاب الاستثمارات فى مصر وحاملى السندات المصرية من أمثال عائلة روتشيلد فى التمهيد لاحتلال مصر، بالإضافة إلى أهمية المزاج الشخصى لكل من الساسة والإداريين الإنجليز والفرنسيين فى صياغة الأمور على النحو الذى جرت عليه. ويظهر عبده بالرغم من حداثة سنه نسبيا، فى صورة الحكيم، الهادئ بل والمحافظ نوعا ما فى آرائه السياسية بالرغم من رفضه للاستبداد.

وفى هذا السياق يقدم بلنت محمد عبده وقد اختلف عن ومع أستاذه ومعلمه جمال الدين الأفغانى، بشكل يتبين منه أن عبده آثر التحول التدريجى والإصلاح على الثورة والعنف والتغيير السريع. كذلك يقول بلنت أن عبده كان يحبذ فصل مسار الإصلاح الاجتماعى عن مسار الإصلاح السياسى، ويركز فى فكره ودعوته على الإصلاح الاجتماعى بشقيه الدينى والتعليمى، ويتبنى الدعوة إلى التدرج والاعتدال فى تطبيق الإصلاح السياسى بدلا عن الثورة. وربما يكون لهذا التوجه الفكرى دور فى تقريبه من سلطة الاحتلال الإنجليزى فيما بعد.

يذيل بلنت كتابه «التاريخ السرى» بعدة ملاحق يحتوى أحدها على سيرة ذاتية قصيرة لعرابى بقلمه، وتعليقات محمد عبده على هذه السيرة. والواقع أن هذه الملاحق بالذات تساهم فى تعقيد الصورة العامة التى يرسمها بلنت للإمام. يذكر محمد عبده بتاريخ ٣ مارس ١٩٠٣ أن الأفغانى كان قد اقترح فكرة قتل الخديوى إسماعيل قبل أن يعزل: «كان الشيخ جمال الدين موافقاً على الخلع واقترح علىّ أنا أن أقتل إسماعيل، وكان يمر فى مركبته كل يوم على جسر قصر النيل. ولكن كل هذا كان كلاما نتهامسه فيما بيننا. وكنت أنا موافقاً الموافقة كلها على قتل




ويلفرير بلنت ١٩٠٠


محمد عبده ١٨٨٤


لورد كرومر

إسماعيل ولكن كان ينقصنا من يقودنا فى هذه الحركة. ولو أننا عرفنا عرابى فى ذلك الوقت فربما كان فى إمكاننا أن ننظم الحركة معه لان قتل إسماعيل فى ذلك الوقت كان يعتبر من أحسن ما يمكننا عمله وكان يمنع تدخل أوروبا. ولكن لم يكن من المستطاع فى ذلك الوقت تأسيس جمهورية إذا نظرنا إلى حالة الجهل التى كانت سائدة على العقول».

ويعكس هذا التعليق كلا من تأثير خطاب وآراء الأفغانى الثورية على محمد عبده فى فترة مبكرة من حياته وتراجع الإمام واعتداله وميله إلى الإصلاح التدريجى فى فترة لاحقة لأن الأمة لم تكن على استعداد للجمهورية بعد. فى تعليق آخر أيضا فى ملاحق بلنت بتاريخ ديسمبر ١٩٠٣ يتذكر محمد عبده أحداث عام ١٨٨١: «لم تكن الثورة من رأيى وكنت قانعاً بالحصول على الدستور فى ظرف خمس سنوات... وقبل مظاهرة عابدين بعشرة أيام التقيت بعرابى فى دار طلبه عصمت... فنصحت عرابى بالاعتدال وقلت له: إنى أرى أن بلاداً أجنبية ستحتل بلادنا وأن لعنة الله ستقع على رأس من يكون السبب فى ذلك.... ولكن لما منح الدستور انضممنا جميعاً إلى الثورة لكى نحمى الدستور. ولكن عرابى لم يتمكن من ضبط الجيش وكانت عند الضباط مطامع عديدة».

سحقت المقاومة وانهزم العرابيون فى التل الكبير وأسفرت المعارك عن احتلال بريطانى لمصر واعتقالات ومحاكمات ونفى لقادة الثورة ومنهم عبده.

أما فى كتاب أليكساندر مايريك برودلى «كيف دافعنا عن عرابى وأصحابه: قصة عن مصر والمصريين» فنجد صورة مختلفة قليلا لمحمد عبده. فبرودلى يصف عبده بالعالم والصحفى، وبأنه كان أكثر الوطنيين موهبة وأكثرهم بلاغة وتأثيرا على الطبقة المتعلمة من أبناء بلده. ويقول برودلى وهو محام إنجليزى أوكله بلنت للدفاع عن العرابيين أنه لفترة أثناء المحاكمة بدا وكأن القوة العقلية الهائلة التى تمتع بها محمد عبده قد عكر صفوها نوع من الضعف النفسى والجسمانى من جراء الإحباط وخيبة الأمل والتهديد والتعذيب الذى تعرض له: «فعقله وجسمه بدا وكأنهما قد سحقا من دون أمل فى الشفاء بسبب رد الفعل العنيف النابع عن الأحلام المدمرة وعذاب اليأس». فعبده. كالآخرين . أهين فى السجن بل يقال أن الخديوى أرسل جمعا من خدمه للبصق على الإمام فى سجنه. وبالرغم من تفهم برودلى للضغط الذى تعرض له عبده فى محنته إلا أنه يبدو وقد خاب أمله فى الموقف الدفاعى المستكين الذى تبناه الشيخ فى الدفاع عن نفسه، فقد ركز على كونه قد اتبع التعليمات الصادرة من رؤسائه ووضع مسافة بينه وبين العرابيين.

انتهت محاكمة محمد عبده بالحكم عليه بالنفى، فرحل إلى بيروت ثم إلى باريس حيث أنشأ مع أستاذه جمال الدين الأفغانى جماعة وجريدة «العروة الوثقى»، التى دعت إلى الجامعة الإسلامية والإصلاح الدينى والتحرر والقضاء على الاستبداد. وفى هذه الأثناء حاول عبده لعب دور سياسى عن طريق الاتصال بالإنجليز فى محاولة لإيجاد حلول لمشاكل مصر والسودان. ثم عاد إلى بيروت حتى سمح له الخديوى، بعد وساطة من سعد زغلول لدى كرومر، بالرجوع إلى مصر عام ١٨٨٨.



لم يكن محمد عبده تقليديا فى فكره الدينى والفلسفى، إلا أن الكثير من أفكاره المختلفة لها جذور فى التراث الإسلامى. فتأثر بأفكار الغزالى، وابن تيمية وابن قيم الجوزية والمعتزلة ودعا إلى تجديد الاجتهاد وإلى إجماع جديد يتماشى مع متطلبات العصر بعكس التقليد الشائع فى الفكر الإسلامى آنذاك، كما أنه انتقى الأفكار التى تعزز التوحيد ووحدة الوجود ووحدة الأمة والسلام الاجتماعى. ومزج بين هذه الأراء النابعة من صميم التراث العربى والإسلامى، وبين أخرى مستوحاة من حضارة أوروبا فى القرن التاسع عشر. فقد تأثر محمد عبده بالجدل الفكرى القائم فى أوروبا آنذاك، وانشغل بقضية الخلاف بين العلم والدين مثلا، ولكنه توصل إلى اعتقاد راسخ بوسطية الإسلام بين الأفكار المتنافرة وملاءمته للفكر الحديث، فسعى إلى تفنيد التناقض بين العلم والدين، وانشغل بالمصالحة بينتهما بما يعمل على تحرير العقل الإسلامى.

ويذهب ألبرت حورانى فى كتابه «الفكر العربى فى العصر الليبرالى» إلى أن اتجاه عبده لم يكن محاولة للدفاع عن الأفكار والمستجدات الأوروبية من منطلق إسلامى بقدر ما كان على العكس: محاولة لتبرير الإسلام فى ظل المتغيرات الحديثة، وإثبات أن الأمة فى أمس الحاجة للإسلام كنظام أخلاقى ودينى وكرادع ووازع فى ظل المستجدات التى حلت بها. ويبدو أن الأوروبيين الذين عرفوا عبده عن قرب قد شعروا بألفة ما معه، فهو لم يبد لهم المفكر المسلم الغريب المختلف بقدر ما كان على نحو ما مثلهم.

يقول اللورد كرومر مثلا أنه يظن أن عبده كان فى حقيقة الامر لا أدرياً

(agnostic). بينما يسجل بلنت فى مذكراته بتاريخ ٢٨ يناير ١٩٠٠ تعليقا على مناقشة دينية دارت بينه وبين عبده عن البشر وعلاقة القوى بالضعيف، فيقول إن عبده لا يؤمن بمستقبل سعيد للجنس البشرى ويضيف: «أخشى أن إيمانه بالإسلام، بالرغم من كونه مفتى الديار، ضعيف كضعف إيمانى بالكنيسة الكاثوليكية». كذلك أشار برودلى وإن سريعا إلى عدم تقليدية أفكار عبده الدينية معلقا أن وطنيته الخالصة وحدها منعت بعض الآخرين من زملائه من رفض أفكاره غير التقليدية: «حتى صديقه عرابى قال ذات مرة: إن القبعة تناسب رأس الشيخ عبده أكثر من العمامة».

لا تكفى مثل هذه التعليقات أو الانطباعات، بالتأكيد، للحكم على إيمان محمد عبده. فنحن نعرف أن تكوينه الثقافى كان واسعا وكانت له اهتمامات صوفية منذ سن صغيرة، كما انه درس الفلسفة الغربية والفكر الأوروبى الحديث، لذا من الطبيعى أن يكون شخصاً متدبراً ومفكراً حتى فى إيمانه. ولكن المهم فى هذه التعليقات. ربما. أنها توضح لنا الطريقة التى أستقبل بها كاتب هذه التعليقات أفكار محمد عبده.

ففكرة أن محمد عبده لم يكن مسلما بالقدر الكافى أو بالطريقة التقليدية وجدت جذور لها فى انتقادات بعض معاصريه المسلمين، وهى انتقادات وجهت للأفغانى أيضا، وكانت وراء رفض العديد من علماء الدين لمقولاتهم حول الدين والوجود. إلا أن «قلة إسلام» عبده لا ترد بصياغة مستهجنة لدى بلنت وكرومر، بل على العكس تماما، حيث يصبح هذا الأمر مثار إعجاب الرجلين لأنه يقرب عبده من نمط المفكر كما يعرفه الغربيون.

أما إيفلين بارنج (اللورد كرومر)، المندوب السامى البريطانى فى مصر منذ عام ١٨٨٣-١٩٠٧، فهو غنى عن التعريف. كانت لديه مثل الكثيرين من أبناء عصره الغربيين نظرة متعالية تجاه المصريين والشرقيين عموما. وقد اتسمت سياسة اللورد كرومر فى مصر بالتركيز على النواحى المالية والبنية التحتية الزراعية وضبط الأمن أكثر من الرغبة فى إحداث إصلاح شامل فى البلاد.

يصف كرومر محمد عبده فى الجزء الثانى من كتابه «مصر الحديثة» بأنه عالم من طراز مختلف عن غيره من العلماء من أبناء عصره. ويقول أنه بالرغم من كون عبده قد أدرك ضرورة المساندة الأوروبية لعملية الإصلاح، إلا أنه لا ينتمى لفئة المصريين المتأوربين الذين ينظر إليهم الإمام باعتبارهم نسخة رديئة من الأصل. ولكن كرومر فى الوقت ذاته يتشكك فى قدرة محمد عبده على الحكم بمقياس عملى سليم، ويصفه بأنه حالم على الرغم من وطنيته. ويقتبس كرومر تعليق المستشرق ستانلى لاين. بوول أن المسلم المنتمى للشريحة العليا من الطبقة الوسطى يكون إما متعصبا أو كافرا متخفيا. ويضيف كرومر أنه يعتقد أن صديقه عبده، «بالرغم من أنه كان سيرفض أن تنسب إليه مثل تلك الوصمة، كان فى الحقيقة لا أدرياً». ويضيف أن زملاءه حتى عندما اعترفوا بعلمه وقدراته كانوا ميالين لوصفه بالفيلسوف. ثم يشير إلى أن وسطية أمثال عبده تجعلهم فى مرتبة أدنى من المسلمين التقليديين وأدنى من المتأوربين المتعصبين فى تغريبهم مما يجعل عملهم صعبا ويعنى أنهم يستحقون كل التشجيع: «إنهم الحلفاء الطبيعيون للمصلح الأوروبى. ولو أدرك المصريون الوطنيون فإنهم سيجدون فى أتباع محمد عبده أفضل أمل فى أن ينفذوا تدريجيا برنامجهم لتحقيق الحكم الذاتى». ويؤكد كرومر أنه حاول قدر استطاعته مساندة عبده فى مواجهة مقاومة وسخط العلماء التقليديين والخديوى وأنه احتفظ بوظيفته كمفت فقط بمساندة بريطانيا، أى كرومر نفسه.

لم يكن كرومر كثير الإعجاب بالمصريين عموما، ولم يثق فى قدرة أى منهم على تسيير أمور البلاد، حيث فضل التعامل مع الأعيان الأتراك. عندما اقترح بلنت فى ١٨٨٧ الاستعانة بمصريين إصلاحيين مثل محمد بليغ، وإبراهيم الوكيل وسعد زغلول والشيخ محمد عبده سخر كرومر من الفكرة واعتبر تعيين حاكم أو رئيس وزراء لمصر من بين «أصدقاء بلنت» من العبث «كتعيين أحد قادة الهنود الحمر حاكماً عاماً لكندا». ووصف كرومر المصريين بالجهل والفساد والاهتمام بمصالحهم الشخصية فقط فى إطار تسخيفه للفكرة بالرغم من أن جميع الأسماء التى اقترحها بلنت كانوا من المتعلمين الذين كان لهم دور فى العمل العام ولا تنطبق عليهم أوصاف كرومر النمطية. لذلك يبدو تقدير كرومر لمحمد عبده ومساندته له لافتاً للنظر وإن لم يخرج بالضرورة عن فكرته العامة عن المصريين. فالإمام شغل وظائف مثل القضاء والإفتاء احتاجت لعلماء مصريين ولم يكن من الممكن الاستعاضة عنهم بأجانب. كما أن أفكار عبده فى الإصلاح لم تتعارض بالضرورة مع خطة كرومر.

وبعكس النظرة الإيجابية الرومانسية التى نقلها الساسة الإنجليز المعاصرون لعبده، تختلف صورته هو وجمال الدين الأفغانى عند المتخصصين فى تاريخ الشرق الأوسط والعالم العربى الذين جاء البعض منهم من المنطقة قبل أن يدرسوا فى الجامعات الغربية ويصبحوا لاحقا أساتذة فى تلك الجامعات. من هؤلاء مثلا إيلى خدورى أستاذ السياسة وتاريخ الشرق الأوسط فى مدرسة لندن للاقتصاد والذى يظهر محمد عبده لديه فى دور التابع الواقع تحت تأثير الأفغانى والمؤمن بأفكار غامضة: خليط من الصوفية والماسونية والديانات الشرقية والفلسفة والإسلام. ولا يفصل خدورى كثيرا بين عبده وأستاذه بل يبرز عمق علاقتهما وغرائبيتها. يرى خدورى أن صعود عبده فى السلم القضائى والشرعى بعد عودته من المنفى جاء بناء على رغبة اللورد كرومر وأن تعيينه كمفتٍ للديار المصرية عام ١٨٩٩ جاء فى أعقاب الصدام بين قوات الاحتلال واثنين من كبار العلماء حول تغيير النظام القضائى.

وتشترك سلفيا حاييم ونيكى كيدى

يقــدم بلنت محمــد عبــده
وقد اختلف عن ومع أستاذه ومعلمه
جمال الدين الأفغانى، بشكل يتبين منه أن عبده
آثر التحول التدريجى والإصلاح على
الثورة والعنف والتغيير السريع

فى دراساتهما عن جمال الدين الأفغانى مع خدورى فى تقديم الأفغانى ومحمد عبده فى صورة ثوريين سريين متآمرين. الأمر الذى يتناقض مع نظرة بعض الغربيين من أمثال بلنت وحتى آدامز، الذى يظهر عبده لديهما فى صورة الليبرالى المصلح العامل على تحديث الإسلام. وعلى عكس صورة الحكيم المتروى، يظهر محمد عبده لدى خدورى فى صورة المتآمر ضعيف الشخصية المنساق وراء الأفغانى. كما يشكك خدورى فى إيمان الأفغانى وعبده ومدى ولائهما لفكرة الإصلاح الدينى الإسلامى ويركز على نشاطاتهما الماسونى. وهذه الفكرة وإن وجدت أصول لها فى بعض تعليقات كرومر وبلنت، بل ولدى منتقدى محمد عبده من معاصريه، إلا أنها فى النصف الثانى القرن العشرين ربما كان لها صدى مختلف. فالتشكيك فى جوهر الرسالة الإصلاحية للإمام فى الستينيات من القرن الماضى، وهى فترة شهدت ما شهدت من المد القومى العربى والمواجهة فى الصراع العربى الإسرائيلى، كان المقصود منه نوعاً مختلفاً من الهجوم على الإسلام والعرب. ففى القرن التاسع عشر كان محمد عبده بطلا إيجابيا لجهوده فى إقامة تصالح ما بين الإسلام ومنطلقات الفكر الغربى الحديث، ولكنه والأفغانى لم يعدا أبطالا فى قراءة خدورى وأنصاره بل مخادعين ينتحلان صفة علماء الدين.



مما سبق يتضح أن النظرة الإيجابية لمحمد عبده جاءت فى ظل الفكر الاستعمارى التقليدى المتعالى على كل ما هو شرقى وإسلامى وعربى. وحتى مع تفاوت وجهات النظر الغربية، حيث احتقر البعض العرب والمسلمين ونظر إليهم الآخرون بعين العطف، فإن الإيمان العنصرى بتفوق الغرب وسموه كان عاملا ثابتا فى معظم الكتابات الغربية. فحتى المتعاطفون نظروا للشرق نظرة رومانسية ترى أن الحياة البسيطة وقيم المروءة والشهامة العربية أفضل للأجناس الشرقية من اللحاق بركب التقدم الصناعى كما فى الغرب. لذا كان محمد عبده فى هذا الإطار بمثابة الشرقى المستنير الذى فى مقدوره أن يتطور دون أن يفقد هويته. واشترك معظم الغربيين المعاصرين لعبده فى احترامه واحترام اعتداله ووسطيته. ولم ينتقص رفض بعض

معاصريه المسلمين التقليديين لأفكاره من احترامهم له، بل على العكس ربما يكون هذا النقد أحد إيجابياته فى نظر هؤلاء الغربيين.

على العكس من ذلك تأتى صورة محمد عبده لدى المستشرقين والمشتغلين بالتاريخ الاجتماعى للمنطقة من أمثال خدورى الذى يركز على الجانب السرى والخفى، فيقدم الإمام (والأفغانى أيضاً) فى صورة المخادع الذى يضمر عكس ما يظهر، والذى لا يتفق إيمانه الشخصى مع زى العالم الذى يرتديه وموقع المفتى الذى يحتله. بل إن خدورى يذهب إلى أن محمد عبده استغل عباءة عالم الدين لنشر أفكاره السياسية الهدامة. ومن اللافت للنظر هنا أن هذا التفكيك لصورة الإمام محمد عبده جاء فى سياق الهجوم على القومية العربية أحيانا والجامعة الإسلامية فى أحيان أخرى، والاثنين معا فى كثير من الأحيان. وهكذا اتفق أعداء الرابطة العربية والإسلامية مع بعض أشد المتعصبين لهاتين الفكرتين فى الهجوم على أفكار محمد عبده. ■

المراجـــع الرئيسية

Blunt, Wilfrid Scawen My Diaries, Being a Personal Narrative of Events 1888-1914. London: Martin Secker, 1932.

Blunt, Wilfrid Scawen. Secret History of the English Occupation of Egypt, Being a Personal Narrative of Events. New York: Howard Fertig, 1967.

ترجم الى العربية: الفريد سكاون بلنت، التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر، تمهيد بقلم عبد القادر حمزة، ١٩٢٨. القاهرة: المركز العربى للبحث و النشر، ١٩٨١.

Broadley, Alexander Meyrick. How We Defended Arabi and His Friends: A Story of Egypt and the Egyptians. Cairo: RAPAC, 1980.

Lord Cromer. Modern Egypt. London: Macmillan, 1908.

Hourani, Albert. Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939. 1962. Cambridge: Cambridge UP, 1983.

Kedourie, Elie. Afghani and 'Abduh: An Essay on Religious Unbelief and Political Activism in Modern Islam. London: Frank Cass, 1966.

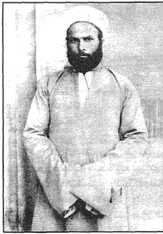
دفع الاتهام.. عن الإمام

إبـراهـيـــم عـمــــر

■ مائة عام على وفاة الإمام.. ومازال هناك من يشكك فى بعض مواقفه ورغم أن كثيراً من الكتاب والمؤرخين والباقين ردوا هذه الاتهامات إلا أنها ما تفتأ تتكرر بين الفينة والأخرى. الاتهامات، والتى كان الدكتور رفعت السعيد، آخر من رددها فى مقال له بمجلة أدب ونقد فى مايو الماضى، تتركز على أمرين رئيسيين أولهما موقف الإمام السلبى من الثورة العرابية وثانيهما تلاشى مضمون رسالة الإمام بعد رحيله.. ويجتهد كاتب المقال فى رد الاتهامين.



إن أية دراسة متأنية لتراث وفكر الإمام محمد عبده، هكذا كتب الدكتور رفعت السعيد، تضع الباحث فى حيرة، فثمة تناقض واضح فى المواقف، هو تقدمى تنويرى فى مجال الدين والعقيدة وإعمال العقل، فى صراعه مع شيوخ الأزهر المتزمتين، لكنه يمينى مفرط فى يمينيته فى موقفه من الثورة، ومن الفوارق الاجتماعية.. ولعل هذا الموقف المزدوج وإن تبدى غير واضح التناقض فى حياة الإمام، إلا أنه ما لبث أن تفجر بعد وفاته.. ومستطرداً «فقد كان إبان الأحداث الجارفة التى تفجرت وانتهت بالثورة العرابية يمثل يمين الثورة بل ويمين يمينها».. والحقيقة أن محمد عبده كان ضد الثورة من حيث المبدأ «صفحة ١١ من المقال» ثم يصمت دون أن يوضح حيثيات هذا الحكم القاطع! وبغض النظر عن استخدام د. السعيد لاصطلاحات ومفاهيم تنتمى تاريخياً.إلى أيديولوجية معينة ـ من قبيل «تقدمى، فوارق اجتماعية، يمين اجتماعى، يمين الثورة ويمين يمينها» لكن استعارتها وإسقاطها على دعوة الإمام محمد عبده، كمصلح دينى واجتماعى فى أخريات القرن الـ ١٩ وأوائل القرن العشرين وما صاحب ذلك من وضع «تاريخانى» لدولة مثل مصر فى ذلك الوقت، أمراً لا يتسم بالموضوعية البحثية.. ومن ثم تلوين رسالة الإمام بألوان فوق ما تحتمل! ولو جاز لنا استعارة واحد من مفردات هذا القاموس، لأطلقنا على الإمام محمد عبده ـ عن حق واستحقاق ـ «لقب الإمام الثائر» بدلاً من



محمد عبده

الرائد أو المصلح أو المجدد! لكن الهامش لن يستغرقنا ـ رغم أهميته ـ والمتن أولى..

وبالرغم من تعدد المصادر التى تفند رأى من يدينون موقف الإمام محمد عبده من الثورة العرابية، لكننا آثرنا الاعتماد على كتاب الأستاذ العقاد عن «الإمام محمد عبده» لاستناده على جميع المصادر الموثوق بها التى نوهنا عنها، يقول العقاد: «كان يؤيد الثورة فى أمرين، أولهما: تنبيه الرأى العام وجمع كلمته للمطالبة برفع المظالم وإصلاح نظام الحكم وإسناد المناصب الكبرى ووظائف الحكومة عامة إلى الوطنيين وثانيهما: وهو أحوج إلى الوقت والأناة، هو التعويل على إنهاض الأمة، وإقامة نهضتها على أسس التربية والتعليم وإعدادها للحكم النيابى المستقل برغبتها الصادقة وقدرتها على صيانته من عبث الولاة والمتسلطين.. إلا أنه كان يخالف زعماء الثورة فى اتباع الخطة التى تؤدى إلى الشطط وتفتح الباب للتدخل العسكرى من جانب الدول الأجنبية ص١١٢».

وبعد ذلك، يعود فيدلنا ـ أى العقاد ـ على أحد المصادر المهمة، وهو كتاب عبارة عن «مذكرات شخصية» لوالد الكاتب إبراهيم عبد القادر المازنى، قدمه «المازنى الأبن» للعقاد حيث كان صديقاً له، كما نعلم.. ويقول العقاد من المذكرات «ولما استفحلت الحركة العرابية، وضرب الأسطول الإنجليزى الإسكندرية، انضم الشيخ محمد عبده إلى العرابيين، ووضع يده فى أيديهم لأن الواقعة قد وقعت، وكان ما خاف أن يكون، فلم يسعه إلا أن يكون مع قومه. ولو كانوا مخطئين. على الغريب وكان يتمثل ببيتى الحماسة: «المرجع السابق ١١٥»

بذلت لهم نصحى بمُنعرج اللوى
فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
وهل أنا إلا من «غزية» إن غوت
غـويت وإن ترشـد «غـزية» أرشـد؟!

وبهذا نرى أن العقاد قد عزز منهجه ليؤكد على رؤيته التى تتلخص فى المواقف المبدئية والعقلية والأخلاقية والدينية، هذا الموقف المبدئى إزاء الثورة العرابية جر عليه ـ أى الإمام ـ أفدح الخسائر كما سنوضح بعد قليل.. ويستمر د. السعيد فى اتباعه هذا المنهج فى «مواقف» أخرى للإمام محمد عبده، دون أن يبين عن الوجه الآخر من الحقيقة، تجلى ذلك فى توضيح العلاقة التى كانت تربط الإمام برئيس النظار رياض باشا، حينما قال: «وعندما انتفض العرابيون ليصطفوا فى ميدان عابدين فى المواجهة التاريخية بين عرابى والخديوى توفيق، هذه الحركة التى أسفرت عن طرد رياض باشا (حليف محمد عبده الحميم) ثم يصمت!!

لكن الدكتور السعيد لو كلف نفسه مشقة البحث الدقيق لعرف أن علاقة الإمام برياض كانت تحكمها كغيرها من العلاقات المبادئ الأخلاقية والوطنية، والتى كانت لها السيادة على مواقف الإمام ولنستمع للعقاد فى هذه المسألة «كان يؤيد وزارة رياض باشا، فى برنامج الإصلاح، ولا سيما رفع السخرة وتحريم الجلد «الكرباج» والتشديد فى محاسبة المديرين على سوء المعاملة، ويؤيده أكبر التأييد فى توسيع نطاق التعليم، وتشجيع العاملين على نشر الثقافة من علماء هذا البلد أو العلماء الوافدين إليه من الأقطار الشرقية، لكنه كان يأخذ عليه أن شهوة الحكم غلبته على مشيئته فلم يعتزل الوزارة حيث وجب اعتزالها». وهكذا فإن الإمام محمد عبده متسق مع نفسه، ومع الآخرين فى «مواقفه» والتى لا يعتريها التناقض فإن كانت خيراً سارع بإعلان موقفه منها

إيجابياً وإن شابتها شائبة لا يتوانى عن إعلان رأيه الذى لا يحتمل التأجيل. كما أوضحها نص الأستاذ العقاد.

بقى أن نتبين الثمن الذى دفعه محمد عبده عن طيب خاطر وهو حبسه مع رجال الثورة، وكان الإمام متخوفاً من أن يدافع عنه محام إنجليزى - كعادة محاكم تلك الأيام - وكان دفع الاتهام عن الإمام «برودلى» هو المنوط به الدفاع، وقَبِل دفاعه بعد أن طمأنه «بلنت» الشاعر الإنجليزى.. ولم يكن غريباً بعد ذلك أن يقرر هذا المحامى الإنجليزى فى مذكراته على نحو ما يذكر العقاد «إنه كان أعظم الناس - أى الإمام - موهبة بين الرجال الوطنيين المصريين، ولا شك أنه ساعد من قبل كثيراً على جعل الرأى العام عاملاً حقيقياً فى الترقى المصرى، ولم يكن متهوساً فى الدين، بل هو من المسلمين القائلين بالتوسع الشديد، وكانت أفكاره السياسية تنطبق على الرأى الجمهورى الحر.. ووطنيته التى لا شائبة للأنانية فيها هى التى حالت دون استياء - رفقائه المتحمسين - من خطته الدينية علانية» (المرجع السابق ١١٧).

وهكذا يوضح النص أن أعداء محمد عبده من المصريين، الذين يعارضون منهجه الإصلاحى فى الدين.. جعلهم يحجمون عن الشهادة ضده أمام المحكمة.

وبعد ذلك صدر الحكم بنفى محمد عبده ثلاث سنوات عن مصر. ولنستمع إلى العقاد فى تعقيبه الختامى قائلاً: «ولو أن المحامى الإنجليزى كاتب هذه النبوءة، أتيح له أن يمد بصره، وراء السنوات الثلاث، لعلم أن البلاد لم تستغنى حقاً عن الإمام محمد عبده، وعلم قبل ذلك أن أمانة الصدق التى عهدها فى «موكله» هى التى حملته على أن ينفى ما نفى، ويثبت ما أثبت ولم يحمله على ذلك خوف العقاب، فإنه لم ينقطع عن حملته على الاحتلال، وعلى الخديو صنيعته، فى قلب العاصمة البريطانية، وهو يعلم أنه بذلك يطيل منفاه أبداً، وقد طال منفاه فعلاً خمس سنوات أخرى» وقد عاد الإمام فعلاً بعد صدور العفو عنه! (المرجع السابق ١١٩).

هل اندثر فكر الإمام؟

وحينما نتعرض للشق الثانى من اتهام د. السعيد للإمام محمد عبده ويتلخص فى اندثار دعوته المجددة على يده تلاميذه بعد رحيله كما أورده فى بحثه على هذا النحو: «فالكثيرون من تلاميذه لم يستطيعوا ركوب الموجتين المتناقضتين، فتمسكوا بالموقف اليمينى فى المجال الاجتماعى، ولم يحسنوا طريق التجديد، ورويداً رويداً أصبح اليمين الاجتماعى هو الأساس، بحيث صبغ الموقف الفكرى بصبغة تجديدية باهتة ما لبثت أن تلاشت وتحولت إلى النقيض (ص١٠ من مقاله).. ومن جانبنا تقول إنه بصرف النظر عن الالتباس المفهومى للنص السابق والذى يعوزه حتى «الوضوح اللغوى «مبنى ومعنى» فإننا سنعول فى الرد هذه المرة بشأن هذا الاتهام، على ما أورده الدكتور عثمان أمين - رحمه الله - فى كتابه الشهير «رائد الفكر المصرى - الإمام محمد عبده» والذى استغرق فى تأليفه جهداً ووقتاً غاليين، وحظى بثناء أستاذه الشيخ مصطفى عبد الرازق وصديقه العقاد.

يطالعنا د. عثمان أمين فى مقدمة كتابه من توضيح أثر الإمام محمد عبده فى تلاميذه وأتباعه المباشرين وغير المباشرين على النحو التالى «إن المتأمل المنصف لابد أن يلاحظ أننا حين نستقصى الحركة الفكرية، منذ أيام قاسم أمين وسعد زغلول إلى المفكرين المعاصرين (وقت الكتابة ١٩٤٥) أمثال أحمد لطفى السيد وفريد وجدى ومصطفى عبد الرازق وعباس العقاد وطه حسين وأحمد أمين وعلى عبد الرزاق وحسين هيكل وخالد محمد خالد - نجد أنهم جميعاً على اختلاف نزعاتهم وتباين اتجاهاتهم، لا يخلون من أن يكونوا متأثرين بآراء الأستاذ الإمام من قريب أو بعيد ص ١٧ من المقدمة - المصدر السابق).

ففى المجال الاجتماعى لم يكن لدى الإمام متسع من الوقت لإعطاء هذا المجال حقه ولكنه أنس فى أحد مريديه اللامعين خيراً، هو قاسم أمين الذى برز فى هذا المجال «وعمل بحماسة لا تفتر حتى أصبح اسمه علماً على حركة تحرير المرأة فى مصر وقد لخصت دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة، على أنها دعوة لتحرير نصف عقل الأمة.. وكانت بصمات الإمام واضحة على مريده وصديقه فى تحديد النهوض بالمرأة من وجهتين: الأول يتصل بالعادات أو العرف الذى تعامل بمقتضاه المرأة والعمل على تطويره «والثانى نداء إلى رجال الدين أن يراعوا مقتضيات العصر الحديث ومطالبه وأن يتحرروا فى تطبيقهم لقوانين الشريعة من فهم النصوص على ظواهرها» ص٢١٦.

والمجال الثانى الذى ظهر فيه تأثير محمد عبده واضحاً على تلاميذه هو الاتجاه السياسى ولنستمع إلى تقرير اللورد «كرومر» الذى أذاعه فى عام ١٩٠٦ «إلى جانب أولئك الذين يجعلون الوطنية حرفة - يقصد أنصار الحزب الوطنى القديم - هنالك فريق من المصريين يزيد عددهم عاماً بعد عام ولم ينوه بهم الناس إلا قليلاً: هؤلاء هم أنصار الشيخ محمد عبده.. لقد تبينت من طول اتصالى بهم أن هدفهم إصلاح النظم الإسلامية دون المساس بالدعائم التى تقوم عليها العقيدة أنهم وطنيون حقيقيون، بمعنى أنهم يعملون جادين لخدمة إخوانهم فى الوطن والدين.. وعندى أن الرجال العظيم فى ازدهار القومية المصرية بأقوى معناها وأقربه إلى الواقع معقود على أنصار هذه المدرسة» ص ٢١٨ من المصدر السابق.

وكان أبرز الرجال فى هذه المدرسة هو الزعيم المناضل سعد زغلول «وكان التلميذ المقرب للأستاذ الإمام، وأنه كان معروفاً بصدق نزعته الوطنية، وأنه نهج فى السياسة المصرية على نهج أستاذه محمد عبده».

وثالث الاتجاهات التى ظهر فيها تأثير محمد عبده جلياً وواضحاً هو المجال الدينى: ففى مجال التجديد والتنوير ظهر ذلك فى ثلاثة علماء تولوا مشيخة الأزهر وهم بالترتيب الشيخ الأحمدى الظواهرى والشيخ مصطفى المراغى والشيخ مصطفى عبد الرازق، وقد كان الظواهرى تلميذاً مباشر للإمام يحاول «الجمع بين وجهة النظر الإسلامية والإحساس بفائدة ما يأتى من مصادر أخرى» نوه عنه المستشرق «زاكس» كما كان يلح على وجوبل تطهير الإسلام من الخزعبلات والعوائق التى تقوم فى سبيله ص ٢٢٠ المصدر السابق».

والاتجاه الرابع الذى وضح فيه أثر الإمام هو المجال الفكرى بشكل عام والفلسفى على وجه الخصوص، فقد نمى

انضم الشيخ محمد عبده
إلى العرابيين، ووضع يده فى أيديهم
لأن الواقعة قد وقعت، وكان ما خاف أن يكون،
فلم يسعه إلا أن يكون مع قومه
ولو كانوا مخطئين

وتتطور على يد تلميذه النابغة الشيخ مصطفى عبد الرازق، والذى كان مقرباً من الإمام، وبعد عودته من باريس عام ١٩٠٨، أصبح يحلم بتحقيق ما كان يسمعه من أستاذه «وقد جمع بين القديم والحديث والإسلامى وغير الإسلامى والشرقى والغربى وتوفى عام ١٩٤٧». بعد أن مكن لأفكار أستاذه فى أن تسكن رحاب الأزهر حين كان إماماً له.. وكان يكتب فى الصحف مقالات تنوه بروح الإمام ومنهجه القويم فى التجديد والتنوير وقد تتلمذ على يديه العشرات من أصحاب العقول المتفتحة والنفوس الأبية فى مصر وكافة الدول العربية.. وعلى ذلك فمدرسة الإمام محمد عبده شجرة أصلها ثابت وتفرعت عنها فروعها وأثمرت أكلها فى جميع الاتجاهات.

هذا من ناحية أثر الإمام على تلاميذه وحملهم الرسالة على الوجه الأكمل كما أوضحنا ومثلما كان أثر الإمام واضحاً جلياً على تلاميذه بمصر، فإن هذا الأثر امتد بالطبع ليشمل العالم العربى، ففى سوريا حملوا رسالته وأذاعوها بكل إخلاص، وهذا شكيب أرسلان - ورشيد رضا وعبد القادر البيطار وعبد الحميد الزهراوى ومحمد زاهد الكوثرى وغيرهم، وكانت مجلة «العروة الوثقى» هى السبيل إلى جذب هؤلاء المفكرين وأولهم بالطبع رشيد رضا (عثمان أمين ص ٢٢٨) ومسألة الخلاف التى أثارها د. السعيد بين رشيد رضا والإمام بعد رحيله، لم تكن فراقاً فكرياً كما ذكر، وإنما المسألة كانت خلافاً فى وجهات النظر بعد رحيل الإمام.. فرشيد رضا لم يكن فى اتجاهه قومياً وكان يطمح إلى جامعة إسلامية لا أثر للقومية العربية فيها.. وبعد هجومه على كتاب عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) وكذلك هجومه على كتاب «الشعر الجاهلى لطه حسين» يقرر (عثمان أمين ص ٢٣١ المصدر السابق) أن رشيد رضا قد خرج عن تعاليم أستاذه وانحرف بالرسالة انحرافاً ظاهراً، ولكن دعوة التجديد والإصلاح استمرت فى طريقها كما رسمها الإمام. ولم تضمحل دعوته بعد خروج التلميذ عن جادة الطريق كذلك كان أثر دعوة الإمام واضحاً فى أفريقيا الشمالية بفضل مجلة المنار فى الجزائر وتونس وكان هناك حزب إصلاحى ينتمى إلى اسم الإمام، وكان له تلاميذ بالجزائر (محمد بن الخوجة - ومحمد بن سماية) أما فى العالم الإسلامى فقد تجلت دعوة الإمام فى إيران على يد تلميذه (ذكاء الملك) وقامت بين التلميذ والإمام مراسلات عديدة، وفى تركيا كانت رسالة الإمام تنتشر على يد تلميذه محمد شرف الدين، وفى الهند كانت رسائل الفتوى، ويقرر رشيد رضا «أن الحركة الإصلاحية التى قادها الإمام إلى جزر الهند الشرقية وأثمرت فى الملايو».

ترحب «وجهات نظر» بما يصلها من آراء، وما يرد لها من رسائل أو تعقيبات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

جينات المثقف العربى

قرأت المقال «المسترسل» لرئيس التحرير بعدد أبريل الماضى من «وجهات نظر» بعنوان «تحوير جينات المثقف العربى» إن صحت ترجمة من المصطلح الإنجليزى لمثل هذه المقالات Narrative aorticle، ووجدت نفسى ـ معذرة ـ أختلف معكم فى العنوان الذى تم اختياره للمقال. وقبل أن أطرح ما أود أن أعلق به على هذا المقال المبهر.. أشير إلى سبب وصف المقال بالمسترسل فذلك قياسا بالأصالة الموجزة التى كانت يومية «بالأهرام» ثم اختصرت إلى ثلاث مرات أسبوعيا فقط وتحمل وجهة نظركم فى الأحداث من «قريب».

وعودة إلى «عنوان» المقال فبعد قراءته رأيت أنه حصاد عمر، وللأسف الشديد هكذا امتلأ بمرارة تجذرت فى أرض الواقع الذى يعيشه كثيرون بدرجات متفاوتة وتوجهات مختلفة أيضا بطبيعة الحال. فالفعل بالنسبة لك كمفكر وعالم رائد فى مجال الكلمة هو الثروة أو التركة التى تراكمت مع الأيام وتنامت بفعل التجارب والاطلاع وتدريب الذهن على الملاحظة والتعليق عليها وربطها بأحداث أخرى كى تحدث المقارنة ويستدعى الاستدلال الذى يثير عقلية القارئ ويزداد شغفة من التعرف على رأى يبدو كاشفا فى معظم الأحوال عن مواطن الضعف والخلل فى إطار حرص شديد لإصلاح الوطن وأحوال الناس.

ربما أمر أنا شخصيا بتجربة مماثلة ـ مع حفظ المقامات ـ ولكنها تختلف تماما من حيث الدرجة والنوعية، من واقع أننى لا أملك فكرا أو أدعى ثقافة ولا يتاح لى منفذ للتعبير سوى بعض المقالات التى تنشر لى بين حين وآخر فى جريدة الجمهورية، ولكن الزاوية التى قد أرى فيها تماثلا ما مع جريدتكم هى «الوقت». فأنا تجاوزت الخامسة والستين من العمر، ومنذ عبورى بوابة الستين اختلفت الأحوال وخمد النشاط وتوارى الدور.. واعتلت الصحة وقلت القدرة وتقلصت الاتصالات. وبدأت مرحلة من التنازلات الشديدة والتى أصابت فيما أصابت كرامة الإنسان ودوره الذى اعتاد عليه خصوصا مع النقص الشديد فى الموارد وزيادة تكلفة الحياة، إضافة إلى الركود الخانق الذى أصاب الوقت ممثلا للزمن.

وإذا تحدثت عن نوعية الوقت Time Quality التى يتشدقون بها فى المجتمعات المتقدمة وهى التى تدعو إلى استثمار اللحظة الكاملة فى الحياة بصفتها ـ أى لحظة ـ جزءا من الوقت الكلى للإنسان وهو عمره، فسوف تجد أن الوقت بالنسبة لكثيرين من أبناء هذا الوطن قد أصبح عبئا وليس راصدا للحياة. ولو أذنت لى سأحكى لك نموذجا ربما يثير الضحك فى ظاهره، رغم ما يحمله من ألم شديد عندما يستعرض الإنسان كيف ينقضى به العمر وضاعت أيامه فى أشياء ربما لا يصدقها عقل. وهذه الحكاية باختصار شديد أننى بعد إحالتى للمعاش أصبحت أتردد مساء كل يوم تقريبا على مقهى أقضى فيه بعض الوقت وسط ضجيج الناس وبلاهة الكثيرين كى أغير من نمط يومى القاتل. عموما بعد انصرافى من المقهى أتوجه إلى محطة الأتوبيس انتظارا لأحد الأتوبيسات المتجهة نحو مكان سكنى. وتكون المحطة عادة مزدحمة ببعض الناس، حدث بينى وبين عدد منهم نوع من التآلف سمح بتبادل الحديث فى أى موضوع كى يقلل من حدة قلق الانتظار الذى قد يستمر فى بعض الأحيان لأكثر من ساعة وقوفا فى الشارع. وقد أخبرنى أحدهم بأنه ينتظر الأتوبيس لمدة لا تقل عن ساعتين يوميا نصفها فى الصباح عند توجهه إلى عمله والنصف الآخر عند عودته مساء ومعه بطبيعة الحال كيس ملىء بالعيش اشتراه من أحد الأفران القريبة من محل عمله أو كيس به فاكهة رخيصة اشتراها من أحد الباعة الجائلين فى الشارع. وآخر أفاد بأنه ينتظر الأتوبيس يوميا لمدة تتراوح بين الثلاث ساعات أو الأربعة نظرا لأن نظام عمله على فترتين، وفى نفس الوقت لا يستطيع ارتياد الأتوبيسات ذات الأسعار الأعلى والتى أصبحت أكثر انتظاما من الأتوبيسات الأقل سعرا، وهناك دار فى ذهنى «حسبة» غريبة ولكنها طريفة فى ذات الوقت! وهى إذا كان عمر ذلك الرجل فلنقل ستين عاما، وهو يقضى ثلاث ساعات بدلا من أربعة يوميا كما يقول منتظرا الأتوبيس. وإذا كان يستخدم الأتوبيس فى فترة حياته لمدة إجمالية أربعين عاما.. فمعنى ذلك أنه قضى منها ما يعادل «ثمن» الوقت الذى وهبه الله الحياة واقفا على محطة الأتوبيس أى حوالى خمس سنوات كاملة من عمره وربما مثلها قضاها فى طوابير مختلفة تحفل بها حياتنا المعاصرة! فكم بقى لهذا الرجل أو لغيره من عمر قضاه كأى إنسان من المفترض أن يستمتع بحياته ويثرى معلوماته ويهذب من عاداته ويسهم بشكل أو بآخر فى بناء مجتمعه.

فهذه هى نوعية الوقت التى أصابتنى. كما تصيب آخرين ـ ولا أجد لها حلا سوى أننى كما الشخص الذى يقضى حياته كلها منتظرا «للجودو»، كما عبر عنها الكاتب المسرحى صموئيل بيكيت سخرية أو رمزا للذين ينتظرون الأوهام أو تشاؤما بأن لا معنى للحياة سوى انتظار الموت. وفى النهاية أوصيك ـ إذا أذنت لى ـ ألا تترك قلمك حتى آخر يوم فى عمرك. فقلمك هو ضميرك، وهو أيضا باعث للأمل فى نفوس الكثيرين من قرائك. وصدقنى القول «إذا كان شرف المقاتل أن يموت وهو قابض على سلاحه» فالكاتب أيضا شرفه فى ألا يتخلى عن قلمه حتى آخر رمق فى حياته. وصدقنى أيضا بأن التخلى عن القلم بصفته عملا ودور هو الموت ذاته.

صلاح راضى

شارع كورنيش النيل ـ مصر القديمة

تحية إلى مندور وطه حسين

فى مقال شيق وحديث غاية فى الإبداع الأدبى طالعنا الأستاذ/ رجاء النقاش الكاتب المعروف والذى اعتبره رائدا من رواد النقد الأدبى فى مصر طالعنا فى «وجهات نظر» عدد يوليو بمقال «عندما يغضب طه حسين» فبعد مقدمته عن نشأة وظهور الجامعة المصرية ومن قوام تأسيسها على الجهود الشعبية إلى أن أصبحت الجامعة المصرية تحمل اسم جامعة القاهرة وهى المعتمدة إلى الآن ثم ولج بنا الكاتب إلى أنه أصبح الدكتور طه حسين عميدا لكلية من أرقى كليات الجامعة فقط تبوأ منصب عميد كلية الآداب وقص لنا الكاتب كيف كان يختار الأساتذة المتميزين وإقناعهم بالعمل فى مجال التدريس بالكلية وذكر لنا الكاتب أسماء بعض الشخصيات المرموقة مثل د. أحمد أمين وغيره، ثم دلف بنا إلى موضوع المقال وروى لنا قصته مع د. محمد مندور وكيف حارب طه حسين محمد مندور وكيف اشتد غضبه عليه فتحمل مندور ما لا يطاق من الأستاذ ولكن لم يتفوه محمد مندور بأى لفظ نابى فى حق الأستاذ بل استمر فى احترامه إلى النهاية وهذا يذكرنا بمدى الفارق الأدبى بين د. محمد مندور والدكاترة زكى مبارك وهو من الذين خاصمهم طه حسين والذى استغل منصبه كعميد لكلية الآداب فقام بفصله فكتب د. زكى مبارك يقول: «إن الشيخ طه أراد أن يجيع أولادى.. ولو جاعوا فسوف أشوى لحمه وأقدمه لهم إذا جاز لهم أن يأكلوا لحم الكلاب»..

انتهى كلام د. زكى مبارك. وأنا أعتقد أن ما ناله زكى مبارك أقل بقليل مما ناله محمد مندور من د. طه حسين فتحية لمحمد مندور فى ذكراه وأحب أن أذكر الأستاذ النقاش أنه للمرة الثانية يمتعنا بالحديث عن طه حسين فى «وجهات نظر» آمل أن يحدثنا الناقد الأدبى الكبير عن طه حسين إسلاميا ويحدثنا عن مواقفه فى قضية كتابيه «مستقبل الثقافة فى مصر» وكتاب «فى الشعر الجاهلى» وأنا أعلم أن هذين الكتابين قد قتلا بحثا. ولكنى أريد من الأستاذ النقاش أن يضع ويقيم طه حسين فى ميزان الإسلام حتى قرأنا الكثير عن مروق طه حسين وكيف أخرجه الكثيرون عن الملة بأدلة وثوابت تاريخية خاصة الأستاذ المرحوم أنور الجندى وجميع الإسلاميين فى مصر بتباين مواقفهم ورؤاهم أجمعوا على أن طه حسين عدو للإسلام وخصيم للشريعة الغراء. تحياتى للكاتب وللإدارة المجلة.

صابر محمد عبد الواحد

مدرس بمدرسة أبو القاسم بأخميم سوهاج

الصورة والدلالة فى الخطاب الثقافى

ما يحدث اليوم من ممارسات لا إنسانية ضد إنسانية الإنسان فى الشرق والغرب، يدفعنا إلى البحث عن أدوات جديدة للخطاب الثقافى تكون قادرة على تجسيد حالة الإنسان فى العصر الحديث بعد أن فقدت الأداة اللغوية (الألفاظ) قدرتها على خلق حوار إنسانى يجنب الإنسان فقده إنسانيته.

تدفع معطيات الواقع المعاش الإنسان إلى تجاوز نظرية الدال والمدلول، لأن اللفظة لم تعد وحدها الوجه الآخر للمعنى، وإنما تجلت الصورة لتجسيد المدلول أحيانا دون حاجة إلى دال، حيث أضحت الصورة الحية الصامتة والمتحركة لغة الخطاب الثقافى. ويمكن اعتبار وسائل الإعلام والاتصال هى أكبر مصدر للصور.

وبالنظر إلى الصورة بكل تفاصيلها وتنويعاتها تجدها الأكثر قدرة على أن تكون مرسلًا لملايين المتلقين فى العصر الحديث لخلق تواصل حقيقى إنسانى بين الشعوب، بعد أن فقد الإنسان قدرته على الإرسال والاستقبال. فهل يمكن للصورة أن تكون مرسلًا، وتلعب دورا فى مد الجسور؟

فى الصورة المعروضة عبر شاشات التلفاز والإنترنت طفل يختبئ فى ظهر أبيه (محمد الدرة)، يعود من حيث أتى إلى صلبه، هاربا من رصاصات العدو الموجهة إلى صدره وقدره. هذه الصورة تفجر آلاف الدلالات فى أذهاننا، وتنفجر المشاعر والأحاسيس، فيعجز اللسان ويفقد قدرته على القول. وفى صورة بغداد المتلفعة فى عتم الليل، تنتظر قدرها، صورة مرعبة بثتها شاشات التلفاز ليلة انتظار ساعة الصفر، بغداد لم تنطق بالدوال (الألفاظ)، لكنها فجرت صورتها آلاف المعانى فى الأذهان والأرواح، لقد فقدت الألفاظ قدرتها على تجسيد فداحة الصورة ورعبها.

وضعت الصورة فى القرن الحادى والعشرين الإنسان أمام تساؤل، أيهما أكثر قدرة على تجسيد الدلالة أحيانا الألفاظ أم الصور؟

لقد برزت الصورة لتكون لغة القرن الحالى التى استخدمها الغرب فى خطابه الثقافى، لأنها الأقوى والأكثر فاعلية فى التأثير النفسى والعصبى على المتلقى، وهو الذى أيقن أن الصراع هو صراع نفسى. إن الصورة أكثر فاعلية فى المتلقى، وأكثر قدرة على تجسيد الدلالة، فهناك مئات الصور تعجز جهاز الكلام والدوال رغم ما تفجره من معان فى الذهن والروح، ولم تعد القضية اللغوية والأدبية بين مرسل للدوال ومتلق للدلالات فقط. وإنما قد يكون المرسل صورة حية صامتة فقدت القدرة على النطق، خرساء، ابتلعت الدوال ولكنها فجرت لدى المتلقى آلاف الدلالات.

ما أحوجنا الآن فى هذا الزمن إلى صور تثير الدلالات لدى المتلقى. فتعمل فى ذهنه وروحه. ويتحول المتلقى إلى مرسل يمتلك قدرة على تشخيص وتجسيد صورة تثير الدلالة لدى الآخر وتكون الصورة أكثر عمقا وإيحاء.

لقد أضحت الصور الحية المتحركة أو الصامتة المبثوثة عبر وسائل الإعلام أو الاتصالات هى الأكثر قدرة على تفجير الدلالة لدى المتلقى. باعتبارها لغة الخطاب الثقافى فى القرن الحالى. وأضحت الصورة مرسلًا.

لقد غابت الكلمات وطغى حضور الصورة بكل تنويعاتها وأشكالها. تخاطب ذهن المتلقى وترسل له إشارات وشيفرات ذهنية ونفسية. يستقبلها العقل والإحساس. وبذلك تحولت الصور فى عالمنا الحديث إلى دوال لها سطوتها التى تلقى بها على ذهن المتلقى وتشكل رؤيته الفكرية والعاطفية.

والتساؤل المطروح: هل سطت الصورة على الكلمات فأفقدتها سلطتها؟ هل نجحت الصور فى تشكيل الرؤية؟

لقد وعى الغرب اختلاف اللغات، ولكنه استطاع أن يصدر ثقافته عبر الصور. فالكثير منا يستطيع مشاهدة الفيلم الأجنبى وفهم بدايته ونهايته وحكايته وصوره رغم جهله باللغة. وهذا يدلل على وعى الغرب وإيمانهم بأهمية الخطاب الصورى فى بث شيفرات ودلالات للمتلقى يختزنها فى ذهنه ويتمثلها حسب ما يراد له. وكأنما يسعى الغرب إلى صياغة ذوات المتلقين عبر شيفرات الصور.

لم يكن خطاب الغرب الثقافى فى العصر الحديث خطابا لغويا فقط يعتمد الدال والمدلول، وإنما اعتمد كذلك خطابا صوريا يبثه عبر وسائله المختلفة (الإعلام والاتصالات) لإيصال رسالة للأذهان والقلوب، حيث وجد أن الخطاب الصورى أكثر عمقا وقوة فى تحقيق أهدافه. لذلك لم يكن الخطاب اللغوى هو الأساس فى حربه العسكرية والنفسية والذهنية وإنما اعتمد خطاب الصور.

ولعل معطيات الواقع تؤكد ما سبق، فالحرب على العراق بدأت بعرض صور حية متحركة عبر شاشات التلفاز والحاسوب، إذ تجسد هذه الصور القوة العسكرية الأمريكية بجيوشها وأسلحتها وطائراتها وصواريخها العابرة للقارات. بدأت أمريكا حربها بخطاب صورى يبث الرعب والفزع العقلى والنفسى لدى المتلقى.

ومن يتأمل الوجود الصهيونى. يدرك أن حضور الخطاب الصورى فى الثقافة الصهيونية كان حاضرا بكثافة وما زال. ويعد هذا الخطاب الموجه للذات وللاخر من العوامل الأساسية فى استمرارية هذا الكيان.

إن صور البيوت المهدمة والأجساد المحترقة والآليات العسكرية تبث عبر نصف قرن أو ما يزيد. وقد كانت قادرة على تشكيل رؤى ودلالات لدى المتلقى العربى، حيث اختزنت فى الذهن والروح حتى وصل الحال إلى ما هو عليه الآن من عجز واستكانة وضعف. وفقد المتلقى العربى قدرته أن يصبح مرسلا للآخر.

وإذا كان الخطاب الصورى الموجه للمتلقى العربى يعد من عوامل استمرارية الكيان الصهيونى. فإن قيام وجوده اتكأ على صور المحرقة (الهولوكست)، تلك الصور التى اعتمد عليها الصهاينة فى إثارة التعاطف العالمى مع اليهود، وما زالت صور النساء والأطفال اليهوديات فى المحرقة تعلق فى متاحف أمريكية وأوروبية. والصهاينة يبتزون العالم من خلال هذه الصور.

أما الخطاب الثقافى العربى الحديث فقد غفل عن الصورة باعتبارها أداة فعالة فى حوار الآخر. ولم يعتمد عليها فى إثارة قضاياه عالميا. لأنه لم يستطع تشكيل شيفرات صورية تبث للذات وللآخر. فاقتصر العرب فى حوارهم على الخطاب الكلامى ورددوا شعار الحوار الحضارى. فأين حوار الصور؟ ومتى ستقفز الصورة لتكون أداة الخطاب الثقافى الموجه للذات وللآخر.

ومن يتأمل الخطاب الثقافى العربى على المستوى الفنى وعبر وسائل الإعلام، يراه ينحرف باتجاه سلبى. ففى الفن تحولت الكلمات والألحان إلى صور أنثوية عارية أفقدت المتلقى القدرة على تشكيل دلالة ما. فضاع اللحن والفن فى خضم صور مشبوهة، وولدت الدلالة مشوهة ناقصة.

إن الخطاب الصورى فى الفن العربى الحديث تشكل فى ظروف استثنائية وخلال فترة زمنية قصيرة يحيطه الغموض والتوتر واللامنطق، إذ يهدف إلى تشويه الدلالة فى ذهن المتلقى وروحه، وبالتالى يعجز عن تشكيل رؤى يبثها للآخر.

وبالنظر إلى الخطاب الإلهى الموجه للإنسان فى بعض مراحله، يجده خطابا صوريا حيث كان الكون صورة مرسلة للإنسان. يتأملها ويتدبرها ويعقلها، فتتشكل لديه دلالة اليقين من خلال صورة الكون. «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم». إن الرؤية البصرية فى الآية السابقة تقود إلى رؤى تتحقق من خلال التأمل والتفكير والتدبر فى قوله تعالى «أفلا تعقلون». «أفلا تتدبرون».

إن حاسة العين تسبق حاسة النطق فى المعرفة. فالطفل يعى ما حوله برؤيته العينية. أى يمكن اعتبار الرؤية البصرية هى مفتاح المعرفة. وهذا يدفعنا إلى القول. إن الصور تسبق تشكيل المعنى. فالطفل يدرك ما حوله برؤيته البصرية. لذلك يمكن اعتبار حاسة العين محورا أساسيا فى تشكيل رؤية بصرية ورؤى بصيرية. إذ بواسطة الرؤية البصرية نترصد آلاف الصور الحية. حيث نختزنها فى الذاكرة لتكون علامات مرئية صورية تجسد آلاف الدلالات والرؤى لدى المتلقى. وبدورها تتحول هذه العلامات الصورية إلى دلالات ذهنية يختزنها المتلقى ويحولها بدوره إلى صور أو دوال صوتية.

ويبقى السؤال: أيتهما أكثر قدرة على تفجير الآخر وقيادته، الصورة أم اللغة؟

إن الخطاب الصورى فى الواقع الثقافى الحاضر قد يكون أكثر عمقا وإثارة للدلالات والرؤى، حيث تكون الصورة مرسلًا قادرا على تجسيد ما تعجز الألفاظ عن تحقيقه أحيانا.

وإذا كان الأديب يعتمد فى إبداعه على الصورة الفنية المكتوبة، فإن متطلبات الثقافة فى واقعنا الحاضر تحتاج إلى صور حية صامتة ومتحركة. تكون قادرة على تحريك الذهن والروح. لأن الصورة الحية فى واقعنا الحاضر ربما تكون أكثر عمقا ودلالة من نطقها وكتابتها. حيث تمنح المتلقى فرصة التفكر والتأمل، كما منحه الله فرصة التأمل فى صورة الكون وفى صورته كى يصل إلى اليقين.

إن الصورة الحية تمور بحركة تنتقل إلى ذهن المتلقى وروحه، حيث تستثيره لتولد الدلالات والرؤى. وتعد الذاكرة مخزنا لآلاف الصور الحية، بعضها يمحى، والبعض الآخر ينفجر حسب معطيات الزمن المعاش. وبذلك تكون الصورة هى أساس الإنتاج الإنسانى. وأداة يوظفها الإنسان فى خطابه الثقافى.

ويبقى السؤال، أما آن الأوان للخطاب الثقافى العربى كى يبعث من رحم الواقع ويشكل صورا تكون مرسلًا حيا تخاطب الأنا والآخر؟

مهـــا القصراوى

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

طريق النهضة

رفيق حبيب

القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٥، ٢٢٥صفحة



تمر الأمة العربية والإسلامية بمرحلة من التراجع لا تخطئها عين مراقب، لكن كثيرًا من الأمم تراجعت ثم نهضت ومرت فى مسيرتها الإنسانية بفترات من النكوص والازدهار، والعكس صحيح، وتلك هى سنة التاريخ. والنهوض كما يراه المؤلف ليس فعلاً ثقافيًا أو سياسيًا فحسب، وإنما هو «فعل حركى شامل».

وعلى العكس من تخوفات البعض، فإنه يرى أن العولمة وهجوم الغرب الكاسح لفرض نموذجه الحضارى على العالم، يمثلان لحظة مواتية لتحقيق النهضة، بشرط وعى الأمة بذاتها وقيمها الأصيلة لتحقيق التكيف الإيجابى مع مستجدات العصر.

يبدد المؤلف المخاوف من المشروع الغربى الذى يراه معاديًا لسنة التاريخ ومن ثم فلن يكتب له الانتصار فى النهاية.

كما أن النهضة تحتاج إلى ما يسميه فرزًا حضاريًا، وهذا الفرز يتم فى جوهره استنادًا إلى قيم الأمة الصحيحة، فى العلوم والرياضيات وكافة أشكال المعرفة، لكن ذلك لن يحدث بالتمنى ولا بوصفه سنة من سنن التاريخ، وإنما بنضال حقيقى تشارك فيه كل شرائح الأمة، ينهى هيمنة الحضارة الغربية ويعيد حضارتنا إلى وضعها الطبيعى.

ويؤكد المؤلف على أن خطاب التغيير الذى يطمح فى تحقيق تصوراته على أرض الواقع، ينبغى أن يتأسس على الوعى الجمعى للناس ولا يتصادم مع هذا الوعى، وأن يعيد ترتيب الأولويات وفقًا لذلك، أملاً فى الوصول بالخطاب إلى مرحلة الفعل وإيجاد حلول للمشكلات لا مجرد الحديث عنها وتحديدها، والفارق بين الاثنين كبير، إذ هو فى الحالة الأولى يحدد مسيرة النهضة، وفى الثانية ربما يمثل أسبابًا إضافية لليأس والإحباط.

عناصر مشروع التغيير كما يقترحها المؤلف إجمالاً ترتكز على عدة نقاط: تأسيس خطاب القيم، تحويل القيم إلى محركات للتغيير، وضع أسس الحركة والتغيير المناسبة للعصر، تحقيق أفضل توظيف ممكن لمفردات ومنتجات العصر، ربط عملية إعادة توظيف منتجات العصر بالقيم الحاكمة لحضارة الأمة، جعل القيم محركات لإعادة توظيف الظروف المحيطة بنا، ربط عملية إعادة التوظيف تلك بالتجديد.

بهذه الوسائل يتحقق التغيير ويتحقق «النهوض من الداخل» كما يسميه المؤلف.

■

نشوء وارتقاء آدم وحواء

جمال نصار حسين

بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٥، ٥٤٤صفحة



يبرهن المؤلف استنادًا إلى ما أسماه نظرية المعرفة الجديدة، والتى تستهدف تثوير البحوث فى مجال البيولوجيا التطورية، على ما انتهت إليه المدرسة الداروينية فيما يتصل بأصل الإنسان، أو بالأحرى الأصل المشترك بينه وبين الحيوان.

ثم ينتقل بسرعة إلى دراسة تفصيلية لماهية عمل العقل البشرى وآلية هذا العمل بوصفه العضو المميز له عن باقى الكائنات، وفيه مستقر الفعاليات البايو الكترونية ذات العلاقة بنشوء الأفعال الإنسانية الخارقة.

وهذا النظام البايو ألكترونى يختلف كليًا عن نظيره الاصطناعى، حيث يحتوى على مادة حية على درجة عالية من التعقيد لم يتمكن العلماء من اكتشاف كيفية عملها.. «فقد فاتهم أن يدركوا استحالة التوصل إلى حقيقة عمل الدماغ البشرى لمجرد القيام بدراسته تشريحيًا، وذلك لأن هذا التشريح لا يمكن أن يطال شيئًا سوى مادة ميتة لا علاقة لها على الإطلاق بالدماغ البشرى».

وهذا العقل ـ بحسب المؤلف ـ هو الذى جعل الإنسان ينتصر فى معركة التطور الطبيعى للحياة البشرية.

وبالعودة إلى الفكرة الأساسية للكتاب عن الأصل المشترك بين الإنسان والحيوان يؤكد المؤلف على أن آدم جرب الجوع والعطش إبان حياته على كوكبنا الأرضى بين ظهرانى قومه البائدين الذين عاشوا فى حالة من العرى الكامل، أما هو فقد سمى «آدم» أى المغطى بالشعر، وضمن له الخالق سبحانه إذا سكن الجنة ألا يجوع فيها ولا يعرى.

وحين هبط منها بدت سوءاته، بين بشر عراة مما يثبت أن أباهم الأول شخص واحد هو آدم.

ويشير المؤلف إلى مؤامرة دبرتها كائنات فضائية هالها أن يتسيد هذا المخلوق من طين ويعلو فوقها، واستخدمت فى سبيل تحقيق هدفها فيروسات قاتلة بهدف قطع سلسلة تطور وارتقاء الإنسان، إلا أن إرادة الله كانت لها الكلمة العليا كى يستمر نسل آدم حتى اليوم.

ويجزم المؤلف أن «التدخل الإلهى غير المباشر فى خلق الإنسان من طين استغرق ملايين السنين».

ويؤكد على أن ولادة الإنسان الذكر بقضيب حيوانى غير مختون دليل قاطع على أن الماضى الحيوانى للإنسان حقيقة لا شك فيها، وإنه أمر بالختان كى يتخلص من ماضيه الحيوانى كونه يتميز عن الحيوان بأنه ذو نشاط ليس مفرطا.

■

المقهى (مسرحية)

تأليف: لاوشه

ترجمة: عبد العزيز حمدى عبد العزيز

الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٥



تسلط المسرحية التى اعتبرت واحدة من المسرحيات التاريخية المتميزة الأضواء على الأحداث التاريخية لثلاث حقب من حياة الشعب الصينى فى العصر الحديث، كما تعكس زوايا الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى سادت عصر المؤلف وجيله خلال نصف قرن من الزمان، أى فى الفترة من عام ١٨٩٨ وحتى ١٩٤٥.

وقد اختار الكاتب مقهى قديمًا مسرحًا لأحداث المسرحية التى تعكس مظاهر الحياة فى مدينة الكاتب.

والمسرحية تسيطر عليها أجواء الواقعية التاريخية، واستخدم فيها المؤلف التفسير المادى للتاريخ ليتغلغل داخل المجتمع القديم، ويقدم صورة تنبض بالحيوية لتطور المجتمع الصينى.

وتعد هذه المسرحية هى الإرهاصة الأساسية للمسرح الصينى والتعريف به خارج حدوده.

وقد عرضت فى مسارح أوروبا وترجمت إلى اللغة الإنجليزية، وعرف مؤلفها بإنتاجه المسرحى الغزير، وبين أبرز مسرحياته: اللؤلؤة، خندق لونج شى، زهور الربيع وحصاد الخريف، الغناء الأحمر، والبائعة وهذه هى الترجمة الأولى لأحد أعماله إلى العربية.

■

لسان النار

أحمد الشهاوى

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٥، ٢٦٠صفحة



يواصل الشاعر مشروعه الذى بدأه بـ «ركعتان للعشق» فى العام ١٩٨٨، فتبدو قصائده فيوضًا من عالم صوفى خالص، مفعم بالوجد والروحانية والشوق لعوالم تتجاوز محسوسات البشر، وهى تحاكى بمفرداتها وأنساقها أنصع ما أبدعه شعراء الصوفية ونثارها وإن استمسكت بخبراتها وروافدها المميزة.

من أجواء الديوان:

أنا ترجمانك/ يا حبيبى/ لا فوقى سماء/ ولا تحتى شجر/ يدك اليمين رسالتى/ والأخرى حجر/ فلتأتنى عبدًا إلهًا/ فأنا قضاؤك والقدر/ فلتعطنى سيفًا لأدخل/ فلكم هتكت مشيئتى/ وذهبت حرًا غير حر.

■

أساسيات المعلومات والحاسبات والإنترنت للإعلاميين

محمود علم الدين

محمد تيمور عبد الحسيب

القاهرة: المؤلفان، ٢٠٠٥، ٣٦٥صفحة



يستكمل هذا الكتاب ما بدأه المؤلفان فى كتابيهما السابقين «الحاسبات الإلكترونية وتكنولوجيا الاتصال» و«المعلومات وتكنولوجيا الاتصال».

ويركز على الاستخدامات والتطبيقات الإعلامية لكل من الحاسبات

الإلكترونية وشبكة الإنترنت وتكنولوجيا المعلومات والاتصال.

وبعد تفعيل للمفاهيم الأساسية للمعلومات وعمليات التوثيق وتطبيقاتها الإعلامية.

يجيب المؤلفان على سؤال الدراسة: كيف يستفيد الإعلامي من الحاسبات، ويوجزان هذه الاستفادة في عدة نقاط منها كتابة المواد الصحفية والتدقيق النحوى والهجائى والترجمة الآلية وتصميم الصفحات ومعالجة الصور الفوتوغرافية والرسوم، فضلاً عن الإفادة من شبكة الإنترنت في تيسير عملية التواصل بين الصحفى وقرائه من ناحية، ومصادره من ناحية ثانية.

■

يوسف السباعى سبعة وجوه

حنان مفيد

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ٣٥٠صفحة



وجوه سبعة ليوسف السباعى عبر رحلته التى امتدت نحو ستين عامًا فى دنيا الفكر والأدب.

جميعها بحسب ما تقول المؤلفة ليست سوى وجه واحد له مسالك متعددة: الأديب الروائى، الكاتب الصحفى، الوزير الفنان، المفكر السياسى، البطل الشهيد، الإنسان البسيط، الفارس النبيل.

وفى سبيلها لاستكشاف هذه الوجوه السبعة، أو المسالك السبعة للوجه نفسه، تقرأ المؤلفة من كتاب الذكريات، سواء فيما قاله يوسف السباعى عن نفسه، أو على لسان شخصيات أعماله الأدبية، أو آراء وتحليلات النقاد الذين عاصروه، وهى تستكمل رسم الصورة بحوارات مطولة مع رموز أدبية وصحافية كانت وثيقة الصلة بالسباعى شخصيًا فى أطواره المهنية المختلفة، أو وثيقة الدراية بنتاجه الفكرى والأدبى تحليلاً ونقدًا.

فيتحدث الأديب الروائى خيرى شلبى عن أدب يوسف السباعى ويصفه بأنه كان كاتبًا شعبيًا بمعنى الكلمة ويتهمه فى الوقت نفسه بأنه كان أداة فى يد السلطة ضد مناوئيها.

ويكتب يوسف الشارونى عن أثره فى القصة القصيرة التى مثلت مرحلة فى حياة السباعى انتقل بعدها إلى كتابة الرواية التى ظل وفيًا لها حتى رحيله.

ويتحدث الفنان عزت العلايلى عن دوره فى فيلم السقامات المأخوذ عن رواية للسباعى بالاسم نفسه، وكذلك الفنانة ماجدة التى تتحدث عن دوريها فى «العمر لحظة» و«جميلة بوحيرد».

ويتحدث صبرى موسى وحسن شاه، وأنيس منصور وصلاح منتصر عن تجربتهم معه فى العمل الصحفى.

وعن أدائه كوزير للثقافة وإنجازاته فيها. يتحدث الدكتور مرسى سعد الدين الذى كان يشغل منصب وكيل وزارة الثقافة للعلاقات الخارجية.

ويتناول أنيس منصور بالتحليل وجه المفكر السياسى عند السباعى، ويصفه رئيس حزب التجمع خالد محيى الدين بأنه فى نهاية حياته لم يكن يمينيًا ولا يساريًا، وأنه كان يحظى باحترام وحب القيادات الشيوعية رغم عدائه للشيوعية وكراهيته للشيوعيين، وتنقل المؤلفة شهادة الدكتور بطرس غالى فى وفاة السباعى كى ترسم ملامح وجه الشهيد.

وتجرى حوارًا مع حسن شاش سفير مصر فى قبرص وقت اغتيال السباعى.

أما الوجه الإنسانى فيرسمه سكرتيره الخاص وأرملته وابنه وزوجته وحفيده.

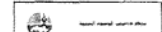
■

الاعتراف الأخير

حقيقة البرنامج النووى العراقى

جعفر ضياء جعفر

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ٣٧٦ صفحة



يقول المؤلفان: رأينا من واجبنا تسجيل الحقيقة كما نعرفها، ولا سيما فى مجال التسلح النووى. فقد كنا على مدى تسعة أعوام نطوى الليل بالنهار مع مجموعة طيبة من العلماء والمهندسين والفنيين العراقيين، نسعى لإنجاح برنامج نووى عراقى بجهد وطنى خالص. ثم قضينا أربعة عشر عامًا أخرى نتصارع مع مفتشى الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

والقصة كاملة. قصة هذا البرنامج النووى الحقيقية - ترد تباعًا بعد هذا، مفعمة بالمرارات والأخطار والتحديات، بداياتها انتصارات علمية أمنية، وخواتيمها مؤامرات مخيفة بأبعادها الدولية تكشف تصميمًا متصلاً على تدمير إنجاز عربى علمى واستراتيجى غير مسبوق، تستخدم فيه كافة الوسائل.

فى الكتاب كل ملامح الأزمة العربية الراهنة فى أقصى أخطارها - الخطر الاستراتيجى الأمنى - وفيه الردود على التساؤلات التى شغلت العالم بأكاذيب «أسلحة الدمار الشامل» العراقية التى استخدمت مبررًا لغزو العراق واحتلال ونهب ثرواته النفطية والعلمية والثقافية.

■

مصر فى الثلاجة

التغيير طريق مصر إلى النهضة

وحيد عبد المجيد

القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠٠٥، ٢٤٠صفحة



تخيل مجتمعًا بكامله يتم حشره داخل فريزر ثلاجة لعقدين كاملين فى درجة تبريد منخفضة جدًا، كما لو كان دجاجة مذبوحة، كيف يمكن أن يكون حاله؟

والحال أن مصر منذ سبعينيات القرن الماضى تحكم وفق نظام تعددى مقيد، وهذا النظام بحكم طبيعته لا يصح أن يكون إلا مرحلة انتقالية، يتم بعدها الانتقال إلى تعددية كاملة، لكن ذلك لم يحدث، وتفاقمت الأوضاع بوتيرة متسارعة، ومع بدايات العام ٢٠٠٥ بدا واضحًا أن ثمة بونًا شاسعًا بين الجمود الذى أصاب النظام السياسى المصرى - يسميه الخطاب الرسمى استقرارًا - والحركة السريعة المتنامية فى الداخل والخارج.

فى الخارج، ولأسباب مختلفة، وجدت أمريكا أنها يجب أن تبدأ بمصر فى أول حملة للتغيير، مسرحها دولة صديقة لواشنطن، وبدا أن السياسة الأمريكية فى هذا الإطار تنطلق من افتراضات ثلاثة أساسية، أولها أن الجمود هو الوضع الأسوأ على الإطلاق فى مصر ودول عربية أخرى، وأن تحريك هذا الجمود ضرورى حتى لو أدى إلى قدر من الفوضى، ثم أن هذه الفوضى يمكن اعتبارها «بناءة» مقارنة بأخرى «هدامة» يقود إليها حتمًا بقاء الوضع كما هو أو تجميله بإجراءات شكلية.

وداخليًا، بدا للناس أن التغيير ضرورة حياة لا خطاب نخبة، ولا هزلاً فى موقع الجد كما حلا لأبواق النظام أن تردد لسنوات مضت.

وبدلاً من الاستجابة، سعى النظام إلى استنهاض قوى الإصلاح الداخلى وغيرتها على استقلال الوطن ليناور من جديد فى مواجهة الضغوط التى بدأت أمريكية ودعمتها أوروبا فيما بعد، على طريقة: خطوة للأمام، خطوة للوراء، وكان أجدر به أن يدرك أن المواجهة الحقيقية للهيمنة الأمريكية «تبدأ بإعادة بناء مشروع النهضة، وتوفير مرتكزات القوة الذاتية وفى مقدمتها الإصلاح الديمقراطى وتدعيم قدراتنا العلمية والمعرفية».

وقبل الولوج إلى أجندة الإصلاح المقترحة، يضعنا المؤلف أمام معوقاته وأهمها ما يسميه عفنًا أصاب جسد الحكومة والمجتمع.

وفى الحديث عن الفساد لا يغفل الإشارة إلى كبار المسئولين الذين صاروا مراكز قوى، أو بحسب تسميته أمراء مماليك يديرون عزبًا خاضعة تمامًا لسطوتهم، وعليه فإن المدخل الصحيح للإصلاح هو محاربة هذا الفساد فى كل موقع، والشرط الأهم هو وجود جدول زمنى متفق عليه لتوفير إمكانات ضرورية لهذا الإصلاح.

ينتقد المؤلف أداء أمانة السياسات بالحزب الحاكم التى بدت مبشرة بنزعة إصلاحية، لكنها سرعان ما تحولت إلى مجموعات نفوذ وشلل متنافسة، ولم ينفتح أعضاؤها على الشارع السياسى، «وظلوا أقرب إلى هواة فى لحظة لا تحتمل ترف التجارب القائمة على افتراضات نظرية والأخطاء التى تترتب عليها».

طبعًا ثمة انتقادات جوهرية لأداء أحزاب المعارضة فى مصر، وللنظام الحاكم لنشاطها، وقد تفيد التجارب التى يستعرضها من الهند وجورجيا وأوكرانيا والصين فى عملية الإصلاح، وبعض هذه التجارب ملهمة فعلاً، لكن التغيير الذى يتوخاه المؤلف ويغامر كثيرون بمقدراتهم من أجله ينتظر قرارًا من هؤلاء الذين يرفضونه ويرونه ضد مصالحهم، والمؤلف نفسه يعترف باستحالة حدوث «تحول تحتى»، وهو قول يضاعف حيرتنا نحن الطامحين فى التغيير مثله، فهو بعد أن يعدد منصات انطلاق التغيير الحقيقى ومنها تعديلات سياسية ودستورية إلى حد تعديل الدستور بالكامل، وتغيير ذهنية مجتمع الموظفين ومجتمع البيزنس العائلى، يجيب عن السؤال الصعب: كيف إذن يحدث التغيير الذى نريد؟ من فوق، من رأس النظام.

هل تعيدنا هذه الإجابة الكاشفة إلى المربع رقم واحد، أم أنها تحدد مهام القوى الراغبة فى التغيير فى اتجاه قدر من التوافق والاتفاق على برنامج أولويات، يقطع الطريق على مناورات النظام والتفافات أمريكا، فيصيب جهدها أهدافه الأصيلة من تحقيق ديمقراطية كاملة وتنمية حقيقية وتحسن ملموس فى مستوى معيشة الناس، لا توقيع الكويز واتفاقات الغاز وتليين دماغ الفلسطينيين.

عماد الغزالى

مياه النيل فى السياسة المصرية

أيمن السيد عبد الوهاب
القاهرة: مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، ٢٠٠٥، ٢٣٠صفحة



صارت قضايا المياه فى السنوات الأخيرة، واحدة من أسباب النزاعات والصراعات المسلحة، وستتزايد أهميتها على هذا النحو فى السنوات المقبلة حسبما يرى خبراء ومتابعون.

وتشكل مياه النيل واحدة من ثوابت ومحددات السياسة الخارجية المصرية، وعلى مدى فصول الكتاب السبعة يناقش المؤلف هذه الفرضية وهو يبدأ فى الفصول الثلاثة الأولى بمحددات السياسة المصرية تجاه دول حوض النيل. داخليًا وإقليميًا ودوليًا، ويناقش فيما تبقى أليات صنع وتنفيذ السياسة المصرية تجاه دول حوض النيل، وتشمل آليات دبلوماسية وعسكرية واقتصادية وإعلامية وثقافية.

وبشكل عام فإن السياسة المصرية تجاه دول حوض النيل تقوم على مرتكزات ثلاثة هى: الحرص على سياسة ضبط النفس، والاستناد منهج تسوية النزاعات والخلافات بالطرق السلمية، والتأكيد على تعزيز فرص التعاون الإقليمى.

وقد ظلت هذه المرتكزات ثابتة دائما، على الرغم من التهديدات التى مثلتها قوة أجنبية معادية، وكذلك النزعات الفردية للتنمية على حساب مشروعات التنمية الجماعية، إضافة إلى التناقضات والصراعات الدائرة بين بعض دول حوض النيل.

وترتبط مسألة المياه بالأمن القومى ارتباطًا وثيقًا، وقد جرت تطورات لافتة على الصعيدين الدولى والإقليمى خلال العقدين الأخيرين على وجه الخصوص، أبرزها انهيار الاتحاد السوفيتى وانسحابه من الساحة الدولية كقوة عظمى، وكذلك الصراع فى السودان بين الجيش الشعبى فى الجنوب وحكومة البشير.

وشكلت هذه المستجدات تحديًا حقيقيًا للسياسة المصرية تجاه دول حوض النيل.

ويشير المؤلف إلى الكيفية التى تعاملت بها مصر مع نواتج هذه المستجدات كالصراع بين أريتريا وأثيوبيا أو المشكلة الصومالية، ثم الصراع فى الكونغو والنزاع اليمنى الأريترى، ويلاحظ أن الدور المصرى اتسم بالفاعلية فى العديد من هذه المشكلات، ويدلل على ذلك بالكيفية التى تم بها احتواء الأزمة الأخيرة التى أثارتها دول كينيا وأوغندا وتنزانيا حول عدم الاعتراف باتفاقية ١٩٢٩، وأحقيتها فى إقامة مشروعات تنموية على بحيرة فيكتوريا دون الرجوع إلى مصر.

ويلاحظ المؤلف أن اهتمام مصر بقضية مياه النيل، كان خارجًا عما اكتنف السياسة المصرية من أزمة تكيف مع متغيرات ما بعد الحرب الباردة.

فقد ظلت لمسألة مياه النيل أهميتها وتم التعامل مع مشكلاتها وفق ثوابت السياسة المصرية تجاهها.

الحوار الإسلامى العلمانى

طارق البشرى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ١٢٧صفحة



يدور القسم الأول من الكتاب حول مستقبل الحوار الإسلامى العلمانى، وهو ما يشير إليه عنوانه.

ويرى المؤلف أن المنهج العلمانى وفد إلى بلادنا الإسلامية العربية فى أوائل القرن التاسع عشر مع تعاظم النفوذ الغربى الأوروبى وليس من خلال مشروع محمد على الإصلاحى كما يردد كثيرون.

فمحمد على كما يرى المؤلف استنادًا إلى ما ذكره عنه المؤرخ شفيق غربال، بدأ وعاش وانتهى عثمانيًا مسلمًا، وقد جرت سياسته منذ تولى أمر مصر فى عام ١٨٠٥ فى إطار دعم المقدرات العليا للدولة العثمانية.

يدخل فى هذا الإطار قضاؤه على المماليك ثم نشاطه العسكرى اللاحق ومحاربته للوهابيين فى ١٨١١ ثم محاربته لليونانيين فى ١٨٢٧ وتصفيته للثورة اليونانية.

كل ذلك فعله بوصفه عثمانيًا إسلاميًا، وحتى حين تحدى الدولة العثمانية فى حروب الشام منذ عام ١٨٣١، فإنه كان تحديًا يجرى فى إطار الدولة العثمانية لا خارجها، أى أن القول بعلمانية مشروع محمد على ليس صحيحًا على الإطلاق.

ولم تنشأ المصرية السياسية، أى المصرية كانتماء وجامعة سياسية إلا بسبب فشل مشروع محمد على، وفى بلادنا العربية كلها. يضيف المؤلف. فإننا لا نجد فى الحركات السياسية وحركات التحرر والاستقلال التى قامت على أسس قطرية، أى دعوة لقيام حركة سياسية علمانية، أو دعوات لإحلال غير الإسلام إطارًا مرجعيًا حاكمًا لنظم الحياة وسياسات الدولة.

وقد بدأت محاكاة الغرب فى عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦٠ - ١٨٧٦) وفى مصر فى عهد الوالى محمد سعيد، وتمكنت فى عهد الخديوى إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩).

على هذا النحو يرصد المؤلف بزوغ العلمانية، وظهور أول تيار علمانى وطنى على أرض الشام بعد تجزئتها وفقًا لاتفاقية سايكس بيكو.

وكان هدف التيارات العلمانية الوطنية التى نشأت آنذاك هو توحيد البلاد واستعادة روابطها، بعد جزأها الاستعمار على أسس دينية وطائفية؛ وفى فصول تالية يبين كيف أمكن للفكر العلمانى أن يتغلغل إلى بلادنا، وما هى المراسى التى هبط إليها وجعل منها منصات انطلاقه.

إلى ذلك يتضمن الكتاب دراسات عن الصراع الفكرى والفتنة الطائفية، والمؤسسات المالية الإسلامية وأساليب الصراع حول توظيف الأموال، ثم دراستين عن الحق فى التعبير والثوابت الدينية، وأخرى عن العقل الأخلاقى العربى.

الفاتيكان والإسلام

زينب عبد العزيز
دمشق ـ القاهرة: دار الكتاب العربى، ٢٠٠٥، ١٦٠ صفحة



تفترض المؤلفة التى تعمل أستاذًا للحضارة أن الفاتيكان يتعامل مع الإسلام والمسلمين بوجهين: وجه يدعو للحوار والتعاون الإنسانى، ووجه يعمل بكافة السبل على اقتلاع الإسلام من العالم، وهى تسعى لإثبات هذه الفرضية استنادًا إلى الإصدارات الكنسية والخطب الرسولية ذاتها، حيث تعرض وتلخص فقرات مطولة من تلك الإصدارات والخطب، وتستخرج منها محاورها الأساسية وترد عليها بعد تحليل مضمونها، وهى تنتهى إلى القول بأن المسلمين يخضعون حاليًا لحرب صليبية كاسحة تستخدم فيها كافة إمكانيات العصر الحديث من تقنيات ووسائل إعلام ووسائط إلكترونية أخرى عديدة، وفى قراءتها لإحدى الوثائق الصادرة عن الفاتيكان تشير المؤلفة إلى أن الهدف من الحوار مع المسلمين كما جاء نصًا فى الوثيقة هو التبشير بالإنجيل.. «فالحوار فى المفهوم الكنسى مجرد ذريعة لكسب الوقت بغية التسلل، وإتمام عملية الغرس التبشيرى والثقافى»، وتشير أيضًا إلى خطة خمسية وضعها البابا يوحنا بولس الثانى بهدف تنصير العالم، المؤلفة فى كل سطر من سطور الكتاب تدعو إلى يقظة المسلمين وعدم الاستجابة لدعوات الحوار الملفق الذى لا يستهدف التقريب بين أصحاب الديانات المختلفة، وإنما تنصير المسلمين وتشكيكهم فى عقيدتهم.

بلقيس وقصائد لحياة الأحزان

عبد العزيز المقالح
القاهرة: المكتب المصرى للمطبوعات، ٢٠٠٥، ٢٨٠ صفحة



يضم الديوان إلى جانب قصيدة بلقيس التى يحمل الكتاب اسمها قصائد ترسم لوحة متكاملة لعالم الشاعر، بينها رومانتيكيات.

وقصائد مهداة إلى شهداء الثورة الدستورية ١٩٤٨، وسبع قصائد للموت مهداة إلى ناجى العلى فى ذكراه، وقصائد إلى إنسان نهاية القرن وأخرى إلى العام ٢٠٠٢، وقصائد للصيف وللشعر، وإلى الشاعر نزار قبانى وأصدقاء كثيرين نعرف بعضهم وآخرون لا نعرفهم، وبكائيات وتراتيل ترسم عالمًا من الشجن والولع بالحياة فى صورتها النقية.

من أجواء الديوان (من قصيدة بلقيس):

كم مفتاح حمل القلب إليها/ لكن الكف الأعمى ليس يرى/ فأضاع تضاريس البرق/ وأقفل باب الأكوان/ وراح يغنى/ يبكى أسماء الأسلاف/ هى امرأة تعشق الحكماء/ وتكره صوت السيوف/ تراوغ عسكرها/ وتغيب عن القصر كى تلتقى بالرعاة/ وبالبسطاء من الناس.

عنف اللغة

جان جاك لوسركل
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٥، ٤٩٦ صفحة



يتناول هذا الكتاب قضية محورية فى علم اللغة المعاصر: عندما يقوم شخص ما باستعمال اللغة، من يكون المتكلم؟

هل هو الشخص المتكلم مسيطرًا سيطرة تامة على «الأداة» التى يستعملها،

وهى اللغة: بحيث إنه يفعل بها ما يريد وفق شروطه الخاصة ويشكلها وفق تصوراته المسبقة.

أم أن اللغة تلعب دورًا أساسيًا فى عملية التعبير، بحيث تفرض شروطها هى وتتحول «متكلمًا» أو لاعبًا أساسيًا فى العملية؟

تعودت النظريات أن تبنى «موضوعها» عن طريق الفصل بين الظواهر «ذات العلاقة»، والظواهر «غير ذات العلاقة»، مع استبعاد هذه الأخيرة. والنتيجة أن كل النظريات تترك خارج نطاق الدراسة ما يمكن تسميته بـ «المتبقى».

هذا المتبقى هو ذلك الجزء الغريب والفوضوى والخلاق من اللغة الذى نستعمله جميعًا ودائمًا. إنه جوهر الشعر والمجاز.

يؤكد المؤلف أنه على الرغم من أن هذا الجزء المتبقى أو المهمل من اللغة لا يمكن دراسته دراسة شكلانية فإن علينا أن نضعه موضع الاعتبار فى كل دراسة للغة.

وهو، لذلك، يحاول وللمرة الأولى، بناء نظرية لرصد وتحليل هذا المتبقى. وهى نظرية تواجه تساؤلات كبرى حول حقيقة المتكلم: أهو المتكلم ذاته أم اللغة؟

ذلك أن من يتكلم مقيد، فى استعماله اللغة، بظواهر اجتماعية ونفسية محددة: إنه عنف اللغة.

■

أخلاقيات العلم

ديفيد ب. رزنيك

ترجمة: عبد النور عبد المنعم

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٥



بقدر ما يمنح العلم قدرة على مواجهة واقع إنسانى متغير، ويحسن حياة الناس ويعد بمزيد من تحسينها فى المستقبل، بقدر ما تثير بعضًا من اندفاعاته مخاوف إفناء الحياة ذاتها.

ولذا فإن موضوع أخلاقيات العلم يبدو متواصلاً وضروريًا جيلاً بعد آخر، وهو يثير سجالات وتشابكات على مستوى العلم والفلسفة ويخوض غمار هذه السجالات ساسة وعسكريون واقتصاديون وقانونيون وتربويون ورجال دين وأنصار البيئة وغيرهم.

فى الفصل الأول يوضح مدى تشابك قضايا العلم الحديث بالقضايا الأخلاقية الشائكة، كما هو الحال عند الحديث عن الاستنساخ مثلاً.

وفى الفصلين الثانى والثالث يطرح إطارًا عامًا عبر تفعيلة المناهج الفلسفية، يصل عبرها فى الفصل الرابع إلى معايير عامة لأخلاقيات البحث العلمى يسعى إلى تطبيقها فى الفصول الأربعة التالية فى مسائل أخلاقية علمية مهمة.

ويقدم فى النهاية ٥٠ حالة عينية من مواقف علمية شائكة أخلاقيًا، تاركًا للقارئ حرية تأملها واتخاذ القرار بشأنها.

■

تفكير

إدريس الطيب

القاهرة: إصدارات عراجين، ٢٠٠٥، ١٥٣ صفحة



هذه مقالات فى النقد الأدبى والفلسفة الإسلامية والاقتصاد السياسى، فما الذى يجمع بينها ويضعها معًا بين دفتى كتاب.

الرابط بحسب ما يقول المؤلف هو المنهج، ودعوة المؤلف عبرها ليست تبنى ما ورد فيها من أفكار وما انتهى إليه من نتائج، وإنما التفكير فيها والنقاش حولها.

يبدأ المؤلف بدراسة عن بوادر التطوير الرأسمالى فى ليبيا أثناء العهد العثمانى، ثم يليه بمقال عن الإمام الغزالى بوصفه عقل الحضارة الغاربة، ويناقش فيه مفهومى العقل والعلم عنده، محاولاً توضيح المحصلة الاجتماعية لطروحات الإمام الغزالى الفلسفية.

وفى القسم الثانى من الكتاب ينقلنا إلى دراساته فى نقد الشعر العربى الحديث، وهى محاضرات ألقاها فى جامعة دلهى بالهند، وهو يؤكد على أن حركة الشعر العربى الحديث التى قادها الرواد الأوائل نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتى وآخرون كانت هى النقلة النوعية التى نفخت الروح فى جسد الشعر العربى، كما أنها كانت اللبنة الأولى فى حركة الشعر العربى خلال نصف القرن اللاحق، وصولاً إلى الإنجازات الجمالية المهمة للقصيدة العربية فى الوقت الحاضر.

وهو إذ يحلل نماذج من نتاج الخمسينيات الشعرى، ينتقل بعدها مباشرة إلى نقد مفهوم القطيعة المعرفية، كما قدمته مدرسة الشكلانية الجديدة.

ثم يقدم دراستين عن المثالى والواقعى فى المنتج الأدبى، وأخرى عن اللغة والدلالة، قبل أن يختم بدراستين عن الشاعر على الرقيعى الذى يعتبره رائدًا لمرحلة من تطور الشعر الليبى والجيلانى طريشان الذى كان مرحلة أخرى فى مسيرة الحداثة الشعرية فى ليبيا.

■

الصومال بين انهيار الدولة والمصالحة الوطنية

أحمد إبراهيم محمود

القاهرة: الأهرام، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ٢٠٠٥، ٤٨٧ صفحة



مثلت الحالة الصومالية نموذجًا صارخًا لحالة انهيار دولة ما بعد الاستقلال، كما مثلت مختبرًا واقعيًا لمناهج تسوية الصراعات.

فقد شهدت ١٤ مبادرة داخلية وإقليمية ودولية فشلت معظمها، وكانت عملية الأمم المتحدة فى الصومال هى الأولى التى يقرر مجلس الأمن إنهاءها قبل أن تتمكن من إنجاز مهمتها بالكامل، وجرى إلقاء مسئولية هذا الفشل على بعض الفصائل الصومالية.

وقد شهد الصومال تجربة استعمارية بالغة القسوة.

فقد خضع لاحتلال ثلاث قوى هى بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، إضافة إلى احتلال أثيوبيا لإقليم أوجادين، وهو ما انعكس فى حالة من التمزق والتجزئة لم تعرفها أمة أفريقية أخرى، قسمت الصومال إلى خمسة أجزاء، وهو تقسيم لم يراع طبيعة الكيانات السياسية والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية القائمة، وبقى محكومًا بمصالح القوى الاستعمارية واتفاقات التقسيم بينها، وتشتت الشعب الصومالى بين ٤ دول هى الصومال وجيبوتى وأثيوبيا وكينيا، فإذا وضعنا فى اعتبارنا الطبيعة القبلية للصومال، أمكننا أن نتصور الثمن الفادح الذى دفعه الصوماليون لهذا التقسيم الجائر.

وبعد حصول الصومال على الاستقلال فى عام ١٩٦٠، انتعش حلم بناء الصومال الكبير واستعادة الأقاليم المفقودة، وهو مازج بها فى مواجهات عسكرية مع الدول المجاورة خصوصًا أثيوبيا وكينيا طوال عقدى الستينيات والسبعينيات.

وحين جرى توحيد الصوماليين الشمالى والجنوبى، فإن أشكالاً أخرى من الصراع نشأت بين أبناء الشعب الواحد خاصة من جانب الشماليين الذين أثاروا قضايا من نوع ضعف مستوى تمثيلهم فى مؤسسات النظام السياسى، وتفريغ الشمال من الكوادر المهنية والسياسية، وضعف حصة الشمال من الإنفاق الحكومى.

ووقعت محاولة انقلاب فاشلة قام بها بعض الضباط الشماليين ممن تلقوا تدريبهم فى بريطانيا فى ديسمبر ١٩٦١.

وشهدت فترة ما قبل انقلاب سياد برى فى العام ١٩٦٩ صراعات على السلطة، ودرجة عالية من الفساد والفوضى السياسية. وكان الحدث الأبرز فى فترة حكم سياد برى هى الحرب الصومالية الأثيوبية ١٩٧٧ - ١٩٧٨، التى فتحت بابًا جديدًا لمشكلات داخلية وتدخلات خارجية قادت فى النهاية إلى انهيار الدولة الصومالية. وبدء سلسلة من جهود التسوية شاركت فيها أطراف عديدة، لم تؤد إلى نتيجة حاسمة حتى الآن.

■

مدرسة بيروت للحقوق

إميل بجانى

بيروت: دار النهار، ٢٠٠٥، ١٧١ صفحة



هذه دراسة عن مدرسة بيروت للحقوق التى يرجع تاريخها بحسب بعض الدراسات إلى عهد الإمبراطور أغسطس (٦٣ ق. م وحتى ١٤م)، فيما يردها آخرون إلى عهد الإمبراطور أدريانوس ما بين عامى ١١٧ و١٣٨م.

وقد بلغت مدرسة الحقوق البيروتية فى القرون اللاحقة درجة كبيرة من الشهرة. واستمرت فى عطائها للعالم حتى ضربها زلزال فى العام ٥٥١م.

فى فصول تالية يتحدث المؤلف عن أوصاف مدرسة بيروت فى الكتب والمراجع استنادًا إلى ما كتبه عنها مؤرخون رومان، والأساتذة الذين عملوا بالتدريس فيها، والطلاب الذين نهلوا من علومها وكيف كانت تجرى الدراسة فيها.

ثم يخصص قسمًا خاصًا بالكتاب عن المعلم «سيشترون» الذى عاش فى الفترة من (١٠٦ وحتى ٤٣ ق. م).

وهو يعتبره معلمًا ورائدًا لعشرات المعلمين الذين عملوا فى مدرسة بيروت على الرغم من أنه لم يعاصرهم، ولم يعاصر حتى زمن بناء المدرسة، لكن سيرته وتأثيره امتدا لأجيال تالية من المعلمين أو كما يقول المؤلف: «كان باولبيانوس وبانيانوس عندما يكتبان إنما كانا يغمسان ريشتهما فى دواة سيشترون».

■

التسويق السياسى والإعلام

راسم الجمال
خيرى عياد
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٥.
١٨٥صفحة



لاحظ المؤلفان أن الأحزاب المصرية فى حوارها، أو فى معاركها فى موضوع الإصلاح السياسى فى مصر، لا تتبع نهجاً علمياً فى طريقة عرض أفكارها جماهيرياً، بحيث بدت طروحاتها وكأنها جدل بين نخب سياسية، ومفتقرة إلى التوجه المباشر للمواطن المصرى باعتباره المستهلك الأساسى فى السوق السياسية المصرية.

ويقدم الكتاب رؤية خطاب جريدة «الأهالى»، وجريدة «الوفد»، وجريدة «الجمهورية» لآلية تنفيذ الإصلاح السياسى.

ويقدم سؤالاً مهماً: ما الواقع الاقتصادى والاجتماعى المصرى الذى يطرحه الخطاب الصحفى المصرى، وطرح فى إطاره المشكلات والحلول؟

وهل اعتبر هذا الخطاب الإصلاح السياسى متطلباً سابقاً للإصلاح الاقتصادى والاجتماعى؟

وأكد الكتاب أن مفاهيم التسويق وتطبيقاته مازالت شبه منعدمة فى مصر والدول العربية عموماً، بينما نجد أن صناعة التسويق السياسى قد نمت بشكل كبير فى كل من الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا، عبر نماذج وافية، يستشهد بها المؤلفان.

كما يجيب الكتاب عن أسئلة بارزة، مثل: هل يمكن تطبيق مفاهيم التسويق واستراتيجية فى السياسة، هل أفرغ التسويق السياسى السياسة من مضمونها؟ هل أدى التسويق السياسى إلى تركيز السياسيين على الجمهور، أكثر من تركيزهم على القيادة السياسية؟ هل يخدم التسويق السياسى الأغنياء فقط؟ هذه بعض من أسئلة يسعى المؤلفان للإجابة عليها.

■

الكون الأنيق

تأليف: برايان جرين
ترجمة: فتح الله الشيخ
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٥،
٤٦٧ صفحة



ليس هذا الكتاب علمياً عادياً، فهو يعرض لأحدث النظريات فى الفيزياء وعلم الكون (الكوسمولوجيا) فى لغة بين الدقة العلمية والأسلوب الأدبى الرفيع، مثلما هو الحال فى الروايات أو فى الأحداث الدرامية، وهو ما يجعل هذا الموضوع الشائك شديد التخصص فى متناول القارئ العادى ويحيل المسألة برمتها إلى دائرة الاهتمام العام.

يتساءل الكاتب عن حدود المعرفة بالكون ويتناول «مأزق المكان والزمان والكم» ناظراً إلى الكل الكونى باعتباره «سيمفونية كونية» يبنى من خلالها نظرية الأوتار التى قد تبدو مستعصية على غير المتخصص فى الفيزياء ولكنها قراءة تستهوى جميع من يريدون التأمل فى الكون.

من هذه الوجهة، يساهم الكتاب فى تدريب القارئ غير المتخصص على استيعاب المعرفة العلمية، إضافة إلى ما يثيره من أسئلة جديدة لدى المتخصص.

■

دوريات

دبى الثقافية

رئيس التحرير: سيف محمد المرى
دبى: الصدى للصحافة والنشر والتوزيع، يوليو ٢٠٠٥



يتضمن العدد الجديد من هذه الفصلية ستة حوارات معمقة ومميزة، أولها مع وزير الثقافة والسياحة اليمنى خالد الرويشان الذى يتحدث عن تجربته الإبداعية، حوار آخر مع الشاعر أدونيس يؤكد فيه أن العرب هم أقل الشعوب معرفة بالشعر اليوم، وحوار فنى مع الفنان نور الشريف، وآخر مع الكوميدى الفرنسى ديودونى المتهم بالعداء للسامية، ويأسى الروائى التونسى صلاح الدين بوجاه عن غياب القارئ فى بلاده، فيما ينعى الشاعر جوزيف حرب مدينته.

وإلى هذه الحوارات يكتب فاروق عبد القادر عن فتوح نشاطى، وتيسير خلف عن السينما فى فلسطين، ويكتب مجدى موسى عن رافاييل أشهر فنانى عصر النهضة.

■

العـــــربى

الكويت: وزارة الإعلام، أغسطس ٢٠٠٥



ملف العدد عن العلامة ابن خلدون بعد ٦٠٠ عام، يبدأه الدكتور محمد جابر الأنصارى «رحل وما زال باقيا» ويكتب تركى الربيعو عن الخلدونية الجديدة فى فكرنا المعاصر، ويتساءل كمال عبداللطيف: هل كان الأثر الخلدونى محدودا.

وبمناسبة هذا الزخم الدائر عن الإصلاح، يخصص سليمان العسكرى حديث الشهر لإشكالية مهمة، عنوانها «الثقافة فى زحام الإصلاح».

وفيما يبدو أنه تحليل نفسى للفكر الإرهابى والمؤمنين به يكتب حافظ سيف فاضل عن الإرهاب من منظور نفسى، وفى السياق ذاته يكتب هادى نعمان عن التفكير المرن والسلام الاجتماعى.

يتضمن العدد أيضا دراسة أعدها جورج دورليان عن بيروت فى ذاكرة الرواية اللبنانية، وأخرى لأحمد أبو زيد يطرح فيها شكوكا حول مستقبل الليبرالية.

■

الآداب

يونيو، يوليو، ٢٠٠٥
رئيس التحرير: سماح إدريس



يتضمن العدد الجديد ملفاً عن حركة «كفاية»، وهى أنشط الحركات المطالبة بالتغيير فى مصر وأعلاها صوتاً وأكثرها جرأة وتنظيماً للمسيرات والمؤتمرات، يكتب فيه أحمد بهاء الدين شعبان وهو أحد أعضاء الحركة المؤسسية، كما يكتب أحمد الخميسى عن المعارضة المصرية والتغيير.

يتضمن العدد أيضاً حواراً مع الشاعر السورى هاوى دانيال يحكى فيه عن مسيرته الحياتية وسيرته الشعرية، ودراسات منها: السلاميون العرب الجدد لفيصل القاسم، ومأزق الحركة الناصرية السورية لعلى العبد الله، كما يكتب ناصر الرباط دفاعاً عن النقد وبسام أبو غزالة عن إرث ياسر عرفات.

إلى ذلك يتضمن العدد قصائد من العراق ومصر وسوريا، فضلاً عن أبواب المجلة الثابتة.

■

المستقبل العربى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، يوليو٢٠٠٥



العراق إلى أين، نص محاضرة ألقاها المنسق السابق للشئون الإنسانية للأمم المتحدة فى العراق هانزفون سبونيك، ويتضمنها العدد الجديد من المجلة، وعن التطورات فى العراق، وتحت عنوان كبير آخر هو المقاومة تقوى وتنتشر والقوات الأمريكية تضعف، يتحدث خير الدين حسيب فى حوار مطول على صفحات المجلة، وتكتب هيفاء زنكنة عن «المرأة، العراقية وخطاب الاحتلال الأمريكى، ومن العراق أيضاً تقرير بعنوان «ديناميكيات الاحتلال والمقاومة» أعده كارل كونيتا، ووثيقة بعنوان «تقرير لجنة التحقيق عن أحداث التعذيب فى العراق»، وفى باب آراء ومناقشات، مقال مطول لفوزى الراوى عنوانه «الأوضاع السياسية والاجتماعية العراقية تحت الاحتلال».

■

Complete Arabic: The Basics (Living Language Complete Courses Compact Disc Edition)
(العربية: الأساسيات)

Amine Bouchentouf,
Living Language; CD & Book edition, 288PP., $25.00, 2005



كتاب مذهل لتعليم اللغة العربية لغير المتحدثين بها. الكاتب يرى أن اللغة العربية هي إحدى أكثر اللغات حيوية في العالم، فمن يستطيع تحدث العربية، يكون له أفضلية كبرى في سوق العمل الحكومية، أو في المدارس، وفي العديد من دول العالم.

الكتاب وضع خصيصا لتسهيل وصول اللغة العربية الساحرة إلى أي شخص، فهو يغطي كل شيء يحتاجه المبتدئ، في أسلوب واضح وسهل، يقدم النطق السليم للعربية، والمفردات، وأساسيات علم النحو، ومهارات الحديث، حتى النصوص العربية.

ملحق مع الكتاب ثلاث اسطوانات مدمجة لتقدم النطق الصحيح للعربية.

■

The Plot Against Social Security : How the Bush Plan Is Endangering Our Financial Future
(المؤامرة ضد الأمن الاجتماعي: كيف تعرض خطة بوش مستقبلنا المالي للخطر)

Michael A. Hiltzik
Allen & Unwin, 272PP., $24.95, 2005



«الضمان الاجتماعي على حافة الإفلاس»، مقولة رددت كثيرا بالولايات المتحدة، بل وقاربت أن تكون مثل المعتقدات الدينية، المقولة كان من شأنها نشر حالة من الإحباط لدى الشعب الأمريكي الدافع للضرائب، المنتظر لمنافع الضمان الاجتماعي يوما ما، الصحفي «مايكل هيلتزك» الحائز على جائزة بولتزير Pulitzer كأفضل محرر مالي، يصر في كتابه، (المؤامرة ضد الأمن الاجتماعي)، على عدم صحة تلك المقولة، فالضمان الاجتماعي لا يزال قويا كما كان دائما، ولكنه يواجه فقط تحديا سياسيا خطيرا.

كتاب المؤامرة ضد الأمن الاجتماعي يوضح من حقا وراء محاولات الإصلاح التي تهدف إلى استثمار أمواله في استثمارات ضخمة.

يهاجم «مايكل هيلتزيك» اللوبي الداعي للخصخصة، ويفضح أساطير المروجين لفشل الضمان الاجتماعي، ويختتم كتابه برؤية خاصة لمعالجة بعض عناصر الضمان الاجتماعي، قائلا أن تلك الآراء سيكون من شأنها تقوية الضمان الاجتماعي بدلا من تدميره باسم الإصلاح.

■

Rebuilt: How Becoming Part Computer Made Me More Human
(إعادة بناء: كيف جعلني جزئ كومبيوتري إنسانا أكثر)

Michael Chorost
Houghton Mifflin, 224PP., $24.00, 2005



مايكل تشوروزت يكتب عن تجربته الشخصية في كتابه إعادة بناء، تشوروزت ولد بضعف في أذنه فهو ضعيف السمع جدا، في صباح ما من عام ٢٠٠١، اتجه إلى زراعة شريحة الكترونية دقيقة جدا وراء أذنه اليسرى، لتساعده في السمع، تحول تشوروزت من إنسان أصم إلى إنسان قوي السمع جدا، على يد شريحة من السيلكون اختلطت بلحمه، فالخيال العلمي القديم أصبح الآن حقيقة.

وجد تشوروزت نفسه فجأة أن جزءا من جسمه أصبح آليا، فالمغناطيس ينجذب إلى رأسه، يمكنه توصيل أذنه مباشرة إلى مشغل الأقراص المدمجة، كما أن سمعه يحدث دائما ببرامج جديدة. كما أصبحت بعض الأشياء العادية مصدر إزعاج كبيرا فهو لا يستطيع التحدث في الهاتف النقال، أو تحمل التحدث في الأماكن المزدحمة.

أجبره هذا على التساؤل حول أسئلة معقدة عن الإنسان في عصر الميكنة، عندما تصبح الأحاسيس قابلة للبرمجة، هل يمكنك الثقة بما حولك؟، هل يمكن القضاء على الإعاقات نهائيا؟، وهل تظل بعد زرع الشرائح الالكترونية إنسانا؟

الكتاب رائع، ويأخذك إلى العالم التقني وتطبيقاته الطبية، كما يدعوك إلى التفكير دوما بما تسمع، فالسمع هو بالتأكيد نعمة عظيمة.

■

The Traveler : A Novel
(المسافر : رواية)

John Twelve Hawks
Doubleday, 464PP, $24.95, 2005



منظمة «تابولا» تسيطر على العالم، و«المسافرون» الذين قاربوا على الانقراض يحاولون المقاومة بشدة، ومنظمة «المهرجين» تحاول جاهدة حماية ما تبقى من «المسافرون»، المسافرون يعلمون إنهم سينتصرون يوما ما بسلاحهم الوحيد (الحكمة)، فهي السبيل الوحيد لتهديد عرش «تابولا».

«مايا» - فتاة من منظمة المهرجين - تجد نفسها مجبرة على حماية المسافرين «مايكل وجابرييل»، الأول يعمل كهاوي في سوق الظل للعقارات، والثاني يفضل العيش على الشبكة، ممتنعا عن أي تعاملات بنكية أو ببطاقات الائتمان كيلا يتم تعقبه، «مايا» تنجح في الكثير من الأحيان في حمايتهما، ولكنها في الوقت نفسه تفشل.

رواية من الخيال العلمي لجون هاوك الثاني عشر، يقدم فيها خيالا ممزوجا بالواقع الحالي بطريقة مثيرة للغاية، يبني أحداث قصته على فرضيات سياسية و اجتماعية حالية، معتمدا على نظرية المؤامرة التي نجحت معه إلى حد بعيد.

■

Kremlin Rising: Vladimir Putin's Russia and the End of Revolution
(صعود الكرملين: روسيا فلاديمير بوتن ونهاية الثورة)

Peter Baker, Susan Glasser
Scribner, 464PP., $ 27.50, 2005



بانهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١، بدأت روسيا الاتجاه المتدرج نحو الديموقراطية الغربية، لكن بعد عقد من الزمان، ومع تولية فلاديمير بوتن للحكم خلفا ليلتسن، صمم ضابط المخابرات (KJB) السابق على استعادة العهد الماضي للاتحاد السوفيتي، صمم على وضع حد للثورة، وإعادة تجديد السلطة للكرملين.

مؤلفا الكتاب - اللذان كانا يعملان كمديرين لمكتب واشنطن بوست في موسكو لمدة أربعة أعوام، يقدمان هذا الكتاب لإلقاء الضوء على الملامح الاقتصادية، والقانونية والسياسية لروسيا الحديثة بزعامة بوتين، المؤلفان في كتابهما يعرضان أوجه الديكتاتورية في الحكم الروسي، ويرسمان صورة كئيبة لروسيا، فبوتن استغل الحرب على الإرهاب ليدعم قبضته في الحكم.

بالأسلوب المتوازي لسرد الأحداث، يعطي المؤلفان نظرة واسعة على البلاد، ويحاولان تقديم عدد من النقاط لتوضيح صورة روسيا منذ سقوط الشيوعية، يتكلمان عن الاقتصاد، العمل، الجريمة، الجيش، الحرب الشيشانية، رجال الأعمال، العلاقات الخارجية الروسية، والكثير من المواضيع الأخرى التي تعنى بالشأن الروسي.

الكتاب يعتبر مرجعا كاملا للحياة الروسية بعد سقوط الشيوعية، مكتوبا بأسلوب جيد، وبنظرة متعمقة في الشأن الروسي، مقدما صورة دقيقة للمجتمع الروسي المعاصر.

■

1776
(١٧٧٦)

David McCullough
Simon & Schuster, 400PP., $32.00, 2005



اثنا عشر شهرا، بالغة الأهمية في حرب الاستقلال الأمريكية، كيف خسرت الإمبراطورية العظمى أمام مجموعة من المزارعين الضعاف، المؤرخ ذائع الصيت ديفيد مكولوغ يغطي الجانب العسكري الكامل لعام ١٧٧٦، ببصيرة مميزة وبأسلوب سرد قصصي لا يخلو من الإمتاع، يضيف منظورا جديدا لبداية الثورة الأمريكية، فهو على عكس من سبقوه، يؤرخ عاما وليس شخصا.

كان الوضع ينذر بحتمية الحرب في أواخر ١٧٧٥، كفاح السياسيين البريطانيين والأمريكيين للوصول إلى تسوية لم ينجح، كان على الجانبين تحمل عدة ظروف قاسية، منها برد الشتاء القارس، الذي كان له دور كبير جدا في حسم العديد من المعارك.

البريطانيون كانوا يتوقعون حسم المعركة سريعا، ولكن عزيمة الأمريكيين كان لها عامل معاكس لطموحات البريطانيين، العامل النفسى كان يصب فى مصلحة الأمريكيين، فكلما حققوا انتصارا ولو ضعيفا وهينا يزيد هذا من معنوياتهم، وعلى العكس كان يحبط البريطانيون كثيرا، فعلى سبيل المثال كان تراجع البريطانيين من بوسطن مذلا إلى أقصى حد، بينما استيلاء الأمريكيين على ترينتن ذات الأهمية الإستراتيجية المحدودة، كان مهما جدا لدى الأمريكان.

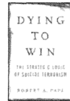
■

Dying to Win: The Strategic Logic of Suicide Terrorism

(الموت من أجل الفوز: استراتيجيات العمليات الانتحارية)

Robert Pape

Random House, 352PP., $25.95, 2005



العالم السياسى بجامعة شيكاغو «روبرت بايب» يقدم تحليلا دقيقا لأسرار العمليات الانتحارية عبر العالم، أسبابها، ودوافعها.

يقدم الكاتب عدة حقائق حول العمليات الانتحارية، فاضحا العديد من الأوهام المنتشرة حولها، التى روجت له سياسات مغرضة، فالكاتب يقول أن الإرهاب ليس صفة إسلامية ولم يكن أبدا منتجا للأصولية الإسلامية، كما يقول موضحا أن أبرز الممارسين للإرهاب الانتحارى فى العالم هم نمور التاميل فى سريلانكا - جماعة ماركسية معظم أعضائها هندوس -، ثم يتحول الكاتب إلى قراءة للعمليات الانتحارية موضحا أن ٩٥٪ من العمليات الانتحارية فى العالم تحدث بتنظيم من جماعات فدائية كبرى، كما أن كل العمليات الانتحارية كان لها هدف واضح، سواء علمانى أم سياسى، أو لغرض محاربة مستعمر (الذى يمثل بطبيعة الحال، الجانب الإرهابى بالنسبة لمنفذ العملية).

يتعرض أيضا الكاتب إلى منظمة القاعدة التى يقول أن عملياتها كلها هى بغرض طرد القوات الأمريكية من منطقة الخليج، أيضا ينتقد الكاتب مقولة أن الفقر أو التعصب الدينى هو السبب الرئيسى للدفع إلى العمليات الانتحارية، ففى قائمة من ٤٦٠ فردا نفذوا عمليات انتحارية، وجد الكاتب أن ٣٣٣ منهم لم يكونوا على قدر من الفقر أو حتى عرف عنهم التعصب الدينى، بل هم وفى أغلب الأحيان من شريحة المتعلمين المثقفين.

فى النهاية يتعرض الكاتب إلى الوضع الأمريكى الحالى فى حربها لمكافحة الإرهاب متسائلا، هل كان غزو العراق تحركا ضد الإرهاب؟ وهل أمريكا أكثر أمانا الآن مما كانت عليه قبل ١١ سبتمبر؟

كتاب جيد يلقى الضوء على الأسباب الرئيسية للإرهاب، ويرى أن منع الإرهاب، يتطلب معرفة أسبابه ومحاولة حلها.

■

The Conquest of Morocco.

(غزو المغرب)

Douglas Porch

Farrar, Straus and Giroux, 368PP, $15.00, 2005



دراسة فى حالة الإمبريالية الأوروبية فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والوجود الاستعمارى الأوروبى بأفريقيا، والوجود الفرنسى خاصة بالمغرب. المؤرخ ـ المهتم بالشأن الفرنسى ـ «دوجلاس بورش» يقدم فى كتابه (غزو المغرب) نظرة عامة على سياسة الغزو من وجهات النظر المختلفة، مختصا السياسة الفرنسية والمغربية تجاه غزو فرنسا للمغرب.

يوضح «بورش» فى كتابه كيف أن سياسة الغزو ترتبط و تقاد بواسطة العديد من العوامل، أهمها الاقتصادية منها، كما يلقى الضوء على العوامل التى ساعدت على سهولة الغزو، ومن أهمها الضعف الواضح للسلطان «عبد العزيز»، ولكن هناك ما كان يعقد الأمور أيضا، فبالرغم من وجود لوبى استعمارى كبير، ألا أن فكرة الغزو لاقت استنكارا شعبيا بفرنسا، كما كان هناك من يؤيد الإمبريالية فى المغرب، مما أدى إلى ظهور العديد من الاختلافات فى طريقة تنفيذ المخطط الاستعمارى للمغرب.

أيضا كان لطموحات الضباط الفرنسيين و المسئولين بالمغرب والجزائر تأثير كبير، بعيدا عن السمعة الوطنية، فقد كانت هناك حسابات خاصة للجميع.

«بورش» وصف المجتمع المغربى بأنه مجتمع إقطاعى عشائرى، كان لاتصاله بأوروبا الحديثة عظيم الأثر عليه، كما تعمق «بورش» أيضا فى التعرض للإدارة الفرنسية للغزو، وكيف كان الفرنسيون يحرضون على الاضطرابات وإثارة المقاومة فى محاولة لتبرير الغزو.

■

American Women

(نساء أمريكيات)

Brian Adams

powerHouse Books, 128PP., $50.00, 2005



مغنى الروك العالمى، برايِن آدمز، صاحب الأربعة عشر البوما، وصاحب العديد من الجوائز العالمية الغنائية، ذاع صيته مؤخرا كمصور فوتوغرافى، براين كان قد فقد صديقة عزيزة عليه فى وقت سابق من عام ١٩٩٧، بسبب سرطان الثدى، مما دفعه إلى استغلال شهرته منذ ذلك الحين لجمع الأموال من أجل محاربة السرطان.

فى كتابه المصور (نساء أمريكيات)، يجمع براين صورا بعدسته لأشهر النساء الأمريكيات المؤثرين فى المجتمع الأمريكى، سياسيات، وفنانات، وسيدات أعمال، ورياضيات، وصحفيات.

الكتاب يعد الثالث من نوعه. يعد كتابه الأول «صنع فى كندا»، الذى وزعه لصالح مؤسسة سرطان الثدى الكندية، والثانى «الملاذ»، الذى كانت إيراداته لصالح مركز السرطان فى لندن، أما هذا الكتاب فيوزع لصالح مركز سلون كيتيرنج للسرطان للمساهمة فى تمويل أبحاثه.

■

Drawing From Life: The Journal as Art

(رسوم من الحياة: فن اليوميات)

Jennifer New

Princeton Architectural Press, 192PP, $25.00, 2005



العديد منا يحرص على تسجيل حياته اليومية، ما يحدث فيها وما طرأ عليها من جديد، همومه وسعادته، كلها تسجل فى دفاتر اليوميات التى يحتفظ بها البعض دائما، القليل فقط هم من يستطيعون جعل هذه اليوميات عامة، قادرة على الهام أى شخص، مؤلفة هذا الكتاب تغوص فى العالم الخاص لكاتبى اليوميات، مهندس، مريض سرطان، مؤلف أغانى، بستانى، مخرج، عالم والعديد الآخرون، الذين أبدعوا فى كتابة يومياتهم، وتعدوا الكتابة فقط إلى الرسوم التخطيطية، والرسوم بالألوان المائية، والفنون التصويرية، والمخططات، والصور الفوتوغرافية.

جينفر تتعرض فى هذا الكتاب إلى عالم اليوميات السرى، تعرفك من خلاله على أشخاص حقيقيين من خلال يومياتهم.

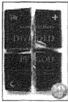
■

Divided by God: America's Church-State Problem-and What We Should Do About It

(منقسمون حول الله: مشكلة «الكنيسة ـ الدولة» الأمريكية وما يجب أن نفعله بشأنها)

Noah Feldman

Farrar, Straus and Giroux, $25.00, 2005



فى هذا الكتاب يسبر نواه فيلدمان أغوار هذا التوازن الفريد والمدهش الذى سعت إليه الولايات المتحدة طوال مائتى عام فى محاولة للتوفيق بين حكم ديمقراطى ممثل للشعب وبين دولة ينتمى أبناؤها إلى العديد من الديانات ومعظمهم من المتدينين بشكل عميق. وكان المبدأ الرئيسى الذى شكل سياجا يحمى هذا التوازن هو الفصل القاطع بين الكنيسة والدولة. ولم يشهد هذا التوازن الحساس فى أى وقت من الأوقات ضغوطا مثل الضغوط التى يتعرض لها الآن فى تصاعد متزايد للاستقطاب بشأن عدد من القضايا الحساسة.. ويرصد فيلدمان فى كتابه كيف تصاعدت المخاطر فى الخمسين عاما الماضية التى شهدت معركة ناجحة خاضتها العلمانية على نطاق واسع لإزالة الرموز الدينية من الأماكن العامة فى الوقت الذى يتزايد فيه المد الدينى المحافظ والذى نجح فى نفس الوقت وعلى نحو مثير للدهشة فى الدفع نحو تقارب أكبر فى العلاقات بين الكنيسة والدولة (المبادرات المنطلقة من قاعدة دينية والضمانات المقدمة للمدارس على سبيل المثال).

فيلدمان أستاذ القانون فى جامعة نيويورك يقدم وفى التوقيت المناسب كتابا يحاول أن يتجاوز بالمناقشات الجارية حول الفصل بين الدين والدولة العبارات الإنشائية إلى تدقيق حقيقى فى تاريخ هذا الفصل. وفى أسلوب يعتمد على حيوية الحوار يخوض الكتاب رحلة مدهشة تبدأ بتحليل عميق لأسباب الجدل الذى دار بين الآباء المؤسسين

للولايات المتحدة بشأن الفصل بين الدين والدولة ولماذا اختاروا في النهاية هذا القرار ثم يرصد بعد ذلك التحديات والاختبارات التي صمد أمامها القرار عبر القرنين الماضيين. وربما كان أهم ما يميز كتاب فيلدمان أنه لا ينطلق من قاعدة حزبية جعلته اكثر قدرة على إظهار التفهم والاحترام لقيم ومخاوف وأهداف الأجيال المتعاقبة من طرفي هذا الجدل الذي لا ينتهي. وقد منح عدم انتماء فيلدمان لحزب من الأحزاب السياسية في الولايات المتحدة مصداقية لدعوته لوقف الحرب وتجاوز الخلافات بين القوى العلمانية والدينية التي يسعى كل منها وبعنف إلى تحقيق أهدافه على حساب الفريق الآخر بدلاً من السعي نحو فهم أعمق للقيم التي تشكل عاملا مشتركا بين جميع الأمريكيين والاعتراف بأهمية الاشتراك في حوار بناء من أجل فهم وتعريف هذه القيم.

كما يأتي الكتاب كمحاولة من فيلدمان إلى الالتفات إلى البيت من الداخل بعد كتابه «ما بعد الجهاد: نظرة إلى الديموقراطية والإسلام» ويؤكد فيلدمان في كتابه الجديد أن المعركة في الولايات المتحدة تنحصر بين فريقين الأول هم رجال القانون العلمانيون الذين يريدون تطهير الدولة من أي أثر للدين وبين المدافعين عن القيم الإنجيلية الذين يطالبون الإدارة الأمريكية بدعم المسيحية باعتبار أنهم يستمدون سلطتهم منها.

ويرى فيلدمان أن الفريقين يتمسكان برؤية ضيقة للغاية لا تتسع لأذواق واحتياجات الأمريكيين. ويقترح فيلدمان حلا وسطا يقضي بأن تسمح الحكومة بمساحة اكبر أمام إظهار الرموز الدينية في الوقت الذي يتم فيه منع الحكومة من أن تربط بين نفسها وبين أي من المؤسسات الدينية في الولايات المتحدة (وهو الربط الذي قد يحدث عن طريق التمويل على سبيل المثال).

■

The Story of My Life: An Afghan Girl on the Other Side of the Sky

(قصة حياتي: بنت أفغانية على الجانب الآخر من السماء)

Farah Ahmedi, Tamim Ansary

Simon Spotlight Entertainment, 256PP., $22.00, 2005



عندما طلب برنامج صباح الخير بأمريكا المذاع على القناة الإخبارية (ABC) من مشاهديه أن يرسلوا قصص حياتهم، التي تصف تجاربهم الرومانسية، ومغامراتهم، وصراعاتهم في الحياة، أرسل إليهم أكثر من عشرين ألف صفحة من الإبداع، فما كان من القناة إلا تشكيل لجنة تحكيم لتختار ثلاث تجارب منها فقط لتعرض على الجمهور للتصويت، و«قصة حياتي» كانت القصة الفائزة.

قصة حياتي، هي قصة «فرح أحميدي» الفتاة الأفغانية، التي قضت ثلاثة أرباع عمرها في أفغانستان، تروي في قصتها ذكريات طفولتها في كابول، الأماكن التي طالما أحبتها، معاناتها في ظل الحرب، وفقدانها لقدمها.

«قصة حياتي» كما قيل عنها، هي تجسيد لواقع حياة المرأة الأفغانية في ظل الحرب وحكم طالبان.

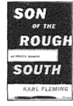
■

Son Of The Rough South: An Uncivil Memoir

(ابن أرض الجنوب القاسية: سيرة ذاتية همجية)

Karl Fleming

Public Affairs, 432PP, $ 26.95



«كارل فليمينج» الجنوبي الأبيض، الذي نشأ في ملجأ تابع للكنيسة في مدينة صغيرة بجنوب الولايات المتحدة، مما أدى إلى انعزاله عن العالم، إلى أن عمل - بالصدفة - بالصحافة بالنيوزويك، و أرسل في وقت لاحق ثانية إلى الجنوب كمراسل للحقوق المدنية لتغطية الأحداث الساخنة في الستينيات.

يغطي «فليمينج» أحداث التفرقة العنصرية التي شهدها الجنوب أبان ثورة الزنوج، و يتعامل مع جميع الأحداث المؤسفة التي حدثت في حركة الحقوق المدنية بتفصيل شديد الوضوح، مرورا بنقاط تحولها الرئيسية، كالتحاق «جيمس ميرديث» - الأسود - بجامعة مسيسيبي، و انفجار كنيسة برمنجهام في ١٩٦٣، واغتيال ميدجار ايفريس، وقتل ثلاثة ناشطين للحقوق المدنية بفلاديلفيا، والعديد من النقاط الأخرى.

«فليمينج» نفسه تعرض للضرب من قبل المتظاهرين السود بلوس انجلوس وهي الحادثة التي وصفتها النيوزويك بأنها (سخرية قاسية)، فهو كان أكثر الصحفيين دراية بما يحدث، حتى إنه عندما طلب مراسل النيوزويك من أحد القضاة المتحدثين باسم وزارة العدل الأمريكية، بوصف بعض مناطق الأحداث «بالبؤر الساخنة»، أجابه القاضي «اسأل فليمينج، فهذا ما نفعله بالفعل».

كتاب (ابن أرض الجنوب القاسية) هو نظرة متعمقة لصراع الحقوق المدنية في الستينيات، قد تكون أرض الأحداث واحدة، ولكن هذه معالجة جديدة.

■

Creating Motion Graphics with After Effects, Vol.2: Advancing Techniques (3rd Edition, Version 6.5)

(صناعة رسوم الجرافيك المتحركة بمؤثرات خاصة، الجزء الثاني: التقنيات المتقدمة «الطبعة الثالثة، الإصدار ٦،٥»)

Trish Meyer, Chris Meyer

CMB Books, $59.95, 2005



يقدم الكتاب معلومات وتقنيات متقدمة بالفعل وبشكل مختلف عن الكتب الأخرى حول صناعة رسوم الجرافيك المتحركة والمؤثرات المستخدمة فيها وكيفية التحكم في هذه المؤثرات إضافة إلى تقديم النصائح الذهبية في هذا المجال باستخدام تطبيقات الفلاش ماكروميديا وقنوات ألفا وحل المشاكل التي قد تواجه المستخدم خلال استخدام هذه التطبيقات بشكل ميسر وواضح، كما يجيب الكتاب على التساؤلات التي ظهرت خصيصًا بعد ثورة تصوير الفيديو الديجيتال. ويشكل الكتاب المكون من ٣٩٨ صفحة إضافة مهمة لعشاق الكومبيوتر وتطبيقاته.

■

The Qur'an (Oxford World's Classics)

(القرآن)

(Abdel Haleem (Translator .A .M

Oxford University Press; New Ed edition, 464PP, $12.95, 2005



القرآن الكريم، مصدر التشريع الأول، ومصدر التعليمات الإسلامية، النص المقدس الذي يعرض المذهب، والأخلاق، وقوانين الإسلام، شهد العديد من محاولات الترجمة الناجحة إلى اللغة الإنجليزية نتيجة لتزايد الاهتمام بالثقافة الإسلامية.

هذه الترجمة قد تكون الأنجح على الإطلاق، فهي على عكس ما سبقها تستخدم الإنجليزية الدارجة في الترجمة، مبتعدة عن استخدام المعاني القديمة والتراكيب المختلفة، ملتزمة بالوضوح مع الإبقاء على الفصاحة البلاغية للقرآن الكريم، مما أنتج نصا سهلا ومفهوما لمتحدثي الإنجليزية.

بالإضافة إلى هذا وضع المترجم تلميحات عديدة إلى بعض المعاني الصعبة الفهم في القرآن، مرفقا بعضا من أسباب النزول للآيات.

أرفق أيضا مقدمة عن القرآن ونزوله وكيفية تجميعه، كما يقدم فهرسا لمواضيع القرآن لتسهيل تصفحه.

■

Eldest (Inheritance, Book 2)

(الأكبر سنا «الارث، الكتاب الثاني»)

Christopher Paolini

Knopf Books for Young Readers, August 23, 2005



رواية للقراء في سن الشباب والذين أعادت سلسلة هاري بوتر بنجاحها المذهل الاعتبار للأعمال الموجهة لهم وأثبتت أن القراءة مازالت قادرة على المنافسة في عالم التليفزيون والإنترنت والفيديو جيم.

تدور الرواية حول ايراجون وتنينه سافيرا واللذين استطاعا إنقاذ الدولة المتمردة من الدمار على أيدي قوات الملك جالاباتوريكس الحاكم الجبار للإمبراطورية.

والآن فإن على ايراجون أن يسافر إلى بلاد الزاميرا أرض الجن لكي يرفع من مهاراته في ركوب التنين والمبارزة بالسيف. وهي الرحلة التي ستتحول سريعا إلى مغامرة العمر حيث تتفتح عيناه على أناس وأماكن جديدة تثير في نفسه الإلهام بينما تمتلئ أيامه بالمغامرات إلا أن الفوضى والخيانة سرعان ما تهدد رحلته المثيرة حيث تختلف حقائق الأشياء عما تبدو عليه ولا يعرف ايراجون بأي شيء وأي شخص يمكنه أن يثق.

■

الإرهاب المرفوض والإرهاب المفروض

يوسف القرضاوى

■■ لقد أعلنت أمريكا الحرب على الإرهاب، وجندت العالم الغربى معها. بل تريد أن تجند العالم كله معها، وتجندنا نحن العرب والمسلمين أيضا. لتحارب ما سمته هى (الإرهاب).

وتركت مفهوم الإرهاب مائعا رجراجا، لتفسره هى كما يحلو لها، وتصف به من تشاء من الدول، ومن تريد من المنظمات والجماعات والأفراد.

فمن غضبت عليه أمريكا لأى سبب. أو لغير سبب. فهو إرهابى أثيم، يجب أن يحارب ويطارد ويتعقب، ويعاقب بكل أنواع العقوبات: العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ونحن المسلمين نقرأ فى قرآننا قول الله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ (الأنفال:٦٠).

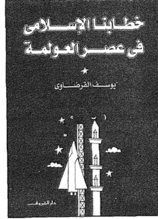
فهذا الإرهاب لأعداء الله وأعداء الأمة مشروع.

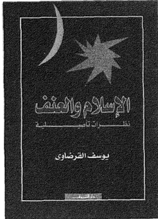
إنما الإرهاب غير المشروع هو الذى يروع الآمنين، ويأخذ البرآء بذنب غيرهم، ولا يبالى ما سفك من دماء، ولا ما دمر من منازل، ولا ما استحل من حرمات. وفى مثل هذا جاء الحديث النبوى: «لا يحل لمسلم أن يروع مسلما». وقد جاء هذا الحديث فى رجل تسبب فى فزع مسلم، أخذ منه نعله وهو نائم، على سبيل المداعبة، فانتبه فزعا، فقال ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يروع مسلما».

وحتى فى الحروب الإسلامية التى تلتحم فيها الجيوش بعضها مع بعض: لا يقتل إلا من يقاتل، ولما رأى النبى ﷺ امرأة مقتولة فى إحدى الغزوات، أنكر ذلك، وقال: ما كانت هذه تقاتل! ونهى عن قتل النساء والصبيان.

فمن هدف إلى قتل أناس أبرياء، لا ناقة لهم ولا جمل فى الحرب أو فى السياسة، فعمله مجرم ومحظور شرعا. فهذا موقفنا المبدئى الذى يفرضه الإسلام علينا.

إننا ندين الإرهاب بكل صوره، مهما كانت دوافعه ومنطلقاته خيرة فى نظر أصحابه. فمن المعلوم أن الإسلام يرفض الفلسفة التى تقول: الغاية تبرر الوسيلة. فالإسلام يلتزم ويلزم بشرف الغاية وطهر الوسيلة معا، ولا يجيز بحال الوصول إلى الغايات الشريفة بطرق غير نظيفة، لا يجيز للمسلم أن يأخذ الرشوة مثلا، أو يختلس المال، ليبنى به مسجدا أو يقيم به مشروعا خيريا «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا».





«من هدف إلى قتل أناس أبرياء، لا ناقة لهم ولا جمل فى الحرب أو فى السياسة، فعمله مجرّم ومحظور شرعا.»

ونحن كما ندين الإرهاب: ندين العنف وننكره باسم الشرع. ولكن ما العنف الذى ننكره؟ وما الإرهاب؟ وما الفرق بينهما؟ إن تحديد المفاهيم هنا (ضرورة علمية) حتى لا تبقى هذه الكلمات الخطيرة مائعة هلامية يفسرها كل فريق بما يحلو له، ويتبع هواه.

العنف. فيما أرى: أن تستخدم فئة القوة المادية فى غير موضعها، وتستخدمها بغير ضابط من خُلُق أو شرع أو قانون. ومعنى (فى غير موضعها): أن تُستخدم حيث يمكن أن تستخدم الحجة أو الإقناع بالكلمة والدعوة والحوار بالتى هى أحسن. وهى حين تستخدم القوة لا تبالى من تقتل من الناس، ولا تسأل نفسها: أيجوز قتلهم أم لا؟ وهى تعطى نفسها سلطة المفتى والقاضى والشرطى.

هذا هو العنف، أما الإرهاب فهو: أن تستخدم العنف فيمن ليس بينك وبينه قضية، وإنما هو وسيلة لإرهاب الآخرين وإيذائهم بوجه من الوجوه، وإجبارهم على أن يخضعوا لمطالبك، وإن كانت عادلة فى رأيك.

ويدخل فى ذلك: خطف الطائرات، فليس بين الخاطف وركاب الطائرة. عادة. قضية، ولا خلاف بينه وبينهم، إنما يتخذهم وسيلة للضغط على جهة معينة، مثل: حكومة الطائرة المخطوفة، لتحقيق مطالب له: كإطلاق مساجين أو دفع فدية، أو نحو ذلك، وإلا قتلوا من قتلوا من ركاب الطائرة، أو فجروها بمن فيها.

كما يدخل فى ذلك: احتجاز رهائن لديه، لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولكن يتخذهم وسيلة ضغط: لتحقيق مطالبه أو يقتل منهم من يقتل، كما فعل جماعة أبو سياف فى جنوب الفلبين وغيرهم.

ومن ذلك: قتل السياح فى مصر، كما فى مذبحة الأقصر، لضرب الاقتصاد المصرى، للضغط على الحكومة المصرية.

ويدخل فى هذا: ما حدث فى جزيرة (بالى) فى إندونيسيا، فليس هناك مشكلة بين الذين ارتكبوا هذه الجريمة وهؤلاء السياح، ولكن أرادوا إحراج الحكومة الإندونيسية، وإظهار العداء للسياسة الأمريكية والبريطانية.

ومن ذلك: ما حدث فى ١١سبتمبر ٢٠٠١ فى نيويورك وواشنطن، من اختطاف الطائرات المدنية بركابها: من المدنيين الذين ليس بينهم وبين خاطفيها مشكلة أو نزاع، واستخدامها (آلة هجوم) وتفجيرها بمن فيها، للضغط والتأثير على السياسة الأمريكية.

وكذلك ضرب المدنيين البرآء: فى برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك، وفيهم: أناس لا علاقة لهم باتخاذ القرار السياسى، وكلهم موظفون يؤدون عملهم اليومى الذى يعيشون منه، ومنهم مسلمون وغيرهم.

وإذا كنا ندين العنف بصفة عامة، فنحن ندين الإرهاب بصفة خاصة، لما فيه من اعتداء على أناس ليس لهم أدنى ذنب يؤاخذون به. ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ولما فيه من ترويع البرآء الآمنين، وترويعهم فى نظر الإسلام: ظلم عظيم.

وقد أصدرت فتوى. منذ بضعة عشر عاما. بتحريم خطف الطائرات، وذلك بعد حادثة خطف الطائرة الكويتية، وبقاء ركابها فيها محبوسين: ستة عشر يوما، كما قتلوا واحدا أو اثنين من ركابها.

كما أفتيت بتحريم حجز الرهائن والتهديد بقتلهم، إنكارا على ما اقترفته جماعة (أبو سياف) فى جنوب الفلبين.

وكذلك أصدرت بيانا. عقب أحداث الحادى عشر من سبتمبر. دنت فيه هذا العمل ومقترفيه، أيا كان دينهم، أو جنسهم أو وطنهم.

وأيضا: دنت الإرهاب بوضوح. فى خطبى، ومحاضراتى، ومقالاتى، وكتبى. ومن ذلك: ما ذكرته فى كلمتى التى ألقيتها فى مؤتمر القمة الإسلامية المسيحية، الذى عقد فى روما فى أكتوبر ٢٠٠١م.

وأول إرهاب يجب أن يدان: هو إرهاب الدولة الصهيونية المتجبرة فى الأرض، التى بنيت على الإرهاب قبل أن تقوم، وتبنته بعد أن قامت، وهى تستبيح الحرمات، وتستحل سفك الدماء، وتدمير مئات المنازل، وإحراق المزارع، وتجريف الأرض الزراعية، وتخريب كل شىء، فلا تتورع عن قتل طفل صغير، أو شيخ كبير أو امرأة فى بيتها.

ولكن ليس من الإرهاب فى شىء: أن يدافع الإنسان عن وطنه، ويقاتل محتليه وغاصبيه، المعتدين عليه، المستندين إلى ترسانتهم العسكرية الجبارة، وأن يقاتل أعداءه بما يملكه من قوة، كأن يجعل من نفسه قنبلة بشرية، ويفجر نفسه فى أعدائه الطغاة المستكبرين فى الأرض بغير الحق، فهو يضع روحه على كفه، ويضحى بنفسه فداء لأمته وقضيته، وهذا سلاح ملكه الله للضعفاء فى مواجهة المدلين بالقوة الطاغية. فهذه العمليات الاستشهادية المشروعة، للدفاع عن النفس والدين والأرض والعرض والمقدسات.

فإذا كان النظام العالمى الجديد جادا حقا فى محاربة الإرهاب، فعليه أن يدين الإرهاب الحقيقى أولا، وأن يقلم أظفاره، ويخمد ناره، وأن يقف بجوار الشعوب المقهورة، التى تقاوم عدوها المحتل لأرضها بما تستطيعه وتملكه من وسائل وأدوات، هى جهد المقل، وطاقة العاجز.

ومن ذلك: أن نبحث عن أسباب الإرهاب فى العالم، ونجتهد أن نجتثها من جذورها، وأعظم أسباب الإرهاب هو: الظلم والطغيان والاستكبار فى الأرض

الإسلام والعنف.. نظرات تأصيلية
إعداد: يوسف القرضاوى
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٥

خطابنا الإسلامى فى عصر العولمة
يوسف القرضاوى
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٤

على الناس المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا.

الإرهاب ظاهرة عالمية:

ولكن هنا يحق لنا أن نسأل عن العنف والإرهاب: هل هو ظاهرة إسلامية؟ أو هو ظاهرة عالمية؟ فبعض أبواق الإعلام الغربي، ومن يدور في فلكها في ديارنا، تريد أن تبرز الإرهاب، وكأنه مقصور على المسلمين، أو كأن جنسيته إسلامية، وخصوصا بعد أحداث ١١ سبتمبر، وهذا خطأ فاحش، بل ظلم مبين.

لقد وجدنا العنف في أقطار ودول شتى في أنحاء العالم. لقد وجدناه في كل القارات: في بريطانيا، وفي اليابان، وفي أمريكا نفسها، وفي الهند، وفي إسرائيل. فلماذا الصق بالمسلمين وحدهم دون غيرهم؟ إنه الإعلام الغربي والأمريكي والصهيوني، الذي يكتم الحق، ويشيع الباطل، ويقولون على الناس الكذب وهم يعلمون.

والحق أن أمريكا التي ساندت الدولة التي قامت على الدم والإرهاب من أول يوم، ومن قبل أن تقوم: دولة بني صهيون، تمارس هي نوعا من الإرهاب على العالم كله، وإن لم تسمه إرهابا. فهي تحدد الإرهاب كما تشاء، وبلا معقب، معلنة: أن من ليس معها، فهو مع الإرهاب!!

الجهاد المشروع ومعناه:

إذا كان الخطاب الإسلامي ينكر الإرهاب بالباطل، فإنه يؤيد (الجهاد) بالحق وللحق.

وكثيرا ما فهم مصطلح الجهاد خطأ، في داخل الدائرة الإسلامية، وخارج الدائرة الإسلامية.

فمن بين المسلمين من حصر الجهاد في القتال، فالجهاد عندهم هو: حمل السيف لقتال أعداء الإسلام، وكثيرا ما يتصور أعداء الإسلام حكام وطنه، أو المخالفين له في العقيدة ولو كان من أبناء وطنه، بل ربما يتهم كثيرا من عوام المسلمين بالكفر، ويستحل دماءهم بغير حق، ويشهر عليهم السيف.

لقد رأينا الجماعات التي نسبت نفسها إلى الجهاد، وسميت (جماعة الجهاد) في عدد من البلاد الإسلامية، تستبيح قتل المسلمين الأبرياء، حتى أصدر بعضهم (فتوى عظيمة الشأن في جواز قتل الأطفال والنسوان)! يعني من المسلمين.

وخارج الدائرة الإسلامية وجدنا من يتصور الجهاد على أنه قتال الناس جميعا لإكراههم على الدخول في الإسلام، أو إخضاعهم قسرا لحكم المسلمين.

والحق: أن كلمة (الجهاد) تعني بذل الجُهد (الوسع)، أو تحمل الجَهد (المشقة) في نصرة الحق والخير، ومقاومة الباطل والشر والفساد بكل وسيلة مشروعة، بدءا بالنفس، وانتهاء بالعالم.

الفرق بين الجهاد والقتال:

فكلمة (الجهاد) أوسع بكثير من كلمة (القتال). وكل مسلم يجب أن يكون مجاهدا، وليس من الضروري أن يكون مقاتلا، لأن القتال إنما يجب بأسبابه.

فالقرآن يقول: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾ (الحجرات:١٥) فجعل الجهاد من لوازم الإيمان.

وقال تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾ (المائدة: ٣٥) فأمر بالجهاد كما أمر بالتقوى، وصيغة الأمر في القرآن تقتضي الوجوب.

ولم يكتف بمجرد الأمر بالجهاد، بل أمر بالجهاد حق الجهاد، فقال تعالى ﴿يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون. وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم﴾ (الحج: ٧٧، ٧٨).

فقسم هنا مهمة الجماعة المؤمنة إلى ثلاث شعب: شعبة تحدد العلاقة بالله تعالى، وتتمثل في الركوع والسجود وعبادة الله تعالى. وشعبة تحدد العلاقة بالمجتمع، وتتمثل في فعل الخير، وشعبة تحدد العلاقة بقوى الشر، وتتمثل في الجهاد. ولم يكتف القرآن بأي جهاد، بل قال: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾. وحق الجهاد هو الذي يبذل الإنسان فيه أقصى جهده لنصرة الحق، ومقاومة الباطل، وإشاعة الخير، ومطاردة الشر.

العمليات الاستشهادية

أما العمليات الاستشهادية التي تقوم بها فصائل المقاومة الفلسطينية لمقاومة الاحتلال الصهيوني، فهي لا تدخل في دائرة الإرهاب المجرم والمحظور بحال من الأحوال، وإن كان من ضحاياها بعض المدنيين، وذلك لعدة أسباب:

أولا: أن المجتمع الإسرائيلي ـ بحكم تكوينه الاستعماري الاستيطاني الإحلالي العنصري الاغتصابي ـ مجتمع عسكري لحما ودما، مجتمع عسكري كله، أي أن كل من جاوز سن الطفولة منه، من رجل أو امرأة، مجند في جيش إسرائيل، كل إسرائيلي جندي في الجيش، إما بالفعل، وإما بالقوة، أي هو جندي احتياط، يمكن أن يستدعى في أي وقت للحرب. وهذه حقيقة ماثلة للعيان، وليست مجرد دعوى تحتاج إلى برهان. وهؤلاء الذين يسمونهم «مدنيين» هم في حقيقة أمرهم «عساكر» في جيش بني صهيون بالفعل أو القوة. وخصوصا سكان «المستوطنات» منهم التي أقاموها بالعنف، وأنشأوها قلاعا للعدوان.

ثانيا: أن المجتمع الإسرائيلي له خصوصية تميزه عن غيره من سائر المجتمعات البشرية، فهو ـ بالنسبة لأهل فلسطين ـ «مجتمع غزاة» قدموا من خارج المنطقة ـ من روسيا أو من أمريكا، أو من أوربا أو من بلاد الشرق ـ ليحتلوا وطنا ليس لهم، ويطردوا شعبه منه، أي ليحتلوا فلسطين ويستعمروها، ويطردوا أهلها، ويخرجوهم من ديارهم بالإرهاب المسلح، ويشتتوهم في آفاق الأرض، ويحلوا محلهم في ديارهم، وأموالهم. ومن حق المغزو أن يحارب غزاته بكل ما يستطيع من وسائل، ليخرجهم من داره، ويردهم إلى ديارهم التي جاءوا منها، ولا عليه أن يصيب دفاعه رجالهم أو نساءهم، كبارهم أو صغارهم، فهذا الجهاد «جهاد اضطرار» كما يسميه الفقهاء لا جهاد «اختيار»، جهاد دفع لا جهاد طلب. ومن سقط من الأطفال والبراء فليس مقصودا، إنما سقط تبعا لا قصدا، ولضرورة الحرب.

ومرور الزمن لا يسقط عن الصهاينة صفة الغزاة المحتلين المستعمرين، فإن مضي السنين لا يغير الحقائق، ولا يحل الحرام، ولا يبرر الجريمة، ولا يعطي «الاغتصاب» صيغة «الملكية» المشروعة بحال. فهؤلاء الذين يسمون «المدنيين» لم يفارقهم وصفهم الحقيقي: وصف الغزاة البغاة الطغاة الظالمين. ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ (هود: ١٨).

ثالثا: يؤكد هذا أن الشريعة الإسلامية ـ التي هي مرجعنا الأوحد في شئوننا كلها ـ تصف غير المسلمين بأحد وصفين لا ثالث لهما، وهما: مسالم ومحارب. فأما المسالم، فالمطلوب منا أن نبره ونقسط إليه، و أما المحارب فالمطلوب منا أن نحاربه، ونقابل عدوانه بمثله، كما قال تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ (البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٣).

ويقول تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ (الممتحنة: ٨، ٩).

فالصنف الأول (المسالم) ليس له من المسلمين إلا البر والقسط.

بخلاف الصنف الثاني (المحارب) أو (الحربي). وهؤلاء هم الذين يسميهم الفقهاء «الحربيين». ولهم في الفقه أحكامهم الخاصة بهم.

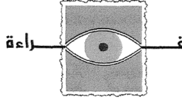
ومن المقرر شرعا: أن (الحربي) لم يعد معصوم الدم والمال، فقد أسقط بحربه وعدوانه على المسلمين عصمة دمه وماله.

رابعا: إن الحرب المعاصرة تجند المجتمع كله، بكل فئاته وطوائفه، ليشارك في الحرب، ويساعد على استمرارها، وإمدادها بالوقود اللازم من الطاقات المادية والبشرية، حتى تنتصر الدولة المحاربة على عدوها. وكل مواطن في المجتمع عليه دور يؤديه في إمداد المعركة، وهو في مكانه، فالجبهة الداخلية كلها ـ بما فيها من حرفيين وعمال وصناع ـ تقف وراء الجيش المحارب، وإن لم تحمل السلاح. ولذا يقول الخبراء: إن الكيان الصهيوني ـ في الحقيقة ـ (إسرائيل) كله جيش.

سادسا: أن الأحكام نوعان: أحكام في حالة السعة والاختيار، وأحكام في حالة الضيق والاضطرار، والمسلم يجوز له في حالة الاضطرار ما لا يجوز له في حالة الاختيار، ولهذا حرم الله تعالى في كتابه في أربع آيات: الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله، ثم قال: ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ (البقرة: ١٧٣).

ومن هنا أخذ الفقهاء قاعدة: الضرورات تبيح المحظورات، وإخوتنا في فلسطين في حالة ضرورة لا شك فيها، بل هي ضرورة ماسة وقاهرة، للقيام بهذه العمليات الاستشهادية، لإقلاق أعدائهم وغاصبي أرضهم، وبث الرعب في قلوبهم، حتى لا يهنأ لهم عيش، ولا يقر لهم قرار، فيعزموا على الرحيل، ويعودوا من حيث جاءوا. ولولا ذلك لكان عليهم أن يستسلموا لما تفرضه عليهم الدولة الصهيونية من مذلة وهوان يفقدهم كل شيء، ولا تكاد تعطيهم شيئا!

أعطوهم عشر معشار ما لدى إسرائيل من دبابات ومجنزرات، وصواريخ وطائرات، وسفن وآليات، ليقاتلوا بها. وسيدعون حينئذ هذه العمليات الاستشهادية. وإلا فليس لهم من سلاح يؤذي خصمهم، ويقض مضجعهم، ويحرمهم لذة الأمن وشعور الاستقرار، إلا هذه «القنابل البشرية»: أن «يتقنبل» الفتى أو الفتاة نفسه، ويفجرها في عدوه. فهذا هو السلاح الذي لا يستطيع عدوه ـ وإن أمدته أمريكا بالمليارات وبأقوى الأسلحة ـ أن يملكه، فهو سلاح متفرد، ملكه الله تعالى لأهل الإيمان وحدهم، وهو لون من العدل الإلهي في الأرض لا يدركه إلا أولو الأبصار. فهو سلاح الضعيف المغلوب في مواجهة القوي المتجبر: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ (المدثر: ٣١). ■



القاهرة ـ شرم الشيخ
الديموقراطية تدفع الثمن

■■ عندما سألتني مذيعة «الجزيرة» بعد ساعاتٍ من انفجارات لندن الأولى عن تأثير ما جرى على خطوات الإصلاح و«التغيير» في مصر، تحفظتُ يومها على السؤال ذاته. ليس لأنني لا أعترف «بالرقم الخارجي» في معادلة الإصلاح المصرية، وإنما لأنني - كما قلت يومها - أخشى أن ما نسمعه في القاهرة من صخب، قد لا يتجاوزُ الألفاظَ إلى عميق مدلولها. فليست كل «الحركة بركة».. خاصة إذا كانت «حركة في المكان». فالحركة في المكان - كما في طوابير العسكر المملة - ربما تُحدثُ صخبًا وتولدُ غبارًا، ولكنها لا تنتج أثرًا فعليًا غير تخفيفِ توترٍ في عضلات تيبست من طولِ الوقوف والثبات. ولكنها - للأسف.. وبحكم طبيعتها - لا تحركُ خطوةً واحدة إلى الأمام.



أيامٌ - أو للدقة أسابيع - وانتقل المشهدُ الدامي من قلب لندن/ المدينة إلى شرم الشيخ/ المنتجع الرئاسي الأكثر تحصينًا في مصر.. ويومها، تذكرتُ سؤالَ «الجزيرة». بعد أن بدا - للوهلة الأولى على الأقل - أن «بالونَ الإصلاح» الذي نفخ فيه الكثيرون: متجملين.. ومتذمرين.. ومتدخلين، على مدى أشهر طويلة، قد انفجر في شرم الشيخ. وبعد أن غاب عن الجميع - عمدًا أو غفلة - أن الإرهاب والاستبداد وجهان لعملة واحدة، بات واضحًا أن الديموقراطية قد تكونُ أول من يدفع الثمن.

وأيًا ما كانت التفاصيل - المعروفة أو التي لم تتضح بعد - فإن المدقق في الأمر لا يمكنه إلا أن يلحظ، أو على الأقل ينبه، أن الطريق بين القاهرة وشرم الشيخ طريقٌ في اتجاهين.

صحيحٌ أن العلاقة التبادلية بين ما يجري في القاهرة من تفاعلات وقرارات وسياسات، وبين ما شهدته سيناء؛ إن في طابا أو شرم الشيخ، قد لا تكون مباشرة وواضحة كما في حالة ما بين الصوت والصدى. إلا أنه يصبح من الخطأ - أو على الأقل من الغفلة - تجاهل كل الفرضيات المطروحة التي تشير إلى نوع ما من العلاقة. فضلاً عن حقيقة أن الإرهاب لا ينمو إلا في مناخ من الإحساس بالغبن والظلم أمام قوى مستبدة قاهرة؛ تستقوي بسلاح السلطة محليًا.. أو بطغيان السلاح دوليًا، فالثابت أن عقودًا من أحكام الطوارئ، وآلافًا من قرارات الاعتقال، وسنوات من الاطمئنان إلى عين الأمن «الحمراء» وهراوته، لم تمنع ما حدث. بل لعلها - دون أن تقصد طبعًا - ساهمت بشكل غير مباشر في توتير مناخ محتقن أصلاً تحت ضغط البطالة والفساد والمحسوبية وضياع الفرص المتكافئة. بل ولعلها أيضًا شاركت - بشكل مباشر هذه المرة - في كارثة شرم الشيخ، إذا صحت الفرضيةُ القائلة بالربط بينها وبين ما جرى في طابا قبل أشهر. أو بالأحرى ما ذكرته التقارير الدولية ومعها تقرير المجلس المصري لحقوق الإنسان (الرسمي) من تعامل أمني متعسف لم يلتزم بحكمة واجبة مع بدو سيناء. غافلاً للأسف عما لمجتمعهم من خصوصية، وما لوضعهم الجغرافي من أهمية لأمن مصر القومي.

وأيًا ما كان أمر ما جرى في سيناء. وهي لمن غفل أو نسى أو اكتفى بالنظر تحت قدميه (حارسُ مصر الشرقي). وأيًا ما كانت حقيقة الفاعل ودوافعه أو «دافعه» ونهايات الخيوط غير المنظورة. وأيًا ما كانت الحقيقة بشأن المصادفة أو المفارقة في التوقيت، يبقى الثابت أن صخب القاهرة السياسي اختطفته تفجيراتُ المنتجع الهادئ. وأن أسئلة الإصلاح والتغيير، التي كان قد آن أوان استحقاقاتها قد اختفت خلف دخان التفجيرات الأسود الكئيب. وبدا أن الركامَ قد غطى كل شيء؛ أحلام التغيير وأمانيه وبراعمه التي لم تكن قد نبتت بعد.

وللأسف. فالدخان الأسود، بحكم طبيعته، عندما ينقشع يخلفُ وراءه مشهدًا أكثر كآبة.



في الحالة المصرية الآن مشهدان بارزان: إرهاب أحمق، ولحظة سياسية فاصلة. والمشهدان يستحضران إلى الذاكرة - ومن ثم التذكير - تقارير أربعة. وبين المشاهد والتقارير خطوطٌ عدةٌ متوازيةٌ ومتقاطعة:

١ - «الاعتقالات الجماعية والتعذيب في سيناء Human Rights Watch, February 2005 Vol. 17, No. 3(E): يتحدث التقرير الموثق تفصيلاً في ٥٦ صفحة عما يشير إليه عنوانه، محذرًا مما يمكن أن تؤدي إليه المعالجة الأمنية المفرطة من نمو لمشاعر انتقامية (التصريح الأول لوزير الداخلية المصري لم يستبعد الصلة بين حادثي شرم الشيخ وطابا).

٢ - Black Hole:/The Fate of Islamists Rendered to Egypt يحقق التقرير (٦٤ صفحة) والصادر عن الجهة نفسها في الأخبار المتواترة التي تناولت إرسال الولايات المتحدة لمعتقلين مشتبه فيهم إلى بلدان عربية من بينها مصر ليتم استجوابهم بطرق لا تسمح بها الأنظمة القانونية في الولايات المتحدة نفسها.

والواقع أن أحدا لم يُكذّب في الدول المعنية كلها ما جاء في التقرير، بل إن تصريحات نُسبت إلى رئيس الوزراء المصري نظر إليها البعض على أنها تأتي في السياق ذاته. وهو أمرٌ على ما فيه من مخالفات قانونية، ومنافاة لحقوق الإنسان يستدرج تلك الدول ومن بينها مصر طبعًا - دون ضرورة حتمية - إلى مصيدة «القاعدة» اللزجة عميقة الأغوار.

٣ - تقرير المجلس القومي لحقوق الإنسان: وبغض النظر عن ظروف إصداره وعدمية النتائج المترتبة عليه، إلا أنه يشير إلى ذات الوقائع (بلغة أهل القانون) في إطار سرده لوقائع «اعتقالات واحتجاز لمواطنين دون سند من القانون، وحالات مؤكدة للتعذيب.. وعدم احترام أحكام القضاء..» والمعروف أن تقرير المجلس (شبه الرسمي) لم يحرك ساكنًا لدى الذين اتهمهم ضمنًا، أو لدى الرسميين المسؤولين - بحكم مواقعهم أو ضمائرهم - عن التحقيق فيما ورد فيه. أو لدى أصحاب السياسات التي جرى كل هذا في كنفها.

٤ - «تقرير التنمية الإنسانية العربية - ٢٠٠٤»: والذي حذر من «الخراب الآتي» مؤكداً أن «استمرار الأوضاع الراهنة من عجز تنموي يلازمه قهر في الداخل واستباحة من الخارج قد تفضي بين ما تفضي إليه، إلى أشكال من الاحتجاج العنيف..» إلى آخر ما أشار إليه التقرير من تلازم عضوي بين «الفساد ومناخ القمع» في وضع تتركز فيه كل الصلاحيات في يد السلطة التنفيذية والتي تشكل في نهاية المطاف «ثقبًا أسود» يُحولُ المجالَ المحيط به إلى ساحة لا يفلت من إسارها شيء.



دعك من التقارير على أهميتها. فالحاصلُ أننا أمام مشهدين:

في شرم الشيخ: مشهدٌ مظلمٌ لإرهاب أسود. وفي القاهرة لحظةٌ سياسية فاصلة تبرقُ في أفق معتم. يراها البعضُ واعدةً بعد سنوات قحط. ويراها الآخرون، رغم ومض البرق وجلبة الرعد، لا تنذر بمأمول المطر. والطريق من شرم الشيخ إلى القاهرة طويلٌ وصحراوي.. وللصحراء متلازمتان خادعتان: الرمالُ الناعمة.. وسرابُ الأفق.

أيمـــن الصيـــاد

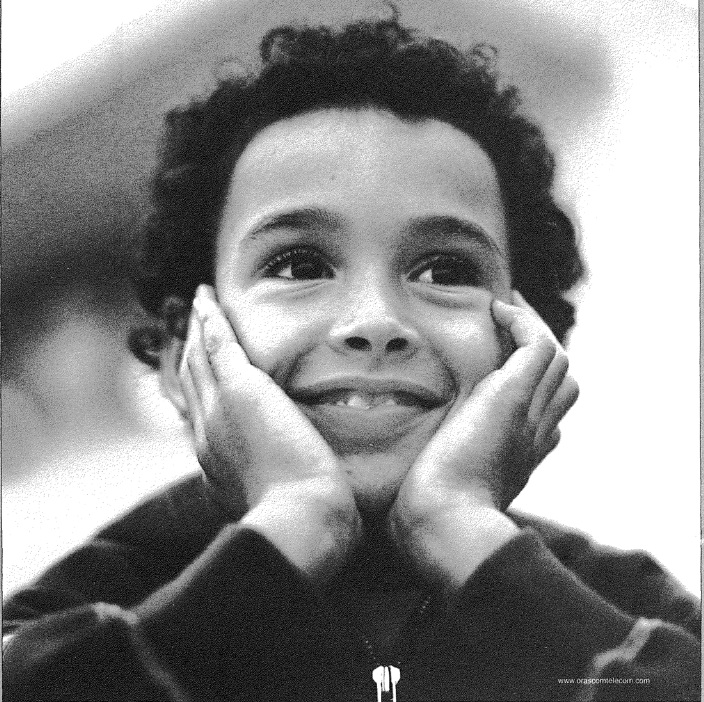
الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 7 - Issue 81 - October 2005

مجلة شهرية. العدد الحادى والثمانون. السنة السابعة. أكتوبر ٢٠٠٥. الثمن عشرة جنيهات

مُحاكمة الأمم والولايات المتحدة!.. غزة
والعرض التليفزيونى الأخير!.. العربية
فى سوق اللغات.. حرف مصر الغارقة!
..زمن ألف ليلة وليلة.. معاقبة
متهم بممارسة مهنته!... والحياة
فى مدينة العميان!




نحن نرسم البسمة على الوجوه
www.orascomtelecom.com

السنة السابعة
العدد الحادى والثمانون
أكتوبر ٢٠٠٥

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أيمن الصياد .. صحفى.
- جمال الحسينى أبو فرحة.. مدرس علم الكلام بجامعة قناة السويس.
- حسن نافعة .. رئيس قسم العلوم السياسية بجامعة القاهرة.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- صالح محمد النعامى.. صحفى من فلسطين.
- عبد الرءوف الريدى.. رئيس المجلس المصرى للشئون الخارجية.
- عز الدين نجيب.. ناقد وفنان تشكيلى.
- عزمى بشارة.. مفكر فلسطينى ونائب فى الكنيست الإسرائيلى.
- علياء رافع.. أستاذ علم الأنثربولوجى - جامعة عين شمس.
- فاروق شوشة.. شاعر وإذاعى.
- كوفى عنان.. الأمين العام للأمم المتحدة.
- محمود محارب.. أستاذ العلوم السياسية فى جامعة القدس.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى - أحمد اللباد





المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى. ص. ب: ٣٣ البانوراما. مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩. فاكس ٤٠٤٨٥٤٦. subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية. السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير. اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

نــــوى

سـلامة أحمــد سـلامــة

مدينــــة العميــــان..

■■ عندما تتحلل عرى العلاقات الإنسانية فى المجتمعات الحديثة، ويتسيد مبدأ المنفعة والصراع من أجل البقاء، يصاب الإنسان بحالة من العمى النفسى.. يصبح أعمى بفعل عمى الآخرين. وينتقل العمى من شخص إلى شخص كما ينتقل المرض من الأجرب إلى الصحيح. وكلما زاد عدد العميان فى المجتمع - بهذا المعنى - تفككت العلاقات والروابط والمفاصل التى تحكم نظامه. يفقد الفرد قدرته على المقاومة بالتدريج، وتعلو لديه نوازع الأنانية. ويتخلى عن مبادئه وقيمه كما يتخلى عن احترامه للقانون والنظام إذا لم تكن هناك سلطة ملزمة. ثم ينتهى به الحال إلى التخلى عن إنسانيته واحترامه لذاته وللآخرين.

من هذه الفكرة يبدأ الكاتب والروائى البرتغالى خوزيه ساراماجو، الحائز على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٩٨ روايته الرائعة «مدينة العميان»، يطرح من خلال سرد وقائع أشبه بالكوابيس رؤية فلسفية وأخلاقية، تثير تساؤلات عن حقيقة الإنسان والإنسانية والوجود الإنسانى، عن معنى الخير والشر، والقانون والنظام، والتقدم والتأخر.. وما تخفيه الحضارة وراء واجهتها اللامعة من تناقضات الإنسان فى المجتمعات الحديثة، التى خضعت بالكامل لقوى الرأسمالية ولقوانين العولمة.

وخلال الأسابيع الأخيرة، شهد العالم نموذجًا حيًا للسقوط الإنسانى، من خلال المأساة التى أطاح فيها إعصار «كاترينا» بمدينة «نيوأورليانز» الأمريكية، فأغرقت المياه مبانيها، وعزلت مئات الألوف من أهلها فى البيوت والطرقات، وطفت الجثث على السطح منتفخة متعفنة تقضمها الجرذان. ولم تتحرك أجهزة الدولة الغنية بكل هيلها وهيلمانها وإمكاناتها التى تغزو كواكب الفضاء، لإنقاذ الضحايا، إلا بعد أن اكتملت عناصر الكارثة، وأطبقت على كل شىء، وقضت على مظاهر الحياة من إنسان وحيوان، إلا من اعتصم بالأستاد أو بمرتفع من البيوت.. تقاعست فرق الإنقاذ التى كان يجب أن تهرع للمساعدة، حين سقطت فريسة الإهمال والتراخى الذى هو نوع من العمى الوظيفى، وتغلبت المشاعر العنصرية لأن أغلب سكان المدينة من السود، وحين عجزت السلطات المحلية عن فعل شىء، لم تعبأ السلطات الفيدرالية باتخاذ إجراءات عاجلة لأن مستشارى الرئيس بوش خشوا إبلاغه فى حينه. وهكذا انتقل العمى عن إدراك الحقيقة من صغار المسئولين إلى كبارهم، ومن أسفل إلى أعلى، ومن الجنوب إلى الشمال، ومن لويزيانا إلى واشنطن، ومن واشنطن إلى تكساس حيث يقضى الرئيس إجازته، فلم يحط علمًا بأبعاد الكارثة إلا بعد أن صارت فضيحة دولية.



يبدأ ساراماجو قصته الطويلة من نقطة تتمحور حولها كل عناصر الحياة المدنية الحديثة بكل أبعادها.. شخص ما يقود سيارته وعندما يقترب من تقاطع رئيسى فى قلب مدينة كبيرة مزدحمة، بغير اسم أو عنوان، يحدث له شىء غريب مفاجئ.. كانت الإشارة تتحول من الأخضر إلى الأصفر إلى الأحمر. وتوقف السائق بسيارته تمامًا بعد نظرة خاطفة إلى الإشارة الحمراء. كان المارة يعبرون فوق خطوط المشاة المخططة بالأبيض والأسود. أوقف سائقو السيارات الأخرى سياراتهم فى نفاد صبر واضح، وأطراف أقدامهم فوق كابح السرعة على استعداد للمروق بسرعة كفرس فى السباق يستشعر لسع السوط قبل أن يهوى. وعاد اللون الأخضر إلى إشارة المرور إيذانًا بالحركة الهادرة لطابور طويل لا ينقطع من السيارات احتجزتها الإشارة الحمراء. ولاحظ الجميع أن الصفوف المتوازية للسيارات لم تنطلق كلها فى لحظة واحدة. وأن الصف الأوسط منها قد توقف تمامًا عن الحركة.. لابد أن يكون هناك عُطل ما فى السيارة الأولى من الصف، عُطل فى الفرملة أو الكهرباء أو فى أنبوب الوقود. إنها ليست المرة الأولى لحدوث مثل هذه الربكة المرورية حيث تصاب سيارة بالعطب فى قلب زحمة المرور.

ولاحظ المارة الذين تجمعوا على الرصيف عند معبر المشاة أن سائق السيارة المعطلة يلوح بيديه من خلف زجاج السيارة الأمامى فيما يشبه الهياج والغضب. بينما أخذت السيارات المحتجزة خلفه تطلق نفيرها فى غيظ ونفاد صبر، ويلوح سائقوها بقبضة أيديهم فى الهواء، وهم يوجهون الشتائم وعبارات اللوم إلى قائد السيارة المعطوبة. أما السائق المنكوب فقد وضع كفيه فوق عينيه وكأنه يحاول الاحتفاظ بآخر صورة وقعت عليها عيناه لقرص المرور المستدير الأحمر. وسرعان ما تجمع الناس حوله، وفتحوا باب سيارته. كان الرجل يبكى بحرقة شديدة وهو يصرخ: إننى لا أرى شيئًا. عيناى لا تبصران. لا أدرى ماذا حدث.. كانت عيناه المفتوحتان تلمعان فى ضوء النهار، وتتحركان بعصبية فى حدقتيهما دون جدوى. كل عابر سبيل يتطوع بإدلاء رأيه: إنها صدمة عصبية، حالة مؤقتة سوف تزول، اطلبوا الشرطة أو الإسعاف.. وتطوع أحدهم ليأخذ بيد الرجل ليساعده على الوصول إلى منزله.. والأعمى يضع يديه فوق عينيه ولا يكف عن البكاء والعويل.. كل شىء حوله أصبح أشبه بحائط من الضباب الأبيض لا يخترقه البصر. بياض فى بياض.. هل أصابه العمى؟ ولكن العمى يأتى مع إظلام البصر.. تختفى المرئيات فى تلافيف ليل دامس. وتفقد العين نورها وقدرتها على تمييز الأشياء والوجوه والمبانى والكائنات والألوان.. هكذا تصور صاحبنا وهو يستعيد فى ذهنه كل ما قرأه وتعلمه فى حياته عن ضياع نور العينين وحالة الإظلام التام التى يعيش فيها العميان. وراودته الظنون والآمال بأن ما يعانيه ليس إلا حالة طارئة، مؤقتة، عابرة، لن تدوم، ولا تلبث أن تختفى بعد أن يذهب إلى طبيب العيون.

يكتشف الأعمى بعد أن أوصله «فاعل خير» إلى منزله، أنه انصرف دون أن يعطيه مفتاح السيارة. وحقًا، فإن «فاعل الخير» كان يضمر الاستيلاء على سيارة الضرير مستغلاً حالة التوهان والاضطراب التى ألمت به، مطمئنًا إلى أن أحدًا لن يكتشف السرقة. وبالفعل يقود السيارة المسروقة على ضاحية أخرى من المدينة، ليفاجأ بعد ساعات قلائل بأن قدرته هو الآخر على الإبصار أخذت تتلاشى.. وحين عثرت عليه الشرطة محبوسًا فى السيارة فى طريق مهجور، كان العمى قد أسدل على عينيه غلالة بيضاء كثيفة شلت قدرته على الرؤية والتمييز.



وهكذا تدور العجلة.. واحداً بعد الآخر تنتشر فى المدينة حالة غريبة من فقد البصر المفاجئة. حتى طبيب العيون الذى لجأ إليه بعض من ضربه العمى، أصيب هو نفسه بالعمى. واتضح أن ما يشبه الوباء قد نزل بالمدينة، فأصاب العمى مئات، ثم ألوفًا من الناس دفعة واحدة، مما أحدث حالة من الذعر والهلع اجتاحت المدينة.

وجاء رد فعل السلطات فى منتهى الحزم والصرامة. صدرت الأوامر باحتجاز من يصيبه المرض فى مبنى قديم مهجور كان يستخدم كمشفى للأمراض العصبية. وتحت حراسة مشددة جرى عزل العميان عن بقية المدينة خوفًا من انتشار الوباء الغامض. تركتهم السلطات لحالهم، تلقى إليهم بعض كميات قليلة من المؤن والأطعمة ومياه الشرب من مسافة كافية حتى لا تنتقل العدوى إلى جنود

الحراسة، بغير إشراف أو علاج أو رعاية صحية أو طبية. ولكن شخصًا واحدًا مبصرًا وجد نفسه وسط هذه الجموع بطريق الصدفة أو العمد، هي زوجة طبيب العيون التي رافقته إلى المعتقل، والتي ستروي تفاصيل ما حدث داخل أسوار العزل من مآس.

إذ أن ما يحدث في مجتمع العميان يكاد يكون صورة مما يحدث في كثير من مجتمعات العصر الحديث. حيث يتعرض الجميع وإن بدرجات متفاوتة لأسوأ ألوان القهر والغصب والخداع، وانتهاك الأقوياء لحقوق الضعفاء، وفرض الإتاوات عليهم، واغتصاب ثرواتهم القليلة، وما تيسر من أعراض نسائهم.

تتحول المدينة كلها على مدى أيام قليلة إلى مجتمع غريب من العميان. تتوقف الحياة الطبيعية، ودواوين الحكومة والشرطة والجيش عن ممارسة وظائفها. وتغلق البنوك والمؤسسات والشركات والمصانع أبوابها بعد أن أصيب الجميع بالعمى. حتى الكنائس ودور العبادة تصبح نهبًا لألوان من الرذائل والموبقات. وينزلق المجتمع الأعمى تدريجيًا إلى حالة من الفوضى والخراب ثم الضياع والموت. تمتلئ الشوارع بالقمامة والجثث المتعفنة لأشخاص لقوا حتفهم جوعًا بعد أن نهبت الأسواق والدكاكين، وخلت الأرفف من الأطعمة والسلع الغذائية والمنزلية. وأخذت جموع العميان تتضور جوعًا مع الكلاب والقطط والحيوانات في الشوارع والأزقة. انقطعت وسائل الاتصال، كما انقطعت الكهرباء والمياه وسادت المدينة حالة من الإظلام التام لا يفرق فيها العميان بين ليل ونهار. وتحلق فوق المدينة سحابة من الروائح الكريهة العفنة. وحين يفقد المرء القدرة على الإبصار يفقد القدرة على التمييز والإدراك.

تخيل ساراماجو ماذا يمكن أن يحدث لمجتمع لا يرى فيه الناس بعضهم بعضًا، ولا يستشعرون وجود الآخر، ولا يقدرون احتياجاته ومطالبه، بل يصبح الفرد مغلقًا على ذاته، غارقًا في أنانيته، على استعداد فقط لأن يفعل أي شيء ويرتكب أي جريمة في صراع البقاء من أجل الحياة، لإشباع غرائزه وإرضاء نزواته. وهو في سبيل ذلك يتخلى عن أي مبدأ ويخرق أي قانون ويستحل كل محرم.. لا يردعه قانون ولا دين ولا عاطفة إنسانية. ينهار النظام ويفرض الموت منطقه على الجميع.





تخيل ساراماجو ماذا يمكن أن يحدث لمجتمع لا يرى فيه الناس بعضهم بعضًا، ولا يستشعرون وجود الآخر، ولا يقدرون احتياجاته ومطالبه، بل يصبح الفرد مغلقًا على ذاته، غارقًا في أنانيته على استعداد فقط لأن يفعل أي شيء ويرتكب أي جريمة في صراع البقاء من أجل الحياة



عندما أصدر خوزيه ساراماجو روايته هذه عام ١٩٩٥، كانت الشيوعية كنظام سياسي قد دخلت مرحلة الأفول. ولكن ساراماجو الذي ولد في نوفمبر عام ١٩٢٢ في قرية برتغالية صغيرة Atzinhaga في إقليم Rebatejo من أسرة ريفية، كان قد اعتنق الماركسية في شبابه واندمج في التنظيمات السرية التي نشطت بقوة تحت حكم الديكتاتور الفاشي سالازار. أتم دراسته الثانوية ثم عمل ميكانيكيًا ورسامًا فنيًا وموظفًا وانضم بعدها إلى إحدى دور النشر حيث عمل صحفيًا بصحيفة يومية تصدر في لشبونة. وكتب الشعر والقصة والمقالات الصحفية منذ شبابه. ولكنه تفرغ لحرفة الكتابة منذ عام ١٩٦٦، وبدأ يصعد مدارج الشهرة في البرتغال منذ عام ١٩٨١ حينما لقيت روايته «الأمل في النتيجو» نجاحًا كبيرًا وحصل على جائزة مدينة لشبونة. وظل ساراماجو مؤمنًا بالاشتراكية التي يعتبرها حركة من حركات الروح، وبأن النظام الرأسمالي بوضعه الراهن لن يكون قادرًا على حل مشاكل البؤس والعزلة في العالم. خصوصًا بعد أن نجحت الليبرالية الجديدة في تطبيق أساليبها بوحشية ودون رحمة في الدول الغربية والصناعية المتقدمة خلال العقدين الأخيرين، ما أدى إلى ظهور مشكلات اجتماعية خطيرة.

وكان من رأي ساراماجو أن الرأسمالية في تحولاتها الأخيرة بعد سقوط الشيوعية قد أفضت إلى توسيع الهوة بين طبقة صغيرة من الأغنياء وأغلبية ساحقة من الفقراء والمعدمين، طبقة تملك كل شيء ولا تشعر بالمسئولية الاجتماعية إزاء الآخرين، وطبقات محرومة تعيش على حافة الفقر المدقع.

وفي حيثيات جائزة نوبل قالت الأكاديمية السويدية إن سرديات ساراماجو تقوم على عناصر تجمع بين الخيال والسخرية والتعاطف. ولم يبتعد ساراماجو كثيرًا عن الواقع وهو يرسم بخياله صورة ما حدث في «مدينة العميان»، حين نرى ونسمع كيف تحولت نيواورليانز الأمريكية العامرة بالحياة واللهو والصخب، إلى ما يشبه مدينة للعميان بعد أن ضربها الإعصار، وتكشفت عن طبقات من البؤس والإملاق تتشكل منها أغلبية السود، تحت قشرة رقيقة لامعة من الغنى والنعيم كانوا أصحابها أول من هجروا المدينة، وأول من اهتمت فرق الإنقاذ بإخراجهم من الجحيم.

والعمى الجماعي - كما يقول ساراماجو - ليس مجرد فقدان للبصر، بل هو فقدان للقدرة على التمييز والفعل. ومن ثم على التنظيم والنظام. والموت في جوهره ليس إلا حالة من انعدام التنظيم الذي يؤدي بالضرورة إلى انهيار النظام والقانون. هو نوع من فوضى الوظائف تؤدي إلى الهلاك. ينطبق ذلك على جسم الإنسان كما ينطبق على جسم المجتمع. فالجسم يظل حيًا مادام بقي خاضعًا لنظام يكفل استمرار وظائفه. ولكنه يدخل مرحلة الفناء والتحلل عندما يضطرب هذا النظام وتتوقف الوظائف عن عملها في انسجام وانضباط وإحكام. إذ كيف يتسنى لمجتمع من العميان تنظيم أنفسهم؟ والتنظيم يقتضي إدراك الأشياء والعلاقات والفوارق الدقيقة. والإدراك يقتضي القدرة على البصر والتمييز وامتلاك الرؤية. إن العمى - في صوره المجتمعية المتباينة - عندما يصيب مجتمعًا من المجتمعات، فإنه يصيب أول ما يصيب النخبة البارزة من علية القوم ومن أسافلهم، بحيث تقترب قيم الفئتين وتتشابه حتى وإن كانت الرؤية من منظور اجتماعي مختلف. تنخر في أسس المجتمع وعلاقاته. فإذا انتقل العمى إلى الطبقة المتوسطة التي تحمل وتدافع عن قيم المجتمع وتقاليده، وغلبت عليه الأثرة والأنانية.. كان ذلك إيذانًا بموت المجتمع وهلاكه.. أو قل إيذانًا بموت الضمير. يضرب العمى مراكز التحكم والانضباط والرقابة، ممثلة في الأمن والدفاع. ثم لا يلبث أن يصيب بقية الطبقات العاملة في المجتمع من عامة الناس وخاصتهم، من الكبار والصغار، من الرجال والنساء. تتهاوى أسس النظام وقوانينه: في البورصة، في نظام الضرائب، في الإنتاج، في المحاكم، في الحقوق المدنية، قواعد المرور، مصانع السلاح، المقابر، الصيدليات، الأحزاب والانتخابات والبرلمان، المعابد والكنائس والمساجد، المدارس والجامعات والتعليم.. إلى آخر المؤسسات التي تسير المجتمع.



ولكن لماذا يصيب العمى مجتمعًا ما؟

لا أدري - هكذا يختم ساراماجو مرافعته - ولكن قد يأتي اليوم الذي نعرف فيه السبب.. وفي ظني أننا لا نصاب بفقد البصر، ولكننا نكون عميانًا بالفعل ونحن نبصر.. عميانًا لأننا لا نرى المبصرين من بيننا ولا نحس بوجودهم وقدراتهم. يريد ساراماجو أن يقول إننا قد نرى الأشياء والحقائق بعيوننا ولكننا لا نبصرها ولا نستوعب أبعادها، وحتى إذا كان في المجتمع من يملك القدرة على البصر والإدراك فإن أحدًا لا يلتفت إليه ولا يستمع إلى أقواله. فالعمى عمى القلب والعقل، عمى البصيرة قبل أن يكون عمى البصر!

ومع ذلك فإن المؤلف لا يريد أن يختم تفاصيل هذا الكابوس المرعب دون أن يترك للإنسان فرجة مفتوحة لبصيص من الأمل. حين تستيقظ زوجة الطبيب المبصرة ذات صباح لتجد أن عددًا قليلاً من العميان الذين أحاطتهم برعايتها، وحاولوا الحفاظ على حد أدنى من إنسانيتهم، فوقفوا معًا أثناء المحنة متكاتفين، وقدموا يد العون كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، قد أخذوا يستعيدون أبصارهم شيئًا فشيئًا.. انزاحت الغمامة الضبابية البيضاء عن عيونهم وأخذوا يزيلون الأدران والمخلفات التي تراكمت حولهم.. في انتظار عالم يولد من جديد، بينما زوجة الطبيب - التي كانت مبصرة - تستسلم لغشاوة تهبط على عينيها! ■







منذ ستين عاما مضت، وفى سان فرانسيسكو، قام ممثلو ٥٠ دولة بالتوقيع على ميثاق الأمم المتحدة. وقبل أيام فقط اجتمع ممثلو ١٩١ دولة تحت مظلة المنظمة الدولية ـ وربما أيضا تحت مظلة الهيمنة الأمريكية ـ فى «قمة عالمية» كانت محطا لأنظار الجميع: شرقا وغربا.. فقراء وأثرياء.. آملون وحالمون.. وسياسيون نفعيون لا ينظرون إلا تحت أقدامهم.

قبل ستين عاما تعهد المجتمعون، باسم شعوب الأمم المتحدة، أن ينقذوا الأجيال المقبلة من ويلات الحرب. وقد أصبحت هذه الكلمات محفورة فى الذاكرة الجماعية للبشرية. كما أكدوا إيمانهم بحقوق الإنسان الأساسية: وبكرامة الفرد: وبما للرجال والنساء، وللأمم، كبيرها وصغيرها، من حقوق متساوية. وتعهدوا بتهيئة الظروف التى يمكن فى ظلها صون العدالة والمحافظة على احترام القانون. كما وعدوا بدفع الرقى الاجتماعى قدما والنهوض بمستويات المعيشة، فى جو من الحرية أفسح.

واليوم، وقد دخلنا قرنا جديدا من الزمان ـ كما يقول كوفى عنان الأمين العام السابع للمنظمة الدولية ـ تواجهنا تهديدات وتحديات جديدة، ولكن تفتح أيضا الأبواب أمامنا لاغتنام فرص جديدة.

أين تقف الأمم المتحدة اليوم؟ وما هو مستقبلها.. إن كان أمامها مستقبل.

فى عالم لم تعد ملامحه أبدا كما كانت، تصبح أسئلة المستقبل كلها واردة. بل.. وحتمية.

المحــرر

إصلاح الأمم المتحدة يبدأ بإصلاح الولايات المتحدة

حســـــن نافعـــة

■ هناك ما يشبه الإجماع على فشل «قمة العالم» الاستثنائية التى عقدت فى نيويورك ١٤-١٦ سبتمبر الماضى بمناسبة الاحتفال بالعيد الستينى للأمم المتحدة، وأن المسئول الأول عن هذا الفشل هو الولايات المتحدة الأمريكية. وكانت هذه القمة قد ناقشت مسودة إعلان صاغه كوفى عنان استنادا إلى توصيات وردت فى تقارير فرق عمل دولية عديدة كان الأمين العام قد شكلها من قبل واستهدفت بحث أنسب السبل لإصلاح الأمم المتحدة وتفعيل دورها فى مواجهة التحديات الدولية الجديدة. ورغم أن النص الأصلى للإعلان الذى طرحه الأمين العام كان معتدلا وواقعيا إلى حد كبير، إلا أن جون بولتون، المندوب الأمريكى الدائم لدى الأمم المتحدة انقض عليه وحاول تمزيقه إربا باقتراح ما يقرب من ٧٥٠ تعديلا عليه، لينتهى الأمر بتبنى نص لا طعم له ولا لون ولا رائحة. إعلان لا يصلح أو يفعل شيئا، لتظل الأمم المتحدة بعده، مثلما كانت قبله، عجوزًا فى سن الستين تبحث لها الولايات المتحدة عن بيت للمسنين.

ومن المسلم به أن الولايات المتحدة الأمريكية ليست دولة عادية فى مجتمع الدول، وإنما هى دولة فريدة فى التاريخ الإنسانى كله، ومن ثم فمن الطبيعى أن يكون لها دور يعكس هذا التفرد أو التميز فى تاريخ وتطور العلاقات الدولية وبالتالى فى تاريخ وتطور التنظيم الدولى. ويدرك المتخصصون إدراكا واعيا أنه ما كان يمكن للتنظيم العالمى أن ينشأ ويتطور على النحو الذى تم به من دون الولايات المتحدة. غير أن هذه الحقيقة لا تعنى أبدا أن مساهمة الولايات المتحدة فى تنظيم مجتمع الدول كانت دائما وبالضرورة مساهمة إيجابية، وإنما تعنى فقط أن ثقل الولايات المتحدة فى النظام الدولى، خاصة منذ مطلع القرن العشرين، جعلها تبدو على الدوام كأنها المشكلة والحل فى آن واحد. وسواء كانت حاضرة ومشاركة رسميا فى التنظيم الدولى أو غائبة عنه. فابتعادها عن عصبة الأمم جعل التنظيم الدولى يبدو عاجزا ومشلولا، ومشاركتها النشطة فى الأمم المتحدة حمل مخاطر تحويل التنظيم الدولى إلى أداة تستخدمه لإحكام هيمنتها على النظام الدولى.

ويهدف هذا المقال إلى استجلاء حقيقة العلاقة المعقدة بين الولايات المتحدة والأمم المتحدة، وكيف وصلت الأمور إلى الحد الذى أصبح من المستحيل معه إصلاح الأمم المتحدة بدون إصلاح الولايات المتحدة أولا!.

[١]

كانت الولايات المتحدة، وهى دولة حديثة النشأة والتكوين فى مجتمع الدول، قد اختارت لنفسها نهجا فى السياسة الخارجية يجنبها الانغماس فى شئون القارة الأوربية، فى مقابل أن تمتنع هذه الأخيرة عن التدخل فى شئون الأمريكتين (مبدأ مونرو: ١٨٢٣). وقد استطاعت أن تحافظ على هذا النهج الانعزالى لفترة طويلة إلى أن وجدت نفسها، ولأسباب عديدة، مضطرة للمشاركة فى الحرب العالمية الأولى التى انخرطت فيها ٣٣ دولة و٧٠ مليون مقاتل، وراح ضحيتها ١٠ ملايين قتيل و ٢٠ مليون جريح، ونجم عنها خسائر مادية بلغت ٢٠٨ مليارات دولار. وكان اندلاع هذه الحرب الطاحنة والمدمرة مناسبة وحافزا لتشكيل عدد ضخم من الهيئات







والمنظمات واللجان غير الحكومية التى أخذت على عاتقها التفكير فى دراسة الوسائل الكفيلة بمنع الحرب مستقبلا. كان من بينها «عصبة دعم السلام» The League to Enforce Peace التى تأسست عام ١٩١٥ وأصبح الرئيس الأمريكى الأسبق وليام تافت أحد زعمائها البارزين وأصبح الرئيس الأمريكى ويدرو ويلسون نفسه أحد المتحمسين لمبادئها وأهدافها.

فى هذا السياق لم يكن غريبا أن يلعب الرئيس الأمريكى ويلسون، والذى شارك بنفسه فى مؤتمر الصلح الذى عقد فى فرساى فى نهاية الحرب، دورا رئيسيا لدفع المؤتمر نحو تبنى فكرة إقامة تنظيم سياسى عالمى يستهدف حل المشكلات الدولية بالطرق السلمية والحيلولة دون نشوب حرب عالمية جديدة، من خلال نظام مؤسسى للأمن الجماعى والضمانات المتبادلة. كما لم يكن غريبا أن يقع اختيار المؤتمر على الرئيس الأمريكى ويلسون بالذات ليتولى بنفسه رئاسة اللجنة الخاصة التى شكلها لصياغة المشروع النهائى للمنظمة المقترحة والتى استقر الرأى على تسميتها «عصبة الأمم».

غير أن الرأى العام الأمريكى لم يكن ناضجا أو مستعدا بعد لتقبل خطوة بدت و كأنها تشكل قطيعة مع تقاليد انعزالية راسخة. ولأن الكونجرس الأمريكى كان أحد المعاقل الرئيسية لهذه التقاليد فقد رفض التصديق على معاهدة الصلح، مما حال دون أن تصبح الولايات المتحدة عضوا فى أول منظمة سياسية دولية كان الرئيس الأمريكى نفسه هو أكبر الداعين لها والمشاركين فى وضع دستورها!. وهكذا عادت الولايات المتحدة لتمارس سياستها الانعزالية التقليدية تاركة المنظمة الدولية الوليدة نهبا لصراعات أوربية ما لبثت أن أفضت إلى حرب عالمية ثانية وجدت نفسها مضطرة مرة أخرى للمشاركة فيها.

والواقع أنه عندما راح الرئيس الأمريكى روزفلت يهيئ الرأى العام الداخلى، وقبل أن تقدم اليابان على ضرب ميناء بيرل هاربر فى ديسمبر من عام ١٩٤٠، للاستعداد للمشاركة فى الحرب، كان يدرك تمام الإدراك أن عليه تهيئته فى الوقت نفسه للقبول بمشاركة الولايات المتحدة فى الترتيبات اللازمة لإدارة النظام الدولى فى مرحلة ما بعد الحرب. لذلك لم يكن غريبا أن تشهد سنوات الحرب نشاطا هائلا، سواء من جانب المنظمات الأمريكية غير الحكومية أو من جانب الإدارة الأمريكية أو حتى من جانب الكونجرس الأمريكى بمجلسيه، لبحث ودراسة أنسب السبل لإقامة تنظيم عالمى جديد يحل محل عصبة الأمم يتلافى ما وقعت فيه هذه الأخيرة من أخطاء و يكون مقبولا فى الوقت نفسه من جانب الحزبين الرئيسيين فى الولايات المتحدة، حتى لا يتكرر ما حدث فى أعقاب الحرب العالمية الأولى. وقد أسفر هذا النشاط عن بلورة الأفكار الرئيسية التى صيغت فى شكل مشروع للميثاق تم التفاوض حوله مع كل من الاتحاد السوفيتى وبريطانيا أولا قبل أن يطرح للنقاش فى المؤتمر التأسيسى للمنظمة الدولية الجديدة.



تجدر الإشارة إلى أن العالم كله كان حريصا فى الوقت نفسه على ضمان مشاركة الولايات المتحدة فى هذه المنظمة، وقدم كل ما فى وسعه من وسائل الإغراء والتشجيع لتحقيق هذا الهدف. من هذه الوسائل: الموافقة على انعقاد المؤتمر التأسيسى للأمم المتحدة فى مدينة سان فرانسيسكو، وأن تصبح مدينة نيويورك مقرا دائما لهذه المنظمة الجديدة. ولذلك لم يكن غريبا أن يوافق مجلس الشيوخ الأمريكى على ميثاق الأمم المتحدة بأغلبية ساحقة هذه المرة (٩٨ صوتا ضد صوتين)، وأن تصبح الولايات المتحدة هى أول دولة تودع وثائق تصديقها لدى هذه المنظمة الدولية.

ورغم الأهمية الاستثنائية التى حظى بها الوجود الأمريكى لأول مرة داخل التنظيم الدولي العالمى، إلا أن الولايات المتحدة لم تكن فى نهاية المطاف سوى واحدة من ثلاث دول كبرى متحالفة ومنتصرة فى الحرب العالمية الثانية قام على أكتافها نظام الأمن الجماعى الذى شكل العمود الفقرى للأمم المتحدة. وهذه المجموعة، والتى ضمت الاتحاد السوفيتى وبريطانيا إلى جانب الولايات المتحدة، هى التى قررت، ولأسباب تتعلق بالمواءمة السياسية، ضم فرنسا والصين إلى مشاوراتها عندما كانت الحرب تشرف على نهايتها. وعندما طرح مشروع الميثاق الذى أعدته هذه الدول على مؤتمر سان فرانسيسكو تبين وجود حالة من الاستقطاب بين ثلاث مجموعات من الدول مختلفة المواقف والرؤى:

الأولى: مجموعة الدول الكبرى فى مواجهة الدول الصغيرة والمتوسطة. وهى مجموعة تقتصر على دول خمس حددها مشروع الميثاق بالاسم وميزها عن باقى الدول الأعضاء بمنحها مقاعد دائمة فى مجلس الأمن وحق الاعتراض على قراراته (الفيتو)، وهو ما أثار حفيظة باقى الدول. وتقع الولايات المتحدة ضمن هذه المجموعة بالطبع، وبلغ من حرصها على المحافظة على المزايا الممنوحة للدول دائمة العضوية فى مجلس الأمن حدا دفع بالسناتور كوناللى، إلى تمزيق نسخة من الميثاق فى إحدى جلسات المؤتمر وهو يعلق صائحا: «من دون الفيتو لن يكون هناك ميثاق أصلا».

الثانية: مجموعة الدول الاستعمارية فى مواجهة الدول الجديدة والدول غير الاستعمارية. وبينما سعت هذه الأخيرة لتوسيع سلطة الأمم المتحدة لإحكام نظام الوصاية ومتابعة تطور الأوضاع فى الدول التى لا تتمتع بالحكم الذاتى، حاولت الأولى عرقلة هذا الاتجاه. وقد اتخذت الولايات المتحدة موقفا مناهضا بشكل عام للاستعمار التقليدى، وإن كان بدرجة أقل وضوحا من موقف الاتحاد السوفيتى الأكثر راديكالية.

الثالثة: مجموعة الدول الفقيرة فى مواجهة الدول الغنية. وبينما سعت الأولى لتوسيع نطاق السلطات الممنوحة للأمم المتحدة فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية حاولت الدول الأخرى تركيز الجهود الأممية على المجالات المتعلقة بصيانة السلم والأمن الدوليين. وقد أسفر الجدل الذى ثار حول هذه القضية عن رفع مستوى المجلس الاقتصادى والاجتماعى إلى مصاف الفروع الرئيسية، ولكن دون سلطات حقيقية. ولم تكن الولايات المتحدة تمانع فى دعم هذا الاتجاه.

ورغم توجس الولايات المتحدة من المشاركة، ولأول مرة فى تاريخها، فى منظمة دولية مسئولة عن حفظ السلم والأمن فى العالم، إلا أن تلك المشاركة أتاحت لها فرصة فريدة لتحقيق عدة مزايا استراتيجية كبرى: منبر دائم مقيم على أرضها تستطيع أن تتعرف من خلاله على مجمل ودقائق الشئون الدولية، و شبكة اتصالات وقنوات دبلوماسية مفتوحة، بأقل التكلفة، مع الأغلبية الساحقة من دول العالم، فى وقت كانت فيه هذه الدولة الكبرى حديثة العهد والقليلة الخبرة بالشئون الدولية تهيئ نفسها وتتطلع لتولى مسئوليات عالمية كبرى. على صعيد آخر لم يكن بوسع المنظمة الدولية الوليدة أن تقيد إرادة الولايات المتحدة أو تعرقل خططها فى شىء وذلك لعوامل تعود إلى طبيعة وبنية الأمم المتحدة نفسها، من ناحية، وما تملكه الولايات المتحدة من أدوات للضغط والتأثير على سياسات وبرامج هذه المنظمة، من ناحية أخرى. فمجلس الأمن، وهو الفرع الوحيد الذى يملك صلاحية وسلطة إصدار القرار الملزم، لا يستطيع أن يتخذ قرارا ضد رغبتها لأن بوسعها استخدام حق الفيتو للحيلولة دون صدور هذا القرار. والجمعية العامة كانت، عند نشأة الأمم المتحدة، تتشكل من دول حليفة فى معظمها، مما مكنها من التمتع بأغلبية مريحة مضمونة (أتوماتيكية) فى داخلها. يضاف إلى ذلك أن الولايات المتحدة، وبسبب ثقلها الاقتصادى الضخم، كانت تسهم وحدها فى الميزانية العادية للأمم المتحدة بنسبة تجاوزت ٤٠٪ فى البداية قبل أن يتم تحديد حد أقصى لنسبة مساهمة أى دولة منفردة (٢٥٪)، وهو ما مكن الولايات المتحدة من ممارسة نفوذ وتأثير فريد لم يكن بوسع أى دولة أخرى أن تمارسه داخل الأمم المتحدة. وهكذا راحت الولايات المتحدة تمارس دورها الجديد فى السياسة العالمية كقوة عظمى فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية وهى مطمئنة إلى أن الأمم المتحدة لا يمكن إلا أن تكون سندا لسياستها الخارجية. وظل الحال على هذا المنوال لسنوات طويلة حتى بعد انقسام حلفاء الحرب العالمية الثانية إلى معسكرين متصارعين واندلاع الحرب الباردة بينهما.

[٢]

تمتعت الولايات المتحدة بوضع مريح جدا داخل الأمم المتحدة خلال معظم فترات الحرب

الباردة، حيث كان بوسعها ليس فقط أن تحمى نفسها (بواسطة الفيتو) من أى محاولة لاتخاذ عمل جماعى قسرى ضدها داخل مجلس الأمن، ولكن أيضا من تمرير أى قرار تريده داخل الجمعية العامة. ويمكن القول أن الأمم المتحدة شكلت بالنسبة للولايات المتحدة إضافة مهمة للعمل الدبلوماسى المثمر والمفيد جدا، ولم تمثل، حتى نهاية الستينيات على الأقل، أى عائق أو تشكل عبئا حقيقيا. ولذلك لم تكن الولايات المتحدة بحاجة لاستخدام الفيتو خلال هذه المرحلة، بينما أسرف الاتحاد السوفيتى فى استخدامه ليبدو وكأنه القوة المعزولة دوليا والمعرقلة لنشاط ودور الأمم المتحدة. فخلال السنوات العشرين الأولى من نشأة الأمم المتحدة لم تستخدم الولايات المتحدة الفيتو على الإطلاق بينما استخدمه الاتحاد السوفيتى فى الفترة نفسها أكثر من مائة مرة (١٠١ مرة على وجه التحديد). وقد استطاعت الولايات المتحدة، بالاعتماد على قواها وقدراتها الذاتية ومكانتها داخل الأمم المتحدة أو بالاستفادة من أخطاء الآخرين أن تحقق كل ما تريده من الأمم المتحدة خلال معظم هذه المرحلة. ففى بداية الخمسينيات تمكنت الولايات المتحدة، اعتمادا على أخطاء ارتكبها الاتحاد السوفيتى الذى كان يقاطع جلسات مجلس الأمن أثناء اندلاع الأزمة الكورية، أن تحصل على تفويض من مجلس الأمن يمكنها من قيادة الحرب ضد كوريا الجنوبية. وعندما تنبه الاتحاد السوفيتى إلى خطئه واستأنف نشاطه فى مجلس الأمن تمكنت الولايات المتحدة من تمرير مشروع «الاتحاد من أجل السلام»، والذى قصد به الالتفاف على الفيتو السوفيتى، داخل الجمعية بأغلبية مريحة. كما استطاعت منع الصين الشعبية من ممارسة اى دور داخل الأمم المتحدة حتى بداية السبعينيات، وأفسحت المجال أمام حكومة تايوان لشغل مقعد الصين فى الأمم المتحدة، بما فى ذلك مقعدها الدائم فى مجلس الأمن!. وحين تمردت فرنسا وبريطانيا على زعامتها وشنتا من وراء ظهرها عدوانا عسكريا على مصر عام ١٩٥٦، بالتعاون مع إسرائيل ودون تشاور معها، وسنحت لها الفرصة لوراثة نفوذهما فى منطقة الشرق الأوسط، وجدت الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة ساحة مناسبة لتمرير ودعم سياستها، حيث استخدمت الجمعية العامة وقرار الاتحاد من أجل السلام لوقف العدوان على مصر وتشكيل قوات طوارئ دولية تشرف على انسحاب المعتدين.

غير أن الرياح ما لبثت أن جاءت بما لا تشتهى السفن الأمريكية. فبعد حصول العديد من المستعمرات على استقلالها وانضمامها إلى الأمم المتحدة وتشكيلها لحركة دولية جديدة، هى حركة عدم الانحياز، بدأت تتغير تدريجيا خريطة القوى السياسية فى النظام الدولى وراحت تعكس نفسها على خريطة وموازين القوى داخل الجمعية العامة للأمم المتحدة. فقد أصبحت دول العالم الثالث تشكل الأغلبية العددية المطلقة داخل الجمعية العامة، وحدث تحالف موضوعى بينها وبين دول الكتلة الشرقية حول قضايا عديدة مثل: تصفية الاستعمار ورفض القواعد العسكرية الأجنبية ومقاومة الأحلاف العسكرية وقضايا التنمية وغيرها. وبالتدريج بدأت الولايات المتحدة تضيق ذرعا بالخطاب الأممى الجديد الذى كانت تعكسه القرارات الصادرة عن الجمعية العامة والذى بدأ يركز على ضرورة إقامة «نظام عالمى جديد» فى جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وحتى الإعلامية. غير أن القشة التى قصمت ظهر البعير، كما يقولون، جاءت مع تبنى الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار الذى يعتبر الصهيونية لونا من الوان العنصرية، وكان بداية لحملة أمريكية وعالمية منظمة بالغة العنف ضد الأمم المتحدة والمنظمات المتخصصة المرتبطة بها. ووصلت هذه الحملة ذروتها بوصول تيار المحافظين الجدد بقيادة ريجان إلى السلطة. وشهدت هذه المرحلة محاولات متعددة لتكسير العظام تمثلت فى انسحاب الولايات المتحدة، لفترات قصيرة أو طويلة من عدد من المنظمات المتخصصة (منظمة العدل الدولية ثم منظمة اليونسكو) و/أو بالامتناع عن سداد حصصها المالية كاملة فى المنظمات التى لا ترضى عنها. غير أن الأمر لم يصل إلى حد الانسحاب من الأمم المتحدة نفسها، فقد أثبتت التطورات السياسية أنه ما زال للأمم المتحدة دور مفيد تلعبه من وجهة النظر الأمريكية، خاصة بعد الغزو السوفيتى لأفغانستان. فقد كان بالإمكان الحصول على قرارات بأغلبية ساحقة من الجمعية العامة تدين الغزو السوفيتى وتشكل غطاء مشروعا لسياسة دعم المقاومة المسلحة للاحتلال السوفيتى لأفغانستان.

وتبدو عزلة الولايات المتحدة داخل الأمم المتحدة خلال النصف الثانى من مرحلة الحرب الباردة واضحة جلية ليس فقط داخل الجمعية العامة، حيث كانت الولايات المتحدة تصوت فى معظم الأحوال مع الأقلية، ولكن أيضا داخل مجلس الأمن، حيث بدات الولايات المتحدة مضطرة ولأول مرة فى استخدام الفيتو، ثم راحت تسرف فى استخدامه لتنقلب الآية وتصبح الولايات المتحدة وليس الاتحاد السوفيتى هو الأكثر استخداما للفيتو على الإطلاق داخل مجلس الأمن، وبالتالى تبدو وكأنها أصبحت العقبة الرئيسية أمام إعمال الشرعية الدولية. وتشير الأرقام إلى أن الولايات المتحدة استخدمت الفيتو ١٢ مرة خلال الفترة ١٩٦٦-١٩٧٥ (مقابل ٧ مرات للاتحاد السوفيتى خلال الفترة نفسها)، واستخدمته ٣٤ مرة خلال الفترة ١٩٧٦-١٩٨٥ (مقابل ٦ مرات للاتحاد السوفيتى خلال الفترة نفسها). وبذلك يكون معدل استخدام الولايات المتحدة للفيتو قد زاد بنحو ٤٦ ضعفا خلال النصف الثانى من مرحلة الحرب الباردة، مقارنة بالنصف الأول الذى لم تستخدم فيه الفيتو على الإطلاق، وأصبح يمثل أكثر من ثلاثة أضعاف معدل استخدام الاتحاد السوفيتى له.

[٣]

بوصول جورباتشوف إلى السلطة فى الاتحاد السوفيتى عام ١٩٨٥ وبدأ إصلاحاته السياسية والاقتصادية، من خلال سياسة المكاشفة والبيروسترويكا، دخل النظام الدولى مرحلة جديدة كانت فى الواقع مرحلة انتقالية. وساعدت هذه الإصلاحات فى البداية على إحداث تقارب أمريكى سوفيتى غير مسبوق انعكس إيجابا على الأمم المتحدة ودورها، خاصة فيما يتعلق بقدرتها على إيجاد تسويات سلمية للمنازعات الدولية. فقد شهدت الفترة ١٩٨٦-١٩٩٠ نشاطا ملحوظا للتوصل إلى تسويات لعدد كبير من الأزمات مثل: الأزمة الأفغانية، والحرب العراقية الإيرانية، و الأزمة الكمبودية، وأزمات الجنوب الإفريقى..الخ. ويبدو أن الاتحاد السوفيتى كان يراهن خلال هذه الفترة على قيادة ثنائية لنظام دولى تلعب فيه الأمم المتحدة دور المخرج المنفذ لما يتم الاتفاق عليه من سيناريوهات مع الولايات المتحدة. غير أنه تبين فيما بعد أن التسويات التى تمت خلال هذه الفترة جاءت نتيجة لتغيير موقف الاتحاد السوفيتى منها، بسبب ضعفه الشديد وأزمته الخانقة، وليس العكس. وهذا هو ما كشفت عنه الأزمة الكويتية.

فعندما اندلعت الأزمة العالمية التى تسبب فيها الغزو العراقى للكويت فى ٢ أغسطس عام ١٩٩٠ كان حائط برلين قد سقط وانتهت الحرب الباردة بالفعل. ولاحت فرصة نادرة ليس فقط لإحياء نظام الأمن الجماعى كما ورد فى الميثاق ولكن لاستكمال مقوماته و ربما لتطويره أيضا، بعد أن طالب بوش، وغيره من زعماء العالم، بإقامة «نظام عالمى جديد» تلعب فيه الأمم المتحدة الدور الرئيسى فى المحافظة على السلم والأمن فى العالم. فقد أوحى هذا الشعار الجديد بأن الطريق أصبح مفتوحا لتشغيل نظام الأمن الجماعى، بنصه وروحه، لأن الحرب الباردة، والتى اعتبرت مسئولة عن تعطيله، كانت فى طريقها إلى الانتهاء. وفى هذا السياق بدأ مجلس الأمن يتصرف تجاه الأزمة الكويتية بطريقة مختلفة تماما وغير معهودة. فقد اجتمع أكثر من مرة على مستوى وزراء الخارجية، وأشار فى قراراته جميعها، صراحة ولأول مرة، أنه يتصرف وفقا للفصل السابع، وبدأ يطبق نظام العقوبات المنصوص عليه فى الميثاق بحذافيره وبطريقة بالغة القسوة والصرامة.

غير أن مسار الأحداث كشف فيما بعد، وللأسف الشديد، حقيقة أن هذا الشعار لم يقصد به سوى المحافظة على تماسك تحالف دولى تشكل فى مواجهة، وبسبب أخطاء، العراق، وأن إحياء نظام الأمن الجماعى لم يكن مطروحا أصلا على أجندة الإدارة الأمريكية. ولذلك ما إن حصلت الولايات المتحدة على القرار ٦٧٨، والذى يفوض التحالف الدولى الذى تقوده باستخدام القوة ضد العراق، حتى احست بأنها أصبحت حرة تماما وطليقة الحركة. ولذلك أصيب مجلس الأمن بالسكتة القلبية خلال الفترة الممتدة من ٢٩ نوفمبر ١٩٩٠ (تاريخ صدور قرار التفويض) وحتى نهاية الحرب فى مارس ١٩٩١. وقد اعتبر بعض الباحثين أن

الولايات المتحدة لم تكن فى نهاية المطاف سوى واحدة من ثلاث دول كبرى متحالفة ومنتصرة فى الحرب العالمية الثانية قام على أكتافها نظام الأمن الجماعى الذى شكل العمود الفقرى للأمم المتحدة



مجلس الأمن تعرض خلال هذه الفترة لعملية اختطاف. فلم يكن بوسع المجلس أن يجتمع وأن يتداول بشكل طبيعي حول تطورات الأوضاع والاقتراحات المقدمة للتسوية، و لم تكن لـه أى سيطرة أو إشراف أو حتى علم بسير العمليات العسكرية. ولذلك لم يكن غريبا أن يصرح السكرتير العام للأمم المتحدة وقتها (بيريز دى كويلار) بأن هذه الحرب ليست حرب الأمم المتحدة. ولم يكن أمام مجلس الأمن من خيار آخر سوى وضع خاتمه على القرار ٦٨٧ الذى أملته الخارجية الأمريكية وأدى إلى وضع العراق تحت الوصاية الدولية أو بالأحرى تحت الوصاية الأمريكية. فحقيقة الأمر أن الولايات المتحدة أدارت أزمة الكويت بالطريقة التى تحقق لها هدفين رئيسيين. الأول: ضمان تواجد أمريكى عسكرى كبير ودائم فى منطقة الخليج. والثانى: التعجيل بانهيار الاتحاد السوفيتى عن طريق إثبات عجزه وتدهور مكانته فى النظام الدولى. وقد تمكنت بالفعل من تحقيق هذين الهدفين بالكامل. غير أن تأثير هذه السياسة على الأمم المتحدة كان سلبيا للغاية. فقد أدى رفع شعار «النظام العالمى الجديد»، والدور الهائل الذى لعبه مجلس الأمن إبان المرحلة الأولى للأزمة إلى رفع درجة التوقعات المطلوبة من الأمم بطريقة لم تكن الولايات المتحدة على استعداد لمسايرتها. ولذلك ما لبثت الفجوة بين السياسة الفعلية للولايات المتحدة وبين ما يتوقعه الرأى العام من الأمم المتحدة أن إتسعت إلى أن باتت على طرفى نقيض.

وقد برزت هذه الفجوة أولا فى سياق تطورات الأزمة العراقية فى مرحلة ما بعد تحرير الكويت. فقد فرضت مناطق محظورة على الطيران العراقى بقرارات من خارج إطار الشرعية الدولية، ودون استشارة مجلس الأمن، واستخدمت القوة العسكرية مرات متكررة ضد العراق بسبب خلافات حول عمل لجنة التفتيش الدولية وبدون تصريح من مجلس الأمن، وثبت أن عددا من أعضاء لجنة التفتيش كانوا يعملون جواسيس لصالح الولايات المتحدة وإسرائيل ويتلقون تعليماتهم من مصادر غير السكرتير العام بالمخالفة الصريحة لأحكام القوانين والأعراف الدولية. وقد ساهم ذلك كله فى إضعاف هيبة ومصداقية الأمم المتحدة.

وبعد انتهاء حرب «تحرير الكويت» لم تظهر القوى الكبرى، خاصة الولايات المتحدة، أى حماس لإصلاح هياكل ومؤسسات الأمم المتحدة الموروثة عن الحرب الباردة وظلت هذه الهياكل، وخاصة ما يتصل منها بنظام الأمن الجماعى، كما كانت عليه دون أى تغيير ودون أى محاولة جادة لإحياء ما تجمد منها. فقد ظلت «لجنة أركان الحرب» التابعة لمجلس الأمن حبرا على ورق، ولم تدخل المادة ٤٣ الخاصة بإنشاء جيش دولى حيز التنفيذ..الخ. ومع ذلك فقد حدث تغير جوهرى فى أسلوب إدارة الأمم المتحدة للأزمات الدولية نتيجة للتغير الذى حدث فى موازين القوة فى النظام الدولى بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، وأصبح تفعيل دور الأمم المتحدة أو تهميشها مرتبطا بوجود أو انتفاء المصلحة الأمريكية وحدها.

وقد لوحظ أن درجة انخراط الأمم المتحدة فى الأزمات الدولية زاد زيادة كبيرة جدا وغير مسبوقة خلال السنوات الخمس التى أعقبت الحرب الباردة قبل أن تعود للتراجع بسرعة بعد ذلك. فخلال هذه الفترة القصيرة وحدها قامت الأمم المتحدة بعدد من العمليات يكاد يوازى ما سبق لها أن قامت به من عمليات فى تاريخها كله. وبعد أن كانت نفقات عمليات حفظ السلام لا تتجاوز مبلغ ٨٠٠ مليون دولار قبل نهاية الحرب الباردة فإنها وصلت إلى أربعة بلايين دولار فى عام ١٩٩٣. لكن الفشل الذى واجه هذه العمليات وخاصة فى الصومال وفى يوغوسلافيا أدى إلى تقلص نشاط الأمم المتحدة مرة أخرى، حجما ونوعا. فى هذا المجال. وتراجعت نفقات حفظ السلام إلى ١٫٣ بليون دولار عام ١٩٩٦ ثم إلى حوالى ٩٠٠ مليون دولار عام ١٩٩٨، أى إلى المستوى الذى كانت عليه تقريبا قبل نهاية الحرب الباردة.



كوفى عنان



جون بولتون

وعلى الرغم من وجود أسباب كثيرة تفسر فشل العديد من عمليات حفظ السلام التى قامت بها الأمم المتحدة فى النصف الثانى من التسعينيات ثم تراجع هذه العمليات كليا بعد ذلك، إلا أن مسئولية الولايات المتحدة عن هذا الوضع تعتبر هى الأهم والأخطر وذلك للأسباب التالية:

١. الرفض التام للأفكار الرامية إلى تشكيل قوات دولية دائمة تكون تحت تصرف مجلس الأمن، سواء فى إطار نص المادة ٤٣ من الميثاق أو فى إطار المقترحات التى تقدم بها السكرتير العام للأمم المتحدة وضمنها «خطة السلام» التى أعدها بناء على طلب من مجلس الأمن.

٢. الإصرار على عدم وضع أى قوات أمريكية مشاركة فى عمليات حفظ السلام تحت قيادة الأمم المتحدة، و على أن تتم هذه المشاركة إما تحت قيادة أمريكية مستقلة و/أو فى إطار عملية منفصلة تمهد لعملية الأمم المتحدة، مما عقد من عمليات الإعداد والتنسيق.

٣. عدم الاستعداد لتحمل أى خسائر بشرية فى الميدان والمسارعة بالفرار عند أول احتكاك (وهو ما حدث فى الصومال مثلا وتسبب فى انهاء مهمة الأمم المتحدة هناك).

٤. عدم الوفاء بالتزاماتها المالية تجاه الأمم المتحدة. وقد بلغت جملة المتأخرات المالية للولايات المتحدة تجاه الأمم المتحدة عند نهاية الحرب الباردة ١٫٧ بليون دولار أى أكثر من ثلثى إجمالى مديونية الدول الأعضاء. من هذه المبالغ حوالى ٧٠٠ مليون دولار تخص الميزانية العادية وحوالى بليون دولا تخص ميزانية قوات حفظ السلام. ويعتبر إصرار الولايات المتحدة على عدم الوفاء بالالتزامات هو المسئول الرئيسى عن إحجام الأمم المتحدة عن القيام بعمليات جديدة أو التأخر فى الاستجابة للمواقف الطارئة مما تسبب أحيانا فى كوارث رهيبة. والمثال الواضح على ذلك ما حدث فى رواندا حيث لم تتمكن الأمم المتحدة من أداء دورها على الوجه الأكمل، وهو ما تسبب فى مذابح وعمليات إبادة جماعية راح ضحيتها ما يقرب من مليون شخص.

فى هذا السياق يتضح أن الأمم المتحدة تعرضت أولا لأزمة ثقة و فقدت مصداقيتها حتى عندما كانت فى ذروة نشاطها إبان الفترة القصيرة التى أعقبت انتهاء الحرب الباردة مباشرة، وذلك بسبب الانتقائية واعتماد معايير مزدوجة فى تعاملها مع الأزمات الدولية. وكان تحدى منظمة الوحدة الإفريقية لمجلس الأمن، بسبب موقفه من أزمة لوكربى، أحد النماذج البارزة على التآكل التدريجى لهيبة الأمم المتحدة. وبعد فقدان الثقة والمصداقية عادت الأزمة المالية من جديد لتهدد الأمم المتحدة بخطر العجز والشلل الكامل وبدأت تحجم عن القيام بأى عمليات نوعية لحفظ السلام تحت دعوى خفض النفقات الذى ما برحت الولايات المتحدة تصر عليه. غير أن الأمر لم يقتصر على محاولة تهميش دور الأمم المتحدة من خلال الضغط المادى والحرمان من الموارد المالية. فقد وصلت الاستهانة بالأمم المتحدة حدا جعل حلف شمال الأطلسى يقرر استخدام القوة العسكرية ضد يوغوسلافيا دون أن يكلف نفسه عناء السعى للحصول على إذن أو تصريح بذلك من مجلس الأمن. وكان ذلك هو البداية العملية لانكشاف موقع ومكانة الأمم

الأمم المتحدة شكلت بالنسبة للولايات المتحدة إضافة مهمة للعمل الدبلوماسى المثمر والمفيد جدا، ولم تمثل، حتى نهاية الستينيات على الأقل، أى عائق أو تشكل عبئا حقيقيا



المتحدة الحقيقية في عصر الهيمنة الأمريكية المنفردة.

[٤]

منذ ذلك الحين والولايات المتحدة تمارس سياسة منظمة تستهدف احتواء الأمم المتحدة وتطويعها بما يتناسب مع الطموح الأمريكي في الانفراد بقيادة النظام الدولي. ومع ذلك يوجد فرق واضح بين أسلوب الديمقراطيين والجمهوريين في إدارة النظام الدولي، بصفة عامة، وفي التعامل مع الأمم المتحدة، بصفة خاصة، بعد انتهاء الحرب الباردة. فقد ساعد وصول كلينتون إلى السلطة على تبني مفهوم للقيادة لا يقوم على فرض وجهة النظر الأمريكية، إلا عند الضرورة القصوى، ويفسح مجالا للتشاور خاصة مع الشركاء الأوروبيين. غير أن وصول المحافظين الجدد للسلطة بقيادة بوش أدى، خصوصا في ضوء أحداث سبتمبر، إلى اعتماد مفهوم الهيمنة المنفردة بديلا لمفهوم القيادة، ودون أي اعتبار للقانون الدولي أو للشرعية الدولية. وحين أصرت الإدارة الأمريكية على شن حرب جديدة على العراق دون مبرر قانوني واضح لم تتحمل هذه الإدارة أن يهددها أحد باستخدام الفيتو ولم تتردد في شن الحرب رغم أنف مجلس الأمن. فقد أصبحت هذه الإدارة الأمريكية تتعامل مع المؤسسات الدولية وعلى رأسها الأمم المتحدة باعتبارها عقبة تعوق تنفيذ مخططاتها. ولأن الولايات المتحدة لا تستطيع، وربما لا ترغب أيضا في إزالة هذه العقبة كلية، فلم يكن هناك بد من العمل على إعادة تشكيلها، بالعصا والجزرة، لتصبح أداة طيعة تماما في يدها.

في هذا السياق لم يكن غريبا أن يتخذ الرئيس جورج دبليو بوش مؤخرا قرارين أفصحا في الواقع عن تطور جديد في سياسة الإدارة الأمريكية تجاه المؤسسات الدولية عموما وتجاه منظومة الأمم المتحدة على وجه الخصوص. القرار الأول كان ترشيح جون بولتون، نائب وزير الخارجية لشئون الرقابة على التسلح والأمن الدولي، لشغل منصب المندوب الدائم للولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة، خلفا لنجروبونتي الذي أصبح مسئولا عن مجمل أجهزة الأمن الأمريكية. أما القرار الثاني فكان ترشيح بول ولفووتز، النائب الأول لوزير الدفاع، لرئاسة البنك الدولي خلفا لولفنسون. وينتمي الاثنان، بولتون وولفووتز، إلى جناح الصقور في الإدارة الأمريكية التي يسيطر عليها المحافظون الجدد، وتجمع بينهما سمات مشتركة أولها: الاحتقار الشديد لكل ما يمت للمؤسسات الدولية بصلة، وخاصة تلك التي لا تهيمن عليها الولايات المتحدة، والنظر إلى أنشطتها بعين الشك والريبة وكأنها أنشطة هدامة ومناهضة بطبيعتها للسياسة الأمريكية. وثانيها: تأييدهما المطلق وغير المشروط لإسرائيل. ومن المعروف أن بولتون كان عضوا نشطا في إدارة المجلس الاستشاري للمعهد اليهودي لشئون الأمن القومي، كما أن بعض أفراد عائلة ولفووتز، من بينهم شقيقته، يقيمون في إسرائيل. وثالثها: إيمانهما المطلق بحق الولايات المتحدة الذي لا ينازع في الهيمنة على العالم، وبأن هذه الهيمنة ليست لصالح الولايات المتحدة وحدها، ولكن لصالح شعوب الأرض قاطبة، بل وضرورة من ضرورات تحقيق السلم والأمن الدوليين. ومن المعروف أن كليهما لعب دورا بارزا في بلورة وصياغة التقرير الشهير المعروف باسم «مشروع القرن الأمريكي الجديد»، الصادر عام ١٩٩٧، والذي أصبح بمثابة الدليل المرشد للإدارة الأمريكية الحالية، سياسيا وأيديولوجيا.

لم يكن ولفووتز هو الشخص الأنسب، حتى بالمعايير الأمريكية النمطية، لقيادة مؤسسة مالية دولية في حجم البنك الدولي، وذلك لأسباب موضوعية بحتة. فلم يكن لهذا الرجل علاقة في أي يوم من الأيام بأوساط المال او الاقتصاد أو الإدارة. فخلفيته العلمية والأكاديمية المباشرة تتصل بحقل آخر وهو حقل العلوم السياسية. ومن المعروف أنه حصل على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة شيكاجو، وقام بتدريس العلوم السياسية والعلاقات الدولية في جامعتي ييل وجونز هوبكنز، وهما من أشهر الجامعات الأمريكية. غير ان وولفوتز لم يشتهر كأكاديمي أو كباحث متميز في أي من هذين المجالين، ولكنه اشتهر كمنظر ايديولوجي لفكر المحافظين الجدد، وكناشط سياسي مؤيد لإسرائيل وللمنشقين الإيرانيين والعراقيين، وأصبح من أشد المطالبين بإسقاط النظامين العراقي والإيراني، وهو ما رشحه لشغل مناصب سياسية رفيعة في وزارتي الخارجية والدفاع منذ وصول اليمين الأمريكي المحافظ بقيادة ريجان إلى السلطة.

صحيح أن شغل ولفووتز لهذه المناصب أكسبه خبرات إدارية، حيث بلغ مجموع السنوات التي قضاها كموظف عمومي ما يقرب من ثلاثين عاما، غير أن هذه الخبرة ظلت محدودة وذلك لسبب بسيط وهو أن المواقع التي شغلها كانت في معظم الأحوال بحثية وفكرية أكثر منها أدارية أو تنظيمية. وقد ثبت بالدليل القاطع، من الناحية العملية، أن أفكاره وأحكامه وتقديراته ذات الصلة بوضع السياسات ورسم الخطط قادت إلى كوارث. فقد كان من أشد المروجين لمقولة ان صدام حسين يمتلك من أسلحة الدمار الشامل ما يكفي لتهديد العالم بأسره، ولم يكن مجرد واحد من مهندسي الحرب على العراق ولكنه كان من أكثرهم حماسا وتقليلا للعواقب. فقد أكد مرارا وتكرارا على أن الولايات المتحدة لن تحتاج إلا إلى أقل من عشرة آلاف جندي للسيطرة على الأوضاع في العراق عقب إسقاط صدام، وقدر التكلفة الإجمالية للحرب ولإعادة الإعمار معا بين ٦٥-٩٥ بليون دولار. غير أن ما نراه الان على أرض الواقع يكذب كل هذه التقديرات تماما. فقد ثبت عدم وجود أسلحة دمار شامل في العراق. ويبلغ عدد الجنود الذين يحاربون هناك الآن، وبعد أكثر من سنتين من إسقاط نظام صدام حسين، ١٧٠٠٠٠ مقاتل، علاوة على ٣٠٠٠٠ آخرين في كل من الكويت وقطر، وهي أعداد قابلة للزيادة وليس للانخفاض. أما التكلفة الإجمالية فتتراوح بين ٢٥٠-٣٥٠ بليون في متوسط التقديرات. فكيف يستطيع شخص ثبت فشله إلى هذا الحد أن يقود مؤسسة في حجم وخطورة البنك الدولي؟

اختيار بوش لولفووتز يعود، في تقديري، إلى اسباب أيديولوجية وليست فنية. فهذا الرجل يؤمن إيمانا عميقا بأن القرن الحالي يجب أن يكون قرنا للهيمنة الأمريكية المطلقة على العالم، وهو على استعداد لاستخدام كل الوسائل، الأخلاقية منها وغير الأخلاقية، لتحقيق هذا الهدف. وقد نسب إليه قوله في تعريف معنى القيادة: أن «القيادة شيء يختلف عن القدرة على تقديم النصح أو اتخاذ المواقف الاستعراضية.. فهي تعني أولا وقبل كل شيء «القدرة على حماية الأصدقاء ورعاياتهم، ومعاقبة الأعداء وردعهم، ودفع كل من يرفض تقديم العون للندم يوما ما على فعلته النكراء»!. وفي تقديري أن ولفووتز جاء وفي نيته تحويل البنك الدولي، وهو أحدى وكالات الأمم المتحدة المتخصصة، إلى بنك أمريكي: يقدم القروض بسخاء لأصدقاء أمريكا ويمنعها عن أعدائها، ويخيف كل من تسول له نفسه عدم الانصياع للطلبات الأمريكية بأنه سيعض على اصابعه ندما لأنه تجرأ يوما على أن يقول لا لسيد العالم الجديد.

وقد تبدو الصورة التي نرسمها لولفووتز، على هذا النحو، بشعة بالنسبة للبعض. غير أن هؤلاء سرعان ما يكتشفون أنها أقرب إلى صورة الملاك الطاهر أو الحمل الوديع إذا ما وضعت إلى جانب صورة جون بولتون، سفير أمريكا الجديد لدى الأمم المتحدة، والذي سنراه خلال السنوات القادمة في مقعد رئيس مجلس الأمن. فهذا الرجل، والذي درس القانون في جامعة ييل أيضا وأصبح واحدا من كبار المحامين يحلل الحرام ويحرم الحلال. ولو أن أبواب المناصب الرسمية الرفيعة لم تكن قد فتحت أمامه من خلال وصول المحافظين الجدد إلى السلطة، فلربما كان قد أصبح زعيما لإحدى عصابات المافيا أو غسيل الأموال. فقد بنى شهرته على كيفية التحايل على القوانين المنظمة للحملات الانتخابية وعثر فيها على ثغرات كثيرة مكنته من مساعدة كثيرين على استخدام الأموال غير المشروعة في دعم الحملات الانتخابية لعتاة الجمهوريين من المحافظين الجدد. ثم استخدم بعد ذلك كرأس حربة «لتنظيف» وزارة العدل من سطوة الليبراليين الأمريكيين!. فجون بولتون لا يعد مجرد واحد من كبار الشخصيات الأمريكية المعادية للمؤسسات الدولية المتعددة الأطراف، لكنه يعد كذلك من أشدها احتقارا للقانون الدولي ونفورا منه. فقد نشرت له صحيفة وول ستريت جورنال عام ١٩٩٧ مقالا يؤكد فيه على أن المعاهدات لا تعد قانونا إلا في الحدود اللازمة للاستخدام المحلي في الولايات المتحدة. أما على الصعيد الدولي فهي، عمليا، ليست سوى تعبير عن ترتيبات سياسية، وبالتالي لا يمكن النظر، في تقديره، للمعاهدات الدولية التي توقعها الولايات المتحدة كقوانين ملزمة وواجبة الاحترام، ولكن

تبدو عزلة الولايات المتحدة داخل الأمم المتحدة خلال النصف الثاني من مرحلة الحرب الباردة واضحة جلية ليس فقط داخل الجمعية العامة، ولكن أيضا داخل مجلس الأمن

كضرورة سياسية لا ضرر من التحلل منها مع تغير الظروف. ولذلك لم يكن غريبا ان يلقى جون بولتون بكل ثقله لدفع الولايات المتحدة إما للتحلل من اتفاقيات دولية صدقت عليها ومن التزامات دولية أبرمتها، أو للتراجع عن التصديق على اتفاقيات وقعتها، أو للعزوف عن المشاركة أصلا فى بلورة اتفاقات دولية يحتاجها المجتمع الدولى لتنظيم وضبط العلاقات بين وحداته. ومن المعروف ان جون بولتون كان من أبرز المعارضين لتوقيع الولايات المتحدة على اتفاقية روما الخاصة بإنشاء محكمة الجنايات الدولية، وسخر ممن ساهموا فى صياغتها إلى حد اتهامهم بالرومانسية البلهاء، فهو ينظر إلى هذه الاتفاقية على أنها product of fuzzy-minded romanticism، وتعكس، فى تقديره، تفكيرا ليس ساذجا فقط وإنما خطرا أيضا!.

إن من يفكر على هذا النحو لا بد أن يضمر فى قرارة نفسه أشد أنواع الازدراء للتنظيم العالمى وبالتالى لا يستغرب منه اعتبار الأمم المتحدة مجرد شىء تافه لا قيمة له ولا يقدم أو يؤخر. وقد نسب إلى جون بولتون قوله: «لو أن سكرتارية الأمم المتحدة فقدت عشرة طوابق من مبناها فى نيويورك فلن يتغير شىء فى هذا الكون. غير أن ذلك لا يمنعه من تقدير أهمية وقيمة المؤسسات متعددة الأطراف التى تحتل فيها الولايات المتحدة موقعا قياديا، ويؤمن بالعمل الجماعى المتعدد الأطراف حين يقوم على تحالف الراغبين coalition of the willing، شريطة أن يكون هذا التحالف بقيادة الولايات المتحدة بالطبع.

تجدر الإشارة إلى أن هذا الرجل، والذى ساهم فى تاسيس منظمة أمريكية غير حكومية تسمى «الرابطة الفيدرالية the Federalist Society» لا يكن أى احترام للمجتمع المدنى الدولى. فأهم ما أنجزته هذه الرابطة هو مشروع NGOWATCH، والذى استهدف تتبع ومراقبة المنظمات الدولية غير الحكومية التى يعتقد أنها تمارس أنشطة مناهضة للسياسة الأمريكية أو معادية لها. فما الذى يمكن أن نتوقع من رجل كهذا حين يجلس فى مقعد أمريكا الدائم فى مجلس الأمن؟. وفى تقديرى أن بوش أتى بهذا الرجل لتأديب الأمم المتحدة وإشهار العصا فى وجه كل من تسول له نفسه التذكير بالقانون الدولى. فهذا الرجل يعتقد مؤمنا أنه لا مكان فى الأمم المتحدة إلا للقانون الأمريكى الذى هو قانون الأمم المتحضرة وبالتالى فهو القانون الوحيد الملزم والواجب الاحترام، وأى خروج عليه لا بد أن يستتبعه توقيع الجزاء ليس فقط من جانب المؤسسات الأمريكية ولكن أيضا وعلى وجه الخصوص من جانب مجلس الأمن نفسه، والذى سيصبح أداة قمع فى يد كونداليزا رايس حتى نهاية عام ٢٠٠٨.

وحين يحتل أمثال بولتون مقعد الرئاسة فى مجلس الأمن ويصبح ولفووتز رئيسا للبنك الدولى لا بد أن ندرك فعلا أن القرن الأمريكى الجديد لم يعد مجرد مشروع وإنما تحول إلى برنامج يجرى الآن تنفيذه على أرض الواقع أمام أعيننا.

[٥]

لم يكن كوفى عنان مفرطا فى حسن ظنه حين تصور أن العيد الستين للأمم المتحدة يمكن أن يشكل مناسبة لانطلاقة جديدة تستعيد بها المنظمة الدولية العتيقة دورها المتآكل والمهمش فى النظام الدولى، ويتيح فرصة إضافية يتعين اعتناقها لمحاولة بعث روح جديدة فى مؤسسة بدت عليها أعراض شيخوخة مبكرة وراحت تسيطر عليها مشاعر يأس وإحباط بفعل فوضى عارمة تضرب فى جنبات النظام الدولى وتكاد تصيبه فى مقتل. ومن الناحية المنطقية، لم يكن فى تصور كهذا أى نوع من الشطط أو حتى الرومانسية المفرطة. فالمؤسسات الدولية، شأنها شأن الأمم والشعوب، قادرة، نظريا على الأقل، على تجديد شبابها ومواصلة حركتها وتقدمها شريطة أن تتوافر لدى صناع القرار فيها إرادة سياسية للتطوير والإصلاح ونقل الراية والقيادة من جيل إلى جيل أكثر تأهيلا وعزما وتصميما. ومن الطبيعى أن تختلف المؤسسات، من هذه الزاوية، اختلافا جوهريا عن الأفراد العاديين من البشر. فشيخوخة البشر هى علامات موت محقق قادم لا محاولة، وبالتالى تستدعى الانسحاب من الحياة العامة بهدوء فى الوقت المناسب بمجرد الإصابة بأعراضها، أما شيخوخة المؤسسات فهى أجراس إنذار تدق منبهة ومنذرة لمن شاء أن يتدبر ويصلح ويجدد.

ولا جدال فى أن كوفى عنان كان يدرك إدراكا واعيا أن خريطة وموازين القوى الحالية لا تسمح بقفزات كبيرة أو ضخمة على طريق إصلاح مؤسسات دولية كانت قد أفرزتها تفاعلات وموازين حرب عالمية ثانية تجاوزتها الأحداث. وأنه يتعين عليه، من ثم، أن يتحسس طريقه بحرص وحذر كبيرين. ولذلك راح يستعد للحدث الكبير ويعد له بهدوء وحذر بالغين، ومنذ فترة طويلة. فقام، فى سياق هذا الاستعداد، باتخاذ سلسلة طويلة من الإجراءات التى استهدفت خفض النفقات وإصلاح الهياكل الإدارية للمنظمة، وبما يتماشى مع مطالب الولايات المتحدة التى لم تتوقف عن ممارسة ضغوط هائلة من أجل إنجازها، بل والتى كثيرا ما كانت تتعلل بوتيرتها البطيئة لتبرير عدم الوفاء بالتزاماتها المالية. وفى سياق هذا الاستعداد أيضا قام كوفى عنان بتشكيل فرق عمل عديدة استهدفت دراسة الأوضاع الدولية الحالية وتشخيص أمراض التنظيم الدولى المعاصر من جميع جوانبه، خاصة ما يتعلق منها بمصادر التهديد المباشر لحياة البشر والدول والمجتمعات، القديم منها والمستحدث، واقتراح السبل الكفيلة بمواجهتها وإزالتها أو القضاء عليها. وكان عنان شديد الحرص على إشرك شخصيات راعى فيها أن تكون ممثلة لكل القوى والتجمعات الدولية، خاصة الغربية عموما والأمريكية على وجه التحديد. وكان من بين هذه الفرق، وربما من أهمها، «الفريق رفيع المستوى» والذى شكل منذ حوالى عامين لدراسة «التهديدات والتحديات التى تواجه العالم واقتراح التغييرات الملائمة لمواجهتها».

لم يفعل الأمين العام أكثر من جمع وتلخيص ما توصلت إليه هذه الفرق من استنتاجات واقتراحات عرضها فى تقرير مركز أسماه «فى جو من الحرية أفسح» وأرسله إلى جميع الدول الأعضاء قبل انعقاد الدورة الستين للجمعية العامة للأمم المتحدة بوقت كاف. وكان عنان يأمل أن تشكل هذه الوثيقة أساسا لتوافق دولى يجدد شباب المنظمة العجوز ويعيد إليها بعضا من حيويتها المفقودة. وعلى هذا الأساس قام كوفى عنان بتوجيه الدعوة إلى جميع الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة راجيا حضور القادة بأنفسهم ومشاركتهم فى حوار حول هذه الوثيقة على مدى الأيام الثلاثة الأولى (١٤-١٦ سبتمبر) لانعقاد الدورة العادية للجمعية، آملا فى إقرارها.

والواقع أن من يفحص النص الأصلى لهذه الوثيقة يجده شديد التواضع فى طموحه إلى درجة رأى البعض فيها انحناء غير مقبول لسقف المطالب الأمريكية المصرة على تقزيم الأمم المتحدة وتحجيم دورها. ففى جانب التشخيص لم يكن بوسع النص الأصلى أن يتجنب الإشارة الى الأرقام المفزعة التى وردت فى تقرير الفريق رفيع المستوى والتى أكدت على أن أكثر ما

لو أن أبواب المناصب الرسمية الرفيعة لم تكن قد فتحت أمام بولتون من خلال وصول المحافظين الجدد إلى السلطة، فلربما كان قد أصبح زعيما لإحدى عصابات المافيا أو غسيل الأموال

يهدد حياة البشر فى العالم هو الفقر، والأمراض المعدية، والكوارث الطبيعية، والجريمة المنظمة، والاتجار غير المشروع فى السلاح وفى المخدرات. صحيح أنه لم يقلل من المخاطر الأخرى وبالذات مخاطر الإرهاب وانتشار أسلحة الدمار الشامل، لكنه أوضح بجلاء أن أعداد الذين يموتون من مصادر التهديد الأولى أكبر بكثير من الثانية. بل لوحظ أن النص الأصلى كان شديد الحرص على تبنى الأرقام الأكثر تواضعا حتى ولو لم تكن الأقرب احتمالا. أما فى جانب الحلول واقتراح وسائل العلاج والمواجهة فقد كان شديد التواضع. وعلى سبيل المثال ففيما يتعلق بمكافحة الفقر، حيث أكد التقرير على أن بليون شخص يعيشون على أقل من دولار يوميا وأن ١١ مليون طفل يموتون كل عام قبل سن الخامسة بسبب سوء التغذية وتفشى الأمراض، اكتفى بمطالبة الدول الغنية بالوفاء بتعهداتها السابقة بخفض نسبة الفقر فى العالم إلى النصف بحلول عام ٢٠١٥، ولم يقترح أى زيادة فى نسبة الموارد المخصصة للمعونات الدولية، معتبرا أن السقف المحدد منذ الستينيات وهو ٠.٧٪ من إجمالى الدخل العام ما زال مناسبا لتحقيق هذا الهدف. كل ما أضافه عنان فى هذا الصدد مطالبته بجدول زمنى للوصول بمستوى المعونات إلى هذه النسبة بحلول عام ٢٠١٥، على الا تقل عن ٠.٥٪ بحلول العام القادم، أى عام ٢٠٠٦. تجدر الإشارة إلى نسبة ما تخصصه الولايات المتحدة من معونات خارجية ما زال بعيدا جدا عن هذا السقف ولا يتجاوز ٠.١٦٪ يذهب الجزء الأكبر منها إلى إسرائيل.

لفت نظرى أيضا تبنى الأمين العام، وإن بشكل غير مباشر، فكرة «المشروطية» والتى تقوم على ربط المعونات التى تحصل عليها دول العالم الثالث بالتقدم الذى تحرزه فى مجال احترام حقوق الإنسان والحكم الرشيد وتحرير التجارة وغيرها. ففى معرض حديثه عن «الشراكة العالمية من أجل التنمية» طرح مفهوم «تبادل المسئولية والمساءلة»، وهو ما يعنى الإقرار بمسئولية المجتمع الدولى مسئولية جماعية فى القضاء على الفقر وتحقيق التنمية، فى مقابل الإقرار بحق هذا المجتمع فى مساءلة الدول المتلقية للمعونة ليس فقط عن أوجه وكيفية إنفاقها ولكن أيضا عن مدى التقدم الذى تحرزه وتحققه المعونة المقدمة فى مجال احترام حقوق الإنسان وتعزيز مؤسسات الحكم الرشيد. وربما لا يكون هناك بأس فى ذلك، نظريا على الأقل. الإشكالية الكبرى هنا تتعلق بالجهة التى يحق لها أن تتحدث باسم المجتمع الدولى سواء فيما يتعلق بجمع المعونة من الدول الغنية أو بمساءلة الدول الفقيرة؟ الطبيعى أن تكون المنظمات الدولية، وعلى رأسها الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة هى هذه الجهة. غير أن الأمين العام لم يجرؤ فى الواقع على الذهاب إلى هذا المدى لأنه يعرف موقف الولايات المتحدة الرافض لأى مسئولية جماعية فى مجال التنمية. ليس هذا فقط بل إن النص الأصلى للوثيقة رحب بإنشاء صندوق دولى لدعم الديمقراطية و تشكيل مجلس لحقوق الإنسان يحل محل لجنة حقوق الإنسان التابعة للمجلس الاقتصادى والاجتماعى، وبالتالى للجمعية العامة للأمم المتحدة، وعلى نحو يكاد يكون متطابقا مع الأفكار الأمريكية فى هذا الصدد. كما تبنى النص المقترحات الخاصة بتعديل الميثاق لإلغاء الفقرات التى تشير إلى «الدول المعادية» التى كان يقصد بها دول المحور والدول المتحالفة معها فى الحرب العالمية الثانية، والفقرات الخاصة بنظام الوصاية والمجلس الذى يديره.

الأخطر من ذلك، فى تقديرى، أن النص الأصلى المقترح من جانب الأمين العام طالب أيضا بإلغاء لجنة أركان الحرب، على الرغم من الدور المحورى الملقى على عاتق هذه اللجنة بموجب الميثاق. فهذه اللجنة هى المسئولية عن تحديد حجم ونوعية القوات التى يتعين على الدول وضعها تحت تصرف مجلس الأمن لتمكينه من التدخل العسكرى عند الضرورة، أو لإدارة العمليات العسكرية الميدانية عندما يقرر مجلس الأمن مثل هذا التدخل. صحيح أن الحرب الباردة بين الشرق والغرب خلال مرحلة النظام الدولى ثنائى القطبية حالت دون تفعيل هذه اللجنة، غير أنه لم يعد هناك ما يحول، نظريا على الأقل خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وانتهاء الحرب الباردة، دون إعادة إحياء وتفعيل دور هذه اللجنة. ومع ذلك فقد بدا واضحا أن الأمين العام كان يعلم مسبقا بوجود خط أمريكى أحمر هنا لأن المعروف أن الولايات المتحدة ترفض وضع أى قوات دولية تحت أى قيادة غير أمريكية حتى لو كانت لجنة أركان الحرب التابعة لمجلس الأمن نفسه.



أما فيما يتعلق بتوسيع وإصلاح مجلس الأمن فلم يقدم الأمين العام أى مقترحات جديدة واكتفى بمناشدة قمة العالم اختيار أى من النموذجين المطروحين فى تقرير الفريق رفيع المستوى. ومن المعروف أن هذا الفريق كان قد اتفق على أن يكون إجمالى عدد المقاعد ٢٤ مقعدا توزع بالتساوى على القارات الأربع، بحيث يخص كل منها ٦ مقاعد، لكنه لم يتفق على كيفية توزيعها، وطرح صيغتين أ و ب. الصيغة أ تتضمن إضافة ٦ مقاعد دائمة جديدة إلى المقاعد الخمسة الحالية، وتوزع كالتالى: إفريقيا (٢)، أسيا (٢)، أوربا (١)، الأمريكتان (١). أما المقاعد الثلاثة عشر المتبقية فهى مقاعد غير دائمة توزع بنسبة: ٤-٣-٢-٤ بالتوالى. أما الصيغة ب فلا تتضمن مقاعد دائمة جديدة، حيث تظل المقاعد الدائمة حكرا على الخمسة الحاليين، وإنما تتضمن ٨ مقاعد شبه دائمة مدتها ٤ سنوات قابلة للتجديد، وتوزع بالتساوى على القارات الأربع (أى بواقع مقعدين لكل قارة)، إضافة إلى ١١ مقعدا غير دائم توزع على القارات الأربع بنسب: ٤-٣-١-٣ على التوالى.

ورغم تواضع ما ورد فى نص الوثيقة المقترحة من جانب الأمين العام، إلا أن نجاح «قمة العالم» فى تبنيها كما هى والاتفاق على أى من الصيغتين المطروحتين لتوسيع مجلس الأمن، كان يمكن أن يشكل نقلة نوعية أو على الأقل خطوة متقدمة على طريق إصلاح وتفعيل دور الأمم المتحدة. غير أنه كان من الواضح تماما، خاصة بعد إصرار الرئيس بوش على تعيين جون بولتون سفيرا فى الأمم المتحدة رغم أنف الكونجرس، أنه من المستحيل تحقيق هذا الهدف المتواضع فى الظروف الحالية. فأحد الأهداف التى سعت إليها الإدارة الحالية من وراء تعيين بولتون هو إجهاض أى محاولة جادة لإصلاح الأمم المتحدة. ويبدو أن بولتون نجح فى أداء أولى مهامه فى الأمم المتحدة بامتياز. فقد بلغت جملة التعديلات التى طلب بولتون إدخالها على النص ٧٥٠ تعديلا. وتمحورت حول رفض الالتزام بجدول زمنى لزيادة مساعدات التنمية، أو الإشارة إلى حق الشعوب فى مقاومة الاحتلال، كما حاول فرض وجهة النظر الأمريكية فيما يتعلق بتعريف الإرهاب والسياسة الواجب اتباعها فى مجال حقوق الانسان والبيئة وغيرها. الأخطر من ذلك إصرار الولايات المتحدة على تأجيل النظر فى إصلاح هياكل الأمم المتحدة.

ورغم تقديم بولتون لبعض التنازلات الشكلية إلا أن النص الذى تبنته قمة العالم بدا فارغا من أى مضمون حقيقى إلى درجة دفعت ببعض زعماء العالم وفى مقدمتهم الرئيس الفنزويلى شافيز إلى المطالبة بنقل مقر الأمم المتحدة خارج الولايات المتحدة. ويبدو لى أن النتيجة الملموسة الوحيدة التى خرجت بها القمة هى التصديق على القرار الأمريكى بإحالة الأمم المتحدة إلى التقاعد. غير أن ذلك ليس معناه إضعاف الوجود القانونى للأمم المتحدة وإنما الاكتفاء بتحويلها إلى هيئة تقوم بما توكله لها الولايات المتحدة من وظائف متغيرة. الشىء المؤكد أن الولايات المتحدة لن تقبل بالأمم المتحدة أبدا كإطار مؤسسى لإدارة جماعية للنظام الدولى. وفى هذا السياق يمكن القول أنه سوف يستحيل إصلاح الأمم المتحدة أو تمكينها من لعب دور حقيقى وفاعل فى نظام دولى يقوم على الإدارة الجماعية لشئون المجتمع الدولى إلا بإصلاح الولايات المتحدة من داخلها. إصلاح يؤدى إلى تخليها عن فكرة الهيمنة الامبراطورية على العالم والعودة إلى فكرة القيادة، ولكن القيادة الواعية والعادلة القائمة على إيمان حقيقى بنظام دولى ديمقراطى يشارك الجميع فى إدارته. ■



جون بولتون لا يعد مجرد واحد من كبار الشخصيات الأمريكية المعادية للمؤسسات الدولية المتعددة الأطراف، لكنه يعد كذلك من أشدها احتقارا للقانون الدولى ونفورا منه



للمؤلف:

الأمم المتحدة فى نصف قرن

دراسة فى تطور التنظيم الدولى منذ ١٩٤٥.

الكويت ـ المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ـ ١٩٩٥.

نحــو حرية أرحب
حانت لحظة القرار



كـــوفـي عـنـــــان

«نصف كأس مملوءة على الأقل» هكذا وصف الأمين العام للأمم المتحدة - متفائلا ربما - نتائج قمة العالم التى وصفت على نطاق واسع، من ذوى الآمال العريضة بأنها «مخيبة للآمال» معتبرا أن الوثيقة الختامية التى كانت محط نقد وهجوم «تمثل، ككل، تعبيرا استثنائيا عن وحدة العالم فى طائفة عريضة من القضايا».

عنان الذى يثق فى أن الأمم المتحدة «مازال لها دور» وأن العالم بدونها سيكون أكثر عنفا وبؤسا، تمنى أن يكون لدى المعلقين ما يكفى من الوقت لتحليل النص الكامل قبل الحكم عليه. لافتا الانتباه إلى أنه «حتى صبيحة يوم الثلاثاء التى بدأ فيها قادة العالم يتوافدون فعلا على نيويورك، كان لا يزال هناك ١٤٠ خلافا بشأن ٢٧ قضية لم يحسم فيها الأمر».

ليمكن وضع القمة فى مكانها من حيث النجاح والفشل - أو ما بينهما - تنشر «وجهات نظر» هنا المقال الذى كان كتبه كوفى عنان قبلها معبرا عن آماله وطموحاته. إلى جانب ملخص «رسمى» للنتائج النهائية التى تمخضت عنها. آخذين فى الاعتبار ما كتبه عنان بعد القمة من أنه عندما اقترح جدول أعمالها «عمدت قصدا إلى رفع المستوى عاليا، ما دام المرء لا يظفر أبدا بكل ما يطلبه فى المفاوضات الدولية. كما أننى قدمت تلك الإصلاحات كمجموعة، وهذا لا يعنى أننى كنت أتوقع أن تُعتمد دونما تعديل، ولكن إحراز التقدم فيها كمجموعة كان أكثر احتمالا من إحرازه فيها وهى مجزأة، ما دام من الأرجح أن تتغلب الدول على تحفظاتها بشأن بعض القضايا عندما ترى أن القضايا الأخرى التى تعتبرها ذات أولوية أكبر تحظى بعناية جدية... وهذا ما حصل بالضبط فى نهاية الأمر».

هل هذا فعلا ما حدث فى نهاية الأمر؟

المحــــرر

■■ ما هو أخطر تهديد يواجهنا اليوم؟ وجه هذا السؤال إلى مصرفية تعمل فى بنك استثمارى فى نيويورك، وتمر يومياً بموقع مركز التجارة العالمى، ثم وجه السؤال نفسه إلى صبى أمى، عمره ١٢ عاماً، من ريف مالاوى، فقد والديه بسبب مرض الإيدز، وسوف تحصل على إجابتين مختلفتين تمام الاختلاف. اطلب من صياد أندونيسى، حصد إعصار تسونامى عائلته ودمر قريته، أن يروى لك مخاوفه، ثم اطلب الأمر نفسه من قروى يعيش فى دارفور تطارده الميليشيات المسلحة والقنابل القاتلة، وسوف تحصل أيضًا - على الأرجح - على إجابات مختلفة.

المفاهيم المختلفة، حول ما هو «التهديد»، عادة ما تجسد العقبات الرئيسية أمام تعاون دولى. ولا يجب - فى اعتقادى - أن نسمح، ونحن فى القرن العشرين، لهذه العقبات أن تقود حكومات العالم إلى ملاحقة أولويات شديدة الاختلاف أو أن تعمل من أجل غايات متعارضة. تهديدات الحاضر شديدة الترابط ويغذى بعضها البعض. تعاسة شعب تحاصره الحروب الأهلية، أو الفقر المدقع - على سبيل المثال - قد تدفع بأفراده إلى الانجذاب نحو الإرهاب. كما أن الاغتصاب الجماعى، الذى يحدث فى صراعات اليوم من شأنه أن يزيد من انتشار نقص المناعة ومرض الإيدز.

واقع الأمر أننا جميعا لدينا حساسية إزاء ما نعتقد أنها مخاطر تهدد شعبا (آخر) فحسب. هناك ملايين معظمها من شبه الصحراء الأفريقية، قد تقع تحت خط الفقر إذا ما تعرض مركز تمويل فى الولايات المتحدة إلى هجوم نووى إرهابى تسبب فى انكماش الاقتصاد العالمى. وبالصورة نفسها، قد يصاب الملايين من الأمريكيين بعدوى مرض جديد إذا ما تفشى - بشكل طبيعى أو بفعل شرير - فى بلد يعانى من سوء الرعاية الصحية، وانتشر عبر العالم قبل اكتشافه.

لا تستطيع دولة بمفردها أن تدافع بنفسها عن نفسها إزاء هذه المخاطر. والتعامل مع تحديات اليوم: من ضمان عدم وقوع الأسلحة المدمرة فى قبضة مجازفين إلى مواجهة تغير مناخ الكون، ومن القضاء على العصابات الإجرامية المنظمة إلى اعتقال مجرمى الحرب وتقديمهم إلى محاكم مختصة، كل ذلك يتطلب تعاونًا عالميًا واسعًا، عميقًا، وثابتًا. والدول التى تعمل بشكل جماعى تستطيع أن تحقق ما هو أبعد مما تستطيع دولة أن تحققه بمفردها، مهما بلغت من قوة.

لقد أدرك الذين وضعوا ميثاق الأمم المتحدة، فى عام ١٩٤٥، هذه الحقائق بوضوح تام، إثر الحرب العالمية الثانية، والتى أودت بحياة ٥٠ مليون نسمة. وأسسوا فى مؤتمر سان فرانسيسكو فى العام نفسه منظمة تعمل، وحسب ما جاء فى ميثاقها: «من أجل إنقاذ الأجيال اللاحقة من كارثة الحرب». لم يكن هدفهم الانتقاص من سيادة الدول ولكن تمكينها - عبر العمل الجماعى - من خدمة شعوبها بشكل أفضل. لقد أدرك مؤسسو الأمم المتحدة أن هذا المشروع لن ينظر إليه من منظور ضيق لأن الأمن، التنمية، وحقوق الإنسان هى قضايا مترابطة تمام الترابط. هكذا حددوا للمنظمة العالمية الوليدة طموحات عريضة لضمان احترام الحقوق الإنسانية للإنسان وتوفر الشروط اللازمة لكى يسود العدل وحكم القانون، و«تعزيز التقدم الاجتماعى وضمان مستويات حياة أفضل وديمقراطية أرحب»، كما جاء فى الميثاق.

وعندما يتحدث ميثاق الأمم المتحدة عن «ديمقراطية أرحب» ويشمل المعنى هنا، الحريات السياسية الأساسية التى هى حق لكل إنسان، كما يشمل أيضًا ما هو أبعد من ذلك وما أسماه الرئيس فرانكلين روزفلت: «التحرر من العوز» و«التحرر من الخوف». ولطالما تاقت أمانينا، وتطلب أمننا، أن ندفع باتجاه كل جبهات الحرية، هذه، لأننا ندرك أن التقدم على جبهة منها يعتمد على، ويقوى من، التقدم على بقية الجبهات. وخلال الـ ٦٠ سنة الماضية زادت التطورات التكنولوجية من ضرورة التوافق الاقتصادى بين الدول، وأدت العولمة والتغير الجيوبوليتيكى المفاجئ إلى جعل الأمر أكثر إلحاحا. ومنذ هجمات الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، أصبح على الناس، فى كل مكان، إدراك ذلك، أن شعورًا بعدم الأمان قد استقر داخل الأذهان، دون تفرقة بسبب ثراء أو مكانة. أصبحنا ندرك، أكثر وضوحا عن ذى قبل، أن أمننا، ازدهارنا، وحريتنا هى - بالفعل - كل لا يتجزأ.

«سان فرانسيسكو» جديدة

عندما أصبحت التحديات شديدة الوضوح، وأصبح العمل الجماعى مطلوبا بشكل أوضح، رأينا تنافرًا عميقًا بين الدول. مثل هذا التنافر يفقد مؤسساتنا العالمية

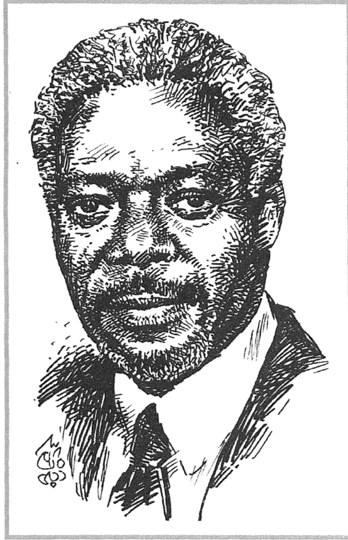
بترتيب مع مجلة: Foreign Affairs
يونيو ٢٠٠٥

ترجمة: جمال إسماعيل

مصداقيتها، ويسمح باتساع الفجوة بين من يملك ومن لا يملك، بين القوى والضعيف. هذا التنافر يزرع بذور التراجع عن مبادئ الأمم المتحدة الأساسية، التي وجدت من أجل التقدم، ويدعو الدول إلى السعي وراء حلول ذاتية، ويضع بعض المبادئ الأساسية التي تدعم - بغير اكتمال - النظام العالمي، منذ عام ١٩٤٥، يضعها محل تساؤل.

لن تسامحنا أجيال المستقبل إذا ما استمر سيرنا في هذا الاتجاه. ولا يمكن لنا أن نمضي في تخبط، ولا نفعل شيئًا إزاء ازدياد ردود الأفعال في عصر فيه تسعى مؤسسات الجريمة المنظمة إلى تهريب الرقيق الأبيض والمواد النووية عبر الحدود، وتكون فيه مجتمعات بأسرها عرضة للضياع بسبب مرض الإيدز، ويؤدي التطور السريع في التقنية الحيوية إلى سهولة ابتكار جراثيم مصممة للقضاء على فاعلية لقاحات التحصين المتوفرة حاليًا. وعندما يجد الإرهابيون، أصحاب الأهداف الواضحة جدًا، أعضاء جددًا بين شباب مجتمعات فاقدة للأمل والعدل، تصبح الحاجة ملحة لأن يتوحد العالم من أجل السيطرة على تهديدات الحاضر وعدم السماح لها بتقسيمنا، والسيطرة علينا.

لقد تلقيت دراستين إضافيتين، حول التحديات العالمية التي تواجهنا. واحدة أعدها ١٦ عضوًا في هيئة رفيعة المستوى حول المخاطر، التحديات، والتحول. وكنت طالبتها بوضع مقترحات كفيلة بتقوية نظامنا الخاص بالأمن الجماعي. الدراسة الأخرى أعدها ٢٥٠ خبيرًا قاموا بدراسة مشروع الأمم المتحدة الخاص بالألفية الجديدة، وأعدوا خطة لتقليص الفقر العالمي إلى النصف، خلال الأعوام العشرة المقبلة. وبعد مراجعة متأنية للدراستين، ومشاورات متعددة مع دول أعضاء في الأمم المتحدة، وضعت أمام حكومات العالم برنامج عمل لعهد جديد من التعاون الدولي والعمل الجماعي، وذلك في تقرير اخترت له عنوان «نحو حرية أرحب». ويدعو الدول إلى انتهاز فرصة انعقاد قمة زعماء العالم، في الأمم المتحدة خلال شهر سبتمبر، من أجل تقوية نظامنا الخاص بالأمن الجماعي، ووضع استراتيجية عالمية حقيقية، للتنمية وتعزيز حقوق الإنسان والديمقراطية لدى جميع الأمم، وإيجاد آليات جديدة لضمان ترجمة هذه الالتزامات إلى أفعال. وإدخال إصلاحات جذرية على الأمم المتحدة البالغة من العمر ٦٠ عامًا. وعلى زعماء العالم، في قمة سبتمبر، الإمساك بروح سان فرانسيسكو من أجل صياغة عهد عالمي جديد يطور الهدف نحو حرية أرحب.



كوفي عنان

التحرر من الخوف

تتمثل نقطة البداية، على طريق إجماع جديد، في رؤية عامة، واضحة، للتهديدات التي تكتنف حاضرنا. هذه التهديدات لا تشمل الحروب الدولية فحسب، بل تشمل أيضًا العنف المدني، الجريمة المنظمة، الإرهاب، وأسلحة الدمار الشامل، كما تشمل هذه التهديدات الفقر، الأمراض الخطيرة المعدية، والتلوث البيئي، وغير ذلك من علل يمكن أن تكون لها تبعات فاجعة وتحدث دمارًا هائلاً، في دول هي وحدات أساسية في النظام الدولي.

وللدول القوية والضعيفة، الغنية والفقيرة، مصلحة مشتركة في إيجاد نظام أمن جماعي يلزمها بأن تعمل، بتعاون، ضد عدد كبير من التهديدات.

أساس مثل هذا النظام يجب أن يتمثل في التزام جديد يمنع التهديدات الكامنة من أن تصبح تهديدات وشيكة، ويمنع التهديدات الوشيكة من التحول إلى تهديدات فعلية، إضافة إلى اتفاق حول متى وكيف يمكن استخدام القوة إذا ما فشلت استراتيجيات المنع.

لقد أصبح التحرك مطلوبًا على عدة جبهات منها ثلاث جبهات تحتاج إلى اهتمام عاجل وخاص: على الجبهة الأولى تبرز ضرورة ضمان أن لا يتحول الإرهاب الفاجع إلى واقع. وعلينا، في سبيل هذا الهدف، الاستفادة من الصلاحية المنعقدة للأمم المتحدة وقوتها المعيارية المتميزة ونفوذها الكوني. ولكي نبدأ لابد من تطوير اتفاق شامل ضد الإرهاب. لقد كان للأمم المتحدة دورها المركزي في دعم التفاوض بين دول، وتبني ١٢ اتفاقية عالمية مناهضة للإرهاب، لكن فاتنا التوصل إلى اتفاق شامل، يجرم الإرهاب في كل أشكاله، بسبب جدل حول «إرهاب الدولة» وحق مقاومة الاحتلال. لقد حان وقت وضع هذا الجدل جانبًا. إن القانون الدولي ينظم جيدًا استخدام القوة من جانب الدول. وحق مقاومة الاحتلال يجب أن يفهم بمعناه الحقيقي، ولا يمكن أن يشمل حق قتل أو تشويه المدنيين عن عمد. يجب على زعماء العالم أن يتحدوا وراء تعريف للإرهاب يؤكد، بما لا يدع مجالاً للشك، أن استهداف المدنيين، أو العزل، غير مقبول على الإطلاق. وعليهم العمل من أجل دعم قدرة الدول على أن تفي بالتزاماتها المفروضة عليها، من قبل مجلس الأمن، لمناهضة الإرهاب.

وبالدرجة ذاتها من الأهمية الملحة، هناك حاجة إلى بعث حياة جديدة في البنيات متعددة الجوانب من أجل السيطرة على الأسلحة البيولوجية، الكيمائية، والنووية بشكل خاص. يجب علينا منع تكاثر هذه الأسلحة، وأن نحفظها بعيدًا عن المخاطرين. وعلى مدار ٣٥ عامًا، تمكنت اتفاقيات منع الانتشار، الموقعة من جميع الأعضاء عدا ثلاث دول، من خفض خطر انتشار الأسلحة النووية، وإلى حد بعيد، وذلك بوضع حدود صارمة تقبل بشكل تطوعي. وحدث مؤخرًا، ولأول مرة، أن أدى انسحاب طرف (كوريا الشمالية)، وامتناعه عن الالتزام بتلك الحدود إلى كارثة انعدام الثقة.

منع الانتشار يتطلب إيجاد طرق للحد من التوترات الناجمة عن حقيقة أن التكنولوجيا المطلوبة للاستخدام المدني للطاقة النووية يمكنها أيضًا أن تستخدم لتطوير أسلحة نووية. ويجب تقوية الدور متعدد الجوانب الذي تقوم به الوكالة الدولية للطاقة النووية، من خلال قبول عالمي بالبروتوكول الإضافي النموذجي (الذي يمتن متطلبات التبليغ ونظام التفتيش في اتفاقية حظر الانتشار). ويجب تطوير الحوافز التي تساعد الدول على التخلي عن أنشطة تدوير الوقود مع ضمان ما تحتاجه من وقود لأغراض سلمية. إضافة إلى ضرورة الترحيب بالمبادرات، ذات الصلة، مثل قرار مجلس الأمن، رقم ١٥٤٠، الهادف إلى منع الأطراف غير الدولية من إمكانية الحصول على تكنولوجيا ومواد الأسلحة الخطرة، ومبادرات حظر الانتشار، التطوعية، لأسلحة ومواد نووية، كيميائية، وبيولوجية.

الجبهة الثالثة، ضمن الأولويات الملحة، تتمثل في ضرورة ضمان النجاح، عندما نأخذ على عاتقنا مهمة بناء

سلام دائم فى أراض تتنازعها الحروب. لقد تعرض نجاحنا فى الفوز بالسلام إلى إرباك. وخلال خمس سنوات، تعرضت اتفاقيات السلام، فى ٥٠٪ من الحروب التى بدا إننا توصلنا إلى حلول لها، لانتكاسات أدت إلى تجدد القتال. هذا التراجع عادة ما تكون له عواقب فاجعة على الجانبين المتحاربين. وفى أنجولا ورواندا، على سبيل المثال، لقى الملايين حتفهم بعد انهيار اتفاقات سلام فى منتصف التسعينيات. ورغم أن العقد الماضى شهد المزيد من تقدير المجتمع الدولى، لما يبذل من جهود لتحقيق السلام، لا يزال هذا المجتمع يفتقد إلى لجنة استراتيجية مفوضة لبناء السلام. يمكن لهذه اللجنة أن تكون منبراً يلتقى فيه ممثلون عن الدول المانحة، وتلك المشاركة بقوات، والدولة المراد معاونتها، للجلوس سوياً مع زعماء من دول أخرى أعضاء، مؤسسات تمويل دولية، ومنظمات إقليمية، للموافقة على استراتيجية تكون بمثابة وثيقة إرشاد وحشد وتنسيق لمختلف الجهود المشتركة. وعندما تفشل وسائل المنع السلمية، وكل الوسائل الأخرى، يجب أن يكون فى استطاعتنا الاعتماد على استخدام القوة. ونحتاج - على أية حال - إلى إيجاد أرضية مشتركة حول: متى، وكيف. وتحفظ المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة حق جميع الدول فى الدفاع عن النفس ضد هجوم مسلح. ويدرك معظم رجال القانون أن هذه المادة تتضمن حق اتخاذ إجراء استباقى ضد تهديد وشيك. الأمر لا يحتاج إلى إعادة تفسير، أو إعادة صياغة. ورغم ذلك نواجه اليوم - أيضاً - مخاطر ليست وشيكة لكنها قد تتحول إلى واقع، دون إنذار مسبق، وتتجسد فى سيناريوهات مخيفة ما لم نواجهها. لقد أعطى ميثاق الأمم المتحدة التفويض التام لمجلس الأمن، كى يتعامل مع مثل هذه التهديدات. ويجب على مجلس الأمن أن يكون مستعداً لممارسة هذا التفويض.

يجب علينا أيضاً، تذكر أن سيادة الدول تتضمن واجبات، إضافة إلى الحقوق، كما تتضمن مسئولية حماية المواطنين من مخاطر إبادة جماعية، أو فظائع أخرى جماعية. وعندما تفشل الدول فى أداء هذه الواجبات تحول إلى المجتمع الدولى الذى عليه، إذا ما تطلب الأمر، فرض القرار عبر التفويض الممنوح لمجلس الأمن.

اتخاذ قرار استخدام القوة لم يكن سهلاً فى يوم من الأيام. وضمان حدوث إجماع حول متى، وكيف، يكون اللجوء إلى القوة مناسباً، يتطلب أن يضع مجلس الأمن فى اعتباره مدى جدية التهديد، وملاءمة الإجراء المقترح لهذا التهديد، ومدى التكافؤ بالنسبة للإجراء المقترح، وفوائد ونتائج استخدام، أو عدم استخدام القوة. موازنة مجلس الأمن بين هذه الاعتبارات من شأنها المعاونة فى التوصل إلى قرارات تستند إلى أرضية من المبادئ، وتحظى - لذلك - باحترام واسع.

العيش بكرامة

القبول بالمسئولية المقدسة، المتمثلة فى حماية المدنيين من انتهاكات حقوق الإنسان، بعيدة الأثر، يعد جزءاً من حاجة أكبر للتعامل بجدية، عند إدارة الشئون الدولية، مع حقوق الإنسان وحكم القانون. نحن نحتاج إلى التزام ثابت، طويل الأجل، لدمج حقوق الإنسان وحكم القانون فى مجمل عمل الأمم المتحدة. أهمية هذا الالتزام لا تقل عن أهمية الالتزام بوقف صراع أو خفض حدة فقر، وخاصة فى دول تكافح لوضع حد لميراث من عنف.

لقد ساهمت الأمم المتحدة، باعتبارها الأداة التى تم من خلالها التوصل إلى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، واتفاقيتين عالميتين لحقوق الإنسان، ساهمت بشكل فعال فى تأكيد هذه الحقوق. لكن الآلة الدولية التى تعمل اليوم ليست كافية لضمان أن هذه الحقوق مصانة عملياً. إن مكتب مفوضية الأمم المتحدة لحقوق الإنسان يعمل بميزانية قاصرة وإمكانيات غير كافية للرصد الميدانى. ويحتاج مكتب المفوضية العليا إلى المزيد من الدعم السياسى والمالى. يجب على مجلس الأمن، ومفوضية بناء السلام المقترحة، إشراك المفوضية العليا - بشكل واسع - فى مداولاتهما.

لقد فقدت المفوضية العليا لحقوق الإنسان مصداقيتها لدى الكثيرين. وتسعى الكثير من الدول إلى عضويتها كى تجنب نفسها الانتقاد، أو تنتقد الآخرين. وليس تقديم العون إلى المفوضية فى مهامها المتمثلة فى رصد وتشجيع تجاوب كل الدول مع التزامات حقوق الإنسان. وقد حان وقت إحداث إصلاح حقيقى. يجب على المفوضية أن تتحول إلى مجلس جديد لحقوق الإنسان، يلتزم بمستويات عالية لهذه الحقوق. وينتخب أعضاؤه بطريقة مباشرة من قبل الجمعية العامة.

ولا يمكن لجدول أعمال حقوق إنسان تجاهل حق جميع الشعوب فى أن تحكم نفسها بواسطة مؤسسات ديمقراطية. مبادئ الديمقراطية محفوظة فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الذى، ومنذ الإعلان عنه فى عام ١٩٤٨، كان الملهم عند صياغته فى كل ركن من أركان الكرة الأرضية. لقد انتشرت الديمقراطية وأصبحت مطلباً. اليوم أكثر من أى وقت مضى. وقد ساعدت الأمم المتحدة الشعوب، على تحديد مصيرها بحرية، بوضع المعايير وقيادة الجهود لإنهاء الاستعمار وضمان حق تقرير المصير. قدمت الأمم المتحدة مساندة قوية لعمليات الانتخاب فى الكثير من الدول. وخلال العام الماضى، وحده، قامت بذلك فى أكثر من ٢٠ منطقة ودولة، بما فى ذلك أفغانستان، فلسطين، العراق، وبوروندى. إن الحرية تعنى ما هو أكبر من الانتخابات. وهنا تكمن الأهمية الحيوية فى عمل المنظمة الخاص بتحسين أوضاع الحكم فى العالم النامى، وإعادة بناء حكم القانون والمؤسسات فى الدول التى تمزقها الحروب. يجب على أعضاء الأمم المتحدة البناء الآن على هذا السجل. وهنا أشير إلى اقتراح الرئيس جورج دبليو بوش، على الجمعية العامة فى سبتمبر عام ٢٠٠٤، الخاص بدعم صندوق يساعد الدول على تأسيس ديمقراطية قوية.

على الدول الديمقراطية، داخل الأمم المتحدة، أن تعمل، بطبيعة الحال، مع دول غير ديمقراطية، وكما لا تستطيع دولة ديمقراطية أن تقصر علاقاتها الثنائية على دول ديمقراطية، لا توجد منظمة جماعية، صممت لتحقيق أهداف عالمية، تستطيع قصر العضوية على دول ديمقراطية. إننى أتطلع إلى اليوم الذى تكون فيه كل دولة عضو فى الجمعية العامة محكومة بالديمقراطية. إن العضوية العالمية للأمم المتحدة تعد رصيداً غالياً من شأنه تحقيق تقدم باتجاه هذا الهدف. والحقيقة الثابتة أن الدول غير الديمقراطية، والتى عادة ما توافق على جدول أعمال الأمم المتحدة، تفتح طريقاً تستطيع عبره الدول الأخرى، إضافة إلى المجتمع المدنى، ممارسة ضغط عليها كى تتسق سلوكياتها مع التزاماتها.

التحرر من العوز

دعم حقوق الإنسان، والديمقراطية، يجب أن يسير، جنباً إلى جنب، مع تحرك جاد هدفه تشجيع التنمية. إن عالماً يموت فيه ١١ مليون طفل فى كل عام، قبل بلوغ سن الخامسة، معظمهم لأسباب يمكن تلافيها، ويذهب فيه ثلاثة ملايين شخص، من مختلف الأعمار، ضحية لمرض الإيدز، ليس عالماً يتمتع بحرية رحبة. إنه عالم فى حاجة شديدة إلى استراتيجية بعينها تمكنه من تطبيق إعلان الألفية الجديدة الذى وافقت عليه جميع الدول الأعضاء، باهتمام. قبل أربع سنوات مضت. وتشمل الأهداف الثمانية للتنمية فى الألفية الجديدة، المطلوب إنجازها مع حلول عام ٢٠١٥، تقليص عدد سكان العالم الذين يعيشون فى جوع وفقر مدقع، ضمان حصول جميع الأطفال على تعليم أساسى، والتعامل باهتمام بالغ مع أمراض الإيدز ونقص المناعة والملاريا، وغيرها من الأمراض الخطيرة.

الحاجة إلى اتخاذ خطوات، أكثر تأثيراً، لتحقيق هذه الأهداف، هى حاجة ملحة لا يمكن تجاهلها. ورغم أن عقداً من الزمن لا يزال يفصل بيننا وبين الموعد المرتقب لتحقيق هذه الأهداف، تبدو مخاطر عدم تحقيقها واردة ما لم نبدأ هذا العام بتسريع وزيادة خطواتنا بشكل أكثر فاعلية. مكتسبات التنمية لا تتحقق بين ليلة وضحاها. إنها تحتاج إلى وقت لتدريب

> فقدت المفوضية العليا لحقوق الإنسان مصداقيتها لدى الكثيرين. وتسعى الكثير من الدول إلى عضويتها كى تجنب نفسها الانتقاد، أو تنتقد الآخرين



مدرسين، ممرضات، ومهندسين، لبناء الطرق، المدارس، والمستشفيات، وإنشاء المشروعات، الصغيرة والكبيرة، التي تخلق فرص عمل وتحقق دخلاً للفقراء.

يجب أن تكون قمة الأمم المتحدة، في سبتمبر، قمة موافقة جميع الدول الأعضاء. ليس على «إعلان» فحسب، بل على خطة مفصلة لمحاربة الفقر المميت، تكون حاكمة للجميع. يجب أن تكون القمة قمة أفعال أكثر من أقوال، ثمة تفعيل للالتزامات التي صيغت، وتحرك من دنيا الأمنيات إلى دوائر العمليات.

الشراكة الكونية بين الدول الغنية والفقيرة يجب أن تكون جوهر هذه الخطة. شروط هذه الشراكة تضمنتها اتفاقية المؤتمر الدولي لتمويل التنمية، الذي عقد قبل ٣ سنوات في المكسيك. هذه الاتفاقية التاريخية، القائمة ـ بحزم ـ على مبادئ التضامن والمسئولية المشتركة، أعادت تأكيد مسئولية كل دولة إزاء تنميتها الذاتية، وأوجدت التزامات قوية من الدول الغنية تجاه مساندة الدول الفقيرة.

في سبتمبر، يكون على جميع الدول المتطورة أن تتعهد بأن تتقدم، مع مجيء عام ٢٠٠٦، باستراتيجيات قومية عملية كفيلة بتحقيق أهداف الألفية. على كل دولة أن ترسم خريطة للأبعاد الرئيسية، وتحدد أسباب الفقر المدقع، وتستخدم هذه الخريطة في تقسيم حاجاتها والتعرف على الاستثمارات العامة الضرورية، وتحول هذا التقييم إلى جدول زمني لفعل يتحقق خلال عشرة أعوام، وتضع، في الوقت نفسه، استراتيجيات، يتراوح وقت تنفيذها ما بين ٣ إلى ٥ سنوات، لتقليص حدة الفقر.

على الدول المانحة أن تضمن أيضاً، أن الدول النامية، التي تضع مثل هذه الاستراتيجيات موضع التطبيق، تحصل ـ بالفعل ـ على الدعم الذي تحتاجه، في شكل فتح أسواق أمامها، وتخفيف أعباء ديونها، وتقديم مساعدات تنمية رسمية. وطوال سنوات كانت المساعدات الرسمية للتنمية ضئيلة ويصعب التنبؤ بها، وتحكمها «نظرية» إرسال المؤن وليس تلبية الحاجات. لقد زاد العون الرسمي، المقدم من الدول المانحة، منذ قمة مؤتمر تمويل التنمية في المكسيك. لكن المساعدات الرسمية لا تزال بعيدة عن بلوغ نسبة الـ(٧,٠٪)، من إجمالي الدخل القومي للدول المانحة، التي أقرها مؤتمر المكسيك. ويجب على جميع هذه الدول أن تضع، وتفعل، الآن، استراتيجيات تمكنها من الوفاء بتلك النسبة مع حلول عام ٢٠١٥، وتضمن بلوغ ما نسبته ٠,٥٪ مع مجيء عام ٢٠٠٩.

مطلوب أيضاً، التحرك على جبهات أخرى وخاصة فيما يتعلق بالتغير المناخي المفاجئ. وقد حان وقت الموافقة على إطار عمل دولي يقتصد جميع بواعث الغازات الدفينة بجهد عام يهدف إلى مقاومة سخونة الأرض، وذلك قبل عام ٢٠١٢، عام انتهاء العمل باتفاقية كيوتو. نحتاج إلى التزام بإطار عمل تنظيمي جديد، وإلى استخدام أكثر تطوراً للتكنولوجيا وآليات سوق تجارة المواد الكربونية. يجب تعلم الدرس من إعصار تسونامي المدمر، ووضع إمكانات عالمية لإعطاء إنذار مبكر من مخاطر الطبيعة. ليس من تسونامي والأعاصير فحسب، بل من الفيضانات، الجفاف، الانهيارات الصخرية، الموجات الحارة، وثورات البراكين.

أمم متحدة جديدة

الأمم المتحدة أداة تمكين للدول من مواجهة تحديات الحاضر والمستقبل. وتحتاج هذه الأداة إلى إصلاحات جذرية، تقوي من كفاءة تأديتها للمهام، وقدرتها على التأثير وتحمل المسئوليات. في سبتمبر، يجب الخروج بقرارات تمكن الجمعية العامة، والمجلس الاقتصادي والاجتماعي، من العمل باستراتيجية أكثر وضوحاً. وبينما نتشاور من أجل إيجاد مؤسسات جديدة، مثل مفوضية بناء السلام، علينا إلغاء مؤسسات لم تعد هناك حاجة إليها، مثل مجلس الوصاية. ولا يمكن لإصلاح، داخل الأمم المتحدة، أن يكتمل دون إصلاح مجلس الأمن. إن التشكيل الحالي للمجلس يعكس عالم عام ١٩٤٥. نحن الآن في القرن الواحد والعشرين، يحب إصلاح المجلس لكي يضم دولاً لها مساهمات مالية وعسكرية ودبلوماسية فعالة في المنظمة. هناك نموذجان، موضع دراسة الآن، بشأن توسيع عضوية المجلس كي يضم ما بين ١٥ إلى ٢٤ عضواً. نموذج يؤسس ستة مقاعد جديدة دائمة وثلاثة غير دائمة. والآخر يؤسس تسعة مقاعد جديدة غير دائمة. ويقيني أن الوقت حان للتعامل مع هذه القضية ودراستها والتوصل إلى قرار بشأنها.

القدر ذاته من الأهمية يجب أن يعطى لإصلاح السكرتارية العامة للأمم المتحدة وتوسيع شبكة وكالاتها، صناديق التمويل، والبرامج التي تشكل نظام الأمم المتحدة. ومنذ عام ١٩٩٧، كانت هناك ثورة صامتة لـ «طلاء» النظام كي يصبح أكثر كفاءة وترابطاً. ويقيني أننا نحتاج إلى فعل الكثير لكي نجعل المنظمة أكثر شفافية، وأقوى تأثيراً ومصداقية، ليس للدول الأعضاء فحسب، بل أمام العالم الذي تستند المنظمة إلى ثقته، ووجدت من أجل خدمة مصالحه. لقد أكدت الإخفاقات الأخيرة هذه المسلمات. ولقد اتخذت ـ بالفعل ـ إجراءات جادة لكي أجعل إدارة وعمل السكرتارية العامة أكثر انفتاحاً وخضوعاً للفحص والتدقيق. ولكي يتم الإصلاح، بشكل حقيقي وناجح، يجب تفويض السكرتير العام، باعتباره أعلى سلطة إدارية للمنظمة، لكي يديرها بمرونة، وباستقلالية، حتى يتمكن، أو تتمكن، من إحداث التغييرات الضرورية. يجب أن يكون السكرتير العام قادراً على حشد برنامج عمل المنظمة وراء ذلك النوع من جدول الأعمال الذي أوضحته، وذلك فور الموافقة عليه من قبل الدول الأعضاء، على أن لا يواجه بعقبات ناجمة عن تداعيات قديمة أو انقسام حول اتخاذ قرار، يمكن أن تخرب عملية تحديد توجه استراتيجي مركزي. وعندما تضمن الدول الأعضاء لمنصب السكرتير العام هذه الاستقلالية والمرونة، يكون من حقها، ومسئوليتها، أن تطالب بمزيد من الشفافية والمسئولية.

لكي يتم الإصلاح، بشكل حقيقي وناجح، يجب تفويض السكرتير العام، باعتباره أعلى سلطة إدارية للمنظمة، لكي يديرها بمرونة، وباستقلالية، حتى يتمكن، أو تتمكن، من إحداث التغييرات الضرورية

وقت القرار

في دعوتي للدول الأعضاء، إلى إحداث أوسع إصلاح ممكن في تاريخ المنظمة، والالتقاء حول عدد من القضايا التي تتطلب التحرك الجماعي، لا أستطيع الزعم بوجود ضمانة للنجاح من خلال الوسائل الجماعية، لكنني على يقين من أن الحلول الأحادية مصيرها الفشل. يقيني أن الدول لا تملك بديلاً للعمل المشترك، حتى وإن كان هذا التعاون يعني التعامل بجدية مع أولويات الشريك لضمان أن الشريك سوف يتعامل بجدية مع أولوياتك. وقبل ٦٠ عاماً، قال الرئيس هاري ترومان، في سان فرانسيسكو: «علينا جميعاً ألا نعطي لأنفسنا الحق، لكي نفعل، ما يرضينا ـ دائماً ـ مهما كانت قوتنا».

الحاجة الملحة إلى تعاون عالمي تبدو جلية اليوم أكثر من أي وقت مضى. والعالم «المعرض للإصابة» لا يمكن أن يظل منقسماً في وقت تستمر فيه المشاكل القديمة في حصد ملايين الأرواح، وتهدد المشاكل الجديدة بحصد ملايين أخرى. إن عالماً متوافقاً لا يكون في مأمن ما لم تتحرر شعوبه، في كل مكان، من العوز والخوف، وتكون باستطاعتها العيش بكرامة. حقوق الفقراء الأساسية لا تختلف، وتتساوى، مع حقوق الأغنياء. والتفاهم الأوسع حول الأمن له أهميته لأن أمن العامل المتطور هو أمن العالم النامي.

ذات مرة، قال الأمريكي البارع، رالف بنش، أول مسئول في الأمم المتحدة يحصل على جائزة نوبل للسلام، إن الأمم المتحدة توجد «ليس لمجرد حفظ السلام، بل وجعل التغيير، بما في ذلك التغيير الجذري، ممكناً دون ثورة عنيفة. ليس للأمم المتحدة مصلحة مكتسبة في الوضع الراهن». وتكتسب تلك الكلمات اليوم معاني جديدة. ورسالة الأمم المتحدة، في إحلال السلام، يجب أن تقرب ذلك اليوم الذي تمارس فيه جميع الدول سيادتها، مسئوليتها، وتتعامل مع المخاطر الداخلية قبل أن تمثل تهديداً لمواطنيها، وللدول الأخرى. يجب أن تمكن، وتفوض مواطنيها لاختيار نوع الحياة التي يرغبونها، وتعمل مع الدول الأخرى في مواجهة التحديات والمخاطر العالمية. وباختصار: يجب على الأمم المتحدة أن تدفع بجميع شعوب العالم، باتجاه «مستويات معيشة أفضل، ووسط حرية أرحب». قمة الأمم المتحدة، في سبتمبر، هي فرصتنا ـ جميعاً ـ لكي نبدأ السير في هذا الاتجاه. ■

وثـــــائـــــق

«نـصـف كـأس ممـلـوء»
نتـائـج قـمـة العـالـم ٢٠٠٥

اتفق قادة العالم وزعماؤه الذين اجتمعوا بمقر الأمم المتحدة فى مدينة نيويورك فى الفترة ما بين ١٤ و١٦ سبتمبر ٢٠٠٥ على اتخاذ خطى إيجابية فى عدد من التحديات العالمية:

التنمية

- التزام كل الحكومات التزاماً جاداً وواضحاً فى البلدان المانحة والنامية على حد سواء بتحقيق أهداف التنمية الألفية بحلول عام ٢٠١٥.
- ٥٠بليون دولار إضافية سنوياً بحلول عام ٢٠١٠ لمكافحة الفقر.
- التزام كل البلدان النامية بأن تتسق خططها القومية وتحقق أهداف التنمية الألفية بحلول عام ٢٠٠٦.
- الاتفاق على تقديم الدعم فوراً لمبادرات التأثير السريع لدعم جهود مكافحة الملاريا وكذا الجهود العاملة فى حقلى التعليم والرعاية الصحية.
- الالتزام بمصادر مبتكرة لتمويل التنمية من بينها الجهود التى تبذلها بعض البلدان لتأسيس «مركز تمويل دولى» وغير ذلك من المبادرات لتمويل مشروعات التنمية لاسيما فى قطاع الصحة.
- الاتفاق على النظر فى المزيد من الإجراءات لدعم الديون طويلة المدى عن طريق زيادة التمويل المعتمد على المنح وإلغاء ١٠٠٪ من الديون الرسمية الثنائية ومتعددة الأطراف من على عاتق البلدان المثقلة بالديون، وكذلك النظر فى تخفيف الديون أو إعادة هيكلتها كلما كان ذلك ملائماً بالنسبة للبلدان متوسطة ومحدودة الدخل التى تعانى من أعباء ديون غير مدعومة وليست جزءاً من مبادرة البلدان المثقلة بالديون.
- الالتزام بتحرير التجارة والعمل بسرعة على تطبيق أبعاد التنمية الخاصة ببرنامج عمل الدوحة.

الإرهاب

- إدانة الإرهاب ـ من قبَل كل الحكومات ولأول مرة ـ بشكل واضح وغير مشروط «بكل صوره وأشكاله أياً كان من يرتكبه وأينما كان وأياً كانت أسبابه ودوافعه».
- دعم سياسى قوى لعقد معاهدة شاملة ضد الإرهاب فى غضون عام واحد، وكذلك تقديم الدعم بهدف التفعيل المبكر لاتفاقية مكافحة الإرهاب النووى. ويتم تشجيع كل الدول على الانضمام إلى هذه الاتفاقية وتفعيلها وكذا الاتفاقيات الاثنتا عشرة الأخرى المناهضة للإرهاب.
- الاتفاق على صياغة استراتيجية لمكافحة الإرهاب بالشكل الذى يزيد من قوة المجتمع الدولى ويضعف من الإرهابيين.

بناء السلام، حفظ السلام وصنع السلام

- اتخاذ القرار بإنشاء «لجنة بناء السلام» لمساعدة البلدان على الانتقال من الحرب إلى السلام يدعمها فى ذلك مكتب الدعم وصندوق دائم.
- قوة جديدة ومستمرة من الشرطة من أجل عمليات حفظ السلام.
- الاتفاق على تعزيز عمل السكرتير العام للأمم المتحدة فى الوساطة والمساعى الحميدة.

مسئولية الحماية

- موافقة كل الحكومات موافقة واضحة وبالإجماع على تحمل المسئولية الدولية الجماعية تجاه حماية الشعوب من الإبادة الجماعية أو العرقية وجرائم الحروب والتطهير العرقى والجرائم ضد الإنسانية، إلى جانب الإجماع على إرادة اتخاذ القرار الجماعى والحاسم فى الوقت المناسب لتحقيق هذا الهدف - عن طريق مجلس الأمن - حينما تعجز المساعى السلمية وتفشل السلطات الوطنية فى الحيلولة دون وقوعها.

حقوق الإنسان، الديمقراطية وحكم القانون

- خطوات حاسمة لتعزيز آلية الأمم المتحدة لحقوق الإنسان إلى جانب دعم خطة العمل ومضاعفة ميزانية المفوض السامى.
- الاتفاق على إنشاء مجلس لحقوق الإنسان بالأمم المتحدة خلال العام المقبل.
- التأكيد على الديمقراطية كقيمة عالمية والترحيب بإقامة صندوق ديمقراطية جديدة تَلَقَّى حتى الآن مساهمات بلغت قيمتها ٣٢ مليون دولار أمريكى من ١٣ بلداً.
- الالتزام بالقضاء على انتشار التمييز على أساس النوع مثل عدم المساواة فى التعليم والملكية والعنف ضد النساء والبنات وإنهاء الحصانة التى يتمتع بها من يرتكبون هذا العنف.
- التصديق على القرار الذى اتُخذَ أثناء القمة مما أدى إلى تفعيل اتفاقية المناهضة للفساد.

الإصــــلاح الإدارى

- تعزيز قدرات الأمم المتحدة على المراقبة بوجه عام وتشمل مكتب خدمات المراقبة الداخلية والتوسع فى خدمات المراقبة بالنسبة للمزيد من المكاتب وكذا المناداة بإنشاء لجنة مراقبة استشارية مستقلة وإنشاء مكتب جديد لمراقبة أخلاقيات العمل.
- تجديد الأمم المتحدة عن طريق مراجعة كل المهام التى مضى عليها أكثر من خمس سنوات بحيث تُلْغَى المهام الأقدم لإتاحة المجال للجديد من الأولويات.
- الالتزام بقواعد الإصلاح وسياساته فى مجالات الميزانية والتمويل والموارد البشرية بحيث تستطيع المنظمة أن تستجيب للاحتياجات الحالية بشكل أفضل، إلى جانب الاستعانة بالموظفين السابقين لضمان أن يكون لدى الأمم المتحدة طاقم العمل المناسب لمواجهة تحديات اليوم.

البيئة

- الإقرار بالتحدى الخطير الذى يمثله التغير المناخى والالتزام بالعمل من خلال إطار اتفاقية الأمم المتحدة بشأن التغير المناخى، كما سيتم تقديم المساعدات إلى أكثر الدول تأثراً بهذا التغير مثل الدول النامية المكونة من جزر صغيرة.
- الاتفاق على إنشاء نظام إنذار مبكر على مستوى العالم ضد كل الأخطار الطبيعية.

الصحة العالمية

- زيادة ردود الفعل بالنسبة لمرض الإيدز (أو نقص المناعة المكتسبة) والدرن والملاريا عن طريق الوقاية والرعاية والعلاج والدعم، بالإضافة إلى تعبئة المزيد من الموارد من المصادر القومية والثنائية والمتعددة الجوانب والخاصة.
- الالتزام بمكافحة الأمراض المعدية ويشمل ذلك الالتزام بضمان التطبيق الكامل للوائح الصحة العالمية الجديدة وتقديم الدعم إلى الشبكة العالمية للإنذار ورد الفعل ضد تفشى الأمراض التابعة لمنظمة الصحة العالمية.

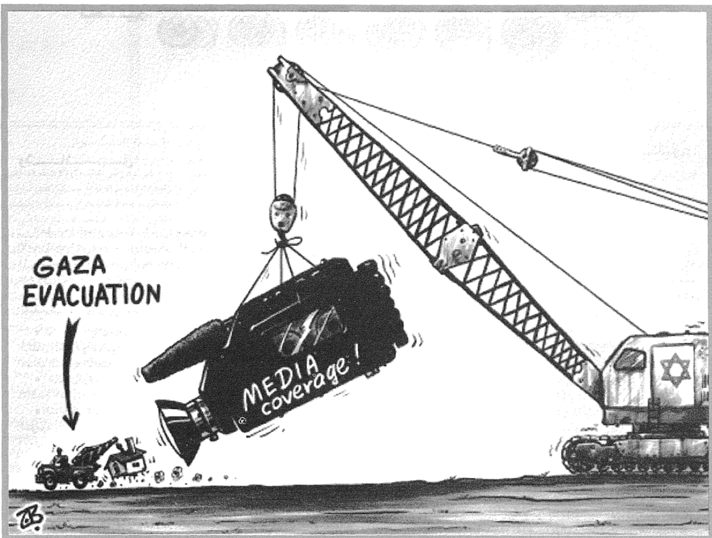
المساعدات الإنسانية

- إنشاء الصندوق الدائر المركزى المطور للطوارئ لضمان وصول المعونات على الفور عند وقوع الكوارث.
- الإقرار بالمبادئ الإرشادية بالنسبة للإبعاد الداخلى باعتبارها إطاراً دولياً مهماً لحماية الأشخاص المُبعَدين داخلياً.

تجديد ميثاق الأمم المتحدة

- اتخاذ القرار لمراجعة الميثاق وتجديده عن طريق ما يلى:
- إلغاء مجلس الوصاية للدلالة على انتهاء دور الأمم المتحدة التاريخى فى تصفية الاستعمار.
- حذف الإشارات المغلوطة تاريخياً عن «الدول الأعداء» فى الميثاق.

يمكن الرجوع إلى النص الكامل للوثيقة بزيارة موقع القمة:
www.un.org/summit ٢٠٠٥



العرض التليفزيونى الأخير

لم يكن أسبوع فك الارتباط الإسرائيلى عن غزة أكبر حملة عسكرية غير حربية يقوم بها الجيش منذ أن أقامه بن غوريون فحسب، بل كان أيضاً أكبر عرض «ريالتى تى. فى.» فى التاريخ منذ أن بدأ الناس بالتصرف والتحدث كأن هنالك كاميرا حاضرة طيلة الوقت كأمر طبيعى، فغيروا من لهجتهم، أصبحوا أكثر دراماتيكية وأكثر كلاشيهيةً كأنهم «بوستر» أو «ستيكر» أو «ساوند بايت» تسويقى متجول، ومنذ أن شاهد آخرون كيف عليهم أن يتصرفوا فى حالة الغضب والحزن والفرح فتصرفوا بموجب صورتهم التى رأوها فى الإعلام، فتم نسخ وتناسخ الناس فى هندسة جنكولوجية - تلفزيونية أو للاختصار «جنزيونية».(سجل براءة اختراع)!!

فى أسبوع دراما فك الارتباط مع الواقع وتوثيق الارتباط مع الصور عن الواقع، وفى تسلسل وقائع الدراما وفصولها من ملصقات المستوطنين إلى المواجهة المخرجة إخراجاً محرجاً بين المستوطنة والجندى المطأطئ الرأس ليس خجلا، بل لأن عليه حسب السيناريو أن يبدو خجلا ومتألما لما يفعل، وهى تصرخ بابنها بهستيريا: «عندما تكبر لا أريدك أن تكون مثل هذا الجندى بل أن تكون جنديا يدافع عن الوطن!»، والطفل الذى دربه المستوطنون أن يصرخ على الجندى الذى يضبط أعصابه، ليس لأنه يجد صعوبة فى ضبطها بل لأن عليه أن يبدو رابط الجحش، عذرا الجأش، فالحديث هو عن جنود رابطى الجأش، وهكذا يجب أن يتصرفوا فيعيدوا إنتاج صورتهم، وكون بعضهم قد صدقها لا يغير من كونها صورة. يصرخ الطفل ليحتار المشاهد بين الطفل البرىء والجرىء وبين الجندى الرابط الجأش، ليس لأن لا جأش له، بل لديه جؤوش. ولكن جهاده الأكبر على وزن لغة منتجى الصور عندنا هو أن يربطه فيحكم ربطه: «هل غسلوا دماغك، لماذا لا تنظر فى عينى؟» وفى هذه الحالة يكرر الطفل جملة على أحد ملصقات حملة المستوطنين الموجهة للجنود من نوع «أخى أنظر فى عينى!!»، هذا إضافة إلى: اللعب بالكلمات والصور المستوحاة من مكاتب الدعاية والتسويق من نوع صورة خلفية لجندى ينظر إلى مستوطنة وفى أسفلها جملة: «لكى لا تستوطن لك على ضميرك»، وصورة طفلة زرقاء العينين مع نفس الجملة، يضاف إلى ذلك الدعاية الحكومية تحت شعارات عائلية تميز الأخوة أو الأخويات الهوليوودية على الأقل، من نوع: «المهم ألا نفك ارتباطنا ببعض»، أو «لنعبر هذه المحنة سوية» أو «تساف بِيوس»، (أمر مصالحة) على وزن «تساف جِيوس» (أمر تجنيد)، وهو ملصق ودعاية تلفزيونية حكومية بنفس نوع ولون خط الرسالة التى تصل للجندى عند دعوته للخدمة وقت الحرب.

يضاف إلى ذلك ملصقات بالبرتقالى على السيارات من كافة الأنواع: «الشعب مع جوش قطيف»، «أين اختفى الخجل؟»، «اقتلاع المستوطنات انتصار للإرهاب»، ومقابلها بالأزرق: «تفكيك المستوطنات خيار الحياة»، «نخرج من غزة ونبدأ الكلام»، «ليعد الأبناء إلى حدودهم»،

ينشر أيضا على موقع
www.arab48.com

لم يسكب هذا الكم من القطر السكرى الدبق على صفحات الصحف فى دولة حديثة على ما اذكر، كما فى هذه الايام فى الصحف الاسرائيلية، ولم يتم استخدام هذا الكم من التعابير القومية المتعصبة من قبل اليمين واليسار حول حداد اليهود ومنع صراع الإخوة وحول حوار الاخوة



... الخـــروج من غـــزة!

عـــــزمى بشـــــارة

نخرج من غزة ونحمى البيت»...وعنوان الحملة العسكرية الرسمى لتفكيك المستوطنات: «يد للأخوة»، وكلمة يد هنا هى اختصار عبرى لمد يد المعونة.

ويضاف إلى هذا كله مقالات كبار الكتاب المعارضين للاستيطان فى الصحف الإسرائيلية الثلاث المشاركين فى الدراما الرخيصة، الذارفين دمعة مع العائلة، لأن العائلة كلها فى حداد تضامنًا مع حداد أحد أفرادها. ولكى تجتاز العائلة المحنة بسلام لا تجوز الشماتة. ومقال خافير سولانا فى هآرتس، بعد مقابلة جورج بوش...فى فزعة دولية لشارون على مستوى رأيه العام، مع وعود للإسرائيليين أن الكرة ستكون فى الملعب الفلسطينى وأن الامتحان القادم هو امتحان الفلسطينيين.

ثم قبل الحملة بيوم خرجت الصحف عن طورها لأن المنافسة بينها على أشدها ولأنها تريد أن تبيع: صورة جندية، جميلة، بعين من وضعها على الأقل، ببلوزة تريكو عسكرية بسيطة وجريئة بالنسبة للباس العسكرية ولكنها تحمل كتاب التوراة مفتوحا وتقرأ بتمعن. طبعا ربما لا ترى سطرًا واحدًا أثناء التصوير المهم أنها تبدو علمانية متحررة تقرأ التوراة فى هذا اليوم. لا ندرى ماذا نفعل بكمية الرخص الذى فاض علينا من ثنايا الصحف الحرة، إلى أن وردت صورة تحمل ألف معنى من صحافة الجهة الأخرى: صورة لا يمكنك أن تقشرها لكثرة طبقات القشور ولكثرة طبقات الوهم والعوالم الافتراضية المتضمنة فيها. قادة السلطة الفلسطينية فى غزة يقصون شريطا(شريط فعلى، وقد حسبنا أن عادة الشريط والوسادة والمقص قد اختفت من الدنيا) يطلون برؤوسهم من فوق الشريط والمقص وحامله. تجمعوا وتصوروا لافتتاح مقر...مقر ماذا؟ مقر مركز البث الإعلامى المباشر الذى أعد خصيصاً لنقل أخبار فك الارتباط. على الصفحة الأولى. هل أنت معى عزيزى القارئ؟ يتم افتتاح مركز إعلامى من النوع الذى يقام فى بلدان مختلفة عند انعقاد قمة أو ألعاب رياضية دولية موسمية أو غيرها. ولكنه يفتتح هنا بمقص وشريط من قبل أعلى مستوى فى السلطة كأنه صرح وطنى أو منشأة صناعية أو ثقافية. وهو مقر للبث الإعلامى لتغطية الحدث. وللصورة هنا أكثر من مغزى. فمجمل ما قام به العرب هو رد فعل أو تفسير لخطوة شارون وذلك دون أن يسألهم أحد. ولم يهم شارون هل يحتفلون أم يحدون. قرروا اقتحام الدراما الإسرائيلية العالمية التى اخرجت وانتجت دون فلسطينيين ودون عرب بالاحتفالات. واختلفوا على سبب الاحتفال، هل السبب هو انتصار المقاومة أم انتصار عملية السلام. واتفق العالم معهم أن هنالك سبباً للاحتفال وأن عليهم أن يقابلوا الحداد الإسرائيلى واحتفالاتهم هم بتزويد العالم بسبب أو بأسباب للاحتفال من نوع «ضرب بنى الإرهاب التحتية». وتقرر الحكومة الإسرائيلية اليوم بناء الجدار حول معاليه ادوميم، ويقول الوزير العمالى رامون أن الإدارة الأمريكية تعارض بناءه ولكنها لن تفعل شيئا بعد فك الارتباط.

لم يسكب هذا الكم من القطر السكرى الدبق على صفحات الصحف فى دولة حديثة على ما اذكر، كما فى هذه الايام فى الصحف الاسرائيلية، ولم يتم استخدام هذا الكم من التعابير القومية المتعصبة من قبل اليمين واليسار حول حداد اليهود ومنع صراع الإخوة وحول حوار الاخوة.. حتى العرب فى أسوأ شطحاتهم الرومانسية القومية لم يعبروا عن رغبتهم فى إعادة إنتاج القبيلة على هذا النحو.



وأنا لا أضيع هنا سطرًا واحدًا حول وصف البيوت والمنازل وعملية الاقتلاع، فالكذب والعهر هنا لا يستحقان حتى التعليق، ولو جاء الكذب من ايلى فيزل المنافق الابدى (نيويورك تايمز ٢١ اغسطس ٢٠٠٥). (اقترح فى هذه المناسبة احتفاليا الغاء جائزة نوبل للسلام فهى خلافا لغيرها من جوائز نوبل جائزة نفاق لا أكثر ولا أقل). من المهم فقط ان نذكر أن الحديث هو عن مستعمرين ومستعمرات. واقدر أن المستعمرين فى الجزائر قد بكوا بعد جيلين، وطوروا حباً للإقليم الذى استعمروه. ورومانسية المستعمرين العنصريين معروفة فى أفريقيا. ولكن هؤلاء خلف الاسلاك الشائكة، بممارساتهم فى نفى المقيمين فى المكان والرغبة بالحلول مكانهم لم يتصفوا بأى رومانسية لا شكلاً ولا مضمونًا. وقبعوا خلف الاسلاك الشائكة والجدران والبنادق. أما السكان من حولهم فكانوا بأنفسهم لاجئين اقتلعوا من بيوتهم فى قرى ومدن الساحل الجنوبى لفلسطين التى تبعد كيلومترات معدودة عن مخيماتهم. هؤلاء هم الذين اقتلعوا من بيوتهم، وتفكيك المستوطنات على أهميته وضرورته لا يعوضهم عنها. ولكن الدراما التلفزيونية، بما فى ذلك عربيا، طمست هذه الصورة. وحتى عندما قيل الكلام عن تغييب الفلسطينيين، وعن أن هذه المعركة التى يقوم التلفزيون بتصويرها ليست المعركة الحقيقية، فإن الصور قد تكلمت لغة أخرى. لقد صور التلفزيون لعبة شارون ونقلها للعالم كأنها اللعبة الوحيدة فى المدينة، ولم تغير بعض التعليقات فى نقد هذه الصورة فى الصورة المبثوثة ذاتها: صورة «الثمن الباهظ» الذى يدفعه المجتمع الاسرائيلى، المواجهة بين الجنود والمستوطنين والتعاطف مع الجنود الباكين على مصير المستوطنين واضطرارهم أن يلبوا نداء الواجب، وصورة معاناة الجنود وضبط اعصابهم وانهيار هذه المجندة أو تلك بكاء اما من الحر أو من الكاميرات أو فعلا من

صور التلفزيون لعبة شارون ونقلها للعالم كأنها اللعبة الوحيدة فى المدينة، ولم تغير بعض التعليقات فى نقد هذه الصورة فى الصورة المبثوثة ذاتها: صورة «الثمن الباهظ» الذى يدفعه المجتمع الاسرائيلى



تزف لنا الصحيفة الليبرالية نبأ وصول السيدة افيتال فيرسكن الناطقة بلسان «جمعية رفاه القطط فى إسرائيل» إلى كديم لإنقاذ القطط فى مستوطنتى جاتيم وكاديم



منظر المستوطنات الباكيات أو النائحات أو العافرات السم بكل اتجاه.

وسياسيا فرزت الصورة كما خشينا وكأن الدنيا مقسومة بين خيارين أما شارون أو المستوطنين، والخشية أن يختار حتى العرب أحد المعسكرين للتعاطف.. والخوف أن يحاول عربى إثارة الإعجاب بالادعاء أن قلبه يكاد يخونه وهو يشاهد الباكين على رسم درس. وعند العربى ضعف للبكاء على الطلول منذ الأول الثانوى. والمصيبة أنه بدل أن تقاطع فضائية عربية وزارة الخارجية الاسرائيلية يحصل العكس. ولكثرة الطلب كان من ضمن من جهزتهم الخارجية الإسرائيلية للنطق فى الفضائيات العربية شاب بدوى خدم فى الجيش.

وفى خضم محاولتى تجنب رؤية هذا كله، ثم مراجعته قراءةً بعد أسبوع، وجدت نفسى مشدوهاً أمام اختفاء قعر المشهد الإعلامى تماماً، بحيث لا يقف التدهور عند حد، أو مستقر. انفخت القعر. انفزر القاع. انبعجت الارضية. (لم انجر عزيزى القارئ وراء مزاج لا يعبر عنه الا بالعامية. فمع أن فخت تستخدم للسقوف وليس للقيعان، وفزر للأقمشة والجلود، إلا أنها جميعا مصطلحات عربية فصحى كما وردت فى قاموس المحيط وفى تاج العروس). لم يبق لا قعر ولا قاع.

وهكذا نقرأ (هآرتس ١٤ اغسطس آب) أن «المدافعين عن الرفق بالحيوان اجتمعوا مع مسؤولين حكوميين لتطبيق خطتهم بشأن إنقاذ الحيوانات البيتية التى سوف تترك فى جوش قطيف. اسم المنظمة «نوح»، تيمنا كما يبدو بفلك نوح الذى بناه من خشب قطرانى كما جاء فى التوراة لإنقاذ زوج من كل دابة تدب على وجه البسيطة، أو زاحف يزحف على بطنه، أو ذى جناحين يطير فى السماء قبل أن يأتى عليها الطوفان.

وحسب أقوال رئيسة المنظمة شيلى جلوزمان لصحيفة هآرتس فإن مكتب رئيس الحكومة قد تبنى الخطة، وتابعت قائلة أن «هنالك مئات القطط وبضع عشرات من الكلاب يجب سحبها من القطاع وإلا فسوف تبقى دون ماء وطعام ومكان للعيش». المهم هنا أن كافة فئات الشعب ومؤسساته تساهم فى هذا الجهد الوطنى الكبير لإنقاذ الاخوة. وكأن القطط والكلاب لا يجوز ان تعيش عيشة الكلاب والقطط فى غزة المحررة. ومع ان النشيطة المذكورة لا تدرك عما تتحدث الا اننى مضطر مع ذلك للقول أنه لا حدود للسماجة. وقد نشرت اسوشيتيد برس (١٨ اغسطس آب) نبأ عن منظمة أخرى «شاى» ينتظر نشطاؤها من وزارة الأمن اذن دخول القطاع لإنقاذ الحيوانات. أما موقع منظمة «شاى» هذه فيصور نشيطات المنظمة مع الجنود والمجندات على حاجز ايرز فى صورة تاريخية قبل بدء حملتهم لإنقاذ الحيوانات التى سوف يتركها المستوطنون وراءهم.





ويوم ٢٣ آب، أغسطس تعود هآرتس مرة أخرى لتغطى أخبار منقذى الحيوانات المثاليين أولئك، توائم الجنود فى عملية إعادة كائنات حية أخرى إلى الوطن. وهذه المرة فى الضفة الغربية فى مستوطنة كديم. تزف لنا الصحيفة الليبرالية نبأ وصول السيدة افيتال فيرسكن الناطقة بلسان «جمعية رفاه القطط فى إسرائيل» إلى كديم لإنقاذ القطط فى مستوطنتى جاتيم وكاديم وقد عصرت هذه الخطوة النبيلة دموعاً من عينى المستوطنة مارتين اشجارى التى قالت إنها لم تعد تستطيع وحدها إطعام عشرين قطة تجمعت فى ساحة بيتها. والمهم والأهم أن الناطقة المدربة على النطق تقتبس الرمبام (رابى موشى بن ميمون) حكيم اليهودية وفيلسوفها الأول المعروف عربيا باسم موسى بن ميمون الذى كتب بالعربية والذى قال حسب المناضلة أعلاه أنه «لا فرق بين القسوة تجاه الحيوانات والقسوة تجاه البشر». وما زالت هنالك خمسون قطة فى جانيم، ومائة إلى مائتين فى كاديم، والمئات فى جوش قطيف. وتحتاج المنظمة إلى نصف مليون شاقل لتأمين مأوى لها. وقد أصدرت منظمات الرفق بالحيوان نداءات طالبت فيها الجمهور بتبنى الكلاب والقطط وأن تفسح مكانا لهؤلاء القادمين الجدد من المناطق التى تم الانسحاب منها. وعلى ذكر المساواة فى القسوة، لا تقدم الكلاب طلبات لم شمل ولا تطالب القطط بتصاريح أو إقامة مؤقتة أو دائمة وذلك دون أن تثبت يهوديتها. ويبقى أن نسأل لماذا لا يقيم العرب منظمات رفق بكلابهم وقططهم بحيث تصبح مناطقهم لائقة لسكن كلاب وقطط الأسياد، أو لكى تضاف منظمات جديدة إلى قائمة الجمعيات التى تجرى حوارا مع المنظمات الجارة؟ الكرة فى الملعب الفلسطينى لتقديم الجواب. على كل حال عدم وجود مثل هذه الجمعيات حاليًا وفر علينا بعض التراشق بالبيانات حول قدرتها ان ترفق بالحيوان لا أقل من زميلاتها الإسرائيليات، وأنها لا تفرق بين قطة وأخرى خلافا للمنظمات الاسرائيلية.. انظروا أعزائى القراء إلى نصف الكأس الممتلئ إذ لم نضطر للمرور بهذه التجربة.

إزاء طوفان الإعلام والفضائيات الحالى وتهديده لإبادة كل ما ليس صورة ذات بعد واحد أو ظلا لصورة، أرى ضرورة لفلك نوح جديد طراز ٢٠٠٥، وأن ندخل فيه زوجا من جمعيات الرفق بالإنسان وأن نختار زوجا على الأقل من الصحفيين المستقيمين لكى نحافظ على هذا الجنس من الطوفان أعلاه، وزوجا من المشاهدين الذين لا تنطلى عليهم الصور التليفزيونية الرائجة لإنقاذ هذا الجنس أيضاً، وزوجا ممن يرفضون قراءة مقال لخافير سولانا ويرفضون اعتبار جائزة نوبل للسلام مهمة ويرفضون المشاركة فى حفلات استقبالهم، وزوجا ممن لا يقرأون كبار الكتاب وهم يكتبون مقالا كلفتهم بكتابته صحيفة عشية وقوع حدث كبير، وزوجا ممن لا يعتبرون المشاركة فى حفل استقبال أمراً مهماً، وزوجاً من أصحاب المعد الحساسة الذين تثير فيهم تصريحات كوفى عنان فى مدح شارون الرغبة بالتقيؤ، وزوجا ممن يعتبرون النفاق والكذب حتى لو كانت مدفوعة الأجر صفات سيئة، وزوجا ممن لا يعتبرون النجاح بأى ثمن قيمة، وناساً طيبين آخرين. ■

إسرائيل: الطريق إلى "الأبارتهايد"

محمود محارب

■ كان العام ٢٠٠٤ عاماً مهما ومفصلياً في جملة المسائل الخاصة بالقضية الفلسطينية. ففي هذا العام بلور رئيس الوزراء الإسرائيلي أرئيل شارون خطة فك الارتباط من جانب واحد. وفيه أيضاً حصلت إسرائيل على إنجاز تاريخي، تمثل في رسالة الضمانات الأمريكية التي عبرت عن تغيير رسمي وخطير في السياسات الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية، وخاصة في قضايا الحدود والاستيطان واللاجئين. وفي هذا العام أيضاً توفي الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات، الذي قاد النضال الوطني الفلسطيني ما يربو على أربعة عقود، ووضع حركة التحرر الوطني الفلسطيني على عتبة إنشاء الدولة الفلسطينية.

ويتناول هذا المقال سياسة إسرائيل وممارساتها تجاه الفلسطينيين في هذا العام، ويتابع الشوط الذي وصلت إليه العلاقات الأمريكية الإسرائيلية وتأثير ذلك على الفلسطينيين.



في ٢٤ يونيو ٢٠٠٢ ألقى الرئيس الأمريكي جورج بوش خطاباً كشف فيه النقاب عن رؤيته لحل الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، وعبر عن تأييده لقيام دولة فلسطينية مستقلة تعيش بجانب إسرائيل بسلام وأمن. ومن أجل تحقيق ذلك طالب الرئيس الأمريكي بظهور «قيادة فلسطينية جديدة ومختلفة». ومن ثم بلورت الإدارة الأمريكية، انطلاقاً من رؤية بوش، من خلال «الرباعية» التي تضم كلاً من الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا والاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة، خطة «خارطة الطريق».

في أكتوبر ٢٠٠٢، عرضت الإدارة الأمريكية، بصورة غير رسمية، مشروع «خارطة الطريق»، على القيادتين الفلسطينية والإسرائيلية. وفي حين قبلت القيادة الفلسطينية خارطة الطريق دون تحفظ، قبلت الحكومة الإسرائيلية بقيادة شارون، الخطة من حيث المبدأ فقط، وقامت بنسف هذا القبول بإضافتها ما يزيد على مائة تعديل من حذف وإضافة وتغيير- تم تصنيفها تحت ١٤ تحفظاً.

في ١٤ نوفمبر ٢٠٠٤ أنهت الرباعية صياغة «خارطة الطريق»، بيد أنها لم تسلمها إلى القيادتين بصورة رسمية وبشكلها النهائي سوى في ٣٠ أبريل ٢٠٠٣، وذلك بسبب الحرب الأمريكية على العراق ولدوافع داخلية إسرائيلية.

استراتيجية شارون:

يعتبر شارون من أكثر القادة الإسرائيليين وضوحاً في التعبير عن أفكاره وآرائه السياسية وعن السياسة التي ينبغي على إسرائيل اتباعها لتحقيق أهدافها. ومنذ أن اعتلى سدة الحكم في إسرائيل، أكد أن الوقت لم يحن بعد لعقد سلام شامل مع الفلسطينيين، واقترح حلاً مرحلياً طويل الأمد يستمر فترة زمنية تربو على عقد ونصف العقد، وسعى لفرض هذا الحل على الشعب الفلسطيني. واجه شارون، كغيره من رؤساء الوزراء الذين سبقوه، معضلة أساسية فشلت إسرائيل في إيجاد حل لها منذ احتلالها للأراضي الفلسطينية في العام ١٩٦٧ وحتى الآن، وتنبع هذه المعضلة المزمنة من التناقض القائم بين المطلب الصهيوني في الضم من ناحية، والحفاظ على إسرائيل كدولة يهودية، من ناحية أخرى. فضم الأراضي الفلسطينية المحتلة يلغي على أرض الواقع إسرائيل كدولة يهودية ويحولها، موضوعياً، إلى دولة ثنائية القومية، يزداد عدد العرب الفلسطينيين فيها بنسبة عالية، ليصبحوا أغلبية كبيرة. أما الانسحاب من الأراضي المحتلة، فإنه يتناقض مع العقيدة الصهيونية.

في سياق تطبيق قناعته القائمة على رفض الانسحاب إلى حدود الرابع من يونيو ١٩٦٧، وإدراكه خطورة ما يطلق عليه صهيونياً «الخطر الديمغرافي»، سعى شارون إلى إقامة نظام فصل عنصري في فلسطين التاريخية. ووفق رؤيته، تنسحب إسرائيل من داخل قطاع غزة ومن ٤٢ بالمائة من الأراضي الفلسطينية المحتلة في العام ١٩٦٧، وفي المقابل تضم إسرائيل الأراضي الفلسطينية التي أقيمت عليها المستوطنات، وكذلك تضم ما أمكنها من مناطق أخرى في الضفة الغربية.

ورث شارون من سلفه باراك موقفاً معادياً للرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات وسياسة تستهدف فرض الإملاءات على الشعب الفلسطيني. فقد كان باراك قد اعتقد خطأً أن باستطاعته أن يملي حلاً على الشعب الفلسطيني وقيادته يضمن فيه تصفية القضية الفلسطينية وينهي الصراع العربي الإسرائيلي، بدون أن تنسحب إسرائيل انسحاباً كاملاً وشاملاً من الأراضي الفلسطينية المحتلة في العام ١٩٦٧، وبدون الاعتراف بحق العودة؛ حلاً دائماً يضمن استمرار وجود المستوطنين المستعمرين في القدس الشرقية، والضفة الغربية في «كتل استيطانية» يضمها إلى إسرائيل، ويضمن كذلك وجود قواعد عسكرية إسرائيلية في الضفة الغربية وسيطرة إسرائيلية على الأجواء والمياه الجوفية الفلسطينية؛ حلاً يضمن استمرار السيادة الإسرائيلية، وحيدة أو شريكة، على الحرم الشريف في القدس.

لقد أدخل باراك الأوهام في حزبه وفي اليسار الصهيوني والمجتمع الإسرائيلي بصورة عامة، أن بإمكانه فرض الحل على القيادة الفلسطينية في مؤتمر كامب ديفيد. وعندما فشل في فرض إملاءاته على القيادة الفلسطينية في مؤتمر كامب ديفيد، حمّل باراك الرئيس عرفات مسئولية فشل تحقيق أوهامه، وأخذ ينشر فكرة أن الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات لم يعد شريكاً في عملية السلام.

وتلقف شارون سياسة باراك تجاه الرئيس عرفات وجعلها تحتل المكانة المهمة في استراتيجيته العامة تجاه الشعب الفلسطيني. وفي هذا السياق شنت حكومة شارون، مدعومة من الإدارة الأمريكية، وفي ظل صمت أو تواطؤ عربي رسمي، حملة واسعة منظمة، وقحة وشرسة، ضد الرئيس الراحل، استمرت عدة سنوات، وهدفت إلى إضعاف الرئيس عرفات وإحداث تآكل مستمر في مكانته فلسطينياً وعربياً ودولياً لكي يسهل، في الوقت المناسب، إبعاده أو التخلص منه.

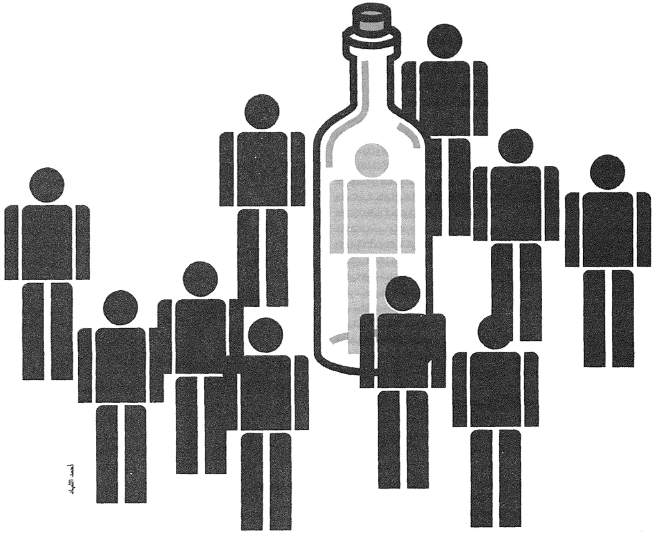
كررت هذه الحملة واجترت مقولات كثيرة أهمها: عرفات ليس شريكاً في عملية السلام، عرفات عقبة أمام تحقيق السلام وعرفات غير ذي صلة، ولا يوجد شريك فلسطيني لتحقيق السلام. وعلى أرض الواقع قامت سلطات الاحتلال الإسرائيلي بعمليات كثيرة بحق الرئيس الفلسطيني الراحل كان أهمها:

- في الثالث من ديسمبر من العام ٢٠٠١ فرض الجيش الإسرائيلي حصاراً



أدخل باراك الأوهام في حزبه وفي اليسار الصهيوني والمجتمع الإسرائيلي بصورة عامة، أن بإمكانه فرض الحل على القيادة الفلسطينية في مؤتمر كامب ديفيد. وعندما فشل في فرض إملاءاته على القيادة الفلسطينية في مؤتمر كامب ديفيد، حمّل باراك الرئيس عرفات مسئولية فشل تحقيق أوهامه





عسكرياً على الرئيس ياسر عرفات داخل مقره فى المقاطعة بمدينة رام الله، بمساندة وتأييد أميركى وصمت عربى رسمى.

- فى ٢٩ مارس ٢٠٠٢، وبعد ثلاثة أيام من منع الرئيس عرفات من المشاركة فى مؤتمر القمة العربية فى بيروت، شن جيش الاحتلال الإسرائيلى أوسع هجوم له على مقر الرئيس عرفات ودمر الجزء الأعظم من «المقاطعة»، ولم يبق سوى عدة مكاتب.

عشية العام ٢٠٠٤ نظم شارون أفكاره ورؤيته وعرضها رسمياً على الملأ فى خطابه فى مؤتمر هرتسيليا فى ١٨ ديسمبر ٢٠٠٣، والتى باتت تعرف باسم خطة فك الارتباط من جانب واحد.

ساهمت مجموعة من العوامل فى التأثير على شارون لطرح خطته، وأهمها: **أولاً:** خشيته من أن تواجه إسرائيل وضعاً يسعى فيه المجتمع الدولى إلى فرض حل على إسرائيل، مثل خارطة الطريق، أو المبادرة العربية أو غيرها من المبادرات. **ثانياً:** فشل إسرائيل فى كسر إرادة الشعب الفلسطينى وتواصل الانتفاضة الفلسطينية، وما تلحقه بإسرائيل من أذى منظور وغير منظور. **ثالثاً:** خشية شارون مما يعرف صهيونياً «بخطر المسألة الديمغرافية».

وقد جاءت هذه الخطة فى سياق استراتيجية شارون الساعية إلى شطب الاتفاقات السابقة وإلى كسر إرادة الشعب الفلسطينى وتركيعه وتغيير قيادته وإلى وقف المقاومة الفلسطينية بشقيها المسلح والشعبى، وتعزيز الاستيطان فى الضفة الغربية.

ساهمت مجموعة من العوامل فى نجاح شارون فى تجميد خطة خارطة الطريق وجعل خطته «اللعبة الوحيدة» فى المدينة، أبرزها:

أولاً: علاقات إسرائيل القوية والخاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية، فى عالم أحادى القطب تقوده أميركا.

ثانياً: حالة الضعف العربى، واحتدام الصراعات البينية وتعاظم المنافسة الدائرة فيما بينها على التقرب من الإدارة الأمريكية، لكسب رضاها وودها.

ثالثاً: عدم وجود معارضة إسرائيلية فى إسرائيل خارج إطار حزب الليكود واليمين المتطرف الإسرائيلى، وتبنى اليسار الصهيونى خطة شارون دون تحفظ ودون أن يطرح رؤية بديلة يناضل لتحقيقها.

رابعاً: عدم وجود استراتيجية نضالية فلسطينية واحدة تتفق على الهدف الذى يسعى الفلسطينيون لتحقيقه، وتحديد وسائل النضال التى يتوجب اتباعها لتحقيق هذا الهدف.

كان من المفروض أن تواجه خطة فك الارتباط من جانب واحد معارضة من واضعى خطة خارطة الطريق، أو من أوروبا أو من الدول العربية، بيد أن هذا لم يحدث. فبعد فترة تردد قصيرة، دخلت واشنطن فى مفاوضات طويلة مع شارون حول خطته. وسرعان ما تمحورت المفاوضات حول الثمن الذى ستدفعه الإدارة الأمريكية للطرف الذى يجمد خطتها، خطة خارطة الطريق، ويضعها على الرف، ويستبدلها بخطة متضاربة معها.

ومن المفارقات أن العقبة الأساسية التى وقفت أمام خطة فك الارتباط تمثلت فى المعارضة القوية والفعالة داخل إسرائيل وبالذات داخل حزب الليكود الحاكم واليمين المتطرف الإسرائيلى. وفى ظل تبنى خطة شارون دولياً وإقليمياً لم يبق أمام صاحب الخطة سوى أن يمررها عبر عدة محطات مركز حزب الليكود، كتلة حزب الليكود فى الكنيست، الحكومة الإسرائيلية والكنيست. وفى كل محطة من محطات هذه الخطة واحتدام الصراع حولها بين مؤيد ومعارض كان شارون يعزز مكانته على الصعيدين الإقليمى والدولى كرجل «سلام». ليس هذا فحسب، ففى كثير من الأحيان تجندت بعض الدول فى المنطقة والولايات المتحدة الأمريكية لتمرير خطته إسرائيلياً.

خطاب شارون فى هرتسليا

عشية خطاب شارون فى مؤتمر هرتسليا فى ١٨ ديسمبر ٢٠٠٣، الذى طرح فيه خطة فك الارتباط من جانب واحد، عقدت لقاءات كثيرة ومكثفة فى واشنطن وتل أبيب بين القيادتين الإسرائيلية والأمريكية. هدفت إسرائيل من ورائها الحصول على تأييد وغطاء أمريكى لخطواتها أحادية الجانب، كما أرادت إسرائيل التوضيح

للإدارة الأمريكية أن الخطوات أحادية الجانب المزمع اتخاذها لا تتناقض مع خارطة الطريق وإنما هى بمثابة خطوات أمنية فقط وليست سياسية.

اختار شارون أن يطرح أفكار خطة فك الارتباط من منصة مؤتمر هرتسليا، وهو المؤتمر الذى بات منذ سنوات عديدة العنوان الأهم لتطرح النخب الإسرائيلية برامجها وخططها وأفكارها من خلاله. ويمكن إيجاز أهم النقاط التى وردت فى خطاب شارون كالتالى:

١ ـ لا تزال إسرائيل متمسكة بخارطة الطريق.

٢ ـ تشترط إسرائيل «وقف الإرهاب» قبل التقدم بأية خطوة فى تنفيذ خارطة الطريق، وتشترط كذلك القضاء على منظمات «الإرهاب» وإجراء إصلاحات فى السلطة الفلسطينية.

٣ ـ إنذار الفلسطينيين بأنهم إذا لم يقوموا باجتثاث «البنية التحتية للإرهاب» وإجراء إصلاحات شاملة، فإن إسرائيل ستبادر خلال شهور معدودة، إلى القيام بخطوات أحادية الجانب لفك الارتباط، وهى خطوات أمنية محضة وليست سياسية.

٤ ـ يشمل فك الارتباط أحادى الجانب، الذى ستقوم به إسرائيل، إعادة انتشار جديدة للجيش الإسرائيلى فى «خط أمنى» فى الأراضى الفلسطينية، وكذلك يشمل إخلاء مستوطنات. أما المستوطنات التى سيتم نقلها فهى تلك «التى لن تكون داخل إسرائيل فى أى حل دائم مستقبلى، يتم التوصل إليه». ومقابل ذلك ستعزز إسرائيل سيطرتها على أجزاء من الأراضى الفلسطينية المحتلة «التى ستكون جزءاً لا يتجزأ من دولة إسرائيل فى أى حل دائم مستقبلى».

٥ ـ ستسرع إسرائيل فى بناء جدار الفصل بوتيرة عالية.

٦ ـ ستنسق إسرائيل خطواتها أحادية الجانب مع الولايات المتحدة الأمريكية.

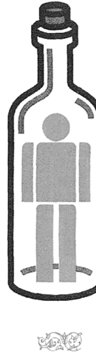
٧ ـ ستزيل إسرائيل المستوطنات العشوائية غير القانونية، وستلتزم كذلك بتجميد الاستيطان وفق التفاهمات مع الولايات المتحدة الأمريكية.

٨ ـ تهدف الخطة إلى الحصول على أعلى درجة من الأمن للإسرائيليين، وأقل درجة احتكاك مع الفلسطينيين.

من الملاحظ أن ردود فعل الإدارة الأمريكية الأولية على خطاب شارون كانت فاترة للغاية، وذلك على الرغم من الاتصالات الإسرائيلية الأمريكية المكثفة قبل إلقاء الخطاب. وقد ركزت ردود الفعل الأمريكية هذه على تأكيد شارون تمسكه بخارطة الطريق وعلى إخلاء المستوطنات العشوائية وعلى التسهيلات الموعودة للفلسطينيين. ووفق المحلل السياسى لصحيفة «هآرتس»، ألوف بن، اعتقد كبار المسئولين الأمريكيين أن خطة شارون جاءت لاستهلاك سياسى إسرائيلى داخلى.

واتسم موقف الإدارة الأمريكية بالتلكؤ والتردد فى الأسابيع الأولى التى

إسرائيل والإبارتهايد



بدأت مفاوضات مكثفة بين الجانبين ليس على خارطة الطريق وإنما على خطة فك الارتباط من جانب واحد، وذلك وفق أجندة شارون ووفق شروطه البعيدة جداً عن خارطة الطريق التى استطاع أن يجمدها



تلت خطاب شارون، إلا أن هذه الإدارة أبدت موقفاً حاسماً وقامت بتنسيق واسع مع إسرائيل بخصوص جدار الفصل العنصرى. واحتل موضوع جدار الفصل وطرحه على محكمة العدل الدولية فى لاهاى، الأولوية العليا فى العلاقات الإسرائيلية ـ الأمريكية. فقد جرت مشاورات واجتماعات تنسيقية بين الجانبين لتلافى الأضرار التى قد يلحقها قرار المحكمة الدولية، ليس فقط بإسرائيل وإنما أيضاً بالولايات المتحدة الأمريكية. إذ خشيت الإدارة الأمريكية من وصول قضايا ذات صلة بأمريكا إلى محكمة لاهاى كاحتلالها للعراق أو كانتهاكاتها لحقوق الإنسان فى معسكر غوانتانامو. ولإدراك إسرائيل مخاوف الإدارة الأمريكية من هذا الأمر سعت إلى تجنيد الأخيرة وتشجيعها لوضع كل ثقلها فى معارضة بحث قضية الجدار أمام محكمة العدل الدولية فى لاهاى.

حاولت إسرائيل الطعن فى صلاحية محكمة العدل الدولية فى هذه القضية، مدعية أنها قضية سياسية وليست قانونية، الأمر الذى لقى دعم الإدارة الأمريكية. وفى هذا السياق جرت اجتماعات بين دوف فايسغلاس وكونداليسا رايس، وكذلك بين المستشار القضائى لوزارة الخارجية الإسرائيلية ألن بيكر، ونظيره فى وزارة الخارجية الأمريكية وليام تابت، بالإضافة إلى لقاءات أخرى بين كبار المسئولين فى الدولتين. وقد أشار الجانب الأمريكى خلال هذه اللقاءات، بشكل لا يدع مجالاً للشك، إلى أن الولايات المتحدة تعارض بشدة طرح قضية جدار الفصل على محكمة العدل الدولية، وأنها ستنسق مع إسرائيل الوسائل والإجراءات المناسبة التى يتوجب اتباعها.

وفى فبراير ٢٠٠٤ أخذت الإدارة الأمريكية تبدى اهتماماً ملحوظاً ومتزايداً بـ «خطة فك الارتباط من جانب واحد»، إذ أرسلت العديد من المسئولين للوقوف على تفاصيل الخطة ومضامينها وتأثيراتها السياسية. وفى ١٨ فبراير ٢٠٠٤ وصل ستيف هدلى واليوت ابرامز من البيت الأبيض، ووليام بيرنز من وزارة الخارجية إلى إسرائيل، بهدف تطوير مفهوم مشترك بين الطرفين حول خطة فك الارتباط وللإلمام بالجدول الزمنى لتنفيذ هذه الخطة. ويبدو أن الإدارة الأمريكية، بعدما رجحت، أو تيقنت، أن شارون مصر على المضى قدماً فى تنفيذ ما طرحه فى خطابه، حسمت أمرها ودخلت فى مفاوضات مع القيادة الإسرائيلية حول الخطة. وبمجرد تجاوب الإدارة الأمريكية مع خطة فك الارتباط والشروع بالتفاوض حولها، أحرز شارون إنجازاً سياسياً حقيقياً كان من الصعب تصوره قبل ذلك ببضعة شهور. فقد بدأت مفاوضات مكثفة بين الجانبين ليس على خارطة الطريق وإنما على خطة فك الارتباط من جانب واحد، وذلك وفق أجندة شارون ووفق شروطه البعيدة جداً عن خارطة الطريق التى استطاع أن يجمدها بعد أن جر الولايات المتحدة إلى رؤيته بعيداً عن الرؤية الدولية التى تمثلت فى تلك الخطة. وعلى ضوء هذا الموقف الجديد، استمرت المفاوضات أسابيع طويلة حول خطة فك الارتباط من جانب واحد، وحول الثمن الذى ستقدمه الولايات المتحدة لإسرائيل مقابل تنفيذها.

فى السادس والعشرين من فبراير ٢٠٠٤ تبين من تسريبات الإدارة الأمريكية لصحيفتى «واشنطن بوست» و«نيويورك تايمز» أنها تؤيد خطة شارون ولكن فى الوقت ذاته لم يكن واضحاً فى ما إذا كانت هذه الإدارة ستتسامح مع إسرائيل فى عدة قضايا أهمها: البناء فى الكتل الاستيطانية الكبيرة، عدم تفاوض شارون مع الفلسطينيين، وهل ستلتزم الإدارة بعدم طرح خطط سياسية بديلة لخطة شارون ما دام عرفات على رأس السلطة الفلسطينية.

رسالة الضمانات الأمريكية

تمحورت المفاوضات الإسرائيلية الأمريكية، أساساً، حول مضامين رسالة الضمانات الأمريكية، وأحرزت إسرائيل إنجازاً تاريخياً مهماً فاق جميع التوقعات، بما فى ذلك توقعات الإسرائيليين أنفسهم. فقد استجاب الرئيس الأمريكى جورج بوش فى رسالة أرسلها إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى، على شكل بيان رئاسى، لمعظم المطالب الإسرائيلية، إن لم يكن كلها. ويمكن إيجاز النقاط المركزية فى رسالة الضمانات كالتالى:

١ ـ تبنت رسالة الضمانات خطة فك الارتباط من جانب واحد، ووضعتها على رأس الأجندة السياسية لسنوات طويلة، وجعلتها عملياً، وإن لم يكن رسمياً، الخطة الوحيدة القائمة على الساحة، والمفروضة على جميع الأطراف المحلية والإقليمية والدولية للتعاطى معها، وبذلك، جمدت خارطة الطريق وحولتها إلى جسم محنط تبث الروح فيه فقط من أجل منع طرح مشاريع أخرى. فقد التزم الرئيس الأمريكى بأن الولايات المتحدة ستبذل كل ما فى وسعها لمنع أية محاولة من قبل أى كان لفرض خطة أخرى.

٢ ـ احتل موضوع الإرهاب ومكافحة الإرهاب المكانة الأولى، بديلاً عن الاحتلال والسعى لإزالته. جاء فى رسالة الضمانات أنه على القيادة الفلسطينية أن تقف بحزم ضد الأعمال الإرهابية بما فيها القيام بعمليات مؤثرة ومستمرة من أجل وقف الإرهاب وتفكيك بنيته التحتية وقدراته. ولكى لا يترك مجال للنقاش حول معنى الإرهاب والفرق بينه وبين المقاومة المسلحة، شددت رسالة الضمانات على أنه يجب على الفلسطينيين التوقف عن القيام بأعمال

عسكرية وجميع أشكال العنف ضد الإسرائيليين فى أى مكان. كذلك أكدت الرسالة على أنه لن يتمتع الإسرائيليون والفلسطينيون بالأمن ما لم يجتمعوا هم وكافة الدول فى المنطقة ويوحدوا جهودهم لمحاربة الإرهاب ويفككوا المنظمات الإرهابية.

٣ ـ تعهد بوش أنه فى أية تسوية سلمية يتوجب أن تكون لإسرائيل حدود آمنة ومعترف بها وأن تكون ناجمة عن مفاوضات بين الأطراف استناداً لقرارى مجلس الأمن ٢٤٢ و ٣٣٨، وفى ضوء الحقائق الجديدة على الأرض، وخاصة وجود المراكز السكانية الإسرائيلية الرئيسة القائمة بالفعل، فإن من غير الواضح أن نتوقع أن تسفر مفاوضات الحل الدائم عن العودة الكاملة والشاملة إلى خطوط الهدنة لعام ١٩٤٩. برر جورج بوش موقفه هذا بقوله إن كل جهود التفاوض السابقة بشأن إيجاد حل على أساس الدولتين توصلت إلى نفس النتيجة.

٤ ـ رفض بوش فى البيان الرئاسى حق اللاجئين الفلسطينيين فى العودة إلى ديارهم داخل حدود إسرائيل، وتبنى الموقف الإسرائيلى بالكامل بصورة جلية وواضحة، حيث ذكر أن الولايات المتحدة ملتزمة بقوة بأمن إسرائيل ورفاهيتها كدولة يهودية. ومن زاوية يهودية دولة إسرائيل ذكر بوش أنه من الواضح أنه فى إطار حل متفق عليه، وعادل وواقعى لمسألة اللاجئين الفلسطينيين، وكجزء من أى حل دائم، فإن هذا الحل سيتحقق من خلال إنشاء دولة فلسطينية وتوطين اللاجئين الفلسطينيين فيها وليس فى إسرائيل.

٥ ـ لم يعارض البيان الرئاسى إنشاء جدار الفصل، وقبل تعهد حكومة إسرائيل أن يكون الجدار أمنياً، بدلاً من جدار سياسى، وأن يكون مؤقتاً بدلاً من دائم، وألا يلحق ضرراً بقضايا الوضع النهائى بما فى ذلك الحدود النهائية.

٦ ـ تضمن البيان الرئاسى المطالبة بأن تكون لإسرائيل حدود آمنة ومعترف بها وكذلك بحدود ذات مقدرة للدفاع عنها، وهى المرة الأولى أيضاً التى تقبل الولايات المتحدة تبنى مثل هذه الصيغة.

وثيقة فك الارتباط من جانب واحد

جاءت وثيقة فك الارتباط على شكل رسالة وجهها شارون إلى بوش فى ١٤ أبريل ٢٠٠٤. أكد شارون فى ديباجة الوثيقة أن إسرائيل ملتزمة بالعملية السلمية وتتطلع نحو تسوية متفق عليها، على قاعدة مبدأ دولتين لشعبين: دولة إسرائيل كدولة للشعب اليهودى ودولة فلسطينية للشعب الفلسطينى. ويبرر شارون فك الارتباط من جانب واحد بقوله أن إسرائيل توصلت إلى الاستنتاج بأنه ليس ثمة شريك فلسطينى اليوم يمكن التقدم معه فى عملية سلمية متبادلة. وأكد أن الخطة ليست مشروطة بتعاون فلسطينى وأنها ستنقل إسرائيل إلى واقع أمنى أفضل. وأوضح أن إسرائيل ستنسحب من قطاع غزة ومن أجزاء فى شمال الضفة الغربية، وأنه فى حين «لن تكون هناك مستوطنات إسرائيلية فى قطاع غزة فى أية تسوية نهائية فإنه بالمقابل، من الواضح أنه ستبقى فى يهودا والسامرة مناطق تشكل جزءاً من دولة إسرائيل، بما فى ذلك مستوطنات مدنية ومناطق أمنية وأماكن لإسرائيل مصالح أخرى فيها». وأضاف شارون أن خطة فك الارتباط «تسحب البساط من تحت أقدام المزاعم الموجهة ضد إسرائيل بشأن مسئوليتها عن الفلسطينيين فى قطاع غزة». واختتم شارون الديباجة بادعائه أن «خطة فك الارتباط لا تمس بالاتفاقات القائمة بين إسرائيل والفلسطينيين» وأنه «عندما تتوافر فى الجانب الفلسطينى قرائن على استعداد، وقدرة وتنفيذ فعلى لمحاربة الإرهاب وإجراء الإصلاحات وفق خارطة الطريق، عندئذ يمكن العودة إلى مسار المفاوضات والحوار» وفى شرحه لأسس الخطة أكد شارون أن إسرائيل ستخلى قطاع غزة، بما فى ذلك المستوطنات القائمة، باستثناء خط الحدود بين قطاع غزة ومصر، وأضاف أنه عند انتهاء عملية الانسحاب من قطاع غزة «لن يكون هناك أساس للزعم بأن قطاع غزة هو منطقة محتلة». وفيما يخص إعادة الانتشار فى الضفة الغربية، ذكر شارون أن «إسرائيل ستخلى منطقة فى شمالى السامرة (مستوطنات غانيم، كاديم، حومش، وسانور) وجميع المنشآت العسكرية الثابتة فى هذه المنطقة».

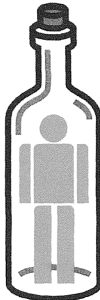
وبالنسبة لجدار الفصل، أكد شارون أن إسرائيل ستواصل بناءه وفق قرارات الحكومة ذات الصلة، وسيأخذ المسار بالحسبان الاعتبارات الإنسانية».

الواقع الأمنى بعد الإخلاء

بعد أن تنسحب إسرائيل من داخل قطاع غزة، فإنها ستحاصره براً وبحراً وجواً وفق خطة فك الارتباط. فقد جاء فى الوثيقة أن إسرائيل «ستشرف وتحافظ على الغلاف الخارجى البرى، وستسيطر بشكل حصرى على المجال الجوى لغزة، وستواصل إجراء نشاطات عسكرية فى المجال البحرى لقطاع غزة». علاوة على ذلك فإن قطاع غزة، وفق الخطة «يتوجب أن يكون منزوعاً من السلاح الذى لا يتوافق وجوده مع الاتفاقات القائمة»، كذلك ستحتفظ إسرائيل لنفسها «بحق الدفاع عن النفس، بما فى ذلك القيام بالخطوات الوقائية والرد «واستخدام القوة ضد الأخطار التى تنشأ داخل قطاع غزة».

وفيما يخص الضفة الغربية، كرر شارون «حق إسرائيل فى الدفاع عن النفس» «وحق الرد» «وحق استخدام القوة ضد الأخطار التى تنشأ فى المنطقة المخلاة». أما فى باقى مناطق الضفة فقد أكد أن «العمليات الأمنية الجارية، ستتواصل، ووعد فى الوقت ذاته أن تعمل إسرائيل على تقليص نقاط التفتيش فى عموم الضفة.

إسرائيل والأبارتهايد





أحرزت إسرائيل إنجازا تاريخيا مهما. فقد استجاب بوش فى رسالة أرسلها إلى شارون، لمعظم المطالب الإسرائيلية، إن لم يكن كلها



تمنح خطة فك الارتباط أربع دول دوراً أمنياً، هى الولايات المتحدة وبريطانيا ومصر والأردن. فبعد أن تحصل هذه الدول على موافقة إسرائيل وبعد التنسيق معها، يسمح لها بمساعدة وتدريب قوات الأمن الفلسطينية، «بغرض محاربة الإرهاب والحفاظ على الأمن العام». وشملت خطة فك الارتباط ألا يكون هناك وجود أمنى فى الضفة والقطاع لأية دولة من دون التنسيق مع إسرائيل والحصول المسبق على موافقتها.

وفى ما يخص منطقة حدود قطاع غزة مع مصر، تؤكد الخطة على استمرار الوجود العسكرى الإسرائيلى على طول هذه الحدود (محور فيلادلفى وفق التسمية الإسرائيلية)، وتشير إلى إمكانية توسيعها، الأمر الذى قد يعنى هدم مئات بل آلاف المنازل الفلسطينية. ولم تستثن الخطة أن تقوم إسرائيل بإخلاء المنطقة الحدودية المذكورة، بيد أنها ربطت ذلك واشترطته بالواقع الأمنى وبمقدار التعاون المصرى فى خلق تسوية مأمونة أخرى. وتضيف الخطة انه عندما تنشأ الظروف لإخلاء هذه المنطقة ستكون إسرائيل على استعداد لفحص إمكانية إقامة ميناء بحرى ومطار فى قطاع غزة، وفقاً للترتيبات التى ستتقرر مع إسرائيل.

وفى ما يخص الأملاك الثابتة فى المستوطنات الإسرائيلية بعد الانسحاب منها تقترح الخطة إقامة هيئة دولية، بموافقة إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، تكون مهمتها تسلم الملكية على هذه المستوطنات، حيث ستبقى هذه الملكية تحت إشراف تلك الهيئة، وتقدير عموم الأملاك يقع ضمن مهمات الهيئة أيضاً. والهدف من ذلك احتفاظ إسرائيل لنفسها بحق المطالبة بأخذ القيمة الاقتصادية للأملاك التى ستبقى فى المنطقة بالحسبان. وبالنسبة للبنى التحتية والترتيبات المدنية، تؤكد الخطة أن البنى التحتية للمياه والكهرباء والمجارى والاتصالات، التى تخدم الفلسطينيين ستبقى، وان إسرائيل ستسمح باستمرار تزويد الفلسطينيين بالكهرباء والمياه والغاز والوقود وفق الترتيبات القائمة. كذلك تؤكد الخطة أن الترتيبات الاقتصادية السارية حالياً بين إسرائيل والفلسطينيين ستبقى على ما هى عليه، وتشمل حركة العمال والبضائع والنظام المالى والضرائب والنظام الجمركى والبريد والاتصالات.

وبخصوص المنطقة الصناعية إيرز، الواقعة فى أقصى شمال قطاع غزة، تشترط الخطة إبقاءها على ما هى عليه بشرطين: إجراء



ترتيبات أمنية مناسبة، واعتراف صريح من الأسرة الدولية بأن استمرار وجود المنطقة الصناعية بشكلها الحالى، «لن يعتبر استمراراً للسيطرة الإسرائيلية على المنطقة». على أية حال لم تنتظر حكومة إسرائيل تحقق شرطيها، وقررت إخلاء المنطقة الصناعية ونقلها إلى مناطق عديدة داخل إسرائيل، فى أعقاب حدوث عمليات فدائية فى المنطقة الصناعية.

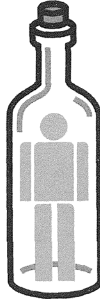
وبما يخص معبر إيرز، الواقع داخل قطاع غزة فى أقصى شماله، تؤكد الخطة أن هذا المعبر سينقل إلى داخل الأراضى الإسرائيلية فى جدول زمنى محدد. أما بخصوص المعابر الدولية، بين قطاع غزة ومصر وبين الضفة الغربية وشرق الأردن، فتؤكد الخطة أن الترتيبات القائمة ستبقى سارية المفعول. وتشير الخطة إلى أن إسرائيل معنية بنقل معبر رفح الواصل بين قطاع غزة ومصر، إلى نقطة المثلث الحدودى بين قطاع غزة ومصر وإسرائيل، وذلك بعد التنسيق مع مصر. أما بالنسبة للجدول الزمنى لتنفيذ خطة فك الارتباط، فمن المقرر، وفق الخطة، أن تنجز حتى نهاية العام ٢٠٠٥. وتستخلص الوثيقة فى النهاية أن إسرائيل تتوقع دعماً واسعاً لخطة فك الارتباط وهذا الدعم حيوى من أجل دفع الفلسطينيين لتنفيذ المطلوب منهم عملياً فى مجال مكافحة الإرهاب وتنفيذ الإصلاحات وفق خارطة الطريق.

خطة فك الارتباط

فى أعين أصحابها

فى أكتوبر ٢٠٠٤، كشف مهندس خطة فك الارتباط ومبلور العلاقات الإسرائيلية الأمريكية بخصوص خطة فك الارتباط الدوافع الكامنة وراء طرح الخطة والأهداف المرجوة منها، وذلك فى حوار طويل أجرته معه صحيفة «هآرتس». فقد ذكر فايسغلاس أن هدف الخطة التصدى للخطط السياسية المطروحة وتجميدها وطرح الإرهاب على أنه المشكلة الأساسية، وتجسيد الادعاء الإسرائيلى أنه لا يوجد شريك فلسطينى ووقف «التنازلات» الإسرائيلية. وحول سؤال ما هى أهمية فكرة فك الارتباط أجاب فايسغلاس: فك الارتباط هى..... زجاجة الفورملين التى تدخل داخلها رؤية الرئيس كى تتجمد فترة طويلة جداً. خطة فك الارتباط هى فى الحقيقة فورملين. انها تزود كمية الفورملين المطلوبة كى لا تكون هناك مسيرة سلمية مع الفلسطينيين... انها تمكن إسرائيل من الوقوف براحة فى حالة مرحلية يتم خلالها إبعاد أى ضغط سياسى قدر الإمكان. انها تمنح شرعية لادعائنا أنه لا تفاوض مع الفلسطينيين. يوجد هنا قرار أن نفعل الحد الأدنى المطلوب من أجل الحفاظ على وضعنا

إســــرائيل والأبارتهــــايد





رفض بوش فى البيان الرئاسى حق اللاجئين الفلسطينيين فى العودة إلى ديارهم داخل حدود إسرائيل، وتبنى الموقف الإسرائيلى بالكامل بصورة جلية وواضحة



السياسى، وهذا القرار يثبت نفسه. انه يمكن الأمريكيين من مخاطبة العالم الهائج والمائج والقول له ماذا تريدون؟ ماذا تريدون؟ كما أنها ترغم العالم على العمل بفكرتنا نحن، بالسيناريو الذى كتبناه نحن. انها تضع الفلسطينيين تحت ضغط عظيم. انها تزج بهم فى زاوية يكرهون أن يوضعوا بها...»

الممارسات الإسرائيلية

جدار الفصل

تعود فكرة بناء جدار فاصل بين الضفة الغربية وبين إسرائيل إلى سنين عديدة مضت، إلا أن التفكير بشكل جدى وعملى لبناء جدار فاصل بدأ فى ولاية حكومة رابين، إذ طلب رابين من وزير الشرطة فى حكومته، موشيه شاحال، إعداد خطة مفصلة لبناء سور فاصل بين الضفة الغربية وإسرائيل ليس بهدف محاربة المقاومة الفلسطينية، إنما بهدف رسم حدود سياسية. وزير الأمن فى تلك الحكومة، اسحق مردخاى، أبدى معارضة شديدة لتلك الخطة، ما أدى إلى تجميدها وحذفها من جدول أعمال الحكومة.

فى العام ٢٠٠١، وجراء اندلاع انتفاضة الأقصى وتزايد العمليات داخل الخط الأخضر، أسس عضو الكنيست عن حزب العمل، حاييم رامون، حركة داخل صفوف حزبه بهدف إعادة إحياء فكرة إقامة جدار فاصل، وأدرجت حكومة باراك هذا الموضوع على جدول أعمالها، فأقامت لجاناً مختصة لدراسة وتخطيط بناء الجدار. ولكن تقديم موعد الانتخابات العامة، عام ٢٠٠١، اجل النظر فى الموضوع.

يقسم جدار الفصل الضفة الغربية إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: منطقة أمنية شرقية على طول الغور بمساحة ١٢٣٧ كيلومترا مربعا، أى ما يعادل ٢١,٩٪ من مساحة الأراضى الفلسطينية، وتضم هذه المساحة ٤٠ مستوطنة إسرائيلية. القسم الثانى: منطقة أمنية غربية بمساحة ١٣٢٨ كيلو مترا مربعا، أى ما يعادل ٢٣,٤٪ من مساحة الأراضى الفلسطينية، وهذا يعنى أن كلتا المنطقتين ستضمان ٤٥,٣٪ من مساحة الأراضى الفلسطينية. أما المنطقة الثالثة والتى تبلغ ٥٤,٧٪ من الأراضى الفلسطينية والتى تضم المدن الفلسطينية الكبرى، فستقسم إلى ٨ مناطق و٦٤ معزلاً (غيتو) فلسطينياً. أى ما تم الحديث عنه من قبل حكومة شارون، وبتأييد أمريكى لإعطاء دولة مؤقتة للفلسطينيين على مناطق «ا وب».

وفقا لتقديرات الجيش الإسرائيلى، ستبلغ تكلفة الجدار ١,٨ مليار شيكل، بتكلفة ١٠ ملايين شيكل للكيلومتر الواحد.

سيتكون الجدار من العناصر التالية:

أسلاك شائكة لولبية، وهى أول عائق فى بعض الأراضى من الجدار.

خندق بعرض أربعة أمتار فى بعض الأراضى وعمق خمسة أمتار، يأتى مباشرة عقب الأسلاك.

شارع اسفلتى بعرض ١٢ متراً، بغرض عمليات المراقبة والاستطلاع.

يليه شارع مغطى بالتراب والرمل الناعم بعرض ٤ أمتار لكشف آثار المتسللين.

ثم الجدار، وهو جدار اسمنتى يعلوه سياج معدنى إلكترونى بارتفاع أكثر من ثلاثة أمتار، مركب عليه أجهزة إنذار إلكترونية وكاميرات وأضواء كاشفة.

وتوجد هذه المنشآت نفسها فى الجانب الآخر للجدار.

خططت إسرائيل لبناء الجدار على ثلاث مراحل أساسية: المرحلة الأولى (ا)، تمتد بطول حوالى ٣٦٠ كلم، من قرية سالم أقصى شمال الضفة الغربية حتى بلدة كفر قاسم جنوبا. المرحلة الثانية (ب) تمتد على طول ٤٥ كلم تقريبا من قرية سالم وحتى بلدة تياسير على حدود غور الأردن. أما المرحلة الثالثة (ج)، فتمتد من مستوطنة «الكنا» حتى منطقة البحر الميت، وسيفصل الجدار فى مرحلته الثالثة بين غور الأردن وتجمعات المواطنين الفلسطينيين فى قرى ظهر الجبل.

المرحلة (ا)

فى أواخر عام ٢٠٠٣ تم الانتهاء من بناء المرحلة (ا)، حيث التف الجدار حول جنين، طولكرم، قلقيلية (الأكثر تضررا) واقترب من سلفيت حيث انتهى فى قرية مسحة شمال غربى سلفيت.

المرحلة (ب)

المرحلة الثانية فى بناء الجدار تحيط بالجانب الشرقى من محافظات جنين إلى طوباس، وبالتحديد من قرية زبوبا شمال جنين إلى حاجز تياسير شرق طوباس. ويمتد طول الجدار فى هذه المرحلة ٤٥ كلم. المرحلة الثانية تشمل أيضاً بناء جدار حول مدينة القدس المحتلة. مسار الجدار حول القدس يرسم خارطة جديدة للمدينة. ويظهر من الخرائط أن الهدف الأساسى وراء رسم هذا المسار هو «خنق» الأحياء الفلسطينية داخل ممر ضيق محاط بالأحياء اليهودية الجديدة. وسوف يسد الجدار الفراغات الإسكانية بين الأحياء اليهودية إلى أن تقوم وزارة الإسكان الإسرائيلية بملئها بأحياء يهودية جديدة. يفصل الجدار بين القدس الشرقية وبين الضفة الغربية، ويعزل بذلك ٣٠٠ ألف مواطن فلسطينى مقيم فى منطقة القدس عن باقى الضفة. الـ

٣٠٠ ألف فلسطيني المقيمون في منطقة القدس في الجانب الإسرائيلي من الجدار يشملون ٥٠ ألفاً من سكان الضفة الغربية.

خط مسار الجدار في القدس يفصل جبل جيلو عن الضفة الغربية ويضمه إلى القدس. من هناك يرسم الجدار تواصلا جغرافيا إسرائيلياً حتى جبل أبو غنيم. وشمالاً يقطع الجدار حي صور باهر، بعد ذلك يمتد ليحاصر حي الشيخ سعد وعرب السواحرة الخاضعة لسلطة بلدية القدس. ويمتد الجدار ليقطع قرية أبو ديس قاطعا في بعض الأحيان حدائق وحواكير البيوت وفاصلا بين بيوت أفراد العائلة الواحدة وقاطعا بعض الشوارع عرضا.

المرحلة الثالثة (ج)

تمتد المرحلة الثالثة من قرية مسحة التي انتهت عندها المرحلة الأولى لتحيط بقرى الساوية ودير بلوط ولتمتد شرقا إلى قرى بديا، صرطا، قراوة بني حسان إلى الشمال الغربي من سلفيت، إلى الشمال في عزون، ولتمتد إلى أعلى الشمال لتصل إلى كفر قدوم فشرقا قليلا إلى قوصين، فالجنوب الشرقي إلى دير استيا ثم شرقا إلى كفل حارس إلى شمال مستوطنة ارئيل. يحيط المستوطنة الأخيرة جدار لم يكتمل نهائيا، وفي حال اكتماله فإنه سيشكل إصبعاً حقيقيا ومرئيا في خاصرة الضفة الفلسطينية، كما سيعزز العزل الذي فرضه على القرى والبلدات التي أصبحت إلى الداخل منه.

تواصل المرحلة الثالثة، وهي الأطول في الجدار، امتدادها إلى الجنوب من ارئيل والشمال من سلفيت لتعزل قرى دار أبو بصل، عزبة أبو آدم، خربة سوسة لتصل إلى الجنوب الغربي وتصادر أراضي قرى رنتيس، شقبا، قبية، شبتين، دير قديس، المدية ونعلين، وتمتد إلى الجنوب الشرقي لتحيط بقرى بيت عور التحتا، صفا، بيت سيرا، خربثا المصباح، بيت عور الفوقا، بيت لقيا، الطيرة، بيت عنان، بيت دقو، بيت إجزا، قطنة، خرائب أم اللحم، بدو، بيت سوريك، إلى الشمال لتحيط بـ خربة كفر شيان، بير نبالا، الجيب، بيت إكسا، بيت حنينا البلد، شعفاط، وأجزاء من مخيم قلنديا إلى الشمال، ليخلق جيتو جديداً على شكل إصبع في الشمال الشرقي من رام الله، هذا الجيتو يعزل قرى بيتين، وأراضي تابعة لمخيم سلواد في الشمال، ودير دبوان في الشرق، ورمون ودير جرير في الشمال الشرقي.

ثم يلتف الجدار شرقاً حول قرى الطيبة قضاء رام الله، ورمون، وإلى الشمال يتخذ خطاً مستقيماً متجهاً عازلاً إلى الغرب من أريحا(بدو المرجات، فصايل، خربة المراجم، دوما، جفا النون، خربة انا، الجفتلك، مرج نعجة، الزبيدات، الحديدية، خربة حمصة، خربة الراس الأحمر في الشمال إلى الشرق من نابلس، وإلى الشرق من طوباس يعزل الجدار قرى خربة يرزة، خربة عاطوف، العقبة، المالح، الفارسية، خربة تل الحمة، كردلة، بردلة، عين البيضا، وابريق الملاصقة لطوباس. بين محافظة رام الله ومدينة القدس يخلق الجدار المزيد من الغيتوات والمعازل ويحاصر في شكل لافت القرى الفلسطينية الخالصة بين المدينتين أهمها بيت إكسا، بيت عور الفوقا، بيت حنينا، بلدة الشيخ جراح وغيرها. الجدار في مرحلته الثالثة مخطط له الامتداد والالتفاف حول مدينة الخليل، وسيصل طول الجدار ١٨٦ كم، أي أطول من الخط الأخضر حول المدينة الذي يبلغ ١٥٥ كلم. ما سيؤدي إلى ترك عشرات القرى والبلدات والخرب خارج الجدار وتمثل نسبة ٤٨,٣٢٪ من المساحة الإجمالية للمحافظة.

الاستيطان ٢٠٠٤

مثلها مثل حكومات إسرائيل السابقة والتي تولت الحكم بعد البدء في عملية السلام، أعلنت حكومة شارون أن سياستها الرسمية تقضي بعدم بناء أية مستوطنة جديدة في الأراضي المحتلة. ورد ذلك في البرنامج الأساسي لحكومة شارون وفي تصريحات رسمية عديدة حول هذا الموضوع. لم تأت حكومة شارون بجديد عندما أعلنت أنها ستراعي، مثلها مثل سابقاتها، متطلبات «النمو الطبيعي» لسكان المستوطنات. مصطلح «النمو الطبيعي للمستوطنين» شكل حجة لممارسات استيطانية غير محدودة ومتعددة الأشكال لضم المزيد من المساحات وتوسيع المستوطنات وشق الشوارع الخاصة بالمستوطنين. حجم الأراضي التي ضمت إلى المستوطنات وكمية الوحدات السكنية التي أضيفت لها تفوق بكثير أي «نمو طبيعي» ممكن للمستوطنين. في بعض المستوطنات تم بناء آلاف الوحدات السكنية الجديدة مع العلم أنه توجد في تلك المستوطنات عشرات الشقق الخالية من السكان.

توسيع الاستيطان وبناء وحدات سكنية جديدة لم يتوقف أيضا خلال سنة ٢٠٠٤. وقد أصدرت حركة «السلام الآن» الإسرائيلية في هذا الصدد تقريرين في العام ٢٠٠٤ يبينان حركة البناء والتوسع في المستوطنات في الضفة الغربية وقطاع غزة.

وحسب هذه التقارير ضمت إسرائيل حتى يونيو ٢٠٠٤ ما يقدر بـ٤٥٥ ألف متر مربع من الأراضي الفلسطينية بهدف توسيع حدود المستوطنات. حتى هذه الفترة أضيف للمستوطنات في قطاع غزة ما يزيد على ١٩٠ ألف متر مربع من الأراضي المخصصة للبناء. كما خصص قسم كبير من الأراضي بهدف تأهيل مساحات زراعية جديدة.

كانت مستوطنة «بني عتسمون» (عتسمونة) هي المستوطنة التي شهدت التوسع الأكبر حيث أضيف لها ١١٣ ألف متر مربع من الأراضي لأغراض زراعية. توسع كبير سجل أيضا في مستوطنة «قطيف»، وكان هدف التوسع زيادة الأراضي الزراعية. في مستوطنة «نافية دكاليم» تم تحسين مناطق جديدة وضمها إلى المستوطنة بهدف إقامة منطقة سكنية جديدة. كما تمت إقامة سبعة بيوت مؤقتة (كرافانات) في مستوطنة نتسريم.

المستوطنات القائمة في الضفة الغربية، والتي من المفترض إزالتها حسب خطة الانفصال، شهدت أيضاً توسعا في حدودها. ففي مستوطنة «شانور» أضيفت أربعة بيوت مؤقتة خلال النصف الأول من السنة.

في باقي المستوطنات في الضفة الغربية تم ضم ما يقدر بـ٢٦٤ ألف متر مربع على النحو التالي: غوش عتصيون ٣٤ ألف متر مربع، منطقة بنيامين ٦٤ ألف متر مربع، جبل الخليل ١٩٠٠ متر مربع، شومرون ١٣٨ ألف متر مربع، عرفوت هيردين ١٠٠٠٠ متر مربع.

تواصلت حركة البناء في المستوطنات بقوة خلال سنة ٢٠٠٤. وقد أصدرت حكومة شارون، التي التزمت أمام الإدارة الأمريكية بتجميد حركة البناء في المستوطنات، في آب من العام ٢٠٠٤ عطاءات لبناء ١٠٠١ وحدة سكنية في سبع مستوطنات في الضفة.

ويبين تقرير حركة «السلام الآن» الصادر في أيلول ٢٠٠٤ ما يلي:

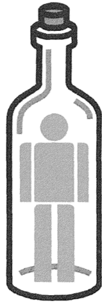
في ٥٠ موقعاً استيطانياً هناك حركة بناء، أو توسيع أو تأهيل بنى تحتية جديدة تتجاوز حدود البناء في المستوطنات.

حتى أغسطس ٢٠٠٤ تم وضع ٥٠ بيتاً مؤقتاً في المستوطنات المختلفة.

البؤر الاستيطانية غير القانونية ٢٠٠٤

يقصد بالبؤرة الاستيطانية حيز جغرافي يتم السيطرة عليه بشكل اعتباطي، عادة على قمة تلة، يضم مبنى أو عدة مبان مؤقتة أو دائمة، دون الحصول على التراخيص والتصاريح القانونية اللازمة لإقامتها. وتكون البؤرة منفصلة عن أية مستوطنة في محيطها، وتدار بشكل مستقل على يد المستوطنين القاطنين فيها.

بلغ عدد البؤر الاستيطانية غير القانونية حتى آخر ٢٠٠٤. ٩٩ بؤرة. ٥٢ منها أقيمت بعد عام ٢٠٠١، أي بعد تولي ارئيل شارون منصب رئيس الحكومة. خلال عام ٢٠٠٤ أقيمت أربع بؤر جديدة، كما تم توسيع مساحة أربع بؤر إضافية قائمة. وفي معظم البؤر نفذت أعمال بناء لبيوت ثابتة بدل المؤقتة.





ضمت إسرائيل حتى يونيو ٢٠٠٤ ما يقدر بـ٤٥٥ ألف متر مربع من الأراضي الفلسطينية بهدف توسيع حدود المستوطنات. كما أضيف للمستوطنات في قطاع غزة ما يزيد على ١٩٠ ألف متر مربع من الأراضي المخصصة للبناء



إقامة البؤر الاستيطانية تتطلب شق شوارع وطرق جديدة. خلال سنة ٢٠٠٤ تم شق سبع شوارع جديدة كهذه نتج عنها تدمير وإتلاف أشجار زيتون ومحاصيل زراعية فلسطينية.

كما تم خلال سنة ٢٠٠٤ تفكيك وإخلاء ست بؤر استيطانية. الحكومة الإسرائيلية تعلل عدم إزالة بؤر أخرى بحجة تواصل «الإرهاب» الفلسطيني.

في تشرين الأول ٢٠٠٤ صدر تقرير عن البؤر الاستيطانية أعدته المحامية طالية ساسون وذكر فيه ما يلي:

معظم الوزارات ساعدت بشكل كبير البؤر الاستيطانية غير القانونية. وزارة التربية والتعليم حرصت على إقامة روضات وصفوف تعليم في هذه البؤر ومولت عمل الحاضنات فيها. شركة الكهرباء ووزارة الطاقة حرصتا على وصل البؤر بالكهرباء، وساهمت الدولة بشق الطرق. وتقدر المساعدات الحكومية التي حولت إلى البؤر الاستيطانية غير القانونية بعشرات ملايين الشيكلات.

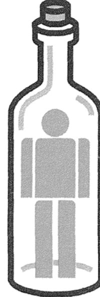
حتى السنتين الأخيرتين، ساهم الجيش الإسرائيلي ووزارة الدفاع في إقامة البؤر الاستيطانية غير القانونية. وحتى اليوم يواصل الجيش توفير الحماية لهذه البؤر بحجة أن عليه الدفاع عن كل مواطن إسرائيلي في «الأراضي».

«تقرير البؤر الاستيطانية: الحكومة ساعدت، الجيش غض الطرف» - هآرتس ٢٠٠٤/١٠/٢١

الطرق الممنوعة في الضفة الغربية

تمارس إسرائيل منذ اندلاع انتفاضة الأقصى سياسة فصل عنصري فيما يتعلق باستعمال الشوارع وشبكة الطرق في الضفة الفلسطينية. والحديث هنا يدور عما يقارب ٤٧ شارعا رئيسيا وفرعيا تفرض على الفلسطينيين في الضفة قيود عديدة في استعمالها. أبسط هذه القيود تتمثل في تأخير وعرقلة المسافرين وأكثرها تعسفا وعنصرية يتمثل في المنع التام من استعمال بعض هذه الشوارع.

نظام الطرق الممنوعة في الضفة الغربية يشبه إلى حد كبير نظام الابارتهايد الذي كان متبعا في جنوب أفريقيا حتى العام ١٩٩٤. ففي كلا النظامين يرتبط حق استعمال شبكة الطرق بالانتماء القومي للمسافر، إلا أن هناك فرقاً أساسياً بين النظامين: فنظام الابارتهايد الجنوب أفريقي أسس على تشريع قانوني واضح يظهر ويفسر هيكلية النظام وأساليب تطبيقه والعقوبات المترتبة على مخالفته. أما النظام الإسرائيلي فلم يؤسس على نص قانوني أو تشريع عسكري أو حتى على قرار رسمي. فجنود الاحتلال الإسرائيلي وأفراد حرس الحدود يطبقون هذا النظام معتمدين بشكل كامل على التعليمات الشفوية. وعلى عكس الابارتهايد فإن





ساهم الجيش الإسرائيلي ووزارة الدفاع في إقامة البؤر الاستيطانية غير القانونية. وحتى اليوم يواصل الجيش توفير الحماية لهذه البؤر بحجة أن عليه الدفاع عن كل مواطن إسرائيلي في «الأراضي»



نظام الشوارع الممنوعة في الضفة الفلسطينية يطبق بشكل تعسفي وعشوائي.

الطرق الممنوعة نهائيا

يشمل هذا النوع من الطرق تلك التي تقوم إسرائيل بمنع المركبات الفلسطينية من السفر عليها بشكل تام. في بعض هذه الطرق يطبق المنع التام بشكل واضح وعلني عن طريق حاجز عسكري يجيز المرور للمركبات الإسرائيلية فقط، فمثلا الشارع بين حاجز بيت فوريك وبين مفرق حوارة هو شارع محظور أن يسافر الفلسطينيون عبره بالرغم من كونه يوصل إلى قرى: بيت فوريك، بيت دجن، سالم وديرالحطب. وفي طرق ممنوعة أخرى يطبق المنع التام عن طريق العوائق المادية المذكورة مثل العوائق الترابية والخنادق وما شابه.

في بعض الطرق طبق المنع ليس فقط على السفر على هذه الطرق وإنما أيضاً على قطعها بوساطة المركبات، ما يؤدي إلى منع الفلسطينيين من السفر في الطرق المسموح استعمالها. في هذه الحالات يمكن أن يصل فلسطيني حتى مفترق طرق يشمل طريقا ممنوعا عندها يضطر إلى النزول من السيارة واجتياز المفترق مشيا على الأقدام ومن ثم مواصلة السفر بسيارة أخرى. مثال على ذلك بين جنين والقرى الواقعة شرقها يفصل طريق ممنوع يوصل إلى المستوطنات «غنيم» و «كديم». نتيجة لذلك لا يستطيع سكان قرى: جلبون، فقوعة ودير أبو ضعيف وقرى أخرى السفر من بيوتهم إلى جنين وبالعكس.

ويبلغ عدد الطرق الممنوعة نهائيا لسفر المركبات الفلسطينية في الضفة الغربية ١٧ طريقا، وتمتد هذه الطرق على طول ١٢٠ كيلومترا.

الطرق الممنوعة جزئيا

تشمل هذه الفئة الطرق التي يسمح للفلسطينيين بالسفر عليها إذا كان بحوزتهم تصريح سفر خاص. يسمى هذا التصريح «رخصة تنقل خاصة للحواجز الداخلية في يهودا والسامرة»، ويتم إصداره في مكاتب الإدارة المدنية عبر قيادات التنسيق والارتباط. في مكاتب التنسيق والارتباط تصدر أيضاً تصاريح مرور لخطوط الباصات التي تسافر بين المدن والأراضي المحاصرة، هذه التصاريح تلغى عندما يرى الجيش أن هناك «توترا» أمنياً في المناطق، وبذلك تمنع الباصات من التنقل والسفر في الطرق الممنوعة.

في أنحاء الضفة الغربية هناك اليوم عشرة شوارع من هذا النوع ويصل طولها الإجمالي ٢٤٥ كيلومتراً.

الطرق ذات الاستعمال المحدد

تشمل هذه الفئة الشوارع التي يمكن الوصول إليها عن طريق الحواجز العسكرية فقط، وذلك بسبب قيام الجيش الإسرائيلي بسد باقي الشوارع الفرعية التي توصل إلى الشارع الممنوع. لا يطلب من الفلسطينيين إظهار أي تصريح عند عبورهم هذه الحواجز، لكن يضطر العابرون إلى الخضوع لفحوصات مختلفة. يمكن أن تستغرق هذه الفحوصات ساعات طويلة بسبب قلة الجنود في الحاجز بالنسبة لحركة المرور. نتيجة لذلك يضطر الكثير من السائقين إلى تجنب المرور على هذه الحواجز. في هذه الطرق تنتشر قوات شرطة كبيرة لفرض قوانين السير على الفلسطينيين فارضة عليهم غرامات كبيرة. وأحيانا يضع الجيش قيودا إضافية للحركة على هذه الشوارع مثل السماح بمرور الباصات ووسائل النقل العام فقط.

تشمل هذه الفئة من الشوارع الممنوعة بعض الطرق الرئيسية في الضفة الغربية مثل شارع (٦٠) الممتد من شمال الضفة حتى جنوبها. عدد الشوارع المصنفة تحت هذه الفئة عام ٢٠٠٤ هو ١٤ شارعا يمتد طولها ما يقارب ٣٦٥ كيلومتراً.

أحدث نظام الطرق الممنوعة لحركة تنقل الفلسطينيين في الضفة الغربية تغيرا جذريا، وبدل التنقل والسفر على الشوارع الرئيسية الموصلة بين المدن والمحافظات المختلفة، بحيث يضطر معظم الفلسطينيين اليوم إلى التنقل عبر شوارع وطرق بديلة، طويلة وشاقة. هذا النظام اجبر الكثير من الفلسطينيين على التنازل عن السفر بمركباتهم الخاصة واتكالهم على وسائل النقل العمومي وذلك لسببين: الأول والأهم هو منع استعمال المركبات الخاصة في الكثير من الطرق، والسبب الثاني يعود إلى وعورة الطرق البديلة وصعوبة سفر السيارات الخاصة عليها.

نظام الطرق الممنوعة عطل بشكل كبير نظام الحياة في الضفة الغربية والاقتصاد ونظام التعليم ونظام الصحة الذي يعتمد بشكل أساسي على حرية الحركة، فأي تقييد لهذه الحركة يؤثر في هذه الأنظمة تأثيرا فادحا.

منذ بداية الانتفاضة، سجل مركز «بيتسيلم»، ٣٩ حالة وفاة لمدنيين فلسطينيين لم يتمكنوا من الحصول على العلاج الطبي بسبب منع أو تأخير مرورهم عبر الحواجز العسكرية.

لكل إنسان الحق في التنقل بحرية داخل بلده، هذا الحق تم الاعتراف به في المادة ١٣ في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والذي أقر في الأمم المتحدة عام ١٩٤٨. في سنة ١٩٦٦ أكدت الجمعية العمومية في الأمم المتحدة على حق حرية الحركة في المادة ١٢ في المعاهدة

الدولية المتعلقة بالحقوق المدنية والسياسية. هذه المعاهدة تلزم قانونيا كل الدول الموقعة عليها وبضمنها إسرائيل التى أقرتها عام ١٩٩١. إسرائيل تتجاهل هذا الالتزام بدعوة عدم سريان مفعول هذه المعاهدة على أعمالها فى الأراضى المحتلة، وذلك لأن الإطار القانونى الملائم هو القانون الإنسانى الدولى.

هدم المنازل

«هذه المنازل كان يجب أن تهدم وتخلى منذ أمد طويل... لا بد من إخلاء ٣٠٠ متر من القطاع على جانبى الحدود... ٣٠٠ متر مهما كان عدد المنازل، دون نقاش» قال ميجور جنرال يوم طوف سامية (القائد السابق للقيادة الجنوبية فى الجيش الإسرائيلى).

قامت إسرائيل منذ عام ١٩٦٧ باتباع سياسة هدم بيوت الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية، وخلال انتفاضة الأقصى دمرت إسرائيل ما يقارب ٤١٠٠ بيت.

تنقسم عمليات هدم البيوت التى ينفذها جيش الاحتلال الإسرائيلى إلى ثلاثة أنواع: الأول والأكثر شيوعا يندرج تحت مسمى «عمليات التعرية». وقد تم تنفيذ القسم الأكبر من هذه العمليات فى منطقة جنوب قطاع غزة وتحديدا فى منطقة رفح الحدودية وفى مخيمات اللاجئين المحيطة بها، وأيضاً فى منطقة شمال الضفة الغربية خاصة فى الأراضى المحيطة بالمستوطنات أو المحاذية للشوارع المخصصة للمستوطنين وقوات الجيش. وتم تنفيذها أيضاً فى شمال القطاع فى منطقة بيت حانون، بيت لاهيا ومخيم جباليا. منذ بداية الانتفاضة وحتى تشرين الثانى ٢٠٠٤ هدم جيش الاحتلال الإسرائيلى فى إطار عمليات التعرية فى قطاع غزة ما يقارب ٢٥٤٠ بيتاً أوت ٢٣٩٠٠ شخص.



النوع الثانى من عمليات هدم البيوت هو هدم البيوت التى بنيت دون ترخيص. تقوم إسرائيل بهدم البيوت غير المرخصة فى الأراضى «C» والقدس الشرقية، أى فى الأراضى الخاضعة للإدارة المدنية الإسرائيلية. وفقا لمعطيات الإدارة المدنية، هدمت إسرائيل بين السنوات ٢٠٠١-٢٠٠٣ فى الضفة الغربية ٧٦٨ مبنى غير مرخص. ووفقا لمعطيات بلدية القدس، منذ بداية ٢٠٠١ وحتى فبراير ٢٠٠٤ هدمت إسرائيل ١٦١ مبنى غير مرخص فى القدس الشرقية.

النوع الثالث من عمليات الهدم يختص بالهدم كآلية عقاب لعائلات وجيران أفراد فلسطينيين نفذوا أو يشتبه بأنهم قاموا بتنفيذ عمليات ضد الجنود والمدنيين الإسرائيليين. العمليات الإسرائيلية فى هذا الإطار موجهة لهدم البيوت التى يقيم فيها المشتبه بهم. لكن فى كثير من الحالات تهدم أيضاً بيوت مجاورة. منذ اندلاع انتفاضة الأقصى هدمت إسرائيل ٦٢٨ بيتا وشردت ٣٩٨٣ فلسطينيا فى إطار هذا النوع من عمليات الهدم.

وذكر تقرير بتسيلم لعام ٢٠٠٤ أن منذ اليوم الأول من العام ٢٠٠٤ وحتى آخر يوم من هذا العام هدمت قوات الاحتلال الإسرائيلية ١٣٥٧ بيتا فى قطاع غزة وشردت جراء ذلك ٨٧٠٠ مواطن.

عمليات هدم البيوت فى إطار «عمليات التعرية» هى عمليات شديدة الفظاعة. ففى معظم الحالات لا يتم إنذار ساكنى البيوت سلفا بعملية الهدم. فى كثير من الأحيان يفاجأ أصحاب البيوت بالجرافات وهى عند مدخل البيت. لا يحصل سكان البيت فى العادة على وقت كاف لإخراج حاجياتهم من البيت قبل هدمه. خلال عمليات الهدم فى قطاع غزة قتل ١٢ فلسطينياً على الأقل جراء هدم البيوت على رؤوسهم.

وخلال انتفاضة الأقصى جددت إسرائيل وبصورة أكثر قسوة سياسة هدم البيوت كآلية عقاب. القرار الرسمى لتجديد هذه السياسة اقر فى جلسة المجلس الأمنى-السياسى المصغر المنعقدة بتاريخ ٢٠٠٢/٧/٣١، وذلك فى أعقاب العملية التفجيرية التى نفذها مواطنان فلسطينيان فى الجامعة العبرية فى القدس. عمليا تم العمل مجددا بهذه السياسة منذ النصف الثانى من تشرين الأول ٢٠٠١ خلال مداهمات جيش الاحتلال الإسرائيلى لمناطق «A» فى الضفة الغربية.

بين تشرين الأول ٢٠٠١ وآب ٢٠٠٢ هدم الجيش الإسرائيلى ٤٣ منزلا وفى الفترة الممتدة من ٢٠٠٤/١/١ وحتى ٣١/ ٢٠٠٤/١٢ قامت قوات الجيش الإسرائيلى بهدم ١٨١ منزلا فى الضفة الغربية وقطاع غزة تاركة آلاف الفلسطينيين دون مأوى.

الأسرى والمعتقلون

اعتبرت وزارة شئون الأسرى والمحررين الفلسطينيين فى تقرير سنوى نشرته فى يناير ٢٠٠٥، عام ٢٠٠٤ كأسوأ أعوام الحركة الأسيرة الفلسطينية منذ ثلاثين عاما. إذ شهد عام ٢٠٠٤ تدهورا خطيرا ومتواصلا فى وضعية السجناء وشروط احتجازهم على كافة المستويات.

شهد عام ٢٠٠٤ ارتفاعا فى عدد الأحكام المؤبدة المفروضة على الأسرى الفلسطينيين. فقد وصل عدد الأسرى المحكومين بحكم مؤبد إلى ٤٤٤ سجيناً. وقد سجل الأسير عبد الله البرغوثى الرقم القياسى فى عدد الأحكام المؤبدة إذ فرض عليه ٦٧ حكما مؤبدا.

إسرائيل والأبارتهايد





نظام الطرق الممنوعة عطل بشكل كبير نظام الحياة فى الضفة الغربية والاقتصاد ونظام التعليم ونظام الصحة الذى يعتمد بشكل أساسى على حرية الحركة



سياسة الاغتيالات

سياسة الاغتيالات، أى إعدام شخص دون التحقيق معه ودون تقديمه للمحاكمة وسماع أقواله، ليست سياسة جديدة على الحكومة الإسرائيلية. فالحكومات الإسرائيلية المتعاقبة تبنت هذه السياسة منذ السنوات الأولى للصراع العربى-الإسرائيلى. عشرات القياديين الفلسطينيين ومئات المقاتلين الفلسطينيين قتلوا بهذه الطريقة داخل الأراضى المحتلة أو على أراضى دول عربية أو أجنبية.

بالنسبة لانتفاضة الأقصى فقد قامت إسرائيل باستعمال سياسة الاغتيالات بعد ٤٥ يوماً من اندلاع المواجهات. المستهدف الأول كان ناشطاً فى حركة فتح تم اغتياله بإطلاق صواريخ من مروحية اباتشى كانت تحلق فى سماء بيت ساحور.

منذ ذلك الحين صعدت إسرائيل من سياسة الاغتيالات بشكل متواصل، ولم تتردد فى استعمالها ضد قيادات سياسية رفيعة المستوى فى الحركات والأحزاب الفلسطينية.

إن القتل خارج نطاق القانون يعتبر انتهاكا صارخا لحقوق الإنسان، والقانون الدولى الإنسانى والعرفى وخاصة اتفاقية جنيف الرابعة بشأن حماية الأشخاص والمدنيين فى وقت الحرب والمؤرخة فى ١٢ أغسطس ١٩٤٩. بالرغم من ذلك تبنت الحكومة الإسرائيلية قرارا رسميا بهذا الصدد يجيز لقوات الجيش تنفيذ هذه السياسة وفقا لاعتباراتها الأمنية.

طبقت قوات الاحتلال الإسرائيلية سياسة الاغتيالات خارج نطاق القانون لاستهداف النشطاء والفاعلين فى انتفاضة الأقصى، وقد طالت هذه السياسة العديد من المدنيين الفلسطينيين الذين تصادف وجودهم فى مكان الحدث.

الشهداء والجرحى حتى العام ٢٠٠٤

تكاد تتفق معظم الإحصاءات الرسمية الفلسطينية وغير الرسمية على أن عدد الشهداء بلغ ٣٨٠٠ شهيد سقطوا خلال الفترة ما بين ٢٠٠٠/٩/٢٩ وحتى ٢٠٠٤/١٠/٢١ وذلك فى الضفة الفلسطينية وقطاع غزة، ومن هؤلاء الشهداء ما يبلغ نسبته ٨٢٪ من المواطنين العزل، يضاف إليهم ٨٢ شهيداً لم يتم تسجيلهم بسبب الإجراءات الإسرائيلية، بالإضافة إلى إصابة ٤٣٥٦٩ مواطناً بجروح مختلفة فى الفترة المشار إليها.

وأشارت التقارير المتعلقة بهذا الشأن إلى أن أماكن إصابة الشهداء تظهر النية الإسرائيلية الواضحة فى القتل، فهناك ٨٤٪ من

الشهداء أصيبوا فى الأجزاء العليا من الجسم، حيث أصيب ٦٩٩ منهم فى منطقة الرأس والعنق، و٤٨٥ منهم بشظايا رصاص فى جميع أنحاء الجسم، إضافة إلى حقيقة أخرى تتمثل فى أن أكثر من ٥٩٪ من هؤلاء الشهداء سقطوا بعد أن أصيبوا بجراح برصاص حى، و٢٢٪ منهم بقذائف مدفعية، و ٥٨,٢٪ منهم نتيجة منعهم من الوصول إلى المستشفى، و٥,١٪ منهم أصيبوا برصاص مطاطى والاختناق جراء استنشاق الغاز المسيل للدموع.



كما بلغ عدد الضحايا من المرضى جراء الإعاقة على الحواجز العسكرية الإسرائيلية ١٢١ شهيداً، ما بين طفل وسيدة وشيخ مسن من مرضى القلب والكلى والسرطان، و٤٨ شهيداً قضوا جراء اعتداءات المستوطنين اليهود على المواطنين الفلسطينيين، و٣٦ شهيداً من أفراد الطواقم الطبية والدفاع المدنى، وتسعة من الضحايا هم من الإعلاميين والصحافيين، و٢٢٠ من أبناء الحركة الرياضية.

أما إجمالى عدد الجرحى فقد أفاد التقرير المذكور عن إصابة ٤٣٥٦٩ فلسطينياً، بالإضافة إلى ٨٤٣٥ آخر تلقوا علاجاً ميدانياً، وبلغ عدد الطلبة والطالبات والموظفين الذين أصيبوا برصاص الاحتلال ٤٧٢١، وأن ٢٥٠٠ من هؤلاء الجرحى أضحوا يعانون من إعاقات دائمة.

ساهمت عدة عوامل فى التأثير على رئيس الوزراء الإسرائيلى آرئيل شارون لطرح خطته «فك الارتباط من جانب واحد»، وأبرزها:

١ - خشيته من أن تواجه إسرائيل وضعاً يسعى المجتمع الدولى إلى فرض حل على إسرائيل والمتمثل فى خارطة الطريق.

٢ - فشل إسرائيل فى كسر إرادة الشعب الفلسطينى وتواصل الانتفاضة وما تلحقه بإسرائيل من أضرار منظورة وغير منظورة.

٣ - خشية شارون مما يعرف صهيونيا: بالخطر الديمغرافى.

وقد انسجمت خطة فك الارتباط من جانب واحد مع استراتيجية شارون الساعية إلى إقامة نظام فصل عنصرى فى الأراضى الفلسطينية، تقوم إسرائيل بمقتضى هذه الاستراتيجية بتفكيك الاحتلال والاستيطان من داخل قطاع غزة وبتركيبه وتعزيزه فى الضفة الغربية المحتلة. فشارون يسعى إلى ضم الأراضى الفلسطينية التى أقيمت عليها «الكتل الاستيطانية» إلى إسرائيل، وكذلك ضم ما أمكنه من الأراضى الفلسطينية المحتلة غير المكتظة بالسكان.

من أجل تحقيق أهدافه، أولى شارون أهمية قصوى لعلاقاته مع الولايات المتحدة الأمريكية بحيث أنه نسق كل خطوة يخطوها مع الإدارة الأمريكية. وفى ظل هذه العلاقة وتحت سمع وبصر وحماية الولايات المتحدة الأمريكية، قامت الحكومة الإسرائيلية بتنفيذ سياسة عدوانية تسعى على أرض الواقع، إلى إقامة نظام فصل عنصرى، وشمل ذلك: بناء جدار الفصل، تعزيز الاستيطان، وزيادة الاستيطان «العشوائى»، وشق الطرق لاستعمال المستوطنين وحصار الفلسطينيين ومنعهم من استعمال الكثير من الطرق وهدم البيوت ...

لقد ساهمت مجموعة من العوامل فى نجاح شارون فى تجميد خطة خارطة الطريق، وجعل خطته «اللعبة الوحيدة فى المدينة»، أهمها: علاقة إسرائيل مع أمريكا، والضعف العربى، وعدم وجود معارضة إسرائيلية حقيقية لشارون خارج حزبه، ولعدم وجود استراتيجية نضالية فلسطينية موحدة تتفق على الهدف الذى يسعى الفلسطينيون لتحقيقه، وعلى وسائل النضال التى يتوجب اتباعها لتحقيق هذا الهدف.

وفى ظل تبنى خطة شارون دولياً وإقليمياً، لم يبق أمامه سوى تمريرها وتنفيذها إسرائيلياً. ومن غير المتوقع، بل من المستبعد جداً، أن يتمكن اليمين المتطرف فى إسرائيل المتمثل فى المعارضين داخل حزب «الليكود» وحزبى «الوحدة الوطنية» و «المفدال» و«المستوطنين»، من عرقلة أو تأجيل أو منع تنفيذ خطة فك الارتباط فى العام ٢٠٠٥.

فالمجتمع الإسرائيلى بغالبيته العظمى يدرك أن خطة فك الارتباط حققت لإسرائيل مكاسب كثيرة أبرزها رسالة الضمانات الأمريكية. ■

كتاب الزاوية



ديوان الطرب

سيد درويش

ما بين مولده فى ١٧ مارس ١٨٩٢ ووفاته فى ١٥ سبتمبر ١٩٢٣، حقق سيد درويش للغناء والموسيقى العربية مالم يحققه فنان آخر خلال العصر الحديث لتتأكد مقولة أن الغناء كان قبل سيد درويش للآذان والجسد وأصبح من بعده للنفس والروح. وكان سيد درويش بحق فنان الشعب الذى عبر عن فئاته خاصة الفقير منها.

وتنشر «وجهات نظر» بعض ما شدا به سيد درويش وتضمنه الكتاب الخاص به (وهو من جزءين) صادر عن دار الشروق ٢٠٠٣ بالتعاون مع مركز توثيق التراث بمكتبة الإسكندرية ضمن مشروع موسوعة أعلام الموسيقى العربية.

أهو دا اللى صار

أهو دا اللى صار وادى اللى كان ... مالكش حق تلوم عليه
تلوم عليه إزاى يا سيدنا ... وخير بلادنا ماهوش فى إيدنا
قول لى عن أشياء تفيدنا ... وبعدها ابقى لوم عليه
بدال ما يشمت فينا حاسد ... إيدك فى إيدى وقوم نجاهد
واحنا نبقى الكل واحد ... والأيادى تكون قوية
يا مصر يا أم العجايب ... سعدك أصيل والخصم عايب
خلى بالك م الحبايب ... دولا أنصار القضية

محمد يونس القاضى



انتفاضة الأقصى

رواية إسرائيلية أخرى

صالح محمد النعامى

منذ اندلاعها فى أواخر أيلول سبتمبر من العام ٢٠٠٠، حاولت ماكينة الدعاية الإسرائيلية تصوير انتفاضة الأقصى على أنها الرد «الإرهابى» الفلسطينى على عروض السلام السخية التى طرحتها الدولة العبرية قبيل اندلاع الانتفاضة. ورفضت إسرائيل الرسمية الربط بين اندلاع الانتفاضة وبقاء مظاهر الاحتلال كمفجر لها، وحاولت نزع الشرعية عن حق الشعب الفلسطينى فى النضال ضد هذا الاحتلال. وفى المقابل ادعت إسرائيل أن لديها الحق فى استنفاد كل ما لديها من قوة عسكرية وتفوق تقنى كاسح من أجل حسم المواجهة خلال الانتفاضة لصالحها. واعتبر المستويان العسكرى والسياسى فى إسرائيل أن الحرب ضد الفلسطينيين فى الانتفاضة تكتسب نفس أهمية حرب العام ١٩٤٨ التى على أثرها كان مولد إسرائيل. فى نفس الوقت حرص قادة الدولة على تجاهل الآثار الكارثية التى تركتها الانتفاضة على المجتمع الإسرائيلى ونسيجه الداخلى، وعكف قادة الدولة على امتداح «قدرة» هذا المجتمع على الصمود خلال الانتفاضة، وادعوا أنه بفضل هذا الصمود لم يستطع الفلسطينيون إملاء مواقفهم على إسرائيل. فى إسرائيل صدر مؤخراً كتابان ينسفان الرواية الرسمية من الأساس: كتاب «أكاذيب عن السلام حرب باراك وشارون ضد الفلسطينيين»، للمؤرخة والمحققة الإسرائيلية تانيا راينهارت. وكتاب «الحرب السابعة» لمؤلفيه افى سيخاروف، مراسل الشئون الفلسطينية والعربية للإذاعة الإسرائيلية باللغة العبرية، وعاموس هارئيل المراسل العسكرى لصحيفة «هآرتس». فى كتابها تطرقت راينهارت بشكل أساسى إلى الظروف التى كانت سائدة قبل الانتفاضة والعلاقة الوثيقة بين هذه الظروف واندلاعها، وهو الأمر الذى واظبت إسرائيل الرسمية على إنكاره. أما كتاب «الحرب السابعة» فقد عنى بشكل أساسى بتسليط الأضواء على طبيعة الأحداث أثناء الانتفاضة: القمع الإسرائيلى والرد الفلسطينى وتأثيرات الانتفاضة على المجتمع الإسرائيلى والنظام السياسى فى الدولة العبرية.

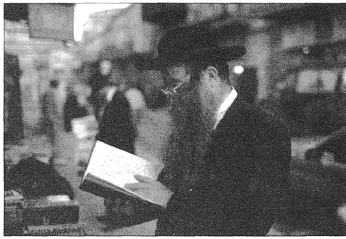
فى كتابها تؤكد راينهارت أن الظروف التى سادت قبيل اندلاع انتفاضة الأقصى لم تدع أمام الفلسطينيين أى مجال إلا المبادرة لشن الانتفاضة. وتؤكد أن الحكومات الإسرائيلية التى تعاقبت منذ التوقيع على اتفاقية أوسلو واصلت دعم المشروع الاستيطانى فى الضفة الغربية وقطاع غزة، ولم تدع أمام الفلسطينيين سبيلاً إلا محاولة استخدام العمل المسلح لوقف الاستيطان. وتؤكد راينهارت أن الفلسطينيين، لم يخوضوا غمار انتفاضة الأقصى، إلا بعد أن تحرروا من الوهم الذى زرعته اتفاقيات أوسلو التى وقعت فى العام ١٩٩٣، حيث اعتقدوا أن احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة الذى بدأ فى العام ١٩٦٧ يوشك على نهايته، وأمن قطاعات واسعة من الشعب الفلسطينى بأن اتفاقات أوسلو، ستؤدى إلى انسحاب إسرائيلى من المناطق المحتلة وإقامة دولة فلسطينية. لكن الأمور لم تسر على هذا المنوال. وحسب راينهارت فإن الفلسطينيين صعقوا عندما اكتشفوا أن القيادة السياسية لمعسكر اليسار الصهيونى التى كانت تتولى مقاليد الأمور فى الدولة العبرية قبيل وعند اندلاع انتفاضة الأقصى حولت روح أوسلو التصالحية إلى وسيلة جديدة أكثر إحكاماً لمواصلة الاحتلال. وتشير إلى أن إسرائيل بعد أوسلو واصلت تعزيز الاستيطان اليهودى فى الضفة الغربية على اعتبار أنه الوسيلة المثلى لتصفية حق العودة للاجئين الفلسطينيين. وترى راينهارت أن أى زعيم إسرائيلى يتطلع إلى المصالحة مع الفلسطينيين على المستوى الرمزى كان يتعين عليه بداية، من وجهة نظرها، الاعتراف بمسئولية إسرائيل عن نشوء قضية اللاجئين. لكنها تستدرك قائلة أن إسرائيل لم تحظ حتى الآن بزعيم كان معنياً حقاً بإنهاء النزاع. وفى سبيل التشديد على هذه المسألة تحديداً تشدد راينهارت فى مقدمة الكتاب، من دون أى تردد على أن الأرض التى قامت عليها دولة إسرائيل تمت السيطرة عليها بواسطة تطهيرها عرقياً من سكانها الأصليين. الفلسطينيين. وتضيف «لو أن إسرائيل توقفت عما اقترفته (من تطهير عرقى) فى عام ١٩٤٨ لكان من الممكن التعايش مع ذلك، لكنها واصلت التطهير العرقى وتعاظم بعد التوقيع على «أوسلو»، وفى خضم الانتفاضة. تؤكد راينهارت أن إسرائيل استغلت انتفاضة الأقصى لممارسة اكبر قدر من القمع ضد المدنيين الفلسطينيين من أجل إجبارهم على الفرار. وتشير إلى أن جميع القادة العسكريين اعتبروا الحرب التى يخوضونها ضد الانتفاضة تعتبر مكملة للحرب التى خاضتها الدولة العبرية فى العام ١٩٤٨. وتضيف «لما نجحت إسرائيل فى العام ١٩٤٨ بتشريد نصف الفلسطينيين من أرضهم، فإنها خلال انتفاضة الأقصى قررت استكمال المهمة وطرد البقية». تؤكد راينهارت أن المستويين السياسى والعسكرى فى الدولة العبرية استندا إلى هذا المنطلق لتبرير الإفراط غير المسبوق فى استخدام القوة العسكرية فى مواجهة المدنيين الفلسطينيين. وتشدد على أن قادة الجيش كانوا يهدفون إلى التطهير العرقى. وتضيف أنه لا يمكن تفسير سياسة إسرائيل المنهجية فى إصابة المدنيين الفلسطينيين كدفاع عن النفس أو كرد فعل تلقائى على الإرهاب. وتؤكد إن ذلك هو نوع من ممارسة التطهير العرقى، أى عملية يجرى فيها طرد مجموعة اثنية من مناطق تتطلع مجموعة اثنية أخرى للسيطرة عليها.

البرفيسورة تانيا راينهارت
إصدار: منشورات «سفرى تل أبيب» - تل أبيب، ٢٠٠٥ .

שקרים על שלום
הפרופ' טניה ריינהרט
בהוצאת ספרי תל אביב، 2005

«الحرب السابعة»
عاموس هارئيل وافى سخاروف
يديعوت احرنوت ، ٢٠٠٤ ، ٢٨٩ صفحة

המלחמה השביעית
עמוס הראל ، אבי יששכררוף
ידיעות אחרנות،2005



وتنوه إلى انه لما كانت فلسطين مكان يحظى باهتمام عالمى كبير، فإنه يستحيل على قادة الدولة العبرية اقتراف تطهير عرقى عبر القيام بعمليات ذبح جماعى للفلسطينيين وإخلاء الأراضى. وبدلاً من ذلك يقود الجيش الإسرائيلى عملية مثابرة هدفها إجبار الفلسطينيين، رويداً رويداً، على الموت أو الهرب لكى ينجوا بجلودهم. وتشدد راينهارت على أن إسرائيل حرصت دوماً على استدراج الفلسطينيين للمواجهات من أجل تحقيق مكاسب على الأرض من خلالها. فإسرائيل هى التى كانت دائما تبادر إلى إفشال تفاهمات التهدئة والهدنة مع الفصائل الفلسطينية عبر المبادرة بشن عمليات عسكرية من أجل إفشال التهدئة ووضع حد للهدنة. وفى شهادة هامة تؤكد راينهارت أن الفلسطينيين لم يمنحوا البتة أية فرصة لتحويل نضالهم إلى مقاومة مدنية، وهو ما كانوا راغبين به مرات كثيرة. وتنوه راينهارت إلى ما بات معروفاً وهو حقيقة أن الجيش الإسرائيلى أعد مخططات للقضاء على السلطة الفلسطينية وعلى مؤسسات المجتمع الفلسطينى قبل اندلاع انتفاضة الأقصى فى سبتمبر من العام ٢٠٠٠.

مبدأ التواريخ غير المقدسة

من ناحيتهما يشير سيخاروف وهارئيل فى «الحرب السابعة» إلى أن أحد الأسباب التى دفعت الفلسطينيين للتشبث بانتفاضة الأقصى هو حقيقة يأسهم من إمكانية الحصول على ثمار من العملية التفاوضية. فعلى الرغم من تحرر معظم سكان الضفة والقطاع بالتدريج من السلطة الإسرائيلية المباشرة، وذلك كجزء من الاتفاقات التى وقعتها قيادة منظمة التحرير مع الحكومة الإسرائيلية. إلا أن مصالح الفلسطينيين ظلت مرتبطة بالجيش الإسرائيلى. فالاتفاقيات الموقعة لم تؤد إلى تمتع الفلسطينيين بحرية الحركة بين مناطق تواجدهم فى الضفة الغربية وقطاع غزة. وعلى الرغم من التحسن المحدود للأوضاع الاقتصادية، فإن الازدهار الموعود تحقق جزئياً فقط.. فقد خسر عشرات آلاف الفلسطينيين أماكن عملهم فى إسرائيل جراء سياسة الإغلاق التى اتبعتها إسرائيل منذ حرب الخليج عام ١٩٩١ (ووضعت الإغلاقات صعوبات كبيرة جداً أمام التنقل بين القطاع والضفة). وعندما عاد العمال الفلسطينيون إلى إسرائيل فى فترات هدوء نادرة، وجدوا بأن عمالاً من رومانيا والصين وتايلاند احتلوا أماكن عملهم.

وينوه المؤلفان إلى أن تشكيل السلطة الفلسطينية لم يحل دون توقف مسلسل الإهانات التى يتعرض له المواطن الفلسطينى منذ خروجه من بيته وحتى عودته إليه. بالإضافة إلى كل ذلك، فقد اعتمدت الدولة العبرية مبدأ «التواريخ غير المقدسة». ووفق هذا المبدأ أعاقت إسرائيل مراراً وتكراراً تسليم مناطق وعدت السلطة بتسليمها وفق الاتفاقيات الموقعة، وذلك جراء خلافات محددة أو رداً على عمليات المقاومة. وفى مقابل كل ذلك فقد استغلت إسرائيل الاتفاقات السياسية مع السلطة فى تطوير مشروعها الاستيطانى الذى نما بشكل هائل. ويكشف الكتاب عن حقيقة لافتة للنظر، فقد تضاعف عدد المستوطنين خلال العقد الذى تلا التوقيع على اتفاق أوسلو فى المناطق من حوالى ١١٥ ألفاً إلى ٢٣٠ ألف مستوطن. ويؤكد المؤلفان أن أعداداً متزايدة من المدنيين الفلسطينيين قتلوا «برصاص طائش يطلقه جيش الاحتلال قبل اندلاع انتفاضة الأقصى، فى حين اكتفت قيادة جيش الاحتلال فى أحسن الأحوال بـ «الإعراب عن أسفها». لكن لم تكن ممارسات جيش الاحتلال القمعية فقط هى التى كان يكابدها الفلسطينيون قبل اندلاع الانتفاضة. فالمستوطنون وتحت حماية الجيش يقومون بعمليات عربدة فى بلدات وقرى الفلسطينيين، وكثيراً ما أسفرت هذه العمليات عن إزهاق أرواح مزيد من الفلسطينيين.

مسئولية باراك

تؤكد راينهارت أن رئيس الوزراء الإسرائيلى إيهود باراك الذى اندلعت انتفاضة الأقصى فى عهده هو الذى يتحمل الجزء الأساسى من المسئولية عن اندلاع الانتفاضة لعدم جديته فى التوصل لتسوية سياسية مع الشعب الفلسطينى، على الرغم من الضجيج الذى أثاره حول تحركاته السياسية. وتضيف راينهارت أنه بخلاف الانطباع الذى حاول رسمه حول نفسه، وساعدته فى ذلك وسائل الإعلام الإسرائيلية المتجندة، فأن باراك لم يتطلع فى قرارة نفسه إلى تحقيق مصالحة مع الفلسطينيين. وتؤكد أنه خلال مؤتمر «كامب ديفيد» الذى سبق اندلاع انتفاضة الأقصى ماطل باراك ولم يكن جدياً فى التوصل للتسوية السياسية. وتذهب راينهارت إلى أبعد من ذلك عندما تؤكد أن باراك «بادر إلى هذه القمة بهدف إفشالها متعمداً، من أجل أن يثبت أن الفلسطينيين هم الطرف الرافض، وهم الذين يتحملون المسئولية عن إهدار فرصة تاريخية للتوصل لتسوية سياسية للصراع الفلسطينى الإسرائيلى». ترى راينهارت أن الذى يؤكد صحة ما تذهب إليه هو حقيقة حرص باراك على التباهى دائماً بأنه هو «الذى كشف الوجه الحقيقى لعرفات». وتقدم راينهارت الأدلة على أن باراك خلال مؤتمر «كامب ديفيد» خطط لجعل المؤتمر فرصة لتجريد الفلسطينيين من الحقوق التى يكفلها لهم القانون الدولى و قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالقضية الفلسطينية. وتضيف أن نقطة التحول الحاسمة فى كامب ديفيد تمثلت فى مطالبة باراك بأن يوقع الطرفان على «اتفاق نهائى» يترافق مع إعلان فلسطينى بشأن «نهاية النزاع». وتؤكد أنه لو أن الفلسطينيين وقعوا على إعلان كهذا لكانوا سيفقدون بشكل تلقائى الحق بالمطالبة بتطبيق قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن لاحقاً. وتشرح راينهارت قائلة إن الأساس القانونى للمفاوضات بين الفلسطينيين وإسرائيل كان ولا يزال قرارات الأمم المتحدة، وخصوصاً قرار ٢٤٢ الذى اتخذ (من قبل مجلس الأمن) فى ٢٢ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٦٧ وطالب بانسحاب القوات الإسرائيلية المسلحة من المناطق التى احتلت فى حرب الأيام الستة. إلى جانب ذلك فأن من حق الفلسطينيين المطالبة بتطبيق قرارات مجلس الأمن التى سبقت ذلك وخصوصاً قرار ١٩٤ الذى صدر فى ١١ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٨، و الذى يتطرق إلى حق العودة للاجئين الفلسطينيين وقرارات أخرى اتخذت على مدار السنوات. وتؤكد أن الفلسطينيين احسنوا صنعاً عندما لم يستجيبوا لطلب باراك. وتضيف أنه لو استجاب الفلسطينيون لطلب باراك وأعلنوا عن «نهاية النزاع»، ووقعوا على اتفاق نهائى، عندها يكون الاتفاق الجديد هو، بصورة رسمية، الأساس القضائى الملزم لأى تسوية سياسية مستقبلية وتفقد قرارات الأمم المتحدة التى سبقته مفعولها. وتؤكد راينهارت أن باراك طرح فى قمة «كامب ديفيد» مواقف متطرفة من كل قضايا الحل الدائم التى



كانت على جدول البحث.وتدحض بشدة المزاعم التى حاولت وسائل الإعلام الإسرائيلية تكريسها على أساس أنها حقائق وتتعلق باستعداد باراك لـ «تقسيم القدس». فباراك لم يقدم أكثر من استعداد إسرائيل لدراسة الوفاء بتعهد إسرائيلى قديم يتعلق بإعادة «أبو ديس» للفلسطينيين. وتؤكد أن الحكومات الإسرائيلية حرصت أثناء التفاوض مع العرب على اتباع منهجية محددة تقوم على أساس: سحب تعهدات سابقة وعرضها كما لو أنها اختراقات جديدة فى العملية التفاوضية، وهذا هو جوهر السياسة التى انتهجتها إسرائيل منذ أوسلو. وتؤكد راينهارت أن باراك خلال مؤتمر كامب ديفيد تبنى موقفاً بالغ التطرف من مصير المسجد الأقصى، لم يجرؤ على تبنيه حتى غلاة المتطرفين فى حزب الليكود. وتضيف راينهارت أنه منذ العام ١٩٦٧ حرصت الحكومات الإسرائيلية على عدم المطالبة بالسيطرة اليهودية على المسجد الأقصى، وباستثناء عدد من الحركات المسيحانية الهامشية التى طالبت بالسيطرة اليهودية عليه، وعلى الأخص منظمة «أمناء جبل الهيكل»، فأنه حتى الحركات اليمينية لم تدع للسيطرة على المسجد الأقصى. وتضيف راينهارت أنه حتى وقت قريب اعتبر مصطلح «جبل الهيكل» جزءاً من القاموس المسيحانى لمتدينين أصوليين متطرفين». لكن المفاجأة التى تشير إليها راينهارت تتمثل فى حقيقة أن باراك رئيس الوزراء العمالى العلمانى، الذى يقف على رأس اليسار الصهيونى، هو الذى بادر إلى تغيير موقف الدولة العبرية من مصير المسجد الأقصى، حيث حول باراك السيطرة على المسجد الأقصى خلال مفاوضات كامب ديفيد إلى قضية مركزية. وتشير راينهارت إلى نقطة بالغة الأهمية فى سلوك باراك الذى كان له الدور فى إجبار الفلسطينيين على القنوط من أى رهان على التسوية السياسية مع الدولة العبرية، ألا وهو اتباع الخداع. وتؤكد راينهارت أن لباراك سجلاً حافلاً فى ممارسة الخديعة فى التعامل مع العرب. وتضرب مثال على ذلك هو حقيقة تعمده إفشال المفاوضات بين سوريا والتى سبقت مؤتمر «كامب ديفيد». ويقدم الجنرال أورى ساغيه، الرئيس السابق لشعبة الاستخبارات العسكرية فى الجيش الإسرائيلى والذى كان عضواً بارزاً فى الوفد الإسرائيلى فى المفاوضات مع سوريا المزيد من الأدلة على أن باراك هو الذى احبط فرصة التوصل لتسوية سياسية مع سوريا، حيث تراجع باراك- فى اللحظة الأخيرة - عن التفاهمات التى توصل إليها ساغيه نفسه مع عدد من الجنرالات السوريين والمتعلقة بخط الانسحاب من هضبة الجولان. وتعتبر راينهارت أن باراك هو الوجه الآخر لشارون، وتقدم عدداً كبيراً من الأدلة على ذلك. وتؤكد أن سجل التعاون بين باراك وشارون يعود إلى خدمة باراك كقائد بارز فى الجيش. وتشير إلى وثيقة نشرها الصحافى أمير أورن فى صحيفة هارتس فى يناير ١٩٩٩، وهى عبارة عن مذكرة شخصية وجهها، فى مارس (آذار) ١٩٨٢، إيهود باراك الذى كان يشغل فى ذلك الوقت منصب رئيس شعبة التخطيط فى هيئة أركان الجيش، إلى شارون الذى كان يشغل منصب وزير الدفاع شارون، وذلك فى سياق الاستعدادات التى كانت إسرائيل تقوم بها لغزو لبنان. فى هذه المذكرة يحض باراك شارون على تضليل الحكومة، وتجاوز قرارها، وتوسيع نطاق الغزو المرتقب إلى درجة «شن هجوم واسع النطاق على سورية». راينهارت تعتبر أن الوثيقة «تكشف عن جانب خطير فى شخصية باراك، هو جانب الاستعداد (غير المحدود) للمشاركة فى مؤامرة غايتها أن تخدع ليس فقط الأعداء وإنما أيضاً المواطنين والجنود والقيادة المنتخبة». وتشير راينهارت إلى أن باراك يقدر الفهم العسكرى لأرئيل شارون ، فكلاهما استمرار جلىّ لأبى سلالة الجنرالات السياسيين موشيه ديان.

وتصب راينهارت مجدداً جام غضبها على وسائل الإعلام التى تناست وتجاهلت ما تعرفه من تفاصيل إشكالية فى شخصية باراك وجديته ومصداقيته.

شيطنة عرفات

على الرغم من توقيع قيادة منظمة التحرير على اتفاقيات أوسلو، وعلى الرغم من اعترافها الرسمى بدولة إسرائيل، إلا أن المسئولين عن تقديم التقييمات الإستراتيجية للحكومة سواء كانوا فى شعبة الاستخبارات العسكرية المعروفة بـ «أمان»، أو فى جهاز المخابرات الداخلية «الشاباك» ظلوا يشككون فى نوايا قيادة المنظمة. سيخاروف وهارئيل يؤكدان أن التقييمات الاستراتيجية التى على أساسها تبلور الحكومات الإسرائيلية سياساتها الخارجية تأثرت بالمواقف الأيديولوجية للذين يصوغونها، سيما المسئولين عن قسم الأبحاث فى شعبة الاستخبارات العسكرية، الذى كان يديره الجنرال عاموس جلعاد، الذى قاد توجهاً داخل المؤسسة الأمنية الإسرائيلية لشيطنة عرفات. جلعاد ونظراؤه فى جهاز «الشاباك» قالوا انه رغم التوقيع على اتفاقيات أوسلو، فإن الفلسطينيين لا يعترفون حتى بحدود ١٩٦٧ كحدود لدولة إسرائيل، ويبدون اهتماماً باستمرار التآمر عليها من خلال فلسطينيى العام ١٩٤٨. وحسب هذه التقييمات فإن عرفات يحاول الاحتفاظ من خلال مطالبته بحق عودة اللاجئين إلى داخل دولة إسرائيل بـ «قنبلة ديموجرافية» هدفها النهائى إبادة الدولة.فعرفات بالنسبة لأصحاب هذه التقييمات يريد أن يحرم إسرائيل من أكبر إنجاز حققته الحركة الصهيونية وهو تحقيق تفوق ديموجرافى لليهود بين نهر الأردن وحوض البحر الأبيض المتوسط. خلاصة هذه التقييمات كانت تصل إلى نتيجة مفادها أن احتمال التوصل لتسوية سياسية دائمة مع الفلسطينيين تبدو متدنية جداً. من ناحيتها تشير راينهارت إلى أن المشهد السياسى فى الدولة العبرية أبان الانتفاضة تميز بالتأثير الهائل للمؤسسة الأمنية على دائرة صنع القرار فى الدولة. وعلى الرغم من أنها تؤكد أن المستويين السياسى والعسكرى فى إسرائيل كانا دائما متداخلين ويصعب وضع حدود فاصلة بينهما، إلا أن انتفاضة الأقصى دلت على أن العسكر زادوا من تأثيرهم على عملية صنع القرار. وتقتبس راينهارت أقوال أحد أعضاء الكونجرس الأمريكى الذى زار إسرائيل، وعلق على شبكة العلاقات بين المستويين الأمنى والسياسى، قائلاً «إن الذى يقرر فى إسرائيل الاستراتيجيات وسلم الأولويات القومى، باعتبارهما موضوعاً يقف فى صلب الإجماع الوطنى ليس هيئات منتخبة وإنما أشخاص فى البزات العسكرية.. وجميع حكومات إسرائيل السابقة أولت اهتماماً هائلاً للاقتراحات التى طرحها الجيش، على اعتبار أنه يمثل «الحكومة الدائمة».

زيارة شارون الاستفزازية للأقصى

فى الفصل الأول من «الحرب السابعة»، يؤكد سيخاروف وهارئيل أن ارئيل شارون، الذى كان زعيماً للمعارضة اليمينية، يتحمل مسئولية كبيرة عن اندلاع انتفاضة لإصراره على دخول المسجد الأقصى، وتجاهله بشكل تظاهرى الحساسية المطلقة التى ينظر بها المسلمون والفلسطينيون على وجه الخصوص إلى دخول اليهود إلى باحة الحرم، سيما عندما يدور الحديث عن شارون الذى ينظر إليه كمجرم حرب قاس، و جزار صبرا وشاتيلا وكذلك أحد الذين شاركوا فى حروب الاستنزاف الدامية فى الخمسينيات ضد الفلسطينيين فى قطاع غزة، فهو عدو الشعب الفلسطينى. رفض شارون التحذيرات التى قدمها قادة الأجهزة الأمنية والشرطة من النتائج الوخيمة للزيارة. يرى المؤلفان أن موقف شارون

ترى راينهارت أن أى زعيم إسرائيلى يتطلع إلى المصالحة مع الفلسطينيين على المستوى الرمزى كان يتعين عليه بداية، من وجهة نظرها، الاعتراف بمسئولية إسرائيل عن نشوء قضية اللاجئين



هذا يجعله مسئولاً عن شلال الدماء الذى خلفته هذه الزيارة. يوجه المؤلفان انتقادات لاذعة لرئيس الوزراء الإسرائيلى فى ذلك الوقت ايهود باراك الذى خضع لشارون ووافق على إتمام الزيارة.



ويوضح سيخاروف وهارئيل أن طريقة تعامل قوات الاحتلال الوحشية مع المظاهرات السلمية التى نظمها الفلسطينيون لدى اندلاع الانتفاضة، دفعت الفصائل الفلسطينية للانتقال من وسائل الاحتجاج المدنى إلى العمليات المسلحة وحسب المؤلفين فقد حرصت قيادة جيش الاحتلال على التسبب فى قتل أكبر عدد من المدنيين الفلسطينيين الذين يشاركون فى التظاهرات السلمية. ويستند سيخاروف وهارئيل إلى تقرير مراقب الدولة للعام ٢٠٠٣، الذى أكد انه طوال الفترة الممتدة من الانتفاضة الأولى وحتى انتفاضة الأقصى ،لم يبذل الجيش الإسرائيلى جهودا حقيقية لتطوير وسائل أقل فتكا لتفريق المظاهرات التى ينظمها المدنيون الفلسطينيون. وكان جيش الاحتلال يتذرع بعدم استخدام الوسائل الأقل فتكاً مثل الغاز المسيل بالدموع بأنه «يملك كميات قليلة منها!!!». وحتى استخدام العيارات المطاطية التى كان جيش الاحتلال يدعى أنها من الوسائل «غير الفتاكة»، فقد تبين أنها تؤدى إلى الوفاة. وحسب شهادة قائد إحدى كتائب الاحتياط فى جيش الاحتلال فقد كان جيش الاحتلال يسارع إلى استخدام الذخيرة الحية بدون أن يكون هناك أى دواعى ميدانية تبرر ذلك.وفى الشهر الأول من انتفاضة الأقصى أطلق جنود الاحتلال ٨٥٠ ألف عيار من الذخيرة الحية على الفلسطينيين. عدد من الوزراء فى حكومة باراك من بينهم امنون شاحاك الذى كان فى السابق رئيساً لهيئة أركان الجيش اتهم قيادة الجيش بتجاوز تعليمات الحكومة والإسراف فى قتل الفلسطينيين بدون مبرر. يقول أحد الجنود الذين خدموا فى الضفة الغربية أثناء اندلاع الانتفاضة «هذه الحرب غير الأخلاقية أدت إلى فضح إسرائيل». ويؤكد المؤلفان أن الجنود منحوا تراخيص للقتل، حيث كانت تأتيهم تعليمات لقتل الأطفال والنساء من خلف الكواليس.

إنها حرب إبادة شاملة للإنسان والنبات والمزروعات والتراث، حرب لم يكن لها ضوابط.

ويشير سيخاروف وهارئيل إلى أن هناك علاقة وثيقة بين طريقة انسحاب جيش الاحتلال من جنوب لبنان فى العام ٢٠٠٠، وبين حرص الدولة العبرية على ممارسة أكبر قدر من القوة لقمع الانتفاضة. وحسب المؤلفين فإنه فى التحقيقات الداخلية التى أجرتها قيادة المنطقة الشمالية فى جيش الاحتلال فى أعقاب الانسحاب من جنوب لبنان ،أشار عدد من كبار الضباط لثغرات فى عملية تنفيذ الانسحاب. هؤلاء الضباط وصفوا الانسحاب بأنه «هروب مع ذيل بين الساقين». ويشير زخاروف وهارئيل إلى أن أكثر ما أثار حفيظة قادة جيش الاحتلال وزعماء الأحزاب السياسية اليمينية والدينية كان الخطاب التى ألقاها أمين عام حزب الله الشيخ حسن نصر الله بتاريخ ٢٦ أيار من العام ٢٠٠٠فى المهرجان الذى أقامه حزب الله احتفاءً بانتصار المقاومة فى بلدة بنت جبيل جنوب لبنان. نصر الله الذى كان المتحدث الرئيسى فى المهرجان ، توجه للعالم العربى قائلاً: «إخوانى الأعزاء، أقول لكم: إسرائيل التى لديها سلاح نووى أضعف من بيت العنكبوت». المؤلفان يؤكدان أن خطاب نصر الله ترك آثاراً بعيدة المدى على الوعى الجمعى للعرب والمسلمين. وقادة الجيش الإسرائيلى ورؤساء الأجهزة الاستخبارية توصلوا لقناعة مفادها أنه يتوجب العمل على إزالة الآثار الكارثية التى تركها الانسحاب من جنوب لبنان، وبعث الحياة من جديد فى قدرة الردع الإسرائيلية فى مواجهة العالم العربى. فى إسرائيل أدركوا أن الفلسطينيين سيجدون فى نجاح المقاومة الإسلامية اللبنانية فى تحرير جنوب لبنان بالقوة نموذجاً يقتدى، ومثل الانتصار على الجيش الإسرائيلى كسابقة لم تحدث فى تاريخ الصراع، تجربة يتوجب اتباعها. من هنا فقد اعتبرت الدولة العبرية أن أحد أهم الأسباب التى حثت الفلسطينيين على خوض غمار انتفاضة الأقصى كان بلا شك الانتصار غير المسبوق للمقاومة الإسلامية فى جنوب لبنان. فى إسرائيل أخذوا يؤكدون أن الفشل فى مواجهة انتفاضة الأقصى يعنى دمار الدولة، على اعتبار أنه بخلاف جنوب لبنان، فإن إسرائيل لا يمكنها أن تنسحب من الضفة الغربية التى تمثل العمق الاستراتيجى لها. من هنا اعتبر رئيس أركان الجيش الإسرائيلى السابق موشيه يعلون انتفاضة الأقصى بأنها «المعركة الأهم منذ الإعلان عن الدولة العبرية فى العام ١٩٤٨».

العمليات الاستشهادية
وروح المجتمع الفلسطينى

يرى سيخاروف وهارئيل أن انتقال الفلسطينيين لتنفيذ العمليات الاستشهادية كان ضرورة يمليها واقع ميزان القوى بين الجانبين. فالاختلال الهائل فى موازين القوى العسكرية بين الفلسطينيين ودولة إسرائيل، دفع حركات المقاومة الفلسطينية إلى الاعتماد على العمليات الاستشهادية، حيث أصبح الاستشهاديون «قنابل بشرية» للرد على فعل طائرات الإف ١٦ ودبابات الميركفاة. العمليات الاستشهادية كانت الفعل المقاوم الفلسطينى الأبرز الذى ترك آثاره على المجتمع الإسرائيلى. فالعمليات الاستشهادية حصدت أرواح معظم الإسرائيليين الذين قتلوا أثناء الانتفاضة. تقريباً طالت العمليات الاستشهادية كل المرافق التى يتوجه إليها الإسرائيلى العادى. فقد تم تفجير حافلات النقل والمطاعم والملاهى والفنادق. يؤكد المؤلفان أن الاستشهاديين ومرسليهم نجحوا فى بث الذعر والإحباط الجماعى داخل طبقات كثيرة فى المجتمع الإسرائيلى. كان للعمليات الاستشهادية الدور الأساسى فى تغيير أنماط حياة الجمهور الإسرائيلى. فقد قلل الإسرائيليون من الخروج لمرافق الترفيه والتسوق. وفى نفس الوقت أصبح الطلب هائلاً على شركات الحراسة الخاصة، وأصبح بالإمكان رؤية الحراس وعناصر الأمن فى كل زاوية. وقفز عدد العاملين فى شركات الحراسة الخاصة بشكل كبير ليصل إلى ٤٦٥٠٠حارس. فى نفس الوقت قلل الإسرائيليون من استخدام المواصلات العامة. كان للعمليات تأثير سلبى هائل على السياحة، التى تعتبر من أهم المرافق الاقتصادية فى الدولة. فقد انخفض عدد السياح بشكل لم يحدث حتى فى أثناء حرب الأيام الستة، حيث انخفض عدد السياح بنسبة ٦٨٪. يرسم سيخاروف وهارئيل صورة قاتمة للأوضاع الاجتماعية فى الدولة فى ذروة تنفيذ العمليات الاستشهادية فى الأعوام ٢٠٠١ و٢٠٠٢ و٢٠٠٣. فقد تحولت الدولة إلى دولة جنازات، حيث أقيمت الجنازات للقتلى فى كل مكان ومنطقة من مناطق الدولة. ويقتبس المؤلفان عن تقرير أعده جيش الاحتلال حول تأثير العمليات الاستشهادية، حيث أشار التقرير إلى أن الإسرائيليين أخذوا يشعرون أنهم أصبحوا أهدافا متحركة. وحسب التقرير فإنه حتى تموز ٢٠٠٤ تم تنفيذ١٣٣ عملية استشهادية ، بالإضافة إلى مئات المحاولات الإضافية الفاشلة، عدد العمليات الاستشهادية وعدد المحاولات لتنفيذها أصبح يقترب من تسجيل رقم عالمى. ويعقد المؤلفان مقارنة بين ظاهرة العمليات الاستشهادية لدى حركات المقاومة الفلسطينية، وبين نفس الظاهرة لدى المتمردين التاميليين فى سيريلانكا. ويشيران إلى أنه فى الوقت الذى نفذ فيه التاميل مائة وستين عملية انتحارية خلال عشر سنوات، فإن الفلسطينيين نفذوا خلال أقل من أربع سنوات ١٣٣ عملية استشهادية ومئات المحاولات لتنفيذ مثل هذه العمليات. يرفض المؤلفان الربط بين الاستعداد لتنفيذ عمليات

الحكومات الإسرائيلية حرصت أثناء التفاوض مع العرب على اتباع منهجية محددة تقوم على أساس: سحب تعهدات سابقة وعرضها كما لو أنها اختراقات جديدة فى العملية التفاوضية



استشهادية وبين حقيقة كون منفذى هذه العمليات من المسلمين. ويؤكدان أنه على مر التاريخ تم استخدام العمليات الاستشهادية عندما كان هناك اختلال فى موازين القوى. ويحمل سيخاروف وهارئيل الواقع الذى خلقه الاحتلال المسئولية عن دفع الشباب الفلسطينى لتفجير أنفسهم من أجل ضمان المس بجنود الاحتلال ومستوطنيه. فبالنسبة للشباب الذين نفذ العمليات الاستشهادية فإن الموت أفضل بكثير من مواصلة العيش تحت نير الاحتلال. ويرى المؤلفان أن قدرة الاستشهاديين على المس بالمجتمع الإسرائيلى على هذا النحو أيقظت المشاعر فى العالم العربى. يستند المؤلفان إلى مقابلات أجرياها فى سجون الاحتلال مع عدد من قادة الأذرع العسكرية فى حركات المقاومة الذين اعتقلوا على خلفية دورهم فى التخطيط للعمليات الاستشهادية وتجنيد الاستشهاديين. وحسب هؤلاء القادة فإن لجوء حركات المقاومة الفلسطينية إلى استخدام هذا العدد الكبير من الاستشهاديين لم يكن فقط بسبب توفر عدد كبير من المتطوعين لتنفيذ هذه العمليات، بل بسبب «المزايا الميدانية» للعمليات الاستشهادية، مقارنة بوسائل المقاومة الأخرى. فالاستشهادى يتحكم بتوقيت عمل القنبلة التى يحملها أو الحزام الذين يضعه على جسمه، إلى جانب قدرته على اختيار توقيت التنفيذ، بحيث يؤدى إلى إحداث أقصى ضرر ممكن، فضلاً عن صعوبة إلقاء القبض على مخرب منفرد يخبئ قنبلة على جسده. وفوق كل ذلك، فإنه من الصعب جداً ردع الشباب الذى ينوى تنفيذ عمليات استشهادية، فالدافعية النفسية التى يتسلح بها الاستشهاديون تجعل من محاولة ردعهم مجرد عبث، إذ أنهم يقدمون على الموت طواعية وباختيارهم.

الفشل فى مواجهة الاستشهاديين

يشير المؤلفان إلى أنه على الرغم من نجاح المخابرات الإسرائيلية فى جمع المعلومات الاستخبارية التى قادت فى كثير من الأحيان إلى إحباط العمليات الاستشهادية قبل تنفيذها، إلا أن الجهود التى بذلتها إسرائيل لردع الفلسطينيين ومنعهم من الانضمام لمنفذى العمليات الاستشهادية قد باءت بالفشل الكبيرة. فى جلسة عاصفة فى صيف العام ٢٠٠٢، وإزاء تفاقم الضرر الناجم عن العمليات الاستشهادية، قررت الحكومة الإسرائيلية العمل ضد عوائل الاستشهاديين. المنطق وراء هذا القرار كان يقول أنه إذا كان من الصعب ردع الاستشهادى نفسه، لأنه أصلا اختار الموت، فيتوجب ردع عائلته، والإثبات للمجتمع الفلسطينى أن العقاب الإسرائيلى لا ينتهى بموت الاستشهادى. من هناك قررت الحكومة الإسرائيلية الشروع بتدمير منزل كل استشهادى بأثر رجعى، وتقرر أيضاً تدمير منزل كل من يثبت أنه قام بتجنيد الاستشهاديين وإرسالهم لتنفيذ العمليات. على مدى عامين قام جيش الاحتلال بتدمير مائتين وسبعين منزلا لعائلات الاستشهاديين ومرسليهم. الرسالة الإسرائيلية للاستشهادى قبل تنفيذ العملية أن عائلته ستعيش فى العراء بعد موته، وسيكون هو مسئولا عن تشتيتها. ينقل المؤلفان عن الجنرال إسحاق ايتان الذى كان قائداً للمنطقة الوسطى فى جيش الاحتلال ومسئولاً عن قواته فى الضفة الغربية قوله أن هذه السياسة أتت نتائج عكسية تماماً. يجزم ايتان أن سياسة تدمير منازل الاستشهاديين أججت مشاعر الانتقام فى المجتمع الفلسطينى، وفاقمت من خطر العمليات الاستشهادية.

الذى يصيب سخاروف وهارئيل بالإحباط هو حقيقة أن المقاومين الفلسطينيين الذين التقيا بهم خلف القضبان والذين يقضون أحكاما بالسجن المؤبد بعد إدانتهم بالمشاركة فى التخطيط للعمليات الاستشهادية وتجنيد الاستشهاديين غير نادمين إطلاقا على ما قاموا به. ويقولان أنه من خلال المقابلات التى اجرياها مع هؤلاء المقاومين الذين يعيشون ظروف قاهرة فى السجن تبين لهما أن لدى هؤلاء: إيمان كامل بضرورة الاستمرار فى الصراع ضد الاحتلال ورفض قاطع للتعبير عن أدنى ندم. تواصل العمليات الاستشهادية جعل اليأس يتسلل إلى نفوس قادة الأجهزة الأمنية أنفسهم. ويقتبس المؤلفان جزءاً من الكلمة التى ألقاها افى ديختر رئيس جهاز «الشاباك» أمام مؤتمر «هرتسليا» فى كانون من العام ٢٠٠٣ حيث أكد أن أجهزة الأمن الإسرائيلية فشلت فى حماية الإسرائيليين من العمليات الاستشهادية. أحد القادة الكبار فى «الشاباك» يعبر عن صور اليأس من إمكانية النجاح فى مواجهة الاستشهاديين، قائلاً «الصراع بالمنتحرين لن ينتهى إلى الأبد لأنه أشبه بـ تفريغ البحر بملعقة».



ويرى سيخاروف وهارئيل أنه بعد فشل وسائل الفعل العسكرى التقليدية ممثلة فى عمليات المداهمة والاعتقال، إلى جانب المخاطر الجمة التى يتعرض لها الجنود أثناء محاولتهم أسر المقاومين الفلسطينيين، بالذات أولئك الذين على علاقة بالعمليات الاستشهادية، قررت إسرائيل تغيير الوسائل التى اتبعتها المخابرات والجيش فى مواجهة حركات المقاومة، وكان الانتقال إلى عمليات التصفية، والاعدام بدون محاكمة. يشير سيخاروف وهارئيل إلى أن عمليات التصفية استهدفت فى البداية المقاومين الذين يقومون بتجنيد الاستشهاديين وإرسالهم، والذين يقومون بتصنيع العبوات والأحزمة الناسفة. وجه الشبه بين العمليات الاستشهادية التى ينفذها المقاومون الفلسطينيون وأحداث الحادى عشر من سبتمبر فى نيويورك وواشنطن وفرت لإسرائيل فرصة نادرة لتبرير سياسة التصفية وإضفاء شرعية عليها، أو على الأقل ضمان تأييد القطب الأوحد فى العالم لهذه السياسة. يؤكد سيخاروف وهارئيل أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر زادت من الانسجام بين شارون والرئيس الأمريكى بوش. ووصل الأمر إلى حد أن بوش اعتبر أن حرب إسرائيل ضد المقاومة الفلسطينية هو جزء من الحرب التى تخوضها الولايات المتحدة ضد «الإرهاب العالمى». هذا الفهم لم يكن حكراً على بوش، بل أصبح يتبناه عدد من كبار الكتاب فى الولايات المتحدة، وعلى رأسهم توماس فريدمان الذى كتب بعيد قيام إسرائيل بشن حملة «السور الواقى» فى أبريل من العام ٢٠٠٢ والتى هدفت إلى تصفية البنى التنظيمية لحركات المقاومة فى الضفة الغربية، قائلا «لنتيجة الحرب الدائرة الآن بين الإسرائيليين والفلسطينيين سيكون تأثير حاسم على أمن كل أمريكى وأيضاً على أمن الحضارة كلها». فريدمان دعا العالم إلى دعم إسرائيل فى حربها ضد «الانتحاريين»، قائلاً إذا نجح إرهاب الانتحاريين فى إسرائيل مثل اختطاف الطائرات فسيأتى اليوم الذى ينفجر فيه انتحارى متحزم بحزام نووى. يقول سيخاروف وهارئيل أن الإدارة الأمريكية منحت شارون تصريحاً مفتوحاً بالقتل، و طالما أنه من الممكن تبرير الخطوات الإسرائيلية المتصاعدة، كأنها حرب ضد «الإرهابيين» فإن الإدارة الأمريكية لن تعترض. معظم دول العالم اكتفت باحتجاجات هشة على عمليات التصفية، فشارون عملياً حصل على ترخيص للقتل قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر كان الأمريكيون يكثرون من انتقاداتهم لعمليات التصفية، لكن بعد ذلك انقلبت الأمور رأساً على عقب.



الذى يقرر فى إسرائيل الاستراتيجيات وسلم الأولويات القومى، باعتبارهما موضوعاً يقف فى صلب الاجماع الوطنى ليس هيئات منتخبة وإنما أشخاص فى البزات العسكرية



الاغتيالات: نتائج عكسية

يؤكد سيخاروف وهارئيل أن إحدى النتائج العكسية والسلبية جداً لسياسة الاغتيالات أنها أدت إلى ذواب الفوارق بين التنظيمات الفلسطينية. ويؤكدان أنه بسبب هذه السياسة أصبحت الحركات العلمانية الفلسطينية تتجه

نحو تنفيذ العمليات الاستشهادية، بعد أن كانت العمليات الاستشهادية حكراً على حركتى حماس و«الجهاد». فقد أصبحت الحركات العلمانية مثل «فتح» و«الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» تنفذ عمليات استشهادية. نقطة التحول الفارقة فى آليات عمل حركة «فتح» فى المجال المقاوم كانت عندما قامت إسرائيل باغتيال رائد الكرمى قائد جناحها العسكرى فى مدينة «طولكرم» فى شباط ٢٠٠٢. حتى هذا التاريخ لم تقم «فتح» بأى عملية استشهادية، لكن بمجرد أن وقعت عملية الاغتيال، رد الجناح العسكرى لـ «فتح»، المعروف بـ «كتائب شهداء الأقصى» بسلسلة من العمليات الاستشهادية المؤلمة. ومنذ ذلك الوقت أصبحت العمليات الاستشهادية أداة النضال الأكثر اعتماداً لدى الجناح العسكرى لـ «فتح»، الأمر دفع شخصيات قيادية برغماتية لخوض غمار العمل المسلح، وتحديداً أمين عام سر اللجنة الحركية العليا لـ «فتح» مروان البرغوثى الذى كان ينظر إليه فى إسرائيل على أنه من «الحمائم» فى الساحة الفلسطينية، والذى يقضى حالياً حكماً بالسجن المؤبد فى السجون الإسرائيلية، بعد إدانته بالتمويل والتخطيط وإصدار الأوامر لتنفيذ عمليات استشهادية. وقد وصل الأمر إلى حد أن عدد الإسرائيليين الذين يقتلون فى العمليات الاستشهادية التى تنفذها «فتح» أكبر من عدد الإسرائيليين الذى يقتل فى العمليات التى تنفذها «حماس». ينقل كل من سيخاروف وهارئيل عن وزير الدفاع الإسرائيلى فى عهد حكومة شارون الأولى بنيامين بن اليعازر قوله أنه يعتبر موافقته على اغتيال الكرمى كانت خطأ حياته، لأنه سمح بانضمام «فتح» للعمليات الاستشهادية بكل قوة. وكرد على عمليات الاغتيال نجح عناصر من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فى اغتيال الوزير إسرائيلى الجنرال رحبعام زئيفى رداً على اغتيال أمين عام الجبهة أبو على مصطفى.

مولد خطة «فك الارتباط»

يؤكد المؤلفان أن شارون الذى يعتبر «أبو المشروع الاستيطانى» فى الضفة الغربية وقطاع غزة أدرك بسرعة أنه على الرغم من التفوق الطاغى للقوة العسكرية الإسرائيلية فإن الدولة العبرية ليس بإمكانها مواصلة المواجهة على هذا النحو. فقد اتضح عدم مقدرة الجمهور الإسرائيلى على تحمل تبعات المواجهة المتواصلة. شارون الذى كان يتبجح ويتعهد لكل ناخبيه فى اليمين، بأنه سيفرط بتل أبيب فى حال فرط بنتساريم (مستوطنة نائية تقع إلى الجنوب من مدينة غزة)، وصل إلى قناعة مفادها أن عليه تفكيك جميع مستوطنات قطاع غزة وأربعة مستوطنات نائية فى شمال الضفة الغربية، وكانت هذه بداية قصة خطة «فك الارتباط». بالنسبة لشارون كانت خطة «فك الارتباط» آلية لإدارة الصراع لا حله. فإلى جانب إدراكه عجز جيشه عن تحقيق نصر حاسم على الانتفاضة، خشى شارون أيضاً أن يؤدى التجند العالمى لخطة «خارطة الطريق» التى قدمتها الولايات المتحدة واللجنة الرباعية إلى سحب البساط من تحت أقدامه وإجباره إلى تقديم «تنازلات» لا يقبل بها. فقام شارون من ناحية بالإعلان عن خطة فك الارتباط، وفى نفس الوقت طرح شروط تعجيزية من أجل الموافقة على خطة «خارطة الطريق». شارون اشترط أن تقوم السلطة الفلسطينية بنزع أسلحة حركات المقاومة وتفكيك بنيتها التحتية والقضاء على كل مظاهر التحريض على الدولة العبرية قبل خوض غمار خطة «خارطة الطريق». اعتبر شارون أن خطة «فك الارتباط» تحسن من الواقع الديموغرافى لصالح اليهود، إذ أن إسرائيل ستتخلص من مئات الآلاف من الفلسطينيين الذين سيتم القذف بهم فى الكيان الفلسطينى الذى سينشأ فى قطاع غزة بعد تنفيذ خطة «فك الارتباط».

قصارى القول فإنه يمكن تلخيص ما جاء فى «أكاذيب حول السلام» و«الحرب السابعة»، بالقول أنه بسبب انعدام الجدية الإسرائيلية فى التوصل لتسوية سياسية حقيقية، فقد كان من الطبيعى والمنطقى والمطلوب أن تندلع انتفاضة الأقصى. ■

البديل الآخر



ريتشارد هاس

عبد الرءوف الريدى

كان لقائى الأول مع ريتشارد هاس فى أوائل عام ١٩٨٩، وكان قد عين لتوه عضواً بمجلس الأمن القومى بالبيت الأبيض كمساعد لرئيس الجمهورية لشئون الشرق الأوسط فى عهد الرئيس جورج بوش الأب. ومنذ هذا التاريخ استمرت صلتى به كما أصبحت صداقة بيننا، إلى جانب كونها صداقة عمل.

طوال سبعة عشر عاماً أى منذ خطوته الأولى فى البيت الأبيض تقلب ريتشارد فى مناصب عديدة داخل وخارج الإدارة إلى أن أصبح أخيراً مديراً (President) للمجلس الأمريكى للعلاقات الخارجية بنيويورك، خلفاً للزلى جلب الذى كان المعلق الرئيسى للشئون الخارجية فى جريدة نيويورك قبل أن يتولى إدارة المجلس لمدة عشرة أعوام.

أول مناسبة اشتهر فيها هاس كانت تلك الصورة التى ظهر فيها إلى جانب الرئيس بوش الأب عندما أطلق تصريحه الشهير بأن غزو صدام للكويت هو خط على الرمال مآله حتماً إلى الزوال. وقد عمل ريتشارد بصورة وثيقة مع رئيسه المباشر برنت سكوكروفت مستشار الأمن القومى وبطبيعة الحال مع الرئيس بوش نفسه وكان هو الذى ينسق تدفق وعرض المعلومات حول عملية تحرير الكويت ويرفعها مباشرة إلى الرئيس بوش مما أوجد علاقة حميمة بينه وبين الرئيس بوش الأب منذ ذلك التاريخ.

أذكر لريتشارد تعاونه هنا فى هذه الفترة، حيث كان مناصراً لفكرة إلغاء الديون الأمريكية العسكرية (سبعة بلايين دولار) على مصر، كما كان عنصراً فعالاً فى الحصول على تأييد الولايات المتحدة لانتخاب الدكتور بطرس بطرس غالى أميناً عاماً للأمم المتحدة.

كان الرئيس بوش يريد أن يرشح لهذا المنصب المرحوم صدر الدين خان الذى كانت تربطه به صداقة شخصية منذ كان بوش يشغل منصب مندوب الولايات المتحدة الدائم لدى الأمم المتحدة وعندما كان بوش يأتى إلى جنيف كان ينزل ضيفاً على صدر الدين.

وبعد أن أعلنا عن ترشيحنا للدكتور غالى وبدأنا العمل على جلب تأييد الدول الكبرى وخاصة الولايات المتحدة دخل ريتشارد على الرئيس فى مكتبه البيضاوى، وقال له، اسمح لى يا سيادة الرئيس أن أختلف معك فى تأييدك لصدر الدين خان لمنصب أمين عام الأمم المتحدة... لأن ذلك سيعنى إغضاب مصر التى تشارك معنا فى تحرير الكويت وتقدم لهذا المنصب شخصية معروفة على الساحة الدولية... بعكس صدر الدين خان الذى لم يكن معروفاً للرأى العام الدولى فضلاً عن الرأى العام الأمريكى، ولن يتفهم الشعب الأمريكى، لماذا تؤيد الولايات المتحدة مرشحاً جنسيته الرسمية أنه إيرانى رغم أنه لا يعيش فى إيران، وأننا نفضله على هذا المرشح المصرى المعروف فى العالم. وقد فكر بوش ملياً فيما قاله ريتشارد ثم اتخذ قراره بعدم ترشيح صدر الدين ولكنه فكر فى ترشيح شخص آخر من مصر وهو الدكتور عصمت عبد المجيد الذى تربطه به صداقة منذ الفترة التى عمل فيها كلاهما كمندوبين دائمين لبلديهما فى بداية السبعينيات. وكان الدكتور عصمت عبد المجيد فى وقتها مرشحاً لمنصب أمين عام جامعة الدول العربية وكانت فرصته فى الحصول على هذا المنصب مضمونة تماماً.

اتصلت بالدكتور عصمت وقتها لاستطلاع رأيه واتفقنا على أن الأفضل له أن يستمر فى ترشيح نفسه لمنصب أمين عام جامعة الدول العربية عملاً بالمثل القائل «عصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة»، وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً أمام دكتور بطرس غالى.. وكان تأييد الولايات المتحدة له هو العامل الحاسم فى حصوله على المنصب عام ١٩٩١، كما كان غياب هذا التأييد هو العامل الحاسم أيضاً فى عدم التجديد له لفترة ثانية عام ١٩٩٦.

بعد انتهاء رئاسة بوش الأب خرج ريتشارد من الإدارة وعمل لمدة ثمانية أعوام أى طوال فترة الإدارة الديمقراطية برئاسة كلينتون خارج الإدارة وكنت بدورى قد عدت إلى القاهرة بعد انتهاء فترة عملى فى واشنطن وأصبحت انشغالاتى كلها فى المجتمع المدنى المصرى، ومن ذلك كان الإسهام فى إنشاء المجلس المصرى للشئون الخارجية، وكان ريتشارد قد أصبح رئيساً للدراسات الاستراتيجية للشئون الخارجية فى معهد بروكنجز وزار مصر فى هذه الفترة

The opportunity: America's Moment to Alter History's course

(الفرصة: خطة أمريكا لتغيير مسار التاريخ)

Richard Haass

Perseus publishing, $25.00, 2005

عدة مرات، وعقدنا معه لقاءات في المجلس المصري، وكانت آراؤه مازالت تتجه صوب فكر الجمهوريين، ولكنه لم يكن من مجموعة المحافظين الجدد. وربما كان ذلك من أسباب اختيار كولين باول له وزير الخارجية في إدارة بوش الابن الأولى بعد ذلك ليعمل معه في الخارجية الأمريكية، وكان باول منذ البداية يعمل على إحاطة نفسه بمجموعة من غير المحافظين الجدد الذين لم يكن يثق بهم كما أنهم لم يكونوا يثقون به. وقد عين باول ريتشارد رئيساً لمجلس التخطيط السياسي في الخارجية الأمريكية... وبهذه الصفة عدت والتقيت معه بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ضمن وفد المجلس المصري للشئون الخارجية في واشنطن... وهو في منصبه الجديد، كما كان هو المسئول عن العملية السياسية في أفغانستان بعد غزو أمريكا وإسقاط طالبان، وكان ريتشارد يتعاون مع الأخضر الإبراهيمي مستشار أمين عام الأمم المتحدة الذي كان اللاعب الأول في ترتيب الساحة السياسية الأفغانية، والتي انتهت إلى تشكيل الحكومة الأفغانية الحالية بقيادة حميد كرزاي.

لم يبق ريتشارد في الخارجية الأمريكية إلا عامين ونصفاً تقريباً... ثم خرج ليشغل بعد ذلك منصباً مرموقا يتطلع إليه الكثيرون، وكان يتنافس عليه العديد من العاملين في مجال الشئون الخارجية، وهو منصب مدير «President» المجلس الأمريكي للعلاقات الخارجية في نيويورك... والذي يعتبر أهم مؤسسة مهتمة بالشئون الخارجية في المجتمع المدني الأمريكي، وقد تم اختيار ريتشارد من بين قائمة ضمت شخصيات دبلوماسية وأكاديمية بارزة وفي اعتقادي أن هذا المنصب هو الذي سيؤهل ريتشارد يوماً لشغل منصب كبير آخر في أية إدارة جمهورية مقبلة... كأن يصبح مثلاً مستشار الرئيس للأمن القومي، وذلك بحكم خلفيته الأكاديمية وخبرته العملية.. وينضم بذلك إلى هذه المجموعة التي تضم هنرى كيسنجر وماك جورج باندي وزبيجو برجنسكي وكونداليزا رايس..



لم يتوقف ريتشارد عن الكتابة والتأليف في السياسة الخارجية... فهو أساساً قادم من مجتمع هارفارد الأكاديمي... ويأتي كتابه الأخير بعنوان «الفرصة» أو «أمريكا وتغيير مسار التاريخ» الذي صدر منذ شهور قليلة في نيويورك واهتمت به دوائر الفكر الاستراتيجي والشئون الخارجية في الولايات المتحدة وفي العالم، ليصبح واحداً من أهم الكتب التي صدرت مؤخراً في السياسة الخارجية الأمريكية ويحتل موقعاً على قائمة أهم الكتب التي تقرأ حالياً في مجال السياسة الخارجية.

يتسم كتاب ريتشارد هاس «الفرصة» بالابتعاد عن الأيديولوجية التي يتسم بها فكر المحافظين الجدد الذين جاءوا مع بوش الابن وكانت وزارة الدفاع بقيادة رامسفيلد هي قلعتهم الحصينة.. كان هذا الفريق يضم بول ولفوتس نائب وزير الدفاع الذي أصبح الآن رئيساً للبنك الدولي ودوجلاس فايث وكيل وزارة الدفاع الذي ترك منصبه وعاد لممارسة المحاماة... وريتشارد بيرل الذي رأس المجلس الاستشاري بوزارة الدفاع ثم اضطر للاستقالة حتى لا يجمع بين عمله كمستشار لشركات تتعامل وتتعاقد مع وزارة الدفاع وبين رئاسته لمجلس الدفاع... وكان منهم بطبيعة الحال جون بولتون الذي أبعدته كونداليزا رايس عن دائرة صنع القرار في الخارجية الأمريكية وأرسلته إلى الأمم المتحدة كمندوب دائم ليغرق وسط أكوام الورق والاجتماعات التي لا تنتهي!! تلك هي المجموعة التي فقدت بريقها وغرقت في مستنقع العراق ثم فقدت نفوذها بعد أن فقدت مصداقيتها لأنها هي التي زجت بأمريكا إلى الحرب على العراق دون أن تكون لديها خطة واضحة لما يمكن تحقيقه، ودون أن يكون لديها التقدير السليم لتداعيات الحرب أو خطة للخروج إذا سارت الأمور على غير ما تشتهي Exit Strategy.

يأتي كتاب ريتشارد هاس كأطروحة مناقضة للأطروحات الأيديولوجية للمحافظين الجدد، والفارق بين الفكرين كبير... ففكر المحافظين الجدد يذهب إلى أن الولايات المتحدة وحدها من حقها أن تدير شئون العالم حسب رؤيتها وليس على الآخرين إلا أن يلحقوا بها وقد ظهر هذا الفكر بجلاء أثناء الفترة السابقة على حرب العراق... وهناك من المقولات على لسان هؤلاء المحافظين الجدد ما صار مثلاً... «سنذهب إلى العراق بالأمم المتحدة أو بدونها»... «لسنا مستعدين لأن نرهن مستقبل أمريكا على إذن من الآخرين» وغير ذلك من مقولات تتسم بالغرور والغطرسة... أما الفكر البراجماتي الذي يدعو إليه ريتشارد هاس والذي أتاح له كتابه الجديد الفرصة لأن يشرحه بالتفصيل، فهو يقوم على أن الولايات المتحدة والتي لا ينكر عليها أحد مركز القيادة، عليها أن تعمل مع الآخرين للتعامل مع المشاكل التي تواجهها وتواجه العالم معها. وأن الفرصة متاحة الآن أمامها لتعديل مسار التاريخ بما يناسبها ويناسب العالم أيضاً، وأن هذا الخيار ليس في الواقع مجرد خيار بل إنه في حكم «الضرورة» إذا كانت الولايات المتحدة ترغب في أن تحقق لنفسها وللعالم حالاً أفضل مما هو عليه الآن وتتفادى الوصول بالعالم إلى أخطار كبرى يمكن أن تهددها وتهدد البشرية جمعاء.

يأتي الكتاب في أعقاب الحرب الأمريكية على العراق وما سببته هذه الحرب من أضرار كبيرة لأمريكا وبصورتها مما أشاع في العالم موجة العداء لأمريكا anti-americanism فضلاً عن إزهاق الأرواح والخسائر الاقتصادية.

رغم ذلك فإن هاس يعتقد أن الولايات المتحدة إزاء فرصة نادرة لها وللعالم معها إذا غيرت من أسلوبها وأخذت تتعاون مع الدول الرئيسية الأخرى. فعندئذ سيكون بإمكانها أن تشكل ما سيكون عليه العالم في القرن الحادي والعشرين، وأن تجعل من هذا القرن قرناً يتسم بالسلام والرخاء والحرية لأغلب دول وشعوب العالم في نفس الوقت الذي تحتل فيه الولايات المتحدة المكانة الأولى في العالم (American Primacy). إما ذلك وإما أن تتدهور أحوال العالم وتفقد الولايات المتحدة سيطرتها وتسود حالة من الفوضى والانفلات ويصبح العالم مرتعاً لانتشار أسلحة الدمار الشامل ويزداد عدد الدول المنهارة أو المفلسة Failed States كما ينتشر الإرهاب وعدم الاستقرار.. أما الاحتمال الثالث فهو أن تصبح هذه الحقبة - أي حقبة القرن الحادي والعشرين- مجرد حقبة انتقالية نحو حرب باردة جديدة تكون هذه المرة بين الولايات المتحدة والصين!



ويناقش هاس الدول التي يتعين على الولايات المتحدة أن تتعاون معها... وهو يعتقد أن هذه الدول تختلف باختلاف الموضوع والنزاع، وتلعب كل من الصين والهند دوراً هاماً رغم أنهما ليستا ضمن مجموعة الدول السبع أو الثماني الكبرى... فلو أن هناك قضية مثلاً فعلاً في أمريكا اللاتينية فسيتعين التعاون مثلاً مع البرازيل والمكسيك... وبطبيعة الحال إذا كانت هناك قضية تتعلق بمنطقتنا فإن مصر ستكون من بين الدول التي يتعين التعاون معها وهكذا... كما يتحدث عن الأمم المتحدة ويعطي اهتماماً خاصاً لمجلس الأمن ولكنه لا يعتقد أن الولايات المتحدة يمكن أن تخضع مصالحها الحيوية لقرار من الأمم المتحدة.

ثم يتحدث هاس عن أسباب أو انتشار الروح العدائية لأمريكا في العالم... وهو لا يعتقد أن هذه الكراهية تعود إلى كون الولايات



هاس يعتقد أن الولايات المتحدة إزاء فرصة نادرة لها وللعالم معها إذا غيرت من أسلوبها وأخذت تتعاون مع الدول الرئيسية الأخرى



ريتشارد هاس



المتحدة دولة قوية يحسدها العالم، ولكنها تعود إلى سياسات أمريكا.. وخاصة فى العراق وفى فلسطين وتأييد إسرائيل وكذلك إلى الأسلوب الذى يتسم بالغرور والعنجهية لإدارة بوش الابن.. وبالتالى فليست كراهية العالم لأمريكا شيئاً دائماً غير قابل للتغيير ولكنه شيء يمكن تغييره بتغيير السياسات. ثم ينتهى هاس إلى القول أن إدارة بوش مدعوة الأن لتبنى أفكار وسياسات خلاقة وأن يكون لديها مفهوم مرن لفكرة السيادة أو تقبل درجة أقل من السيادة، وذلك من أجل التكامل وللتعامل مع مشاكل الإرهاب وانتشار الأسلحة النووية ومكافحة الأمراض وضحايا النزاعات الداخلية لمواجهة هذه الأخطار جميعاً بأسلوب أفضل مما تتبعه حالياً أى بأسلوب يتسم بالتعاون لا بالانفراد بالقرار.

وقد عالج هاس عدداً من القضايا المحددة.. وربما كان من أهمها قضية الإرهاب ويرى أن الولايات المتحدة يجب أن تعمل مع الآخرين على وصم أى عمل يستهدف قتل المدنيين بأنه إرهاب، وذلك بغض النظر عما إذا كان قد تم قبول أو تم التغاضى عن أعمال من هذا النوع فى الماضى وليس من شك فى أن هاس يقصد هنا موضوع مقاومة الاحتلال، فالولايات المتحدة هى التى شجعت وسلحت ودربت الجماعات الإسلامية على مقاومة الاحتلال فى أفغانستان... وكان الرئيس ريجان يصف هذه الجماعات بأنها جماعات المحاربين من أجل الحرية Freedom fighters.. وكم من المدنيين الأبرياء فقدوا أرواحهم فى هذه الحرب التى انتهت بهزيمة الاتحاد السوفيتى ثم تفكيكه بعد ذلك. إن هاس لا يريد أن يشير إلى هذا الفصل من تاريخ أمريكا القريب... لأن أحداث أفغانستان فى عقد الثمانينيات كانت هى فى الواقع الحضانة الكبرى لجماعات التطرف الإسلامى التى ظهرت بعد ذلك، وهو لا يريد أن يجعل من تأييد أمريكا لحرب تحرير أفغانستان من الاحتلال السوفيتى مثالاً تقاس عليه مقاومة الاحتلال الإسرائيلى فى فلسطين أو الاحتلال الأمريكى للعراق. ولعل هذا الموضوع بالتحديد هو الذى يقف عقبة أمام كل محاولات تعريف الإرهاب فى الأمم المتحدة... أعنى الوضع بالنسبة لمقاومة الاحتلال التى نعتبرها نحن حقاً مشروعاً كما كانت حقاً مشروعاً أيام احتلال النازى لأوروبا وأيام احتلال السوفييت لأفغانستان ويعتبرونها هم الآن إرهاباً.

ويشير هاس إلى أن شحنة الكراهية إزاء الولايات المتحدة فى العالم الإسلامى هى بالأساس موجهة ضد سياسات الولايات المتحدة وليست ضد الولايات المتحدة كبلد أو كشعب.. ومن هذه السياسات بطبيعة الحال تأييد الولايات المتحدة لإسرائيل وحرب العراق والتواجد الأمريكى فى شبه الجزيرة العربية، وهو يعتقد أن مقاومة الإرهاب لا تتطلب التعامل بالوسائل الأمنية فقط بل تتطلب أيضاً إعادة النظر فى سياسات الولايات المتحدة فى فلسطين والعراق.

ويتحدث هاس مجدداً عن الثمن الذى تدفعه الولايات المتحدة نتيجة صورتها السلبية فى العالم العربى والإسلامى كدولة داعمة لإسرائيل. إن هذه الصورة فضلاً عن أنها تجعل الحكومات العربية متحرجة فى الظهور بمظهر التعاون مع الولايات المتحدة فإنها أيضاً تقلل من مصداقية الولايات المتحدة وقدرتها على إقناع العالم العربى بموضوع الإصلاح الديموقراطى، وهو بذلك يرى أن تعمل الولايات المتحدة على معالجة هذه الصورة من خلال العمل على حل هذه المشاكل. يرى فى انسحاب إسرائيل من غزة نقطة يمكن البناء عليها من أجل تنفيذ خطة الطريق لحل المشكلة الفلسطينية... وإقامة دولة فلسطينية، هذا عن فلسطين أما بالنسبة للعراق فهو قد انتقد فى أكثر من موضع قرار الحرب على العراق... واعتبر أنه قرار كلف الولايات المتحدة كثيراً... وشق صفوف الحلفاء وهو يرى ضرورة أن تعمل الولايات المتحدة على وضع استراتيجية للخروج من العراق exit strategy .

أما بالنسبة للديمقراطية فى العالم العربى فهو فى الوقت الذى يرى أهمية تشجيع البلاد العربية على الإصلاح إلا أنه لا يعتقد انه سيكون من الحكمة أن ترهن الولايات المتحدة سياساتها فى المنطقة على موضوع الإصلاح، ويتحدث عن موضوع انتشار الأسلحة النووية ويشير إلى أن هناك الآن أمر واقع ينبغى تقبله وهو وجود ثلاث دول نووية فعلاً هى الهند وباكستان وإسرائيل.. وأنه لا سبيل لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء أى إلى إرغام هذه الدول على التخلى عن أسلحتها النووية.. ولكن ينبغى العمل الآن على منع ظهور دول نووية أخرى. ويشير فى هذا إلى كل من كوريا الشمالية وإيران، وهو يقر بوجود معايير مزدوجة، فهو لا يبدو قلقاً من وجود أسلحة نووية فى يد إسرائيل ولكنه لا يقبل بوجود هذه الأسلحة فى يد إيران. والواقع أن هذا الفكر أصبح سائداً فى الغرب، وقد ذكر أحدهم لى أثناء مناقشة حامية معه أن الخوف من الأسلحة النووية هو فى الأساس خوف ممن توجد هذه الأسلحة فى أيديهم... ولعل هذا ما يفسر الصمت المطبق إن لم يكن الصمت المدوى إزاء امتلاك إسرائيل للأسلحة النووية ووسائل إيصالها... وهو ما كان ومازال للغرب دور كبير فيه بما قدمته فرنسا وإنجلترا وما تقدمه أمريكا من دعم لإسرائيل فى مجال إقامة قاعدتها العلمية والعسكرية لإنتاج هذه الأسلحة... وكذا الصمت عن فكرة جعل منطقة الشرق الأوسط منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل بينما يجرى التركيز على امتلاك إيران للتقنية النووية، ويصل الأمر إلى حد التهديد بالقيام بعمل عسكرى ضد إيران... هذه المعايير المزدوجة هى أمر مسلّم به فى الغرب.

وأكتب هذه السطور فى أعقاب سماعى لخطاب الرئيس الإيرانى أحمدى نجاد فى الجمعية العامة للأمم المتحدة والذى خصصه لإثبات أن الغرب يتبع معايير مزدوجة... ولكنها للأسف صرخة فى واد...



وفى حديثه عن المستقبل فإن هاس لا يمانع أن تقوم الولايات المتحدة بحروب وقائية أو مانعة... ولكنها لا يجب أن تكرر تجربة العراق... التى لم يكن هناك دليل على أنها تحوز أسلحة دمار شامل... ويعتقد أنه حتى يمكن للولايات المتحدة أن تحصل على تأييد دولى لحرب مانعة فيجب أن يكون هناك الدليل «الإيجابى» وليس مجرد عدم وجود دليل على «البراءة»...

ويفرق هاس بين ما هو قانونى legal وبين ما هو مشروع legitimate والمشروعية عنده هى تقبل مجموعة الدول الرئيسية لقرار الحرب أو غيره من القرارات الهامة بغض النظر عما إذا كان الموضوع قانونياً... ولعل مثال إسرائيل وإيران هنا فى موضعه... فإثراء اليورانيوم أمر قانونى طبقاً لمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية ولكنه بالنسبة للغرب غير مشروع لأن الذى سيقوم به هى حكومة إيران التى لا يرضى عنها الغرب... فهو أمر قانونى ولكنه غير مشروع!!

ويختم هاس كتابه بفصل عنوانه «الضرورة»... ويقول أنه عنوان كان يمكن أن يكون بديلاً للعنوان الذى استخدمه وهو «الفرصة»... يقترح فى هذا الفصل ضرورة ان تعدل الولايات المتحدة من سياساتها القائمة على الانفرادية وان



هاس لا يمانع أن تقوم الولايات المتحدة بحروب وقائية أو مانعة... ولكنها لا يجب أن تكرر تجربة العراق... التى لم يكن هناك دليل على أنها تحوز أسلحة دمار شامل



تعمل بالتعاون مع القوى الرئيسية الأخرى فى العالم.

وبالرغم من أن هاس يحاول فى كتابه أن يوضح المزايا الكبرى التى تكمن فى أسلوب العمل الجماعى والتعاون كبديل عن أسلوب العمل المنفرد فإن الكتاب أيضاً يعكس الخوف من أن تفلت شئون العالم وتنحدر الإنسانية إلى مصير مظلم.. وهو يقول أنه مالم تقع تغيرات جوهرية فى السياسة الخارجية الأمريكية، فإنه سيكون من شبه المحتم أن نشهد العودة إلى عالم يقوم على سياسات توازن القوى، وستكون هذه القوى منشغلة إحداها بالأخرى بحيث لا يتسنى لها مجتمعة أن تتعامل مع المشاكل الناجمة عن العولمة ومن تزايد عدد الدول الصغرى والمتوسطة غير القادرة على مواجهة تحديات البقاء.

ومما يقلق هاس أن الولايات المتحدة مضغوطة عسكرياً overextended وأنها تعانى من عجز مالى فضلاً عن العجز المتزايد فى ميزانها التجارى. وذلك بالإضافة إلى أخطار الإرهاب واحتمالات وقوع أسلحة دمار شامل فى أيدى منظمات إرهابية ووجود آلاف الأسلحة النووية فى دول أخرى وخاصة فى روسيا فضلاً عن تهديدات نضوب مصادر الطاقة فى العالم... وفى كل ذلك يحوم خطر الصين فى الأفق.

وباختصار فإن الاحتمالات الثلاثة المطروحة هى التعاون أو التصادم أو الفوضى والانفلات.

ويعتقد هاس أنه لا توجد دولة واحدة أيا كانت قوتها قادرة على أن تتعامل وحدها مع التحديات عابرة القارات التى يعيشها العالم الآن... مثل هذه السياسة محكوم عليها بالفشل.. صحيح أن الولايات المتحدة لا تحتاج لإذن من أحد لكى تأخذ تصرفاً ما ولكنها تحتاج إلى دعم الآخرين حتى تنجح.. وكما أن العزلة Isolation ليست خياراً. فلا توجد دولة واحدة قادرة على أن تتفادى نتائج العولمة وأن تتعامل وحدها مع مشاكل عالم يقوم على الترابط والتشابك والاعتماد المتبادل.

وفى اعتقادى أن إدارة بوش الحالية وبعد أن اكتشفت الطريق المسدود الذى أوصلتها إليه سياسات المحافظين الجدد القائمة على الغرور والغطرسة والعمل الانفرادى، قد بدأت فى تعديل سياساتها بالفعل بأسلوب لا يظهر فيه التراجع أو فقدان ماء الوجه... وربما قد بدأت هذه السياسات المعدلة فى تحقيق بعض النجاح.. حيث يبدو أنه قد تم التوصل إلى اتفاق فى المحادثات السداسية التى تجرى فى الصين من أجل إقناع كوريا الشمالية بالتخلى عن أسلحتها النووية والعودة إلى معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية مقابل حصولها على ضمانات من الولايات المتحدة وقد لعبت الصين دوراً هاماً فى هذه المحادثات... كما تعمل الولايات المتحدة الآن بصورة أوثق مع أوروبا فى معالجة الملف الإيرانى كما كان هناك تعاون أوثق مع فرنسا فى الملف اللبنانى - السورى وهكذا...

ربما أيضاً جاء إعصار كاترينا كتذكير للولايات المتحدة بأنه لا توجد قوة لا تقهر فى هذه الدنيا..

والواقع أن هاس.. وهو أحد الذين عملوا مع جورج بوش الأب وجورج بوش الابن ولا يمكن أن يصفه أحد بأنه من الحمائم فهو محسوب فى النهاية على التيار الجمهورى... فإنه يقدم هذا الكتاب فى وقت تحتاج فيه أمريكا بالفعل إلى أن تسمع عن خطايا المحافظين الجدد الذين أدخلوها فى نفق العراق المظلم، وأن تسمع ذلك من شخص له مؤهلاته التى لاشك فيها كجمهورى مخلص.

مما يحسب للديمقراطية الأمريكية أنها تتيح بل وتشجع على وجود مثل هذا المناخ الحر الذى تتصارع فيه الآراء كما توجد فيه الآليات التى تسمح بتعديل المسار... والذى ربما كانت إدارة بوش الآن تعمل على تحقيقه بهدوء.

وفى الختام تبقى كلمة: لم تعد السياسات الأمريكية بحكم تأثيرها على العالم مجرد شأن أمريكى.. بل أصبحت شأناً عالمياً... وبالنسبة لنا فى عالمنا العربى أصبحت عاملاً مؤثراً سلباً أو إيجاباً وإن كان الأغلب بالسلب... وهو ما يحتم علينا ليس فقط أن نتابع مع يجرى على الساحة الفكرية الأمريكية بل أن نعمل أيضاً على التأثير فيها... ولا ينبغى أن تشغلنا عن ذلك قضايانا الداخلية مهما ألحت علينا، خاصة أنه بالنسبة لمصر فإن تشابك الداخل مع الخارج هو من حقائق الحياة. ■

موسيقى وكتب وفن وثقافة في مكان واحد

شبكة المحمول الأولى في مصر وأكبر سلسلة منتجات ترفيه في العالم

موبينيل توقع اتفاقية تعاون مع سلسلة محلات

فيرجين ميجا ستور العالمية بمصر



المهندس عثمان سلطان المدير التنفيذى والعضو المنتدب لموبينيل والسيد جان كلود طربانية المدير الإقليمى لفيرجين ميجا ستور اثناء المؤتمر الصحفى

بدأت موبينيل شبكة المحمول الأولى في مصر التعاون مع سلسلة محلات فيرجين ميجا ستور في حدث شد أنظار جميع رواد سيتى ستار بمدينه نصر و في حضور كبار مسئولى الشركتين و عدد كبير من الصحفيين ورجال الإعلام تم توقيع عقد تعاون بين الشركتين الكبيرتين وقعه عن موبينيل الأستاذ/ عثمان سلطان العضو المنتدب للشركة و عن سلسلة فيرجين ميجا ستور السيد / جان كلود طربانية المدير الإقليمى لفيرجين ميجا ستور وسط توقعات مؤكده بأن الجانبين سوف يكمل كل منهما الآخر بحيث يكون الرابح النهائى هم العملاء الذين سوف يستمتعون بالفكر الجديد الذى تمثله محلات فيرجين ميجا ستور العالمية التى تمزج التسوق مع الترفيه مع الثقافة تحت سقف محل واحد يمتد على أكثر من 2200 متر مربع به العديد من الأقسام لبيع شرائط الكاسيت وأسطوانات الموسيقى وأسطوانات ال DVD والكتب والألكترونيات والتليفونات المحمولة والوسائط المتعدده ال Multimedia والألعاب وغيرها من تكنولوجيا الترفيه.

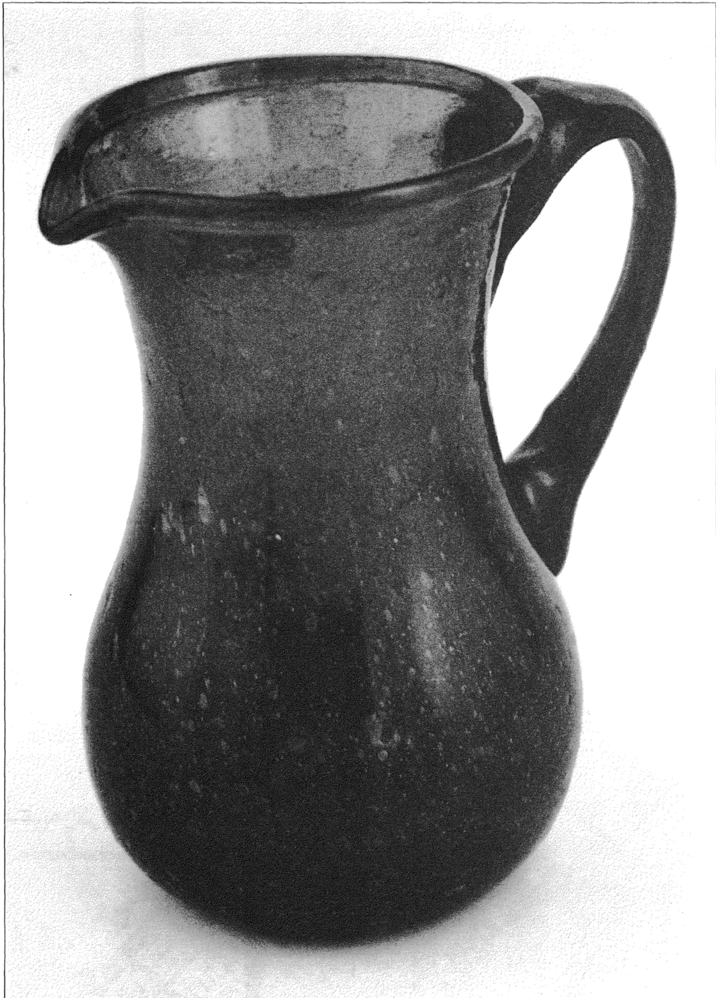
و بعد توقيع العقد أكد السيد عثمان سلطان أن هذا التعاون يأتى استجابة من موبينيل للإتجاه المتنامى منذ سنوات بحيث لا يقتصر المحمول على نقل الصوت بل ينتشر بصورة متزايده في مختلف مجالات الحياه اليومية.

و أوضح أنه ليس مصادفة أن رعاية الفن و الثقافة كانت و لا تزال أحد الأنشطه الرئيسية التى تحرص موبينيل على دعمها ورعايتها في إطار مسئوليتها الإجتماعية.

ومن ناحية أخرى عبر السيد / كلود طربانية المدير الإقليمى لفيرجين ميجا ستور عن سعادته ببدء عمل سلسلة فيرجين في مصر ، و أكد أن فيرجين سوف تفتح ثلاثة محلات على الأقل في القاهرة ومحل في الأسكندرية ومحل في شرم الشيخ.

و أعرب عن سروره بالتعاون مع موبينيل التى وصفها بأنها شركة رائده موضحا أن الجمهور هو أهم ماتحرص موبينيل على إرضائة و هو أيضا الأساس الذى ترتكز عليه سلسلة فيرجين في عملها.


www.maccarpet.com
واجد في مراكز بيع بواقي التصدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
BIENVENUE



جبــل الجليد الفـــارق

عـــز الـــدين نجــــيب

■■ ثقافتنا مثل جبل الجليد العائم، لا يمثل الجزء المنظور منه غير الثُمن، والسبعة أثمان الباقية غارقة تحت الماء، وهذا الجزء المنظور مستعار فى أغلبه من الثقافة الأوروبية والعالمية على امتداد قرن واحد من الزمان، فيما يمتد عمر بقية الجبل الغارق سبعين قرنًا، وهى التى تشكل فى الحقيقة شخصية الشعب المصرى حتى اليوم فى جوهرها العميق.. من أسلوب حياة، ومزاج فنى، ونظرة إلى الوجود، وعلاقة بالغيب.

والفنون اليدوية المتوارثة (أو الحرف التقليدية) تمثل أهم عناصر هذا الجبل الثقافى الغارق، وباتت معرضة بشكل متسارع للتآكل والذوبان حتى أوشكت على الفناء، فى غياب أى قاعدة معرفية أو توثيق علمى تقوم به الدولة لأنماط هذه الحرف وخصائصها ودوافعها ورموزها، وربما نصحو ذات يوم - بعد جيل أو جيلين على الأكثر - لنكتشف أنها قد محيت تمامًا من أرض الواقع ومن الذاكرة الثقافية على السواء!

من هنا تأتى أهمية الموسوعة التى تتبناها جمعية أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة عن الحرف التقليدية فى مصر، وقد صدر مؤخرًا الجزء الثانى منها بدعم من صندوق التنمية الثقافية، بعد أن قام بالبحث العلمى على امتداد عام تقريبًا فريق من الخبراء البارزين والباحثين المتخصصين فى الفنون التراثية الشعبية، الذين غطت دراساتهم الميدانية جميع الأقاليم المصرية، فوق المادة العلمية المستخرجة من عشرات المراجع التاريخية عبر العصور، وخرجت الموسوعة فى مستوى طباعى يليق بمحتواها ورسالتها، وهى جهد مؤسسى تنوب فيه الجمعية عن وزارة الثقافة المنوط بها القيام بمثل هذا المشروع القومى.

أربع عائلات حرفية

تتركز دراسات هذا الجزء حول أربع عائلات حرفية وهى: الفخار وشقيقه الخزف، والزجاج بالنفخ وشقيقه الزجاج المعشق بالجص، والنسيج من كليم وسجاد وأقمشة، والأزياء الشعبية للنساء والرجال فى الريف والبادية والحضر.

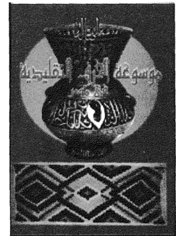
وكان الجزء الأول قد صدر عام ٢٠٠٤ بنفس الأسلوب متضمنًا أربع عائلات حرفية أخرى هى: النجارة العربية (وخاصة الخرط الخشبى)، والتطعيم بالأصداف والعظام، ومشغولات الخيامية، والحلى الشعبية، وأنجز ذلك الجزء بدعم مالى من مؤسسة أغاخان للخدمات الثقافية.

إن الثقافة المادية (وهو المصطلح الذى يطلقه علماء الفلكلور على الحرف اليدوية التقليدية) إبداع تشكيلى يلبى احتياجًا علميًا فى الحياة اليومية، لذا فهى ترتبط بمزاج الشعب وقيمه وعاداته وعقائده، ليستخدم فى المسكن والمشغل والملبس، فى المعيشة والعبادة والزينة، ملبية احتياجات الطقس والنفس على السواء، ومن ثم لا يمكن الفصل فيها بين ما هو نفعى وما هو جمالى، بين ما هو مادى وما هو معنوى، بهذا المعنى فهى تنبع من مخزون متراكم عبر آلاف السنين من الإبداع الحرفى التشكيلى، الذى بدأ منذ أن عرف الإنسان المصرى تشكيل الفخار ونسيج الثوب والبساط وبناء البيت ودار العبادة وزخرفتها، وإذابة الزجاج وتشكيله، والتعرف على المعادن وصياغتها، ورسم حروف اللغة المستمدة من عناصر الحياة والطبيعة.. ثقافتنا الممتدة منذ حضارة مصر القديمة هى - فى بنيتها الأساسية - ثقافة تشكيلية بصرية، كوعاء احتوى بداخله اللغة والتاريخ والأسطورة والمعتقد والفكر وأنماط الحياة والنظر فى الوجود والكون وفى شئون الدنيا كذلك، وجاءت الحضارات التالية - من قبطية وإسلامية، بل حتى عبر موجات الاستعمار الأجنبى لمصر - لتتراكم فيها طبقات الإبداع الحرفى، مستوعبة بداخلها ملامح الثقافات الوافدة، حتى باتت نسيجًا واحدًا كثيف الخيوط.

منهج تحرير الموسوعة بنى فوق هذا الأساس، الذى يمثل عامودًا أخذ كل مساحة الباب الأول، تحت عنوان «وحدة الزمان والمكان والعقيدة»، كمرتكز ضرورى يجمع بين تاريخ كل حرفة وبيئتها الجغرافية وعقائدها الدينية والفلسفية كدوافع لوجودها واستمرارها، وأيضًا كثوابت حدودية تحيط بساحة الإبداع البشرى، وفى الأدوار العليا المتتابعة فوق ذلك العامود خصص باب لكل حرفة، وتم تقسيم كل باب إلى حجرات لبحث أوضاع الحرفة من الزوايا التالية: التعريف المرجعى للحرفة، تطورها التاريخى، أنماطها الفنية، الخامات والأدوات والآلات المستخدمة فيها، المراحل التقنية لإنتاجها، الركائز الثقافية التى تقوم عليها (بما تشمله من معتقد دينى أو سحرى أو معرفى)، الوظائف النفعية لكل منتج، العناصر الجمالية فى الطرز الحرفية (مع إرجاعها إلى أصولها فى الطبيعة أو فى المعتقد أو فى الأشكال الهندسية أو فى أنماط الحضارات الأخرى عبر الاحتكاك الثقافى معها)، كشاف بالمصطلحات المستخدمة فى الأدوات وفى التقنيات وفى المنتجات، بل حتى فى التعبيرات الاصطلاحية الدارجة على ألسنة الحرفيين أثناء العمل، جهود الإحياء والتطوير للحرفة (سواء الرسمية أو الأهلية)، أبرز الأسطوات والمعلمين فيها ماضيًا وحاضرًا، وأخيرًا: التحديات التى تواجه استمرارها.

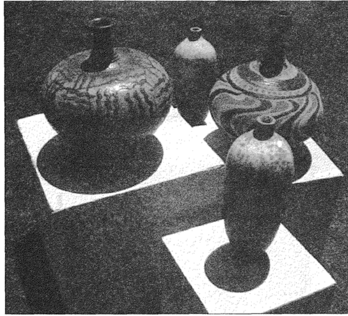
تاريخ الفخار والخزف

فى باب الفخار والخزف - الذى سنتخذ منه نموذجًا ودليلاً لفهم بنية هذا الكتاب - تميز الموسوعة بين الكلمتين المترادفتين على أنهما شىء واحد، فتوضح



موسوعة الحرف التقليدية فى مصر جمعية أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة بالتعاون مع مؤسسة أغاخان للخدمات الثقافية

تصوير: مجدى أمين



أن الأولى هى صناعة الأوانى الفخارية المفرغة، ومادتها هى طمى الأنهار أو تراب الطفلة بعد أن يضاف إليهما الماء، وتشكل العجينة يدويًا على القرص الدوار (الدولاب) ثم تجفف تحت الشمس وتحرق فى الفرن. أما الخزف فهو نفس المنتج الذى تم حرقه (على أن تكون قد استبعدت منه الشوائب الضارة وأضيفت إليه مواد معينة مساعدة) ثم يتم تكوينه وزخرفته. بعد الحرقة الأولى. بطلاء زجاجى هو الجليز ثم يحرق ثانية. ويتقصى البحث مختلف التعريفات فى معاجم اللغة العربية مثل المعجم الوجيز والمصباح المنير.

وينتقل بنا هذا الباب إلى التطور التاريخى للحرفة، لنصل فى العمق إلى عصر المعادن الذى سبق بداية التاريخ، متكاملة مع غيرها من الحرف، ويقارن بين فخار البدارى - الذى تميز بالحافة السوداء للآنية - وبين الفخار الأحمر ذى الرقبة الضيقة والقعر المستوى، وبين الفخار المزخرف الذى يصنع من عجينة نقية صافية اللون ويمتاز بفلطحة وسطه واستواء حافته وقصر رقبته وزخرفته بخطوط بنفسجية شديدة السمرة وبعناصر مأخوذة من الأشجار والحيوانات والطيور وتموج المياه، وهكذا ينتقل البحث بين العصور والأقاليم المختلفة إلى عهد إخناتون ومدينته «أخيتاتون» التى حفلت بمصانع للحرف المختلفة مثل الزجاج الملون، ثم إلى العهد البطلمى والرومانى فالقبطى الذى تأثر بكل ما سبق، إلى جانب ظهور الحس العقائدى المسيحى والطابع الشرقى الذى ساد ثقافة مصر بعد تغلغل السمات الهللينية، لينتقل من هذا كله إلى العصر الإسلامى الذى شهد المزيد من أوجه الإبداع الفنى ومن التطوير للخامات والزخارف الخارجية، ويركز هذا العرض التاريخى على أنماط الفخار والخزف فى سامراء والمدائن والرى وسوس ونيسابور والفسطاط، وكيف منحت شهرة واسعة لكل من الخزف الإيرانى والعراقى والمصرى، حيث كانت مدينة الفسطاط ملتقى ومحكًا حضاريًا رائعًا بين الحضارات..

وهكذا يتجول بنا البحث بين العصور الإسلامية المتتالية، من الفاطمى إلى المملوكى فالعثمانى، وصولاً إلى مواقع الإنتاج فى العصر الحديث عبر أقاليم مصر من أقصاها إلى أقصاها.

وبعد أن يستعرض الخامات والمواد المستخدمة فى الفخار والخزف، بمكوناتها الطبيعية والكيماوية فى الطينات والطلاءات والأكاسيد التى تنتج ألوانًا مختلفة، يتجه إلى الأدوات بدءًا من القرص الدوار (الدولاب) والأحواض والمصافى والأفران وأنواع الوقود والحريق بدرجاته، ثم ينطلق إلى شرح المراحل التقنية للعمل، بدءًا من كيفية الحصول على الخامات والأدوات، وانتهاء بخروج المنتج النهائى، مرورًا بثلاث عشرة مرحلة متعاقبة فى العمل، حتى ليمكن للقارئ الذى يهوى هذه الحرفة أن يتعلم أصولها النظرية كى يكون قادرًا على ممارستها بنفسه.

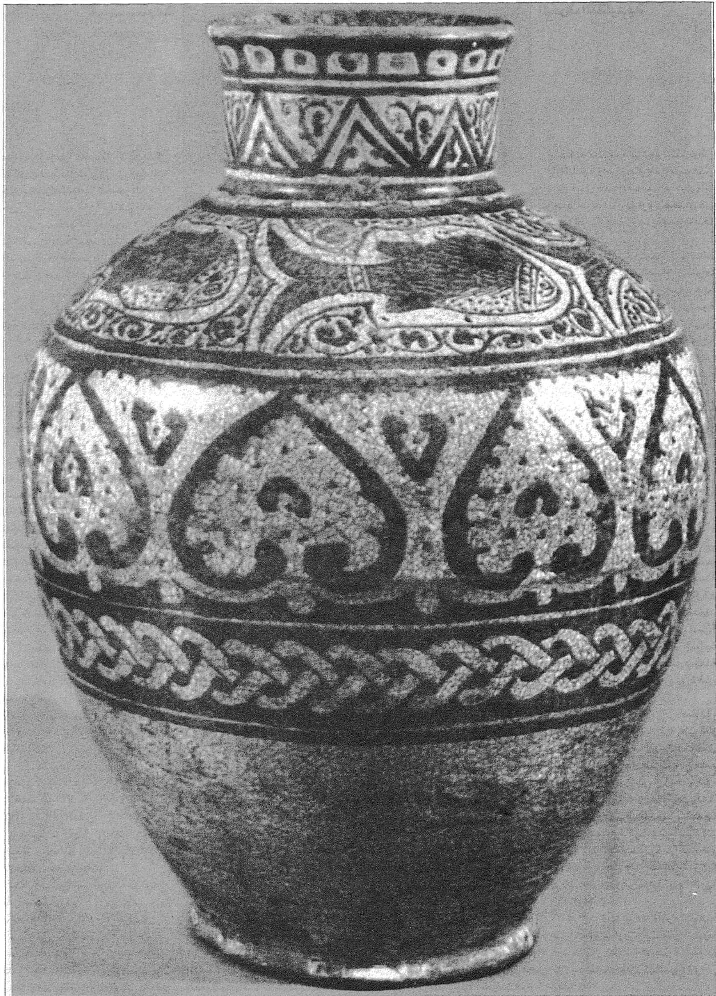
توثيق المعتقدات والمصطلحات والتصميمات:

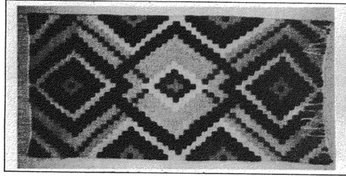
ويتعقب البحث جذور المعتقدات الدينية والشعبية والوظائف النفعية المختلفة لمنتجات الفخار والخزف، بدءًا من الشعائر الجنائزية للمصرى القديم حيث تضم أحشاءه وأشياءه فى رحلة الخلود والبعث، إلى الأغراض العملية الملازمة لحياة الإنسان اليومية فى كل عصر، ثم يستعرض أنماطها وأشكالها الجمالية وما تشتمل عليه كل آنية أو قطعة فخارية أو خزفية من قيم وأساليب فنية، وهنا نتعرف على ما يزيد على عشرات الأنماط أغلبها ما يزال مستعملاً ومستمرًا فى إنتاجه عبر مناطق مصر المختلفة مثل الفسطاط والجيزة والغربية والفيوم وأسيوط وقنا والوادى الجديد، متنوعة بين أوانى الحفظ والتخزين وأوانى الشرب وأوانى الطهو والطعام وأوانى اللبن والعجين وأوانى الزهور والزراعة وأدوات الطبول والإنارة والتدفئة والتدخين والبلاطات وأخيرًا اللعب والتماثيل.

ويشير البحث إلى التصميمات الفنية لزخارف الأوانى والصحاف والزهريات، ثم يستعرض الأشكال الهندسية والرموز السحرية والعادات الشعبية المتصلة بهذه التصميمات وذلك فى كل عصر وكل إقليم على حدة، ثم يلقى الضوء على أعلام الحرفة الموجودين الآن فى كل منطقة وعلى معلميهم الراحلين أيضًا، ويعدون بالمئات، ومن فرط خصوصيتها الإقليمية واقتصار استخدامها على أبناء الحرفة تبدو لنا أحيانًا وكأنها لغة خاصة غير معروفة، وهو ما ينذر باندثار هذه المصطلحات ما لم تسجل فى مثل هذه الموسوعة. وأخيرًا ينوه البحث عن جهود الإحياء والتطوير لحرفة الفخار والخزف من جانب الدولة أو الأفراد قديمًا وحديثًا، بدءًا من مصنع السيدة هدى شعراوى بالقاهرة فى الثلاثينيات من القرن الماضى، وإنشاء قسم الخزف بكلية الفنون التطبيقية على يد الرائد سعيد الصدر فى الثلاثينيات أيضًا، ثم جهود وزارة الثقافة فى إنشاء قسم للتدريب بوكالة الغورى بالأزهر عام ١٩٥٨ ضمن خطة شاملة للنهوض بالحرف التقليدية جميعًا بقيادة الوزير ثروت عكاشة، وكيف تطور هذا القسم الصغير إلى مركز للخزف بمنطقة الفسطاط عام ١٩٥٩ تحت إشراف سعيد الصدر بإمكانيات متواضعة، وكيف مزج فى منهج تدريبه للصبية بين تلقائية الحرفيين فى المنطقة التاريخية وبين الخبرات الأكاديمية بكلية الفنون التطبيقية، إلى أن افتتح عام ٢٠٠١











مركز كبير كامل التجهيزات مكان المركز المذكور بالفسطاط، وتتزامن مع ذلك جهود الهيئة العامة لقصور الثقافة حين أسست عام ١٩٩٩ ملتقى الفخار السنوى بمحافظة قنا، حيث يتلاقى فيه الحرفيون الأصليون بالمنطقة مع الدارسين الأكاديميين لتطوير هذه الحرفة ودعم الاهتمام بها.

التحديات والطريق للنهضة:

لقد استعرضنا باب الفخار والخزف ليكون - كما ذكرنا - نموذجًا لبقية أبواب الجزء الثانى من الموسوعة الذى تبلغ صفحاته المائتين، حيث نجد المنهج والأسلوب المتبعين فيه يطبقان على الحرف الثلاث الأخرى (الزجاج، النسيج، الأزياء)، ونظرًا لأن مثل هذا العمل يعتمد على التفاصيل الدقيقة التى لا تغنى عنها الخطوط العريضة فى هذا العرض للكتاب، مع عدم توفر المساحة اللازمة لعرض الأبواب التالية هنا بنفس التفاصيل، فإننا نكتفى الآن بعرض النتائج والتوصيات العامة التى انتهى إليها الباحثون فى الحرف الأربعة، بل فى الحرف عامة، للنهوض بها وتطويرها.. على النحو التالى:

١ - تعد الحرف التقليدية مصدرًا هامًا للثروة القومية.

٢ - تزدهر الحرف كلما كانت تحت مظلة نظام أو مشروع قومى، يكون ركيزة للحفاظ على الهوية الثقافية والوطنية فى مواجهة المتغيرات العالمية.

٣ - التوهج الحرفى يزيد من الأمان الاجتماعى نتيجة الاستقرار الاقتصادى لأفراد الأسرة الحرفية وإتاحة فرص العمل.

٤ - يهبط الخط البيانى للحرف كلما خرجت من دائرة اهتمام الدولة، والعكس صحيح أيضًا.

٥ - كلما كانت الحرفة مرتبطة بتراث الأمة كلما تفردت وأصبحت سلعة قابلة للتداول مع الآخر.

٦ - كلما زادت ثقافة الحرفى ومعرفته بتاريخ حرفته ومتغيراتها كلما أجاد فيها.

٧ - كلما ارتفع الإبداع فى المنتج الحرفى كلما ازداد تواصلاً مع الذائقة الجمالية والعقائدية للمستهلك.

لكن هل تسير الأمور الآن فى اتجاه هذه المنطلقات؟

يبدو أن العكس تمامًا هو الصحيح، فما نراه هو أن الدولة تفك ارتباطها تدريجيًا مع الحرف التقليدية (ومع التراث الشعبى عامة) فى المراكز القليلة التابعة لوزارة الثقافة، حتى بات كل منها أثرًا بعد عين!).. أو مجرد حواصل (مخازن) لقدامى الموظفين أو لتعيين بعض القوى العاملة حلاً لمشكلة إدارية وليس لمشكلة ثقافية، بل إنها منذ عدة عقود أصبحت مطاردة بقرارات الإخلاء من أماكنها، محرومة من مقومات الحياة والنمو، مثل وضع السياسات (الاستراتيجية) للتطوير فى مجالات التدريب والإنتاج والبحث العلمى والتأصيل للمقتنيات المتحفية والتواصل مع المجتمع وتسويق المنتجات، وما يقتضيه كل ذلك من طاقات بشرية وخبرات علمية واعتمادات مالية وأماكن مناسبة.. باختصار: أن تكون فقرة أساسية على خريطة العمل الثقافى والتخطيط الاستراتيجى للدولة، وهو ما نفتقده حقيقة!

إن أقاليم مصر جميعًا لا تخلو من أعداد هائلة من العاملين فى عشرات الحرف، حتى أن هناك قرى بأكملها متخصصة فى إنتاج حرفة معينة، ومع ذلك فلا يوجد لدينا حتى الآن جهاز قومى على مستوى الجمهورية لربطهم فى منظومة تنقذهم من الضياع والانقراض الوشيك، خاصة فى ظل المتغيرات الكاسحة لملامح الهوية الثقافية، وفى غياب قاعدة بيانات دقيقة عن عددهم وتخصصاتهم وأماكنهم ونظم تدريبهم وإنتاجهم ونوعياته.. ومن ثم فإننا لو افترضنا وجود صاحب قرار يتطلع لبناء مشروع للنهوض بأوضاعهم واستثمار إنتاجهم فلن يجد مثل هذه القاعدة أو حتى ما يحدد حركة الزيادة أو النقصان فى عددهم وإنتاجهم، أو ما يقيم برنامجًا للتنمية!

وبالرغم من الجهود المتواصلة لجمعية أصالة على امتداد السنوات العشر الماضية لسد هذا الفراغ، عبر التوثيق وإقامة الدورات التدريبية وتخريج أفواج جديدة من الحرفيين وتعبيد الطرق للتواصل بين الحرف والمجتمع من خلال المعارض والمهرجانات، فإن القضية أضخم بكثير من إمكانات جمعية أهلية، لأنها تتجاوز الأبعاد الثقافية إلى صعيد التنمية الاقتصادية والاجتماعية، حتى تصبح الحرف على رأس الاستثمارات التى تحقق دخلاً قوميًا، صحيح أن هناك أفرادًا معدودين من القطاع الخاص يعملون فى هذا المجال، لكن منتجهم مكرس أساسًا لإشباع احتياج الأثرياء فى مصر أو دول النفط بعيدًا عن عامة الشعب، وهو صاحب هذا الإبداع ومستحقه، بل ويمكن أن يكون الشعب قاعدة استهلاك رئيسية لهذا الإنتاج لو تم التخطيط لذلك، ويكفى أن نتعرف على تجارب دول عديدة فى آسيا وأوروبا وأفريقيا وبعض الدول العربية وعلى ما تحقق من عائد هائل يجعله فى متناول أبنائها وضرورة فى حياتهم.

ومن المؤسف القول أن أصالة، التى تحملت تلك المسئولية على قدر طاقتها وعلى قدر ما استطاعت بشق النفس الحصول عليه من دعم محدود بين وقت وآخر، أصبحت اليوم شبه عاجزة عن مواصلة جهودها، بسبب عدم اكتراث الدولة بدعمها لتنفيذ مشروعاتها، فيما تنشغل الجهات المانحة الدولية «بأجندات» مختلفة يصعب على أصالة اختراقها أو الإذعان لها وهى ترفع لواء الهوية الثقافية!

فمن يأخذ بيد هذا التراث لينقذه من الغرق؟.. ومن يتبنى قضية استكمال بقية الأجزاء السبعة لهذه الموسوعة.. كمشروع قومى رائد؟ ■



اللغة

أخطر من أن تترك للغويين وحدهم

فـــــــــاروق شـــــوشـــة

■■ عـنـدمـا أصـدر الأسـتـاذ شـريـف الشوباشى كتابه المثير: «لتحيا اللغة العربية.. يسقط سيبويه (عام ٢٠٠٤) عن الهيئة المصرية العامة للكتاب»، كان بمثابة من ألقى حجرًا فى مستنقع. وإن هى إلا أيام معدودة حتى كان الكتاب حديث المجتمع الثقافى واللغوى، وكان انقسام الناس فى ردود الفعل المتوقعة وغير المتوقعة إلى مجموعتين، إحداهما تهاجم الكتاب وصاحبه بعنف وضراوة، بل وتعتبره عملاً تخريبيًا قصد به صاحبه هدم اللغة، لغة القرآن، وتحطيم الثقافة العربية باعتبار أن اللغة العربية وعاؤها، وأن مثل هذا الكتاب يمضى فى فلك العولمة ومناصريها، الذين يهدفون إلى القضاء على الهويات المختلفة، وتحطيم الكيانات الإقليمية فى اللغة والثقافة، ومهاجمة كل ما هو مقدس - من وجهة نظر هذا الفريق - والخروج على المألوف. وكانت هذه المجموعة - بالطبع - التى نجحت فى استنفار كتاب وأساتذة جامعة ومجمعيين وباحثين - غير مصنفين - هى الأعلى صوتًا والأشد تأثيرًا.

المجموعة الثانية تحمست للكتاب بلا تحفظ. وسارعت إلى إعلان رضائها عنه، أخشى أن أقول بدون قراءة متعمقة وتأمل نافذ - وهو الأمر الذى حدث للمجموعة الأولى التى تسامع معظمها بالكتاب وما جاء فيه، لكنهم سارعوا إلى الهجوم حتى من قبل أن يقرأوا وأن يعرفوا - الأمر الذى أدى إلى أن يكون الغاضبون المهاجمون - عن وعى أو بصيرة - والمتحمسون المادحون - من غير التفات إلى منهج الكتاب والنتائج التى يمكن أن يؤدى إليها مثل هذا الطرح لقضايا لغوية - أن يكونوا جميعًا فى خندق واحد، هو خندق الانفعال غير المبرر، وأقصى درجات الانحراف تبنى الطرف الأقصى، رفضًا أو قبولاً.

وبقيت الحقيقة بين هؤلاء وهؤلاء غائبة ومضيعة. فالكتاب ظلم فى حقيقة الأمر نتيجة لهذين الموقفين المتباعدين حتى الحد الأقصى. ولم يحقق بالتالى رسالته التى قصد إليها كاتبه ومؤلفه. وهو فى جوهره وبالرغم مما أثير فى وجهه من غبار - كاتب جاد، صاحب رأى، يجب علينا مناقشته واحترامه حتى لو اختلفنا معه أشد الاختلاف.

من هنا كان اهتمامى بسرعة الكتابة عن الكتاب فى سياق ما أكتبه على صفحات الأهرام - كل أسبوع - موضحًا - منذ السطر الأول - أن المناداة بأن تحيا اللغة العربية أمر واجب ومشروع ومرحب به، بل هو شعار يجب أن يرفعه كل متكلم بهذه اللغة، من أجل المحافظة عليها، والعمل على تطويرها، وجعلها قادرة على الوفاء باحتياجات الحاضر ومطالب العصر. أما المناداة بسقوط سيبويه فهو الأمر الذى اختلفت فيه اختلافًا كبيرًا مع الكاتب والمبدع والمثقف الأستاذ شريف الشوباشى. فالمناداة بسقوط سيبويه معناها الوحيد الدعوة إلى هدم النظام التركيبى والبنيوى الذى تقوم عليه اللغة العربية وما يحكم متنها من علاقات، وبدونه لا يكون ثمة نظام لغوى، ولا لأى كلام معنى أو دلالة، ولا أظن أنه سيجىء يوم يصبح فيه الفاعل منصوبًا - وهو مرفوع منذ أكثر من سبعة عشر قرنًا - أو المفعول به مرفوعًا أو يتغير فيه إعراب اسم كان وأخواتها أو خبر إن وأخواتها، على سبيل المثال.

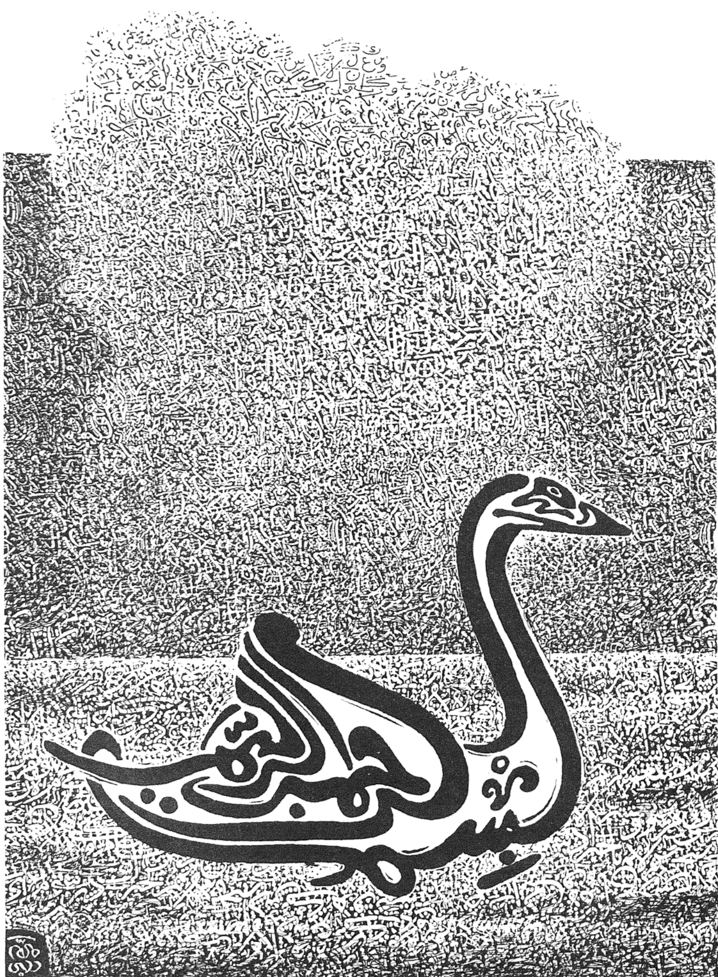
فرق كبير إذن بين الدعوة إلى سقوط سيبويه وهدم نظام العربية بالتالى، والدعوة إلى تيسير النحو للدارسين، ووضع المعاجم العصرية - الكفيلة باستيعاب المادة اللغوية العصرية التى طرأت على متن اللغة فى عصور ما بعد الاستشهاد - أى بعد القرنين الأول والثانى الهجريين - وعمل جمع جديد لهذه اللغة - على غرار ما صنعه الخليل ابن أحمد عندما فكر فى وضع أول معجم عربى وهو معجم «العين» بحيث يكون هذا الجمع الجديد أساسًا لتضمين الذخيرة اللغوية فى معجم جديد، لا يكون مجرد امتداد للمعاجم القديمة، وعالة عليها، وتكرارًا لكثير من مادتها التى لم يعد لها صلة بالحياة المعاصرة، وأصبحت تندرج تحت الحوشى والغريب والمهجور من الكلام. فرق كبير جدًا بين الأمرين. وهو فرق لم يغب تمامًا عن الأستاذ شريف الشوباشى عندما أشار فى أكثر من موضع فى كتابه إلى أننا نكتب الآن ونستخدم لغة تختلف كثيرًا عن لغة القدماء، وهى ملاحظة صحيحة، أساسها أننا نستعمل الآن لغة تختلف فى معجمها من المفردات والتعابير وفى هندسة التركيب عن اللغة التى استعملها السابقون. وإذا كانت اللغة القديمة تسمى لغة التراث أو اللغة التراثية، فإن لغتنا هذه الأيام تسمى فصحى العصر أو الفصحى العصرية كما نبه عالم الدراسات اللغوية الدكتور السعيد بدوى فى كتابه الرائد: مستويات العربية المعاصرة فى مصر».

ولم يفتنى - وقتها - أن أشير إلى أن كثيرًا من صور التخلف والتراجع التى جمعها وسجلها الأستاذ شريف الشوباشى فى كتابه، تنطبق على صاحب هذه اللغة - وهو نحن - بأكثر مما تنطبق على اللغة ذاتها. العيب فينا نحن أولاً وأخيرًا. ونحن لم نتعلمها بالصورة التى تقيم بيننا وبينها جسرًا من المحبة والانتماء. فقد شاركت عناصر شتى فى هشاشة علاقتنا مع اللغة، وبخاصة أنها ليست لغتنا الأولى، وإنما هى - فى واقع الأمر وحقيقته - لغتنا الثانية، التى لابد من تعلمها لإجادتها.

يبقى لكتاب شريف الشوباشى فضل تحريك المستنقع وخلق حالة من الإثارة الساخنة، رفضًا وقبولاً حول عدد من القضايا والموضوعات يتصل بعضها بسؤال: هل العربية لغة مقدسة، وبعضها الآخر بنظام «المثنى» وما يترتب عليه من قواعد إعرابية، ونون النسوة وجمع التأنيث، والمترادفات والازدواجية بين اللغة الواحدة واللهجات المتعددة، و«العدد» وأحكامه وهى جميعًا قضايا متصلة بعلم النحو لا بعلم اللغة. وهذا هو التوجه غير الصائب فى المنهج والتناول، فكثير ممن كتبوا عن أهمية التطوير والتيسير والعصرية جانبهم الصواب حين اعتبروا أن النحو هو اللغة والنحو ليس إلا جانبًا واحدًا من جوانبها، فحين نتكلم عن العصرية فنحن نتحدث عن «علم الأسلوب»، وعن البنية التركيبية وعن علوم الدلالة وعن المعجم اللغوى، لا عن الفاعل والمفعول والجمل الاسمية والفعلية والمعرب والمبنى والعدد والتمييز.



وموقف شريف الشوباشى هو تكرار لموقف السابقين عليه من علماء اللغة، الذين قصدوا إلى إحياء اللغة فقادتهم خطاهم ومناهجهم إلى إحياء النحو كما فعل إبراهيم مصطفى فى كتابه «إحياء النحو» الصادر ضمن مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧. يقول الدكتور طه حسين فى تقديمه لهذا الكتاب واعيًا بخطورته عارفًا بما سوف يثيره من جدل وخصومة: «هذا كتاب سيراه الناس جديدًا، وما أرى أنهم سيتلقونه بما تعودوا أن يتلقوا به الكتب من الدعة والهدوء، وما احسبنى أخطئ أن قدرت أنهم سيدهشون له، وأن كثيرًا منهم سيضيقون به، وقد يتجاوزون الضيق إلى الخصومة العنيفة والإنكار الشديد لأن الكتاب جديد كما قلت، فى أصله وفى


بسم الله الرحمن الرحيم

صورته، وهو من أجل ذلك يخالف كثيراً جداً مما ألف الناس، وقد يغير كثيراً جداً مما ألف الناس، فلا غرابة فى أن يلقوه بالدهشة، وفى أن يثور به الثائرون». ثم يقول طه حسين شارحاً ما كان يدور بينه وبين صديقه عالم النحو إبراهيم مصطفى فى حوارات حول النحو وما كانا يتفقان فيه وعليه من قضاياه ووسائل علاجها وطرق الحديث فيها، قائلاً: «وكان النحو أشد موضوعات الحديث خطراً، وأكثرها جرياناً فيما يكون بيننا من حوار. ضقنا بأصوله القديمة منذ عهد الأزهر، وأخذنا ننكر هذه الأصول أيام الجامعة القديمة، وأخذنا نلتمس له أصولاً جديدة منذ التقينا فى الجامعة الجديدة».

والناس - بعد - يضيقون بالنحو ويتبرمون بحديثه، فما بالك برجل قد أصبح يضيق بكل شىء لا يتصل بالنحو ويتبرم بكل حديث لا يمس النحو من قريب أو بعيد، حتى سمناه فيما بيننا بالقراء «يقصد إبراهيم مصطفى». ثم يقول طه حسين شارحاً فكرته هو ونظرته الخاصة إلى قضية إحياء النحو، مدلياً بدلوه فيها. وهو يعلم أنه ليس من علماء النحو أو أساتذته الكبار من أمثال إبراهيم مصطفى، لكنه فى رأيه يمثل الذوق الأدبى والتكوين الثقافى العربى الموسوعى الذى يرى قضية النحو فى منظور أرحب وأفسح وأفق أكثر اتساعاً، ذلك أن عينه على الأدب، أى الإبداع، أكثر من أن تكون عينه على النحو فى ذاته، الذى لا يرى فيه إلا عدة ووسيلة لغاية أبعد وأعظم. يقول طه حسين: «رأنا أتصور إحياء النحو على وجهين، أحدهما أن يقر به النحويون من العقل الحديث ليفهمه ويسيغه ويتمثله، ويجرى عليه تفكيره إذا فكر، ولسانه إذا تكلم، وقلمه إذا كتب. والآخر أن تشيع فيه هذه القوة التى تحبب إلى النفوس درسه ومناقشة مسائله والجدال فى أصوله وفروعه، وتضطر الناس إلى أن يعنوا به بعد أن أهملوه، ويخوضوا فيه بعد أن أعرضوا عنه.

وأشهد لقد وفق إبراهيم إلى إحياء النحو على هذين الوجهين، فانظر فى هذا الكتاب، فسترى أن إبراهيم لا يعرض عليك علماً ميتاً، وإنما يعرض عليك علماً حياً، يبعث الحياة فى الذوق، ثم سترى أن إبراهيم لا يعرض عليك مسائل جامدة هامدة، ولكنه يفتح للنحويين طريقاً إن سلكوها فلن يحيوا النحو وحده، ولكنهم سيحيون معه الأدب العربى أيضاً.

فالكتاب، كما ترى، يحيى النحو لأنه يصلحه، ويحيى النحو لأنه يُنبه إليه من اطمأنوا إلى الغفلة عنه، وحسبك بهذا إحياء».

لقد حرصت على نقل هذه السطور من المقدمة التى كتبها طه حسين لكتاب إبراهيم مصطفى، لأن فيها كشفاً عن فكر طه حسين نفسه وموقفه من القضية. وحتى يدخل طه حسين فى سياق هذه المحاولات المستمرة والمتتابعة، التى هالها واقع اللغة العربية على ألسنة الناس وأقلامهم وعزوف الدارسين من تلاميذ المدارس وطلاب الجامعة عن الدرس النحوى. فأراد أصحابها تقديم الرأى والفكر وفتح باب الاجتهاد فى قضية ما تزال شاغلة لنا حتى اليوم.

والتوضيح والتقريب، واصطنع النظم لحفظ ضوابطه وتقييد شوارده.

والنحو مع هذا لا يعطيك عند المشكلة القول البات والحكم الفاصل، قد يهدى فى سهل القول، من رفع فاعل ونصب مفعول. فإذا عرض أسلوب جديد أو موضع دقيق، لم يسعفك النحو بالقول الفصل واختلاف الأقوال، واضطراب الآراء، وكثرة الجدل التى لا تنتهى إلى فيصل ولا حكم، كل ذلك قد أفسد النحو أو كاد، فلم يكن الميزان الصالح لتقدير الكلام، وتمييز صحيح النحو من فاسده.

ثم يقول إبراهيم مصطفى: «ولقد بذل فى تهوين النحو جهود مجيدة، واصطنعت أصول التعليم اصطناعاً



المناداة بسقوط سيبويه معناها الوحيد الدعوة إلى هدم النظام التركيبى والبنيوى الذى تقوم عليه اللغة العربية وما يحكم متنها من علاقات، وبدونه لا يكون ثمة نظام لغوى، ولا لأى كلام معنى أو دلالة



ولأن ما أثاره إبراهيم مصطفى فى كتابه «إحياء النحو» يُعد فى نظر معظم الباحثين - نقطة البداية الحقيقية فى سياق البحث العلمى لقضية النحو فى عصرنا الحديث. فلابد من عرض فكر المؤلف ومنهجه ومجالات اهتمامه، بدءاً بقوله عن نفسه: «اتصلت بدراسة النحو فى كل معاهده التى يدرس فيها فى مصر، وكان اتصالاً طويلاً وثيقاً، ورأيت عارضة واحدة لا يكاد يختص بها معهد دون معهد، ولا تمتاز بها دراسة عن دراسة، هو التبرم بالنحو والضجر بقواعده، وضيق الصدر بتحصيله. على أن ذلك من داء النحو قديماً، ولأجله ألف التسهيل

بارعاً، ليكون قريباً واضحاً، على أنه لم يتجه أحد إلى القواعد نفسها. وإلى طريقة وصفها فيسأل: ألا يمكن أن تكون تلك الصعوبة من ناحية وضع النحو وتدوين قواعده وأن يكون الدواء فى تبديل منهج البحث النحوى للغة العربية.

هذا السؤال هو الذى بدا لى وهو الذى شغلنى جوابه طويلاً.

ولقد تميز عندى نوعان من القواعد: نوع لا تجد فى تعليمه عسراً، لا فى التزامه عناء، ولا ترى خلاف النحاة فيه كبيراً. وذلك كالعدد ورعاية أحكامه فى مثل: قال رجلان، والرجلان قالا. وقال



رجال، والرجال قالوا. فمع دقة الحكم فى رعاية العدد، واختلافه تبعاً لموضع الاسم والفعل من الجملة، لا تجد العناء فى تصوره، ولا الزلة فى استعماله. ونوع آخر لا يسهل درسه ولا يؤمن الزلل فيه، وقد يكثر عنده خلاف النحاة، ويشتد جدلهم. كرفع الاسم أو نصبه، فى مواضع من الكلام.

أما علامات الإعراب فقل أن ترى لاختلافها أثراً فى تصوير المعنى، وقل أن يشعرنا النحاة بفرق بين أن تنصب أو ترفع. ولو أنه تبع هذا التبديل فى الإعراب تبديل فى المعنى، لكان ذلك هو الحكم بين النحاة فيما اختلفوا فيه، وكان هو الهادى للمتكلم أن يتبع فى كلامه وجهاً من الإعراب.

فلو أن حركات الإعراب كانت دوال على شىء فى الكلام، وكان لها أثر فى تصوير المعنى، يحسه المتكلم، ويدرك ما فيه من الإشارة ومن وجه الدلالة، لما كان الإعراب موضع هذا الخلاف بين النحاة، ولا كان تعلمه بهذه المكانة من الصعوبة، وزواله بتلك المنزلة من السرعة.

ألهذه العلامات الإعرابية معانٍ تشير إليها فى القول؟ أتصور شيئاً مما فى نفس المتكلم وتؤدى به إلى ذهن السامع؟ وما هذه المعانى؟

والعربية - لغة القصد والإيجاز - أتلتزم علامات الإعراب على غير فائدة فى المعنى، ولا أثر فى تصويره؟ ثم يقول إبراهيم مصطفى: لقد أطلت تتبع الكلام، أبحث عن معانٍ لهذه العلامات الإعرابية، ولقد هدانى الله - وله خالص الإخبات والشكر - إلى شىء أراه قريباً واضحاً، وأبادر إليك الآن بتلخيصه:

١ - إن الرفع علم الإسناد، ودليل أن الكلمة يتحدث عنها.

٢ - إن الجر علم الإضافة، سواء أكانت بحرف أم بغير حرف.

٣ - إن الفتحة ليست بعلم على إعراب، ولكنها الحركة الخفيفة المستحبة، التى يحب العرب أن يختموا بها كلماتهم، ما لم يلفتهم عنها لافت، فهى بمنزلة السكون فى لغتنا الدارجة.

٤ - إن علامات الإعراب فى الاسم لا تخرج عن هذا إلا فى بناء أو نوع من الاتباع.

فهذا جماع أحكام الإعراب. ولقد تتبعت أبواب النحو باباً باباً، واعتبرتها بهذا الأصل القريب اليسير، فصح أمره واطرد فيها حكمه.

ثم زدت فى تتبع هذا الأصل، فتجاوزت حركات الإعراب، ودرست التنوين على أنه منبئ عن معنى فى الكلام، فصح لى واستقام، وبدلت قواعد

«مالا ينصرف»، ووضعت للباب أصولاً أيسر وأنفذ في العربية مما رسم النحاة للباب، ولا أؤجل عنك إجمال هذه الأصول أيضاً:

١ - إن التنوين علم التنكير.

٢ - لك في كل علَم ألا تنونه. وإنما تلحقه التنوين إذا كان فيه حظ في التنكير.

٣ - لا تُحرمُ الصفة التنوين، حتى يكون لها حظ من التعريف.

أما أبواب الكتاب فهي:

١ - الضمة علم الإسناد.

٢ - الكسرة علم الإضافة.

٣ - الفتحة ليست علامة إعراب.

٤ - الأصل في المبنى أن يسكنا.

المتتبع لما صنعه إبراهيم مصطفى في كتابه الرائد «إحياء النحو» يرى بين ثنايا السطور ومضة كادت تكشف له النهج القديم في طريقه لو أنه أدارها على جوانبها المختلفة وتأملها ملياً وهي قوله في كتابه: «والنحو مع هذا لا يعطيك عند المشكلة القول البات والحكم الفاصل، قد يهدي في سهل القول من رفع فاعل ونصب مفعول. فإذا عرض أسلوب جديد أو موضع دقيق لم يسعفك النحو بالقول الفصل، واختلاف الأقوال، واضطراب الآراء وكثرة الجدل.. إلخ».

في هذه الكلمات، كان إبراهيم مصطفى لغوياً لا نحوياً، وأوشك أن يكون تناوله لموضوعه تناولاً كلياً لا جزئياً، الحديث فيه عن لغة بكليتها لا عن نحو بجزئيته، لكن طبيعته كعالم نحو وأستاذ دراسات نحوية سرعان ما غلبته على أمره وقادته في طريق آخر.

هذا الطريق الآخر هو الذي مضى فيه عالم الدراسات الأدبية واللغوية الدكتور شوقي ضيف في كتابيه: «تجديد النحو وتيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً». وقد ساقه إلى الاهتمام بالموضوع تحقيقه لكتاب «الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي» ونشره عام ١٩٤٧. يشير شوقي ضيف إلى الدعوة القديمة - منذ الثلاثينيات - إلى تيسير النحو وتخليصه مما فيه من تعقيد وعسر شديد. وإلى تأليف لجنة وزارة المعارف (وزارة التعليم الآن) عهد إليها بكتابة تقرير مسهب ضمنته مقترحاتها للتيسير المنشود، ودرس مجمع اللغة العربية في مؤتمره عام ١٩٤٥ هذه المقترحات وأدخل عليها بعض التعديلات، وألفت - بعد قيام الثورة - كتب النحو التعليمي على ضوء صورة التيسير التي أقرها المجمع، لكن لم يكتب لها النجاح.

وما دام قد جاء ذكر المجمع - في كلام الدكتور شوقي ضيف - فلابد من الإشارة إلى مرسوم إنشاء المجمع والمادة الثانية من قانون تنظيمه، التي تحدد الغرض من إنشائه (صدر القانون عام ١٩٣٢ وتم افتتاح المجمع عام ١٩٣٤) وهو: «المحافظة على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها، ملائمة لحاجات الحياة في العصر الحاضر، وتحديد ما ينبغي استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتراكيب، ووضع معجم تاريخي للغة العربية، ونشر بحوث دقيقة في تاريخ بعض الكلمات، وما طرأ على مدلولاتها من تغيير، وتنظيم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية، وبحث كل ما له شأن في تقدم اللغة العربية، وما يعهد إلى المجمع في بحثه من دراسات ومشروعات». ثم أضيف إلى هذه الأغراض في قرار جمهوري لاحق: «توحيد المصطلحات في اللغة العربية».

يعرض الدكتور شوقي ضيف «أسس تجديد النحو - في كتابه على هذه الصورة» قائلاً:

أ - إعادة تنسيق أبواب النحو: أدخلت في النحو مبحثاً في نطق الكلمة ودقة التلفظ بحروفها اقتبسته من علم التجويد، وأعقبته بمباحث حرفية ضرورية لتصور أبنية الفعل وأقسامه وتصاريفه، وأنواع الحروف، وأقسام الاسم المتنوعة تنوعاً واسعاً. ولم أعن بفكرة الموازين الصرفية أي عناية لأنها تدخل على المباحث الصرفية تعقيداً هي في غنى عنه. وبالمثل حذفت باب الإعلال لأنه يفرض للحروف المعتلة في الكلمات صوراً لا تجري في النطق. ثم تحدثت عن المرفوعات بادئاً بباب المبتدأ والخبر ركني الجملة الاسمية، وعادة يخترع منه النحاة باب كان وأخواتها، وباب ما، ولا، ولات، العاملات عمل ليس، وباب كاد وأخواتها، وباب ظن وأخواتها، وباب أعلم وأخواتها وقد حذفت هذه الأبواب الخمسة من الكتاب، دون أن أحذف أمثلتها، فقد رددتها إلى أبواب أخرى.



يقول طه حسين: «وأنا أتصور إحياء النحو على وجهين، أحدهما أن يقربه النحويون من العقل الحديث ليفهمه ويسيغه ويتمثله. والآخر أن تشيع فيه هذه القوة التي تحبب إلى النفوس درسه ومناقشة مسائله»



ب - إلغاء الإعرابين: التقديري والمحلي.

إلغاء تقدير متعلق للظرف والجار والمجرور.

إلغاء عمل أن المصدرية في المضارع مقدرة.

إلغاء العلامات الفرعية في الإعراب.

ج - الإعراب لصحة النطق.

د - وضع ضوابط وتعريفات دقيقة.

هـ - حذف زوائد كثيرة.

وفي كتابه الثاني «تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً، مع منهج تجويده»، يقول شوقي ضيف: «رأيت أن أعرض - تتمة لعمل الأسلاف في تيسير النحو دعوة ابن مضاء القرطبي في كتابه «الرد على النحاة» إلى إلغاء نظرية العامل في النحو، وكل ما ترتب عليها من تقديرات وصياغات وأبواب وعلل وأقيسة وتمارين افتراضية. ولم أكتف بذلك، فقد مضيت أذكر المحاولات الحديثة في تبسيط النحو للناشئة، وألممت بكتاب لرفاعة الطهطاوي وعرضت لجهود حفني ناصف ورفاقه وجهود على الجارم ومصطفى أمين. ثم أخذت أبسط القول في المحاولات العصرية بادئاً بمحاولة الأستاذ إبراهيم مصطفى في كتابه «إحياء النحو»، ثم تحدثت عن مقترحات لجنة وزارة المعارف، وحين ألفت كتب للنحو على أساس تلك المقترحات عمت الشكوى منها في جميع المدارس وتقرر الانصراف عنها».



لعل أهم ما يقدمه كتاب شوقي ضيف هو رفضه لتقسيم النحاة القديم للجمل: جمل لا محل لها وجمل لها محل ومناداته بتقسيم جديد للجمل إلى جمل مستقلة: هي الجملة المستأنفة، والجملة الحوارية، والجملة المعترضة، والجملة المفسرة.

وجمل خاضعة غير مستقلة، جملة الخبر، وجملة الفاعل وباب الفاعل، وجملة المفعول به، والجملة الواقعة حالاً، والجملة التابعة نعتاً أو عطفاً أو بدلاً، وجملة الصلة، والجملة المضاف إليها، وجملة جواب الشرط، وجملة جواب القسم، والجملة المعطوفة على إحدى الجمل السابقة.

وبالرغم من هذه الإضافة التي أثبتها شوقي ضيف في كتابه: «تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً» لم تصرفه عن طبيعته استناداً للدراسات النحوية، لا نطالبه بتبني المنهج اللغوي لا النحوي لأن هذا خارج عن طبيعته وعن تكوينه، لذا فقد صرف جل اهتمامه إلى ما أسماه التعقيدات العسيرة: تعقيدات باب التصغير وتعقيدات باب النسب، مشيراً إلى تكملات مهمة مثل: دلالة المضارع على الزمن الماضي لاستحضار الصورة، وإلى صيغ في الممنوع من الصرف (هما صيغتا فعلاء وأفعلاء)؟. وصيغة أحاد وأخواتها، وعمل المصدر والمشتقات، عمل الفعل، وأنواع الحروف: حروف الزيادة جارة وغير جارة. وإلى الأبواب الإضافية: باب الذكر والحذف، باب التقديم والتأخير، الجملة الأساسية: الاسمية والفعلية.

من خارج الدائرة التقليدية من علماء النحو وأساتذته - انطلق صوت الدكتور محمد كامل حسين طبيب العظام المشهور وعضو

مجمع اللغة العربية فى كتابه: «اللغة العربية المعاصرة»، الذى ضمنه مشروعه عن «النحو المعقول» كما سماه، والذى تقدم به إلى مجلس المجمع، وفيه نطالع فكراً مختلفاً، ونظراً متحرراً من قيود التزمت والالتزام بمناهج القدماء وفكرهم، وحرصاً على الاقتراب من القضايا الحيوية والمتجمعة للغة، من خلال رؤية وظيفية ومنهج - باراجماتى - على حد تعبيره.

يقول فى تصوير كتابه الذى صدر عن دار المعارف عام ١٩٧٦: الذين يريدون الصورة بالفصحى العالية إلى ما كانت عليه فى صدر الإسلام، مثلهم كمثل أهل الكهف حين حسبوا أن ورقهم - وهى غير زائفة - يمكن أن تكون عملة رائجة يقضون بها حوائجهم.

والذين يبحثون فى أصول اللغة كما وضعها القدماء، مثلهم كمثل علماء الحفائر، عملهم له قيمته التاريخية الكبرى دون أن يكون ذلك مدعاة للاحتذاء بما يجدونه فيها. والذين يؤمنون بقواعد اللغة، كما وضعها الأقدمون، مثلهم كمثل الذين لا يزالون يؤمنون بأن السماء تدور حول الأرض وأن الكواكب لها مدارات تسير فيها يمكن حسابها كما كان يحسبها صاحب «المجسطى».

والذين يقصرون علمهم على ما عرفه القدماء، مثلهم كمثل الذى يسير فى طريق وعرة، محمولاً على عربة من خشب تجرها دابة منهوكة، وعلى بعد خطوات منه طريق واسعة معبدة، تقطعها السيارات فى دقائق. والذين يستخدمون هذه القواعد، مثلهم كمثل الذى يستخدم مغزل اليد فى غزل الصوف، وهو يسمع من حوله ضجيج الآلات التى تغزل آلاف الأمتار فى الساعة الواحدة.

والذين يخلقون مشاكل نحوية معقدة ليظهروا للناس براعتهم فى حلها، كمثل الذى يسير فى ظلمات الأطلال البالية تنسجها رياح جنوبية وشمالية، يفضل ذلك على أن يعيش فى بيوت نظيفة مشرقة.

والذين تعجبهم «بهلوانيات» الصرف من إبدال وإعلال وقلب وفروض عجيبة، وبحثهم عن تصغير كلمة «سفرجل»، مثلهم كمثل الذين لا يقدرون أن البهلوانيات لا تعجب الناس إلا للتسلية والسمر، وليس عليهم أن يأخذوا مأخذ الجد، وليس على المتعلمين أن يعملوا بها.

والذين يحرصون على اتباع كل قواعد النحو، كبيرها وصغيرها مثلهم كمثل الذى يسير على حبل مشدود بين حبلين وتحته ماء غزير وهو يرى على مقربة منه جسراً ثابتاً يستطيع أن يعبر عليه مجرى الماء فى سهولة آمنة. وصولاً إلى قوله: «والذين يريدون المحافظة على اللغة، فيرفضون كل جديد، مثلهم كمثل الذى يريد أن يحافظ على جمال الأزهار وطيب رائحتها بوضعها فى خزائن حديدية، فتؤدى تلك المحافظة إلى ذبولها. والمحافظة الصحيحة للكائنات الحية لا تكون إلا بتطويرها وجعلها مطابقة للبيئة التى تعيش فيها.

والذين يعتقدون أن «الفصحى العالية» تصلح لكل مقام مثلهم كمثل الذى يصنع للجراح مبضعاً من ذهب، ومنشاراً من فضة، والعيب فى هذا ليس التبذير فحسب، بل إن المعادن الثمينة لا تصلح لصنع هذه الأشياء، والمبضع الصلب الرخيص أصلح لما يراد منه من المبضع الذهبى الغالى.

ثم يقول الدكتور محمد كامل حسين مؤلف رواية «قرية ظالمة» - كاشفاً عن طبيعة نظرته إلى اللغة وكيف أنها لا تتوقف فقط عند قضية النحو التى شغلت النحويين وأربكتهم - نريد أن ننقذ الفصحى العالية من عنت الذين يعلمون وعبث الذين لا يعلمون. والذين يعلمون يريدون أن يخنقوها بما يحتمونه على المتعلمين من علم بقواعد لا تعرض للأديب أو الكاتب، ولا يعنى بها إلا المحترفون من رجال النحو، وهم الذين ألقوا فى قلوب المثقفين الرعب من لغتهم القومية واليأس من إتقانها. هذه القواعد وليدة نوع من التفكير كان سائداً فى العصر الذى وضعت فيه، وليس لها من القدسية ما يفرضه علماء اللغة. ومن المستحيل أن نتجاهل تطور التفكير كله، أو أن نغفل الواقع الذى يدلنا عليه ما يلقاه المتعلمون فى العصر الحاضر من صعوبة إزاء الفصحى العالية.

وأخشى ما نخشاه أن يمتد التهاون باللغة فيصبح امتهاناً لها واستهزاءً بها، وسنبين أن الفصحى لها موضوعات تصلح لها ولا تصلح هذه الموضوعات إلا لها. وعلينا فيما دون ذلك أن نقبل لغة عربية صحيحة إلى حد كبير دون إسراف فى التمسك بقواعد الإعراب وبناء الكلمات وهى ما سنسميه بالفصحى المخففة.



سألنا طلاب كليات الآداب عن سبب عزوفهم عن الالتحاق بقسم اللغة العربية فكان إجماعهم أنه قسم صعب بسبب النحو وهو شعور استقر عندهم بعد انتهائهم من التعليم الثانوى



وفى رأى محمد كامل حسين أن العامية هى وسيلة لتعليم العربية المخففة فى أولى مراحل التعليم. والمنهج الذى يدعو إليها فى تعليم العربية المخففة يقوم على التدرج من أدنى مراتبها إلى أعلى مراتبها حيث تكون قريبة جداً من الفصحى العالية، وهذا التدرج يتعلق بأمرين: موضوع الدراسة وسن الطالب.



ويضرب مثلاً على موضوع الدراسة بأنه قد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن بعض العلوم لا يمكن درسها بالفصحى العالية. وأكثر العلوم الطبيعية - وخاصة الرياضيات - من هذا النوع. ويكاد يكون من المستحيل الجمع بين الرياضيات والنحو. وفى العصر الحاضر - على الأقل - لا يمكن أن يكون الإنسان نحوياً ورياضياً فى وقت واحد، وعلى ذلك يجب أن تكون دراسة الرياضيات بالفصحى المخففة، ويجب أن نتجاهل تماماً - فى رأيه - قواعد العدد تمييزه، وجنسه وإعرابه تجاهلاً تاماً، أى أن يكون للعدد صفة دائمة لا تفارقه فى أى حال. نقول: واحد واثنين وثلاثة إلى عشرة وأحد عشر واثنا عشر وثلاثة عشر إلى عشرين وواحد وعشرين إلى مائة ومائتين وثلاثة آلاف إلى مليون ومليونين من الرجال والنساء على السواء.

هذا الأسلوب فى كتابة العدد وقراءته - هو فى رأيه - من الأمور الحتمية التى لابد منها للمشتغلين بالرياضيات. والرياضيات أصل كل العلوم الطبيعية. ولا مفر لعلماء هذه العلوم من التخلص من صعوبات العدد فى الفصحى. ولا يكون تطبيق قواعد العدد القديمة إلا فى أبسط الأمور كما فى قولنا: سبع ليالٍ وثمانية أيام.

أما بالنسبة لسن الطالب، فالتدرج من العامية المنقحة إلى أعلى مراتب الفصحى المخففة يجب فيه تقدير سن الطالب وقدرته على فهم الإعراب وصحة المبنى. على أن ينتهى ذلك كله فى نحو السادسة عشرة. وليس من السهل على الطالب فى سن مبكرة أن يقدر الفرق بين التعجب والاستفهام والنفى القاطع ومغزى التقديم والتأخير والفرق بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية، إلى غير ذلك من الأمور التى تدق على أفهام المبتدئين.

ثم نصل إلى السطور التى يبلور فيها محمد كامل حسين منهجه فى التعامل مع قضية اللغة العربية وتعلمها، ونظرته التى ترى صحة اللغة فى المبنى والمعنى، ويكشف عنه فى صيغة واضحة قاطعة: «لهذا وضعت ما سميته النحو الحديث أو المعقول - الذى لا يقوم على تبسيط قواعد النحو أو الصرف، وإنما أردت به أن يكون خلقاً جديداً فى قواعد تتم بها صحة اللغة مبنى ومعنى معتمداً فى ذلك على أن الغرض الأول من اللغة هو الإبانة، وعلى أن كل قاعدة لا تؤدى إلى زيادة وضوح المعنى تكون عقيمة. وليس فى هذا النحو محل للمنطق اللغوى القديم

اللغـــة

تعليم النحـو ليـس هـو الأسـاس فـى اكتسـاب اللغـــة الصحيحـــة، وإنما القــــراءة لنصـــوص مختـــارة، يتـــم مـن خلالهـا التعـرف علـى الأنظمـة والأبنيـــة والعبـــارات والتراكيــب

الذى جعل اللغة منطقية فخرج بها عن أن تكون معقولة، وذلك بفرض أمور لا حـقـيـقـة لـهـا فـى الـواقـع كـالـحـذف والـتـقـديـر والضـمـيـر المسـتـتـر جـوازًا ووجوبًا، ولا محل فيه للمشاكل التى اخترعها النحويون اختراعًا، إظهارًا للعلم والبراعة، ومنها ما لا يعرض للكُتاب والأدباء أبدًا. ويمكننا أن نصف النحو الذى اقترحه أنه - براجماتى - يعتمد فى صحته على ما يكون فيه من فائدة. ولا يفوت محمد كامل حسين أن يقول فى مقدمة كتابه: «أرجو ألا يطعن طاعن فى آرائى هذه قبل أن يمعن النظر فيها، فأنا لا أريد أن أحرم حلالاً ولا أن أحـلـل حـرامـًا، ولا أن يـعـقـل الـنـاس الفصحى العالية فى المناسبات التى تصلح لها. وإنما أدعو إلى الاعتراف بالفصحى المخففة - مكتوبة أو مقروءة - حتى لا يتهم الذين يستخدمونها بالجهل أو القصور، ومن أول واجباتنا أن نجعل الطالب متمكنًا من لغته وهو فى سن السادسة عشرة من عمره فلا يكون عنده الرعب الذى نعرفه فيه عند دراسته للعربية.

حين ننتقل إلى علماء الدراسات اللغوية المعاصرين، سنجد لديهم - بحكم التخصص العلمى - أفكارًا مختلفة ومناهج مغايرة ومداخل غير تقليدية. الدكتور كمال بشر - أستاذ الدراسات اللغوية ونائب رئيس مجمع اللغة العربية - يرى أن الفصحى المعاصرة - التى هى اللغة المستهدفة فى التعليم - تنتظم خواص اللغة العربية الأساسية فهى ترعى قواعد الإعراب فى جملتها، وتسير على قوانين نظم الكلام العربى، ولكنها طورت لنفسها وسائل حديثة فى التعبير ويقول موضحًا فكرته من هذه اللغة العصرية ومقدمًا خطوة أبعد وأكثر وضوحًا من الخطوة التى تقدم بها الدكتور محمد كامل حسين:

لقد ضمت إلى ثروتها اللفظية أعدادًا هائلة من الكلمات والصيغ اقتضتها وتقتضيها مظاهر الحضارة الحديثة المتجددة، كما استحدثت هذه اللغة أنماطًا جديدة من نظم الكلام وتأليفه. فإذا ما حاولنا أن نتأمل المجال الحى لاستعمال هذه اللغة - وهو المجال المنطوق - وجدنا لها صورًا جديدة من النطق لحقت ببعض الأصوات كالقاف والجيم، وتغيرات فى مواضع النبر والتنغيم فى الجملة والتعبير.

ويرى الدكتور عبده الراجحى - أستاذ الدراسات اللغوية وعضو مجمع اللغة العربية - إن النحو فى تعليم اللغة العربية يجسد الخلل العام خير تجسيد، لأن الناس يعلقون مشكلات العربية عليه، وهو جانب واحد من جوانب القضية.

ولقد سألنا طلاب كليات الآداب عن سبب عزوفهم عن الالتحاق بقسم اللغة العربية فكان إجماعهم أنه قسم صعب بسبب النحو وهم لم يروا بعد ماذا يدرسون فى الجامعة، لكنه الشعور الذى استقر عندهم بعد انتهائهم من التعليم الثانوى، وقد كانت العربية مادة إجبارية وأمامهم الآن الفرصة فى الجامعات للإفلات منها، فما الذى يجبرهم عليها؟

لقد جرت محاولات غير قليلة لإصلاح النحو أو تيسيره، لكنها جميعًا أخطأت البداية، فلم تصل إلى غاية، ذلك أنها ظنت أن تيسير النحو ييسر تعليمه وهذا غير صحيح. فثمة فرق جوهرى بين النحو وتعليم النحو. الأول علم النحو، وهو علم يقدم وصفًا دقيقًا لأبنية اللغة، وهو حين يفعل ذلك إنما يلجأ إلى «عزل» الأبنية من سياق الاستعمال، ويضعها فى إطار «التعميم» و«التجريد». أما تعليم النحو فشىء آخر نشأ له علم هو النحو التعليمى، وهو يأخذ من الوصف الذى توصل إليه علم النحو لكنه لا يأخذه كما هو، إنما يطوعه لأغراض التعليم، ويخضعه لمعايير أخرى تستعين بعلم اللغة النفسى فى السلوك اللغوى عند الفرد، وبعلم اللغة الاجتماعى فى الاتصال اللغوى، وبعلوم التربية فى نظريات التعلم وإجراءات التعليم، وكل ذلك كان غائبًا فى محاولات الإصلاح والتيسير».

ويقول الدكتور عبده الراجحى عن علم اللغة فى تعليم العربية: «نقترح أن تضم مقررات تعليم العربية معلومات مستقاة من علم اللغة، ويمكن أن يبدأ ذلك فى المرحلة الابتدائية عن مخارج الأصوات وبعض صفاتها، وبعد ذلك نتقدم خطوة خطوة فى المرحلة المتوسطة بمعلومات عن الصرف، وعن النحو، حتى إذا جئنا إلى المرحلة الثانوية قدمنا هذا العلم صريحًا مباشرًا فى إيجازكى يعرف الطالب شيئًا عن النظرية اللغوية، وعن مستويات التحليل المختلفة، وعن اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية. ثم لابد أن يعرف الطالب شيئًا عن تاريخ لغته، وعلاقاتها باللغات السامية، ولا بد أن يعرف شيئًا عن جهود علمائه القدماء، ذلك سوف يعين - فيما نرى - على تغيير نظرة طلابنا إلى دراسة اللغة، وعلى فهم أفضل للظواهر اللغوية، وعلى إدراك لقيمة ثرائه اللغوى».

وفى اقتراحه لحل مشكلة التعريب يقول الدكتور عبده الراجحى فى كتابه: «علم اللغة التطبيقى وتعليم العربية»: حل مشكلة التعريب فى الخيار التالى:



إما أن نعتبر اللسان الحالى الضامن الوحيد لخصوصية العرب فيجب أن نحافظ عليه مهما كان الثمن، والثمن هو الازدواجية من جهة، والأمية من جهة ثانية. وإما أن ندرك أن خصوصية العرب تكمن فى نوعية تحركهم فى العالم المعاصر، وأن اللسان فى صورته الحالية لا يمثل سوى مرحلة من مراحل مسيرة لغوية لا نهاية لها، فيجوز لنا أن ندخل عليها إصلاحات فى الحرف والصرف والنحو والمعجم قد يتحول معها إلى لسان يختلف عن اللسان الحالى، اختلاف هذا الأخير عن لغة الشعر الجاهلى.

بهذه الطريقة نقضى تدريجيًا على هذه الازدواجية، ونفند عمليًا الاعتراضات المغرضة وغير المغرضة، على التعريب، ونبدع وسيلة للتفاهم سهلة طيعة قادرة على ترويج ثقافة جماهيرية عصرية، أى حاملة فى كنهها الإصلاح الضرورى المتواصل».

من المفيد أن نركز فى ختام هذا العرض الطويل على عدة ملاحظات:

الأولى: أنه آن أوان الاعتراف بأن «العربية» ليست لغة الأم بالنسبة إلينا، ومعنى هذا أنها ليست اللغة الأولى، التى يلتقطها الطفل دون حاجة إلى معلم، وكونها اللغة الثانية يفرض علينا أن نتعلمها بالطرق والوسائل الحديثة والمتقدمة التى نتعلم بها اللغات الأجنبية وفى مقدمتها الطريقة السمعية البصرية، التى تركز على الإصغاء العميق للنصوص المسجلة بدقة وإتقان وصحة كاملة، وأن نراها فى مجالات استخدامها الحى فى سياق مواقفها الوظيفية. وبالسمع والمشاهدة تتحقق العلاقة السليمة مع اللغة وباللغة.

الثانية: أنه ثبت - مما لا يدع مجالاً للشك - أن تعليم النحو ليس هو الأساس فى اكتساب اللغة الصحيحة، وإنما القراءة لنصوص مختارة، يتم من خلالها التعرف على الأنظمة والأبنية والعبارات والتراكيب وأنواع الكلام والمفردات، وبتحليل هذه النصوص - من خلال مناقشة حرة ومحكمة فى الوقت نفسه - يتم الدرس اللغوى والنحوى والبلاغى والصرفى والعروضى الموسيقى. وليس صحيحًا أن العلاج يكمن فى إعطاء النحو ساعات أكثر فى الجدول المدرسى، أو تناط به درجات أكبر فى اختبارات التقييم والامتحانات التى يتوقف عليها المصير. المدخل الحقيقى مدخل لغوى لا نحوى، هذا



كتاب الزاوية

ديوان الطرب

سيد درويش

العربجية

مين زينا احنا العربجية ياهو مين
يشوف غلب وتلطيم عقبال اللايمين
كل الناس فى أشغالها يافندى رايحين جايين
إلا احنا نفضل بالعشر ساعات قاعدين
الله يكفيكو يا هوه شر القعده اللى بنقعدها
مصلوبين طول النهار أنا والجدع ده
ياما بنشوف م الشاويشية
صبح ومغرب وعشيه
على أقل شىء يرازونا
يخانقونا ويلعنوا أبونا
أهيه حاله يعلم بها سيدك
يشكى لمين شىء مش حافيدك
طول ما شرفك يا أسطى ف إيدك
اوعى تصدق إننا ننهان
آكلنا إحنا والبهايم ياسطى على الطاق اتنين
نعيش إزاى يا ناس ياخوانا العدل فين
يا هوه ورانا عيال غلابه ياكلوا منين
لامتى نفضل ساكتين كده جاتنا البين
بتوع الترموى هما اللى يا ناس جابوا داغنا
نعمل إزاى والله اعتصاباتهم بتنغنغنا
الله يكون فى عوننا
ياما بنقاسى مع زبوننا

أمين صدقى

اللغة



ما تقوله دروس الواقع، وتؤكده الدراسات الحديثة. لابد إذن من مدخل لغوى يركز على كلية اللغة، لا على جزيئاتها المبعثرة التى تدور فى فراغ، ونظام الورشة اللغوية هو الحل الأمثل لتدريس القواعد مثلاً فى سياق النص المتكامل بشرط تدريب المعلمين على هذا الأسلوب، ووضع كتاب مدرسى يحقق هذا المنهج.

الثالثة: لابد من استخدام برامج الحاسب الآلى فى الكشف عن منظومة القواعد النحوية الأكثر شيوعًا فى ألوان الكتابة المعاصرة فى كل المجالات المعرفية للفصحى المعاصرة: نشرات الأخبار، التعليقات السياسية، الكتابات العلمية، كتابات الأدباء والكتاب والصحفيين، المؤلفات الجامعية، الصحف اليومية والمجلات المختلفة. وسيؤكد الحاسب ما نستشعره من أن مجموعة القواعد المستخدمة بالفعل، وظيفيًا، هى أقل القليل من المادة النحوية الهائلة التى تحتوى عليها الكتب المدرسية والجامعية. وفى هذا الحال، لابد من الانتفاع بما يكشف عنه هذا الاستبيان الحاسوبى فى وضع مناهج النحو، بالتركيز على الشائع المستخدم فى يسر وطواعية، وترك التفريعات والتعقيدات لمن سوف يتخصص فى العربية وعلومها المختلفة. أما المواطن العادى والمتعلم - غير المتخصص - فتكفيه القواعد أو الأبواب العشرة التى سوف يؤكدها الاستبيان.

الرابعة: لابد من تدعيم مادة القراءة لدى النشء والأجيال الجديدة، بواسطة ما تقدمه الدولة الآن ممثلاً فى مهرجان القراءة للجميع (مكتبة الأسرة) وتدعيم المكتبات المدرسية، وزيادة عدد المكتبات المتنقلة، وشحن مكتبات قصور الثقافة بالجديد والمهم والمفيد فى مجالات القراءات، والتشجيع بالحوافز والمكافآت وعمل المسابقات فى كل أنحاء مصر، والأقطار العربية. فالقراءة هى المدخل الأساسى لاكتساب اللغة، يليها السماع، لكن السماع مشوب بالتقاط أخطاء الآخرين، وندرة من يعدون نماذج لغوية رفيعة يحرص الناس على الاستماع إليهم ومتابعتهم، كما كان الحال فى جيل طه حسين والعقاد وإبراهيم سلامة وإبراهيم بيومى مدكور ومهدى علام ومحمد خلف الله وغيرهم من المؤدين العظام.

الخامسة: إن اللغة أخطر من أن تترك للغويين وحدهم، وفى كثير من أبحاث - غير اللغويين - ونظراتهم إضافات جليلة لخدمة الواقع اللغوى. وعلينا أن نتقبل كل رأى صائب بغض النظر عن مصدره، والذين هاجموا شريف الشوباشى على كتابه وما تضمنه من آراء كان أكثرهم يردد مقولة إنه ليس من أهل العربية فكيف يتكلم فى أقدس مقدساتها وهو النحو؟ اللغة همنا جميعًا ومسئوليتنا جميعًا، ليست وقفًا على أستاذ اللغة أو أستاذ النحو.. بل هى الشغل الشاغل أو ينبغى أن تكون الشغل الشاغل للعالم والمفكر والكاتب والشاعر والروائى والمسرحى والناقد والسياسى وغيرهم. كل منهم ينظر إليها من زاويته، ويضيف من واقع خبراته وتجاربه ومجالات اهتمامه، فيضيف - كما قال جبران - شراعًا جديدًا إلى سفينة اللغة، ولونًا جديدًا إلى ألوانها البديعة والمتجددة الحياة والأزهار.

السادسة والأخيرة: أعتقد أنه آن العودة إلى الصيغة التى كانت قائمة، بالتعاون والتكامل والتنسيق، بين مجمع اللغة العربية فى مصر، وواضعى المناهج فى وزارة التعليم - وبخاصة منهج اللغة العربية - والجامعات، ووزارتى الثقافة والإعلام، وإيجاد صيغة للحد الأدنى من الوعى اللغوى المشترك، وأن تكون لتوصيات المجمع قدرتها التنفيذية حتى لا تتبدد جهوده هباء، ولا يلتفت إليها أحد، وأن يلتفت المجمع إلى واقعه، فيطلق لروح الاجتهاد العنان، ولا يضيق بالنظر المختلف والرأى الجديد والفكر الشجاع، ولا ينكفئ على ذاته مرددًا فكر القدماء متشبثًا به باعتباره منه المقدسات، فليس فى اللغة ما هو مقدس، فهى فعل إنسانى، يحيا ويتجدد بالإنسان، ويجمد ويتخلف بالإنسان. فأيهما نختار؟ ■

قواعد النحو والصرف غير منتظمة فى كثير من اللغات انتظامها فى العربية. مما يضطر معه المتعلم إلى حفظ الكثير من الأفعال لشذوذها فى التصريف بين المضارع والماضى والكثير من الصفات والظروف التى لا تجرى على قاعدة مطردة



العَرَبيّة
فى سوق اللغات

جمال الحسينى أبو فرحة

لقد أعلن نبى الإسلام أنه يحمل رسالة للعالم أجمع؛ ولاشك أن دعوى عالمية أية رسالة سماوية لابد أن يبرهنها عالمية لغتها، بمعنى صلاحيتها لحمل الرسالة إلى العالم أجمع ومن هنا يمكننا أن نفهم من قوله تعالى (إنا جعلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون)، وقوله (بلسان عربى مبين) أن المراد بالخطاب هنا ليس العرب فقط بل العالم كله وكأن معنى الآيات: إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لأن العربية لغة تصلح لأن تخاطب العالم أجمع لأنها لغة مبينة عن أدق المعانى بأبسط الألفاظ وأجملها، ومن ثم كان حريا بنا أن نعقل ما يتنزل علينا بها من قرآن ومن لا يعرفها يمكنه أن يتعلمها ومن لم يستطع أو لم يرد فيمكنه أن يعتمد على من يعرفها، فالمهم أن المعنى الموحى به بها يصل إلى الأرض بدقة دون لبس وبجمال دون عيب.

وهذا ما يؤكده حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (فضلت على الأنبياء بست، أعطيت جوامع الكلم..) إلخ الحديث.

فإعطاؤه صلى الله عليه وسلم جوامع الكلام كما يعنى فصاحته. صلى الله عليه وسلم ـ القادرة على توظيف اللغة العربية فى حمل الرسالة الخاتمة إلى العالم أجمع على أتم صورة وأجملها لا شك أنه يعنى أيضا قابلية هذه اللغة لهذه المهمة، وهذا ما يبرهنه علم اللغة المقارن، كما أن هذا ما يقتضيه العقل للغة الرسالة الخاتمة؛ فعالمية الرسالة لابد أن تبرهنها عالمية لغتها؛ وهو ما يقتضى لها الكمال أو الاكتمال اللغوى الذى يعنى كفاءة وانتظام قواعدها الصوتية، والصرفية، وقواعد التراكيب والعبارات كما يعنى ازدهار ظاهرة التمييز والتخصيص بها: كالتمييز بين المذكر والمؤنث، وبين المفرد والمثنى والجمع، وبين جموع القلة وجموع الكثرة، وبين الصفات العارضة والصفات الملازمة.. إلخ. كما يعنى كفاءة أبجديتها فى ضبط الألفاظ فى دقة ويسر، كما يعنى بساطة ألفاظها وموسيقيتها حتى يسهل تعلمها لمن ليس من أهلها وتناقل نصوصها المقدسة عبر الزمان والمكان وحفظها فى القلوب والسطور.

وهى جميعًا من المزايا التى تمت للغة العربية، وهو ما أدركه العربى الأول حين جعل الفصاحة علمًا على العروبة فجاءت كلمة عرب بمعنى: فصح، وأعرب بمعنى: أفصح.

كما أدركه المقارنة للعربية بالعبرية لغة الكتاب المقدس الأصلية أو بالإنجليزية أو الفرنسية أهم لغتين فى عصر العلم المعاصر الذى لا يألو جهدًا فى البحث عن دقة التعبير وجماله.

فالأبجدية العربية قد جربت زمنًا طويلاً فى كتابة اللغات من كل أسرة لسانية فلم تقصر، أما الحروف اللاتينية مثلاً (وهى من أعظم الأبجديات اللغوية) فتستخدم للكتابة فى عائلة واحدة من العائلات اللغوية الكبرى، وهى العائلة المسماة (بالهندية الجرمانية).

وهذه العائلة هى العائلة التى يقوم فيها تصريف الكلمات على (النحت) أو على إضافة المقاطع إلى أول الكلمة أو آخرها وتسمى من أجل ذلك باللغات «الغروية» من الغراء اللاصق، أما الحروف العربية فهى تقوم بأداء الكتابة بهذه اللغات وبكثير غيرها فهى تستخدم لكتابة الفارسية والأوردية وهما من لغات النحت أو من عائلة اللغات الغروية، وتستخدم لكتابة التركية وهى من العائلة المسماة بالطورانية ويرجعون فى تصريف ألفاظها إلى النحت تارة وإلى الاشتقاق تارة أخرى، فهى وسط بين اللغة الفارسية واللغة العربية، وتستخدم الحروف العربية بطبيعة الحال لكتابة لغة الضاد المميزة بمخارجها الواضحة الدقيقة، وهى أعظم لغات الاشتقاق التى اشتهرت باسم العائلة السامية، وتكتب بالحروف العربية كذلك لهجات ملاوية، لعلها تشكل عائلة مستقلة من العائلات اللغوية.

وقد استطاعت هذه الأمم جميعًا أن تؤدى كتابتها بالحروف العربية دون أن تدخل عليها تعديلاً فى تركيبها ولا أشكالها المنفردة، ولم تتصرف فيها بغير زيادة العلامات والنقط على بعض الحروف، وهى زيادة موافقة لبنية الحروف العربية وليست بالغريبة عنها لأن العرب أنفسهم أضافوا النقط والشكل عند الحاجة إلى ذلك، وليست زيادة شرطة على الكاف بأغرب من زيادة النقط على الحروف للتمييز بين الأشكال المتشابهة أو المتقاربة.

وعلى كثرة اللغات والعائلات اللغوية التى تؤديها حروف العربية لم يزل ضبطها للألفاظ أدق وأسهل من ضبط الحروف اللاتينية التى تستخدم لكتابة عائلة لغوية واحدة.

فالأبجديات الأوروبية كثيرًا ما لا يتفق فيها نطق الكلمة المكتوبة على ألسنة أمتين ولو كانت لهما أبجدية واحدة وأظهر ما يظهر ذلك فى كتابة الأعلام، فاسم Franklin مثلاً ينطق (فرانكلن) بالإنجليزية، وينطق (فرانكلا) بالفرنسية.

وهذا ما لا نعهده فى نطق الفارسى الذى يقرأ الأوردية أو التركية أو العربية، ولا نعهده فى نطق العربى الذى يقرأ الفارسية أو الأوردية أو التركية.

بل إن من الحروف فى الأبجديات الأوروبية ما يلفظ على خمسة أصوات كحرف T الذى ينطق فى الإنجليزية (تاء) كما فى to و(ثاء) كما فى think و(ذالا) كما فى this وشينا كما فى mention بل و(سينا) كما فى هذه الكلمة نفسها بالفرنسية.

وكذلك حرف S فى الإنجليزية فينطق (زايا) فى is و(صادا) فى Salt و(شينًا) فى sure و(جيمًا معطشة) فى pleasure.

وكذلك حرف G فى الإنجليزية فينطق (جيمًا قاهرية) كما فى God و(جيمًا معطشة) كما فى Religion وقد يكتب ولا ينطق فى right.

وبعض حروف العلة فى الإنجليزية تقترن فتنطق على أربعة أصوات كما فى هذه الكلمات door، food، moon، blood. وهو غموض لا نجد له مثيلاً فى العربية.

أما قواعد النحو والصرف فهى غير منتظمة فى كثير من اللغات انتظامها فى العربية. مما يضطر معه المتعلم إلى حفظ الكثير من الأفعال لشذوذها فى التصريف بين المضارع والماضى والكثير من الصفات والظروف التى لا تجرى على قاعدة مطردة فى اشتقاق الصفة والظرف، كما هو الحال فى الفرنسية والإنجليزية.

أما بالنسبة للغة العبرية فإنه بالرغم من أن هناك علاقة قرابة واضحة بينها وبين العربية، وبالرغم من أن اللغة العربية ظلت محتفظة بكيانها، بل ووصلت فى خصوبتها وغناها إلى أعلى الدرجات كما يتبين لنا بوضوح مما تبقى لدينا من تراث جاهلى قبل الإسلام من شعر ونثر، وحتى كان الإعجاز اللغوى أحد أوجه الإعجاز القرآنى؛ فإن اللغة العبرية الحية نسيت فى وقت ما، واقتصرت معرفتها على مجموعة قليلة من رجال الدين، ولم يترك علماء اللغة العبرية القدماء للخلف شيئًا ذا بال بشأن الأسس والمبادئ التى تقوم عليها هذه اللغة، لقد فقدت الأمة العبرية كل ما يشرف الأمة ويزينها (ولا عجب فى ذلك بعد كل ما عانت من المحن والاضطهاد) إلا فتاتًا من لغتها وأدبها. فلقد ضاعت تقريبًا جميع أسماء الفاكهة والطيور والأسماك، وأسماء أخرى كثيرة على مر الزمان.

كما أن معانى كثير من الأسماء والأفعال التى نصادفها فى التوراة إما مفقودة، أو على الأقل مختلف عليها.

كما أننا نفتقر بدرجة أشد إلى معرفة التراكيب الخاصة فى هذه اللغة فقد ضاعت جل العبارات والأساليب الخاصة التى استعملها العبرانيون من ذاكرة الناس.

فلن نستطيع إذن أن نبحث لكل نص كما نود عن جميع المعانى المقبولة وفقًا للاستعمال الجارى فى هذه اللغة. وسنجد نصوصًا كثيرة تتضمن كلمات معناها غامض للغاية ولا يمكن إدراكه على الإطلاق.

وفضلاً عن أننا لا نستطيع أن نحصل على معرفة تامة بالعبرية، فهناك تكوين هذه اللغة نفسه وطبيعتها، إذ يوجد فيها كثير من المتشابهات مما يستحيل معه العثور على منهج يسمح لنا بأن نحدد عن يقين معانى جميع نصوص العهد القديم.

فالعبرية مثلاً لا تعرف





المضارع، وإنما تعبر عنه بصيغة اسم الفاعل، وأحيانًا بصيغة المستقبل. كما أن العبرانيين لم تكن لديهم حروف تعادل الحروف المتحركة حتى القرن السادس الميلادى؛ ولم يعرفوا الحركات قبل أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الميلادى على يد علماء لغويين لا تساوى سلطتهم شيئًا، وخاصة مع عدم تواتر الحفظ فى الصدور. هذا بالإضافة إلى أن الحروف العبرية إنما تكتب فرادى، ولا يتصل بعضها ببعض، ولم يتعود العبرانيون أن يقسموا كلامهم المكتوب أو أن يبرزوا المعنى بصورة أقوى، أى تأكيده بعلامات.

ومن ثم بدت دراسة اللغة العبرية فى حاجة ماسة إلى دراسة تلك اللغات الشقيقة، وخاصة العربية باعتبارها أكثر اللغات الشقيقة حياة وازدهارًا، من أجل حل المشكلات الصعبة، وهذا ما أكد عليه مران بن جناح فى كتابه التنقيح وكذلك أكد عليه دوناش بن لبرت عندما ترك لنا قائمة تحتوى على ١٦٨ كلمة عبرية لا يمكن فهمها إلا إذا قورنت باللغة العربية. كما أكد عليه كثير من علماء اليهود عندما اقتفوا فى دراستهم النحوية أثر النحويين العرب، ولا سيما سيبويه حتى جاءت كتاباتهم باللغة العربية. ولاشك أن فهم أية لغة جيدًا يحتاج إلى معرفة غيرها من اللغات وخاصة اللغات الشقيقة المنبثقة عن نفس الأصل، وكذلك اللغات التى احتكت بها فتأثرت وأثرت، إلا أن حاجة دارس اللغة العربية إلى دراسة مثل هذه اللغات هو من باب الكمال أما حاجة دارس العبرية كمتخصص فهى من باب الاحتياج الضرورى.

وبالإضافة إلى ما سبق؛ فإن المزية البينة فى قواعد اللغة العربية أنها تابعة لأغراض التعبير والدلالة. ويظهر ذلك بوضوح فى ازدهار ظاهرة الإعراب فى اللغة العربية وهو ما لا نجد له أثرًا يذكر لا فى الإنجليزية ولا فى الفرنسية، أما اللغة العبرية ففيها قليل من حالات الإعراب، ولا نخفى أهمية وجود هذه الظاهرة وأثرها فى دقة التعبير والدلالة؛ يقول الزجاجى: «إن الأسماء لما كانت تعتورها المعانى، فتكون فاعلة، ومفعولة، ومضافة، ومضافًا إليها، ولم يكن فى صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعانى، بل كانت مشتركة، جعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعانى.. ليتسعوا فى كلامهم ويقدموا الفاعل إن أرادوا ذلك أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه وتكون الحركات دالة على المعانى».

وتتفوق العربية كذلك فى وجازتها وسهولتها ودقتها على لغات كالإنجليزية والفرنسية؛ فيجوز أن يخلو مكان الفعل الظاهر من الجملة العربية وتفيد معناها المستقل مع تقديره أو تقدير ما ينوب عنه فيجوز مثلاً أن يقال (رجل فى الدار) ويفهم منها ما يفهم من قولهم باللغات الأوروبية (رجل يوجد فى الدار) أو ما يفهم من قولنا بلغتنا العربية (رجل موجود فى الدار)؛ ولكن فى الفرنسية والإنجليزية لا تتم الجملة على وضع من هذه الأوضاع بغير الفعل الظاهر، فكل كلام خلا من الفعل الظاهر عندهم فهو غير مفهوم.



واللغة العربية كذلك تدل على المبنى للمجهول بصيغة خاصة فى أوزان الفعل بينما الإنجليزية والفرنسية تدلان على المبنى للمجهول بعبارة؛ ففى العربية نقول (يُفتح الباب) بصيغة المجهول ولكن العبارة الإنجليزية التى تدل على ذلك هى The door is opened وهى تقابل قولنا (إن الباب يكون مفتوحًا) وهو تعبير يخلو من دقة الصيغة العربية لأنه أقرب إلى الوصف منه إلى الإخبار عن حدث.

وتزيد اللغة العربية صيغة لا وجود لها فى الإنجليزية والفرنسية وهى ما اقتصرت عليه اللغة العربية، وهى صيغة الفعل المطاوع (انفعل) فيقول القائل (انفتح الباب) ويعبر بذلك عن معنى لا تدل عليه دلالته الدقيقة كل من صيغة المبنى للمعلوم، وصيغة المبنى للمجهول.

فإذا قلنا (فتح محمد الباب) فهذا لمن يهمه أن يعرف من الذى فتح الباب وإذا قلنا (فُتح الباب) فقد يكون الخبر موجهًا - أيضًا - إلى سامع يهمه أن يعلم شيئًا عن الفاعل، ولكن المتكلم يخبره بأنه لا يعرفه أو يخبره بأنه يعرفه ولا يريد أن يذكره تعمدًا لإخفائه أو لإهماله، ولكن هناك حالة غير هذه وتلك وهى حالة إنسان ينتظر فتح الباب ولا يعنيه من الذى فتحه كما لا يعنيه أن يقول له المتكلم إنه يجهله أو يعرفه ولا يريد أن يذكره؛ فى هذه الحالة يقول العربى: (انفتح الباب) فيؤدى المعنى المطلوب بغير خلط بينه وبين الحالات الأخرى.

واللغة الدقيقة هى اللغة التى تلاحظ مقتضى الحال فى كل عبارة من العبارات الثلاث ولا تستخدم عبارة واحدة لموضوعين ملتبسين، بل تستخدم كل عبارة لموضوعها الذى لا لبس فيه وهذه هى صفة اللغة العربية فى وفائها بالمعانى المقصودة على حسب إرادة المتكلم والسامع أو على حسب ضرورة التفاهم بين الاثنين.

كما تبدو عظمة هذه اللغة ووجازتها مع دقتها من أن درجة الفاعلية فى الاسم تثبت فى اللغة العربية باستخدام صيغ من مادة الفعل نفسه بغير حاجة إلى مادة مستعارة من غيره.

ففى اللغة العربية صيغ للمبالغة تعطينا من مادة الفتح مثلاً كلمة (فتاح) بمعنى الكثير الفتح ولا مقابل لهذه الصيغة وأمثالها من صيغ المبالغة فى الإنجليزية والفرنسية إلا باستخدام جملة أو عبارة مركبة من عدة كلمات.

أما الصيغة المشبهة فهى آية الآيات فى توضيح هذه الدقة للغة العربية؛ حيث تفرق اللغة العربية بين الصفات بفروق لفظية تحيط بأعمق ما بينها من فروق المعنى.

فهناك فرق بين كلمة (كريم)، وكلمة (معطى)، وكلمة (معطاء)؛ فمعنى أعطى مرة واحدة فهو معط أو فاعل لفعل من أفعال الكرم، وإن لم يكن كريمًا على الدوام، وكذلك المعطاء الذى يعطى مرات كثيرة، لا يلزم من ذلك أن يكون كريمًا أو أن يكون عطاؤه من عنده، فربما كان المعطاء فى معنى من معانيه مرادفًا للصراف على هذا الاعتبار، فالكرم صفة لا تحدث فى كل عطاء أو كل منحة أو كل صنيع معدود من الصنائع الكريمة، ولكنه صفة ملازمة، ولو لم يحدث فعل الكرم غير مرة واحدة أو مرات معدودة، فإن الذى يعمل عمل الكرماء (كريم) ولو لم تتجدد أعماله أو هباته، فالكرم يعبر عن الخلق الثابت الذى لا يتوقف على حدث فى زمن محدد. ومن ثم جاءت صفة الكريم من فعل لازم وجاءت صفة المعطاء من فعل متعد لمفعولين واستغنى المتكلم عن صيغة اسم الفاعل من الفعل كرم مع وجود الصفة المشبهة لأن صيغة (الكارم) مع سهولتها على اللسان لو وجدت لا تؤدى المقصود من الفعل (كرم) الذى هو صفة دائمة وليس بعمل متكرر.

أما الضمائر وأسماء الإشارة وأسماء الموصول فموجودة فى جميع لغات الحضارة ولكنها فى اللغة العربية توجد مميزة حيث يحتاج الأمر إلى التمييز، وبمقدار الحاجة إليه، وكثيرًا ما تأتى جزافًا فى غيرها من اللغات.

فضمير المتكلم لا يحتاج إلى تمييز بين المذكر والمؤنث، لأن إشارة المتكلم إلى نفسه كافية للتعريف بجنسه، ولكن يحتاج إلى التفرقة فى العدد؛ فالفرد يتحدث إما بلسان نفسه، وإما بلسان جماعة، وهو ما نجده فى اللغة العربية كما نجده فى جميع اللغات. فنقول (أنا كتبت) للمفرد مذكرًا ومؤنثًا، ونقول (نحن كتبنا) للجمع مذكرًا ومؤنثًا.

ولكن الضمير فى حالة الخطاب والغياب يحتاج إلى التمييز فى الجنس والعدد، فميزته اللغة العربية كما ميزت الفعل مع الضمائر المختلفة فى العدد وفى الجنس، كما ميزت بين الفعل فى حالة التكلم وحالة الخطاب وحالة الغياب فنقول فى حالة الخطاب للرجل (أنتَ كتبتَ) وللمرأة (أنتِ كتبتِ) وللرجال (أنتم كتبتم) وللنساء (أنتن كتبتن) وللمثنى بنوعيه (أنتما كتبتما). ونقول فى حالة الغياب للرجل (هو كتب) وللمرأة (هى كتبت) وللرجال (هم كتبوا) وللنساء (هن كتبن) وللمثنى بنوعيه (هما كتبا).

بينما الضمائر فى لغات كالإنجليزية والفرنسية فلا تعرف المثنى ولا تفرق الإنجليزية بين الضمير المذكر والضمير المؤنث إلا فى حالة المفرد الغائب ويتساوى ضمير المخاطب فى الإنجليزية فى الجمع والتثنية والإفراد.

كما يتساوى الفعل فى الإنجليزية



اللغة العربية تدل على المبنى للمجهول بصيغة خاصة فى أوزان الفعل بينما الإنجليزية والفرنسية تدلان على المبنى للمجهول بعبارة؛ ففى العربية نقول (يُفتح الباب) بصيغة المجهول ولكن العبارة الإنجليزية التى تدل على ذلك هى The door is opened



العربيـــة في سوق اللغات



مع الضمائر المختلفة في الجنس والعدد سواء في حالة التكلم أو الخطاب أو الغياب.

وفي العبرية كذلك لا نجد ضمائر مثناة كما أن العبرية لا تفرق في صيغة الفعل بين الغائبات والغائبين فأصبحت لهما صيغة واحدة تشبه العامية المصرية (فعلوا) هذا مع الفعل الماضي أما مع الفعل في المستقبل فهناك التباس بين مستقبل الغائبات ومستقبل المخاطبات.

ومما يبين دقة العربية كذلك ما نجده في العبرية مثلاً من جزافية لا نعهدها في العربية عندما أدخلت أداة التعريف على اسم الإشارة والمشار إليه، بينما أدخلت العربية أداة للتعريف على المشار إليه فقط، ولم تدخله على اسم الإشارة باعتباره معرفة ولا تعريف للمعرف.

وتتجلى دقة اللغة العربية حين نلاحظ أنها تفرق بين جموع للقلة وجموع للكثرة فتقول: (أبسط، أرغفة، أفراخ، فِتْيَة) للقلة، وتقول: (بسط، ورغفان، وقفول.. إلخ) للكثرة. وهذا ما لا نجده في الإنجليزية ولا في الفرنسية ولا في العبرية.

كما نجد في اللغة العربية (التصغير) وهو ما لا نجده في لغات كالإنجليزية والفرنسية.

وفي اللغة العربية دونًا عن كثير من اللغات نجد كذلك أن التعبير عن اختلاف كيفيات الفعل ودرجاته متحقق من وفرة الأفعال التي تؤدي معنى كل كيفية ودرجة؛ فإذا تحدث المتحدث عن هبوب الريح ففي وسعه أن يقول: إنها نسمت أو خفقت أو سرت أو هبت، أو عصفت، أو قصفت أو تهزمت إلى أشباه هذا الترتيب في القوة والتأثير.

كما أن التضعيف والزيادة في اللغة العربية يؤديان معنى الفعل على درجات وأشكال شتى يستغني بها المتكلم عن الظروف بعكس كثير من اللغات الأخرى كالإنجليزية والفرنسية مثلاً؛ ففي العربية من مادة الفتح - مثلاً - يمكن أن نقول: فتح وفتّح بتشديد التاء، وافتتح، واستفتح، وفاتح، وانفتح.. إلخ.

واجتزئ بما ذكرت في التدليل على ما حظيت به العربية من اكتمال لغوي يهيئها لحمل رسالة عالمية، وهو قليل من كثير لا يتسع المقام لعرضه.

وأضيف هنا أنه كما تحتاج اللغة العالمية لكل ما سبق تحتاج كذلك لكل ما يجعلها رشيقة على اللسان محببة إلى الآذان ومن ثم يسهل على الأذهان حفظها واستذكارها.

أما الرشاقة فأكثر كلمات اللغة العربية ثلاثيًا ولا يتجاوز الاسم بالزيادة سبعة أحرف (وهو الخماسي المزيد بحرفين)، كما أن الفعل لا يتجاوز بالزيادة ستة أحرف (وهو الرباعي المزيد بحرفين) أما الإنجليزية والفرنسية فلا مقارنة لهما بالعربية في هذا المضمار؛ انظر مثلاً كلمة (دين) فهي بالعربية مكونة من ثلاثة أحرف أما في الإنجليزية وكذلك الفرنسية Religion فهي مكونة من ثمانية أحرف وكلمة مثل نبيّ فهي في العربية مكونة من أربعة أحرف أما في الإنجليزية Prophet فهي مكونة من سبعة أحرف، وفي الفرنسية Prophete مكونة من ثمانية أحرف، بل إن كلمة (مشرك) وهي في العربية مكونة من أربعة أحرف نجدها مكونة من ستة عشر حرفًا في الإنجليزية Associationnator وكذلك في الفرنسية Associationniste.



وأما الموسيقية: فيعتمد الشعر الإنجليزي في موسيقاه على النبر بينما يعتمد الشعر الفرنسي على عدد المقاطع في كل بيت أما الشعر العربي فيعتمد على التفعيلات التي تكون بحور الشعر العربي التي ذكر الخليل بن أحمد الفراهيدي منها ستة عشر بحرًا، لكل بحر منها عدة صور، بل وللصورة الواحدة عدة تنوعات موسيقية، هذا بالإضافة إلى ما لم يذكره الخليل من فنون الشعر: كالموشح، والدوبيت، والزجل، والمواليا، والكان وكان، والقوما.. إلخ.

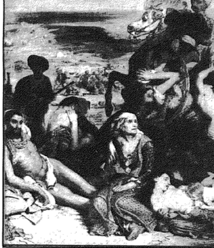
أضف إلى ذلك أن أوزان العروض العربية على إحكامها وإتقانها سهلة الأداء قابلة للتوسع والتنويع إلى الغاية المطلوبة في كل موضع يتناوله الشعراء، ومن ثمة اختار شعراء اللغات الفارسية والعبرية والأوردية أن ينظموا بلغاتهم في أوزان العروض العربية، وفضلوها على أوزانهم القديمة، لأنها أسهل منها وأجمل في موقعها من الأسماع والنفوس.

كل هذا بعض مما هيأ العربية لحمل الرسالة الخاتمة؛ يبرهنه علم اللغة المقارن ويقتضيه العقل للغة الرسالة الخاتمة. فصدق حافظ إبراهيم في قوله على لسان اللغة العربية:

وسعت كتاب الله لفظًا وغاية
وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي ■

زمن ألف

هوامش إدوارد لين



ربما لا تنطبق عبارة إدوارد سعيد الشهيرة القائلة بأن «الشرق صناعة غربية» على شىء مثلما تنطبق على المكانة التى أخذتها «ألف ليلة وليلة» التى تجاوزت كونها عملا أدبيا لتصبح فى أحوال كثيرة مصدرًا رئيسيًا لتشكيل نظرة الغرب للشرق. ولتتحول عند الكثيرين لنص يمكن استخدامه كمرجع لعادات وتقاليد وتفكير المجتمعات الشرقية. إلى درجة أن واحدا مثل خورخى لويس بورخس يكاد يكون تأثره الشديد بالأدب الشرقى اقتصر إلى حد كبير على «ألف ليلة وليلة» لا غيرها. ولكن النقطة الجدلية هنا ليست تأثير هذا العمل فى العقليات المختلفة بوصفه عملا أدبيا فقط ولكن امتداد هذا التأثير ليشكل مرآة افتراضية للمجتمع العربى.

عندما ترجم المؤرخ الإنجليزى المعروف إدوارد وليم لين «ألف ليلة وليلة» رأى من الضرورى إضافة هوامش للعمل تشرح ما قد يخفى على القارئ الغربى من أشكال الحياة العربية التى قد ترد فى الكتاب. بعد ذلك قام أحد أحفاده ستانلى لاين بول بجمع هذه الهوامش فى الكتاب الذى بين يدينا. واختار له عنوان «الحياة العربية فى زمن ألف ليلة وليلة».

ومع انه اختار عنوان الكتاب بنفسه إلا أنه يعترف أن هذه الهوامش مبنية بشكل أساسى على مشاهدات إدوارد لاين فى القاهرة. أى انه لم يُبن كما يعتقد البعض - على بحث تاريخى للأحوال الاجتماعية فى زمن ألف ليلة وليلة كما أنه لم يمتد ليشمل باقى الأقطار التى جمعت منها القصص المتضمنة فى الكتاب وإنما اقتصر إلى حد كبير على الأحوال الاجتماعية فى القاهرة فى القرن التاسع عشر. وان كان فى الوقت نفسه يرجع للعديد من القصص من زمن هارون الرشيد على اعتبار أنه الزمن الأكثر ارتباطًا بألف ليلة وليلة. وبغض النظر عن الدقة التاريخية للمعلومات الواردة فى هذه الهوامش فإنها تشكل فى نهاية الأمر نافذة على الرؤية الغربية الاستشراقية التقليدية للمجتمع العربى.

والواقع أنه، وإن كانت المرأة - أميرة وجارية.. عاشقة أو معشوقة أو حائكة للمكائد قد احتلت، بحكم سحرها وغموضها وفتنتها، الجانب الأكبر من الصورة. إلا أنه فى الزوايا بعض من مشاهد أخرى.. هنا نماذج منها. وهى مرة أخرى - رغم عنوان الكتاب - من هوامش إدوارد وليم.

تعد تنشئة وتعليم الأطفال من بين المجالات القليلة التى يلتزم فيها (المسلمون) إلى درجة كبيرة بتعاليم نبيهم (ﷺ) والتعاليم الدينية الأخرى. وحتى فى المسائل الأكثر تفاهة، فإن الأعراف الدينية هى دائما المرجع لكيفية التعامل مع الصغار. ومن بين الطقوس الأولى الواجبة أن يلف الطفل حديث الولادة فى لفافات نظيفة بيضاء أو من أى لون آخر عدا الأصفر. وبعد ذلك يجب أن يقوم شخص (من الذكور) برفع أذان الصلاة فى أذن المولود، حيث فعل النبى (ﷺ) ذلك فى أذن «الحسن» (رضى الله عنه) بعد أن ولدته فاطمة (رضى الله عنها)، أو أن يقوم الشخص برفع الأذان فى الأذن اليمنى للمولود وإقامة الصلاة (والتى لا تختلف كثيرا عن الأذان) فى أذنه اليسرى (كتاب نزهة المتأمل وبغية المتأهل، تأليف الشيخ الإمام العالم جلال الدين السيوطى رحمه الله، ٨٤٩-٩١١ هجرية، الفصل التاسع).

ومن بين العادات التى كان يتبعها الكثير من العرب فى السابق، وربما ما زالت موجودة لدى البعض منهم حتى الآن، أن يقيم الأب وليمة لأصدقائه فى اليوم السابع لولادة ابنه الذكر. أما فى حالة ولادة أنثى فإن ذلك يتم بقدر أقل من الابتهاج. أما التقليد العام المتبع الآن فهو مجرد إقامة احتفال فى اليوم السابع للولادة والذى يطلق عليه «يوم السبوع».

وفى تلك المناسبة تقوم عائلات الطبقة الراقية باستئجار مغنيات للترفيه عن السيدات صديقات أم المولود واللائى يزرنها فى جناح الحريم، أو يتم استئجار فرقة موسيقية، أو يقوم الرجال بتلاوة القرآن بكامله. وتجلس الأم فى كرسى مملوك للقابلة التى تكون حاضرة. ويتم إحضار المولود ملفوفا فى

فصل من كتاب:
Arab Society in the Time of the Thousand and one nights
(المجتمع العربى فى زمن ألف ليلة وليلة)
Edward William Lane
Dover, 2004, 283pp, $ 16.95
صدرت الطبعة الأولى عام ١٨٨٣.

ترجمة: عادل فتحى

ليـــلة وليـــلة!!

شال فاخر أو قماش ثمين. ولكى يتآلف المولود مع الضوضاء كى لا يصيبه الخوف بعد ذلك بسبب الموسيقى أو أصوات الاحتفال تقوم إحدى النساء بدق هون نحاسى مرارا كما لو كانت تطحن شيئا. وبعد ذلك يوضع الطفل فى غربال ويهز اعتقادا أن ذلك يفيد معدته. وبعد ذلك يطاف بالطفل فى كل غرف الحريم يصاحبه العديد من النساء والبنات اللاتى تحمل كل منهن عددا من الشموع متعددة الألوان أحيانا ويتم قطعها نصفين وإشعالها وتثبيتها فى عجينة الحنة على صينية صغيرة مستديرة. وفى الوقت نفسه تقوم القابلة - أو امرأة أخرى - برش خليط من الملح وبذور الشمر، أو الملح وحده، والذى كان قد وضع فى الليلة السابقة عند رأس المولود، على أرضية كل غرفة. وأثناء ذلك، تردد المرأة: «حصوة ملح فى عين اللى ما يصلى عالنبى» أو «حصوة ملح فى عين الحسود». وتعتبر عادة رش الملح وقاية للطفل والأم من العين الشريرة. وعلى كل الحاضرين أن يرددوا: «اللهم صلى على نبينا محمد». ويتم عرض الطفل على كل النساء الحاضرات ملفوفا وعلى وسادة رقيقة توضع أحيانا داخل صينية من الفضة. وتنظر كل منهن إلى وجه الطفل مرددة: «اللهم صلى على نبينا محمد، ربنا يرزقك طول العمر»، وعادة ما تضع منديلا مطرزا مع عملة ذهبية فى أحد الأركان عند رأس الطفل أو بجواره. ويعتبر منح المنديل والذهب دينا على الأم عليها أن ترده عندما تتكرر لدى مانح الهدية نفس المناسبة أو مناسبة مشابهة. وعادة ما تستخدم العملات المعدنية لتزيين غطاء رأس الطفل لعدة سنوات. وبعد تقديم الهدايا للطفل، تقدم هدايا أخرى للقابلة. وفى الليلة السابقة على احتفال السبوع يوضع عند رأس الطفل أثناء نومه إناء مملوء بالماء (دورق فى حالة الصبى، وقلة فى حالة البنت) مع منديل مطرز ملفوف حول عنق الإناء. وتأخذ القابلة الإناء بما يحويه من ماء وتضعه فوق صينية تقدمها لكل امرأة كى تضع لها فى الصينية هدية مالية. وعادة ما يقيم الزوج فى المساء احتفالاً لأصدقائه.

وتجرى طقوس دينية عديدة فى ذلك اليوم أو فى اليوم الرابع عشر أو الحادى والعشرين أو الثامن والعشرين أو الخامس والثلاثين بعد الولادة. ولكن من الأفضل كثيرا لتلك الطقوس أن تجرى فى اليوم السابع. ومن بين الطقوس تسمية المولود. ومع ذلك أعتقد أن الأكثر شيوعا أن تتم تسمية المولود بعد الولادة مباشرة تقريبا أو بعد ذلك بثلاث ساعات. وكان من المعتاد استشارة العرافين فى ذلك. ولكن الأكثر انتشارا وإتباعا فى العادة هو أن يمنح الأب ابنه اسما حسنا، ليس اسما يدل على تزكية النفس مثل «الرشيد» أو «الأمين» ونحو ذلك. قال النبى ﷺ: «أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن». وقال النبى (ﷺ): «سموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى». ولكن يقال أن ذلك كان أثناء حياته (ﷺ) حيث كان يكنى بـ «أبا القاسم»، أما الآن فلا شىء فى ذلك. وكان البعض يكره الجمع بين الاسم والكنية كتسمية شخص بـ «محمد» و«أبا القاسم» فى نفس الوقت. وإذا ما سمى طفل باسم نبى فليس مسموحا بسبه أو تحقيره إلا إذا واجهه لائمه وجها لوجه وقال له «أنت كذا وكذا» دون ذكر اسمه. وإذا ما سمى الصبى محمد أو أحمد فهو يلقى تكريما خاصا. وقال النبى ﷺ: «من سمى ولده باسمى أو باسم أولادى أو باسم أصحابى محبة فى وفيهم أعطاه الله تعالى فى الجنة ما لا عين نظرت ولا أذن سمعت». ولا يلقب الولد بـ «ملك الأملاك» ولا «سيد السادات». ويكنى الرجل بأكبر أولاده ولا يكنى قبل أن يولد له (نزهة المتأمل، الفصل التاسع). على سبيل المثال. ومن الشائع جدا أن يسمى الأطفال بأسماء الأنبياء أو صحابة النبى محمد (ﷺ) أو آل بيته. ولا تجرى طقوس خاصة عند تسمية المولود.

ومع ذلك، يتم فى نفس يوم السبوع تقليدان آخران سآتى على ذكرهما، رغم أنى أرى من ملاحظاتى وتحقيقاتى أن مسلمى اليوم - فى العموم - قد أهملوهما. التقليد الأول عبارة عن أضحية. والأضحية تسمى بالعقيقة. وهى إما أن تكون من الكباش أو الماعز. فيتم التضحية باثنين من تلك الحيوانات عند ولادة ذكر، أو واحدة فقط عند ولادة أنثى. ويعتبر «ابن حنبل» هذا الطقس ضروريا تماما. فقد قال: «من لم يذبح لولده عقيقة فمات (الولد) لا يشفع ذلك الولد يوم القيامة». أما أصحاب المذاهب الرئيسية الثلاثة الأخرى فيعتبرون العقيقة أقل أهمية، رغم أن محمدا (ﷺ) عق عن نفسه بعدما بعث نبيا. ويجب على من يقوم بذبح الأضحية أن يقول: «اللهم إن هذه العقيقة فداء ابنى فلان، فإن دمها بدمه، ولحمها بلحمه، وعظمها بعظمه، وجلدها بجلده، وشعرها بشعره، اللهم اجعلها فداء ابنى من النار». ولا يكسر عظم العقيقة. وتأخذ القابلة إحدى أفخاذها. ويجب طبخها دون قطع أى شىء منها. كما يجب توزيع جزء منها كصدقة.



وبعد العقيقة، يأتى التقليد الآخر المشار إليه آنفا: فمن السنة أن يقوم الأب - أو يكلف غيره - بحلق شعر المولود ويتصدق للفقراء بوزن شعره ذهبا أو فضة. ويستحب حلق الرأس أيضا للكافر إذا أسلم (نزهة المتأمل، الفصل التاسع). وفى المناسبات التالية لحلق رأس الطفل الذكر (حيث تحلق رأس الذكر مرارا) تترك خصلة من الشعر عند قمة الرأس، ومن المعتاد أيضا ترك خصلة أخرى لسنوات عديدة عند مقدمة الرأس.

أما الختان فيفضل أن يتم يوم السبوع (نزهة المتأمل، الفصل التاسع). ولكن من المعتاد تأجيل هذا التقليد حتى يبلغ الطفل سن الخامسة أو السادسة أو بعد ذلك بسنوات عديدة أحيانا.

يعتبر المسلمون أن الطفل أمانة من عند الله مودعة عند أبويه اللذين يكونان مسئولين عن طريقة تنشئته ويسألان عن ذلك يوم القيامة. بل يعتقد المسلمون أن «أول من يتعلق بالرجل فى القيامة أهله وولده فيقفون بين يدى الله تعالى فيقولون يا ربنا خذ لنا حقنا منه، فإنه ما علمنا ما نجهل، وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم، فيقتص لهم منه». ويعنى ذلك أن جزءا من حسنات هذا الرجل الذى أهمل أطفاله وزوجته سيوضع فى ميزانهم، أو أن جزءا مماثلا من سيئاتهم سيوضع فى ميزانه هو.

وتلتزم الأم طبقا للشرع بإرضاع طفلها عامين كاملين، ما لم يأذن لها زوجها باختصار المدة أو يستأجر مرضعة أخرى. ولإرضاع الطفل تطلب لإرضاعه امرأة صالحة تأكل الحلال، فإن الحرام يظهر شره فيه. فقد قال النبى ﷺ..: «الرضاع يغير الطباع». ولكن من المستحسن طبقا للسنة أن تقوم الأم بإرضاع طفلها بنفسها حيث يعتقد أن لا شىء أفضل للطفل من لبن أمه، وأنه إذا رضع من امرأة أخرى فلن يكون على الفطرة السليمة.

وباعتبارهم نعمة قد تكون موضع حسد، يوجه الأبوان المسلمان إلى الأطفال أقصى عناية ممكنة. وهما يلجآن إلى وسائل مختلفة لحمايتهم من تأثير عين الحسد أو الشر. فعند خروجهم يرتدى الأطفال عادة ملابس أبعد ما تكون عن الأناقة، ويخرجون دون اغتسال، بل ويجرى تلطيخهم عمدا بالقاذورات. وكإجراء وقائى آخر توضع على رأس الطفل قبعة رائعة، أو يزين غطاء رأسه بواحدة أو أكثر من العملات المعدنية مع ريشة وشرابة زاهية، أو تعويذة سحرية أو اثنتين مخاطتين فى كيس جلدى أو مغلفتين بالذهب أو الفضة، أو بعض الإكسسوارات الأخرى التى تجذب الانتباه بحيث يمر الطفل نفسه دون أن يلاحظه أحد. وإذا ما عبر أحد عن إعجابه بالطفل دون ترديد أدعية دينية معينة مثل حمد الخالق بعبارة «سبحان الله» أو «ما شاء الله» إلخ، أو بالصلاة على النبى (ﷺ)، فإن ذلك يثير حفيظة الوالدين فيلجآن إلى الخرافات لمعادلة الأثر الخطير لنظرة الحسد. أما أطفال الفقراء فهم أقل عرضة لهذا الخطر الوهمى نظرا لمظهرهم غير الجذاب.

فليس لديهم فى العادة إلا

إدوارد وليـــم لـيـــن

القليل من الملابس إن وجدت، كما أنهم فى منتهى القذارة. أما أطفال الأغنياء فيبقون معظم الوقت فى جناح الحريم وذلك يحميهم جزئيا من العين الشريرة. وهم هناك يدللون لسنوات طويلة حتى يصلوا على الأقل إلى سن المدرسة. ولكن معظمهم يتلقون تعليمهم بالمنزل.

يتم تدريب أطفال المسلمين على احترام آبائهم إلى درجة قد تبدو متناقضة مع وجود الحنان المتبادل. ولكنى لا أعتقد ذلك. فالطفل يحيى والده فى الصباح بتقبيل يده، وعادة ما يقف بعد ذلك أمامه احتراما له واضعا يده اليمنى فوق اليسرى منتظرا منه أى أمر أو الإذن بالانصراف. ولكن بعد قبلة الاحترام هذه، عادة ما يؤخذ الطفل فى حجر والده. وبعد انقضاء فترة الطفولة نادرا ما يجلس الطفل حسن التربية فى حضرة والده. ولكن يسمح له فى العادة بكثير من الألفة أثناء طفولته. كان من بين جيرانى الأقربين فى القاهرة تاجر سورى. وكان له طفل رائع الجمال لدرجة أن الجميع ظنوا أنه ابنته. ورغم أنه كان مسلما متشددا، إلا أنه كان يصطحب ابنه معه



يوميا من المنزل إلى حانوته. وكان الطفل يتبعه جالسا فوق حمار يسحبه عبد أسود. وحتى سن السادسة تقريبا كان الطفل يرتدى ملابس الفتيات ولكن دون خمار. ثم رأى الأب أن اصطحاب طفلة معه فى تلك السن قد يبدوا أمرا مستهجنا، فألبس ابنه المدلل ملابس الصبيان وأخبر أصدقاءه أن الغرض من الملابس النسائية كان حمايته من العين الشريرة، حيث أن الفتيات أقل عرضة للحسد من الصبيان. إن ذلك يحدث بالفعل أحيانا، وربما كان ذلك هو الحال فى تلك القصة، ولكنى لم أعتقد ذلك. فطوال العام الذى بقيته فى القاهرة بعد ذلك كنت أرى هذا الطفل يمر أمام منزلى كالسابق ولكن دائما فى ثياب صبى.

ولا يثير الدهشة أن مواطنى بلدان الشرق - حيث لا تتكلف تربية الأطفال شيئا يذكر - تكون لديهم عادة رغبة عارمة فى الحصول على كثير من الأطفال. وتؤدى هذه النزعة للمصلحة الشخصية بالضرورة إلى الاعتزاز بذلك الشعور عند المرأة. فتقدير الرجل لزوجته يتناسب فى العادة مع خصوبتها، ونادرا ما يرغب الرجل فى تطليق زوجة أو بيع جارية تكون قد ولدت له طفلا. ويؤدى شعور مماثل بالأبوين أيضا إلى الرغبة فى الحصول على ذرية وفى الوقت نفسه إلى التسليم بفقدان أطفالهم الذين يتوفون فى سن صغيرة. وينبع ذلك الشعور من الإيمان بأن فقدان أطفالهم فى سن صغيرة سيكون

له ثواب كبير للأبوين فى العالم الآخر.

ويروى أن الأطفال يجتمعون فى الموقف يوم القيامة عند عرض الخلائق للحساب، فيقال للملائكة: «اذهبوا بهؤلاء إلى الجنة»، فيقفون على باب الجنة ويقال لهم: «مرحبا بذرارى المسلمين، ادخلوا لا حساب عليكم». فيقولون: «أين، آباؤنا وأمهاتنا». فتقول الخزنة: «إن آباءكم وأمهاتكم ليسوا منكم إنهم كانت لهم ذنوب وسيئات فهم يحاسبون عليها ويطالبون بها». فيتصارخون ويضجون على باب الجنة ويصيحون صيحة عظيمة، فيقول الله تعالى وهو أعلم بهم: «ما هذه الصيحة؟». فيقولون يا ربنا، أطفال المسلمين قالوا لا ندخل الجنة إلا مع آبائنا. فيقول الله تعالى: «أدخلوا الجميع فخذوا بأيدى آبائكم وأدخلوهم الجنة». والأطفال الذين تكون لهم تلك القدرة هم فقط أبناء المؤمنين الذين توفوا قبل أن يدركوا الذنوب. فمثل هذا الطفل يدخل أبويه الجنة. وهؤلاء الأطفال يدخلون الجنة لأنهم ماتوا فى الصغر لأبوين مؤمنين وكان مقدرا لهم أن يكونوا مؤمنين لو عاشوا إلى سن البلوغ. وبنفس اليقين فعند وفاة طفل لعبد من عباد الله فإن الله سبحانه وتعالى يقول للملائكة: «قبضتم ولد عبدى؟» فيقولون: «نعم». فيقول: «قبضتم ثمرة فؤاده؟» فيقولون: «نعم». فيقول: «ماذا قال عبدى؟» فيقولون: «حمدك يا رب واسترجعك» فيقول الله تعالى: «ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد».

وبالإضافة لتلك الأعراف التى تروج لمزايا الزواج، فإن القصة التالية لها طبيعة مشابهة. يحكى عن بعضهم أنه كان لا يتزوج، فبينما هو نائم إذ انتبه من نومه ذات يوم فزعا وقال لجماعته زوجونى. فقالوا له ما بالك قمت من نومك فزعا؟ قال رأيت فى المنام كأن القيامة قد قامت وكأنى من جملة الخلائق فى الموقف وبى من العطش ما يقطع عنقى، فإذا ولدان يتخللون الجمع وبأيديهم أباريق من فضة وأكواب من ذهب يسقون الواحد بعد الواحد، فمددت يدى إلى أحدهم وقلت: «اسقنى فقد أجهدنى العطش». فقالوا: «ليس لك فينا ولد، وإنما نسقى آباءنا». فقلت: «من أنتم؟». فقالوا: «نحن من مات من أطفال المسلمين المؤمنين».

وهناك جوائز خاصة بالأمهات فى الجنة. فقد قال النبى ﷺ: «إذا حبلت المرأة من زوجها سميت فى السماء شهيدة، وكان نفاسها جهادا وخدمتها لصبيانها سترا من النار».

وإذا تكلم الطفل توجب على الأب أن يعلمه أولا نطق شهادة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». يلقنه ذلك سبع مرات. ثم يلقنه «فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم» (سورة المؤمنون - آية ١١٦). وعليه أيضا أن يلقنه آية الكرسى والآيتين الأخيرتين فى سورة الحشر (نزهة المتأمل، الفصل التاسع).



وما أن يصل الصبى إلى سن مناسبة حتى يقوم أبوه بتعليمه أهم قواعد السلوك القويم. فيضع أمامه بعض الطعام ويأمره أن يمسكه بيده اليمنى حيث تستخدم اليد اليسرى للأغراض غير النظيفة، ويقول عند البدء فى تناول الطعام «بسم الله»، وأن يأكل مما يليه، ولا يسرع فى الأكل أو يسقط شىء من الطعام على نفسه أو ملابسه. كما يعلمه أنه ليس من اللائق تناول طعام أكثر من اللازم. ويجب عليه خصوصا أن يقبح لديه حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذره منهما أكثر من التحذير من الحيات والعقارب، ويمنع من البصاق فى مجلس أو يخرج عن السلوك القويم مثل كثرة الكلام وتحويل ظهره إلى غيره أو الوقوف معوجا أو التحدث بسوء عن أى شخص. ويجب على الأب أن يحفظ ابنه من قرناء السوء ويعلمه القرآن وكافة التعاليم السماوية والنبوية، كما يعلمه السباحة والرماية، وأن يعلمه حرفة صالحة لأن الحرفة أمان من الفقر. كما يأمره بالصبر على عقاب معلمه. وفى الحديث فإذا بلغ ست سنين أدب، فإذا بلغ تسع سنين عزل فراشه، فإذا بلغ عشر سنين ضرب على الصلاة. فقد قال النبى ﷺ «مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم لعشر، وفرقوا بينهم فى المضاجع «نزهة المتأمل، الفصل التاسع».

تتم عملية الختان عامة قبل أن يصل الصبى إلى سن المدرسة. وإذا كان الطفل ينتمى إلى طبقات المجتمع العليا أو المتوسطة، فعادة ما ينظم له قبل عملية الختان استعراض فى الحى الذى يقطنه والديه مرتديا ملابس بهيجة نسائية فى الغالب ومزينة بالحلى مع عمامة صبيان فوق رأسه وجالسا فوق حصان تسبقه فرقة

موسيقية وتتبعه جماعة من النساء والفتيات من أقاربه ومعارفه. ويحضر تلك الطقوس عدد كبير من الجمهور فى مناخ فخم مع ولائم فاخرة. وقد أورد الجبرتى وصفا لاحتفال بمناسبة ختان ابن قاضى القاهرة سنة ١١٧٩ هجرية (١٧٦٦ ميلادية)، حيث أرسل له الأشراف وكبار التجار والعلماء بالمدينة الكثير من الهدايا حتى امتلأت مخازن منزله الكبير بالأرز والزبد والعسل والسكر. و امتلأ البهو الكبير بالبن، ووسط الفناء بالحطب. وقد استمتع الجمهور طوال أيام بعزف الموسيقيين وأداء الممثلين من مختلف الألوان. وعندما كان يتم استعراض الصبى خلال الشوارع كان يصحبه العديد من المماليك بجيادهم بديعة الزركشة وأسلحتهم ودروعهم الرائعة وفرقة موسيقى الجيش يتبعهم عدد كبير من الصبيان كان يتم ختانهم معه لاحقا مجاملة له. وكانت تلك العادة الأخيرة رائجة فى تلك المناسبات، وكذلك إرسال الهدايا - مثل المذكورة سابقا - من قبل الأصدقاء والمعارف والتجار. وعندما ختن الخليفة المقتدر فى احتفال مشابه خمسة من أولاده بلغت الأموال التى وزعت كهبات ستمائة ألف قطعة ذهبية أو ما يوازى ثلاثمائة ألف جنيه إسترلينى. كما تم فى اليوم نفسه ختان كثير من الأطفال اليتامى وأهديت إليهم الملابس والقطع الذهبية (كتاب: مرآة الزمان، أحداث العام ٣٠٢ هجرية). وقد اشتهر الخليفة المقتدر بكرمه. وأثناء الاحتفالات المعتادة بمناسبة الختان، يتلى القرآن بكامله فيما يسمى بحلقات الذكر. وفى احتفالات أخرى يقوم راقصون أو راقصات بأداء الرقصات الشعبية فى ساحة المنزل أو فى الشارع أمام باب المنزل.

إن عددا قليلا من الأطفال العرب يتلقون تعليما ثقافيا، وعدد أقل منهم يحظى بدراسة المبادئ الأولى للعلوم التخصصية. ولكن العديد من المدارس متوفرة فى المدن، وتوجد واحدة على الأقل تقريبا فى كل قرية متوسطة الحجم. ومدارس المدن تكون فى الغالب ملحقة بالمساجد والأبنية العامة الأخرى، ويقوم الأمراء أو وجهاء المجتمع أو التجار الأغنياء برعاية وتمويل تلك المدارس والأبنية. ويتلقى الأطفال فى تلك المدارس تعليمهم مجانا أو فى مقابل رسوم أسبوعية زهيدة يستطيع معظم الآباء توفيرها باستثناء المعسرين. وفى العادة لا يقوم المدرس بتدريس أى شىء سوى قراءة القرآن وتلاوته بكامله عن ظهر قلب. وبعد أن يحفظ الطفل فاتحة الكتاب فإنه يبدأ فى تعلم بقية القرآن بعكس ترتيبه حيث أن حجم سور القرآن مرتب تنازليا عامة. فالسور الأطول تأتى أولا والسور الأقصر تأتى فى النهاية. ويقوم مدرس آخر فى العادة بتعليم الكتابة والحساب. أما دراسة النحو والبلاغة والشعر والمنطق وتفسير القرآن وكافة نواحى الدين والشريعة وكذلك كل أنواع المعارف الضرورية، والتى قليلا ما تتضمن المبادئ الأساسية للرياضيات، فتتم كلها فى مسجد جامع وبدون مقابل، حيث أن المعلمين لا يتقاضون أى راتب سواء من الطلاب الذين ينتمى معظمهم إلى الطبقات الفقيرة أو من ميزانية المسجد.

وعادة ما يستأجر الأغنياء لأبنائهم



يتم تدريب أطفال المسلمين على احترام آبائهم إلى درجة قد تبدو متناقضة مع وجود الحنان المتبادل. ولكنى لا أعتقد ذلك



معلما خاصا. وبعد أن يتعلموا قراءة وتلاوة القرآن، يدرس لهم معلم آخر الكتابة، وبعد ذلك يذهبون للكلية. ولكن أهم فروع المعرفة عند تلك الطبقة بعد الدين هى الآداب الرفيعة. فالتعرف على أعمال بعض الشعراء المفضلين بالقدر الذى يمكن الرجل من الاستشهاد بهم بين الحين والآخر فى وجود صحبة، يعد عند العرب من الضروريات للابن الذى سيندمج فى المجتمعات الراقية. وبجانب ذلك، عادة ما تصقل مواهب الشاب فى نظم الشعر والذى يعد - للعجب - شيئا يسيرا، نظرا لثراء اللغة العربية وقواعدها النحوية. وبينما ساهمت خصائص اللغة العربية البديعة والتى نلمسها فى الحفاظ البارع على قافية واحدة للقصيدة بكاملها كما هو شائع بين العرب، ساهمت - من جهة - فى رواج كبير لمؤلفات كبار الشعراء، فإنها - من جهة أخرى - ساهمت كثيرا فى تدهور مستوى الشعر العربى. فبالنسبة لأى عربى نال قدرا ضئيلا من التعليم، فإن التحدث شعرا بالنسبة له هو - تقريبا - فى نفس سهولة التحدث نثرا. وعلى ذلك فإنه عادة ما يقحم فى كتاباته النثرية - وكذلك محادثاته - أبياتا شعرية متنوعة تتميز أساسا بالتورية والتلاعب بمعانى الكلمات أو بالاستخدام البارع لعدد من الكلمات التى تتشابه كثيرا فى النطق ولكنها تختلف فى المعنى. وقد ورد ذلك كثيرا فى حكايات «ألف ليلة وليلة» حيث يقوم الشخص فجأة أثناء حديثه بالتحول من النثر إلى الشعر ثم يعود إلى النثر مرة ثانية.

ويجب أن أذكر هنا واجبا آخر للأب تجاه ابنه، ألا وهو أن يزوجه بمجرد أن يصل إلى سن مناسبة. ويحدد البعض تلك السن بعشرين عاما، ولكن مع ذلك فإن الكثير من الشباب يتزوجون قبل ذلك. ويقال أنه ما أن يصل الابن إلى سن العشرين، فعلى أبيه إن كان قادرا أن يزوجه، ثم يمسك بيده ويقول: «لقد أدبتك وعلمتك وأنكحتك. أعوذ بالله من فتنتك فى الدنيا وعذابك فى الآخرة». وللوفاء بهذا الواجب يقال أنه «إذا بلغ الابن ولم يزوجه أبوه رغم قدرته، فأحدث الشاب حدثا فالإثم بينهما (نزهة المتأمل، الفصل التاسع)، أو - فى مقولة أخرى - على الأب وحده». وينطبق ذلك أيضا بالنسبة للابنة التى تصل إلى سن الثانية عشرة.

ومن النادر بالنسبة للفتيات العرب أن يتعلمن مجرد القراءة. ورغم أنه مسموح لهن بالالتحاق بالمدارس اليومية التى يتعلم فيها الأولاد، إلا أن الغالبية العظمى من الآباء يحرمون بناتهم من تلك الميزة. وإذا سمحوا لهن بأى تعليم ثقافى، فهم يفضلون استخدام شيخة لتعليمهن بالمنزل. وهى تعلمهن أداء الصلاة وحفظ بعض سور القرآن عن ظهر قلب، وأحيانا قليلة جدا القرآن بكامله. وبعض الآباء بالفعل يصرفون بناتهم عن أجزاء معينة من القرآن. فهم مثلا يعلمونهن سورة «النور» التى تذكر المحرمات والوعيد والعقاب. ولكنهم يصدونهن عن سورة «يوسف» بسبب قصة «زليخة» مع «يوسف» (نزهة المتأمل، الفصل السادس).

وليس من النادر أن تتعلم الفتيات العربيات أشغال الإبرة، وإن كان ذلك لا يتم أيضا على نطاق واسع. وعادة ما تستخدم ورش الغزل بنات من الطبقات الفقيرة، والبعض منهن يتعلمن النسيج. أما بنات الطبقات المتوسطة والعليا فعادة ما يتعلمن فن التطريز وأعمال الزينة والتى تدرس فى المدارس والمنازل. أما الغناء والعزف على العود، واللذان كانا فى السابق من المهن الشائعة للنساء لدى أثرياء العرب، فقد اقتصرا الآن إلى حد كبير - مثل الرقص - على محترفات لتلك الفنون وعدد قليل من الجوارى فى أجنحة حريم كبار القوم. ومن النادر تماما الآن رؤية أى آلة موسيقية فى يد سيدة عربية، باستثناء «الطار»، ونوع من الطبول يسمى «دربكة»، واللذين يوجدان فى العديد من أجنحة الحريم ويتم الدق عليهما بالأصابع. وكانت السيدات يوجهن عناية خاصة أيضا لتعليم بناتهن أناقة الحركة والمشى وكذلك مختلف فنون الغواية والإثارة الحسية والتى ستزيد من ارتباطهن بأزواج المستقبل.

لقد سمعت عربيا يعترفون أن أمتهم تملك تسعة أعشار الحسد الموجود بين كل الجنس البشرى، ولكنى لم أر أى دليل مكتوب على ذلك. لقد نسب «ابن عباس» تسعة أعشار المكر والدهاء فى العالم للأقباط، وتسعة أعشار الغدر لليهود، وتسعة أعشار الغباء للمغاربة، وتسعة أعشار الصرامة للأتراك، وتسعة أعشار الشجاعة للعرب. ووفقا لـ «كعب الأحبار» فإن سوريا تتميز بالحكمة والتمرد فى آن واحد، ومصر بالخصب والانحلال، والصحراء بالبؤس والصحة. ويقال أيضا أن اليمن يتميز بالإيمان والتواضع، وسوريا بالشجاعة والعصيان، والعراق بالكبرياء والنفاق، ومصر بالثروة والفساد، والصحراء بالفقر والبؤس. وقد ذكر «كعب الأحبار» أيضا أن أفضل نساء العالمين (باستثناء نساء قبيلة قريش اللاتى ذكرهن النبى (صلى الله عليه وسلم) هم نساء البصرة، وأن أسوأهن هم نساء مصر (خطط المقريزى والإسحاقى). ■

الإســــلام... والحــــريـــة








تناقش هذه المقالة كيف أن العلوم الاجتماعية عامة، والأنثروبولوجيا خاصة يمكن أن تعيد قراءة التاريخ تأويليا، لتستخرج منه رسائل جديدة ووعيا مختلفا. ومناقشة هذا المنهج فى قراءة تاريخ الإسلام له أهمية خاصة إذ أن هذه القراءة تجول فى عالم كان مغلقا إلا على المفسرين والفقهاء فتقدم منهجا جديدا يمكن أن يعين فى حل مشاكل فكرية عديدة تجمعت على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان، تصارعت فيه الأفكار والاتجاهات، وكل يكفر الآخر أو يتهمه بالمروق والزندقة، وكل يعلن أنه ممسك بالحقيقة المطلقة، وغيره فى ضلال، وهو ما زج بالأمة الإسلامية فى صراعات جانبية، وحجب عنها مواكبة العصر والتفاعل معه، والتأثير عليه.

ولأن حقوق الإنسان عامة، هى من أهم ما يشغل المهتمين بالإسلام، مهاجمين أو مؤيدين، أو مدافعين، فإن هذه المقالة تتوجه بصفة خاصة إلى هذه المنطقة الحساسة فى رؤية جديدة، لا تستخدم فيها الفقه الدينى، أو النصوص المقدسة تفسيرا أو تأويلا، وإنما تهتم بقراءة السياق التاريخى للدعوة الإسلامية فى محاولة لاستجلاء دلالاتها الإنسانية والاجتماعية، ومن خلال هذه الدلالة يمكن العودة إلى قراءة النص من منظور مختلف، وهو أمر ليس فى اختصاص الباحثة بقدر ما هو تمهيد للمختصين فى الفقه والتفسير ليخرجوا علينا بتأويلات جديدة، تتناسب والعصر الذى نعيش فيه.

بغض النظر عن الحادى عشر من سبتمبر وما ترتب عليه من انتشار «الإسلام فوبيا» Islam-phobia يلاحظ عموماً أن الثقافات فى الشرق والغرب تقوم بحركات إحيائية من أجل ترسيخ الثقافات المحلية، وتعمق من التناقضات بينها وبين الثقافات الأخرى، مما جعل علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا يرصدون هذه الظواهر ويصفون الحاضر من خلال ما أطلقوا عليه ما بعد الحداثة، حيث تمزقت الحقيقة بين رؤى مختلفة، وأصبح التجزؤ والتشرذم سمة من سمات الواقع الذى نعيشه.

فى هذا الواقع المتشرذم نحن فى حاجة إلى إعادة بناء مساحة مشتركة بين الثقافات - على الأقل فى مجال حقوق الإنسان، ومن هنا جاءت تلك المحاولة فى إعادة قراءة حقوق الإنسان فى الإسلام باستخدام الأنثروبولوجيا التأويلية.

الأنثروبولوجيا التأويلية كما عرفها كليفورد جرتس تؤكد أن الثقافة هى كل مركب من الرموز[1]. وليس كلا مركبا من الاتجاهات والقيم إلى آخر تعريف تيلور الأكثر ذيوعا - قد فتح بابا لمحاولة التفسير والتأويل دون اختزال وصفى، ودون إسقاط أيديولوجى، وعليه فإن فهم الثقافة أو شرحها لا بد أن يأخذ فى الاعتبار أمورا على جانب كبير من الأهمية، متضمنا للحظة التاريخية من حيث هى لحظة تعكس المعرفة، وايضا مستهدفا الفهم فى السياق الرمزى المركب الذى حدث فيه الفعل أو الحدث.

ولذا فمن الخطأ الكبير أن نقرأ - على سبيل المثال - النصوص المقدسة، مركزين على البعد اللغوى فقط، دون الأخذ فى الاعتبار معنى النص فى المحتوى الثقافى الاجتماعى، ودون النظر إلى الكلية الفكرية المفاهيمية التى دعت إليها دعوة ما. وبنفس القدر فإنه من الخطأ الجسيم أن ننظر إلى بعض الأفعال المرتبطة بالبيئة والثقافة فى خارج محتواها الثقافى الذى ظهرت فيه.

وهكذا يمكن إزالة اللبس الفكرى المرتبط فى أذهان الفكر الغربى والإسلامى على السواء فى رؤيته للدعوة الإسلامية خارج نطاقها التاريخى. فهذه الرؤية سجنت واختزلت هذه الدعوة فى أطر جامدة، وبالتالى فشلت فى أن تجعل من الإسلام قوة دفع إلى الأمام كما كان فى العهد الأول، إبان حياة الرسول (صلعم). وليس معنى القول فى رؤية الدعوة الإسلامية فى إطارها التاريخى هو اختزالها إلى دعوة تنتمى إلى الماضى وليس لها دلالة فى الحاضر. بل إن هذه الرؤية خليقة بأن تعيد اكتشاف الدعوة من جديد، وإعادة صياغتها معرفيا فى ضوء المتغيرات الحاضرة.

الإطار المنهجى

لقد كان فيبر أول من لفت النظر إلى «المعنى» وراء الفعل، وأخذ جيرتس هذه المقاربة إلى مجالات أوسع حيث اعتبر أن كل ما ينتج عن الإنسان هى رموز، تتطلب تفسيرا. وهذه الرموز لا تقف بمعزل عن بعضها البعض، بل هى تكون مصفوفة متشابكة، ولذا فإن فهم ماتعنيه لايتم بدون إدراك للبناء الذى تقع فيه. «وعند النظر إلى السلوك الإنسانى من منظور بعده الرمزى، يصبح الفعل الإنسانى مثله مثل الصوت فى الحديث أو الخط فى الكتابة، أو الصوت فى الموسيقى، مما يجعل التساؤل عما إذا كانت الثقافة سلوكا منمطا أو أنها مرجعية عقلية، أو مزيجا من الإثنين سؤالا لا معنى له، السؤال الجدير بالذكر هنا هو ما الذى ينتج عنه الفعل، والواقع إن دينامية الثقافة وحيويتها رهن بقدرة الرموز المستخدمة على تجديد معانيها بصورة مستمرة، بحيث تضيف إلى المعنى المكتسب أعماقا جديدة.

وعلى ضوء هذا المنهج يمكن النظر إلى القيم الداعية إلى حقوق الإنسان من خلال فهم ما أشارت إليه الممارسات فى عهد الرسول، واعتبار تلك الممارسات «رموزا» قابلة للتحليل والتفسير فى ظل سياقاتها الأيديولوجية، وسيظهر البحث كيف أن دلالات هذه المعانى قد تطورت وكونت طبقات متراكمة من التفسيرات على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان، مالبثت أن حجبت الأساس الذى تحركت منه. وإعادة تفسيرها مرة أخرى يستلزم غوصا فى أعماق تلك التفسيرات، طبقة بعد أخرى، ثم إعادة تركيبها من جديد، استعادة لحيويتها وفاعليتها فى هذا العصر.

هذه المحاولات المنهجية فى التفكيك والتركيب هو ما يشير إلى ما عبر عنه جيرتس «الوصف السميك» «إنها دراسات تنشأ على دراسات أخرى، ليس بمعنى أن الأخيرة تبدأ من حيث انتهت الأولى، ولكن بمعنى أنه كلما أردنا فهما أفضل عن نفس الموضوع، فإن ذلك يعنى إعادة دراسته بعمق أكبر وأشمل». وهو أيضا ما عناه فيكتور ترنر بالأنموذج الأصل root paradigm ويقصد به ذلك الجانب الثقافى الذى يمثل الجذر أو الأصل الذى يشكل الكيان الثقافى، فهو مثله فى ذلك مثل الجينات التى تشكل الصفات والخصائص للجسم الإنسانى.

ويصل جيرتس إلى نتيجة مؤداها أن الدين هو نسق ثقافى له دينامية خاصة به، ولا يجب أن نراه من منظور أنه انعكاس للبناء الاجتماعى كما يفعل الوظيفيون الكلاسيكيون، ولا مجرد تعبير عن أيديولوجيات تعكس علاقة



نحن فى حاجة إلى إعادة بناء مساحة مشتركة بين الثقافات - على الأقل فى مجال حقوق الإنسان، ومن هنا جاءت تلك المحاولة فى إعادة قراءة حقوق الإنسان فى الإسلام باستخدام الأنثروبولوجية التأويلية



وحقـــوق الإنســـان...

علـيــــاء رافـــع

قراءة فى أنثروبولوجيا التاريخ

بين الطبقات كما يفسرة الماركسيون. ولكن الدين له بناء ثقافى خاص ليس منعزلا عن البناء الاجتماعى، ولكنه ليس انعكاسا لهذا البناء. وبناء على ذلك فإنه من الأهمية بمكان ألا تقتصر دراسة المواضيع الدينية اجتماعيا أن نكتفى بالنظر إلى الموقف الاجتماعى فقط الذى يصاحب النظرة الأيديولوجية الدينية، ولكن علينا كذلك أن نبحث عن جذور هذا الفكر الأيديولوجى. ويعنى ذلك أن الأنثروبولوجى يتجه اتجاهين، أحدهما أفقى والآخر رأسى. وأعنى بالخط الأفقى أى القدرة على فهم المعانى المركبة فى سياقها (الآنى) الرمزى. وأما الحركة الرأسية فأعنى بها القدرة على الربط بين (الآن) وما يحويه من نظام رمزى مركب، وبين دلالات هذا النظام مع الجذور الأيديولوجية. فى هذه الورقة تحاول الباحثة أن تتبع منهجا تفكيكيا، ثم تعيد تركيبه فى إطار العصر، معبرة عن دلالات الرموز الأساسية فى الإسلام بلغة عصرية، ومتبنية على الأخص اصطلاحات حقوق الإنسان.

صحيح أن حياة النبى محمد (صلعم) معروفة وقد تناولتها عديد من الأقلام، ولكننا ها هنا نحاول أن نعيد بناء الدلالات التى تحملها هذه السيرة، وكيف أعيد صياغتها على مدى التاريخ بصورة قد تختلف كثيرا أو قليلا عن مغزاها الذى يمكن رؤيته بالمنهج الأنثروبولوجى. وفى تلك المحاولة فإننا نحاول أن نتعايش مرة أخرى مع العصر الذى ظهرت فيه الرسالة. وقد يكون من المستحيل أن نقفز فوق الزمن تماما، ونغلق الفجوة بيننا وبين الحياة التى عاشها العرب وقت ظهور الدعوة الإسلامية، ولكننا نحاول أن تكون تلك الفجوة ضيقة على حد الإمكان، ولهذا يظل هذا التحليل هو إحدى المحاولات التأويلية القابلة للنقد، فليس هناك كلمة أخيرة. «إن أى قراءة جيدة لأى شىء -للشعر، للتاريخ، للطقوس، للمؤسسات، أو المجتمع- تأخذنا إلى اللب الذى تدور حوله هذه القراءة».

وفيما يتعلق بحقوق الإنسان فى العالم الإسلامى، فإن الاقتراب من هذا الموضوع على جانب كبير من الحساسية، إذ أننا سنلاحظ أن الكثير من الممارسات الدينية تأخذ معانى مختلفة فى أنحاء متفرقة فى الدول الإسلامية، بينما وعلى نفس الصعيد نجد أن ما يتعلق بقهر الإنسان يأخذ أيضا أشكالا مختلفة، وبتعبير جرتس فإن «النبيذ القديم قد يصب فى زجاجات حديثة الصنع، وقد تحتوى الزجاجات القديمة على نبيذ حديث الصنع»، ويعنى هذا أنثروبولوجيا إدراك كيف أن الجذور يمكن أن تغذى انتشار بعض الرموز التى قد لا تكون معبرة تماما عن المعانى التى حملتها منذ القديم.

حقوق الإنسان فى الدعوة

من المعروف أن الإسلام قد قام على الدعوة إلى التوحيد التى يمكن أن نعبر عنها أنثربولوجيا بأنها «نموذج الحقيقة» الذى أعاد صياغة التفاعل بين المتابعين لدعوة الرسول وبين بيئتهم الاجتماعية، ومن ثم أتاح لهذا الدين الجديد أن ينتشر خارج حدود الجزيرة العربية. والمقولة الرئيسية التى خلص إليها تحليل فحوى الدعوة الإسلامية هى أن دعوة التوحيد قد غيرت الرؤية إلى العالم، وكان لها أثرها فى إعادة صياغة المهمشين فى مكة من رؤيتهم لأنفسهم، وثورتهم على أوضاع الاستعباد التى كانت سائدة كجزء طبيعى من النظام الاجتماعى. بعبارة أخرى ساعد نموذج الحقيقة الذى قدمه الإسلام على تكوين رؤية جديدة للواقع الاجتماعى تبين فيه المستضعفون أنهم قادرون على خلق واقع جديد بإرادتهم الحرة التى اكتشفوها.

إن ما قدمته الدعوة الإسلامية لم يكن يندرج تحت تغيير مسلمات فى العقيدة، ولكنه أعطى للعقيدة فى الله بعدا واقعيا. والدليل على ذلك أن فكرة التوحيد فى صورتها الخالصة قد قام بها ودعا إليها عدد من الأفراد قبل نزول الوحى على الرسول لم تؤد إلى نفس النتائج التى أدت إليها الدعوة الإسلامية[٢]. ولكن الأمر اختلف بالنسبة للرسول ومتابعيه، ويمكن فهم هذا البعد الاجتماعى عند إلقاء نظرة على حالة مكة قبل الدعوة، ثم تحليل مغزى الدعوة وواقعيتها على مستوى الفعل وعلى مستوى القول.

أدى موقع مكة الاستراتيجى إلى استقرار قبيلة قريش فيها، مما أدى إلى زيادة الموارد المالية القادمة من التجارة والحج، أصبح سادة قريش أكثر اهتماما بتعظيم ثرواتهم، دون اعتبار للفقراء منهم، فكانت الثروات تتركز فى يد رؤساء العشائر وتتراكم، وزاد التعامل بالربا، وفيه إجحاف لمن يتجرأ ويطلب مالا، وقد نتج عن هذا استعباد الفقراء. ولأن النظام القبلى بطبيعته يعتمد على الرجال فى الحروب والذود عن القبيلة، فإن النساء لم يكن لهن قيمة معنوية أو اقتصادية للقبيلة، واصبحن ينظر إليهن كعبء اقتصادى، ويتقاذفهن الرجال تبعا لحاجاتهم. بالإضافة إلى أن النساء كن مصدرا للعار، فهم السبايا فى الحروب اللائى يستغلهن العدو فى النيل من كرامة وشرف القبيلة المهزومة. وهو ما أدى إلى عادة وأد البنات.

لقد أدرك وثنيو قريش أن هناك خالقا للكون، وقد عبدوا الأوثان ليقربوهم زلفى إلى هذا الإله، وقد أطلقوا عليه «الله»، ولم يكن هذا ليغير من سلوكياتهم الظالمة والمجحفة، بل ويذكر القرآن عقيدتهم هذه مسجلا له كالآتى: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ» (سورة ٢٩: آية ٦١). ويسجل القرآن أيضا هذه العقيدة إذ يقول: «أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ» (سورة ٣٩، آية ٣).

إن الآية لا تحكم عليهم بصورة ظاهرة، وإنما بصورة ضمنية، إذ نفهم أن الخطأ يكمن فى كذبهم، وجحودهم «إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار». الكذب هنا ليس هو القول بغير الحقيقة، ولكن الكذب يتمثل فى السلوك الذى يخالف القول. وفى محاولة للتحليل الدلالى Semantic analysis سنجد لكلمة جاهلية عديداً من المعانى، فهى لا تعود إلى الجهل الذى هو مقابل للعلم فقط، ولكنها ترتبط ايضا بنوعيات من السلوك يغلب عليها الانفعالية والشهوانية والتجبر والتكبر. إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (سورة ٤٨، آية ٢٦) يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ (سورة ٣، آية ١٥٤) وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ (سورة ٣٣، آية ٣٣).

فحوى الدعوة الإسلامية هى أن دعوة التوحيد قد غيرت الرؤية إلى العالم، وكان لها أثرها فى إعادة صياغة المهمشين فى مكة من رؤيتهم لأنفسهم



فى الدراسة التى أجراها[3] Izustu سنجد أن الكافر هو الجاحد «يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ» (سورة ١٦، آية ٨٣)، وهو المستكبر «بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ» (سورة ٣٩، آية ٥٩)، وتستخدم الكافرون بالتبادل مع «الظالمون»، مثل «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ» (سورة٣٩، آية ٣٢)، والكفر أيضا يأخذ بعدا سلوكيا «الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا» (سورة ٤، آية ٣٧). «وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» (سورة ٤، آية١٦١)، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (سورة ٢، آية ٢٤٥) وهكذا نجد أن الألفاظ القرآنية يصعب حصرها فى معنى دلالى واحد، لأنها تتقاطع بعضها مع البعض، وتقدم لنا بناء دلاليا غنيا، ولكننا ندرك أن الإيمان يأخذ بعدا واقعيا وليس إقرارا لفظيا.

فالشرك يتمثل فى الظلم القائم على قهر الآخرين إعلاء للذات الفردية باعتبارها القيمة المطلقة فى تلك العلاقة الاجتماعية الإنسانية

تعظيم الكرامة الإنسانية

فإذا خرجنا من ذلك الجانب الاستدلالى إلى الواقع الاجتماعى لقريش قبيل الدعوة، سنجد أن العصبية القبلية هى الخلفية القابعة وراء تلك الممارسات الظالمة، حيث إن الكرامة الفردية لم تكن لها وجود إلا فى ظل الانتماء القبلى، وهو ما يعنى أن العشيرة الأكثر قوة حتى داخل القبيلة الواحدة، يمكنها أن تمارس سلطانها وسيطرتها على العشائر الأقل مكانة. ويكتسب الفرد مكانته من انتمائه العصبى إلى القبيلة. ولهذا فإنه إذا حدث نزاع بين قبيلتين، وقتل أحد أفراد القبيلتين المتناحرتين، فإن القصاص لا يتم على مستوى المرتكب لجريمة القتال، بل تخرج القبيلة كلها لتحارب القبيلة الأخرى، وقد تطول الحروب لسنوات[4].

فى هذا السياق ظهرت الدعوة الإسلامية التى أعلت من كرامة الإنسان بوصفه عبد الله وليس عبدا لأى قوة أو أى مخلوق آخر. أصبح الله وهو القوة الغيبية غير المرئية محل التسليم والإيمان، ومركز الوجود والفعل، وحل الخلوص لله محل العصبية أو الولاء المطلق للقبيلة، ودعم هذا الإخلاص إيمانًا من نوع آخر بالحساب ثوابا أو عقابا فى الحياة الآخرة، فاكتسبت الحياة الأولى أى تلك الحياة التى يعيشها المسلم فى هذه الدنيا قيمتها من إدراك أنها جزء من حياة ممتدة، وهو ما ساعد على تغلب الخوف من الموت، أو السادة الذين يملكون القوة فى هذا العالم، فأصبحت مواجهتهم أمرا أكثر سهولة ويسرا[5].

ومن الناحية الأخلاقية فقد أصبح واضحا أن تكديس الأموال واستغلال الآخرين والتحكم فيهم يتعارض مع «الخلوص»، أو «التسليم».

ولأن إيقاظ الوعى بالكرامة الإنسانية شكل أساسا فى العقيدة الإسلامية، فإن العبيد بدأوا يشعرون بضرورة الذود عن كرامتهم، ويحاولون أن ينالوا حريتهم. وأكسبت تلك العقيدة الوليدة قوة للنساء اللائى بدأن يعلن إسلامهن متحديات رجال أسرتهن وعشيرتهن.

دلالات المواجهة

أدرك قادة قريش هذه التغيرات الجذرية وما سيتمخض عنها من إضعاف لنفوذهم، بل والتأثير على اقتصاديات مكة، حيث إن إعلان وجود إله واحد، سيترتب عليه إزاحة الأصنام المعبرة عن الآلهة الأخرى من حول الكعبة، وهو ما سيؤثر على حركة الحجيج وإقبالهم على مكة، وهو ما سيؤثر بالتالى على مصالحهم الاقتصادية وتميزهم الاجتماعى.

وعندما بدأ عدد المسلمين فى التزايد، بدأ سادة قريش فى مقاومة هذه الدعوة سلميا أولا باللجوء إلى عم الرسول الذى أعلن حمايته له على الرغم من اختلافه الفكرى معه. ولم يأخذ الاختلاف الحدة والعداوة الشديدة إلا بعد أن تيقنت قريش أن الإسلام سينتشر انتشار النار فى الهشيم خاصة بين المستضعفين، وهو ما سيؤدى إلى إضعاف نفوذ السادة والأغنياء.

لقد ربطت تلك الدعوة بشكل محكم بين العبودية لله، وبين التحرر من الخوف، والقدرة على مقاومة الظلم، ولم تأخذ هذه المقاومة أى شكل أو أسلوب فيه عنف، بل على العكس، لقد أخذت شكل الرفض للواقع والمطالبة بالحق بطرق سلمية للغاية، حتى أن السادة أخذوا يستخدمون قوتهم وسطوتهم فى تعذيب المستضعفين من العبيد، ومع ذلك لم يقتل مسلم كافرا.

وعلى الرغم من أن الدعوة الإسلامية لم تتوجه فى بدء نشأتها إلى سيادة سياسية على أهل مكة، إلا انها كان من المحتم أن تقود إلى تغير اجتماعى واسع النطاق. وكانت محاولة سادة قريش للوصول إلى حل سلمى مع الرسول هى محاولة لحصر دعوة الرسول فى إطارها الخاص الفردى، ومقاومة آثارها الاجتماعية وذلك بالكف عن مساندة الضعفاء، أو تشجيعهم على التجرؤ على سادتهم. كانوا مستعدين أن يعطوا له أى قدر من المال، أو حتى يسودوه عليهم إذا أراد. لقد كان هذا الاستجداء مبنيا على الدفاع عن المنافع الاقتصادية التى ستتأثر بالدعوة الإسلامية، وبالمكانة الاجتماعية التى ستضعف نتيجة لانتشار دين يكون فيه الجميع سواسية أمام الله. وهو ما أشارت إليه كتب السيرة. وكان للرسول موقف واضح، وهو أنه لا مساومة فى المبادئ الأساسية للإسلام، أى أنه أصر على رفض الاستغلال والقهر.

ويجب التنويه هنا أنه على الرغم من أن الحديث بدا وكأنه فى العقيدة، أى انه طلب من سادة قريش أن يدعهم الرسول وشأنهم فى عبادة الآلهة، إلا أن هذه اللغة الظاهرة تحوى فى داخلها دلالات أخرى لم ينتبه إليها الكثيرون[6] فما أراده القرشيون ليس اعترافا من الرسول بأحقيتهم فى عبادة الآلهة، ولكن السماح لهم بأن يستمروا فى قهرهم وظلمهم للمستضعفين، أى نصب أنفسهم آلهة على خلق الله، وهو ما يتعارض مع الدعوة الإسلامية فى جوهرها.

وما يؤكد ذلك أن الرسول لم يكن فى مركز قوة بأى صورة، بل كان فى بداية دعوته، وهذا الاستجداء من أهل قريش، ليس استجداء الضعفاء، ولكنه تحسب لما ستنتجه هذه الدعوة من تغير كان قد بدأت تظهر بوادره، فطلبهم أن يتركهم وشأنهم فى عبادة آلهتهم كما يشاءون، هو أن يؤمن على ما يفعلون فى كل المجالات المتعلقة بهذه العقيدة دون أن يعترض عليها. ومن ناحية الرسول فإنه كان ينهى جدله معهم دائما إذا ما رفضوا مقولته بأن الله يحكم بينه وبينهم، أو لكم دينكم ولى دين.

وبإعادة قراءة هذا الحدث يمكن أن نخلص إلى الآتى:

١- أن الرسول لم يكن يسعى لسيادة أو حكم، ثروة أو مال والا لقبل هذا العرض المغرى.

٢- أن الرسول احتفظ بهدوئه فى خطابه معهم، ولم تصدر أى كلمة منه تسفه من عقائدهم

٣. أنه لم يسألهم أن يتحولوا إلى دينه عن طريق التهديد أو حتى الزجر.

إذا عبرنا عن هذه النتائج بلغة حقوق الإنسان، محاولين ربطها بأحداث أخرى تؤيدها وتفسرها سنصل إلى الآتى:



لأن إيقاظ الوعى بالكرامة الإنسانية شكل أساسا فى العقيدة الإسلامية، فإن العبيد بدأوا يشعرون بضرورة الذود عن كرامتهم، ويحاولون أن ينالوا حريتهم





لا للحكومة الشمولية

يمكننا أن نتبين بوضوح أن الإسلام توجه إلى تغيير الواقع الاجتماعى، ولكن ليس عن طريق اعتلاء السلطة بل بدءا من القاعدة. فلا شك أن تأسيس العقيدة سبق تقنين الشريعة، ولم تكن الشريعة لتتواجد إلا عندما تواجد مجتمع مسلم، فلقد جاءت الشريعة استجابة لاحتياجات واقعية، وليس قفزا فوق الواقع. وهذا يتطلب قراءة جديدة أيضا للشريعة. ما نريد أن نؤكده هنا أنه لا يوجد ما يسمى دولة إسلامية، ولكن هناك دولة يدين أهلها بالدين الإسلامى، ويتبعون شريعة الإسلام. والفرق بين الكلمتين واسع إلى أقصى درجة.

فالتسمية الأولى تفترض أن هناك قراءة واحدة للإسلام، وبالتالى تعرف الدولة بالدين، ويعرف الدين أيضا بالدولة، وهو ما أفرز عديدا من النظم الذى يدعى كل منها أنه إسلامى دون أن يوحد بينهم إلا القول بأنهم جميعا يتبعون الشريعة الإسلامية، ويجمعهم قهر الإنسان، والأمثلة عديدة قديما وحديثا ومن داخل هذه النظم نفسها، سنتبين أن القدرة على الاختلاف تكاد تكون معدومة، حيث إن القول الخطابى بأنه لا ينبغى لأحد أن يتعدى حدود الله، جعل كل تفسير لإقامة العدل تفسيرا اكتسب قيمة مطلقة بحيث لا يمكن مناقشته.

ولم تكن مرحلة المدينة مرحلة استراتيجية بغية كسب قوة، ثم الهجوم بعد ذلك، فعلينا أن نتذكر أن الهجرة إلى المدينة لم تكن محل تفكير أو تخطيط في هذه الفترة الزمنية، وأن فكرة الهجرة لم تبدأ فى التبلور إلا عندما تيقن الرسول أن حياته قد أصبحت فى خطر، وأنه لا سبيل إلى الاستمرار فى قريش، وإلا هلك هو ومتابعوه. ولو أن قبيلتى الأوس والخزرج اختارا عبد الله بن أبى بن سلول الذى كان مرشحا لرئاسة القوم فى المدينة لما اتخذ الرسول هذا الموقع الذى جمع فيه بين نبوة دينية، وبين رئاسة زمنية.

القراءة الأنثروبولوجية توضح لنا أن هذا الجمع بين القيادة الدينية والدنيوية فى شخص الرسول كان حدثا تاريخيا له ظروفه الخاصة، وكانت هناك بدائل لو حدثت لتغيرت الرؤية تماما.

وأما الالتباس فهو نتاج لإغفال الظروف التى أدت إليه، كما أنه نتاج إهمال مغزى الفترة المكية للدعوة أيضا.

حق الاختلاف:

إن حق الاختلاف تأكد فيما بعد فى مرحلة إنشاء الدولة فى المدينة التى كانت تغص بمذاهب متعددة، فكان اليهود أكثر القبائل حضورا، وكان هناك أفراد قلائل من المسيحيين، وكان هناك وثنيون أيضا. واستمرت الدعوة الإسلامية فى تهذيب الأخلاق بتغيير رؤية الأفراد لأنفسهم وللعالم ولانتماءاتهم، وللقيم التى كانت متجمدة، تحجب عنهم رؤية أبعاد أخرى للحياة وللتعاملات الإنسانية. ولم يحدث أن أجبر أى فرد فى مجتمع المدينة على اعتناق الإسلام، بل تم التحول بشكل تدريجى. وحاول الرسول أن يستميل إليه اليهود، فكان يشاركهم أعيادهم، ويعظم من نبيهم، وذخر القرآن بالآيات والسور التى تتحدث عن موسى ورسالته، واصطفاء بنى إسرائيل بالرسل والأنبياء. ونصت الوثيقة الأولى التى انعقدت بين المسلمين واليهود فى المدينة على أن المسلمين واليهود أمة يمكن أيضا أن نلمح كيف تصرف الرسول عند فتح مكة، فلقد أطلق سراح كل من اتخذوا منه موقف عداء بالأمس، وكادوا أن يقتلوه، دون أن يطلب منهم أن يدخلوا الإسلام، فدخولهم الإسلام لم يكن خوفا من بطش المسلمين، ولكن اختيارا بعد أن أصبح المسلمون قوة، أى أن هؤلاء الطلقاء دخلوا الإسلام بنفس العقلية القبلية القديمة وعندما دخل الرسول المدينة فإنه أعلن أن كل التميزات العصبية والعرقية قد انتهت. لقد كانت دعوة التوحيد إذن هى الدعوة إلى الحرية والمساواة والعدل.

السياسات ذات التوجه الدينى:

يثير تطبيق الشريعة جدلا واسعا فى العالم الإسلامى. وينظر الفكر الغربى إلى الشريعة باعتبارها معوقا للعالم الإسلامى عن الانخراط فى ثقافة العصر. كما أن تطبيق الشريعة بين الأقليات المسلمة فى البلاد غير المسلمة التى تطبق قوانين وضعية تثير العديد من المشكلات أيضا حيث تتناقض مع مبادئ تلك الدول بشكل جذرى.

علينا أن نفرق بين مستويين فى رؤية الشريعة، المستوى الأول هو النظر إليها من حيث الهدف، والمستوى الثانى من حيث التطبيق. سنجد أن الشريعة باعتبارها الطريق لتنظيم المجتمع الإسلامى الذى نشأ فى المدينة تحتوى على مبادئ عامة تتناسب مع الغاية الكلية للرسالة الإسلامية نفسها. إذ أن تلك الرسالة جعلت من العمل عبادة، وخلقت صياغة جديدة فى علاقات الناس بعضهم البعض. إذ أصبح الفرد مسئولا عن أفعاله، وأصبح كيانه الفردى ذا أهمية خاصة، وليست انتماءاته القبلية أو العشائرية. وأصبح الهدف الكلى للشريعة أن تحافظ على حرية الإنسان، لأنها هى أساس العبودية لله. والحفاظ على الحرية لا يتم إلا بتنظيم اجتماعى يتوخى العدل ويرفع الظلم. ومن هنا جاء القول أن الشريعة والعقيدة لا يفترقان، بل أن الشريعة هى التطبيق العملى للعقيدة. وعلى الرغم من أن هذه المقولة تؤكد الهدف من نزول التشريع وحيا، إلا أن استخدامها قد انحرف فى كثير من الأحيان عن الغرض منها. إذ أنه تم النظر إلى الأحكام والحدود بصورة تعسفية، واستخدمت لتخدم أغراض القهر والترهيب بدلا من نشر العدل والحرية. ويكفى النظر إلى قوانين الأحوال الشخصية فى العديد من البلاد الإسلامية الذى استخدم لقهر المرأة.

إذا وضع المشرع الهدف الكلى من الشريعة نصب عينيه، لأمكن تطوير الصيغات القانونية لتتناسب مع تلك الأهداف. لقد كانت هذه الرؤية واضحة فى مستهل قيام الدولة الإسلامية حتى بعد وفاة الرسول. فلقد منع عمر بن الخطاب حد السرقة أثناء المجاعات، وقرر على بن أبى طالب إلغاء توزيع الغنائم على الجيوش، وهو ما يتعارض مع النص القرآنى فى قراءته المباشرة.

تسييس الإسلام

إن القول أن الإسلام كان له نتائجه الاجتماعية لا يعنى أنه يبغى استخدام السلطة من أجل فرض هذه التغيرات، كما أن القول أن رسول الإسلام قد لعب دورا سياسيا، هو تقرير لواقع تاريخى، ولكنه لا يعنى أن الحاكم السياسى لا بد أن يكون مصلحا دينيا، أو أن المصلح الدينى لا بد أن يتولى منصبا سياديا حاكما. إن هذا الخلط بين دور الحاكم السياسى، والمؤسسة الدينية ظل رابضا على تاريخ الأمة الإسلامية حتى ظهرت بعض الأفكار المغايرة مثل كتاب الشيخ على عبد الرازق عن أصول الحكم، والذى وصل فيه إلى رفض فكرة الخلاقة كأصل من الأصول فى الإسلام. وعلى الرغم من أن نشأة الدولة الحديثة فى العالم الإسلامى قد أصبحت واقعا بعد الاستعمار، وحركات التحرر، وسقوط الخلافة الإسلامية فى تركيا بعد ظهور المذهب الكمالى فى بداية القرن العشرين، إلا أن فكرة الخلافة نفسها ما زالت تمثل عند البعض أملا يود الرجوع إلى تحقيقه.

لقد كانت ريادة الرسول السياسية والدينية مبعثا

عندما دخل الرسول المدينة فإنه أعلن أن كل التميزات العصبية والعرقية قد انتهت. لقد كانت دعوة التوحيد إذن هى الدعوة إلى الحرية والمساواة والعدل

كتاب الزاوية



ديوان الطرب

سيد درويش

عودة العمال

يابوى يا ولد عمى   الحجنى يا بوى يا ولد عمى   يا بوى

هات البزابورت ويالّلا بينا ... يا إسماعيل لا الوجت يفوت
غربة إيه دى مصر أولا بينا ... بعدها ما بيحلا لنا الجوت
عهد الله وعهد الأنبيا ... ما نفوتهاش ولا بالنبوت
هى السمكة تفوت الميه ... دا إحنا من غير مصر نموت
لفينا لما استكفينا ... من جرجا لمالطه لميدراس
والله بركة اللى استعفينا ... وخلصنا من وجع الراس
كل بلد أفقر من التانيه ... وحياة سيدك أبو العباس
لولا انت يا مصرى فى الدنيا ... ما كنا نلاجى ولاد ناس
ست سنين فايتين أولادنا ... ودقنا المر فى أكل العيش
وادحنا راجعين لبلادنا ... لو حكمت نلبس فى الجيش
بعد ما كان الأفرنجى بيرمح ... والمصرى بيزحف بشويش
حبه فى حبه بجينا سجوريا ... وصاحبنا لا فيش ولا عليش
الله لو كانوا الأغنيا ... يتلموا ويمضوا لنا شيكات
والله تو ما عجدوا النيه ... تتفرج ع الفوريكات
وتعيش مصر ف عيشة هنية ... دوله وتحكم ممتلكات
مادام ف قلوبهم حنيه ... ع الفقرا تحل البركات

بديع خيرى

قد يكون أكبر التحديات التى تواجهها هذه الدعوة هى تحرير العقلية الإسلامية من جمودها الذى بنته عبر السنين نتيجة لعدم القدرة على قراءة الرسالة بحيوية فكرية وروحية

لهذا الخلط، وذلك لأن الخلفاء حتى أيام الراشدين منهم، كانوا يخلفون الرسول بمعنى أنهم يتولون المهام السياسية وأيضا يملكون من المعرفة الدينية ما يهيئهم للبت فى الأمور المتعلقة بالدين وكان المجتمع أكثر بساطة. ولكن هذه المرحلة التاريخية كان لها تأثيراتها الأيديولوجية التى تركت بصماتها على الفكر حتى وقتنا الراهن. ويكفى أن نرى النظم الشمولية التى نشأت باسم الإسلام، وكان أكثرها تشددا وقهرا لحقوق الإنسان نظام طالبان.

من ناحية أخرى يمكن اعتبار أن فتح مكة وما أعقبه من دخول أهل قريش إلى الإسلام كان بداية لاستخدام الإسلام كقوة سياسية. فعلى الرغم من أن الرسول لم يكن ليقهر أهل مكة على دخول الإسلام، إلا أن القوة العسكرية والكثرة العددية للمؤمنين الذين تزايدوا فى فترة الهجرة قد جعل أهل مكة يرتعشون رهبة ومهابة، فكان إسلام بعضهم استسلاما، ولكن ملأت العصبية قلوبهم كما كانوا من قبل. ويمكن ذكر أبى سفيان فى هذا الشأن حيث أنه همس إلى العباس عم النبى قائلا: «لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما اليوم»، ورد عليه العباس قائلا: إنها النبوة وليست الملك»، فقال له أبو سفيان«إن قلبى ما زال فى شك من هذا».

إن دخول الطلقاء الذين رأوا فى الإسلام قوة سياسية، أتاح لهم فرصة تحقيق أطماعهم من خلال الإسلام ذاته، فسرعان ما أتيح لمعاوية بن أبى سفيان الفرصة، عندما اتخذ منصب والى الشام إبان حكم الخليفة عثمان بن عفان، واستغل هذا المنصب فى تأليب أهل الشام على على بن أبى طالب بعد مقتل عثمان، وهو ما أدى إلى سلسلة من الحروب عرفت بالفتنة الكبرى. واتخذت تلك الحرب طابعا عصبيا مرة أخرى فبدت كما لو أنها معركة بين آل هاشم وآل أمية. لم يكن على بن أبى طالب يمثل الهاشميين بقدر ما كان يمثل مبادئ الإسلام بكل ما فيها من دفاع عن الحرية. وأما معاوية فقد كسب ما كان يسعى إليه بنو أمية من ملك.

وأدى هذا الصراع إلى نشوء الفرق الكلامية، من شيعة، وخوارج ومعتزلة. واتخذ الجدل بينهم طابعا دينيا، من حيث أن كل فرقة باتت تستخدم آيات من القرآن لتؤكد صحة دعواها. وقد أظهر مونتجمرى وات دهشته من أن الاختلاف السياسى أخذ ذلك الطابع الدينى، فكل فريق لم يكن يناقش الآخر منطقيا أو فكريا، بل دينيا الحكم بكتاب الله وسنة رسوله، كانت عبارة مشتركة يستخدمها الجميع لجذب أكبر عدد ممكن من المؤيدين.

إن ما قدمه فيكتور ترنر فى هذه الجزئية يشير إلى فاعلية الرموز الغامضة multivocality التى تستميل الآخرين حتى لو كانت اتجاهاتهم متباينة. لقد تعمد معاوية أن يستميل فريق على عندما دعا إلى تحكيم القرآن، فهو يعلم جيدا أن هذه الكلمة لها حساسية خاصة بالنسبة للمسلمين، ولكنها لم تكن تعنى عنده أكثر من شعار مرفوع سيؤدى بالضرورة إلى انقسام المسلمين المؤيدين لعلى، وهو ما حدث بالفعل، وخرج البعض من مؤيدى على عن الإجماع الذى كان يميزهم، وسموا حينئذ «خوارج»، وطور هؤلاء من فكرهم فيما بعد ليفسروا التطبيقات الإسلامية فى الحكم تفسيرا جديدا، فشاعت بينهم عبارة «لا حكم إلا لله»، وهى نفس العبارة التى تستخدمها أيضا الجماعات الإسلامية اليوم فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى، معلنة أن «الحاكمية لله». ومع ذلك فإن الخوارج ومؤيدى معاوية لم يكونوا على وفاق. لم يجمع الإجماع الأيديولوجى بينهم، ولم يخلق منهم حلفاء، بل استمر صراعهم.

وتمخض عن فكرة «لا حكم إلا لله» أن ولدت مدرسة الجبرية التى تتشابه فى مبادئها الأساسية مع الدهرية، ذلك أنها أيضا خلعت عن الإنسان قدراته الإبداعية، وقدراته فى الاختيار، وأكدت أن كل شىء «مكتوب» لا حيلة للإنسان فيه.

ولم يؤد هذا إلى القضاء كلية على



روح مقاومة الظلم، التى هى دعوة إسلامية خالصة، بل سنجد أن غيلان الدمشقى (المتوفى فى عام ٧٢٤م) الذى استمر فى دعوة الناس للمقاومة، موضحا لهم أنهم فى استسلامهم للظلم فإنهم يكونون ظالمين، وأنهم مسئولون أمام الله عما يقومون به. ولكن تم القبض عليه، وطبقت عليه كل أدوات العذاب البشعة إلى أن أسلم الروح.

إن التداعيات المترتبة على قراءة ستاتيكية للدعوة الإسلامية، وإسقاط عدد من المسلمات الثقافية خارج إطار فهم مضمون الدعوة العقائدى والاجتماعى، انتج على مدى التاريخ الإسلامى كيانات سياسية مارست القهر والظلم باسم الإسلام، ومازلنا إلى الوقت الراهن نقع فى تهديد قيام مثل هذه الكيانات التى تنتشر بين العامة عن طريق نشر وهم «إحياء الدين».

ختـــــام:

حاولت هذه المقالة أن تقرأ التاريخ مستخدمة المنهج التأويلى الأنثروبولوجى لاستخلاص الرسائل الخاصة بحقوق الإنسان. وتختلف هذه الدراسة عن الدراسات التى حاولت أن تتحدث عن حقوق الإنسان والإسلام فى أنها لم تتخذ موقفا دفاعيا عن الإسلام ابتداءً، ولم تعتمد على تدعيم الفكرة الأيديولوجية بآيات قرآنية، وإنما اتبعت منهجا تأويليا فى قراءة الأحداث، وبنائيا فى قراءة النصوص، واعتمدت فى هذه القراءة التأويلية على معنى الفعل والقول فى ظل سياقه التاريخى والثقافى، ليس بهدف الزعم أنه ينتسب إلى الماضى، ولكن من أجل استنباط رسائل إنسانية، وإعادة صياغتها فى لغة متآلفة مع العصر الذى نعيشه، فلا تكون هذه الصياغة تعسفية مثلما حاول نصر حامد أبو زيد، وليس اختزالية كما يحاول بعض العلمانيين من حيث حصر كل ما جاءت به الشريعة فى إطار تاريخى، وهجرها إلى القانون الوضعى. وإنما حاولت هذه الورقة أن تعيد للعقل الإسلامى حيويته دون أن تغربه، ودون أن تخرجه عن إطاره المعرفى.

ولهذا فإن دعوة الرسول إلى الحرية هى دعوة فى الحاضر وليست فى الماضى. وقد يكون أكبر التحديات التى تواجهها هذه الدعوة هى تحرير العقلية الإسلامية من جمودها الذى بنته عبر السنين نتيجة لعدم القدرة على قراءة الرسالة بحيوية فكرية وروحية. والتصميم على أن الحقيقة لها جانب واحد، والخلط بين المعرفة كعملية مستمرة، وبين الحقيقة وهى أمر مطلق لا سبيل إلى التأكد من الوصول إلى كل جوانبه. فحق الاختلاف بين المسلمين يجب أن يحترم، والتعددية الفكرية فى قراءة النص يجب أن تصان، والخروج من أسر الماضى يجب أن يكون حركة من أجل الحرية التى نادى بها رسول الإسلام. وهى الحق الأول للإنسان الذى بدونه لن يكون الإنسان إنسانا. ■

هـــوامـــش:

(١) Clifford Geertz, The Interpretations of Culture, Basic Book.1973.

(2) Karen Armstrong, History of God, New York: Ballantine Books, 1993, p 136-137.

(3) Toshihiko Izutsu, The Structure of the Ethical terms in the Koran: A Study in Semanites Tokyo: Mita, Siba Minto-Ku, 1959

(4) Karen Armstrong, Muhammad: A Biography of the Prophet, New York, Happer Collins, 1992

(٥) من السخرية أن نفس الفكرة استخدمت أيضا من أجل قهر المستضعفين فيما بعد حيث أنهم سكتوا عن الذل انتظارا للجزاء فى الآخرة، واستخدمت أيضا لتشجيع هؤلاء الذين يفجرون أنفسهم فى عمليات انتحارية، بغية محاربة من يتخذونهم أعداء. وفى كلتا الحالتين سنجد أن الحياة الآخرة وامتدادها استخدمت بطريقة مختلفة لخدمة أيديولوجيات منحرفة عن الأساس الذى خرجت منه..

(٦) مثل فاطمة مرنيسى التى رأت أن الإسلام لا يقبل التعددية: Fatima Mernissi, Islam and Democracy, trans. Mary Jo Lakeland Addison Wesley, 1992) 99

كتاب الزاوية



ديوان الطرب

سيد درويش

الفلاحة العاملة

يا حلاوة أم إسماعيل فى وسط عيالها
زى النجفة عم بتلعلط فى جمالها
تزرع وتجلع فى الغيط ويا راجلها
وتعاود ع البيت لعجينها وغسيلها

تحلب جاموستها ... حلاوة كتاكيتها
ع الملوخية يا ختى ... عليها وعلى بطتها
بنات البندر دول آه ... بستوع آن ديه تروّاه
يكفانا اللى شفناه ... من فات قديمه تاه
زى آنا درت كتير ... وسنه فى سنه ولاد الحمير

لا سابولى بسيت ولا غيط
يا حلاوة أم إسماعيل فى وسط عيالها
زى النجفة عم بتلعلط فى جمالها
تزرع وتجلع فى الغيط ويا راجلها
وتعاود ع البيت لعجينها وغسيلها

بديع خيرى

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

رؤية الرحالة الأوروبيين لمصر

إلهام ذهنى
القاهرة: دار الشروق. ٢٠٠٥. ١٨٢صفحة



ظهرت النزعة الاستعمارية للرحالة الأوروبيين مبكرًا منذ القرن السادس عشر وخصوصاً بين الفرنسيين الذين حرصوا على تكوين الأحلاف لغزو مصر بهدف إحياء الأمجاد الصليبية القديمة، ثم تعاظمت فكرة غزو مصر فى القرن الثامن عشر بعد هزيمة فرنسا فى حرب السنوات السبع وضياع مستعمراتها فى الهند والعالم الجديد.

وبدأ فى القرن الثامن عشر ظهور ما يمكن أن نطلق عليه الرحالة الجواسيس الذين اهتموا برصد أحوال مصر فى كافة النواحى، وقدموا خدمات تفصيلية للقوات الغازية أعانتهم كثيرًا فى إحكام السيطرة على البلاد، وهو ما يبدو بصورة جلية فى الحملة الفرنسية ومجموعات العلماء والمستكشفين الذين صاحبوها، وهى نفس الخدمة التى أسداها الرحالة البريطانيون لقواتهم التى كانت لديها خرائط تفصيلية عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية قبل أن يفكروا فى غزوها.

ومع بدايات القرن التاسع عشر تغيرت الصورة نسبيًا وغلبت النزعة الإنسانية على كتابات الرحالة الأوروبيين، خصوصًا إذا كان الأمر يتعلق بالشعب المصرى.

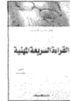
وتشير المؤلفة إلى تأثر الرحالة الأوروبيين بالتاريخ المصرى والتاريخ الإسلامى والأساطير الشائعة فاستلهم عديد منهم هذه التصورات فى كتابة أعمال أدبية روائية ومسرحية، ناهيك عن آلاف اللوحات والأعمال الفنية التى عكست واقع الحياة فى مصر فى تلك الفترة، والتى تنوعت بين رصد الحياة الاجتماعية والواقع اليومى، ورسومات المعابد والآثار الفرعونية والإسلامية وفنون العمارة.

وقد تنقل الرحالة الأوروبيون بين ربوع مصر يجمعون المعلومات ويسجلون الوقائع ويرصدون حياة الناس، وشكلوا خلفية واسعة لما بات يعرف بالاستشراق بصرف النظر عن أهدافه ومراميه.

■

القراءة السريعة المهنية

جيرهارد هورنر
تعريب: محمد جديد
الرياض: مكتبة العبيكان. ٢٠٠٥. ١٤٣صفحة



إذا كان من الممكن، قبل مائتين وخمسين عاماً، بالقياس إلى امرئ من أنصاف المثقفين، أن يحيط بكامل طيف المعلومات بنظرة شاملة فإن هذا يمثل اليوم، حتى بالقياس إلى أكبر العبقريات، مسألة تضاهى عملية تربيع الدائرة، معضلة تستعصى على الحل! ومن أجل ذلك لا ينبغى لك، أبداً، أن تختبر نفسك بالتصدى لهذا.

والحق أن الثقافة والميزان يعدان، من قبل ومن بعد، من الشروط الأولية الحاسمة للنجاح المهنى، والنجاح فى الحياة الخاصة، وحتى بعد خمسمائة وخمسين عاماً من اختراع يوحنا جوتنبرج للطباعة التى فتح بها للناس مغاليق المعلومات على النطاق العام، ومازال يصح قول المثل: المعرفة قوة.

ولكن أصبح ما هو أهم كثيرًا من أن نراكم المعلومات ونخزنها، فى مجتمع المعلومات الحديث، الإجابة عن مسائل أخرى:

كيف ومتى تقرأ؟

كيف تميز بين المعلومات المهمة وغير المهمة؟

كيف تنشئ من المعلومات المختلفة روابط فيما بينها؟

■

كلنا فداك.. البحرين والقضية الفلسطينية ١٩١٧ ـ ١٩٤٨

خالد البسام
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ٢٠٠٥. ٢٣٨ صفحة



يرصد المؤلف العلاقة بين البحرين والقضية الفلسطينية منذ وعد بلفور عام ١٩١٧ وحتى الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين فى ١٩٤٨، ونلاحظ أنه منذ البداية، أى منذ وعد بلفور ظهر الوعى البحرينى بالقضية الفلسطينية، وقد ظهر ذلك فى شكل تبرعات للشعب الفلسطينى استجابة لنداءات المجلس الأعلى الإسلامى فى فلسطين ولدعم ترميمات المسجد الأقصى بالقدس، ومع عقد الثلاثينيات من القرن الماضى اختلفت الصورة مع ظهور اللؤلؤ بكميات تجارية وكذلك دخول البحرين عصر الاكتشافات البترولية، حيث أن أول حقولها اكتشف عام ١٩٣٢، وقد ساهم ذلك فى تنامى طبقة المتعلمين والمثقفين البحرينيين وإنشاء أندية أدبية وثقافية ورياضية، ونمو الوعى الجماهيرى بالقضايا السياسية وقضية فلسطين بالذات، وتشكلت لجان لرعاية أيتام فلسطين وجمع التبرعات لهم، شارك فيها الرجال والنساء، وتدخل البريطانيون وعقدت محاكمات للمتهمين فى أحداث الشغب ضد اليهود، وتعرض المتظاهرون للسجن فترات مختلفة بتهم السلب والنهب وتكدير الأمن العام، لكن ذلك لم يؤد إلا إلى مزيد من النضال والمقاومة ضد اليهود والمخططات الإنجليزية لزرع إسرائيل فى المنطقة العربية.

■

الأصول الديمقراطية والإصلاح السياسى

جمال على زهران
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية. ٢٠٠٥. ١٩٠صفحة



ثمة إجماع بين القوى السياسية المصرية على اختلاف ألوان طيفها، على مسألتين مهمتين: أولهما أن الديمقراطية والإصلاح السياسى هو الذى سيقود طائرة الإصلاح على كل المستويات، وثانيهما يرتبط بالموقف الوطنى الرافض للتدخل الأجنبى ـ الأمريكى خصوصًا ـ فى شئون البلاد بزعم الإصلاح.

المؤلف بحكم التخصص، يركز بشكل أساسى على الأبعاد السياسية لعملية الإصلاح، بادئًا بتصورات نظرية عن الديمقراطية فى أصولها التاريخية ثم عن جدلية العلاقة بين الديمقراطية والتنمية فى مصر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وينتهى إلى أن إصلاحًا اقتصاديًا فى مصر دون إصلاح سياسى يعنى السير على قدم واحدة، أى أنه لا مناص من توازى الإصلاح السياسى مع الاقتصادى، ويقترح فى الختام مشروعًا للإصلاح تقوم ركائزه على عدة نقاط منها: إجراء تعديلات دستورية عاجلة تتضمن انتخاب رئيس الجمهورية بين أكثر من مرشح وتحديد مدة الرئيس بخمس سنوات قابلة للتجديد مرة واحدة، وتخلى الرئيس الفائز عن عضويته الحزبية، وتقليص سلطات رئيس الجمهورية وإجراء انتخابات نزيهة يشرف عليها القضاء إشرافًا كاملاً، وإلغاء قانون الطوارئ، وقانون الأحزاب السياسية الحالى، وتحرير المجتمع المدنى ليتسنى له أن ينهض ويمارس دوره بفاعلية.

■

الممثل والحرباء

سامى صلاح
القاهرة: أكاديمية الفنون. ٢٠٠٥. ٣١٥صفحة



نمارس كلنا تقريبًا التمثيل، يوميًا وفى كل وقت، ونرتدى عشرات الأقنعة ونلعب عشرات الأدوار، وهو ما قد يعنى أن التمثيل هو أكثر الفنون بساطة، بما أنه يمارس بشكل اعتيادى، لكن التمثيل أيضًا هو أكثر الفنون تعقيدًا كما يراه المؤلف، لأنه بحسب قوله يتضمن كل خلية كل عضو فى الجنس البشرى.

عن الممثل وقت التمثيل ومجالات تدريب الممثل وتدريسه والتمثيل الصامت وسحر التمثيل، تدور فصول الكتاب التسعة.

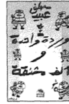
والسؤال البديهى الذى يطرح فى دراسات من هذا النوع يتعلق بهوية الممثل، ويجيب المؤلف بأن الممثل هو أشبه بالساحر الذى يبنى صورًا إيهامية خادعة بغرض أن يوحى بواقع ما، كما أنه يعيد ترتيب الأشياء وتنظيم مكوناتها لكى يجعل المتفرج يصدق أن الممثل شخص آخر، وفى سبيل تحقيق هدفه، فإن للممثل أدوات ثلاث هى جسده وصوته وشخصيته، وأما القدرات التى يجب أن تتوفر فيه، فأولها القدرة على تحليل الشخصية التى يمثلها، دوافعها وعلاقاتها بالشخصيات الأخرى المحيطة، ثم القدرة على تفسير أفعال الشخصية وتفسير

الأحداث، ولماذا اتخذت هذا الجانب دون غيره، وثالثها القدرة على تشكيل الشخصية، أى وضعها فى صورة بصرية ومرئية، ثم قدرته على التجسيد والعرض، أى توصيل المعنى الذى رآه فى الشخصية للجمهور، وأخيراً القدرة على التكرار، أى تكرار دوره عشرات المرات بالحيوية ذاتها ودون أن يصيبه أدنى قدر من الملل.

وردة واحدة وألف مشنقة

مصطفى عبيد

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٥، ٩٢ صفحة



كما هو واضح من عنوان الديوان وغلافه، فإن قصائده من الشعر السياسى، والشاعر من أبناء هذا الجيل العربى الشاب، المسحوق تحت أحذية العسكر وسياط الاستبداد، المدهونة أحلامه بإيماءة رضا من حكام اعتلوا العرش قبل عقود، ولن يفارقوه إلا إلى اللحود.

قصائد الديوان فى مجملها تدور فى هذا المعنى، وتتلمس طاقات ضوء فى نهايات النفق، ربما يأتى الصبح فعلاً، وربما بقيت الأمنيات خيالات شاعر، ليس أكثر.

من أجواء الديوان:

ووقفت بين الناس مدهوشاً ومفكراً/ هذا معاوية يولى ابنه/ والكل يشكر/ أعلنت عصيانى ولم أحمل سوى/ قلم ودفتر/ وكتبت عن هذا البلد/ ووالد وما ولد/ وسكبت حزنى والكمد/ فى بيت شعر ليس يقهر/ شعب تجهل من جديد/ يأتى معاوية ويخلفه يزيد/ وشعوب أهل الأرض تسخر.

الاستبداد فى نظم الحكم العربية المعاصرة

تحرير: على خليفة الكوارى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ٥٧١ صفحة



يضم الكتاب الدراسات والمداخلات الخاصة باللقاء السنوى الرابع عشر لمشروع دراسات الديمقراطية فى البلدان العربية.

ويهدف إلى تنمية فهم مشترك لجذور الاستبداد ومصادره الدينية والحداثية، ومسوغاته، وآلياته، وسبل تفكيكه، والعمل على تعطيل آليات إعادة إنتاجه فى السياسة العربية. وقد بذلت فيه جهوداً لكشف الوجه الباطنى للاستبداد والتسلط، وكشف أساليب تجديد الاستبداد فى الحياة السياسية تحت لافتة «الديمقراطية» الشكلية.

ويؤكد على أن هذه الحالة المستدامة والمتجددة من الاستبداد تتطلب وقفة نقدية ذاتية متأنية من قبل كل تيار وقوة سياسية أهلية عربية واضعة نفسها أولاً وبقية التيارات تحت المجهر قبل أن تضع تحته أنظمة الحكم وامتداداتها الخارجية.

المقالة الوجدانية فى نثر أدباء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

د. محمد زغينة

الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ١٩٦ صفحة



المتصفح للأدب الجزائرى المنشور فى فترة الاستعمار يشعر بمدى إيمان الكاتب بالحرف العربى والتصور الإسلامى وبدقة إحساسه ورهافة تصوره. فى هذا الوقت كانت الكتابة ضربا من النضال لدى الكتاب الجزائريين نظرا لوضعهم السياسى. وظل نثرهم رغم اقترابه من الرومانسية يرفض بشدة كل ما هو غربى ولو كان فنا وجمالا، لأن الصراع الأيديولوجى الحضارى فرض نفسه على الساحة الأدبية. ومن جهة أخرى كان هؤلاء الكتاب أصحاب رسالة تحررية وقد أخذوا القارئ فى الحسبان بكل فعالية، بل إن الجرائد التى نشرت هذه المقالات كانت تشترط نهجا معينا وخطا وطنيا لا يمكن لصاحب المقال أن يحيد عنه.

أم درمان تأتى فى قطار الثامنة

كمال الجزولى

القاهرة: دار العلوم، ٢٠٠٥، ٢٩٨صفحة



صوت مميز من أصوات الشعر السودانى، تشتغل قصائده على الهم الإنسانى عموماً، لكنها لا تنسى ودائماً الهم العربى الذى يضم السودان وكافة الدول العربية، وجميعها تشترك فى قدر لا يستهان به من أشكال المعاناة، وخصوصاً تلك التى تمس حقوق الإنسان السياسية وحاجاته الروحية والمادية.

من أجواء الديوان:

بالسياط/ وبالألسن الحداد كالسياط/ وبالقاضى المهيب والشرطى والسجان/ رأيتها/ الدولة/ تركض خلف نشال صغير لتحفظ الأمان/ وخلف صبية صأوا/ كما القرود/ كرا وفرا/ فى محطة الوقود/ بنشق يجود العامل الليلى.. ربما/ أو لا يجود/ وخلف باعة غب تقافزوا/ فى زحمة السوق الكبير.. كالجرذان.

محمد لطفى جمعة بيوجرافيا وببليوجرافيا

أحمد حسين الطماوى

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٥، ٣٢٢صفحة



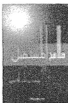
لا يبدو هذا المفكر المرموق معروفا لدى كثيرين، على الرغم من أنه مارس العمل العام باكراً حين عمل فى جريدة اللواء التى أنشأها الزعيم مصطفى كامل قبل حصوله على شهادة الثانوية فى العام ١٩٠٧، وقد طرد من مدرسة الحقوق لإلقائه خطبة بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة مصطفى كامل فى مارس ١٩٠٨، ما اضطره إلى أن يشد الرحال إلى فرنسا ويلتحق بكلية الحقوق فى مدينة ليون، ليبدأ منعطفاً مهماً فى حياته.

المؤلف يتابع سيرته ومؤلفاته التى تتنوع بين مجموعات قصصية وروايات وترجمات ودراسات فكرية وأدبية، والعمل بيوجرافى وببليوجرافى، يرصد ما كتبه جمعة وما كتبه عنه.

ملامح المستقبل

محمد بن حامد الأحمرى

الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٥، ٣١٨ صفحة



بعد أن أصبحت قضية الإسلام هى قضية العالم، يكاد يتشكل فى مجالات كثيرة واقع إسلامى جديد، وحسب احد المراقبين لمسيرة الإسلام فى العصر الحديث: «ان من بين جميع الحركات الكبرى التى هزت الشرق الأوسط فى آخر قرن ونصف كانت الحركات الإسلامية وحدها أصيلة فى تمثيلها لمطامح أهل المنطقة وهى تنبع من تراب المنطقة وتعبر عن مشاعر الكتل الجماهيرية المسحوقة».

تصويب واعتذار وشكر

تعتذر «وجهات نظر» لقرائها الكرام عن خطأ ورد فى هذا الباب العدد الماضى نتج عنه خلط بين الدكتور عبد الوهاب عزام أستاذ أساتذة اللغات الفارسية والتركية والأوردية وبين عمه عبد الرحمن باشا عزام أول أمين عام للجامعة العربية. وتشكر المجلة كل من نبهها إلى هذا الخطأ وخاصة الوزير أحمد ماهر والسفير حمدى عزام والكاتب الصحفى المغربى عبد القادر الإدريسى.

وصحيح الأمر ـ حسب ما تفضل به السيد الإدريسى تفصيلاً وتوثيقاً ـ أن الدكتور عبد الوهاب عزام، لم يكن (رئيساً) لجامعة الدول العربية، وإنما الذى كان أميناً عاماً (وليس رئيساً) هو عبد الرحمن عزام باشا، المجاهد الوطنى والسياسى المصرى البارز خلال النصف الأول من القرن العشرين. أما الدكتور عبد الوهاب عزام فلقد كان عميداً لكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة اليوم)، ومؤسساً لقسم اللغات الشرقية بها، وله إنتاج أدبى غزير، وترجمات من الفارسية إلى العربية فى الذروة من الإبداع والاتقان.

ويذكر أن الرجلين: عبد الرحمن وعبد الوهاب، قد ولدا فى عام واحد: ١٨٩٣؛ فعبد الرحمن هو: ابن حسن بن سالم بن عزام، أما عبد الوهاب فهو: ابن محمد بن حسن بن سالم. وهكذا يكون عبد الرحمن عزام باشا عم الدكتور عبد الوهاب عزام.

فالزمن القادم يوحي بصعود أقوى لدور الإسلام في مستقبل البشرية».

من هذا المنطلق يكشف الكتاب عن ملامح العصر الإسلامي القادم. فالدعاية الكبيرة ضد الإسلام والمسلمين، وكل حملات التغريب في العالم العربي والإسلامي واجهت فشلا ذريعا. وتحولت ظاهرة الفضائيات التي بدأت كما لو أنها غزو إعلامي وثقافي إلى أداة عربية وإسلامية لها أثر كبير في إشاعة الثقافة الإسلامية وتوثيق الصلة بين المسلمين ودينهم. كما ساهمت في زيادة وعي الناس وجعلهم يعيشون قضاياهم اليومية بفهم وتعاطف كبيرين، خاصة بعد الشك في المعلومات التي توفرها الوسائل الغربية عموما والأمريكية خصوصا.

من جانب آخر يفسر المؤلف أسباب تراجع وانكسار بعض التجارب الإسلامية بأنه كان أمرا مفيدا ومكون مستقبلي مهم، لأنه فتح الباب أمام التيار المعتدل. فالتراجع لدى طالبان مثلا كان حاجة إلى أن تعيد النظر في نمط تدينها، وطريقة تعاملها مع العالم. ولقد كان التراجع في عهد أربكان وخسارة فكرته على المدى القصير بداية لمرحلة أكثر وعيا، تلاها إقدام مبدع وجولة أذكى برجال أشب عقلا وبدنا. وكان غزو بغداد صورة مؤلمة لتراجع بلد مهم. لكنه موقف مؤقت رغم كونه مكلفا للأمة ولكنه مشغل ومؤلم للغزاة أيضا.

■

الفضيحة الإيطالية

محمد بركة

القاهرة: نفرو للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ١٠٤ صفحات



تأتي هذه الرواية القصيرة بعد مجموعتين قصصيتين للمؤلف هما «كوميديا الانسجام» و«٣٠ مخبرين وعاشق».

تبدو الرواية استمرارا للنهج ذاته الذي اتبعه المؤلف في مجموعتيه القصصيتين، عبارات مكثفة مركزة، وروح فكاهة وسخرية لا تغيب حتى في أكثر المواقف جدة، وهي تحكي عن علاقة بين شاب (الراوي) يعمل صحفيا في مجلة أسبوعية وفتاة إيطالية من مناهضي العولمة، ولا شيء أكثر من محاولات الشاب لاستمالتها والظفر بها على طريقة الصياد والسمكة، يلقي هو الطعم فتمتنع. ثم يحاول مرة ثانية وثالثة حتى تقع أخيرا في الشباك، وأما الفضيحة فمردها ربما، أن ظفر الصياد بفريسته جرى قبل فجر أحد أيام شهر رمضان بقليل، حيث يأنس الناس بالصوم والصلاة والتسابيح.

ماذا بعد ذلك في الرواية؟ لا نظن أن ثمة معاني كبيرة أراد المؤلف أن يشغلنا بها، كل ما أراده أن يحكي لنا عن التجربة، التي لا يبدو أن ثمة جديدا بها، حتى مشاهد الجنس الساخنة أو التي أراد لها أن تكون كذلك.

■

الحداثة والتراث في المسرح العربي

سامح مهران

القاهرة: المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، ٢٠٠٥، ١٤٣ صفحة



ظهر مصطلح الحداثة عند العرب في مطلع الخمسينيات من القرن العشرين، مع بداية موجة الشعر الحر والشعر المعاصر الذي خرج على الأنماط الشعرية السائدة آنذاك، وكانت القطيعة مع الماضي هي الدعوة التي تبناها بوضوح بعض شعراء الحداثة من أمثال أدونيس، لكن هذه الفكرة - القطيعة - تبدو غير منطقية وغير قابلة للتحقق، والمؤلف بدلا من يحدثنا عن تصور يجمع بين ما هو تقدمي وقابل للحياة في الثقافة القومية، وبين الجوانب الثقافية التي تقدمها الثقافات الوافدة، وفي إطار تأكيده على فكرة المزاوجة بين التقليدي والحداثي، يحلل المؤلف أفكارا سياسية واجتماعية وثقافية عديدة منذ بدايات القرن الماضي، وتشابكاتها على الساحة العربية والمصرية، ثم كيفية تعبير المسرح عنها كما نرى في تحليله لمسرحية رأفت الدويري «الواغش» و«مغامرة المملوك جابر» لـ سعد الله ونوس، وزهرة الصحاري للكاتب التونسي عبد الرحمن أيوب.

وفي الفصل الثاني يتناول الصور التمثيلية في المسرح المصري في الربع الأول من القرن العشرين، ونموذجه التطبيقي في هذه الحالة هو مسرحية عثمان صبري «شبابنا في أوروبا».

ويدرس الفصل الثالث ما بعد الحداثة في المسرح. ويلاحظ أن المظهر النقدي للمسرح ما بعد الحداثي اتخذ عدة مسارات، منها رفض العلاقات التبادلية، والانتقال إلى محاولات التكسير والقلقلة التي تتحدى مفاهيم الوحدة في العمل المسرحي، ثم انفصال المسرح عن الدراما وبروز الأداء، ثم تفجير الأطر ورفض فكرة بنية العمل المسرحي.

■

الدراسة الأدبية والوعي الثقافي

د. مصطفى ناصف

دبي: مؤسسة العويس الثقافية، ٢٠٠٥، ٣٦٦ صفحة



يطرح الكتاب إشكالية الأدب والثقافة والمجتمع، ويحتوي محاور عدة، كالربط بين مفاهيم الأدب ومفاهيم الثقافة وعلاقتهما بالتعليم، والعلاقة بين الثقافة التي تمثل النخبة والثقافة العامة، وعلاقة الثقافة بالمجتمعات النامية، واحتكار الأديب لتسمية الثقافة.

يحاول المؤلف الإجابة عن الأسئلة التي أحدثها التغيير الذي طال المجتمعات والأدب والثقافة، والاختلافات والاختلاطات التي يواجهها المجتمع مثلما يواجهها الأدب. ويؤكد ان ثمة اقتراحات مهمة تنافس العناية بالأدب أو توجه أمرها، فبعيدا عن الصورة المثالية للكاتب الأديب، يجب أن ننظر في وكالته عن بعض القوى، وميله أحيانا إلى كسب القراء على حساب أنفسهم، الأمر الذي يجعلنا لا نستطيع أن نمارس النقد بمعزل عن المعركة الدائرة حول السيطرة، والتي هي معنى من معاني الثقافة.

■

عرب وعثمانيون.. رؤى مغايرة

محمد عفيفي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ١٠٠صفحة



الفرضية الأساسية التي يبني عليها المؤلف مناقشاته لموضوع الكتاب، هي أن الصورة التقليدية والخطاب السائد عن أوضاع العالم العربي في العصر العثماني محملة بالأيديولوجية والأفكار المسبقة، ومن ثم فهو يقترح إعادة تشكيل الصورة من جديد وفقا لعدد من الأفكار أهمها ضرورة تفكيك الخطاب الأيديولوجي عن الفترة العثمانية، وإظهار دور المدرسة الجديدة (العثمانيون الجدد) في تقديم سيناريو جديد، ومناقشة الخطاب الاستشراقي استنادا إلى مصادر محلية تسقط الأهمية السابقة التي اكتسبتها كتابات الرحالة الغربيين، ثم محاولة تقديم صورة أكثر واقعية عن أحوال المجتمع العربي في العصر العثماني.

والمؤلف مثلا حين يبدأ في تفكيك الخطاب عن الفترة العثمانية يناقش ما كتبه الزعيم المصري محمد فريد وما كتبه بعده المؤرخ عبد الرحمن الرافعي الذي ينتمي بالانتماء والممارسة إلى الحزب الوطني الذي ترأسه مصطفى كامل ومحمد فريد من بعده، ويلاحظ التفاوت المذهل بين الاثنين، إذ يجنح فريد إلى منهج أسطوري يرى أن الدولة العثمانية هي رسالة إلهية لنجدة الإسلام والمسلمين، ويرى المؤلف في موقف محمد فريد رسالة أيديولوجية أكثر منها تأريخا لفترة زمنية، ويشير كذلك إلى ارتباط فريد بالخديو عباس حلمي الثاني والسلطان عبد الحميد الثاني.

وعلى العكس من فريد، يرى الرافعي أن نظام الحكم الذي رزحت البلاد تحته في العصر العثماني، «كان له أبلغ الأثر في حالتها السياسية والعمرانية، فقد زال عنها الاستقلال، وصارت مسرحا للفتن والمشادات، وحال ذلك دون قيام حكومة مستقرة ترفع من شأن مصر وتقيم العدل وتحفظ الأمن بين ربوعها وتعنى بمرافقها».

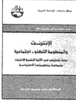
ويتابع المؤلف بعد ذلك بعض كتابات «الهواة» و«المحترفين» من المغرمين بتاريخ تلك الفترة مثل حسين فوزي ولويس عوض وتيار الإسلاميين الجدد، ثم المدارس المغربية والشامية والمصرية التي تعاطت مع تاريخ الدولة العثمانية.

■

الإنترنت والمنظومة التكنواجتماعية

علي محمد رحومة

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ٤٢٨صفحة



يتركز البحث هنا على الأسس الاجتماعية لتركيبة منظومة «الإنترنت»، وماهية آليتها التقنية، وما أنتجه هذا العالم الشبكي من آليات اجتماعية. ويلقي الضوء على عملية توصيف النظام التقني للإنترنت كنتاج للنظام الاجتماعي، ومعرفة أسس الارتباط بين مفاهيم النظام الاجتماعي وأنساقه المختلفة، مع ما تقدمه تقنية الإنترنت من تغيرات وتطورات ومشكلات اجتماعية، إضافة إلى معرفة مختلف التفاعلات التي تحدث بين الأفراد والجماعات المستخدمين للإنترنت، ومحاولة استشراف مستقبليات هذه التقنية وأبعادها المتعددة في المجتمعات الإنسانية.

ويؤكد الكتاب أن المنظومة التكنو - اجتماعية للإنترنت لاتزال في بدايات

بحثها التكنو ـ اجتماعى عالميًا، وخصوصًا فى البلدان النامية، ما يحتم على المعنيين بالتنمية المجتمعية والبحث العلمى العمل على وضع أسس وآليات وطنية جادة لبحث هذه المنظومة المعلوماتية للتمكن من معرفة كيفية التفاعل معها إيجابيًا.

■

الحـــــب

بيير بيرنى
ترجمة: مراد وهبة
القاهرة: شركة الخدمات التعليمية، ٢٠٠٥، ١٢٧صفحة



يأتى الكتاب ضمن مشروع موسوعة الشباب للعلوم، وقد صدرت فيها عدة عناوين هى: تقاويم الزمن، الذكاء، العولمة، الشمس، الذاكرة، تاريخ العلوم.

ويتألف من أربعة فصول تتناول على التوالى موجز تاريخ الحب والمستوى الإنسانى للحب والمشكلات الأخلاقية والمؤسساتية وأخيرًا قوى المجاوزة فى الحب، وهو فى هذا الإطار يتناول عديدًا من المفاهيم وثيقة الصلة بالموضوع كالعلاقة بين الحب والجنس، والنرجسية ونمو الحب، والحب بوصفه نشاطًا إنسانيًا، والرابط بين الزواج والحب، وكيفية علاج أزمات الزواج وانطفاء الشهوة، أخلاق الحب والتابو، وغيرها من الموضوعات.

■

فنيات المونتاج الرقمى

رباب عبد اللطيف
القاهرة: أكاديمية الفنون، ٢٠٠٥، ٢٩٥صفحة



تناقش الدراسات الواردة فى الكتاب كيفية استخدام التقنيات الرقمية الحديثة، وإمكانات الحاسب الآلى فى مجال المونتاج السينمائى، وهو مجال يبدو حديثًا نسبيًا فى السينما العربية التى صار بإمكانها الاستفادة من هذه التقنيات سواء فى مرحلة الإعداد للفيلم أو إنتاجه أو حتى عرضه.

ومرحلة المونتاج من أهم مراحل صناعة الفيلم، فهى التى تجمع كافة المراحل الإبداعية السابقة التى مر بها الفيلم، والكتاب يضم بابين يحتوى كل منهما على ثلاثة فصول. ويناقش الباب الأول الأجهزة السينمائية الحديثة المرتبطة بمرحلة المونتاج، ويبدأ بتلك التى تسبق عملية إنتاج الفيلم أى فى مرحلة الإعداد، وهى التى تسمى مرحلة الرؤية المسبقة، وكيفية الاستفادة منها فى مرحلة ما قبل التصوير، ثم عناصر التكنولوجيا فى مرحلة الإنتاج، حيث تقدم لنا عددًا من الاختراعات التى أحدثت تحولات كبيرة فى صناعة السينما ووفرت كثيرًا من الجهد والمال، وأخيرًا مرحلة ما بعد الإنتاج، وخصوصًا عملية التزامن بين الصوت والصورة.

ويناقش الباب الثانى الأجهزة المستخدمة لتحقيق تلك الأهداف، بداية من أجهزة المونتاج غير المتتالى الأولية، ثم أجهزة المونتاج غير المتتالى الرقمية، وتقدم تطبيقًا لهذه الأفكار عبر مشاركتها فى فيلمين من إخراج يوسف شاهين هما المصير ١٩٩٨ واسكندرية نيويورك ٢٠٠٣.

■

سحر الشرق.. قراءة جديدة فى ملف الاستشراق

القاهرة: مركز دراسات قناة النيل الثقافية، ٣١٨ صفحة



بعد مقدمة منهجية قصيرة، نطالع عدة دراسات فى موضوع الاستشراق وجهود المستشرقين، كتبها مختصون.

يطالبنا صلاح قنصوه بالاعتراف بفضل المستشرقين الذين جمعهم البعض فى السلة ذاتها التى وضع فيها المستعمرون، أو أن هؤلاء المستشرقين فى حقيقتهم لم يكونوا سوى مجموعة من الجواسيس والمرتزقة، لكن للدكتور قنصوه رأى آخر، إذ يرى أن بعض هؤلاء كشف لنا من تراثنا ما لم يكن ممكنًا أن نكتشفه بأنفسنا.

ومن زاوية تاريخية يرى عاصم الدسوقى أن الاستشراق خدم الثقافة العربية لأنه بدأ بمحاولة للتعرف على العرب والمسلمين، وكان سببه الرئيسى المواجهة التى حدثت بين الدولة العثمانية وأوروبا، ثم المواجهة الثانية التى تجلت فى الحروب الصليبية، ولا ينكر الدسوقى إسهاماتهم.

لكنه يؤكد على أن المستشرقين وإن كان بعضهم قد خدم العلم، فإن نتاج

تقييم السياسة الأمريكية فى المنطقة

الشرق الأوسط والولايات المتحدة

تحرير: ديفيد ليش
ترجمة: أحمد محمود
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ٧٦٥ صفحة



نحو ٢٧ فصلاً لعدد كبير من المؤلفين المشتغلين بالموضوع ذاته: أمريكا والشرق الأوسط يتضمنها هذا الكتاب، وهو يبين أن اهتمام أمريكا بالشرق الأوسط إنما يبدأ منذ نشأة الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها، وإن بدا محدودًا ومقصورًا على البعثات التبشيرية والتجارة، ومع الحرب العالمية الأولى، والصراع على ممتلكات الدولة العثمانية، زاد اهتمامها بالمنطقة خصوصًا مع ظهور النفط فى ثلاثينيات القرن الماضى، ومع نهاية الحرب العالمية الثانية بدا لأمريكا أن هذه المنطقة بالغة الأهمية، وأنها ستمثل بالنسبة لها ماكينة ضخ لاستمرار انتعاشها الاقتصادى، وعزز ظهور إسرائيل هذا الإدراك وإن كان عقد علاقات واشنطن بالعالم العربى، وخلال الحرب الباردة التى امتدت نحو أربعين عامًا تأزمت علاقة أمريكا بالمنطقة إلى حد بعيد، مع تنامى موجة القومية العربية وتوجهات القضاء على الاستعمار وتأجج الصراع العربى الإسرائيلى، وظهور حركات إسلامية راديكالية، وقد طرحت هذه العناوين عشرات الأسئلة على السياسة الأمريكية فى المنطقة، جاءت مختلفة بطبيعة الحال عن تلك التى أثارتها مرحلة ما بعد الحرب الباردة والسيطرة الكاملة للقطب الأوحد فى العالم، وقد جاءت أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ لتصنع صنيعًا جديدًا لعلاقة أمريكا بالمنطقة، يختلط فيها السياسى بالدينى بالتاريخى بالاقتصادى على نحو مذهل، وبدرجة كشفت عن حالة من الوهن والتبعية شبه الكاملة لدول وممالك عربية للإمبراطورية الجديدة، وتأكيد لسيادة إسرائيل ونفوذها.

وتبدو الإحاطة بهذه العلاقة ولو باستعراض محتويات هذا المجلد الضخم فى هذا الحيز المحدود غير ممكنة، خصوصًا أن مقالاته لا تمتد فحسب فى تاريخ هذه العلاقة منذ النشأة، وإنما تغطى جغرافيتها على امتداد الوطن العربى والإسلامى.

وبشكل عام فإن الصورة السائدة التى تخرج من أى بحث للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط هى صورة واشنطن وهى تنهض من غلطة لتقع فى أخرى، ومن فرصة ضائعة لتقع فى سواها، ومن حساب خاطئ لتقع فى غيره، على حد تعبير ويليام كوانت فى مقالته «أساسيات أمريكية جديدة لشرق أوسط جديد».

ولا يبدو مفهوم الشرق الأوسط الجديد وليد عالم ما بعد الحرب الباردة، بل إن أمريكا وضعت فى العام ١٩٥١ هذا المفهوم «لسد الفجوة بين المصالح الاستراتيجية والسياسية فى مصر» كما يبين تفاصيلها «بيتر هان» فى مقالته عن هموم الأمن القومى فى السياسة الأمريكية تجاه مصر. ولكن فكرة قيادة الشرق الأوسط تلك رفضتها مصر، وسارت الأمور من سيئ ـ إلى أسوأ ـ مع سياسة جمال عبد الناصر المناهضة للاستعمار وللاحتلال الإسرائيلى فى فلسطين.

وكما يلاحظ «ويليام كوانت» فإن مصالح أمريكا الكبرى فى المنطقة تحددت وفق ثلاث قضايا أساسية: العلاقة مع الاتحاد السوفيتى المنافس والخصم الكونى، النفط وتيسير الوصول إليه، العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل. وعمومًا، فإن التكلفة البشرية والاقتصادية التى تحملها الولايات المتحدة فى سعيها لتحقيق سياستها فى الشرق الأوسط جاءت محتملة، وتحققت الأهداف الأساسية بنجاح، اعتمادًا على مجموعة من الأدوات السياسية، وهى المساعدات الاقتصادية والعسكرية ومبيعات السلاح والتدخلات السرية والوجود العسكرى الذى وصل إلى حد الاستخدام المباشر للقوات الأمريكية كما جرى فى لبنان (١٩٥٨ و ١٩٨٢) وفى الحرب على العراق، وأخيرًا، الدبلوماسية.

ولكن الأمر المؤكد أن القوة الأمريكية العاتية، والتدخلات لفرض نماذج من الإصلاح وآليات التغيير على دول المنطقة، واستبدال دبلوماسية القوة بالسياسة المتوازنة، وفرض الأمر الواقع بتوافق المصالح، كل هذا من شأنه أن يخلق توترات تعيق تنفيذ السياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط كما يراها أغلب مؤلفى الكتاب، الذين لم يلفت انتباه أحدهم أى قدر من الندية فى تعامل الأنظمة العربية مع السياسات الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط، وهى مسألة لم تعد تدهش أحدًا على أية حال.

عماد الغزالى

أعمالهم تم توظيفها لأغراض سياسية، أى أن السياسى الذى يفكر بطريقة استعمارية استفاد من عمل المستشرق وأخفى الأسباب الحقيقية لانكبابه على معرفتنا.

وتركز زينب الخضيرى على الدور السلبى الذى لعبه صمويل هنتنجتون خصوصًا فى كتابه صراع الحضارات، وترى أنه لعب دور المستشرق الذى قدم الإسلام بصورة سيئة جدًا. ويدعو حامد طاهر إلى حركة استغراب يقوم بها مفكرون شرقيون ردًا على حركة الاستشراق.

القسم الأخير من الكتاب يعرض بصورة مختصرة جدًا لنحو ٥٥ كتابًا من كتابات المستشرقين عن العرب والإسلام والمسلمين، وأغلبه ينصب على مصر وأحوالها الاجتماعية والسياسية.

■

حروب البترول الصليبية والقرن الأمريكى الجديد

عبد الحى زلوم

بيروت: المؤسسة العربية للنشر، ٢٠٠٥، ٣٩٦ صفحة



بدأت النخبة الأمريكية المتنفذة، التخطيط للهيمنة على العالم ضمن ما عرف بإستراتيجية الإمبراطورية العالمية قبل هجمات سبتمبر/ أيلول بسنوات.. فقد كان احتلال منابع النفط العربية فكرة قديمة لكيسنجر، خاصة نفط العراق لأنه الأقل تكلفة فى الإنتاج على المستوى العالمى.

ويكشف «بريجنسكى» فى كتابه «رقعة الشطرنج العظيمة» كيف أن المؤامرة الأمريكية للسيطرة على العالم تطلبت حدثاً بحجم ما حصل يوم ١١ سبتمبر/ أيلول.

ويشرح هذا الكتاب كيف أعدت الولايات المتحدة الأمريكية إستراتيجيها الإمبريالية الجديدة للسيطرة على المنطقة التى تتحكم فى إمدادات الطاقة العالمية، لأن الإنتاج الأمريكى بدأ رحلة التراجع فى وقت مبكر يعود إلى العام ١٩٧٠ حسب رأى الخبراء الجيولوجيين مثل «كينغ هوبارد».

وفى أواخر السبعينيات تم تشكيل قيادة خاصة للتدخل فى دول الخليج المنتجة للنفط، كما جاءت عقيدة كارتر لعام ١٩٨٠ لتنص على أن نفط الخليج يشكل أهمية إستراتيجية بالنسبة للأمن القومى الأمريكى، وبأن أمريكا ستستخدم كل الوسائل الضرورية، بما فيها القوة العسكرية لضمان مصالحها والإمدادات النفطية من الدول المنتجة للنفط.

من أجل ذلك أوجدت ما يعرف بالقيادة المركزية، وكانت حرب الخليج الأولى الفرصة المواتية لتمكين الولايات المتحدة من السيطرة على النفط، ثم تفريغ خزائن المال فى الدول العربية لتسديد فواتير الحرب وفواتير شراء الأسلحة الأمريكية الفائضة عن حاجة أمريكا والناتو تحت مبرر استمرار التهديدات العراقية الوهمية.

يعرض الكاتب نتائج تقارير وأبحاث لخبراء وقادة سياسيين فى الشئون النفطية، مثل ديك تشينى نائب الرئيس الأمريكى ورئيس مجموعة تطوير السياسة الوطنية للطاقة، تشير إلى أزمة نضوب النفط ودخول الحقول النفطية العالمية مرحلة الذروة فى الإنتاج، وهى الوصول إلى مرحلة يتعذر معها تحقيق أى زيادة فى معدلات الإمدادات النفطية، ويبدأ الهبوط التدريجى فى الإنتاج، فى الوقت الذى يستهلك فيه العالم يوميا حوالى ٢٨ مليون برميل.

وتكمن مشكلة الولايات المتحدة الأمريكية فى تحقيق التوازن بين الإنتاج والطلب المتعاظم على النفط، والاقتصاد الأمريكى الذى يعتمد على عامل النمو، فالقصور فى الإنتاج مقارنة مع الطلب يصل إلى نسبة ١-٥٪ مما يسبب الركود، وإذا ارتفعت النسبة عن هذه المعدلات فستكون النتيجة كارثة عظيمة. وفى هذه المرحلة تحتاج الولايات المتحدة الأمريكية للسيطرة على حركة السوق النفطية فى توزيع الكميات وتحديد الأسعار، وهى سيطرة لا تأتى بدون احتلال فعلى لمنابع النفط. وكان التحرك المفاجئ نحو العراق ـ الذى يملك ١١٢ مليار برميل أى ما يعادل ١١٪ من الاحتياط الإجمالى العالمى من النفط ـ بسبب التقارير الفعلية التى تلقتها أمريكا بعد الحرب الأفغانية حول الاحتياطى الفقير لنفط بحر قزوين.

■

أمريكا والعالم.. متابعات فى السياسة الخارجية الأمريكية

السيد أمين شلبى

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٥، ٣٥٠صفحة



عقب وقوع أحداث سبتمبر ٢٠٠١ مباشرة، كان ثمة اتفاق بين خبراء السياسة والمتابعين على أن عالم ما بعد

كتابان



النظام القوى والدولة الضعيفة إدارة الأزمة المالية والتغيير السياسى فى عهد مبارك

سامر سليمان

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٥

الانهيار الاقتصادى فى عصر مبارك.. حقائق الفساد والبطالة والغلاء والركود والديون

أحمد السيد النجار

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٥

صدر مؤخراً كتابان عن الاقتصاد المصرى فى السنوات الأخيرة لباحثين متخصصين فى الاقتصاد. الكتاب الأول هو تعريب لرسالة الدكتوراة التى قدمها الباحث سامر سليمان لمعهد العلوم السياسية فى باريس لنيل درجة الدكتوراة فى العام الماضى.

ويحاول الكتاب إيجاد تفسير لمعضلة فريدة فى الحالة المصرية وهى كيفية صمود النظام فى ظل أزمة زادت فيها الضرائب والمستقطعات من جهة وقل فيها ما تمنحه الدولة للشعب فى المقابل من أموال ومنح.

ويبحث الكتاب سبل تكيف النظام السياسى فى مصر مع تناقص الموارد بينما يرى أنه فشل فى أولويته المعلنة وهى قيادة تنمية اقتصادية رأسمالية.

ويبدأ الكتاب بعرض لتذبذب المصادر المالية للدولة خلال حكم مبارك وهو ما دعاه لتغير خطابه الاقتصادى. فبينما وعد مبارك فى بداية حكمه بزيادة دور الدولة الرسمى من الناحية الاقتصادية فإن انخفاض الموارد جعل من الضرورى تقليص دور الدولة على عكس ما كان سائدا فى الخطاب الرسمى.

كما يتناول الكتاب المشاكل الناتجة عن توجه القدر الأكبر من الإنفاق على الاستقرار الأمنى بسبب تنامى نشاط الإسلاميين فيما كان ضخ الموارد لقطاعات أخرى مهمة أيضا أقل أو متأخراً أكثر.

كما يظهر سوء التوزيع أيضاً فى الفرق بين الإنفاق على الهيئات المركزية والإنفاق على المراكز المحلية.

وصل الكتاب فى النهاية لطرح فكرة فشل الدولة ونجاح النظام. حيث إن الدولة فشلت فى تحقيق التنمية الرأسمالية التى كانت أهم أولوياتها ومع ذلك استطاع النظام أن يستمر بقوة فى مكانه.

أما الكتاب الثانى والأحدث بعنوان الانهيار الاقتصادى فى عصر مبارك، فقد صدر بعد الاستفتاء على المادة ٧٦ من الدستور المصرى، وفى خضم الحملة الانتخابية للرئيس مبارك.

ويهدف الكتاب للرد على البنود الاقتصادية فى برنامج الرئيس الانتخابى حيث يرى الكاتب أن الأداء الاقتصادى والسياسى للنظام هو المسبب الرئيسى لمعدلات البطالة وارتفاع الأسعار وتزايد الديون الخارجية والداخلية.

ويحدد الكاتب أشكال التدهور فى الصادرات المصرية والاستثمارات الأجنبية فى مصر والضعف الادخارى وسوء توزيع الناتج المحلى وانهيار القدرة الشرائية للجنيه.

كما يناقش اتفاقيات الكويز وتصدير الغاز لإسرائيل. كما يبحث الكتاب أشكال الفساد وعلاقتها بالسياسات الاقتصادية للدولة إذ يخصص الكاتب فصلاً بالكامل لبرنامج الخصخصة الذى يرى أنه يشكل ذروة أشكال الفساد فى الدولة.

ويختتم الباحث الكتاب بفصل يستعرض فيه الجانب الاقتصادى لبرنامج الرئيس مبارك الانتخابى ويفند بنوده بالإحالة إلى أداء نظام مبارك فى المجالات المختلفة الواردة فى البرنامج.

ويستعرض الكاتب التباين بين ما تضمنه البرنامج الانتخابى للرئيس من بيانات ومن البيانات الموازية فى الإحصائيات الرسمية لجهات مثل البنك الأهلى ويقارن الأداء الاقتصادى للدولة ومستوى الأجور بدول أخرى من العالم الثالث وبالذات من أفريقيا.

ويجتمع الكتابان على تساؤل حول حقيقة البيانات الاقتصادية التى تصدرها الدولة، ففى حين يرى النجار أن هناك تزويراً صريحاً فى هذه البيانات وخاصة ما يتعلق بالبطالة يرى سليمان أنه لا مبرر لوجود بنود محذوفة من الموازنة العامة للدولة.

ويشير إلى أن أى تقييم حقيقى لأداء الدولة الاقتصادى من خلال الموازنة ناقص فى غياب هذه البنود التى لا يقدم النظام مبرراً لحذفها.

■

سبتمبر سيختلف حتمًا عما قبلها. وقد أثبت تتابع الأحداث منذ هذه اللحظة وحتى اليوم صدق هذا التوقع.

المؤلف يرصد السياسة الخارجية الأمريكية في السنوات الخمس الأخيرة وتعاطيها مع قضايا العالم ومشكلاته. وقد شهدت هذه السنوات ولاية إدارة جمهورية جديدة تتبنى مفاهيم واستراتيجيات مثلت تحولاً لما استقرت عليه ومارسته إدارات أمريكية متعاقبة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وتجاهلت أمريكا بوصفها قوة واحدة وحيدة الاتفاقات والقوانين الدولية، واستخفت بالمنظمات الدولية وتحدت قراراتها.

وشاعت مفاهيم من نوع الهيمنة الأمريكية بديلاً عن التعاون الدولي حتى مع الحلفاء، وبدأت الإدارة الجديدة خطة واسعة لما أسمته نشر الديمقراطية في العالم، وصارت محاربة الإرهاب هي جوهر السياسة الخارجية الأمريكية وقمة أولوياتها.

وبسبب الرغبة في تعميم هذا المفهوم شنت الولايات المتحدة حربين في أفغانستان والعراق، ومازالت تواصل فرض سياسات الهيمنة في مواقع عديدة من العالم.

وجـــود القــــائد

منى خويص

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٥



يتضمن الكتاب ثمانية فصول يعالج فيها المؤلف السمات التي تحدد أنماط القادة ومؤهلاتهم والاستراتيجيات التي تتخذها الشخصية الكاريزمية، والسمات الذهنية والنفسية للكاريزما بصورة عامة ولبعض القادة المعروفين في العصر الحديث، والمواصفات الرئيسية في بناء القوة والسلوك القيادي..

وركز المؤلف على تشريح الخريطة النفسية لصاحب الكاريزما وإماطة اللثام عن حقائق كثيرة ترتبط بسلوكه القيادي والسياسي وحتى العسكري، وهذا لا يلغي عوامل الثقافة السياسية التي تتدخل سلباً وإيجاباً في تشكيل شخصية القائد.

غير أن الأسلوب الذي تتم فيه عملية تلقيه هذه الثقافة، يظل محكوماً بـ «موروثات نفسية» تتدخل بدورها أثناء استيعابه المعرفة والحقيقة.

وفي تحديده لأنماط القيادة يستخدم المؤلف رأي عالم النفس الاجتماعي «أدلر» الذي يقول ان الفرد مسكون بعقدة نقص فطرية يسعى إلى سدها أو تجاوزها من خلال التسلط على الآخرين، باعتبار ان السلطة حافز يدفع الفرد نحو تأثيره على الآخرين.

وفي المقابل يلجأ آخرون إلى طرق دفاع مختلفة تتجلى في البحث عن الحماية أو التعلق بشخص آخر أو الحاجة إلى التذلل والخضوع لتجنب الألم.

وعلى رغم التناقض بينهما، نجد حاجة كل نمط منهم إلى الآخر، وبتعبير أخر تكون علاقة تبادل حاجات وإشباعات. ينطبق هذا الرأي مع مقولة «جوستاف لوبون» في كتابه المعروف «سيكولوجية الجماهير» وهي ان الجماهير في حاجة إلى من يقودها ويحميها لأنها عبارة عن قطيع لا يستطيع الاستغناء عن راع يقوده.

وهذا يعني ان الجماهير لا تفكر عقلانيا، وهي معرضة للتأثير العميق، ومن يعرف إيهامهم يصبح سيداً عليهم.

فالجمهور «غالبا ما يكون من دون ذاكرة» ولكن عندما يفقد القائد قوته، يدخل في خانة الضعفاء، بعد ان كانت تعتبره البطل الملهم والقائد الضرورة.

دوريات

الحياة التشكيلية

دمشق: وزارة الثقافة السورية، ٢٠٠٥



عن الفلسفة وتنظير جمالية ما بعد الحداثة يكتب عفيف بهنسي دراسة يتابع فيها نظريات ومفاهيم الجمال عند عدد من الفلاسفة مثل كانط وهيجل وجارودي، وكيف لهذه المفاهيم أن تفسر جماليات التشكيل لما بعد الحداثة التي يباعد بينها وبين هذه التنظيرات عشرات العقود.

في العدد أيضًا دراسة عن الطوابع البريدية كتبها عبد اللطيف سلمان، يتابع فيها رحلة الطابع البريدي تاريخيًا وتطوره الجمالي والطباعي ومغزاه الثقافي، ودراسة عن فنان سوري: عبد القادر عزوز وأخرى عن اللبناني عارف الريس الذي رحل هذا العام، وكذلك مقال يجمع بين الإسباني خوان ميرو والأمريكي كالدير.

المستقبل العربي

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، سبتمبر ٢٠٠٥



تتصدر العدد افتتاحية بعنوان: «لتكن صفحة جديدة في تاريخ موريتانيا»، يليها نص مقابلة بعنوان: «خير الدين حسيب للجزيرة: العمل الوحدوي الرسمي غائب».

وفي العدد حوار مع السيد ياسين بعنوان: «من أجل تحليل ثقافي لظواهر العالم المعاصر» أجراه عبد الله بلقزيز، و«سياسة فرنسا الخارجية بين الولايات المتحدة والوطن العربي» لإريك رولو، و«مستقبل العلاقات السودانية - الأمريكية بعد اتفاقية السلام» لعبده مختار موسى..

ويحتوي باب «كتب وقراءات» على مراجعة لكتاب النظم السياسية العربية: الاتجاهات الحديثة في دراستها (حسنين توفيق إبراهيم)، وأخرى لكتاب عصارة العمر (سليم الحص).

المحيط الثقافي

القاهرة: وزارة الثقافة، سبتمبر ٢٠٠٥



الإرهاب والعولمة هو الملف الرئيسي لهذا العدد، يكتب فيه كتاب من اتجاهات مختلفة وفي محاور عديدة، حيث يكتب عبدالقادر شهيب تحت عنوان القضاء على الإرهاب ويكتب سعد هجرس «مسئولون عن استنساخ وحش الإرهاب»، ويكتب أبو العلا ماضي عن العنف وكيفية علاجه في الحالة المصرية الراهنة ود. عاطف العراقي تحت عنوان «الإرهاب الوباء الأسود القاتل».

يتضمن العدد أيضا حوارا مطولا مع الناقد المفكر محمود أمين العالم يتضمن آراءه في قضايا ومشكلات معاصرة. إلى ذلك يتضمن العدد متابعات لأحداث ثقافية. وكتابات نقدية في التشكيل والسينما والمسرح، فضلا عن متابعات نقدية أدبية ونصوص إبداعية شعرية وقصصية.

العـــــربي

الكويت: وزارة الإعلام، أكتوبر ٢٠٠٥



حديث يخصصه الدكتور سليمان العسكري لمدينة القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين بمناسبة الشهر الكريم حيث يكتب تحت عنوان «القدس مملكة الضمير» متذكرا مكانة القدس في أفئدة العرب والمسلمين على وجه العموم.

وبعد عشر سنوات من انقطاعه عن الكتابة لمجلة العربي يعود الدكتور يحيى الجمل للكتابة تحت عنوان «اكتئاب الصفوة»، ويكتب مسعود ضاهر عن الصين وتأثيرها في الاقتصاد العالمي ونفوذها في منطقة آسيا تحت عنوان «الصين القلقة تحذر اليابان»، وتجري ولاء فتحي حوارا مع الأديب البرازيلي باولو كولهو يتحدث فيه عن قضايا أدبية معاصرة مازجا إياها بمسيرته الروائية.

استطلاع شهر يكتبه إبراهيم المليفي تحت عنوان «البوسنة والهرسك نار تحت الرماد».



ديوان الطرب

سيد درويش

نشيد مصر القومى

مصرنا وطنا سعدها أملنا كلنا جميعًا للوطن ضحية
أجمعت قلوبنا هلالنا وصليبنا أن تعيش مصر عيشة هنية

عزك حياتنا	ذلك مماتنا
يا مصر بعدك	مالناش سعادة
لولا اعتقادنا	بوجود إلهنا
كنا عبدنا	النيل عبادة
حبك كفاية	مالوش نهاية
كله مزايا	من فضل ربى
مهما قاسينا	مفروض علينا
موت المجاهد	من غير ذنب
روحنا فداكى	مالناش سواكى
ربك معاكى	فى كل ساعة
وباتحادنا	نبلغ مرادنا
ويد الله	مع الجماعة
إحنا غايتنا	نرفع رايتنا
أحرار خلقنا	نأبى المذلة
يا عيشنا سعدا	يا متنا شهدا
لنحيا أمة	مستقلة

ألف سيد درويش هذا النص ولحنه لاستقبال الزعيم (سعد زغلول) عند عودته من المنفى

١١ سبتمبر.. تفكيك الخطاب السائد

ما الذى حدث فى «حدث» ١١ سبتمبر؟
تأليف / جاك دريدا
ترجمة / صفاء فتحى
مراجعة / بشير السباعى
الناشر /المشروع القومى للترجمة بالقاهرة



يعد الفيلسوف جاك دريدا المولود فى ضاحية البيار بالعاصمة الجزائرية فى الخامس عشر من يوليو عام ١٩٣٠ واحدا من هؤلاء المفكرين الكبار الذين شكلوا طليعة الفكر الغربى فى النصف الثانى من القرن العشرين والذى ارتبط اسمه بفلسفة «التفكيك» المناوئ للخطاب الفلسفى المعاصر، ومؤسس البرلمان الدولى للكتاب عام ١٩٩٣ م.

وصاحب العديد من المؤلفات الفلسفية الهامة، نذكر منها كتاب الرأس الآخر، وأطياف ماركس، والإيمان والمعرفة، والكتابة والاختلاف والجراماتولوجيا، والصوت والظاهر.

يأتى هذا الكتاب - ما الذى حدث فى الحادى عشر من سبتمبر؟ والذى نقلته إلى العربية الكاتبة والشاعرة صفاء فتحى، والصادر مؤخرا عن المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ضمن سلسلة المشروع القومى للترجمة كمحاولة جادة للإجابة عن أسئلة بالغة الأهمية ترتبط بتلك الأحداث التى وقعت فى الولايات المتحدة الأمريكية يوم الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م.

عندما وقعت أحداث الحادى عشر من سبتمبر فى الولايات المتحدة الأمريكية كان جاك دريدا فى شنغهاى فى نهاية رحلة طويلة إلى الصين، حيث أخطره صاحب المقهى الذى كان فيه مع عدد من الأصدقاء «بارتطام» طائرة بالبرجين التوأم لذا عاد مسرعا إلى الفندق وشاهد وقائع الحدث على تليفزيون CNN

يطرح علينا جاك دريدا هذا السؤال «هل لنا أن نسمى الحادى عشر من سبتمبر «الحدث العظيم» Major ، Event فمع أن كلمة عظيم تشير إلى العلو والارتفاع إلا أن التقييم هنا لا يمكن أن يكون كميا بحتا حتى ولو كان المقصود بذلك هو أبعاد الأبراج، أو الأراضى التى شن عليها الهجوم أو حتى إذا كان المقصود بذلك هو أعداد الضحايا.

إن ما سيظل مريعا فى « ١١ سبتمبر» وما سيحيا «دون نهاية» فى هذا الجرح هو أننا لا نعرف ما هو، ولا نستطيع وصفه ولا تحديده ولا حتى خلع اسم معين عليه. ويقول جاك دريدا أن ما حدث هو أى شىء باستثناء كونه شيئا مجردا وفكريا وأن أفق عدم المعرفة به هذا أو غياب أفق المعرفة، أى عدم القدرة على استيعابه ومعرفته وعدم القدرة على التعرف عليه وتحديده وعدم القدرة على تسميته ووصفه والتنبؤ به يحتم على أن أتبحر أكثر فى الحديث عنه، أن أتحدث عنه تحديدا بطريقة ملموسة أكثر وذلك من خلال ثلاث مراحل وهى كالتالى:

١ - أول مرحلة، أول حالة من حالات الحصانة الذاتية، ردود الأفعال والتأملات، الحرب الباردة ما تزال ماثلة فى الأذهان. فالعالم بأسره وليس فقط الولايات المتحدة الأمريكية ينتابه شعور غامض بأن شيئا ما سابقا له فى تاريخ الولايات المتحدة، فهو أول انتهاك للأراضى القومية الأمريكية منذ ما يناهز القرنين، أو على الأقل تلك هى فحوى الاستيهام السائد باستمرار، ولكنه يبدو وكأنه اختراق من نوع جديد.

ما هى طبيعة هذا النوع؟ قبل أن أجيب على هذا السؤال، أود التذكير ببعض الحقائق الدامغة، هذا الاختراق ينتهك أراضى دولة تقلد نفسها إضمارا دور السيد بين الدول ذات السيادة وذلك حتى من وجهة نظر أعدائها وبالذات منذ ما يسمى بـ «نهاية الحرب الباردة» وهذا الدور المفترض فيه مبدئيا أن يحافظ فى النهاية على رصيد الثقة بشكل عام، على الرصيد بمعنى المعاملات المالية وبمعنى رصيد الثقة التى تضعها فى اللغة وفى القوانين وفى المعاملات السياسية والدبلوماسية. ورصيد الثقة هذا الذى يشعر العالم بالحاجة إليه، حتى من قبل أولئك الذين يسعون إلى تدميره، تمتلكه الولايات المتحدة، وتعبر عنه ليس فقط بسبب غناها ونفوذها التقنى والعلمى والعسكرى ولكن أيضا وفى نفس الوقت بسبب الدور الذى تلعبه كحكم فى كافة المنازعات وبسبب حضورها المهيمن فى مجلس الأمن والكثير من المؤسسات الدولية الأخرى. وذلك على الرغم من أنها لا تحترم وبشكل لا تعاقب عليه، لا روح ولا حرف قرارات هذه المؤسسات، ولكن ما يبقى هو أن الولايات المتحدة تستطيع أن تجعل العالم يصدق على هذا التقييم المتسق لنفسها والذى يتيح لها تمثيل هذه الوحدة المزعومة للقوة والقانون معا، كما يتيح لها تمثيل القوة العظمى للقانون وخطابه.



وهنا أول أعراض الحصانة الذاتية الانتحارية:- فالأرض، أى الشكل الحرفى لأساس أو لتأسيس من يمثل «قوة القانون» تجد نفسها معرضة للاعتداء، أى أنها تصبح موضوعا لاعتداء أى أنها أيضا تصبح شيئا معرضا بالضبط للعنف «الدائرى» أمام كاميراتها الخاصة وفى مصلحتها، يأتى إليها من داخلها من قبل تلك القوى التى تبدو وكأنها لا تحوز قوة خاصة بها ولكنها تجد الوسيلة وعن طريق التحايل ومع تطبيق المعرفة التكنولوجية المتطورة التى تمكنها من الاستيلاء على سلاح أمريكى فى مدينة أمريكية وعلى أرض أمريكية.

٢- المرحلة الثانية والنوع الثانى من الحصانة الذاتية، ردود أفعال وتأملات، ما هو أسوأ من الحرب الباردة.

يتعلق الأمر بصدمة وبالتالى فهو يتعلق بالحدث الذى لا تنبثق آنيته من الحاضر القادم والذى لا يمكن تمثيله بعد Im-presentable فالسلاح الذى يجرح يخلف ندبة فى اللاوعى تظل مفتوحة إلى الأبد، لكن ما يخيف فى هذا السلاح هو أنه يأتينا من المستقبل، من مستقبل مجهول تماما لدرجة أنه يتعذر تعريفه والإشارة إليه... تخيلوا لو أننا قلنا للأمريكيين وللعالم بأسره من خلال الأمريكيين إن ما حدث (أى مشهد دمار البرجين المذهل، الموت المسرحى ومع ذلك غير المرئى لآلاف الأشخاص فى ثوان قليلة.الخ) إن ما حدث لتوه رغم أنه يمثل نكبة كبرى وجريمة شنعاء ويشكل مصدرا لآلام لا نهاية لها، إن كل ذلك قد انتهى أخيرا وإننا لن نشهد أبدا حدوث نكبة بمثل هذه الجسامة أو أشد وطأة منها، وفى اعتقادى أننا كنا سنفرغ من الحزن والحداد فى وقت غير طويل، وشاكين كنا أم فرحين كانت الأمور ستعود إلى نصابها الطبيعى ومجراها المعتاد.

٣- المرحلة الثالثة:- ثالث حالة من حالات الحصانة الذاتية ردود أفعال وتأملات، الحلقة المفرغة للقمع.

لا تستطيع الجزم بأن الإنسانية لا حيلة لها أمام هذا الخطر الداهم ولكن يجب علينا أن نعلم أن الوسائل المستخدمة فى الدفاع ضده، بما فيها جميع أشكال الحرب التى تتدرج تحت ما تسميه بهاتين الكلمتين المريبتين War on terrorism أى الحرب على الإرهاب، تعمل جميعا على إحباط أسباب الخطر التى تزعم القضاء علينا وذلك فى المدين القصير والطويل معا وسواء تعلق الأمر بالعراق أو بأفغانستان أو حتى فلسطين لن يصبح «القصف الجوى ذكيا» بالدرجة التى قد تتيح له منع الضحايا «مدنيين كانوا أو عسكريين حيث لم يعد أيضا هذا التمييز جديرا بالثقة» من الرد بأنفسهم أو بتخويل حق الرد إلى آخرين من خلال ما يقدمونه بدورهم على أنه انتقام مشروع أو بالإرهاب المضاد وهكذا الى ما لا نهاية.

وعندما سألت الصحفية جيوفانا بوراد درى جاك دريدا حول «كيف كان لـ ١١ سبتمبر» أن يكون دون أجهزة التليفزيون؟ أجاب بقوله، انه يجب التذكير بأن التعبئة الإعلامية القصوى حول ١١ سبتمبر كانت من المصلحة المشتركة لكل من قاموا بتنظيم العملية أى «الإرهابيين» وكل أولئك الذين صمموا على إعلان الحرب على الإرهابيين، باسم الضحايا. فقد كانت المصلحة مشتركة افضل ما تكون عليه المشاركة بين الطرفين كما لو انها كانت تشبه الفطرة «bon sens» التى يتحدث عنها ديكارت. فبأكثر من كونه تدميرا للبرجين أو مهاجمة للبنتاجون أو بأكثر من كونه قتلا للآلاف من الأشخاص، لم يقع الإرهاب الحقيقى إلا منذ اللحظة التى بدأ فيها عرض واستغلال أو إتاحة عرض واستغلال الصور التليفزيونية من قبل من كان هو الهدف نفسه. ولنقل أن الهدف كان يتمثل فى الولايات المتحدة أو كل من يتحد بها أو يتحالف معها فى العالم، وأعدادهم لا تحصى تقريبا».

هذا الهدف،المتمثل فى كل هؤلاء، كان له مصلحه فى أن يستعرض ضعفه وأن يثير أكبر ضجة ممكنة حول الاعتداء الذى يحاول الاحتماء منه «وهى نفس المصلحة التى يتقاسمها مع عدوه اللدود». دائما نفس الانحراف الناتج عن الحصانة الذاتية. أو بشكل أصح يجب أن أقول «قابليتها للانحراف» وذلك لأجل إضفاء طابع الإمكانية عليها. أى أنها إمكانية تحتوى على خطورة ضمنيه معينه أو تحتوى على تحديد ضمنى معين بدلا من الحديث عن انحراف يتخذ شكل النوايا السيئة أو شكل الرياح المحبة للشر أو الرغبة فيه ولكن هذه الضمنيه ومهما كانت تكفى لان نشعر بالرعب الشديد أو بمعنى أصح،لكى نشعر بالارهاب. وهذه هى جذور الرعب التى لا تقبل الانتزاع ومن ثم جذور الارهاب أيضا التى لا تقبل الانتزاع وهو أمر حتمى ولن ينتهى أبدا.

محمد صلاح غازى

The Theocrat

(الحاكم الديني)

Bensalem Himmich
American University in Cairo Press, 224PP., $ 22.50, 2005



اختار بن سالم حميش واحداً من أكثر رموز التاريخ العربي والإسلامي إثارة للجدل وإرباكا للفهم وهو الحاكم بأمر الله مادة لروايته «الحاكم الديني».

والحاكم بأمر الله هو الخليفة الفاطمي الذي حكم مصر في القرن العاشر والذي كانت فترته انعكاسا معبراً لكل من التوتر الداخلي بين أمصار العالم الاسلامي ككل والصراعات الداخلية في عقل الحاكم بأمر الله نفسه. حميش الذي يمسك في هذه الرواية الرائعة بخيوط هذا التوتر والصراعات المتحكمة فيه وعواقبها التراجيدية على هذا الحاكم الفرد وشعبه. يقدم أسلوبا ونصا متنوعاً وغنياً بالنقل عن أشهر مؤرخي العصور العربية الوسطى في سرد تاريخي حي ونابض لمجموعة من «الفرمانات» غير العادية التي أصدرها هذا الحاكم وكلماته التي كان يتفوه بها أثناء الرؤى وحالات التجلي التي كانت تصيبه والتي سجلها أتباعه المخلصون لتكون أساساً فكريا فيما بعد لطائفة الدروز. واستطاع حميش في هذه الرواية أن يقدم صورة شفافة وغير تقليدية لهؤلاء الذين وجدوا أنفسهم مجبرين إما على مداهنته وتملقه أو تحديه ومعارضته.

■

The Vision of Islam

(رؤية الإسلام)

Sachiko Murata and William C. Chittick
Paragon House Publishers, 368pp, $18.95



من المعتاد أن تركز الكتب التي تتحدث عن الإسلام أو الديانات الأخرى على الأفعال التي يجب على المؤمن الاتيان بها لإثبات إيمانه أمام الله والآخرين المؤمنين بنفس ديانته. وعلى هذا الأساس فإنها تتجاهل إلى حد بعيد الأسس الفكرية والروحانية للديانات. على العكس من ذلك أتى كتاب «رؤية الإسلام» ليركز بالأكثر على تلك الجوانب مثل العقيدة الأساسية والفروض والتعاليم الأخلاقية. يقدم الكاتبان مرجعاً أساسياً للقارئ يتضمن مواضيع عن الطبيعة الإلهية والوحي والصلاة والحياة الداخلية والروحانيات والالتزام. وهو ليس كتاباً للقراءة العابرة ولكنه مرجع من النوع الواجب وجوده في المكتبات العامة والمتخصصة. إنه مفيد بشكل أساسي لأي باحث جاد في العقيدة الإسلامية وقد كان بالفعل مرجعا للعديد من الكتب التي تحدثت عن الإسلام والمواضيع المحيطة به مثل الصوفية. لقد قضى المؤلفان عشر سنوات في دراسة الإسلام وجاءت نتيجة الكتاب تشرح الإسلام كما يراه المسلم وليس نظرة خارجية لديانة غريبة.

■

Palestinians Born In Exile Diaspora and the Search for a Homeland

(فلسطينيون ولدوا في المنفى.. الشتات والبحث عن وطن)

Julian Hammer
AUC Press, 298PP., $26.50, 2005



كتاب يعد الأول من نوعه الذي يقدم دراسة عميقة للعائدين الفلسطينيين وكيف تكيفوا مع فلسطين التي وجدوها بعد تجربتهم في المنفى. ففي العقد الذي تلى اتفاق أوسلو في ١٩٩٣ عاد أكثر من ١٠٠ ألف فلسطيني كانوا في الشتات إلى الضفة الغربية وغزة، ومن بينهم أطفال وشباب ولدوا في المنفى وتكون إحساسهم بهوية فلسطين ليس بالتجربة المعاشة ولكن عن طريق الخبرات والذكريات المنقولة إليهم من صور وحوادث تاريخية. ونتيجة لهذا شكلت العودة إلى الوطن الذي لم يكن أبدا وطنا بالنسبة لهم تحديات عدة وإحباطات شعر بها صغار الفلسطينيين والذين وجدوا أن طريقتهم في الحياة والقيم التي نشأوا عليها تتعارض أحيانا مع قيم جيرانهم الجدد في الضفة وغزة.

ويقدم هذا الكتاب تسجيلاً اثنوجرافيا بديعا لتجربة هؤلاء الفلسطينيين الذين ولدوا في المنفى وهاجروا إلى فلسطين وطنهم الأصلي. وتجري جوليان هامر مقابلات مع صغار البالغين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٦ و٣٥ عاما لمعرفة كيف تأثرت هويتهم الفلسطينية بالحياة في دول عربية أخرى أو الولايات المتحدة التي انتقلوا بعدها للحياة في الضفة. وكانت ردودهم تؤكد على أن خبرة الحياة في الخارج أصبحت جزءاً من الشخصية الفلسطينية القومية لأنهم كفلسطينيين كانوا يحتفظون دائما بذلك الإحساس بأنهم ينتمون إلى مكان آخر. وتقدم هذه الشهادات التي يتم تسجيلها لأول مرة لقطات كاشفة وموحية لجيل كامل من الفلسطينيين الذين سوف يقررون مصير الشعب الفلسطيني.

تعمل جوليان هامر أستاذا مساعداً للدراسات الدينية في جامعة ايلون بنورث كارولينا.

■

The Woman Of the Flask

(امرأة القارورة)

Selim Matar
American University Press, 180PP., $22.50, 2005



رواية تحكي قصة عراقيين في المنفى يصلان إلى سويسرا هربا من عراق صدام. أحدهما هو آدم الذي يصطحب معه من العراق قارورة قديمة عثر عليها في متعلقات والده الراحل في أراضي جنوب العراق. ويفتح آدم القارورة لتنقلب حياته رأسا على عقب عندما تخرج منها امرأة شابة ساحرة الجمال كانت حبيبة أحد أجداده منذ خمسة آلاف عام. يقوم مطر في الرواية بالتضفير بين حكايات أبطاله ما بين هذه المعشوقة الساحرة وذكرياتها عن أجداد آدم وبين تفاصيل حياته اليومية وحياة زميله في المنفى مع زوجته السويسرية، وعلاقة آدم العاطفية مع امرأة القارورة التي سئمت هذا الخلود المفروض عليها للأبد.

الرواية تسلب لب القارئ في سرد مدهش لا يمكن مقاومته وهي تتنقل بين عالمين متوازيين الأول يواجه فيه آدم الواقع الأوروبي البيروقراطي الجامد والثاني يفر فيه إلى عالمه السحري في أجواء من الفانتازيا والخيال. «امرأة القارورة» رواية آسرة عن تعقيدات هذا العالم التي تحاصر عراقيي اليوم والذين يملكون وراءهم تاريخاً فريداً وماضياً كئيباً ومستقبلاً غائماً لكنه مليء بالتحديات.

■

On Beauty

(عن الجمال)

Zadie Smith
Penguin Press, 464pp, $25.95



صدرت في سبتمبر الماضي رواية زادي سميث الأخيرة «عن الجمال» وقد أصبحت زادي سميث في فترة قصيرة جداً من أهم الكاتبات الإنجليزيات وهي لا تمثل فقط الجيل الجديد من الكتاب في بلدها بل إنها تمثل إحدى أهم الظواهر في عالم الأدب الإنجليزي اليوم وهي ظاهرة الكتاب الإنجليز التي تأتي أصولهم من المستعمرات القديمة. فوالدة زادي سميث من جامايكا. اشتهرت زادي سميث بشكل كبير منذ صدور روايتها الأولى (أسنان بيضاء) التي حصلت على جوائز عديدة والتي تحدثت فيها عن ثلاث عائلات إنجليزية من أصول عرقية مختلفة.

تدور أحداث روايتها الأخيرة في الولايات المتحدة حيث درست لفترة في جامعة هارفارد ولكن يبدو أن الحظ والدقة اللذين يلازمانها عادة هذه المرة قد خاناها حيث علق القراء الأمريكيون على عدم مناسبة لهجة كل شخصية لسنها وخلفيتها الاجتماعية وزمن الأحداث. وكعادة روايات سميث السابقة فإن الشخصيات الروائية تأتي من أصول عرقية مختلفة وتلعب اختلافاتها هذه دورا في الأحداث. وبرغم الانتقادات التي وجهت للهجة المستخدمة في حوارات الرواية إلا أنها لا تنتقص من مهارة تصوير الحياة في الجامعة وحولها ولا من جمال العلاقات المتشابكة والشخصيات الغنية في الرواية.

■

The Building Crafts of Cairo A living tradition

(حرفة البناء في القاهرة.. تقليد حي)

Agnieszka Dobrowlska
AUC Press, 128PP., $24.95, 2005



يعود الفضل، بشكل كبير، إلى أعمال ظهرت في القرن التاسع عشر مثل «وصف مصر» لادوارد وليام لين و«وصف مصر» الذي وضعه علماء نابليون في أن يجد

الباحثون المعاصرون فهما دقيقا ورائعا لحياة المصريين العاديين والأسلوب الذى مارسوا به حرفهم وتجارتهم عبر التاريخ.

ومازال العديد من هذه الفنون التقليدية حيًا حتى الآن مثل المعمار وأعمال الرخام والحدادة ونفخ الزجاج والنجارة والاويما وتطعيم الخشب. بيد أن هذه الحرف تواجه فى نفس الوقت خطر الاختفاء السريع.

وكما تعمل التغييرات الاجتماعية والاقتصادية العميقة على إعادة تشكيل وجه مصر، فإن التقاليد العريقة والمهارات النادرة والمفردات والكلمات المرتبطة بهذه الصناعات والأنماط الاجتماعية التى تدور حولها تواجه خطر الاندثار إلى الأبد.

فى أسلوب نثرى مفعم وجهد بحثى دءوب ووضوح وافر ينجح كتاب «حرفة البناء فى القاهرة» فى أن يضع يده على أنماط الحياة هذه والمهددة بالاختفاء والتى تحتاج إلى كثير من الجهد لإنقاذها قبل فوات الأوان. وكانت نتيجة هذا الجهد تسجيلا تشعر من اللحظة الأولى بحميميته فى كتاب سوف يكون جذاباً للباحثين فى هذا المجال وعلى نفس القدر من الجاذبية لمن ينحون نحوهم.

■

Egypt as a Woman:
Nationalism, Gender, and Politics

(مصر كامرأة.. القومية، الجندر، والسياسة)

Beth Baron
The American University In Cairo Press, 304PP., $22.5, 2005



عمل تاريخى أصيل يستكشف نفوذ وتأثير قضايا الجندر (النوع) على تشكيل الأمة المصرية من القرن التاسع عشر مروراً بثورة ١٩١٩ وصولا إلى الأربعينيات. وتقدم مؤلفة هذا الكتاب بث بارون قصصها على مستويين الأول «تحليلى» ويتناول اللغة المتعلقة بالنوع وصورة الأمة، والمستوى الثانى يتناول النشاطات السياسية للنساء فى إطار الحركة القومية. وتوضح بارون أنه رغم استبعاد النساء من الممارسات السياسية على نطاق واسع فى الدولة، فإن الصورة المتخيلة للامة ظلت تستخدم المرأة كرمز لها. وتربط بارون بين الوضع المثالى للأسرة والنسوية فى الخطاب القومى من ناحية، مع التحولات فى بيوت النخبة وجهود الناشطات من النساء اللواتى كن يتقن للاستقلال الوطنى من ناحية أخرى.

وتعمل بث بارون أستاذا للتاريخ فى «سيتى كوليدج» كما ألفت العديد من الكتب عن الجندر والثقافة فى الشرق الأوسط.

■

The Black Death in Egypt and England
A Comparative Study

(الموت الأسود فى مصر وإنجلترا.. دراسة مقارنة)

Stuart J. Borsch
American University Press, 2005, 195pp



أنتشر الطاعون فى العالمين العربى والغربى و أثر على هذه المجتمعات بشكل يفوق أى مرض أو ظاهرة طبيعية أخرى. وبالاضافة إلى تأثيره على البلاد فقد كان للطاعون أثره على إعادة بناء المجتمعات التى تفشى فيها. فقد شكلت مرحلة تفشى وباء الطاعون خطا فاصلا تحدد بعده شكل تطور البلدان التى هاجمها. ومع أن حجم الكارثة البشرية الناتجة عن المرض والتى وصفت بأنها توازى إبادة نووية كان واحدا فى العالمين العربى والغربى، إلا أن التطور التالى لهذه المرحلة اختلف جذريا فى العالمين. فبينما انتشر البحث العلمى والتطور التكنولوجى فى العالم الغربى، سادت مرحلة من التراجع فى العالم العربى على كل المستويات. وقد أرجعت دراسات سابقة عديدة هذا التباين لعوامل الدين ولكن الكاتب فى هذه الدراسة يرجع هذه الظاهرة لأنماط ملكية الأراضى. ولكى يثبت نظريته فهو يبحث فى هذا التأثير على مصر وإنجلترا بالذات بسبب تشابههم كمجتمعات زراعية وصلت لدرجة متطابقة تقريبا من التطور قبل تفشى الطاعون. ويرى الباحث أن الملكية المركزية للأراضى الزراعية فى مصر التى تركزت بشكل أساسى فى يد سكان الحضر جعلت إعادة الإنتاجية فى الريف لمعدلاتها السابقة أو حتى لمعدلات كافية للنمو، أمر شديد الصعوبة. على العكس من ذلك كانت الأراضى الزراعية فى إنجلترا مملوكة بالأكثر لملاك محليين مما ساعد على عودة الناتج إلى سابق عهده بحلول العام ١٥٠٠، بيدل هذا الطرح الجديد من الفكرة السائدة فى السابق حول أن السبب الرئيسى لاختلاف شكل التطور فى هذين المجتمعين يكمن فى الفوارق الثقافية أو الدينية.

■

«ليس كل ما يلمع ذهبا»
الكتب الأكثر مبيعا

Natural Cures "They" Don't Want You To Know About

(علاجات طبيعية لا يريدونك أن تعرف عنها شيئا)

Kevin Trudeau
Alliance Publishing, 2005, 571pp, $29.95



فى أمريكا (بلد البيزنس والبراجماتية .. والفرص) كل شىء ممكن.

كيفين ترودو الكاتب الأمريكى المتخصص فى شئون حماية المستهلك، والذى تحتل كتبه عادة قائمة الكتب الأكثر مبيعا له قصة مثيرة تناقلتها الأخبار ودوائر (الميديا) والنشر الأمريكية.

كان ترودو قد تعرض لملاحقات قانونية فى نهاية السنة الماضية بسبب المعلومات التى ينشرها عن العلاجات البديلة وكانت نتيجة هذه الملاحقات إجباره على دفع تعويض لمفوضية التجارة الأمريكية والامتناع عن أى أعمال دعاية سواء كان هذا الأمر بواسطته شخصيا أو بواسطة أى من شركاته العديدة ومع ذلك فقد ظهر كتاب جديد لترودو يفضح فيه ما يعتبره خطة محكمة تدار من قبل الشركات الكبرى ويتورط فيها كل من هيئة الأغذية والأدوية الأمريكية والمفوضية التجارية الأمريكية. تفاصيل القضية كما يطرحها ترودو فى كتابه هى أن بعض الفيتامينات والمكملات الغذائية التى يمكن للمستهلك شراؤها مباشرة من السوبر ماركت بدون إبراز روشتة طبيب تلعب دورا فى إفساد صحة المواطنين وإصابتهم بأمراض مزمنة فى أوقات لاحقة من حياتهم. ويتهم ترودو بعض الشركات القابضة المنتجة للمكملات الغذائية والتى تسوقها مباشرة للمستهلك، أن لها فروعا أخرى تنتج أدوية تعالج العوارض الصحية المترتبة عن استخدام المكملات الغذائية التى تنتجها الشركات الشقيقة. كما يرى ترودو ان هناك أنواعا من العلاجات الطبيعية التى يمكن أن تحل محل هذه المكملات الغذائية ولكن لشركات الأدوية مصلحة فى أخفاء أية معلومات عن هذه المواد والعلاجات كى لا تتأثر مبيعاتها سواء بشكل مباشر أو بالقضاء على الأمراض المزمنة. ولا تقتصر أقتراحات ترودو لصحة بديلة على العلاجات فقط ولكنها تمتد لتشمل حتى بعض الفلسفات المعينة.

ومن المنتظر أن يتعرض ترودو للملاحقة القانونية مرة أخرى حيث أنه بموجب الاتفاق القانونى الذى أبرمه فى سبتمبر من العام الماضى دفع مبلغ مليونى دولار أمريكى كتعويضات لمفوضية التجارة الأمريكية عن المزاعم التى نشرها عبر برنامجه الدعائى من أن نوعا من الشعب المرجانية يشفى من السرطان. ومن الطريف أن ترودو كان يروج لهذه المادة عبر أقراص مصنعة شبيهة بالنوع الذى يدعو لمقاطعته فى كتابه الجديد. ولم تقتصر عقوبة ترودو على الغرامة المالية ولكنها اليوم ممنوعة بحكم قضائى من الظهور فى أى نوع من البرامج الدعائية التى تروج لأى نوع من المنتجات أو البرامج أو الخدمات الموجهة للجمهور. وأعلنت ليديا بارنز مديرة المفوضية فى ذلك الوقت أن الاتفاق القانونى الذى عقد بين الطرفين يهدف فى الأساس «لإغلاق شركة دعائية أضلت الجمهور الأمريكى لسنوات».. وكشف موقع المفوضية أن ترودو كان قد حكم عليه مرتين فى السابق بتهم تتعلق بالنصب عبر بطاقات الائتمان. ولكن هذا الكشف فى حد ذاته يبدو كأنه جزء من حرب المفوضية ضد ترودو. حيث إنه جاء خارج سياق الموضوع المتعلق أساسا بالتسوية القضائية بينه وبين المفوضية.

وبالرغم من كل ما سبق فإنه فى كتابه الأخير «علاجات طبيعية لا يريدونك أن تعرف شيئا عنها» قد حقق مبيعات عالية وضعته على قائمة النيويورك تايمز لأعلى الكتب مبيعا أى أن المستهلكين على ما يبدو لا يزالون راغبين فى سماع ما يقوله ترودو بخصوص الصحة بشكل عام. وقد تنبأت أمازون ربما من باب الدعاية أن هذا الكتاب الجديد سيعرض الكاتب مرة أخرى للمساءلة القانونية. وتفتح قضية ترودو الباب للبحث عموما فى كتب ومنتجات الصحة البديلة التى تحولت الكثير منها إلى مؤسسات تجارية مثل أتكينز والتى يتم التشكيك حاليا فى آثارها الصحية.

أرقام توزيع كتب ترودو (النصاب حسب القانون الأمريكى) تطرح علامة استفهام كبيرة حول القيمة الحقيقية للكتب «الأكثر مبيعا».

نرمين نزار

هوامش
على دفتر المحاكمة

قبل عامين.. وضمن أعراض حمى ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، اعتقلت السلطات الإسبانية تيسير علوني؛ مراسل «الجزيرة» الشهير «متهمًا بالاتصال بتنظيم القاعدة..». واعتبر من قرأ أدلة الاتهام وقتها أن الرجل «متهمٌ بممارسة مهنته».. لا أكثر. يومها (خريف ٢٠٠٣) كان ٣٩ صحفيًا قد لقوا حتفهم في عام واحد «جراء ممارسة المهنة». اليوم - وبعد عامين من التحقيق والمداولات.. والانفجارات - صار «المتهمُ بممارسة مهنته» محكومًا عليه بسبع سنوات من السجن زائد الغرامة. وأضيفَ إلى قائمة الضحايا ٩٤ صحافيًا. ولم يكن بعيدًا أبدًا عن الظاهرة، أن في الأسبوع ذاته الذي شهد الحكم على علوني، كادت ميَ شدياق (نتفق أو نختلف معها) أن تلحق بزميلها «في المهنة الخطرة» سمير قصير.

قبل عامين عرف علوني/ الصحافي طريقه إلى السجن. وقبل عامين بالضبط، وبالتحديد في عدد أكتوبر ٢٠٠٣عرفت هذه القصة طريقها إلى هذه الصفحات.. لا شيء تغير.!



حقًا لا شيء تغير، فعالمُنا مازال يسيرُ للأسف في الطريق المظلم الذي سيق إليه عشية الحادي عشر من سبتمبر، والغبارُ المتصاعد في سماء مانهاتن في ذلك اليوم البعيد مازالت غشاوته - للأسف - تغشي الأفكارَ والأبصارَ.. والعقول.

رغم الأعوام الأربعة، ورغم كل المظاهرات وبيانات المنظمات الحقوقية، لا شيء تغير. فقط مزيدٌ من الحروب.. ومزيدٌ من المعتقلات.. ومزيدٌ من الضحايا.. ومزيدٌ من القوانين المهددة للحريات. وبالأخص لحرية القول. هل لاحظتم ما جاء في القوانين البريطانية الأخيرة من تجريم «للتحريض.. ولترويج أفكار تؤدي إلى العنف»، وما جاء به الأمريكيون من تجريم «للتحريض على معاداة السامية..»؟!

من يعرف من القانونيين النظمَ القانونية لتلك البلدان يدركُ قطعًا كم هي «خطرةٌ» تلك التعبيرات الفضفاضة في عالم رغمَ «عولمة» أذابت كثيرًا من الحدود يبقى حافلاً - لابد أن نعترف - بالكثير من التباينات الثقافية واللغوية.



هاهو تيسير علوني يساق إلى السجن مدانًا «بممارسة المهنة». وهانحن...؟ فليقرأ كل منا القوانين الجديدة. ولينظر كل منا فيما كتب. إنها حقًا مهنةٌ خطرة.

قبل عامين بدأت قصة علوني «الأوروبي الجنسية / العربي الأصل» كما كثير من نظرائه مع تداعيات مانهاتن، من سوء الفهم والتوجس والشكوك وصولاً إلى أسوار المعتقلات والسجون.

وقبل عامين بالضبط، عرفت هذه القصة طريقها إلى هذه الصفحات. كأن لا شيء تغير. إذ ها أنا أعيد كتابتها - ربما - بالكلمات ذاتها - اذ يظل لافتًا أن لا الوقائع تغيرت.. ولا الدلالات. فقط التواريخ.! ولهذا - في حد ذاته - معناه.

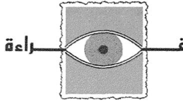
على الهواء مباشرة: مراسل «الجزيرة» تحت القصف الأمريكي في بغداد (أبريل ٢٠٠٣)











أيمن الصياد

■ كان الظلامُ دامسًا في هذا المساء الرطب البعيد، عندما كنت وزميلي المصور نتسلل محتمين بأستار الظلمة، وبعشوائية المنطقة الفقيرة، عائدين من زيارة صحفية - هي الأولى وقتها - لمنزل الشيخ عمر عبدالرحمن المتواضع في الفيوم جنوب القاهرة. والذي كان محاصراً ومراقباً من قوات الأمن السرية المصرية. ورغم أنه «عالمٌ ثالث» متهمٌ من الغرب - كلاسيكيًا - بتقييد حرية الصحافة والصحافيين. فقد كان «أقصى» ما نخشاه يومها هو أن يكتشفنا أحدهم، فيصادر أفلام التصوير التي كنا أخفيناها في جواربنا وأحذيتنا.

لم يكن الاعتقالُ وارداً، ولا الاتهام بـ«الاتصال بقادة الإرهابيين».

بعد أيام نشرنا التحقيق والحوار والصور.. وكان كل ما حدث أن صودرت المطبوعة. ولكننا (ودون مبالغة أننا عشنا أو نعيش جنة الديمقراطية) عدنا إلى بيوتنا. ونمنا في أسرّتنا. وذهبنا إلى مكاتبنا صباح اليوم التالي نعد لقصة صحفية جديدة. وفي أسوأ الأحوال. وأندرها. نستعد لمصادرة جديدة.. ليس أكثر.

لا أعرف لماذا تذكرت القصة القديمة كلها عندما نقلت وكالات الأنباء قبل أيام من غرناطة الأسبانية الأوروبية (الأندلسية سابقًا) خبر محاكمة تيسير علوني مراسل الجزيرة الشهير الذي انفرد بلقاءات بن لادن المثيرة للجدل. والذي نجا من الموت مرتين تحت القنابل الأمريكية في كابول (نوفمبر ٢٠٠١) وفي بغداد (أبريل ٢٠٠٣). متهماً بالعلاقة مع قادة تنظيم القاعدة وكوادره.

كان الخبر القادم من بلد أوروبي «يقولون أنه تحرر من ربقة الاستبداد الإسلامي قبل قرون»، مباشراً وصادمًا ومفاجئًا.. وإن لم يكن للجميع.

قد يكون علوني بريئًا، وقد لا يكون. فلسنا هنا جهة ادعاء أو دفاع أو تحقيق. كما أن هذه الكلمات ليس مقصوداً بها، ولا منتظراً منها أن تكون سطوراً في عريضة اتهام أو مرافعة دفاع أو أوراق تحقيق. ولكن أيًا ما كان الأمر. وأيًا ما كان منطوق الحكم الذي هو في النهاية «أسباني»، تبقى على هامش تلك «القضية» - المبعثرة الأوراق - ملحوظاتٌ ثابتة.

[١]

حوكم علوني - بالطبع - حسب مواد القانون الأسباني وإجراءاته. والقانون - أي قانون - يأتي في نهاية المطاف ليعكس، أو ليراعي واقعًا ثقافيًا معينًا. ولأن الثقافات - بحكم الطبيعة والتاريخ والموروثات - تختلف، بل وتتباين. ولأن الله «خلقكم شعوبًا وقبائل..» فإن الباحث في القانون المقارن سيجد - ربما - لكل سلوك إنساني مفترض مادة تُجرِّمُهُ وتعاقب عليه. فما هو مباحٌ هنا مُجَرَّم هناك، والعكسُ بالضرورة صحيح.

فتعدد الزوجات - مثلاً - جريمة يعاقب عليها بالسجن في بعض القوانين. كما أن مضغ العلكة قد يؤدي بك إلى الحبس - إن أصررت عليه - في سنغافورة.

ولزمن طويل كنا نعرف - ونمتثل - المثل الدارج الذي يقول: «مادمت في الصين افعل ما يفعله الصينيون» وعليه فكانت الحكمة تقتضي أن تحترم قوانين البلد الذي تزوره أو تعيش فيه. وكان هذا يكفيك. أما في «الزمن الأمريكي» فكل شيء يختلف. السجن يصير «عولميًا» في جوانتنامو. حيث يحتجز - دون محاكمة - معتقلون من ٤٢ دولة. ولأنه لا توجد محاكمة، فقد تكون - ولو نظريًا - كل جريمة بعضهم أنه «تصادف أن كان هناك».

والقاضي يصير «عولميًا» (فقط إن كان أمريكيًا) فنقرأ كيف أن أحدهم لم يستنكف أن يقضي في محكمة «أمريكية» بتغريم الحكومة «الإيرانية» مئات الملايين من الدولارات. لأنها تساند حزب الله «اللبناني» الذي يشجع إعلامه منظمة حماس «الفلسطينية» التي قام أحد أفرادها بعملية في القدس «المحتلة» راح ضحيتها أحد أقرباء العائلة التي رفعت دعوى التعويض. كما لم يتردد زميله في أن يقضي بمصادرة أرصدة منظمة «زكاة» خيرية لأنها تتصدق «من أموال المسلمين على أسر شهداء المسلمين».

هل هي «عولمة» للعدالة والقانون إذن؟ وهل نحن بصدد عالم جديد تتساوى فيه الحقوق والواجبات. ويكون فيه الجميع أمام القانون سواء؟

للأسف لا. إذ يبقى مثيراً لمشاعر عديدة أن أمريكا؛ رائدة العولمة فكراً وتطبيقاً، عرقلت أي اتجاه لعولمة القانون. ومحاولاتها الفجة لإجهاض المحكمة الجنائية الدولية التي ارتضاها المجتمع العالمي معروفة. كما انها لم تتردد، وهي بمثابة الحاكم الفعلي للعالم الآن، في أن تتخذ كل خطوة ممكنة، لكي يصبح مسؤولوها وعسكريوها معفيين من الملاحقة القانونية لتلك المحكمة مهما ارتكبوا من أفعال.

وللتذكرة فقط، ففي أدبيات المسلمين المتهمين من مثقفي واشنطن بالتحيز والتعصب والعنصرية، ما يناقض قاعدة «إذا سرق شريفهم تركوه. وإذا سرق فقير منهم أقاموا عليه الحد..».

والخلاصة أنه - ومع حفظ الحق في الاختلاف حول تعريف البراءة والإدانة وتكييف الاتهام - وسواء كان تيسير بريئًا فيما نعرف، أو مدانًا بما لا نعرف، فعلى الحالين تظل هناك أسئلة مهمة؛ حول المعايير والقاضي ومفاهيم العولمة القانونية الملتبسة. فما يراه الأسبان، الذين كانوا ثالث ثلاثة خالفوا العالم أجمع بإعلانهم الحرب على العراق في قمة الأزور خروجًا على القانون والشرعية الدولية، ربما يختلف عن مايراه القاضي الشرعي في صنعاء، أو ذلك الذي يرتدي الشعر المستعار في «أولد بيلي».

[٢]

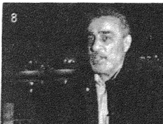
في عالم اليوم.. ربما كان بإمكانك - أو بإمكان غيرك إن أردت - أن تُشَكِّكَ حتى في وجود الله - دون عقابٍ على الأغلب. لكن أن تتساءل عن الأرقام الحقيقية لضحايا المحرقة (بدون حتى أن تنفي حدوثها أو تتحدث عن أهميتها) فستتعرض غالبًا للعقاب في بلاد تتباهى بديموقراطيتها.

أما أن تشكك في - أو تتساءل حول - المسؤول الحقيقي (بالفعل أو المساعدة.. أو الدفع) عن عملية الحادي عشر من سبتمبر، المتقنة كما لم يحدث في التاريخ، والغامضة كما في أفلام هوليوود وأساطير ألف ليلة وليلة، فأنت في أحسن الأحوال مجنون. وستدفع حتمًا ثمن جموحك - أو جنوحك - الفكري. أما أن تصل درجة تهورك إلى المقارنة بين مقاومة الفلسطينيين أو









بعض العراقيين للاحتلال. بالمقاومة الأوروبية للاحتلال النازي قبل ستين عاماً، أو أن تحاول أن تضع تعريفاً لما اصطلحوا على تسميته بالإرهاب، أو أن تبحث عن التوصيف القانوني لما تفعله (الدولة) حين ترسل طائرات الـF16 لتقصف مجمعاً سكنياً من سبعة أدوار في غزة أو كابول أو حي المنصور. فأنت مُدان. وليس فقط متهماً - بالتحريض. بموجب قوانين «عولمية» جديدة. طالت قائمتها. واستعرضت جغرافيتها. وتمطت نصوصها. على غير ما يستوجبه القانون حكماً من دقة (جامعة مانعة) للتعريف والتوصيف.

هو الإرهاب الفكري إذن. والذي يهدد في جوهره أفضل ما أتت به حضارة العرب. وأهم ما تتباهى به حضارة الغرب: «حرية الفكر».

ومع افتراض - مفرط في التفاؤل - بأن اتهام علوني لا يعدو أن يكون اتهاماً لعلوني. فإن الحملة الدعائية لإثبات التهمة والتي تحدثت عن تقارير للموساد والـFBI (يضمها ملف القضية) لابد أن تذكّر بتصريحات لمسؤولين في وزارة الدفاع الأمريكية هددوا فيها الفضائيات العربية. معتبرين أنها تتحمل مسؤولية دماء الأمريكيين في العراق بتغطيتها الإخبارية التي يراها المسؤولون الأمريكيون «تُحرّض على المقاومة».

يتصور المسؤول الأمريكي إذن أن من حقه. بلا منازع. أن يحدد للإعلام العربي الطريقة التي يعالج بها ما يجري في العراق. وإلا فعليه - أو بنص التصريح - على الدول التي تنتمي إليها تلك الفضائيات أن تتحمل النتيجة(!)

نسمع هذا في بداية القرن الحادي والعشرين. وعلى لسان مسؤول كبير في الدولة «الأكبر» التي تضع على بوابتها تمثالاً «للحرية».

[٣]

ماذا حدث لقيم الغرب التي كنا - كليبراليين - نتغنى بها. وكمشرقيين نحسدهم عليها؟!

في أوراق قضية علوني - سواء كان بريئاً أو مداناً - تفصيلات كثيرة تدفع بالسؤال حتماً إلى الواجهة.

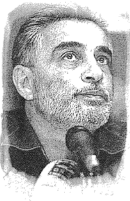
١ - في الملف الضخم (٧١٠ صفحات) ما يشير إلى تسجيلات لجميع محادثاته الهاتفية على مدى أعوام ثلاثة. رغم أنه لم يكن وقتها متهماً. ولا حتى مشتبهاً به. (تُحرِّم القوانين وكذا مواثيق حقوق الإنسان التنصت على الهواتف إلا بإذن قضائي، ولمدة محددة ومحدودة، وبناء على تحريات جدية وقرائن قوية).

٢ - مطالعة نصوص تسجيلات التنصت (٥٠٠ ساعة)، والتي اعتبرها الادعاء الأسباني دليلاً قوياً، تدعو للأسى لعدم إدراك البُعد الثقافي لمحيط المتهم الاجتماعي. فعلى سبيل المثال يتضمن تسجيل تم يوم ٢٠٠٠/٢/٢١ اتصالاً من تيسير بمواطنه السوري المغترب مثله في أسبانيا «أبوالدحداح» يقول له أنه سيسافر ليعمل مع «الجزيرة» في أفغانستان. وأنه اتصل به ليودعه. ويسأله إذا كان يريد شيئاً من هناك. فيطلب أبوالدحداح أن يبلغ أبوخالد - مواطنهم الثالث الموجود آنذاك في أفغانستان - أنه سيرسل إليه المال في غضون عشرة أيام. هذه المكالمة - ومثلها كثير - اعتبرها الادعاء الأسباني دليلاً على علاقات علوني بالقاعدة. والواقع الثقافي يقول أن كل عربي جرّب الاغتراب اقترف مثل تلك الجريمة (السؤال عن الأحوال وحمل الأموال والرسائل، بل والحقائب) كثيراً.

٣ - وأسمح لنفسي هنا أن أنقل عن عبدالرحمن الراشد رئيس تحرير السابق «للشرق الأوسط» اللندنية - وليس عن غيره - إذ يعرف الجميع أننا لا يمكن أن نحسبه متحيزاً لتيسير علوني أو «الجزيرة».

يقول الراشد: «الاتهام يدعي أن علوني دفع أموالاً لأعضاء في «القاعدة». في نظري إن كان ذلك صحيحاً فهو أمر مبرر ومقبول في الظروف الصعبة التي عمل فيها مراسل «الجزيرة». فالكثير من التقارير والأشرطة لا تُعطى للصحافيين مجاناً، وبعض المؤسسات تغض النظر وتسمح لمراسليها بدفع الأموال لشراء هذه الوثائق. وما خرجت به محطة «الجزيرة» في تلك الفترة يستحق الثمن المدفوع، إن كانت هناك حقاً أموال دُفعت، لأهميته الصحافية. وبالتالي فهي تهمة ظالمة حتى وإن أفادت الأموال «القاعدة» لاحقاً. علوني أيضاً له الحق في مهمته الخطرة حينذاك بالتعامل مع أعضاء «القاعدة» طالما أنه تعامل لم يشمل حمل سلاح أو الإضرار بأحد طرفي الحرب. له الحق في كل الاختلاط الذي قام به مع كبار أعضاء التنظيم في العديد من الدول إذا لم يوجد دليل على عضويته الكاملة. فمهمته تتطلب منه استمرار الاتصال والإبقاء على علاقة حسنة مع مصادره، وإن بدت في نظر محققي الأمن أنها حميمية جداً».

وبعد أن ينبه الراشد إلى أن أخطر تهمة في العالم يمكن أن توجه لإنسان اليوم هي المشاركة في هجمات ١١ سبتمبر (وهي التهمة الأسبانية الموجهة لتيسير) يقول أن على المحققين الأسبان ألا يتوقعوا من الإعلاميين بغض النظر عن ميولهم، القبول بها دون أدلة دامغة لا مجرد ظرفية، «مثل الاجتماع بأبو الدحداح أو تناول الغداء مع أبوزبيدة أو دفع أموال لابن لادن أو ورود اسمه في دفتر هواتف الزمار».



هــو الإرهــاب الفكري إذن. والــذي يــهــدد في جوهره أفــضــل مــا أتــت بــه حضارة العرب. وأهــم مــا تــتــبــاهــى بــه حضــارة الغرب: «حريــة الفكـر»

أين ذهبت قيم الغرب الليبرالية في هذا الزمن الأمريكي؟!

لاشيء هناك غير هيستيريا الإرهاب التي أفرخت ترسانة من قوانين تكميم الأفواه باسم الوطنية والأمن القومي.

قبل فترة طويلة كانت القناة الرابعة في التليفزيون البريطاني تغطي مظاهرة احتجاج أمام معرض للأسلحة أقيم في لندن. حيث لجأت قوات الشرطة إلى العنف في التعامل مع المتظاهرين متذرعة بالمادة ٤٤ من قانون مكافحة الإرهاب. يومها أعلنت منظمة «ليبرتي» عن عزمها مقاضاة الشرطة لتفعيلها تلك المادة في مناسبة كتلك. ويومها طاف مراسل التليفزيون البريطاني أليكس تومسون بالمتظاهرين يسأل كل واحد منهم بنبرة جادة تحمل قدراً من السخرية المفهومة: «هل أنت إرهابي؟!».

حتى لو كان تيسير مداناً، يظل الصحافيون متهمين بالشبهة، ويظل صحيحاً أنه يُخطيء من يعتقد أن المقصود رأس «الجزيرة» وحدها. ويخطيء من يفصل بين اتهام علوني، واتهام رأينا التلويح به يوماً ما استهدف ملاحقة رئيس اتحاد الصحافيين العرب ذاته «رمزاً ربما» بتهمة «التحريض على معاداة السامية».

يطلقون في عاميتنا المصرية تعبير «الحيط المايل» على ما - أو مَن - تُكال إليه الاتهامات، بحق أو بدونه، فيصبح مرشحاً دائماً لأن يكون كبش فداء. تُغلق صحيفةٌ مصرية ذات يوم - رغم أنف القانون - لأن طلاباً تظاهروا. ويُوجّه إنذار إلى مراسلي الفضائيات في بغداد، لأن مجهولاً أطلق رصاصاً - لا خبراً صحفياً - على عضو بمجلس الحكم الانتقالي، في بلد يُطلَق من الرصاص فيه أكثر مما يُباع من الخبز. ويُعتقل تيسير علوني لأنه وطّد علاقته مع مصادره المنتمية إلى تنظيم القاعدة. ويُقصف طارق أيوب بصاروخ أمريكي لأنه استمر يزاول عمله رغم كل شيء. ويموت مصور «رويترز» مازن دعنا على باب سجن في بغداد، لأن جندياً أمريكياً متهوراً اعتقد أن عدسة الكاميرا مدفع للمقاومة.. ولعلها - حقيقةً - كذلك.

مثيرٌ أن تصبح الصحافةُ مسكينةً. وأن يصبح الصحافيون مساكين في عالم يطل عليه من كل ناحية تمثال أمريكي «للحرية». ■

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية ـ العدد الثانى والثمانون ـ السنة السابعة ـ نوفمبر ٢٠٠٥ ـ الثمن عشرة جنيهات
Weghat Nazar - Volume 7 - Issue 82 - November 2005

المرأة.. أيقونة الحب والحرب

كابوس البوليساو الطائر

نوبل نوبل.. هل نحن حقاً "نوبليون"؟

في بلاد التتار

عراق واحد.. أم أعراق؟!



الفساد الأصغر والفساد الأكبر

السنة السابعة
العدد الثانى والثمانون
نوفمبر ٢٠٠٥

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى



وجهات نظر

الكتب

فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم



محتويات العدد:

كتاب العدد:

- إبراهيم العريس.. ناقد سينمائى من لبنان.
- أحمد أبو حسين.. كاتب فلسطينى ومدير موقع عرب ٤٨ على الإنترنت.
- ألبرشت هوفهاينز.. أستاذ مساعد فى جامعة أوسلو - متخصص فى الدراسات الثقافية.
- أمير حمد.. كاتب وشاعر سودانى مقيم فى برلين.
- أميمة أبو بكر.. أستاذة الأدب الإنجليزى المقارن بجامعة القاهرة.
- آن بنيكث.. المحررة الدبلوماسية لصحيفة الإندبندنت البريطانية.
- أيمن الصياد.. صحفى.
- براين هاندورك.. صحفى أمريكى.
- بشير نافع.. أستاذ مساعد بجامعة لندن - فلسطينى.
- جمال محمد غيطاس.. رئيس تحرير مجلة لغة العصر - مصر.
- جون جراى.. أستاذ الفكر الأوروبى بكلية لندن للاقتصاد.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى.
- صالح محمد النعامى.. كاتب فلسطينى.
- فهمى هويدى.. صحفى.
- محمد إبراهيم شاكر.. نائب رئيس المجلس المصرى للشئون الخارجية.

رسوم العدد للفنانين
سعد الدين شحاته - أحمد اللباد
Ares - David Levine





المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٢ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١٫٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١٫٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١٫٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٢٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

نـــون

ســـــلامة أحمــــد ســــلامة

من الفساد الأصغر إلى الفساد الأكبر

■ برزت قضية الفساد والدعوة إلى مكافحته في السنوات الأخيرة، كواحد من أهم المعايير التي يقاس بها الحكم الصالح في البلدان العربية. وهي قضية قد تغيب في خضم الجدل الساخن الذي يجتاح المنطقة حول الحاجة الملحة إلى إنجاز إصلاح سياسي سريع على طريق الديمقراطية والحرية في سياق جهد مكثف لتحقيق التنمية الإنسانية بمعناها الواسع. ولكن المحقق أن انتشار الفساد يعد أخطر معول هدم في مجال التنمية، وبالأخص حين يتلازم مع مناخ القمع وغياب الديمقراطية والتضييق على الحريات المدنية.

وفي مجتمعاتنا مقولة لا تنفك تتكرر كلما زكمتنا رائحة الفساد وتفجرت على الملأ فضائحه، وهي أن الفساد ليس قصراً علينا بل هو آفة عالمية تنتشر في البلاد الغنية والفقيرة، الديمقراطية والديكتاتورية. وهذه حقيقة لا ينكرها أحد، إذ شهد العقد الأخير بروز الفساد كقضية سياسية عالمية، اجتاحت الساحة. فسقطت حكومات، وأطيح بأحزاب من الحكم. وانتحرت شخصيات سياسية مرموقة. ولكنها كظاهرة ووجهت أيضاً بما يشبه الثورة على مستوى العالم، وعكفت منظمات دولية عديدة على تقديم المبادرات لإحكام الرقابة الدولية الكفيلة بمكافحتها، باعتبارها من أقدم المهن التي يمارسها السياسيون ورجال الأعمال وسدنة البيروقراطية لبعض الوقت، إن لم يكن طول الوقت.

ولا يتوهمن أحد أن دحر الفساد يمكن أن يتحقق في مدى زمني قصير ينتهي بانتهاء مظاهره. فالفساد ظاهرة معقدة متعددة الوجوه والأسباب والطرائق. وكثير من الساسة الذين اتخذوا من مكافحة الفساد منطلقاً للوصول إلى السلطة، لم يلبثوا أن غرقوا في الفساد إلى أذقانهم، وإن كان هناك أمل بأن الحرب على الفساد يمكن أن يتحقق النصر فيها، بعد أن أخذ التوازن بين الحكومات والشعوب يتحول إلى صالح الشفافية، وأساليب الحكم المنفتحة، وآليات المحاسبة الديمقراطية، وظهور عصر المعلومات وتقدم تكنولوجيا المعرفة.. وكلها من العوامل التي فتحت العيون على حقائق ومعلومات لن يكون بوسع أي حاكم أن يخفيها أو يتلاعب بها، بل أصبحت أساساً لشرعية النظام واستمراريته والقبول به دولياً.



ومن المسلم به أن طول بقاء جماعة حاكمة في مقاعد السلطة يعد من أهم العناصر التي تولد بيئة الفساد. وهناك أمثلة عديدة لموبوتو وماركوس وصدام وسوهارتو وعشرات غيرهم. فالديمقراطية التي تقوم على مبدأ تداول السلطة، لا تضفي حصانة تلقائية ضد الانحراف، بل تولد بيئة مقاومة للفساد بفضل قوى وأحزاب معارضة نشيطة، وسلطتين تشريعية وتنفيذية مستقلتين، ووسائل إعلام حرة تمتلك ضمانات حرية النشر والتعبير، وقضاء مستقل لا تُنتهك قداسته.

أما في الدول التي تمر بمرحلة انتقالية من الحكم السلطوي إلى الديمقراطية، أو من نظام الحزب الواحد إلى النظام التعددي، ومن الاقتصاد المركزي إلى اقتصاد السوق.. فإنها تكون أكثر عرضة للفساد. وكلما طالت وتأخرت عملية التحول كلما عششت عناكب الفساد وتسترت. إذ يصبح الفساد لا مركزياً، بتعدد مراكز القرار، وتفكيك القيود المفروضة على أنشطة اقتصادية وتجارية كانت خاضعة بأكملها لبيروقراطية الدولة، مما يفتح الباب أمام التدليس واغتنام الفرص. وتظهر طبقة جديدة من المسئولين الذين أنيطت بهم عمليات خصخصة الأصول العامة من أصحاب الثروات الفاحشة، عن طريق بيع تلك الأصول بأسعار منخفضة لقاء رشاوى سخية، أو تمكين أسرهم وأصدقائهم من حيازتها. وهي عمليات - كما تقول دراسة صادرة عن مجموعة دافوس التابعة للمنتدى الاقتصادي العالمي - تحدث في المراحل الباكرة من الانتقال إلى اقتصاد السوق. عندما تخصخص الشركات في غيبة إطار تنظيمي فعال. ويفضي التعايش بين قطاعات تتميز بحرية السوق والأسعار وبين قطاعات أخرى مازال يسود فيها التخطيط المركزي، إلى حدوث تشوهات كبرى وفرص مهتبلة للكسب غير المشروع.

وفي عالم اليوم أصبح النظام الدولي يتكون من شبكات تضم مئات الآلاف من شبكات الكمبيوتر، وبضربة واحدة على مفاتيحها، تتدفق أرقام لا يدركها العقل لملايين الملايين من الدولارات يومياً في معاملات يصعب تتبعها، لتحويل أموال إلى مواقع مترامية الأطراف حول الكرة الأرضية. وحسب دراسة لمجلة «التايم» الأمريكية فإن البحث عن الأموال القذرة الطافية على سطح محيط من المدفوعات والأموال المشروعة، يصبح مثل البحث عن إبرة في كومة من القش. مما يجعل التخلص من ثمار الفساد والإجرام أمراً بالغ اليسر من الناحية التقنية، ويجعل التمييز بين الأموال المشروعة وغير المشروعة أمراً بالغ الصعوبة.



أين تقع البلدان العربية إذن على خريطة الفساد؟

في مسح أجرته منظمة الشفافية العالمية (٢٠٠٣) تجاوز التقدير بانتشار الفساد بين عينة إحصائية في خمس دول عربية نسبة الـ ٩٠٪. وكان الاستنتاج المنطقي أنه لا ينتظر أن تقل النسبة عن ذلك في البلدان العربية الأخرى التي لم يجر فيها المسح، وذلك طبقاً لتقرير عام ٢٠٠٤ عن التنمية الإنسانية العربية.

والفساد كما هو متعارف عليه، هو استغلال المنصب العام من أجل منفعة خاصة. وإن كان هناك نوع آخر من الفساد الذي يفرزه الخلل الكامن في بنية النظام.. وذلك على سبيل المثال حين يجعل القانون والعرف في بعض الدول من الأرض والثروات الطبيعية ملكاً للحاكم أو الأسرة، وهو الشأن في دول النفط، دون تمييز بين الصفة الخاصة والعامة للحاكم. أو في حالات أخرى حين تنشئ الدولة مؤسسات اقتصادية تابعة لبعض أجهزتها العسكرية أو الأمنية بغرض تمويل نشاطها. وهنا تختلط الأمور، حيث يصعب وضع حد فاصل بين ممارسة المسئول لحدود وظيفته الرسمية، وبين تصرفات تدخل في باب الفساد الشخصي. فضلاً عن أنواع أخرى من التحايل على القوانين التي تحظر في معظم البلدان العربية على كبار المسئولين الجمع بين المنصب العام والعمل الخاص. وتغمض الدولة عينيها، فيتجاوز المسئول هذه الحدود، بإنشاء شركات باسم زوجته أو أفراد أسرته. وهو وضع ملتبس ييسر للشركة الاستفادة من موقع المسئول ونفوذه وعلاقاته!!

وهكذا يتضح أن أشكال الفساد أوسع كثيراً في البلدان العربية مما نتصور، ولا يمكن فصلها عن التركيبة السياسية. وتبدو وجوه الفساد حينئذ واضحة للعيان، وخاصة في قطاع الأعمال. ويشير تقرير التنمية الإنسانية العربية إلى ظاهرة احتكار أهل الحكم للأنشطة الاقتصادية المهمة، إما مباشرة أو باعتبارهم «شركاء» لرجال الأعمال الناجحين. كما يتلقى المسئول وبطانته عمولات طائلة عن العقود التي تبرمها الشركات الأجنبية والمحلية مع الدولة.. بما في ذلك صفقات التسليح، والأدوية

والمبيدات واللحوم والأغذية والقمح، وطائفة كبيرة من السلع والاحتياجات العادية والاستراتيجية التى لا مجال هنا لحصرها. وفى مصر على وجه التحديد لا تكاد سلعة من هذه السلع تغيب عن قائمة فضائح الفساد الكبرى التى لا ينشر غير النزر اليسير منها فى وسائل الإعلام بين يوم وآخر.

تطلق الدراسة على هذا الضرب من الفساد الأكبر «الفساد البنيوى»، لأن الاستغلال الشخصى للمنصب والتصرف فى المال العام، يعتبر هنا أمرًا طبيعيًا فى العرف السائد ويجرى تبريره بأنه من ضرورات الحيلولة دون انهيار النظام، والمحافظة على الأمن العام.. وذلك بخلاف أنواع أخرى من الفساد الذى يتورط فيه مرتكبه خفية وبعيداً عن الأعين حتى لا يقع تحت طائلة القانون.



يبقى بعد ذلك ما يسمى «بالفساد الأصغر»، وهو الفساد الذى يضطر فيه المواطن للجوء إلى الرشوة أو الوساطة والمحسوبية، للحصول على خدمات أو حقوق هى فى أغلب الأحوال حقوق مشروعة، أو لتفادى التعرض للغرامة أو لعقاب من جهة الإدارة. وهذا الفساد الصغير أو الأصغر هو الأوسع انتشاراً فى البلاد العربية. ولا يكاد يوجد مواطن عربى لم يلجأ إليه، إن لم يكن لمنفعة خاصة فلواحد من أفراد أسرته أو أصدقائه.

وفى كل الأحوال لم يترك الفساد فئة أو طائفة من فئات المجتمع لم يصل إليها فى مجال العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ويحتل السياسيون ورجال الأعمال وكبار الموظفين رأس القائمة بين أكبر المساهمين فى انتشار الفساد فى البلدان التى تناولها المسح المشار إليه. وإن كانت الشكوى قد أجمعت على فساد صغار الموظفين، نتيجة سوء الإدارة وتغلغل ثقافة الفساد فى المجتمع.

بل إن القضاء لم ينج من شكاوى الفساد.. وفى الأغلب الأعم نتيجة تدخل الدولة للتأثير على أحكام القضاء، وبالدرجة الأولى فى القضايا التى تتصل بضرورات بقاء النظام وتأييده، حيث يخضع القضاء إدارياً فى معظم الدول العربية للسلطة التنفيذية فى التعيينات والترقيات والمميزات الأخرى. ويلجأ النظام السلطوى فى أحيان كثيرة - من أجل البقاء - إلى إنشاء نظم قضائية موازية تطبق فيها إجراءات وقوانين استثنائية



تراكم صور الفساد من مستوياته الدنيا إلى مستوياته العليا يفضى فى النهاية إلى فقدان الثقة فى النظام السياسى وإلى ارتفاع تكلفته السياسية بما يهدده بالانهيار. ومن المسلم به فى الدراسات الموثقة أن الفساد يزدهر فى ظل نظام الحزب الواحد أكثر منه فى ظل تعددية حزبية



تفتقر إلى معايير العدالة. وهو أسلوب ينتشر فى معظم الدول العربية ويكون سبباً فى تقنين شرعية الفساد وتحصينه.

بيد أن أخطر أنواع الفساد على الإطلاق هو الذى تسرب إلى الجامعات ومراكز البحوث والمؤسسات التعليمية. وفى مصر فقدت الجامعات مكانتها بسبب انتشار سرقات البحوث العلمية ورسائل الماجستير والدكتوراة، ومعها ظاهرة بيع الامتحانات وبيع المذكرات الجامعية وانتشار الغش الجماعى فى الشهادات العامة. وقد أصبح من المألوف أن نسمع بين يوم وآخر عن مؤلفين سرقوا كتباً ونصوصاً من تأليف مؤلفين آخرين. ولا توجد عقوبات رادعة لمحاربة هذا النوع من الفساد الذى يسرى فى نخاع العقل الجمعى للأمة، أكثر من حرمان الأستاذ الذى سطا على إنتاج زميله من الترقية، أو إبعاده من الجامعة.

وحين يصل الفساد إلى المؤسسة التى تتولى الارتقاء بعقل الأمة وزيادة قدراتها المعرفية وتنشئة أجيالها القادمة، فكل شىء يهون بعد ذلك. ويصبح تسرب الفساد إلى مجالات أخرى أمراً طبيعياً لا يحرك ساكناً ولا يهز جامداً. ولهذا السبب - ربما - لم تتأثر الدولة كثيراً أو قليلاً حين تكشف حجم الفساد الذى عم مؤسسات الصحف القومية فى مصر خلال العقدين الأخيرين، وتحولت هذه المؤسسات إلى مصدر للإثراء غير المشروع بينما كانت الديون والقروض تتراكم عليها بالمليارات. ومع ذلك فمازالت الدولة تحجم عن فتح ملفات الفساد المالى والإدارى فيها.

وثمة صورة أخرى من صور الفساد، هى تلك التى يقوم فيها تحالف بين المال والسياسة.. إذ ينخرط بعض رجال الأعمال فى المؤسسات السياسية والحزبية سعياً لعضوية المجالس النيابية، أو مجالس إدارات البنوك والشركات، للحصول على مميزات أو تسهيلات، والاحتماء بالحصانة النيابية.. وهو ما أدى إلى ظهور ما عرف باسم نواب القروض ونواب المخدرات والمتاجرين فى أراضى الدولة فى مصر. ووراء كل عبارة من هذه العبارات قضايا فساد كبرى قد تمتد سنوات وسنوات أمام المحاكم دون حسم.



من هنا تطرح قضية الفساد بدرجاته الصغرى والكبرى إشكالات سياسية بالغة الأهمية، تدور حول العلاقة بين الدولة والمجتمع من ناحية، وبين الثروة والسلطة من ناحية أخرى.

وفى كل الأحوال، فإن المستفيد من الفساد غالباً ما يكون شخصاً أو مجموعة بعينها من الأشخاص فى المواقع الرفيعة من السلطة والشرائح العليا من المجتمع. بينما يلحق الضرر والخراب معظم الناس معظم الوقت. وبعبارة أخرى فإن الفساد ينزع إلى أن يفيد سياسياً ومادياً واجتماعياً من يملكون على حساب من لا يملكون. وهؤلاء الأخيرون قد لا يحصلون إلا على الفتات من ثمار الفساد، فى صورة تلك الرشاوى الصغيرة للحصول على رخصة سيارة أو الإفلات من غرامة مرور.

على أن تراكم صور الفساد من مستوياته الدنيا إلى مستوياته العليا يفضى فى النهاية إلى فقدان الثقة فى النظام السياسى وإلى ارتفاع تكلفته السياسية بما يهدده بالانهيار. ومن المسلم به فى الدراسات الموثقة أن الفساد يزدهر فى ظل نظام الحزب الواحد أكثر منه فى ظل تعددية حزبية بسبب ما يولده من اختلالات جسيمة فى التوازنات بين الدولة والمجتمع من ناحية، وبين السلطة والثروة من ناحية أخرى. ففى الحالة الأولى يزداد نفوذ جماعات المصالح الخاصة ورجال الأعمال والوسطاء سياسياً. وفى الحالة الثانية تنشأ ظروف يتوقف فيها انفتاح مسالك الترقى اقتصادياً وسياسياً على شكل من أشكال المقايضة وتبادل المنافع بين الطرفين.

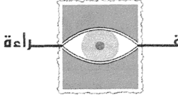
وبالتالى يصبح السؤال مشروعاً: هل يفضى الفساد المتفاقم إلى ديمقراطية أقل؟ وهل يكون العكس صحيحاً: أى هل يؤدى نشر الديمقراطية ودعم الحريات إلى تقليل الفساد؟ والإجابة هنا واضحة ولكنها ليست قاطعة أو صالحة لكل المجتمعات. فمن المؤكد أن نشر الديمقراطية وإطلاق الحريات واحترام سيادة القضاء يؤدى إلى مزيد من التوازن بين الدولة والمجتمع، وبين السلطة والثروة، وبالتالى إلى تقليل فرص الفساد وسد منافذه. ولعل فى هذا ما يفسر الجهود المستميتة للعناصر التى تستفيد من جمود النظام السياسى فترفض مبادرات الإصلاح. لإبقاء كل شىء على ما هو عليه، وعرقلة عمليات الإصلاح السياسى بكل ما تعنيه، من تعزيز الرقابة الشعبية والبرلمانية، ودعم التعددية، وإطلاق الحريات، وتأكيد مبدأ استقلال القضاء، وتحقيق التوازن بين السلطات.. فهذه هى البدايات الصحيحة فى المعركة ضد الفساد!

إضافة أخيرة..

●● فى التقرير السنوى الذى صدر هذا الشهر عن «منظمة الشفافية الدولية»، ومقرها لندن، أكد التقرير الذى شمل ١٥٩ دولة أن أقل الدول العربية فساداً هى سلطنة عمان التى احتلت المرتبة الثامنة والعشرين بالمشاركة مع إسرائيل. تليها الإمارات فى المركز ٣٠، وقطر ٣٢، والبحرين ٣٦، والأردن ٣٧، وتونس ٤٣، والكويت ٤٥، ومصر ٧٠ وتتعادل معها السعودية وسوريا وبوركينا فاسو وكرواتيا وبولندا.

وتصدرت السودان والصومال قائمة الدول العربية الأكثر فساداً حيث اشتركتا فى المركز ١٤٤. واحتلت العراق المركز ١٣٧ وليبيا ١١٧ وفلسطين ١٠٧ واليمن ١٠٣ والجزائر ٩٧ ولبنان ٨٣ والمغرب ٧٨.

ويلفت التقرير النظر إلى أن أكثر من ثلثى الدول التى شملها المسح تعانى من تغلغل الفساد فى القطاع الحكومى. ■



هل نحن «نوبليون» حقًا؟

أيمن الصياد

نوبل «مصرية» رابعة..

هكذا كانت مانشتات الصحف قبل أسابيع. وكأي حقيقة.. أو عبارة يراد لها أن تكون كذلك، تستدعي المعاني أسئلة ضرورية، ومشاهد ذات صلة.

ليس السؤال: هل ذهبت الأوسمة الأربعة إلى من يستحقها أم لا؟ فهم - قطعًا - لبوا معاييرها. واستحقها كلٌ منهم بلا شك، وإن اختلف السياق واختلفت الظروف. ولكن السؤال الذي ألح عليّ وأنا أشهد الاحتفاليات والتصريحات والمانشتات، هو: هل نستحقها (نحن) كمجتمع؟! هل لبينا معايير الحداثة والتقدم: فكرًا وثقافة وعلمًا وتعليمًا؟ وهل يمكن النظر إلى بلادنا باعتبارها تتمتع ببيئة من شأنها أن تزهر «نوبليين»؟

على طاولة غداء جمعتني قبل أسابيع بصاحب نوبل (في العلوم) الباحث في معهد Caltech الأمريكي، والمصري الأصل والهوى «أحمد زويل»، سألته سؤالاً كنت أعرف مقدمًا إجابته: هل كان من الممكن أن يحصل «هو نفسه» على نوبل، لو كان قد استمر به الحال في مصر «أسير» مناخها الأكاديمي والعلمي الذي نعرف؟

رغم الابتسامة الدبلوماسية، والإجابة المهذبة، كان الرد واضحًا لا لبس فيه. ويومها، وبعد أن طلب إغلاق الهواتف المحمولة، التي أصبحت بحق جزءًا من حالة التشتيت العامة في بلادنا، أراد ضيفنا حوارًا حول «مشكلة مصر». ورغم أنه ركز في تشخيصه - ومعه كل الحق - على «المثقفين» وآفاتهم «المتوطنة»، إلا أنه كان طبيعيًا أن يوافقني عالم الفيزياء (أكثر العلوم الطبيعية انضباطا) على حقيقة أن الـ System هو «ضابط» كل شيء. وشرطٌ لابد منه للنجاح والتقدم.. ولاستحقاق نوبل.

والنظام System هو - تعريفًا - عكس «العشوائية». ويعني في أبسط معانيه بنيانًا متكاملاً يبدأ بـ «نظرية» تقوم على عقائد: نؤمن بقيمها. تنشئ «قوانين»: نعمل بها. ومن ثم «آليات»: تنظم تنفيذ هذه القوانين. كل ذلك في «سبحة» منتظمة، تسلم كل حبة فيها تلقائيًا إلى الحبة التالية.

هل تنتظم الحبات في عقد مجتمعنا بهذه الصورة. وبشكل أوضح، هل تؤدي كل المقدمات «عندنا» إلى نتائجها المفترضة؟! أو هل ندرك - عملاً لا قولاً - حتمية العلاقة بين طرفي المعادلة؟

في مجتمع تضيع فيه المسافة بين المقدمة والنتيجة، لا مكان لـ System.

وفي مجتمع مثل هذا يصبح طبيعيًا أن يحصل «عبد الحميد شتا»: الشاب الشريف المجتهد، على أعلى الدرجات في امتحان الملحقين التجاريين، ثم يستبعده قرار التعيين لأن والده يعمل «فلاحًا».. فينتحر.

لا يهم هنا أن من بين من استبعدوه من تعود أصوله إلى الطبقة الاجتماعية ذاتها. ولا يهم هنا أن والد مارجريت تاتشر (رئيسة الحكومة البريطانية السابقة) كان بقالاً، ولا أن جيمي كارتر كان يزرع الفول السوداني قبل أن يجلس في المكتب البيضاوي. بل ولا يهم أبداً أن نتذكر ماذا كان يعمل والد طه حسين أو من أين أتى أحمد زويل نفسه.

لا علاقة إذن بين المقدمة (الحصول على أعلى الدرجات) والنتيجة (التعيين في الوظيفة التي كان من أجلها الامتحان)، والذي لم يشترط «قانونه» ابتداءً منع أبناء المزارعين من التقدم إليه.

في مجتمع مثل هذا يصبح طبيعيًا أن تسير السيارات عكس الاتجاه. وأن تفاجأ على الطريق السريع بمطب صناعي بلا علامات تحذيرية، فتقف فجأة.. فتصطدم بك السيارة التي خلفك. (فقد زوج شقيقتي حياته قبل أيام فقط في هكذا حادث).

في مجتمع مثل هذا يصبح طبيعيًا أن تكون أرصفة الشوارع أعلى من أبواب السيارات (رغم أن كتب الهندسة الانشائية والقوانين المنظمة تحدد ارتفاعًا قياسيًا). وفي مجتمع مثل هذا، ضاعت فيه العلاقة بين السبب والنتيجة، يصبح طبيعيًا أن يفقد طفل حياته في حمام سباحة أحد الفنادق الراقية. لا غرقًا، وإنما لأن البالوعة «المكسورة» شفطته، حين قرر «المسؤول» دون اكتراث أن يُفرغ حمامَ السباحة من مائه قبل أن يخرج منه الأطفال. ويصبحُ طبيعيًا أن يكون هناك سلكٌ كهربائيٌ مكشوف على شاطئ قرية الدبلوماسيين في الساحل الشمالي فتفقد العروسُ الصغيرة حياتها.

وفي مجتمع مثل هذا.. لا تستغرب من فضلك أن يكتشف أحدهم فجأة في إحدى محافظات الدلتا أن الطلبة الذين حصلوا على الشهادة الإعدادية ومن قبلها الابتدائية، لا يعرفون كيف يكتبون أسماءهم على أوراق امتحانات الثانوية الفنية، بعد أن أمضوا - رسميًا - ١٢ عامًا في صفوف الدراسة. رغم لافتات «الحكومة الإلكترونية».. و«القراءة للجميع».. و«كمبيوتر لكل مواطن».

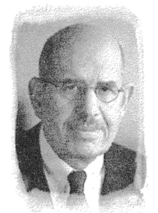
مجتمع مثل هذا.. لا يمكن له أن ينتج نوبل.. ولا يستحق - معيارًا - غير «صفر الأولمبياد» الشهير.

قبل أيام كنت في مركز للشرطة في إحدى محافظات شمال الدلتا. واستوقفني أنني لم أجد في لوحة يبدو أنها مخصصة لهذا الغرض، غير نشرتين بأسماء مطلوبين. إحداهما كانت تحمل صورًا للباكستانيين الأربعة الذين كان قد قيل قبل أشهر ثلاثة أنهم مسؤولون عن تفجيرات شرم الشيخ (ثبت في اليوم التالي مباشرة ورسميًا أن لا علاقة لهم البتة بالموضوع). وحين سألت الضابط الموجود، هل مازلتم تبحثون عنهم؟ قال: نعم. وشكرني إذا كنت أملك أية معلومات(!). وحين أخبرته بأن «المعلومة الوحيدة» التي لدي - إن كانت مفيدة - هو أنه قد ثبت قبل أشهر طويلة أن لا علاقة لهم بالتفجيرات.. وأن الجناة قد تم تحديدهم فعلاً؛ منهم من لقي حتفه «ومنهم من ينتظر..» لم يرغب في تصديقي، وإن كان - احتراماً - لم يبد هذا بوضوح.. (ولا تعليق).

«نشرة المطلوبين» الثانية على حائط مركز الشرطة كانت تتحدث عن محكوم عليه في جنحة تموين صدر عليه حكم «بالإكراه البدني» لمدة خمسين يومًا، لم ينفذ منها غير ٢٦ يومًا فقط ومطلوب القبض عليه ليستكمل مدته(!)

أعجبتني دقة الحساب.. وهمة الضابط الكبير الذي أرسل النشرة.. وجدية من التزم بتعليقها على الحائط. خاصة أن المتهم المطلوب لاستكمال الـ ٢٤ يومًا كان ينفذ عقوبته في طهطا في جنوب البلاد وأن الملصق الذي يبحث عنه معلق في مركز شرطة في أقصى الشمال. وخاصة - أرجو أن تلاحظ - أننا عمليًا بلد تزدحم قوائمه بمئات الهاربين من تنفيذ أحكام بالإعدام والأشغال الشاقة والسجن. وبالهاربين في جرائم قتل وتجارة مخدرات، وسارقي أموال البنوك. ولكنها الغيبوبة ومنطق «تسويد الخانات».. ويحدثونك عن نوبل (!)

أكاديميًا.. حدث ولا حرج. حيث تحفل الكتب المدرسية بالأخطاء، وحيث يحتفل التلاميذ «احتراما» بإلقائها في صناديق القمامة في آخر أيام






الامتحان. وحيث يتصدرُ الصفوفَ «الأكاديمية» الأقربُ للسلطة والألمعُ إعلامياً، لا ذلك المنشغلُ بطلبته أو أبحاثه أو معامله. وحيث تحددُ التقارير الأمنية (لا العلمية) من يعين ومن يرقى، ومن يوفد في بعثة علمية. وحيث يتخرج الطالب دون أن تعرف قدماه يوماً طريقها إلى المكتبة أو المعمل. وحيث.. وحيث.. هناك الكثير مما يعف القلم عن كتابته.

هل تعرفون ماذا جرى لمشروع «بناء قاعدة علمية معرفية» والذي حاولته اليونسكو مع الجامعات المصرية قبل سنوات. لدى صديقنا د. طارق شوقي الذي لم ينقصه يوماً الحماس للمشروع الطموح كل التفاصيل.

أخبروني عن بلد واحد فيه كل هذا الكرنفال التعليمي: مدارس وجامعات: أمريكية وكندية وبريطانية وفرنسية وألمانية وروسية. ثم أسبانية وصينية ويابانية تحت الإنشاء. وكلها - عدا الأمريكية العريقة ربما - ليست أكثر من مؤسسات «تجارية» لا تبغي غير الربح.

هل هناك من يستغربُ إذن أن لا تكون هناك جامعة مصرية واحدة على قائمة الجامعات الخمسمائة الأفضل في العالم.

جربوا من فضلكم زيارة موقع الجامعات المصرية على الإنترنت، أو مواقع مكتباتها. (حسب المعايير العلمية كان ترتيب موقع جامعة القاهرة بين جامعات العالم ٤٧٠٨. وبين جامعات أفريقيا ٢٦ بعد ناميبيا وموريشيوس ودار السلام!) - http://www.webometrics.info/top100_continent.asp-(cont=africa.htm

نتغافل عن كل هذا. ونتحدث عن الحكومة الإلكترونية. ونقنعُ أنفسنا بأن لدينا أربعة أوسمة «نوبلية». ونجلس على المقاهي.. في انتظار الخامسة. وإنا.. «ها هنا لقاعدون»..

في إحدى المناسبات التي حضرها أحمد زويل في زيارته الأخيرة للقاهرة، استوقفني مشهد مؤلم بكل المقاييس: أستاذٌ جامعي وباحث في الفيزياء في الحلقة السادسة من العمر ينحني ليقبل يد ممثلٍ صغير ليتوسط له ويمكنه من أن يلتقي العالمَ الكبير.. وقد كان. ودون دخولٍ في تفاصيل أكثر ألماً، أتوقف فقط عند الهدف الذي كان الرجل/ الباحث يسعى إليه من مقابلة العالم صاحب نوبل. أمامنا جميعاً كشف الرجل الذي ينتمي لجهة بحثية «مصرية» مرموقة كيف نخر الفساد في مؤسسته. معتقداً (أو آملاً) أن بمقدور العالم الكبير، الذي «يفترض» أن له كلمة مسموعة، التدخل لإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح.

لم يكن فيما قاله الرجل أي جديد. فمن «لا يرى من الغربال...» كما يقول المثل المصري. كما لم تكن «عصا موسى» طبعاً في يد عالمنا الكبير. هل تذكرون محاولته إنشاء جامعة عصرية «مصرية» للبحوث. وهل تذكرون كيف أدى افتقادنا للـ System إلى إجهاضها.

ليس بعيدا عن هذا كان هناك مشهد آخر ربما كان ذا صلة. إذ تواكب الإعلان عن جوائز نوبل، التي أراد لها البعض أن تصبح احتفالاً «بمصرية» رابعة، مع فتح باب الترشيح للانتخابات النيابية في المحروسة. وكان المشهد لافتاً. على أبواب لجان الترشيح يتشاجرُ نواب «المستقبل» من مرشحي الحزب الحاكم والمنشقين عليه (الذين سينضمون إليه قطعاً حال نجاحهم). وتصل المشاجرات - حسب ما نشرته الصحف - إلى حد استخدام الأسلحة البيضاء. والمفارقة أن الشجار الدامي هنا لم يكن إلا تنافساً على «الرموز الانتخابية» التي ستوضع قرينَ أسمائهم(!) يذكرنا المشهد إذن - وهو جدير بكل تفاصيله بالأسى - بأننا بلد، رغم القرن الواحد والعشرين. ورغم الاحتفالات الإعلامية بنوبل «الرابعة»، مازال

معظم ناخبيه لا يعرفون القراءة والكتابة. (تصل نسبة الأمية في مصر حسب آخر التقديرات إلى ٤٤.٤ ٪ - تقرير التنمية البشرية ٢٠٠٤).

في مجتمع مثل هذا.. لا تستغرب أن يرشح حزب ما بلطجياً لعضوية البرلمان بدلاً من أستاذ جامعي..

وفي مجتمع مثل هذا.. حيث لا System. ومن ثم لا منطق ولا قانون، يصبح طبيعياً أن يحتفظ حزب الأغلبية (المطلقة) بين صفوف قادته من طلب القضاءُ محاكمته. بل ويصبح طبيعياً أن لا يقدم أبداً للمحاكمة.

وحين يغيب منطقُ الأشياء وتفسحُ حقائقُ الواقع مكانها للافتات البراقة. يصبحُ طبيعياً أيضاً أن نتحدث بكل الحماس عن إنضاج الحياة السياسية والحزبية. ثم «نحيك» من القوانين ما يحول قطعاً دون هذا. ويصبحُ طبيعياً كذلك أن نصدر قانوناً لـ «ديمقراطية» النقابات يؤدي عملياً إلى منعها من إجراء «انتخاباتها» منذ أكثر من عشرة أعوام.

حين يغيب الـ System يغيب المنطق. وحين يغيب المنطق.. من فضلك لا تستغرب. ولكنك قطعاً تعرف أن لا علم بلا منطق.. ولا نوبل بلا علم.



وبعد.. فالمجتمع - أي مجتمع - لا يمكن أن يصبح «نوبلياً» إلا إذا اتسم بسمتين: أن يعرفَ «المنطق» الذي هو - بحكم تعريفه - صنوٌ للنظام، ونقيضٌ للفوغائية. ثم أن يعرف منطقَ «القانون» الذي هو - بحكم تعريفه - فوق الجميع، ونقيض لمنطق القوة.

لسنوات طويلة تربى هذا المجتمع على أنه لا منطق هناك ولا قانون، فحين يتفشى الفساد والواسطة والمحسوبية تتراجع حكماً قيم العدل والمساواة والمنطق والقانون. وتدريجياً يكمن في النفوس شعور «خطر» بأنك

لن تأخذ حقك. أو ما تتصور أنه حقك - إلا بالقوة.

أرجو أن نتذكر أن الإسكندرية التي شهدت قبل أيام محاولة البعض الحصول على ما يتصورونه حقهم (بالقوة)، هي نفسها المدينة التي شهدت قبل خمس سنوات فقط أن سلبتهم «الدولة» - بالقوة أيضاً - حقهم في الوصول إلى صناديق الاقتراع. هو إذن منطق القوة.. حين تصبح بديلاً للقانون.

لنسأل أنفسنا إذن صادقين: أين «مصر» واقعاً علمياً أو مجتمعياً في أوسمة نوبل الأربعة؟ أحدُهم منُحها في سياق معروف. والآخر أجرى أبحاثه كلها في معامل جامعة «أمريكية». والثالث - لأسباب «مصرية» مألوفة - لم ترشحه دولته لمنصبه الذي حاز به الجائزة الرفيعة. وحدُه فقط.. نجيب محفوظ. الذي أرجو أن نلاحظ أن أعوامَه «التسعين» إنما تعبر عن انتمائه لمصر - غير التي نعرف الآن - حين كان هناك «عصر العمالقة».



على شاطئ النيل كان غداؤنا مع العالم النوبلي. يومها تذكرت كم لقرون اطمأننا إلى «مصرية» النهر - قبل أن نفيق على حقيقة أن «خيره» يأتي من خارج الحدود.

يومها أيضاً.. وحين فشل النادل الشاب في أن يضبط اتجاه المظلة لتحجب الشمس عن الجلوس، تذكرتُ الفلاح البسيط في قريتي الصغيرة. وتساءلت - صامتاً - عن كنه الـ System الذي «توارثه» لقرون طويلة. والذي مكّنه من أن يَخُط حقله كل موسم في خطوط «مستقيمة» متوازية طويلة... لا ينهيها غيرُ الأفق.

من يا ترى أضاعَ «الإرث»؟

وأين هي خطوطنا «المستقيمة» إلى الأفق؟

قبـــل الدخـــــان الأبيـــض:

العالم هادئ والعرب وحدهم صاخبون!

نوبل: عقم وأطنان من البارود



إبراهيـــم العـــريس

■ .. وفى منتصف نهار الثالث عشر من أكتوبر (تشرين الأول) من هذا العام، تصاعد «الدخان الأبيض» من مقر مؤسسة نوبل فى ستوكهولم معلنًا اختيار فائز هذا العام بجائزة نوبل للآداب. ونعرف الآن أن الاختيار وقع على الكاتب البريطانى هارولد بنتر، بشكل خالف كل التوقعات والحسابات. فاسم هارولد بنتر، كان من الأسماء القليلة النادرة التى لم يطرحها أحد، لا فى العالم الخارجى ولا.. خاصة.. فى العالم الغربى. لسنا ندرى كيف كان حجم الخيبة إزاء فوز بنتر فى اللحظات الأولى لإعلان اسمه.. لكننا نعرف أن صحفيينا وكتابنا العرب الشجعان، سرعان ما تمالكوا أنفاسهم وتذكروا أن هارولد بنتر، ليس فقط، كاتبًا كبيرًا تعرف نخبتهم أعماله المسرحية جيدًا، بل هو «مناضل ضد الحرب على العراق» وناقد عنيف لتونى بلير وجورج دبليو بوش. وهكذا برزت الظروف التخفيفية وطوى الجرح النرجسى العربى من جديد، على أمل اللقاء فى العام المقبل.

. ولكن فى خلال ذلك لم يتنبه كثير إلى أن هارولد بنتر من أصل يهودى برتغالى. لو تنبهوا لعاد الحديث يصخب عن «المؤامرة الصهيونية العالمية» التى تقف خلف كل قرار دولى.. كل جائزة عالمية.. وكل شىء تقريبًا. حتى الآن نجت سمعة هارولد بنتر بنفسها من هذا المصير!

لكن الحياة الثقافية العربية لم تخرج من المعمعة سالمة. الخيبة اعتصرت أفئدة كثيرة. أفئدة لم تتنبه ربما إلى فوز المصرى محمد البرادعى بنوبل السلام (هو واللجنة الدولية للطاقة الذرية). ما يشكل، نظريًا، تعويضًا ما. وربما تنبهت وأرادت مناصرة لـ «حق» إيران فى أن تحوز قنابل نووية، أن تقول إن فوز البرادعى هو الآخر مؤامرة صهيونية. لكنها رأت أن اللعبة صارت شديدة السماجة. وهى صارت على هذا النحو، انطلاقًا من أن اللعبة صارت دائمًا على هذا النحو: نبكى ونولول لأن «الصهاينة يسيطرون على كل شىء.. بحيث يمنع العرب الكبار من أى فوز عالمى.. ثم حيث يحدث الفوز ننتحب غاضبين، ونقول إن أيدى الصهاينة هى وراء هذا الفوز حتى: حين أعطيت جائزة نوبل للآداب لعميد الرواية العربية.. قال عربانا الأشاوس:



هارولد بنتر الفائز بنوبل الأدب ٢٠٠٥

إن اليهود هم الذين أعطوه الجائزة لأنه مع التطبيع، ضاربين صفحًا عن أدبه الذى كان من شأنه أن يعطيه ألف نوبل ونوبل. ومن واقع أن كبارًا مثل محفوظ هم الذين يثرون الجائزة لا العكس.

وحين فاز المصرى الآخر، العالم الدكتور أحمد زويل بجائزة نوبل، طلع من قال: إن الأمريكيين هم الذين أعطوها له، لأنه يعمل لديهم.. ولم يتذكر أحد أن فى حيثيات منحه الجائزة إنجازاته العظيمة فى العلوم.

مرات قليلة كانت تلك التى أعطى فيها مفكرون وكتاب عرب، جائزة نوبل.. وهم كانوا جميعًا، باستثناء ياسر عرفات (نوبل السلام) من مصر. ومع هذا يخيل إلينا أن العرب هم أكثر الناس صخبًا وضجيجًا من حول جائزة نوبل، وبالتحديد من حول جائزة نوبل للآداب. وهذا الوضع تكرر هذا العام، بشكل فاق كل الأعوام السابقة، ودخل إلى حدود مرضية قد تستدعى فحوصات يقوم بها أساتذة فى التحليل النفسى السلوكى.

الإعلام الغاضب

فالحقيقة أن من يتابع الأسابيع التى تسبق منح جائزة نوبل للآداب.. والسجلات التى تدور حول هذا الأمر فى كل ضروب الحياة الثقافية فى شتى أنحاء العالم، لن يرصد أبدًا، فى أى بلد أو فى أية بقعة من العالم، ما يشبه ما يرصده فى الحياة الثقافية العربية.. وتحديدًا فى الصحافة العربية. تعلو التكهنات والترجيحات. ويتم الحديث عن تسريبات وتسريبات مضادة. ويصل الأمر حتى بصحف كبيرة محترمة أن تترك الحبل على غاربه لمحرريها ومراسليها، يزينون صفحاتها الأولى بأخبار وصور تشى بأنهم «يعلمون علم اليقين» اسم الفائز. وأنه الشاعر الفلانى، أو الروائى العلانى. طبعًا من بين الأسماء التى طرحتها الصحافة العربية فى هذا العام، أسماء لكبار يشكلون قممًا فى الإبداع العربى.. نقول هذا ونفكر، مثلاً، بأدونيس ومحمود درويش. وهما اسمان واردان من بين المرشحين الدائمين، حتى فى الأوساط السويدية. ولكن فى المقابل طالعتنا

حين أعطيت جائزة نوبل للآداب لعميد الرواية العربية.. قال عربااننا الاشاوس: إن اليهود هم الذين أعطوه الجائزة لأنه مع التطبيع، ضاربين صفحًا عن قتل أدبه الذى كـان من شأنه أن يعطيه ألف نوبل ونوبل. ومن واقع أن كبارًا مثل محفوظ هـم الذين يثـرون الجائزة لا العكـس



عشرات الأسماء، بعضها يرشح نفسه ويغرى صحفيًا بالحديث عنه. وبعضها يرشحه حواريون وأصدقاء لا يتردد الواحد منهم عن التأكيد على مصادر مطلعة انبأته بأن صاحبه هذا هو الفائز لا محالة.

كلهم.. حتى صغار الصحافيين وأكثر الشعراء فشلاً، وأصحاب تجربة أو تجربتين فى عالم الأدب، ذكروا ورشحوا.. وثارت خصومات، واستندت تنافسات. ولكن فى النهاية: لا شىء.. لا شىء تمامًا مثلما كان الأمر فى الأعوام السابقة. ومع هذا وجدنا من ضرب كفا بكف حين أعلن فوز محمد البرادعى، وقال: «راحت علينا، لماذا؟.. لأن العرب لن يفوزوا مرتين فى عام واحد». والحقيقة أن قائلى هذا الكلام تفوتهم بديهة لم تعد تفوت أحدًا فى العالم: جوائز نوبل لا تمنح لأوطان أو لمناطق جغرافية.. بل تمنح لأفراد مبدعين. وهم غالبًا ما يكونون حقًا، أفرادًا مبدعين، حتى حين تكون أسماؤهم غير معروفة كثيرًا فى العالم خارج أوطانهم. ولنذكر هنا أن اسم نجيب محفوظ لم يكن، حين فاز بجائزة نوبل فى العام ١٩٨٨، معروفًا خارج العالم العربى، إلا لدى النخبة فى بريطانيا وفرنسا. لكنه بعد ذلك صار نجمًا كبيرًا من نجوم الأدب العالمى.

والحقيقة أن أهل نوبل، يعتبرون أحداث هذه النقلة جزءًا أساسيًا من مهماتهم. ذلك أن وظيفتهم الأساسية ليست تتويج كاتب سبق لقراء العالم كله أن توجوه (مع أن هذا يحدث فى أحيان كثيرة)، بل اختيار كاتب يرونه هم كبيرًا، مهما كان حجم معرفة العالم به، لتعم شهرته لإلقاء العالم كله.

وإذ نقول هنا «من مهماتهم» فإننا نعنى بالتحديد، من مهمة بضعة عشر شخصًا هم الذين يختارون الفائز مرة فى كل عام.. ونقوله لنتذكر أن ليس استفتاء شعبيًا عامًا على مستوى الكون، وليس انتخابًا بالأكثرية النسبية أو الأكثرية المطلقة. ومن هنا، مهما كان رأينا فى «نوبل» وجوائزها، يجب ألا يغرب عن بالنا أن «اللعبة» فى نهاية الأمر لعبة اختيار شخصى، تخضع لاعتبارات فيها كثير من الموضوعية، لكن فيها قدرًا كبيرًا من الذاتية أيضًا. والحقيقة أن الحياة الثقافية العربية لن يرتاح لها بال، ما دامت ستواصل تغاضيها عن هذا الواقع.. وطالما أنها ستواصل الوقوف خارج فهم قواعد اللعبة.

سجالات حيوية

إذًا، لابد هنا من الإشارة إلى أن أعضاء الأكاديمية المولجين تحديد من هو الفائز، لا يخضعون لأية إملاءات تأتيهم من الخارج، لا من جمعيات ولا من أحزاب ولا من مؤسسات ولا من.. أفراد طبعًا. لكن هذا لا يعنى أن ثمة دائمًا تأثيرات واعتبارات قد لا تكون أدبية إبداعية صرفة. تأثيرات ينفعل بها أولئك الأفراد الذين تنطرح عليهم مرة فى كل عام أسماء لمرشحين تأتيهم من كل مكان مرفقة بنتاجهم الأدبى.. وبملفات طويلة عريضة. لا تخلو أحيانًا، وربما غالبًا، من أبعاد سياسية طرفية - وهؤلاء الأفراد يتولون الاختيار كما يريدون. قد تكون لأحدهم مشارب معينة وعليه عند ذلك أن يقنع الآخرين باختيار معين.. وهكذا. ومن هنا لابد من القول إنه، حتى إذا كانت هناك بين الحين والآخر، اختيارات تنال إجماعًا، مسبقًا أو لاحقًا، (والنموذجان الأسطع على كل من هاتين الحالتين هما، بالطبع، غابريال غارسيا ماركيز ونجيب محفوظ)، فإن اختيارات عديدة، وأحيانًا فى سنوات متلاحقة فى نيل هذا الإجماع. لكن العالم يرضى بالنتائج لأنه أصلاً يعرف قواعد اللعبة ويقبل بها. وهكذا، مثلاً، سرت احتجاجات كثيرة العام الفائت حين منحت الجائزة إلى الكاتبة النمساوية المشاركة الفريدى جيلينيك.. ولاتزال هذه الاحتجاجات قائمة حتى اليوم بعد أن ترجمت أعمال جيلينيك وقرئت على نطاق واسع ولم تعجب الكثيرين.

إذا يخطئ المولجون بالاختيار أو يصيبون.. هذا هو شأنهم وهذه هى مسئولياتهم. ومع هذا فإن العالم، بشكل عام، يتبع اختياراتهم باهتمام، معتبرًا السجال من حولها مسألة حيوية. وهو - العالم - يفعل هذا، لأنه يدخل اللعبة أصلاً، من دون أوهام مسبقة. ولأنه يعرف تمامًا أن «جائزة نوبل» ليست بداية الكون ولا نهايته.. الجائزة لا تصنع أديبًا أو عالمًا. ولا تخترع شيئًا من عدم.

المصيبة أننا نحن العرب، ننظر إلى الأمر برمته من منظور آخر. ومن هنا، ذلك الصخب العنيف والدائم من حول نوبل.. بل من حول كل جائزة، كبرى كانت أو صغرى. أدبية، علمية، أو فنية كانت.

وربما يعود هذا إلى أننا نعيش فى مرحلة يبدو فيها الإبداع الحقيقى وكأنه توقف بشكل شبه كلى. نعيش حقبة نود أن نصفها بالانتقالية، لكيلا نعطيها اسمها الآخر المرعب: مرحلة انحطاطية.

تتويج أم ماذا؟

فى هذه المرحلة التى نعيش، يخيل إلينا أن كل إبداعاتنا الكبيرة فى الأدب كما فى الفن، فى السياسة كما فى البناء الحضارى، فى العلوم والفكر، صارت وراءنا. كل كبير من كبارنا يموت أو يصمت دون أن يخلف وريثًا. وحسبنا أن نستعرض أسماء توفيق الحكيم وأم كلثوم وطه حسين والعقاد وميخائيل نعيمة ومحمد عزيز الحبابى ومحمود المسعدى وعشرات وعشرات غيرهم، من شبه المعاصرين لنا، دون أن نتوغل لنصل إلى أساطين النهضة وما تلاها من عصر ليبرالى. وحسبنا أن ندرك أن نجيب محفوظ وتوفيق صالح وعبد الله العروى صاروا من الصامتين عمليًا. ثم نقارن بين ما ينتجه كبار العصر الذهبى الذين لا يزالون ناشطين بيننا، وما كانوا ينتجونه فى الماضى.

حسبنا استعراض هذا، لندرك إلى أين تسير إبداعاتنا العربية.. وندرك بالتالى خلفية اهتمام الحياة الثقافية العربية بكل ما هو دائر حول الإبداع، دون الإبداع نفسه.

فاليوم تكثر المؤتمرات والندوات.. تكثر المهرجانات.. تكثر الكتابات الموسوعية المؤرخة لحقب وإبداعات سابقة.. ثم خاصة تكثر الجوائز فرحة بنفسها، حتى ولو ناح النواحون ألف مرة فى اليوم على «نوبل» التى لا تدنو منا إلا بقدرة الخارج وبفضله (أربع جوائز من أصل خمس أعطيت لعرب. هم أحمد زويل ومحمد البرادعى وأنور السادات وياسر عرفات، منحت لهم إما لاشتغالهم فى الخارج، وإما لمساهماتهم فى مساندة سياسات سلمية مرغوبة من الخارج، مرفوضة عندنا!).

ونحن نعرف، عادة، أن الحياة الثقافية حين يكثر فيها هذا النوع من النشاط، يكون هذا دليلاً قاطعًا على تضاؤل الإبداع نفسه فى أحيان كثيرة. وفى هذا الإطار هيا بنا نرصد الحكايات التى تتكرر مرة فى كل عام. مع جوائز عديدة تمنح لـ «المبدعين» فى طول العالم العربى وعرضه. وقد وفرتها أموال النفط وبعض النوايا الحسنة لراغبين فى أن يكونوا مبدعين وفشلوا فى ذلك مستعيضين بتخليد أسمائهم عبر الجوائز، عن تخليدها عبر الإبداع. إن معظم هذه الجوائز العربية التى يصعب فى نهاية الأمر القول إن لها قيمة حقيقية خارج قيمتها المادية البحتة. يعطى إما لأناس توقف معين إبداعهم منذ زمن طويل، أو لأناس لا هم مبدعون أصلاً ولا يحزنون، لكنهم يجيدون ألعاب العلاقات العامة.

وهذا الواقع «الجوائزى» المزرى، أفقد معظم هذه الجوائز من أى مضمون وأية مصداقية.. وصار العدد الأكبر من الجوائز يترافق مع فضائح وألاعيب، لم تعد حتى مثيرة بالنسبة إلى أى جمهور عريض.

إننا نعرف طبعًا، أن منح مبدع ما - فى أى مجال من مجالات الفن أو العلم أو الأدب أو الفكر - جائزة ما، يسفر عادة عن إثارة الاهتمام العام بإبداعه. فيرتفع عدد الكتب المباعة من هذه الأعمال. وتتركز من حوله وأعماله، دراسات وبحوث وينتقل الاهتمام به إلى الدراسات الجامعية، ويصبح هو بالتالى، ذا تأثير أخلاقى على الشعب الذى ينتمى إليه، فهل فى وسع أحد أن يحدثنا عن جائزة عربية.. أية جائزة عربية، كان لها هذا المفعول؟

سلطة أخلاقية

وهذا السؤال يعيدنا بالطبع، إلى جائزة نوبل، ومن خلالها كذلك إلى العديد من الجوائز التى تمنح فى هذا البلد أو ذاك («سرفانتس» الإسبانية، «غونكور» و«الأكاديمية» الفرنسية، «بوكر» الإنجليزية، «بوليتزر» الأمريكية بين جوائز أخرى رفيعة المستوى). إن أول ما نلاحظه فى هذا المجال هو أن وضعية الفائز تتبدل،



ليس بالنسبة إلى علاقته بإبداعه. بل بالنسبة إلى علاقته بالقراء. فتختلف بعد الجائزة عنها قبل الجائزة.. ثم إن كتبه تترجم بعد الفوز إلى عدد كبير من اللغات الحية، ما يحول المبدع من كاتب ولو مميز، إلى سلطة فكرية وأخلاقية على صعيد أجزاء عريضة من العالم (ولكى لا نبتعد عن عالمنا العربى كثيراً، نذكر الاهتمام العالمى الذى صار من نصيب كتب نجيب محفوظ بعد فوزه بنوبل.. ولكن أيضاً نذكر حالتين تتعلقان بكاتبين عربيين يكتبان بالفرنسية، هما اللبنانى أمين معلوف، والمغربى طاهر بن جلون، حيث إن كتابات كل واحد منهما تضاعف اهتمام القراء بها، كما تضاعف اهتمام الشعوب الأخرى بترجمتها إلى لغاتها، مرات عديدة، بعد فوزه بجائزة «غونكور» الفرنسية). وهنا تحضرنا بالطبع ذكرى ذلك الاجتماع الكبير الذى عقده الرئيس الفرنسى الراحل فرانسوا ميتران مع عدد كبير من الفائزين بنوبل، حين استضافهم فى قصر الأليزيه ليشاورهم فى شئون العالم، معتبراً إياهم ضمير هذا العالم الواعى.

إذاً، بعد الجائزة - حين تكون ذات قيمة معنوية، ثم مادية، على رغم سخاء المانحين المادى - لا يكون الفائز هو الذى يتغير، بل إن ضمير العالم هو الذى يأتيه دعم وإضافة.

وفى يقيننا أن كثيراً من الأدباء والمفكرين يعتبرون هذا من الأمور المهمة آخذينه فى عين الاعتبار. وكذلك يفعل كثير من المهتمين. ومن هنا تلك السجالات الضيقة التى تدور من حول منح جائزة مثل «نوبل».. ليس من موقع من فاز ومن لم يفز، أو من حيث «الكوتا» القومية أو الجغرافية أو ما شابه، بل من حيث البعد الأخلاقى المتوخى فى اختيار ما.. فى عام ما. مع العلم أن هذا البعد الذى يكون من المفروض اتسامه بالأخلاق، قد يغلب عليه طابع سياسى ما، حيث تلوح الفرصة مواتية بالنسبة للأكاديمية المانحة. وفى العادة تلعب الحصة السياسية الزائدة، والتى تبدو فى مثل هذه الحالات، مغرضة بالنسبة إلى كثير.. بل تكون أحياناً مغرضة من دون شك. وهى فى مثل هذه الحالات قد تضر بالكاتب وتبلبل حياته بأكثر مما تفيده، إذ تعطى له، ولعل أسطع مثال على هذه الوضعية الأخيرة، جائزة «نوبل» التى أعطيت للسوفيتى بوريس باسترناك عن روايته دكتور «جيفاغو» فى العام، ١٩٥٨فاضطر إلى رفضها بعد قبولها تحت ضغوطات سلطات بلاده. طبعاً يمكننا أن نقول هنا أن الكاتب وروايته يستحقان الجائزة تماماً. لكن المشكلة كانت فى أن التوقيت كان مغرضاً، إذ أن إعلان ضجة «نوبل» وبشكل استفزازى أتى فى وقت كانت الحرب الباردة قد وصلت ذروتها، وكانت رواية باسترناك تثير صخباً ومشاكل، بحيث إن الرجل ما كان أبداً فى «حاجة إلى تلك المساندة الأجنبية الخرقاء، فى ذلك الحين حيث إن توازن القوى لم يكن فى صالحه، بل فى صالح السلطات التى كانت استعادت مثاليتها بعد انفراج لم يدم سنتين.

رافضون

والحال أن فى وسع المرء هنا، أن يرصد قدراً كبيراً من الغرضية، ومن التوقيت المتعمد، فى منح العديد من الجوائز.. وخاصة إذ تعلق الأمر بتلك التى منحت إلى الكتاب السوفييت، وأحياناً إلى الكتاب الإسرائيليين.. ما دفع دائماً إلى النظر إلى نوبل على اعتبارها مسيسة أكثر من اللازم. وهذا الأمر دفع أحياناً بعض الفائزين إلى رفض الجائزة حين منحت إليهم. ومن الحالات الأشهر فى هذا المجال، جاك جان بول سارتر الذى رفض جائزة نوبل للآداب فى العام ١٩٦٤، وحال المسئول الفيتنامى لى دوكاثو، الذى رفض جائزة نوبل للسلام فى العام ١٩٧٣، لأنها منحت له، شراكة مع هنرى كيسنجر. وهناك على أية حال، ستة رفضوا الجائزة، أو ثمة إضافة إلى الثلاثة الذين ذكرنا: ريتشارد كوهن (الكيمياء للعام ١٩٣٨) وأدولف بوتنانهرت (الكيمياء للعام ١٩٣٩) وغرهاردت دوماك (الفيزياء أو الطب للعام ١٩٣٩ أيضاً)، علماً بأن هؤلاء الثلاثة ألمان، ورفضوا الجائزة تحت ضغط السلطات النازية. إذن، من بين الستة، كان سارتر والمسئول الفيتنامى الوحيدين اللذين رفضا الجائزة باندفاع ذاتى.

والطريف هنا هو أن رفض الجائزة يزيد فى مكانة رافضها، بقدر ما كان من شأن قبوله بها أن يفعل. غير أن هذه حكاية أخرى.

والآن بعد هذا كله قد يصح أن نعود إلى سؤال بديهى: ما هى جائزة «نوبل» أصلاً.. وكيف صارت لها كل هذه القيمة على صعيد العالم كله؟

الجواب يحتمل مقدمات، أولها افتراضى وهو أنه لولا اختراع الفريد نوبل للبارود ومتاجرته فيه، ما كان من شأنه أن يتمكن أبداً من تأسيس هذه الجوائز التى صار عمرها الآن أكثر من قرن، لأن الرجل تمكن من أن يفعل هذا بفضل ثروة طائلة جمعها من صنع البارود وبيعه، عبر ثمانين مصنعاً أقامها فى بلدان أوروبية عديدة وكانت تبيع سنوياً نحو ٦٦ ألف طن من البارود. هذا من ناحية، أما من الناحية الثانية فإن لعقم السيد نوبل، وعجزه عن الإنجاب ثم لخلافه الحاد مع أشقائه، الفضل الأساسى فى اتخاذه فى وصيته الشهيرة قرار تخصيص إرثه المالى كله لمكافأة المفكرين والمبدعين والعلماء على إنجازاتهم.

لولا اختراع الفريد نوبل للبارود ومتاجرته فيه، ما كان من شأنه أن يتمكن أبداً من تأسيس هذه الجوائز التى صار عمرها الآن أكثر من قرن، لأن الرجل تمكن من أن يفعل هذا بفضل ثروة طائلة جمعها من صنع البارود وبيعه

عولمة مبكرة

ومن ناحية ثانية قد يكون من اللافت أن نقول هنا أن لجوائز نوبل هذه، يعود الفضل الأساسى لولادة العولمة على الصعيد الإبداعى، بعدما كانت العولمة سابقاً لا تتحقق إلا بفضل الفتوحات والغزوات الإمبريالية. وعلى هذا يمكننا الافتراض بأن العولمة الحقيقية، إنما ولدت مع جوائز نوبل ومع بدايات القرن العشرين إلى جانب العديد من العلامات المبكرة لولادة هذه العولمة: فن السينما، الأدب الجماهيرى، خطوط المواصلات والاتصالات، الطيران، عالمية الصحافة.. وغيرها. لقد ترابط هذا كله منذ انفتاح العالم على بعضه البعض، لتأتى عالمية جوائز نوبل. لأول مرة فى تاريخ البشرية على مثل ذلك الاتساع. فتعطيه سماته الراهنة.

لكن ذلك كله لم يكن فى بال ألفريد نوبل (١٨٣٣ - ١٨٩٦) حين صاغ فى باريس، قبل رحيله بشهور ما يسمى بوصيته الثانية، والتى إذ استشرى الخلاف قبلها بينه وبين أشقائه - قرر فيها أن يخطو تلك الخطوة: أى أن يودع أمواله فى المصارف وقفاً على جوائز نوبل تمنح سنوياً لأعظم المجيدين فى مجالات فاقت، فى حينها جوائز، زيدت إلى ستة فى العام ١٩٧٠، حين أضيفت «نوبل الاقتصادية» إلى جوائز الكيمياء والفيزياء والطب والأدب والسلام. علماً بأن هذه الأخيرة. وبناء على وصية نوبل أيضاً. لا تمنح من قبل أكاديمية سويدية، بل من قبل لجنة ينتخبها البرلمان النرويجى.

ماء فى الطاحون

فى ذلك الحين لم تقرأ وصية الفريد نوبل إلا فى العام التالى لوفاته. والحقيقة أن الصخب والسجال العنيف والذى سيظل من نصيب هذه المؤسسة الفكرية الفريدة من نوعها (جوائز نوبل)، بدأ منذ ذلك اليوم، حيث إن الاحتجاج ساد فى السويد على الفور..

وكان احتجاجاً سياسياً وقومياً ومالياً أيضاً. إذ اتهم الرجل بأنه معاد لقومه فى الوقت الذى ساد فيه الهرج والمرج صفوف المساهمين السويديين فى شركة نفط باكو (وكان مقرها سانت سبيرج، التى كان يملكها شقيقان لألفريد نوبل). ولقد اتهم السويديون نوبل بنزعة سلمية جبانة، وبنزعة انفصالية، إضافة إلى كوزموبوليتينية بائسة.

بيد أن ذلك الضجيج هدأ فى ذلك الحين خلال السنوات القليلة التى مضت بين الإعلان عن الجوائز، والبدء فى منحها (فى العام ١٩٠١). ولكن ما أن منحت الجوائز الأولى، ولا سيما نوبل للآداب فى ذلك العام، وأعلن أن الفائز بها هو الكاتب اليمينى الفرنسى سولى برودون، حتى ثارت ثائرة اليساريين الأوروبيين الذين كانوا يرون أن الفائز الطبيعى كان يجب أن يكون إميل زولا. ومنذ ذلك الحين لم تتوقف السجالات، علماً بأن محتجى العام الأول، سوف لن يفوتهم طوال قرن بكامله أن يروا ماءً يرمى فى طاحونتهم، حيث إن الجوائز ـ الأدبية مثلاً ـ منحت غالباً إلى كتاب يمينيين، فإذا كانوا يساريين كان عليهم أن يكونوا منشقين عن العالم الاشتراكى، حسب قول واحد منهم. والحقيقة أن أهل نوبل لم يفتهم أبداً أن يغيظوا فى أحيان كثيرة، وخاصة حين يتعلق الأمر بجائزة نوبل للسلام، التى اعتادت أن تفصل دائماً على مقاييس محددة تمت بصلة قرابة إلى الموقف الغربى من شئون العالم وشجونه.

ومع هذا، غلب دائماً طابع إبداعى على منح الجائزة. وكانت هناك سنوات عديدة ـ هى الغالبة على أية حال ـ لم يلتفت فيها أكاديميو نوبل إلى أية اعتبارات غير الاعتبارات الفكرية والإبداعية. فإذا كانت «نوبل» ظلمت فى الابتعاد عنهم كتاباً زينوا القرن العشرين بإبداعاتهم، مثل جورج لويس بورغيس والبرتومورافيا وغراهام غرين مفضلة عليهم، مثلاً ونستون تشرشل (أجل.. أعطى جائزة نوبل للآداب فى العام ١٩٥٣!) وصموئيل أتمنون وايمرى كرشتس وأمثالهم من كتاب لم يسمع بهم أحد قبل «نوبل» ولم يهتم بهم أحد من بعدها، فإنها أعطيت كذلك لبعض كبار كتاب الفن، من ماركيز إلى نايبول، ومن توماس مان إلى غونترغراس وأوكتافيو باز وارنست همنغواى وإلياس كانيتى وبرتراند راسل ووليام فولكنو.. بل حتى أعطيت لميخائيل شولوخوف، أحد كبار الكتاب الرسميين فى الاتحاد السوفيتى، فى عام وسط بين بوريس باسترناك (١٩٥٨) والكسندر سولجنسين (١٩٧٠)، اللذين لم يكن لموسكو أن ترضى عنهما أبداً.

إحـــــصـــــاءات

وبقى أخيراً، أن نختم هذا الكلام ببعض الحقائق التى تبدو لنا طريفة ولكن مفيدة أيضاً:

● أصغر فائزين بجوائز نوبل كانا لورانس براغ (الفيزياء للعام ١٩١٥) وكان عمره ٢٥ سنة؛ وكارل أندرسون (الفيزياء للعام ١٩٣٦) وكان عمره ٣١ سنة.. أما أكبر فائزين سناً فكانا ريموند دايفيز (الفيزياء للعام ٢٠٠٢) ٨٨ سنة؛ ومينثالى غينسبورغ (الفيزياء للعام ٢٠٠٣) ٨٧ سنة. علماً بأن هناك آخرين كانوا فى الحادية والثلاثين من ناحية، والسابعة والثمانين من ناحية أخرى.. لكننا بحسبان الشهور والأيام اكتفينا باثنين من كل فئة.

● المجموع الإجمالى لعدد الفائزين بين ١٩٠١ و ٢٠٠٥، هو ٧٥٨ فرداً و١٨ مؤسسة ومنظمة. علماً بأن البعض فاز مرتين: مارى كورى (نوبل للفيزياء عام ١٩٠٣، وللكيمياء عام ١٩١١)، جون باردين (للفيزياء عام ١٩٥٦ ثم عام ١٩٧٢)؛ فردريك سانغر (الكيمياء عام ١٩٥٨ ثم عام ١٩٨٠)؛ اللجنة العالمية للصليب الأحمر (نوبل للسلام ١٩١٧، ١٩٤٤ و١٩٦٣)؛ مكتب شئون اللاجئين التابع للأمم المتحدة (نوبل للسلام ١٩٥٤ و١٩٨١)؛ وأخيراً لينوس باولنغ (نوبل للكيمياء فى العام ١٩٥٤، ثم للسلام عام ١٩٦٢).

● عائلياً تقول لنا الإحصاءات أن ثمة آباء وأبناء فازوا بالجائزة فى سنوات مختلفة، وهو ويليام براغ ولورانس براغ؛ تبلس بوهر وآغى بوهر؛ هانز نون أولر شلبن، وأدولف فون أولر؛ مان سيغبان وكاى مان سيغبان، وأخيراً ج. توسون وجورج بادجث توسون. وهناك أب وابنته فازا، هما: بيار كورى وإيرين جوليو ـ كورى؛ وأم وابنتها فازتا: مارى كورى وإيرين جوليو ـ كورى؛ وأزواج فازوا: مارى كورى وبيار كورى؛ إيرين جوليو ـ كورى وفردريك جوليو، وجرتى كورى وكارل كورى. ■

مـــــســــــــــــــــرح

هـــارولــد بـنـتــر

مـــن الـصــــمــت إلـــى المجابهـــــة



■ ■ «التهديد الخفى» (أو التهديد الشبح) هو للوهلة الأولى الاسم الذى اختاره المخرج الأمريكى جورج لوكاس، عنواناً لواحد من أفلام سلسلة «حروب النجم». غير أن هذا الاسم ليس، بكل تأكيد من عنديات هذا المخرج الشعبى الذى أنجز منذ فترة آخر حلقات سلسلته. إذ أن لوكاس، الذى يوصف عادة بأنه، فى حياته الخاصة مثقف ونخبوى، ما كان فى إمكانه أن يجهل أن هذه العبارة تستخدم ومنذ عقود فى مجال الحديث عن الجو الأساسى الذى يخيم على مسرح هارولد بنتر، ذلك المسرح الذى بعدما ربط طويلاً بمسرح العبث، استقل وحده بصفة مستقاة من اسم الكاتب نفسه بحيث أن مسرح بنتر يسمى اليوم «البنتريسم». وهو تحليلياً مزيج من أجواء فرانز كافكا ومن العالم المخيم أصلاً على رواية «صحراء التتار» للأبطال دينو بوتزاتى. فإذا كان الخطر الماثل أمام الإنسان، بشكل مستديم ويشكل جزءاً عضوياً من كينونته، خطراً آتياً من مكان ما مجهول. فإن بوتزاتى فى روايته تلك، ركز على ذلك الخطر المهدد، من خلال فرقة عسكرية محاصرة فى مكان صحراوى ما، تنتظر الأعداء، غير واثقة من هويتهم، ومن أين سوف يأتون. وهو نفس ما يطالعنا فى معظم مسرحيات بنتر، إضافة إلى المناخ الكافكاوى المباشر الذى ظهر لديه منذ مسرحيته الثالثة «حفل عيد الميلاد» (١٩٥٨) حيث لدينا عازف بيانو عاطل عن العمل، يعيش فى بيت منعزل إلى جانب البحر ويتجسد الخطر ذات يوم بالنسبة إليه، عبر شخصين يدخلان منزله عنوة ومن دون توقع، ليحاكماه على جرائم لا يعرف عنها، هو، شيئاً. أما مسرحيته الأولى «الغرفة» (١٩٥٧) فإنها حددت لبنتر فضاء «الأحداث» التى تقع فى مسرحياته: إنه مكان مغلق محاصر مهدد فى كل لحظة عن طريق قوة لا نعرف ولا يعرف نزلاء المكان، عنها شيئاً. طبعاً فى تطور لاحق سوف ينقل بنتر الحصار والتهديد من هذا الحيز الجغرافى المغلق، إلى منغلق آخر هو داخل الإنسان.. وسيكون ذلك قبل أن يسيس عمله أكثر وأكثر، وتصبح المسألة عنده، فى مسرحيات مثل «النظام العالمى الجديد» (١٩٩١) مسألة سلطة وتسلط على البشر.. حيث صار العدو الآن معروفاً والتهديد واضحاً. وما مواقف بنتر الأخيرة ضد محاولات الهيمنة الأمريكية



على العالم، وضد تبعية تونى بلير، لجورج دبليو بوش، سوى صورة لتجسد ماهية ذلك التهديد.

إعـــادة اعـــتـــبـــار

إذًا، كانت رحلة طويلة تلك التى قطعها هارولد بنتر من «مسرح اللامعقول» (الذى لم يكن أبدًا من رواده أو دعاته، إلا على صعيد استخدام اللغة (احتذاء اليونسكو) واستخدام الصمت (احتذاء لصامويل بيكيت).. أو ذلك التأرجح الخلاق لديه بين الصمت والكلام. أما بالنسبة إلى المواضيع، فإنها حتى وإن كانت أعماله الأولى تبدو غارقة فى البحث عن الشرط الإنسانى فى تعميم وجودى، عادت وتموضعت لاحقًا فى تساؤل حاد حول التناقضات الطبقية، مرتبطة. كما لدى رائد التحليل النفسى للجنس ويليام راش - بتيمات أساسية تجدها مشتركة فى أعمال هارولد بنتر، سواء أكانت مسرحية أو سينمائية أو شعرية، أو حتى مقالات سياسية، ومن هذه التيمات الأساسية، إضافة إلى التهديد الخفى الذى لا اسم له، الخيالات الجنسية، الغيرة والكراهية العائلية والمشاكل العقلية. ويقينًا أن هذه التيمات لم تكف عن زيارة أعمال بنتر منذ بداياته التى كانت على شكل قصائد شعرية قبل ما يزيد على نصف القرن.

إن شهرة هارولد بنتر فى العالم تعود أساسًا إلى كونه كاتبًا مسرحيًا، ناهيك عن مواقفه السياسية المتمردة، التى جعلت منه ضمير الحياة الثقافية الإنجليزية فى صراعها مع مفاسد السياسة، وضد الاستعمار الذى يعود إلى العالم أنجلو - ساكسونى، بوجوه جديدة. ومن المؤكد أن مسرحياته هى التى دفعت لجنة محكمى جائزة نوبل للآداب إلى منحه جائزة هذا العام بشكل نال تصفيقًا فى العديد من الأوساط، وأعاد للجائزة اعتبارًا كانت فقدته منذ زمن. لكن علينا أن نلاحظ أيضًا أن هارولد بنتر هو كاتب سيناريو من طراز استثنائى، حتى وإن كان - على غرار ما يفعل أستاذنا نجيب محفوظ. قد اكتفى دائمًا بكتابة السيناريو اقتباسًا لأعمال أدبية كتبها غيره.

ومن سيناريوهاته الأهم والأشهر «الخادم» و«حادث» و«الوسيط» (والثلاثة من إخراج جوزيف لوزاين) و«آكل اليقطين» من إخراج جاك كلايتون، و«عشيقة الضابط الإنجليزى» (من إخراج كارل رايس)، و«العملاق الأخير» (من إخراج إيليا كازان).. ناهيك بالسيناريو الذى كتبه انطلاقًا من «البحث عن الزمن الضائع» قصد أن يحققه جوزيف لوزاين، ثم لوكينو فسكونتى، لكنه لم يتحقق أبدًا فاكتفى بنشره فى كتاب. من ناحية مبدئية تحمل القصص الأصلية التى أخذت عنها هذه السيناريوهات، تواقيع ل. ب. هارتى وفرانسيس سكوت فيتزجيرالد وجون فاولر وغيرهم، لكنها فى الحقيقة تتبنى على الشاشة، حوارًا ومواقف، إلى عوالم هارولد بنتر (وحتى إلى عوالم مخرجيها). وفى المقابل سيكون من اللافت أن نذكر أن أعمالاً لبنتر، مسرحية الأصل، حين اقتبست إلى الشاشة (الكبيرة والصغيرة أيضًا)، من قبل كليف دونز («المعتنى» - ١٩٦٣)، ومن قبل روبرت ألتمان («الغرفة» و«الساقى الأخرس») لم يقبل بنتر العمل بنفسه على كتابة السيناريو لها (وهذه أيضًا نقطة مشتركة بين بنتر ونجيب محفوظ).

الخطر.. شبح مجهول

حتى وإن كان هارولد بنتر قد دنا من فن السينما إلى هذا الحد، كاتبًا للسيناريو وللحوار.. وحتى إذا كان قد بدأ شاعرًا، وفى الشعر كذلك عبر عن نفسه فى أعماله الأخيرة، فإنه يبقى فى نهاية الأمر كاتبًا مسرحيًا، بل إنه فى مقابل استشراء ما يسمى بمسرح الغضب الذى ظهر فى لندن خلال النصف الثانى من القرن العشرين (أوزبورن، آردن.. ورفاقهما)، وقف وحده - تقريبًا - مرتبطًا بمسرح أقل مباشرة فى واقعيته، وفى بعده الاجتماعى، متجاوزًا هذا البعد دون أن يتخلى عنه، إلى طرح أسئلة قلقة حول الإنسان ومصيره فى عالم مهدد رمى فيه.

والحقيقة أن هذا العالم المهدد، كان جزءًا من طفولة هارولد بنتر وتكوينه، هو الذى ولد العام ١٩٣٠ فى القطاع الشرقى من لندن، لأب خياط هو فى الأصل مهاجر يهودى من البرتغال. وقد شب هارولد ودرس أول الأمر فى مدرسة ابتدائية وسط مناخ سيقول لاحقًا أنه هو، من موقع عدائى، ما نبهه إلى يهودية أبيه عبر استشراء العداء للسامية. ولقد أتت الحرب وهو بعد لم يبلغ العاشرة من عمره، إثر أجواء خانقة كانت نذيرًا بحتميتها، لتشعر الفتى بهشاشة العيش، حتى وإن كان أهله نجحوا فى إبعاده عن لندن أيام قصفها مما جنبه مواجهة الموت والدمار بشكل مباشر. وهو سيقول لاحقًا، إن هذا أثر فيه سلبًا، إذ جعل الخطر والرعب بالنسبة إليه شبحين يحومان لكنه لا يلمسهما مباشرة. ولسوف يظل هذا البعد طاغيًا عليه منذ الأشعار الأولى التى كتبها وراح ينشرها وهو بعد فى السادسة عشرة من عمره، إلى مسرحياته. ولكن قبل أن يبدأ الكتابة للمسرح، اتجه هارولد، إلى عالم التمثيل المسرحى، بدءًا من المدرسة الثانوية حين كانت بداياته على الخشبة، ولاحقًا حين صار ممثلاً محترفًا إثر دراسته فى «أكاديمية الفن الدرامى» ثم فى المدرسة المركزية للخطابة والدراما، اتخذ لنفسه اسمًا مستعارًا هو دافيد بارون. وهو بهذا الاسم عرف فى الجولات المسرحية وفى الأدوار العديدة التى قام بها، قبل أن يكتب فى العام ١٩٥٧ مسرحيته الأولى «الغرفة».. وإذا كانت هذه المسرحية قد عرفت بعض النجاح حين قدمت فى مدينة بريستول، للمرة الأولى، فإن مسرحيته التالية «حفل عيد الميلاد» نالت فشلاً ذريعًا لا سابق له فى تاريخ المسرح البريطانى الحديث، إذ أنها لم تصمد سوى ست ليال، أمام حالة شبه فارغة.. ناهيك عن مهاجمة النقاد لها، ولسوف يكون هؤلاء النقاد أنفسهم من سيدعم المسرحية نفسها حين قدمت لاحقًا وحققت نجاحًا كبيرًا.. لكن ذلك كان بعد نجاحات تلت الفشل الأول، بدأت تتحقق لبنتر منذ مسرحيته الرابعة «المعتنى» (١٩٥٩) ليتلوها نجاح «العودة إلى الدار» (١٩٦٤) ما دفع بهارولد بنتر إلى الصف الأول.. وهى مكانة لا يزال يحتلها فى المسرح البريطانى حتى اليوم.

من الصمت إلى المجابهة

بين العام ١٩٥٧ («الغرفة») وحتى العام ٢٠٠٠ (حيث أصدر واحدة من آخر مسرحياته وهى «ذكرى الأشياء الماضية») كتب هارولد بنتر أكثر من ٣٥ مسرحية، تشكل متن عمله الكتابى الأساسى (إضافة إلى عدة دواوين شعرية وآخرها «الحرب: ثمانى قصائد وخطاب» - ٢٠٠٣ - وإلى نحو ١٠ سيناريوهات للسينما، صدرت فى ثلاثة مجلدات عن دار «فابر» اللندنية).

وإذا كان الباحثون فى أعمال هارولد بنتر المسرحية قد رأوا أنه فى مجمل أعماله، ومهما كانت درجة خفية التهديد، أو وضوحه فيها، تمكن من أن «يعيد إلى المسرح عناصره الأساسية، بوصفه حيزًا مغلقًا، وحوارات مباغتة، حسب ما تقول الأكاديمية السويدية فى بيان يشرح مسوغات إعطاء الكاتب جائزة نوبل، فإن ما لابد من رصده هو أنه لئن كان الأشخاص فى هذا المسرح، معرضين للتهديد فى كل لحظة داخل ذلك الحيز،





من المؤكد أن مسرحياته هى التى دفعت لجنة محكمى جائزة نوبل للآداب إلى منحه جائزة هذا العام بشكل نال تصفيقًا فى العديد من الأوساط، وأعاد للجائزة اعتبارًا كانت فقدته منذ زمن



فإن كل واحد منهم يبدو فى الوقت نفسه واقعاً تحت رحمة الثانى، على رغم أن الحبكة تكون دائماً عند الحد الأدنى.. بل تقريباً من دون أحداث. ولعل عبقرية بنتر تكمن فى تمكنه من أن يخلق الدراما من لعبة توازنات القوى، ومن خلال الحوار الاستثنائى والغريب، والذى ـ فى بدايات بنتر على الأقل ـ كان الصمت يشكل جزءاً أساسياً منه. وانطلاقاً من هنا يقول بيان الأكاديمية أن مسرحيات بنتر استقبلت أول الأمر بوصفها منتمية إلى المسرح اللامعقول.. لكنها سرعان ما وصفت لاحقاً بـ «كوميديا التهديد»، حيث لعبة السيطرة والخضوع تلعب عن طريقة المحادثة. وهكذا «فى مسرح بنتر يطالعنا أناس كانوا فى البداية يدافعون عن أنفسهم ضد دخلاء مجهولين، ثم صاروا يدافعون ضد اندفاعاتهم الداخلية، وسط وجود مقلص وخاضع للسيطرة والرقابة».

ولعل من الأمور اللافتة، أن شخصيات مسرح بنتر كانت تبدو أول الأمر مذعنة، عاجزة حتى عن التواصل.. بل كانت تبدو جاهلة تماماً.. لكنها فى المسرحيات الأخيرة صارت تبدو أعلى مستوى «من الناحية التعليمية، وقادرة على التواصل اللفظى الحقيقى فيما بينها، مع أنها ظلت تفضل اختيار عدم التواصل».

إن التهديد الآتى من الخارج والمجهول هو ـ كما أسلفنا ـ المهيمن تماماً على أول مسرحيات هارولد بنتر («الغرفة»)، حيث لدينا زوجان عجوزان يعيشان وسط غرفة مضاءة تقع وسط عالم مظلم تماماً. وذات ليلة يأتى دخلاء مجهولون لتدمير أمان الزوجين. وفى المسرحية التالية «الساقى الأبكم» عاد بنتر ليجعل من التهديد الخفى أساس المسرحية، من خلال قاتلين مأجورين جالسين فى غرفة وهما ينتظران أمراً للقيام بمهمة ما.. وهذا الأمر سوف يعمل عن طريق ساقٍ أبكم. «حفل عيد الميلاد» كانت ثالث مسرحيات بنتر، لكنها كانت الأولى من ذوات الثلاثة فصول.. والأولى التى فيها مجابهة حقيقية، إنما بائسة بين ستانلى والشخصين المكلفين من قبل قوى مجهولة بقتله. وعبر هذه النقطة الانتقالية (المجابهة إلى محاولة المقاومة) كان من الطبيعى لبنتر أن ينتقل فى المسرحية التالية «رماد خفيف» (١٩٥٩) ليرينا التهديد الآتى دائماً من الخارج، وقد صار جزءاً من الصراع الداخلى لدى الشخصيات نفسها.. وذلك من خلال إدوارد الذى إذ يهدد من قبل شخص عجوز، يرى بأم عينيه تفتت وجوده إلى حد أن تستبدله زوجته فى نهاية الأمر بذلك الشخص العجوز. وهكذا يحدث فى المسرحية التالية «المعتنى» (١٩٦٠) التى كانت أول مسرحية لهارولد بنتر تحقق نجاحاً تجارياً حقيقياً، يحدث أن التهديد يصبح واضحاً وجلياً ـ يصبح بالتالى صراعاً مفتوحاً ـ فى داخل الشخصيات الموجودة فى الحيز الجغرافى الذى لايزال، كما فى السابق، مغلقاً. وهو نفس ما يمكننا ملاحظته فى «العودة إلى الدار» (١٩٦٥)، مع العلم أن المهددين هم الآن فى الداخل، أما الضحايا فتأتى من الخارج.. ولعل هذا يشكل خط انقلاب فكرى فى مسيرة كاتبنا الذى ينسب هنا الفكرة العاطفية المعتادة عن الإنسان الذى لن يشعر بالأمان إلا حين يعود إلى دياره.

خبر غير مفرح

فى النهاية، منذ «العودة إلى الدار» وحتى «ذكرى الأشياء الماضية»، مروراً بأعمال أساسية فى مسار هارولد بنتر، مثل «المجموعة» (١٩٦١) و«أزمان ماضية» (١٩٧٠) و«أرض لا أحد» (١٩٧٤) و«أصوات عائلية» (١٩٨٠) و«محطة فكتوريا» (١٩٨٢) و«لغة الحيل» (١٩٨٨)، ثم خاصة «النظام العالمى الجديد» (١٩٩١) و«من الرماد إلى الرماد» (١٩٩٦) راح هارولد بنتر يكون عالمه المسرحى، مقترباً حيناً من الواقعية السيكولوجية، وحيناً من نوع الشاعرية، دون أن يفوته أن يقدم بعض لحظات من حنان، رغم قسوة عوالمه ككل.

ذلك أن هارولد بنتر، الذى استشعر هشاشة الوجود الإنسانى منذ بداياته، سار أيضاً مع زمنه، ومع تحولات عواطفه ومواقفه الشخصية، متأثراً بشتى أنواع الفنون ولاسيما فن السينما. ولكن متأثراً أيضاً بالتقلبات السياسية التى رافقته ورافقها منذ البداية ولا يزال، إذ نعرف أنه رفض الخدمة العسكرية وحوكم بسبب ذلك، ثم وقف ضد الحروب «الكولونيالية» المتتالية التى سادت خلال النصف الثانى من القرن العشرين، ولاسيما حرب فيتنام ثم الحرب الأولى والثانية التى شنها الأمريكيون (والإنجليز اكتوارياً) فى العراق وقبل ذلك فى أفغانستان.

وانطلاقاً من هذا كله يمكن لنا أن نختتم قائلين: يقيناً أن فوز هارولد بنتر بجائزة نوبل للآداب للعام ٢٠٠٥ لم يكن خبراً مفرحاً لا لجورج دبليو بوش ولا لتونى بلير. ■

كتاب الزاوية



ديوان الطرب

سلامة حجازى

الشيخ سلامة حجازى (١٨٥٢ ـ ١٩١٧) أحد أهم رموز الموسيقى الشرقية الأصيلة وقد امتد نشاطه من الغناء إلى الموسيقى والتمثيل والغناء فى المسرحيات.

وتنشر «وجهات نظر» بعضاً من الأعمال التى تغنى بها الشيخ سلامة حجازى وتضمنها الكتاب الخاص به من موسوعة أعلام الموسيقى العربية والصادر عن دار الشروق ٢٠٠٢ بالتعاون مع مركز توثيق التراث بمكتبة الإسكندرية. ومعظم الأعمال لم يشر الكتاب إلى مؤلفيها.

احفظ لنا يا ربنا مليكنا العباس

وليبق فى عز وفى وزيره الأمين ... حتى نفى ونكتفى بالنصر والتمكين
أيها السادة أهل الكرم ... أنتمو أهل الفطن
جدتموا فضلاً بأبهى النعم ... حزتموا صفو الزمن
أنسكم قد أمن عن أمم ... ونفى عنا الحزن
فلكم شكر بأبهى الكلم ... يا محبين الوطن
دمتموا بالعز بين الأمم ... ما بدت منكم منن


ARES.
caglecartoons.com/espanol

"السلام" ضد بوش

آن بينكيث

■■ وربما إذا عكسنا العبارة أيضاً، تظل صحيحة. ففي تحدٍ درامي للرئيس جورج بوش تم منح جائزة نوبل للسلام للرجل الذي جرؤ على القول للأمريكيين أن أساس منطقهم في شن الحرب على العراق هو كذبة. منحت لجنة نوبل الجائزة رفيعة المستوى لمحمد البرادعي، مسئول الأمم المتحدة الذي اشتهر بكشفه للمدى الذي يمكن للولايات المتحدة أن تذهب إليه في ادعاءاتها دفاعاً عن الحرب.

وكان البرادعي، رئيس الهيئة الدولية للطاقة الذرية والذي يقتسم الجائزة مع الهيئة قد سدد ضربة موجعة لإدارة بوش عشية الحرب على العراق. ففي خلال اجتماع مصور تلفزيونيا لمجلس الأمن في مارس ٢٠٠٣ قال البرادعي لوزراء الخارجية المجتمعين: إن المستندات، التي تثبت أن العراق حاولت شراء يورانيوم من النيجر لصناعة أسلحة نووية، «مزيفة».

يومها كانت شخصيات بارزة في إدارة بوش بالذات؛ كوندليزا رايس ونائب الرئيس ديك تشيني قد قدموا برنامج العراق المتطور والمفترض للأسلحة النووية على أنه السبب الرئيسي لشن الحرب.

ومازال معظمنا يذكر ما قالته كوندليزا رايس في تعليق مشهور لها حول بحث المفتشين عن «دخان المسدس» (وهو كناية عن البحث عن شيء وهمي) «إننا لا نريد لدخان المسدس أن يتحول لسحابة مشروم (غيمة نووية)» وكانت بريطانيا قد قامت أيضا باستخدام العلاقة التي ثبت زيفها الآن مع النيجر للترويج بضرورة التحرك العسكري الفوري ضد صدام موحية بأنه كان على وشك إضافة الإمكانات النووية لترسانته من أسلحة الدمار الشامل.

ونعلم جميعاً أنه في النهاية لم يتم اكتشاف أي أسلحة للدمار الشامل من أي نوع فما بالك بالبرنامج النووي.

إن تكريم البرادعي ووكالة الطاقة الذرية يمكن أن يكون تحذيراً للرئيس بوش. ولتوني بلير الذي ساند بوش في الغزو- ضد الهجوم على إيران بحجة برنامجها النووي.

إن الرسالة الضمنية للجنة نوبل والتي قالت إن التهديد بالأسلحة النووية «يجب أن يُجابه عبر أوسع شكل ممكن من التعاون الدولي». هي أن التفتيش على الأسلحة أفضل في التعامل مع أي أزمة من اللجوء إلى الحرب.

ويشير القرار الذي أتى في الذكرى الستين لإلقاء القنبلة النووية الأمريكية على هيروشيما ونجازاكي إلى عودة لجنة نوبل في النرويج إلى جذورها فيما يتعلق بنزع السلاح.

وقال رئيس اللجنة أول دانبولت مويس «أن هذه رسالة لجميع سكان الأرض. افعلوا كل ما تقدرون عليه للتخلص من الأسلحة النووية. إن قوة الشعوب جبارة».

والبرادعي المصري المولد والذي علم بخبر فوزه وهو يشاهد التلفزيون مع زوجته أعلن أن الجائزة «shot in the arm» للوكالة التي يتم الآن تهميشها في الطموحات النووية لإيران وكوريا الشمالية، الدول التي تشكل أكبر خطر على السلام والأمن العالمي. ولقد تم منع الوكالة أيضا من الوصول إلى مهندس القنبلة النووية الباكستانية عبد القادر خان الذي وضع الآن تحت الإقامة الجبرية.

ولقد كان السيد خان المدير التنفيذي غير الرسمي لسوق محظورة تتعامل مع أكثر من ٣٠ شركة في ٣٠ دولة لتمرير الأسرار النووية لإيران وكوريا الشمالية وليبيا.

قال البرادعي في مقر الوكالة في فيينا «إن الجائزة ترسل رسالة قوية - استمروا في ما تفعلونه، كونوا محايدين وتعاملوا وهذا هو ما ننوي فعله».

وأضاف على وقع تصفيق موظفي الأمم المتحدة «إن الميزة في مجيء هذه الجائزة الآن هي أنها ستقوي من عزيمتي» مؤكداً على أن الجائزة اعتراف بأن «الخطر الأول الذي نواجهه اليوم» يأتي من التهديد بالانتشار النووي.

يوصف البرادعي بأنه «مدافع لا يعرف الخوف» عن نزع السلاح ويستمد قوته من أنه لا يخجل من أن يقول للسياسيين الحقيقة التي لا يستسيغونها والتي يأتي بها من الأدلة الموثقة التي مصدرها المفتشون «على الأرض».

ومع ذلك لم تكن الوكالة وإنما منشقون إيرانيون هم من أطلق جرس الإنذار بخصوص برنامج إيران النووي السري. وقد أثبتت تحريات مفتشي الأمم المتحدة على الأسلحة أن إيران كانت تعمل على برنامجها النووي قبل ضبطها بالجرم المشهود بثمانية عشر عاماً.

وحتى اليوم بعد مرور سنين على التفتيش لم تحسم وكالة الطاقة الذرية ما إذا كانوا يعملون على برنامج تسليح، وهو الأمر الذي ينكرونه في كل الأحوال . أم لا . أما في حالة كوريا الشمالية فليس في وسع الوكالة إلا أن تخمن ما الذي يجري في هذا النظام المنغلق حيث إن المفتشين طردوا منها عام ٢٠٠٢.

لقد تم في الواقع الاستيلاء على مفاوضات نزع السلاح مع بيونجيانج لحساب مفاوضات سداسية الأطراف يشترك فيها الولايات المتحدة مع أطراف إقليمية.

إن البرادعي هو من يشرف على تطبيق اتفاقية منع الانتشار النووي منذ أصبح مدير عام الوكالة عام ١٩٩٧ بعد ترقيه في المناصب المختلفة فيها عبر ١٣ سنة وقد انتقد بشكل خاص ما رأى أنه معايير مزدوجة من طرف الدول التي تمتلك أسلحة نووية ولكنها تسعى لمنع الآخرين من امتلاكها.

كما قال «يجب علينا أن نتخلى عن المفهوم غير القابل للتطبيق والذي يعتبر أنه من الأخلاقي أن يسعى البعض لامتلاك أسلحة دمار شامل أو أن من المقبول أخلاقياً أن يعتمد عليها آخرون لحمايتهم وأن يستمروا فعلا في تحسين قدراتها».

في الغالب لن يرضى الأمريكيون عن جائزة البرادعي حيث إنهم يعملون مع الوكالة على أمل إحالة طهران لمجلس الأمن لعدم كشفها عن المدى الحقيقي لبرنامجها النووي.

لم يحصل البرادعي على الجائزة فقط رغم أنف واشنطن، بل إنه كان قد احتفظ بمنصبه أيضاً رغماً عنها إذ كان جون بولتون الذي يشغل حاليا منصب مندوب الولايات المتحدة في الأمم المتحدة قد قام بشن حملة فاشلة لإقالة البرادعي عندما كان بولتون المسئول الأمريكي عن ملف نزع السلاح. ولكن تم التجديد للبرادعي في منصبه للمرة الثالثة ليستمر في فيينا. والتي لن يتركها - رغم أماني بولتون - إلا إلى ستوكهولم ليتسلم الجائزة الرفيعة. ■

عن صحيفة الإندبندنت البريطانية

ترجمة: نرمين نزار



IAEA

الوكـــــالــة.. والجـــــائــزة

محمد إبراهيم شاكر

من الطبيعى أن يحس كل من عمل أو يعمل حاليا فى الوكالة أو ارتبط بها من قريب أو بعيد أنه معنى بهذه الجائزة

غداة حصول الوكالة الدولية للطاقة الذرية والدكتور محمد البرادعى - مديرها العام - على جائزة نوبل للسلام لعام ٢٠٠٥، اتصلت بى إعلامية بإحدى الصحف اليومية لتهنئتى وتهنئة مصر بهذه الجائزة، وتساءلت ببساطة: عما إذا كنت أحد الفائزين بهذه الجائزة بصفتى أحد الخبراء فى مجال الطاقة النووية وبسبب سابق عملى فترة ما فى الوكالة الدولية فى الماضى. فشكرتها على هذا الشعور، واختلجتنى مشاعر كثيرة وذكريات عديدة حول قصة ارتباطى الطويلة بالوكالة الدولية للطاقة الذرية ومنع انتشار الأسلحة النووية.

قضيت أعواما طويلة فى مجال منع انتشار الأسلحة النووية منذ أن عملت كعضو فى وفد مصر لدى مؤتمر نزع السلاح فى جنيف فى الفترة من ١٩٦٤ حتى ١٩٦٨، وهى الفترة التى كرس فيها المؤتمر جهوده للتفاوض حول معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية، مما شدنى فيما بعد إلى التفرغ أربع سنوات لإعداد رسالة دكتوراه عن هذا الموضوع منحتها لى جامعة جنيف بسويسرا عام ١٩٧٥ (أصدرتها دار نشر كبيرة فى نيويورك ١٩٨٠ فى كتاب من ثلاثة أجزاء، والذى يعد اليوم بشهادة الجميع المرجع الرئيسى بالنسبة للمعاهدة).

وبعد مرور فترة طويلة من حصولى على الدكتوراه وتنقلى بين اكثر من عاصمة - وخاصة واشنطن - خلا منصب ممثل مدير عام الوكالة لدى الأمم المتحدة بنيويورك - وكان هانز بليكس قد تولى منصبه كمدير عام للوكالة، ولم يمر على وجوده فى هذا المنصب أكثر من عام. وبالفعل وفقنى الله فى الحصول على هذا المنصب فى نيويورك من ضمن ٤٠ مرشحا له.

تسلمت عملى فى الوكالة فى أغسطس ١٩٨٢، وانتقلت مباشرة لنيويورك لتولى مهام منصبى الجديد، وكانت من أسعد اللحظات وأثراها فى علاقتى الطويلة الوثيقة بموضوع منع الانتشار النووى، ودور الوكالة الدولية فى هذا الشأن، وحيث توثقت الصلة بينى وبين هانز بليكس خلال هذه الفترة.

لم تطل للأسف فترة وجودى بالوكالة، حيث نصحنى د. بطرس غالى - وزير الدولة للشئون الخارجية حينذاك - وبعد حصولى على درجة السفير باستئناف عملى بوزارة الخارجية، وإنهاء إعارتى للوكالة على أن أتولى منصب المندوب المناوب لدى الأمم المتحدة اعتبارا من أول يناير ١٩٨٤، وقد جذبتنى هذه الفرصة خاصة أننى كنت قد علمت أن مصر مرشحة لتولى عضوية مجلس الأمن خلال عامى ١٩٨٤ . ١٩٨٥ .

حاول هانز بليكس أن يغرينى بالبقاء، باحتمال نقلى لفيينا، مقر الوكالة لتولى العلاقات الخارجية بعد موافقة مجلس محافظى الوكالة، ولكنى كنت قد عقدت العزم على استئناف عملى بالخارجية كما وعدت بذلك الدكتور بطرس غالى، غير أننى كمصرى غيور، شعرت أنه من واجبى أن أعمل على أن يشغل هذا المنصب الهام مصرى آخر، وهو ما وعدت به هانز بليكس - وكان الدكتور محمد البرادعى وقتذاك معارا من وزارة الخارجية لمعهد الأمم المتحدة للبحوث والتدريب بنيويورك حيث أعرب عن رغبته فى أن يحل محلى فى هذا الموقع ، وتم لقاؤه مع بليكس فى مكتبى بالوكالة فى نيويورك لأول مرة. ذكرت لبليكس أنه لن يجد افضل من د. البرادعى لهذا المنصب. وبالفعل - اختاره من بين عدد كبير من المرشحين الذين تقدموا لشغله. ومن هنا بدأت رحلة د. محمد البرادعى داخل الوكالة فى مناصب مختلفة إلى أن تولى منصب مدير عام الوكالة منذ عام ١٩٩٧.

لم تنقطع صلتى فيما بعد بالوكالة على الإطلاق، فبعد تسلم عملى كمندوب مناوب لمصر لدى الأمم المتحدة، ونائب مندوب مصر فى مجلس الأمن فى الفترة من ١٩٨٤ - ١٩٨٥، رشحتنى مصر لتولى رئاسة المؤتمر الثالث لمراجعة معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية ١٩٨٥، وكان من المؤتمرات الناجحة للغاية، خاصة بسبب روح الفريق التى سادت قيادات المؤتمر، والتنسيق والتعاون الكامل فيما بينها، وكان المؤتمر السابق له فى عام ١٩٨٠ قد فشل تماما فى التوصل لوثيقة ختامية، كما فشل فى نفس الأمر مؤتمر المراجعة لعام ١٩٩٠، كما أن مؤتمر مراجعة ١٩٩٥- وان كان قد نجح فى مد أجل المعاهدة واتخاذ بعض القرارات الهامة - إلا أنه فشل أيضا فى إصدار بيان ختامى، ولم ينجح فى إصدار بيان ختامى إلا مؤتمر مراجعة عام ٢٠٠٠، وان كانت الدول الحائزة على الأسلحة النووية لم توف بتعهداتها بنزع هذه الأسلحة. كما أننا كلنا نعلم الفشل الذريع الذى وصل إليه مؤتمر المراجعة الأخير فى عام ٢٠٠٥.

بعد ذلك، عينت سفيرا فى النمسا، ومحافظا لمصر فى مجلس محافظى الوكالة الدولية للطاقة الذرية من عام ١٩٨٦ - ١٩٨٨، انتخبت خلالها كذلك لرئاسة المؤتمر الدولى لتشجيع التعاون الدولى فى مجال الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية فى جنيف (مارس ١٩٨٧).

وبعد انتقالى من فيينا إلى لندن لتولى منصبى كسفير لمصر لدى بريطانيا، لم تنقطع صلتى بعمل الوكالة الدولية للطاقة الذرية، أو بموضوعات منع الانتشار، وذلك بحضور عدد كبير من الندوات واللقاءات الدولية، كما اختارنى د. بطرس غالى سكرتير عام الأمم المتحدة عضوا بالمجلس الاستشارى للسكرتير العام لشئون نزع السلاح من ١٩٩٣ حتى ١٩٩٨، وكنت رئيسا له عام ١٩٩٥، وقد أكد هذا الاختيار خليفته كوفى عنان.

وعندما خلا منصب مدير الوكالة الدولية للطاقة الذرية عام ١٩٩٧، رشحتنى مصر لهذا المنصب المهم آملا وضع خبراتى الواسعة فى النهوض بعمل الوكالة الدولية للطاقة الذرية والاستمرار فى شحذ الجهود لمنع انتشار الأسلحة النووية - خاصة فى ظل ما نعانيه فى منطقتنا من وجود مخاطر نووية تهدد أمننا وسلامتها.

وضعت مصر كل إمكانياتها لتأييد حصولى على هذا المنصب، خاصة أنه كان هناك عدد كبير من المرشحين ولكنهم انسحبوا جميعا ما عدا عالم ذرة رشحته



ذكــرت لبليكـــس أنه لن يجــد افضــل
مــن د. البــرادعــى لهـــذا المنصـــب. وبالفعــــل -
اختاره من بين عدد كبير من المرشحين الذين تقدموا لشغله. ومن هنا بدأت رحلة
د. محمد البرادعى داخل الوكالة فى مناصب مختلفة
إلى أن تولى منصب مدير عام الوكالة عام ١٩٩٧



سويسرا، وفى التصويت النهائى فى الجولة الأولى للترشيحات، حصلت على عدد من الأصوات أكبر من تلك التى حصل عليها المرشح السويسرى، ولكنها لم تكن كافية لحصولى على الأغلبية اللازمة لتولى هذا المنصب، ورأت القاهرة عدم السير فى استمرار تأييد ترشيحى فى الجولة الثانية. وكان زميلى د. محمد البرادعى فيما بعد أكثر حظا منى فى الجولة الجديدة كمرشح المجموعة الأفريقية فى الوكالة، وكان حائزا على تأييد الدول الرئيسية الأعضاء فى مجلس محافظى الوكالة، ثم فى المؤتمر العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية الذى يقر نهائيا قرار مجلس المحافظين.

أطلت بعض الشىء فى هذه المقدمة، حتى أوضح مدى سعادتى بجائزة نوبل للسلام لكل من الوكالة ود. محمد البرادعى لأننى شعرت وأحسست بأننى عشت تجربة طويلة مع منع الانتشار، وعرفت الوكالة الدولية للطاقة الذرية من الداخل، والدور الهام الذى تقوم به للرقابة على الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية، وتشجيعها لهذه الاستخدامات فى نفس الوقت تحت هذه الرقابة، ومن الطبيعى أن يحس كل من عمل أو يعمل حاليا فى الوكالة أو ارتبط بها من قريب أو بعيد أنه معنى بهذه الجائزة.

ويحضرنى فى هذه المناسبة، تساؤل أحد الدبلوماسيين القدامى بسذاجة - لماذا تقحم مصر نفسها فى السعى لمنصب مدير وكالة همها اليومى هو التدخل فى شئون الدول ورقابتها، فالأحرى بمصر أن تبتعد عن مثل هذه المناصب غير المحببة للرأى العام الدولى!؟.

وهو ما يسوقنى الآن للانتقال للحديث عن الدور الذى تقوم به الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وتاريخ إنشائها، وان كنت أود أن أوضح أن جائزة نوبل للسلام منحت فى مجال نزع السلاح ومنع الانتشار بمشاركة أكثر من شخص أو منظمة أكثر من مرة، فقد حصل على هذه الجائزة عام ١٩٨٣ كل من السفير جارسيا روبلز من المكسيك والسفيرة الفا ميردال من السويد لدورهما وجهودهما نحو عالم منزوع السلاح؛ فالأول ساهم فى إنشاء أول منطقة خالية من الأسلحة النووية فى أمريكا اللاتينية، والثانية اضطلعت بدور هام فى مفاوضات نزع السلاح، وكذلك معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية كممثلة لأجيال متعاقبة من الخبراء السويديين الذين كرسوا حياتهم للتخلص من الأسلحة النووية، وخلق عالم أكثر استقرارا وسلاما. وقد حصلت أيضا على جائزة نوبل للسلام منظمة باجواش، ورئيسها الفخرى الذى رحل عنا هذا العام جوزيف رود بلات البريطانى الجنسية من أصل بولندى وذلك عام ١٩٩٥لدورهما الكبير فى العمل على التخلص من الأسلحة النووية ومنظمة باجواش أسسها علماء ذرة وغيرهم ممن ساهموا فى صنع القنبلة الذرية بطريق مباشر أو غير مباشر تكفيرا عن دورهم فى هذا الشأن، ولكن اتسعت العضوية بالمنظمة الآن لتشمل فئات أخرى عديدة مناهضة للسلاح النووى.

أنشئت الوكالة الدولية للطاقة الذرية عام ١٩٥٧، وكان بناء على اقتراح تقدم به رئيس الولايات المتحدة دوايت ايزنهاور عام ١٩٥٣ فى خطاب شهير عرف بـ «الذرة من اجل السلام»، وكانت فلسفة إنشاء هذه الوكالة تقوم أولا على أن التقنية النووية ستنتشر سواء أردنا أم لم نرد، وبالتالى لا مفر من توجيه انتشار التقنية النووية السلمية تحت رقابة دولية فعالة.

وبالفعل انحصرت مهام الوكالة منذ إنشائها فى تحقيق هدفين أساسيين أولهما تشجيع التعاون فى مجال الاستخدامات السلمية للطاقة النووية من اجل رفاهية ورخاء البشر، ومن ذلك استخدام الطاقة النووية فى مجال توليد الطاقة الكهربائية وفى مجال الزراعة، كالقضاء على ذبابة الفاكهة، وكذلك فى مجال الطب لمعالجة الأورام الخبيثة إلى غير ذلك من المجالات السلمية.

أما الهدف الثانى، أن تكون هذه الاستخدامات تحت رقابة دولية فعالة - وهو ما أود أن أركز عليه الآن - وقد لوحظ فى المراحل الأولى من حياة الوكالة أن بعض الدول تتعاون فى المجال النووى دون أن تطلب من الوكالة القيام بدورها كرقيب على هذا التعاون لضمان عدم إساءة استغلاله لأغراض غير سلمية وكانت الرقابة تترك للدولة التى أمدت بالتقنية النووية أو فى بعض الأحوال التعاون لم يكن خاضعا لأى نوع من الرقابة من جانب أى طرف، مثل حال مفاعل الأبحاث النووى الذى وفرته كندا للهند. ولتشجيع الالتجاء للوكالة قامت الأخيرة فى بداية عهدها بإعداد نموذج لتستعين وتهتدى به الدول الأعضاء بها فى توقيع اتفاقية ضمانات (تفتيش) مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وقد أدخلت على هذا النموذج عدة تعديلات، ليتواكب مع مقتضيات حجم ونوعيات التعاون فى ضوء الخبرة المكتسبة فى هذا الشأن.



ومع توقع ازدياد حجم التعاون بين الدول فى مجال الاستخدامات السلمية للطاقة النووية بعد فتح باب التوقيع على معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية فى أول يوليو ١٩٦٨، وهو ما تسمح به وتشجعه المادة الرابعة من المعاهدة، شرعت الوكالة الدولية للطاقة الذرية فى إعداد نموذج جديد للرقابة على الأنشطة النووية يأخذ فى الاعتبار زيادة معدلات التعاون فى المستقبل لتمتد الرقابة على كل الأنشطة النووية للدولة الطرف بالمعاهدة حيث كان النموذج السابق ينطبق عادة بالنسبة لمنشأة بذاتها، وكان على كل طرف فى المعاهدة بمجرد انضمامه للمعاهدة أن يبدأ مفاوضات مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية فى فترة زمنية محدودة، من أجل عقد اتفاقية ضمانات تشمل كل أنشطته، - وهو ما قامت به مصر عندما انضمت لمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية عام ١٩٨١حيث سارعت بالتفاوض والتوقيع على اتفاقية الضمانات مع الوكالة.

ولكن بعد حرب تحرير الكويت من الاحتلال العراقى، تكشف للوكالة الدولية للطاقة الذرية أن هناك أنشطة نووية لم تبلغها العراق للوكالة وفقا لالتزاماتها فى معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية واتفاقية الضمانات الموقعة مع الوكالة. فالأخيرة كانت تعتمد أساسا على ما تعلنه الدول الأطراف من أنشطة وتضع ثقتها فى أن ما توفره من بيانات عن أنشطتها النووية هى بيانات كاملة. وقامت الوكالة الدولية بقيادة الدكتور محمد البرادعى وبالتعاون مع هانز بليكس رئيس هيئة التفتيش على العراق بجهد خارق لتفكيك ما لدى العراق من أنشطة نووية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل.

نبهت قضية العراق الوكالة وأعضاءها إلى أن الوكالة فى حاجة إلى سلطات أوسع للتحقق من أن البيانات التى توفرها لها حكومات الدول الأعضاء فى المعاهدة عن أنشطتها النووية صحيحة وكاملة، وبالتالى عكفت الوكالة الدولية للطاقة الذرية على إعداد نظام جديد للضمانات انتهت من إعداده عام ١٩٩٧، يكفل لها حرية أكبر فى الحركة والتجول فى الدول الأطراف بالمعاهدة، للتأكد من صحة البيانات أو للبحث عن أنشطة غير معلنة إذا ما كانت هناك شكوك حول وجود مثل هذه الأنشطة. وهو ما تمخض عنه ما عرف بالبروتوكول الإضافى لـ «اتفاقية الضمانات» الموقعة بين كل طرف فى المعاهدة والوكالة الدولية للطاقة الذرية. وهذا البروتوكول الإضافى، لا يمكن فرضه على أطراف المعاهدة، فلابد من أن يوافق عليه الأعضاء بمحض



الـــوكـــالـــة والجـــائـــزة

اختيارهم، كالتزام جديد من جانبهم، ولكن بمجرد موافقة أى دولة على هذا البروتوكول يصبح ملزما لها مثل الوثيقة الرئيسية أى اتفاقية الضمانات التى وقعتها هذه الدولة مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية وفقا لمعاهدة منع الانتشار.

وتتردد حاليا كثير من الدول فى الانضمام لهذا البروتوكول، لأنها ترى فيه تدخلا مغالى فيه فى شئونها الداخلية، ولكن بدأت بعض الدول الموردة للتقنية النووية تخطط وتردد بأنه لن يكون هناك تعاون دولى بينها وبين الدول المتلقية للتقنية بدون الانضمام لهذا البروتوكول الإضافى.

وأعتقد أنه من التحديات الكبيرة التى تواجه الوكالة الدولية للطاقة الذرية فى المرحلة القادمة، وبالذات بعد حصولها على جائزة نوبل للسلام هو العمل على إقناع الدول التى لم توقع بعد على هذا البروتوكول الإضافى، القيام بذلك قريبا.

أما عن التحديات الأخرى والتى نتابعها عن كثب، فهى خاصة بانتهاكات من جانب بعض الدول لالتزاماتها بمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية، وخاصة مشكلتى إيران وكوريا الشمالية.

وأعتقد أن لجنة نوبل بمنح جائزتها للسلام للوكالة والدكتور محمد البرادعى، لم تكن تقصد فقط مكافأتهما على دورهما فى معالجة هاتين الأزمتين حتى الآن(ودون أن ننسى العراق) ولكنها أيضا تتوقع منهما دورا أكبر فى إيجاد مخرج سلمى لهما.

وكما نعلم إيران لم تبلغ الوكالة بأنشطتها فى مجال إنتاج اليورانيوم المثرى، وبالتالى انتهكت التزاماتها بمعاهدة منع الانتشار. هذا وإن كانت قد كشفت الآن عن بعض هذه الأنشطة، إلا أنها لا تريد أن تتخلى عن حقها فى ممارسة هذه الأنشطة التى لا تحرمها معاهدة منع الانتشار. فإثراء اليورانيوم من الأنشطة التى تسمح بها المعاهدة إذا كانت للأغراض السلمية، ولكن بعض الدول المصدرة للتقنية النووية تود حظر هذه الأنشطة واحتكارها لنفسها خوفا من استخدام هذه التقنية فى إنتاج الأسلحة النووية، كما تحرم أيضا الاستثمار فى إنتاج البلوتونيوم، أو ما يسمى بإعادة معالجة الوقود المستنفد لاستخراج البلوتونيوم، كما أنها أضافت إلى قائمة الممنوعات تقنية تصنيع المياه الثقيلة التى تستخدم فى مفاعلات الأبحاث التى تعمل باليورانيوم العادى كوقود.

والقضية بين إيران والغرب ما زالت محل شد وجذب والجميع يتوقع من الوكالة ومديرها العام الحنكة السياسية والدبلوماسية لإيجاد مخرج سلمى لهذه الأزمة فى القريب العاجل.

أما عن قضية كوريا الشمالية، فهى - بدون الدخول فى تفاصيل عديدة - عبارة عن دولة طرف فى معاهدة منع الانتشار لم توقع اتفاقية الضمانات (التفتيش) مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية خلال المهلة التى حددتها المعاهدة، واستمرت فى المماطلة والمراوغة مع الوكالة لفترة سنوات طويلة دون الكشف عن أنشطتها النووية التى ستخضع للتفتيش. وعندما ازداد ضغط الوكالة عليها بعد اكتشاف أنشطة خفية، وكذلك من جانب دول أخرى كالولايات المتحدة، قررت الانسحاب من المعاهدة عام ٢٠٠٣، على الرغم من الجهود التى بذلتها مجموعة سداسية تأسست خارج الوكالة هى (الولايات المتحدة ـ اليابان ـ الصين ـ روسيا ـ كوريا الشمالية ـ كوريا الجنوبية) لإيجاد مخرج للأزمة، وقد طالعتنا الأنباء خلال شهر سبتمبر الأخير باحتمالات لانفراج الأزمة بعودة كوريا الشمالية للانضمام لمعاهدة منع الانتشار كطرف بها، وبحصولها على مفاعلات نووية للاستخدامات السلمية كطلبها، بالإضافة إلى ضمانات أخرى ستوفرها الولايات المتحدة، ولكن ما زالت كل هذه الأمور معلقة، ولم تعد بعد كوريا الشمالية إلى حظيرة منع الانتشار. هنا أيضا فى تصورى تتوقع لجنة نوبل أن يكون للوكالة الدولية للطاقة الذرية دور ما فى إعادة كوريا الشمالية لهذه الحظيرة، ووضع جميع منشآتها النووية تحت الرقابة الدولية.

إن استقرار الأوضاع فى كل من إيران وكوريا الشمالية لاشك ستكون له آثاره الإيجابية على جنوب آسيا حيث بزغت قوى نووية جديدة، أى الهند والباكستان، وكذلك على منطقة الشرق الأوسط حيث إسرائيل وقدراتها النووية العسكرية التى تشكل تهديدا خطيرا لأمننا، بل وتحديا كبيرا للوكالة الدولية للطاقة الذرية ومديرها المصرى د. محمد البرادعى الذى يدعو الآن لعقد مؤتمر أمن إقليمى لتحقيق الأمن والاستقرار فى المنطقة، ويبحث فى إطاره الخطر النووى. ويتصل بهذا الشأن ما تعكف عليه جامعة الدول العربية منذ سبع سنوات أو أكثر من إعداد مشروع معاهدة لإنشاء منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل فى الشرق الأوسط لم يخرج بعد من أدراج الجامعة.

أعود مرة أخرى لمهمة الوكالة فى تشجيع الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية تحت الرقابة الدولية الفعالة والتى أطلنا فى شرح مغزاها ومقوماتها، إذ تجد سكرتارية الوكالة الدولية للطاقة الذرية نفسها فى حرج بالنسبة للأزمة الإيرانية إذ أن تشجيع الاستخدامات السلمية لم يستثن أى جانب من جوانب المعرفة فى تطوير الإمكانات والتقنيات النووية للأغراض السلمية، ولكن فى قضية إيران اشترطت الولايات المتحدة والدول الأوروبية الثلاث التى تتفاوض معها (بريطانيا ـ ألمانيا ـ فرنسا) أن تجمد إيران تماما بل وتتخلى عن أنشطة إثراء اليورانيوم- خاصة أنها حاولت إخفاء هذه الأنشطة-، وهو ما ترفضه إيران الآن بعدما وعدت من قبل أن تجمدها.

وفى الحقيقة، إن المفاوضات الجارية مع إيران فى هذا الشأن تهمنا فى منطقتنا وتهم الوكالة من زاويتين.



الزاوية الأولى، أن أى اتفاق يتم التوصل إليه فى موضوع حق إيران من عدمه فى إثراء اليورانيوم، وكذلك بالنسبة للضمانات التى ستقدم لإيران لإغرائها بالتخلى عن هذا الحق مثل ضمانات الإمداد بالوقود النووى الذى تحتاجه إيران لمنشآتها النووية، لاشك سيكون لها تأثير مباشر على الدول الأخرى التى لا تتمتع بأى ضمان بالإمداد، حيث فشلت فى الماضى لجنة ضمان الإمداد بالوكالة الدولية للطاقة الذرية فى التوصل لمبادئ معينة تحكم ضمان الإمداد بالوقود النووى بسبب معارضة الدول المصدرة للتقنية لهذه المبادئ، بل فشل المؤتمر الدولى لتشجيع الاستخدامات السلمية للطاقة النووية عام ١٩٨٧ والذى أشرت إليه فى بداية المقال - فى التوصل إلى مثل هذه المبادئ بسبب معارضة الدول المصدرة للتقنية وخاصة الولايات المتحدة، وذلك لأنها لا تريد أن تلتزم بشىء يقيدها فيما بعد.

وبالتالى أقول أن أى اتفاقية تتوصل إليها إيران مع الدول المصدرة للتقنية هو موضوع يهم الجميع، بما فى ذلك دول منطقتنا ولابد أن يؤخذ رأى الجميع فى هذا الاتفاق ومن خلال الوكالة لتطمئن نفسها أن هذا الاتفاق لن يصادر على ما نطالب به من مبادئ ومعايير بل وقواعد تحكم موضوع الإمداد بالمواد النووية.

أما الزاوية الثانية، والتى تعنينا فى المقام الأول فى الشرق الأوسط والتى يمكن للوكالة أن تلعب فيها دورا هاما، فهى مقايضة تخلى إيران عن إثراء اليورانيوم - إذا ما استقر الأمر على ذلك - بتنازل إسرائيل عن نفس الشىء كقسط أول أو كدفعة أولى فى طريق لا نتوقع أن يكون قصيرا للتخلى عن برنامجها النووى العسكرى والانضمام لمعاهدة منع الانتشار وكذلك لمنطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل فى منطقتنا. وقد طالبت الدول العربية أكثر من مرة فى إطار عمل الوكالة الدولية ومؤتمراتها بأن ترسم لنا الوكالة الطريق أيضا بالنسبة للجوانب الفنية والرقابية لإنشاء المنطقة الخالية وهو تحد آخر للوكالة فى المرحلة المقبلة.

فى النهاية، تحاول الوكالة أن توازن بين دورها فى تشجيع الاستخدامات السلمية للطاقة النووية بموارد محدودة تعتمد أساسا على ميزانية الوكالة، بالإضافة إلى مساهمات اختيارية من جانب الدول الأعضاء، وبين الإنفاق الكبير على نظم الرقابة على الأنشطة النووية للدول لضمان أنها لا يساء استخدامها فى غير الأغراض السلمية.

مرت الوكالة بسنوات عجاف، وبميزانية سنوية تنمو بمعدل نمو صفرى - ولكن الوكالة تعدت هذه المرحلة، وحققت نموا أكبر فى ميزانيتها، وكل ما نرجوه أنه فى ظل هذه الثقة الكبيرة فى دور الوكالة فى صنع السلام والمحافظة عليه، نرجو أن يوفر لها الأعضاء إمكانات مادية اكبر تزيد من ثقتنا فى قدراتها على الاستمرار فى مهامها وفى مواجهة التحديات الحالية والمستقبلية. وفى هذا الشأن، لابد أن نحيى ما بدر من الوكالة ومن د. محمد البرادعى من استعدادهما تخصيص الجائزة المالية التى منحتها لهما لجنة نوبل للارتقاء بالمساعدات والمعونة الفنية التى توفرها الوكالة لأعضائها ـ وبالذات الدول النامية ـ من أجل النمو والرخاء والسلام. ■



■■ هذه بلاد التتر أخيراً، التى طالما أثارت فضولى كلما زرت روسيا، ذلك أننى ما لقيت فى موسكو ناشطاً مسلماً إلا واكتشفت بعد حين أنه من التتر، الأمر الذى بدا متناقضاً مع الصورة السلبية لهم الكامنة فى الذاكرة العربية والإسلامية. وهم الذين لم يذكرهم مؤرخونا القدامى بخير، حتى أن ابن الأثير ما أشار إلى اسمهم مرة إلا وألحقه بعبارة: قبحهم الله تعالى!

مرافقى إلى المطار قال إنه حين ذهب إلى العمرة عرف من حوله بأنه روسى، فجاءه السؤال مباشرة: شيشانى؟ (باعتبار أن العرب يظنون أن كل المسلمين فى روسيا شيشانيون، فى حين أن عددهم مليون فقط، ومسلمو روسيا ٢٤ مليونًا). وإذ أبلغ سائله بأنه تترى، فإنه رفع حاجبيه وتمتم قائلاً: أنتم من سلالة أصحاب المقتلة العظيمة فى بغداد.

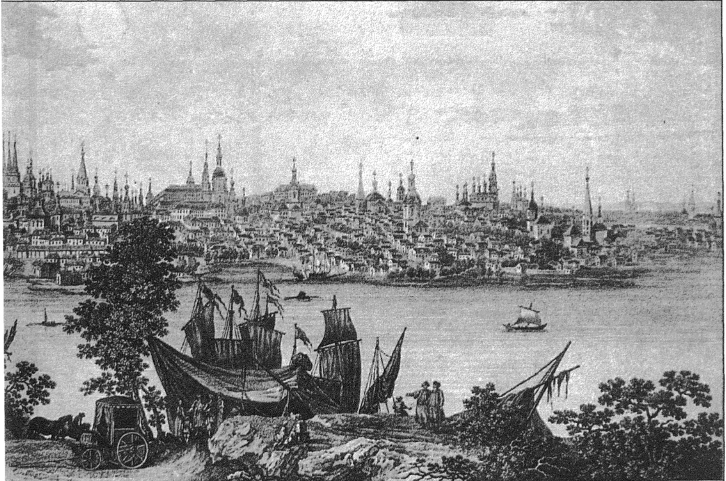
القصة ذاتها سمعتها بروايات مختلفة من أكثر من واحد، بعد وصولى إلى «قازان» عاصمة جمهورية تترستان. وهو ما فسر لى حرص المرافقين على استعراض تاريخ التتر، فيما بدا أنه محاولة غير مباشرة لإعلان البراءة مما فعله هولاكو وجيشه ببغداد وأهلها قبل أكثر من سبعة قرون. وهو ما بدا لى مفاجئاً ومفيداً فى الوقت ذاته. ووجه المفاجأة فيه أننى لم أكن أعلم أن سكان البلاد ليسوا تترًا فى الأصل، ولكنهم ينحدرون من قبائل الأتراك والويغور الذين هاجروا منذ وقت مبكر إلى هذه الأرض، قادمين من أنحاء مختلفة من آسيا، واختلطوا بالسكان المحليين الذين ينتمون إلى القبائل الفنلندية، وأقاموا معهم مملكة البلغار. الأمر الذى يعنى أنهم فى حقيقة الأمر بلغار وليسوا تترًا.

لاحظ إلنور زاريبوف مدير مكتبة الجامعة الإسلامية علامات الاهتمام والدهشة على وجهى فتوقف لحظة ثم قال بلغة عربية سليمة تعلمها من دراسته فى ليبيا أن عاصمة تلك المملكة تقع على بعد ٥١٢٠ كيلو مترًا من قازان واسمها بلغار أو بولغار، وإليها نسب النهر فأصبح اسمه فولجا. ولم يبق من آثار العاصمة القديمة سوى قلعة وبئر يتبرك العامة بها. ثم ضحك وهو يقول إن أحد المتعالمين أفتى يومًا ما بجواز الحج إلى مكان القلعة والبئر، بدلاً من تكبد مشقة السفر إلى مكة والمدينة للطواف والشرب من ماء زمزم!

أضاف أن المغول التتر استولوا على بلاد البلغار وأخضعوها لدولة القبيلة الذهبية التى أسسوها فى القرن الثالث عشر (الميلادى). فما كان من جيرانهم الروس إلا أن أطلقوا وصف التتر على كل الشعوب والقبائل التى اعتنقت الإسلام وخضعت لتلك الدولة. وكانت القوميات التركية التى سكنت البلاد ضحية ذلك التعتيم وعن الروس نقل الجميع، حتى لم يعد للبلغار ذكر إلا فى كتب التاريخ، وتعين على أهل البلاد أن يقبلوا بالخطأ الشائع، وأن يخاطبوا من حولهم بحسبانهم تترًا، رغم أنهم فى أعماقهم غير مقتنعين بصواب التسمية.

سألنى مدير مكتبة الجامعة عما إذا كانت هذه أول زيارة إلى «قازان»، وقبل أن أرد قال فاتنى أن أذكر أن الكلمة معناها «القِدر» فى اللغة التركية، لأن المنطقة التى بنيت فيها المدينة كانت تشبه القِدر. ومن الباحثين من يقول بأن الكلمة من جزءين هما «قاز» و«ان»، وفى البلغارية

رحلة إلى



منظر عام لقازان فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، وقد هدمت المساجد وظهرت الكنائس

رنت كلمة «الجاهلية» فى أذنى حين سمعتها منه لأول مرة، وعندما سألته عن مدلولها قال إن سبعين عاماً على الأقل من محاولة محو العقائد والترويج للإلحاد لا يمكن أن توصف بأقل من ذلك



القديمة فإن كلمة «قاز» كانت تستعمل بمعنى «الحدود»، الأمر الذى يعنى أن قازان ربما أريد بها بداية الحدود. وهى كانت كذلك فعلاً لأنها اعتبرت ركيزة الحصون الشمالية لملكة البلغار.

من الجاهلية إلى الإسلام

كانت زيارة الجامعة الإسلامية ومكتبتها أول فقرات برنامج الزيارة، وبعد جولة فى كليات الجامعة (الشريعة وعلوم الدين والقرآن)، قصدنا مكتب رئيسها الذى هو مفتى تترستان فى الوقت ذاته. وفاجأنى المفتى عثمان حضرت بقوله أن ثمة مناسبة مهمة خارج قازان يجب ألا يفوتنى حضورها. سألت عن المناسبة فقال إنه افتتاح لمسجد. أيضاً قبل أن أرد وجدته يقول: سنمر عليك بالفندق غداً فى السابعة صباحاً.

فى الموعد التقطتنى السيارة من أمام فندق «بلغاريا» الذى أقمت فيه. لم أميزها لأول وهلة، توقعتها «لادا» أو «فولجا» على أحسن الفروض، أو هكذا صورها لى وعيى الروسى التقليدى، لكن السائق حين لوح لى وجدتها «فولكس فاجن» من أحدث طراز، وقد جلس فى مقعدها الخلفى «عثمان حضرت» متحللاً من عمامته المهيبة وعباءة المفتى التى لا تفارقه.

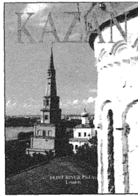
ملحوظة: فى البداية لم أستسغ التسمية، لكنى وجدت الجميع ينادون الشيخ عثمان اسحاقوف على ذلك النحو، وفهمت أنها تعنى عثمان المحترم أو المبجل، وهو أقل ما يوصف به مفتى جمهورية تترستان، وبعد أيام قليلة من وصولى إلى قازان اعتدت على الأمر، وصرت أناديه بدورى: عثمان حضرت.

تحمست لحضور افتتاح مسجد أعيد بناؤه فى بلدة «بوا» (معناها السد) التى تبعد ١٥٠ كيلو متراً عن قازان، ليس فقط لأن حدثاً من ذلك القبيل فى روسيا الجديدة جدير بالمشاهدة، ولكن أيضاً لأن رحلة الساعتين إلى بوا تتيح لى فرصة الانفراد بالمفتى، الذى لا يكف عن الحركة والتنقل طول الوقت، وإذا كان ساكناً فإن الهاتف النقال الذى يحمله لا يكف عن الرنين. إذ ليس سهلاً أن يكون المرء مفتياً فى جمهورية تضم حوالى أربعة ملايين شخص (أكثر من نصفهم مسلمون والباقون من الروس) وللناس فيها مشاكل بلا حصر، خصوصاً الذين صاروا يعودون إلى دينهم أفواجاً، بعدما تجاوزوا رحلة «الجاهلية» وانتقلوا إلى رحلة الإسلام.

رنت كلمة «الجاهلية» فى أذنى حين سمعتها منه لأول مرة، وعندما سألته عن مدلولها قال إن سبعين عاماً على الأقل من محاولة محو العقائد والترويج للإلحاد لا يمكن أن توصف بأقل من ذلك. وما حدث فى العصر الإسلامى الأول حين كان يدخل فى الإسلام فرد من الأسرة - الزوج أو الزوجة مثلاً - بينما يبقى الآخرون على شركهم. هذه الصورة تتكرر بحذافيرها الآن. إذ أن كثيرين باتوا يلجأون إلينا سائلين ما العمل؟ - ونحن ننصحهم دائماً بالصبر وعدم المسارعة إلى إيقاع الطلاق وتدمير البيوت. ونقول إن على الطرف الذى عاد إلى الإسلام ألا يفقد الأمل فى هداية الطرف الآخر، وقد يكون مثل الخلق المضروب إذا اعترف بحسن المعاشرة سبيلاً إلى تلك الهداية.



بلاد التتار



تنبهت إلى أننى استسلمت للفضول بسرعة، الأمر الذى صرفنى عن ملاحظة المطر الذى ظل يهطل طول الوقت حتى أغرق نوافذ السيارة. وحجب عنى رؤية الحقول الممتدة والواسعة المزروعة قمحًا وذرة وخضراً، وإن ظلت شاخصة فى الأفق أشجار البلوط الشاهقة مثل طابور لا نهائى من العمالقة اصطف على الجانبين. فسرت وفرة الأشجار ظاهرة البيوت الخشبية التى ما برحت تتراءى لنا على الطريق بين الحين والآخر، وعلمت لاحقًا أنهم يفضلونها لأنها أبرد فى الصيف وأدفأ فى الشتاء.

حينما فقد المجتمع روحه

كنا فى يوم أحد، الذى هو عطلة رسمية فى روسيا. ولهذا يفضل المسلمون أن يفتتحوا مساجدهم فيه، كى يتيحوا لأكبر عدد ممكن من الناس أن يشاركوا فى الاحتفال بالمناسبة. دعك من المفارقة فى الموضوع. فيوم الجمعة لا يزال محتفظًا بمكانته الرفيعة، ولكن الاعتبارات العملية لا أكثر هى التى فرضت إعطاء الأولوية لافتتاح المساجد يوم الأحد. وبسبب ذلك الحرص فإن المفتى لم يعد يستمتع بأى عطلة، لسبب بسيط هو أنه منذ سقط النظام الشيوعى، وتنفس المتدينون الصعداء، فإن المسلمين دخلوا فى سباق مع الزمن لاستعادة هويتهم الدينية، التى كانت المساجد رمزًا لها، وبعدها المدارس الدينية، ثم المطاعم التى تقدم اللحم الحلال (ذلك كله كان محظورًا فى الماضى).

حتى عام ٩٢ كان فى كل جمهورية تترستان ١٩ مسجداً لا غير، أما الآن فلدينا ١٢٠٠ مسجد مسجل وفى قازان العاصمة الكبيرة لم يكن فيها سوى مسجد واحد، الآن بها ٣٩ مسجداً وهناك عشرة تحت البناء و٣٠٠ لم تسجل بعد. هكذا قال عثمان حضرت، ثم أضاف: المسجد هو «روح» المجتمع الإسلامى فى روسيا، وحين هدم القياصرة مساجدنا حينًا من الدهر، ثم جاء البلاشفة وواصلوا هدم المساجد وإلغاء وظيفتها. استشعر المسلمون أنهم أصبحوا بلا روح، ولذلك ما إن سقطت الشيوعية حتى سارعوا إلى استعادة مساجدهم. وهى مسألة لا ترتبط بالضرورة بارتفاع معدلات التدين، لأن نسبة الملتزمين تتراوح بين ٥،٧٪ فقط وهى نسبة قليلة حقًا، ولكنها مفهومة فى بلاد ظلت تلقن الناس الإلحاد وتحارب الأديان طول الوقت. ومع ذلك فإن غير الملتزمين يساهمون فى التبرع لبناء المساجد ويحتفلون بها لإدراكهم أن وجودهم يصبح له معنى وقيمة فى وجودها.

حتى عام ٩٢ كان فى كل جمهورية تترستان ١٩ مسجداً لا غير، أما الآن فلدينا ١٢٠٠ مسجد مسجل وفى قازان العاصمة الكبيرة لم يكن فيها سوى مسجد واحد، الآن بها ٣٩ مسجداً

توقفت سيارتنا فجأة، بعدما اعترض طريقها بعض رجال الشرطة، الذين طلبوا من السائق فتح النافذة، وفى ثوان كانت أكثر من رأس تتفرس فى وجوهنا، ويبدو أن أحدهم لاحظ عمامة المفتى، فتراجع ثم هز رأسه محيياً، وأذن للسائق بمواصلة السير. من باب الفضول سألت: هل هى إجراءات أمن، أم تفتيش على الأوراق ورخص السير. فرد عثمان حضرت ضاحكًا: لا هذه ولا تلك، ولكنهم يريدون التأكد من أن السائق ومن معه ليسوا مخمورين، لأن حوادث السير بسبب الإفراط فى شرب الفودكا أصبحت تمثل ظاهرة خطرة، كانت موجودة حقًا منذ المرحلة الشيوعية، لكنها تفاقمت الآن بعدما حدث الانفتاح على العالم الغربى، الأمر الذى ضاعف من فرص الانحراف والضياع. ثم تنهد وقال: المشكلة تهدد المجتمع الروسى لا ريب، ولم يسلم المسلمون من آثارها. لأن أبناء المسلمين أكثرهم يهاجر من القرى بحثًا عن العمل فى المدن، وهناك يتعرضون لما يتعرض له غيرهم من غواية وتفلت. وذلك يحمل المشتغلين بالعمل الإسلامى مسئولية تحيرهم كثيراً، لأنهم يصبحون مطالبين بتحصين أولئك الشباب لإنقاذهم من الانحراف، بينما هم تائهون فى المدن الكبيرة بعيداً عنهم وعن أهلهم.

لاحظت تمكنه من الفصحى فسألته أين تعلمها، فقال: إن أباه تمنى له أن يصبح إماماً، فأرسله فى السبعينيات إلى المدرسة الدينية الوحيدة فى بخارى (كانت تحت الإشراف المباشر للمخابرات السوفيتية). وهناك تعلموا بعض مبادئ اللغة العربية وحفظوا بعض سور القرآن، دون أن يفقهوا شيئًا مما حفظوه. ضحك عثمان حضرت وهو يقول: كنا نردد: قلب يقلب انقلاباً، ثم نقرأ فى القرآن: إنا إلى ربنا منقلبون. ولم نكن نفهم منقلبون كيف؟! . وهو ما فهمه واستوعبه لاحقًا حين سافر للدراسة فى ليبيا، ضمن مجموعة توزعت وقتذاك على بعض دول المغرب العربى.

انتهزتها فرصة وسألته عما سمعته عن اعتقال بضع عشرات من الشباب التترى سافروا إلى السعودية فى بداية التسعينيات، وعادوا يرددون مقولات الفكر السلفى المتشدد، التى دعت إلى تكفير الآخرين. فى رده قال إن هؤلاء أساءوا التقدير إلى حد بعيد، ففى حين كان الناس بعد سقوط الشيوعية يعودون إلى الإسلام ويشهدون أن لا إله إلا الله، فإن هؤلاء جاءوا ليخرجوهم من الملة، وقد دخلوا لتوهم فيها أو هموا بذلك. وأسوأ من هؤلاء جماعة أخرى تبنت أفكار حزب التحرير الداعية إلى البدء بإقامة الخلافة. بعضهم درس فى الأردن والبعض الآخر نقل الأفكار التى روج لها بعض الفلسطينيين والأردنيين فى طشقند. ووجود هؤلاء وهؤلاء فى قازان وما حولها كان لابد أن يسبب إزعاجًا لسلطات الأمن، فاعتقلت أعداداً منهم (ما بين ٢٠ و ٣٠ شخصًا)، ثم أفرجت عنهم فى وقت لاحق.

مفتٍ.. ورجل أمن أيضًا!

لاحظت أن السائق هدأ من السرعة فى حين استعاد المفتى عمامته ووضعها فوق رأسه، ثم توقفت السيارة على جانب من الطريق، ظهر فيه أحد الأئمة وإلى جواره ضابط شرطة كانا يحتميان من المطر بمظلة كبيرة.. حياهما حضرت عثمان ثم عاد إلى مقعده وهو يقول مستعيداً روحه المرحة: فى الماضى كان الإمام هو رجل الأمن، واختلفت الصورة الآن ليس فقط بانفصال الإمامة عن الأمن. ولكن بوقوف الاثنين تحت المطر لتحية المفتى على الطريق. وإذ استعاد ملامحه الجادة فإنه قال: فى تترستان بوجه أخص علاقتنا طيبة مع السلطة وممثليها، ورغم أن أغلب المسئولين الكبار تتريون من الشيوعيين السابقين (رئيس الجمهورية كان السكرتير الأول للحزب الشيوعى فى قازان)، إلا أنهم يتعاونون معنا فى كل مشروعاتنا. فى بناء الجامعة الإسلامية إلى بناء المساجد. وخروج ضابط الشرطة إلى جانب الإمام لاستقبالنا على الطريق فى الجو الممطر إشارة تعبر عن هذا المعنى.

بعد قليل كنا فى مكتب المحافظ أو الوالى، الذى كان بدوره تتريًا مرحًا وشيوعيًا سابقًا. أقام الرجل وليمة إفطار معنا ثم اصطحبنا إلى بلده بوا، ولم ينس أن يلتقط وهو خارج من مكتبه غطاء الرأس المصنوع من القطيفة السوداء، الذى هو جزء من الزى التترى التقليدى. اصطحبنا فى سيارته التى كانت يابانية (تويوتا) من ذوات الدفع الرباعى، مجهزة بهاتف وشاشة للتليفزيون. اخترقت السيارة طرقًا ضيقة غطتها الأوحال، حتى وصلت إلى مكان مرتفع. لاحت فوقه مئذنة المسجد وقبته الخضراء. همس فى أذنى عثمان حضرت قائلاً: المسجد عندنا يجب أن يقام فى أعلى مكان. لأن التتار يعتبرون أن بيت الله يعلو فوق بيوت البشر.

لم أفاجأ بالزحام الذى أحاط بالمسجد رغم المطر. لكننى فوجئت بأشياء أخرى كثيرة. فأغلب الموجودين كانوا من كبار السن والأطفال. الشباب كانوا قلة، وأبناء البلدة الذين يعملون خارجها توافدوا عليها فى يوم العطلة كى يشهدوا الحدث السعيد. كل واحد جاء بهدية إلى المسجد، وكذلك فعل الأهالى. أكثر من واحد حملوا معهم بسطا مختلفة الأحجام والألوان. واحد جاء معه بمروحة للسقف، آخر تأبط صورة كبيرة للكعبة، الثانى رفع فوق الرؤوس مصحفًا جاء به ملفوفًا فى قطعة من القماش الأخضر،



البرج إلى جوار الكنيسة التى بنيت فوق المسجد

الثالث احتضن أصيصات الزرع، الرابع لوح بساعة للحائط، الخامس حمل كيساً به بعض النعال التى يحتاجها رواد المسجد للوضوء.. إلخ. ومن لم يأت بهدية وزع على الجالسين ما تيسر من المال، من باب الصدقة. المحافظ جمع بين الحسنيين، فأهدى المسجد بساطاً كبيراً، ونفح الأئمة كل واحد ألف روبل، تعادل ٣٥ دولاراً. وقد ارتبكت حين دس فى يدى ورقة بتلك القيمة، احترت ماذا أفعل بها. ولكن المفتى لاحظ المفاجأة على وجهى، فتدارك الموقف، وهمس فى أذنى قائلاً: لا تقلق، فهذا تقليد شائع، والفلوس سنودعها خزينة المدرسة القرآنية فيما بعد.

لماذا فعلتموها.. أيها الأغبياء

القيت كلمات تقليدية من المفتى والمحافظ والإمام. لكن كلمات ثلاثة من المتحدثين هزتنى أكثر من أى شىء آخر. الأولى لرجل اسمه الشيخ علم الله، الذى قام بالدور الأساسى فى جمع التبرعات لبناء المسجد، الذى هدمه الشيوعيون، وقال فيها إنه ظل يحلم بإتمام البناء طيلة السنوات العشر الماضية، ولم يصدق عينيه حين وجد القبة اعتلته والمئذنة انتصبت فوقه. وغلبه البكاء وهو يتحدث فبللت وجهه وبياض لحيته. وقال لى المفتى إن الشيخ علم الله نذر نفسه بعدما دخل فى الإسلام لإعادة بناء المساجد المهدمة، وحتى الآن قام بالدور الرئيسى فى بناء عشرة مساجد (ألا يستحق الرجل جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام؟).

الثانى لم يلق كلمة، ولكنه طلب أن يقرأ على الحضور بعضاً من آيات القرآن الكريم، التى حفظها إياه أبوه نقلاً عن جده. وقيل لنا إن الرجل - اسمه رفعت - حفيد للشيخ جار الله، الذى كان آخر إمام للمسجد، قبل هدمه فى عام ٥٥. بصوت واهن ومرتعش وبقراءة بدت غريبة على الأسماع، تلا علينا الرجل ما تيسر من الآيات. وسط الصمت الذى ران على إيقاعه. وحين سكت كانت الدموع قد سبقت صوته، فكفكفها ولم يقم من مقعده.

المتحدث الثالث كان سيدة مسنة، غطت رأسها بخمار أبيض، وقدمت إلينا بحسبانها شاهدة عاشت مع زوجها لحظات هدم المئذنة. ألقت السيدة جولجهان بنت أحمد جان قصيدة من الشعر، وجهت كلماتها إلى الذين هدموا المسجد، وقالت فيها: لماذا فعلتموها أيها الأغبياء، فمنذ هدمت المئذنة أظلمت الدنيا فى بوا، فلم تطلع لها شمس، ولم تر فى سمائها نجمة مضيئة.

بعد انتهاء مراسم الافتتاح وزعت علينا المشروبات وتبادل الجميع التهانى، وحين أذن لصلاة الظهر استأذن المحافظ فى الانصراف، بعدما أدى واجبه إزاء الجامع. وبعد الصلاة حملتنا السيارة «الفولكس» إلى قازان مرة ثانية.

فى الطريق قال لى عثمان حضرت إن ما رأيناه فى «بوا» مشهد يتكرر كل أسبوع فى أنحاء روسيا كلها. فبناء المساجد كان أول ما اتجه المسلمون إلى استعادته بعد انهيار النظام الشيوعى. وما عبرت عنه السيدة جولجهان فى هذا الصدد. حين قالت إن الدنيا أظلمت بعدما هدمت مئذنة المسجد. يعكس بصدق شديد مشاعر كل المسلمين فى البلاد. إزاء ذلك فليس مستغرباً أن يصل عدد المساجد فى روسيا الاتحادية وحدها إلى ٧٢٠٠ مسجد (فى منتصف عام ٢٠٠٥)، فى حين أن عددها عام ١٩٩٠ فى كل الاتحاد السوفيتى - بما فى ذلك جمهوريات آسيا الوسطى. لم يكن يتجاوز ٩٨ مسجداً.

موضوع استعادة المسلمين لهويتهم الدينية فرض نفسه على مناقشة أجريتها مع مجموعة من أساتذة الجامعة الإسلامية (أنشئت فى عام ١٩٩٨م). أحدهم صاغ الموقف على نحو لم يعترض عليه أحد، كان كالتالى: ما جرى بمثابة نقلة هائلة فى تاريخ مسلمى الاتحاد السوفيتى بوجه عام. ومسلمى روسيا الاتحادية بوجه خاص، ومسلمى تترستان بوجه أخص، حين طلبت إيضاحاً لهذا المنطوق شرحه الدكتور سليمان زاريبوف وكيل الجامعة على الوجه التالى: سقوط الحكم الشيوعى وطى صفحته كان لابد أن يقابل بحفاوة شديدة من جانب كل المتدينين، المسلمين وغيرهم. ولذلك لا غرابة فى أن يعد منعطفاً تاريخياً فى حياة مسلمى روسيا وجمهوريات آسيا الوسطى. أما كونه يمثل أهمية خاصة بالنسبة للمسلمين الروس، فمرد ذلك إلى أن مجتمعات آسيا الوسطى ذات أغلبية مسلمة، ولذلك فالتجانس قائم بين شعوبها بدرجة أو أخرى. فضلاً عن أن سقوط الشيوعية أعاد إليها هويتها الدينية وهويتها القومية أيضاً. فالأوزبك أو الطاجيك أو التركمان أو الأذريون عادوا كما كانوا. أما بالنسبة للمسلمين الروس فوضعهم مختلف إلى حد ما. لأنهم أقلية فى مجتمع أغلبيته من الأرثوذوكس، ثم إن هويتهم القومية صارت مركبة منهم تتر وروس فى آن واحد. أو داغستانيون أو بشكيريون أو شيشانيون وأنجوش، وروس أيضاً. وهذا التداخل على المستويين الدينى والقومى يمثل حالة خاصة، ويواجه تحدياً فى صيغة التعايش، إذا تم تجاوزه بنجاح فإن النموذج المضروب يغدو حدثاً سياسياً وحضارياً له أهميته البالغة.

أما خصوصية وضع المسلمين التتار فنابعة من أن التتر يمثلون أكبر كتلة إسلامية فى روسيا (٩ ملايين من بين ٢٤ مليون مسلم يمثلون ١٨٪ من مجموع سكان روسيا البالغ عددهم ١٣٠ مليون شخص)، ثم إنهم فى العصور القديمة كانوا سادة تلك البلاد، وكانت لهم حواضرهم الغنية وثقافتهم الرفيعة التى دمرت مرتين، مرة على عهد القياصرة فى منتصف القرن السادس عشر ومرة ثانية فى ظل الشيوعية فى منتصف القرن العشرين. الأمر الذى أحدث جرحاً كبيراً وغائراً فى كبريائهم القومى. وفى عهودهم المتعاقبة ظلت خانية قازان لؤلؤة فى جبين التتار ونداً قوياً للروس ظل يقارع حواضرهم ويتفوق عليها. وحتى فى المرحلة الشيوعية فإن ألق قازان لم يفقد فراداته.

تحقيق فى ميلاد قازان

قازان الراهنة ظل باهت لقازان التاريخية. لذلك فإذا أردت أن تعرف قدرها حقًا فينبغى أن تدخل إليها من باب التاريخ، وهو ما بذلنا جهدًا كبيرًا لتحقيقه. هكذا قال الدكتور سليمان زاريبوف. لم تكن المعلومة جديدة علىّ. فقد كنت أعلم أن النخب التترية شغلتها مسألة الهوية القومية منذ أوائل التسعينيات، بعد انهيار الاتحاد السوفيتى واستقلال جمهوريات آسيا الوسطى. وفى هذه الأجواء برزت فكرة توثيق تاريخ قازان، الذى اندثر جزء منه فى ظل الحكم القيصرى الروسى، وطمس واندثر جزء آخر فى ظل الشيوعية. هكذا، فإنه منذ نالت جمهورية تترستان استقلالها فى عام ١٩٩٢، فإن عمدة المدينة كامل اسحاقوف أراد أن يحتفل بتاريخها العريق، وخاطب فى ذلك منظمة اليونسكو، التى ردت قائلة إنها لا تسهم فى احتفالات من ذلك القبيل إلا للمدن التى مضى على تأسيسها ألف عام، وما لم يثبت ذلك فلن يكون للمنظمة الدولية دور فى الموضوع.

بسبب ذلك الرد، أرسل العمدة مجموعة من الباحثين نقبت فى مكتبات لندن وباريس وبرلين، بحثًا عن معلومات تسلط الضوء على تاريخ المدينة، لكنهم لم يجدوا من الشواهد إلا ما يدل على أنها كانت قائمة فى القرن الثالث عشر الميلادى، وكانت أهم خلاصة خرجوا بها هى أنهم يجب أن يركزوا بحثهم على ما تحتويه المكتبات العربية والفارسية والتركية. فاتجهت الأبصار صوب القاهرة، التى تضم جامعاتها باحثين على دراية بما تحتويه تلك المكتبات. وقصدها فى عام ١٩٩٧ مبعوث وجد ضالته فى جامعة عين شمس، حيث اتفق مع أربعة من أساتذة التاريخ على القيام بالمهمة، وكان على رأسهم الدكتور محمد السعيد جمال الدين، أحد شيوخ هذا التخصص. بدأ الفريق عمله على الفور، فأجرى دراسة واسعة فى مختلف المكتبات ودور الوثائق والمخطوطات العربية والفارسية، خصوصًا التى تناولت عصر المماليك، الذين كانت لهم صلات قوية بالمناطق الشمالية، علمًا بأن بعضهم قد استجلب منها أصلاً. أجرى الباحثون دراساتهم فى مصر، وزاروا المواقع المختلفة فى قازان. وشاركوا فى ثلاثة مؤتمرات دولية دعت إليها إدارة المدينة لتحقيق تاريخ المنطقة وتحديد الزمن الذى ظهرت فيه المدينة. وفى مؤتمر دولى كبير عقد فى عام ١٩٩٩ - شارك فيه خبراء عشر دول إضافة إلى ممثلى جمهوريات آسيا الوسطى - عرض الدكتور جمال الدين نتائج أبحاث وخدمات وتحقيقات فريق العمل، وأصدر المؤتمر قرارًا يقضى بأن مدينة قازان أنشئت فى أوائل القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر الميلادى، الأمر الذى يؤهلها للاحتفال بتاريخها الألفى مع بدايات الألفية الثالثة. (بالفعل رتب أمر الاحتفال بموافقة منظمة اليونسكو، وعقد فى شهر أغسطس ٢٠٠٥).

كان تقرير مجموعة الخبراء المصريين بين الأوراق التى حملتها معى إلى قازان. كما كانت معى رسالة ابن فضلان. مبعوث الخليفة العباسى المقتدر إلى ملك البلغار - التى تتضمن وصفًا لرحلته إلى بلاد البلغار. وهى أندر وأهم وثيقة وصفت الحياة فى تلك البقعة من الأرض قبل أكثر من ألف عام (٣٠٩هـ - ٩٢١م). وقد أصدر عنها الأمريكى مايكل كريتون قبل أكثر من عشرين عامًا قصة حققت أعلى معدلات للتوزيع، وترجمت إلى العربية تحت عنوان دال هو «أكلة الموتى».

باتفاق أهل الاختصاص، فإن رسالة ابن فضلان تعد الوثيقة الوحيدة التى عرفت العالم بأوضاع بلاد البلغار فى القرن العاشر الميلادى. وما عنوان «أكلة الموتى» سوى مجرد ضوء يكشف ما كانت عليه الأحوال فى تلك البلاد من تخلف مروع.

من ملك البلغار إلى المقتدر

كان ملك البلغار - ألماس خان - قد بعث برسالة إلى الخليفة المقتدر العباسى (سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م) طلب فيها أن يرسل إليه من يفقهه فى الدين. ويبنى له مسجدًا، كما يبنى لمملكته حصنًا يحميه من جيرانه الطامعين. إذ كان الملك يخشى بأس «الخزر» الذين كانت مملكتهم تتاخم الحدود الجنوبية لدولته. وهؤلاء كانوا قد تحولوا إلى اليهودية فى عصر الخليفة العباسى المأمون - قبل حوالى ١٠٠ عام فى تنصيب المقتدر - ومنذ ذلك الحين أصبحوا يشكلون مصدر تهديد للبلغار.

استجاب الخليفة المقتدر، وأوفد إلى بلاد البلغار بعثة تلبى مطلب مليكهم. وكان الفقيه أحمد بن فضلان أحد أفراد تلك البعثة، الذى عاد وكتب رسالته الشهيرة.

لم يكن الحصن الذى كلفت بعثة الخليفة العباسى بالمساهمة فى بنائه، مجرد قلعة أو برج، لأن التحقيق التاريخى أثبت أن ما أقيم هو مجموعة تحصينات ساعدت على تقوية دفاعات مملكة البلغار، الأمر الذى أسهم فى تأمينها واستقرارها، ومن ثم نهوضها وتحولها بعد عشرين عامًا إلى قوة عسكرية يحسب حسابها فى المنطقة. وهو ما لاحظه المؤرخ الجغرافى العربى السعودى فى كتابه «التنبيه والإشراف»، حين تحدث عن العام ٩٤٤م مشيرًا إلى التطور الذى طرأ على دولة البلغار، حتى أصبحت لها الغلبة على ما حولها. وفى كتاب «حدود العالم» الذى ألف بالفارسية فى سنة ٩٨٥م، ذكر لقوة البلغار الذين كانوا يعيشون فى رغد من العيش ويلحقون بأعدائهم الهزيمة كلما حاربوهم. وفى سنة ١٠٥٣م حين ألف المؤرخ الفارسى الكرديزى كتابه «زين الأخبار» أدهشته الكمية الهائلة من السلاح التى يمتلكها البلغار، والتقدم التجارى الكبير الذى شهدته بلادهم. وبات معلومًا لدى المؤرخين أنه منذ القرن العاشر كان البلغاريون يسكون النقود من الفضة، ويكتبون عليها مفردات عربية، وكانت لهم صناعاتهم المزدهرة من الذهب والفضة والأحجار الثمينة والجلود والحديد.

المؤرخون الروس شهدوا بهذه الحقيقة، ومن أبرزهم المؤرخ سولوفيوف الذى أشاد بحضارة البلغار، وكتب قائلاً: «فى الأزمنة القديمة، حين كان الإنسان الروسى لم يعرف المسيحية ولم يبدأ بناء الكنائس، كان البلغارى يعبد الله فى مساجد قازان ويستمع إلى القرآن على شواطئ نهر الفولجا».

لم يدم مجد دولة البلغار، لأن جيوش التتار المغول اجتاحتها فى القرن الثالث عشر وضمتها إلى دولة القبيلة الذهبية كما أسلفنا، التى قسمت أقاليمها إلى إمارات أو خانيات، اتخذت إحداها قازان عاصمة لها، وعرفت فى المراجع التاريخية باسم «خانية قازان». وفيها استمرت تقاليد دولة البلغار قوميًا ولغويًا وثقافيًا، الأمر الذى وفر لها قدرة على الصمود والنهوض. وكان ذلك سببًا لإغراء الروس وسعيهم لاحتلالها، بعدما شاخت دولة القبيلة الذهبية.

جحافل الروس فى قازان

بعد ٣٢ محاولة للاجتياح، وبعد حصار الروس للمدينة لمدة ثلاثة أشهر فى المرة الأخيرة، سقطت قازان أمام جيوش القيصر إيفان (الرهيب) فى منتصف القرن السادس عشر (عام ١٥٥٢). وكانت تلك بداية إلحاق خانية قازان بالإمبراطورية الروسية. وفى الوقت ذاته بدايات كابوس ثقيل الوطأة روع المسلمين لأكثر من مائتى عام. الأمر الذى أحدث فى بنيتهم الاجتماعية جروحًا عميقة لم تندمل، فى الذاكرة أو الواقع. وهو ما يسوغ لنا أن نقارن بين نكبة البلغار فى العام ١٥٥٢ وبين نكبة الفلسطينيين فى عام ١٩٤٨. إذ القاسم المشترك بينهما يتمثل فى أن قوى عاتية احتلت البلاد ودمرتها ثم استوطنتها، وشردت أهلها فى أنحاء العالم. وكما تركز الفلسطينيون فى بعض الدول العربية (الأردن وسوريا ولبنان)، فإن البلغار الذين جرى تشريدهم تمركزت كتلة منهم فى سيبيريا وكتلة أخرى فى منطقة القرم، بينما انتشرت أعداد منهم فى أنحاء مختلفة من آسيا وأوروبا.

كان الروس قد هدموا أكثر من مائة مسجد فى قازان، وأقاموا ٢٤ كنيسة كبيرة بها، إمعانًا فى إذلال المسلمين وقهرهم. الأمر الذى دفعهم إلى التعبير عن غضبهم فى انتفاضات وقعت بين عامى ١٧٧٣ و١٧٧٥، قادها واحد من زعمائهم اسمه يوغانشيوف. وللأسف فإننى لم أجد معلومات كافية عن تلك الانتفاضة، ولكننى وقعت على إشارة لها فى كتيب حول المسلمين فى روسيا، للدكتور مراد مرتضى مدير الجامعة الإسلامية فى موسكو، وقد وصفها بأنها «عصيان تذكارى». غير أن غضب المسلمين كان دافعًا للملكة كاترينا الثانية لكى تزور قازان التى أبهرتها،

خصوصية وضع المسلمين التتار نابعة من أن التتر يمثلون أكبر كتلة إسلامية فى روسيا (٩ ملايين من بين ٢٤ مليون مسلم يمثلون ١٨٪ من مجموع سكان روسيا البالغ عددهم ١٣٠ مليون شخص)

صورة لقازان تعود إلى ١٦٣٠م

وسمحت لمسلميها ببناء مسجد من الطوب يقيمون فيه صلواتهم، أطلق عليه آنذاك «مسجد أفندى»، وهو لا يزال قائماً إلى الآن، لكنه سمى لاحقاً باسم العالم التترى الكبير شهاب الدين المرجانى، الذى كان إماماً له. وبسبب هذا الموقف للملكة كاترينا ذات الأصول الألمانية فإن المسلمين التتر لا يزالون يكنون لها تقديراً خاصاً. وقد تجلى تسامحها فى ردها على قسس الكنائس التى أقيمت فى قازان، حين بعثوا إليها محتجين على أن المسلمين حين حصلوا على رخصة بناء المسجد، فإنهم أعلنوا عن أنفسهم ببناء مئذنة عالية. إذ قالت فى ردها إننى أعطيتهم حق البناء فوق الأرض التى لى سلطان عليها، أما السماء فليس لى عليها سلطان، فليفعلوا بها ما يشاءون.

بمضى الوقت هدأت بصورة نسبية خواطر أهالى قازان، وبدأ كثيرون منهم يعودون إليها من شتاتهم، كما بدأت المدينة تستعيد عافيتها، حتى برزت كأحد أهم منارات العلم ومعاقله. إذ انتشرت فيها المدارس والمساجد، وأنشئت بها جامعة حكومية فى عام ١٨٠٤ بالتوازى مع عدد من المعاهد والمؤسسات التعليمية فى مختلف التخصصات. ومن المثير للانتباه أن المصحف طبع لأول مرة هناك عام ١٨٠٣، وطبعته القازانية مازالت موجودة إلى الآن، وثمة إحصاء فى الجامعة الإسلامية يقول إن المصحف طبع فى قازان ٢٤٧ مرة، فى الفترة الممتدة من القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين. كما أنهم طبعوا كتاباً باسم «هفتيك شريف» تضمن سورة الفاتحة والآيات الخمس الأولى من سورة البقرة، وسورة ياسين وسورة الفتح وبعض قصار السور الأخرى، وهذا الكتاب طبع ٢٦٠ مرة.

وكان طالب المدرسة التترية يتعلم الأحرف العربية فى السنة الأولى، كما كان يتعلم ويحفظ سورة يس. وفى السنة الثانية عليه أن يحفظ كتاب «هفتيك شريف». وفى السنتين الثالثة والرابعة كان يحفظ القرآن كاملاً.

بشكل عام ازدهر تأليف وطباعة كتب الثقافة الإسلامية باللغة التترية، التى كانت تكتب بالحروف العربية (مثل التركية). وطبقاً للمعلومات المتوفرة فى دار الكتب والوثائق فإنه فى الفترة بين القرن التاسع عشر وبداية العشرين، فإن عدد الكتب الإسلامية التى عرفت عناوينها فى تلك الفترة عددها ٩٤ كتاباً، منها ١٩ مؤلفاً فى تفسير القرآن.

الشيوعية: كابوس آخر

عادت الغيوم تلبد سماء قازان مع قيام الثورة الشيوعية فى عام ١٩١٧، وقد كان قائدها فلاديمير لينين أحد الذين درسوا فى جامعتها. ذلك أن أحداث ما بعد الثورة أعادت إلى المسلمين مشاهد الترويع الذى عاشوه بعد احتلال الروس لبلادهم فى عصر القياصرة. إذ هبت عليهم مع الثورة الشيوعية رياح الاستئصال مستهدفة عقيدتهم مجدداً، لصالح الإطار هذه المرة وليس لصالح القيصر كما حدث فى المرة السابقة. وفى الحالتين كانت مساجدهم ومدارسهم وثقافتهم الإسلامية هى الضحية. ولذلك استشعر الجميع أن كابوس ثقيلاً قد انزاح من حياتهم مع سقوط الشيوعية، الأمر الذى جدد أملهم فى استرداد هويتهم الدينية، وكانت المسارعة إلى بناء المساجد والمدارس من تجليات السعى لتحقيق ذلك الأمل.

ماذا عن الهوية القومية؟. سألت أحد مثقفى التتر الدكتور مراد مرتضى رئيس الجامعة الإسلامية فى موسكو. فرد قائلا: بعد استقلال جمهوريات آسيا الوسطى، ارتفعت أصوات بعض القوميين التتر داعية إلى الاستقلال أيضاً، ولكن هذه الأصوات تراجعت بمضى الوقت لأن النخبة التترية استجابت لنداء العقل والمصلحة، وانحازت إلى موقف البقاء فى إطار الاتحاد الروسى، مدفوعة فى ذلك بعوامل عدة، أولها، إدراكها بأنها شريكة فى ملكية الأرض الأمر الذى يقتضى البقاء فيها، طالما أنهم يتمتعون بالحكم الذاتى الذى حفظ لهم حرياتهم واستقلالهم الثقافى. يعزز ذلك أن التتر الذين يقيمون فى تترستان يشكلون ٢٠٪ فقط من المنتسبين إلى قوميتهم، والباقون منتشرون فى اتحاد روسيا، ولهم كثافتهم العالية فى سيبيريا والقرم وفى موسكو ذاتها. ناهيك عن أن بعضهم يعيش بأعداد معتبرة فى جمهوريات آسيا الوسطى (فى أوزبكستان وحدها ٤٥٠ ألف تترى).

العامل الثانى أن تترستان تقع فى قلب روسيا، الأمر الذى يجعل من استقلالها عنها بمثابة جراحة خطرة وباهظة التكلفة. وبسبب طول فترة التعايش الذى استمر على مدى ٤٥٠ عاماً، فإن التداخل بين القوميين صار قوياً بحيث يصعب فك الارتباط فيه. وذلك التداخل حاصل على مستوى العلاقات الاجتماعية والثقافية والمصالح الاقتصادية.

العامل الثالث أن التتر قد رأوا بأعينهم ما حل بالشيشان حين سعوا إلى الاستقلال فإن ذلك نبههم إلى أن مغامرة من ذلك القبيل ليست سهلة على الإطلاق، وأن موازين القوة ليست فى صالحهم، الأمر الذى يجعل من المطالبة بالاستقلال نوعاً من الانتحار. ولذلك فإنهم آثروا التروى والحذر، وتقلبت وجهة النظر الداعية إلى إعطاء الأولوية للعمل على تغير ميزان القوة، واعتبار هذه المهمة هى واجب الوقت.

لقد تسلم التتريون الرسالة التى أرادت أن توصلها موسكو إلى كل مسلمى روسيا الاتحادية، من خلال إصرارها على سحق الشيشانيين وإنزال أقسى الضربات بهم. ذلك أن القيادة الروسية أرادت بذلك أن تحقق هدفين فى ضربة واحدة، الأول تأديب الشيشانيين، والثانى توجيه إنذار إلى بقية المسلمين يدعوهم إلى التفكير مرتين وثلاثا قبل التفكير فى إعلان الاستقلال.

من واقع خبرتى المتواضعة بالطرفين، بوسعى أن أقول إن كل واحد منهما تصرف حسب طبيعته، الشيشانيون أصروا على التحدى والاشتباك، وهم الفدائيون والمقاتلون بالسليقة، أما التتر أبناء الثقافة الرفيعة، والأذكياء والمرحون، فإنهم اختاروا المدخل السياسى والدبلوماسى، الذى ينسج الحل بهدوء، ويتجنب الصدام قدر الإمكان.

للعلم: سمعت من بعض التتر أن القيادة الروسية حركت وحدات من جيشها رابطت على حدود جمهورية تترستان، بعدما دعا البعض فى قازان إلى الاستقلال أسوة بما فعله الشيشان. وقال لى هؤلاء إن الرئيس التترى منتيمير شاجير، الذى كان فى الماضى سكرتيراً للحزب الشيوعى، وتربطه علاقة خاصة مع الرئيس بوتن، قام بزيارة موسكو فى ذلك الوقت، وعالج الموقف بصورة دبلوماسية أدت إلى تهدئة الأجواء، وأسفرت عن سحب القوات التى رابطت على الحدود.

حين يهمسون فى أذنك

لم تتوقف مساعى القوميين، وإنما خفضوا كثيراً من سقف توقعاتهم كما خفضوا من لغتهم. وإذ كفوا عن حديث الاستقلال، فيما هو معلن على الأقل، فإنهم صرفوا جهودهم نحو استعادة الهوية الثقافية للتتر. إذ نصبوا أنفسهم للدفاع عن لغتهم التى كانت أقرب إلى التركية وتكتب بالعربية (٤٠٪ من مفردات اللغة التترية عربية الأصل)، ثم أصبحت تكتب بالحروف الروسية الكليرية. وبعد حصولهم على الحكم الذاتى فى عام ٩٢ لم تنجح محاولاتهم كتابة لغتهم بالأحرف اللاتينية

على غرار الحاصل فى تركيا. وإلى جانب اللغة فإنهم يدافعون عن كل ما هو رمز أو تقاليد للتتر ويطالبون بإحيائه.

ورغم أنهم يركزون على تلك المجالات الآن، إلا أن ذلك لا يمنع من أن يلقى نفر منهم ببعض التحفظات والاحتجاجات على موقف الحكومة المركزية فى موسكو. فقد اقترب منى أحدهم ذات مرة وقال إنهم فى موسكو ينسون أن ٧٠٪ من أراضى الدولة الروسية كانت داخلة ضمن دولة البلغار. وازداد اقترابًا منى ليقول بلادنا هذه لها مواردها الاقتصادية المهمة، فهى غنية بنفطها وبصناعاتها الحيوية، من طائرات الهليكوبتر إلى الشاحنات والإطارات والكيماويات. وفى أيام الشيوعية كانت موسكو تحصل على ٩٨٪ من عائدات النفط، وبعد سقوط الاتحاد السوفيتى ومحنة الرئيس يلتسين. وفى أجواء تنامى الشعور القوى وتردد دعوات الاستقلال - تمت الموافقة على أن يحصل التتر على ٧٠٪ من عائدات نفطهم، وينخفض نصيب موسكو إلى ٣٠٪. وحين جاء الرئيس بوتن تراجع عن هذا الاتفاق، مثلما تراجع عن وعود يلتسين بالنسبة للشيشانيين. وقرر أن تقسم العائدات مناصفة بين التتر وموسكو، بحيث يحصل كل طرف على ٥٠٪، وهو ما نعتبره إجحافًا بحقنا.

غير أن مثل هذه الانطباعات تكاد تكون محصورة فى دوائر النخبة، لأننى لم ألمس -للدقة لم يتح لى أن ألمس- حساسيات من ذلك القبيل لدى المواطن التترى العادى، الذى يعيش مع الحقيقة الروسية منذ حوالى ٤٥٠ عامًا. تم خلالها التداخل بين الطرفين إلى درجة كبيرة، والتزاوج، رغم محدوديته التى لا تتجاوز ٩٪، أحد مظاهر ذلك التداخل، وقد تراجعت تلك النسبة بشكل ملحوظ بعد عام ٩٠ أى بعد سقوط الشيوعية. كما زادت نسبة الطلاق بين الزيجات المشتركة، وهى الملاحظة التى سمعتها من المفتى حضرت عثمان، الذى أضاف أن التتر المتدينين يعزفون من الأساس عن التزاوج مع الروس، بسبب أكلهم للحم الخنزير وإدمانهم على «الفودكا»، التى يتعاطونها كما يشربون المياه.

حين زرت قازان كانت فى أبهى حللها، إذ جاءت زيارتى مباشرة فى أعقاب احتفالات الألفية التى تجملت فيها المدينة. وأبرز كل ما تتمتع به من فتنة وجمال. وهى المناسبة التى أبهجت التتر الذين جاءت وفودهم من مختلف أنحاء العالم، إضافة إلى الوفود الدولية التى شاركت فى الاحتفال، وأثار الانتباه بين الضيوف وفد جاء ممثلاً لقرية تترية فى الصين باسم «أينش»، ليس فقط للمشاركة فى المناسبة، ولكن لكى يعلن عن رغبة أهالى القرية الذين غادر أجدادهم البلاد بعد الثورة الشيوعية وترهيبها للمسلمين، فى العودة مرة أخرى إلى تترستان.

كان التجمل واضحًا فى الشوارع التى نظفت والمبانى التى طليت والمشروعات العمرانية الجديدة التى افتتحت، والزهور فاقعة الألوان التى نثرت فى الميادين وعلى جوانب الطرق الرئيسية.

لكن الحدث الأبرز فى المناسبة كان افتتاح مسجد «قول شريف» بقبته الضخمة الزرقاء ومآذنه الأربع الشاهقة تعلوها الأهلة المذهبة، الذى أقيم فى أعلى وأجمل موقع بمدخل المدينة المطل على نهر الفولجا. وهو المسجد الذى كان الروس فى القرن السادس عشر قد هدموه على رؤوس المسلمين الذين احتشدوا فيه بقيادة الإمام، أثناء مقاومة هجمات جيش القيصر إيفان. ثم أقاموا مكانه كنيسة ضخمة مازالت قائمة إلى الآن. ولأن الكنيسة كانت رمزًا لقهر التتر، فإن ممثليهم فى قازان ألحوا بعد سنة ٩٠ على إعادة بناء المسجد، لأن وجوده صار رمزًا ليس فقط لاستردادهم هويتهم الدينية، وإنما لاستردادهم هويتهم القومية أيضًا.

كان من الصعب بل المتعذر أن تهدم الكنيسة ليقوم المسجد مكانها، وبعد دراسات ومداولات قرر رئيس الجمهورية منتيمير شايمير إقامة المسجد فى مكان قريب من الكنيسة، على ذات الربوة العالية المطلة على النهر. ومن الواضح أنه وفر له اعتمادات باذخة، جعلته يبنى فى نهاية المطاف على هيئة بالغة الضخامة والمهابة، حولت المبنى إلى مزار سياحى، فضلاً عن كونه مصدرًا لاعتزاز المسلمين واعتدادهم.

أصبح المسجد رمزًا لجمهورية تترستان، منافسًا فى ذلك مئذنة مقامة منذ القرن السادس عشر بالطوب الأحمر بارتفاع ٦٠ مترًا فوق الأرض، اشتهرت باسم سيوم بيكيه، ولها قصة مثيرة متداولة على ألسنة الناس، لا أعرف مدى دقتها التاريخية. خلاصتها أن سيوم اسم لفتاة كانت ابنة سلطان قازان، وبعد احتلال الروس للخانية فإن إيفان الرهيب أراد إكراهها على الزواج من أحد الأمراء التابعين له، ولما كانت عاجزة عن الرفض، فإنها اشترطت لإتمام الزواج بناء المئذنة خلال أسبوع، وتمت الموافقة على الشرط، لذلك سارعوا إلى بناء طابق فى المئذنة فى كل يوم، وفى اليوم السابع كانت قد انتصبت فى سبعة طوابق، وبسبب السرعة فإنها جاءت مائلة بعض الشىء. وحين أبلغت سيوم بتمام البناء، طلبت أن تتفقده، وبالفعل دخلت إليه وصعدت طوابقه واحدًا تلو الآخر، إلى أن وصلت إلى الطابق السابع، الذى ما أن بلغته حتى وقفت عنده وألقت بنفسها من فوقه، مفضلة الموت على الزواج الذى أكرهت عليه.

إلى جانب مسجد قول شريف والمئذنة هناك بعض المبانى الحكومية العتيقة، وفى المقدمة منها قصر الرئاسة، الذى به مكتب الرئيس منتيمير (الكلمة فى اللغة التترية معناها «الرجل الفولاذى»، والمتداول بين الناس أن أسرة الرئيس كانت تنجب أطفالاً يموتون وهم صغار، وعندما ولد هو أطلق عليه هذا الاسم، عسى أن يطول عمره، وقد كان!).

قمت مع آخرين بجولة فى أبنية المنطقة، ولاحظت أن العرسان الجدد يجيئون مع ضيوفهم للاحتفال بالمناسبة بجوار المسجد والتقاط الصور، التى تظهر فيها أبهة المسجد وجماله. وقد رأيت بعضهم يتبادلون كؤوس الشمبانيا ويتضاحكون أثناء التقاط صور المناسبة السعيدة. لكن أكثر ما أدهشنى أن مجموعتنا ارتقت الدرج كى تزور الكنيسة، ولكن حارس الباب منع أحد علماء لبنان المعممين من الدخول، قائلاً إنه غير مسموح بدخول العمائم إليها. حينئذ قال الرجل ببساطة: أخلعها. واستبدلها بطاقية أخرجها من جيبه. لكن الحارس قال: إن الطواقى ممنوعة بدورها. ولم يكن أمامنا سوى أن ندير ظهورنا له وننصرف.

لولا المآذن التى باتت تتزاحم فى الأفق لبدت قازان مدينة روسية عادية تنتشر فى شوارعها المبانى الضخمة ذات الواجهات الكالحة، وينتصب وسط أكبر ميادينها تمثال برونزى للينين. ولا غرابة فى ذلك، فالرئيس منتيمير كان سكرتيرًا أول للحزب الشيوعى فى عام ٩٠. وما أن سقطت الشيوعية ومنحت تترستان حكمًا ذاتيًا حتى صار رئيسًا للجمهورية، وتقدمت تتريته على شيوعيته. لا يخلو الأمر من ظهور بنايات جديدة ذات مظهر جذاب وغير مألوف، سيقال لك إنها عمارات حديثة بناها الأتراك الذين بدءوا ينشطون فى المنطقة، ليس فقط لأنهم أهل نسب ولكن لأنهم أيضًا أهل صنعة، تفوقوا بمهاراتهم على العمال الروس الذين أصابتهم الفودكا بالخدر والكسل.

إذا ذهبت إلى مدى أبعد فى عمق المدينة، وتفرست جيدًا فى وجوهها، فستلحظ قسماتها التترية فى المساجد والمدارس الدينية المجاورة لها، وسيدلك المرافقون على المساجد العتيقة التى كان أحدها مخزنًا تابعًا لأحد المستشفيات، وكان الثانى معملاً للإنتاج السينمائى، تحول محرابه إلى دورة للمياه. وصار الثالث حظيرة للحيوانات، وتحول الرابع إلى خرابة مهجورة ترتع فيها القطط والكلاب الضالة إلى جانب المشردين والمخمورين.. إلخ. هذه المساجد كلها تطهر الآن وتجدد، ويتفانى كبار السن والعمال فى استعادة رونقها وجلالها القديم. ستلحظ تلك القسمات التترية فى وجوه المحجبات التى باتت تظهر بوضوح فى شوارع المدينة وفى ظهور مطاعم اللحم الحلال التى كانت محظورة فى الماضى، وقد تأسس منها أربعة إلى الآن، اثنان أقامهما الأتراك والآخران فتحهما الأوزبك. وفى انتشار المكتبات التى باتت تبيع المصاحف والكتب الإسلامية والآيات القرآنية المزخرفة.

وإلى جانب هذه الملامح، لن تغيب عن عينيك قسمات المجتمع الروسى وآثار الأمة التى خلت. إذ سيلفت انتباهك كثرة محلات الخمور التى تحتل الفودكا الصدارة منها. وستلاحظ انتشار بيوت الدعارة التى لا يحظرها القانون. وبشكل مواز تلمح أصداء التغريب ابتداء من محلات «الماكدونالدز» والمخازن الكبرى التى تشبع نهم الاستهلاك وتغذيه، ومرورًا بالإعلان عن أحدث موضات الأزياء والعطور والساعات والسيارات، وانتهاء بصالات القمار و«الكازينوهات»، التى لا يخلو منها فندق.

وهذه القسمات المتباينة تعكس عمليات التجاذب الشديدة التى يتعرض لها المجتمع التترى، والتى كثيرًا ما توسع الهوة بين أجياله المتعاقبة، التى تعيش فى مكان واحد، فى حين أن لكل وجهة هو موليها، الأمر الذى يصعب معه إلى حد كبير الإجابة عن أى من أسئلة مستقبل التتر■

تسلم التتريون الرسالة التى أرادت أن توصلها موسكو إلى كل مسلمى روسيا الاتحادية، من خلال إصرارها على سحق الشيشانيين وإنزال أقسى الضربات بهم

https://t.me/megallat https://www.facebook.com/books4all.net oldbookz@gmail.com

عـــــراق واحـــــد..



تحول كتاب بطاطو إلى ما يشبه «الإنجيل» لدارسي العراق خلال ربع القرن الأخير، بحيث يصعب أن تجد عملاً واحداً كتب خلال هذه الفترة بدون أن يستلهمه أو يقع تحت تأثيره، سواء في شكل واع أو غير واع، وبقصد أو بدون قصد



تمهيد

راج خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين تصور مفاده أن الشعب العراقي هو خليط من الشعوب والطوائف المنقسمة على نفسها، وأن العراق هو كيان ولد بقوة الإمبراطورية البريطانية ولا يمكن الحفاظ عليه إلا بالعنف والقهر. الأنموذج الأكثر شيوعاً للعراق أنه ليس أكثر من ثلاثة كيانات متنافرة: شمال كردي، وسط عربي - سني، وجنوب عربي - شيعي، تخالطه عناصر شيعية إيرانية، حكمتها طوال القرن العشرين أقلية عربية سنية من خلال مجموعة من المصالح، وأداة الجيش، وأجهزة الأمن، وشبكة من المعتقلات والسجون. وقد أعطى هذا النموذج قدراً كبيراً من التسويغ عشية الغزو الأمريكي للعراق واحتلاله وإسقاط نظام حكمه، لاسيما بعدما أعلنت الإدارة الأمريكية للعراق المحتل عن التوصل إلى اتفاق مع قطاع من القوى السياسية العراقية لإقامة مجلس حكم انتقالي، وزعت مقاعده على أساس انقسام العراقيين إلى عرب وأكراد وشيعة وسنة.

إن النص المؤسس للعراق المنقسم على ذاته في الحقل الأكاديمي هو بامتياز كتاب حنا بطاطو «الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق» لم يكن هدف بطاطو هو بحث مسألة الهويات في العراق أو التكوين العرقي والطائفي للشعب العراقي، بل قراءة البنية الاجتماعية والسياسية من خلال دراسة الطبقات والقوى الرئيسة التي صنعت تاريخ العراق السياسي بعد إقامة الدولة الحديثة في ١٩٢١، لاسيما الحزب الشيوعي العراقي. ولكن مقاربة بطاطو وقعت تحت تأثير تقارير الإدارة البريطانية في العراق وكتابات الرجال الرئيسيين لتلك الإدارة (التي شكلت جزءاً كبيراً من مصادره)، خاصة أولئك الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة ثورة العشرين. من ناحية أخرى، فإن المنهج الذي اتبعه بطاطو في بناء أطروحته قد استعار الكثير من منهج التحليل الماركسي؛ وقد بدا لبطاطو أن مجتمع الجنوب الشيعي يقدم أدلة قوية على سلامة التحليل. أراد بطاطو عبر كتابه كله أن يؤسس لدور الصراع الطبقي في صناعة السياسة العراقية وفي فهم العراق الحديث. وقد وجد بطاطو التباين الطبقي في أكثر مستوياته حدة في جنوب العراق، وفي التجمعات الجنوبية المهاجرة إلى العاصمة بغداد. كان عمل بطاطو، الذي استغرق سنوات طويلة من البحث، واحداً من أهم الدراسات التاريخية التي نشرت حول العراق الحديث، وربما حول أي بلد آخر في المشرق، خلال النصف الثاني للقرن العشرين. ولم تكن أهمية الكتاب في حجمه فحسب، بل أيضاً في عنايته بالكثير من جوانب الاجتماع والسياسة في العراق الحديث، وتداخل هذه الجوانب وتفاعلها. وبالرغم من تحيزه المنهجي الماركسي، فقد تحول كتاب بطاطو إلى ما يشبه «الإنجيل» لدارسي العراق خلال ربع القرن الأخير، بحيث يصعب أن تجد عملاً واحداً كتب خلال هذه الفترة بدون أن يستلهمه أو يقع تحت تأثيره، سواء في شكل واع أو غير واع، وبقصد أو بدون قصد.

بيد أن ما عالجه بطاطو في كتابه باعتباره ظواهر مشروطة، وبالتالي مجالاً للنظر والتحقيق، تحول في كتابات لاحقة إلى أيديولوجية مصمتة، بمعتقدات ومسلمات وتاريخ وأساطير. قدمت ريفا سايمون في دراستها لتاريخ العراق السياسي في حقبة ما بين الحربين صورة لوطن ومجتمع ممزقين، تتصارع داخلهما فكرة قومية عربية مصطنعة مع عوامل طرد مركزي سرعان ما ستؤدي إلى انهيار بنيانه الهش، أما حسن العلوي وفرهاد إبراهيم وعلي باباخان، فقد أنشأوا، وبدرجات متفاوتة، عراقاً مختلفاً قليلاً، أسس على قواعد من اضطهاد الأقلية السنية للأكثرية الشيعية، ليس فقط في ظل نظام البعث، بل منذ أقدم العصور، وفي الوقت الذي تحولت فيه المسألة الكردية في العراق إلى حقل كامل للدراسة، أنجزت على أرضه عملية بناء أمة كردية وقدمت من خلال نصوصه مسوغات انفصال الأكراد عن العراق، فقد تزايد الاهتمام بدراسة شيعة العراق باعتبارهم جالية، أو حتى أمة مستقلة عن باقي مكونات العراق البشرية، بل وفي حالة صراع مع سنته.

إن الهدف الرئيس للصفحات التالية هو محاولة قراءة التكوين العربي - الإسلامي لشعب العراق وعلاقته بمسألة الهوية. موضوع هذه الدراسة هو العراق كوطن، والعراق العربي على وجه الخصوص، بعناصره البشرية وعشائره، توزع هذه العشائر داخل الجغرافية العراقية وتفرعاتها، والأثر الذي لعبته موجات الهجرات العشائرية في تأسيس عروبة العراق والحفاظ عليها. كما ستدرس هذه الصفحات جذور التنوع الإسلامي الطائفي في العراق، وتاريخ العلاقة بين السنة والشيعة. وستحاول إلقاء بعض الضوء على وضع الطائفة في المجال الإسلامي العراقي، ورؤية المسلمين السنة والشيعة لبعضهما البعض، وعلى حقيقة التصور السائد لعراق منقسم بين جنوب شيعي ووسط وشمال سني.

كان الاعتقاد السائد خلال النصف الأول من القرن العشرين أن الهويات هي جواهر قديمة وأصيلة ومطلقة، وأنها قد تغيب فترة من الزمن ولكنها سرعان ما تستدعى من جديد ويعاد إحياؤها. ولكننا اليوم، وبفضل عدد كبير من الدراسات التي قدمت في حقلي التاريخ والعلوم الاجتماعية، ندرك أن الهويات ليست جوهرية ولا أبدية، وأنها نتاج عملية إنشاء تتم في سياق ظروف تاريخية محددة. لا يعني هذا بالضرورة أن كل عناصر الهوية مصطنعة أو متخيلة، بل يعني ان هذه العناصر ذات منشأ تاريخي، وأن الوعي الجمعي بهوية ما، وتحول هذه الهوية إلى أداة حشد وتحرك سياسي، هو منجز تاريخي يتم في ظل ظروف معينة وفي سياقات معينة. كما يعني بالتأكيد أن إنشاء الهوية وتحولها إلى إطار مرجعي للسلوك السياسي هي عملية تتضافر فيها الحقائق والأساطير، استدعاء التاريخ وإعادة قراءته وتفسيره؛ ويتضافر فيها الواقع والمتخيل. وجد العرب، مثلاً، منذ أكثر من ألفي عام؛ ولكن ولادة وعي عربي جمعي بهوية عربية مميزة عن غير العرب، ما يعنيه ان تكون عربياً، وتطور العروبة إلى هوية قومية وحركة سياسية، هي عملية إنشائية تاريخية. وهو ما ينطبق على الهوية الطائفية، الهوية الشيعية أو السنية، كذلك. فقد أخذت هاتان المدرستان الإسلاميتان في التشكل منذ القرنين الثالث والرابع الهجريين على التوالي؛ وإذ خضع محتواهما الفكري لعملية بناء تاريخية، فإن رؤيتهما الذاتية ولعلاقاتهما ببعضهما البعض لابد ان تقرأ من خلال السياقات التاريخية المختلفة. وهذا الكتاب هو قراءة في هذا التاريخ، تاريخ تكون الهويات موضوع الجدل في عراق مطلع القرن الحادي والعشرين، وفي السياقات التاريخية التي ولدت قوى الوحدة والانقسام في تاريخ العراق.

ولا يعني هذا بالتأكيد الافتراض بأن العراق، باعتباره دولة حديثة بحدود دولية معينة، قد عرف منذ قديم العصور. فالعراق الحالي ولد بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وهي اللحظة التي تقف عندها هذه الدراسة. ولكن تصوراً ما للعراق كوطن غير محدد بمقاييس الشرائع الدولية الحديثة، وكمزاج وثقافة ونزوع سياسي ونمط حياة، قد وجد منذ بداية العهد الإسلامي على الأقل. وهذا العراق، بساحته البشرية والفكرية والسياسية، بدوله وعشائره، بدوره في تدافعات المنطقة وصراعاتها، بقيادته واستهدافه، بمخزونه الرمزي ووقائعه، هو موضوع هذا الكتاب.

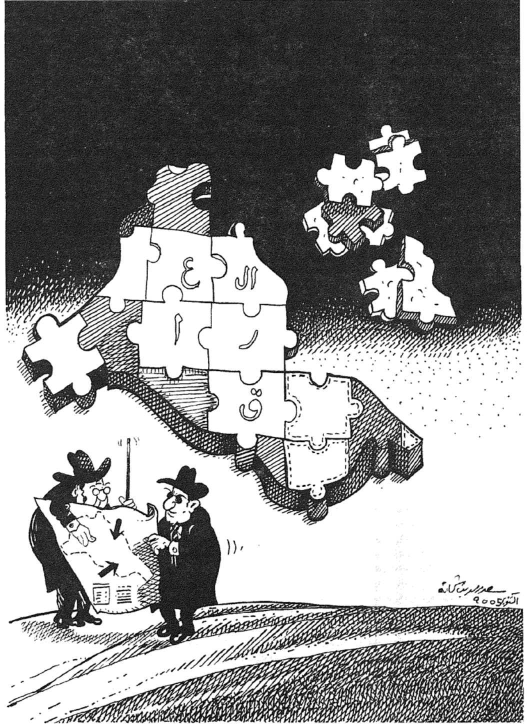
العراق.. ماذا يعني؟

كما كل الوحدات الجغرافية المشرقية، صنعت تاريخ العراق ومكوناته عوامل وقوى وحدة وانقسام، تجمع وتشظي، التفاف حول المركز وطرد مركزي. كان الفتح الإسلامي وانتشار الإسلام، وتحول العراق إلى مركز قيادة لدولة إسلامية كبرى، أو انضمامه إلى كيان إمبراطوري قوي، كما الهجرات العربية الكثيفة والمتصلة منذ ما قبل الإسلام وحتى القرن الثامن عشر، كلها قوى توحيد. وكان تأسيس بغداد، وبروزها عاصمة حكم وسياسة وثقافة واقتصاد، عامل وحدة بالغ التأثير، عززت منه الاعتبارات الاستراتيجية لجغرافية العراق كون معظم أراضيه تقع ضمن سهل نهري تحده الجبال والصحراء. وليس بغداد فحسب، بل إن المدن العراقية الرئيسة الأخرى، مثل الكوفة وواسط

من كتاب يصدر قريبا لكاتب المقال عن دار الشروق

أم أكثر من عراق؟!

بشير نافع

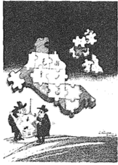


والموصل والبصرة، والمدن الأصغر الأخرى، التى بدأ دورها فى البروز فى نهاية القرن التاسع عشر، لعبت دوراً كبيراً فى انصهار العناصر البشرية المختلفة، أو فى اجتماعها فى إطار من الوحدة والتعاون مع الاحتفاظ بخصوصياتها العرقية أو الدينية. وكان الانقسام الطائفى، والصراعات السياسية، والغزو الخارجى، الذى حركته طموحات السيطرة أو دوافع طائفية، كما الصراع بين القوى العشائرية والمركز، كلها عوامل وقوى انقسام.

بيد أن العراق لم يعرف الدولة بمفهومها الحديث، الدولة - الأمة (the nation-state)، حيث يفترض أن تنصهر الجماعات فى إطار هوية وطنية/ قومية ضمن فضاء جغرافى محدد دولياً، وحيث يتماهى الشعب ودولته، إلا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ووقوع أغلب بلاد المشرق العربى تحت السيطرة الإمبريالية. وظلت هذه الدولة تعيش توترات متفاوتة مع طموحات وحدة أوسع، طموحات الوحدة العربية، أو الطموحات الانفصالية الكردية. ولكن بروز الدولة القومية باعتبارها مآل الشعوب والوحدة الأساسية للنظام الدولى هو تطور حديث فى التاريخ العالمى على أية حال. تعود بداية هذا التطور إلى الترسيم الأولى للحدود الأوروبية الداخلية فى معاهدة وستفاليا فى منتصف القرن السابع عشر؛ ولكنه لم يستقر بالفعل ويكتسب ملامح محددة إلا منذ صعود الفكرة القومية فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.

وقد ظلت حدود الدولة القومية الحديثة فى أوروبا محل نزاع وحروب؛ بل إن حدود الدولة والأمة كانت أحد الأسباب المفجرة للحربين العالميتين الأولى والثانية، وللانقسام الأوروبى الكبير خلال الحرب الباردة. وكما أن حدود الدولة الحديثة فى أوروبا لا تعنى بالضرورة وجود أحادية إثنية أو دينية فى شعب هذه الدولة، فإن بروز نظام الدولة الحديثة فى المنطقتين العربية والإسلامية، وفى عموم آسيا وأفريقيا، لم يرتكز إلى مثل هذه الأحادية. تكونت بريطانيا، مثلاً، من عدة كتل عرقية: الإسكتلنديون والإنجليز والويلزيون والإيرلنديون، ومن بروتستانت وكاثوليك.

عـــراق واحـــد أم أكـثــــــــر



وقد ازداد هذا التركيب تنوعاً بفعل موجات الهجرة في النصف الثاني من القرن العشرين. وحتى في فرنسا، التي تعتبر مثال الدولة القومية الحديثة، لم تكن اللغة الفرنسية هي اللغة الأولى لأغلب طلاب المدارس حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وقد لعبت الدولة المركزية، عبر مؤسسات التعليم والجيش والبيروقراطية، دوراً فعالاً في «فرنسة» فئات الشعب الفرنسي خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر والقرن العشرين. وتتشكل كل من أسبانيا وسويسرا وبلجيكا جميعاً من مجموعات إثنية وثقافية مختلفة، تتحدث لغات مختلفة. إن التاريخ لم يصدر حكمه بعد على نظام الدولة القومية الحديثة؛ ويشهد العالم اليوم محاولات شتى للخروج من حدود وقيود هذه الدولة إلى فضاءات سياسية وثقافية أوسع.

ولا يعتبر التنوع الاثني والديني في العراق الحديث بالتالي استثناء، لا بالمقاييس الأوروبية ولا بالقياس إلى دول جواره العربية والإسلامية. صحيح أنه لا الشعب العراقي ولا شعوب الجوار الأخرى قد استشيرت عندما قامت القوى الإمبريالية المسيطرة في أعقاب الحرب العالمية الأولى برسم حدود دول المنطقة. ولكن أحداً لا يمكنه الجدال في وجود العراق، كوطن ووحدة جغرافية بسمات طبيعية وبشرية - اجتماعية مشتركة، منذ الفتح الإسلامي على الأقل. وقد اختلف المؤرخون والجغرافيون العرب في تحديد ما يعنيه العراق؛ ولكنهم لم يختلفوا في انه يضم كل وادي الرافدين، يضاف إليه ما عرف بعراق العجم الواقع خلف سلسلة الجبال والمستنقعات الفاصلة بين الوادي ذي الأغلبية العربية ومنطقة فارس، التي غلب عليها النطق بالفارسية منذ نهايات العصر العباسي. شهد العراق حالة من عدم الاستقرار خلال الفترة الفاصلة بين الغزو المغولي والعهد العثماني، اتسمت بضعف سيطرة المركز البغدادي على باقي المجال العراقي. وبالرغم من ان هيكل الإدارة العثمانية في العراق قام على تقسيم العراق الجغرافي إلى ثلاث ولايات، فإن هذا التقسيم الإداري لم يكن ثابتاً، وظلت بغداد تشكل مركز القوة والوحدة للولايات الثلاث. وما أن أتيح للحكم المملوكي هامش للاستقلال الإداري النسبي عن اسطمبول حتى عادت قوى التاريخ والضرورات الاستراتيجية لتعيد للولايات الثلاث وحدتها تحت الإشراف المباشر او غير المباشر لبغداد.

ولم يعرف العراق، منذ الفتنة الكبرى، الحرب الأهلية بدلالاتها الحديثة. وربما بسبب الفتنة الكبرى وترسباتها المؤلمة، قدمت الجماعة المسلمة مسألة الوحدة على كل المسائل الأخرى. لا الصراع على بغداد بين الأمين والمأمون، ولا الصراع بين البويهيين والسلاجقة، بين الصفويين والعثمانيين، بين الدولة العباسية والخوارج أو القرامطة، أو الحملات التي شنتها حكومة ولاية بغداد العثمانية ضد العشائر، أو تلك التي قامت بها الدولة الحديثة ضد العشائر المتمردة والأشوريين والأكراد، تطورت إلى حروب أهلية بالمعنى الحديث للحرب الأهلية. مثلت هذه الحروب صراعاً على الحكم بين قوى الطبقة الحاكمة، أو محاولة الدولة المركزية تعزيز قوتها في مواجهة تمرد مجموعات دينية أو عشائرية أو إثنية. وكانت فترات الانقسام نتاج ظروف سياسية معينة وليس نتاج مكونات أصيلة أو موروثة في الاجتماع العربي - الإسلامي في العراق، بالرغم من الأهوال التي تعرض لها العراق خلال تاريخه، وأنه كان دائماً من أكثر المناطق العربية - الإسلامية تنوعاً.

ولادة الطائفية

وليس من الصحيح رؤية الوجود السني - الشيعي الحالي، أو المسألة العربية - الكردية، باعتبارها ثابتاً إسلامياً وقومياً قديم الجذور، وأنها كانت دائماً عامل انقسام طائفي وإثني في العراق. لم يكن الحكم الإسلامي الراشد، ولا الحكم الأموي أو العباسي المبكر، سنياً أو شيعياً؛ كان حكماً إسلامياً فحسب، بغض النظر عن عدل حكامه أو ظلمهم. وقد مر قرنان على ظهور الإسلام قبل أن يتبلور توجه سني، وثلاثة على الأقل قبل أن يتبلور خطاب شيعي اثنا عشري. كان التبلور الطائفي الاثنا عشري عملية تدريجية؛ وقد ولدت الطائفة الشيعية الاثنا عشرية ونمت داخل الفضاء السني وليس بمعزل عنه. كما أن السنة نظروا لأنفسهم كحاضنة عريضة للإسلام لا كطائفة، ولم يظهر السنة شعوراً طائفياً دفاعياً إلا عندما داهمهم الخطر والاعتداء. لذلك كله، لم تشهد العلاقات السنية - الشيعية الاثنا عشرية صراعاً كذلك الذي شهدته علاقة السنة بالخوارج مثلاً، أو الكاثوليك بالبروتستانت في أوروبا الحديثة. وساعد على توكيد العلاقة العادية بين السنة والشيعة الإثني عشرية أن كلاً من الفقه السني والشيعي انتهى عملياً إلى رفض الخروج بالسيف على الحاكم المسلم: السنة لأنهم باتوا يخشون الفتنة والانقسام الداخلي، والشيعة لأنهم عقدوا تأسيس الدولة وشرعيتها على ظهور الإمام. وظلت التوجهات الشيعية تزور مؤسسة الخلافة، حتى في العصر العباسي المتأخر وبعد انتصار ما سماه هدجسون «العالمية السنية»، في منتصف القرن الخامس الهجري. وبالرغم من أن العلماء الشيعة الاثني عشرية تكلموا منذ القرن الرابع الهجري في شرعية دولة لا يقودها الإمام الثاني عشر (الغائب في المعتقد الاثني عشري)، فإن وجهاء الطائفة وكبار رجالاتها انضووا تحت ظل مؤسسة الخلافة واحتلوا مناصب عدة فيها، بما في ذلك منصب الوزارة. ولم يأخذ الفاصل الطائفي في التجلي والتكرس بين الجهتين إلا في العصر المغولي؛ ثم تطور إلى حالة من حرب الدول، التي اختلطت فيها التوجهات الطائفية بمصالح الدولة التوسعية في العهد الصفوي - العثماني.

وبينما يبدو من الضروري رؤية الآثار العميقة التي تركها العهد الصفوي على بنية التشيع والعلاقات السنية - الشيعية، فمن الضروري عدم المبالغة في توجه الدولة العثمانية والتزامها السني. فقد ولدت الدولة العثمانية في بيئة ثقافية صوفية حملت عناصر تأثير شيعي، ولم تبدأ في التوكيد على سنيتها إلا في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، عندما اندلع الصراع الصفوي - العثماني. وحتى بعد ذلك، فإن انتشار التشيع وسط العشائر العربية في جنوب العراق تم تحت سمع وبصر رجال الدولة العثمانية، وبموافقتهم ورضاهم في معظم الأحيان. ومن الضروري كذلك عدم الخلط بين المواقف المناهضة لمراسم العزاء الشيعي وطقوسه، التي اتخذها الحكام المسلمون في العراق (وخارج العراق)، من جهة، والموقف الطائفي التمييزي من الشيعة الإثني عشرية، من جهة أخرى. لاسيما أن أغلب السنة، إلى جانب عدد من العلماء الشيعة، اعتبروا هذه الطقوس منافية للشرائع الإسلامية؛ كما أن هذه الطقوس ارتبطت في العهد العثماني بالنفوذ الصفوي/ القاجاري في العراق، النفوذ الحقيقي أو المتخيل.

شهدت العقود الأخيرة من العهد العثماني تطورات بالغة الأهمية على صعيد العلاقة بين السنة والشيعة، وإمكانية كسر الجدار الطائفي الذي باعد بينهما منذ الغزو المغولي. فقد لجأ السلطان عبد الحميد الثاني إلى سياسة الجامعة الإسلامية لمواجهة الأطماع الغربية في بلاد السلطنة، وهو ما كان يستدعي حشد الأمة العثمانية بسنتها وشيعتها خلف لواء الدولة. وفي ذات الاتجاه، تمت بالفعل مصالحة جادة بين الدولة العثمانية وإيران القاجارية. وقد أسس انتصار المدرسة الأصولية الشيعية على المدرسة الأخبارية لبروز مؤسسة علمائية شيعية أكثر تحرراً وقدرة على الاستجابة لمتغيرات العصر. ولكن المشكلة التي واجهت التقارب بين الطرفين تمثلت في عدم تطور المدرسة الأصولية (لأسباب عديدة) إلى حركة مراجعة نقدية جذرية للميراث الشيعي الطائفي، وانقسام السلفية السنية الحديثة إلى تيارين رئيسيين: تيار إصلاحي مثله عبده ورضا وآخرون، وتيار محافظ مثلته المدرسة الوهابية. هذا إضافة إلى أن العصور الحديثة لم تترك للمسلمين حرية التصرف في شأنهم الداخلي، بعد أن أصبحت بلادهم مسرحاً للتدخلات الإمبريالية وتدافع القوى الأجنبية.



من جهة أخرى، فإن عروبة العراق، التي بدأت بالوجود العربي قبل الإسلام في حوض الفرات وتأكدت بمرور القرون التالية، لا يجب أن ينظر إليها من المنظار العرقي الحصري لثقافة القرن العشرين القومية. كانت عروبة العراق جزءاً لا يتجزأ من المرجعية الإسلامية السائدة، التي كانت عربية الثقافة والمناخ، بالرغم من أن العراق أصبح حاضنة لأعراق متعددة، مسلمة وغير مسلمة، من حكام وعلماء وجند ورجال دولة، بل وعشائر راحلة ومستوطنة. وبالرغم من أن البحث في أصل من يعرفون اليوم بالأكراد هو مسألة شائكة بلا شك، فإن الفضاء العراقي كان ساحة رئيسة لتعرب الأكراد



العراق الحالى ولد بعد نهاية الحرب العالمية الأولى،
ولكن تصوراً ما للعراق كوطن، وكمزاج وثقافة ونزوع سياسى ونمط حياة،
قد وجد منذ بداية العهد الإسلامى على الأقل



والتركمان والفرس والشركس. بدأت الهويات القومية، التركية والعربية والكردية والفارسية، فى التبلور منذ نهاية القرن التاسع عشر؛ ولم يكن مستغرباً، لا فى مطلع تحول العروبة إلى حركة قومية سياسية فى الحرب العالمية الأولى، ولا فى ظل الدولة العراقية الحديثة فى عهدها الملكى، أن تنشط فى الأوساط القومية العربية عناصر كردية أو تركمانية، تعربت منذ جيل واحد أو جيلين على الأكثر. ولم تأخذ الحركة القومية العربية والكردية والفارسية فى التعبير عن نفسها بتعبيرات عرقية حصرية إلا بعد الحرب العالمية الثانية. وعندها، ربما، توقفت حركة التعرب فى العراق، وتحولت المسألة الكردية إلى مسألة قومية مستعصية. ولعل ما ساهم فى تفاقم المسألة الكردية، كان تورط القوى القومية الكردية فى الصراعات الإقليمية والدولية.

المسألة الكردية

وليس من الصعب رؤية التلازم بين الوحدة والاستقرار والرخاء، من ناحية، والانقسام وانهيار الحكم المركزى وغياب الأمن وتقويض سبل المعاش، من ناحية أخرى. ولأن موقع العراق الجيوبوليتكى، حتى بعد ولادة الدولة الحديثة ورسم حدودها الدولية، ربط بين مصيره ومصير جواره العربى والإسلامى، فإن استقرار العراق ورخاءه مؤشر على استقرار المنطقة ورخائها، كما أن انقسام العراق وانحطاطه مؤشر على انقسام المنطقة وانحطاطها. وإن كان نظام الدولة الحديثة، والسلطة الهائلة التى استحوذت عليها، فتح الباب فى كافة أنحاء العالم لمقاييس الأكثريات والأقليات، فإن العراق يجب ان يكون الاستثناء الذى لا يمكن النظر إلى عناصره البشرية بمقاييس الأكثرية والأقلية. يرتبط الشيعة العراقيون، وغير العراقيين، ارتباطاً رمزياً وثيقاً بالعراق؛ فيما يرى السنة أنهم صنعوا تاريخ العراق الإسلامى ومجده، وأن ليس هناك من بلد خارج الحجاز أعطى ميراثهم ملامحه كالعراق. وبينما أصبحت إسلامية العراق وعروبته سمة تاريخية راسخة، يعززها محيطه العربى - الإسلامى، فإن الوجود المسيحى فى العراق (كما هو فى مصر وبلاد الشام) وجود أصيل يعود إلى مطلع المسيحية ذاتها. ومهما كان إلحاح المسألة الكردية، فإن وضع أكراد العراق لا يمكن ان يحل حلاً حاسماً بمعزل عن الوضع الكردى فى عموم المنطقة. إن توجهات الهيمنة القسرية، القائمة على تجاهل المواريث التاريخية، لن تؤدى إلا إلى تقويض استقرار العراق وتقويض استقرار جواره على السواء.

وهذا، ربما، ما يستدعى إضافة بعض من الملاحظات السريعة والمشروطة حول حقبة الدولة العراقية الحديثة، التى بدأت بتنصيب فيصل الأول ملكاً فى ١٩٢١ وانتهت بالغزو الأمريكى للعراق والإطاحة بالدولة العراقية فى ٢٠٠٣. وهى ملاحظات مشروطة لأنها لا يجب أن تؤخذ بدرجة من اليقين قبل ظهور عدد كاف من الدراسات الموثقة لهذه الفترة، تسمح بمقارنة النتائج والتحقق من مصداقية الأرقام واتجاهات القوى. وليس هناك من شك فى وجود حساسية بالغة تتعلق بقراءة بنية الدولة العراقية الحديثة وتوجهاتها؛ فقد انتهى العهد الملكى فى العراق بمذبحة، وانتهى زعيم أول نظام جمهورى مقتولاً، بينما يقبع آخر رئيس للجمهورية فى سجن أمريكى ينتظر المحاكمة. كما أن العراق شهد منذ ١٩٢١ عدداً من الحروب، وسلسلة من الانقلابات؛ بل إن أول انقلاب عسكرى فى العالم العربى كان انقلاب بكر صدقى فى ١٩٣٦. وسجل الدولة الحديثة هو فوق ذلك سجل لم يجف حبره بعد، ولم يزل يمس حياة الكثير من العراقيين المعاصرين ويؤثر تأثيراً مباشراً على ذاكرتهم ووعيهم. ولاعتبارات واضحة، أصبح ميراث الدولة الحديثة أكثر مواريث العراق تسييساً وعرضة للتوظيف الأيديولوجى. بالرغم من ذلك كله، فإن طرح عدد من الملاحظات ذات العلاقة قد يساعد على فتح أبواب من النقاش:



أولاً. لجأ البريطانيون تحت وطأة خسائرهم فى ثورة العشرين إلى منح العراق إدارة ذاتية، تحت إشراف بريطانى ثقيل الوطأة، وحكماً وطنياً منقوص السيادة. ولأن البريطانيين لم يكن لديهم تصور للدولة سوى التصور الحديث لها، فقد أرادوا تسليم مقاليد الدولة لعراقيين تدربوا فى مؤسسة الدولة الحديثة وطرقها ووسائلها. ولم يكن هناك من عراقيين من هذا الصنف إلا أولئك الذين درسوا فى المدارس العثمانية الحديثة، وخدموا فى بيروقراطية وجيش الدولة العثمانية الحديثة. وكان هؤلاء فى أغلبهم من السنة، بعضهم عرب والبعض الآخر من أصول كردية أو تركمانية. إذ بالرغم من التقارب السنى - الشيعى فى نهاية العهد العثمانى، فقد ظل الشيعة محجمين عن الانضواء فى جهاز الدولة العثمانية، حتى عندما فتحت الدولة أبواب وظائفها للعراقيين وعموم فئات الرعية (ولم تعد مقصورة على الأتراك) فى حقبة التحديث العثمانى. ولعل ما ساعد رجال الدولة العثمانية السابقين على تسلم مقاليد الدولة العراقية الحديثة إن عدداً منهم، وليس كلهم على أية حال، كان قد انضم إلى الثورة العربية وإلى قوات الأمير فيصل الثائرة على حكم الاتحاد والترقى فى إسطمبول. ولم يكن مستغرباً بالتالى أن يخسر السيد الكيلانى، رئيس وزراء الفترة الانتقالية، الشخصية التقليدية وأحد وجهاء بغداد الكبار، الذى عرف بولائه للعهد العثمانى المنتهى، منصبه سريعاً، وأن يصعد إلى رئاسة الوزارة الموظفون والضباط العثمانيون السابقون أمثال عبد المحسن السعدون، ياسين الهاشمى، ناجى السويدى، ونورى السعيد، الذين عرفوا بخلفيتهم التعليمية الحديثة، أو كانوا من الموالين للهاشميين. كانت سيطرة العناصر السنية على مقاليد الدولة نتاج ظرف تاريخى خاص وليس مؤامرة طائفية للاستحواذ على الحكم.

بين الملكية والجمهورية

ثانياً. بالرغم من التوجه القومى العربى للعهد الملكى والسيطرة السنية على جهاز الدولة الوليدة وضعف التمثيل الشيعى فى الوزارة والجيش وصفوف كبار موظفى الإدارة، فإن من الصعب وصف الدولة الملكية بأنها كانت قومية حصرية أو طائفية النزعة. تواجد الأكراد بقوة فى صفوف طبقة ضباط الجيش، وعرف بكر صدقى، رئيس الأركان الذى قاد انقلاب ١٩٣٦، ليس فقط بأصوله الكردية بل أيضاً بعواطفه الكردية. وقد أصبح الكثير من الأكراد وزراء، كما رأس الوزارة كردى واحد على الأقل من آل بابان. أما الوزراء ورؤساء الوزراء الذين انحدروا من أصول كردية وتركمانية، وعرفوا فى الوقت نفسه بتوجهاتهم العروبية، فكثر. هذا بالرغم من انطلاق حركة التمرد الكردى القومى منذ منتصف الثلاثينيات. وقد ارتفع التمثيل الشيعى فى سلك الوزارة وفى الجيش ودوائر الدولة تدريجياً، كما ازداد عدد المدارس الحديثة فى المناطق الشيعية فى شكل مطرد، وتدفق العراقيون الشيعة على المعاهد العليا وبعثات الدولة الخارجية. ومنذ نهاية الحرب الثانية، أصبح اختيار شيعى لرئاسة الوزراء أمراً معتاداً تماماً. كما لعب الشيعة دوراً متزايداً فى الحياة الثقافية - السياسية فى العراق الملكى. كان فاضل الجمالى ومهدى كبه من مؤسسى نادى المثنى بن حارثة الشيبانى فى ١٩٣٣، وهو المنتدى الذى تحول إلى حاضنة للفكرة القومية العربية فى العراق الحديث. وبينما ساهم ساطع الحصرى، السنى من حلب، مساهمة بارزة فى نمو الفكرة القومية العربية، كان العروبى الشيعى من بعلبك، رستم حيدر (وحتى مقتله فى حادث جنائى) أحد أقرب المقربين من الملك فيصل الأول ومن الأسرة المالكة. للدولة العنصرية أو الطائفية، مهما بلغت من تسامح، سقف لا تخترقه، سقف يحدد طائفيتها أو نزعتها التمييزية؛ ولكن مثل هذا السقف العرقى أو الطائفى لم يوجد فى العهد الملكى.

ثالثاً. ليس ثمة من اتهامات طائفية توجه عادة لنظام حكم عبد الكريم قاسم، النظام الجمهورى الأول. ولد قاسم لأب سنى وأم شيعية، وقد احتل حتى الانقلاب عليه منصب رئيس الوزراء، أما مجلس رئاسة الدولة فقد ضم عربياً سنياً، وآخر شيعياً، وثالثاً كردياً. والمدهش أن التقييم غير الطائفى لنظام قاسم لا يأخذ فى الاعتبار أن أغلب وزراء حكوماته كانوا من السنة، وأن عبد السلام عارف، رفيق قاسم الحميم، الذى لعب الدور الأهم فى الانقلاب على الحكم الملكى، كان سنياً. وبالرغم من شعبية قاسم الواسعة فى أوساط عموم الشيعة، فقد كان عهده خطراً كبيراً على التقاليد الإسلامية الشيعية. فى عهد قاسم، تجرأت الدولة على التشريعات الإسلامية المتبقية فى مجال الأحوال الشخصية، ونشط الحزب الشيوعى العراقى نشاطاً كبيراً، لا سيما فى أوساط المتعلمين والعمال العراقيين الشيعة.



كتاب الزاوية



ديوان الطرب

سلامة حجازى

أيها القمرى غرد

أيها القمرى غرد ... حيث قد طاب الزمان
واطرب النفس وجدد ... آنسنا فى كل آن
يا مجيداً فى النشيد
طاب وقتى قم وبادر ... واشكر المولى المجيد
من حوى كل المفاخر ... صاحب الرأى السديد
غوثنا عبد الحميد
من له أسمى المزايا ... والمعالى والكرم
فضله عم البرايا ... وبه الكون اطمأن
من له الملك المعين
وأدم رب المكارم ... من حكى البدر التمام
من غدا والدهر باسم ... خير عباس يرام
فله الشكر المزيد
واحفظ السادات أهل الكرم ... من إذا ما حضروا الأنس حضر
رب واشملهم بوافى النعم ... ما شدا طير وما لاح قمر
فهموا أنجم ذا العصر السعيد

ولم يكن مستغرباً أن يدفع هذا المناخ عدداً من المثقفين والعلماء الشيعة الشبان إلى تأسيس «حزب الدعوة»، أولى المنظمات الإسلامية السياسية الشيعية فى العراق الحديث.

أما عبد السلام عارف فقد عرف بتوجهاته القومية العربية والإسلامية. حافظ عارف خلال عهده على علاقات حسنة بالمرجعية الشيعية، التى شهدت فى ظل حكمه وحكم شقيقه، عبد الرحمن عارف، أكثر فتراتها قوة وتأثيراً. وحكم العارفين هو الذى فتح أبواب العراق لآية الله الخمينى بعد نفيه من إيران، بالرغم من رفض عدد من علماء النجف استقباله. ولم تتوتر علاقة عبد السلام عارف بمرجعية النجف إلا عندما كانت تتكشف لديه الصلات السرية بين بعض علماء المرجعية فى النجف ونظام الشاه فى إيران، الذى نظر إليه فى بغداد باعتباره مصدر تهديد للعراق. ولعل التباين بين موقف الحكم فى بغداد وموقف مرجعية النجف من استقرار آية الله الخمينى فى العراق يرجع إلى تباين موقفى الطرفين من نظام الشاه. وليس ثمة من مؤشر على أن الاعتبارات الطائفية كان لها أى دور يذكر فى الصداقة الوثيقة بين عارف وقاسم، فى اختلافهما بعد ذلك، وفى سجن الأخير للأول، أو فى مشاركة عارف فى الانقلاب على قاسم. والمفارقة أن التمثيل العربى السنى والعربى الشيعى فى حكومة عارف أصبح متساوياً، بالرغم من أن اختيار الوزراء من الجانبين لم يتم على أساس طائفى بل عكس الانضواء الشيعى المتزايد فى الدولة والحياة السياسية. وقد اتسم عهد عارف القصير، وعهد شقيقه الانتقالى الأكثر انفتاحاً، بقدر كبير من الاضطراب والتدافع بين القوميين العرب والشيوعيين، وبين القوميين من غير البعثيين والقوميين البعثيين، كما بين هؤلاء جميعاً والإسلاميين السنة والشيعة على السواء.

عنف البعث

رابعاً - بدأ العهد الجمهورى الأخير، عهد أحمد حسن البكر وصدام حسين، بانقلاب ١٩٦٨ ومن ثم سيطرة حزب البعث على السلطة. كان العدد الأكبر من قيادة النظام الجديد من ضباط الجيش، ومن الشبان البعثيين العرب السنة العلمانيين، المنحدرين من أسر وعشائر غير بغدادية. ولكن البعث كان دائماً وثيق الصلة بالعرب الشيعة، الذين لم تنتشر بينهم فى الخمسينيات والستينيات التيارات اليسارية فحسب، بل والتيارات القومية العربية الأيديولوجية كذلك. إن القادة الثلاثة الأول لحزب البعث فى العراق كانوا من العرب الشيعة؛ ولم تظهر أغلبية سنية فى قيادة الحزب إلا بعد استيلاء اللجنة العسكرية على القيادة إثر الفوضى التى تسبب فيها الحرس القومى التابع للقيادة المدنية فى ١٩٦٣، ومن ثم نجاح عارف بموافقة اللجنة العسكرية لحزب البعث فى طرد شركائه البعثيين وحرسهم القومى. كان أغلب أعضاء اللجنة العسكرية من الضباط السنة، بل ومن أصول عشائرية تكريتية، وهو ما سيسهم فى صعود التكريتيين إلى السلطة بعد أن أخذت دائرة الحكم تضيق وأخذ الرفاق فى الانقلاب على بعضهم البعض وتصفية الواحد منهم للآخر. ولكن تصوير نظام البعث على انه نظام حكم عربى - سنى، انتهج سياسة اضطهاد منظم للشيعة وللأكراد، باعتبارهم شيعة وأكراداً، هو تصوير تنقصه الأدلة حتى الآن.

كل أنظمة المشرق، حيث الدولة الحديثة وجماعاتها الوطنية لم تستقرا بعد، تواجه خصومها بقدر كبير من العنف، لاسيما عندما يلجأ خصومها أنفسهم إلى استخدام وسائل العنف. العنف الذى وظفه النظام ضد المناطق الكردية المتمردة على السلطة المركزية، وذلك الذى واجه به انتفاضة المحافظات الجنوبية فى ١٩٩١، لا يختلف كثيراً عن العنف الذى تعاملت به الدولة التركية أو الإيرانية مع حالات التمرد الكردى، أو الذى تعاملت به الدولة الجزائرية أو السورية أو المصرية مع تمرد القوى الإسلامية المسلحة. ولا يختلف بالتأكيد عن العنف الذى تواجه به دولة ما بعد احتلال ٢٠٠٣ خصومها المسلحين. كان نظام البعث، خاصة منذ نهاية عهد البكر، نظاماً انفرادياً، حاول تأسيس الاستقرار بقوة الأجهزة الأمنية ووسائل القمع والعنف. ولكن عنف النظام فى مواجهة خصومه فى المناطق الكردية والشيعية ليس دليلاً على طائفيته، لاسيما أن نظام البعث لم يتورع عن استخدام عنف مشابه (وإن بدرجة أقل) ضد منطقة عربية سنية كالرمادى، عندما استشعر بوادر تمردها فى منتصف التسعينيات. ثمة عدد من الأسئلة لابد أن يجاب عليها قبل محاولة حسم الجدل حول طائفية النظام وتمييزه العرقى: إلى أى حد، مثلاً، كانت سياسات النظام التعليمية والتنموية سياسات تمييزية، ماذا عن عدد الجامعات وتوزيعها الجغرافى، عن عدد الطلاب

الجامعيين وتوزيعهم الطائفى والعرقى، ماذا عن سياسات التوظيف الحكومى والارتقاء فى مناصب الدولة، ماذا عن الأصول الطائفية لكوادر الحزب الحاكم وقياداته، وماذا عن دوائر الحكم والمقاعد الوزارية؟



خامساً - إن معظم تداعيات الوضع العراقى الحالى تعود إلى الحرب العراقية - الإيرانية وسنواتها المدمرة والدموية الطوال. ولا يجب أن يكون هناك شك فى أن نظام صدام حسين، مدعوماً بعدد من القوى الإقليمية والدولية، يتحمل مسئولية إشعال الحرب. فى سنوات الحرب تلك ولدت أوهام الدور المضخم لدى النظام، وفيها ولدت بذور الانقسام الطائفى، وفيها ولدت أزمة العراق المالية - الاقتصادية. الأزمة المالية - الاقتصادية هى التى أدت إلى أزمة الكويت وحرب الخليج الأولى، ومن ثم إلى حصار العراق الطويل، وتصدره قائمة الأهداف الأمريكية فى الشرق الأوسط. وما أن صنعت أحداث الحادى عشر من سبتمبر/ أيلول سياقاً عالمياً جديداً حتى بدأ العد العكسى لغزو العراق واحتلاله.

بيد أن الحرب العراقية - الإيرانية كانت أيضاً حاضنة المناخ الطائفى المرير الذى أخذ فى اجتياح العراق منذ بداية الاحتلال. كان هدف العراق الرئيس من شن الحرب على إيران فى ١٩٨٠ السيطرة على إقليم عربستان/ خوزستان الجنوبى ذى الأكثرية العربية، وهو ما كان يعنى العبث فى التركيب القومى الإيرانى ودفع إيران إلى التفكك والانهيار. وقد ردت إيران الصاع صاعين عندما مدت يد العون للقوى الكردية القومية فى شمال العراق، وللعناصر والتنظيمات الإسلامية الشيعية السياسية، بل وعملت على تكوين تنظيمات جديدة. ونظراً لأن إيران دولة يحكمها نظام إسلامى شيعى، ونظراً للموروث التاريخى الثقيل للعلاقة بين إيران الصفوية/ القاجارية والعراق، فقد ولدت سنوات الحرب الطويلة خطاباً طائفياً، انتشر فى أنحاء المشرق والعالم الإسلامى. وعندما انتهت الحرب بدون سقوط النظام فى العراق، بدا أن أغلب التنظيمات العراقية المعارضة فى الخارج، لاسيما الشيعية التى ازدهرت خلال سنوات الحرب، فقدت مسوغ وجودها. وهذا بالذات ما أدى ببعض هذه التنظيمات إلى البحث عن مسوغ استمرار فى الخطاب الطائفى. ثم جاءت هزيمة العراق فى حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١ وما تبعها من توظيف بغداد الواسع للعنف لاستعادة السيطرة على المدن الجنوبية، ذات الأكثريات الشيعية. وليس هناك من شك فى أن أحداث ١٩٩١ وفرت مادة غير مسبوقة للخطاب الطائفى.

أخيراً - شكل نظام الدولة الحديثة، فى العراق وغيره من الدول العربية والإسلامية، معضلة كبرى للفكر والوعى الجماعى العربى والإسلامى. وقد فاقم من هذه المعضلة فشل أنظمة هذه الدولة المتفاوت فى عملية التنمية، والحفاظ على الاستقلال، ولجوؤها المتكرر إلى العنف السافر لتعويض أزمة الشرعية. وربما سيحتاج العرب والمسلمون سنوات طويلة أخرى لحل إشكالية الدولة. وليس من الصعب اتهام الدولة العراقية الحديثة، سواء فى حقبتها الملكية أو الجمهورية، بكثير من الاتهامات. ولكن وصم هذه الدولة بالطائفية يستدعى إعادة النظر فى المنطق الذى قامت عليه، كما يعرفه دارسوها العرب وغير العرب. ومثل هذه المقاربة للعراق الحديث لا تؤيدها الشواهد التاريخية المتاحة. هذا لا يعنى، بالطبع، إن عراق ما بعد الغزو ليس مهدداً بالانقسام الداخلى، الطائفى أو العرقى؛ فالهويات تلد، أو تكتسب نزعتها للتمركز حول الذات ونفى الآخر، فى ظروف انتقالية أو انقلابية، أو فى فترات الحروب والصراعات العاصفة. ولدت القوميتان العربية والكردية فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، عندما كانت رياح التحديث تعصف بالبلاد والشعوب العثمانية، واكتسبت توجهاتها السياسية خلال سنوات الحرب العالمية الأولى، بكل ما تعنيه سنوات الحرب من خوف وعدم استقرار وعنف. وكانت نتائج الحرب والسيطرة الاستعمارية الانتدابية هى التى أعطت العراق الحديث حدوده الديمغرافية والجغرافية.

بيد أن العراق لم يشهد فى تاريخه الحديث سياقاً تواطأت فيه قوى أجنبية وأخرى وطنية، بوعى أو بدون وعى، على تبنى سياسة تدفع شعبه إلى حافة الانقسام الطائفى، كما الفترة التالية لاحتلال ٢٠٠٣. عبر تاريخه كله، كان لكل خيار من خيارات الهوية السابقة آثاره وعواقبه على أصحابه ومن هم فى جوارهم، وعلى العراق ككل. ويقف عراقيو مطلع القرن الحادى والعشرين أمام خيار جديد: أن يروا أنفسهم من منظار الانتماء الطائفى أو الاثنى الذى ولدوا به، بكل ما فى ذلك من آثار وعواقب، أو أن يحافظوا على وحدة العراق وبقائه. ■

كـتـــاب الـــزاويـــة



ديـوان الطـرب

ســـلامة حجـــازى

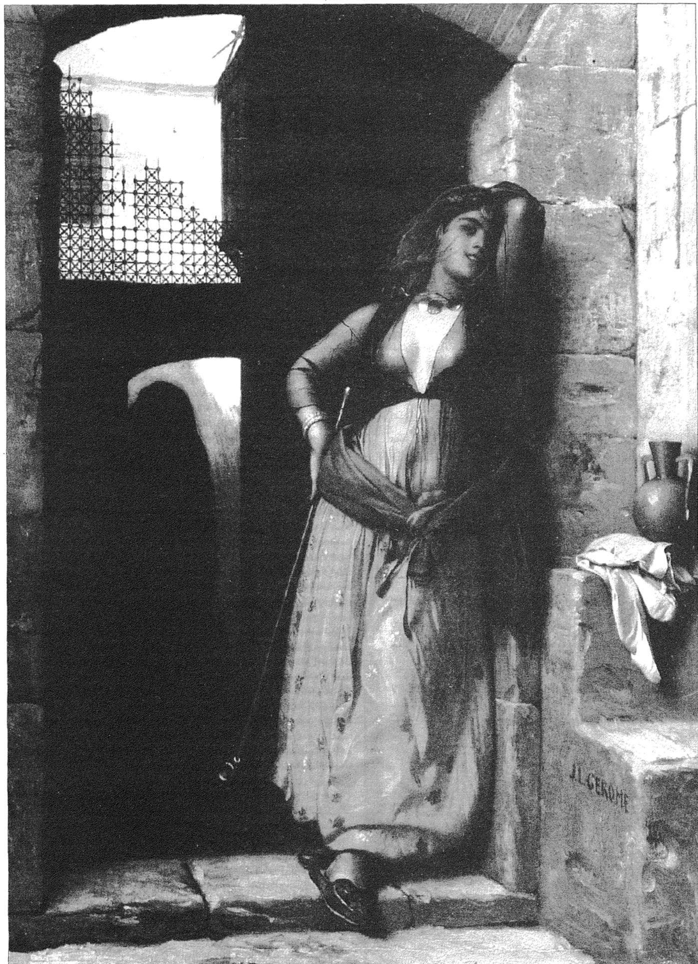
شـــبـان الأزبكيـــة

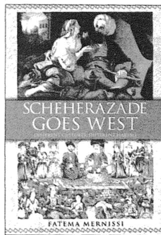
شبان مصر إلام اللهو والكسل ... ومصر فى عهدكم تنتابها العلل؟
أنـتـم دواء لأدواء تـبـرحـهـا ... إذا نهضتم، فهل فيكم لها أمل؟
ماذا نؤمل فى حسن الوجوه وفى ... حسن الكلام إذا لم يحسن العمل؟
أما رأيتم خلايا النحل كيف بها ... الكل يعمل لا لهو ولا ملل!!
مصر الخلية والمرعى الخصيب بها ... والنحل أنتم وإدراك المنى العسل

فتـى العصــــر

ماضر لو شابهت من عقلوا ... وبعدت عن ذا المسلك الوعر
فالعقل يرفع قدر صاحبه ... سيان فى عسر وفى يسر
تسعى لجذب الفاتنات وقد ... نفرتهن وأنت لا تدرى
فوداعة الحملان تفضلها ... عند النساء شراسة النمر
ومحاسن الطاووس تفضلها ... لو كنت تعلم صولة النسر
هذا حديث كالثمار به ... حلو اللباب وتافه القشر
أودعته نصح الحكيم ولو ... إنى خلطت الجد بالهزر
لا أبتغى والله منه سوى ... إصلاح حالك يا فتى العصر

جـان ليـون جيــروم - ١٨٧





أيقونة الصراع والسياسة والحرب.. والجنس

المرأة المسلمة "رمزا"

أميمة أبو بكر

عندما صدر كتاب (الاستشراق) المشهور للراحل إدوارد سعيد (١٩٧٨) . الكتاب الذى كان له الفضل فى بدء حركة نقدية ثقافية واسعة المدى والتداعيات بالنسبة لدراسة آليات التمثيل الثقافى وتحليل الخطاب وعلاقة ذلك بسياسات الاستشراق وتأسيس صورة «للآخر/ الشرق» تكون مقدمة معرفية وتبريراً لمهمة الاستعمار . تعلّمنا منذ ذلك الحين أن الاستشراق هو فى الأساس عملية إنتاج واحتكار للمعرفة عن شعب أو جماعة، وتتمحور هذه المعرفة فى حالتنا تلك حول تكريس التنميط السلبى والدونية ولذا كان من نتائج الاستشراق بناء «رؤية تمثيلية» معينة لهذه الشعوب وثقافتها . ولأن إدوارد سعيد كان مهتماً بفترة الاستعمار والحقبة الحديثة فقد ركز على القرنين التاسع عشر والعشرين، ولم يرجع بعدسته التحليلية إلى العصور الوسطى والعلاقة بين أوروبا والعالم الإسلامى فى ذلك الوقت، كما أنه لم يركز . إلا سريعاً فى معرض التحليلات . على صورة المرأة فى الشرق وبالتحديد المرأة المسلمة فى هذه المجتمعات . لم يشكلّ ذلك انتقاصاً من المشروع الفكرى الهائل الذى أرسى دعائمه سعيد، بل العكس، مثل كل المشاريع الرائدة للمفكرين المبدعين هناك دائماً مساحة للاستفادة مما تم إنجازه وبناء عليه المزيد من البحث فى طرائق أخرى متشعبة لخلق التراكم المعرفى والعلمى المنشود .

الكتابان اللذان يتم عرضهما هنا استفادا بلا شك من مشروع تحليل «رؤية» الغرب التاريخية للشرق العربى والإسلامى وإنتاج «الصور التمثيلية» له، ولكن تم إفراد وتخصيص الدراسة فى كل منهما لصورة المرأة بالذات فى عيون الغرب، وكذلك العودة إلى الجذور المبكرة فى القرون المتوسطة لتحليل أكثر من مرحلة والوقوف على تطورات الرحلة التاريخية الطويلة .

■■ أصبح معروفاً الآن أن صورة الحريم . وهى تمثل منطقة المحظور والحسى . كانت دائماً شكلاً من أشكال الخيال الذكورى الاستشراقى الذى عن طريقه استطاع الغربيون أن يصوغوا نظريات حول اعتبار المرأة فى الثقافة الإسلامية الرمز المجسم لكل ما هو متخلف وهمجى وحسى فى هذه المجتمعات.

ومن الصعب أن نورد هنا الكم الهائل من الدراسات النقدية والتاريخية . معظمها بالإنجليزية . التى تناولت صورة الحريم الإسلامى فى الوعى الغربى الاستشراقى خاصة فى الفترة العثمانية، ولكن نشير إلى أهمها مثل: (حريم الإمبريالية . Imperial Harem: Women & Sovereignty in the Ottoman Empire للكاتبة لسلى بيرس (١٩٩٣)، و (العنصرية والجندر والجنس فى سياق الكولونيالية). Imperial Leather: Race, Gender, Sexuality in the Colonial Context للكاتبة آن ماكلينتوك (١٩٩٥) ؛ ثم نتوقف عند الكتاب البارز لمالك علّولة (الحريم الكولونيالى . ١٩٨٦) وهو عبارة عن تجميع للصور الفوتوجرافية التى أخذها الفرنسيون فى أوائل القرن العشرين لنساء مسلمات جزائريات ومغربيات بلا اسم، تمت تعريتهن جزئياً وتحويل هذه الصور إلى «كروت بوستال» لإرسالها إلى ذويهم فى فرنسا دون أظرف، وهو التجسيد الأمثل للرغبة الاستشراقية فى استباحة وتعرية المرأة المسلمة وجعلها هدفاً للنظرة المختلسة المتلصصة (voyeurism)، إضافة إلى اعتبارها رمزاً للإسلام نفسه وجعله متاحاً مستسلماً .

والجديد فى كتاب (التصورات الغربية للمرأة المسلمة . ١٩٩٩) لكاتبته مهجة قحف (Western Representations of the Muslim Woman) هو الأطروحة الأساسية أن هذه الصورة النمطية الاستعمارية فى العصر الحديث للمرأة المسلمة داخل الحريم قد سبقتها صور أخرى مختلفة تماماً مبنية أيضاً على رؤية وتجربة مغايرة . تتبنى الكاتبة الأمريكية / السورية الأصل . الأستاذة المساعدة بقسم الأدب الإنجليزى وبرنامج دراسات الشرق الأوسط بجامعة أركنسا فى الولايات المتحدة . منهجاً تاريخياً نقدياً فى تتبع صورة المرأة المسلمة فى الخيال الأدبى الأوروبى، وتقسّم تشكل

Scheherazade Goes West: Different cultures, Different Harems
شهرزاد ترتحل غربا
Fatema Mernissi
Washington Square Press, 228PP, 2001

Western Representations of the Muslim Woman from Termagant to Odalisque
التصورات الغربية للمرأة المسلمة
Mohja Kahf
University of Texas Press, 1999, 207PP



استحوذت فكرة الحريم على الخيال الأوربي منذ القرن السابع عشر. والسؤال: ما هي دلالة ظهور الحريم في الخطاب الغربي حول الإسلام منذ ذلك الوقت بالتحديد؟



هذه الصورة إلى فترات تاريخية / أدبية مثل: العصور الوسطى، وعصر النهضة، وعصر التنوير، والأدب الرومانسي، وصولاً إلى القرن التاسع عشر الإمبريالي. تتعرض الكاتبة بادئ ذي بدء إلى إشكالية المصطلح «المرأة المسلمة» الذي تستخدمه مدركة أن المسمى له غموضه وهو غير واضح أو محدد من ناحية سياق تاريخي واجتماعي معين، فهل المقصود المرأة في تركيا أم في الهند أم في البلاد العربية مثلاً؟ تقول الكاتبة أن منهج الكتاب ليس العلوم الاجتماعية أو السياسية التي تتعامل مع مجتمعات أو جماعات محددة من النساء والرجال داخل سياقاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فكتابها يتناول «المرأة المسلمة» كموضوع «للتمثيل» (representation) في الأدبيات الغربية، كصورة تم تصنيعها وتشكيلها في الوجدان الأوروبي، ولذلك فالمصطلح الجامع يجعلنا نرصد أنماطاً واحدة للمرأة العثمانية / التركية أو الآسيوية أو العربية على السواء بسبب انتمائهن جميعاً للدين الإسلامي، وذلك على مدى فترات أدبية متعددة.

من الغريب أن الصورة التي تقابلنا للمرأة المسلمة في نصوص القرون الوسطى الأوروبية (مثل الملاحم الفرنسية التي تناولت الحروب الصليبية) هي الأنثى القوية العنيفة المحاربة حتى ينعكس ذلك على بنيتها الجسمانية الضخمة : لا يوجد ذكر لأي حجاب أو غطاء أو عزلة أو حريم في التصورات القروسطية للمرأة المسلمة، بل النموذج هو المرأة الجامحة التي تمتلئ حيوية وجراة ولذا تمثل تهديداً للأنوثة الهادئة الخاضعة للمرأة الأوروبية المسيحية المثالية في ذلك الوقت. وعادةً ما تدور حبكة القصة في هذا النص (the romance) وهي قصة خيالية شعرية في الأغلب أو نثرية أحياناً مبنية على المغامرات والفروسية والحب العذري في العصور الوسطى. حول هذا النمط السردي: تقع امرأة من طبقة الأشراف المسلمين (أميرة مثلاً) في حب محارب أسير مسيحي لدى جيش والدها أو أخيها، فتساعده على الهرب وتعينه في مواجهاته الأخرى مع الجيش الإسلامي حتى تتحول إلى المسيحية وتتزوجه، وتتحول كذلك إلى شخصية أنثوية مسالمة سلبية وتصبح جزءاً من المعسكر الغربي. ولا يعنينا كثيراً التحول في العقيدة فهو مجرد رمز لتحول الشخصية من القوة والجراة و«الاسترجال» . من وجهة نظر السرد . إلى الضعف والاستكانة وهي الصورة الأمثل للأنثى حسب المنظومة الثقافية المسيحية في ذلك الوقت. الملاحظ أن الشخصية النسائية المسلمة تنتمي غالباً لطبقة اجتماعية أعلى من القائد البطل المسيحي، أي أن قوة تأثير الحكاية تعتمد على دخول هذه الشخصية النسائية بنية السرد من باب أنها على قدم المساواة أو حتى أكثر تفوقاً من البطل الغربي المسيحي وليست أدنى منه بأي حال من الأحوال.

تضرب مهجة قحف أمثلة كثيرة لهذا النمط الأدبي خاصة في الملحمة الفرنسية الشهيرة (La Chancon de Roland) (ق ١٢) التي تحكي جانباً من المواجهات الصليبية العسكرية في القرن الثامن الميلادي وموت «رولاند» ابن أخ الملك «شارلمان» على يد الملك العربي المسلم (the saracen) « مارسيل» في أسبانيا، وشخصية «براميموند» هي زوجة هذا الملك، وهي من أولى الشخصيات النسائية المسلمة التي تدلف إلى الخيال الغربي في الفترة بين ١١٠٠ م و ١٤٠٠ م حيث انتشر العنصر الإسلامي في الملاحم والشعر و(الرومانسيات) والأدب الشعبي انعكاساً للاحتكاك بين الثقافتين أو الحضارتين على أكثر من مستوى. تتصرف «براميموند» بعدوانية وتتحدث وتقاطع بصوت عال: هي إذا الصورة النمطية للمرأة المزعجة سليطة اللسان، والمقابل لها شخصية «أود» النموذجية المسيحية الخاضعة والمضحية. «براميموند» في عدوانيتها وشهوانيتها تمثل الصورة المعكوسة على مستويين: الآخر الديني الوثني، وكذلك المرأة المجاوزة لحدودها الفطرية السليمة: «فالمرأة الفاضلة بحق هي المرأة السلبية» كما تشرح لنا الكاتبة هذه النقطة. وتقضي التقاليد الأدبية لهذا النوع أن تتحول «براميموند» إلى المسيحية في آخر الملحمة وإلى الطابع الغربي المسيحي للأنوثة بمعايير ذلك الوقت. أي أنه يجب أن يتم «تأنيثها» بالكامل وليس فقط تنصيرها حتى تنتهي الحكاية.

تعد «براميموند» النموذج الأول (prototype) للمرأة المتمردة المتوحشة (termagant)، وهو الاسم الذي أطلقه كتّاب الرومانسيات في القرون الوسطى على أحد الآلهة الوثنية العربية الذي تصوروا أنه يُعبد من قبل المسلمين، وكان هذا الإله في ذلك التصور حينئذ يتصف بالعنف والشراسة، ثم تطور المصطلح حتى اكتسب في منتصف القرن السابع عشر في أوروبا معنى المرأة المشاكسة المتوحشة سليطة اللسان، وتعلق الكاتبة أن تطور مدلول واستخدام الكلمة له مغزى خاص بالنسبة لصورة المرأة المسلمة في الخيال الأوروبي في مرحلته الأولى: حيث تزامن ذلك تاريخياً من القرن الثامن إلى حوالي القرن الخامس عشر مع حقيقة أن الحضارة الإسلامية كانت لها اليد العليا سياسياً واستراتيجياً واقتصادياً وثقافياً. ولم تكن الهجمة الصليبية . رغم بعض الانتصارات المؤقتة . مشروعاً استعمارياً متكاملاً وكاسحاً كما كان الحال في القرن التاسع عشر، بل ظلت الحملات العسكرية الأوروبية مهددة ومحاصرة وفي موقع ضعف وعرضة للهجوم المضاد والطرد في معظم الأوقات.

لذا فالصورة وتطورها يعكسان نقطتين: أولاً، علاقة الغرب بالآخر المسلم منذ بداية الغزو العسكري لأراضيه واختلاف موازين القوى معه وكيفية التعامل معه من منطلق المصالح والأطماع. ثانياً، إسقاطات المجتمعات الغربية على تشكيلها لصورة المرأة المسلمة، بمعنى أن الإشكاليات الداخلية الخاصة بهذه المجتمعات تجاه رؤيتها للمرأة الأوروبية نفسها والبناء الثقافي لشخصيتها وطبيعة العلاقة بين الجنسين تحكمت على مر العصور في تدعيم التصورات النمطية للمرأة في الإسلام. من هذا المنطلق هناك مرحلتان لهذه التصورات: مرحلة العصور الوسطى حيث الآخر المسلم هو الأقوى الذي يشكل تهديداً عسكرياً وسياسياً وثقافياً (عقائدياً)، فتصبح المرأة في بربريتها وتوحشها واسترجالها رمزاً لهذا الآخر؛ ولأن أوروبا في ذلك الوقت لديها مشكلة مع شخصية المرأة في الأسرة والمجتمع والمؤسسة الدينية وهناك الرغبة في تكريس نمط الأنثى النقية الهادئة المستكينة كنموذج مثالي داخل الثقافة المسيحية، فإن هذه الرغبة تنعكس أدبياً على استئناس الوحش الإسلامي في صورته «الأنثوية» (termagant) وإظهار المرأة المسلمة عنيفة ومنفّرة خارج إطار الأنوثة النموذجية الخاضعة.

وهكذا تتابع الكاتبة تطور وتغير هذه الصورة بفعل هذين العنصرين، أحدهما خارجي يمس علاقة الغرب بالآخر المسلم والثاني داخلي يمس علاقته بالآخر المؤنث، وكيف يتم تداخل أو تشابك للجانبين فتصبح المرأة لدى الثقافة الأوروبية هي «الآخر من الداخل» (the Other within). وعندما تتساءل الكاتبة ما الذي أدى إلى تدهور «التواجد الأدبي النصي» للمرأة المسلمة من المرأة القوية التي لا يستهان بها إلى المرأة السلبية الصامتة المحتجزة في حيز الحريم تجد الإجابة مرة أخرى في تقاطع نوعين من الخطاب في التاريخ الثقافي الغربي: الخطاب حول الإسلام والخطاب حول (الجندر) أو علاقات النوع.

يتكرر إذاً نموذج «براميموند» الجامحة في كثير من نصوص القرون الوسطى، مع إضافة بُعد الشهوانية والإغراء في شكل عدوانية جنسية. والمثير أن هؤلاء البطلات المسلمات كثيراً ما يتم في تصويرهن إظهار براعتهن في العلوم الطبية أو الكيميائية أو السحر، فيتم ربط جراتهن الجنسية بتفوق في العلوم والمعرفة. المهم في هذه النقطة، حتى نفرق بين هذه المرحلة وما سوف يتبعها، أن الجانب الجنسي عندهن مباشر ونشط ويملكن المبادرة فيه، ولسن هدفاً سلبياً صامتاً «للنظرة الفاحصة المستبيحة» أو المقتحمة من الخارج (أي فكرة الحريم). أما عن الشخصية الجنسية العدوانية فهي في ذلك الوقت علامة على تحرر مقيت وحِسية بدائية غير متحضرة لأنهن جزء من منظومة التسيب وعدم التهذيب التي رسمتها المؤسسة الكنسية الغربية القروسطية للدين الإسلامي. وهكذا تقابلنا المرأة المسلمة الدموية العنيفة في شراسة أعتى رجال القادة المسيحيين وهي ليست بالعدو السهل بل رمزاً للتهديد الذي تمثله القوة العظمى الإسلامية، وهي كما قلنا إما تُقتل وتُدمر ويُمثّل بها أو تتحول إلى المسيحية وتتغير شخصيتها في انتقالها من ثقافة إلى أخرى لتصبح الأنثى المثالية في ضعفها وسلبيتها وصمتها.

الغريب إذاً . وعلى عكس ما سيحدث في القرن التاسع عشر من «تأنيث للشرق»



عند عبور شهرزاد إلى ضفة العالم الغربى (فى شكل أول ترجمة فرنسية عام١٧٠٤م) فى الفن والأدب تفقد سماتها الفكرية والعقلية وذكاءها ونبوغها الأدبى والفنى الذى ميز شهرزاد الأصلية



أو تقديمه فى صورة «الخُنثى» (ص ٥٣). تصنع تلك النصوص من النساء «رجالاً»، فليس الهدف البلاغى إظهار ضعف الآخر وإبعاده عن الذات بل رفع قدره (على الأقل فى البداية) لجعله على نفس مستوى الاقتدار فهو عدو لا يستهان به وجدير بالمحاربة، فإذا تم سحقه فى نهايات القصص كان لهذا أثر درامى قوى وله انعكاسه الإيجابى على بطولة الذات. صورة الثقافة الإسلامية فى هذه المرحلة ثقافة على درجة واحدة من القوة وإن كانت منحرفة وشريرة، والمرأة المسلمة القوية عندما تتحول إلى المسيحية ترمز إلى ذوبان هذه الثقافة أو الهوية وجعلها فعلاً مثيلة للذات الغربية فى كل شىء، ومن ثم تفقد اختلافها تماماً.

وعندما تنتقل الكاتبة إلى تحليل نصوص المرحلة التالية وهو عصر النهضة بدءاً من القرن الخامس عشر حتى نهاية السابع عشر ورغم عدم وجود نمط موحد واضح بل تعددية فى الأنماط والأشكال، إلا أنها تلاحظ بصفة عامة وجود فترة انتقالية وجيزة فى التاريخ الأدبى الغربى، حيث يظهر خطاب الحركة الإنسانية (Humanism) فى مقاربته للمرأة المسلمة من منطلقات مبادئ النهضة التى غيرت من النظرة إلى الإنسان (وعلاقته بالكون والمجتمع والتاريخ) ليس من خلال انتمائه لأى جماعة محددة ولكن من خلال فلسفة الفردية المطلقة، مما أدى إلى ظهور نوع من أنواع الفضول الحيادى تجاه المسلمين، خاصة من المنظور الإيطالى. المختلف عن نظيره الفرنسى أو الأسبانى أو الإنجليزى. بسبب العلاقات التجارية النشطة بين إيطاليا وبلاد الشرق فى حوض البحر المتوسط مما جعل سكان المدن الإيطالية حلفاء اقتصاديين للعثمانيين فقد اعتمد رخاؤهم الاقتصادى على المعاملات التجارية مع الولايات العثمانية. أدى هذا العامل التاريخى المهم إلى حدوث ما تطلق عليه الكاتبة انحساراً مؤقتاً للغة الآخر المتعصبة أو تواجد «هضبة مستوية» حيادية بين مرحلتين فى العلاقات بين الشرق المسلم والغرب المسيحى، وانعكس ذلك على تصوير الشخصيات النسائية التى كانت تظهر فى الأعمال الأدبية ذلك الوقت. وهى تضرب مثالاً لعمل «بوكاشيو» المشهور: حكايات الـ Decameron) حيث نجد فى الحكاية السابعة «الاتيل» الابنة الجميلة لسلطان بابل، وهناك حكاية أو مغامرة أخرى بطلتها «إليسا» بنت ملك تونس التى تقع فى حب الأمير المسيحى الصقلى «جربينو»... إلى آخر الحكاية المأساوية عن المحبين. الأهم أنه لا أحد يتحول عن دينه ولا توجد جدالات حول العقيدة أو شتائم أو إهانات موجهة إلى آلهة أى دين آخر. صحيح أن هؤلاء الأميرات المسلمات لسن بقوة وفاعلية البطلات فى العهد السابق، ولكنهن على أية حال يشتركن مع الشخصيات النسائية الأخرى غير المسلمة فى قلة حيلتهن الراجعة إلى الثقافة الذكورية العامة التى يخضع لها الجميع مسلمات ومسيحيات. لا تركز السرديات إلا على اختلاف «جنس» الشخصية (sexual difference) أى شخصية الأنثى. وليس على الاختلاف الدينى كذلك، أى أن المرأة المسلمة هنا تشترك مع قرينتها الأوروبية فى كونهما «الآخر» بالنسبة إلى تغلب القيم الذكورية على منطق الحكايات. تزعم الكاتبة أن هذا انعكاس لتقبل الواقع . وإن لم يكن إقبالاً أو تفهماً أو حباً: أى التعامل مع الولايات العثمانية المسلمة على قدر من التوازن الاقتصادى وعلى أساس المشاعر الحيادية، ليست خوفاً أو كرهاً أو حباً.



تمضى الكاتبة مهجة قحف من خلال مزيد من التحليل الأدبى فى رصد تصوير الشخصيات ودلالتها فى أكثر من عمل أوروبى سواء كان أسبانياً أو فرنسياً أو إنجليزياً مع تسليط الضوء دائماً على الخلفية التاريخية لميزان العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية الذى يحدد غالباً إنتاج هذه الصور. مثلاً يلفت نظرنا توقفها عند بزوغ قضية عنصرية اللون واقتران المرأة المسلمة حينئذ بالمرأة الأفريقية «السوداء» فى بعض أعمال شكسبير، بسبب ظهور شخصية (the moor) من شمال أفريقيا، وكيف أن ذلك راجع لرواج تجارة العبيد فى القرن السابع عشر، حيث تلحظ أن النصوص الإنجليزية فى هذا القرن تذكر الأفريقيين السود. أى ذوى اللون الأسود. على أنهم (black moors) أى يقترنون بالسكان المسلمين فى شمال أفريقيا.

ولكن المرحلة الأهم فى هذه الرحلة التصويرية الطويلة تتحدد عند بدء استحواذ فكرة الحريم على الخيال الغربى أو الأوروبى منذ القرن السابع عشر، والكاتبة تطرح التساؤل: لماذا ظهور الحريم ودلالته فى الخطاب الغربى حول الإسلام منذ ذلك الوقت بالتحديد ؟ كما أشرنا فى البداية تعتمد أطروحة الكتاب الأساسية على تحديد عاملين رئيسيين أثرا على تطور صورة المرأة المسلمة أحدهما داخلى يخص أزمة المجتمعات الغربية نفسها مع المرأة أو «الآخر المؤنث»: يتزامن هذا العصر مع نشوء التطور المجتمعى للتقسيم الحاد فى الأدوار بين النساء والرجال، بسبب التحول من المجتمعات الزراعية أو الإقطاعية إلى مجتمعات صناعية وإلى اقتصاد تجارى مدينى مما أبعد النساء عن الحيز العام إلى الخاص / المنزل لإفساح المجال فى السوق والمصنع لليد العاملة الذكورية. وصاحب كل ذلك نشأة الطبقة المتوسطة البرجوازية بمعاييرها الأخلاقية المتزمتة وأذواقها المادية واهتمامها بالكسب ونظرتها الضيقة إلى الأمور، مما خلق أيديولوجية اجتماعية معينة فى الثقافة الأوروبية حول ضعف وخضوع المرأة للهيمنة الأبوية وانتمائها الأصيل إلى الحيز الخاص المنعزل للمنزل وخدمته والقيام على شأنه والتركيز فقط على وظائفها الرعائية البعيدة عن أى عمل إنتاجى ربحى فى المجتمع الخارجى، أى أنه هكذا بدأ الغرب نفسه بسبب ظروف تاريخية واقتصادية خاصة بتطور مجتمعاته يتشكل فى نظرته إلى المرأة وتكونت لديه فكرة «الفصل التراتبى الحاسم بين عالمى الرجال والنساء وانغلاق النساء فى حيز / مجال خاص مثالى ونقى، وبعيد عن قيم السوق والعمل والتجارة والكسب (ص ٩٧).

عند هذه النقطة التاريخية بالتحديد يدخل مفهوم دائرة الحريم المغلقة المحرمة السرديات الغربية حول الإسلام وتتعدد مظاهره وأشكاله بسبب هذا التشابه مع النموذج الأمثل داخل الوجدان الأوروبى لطبيعة وأدوار الجنسين فى الحياة. أصبح الحريم إذاً يمثل التجسيد المجازى (وإن كان لا يزال أجنبياً) للتنظيم الأسرى المنشود ولصورة الأنثى المثالية كما صنعها وتمناها الوعى الأوروبى حينئذ. وترد كلمة حريم (harem) أول مرة بالإنجليزية فى ١٦٣٤ حسب قاموس أكسفورد للإنجليزية (OED)، وفى القرن الثامن عشر تكون أفكار الاحتجاز والسجن والقهر وبؤس نساء الحريم، وكون المرأة ضعيفة لا حيلة لها ومن ثم فى حاجة إلى ثورة لفك أسرها وتحريرها. كما يتغير البعد الجنسى للمسألة عما سبق، فتصبح المرأة فى هذه البيئة مصدراً سلبياً للإغراء. وليس الإغواء. أى كما أشرنا من قبل تصير مستهدفة للعين الفاحصة من الخارج التى تستمتع بكشف واستباحة المستور وانتهاك انغلاقه (voyeurism)، أى فى تلك الصورة المثيرة للخيال والرغبة مناشدة للنظرة الذكورية الخالصة التى تمثل أيضاً الوجدان الأوروبى الذكورى فى علاقته الملتبسة مع الأنثى. يريدها خاضعة ومُبعَدة حتى يسهل السيطرة عليها ولإذكاء الرغبة فى نفس الوقت. وهكذا باتت المرأة المسلمة وحجابها تحتل مكاناً مركزياً فى الخطاب الغربى حول الإسلام حيث جعلها الغربيون رمزاً لعجز هذا الدين وتخلفه ودونية ثقافته. أى «تأنيث الشرق الإسلامى» (ص ١١٣). ليتلاءم ذلك مع الإحساس بالتفوق والهيمنة والاقتحام الإمبريالى.

تنقل لنا الكاتبة مهجة قحف تحليل الباحثة «نانسى ارمسترونج» عن نشأة نمط المرأة المستكينة الغربية فى العصر الحديث التى ترصدها فى انتشار نوعية كتب الإرشاد والسلوكيات (conduct books) المخصصة للمرأة، والتى أرست هذا النموذج النسائى على عكس النموذج السابق للمرأة الأرستقراطية المثقفة التى كانت تلعب دوراً مهماً إيجابياً فى حفظ المنزلة الاجتماعية والسياسية للعائلة عن طريق تحالفات متشابكة مع مراكز قوى أخرى ولذلك لها وجودها الطاغى فى شبكة هذه العلاقات الاجتماعية السياسية. أو حتى نموذج المرأة المحاربة أو تاجرة السوق التى لم يُعتبر أنهن تجاوزن فطرتهن أو مجالهن الطبيعى. أما بعد الثورة الصناعية الرأسمالية فعلى المرأة أن تختفى لتفسح المجال لرجال الطبقة المتوسطة ليركزوا كل طاقاتهم على الإنتاج وتحقيق معدلات ربح عالية ورأس مال وثروات. تلك



تنزلق المرنيسى كثيراً فى تناقض مع نفسها وأطروحاتها حين تلقى بعبارات وآراء تهاجم فيها بعضاً من مظاهر الثقافة الإسلامية فى تعميم وتحامل يقترب من الاستشراقية الغربية التى تزعم أنها تنتقدها



المكاسب المادية التى أتاحت لأوروبا وأغرتها بالتوجه إلى استعمار واستغلال مصادر الثروة الأصلية فى بلاد الشرق وأفريقيا. وهكذا تكتمل صورة العالم الإسلامى لدى الغرب الاستعمارى بدءاً من منتصف القرن الثامن عشر: مجتمع تم إخصاؤه. مجازياً. وتحويله إلى «خنثى» أو امرأة ضعيفة مقهورة فيسهل بالطبع السيطرة عليه بعد أن استعصى على التملك منذ العصور الوسطى.

واستمراراً لصورة المرأة المسلمة السجينة التى تنتظر التحرر والإنقاذ أو بمعنى أصح هيمنة الرجل الأبيض، تركز الكاتبة فى الأدب الرومانسى الإنجليزى (ق ١٩) على الشاعر «بيرون» الذى اشتهر بأعماله الشعرية التى سجلت مغامرات شخصية «دون جوان» فى الحريم التركى (١٨٢١ - ١٨٢٣)، إلا أن إنقاذ البطل الرومانسى الهمام للمرأة فى الحريم وإخراجها منه لا يعنى جعلها مساوية له تماماً فى تحررها العقلى أو فى مستوى ذكائه هو ؛ يجب أن يظل بها بعض من هذا الخضوع والاستسلام الذى يجعلها مرغوبة من وجهة نظر الرجل الأوروبى والذى فيه دعوة للسيطرة. يستطيع «بيرون» فى أعماله الشعرية أن يطمس صوت المرأة / الحريم بسهولة لا يستطيعها تجاه المرأة فى أوروبا فى ذلك الوقت عندما ارتفعت أصوات بعض النساء الناشطات المعترضات على القهر «الفكتورى» لهن وللمطالبة بالحقوق الليبرالية الفردية للمرأة. ومع ذلك بمقدوره دائماً أن يلقى اللوم على الرجل المسلم فى قهره وحبسه للمرأة.

تتوقف قحف فى دراستها عند بداية أو منتصف القرن العشرين عندما تتسلم الآلة الاستعمارية / الرأسمالية للغرب هذه الصورة النمطية الأخيرة وتعكف على إعادة إنتاجها مرات ومرات، وتظل تتضاعف طوال القرنين التاسع عشر والعشرين حتى الفترة المعاصرة، حيث يأتى علينا الدور لنتساءل: وماذا عن الآن ؟ ماذا عن بداية القرن الواحد والعشرين؟ هل يستمر هذا النمط الأخير أو هل تبدل وتغير ؟

عقدة الحريم

قبل أن نحاول الرد على هذه التساؤلات ننتقل إلى كتاب فاطمة المرنيسى الكاتبة والباحثة الأنثروبولوجية المغربية المعروفة، والتى بنت شهرتها منذ الثمانينيات على دراسات حول التاريخ الإسلامى وموقع المرأة فيه وطغيان «الأبوية» على الثقافة الإسلامية لتشكيل النظرة إلى النساء. أى أن المرنيسى ظهرت على الساحة قبل مهجة قحف بكثير ولها تاريخ طويل ومثير للجدل فى نقدها الحاد والجرىء (الذى كان على حساب بعض الثوابت أحياناً). ورغم إقرارنا باقتحام المرنيسى لمنهجيات جديدة فى التحليل وطرح أسئلة محيرة حول مكانة المرأة فى الثقافة الإسلامية، إلا أننا لا نستطيع أن نتجاهل وقوعها أحياناً فى فخ التناقض وتطور النقد الذاتى المشروع إلى جلد الذات وإلى الحنق والتحامل على الثقافة برمتها والتاريخ والهوية. أى تبنى النظرة الدونية نفسها التى تميز الميراث العتيد للاستشراق.

كتاب فاطمة المرنيسى (شهرزاد ترتحل غرباً. ٢٠٠١) ليس من كتبها المؤسسة الأولى حيث كانت معنية دائماً بتحليل الجذور التاريخية والنفسية للرجل الشرقى المسلم فى تعصبه ضد المرأة، إلا أنها هنا تنحو منحى مختلفاً بعض الشىء يقترب من إنجاز مهجة قحف فى دراستها التى حولت فيها الاتجاه إلى التحليل النفسى لأزمات وعقد الأوروبيين تجاه المرأة. بدلاً من العرب أو الشرقيين المسلمين هذه المرة. قد يختلف كتاب المرنيسى عن قحف فى درجة البحث العلمى والتحليل الأدبى وفى النبرة ثم فى الشكل والإطار العام للعرض، فقد اختارت المرنيسى شكلاً من الأشكال الرائجة الآن فى الكتابة وهو أشبه بالسردية أو المرويات الشخصية (personal narrative) التى تقدم الموضوع فى شكل وأسلوب الرحلة الذاتية للكاتبة نفسها ثم التأملات والخواطر والمذكرات المقترنة بهذه الرحلة، فينكشف للقارئ رويداً أبعاد وأجزاء الموضوع توازياً مع اكتشاف الكاتبة نفسها له.

الفكرة العامة للكتاب هى أيضاً صورة المرأة المسلمة فى الثقافة الغربية ولكن يقتصر العرض على القرنين التاسع عشر والعشرين، ويرتكز على مفهوم الحريم كمحور رئيسى للتحليلات، كما تركز الكاتبة على الصورة أكثر منها على الكلمة، أى التصوير الفنى فى اللوحات الزيتية الكلاسيكية الشهيرة لرسامى الغرب، ثم تضيف بعداً مقارناً عندما تحلل صورة المرأة فى الثقافة الإسلامية المتزامنة. ماذا يعنى الحريم عند الرجل الغربى ثم ماذا يعنى عند الرجل الشرقى المسلم؟ هذه هى الإشكالية الأولية التى تطرحها المرنيسى مع بداية رحلتها إلى باريس. كما تروى لنا. كجزء من جولة أوروبية بالترتيب مع الناشر تزور فيها عدة عواصم بهدف الترويج لكتابها (أحلام وحكايات بنت فى الحريم. ١٩٩٤)، وهو سيرة ذاتية عن طفولتها وصباها بالمغرب وسط عائلتها ومذكراتها الشخصية والاجتماعية عن هذه الفترة. فى مقابلاتها مع العديد من الصحفيين والمثقفين الأوروبيين المهتمين بعملها تكشف أن تفكير معظمهم عن «الحريم الإسلامى» لا يزال يدور حول الصورة النمطية الغربية التى تجسدت فى أعمال فنية تصويرية عدة للحريم كمكان للشهوة والمتعة الجنسية المتاحة بلا حدود والمرأة المستسلمة... إلخ

أما عندما تتفكر فى التراث الإسلامى نفسه (سواء فى الخيال الأدبى أو فن المنمنمات فى المخطوطات القديمة) تجد أن الكاتب أو الفنان المسلم يصور المرأة كفاعلة جريئة تمتطى الجياد وتتسلح أحياناً بالأسهم والنيبال والسيف، ثم كشريكة فى العلاقات الغرامية لا يسهل السيطرة عليها، وليس كما بدت فى الخيال الفنى الغربى (مثلاً الرسامين ماتيس وبيكاسو...) عارية ومطيعة ومستسلمة لسطوة الرجل تماماً. ومن هنا تستخلص أنه بينما يشعر الرجل الغربى فى الحريم بالأمان والقوة والثقة بالنفس، يستشعر الرجل المسلم النقص فى ثقة النفس والخوف الدفين من المرأة عندما تنفلت من سياج السيطرة الأبوية. وهى تعطى أمثلة من تصويرات فنية فارسية وتركية وآسيوية مغولية لقصة زليخة والنبى يوسف (عليه السلام) ومن الملاحم الشعرية للشعراء الفرس «فردوس» و«جامى» (ق ١١ - ق ١٥ م): كيف تم تصوير زليخة كمثال لامرأة قوية شهوانية، وتعلق المرنيسى إن هذا هو الخوف الأعظم لدى الرجل المسلم عندما يفقد السيطرة على المرأة وأن هذا يشكل «عنصراً واضحاً جداً فى الثقافة الإسلامية سواء فى الواقع التاريخى أو الخيال الأدبى والفنى».

والجملة السابقة فى رأيى مثال على مشكلة أساسية فى منهجية الكتاب عندما تخلط الكاتبة باستمرار بين التاريخ من ناحية والتصوير التخيلى/ أو التمثيل (representation) من ناحية أخرى دون تحديد للمجال الذى ستركز عليه فى التحليل، ثم بين الانطباعات الشخصية من ناحية والأدلة النصية والتاريخية المفصلة من ناحية أخرى. كما أنها تتجاهل العامل الزمنى. والتى تعاملت معه قحف بدقة. فتقدم خلاصات لا تربطها بتغيرات وتطورات تاريخية أو حتى سياقات سياسية واقتصادية واجتماعية محددة. فهى مثلاً عندما تستنتج خوف المسلم من عدم انصياع المرأة ومن خروجها عن السيطرة تلجأ إلى تعميم غير دقيق: «إن الإسلام كمنظومة قانونية وثقافية مفعم بفكرة المؤنث كقوة تخرج عن السيطرة. أى الآخر المجهول...» أو «.... الغريب داخل الأمة» (ص٢١)، ودليلها التاريخى الوحيد على ذلك قرار الخمينى للنساء فى إيران بارتداء الحجاب عقب الثورة، ثم أزمة الدكتور نصر حامد أبو زيد بجامعة القاهرة كمثال على النفور الإسلامى من التعددية الفكرية والديمقراطية والاجتهاد. (لاحظ استخدامها الفضفاض غير المحكم لكلمات «الإسلام» و«إسلامى»). وهكذا فإن «عدم المساواة بين الجنسين متجذرة فى الشريعة» (ص ٢٣)، أما فى «الحريم الغربى» فالأنثى لا تشكل تهديداً. أى بدلاً من أن تصل إلى استنتاجات إيجابية بناء على هذا الاختلاف فى درجة تصوير تمكين وجرأة المرأة المسلمة بين الشرق الإسلامى والغرب واستنتاجات تأخذ فى الحسبان التغير الزمنى وقضية النية المبيتة للاستشراق الإمبريالى أو حتى الأزمات الداخلية فى الثقافة الغربية. بدلاً من ذلك تقلب الكاتبة الاعتبارات ليظهر الغرب كأنه خالى من العقد تجاه النساء مقارنة بالشرق. ناهيك عن أن الفترة التاريخية التى تعنيها (ق ١١ - ١٥ق) فى أمثلة الأعمال الفارسية والتركية الإسلامية لا تتزامن مع تواجد صورة الحريم فى الثقافة الغربية، ليس بعد.

تعلن الكاتبة فى الفصول

روبــرت بنــي - ١٩١٩





إنهــا الأزمـــة الأوروبيـــة التاريخيـــــة مـــع الآخـــــر المختـــلف دينيـاً وثقافيـــاً المقـاوم للدمـــج والطمـــس فـــى عـــالم عـــولمى شـــمولى



التالية عزمها على تتبع هذه الإشكالية واستكشافها، وتروى رحلتها فى برلين بألمانيا تجوب مكتبات بيع الكتب و«الكافيهات» والعروض المسرحية والمتاحف يرافقها صحفى ألمانى فى جولتها بالمدينة، محاولة، من خلال حواراتها معه، أن تربط بين ما تستشفه من آراء له وبين انطباعاتها حتى الآن عن فكرة الحريم فى الثقافة الغربية. والعرض كما قلنا يأخذ فى أجزاء كثيرة منه شكل السرد أو المذكرات الشخصية عن شخصيات ولقاءات وحوارات. ثم تقرر الكاتبة أن تناقش شخصية «شهرزاد» كتجسيد للحريم فى الوجدان الغربى مقارنة مع الإسلامى، ولماذا عدم الخوف من المرأة فى الغرب ؟ تبدأ بتحليلها للقصة الإطار فى «ألف ليلة وليلة»، والصراع بين شهرزاد وشهريار كنموذج لصراعات كثيرة داخل الثقافة الإسلامية وتلاحظ أن عند عبور شهرزاد إلى ضفة العالم الغربى (فى شكل أول ترجمة فرنسية عام١٧٠٤م) فى الفن والأدب تفقد سماتها الفكرية والعقلية وذكاءها ونبوغها الأدبى والفنى الذى ميز شهرزاد الأصلية. وتزامناً مع سفر المرنيسى نفسها داخل سرد الكتاب من برلين إلى باريس ومقابلاتها مع الصحفيين هناك، تحكى لنا فى الفصل السادس المعنون «الذكاء فى مقابل الجمال» عن قراءتها لأول مرة لـ «إيمانويل كانط» الفيلسوف الألمانى التنويرى وعن فلسفته الرئيسية التى تعتمد على اقتران الرجل بالعقل والتفكير واقتران المرأة بالجمال والمشاعر، أما إذا خاضت المرأة مجال العلم فهى تقوض الأساس الذى يقوم عليه جنسها وتصبح قبيحة. هذا هو النموذج التنويرى الذى يقدمه «كانط»: الانقسام البشرى بين الذكاء والجمال اللذين لا يجتمعان فى جنس واحد.

وهنا تذكرنا المرنيسى فى ملحوظة بارعة بمثال الجارية «تودد» فى ألف ليلة وليلة المعروفة بعلمها وذكائها ومعرفتها للعلوم والآداب، ثم هارون الرشيد الذى عرف بتفضيله للجوارى المتعلمات المثقفات وليس الجميلات فقط بدون عقل، على عكس المرأة المثالية عند «كانط»: جميلة وبلا صوت أو علم أو عقل. وهذه ملاحظة من الكاتبة فى محلها وإن لم تفسدها تعميمات وتشبيهات لا مبرر لها، فتقارن بين الاختيار الصعب الذى يطرحه كانط بين الجمال والذكاء من ناحية، و«الأصوليين» (ص ٩٠) من ناحية أخرى الذين يطرحون للنساء الاختيار بين إما الحجاب والأمان أو عدم الحجاب والهجوم عليهن، ثم تشبيه أسلوب كانط التعسفى بأسلوب «أى إمام جامع مسلم» (ص٩١).

فى الفصل التالى تأخذنا فى جولة فى اللوفر مستعرضة اللوحات الشهيرة للحريم والحمامات التركية... إلخ والتى تؤكد لها نظرية الحريم الأوروبى: جمال مكشوف عارٍ ولكن صامت بلا صوت أو مقاومة. وعند منتصف الكتاب تقريباً يجد القارئ نفسه تائهاً وسط فصول قصيرة متتالية من التجوال العشوائى داخل كتب التاريخ والتراث مثل تاريخ هارون الرشيد وحكاياته مع الحريم ثم حكايات الأصفهانى فى (الأغانى) وأخبار عن مجالس الخلفاء والجوارى واللهو والشراب وقصص العشق والغرام... إلخ (مرة أخرى فى خلط بين التاريخ والتراث الشعبى والأدبى)، ثم قصة حياة الفنان «انجرس» صاحب معظم هذه اللوحات وعلاقته بزوجته، والتطورات الحاصلة فى الإمبراطورية العثمانية بدءاً من منتصف القرن التاسع عشر وحتى وصول كمال أتاتورك...



وهكذا بدون هدف واضح غير تكرار كل حين النقطة التى أثبتتها من قبل حول سلبية نساء الحريم فى الخيال الفنى الأوروبى فى مقابل المرأة ذات الشخصية القوية والذكية ذات العلم والثقافة فى الأدب والخيال الفنى الإسلامى. فيمضى العرض فى شكل تداعى أفكار وانطباعات شخصية حول قصيدة ما للشاعر اللاتينى «أوفيد» أو قصة قصيرة «للكاتب الأمريكى إدجار آلن بو» أو أغنية قديمة لعبد الوهاب...، ثم قصة الحب الأسطورية الفارسية بين «خسراو» و «شيرين» للشاعر «نظامى» (ق ١١ م) والتى كانت موضوعاً للفن الفارسى والتركى والأسيوى، وكيف أن الأميرة شيرين المغامرة كانت تُصور دائماً على فرس وسط الغابات تبحث عن حبيبها. ثم حكايات عن ابن عربى (ق ١١ م) فى الأندلس، وأخيراً حكاية الأميرة «نورهان» التى تزوجت الإمبراطور «جاهانجير» (١٦١١م) فى الهند والتى كانت هوايتها الرياضية صيد النمور وقد تم تصويرهما فى لوحة موجودة بمعهد «السميثونيان» (Smithsonian) بواشنطن. وتتوقف الكاتبة عند هذه اللوحة وتحلل تفاصيلها التى تبين الموقع الرئيسى الذى تحتله «نورهان» بالبلاط الملكى وظهورها الواضح بالمجال السياسى العام فهى ليست جزءاً من أى حريم متوارى عن العيون.

فى آخر فصل من الكتاب تأخذنا المرنيسى معها إلى محل للملابس فى نيويورك لتشترى ثوباً لها، وتجد فى هذه الواقعة مناسبة لمزيد من التحليل للخيال الذكورى الغربى «حول النساء والحريم والجمال: تفشل الكاتبة فى العثور على ثوب بالمقياس الذى يناسبها حيث إن الموجود هو المقياس الصغير أو الضيق جداً (رقم ٦) وهو المقاس الذى قررت البائعة لها أنه الحجم النموذجى المعيارى (the norm) وأنها أكبر من ذلك فهى إذاً خارج هذا الإطار، وتعلق الكاتبة أن هذا هو المعيار الجمالى الأمثل أو النموذج الذى تقرره صناعة ضخمة كاملة من بيوت الأزياء والمصانع والإعلانات والصور والمجلات والسينما.... إلخ، وهو شكل أو مقياس غير واقعى بالمرة ومفروض فرضاً على النساء الغربيات وتعتبره المرنيسى ربما أشد عنفاً من «الحجاب الإسلامى» (ص ٢١٣)، وفى الغرب تمثل هذه الظواهر التطور الطبيعى لأفكار «كانط» فى القرن التاسع عشر حول الجمال الأنثوى حيث أن الثقافة الغربية حالياً قد قررت أن المرأة لكى تكون جميلة يجب أن تتجمد فى شكلها ومقاييسها عند سن وجسد صبية فى عمر ١٤ ربيعاً مثلاً، أما المرأة الناضجة التى قد يكبر جسدها وتتغير ملامحها فعليها أن تتوارى أو تختفى لأنها أصبحت قبيحة، وهنا يستخدم الرجل الغربى عامل «الزمن» ضد المرأة لإقصائها بينما يستخدم الرجل المسلم عامل «المكان» عندما يقصيها من أماكن ومجالات كثيرة فى الحياة العامة أو عندما يخفيها ويغطيها بالحجاب. فى «الحريم الغربى» تقل قيمة المرأة كلما كبرت فى العمر والشكل ويتم تمجيد الشباب لأن ما بعده هو القبح بعينه، ولذا على النساء فى الغرب أن يعانين ويتعذبن ويتعرضن للجوع والمرض للوصول إلى النحافة المثالية ويتشكلن حسب العين الذكورية الفاحصة، وهكذا تتحول المرأة الغربية المتعلمة الأنيقة فى العصر الحديث إلى مجرد جارية فى حريم رأسمالى خفى (ص٢١٧). وهذه هى نهاية رحلة المرنيسى الفعلية فى بعض البلاد الأوروبية ورحلتها الاستكشافية فى نفس الوقت لصورة المرأة المسلمة فى الوجدان الغربى وفكرة الحريم ودلالاته ثم كيفية تصنيعه وتحوله إلى «حريم غربى» بحق، فيكتسب عنوان الكتاب (شهرزاد ترتحل غربا) معنى جديداً، ألا وهو انتقال مفهوم الحريم واستعباد المرأة إلى الغرب الحديث.

ورغم بعض الأفكار الجيدة التى ترد بالكتاب مثل انتقاد الكاتبة للخيال الغربى حول «الحريم» فى الإسلام، وفى لفت الانتباه إلى عالم التصوير الفنى فى الثقافات الإسلامية غير العربية وما تكشفه لنا حول تمثيل المرأة المسلمة القوية المتمكنة فى الحياة العامة، ثم أخيراً الخلاصة حيث تم استدراج القارئ (الغربى) إلى الإقرار بتشكيل وإيجاد «حريم» فى شكل حديث داخل ثقافته .

رغم كل هذا يؤخذ على الكتاب شيئان: (١) من حيث الشكل والمنهجية وطريقة العرض غير التقليدية التى أشرنا إليها، تعتمد الكاتبة على فكرة السرد الشخصى لتداعى أفكار أو لرحلة أفكار، فتنتقل من موضوع إلى آخر دون ترتيب أو تسلسل مريح ومع كثير من التكرار المرهق.

(٢) من حيث المضمون تنزلق المرنيسى كثيراً فى تناقض مع نفسها وأطروحاتها حين تلقى بعبارات وآراء تهاجم فيها بعضاً من مظاهر الثقافة الإسلامية فى تعميم وتحامل يقترب من الاستشراقية الغربية التى تزعم أنها تنتقدها.

وجدير بالذكر فى هذا المضمار كتاب للناقد المغربى الأصل أنور مجيد (إماطة اللثام عن الموروث: Unveiling Traditions). (٢٠٠٠) فى نقده لمشروع فاطمة المرنيسى ككل، فهو ينبهنا إلى إشكالية التناقض هذه فى أغلب كتاباتها حيث تقر بالقيم الإيجابية للإسلام وفاعليته الاجتماعية كدافع مقاوم للقهر والظلم وبحثاً عن العدل والإنصاف، ثم تعود وتقبل ضمنياً بالنموذج الغربى البرجوازى للديمقراطية والليبرالية الفردية المطلقة وتطالب بمجتمعات


جون فريدريك لويس - ١٨٤٩

عربية علمانية على ذلك المنوال، رافضة تفعيل الموروث الإسلامي حقيقةً في هذه المجتمعات. كما أن نقدها لطبقة علماء الدين بسبب موالاتهم لأنظمة ذكورية قاهرة لابد أن ينسحب كذلك في رأي مجيد على السياسات والإدارات الأمريكية والغربية الأخرى في هيمنتها وتدخلها لبناء حكومات محلية تابعة ونخب من المثقفين والمفكرين والمهنيين موالية للنموذج والذوق الغربي.

المرأة المسلمة اليوم

في ١٢ مارس ٢٠٠٤ استضاف كل من الرئيس الأمريكي بوش وقرينته لورا بوش مجموعة مكونة من ٢٥٠ سيدة يمثلن القيادات النسائية الناشطة في مختلف بلاد العالم في لقاء احتفالي بالبيت الأبيض بمناسبة يوم المرأة العالمي (٨ مارس). وقد ألقى كل من السيدة لورا ثم الرئيس الأمريكي كلمة ارتكزت حول دور الولايات المتحدة «التحريري» في حالة المرأة الأفغانية ثم العراقية. (بلدين تم ضربهما وتقتيل شعوبهما وتخريبهما ثم احتلالهما عسكرياً). كما تكرر في حديث كل منهما عشرات المرات كلمات «الحرية»، و«التحرر» و«الديمقراطية» وهي القيم التي ستلقنها وتنشرها الولايات المتحدة في بلاد «الشرق الأوسط الكبير» خاصة، لأن حقوق المرأة «ستتحقق فقط في إطار الحرية والديمقراطية» كما يقصدها بوش أو التفكير الأمريكي. ففي تعليق له حول أن الديمقراطية لا تتعارض مع التعاليم الإسلامية، يطرح تفسيراً أكثر تحديداً لرؤيته عن الدين والحياة السياسية العامة كما يجب أن تكون: «هذا ما نؤمن به هنا في أمريكا: دين يعتمد على المسئولية الأخلاقية الفردية ويرى أن التقاء الفرد بربه يتسق مع حقوق وواجبات الحكم الذاتي». كما تحدثت لورا بوش عن التقدم الهائل الذي أحرزته كل من المرأة الأفغانية والعراقية بعد حضور الأمريكيين ومهمتهم التحريرية.

في ٥ ديسمبر ٢٠٠٣ وأثناء أزمة الجدل حول ارتداء طالبات المدارس الفرنسية الحجاب، أدلى الرئيس الفرنسي جاك شيراك بتصريح أثناء زيارته لمدرسة فرنسية في تونس: «إن ارتداء الحجاب يُعد نوعاً من العدوان صعب علينا أن نقبله» (عن صحيفة الجارديان البريطانية) وفي تصريح آخر نقلاً عن رويترز «لا نستطيع أن نسمح بإشارات للدعوة الدينية لافتة للنظر».

وفي تحليلنا لهذين المثلين نجد ملامح من المنظور الغربي اليوم خلال خطابين يبدوان متناقضين ولكنهما في الحقيقة متداخلان: أولاً إعادة تدوير أو استنساخ الخطاب المعتاد حول تحرير المرأة المسلمة المقهورة (الأفغانية والعراقية) الذي هو جزء من خطة التحرير الأكبر التي لا تتم إلا بالتدخل والغزو والهيمنة السياسية والاقتصادية.... إلى آخره والأهم بتغيير النموذج الحياتي والفهم للإسلام ؛ يجب أن يتحول الدين إلى تجربة شخصية شديدة الفردية والخصوصية، يتحول إلى مجموعة من الأخلاق الحميدة وليس هوية ثقافية جماعية أو عاملاً فعالاً في الحياة العامة وشئون الجماعات.

ثانياً: ومشكلة الهوية الجماعية الظاهرة هي جزء أساسي من الإحساس «بعدوانية» الحجاب على رأس المرأة المسلمة في أوروبا (رغم أن شيراك أدلى بتصريحه إثر مشاهدته للمحجبات في تونس الدولة المسلمة !). وكلمته «عدوانية» تذكّرنا بأطروحة مهجة قحف في كتابها عن خوف وإحساس الأوروبيين في القرون الوسيطة بعنف الآخر المسلم المتفوق والمتمثل في المرأة المسلمة القوية المحاربة. المفارقة الهائلة أن هذا «التصوير» في الماضي في اختلاطه مع المرحلة التالية المعكوسة التي قدّمت المرأة المقهورة في الحريم قد أفرزا في عالم اليوم: إحساس بالتهديد من الرمز الأزلي لخضوع المرأة المسلمة واحتجابها (غطاء الرأس)، فهو الآن يمثل ليس فقط مرئية هؤلاء النساء في الحياة العامة ولكن أيضاً مرئية الهوية المسلمة الظاهرة. إنها الأزمة الأوروبية التاريخية مع الآخر المختلف دينياً وثقافياً المقاوم للدمج والطمس في عالم عولمي شمولي. وللكاتب والمحلل السياسي الفرنسي فرانسوا بورجا رأي حول أن المسلم المعاصر أصبح تجسيداً حياً للأزمات والمخاوف الدفينة في الوجدان الأوروبي، ولذلك كثرت دعاوى الاندماج الذي هو في الواقع «اختفاء أو تحلُّل»، لأن «المسلم الجيد (المقبول) هو الذي لا يكون مسلماً» في حقيقة الأمر. (من كتاب «تحديث الإسلام» ٢٠٠٣ - Modernizing Islam).

يستطيع الغرب أن يتعامل مع فكرة المرأة المسلمة المحجبة. معزولةً وجاهلةً ومظلومةً. ولكنه يرتبك حينما تظهر في الحياة العامة تشارك في أنشطتها وتكسر نمطية صورة الحريم الإسلامي ومنظومة القهر والتخلف المفترضة. أو ربما تكون في مظهرها وحراكها تذكيراً مزعجًا للمجتمعات الأوروبية بالهوية الدينية بصفة عامة التي حاربوها طويلاً في تاريخهم حتى نجحوا في نزعها، وبتعبير فرانسوا بورجا «de-Christianized » لتصبح هذه المجتمعات «معادية عداء سافراً للدين وليست فقط علمانية» حقيقية بمعنى محايدة كما يزعمون. وينتقد بشدة طلال أسد . أحد علماء الأنثربولوجيا البارزين في العصر الحديث. الموقف الأوروبي تجاه الأقليات المسلمة، خاصة التيار الليبرالي العلماني ويكشف ازدواج المعايير لديهم، ثم يصف السياسات الأمريكية الحالية في فرض إرادتها وثقافتها على الشعوب وفي «عولمة» مفاهيم الحرية الدينية وحقوق الإنسان بأنه «المشروع الأمريكي للخلاص العلماني»، بمعنى تحرير «الإيمان الديني» للشعوب من أي قواعد أو ثوابت قانونية أو تشريعية كما تتحرر السلعة والملكية الخاصة ويمكن التفاوض بشأنها وبيعها وشرائها واستبدالها وتغييرها حسب المصلحة الفردية. (من كتاب «أشكال من العلمانية:المسيحية والإسلام والحداثة»، ٢٠٠٣. Formations of the Secular).

يبدو أنه قد كُتب على المرأة المسلمة. بل والمرأة العربية. أن تحمل على كتفيها عبء «الرمزية»؛ أن يتم «تشييؤها» وتُنزع انسانيتها وتفردها لتتحول إلى مجرد رمز أو أيقونة تشير إلى شبكة متداخلة من العُقد التاريخية والأزمات النفسية والاجتماعية للشعوب. أما فيما يتعلق بكيف يرى المسلمون أنفسهم المرأة المسلمة ورمزيتها في منظومة الهوية، فتلك قصة أخرى... ■


www.maccarpet.com
متواجد في مراكز بيع بواقي التصدير المنتشرة في كل ارجاء مصر

الأرض كروية

جــــون جــــراى

■■ الاعتقاد بأن عملية العولمة المستمرة سوف تؤدى إلى تغيير أساسى فى الأحوال البشرية ليس أمرا جديدا فقد سبق أن عبر ماركس وانجلز عن ذلك عام ١٨٤٨ فى النص المعروف باسم المانفستو الشيوعى:

«كل ما هو جامد يذوب فى الهواء وكل ما هو مقدس يدنس والإنسان يجبر أخيرا على مواجهة ظروفه الحياتية الواقعية وعلاقاته بنوعه بحواسه الواعية.

إن البرجوازية تحتاج إلى سوق تتوسع باستمرار فى أنحاء العالم لتحتوى بضائعها، لابد لها من أسواق فى كل مكان وعلاقات فى كل مكان. ومن خلال استغلالها للسوق العالمية أكسبت البرجوازية الإنتاج والاستهلاك صفة كوزموبوليتانية فى كل بلد. إنها تجبر الشعوب - تحت تهديد الانقراض - على تبنى الأسلوب البرجوازى للإنتاج وتجبرهم على إدخال ما تسميه حضارة إلى مجتمعاتهم أى أن يصبحوا هم أيضا برجوازيين. بتعبير آخر: تخلق عالما على شاكلتها».

لم يكن يراود ماركس وانجلز شك فى أنهما يشهدان بزوغ السوق الكونية - نظام عالمى للإنتاج والاستهلاك يتعدى الحدود الوطنية والثقافية. وكان هذا التطور موضع ترحيبهما ليس فقط بسبب الثروة التى يمكن أن تتولد عنه ولكن أيضا لأنهما اعتقدا أنه يمكّن البشرية من التغلب على نزاعات الماضى. ففى السوق الكونية ينتهى مصير القومية والدين إلى التلاشى وسيكون هناك الكثير من الاختلاجات - الحروب الثورات والثورات المضادة - قبل أن يتأسس النظام الشيوعى. ولكن حين تتم العولمة عملها سوف يبدأ عصر جديد من حياة البشرية.

لقد زالت تقريبا معظم النظم الاقتصادية المركزية التى بنيت على رؤية ماركس للشيوعية وانتهت الحركات السياسية الجماهيرية التى ألهمتها الماركسية ومع ذلك فإن نظرة ماركس للعولمة مازالت تعيش وبأشد ما تكون فى كتابات توماس فريدمان.

مثل ماركس، يؤمن فريدمان بأن العولمة فى النهاية تنسجم مع نظام اقتصادى واحد، ومثل ماركس يؤمن بأن هذا النظام سيمكن البشرية من نبذ الحروب والطغيان والفقر.

ويحسب لفريدمان أنه يقر بتوازى نظرته مع نظرة ماركس ويشير إلى محادثة كاشفة فى هارفارد حيث نبهه المنظر السياسى مايكل ساندل على حقيقة أن عملية (التسطيح) الكونى التى يناقشها فى كتابه الجديد كان قد أوردها ماركس لأول مرة واقتبس نصوصا مطولة من المانفستو الشيوعى - بضمنها الفقرة المشار إليها أعلاه - ومدح ماركس لبصيرته. ونحن نرحب بهذا الإقرار بالتوازى بين نظرته للعولمة ونظرية ماركس فى التاريخ ونعتبره مفيدا.

اشتهر فريدمان بأنه أقوى داعية معاصر لأفكار الليبرالية الجديدة. إن الليبراليين الجدد لهم وجهات نظر مختلفة ومتعددة فى القضايا السياسية والاجتماعية تتراوح بين مواقف شديدة المحافظة يمثلها فريدريتش هايك إلى مواقف شديدة التحرر يمثلها ملتون فريدمان. ولكنها تتفق جميعا على اعتبار السوق الحرة هى مصدر الحرية الإنسانية. ورغم انه فى بعض كتاباته يظهر قلقا من ضحايا السوق ولكن توماس فريدمان داعية متحمس لمذهب الليبرالية الجديدة. ففى رأيه أن السوق الحرة هى التى تؤدى إلى إقامة المجتمع الإنسانى الحر وقد روج لهذا بدون هوادة فى كتبه وأعمدته فى نيويورك تايمز.

لقد كانت آراء فريدمان شديدة التأثير دوما وهى تشكل أفكار الرؤساء والسياسة الأمريكية فى عدد من القضايا وربما يكون من المفيد أن نلاحظ القضايا التى يلتقى فيها بأفكار ماركس. ولأن الليبرالية الجديدة والماركسية كانا على طرفى نقيض فى الحرب الباردة فقد كان الافتراض دائما أنهما أنظمة أفكار معادية لبعضها البعض. وفى الواقع هما ينتميان أساسا إلى نفس أسلوب التفكير ويشتركان فى نفس المحددات المعوقة.

بالنسبة للماركسيين والليبراليين الجدد، فإن التقدم التكنولوجى هو الذى يغذى التطور الاقتصادى والقوى الاقتصادية التى تشكل المجتمع. أما السياسة والثقافة فهى ظواهر ثانوية قادرة أحيانا على إعاقة التقدم الإنسانى ولكنها فى النهاية لا تستطيع الوقوف ضد التكنولوجيا المتطورة والإنتاجية النامية.

يعاضد فريدمان بدون لبس هذه الفلسفة ويكتب إن العديد من الأشخاص يسألونه فى أحيان كثيرة ما إذا كان يعتنق الحتمية التكنولوجية (المذهب الذى يؤمن بأن التكنولوجيا هى القادرة على تغيير المجتمعات)، وبالحماسة الصافية التى تعتبر ميزة فى أسلوبه النثرى يقول: «هذا سؤال شرعى. لذلك دعونى أجب عليه مباشرة: أنا حتمى تكنولوجى.اقر بالذنب».

قد تتضمن الحتمية التكنولوجية جوهر الحقيقة ولكنها توحى بأنها فكرة مبسطة عن التاريخ وقد تكون مضللة. هذا ما يوضحه فريدمان فى حديثه عن مأساة الاتحاد السوفيتى ومع الإقرار بأنه لم يكن هناك (سبب مفرد) يستطرد:

إلى درجة ما، نخر النمل الأبيض أساسات الاتحاد السوفيتى الذى كانت قد أضعفته التناقضات وعدم الكفاءة الداخلية. إلى درجة ما فإن الحشد العسكرى الذى إقامته إدارة ريجان فى أوروبا أجبرت الكرملين على الإفلاس الذاتى وهو ينفق على الرؤوس الحربية



توماس فريدمان

The World is Flat: A Brief History of the Twenty-First Century
العالم مسطح
Thomas Friedman
Farrar, Straus and Giroux, 2005, 488pp., $27.50

عن مجلة:
Newyork review of Books

ترجمة: بثينة الناصرى

والى درجة ما فإن الجهود الفاشلة لميخائيل غورباتشوف لإصلاح شيء غير قابل للإصلاح قضت على الشيوعية. ولكن لابد من الإشارة إلى نقطة كانت الأولى بين المتعادلين: الثورة المعلوماتية التى بدأت فى أوائل إلى منتصف الثمانينيات. فالأنظمة الشمولية تعتمد على أفكار المعلومات والقوة وبدأ فيض المعلومات يتسرب من الستار الحديدى والفضل يعود إلى انتشار آلات الفاكس والهواتف وأدوات الاتصال الحديثة الأخرى.

الذى يثير الاهتمام فى هذه القائمة هو ما لم يذكره فيها. لم يكن هناك إشارة إلى دور التضامن والكنيسة الكاثوليكية فى أن تكون بولندة أول دولة ما بعد الشيوعية أو حركات الاستقلال القوية التى نشأت فى دول البلطيق خلال الثمانينيات. وما يثير الانتباه أكثر انه لم يكن هناك ذكر لحرب أفغانستان، ففى كل المقاييس كانت الهزيمة الاستراتيجية على أيدى القوى الإسلامية المدعومة من الغرب (ويضمنها البعض الذى شكل فيما بعد منظمة القاعدة) هى الحاسمة فى انهيار قوة السوفييت. إذا تجاهل فريدمان هذه الأحداث فذلك لأنها تؤكد قوة الدين والقومية وهى قوى من وجهة نظره المبسطة والحاسمة: قوى فى طور التلاشى.

إنه لمن سخرية التاريخ أن رؤية للعالم سقطت بانهيار الشيوعية سوف يتبناها - فى بعض اكثر نواحيها ضعفا - المنتصرون فى الحرب الباردة. فالليبراليون الجدد من أمثال فريدمان أعادوا إنتاج اضعف ملامح الفكر الماركسى وهى استهانته المستمرة بالحركات القومية والدينية ونظرته أحادية الاتجاه للتاريخ.

لقد فشلوا فى استيعاب نفاذ بصيرة ماركس فى وصف الرأسمالية بالفوضى والتدمير الذاتى. من وجهة نظر ماركس كانت السوق الحرة قوة ثورية ولكنه كان يدرك أن توسعها عبر العالم سيكون مدمرا وعنيفا وبانتشار الرأسمالية ينقلب المجتمع رأسا على عقب وتدمر صناعات كاملة وأساليب حياة وأنظمة وهذا لا يكون عبر عملية سلمية وفى الواقع قد رافق ذلك صراعات كبيرة وأزمات اجتماعية. إن توسع الرأسمالية الأوروبية فى القرن التاسع عشر تضمن حروب الأفيون والإبادة فى الكونغو البلجيكية واللعبة الكبرى فى آسيا الوسطى وأشكالاً كثيرة أخرى من الغزو الامبريالى والتنافس.

إن ما يبدو نصرا للرأسمالية الكونية فى نهاية القرن العشرين لم يحدث إلا بعد حربين عالميتين وحرب باردة وصراعات استعمارية جديدة وحشية.

على مدى مائتى سنة مضت صاحبت انتشار الرأسمالية والثورة الصناعية حروب وثورات وهذه حقائق ما كانت لتفاجئ ماركس. فلماذا يتوقع فريدمان والليبراليون الجدد والآخرون أن الأمور سوف تختلف فى القرن الواحد والعشرين؟

يكمن جزء من الإجابة فى إبهام فكرة العولمة. ففى النقاش الراهن تدمج عادة فكرتان: الإيمان بأننا نعيش فى فترة تجديد تكنولوجى سريع ومستمر يؤثر فى ربط الأحداث والأنشطة فى العالم على نطاق أوسع وأسرع مما سبق. والإيمان بأن هذه العملية تؤدى إلى نظام اقتصادى عالمى موحد. أول فكرة هى مقترح مجرب وواقعى والثانى تأكيد أيديولوجى لا أرضية له، ومثل ماركس اسقط فريدمان الاثنين من حسابه.

فى كتابه (العالم مسطح) يقول لنا فريدمان إن العولمة لها ثلاث مراحل: الأولى من ١٤٩٢ - ١٨٠٠ حيث انفتحت الأقطار والحكومات على التجارة مع العالم الجديد وكان يقودها التوسع العسكرى وكمية قوة الحصان وقوة الريح المتوفرة لدى البلدان. الثانية من ١٨٠٠ إلى ٢٠٠٠ حيث يقوم بالاندماج الكونى شركات متعددة الجنسية وتقودها المكائن البخارية والسكك الحديدية. والثالثة حيث يكون الأفراد هم القوى المحركة والتكنولوجيا الحاسمة هى شبكة الألياف البصرية العالمية.

فى كل من هذه المراحل، كما يقول فريدمان، كانت التكنولوجيا هى القوة الدافعة والعولمة هى المنتج الثانوى للتطور التكنولوجى. وهنا فريدمان يبتعد عن الرأى الشائع بين الاقتصاديين المعاصرين الذين يرون أن العولمة هى نتيجة سياسات (نقض تنظيم الاقتصاد) وهو بهذا أقرب إلى ماركس والى حقائق التاريخ.

إن ما نشهده اليوم - فى أى منظور بعيد المدى - ما هو إلا أحدث مرحلة من صنعنة(*) العالم. فى القرن التاسع عشر تقلص العالم باختراع التلغراف واليوم يتقلص مرة أخرى نتيجة للانترنيت. على عكس ما يقوله فريدمان، فإن ثورة الاتصالات لا تؤشر إلى نقلة كمية فى أحوال البشرية. إن استخدامات البترول والكهرباء غيرت الحياة البشرية بصورة اعمق مما فعلت أى من تقنيات المعلومات الحديثة. وحتى فى هذا لم تستطع هذه فى إنهاء الحروب والطغيان وابتداء عصر جديد من السلام والرفاهية. فمثل الاختراعات التقنية الأخرى استخدمت تقنيات المعلومات لعدة أغراض أخرى وأصبحت جزءا من الصراعات الاعتيادية للتاريخ.

من الضرورى أن نميز بين العولمة - وهى عملية صنعنة العالم الجارية - والأنظمة الاقتصادية المتعددة التى حدثت فيها هذه العملية. لم تتوقع العولمة حين جاء لينين إلى الحكم فى روسيا. استمرت - بل تسارعت بسبب سياسات ستالين الزراعية الاشتراكية، كما لم تبطئ العولمة بأى شكل بسبب الأنظمة السلطوية التى تطورت فى آسيا - فى اليابان أولا فى عصر الميجى وبعد ذلك فى الفترة المتعسكرة ثم فيما بعد الحرب العالمية الثانية فى كوريا وتايوان. كل هذه الأنظمة كانت العربات التى تقدمت بها العولمة. واستمرت صنعنة العالم حين انهار النظام الاقتصادى الليبرالى العالمى بعد الحرب العالمية الأولى وسوف تستمر إذا انهار بدوره أيضا النظام الاقتصادى العالمى الذى تأسس بعد سقوط الشيوعية.





مثل ماركس، يؤمن فريدمان بأن العولمة فى النهاية تنسجم مع نظام اقتصادى واحد، ومثل ماركس يؤمن بأن هذا النظام سيمكن البشرية من نبذ الحروب والطغيان والفقر



ليس هناك رابطة منظومة بين العولمة والسوق الحرة. فهى ليست اكثر ودا بالضرورة مع الرأسمالية الليبرالية منها إلى التخطيط المركزى أو سلطوية دول شرق آسيا. لقد أصبحت العولمة - بدافع التغييرات التقنية التى حدثت فى كثير من الأنظمة، أقوى من أى منها. وهذه هى الحقيقة التى كان ينبغى على فريدمان - باعتباره مؤمنا بالحتمية التكنولوجية - قبولها فورا. إذا لم يفعل فإن هذا يبين كيف تفتقد الآمال الطوباوية التى يعلقها على عملية تزخر بالصراعات والتناقضات، لأى أساس.. إن العولمة تجعل العالم أصغر. وقد تجعل العالم أيضا - أو بعضا منه - اكثر ثراء. ولكنها لا تجعله اكثر سلاما أو أكثر ليبرالية ناهيك عن جعله مسطحا.

كانت خاطرة اكتشاف فريدمان لتسطيح العالم والذى أصبح شهيرا الآن قد جاءته وهو يتحدث إلى نادان نايلكانى رئيس مجلس إدارة إحدى الشركات الهندية الرائدة فى مجال التكنولوجيا المتطورة وهى شركة انفوسيس تكنولوجيز فى مقرها فى بنجالور. وقد قال محدثه الهندى: «توم لقد تمت تسوية الملعب» كانت الملاحظة عادية وشائعة ولكنها أصابت فريدمان بدفق من وحى الاكتشاف: «فكرت أن ما كان نادان يقوله هو أن الملعب قد سطح.. سطح؟ سطح؟ يا الهى! انه يقول لى أن العالم مسطح!» قبل خمسمائة عام عاد كولومبوس سالما ليثبت بشكل نهائى أن العالم كان كرويا» وفى الواقع لم يكن كولومبوس هو الذى اثبت ذلك وإنما الملاح البرتغالى فرديناند ماجلان الذى دارت سفينته الكرة الأرضية فى رحلة استمرت ثلاث سنوات من ١٥١٩ إلى ١٥٢٢. على أية حال، فإن فريدمان يرى نفسه كولومبس هذا العصر الذى اكتشف أن العالم لم يعد كرويا: «كتبت هذه الكلمات فى مفكرتى: إن العالم مسطح».

ويمضى استخدام مجاز تسطيح العالم بدون هوادة فى كتابه المطول. ولكن ما يثير القلق ليس تكراره الشديد وإنما فشل فريدمان فى الإقرار بأن العالم وبعدة وسائل - وبعضها من السهل ملاحظته، يصبح اقل تسطيحا. وفى حين انه يقر بوجود عالم «غير مسطح» يتألف من شعوب اقل حظا فى الحصول على منافع التكنولوجيا الحديثة لكنه لا يربط أبدا نمو هذا العالم السفلى من الفقراء نسبيا مع تقدم العولمة. وأحيانا فشله فى الربط يكاد يكون هزليا. فحين يتذكر زيارته إلى الشركة الهندية فى بنجالور، يكتب فريدمان:

«يمكن الوصول إلى مقر شركة انفوسيس من طريق وعر فيه أبقار مقدسة وعربات تجرها الخيول وعربات ركشو بالمحركات كلها تشق الطريق إلى جانب سياراتنا الفخمة. حالما تدخل عبر بوابات انفوسيس تصبح فى عالم مختلف. هناك حوض

سباحة ضخم بحجم ما نراه فى المنتجعات السياحية وسط أحجار زينة ومسطحات خضراء إلى جانب مخضرة جولف. وهناك مطاعم متعددة وناد صحى خرافى».

ويلاحظ فريدمان أن شركة انفوسيس تمتلك مولداتها الكهربائية الخاصة بها ولا يسأل لماذا كان هذا ضروريا أو يعلق على الهوة الواسعة فى مستويات الحياة فى المنطقة التى تمثلها. ومع ذلك فإن شركة انفوسيس لم تستطع منافسة الاسواق العالمية بشكل فعال الا بانفصالها عن بيئتها المحلية. إن انفوسيس تبرهن على أن العولمة لها تأثير فى القضاء على بعض اللامساواة فى الأسواق العالمية ولكن الشركة لم تنجح إلا بالاستعانة بخدمات وبنى تحتية يفتقر إليها المجتمع المحيط بها.

وبينما تقضى العولمة على بعض اللامساواة فإنها تخلق أخرى. يخبرنا فريدمان انه يؤيد ما يسميه «تسطيح رحيم» ويبدو انه يعنى بعض السياسات المركزية أو الاشتراكية الديمقراطية التى تهدف إلى تحريك الوظائف وفى نفس الوقت الحفاظ على الضمان الاقتصادى مثل المعاشات الشخصية. فى أمريكا قد تكون هذه الاقتراحات مفيدة ومن الغريب انه فى البلدان التى تعرضت اكثر من غيرها إلى نتائج العولمة المدمرة يبدو أن فريدمان يفضل اشد السياسات الليبرالية الجديدة تشددا. ويصف سقوط جدار برلين بأنه (حدث من أحداث تسطيح العالم) ويذكر روسيا باعتبارها إحدى البلدان التى انتفعت بشدة من العالم المسطح الجديد.

ليس هناك شك فى أن انهيار السوفييت كان يمثل تقدما فى مسيرة الحرية الإنسانية ولكن منذ ذلك الانهيار وروسيا تعانى من ارتفاع مستويات الفقر المدقع وزيادات هائلة فى اللامساواة فى توزيع الثروة ويبدو واضحا أن العلاج الاقتصادى بالصدمة حسب نصيحة الغرب فور الانهيار الشيوعى قد ساهم فى هذه الآثار. لقد مسح إطلاق الأسعار مدخرات الأسر الصغيرة وبقصر منافع الصناعات الحكومية المخصخصة على عدد قليل فى الداخل أدى إلى تركيز الثروة فى أياد قليلة. نتيجة لذلك أقصيت قطاعات كبيرة من الشعب الروسى من منافع السوق العالمية. وبدون جدال كان يمكن لسياسات أخرى أن تتجنب هذه النتائج.(١)

نظرا للإرث السوفيتى كانت عملية الانتقال ستكون مطولة وصعبة. وكان محاولة تحقيقها فى مدى سنوات قليلة مستحيلا والعلاج بالصدمة تسبب بإفقار ملايين الناس كما انه أشعل الكراهية ضد الغرب. إن التغيير الاقتصادى الاجتماعى بنفس المعدل الذى حصل فى روسيا ما بعد الشيوعية ينحو إلى أحداث ردة صدمة سياسية، وظهور فلاديمير بوتين يمكن أن ينظر إليه باعتباره نتيجة غير مقصودة لسياسات السوق الحرة برعاية الغرب. بشكل ما تستمر سياسات السوق الحرة ولكن قام بوتين بإعادة السيطرة السياسية على الاقتصاد ككل وألجم الأنشطة السياسية لأعضاء حكومة الأقلية وأبدى درجة من الاستقلالية من التأثيرات الغربية. ونتيجة لذلك يبدو نظامه شبه الشمولى انه يمتلك شرعية شعبية افتقدها يلتسن، كما لا يبدو هناك أمل فى «رأسمالية ديمقراطية» على النمط الغربى.

ليس للعولمة نزعة متأصلة لإنشاء سوق حرة أو ديمقراطية ليبرالية. ولا هى تتنبأ بنهاية القومية أو منافسات القوى العظمى. ويروى فريدمان وهو يصف حواراً طويلاً مع رئيس مجلس إدارة شركة العاب صغيرة فى بانجالور كيف اختتم الهندى حديثه بقوله: «سوف تكون الهند قوة عظمى وسوف نسود». ويجيب فريدمان: «تسود من؟»، ويوحى رد فريدمان بأن المرحلة الحالية من العولمة تنحو إلى تخلخل القوة بين الدول المعنية. وفى الواقع أن ما تفعله هو خلق قوى عظمى جديدة وهذا هو أحد الأسباب التى جعلت الصين والهند تتبنى العولمة.

يفسر الليبراليون الجدد الدافع إلى العولمة على أنه البحث عن إنتاجية اكبر ويرون القومية كنوع من التخلف الثقافى الذى يعمل على إبطاء تقدم العولمة. ومع ذلك فإن الانطلاقة الاقتصادية فى إنجلترا والولايات المتحدة حدثت على خلفية إحساس قوى بالقومية كما كانت المقاومة القومية للقوى الغربية هى الدافع القوى للتطور الاقتصادى فى يابان الميجى.



لقد غذت القومية النمو السريع للرأسمالية فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين(٢) وهى تفعل ذات الشىء الآن للصين والهند. ففى كلا البلدين تم تبنى العولمة ليس فقط لما يمكن أن تجلبه من رفاهية وإنما للفرصة التى تقدمها لتحدى هيمنة الغرب. وحين تصبح الصين والهند قوتين عظميين سوف يطالبان بالاعتراف بثقافاتهما وقيمهما المتميزة وسوف يكون على المؤسسات الدولية إعادة تشكيل هياكلها لتعكس شرعية تعدد النماذج الاقتصادية والسياسية. عند ذاك سوف تكون المطالب العالمية للولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى قابلة للجدل وسوف يتغير ميزان القوى فى العالم.

فى كتابه (ليكسوس وشجرة الزيتون) الصادر فى ١٩٩١ ركز فريدمان على التوتر بين قوى (ليكسوس) للاندماج الاقتصادى العالمى وقوى (شجرة الزيتون) للهوية الثقافية. وفى كتابه (العالم مسطح) يقول لنا انه بعد ١١ سبتمبر قضى الكثير من الوقت مسافرا فى العالمين العربى والإسلامى وقد ضيع طريق العولمة. وفى الواقع ليس العولمة التى تاه عنها وإنما قوى الهوية التى تشكلها. يكتب فريدمان بأن الدولة - الأمة هى (اكبر منبع للاحتكاك) فى الأسواق العالمية. وفى الواقع أن مقاومة العولمة هى الأكثر هيمنة فى دول متقدمة مثل فرنسا وهولندا وفى الولايات المتحدة منها فى الدول النامية. وفريدمان ذاته يعبر عن قلقه من تأثير الاستعانة بعمال أجانب على التوظيف الأمريكى وكان هناك ميل مستمر نحو تطبيق إجراءات الحماية فى السياسات التجارية فى إدارة بوش.

إن تصاعد المشاعر القومية هو جزء من عملية العولمة ومثلها تزايد حدة المنافسات الجيوبوليتيكية. وكما فعلت فى أيام (اللعبة الكبرى) فى العقود التى قادت للحرب العالمية الأولى فإن الصنعنة الجارية تؤدى إلى تزاحم بالمناكب على الموارد الطبيعية. فالولايات المتحدة وروسيا والصين والهند واليابان ودول الاتحاد الأوروبى كلها تحاول أن تضمن مصادر الطاقة وميدان التنافس يمتد من آسيا الوسطى مرورا بالخليج الفارسى (العربى) إلى أفريقيا وأجزاء من أمريكا اللاتينية. والقرن القادم قد يتميز بتكرار حروب الطاقة بسبب صراع القوى العظمى على الهيمنة على هيدروكاربون الكرة الأرضية.(٣)

علاوة على ذلك تبدو صنعنة العالم وكأنها تأتى على خلفية محدودات بيئية خطيرة. ويتزايد عدد الخبراء المراقبين الذين يرون أن احتياطى النفط العالمى قد وصل الذروة التى يبدأ بعدها الاضمحلال(٤) وهناك إجماع من علماء المناخ بأن الانتقال العالمى إلى أسلوب الحياة الصناعى المعتمد أساسا على الاستهلاك الشديد للطاقة يساهم فى زيادة حرارة الكرة الأرضية. وإذا كان هناك أساس قوى لهذه المخاوف، فإن المرحلة التالية للعولمة قد تشهد اضطرابات كبيرة بحجم ما شهده القرن العشرون.

قد يكون من الخطأ الإيحاء بأن فريدمان غافل عن هذه الأخطار، ففى استطراد مثير للاهتمام يكتب:

«اللينينية الإسلامية»، فى أشكال عديدة، ظهرت بنفس المضمون التاريخى الذى ظهر فيه الأيديولوجيات الأوروبية المتطرفة فى القرنين التاسع عشر والعشرين. نتجت الفاشية والماركسية اللينينية من الصنعنة والتحديث السريعين فى ألمانيا ووسط أوروبا حيث تبعثرت فجأة المجتمعات التى كانت تعيش فى قرى محافظة وعائلات متفرعة.

ومرة أخرى يقر فريدمان بأن الكثير من اختراعات المرحلة الحالية للعولمة يعاد إنتاجها فى منظمة القاعدة. ففى العقدين





فريدمان يرى نفسه كولومبس هذا العصر الذى اكتشف أن العالم لم يعد كرويا: «كتبت هذه الكلمات فى مفكرتى: إن العالم مسطح»



الماضيين بعض أهم الشركات العالمية توقفت عن أن تكون بيروقراطيات رأسية وأصبحت عبارة عن شبكات من الرأسماليين والمستثمرين. وقد قلدت القاعدة هذا التغيير وهى تعمل على أساس شبكة من خلايا مستقلة بدلا عن شكل المنظمات المركزية للأحزاب الثورية فى الماضى.

وربما اكثر ما يثير الاهتمام هو أن فريدمان يقر بأن اعتماد أمريكا على البترول المستورد يعرضها للهجمات ويحث على استقلالية الطاقة الأمريكية:

«إذا جعل الرئيس بوش استقلالية الطاقة هدفه الأعلى فإنه فى ضربة واحدة سوف يجفف منابع الإرهاب ويجبر إيران وروسيا وفنزويلا والسعودية على طريق الإصلاح - وهو ما لن يفعلوه مادام سعر برميل البترول ٥٠ دولاراً - وسوف يقوى من وضع الدولار ويحسن موقفه فى أوروبا بالقيام بعمل ضخم لتقليل حرارة الكرة الأرضية».



إن دعوة فريدمان لاستقلالية الطاقة الأمريكية يوضح خطأ وجهة النظر الأحادية للتاريخ. قد تكون السيادة المطلقة على الطاقة سياسة حكيمة ولكنها تؤشر على تراجع عن العولمة. لقد بشر كتاب (ليكسوس وشجرة الزيتون) بعالم موحد ومتسق. ومنذ ذلك الحين تعرضت الولايات المتحدة إلى هجمات إرهابية وتورطت فى فخ مقاومة شديدة فى العراق. وعلى هذه الخلفية فإن اقتراح فصل أحد أهم سلاسل المؤونة التى تربط الولايات المتحدة بالعالم قد تبدو شديدة الإغراء. وكما فعل فى كتبه السابقة فإن فريدمان عبر عن مزاج أكبر وأقوى وفى هذا المجال قد يعتبر كتاب (العالم مسطح) دليلا متبصرا لمستقبل السياسة الأمريكية.

ومع ذلك وبينما قد تصب استقلالية اكبر للطاقة فى المصالح القومية الأمريكية فإن فكرة كونها قد تجبر الدول المتمردة على طريق إصلاح ليبرالى جديد هو من قبيل التمنيات. إن انتكاسة كبيرة فى سعر البترول سوف تقلقل بالتأكيد استقرار اقتصاديات الخليج ووسط آسيا من السعودية إلى تركمنستان وفى بعض الدول سوف تؤدى إلى تأسيس حكم ديمقراطى. على أية حال فى عدد من الحالات من المحتمل أن يكون المستفيد الوحيد هو الأصولية. هل يعتقد فريدمان حقا إن الديمقراطية فى السعودية سوف تنتج نظاما ليبراليا مؤيدا للغرب؟ فى هذه وفى دول أخرى قد تسرع استقلالية الطاقة الأمريكية فى تقدم الإسلام الراديكالى.

وكما فعلت فى الماضى فإن العولمة تسبب أزمات ليس لها حلول مرضية. وهذا لا يعنى أن هذه المشاكل لا يمكن بشكل من الأشكال إدارتها بذكاء ولكن ما نحن فى حاجة إليه هو عكس الخيال الطوباوى. فى التواء غريب هاجر العقل الطوباوى من اليسار إلى اليمين، من الأكاديمية إلى مكتبات المطارات. فى القرن التاسع عشر كان الناشطون السياسيون والمنظرون الاشتراكيون الراديكاليون من أمثال ماركس يعدون بأن التكنولوجيا الجديدة هى التى تخلق عالما جديدا. اليوم بعض كبار رجال الأعمال يحملون نفس الرسالة. وهناك الكثير من الكتب التى تبشر بتحول اقتصادى عالمى وتقترح بإمكانية إعادة هيكلة الحكومات للتكيف مع هذا التحول كما تفعل الشركات الكبرى. وكتاب (العالم مسطح) هو نموذج ساطع فى هذا المجال.

لسوء الحظ فإن مشاكل العولمة اكثر تعقيدا من مشاكل الشركات. والدول لا يمكن التعامل معها مثل الشركات المفلسة. والنقلات الكبيرة فى الثروة والقوة تتضمن صراعات متنافسة. إن العولمة هى تغير ثورى ولكنها أيضا استمرار لنزاعات الماضى. وهى فى بعض النواحى المهمة «تسوى الملعب» كما قال محدث فريدمان الهندى وهى بهذا قوة للتقدم البشرى. فى نفس الوقت تذكى العولمة الحماسة القومية والدينية وتطلق شرارة صراع من اجل الموارد الطبيعية. من وجهة نظر فريدمان الليبرالية الجديدة، شبه الماركسية، فإن هذه الصراعات هى بمثابة احتكاكات فى تروس ماكينة لا تتوقف. فى الواقع انه جزء من العملية نفسها والتى لا يعرف مستقبلها. سنكون افضل لو تقبلنا هذه الحقيقة وعملنا ما بوسعنا للتكيف معها.

الهوامش

(١) لتحليل الفشل والتكلفة الاجتماعية لإصلاح السوق برعاية غربية فى روسيا ما بعد الشيوعية ولتقييم السياسات البديلة انظر كتاب بيتر رضوى ودميترى جلينسكى (مأساة إصلاحات روسيا: بلشفية السوق ضد الديمقراطية) - مطبعة معهد الولايات المتحدة للسلام ٢٠٠١

(٢) للاطلاع على وجهة نظر مهمة حول دور القومية فى ظهور الرأسمالية انظر كتاب ليا جرينفيلد (القومية: خمسة طرق إلى الحداثة) مطبعة جامعة هارفارد ١٩٩٢

(٣) انظر مايكل تى كلير (حروب الموارد: الخارطة الجديدة للصراع العالمى) ميتروبوليتان ٢٠٠١

(٤) انظر كنيث اس ديفيس (ذروة هبارد: نقص البترول العالمى الوشيك) مطبعة جامعة برنستون ٢٠٠١.

● ترجمنا كلمة industrialization إلى صنعنة أى تحويل الدولة إلى صناعية



قد لا تكون قصة «منده» السودانية، التى اشتهرت فى ألمانيا واقعية فى كل تفاصيلها. وقد يكون لحقها ما يلحق الرواية عادة من بعض الخيال أو من أكثره، بحكم مقتضيات الأدب أو شهوة الأضواء أو غرض السياسة. وقد لا يتعدى - من الزاوية الأخرى للرؤية - الاختلاف بين الواقع والحكاية غير التفاصيل.

ربما لن نعرف أبداً، رغم برنامج الـBBC، ورغم حكم الأولدبيلى. ولكننا نعرف قطعاً أن شيئاً من هذا حدث. وأن شيئاً من الغرض/ أو الجهل. رغم المهنية - اختبأ بين السطور.

نعرف قطعاً أن بعضاً من قناعاتنا «النظرية» يخلى مكاناً - ضاق أو اتسع - لموروثات وعادات وتقاليد.. وربما لأهواء أو مصالح.

ونعرف قطعاً - ربما قبل كل هذا وبعده - أن القصة/ الكتاب أخذ مكانه بين الكتب الأكثر مبيعاً فى ألمانيا.. ونعرف أيضاً أن هناك من يقرأه وهو على استعداد - لأسباب عدة - أن يصدق كل حرف فيه، ليبنى تصوراته الذهنية عنا: عرباً ومسلمين.. و«مجاهدين».

المحـــرر

كتبته سودانية ويقرأه الأوروبيون: المستعبدة

أمـيــــر حـمــــد



■■ لم يكن ظهور منده ناظر وبرفقتها وزير الاقتصاد الألمانى السابق اوسكار لافونتين على شاشة القناة الثانية للتلفزيون الألمانى (ZDF) التعبير الوحيد عن الاهتمام الألمانى - وربما الأوروبى - بكتابها المثير للجدل. وكانت قضية (الرق) فى جنوب السودان قد شغلت الرأى العام الألمانى بعد أن قام الوزيران السابقان قايزلر، وبلوم، (بمغامرة) استكشافية لجنوب السودان، بتنسيق مع الحركة الشعبية وقتها، ليبدأ على أثر ذلك فى الصحافة الألمانية الاهتمام بقضية (الرق) فى جنوب السودان، وجبال النوبا، موطن منده ناظر.

Sklavin

المستعبدة

Mende Nazir
Damien Lewis
Lebensweg

وكانت القصة / الضجة الاعلامية حول السمراء الأفريقية قد بدأت حين كتبت صحيفة إنجليزية، لأول مرة تقريراً عن منده ناظر ليسارع لويس دامين (الذى نشر قصتها فى الكتاب) بإجراء لقاء تلفزيونى معها بالقناة الإنجليزية الرابعة حيث يعمل.

ورغم أن الدبلوماسى السودانى المتهم باسترقاقها كان قد رفع قضية ضدها بشأن إساءة السمعة، أمام محكمة إنجليزية مختصة، ليربحها فى النهاية، وتعوضه المحكمة بمبلغ يليق ببراءته من التهمة الموجهة إليه. ملزمة «الديلى تلجراف» أن تقدم له اعتذارا رسميا بشأن ماسبق أن نشرته عن مسألة «منده» توضح فيه أن ما ورد عن سيرتها كمسترقة لا يقوم على أى أساس من الصحة، الا أن دار Lebensweg الألمانية للنشر لم تجد غضاضة فى أن تنشر السيرة الذاتية للسودانية الجنوبية كما كتبتها، أو بالأحرى كما كتبها لها الصحفى البريطانى، دونما تقصى لما ورد على صفحاته واعتبرته سيرة حقيقية بل وروج له فى الإعلام الألمانى كدليل قاطع على الرق فى السودان.

صدر كتاب منده ناظر ولويس دامين بعنوان (مستعبدة) مكتوب تحته معتدى عليها، مضطهدة، ومباعة. كما ذيل الغلاف الخارجى للكتاب بالآتى:

«كانت تنادى بلفظ (بنت)/ فما من (قيمة)، لأن تسمى. تنام فى مكان مهمل Verschlag، وتعمل ليلاً، ونهاراً، وتضرب، ولا تمنح مليماً، كأجر، أسيرة حرمت من ان تغادر المنزل، ولو خطوة واحدة. ها هى منده، الفتاة النوبية، تروى سيرة حياتها. سيرة حياة لم تحدث قبل مائتى عام، وإنما فى القرن الحادى والعشرين، ولم تنته فى أفريقيا، وإنما عند جيراننا بأوربا. لأن منده، فى ختام سنوات اضطهادها، واستعبادها بالخرطوم بُعثت إلى لندن لتستعبد هناك أيضاً».

إنها تراجيديا إنسانية، وسياسية، ستهز العالم. أما داخل الغلاف، فتطل صورة منده، ولويس دامين، معرفاً كل منهما: منده ناظر، ٢٢ عاماً، تقريباً، لأنه من الصعوبة تحديد تاريخ الميلاد بجبال النوبا. نشأت منده فى جبال النوبا وتعيش اليوم بلندن، عقب ثمانية أعوام من الأسر فى أفريقيا وأوربا. أمنيتها العظيمة أن ترى عائلتها، ثانية، بالسودان.

لويس دامين: صحفى إنجليزى مختص بالسودان، آزر منده على الهروب، وفى صياغة الكتاب. بمعاونة آخرين، يكافح لويس لأجل الكتابة عن فظاعة حقيقة (الاستعباد) الحديث، بالقرن الواحد والعشرين.

ذُيل داخل الكتاب بعرض مقتضب لسيرة منده ناظر إلى بلوغها اثنى عشر عاماً، حيث كانت تعيش سعيدة فى بلاد النوبا لاسيما وأنها الطفلة الأثيرة من بين إخوتها لدى والديها. «كانت تحدد ملامح حياتها كل من عادات النوبا، والمناسبات، والعمل فى الحقول ومرافقتها لأبيها، وارتيادها المدرسة. أما أمنيتها العظيمة فهى أن تصبح طبيبة. إلا أن كل شىء قد تغير حينما هاجم العرب (يسمون الآن بالجنجويد) قريتها، وأشعلوها بالنيران، ومثلوا بالأطفال، والنساء، وأسروا من أسروا، ليخدموا كأرقاء دونما أجر، بعيدا فى منازل العاصمة. أما منده فكان من نصيبها أن تعيش فى منزل عائلة أرستقراطية بالخرطوم، حيث حُرمت من كل حقوقها، وحبست، وتركت لتنام فى زاوية مهملة بحديقة المنزل تخدم ليلاً ونهاراً. تعرضت للاغتصاب، والضرب، والاضطهاد. بعد ثمانية أعوام، كان من العسير أن تهرب، بيعت منده، لتخدم كأمة، بلندن عند المستشار الإعلامى لسفارة السودان. هنا فى دولة تتمتع بحرية مطلقة بغرب أوربا، بوسع الفرد أن يستعبد، ويسلب، ويحبس ويحطم غيره نفسياً!!!!. كثيراً فكرت منده فى الانتحار، إلى أن حانت سانحة فى شهر سبتمبر ٢٠٠٠ حين التقت أحد أبناء جلدتها (النوبا) فأخبرته بسيرتها».

ويمضى الناشر ليصف الكتاب بأنه «توثيق مذهل للعلاقات بالسودان، وربما آخر تقرير حقيقى من يوميات حضارة النوبا المندثرة. أنه كتاب يسلط الضوء على عزيمة فتاة صامدة».

صدر كتاب منده ناظر (مستعبدة / أمة) قبل ثلاثة أعوام بألمانيا عن دار Lebensweg، وقامت بترجمته عن الإنجليزية إلى الألمانية Karin Dugner، تصدر غلاف الكتاب صورة منده ناظر قبالة مبنى البرلمان الإنجليزي بلندن. كما تضمن صوراً فوتوغرافية لجبال النوبا وقاطنيها، ولمنده ولويس دامين مؤلفا الكتاب.

تحت عنوان موحى «الاعتداء»، يبدأ الفصل الأول من الكتاب (الذى يقرأه الألمان) بسرد روائى على لسان البطلة: «بدأ اليوم الذى تحولت فيه حياتى برمتها، ببزوغ شمس حانية. توجهت نحو الشرق، وأديت صلاة الفجر تقرباً إلى الله. لقد كان الوقت خريفياً بعام ١٩٩٢ أثر موسم الجفاف. كان عمرى وقتها اثنى عشر عاماً. طالبةً مجدةً كنت، أحلم بان اصبح طبيبة. هكذا كنت اجتاز، كل يوم، الطريق المؤدى إلى المدرسة فى ساعة كاملة. إننى من قبيلة النوبا، ومعظم ساكنى قريتنا، من المسلمين. لقد كانت عائلتى، متوسطة الحال تقطن فى أكواخ من الطين، على مرتفعات شبه معزولة عن العالم. ككل (النوبا) كنا نعتمد على الصيد، والزراعة، والرعى. كان أبى يملك خمسين بقرة، تُعد ثروةً، لدى النوبا.

اثر أوبتى من المدرسة كنت أنجز واجباتى المنزلية، وتطبخ أمى وجبة المساء مما يجلبه أبى، وإخوتى معهم، من الحقل، ثم نتحلق النار، ليروى أبى قصصاً مرحةً. هكذا كان أبى كثير الدعابة. أننى أحبه فوق كل شىء. وحين يتدلى المساء نلجأ إلى الفراش، فأنام جواره، وتتسلق (Uran) / قطتى الأثيرة، الفراش، لتنام لصقى، ويخيم السكون على القرية، إلا من هسيس النار الموقدة جوارنا.

فى مساء كهذا اكتست الأكواخ فجأة بضوء برتقالى. قفز أبى، وهتف عالياً «النار تحرق القرية! ...». فى البدء كنا نعتقد بأنه حريق خاطف، يحدث كالعادة من وقت لآخر بقريتنا. إلا أننا رأينا مشاعل ضخمة تُقذف نحو الأكواخ، وتحيلها هشيماً. كان القاطنون يتقافزون، ويركضون فزعاً، فيما يُصرع البعض ... صاح والدى «المجاهدين» ..... إننا نهاجم من قبل العرب. المجاهدون فى القرية. (لاحظ استخدام مصطلح «المجاهدون» هنا. المحرر)

ثم حضننى، وأسرع بى دونما هدف. كنت أبصر المجاهدين ينتزعون، قسراً الأطفال من أحضان الأمهات، وهن يتراكضن، فزعاً، دونما هدف. لحظتها أبصرت أمى مرتعدةً، مثلى. لم أنس قطتى الأثيرة (Uran) حملتها بكف، وتشبثت بأبى، بكفى الأخرى. «أمسكى جيداً يامنده، أمسكى جيداً»، قال أبى، وأنا أبُصر المجاهدين يذبحون القاطنين، بمدى معقوفة، وينزعون، قسراً، الأطفال من أحضان الأمهات، وهن يتراكضن دونما هدف ورأيت الأكواخ تتوهج تحت ضوء النيران. ليس بوسع أحد وصف ما رأيت بتلك الليلة الحالكة. من على البعد، رأيت قريتنا، وقد تحولت إلى دخان، ونار، وتبينت، وجوه المجاهدين لأول مرة، ... كانوا ملتحين، متسخى الملابس، يمتطون خيولاً، يقطعون بها ملاذ الهاربين من النوبا. كانت تتعالى صرخات الواقعين فى أفخاخهم. طغى الرعب، والفوضى، مصحوبين بدوى الطلقات. كنت أركض مع أبى وأمى، بحضنى Uran، فجأة أخذ أبى ينادى أمى لاختفائها، حين غرة، ويركض بشدة، وأنا خلفه إلى أن تعثرت، فوثبت Uran من بين يدى، بعيداً دونما أوبة. كنت لحظتها شاهدة على صراع دار بين أبى، ومجاهد، أطل بغتةً ... استطاع أبى أن يرديه بحجر (!) ... حينما وصلنا نهاية قريتنا، كان التعب قد تملكنى فلم أستطع المشى أكثر، رغم تحفيز أبى لى. فجأة، انفلت قطيع بقر، بين الأكواخ، فانطرحت أرضاً، موقنةً بهلاكى ... كنت أسمع لحظتها نداء أبى لى، من بعيد، فأجبته بصوت ضعيف، وحنجرة ملئها الغبار بكيت ... إلى أن أحسست بوخز لحية على عنقى ... فالتفت ورأيت أحد المجاهدين، ذا رائحة كريهة.



قال لى: أخرسى ... إن تعالى صوتك ثانيةً سيسمعك الأخرون، ويقتلونك ثم أمسكنى من ساقى، مجتازاً بى القرية فرأيت خنجره، ومسدسه مغروسين فى حزام. من بعيد كنت أسمع صوت أبى «منده ... منده». لم يكن بوسعى فعل شىء سوى إطلاق صرخات ضعيفة «أبى، أبى». إلا أن خاطفى (العربى)، وضع يده على فمى ليسكتنى ... لو عثر والدى على لتحدى كل المجاهدين ... رأيت القرية، من جديد تحت النيران، والدخان، تتجاوب فيها الصرخات، رأيت النساء ملقيات أرضاً، فوقهن المجاهدون. تضرعت إلى ربى أن ينقذنى، وأهلى، ... وكررت مجدداً دعوتى حينما ولجنا الغابة، حيث رأيت قرابة الثلاثين من صبية وصبيان النوبا، جلوساً تحت شجرة، فيما كان بعض المجاهدين يجلبون أطفالاً آخرين، وخناجرهم تقطر دماً، وأعينهم تلمع بالرعب، ويتصايحون «الله أكبر، الله أكبر». لم أعد أدرى ماذا حدث لعائلتى، نجوا، أم قتلوا ... ولا أدرى عن ماذا سيسفر مصيرى. هكذا توارت طفولتى، السعيدة، وبدأت. حياتى، كمستعبدة».

وبنفس الأسلوب الدرامى الحافل بالاثارة والمبالغة فى آن، يمضى الكاتب على لسان بطلته ليقص كيف كانت طفولتها وديعة قبل أن يأتى أولئك «العرب المجاهدون» الأشرار: «منده Gazelle، أبهى حيوانات جبال النوبا، هذا هو أسمى الذى سمانى به والدى، إذ كان يعتبرنى أجمل فتاة بالعالم. لقد كنت خامسة أخوتى وأصغرهم. وسط جبال شاهقة دائرية، تنبسط قريتنا، التى تسمق عند نهايتها، صخرة عظيمة. لم يكن مرقى المرتفعات نائياً عن قريتنا التى يتبوأ فيها منزلنا موقعاً ما. إنه منزل من كوخين يحيطه سياج عشبى، بطرفه مقاعد خشبية، نقتعدها مساءً، لنتحلق النار المشتعلة جوارنا، ونروى القصص، ونتسامر. ثمة أغنام وخراف بفناء دارنا، تمدنا بالحليب. كنت وأمى نأهلان كوخاً به ثلاثة أسرة، من البابمس (خيزران)، تغطيها ألحفة من لحاء الهجليج المفتول. حذو باب الكوخ كان ينام أبى ليحمينا من الثعابين، والضباع، التى تعج بها الغابات والمرتفعات حول قريتنا. كنا نشعل النار بمنتصف الدار لا سيما فى مساءات الخريف، فيسمق الدخان من الخشب البليل. ثمة صومعتان صغيرتان، للغلال بفناء دارنا يصعد إليهما بسلم، لنملأ منهما، الصحاف/ ..... / بالفول والذرة. هكذا كنا نحفظ الغلال، فى منأى عن الثعابين، والفئران التى تدب على سطح الأرض. فى أكواخ أخرى بقريتنا كانت تقطن أختاى المتزوجتان. أما (بابو) وكوندهران فيسكنان بالكوخ الأخر بدارنا، تمسكاً بأعراف النوبا، فى فصل الصبيان عن النساء. كانت أمى تطهو لنا الفول، والشعير، واللحم بالبهار، وتصنع لنا (مديدة) العيش بالحليب، فندعو الجيران، والأقارب، بل والغرباء، ليشاركونا طعامنا».



بــوش .. بــوش

وفى أسلوب مشوق للقارئ الأوروبى تمضى القصة (التى وصفت كسيرة ذاتية «حقيقية») حيث تروى «منده» طُرفة حدثت فى طفولتها، حين كانت تقضى حاجتها، ذات يوم بين لفيف أشجار، فباغتتها صيحة كيكو صديقتها، محذرةً لها من ثعبان بين الأشجار فهربت نصف عارية. كما تصف فى سردها، جلبها للماء من حفر مائية / توج حيث يجتمع الصبية والصبيات،

المســــــــــتعبدة





وتؤكد (منده) بأن النوبا كانوا يسمون أبناءهم (Bush) لإعجابهم به، بل إن نساء النوبا، حاولن تسمية المولودات باسم زوجة (Bush) فلم يستطعن لجهلهن باسمها



فيتشاغبون، ويتحدى بعضهم البعض، فيحميها أخوها (بابو) الأكبر سناً منها، من شجار الصبية. كان الصبية والصبيات ينشدون ترانيم للمطر، كبشارة للحصاد، فيما يتقافزون والجرار على رؤوسهم.

تذكر منده أن عاماً طوق بالجفاف، فكاد النوبا أن يهلكوا، لو لا أن الأوربيين «الخواجات» قد قدموا لإنقاذهم من حتف أكيد بشاحنات محملة بالحنطة، والزيت، والدقيق، والسكر، والأغطية، والأدوية. أما (العرب)، على حد قولها، فلا يهمهم الأمر، بالرغم من الجميع أبناء وطن واحد. تقول منده، أن المعونة كانت تقدم من أمريكا فيصطفون منشدين للرئيس الأمريكي:

بوش
بوش، بوش، بوش
رجلٌ خيِّر
من بعيد، يفد الأوربيون إلينا
بيضٌ كالأشباح
ولكنهم طيبون إزاءنا
يؤازرون النوبا
بالحنطة، والزيت ...
لو لم يكن بوش موجوداً لمتنا ...
بوش، بوش، بوش

وتؤكد (منده) بأن النوبا كانوا يسمون أبناءهم (Bush) لإعجابهم به، بل إن نساء النوبا، حاولن تسمية المولودات باسم زوجة (Bush) فلم يستطعن لجهلهن باسمها.

من حليب البقر الطازج كانت تشرب منده، وتتمهل في سردها لوصف نكهته الخاصة الطيبة وصنعهم للزبدة، واللبن، كانت تحبس العجول في الحظائر إلى أن يُحلب البقر لذويها، ثم يفرج عنها.

ويستمر السرد المشوق للأوربيين المولعين بالرحلات والأنثربولوجيا فتقول منده أن أمها كانت تمشي عارية في فناء البيت، وخارجه إلى أن اعتادت نساء النوبا على تغطية أثدائهن، ووسطهن بخرق. أما عادة «الشلوخ» التي كانت تصف أمها فظاعتها فقد اندثرت بمرور الوقت واستُبدلت بالتزين بعقود، وأقراص مزركشة حول المعصم والبطن، والساقين هذا إلى جانب قص شعر الرأس بطريقة معينة تميز كل قبيلة، عما سواها. قديماً كان يُختن صبيان النوبا، وبناتهن في سن متأخرة، إلا أن الخطورة الصحية في ذلك، جعلت النوبا يلجأون إلى الختان مبكراً. تعتز «منده» بملامح أبيها السامية، الدقيقة، وتصف في الوقت عينه قوته، وخشونة يديه، وأقدامه، لفتله الحبال، من لحاء أشجار الهجليج، وبيعها في الأسواق كمكسب، هذا إلى جانب تمشيطه للحقول والغابات، لساعات طويلة، بحثاً عن الفاكهة، والخضر. كان أبوها يحب والدتها أيما حب وآثر الاكتفاء بها، على التزوج بنساء عدة، كشأن النوبا. تقول منده أن أباها كان صائداً ماهراً كثيراً ما يصطاد الوعل البري أو الضباع وينفــــخ في البوق كعادة النوبا، ليأتوا، ويؤازروه في حمل صيده.

في سردها لتفاصيل طفولتها تذكر (منده) Uran قطتها الأثيرة، التي أهداها لها والدها. كانت Uran تتسلق سريرها لتنام جوارها وتحظى بعطف منده، وتقديم الحليب ... أيما فرح فرحت منده حينما امتلأ البيت بقطط أنجبتها Uran لكن والدتها أهدتهم إلى الجيران، لعدم تمكنهم من إطعامهم، الأمر الذي أحزن منده كثيراً، إلى أن كبرت، ورأت القطط من ثم تملأ بيوت الجيران فرحة فكان في ذلك عزاءً لها. كأي طفلة جهولة، لم تستطع منده فهم الحمل، والإنجاب فشرعت والدتها في نسج ردود ما لإقناعها بأن انتفاخ بطن Uran سببه افتراسها للفئران.

الأقليات العرقية

وفي فصل عنونه المؤلف «مدرسة النفاق»، يهدف الكاتب الى مناقشة مسألة الأقليات العرقية فتحكي منده كيف انتظمت بالمدرسة في الثامنة من عمرها، ، وفقاً لوصفها، تبدو هذه المدرسة نفاقاً وكذباً، وتزويراً وتحويراً لهوية أبناء النوبا. كان الأساتذة - على حد قولها - يطالبون الأباء دوماً، بالمال، مدعين حوجه التلاميذ إلى كتب وكراسات، لم ير التلاميذ منها كتاباً أو كراساً. أما المدرسة بمنهجها التعليمي المنافق، على حد قولها، فقد كانت مكونة من غرف للدراسة مبنية بالآجر، وأخرى للمعلمين، مضاءة بالفوانيس، كما كان بها مراحيض قذرة، وفناء دونما جدران فتلج الأغنام وتلتهم الكراسات والكتب. وتحكي مندة كيف ان اللغة العربية هي التي تدرس في المدرسةوتمنع لغة النوبا، وأن ينادى التلاميذ بأسمائهم النوبية، مما حدا بالمعلم تسميتهم بأسماء عربية، ومعاقبتهم بالجلد / السوط حينما يخطئون، وتكليف أحد التلاميذ / الألفه، بالإبلاغ عن من يتحدث بلغة النوبا. ولم يكن الوقت المخصص لتدريس المواد العلمية، واللغة الإنجليزية كافيا مقارنة بوقت تعليم القرآن / العلوم الدينية، واللغة العربية. تقول منده بأنها كانت تستشعر النظرة الفوقية للأساتذة واستخفافهم بأبناء النوبا لأنهم لا ينتمون إلى العرب.

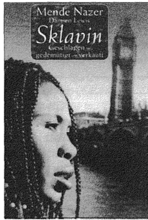
وتسرد منده في هذا الفصل ملامح من حياتها كمسلمة / وُلدت مسلمة، علمها أبوها الصلاة فكانت تؤدي صلواتها الخمس، كوالديها، وتقرأ القرآن، وتذكر دائماً تخويف أبيها لها، من عاقبة دخول النار للمتخاذل عن ممارسة شعائر الإسلام ثم تصف مسجد القرية المبني من الطين والاحتفاء برمضان وعيد الفطر. إلا أن منده،



الـــــــرق

مترددة، وخائفة كانت تبدو منده ناظر، في أول لقاء لي بها. أما اليوم فهي واثقة من ذاتها، جريئة، وحيوية. ملؤها الأمل والاعتقاد في مستقبل مضيء. إنها قضية (الرق) من جديد بالقرن الواحد والعشرين، وليس قبل مائتي عام، حين كنا (نحن) الإنجليز أساطين الرق. إنه الاسترقاق اليوم ... بعد خمسين عاما من توقيع اتفاقية الأمم المتحدة UN التي تنص على المساواة، وألا يُسترق أي فرد أو يُمتلك.

في ١٩٩٦ كنت شاهدا على فظائع (الرق الحديث)، بالسودان. كصحفي موفد من قبل القناة الرابعة الإنجليزية، كتبت تقريراً بتكلفة منها. كنت أراقب عن كثب، الأحداث، وأجوب بهوية مزيفة مع منظمة إغاثة صغيرة أصقاع جنوب السودان. شاهدت (الجنوبيين) يباعون كالقطيع، بل إن الأمر أفظع. إذ تُشن غارات استلاب فظيعة على الأفارقة ويُذبح المئات منهم، وتُحرق القرى. منذ ذلك الوقت، أكتب لكل العالم عن الرق في جنوب السودان، وجبال النوبا. لقد أجريت لقاءات عدة مع



المستعبدين، أو نخاسة «الجنجويد، وغيرهم»، فكانت أجوبتهم متشابهة بأن (الحكومة) تدربهم، وتسلحهم بـ AK 47، لتشن الغارات، - باسم الجهاد - ، على القبائل الأفريقية، في الجنوب، أو جبال النوبا. كمكافأة على جهودهم، لهم أن يحتفظوا بالغنائم من البقر، والأغنام والرقيق، وأن يتركوا النساء والأطفال على قيد الحياة، ولكن يبدو من العسير الالتزام بشروط الحرب، إذ كانوا يسترقون الرجال ويتاجرون بالنساء كمومسات، ويزجون بالصبيان في الرعي بالقطيع فيما يبيعون الصبيات «كخدم» بالمنازل. إذ لا يتجاوز ثمن العبد مائة وخمسين دولارًا. إن قضية منده لا تعدو كونها إحدى السير الذاتية التي تزخر بها Human Rights Watch أو Anti-Slavery International.

لقد تمكنت منده ناظر من عتق (نفسها)، بتجاوز حدود السودان إلى لندن، إلا أن هناك الكثير من الأرقاء كـ Nanns صديقتها الذين ينتظرون سانحة للحرية. رغم أن (الحكومة السودانية الإسلامية) قد وقعت على اتفاقيات تحظر الرق، إلا أن CEAWC قد أثبتت عام ١٩٩٩ بأن الرق لا يزال ممارساً بالسودان. تلغى الحكومة الحالية، أي اتهام لها، بدليل تنفيذ عقوبة السجن، لكل المشاركين في قضية الرق. لكننا لايمكن أن ننسى أن منده استرقت من قبل دبلوماسي ممثل للحكومة.

لويس دامين
صحفي بالقناة الرابعة
للتلفزيون الإنجليزي

المستعبدة



تكتب منده عن حياتها كمستعبدة، حُرقت وسلبت قريتها من قبل العرب، لم يكتف خاطفها، باشتراكه مع العرب الآخرين، فى محو قريتها، وساكنيها من الوجود فحسب، بل اغتصبها، وهى طفلة

تبدو متحيزة إلى معتقدات النوبا الأولى، قبل دخول الإسلام، وإلى الكجور كشخص مقدس، وكطبيب للقرية. تسرد منده، ما ذكره أبوها عن ديانة النوبا الأولى، واعتقادهم فى تعدد الآلهة ... إله للمرتفعات وإله للمطر، وآخر للقمر، وللشمس، استبدل بها جميعاً الإسلام إلها واحد حتى فقد الكجور وظيفته كوسيط، رغم أن القرية من وقت لآخر قد شهدت له كرامات بنزول المطر، فى موسم الجفاف. هكذا تتعجب منده من اعتقاد النوبا فى الكجور، وفى الإسلام فى آن معاً. إلا أن والدها حاول إماطة الدهشة برده عليها بأن مفعول الكجور لا يتم إلا بمعاونة وإذن الله، وأن ديانة النوبا الأولى والإسلام يعيشان معاً فى تسامح وسلام بجبال النوبا.

تكتب منده بأن أباها كان يحلم باليوم الذى تتساوى فيه حقوق الجميع وتتلاشى سيادة الأثرياء على الضعفاء بالسودان. كما تكتب قائلة بأنها لم تكن تدرى وهى طفلة مهمة الطائرات التى تحلق من وقت لآخر فوق سماء النوبا. أما اليوم فهى تعرف بأن مثل هذه الطائرات تسقط القنابل فى جنوب السودان على الكنائس، والمدارس، والقرى، والمستشفيات.

الختان

حينما بلغت منده سن الحادية عشرة قررت عائلتها ختانها تمسكا بأعراف النوبا. فى وصف تفصيلى تصف منده ألم، وفظاعة الختان، وإمساك إخوتها بها لكى تختن، فيما كانت (الخاتنة) تحرك موسى حادة فينبجس الدم، وتتوالى صرخات منده، وبكاؤها، إلى انتهاء الختانة، ومواراة ما اجتزته، «فى التراب». فى البدء أهال منده حديث والدتها عن الختان، رغم محاولة تبريرها له، بأنه عرف من أعراف النوبا، وأن كل الصبيات يُختن، وعليه، يُسخر من غير المختونة، كما أن فى الختان ضرباً من التعود على الصبر، ومقاومة الألم. فيما كانت منده تقاوم ألم ما بعد الختان، اهدى (للخاتنة) جوال ذره، واحتفى بهذه المناسبة. لم تقبل منده على حد قولها معالجة (الخاتنة) للجرح، فيما بعد، فتولت أمها تطهيره وانتزاع الخيط فى غضون أيام، مستخدمة الماء الدافئ والشاى. فى ختام هذا الباب تحدثت منده، عن انطباعها عن الختان وتبعاته مشيرة إلى أن بعض الصبيات قد متن بسبب الالتهابات، والأمراض المعدية. لم تستطع منده مسامحة ذويها، إلا بعد مدة، تأكد لها فيها، بأن الصبيات غير المختونات قد لا يجدن من يتزوجهن من أبناء النوبة.

الاستعباد

وكأى رواية تمضى القصة الى احبكتها الدرامية، فتحكى البطلة كيف مرض أخوها فتحملت العائلة مشاق السفر إلى مستشفى بعيد حيث أخبرهم الطبيب بأنه لو توفرت مستشفى بجبال النوبا، لما ساءت حالته الصحية. فصارت أمنية حياتها أن تصبح طبيبة. أمنية جعلتها تعكف على التهام العلوم، واللغة الإنجليزية، بالمدرسة. إلا أنه، عقب ستة أشهر، داهم (المجاهدون) قريتها، وحرقوها، واقتديت (كأمة).

تكتب منده عن حياتها كمستعبدة، حُرقت وسلبت قريتها من قبل العرب، وتشتت ذووها دونما أوبة. لم يكتف خاطفها، باشتراكه مع العرب الآخرين، فى محو قريتها، وساكنيها من الوجود فحسب، بل أغتصبها فى غابة، وهى طفلة فى سنها العاشرة، كما رأت، وفقاً لسردها، جلب العرب / المجاهدين لصبية النوبا، واصطفافهم، تحت شجرة، ليباعوا كمستعبدين. تصف منده خاطفها فى هذا الفصل، واقتياده لبعض صبيات النوبا كأرقاء، لينتهى المشوار بهم فى الخرطوم، بمنزل «نخاسة»، حيث تعيش زوجته المتاجرة كذلك فى بيع الرقيق، الذى يباع للخدمة بالمنازل دونما أجر طيلة الحياة، مقابل مبلغ ما يمنح لجالبى الرقيق. لم يكن الطريق إلى الخرطوم خالياً من معسكرات، ومليشيات الجيش، التى يتحرى فيها القارئ أملاً لخلاص هؤلاء الصبيات ولكن سدى. وفقاً لوصف منده، كان بعض الجنود يتآمرون مع (النخاسة) ويتقاضون منهم مبالغ، ويهنئونهم على غاراتهم بجبال النوبا. وفقاً لوصفها، لم ينته الأمر عند ذلك بل، وأن بعض الجنود، كان يعلم بحالات الاغتصاب، ويتلذذ بسرد التفاصيل.

فى قبو بمنزل جالب الرقيق، كانت الأسيرات من صبيات النوبا، يعشن فى انتظار قدوم السيدات لاختيار «الأمة» المناسبة لخدمتهن. وهذا ما حدث وفقاً لسردها، إذ قدمت سيده واشترتها «كمستعبدة» طيلة الحياة، وكخادمة دونما أجر، أُهملت، وضُربت، وحُبست وكانت عرضة لاغتصاب جديد، بل وتداولتها هذه العائلة فيما بينها، إذ سفرتها إلى لندن لتعيش العبودية من جديد، فى القرن الحادى والعشرين، بدولة بلغت فيها حقوق الإنسان أيما شأن ...

ظلت منده، تسرد طيلة صفحات الكتاب عن شقائها اليومى، قيد الجدران، إلى أن التقت أحد أبناء النوبا فحررها من العبودية بلندن، والتقت من ثم لويس دامين الصحفى، الذى أشهر قضيتها فى الاعلام الإنجليزى والصحافة، ومهد للقائها بشخصيات سياسية لامعة.

فى سردها لسيرة حياتها، تصف منده ظاهرة (الطمث)، فى أول تجربة لها، ومحاولة انتحارها، للخلاص من قيد العبودية. وتخصص فصلين كاملين تصف فيهما تهديد ربة البيت لها بالقتل. إلا أنها كانت تتمنى الموت على أية حال بعد أن تحولت حياتها إلى جحيم. فى أحد فصول الكتاب، تكتب منده عن شكها فى مبدأ المساواة بالإسلام، بدليل أنها مسلمة، تُضطهد من قبل مسلمين مثلها، وتُسترق. لا لسبب الا أنها سوداء البشرة وليست عربية. هذا هو سبب اضطهادها على حد قولها.

كانت تُرمى بسواد لونها، وتتهم بأنها قذرة، وأنها بدائية لأنها تنحدر من أصول حامية. لذا كانت تُمنع من التحدث بلغتها «النوبية»، فى المدرسة، ومن التغنى بأغانى (النوبا) أثناء الخدمة بمنزل «سيدتها». ما من شىء أعظم من حقدها على (سيدتها)، وتمنى موتها. بل وأنها تحقد على كل العرب بالسودان، أيما حقد لاستعبادهم لها. تكتب قائلة أن الأمريكان حينما قصفوا مصنع الشفاء اعتقاداً منهم بأنه قاعدة إرهابية بالسودان تمنت منده قتل مزيد من العرب / السودانيين.



وحسب روايتها، تقرر تسفير منده إلى لندن لتخدم هناك كأمة، عند أقارب سيدتها، فيما وعد تاجر الرقيق، عينه، سيدتها بجلب، أمة جديدة. اقسرت منده على السفر إلى لندن أثر ست سنوات من الاستعباد تعلقت غضونه بأطفال ربة المنزل واعتبرتهم عوضاً عن عائلتها بجبال النوبا.

وبعد تفاصيل كثيرة حول حياتها المأساوية تحت ربقة الاستعباد، تحكى مندة كيف رأت السحاب، وراء نافذة الطائرة، لأول مرة تذكرت قصة أبيها، لتأويل بعد السحب عن الأرض، بأنه فى القديم كانت السحب دانية من الأرض، بوسع المرء التقاطها. ذات مرة، أعجبت امرأة بقطع السحب المتناثرة، فأوقدت ناراً لطهى سحابة، وحينما امتدت يدها لالتقاطها ابتعدت السحب جميعاً إلى الأعالى، لعلمها مسبقاً بما عزمت عليه المرأة. ■

شمــال وجنــوب..
الســودان مقســما

■■ يغلب على (السير الذاتية) طابع المصداقية، والنوستالجيا، والتأمل فى الحياة، إلا أن كتاب (الأمة)، لا يعدو عن كونه أوتويغرافيه (مفبركة)، تقوم على اضطهاد مبهم لحقوق الإنسان، وتجنى العرب / السودانيين على القبائل الأفريقية بالداخل، والإشارة إلى الأسلمة الإجبارية، ومنع الأعراف المنافية للإسلام، وأى لغة، غير العربية. قد يكون (الجنجويد)/ المليشيات المسلحة قد داهموا قرية منده، وحرقوها، إلا أننا لا نود هنا التقصى عن الأسباب التى تقود إلى مثل هذه الغارات / النهب المسلحة، لأن هذا سيصرفنا عن التحقيق فى طبيعة غارة كتلك والتى يصفها دامين (بكارثة)، يقتل فيها الرجال، ويباع الصبيان كخدم بالبيوت، ويجعل من الصبيان رعاة للقطيع فيما تغتصب النساء، وتباع كمومسات. لا تختلف منده فى سردها، عن الصحفى الانجليزى (المشارك فى تأليف الكتاب)، فهى كما يبدو واقعة تحت تأثيره، فهو لا يفتأ يسلط الضوء على قضايا «معينة»، إلى جانب الرق، كاستبدال الإسلام واللغة العربية قسراً للغات والأديان المحلية، ويتشعب الاتهام إلى شبكة العلاقات الاجتماعية العامة بالسودان، حيث يتعالى السودانى / العربى على غيره من الجنوبيين، وأبناء غرب السودان، كأن معاناته لا تنتمى إلى معاناة الآخرين. والغريب أن الكتاب (فى تعال واضح) يصف السودان بأنه قد توقف تماماً عن مسيرة العالم، الحديث، ومفهوم الحريات، كما تصف منده المجتمع السودانى، بأنه يعيش فى القرن الثامن عشر سمته الرق، والتخلف.

سعت منده إلى الحصول على اللجوء بإنجلترا، تقول بأنها لو كانت تعلم بمنحها للحرية، وحياة أفضل، بإنجلترا، لفكرت إذاً جادة، فى الهرب، ومن ثم السفر إلى لندن. فى تصريح كهذا تتجاوز منده حدود السودان كله. كأن كل شبر فيه ملوث بالرق، وإلا لما كان كل همها السفر إلى خارج السودان وليس الحرية. أما لويس دامين الذى يصف مهنته كمختص بشؤون الرق فى السودان فله دون شك رغبة جامحة، فى ترويج قضية كهذه، أنها سيرة مغرضة جسمت فيها الحوادث «أعمل من الحبة قبة» حتى بدت منده كممثلة لقبائل مضطهدة. باستثناء، جزء كبير من الفصل الأول، الذى يتميز بالطابع الروائى، فى عكس طبيعة جبال النوبا، وأعراف القاطنين بها، وذكريات منده مع أسرتها. نستشف فى الرواية حقدا دفينا وتحيزا إلى الغرب. (تمنى منده أن يُقتل سودانيون أكثر حين قصفت الولايات المتحدة مصنع الشفاء. والتغنى لـ Bush، بجبال النوبا، وتسمية المولودين باسمه، لمده جبال النوبا بحملات الإغاثة من حنطه، وزيت، وأغطية، على النقيض من العرب، الذين لا تهمهم مآسى النوبة... الخ)

لقد بذلت دار النشر الألمانية Lebensweg، عبر الإعلام والصحافة مجهوداً ضخماً، لترويج الكتاب الذى استطرد مطولاً فى قضية، لا يفصح عنها إلا غلافه الموسوم بصورة منده بالضفائر الأفريقية، والمنضدة بالفصوص قبالة مبنى البرلمان الإنجليزى بلندن، يفصلهما عنوان الاوتوغرافيا Sklavin الأمة، واسما المؤلفين فى تصميم نفسى مغرى يرمز إلى الاستعباد داخل أوربا.

لقد تأسست فى ذهنية الأوربى صورة اضطهاد المسلم لغير المسلم، والعرب للسود. ولأن الألمان لا زالوا يعانون من عقدة الذنب لاضطهاد الهتلرية للأقليات، لهذا يبالغون فى تعاطفهم مع قضية كهذه، غير مكترثين بمدى الحقيقة فيها.

أن منظمة، كمنظمة التضامن المسيحى، مثلاً، لدليل واضح على الاختلاسات المالية، وتدنيس (سمعة) السودان (بالرق)، باشتراكها مع بعض أفراد SPLM - الذين أدينوا من قبلها - فى الارتزاق من مبالغ كنسية، مبذولة أصلاً لتحرير الرق، فيختلس المال ويمنح قسطاً منه للمتحفزين بإدعاء استرقاقهم، لإثبات قضية الرق بالسودان.

مهدت سيرة منده «المفبركة» لتسهيل طلب لجوئها بلندن، فيما كان السودان يدان كتاجر نخاسة محترف. لقد سعى لويس دامين إلى الشهرة بتبنى قضية منده وصياغتها غير مكترث بالأكاذيب وتجسيم الحوادث كشأن بعض منظمات الإغاثة التى تعمل من وراء قناع فى التبشير ولبث التقزز من العرب / السودانيين. لقد أدان لويس دامين نفسه بنفسه بتصريحه بأن قضية منده هى الدليل القاطع على تفشى الرق بالسودان. ثم أتت المحكمة الانجليزية لتحكم للدبلوماسى السودانى مكذبة مزاعم الكتاب.

لقد أوغل التاريخ الأوربى فى الاسترقاق، وقتل وتشريد الشعوب المستعمرة، كالهنود الحمر، والـ Oberigiens بأستراليا، كما اضطهدت الكنيسة المجتمع الأوربى، بتمتعها بالسلطة السياسية، إلا أن حالات «الاستعباد النسبى» اليوم، بداخل أوربا، لا تدان إلا كقضية فردية، لا كظاهرة عامة تمس المسيحية والأوربيين، عكس ما يعممه الاعلام الغربى عن حالات الاضطهاد بالدولة المسلمة مثلا، كأن الغرض ليس ادانة الجناة، وإنما محاكمة الإسلام والتاريخ العربى.

يتضح جلياً للمطلع على كتاب «مستعبدة» أن ثمة ممارسات، واعتداءات، وألفاظ إساءة معينة مقصودة ومستهدفة، يبدو، فى نقاط كثيرة متفاوتة بهذا الكتاب أن تجسيم حادثة ما مهينة أو لفظ إساءة لا يفتأ يتجاوز شخصاً بعينه إلى كل العرب والسودانيين، ويخلق منهما قضية برمتها، كالاستعباد، واضطهاد أعراف ونسب القبائل النيلية، واستبدال الإسلام القسرى، للديانات المحلية. قد تكون قضية منده حادثة شخصية دونما دلائل، كما قالت مجلة دير شبيجل Der Spiegel الألمانية المهمة، أن إثبات الرق فى السودان، لم يثبت إلى الآن، سوى فى حالات فردية، ملبسة بتصرفات شخصية خاطئة، عكستها وعممتها منظمات كنسية Evangelisch، متعمدة وصفها «كقمع مؤسس للديانات المحلية، وكاستعباد محض».

لقد طغت «سمعة» جنوب السودان، وغربه، كمنطقة استعباد، وتشغيل إجبارى دونما أجر، فيما تقلصت مشاكل أصدق، وأهم من ذلك كالوضع الاقتصادى، البيئى، والاجتماعى بصورته العامة، التى لا تقل فيها مشاق الشمالى / العربى، عن غيره من الجنوبيين، وأبناء جبال النوبا وغرب السودان.

فى التاريخ..

يحكى تاريخ المنطقة. كيف برز ما سمى بالسياسة الجنوبية، القائمة على فصل الجنوب الزنجى عن الشمال المسلم - كهدف استراتيجى - والحاقه بإحدى جاراته الأفريقيات، إن أمكن، على أساس أن عوامل الفصل العنصرية والجغرافية متوفرة، وأن بالإمكان إضافة فارق دينى يجعل الجنوب مسيحياً. وبعد هذا التخطيط أخذت الحكومة الاستعمارية فى تشجيع الإرساليات وتقديم المعونة لها للعمل فى أنحاء الجنوب.

وكان من أخطر القرارات الإدارية التى أصدرتها القوى الاستعمارية فى سبيل عزل الجنوب عن الشمال: إصدار قانون المناطق المقفولة، الذى لم يهدف إلى منع التأثير القادم من الشمال فحسب، بل هدف - أكثر من ذلك - إلى اجتثاث الثقافة الإسلامية التى كانت موجودة من قبل. فلقد وضع السكرتير الإدارى أولويات السياسة نحو الجنوب فى: العودة إلى القوانين والعادات واللهجات القبلية المحلية، ومحاربة الأسماء والعادات وطريقة اللبس العربية، وذلك بإخلاء الجنوب من الشماليين ومن المسلمين غير العرب - كالفلاتة - وجعل لغة التخاطب، وتشجيع التجار المسيحيين من الإغريق للعمل فى الجنوب. «......» ومن جماع كل ذلك، يتبدى لنا أن تنصير الجنوب لم يكن لهدف دينى بحت، وإنما كان - أيضاً - لخدمة الاستراتيجية الاستعمارية».

«وكان أن وجهت الإرساليات مناهج التعليم إلى منحى يشيع كراهية الإسلام والمسلمين. فالكتب المدرسية حوت سبا للإسلام، واتهاماً للنبى صلى الله عليه وسلم بالكذب وقطع الطرق وسفك الدماء، وأن الإسلام دين احتقار واضطهاد لغير العرب والمسلمين. «......» ويذكر الدرديرى محمد عثمان، أنه كان فى مهمة تعليمية فى الجنوب، فقابل أحداً من الجنوبيين أشار إلى شجرة كبيرة، ثم قال له (إن الإنجليز أفهموهم أن تلك الشجرة، كانت سجناً يحجز تحته المسترقون الذين كان يأخذهم الزبير باشا وكركساوى لبيعهم فى الشمال). وكانت الشجرة تجد عناية خاصة لإذكاء تلك الذكرى البغيضة».

وكما يذكر الدكتور البونى فى كتابه القيم البعد الدينى «فقد انحصرت أهداف التعليم فى تثبيت فكرة أن المسيحية هى الدين الأرقى، وأن الإنجليزية هى اللغة الأجمل، فكان يمنع حتى التكلم باللغة العربية فى المدرسة. وبينما كانت السياسات التعليمية فى الشمال تهدف إلى توفير الموظفين للحكومة، كان هدف التعليم فى الجنوب منحصراً فى نشر المسيحية والحد من انتشار الإسلام، فزاد ذلك فى التباين بين شقى القطر. «......» غير أن الكنيسة استطاعت خلق نخبة متعلمة تجاوزت الثقافة المحلية واكتسبت القيم الغربية فى تدينها وطريقة لبسها ولغتها، وتمسكت بالمسيحية لأنها منحتها هوية ثقافية تميزها عن تلك الشمالية الإسلامية.

لا أحد يمكنه إنكار فظائع شهدها جنوب السودان. ولكن القضية متشابكة وأكثر تعقيدا. فهناك القبائل التشادية التى توافدت، حيث المياه والمراعى إبان فترة الحكم العسكرى السابق وفى مرحلة النزاع بين هبرى وجوكى بتشاد. فنشأ عبر صراعها مع قبائل غرب السودان على الموارد الطبيعية لا يقل فيها التشاحن العرقى عن المصلحة الاقتصادية. وهناك النزاع الاقتصادى القائم أصلاً بين قبائل الزرقة والعرب بغرب السودان. القضية تقتضى تمحيص النظر فيها، والتصدى لها. بالاعتراف بحرية الرأى، وحقوق الإنسان، والمساواة العادلة فى الموارد الاقتصادية، والتنمية المتكافئة فى أصقاع السودان.■

أ. حمـد

الوباء الطائر

الحقيقة الأولى أن ما يناهز ٤٠ مليونًا قتلتهم «الأنفلونزا» عام ١٩١٨. والحقيقة الثانية أن العالم يعيش الآن حالة من الرعب خوفًا من الوباء الطائر. والحقيقة الثالثة أن هناك شكوكًا حول مدى جاهزية مجتمعاتنا بما نعرفه عن نظمها لمواجهة مثل تلك الكوارث.

وجهات نظر تنشر تقريرين ذوى صلة أحدهما نشرته الدورية الجغرافية الشهيرة National Geographic Magazine. والثانى ملخص لدراسة مفصلة أعدتها وزارة الصحة الإسرائيلية تناولت فيها خطط الطوارئ اللازمة محذرة من أن ربع سكانها سيكونون عرضة للإصابة بالوباء القاتل. ومؤكدة أن المرض مرشح للانتقال إلى الدولة العبرية بواسطة أفواج الطيور المهاجرة من أوروبا وتركيا والتى تمر رحلتها السنوية بإسرائيل فى طريقها إلى وادى النيل.

المحــرر

كابوس ١٩١٨

برايان هاندورك

قام العلماء بإعادة تركيب الشفرة الجينية لـ «الأنفلونزا الأسبانية» القاتلة والتى ظهرت عام ١٩١٨واجتاحت العالم قاتلة ما بين ٢٠ إلى ٤٠ مليون شخص. من ضمن ما وجدوه فى هذا الصدد كان أن الفيروس الذى ظهر عام ١٩١٨ تطور من الطيور وكان شبيها بـ «أنفلونزا الطيور» التى تسببت فى الوقت الحاضر بمخاوف من وباء عالمى جديد. بدراسة المعلومات الجينية لفيروس عام ١٩١٨ تمكن العلماء من استنتاج إمكانية انتشار أوبئة فى المستقبل أو حدوث حالة وباء واسعة الانتشار. وقد تساعد أيضا فى تطوير أمصال جديدة وأدوية مضادة للفيروسات وعلاجات أخرى قد تفيد فى مقاومة الأنفلونزا.

يقول جفرى تاوبنبرجر من معهد القوات المسلحة للباثولوجى فى روكفيل بولاية مريلاند «إن هدفنا هو التعامل مع أسئلة متعلقة بوباء عام ١٩١٨ »، والذى له أبحاث عديدة فى الموضوع نشرتها له مجلتا Nature و Science.

ويتساءل تاوبنبرجر «كيف تكون هذا الفيروس بالذات وانتقل إلى الإنسان؟ ولماذا هو بالذات فتاك إلى هذه الدرجة؟ وبمعنى أوسع، ما الذى يمكننا أن نتعلمه من دروس وباء عام ١٩١٨ ليفيدنا فى المستقبل؟».

لقد كانت فيروسات الأنفلونزا غير معروفة عام ١٩١٨ فلم يكن هناك سبيل لدراستها مباشرة من قبل الأطباء والعلماء أثناء الوباء ولا بعده.

ولكن بعض المؤسسات مثل معهد القوات المسلحة للباثولوجى احتفظت بعينات من الأنسجة لضحايا الوباء فى ١٩١٨. إن هذه العينات البالغة من العمر ٨٧ عاماً وأخريات لضحايا تم دفنهم وحفظهم فى جليد آلاسكا كانوا مصدرا لعينات ضئيلة من المادة الجينية التى استخدمت فى استجماع البصمة الجينية للفيروس.

وهكذا يصبح ممكنًا نشر أول خريطة لتسلسل الجينوم للفيروس. وكان العلماء قد استخدموا التسلسل الفيروسى الكامل لتخليق فيروسات حية تمتلك الجينات الثمانية لفيروس الأنفلونزا الأسبانية التى تم تحديدها كمصدر للوباء المدمر.

حتى لو تم تسريب هذا الفيروس فمن غير المتوقع أن ينتج وباء شبيه بالذى انتشر عام ١٩١٨ لأنه من المرجح أن يكون الإنسان قد اكتسب مناعة عبر العقود. فضلاً عن شروط الأمن شديدة الصرامة فى مركز مقاومة ومنع الأمراض فى اطلانتا بولاية جورجيا.

سلاح ضد الوباء القادم؟

يرى الكثير من الخبراء أن العالم غير مستعد لوباء أنفلونزا عالمى تأخر كثيرا. وسيكون الانتشار القادم للوباء قاتلا بنفس الدرجة التى كانت عليها الأنفلونزا الأسبانية والتى عرفت أيضا باسم H1N1 ويمكن أن تقتل عشرات الملايين.

فى الوقت الحالى لا يستطيع الخبراء تحديد الفيروسات التى يمكن أن تؤدى إلى الأوبئة ولكن المعلومات المتوافرة عن الأنفلونزا الأسبانية تساعد على تحديد السلسلة التى تتطلب منا مراقبة بحرص كبير.

وتعتبر H5N1 وهو سلسلة من الأنفلونزا الآسيوية تسمى أنفلونزا الطيور المرشح الأقوى للتحول لوباء. وهذا المرض الذى ينتشر بشكل رئيسى فى جنوب شرق آسيا يوجد بشكل أساسى فى الطيور ولكنه يظهر أيضا فى الثدييات مثل الخنازير والقطط والإنسان. ولقد قتل عدة عشرات من الناس ولكنه حتى الآن لا ينتقل بسهولة من شخص إلى شخص ولم يصل لدرجة الوباء.

إن تحليل السلسلة العائدة لعام ١٩١٨ كشف عن العديد من التحولات الموجودة أيضا فى H5N1. وتشير هذه الكشوف إلى أن السلسلتين تستطيعان الانتقال مباشرة من الحيوانات للإنسان بدون الاختلاط بفيروس الأنفلونزا التى تصيب الإنسان مباشرة.

ويقول أدولفو جارسيا- ساستر، أخصائى الماكروبايولوجى فى كلية ماونت سايناى للطب فى مدينة نيويورك «الأدلة التى نملكها عن عام ١٩١٨ تشير إلى أن الفيروس له أصول مرتبطة بالطيور بشكل كلى».

لن يكون جهاز المناعة عند الإنسان مستعداً لفيروس مصدره الوحيد هو الطيور حيث إنه لم يكتسب القدرة على مقاومته.

إن الأوبئة الأخرى فى نفس القرن عامى ١٩٥٧ و١٩٦٨ تسببت فيها فيروسات تعتبر هجين - فيروسات آدمية اكتسبت بعض صفات من فيروسات الطيور.

ويقول تاوبنبرجر «إن هذا الكشف يشير إلى أن الوباء يحدث بأكثر من طريقة وهى نقطة مهمة جدا. فنحن نتعرف على مجموعة من التحولات التى نرى أنها مهمة لتفسير كيف يمكن لفيروس طيور أن يتحول لفيروس آدمى».

ومع أن الأدلة ملحة إلا أنه لا يمكن للعلماء التأكد بنسبة مائة بالمائة من أن الأنفلونزا الأسبانية لم يكن لها وجود سابق فى السلاسل المعاصرة من الأنفلونزا التى تصيب الإنسان وأن مصدرها الوحيد هو الطيور إلا باستخدام عينات سابقة على عام ١٩١٨.

ويسأل جارسيا ـ ساستر «ما الذى يجعل فيروس يتحول من محمية طيور إلى الإنسان؟ إن (الرد على هذا السؤال) هام. إن الأنفلونزا بالأساس فيروس يصيب الطيور. توجد منه سلاسل عديدة فى الطيور والقليل جدا منها فقط هو الذى يصيب الإنسان؟ وتحدث الأوبئة حين يتحول أحد هذه السلاسل من الطيور إلى الإنسان ويتمكن من الانتقال من شخص إلى الآخر.

الفيروسات القاتلة قد تنقذ أرواحاً

يتخذ المسئولون فى مركز مقاومة ومنع الأمراض إجراءات صارمة لحماية فيروس عام ١٩١٨ رغم أنه لن يؤدى فى الغالب إلى وباء إذا انتقل إلى السكان.

وأثبتت الدراسات أن الفئران التى تم حقنها بأمصال الأنفلونزا الحديثة اكتسبت مناعة ضد فيروس عام ١٩١٨.

ويقول جارسيا- ساستر «نحن نعلم أن كل الأوبئة السابقة نتجت عن ظهور سلسلة جديدة. هذا ما حدث فى ١٩١٨ و١٩٥٧و١٩٦٨».

كما يضيف «هناك أيضا أدلة تشير إلى أن من كانوا أكبر من ٤٠ عامًا فى سنة ١٩١٨ نجوا من الوباء وقد كان أحد التفسيرات لهذا الأمر أن من هم أكبر من ٤٠ عاماً قد تعرضوا لفيروس H1 من قبل واكتسبوا مناعة ضده».

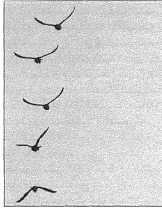
الآن وبعد مرور عقود على الوباء يمكن لفيروس عام ١٩١٨ أن يصبح سلاحاً وليس خصماً.

تقول جولى جريردينج، مديرة مركز مقاومة ومنع الأمراض «أظن أننا استطعنا كشف فيروس ١٩١٨ وهو بدوره يكشف لنا بعض الأسرار التى ستساعدنا على أن نكون مستعدين للوباء القادم». ■



بترتيب مع
National Geographic News
أكتوبر، ٢٠٠٥

ترجمة: نرمين نزار



الوبـــــاء الطـــــائر
فــى طـريـقـــــه
إلــى وادى الـنـيــــل

سيناريو رعب إسرائيلى

صالح محمد النعامى



إسرائيل استعدت منذ العام ١٩٩٧ لإمكانية تفشى هذا المرض، وشكلت وزارة الصحة العديد من الطواقم المهنية من كل التخصصات ذات العلاقة لوضع خطة «قومية» لمواجهة احتمال تفشى المرض



تعيش الدولة العبرية حالة من الهستيريا فى أعقاب صدور دراسة عن وزارة الصحة الإسرائيلية تفيد بأن ربع سكان الدولة مرشحون للإصابة بمرض «أنفلونزا الطيور»، الذى سجلت الإصابة به فى دول جنوب شرق آسيا وكازاخستان وتركيا ووصل أخيراً إلى دول أوروبا الشرقية. وتؤكد الدراسة التى أعدها خمسون مختصاً فى كل المجالات الطبية أنه أصبح فى حكم المؤكد أن هذا المرض سيتفشى فى الدولة العبرية. وتتحدث الدراسة عن سيناريو رعب حقيقى يتمثل فى تأكيدها أنه من المتوقع أن يعانى ربع سكان الدولة من هذا المرض، أى مليونا وستمائة ألف شخص. وتؤكد الدراسة أنه من المتوقع أن يموت ٢٩٠٠ إسرائيلى بسبب المرض، فى حين سيضطر ٧٨٠٠٠٠ إسرائيلى لمراجعة طبيب، و١٠٠٠٠ سيضطرون لتلقى علاج فى المستشفى. وتشير الدراسة إلى حقيقة أن نصف الذين ثبتت إصابتهم بالمرض فى دول جنوب شرق آسيا قد توفوا، الأمر الذى يجعل المعطيات التى تقدمها الدراسة عن عدد الوفيات المتوقعة فى إسرائيل «متفائل» إلى حد ما. وتتوقع الدراسة أن يتفشى المرض فى الدولة خلال الشتاء القادم، مع العلم أن الدراسة تتوقع ألا يقتصر انتشار المرض على المدة الزمنية التى اعتادت الأنفلونزا التفشى خلالها، وهى من شهر نوفمبر وحتى مارس، بل أنها تتوقع إلى يمتد إلى جميع أيام السنة. وإن كانت لا تستبعد أن يتم هذا بشكل متدرج، مستذكرة أن فترة حضانة الفيروس المسبب للمرض فى الجسم تتراوح من ٢٤ -٧٢ ساعة. وتؤكد الدراسة إلى أنه لا يمكن تحديد الفئات العمرية المرشحة للإصابة، وإن كانت تتوقع أن تمس بالأشخاص فى أطراف العمر من أطفال وعجزه بشكل أساسى، لكنها تستذكر حقيقة أن معظم الوفيات التى تفشت فى بريطانيا فى العام ١٩٥٧ بسبب أحد أنواع الأنفلونزا كانت بشكل خاص من الشباب. وتتوقع الدراسة أن يعانى كل شخص من المرضى لفترة تتراوح من ٤-٥ أيام. وتفيد الدراسة أن نسبة الإقبال على تلقى العلاج فى المستشفيات سترتفع بنسبة ٤٠-٦٠٪، وتطرأ زيادة بنسبة ٦٠٪ على عدد الذين يحتاجون للتنفس الصناعى، مع العلم أن المشاكل فى التنفس هى أحد أهم الأعراض المرافقة للإصابة بالمرض.

وتتوقع الدراسة أن يؤدى تفشى المرض فى الدولة العبرية إلى خسائر اقتصادية هائلة. وحسب الدراسة فإن العمل فى دوائر الدولة والمؤسسات الخاصة سيتعطل بشكل واضح. وأكثر مواطن القلق فى هذا الجانب كما تشير اليه الدراسة هو حقيقة أن العاملين فى الطواقم الطبية هم المرشحون ليكونوا الأكثر تعرضاً للإصابة بالمرض بسبب اضطرارهم للاحتكاك بالمرضى، وهذا يعنى إضافة مزيد من الصعوبات على قدرة الدولة العبرية على مواجهة المرض. وتتوقع الدراسة أن يتم إقفال المدارس وبالذات الابتدائية، وتستذكر الدراسة أن ٥٠٪ من طلاب المدارس الابتدائية فى بريطانيا تغيبوا عن المدارس فى العام ١٩٥٧ عندما تفشت الأنفلونزا. ويفترض أن تطور وسائل الاتصال وسهولة متابعة الناس لتطور تفشى المرض لن يزيد إلا فى مفاقمة الشعور بالفزع الذى سيعم الدولة العبرية. الدراسة وإن كانت لم تستطع حصر الخسائر المتوقعة لتفشى هذا المرض، إلا أنها تشير إلى معطيات المركز الأمريكى لمراقبة الأمراض الذى يتوقع أن يمنى الاقتصاد الأمريكى بخسائر تتراوح بين ٧١- ١٦٦ مليار دولار فى حال تفشى المرض فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وتشير الدراسة إلى أن المرض مرشح للانتقال لإسرائيل بواسطة الطيور المهاجرة من أوروبا وتركيا وتمر بإسرائيل فى طريقها لدول شمال أفريقيا. وتفترض الدراسة أن عدداً كبيراً من هذه الطيور ستكون مصابة بالمرض وتحمل الفيروس المسبب له. إلى جانب ذلك فإن هناك احتمالاً أن ينتقل المرض للدولة عن طريق عشرات الآلاف من العمال الأجانب الذين يفدون للدولة العبرية من دول جنوب شرق آسيا التى تمت فيها العام الماضى عشرات من حالات الإصابة بالمرض. ولا تساهم حقيقة أن معظم هؤلاء العمال يعملون بشكل غير قانونى إلا فى مضاعفة الخوف، حيث سيكون من الصعوبة بمكان تحديد مكان العمال المصابين بالمرض وطردهم إلى بلدانهم. وذلك على الرغم من أن الدراسة تشدد على أنه تم تسجيل حالات قليلة جداً تمت فيها الإصابة بالمرض عن طريق انتقال فيروس المرض من إنسان إلى آخر، حيث تبين أن أكثر حالات الإصابة تمت عن طريق انتقال الفيروس من الطير للإنسان. وتشير الدراسة أن إسرائيل استعدت منذ العام ١٩٩٧ لإمكانية تفشى هذا المرض، وشكلت وزارة الصحة العديد من الطواقم المهنية من كل التخصصات ذات العلاقة لوضع خطة «قومية» لمواجهة احتمال تفشى المرض. ومن ضمن الإنجازات التى حققها أعضاء هذه الطواقم هو وضع هذه الدراسة. الذى يثير المخاوف فى إسرائيل بشكل أساسى هو حقيقة أن مساحة الدولة العبرية صغيرة نسبياً، الأمر الذى يصعب عملية عزل المناطق المصابة بالمرض. وتذكر الدراسة أنه فى القرون الأربعة الماضية عانى العالم من واحد وعشرين وباء ناجمة عن تفشى الأنفلونزا، ومن بينها ثلاثة تفشت فى القرن الماضى، كان أخطرها «الأنفلونزا الأسبانية التى تفشت بشكل أساسى فى أوروبا من العام ١٩١٨ إلى ١٩٥٧ وأدت إلى وفاة ٥٠-١٠٠ مليون شخص.

وتؤكد الدراسة أنه بعد الخلاص من مرض أنفلونزا الطيور، فإنه لابد أن يطرح السؤال التالى: هل سيتفشى مرض أنفلونزا جديد فى أرجاء العالم؟، بل متى سيتفشى هذا المرض؟

إجراءات هستيرية

وكما هو الحال فى إسرائيل دائماً، فإنه حتى فى مواجهة هذا المرض لا يمكن فصل الاعتبارات الاستراتيجية الخاصة بالدولة التى تريد إقناع اليهود بكل وسيلة أن العيش فيها هو الأفضل لهم. من هنا فإن الدراسة الإسرائيلية توصى باتخاذ إجراءات يمكن وصفها بالهستيرية من أجل مواجهة المرض. وتهدف الإجراءات التى توصى بها الدراسة القيادة السياسية باتخاذها من

أجل مواجهة المرض إلى تقليص فرص إمكانية انتقال الفيروس من شخص إلى آخر. وتشمل التوصيات:

١- تشكيل هيئة حكومية مهمتها مراقبة سبل مواجهة المرض والحرص على اتباع الإجراءات الصحية إلى يتم إقرارها من قبل وزارة الصحة، بحيث تعمل هذه الهيئة على مدار الساعة.

٢- وقف استخدام وسائل النقل العامة فى الدولة العبرية بشكل عام، بما فى ذلك وقف العمل فى خطوط القطارات وحافلات النقل العام، وإغلاق المدارس والمراكز الجماهيرية، ودور السينما والمسارح.

٣- تشجيع سكان الدولة فى المرافق الخاصة على العمل من داخل المنازل عن طريق نقل التعليمات من أرباب العمل للعمال عبر الهاتف والفاكس، وذلك فى المرافق التى يمكن أن تسير فيها الأمور على هذا النحو.

٤- توزيع الكمامات الواقية التى تزخر بها مخازن قيادة الجبهة الداخلية التابعة لهيئة أركان الجيش الإسرائيلى على سكان الدولة واستخدامها فى تنقلاتهم، مع العلم أنه عادة ما يتم توزيع هذه الكمامات من أجل مواجهة إمكانية استخدام سلاح كيماوى أو بيولوجى فى هجوم على إسرائيل.

٥- وتوصى الدراسة بإجراء متطرف يتمثل فى إمكانية عزل المرضى فى بيوتهم بدلاً من نقلهم للمستشفى وذلك بالطبع باختيارهم.

٦- منع التحرك داخل الدولة العبرية فى المناطق التى سجلت فيها حالات إصابة بالمرض بين السكان، وتقليص سفر الناس لهذه المناطق.

٧- تجنيد أعداد كبيرة من مفتشى الصحة ووضعهم فى الموانئ والمطارات والمعابر الحدودية لتوقيف كل شخص تظهر عليه أعراض المرض المتمثلة فى ارتفاع درجة الحرارة والإسهال وضيق التنفس وإخضاعهم لفحوصات طبية عاجلة، وستتم إعادة كل شخص تثبت إصابته بالمرض إلى بلده إن كان «أجنبياً»، وإن كان إسرائيليا يتم عزله بشكل فورى. أما الإسرائيليون القادمون من مناطق تعانى من المرض فإنه سيتم إخضاعهم لفحوصات حتى لو لم تظهر عليهم أعراض المرض.

٨- وتوصى اللجنة بإعداد بنية قانونية تسمح بإضفاء شرعية قانونية على هذه الإجراءات، وذلك عن طريق قيام الكنيست بسن قوانين تمد مؤسسات الدولة بهامش مناورة واسع لاتخاذ ما تراه مناسباً من أجل مواجهة المرض. وهناك تخوف من أنه بدون سن قوانين جديدة فإن هذه الإجراءات قد لا تنجح فى اجتياز الالتماسات التى ستقدمها للمحاكم من قبل أصحاب المصالح الذين سيتضررون من القيام بهذه الإجراءات.

شكوك

وتعبر الدراسة الإسرائيلية عن تخوفها من إمكانية أن تتفشى النسخة الجديدة من الفيروس الذى يسبب مرض «أنفلونزا الطيور»، وهو الفيروس الذى تؤكد منظمة الصحة العالمية أنه لم يتم حتى الآن تطوير أمصال مضادة له، مع العلم أنه تم تطوير أمصال ضد الفيروسات الثلاثة الأخيرة التى ثبت أنها تسبب المرض أيضاً. وتنوه الدراسة إلى أن تطوير مصل مضاد للفيروس الذى يسبب «أنفلونزا الطيور» يحتاج لفترة تتراوح من ٤- ٦ شهور، وتشير إلى أن إنتاج هذه الأمصال سيكون بطيئاً، ولا تستبعد الدراسة أن تضطر الدولة العبرية كسائر دول العالم إلى استخدام الأمصال التى تم تطويرها فى الماضى للنسخ القديمة من الفيروسات التى تسبب الأنفلونزا. وترى الدراسة أنه حتى لو استطاعت دول العالم تطوير أمصال مضادة للفيروس، فإن قدرة الفيروس على مواءمة نفسه مع الظروف، فضلاً عن الآلية المعقدة التى يتبعها فى إصابة الطيور والإنسان تجعل من الصعوبة بمكان إمكانية مواجهته بنجاح. وتستذكر الدراسة أن الفيروس يصيب الإنسان، إما عن طريق «إعادة التشكل» (reassortment)، أو عن طريق إحداث تغيير فى تركيب جيناته (genetic shift). وتشير الدراسة إلى أن الطواقم الإسرائيلية تعكف على أبحاث متواصلة من أجل تطوير أمصال ضد الفيروس. وتقر الدراسة بأن إمكانية مواجهة هذا المرض ستكون عسيرة. وترجع قدرة هذا الفيروس بشكل أساسى إلى قدرته العالية على إصابة الإنسان وتمتعه بقدرة على مواءمة نفسه مع الظروف المتغيرة، وتحديدا قدرة الجينات التابعة لمولدات الجينات (antigens) الخاصة بالفيروس على التشكل من جديد بشكل مفاجئ، مع العلم أن مولدات الجينات الخاصة بالفيروس هى: Hemagglutinin ÈNeuraminidas. ومن الأهمية الإشارة إلى أن هناك مولدات جينات أخرى للفيروس تتواجد فى كائنات حية أخرى، سيما الطيور والخنازير. ■

كتاب الزاوية



ديوان الطرب

سلامة حجازى

إن كان يوسف للجمال دعاكموا

إن كان يوسف للجمال دعاكموا ... فأبوه للأحزان فيه دعانيا

إن كان يوسف قطعت أيد له ... فأنا الذى لك قطعت أحشائيا

إن كان إخوته تعمدوا بيعه ... فأنا الذى برضاى بعت فؤاديا

إن عاد يعقوب بحزن فراقه ... فأنا الذى بالقرب أصل غراميا

إن كان أيوب له فى صبره ... فرج فصبرى فيك أصل بلائيا

ياليت موسى حين شق بحاره ... قد شق بحر مدامعى وبكائيا

دور

ارحم أسيرك وانظر لعبدك ... يا حلو مرة وحياة عينيك

وانظر إلى وارحم بقلبك ... يا حلو حبك ما يهون عليك

يا بدر واصل عشاق جمالك ... بعد البعاد يا عينى وارحم

ليه انت يا سيدى باخل تمنع ... وصالك والقلب فيك مغرم

يا قلبى مالك م العشق تبكى ... حدش عشق يا قلبى غيرك

شوف انت يا سيدى حالك يكفى ... تشكى واحسن بقى سيرك

حكايات عزمي بشارة



أحمد أبو حسين

■■ عندما أهديت «حب فى منطقة الظل.. رواية شظايا مكان» الطبعة الفلسطينية لأحد الأصدقاء فى القاهرة قبل صدورها عن دار الشروق المصرية والمركز الثقافى العربى فى بيروت قال لى لحظة تناوله الرواية : «غريب أمر عزمى بشارة.. أنه مذهل وخلاق.. من أين له كل هذا الوقت». أصاب الصديق فى تقييمه الأولى من مجرد رؤية الكتاب قبل الغوص فى كلام الرواية ربما لأنه متأكد أن عزمى بشارة لا يقول مجرد كلام للاستهلاك فى زمن استهلاك الكلام و«فوضى الحواس» الروائية والانقضاض على روايات هارى بوتر بموجب قوانين السوق الاقتصادية. فقراءة الكتب فى هذه الأيام باتت فى نظر الكثيرين استثمارا غير «مجد» فى زمن «الاستهلاكية» وعصر السرعة والاكتفاء بالثقافة «السمعية» والوجبات السريعة و«مشهدية» الفضائيات، لكننا رغم ما ذكر وما نشهده من حالة «ثقافية» مترديه نراهن على كتاب لعزمى بشارة توزعه ثلاث دور نشر فى آن واحد كى يصل إلى المواطن العربى ولا يكون شهادة عن عذابات أو «رسالة فى الحب والأخلاق» فحسب أو مجرد رواية للتسلية إنما نطمح الى تعميم رواية (روايتنا)، ونهدف إلى توضيح رؤية لفكر وطروحات وإيضاحات روائية حديثة من خلال تصوير أدبى رائع وأسلوب كتابة من نوع آخر لتجربة عشقية «واقعية» يمكن تسميتها «ما بعد حداثية» يسرد خلالها حكايات عن الناس وللناس.

البلاد مليئة بالحكايات، ولكل واحد عالمه وحكايته، والحكايات عند عزمى بشارة «الحكواتى» أو «الحكاى» كما يقول إخواننا المصريون بالعامية لا تنتهى، وربما لا تنتهى وقد لا تنتهى، لأن الحكاية ستتحول إلى نوستالجيا «ليست مثلما كانت» كما تقول الممثلة الفرنسية الشهيرة الراحلة سيمون سنيورى، والنوستالجيا تحمل الحنين إلى ماض والمعاناة الناتجة عن الرغبة غير المشبعة بالعودة.. وهى أيضا الحزن الناتج عن الحنين إلى مسقط الرأس والمنزل كما يقول الروائى البرتغالى ميلان كونديرا. والناس فى بلادنا يحبون «صف الحكى» من باب «الفضفضة» عن حالهم، وقد يروى الواحد حكايته أكثر من مرة لأكثر من شخص، وجباية الحكايات وتحويلها إلى رواية ليست بالأمر السهل وغالبا ما قرأنا روايات عربية تحاول أن تعكس الواقع وتصوره لكن المبالغة المصحوبة ببلاغة زائدة تجعلك تترك الراوى بين كلماته، لكن علاقة عزمى بشارة مع الواقع ومع النظرية ومع الأدب مختلفة وحكايات عزمى بشارة عن الناس من خلال تجربة حب بين عاشقين رحلة ممتعة ومؤلمة، مضحكة وحزينة فى آن تشدك إليها رغما عنك.

وهناك فى «دولة الحاجز» أو فى «منطقة الظل» عندما تشرق الشمس وتلقى بظلها على الناس تتشوه الكلمات والمعانى والرواية والثقافة والهوية بعدما حاصرها الحصار، واقتصرت الأعمال «الإبداعية» فى العقد الأخير على قصيدة هنا وديوان هناك يوزع حصرا على أصدقاء الشاعر وغالبا ما يبقى مفهوم القصيدة محجوزا فى أحشائه بعيدة عن الهم العام، لنكتشف بعد حين أنها ثورة فى الأحشاء ونذالة ووجهنة فى العلن مع فقدان الناس جرأتهم فى زمن استهلاك الحاجيات كما ذكرت واستهلاك الكلمات إذا استهلكوها أصلا.

وقبل أن أدخل فى تفاصيل الرواية الجديدة أو التجربة الثانية التى خاضها عزمى بشارة بعد «الحاجز.. شظايا رواية» والتى بشرت لنا أن كاتبها لديه ما يقال فى هذا المجال وأنه يستطيع أن يروى حكايتنا.. روايتنا نحن الفلسطينيين القابعين فى وطن.. المكان الذى تشظى بفعل وجود دولة القادمين.. التى قسمت فلسطين إلى دولة الحاجز وبلاد الحواجز. لكن بشارة هذه المرة لن يسمح للمكان أن يشظى روايته لأن المكان متشظ أصلا مثلما تطاول الحاجزعلى روايته الاولى وشظاها وجعلها صورا واقعية تراجيكوميدية وبرغم ذلك اجتاز بشارة الحاجز وبقى فى المكان وأنجز رواية تستحق الانتباه بإمعان، روايته الجديدة، «حب فى منطقة الظل».

وأبيح للقارئ ببعض الأسرار، لأننى منحاز لعزمى بشارة الصديق الكاتب والمفكر الديموقرطى القومى العربى، أن هذه الرواية أقلقته كثيرا أثناء الكتابة فكان مهتما بإعادة السرد أكثر من مرة والتدقيق بالتفاصيل وتغيير الأسماء ما عدا الأبطال الرئيسيين عمر ووجد ودنيا. فأنا شخصيا قرأت الرواية ثلاث مرات مع كل التغييرات وأعرف أنه يعكف على هذا العمل منذ سنتين، ولا أخفى أننى أتعامل مع نصوصه كقارئ وصاحب موقف وأحد المتحمسين لمشروعه الثقافى والفكرى وليس كناقد أدبى مع احترامى لنقاد الأدب والسينما والرياضة، لأن أدوات النقد الأدبى ومعرفة هوية المبنى وجماليات اللغة والحبكة يحملها النقاد وأتركها لهم لأنى لا أسمح لنفسى أن أعتدى على ممارستهم المهنية «وأكل عيشهم». ومهما قيل أو سيقال مع الاعتذار سلفا للنقاد يستطيع القارئ أى قارئ حتى لو لم يكن نبيها أن يقرأها حتى النهاية ويعيشها إذا أراد فعلا أن يعرف الرواية وفق عالم الراوى.

فليعذرنى القراء على هذا الانحياز «الموضوعى» للرواية لأن الكاتب صديقى أو اتخذت مواقف مماثلة لمواقفه أو ربما لأننا ننتمى لنفس «العالم»، لكن هذا الانحياز يشكل للقارئ شهادة من قريب تساعده فى فهم بعض خيوط الرواية.

ينفعل قراء الرواية وخاصة المثقفين من كل رواية يجتازون حواجزها وإن تعددت الروايات العربية التى لا تستحق استكمال حكاياتها حتى النهاية فالقراءة شبيهة أحيانا بالاستماع للراوى لأن هناك علاقة بين العين والأذن، بين الصمت والسمع فعندما يكون الراوى «نشازا» تترك المكان وعندها تتصعب من القراءة والفهم وتدخل فى التعقيدات غير المبررة تسقط الكتاب إلى تحت السرير لتنغمس فى النوم شاردا من الرواية والاتعاب الذهنية. وما فعله الراوى «فى حب منطقة الظل» فعله جوزيه ساراماغو فى العمى عندما «جرجرنا» حتى نهاية روايته لنعرف سر ما يريد، وهكذا فعل بى مؤخرا غابرييل غارسيا ماركيز فى «ذاكرة غانياتى الحزينات» فقد استغل غريزة فضولى لأعرف «الفضائح» الجنسية لرجل تسعينى. أما عزمى بشارة فقد «جرجرنى» وجعلنى أبحث من باب الفضول أيضا عن شخصية عزمى بشارة فى الرواية، فوجدت ألمه وجنونه، همومه وثقافته، ديموقراطيته و«ثوريته» العقلانية، صمته المميز وأسلوبه فى الكلام ومحاولاته الذكية فى «حشر» من يحاور، صفات تجدها فى شخصيتى

حب فى منطقة الظل
رواية شظايا مكان
عزمى بشارة
تصدر قريبًا عن دار الشروق

الرواية، وكأنه وزع نفسه بين العاشقين عمر ودنيا، وبينهما وبين عمو صلاح.

ومن قرأ «طروحات في النهضة المعاقة» لعزمي بشارة الصادر عن دار الريس ٢٠٠٣ الذي قدم خلاله في حينه قراءة للواقع الاجتماعي ومعيقات النهضة العربية المستعصية وأنتج لنا «البوم صور عن مثقفي إعاقة النهضة»، سيستسهل فهم الحوار المستمر بين عمر ودنيا في «حب في منطقة الظل».

يستطيع الناقد اعتبار الرواية «رومانسية»، لأنها فعلا لا تخلو من الرومانسيات الجميلة وأحاديث عن الحب والسياسة و«الغيرة» و«أحمر الشفاه والميك أب» ومعاني الشرف والوطنية وسمات الرجل الشرقي والخيانة... إنها باختصار قصة «حب لرجل مسكون بهواجس الحرية والسعادة والأخلاق والجمال والعدالة... والسياسة». ويستطيع ناقد آخر أن يعتبرها رواية سياسية وحكايات عن الناس في «إسرائيل» أو دولة الحاجز كما اختار الكاتب أن يسميها وتعمّد في الرواية عدم ذكرها باسمها ربما عقابا منه لما فعلت بناسه وأهله... لدرجه انه جعل ظل بطله يظهر فجأة «كأنه خرج منه ، وطال وتركه إلى أن اعتقد أنه تقيأ ظله .. لا يخلو الحوار الرومانسي بين العاشقين عمر ودنيا من «السياسة» الطاغية على قصتهما، فالحوار نفسه هو «رومانسية سياسية وتمرد عليها في آن» ، يشكو عمر همومه وقلقه لدنيا، أما دنيا فتحاول أن تتنازل لعمر بما يرضي، أو توازن حدته أو تحرجه وتكتشف ضعفه أيضا، ولكنها تحبه قبل كل شيء وهو يحبها، والرواية كلها قصة حب..

يقول عمر لدنيا «أنا أصف لك ما أحس به. أنا أعيش هنا، غيري يكره شعبه ويحب «القضية»، يا دنيا، يتكبر على العيش مع شعبه، أو على الأقل لا يطيق ذلك، ويطل عليه أحيانا فيبدو نجما متواضعا، من السهل أن تبدو كمن يحب شعبه إذ تطل عليه مرة في العام. وحضرتك لست قاسية هكذا بالكلام، ولكنك غير مستعدة أن تعيشي هنا وربما أنت قاسية بسلوكك الحياتي، لا يخطر ببالك العيش بمثل هذا المحيط، ومتهاونة في تقييمك لأنك تتسامحين عن بعد، وأنا قاس بتقييمي ولكني أعيش مع الناس. لنر إذا كنت، حضرتك، سوف تتسامحين مع الوضع عندما تضطرين أن تعيشي معه.

وتجيب دنيا- ومع من أعيش أنا ؟ من قال لست مستعدة؟

ويرد عمر- ربما مستعدة أن تأتي لتعيشي معي، ولكن لن تختاري أن تعيشي هنا كما اخترت أنا... فترد عليه دنيا أن لا أحد فينا اختار أين يكون.

لا بد من العودة إلى الحاجز

أمر ما شدنا في حينه إلى رواية الحاجز، إنها رواية وليست خواطر اختارها استلهاما محض صدفة، وهي «مفككة» بأسلوب تمنح القارئ فرصة البداية من أي باب يختاره وفي كل باب من الرواية يلتقي بطلها، والبطل ليس فقط مكانا أو زمانًا، انه معشش أيضا في النفوس ويترك أثره عليها.

«الحاجز» بطل كل الفصول والمشاهد وهو الذي يشظّي المكان والناس، إضافة إلى «مقتهم»، والحاجز عند عزمي بشارة لا يقتصر على ذلك الحاجز بين الطرقات فحسب، إنه موجود في كل مكان، في الجسر والمطار وحضور الجنازة والزفاف وفي الطرق الالتفافية وعند شاطئ البحر. انه الواقع المر الذي يهين الناس والزمن. فماذا يعني أن تمنع من ممارسة طقوس الحياة وأن تختار شريكتك دون حواجز، حتى الوداع الأخير والجنازات يحجزها الحاجز.

كتب عزمي بشارة في «الحاجز» بلغة أخرى لم يعرفها من قبل الذي تعود على مقاله السياسي أو الفلسفي ففاجأ الكثيرين بمقدرته على كتابة الأدب، وإن كنا لمسنا هذا الأسلوب في مقطوعات من مقالاته الكثيرة، إنه يروي همومه بدءا من الحاجز «المحسوم» بالعبرية الدارجة بلغة أهلنا سكان بلاد الحواجز أو «المحتوم» كما تسميه ابنته الصغيرة «وجد» التي اختارها هذه المرة «بطلة من هذا الزمان» في روايته الجديدة ليغوص بالهم العام الذي يخلفه الحاجز ولينهي روايته «الحاجز» بحديث طفولي بين وجد وعمر. وقد اختار الأخير أيضا بطلا «لتجربة في العشق».

من كتاب إلى آخر، من شظايا رواية إلى رواية، من «الحاجز» إلى ظل الحاجز وظل عمر و«وفقدان عمر ظله» وعودة الظل إلى مسقط الرأس وظل الظل.. «وتقمص الصحفي دور ظل الصحفي أو الصحفي ظل السياسي» و«ظلال السياسيين التي أنجبت أنصاف صحفيين» «واتهام الظل منافسيه من الباقين بالتطرف».

تكشف الرواية وقاحة ظل الحاجز وتوضح للقارئ حقيقته.. يقول الراوي ص ٣١١ «الناس خارج دولة الحاجز غير معتادين على وقاحة «ظل الحاجز» خاصة عند الظهيرة أي عندما تضرب الشمس الحاجز عموديا فيكون الظل على نقطة التماس تماما بين عالمين، مما يضيف نمط الوقاحة المحمودة في دولة الحاجز. وهم يستغربون من وقاحة الظل القادم من منطقة الظل القادم من منطقة الحاجز، ويحسبونها تعبيرا عن أهمية أو خطورة الوقح».

وانتظرت عزمي بشارة ليروي لنا حكايات عمر مع عشيقته دنيا، «الحب الحلم لعمر» الفتاة التي طالما حلم بها، مارس معها «الحب» والكلام على «التشات» مجتازا كل الحواجز من الأسلاك الشائكة والحدود وحدود الكلام لدرجة أن دنيا تغضب من قسوة عمر لكنها سرعان ما تلين وتتراجع لأنها تحبه أو لأنها فهمت «جنونه»، أو لأنها تكتشف جنونها هي أيضا.

فجأة تتذكر علاقة الفلسفة بالجنون، ولأنك أمام كاتب يمسك زمام الفلسفة، تشعر أنه يعيدك إلى جنون مشيل فوكو الذي يعتقد أنها «الممارسة اليومية المنتظمة».. كل يوم مماحكات على التشات، فجأة تكتشف أن العزلة التصويرية للجنون عن العقل هي اللاعقل. عصبيات مماحكات عمر وفضوله اليومي وحبه للأشياء والأسئلة الزائدة تذكرك بهذا الجنون ويغضبك أن تتساءل فعلا ما هو الجنون.. لا تستطيع أن تفهم حماقات عمر غريب الطباع لكننا نلتقي مع فتاة تعرف أن تحب وأن تفهم حبيبها.

فجأة «تصفن» وتشرد أذهانك من الرواية لتبحث عن العلاقة بين الفلسفة والأدب.. وتتعامل مع الراوي كمناضل سياسي يرسخ خطابا من خلال ما يروي وما يسرد وما يضع من أفكار ووجهات نظر على شكل حكايات مصوغة في بناء استدلالي من المقدمات والشرح والنتائج.

والخطاب يحتاج إلى معرفة وكلمات.. والرواية «التاريخية» تحتاج إلى خطاب يستند على المعرفة والكلمات، الحداثة والمدنية ، الأصالة والتراث .. الكمبيوتر وعلم الحاسوب والعمل في النجارة ورائحة الخشب واستحضار ما تندب النساء من «بقايا التراث» عند موت عزيز .. والتراث شأن من الماضي لكنه حي عالق في الذاكرة له علاقة مع الهوية والذاكرة الجماعية .

عمر ودنيا وعمو صلاح

عمر الأكاديمي وخريج كلية الحاسوب من جامعة أوروبية يعيش داخل دولة الحاجز، عمل في شركات الهاي تيك وستارت أب، وبعدها تنقل للعمل في مهن مختلفة كالصحافة والنجارة.. والده على الجنابي المثقف الذي درس في الكلية العربية قبل النكبة، لم يستطع في دولة الحاجز أن يمتلك بيتا بعد أن صادر الحاجزيون أرضه، فقد أصدقاءه بفعل التشرد ولم يبق له في البلاد غير عمو صلاح صديقا، وعمو صلاح يصغر على الجنابي بصفين في الكلية العربية في القدس، كان مناضلا من اجل نشر العلم والثقافة وتحرير الوطن وكانت تربطه بعمر علاقة خاصة لدرجة انه اصطحبه معه ليعرفه على دنيا ابنة ابن عمه المتوفى.

تعرف عمر على دنيا ←



الرواية «رومانسية»، لأنها فعلا لا تخلو من الرومانسيات الجميلة وأحاديث عن الحب والسياسة و«الغيرة» «وأحمر الشفاه والميك أب» ومعاني الشرف والوطنية وسمات الرجل الشرقي والخيانة



كتاب الزاوية



ديوان الطرب

سلامة حجازى

أتيت فألفيتها ساهرة

أتيت فألفيتها ساهرة	وقد حملت رأسها باليدين
وفى صدرها زهرة ناضرة	رأيت بأطرافها دمعتين
وقد وقفت دمعة حائرة	على خدها مثل ذوب اللجين
فقلت علام البكا والحزن	وكيف مضى ذلك الابتسام
فقالت هو الدهر لا يؤتمن	وفى قوسه منزع للسهام
رضيت الذكاء رضيت الحسب	رضيت اليراع يخط العجب
سلام على روحك الطاهرة	سلام على سر ذاك الكمال
سلام على ذاتك الحاضرة	بقلب يراها بعين الخيال
سلام على مهجة طائرة	حنينا إلى ذلك الاتصال
تفرقنا عاديات الزمن	وتجمعنا حادثات الغرام
فنحيا جسوما بهذى الفنن	ونحيا نفوسا بذاك السلام

دور

بستان زمانى واتلطف	وشفت حبى فى البستان
فقلت له لما شرف	والله زمان يا حلو زمان

وأحبها فورا وقرر أن دنيا هى الفتاة التى يستطيع أن يحبها، ودنيا بنت لاجئين فى لبنان أرسلها والدها لتتعلم الطب فدرست العلوم السياسية، وعندما التقت بعمر هبطت فى حبه «هبوطا رقيقا عذبا» فبعد اللقاء الأول راحا يتحدثان مع بعضهما فى «المسنجر» على الإنترنت، وجلسا ساعات طويلة يتبادلان الحوار والنقاش والمماحكة والغضب والمزاح فى أرخص وأسهل وسيلة اتصال ممكنة. «وأدت موجات لغضب إلى فراق وعودة متكررين على الإنترنت» ص١٠، لأنه كان يحبها، يحبها فعلا.. يقول ص١١ «يحدث أن يعيش الناس ويموتون دون تجربة حب فعلية، أما أنا فلا أحب فقط بل أحب تلك التى حلمت أن أحبها فكيف أتخلى عن هذا؟... كيف نتخلى عن هذا؟».

كتب عمر لدنيا عن الحواجز وحكايات «الحب المحجوز خلف الحواجز» وفلسف لها أسباب وجود القادمين فى دولة الحاجز، يقول عمر ص ١٧ «صحيح أن القادمين مهاجرون إلى ما يعتقدون أنها بلادهم، ولكن الباقين ليسوا باقين فحسب بل أيضا مهاجرون وغرباء فى دولة ما كانت بلادهم، لم يغادروها بعدما غادرتهم. ولم يبرحوها حتى بعدما غادروها فيها، أو بعدما غادرتهم فيهم». يتابع عمر قائلا «وإذا هجرت البلاد المهاجرين فى بلدهم، وإذ غادرتهم فيهم تجوف حيزهم الخاص نحو الداخل، وتجوف نحو الخارج، اختفى الحيز العام، واختفت المدينة. اختفت الأمكنة العامة وبقيت الأماكن بشكل عام، وبات أبناء المكان نزلاء فى المكان بوجه عام، طلول الراحلين اللاجئين وظل القادمين الوافدين».

ينتقل الراوى من فصل «المكان» إلى «البلدة» أو «القرية عالم الناس هناك» ليروى لنا ان عمر لم يغير مسكنه فى القرية نوعا من الوفاء لوالده، برغم من أن والده كان منفتحا ولم يطالبهم بمراعاة تقاليد لا عقل فى مراعاتها، وكان «هذا يعنى بالنسبة لعمر البقاء فى البلد إلا إذا اضطر للرحيل كخيار أخير، والبقاء فى البلاد فى كل حال» ص ٤٦. وقد تربى جيل عمر على سؤال: «ايمتى راجع البلد» «مش تروح وما ترجع للبلد»... والبلد هى القرية، والقرية هى «البلد» و«البلد بلدنا»..

حوار يستمر ساعات كل يوم، أحاديث فى الحب والسياسة، من البلدة إلى البلدية وعموم الناس فى الحيز العام وسلوكهم...

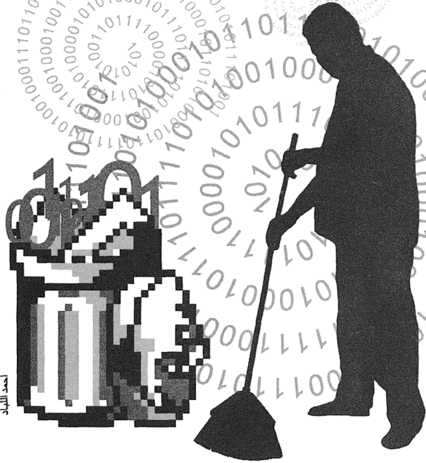
يقول «ليس للقرية شاطئ ولا حديقة ولا غابة ولا توجد فى القرية قرية، انتزعت القرية من المكان والمكان أيضا فرغ من جوفها. بقيت القرية الكبيرة يفصل بين داخلها الموظف أساسا كمأوى للنوم بعد العمل وبين خارجها المركب من خارج فقط، خارج بذاته. وسكانها الذين فقدوا الطبيعة... يريدونها أن توزع عليهم من قبل «الدولة» كقسائم بناء ويريدون أرصفة وحديقة عامة مثل القادمين». ص ١٣٣ .

يضع الراوى عالمه (معادلته) من البداية بخصوص الرواية عن «أبناء المكان» الفلسطيني، وما فعله أصحاب دولة الحاجز بهم رافضا ادعاءات الصراخ والتملق والتسليم فى الأمر الواقع، وسيكتب عمر لاحقا الى دنيا عن أن طروحاته تنطلق من كونه «صاحب البلد» المغترب فيها وبين سكانها.

يضع الراوى المجتمع العربى على المشرحة من خلال نماذج من شخصيات الرواية عمر ودنيا ووجد وعمو صلاح وعصام ومحمد وابوعمر على الجنابى.. من الصعب أن تجذب عامة القراء إذ تتطلب نوعا خاصا لديه الكفاءة الذهنية والثقافية فهى تقدم مادة روائية لا يسهل تلقيها ولكن لا بد من ثقافة خاصة لتلمس أسرار الكتاب والوقوف على مضمون فهو يتطلب المشاركة العقلية. فشخصيات الرواية ربما عمو صلاح الصامت الذى لم يقل كلمة واحدة فى الرواية مثلا أو بعض أفكار عمر وأسئلة دنيا وخوف وجد كلها أفكار معبرة عما فى فكر كاتب الرواية، إنها شخصيات «واقعية» من نسيج خيال الكاتب ومن تجارب ذاتية عاشها كما يبدو، فمن الصعب أن تكتب رواية دون أن تلامس بعض الشخصيات فى الواقع الحياتى، فالتجربة والمرحلة مادة روائية.



سوف تكتب الكثير من الدراسات حول هذه الرواية وشخصياتها وتحير دور الإعلام فيها، وعالم الظلال الذى يقسم الواقع إلى ازدواجية جدية تضرب فى ازدواجية الحاجز فينتج عوالم افتراضية لا متناهية فى انعكاس مرآتين. سوف يكتب عن توظيف الخشب فى وصف الفرق بين عالم الحياة وعالم الظلال الافتراضى الذى يحاول السيطرة على عالم البشر عبر الصورة. عن كل فصل دراسة... المستشفى، السجن، الإعلام، عالم الظلال.. رواية حقيقية، أدب روائى يروى أيضا دون أوهام وبسخرية مرة قصة شظايا مكان، قصة فلسطين من زاوية تكاد تكون مستحيلة، زاوية عاشق بجرح وقلب مفتوح وعقل مفتوح وواقع موصد وليس لديه من يراسله سوى فتاة أحلامه ودنيا حبه ومن يدرى فربما اخترعها ليراسلها. ■



الإنترنت فى العالم العربى:

ملعب الليبرالية السياسية

ألبرشت هوفهاينز



بمجىء ٢٠٠٣، كان أربعة بالمائة على الأقل من السكان فى البلاد العربية يستخدمون الإنترنت - حوالى ١١ مليون نسمة. وفى الربع الرابع من ٢٠٠٤، سجلت العديد من المواقع العربية نموا واضحا وطرديا فى أرقام المرور، وإذا استمر الاتجاه، فلعلنا نتوقع أن يكون ١١ بالمائة من السكان العرب على الشبكة بنهاية ٢٠٠٦

بعد عقود من الركود السياسى، فى بواكير ٢٠٠٥ شُعِر فى الشرق الأوسط برياح أمل جديدة، ترافقها لازمة أخذت تدور دورتها فى الإعلام الأمريكى، «الربيع العربى». كان يُرى فى المظاهرات الشعبية بلبنان، والتى أعانت على إسقاط الحكومة وإجبار سوريا على إجلاء قواتها، أفضل تجسيد للاتجاه الجديد. الانتخابات الوطنية فى العراق والمحلية فى فلسطين والعربية السعودية، أو تغيير الدستور المصرى ليسمح بأكثر من مرشح رئاسى، كانت علامات أخرى على أن التغيير ربما يكون أخيرا فى الطريق. كان عصر البطاركة العجائز، كما بدا، يقترب من نهايته. ودوما ما كان ينظر لوسائل الإعلام الجديدة - التليفزيونات الفضائية، الهواتف المحمولة، الإنترنت - باعتبارها قد عجلت بهذا التطور بتخفيف التحكم المهيمن للحكومات فى تدفق المعلومات. ولا ننسى، بالطبع، العوامل الخارجية: فما انفك مؤيدو إدارة بوش يقولون إن حزم الولايات المتحدة وإصرارها على قيم الحرية والديمقراطية هو ما كان يبدأ فى جنى ثمرته.

الإصلاح عبر الإعلام

بالنسبة لأولئك الذين يناضلون من أجل الحرية والديمقراطية فى العالم العربى، فإن السجال على الثقل النسبى للعوامل الخارجية مقابل الداخلية فى جلب التغيير هو سجال ذو أهمية سياسية عظيمة، حيث إنهم مضطرون لدفع الاتهامات بكونهم مجرد دمى لمشروع استعمارى جديد (نيوكولونيالى) تتزعمه أمريكا، يروج «أفكارا غربية» مستوردة تهدد بإفساد القيم «الأصيلة» للمجتمعات العربية التى تقاتل من أجل الاستقلال الحقيقى وتقرير المصير.
المتفائلون العلمانيون مثل عالمة

فصل من دورية:
Internationale Politik und Gesellschaft / International Politics and Society
تحرير وإعداد:
Friedrich-Ebert-Stiftung
الناشر:
Verlag J.H.W. Dietz, Bonn
١٩٢ صفحة، مارس ٢٠٠٥

ترجمة: محمد فتحى كلفت

كانت الرسائل القصيرة وسيلة ناجعة فى تنظيم الاحتجاجات ضد غزو العراق بقيادة أمريكا فى مارس ٢٠٠٣ (أول احتجاجات شارع جماهيرية فى مصر منذ ١٩٧٧ لم ترتبها جماعات سياسية منظمة لها بتصريح رسمى)، تماما كما لعبت دورا كبيرا فى المظاهرات اللبنانية فى ربيع ٢٠٠٥



الاجتماع المغربية فاطمة مرنيسى (www.mernissi.net) من ثم يحتفون بالقوة التحريضية لدى مشاهد الفضائيات سريع الحركة وبالافتتاحات الأهلية لـ «السنابد» الجدد كما تلقب العرب المبحرين فى الحِمى الجديد، الفضاء التخيلى (Mernissi ٢٠٠٤). لا تنى مرنيسى تقول إن قوة الكلمة ستكتسح الحاكم، وإن قوة شهرزاد ستسود على السلطان أخيرا، والتى هى أيضا، لا سيما، قدرة المرأة على تغيير عالم ذكورى. وهى فى بحثها عن كشف جذور قديمة متأصلة لهذه الخطابات البديلة، ليست فقط تعد بشرعية بِكر للعمل الأهلى فى العالمين العربى والإسلامى، بل تشجع أولئك الذين لم يكن لهم صوت مُشهَر من قبل، النساء، الشباب، القرويين، ليرفعوا صوتهم، وتعقد الأمل والإيمان عليهم لمواجهة الانتكاسات الوقتية. أكثر من أى شىء آخر، لعل هذا هو الموقف الذى يميز خير تمييز نشطاء المجتمع المدنى على الإنترنت العربية اليوم. تكلم جهارا. لا تدعهم يسكتونك.

ولكن أهذه مجرد قصة خرافية؟ الأمثلة على الآمال المتهاوية تتكاثر عبر المنطقة. مثلا، زهير يحياوى «التونسى»، الذى جرؤ على الكلام جهارا بنشره مجلة وب ناقدة للنظام (www.tunezine.com)، والذى قبض عليه وأصبح قضية الموسم العربية الأولى لرقابة الإنترنت، لم يعش حتى يرى حلمه يتحقق: مات بأزمة قلبية فى ١٣ مارس ٢٠٠٥، وعمره ٣٦. لقد «نجح فى فتح ثغرة»، قالها مؤيدوه - لكن النظام الذى ناضل هو ليهزمه لا زال يعزز ما أشارت إليه بى.بى.سى كـ«واحد من أكثر أنظمة رقابة الإنترنت المحبوكة فى العالم». فى سوريا، كان رئيس ومؤسس جمعية الحاسبات السورية (ج.ح.س) محط أمل غير هين بخصوص تحقيق ليبرالية النظام السياسى عندما خلف والده على «العرش» فى ٢٠٠٠؛ والآن فإن ج.ح.س (أحد موزعين اثنين فقط لخدمة الإنترنت فى البلاد) تعرف أول ما تعرف بافتقارها التام للشفافية فى منع المرور لمواقع الشبكة، وسوريا بين الأمم العربية السباقة إذا ما ذُكر اعتقال المواطنين على ذمة تهم متعلقة بالإنترنت (Eid ٢٠٠٤).

الرقابة عاجزة

تظل الرقابة مسألة شائكة فى المنطقة، رغم أنه ليس كل الدول تمارسها بنفس الدرجة. أساليب متعددة تستخدم. فتشيع فى السعودية وسوريا وتونس واليمن غربلة وحجب مواقع بعينها محسوبة فى عداد الخارجة لأسباب أخلاقية أو سياسية. وقد قللت الإمارات العربية المتحدة والبحرين والأردن من الغربلة، مركزة على القليل من مواقع المعارضة السياسية. تغربل قطر فقط ما تراه بورنوجرافيا. والمرور غير المغربل متاح فى المغرب والجزائر وليبيا ومصر والسودان ولبنان والعراق والكويت. فى بعض الحالات (مثلا السودان واليمن والمغرب) صارت تكلفة الوصول للإنترنت عالية جدا لعدة سنوات مما يقصُر استخدام الإنترنت بفعالية على أقلية ضئيلة، مع ذلك فهذا آخذ فى التغير. وحتى فى البلاد التى لا تغلق المرور لمواقع تراها خارجة أخلاقيا أو سياسيا، على أى حال، فإن الحركة المرورية مراقبة من قِبل الشرطة وأجهزة الأمن. فى السودان، كمثال، وافقت السلطات على إدخال الشبكة (فى ١٩٩٧) فقط بعدما وجدت ترتيبا يسمح للخدمات الأمنية بوصول سهل إلى كل الحركة المرورية: سودانت Sudanet، موزع خدمة الإنترنت الوحيد فى بادئ الأمر، كان نصفه مملوكا لوكالة الأمن (وهكذا تمدها بدخل أيضا)، وفى البداية، كان على المستخدمين تسليم كلمات السر التى تخصهم واضحة الشكل لموزع الخدمة ولم يكن مسموحا لهم بتغييرها.



بالرغم من ذلك، فيما تظل الرقابة مسألة همها كبير، لم تكن الحكومات قادرة على إسكات تعبير المنشقين على الشبكة، وعلى منع الاستخدام المتزايد للتكنولوجيا فى تقوية الاتصال والتنسيق بين المعارضة ونشطاء المجتمع المدنى. إن منع المرور لمواقع معينة يفى بغرض ترحيل جمهور المستخدمين الاعتياديين بعيدا عن المحتوى غير المرغوب فيه؛ وهو لا يعوق أولئك الذين يريدون فعلا الاتصال بالمعارضين طالما أمكنهم إيجاد طرق لتفادى التحكم الرسمى بسلاسة نسبية. وربما وُجد الخوف من الرد، ولكن، كما يذهب محام لحقوق الإنسان بالسودان فى مقابلة مع كاتب هذه السطور، «تعرف الحكومة ما نعتقده بطريقة أو بأخرى، لذا فلو أرادوا القبض علينا فهم يفعلون ذلك سواء أذعنا رأينا على الشبكة أم لا، لذا فنحن لا ندع ذلك يقيدنا».

تمارس السعودية وسوريا وتونس التحكم الأغلظ يدا فى حركة مرور الإنترنت بالمنطقة، ولكن حتى - أو ربما بالخصوص - فى هذه البلاد، أثبتت الشبكة كونها عاملا حيويا فى فتح النوافذ وتوسيع مجال ما يمكن قوله على الملأ. فتح زهير يحياوى «ثغرة»، كما رأينا؛ وحتى أشد الناقمين من الحكومة يعترفون بأن «الإنترنت هى النافذة الرئيسية للتوانسة فى ظل الافتقار التام لحرية الصحافة والمعلومات» (Bensedrine ٢٠٠٥). كتب الروائى والكاتب السورى عمار عبد الحميد أنه «رغم الصورة الكئيبة الشاملة»، التى لا تزال تميز الإعلام السورى، «بدت فى الشهور الأخيرة مؤشرات أن ذوى التفكير الإصلاحى من أعضاء النظام، مستعدون للسماح بالتعبير عن معارضة محدودة فى المنافذ المملوكة للدولة»، والظاهر أنها بمثابة «امتداد لتسامح النظام مع المبادرات المبنية على الإنترنت» - وهى سياسة تسمح لرموز المعارضة ببث نشرات إلكترونية حتى وإن كان المرور العام لمواقعهم قد يغلق (Abdulhamid 2004: ١٥). وقد رُصد ذلك أيضا فى السعودية حيث صار يسمح للصحف بفسحة زائدة لنقد الإدارة المحلية والمجاهرة بالحديث عن القضايا المحلية، بداية فى أعقاب انتشار الفضائيات أوائل التسعينيات، ثم عقب إدخال خدمات الإنترنت فى ١٩٩٩/٢٠٠٠. بعد سنوات قلائل من هذا التطور، شهدنا انتخابات محلية فى البلاد (١٠ فبراير-٢١ أبريل ٢٠٠٥)، الشىء الذى لم يكن يعتقد فيه منذ عقد ونصف مضيا، وتتصاعد الآمال بأن النساء - وحقوقهن العامة أو عدمها هو موضوع السجال على نحو متزايد فى الإعلام - سيُمنحن حق التصويت فى ٢٠٠٩.

منهج مثابر وتعليمى يميز موقع «القرار العربى» (www.arabdecision.org) والذى يتحرى شفافية أكثر بجعل المعلومات المؤسسية عن العالم العربى فى متناول المواطنين بيسر. إذا تم إعلام ما يكفى من الناس عن المؤسسات التنفيذية والتشريعية والقضائية والإدارية والاقتصادية والمالية والتعليمية والإعلامية والخاصة بالمجتمع المدنى الكائنة فى بلادهم، وما الغرض منها كما هو مفترض، ومن القائم على التشغيل بها، وما هى خلفية هؤلاء المسئولين، وماذا تقول القوانين، وما إلى ذلك، سيساعد ذلك فى تمكين الناس ليتصرفوا كمواطنين يعرفون حقوقهم وقادرين على المطالبة بها.

من العقيم أن نتساءل عما إذا كانت هذه التطورات راجعة أكثر للضغط من الخارج أو من الداخل - وهو سجال لأسباب سياسية واضحة يحتدم بغليان فى الشرق الأوسط. إن التغيير دائما نتاج التفاعل بين عوامل الشأن الداخلى والمؤثرات الخارجية. فى ٢٠٠٣، عندما أطلقت حكومة الولايات المتحدة «مبادرة الشرق الأوسط الكبير» لترويج الديمقراطية فى المنطقة، ساور القلق نشطاء كثيرين بأن نداءهم العتيد للإصلاح السياسى فى بلادهم يتعرض للاختطاف من قبل قوة عظمى عرفت للشطر الأكبر من القرن العشرين بدعم الأنظمة نفسها، باسم الاستقرار، التى كانت رموزا لخنق الحركات الديمقراطية، وبأنه لذلك كان نداء الديمقراطية فى خطر أن يغدو مشوبا أكثر حتى من ذى قبل كخضوع لأفكار «غربية» وهيمنة غربية. فى النهاية، مهما يكن، كسبت أرضاً وجهةُ النظر التى مفادها أن أيا ما قد تكون أجندة الولايات المتحدة، فلا ينبغى أن يثبِّط المجتمع المدنى، بل يستمر فى تكثيف جهوده ليحتشد كقوة ضغط من أجل إصلاح حقيقى. هكذا، فإن المبادرات هناك وفرة منها، والنية قوية للتوسع فى استخدام الإنترنت لتعليم العامة، والدعم الدولى لتنمية المجتمع المدنى آت عما قريب، وبالرغم من الجهود المستميتة من قبل الدول لمراقبة التدفق الحر للمعلومات والحد منه، فهى لم تكن فقط غير قادرة على قمعه، بل لقد اضطرت فى العموم للتسليم بأن هيمنتها على الاتصال تنكمش. والسؤال الآن هو: من الواصل فعليا للإنترنت فى العالم العربى؟ وماذا يفعل الناس فى واقع الأمر بالوسيلة الإعلامية الجديدة؟

الوصول لا زال محدودا

بمجىء ٢٠٠٣، كان أربعة بالمائة على الأقل من السكان فى البلاد العربية يستخدمون الإنترنت - حوالى ١١ مليون نسمة[1]. وفى الربع الرابع من ٢٠٠٤، سجلت العديد من المواقع العربية نموا واضحا وطرديا فى أرقام المرور، وهو تطور يغلب الاحتمال بأن يكون على صلة بالتوفر المتزايد لوصلات التردد العالى فى الدول العربية. وإذا استمر الاتجاه، فلعلنا نتوقع



أن يكون ١١ بالمائة من السكان العرب على الشبكة بنهاية ٢٠٠٦.

جغرافيا، فإن مصر والسعودية هما البلدان اللذان يسهمان أكثر فى هذا النمو. وحاليا هما يشكلان أكثر من ثلث مستخدمى الإنترنت العرب أجمعين، ويتضاعف الاستخدام بسرعة فى كلا البلدين. بروز هذين البلاد، وبالمثل قدرة عرب الخليج الشرائية، هو بجلاء شديد ما يعطى شكل محتوى ما يغلب الظن بأن مقلبى الصفحات فى الفضاء التخيلى العربى سيلقونه.

اجتماعيا، انتشرت الشبكة فى السنوات الأخيرة على النحو الأسرع بين الشباب وبين النساء. ويأتى ذوو الأعمار من ٢٠-٣٠ فى الصدارة بصفتهم الأكثر شراهة فى استخدام الشبكة (نسبتهم المئوية بين المستخدمين فى ٢٠٠٣ كانت أعلى مرتين من نصيبهم فى إجمالى السكان)؛ وأولئك ممن هم دون العشرين هم الفئة الأسرع نموا. فى الإمارات العربية المتحدة، قيل أن نصف البالغين من ١٥-٢٤ صاروا متصلين فى ٢٠٠٤. والنساء، اللواتى يزعم أنهن شكلن فى ١٩٩٨ أربعة بالمائة فقط من مستخدمى الشبكة العرب، يقتربن فى غضون ذلك من درجة ٥٠ بالمائة.

المعلومات التى يعتمد عليها عن بنية دخل وتعليم المستخدمين ليست متاحة إلا بصورة شحيحة. الاستخدام العادى، على أية حال، يجرّ تكاليف يصعب أن يجد لها معظم أبناء الطبقة الوسطى الدنيا ما يبررها. وإذا قرنا هذا ببنية تحتية أقل تطورا فى المناطق الريفية، فهذا يقدم تفسيرا لحقيقة أن استخدام إنترنت ظل إلى الآن فى صورته الأقوى بين فئات الحضر والطبقة الوسطى والعليا. وبين الأحدث سنا، والنخب المتعلمة، على أية حال، فهو بصورة متزايدة أمر واقع. وبينما فى التسعينيات، كانت الشبكة محصورة بوضوح فى كونها وسيلة اتصال للمحترفين فى أواسط عمرهم، فهى اليوم تغدو بشكل حثيث عاملا فى اجتماعيات الجيل اليافع.

ما الذى يفعله كل هؤلاء الناس عندما يلجون الشبكة؟ لقد ظلت أنماط الشعبية مستقرة نسبيا عبر السنوات الخمس الماضية التى فى متناولنا إحصائيات لها. فبعيدا عن المواقع الأدواتية المحضة مثل محركات البحث، أدلة المواقع، أو مراكز تنزيل البرمجيات، هم يقصدون الشبكة ولا غرابة لإشباع الحاجات الآتية (بترتيب تقريبى للأولوية كما تعكسها حركة المرور الجامعة): تسهيل ومد الاتصالات الاجتماعية (من خلال البريد الإلكترونى والدردشة)؛ تقديم الأخبار من مصادر يعتمد عليها غير محلية؛ مناقشة كل شىء تحت الشمس إلا قليلا، ولكن بالخصوص مواضيع المحرمات التقليدية فى مجالات الدين والسياسة والعلاقات بين الجنسين؛ تقديم الإرشاد الأخلاقى من منطلق ما يُتصور أنه بمثابة رؤية إسلامية معاصرة عن الحياة الحديثة؛ الترفيه، خاصة تنزيلات الموسيقى، ولكن أيضا الرياضة وألعاب الحاسب، الإرشاد عن كيفية العيش كامرأة مسلمة فى العالم الحديث، ويشمل إجابات عن كل مسائل المرأة «التقليدية» (الجمال والموضة، المطبخ، العلاقات، الحياة الجنسية، الأطفال، العمل والأسرة، وما إلى ذلك)؛ خدمات التوفيق بين واحد وواحدة؛ ومعلومات المال والأعمال.

وما دام ما يعنينا هو المواقع العربية على الإنترنت، فالأكثر شعبية كما جاءت فى مايو ٢٠٠٥ وضعت بها قائمة (انظر الجدول). وتقدم لنا بيانات من مصادر أخرى صورة شبيهة جدا. على سبيل المثال، تصدر سلطات الرقابة السعودية

أكثر المواقع العربية رواجا على الإنترنت، مايو ٢٠٠٥

الاسم	الوصف	الرابط	تأسس	المرتبة المرورية ٠٤/٠٣	المرتبة المرورية ٠٥/٠٥
مكتوب	أول خدمة بريد إلكترونى على الوب سمحت باستخدام العربية (إضافة للإنجليزية). تأسست ١٩٩٨ بالأردن. أصبح أكثر موقع ترددا عليه منذ وقت مبكر (فى ٢٠٠٠، وربما قبل). كان به مليون مستخدم مسجل فى ٢٠٠١: ٣,٥ مليون فى نوفمبر ٢٠٠٣؛ ٩,٣ فى أبريل ٢٠٠٥ - أكثر من ربع المستخدمين كلهم فى العالم العربى. وقد أضاف دردشة، بطاقات إلكترونية، أخبارا، تصويتات، تسوقا، وألعابا لما يقدمه، لكن الأصل يظل بريد الوب.	maktoob.com	أكتوبر ١٩٩٨	١,٤٠٥	١٣٤
Googleالسعودية	ثالث واجهة عربية لمحرك البحث جوجل (بعد google.ae وgoogle.com.ly)، تأسس من أجل السعودية فى أغسطس ٢٠٠٤ . ٢٣٪ من الطلبات على الصور (على جوجل الدولية google.comتبلغ هذه ٨٪ (مايو ٢٠٠٥).	google.com.sa	أغسطس ٢٠٠٤	–	١٦٣
MSN Arabia	صورة من الموقع البوابة العالمى ميكروسوفت نتوورك وقد أضفى عليه طابعا محليا للمستخدمين فى العالم العربى؛ بالعربية والإنجليزية. تديره ميكروسوفت ومعها لنك دوت نت، أكبر موزع لخدمة الإنترنت فى مصر (فوق ٤٠٪ من أسهم السوق). ينتج فى القاهرة ودبى (دبى إنترنت سيتى).	arabia.msn.com	سبتمبر ٢٠٠١	٣٠٠	٢٥٠
الجــزيرة	النسخة الإنترنتية من المحطة التليفزيونية الفضائية الأشهر فى العالم العربى. أخبار بالعربية والإنجليزية. تم جعل ال يديو المتدفق (الجارى) streamingوتوزيع تلقيمات الخلاصات syndicationخدمات مدفوعة بعد أن كانت مشاريع تجريبية استهلالية.	aljazeera.net	أغسطس ١٩٩٨	٥٧٥	٢٣٢
الساحة العربية	واحد من أقدم (منذ أبريل ١٩٩٨) وأكثر منتديات النقاش العربية المعروفة، شائع بين كل الملل السياسية. يعرف أيضا بغرف دردشته. مسجل فى الإمارات العربية المتحدة.	alsaha.fares.net/ alsaha.com	نوفمبر ١٩٩٦	١,٥١٩	٢٥٢
موقع الأستاذ عمرو خالد	موقع الواعظ عمرو خالد، المولود فى مصر ويعيش بلندن، وصاحب الشعبية خصوصا بين الشباب. به منتديات نقاش عليها تردد كبير (تقترب من ٤٤٪ من حركة المرور الكلية فى مايو ٢٠٠٥: ●١٩٣,٦٠٠ عضو، صعودا من ٧٦,٨٠٠ فى نوفمبر ٢٠٠٣).	amrkhaled.net	يناير ٢٠٠٢	٤,٥٩٥	٣٨٩
google.ae	الطبعة العربية الأولى من جوجل	Google.ae	؟	٣,١٤٥	٤٧٣
الأهــرام	طبعة إنترنتية من سيدة الصحافة المصرية المهيبة وفيها من ضمن ما فيها: ثانى أوسع جريدة يومية مصرية، والأهرام ويكلى الإنجليزية والأهرام إبدو الفرنسية.	ahram.org.eg	؟	١,٠٨٥	٥٠٥
طــرب Tarab	ملفات ريال أوديو للموسيقى العربية السائدة.	Tarab.com	أبريل ١٩٩٩	١,٥٣٨	٥٨٩
جــواب	خدمة بريد وب (تأسس فى مصر، ولكن زبائنه حول العالم).	gawab.com	مارس ٢٠٠٠	٢,٤٤٦	٥٩٧
عالم حواء -Hawaa world	بوابة للمرأة، بنظرة تقليدية. مقام فى السعودية. أروج خدماته بمراحل منتدى النقاش (مايو ٢٠٠٥: ١٢٤,٠٠٠ عضو، صعودا من ٤٣,٠٠٠ فى نوفمبر ٢٠٠٣).	hawaaworld.com	سبتمبر ٢٠٠٠	١٧,٨٧٤	٧٨١
طــرب Tarab	بوابة موسيقى.	Trb.com	أغسطس ٢٠٠٢	٤,٥٩١	٧٩٨
جيــران	مجتمع عربى للتسكين على الوب. يستضيف صفحات شخصية ومجتمعات، إلخ.	jeeran.com	يناير ٢٠٠٠	٣,١٣١	٩٢٦
تـداول: تـبـادل أوراق البورصة السعودية	معلومات السوق المالية من السعودية.	tadawul.com.sa	؟	٧,٧٧٣	١,٠٠٣
كوورة	بوابة كرة قدم.	kooora.com	سبتمبر ٢٠٠٢	٢٠,٠٠٠	١,٠٠٧

المصدر: المرتبة المرورية فى هذا الجدول مأخوذة عن الكسا Alexa.com



إحصاءات شهرية للمواقع التى يتم المرور إليها من السعودية والأعلى فى التردد عليها، وفيها يعاود الظهور كثير من العناوين المدرجة فى القائمة (المشار إليها أعلاه). ومن بين المواقع الأخرى ذات الشعبية الجلية فى المملكة مباشر Mubasher.com.sa (الأسعار الفورية من تداولات البورصة السعودية)، إيلاف Elaph.com (جريدة إلكترونية ليبرالية لكل العرب)، مفكرة الإسلام islammemo.cc (وهى بوابة إخبارية موجهة للجهاد)، ملتقى التربية والتعليم moudir.com (بوابة تعليمية سعودية)(٢).

إن الحقيقة التى مفادها أن النساء وحديثى السن يشكلون جزءا هاما على مدار الوقت من مستخدمى الشبكة، يعكسها بوضوح نمو الحركة المرورية للمواقع التى تلبى اهتماماتهم. بين ٢٠٠٣ و٢٠٠٥، كان الارتفاع الصارخ فى الرواج قد سجله عالم حواء Hawaa World، كوورة Kooora، ى.آى.بى ٦٠٠ (٦٠٠Vipمرشد برمجيات)، عمرو خالد، مكتوب، تداول، عرب(٣) (Arb٣ بوابة ومنتدى للنساء، حول كل مناحى الحياة الزوجية)، عالم الرومانسية (موقع «رومانسى» للنساء، صنع فى السعودية)، ستارتايمز2 Startimes2 (منتدى نقاش لبوابة فضائيات)، أفضل ١٠٠٠ موقع عربى (مرشد وب)، فوستا Fosta (موقع ترفيهى للذكور حديثى السن غالبا)، دليل إم.بى.سى MBC Guide (مرشد وب لحديثى السن، صنع فى السعودية)، لكى (موقع تقليدى للنساء)، قاسمى والصخرة (وكلتاهما بوابتان عامتان)، شبكة أوز (بوابة كويتية لحديثى السن، بها موسيقى ودردشة وألعاب وساحات نقاش إلخ)، بنت الحلال (موقع للزواج من مصر ذو توجه إسلامى)، جوجل (لكل من السعودية والإمارات)، منتديات جوال العرب (منتديات لمستخدمى الهاتف المحمول)، وموقع الموسيقى طرب Trb.

أمل حذِر فى التغيير

من مُعطى التوافد المتزايد عليها، خاصة بين النخب واليافعين، فلأى مدى تقوم الإنترنت بتغيير الجو العام فى العالم العربى؟ كيف تؤثر فى المشهد الإعلامى فى العموم؟ كيف تعين عمل الفاعلين السياسيين والمنتمين للمجتمع المدنى؟ وإلى أى مدى يجرى استخدامها فى تعبئة المواطنين والعمل الأهلى؟

كان الصحفيون والمنظمات غير الحكومية بين أوائل العالم العربى فى استخدام الإنترنت باحترافية. وفى غضون ذلك، لا تكاد توجد صحيفة عربية لم تجرب على الأقل مع المحتوى على الشبكة، والعديد من المنظمات غير الحكومية الأيسر حالا لديها مواقع. فى كلتا الحالتين، ساعدت الشبكة أولا وأخيرا على تسهيل وتسريع الاتصال مع العالم الخارجى: بدأت المنظمات غير الحكومية تعتمد على البريد الإلكترونى لتتصل بـ وتتنسق مع المنظمات الأم وتنشئ صفحات وب لجذب المتبرعين؛ بدأ الصحفيون استخدام الوب فى صيد المعلومات، والوصول لتقارير وكالات الأنباء والصور، وإصدار طبعات على الشبكة من الصحف التى تقرأها بشكل رئيسى الشتات القومية فى دول الخليج وأوروبا وأمريكا. وبالنسبة للوصول إلى الجماهير فى المنزل، تتخلف الإنترنت بمسافة عن وسائل الاتصال الأخرى. فبالكاد يتم المرور للنسخ الشبكية من الصحف القومية من المنازل، ولحشد التأييد الداخلى، تعتمد المنظمات غير الحكومية وجماعات المجتمع المدنى على التليفون (خاصة التليفونات المحمولة والرسائل القصيرة)، وآلة الفاكس، والاتصال وجها لوجه أكثر من الإنترنت.

وليس من الصعب فهم الأسباب: فالنسخ المطبوعة من الصحف المحلية تظل أهون ثمنا من وقت الشبكة، وتغلغل إنترنت فى المجتمع هو فقط ليس واسعا بما يكفى بعد ليبرر، لمعظم الجماعات المحلية، الجهد والتكلفة المطلوبين لمواقع الحملات حسنة التقديم والمتابعة. وربما يفسر هذا أيضا لماذا يظل حضور الأحزاب السياسية العربية - سواء الحكومة والمعارضة - ضعيفا فى معدله. محاولات قليلة تتم لترويج خدمات الحكومة الإلكترونية، ومثالها الأكثر تقدما هو مصر، التى رعت ميكروسوفت بوابتها لخدمات الحكومة الإلكترونية فى إطلاقها الثانى (www.egypt.gov.eg) وكانت قد أطلقت فى ٢٥ يناير ٢٠٠٤ بحضور بل جيتس. دول أخرى مثل المغرب (www.egov.ma) أو الأردن (www.moict.gov.jo/MoICT/MoICT_e_services.aspx) طورت أيضا مبادرات حكومة إلكترونية. وإلى حين، ستظل هذه فى مرحلة الريادة، وعندما يأتى الأمر للتعبئة، فقد تجاوزت الرسائل القصيرة الإنترنت بمراحل فى الوصول للناس - ولا عجب، إذ أن التليفونات المحمولة أكثر انتشارا بكثير من استخدام الإنترنت. كانت الرسائل القصيرة وسيلة ناجعة فى تنظيم الاحتجاجات ضد غزو العراق بقيادة أمريكا فى مارس ٢٠٠٣ (أول احتجاجات شارع جماهيرية فى مصر منذ ١٩٧٧ لم ترتبها جماعات سياسية منظمة لها بتصريح رسمى)، تماما كما لعبت دورا كبيرا فى المظاهرات اللبنانية فى ربيع ٢٠٠٥.

حتى الحكومات تحققت من هذه الإمكانية. لقد بُعثت عن السلطات السودانية رسالة نصية لكل المشتركين فى خدمة التليفون المحمول الاحتكارية المحكومة من الدولة فى مارس ٢٠٠٥، تدعو للمشاركة فى مسيرات احتجاجية عامة ضد قرار الأمم المتحدة بأن تطلب من المحكمة الجنائية الدولية التحقيق فى دعاوى جرائم ضد الإنسانية ارتكبها مسئولون سودانيون فى دارفور. ويتناقض نجاح التعبئة بالرسائل القصيرة بوضوح مع المظهر الاستاتيكى نوعا للأغلبية العظمى من مواقع الأحزاب، لو أنهم يشغلونها أصلا. فى المغرب، جرت محاولة لزيادة الوعى بانتخابات ٢٠٠٢ البرلمانية من خلال الموقع المعلن عنه على نطاق واسع www.elections2002.ma، ولكن ذلك بدا مقصودا به ترويج «حداثة» البلد واللجنة الانتخابية أكثر من تقديم محتوى به شىء مفيد.

الجماعات الإسلامية، من الناحية الأخرى، كانت أنجح بوضوح فى تخطيطاتها الإنترنتية من نظرائهم الليبراليين أو العلمانيين. بدأ هذا فى أبكر أيام الشبكة العنكبوتية worldwide web (١٩٩٣)، عندما هرعت جمعيات الطلبة المسلمين فى أمريكا وأوروبا لاحتضان الوسيلة الإعلامية الجديدة لإشاعة وعى إسلامى عالمى. كانت قوائمهم البريدية، وهى نموذج مبكر للاقطات الأخبار aggregators قرئت على نطاق واسع آنذاك، هى أحد العوامل التى ساعدت على تقوية التواصل مع كفاحات المجتمعات المسلمة فى كشمير والبوسنة والشيشان وفلسطين وأماكن أخرى أصبحت نقاطا بؤرية لتطور فكرة أن الكفاح المسلح أو الجهاد كان ضروريا للدفاع عن المسلمين ضد العدوان الخارجى.

فى أثناء ذلك، مع تقنية وب أكثر تقدما وعربية لم يعد استخدامها مشكلة، حملت المشعلَ بواباتُ الأخبار القائمة على الوب. وأنجح المواقع الإخبارية ذات التوجه الجهادى جميعا هو مفكرة الإسلام (islammemo.cc)، المُنشأ فى بداية غزو العراق بقيادة أمريكا فى مارس ٢٠٠٣. ومع الحرب على الفلوجة فى نوفمبر ٢٠٠٤، استطاع مفكرة الإسلام أن يتجاوز فى الشعبية محيط الأقدم منه (moheet.com)، وهو بوابة جماهيرية تجتذب العواطف الإسلامية والقومية العربية أسسته فى ١٩٩٨ مجموعة المتحدة الكائنة فى دبى (arabia-inform.com) وينتج فى مصر. المختصر للأخبار (almokhtsar.com)، وقد أنشأه فى نوفمبر ٢٠٠٢ وهابيون راديكاليون معارضون للنظام السعودى، ولكنهم لا يحرضون ضده صراحة، هو ثانى لاقط أخبار جهادى يظهر بين أروج ١٠٠ موقع عربى. على أى حال، فإن المواقع الإسلامية المحافظة التى تلتزم بخط الحكومة السعودية تستمر فى جذب زوار أكثر بشكل ملحوظ من الصفحات الجهادية، وبخاصة الخيمة العربية (khayma.com)، وهو واحد من أول أدلة المواقع العربية (تأسس ١٩٩٩)، ومواقعه الصديقة، الردادى البوابة (raddadi.com) وموقع الدعوة الوهابى صيد الفوائد (saaid.net).

بطبيعة الحال، يستخدم المتطرفون الإسلاميون الإنترنت أيضا ليكونوا على اتصال، عادة بواسطة مجموعات ياهو البريدية Yahoogroups ومجتمعات إلكترونية شبيهة تُهجر أو ترحل بنفس سهولة إنشائها. لقد شدت بعضها، مثل مجموعة الإعلام الإسلامى العالمى Global Islamic Media، انتباها لا يستهان به فى الغرب، لا سيما أن ورقة إستراتيجية تقترح هجوما إرهابيا فى أسبانيا للتأثير على الانتخابات نشرت هناك قبل ثلاثة أشهر من هجمات مدريد٣. على أى حال، فإن عضوية هذه المجموعات تتراوح بين الحفنة وبضع المئات على أقصى تقدير. ولا يمكن لذلك اعتبارها منصات جماهيرية ولكن لابد من فهمها كمنتديات تخدم الاتصال الداخلى بين أهل البيت الذين انضموا فى رسالة وقضى الأمر. على نحو مشابه، تتضخم المواقع التى يؤسسها إسلاميون مسلحون، ولكنها باستمرار فى حالة فر من عمليات الكبح، ولذلك فهى قادرة فقط على الوصول لقلة من المكرسين عليهم تعقب مساراتها فى لوحات النشرات الإلكترونية. واحد من أطول الأمثلة عمرا هو



دليل مشاور الذى يظهر فى وصفات عديدة وعلى عناوين شتى، من بينها كان meshawir.cjb.net مفتوحا لبرهة نسبية وقت كتابة هذه السطور.

سواء بصيغة إسلامية أم علمانية، فإن مستخدمى الإنترنت العرب يكنون اهتماما عارما للتطورات السياسية ويعربون عن رجاء قوى فى إصلاحات سياسية ومشاركة عامة أكبر. مصادر الأخبار المحترمة كبدائل والتى يعتمد عليها أكثر من وسائل الإعلام المحلية المحكومة بالدولة لها شعبية غير مستغربة. وقد كانت طبعات الشبكة من الصحف المطبوعة أقل نجاحا نسبيا من النشرات المعدة للإنترنت فقط. أول هذه، إيلاف.كوم (elaph.com) الذى لا ريب فى ليبراليته، تجاوز فى بواكر ٢٠٠٤ أكثر الصحف اليومية العربية المحترمة على نطاق واسع، الحياة، فى الشعبية بين قراء الإنترنت، وفى أبريل ٢٠٠٥ أصبح موقع الأخبار الأول مرورا من السعودية، سابقا حتى على الجزيرة. تلت أشرطة إخبارية إلكترونية صرفة غير ذلك، مثل القناة (alQanat.com)، وميدل إيست أونلاين (middle-east-online.com)، والفلسطينى دنيا الوطن (alwatanvoice.com)، وجميعها علمانية فى إطلالتها.

بينما الرجاء عظيم يقينا فى مشاركة شعبية أكبر بصنع القرار، يظل قطاع عريض من مستخدمى الإنترنت العرب متشككا بالنسبة لاحتمالية رؤية تغير سياسى حقيقى فى المدى القريب. والأمل والتشكك الواقعى كلاهما يمكن جسهما من بين آلاف التصويتات على الشبكة التى فتحها كل موقع عربى محترم فى السنوات القليلة الماضية، وهى تؤتى لدهشتنا نتائج متسقة. يرى مستخدمو الإنترنت أنظمتهم ملتصقة بالسلطة حبا خالصا فيها وبسبب المحسوبية والخوف من أن يعتبرها خلفاء شرعيون ديمقراطيا مسئولة عما حدث. على الأقل قبل الغزو الأمريكى للعراق، ألقوا على حكوماتهم هم القمعية أكثر كثيرا من التدخل الخارجى بالـلائمة فى ضعف الديمقراطية بالمنطقة (Hofheinz 2004: 468-9)(٤). وهذه الخبرة التى ترسخت زمنا طويلا تفسر بسهولة التشكك بين مستخدمى الإنترنت بخصوص «ربيع عربى». «هل تكون الانتفاضة اللبنانية فاتحة عصر الانتفاضات الشعبية فى العالم العربى؟» سألت الجزيرة.نت فى ٥ مارس ٢٠٠٥. كانت الاستجابة ضعيفة (فقط ٣.٤٥٢ صوتا) ومنقسمة: ٥٥ بالمائة لم يعتقدوا بهذه المحصلة، بينما ظن ٤٥ بالمائة أنها ربما تقع. وبخصوص ضرورة الضغط الخارجى لتعضيد الإصلاحات الداخلية، فإن مواطنى الشبكة العرب بالمثل ليسوا على يقين. فى نهاية مارس ٢٠٠٥، سألت الجزيرة.نت إذا كان غزو الولايات المتحدة للعراق ضروريا لدفع العالم العربى فى اتجاه الإصلاح والتغيير. وحيث يدين عشرات الآلاف الاحتلال الأمريكى بطرق أخرى، فقط ٢.٧٩٣ صوتا فُرز فى هذا التصويت، ثلثها، الأمر المثير للاهتمام، وافق على الطرح. فيما بعد سُحب التصويت من أراشيف الجزيرة.نت.

العرب واستخدام الإنترنت

بمقارنة دولية، فإن الاستخدام العربى للإنترنت هو أولا وأخيرا شبيه للغاية بالأنماط العالمية، من حيث أن التوسع فى وتيسير الشبكات الاجتماعية والمعلومات والترفيه هى غايات موجودة فى كل زمان ومكان تساعد الشبكة فى تلبيتها. لكن ملمحين اثنين هما خصيصتان للركن العربى من الإنترنت كما يعرض لنا اليوم. أولا، للدين ثقل أكبر من أى مكان آخر فى العالم، وثانيا، المستخدمون العرب متلهفون بشكل خاص على الخوض فى المناقشة - لا سيما فى السياسة والدين والجنس. فى الميادين، التوكيد المتنامى على الفرد كمتحدث نشط وصانع قرار، وليس متلقيا سلبيا للخطاب السلطوى، ظاهر جلى. هيا نلقى نظرة على كلتا الناحيتين بتفصيل أكبر:

الدين: I am Maker, Not a Taker

ما يقرب من ٨-١٠ بالمائة من أكثر ١٠٠-٢٠٠ موقع عربى يغشاها الناس ذات شخصية دينية (وفى هذا السياق بتحديد أكثر: إسلامية) لا ريب فيها، الظاهرة التى لا يمكن رصدها فى اللغات الأخرى، شاملة الفارسية والتركية(٥). وأكثرها شعبية على أية حال وببون شاسع ليست تلك الداعية لحمل السلاح، بل التى تروج لتجديد أخلاقى للفرد، بناء على الحكم القرآنى بأنه «لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

على رأسها يأتى موقع عمرو خالد، وهو واعظ تقوى ولد فى مصر سنة ١٩٦٧ والذى استمال فى السنوات الأخيرة جحافل من المريدين فى موطنه أول الأمر ثم فى دول عربية أخرى، وخصوصا من الفئة العمرية ١٥-٢٤ حيث كما رأينا، ينمو استخدام الإنترنت أسرع من غيرها. فى منتصف ٢٠٠٤، تجاوز موقع عمرو خالد (AmrKhaled.net، تأسس ٢٠٠٢) إسلام أونلاين IslamOnline.net الأقدم بكثير (تأسس ١٩٩٧) ليس فقط كموقع المسلمين الألفا على الإنترنت، ولكن كأكثر المواقع الدينية شعبية على مستوى العالم. جاء إسلام أونلاين بوحى من يوسف القرضاوى، وهو واعظ من مصر أيضا تكمن جذوره فى «الإخوان المسلمون»، والذى أصبح هائل التأثير فى التسعينيات من خلال برنامجه الثابت على تليفزيون الجزيرة الفضائى. عمرو خالد أيضا يظهر على الفضائيات، من خلال محطتى اقرأ وإيه. آرتى المملوكتين للسعودية. إن نجاحه - يمكن لأتباعه شراء تى شيرتات مطبوع عليها «I am maker, not a taker» - يجسد بامتياز الروح التى تجذب العرب اليافعين على الإنترنت وأبعد من ذلك: «بدأ عمرو خالد حركة جديدة لم ترد قط بخاطر أى من القادة الإسلاميين وغير الإسلاميين التقليديين. «...» تستطيع بالفعل أن تلمس نبض وحرارة أكثر من مائة ألف شاب عربى يقومون بزيارة موقع عمرو خالد. لأن هؤلاء الشباب قد منحوا ما كانوا قد حرموا منه لسنوات عديدة «:» الإيمان بقدراتهم على التغيير والفعل. «...» تغيير حقيقى أتى للوجود، ليس بتقييد الفكر وفرض الاتجاه، ولكن بقبول حمل المسئولية والإيمان بقدرة المرء. «...» لقد فاض بهم الكيل من النزاعات السياسية والدينية التقليدية، وهم غير راغبين فى تضييع أى وقت آخر فى الجدل»(٦).

مما يدعو للانتباه ملاحظة كيف اعتبر أن التغيير قد أتى حقا للوجود، بالرغم حتى أن الواحد قد يحاجج بأنه لم يقع تغيير ذو شأن على المستوى السياسى. عمرو خالد فى الحقيقة يتفادى الكلام فى السياسة، خصوصا الداخلية، ملتفتا لدروسه. أما التغيير الذى ينظر له هنا فهو تغير فى الموقف والقناعة الشخصية، ينصحون به افتراضيا أول الأمر، على المنتديات، حيث يمكن لكل شخص أن يكون له صوت وكل شخص تم تمكينه من الحديث. لكن واقع أن «ظاهرة عمرو خالد» ليست خلوا من التداعيات السياسية وربما تهدد هرميات السلطة، وهى من الثوابت، تجلى فى قرار الحكومة المصرية بمنعه من الوعظ العام فى ٢٠٠٢ - وتلى ذلك ذهابه للمنفى وابتداؤه الموقع.

منتديات النقاش والمدونات:

I Want my Voice Heard!

منتديات نقاش الإنترنت هى السمة الثانية للفضاء التخيلى العربى. ما من مجموعة لغوية أخرى تساجل على الإنترنت بنفس شراهة الناطقين بالعربية. واحد من أقدم (تأسس أبريل ١٩٩٨) وأكثر المنتديات شعبية وما يزال هو الساحة العربية (alsaha.com). سوالف (Swalif.net، تأسس أغسطس ١٩٩٩) وبوابة العرب (Arabsgate.com، تأسس يوليو ٢٠٠٠) هما موقعان آخران تم التردد عليها كثيرا لسنوات. إن هناك مئات المواقع المكرسة للنقاش (فى نوفمبر ٢٠٠٣، أحصيت عدا فوق ٧٥٠ واحدا نشطا، حوالى ٦٠ منها كان التردد عليها كبيرا)، لكن المنتديات فى المواقع البوابات مثل عمرو خالد، إسلام أونلاين وعالم حواء تلعب أيضا دورا مهما جدا. بعيدا عن المخالطة الاجتماعية على المنتدى وتبادل آخر الأنباء عن الهواتف المحمولة وألعاب الكمبيوتر والرياضة والموسيقى والأفلام،



تتضخم المواقع التى يؤسسها إسلاميون مسلحون، ولكنها باستمرار فى حالة فر من عمليات الكبح، ولذلك فهى قادرة فقط على الوصول لقلة من المكرسين عليهم تعقب مساراتها فى لوحات النشرات الإلكترونية





فإن أسخن الموضوعات السجالية هى السياسة والدين والعلاقات بين الجنسين - وهى التابوهات الثلاثة الكبرى فى الخطاب العام فى العالم العربى. يعكس المشاركون كل أطياف الرأى السياسى، وفى سنوات ٢٠٠٠-٢٠٠٢ بالخصوص، عندما كانت الوسيلة الإعلامية حديثة العهد، جرى التعارك فى حروب شاملة بالعديد من المنتديات بين الإسلاميين وخصومهم «العلمانيين» أو «الليبراليين» (عادة ما يستعمل المصطلحان أحدهما مكان الآخر فى هذا السياق ليدلا على الناس المعارضين، على الأقل إلى درجة ما، لاستخدام الدين فى السياسة). بعد أن زالت الجدة وغدا الكثير من المشاركين الأصليين تعبين من التكرار الحامى الذى لا ينتهى للأقوال، دون تبادل رشيد للحجج فى المعتاد، بدرت صحوة مؤكدة، وتوارى مخضرمون كثيرون. وسرعان ما حل محلهم، على أى حال، أعضاء جدد وأحدث سنا، عادة من الفئة العمرية التى كما رأينا هى الأسرع نموا على الإنترنت، أولئك الذين دون الخامسة والعشرين، والذين يعبرون بوضوح عن نفس الاهتمام الذى أبداه الرواد بإظهار أنفسهم، والإدلاء بدلوهم وجعل صوتهم مسموعا. لقد أثبتت الإنترنت نفسها كوسيلة مثالية لكسر الحدود المفروضة كما جرت التقاليد بشأن من المسموح له بالحديث على الملأ، وما الذى يقال أو حتى يسمح بالتفكير فيه بالنظر للنظم الاجتماعية والأخلاقية والسياسية.

على نحو مثير للفكر، وصلت ظاهرة البلوجة blogging للعالم العربى متأخرة بالمقارنة. البلوجات blogs (web logs أو اليوميات التى يسجلها غالبا أفراد) بدأت فى الانطلاق فى الغرب عام ٢٠٠١ وما لبثت بعد ذلك أن أصبحت ملمحا هاما للغاية فى استخدام الإنترنت الفارسية، بين أخريات. الإيرانيون فى أرض الوطن وفى الخارج استخدموا البلوجات ليس فقط فى نشر المعلومات الناقدة للنظام بعد الضرب على أيدى الصحافة الليبرالية فى إيران، ولكن أيضا للتعبير عن أنفسهم فى المسائل الشخصية والاجتماعية والثقافية وبناء وطن افتراضى لأنفسهم حيث كانوا فى موضع السيطرة وبإمكانهم الائتناس بمجتمع حميم من الأصدقاء. ولكن حتى رغم أن واحدا من أشهر المبلوجين bloggers أجمعين، سلام پاكس Salam Pax، كان عربيا (سجل يومياته فى حياته ببغداد من سبتمبر ٢٠٠٢ لأغسطس ٢٠٠٤)[٧]، وأن بضع مدونات أخرى كانت منشورة من العالم العربى قبل ٢٠٠٤ (غالبيتها بالإنجليزية)، أخذ الأمر بعض الوقت من الحركة ليُسمع بها. ومع مطلع ٢٠٠٥، على أى حال، محبطين من اللهجة غير المتحضرة عادة فى منتديات النقاش والرقابة التى تمارس هناك فى بعض الأوقات، وبهدف أن يكونوا سادة والبيت بيتهم، بدأ العرب بصورة متزايدة يقولون وداعا للمنتديات، معلنين أنهم بصدد التركيز على التدوين. كان عبد الله المهيرى من أبو ظبى أول من ينشر مدونة بالعربية (serdal.com)؛ ويُشهد له بالفضل فى الإتيان بالترجمة العربية المقبولة لكلمة «blogالمدونة». أقيمت حلقات ولاقطات مدونات عربية لتشبيك المجتمع (بالنسبة مصر، قارن بين egybloggers.com وEmanalaa.net/egblogs؛ بالنسبة لمحاولة عمل قائمة بكل المدونات التى تتحدث العربية، انظر arabblogcount.blogspot.com)، وحتى فكرة «اتحاد مدونين» عرب أُطلقت ليكون ممثلا لـ «الحركة الثقافية الجديدة». جوائز فضلى المدونات العربية BABA السنوية الأولى جرى التصويت عليها فى فبراير ٢٠٠٥، وبدأت الصحافة فى الكتابة عن الظاهرة. المؤسسة الخيرية الأمريكية سپيريت أوف أمريكا والتى تسعى لترويج «الحرية والديمقراطية» فى العراق وأفغانستان اكتشفت قوة المدونات وساعدت فى برمجة أداة للسماح بالتدوين بالعربية (الظاهر وهى غير مدركة أن ذلك صار ممكنا منذ فترة طويلة على blogspot.com وأنظمة أخرى)؛ وهى تُسكّن مدونات من العراق على friendsofdemocracy.net.

أغلبية المدونين العرب ناقدون للتدخل الخارجى، على كل حال، بمثل ما هم ناقدون لأنظمتهم هم. فى مصر، يؤيد مدونون كثيرون حركة كفاية (harakamasria.com) التى تعارض فترة خامسة للرئيس مبارك أو توريث ابنه جمال، وتنشد إصلاحات ديمقراطية حقيقية فى البلاد[٨]. أيا كانت محصلة صراع السلطة السياسية هذا، تهيأت ٢٠٠٥ لتصبح السنة التى فيها ظهر التدوين العربى فى المشهد ماردا من القمقم كوسيلة إعلامية جديدة يحتضنها الكثيرون ليؤكدوا ذواتهم على الملأ. وكما يصف الفرعون الكبير (bigpharaoh.blogspot.com) موقعه: «هاى، أنا من مصر. هذه أول مدونة لى على الإطلاق. أود أن أستخدمها لجعل صوتى مسموعا. أتمنى أن تستمتعوا بحاجياتى!».

هذا هو الموقف الذى يميز مستخدمى الإنترنت فى العالم العربى خير تمييز: ثقة زائدة بالنفس وإيمان بإمكانيات الواحد (الذى يجد نفسه، ولو على سبيل المزاح، فى اسم «الفرعون الكبير»)، وأن يصبح الواحد نشطا، وأن يجعل صوته يسمع، وأن يكشف ويوسع شبكاته الاجتماعية حول الاهتمامات المشتركة، وأن يمرح، وأن يبرح السلبية، وأن يخلق شيئا مفيدا - وإذا كررنا الشعار الذى على تى شيرتات عمرو خالد: أن يكون صانع حياة!

بينما يغدو مستخدمو الإنترنت أكثر توكيدا للذات، فهم يغدون أيضا أفضل فى انتقائهم سائلين «ما الذى أريده حقا». إن الاجتماعيات التى يخبرونها على الشبكة، من خلال تقليب الصفحات والاختيار وبنفس القدر من خلال المشاركة فى السجال العام، يعوِّد المستخدمين أكثر مما هو الحال فى المجتمعات التكافلية التقليدية على مفهوم امتلاك الناس لآراء مختلفة، وأن رؤى المرء نفسه ليست بالضرورة بديهية للجميع، وأن على المرء إيجاد براهين ليبرر اعتقاداته، ويعقلها، وأن يقبل (ولو على مضض) كونه لن يقدر على إقناع الكل. إن زوال بديهية صور العالم التقليدية وهرميات السلطة يخلِّف الفرد، ليس حر الإرادة، وإنما بالتأكيد أكثر انفتاحا ووعيا بفرديته، وأكثر إدراكا لا تشوبه شائبة بدور الاختيار فى خلق أوساط اجتماعية ومعرفة وقيم. وقد أدى هذا، على سبيل المثال، لأن تتشظى منتديات النقاش تشظيا متناميا - إذا لم يعجبنى ذلك الذى أنا به حاليا، أهاجر وأعمل واحدا جديدا. على المستوى الدينى، يمكننا رصد توكيد متنام على تعبيرات «إسلامى أنا»، بمعنى فهمى أنا الخاص كفرد لما يعنيه الإسلام حقا، فى مقابل الرؤى التقليدية أو السائدة حاليا لدى الآخرين، واعظين شعبيين كانوا، أم علماء تدفع لهم الحكومة، أم دراويش متطرفين، أم جماهير منقادة.

تغيير أجيال أكثر منه ثورة

استعادة مساحة للخاص، غير السياسى، هو غاية للمجتمع المدنى ليس فقط فى إيران، حيث خلص مراقب مطلع إلى أن هذه الآليات الخاصة، التى رسختها عمليات التنمية السكانية، ربما يظهر أنها تتمخض عن تغيير أعمق جذورا من العمل السياسى المباشر (Kermani ٢٠٠١، وكذلك Koch ٢٠٠٤). الإنترنت أحد العوامل تقوم مع أخرى رديفة لها (تليفزيونات الفضائيات، الثقافة الشبابية، «عولمة» المنتجات الاستهلاكية، الشبكات الاجتماعية، الأنساق الفكرية) بخلق آلية للتغيير تساعد على إزالة الشرعية عن بُنى السلطة التقليدية فى العائلة والمجتمع، والثقافة/الدين، وكذلك الدولة، وهكذا تخلق ضغطا من أجل الإصلاح. ببطء وليس بلا انتكاسات، ولكن فى النهاية بشكل نافذ لا يُرد، يطالب الشباب بحقهم فى مساحات «خاصة» من الحرية تؤثر فى مواقفهم الاجتماعية. وفى مواجهة هذه العملية، فإن الأفكار التى تتناول العلاقات بين الدولة والمجتمع والفرد والتى كان من الممكن قبولها عموما لأجيال، هى فى سبيلها للتغير، والإنترنت هى الواسطة التى دأبوا على التعبير فيها عن هذا التغير بعنفوان على أشده.

هوامش

(١) بيانات مستقاة من الاتحاد الدولى للاتصالات عن بعد International Telecommunications Union: مؤشرات الإنترنت، المستخدمون، عدد الحاسبات الشخصية، ١٥ مارس ٢٠٠٥ (Internet indicators, users and number of PCs (www.itu.int/ITU-D/ict/statistics.

(٢) وحدة خدمات الإنترنت بمدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية (www.isu.net.sa).

(٣) الهيئة الإعلامية لنصرة الشعب العراقى: «عراق الجهاد: آمال وأخطار» //:http www.mil.no/multimedia/archive/00038/

(٤) لنموذج من التصويتات على الشبكة، انظر هوفهاينز، «Tabellen zur Internetnutzung und Internetumfragen in Nordafrika, Nah- und Mittelost»، ص ١١-٢٧ (/http://www.menavision2010.org dokumente/tp4-auszuege-drei.pdf).

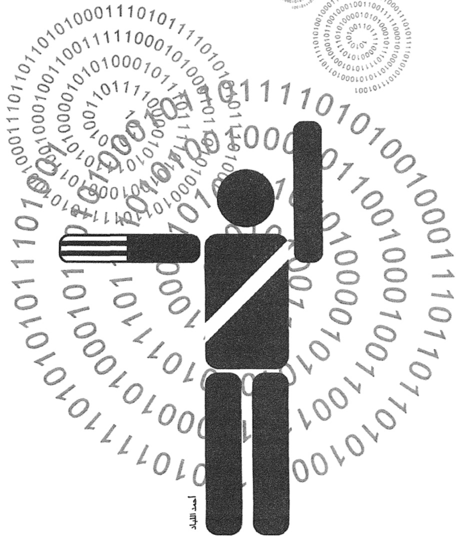
(٥) بالفارسية، فقط موقع دينى واحد يتربع بين المائة الأوائل الأكثر شعبية: المكتبة الإسلامية «حوزه علميه» على hozeh.tebyan.net.

(٦) ظاهرة اسمها عمرو خالد. الرابطة الإسلامية فى بريطانيا (//:http /www.mabonline.net/islam/personalities articles/amrkhalid.htm).

(٧) أيـن رائـد؟ Where is Raed، (dear_raed.blogspot.com). وقد نشرت الجارديان جزءا منه فى شكل كتاب، هى التى تعاقدت مع سلام پاكس ليكتب عمودا أسبوعيا بعد حرب العراق.

(٨) انظر، مثلا الوعى المصرى (misrdigital.blogspirit.com).





من يحكـــم العـــالـــم الافتـــراضـــى؟

ديمقراطية الإنترنت

جمال محمد غيطاس



سؤال قمة تونس: من سيدير الإنترنت، الدول أم المنظمات الحكومية، أم القطاع الخاص أم مؤسسات المجتمع المدنى أم المؤسسات العلمية أم المنظمات الدولية



من الواضح أن حالة (فقر الحرية) فى العالم العربى قد انعكست بقوة على مؤتمره التحضيرى للقمة العالمية لمجتمع المعلومات الذى عقد بالقاهرة مايو الماضى، فقد جاء المؤتمر فقيرا للغاية فى اهتمامه بقضايا الديمقراطية وحرية التعبير والمعارضة السياسية عبر الإنترنت، وذلك على الرغم من كونها قضايا دخلت بؤرة التركيز عالميا فى ظل الصخب الدولى الحاد المتعلق بالبحث عن أسلوب جديد لإدارة والسيطرة على الإنترنت، والذى جعلها واحداً من أشد البنود سخونة فى جدول أعمال قمة تونس، ومن الواضح كذلك أن الرسميين العرب يرتاحون للرأى القائل بوضع الإنترنت تحت سيطرة إدارة حكومية بدعوى الحفاظ على السيادة الوطنية لكل دولة، لكنهم لا يقدمون إجابة على السؤال التالى: كيف يمكن أيضا حماية الحرية و(السيادة الفردية) للمختلفين فى الرأى والمعارضين السياسيين فى ظل سيطرة الحكومات على إدارة الشبكة؟ ولا شك أن الوضع على هذا النحو يجعل من الواجب التوقف عند هذه القضية التى تجاوزت كثيرا ما هو (تقنى وفنى) واقتربت بشدة مما هو (سياسى واجتماعى).

أولاً: الحريات فى مجتمع المعلومات

يعد إعلان المبادئ العالمى الصادر عن الدورة الأولى للقمة العالمية لمجتمع المعلومات وكذلك خطة العمل الصادرة عن القمة هما الوثيقتان اللتان ترسمان ملامح المشهد الدولى المتعلق بقضايا الحريات وحقوق الإنسان وحرية التعبير فى مجتمع المعلومات، بل لعل ملابسات إصدارهما تكشف جانبا مهما من المشهد.

فطوال عام ٢٠٠٣ انشغل المهتمون بقضايا المعلوماتية بالعالم اجمع بمتابعة جهود الإعداد للقمة التى عقدت فى ٩ ديسمبر من العام نفسه بجنيف وحضرها حوالى ٦٥ رئيسا وملكا ووفود من جميع الدول الأعضاء بالأمم المتحدة، وكانت كل الجهود منصبة على التوصل إلى توافق دولى حول بنود إعلان المبادئ وخطة العمل، وخلال ٢٠٠٣ اعدت حوالى ٨ مسودات للإعلان وخطة العمل كل منها شهدت بعض التعديلات حتى صدرت فى شكلها النهائى، وقد شكل حق الإنسان وحريته فى الحصول على المعلومات

فى الوقت الذى أصبحت فيه «المعلومات» سمة هذا العصر ـ وربما كنيته بلا مبالغة ـ وبعد أن أصبحت مراجع السياسة تضع «المعلومات» عنصرًا أساسيًا من عناصر قوة الدولة، مثلها مثل الموقع الجغرافى والقوة العسكرية وغيرها. وبعد أن أصبحت «الإنترنت» ـ وهى وعاء رئيسى للمعلومات وقناة أساسية لتدفقها ـ ممتدة بعنكبوتية شبكتها لتؤثر فى كل مناحى الحياة فكرًا وسياسة واقتصادًا وعلمًا، تنعقد فى تونس هذا الشهر (نوفمبر) القمة العالمية الثانية وهى قمة يغيب عنها العرب، وإن حضرت وفودهم.

فى مقالين اثنين تعرض «وجهات نظر» لبعض من جوانب الموضوع الواسع والمتشعب بطبيعته.

المحـــرر



وحريته فى التعبير البند الأول فى معظم المسودات الصادرة قبل الإعلان النهائى، باعتبار ذلك حجر الزاوية فى الوصول إلى مجتمع المعلومات، لأنه لا معنى لمجتمع معلومات لا يضمن للإنسان حق الحصول على هذه المعلومات.

وفى المسودة التى ظهرت فى أغسطس ٢٠٠٣ كانت هناك صياغتان الأولى تبنتها الدول النامية التى يصاب الكثير منها بالحساسية من الحديث عن حرية المعلومات، حيث قدمت هذه الدول صياغة تتحدث بشكل عام وفضفاض عن الحق فى الوصول للمعلومات وقالت: (مجتمع المعلومات يقوم على المبادئ المكرسة فى ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمى لحقوق الإنسان وإعلان الألفية، ويتسم بالنفاذ الشامل إلى المعلومات واستعمالها من أجل إنشاء المعرفة وتجميعها ونشرها)، وصياغة ثانية تبنتها الدول المتقدمة وتقول فى صراحة وحسم أن (الوصول للمعلومات حق من حقوق الإنسان) وربطت بينها وبين المادة ١٩ من إعلان الأمم المتحدة لحقوق الإنسان والذى ينص على أن لكل فرد الحق فى حرية الرأى والتعبير؛ وأن هذا الحق يشمل حرية اعتناق الآراء دون أى تدخل، واستيفاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون تقيد بالحدود الجغرافية.

أما الإعلان فى شكله النهائى الصادر عن القمة فقدم نصوصا جديدة تجسد حجم الاختلافات والمعارك التى حدثت حتى الثوانى الأخيرة قبيل الموافقة النهائية إذ جاءت النصوص كالتالى: (نعلن رغبتنا المشتركة والتزامنا المشترك لبناء مجتمع يستطيع كل فرد فيه استحداث المعلومات والمعارف والنفاذ إليها واستخدامها وتقاسمها).

وعلى أية حال فإن ما شهدته الدورة الأولى للقمة العالمية لمجتمع المعلومات من اهتمام واسع بقضايا الحريات والحق فى الحصول على المعلومات والحق فى التعبير أكد بوضوح أن مفهوم مجتمع المعلومات يتجاوز كثيرا ما هو تقنى ويدخل عباءة ما هو اجتماعى وسياسى، ولذلك فإنه إذا كان الحديث يجرى من قبل عن الخبز والحرية كطرفى معادلة يتعين على أية دولة الاجتهاد فى توفيرهما معا لمواطنيها، فيمكننا القول الآن أن المعادلة باتت ثلاثية وليست ثنائية الأطراف، ففى مجتمع المعلومات لم يعد مطلوبا من الدول أن توفر لمواطنيها الخبز والحرية فقط، بل لابد أن يكون معهما المعلومة، لأنه بدون هذا الطرف الثالث الجديد سيكون من الصعب. وربما من المستحيل. توفير الخبز أو الحرية.

هكذا كشفت أعمال القمة والوثائق الصادرة عنها المكانة المتقدمة التى تحتلها قضية الحريات والديمقراطية والحق فى التعبير فى مجتمع المعلومات العالمى ككل، وبسبب هذه المكانة كان لابد أن تحتل قضية الحريات والديمقراطية . مرة أخرى . مكانة متساوية من حيث الأهمية والحيوية والقوة فى كل ما يخص شبكة الإنترنت من قضايا، لأن شبكة الإنترنت أصبحت مرفقا عالميا متاحا للكافة، وتعتبر من أهم الركائز الاساسية لإقامة مجتمع المعلومات على المستوى القطرى أو الإقليمى أو العالمى، لكونها تعمل كبيئة خصبة وواسعة للتواصل الاجتماعى والمجتمعى والتعبير عن الرأى جنبا إلى جنب مع أدوارها الاقتصادية والتنموية، ومن ثم ليس من المنطقى أو المعقول أن تترك أهم ركيزة من ركائز مجتمع المعلومات دون مناقشة وضبط أوضاع حرية التعبير بداخلها، وعليه أصبحت الطريقة التى تدار بها الشبكة والجهة أو الجهات التى تسيطر عليها من القضايا ذات الاهتمام الكبير على المستوى الدولى.

وتجسيدا لذلك حظيت هذه القضية بمناقشات عنيفة وحادة خلال الدورة الأولى لقمة المعلومات ولم تستطع القمة حسمها وأرجأتها للدورة المقبلة بتونس، وقد ذكر البند ٤٨ من إعلان المبادئ أن (الإنترنت تطورت لتصبح مرفقاً عالمياً متاحاً للعامة وينبغى أن تشكل إدارتها قضية مركزية فى جدول أعمال مجتمع المعلومات)، كما ذكر البند ٤٩ أن (إدارة الإنترنت تنطوى على قضايا تقنية وقضايا تتعلق بالسياسات العامة على حد سواء، وينبغى أن يشترك فيها جميع أصحاب المصلحة والمنظمات الدولية الحكومية والمنظمات الدولية ذات الصلة).

إدارة الإنتــرنـــت

كما هو معروف فإن الإنترنت شبكة معلومات عملاقة شديدة الاتساع تضم بداخلها آلاف الشبكات الفرعية وملايين الحاسبات الإلكترونية المختلفة الأنواع والأحجام والمتنوعة فى الوظائف، والمنتشرة فى معظم دول العالم، وتنخرط جميع هذه الحاسبات والشبكات فى أحاديث متصلة فيما بينها، على شكل تبادل للرسائل والملفات والصور والبيانات وغيرها، ومن المنطقى بالطبع ان تكون هناك قواعد تنظم العلاقات فيما بينها، بما يضمن انسيابا سهلا ومنظما وصحيحا للمعلومات والبيانات بين الجميع، ليتحقق الغرض الأساسى من الشبكة كوسيلة فعالة للتواصل بين البشر الذين يستخدمون هذه الحاسبات.

وتنظيم العلاقات على الشبكة له العديد من المتطلبات، لعل فى مقدمتها أن يكون لكل حاسب أو شبكة معلومات داخل الإنترنت بطاقة هوية تعرف شخصيته وتحدد محل إقامته بدقة، وتكون هناك طريقة أو لغة متفق عليها تستخدم عند إرسال أو استقبال الرسائل والبيانات، ويستطيع أى حاسب أو شبكة فهمها والتعامل معها.

ولتلبية هذه المتطلبات تمت ترجمة بطاقات الهوية ومحل الإقامة إلى نظامين مرتبطين ببعضهما البعض، الأول يعرف باسم نظام تحديد العناوين الرقمية ومستخدمى الشبكة ويطلق عليه(ip address) ويتكون من مجموعات من الأرقام المركبة مثل (١٢٧. ١٢٨, ٩, ١٢٨)، يتم ترتيبها فى مستويات مختلفة لتحدد على نحو دقيق مكان الحاسب . جغرافيا . ووظيفته وهويته على الشبكة، وعن طريق هذا الرقم الذى لا يتكرر يستطيع أى حاسب أن يتصل بأى حاسب آخر على الشبكة بلا مشكلات.

بيد أن هذا النظام يعمل دائما فى الخلفية ولا يحس به المستخدم العادى أو المتعامل مع الشبكة، فالمستخدم عادة ما يبحث عن عناوين أو أسماء مواقع ومقار معينة على الشبكة، فهو مثلا يبحث عن موقع الجزيرة بعنوانها المعروف www.aljazeera.net ، ولا يبحث عن الاسم الرقمى للحاسب المخزن عليه الموقع، لذلك كان لابد من وجود نظام ثان لتنظيم عملية وضع أسماء المواقع والمقار المختلفة على الشبكة، ولابد من وجود جهة تسجل هذه الأسماء بقواعد معينة ضمانا لعدم التكرار، وتصنيف المواقع إلى فئات مختلفة حكومية وتجارية ومواقع شبكات وغيرها، ومن هنا نشأ النظام المعروف باسم نظام تحديد أسماء عناوين المواقع على الشبكة domain names، ويقوم هذا النظام بالربط بين هوية الحاسب الرقمية واسم الموقع أو الصفحة التى يحملها،فإذا ما طلب مستخدم الشبكة اسم موقع معين يقوم بتحويله إلى الاسم الرقمى للحاسب المخزن عليه الموقع بسهولة.

تبقى بعد ذلك مسألة اللغة التى تتحدث بها الحاسبات على الشبكة، وهذه ترجمت إلى نظام يعرف بـ (بروتوكولات الاتصال على الشبكة)، وهو عبارة عن مجموعة من التعليمات أو المفاهيم التى تساعد على تبادل البيانات بين الحاسبات الإلكترونية المكونة للشبكة وتنظيم عمليات الاتصال وخطوط الربط protocol parameter assignment.

وبناء على هذه النظم تشكلت ثلاث منظمات غير حكومية تعمل بشكل تطوعى غير هادف إلى الربح على المستوى الدولى، الأولى سميت منظمة دعم العناوين الرقميةASO، والثانية منظمة دعم أسماء المواقعDSO ، والثالثة منظمة دعم بروتوكولات الاتصالPSO ،كما نشأت العديد من الشركات والجهات التى تقوم بتسجيل أسماء المواقع، تركز أغلبها فى الولايات المتحدة، وبعد ذلك اقترح نظام رابع يسمى (الحاسبات الجذرية root servers) ليكون مسئولا عن تحديد مواصفات الحاسبات المستخدمة فى عملية تحويل أسماء المواقع إلى العناوين الرقمية، مثل نظم التشغيل وأنواع البرامج والتطبيقات المستخدمة على هذه الحاسبات وغيرها.

ومع النمو السريع الذى شهدته الشبكة حول العالم نشأت الحاجة إلى إيجاد كيان موحد يكون مسئولا عن تنسيق هذه النظم الأربع الأساسية التى تقوم بها منظمات الدعم السابقة، ويضع الرؤى التى يهتدى بها الجميع فى تعاملهم مع الشبكة، وفى أكتوبر ١٩٩٨ وبناء على اقتراح من وزارة التجارة الأمريكية تشكل هذا الكيان تحت اسم (آيكان) أو مؤسسة الإنترنت لتنظيم الأسماء والأرقام، كمؤسسة قطاع خاص يكون مقرها لوس أنجلوس بالولايات المتحدة وتخضع



للقوانين الأمريكية وتعمل بمقتضى اتفاق موقع بينها وبين وزارة التجارة الأمريكية ينتهى عام ٢٠٠٦ باعتبار أن الولايات المتحدة هى من اخترع الإنترنت ونشرها عالميا، وبالفعل تسلمت الأيكان المهام التى كانت تقوم بها وزارة التجارة الأمريكية تجاه الإنترنت وبدأت تنمو بسرعة شديدة واجتذبت عشرات من الشركات العملاقة ومئات من الأسماء العالمية الكبرى فى عالم الإنترنت، وعمليا تعد الأيكان اكبر جهة عالمية مسئولة عن إدارة الشبكة.

لكن حاليا انتشرت الإنترنت عالميا وتحولت الى مرفق يعتمد عليه الجميع فى إدارة حياتهم وممارسة أعمالهم، بل اصبحت الانترنت أداة تغيير فى حياة الناس اقتصاديا واجتماعيا، ولذلك فإن هذا الوضع لم يعد مرضيا لأحد خارج الولايات المتحدة، وتحتم البحث عن وجود بديل تفاديا للمضار التى يمكن أن تنشأ عن الوضع الحالى ومن أهمها:

. أن الأيكان لا تخضع لأية اتفاقيات دولية تتعلق بسياسات إدارة الإنترنت، مما يعرض هذا المرفق العالمى لقرارات تعسفية أحادية الجانب بدون أن يكون لأى دولة حق الرفض أو التظلم أمام أى محفل عالمى بهذا الخصوص، وقد يصل الأمر إلى قطع هذا المرفق عن أية جهة بدون إجراءات واضحة أو شفافة فى هذا الصدد، مثل ما حصل مع دولة فيجى والتى أعطى اسمها لشركة أعمال موسيقية أو مثل ما حصل عند قطع الإنترنت لعدة أيام عن إحدى الدول العربية بحجة أنها مصدر للرسائل غير المرغوبة.

. أن ترك الوضع على ما هو عليه سيضع بين الامريكيين أوراق ضغط إضافية على العالم من خلال ما يمارسونه على الشبكة من اجراءات قد تضر بآخرين بينما يراها الامريكيون ضرورية لمصالحهم وأمنهم، ولعل بعض الممارسات التى شهدتها الشبكة فى اطار ما يعرف بالحرب على الإرهاب خير دليل على ذلك.

. أن من يسيطر على كل أو جزء من هذه النظم يمكنه استغلالها كوسيلة للتربح المادى بلا حدود وينجرف نحو ممارسة نوع من الاحتكار والابتزاز والمغالاة فى رسوم التسجيل والإدارة وغيرها.

. أن سيطرة أى طرف على نظم الإدارة الاربع للشبكة (نظام الاسماء الرقمية. نظام أسماء المواقع. نظام بروتوكولات الاتصال. نظام الحاسبات الخامة الجذرية) بدون ضوابط واضحة يتيح للقائمين له مجالا للتلصص والتجسس وتتبع المحتوى الفكرى والمعلوماتى على الشبكة، بل ورصد ومراقبة وربما اكتشاف وتحديد شخصية اى طرف على الشبكة وانتهاك خصوصيته، ولعل هذه النقطة بالتحديد هى الأكثر صلة بقضايا الحرية والديمقراطية وحرية التعبير على الشبكة.

فى ضوء هذه الهواجس جميعا وغيرها.. جرى الاتفاق مبدئيا خلال قمة جنيف على ضرورة تغيير الأسلوب الحالى لإدارة الشبكة، لكن برز السؤال المهم:

من سيدير الإنترنت: الدول أم المنظمات الحكومية أم القطاع الخاص أم مؤسسات المجتمع المدنى أم المؤسسات العلمية أم المنظمات الدولية؟

لايزال هذا السؤال حتى الآن كالصخرة التى تتفتت عليها أى جهود ترمى للوصول إلى توافق دولى حول إجابة محددة، بدليل أن إعلان المبادئ الصادر عن القمة العالمية لمجتمع المعلومات بجنيف تضمن بندا يقضى بترحيل هذه القضية الشائكة وملابساتها إلى قمة تونس مع تكليف الأمين العام للأمم المتحدة بتشكيل فريق عمل لدراستها وتقديم تقرير بشأنها.

السيناريوهات المطروحة

فى مطلع عام ٢٠٠٤ شكل الأمين العام للأمم المتحدة فريقاً خاصاً لدراسة الموضوع، وعلى السطح تبلورت الآراء فى سيناريوهين رئيسيين:

. الأول يدعو لاستمرار الشبكة تحت السيطرة المطلقة للقطاع الخاص كما هو الحال عليه الآن، ومعظم مؤيدى هذا السيناريو من الولايات المتحدة والدول المتقدمة وتحديدا المؤسسات العملاقة التى تسيطر على إدارة الإنترنت ومن مصلحتها إبقاء الوضع الحالى كما هو، وحجة الداعين لهذا السيناريو أن الإنترنت اختراع من القطاع الخاص الغربى ويجب أن يدار بطريقة سريعة ابتكارية وبدون إجراءات معقدة بيروقراطية من قبل جهات دولية مثل الأمم المتحدة أو الاتحاد الدولى للاتصالات أو جهات مماثلة، فهذه المنظمات فى العادة بطيئة وغير قادرة على اتخاذ قرارات صائبة فى وقت قصير، ويؤيد هذا التصور أغلب ممثلى المجتمع المدنى الغربى الذين يتخوفون من تدخل الحكومات فى الإنترنت ومن الرقابة الدولية عليها ومن أية محاولات للحد من حرية التعبير عليها وتهديد الديمقراطية وممارسة الاختلاف فى الرأى.

. السيناريو الثانى يدعو لوضع إدارة الإنترنت على المستوى الدولى تحت سيطرة حكومية متعددة الأطراف من خلال المؤسسات الحكومية الدولية كالاتحاد الدولى للاتصالات والأمم المتحدة وغيرها من المؤسسات التابعة وذات العلاقة، بحيث تشرف هذه المؤسسات على إدارة النظم الأربع على المستوى الدولى، بينما تكون السيطرة للحكومات المحلية على المستوى الوطنى، لتتولى الحكومات إدارة الشبكة على المستوى المحلى، وهذا السيناريو تدعمه الدول النامية والصين والهند والبرازيل والدول العربية، وجميعها يرفع شعار الحفاظ على مكتسباتها فى مجال الإنترنت وعدم تعريضها للخطر أو أية إجراءات تعسفية قد تحرمها من استثماراتها الكبيرة فى هذا المجال أو تعرض سيادتها الوطنية للانتهاك والخطر، وفيما بين التيارين توجد العديد من الرؤى الأخرى التى تحاول المزج بينهما لتحقق مشاركة فى إدارة الشبكة من قبل الحكومات والقطاع الخاص والمجتمع المدنى والمنظمات الدولية.

دلائل خطـــرة

إذا كانت هذه هى السيناريوهات المطروحة (على السطح)، فإن الأمر (فى العمق) ينطوى على الكثير من التعقيدات الشائكة، ففى ضوء ما أعلنه الفريق المعنى بإدارة الإنترنت على لسان المنسق العام بمؤتمر القاهرة التحضيرى فى مايو أو المنشور على موقع القمة بالإنترنت يمكن القول أن القضية محلك سر، بدليل أن الفريق لم يستقر بعد على تعريف عملى محدد متفق عليه للمقصود بـ (إدارة الإنترنت) ناهيك عن عمليات الشد والجذب والاستقطاب الحاد القائم حول أوضاع النظم الفنية الأساسية الأربعة داخل الإنترنت ومسئولية السيطرة عليها، أما فيما يتعلق بقضايا الديمقراطية والحريات والحق فى التعبير عبر الإنترنت فالواضح أن تيار الداعين للسيطرة الحكومية على الشبكة هو الأكثر خطورة وإثارة للقلق والفزع، وأول الدلائل على هذه الخطورة أن الكثير من الحكومات. عبر ممثليها الرسميين فى المحافل الدولية المعنية بالقضية. تنسى أو تتناسى عمدا الحديث عن قضية الحرية والديمقراطية عبر الإنترنت وهى تطالب بفرض السيطرة الحكومية على الشبكة، وغالبا ما يأتى حديثها عن حق الحكومات فى السيطرة غير مقرون بأى حديث عن ضمانات تضبط هذا الدور الحكومى وتحول دون افتئاته على حقوق الناس فى التعبير وممارسة الاختلاف معها عبر الشبكة.

وقد قدم المؤتمر العربى التحضيرى نموذجا واضحا على هذا التوجه، فطوال الجلسات التى امتدت على مدار يوم كامل، فتحت الساحة داخل المؤتمر للآراء والتعليقات التى تروج للسيطرة الحكومية على الشبكة باسم الحفاظ على السيادة الوطنية مع تجاهل شبه مطلق لتداعيات هذا الطرح على قضية الديمقراطية وتأثيره على مصير حرية



فى مجتمع المعلومات لم يعد مطلوبا من الدول أن توفر لمواطنيها الخبز والحرية فقط، بل لابد أن يكون معهما المعلومة، لأنه بدون هـذا الطـرف الثالث الجديـد سيكون من الصعب. وربما من المستحيل. توفير الخبز أو الحرية





التعبير عبر الإنترنت، وهو أمر يحتاج (مراجعة كاملة).

فلابد من الاعتراف أن الحكومات لم تكن فى البداية تكترث كثيرا بمسألة السيطرة الحكومية على الإنترنت حينما كانت الإنترنت مجرد شبكة صغيرة للأغراض العلمية والتجارية، لكن الأمر تغير حينما وجدت الحكومات أن الشبكة اتسعت وأصبحت فضاء واسعا يضم بداخله مجتمعا إلكترونيا يوازى المجتمع التقليدى وبدأ استخدامه كأداة للتعبير والتغيير والمعارضة والمطالبة بالحقوق ورفع الاستبداد والقهر، فبدأت الحكومات، خاصة بدول العالم الثالث، تهتم بأمور الشبكة وتنظر لها نظرة أخرى، صحيح أنها تدافع بدرجة أو بأخرى عن حقوق شعوبها فى تأمين استمرار الشبكة لكونها أصبحت أداة تنمية وإنتاج كما تدافع أيضا عن حقوق هذه الشعوب فى الحصول على حصص متوازنة من موارد الشبكة حول العالم، لكن هذه الحكومات، قبل ذلك، تدافع عن أهدافها هى فى السيطرة على الشبكة كفضاء مجتمعى جديد يتعين ألا تترك فعالياته وأنشطته بعيدة عن قبضتها الأمنية والسياسية، وبالتالى فإنها بطبيعة الحال لن تدعم سيناريو يجعلها تذهب إلى القمة المقبلة بتونس رافعة شعاراً أو مبدأ يسلبها فرصة ذهبية لممارسة السيطرة على الشبكة بشكل لم يتح لها من قبل.

ويعزز هذا الاعتقاد أن أغلب الدول الأشد حرصا على المطالبة بإخضاع الإنترنت للحكومات هى فى الوقت نفسه الدول التى لديها سجلات سوداء غير مريحة فى مجال الديمقراطية وحرية التعبير وحقوق الإنسان وتمارس الاستبداد والقمع السياسى وملاحقة المعارضين، وبالطبع هذه ليست مصادفة أو أمورا منفصلة عن بعضها البعض، فمن يمارس الاستبداد والكبت السياسى ويعتمد القهر أسلوبا فى الحياة العادية لن يقبل على الإطلاق بوجود فضاء واسع مثل الإنترنت خارج سيطرته وبعيدا عن عيونه وآذانه التى تضيق بالنقد وتستسهل البطش، ومن الطبيعى ألا نتصور لها موقفا آخر سوى دعم الاتجاه الذى يطالب بإخضاع الإنترنت لإدارة حكومية أو شبه حكومية.

واللافت للنظر هنا أن مواقف هذه الحكومات تتلاقى مصلحيا مع العديد من الأصوات والاتجاهات داخل الولايات المتحدة الأمريكية خاصة فى ظل إدارة الرئيس بوش، التى تدعم أيضا مبدأ التدخل الحكومى الأمريكى فقط فى إدارة الشبكة بحجة التنظيم الفنى وضمان استمرارية عمل الشبكة وعدم توظيفها كأداة فى يد الإرهاب، ولكن الدافع الحقيقى هو التلصص على العالم عبر الشبكة حماية لما ترى أنه مصالح أمريكية، وخدمة لمشروعاتها التوسعية وملاحقة من يقاومون سياساتها ومشروعاتها الإمبراطورية حتى لو صاحب ذلك اعتداء على قيم الحرية والديمقراطية وحرية التعبير.

وفيما يبدو أن الدوافع الأمريكية الحقيقية فى هذا الصدد متصلبة إلى حد كبير ومن الصعب التراجع عنها، ويتم خلطها وتذويبها بعناية للتوارى خلف التبريرات التقنية والفنية الشائعة، الأمر الذى جعل دولة مثل الصين، وهى من الدول المدافعة عن أسلوب الإدارة الحكومية للشبكة، تعلن فى اكثر من محفل دولى أن المطالبة بتطبيق مبدأ تخلى الحكومات عن إدارة الشبكة يتعين أن يطبق على جميع حكومات العالم وفى مقدمتها حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، لأنه لا يصح أن ترفع يد حكومات العالم عن إدارة الشبكة بينما الحكومة الأمريكية تديرها وتسيطر عليها.

إن الإنترنت زاخرة حاليا بالعديد من عمليات التلصص والتجسس واعتراض ومراقبة رسائل البريد الإلكترونى وغرف المحادثة ومطاردة بعض المواقع وغيرها من الملاحقات التى يتعرض لها الكثيرون سواء بشكل معلن أو خفى على أيدى جهات وأجهزة أمن غربية وأمريكية، بل هناك من يرى أن مستخدمى الشبكة بالمنطقة العربية، بسبب دعاوى مكافحة الإرهاب، يواجهون مخاطر انتهاك الخصوصية والتتبع عبر الإنترنت من قبل أجهزة الأمن الأمريكية والغربية التى تستفيد من وجود مفاتيح وموارد الشبكة الأساسية والحساسة بين أيدى شركات وجهات تخضع للقوانين والسيادة الأمريكية وتصدع بأمر حكومتها.

وبطبيعة الحال فإن هذه الممارسات تدفع الكثيرين لانتقاد نظام الإدارة الحالى للشبكة وتصفه بأنه نظام سيئ وضار بقضايا الخصوصية والحريات، لكننا نرى أن سيناريو منح الحكومات سيطرة على إدارة الشبكة على المستوى الدولى عبر المنظمات الحكومية متعددة الأطراف وعلى المستوى الوطنى عبر الحكومات المحلية بلا ضوابط محكمة

كتاب الزاوية



ديوان الطرب

سلامة حجازى

تاه الفكر منك يا دلعونة

تاه الفكر منك يا دلعونة	ربى ظلمكم باللى ظلمتونا
فايته على البستان تلم النرجس	والورد من فوق الخدود شىء يهوس
يا ربى تحمى لها جمالها وتحرس	كل الصبايا والهادى يهدى
حالى صبح فى الحب أمره ظاهر	والليل أقضيه فى هواكى ساهر
وحياة عيونك والجبين الزاهر	إحنا عبيدك نرضى حكمك فينا

باللى حويت الظرف ارحم عبدك

طقطوقة من النوع الشامى - بياتى

لموا العشيرة واسمعوا ندائيا

لموا العشيرة واسمعوا ندائيا	يا نار قلبى والحبيب ما جانيا
اللى يريدك إيه يفيدك هجره	انعم عليه بالوصل واكسب أجره
فى شرع مين يستنظر آل طول عمره	ما يبتليه بالوصل ياما يعانى
أفديك بروحى يا جميل لو ترحم	قضيت جميل اللى بحاله يعلم

أصل اشتباكى بالمحبة



سوف ينقلنا من الوضع السيئ إلى الوضع الأسوأ، لأنه سيجعل المواطنين العرب المستخدمين للشبكة عرضة لسطوة الأجهزة الأمنية المحلية والوطنية وليس الغربية فقط، وهنا سيتضاعف الحصار على الحريات، ففى المجتمع العادى يعلم الجميع كيف تتعامل الأجهزة الأمنية مع مواطنيها فى العالم العربى وإلى أى حد تفتئت على حقوقهم فى الحريات والتعبير والاختلاف فى الرأى بسبب غياب آليات فعالة تضبط أداءها، ولا شك أن الأمر لن يختلف فى حالة الفضاء الإلكترونى عبر الإنترنت إذا ما أطلقت أيدى الحكومات فى السيطرة على الشبكة من دون ضوابط حقيقية وفاعلة، فأجهزة الأمن المتنوعة ربما تعد على الناس أنفاسها وهى تتراسل وتتصفح وتبدى آراءها وتمارس حقها فى التعبير، بل إن الوضع سيتفاقم بعد الاعتماد على الجيل السادس من بروتوكولات الإنترنت الذى سيجعل لكل شىء عنواناً رقمياً على الشبكة سواء كاميرا فى منزل أو تليفون فى اليد أو ثلاجة تتصل بالإنترنت، ومن ثم يصبح بمقدور من يسيطر على إدارة الشبكة أن يتتبع كل هذه الأشياء وينتهك خصوصيات أصحابها باسم مقتضيات الأمن.

لذلك كله.. يصبح من الحيوى جدا أن تترافق الدعوة للسيطرة الحكومية على الشبكة مع حزمة واضحة ومحددة من الضوابط والضمانات التى تكفل حرية التعبير والرأى وحماية الخصوصية على الشبكة فى ظل كل أسلوب من الأساليب المقترحة لإدارتها، ويصبح من المتعين على الذين يرفعون شعار حماية السيادة الوطنية من الانتهاك أن يقدموا إيضاحات كاملة حول حدود الآليات والإجراءات التى ستستخدم فى ظل الإدارة الحكومية للشبكة من أجل حماية السيادة الوطنية، حتى لا تتعارض أو تفتئت على خصوصيات المستخدمين وحقوق المعارضين والمختلفين فى الرأى سياسياً مع حكوماتهم، وأن تكون هناك آليات تكبح جماح الدوائر الحكومية والأمنية من انتهاك خصوصيات هؤلاء وسلبهم حقهم فى التعبير وممارسة نشاطهم عبر الشبكة.

لقد شكلت هذه النقاط مجالا واسعا لمناقشات جدية فى العديد من مناطق العالم التى تهتم بقضايا الحرية والديمقراطية حتى إن البعض طرح ذات مرة أنه فى حالة إقرار مبدأ الإدارة الحكومية للإنترنت لابد من إنشاء آلية لفرض عقوبات ما على الحكومات التى يثبت أنها أساءت استخدام حقها فى إدارة الشبكة ووظفته ضد قيم الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وضد معارضيها فى الرأى.

ومن غير المتصور بالطبع أن تذهب الحكومات إلى قمة تونس وتقدم من تلقاء نفسها مثل هذه الضمانات أو الآليات لكى تكبل بها أجهزتها، ولذلك فإن العبء الأساسى للنضال من أجل الحفاظ على الحريات على الإنترنت بالعالم العربى يقع على عاتق مؤسسات المجتمع المدنى التى يتعين عليها أن تنسق مع المجتمع المدنى عالميا للضغط من أجل كبح جماح الرغبة الحكومية فى السيطرة على الإنترنت، خاصة وأن الدورة الأولى للقمة شهدت نجاحا واضحا، حيث استطاعت الضغوط والمحاولات التى مارستها هذه المنظمات على لجنة الصياغة. ومن قبلها اللجان التحضيرية. إقناع الوفود الرسمية بقبول العديد من مطالبها، فجاء إعلان المبادئ فى صيغته النهائية متضمنا نصوصا كاملة فى بعض البنود وردت كما صاغتها هذه المنظمات فى ورقتها الرسمية التى قدمت للقمة تحت عنوان (تشكيل مجتمعات المعلومات لخدمة الحاجات البشرية إعلان المجتمع المدنى المقدم للقمة، وكان من أبرزها البنود الخاصة بالحق فى الحصول على المعلومات والحق فى حرية الرأى والتعبير وحقوق المرأة والشباب والطفل والجماعات المهمشة والفقراء والمعاقين والدول الأقل نموا.

إننا لا نطرح هذه الهواجس باعتبارها واقعا حتمى الحدوث فى حالة القبول بسيطرة الحكومات على إدارة الشبكة، ولكن باعتبارها هواجس حقيقية يتحدث عنها الكثيرون حول العالم ويتعاملون معها بمنتهى الجدية، لكننا فى المنطقة العربية لا نناقشها بالجدية نفسها، مما يعزز الاعتقاد الذى قلناه فى البداية من أن فقر الحرية فى العالم العربى ينعكس بقوة على مواقفه الرسمية من قضية إدارة الإنترنت ويدفع بها صوب سيناريو يتعلل بالسيادة الوطنية ويتحلل من ضمانات الحرية.■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتَّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الموت إلى حد الحياة

عباس أرناؤوط

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ١٩٠صفحة



حكايات متناثرة من الطفولة ومن الصبا ومشاهد الحياة أشبه بلوحات فنية تمزج بين شاعرية القص وأخيلة الشعر، فيها كثير من حياة المؤلف وتجاربه، وتعاطيه المرهف مع العابر والآنى، والذى يحيله إلى واقع يقطر نبلاً وحكمة، مستفيداً من موروث ثقافى دينى وأسطورى واسع من أجواء المجموعة: أبى يقبل من بعيد/ عائداً من السوق/ البدلة الزرقاء القاتمة.. الربطة الحمراء.. حبات العرق على الوجه الجميل الجليل/ بيده سلة خضراء وعلى كتفه أعباء الحياة/ وعلى شفتيه طيف ابتسامة/ طفل يجرى/ إنه أنا/ أحس بالأمان/ أركض نحو أبى فرحاً/ لكن الأمان لا يدوم/ ينظر إلى.. يتوقف.. يضع السلة على الأرض/ يمد يده إلى جيبه.. لعلها قطعة من الحلوى/ أركض نحوه/ ينحنى قليلاً.. يمد يده ليستقبلنى/ الجسد يخور/ اقترب منه.. أهوى فى الفراغ/ وصلت.. أكاد ارتمى بين يديه/ توقف الطفل.. لحظة/ التفت وجرى بعيداً.

■

كتـــابـات

محجوب عمر

القاهرة: دار الفكر الإسلامى، ٢٠٠٥، ٤٧١صفحة



يضم الكتاب عدداً من الدراسات والمقالات التى كتبها الدكتور رءوف نظمى ميخائيل عبد الملك، أو محجوب عمر فى عدد من الدوريات أو مشاركاته فى ندوات تبحث فى المصير العربى والهم العربى العام، منها أيلول فى جنوب الأردن وحوار فى ظل البنادق ووجهة نظر فى استراتيجية المفاوض المصرى والناس والحصار وأزمة الخليج وانعكاساتها.

ويلفت النظر إلى المؤلف المعروف بكتاباته السياسية العميقة ورؤاه الاستراتيجية الثاقبة، والذى ينطلق من خلفية فكرية يسارية وتجربة نضالية عميقة ضمن مقاتلى حركة فتح، واختياره المبكر لمواجهة العدو الإسرائيلى فى كل مكان من أرض العرب حتى خروجه مع المقاومة الفلسطينية من بيروت فى الثمانينيات من القرن الماضى، يلفت النظر فى كتاباته هذه اللمسة الأدبية المدهشة التى تتبدى بالأخص فى كتابته عن قصة مستشفى الأشرفية بعمان خلال أحداث أيلول الأسود، وكذلك إيمانه العميق بالحوار وبالقيم الديمقراطية داخل حركة فتح وبين المنظمات الفلسطينية جمعاء، وأن ما يحلم به هو دولة فلسطينية ديمقراطية تتسع لأبناء الوطن الواحد من كافة الديانات، وكذلك حلمه بانتصار ثورة الشعب الفلسطينى وليس الانتصار العسكرى الساحق على دولة إسرائيل، وتصوراته الواضحة عن أن ثورة الشعب الفلسطينى هى جزء من الثورة العربية الشاملة.

الكتاب يقدم له الدكتور قدرى حفنى أستاذ علم النفس المختص فى دراسة إسرائيل والإسرائيليين، والذى جمعته بالمؤلف صداقة عميقة بدأت فى سجون عبد الناصر وكشفت له عن جوانب مضيئة فى شخصيته.

■

الزمن فى الرواية العربية

مها حسن القصراوى

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤، ٢٨٣ صفحة



يعد الزمن محوراً أساسياً فى تشكيل النص الروائى وتجسيد أبعاده التاريخية والاجتماعية والسياسية والنفسية، وقد برز هاجس الزمن فى الآداب القديمة والأساطير، وكان الاهتمام به أكثر فى العصر الحديث بسبب التحولات المتسارعة والإيقاع اللاهث للحياة، والذى يترك آثاراً كبيرة على الإنسان، والزمن الروائى بطبيعته تخيلياً، وقد كشفت الدراسة عن عمق العلاقة بين أشكال بناء الزمن فى الرواية العربية ووجهة نظر الروائى فى التعبير عن واقعه وقضاياه، فالروائى العربى المعاصر دائم التجريب والبحث عن أشكال تنسجم مع تجربته الإنسانية، وقد أخذت الرواية على عاتقها تجسيد معطيات الواقع العربى فى ظل انهيار القيم والهزيمة العربية الشاملة، وأكدت الدراسة على أن زمن الخطاب لا يقدم زمن الحكاية بنفس تتابعها الزمنى، حيث يغيب التتابع المنطقى للأحداث ويحضر الزمن النفسى بتشابكاته وتداخل أبعاده، كما لاحظت هيمنة المفارقات الزمنية واستمرار حضور زمن الماضى فى زمن الحاضر السردى.

والدراسة التى تتألف من خمسة فصول تبدأ بمدخل نظرى تمهيدى ثم يدرس الفصل الأول الزمن فى الأدب وفى الرواية. والثانى أشكال بناء الزمن فى الرواية العربية، ويتعرض الثالث لمستويات زمن الخطاب السردى وأبعاده ويدرس الرابع المفارقات الزمنية ودلالاتها ويركز الأخير على تقنيات زمن السرد.

والى جانب استعراضها للدراسات والكتابات النقدية السابقة التى تناولت الزمن فى الرواية العربية، تدلل المؤلفة على استنتاجاتها بأعمال لروائيين عرب يمثلون تيارات واتجاهات أدبية وفكرية متباينة، أو يغطون جغرافياً خريطة الإبداع العربى كله من أمثال نجيب محفوظ وصنع الله إبراهيم وإلياس خورى وإبراهيم عبد المجيد والطاهر وطار وعبد الرحمن منيف وهدى بركات وجمال الغيطانى وغسان كنفانى وجبرا إبراهيم جبرا وبهاء طاهر وحليم بركات وآخرين.

■

السينما فى دول الاتحاد الأوروبى

سمير فريد

القاهرة: دار إلياس للنشر، ٢٠٠٥



تتضمن موسوعة السينما فى دول الاتحاد الأوروبى أربعة كتب منفصلة، أولها عن أعلام الإخراج السينمائى، والثانى عن المؤسسات السينمائية، والثالث عن الأسواق والشركات والاستوديوهات، والرابع عن التاريخ والتيارات والأنواع، وهى ليست موسوعة شاملة بمعنى أنها مثلاً فى الكتاب الخاص بالإخراج لا تتناول كل المخرجين الأوروبيين، لكنها تعرض لهم وفق معايير وضعها المؤلف أكثرها موضوعى يتعلق بإنجاز كل مخرج ومدى تأثيره وتجديده فى مجاله سواء فى بلادهم أو فى مسار السينما عموماً دون الاعتماد على جنسية المخرج، كما أنها لا تخلو من انحياز شخصى للمؤلف الذى قد يرى أن ثمة مخرجين مهمين من وجهة نظره ينبغى أن تتضمنهم الموسوعة حتى لو لم يذكروا فى موسوعات سابقة.

وفى الكتاب الذى يختص بالمؤسسات السينمائية يلفت النظر إلى أن المؤسسات الأوروبية لا تفصل فصلاً كاملاً بين المؤسسات الثقافية، والمؤسسات الصناعية، فكلاهما يعمل من أجل الثقافة والصناعة معاً، كما يؤكد على الدروس المستفادة من هذه المؤسسات والتى أهمها التطوير المستمر والدمج بين المؤسسات المتشابهة وإعادة النظر باستمرار فى القوانين واللوائح التى تحكم هذه المؤسسات لكى تصبح أكثر مواءمة، ويشير إلى الاتجاه نحو المزيد من التخصص الدقيق.

وبتحليله لقائمة أكبر ٥٠ شركة للسينما عام ٢٠٠٤، يرصد المؤلف عدداً من الحقائق، منها أن الوسائل السمعية البصرية واحدة من صناعات العالم الكبرى، حيث تبلغ إيرادات الشركات العشر الأولى حوالى ٢٥٠ مليار دولار، بما يعكس مدى التأثير الفكرى والثقافى المهم لهذه الصناعة، وأن الشركة الأولى هى تايم وارنر الأمريكية، كما أن قائمة الشركات العشر الكبرى تتضمن ٨ شركات أمريكية وواحدة ألمانية وأخرى يابانية، وهو ما يعنى أن الشركات الأمريكية تسيطر على أسواق العالم.

■

عبد الرحمن الرافعى

مؤرخ مصر الحديثة

بهاء الدين علوانى

المنصورة: سنابل للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ٣٤٠ صفحة



يؤرخ هذا الكتاب لواحد من أشهر المؤرخين المعاصرين، فهو صاحب تاريخ الحركة القومية بمجلداته العديدة، والذى ظهر الجزء الأول منه فى يناير ١٩٢٩ وتناول بدء ظهور العامل الوطنى والشعبى عند المصريين منذ عهد المماليك مروراً بالحملة الفرنسية على مصر فى ١٧٩٨ والثورات الشعبية فى مواجهتها، وتتالت بعد ذلك مجلداته فى التاريخ المصرى الذى رآه «سلسلة متصلة من الحلقات من

جهاد الأجيال المتعاقبة لتحقيق آمال مصر وإدراك مطمحها الاسمى»، وتناولت دراساته عصر محمد على وعصر إسماعيل والثورة العرابية، ثم يخصص مجلداً ضخماً عن زعيمه الأثير وأستاذه فى الوطنية مصطفى كامل، يليه آخر عن «محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية»، ومجلدين عن ثورة ١٩١٩ ثم كتاب «فى أعقاب الثورة المصرية».

وقد أصدر الرافعى فى فبراير ١٩٥٢ مذكراته التى تناولت شطراً كبيراً من حياته يمتد من ١٨٨٩ وحتى ١٩٤١، متضمناً مولده وتعليمه وعمله بالمحاماة والصحافة وتتلمذه على مبادئ الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد من بعده، ودوره كنائب فى البرلمان وإبعاده عن الحياة السياسية منذ عام ١٩٢٦ وحتى ١٩٣٩، وكذلك مشاركاته فى إنشاء الجمعيات الوطنية أثناء الحرب العالمية الأولى.

وأرخ الرافعى أيضاً لثورة يوليو ١٩٥٢، فكتب عن مقدمات الثورة ثم أرخ لفترة ٧ سنوات من عمرها (١٩٥٢ - ١٩٥٩)، وإلى ذلك كتب عن شعراء الوطنية المصرية من أمثال رفاعة الطهطاوى وعبد الله النديم والبارودى وشوقى وإسماعيل صبرى وحافظ إبراهيم ومطران وغيرهم. وكتاب آخر عن الجمعيات التعاونية وكتابات عديدة أخرى.

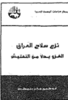
وإذا كان المؤرخون المحترفون ينظرون للرافعى باعتباره من «الهواة»، وأنه فى كثير مما كتب كان متأثراً بأفكار الحزب الوطنى الذى تربى فى كنفه، وأنه يمثل تيار الوطنية فى الكتابة التاريخية بما فيه من تحزب وانحياز، إلا أن كتاباته التاريخية تمثل مراجع لا غنى عنها، وقد انتقد كثيرون ما كتبه الرافعى عن الزعيم أحمد عرابى وترديده لما قاله مصطفى كامل عن خيانته، وكذلك تمجيده لثورة يوليو وإجراءاتها فى مواجهة خصومها. وبرغم ذلك يبقى الرافعى واحداً من كبار المؤرخين المعاصرين.

■

نزع سلاح العراق
الغزو بدلاً من التفتيش

هانز بليكس

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ٢٨٨ صفحة



عندما وقع اختيار الأمين العام للأمم المتحدة - كوفى عنان - على بليكس ليرأس لجنة الأمم المتحدة للتحقيق والمراقبة والتفتيش (الأنموفيك)، كان على موعد مع واحدة من أكثر المعارك ضراوة فى تاريخ الأمم المتحدة، وفى تاريخ الوطن العربى.. وتاريخ العراق.

تلك كانت المعركة بين أمريكا (وحليفتها بريطانيا) من ناحية، والعالم من ناحية أخرى. المعركة بين الحرب والغزو والاحتلال والتدمير والقتل واستباحة استقلال دولة وسيادتها وثقافتها، وكذلك وحدتها، وبين التفتيش الدولى، الوسيلة التى ارتضاها العالم للتيقن من أن العراق لم يعد دولة تملك أسلحة دمار شامل.

كتاب هانز بليكس «نزع سلاح العراق» يدخل بنا إلى التفصيلات الدقيقة - السياسية والإجرائية والتقنية - لعمل المفتشين الدوليين.

■

إسماعيل صدقى
الواقعية السياسية فى مواجهة الحركة الوطنية

صفاء شاكر

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ١٨٠ صفحة



يعد إسماعيل صدقى النموذج الأبرز للمدرسة البرجماتية فى السياسة المصرية، واشتهر بانقلابه الدستورى الذى أطاح بدستور ١٩٢٣ وجاء بدلاً منه بدستور ١٩٣٠، الذى منح سلطات أوسع للملك على حساب السلطات التنفيذية والتشريعية. وحين أطيح به انقلب على الملك، وطالب بعودة دستور ١٩٢٣، وقدم حججاً نقيضة لتلك التى برر بها ضرورة إلغاء هذا الدستور لعدم مناسبته لأوضاع المصريين. وإسماعيل صدقى كان واحداً من أربعة أدى نفيهم إلى جزيرة مالطة من قبل سلطات الاحتلال الإنجليزى إلى اندلاع ثورة المصريين فى مارس ١٩١٩، وهو أيضاً الذى أسس حزب الشعب عام ١٩٣٠ ليكون العوبة الملك فؤاد فى مواجهة حزب الأغلبية الشعبية آنذاك «الوفد».

الجانب الآخر الذى تقدمه المؤلفة هنا هو إثباتها أن إسماعيل صدقى وإن لم يكن مثالياً من الناحية السياسية، أو من هذه النوعية من القادة والزعماء الذين يتشيعون لفكرة ويدافعون عنها بما أوتوا من قوة بصرف النظر عن تقلبات الأحداث وتحولات موازين القوى، فإنه كانت له جوانب مضيئة كما كانت لشخصيته جوانب مظلمة، ليس ملاكاً ولا شيطاناً بتعبير المؤلفة، ويمكن القول أنه كان ضحية لسوء فهم الآخرين الذين لم تعجبهم واقعيته السياسية، وتسميته للأشياء بأسمائها دون مواربة وسعيه إلى التعامل مع الممكن والمتاح، لا مع الخيالى غير القابل للتحقق. وقد كان هذا موقفه من قضية الاستقلال، فقد آمن بأنه إذا لم يستطع المصريون الحصول عليه كاملاً غير منقوص، فلا بأس من الحصول عليه تدريجياً.

واستهدفت المؤلفة فى دراستها بيان أثر إسماعيل صدقى فى السياسة المصرية من ١٩١٤ وحتى ١٩٥٠، وتفاعله مع الأحداث السياسية فى تلك الفترة، وإبراز عدد من المواقف السياسية التى تؤكد منهجه الواقعى أو البرجماتى مثل موقفه من دستور ١٩٢٣ كما أسلفنا، واستقالته من وزارة زيوار ١٩٢٥ احتجاجاً على موقفها من كتاب الشيخ على عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم» فى الوقت الذى وقف موقفاً مناقضاً من كتاب الدكتور طه حسين «فى الشعر الجاهلى»، وكذلك علاقته الودودة بالإخوان المسلمين أثناء توليه الوزارة ١٩٤٦ ثم انقلابه عليهم بعد ذلك، لكن المؤلفة تشير من جانب آخر إلى عدد من الثوابت التى لم يتزعزع عنها مثل موقفه من الاستقلال التدريجى، وانتماء مصر العربى، وضرورة اهتمام مصر بالصناعة بجانب الزراعة، كما أنه رأى دائماً أن الشعب المصرى غير صالح للحكم بالديمقراطية.

■

الدفاع عن حيفا وقضية فلسطين
مذكرات رشيد الحاج إبراهيم

تقديم: وليد الخالدى

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٥



تتناول هذه المذكرات، الكثير من الموضوعات وتركز على الوضع فى حيفا عشية اندلاع المعارك بين الفلسطينيين والقوات الصهيونية ولا سيما بعد إعلان الحكومة البريطانية قرارها بالتخلى عن الانتداب. وتعرض لقرار إعلان الثورة ومؤتمر حيفا التاريخى وقرار التقسيم وجيش الإنقاذ واللجان القومية، ثم للمعارك العسكرية المختلفة. ويسرد الباب الثانى بعض مراحل القضية الفلسطينية منذ بدايات القرن العشرين حتى سنة ١٩٤٦، ويتناول علاقة صاحب المذكرات بالحاج أمين الحسينى والشيخ عز الدين القسام والثورة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦ والنفى إلى سيشل سنة ١٩٣٧ ثم اغتيال سامى طه، فضلاً عن الخصومة بين الحاج أمين الحسينى وموسى العلمى، وبين فوزى القاوقجى وعبد القادر الحسينى. ولا تغفل المذكرات الحديث عن مدينة حيفا نفسها ولا سيما الحياة الأدبية فيها والعمران كالمرفأ والمواصلات والكولونية الألمانية وزيارة الإمبراطور غليوم والجالية البهائية وغير ذلك. ويرصد الباب الثالث الحرب النظامية فى فلسطين منذ ١٥ مايو ١٩٤٨ حتى افتتاح مؤتمر لوزان فى ٢٦ أبريل ١٩٤٩ وما تخلل هذه الفترة من أحداث ومواقف مثل مؤتمر غزة وقيام حكومة عموم فلسطين ثم اغتيال الكونت برنادوت ومعارك النقب والجليل واغتيال محمود فهمى النقراشى فى مصر وانقلاب حسنى الزعيم فى سوريا وقيام وكالة غوث اللاجئين (الأونروا).

وقد ولد رشيد الحاج إبراهيم فى مدينة حيفا سنة ١٨٩١، وساهم طوال ثلاثة عقود مساهمة فعالة فى حياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية. حضر المؤتمر السورى الأول وسائر المؤتمرات الوطنية الفلسطينية مندوباً عن مدينته، وأسس مع زملاء له حزب الاستقلال الفلسطينى والغرف التجارية والشركات الاقتصادية والجمعيات الإسلامية والأوقاف الخيرية، ونظم التظاهرات، وصادق جل زعماء المشرق العربى. كان من أقرب المقربين إلى الشهيد الشيخ عز الدين القسام، وغدا من أبرز رجالات فلسطين وقادتها خلال الانتداب البريطانى وسجن ونفى من جانب سلطاته، واطلع على خبايا الحركة الوطنية الفلسطينية وعلى تفصيلات مجرياتها، وحافظ دوماً على استقلالية رأيه ومسلكه. وقاد المقاومة فى حيفا قبل سقوطها فى أيدى القوات الصهيونية فى نيسان/ أبريل ١٩٤٨، وتوفى فى عمان سنة ١٩٥٣ ودفن فى دمشق.

■

طلائع النهضة فى فلسطين

حنا أبو حنا

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٥، ١٩٣ صفحة



يتناول الكتاب الجهد الروسى فى إنشاء المدارس فى فلسطين ولبنان وسوريا فى ظل الحكم العثمانى، ويذكر أن عدد المدارس الروسية فى بلاد الشام بلغ ١١٤ مدرسة فى سنة ١٩١٤ ضمت ١٥ ألف طالب وطالبة، وأن أول من أنشأ الصحافة الأدبية فى فلسطين كان من خريجى دار المعلمين فى الناصرة (السمنار)، وأن نصف أعضاء الرابطة القلمية فى أمريكا الشمالية التى كان لها شأن مهم جداً فى بعث الأدب

العربى الحديث، هم من خريجى المدارس الروسية.

يتحدث الكتاب عن النشاط التبشيرى الكاثوليكى والبروتستانتى الذى عم المنطقة العربية فى القرن التاسع عشر، ويعدد أهم المدارس التى أنشئت فى تلك الفترة فى فلسطين، ثم يسهب فى رصد المدارس الروسية بالتحديد وتأثيرها المباشر لا فى التربية والتعليم فحسب، بل فى تطور أساليب التعبير الفنى ولا سيما فى القصة والرواية والصحافة والترجمة وغيرها.

ويخلص الباحث إلى أن الهدف الجوهرى من إنشاء المدارس الروسية لم يكن نشر الأدب الروسى أو الثقافة الروسية بين العرب بقدر ما كان وسيلة لضمان حماية الأرثوذكس فى الدولة العثمانية وإنقاذهم من التبشير الكاثوليكى والبروتستانتى.

■

تعريب التعليم الهندسى فى المملكة العربية السعودية

عبد الله بن إبراهيم المهيدب

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ١٤٢ صفحة



اختلفت الآراء فى تدريس العلوم الهندسية باللغة العربية، فالبعض يرى أن هذه الخطوة تؤثر سلبًا فى التعليم الهندسى بحجة أن اللغة العربية غير قادرة على مواكبة النهضة العلمية والتكنولوجية فى هذا العصر، بينما يرى البعض الآخر أن تدريس العلوم الهندسية باللغة العربية ضرورة يجب الأخذ بها فى أقرب وقت، ذلك أن من أساسيات استقلال أى أمة من الأمم وتميزها ارتباطها بلغتها الأصلية وعدم استبدالها بلغة أخرى.

■

نجيب محفوظ والإخوان المسلمين

مصطفى بيومى

القاهرة: دار أخبار اليوم، ٢٠٠٥، ١٠٠ صفحة



يحلل الكتاب الموقع الذى تحتله الجماعة التى مازال يعتبرها القانون محظورة، فى خريطة الإبداع الروائى والقصصى فى مصر، من خلال الشخصيات الإخوانية التى ظهرت فى إبداعات نجيب محفوظ، والتى عبرت عن أفكار ورؤى الإخوان كما يراها من خلال نظرتهم للدين، والمرأة والفكر السياسى، فبرغم التأثير الكبير للدين فى حياة أعضاء الإخوان المسلمين إلا أنه لم يكن العنصر الوحيد فى تشكيل شخصيتهم، فالمجتمع بتقاليده وثقافته ساهم أيضًا بقوة فى توجيه الشخصيات الإخوانية فى روايات محفوظ.

ويكشف موقف الإخوان من المرأة عن رؤية تقليدية محافظة من الناحية النظرية.. لكن تيار الحياة المتوقف ينتصر ويفرض على الإخوان المسايرة العملية للواقع. وأهم ما يكشف عنه تحليل الشخصيات الإخوانية فى عالم نجيب محفوظ كما يقول المؤلف هو الفكر السياسى للإخوان الذى يتسم بالميل إلى التعميم.

ويوضح الكتاب علاقة الإخوان بمختلف القوى السياسية التى عاصروها بدءًا من حزب الوفد القديم ومرورًا بقادة ثورة يوليو ١٩٥٢، ثم العلاقة مع الرئيس الراحل أنور السادات وكذلك التيارات الدينية الجديدة التى خرجت من عباءتهم أو انشقت عليهم وأخيرًا علاقتهم بالشيوعيين.

وكذلك الحال مع ثورة يوليو فبعد الترحيب بها من قبل الجماعة واستثناء الثورة للإخوان من قرار حل الأحزاب وقع الصدام الكبير ومحاولة اغتيال عبد الناصر والزج بالإخوان فى السجون، وهو الأمر نفسه الذى حدث مع الرئيس السادات الذى أخرجهم من معتقلات ناصر وتحالف معهم ضد الناصريين والشيوعيين ثم اختلف معهم عقب كامب ديفيد، وكانت المأساة باغتيال السادات نفسه على أيدى بعض الجماعات التى انشقت عن الإخوان فى حادث المنصة الشهير.

■

غواية التراث

جابر عصفور

الكويت: كتاب العربى، ٢٠٠٥، ٢٢٠صفحة



يجمع المؤلف - كما يقول - بين طه حسين وأدونيس فيما يتصل بغواية التراث، فقد أكسبه طه حسين من التراث والتعلق بجواهره نثرًا وشعرًا، وأغواه أدونيس بالنظرة المحدثة للتراث، أيضًا شعره ونثره، والمقالات التى يضمها هذا الكتاب تعكس هذا التزاوج الذى لا يمكن اعتباره تناقضًا وإنما اتساقًا بين رؤيتين فى مسار متصل.

يتحدث المؤلف عن منهجية فى الشعرية القديمة، منهج ينحاز إلى «الطبع» ويمثله البحترى، وهو ذاك الذى يرى أن الشعر يأتى عفو الخاطر دون مكابدة، بسيطًا دون تعقيد، وهى النزعة الشفاهية كما تبدو عند أمرئ القيس على سبيل المثال، فى مواجهة شعر الصنعة كما يتبدى عند زهير بن أبى سلمى مثلاً الذى كان يوصف بأنه الشاعر المتكلف، وقد جرى هذا فى العصر العباسى الذى عاش فيه البحترى، الذى ارتدى قناع أمرئ القيس فى مواجهة خصومه من الشعراء المحدثين، إنها خصومة بين القدماء والمحدثين مسرحها الشعر الجاهلى برغم أنها تجرى من زمن آخر، ومن ناحية أخرى فقد كان الوعى بالصنعة أو لذة الكتابة وعيًا بقدرة الشعر على تغيير العالم، و«الانتقال به من مستوى الضرورة إلى مستوى الحرية» كما يقول المؤلف.

أكثر من عشرين دراسة فى التراث وعنه، نقدًا وتحليلاً يضمها الكتاب بينها النموذج الأصلى للشاعر وسحر المعلقة وحكمة التمرد وحكمة اللذة والحضور المزدوج للإبداع والقلم واللسان ومديح القلم.

■

غواية الإسكندرية

إبراهيم عبد المجيد

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥، ١٢٥ صفحة



يحضر المكان بقوة فى الرواية، ليس بوصفه مسرحًا للأحداث التى تتناولها أو للشخوص الذين يتحركون فوق هذا المسرح فحسب، وإنما كثيرًا ما يكون المكان هو البطل الرئيسى للعمل كله، وهو الذى يشكل علاقات الشخوص ويرسم حتى ملامحها، وكثيرًا ما يرتبط الكاتب بمكان معين وبيئة بذاتها، تحتل النصيب الأكبر من أعماله وتؤثر فى رؤاه وأحكامه، والإسكندرية مدينة من هذا النوع، وكثيرون من أبنائها الأدباء كتبوا عنها أو لها، لكن قليلين هم من حدثونا عن تأثيرها فى إبداعاتهم، وهذا الكتاب يضطلع بهذا الدور، ومؤلفه الذى يعد واحدًا من العلامات المهمة فى الرواية العربية الحديثة أمضى سنوات الطفولة والصبا فى الإسكندرية، قضى بها نحو أكثر من ربع قرن حتى أنهى دراسته الجامعية، ثم حضر إلى القاهرة فى منتصف السبعينيات، وهى سنوات الأسئلة الصعبة كما يقول، لكن القاهرة ظهرت فى أعمال قليلة له، فيما استحوذت الإسكندرية على النصيب الأكبر، بطابعها المميز وأفقها اللامحدود وبحرها الذى يصل بين قارتين وعدة حضارات، وسحر المكان تترجمه تلك المقولة لماركيز: للأشياء حياتها الخاصة بها، علينا فقط أن نوقظ روحها، وهو ما يعنى أن ثمة روحًا مميزة للمكان يشيدها الكاتب وينثر جواهرها فى ثنايا عمله.

الإسكندرية كما تبدو فى كتابات المؤلف وكما يعبر عنها فى مقالاته التى يضمها الكتاب مدينة للتسامح، مدينة كوزموبوليتانية بالمعنى الكامل، تجاورت فيها أديان وأجناس وأعراق وحضارات شتى، وهى أيضًا مدينة للتمرد والثورة، وهذه المعانى كلها تنعكس على لغة الروائى ابن الإسكندرية، أو حتى من يكتب عنها من غير أبنائها، كما يلاحظ المؤلف مثلاً فى أعمال نجيب محفوظ التى كانت الإسكندرية حاضرة فيها، بدءًا من اللص والكلاب ومرورًا بميرامار والطريق والسمان والخريف.

■

السياسة فى غير السياسة

عبد المنعم سعيد

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة)، ٢٠٠٥، ٣٥٢ صفحة



اعتاد قرّاء المؤلف الذى يشغل منصب مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بجريدة الأهرام أن يتابعوا تحليلاته السياسية فى قضايا ذات طابع استراتيجى عميق، قضايا كبرى تتجاوز اليومى وانشغالاته، لكنه فى هذا الكتاب يجمع مقالات كتبها فى الفن والرياضة والشعر والتاريخ وغيرها مما اعتاده منه متابعوه، فهو يكتب مثلاً عن نهاية عصر السندريللا «سعاد حسنى»، ويقارن بينها وبين السندريللا كما جاءت فى الأسطورة، وفى الرياضة مثلاً يطرح سؤالاً يبدو شديد التفاؤل حتى لا نقول شديد السذاجة: لماذا لا نفوز بكأس العالم، وبعد مقارنات عديدة لها صلة بالسياسة أكثر مما لها صلة برياضة كرة القدم، يقول المؤلف إن المشكلة فى طريق تقدمنا ليس المال وليس السكان، فهما قد يشكلان عقبة فى بعض الأوقات، ولكن لم يحدث أن توقف تقدم دولة بسبب زيادة البشر أو نقص الموارد، ما يفرق بين مجتمع وآخر هو العمل وإرادة التقدم والرغبة فى

اقتحام المستحيل والاستعداد لتحمل المسئولية، وهو يتهم النظام الذى تدار به حياتنا بالارتجالية.

■

بنى بجـــم

بلال فضل

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٥



مجموعة من النصوص يغيب عنها الميل إلى الاقتصاد فى اللغة وتكثيف اللحظات الشعورية أو حتى تلك التى تستدعى من مستودع ذكريات الطفولة والصبا، وهو ما يفقدها أهم شروط القصة القصيرة التى قد لا تعنى بالتفاصيل عنايتها بالحدث واللحظة فى بناء جمالى بسيط ومحكم. السمة المميزة لهذه النصوص هى الميل إلى الاستطراد والحكى بأسلوب ملس ساخر، سخرية لا تخلو من قسوة على النفس وعلى الآخرين، وهو ما نلاحظه فى «صخرة الكومبو» مثلاً، حيث يهرب الحب فى لحظة حزن شفيف من بين يدى الراوى، ويتقبل هروبه بسخرية من نفسه ومن الحبيب، وكذلك الحال فى «بنى بجم»، يعود الحبيب بذكريات حبه الأول أملاً فى لقاء النموذج النادر المثالى الذى صنعه خياله عن المحبوبة، لكنه يفاجئ أن لا شيء بقى على حاله. الطفولة وعوالمها يتم استدعائها أيضًا فى عدة نصوص ربما كانت هى أجمل نصوص المجموعة.

وفيما له صلة مباشرة بالواقع الاجتماعى والسياسى، يأتى «خطاب إلى جوليا روبرتس» و«لكن ربنا ستر»، وفى الأولى يحادث المؤلف النجمة الأمريكية الجميلة بالطريقة ذاتها التى لا تخلو من سخرية وميل إلى الثرثرة، ويسقط كثيراً من دلالات خطابه على الواقع الاجتماعى وتناقضاته، وفى الثانية يتخيل ما كان يمكن أن يقوله السادات فى حالة نجاته، كيف سيواجه ما تصور إنه خيانة وكيف ستتحدد علاقاته بمناوئيه ومؤيديه بعده.

■

الأهلة.. نظرة شمولية ودراسات فلكية

عدنان عبد المنعم قاضى

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٥، ٣٢٣ صفحة



فى المناسبات الدينية الكبرى يثار الحديث دومًا عن دور الأهلة واختلاف بدايات الشهور العربية بين الدول العربية والإسلامية.

وحتى الآن مازالت الخلافات قائمة، فبعض البلاد العربية تأخذ بالحسابات العلمية الفلكية، فيما يصر بعضها الآخر على الاستمساك بالرؤية الشرعية.

والكتاب يضم فصولاً ستة، يتناول الأول الظواهر الطبيعية، سببها ونسبيتها واستخدامها.

والثانى مواقيت الصلاة ورؤية الهلال وكيفية تحديد آليات هذه الرؤية.

والثالث اختلاف مطالع القمر.

والرابع عن بدايات الشهور والأيام.

والخامس مخصص لتقويم شهر رمضان.

والأخير عن علم الفلك والتنجيم.

وهو يقدم بدراساته العلمية والفقهية نظرة شاملة لمشكلة الأهلة، وقاعدة جوهرية لمسائل فلكية تختلف عليها الأمة الإسلامية.

■

دوريات

المستقبل العربى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، أكتوبر ٢٠٠٥



يتضمن العدد خمس دراسات هى: «مصر.. إلى أين؟ انتخابات الرئاسة فى مصر وتأثيراتها المحتملة فى عملية التحول الديمقراطى.. رؤية تحليلية» أعدها حسن نافعة، و«نحو سياسة خارجية أمريكية ناجحة» لوليام بولك، و«الديمقراطية فى لبنان: خرافة أم واقع؟» لزياد حافظ، و«المعارضة السياسية وأنماط علاقاتها بالنظم الحاكمة فى دول مجلس التعاون الخليجى» لمفيد الزيدى، و«انقلاب ٣ أغسطس فى موريتانيا» لمحمد الأمين.

وفى العدد ملف بعنوان: «استحقاقات تواجه العراق»، ويحتوى العدد على وثيقة بعنوان «انتهاكات حقوق الإنسان فى العراق» أعدتها بعثة الأمم المتحدة.

■

قضايا راهنة

دمشق: المركز العربى للدراسات الاستراتيجية



العدد الجديد من هذه الدورية يتضمن أمسية حوارية عنوانها كيف نفهم اقتصاد السوق الاجتماعى وكيف نطبقه، أدار الحلقة عبد القادر النيال، وهى تتناول الاقتصاد السورى بالذات خصوصاً مع إطلاق عملية الإصلاح الاقتصادى السورى قبل ٥ سنوات، والنقاشات التى طرحت منذ ذلك التاريخ واهتم بعضها بالجانب النظرى للعملية وثارت تساؤلات مهمة تتعلق بحدود تدخل الدولة، وكيف يمكن الحفاظ على دور الدولة فى فتح الباب واسعًا للمبادرات الفردية والمنافسة التى هى أساس اقتصاد السوق، مع ضمان المكتسبات التى تحققت للفئات الكادحة من الشعب فى عقود سابقة، وتطرقت المناقشات أيضًا إلى تجارب الدول النامية التى سبقت فى هذا المجال.

■

دبى الثقافية

دبى: دار الصدى للصحافة والنشر (أكتوبر ٢٠٠٥)



فى بانوراما استطلاعان واحد عن مدينة خورفكان الواقعة على الساحل الشرقى لدولة الإمارات العربية المتحدة، يتناول تاريخ المدينة وحياة ناسها ومعالمها، والثانى عن كرنفال البانشى البلجيكى.

يتضمن العدد أيضًا أربعة حوارات مع وزير الثقافة الليبى مهدى إمبيرشى الذى يقول «نحن بحاجة إلى فلاسفة مجانين»، وآخر مع الفنان يحيى الفخرانى، وثالث مع الشاعر العمانى سعيد الصقلاوى، ورابع مع الشاعر المصرى أشرف أبو اليزيد، وفى القسم الخاص بالسينما موضوعات عن السينما العراقية والإذاعة السورية ومقال عن فيلم دعاء الكروان الذى لعبت بطولته فاتن حمامة وأحمد مظهر، ومن كتاب العدد رجاء النقاش وفخرى صالح وفاروق عبد القادر وشهاب غانم ووليد قصاب ومحمد لطفى اليوسفى.

■

العـــــربى

الكويت: وزارة الإعلام، نوفمبر ٢٠٠٥



تطل العربى على قرائها فى عددها الجديد بملف خاص عن الأديبة الراحلة مى زيادة التى كانت واحدة من رائدات عصرها وكان ظهورها بداية لانتهاء الدور الهامشى الذى كانت تحتله المرأة العربية فى ذلك الوقت.

كما تفتح المجلة ملف قضية الفجوة المعرفية التى يعانيها العقل العربى فى كل نواحى حياته.

ويناقش رئيس التحرير سليمان العسكرى فى مقاله محاولات التمرد على اللغة العربية من بعض الأقليات اللغوية.

وترحل العربى على صفحاتها إلى نيل القاهرة لتقدم رؤية شاعرته لهذا النهر وتثير أيضا قضية الاعتداءات التى يمارسها البشر على النيل كما لم تحدث طوال تاريخه. ويتضمن العدد أيضا مقالات عن الحوار الحضارى العربى والكتاب الورقى والهجوم الالكترونى.

■

وحيد النقاش.. الأرض لا تبتلع أبناءها الأخيار!

من مقدمة:
إسراءات الرجل الطيف
وحيد النقاش
إعداد: عبير سلامة
المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٥، ٣٨٣صفحة



ارتفع وحيد النقاش بعد رحيله إلى مستوى الرمز الدال على جوهر جيل كانت أحلامه أكبر من إمكانات واقعه، فانتهى إلى الهزيمة ولم ينل سوى السراب. وقد عبر هو نفسه عن هذا الجوهر الحزين في أوراقه، وجمعت اختياراته النقدية وترجماته «بين الحس الاجتماعي المرهف بالخيبة والتعاسة، والحس النضالي المرهف بأدوات الفكر الثوري، والحس العدمي المشبع بعبث الوجود الإنساني».

ولد وحيد النقاش في السادس من مايو ١٩٣٧، في قرية منية سمنود مركز أجا دقهلية، وهي كأية قرية مصرية شكّل الفقر معلمها الرئيسي، لذلك كان غريباً أن يقدم الفتى القروي على اختيار دراسة اللغة الفرنسية في كلية الآداب، اللغة التي اقترنت في ذلك الوقت بالطبقة المترفة ونشاطاتها الاجتماعية البعيدة تماماً عن أفق تطلعات وحيد النقاش، لكن ذلك الخروج الهادئ على المعتاد، في ذلك الوقت المبكر من عمره، سيظل ملمحاً قائداً لكثير من الاختيارات الشخصية والمعرفية التي عبرت عن روح جوابة وفياضة بحب الحياة.

مثلت ثقافة الغرب بالنسبة لوحيد النقاش وجيله حلاً جزئياً للفجوة العميقة بين الطموح والقدرات، ولم يرد الاعتماد على غيره للوصول إلى الحل، فأقدم على الترجمة بنفسه، لذلك اتسمت مختاراته المتنوعة من الآداب الأجنبية بكونها تشبع حاجة ثقافية ذاتية تؤرخ لتطوره الروحي، وتعكس تطور بلاده الثقافي والاجتماعي. فالرحلة التي قطعها من الفكر الوجودي إلى الفكر الثوري تتلمس تضاريسها الشعورية والعقلية في مختلف الترجمات والتلخيصات والتعليقات التي قام بها.

بل نتلمسها في قرارات حياته العملية التي أكدها بترك الوظيفة في مركز الفنون الشعبية بعد أشهر قليلة من التحاقه به عقب تخرجه، ليعمل محرراً أدبياً في الأهرام في عام ١٩٦٢، ثم توجها بالسفر إلى باريس للحصول على درجة الدكتوراة قبل شهر واحد من هزيمة يونيو ١٩٦٧.

مرة أخرى يتصل الخروج على المعتاد والمتوقع بجانب تعليمي، لكنه في حقيقته، مثل القرار الأول، كان انجذاباً للأصول وهروباً من الوسطاء، أراد ألا تكون اللغة هي نافذته الوحيدة على العالم، وإنما أن تكون الحضارة بممارساتها اليومية وعلاقاتها الإنسانية الحية هي الباب الواسع، والضيق معاً، الذي يجب تجاوزه حتى يعايش دلالات الحروف معايشة واقعية محسوسة.

بدأ وحيد النقاش الكتابة بعد أن أنهى دراسته الثانوية بتفوق في صيف ١٩٥٤، فنشر أولى دراساته الأدبية في شهر يوليو عن عشر قصص عالمية في مجلة الآداب البيروتية.

وانطلق بعد ذلك، كأنه كان يشعر بأنفاس المنية المقتربة، يربح عمقاً لحياته يوازي طول العمر، إن لم يفضله قيمة، فكتب وترجم ونشر بجدية بالغة وحماسة مضنية، في مجلات الآداب والشهر والطليعة والمجلة والمسرح، إضافة إلى الأهرام الذي نشر فيه أكثر أوراقه، بداية من موضوع (الأجانب وتراثنا الشعبي الحي، في ٢٠ نوفمبر ١٩٦٢، حتى (الملك يونيسكو في مقبرة الأكاديمية) في ٩ أبريل ١٩٧١.

أما آخر ما نشره قبل رحيله بخمسة أشهر، وفقاً للببلوجرافيا القيمة التي أعدها الدكتور صبري حافظ ـ فهو موضوع (يونيسكو يهاجم بريخت) في مجلة الآداب مايو ١٩٧١، إضافة إلى موضوع آخر بالعدد نفسه عن مسرح الأديب الجزائري كاتب ياسين.

أكثر ما كان يعني وحيد النقاش في تناوله النقدي للكتب هو المحتوى الذي يتحدى الذهن التقليدي، ويثمر تأثيره في الكيان الفكري والوجداني للقراء ببطء وعمق، مثل كتاب (ما الأدب؟) لسارتر، ترجمة د. غنيمي هلال، وكتاب (أنا وسارتر والحياة) لسيمون دي بوفوار، ترجمة عايدة مطرجي إدريس.

كان يهتم كثيراً برؤية الكاتب للعالم، وانعكاس تغيرات المجتمع على صفحة وجدانه، والتزامه بالتعبير الإيجابي عن موقفه من قضايا بلده والعالم، لذلك كان يتوقف في نقده عند الجانب التربوي للأدب، ومواقف الأديب السياسية والاجتماعية، مثلما يتضح من تناوله لإحدى قصص نجيب محفوظ، وأدب يوجين يونيسكو.

تنوعت ترجمات وحيد النقاش الأدبية بين القصة والرواية والمسرحية، لكتاب عالميين كألبرتو مورافيا، وتنيسي وليامز، ولوركا، وجان جيرودو. ويمكن أن نلحظ هنا وجود مشابهات كثيرة بينه وبين جيرودو (١٨٨٢ ـ ١٩٤٤) فكلاهما ابن لأسرة فقيرة، تفوق في دراسته، وتخصص في لغة أجنبية، ثم عمل بالصحافة، وسافر إلى البلد التي درس لغتها. كلاهما صنع نجاحه من لا شيء، خطوة خطوة بمجهود فردي، ثم أدركه الموت في سن مبكرة، فخبت سيرته سنوات طويلة.

كان وحيد النقاش يحرص في مختاراته قصيرة الحجم ـ ربما لتناسب النشر في الدوريات اليومية والشهرية ـ على إنسانية محتواها ومغزاها، كاختياره لقصتي «الصنم» و«الذاهلتان» لألبرتو مورافيا، وهما من قصصه التي «تعالج ملامح في تجربة الرجل والمرأة بعمق بالغ، وتعبر عن «مأزق اللقاء بين كائنين بشريين من أبناء العصر الحديث ارتبطا معاً برباط الزواج ولكن كلاً منهما لم يدخل إلى عالم الآخر بعد».

وهذا اللقاء «المأزق» بين البشر هو ما لفت انتباه وحيد النقاش لرواية «صمت البحر» لجان بريلير (فيركور) حيث حاولت الفتاة الفرنسية أن تقاوم عاطفتها تجاه الضابط الألماني، لأنه ينتمي للأعداء المغتصبين بلدها، وأخفت شغفها برقة إحساسه ونبل أخلاقه وسمو تفكيره وسعة معرفته، وحين فشلت مقاومتها استسلمت لحبها، لكنها أسرته في نفسها وطوته في قلبها. لم تفض به للفتى وهي موقنة بأن الفتى مدله في غرامه بها، وكلاهما لا يبوح للآخر بسره، وكلاهما يشعر أنهما مؤتلفان روحاً وعقلاً وأن أحدهما يكمل الآخر، ولكن الفتاة لم تذعن لهواها ولم تخضع لغريزتها، وآثرت أن تكتم حبها وتطويه في صمت عميق كصمت البحار.

وانفعالاً بكيفية رصد الإبداع لخفايا اللقاء الإنساني، ترجم وحيد النقاش مسرحية (وردة لكل عام) لتنيسي وليامز، رغم ارتكازها كما يقول على ما يمكن أن نعتبره «موضوعاً من موضوعات الشذوذ المألوفة في مسرح وليامز، ولكنه عالج برهافة ورقة هي أقرب إلى العلاج الشاعري.

اللقاء الإنساني المتفجر بدلالات الاتفاق النادر أو الاختلاف بين المحبين والأزواج هو أهم المشتركات الغالبة على ترجمات وحيد النقاش المسرحية خاصة، مثل كوميديا (فيلا مفروشة للإيجار) لجابريل ديرفيليه، وغنائية لوركا (يرما) التي يلخص قولها: «ليس بمقدور الماء أن يصعد في الجبل ولا بوسع القمر في تمامه أن يطلع في الظهيرة». مأزق اللقاء الفريد بين متناقضات الطيف والحقيقة، العقل والجسد، الشرف والخيانة، والجدب والإخصاب.

لقد استوحى لوركا في هذه المسرحية الساحرة التراث الشعبي الإسباني، ممثلاً في أغاني الغجر والفلاحين وحكاياتهم البريئة، ثم صاغه برؤية عصرية مازجاً الرمزية الشفافة بالواقعية، ومؤكداً أصالة موهبته العظيمة. عالم (يرما) عالم حسي مفعم بعواطف العذارى والزوجات، شوق الريفيين للإنجاب، وظمأ العاشقين للقاء. أما موضوعها ـ وهو الأثير عند لوركا ـ فهو الجدب والإخصاب، أو الاشتهاء العارم للحب والإنجاب، ثم الحزن المأسوي لافتقادهما.

الحب المخصب لا ينتهي باللقاء الجسدي عند لوركا، بخاصة هنا في مسرحية (يرما)، وفي (عرس الدم)، و(بيت برناردا ألبا) بل ينتهي بالموت أو الجنون غالباً، كأنهما البديل الطبيعي لتعذر الحياة الجديدة والعطاء. وتتمتع الشخصيات النسائية في المسرحيات المذكورة بكبرياء نادر، يجعلها تدافع عن شرفها حتى الموت، قد يضعف أمام جموح العاطفة، لكنها تعود سريعاً للاحتماء بصخرتها الصلدة، مضحية مثل «يرما» بفرصتها الأخيرة لتحقيق الرغبة العنيفة في أن تقبض بالدم على طائر حي.

اختيار المرء وافد عقله كما يقولون، وترجمات وحيد النقاش ـ ودراساته وحواراته مع المفكرين والأدباء، أبلغ دليل على ما اتصفت به شخصيته النادرة من قلق خصب، وصفاء عقلي ثاقب، وتعاطف مع الضعف الإنساني. إنها الصفات النموذجية لأديب موهوب استسلم لغواية الصحافة والترجمة، ثم أخضعها لسلطان روحه المبدعة، ولتعبيره الأصيل الملتزم تجاه المجتمع والإنسانية.

إن الأرض لا تبتلع أبناءها الأخيار كما قال صلاح عبد الصبور، لكنهم يذوبون في أثيرها، كما يذوب العطر والشعر والموسيقى، ونحن بالتذكر ونشر أوراقهم المطوية لقراءة جديدة، نجمعهم من الفضاء الهائل مرة ثانية، ونجتمع بهم في إسراءات طيفية حول نار المعرفة ونورها.

عبير سلامة

What To Expect When You Are Expecting
(ماذا تتوقعين وأنت تنتظرين)
Heidi Murkoff
Workman Publishing Company, 2002, 624pp, $13.95



من المعروف أن يستمر عرض مسرحية ما لسنين طويلة بالذات فى الغرب حيث عرضت مسرحيات لمدد تجاوزت العشرين عاماً ولكن أن يظهر كتاب على قائمة الكتب الأكثر مبيعا فى الولايات المتحدة بعد مرور ١٨ عاماً على طبعته الأولى فهذا هو المدهش فعلا. لقد أصبح كتاب «ماذا تتوقعين وأنت تنتظرين» مرجعاً أساسياً للأمهات الحوامل فى الولايات المتحدة. والكتاب ينقسم لفصول تتابع شهور الحمل منذ فترة التخطيط للحمل وحتى ستة أسابيع تالية للولادة. ولكنه لا يقدم المعلومات فى شكل سرد مثل أغلب الكتب المماثلة ولكنه يقدمها فى صيغة أسئلة وأجوبة عن كل ما يخطر فى بال الأم بما فى ذلك الحالات المتناقضة والأمور التى لا تتعلق بشكل مباشر بالحمل مثل طريقة اختيار الطبيب أو المولد واختيار مكان الولادة. كما تقدم إرشادات للتوليد فى حالة حدوث ولادة مفاجئة فى السيارة أو المنزل. كما يتضمن الكتاب إرشادات غذائية مثالية وفصلاً كاملاً يتحدث عن دور ومشاعر الأب فى هذه المرحلة. وتتضمن الطبعة الثالثة والأحدث القليل من الإضافات على الطبعات الأقدم مثل مناقشة أوسع لموضوع اكتئاب ما بعد الولادة وإرشادات مفصلة فى حالة السفر بالطائرة.

■

Women of Sufism: A Hidden Treasure
(نساء الصوفية: كنز خفى)
Camille Adams Helminisky
Shambhala, 2003,304P, $18.95



شغلت النساء مكانة بارزة فى عالم التصوف وإن كانت أدوارهم لم تبرز بنفس درجة ابن الرومى وعمر بن الفارض وآخرين. فى كتابها نساء الصوفية: الكنز الخفى، تحكى كاميل أدمز هيلمينيسكى عن أبرز النساء المتصوفات منذ العصور الأولى للإسلام وحتى الزمن الحالى بما فى ذلك المتصوفة الأشهر فى التاريخ رابعة العدوية والسيدة نفيسة وفى العصر الحديث المتصوفة ذات الأصول الروسية أرينا تويدى التى تصف فى الكتاب مشوارها المتدرج نحو الصوفية. ويتضمن الكتاب أشعار ويوميات وأغانى وأدعية كتبتها النساء اللاتى أتى ذكرهن فى الكتاب. أما عن سير هؤلاء النساء وخاصة الأقدم منهن فقد استقت الكاتبة أغلبها من كتابات رجال. وترى الكاتبة التى كانت أول امرأة تترجم القرآن إلى الإنجليزية وقد اشتهرت بإعادة نشر التراث الصوفى. وهى ترى النساء لعبن دورا كبيرا فى الصوفية حيث إنه تنبذ الهيراركية فى مقابل التوحد مع الذات الإلهية وهو ما كان مناسبا جدا للنساء.

■

The Tender Bar
(البار الحنون: مذكرات)
J.R. Moehringer,
2005, 384pp,



لا تكتفى مذكرات الكاتب جاى آر موهرينجر بجريدة لوس أنجيلوس تايمز الحائز على جائزة بولتزير بعرض لسيرة حياته وذكريات طفولته ولكنها تتجاوز ذلك لتتحول لتعليق اجتماعى على «التافرن» (المطعم الشعبى الذى يلتقى فيه أهل كل حى). يركز موهرينجر على غياب والده فى طفولته وانحسار صورة هذا الأب فى «صوت» يأتى أحيانا عبر الهاتف. كما يتحدث عن حياته مع أمه المكافحة فى منطقة لونج أيلاند بنيويورك. يبحث موهرينجر عن بديل لوالده الغائب فى الرجال الذين يقابلهم فى التافرن ويمكن اعتبار كتابه بالكامل تحية لثقافة البار. يتلقى موهرينجر تعليما عمليا من الشخصيات التى يلتقيها فى التافرن ويبحث هناك عن الحب ثم يفقده ويعنى هذا الفقد فى نفس المكان. ويصف التافرن بأنه ملجأه والمكان الذى يكتسب فيه قلبه صفاء أكبر. تأتى ذروة الكتاب عندما تحدث هجمات الحادى عشر من سبتمبر والتى يموت فيها ٥٠ شخصاً من المدينة التى عاش فيها الكاتب فى طفولته والذين رأينا العديد منهم فى وصفه العاطفى والمطول لحياته فى التافرن. لقد رسم الكاتب صورة جميلة عن حياة عادية فى بلدة عادية ثم ليثير وبمهارة شديدة عواطف القارئ مع ضحايا الحادى عشر من سبتمبر.

■

Bob Dylan Scrapbook, 1956-1966
(دفاتر بوب ديلان ١٩٥٦-١٩٦٦)
Bob Dylan and Robert Santelli
Simon & Schuster Adult Publishing Group, 2005, 64pp., $45.00



أصدر المغنى المعروف بوب ديلان والذى يعتبر أحد رموز مرحلة الخمسينيات والستينيات الثقافية كتابًا عنه هو شخصيًا فى صورة ما يسمى «دفتر قصاصات» وهو دفتر أو ألبوم يحتفظ فيها المراهقون عادة بقصاصات وكتابات تؤرخ لحياتهم وهو من المعالم المعروفة للحياة الاجتماعية فى الولايات المتحدة. يتضمن دفتر ديلان صورًا نادرة وكلمات أغانيه مكتوبة بخط اليد وتذكارات أخرى نادرة. كما يتضمن أحاديث مع ديلان نفسه وبعض المقربين منه والموسيقيين الآخرين تساعد كلها فى بناء صورة مكتملة لهذا الفنان الذى اعتبر أهم كاتب أغان فى عصره. كما يباع مع الكتاب أسطوانة مدمجة تتضمن ساعة من اللقاءات النادرة مع ديلان والمقطوعات التى لم تسجل على نطاق واسع. كما يستخدم الكتاب مقاطع أخذت من فيلم تسجيلى حديث لمارتين سكورسيزى وأكثر من ١٠٠ صورة فوتوغرافية من أرشيف ديلان الشخصى.

■

How to Eat
(كيف تأكل)
Nigella Lawson
Wiley, 2002, 496pp, $35.00



اقتحمت نيجيلا لوسن عالم برامج الطهى بشكل عاصف إذ أنها منذ البداية شخصية شهيرة فهى ابنة نايجل لوسن أحد أكثر الوزراء البريطانيين نفوذا فى القرن العشرين. وقد يكون ذلك هو ما جذب المشاهدين لبرنامجها فى المقام الأول إلا أنها استمرت فى اجتذابهم ربما عن غير عمد عبر الدراما الشخصية التى مرت بها والتى تمثلت فى مرض زوجها ووفاته مما جعل البعض يتابع برامجها كما يتابع المسلسلات. وهى لا تخفى مشاعرها عند تصوير البرنامج بل إن الكثير من الحلقات تدور حول الأطعمة المناسبة لحالتها المزاجية. كما أن زوجها ظهر فى بعض الحلقات قبل وفاته. ولنيجيلا فلسفة فى الأكل إذ أنها ترفض اعتبار أكلات معينة مناسبة لفصول معينة أو غير ذلك من القواعد التى اعتاد الطهى المحترفين الالتزام بها. فى كتابها «كيف تأكل» تحكى نجيلا لوسن بطريقتها المرحة والحميمة آراءها هى الشخصية عن كيف وماذا يجب أن نأكل وهى لا تعنى بذلك أن تعطى نصائح عما يناسب الصحة بلا أنها تفرط فى استخدام البيض والكريمة وما شابه. الكتاب مثل كتبها الأخرى ليس ممتعا فقط لأنه ملىء بالوصفات السهلة واللذيذة ولكن يمكن قراءته أيضا على أنه ملاحظات كاتبة ساخرة حول الحياة والطعام.

■

The Other Place
(البلدة الأخرى)
Ibrahim Abdel Meguid
The American University Press, 1997, 332P



تحتل تجربة العمالة المصرية فى الخليج مكانة مميزة فى الأدب والفن المصريين.

وقد تم تناول الجوانب المختلفة من هذه التجربة فى أعمال أدبية عديدة منذ السبعينيات بما فى ذلك تأثير هذا الاغتراب على سلوك وعلاقات المواطن المصرى عند عودته للوطن.

من أهم الأعمال التى تناولت هذه التجربة رواية البلدة الأخرى لإبراهيم عبد المجيد والتى صدرت الترجمة الإنجليزية لها حديثا بعد فوز الكاتب بجائزة نجيب محفوظ التى تمنحها الجامعة الأمريكية.

وتحكى الرواية عن موظف مصرى ينتقل للعمل فى دولة خليجية تعمد الكاتب تجهيلها.

ويسجل الموظف ملاحظاته حول العالم الجديد من حوله بما فيه من موظفين وعمال مهاجرين ومواطنين. وتبرز دهشة الكاتب من الاختلاف الذى يراه بين ما عرفه من قبل وبين حياته فى البلدة الأخرى منذ السطور الأولى التى يصف فيها فرق الحرارة بين البلدة التى وصلها للتو وبين الطائرة. تمتاز الرواية بغوصها فى نفسيات أبطالها المختلفين ودوافعهم سواء للهجرة أو فى تعاملاتهم

اليومية. كما نجح الكاتب فى نقل الإحساس بالمدينة الصحراوية وكيفية تشكيلها لنفسيات ودوافع المقيمين فيها.

■

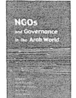
The Complete Temples of Ancient Egypt
(معابد مصر القديمة)
Richard Wilkinson
The American University Press,
2005, 256



من المتعارف عليه أن ما يعرف بكتب طاولة القهوة لا يتضمن فى الغالب الكثير من المعلومات الجادة إذ أن الهدف منه فى الأساس هو تسلية الضيوف أو الزبائن عند الانتظار وهو يطمح بشكل أساسى فى أن يكون ألبوم صور أنيقًا يتضمن بعض المعلومات. ولكن كتاب معابد مصر نجح فى الجمع بين الغرضين فهو كتاب شديد الجاذبية ويصلح فعلا كأحد كتب طاولات القهوة الأنيقة بصوره البديعة لجميع معابد مصر ولكنها يزيد عليها بشرح دقيق لمعمار تلك المعابد بما فى ذلك الوظائف الدينية والهندسية لكل أجزاء وتفاصيل المعبد. ويعزز المؤلف الشرح بخرائط للمعابد نفسها ولخرائط لموقع المعبد بالنسبة للآثار المحيطة به. أختار الكاتب أيضا معلومات خفيفة مختلفة عن الأعياد فى مصر القديمة وزوجات الحكام والحكام غير المصريين الذين ورد ذكرهم أو تم تصويرهم على جدران المعابد المصرية.

■

NGOs and Governance in the Arab World
(المنظمات غير الحكومية والحوكمة فى العالم العربى)
American University Press
Edited: Sarah Ben Mefissa,
Nabil Abd al-Fatah, Sari Hanafi,
Carlos Milani, 2005, 388pp



يشهد العالم العربى تغيرًا واضحًا فى دور المنظمات الأهلية. فقد لعبت هذه المنظمات لسنوات طويلة دورا خيريا فى المجالات الإنسانية والاجتماعية خاصة الإحسان للفئات المحتاجة. ولقد أخذت معظم المنظمات الأهلية طابعا إما دينيا أو أنها أنشئت على أساس أن تخدم مجمعا صغيرا بعينه.

ألا أن هذا الاتجاه شهد تغيرا ملحوظا فى السنين الأخيرة حيث إن العديد من المنظمات الأهلية أصبحت مسرحا للصراعات بين التيارات السياسية المختلفة.

كما أنشئت بعض المنظمات الأهلية بأهداف سياسية فى المقام الأول مثل مراقبة وحماية حقوق الإنسان أو قضايا الديموقراطية.

وتحاول الدراسات الواردة فى هذا الكتاب مناقشة التفاعل بين المنظمات الأهلية والحكومات فى العالم العربى خاصة مع الأخذ فى الاعتبار حالة الشد والجذب بين اللامركزية والأساليب التقليدية فى الإدارة وبين الحاجة أحيانا لدعم مطالب المجتمع المدنى. ويتساءل الكتاب إن كان من الممكن لنا أن نعتبر منظمات المجتمع المدنى فى العالم العربى مؤثرين بشكل رئيسى فى الحوكمة وفى التنمية المحلية. وكيف يمكن لنا توصيف العلاقة بين هذه المنظمات والمجتمع. ولقد قدمت الدراسات الواردة فى الكتاب فى مؤتمر المنظمات غير الحكومية والحوكمة فى العالم العربى الذى أنعقد فى القاهرة فى مارس ٢٠٠٣.

■

The Iconography of Islamic Art
(رمزية الفن الإسلامى)
Editor: Bernard O'Kane
American University Press,
2005, 336pp



هناك شغف مستمر بين المتخصصين باكتشاف الرموز المتضمنة فى أشكال الفن الإسلامى المختلفة.

وتتجمع فى كتاب الرمزية فى الفن الإسلامية عدة دراسات تستخدم أساليب متنوعة فى البحث عن معانى هذه الرموز ولكن يجمع أغلبها محاولة وصل التفسير الذى يراه الكاتب بنصوص إسلامية مختلفة تدل عليه وتثبته.

وتتناول الأبحاث المختلفة فى الكتاب رموزًا متكررة فى الفن الإسلامى مثل الطاووس والأشجار والكأس مع فرع الشجرة وهى رموز ظهرت على الحوائط كما ظهرت على الأدوات المستخدمة فى الحياة اليومية مثل الكؤوس والمكاحل والأوانى والسجاجيد بالطبع.

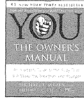
وتوفر دراسة النصوص المتعلقة بالكعبة وباستخدام الرخام نقطة انطلاق لدراسة علاقة الأدوات المختلفة بالتاريخ كما يساعد اتساع المدى الجغرافى للدراسات المختلفة، من مصر إلى الهند، على تكوين فكرة واضحة عن شكل ومعنى تلك الرموز فى الأقطار الإسلامية المختلفة.

كما توضح بعض الدراسات التأثير المسيحى، خاصة من صقليا، والتأثير البوذى فى أشكال الفن والرمز الإسلامى.

وقد تم جمع هذه الدراسات كشكل من أشكال تكريم روبرت هيلينبراند الأستاذ والكاتب المتخصص فى الفن الإسلامى.

■

You; The Owner's Manual
(أنت: دليل المستخدم)
Mehmet Oz and Michael F. Roizen
Collins, 2005, 432pp, $24.95



صمم هذا الكتاب فعلا كدليل للمستخدم حيث إنه يشرح بشكل بسيط وبألفاظ متداولة فى الحياة اليومية أجهزة ووظائف الجسم المختلفة كمرحلة أولى تساعد القارئ العادى على استيعاب مسببات الأمراض وطرق الشفاء منها.

وقد ألف الكتاب طبيب أمراض قلب مشهور وأخصائى فى مقاومة الشيخوخة.

ويبدأ الكتاب بمجموعة من الاختبارات التى تهدف إلى قياس مدى معرفة القارئ بجسمه ثم ينقسم الكتاب إلى فصول يتناول كل منها أحد أعضاء الجسم والأمراض المتعلقة به ويقدم الكتاب نصائح عن الأكلات وأنماط الحياة والتى تضر وتفيد هذا الجزء من الجسم كما يوضح الكتاب تأثير الوراثة على عملية الكبر والشيخوخة. يمتاز الكتاب بأسلوب فكاهى نوعا ما فهو عندما يشرح فكرة الغضروف يشبهها بالكريمة بين قطعتى بسكويت وكيف أنه من الممكن أن تنضغط فتخرج من البسكويت. يقدم الكتاب نظاما غذائيا ورياضيا فى الختام يدعى أنه يساعد على طول العمر وتحسين الصحة العامة بما فى ذلك إزالة الوزن الزائد. ولكن حتى هذا النظام يركز على أجزاء الجسم بشكل منفصل مما يعنى أن هناك صعوبة فى اتباعه بشكل يفيد باقى الجسم.

■

Remembering Childhood in the Middle East.. Memoirs From a Centuary of Change
(تذكر الطفولة فى الشرق الأوسط)
Editor Elizabeth Warnock Fernea
American University Press,
2002, 354pp



يسجل فى الكتاب ٣٦ رجلاً وامرأة من بلاد مختلفة فى المنطقة ذكرياتهم عن طفولتهم. ومن خلال هذه الذكريات نستطيع أن نكون فكرة ما عن شكل الحياة بين شرائح متعددة جدا من الشرق أوسطيين منذ بداية القرن العشرين. وقد تم تجميع الشهادات على حسب الفترة الزمنية بحيث تشتمل كل فترة على شهادات مجموعة متنوعة من الأشخاص من خلفيات عرقية ودينية وطبقية مختلفة مما لا يترك مجالاً لرؤية أحادية الجانب لهذا التاريخ بل إنها تكسبها تنوعا فى التجارب قل أن يوجد فى أى كتاب تاريخ عادى. يتضمن الكتاب شهادات للموسيقى النوبى حمزة الدين والباحثة عفاف لطفى السيد والشاعرة سلمة الخضراء الجايوسى كما يتضمن شهادات لأفراد لعبوا أدوارا أقل تميزا مثل على افتخارى الموظف بوزارة التعليم الإيرانية.

■

Christianity and Monasticism in the Fayoum Oasis
(المسيحية والرهبنة فى الفيوم)
Editor: Gawdat Gabra
American University Press,
2005, 322



فى كتاب المسيحية والرهبنة فى واحة الفيوم يدرس مجموعة من المختصين بالشئون القبطية من أنحاء العالم تاريخ الديانة المسيحية فى هذه الواحة بما فى ذلك بعض الكشوف الأثرية الحديثة التى قد تساعد على كشف تفاصيل أكثر عن هذا التاريخ.

■

«كيد مرتد»
المؤلفان: رفيف دروكر وعوفير شيلح
الناشر: كيتر، ٢٠٠٥، ٣٣٤ صفحة

בומרנג
רביב דרוכר עפר שלח
כתר
2005
334 עמודים

يكشف كتاب «كيد مرتد» لمؤلفيه الصحافيان رفيف دروكر وعوفر شيلح حجم التواطؤ الإسرائيلى على الرئيس الراحل ياسر عرفات، والمساعى الحثيثة للتخلص منه عنوة أو بـ «طرق إبداعية»، بعد فشل الاحتلال فى قمع الانتفاضة رغم البطش والحصار. ويفضح الكتاب قيام إسرائيل بإهدار فرص التهدئة والسلام فى السنوات الأربع الأخيرة خلال انتفاضة الأقصى. وأوضح الكتاب أن اسرائيل دأبت على «شيطنة» الرئيس عرفات من خلال التحريض على شخصه وتحميله كامل المسئولية عن سفك الدماء فى المنطقة، بهدف التهرب من استحقاقات السلام مع الفلسطينيين، انسجاماً مع نظرية قيام الزعيم الفلسطينى بإشعال الانتفاضة والتحكم بها و«غياب الشريك» فى الجانب الآخر.

وأضاف الكتاب، أن رئيس الوزراء الإسرائيلى أرئيل شارون، استغل التحريض على شخص الرئيس عرفات من أجل عدم مواجهة التحديات، كالمبادرة السعودية التى سوقت على أنها «غير ذات صلة لأن عرفات سيحبطها». ونوه المؤلفان، إلى أن انتهاج التحريض ضد الرئيس الراحل حركتها دوافع الحفاظ على الوحدة الداخلية فى إسرائيل، مشيرين إلى أن شخصنة الصراع وتعليق كل «الشر» على شماعته أسهل بكثير من مواجهة إرادة شعب كامل. وأضاف المؤلفان أنه عندما بلغت معلومات قاطعة أن عرفات يعمل من أجل خفض مستوى ألسنة لهب الصراع كما حصل بعد عملية «نادى الدولفين» فى يافا، فى يونيو- حزيران ٢٠٠١ التى أعقبها وقف إطلاق نار فلسطينى سرعان ما قوبل بالإنكار والتحريض من قبل إسرائيل. وأشار الكتاب إلى الكاريكاتور الذى نشرته صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية تعبيراً عن تحويل عرفات إلى المتهم الدائم فى وعى الإسرائيليين، وتظهر فيها امرأة إلى جانب سيارتها التى تعطلت فى الشارع وهى تقول لزوجها الغاضب: هيا نتهم عرفات.

وأضاف الكتاب، إنه ومع مرور الأيام بدا أن شارون ووزير دفاعه موفاز يستصعبان فرملة ذاتيهما، تمهيداً لإطلاق العنان لشهوتهما بإبعاد الرئيس عرفات، ما أدى إلى ازدياد الحملات العسكرية الموجهة ضده بشكل خاص مثل حملة «قريباً لديك» فى مارس- آذار ٢٠٠٢ التى فرضت حصاراً على مقره. اقترح شارون اقتراحات للتخلص من الرئيس عرفات أو مضايقته منها، تثبيت محركات «مولدات» تصدر ضجيجاً بجوار المقاطعة على مدار الساعة. وأضاف الكتاب «أطرافاً دولية أوصلت رسالة خفية بعد تجدد العمليات ضد إسرائيل، رغم عملية «الجدار الواقى» عام ٢٠٠٢ أنها لن تعارض طرد الرئيس الفلسطينى». ولفت إلى أن شارون كان يشارك بنفسه فى التخطيط لعمليات المس بعرفات والتضييق عليه سوية مع رجالات الجيش.

■

« أخت صغيرة »
المؤلف: رام اورن
الناشر : كيشت، ٢٠٠٥، ٣٥٢ صفحة

אחות קטנה
רם אורן
מוציא לאור קשת
2005
352

يسلط كتاب «أخت صغيرة»، للكاتب رام أورن الضوء على حياة المتدينين اليهود المتزمتين «الحريديم». ويقدم مؤلف الكتاب فكرته على شكل قصة لحياة إحدى الفتيات التى تعيش فى مدينة «بنى براك» الواقعة شمال شرق تل أبيب، وتعتبر معقل اليهود «الحريديم». الحياة فى هذه المدينة تعيد للأذهان عيش اليهود فى الجيتوهات فى أوروبا فى القرن التاسع عشر. حيث تخضع هذه المدينة «الجيتو» لسلطة الحاخامات والمرجعيات الدينية الذين حولوا المدينة إلى سجن كبير يعيش تحت وطأته عشرات الآلاف من اليهود المتدينين الذين يعيشون فى حياة صعبة مقارنة مع مستوى الحياة فى المدن اليهودية العلمانية نسبياً. يظهر من خلال هذا الكتاب الاختلاف فى حياة اليهود الحريديم عن غيرهم من اليهود فى الدولة العبرية. ويعرض الكتاب نماذج لحياة غير عادية، فهؤلاء لهم لباسهم الخاص وأكلهم الخاص، وهم لا يتنزهون بالشكل العادى. وينوه الكاتب إلى أنه حتى القضايا الشائكة التى تهم جميع بنى البشر لا تعالج هناك بالشكل العادى. وبسبب اقتصار الأغلبية الساحقة من أبناء اليهود المتدينين على التعليم الدينى فى المدارس الدينية التابعة للأحزاب التى تمثل الحريديم، فأنهم يحتلون نهاية السلم الاجتماعى فى الدولة العبرية حيث أن مدينة «بنى براك» تعتبر أكثر المدن الإسرائيلية التى تعانى من الفقر، وكذلك الأمر مع الأحياء التى يعيش فيها الحريديم. يوضح الكتاب المعضلة التى يتعرض لها بعض اليهود الحريديم الذين يقررون الانفتاح على العالم من حولهم، حيث يشعرون بصعوبة الاندماج. وبسبب العيش فى ظل هذه الظروف فأن هذه الفتاة التى كانت متفوقة فى الدراسة تتحول حياتها إلى بؤس عندما تقرر الانتقال إلى خارج إطار الجيتو. ومن المعلوم أن القيادات الدينية والسياسية للحريديم فى إسرائيل معنية ببقاء نسق حياة اليهود فى مناطقهم على حالها، ليس فقط لأن هذا يتطابق مع المعتقدات التى تروج لها هذه القيادات وتلك المرجعيات، بل لأن ذلك يضمن لهذه المرجعيات نفوذها.

وهناك من يرى أن المرجعيات الدينية الحريدية الكبيرة فى إسرائيل ظلت ترفض السماح بتجنيد الشبان الحريديم للخدمة فى صفوف من الجيش خوفا عليهم من الانبهار بالحياة العلمانية وترك الدين فى النهاية، كما حدث مع الكثيرين.

■

«الاستقلال والنكبة»
المؤلف يوآف غلبر
الناشر : دفير، ٢٠٠٥، ٦٥٦ صفحة

קוממיות ונכבה
יואב גלבר
דפיר
2005
656

يتناول كتاب «الاستقلال والنكبة» لمؤلفه يوآف غلبر أحداث حرب العام ١٩٤٨ وحلول النكبة على الشعب الفلسطينى بقيام العصابات الصهيونية بتشريد أبنائه وتهجيرهم وولادة قضية اللاجئين الفلسطينيين. ويعتبر المؤلف أن قضية اللاجئين تمثل لب الصراع الفلسطينى الإسرائيلى، وأنها العقبة الأساسية أمام أى إمكانية للتوصل لتسوية سياسية بين الفلسطينيين والإسرائيليين. وفى حال ظلت إسرائيل تتجاهل هذه القضية، فأنه لا مناص من بقاء جذوة الصراع مشتعلة. الكتاب مخصص بشكل أساسى للحديث عن مشكلة اللاجئين جذورها وتحولها من مسألة تهجير قسرى إلى لجوء دائم يصعب رؤية لنهايته على الأقل فى الظروف الحالية. يعتمد الكتاب على مجموعة من الوثائق الهامة التى تنشر لأول مرة، ويستند فى سرده إلى مجموعة من المصادر الارشيفية المتنوعة عسكرية ومدنية، سواء كانت إسرائيلية وبريطانية إضافة إلى مصادر باللغة العربية. إلى جانب ما نشر فى الصحف، فضلاً عما حفظ من تسجيلات للشبكة اللاسلكية وتقارير التنصت التى تزخر بها وتقارير العملاء وأشخاص تم التحقيق معهم فى أروقة التحقيق لدى المخابرات. ويتطرق الكتاب إلى أدب الذاكرة العربى، الذى أضيف إليه فى الأونة الأخيرة لتوثيق شفهى تم نشره على شبكة الإنترنت. يأتى إصدار كتاب «الاستقلال والنكبة» فى ظل دعوة العديد من المؤرخين الجدد إلى اعتبار «استقلال» إسرائيل هو نكبة للشعب الفلسطينى، وأنه بدون هذه النكبة لم يكن بالإمكان الحديث عن «استقلال» إسرائيل المزعوم.

■

« فى زمن حقيقى انتفاضة الأقصى واليسار الإسرائيلى»
المحرر : أوفير عادى
الناشر: كيتر، ٢٠٠٥، ٣٢٠ صفحة

זמן אמת-אינתיפאדת אל-אקצה והשמאל
אופיר עדי
כתר
٢٠٠٥
320 עמודים

لماذا اندلعت انتفاضة الأقصى، ولماذا فوجئت إسرائيل مرة اخرى، وما الذى يحرك النضال الذى يشنه فلسطينيو ٤٨، وكيف تحول صحافيون إسرائيليون كبار إلى مجرد ناطقين باسم الحكومة، وأين اختفى اليسار الإسرائيلى؟. وهل إسرائيل حقاً شريك طبيعى لعملية سلام، وهل يترسخ نظام تفرقة عنصرية داخل الدولة العبرية. وهل المجتمع الإسرائيلى مستعد وقادر على تحمل تبعات التسوية مع الشعب الفلسطينى. كل هذه الأسئلة يجيب عليها ٢٩ أديباً وكاتباً وأكاديمياً وصحافياً إسرائيلياً فى كتاب «فى زمن حقيقى»، الذى حرره اوفير عادى. فى هذا

الكتاب هناك محاولة لتفسير اندلاع انتفاضة الأقصى فى سياقاتها الواسعة، سياسياً وأيديولوجياً، وإبراز معالم الحرج الشديد الذى لحق باليسار الإسرائيلى الذى لعب دور «مقاول الأعمال القذرة»، سيما عندما انضم لحكومتى شارون الأولى والثانية، الأمر الذى أدى إلى انهيار كل ما تبقى له من مصداقية ومكان فى سوق الأفكار الإسرائيلى. الكتاب يوجه نقدا لاذعا لأداء الإعلام الإسرائيلى أثناء انتفاضة الأقصى، وتجنده لتبنى الرواية الرسمية الإسرائيلية دون الأخذ بالاعتبار الرواية الرسمية الفلسطينية، وتجاهل إدارات التحرير فى الصحف والصحافيين للحقائق التى يعرفونها لمجرد الاستنفار لصالح الدولة وروايتها. بالنسبة للذين شاركوا فى تأليف الكتاب لم يكن هناك أى شعور بالمفاجأة لاندلاع انتفاضة الأقصى، ويقولون أن هذا كان متوقعاً لأن أحداً لا يمكنه الافتراض أن الشعب الفلسطينى يمكن أن يقبل أن يحيا فى واقع الذل والمهانة الذى يفرضه الاحتلال. وبالنسبة لهم فإنه سيكون من غير الطبيعى ألا تندلع الانتفاضة التى جاءت لتقضى على الأوهام الإسرائيلية بإمكانية تعايش الشعب الفلسطينى مع الاحتلال، والقبول بالدونية. وفى المقابل كان البطش والقمع الإسرائيلى متوقعاً، حيث كانت الدولة العبرية قد أعدت مخططات عسكرية جاهزة لاستخدامها وقت الحاجة ضد الشعب الفلسطينى فى حال ثار على الظلم الذى لحق به. وفى نفس الوقت فقد كان إعداد هذه المخططات يدلل على أن إسرائيل كانت تعى أن ما تقوم به يستوجب من الفلسطينيين شن الثورة وتفجير الانتفاضة.

■

« السور الحديدى »

المؤلف : افى شلايم

الناشر : حيمد ويديعوت احرونوت، ٢٠٠٥ ، ٦٣٠ صفحة

קיר הברזל

אבי שלים

חמד + ידיעות אחרונות

2005

630 עמודים

فى كتابه «السور الحديدى: إسرائيل والعالم العربى»، الذى يمتد على ٥٧٣ صفحة، ينسف البروفيسور افى شلايم، أحد أبرز المؤرخين الجدد فى الدولة العبرية الرواية الصهيونية التقليدية والتى تدعى أن إسرائيل كانت دائماً هى التى تبادر إلى مد يد السلام للعالم العربى، لكنها لم تجد دائماً شريكا فى الجانب العربى. شلايم الذى يعتمد على الحقائق يعتبر الرواية الإسرائيلية لا أساس لها من الصحة، وهو يقتفى الاتصالات الإسرائيلية العربية منذ العام ١٩٤٨ وحتى العام ٢٠٠٠ . ويصل شلايم إلى استنتاج مفاده أن العالم العربى هو الذى كان يمد يده للسلام مع إسرائيل، وكانت الدولة العبرية بالذات التى ترد العرب خائبين. وحسب شلايم لا يوجد دولة فى العالم مثل إسرائيل فيها هناك هوة شاسعة بين خطاب قيادتها السياسية وفعل هذه القيادة. ويضيف أن جميع قادة الدولة العبرية تحدثوا عن السلام، لكنها لم تكن أقوالاً صادقة. وحسب الوثائق الإسرائيلية وأرشيف الجيش الإسرائيلى هناك دلالة واضحة على أن الزعماء العرب كانوا هم تحديداً الذين أرادوا السلام. ومستنداً على الأرشيف يشير شلايم إلى أن الرئيس السورى حسنى الزعيم الذى حكم فى العام ١٩٤٩ لعدة أشهر كان طموحه الأكبر هو أن يكون الزعيم العربى الأول الذى يصنع السلام مع إسرائيل. وحسب شلايم فقد اقترح الزعيم تبادل السفراء ووافق على استيعاب ربع مليون لاجئ فلسطينى فى سوريا، مقابل أن تمر الحدود فى وسط بحيرة طبريا. لكن بن جوريون رد ببرود قائلاً أنه معنى أولاً أن يتم توقيع اتفاق وقف إطلاق النار مع سوريا. ويقول شلايم فى كتابه إن جهاز الموساد قام بتنفيذ عمليات تفجير داخل العراق ضد مصالح اليهود وكنسهم من أجل دفعهم للهجرة لإسرائيل. اسم الكتاب مستمد من المقالة الشهيرة التى نشرها زئيف جابوتنسكى فى عام ١٩٤٣ ، والتى قال فيها «لا يمكن أن نحلم باتفاق طوعى بيننا وبين عرب أرض إسرائيل، وعلى هذا يستطيع الاستيطان أن ينمو فى ظل القوة التى لا تتعلق بالسكان المحليين، من وراء سور حديدى لا يكون بإمكان السكان المحليين خرقه». ويوضح شلايم أن رئيس الوزراء الإسرائيلى الأول دفيد بن غوريون والحركة الصهيونية ودولة إسرائيل أخذت بنظرية «السور الحديدى» التى صاغها جابوتنسكى، أى أن صانعى القرار الصهيونى كانوا يعتقدون أن الشيء الوحيد المهم هو «إقرار حقائق ميدانية» ولهذا فلا داعى للتفاوض مع العرب. ويشير شلايم إلى أن السنوات العشر الأولى من عمر الدولة دلت بشكل لا يقبل التأويل أن الدولة الفتية لا تتعامل بشكل جدى مع العروض التى تقدمت بها الأنظمة الحاكمة فى العالم العربى آنذاك. وحسب ما يورد شلايم فقد أراد فاروق ملك مصر تسوية سياسية، لكن بن جوريون تجاهله، وأراد عبد الله ملك الأردن تسوية، وردته إسرائيل أيضا. ويكشف شلايم فى كتابه أن الرئيس جمال عبد الناصر أرسل مندوبين لإسرائيل، وحتى أرسل رسالة شخصية إلى رئيس الوزراء الأسبق موشيه شريت، بهدف تلمس طرق التسوية. ولم يلتفت إليه. يظهر من الكتاب إحساس واضح بدولة لا تعرف الشبع. فموشى ديان، الذى كان آنذاك رئيس هيئة الأركان، يضغط لمحاربة مصر لاحتلال قطاع غزة وشرم الشيخ، ويقدم «اقتراحا» لاحتلال الضفة. ويضغط يغئال ألون لإصلاح «بكائية الأجيال» التى تمت فى عام ١٩٤٨. وفى عام ١٩٥٦، قبل لحظة من عملية سيناء، يبسط بن جوريون حلمه الكبير أمام أصدقائه الجدد من فرنسا، حيث قال لممثلى الحكومة الفرنسية «ستحتل إسرائيل شبه جزيرة سيناء، وستحتل الضفة الغربية مع شق المملكة الأردنية وستصل إلى الليطانى مع إقامة دولة مارونية فى شمال لبنان. كل القادة الإسرائيليين (ما عدا موشيه شريت)، كما يقول شلايم، أخذت بفكرة «السور الحديدى». أما الجدل الوحيد فكان على مكان نصبه. يقول شلايم إنه بعد حرب العام ٦٧، اقترح الملك حسين سلاما تاما لقاء انسحاب من الضفة، لكن الوزراء الإسرائيليين ابتداء من جليلى وحتى ألون، مروراً بـ «سارقى الأراضى» ردوا العرض الأردنى. فى نظر شلايم، كان هذا الجواب السلبى استمرارا للسياسة التى تجرى منذ ١٩٤٨ أو حتى قبل ذلك. وعلى هذا المنوال تتوالى الشهادات التى يقدمها شلايم لتأكيد تشبث الدولة العبرية بالحرب مقابل أيادى العرب الممدودة للسلام. يعتبر شلايم فى الدولة العبرية «عدواً للدولة» بكل المقاييس، ويرى رئيس الوزراء الإسرائيلى أرئيل شارون أنه يتوجب عدم السماح بتدريس مؤلفاته فى المدارس، وقامت وزيرة التعليم فى حكومته ليمور ليفنات فعلاً بإلغاء تدريس مؤلفاته فى المناهج الدراسية.

■

« الهـــدنة »

المؤلف ايال ايرليخ

الناشر: اريبه نير، ٢٠٠٥ ، ٣٦٨ صفحة

הודנה

אייל ארליך

מוציא לאור אריה ניר

2005

368 עמודים

أرغمت انتفاضة الأقصى الإسرائيليين على جعل كلمة «الهدنة» العربية جزءاً لا يتجزأ من قاموس التداول اليومى بينهم. ويتناول «كتاب الهدنة» لمؤلفه الإعلامى الإسرائيلى المعرف ايال ايرليخ، أن ذلك يرجع لشعور المجتمع الإسرائيلى بالحاجة الملحة للتهدئة والهدوء والعيش بأمن وأمان.

ويؤكد المؤلف أن الغالبية العظمى من الإسرائيليين سئمت حياة العنف والقتل، وبدأت تبحث عن حياة تخلو من ذلك، وهو ما توفره الهدنة التى تمهد الطريق لتوصل الإسرائيليين والفلسطينيين إلى مصالحة سياسية تاريخية وسلام دائم فى المنطقة.

ويرى المؤلف أن على دوائر صنع القرار فى الدولة العبرية أن تكون مستعدة لدفع الثمن الذى يتطلبه التوصل لمثل هذه التسوية.

يقف الكاتب عند المخاوف التى تحاول المستويات السياسية والعسكرية فى الدولة العبرية ترويجها فى كل ما يتعلق بالهدنة. حيث يقول هؤلاء إن الفلسطينيين قد يتعاملون مع الهدنة كاستراحة مقاتل، واستغلالها من أجل مراكمة أسباب القوة استعداداً لاستئناف المقاومة من جديد.

لكن الفكرة الأساسية التى يحاول المؤلف التشديد عليها دائما هى أن الإسرائيليين سواء كانوا مدنيين أم عسكريين أم سياسيين قد سئموا العنف و الصراع فأصبحت عيونهم تتطلع نحو البحث عن مخرج يحفظ عليهم أمنهم وحياتهم وكرامتهم.

ويشير الكاتب إلى أن الرغبة فى الهدوء تجسدت فى انبعاث بعض التشكيلات الجماهيرية التى أثرت على دائرة صنع القرار الإسرائيلى ودفعتها نحو قرارات دراماتيكية. ويشير ايرليخ بشكل خاص إلى حركة «الأمهات الأربعة»، التى كان لها الدور الأبرز فى دفع حكومة ايهود براك إلى سحب قوات جيش الاحتلال من جنوب لبنان فى العام ٢٠٠٠ . وذلك بفضل ما قامت به من مظاهرات واعتصامات واحتجاجات متعددة أثرت على واقع المجتمع الإسرائيلى، بل أصبحت قوة ضاغطة على السياسيين، إضافة إلى نجاحها فى لعب دور سياسى ومؤثر على المرشحين السياسيين فى إسرائيل.

ويتناول الكتاب حركة «محسوم»، أى (حاجز) التى ركزت جهودها على فضح ممارسات جنود الاحتلال التعسفية ضد الفلسطينيين أثناء مرورهم بحواجز جيش الاحتلال. كما يرصد عمليات التنكيل السادية التى كانت تستهدف الشيوخ والنساء والأطفال وكل من يمر بهذه الحواجز.

■

قـــراءة

قــراءة صفحــة ٤